











المؤلفاتُ الكاملة  
المجلدُ الثاني





نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

# المؤلفات الكاملة

السَّيَّارُ      بَيْنَ الْقَصْرِينِ  
بِدَايَةُ وَنْهَايَةُ      قَصْرِ الشَّوْءِ  
السُّكْرِيَّةُ

مَكْتَبَةُ لِبْنَانِ

مَكْتَبَةُ لِبْنَانِ  
سَاحَةُ رِيَّاضِ الصَّلَحِ - بَيْرُوتَ  
وَكَلَاءَ وَمُؤَزَّعُونَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ  
جَمِيعِ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ ١٩٩١  
الطَبْعَةُ الْأُولَى ١٩٩١  
رقم الكتاب 01 R 160118  
طُبِعَ فِي لِبْنَانِ

# المحتويات

ص	
١	السَّراب .. .. .
١٥٩	بداية ونهاية .. .. .
٣٢٥	بين القصرين .. .. .
٥٧٩	قصر الشُّوق .. .. .
٨٠٩	السُّكَّرِيَّة ... .. .





السَّكْرَابُ



لا تعرف الخور، فلماذا يا ترى هذا العناء كله؟ ألم آو عمري إلى الصمت والكتمان، ألم تظفر الأسرار من صدري بقبر مغلق تستكن فيه وتموت؟ فما سرّ هذا الإلحاح العنيف؟ وكيف سللت القلم لأنيش قبراً تراكم عليه ثرى الإخفاء! لقد ضاعت الحياة، والقلم ملاذ الضائع، هذه هي الحقيقة. إنّ الذين يكتبون هم في العادة من لا يحيون، ولا يعني هذا أنّي كنت أحياء من قبل، ولكنني لم أكن آلو أن أرنو لأمل بسام أستضيء بنوره، وقد خمد هذا النور. ولست أكتب لإنسان، فليس من شأن المرضى بالجنون أن يطلعوا إنساناً على ذوات نفوسهم، ولكنني أكتب لنفسي، ونفسي فحسب، فطالما داريت همساتها حتى ضللت حقيقتها، وبت في أشد الحاجة إلى جلاء وجهها المطموس في صدق وصراحة وقسوة، عسى أن يعقب ذلك شفاء غير مقدور. أمّا محاولة النسيان فلا شفاء يرجى منها. والحق أنّ النسيان خرافة بارعة وحسبي ما كابدت من خرافات. ولعلّ في شروعي في الكتابة آية على أنني قد عدلت عن فكرة الانتحار نهائياً، وما كان الانتحار بالجزء الذي لا يستحقّه إنسان قضى على نفسه، بل هو دون ما يستحقّ بكثير، ولكن ما حيلتي والحياة لا تتورّع عن وسيلة في سبيل الدفاع عن نفسها؟ ولو كان الماضي قطعة من المكان المحسوس لولّيت عنه فرازاً، ولكنّه يتبعني كظلي، ويكون حيثما أكون، فلا مناص من أن ألقاه وجهاً لوجه بعين غير مختلجة، وقلب ثابت، ومهما يكن من أمر فالمرتبة أهون من الخوف من الموت، وإنّه لعمل فيه سحر، تستحيل به هذه الصفائف نفساً خالصة بغير حجاب. ولست أدعي العلم، فما ناصبت شيئاً العداء كالعلم، وإنّي لغبيّ كسول، ولكنني عانيت تجارب مرّة زلزلتني

إنّي أعجب لما يدعوني للقلم، فالكتابة فنّ لم أعرفه لا بالهواية ولا بالمهنة، ويمكن القول بأنّه فيما عدا الواجبات المدرسية على عهد صباي، والأعمال المكتبية المتعلقة بوظيفتي، فإنني لم أكتب شيئاً على الإطلاق. والأعجب من هذا أنّي لا أذكر أنّي سوّدت خطاباً أو رسالة طوال الدهر الذي عشته في الدنيا وهو ما ينيف على ربع قرن من الزمان. والحق أنّ الرسالة - كالكلام - رمز للحياة الاجتماعية، وعنوان للوشائج التي تصل ما بين الناس في هذه الحياة، ولست من ذلك كله في شيء. ألسنا نشذّب الأشجار فنبت ما اعوجّ من أغصانها وفروعها؟ فلماذا نُبقي على من لا يصلحون للحياة من أفراد الناس؟! لماذا نتسامح بل نهمل فنفضهم على الحياة فرضاً أو نفرض الحياة عليهم كرهاً؟ لهذا يسعون في الأرض غرباء مذعورين، وقد بلغ الذعر منهم أحياناً أن يجبطوا على وجوههم كالمحمومين فيدرسوا بأقدامهم المتعثرة ضحايا أبرياء.

أقول مرّة أخرى إنني لا أذكر أنني كتبت كتابة تستحقّ هذا الوصف. كذلك طالما أعياني الحديث وأعجزني، فكنت إذا اضطرتت إلى كلام تلعثمت وأدركني العمى والحصر، ولم يكن الإعياء في قوة النطق أو الكتابة، إنّه أجلّ من ذلك وأخطر وإنّ العمى والحصر والعجز لأتفه عواقبه على وجه اليقين. ولذلك حقّ لي أن أتساءل عما يدفعني الآن إلى الكتابة. وليس الأمر قاصراً على رسالة تدوّن، إنّه شوط طويل تنقطع دونه الأنفاس، وإنّي لأعجب لما يستفزني من نشاط لم أعده، وحاس لم آلفه، حتى ليحيل إليّ أنّي سأواصل الكتابة دون تردّد أو تعب، في الليل والنهار، وبعزيمة

زلزالاً، وليس كالتجارب كاشف عن مطاوي النفوس. إني لأتلهف على رفع النقاب، وهتك الأسرار، لأضع أصبعي على موطن الداء ومكن الذكريات ومبعث الآلام، ولعلّي بذلك أتفادي نهاية محزنة، وأنجو من آلام لا قبل لي بها، وأتلمس في الظلماء سبيلاً. لست في الواقع إلا ضحية، ولا أقول ذلك تخفيفاً من ذنبي، ولا تهرباً من تبعتي، ولكنه حقّ وصدق، فالحقّ أنني ضحية، إلا أنني ضحية ذات ضحيتين. وأشدّ ما يحزّ في نفسي أنّ إحدى الضحيتين هي أمّي! أفضّع بها من حقيقة لا تصدّق! كيف أنسيت أنّها سرّ حياتي وسعادتي، وأنّي لا أحتمل الحياة بدونها! ولكيّ كنت أحياء على حافة عالم الجنون، وهكذا فقدت كلّ شيء، ووجدت نفسي في خلاء مظلم مخيف...

إني رجل مؤمن عميق الإيمان، وأعلم علم اليقين أنّي سأبعث حيّاً في اليوم الموعود، ولست أخشى آلام ذلك اليوم وأهواله - إذا تجرّدت أمام الله بما في يميني وبما في شألي - قدر ما أخشى أن أبعث على الحال التي عانيتُها في دنياي. أروم بعثاً جديداً حقّاً، ويومذاك تصبح آلامي لا شيء يطوئها الفناء إلى الأبد، فيمكنني لقاء أحبائي بقلب صافٍ ونفس نقيّة طاهرة.

كانت أمّي وحياتي شيئاً واحداً، وقد ختمت حياة أمّي في هذه الدنيا، ولكنّها لا تزال كامنة في أعماق حياتي، مستمرة باستمرارها. لا أكاد أذكر وجهها من وجوه حياتي حتّى يتراءى لي وجهها الجميل الخنون، فهي دائماً أبداً وراء آمالي وآلامي، وراء حبّي وكراهيتي، أسعدتني فوق ما أطعم، وأشقتني فوق ما أتصور، وكأني لم أحبّ أكثر منها، وكأني لم أكره أكثر منها فهي حياتي جميعاً، وهل وراء الحبّ والكراهية من شيء في حياة الإنسان؟! فلأعترف بأنّي أكتب لأذكرها هي، ولأستعيد حياتها هي، بذلك تعود الحياة كلّها. وبذلك أصيّل ما انقطع من جبل حياتي، لعلّ الأمل أن يتجدّد في النجاة. يبدو لي كلّ شيء الساعة غامضاً متوارباً، كأنّ الشيطان يذرّ في عينيّ رماداً، ولكن مهلاً إني أتلمس سبيلي في صبر وأناة، ورائدي أمل الغريق في النجاة، ومن ورائي نية صادقة في تجديد حياتي

## ٢

ما جزاء الميت - عندنا معشر الأحياء - إذا واره التراب؟ أن نفرّ من ذكره كما نفرّ من الموت نفسه! ولعلّ في هذا حكمة غالية، ولكنّ أنايتنا تأبى إلا أن تضفي على هذه الحكمة أسفاً حانقاً مضحكاً. ولقد فررت من بيتنا مولياً كلّ شيء ظهري كالخائف المذعور، ثمّ مضيت أثوب إلى رشدي في هدوء نسبيّ، وأدرك هول الخطب الذي نزل بي، ففاض بي حين موجع، وفزعت يداي إلى خزانة الذكريات فاستخرجت كلّ ما بقي منها، ألا وهي صورة!

هي صورة كبيرة يظهر فيها جدّي جالساً على مقعد كبير، بجسمه الضخم وكرشه الكبير، وشاربه الأبيض كأنه هلال فوق فيه، في بذلته العسكرية المحلاة بالنيشين، وأقف أنا عند ركبتيه لا أكاد أجاوزهما إلا قليلاً، أنطلّع إلى عدسة المصور بعينين باسميتين وقد التصقت شفتاي في توتّر من يغالب ضحكة تغالبه. ووقفت أمّي إلى يمين جدّي معتمدة بساعدها الأيسر مسند الكرسيّ الكبير، في فستان طويل يشتمل عليها من العنق إلى القدمين، ولا ينحسر من ساعدها إلا عن اليدين، بقامة طويلة وجسم نحيل ووجه مستطيل وعينين واسعتين خضراوين وأنف دقيق مستقيم ونظرة حاملة تقطر حناناً ولا تخلو من بريق ينمّ عن الحيويّة وجدة المزاج. يا له من وجه شاء الرحمن أن يكرّره في وجهي حتّى لقد قيل إنّه لا يفرّق بيننا إلا الثياب! هذه صورة تطلّ عليّ من عالم الذكريات. ولقد ثبتّ عينيّ الملتهبتين على الوجه المحبوب طويلاً حتّى لم أعد أرى شيئاً سواه. كبرت قسماًته في عينيّ حتّى خلّنتي روحاً صغيراً يعيش في أحضانها، واشتدّ ما يحيط بي من صمت فتهاً لي أنّ هذا الفم المطبق سيفترّ بأسماً ويُسمعني من عذب الحديث ما العهد به غير بعيد. إنّ الصورة شيء عجيب فكيف غابت عنيّ هذه الحقيقة؟



وكراهية، وارتعشت يداي، وأتسعت عيناي انزعاجاً، ثم لم أدرِ إلّا ويداي تمزّقانها إرباً، ومدّت لي يدًا تحاول استنقاذها، ولكنّي تغلّبت عليها في حق وهياج، فلبثت صامتة وقد لاح في عينيها الصافيتين الحزن والأسف. وكأني لم أقنع بما فعلت فتصدّيت لها غاضباً وسألته بلهجة تنم عن الاحتجاج: علام تأسفين؟!

فبسطت أسارير وجهها بشيء من الجهد وقالت:  
- يا لك من طفل مشاكس!... ألا ترى أنّي أسف على صورة شبّابي؟... لقد مزّقت صورة أمك وأنت لا تدري.

وكانت ذكرى تلك الحادثة تعاودني في فترات متباعدة فتحزّ في نفسي، وتملأني حيرة وقلقاً، فأمضي متسائلاً عمّا دعاها حقاً إلى الاحتفاظ بتلك الصورة ولماذا أحزنها تمزيقها؟ ثم أحاول أن أفند بخيالي إلى ما فاتني من حياتها، فأقلب متفكراً مغتبطاً.

هكذا فقدت صورة الشباب الأوّل، وإنّي لأسف على فقدانها - الآن - أسفاً خالصاً، ولكن ليس ذلك أسفاً مضحكاً بعد أن امتدّت يدي إلى صاحبة الصورة نفسها فقضت عليها؟!

### ٣

ولم أكن الحظّ العائر الوحيد الذي ابتليت به حياتها. روت لي يوماً قصّة زواجها، في حذر وحرص شديد، خاصّة وهي تسرد الذكريات الباسمة على ندرتها، فكانت تذكرها في عجلة واقتضاب وتمحّج، وكأنّها في أعماقها تخشاني، أو كأنّها أشفقت ممّي أن تحفّف لطافة الذكرى من حدّة كراهيتي لأبي.

على جسر لإسماعيل رآها أبي أوّل مرّة! وكان «الخانطور» ينطلق بأمي وجدّي في بعض الأصائل للتنزه والفرجة، ففي مرّة مرّ بها «خانطور» يترّبع بصدرة شاب مزهو بشبابه وثرائه أو على الأصحّ بما ينتظره من ثراء، فوقع بصره على وجهها، وسرعان ما وجّه عربته في أعقابها حتّى بيتنا في المنيل. وكانا كلّما غادرا البيت صادفاه في الطريق وكأنّه ينتظر. ولم أدع

هذه أُمّي بجسمها وروحها، هذه أُمّي بعينيها وأنفها وفمها، وهذا الصدر الحنون الذي التصقت به عمري. ربّاه... كيف أقتنع بأنّها رحلت عن الدنيا حقاً؟! أجل إنّ الصورة شيء عجيب، ويبدو لي الآن أنّ كلّ شيء عجيب في هذه الدنيا، وقاتل الله العادة فهي التي تقتل روح العجب والإعجاب فينا. كانت هذه الصورة معلّقة بحيث تراها العين في كلّ حين، بيد أنّي أراها الآن شيئاً جديداً، أطلع في صفحتها حياة عميقة كأنّ نفحة من الروح الطليق قد استكثت بها، وأرى في هاتين العينين نظرة شاردة تبعث الألم. إنّ هذه الصورة حيّة بلا ريب، ولن أستردّ بصري منها ولو جننت. عكفت عليها طويلاً، ثمّ تملّكتني رغبة قويّة في تخيل حياة صاحبها في جميع أطوارها من المهد إلى اللحد. تخيلتها طفلة تحبو، وصبيّة تلهو بعرائسها. ألا ليتها خلّفت لي صوراً أستعيد بها أحلام طفولتها السعيدة! ثمّ تخيلت عهد الشباب الرطيب، وهي عادة حسناء ترنو بطرفها الساحي إلى الأمل والسرور وتلهو بلذّة الفتوة المشبوبة، لقد عاصرت عهده الخلو، وكنت ثمرة لخصبه ونضارته، ومع ذلك فقد ضاعت معالمة وولّت آثاره. غشيه الظلام كأنّي لم أرتع حضنه وأرضع ثديه. وكنت إذا تخيلته فيمّا مضى من أيامي تخيلته في حيرة وقلق، وساءلت نفسي في خجل واستياء ألم تنبض بدمه الحارّ تلك الرغبات الجائعة التي تستأثر الشباب؟! ولعلّ عاطفتي الغامضة تلك هي التي دفعتني في صباي إلى تمزيق الأثر الباقي لهذا الشباب الأوّل. فقد دخلت حجرة نومنا ذات يوم فجأة فوجدت أُمّي منكبة على درج مفتوح في صوان الملابس تنظر في شيء بين يديها، فاقتربت منها في خفة تحذوني شطارة الغلمان المدلّكين، وأدخلت رأسي تحت ذراعها المبسوطة، فرأيتها ممسكة بصورة عرسها! وبادرت تحاول إرجاعها إلى مخبئها، ولكنّي أمسكت بها في عناد، وحلقت فيها بدهشة، فرأيت شاباً جالساً وأُمّي واقفة مستندة إلى كرسيه كالوردة الناضرة. وتعلّقت عيناي بصورة الرجل فأدركت أنّه أبي، وإن كنت أراه أوّل مرّة، بل أراه بعد أن امتلأ الفؤاد له خوفاً

عن ذلك كله فهو نفسه لم يكن حصل على الابتدائية، ولم يكن يخلو من ميل للشراب والمقامرة. وبذلك صارت كرمته حرماً لرؤية لاه أو رؤية بك لاه كما كان يدعى، وظنّ جدّي أنّه فرغ من الواجبات الملقاة على عاتقه بتزويجه أصغر كرميته. ولكن ما كاد ينقضي أسبوعان على ليلة الزفاف حتّى عادت أمّي إلى بيت جدّي دامعة العينين كسيرة الفؤاد! وانزعج جدّي انزعاجاً شديداً، ولم يكذب يصدّق عينيه، ثمّ علم أنّ الشاب قد عاود سيرته الماضية في الحانات ولما يمض الأسبوع الأوّل من زواجه، وأنّه كان يرجع إلى بيته عند مشرق الشمس، وأنّه أوسعها ضرباً في ذلك اليوم الذي غادرت فيه قصره. واستفطع جدّي الأمر، وكان على تربيته العسكرية الصارمة رقيق القلب، ويحذب على ابنته حدّاً عظيماً، فغضب غضباً شديداً، ومضى لتوّه إلى قصر لاه، وصبّ جام غضبه على الشاب وأبيه معاً، ولبثت أمّي في بيت جدّي حتّى وضعت أختي الكبرى. وسعى نفر من أصدقاء الطرفين إلى إصلاح ذات البين، ووصل ما انقطع من حياة الزوجيّة، وكلّ مسعاهم بالنجاح فرجعت أمّي وطفلتها إلى قصر لاه مرّة أخرى. وامتدّ مكثها به شهرين، ثمّ نفذ صبرها فهجرته إلى بيت جدّي مهية الجناح. والحق أنّها لم تلق الراحة إلّا أيّاماً معدودات، ولكنّها تصبّرت وتجلّدت عسى أن تصلح الأيّام ما فسد من حاله، فلم يكن يزداد إلّا فساداً، ولم تعد ترى فيه إلّا سكيراً عريداً لا يرفع لشيء حرمة، فأيست منه، ولأدت ببيت أبيها. وسعى الرجل إلى استردادها، مقرّاً بإدمانه الشراب، محاولاً إقناع جدّي بأنّه من الممكن أن تستقيم الحياة الزوجيّة مع إدمان الشرب، ولكنّ جدّي وقف منه موقفاً صلباً فطلّقها، وميّت أشهر فوضعت أمّي أختي الأوسط، وعاشت في كنف أبيها متمتعة بعطفه وحنانه. ثمّ ترامت إليهم أنباء غريبة عن رؤية لاه تقول إنّ الفتى الطائش قد حاول في ساعة نزق وجزع أن يدسّ السمّ لأبيه متعجلاً حظه من المراث، ولكنّ الأب اكتشف الجريمة بوساطة الطباخ، فطرده ابنه من قصره، ووقف نصف

هذا الفصل من القصّة يمرّ بي دون ملاحظة، فسألته عن الغزل في تلك الأيّام وكيف كان، وتلقّت سؤالاً بريئة وحذر، ولكنّي ما زلت بها حتّى استنامت إليّ، فاستسلمت لرقة الذكريات. وقالت إنّ كان يبعث إليها بنظرات تومض بالابتسام، أو يلتفت نحوها باهتمام وهو يقتل شارب الغزير الأسود، بيد أنّه لم يعدّ حدود الأدب قط. وتفكرت ملياً، وتهت في بيدا الخيال الحالم، فعانيت أحاسيس الدهشة والخيرة والضيق، ثمّ رفعت إليها عينيّ - ولم يكن لنا من سلوى في تلك الأيّام إلّا مواصلة الحديث - وسألته مبتسماً عن كيف كانت تلقى تلك المقدمات الغزليّة. ولم يخف عنها ما في سؤالها من خبث فتضاحكت، وكانت إذا ضحكت اهتزّ جسمها من الرأس إلى القدم، وقالت إنّها كانت تتجاهله بطبيعة الحال، وتنتظر فيما أمامها دون أن تلوي على شيء، وتظلّ على حالها كأنّها تمثال ذو برقع أبيض! وداخلني شكّ، وقلت إنّ أسأله عن الباطن لا الظاهر، عن القلب لا الوجه. ونازعني النفس إلى مصارحتها بما يدور في خلدي، ولكنّ خائنتني الشجاعة، وعقلني الحياء، ولورجعت إلى قلبي لعرفت الجواب، فهذا القلب من ذاك، يجري بها دم واحد، ويسجعان عن خفقات واحد، فهل أنسى أنّي وقفت كثيراً كمثال التمثال والقلب شعله ناراً!

وتقدّم الشاب يطلب يدها، لم يكن ذا عمل ولا علم، بل ولا مال حتّى ذلك الوقت، ولكنّه كان أحد ابنين لرجل من كبار الموسرين. ولما علم جدّي بموافقة الأب واستعداده لتكفل ابنه وأسرته، سرّ بالخطبة سروراً لا مزيد عليه، وفرح بجاه الأسرة العريق. وقيل له إنّ جاهل جهل العوامّ، فقال وما حاجته إلى العلم؟ وقيل له إنّ بلا عمل، فقال وما حاجته إلى العمل؟ بل قيل له صراحة إنّ شابّ ذو أهواء جامحة وإنّه سكير عريبد، فقال إنّ يعلم أنّه شابّ وليس براهب. ولم يكن جدّي طمّاعاً جشعاً، ولكنّه كان يروم السعادة لابنته. ويحسب أنّ المال كفيّل بتحقيق تلك السعادة، هذا إلى تأثر باسم الأسرة التي تودّ مصاهرته، واطمئنان إلى سمعتها الكريمة، وفضلاً

ثروته لجهة خير، ووقف النصف الآخر على الابن الأكبر، ولعلّه لم يشأ أن يوقفها كلّها للأخ الأكبر حتّى لا يوغر صدر ابنه الشّرير عليه فيعرّضه بذلك لأذاه... واستيقظ رؤية لاظ بعد حلم طويل بالثروة الواسعة على فقر نسبيّ، فلم يعد يملك من حطام الدنيا إلّا ريع وقف ورثه في ذلك الوقت عن أمّه - وهي غير أم أخيه - يقارب الأربعين جنيهاً شهرياً وبيتاً ذا طابقين في الحلميّة انتقل إليه بعد طرده من قصر لاظ. وأثارت تلك الأنباء شجناً في بيت جدّي صفقت له ضلوع الذين يشفقون على مستقبل الوليدتين الصغيرين، فقد تضاءلت نفقتهما، وتحبّهم مستقبلهما. وتشاور جدّي وجدّي وأمي في الأمر، وانتهى بهم تبادل الرأي إلى أن يقابل جدّي لاظ الكبير، وأن يستعطف قلبه للوليدتين البرشين حتّى يغيّر وصيّته لصالحهما، ومضى جدّي إلى قصر لاظ، وحادث الرجل فيها جاء من أجله، ولكنّه وجد منه قلباً قاسياً وأذنًا صماءً، ولعن بمحضره الابن وذريّته، فعاد جدّي محزوناً ثائراً.

وكان من سخرية الأقدار أن مات لاظ بك في نفس العام الذي سعى ابنه فيه إلى القضاء عليه. وانقضى من الدهر سبعة أعوام فبلغت أختي راضية الثامنة، وبلغ أخي مدحت السابعة أو نحو ذلك. وفي ذلك التاريخ حدث ما غير مجرى حياة أسرتنا الهادئ. وشاءت الأقدار أن يتمّ ذاك التغيّر بحادثة تافهة ممّا يعرض في الطريق، إذ كان جدّي يغادر نادياً للقمار بشارع عماد الدين قبيل الفجر بقليل فرأى نفرًا من السوق يلتفون بأفندي ويوسعونه ضرباً وهو يتخبط بينهم هائجاً مترنحاً، فبادرهم هاتفاً أن يكفّوا عنه، ومضى صوبهم غاضباً، ثمّ لحق به شرطيّ على الأثر. وما كاد نفر يتفرّقون حتّى رأى جدّي رؤية لاظ في حالة سكر بيّن وقد سال الدم من أنفه. ودهش جدّي وتولّاه الارتباك موقع الدهشة، ولكنّه تقدّم من الرجل دون تردّد وسنده بذراعه وهو يوشك أن يقع. كان ما مضى قد سحب النسيان عليه ذبوله أو كاد، وكان الرجل من الناحية الأخرى يوالي إرسال النفقة لوليدته

على استهتاره وعريّته، فلم يكن بين الرجلين عداء، ودعاه جدّي إلى «حانطوره» فاطاع، وأمر جدّي السائق بالذهاب إلى الحلميّة، وخيّم عليهما في الطريق صمت عجيب، فلم ينبس أحدهما بكلمة، ولما بلغت العربة البيت أوسع له جدّي لينزل، ولكنّه أمسك بذراع الرجل ودعاه إلى بيته. واعتذر جدّي بتأخّر الوقت ولكنّ الآخر لم يقبل اعتذاره وأبى إلّا أن ينزل معه وكان ما يزال ثملاً غموراً فأذعن جدّي على رغمه، فمضيا معاً إلى حجرة الاستقبال وخيوط الفجر الزرقاء تنشب في الظلماء. وارغى رؤية لاظ على مقعد وجذب جدّي فأجلسه على مقعد قريب، وسرعان ما ولّى عنه سكوته فغلبه الانفعال والتأثر وراح يقول بلسان ثقيل حلّت الخمر والانفعال عقده «أرأيت الأوباش كيف انهالوا عليّ لكثماً وصفعاً؟!... أرأيت إلى الإهانة البالغة تنزل بكرامتي، وأنا رؤية بن لاظ، ربيب القصر العتيق؟! هذه هي الدنيا يا عمّاه... وما بالي أدعوك بعمّي؟ لقد جاوزت الأربعين ولم تُعدّ أنت الخمسين إلّا بقليل، فما أحراني أن أدعوك بأخي، ولكنّي أدعوك عمّي احتراماً وإجلالاً، فإنك بمنزلة أبي... أستغفر الله أنت أعظم من ذلك وأجلّ، لا تؤاخذني بما أنطق من لفظ، واللفظ شيء تافه، أمّا ركلي بأقدام الأوباش فشيء خطير، اليس كذلك؟! لقد مات أبي غاضباً عليّ، ويقولون إنّه لا يظفر بالسعادة من حُرّم رضاء الوالدين، أحقّاً هذا يا عمّاه؟! حتّى ولو كان أحد الوالدين أبي؟! ربّاه، لقد سئمت هذه الحياة، إنّها حصى وهذيان وجنون متواصل، لشدّ ما تتوق نفسي إلى الهدوء والطمأنينة، اليس هذا هو الندم؟! امدد إليّ يدك يا عمّاه، ولنقسم معاً بهذا الفجر الطالع أن نبدأ حياة جديدة لا لثم فيها ولا فجور، ردّ إليّ زوجي وطفليّ وأسكتي أسرتي... هلمّ... واشتدّ احمرار عينيه حتّى ظنّه جدّي باكياً، ولم يجد بداً من أن يطيب خاطره. وعندما انطلق به الخطوط صوب المنيل وقد تحرّك سطح الأرض رويداً بالأفواج الأولى من الساعين إلى الرزق، أغمض عينيه في ارتياح، وتفكّر في الأمر ملياً، وكان يوّد أن يرى ابنته سيّدة لبيت يخصّها. وفي

الزمان يأوي إليه حام الذكريات، الساجع بالحنين إلى ما انقضى من أعمارنا، فلأنقّب في غيابات الماضي عن أقصى ما يستطيع أن يستقبله رأسي من موجات الذكريات، إنّي أغمض عينيّ متوارباً عن عالم المحسوس، كي أهيئ لروحي سكبنة تنطلق فيها إلى الماضي الخالد. ولأعترف أنّي شديد الحنين إلى الماضي، وقد بتّ في هذه الفترة الأخيرة أشدّ ما أكون حنائاً إليه، ولعلّ ذلك منّي ليس إلّا توقّفاً صريحاً إلى الطفولة، وإنّي لأدرك ما في هذا الحنين والتوق من خطورة هي سرّ دائي الأسيف في الحياة، ومع أنّي عشت حياتي متطلّعا إلى ذلك الماضي - راضياً أو ساخطاً - شديد الشعور بما يشدني إليه من رباط وثيق، إلّا أنّي أقف عاجزاً حيال سجنه الكثيفة، ترتدّ ذاكرتي حسيرة عن أرقّ عهوده وأخطرها. ها أنا أغمض عينيّ في تشوّف وتساؤل، فيعشو بصري إلى نور خافت، أرى يدي الصغيرة وهي تمتدّ إلى القمر من على كتف أمّي. يا لها من ذكرى! ولكم تمتدّ أيدينا إلى أقدار ليست دون ذلك القمر منالاً، وتعاودني ذكرى جهد مضن بذلته كي أزدرد حلمة اللذي فيصّدني شيء مرّ مذاقه. وشارب جدّي الهلاليّ وأبامي تشدّه في سرور لا مزيد عليه. وتحطيم أصص الزهور، وكيف هوت إحداها مرّة من حافة الشرفة على ذراع البوّاب النوبيّ فكادت تكسرها. وكان من عاديّ إلّا أستسلم للنوم حتّى أمطي منكب أمّي فتذهب بي وتجيء بطول البيت وعرضه، وكلّما توانت حثثتها بقدمي. وكنت أرفل دائماً في فساتين البنات، وشعري مسدل حتّى المنكبين. وقد بدا لأمّي يوماً أن تمهّني لي بذلة عسكريّة محلاة بالنجوم والنياسين، فارتدّيتها مسروراً، وقطعت البيت في عجب وخيلاء، ضابطاً عظيماً ذا ضفيرة تهادى على ظهره! ولم يكن جدّي يرتاح إلى ذلك التدليل المفرط. ولكنّه لم يجد من وقته متسعاً للإشراف على تربيتي، إذ كان يغادر الفراش عادة عند الظهر ولا يرجع إلى البيت من نادي القمار إلّا قبيل الفجر. وكان من ناحية أخرى يشفق من تكدير أمّي لسوء طالعها، ولأنّه لم يبق له في شيخوخته سواها. عشنا ثلاثنا وليس للأب

نفس الشهر رُدّت أمّي إلى زوجها السابق واجتمع شمل الأسرة. ولكن لم تدم هذه الحياة الجديدة إلّا أسبوعين! بل لعلّها لم تدم إلّا يوماً واحداً، وتحملت أمّي بقيتها صابرة متصبّرة حتّى أقضّها الإشفاق على طفلها من شرّ السكير العريبد، فحملتها وفرت إلى جدّي المسكين. وثار الرجل ثورة عنيفة، ومضى لتوه إلى التائب الزائف وانهاه عليه تعنيفاً وتقريعاً وازدراء، واستمع الآخر إليه صامتاً، ثمّ قال له إنّ زوجه هي الملوثة لأنّها لا تؤدّ العيش معه وإنّه لا ذنب له إلّا أنّه يسكّر! وغادره جدّي يائساً وبهده شهادة الطلاق. انقطعت حياة الزوجيّة إلى الأبد، وكنت أنا ثمرة تلك التوبة الكاذبة!...

وقد سمعت جدّي يمازحني يوماً فيقول لي: «لقد جئت إلى هذه الدنيا نتيجة لحساقتي أنا دون سواي...» ولكن ما أكثر الذين جاؤوا هذه الدنيا في أعقاب الحماقات. ونشأت في بيت جدّي، فلم أعرف بيتاً سواه، بل لم أعرف من الأهل غير جدّي وأمّي، لأنّي حين أخذت أعي ما حولي كان أبي قد استردّ أخي وأختي، وكانت جدّي قد ماتت. ولم أعرف أنّ لي أباً إلّا بلسان أمّي، وحديثها المفعم مرارة وحزناً، فنمت كراهيتي له على الأيام. وقد أنتم الرجل قسوته عليها فلم يكتفِ باسترداد ابنه وابنته، ولكنّه حال بينهما وبين رؤية أمّهما، فمرّت الأعوام تلو الأعوام وهي لا ترى لها أثراً. وترامت الأخبار إلينا تقول إنّ الرجل يكاد يجبس نفسه دون العالم كلّ، فأرّا من الدنيا وما فيها بسكر متواصل لا يفيق منه نهائاً ولا ليلاً...

## ٤

كان بيت جدّي بالمنيل مولدي وملعبي ودنيائي. وكان يتكوّن من دورين كبيرين نقيص في الأعلى منها، وله فناء صغير. لست أريد التحدّث عن البيت، ولكنّي أنهلّف على استعادة الماضي. وما من ماضٍ إلّا وله بيت تحوم حوله ذكرياته. إنّ حياتي لا تنفصل عن ذلك البيت أبداً، ولن تنفصل عنه ما حييت، وما البيت ببناء وعمارة وهندسة، ولكنّه برج ثابت في



مضى يزداد بتدريج في مدارج النمو، وآي ذلك أنها أقبلت تخوّفي أشياء لا حصر لها لتردّي عما أطلّعت إليه من حرّية وانطلاق. ولتحتفظ بي في حضنها على الدوام. ملأت أذنيّ بقصص العفاريت والأشباح والأرواح والجنان والقتلة والصوص، حتّى خلّطني أسكن عالمًا حافلًا بالشياطين والإرهاب، كلّ ما به من كائنات خليق بالخطر والخوف. ذاك عهد بعيد، ولكنّه لا يزال حيًّا في صدري ودمي، وهو الذي جعل من الخوف جوهرًا أصيلًا في نفسي تدور حوله حياتي جميعًا، فنغص على صفوي، ورماني بتعاسة لا تريم، وما أنا إلّا مخلوق خائف لولا قيد الجسد لفرت روحه ذعرًا، وأخاف الناس، وأخاف الحيوان والحشرات، وأفرق من الظلام وما يرصدني من أوهامه، وأتحامى جهدي أن أنفرد بقطّ، وهيهات أن أنام في حجرة بمفردي. على أنّ الخوف كان أعمق في حياتي من هذه الأشياء التي يتمثّل لي فيها، لقد استطال ظلّه الكثيف حتّى أظلّ الماضي والحاضر والمستقبل، والبقطة والنوم، وأسلوب الحياة وفلسفتها، والصحة والمرض، والحب والكراهية، فلم يترك شيئًا خالصًا. وقد عشت جلّ حياتي الماضية غرًا جاهلًا لا أدري لتعاسي سببًا، تمّ جلت لي المحن جوانب من حياتي، هاتكة بقسوتها ما استتر من الخفايا الأسيفة، بيد أنّ شعوري بالعجز لا يفارقي، وهو يستند في الحقّ إلى قصور ثقافتي وضعف ثقتي في قواي العقلية. كانت أمّي مبعث هذه الآلام ولكنّها كانت الملاذ الوحيد منها، فأويت إليها في غير حيطة...

ومن ذكريات ذلك العهد التي لا تنسى، موفنا - أنا وأمّي - على قبر جدّي في المواسم نكلّله بالرياحين ونقرأ الفاتحة مترجمين. وكنا نتحدّث كثيرًا عن القبور وأهل القبور، وكيف يرقدون، وكيف يستقبلون، وماذا يلقون من شدّة وحساب، وكيف تنزل عليهم الآيات نورًا، يُذهب وحشتهم ويلطف جفوتهم، ولمّا كان القبر قبر أمّي فقد أحببته حبًّا جمًّا. وكنت إذا وجدت منها غرة هرعت إلى جانب منه، أنشب في ثراه أظفري، وأحفر في عجلة لعليّ أطلع على ذلك المجهول

إلّا ابنته وليس للآم إلّا ابنها، وكانت أمّي تهفو لذكريات أختي وأخي بعين دامعة وفؤاد كسير، وتتلهّف على رؤيتهما ولو ساعة واحدة، ولم تجد في حزنها من عزاء سواي، فأودعتني حضنها، لا تحب أن أبرحه، وتودّ لو أجعل منه مرتعي ومراحي ودنيائي جميعًا. وهفّت نسائم الحياة رخاء، فلم أدرك إلّا بعد فوات الوقت أنّه كان حننًا شاذًا قد جاوز حدّه، ومن الحنان ما يُلْكَ. كانت مصابة في صميم أمومتها فوجدت فيّ أنا السلوى والعزاء والشفاء، كرسّت حياتها جميعًا لي، أنام في حضنها، وأقضي نهاري على كتفها أو بين يديها، وحتّى في الأويقات التي كانت تتعهد فيها شئون البيت لم أكن أفارقها، أو لم تكن تدعني أفارقها، وحتّى في المطبخ كنت أمتطي منكبها مفترشًا رأسها بخذي متسلّيًا بمشاهدة الطاهي وهو يشعل النار ويقطع اللحم ويخرط البصل، بل كنّا نستحمّ معًا فتحطّني في طست عاريًا، وتجلس أمامي متجرّدة فأرسلها بالماء وأقبض على رغوة الصابون النافشة على حسدها فأدلك به جسدي، ولم تكن بغادر البيت إلّا قليلًا، فصلّتنا بآل أبي مقطوعة، وخالتي كانت تقيم في ذلك الوقت بالمنصورة مع زوجها، فإذا خرجت في النادر لزيارة إحدى الجارات اصططحبني معها. على أنّنا كنّا نواظب على زيارة السيّدة زينب، ولعلّها الزيارة الوحيدة التي كنّا ننظرها بفارغ صبر. ولم يكن يسيئها شيء مثل أن تنني على امرأة من معارفها بما يثنى به على الأطفال عادة، فكانت تتطرّف من الثناء وترقيني من العين في إشفاق عميق، ومن عجب أنّي لا أذكر التعاويذ والرقّي باستهانة أو ازدراء، وأنّي لمؤمن بها، بل إنّي لأؤمن بكلّ ما كانت تؤمن به أمّي. وقد نلت من الثقافة حظًا، وحصلت على البكالوريا، ولكن بقي لي إيمان القديم سالمًا غير منقوص، وهيهات أن يتزعزع إيماني بالله ورسله وأوليائه والدعوات والتعاويذ والأضرحة.

بيد أنّي لا أستطيع أن أقول إنّي استكنت إلى تلك الحياة بلا غمّل. ولعلّي ضقت بها في أحيان كثيرة، وتطلّعت إلى الحرّية والانطلاق. ولعلّ ضيق ذلك

خرجنا معاً لزيارة السيّدة. إذا كنت تحبّي حقاً فلا تفرقي.  
ولاح في وجهي التذمّر والامتعاض فاستطردت تقول:

- لقد حُرمت رؤية أختك وأخيك، ولم يبق لي في الدنيا سواك، وها أنت تودّ فراقِي، ساعك الله... فتودّدت إليها قائلاً:  
- إني أحبّك أكثر من أيّ شيء في الدنيا، ولكّني أريد أن ألعب...

ولكنّها لم تكن لتدعّن لسرغيتي تلك، وكنت إذا ضقت بإصرارها نكيت أو نار بي الغضب ثورة لا أعفّ فيها عن شدّ شعوري وعزيق ثيابي، ولكنّ شيئاً لم يكن ليجعلها تدعّن لرغبتِي في الابتعاد عنها. وفيها عدا ذلك لم تدخّر وسعاً لمرضائي. كانت تبتاع لي اللعب أشكّالاً والسوانا. وإذا لمست ضيقي ومللي دعت بطفل من أطفال الجيران ليشاركني لهوي تحت سمعها وبصرها. بيد أنّ ذلك كلّهُ لم يروّغلي، فتحنّنت منها غفلة يوماً وانسللت هارباً من الشقّة أكاد أخرج من جلدي فرحاً، واستقبلني الأطفال في الفناء بدّهشة وترحاب معاً. ومع أنّه كان بيننا شبه تعارف إلّا أنّه لم يسعني الاقتراب منهم، فوفقت مكاني في ارتباك وحياء، وسرعان ما أطلّت أمي من الشرفة ونادتني في حدّة الغضب، ولكنّ أكبر الأطفال تقدّم منيّ، ودعاني إلى اللعب، وهو يقول لي: «لا تبالها» ولأول مرّة لم أبال صوتها. فاندفعت إلى حلقة اللعب، وأخذت مكاني في سرور لا يوصف، ولم تكد تمرّ دقائق حتّى شجر خلاف بيني وبين أحدهم فلطمني على وجهي، وذهلت ذهولاً شديداً فلعلّها كانت أوّل لطمة تلقّيتها في حياتي، وارتميت على ساعده وغرست فيه أسناني، ولم يتردّد رفاقه فانهالوا عليّ ضرباً وركلاً، وتوعّدتهم أمي في غضب شديد، ولكنهم لم يقلعوا عنيّ حتّى هدّتهم بقذفهم بالقلّة، فغادروني في حالة يرثى لها. ودعّني للصعود إليها، وكنت ألهث والدموع ملء عينيّ، فقهرني الحياء وتسمرت قدمي فلم ألّب نداءها، ولم أرفع بصري عن الأرض، ولم أفارق موقعي حتّى جاء

المنطوي تحت الأرض. ولشدّ ما كان يحزّ في نفسي أن أسمعها تردّد: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» أو «آخرتنا التراب» أو «الموت نهاية كلّ حيّ» فسألتها مرّة في دهشة.

- سنموت جميعاً؟! فسأها السؤال، وحاولت أن تلهيني عنه، ولكنّي وفقت عنده لا أنزحج فقالت:  
- بعد عمر طويل إن شاء الله. فرمقتها بإشفاق وسألتها مرّة أخرى:  
- وأنت يا أمّاه!... فقالت لي وهي تداري ابتسامة:  
- طبعاً. ساموت يوماً ما... فوقع قولها من نفسي موقعاً ألياً وهتفت بها:  
- كلّاً... كلّاً... لن تموت أبداً. وربّنت على رأسي بحنان وقالت برقة:  
- ادعُ لي بطول العمر، كما أدعو لك يستجيب لك الرحمن الرحيم.  
وبسطت كفّي الصغيرتين ودعوت الله من أعماق قلبي، وعبّاي مغرورقتان بالدموع.

## ٥

أظّل الدهر في حجرها كآثني عضو من أعضاء جسدها؟! جاوزت الرابعة من عمري، وجاء سنّ الرفاق واللعب. ولم يكن لي من مهرب في البيت إلّا الشرفة، وهي تطلّ على فناء البيت، وتشرف على الطريق. وكان أطفال الأسرة التي تسكن الدور الأوّل يلعبون في الفناء، فجعلت أنظر إليهم بعينين مشوّقتين، فيتطلّعون أحياناً بأعين قرأت فيها دعوة صامته اهتزّت لها جوانحي، واستأذنت أمي يوماً في الانضمام إليهم، فقالت لي بارتياح: ماذا حدث لعقلك؟... ألا ترى أنّهم لا يكفّون عن العراك؟!... ما عسى أن أفعل لو ضربوك أو جرحوك؟... أو خرجوا بك إلى الطريق لا تنقطع به العربات؟ بل ماذا تفيد منهم إلّا الشقاوة وسوء الأدب؟ أمّا أنا فأقصّ عليك القصص، وإذا شئت

لإقامة شقيقتها بيننا ذلك الشهر، لا لفتور في عواطفها نحوها، ولكن لأن أبناءها استأثروا بي من دونها، وأفسدوني عليها. وشكت مرة إلى خالتي ما تخافه علي من حوادث الطريق، فضحكت المرأة باستهانة وقالت لها بلهجة لم تخل من لوم:

- «هل ابنك من لحم ودم وأبنائي من حديد!... قوّي قلبك وتوكّلي على الله!». أمّا أنا فقد نسيت في سعادي الشاملة تعاليم أُمّي جيئاً، واستسلمت للسرور شهراً صادف حياتي الرتيبة كالحلم البهيج، وألقيت بنفسي في أحضان اللعب بشرهة ونهم، لا أستشعر تعباً ولا مللاً. وفي الليل إذا أويت إلى البيت كنت أضع عمامة زوج خالتي على رأسي وأحكي لهجته في الحديث، وأتجشأ كما يتجشأ، وأتمتع عقب ذلك قائلاً: «أستغفر الله العظيم» والكسل من حولي يضحكون!

كان شهراً كالحلم، ولكن الأحلام لا تدوم. وقد انقضى. ورأيت بعين الحسرة الحقايب وهي تُعَدُّ وتكُوم استعداداً للرحيل. وحمّ الفراق، فكان عناق وسلام، وحملتهم العربة جيئاً ومضت، وأنا أودّعهم من الشرفة بطرف داعم كبير.

وقالت لي أُمّي:

- كفّاك لعباً وجرياً في الشارع، ثب إلى رشدك، وعد إليّ كما كنت لا تفارقني ولا أفارقك.

وأصغيت إليها في صمت. كنت أحبها ملء فؤادي ولكنّي كنت أهفو كذلك للعب والمرح. وبدا لأُمّي أن تحضر لنا خادمة صغيرة، وسمحت لها بأن تلاعبني تحت سمعها وبصرها. فكانت رفيقاً خيراً من عدمه على أيّ حال، كانت صبيّة دميمة، ولكنّها كانت أفضل لي من الطاهي الهرم وأمّ زينب العجوز. وكانت أُمّي محافظة على صلاتها، فجعلت أفلدها إذا صلّت، ولعلّها وجدت الفرصة مناسبة فمضت تلقني مبادئ الدين كما تعرفه. عرفت الدين مبتدئاً بالجنة والنار، فانضافت إلى معجم مخاوفي كلمات جديدة، بيد أنّها كانت مصاحبة هذه المرة لعاطفة صدق وحب وإيمان.

البوّاب فحملني إليها. وغسلت لي وجهي وساقّي وهي تقول في انفعال شديد:

- تستاهل... تستاهل... هذا جزاء من يخالف رأي أمّه، إنّ الله يغفر كلّ شيء إلا من يعاند أمّه، فلن يغفر له. هذا هو اللعب مع الأطفال، فكيف وجدته؟!!

ألتمني هزيمتي أمامها أضعاف ما ألتمني الضرب، ورحت أوكد لها كذباً أنّ الحق كان عليّ، وأنّي كنت المعتدي. ومن عجب أنّ أُمّي نفسها لم تكن تكثر من الاختلاط بالناس، فلم يألف بيتنا الضيوف إلا فيما ندر. وكان جدّي يضيق بعزلتها، ويحثّها دائماً على المعاشرة لتسرّي عن نفسها. ثمّ شاء الله أن يؤنس وحشتنا، فحلّت خالتي ضيفة بيتنا هي وأسرتها! كانت خالتي تقيم مع زوجها - مدرّس لغة عربيّة - بالمنصورة، فانتقلوا إلى القاهرة ليقضوا بيننا شهراً من العطلة الصيفيّة. وجدت نفسي بين سنّة من الأولاد وبنّت، فأقلت الزمام من يد أُمّي على رغبتها. وكان أكبر الأولاد في العاشرة، وأصغرهم يحبو، فانقلب البيت الهادئ سرّاً تقفز به القروود والنسانيس، فلعبت ولهوت حتّى كدت أجنّ من الفرح والسرور. لعبنا الجديد والحجلة، والواپور، والاستغماية.

ولمّا ضقنا بالبيت انطلقنا إلى الطريق وأنا لا أكاد أصدّق. وأرادت أُمّي أن تحول بيني وبين الانطلاق معهم، ولكنّ خالتي تصدّت لها قائلة:

- دعيه يلعب مع الأولاد يا أختي!.. لو كان بنتاً ما جاز لك أن تحجبيه قبل الأوان!

كانت الشقيقتان مختلفتين في المزاج على تقاربهما في الشبه. كانت خالتي مفرطة في السمّة، ميّالة للمرح والمزاح، لا تكرب نفسها بالقلق على أبنائها بغير داع. وكانت إذا غادر جدّي البيت غنّت بصوت لطيف محاكية «منيرة المهدية». أمّا أُمّي فتبدو على العكس من هذا كلّ. فهي نحيفة، منزوية، كثيرة المخاوف والقلق، مفرطة في الحنان لحدّ الشذوذ. وقد أرهقت ظروف حياتها أعصابها، فكانت لا تكاد تخلو إلى نفسها حتّى تلقّها كآبة شاملة. ولعلّها لم ترتح كلّ الارتياح

- أنت الآن تلميذ عظيم، وستفتح المدرسة يوم السبت القادم...

وأعلنت أمي عن ارتياحها، ولكنها لم تستطع مداراة ما اعترأها من كآبة، حتى برم بها جدي وقال لها بشيء من الحدة:

- ماذا تفعلين غداً إذا بلغ السابعة وأخذه أبوه!

فرمقت جدي بنظرة فزع وألم وهتفت قائلة:

- لن يكون هذا وأنا على قيد الحياة.

وفي يوم السبت المنتظر أوصليني جدي إلى المدرسة وعاد من حيث أتى. وقد تعلقت بيده وهو يغادرني، واستشعرت خوفاً مبالغاً أنساني طول اشتياقي إلى تلك الساعة، واقتربت عليه أن يعود بي! ولكنه ضحك ضحكته الرئانة وقال وهو يومئ بأصبعه إلى التلاميذ:

- إليك أهلك الجدد...

وقفت على كذب من الباب في ارتباك لم أعان مثله من قبل، وتولاني الندم، ونظرت إلى التلاميذ المتفرقين في الفناء بخوف وحياء، وتمنيت ألا تقع عين عليّ. ولكن أناقتي وجدة ثيابي لفتتا إلى الأنظار فغضضت بصري في خجل شديد. وتساءلت حثام يطول ذاك العذاب؟ بيد أن غلاماً اقترب مني وحياتي، ووقف معي كأننا أصدقاء. ثم سألتني بغير مناسبة:

- هل أبوك الذي جاء بك؟

وكننت أعد جدي جدّاً وأباً، فحنيت رأسي دلالة الإيجاب، فعاد يسألني:

- ما مهنته؟... وما اسمه؟

ولكن كان الحديث ضايقي، إلّا رحبت بذلك السؤال خاصة، فقلت بفخار:

- الأميرالاي عبد الله بك حسن.

وقال لي الغلام إن أباه فلان بك كذلك وقد نسيته. ولعلّه ضاق بصمتي وجودي فغادرني وانضم إلى غيري من الرفاق. اشتدّت بي الوحشة وتساءلت ترى أستطيع أن أندمج في أولئك الغلمان؟ هل يمكنني حقاً أن ألاعبهم أم تتكرّر المأساة التي وقعت لي في فناء بيتنا؟ وتقبّض قلبي خوفاً، ولو واتني الشجاعة على الانسحاب من موقفتي والعودة إلى البيت لفعلت. ثم

وأدّت حال أمي تلك معي إلى تأجيل تاريخ التحاقني بالمدرسة، فقاربت السابعة دون أن أتعلّم حرفاً. وتدخل جدي في الأمر، فعداني يوماً إليه وهو جالس بالشرقة على مقعده الطويل الهزاز، وعرك أذني مداعباً وقال لي:

- طالما رغبت في الانضمام إلى أترابك من الغلمان، فالآن قد فكّ الله أسرك، وسنأذن لك بالاشتراك معهم في حياتهم عمراً طويلاً، ستدخل المدرسة!

أنصتُ إليه في دهشة بادئ الأمر إذ لم أكن أدري شيئاً عن المدرسة، ثم بدا لي أنّه سيطلق سراحي فنظرت إلى أمي بين مصدق ومكذب، ولشدّ ما دهشت حين رأيته تبسم إليّ في تشجيع واستسلام، فانبعث الحبور في صدري فباضاً، وهتفت بجدي مستائلاً:

- هل ألعب في المدرسة كالأطفال؟

فهزّ الشيخ رأسه الأبيض وقال:

- طبعاً... طبعاً... ستلعب كثيراً وتعلّم كثيراً،

ثمّ تصير فيها بعد ضابطاً مثلي...

فسأله في لهفة:

- متى أذهب؟...

فابتسم الرجل قائلاً:

- قريباً جدّاً، سأقيد اسمك غداً...

وفي صباح الغد - وكنا في مطلع الخريف - ألبسوني بدلة وطرבוشتاً وحذاء جديداً فعاودتني ذكريات العيد السعيد، ومضى بي جدي إلى عطفة قاسم غير بعيد من بيتنا، ودخلنا ثاني بناء صادفنا إلى اليسار، مدرسة الروضة الأولى الأهلية، وقد وقع عليها الاختيار لقربها من البيت، كانت تتكوّن من فناء متوسط ودور واحد من ثلاث حجرات، فصلين وحجرة الناظر. وقد استقبل الناظر - وهو صاحب المدرسة أيضاً - جدي بالاحترام والإجلال، ولاطفي في محضره برقة، وأطرى نظافتي وجدة ثيابي، فأنست إليه واستبشرت به خيراً. وتمّ إثباتي بين تلاميذ المدرسة في دقائق، ودفع جدي المصروفات، وعدنا وهو يقول لي:

وارتقيت السلم وثبًا، وفي الشقة وجدت أمي في انتظار، فهتفت بي لَمَّا رأني:

- أهلاً بنور العين...

ووقع بصرها مصادفة على البنطلون، فبدا في وجهها الانزعاج، وتمت بصوت منخفض:

- ربّاه... بلت على نفسك!

وانفجرت باكياً، وقلت لها منتحباً:

- لن أعود إلى المدرسة، إنّ جدّي لا يدري عنها شيئاً، وإنّي أكره الناظر والمدرسين والتلاميذ، أنقذيني منها ولن أبعد عنك ما حييت...

فجففت دموعي، ونزعت ملاسبي، وهي تقول رقة:

- لا تقل مثل هذا الكلام، ستألفها وتحبها، كيف تبقى في البيت والغلمان جميعاً في المدرسة؟ وهل يمكن أن تصير ضابطاً مثل جدك إذا تركت المدرسة؟!

وواصلت البكاء، وألححت في الشكوى، ولكنّها جعلت تلطف من حزني وتحذّري من البوح لجدّي شكواي أن يغضب ويحتقري. ولأول مرة أعارت دموعي أذنًا صمّاء.

\*\*\*

وبدا لها - تشجّعني على مواصلة الحياة الجديدة - أن توصلي كلّ صباح إلى المدرسة، فكنا نذهب يومًا، وأدخل أنا المدرسة بينما تقف هي على الطوار المقابل لها، وأظّل ملازمًا للسور، أبادلها النظرات والابتسام من خلال قضبانها، والكآبة ترين على صدري والضيق يمسك بخناق. كرهت المدرسة وحياتها جميعاً، ولكنّي أجبرت على الذهاب إليها، ولم ينفعني عصياني ولا بكائي ولم يغنيا عني شيئاً، فأيقنت أنّه قضي عليّ بسجن طويل الأمد. ولأول مرة وجدتي أحسد الكبار على حرّيتهم، وأغبط النساء على قبوعهنّ في البيوت. وإلى ذلك العهد يرجع سروري بيوم الخميس، فكان اليوم المفضّل عندي من الأيام، أمّا بقية أيام الأسبوع فقد جفوتها واستفقتلها، وكنت أستشعر الكآبة ابتداء من أصيل يوم الجمعة، ويمرّ السبت والأحد والاثنين

دقّ الجرس فأنقذني من أفكاري، وأوقفونا صفًا، وأدخلونا الفصل. لم أكن أتصوّر حتّى ذلك الوقت إلّا أنّي التحقت بملاعب كبير، فلما أن جلست إلى مقطر، وراح المدرّس الشيخ يفتتح العام الدراسي بالإرشادات التقليدية الخاصّة بالنظام وعدم الحركة والكلام، أيقنت أنّي دخلت سجنًا... وتولّتي الدهشة والانزعاج، ترى أأخطأ جدّي أم خدعوه؟ وطار خيالي إلى البيت فتمثّلت لي أمي في جلستها وحيدة، وتساءلت ترى هل نسيّتي؟ إنّها الآن تراقب أم زينب وهي تكنس الحجرات وتنفض الأثاث، ألم تفكّر في؟.. هل تطيق فراق طول اليوم كلّهُ؟! وانتهت الحصّة الأولى دون أن ألثفت لحظة واحدة إلى كلام الشيخ، ولا عجب، فقد قرّرت أن يكون ذلك اليوم الأوّل والأخير. وفي دقائق الاستراحة رأيت الناظر يمرّ بباب الفصل، فتنفّست الصعداء. ومضيت نحوه بلا تردد إذ لم أكن نسيّت لطفه ورقته، واقتربت منه في حياء، فالتفت نحوي في دهشة، ورمقي بعينين جامدتين متسائلتين فظننته قد نسيّني، وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- أنا ابن الأميرالاي عبد الله بك حسن.

فسألني بدهشة:

- وماذا تريد؟

فلممت أطراف شجاعتني وقلت:

- أريد أن أعود إلى البيت.

فصرخ في وجهي بصوت غليظ كالرعد:

- عد إلى قمترك... عمى في عينك...

وأذهلني صراخه، فعدت إلى مكاني يكاد يغمى عليّ من الرعب والألم. ولبثت في مكاني مروّعًا محزونًا. وفي أثناء النهار شعرت بحاجة إلى التبول ولكنّي كنتها في خوف شديد، ولم أفكّر مطلقاً في استئذان المدرّس في الخروج. وغلبني الحياء في الفسحة فلم أستطع أن أسترشد بأحد عن موقع المراض. وجعلت أتملّل تملّل الملدوغ، وأشدّ على ركبيّ في ألم وجزع. ومرّ الوقت في ثقل وعذاب حتّى دقّ جرس الخروج فأطلقت ساقبي للرياح، فبلغت البيت في ثوانٍ،

الفاضحة. ولما اطلع جدّي على الشهادة غضب. وقال لأمي بحدّة:

- هذا نتيجة تدليك... لقد... أفسدته يا سني.

ثمّ توعدّ الناظر شرّاً، ومضى لمقابلته في المدرسة. ورجع إلينا بعد ساعة وهو يقول بارتياح:

- نجحت يا سيدي بالقوّة، وإيّاك أن تسقط في السنة التالية!

وكان يدعيني أمل بأنّ سقوطي ربّما عدل بهم عن إرسالني إلى المدرسة، فلما بشّرني بذلك النجاح المغتصب خاب أمني. وجاءت السنة الثانية فلم تكن بخير من الأولى. وزاد من شقائي هفوة لسائيّة عثرت بها فضاعت من تنغيص حياتي بقيّة المدة التي قضيتها في الروضة الأولى، رفعت أصبعي مرّة لأستاذ المدرّس في الخروج، ولكن بدلاً من أن أدعوه «يا أفندي» أخطأت وأنا لا أدري فقلت له «يا نينة!».

وضجّ الغلمان بالضحك، وضحك المدرّس نفسه وقال لي بسخريّة:

- إيه يا سيّد أملك؟...

وقهقه الفصل بالضحك، وتولّاني الدهول، ولبثت ذاهلاً حتّى اغرورقت عياني، لم يكن لي فيهم رفيق أو صديق، فقد بدا عجزني عن اتّخاذ الأصدقاء منذ ذاك العهد البعيد، فلم يرحمني أحد منهم، ودعوني منذ تلك الهفوة بنينة حتّى غلبت على اسمي الحقيقيّ، وكنت أتحامهم مقهوراً مغلوباً على أمرّي ونار الغضب ترعى صدري.

وفي نهاية العام جاءتني شهادة الأصفار فأتهمت أمني المدرسة. وقرّر جدّي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائيّة، ولما كنت متخرّجاً في مدرسة أهليّة اشتراط الناظر أن أوّدي امتحاناً، ومضى جدّي بي إلى المدرسة قبيل افتتاح العام الدراسيّ، وانتظر نتيجة الامتحان. ولم تكن بحاجة إلى الانتظار، ورجا الناظر أن يقبلني بصرف النظر عن نتيجة الامتحان، وأراد الرجل أن يجلّ جدّي لكبر سنّه ومقامه فطلب إليّ أن أكتب اسمي «كامل رؤية» ولكّني أخطأت في كتابة رؤية

والثلاثاء في ضيق وتبرّم، حتّى يأتي صباح الأربعاء فأتنفّس الارتياح، ثمّ استيقظ عند الفجر الخميس وأتقلّب تحت الغطاء في سرور وجور والدنيا لا تسعني من الفرح. ولذلك تفوّقت في دروس الخميس، ولم تعدّ المحفوظات والديانة... على أنّ ذلك العهد لم يخل من ذكريات تثير الابتسام، وإن بدت لي وقتذاك في إطار من الجدّ والصرامة، من ذلك أنّنا كنّا نبتاع السميد في الفسحة، وإذا أعوزنا الملح استعضنا عنه بالجبر الطافح من جدران الفناء. وكان مدرّسنا الشيخ يروق له أن يشرب كوباً من العرقسوس في أثناء الحصّة الأولى، فكان إذا تناول الكوب يأمرنا بالوقوف ويديرنا ظهورنا له حتّى لا يصيبه مكروه من أعيننا النهمة. وجاءنا يوماً متجهّماً وقال إنّه شعر ليلة أمس بمغص وإنّه لا يشكّ في أنّ أحداً استرقّ إليه النظر وهو يشرب العرقسوس، وأنذرنا إذا لم نرشّد عن الجاني بالضرب على أيدينا جميعاً، ولما كنّا نجهل الجاني فقد ضربنا جميعاً. وكان زميله الآخر شيخاً هرمّاً رقيق النفس، فلم يكن يضرب أحداً إلّا إذا أعيته الوسائل، وكانت طريقته المفضّلة في إسكات التلاميذ وضبط النظام أن يخوفنا بالعفريت الذي يسكن أرض الحجرة من قديم الزمان، قائلاً إنّه لا يحبّ الضوضاء، وكان إذا أفلت الزمام من يده يجلس القرفصاء وينقر على أرض الغرفة ثمّ يقول بخشوع ورهبة «عفوك يا سيّدنا». إنهم لا يدركون شيئاً... لا تركيبهم وساحهم هذه المرّة.

أمّا الدراسة فإنّي لم أتعلّم شيئاً على الإطلاق. ولعلّ الفنّ الوحيد الذي أتقنته في مدرسة الروضة الأولى هو قياس الزمن بمراقبة تحوّل ضوء الشمس عن جدران الفصل، وأنا أعدّ الثواني في انتظار جرس الخروج. وكان المعنى الوحيد الذي يتضمّن توجيّه سؤال من المدرّس أنّني سأضرب كذا مسطرة على ظاهر كفيّ. ولم أحفظ في بحر عام دراسيّ إلّا بعض السور القرآنيّة الصغيرة التي كنت أسمع أمني ترنّدها في صلاتها. وجاء الامتحان في نهاية العام فظفرت بجملة أصفار تكفي لجعلي مليونيراً لو ظفرت بها في غير الشهادة

حقّ أبلغ التاسعة، وقُبِلت الشفاعة بمعجزة من السماء. وها قد اقتربت التاسعة، ولسوف أنتزع من أحضان أمي ما لم ينتازل أبي عن حقّه في استردادي. وبكت أمي يومًا في محضر جدّي وقالت له:

- لقد فقدت راضية ومدحت فلم تقع عليهما عيناى منذ تسع سنوات، ولم يبق لي إلّا كامل، فهو عزائي الوحيد في هذه الحياة، ولا أدري ماذا أفعل إذا سلبني الرجل إياه.

وهزّ جدّي رأسه الأشيب متبرّماً، وكان ذاك الحديث يكرهه، وقال لها:

- وماذا بيدي أن أفعل؟! هذا حكم الشرع وما لنا من حيلة فيه، والرجل الذي تعينه هو أبوه على أيّ حال، وليس برجل غريب!

فهفت أمي في تألم واحتجاج:

- أبوه!... أتدعو هذا الوحش أباً؟! يا أسفي على راضية ومدحت في البيت الذي جعل السكّير منه حانة. إنّ الأبوة لم تختلج بصدّره قطّ. وكامل قد ترعرع في رعائتي ونهل من حناني، ولم يدر شيئاً عن شواذّ المحلوقات، فإذا أخذه الرجل هلك بين يديه، وهلك هنا وحدي...

وخنقها البكاء فأمسكت عن الكلام مرغمة، ولما استردّت أنفاسها استطردت تقول:

- هل تصوّر يا أبي أنّ كامل يستطيع أن يعيش بعيداً عن أمّه؟ إنّ يديّ هاتين تطعانه وتلبسانه وتنيسانه، إنّهُ يخاف خياله، وإنّهُ لثفّزعه زفرات الصراصير، فكيف يأذن الشرع بأن يُنتزع مثل هذا الطفل من أحضان أمّه؟!

وقطّب جدّي متبرّماً، وبدا وكأنّه ضاق بشكواها، بيد أنّ وجهه لم يكن مرآة صادقة لقلبه، وكثيراً ما كان يبدو ساخطاً والقلب منه نديّ بالرحمة، ولم يزد وقتذاك على أن قال: كفّاك شكوى وبكاء. إن قسم له أن يمكث بيننا مكث، وإن أراد الله أن يذهب إلى أبيه فلا رادّ لقضائه...

ذاك كان قوله، أمّا صنيعه فكان شيئاً آخر. فقد حزم أمره يوماً ومضى إلى أبي ليفاوضه في شأن

فاعتذر الناظر من عدم إمكان قبولي. وعاد بي جدّي وهو يسخر منّي طوال الطريق، وقال لأمي وهو ينفخ: - لا فائدة ترجى من إعادته إلى المدرسة الأولى، فسأحضر له مدرّساً خصوصياً هذا العام.

وأنصت إليه وأنا لا أصدّق أذنيّ، سألته وأنا أدري فرحي:

- هل أبقى هذا العام في البيت؟

فحدجني بنظرة غاضبة من عينيه الخضراوين وقال بغيط:

- يا فرحة أمك بك!

## ٧

واستقبلت عامّاً مثمراً لأوّل مرّة في حياتي، وجلست أمناً مطمئناً بين يدي مدرّسي الشيخ، أتلقّن مبادئ العربيّ والحساب. بدأت أخطو الخطوات الأولى في طريق التعليم، وإن مضت ساعات الدراسة في ثقل وضيق كالعادة، ولكي أضمن معاملة حسنة من المدرّس أجلسات أمي غير بعيد من باب حجرة المدرّس للاستنجد بها عند الحاجة، ولا عجب فإنّ ذكرى العامين اللذين قضيتها في مدرسة الروضة - ما بين ضرب المدرّسين واعتداء التلاميذ - لم تمحّ من نفسي قطّ. ولم أكن أنصوّر حتّى ذلك الوقت أنّ التعليم واجب ضروريّ ساؤذيه شطراً طويلاً من العمر، ولكنّي عدته عقاباً فرض عليّ لسبب لا أدريه، ولم أياس من أن يلين قلب جدّي يوماً فيعفيني منه.

على أنّ أمي لم تكن أسعد حالاً منّي. كانت تعاني عذاباً من نوع أشدّ. وقد ازدادت كآبة في تلك الأيام، فلم تكن تخلو إلى نفسها حتّى تبكي مرّ البكاء. ولم تكن تجلس إلى جدّي حتّى تفانحه بالأمر الذي يقضّ مضجعها، أجل لم يعد يفصل بيني وبين التاسعة إلّا أشهر قلائل، فإذا بلغت حتّى لأبي أن يضمّني إليه، وهو لا بدّ فاعل كما فعل بأحتي وأخي من قبل. وقد تهدّنا ذاك الخطر حين بلغت السابعة، ولكنّ جدّي كتب إلى عمّي - وهو من كبار المزارعين في القيوم - راجياً أن يستشفع لي عند أبي ليركني في كفالة جدّي

جَدِّي وأشبعته يده تقيلاً وهي تقول بلهفة:  
- حقاً؟... حقاً؟... هل رحم الله قلبي  
الكسير؟

وأخذ جَدِّي يقتل شاربته في ارتياح بينما عادت أُمِّي  
تسأله بنفس اللهفة:

- أرايت راضية ومدحت؟

فهز رأسه أسفاً وقال:

- كانا في المدرسة!

فدعت لها دعاء حاراً وعيناها تغرورقان. ولم يكن  
جَدِّي يزورها لكرهه لآبِي، ولأنه لم يكن ينتظر  
استقبالاً كريماً في بيته. ثم قصَّ جَدِّي كيف قابل أباي  
في الفراندا وبين يديه زجاجة خمر وكأس مترعة. وكيف  
تلقاه بدهشة واستغراب، وكيف أنه لم يعد له من عمل  
في الحياة إلا الشراب، ولعلَّ اضمحلاله ذاك الذي  
جعله ينقاد لاقتراحه متنازلاً عن عناده القديم.

وقد بدا أوَّل الأمر وكأنه يرتاب فيها يلقي على  
سمعه، فلما أن تبَّينه ضحك في سخرية وازدراء من  
غير ما معاندة أو غضب وقال ببساطة:

- لا دماغ لي للتربية، ولأكون مرضعة من جديد.  
خلَّه عندك إذا شئت ولكن لا تطالبني بمَلِّيم واحد،  
هذا شرط صريح، وإذا طولبت بمَلِّيم واحد فيما  
يستقبل من الأيام انتزعت منكم فلا تقع عليه أعينكم  
ما حييت.

وقبل جَدِّي الشرط، وكان يحذسه مقدماً من قبل  
أن يذهب إليه، ولكنه عجب كيف أن الرجل لم يد  
عن أيَّة رغبة في رؤية ابنه، ولا سأل عنه على  
الإطلاق. ثم قال جَدِّي:

- لم يعد رؤية لآبِي إنساناً، لقد انتهى الرجل.

فغمغمت أُمِّي في حزن وكآبة:

- واحزنه على راضية ومدحت!

فقال جَدِّي يطمئنها:

- إنَّ راضية في السابعة عشرة ومدحت في السادسة  
عشرة، ولم يعودا طفلين...

\*\*\*

وثبنا إلى طمأنيتنا المعهودة، فنحنونا من ذاك الخوف

استبقائي في كفالته. والحقَّ أنَّ جَدِّي كان يحبُّني حباً  
بالغا. أحبُّني لأنِّي كنت أنيس شيخوخته، والطفولة  
تحرك في الشيخوخة أعماق الصدور، وأحبُّني لحبه أُمِّي  
التي لبثت إلى جانبه بعد وفاة جَدِّي ترعاه بحنانها  
وعطفها وحبها. ذهب الشيخ إلى أبي وانتظرنا وأيدنا  
على قلوبنا. ومرَّ وقت الانتظار على أُمِّي في عذاب لا  
يمكن أن أنساه مهما امتدَّ بي العمر. لم يكن ليقرَّ لها  
قرار أو يسكن لها جانب، وجعلت تخاطبني حيناً  
وتخاطب نفسها أحياناً. ودعيتي مرَّات إلى مشاركتها في  
الابتهاال إلى الله أن يكُلِّل مسعى جَدِّي بالنجاح.  
ومضيت أرقها بعينين محزنتين حتَّى انتقلت عدوى  
قلقها إلى صدري فاستعبرت باكياً. انتظرنا طويلاً - أو  
هكذا خيَّل إلينا - يشملنا حزن وقلق، تسبح أعيننا  
دمعاً، وتلهج ألسنتنا بالدعاء، حتَّى سمعنا جرس  
حنطور فهرعنا إلى الشرفة، فرأينا جَدِّي وهو يقطع فناء  
البيت بخطاه الثقيل... وعدنا إلى الباب ففتحناه،  
ودخل جَدِّي صامتاً وهو يحدجنا بنظرة لم ندرك لها  
معنى.

ومضى إلى حجرته فتبعناه وقد خانت أُمِّي الشجاعة  
أن تسأله عمَّا وراءه، وراحت تهمس بصوت متهذج «يا  
رَبِّي... يا رَبِّي!» وخلع طربوشه بأناة وهو يتحامي  
عيني أُمِّي، ثم جلس على مقعد كبير قريب من  
فراشه، ثم ألقى علينا نظرة طويلة وقال بصوته  
الأجش وكأنما يخاطب نفسه:

- رجل مجرم... ماذا كنت تنتظرين من رجل  
مجرم؟

وابيضَّ وجه أُمِّي وارتعشت شفتاها، ولاح في  
عينيها القنوط، وجعلت أردد بصري بين جَدِّي وأُمِّي  
في قلق وخوف. وتركتنا جَدِّي لشقائنا هنيهة، ثم رثي  
لنا فرفع عن وجهه نقاب التجهم، وقهقه ضاحكاً،  
وقال بصوت ينم عن الظفر:

- لا تقتلي نفسك كمداً يا أُمِّ راضية. فقد أذعن  
الشیطان بغير تعب طويل.

بهتنا بادئ الأمر، ثم تهلَّلت وجوهنا بشراً، وتلاَّأ  
نور الفرح في عيني أُمِّي، ثم جثت على ركبتيها أمام



الغرياء، وزاد طبعي تعاسة ما جُبلت عليه من صمت وعي وحصر، فلم أحسن الكلام قط، فضلاً عن الدعاية والمزاح، لذلك جميعه رموني بثقل الدم، وقد أَلتني هذه الصفة، حتّى سألت أُمّي يوماً:

- هل أنا ثقیل الدم يا أمّاه؟

فرمقتني بنظرة ارتباع وقالت بحدة:

- من قال عنك ذلك؟

فقلت في حياء:

- التلاميذ كلّهم؟

فصاحت بغضب:

- قطعاً لألستهم. إنهم ينفسون عليك أدبك الكامل، والخطور الذي يحملك بيننا يتسكعون على أقدامهم، إنّك وأن تتخذ منهم صديقاً...

ومتي كنت في حاجة إلى مثل تلك النصيحة؟! وهكذا كابدت الحياة في المدرسة في وحدة، يطالعي روح عداوة وبغضاء من الجو المحيط بي. ولعلّها كانت لا تخلو من غبطة لو أنّي أسهمت في مسرّاتها، ولكنّ خجلي الشديد أجبرني على مقاطعة الألعاب بأنواعها كالكَشَافَة والكرة والقسم المخصوص، حتّى الرحلات المدرسيّة لم توافق أُمّي على الاشتراك فيها أن يصيبني مكروه، وكان التلاميذ يتحدّثون عن الأهرام وأبي الهول ودار العاديات والفسطاط فاسترق السمع في حيرة وحزن وكأني أستمع إلى سائحين يقصّون عن بلاد نائية! ولشدّ ما ينتابني من خجل إذ أقرّر أن عينيّ لم تقعا من القاهرة - المدينة الوحيدة التي عشت بين أسوارها - إلّا على شوارع معدودات هي كلّ حظّي من مشاهدات في هذه الدنيا الواسعة. ولم يكن لي من عزاء في تلك الأيام إلّا أن أنفرد بأُمّي في الشرفة أو في حجرتها، ثمّ نأخذ بأطراف الحديث، كأن ليس لحديثنا من نهاية. وكانت عصا المدرّس تذكّرني بأنّ عليّ واجباً ينبغي أو أوّديه قبل النوم، فأقبل على الكتاب مستكرّها، وأذاكر بلا روح ولا حماس وسرعان ما يترنّج رأسي ويرتق النوم بجفنيّ.

\*\*\*

ويوماً قرئت علينا - في حصّة الديانة - هذه الآية

الذي اعترض سبيلنا مهتدّاً، وواصلت الدراسة في البيت أعالجها بصعوبة وضيق. واستدار العام، وحلّ الخريف وكثر الحديث عن الدراسة والمدرسة، وأيقنت أنّي معاد قريباً إلى السجن. وقلت يوماً لأُمّي:

- إذا كنت تحبّيني ولا توافقين على أن يأخذني أبي فلماذا ترضين بأن تفرّق المدرسة بيننا؟

فضحكت ضحكتها الرقيقة وقالت:

- يا للعار! كيف تقول هذا وأنت الرجل الكامل؟! ألا ترغب أن تكون يوماً ضابطاً كبيراً مثل جدّك؟ وماذا يبقى إذا هجرت المدرسة إلّا أن تشتغل بائع فول أو كمساري ترام!

ومضى بي جدّي إلى مدرسة العقّادين بمصر القديمة، ونجحت في الامتحان هذه المرّة. وهل العام الدراسي، وانتظمت في المدرسة كارهاً مرغماً. وكان الخطور يوصلي صباحاً إلى المدرسة، ويعود بي مساءً إلى البيت، وفي نظير ذلك منع جدّي أُمّي من توصيلي بنفسها كما كانت تفعل على عهد المدرسة الأولى. عدت مرّة أخرى إلى المدرسة، وعانيت من جديد الدروس والنظام وقسوة المدرّسين وسخرية التلاميذ. كانت حياتي المدرسيّة شقاء كلّها. وأكّد ذلك الشقاء أنّي كنت ملكاً مستبدّاً في بيتي وعبدّاً ذليلاً في مدرستي. وطالما تحيّرت بين الحبّ الذي يغمرني في البيت وبين عصا العلّم وسخرية التلاميذ.

وقد اكتسبت عداوة المدرّسين ببلادي وخمود ذهني حتّى أطلق عليّ بعضهم «الغبيّ الممتاز» وكان مدرّس الرياضة إذا انتهى من شرح درس سألني عنه وما يزال بي حتّى أجيب إجابة ترضيه فيتنفّس الصعداء ويلتفت نحو التلاميذ قائلاً: «لا بدّ أنكم فهمتم ما دام سي كامل قد فهم» ويضحّك الضحك!

أمّا التلاميذ فكان دأبهم السخرية منّي ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وكان عجزني عن إنشاء علاقة صداقة حقيقة مرّة لا شكّ فيها فلم أظفر في حياتي بصديق. والحقّ أنّي لست أسوأ من كثيرين ممن يتمتّعون بصداقات سعيدة، ولكنّي شديد النفور بطبعي، شديد الخجل، محبّ للوحدة والعزلة، عديم الثقة في

فضرب جدي الأرض بقدمه حتى ارتجت أركان  
الحجرة وصاح بغضب:

- محال؟! بل هي الحقيقة الواقعة، هي الفضيحة  
العارية، هي الضربة القاصمة لكرامتنا.

ولم تحر أمي جوابًا كأنما فقدت النطق. وتنفس  
جدي بشيء من الجهد ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- أي جنون سلبها الرشاد!... ليس هذا الدم  
الفساد بدمنا! هذا دم شيطاني يفضح سوء فعله

الأصل القذر الذي استمد منه. لقد مات حدّا وهو  
يصب لعناته على رأس أبيها فحلت اللعنة بذريته.

وازدردت أمي ريقها وتمتمت في ارتياح:

- أقطّع بها من كارثة! كيف صلت الفتاة؟! لقد  
أفسد السكير العربرد عليها حياتها، ما أتعسها!

فقال جدي باستياء وحنق:

- لا تتحلي لها الأعذار. لا شيء في الوجود يسوّغ  
هذا الفعل الشائن...

فغمغمت أمي بصوت باك:

- لست أنتحل لها الأعذار، ولكنّها تعيسة ما في  
ذلك من شلّ...

وساد صمت محزن، ولبثا يتبادلان نظرات الغم  
والكدر والقنوط، وقد أصغيت إلى ما دار بينهما بانتهاء  
تدبير، فأدركت أهونه، وغابت عني خطورته الحقّة،  
كان الأمر يتعلّق بأخت لم تقع عليها عيناى لماذا  
هربت؟ وأين اختفت؟ وتساءلت:

- لماذا لم تحضر إلينا؟

فصاح بي جدي حانقًا:

- اخرس!

وارتمى على مقعد، واستطرد يقول:

- جاءني عمّها في النادي وأبلغني الخبر قال إنّ لا  
يعلم شيئًا عن حقيقة الحال. وقد أبرق له مدحت  
للحضور فورًا، فجاء بلا إبطاء، ثم أخبره الشاب  
باختفاء شقيقته. أمّا المجرم السكير فلم يزد على أن  
قال «في داهية». ثمّ ذهنا معًا إلى بعض أصدقاء العمّ  
من رجال المحافظة وأفضينا إليهم بالخبر الشائن سائلين  
معونتهم.

الكرمية «إذا جاءت الصاخة، يوم يفرّ المرء من أخيه،  
وأمه وأبيه الخ...» فلا أذكر أنّي انزعجت لشيء  
انزعاجي لها، لم أطق أن أتصور أن أفرّ من أمي في يوم  
مهما كانت فظاعته، وأن أغادرها في أهواله بقامتها  
النحيلة الرقيقة وعينيها الخضراوين الحنونين، فقاطعت  
الشيخ على غير وعي ميّ هاتفاً:

- كلّ... كلّ...

وأحدثت مقاطعتي دهشة في الفصل لأنّي لم أكن  
أنبس بكلمة، ولم يدرك أحد ماذا أردت، ولم يلبثوا أن  
ضجّوا ضاحكين، وغضب الشيخ، وحلّني مسئوليّة  
الإخلال بالنظام، فأقبل نحوي متعيّظًا ولطمني على  
وجهي بعنف وحنق. ورخت باللظمة كعذر ظاهر  
للبيكاء إذ كنت أقاوم دموعي جاهداً ودون جدوى.  
لقد زلزلتني هذه الآية الكريمة، وكانت أوّل نذير لي  
عن مأساة الحياة...

## ٨

حياة رتيبة، كابدتها على استكراه، بيد أنّها لم تخلّ  
من هزّات عنيفة. فذات مساء عاد جدي مبكراً على  
غير عادته. وقلقت أمي لأنّه لم يكن يرجع إلى البيت  
قبل الفجر. واقتحم علينا الحجرة متجهّئًا، فنهضت  
أمي مستطلعة. ورفعت رأسي عن الكتاب، وقبل أن  
نساله عمّا به قال بحدة وهو يضرب طرف حدائه  
بعصاه:

- زينب، كارثة نزلت بالأسرة... فضيحة  
ستجعلنا مضغة الأفواه!

فنطقت عينا أمي بالفزع، وهتفت بصوت متهدّج:

- رحماك يا ربّي!... ماذا حدث يا أبي؟

فقسّت نظرة عينيها الخضراوين، وقال بصوت أجشّ  
غليظ:

- ابتك... راضية... هربت!

وشحب وجه أمي، وخلجت عيناها، وجعلت ترنو  
إلى جدي بنظرة مستنكرة لا تجد سبيلاً إلى تصديق ما  
صكّ أذنيها، ثمّ غمغمت بصوت كالأنين:

- هربت!... راضية!... هذا محال!

تعيسة الحظ، رباه... أين هي الآن؟ خبّرني بكلّ ما تعلم.

فقال جدّي بهدوء:

- سافروا إلى بنها، أنا وعمّها ومدحت، فوجدناها في أسرة طيّبة محترمة، وتعرّفنا إلى زوجها وهو شابّ موظّف بالحقائيّة يدعى صابر أمين. فأخبرنا أنّه استأجر شقّة بشارع هدايت بشبرا وأنّه سينقل إليها هذا الأسبوع. وقالت راضية: إنّ زوجها تقدّم لخطبتها ولكنّ أباهما رفضه بغلظة، وأنّه رفض قبله شابًا آخر تقدّم لخطبتها كذلك... ولعلّها الخمر التي لم تبقَ على ذرّة من إنسانيته فأنسي واجباته وبدّد مرتباته، واستبدّ بها اليأس فهربت مع الشابّ. وسافروا إلى أسرته حيث كان المأذون في انتظارهما.

وأصغت أُمّي إليه وهي تبكي بكاء حارًّا، بعثه الحزن والارتياح معًا، ثمّ قالت:

- سأسافر إليها غدًا...

فقال جدّي بتأكيد:

- ستجدينها في بيتها غدًا أو بعد غد...

وعادت تتساءل:

- لماذا لم تأتي إليّ أنا؟

فقال جدّي كمن يعتذر عن الفتاة:

- لعلّها خجلت أن تأتي بخطيبها إلينا وهي هاربة من وجه أبيها، وعلى آية حال لنحمد الله على هذه النهاية التي لم تكن نحلم بها...

## ٩

ركبنا الخنطور جميعًا لأوّل مرّة، فجلس جدّي وأُمّي في الصدارة، وجلست على المقعد الخلفي. كانت أُمّي من الفرحة في نهاية، وقد بدت بعدما عانت في الأيام الأخيرة من همّ وحزن وكأُتها استردّت شبابها الأوّل. كانت عيناها تتألقان بنور السرور البهيج، وكان لسانها يسبح بالحمد والشكر. وانتقل سرورها إلى صدري ففرحت برحلتنا السعيدة. وجعلت أفكر في سقيقتي التي سأراها لأوّل مرّة بعد دقائق بدشة وسرور وقلق لم أدر له سببًا، ترى ما شكلها؟ وكيف تلقانا؟ وهل

وترثت جدّي دقيقة ثمّ استطرّد:

- ويل للسكّير المجرم!... إنّهُ المسئول الأوّل عن هذه المأساة، لأذهبنّ إليه وأحطمنّ رأسه!

ولاح الانزعاج في عيني أُمّي فقالت بجزع:

- كلّ... كلّ... هذا يزيد من حالنا سوءًا.

فقال جدّي بإصرار:

- ينبغي أن يجرى عن شرّه شرًا.

فقالت أُمّي بتوسّل:

- لا شأن لنا به... فلنركّز اهتمامنا في العثور على الفتاة علّنا نقيم ما اعوجّ من أمرها...

فحدجها بارتياح وتساءل:

- لماذا تلحقين في الحيلولة بيني وبين الذهاب إليه؟

فلاح في وجهها الارتباك وتمتعت:

- أخاف أن يزداد الأمر سوءًا.

فقال جدّي بحقّ:

- بل تخافين أن يؤدّي الشجار إلى أن يستردّ كامل.

إنّك لا تقيمين وزنًا لنتي، ولا تكثرين لغير نفسك، ألا لعنة الله عليكم أجمعين...

ولبس البيت رداء الحزن فكأُته في حداد، واهتصرتنا أيام سود فنكد العيش، وكدت أختنق في ذلك الجوّ القاتم. وقد غير جدّي نظام حياته، وتخلّف عن سهراته المعتادة في النادي وكان يغيب خارج البيت طوال النهار دون أن ندري عن مكانه شيئًا، على حين تقضي أُمّي النهار ساهمة أو باكية. وحاءنا جدّي ذات مساء، فلما أن وقع بصره على أُمّي بادرها قائلاً:

- عثرنا على ضالّتنا أخيرًا...

فجرت أُمّي نحوه وهي تصيح:

- حقًا!.. اللّهُمّ ارحمنا...

فقال جدّي بصوت تنمّ نبراته عن الارتياح والسرور:

- أرسلت الفتاة المجنونة إلى مدحت كتابًا تنبئه بأنّها تعيش في بيت زوجها بنها، وتسأله المغفرة عن سلوكها الذي اضطرّت إليه اضطرارًا...

وتنهذت أُمّي من الأعماق وقالت وعيناها تدمعان:

- ألم أقل لك!... إنّ راضية فتاة طاهرة ولكنّها

تَحَبُّنَا؟ وقطعت أُمِّي عِلِّيَّ حبل أفكارِي فسألت جَدِّي بلهفة:

- هل أجد مدحت هناك؟

فقال جَدِّي وقد اعتمد مقبض عصاه بيديه:

- الراجح أن يكون هناك... لقد تواعدنا على ذلك... ولاحت في عينيها نظرة حنان ورجاء. وسارت العربة ميممة شبرا. ورحت أتسلى بمشاهدة المازة والعربات والسترام، حتَّى بلغ الحنطور مقصده، وانعطف إلى شارع هدايت، ثم وقف أمام بيت متوسط الحجم، مكون من ثلاثة أدوار. وغادرت العربة وصعدنا إلى الدور الثاني وأُمِّي تقول بصوت كالمهمس: «ما أشدَّ خفقان قلبي!»، ودقَّ جَدِّي الجرس، وفُتِح الباب، ودخلنا. رأيت فتاة وشابَّين، وقبل أن أعانيهما هرع اثنان منها إلى أُمِّي، فلم أر إلَّا عنقا حارًّا. ولم أسمع إلَّا تنهَّدات الدموع. رمقت الثلاثة بحيرة وخجل وصمت. وطال العناق، وطال البكاء، حتَّى تدخل جَدِّي بينهم ضاحكًا وهو يقول:

- إليك زوج ابنتك صابر أفندي أمين.

وتقدَّم الشاب من أُمِّي فقبل يدها، وقبلت جبينه، ولم ألبث أن رأيت نفسي محطَّ أنظار الجميع. وقالت أُمِّي وهي تتبسم خلال دموعها:

- أخوكما كامل..

وهرعت نحوي شقيقتي، وضمتني إلى صدرها، وقبلتني بحرارة، وأنا مستسلم بين يديها لا آتي حراكًا، ولا أنطق بكلمة، وصاحت بفرح:

- رباه، إنَّه شابٌّ يافع!... إنَّه نسخة منك يا أمَّاه!

ثم ضمتني شقيقتي إلى صدره وقبلتني وهو يقول بسرور:

- يا له من شابٍّ خجول!

ولم أكن حتَّى تلك اللحظة قد أنعمت النظر إلى وجه من وجوههم، وظللت غاضًا بصري، والخجل يحرق جبیني وخدَّي. ثم مضوا بنا إلى حجرة الجلوس. فجلست أُمِّي بين راضية ومدحت، وجلس جَدِّي لصق زوج أختي، وأقعدتني شقيقتي إلى جانبها،

وقالت أُمِّي وهي تحفّف دمعها:

- يا رحمتاه! وجدتكما شابَّين بعد أن انترعتما مِنِّي طفلين، الحمد لله والشكر لله...

فقال زوج أختي بتأثر:

- يا لها من حياة هي بالمأساة أشبه! وإنِّي لأشكر الله على أن جعلني الفرصة التي هيأت لكم هذا اللقاء!

وسالت الأشواق القديمة حديثًا فيأصًا لا ينضب معينه، واثالت عليهم الذكريات والخواطر، وشكا كلُّ بَنه وهَمه، وامتزجت الدموع بالبسمات. وكانت تلوح في عيني أُمِّي بين الحين والحين نظرة دهشة كأنها لا تصدِّق أنَّ الله قد جمع شمل الأسرة بعد تفرُّق ونوى. ولمَّا شغلوا بأنفسهم عني أخذت أفيق من الخجل، وأستردَّ أنفاسي، وشعرت بأنِّي - لدرجة كبيرة - وحدي، فداخلي ارتياح، ولكن سرعان ما انتابني قلق وضيق، وجعلت أسترُق النظر إلى راضية ومدحت. بهرني جمال أختي، رأيتها أقصر من أُمِّي قليلًا ولكنها ممثلة بضَّة، مبالغة للبياض، أما وجهها فصورة من وجه أُمِّي، وصورة من وجهي أيضًا، بعينه الخضراوين الصافيتين وأنفه الدقيق المستقيم. أما مدحت فأنموذج من نوع آخر، بدين في غير إفراط، مستدير الوجه والرأس، أبيض الوجه مشرب بحمرة، أسود العينين، ينمُّ مظهره عن الفحولة والقوَّة وإن لم يجاوز الثامنة عشرة. وكان يقهقه ضاحكًا لأنفه الأسباب، ويبدو فرحًا صحيحًا معافي. استرقت إليهما النظر باستطلاع واهتمام، وسرعان ما جذبني إليهما شعور بالحب والعطف، واستنمت إلى روحهما المرححة الباسمة. بيد أنني لم أنعم بشعور الوحدة طويلاً، فرمَّا اتجهت صوبي الأنظار وبُذلت المحاولات لحملي على الكلام، واستدراجي لمشاركتهم سرورهم، ولكنني لم أنبس بكلمة قانعًا برَدِّ الابتسام بالابتسام. ولئن كان كلُّ شيء ممَّا يكتنفي يدعو للغظة إلَّا أنني لم أخلُ من مشاعر قلق غامض رغبني أكثر من مرَّة في الرحيل، وقالت لي راضية باسمه:

- كان مولدك عسيرًا، والله يعلم كم تألَّت أَمْنًا،

ولبنا أنا ومدحت في الحجرة المجاورة نبكي، ثم

بعد ذلك بيننا وبين شقيقي، وكان مدحت يزورنا كلما  
سنت له فرصة.

واستقبلتُ عامًا مشيرًا تَوَزَّعتني فيه الحيرة وحب  
الاستطلاع والتجربة القاسية. صدمني في مطلع  
هروب أختي وما علمت بعد ذلك من زواجها،  
فحبها، ثم إنجابها طفلة. وتساءلت نفسي كما ساءلت  
أمي عن معنى هذا كله، لماذا هربت من أبي إلى رجل  
غريب؟ لماذا لم تأتِ إلينا؟ ولماذا تزوجته؟ وكيف  
حبلت؟ وكيف خرجت زينب الصغيرة إلى نور  
الدنيا؟.. وارتبكت أمي حيال إلحاحي وتطفلي،  
وجعلت تصطنع لي الأجوبة الكاذبة حينًا وتتأثني حتى  
أكبر حينًا آخر، فإذا لججت تكلفت لي حزمًا غير  
معهود ولا مألوف. فلم أظفر منها بشيء ينقع الغلة،  
وفي الوقت نفسه شعرت بأن ثمة سرًا يراد إخفاؤه  
عني. ثم جاءني العون من حيث لا أدري، فتطوَّعت  
الخادمة لإمالة اللثام عما حيرَ خيالي وألهبه. كانت  
تكبرني بأعوام، وكانت دميعة قبيحة، ولكنها كانت  
تكرس فراغها لخدمتي وكانت تخلو بي في أوقات نادرة  
إذا شُغلت أمي بعمل أو حاجة. وبدا أنها استرقت  
السمع يومًا إلى ما يدور بيني وبين أمي عن الألغاز التي  
استثارتنني من سباتي، فصارحتني مرة بأنها تعلم أمورًا  
خليفة بأن تُعرف، وانجذبتُ إليها على قبحها في اهتمام  
وسرور، وواجهت التجربة بلذَّة وسداجة. على أن  
العهد بها لم يطل، فما أسرع أن ضبطننا أمي متلبسين.  
ورأيت في عيني أمي نظرة باردة قاسية فأدركت أني  
أخطأت خطأ فاحشًا. وقبضت على شعر الفتاة ومضت  
بها فلم تقع عليها عيناى بعد ذلك. وانتظرت على  
خوف ونجول. ثم عادت متجهمة قاسية، ورمت  
صنيعي بالمذمة والعار، وحدثتني عما يستوجه من  
عقاب في الدنيا وعذاب في الآخرة. ووقع كلامها مني  
موقع السياط حتى أجهشت باكيا، ولبثت أيامًا أحمى  
أن تلتقي عيناى خزيًا وخجلًا.

حدثت معجزة - على حدِّ تعبير جدِّي - فنجحت في

أدخلنا في النهاية ورأيناك في اللقمة كقبضة اليد فأنهنا  
عليك بالقبل.

وقهقه مدحت وقال:

- وأردت أن أطعمك قطعة من الشيكولاتة  
فحملوني إلى الخارج.

وقالت راضية برقة:

- وكنا نتخيَّلك في وحدتنا بيت أينا فنقول لعلَّه  
يجب الآن، أو أنه يمشي ويلعب، أو هذا أوان المدرسة.  
وعلى فكرة أيَّ سنة بلغت من دراستك؟

وشعرت بحرارة احمرار خدي، وانعقد لساني،  
فأجاب عني جدِّي قائلاً بلهجة لا تخلو من تهكم:

- إنه يعيد السنة الأولى الابتدائية وهو في العاشرة  
من عمره

فقال مدحت ضاحكًا:

- الحال من بعضه، فقد التحقت بالزراعة المتوسطة  
بعد سقوط عامين بالثانوي!

وقالت أمي:

- إنَّ جدَّك يريد أن يجعل منه ضابطًا..

فهزَّ مدحت رأسه وقال:

- عليه إذن أن يحصل على البكالوريا.

وكان جدِّي من الذين ألحقوا بالمدرسة الحربية  
بالابتدائية فقال بازدياء:

- إنَّ بكالوريا اليوم لا تعدل ابتدائية الأمس...

ثم دار الحديث عن الحياة في بيت أبي، حتى قالت  
راضية:

- كنا في الحقيقة نعيش بمفردنا، ولم نكن نرى أبانا  
إلا مرة في الصباح الباكر، ثم غمي وقتنا معًا، نداكر  
أو نلعب أو نتحدث، وقد حمدنا الله على تلك  
الوحدة.

وتنهت أمي إلى الشطر الأخير من الكلام.  
وتنهت في إشفاق، فقال جدِّي:

- إن كان أبوكما أعفاكم من عشرته ومخالطته حقًا،

فقد فعل خيرًا يستحقُّ عليه الشكر والدعاء!

وتفضَّى النهار كله في جوِّ عابق بالحبِّ والأشواق،  
وعدنا إلى المنيل مجبوري الخاطر. واتصلت الأسباب

تحلم، فناديتها حتى استيقظت. ولبثنا مستيقظين حتى أسفر الصبح.

وفي اليوم التالي زار جدّي ذلك الضابط المتقاعد، وحدث ما حدث بالأمس فدعا جدّي أمّي إلى حجرته، ولبثا منفردين زهاء الساعة، ثم جاءا معاً إلى الشرفة وهي تتعلّق بذراعه وتهتف بانفعال وتأثر شديدين:

- كلّاً.. كلّاً.. هذا محال، ولا أحبّ أن يعلم شيئاً. ولكنّه لم يأبه فيما بدا وقال لي بحزم: - إنّي منتظر في حجرتي.

وجعلت أمّي تتوسّل إليه وتضرع، ولكنّه رجع إلى حجرته وأنا في أعقابها على حين مضت أمّي إلى حجرة نومنا في حالة غضب واستياء. وجلس جدّي على مقعده الكبير، وأمرني أن أقرب منه، فاقتربت في رهبة وخوف حتى وضع يده النحيلة على منكبي، ورمقني بنظرة دقيقة ثم قال:

- أريد يا كامل أن أحدثك بأمر هام. لا زلت صغيراً بغير شكّ، ولكن يوجد في مثل سنّك من ينهض بأعمال الرجال، وأحبّ أن تفهمني جيّداً، فهل تعدني بذلك؟

وأجبت بطريقة آليّة:

- أعدك يا جدّي.

فابتسم إليّ متلفظاً ثم قال:

- الأمر هو أنّ رجلاً فاضلاً غنياً من أصدقائي يرغب أن يتزوّج من أمّك، وأني أوافق على ذلك رغبة منّي في سعادة أمّك، فلا بدّ للمرأة من رجل يراعها، وأنا قد جاوزت السنين، وأخاف أن أموت قبل أن تضطلع أنت بواجبك كرجل فلا تجد من تعتمد عليه في الحياة.

وواصل كلامه باستفاضة، ولكنّ عقلي كلّ فلم يتابعه، ولم أعد أفقه معنى ما يقول.

شكّلت عبارة «يتزوّج من أمّك» مسامعي، وانفجرت في دماغي، واتّسعت عيناها دهشة ورعباً وتفزّراً وتساءلت: هل يعني جدّي ما يقول حقّاً؟ أجل لقد روت أمّي لي قصّة زواجها، ولكن كان ذاك قصّة

الامتحان. وقلّلت إلى السنة الثانية، وإن كنت قضيت عامين في السنة الأولى. ولما أطلع جدّي على الشهادة قال لي مداعباً:

- لو كنت ما أزال في خدمة الجيش لجثثك بفرقة الطوبجيّة، وأمرتهم بإطلاق أربعة وعشرين مدفعاً احتفالاً بنجاحك.

على أنّ جدّي إذا كان لم يمكنه أن يطلق لنجاحي أربعة وعشرين مدفعاً، فقد قذف حياتي بقنبلة - عن قصد حسن - كادت تودي بي. حدث أن زاره يوماً ضابط متقاعد في الخمسين من عمره ممّن عملوا تحت قيادته في السودان. وعقب انصرافه مباشرة جاءنا جدّي في الشرفة وراح يتفرّس في وجهينا في صمت وإن نمّ وجهه عن ارتياح وسرور. ثمّ قال مخاطباً أمّي بلهجة مليئة بالمرح:

- اتبعيني بمفردك يا زوزو هانم!

وانفجرت ضاحكاً لذلك التذليل اللطيف. على حين تبعته إلى حجرة نومه وميّت نفسي ببشرى جميلة... وغابت أمّي مقدار ساعة ثمّ عادت إليّ، وما إن وقعت عليها عيناها حتى بادرتها قائلاً:

- أهلاً وسهلاً يا زوزو هانم...

وقهقهت ضاحكاً، ولكنّها ابتسمت ابتسامة باهتة على غير ما انتظرت، وجلست على كرسيّها يلوح في عينيها السهوم والتفكير، وساورني القلق، فملت نحوها. وسألتهما عماً ألمّ بها؟ فقالت لي باقتضاب:

- أمور تافهة لا تهتمّك.

ولكنّ تهربها ضاعف من رغبتني في معرفة ما وراءها، فالححت عليها أن تفضي إليّ بمكنون صدرها، فنفضت في تبرّم، ورجتني أن أمسك. وجلسنا صامتين طويلاً، ثمّ تجاذبنا أحاديثنا المعتادة في فتور. ودّعينا إلى العشاء فأكلت لقمات معدودات، ولما تهيّأنا للنوم وقفت أمام المراة طويلاً، ثمّ استلقت إلى جانبي.

ووضعت راحتها على رأسي وقرأت سوراً قصاراً من القرآن كالعادة، حتى رنق النوم بجفنيّ. واستيقظت في الهزيع الأخير من الليل، فخيّل إليّ أنّي أسمع حسّاً كاهمس، فأرهفت أذنيّ فأيقنت أنّها تغمغم، وظننتها

- لعلّ جدّك قال لك إنّه يريد أن يزوّجني، ولكنّه لم يقل بلا ريب إنّي وافقت على هذا الزواج، والحقّ أنّي رفضته لأوّل وهلة، وبلا أدنى تردّد، ووددت لو لم تعلم عن الأمر شيئاً على الإطلاق، ولمّا أعطاني مهلة للتفكير قلت...

وقاطعتها بحدّة قائلاً:

- ولكن يريد لك أمراً معيّباً محرّماً؟! فصمتت قليلاً وهي ترنو إليّ بطرف حائر. ثمّ استطردت متجاهلة اعتراضني:

- قلت إنّ المهلة مضيعة للوقت، وأبيت أن أجعل هذا الأمر موضوعاً للتفكير، وذلك من أجلك أنت، من أجلك وحدك، فلا تحزن ولا تغضب، ولا نظنّ بأمرك الظنون.

ولئن أخرجني كلامها من ظلمات القنوط إلّا أنّني أصرت على ترديد اعتراضني حتّى قالت لي بعد تردّد: - لم أقل أبداً إنّ الزواج من العيوب أو المحرّمات، بل هو علاقة شريفة يباركها الله، إنّي ذممت عيوباً أخرى.

وانعقد لساني حياءً وخجلاً، وربّيت هي على خدي لتسرّي عنيّ وقالت بصوت ينمّ عن العتاب:

- يا لك من طفل جحود، ألا تستأهل توضيحي في نظرك كلمة شكر؟... أترك تذكرها فيما يقبل من العمر؟ أبداً!... لتزوّجن يوماً ولتغادرن وحيدة بلا رفيق ولا أنيس!

وقطّبت ساخطاً، وقلت بحماس:

- لن أفارقك ما حييت.

عشت بشعري مبتسمة، ولاحت في عينيها الجميلتين نظرة ساهمة..

سارت حياتي المدرسيّة في بطء وتشاقل يدعوان للباس، فبلغت الرابعة عشرة وما جاوزت السنة الثالثة الابتدائيّة، وكان جدّي يقول متأفّفاً:

- متى تُقبل على الدراسة همّة ونشاط؟ متى تعرف واجبك؟ ألا ترى إذا اطّردت دراستك على هذا المنوال

وتاريخاً بعيداً، ولم أنصوّره حقيقة واقعة أبداً. وذكرت لتوّي الخادمة المطرودة فغاض قلبي في صدري وقلت لجدّي وأنا ألّهت:

- أمّي لا تتزوّج. ألا تفهم ما هو الزواج؟!

ولم يتمالك الشيخ نفسه من الضحك، ثمّ قال مبتسماً:

- الزواج سنّة من سنن الله، والله يفضّل المتزوّجين على غير المتزوّجين، ولقد تزوّجت أنا جدّتك، كما تزوّجت أمك فيما مضى، وكما ستزوّج حضرتك يوماً ما. أصغ إليّ يا كامل، أريدك على أن تذهب إلى أمك وتقول لها إنّك ترغب في تزويجها مثلي، وإنّ سعادتك تضعاف بسعادتها... ينبغي أن توافق على ما يسعدها، وحسبها ما قاست من أجلكم جميعاً.

وجعلت أطرافي تنتفض انفعالاً وتأثراً، ونظرت إلى جدّي كما تنظر الفريسة إلى معذّبها، ثمّ سألته بصوت منتهّدج:

- أريد أن يأخذها ذلك الرجل؟

فابتسم وقال لي:

- نعم، ولكن ليرعاها ويسعدها.

فسألته بحدّة وأنا لا أدري:

- وأنا؟.

فقال برقة بالغة:

- إن شئت ذهبت معها، أو بقيت عندي على الرجب والسعة...

فعضضت على شفّتي بقسوة لأحبس دمعني، وتراجعت فجأة فأفلتت من يده، وركضت خارجاً متجاهلاً نداءه، وعدوت إلى حجرة نومنا، فوجدت أمّي جالسة محمّرة العينين من البكاء، وفتحت لي ذراعيها فارغمت بينهما منتفض الأطراف من التأثّر، وبادرتني قائلة:

- لا تصدّقه، أعني لا تصدّق أنّ شيئاً ممّا قال لك سيقع، لا تبك ولا تحزن... واعذابه!

وحدجتها بنظرة استغراب واستنكار، وصحت بها:

- ألم تقولي إنّ هذا عار وحرام؟!

فشدّت عليّ بحنان وهي تقاوم ابتسامه، ثمّ قالت:

فستنتهي منها وقد استوفيت سنّ المعاش؟!  
ولشدّ ما كانت تأسى أُمّي لذلك التهكّم المرّ،  
وكانت تسأله دائماً ألا يلقيه في وجهي أن تنكسر نفسي  
فأزداد بلادة، أو تقول له:

- الذكاء من عند الله، وحسبه ما جله به من كريم  
الخلق، لأنه كالعذراء حياء وأدباً!

وكان أن كابدت حياتي تطوّراً خطيراً لا أذكر متى  
بدأ ولا كيف بدأ، وأخشى أن يكون الخيال قد زوّر  
منه أموراً على الذاكرة. دبّت في النفس والجسم يقظة  
غريبة، سرت في أطرافي قلقاً واضطراباً. طافت بي في  
وحدتي أحلام جديدة، وغيّبتني في المدرسة شروء ركّز  
شعوري كلّ في نفسي. وكنت إذا انطلقت بي العربة  
من المدرسة إلى البيت سرّحت طرفي في آفاق السماء  
وبنفسني لو أحلّق إلى ذراها المتلّفة بتلك الزرقة  
الغامضة. ولشدّ ما انتابني الكآبة وغشيبي الكدر  
فروّحت عن قلبي بالدمع الغزير. ولا أنسى الأشواق  
الغامضة، والمخاوف المجهولة، والأثبات المهموسة،  
والشعيرات النابتة. ربّاه إنّ كائن يتمخّض عن حياة  
مخوفة مجهولة، تعبت بي شياطينها في النهار والليل، في  
اليقظة والأحلام.

واكتشفت بنفسي - تحت ضغط تلك الحياة - هواية  
الصبا الشيطانية لم يغرن بها أحد إذ كنت معدوم  
الرفاق. فاكشفتها كما اكشفت أول مرّة في حياة  
البشر. واستقبلتها بالدهشة واللذة، ورضيت بها عن  
كلّ شيء في الوجود، ووجدت فيها أنساً لوحدي  
الغريبة، وعكفت عليها في إدمان، وراح خيالي يقطف  
لي من صور المخلوقات ما أزيّن به مائدة العشق  
الوهمية.

ومن عجيب أن خيالي في عشقه لم يعدّ دائرة  
الحوادم بالنيل اللاتي يسعين حاملات الحضر والفلو.  
ولم تكن تلك ظاهرة عارضة ثمّ ولّت، إنّها سرّ دفين،  
أو هي داء دفين. كآتي موكل بعشق الدمامة  
والقذارة!! إذا طالعت وجهها ناضراً مشرقاً يقطر نوراً  
وبهساء ملكني الإعجاب، وبردت حيوانيّتي، وإذا  
صادفني وجه دميم ذو صحّة وعافية أثارني وتملّكني،

وأخذته زاداً لأحلام الوحدة وعيبتها. وأفرطت إفراط  
جاهل بالعواقب. وخيّل إلى جهلي المفرط أنّ أحدًا  
سواي لا يدري بها، حتّى سمعت يومًا - في فناء  
المدرسة - بعض التلاميذ يتقاذفون بها في غير حياء  
فانزعجت انزعاجاً فظيماً وتولّاني خجل أليم. ومنذ  
تلك الساعة أمضيت الألم، وكدر صفوي تأنيب الضمير  
والشعور بالذنب... ولم يكن ذاك ليصدّني عن  
ممارستها، فقضيت وحدتي في لذّة جنونيّة سريعة يعقبها  
نكد طويل.

وكانت تسطع في أيّامنا الرتيبة ساعات باسبات  
فتزورنا أسر من الجيران والأقارب، سيّدات وبنات في  
سنّ الصبا، وربّما قدّمت سيّدة بنتها على سبيل  
المداعبة:

- هذه عروس كامل.

فكانت أُمّي تلقى هذه المداعبة وأمثالها بفتور  
ملحوظ، لا يخفى على مخاطبتها، ولا عليّ. فازددت  
شعوراً بالحياء وبالنفور، وبالخوف خاصّة حيال المرأة.  
ثمّ لا تفتأ - عقب انصراف الزائرات - تنتقد مداعباتهنّ  
الفاضحة المفسدة للأخلاق!... ومضيت في حياتي  
الوحيدة الموحشة أتملّل تحت ضغطها المتواصل دون  
أن أبدي حراكاً، أنتهب لذاتها الخفية في جزع ويأس،  
وأجني مرّ الشعور بالذنب وقد شقّ عليّ الخلاص، في  
عزلة غابت بي عن خضمّ الحياة. على أنّي كنت أدرك  
إدراكاً غامضاً أنّه توجد حياة واسعة فيما وراء أفقي  
الضيّق. كنت أسترق السمع إلى ما يتناثر من أحاديث  
التلاميذ عن السياسة والسينما والألعاب الرياضية  
والبنات، وكأني أصغي إلى سگان كوكب آخر.  
وددت لو كان لي بعض فصاحتهم ومرحهم وحبورهم،  
وددت لو يُرفع ذاك الحاجز الأصمّ الذي يحبسني  
دونهم. ولكم رمقتهم بعينين محزنتين كأني سجين  
ينظر من خلال القضبان إلى الطلّقاء. بيد أنّي لم أحاول  
قطّ أن أنطلق من سجني، لم يكن ليغيب عني ما  
ينتظرني في دنيا الحرّيّة من قسوة ومهانة، بل إنّني لم  
أسلم في سجني من أذى وسخرية وتهكّم، ذاك سجني  
فلأقنع به، فيه لذتي وألمي، وفيه أمان من الخوف. إنّ



أخفت مرّتين في عامين متتاليين. تملّكي الفرع والقنوط وازددت فرحاً وقنوطاً للامتحان الشفويّ، فما كانت لي قدرة على الكلام، ولا قلب أواجه به الممتحن. وقد سألتني الممتحن الإنجليزي في العام السابق عن معالم القاهرة التي زرتها؟ وكان كلّما سألتني عن أثر من أثارها أو موقع من مواقعها أجبت بأنني لا أعرفه، فظنّني أتهرّب من أسئلته وأسقطني. تملّكي الخوف وأوردني مهالك القنوط ووجدتني لأوّل مرّة ألقى على الحياة نظرة عامّة شاملة متأثراً خطّ الحياة من البداية إلى النهاية، حتّى لم أعد أرى منها إلّا البداية والنهاية متعاميّاً عمّا بين هذا وذاك. ميلاد وموت، هذه هي الحياة! وقد فات الميلاد فلم يبق إلّا الموت. ساموت وينتهي كلّ شيء كان لم يكن، ففيم تحمّل هذا العناء؟! فيم أكابد الخوف والضيق والوحشة والجهد والامتحان؟! وازدحت برأسي ذكرياتي المحزنة عن الحياة التي أحيّاها. . . امتحان لا حيلة لي فيه ثمّ سقوط فسخرية مريّة، حرمان من أفراح الحياة التي يحظى بها التلاميذ. دعاؤهم لي بالأبكم، رميمهم إلّاي بثقل الدم حتّى رأي تلميذ مرّة قادماً وكان قريباً من باب مسجد المدرسة فكّر كفه على أذنه كأنه يدعو للصلاة وصاح في وجهي منشداً «يا ثقیل الدم!» وقهقهه الآخرون ضاحكين. وأذكر أنّ مدرّساً أراد يوماً أن يختبر معلوماتنا العامّة، فلمّا جاء دوري ووقفت مبهوئاً لا أجيب عن شيء سألتني عن اسم رئيس الوزراء؟ ولازمت الصمت، فصاح بي «هل أنت من بلاد الواق؟!». كانت مناسبات الإضراب كثيرة، ولكّني لم أشارك في مظاهرة على الإطلاق، وقد أضرت المدرسة يوماً وخرجت في مظاهرة عن بكرة أبيها، إلّاي، فقد تخلّفت في الفناء مرتبّكاً خائفاً على كوني من أكبر التلاميذ سناً، ورأني على تلك الحال مدرّس عُرف وقتذاك بوطنيتّه فقال لي معتفاً: «لماذا خرجت عن الإجماع؟ أليس هذا الوطن وطنك أيضاً؟!» ووجدتني في حيرة شديدة بين تعنيف المدرّس وبين وصايا أمّي التي تحلّفتني كلّ صباح على اتّباعها. يا لها من ذكريات خليقة بأن تُفقد الحياة كلّ قيمة! أليس في الموت غناء

سجن مفتوح الباب ولكن لا سبيل إلى تجاوز عتبه، ولم أجد من متنفس غير الأحلام. كنت أمكث في الفصل غائباً عمّا حولي وخيالي يصنع المعجزات، يحارب ويقتل ويقهر، يمتطي متون الجياد ويعتلي الطائرات ويقتحم الحصون ويستأثر بالحسان وينگل بالتلاميذ تنكيلاً مروّعاً، حتّى لا يست أحياناً حركات رأسي وتقلّصات وجهي انعكاسات من تلك الأخيلة، يرتفع لها الرأس كبرياء ويقطب الوجه قسوة وتشير اليد بالذير والوعيد!

ولم تقف أحلامي عند حدّ الخلق فطارت إلى ملكوت الخالق. وكان إيماني قديماً راسخاً يعمر قلبي وروحي بحبّ الله وخوفه معاً. وقد أدّيت الفرائض في سنّ مبكرة أخذاً عن أمّي ومحاكاة لها. ولمّا أجدت لي لذاتي الخفيفة شعوراً بالذنب لم يكن لي به عهد قويّ شعوري الدينيّ، ولفحت إيماني لفة حارة إلى الله ورحمته فما ختمت صلاتي مرّة حتّى بسطت يديّ مستغفراً. بيد أنّ أشواقني لم تقف عند حدّ، وانقلبت طلعة لمعرفة الله، وتمتّيت من صميم فؤادي لو كان أتاح لعبيده رؤيته وشهود جلاله الذي يحيط بكلّ شيء ويوجد في كلّ مكان. وسألت أمّي يوماً:

- أين يوجد الله؟

فأجابني بدهشة:

- إنّه تعالى في كلّ مكان. . .

فرونرت إليها بطرف حائر وتساءلت في خوف:

- وفي هذه الحجرة؟

فقلت بلهجة تنم عن الاستنكار:

- طبعاً. . . استغفره على سؤالك هذا!

واستغفرته من أعماق قلبي، ونظرت فيما حولي بحيرة وخوف، وذكرت بقلب موجع كيف أنّي ألمّ بالإثم تحت بصره القريب لشدّ ما حزني الألم، وغصّني الندم، ولكّني ما فتئت أغلب على أمري.

\* \* \*

وشقّ عليّ النزاع المتواصل فانتهى بي إلى التفكير الجدّي في الانتحار. بلغت وقتذاك السابعة عشرة، وكنت أستاذة لامتحان الابتدائيّة للمرّة الثالثة بعد أن

وحادث نفسي قائلاً: «يقولون إنني لا أحسن شيئاً في الحياة... ولكنني سأفعل الآن ما لا يسع أحداً الإقدام عليه!». وألقيت على الماء نظرة متحجرة، وتمثل لي ما سأفعله بسرعة البرق ينبغي أن يتم كل شيء في ثوانٍ وإلا أفسد عليّ تدخل المازة غرضي، أتسور السور ثم ألقى بنفسي، ولن يستدعي ذلك مع حزم الأمر إلا لحظات. وانقبض قلبي وأنا أنظر إلى الماء الجاري وقد بدا تحت النظرة العمودية سريعاً صاخباً فدار رأسي. واحد... اثنان... وسرت في بدني قشعريرة، ترى ما إحساس الإنسان إذا هوى من شاطئ... وكيف يكون اصطدامه بالماء؟ وكيف إذا غاص تحت لجته؟ ومتى يخلص الإنسان من عذاب الغرق؟! وشدّت قبضتي على حافة السور، وتقلّصت ساقي، وقلت بلساني أن سينتهي كل شيء حالاً، ولكنني كنت في الواقع أترجع وأتقهقر وتخور قواي. هزمتني الخواطر والتصوّرات التي اعترضت عزمي. لا ينبغي للمتحرر أن يفكر أو يتخيّل، لقد تفكّرت وتخيّلت فانهزمت. واشتدّ خفقان قلبي. وتراخت قبضتاي عن السور. ثم تحوّلت عنه متنهّداً كالذاهل. ومحلّتي ساقي المخلخلتان إلى نهاية الجسر حيث تنتظر العربية، فركبت، واستلقيت على المقعد في إعياء حتى غالبتني رغبة في النوم.

وطالما ساءلت نفسي عما أنقذني من الموت ذلك الصباح؟ فقال قلبي: إنّه الخوف! وقال لساني: إنّه الله الغفور الرحيم.

ولا شكّ أنّي بالغت فيما يتعلّق بدوافعي نحو الانتحار، لأنّي حصلت على الابتدائية في ختام العام!

## ١٢

فقدت أسرتنا الصغيرة مظهرًا من أجمل مظاهرها فاختفت من أفقها العربية والحوادان والحوذيّ العجوز. باع جدّي العربية والحوادين واستغنى عن الحوذيّ. وعلمت ممّا تسقطته من الحديث أنّه خسر ليلة في النادي خسارة جاوزت المعهود، فاضطرّ إلى اقتراض ما يساوي معاشه من النقود. ولمّا كان رجلاً مطبوعاً على

عن هذا كلّ؟ بل وإنّي لأتمنّى الموت. وملأت تلك الأفكار عليّ شعاب قلبي فأجمعت على أن أرمي بنفسي إلى النيل... وعندما أتى المساء صليت طويلاً، ثمّ نمت ويدي قابضة على يد أمي، وأنا أظنني في عداد الأموات. وجعلت في الصباح أسترق النظر إلى وجه أمي في خوف وحزن، وأثر في نفسي هدوؤها وجمالها، فغالبنني شعور باليكاء، وأكرمني ألا أستطيع توديعها، وساءلت نفسي في إشفاق كيف تتلقّى الصدمة؟ وهل تطيق الصبر عليها؟ ساكون المسئول عن تكدير هاتين العينين الصافيتين، وتجعيد صفحة هذا الوجه المنبسط، وزوال هذه الطمأنينة إلى الأبد ثمّ خفت الخور فجأة فأمدّني اليأس بقوة جديدة، وحفزني إلى الهرب. وأتيت على قدح الشاي وعيناي لا تفارقان وجهها، ثمّ حيّيتها وغادرت الحجرة منقبض الصدر مرير النفس وركبت الحنطور، وألقيت على البيت نظرة وأنا أغمغم: «الوداع يا أمّاه، الوداع يا بيتنا العزيز». وانطلقت العربية حتى طالعتني جسر الملك الصالح فدقّ قلبي بعنف حتى شقّ عليّ التنفّس. ينبغي أن ينتهي الآن كلّ شيء. دقائق معدودات ثمّ الراحة الأبدية. ولم يكن لديّ علم عن عذاب المنتحر في الآخرة، فلم أشكّ في أنّي أستهلّ حياة مطمئنة. واقترب الجسر رويداً، وراح توقيع سنايك الخيل يصلك قلبي، ولاحت منّي التفاتة إلى النيل فرأيت لآلئ الشمس تنتشر على صفحته الدكناء، وخلّني أتمخّط على أديمه والأمواج الهادئة الصامته تتقاذفني بغير مبالاة، مطمئنة إلى نتيجة الصراع. وتوثّبت لما عقدت العزم عليه بجنون غلاب عن خاطري كلّ شيء في الحياة فهتفت بالحوذيّ العجوز وهو ينعطف إلى الجسر:

- قف!

فشدّ الرجل على الزمام وتوقفت العربية، فغادرتها متعجّلاً وأنا أقول له:

- اسبق إلى نهاية الجسر وسألق بك مشياً على الأقدام.

وانظرت ريشاً ابتعد عني عدّة أذرع ثمّ ملت إلى سور الجسر، وأشرفت على النهر بقامتي الطويلة.

والأ بدا في أعين الناس وكأن لا أب له .

فقالَت أُمِّي بصوت متهذج :

- هذا أب، الجهل به أشرف .

فلاح في وجه جدِّي الضيق وقال بحزم :

- كأنك تخافين أن يسترده إذا رآه، فيا له من وهم

لا يدور إلَّا في رأسك، وإني لعلی ثقة من أنه سرّ

سرورًا كبيرًا حين هيأت له الأقدار من يرِّي ابنه عنه .

ولكنِّي أرى الآن أنه ينبغي أن يتعرّف كامل إلى أبيه .

وقد صمّمت على أن أذهب به إليه، فمن يدري أنه لا

يحتاج إليه غداً؟ هل ضمنت أن أبقى له إلى الأبد؟ ولا

تسني أن كامل وشيك الالتحاق بالمدارس الثانوية وربما

أقنعت أباه بمعاونتي في تعليمه!

ولا شك أن أُمِّي كانت تتحقّر للمعارضة، فلما

سمعت الشطر الأخير من كلامه فتر تحفّزها وبدا الحزن

في عينيها، ولم تنبس بكلمة، ولما غادرننا جدِّي

اغرورقت عيناها بالدموع فاقتربت منها متأثراً محزوناً

وجفّفت عينيها، وقلت لها :

- لا شيء يستدعي البكاء يا أمّاه .

فابتسمت إليّ ابتسامة باهتة وقالت بحزن :

- لا شيء حقاً . ولكنّي أبكي الأيام الماضية يا

كامل . . . أبكي الطمانينة المطفئة التي استنمت إليها

طويلاً . كانت الحياة رغيدة طيبة لا يكدرها علينا

مكدر، اليوم يتحدّث جدّك عن الغد، وهو إذ يتحدّث

عنه يملؤني خوفاً وقلقاً . لنندعُ الله معاً ألا يشتت

شملنا، وأن يطيل لنا في عمر جدّك، ويغنيينا عن

الناس . . .

ثم تفكرت ملياً، وقالت لي وهي تحدجني بنظرة

غريبة :

- قابله إذا قابلته بأدب فهو أبوك على أيّ حال،

ولكن لا تنسى فيما بينك وبين نفسك أنه هو الذي

عدّ بنا جميعاً .

وجرت على شفّتي ابتسامة خفيفة لهذا التحذير

الملفوف الذي لم أكن في حاجة إليه . ليس في وسعي

أن أحبّ شخصاً كرهه أبوه . ثم فكرت في تلك الزيارة

المرتقبة بين ابن وأبيه لأول مرة، وحاولت أن أتخيّل

النظام فقد أثر أن يبيع العربية والجوادين على أن يربك

ميزانيته . لشد ما أحنّنا بيع العربية، وضياح الجوادين،

ووداع عمّ كريم الحوذني العجوز الذي قضى عمره في

خدمة جدّي حتّى فُقِدَ فيها أسنانه . ولقد بكيت الجميع

بكاء مرّاً دون أن أنبس بكلمة . وكان جدّي يعيش في

نادي القمار أكثر ممّا يعيش بيننا، ولم تكن له من سلوى

أو فرجة سواه وخاصة عقب تركه الخدمة . ولم يكن

يحاول إخفاء سيرته بما جُبل عليه من صراحة وميل

للمرح، فكثيراً ما كان يقصّ على أُمِّي طرفاً ممّا يصادفه

في سهراته، فيقول هازاً رأسه الأشيب : «بالأمس

لازمني سوء الحظّ طوال الليل حتّى قبيل الختام بقليل

فعوّضت خسارتي جميعاً بضربتين موفقتين»، أو يقول :

«يا للطمع الأشعبيّ ! أضاع عليّ بمقامرة واحدة في

أخريات الليل عشرين جنبها ربحتها بشقّ النفس» .

ولكنّه كان بوجه عامّ مقامراً عاقلاً إن جاز لي أن أقول

ذلك، تستأثر به لذّة المقامرة الجنونيّة دون أن تنسيه

طاقة ميزانيته وواجباته كربّ لأسرتنا ولا أشكّ في أنّ

أمر مستقبله قد شغله كثيراً، لا لذاتي فحسب . وإن

غمرني دائماً بحبه ورعايته . ولكن لا ارتباط مصير أُمِّي

بمصيري . ثمّ كان ما كان من تعثّر حياتي المدرسيّة

فأخذت الابتدائيّة في السابعة عشرة وقد اقترب هو من

حدود السبعين، وأخذ القلق يساوره كثيراً وهو أعلم

بما جمع من ثروة لا تكاد تذكر . على أنّه كان يتغلّب

دائماً على قلقه بما طبع عليه من ميل للتفاؤل مرّده في

الغالب إلى ما وهبه الله من صحّة حسنة لم تزايله رغم

طعونه في السنّ . إلّا أنّ خسارته الأخيرة ذكرّته بقلقه

ومخاوفه ودفعته إلى أن يعالجها بالحيلة والحرص، فقال

يوماً لأُمِّي بعد تردّد غير قليل وكانا يتحدّثان عن

مستقبلي :

- أرى أنّه لا يجوز أن يجهل كامل أباه هذا الجهل

المطلق .

فامتقع وجهها ورمقته باستنكار وتساءلت :

- ماذا تعني يا أبتاه؟

فقال جدّي بغير مبالاة :

- أعني أنّه يجب أن يتعرّف إليه . هذا أمر ضروريّ

الفسيفساء. تبعته جدي في قلق يزداد بتوغلنا في الحديقة، وعندما أخذت في ارتقاء السلم جفّ حلقي من الاضطراب. وبدا أبي واقفاً ينتظر، فألقيت عليه نظرة سريعة من وراء جدي.

كان وقتذاك في الستين من عمره، ربعة، بدنياً وإن بدا في جلاببه الأبيض الفضفاض أذن من الواقع بكثير، أبيض البشرة، محمّر الوجه والعنق، منتفخ الأوداج، محتقن الوجه بالدم، أما قسبات وجهه فكبيرة واضحة في غير تنافر: أصلع الرأس، أسود العينين، وقد جحظت مقلته وتشابكت بها خطوط حمر دقيقة كالشعيرات، وقلقت بها نظرة زائغة شاردة خاملة بددت ما كانت ضخامته خليفة بأن تبعته في النفس من رهبة. خامرتني شعور بالغرابة والإنكار والنفور، وحقدت على جدي المسؤول عن الزيارة. اشتدّ بي الإنكار عندما وضع لي أنه لم يبد أي الترحيب بنا إلا تلك الوقفة الخاملة. تصافح الرجلان، وسمعت صوتاً غليظاً ذكرني بصوت أخي مدحت يقول:

- أهلاً وسهلاً... كيف حالك يا عبد الله بك؟  
فردّ جدي قائلاً:

- الحمد لله... وكيف أنت؟!

وتنحّى جدي قليلاً ليكشف عني وأوماً إليّ قائلاً وهو يتسم:

- كامل ابنك.

وتقدّمت منه في ارتباك ظاهر وعيناتي متطلّعتان إليه، فحدجني بنظرة متفحّصة في اهتمام شديد وقد لاح في عينيه نور خافت، ثم مددت يدي، وعند ذاك قال جدي ولعله أراد أن يتفادى من خطأ راني حرباً أن أقع فيه:

- اقهر هذا الخجل وقبّل يد والدك!

وأدركت مراده فقبضت على اليد الممدودة إليّ ولثمت ظاهرها، ورفعت إليه عينيّ فوجدته مبتسماً، وسمعته يقول:

- مرحباً بالابن الذي لم يعرف أباه!.. ما شاء الله (والنفت نحو جدي مستدركاً) صار رجلاً وفرع أباه طويلاً.

صورة لأبي، أو أن أذكّر صورته القديمة التي مرّقتها بيديّ فلم أفلح. . . وشعرت بنفور شديد من الزيارة وتمنيت لو يعدل حدي عن رأيه.

ولكنّه قرّر أن نقوم بزيارتنا في صباح اليوم التالي، وقال لي وهو يستحثني:

- ينبغي أن نكرّ في الذهاب إليه قبل أن يغيبه السكر!

وخرجنا معاً، قطعنا الطريق إلى محطة الترام مشياً على الأقدام. ثم أخذنا الترام إلى العتبة، ومنها إلى الحليمية، ثم سرنا إلى شارع مبارك. وجعل يوصيني في الطريق بما ينبغي أن أتخلّى به في حضرة أبي من الأدب والتودّد. قال لي:

- أنت خحول جدّ، منطو على نفسك، وأخاف أن يطلّ ما بك نفوراً منه فيأذلك نفوراً بنفور خصوصاً وأنه لم يهتم يوماً بحبّ إنسان، فأنفض عنك الجمود ولاقه بالتودّد والرقة والألفة.

ووقفنا أمام بيت كبير مكوّن من دورين، لا يبدو من دوره الأوّل إلا أعلاه لارتفاع سور البيت، وطرقتنا باناً ضحماً، ففتح عن صرير غليظ، وبرز لنا بواب نوبيّ طاعن في السنّ، فسلم على جديّ باحترام وترحيب وتنحّى جانباً وهو يقول:

- روبة بك في السلامك...

وسكّ الاسم مسمعي، فشعرت على رغمي بما يربطني بهذا البيت. وتعلّكتني رغبة مباغثة في الرجوع والتقهقر، ولكنّها كانت رغبة لا سبيل إلى تحقيقها، ونظرت فيما أمامي فأريت حديقة كبيرة، وسرعان ما سطعت أنفي رائحة الليمون الزكية. هي حديقة كبيرة تأخذ الناظر بضخامة أشجارها ما بين نخيل وليمون وتوت ويزدحم جوفها بالفروع والأغصان، وتغطّي أرضها بالأوراق الجافّة، وبها وبالحوّ المحيط بها مسحة حزن وكآبة اسربت إلى نفسي في غير إبطاء. وفي نهايتها يقع البيت، وقد بدا السلامك مقاماً على سوره حدار خشبيّ يحجب ما بداخله عنّ في الحديقة.

سبقنا البوّاب إلى الداخل ليستأذن للقادم، ثم عاد بعد قليل وهو يدعونا باحترام، وسار بين يدينا في ممشي من

وليس أشقّ على النفس من تغيير عادة، ولكنتي أؤكد لك أنه سرٌّ جدًّا تعرّفه بك. لا تأخذ عليه صمته وارتابكه فإنّه كالعذراء حياء.

فهزّ أبي رأسه الأصلع المستدير وفوه لا يزال منفرجًا عقب الفهقهة، وسألني فيما يشبه التحديّ:

- هلّا مكثت معي فترة من عطلتك؟! شهرًا أو أسبوعين؟!

فبادر جدّي قائلاً:

- أمّا هذا فعن طيب خاطر!...

وفطنت إلى ما في قول جدّي من إيجاء موجّه إليّ، فوجدتني كالفأر في المصيدة. وتولّاني ضيق كاد ينشقّ له صدري، ولعنت ذلك التصميم المزعج الذي حدا بجدّي إلى سوقي إلى هذا البيت الكثيب. وانهقد لساني في يأس وعناد، حتّى قال أبي متهمكًا:

- هذا قولك أنت يا عبد الله بك، ولكنتي أتساءل ع رأي كامل بك!...

وألني تهكمه، وانقلبت إلى حال من التعاسة فلم أنطق ولم أرفع رأسي. وتذكّرت أمني بلهفة المستغيث شأني إذا اشتدّ بي كرب. وفهقه أبي ساخراً وقال:

- ولعلّه يُسرّ بمعرفتي ولكن من بعيد...

وتغيّرت لهجته الساخرة فقال بصوت ينمّ عن القوة:

- ألا تعلم أنّي إذا أردت أن تبقى هنا لم يحل دون ذلك حائل؟!

وترثّ لحظة ريثما يحدث تصريحه الأثر المطلوب، ثمّ صحك مستدرجًا.

- لا تخف، لا حاجة بي إلى هذا على الإطلاق...

وساد صمت رهيب. ولعلّ جدّي أدرك أنّ الرجل قد كشف بقوله ذاك عن شعور عدائيّ. وشعرت أنا بغريزي أنّ كلينا يجد نحو صاحبه نفورًا لا خفاء فيه... وهالني ما صدم جدّي من خيبة مريرة وتوقّعت أن يوسعي تعنيقًا وتقريعًا. ثمّ قال جدّي بصوت منخفض:

- ابنك سيّء الحظّ يا رؤبة بك، فقد حرم نعممة التعبير عمّا يدور بخلده. إنّه طفل خجول لا يدري عن

فضحك جدّي ضحكته العظيمة وقال:

- أجل إنّه رجل... ولكن لا تثريب عليه إذا كان لم يعرف أباه!

وتفرّس أبي في طولًا وعرضًا، ثمّ دعانا إلى الجلوس، فجلسنا على مقعدين مقاربين وجلس على كنبه في الصدر وراء خوان من الخشب الأسود المطعم بالصدف ووضعت عليه قارورة حمراء وكأس ووعاء صيني مليء ثلجًا.

كانت القارورة مملوءة إلّا قليلًا، وكانت الكأس فارغة إلّا قليلًا. لم أكن رأيت الخمر أبدًا ولكنتي أدركت تواءمي حيال الشراب الملعون الذي فعل بأسرتنا الأعاجيب، وسرعان ما ملأني التقرّز والنفور. واستدرك جدّي قائلاً:

- أي نعم ما ذبه المسكين؟... إنّه لم يعرف لنفسه أبًا، ولا حيلة له في هذا، ولا داعي لإثارة ذكريات ولّت. بيد أنّي وجدته رجلًا كما تقول، وقد حصل هذا العام على الابتدائية، وعمّا قليل يلتحق بالمدارس الثانوية، فاستنكرت أن يظلّ على جهله أباه، واقترحت عليه أن أقدمه لك، فرحّب باقتراحي مسرورًا، وها أنا قد فعلت والحمد لله.

وكانت عينا أبي لا تتحوّلان عني فلم أتحفّ من ارتباك حيائي، ولما ختم جدّي كلامه لاحت في عينيه الشاردتين نظرة ارتياب وسألني:

- أحقًّا سرّك أن تُقدّم إليّ؟

فأجبت بصوت لا يكاد يسمع:

- نعم...

فسألني وهو ينظر إليّ بمكر:

- تحبّ أن تمكث معي؟!

وانقبض قلبي، ولاحت في عيني نظرة حائرة. ما عسى أن أقول؟! إنّ وصايا جدّي، لا تزال تطنّ في أذنيّ ولكن هبني أجبت بالإيجاب فدعاني إلى البقاء معه فكيف يكون المصير؟! كلاً، لا يسعني هذا وغضضت طرفي مطبقًا شفقيّ ولم أنبس بكلمة. وفهقه أبي بصوت ارتعد له جدّي وهو يحدجني بنظرة استياء:

- ترفّق به يا رؤبة بك. إنّه لم يفترق عن أمّه قطّ

الدنيا شيئاً فترقى به واعذره...  
فقال أبي بغلظة:

- ما هذا الذي تقول يا عبد الله بك!... خجول، عذراء، لا يدري شيئاً! ماذا فعلتم به؟ لقد كانت له أخت عذراء ومع ذلك فقد هربت مع رجل، فمن أية جيلة هو؟!

وشعرت بطعنة نجلاء تصيب قلبي. واندفع الدم إلى وجه جدّي فقطب غاضباً وقال بكبرياء:  
- لقد اختارت أخته أن تمضي إلى زوجها بعد أن يشت من عدالة أبيها!  
وروح عني قوله. أمّا أبي فاسترسل ضاحكاً وقد احتفن الدم بوجهه وبدا فظاً قاسياً عمقوتاً، ثم قال بسخرية:

- تقول بعد أن يشت من عدالة أبيها!... اسمح لي أولاً أن أملاً كاساً (وملاً الكأس وغلّ منها جرعة) هلاً تربت معي؟... كلاً؟... كما تشاء فلكلّ إنسان داء. ولنعد الآن إلى قولك. ماذا قلت يا حسن بك؟! بعد أن يشت من عدالة أبيها؟! وأنت؟! ألم تياس من عدالة أبيها؟!

فنظر إليه جدّي باستنكار وازدراء وسأله:  
- ماذا تعني؟!

- أريد أن أقول إنّ الفتاة إذا كانت قد يشت من أبيها فإنّ جدّها لم يياس من عدالته، وآي ذلك أنك جثتي اليوم بهذا الفتى لا لتقدّمه لي كما قلت، فقد كان يمكن أن يحدث ذلك في أيّ وقت من الماضي، ولكن لتخبرني أنّه عمّا قليل سيلتحق بالمدارس الثانوية... وهنالك المصروفات... هه!!

فخرج جدّي عن طوره وصاح به مغضباً:

- لقد أعيايت لإصلاحك فيما مضى، ومن الحمق أن أحاول ذلك الآن!... لقد ربّيته حتّى صار رجلاً دون أن يكلفك مئلياً واحداً...

فصقّ أبي ساخرًا وقال وقد أخذ صوته يعلو:

- آه من مكر الرجال! بالأمس جثتي سائلاً أن أترك الغلام لكم، واليوم تمنّ عليّ أن ربّيته حتّى صار رجلاً! مرحى... مرحى، هلاً تذكّرت اتّفاقنا السابق؟

فاشتدّ حنق جدّي وقال بصوت وشت نبراته بانفعاله وتأثّره:

- أيّ اتّفاق يا هُذا؟... نحن لا نتحدّث عن صفقة تجاريّة، ولكن عن ابنك، فأين الأبوة والعطف؟!

فقال أبي بتهكّم وازدراء:

- الأبوة؟... العطف؟... يا لها من سجايا كريمة بيّد أن المال يفسدها. يا عبد الله بك لندع الهذر جانباً فإنّه لا يجمل برجل عسكريّ مثلك خاض حروب السودان! وإنّك لتعرفني حقّ المعرفة فكيف زينت لك نفسك أن تقصّدي بهذا الرجاء الخائب؟! تفكّر في الأمر ملياً فإنّما تكفّلت «به» كما اتّفقنا أو أتركه لي إذا شئت.

ونظرت إلى جدّي فوجدت وجهه ملتهباً بحمرة الغضب، وتوقّعت أن ينفجر في الآخر، ولكنّه ضبط نفسه بجهد كبير، وقال بهدوء:

- لولا واجبي نحو ابنك لاستكرهت أن أقف منك موقفي هُذا، ولست أستجديك شيئاً لنفسي، ولكنّي أريد أن أطمئنّ على مستقبل الفتى خصوصاً وأيّ رجل طاعن في السنّ وقد أموت غداً...

فقال أبي ضجراً:

- إذا متّ غداً تكفّلت به!

فقطّب جدّي مستاء، وهالني تعبير أبي القاسي فكهرته في تلك اللحظة ضعف ما كهرته طول حياتي، وكأثما نفد صبر جدّي فنهض قائماً مكفهر الوجه، ونهضت معه كأنني مشدود إليه. وألقى إلى أبي بنظرة متعالية في ترفع وغطرسة، وقال:

- لا أستطيع أن أقول إنّك خيّبت ظنيّ لأني لم أحسن بك الظنّ قطّ ولكنّها أخطاء ترتكبها كارهين ونحن أدرى بعواقبها، أستودعك الله.

وأخذ بيدي ومضى بي فغادرنا السلامك وأبي يقول متهكّماً:

- مع السلامة يا عبد الله بك.

هكذا كان أوّل لقاء بيني وبين أبي. وقد خرجت منه وبفسي من النفور ما لا يقبل لي به. وما كدت

تكوينه الجسدي؟ والحق أنني رفته بنظرة غريبة لم يظن إليها أحد على أنني أحببته كثيرًا كما أحبنا كثيرًا. وقد عاتبته أمي على ندرة زيارته لنا فقال لها:

- أنت أدري بأخلاق المجنون!

فضحكت بسرور لا مزيد عليه، ورنوت إلى شقيقي بامتنان، فالتفت نحوي وقال أسفًا:

- علمت بما حدث في المقابلة الأخيرة...

فسألته أمي باهتمام:

- هل أخبرك عنها؟

فقال ضاحكًا:

- حدثني بها عمّ آدم البواب.

وداخلني استياء شديد فهتفت مستنكرًا:

- البواب!... أكان يسترق السمع!

فقال مدحت:

- كلاً، ليس به من حاجة إلى استراق السمع، فما من كبيرة أو صغيرة إلا ويحيطه بها أبي، فهو سميره القديم الذي يفضي إليه بمكنون صدره وإن لم ينبج من شرّ لسانه في غالب الأحيان. ولكم أحزني الموقف الذي وقفه من جدّي، فوددت لو لقيتّه اليوم هنا لأعتذر إليه وأقبل يده.

وتجاذبنا الحديث طويلاً، وكان مدحت محدثاً ماهراً، يدير الحديث بطلاقة وروح مرحة، ويقهقه قهقهة أبينا العالية فيضاهيه في جلجلتها دون برودتها وقسوتها، فسرعان ما غبطته وأعجبت به وتمنيت لو كان لي بعض مرحة وطلاقة. وانساق الحديث إلى مستقبله، وكان حصل على شهادة الزراعة المتوسطة صيف ذاك العام، فقال:

- سافرت إلى عمّي في الفيوم ليجد لي وظيفة بواسطة أحد معارفه الكثيرين، لكنّه لم يوافق على توظيفي بالحكومة، وعرض عليّ أن أتمرن في عزبته بأجر عالٍ على أن يؤجر لي أرضاً في القريب العاجل، ورأيت في عرضه فرصة تفتح لي أبواب الرزق العريض عن طريق الزراعة فقبلت. ولكنّ أمي لم ترتح لهذا العرض وقالت معترضة:

أجتاز باب البيت إلى الطريق حتّى تنهّدت ارتياحاً، ودعوت الله بقلبي ألا يقضي عليّ يوماً بأن أطرق هذا الباب أبداً. وسرنا نحو ميدان الحلمية، وجعل جدّي يحثّ خطاه منكس الذقن محمّر الوجه، وهو يغمغم بكلام غير ممّيز ولا مفهوم وجعلت أسترق إليه النظر محزوناً أسيفاً، وخائفاً في الوقت نفسه لشعوري بثقل مسئوليتي فيما أذى إلى الخصام. ثم أخذ صوته يتّضح رويداً فسمعتة يقول وكأنّه يحدث نفسه «حيوان أعجم، لماذا يرزق الله أمثاله أطفالاً؟ لماذا لم يعاقبه بالعقم؟!» ويقول أيضاً: «يا لك من وغدا! أليس بقلبك ذرة من عاطفة الأبوة؟ إنك لم تتركه لنا استجابة لرجائنا، ولكنك بعته بنفقاته».

وحين بلغنا المحطة لاذ بالصمت، ووقعت عليّ عيناه فحدجني بنظرة قاسية وأصرّ على أسنانه وقال لي بحدة:

- وأنت يا سي قطران أنظّل عمرك بغلاً! ألم يفتح الله عليك بكلمة طيبة؟ ماذا كان عليك لو تظاهرت بالتودّد إليه؟ أحسبته يا أحمق سيرتني عليك عشقاً وولها!

وأفرعني غضبه كما يفرعني الغضب عادة، وارتعشت شفتاي كالطفل إذا شرع في البكاء، ورأى حالي فنفض مغنيلاً محققاً، وصاح بي:

- ما أسرع أن تبكي!... ما الذي يبكيك؟... هل ظلمتك؟ هل تجنّبت عليك؟... لقد أخطأت خطأ غيبي أحمق، وما زدت على أن قلت لك أخطأت، فهل كفرت؟!

ولم أنبس بكلمة طوال الطريق، ولبثت محزوناً منكسر الخاطر، حتّى ذكرت أنني عائد إلى أمي، وأني سأحدثها بكلّ شيء عمّا قليل، فسُرّي عني.

وزارنا يوماً مدحت أخي، في الأسبوع الذي تلا مقابلتنا لأبي. ولما تفرّست في وجهه تلك المرّة أيقنت أنّه صورة طبق الأصل من أبي. وتساءلت في حيرة عن سيرته وأخلاقه، وهل يشابه أباه فيهما كما يشابهه في

وحدة إلّاها فهي أشنات لا تجتمع. اللهم عفوك  
ورضاك!

\*\*\*

واستدار الصيف واقترب ميعاد افتتاح الدراسة  
فألحقني جدّي بالسعيدية. وقد ذهبنا معاً، وقال لي في  
الطريق:

- لو كنت رجلاً حقاً لما أحوجتني إلى الذهاب  
معك، ولكنك لا تعرف الطريق إلى الجيزة وأنت ابن  
سبعة عشر، وعلى أية حال احفظ الطريق جيداً. لقد  
كنت ضابطاً في مثل سنك!

وكان يتظاهر بالتذمر والسخط، ولكنّي شعرت  
بقلي أنه متهيج مسرور، وأحسست بعطفه يشملني،  
فأخجلني ما يتحمّله في سبيلي من المشقة وهو الشيخ  
السبعيني. وحين عودتنا ضربني بعصاه برقة وقال:

- إنك الآن طالب بالسعيدية، فاجتهد ترفع رأسنا.  
أريد أن أراك ضابطاً قبل أن أرحل.

ودعوت له بطول العمر من أعماق قلبي. وسكت  
ملياً ثم قال بغير مناسبة ظاهرة:

- على أيّامنا كانت الابتدائية شهادة عظيمة تعادل  
بحق أكبر الشهادات في هذه الأيام!

وهز رأسه ثم استدرك قائلاً:

- كانت أيّاماً، وكنا رجالاً!!

١٤

انتهت العطلة الصيفية فألم بي الحزن والكآبة.  
كانت المدرسة المنقّص الأول لحياتي، فكرهتها كرهاً  
عميقاً صادقاً. حقاً كنت بصدد مدرسة جديدة اقترنت  
في ذهني بالرجولة والفخار، ولكنّها مدرسة على أية  
حال لا تخلو من مواعيد وفصول وتلاميذ ومدّرّسين  
وعقوبات، ودروس تفوق صعوبتها بلا شكّ سابقاتها  
في المدرسة الابتدائية.

وفي صباح السبت الأول من أكتوبر استيقظت  
مبكراً بعد انقطاع هذه العادة الثقيلة أربعة أشهر،  
وارتديت البدلة، وتأثّقت كعادتي وانتقيت رباط رقبة  
فاخراً من صوان جدّي! وألقت أمّي عليّ نظرة طويلة  
ثم قالت بسرور:

- أليس الأكرم أن تتوظّف في الحكومة؟

فضحك أخي طويلاً ثم قال:

- إنّ دبلومي لا يؤهّلني لوظيفة محترمة، أمّا عمّي  
فیهتمّ لي فرص العمل المثلث والثروة.

- وتعيش في الفيوم حياتك؟!

فقال باستهانة:

- الفيوم من ضواحي القاهرة!

فقال أمّي بحزن:

- طالما متّيت نفسي باليوم الذي تستقلّ فيه بحياتك  
لنعيش معاً؟! ...

فقبّل يدها برقة وقال مبتسماً:

- سوف ترينني كثيراً حتّى تمليّني. ...

ثم ودّعنا وانصرف. وتنهّدت أمّي من الأعماق  
وقالت بحزن:

- غاب عمّي نصف حياته في بيت المجنون،

وسيغيّب النصف الآخر في الفيوم!

وتفجّرت قليلاً ثم قالت وكأنّها تحدّث نفسها:

- إنّ عمّه لم يعرض عليه ما عرض حباً في سواد  
عينيه، ولكنّه ينوي بلا شكّ أن يزوّجه إحدى بناته.

وسألته ببساطة:

- وماذا عليه لو فعل؟!

فحدّثتني بنظرة غريبة، وهمت بالكلام أكثر من مرّة

ثمّ تنثّني عمّا همّت به.

وقد صدق ظنّها، فجاءنا بعد ذلك بزمان غير طويل  
خطاب مدحت يخبرنا بخطبته لابنة عمّه، ويسمّي لنا  
يوم الزفاف ويدعونا لحضوره. ولم تخفّ أمّي استياءها،  
وهاهنا أن يخطب بدون مشورتها أولاً، وقالت لجديّ  
بغضب:

- أرايت إلى شقيق المجنون كيف خطف ابني!!

ولم نحضر زفافه، لأنّي مرضت قبيل مواعده ولزمت  
الفراش أسبوعين فنسيت أمّي الزفاف بأفراحه وآلامه.  
وهكذا تزوّج مدحت دون أن يحضر زفافه لا أبوه ولا  
أمّه، حتّى قال جدّي متهمّاً كعادته:

- هذه الأسرة خلقها الله أعجوبة للبشر، كلّ أسرة



- تفضّل بالوقوف لترّد على خادم أبك!  
ونفضت فزعاً، ولبت متصلّبا دون أن أحر  
جواباً، فلطمني على خدي وصاح بي:  
- تُحَدّ شمالاً بماذا؟  
ولسّا لم أخرج عن صمتي لطمني على خدي الآخر  
وسألني:

- لندع مؤقتاً ما يحدها شمالاً، فما هي التي أسأل  
عما يحدها شمالاً؟  
ولازمت الصمت وخدّاي يلتهبان، فانهال عليّ  
لطمة يميناً ولطمة شمالاً وأنا لا أجروّ على تغطية  
وجهي يديّ، حتّى انثأ غضبه فأمرني بالجلوس.  
وضجّ جانب من الفصل بالضحك، وجلست أغلب  
دموعي. انقلبت مرّة أخرى إلى أذى المدرّسين وسخرية  
التلاميذ. ومضيت أجترّ الآمي في صمت واليأس  
يفتك بنفسي فتكّاً ذريعاً. خبا الأمل وانتهت المحاولة  
الجديدة بالإخفاق السريع، وعدت إلى تعاسي  
المعهودة. وعلى رغم ذلك تعلّقت بخيط وإه فكرّست  
كلّ وقتي للمذاكرة. عكفت على كتيبي ساعات  
متواصلة، ولكنّه كان مجهوداً ضائعاً إلّا أقلّه، والحقّ  
أني كنت أثبت عينيّ على الصفحات على حين يتطاير  
خيالي في وديان الأحلام فلا أستطيع لمسه. وهي  
أحلام تحرّكها الشهوة وتعبث بها الخادومات القذرات،  
ثمّ تنتهي بالعادة الجهنميّة التي أدمنت عليها مذ ناهزت  
الحلم، فلا تفوت ليلة إلّا وأنصهر في أتونها في لدّة  
مفتعلة وندم موجع طويل.

ولم أقف من رغبتني في صداقة الرفاق موقف الجمود  
المطلق، ولكن أخفقت في مساعي إخفاقاً كاملاً. كان  
يقابل تلك الرغبة في نفسي ميل أصيل للوحدة، ونفور  
وخوف من الناس، وانطواء على النفس دفعني إلى  
الكتان الشديد فلا أحبّ أن يقف إنسان على سرّي  
ولا حتّى مسكني أو عمري، هذا إلى عجز عن  
الحديث، وعدم فهم للكتابة فضلاً عن تأليفها، فلم  
يجد في أحد من التلاميذ ميزة تجذبه إليّ، عادوا يرموني  
بثقل الدم. أخفقت في اكتساب صديق، وعشت  
العمر بلا صديق. بيد أنّي لم أكن أدرك حقيقة نفسي،

- كالقمر وحقّ كتاب الله!... وجه أملك على بشرة  
بيضاء ليس لي مثلها. محروس بعناية الرّخن.  
ومضت توصيني بالحيلة في المشي والركوب والنزول  
وعبور الطريق، ودعت لي طويلاً... ولسّا غادرت  
البيت وقفت بالشرفة تراقب سيرّي حتّى غيبي عنها  
منعطف الطريق. وواصلت السير مغتّماً محزوّناً حتّى  
بلغت محطة الترام بشارع قصر العيني. ووقفت أنتظر  
الترام وحدي لأوّل مرّة في حياتي، فداخلي إحساس  
بالحرّة لم يداخلي من قبل. وسرّي عني قليلاً فوجدت  
شيئاً من الارتياح، ثمّ لاطفني أمل في بدء حياة  
جديدة! حياة لا تذكرها التعاسة التي لازمتني في  
مدرسة العقّادين. إنّي ماضٍ إلى مدرسة جديدة،  
وسألقي أناشأ جددًا، فلماذا لا أبدأ صفحة جديدة؟  
اللّهمّ إنّي إذا اجتهدت تحاميت قسوة المدرّسين؟ وإذا  
أحسنّت التودّد إلى التلاميذ اكتسبت مودّتهم ودفعت  
زرايتهم، وهذا شيء يقدر عليه الكثيرون فلماذا أعجز  
عنه وحدي؟! ورقص بين ضلوعي حساس بهيج،  
وقلت لنفسي إذا نجحت فيها أخفقت فيه في ماضي  
حياتي هيأت لنفسي حياة طيبة وحبيّت إلى قلبي الحياة  
المدرسيّة المفضيّي عليّ بها أردت أم لم أرد. وذهبت إلى  
السعيدة متفئّاً ظلّ الأمل الجديد الذي انبثق في نفسي  
بغته على محطة الترام!...

\* \* \*

ولكنّي وجدت الحياة أشقّ ممّا هيّا لي الأمل، فحال  
خجلي الشديد ونفوري من الناس دون اكتساب  
صديق، وضجّ شرود ذهني عليّ اجتهدادي هباء! لشدّة  
ما عانيت من شرود ذهني! لقد سلبني عقلي وأفقدني  
كلّ قدرة على الانتباه وتركيز الفكر، وجعلني صيداً  
سهلاً للمدرّسين. وقد استيقظت مرّة من شرودي - في  
الأسبوع الثاني من حياتي المدرسيّة الجديدة - على  
مسطرة المدرّس وهي تصدم جبيني، وصوته وهو  
يسألني بلهجة الوعيد:

- قلت تُحَدّ شمالاً بماذا؟

فحملت في وجهه بارتباك وفرع حتّى نسيت أن  
أنهض قائماً فزعت بي:

وتبادر أُمِّي إلى تأييدي في قولي فيهِز رأسه الأبيض ويتمتم:  
- الأمر لله.

ولذلك كنت أتوقع موسم الامتحان بقلق وخوف تتخللها الأحلام المزعجة، ولذلك أيضًا كان يغريني الحياء والغرور بتصنّع التعب والتوعك في الأشهر السابقة للامتحان لأعتلّ بهما على إخفاقي المتوقع. وكانت أُمِّي من ناحيتها تزور أم هاشم وتنذر النذور، وتشدّد حول عنقي التعاويذ. ولا أنسى مرّة - وكنت قريبًا من امتحان الكفاءة - جاءني بامرأة ممّن يقرآن الغيب مستعيذة بقدرتها على إنجاحي، فحرقت المرأة بين يديّ البخور، وركّزت في المدفأة عصًا قصيرة وأمرتني أن أقفز فوقها ثلاث مرّات، وفعلت ما أمرت به، فقالت لي بيقين: «ستنجح بإذن الرحمن»، ولمّا سقطت في الامتحان قلت لأُمِّي متعجبًا: «كيف أسقط وقد قفزت المرّات الثلاث؟!»

وعلى رغم هذا كلّه واصلت الدراسة، وطويت عهد الثانويّ وحصلت على البكالوريا وقد ناهزت الخامسة والعشرين!...

## ١٥

وداخلني على إخفاقي المتواصل شعور بالزهو والرجولة. إنّ كثيرين من موظفي الحكومة لا يحملون إلّا البكالوريا فأنا رجل ذو شأن! ولست أطمع من ورائها انخراطًا في سلك الحكومة ولكّني أرجو أن أخرج بها من البيت، أعني أن أحرّر بها من ربقة التي تشدّني شدًّا يكاد يمزّق ضلوعي. أجل لقد ملكني شعور جامح هفا بفؤادي إلى التجدّد والانطلاق. لم أعد غلامًا يقاد من أنفه، وها هي الحياة تستفزني للتمرد والثورة. ولكن أيّ تمرد وآية ثورة؟ على ماذا أو لماذا؟ لم أجد جوابًا واضحًا، والحقّ أنّي لم أكن أفكر، ولم يكن هياجي فكريًا، ولكن ثورة شعوريّة تنبعث من أعماق نفسي، تروم الانطلاق والتغيير، وتشوّف إلى المجهول. لم أستبن هدفاً على وجه التحديد، وعانيت حينًا مؤلماً غامضًا كلّما تحركّ بصدري شملي بكابة

فاتهمت الرفاق دون نفسي بالعيوب التي حرمتني الصداقة، واعتقدت زمناً أنّه لا صديق لي لأنّه لا يوجد من هو أهل لصداقتي! ما أعجب غرور الإنسان! إنّ السماء والأرض لا تسعانه. وعلى عجزني ونفاصي كان يخيّل إليّ أحياناً أنّي الكمال المطلق، فهذا الحياء القاتل أدب، وهذا الإخفاق في الدراسة عبقرية بطيئة النمو، وذاك الفقر المدقع في الصداقة والحبّ تسام، وأمدّني علم النفس - الذي دُرّس لنا عامًا في السنة الخامسة - بألفاظ غامضة انتفعت بها في إرضاء غروري الكاذب. ومع ذلك كانت تثقل عليّ ساعات بأس فأكاد أستشفّ الحقيقة، وقد قلت لأُمِّي يومًا، وهي الحبيب والصديق والأنيس الذي لم أظفر بسواه:  
- لا صديق لي، التلاميذ يزدرونني!

فتولّاهما الغضب، وهتفت بي:  
- إنّ نعلك بألف رأس من هؤلاء التلاميذ. إنهم لا يحبّون من لا يجاريهم في شطارتهم وسوء خلقهم ويجسدونك لحياتك وأدبك. لا تحزن فلا فضيلة وراء البعد عن الناس!  
فقلت محزونًا: أشعر أحيانًا بأنّي وحيد فتثقل الوحدة عليّ!

وهاها قولي ورمقتني بإنكار، وقالت:

- وأين أمك؟... كيف تقول هذا وأمك على قيد الحياة؟ ألسنت أكرّس حياتي لخدمتك ورعايتك؟! أجل، إنّها تكرّس حياتها لي، وإنّها كلّ شيء في حياتي، ولكن من لي خارج بيتنا؟! وأظردت حياتي المدرسيّة في تعرّ وتثاقل على رغم كونها تتوكّأ على عكاز من المدرّسين الخصوصيّين. ولشدّ ما كان يحزن جدّي كلّما سقطت في امتحان، ولم يعد يسخر منّي في مزاح، ولعلّ طعنه في العمر رده شديد الإشفاق على مستقبلنا، فكان يقول لي:  
- لماذا تخفق هكذا يا كامل؟ أكلّ عام بعامين؟... ألا ترى أنّي أتلهّف على رؤيتك موظفًا قبل أن أموت؟ وكان كلامه يقع من نفسي موقعًا محزنًا، ثمّ أقول له:

- ما ألوت أن ذاكرت حتّى منتصف الليل.

- ألا تفضل مهنة بعينها؟  
واشتدت حيرتي لأن نفسي لم تنزع بي إلى مهنة غير  
الحربية وذلك بتأثير جذبي نفسه وإيمانه، فلم أدر بماذا  
أجيب، وقلت:  
- كنت أمني نفسي بدخول الحربية، أما الآن فلمهن  
كلها بالنسبة إليّ سواء...  
- إنّي أختار لك الحقوق فهي خير ما بقي لنا؟ ولا  
أوصيك بالاجتهاد لأنه من العار أن يخفق الإنسان في  
الجامعة، وربنا يعيننا على مصروفاتها!  
أسفت على ضياع المدرسة الحربية من يدي، ولكنّي  
لم أدرك فداحة خسارتي إلّا حين أيقنت أنّي سأواصل  
الدراسة أربعة أعوام أخرى على الأقلّ، أو ثمانية أعوام  
إذا سرت بالمعدّل الذي لازمني في المدرستين الابتدائية  
والثانوية. وكنت بطبعي أكره الدراسة والمدرسة  
فنظرت إلى المستقبل بامتعاض غير قليل. ولم أكن  
أدري عن الجامعة شيئاً، ولكن رجّحت ألا تكون  
بغضّة كالمدرسة، وقلت لنفسي إنّ طلابها في سنّ  
الرجال فلا يمكن أن يُثَلِّلوا بي كإخوان لهم من قبل  
خلفوا في نفسي آثاراً لا تزول، كذلك استبعدت أن  
يكون العقاب ممّا يجوز أن يعامل به رجال أو من هم  
في حكم الرجال. ودأبت على تحييب الدراسة المنتظرة  
إلى نفسي، ولم أُلْ عن تهوين خطبها، حتّى أستطيع أن  
أزدها في صبر وأناة. وفي صيف ذلك العام قيّدت  
طالباً - بكلّيّة الحقوق.

١٦

وفي صباح السبت من منتصف أكتوبر غادرت  
البيت مزوّداً بالدعاء قاصداً الجامعة المصرية. ووقفت  
على طوار المحطة أنتظر الترام، وهو نفس الترام الذي  
كان يجمّلني إلى المدرسة السعيدية، ولم أخلّ ذلك  
الصباح - على امتعاضي - من شعور بالزهو. وإنّي لفي  
انتظاري، إذ طرق مسمعي صفقة مصراع نافذة  
فُتحت بعنف فلطمت الجدار، فارتفع بصري إلى  
الدور الثاني من عمارة برتقالية اللون تقع أمام المحطة  
مباشرة، حيث كانت توجد لافتة عيادة طبيب حتّى قبل

ووحشة. وكنت كلّما استبدّت بي تلك الأحاسيس  
وقعت فريسة ليد الغضب الحمراء، فثار بي الغضب  
لأنفه الأسباب.  
وفي تلك الأثناء كان جدّي يهدف إلى الثنايين،  
وكانت أمني تقطع الخطوات الأولى بعد الخمسين.  
انقلب جدّي شيخاً نحيلاً، ولكنّه حافظ على  
صحته ونجا من شرّ الأمراض، وتمتّع بما وهبه الله من  
نشاط يحسد عليه، ولم تزاوله روحه اللطيفة ودعابته  
الهادئة. أجل اضطرّ إلى تبديل نظام معيشته لأنّه لم يعد  
يحتمل السهر الطويل المتواصل، فكان يذهب إلى  
مقهى لونا ببارك صباحاً ليجتمع بقلة من صحابه،  
ويعضي في النادي مساء ساعتين ثم يعود إلى البيت في  
العاشرة، وكان يمشي مشيته العسكرية في قوّة ووقار  
دون أن ينحني له جذع. أما أمني فقد سارع إليها  
الكبر بنسبة أكبر منه إذا عدّت بالقياس إلى عمرها.  
جفّ عودها، واشتعل مفرق شعرها وسوالفها تنيباً،  
إلّا أنّها تمتعت بصحة جيّدة، كما حافظ وجهها على  
جمالها وبهائه. وكانت ربّما استسلمت في أحيان للإهمال  
فلا تعنى عنايتها المهودة بهندامها. ولشدّ ما كان  
يتولّاني الحزن والاستياء لذلك، حتّى قلت لها مرّة  
«لاقيني بالهيئة التي تلقين بها الضيوف»، ولم تحيّب لي  
رجائي ذاك فكانت تبدو لي وهي على أحسن حال،  
وطابت نفسي ورضيت.

وظنّ جدّي أنّ الفرصة تهيّأت ليحقّق الأمل الذي  
طالما حلم به ألا وهو أن أصير ضابطاً، ولكنّي كنت  
جاوزت السنّ المقرّرة للالتحاق بالمدرسة الحربية،  
وحسب أنّ الشفاعة تستطيع أن تذلل تلك الصعوبة  
التي بددت حلمي فسعى إلى كثيرين من كبار  
الضباط، ولكنّه أفهم أنّ القانون لا يتسامح في ذلك  
وحزن جدّي حزناً شديداً، وقال لي أسفاً:  
- لو دخلت الحربية لضمنت لك مستقبلاً حسناً،  
ولا طمأن قلبي عليك وعلى أمك.  
وهزّ رأسه في سخط، ثمّ سألي:

- علام نويت؟!

فنظرت إليه في حيرة، ولم أحر جواباً، فعاد يسألني:

شهر تقريبًا، فوق بصري على فتاة في الشرفة واقفة تحتسي شايًا. أدركت لتوي أن أسرة سكنت الشقة بعد أن أخلاها الطبيب، وثبتت عياني على الفتاة، وجعلت أتابعها وهي ترفع القدر إلى شفتيها فترشف رشفة، ثم تنفخ السائل الساخن بفم مزوم. وتبدأ وتعيد لاهية ملذة الشراب. وبدا لي منها قامة طويلة وقد نحيف رشيق وبشرة قمحية، في سرة وتايير رمادي، وكأنها وشيكة الذهاب إلى المدرسة في احتشام الطالبات. وكانت توليني جانب وجهها فلما اعتدل رأسها رأيت وجهًا مستديرًا، توحى هيئته بتنسيق جميل وإن لم أستطع تبيين معاملة من موقفي، تعلوه هالة من شعر كسنتائي، فبعثت في نفسي أثرًا ببيجًا. ولم تبق هدفًا لناظري إلا قليلًا، ثم دارت على عقبيها ومقرت إلى الداخل. واحتفظت بصورتها في حب استطلاع ريثما جاء الترام، ثم ركبت متخففة بالأثر البهيج الذي بعثه في من كآبة اليوم الذي تبدأ فيه الدراسة. على أي وجدت في الكلبة مزايًا خفيفة بأن تذهب غاوفي وإن لم تقلل من أسباب نفوري العام من الدراسة. من ذلك أن وقت الدراسة مقصور على أربع ساعات في اليوم تنتهي عادة في الساعة الواحدة، ومنه تمتع الطلبة بحرية الحضور أو الغياب بلا رقيب، ومنه وهو الأهم انعدام فكرة العقاب بل لمست في روح الطلبة أن ما يتهدد أساتذتهم أخطر مما يتهددهم هم. سررت بذلك كله وميت نفسي بأن تنتهي هذه الدراسة على مرها كما انتهت الدراسات السابقة، ولم يكن جديدًا علي أن أخرج دراسة على كره ونفور حتى الثالثة. وعندما عدت ذلك اليوم إلى المنزل شعرت بسرور مفاجئ هيأ لي أي رجل خطير، ونصف أستاذ وربيع وكيل نيابة!

\* \* \*

وفي صباح اليوم الثالث انطلقت إلى المحطة وكأني من التطلع على موعد، وأرسلت ناظري إلى المحطة المقابلة، فرأيتها بموقف الأمس بقامتها الفارعة ووجهها البدري وقارها الجذاب. وسرى في جوانحي الارتياح. ثم حدثني نفسي بأن أجد سبيلًا إلى الاقتراب منها وهي لا تدري بي لأروي ظمائي إلى معرفة وجهها عن كنب، وحثني الإشفاق من عجيء الترام الذي تنتظره إلى تنفيذ ما تطمح إليه نفسي دون جسدي...

\* \* \*

وفي صباح اليوم التالي ذكرت الشرفة وأنا أشارك المحطة فرفعت عيني مدفوعًا بتطلع هادئ طبيعي ولكني وجدت خالية، وتسلك بصري إلى الداخل فرأيت امرأة في الجدار المواجه وإلى اليسار عمود سرير فضي لامعًا ومصباحًا كهربائيًا يتدل من السقف ذا قبة زرقاء كبيرة، ثم بدا في وسط الحجرة رجل في الخمسين ذو

مضج بالدم وأنا، فأهوي إلى خدّها ألثمه في إعجاب واحترام وحبّ يسمو عن الشهوات، أجل لا يحبّ خيالي أن يصوّرها لي إلّا في رداثها الطويل تحوط بها هالة الوقار والاحتشام.

\*\*\*

وبكرت في الذهاب إلى المحطة في صباح اليوم الرابع فوجدت الشرفة خالية، ونقلت بصري إلى نافذة على يسار الشرفة فرأيت الفتاة من جانب وجهها، وكانت تقف وقفة العناية والاهتمام التي يقفها الشخص حيال صورته على وجه المرأة، ومضت تسوّي شعرها وتمنحه اللمسات الخشامية التي تشبه لمسات التدليل والمداعبة فانشرح صدري وتبعت يدها بجوارحي حتى خلّطني أجد مسّ الشعر الناعم وأشمّ عرقه الطيب. ثم رأيتها تتحوّل عن المرأة وتطلّ من وراء زجاج النافذة على الطريق فقدّرت من اتجاه وجهها أنّ عينها على طوار المحطة، ونزعت بخجلي الفطريّ إلى خفض عينيّ، بيد أنّي تشجّعت بعد المسافة بيني وبينها وثبّت عينيّ بجهد قليل. ترى هل وقع بصرها عليّ؟ وهل ذكرت فتى الأمس الذي التقت عيناه بعينيها لحظة بديعة؟ كلّاً إنّها لا تحسّ لي وجوذاً، ولن تحسّ بهذا الوجود. لبثت قليلاً، ثمّ تراجعت إلى الداخل وغابت عن ناظريّ. وقطعت طوار المحطة ذهاباً وجيئة، ثمّ عدت إلى موقفي، وجاء ترام إثر ترام ثانٍ وأنا بمكاني كالمتنظر. وفي أثناء ذلك ظهرت في الشرفة فتاة في العاشرة في مريّة زرقاء أدركت لتويّ أنّها أختها. ثمّ رأيت فتاة تبرز من العمارة وتتّجه صوب المحطة المقابلة. رأيتها تسير لأول مرة، فتحدثت مشية هادئة مترنّة توافق وقارها الجميل وتناسب قدّها الرشيق وقامتها الطويلة. وتحركّ في أعماقي الإعجاب والإحترام. وأرسلت بناظري حتى جاء الترام وصعدت إليه. استوفيت جزاء الانتظار سروراً وارتياحاً، وركبت الترام مزوّداً بأطيب أزهار الأحلام ولم يخف عنيّ اهتمامي بها وسروري باحتشامها ووقارها، فلم أشكّ في أنّ التطلّع لذاك البيت سيكون من الآن فصاعداً هوايتي. وقلت لنفسي: «ما أحوجني إلى رفيقة

تردّد، فالتجّعت صوب المحطة الأخرى بقدمين قلقتين وقلب يغوص في صدري فرقاً، ومررت بها مسترقاً النظر، فرأيت في عجلة المذعور عينين عسلتين صافيتين تقطران ملاحه، وأنفاً صغيراً دقيقاً وشفنتين رقيقتين، ولعلّها أحسّت حرارة بصري فرفعت عينها عرضاً فالتقت عينانا، وسرعان ما استرددت بصري لأنّه أيسر عليّ أن أخلق في قرص الشمس إبان اعتدالها من أن أحتمل وقع نظرة عين، ومضيت إلى طرف الطوار ولبثت حائراً لا أدري كيف أعود إلى المحطة الأخرى. وخیل إليّ أنّي ارتكبت شططاً جنونياً فأوقعت نفسي في ورطة عسيرة المخرج، هكذا كانت تتراءى لي أفنه الأمور. ولبثت متمسّراً حتى استقلت الفتاة الترام وخلا الطوار من المتنظرين فعدت إلى مكاني لاهثاً، وجعلت أحدث نفسي: «أجل بها من ملاحه ورشاقة واحتشام! وعشت مع خيالها يومي فلم أكد أنتبه إلى ما يلقي عليّ من محاضرات. وعلى قدر ما نازعتني النفس إلى تمليّ عواطفني على قدر ما ازدادت كرهاً للمحاضرة التي تعترض سبيل أخيلتي، ففاض بي شعور بالتمرد على تلك الحياة الدراسية التي تعذب عقلي وتتجاهل قلبي وشعوري وكأني أنتبه إلى قلبي لأول مرة، فأحسّ به عضواً حياً مثل بقية الأعضاء، يجمع جوع المعدة، ويرقّ رقّة النفس، ويشوّف تشوّف الروح، فتمنيت أن أكرّس حياتي لسعادته، وأن أستسلم لحنان المتعة التي تنفجر عنها بياضه».

تنهدت من الأعماق وأنا جالس في نهاية قاعة المحاضرات بجسم حاضر وعقل غائب. وحذّثني نفسي بأنّ وراء هذه الحياة الجافّة الضيّقة المكبلة بالأغلال حياة ناعمة واسعة حرّة، فهفّت نفسي إليها في جزع ولهفة. وعدت إلى الفتاة، ولم يقنع خيالي هذه المرّة بالرؤية. فخلق ما شاء له هواه فرأيتني ألقت نظرها إليّ، واقتربت منها كما فعلت في الصباح، ولكنّي لم أرتبك كما ارتبكت فأومأت إليها في جسارة نادرة، ويغلبها ابتسام المودة فتبسم إليّ، وأهمس لها بما أحبّ وتممس لي كذلك، ونركب الترام معاً، وفي مكان ما على شاطئ النيل أقول لها أحبّك، فتقول لي بوجه

وغادرت البيت في ارتياح مطمئناً إلى ما عسى أن يتركه منظرني من أثر حسن في نفس الفتاة إذا شاء القدر أن يلفت عينيها إليّ. بيد أنّ ارتياحي لم يطل، وذكّرت أمراً طالما نغص عليّ صفوي، ففتر حماسي.. ذكرت ما رميت به كثيراً من ثقل الدم، ولم أستبعد في تلك اللحظة أن يكون ذلك العلّة في إخفاقي في اكتساب صديق واحد، وسرعان ما تكدر صفوي وتجهّمت لي الدنيا.. وسرت بخطأ ثقيلة حتّى انتهيت إلى المحطّة. ودار بصري ينقبّ في مكانها حتّى استقرّ عليها في الشرفة تحسّي الشاي كما رأيتهما أوّل مرّة. هناك نسيت كدري وهمي، وانشرح صدري، وانبعث السرور في كلّ قطرة من دمي. هناك أدركت أنّها سروري وفرحي وأنّها روحي وحياتي، وأنّ الدنيا من غير طلعة حيّاتها لا تساوي ذرّة من رماد!

\*\*\*

وواظبت على ذلك الموعد الذي لا يدري به الطرف الآخر شهرين أو يزيد، يوماً بعد يوم دون انقطاع أو تأخير. تطلّعت بناظرني حتّى كلّ البصر، ووهبتها الإعجاب والاحترام عن طيب خاطر حتّى تؤثّر بهما، وتغلّيت السرور والأحلام حتّى نسيت الحقيقة والواقع، وسحت في دنيا الهيام حتّى سلبت العقل والرشاد، حفظتها عن ظهر قلب، طولاً وعرضاً، إماءة ولفنة، وقفة ومشية، سكوناً وحركة. وعرفت من وراء زجاج النوافذ أسرتهما من أب وأم وأخت وأخ، كلّ هذا وهي لا تدري بي، ولا تحسّ لي وجوداً، وكأنّني بالنسبة إليها ليس من سكان هذا الكوكب. وأمضيت الجزع والضيق، وأحرقني الرغبة في إثبات وجودي، ولكن شدّني عجزني إلى موقفني لا أتعلّاه. حلمت في شرودي كثيراً بأنّي أعترض سبيلها، وأتبعها، أو أنّي أبوح لها بإعجابي واحترامي. أمّا في الحقيقة فلم تكن تبرز من باب العمارّة حتّى ينقبض قلبي حياءً وخوفاً، وحتّى أنّها لغضّ بصري فيها إذا اتّجه بصرها نحوي. ولعلّه كان أسهل عليّ أن أرمي بنفسني من جسر الملك الصالح من أن أصمد لنظرة من عينيها. وكنت أساءل في يأس وجزع متى تنتبه لوجودي؟ متى تدري أنّ

لحياتي في مثل كمالها! وضاعف من حسرتي أنّني عشت حياتي بلا رفيق. على أنّني شعرت بقلق من جرّاء إفصاحي عن هذه الرغبة، كما شعرت بحياء شديد. ولم تكن تلك أوّل مرّة أفصح بها عن الرغبة في الرفيق، ولكنّه كان إفصاحاً عابراً وتشوّفاً عامّاً ورغبة بلا هدف معيّن وشوقاً غامضاً، أمّا هذه فإفصاح خطير حرك حياتي وخوفي، وتشوّف خاص، ورغبة يغرّر بها أمل، وشوق يستمدّ الوقود كلّ صباح. وأعجب ما في شعوري أنّه كان شعوراً بيتيّاً إن صَحّ هذا التعبير، فانصبّ من بادئ الأمر على الفتاة وبيتها، وما ذكرتها قطّ إلاّ وتحضرني صورة البيت، فامتزجت الصورتان في تخيلتي، ونالتا من اهتمامي وأحلامي نصيباً واحداً! وسرعان ما تمثّلت فيها زوجتي! ولا عجب فإنّي امرؤ إذا وقعت عيناه على فتاة في الترام نشطت أحلامه الشاردة فتصوّر أنّه خطبها وعقد عليها وزفّ إليها والترام لا يزال في منتصف المسافة ما بين جسر الملك الصالح وجسر عباس! فكيف لا أتمثّل فتاة الصباح زوجة؟! وملكني الإعجاب والاحترام، وقدسيّة الإحساس البيّ، وحنان العاطفة الزوجيّة، وانتظم هذه الأحاسيس خيط موصول من الميل الصادق، لعلّه الحبّ الذي لم يعرفه قلبي.

وفي صباح اليوم الخامس أطلت وقفتي حيال المرأة قبل أن أغادر البيت، وألقيت على صورتي نظرة متفحّصة. ينبغي أن أعترف هنا بإعجابي الشديد بذاتي! فلم تكن أنايتي بقاصرة على سلوكي، ولكنّها امتدّت إلى حبّ الصورة والإعجاب بها. ولشدّ ما أنعمت النظر إلى هاتين العينين الخضراوين الواسعتين، وهذا الأنف الدقيق المستقيم، وهذا الوجه الطويل المتناسق ذي البشرة البيضاء.. وكان تأثقي مضرب الأمثال في البيت والمدرسة على السواء حتّى لأذكر قول أستاذ اللغة العربيّة لي مرّة: «لو أتقنت العربيّة إتقانك لعقد رباط رقبته لما كنت أسوأ تلميذ عندي!» نظرت إلى صورتي طويلاً ذاكَ الصباح وجعلت أمتي ترمقني بإعجاب وتمازحني بكلمات كالغزل فقلت لنفسني أه لو تدري لمن أنا أتأثّق!

مقضيًا عليّ بالهيام الصامت المنفرد وحببتي على قيد خطوة منّي!

## ١٧

واعترض سبيلي حادث لعلّه في ذاته تافه، ولكنّه غير مجرى حياتي. وكانت حياتي الدراسيّة نزاعًا متواصلًا بين عقلي الراكد ونفسي الشاردة يتمخّض - كما تمخّض في الماضي - عن عناء شديد وثمرة قليلة. وقد بات الشرود لديّ ملكة آسرة غلبت على نفسي جميع قواها العقلية، حتّى أشفقت من ألا أنال الليسانس قبل الخامسة والثلاثين! على أنّي عرفت من خطورة دراسة القانون أشياء غاب عني شيء لا يكاد يقيم له الطلبة وزناً، بل يقبلون عليه في سرور ويعدّونه رياضة وهواً، ذلك هو درس الخطابة. وكان يلقي علينا مرّة في الأسبوع في مدرج عامّ يحضره جميع طلبة القسم الإعدادي. وفي أثناء الشهرين الأوّلين استمعنا إلى دراسة نظريّة في فنّ الخطابة ثمّ بدأ التدريب العملي. وطفق الأستاذ يدعو الطلبة إلى ارتجال الخطب في الأغراض المختلفة فكانوا يخطبون بطلاقة، وبأصوات جهورية، في ثبات وشجاعة ورحت أنصت إليهم في دهشة مقرونة بالإعجاب البالغ، مأخوذاً بطلاقتهم وشجاعتهم، مذهولاً لمقدرتهم على التصديّ لهذا الموقف الرهيب حيال هذا الجمع الحاشد، فكنت أتطوّع بالحنجل نيابة عنهم حتّى يتفصّد جيبني عرقاً! وما أدري في أحد الأيام إلّا والأستاذ ينادي:

- كامل رؤية لاظ!

ونفضت قائماً بحركة عكسيّة، في الصفت الأخير من المدرج - المكان المفضّل عندي - حيث لا تقع عليّ عين... وأحدث اسمي اهتماماً ساخرًا، فهمس أحدهم قائلاً:

- هذا حفيد لاطوغي!

وتساءل آخر:

- اسم هذا أم فعل؟!

هنالك قلباً غريباً يكتنّ لها من الوداد أضعاف ما يكتنّ لها الوالدان؟!... أليس غريباً أن يمرّ شخص مرّ الكرام بقلب يودّ لو يفرش شغافه تحت قدميه؟!

وتركّزت أفكاري - تلك الفترة - في قلبي بآلامه وآماله، مخاوفه وأفراحه، وشعرت شعوراً قوياً بحاجتي إلى نصيح أو مشير، وكانت أمّي هي صديقي الوحيد في دنياي، ولكنّي لم أتوجّه إليها بطبيعة الحال في أزمتي تلك لشعوري بأنّها ستقف من رغبات قلبي موقف العداء... بيد أنّي وجدت في بعض المجلّات التي يقرأها جدّي صفحات مخصّصة لأسئلة القراء فأملت أن أظفر منها بالمشير الذي أفتقد. وأرسلت إلى إحداها هذا السؤال الذي أقفّض مضجعي: «رجل ثقيل الدم، أليس ثمة أمل أن يحبّه محبوبه؟» وكان جواب المجلّة «الحبّ سرّ من الأسرار لا شأن له بالخفّة ولا بالثقل، وقد يتعامى عن القبح والدماة فلا تخفّ على حبّك من ثقل دمك! وإذا جاز لنا أن نتفلسف عن طبيعة المرأة فلعلمه يصحّ أن نقول إنّها مغرمة بالقوّة والشجاعة» سررت بمطلع الإجابة، فلما أن بلغت ختامها خامرتني شعور بالخيبة، وتساءلت عمّا يعنيه بالقوّة... آه. لست قوياً على أيّ حال، والحق أنّ إدماني العادة المزدولة جعلني نحيفاً أكثر ممّا ينبغي وأضفى على بشرتي شحوباً. وعندما ذكرت الشجاعة لم أتمالك نفسي من ضحكة مريّة، وعددت ما يخيفني في هذه الدنيا من الأناسيّ والأجواء والفسيران والصراخ، فعصر اليأس قلبي!

ولكنّي لم أسلم لليأس لأنّ النار التي تستعر بنفسي كانت أقوى من أن تخمدتها ضربة من قبضة اليأس الباردة، فأرسلت إلى المجلّة هذا السؤال: «كيف أجذب محبوبتي؟» وكان الجواب: «اذهب إلى أبيها أو وليّ أمرها واطلب يدها إليه وائيّ كفيّل بأن تحبّك». ربّاه، ما أقسى المجلّة! إنّها لا تدري أنّي طالب، وأنّ أمامي أربعة أعوام - أو ثمانية - قبل أن أصير رجلاً مسئولاً، وأنّي فوق هذا كلّه أقدر على اقتحام أبواب جهنّم منّي على طرق باب محبوبتي لأطلب يدها... يا أسفاً، ألا يعلم هؤلاء الناس ما الخجل؟! ما أراني إلّا

وقفت مبهوًتاً خافق الفؤاد، فقال الأستاذ:

- تعال إلى المنصة...

وتسمّرت في مكاني في ارتباك لا قبيل لي به، رغبت أن أعتذر ولكنّ بعدي عن الأستاذ كان يوجب عليّ أن أعليّ صوتي فيسمعه الجميع، فسكّت على رغمي. ونظر الأستاذ إليّ دهشاً، ثم قال:

- مالك واقعاً لا تتحرّك؟... تعال إلى المنصة!

واستدارت الرؤوس إليّ حتّى شعرت بأنّي أحترق تحت وقعها، واستحثّني الأستاذ بإشارة من يده، فقلت على كره:

- لماذا؟

وضحك كثيرون من سؤالي، وقال الأستاذ بحدّة:

- لماذا؟! لكي تخطب يا أخي كالآخرين!

وقلت بصوت منخفض لم يجاوز صفّين من المدرج - لا أدري كيف أخطب!

وطبيعي أنّ صوتي لم يبلغ الأستاذ فتطوّر طالب قريب بإبلاغ جلي صائحاً بلهجة ساخرة:

- يقول إنّه لا يدري كيف يخطب!

فقال الأستاذ بلهجة تنم عن التشجيع:

- هذا درس تدريب، وأخلق أن ينتفع به من لا يجيد الخطابة. تعال...

ولم أر مناصاً من الذهاب، فحرّكت قدمي في جهد وعذاب كأني أساق إلى المشنقة، ثم ارتقيت المنصة في حالة ذهول، ووقفت محدّقاً في الأستاذ باستسلام واستعطاف مولياً المدرج جانبي الأيسر. وأدرك الأستاذ ارتبائي فقال بلطف:

- انظر إلى زملائك، وأملك جنانك، وتكلّم كأنك وحدك. لا بدّ من اعتياد هذه المواقف لأنّ حياة

الحقوقي لا تخلو ساعة منها وإلا كانت هراء لا معنى له. كيف تقف غداً في ساحة القضاء سواء تحت ظلّ النيابة أم المحاماة؟! ادعُ شجاعتك وخطب هذا الجمع حاثاً إيّاه على التبرّع لإحدى الجمعيات الخيرية.

وتطلّع إليّ الجميع باهتمام شديد لم يحظ بمثله الخطباء المصاقع، فحملتُ في الوجوه المتطلّعة دون أن أرى شيئاً، ولقني ذهول وخجل عميت فكّدت أفع

مغشياً عليّ، وتولّاني ذلك الإحساس الحادّ بالقنوط الذي يمسك بخناقنا في الكابوس. ولم يخطر لي لحظة واحدة أن أفكر في الموضوع، ولعليّ أنسيته، ولم يكن يدور بخلدي إلّا هذا السؤال: متى تنكشف هذه الغمّة! ومّل الأستاذ الانتظار فقال:

- تكلّم. لا تخش الخطأ. أفصح عمّا ببالك جميعاً.

ربّاه متى ينقضي هذا العذاب؟ هيهات أن يرثي أحد لي. وها هم الطلبة يتغامزون ويتصاحكون، وقد قال أحدهم بلهجة من يحدّر إخوانه من الاستهانة بي:

- هكذا بدأ سعد زغلول.

وقال آخر:

- وهكذا انتهى!

وصاح ثالث:

- أنصتوا إلى بلاغة الصمت.

وامتلاً المكان ضجّة وضحكات فدار رأسي وأخذت أنفّس بصعوبة، ثم صمّمت على إنهاء ذلك الموقف المحزن فغادرت المنصة ومضيت صوب باب الخروج دون التفات إلى نداء الأستاذ، وضجّة الشياطين تلاحفني وتصلّك أدنّي، وما زلت أخبط على وجهي محمّوماً هاذباً حتّى انتهيت إلى محطة الترام. ورحت أردّد بتصميم وحنق «لن أعود... لن أعود»، وكان ذلك التصميم البلسم الشافي لجرح ذلك اليوم. أجل لن أعود، ولن تقع أعينهم عليّ مرّة أخرى، ولن أعرض نفسي لبسات الهزء والسخرية، وأيّة فائدة ترجى من العودة إلى الكليّة ما دامت حياة الحقوقي لا تخلو ساعة من هذه المواقف؟! الأفضل أن أسدل الستار على عهد الدراسة كلّها، وحسي ما عانيت من عبوديّة العذاب. وتعزّيت بهذا التصميم عن جميع ما لحقني من مهانة وإحراج بل نسييت به ألمي وحنقي فترطب صدري المحترق بنسمة ارتياح، وعدت إلى البيت وليس أمام عينيّ إلّا ذاك التصميم... وبعد الغداء قصصت على جدّي وأمي ما لقيت في يومي من شدّة ومكره، واختنق صوتي بالبكاء وأنا أقول:

- هذه حياة لا تطاق، ولن أعود إلى الكليّة أبداً.



مغرورة العينين. ومع ذلك فلست أشك في أن معارضة جدّي كانت نصف جدّية فقط. ولو أنه أراد حقاً أن يكسر عزمي لما وسعي مخالفتي. والحق أن أمر مستقبلنا كان يحتلّ من تفكيره مكاناً واسعاً وخاصّة في تلك الأيام الأخيرة التي استوفى فيها شيخوخته، ولعلّه ارتاح لاقتراح توظيفي ليطمئنّ على مصير أمي.

وهكذا انقطعت حياتي الدراسية بعد أن قضيت نيفاً وشهرين بكلّية الحقوق، بيد أنني لم أجد السرور الذي كنت أحلم به. أجل لم أفكر لحظة واحدة في الرجوع إلى تجربة الدراسة القاسية، إلا أنني وجدت نفسي بحاجة شديدة إلى انتحال الأعذار الكاذبة عن انقطاعي عن العلم وفراري من معاهده، وتصوير نفسي في صورة الضحية البريئة. ومع أن محاولتي تلك نجحت لحّد ما مع الآخرين أو على الأقلّ مع أمي الصديقة لي بالحقّ أو الباطل، إلا أنها لم تنفع معي إلا قليلاً. ملأني السخط والتبرّم، وثار بي نزوع نحو تأديب النفس ومعاقبتها! واتخذ ذلك النزوع صورة حملة هجائية على نفسي، فواجهت نقائصي في تسليم واعتراف لأول مرة.

رأيت حياتي كما هي أحلاماً شاردة سخيفة، وخجلاً وخوفاً يبيتان الهمم، وأنانية مطلقة قضت عليّ بعزلة لا يؤنسها صديق أو رفيق، وجهلاً بالدنيا وما فيها، فلا زمان ولا مكان، ولا سياسة ولا رياضة، حتّى المدينة الكبيرة التي ولدت وعشت فيها لا أعرف منها إلا شارعين، وكأنّني أعيش في حجرة بمفازة! وغشيتني كتابة ثقيلة فاجترت أحزاني في وحدة قلبيّة مهلكة. ولكنّ أمي لم تفارقني لحظة واحدة في تلك الأيام السود، ولم تطق الوقوف منّي موقف المعارضة طويلاً فسرعان ما تحوّلت من جانب المعارضة إلى جانب التأييد، وتظاهرت بالسرور والارتياح، وقالت لي يوماً لتسرّي عني:

- الخير فيها اختار الله، وهل تملك لأنفسنا شيئاً؟  
وعنّا قليل تصبح رجلاً مسئولاً، ويحيى دورك في تدليل أمك لتقضي بعض ما عليك من دين!  
وقضينا الساعات الطوال ممّا، وأنا آنس بحديثها

وهال جدّي الأمر فقال بانزعاج:  
- أأنت رجل!! ألا ليك خلقت بشأ. إذن لكنت أكمل الفتيات؟... أتريد أن تقطع حياتك التعليمية في السطور الأخير منها لأنك عجزت عن قول كلمتين!... والله لو كانت أمك مكانك لخطبت الموجودين!

وجعلت أمي تقبض أصابع ينها وتبسطها في تشنّج وتقول:

- حسدوه... حسدوه يا ربّي!  
وحاول جدّي أن يثني عن عزمي تارة باللين وتارة بالعنف، ولكنّ اليأس ثبت عنادي فلم أنثن، ولمّا فرغ صبره قال لي بحدّة:

- إذن ضاعت السنة، وليس ثمة فائدة من إلحاقك بكلّية أخرى بعد انقضاء شهرين وثيف على افتتاح العام الدراسي.

فركبني الخوف أن يلقي بي تارة أخرى إلى عذاب التعليم فقلت:

- ليس ثمة فائدة من مواصلة التعليم.  
وقاطعتني أمي هاتفة بآلم:

- لا تقل هذا يا كامل. بل لتواصلنّ التعليم سواء في هذا المعهد أم أيّ معهد آخر.

وضرب جدّي كفّاً بكفّ وهو يقول:  
- لقد جنّ، وهذه نهاية التدليل.

ولكنّي كنت كمن يدافع عن نفسه حيال الموت، ولم يعد بي من صبر أواجه به الطلبة والدروس والامتحانات، فقلت بقنوط:

- لا أستطيع... لا أستطيع... ارحموني!  
وثار جدل عنيف صمدت له بقوة لا قبل لي بها، قوة مصدرها الخوف واليأس، حتّى سكت جدّي مغيطاً مخنقاً. وبعد فترة صمت مرهق سألتني:

- أترغب أن تتوظّف بالبالوريا!  
فقلت خافض العينين:

- نعم!  
واختلست منه نظرة فوجدته صامتاً مقطباً ويده تعبت بشاربه الفضي. وحولت عينيّ إلى أمي فأريتها

الطيب الشافي، وبفضلها وحدها انكشفت عني الغمة وتفتّح قلبي للحياة ونفض عن جوهري غبار الوسواس...

١٨

واستشفح حدي بضابط عظيم من رجالات الجيش ممن «عمل ملازمًا صغيرًا تحت رئاسته في السودان» على حدّ قوله، ليجد لي وظيفة بوزارة الحربية وكُلّل مسعاه بالتوفيق ولكنّ الضابط أخبره بأنني ربما عُينت في السلم ولمّا قال جدي ذلك تجهّم وجه أمي وقالت باستنكار:

- السلم؟! ألا ترى أنّ كامل لا يستطيع العيش بمفرده؟!

وكانت تظنّ السلم بلدًا قريبًا كالزقازيق أو طنطا على الأكثر، فلمّا عرفت حقيقتها ندّت عنها ضحكة عصبيّة وعدّت الأمر مزاحًا. وصاح جدي متبرّما:

- وظميه بنفسك، أو عيّنه في حضنك وأريحني!

ولكنّه لم يأل جهدًا فسمعي لدى معارفه القدماء من مواليد القرن التاسع عشر ممن عملوا قديمًا تحت قيادته، ولعلّهم تأثروا بشيخوخته الشائنيّة ونشاطه الموفور. وما أيقظ في صدورهم من ذكريات فوعده خيرًا، ووجدوا لي بالفعل وظيفة بإدارة المخازن بديوان الوزارة العام. ولم يكن يفصل بين الوزارة وبين بيتنا إلا ثلاث محطات وعشر دقائق مشيًا على الأقدام فرضيت أمي وقرّرت عيّنًا، وقدمت مسوغات التعيين وتقدّمت للقومسيون الطيّب العام كالمُتبع، وبالاختصار صرت موظفًا من موظفي الدولة. وكان الشعور الذي لايسي وأنا أغادر البيت ميمًا الوزارة لأوّل مرّة شعورًا معقدًا، فيه زهو وخيلاء، وفيه فرح بالتحرّر من عبوديّة البيت والمدرسة على السواء، ولا يخلو من قلق يساورني كلّما أقبلت على جديد من الأمر. ومضيت بقلب خائف إلى محطة «محبوبي» لأنّ طريقنا أصبح واحدًا منذ ذلك اليوم السعيد ولو لمحطات معدودات، ولئن لم يكن في الوظيفة إلّا هذا لكان حسبي من الهناء والسرور، واحتطت بقلبي الضعيف فوقفت في الطرف

البعيد من «الطوار» حتّى لا يصعقني وجودي على كثر منها. وجاءت بعد حين قليل تتهادى في مشيتها التي تجمع بين النشاط والوقار فاستقبلها قلبي بخفقان كزغردة اللسان، ولبثت غاضبًا بصري ولكن في نشوة جعلت الدنيا من حولي أطيافًا وترنيمات، وجاء الترام فركبنا معًا، وكانت أوّل مرّة يجمعنا مكان واحد فسرى من ملمسه إلى جسدي مثل الكهرباء، ووددت لو ينطلق بنا بغير توقّف. وإلى الأبد. وحين غادرت الترام عبرت الطريق متعجّلًا إلى الطوار وأرسلت بناظري إلى مقصورة السيّدات فوقعتا على ظهرها وهي جالسة عاكفة على كتاب بين يديها. ولمّا تحرّك الترام التفتت فجأة إلى وراء فوقع بصرها عليّ ثمّ ولّني ظهرها ثانية. انتفضت من الرأس إلى القدم، وتسوّمت قدمي في الأرض وعلقت عيني بالترام حتّى لم أعد أتيّن من معالمة شيئًا، ثمّ واصلت السير غائبًا عمّا حولي، سكران بالنظرة التي جادت بها السماء، وتساءلت في ذهول ودهشة لماذا التفتت؟ أيّ داع دعاها إلى ذلك؟ بل أيّ داع يمكن أن يكون هذا إذا لم يكن تلبية لنداء روعي الخفي؟ إنّ الراديو يلتقط الصوت من تضاعيف الهواء على بُعد الشقة، فما وجه الاستحالة في أن تلبّي الروح نداء روح أخرى مشحونة بالهيام والرغبة! وازدهاني ذاك الحاطر وآمنت في سعادة لا توصف بأنّ لروحي تأثيرًا على روحها. ولكن رحمتك اللّهم، فلشدّ ما ارتجفت تحت وقع النظرة الخاطفة! ترى هل أنكرت وجهي أم ذكرت به الفتى الذي تطلّع إليها لحظة على المحطة منذ ثلاثة أشهر؟! وكنت قد اقتربت من الوزارة فعاودتني اليقظة رويدًا، وقلت لنفسي وكأنّي أودّع ساعة النشوة الموليّة «إني أحبّها، ولهذا هو الحبّ بلا زيادة ولا نقصان»!

وخرجت من دنيا الهيام لأدخل دنيا الحكومة. وقدمت نفسي للمدير فقدمني بدوره إلى زملائي في الإدارة وكانوا تسعة. هؤلاء قلّة بالقياس إلى الطلبة وإنّهم لرجال حقًا فلا يمكن أن أتوقّع منهم زراية أو سخرية، ورجوت من صميم قلبي أن أبدأ حياة جديدة غنيّة، ولمّا لم يُعهد إليّ بعمل ذلك اليوم

مستولاً، أما الآن فلم أرَ أمامي إلا مستقبلاً متجهماً  
مريراً لا نجاة منه إلا الموت. أجل أدركت أنني لس أظفر  
بالراحة مدى الحياة، وأنه لن تزايلني الرغبة الخفيفة في  
الحرب. ولكن إلى أين هذه المرة؟ ولم يكن سرّ بلوتي في  
عجزتي حيال العقبات فحسب، ولكن في تضخمها  
وتكبيرها، فإني نصبت من عقلي حرب أعصاب هائلة  
ضد نفسي... لم أرض نفسي على الحياة في الواقع،  
ولم أوطنها على احتماله، فلم أدر ما فلسفة الرضا أو  
الاستهانة، كما أنني لم أقدر على فلسفة القوة أو الثورة،  
وكان إذا صادفني أمر لا يُحتمل - والدنيا كلها عندي لا  
تُحتمل - راح خيالي السقيم يصنع من الحبة قبة،  
ولاقيت الهَمَّ بما يشبه الصبر في الظاهر على حين  
أنطوي على نفسي في كمد قاتل وغَم فتاك. لذلك لم  
يُخل مكان أحلّ فيه من عدو حقيقي أو وهمي. كان  
التلاميذ والمدرّسون أعدائي القدماء فغدا الموظفون  
أعدائي الجدد.

\*\*\*

ولكن كنت أنت العزاء والسرور! الحياة صحراء  
قاحلة مهلكة وأنت بها وحدك الواحة الخضراء الرطبة  
تلوذ بها النفس. ووالله ما حمدت للوظيفة من شيء إلا  
أن نقلني طريقها إلى محطتك، فعندها أنتظر كلّ صباح  
مطلعك حتّى إذا رأيتك مقبلة في خفة الغزال ووقار  
الطاووس تراجعت إلى طرفها البعيد فيما يشبه الذعر  
ودعوت الله أن يخفّف عني شدة الخفقان ثمّ أسترّق  
إليك اللحظ متحامياً أن تلتقي العين بالعين فالتقاؤهما  
جلل لا يصمد له إلا الأكفء. وإذا جاء الترام ركبنا  
معاً ولا تدرين سروري به إذ يحملنا معاً، ثمّ أغادره  
فيسير بك إلى هدفه المجهول مزودة بدعائي أن يصونك  
المولى ويسعدك، وتبقى لي بعد ذلك صورتك عالقة  
بخيالي تدّر على الأنس في وحشة سجنني الحديد. ولكن  
إلامّ أظّل على تلك الحال؟ لقد صفّق الجرع بقلبي،  
وأمصّني الانتظار.

وزاد من التياغي أنني جعلت أراها في الأصائل كما  
أراها في الأبكار، لأنني كنت أغادر البيت عصراً كما  
يحلو لكثير من الموظفين في غير معارضة من أمي التي لم

وجدت فسحة لمعاودة خواطري السعيدة عن الحرّة  
التي أمّني النفس بها، والتي أرجو بها أن أستنقذ نفسي  
من سجن البيت وعبودية المدرسة، ثمّ عن النظرة  
السعيدة التي أنتزعها روحي من الأعماق قوّة واقتداراً.

\*\*\*

وأقبلت على الحياة الجديدة بأمل جذّاب. وظفرت  
بأول نوع من الصداقة عرفته في حياتي، وهو ما  
يسمونه بصداقة «المكاتب» هي صداقة جبريّة تفرضها  
زمالة الموظّفين في المكتب الواحد. وقد فرحت بها بادئ  
الأمر لأنّه لم يسعني - أنا الذي لم أعرف في حياتي  
صديقاً - إلا أن أفرح بين تسعة من الرجال ينادوني بلا  
كلية، ويستقبلوني ويودّعونني بأطيب تحية. ولكن  
وأسفاه قام خجلي حاجزاً منيعاً بيني وبينهم. ثمّ أثبتت  
لي التجربة أنّ تلك صداقة لا تستحقّ الأسف عليها،  
فهي تبدأ مع الصباح بالتحية والمداعبة وقد تنقلب عند  
الظهيرة إلى وقية دنيئة تختم بإنذار أو عقاب. والأدهى  
من ذلك أنني لم أعرف لي عملاً مستقلاً، ولكن ما من  
واحد منهم إلا ويكلفني بعمل آلي أنفذه صاغراً. وربما  
قضوا أكثر النهار في ثرثرة وتدخين وشرب القهوة وأنا  
مكبّ على الأوراق في شبه سخرة. ولا شكّ أنهم  
فطنوا بمكرهم إلى أنني «غَرّ خجول» فاستغلّوا ضعفي  
أسوأ استغلال. وضاق صدري، وخبا سروري بالحياة  
الجديدة في الشهر الأول منها، وأبقيت أنني المستجير من  
الرمضاء بالنار! زاد من سوء حالي أنّ الشroud لم ينقطع  
عني أثناء عملي فوقعت مراراً وتكراراً في أخطاء  
السهو، وتوالت عليّ الانتقادات الساخرة والإنذارات  
ثمّ يدعوهم «برؤساء اليد» فكأنني رُددت إلى المدرسة  
بتلاميذها ومدّرسيها، فعاودتني مرارة حياتي الماضية،  
وصحّ عندي أنني لن أظفر براحة حقيقية ما دمت على  
صلة بأحد من الناس... واجتررت آلامي في خفاء.  
ولم أكن أثور على شيء قطّ ممّا يشقيني، وكان ديدني  
دائماً أن أطيع بقلب دامٍ كظيم، وسخط مكتوم. وزاد  
البلاء حدة أنني لم أجد لحياتي متحوّلاً، ولا أملاً في  
الخلاص ولو بعد حين. وقد كنت أتجلّد في المدرسة  
أحياناً على أمل أنّها ستنتهي يوماً فأصير رجلاً حراً

وابتعت بالفعل فراشاً ولكنتي ركبته في نفس الحجرة  
فظلّت تحوينا معاً، وهي الحجرة التي رأيت فيها نور  
الدنيا.

## ١٩

ثمّ كان صباح تاريخي في حياتي إذ وقع بصرها  
عليّ. والتقت عينانا وهي قادمة نحو المحطة،  
وارتعشت جوارحي وتساءلت وأنا أعاني الحياء: ترى  
ألم تذكر الفتى الذي رآته يوم لبّث نداء روعي؟!  
وأسكرتني نشوة لم يحمدها محيى الرجلين المنافسين  
نفسه. وحملنا الترام جميعاً حتّى محطة الوزارة فغادرته،  
وهرعت إلى الطوار ثمّ بعثت بناطريّ إلى مقصورة  
السيدات، وكانت تجلس في الصفّ الآخر ووجهها إلى  
ناحيتي فالتقت عينانا مرّة أخرى، وغضضت بصري في  
حياء وصدري بالسعادة بترّد، ثمّ غمغمت لنفسي وأنا  
أجدّ في السير «برح الخفاء وافنضحت!» وقد تذكّرت  
سعادتي عصراً وأنا جالس في حجرتي غير بعيد عن  
أمي فقلت لنفسي وأنا أختلس منها نظرة غريبة «آه لو  
تدري بأفكاري!». ألم تعلّمني تجاربي الماضية أنّ مثل  
سعادتي هذه ممّا تعدّه هي - أمي - كفراً لا يُغفر؟! هذه  
حقيقة لم تغب عن خاطري قطّ، ومع ذلك بدت لي  
وقتذاك غريبة مستنكرة كأنّما أكتشفها لأول مرّة،  
وسدّدت نحو الوجه الوقور الجميل نظرة احتجاج  
واستياء، وقلت لنفسني متغيّظاً: «ربّما كان الضرر يقع  
بي أخفّ لديّ من كشف حيّ!». ولعلّي بالغت  
كثيراً، ولكنّ سيرتها الماضية جعلتني لا أرنو إلى الجانب  
البهيج من الحياة إلّا في خوف وحياء شديدين من  
ناحيتها! وكأنّما ضفت بكتباتي سعادتي في حضرتها  
فغادرت البيت مسروراً وهرعت كالمتعبد إلى المحطة  
القديمة، وسبقني بصري فوقع على الشقيقتين وراء  
زجاج النافذة فتقدّمت في سعادة غامرة، أمشي على  
استحياء. . واندسست في زحمة الواقفين وقلبي يتمنّى  
ألّا أبرح المحطة حتّى يسدل الليل سدوله. وكان الجوّ  
شديد البرودة فداخلتني سرور بأنّي أحمّل قسوة الجوّ في  
سبيل نظرة من عينيها. ولم أشكّ في أنّ طول قامتي

يعد بوسعها أن تعارض في ذلك. وكنت أهرع إلى  
محطّتي القديمة تلقاء بيتها، فأقف بين المنتظرين  
مستطعلاً مشرق روعي بطرف مشوّق، فأحياناً أرى  
الأمّ أو الأب أو الأخ أو الأخت، وأحياناً أراها في  
فستان بسيط أنيق من فساتين البيت يزلزل نفسي زلزالاً  
شديداً.

لم أعد أرى لحياتي أملاً إلّا في الرفيق الأنيس،  
فهمّئت بها هياماً، واستأسرتني رغبة صادقة حارة في  
السعادة التي لم يكن لها من معنى في نفسي إلّا أن أفنى  
فيها وأن تفنى فيّ. بيد أنّي لم أتجاهل العقبات، وهل  
كان دأبي إلّا تكبير العقبات؟! فلم أنس أنّي في أوّل  
السطريق وأنّ مرتّبي سبعة جنيهات ونصف؟ ثمّ  
لاحظت بمزيد القلق أنّ ثمة زجلين يقفان معنا في  
المحطة صباحاً لا يفتآن ينعيان النظر في وجه الفتاة  
باهتمام. أمّا أحدهما فرأيتُه يخرج مرّات من العمارة التي  
تقيم فيها، وهو رجل في نحو الأربعين تلوح في وجهه  
آي الرزاة والوقار، ويسمّ بطابع الموظّفين الممتازين.  
وأما الآخر فشابّ في الثلاثين ميّال للضحامة والبدانة  
مع أناقة ووجاهة، إلّا أنّ إيماءاته ونظراته تنمّ عن  
العجب والزهو. وعجبت لتطلّعها المتواصل إليها وما  
من داعٍ إلى العجب، ولكنّي ظننتني - وبأله من ظنّ  
مضحك - أوّل من تميّأ له كشف ذلك الكنز. وثار بي  
الغضب والحنق، وتلوّث دودة الغيرة في سويداء قلبي.  
إنّما لا تحيد عن نظرتها المستقيمة ولكن ترى هل  
تجهلها حقّاً كما تجهلني؟ خصوصاً هذا الجار الذي  
يقطن تحتها أو فوقها؟ وتقبّض قلبي فزغاً ويأساً  
ورمقتها يغيظ كأنّها المسئولة عن اهتمام الناس بها؟  
وأطردت حياتي بين عمل ممقوت وحبّ حائر  
غريب.

وكان بيتنا في ذلك الحين يعدّ من البيوت السعيدة،  
اطمأنت قلوب أهله، فسكن خاطر الشيخ الهرم،  
وقنعت أمي بما قسم لي ولها. بيد أنّ جدّي قال لي يوماً  
بلهجة ساخرة:

- ألا اخجل يا رجل وابتع لك فراشاً، أتظنّ الدهر  
تنام في حضن أمك؟!

وما كان قد كان». ومرة رأيت الأخت الصغيرة في النافذة وأنا مقبل نحو المحطة عصراً، ولما لمحتني التفتت إلى الورا كأثا تخاطب شخصاً لا أراه، ثم بدت الأم وراء زجاج النافذة وألقت عليّ نظرة متفحصة. رباه! لقد داخلني شعور الجاني إذا ضُبط متلبساً بجريمته. ولم يبق ثمة شك في أن البيت يعرفني، وازددت يقيناً فيما تلا ذلك من أيام! فما كان يقع عليّ بصر أحدهم حتى يتفحصني باهتمام إلا مولاني طبعاً! وازددت اضطراباً.

ورحت أسائل نفسي الحيرى عما يقولون، وعما يظنون، لي منظر حسن خداع، ولعلمهم يظنونني موظفاً مغبوطاً ذا مستقبل باهر! أواه، ما كنت موظفاً كبيراً إلا في تقدير أمي، ولعليّ ندمت عند ذاك على قطع حياتي الجامعية، وعزيت نفسي المحزونة بأنّي سأرث يوماً ثروة لا بأس بها! مهما يكن من أمر فلا داعي للخوف من البيت. بل إنّي لأشعر بأنّه سعادتي المرموقة. وإنّي لأحبّه من مجامع قلبي، أناسه وأثائه وحجراته وحتى خادمته. إنّي أعيش فيه بروحي، وأجاذب أهله. في الخيال - أشهى الأحاديث، أما حبيبي فهي ملء القلب والعقل والخيال. وكنت إذا رأيت الغسيل منشوراً على الشرفة نفخو به نسائم الأصائل أرنو إليه بعين محبّ حنون، وبصري يتنقل بين ألوانه وأشكاله مشغولاً بأهداب رقاق يطرب لها قلبي طرباً قدسياً كأنما يشفّ آذاني سجع الحان الهمة! ولكنكم خاطبت حجرة حبيبي موصياً إياها بها في اليقظة والمنام، وعندما تخلّق بها الأحلام، أو حين تتحدّث بنبراتنا التي لم أسعد بسماها.

ويوماً دفعني الهوى إلى البقاء في الترام حتى أوصّل حبيبي إلى مدرستها. واضطربت خوفاً وقلقاً من جرّاء المخاطرة التي نشبت فيها، وبلغ الترام العتبة الخضراء وعيناي لا تفارقان مقصورة السيّدات لأرى أين تنزل حبيبي. ودار الترام بنا مخترقاً شوارع كنت أراها لأول مرة حتى عبر جسر أبي العلاء. وفي المحطة التالية له غادرت الفتاة الترام. وهبطت إلى الطوار وأنا أتبعها عينيّ فرأيتها تتجه إلى الطوار الأيمن بطولها الفارع

ومعطفي الأسود خليقان بأن يذكّراها بي. ورفعت عينيّ في خوف شديد فرأيتها تنظر صوبي وإن لم أتمكن لبعد المسافة من تحديد تحديقة عينها، ومع ذلك سرت إلى أطرافي رعدة السرور. وجاء الترام على رغمي، ودفعني الخجل دفعاً إلى ركوبه.

لم يعد لحياتي من غاية إلا المحطة وصاحبة المحطة. قصاراي أن أسترق النظر بعينين خجولتين، وأن أخفضهما سريعاً إذا رنت إليّ العينان اللتان أحبهما أكثر من الحياة نفسها. ولم تعد فتاتي تجهلني كما جهلني أشهراً أربعة، فأحسّت بلا شك أن فتى يتطلّع إليها حيثما تحلّ، وأنه يتعمّد ذلك في صبر طويل وإن كان لا يبدي حراكاً. بل ابتسم الحظّ فجعلت أفوز بنظرة كلّ يوم تقريباً. وإن بدا أن الاتفاق وحده هو باعثها، نظرة عابرة تلقى على المكان كلّ فصادفني في جانب منه! وفيها عدا ذلك فقد حافظت على وقارها واحتشامها. أجل ما عادت تجهلني مهما تجاهلني، وإنه لظفر رائع - بالقياس إلى عجزّي - أن تحسّ وجودي بعد ذلك النضال الصامت الطويل. وثابرت على النظر والصبر وكأني أنتظر أن تحيى الخطوة التالية من ناحيتها هي، أو من ربّ السماوات والأرض...

تلك أيام حلوة سعيدة على خلّوها من الأمل. أنفقتها في إحساس عميق بهيج وأحلام لا يحيط بها الخيال، رقت على قلبي في طهر وقداسة. وقد أوصدت دونها باب خلوتي الليلية، ولذّي الشيطانية.

\*\*\*

وتبيّن لي بعد حين أن سرّي المكنون يتسرّب من أعماق صدري على تكتّمي وحرصّي. لا أدري كيف حدث ذلك، ولعلّ الأمر لم يعد أنّي أنسى نفسي في لحظات الهيام فتقع العين متّي على ما أحرص على كتمانها. وما أدري يوماً إلا والرجلان «النافسان» يرمقاني بريبة، وكأنّها فطنا إلى ظهور منافس جديد. ويوماً مرّت بي في موقعي من المحطة خادمة الفتاة فالقت عليّ نظرة ذات معنى ذاب لها قلبي ذوباناً، وساءلت نفسي في خوف وسرور: ترى هل بلغ سرّي البيت نفسه؟! ثم غمغمت في حياة بالغ «افتضحت

وقدّها الرشيقي، ثمّ انعطفت إلى طريق جانبيّ يمتدّ بحذاء القصور المقامة على النيل، وسنحت منها التفاتة وهي تنعطف إلى الورااء فوقع بصرها عليّ وأنا واقف أنظر صوبها. ارتجفت أوصالي كأنها مسني تيار كهربائيّ، وتساعد دم الحجل إلى وجهي. وسرعان ما غابت عن ناظريّ فتقدّمت خطوات حتّى أمكنني رؤية الطريق فرأيتها تبتعد بخطواتها الرشيقة، ثمّ مرقت من باب جانبيّ غير بعيد. ولبثت متردّداً، وفكرت في العودة إلى الوزارة التي تأخّرت عن ميعادها بغير اعتذار، ولكن أبّت نفسي أن تنتهي المخاطرة بلا نتيجة. وتقدّمت نحو المدرسة بقلب هيّاب، ثمّ مررت بها متعجّلاً، ولكنيّ قرأت اللافتة «معهد التربية العالي للبنات»، ورجعت إلى المحطّة وركبت الترام العائد وأنا أتساءل عن معنى ما قرأت. وعلمت ما فاتني علمه في إدارة المخازن فأخبرني موظّف أنّه معهد لتخريج المعلّات لمدارس البنات الابتدائيّة، وأنّهنّ يدخلنّه بعد البكالوريا. وداخلني زهو لأنّ حبيبي ستصير أستاذة، ولكن لم يغب عنيّ الفارق الكبير بيننا في الثقافة، فلعلّنت نفسي الخاترة التي حملتني على الفرار من الجامعة! وساورني خوف وكآبة. ثمّ لجأت إلى المجلّة مشيري القديم فأرسلت إليها هذا السؤال: «هل يمكن أن تحبّ فتاة مثقّفة ثقافة عالية شاباً من حلة البكالوريا؟». فذكرت المجلّة في جوابها الأميرة التي أحبّت الراعي! . .

وحلمت تلك الليلة بحبيبي، فكانت أوّل زورة في المنام... .

٢٠

- لماذا تبدو أحياناً كالخزين؟ لعمرى ماذا ينقصك؟ أردت أن تكون موظّفاً فكنت، ومتمكّك الله بعطف جدّك الذي يهتئ لنا عيشاً رغيداً، وفي خدمتك أمّ لو استوهبت حياتها لوهبتك إيّاها عن طيب خاطر، وبين يديك الشباب والصحة أدامهما الله لك. فهاذا ينقصك؟

وعجبت كيف تتساءل عمّا ينقصني! . . أجل إنّها عدّت لي نعماً سابغة، بيد أنّي أجهل فضل تلك

تركّزت أحلامي في أمرين، أن أتمتّع بدخل حسن - وهو أتّ يوماً ما - وأن أظفر بعروسي. لم أكن ممّن يشقيهم الطموح، وإذا كان لي منه شيء فيما مضى من أيّام الأحلام، فقد فُبر في إدارة المخازن بوزارة الحربيّة حيث تعدّ علاوة نصف جنيّه من الآمال البعيدة. أجل لم تثب بي الهمة في الطموح، ولكن هفّت نفسي إلى السعادة والطمأنينة، إلى المعيشة الطيبة والزوجة المحبّة

- إتهنّ لا يرمن سعادتك ولكتهنّ يردنك مطيّة  
لسعادة بناتهنّ!  
لم أفهم لقولها معنى، وقرأت في عينيها أنّها ترجو أن  
أفصح عن عدم اكترائي للأمر، ولكّني تشجعت  
ولازمت الصمت، فقالت بلهجة تشي بالقلق:  
- الزواج سنّة، ولا يجوز أن يتزوَّج الشخص قبل  
أن تكتمل رجولته.

فتساءلت في امتعاض: إذا لم تكتمل رجولتي في  
السادسة والعشرين فمتى تكتمل إذن؟ ووددت لو  
أصرّح بأفكاري ولكّن شجاعتي لم تسعني فواصلت  
الصمت. وتفوّست في وجهي مليّاً ثمّ استطردت قائلة  
بجزع:

- إني أريد لك عروساً جديرة بك حقّاً. يبهز حسنها  
الآعين، وتطري أخلاقها اللسن، من أسرة كريمة ذات  
محتد، فتهمي لك قصرًا شاعلاً!

فسألتها وأنا أداري غيظي:

- وأين توجد مثل هذه العروس؟!

فقالت وهي تعضّ شفتيها:

- ستوجد حين يأذن الله!

وقلت لنفسي هذا تعجيز بلا ريب. واحتدم الغيظ  
بصدري وتراءى لي وجهها في حالة الغضب والثورة،  
فقلت لنفسي ساخطاً:

- إنّ أمتي إذا احتدّت توارى جمالها ونضبت سباحة  
وجهها.

## ٢١

الزواج! الزواج! لم يعد لي فكرة سواه، ولم أجد  
لحياتي معنى إلّا أن تتمّ به. إذا لم نتزوَّج فلماذا إذن  
نعيا، بل لماذا وجدنا في الحياة؟ إني أحنّ إليه حينئذٍ  
موجعاً تندى له الضلوع فتسحّ أشواقاً: إنّهُ جنة المبثلي  
بنار الجحيم. ولست أكفّ لحظة عن تحيّل في أحلام  
اليقظة الشاردة التي تغيب بي عن الوجود. إني أراي  
لصق حبيبي وعلى وجهها الأنبيق نقاب الحرير المطرّز  
بالفلّ، والشمع يزهر من حولنا. وأراي أمضي بها إلى  
مسكن في آخر القاهرة ولا أدري لماذا أحبّ أن يكون

النعم، وكانت لي بمثابة الهواء الذي ناعم به في كلّ  
لحظة من لحظات حياتنا دون أن يخطر لنا أن نشكر  
عليه. ولكّني لا أنفك عن التفكير فيما ينقصني فيعميني  
ما أنطلّع إليه عمّا أنعم به. إني شخص لم يقدر له أن  
يعرف شيئاً عن حكمة الحياة، فلم يخرج قطّ عن دائرة  
نفسه الضيقة، وفي ذلك سرّ دائي، هو الذي حال  
بيني وبين مسرّات الحياة، وما فيها من فضائل ومعاني  
وصداقات، وطوى صدري على النفور من الناس  
والخوف منهم، بل جعلني أعدّ الدنيا عدوّاً يتربّص  
بي. ولعلّهُ لم يكن يرضيني إلّا أن تخلي الدنيا نفسها من  
همومها لتكرّس حياتها لسعادتي، وليّا لم يسعها ذلك  
قاطعتها في عجز وخوف وناصبتها العداء، وانكششت  
في أعماق ذاتي جاهلاً ما يمتلئ صدرها من أناس وآمال  
وفضائل، وحقّ الحبّ وهو أوّل إحساس سامٍ ألهمه  
وقفت حياله جامداً حائفاً، أنتظر في يأس أن يبادر هو  
إليّ...

ثمّ جاء دور أمتي ولو متأخراً، فأخذت أتمرد عليها  
وإنّ لبث تمرّدي نازاً مكنونة لا يتطّير لها شرر. ونشأ  
ذلك من موقفها الغريب حيال ما يذكّرها بزواجي  
عاجلاً أو آجلاً. وقد لمست ذلك بنفسي حين حدّثتها  
خالتي - في إحدى زياراتها الرسمية - عن رغبتها في  
زواجي من ابنتها التي صارت شاتّة ناضجة، فرأيت  
كيف تلقت الاقتراح بنرفزة ظاهرة لم تستطع معها أن  
تحافظ على ما ينبغي المحافظة عليه فيما بين شقيقتين من  
مودّة أو مجاملة فغادرتنا خالتي مغضبة.

ولسته مرّة أخرى حين اقترحت عليها امرأة دلالة -  
كانت تزورنا في مواسم الكساء - أن تخطب لي عروساً  
لائقة، فرأيت كيف انفجرت فيها غاضبة ساخطة حتّى  
انعقد لسان المرأة دهشة وارتباكاً.

لاحظت ذلك بوجوم وغيظ، واستنكرته استنكاراً  
شديداً، ولم أجد له تفسيراً أرتاح إليه. ولم تكن بي  
رغبة إلى ابنة خالتي، ولا إلى عروس من عرائس  
الدلالة، ولكّني آنست منها كرهاً لزواجي، فاشفقت  
على آمالي، وثارث نائرتي وبدا لي أنّ قلبها توجّس  
خيفة فقالت لي يوماً:

وتردّدت لحظة ثم استطردت متسائلة:

- ولكن... لماذا تلقي عليّ هذا السؤال؟

وحولت عنها بصري كأنني خفت أن تقرأ ما في ضميري، وقلت بعدم اكترار:

- سؤال لا أكثر. أحبّ دائماً أن أعرف ما يحول بخاطرك.

فتهدّج صوته وهي تقول:

- ليس بخاطري إلاّ فوق ما تحبّ لنفسك من

السعادة والهناء... ولكن ليس الزواج هوّاً ولعباً،

إليك مأساة أمك فهي أكبر دليل على ما أقول. واذكر

دائماً أنّ اختيار الزوجة مهمّة شاقّة، وهي من شأن الأمّ

قبل أيّ إنسان آخر، لأنّ هذا ميدان تجاربها، وهي

تعرف ابنها أكثر ممّا يعرف نفسه، وتستهدف سعادته

قبل سعادتها هي، كذلك السنّ أمر عظيم الخطورة،

وأنت بعد في حكم الأطفال... لماذا تلقي عليّ هذا

السؤال «وهنا ازداد صوته تهادّجاً». إليك مأساة

أمك فهي لا ينبغي أن تغيب عن وعيك. كم

تعذّبت، وكم تألّت، وكم كابدت الإهانة تلو الإهانة!

كم بكيت حيناً إلى أطفال الذين عاشوا غرباء عنيّ

ونحن في مدينة واحدة! وحتى أنت كان شبح فراقك

يطاردني ويقضّ مضجعي، ولو أخذوك منّي لقضيت

غماً وكمدّاً وكم تمثّيت الموت صادقة لأرتاح من

وساوس حياتي المقلقة «خيّل إليّ أنّها تعني حياتها

الراهنّة بقولها الأخير» ولذلك كرّست حياتي لرعايتك،

وضحيّت بسعادتي في سبيلك، و... «تردّدت لحظة

ولعلّها همّت بتذكيري بالرجل الذي رفضته من أجلي ثمّ

عدلت». ولا تحسب أنّي آمنّ عليك، فالأمومة تستنكر

المنّ. ليته كان للبنوة بعض ما للأمومة من عطف.

لشدّ ما تنسى... ربّاه لا تؤاخذي، أنا لا أدري ماذا

أقول. ولكن لا تظنّ بأمر الظنون. إنّنا نعطي كلّ

شيء عن طيب خاطر، حتّى إذا شبّ المولود عن

الطوق لم يفكر إلاّ في أن يولينا ظهره ويمجد لنفسه

مهرباً. أقول مرّة أخرى لا تؤاخذي. لست أحسن

ضبط نفسي وأأسفاه. ولكن لقد عشنا معاً طوال هذا

العمر. وليس لي أمل في هذه الدنيا سواك، فإذا نبذتني

في آخر القاهرة. ثمّ أراها تنتظرنني بالشرفة فأهرع

نحوها وقد انطلقت من قفص إدارة المخازن فتجود لي

سعادة هفافة يعجزني تصوّرها حتّى في الأحلام بيد

أني لم أتملّ الأحلام صافية فطالما أعقبت نشوة الفرح

الوهميّ كآبة غامضة لا أدريها، ولم يخلّ خاطري قطّ

من وجه أُمّي المحبوب فكان يتبايني حياء شديداً

يتصبّب له جيبني عرقاً، ويخامرني شعور بالذنب تعافه

النفس. فيتلوّى بوزي اشمزأزاً...

وفضلاً عن هذا كلّه فإنني لم أتحلّص من بعض

هوى للعزوبة نفسها! إنّ حبّ الوحدة داء، إنّه أشبه

بالمخدر تودّ منه فراراً ولا تستطيع عنه فكاًكاً، وتبغضه

لنفسك وأنت تعاني الحنين إليه. أتؤاتيني الجرأة حقّاً

على نبذ ماضيّ الطويل؟... إنّ نفسي تهفو إلى البيت

الزوجيّ السعيد حيناً، ثمّ يتملّكها الإشفاق على

الوحدة الهادئة والطمأنينة المعفاة من المسؤوليات حيناً

آخر. وإنّ الهرب من المسؤوليات داء قديم حتّى لأضيق

بحلاقة الذقن أو عقد رباط الرقبة، فكيف أنبري

لحمل تبعات البيت والزوجة والذريّة وما يجرّ ذلك من

حياة اجتماعيّة متعبة بما تفرضه من واجبات وتقاليدها!

إنّي أختيّل تلك الواجبات فتبدر أطرافيّ، ولكنّي في

الوقت نفسه لا أكفّ دقيقة عن الحنين إلى الحياة

الزوجيّة.

بنت أشعر بأنّي فريسة همّين قاتلين: تردّدي وأُمّي.

ومن يدري فلعلّ أُمّي هي الهمّ كلّها. وتجمّعت نفسي

الحيريّ تروم سلاماً تلوذ به، فأجمعت على أن أقابل

الخطر وجهاً لوجه وليكن ما يكون... .

وإنّي لجالس إلى أُمّي ليلة إذ قلت لها بلا سابق

إنذار:

- ألاحظ يا أمّاه أنّك لا ترغبين في زواجي.

فاتسّعت عيناها الخضراوان الجميلتان دهشة،

وقلقت فيهما نظرة حائرة، ثمّ قالت بصوت متغيّر:

- إنّي أرغب في سعادتك دائماً، وهذا شغلي

الشاغل. وإذا كنت لم أوافق على ما عرض لي من هذا

الأمر في الماضي فلأنيّ وجدته دون ما أرجوه لك، ولا

شكّ أنّك تدرك هذا تمام الإدراك. ولكن... .



شديد الذبول والهزال لنحولها الطبيعي فتوجّع قلبي  
توجّعاً أليماً. ولم أطق أن أراها محرومة من جمالها  
وصحتها، فأحزني منظرها وساءني إهمالها نفسها.  
وكانت تعصب رأسها بمنديل فبرزت تحت طرفه  
خصلات من شعرها وخَظَلها المشيب وشَعَثها الإهمال  
فضقت صدرًا وتجهّم لي وجه الدنيا. ويومًا - وكنت  
جالسًا إلى جانبها - جرت في تيّار شعوري خواطر  
غريبة لعلّ باعثها الخوف والإشفاق، فطرحت على  
نفسي هذا السؤال الخطير: كيف تكون الحياة لو خلت  
من هذه الأمّ الحنون؟ واقشعرّ بدني، بيد أن خيالي لم  
يمسك عن هذيانه، فتابعت المناظر أمام عيني  
واستسلمت لمشاهدها في حزن صامت ثقيل. رأيت  
بيتًا مقفّرًا ورأيتني تائهاً حائرًا كمن ضلّ سبيله في  
مفازة، وهذا جدّي متبرّمًا ساخطًا يصبّ جام غضبه  
على الخادم العجوز والطاهي. ولست عجزي عن  
مواصلة هذه الحياة الموحشة فاقترحت على جدّي أن  
أتزوّج لنجد من يكملنا برعايته. ثم رأيت حبيبتني  
بقامتها الرشيقة ووقارها المحبوب تتعهد البيت وآله  
بعطف سابغ وحبّ شامل. ثم رأيتنا جميعًا - أنا  
وزوجي وجدّي - واقفين على قبر عزيز نرويه بدموعنا.  
وانتهت إلى نفسي في فزع فأحسست بالدمع حائرًا بين  
جفني. وعضّ الندم قلبي، وامتلات نفسي امتعاضًا  
وثورة، وغمغمت لنفسي «اللهم غفرانك، اللهم اكتب  
لها طول العمر»، ثم هويت على وجهها فقبلته بحنان،  
وقد طاردتني ذكرى تلك الخيالات كثيرًا حتّى تركت في  
آثارًا عميقة من الألم والحنق. ولازمني همّ مقيم حتّى  
بعد أن برأت وعادوها نشاطها وجمالها. وكدت أعود  
إلى ذلك التفكير السقيم في الحياة الذي يقف عند  
طرفيها - الميلاد والموت - ويرى ما عدا ذلك هباء في  
هباء، وهو ذلك التفكير الذي تأدّى بي فيها مضى إلى  
محاولة الانتحار لولا أن الله سلّم

لم أجد لي مأوى. أنتم حياتنا في صغرنا وكبرنا على  
السواء، أمّا نحن فتحبّونا صغارًا وتكرهونا كبارًا، أو  
أنكم تحبّونا حين لا تجدون من تحبّونه غيرنا، ماذا  
قلت؟ ... أستغفر الله ... ساعني يا كامل، إني  
مضطربة، لست أحسن الحديث على الإطلاق ...

وعجبت كيف انحدر بها الحديث ذاك المنحدر  
الصعب. بدأ الكلام مقبولًا ثمّ تشنّج. وحاولت أن  
أحول دون استرسالها فلم تجد محاولتي، فاضطرت أن  
أتحزّعه على ما أثار من ألم وحزن، وتبادلنا نظرة طويلة،  
دلّت على العتاب من ناحيتي، وعلى الذهول من  
ناحيتها. لم تكن في كامل وعيها وأسفاه. وقلت  
بأسى:

- أهذا جزء من يسأل سؤالاً بريئاً؟!

فاغرورقت عيناها، وقالت وهي خافضة العينين:

- أنا لا أحسن الحديث أحيانًا ويحسن بي أن  
أمسك. لا تخش جانبي، وإذا راق لك يومًا أن أغيب  
عن وجهك فما عليك إلّا أن تومئ إليّ ولن تجد لي  
أثرًا ...

ووضعت يدي على فمها وصحت بها:

- ساعك الله. حسبنا كلامًا. لقد أخطأت بسؤالي

البريء خطأ كبيرًا!

ثمّ تظاهرتُ بعدم الاكتراث، بل ضحكت طويلاً،  
وكأنّ ما كان لم يكن، وراح قلبي وحده يجرّ آلامه.  
أثر في كلامها حتّى هزّني هزًّا عنيقًا فحزنت حزناً لم  
أشعر بمثله من قبل. وعجبت كيف يغلبها الانفعال  
على نفسها فتلقني في وجهي بتلك الاتهامات الجارحة.  
ولم أخلّ من سخط عليها لا لأنّها اتهمتني بالباطل -  
فذاك نثار غضب وقّي لا قيمة له - ولكن لأنّها قابلت  
رغباتي الكامنة بثورة تجاوزت حدود الحكمة! وتناديت  
في سخطي فقلت إنّها ذكرت نفسها أكثر ممّا ينبغي  
ونسيتني أكثر ممّا ينبغي ... واستسلمت كالعهد بي  
لداعي أنانيتي فرميتها بالأنانية ..

وعقب حديثنا الغريب بيومين أصابتها وعكة مرض  
ألزمتها الفراش فلم أفرقها أثناء مرضها إلّا في أوقات  
العمل. ومع أنّ الحالة كانت خفيفة إلّا أنّ وجهها بدا

جاء الصيف، ومعناه - بمقياس القلب - أنّ حبيبتني  
ستنقطع عن الذهاب إلى المعهد فلا تتاح لي رؤيتها إلّا

في الشرفة أو النافذة. إنَّها تعرفني الآن حقَّ المعرفة كما يعرفني البيت جميعاً، ذلك الفتى الذي يتطلَّع إليها دوماً، ويرنو صوبها بعينين يتجلَّى فيهما الإعجاب والحب، ويثابر على ذلك في صبر عجيب زهاء عام دون أن يبدي حراكاً، والأعجب من هذا كلُّه أنَّني كنت أضبط عينيها في لفتات عارضة وهما ترنوان إليَّ فأجنَّ جنوناً. وإني أكاد أسمعها تتساءل عما أريد، بل أسمعهم جميعاً يتساءلون، وهذا يسعدني ويشقيني معاً، والحقُّ أنَّي أحبك يا حبيبي، أحبك بكلِّ قوَّة نفسي، فإذا سألت بعد لماذا لا أبدي حراكاً؟ أجبتك بأنَّني لم أدر كيف أبدي حراكاً في حياتي، ووراثي أم، وحظَّ محدود، فكيف يمكن تذليل هذه الصعاب؟... خبِّريني يا حبيبي أطر إليك بغير جناحين!

وكان يوم غريب في حياتي...

وبدأت الصباح بوقفة الهيام وتطلَّع العشق. ثم ذهبت إلى الوزارة تتنازعني أحاسيس السعادة والشقاء شأني كلَّ صباح، وراح الموظفون يستقبلون اليوم كعادتهم بالثرثرة، فقال أحدهم وكان يليني في مجلسه: - سكرت أمس حتَّى تأرجحت بي الكرة الأرضية! وثار اهتمامي فجأة وحضرتني أبي بصورته وذكرياته. ترك في قوله أثراً لم يدركه أحد ممَّن يجلسون حولي، ولا عجب فالخمر كتبت تاريخ أسرتنا وقرَّرت مصائرها، والتفتُّ نحو الموظَّف ونذَّ عني هذا السؤال همساً بلا وعي تقريباً:

- لماذا تشرب حضرتك الخمر؟

ثم أدركت في التَّوَّ تسرَّعي وخطئي فعلانٍ الارتباك والحياء. ولم أكن خاطبت أحداً في الإدارة منذ التحاقني بالخدمة في غير شئون العمل حتَّى أطلقوا عليَّ «غاندي» لما عُرف عن الزعيم من أنَّه ينذر يوماً في الأسبوع للصمت. وفرح الرجل بتطفلي عليه وقال بصوت مرتفع وهو يوميُّ إليَّ:

- أخيراً تكلم!

وسأله أحدهم وهم يصوِّبون أنظارهم نحوي:

- مَنْ؟

- غاندي.

- وماذا قال؟

فقال الرجل ضاحكاً:

- يسألني لماذا أشرب الخمر!

فقال آخر:

- سكت دهرًا ونطق كفرًا!!

وقهقهوا ضاحكين، بينما ذهبت في مقعدي صامتاً، وراح أكثرهم يحذثني عن الخمر والنشوة واللذة والنسيان. ندمت على ما بدر مِنِّي ممَّا وضعني موضع سخريه ومزاح. وتفكرت في الأمر طويلاً، ثم أفقت إلى نفسي فوجدتها - لدهشتي - تتلهف على تجربة الخمر!! ولشدَّ ما عجبت فيها أعقب ذلك من أيَّام لتلك اللهفة الغريبة بعد ستَّة وعشرين عاماً، قطعتها فيما يشبه النسيان إذا استثنيت اللذة السريَّة التي جرَّعتني مرارة الذنب والندم. هل نشبت تلك الرغبة في نفسي فجأة؟ إنَّ ظاهر الأمر يدلُّ على أنَّ ذاك الحديث الذي دار بين الموظَّفين كان الباعث على تلك اللهفة، ولكن هل يعقل أن يهوي إنسان مستقيم مثلي لعارض تافه كذاكَ العارض؟! لقد ركبني جنون، فتمنَّيت أن ينقضي النهار سريعاً لأقرع باب اللذات الموصد، ولأحطِّم الأغلال التي أذعنت لها طوال عمري، وقلت لنفسي وكأنَّ الذي يتحدث شخص غريب: «سأجرب الليلة الخمر والنساء» وأراحني التصميم لأنَّه خير من القلق والتردد، ولأنَّي متَّيت نفسي بأنَّ أجد وراءه متنقِّساً للضغط الشديد الذي يؤودني، ولم أعرف التردد - ذلك الرفيق البغيض - طوال يومي، فعند الأصيل كان الترام يحملني إلى العتبة، ووقفت في الميدان حائراً لا أدري أين توجد الحانات! ثم رأيت عربة فناديت الخوذي وركبت ثم قلت له بصوت منخفض في حياء شديد:

- حانة... أيَّة حانة من فضلك!

فحدجني الرجل بنظرة غريبة ثم قال وهو يلهب

ظهر الجوادين بسوطه:

- سأذهب إلى شارع ألفي بك وهناك تختار الحانة

التي تعجبك!

كونياك... جعة... نبيذ؟!  
 فسألته في ارتباك أشد:  
 - أيها أفضل؟  
 - هذا يتعلق برغبتك، ولكنّ الجوّ حارّ فالجعة  
 شراب مفضّل.  
 وخرجت من حيرتي وطلبت جعة، وغاب دقائق ثمّ  
 عاد بقدرح يفور ووضعه أمامي، وقبل أن يبتعد سألته:  
 - كم قدحًا من هذه يُسكر؟  
 فنظر صوبي كما نظر الخوذي من قبل وقال:  
 - تختلف النسبة تبعًا للناس، ولكن إذا كنت مبتدئًا  
 يحسن ألاّ تجاوز القدرح الثالث.  
 فقبضت على القدرح فوجدته باردًا لطيفًا، وأدريت  
 منه أنفي فشمنت رائحة حمضية لم أرتح لها، ولكن  
 فأت وقت التردّد، وقربت وجهي وأدليت لساني،  
 ولعقت من رغوتها لعقة في خوف وحذر. واشتدّ توتّر  
 أعصابي فرفعت القدرح إلى فمي وأفرغت ما فيه دفعة  
 واحدة في تقزّز كأنما أتمجّع شربة. وأنعشتني برودته،  
 وشعرت به في بطني يتلوّى نائفًا حرارة غريبة.  
 وانتظرت ذاك الأثر السحريّ الذي سمعت عنه  
 الكثير. وفي تلك اللحظة جاءت لمة من الأجانب  
 يرطنون ويتضاحكون وتحلقوا مائدة كبيرة، فداخطني  
 شعور بالضيق، بيد أنّهم لم يلتفتوا نحوي على  
 الإطلاق، فسكن روحي، وعاد شعوري إلى الحرارة  
 الطيبة التي تنتشر في بطني. وحمل الدم المتصاعد إلى  
 الرأس نفحة من هذه الحرارة إلى المخّ فتمطّى كما  
 يتمطّى المستيقظ لدى تلقّيه أوّل شعاع من الشمس،  
 ونفض عنه القلق والحذر، فأحسست ارتياحًا عامًا  
 لذيذًا، وانبسطلت أسارير وجهي... وما لبثت أن  
 طلبت قدحًا آخر بشجاعة لم أعدها في نفسي من  
 قبل، وما كاد النويّ يضعه أمامي حتّى رفعتني إلى فمي  
 وتمجّعته على دفعتين. وانتظرت في ارتياح شامل  
 وإحساس مركّز في باطني، وسرى في جسمي سرور  
 عجيب أغمضت له جفني استسلامًا، سرور دار مع  
 دمي، ورقص في غيّي، باعًا لذّة هي الجنون نفسه،  
 حتّى وجدتهني مخلوقًا أثيرًا طلبًا من متاعب عقله وقلبه

وانطلقت العربية فذكرتني بالخانطور القديم وأيامه  
 الخوالي. وكان بحافظتي عشرون جنيهاً غير «الفكة»  
 لأنّ مرتبي وإن كان صغيرًا في ذاته إلّا أنّه كان يُترك لي  
 كلّ فكفاني وزاد عن كفايتي. ولمّا شعرت بأنّ العربية  
 تقترب من الهدف الذي تلهّفت عليه اليوم كلّ دقّ  
 قلبي بعنف واعتراي اضطراب شغلي عن رؤية  
 الشوارع التي تخترقها العربية. ووقفت العربية عند رأس  
 طريق طويل يتوسّطه صفّ طويل من السيّارات  
 والعربات. وقال الخوذيّ وهو يلوّح بسوطه:  
 - إليك الحانات على الجانبين...

وغادرت العربية بعد أن نقدته الأجرة فوجدت  
 نفسي حيال حانة صغيرة لا تزيد في الحجم على حجرة  
 كبيرة وقد وقف الدُّلّ بابها لأنّه لم يكن أمّها أحد  
 بعد، وانتابني التردّد لأوّل مرّة ففكرت في أن أعود من  
 حيث أتيت. ووقفت متحيرًا ثمّ تولّاني الشعور الذي  
 ملكني يوم اندفعت إلى سور جسر الملك الصالح  
 لأرمي بنفسي إلى النيل فانطلقت صوب الحانة  
 ودخلت. وتبيّن لي أنّه يوجد في نهايتها مدخل إلى  
 حديقة صغيرة في حجم المكان الخارجيّ في وسطها  
 نافورة، وتطلّها عريشة عنب، وفي جنباتها الموائد،  
 فوجدتها آمن للمختلس، وانتقلت إليها وجلست إلى  
 إحدى الموائد بعيدًا عن مدخلها. كنت متوتّر  
 الأعصاب ولكن لم أعد أفكر في الهرب، وجاءني نويّ  
 في سروال أسود وسترة بيضاء فابتسم في أدب ووقف  
 منتظرًا أمرّي. فقلت بصوت مهموس والدم يتصاعد  
 إلى وجهي:

- خراً!!

فلم يبد عليه أنّه فهم شيئًا، وتساءل في نبرات  
 كرنين النحاس:

- ويسكي؟... كونيّاك؟... جعة؟...

نبيذ؟...

وتولّنتي حيرة الجاهل، فقلت بارتباك:

- أريد خمرًا...

فابتسم الرجل ابتسامة آلتني وتساءل:

- أيّ نوع منها تريد؟... ويسكي...

وحياته . وداخلي إحساس لا عهد لي به بالثقة والعظمة فرفعت رأسي عاليًا في سلطنة وأنا أعجب للنشوة السحرية التي لم يدر بخلدي قط أنها توجد في هذه الدنيا . ثم فركت يدي في سرور ومددت ساقِي لا أبالي أين تقعان . . . وبغته تخاليلت لعيني صورة حبيبي بقامتها الهيفاء ونظرتها المستقيمة المحتشمة فأتزع قلبي حنانًا وشوقًا وهزّني نشوة فوق نشوة الخمر . ما ألطفك يا حبيبي! إنّي أدرك الآن سرّ نشوة الخمر . إنّه الحبّ .

الحبّ ونشوة الخمر من عصير واحد يقطر من صميم الروح، وهل الحبّ الموقّ إلّا سكرة طويلة؟! فإنّ فاتني الحبّ بين يديك فلن يفوتني في الخمر! لماذا أخاف دائئًا؟ إلّا أنّ المخاوف جميعًا لأوهام، وإلّا فما لها اختفت من أفقي في غمضة عين؟! لقد تكشّف لي وجه الحكمة ولن أتردّد بعد اليوم، سأومئ لحبيبي إذا وقعت عليها عيناى أو ألوح لها بيدي . ستعقد الدهشة لسانها ويحمرّ منها الخدان! ويحيى دورها في الخجل، دقّة بدقّة والبادئ أظلم . وسوف تتسائل في استغراب هل تحرك أخيرًا، أجل يا حبيبي، تحرك، ولن يوقفه شيء، ورأيت عند ذاك النادل يحوم حوالِي فطلبت القدح الثالث ثمّ ألحقته بصاحبيه . وعدت إلى خيال حبيبي بجسم كلّ قلوب، وما به من عقل . وقلت بصوت مهموس وكأني أعظ جليسا غير منظور «إذا أحببت فبحّ حبك إلى حبيبك وليكن ما يكون» ثمّ ذكرت أمي، ولكن دون خوف هذه المرة، لم أشكّ في أنّها ستحبّ حبيبي إذا رأتها، وستذهب مخاوفي القديمة إلى غير رجعة، أمّا جدّي فما أحرّاه إذا علم بالنبا السعيد أن يقهقه ضاحكًا، وهنا ضحكت بصوت مسموع لفت إلى الحاضرين . وألقيت نظرة على ما حولي فرأيت الحديقة اكتظّت بالوافدين . . . وقد تضاحك الأقربون، ولكّني لم أرتبك، بل ابتسمت إليهم وقلت بجساسة غريبة «اضحكوا!» فضحكوا، وتساءل أحدهم مبتسمًا:

- هل من أمر آخر؟

وكنّت من السكر في غاية فقلت بلسان ملعّم:

- هاتوا لي حبيبي!

فسألني الشاب:

- أين هي؟ . . . وأنا كفيل بإحضارها . . .

فقلت:

- البيت أمام المحطّة!

فسألني مبتسمًا:

- آية محطّة؟

فتفكّرت قليلًا حتّى عثرت على شاهد للمحطّة فقلت:

- المحطّة أمام المرحاض العمومي!

فضحكوا جميعًا، وانهالوا عليّ قفشًا وتنكيتًا، وشاركهم ضحكهم بغير مبالاة، ثمّ أثرت أن أغادر المكان، فدعوت النادل ونقدته الثمن وحيّيت رفقاء السكر، وذهبت وقفشاتهم تواصل توديعي بلا رحمة، كنت أترنّج، فقصدت عربة في الموقف، وتوسّطت مقعدها في خيلاء، وقلت للحوذيّ بصوت مرتفع:

- إلى بورّ الفساد!

وتحرّكت العربة وسرعان ما ارتحمت إلى سيرها اللوائي، وجعلت أنظر إلى الطريق في لدّة وبهجة، حتّى وددت أن يطول المسير إلى غير نهاية، وأدركت أنّي مقبل على تجربة جديدة لا تقلّ خطورة عن الأخرى، فساورني بعض القلق، ثمّ غلبتني اللهفة . ووقفت العربة في شارع معربد، ولوّح الحوذيّ بسوطه وهو يقول ضاحكًا:

- هنا الفساد الأصلي . . .

وسألته بعد تردّد:

- ألدّيك فكرة عن الأسعار؟!

فقال مقهقهًا:

- أغلى مرّة بريال!

والمني التعبير على رغم سكري، وغادرت العربة فوجدتني في دنيا تتوهج بالأنوار كالصواريخ، وتزدحم بالسكرارى والعابثين، وتختلط بها أصوات الضحك بالشتّم والصراخ، وتنبعث من جنباتها دقّات الدفوف وأنغام مبتذلة من كمان مسلول أو بيان محشرج . وقد سطع أنفي شذا بخور طيّب . ولم أجد من نفسي الجراءة على التخبّط وسط الجموع المعرّبة، فعرجت إلى أقرب

«تأخّرت كثيراً» ولم أجبها بكلمة وواصلت نزع الملابس حتّى خذلتني قدماي فارتميت على المقعد، واستجمعت قواي ونهضت، ولكنّي ترنّحت في موقعي وكدت أهوي إلى الأرض لولا أن أمسكتُ بعمود السرير. وانزلت أُمّي من فراشها وأقبلت نحوي متسعة العينين دهشة وفزعاً، وتفرّست في وجهي قليلاً دون أن تنبس بكلمة، ثمّ أجلسني على المقعد وراحت تنزع عنيّ ملابسني، ثمّ أنامتني على فراشي، فما مسّ جانبي الحشية حتّى سارع إليّ النوم. وخيل إليّ، أو حلمت، أن أُمّي تتحب...

## ٢٣

استيقظت مبكراً على غير ما كان يُتوقع. وتذكّرت الأملس كلّ في ثوانٍ. والتفت برأسي في خوف نحو الفراش الآخر فعثر بصري في طريقه بأُمّي وهي تصلّي. والتهب وجهي حياء، وغادرت الفراش في عجلة ومضيت إلى الحامّ في حيرة بالغة. ورجعت إلى الحجرة فوجدتها منتظرة، تحاول أن تبدو هادئة لولا أن خانتها عيناها الصافيتان اللتان لا تعرفان الكذب، وتحاميت نظراتها، وحيتها تحية الصباح بصوت لا يكاد يُسمع، فتنهّدت بصوت مسموع، واقتربت منّي، ووضعت يدها على كتفي وقالت بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء:

- دعوت لك بعد صلاتي طويلاً والله سميع مجيب. ليس لدينا متسع من الوقت فأصغِ إليّ يا كامل بقلبك قبل أذنيك. فات ما فات. ما كنت أتصوّر ذلك على الإطلاق، ولكنّ أوساط الموظفين أوساط غواية وفساد. إنّها زلّة شيطان فُتّب إلى الله عنها. هل من حاجة إلى تذكيرك بمأساة أبيك وأنت من شهودها وأملك من ضحاياها؟! ولكنّ قلبي مطمئن رغم ما حصل، لأنك مؤمن تخاف الله ولأنك ابن أملك لا ابن أبيك، وخليق بمن يصلي بين يدي الله خمس مرّات في اليوم مثلك أن يحرص على المثل بين يديه نقيّاً طاهراً. لا تنس أن هفوة الأملس شرّ كبير، وأنّها ستظلّ سكيناً تقطّع قلبي. لم يعد في وسعي وألسفاه أن أستبقيك إلى جانبي، فإذا

باب ودخلت، وجدت نفسي عند مدخل فناء واسع مستدير تفتح عليه أبواب كثيرة، وعلى محيط دائرته صفت الأرائك والكراسي يجتلفها رجال ونساء، وفرشت أرضه برمل أصفر فاقع، وراحت ترقص عليه امرأة نصف عارية، وكأنّ الجسارة التي خلقتها الخمر قد طارت فتمسّرت في مكاني لا أجازه ولم أدر ما أنا فاعل. ثمّ ثبتت عيناي على الراقصة في دهشة لأنّي كنت أشاهد الرقص أوّل مرّة، ألقيت على الجسد الملتوي، الشبه العاري نظرة اشمئزاز وخوف، وأزعجتني حالة وجهها إذ أثقله الطلاء الفاضح، وانفجرت شفتاها عن أسنان ذهبية فكانت بعرائس الحلوى أشبه. وفجأة لاح أمامي رجل ذو جلباب مقلّم زاهي الألوان تنطق قساياه بالدمامة والدناءة ودعائي للجلوس، فتراجعت مبتعداً عنه فاصطدمت بشخص ورائي. فدرت على أعقابني لأتفادى منه فأريت امرأة من جنس الراقصة ولا شكّ حالت بذراعيها بيني وبين الذهاب. كانت تبتسم ابتسامة كريهة، وتمضغ لادناً مفرقة بأسنانها، فبردت أطرافي، وانقبض قلبي جفولاً، وقرأت في وجهي الخوف والوجل فأطلقت ضحكة كالصفير، ومدّت يدها بسرعة فخطفت طربوشي، ووضعت على رأسها ومضت صوب باب قريب في خطوات سريعة. وقال لي الرجل وهو ما يزال بموقفه:

- اتبعها بلا تردّد، هذه زوزو المنهجة، لا مثل لها ولا في المذبح!

ولم أطق الوقوف أكثر من ذلك فغادرت البيت لا ألوي على شيء، غير مكترث لفقدان طربوشي، وركت أوّل عربة صادفتني وقلت للحوذي «إلى المنزل». عدت إلى البيت قبل منتصف الليل مهيض الجناح، يمضني الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة. لم أكن أتصوّر أن يتمخّض الحلم المرموق عن هذه البشاعة الفظيعة. وكانت النشوة الساحرة قد طارت مخلفة وراءها خائراً ثقيلاً باخنت له روحي، ولم أدر كيف أيقظت أُمّي وأنا أنخلع ملابسني، فجلست في فراشها ونظرت في «المنبه» وهي تغمم متشاببة:

تَلَوَّيْهَا وتَعَقَّدْهَا وطلَّأُهَا الكاذب وشقائِها الدفين فلماذا  
إذن أقاوم إغراء النشوة الساحرة؟!

\* \* \*

ودعيتي أُمِّي عصر ذلك اليوم إلى زيارة «أم هاشم»  
فخرجنا معاً بعد أن انقطعت عن الخروج في صحبتها  
أعواماً، وركبنا عربة، فجلسنا ملتصقين جلسة أعادت  
لنفسنا ذكريات «الحنطور» القديم، فحققت رقتها من  
قلق النفس المستحوذ عليّ. كانت أُمِّي ترتدي معطفاً  
صيفياً رقيقاً تقمصه جسمها النحيل في رشاقة لطيفة.  
وبدا وجهها المليح هادئاً مستسلمً وعيناها الخضراوان  
صافيتين تلوح فيهما نظرة حاملة يشوبها شيء من  
الحزن. وقد تلَّعَ رأسها بخمار أسود أحاط وجهها  
بوقار لم يخلُ من أثر للأربعة والخمسين عاماً التي  
قطعتها فيما قُسم لها من حياة. وحنَّ قلبي لها فوددت  
لو أستطيع تقيلها، وتفكرت في تقدّم عمرها نحو  
الشيخوخة بأسى عميق، ثم ذكرت الخواطر الخائنة  
التي دارت برأسي على فراش مرضها، فعضضت على  
شفتي بقسوة وحنق. يا لها من خواطر مقيتة! إنَّها من  
صميم الألم الذي ألتمس في الحرب مه أيّ سبيل،  
وهوَّ من وجدي ما كان يحيل إليّ من أنَّها سترث عمر  
جدي الذي يهدف إلى التسعين.

كبر عليّ في تلك اللحظة عصيانها، بيد أنَّني شعرت  
في أعماق نفسي بأنِّي ذاهب إلى توبة كاذبة لا يسعني إلا  
الإذعان لها. وساءني ذلك وأحزنتني. كيف ألقى أم  
هاشم بهذا القلب الخائن وهي التي لا تخفى عليها  
خافية؟ كيف انقلبت بين عشية وضحاها من وِرع  
طَّيَّب إلى شيطان مولع بالمعصية؟! وانتهينا إلى الجامع.  
ودخلنا ونحن نقرأ الفاتحة، وقصدنا الضريح يتوزَّع  
قلبي الحب والإيمان والخوف. ونسَّمت على قلبي  
ذكريات الأيام الخوالي حين كنت أنفذ للجامع الطاهر  
بقلب سعيد لم يعانِ بعد الشعور بالذنب وعذاب  
الضمير. وتقدَّمتني أُمِّي إلى المقام وهي تهمس بحرارة:  
«جنتك يا أم هاشم بكامل، ليتوب عن هفوته بين  
يديك فباركيه وسدي خطاه!». ثم دفعتني نحو باب  
المقام فبسَّطت راحتي عليه، وشعرت ببرودة تسري إلى

خرجت إلى الدنيا فلاقها بقلب التقيّ المؤمن. ستذهب  
اليوم إلى السيِّدة أم هاشم لتقدِّم توبتك على يديها.  
لم تلتق عيناها بعينيها ذاك الصباح. ومضيت إلى  
الوزارة محزوناً، أستعيد قولها كلمة كلمة، وأنعم فيه  
الفكر. هالني افتضاح أُمِّي، وقدرت عنف الصدمة  
التي تلقَّتها أُمِّي البائسة. وذكرت الحبية التي منيت بها  
في فناء البيت الغريب، فتلوت شفتاي تقرُّراً. على أنَّي  
لم أنس نشوة الخمر. لم أنسها رغم ما أعقبها من خمار  
وتعب وفضيحة. ولم ينفذ مقتها إلى قلبي حتَّى بعد  
صلاة الصبح التي أدَّيتها في صدق وإيمان. ولم يكن  
ضميري مستريحاً، ومتى كان مستريحاً؟! ولكن أحلام  
النشوة الساحرة هجمت عليّ فاجتاحت في سبيلها  
ضميري وآلامي وأُمِّي. هي النشوة التي تطلَّ معاني  
السعادة والطرب مغلقة حتَّى تجري في الدم فتفتح  
أبوابها المساوية. إنَّها مطلبي. ربَّاه كيف أهجرها  
وأَتوب عنها؟ وما عسى أن يبقى لي بعدها غير اللهفة  
الكظيمة والحسرة القاتلة والقلق الذي يمزق حياتي  
إرباً؟! وحتَّى لو استسلمت لإغرائها الشيطانيّ،  
فهيئات أن تخلص لي صافية، بل ستضيف إلى  
ضميري نزاعاً جديداً ما كان أغناه عنه، كنت وما  
أزال في جذب ودفع متواصلين، بين اقتحام الدنيا  
والفصول منها، بين حبيبي وأُمِّي، بين إدمان العادة  
الجهنميّة ورغبة الإقلاع عنها، فجاءني نزاع جديد بين  
الميل إلى الخمر والتوبة عنها زادني رهقاً، حتَّى انقلبتُ  
أرجوحة تدفعها الشياطين وتجذبها الملائكة، ولا تكفّ  
عن التأرجح لحظة واحدة. وبلغ بي القلق غايته  
فتأهت متسائلاً في حيرة بالغة: لماذا لم يخلق الله الحياة  
نشوة خالصة تدوم جيلاً فجيلاً؟ لماذا لا نفوز بالسعادة  
بلا عناء ولا قنوط؟ لماذا يخنق الحب في قلوبنا يأساً،  
والحبيب يغدو ويروح على مرمى قبلة منا؟!

ليكن ما يكون، الخمر مفتاح الفرج. هي العزاء  
هي كلمة السرّ التي تفتح لي باب حبيبي الموصد. لا  
أريد الدنيا ما دامت تأبى أن تغير ما بنفسها. إنَّ مقتي  
للواقع ليس دون مقتي لتلك الراقصة المخيفة. الدنيا  
نفسها تتكشّف لي عن صورة شبيهة بتلك الراقصة في

فحملت في وجهه بفزع، وانعقد لساني، فربّت على كتفي وقال بصوت حزين:  
- تشجّع يا بني من أجل والدتك، وكن رجلاً كما نرجو لك، كان جدّك يتوسّط مجلسنا كعادته كلّ صباح بلونابارك، فشعر بضيق في التنفّس وطلب قدحاً من الماء، ولم تكّد تمضي لحظات حتّى سقط على المائدة فحسيناه أصيب بإغماء، ثمّ تبّين أنّ السرّ الإلهي قد صعد إلى بارئه. . .

هتفت بصوت مبجوح:

- واين هو يا سيّدي؟

فتمتم الرجل:

- أحضرناه معنا في سيّارة.

وما كاد الرجل يتمّ قوله حتّى رأيت في أسفل السّلم رجالاً أربعة يحملون جدّي ويرتفون السّلم على مهل وحذر، فسارعت إليهم ذاهلاً، وشاركنهم في حمله وأطرافي ترتعد جميعاً، ثمّ دخلنا الشّقة وهو بين أيدينا، رأيت أمّي في نهاية الصّالة، وقد ندّت عنها صرخة فزع، وأقبلت نحونا لا تبالى الأغراب، وسألتنا بجزع:

- ما له؟! ماذا به؟!؟

ولكنّها لم تسمع جواباً، أو وجدت في الصمت جواباً فصرخت صرخة مدوّية، وولولت في توجّع «أبي... أبي». وأثمنه على الفراش، ثمّ أقبل الرجال عليه يقبلون جبينه واحداً في أثر آخر، وعزّوا أمّي، وخرجوا من الحجرة صامتين، وسألني بعضهم عمّا إذا كنت في حاجة إلى شيء فشكرت لهم، وتطوّع البك الذي قابلته أولاً فدلّني على الإجراءات المتبعة، وأخبرني بأنّه سيقوم بإبلاغ وزارة الحربيّة؛ وأنّه يستحسن أن تشيّع الجنّازة في العاشرة من صباح الغد. ورجعت إلى حجرة جدّي مهرولاً فوجدت أمّي تبكي بكاء مرّاً فلم أتمالك أن أجهشت في البكاء، ولكنّها لم تسمح لي بالبقاء في الحجرة، ولكي تشغلني عن الحزن أمرتني أن أبرق بالخبر إلى خالتي وأخي وأن أذهب إلى أختي لأذنها بموت جدّها. وغادرت البيت لأداء هذه الواجبات، وعدت إليه مرّة أخرى ومعني أختي راضية

فؤادي، فوقفت صامتاً مليّاً، حيال جلال تخشع له القلوب، وخلت الحدث الطاهر يرمقني بعينين متألّقتين لم يغيّرهما الموت فدعوت بقلبي «أمّ هاشم» أن تلهمني الصواب وأن تنقّذني من حيرتي وشقائي، وأن تتوب عليّ. وتردّدت لحظة ثمّ سألتها أن ترعى حيّي التعيس بعين الرحمة!

وغادرت المشوى الطاهر وأمّي تحفّف عينيها، ثمّ سألتني:

- هل تبت إلى الله؟

فأجبتها دون أن أحوّل إليها عيني:

- نعم.

فتمتّت برجاء:

- توبة صادقة إن شاء الله.

## ٢٤

لم يسعني مقاومة النزوة الجديدة. ولم يغن عني شيئاً لا ضميري ولا توبتي، ولا ما جُبلت عليه من مخافة الله. كنت من حيّاتي في قنوط، فعملي جدّ بغض، وحيّي حسرة طويلة، وإنّ الأيام لتمرّ ثقيلة بلا عزاء وبلا أمل، فتنظر عيناوي ويخفق فؤادي، ويُعني إرادتي العجز والخوف، فلم أجد من سلوى إلّا نشوة الخمر وتهالكت عليها! على أنّ ذاك العزاء التعيس لم يخلص لي طويلاً، ولم تملّ الاقدار لي في الاستمتاع به، ففي مطلع الخريف من ذاك العام، وفي يوم من أيّام الجمع - وكنت جالساً مع أمّي نتحدّث كعادتنا - دقّ جرس الشّقة، وفتح الخادم الباب ثمّ جاء يدعوني لمقابلة واحد «بك». وذهبت من فوري فوجدت رجلاً مهيباً في السّتين أو السبعين، فحيّته بأدب وألفيت عليه نظرة متسائلة، فبادرني متسائلاً:

- حضرتك كامل أفندي؟

فقلت وأنا أنفّرس في وجهه:

- كامل رؤية. هذا بيت الأميرالاي عبد الله بك

حسن.

فأخذني من يدي إلى الخارج ثمّ مال نحوي قائلاً:

- لكم طول البقاء، لقد توفيّ جدّك يا بني. . .

ورفاقه عليه، وأدركت - إن كان فائتي ذلك - أنه كان من الذين يألفون ويؤلفون، تلك الهبة الربانية التي حُرمتها وذهبت نفسي حسرة عليها مدى عمري. وقد تقرر تشييع جنازته في العاشرة صباحاً، ولما حَمَّ الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات وأطلقت المدافع تحية لجلده، ومُهل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الحيش. وألقيت على جثمانه نظرة الوداع - وهو يخنفي في القبر - وأنا أنتحب كالأطفال.

## ٢٥

قالت لي في حزن بالغ:

- ليس لنا إلا الله.

فقلت وقلبي يستشعر خوفاً لا يدره:

- هو نعم المولى والنصير.

ومضت تتكشف لي الحقائق، فعلمت أن معاش جدي قد انقطع بوفاته. وأحصيت تركته فوجدت أنه ترك بالمصرف أربعائة جنيه، ولما كانت أمي وخالتي وريثته الوحيدتين فقد خصَّ الواحدة منها مائتي جنيه صارت كل ما لنا عدا ماهيتي الصغيرة! صرت إذن رب أسرة، وقد لفت عمي نظري لهذه الحقيقة وهو يودعني، فكرر لي العزاء، ووَضَّاني بأمي قائلاً:

- أكرم أمك ما وسعك، فأنت رب البيت، وأنت خلَّفَ جَدَّك!

وتلقَّيت قوله بخوف وتشاؤم، ونظرت إلى المستقبل المجهول بوجوم وامتنعاض، وآلني أن أجِد نفسي مسئولاً عن غيري أنا الذي أُلِّفْتُ أن توكل مسئوليتي بغيري! ولما خلا البيت من المعزين ورحل كل إلى طَبَّته، وجلسْتُ وأمي منفردين نتبادل الرأي قالت بلهجة أسيفة:

- اللهمَّ عونك.

ورفعت إليها بصري الحائر في خوف وكآبة، سألتها بإشفاق:

- ماذا ترين يا أمّاه.

فقالَت بأسى:

- لن تمضي الحياة في يسر كما عهدناها. هذا أمر الله

وزوجها. ووجدت في الشاب خير عون في القيام بالإجراءات المتبعة، أو بالأحرى فقد قام بها وحده واكتفيت بأن أأمره دون وعي. وما كاد يختم المساء حتَّى امتلأ البيت بالأهل، فحضرت خالتي وزوجها وأخي مدحت وزوجه وعمي، ولم يتخلَّف إلا أبي، وقد قال لمدحت وهو ينعي إليه جدي «البقية في حياتك، أرجو أن تعزي أمك وأخاك وأختك، لأنّي لا أحضر لا جنازات ولا أعراساً» وكانت أُمِّي أشدَّ الأهل فجيعة وحزناً لأنها لم تفارقه طوال عمرها اللهمَّ إلا ثلاثة أشهر قضتها على مضض في بيت أبي...

هكذا مات جدي. وقد تمتع بحياة طويلة فلم يعجزه الكبر، ولم يقعه المرض. وفارق الحياة في مجلسه الأثير بالمقهى بين صحبه المخلصين، في سر قل أن يحظى به المحتضرون... وكنت لا أزال كلما خطر على فكري حنين الرأس إجلالاً لذكراه، واستمطرت الرحمة والعمو روحه الكبير. كان جدي، وكان أبي، وكان جناح العطف الذي أظلّني فنعمت في ظله بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة. ولا أنسى أنني اتهمته في الساعات السود التي كدّرت صفو حياتي بأنه أساء تربيتي، أو أنه تركني لأُتَمِّي تفسد حياتي بتدليلها ولكنّي إذ تدبّرت الأمر لم يسعني إلا إقامة العذر له، لأنّي رأيت نور الدنيا وهو يتخطى الستين. وإنه لمن أشقّ الأمور أن يعرف الإنسان حقيقة جدّه، لأنه غالباً ما يبدو في حالة من التبجيل والقداسة، لأن مؤرخيه من الأهل يكونون عادة ممن يبيجلونه ويقدّسونه. فإذا ركنك إلى ما لمستَه بنفسي من حياته أمكنني الثناء عليه في غير تحفّظ. وطالما كانت صحته وجبه النظام ودقته العسكرية التي لم تبلغ قط الصرامة أو القسوة مشار إعجابي الشديد. وكان حده علينا لما تهون إلى جانبه مصائب الحياة، وبحسبي أنني لم أعرف مرارة الحياة الحقّة حتّى ودّعناه إلى مشواه الأخير. ومهما يطل بي العمر فلن تمحى من مخيلتي صورته في أيامه الأخيرة وقد كلّلت الشيخوخة هامته بتاج ناصع البياض وأضفت عليه وقاراً وجسّالاً، وأدكت في عينيه الخضراوين بريق دعابة وعطف. فلم أدهش لحزن



واكتئاب، فتقبّض قلبي جفولاً من هذه الحياة السخيفة التي لا معنى لها. ألم أكن أنفق مرتبي كلّ في الشراب والطعام والعربات؟ ألم أكن مع ذلك شاكياً متبرماً تعيشاً؟ رباه، كان الماضي عهداً غير منكور النعيم؟ ولكنّي لم أفطن إلى نعيمه إلا الآن حيث لم يبق منه إلا ذكريات، إني أعمى ما في ذلك من شك، تعميني الأحلام الطائشة عمّا بين يديّ، ومن كان مثلي قُضي عليه بالآ يذوق للسعادة طعمًا في هذه الحياة. تحمّم لي وجه الدنيا، وخارت عزيمتي، وامتلأت نفسي تشاؤماً حتى توقعت شراً وراء كلّ خطوة أخطوها. أجل ألا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل؟... ألا يُحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي عليّ بعاهة تقعدني عن السعي من أجل الحياة؟! لماذا وُجدنا على الأرض؟ ولعلّ هذه الأفكار السود التي جعلتني أسأل أمي قائلاً:

- ماذا يُنتظر أن أرث عن أبي بعد وفاته؟

ولم ترتح أمي لمجرّد أفكارٍ وقالت باستياء:

- لا تُبني آمالك في الحياة على موت إنسان. الأعمار بيد الله. وإني أستحلفك بالله إلا ما طردت عن رأسك هذه الخواطر.

بيد أنّي استخففت بمخاوفها وألححت عليها أن تحييني على ما سألت، فقالت مدعنةً لإلحاحي:

- لأبك أوقاف تدّر عليه أربعين جنيهاً كلّ شهر، غير البيت الذي يسكنه...

وقدّرت بعملية حسابية ما يصيبي من هذا الميراث، فوجدته سنة عشر جنيهاً نصيب من البيت، إذا أضيفت إلى مرتبي الصغير صار كبيراً بلا شك. واستسلمت للأحلام كالعتاد، ولكنّها لم تغير من الواقع شيئاً. وسألته مرة أخرى:

- ما عمر أبي؟

وأجابني على كره:

- لا يقلّ عن السبعين.

ترى هل يعمر كجديّ مثلاً؟ ماذا يكون حالي لو عمّر طويلاً وحرمني ميراثي عشرة أعوام أو عشرين؟! وتذكّرت ما قيل لي من أنّه انتظر يوماً على مضض

وعليّنا أن نذعن ونصبر ونشكر، وإنّه ليسوءني أن أكون حملاً ثقيلاً عليك. ولكن ما باليد حيلة.

فقلت بحرارة:

- لا تقولي هذا. أنت كلّ ما تبقى لي في الحياة، ولولاك ما عرفت لنفسي مأوى أوي إليه.

فافتّر ثغرها عن ابتسامة حزينة، ودعت لي طويلاً. ثمّ قالت:

- سيكون ما ورثته من مال قليل رهن إشارتك تستعين به عند الحاجة، حتى يكبر مرتبك!

ولذت بالصمت متفكراً، وعيناها الحزبتان لا تفارقان وجهي، ثمّ استدركت بصوت متهدج:

- لم يعد هذا البيت بالمسكن المناسب لنا، فهو كما ترى كبير، وأجرته تعادل مرتبك، ولعلنا نجد شقة صغيرة بما لا يزيد على مائة وخمسين قرشاً في حيننا هذا.

وساد الصمت مرة أخرى، ورحت أتساءل عمّا أعياني عن هذا المصير الذي كان متوقّعا من قبل، حتى عادت أمي تقول بصوت منخفض:

- وينبغي أن نستغني عن الخدم، ولن نحتاج في المستقبل إلا لخدام صغير.

يا له من ضيق لا أدري كيف يتحمّله صدري! لست أعلم شيئاً على الإطلاق عن الكفاح الذي يشقى به الناس في سبيل الحياة، فلذلك حدثت أمي بنظرة ناطقة بالاستغاثة وسألته:

- بماذا تقدّر تكاليف المعيشة بما فيها من سكن وطعام وخدام وغيرها؟

وتفكرت أمي طويلاً، ثمّ قالت بصوت منخفض:

- بما لا يقلّ عن ستة جنيهاً!

ثمّ استدرجت كأنّها لتخفّف من وقع كلامها:

- سأرصد مالي لكسائنا وللحوائج الضرورية فيما يخرج عن المصروفات اليومية...

ولكنّي لم ألقي بالاً إلى قولها، ومضيت أفكر فيما يتبقّى لي من مرتبي بعد تكاليف المعيشة، في الجنينة والنصف، وما ينفق منه على المواصلات، وما يبقى بعد ذلك للترفيه عن نفسي. ففكرت بامتعاض

موت أبيه، وكيف ساقه الجزع إلى الشروع في الجريمة التي قضت عليه بالحرمان من ثروة واسعة! إنني أعاني نفس المشاعر التي عاناها قبل ثلاثين عامًا، ولعلّه لو كان لي بعض قوّته لسلكت الطريق الذي سلك!

ثمّ استدعت أمي الطاهي المعجوز وأمّ زينب وأخبرتني في استحياء ولم بأننا سننتقل إلى بيت شقيقي «آثرتِ الكذب على الاعتراف بالفقر»، وأنها مضطّرة إلى الاستغناء عنها، وذكرت عهد خدمتهما الطويل بالأسف، وأثنت عليهما الثناء الجميل، ودعت لهما بالتوفيق، ثمّ نفحتها بما يستعنيان به حتّى يجدا عملاً جديدًا. وقد انتحبت المرأة باكية، ودعمت عينا الرجل المعجوز ودعا لجذّي بالرحمة والعفو، وقال بصدق وإخلاص:

- وددت يا سيّدي لو متّ قبل أن يغلق هذا البيت الكريم أبوابه...

ولم تنالك أمي نفسها فبكت، وانتقلت العدوى إليّ فبكيت، ومرّت بي ساعة سوء كابدت فيها ألمًا وخزيًا لم أشعر بمثلهما من قبل. وانتقلنا قل ختام الشهر إلى شقّة صغيرة في الدور الأوسط من بيت قديم ذي أدوار ثلاثة بشارع القاسم المتفرّع من شارع المنيل. وكان البيت يقع في وسط الطريق ما بين شارع المنيل والنيل، أما الشقّة فتتكوّن من ثلاث حجرات صغيرة فرشناها ببعض أثاثنا القديم، وبعنا بقيّته بثمن بخس. وساءلت نفسي في وجوم: هل تستطيع أمي النهوض بأعباء الخدمة المنزليّة بعد ذلك العمر الطويل من الراحة والدعة؟ إنّها تهدف إلى منتصف الحلقة السادسة ولم يعد لها من معين إلّا خادم صغير فكيف تتحمّل هذه الحياة؟ وزادت حياتي تنغيصًا وداخلني سخط شامل على الوجود كلّ. على أنّ أمي أقبلت على العمل بروح عالية فيها مرح كثير فنجحت في إيهامي بأنّها مسرورة بالحياة الجديدة، وكأنّما كانت تكبت طوال عمرها رغبة حارّة في الخدمة والعمل. وقالت لي بارتياح لمسته في نبرات صوتها وابتسامة عينيها:

- إنّ خدمة بيتك في السعادة التي ليس لي وراءها

مأرب.

وتجرّعت هذه الحياة الجديدة قطرة قطرة، وقد أضافت إلى حسراتي القديمة حسرة جديدة، هي حسرتي على العيش الرغيد والشراب خاصّة، وأجمعت على أن أقترّ على نفسي كي تنهّي لي ولو سكرة واحدة في الشهر، ولا عجب فلم تكن الخمر بالنسبة إليّ لهوًا وعبثًا، ولكن حياة وهميّة أفرّ إلى أحضانها من آلام الواقع البغيض.

ويومًا قالت لي أمي وقد آنست منّي استنامة إلى حديثها:

- لعلّك لمست الحكمة التي أملت عليّ أن أرفض أيّ زواج لا يليق بك!

وأدركت ما تعني لتوي، فكأنّما تقول لي: «ماذا كنت تصنع بحياتك لو كنت ربّ أسرة!». ولم يداخلني شكّ في صدق ملاحظتها، ولو كنت ربّ أسرة لتسقيت بالعيش أضعاف الشقاء الراهن، ومع ذلك لم أرتح لقولها، ووقع من نفسي المهضة موقع الشمّاة المريرة، فلفّني الحنق والغضب، وكابدت مشقّة في كظم عواطفني.

## ٢٦

وهلّ الخريف. ذلك الفصل الذي أحبيته لأنّه البشير بافتتاح المدارس، واستعود حبيبتي إلى الملتقى المعهود على طوار المحطّة. حبيبتي هي الزهرة الوحيدة التي تفتّح في الخريف حين تعرى الأشجار وتذبل الأزهار. ولاحظت أنّ مواعيد خروجها لم تعد منتظمة كما كانت، ترى هل بدأت حبيبتي حياتها كأستاذة؟ ولذّني ذاك الخاطر فاهترّ عطفائي سرورًا. بيد أنّي لا يمكن أن أنسى أنّ مجرى حياتي قد تغيّر، وأنّي أزرع تحت وقر الفقر والقنوط، فحبيبتي ميثوس منها، ولكن ما كان اليأس إلّا ليزيدني هيأًا وولعًا، ويشبّ في قلبي أشواقًا وأحزانًا. ما أسرع أن ينقلب الحبّ اليأس ثورة على الحياة. أليس من الهزء بنا أن نخلق حياة ثمّ يحال بيننا وبينها؟ وزاد من لوعتي أنّه كان يخيّل إليّ في

أواني للخمر من نوع جديد هي الدوارق، فدورق الكونياك بعشرة قروش، وهو ثمن بخس أستطيع معه أن أعاود الحانة مرتين أو أكثر في الشهر. وشربت واستسلمت لشوارد الأحلام في لذة وشوق. وأمّدتني المصادفة بزداد جديد للأحلام فأقبل عليّ بائع نصيب ولوّح لي بورقة وهو يهتف «ألف جنيه» فمددت يدي وتناولتها منه ونقدته ثمنها، ثم طويتها ودسستها في جيبي. زادّ جديد للأحلام يضاهي نشوة الخمر. ربّاه! ماذا كانت تكون الدنيا بغير الأحلام! إنّي أملك ألف جنيه بلا شريك! الأرض ثابتة تحت قدمي لا يززعها الخوف والفقر، والدنيا تتبسم، ولسوف تفهقه ضاحكة إذا انتهى أبي! لا يجوز أن أتردد بعد اليوم، سأقابل الرجل الوقور والد حبيبي وأقول له بصراحة: «إنّي أبتغي شرف مصاهرتك!» وأقدّم له بطاقتي، ومنذ الذي لا يعرف أسرة لاظ؟! أجل إنّ الوظيفة صغيرة ولكنّي أملك ثروة لا بأس بها وسأرث ثروة أخرى، فلا يسع الرجل إلّا أن يتقبلني قبولاً حسناً. ورأيتني أزف وسط الشموع وعروسي تتهدى كالقمر. ولم أطق البقاء بعد أن أفرغت الدورق في جوفي فغادرت الحانة، وهمت في الطرق على وجهي متفرّجاً حالماً، مسروراً بنفسي وبالدنيا. ولم أكن لأرجع إلى البيت حتّى أفيق، ولكنّي وجدت نفسي أمام بيت الحبيبة وبالرأس بقية من نشوة فلم أنعطف إلى المنزل. كانت الساعة تقترب من الثانية صباحاً، والطريق مقفرًا، والظلمة شديدة شاملة، والصمت عميقًا يكاد لعمة أن يسمع ديب الخواطر بالنفس. ووقفت على الطوار متطلّعا إلى البيت النائم، واستقرّ بصري على نافذة مخدعها، وتسَلّلت روحي خلالها فخلتني أحسنّ تردد أنفاسها العطرة. إنّ إيماني بالروح لا حدّ له. ألم تجذب رأسها نحوي فيما مضى؟ فيمكنها الآن أن تندسّ في أحلامها فتراني، بل وأن تسمعني إذا ناجيتها! وبادرها قائلاً:

- «إنّي أحبّك يا حياتي، أحبّك حباً هو من أعاجيب الكون كدوران الأفلاك سواء بسواء، ولشدّ ما أتمنى أن أقول لك (أحبّك) في بقلتي ولكنّي لا أستطيع، إنّ الخجل أبكم يا حياتي، والفقر سجن شاهق الجدران،

أحيان كثيرة أنّ عينيها ترنوان إليّ بنظرة فيها حياة. أيتها حياة؟ لست أدري، ولكنّها كفاية لبعث الجنون في خيالي، فيشمل بنشوة سحرية لا أفيق منها حتّى تصدمني حقيقة مرّة من حقائق حياتي. واشتدّ تطلّع أهل البيت نحوي، وبّت وكأني أسمعهم يتساءلون: ماذا تريد؟ لماذا تلتهمها بعينيك؟ أيّ رجل أنت؟ ألم يكفك عام ونصف عام؟! صدقتم والله، والحقّ معكم، ولكن ما حيلتي أنا؟ ضعوا أنفسكم في مكاني وخبروني ماذا تفعلون! هل لديكم علاج للعجز والفقر؟

ولم يتركني الرجلان المعجبان بفناتي في راحة، فلم يزالا يحومان حولها، حتّى بّت أحافهما خوفاً للعجز والفقر، وأكرههما كرهى للشقاء الذي يضيق عليّ الخناق، مثل هذه الحياة ألذّ ما فيها الهرب منها! لذلك تلمّست السبيل إلى الحانة مهما كلّفتني الأمر من العناء. ولم يعد شارع الألفي بك بالمرصاد المناسب لحالي، فلجأت إلى حوذني - مشيري في الدنيا بعد أمي - وطلبت إليه أن يحملني إلى حانة متواضعة، وساقني الرجل إلى سوق الخضرا! وكان هو نفسه - كما أخبرني - يرتادها من آن لآن، وقال لي مدلّلاً على حسن اختياره:

- الحانات الكبيرة مظاهر كاذبة لا يترّاز الأموال، والخمر هي الخمر، وخيرها ما أسكر بأبخس الأثمان! وأنصبت إلى محاضرتي في خجل أليم تجاوب صداه أسي عميقاً في نفسي، فتهيّا لي حيناً أنّه يرثي نهايتي ويعزّيني عمّا سلف من زمني. وغادرته متعجّلاً، وسرت صوب حانة صغيرة في مطلع عمر من الممرات المفضية إلى السوق. وساورني شعور محزون بأنّي أنحدر إلى الهاوية التي ابتلعت أبي من قبل، ولكنّي لم يكن هذا ولا غيره بمانعي من المقدور، وكانت الحانة صغيرة مربّعة الشكل بها موائد معدودات، تبدو رثة باهتة نادها يونانيّ عجوز أعمش، ورؤاها من الشعب الأدنى أو بعض الموظّفين البائسين. ولكنّ الخمر هي الخمر كما قال الحوذنيّ. ولا أنكر أنّي فرحت بمنظر القوارير على الرفّ الطويل، وسررت بها سروراً أنساني آلام الضعة التي شدّني ضيق ذات اليد إليها. ورأيت

الكبير ذو السور تلوح وراءه رهوس الأشجار الضخمة. ورأيت البواب العجوز جالساً أمام الباب وقد طعن في السنّ حتى صار هيكلاً أسود. وخانتني شجاعتي إذ غدوت منه على بعد خطوتين، فلم أتوقف عن السير، وجاوزته، وقد تملّكني شعور اليأس فحدّثتني نفسي بالعودة من حيث أتيت. وما جدوى بذل محاولة فاشلة حتّى! ولكنّي لم أمعن في الحرب ولعلّ اليأس نفسه أمدني بقوة غير منتظرة، فرجعت إلى البواب مستشعراً عزمًا جديدًا، مستنكرًا الخور الذي يباعد بيني وبين بيت لي فيه حقّ غير منكور. حيّيت البواب فردّ تحيّي جالسًا، فقلت له بلهجة لم تخل من كبرياء:

- كامل رؤية لاط، خبّر البك من فضلك!

ونفض البواب مبتسمًا، ودعاني إلى دخول الحديقة، ومضى ليخبر البك. هي الحديقة نفسها، لا تزال تسطح جنباتها بشذا الليمون، تمتلئ سماؤها برهوس النخيل، وتسرّب منها إلى النفس كآبة ووحشة. وأرسلت ببصري إلى الفراندا في نهاية الحديقة فرأيت البواب يدعوني، فتقدّمت وأنا أطرد عن قلبي شعورًا بعدم الارتباك. وارتقت السلم، فسطالني المنظر القديم، الرجل والخوان المزركش والقارورة والكأس، مدّ لي يده وعلى فمه شبه ابتسامة فسلمت عليه، ثمّ دعاني للجلوس فجلست على مقعد إلى يمين الخوان. وألقيت عليه نظرة سريعة فرأيت الجسم المكتنز وقد ترهّل. واشتدّ احتقان الدم بالوجه الممتلئ، وغابت العينان في نظرة ذاهلة، وبان للكبر في صفحة وجهه غضون في الجبين وحول العينين، وذبول الخدين. لم أرتج لمنظره، ولكنّي حرصت على ألا يبدو في وجهي أثر غمّا في نفسي... ولاحت منّي نظرة إلى القارورة الممتلئة للنصف فرمقتها بنظرة غريبة، وذكرت كيف تراءت لعيني في الزورة الأولى فقلت لنفسي: لشدّ ما يسارع الفساد للإنسان! وكان يتلفّع بروب حريري وقاية من رطوبة الخريف في تلك الساعة من الأصيل. ولم يداخلني ريب في أنّه مقعم خمرًا حتّى قمّته، فساورني القلق، وتساءلت عمّا دهاني من جنون حتّى

ولا حقّ لأمري لا يملك من مرتبه إلّا جنيهاً ونصفاً أن ييوح بحبه لملك كريم مثلك، ولكنّي أحبّك بالرغم من هذا كلّ، ولا أطيق أن تعرضني عن حيّي، وأكاد أجنّ حين أرى تطلّع السرجلين الثقيلين إليك، فشجّعيني يا حياتي، أشيري إليّ، ابتسمي في وجهي، ما في ذلك من بأس ما دمت محباً صادقاً كما لا بدّ تعلمين، وما دمت عاجزاً ميثوساً منه كما لا بدّ تدركين... آه...» وقفت طويلاً دون أن تتحوّل عيناى عن النافذة الموصدة، فثقلت جفوني وداخلني إحساس خفيف بالدوران والتعب من مشقة المشي وخمار الشراب. ثمّ قرع سمعي وقع أقدام ثقيلة فالتفت صوبها في توجّس فرأيت شيخ الشرطيّ مقبلاً، فتحوّلت عن موقفي وحثّث خطاي.

## ٢٧

ماذا يحول بيني وبينك؟ الفقرا هكذا كان الجواب، ولم أجأوزه إلى غيره من الأسباب، لأنّه كان العائق الوحيد الذي لا أعدّ عنه مسئولاً، أو هذا ما اعتقدته. كيف أحصل على المال إذن؟ وتفكرت مغتثاً، ثمّ مال بي الفكر إلى أبي! ذلك الذي تمثّيت موته طويلاً ولكن لم يغن عني التمتّي شيئاً، فلماذا لا أزوره؟... لماذا لا أستوهبه المال الذي أريد؟. وبدا الخاطر غريباً لا يصدّق، وخاصّة بالقياس إليّ أنا الذي أخافه أكثر من الجميع، ولم أوثله قطّ، بيد أنّ الجزع كان بلغ منّي منتهاه في تلك الأيام، وجرى الحبّ منّي مجرى الدم، واشتدّ إحساسي بفوات العمر لدرجة تستحقّ الرثاء، فداخلني شعور بأنّي إذا بلغت الثلاثين فقد انتهيت. أمضتني هذه المخاوف، وكانت النظرات الحلوة التي تجود عليّ بها الحبيبة توسعني في أثناء ذلك سعادة وتأنيباً صامتاً. فلم أر بداً في النهاية من أن أفكر جدّياً في زيارة أبي.

وذهبت دون أن أعلن ما في ضميري لأمي، واهتديت إلى الحلميّة مسترشداً بكمساري الترام، ولما بلغت شارع عليّ مبارك ذكرت لتوي الطريق الذي قطعته مع جدّي منذ تسعة أعوام، وتراءى لعيني البيت

التمعاسة أن تنجب بنات، هذا عار كبير مهما قالوا إن الزواج نصف الدين!! إلا إذا كان النصف الآخر هو الطلاق!... «ثم غيّر لهجته»... لماذا لا تطلب يد إحدى بنات عمك؟! ألا تعلم بأن ميراث الواحدة منهن لا يقل عن مائة جنيه كل شهر؟ ولكن دعنا من هذا كله واسمح لي أن أنظر في وجهك قليلاً فإني لا أكاد أعرفك. ما شاء الله، أنت رجل لا ينفصلك إلا

الشارب، لماذا لم ترسل شاربك؟... ثم إنك رجل جميل، ولكنك نحيل مهزول كأنك لا تأخذ كفايتك من الطعام؟ عار أن يكون شاب في مثل سنك نحيلًا. ومع ذلك فيا لها من سعادة أن يرى الأب ابنه رجلاً، خصوصاً إذا كان يراه لأول أو لثاني مرة! ألا ترى أنني أب عجيب؟ لقد أنجبت ثلاثة ولكني وحيد مهجور. ولست ساخطاً على حظي، لأنه من السعادة أن تبقى وحيداً، وما من مرة خلوت بإنسان قط إلا وافترقنا خصمين، وهم يقولون عادة إنني مخطئ، وأنا أقول إنهم لمخطئون، فإله يفصل بيننا يوم القيامة. لا تدهش إذا سمعتني أقتبس من القرآن! فإنما الفضل في ذلك إلى الراديو، ولقد باعدت بيني وبين الدنيا ولكن الدنيا تأتي إلا أن تقتحم عليّ داري في الراديو. أهلاً أهلاً. أنت ولد بار يا كامل، ولكن ينبغي أن تعني بصحتك، وتأخذ كفايتك من الطعام حتى تسمن. ألم يترك جدك ثروة؟

كنت جزعاً يائساً لا أدري كيف أطرق الموضوع الذي جئت من أجله في ضوضاء تلك الثروة التي لا ضابط لها، واشتدّ جزعي ويأسي حين رأيته - في أثناء ثروته - يملأ كأساً جديدة، ولكنني انتهزت فرصة طرحه السؤال الأخير وقلت بلهجة لا يشوبها شك:

- لم يترك جدّي شيئاً على الإطلاق...  
فهزّ رأسه الأصلع الأحمر كأنه يقول «هذا ما توقعته»  
ثم قال:

- مرتّب عال، ذرّية قليلة، معاش ضخم، ثم لا يترك شيئاً، كان رحمه الله مقامراً، والمقامر يفضل أن يخسر نقوده على المائدة على أن يكتنّزها في المصرف، وما هو إلا طفل قد تمكّن من قلبه حبّ اللعب، ولست

قمت بهذه الزيارة التي لا رجاء منها. وجعل ينظر صوبي باهتمام، أو لعلّه حتّ استطلاع، فعجبت لذلك اللقاء الغريب بين أب وابنه بعد افتراق عمر كامل، وتساءلت في نفسي في دهشة وعدم تصديق عما يقال عن الحبّ بين الآباء والأبناء. ولم أدر بطبيعة الحال كيف أبدأ الحديث، ولكنّه أخذ يتكلّم فأنقذني من حيرتي. وقال بصوت غليظ:

- كيف حالكم؟ مات جدك! كان رجلاً لطيفاً، وأحفظ له ذكريات لا بأس بها على رغم ما كان، ولكنّي لم أشهد جنازته وهو ما لا يغفّره كثيرون، على أنّ الإنسان في مثل سنيّ ينبغي أن يعفى من الواجبات، والشيخ والطفل سيّان في ذلك، ولا تنس من ناحية أخرى أنّ جنازتي لا يُنتظر أن يشيّعها أحد اللهمّ إلا عمّ آدم البوّاب، ولا يبعد أن يُشغل عنها عمّ آدم نفسه بتفتيش جيوب وسرقة ما يظنّه بها من نقود. هل تشيّع أنت نعشي؟!

\*\*\*

دهمني سؤاله بعد قلق استحوذ عليّ بتأثير لهجته الثملة، فأيقنت أنّ مهمّتي ستكون شاقّة خفيفة، ولكنّي بادرت قائلاً:

- أطال الله بقاءك!

فقهقه ضاحكاً، ورأيت أنّه فقد ضروسه، فسأني منظره وضحوكه واستدرك قائلاً:

- يا لك من ولد بار، فجميل جدّاً أن تحبّ أباك وتدعوه بطول العمر! والبرّ بالأب سحّية فاضلة لم يكن لي منها نصيب وأأسفاه، ولو أوتيت قدراً من الرياء أو حظاً من الصبر لكنت الآن من أغنياء البلد المعروفين، مثل عمك قاتله الله، ألم تر إليه كيف لم يقنع بما ورث من مال لا تفنيه النار حتى استأثر بأخيك مدحت - ذلك الثور - فزوّجه ابنته؟! ولقد ظننته يوماً سيعتق مذهب الطلاق كأبيه ولكنّه يبدو خانعاً كالنساء، وانقلب فلأحاً مزارعاً يشارك القطعان معيشتها، ولعلّه يلجأ بثروة عريضة بعد موت عمّه، ولكن خاب فإله، فلزوجه أخوات ست كلّهنّ مطمع الفحول من عشاق المال والنساء! ولذلك أقول إنّه من

الخمير، ولو أحب الناس جميعًا الخمر كما أحبها، واستهانوا بالمال، لأمكن حلّ مشكلة الدنيا بكلمة واحدة. تصوّر معي بلدًا سعيدًا، يشطرونه شطرين فيشيدون المساكن على اليمين والحانات على اليسار والحكومة في الوسط، ولا يكون للناس من واجب إلا أن يشربوا، هذا بلد يريح ويستريح، ألا تشرب يا بني؟ كلاً. فإذا تعنتق من الشرور؟ إن قيمة المراء الحقيقية فيما يعمل من شرّ، هبني متّ غداً ولم أكن سكيراً، فما عسى أن يقول عني الناس؟ لا شيء! أما وأنا شرّيب فسيقولون حتّياً: «كان شرّيباً سكيراً». بل ولو كنت أنصدّق بمالي هذا على الفقراء لما ذكرني أحد بكلمة. الناس ينسون الخير بسرعة ولو كانوا من صنائعه، فالشيء الوحيد الذي يخلّد ذكرك هو الشرّ... ما رأيك في كلامي هذا؟!

ولم أجد من الإجابة مفراً، فقلت:

- يجب أن نخاف الله ونطيعه...

فأمن على قولي بهزة من رأسه المستدير بدت هزلية واستدرك قائلاً:

- صدقت! هذا سرّ الوجود. أما والله لو كان حقاً ما يقولون عن الله فإنّ مصيرنا لأسود! بيد أنّي عظيم الثقة والاطمئنان، وما أفقد ثقتي وطمانيتي إلا إذا ساء هضمي، هنالك تبدو الدنيا عابسة كالحة! وذلك لأنّي أومن بأنّ الله لا يعذب عباده. كيف أصدّق أنّ إلهاً عظيماً سبحانه يحرق مخلوقاً مثلي لأنّه أحبّ الخمر؟ ألا يعجبك كلامي؟ أنت أنستنا. أرى الملل في وجهك. ترى ما الذي دعاك إلى تذكّر أبيك بعد نسيان العمر كلّهُ؟!

وخفق قلبي، ولم أعد أطيق السكوت. ولعلّه لم يكن من الفطنة أن أطرق موضوعي أثر ذاك السؤال، لكنّي قلت في عدم تبصّر:

- أراني في ضيق شديد. وإذا كانت الظروف السيئة قد فرّقت بيننا فإنّك أبي على رغم هذه الظروف السيئة.

وقهقه ضاحكاً فكهرت منظره للمرّة الثانية. ثمّ قال بلهجته الهاذية التي تنزع من سامعه آية ثقة فيها يقول:

ألومه لأنّي بدوري شرّيب سكير، والفرق بين المقامر والسكير، أنّ الأوّل عمليّ يضارب ويخادع ويكسب ويخسر، أمّا الآخر فنظريّ يلجم ويلجم ويحلم. إذا طمع المقامر في الثراء قامر بثروته في اللعب فيخسرهما على الغالب، ويمتني نفسه بتعويض خسارته فما يزداد إلا خساراً حتّى إذا مات لم يترك شيئاً، يترك ذبناً ثقيلاً، والغريب في الأمر أنّ المقامرين جميعاً يخسرون ولا أدري من يربح إذن! أما الشرّيب فإذا طمع في الثراء وجده محضراً بين يديه دون أن يكلفه ذلك أكثر من ثلاثين قرشاً ثمن قارورة كهذه. أنقول إنّ ذلك محض وهم؟! ليكن، وهل ثمة شيء في الدنيا إلا وهو وهم وخيال؟! أين جدّك؟... كان جدّك حقيقة ملموسة فأين هو الآن؟ شمرّ للبحث عنه فلن تجد له أثراً. فتش عنه في البيت، وفي المقهى، وفي النادي، بل انظر في القبر نفسه، وهاك رقبتي إن وجدت له أثراً، فكيف يكون حقيقة! رحمه الله! وماذا فعلتم بعده؟ أما زلت طالبا؟!

فقلت وأنا أداري حنقي وجزعي بابتسامة باهتة:

- تعينت موظّفاً بوزارة الحربية!

فرفع كأسه ضاحكاً وقال:

- نحب مستقبلك! ما شاء الله! أسرّتنا مجيدة ولكن ليس بها من موظّف واحد، فأنت الذي تشقّ طريقها إلى الحكومة!

ولم أتمالك أن قلت بضيق:

- لست إلا موظّفاً صغيراً، وليس لي مرتّب يذكر!

فرمقني بنظرة توجّس من تحت حاجبيه الأشيبين وقال بغير مبالاة:

- لا تجزع، الصغير يكبر حتّياً. قضت حكمة الدنيا بأنّ الصغير يكبر والكبير يصغر... والظاهر أنّ الله خلق ثروة محدودة واحدة، لا يتغيّر مقدارها، ويتغيّر حظّ الناس منها، وإلا فلماذا لا يثرى الناس جميعاً؟ فاصبر يا بني ولا تشغل نفسك بالتفكير في المال. التفكير في المال مهلكة كادت تورديني في يوم من الأيام، إنّي أعجب لماذا يحبّ الناس المال هذا الحبّ الكبير! لست في حاضري من محبّي المال، أنا لا أحبّ إلا

شهريّ مقداره أربعون جنيهاً غير أجرة الطابق العلويّ، ولكن لا تغيب عنك نفقاتي، إليك الطباخ مثلاً فهو يسلمني عشرين جنيهاً كل شهر، وإذا خطر لي أن أراجعه مرة دوّخ دماغه بحساب طويل لا أفقه عنه شيئاً. وإليك الخمر أيضاً فإنه يلزمني منها زجاجتان في اليوم أو ما يزيد على خمسة عشر جنيهاً في الشهر، وما يبقى بعد ذلك لا يكاد يفني بالضرورات الأخرى كالكساء والتدخين ورواتب الطباخ والبواب والخادم وأجرة العربة التي تجوب بي بعض الشوارع القريبة كلّما سئمت طول المكث في البيت. ليس لي من رصيد في المصرف، حتّى إنّّي أعالج سوء الهضم بالوصفات البلدية. لا تسألني مالاً يا بنيّ، وإنّي أقول هذا أسفاً علم الله، ولكن لماذا لا تتزوّج كما تزوّج أخوك من غير أن يبذل مليّاً واحداً؟! وإن احترمت نصيحتي فلا تتزوّج على الإطلاق!

وحدجني ببصره الزائغ، فبدا لي فظيلاً كريهاً. ثمّ استخرج علبة سجائره، وأخذ سيجارة وأشعلها وراح يدخنها بتلذذ. وجعل يراقب دخان السيجارة بعينه الحاييتين، فخيّل إليّ أنّه نسيتي. ثمّ وقع في نفسي أنّه يعدّبي! وملأني الخنق، ولكنّي بقيت على جمودي، وازددت إحساساً باليأس والحيرة. وساد الصمت مليّاً، ثمّ التفت نحوي، وألقى عليّ نظرة لا معنى لها، ثمّ ارتسمت على فمه الواسع ابتسامة وسألني:

- ألا تدخن؟

- كلّاً...

وعدنا إلى الصمت. ألا يجدر بي أن أذهب؟ وتوتّبت للنبوض لولا أن لاح في وجهه ما جعلني أنظر إليه بدهشة وانزعاج. بدا متعباً وتفصّد جبينه عرقاً ودارت عيناه في أنحاء المكان وكأنّها لا تريان شيئاً. ورأيت خدّه الأيمن فيما يتّصل بفمه يرتعش ارتعاشة عصبية. ثمّ دعمت عينه اليمنى... آ... توقّعت شيئاً مخيفاً لا أدري كنهه، ولكن لم تطل به تلك الحال، انبسط وجهه وعادت إلى عينيه الحياة الطفيفة التي تبدو فيها: ونظر صوبي مرةً أخرى، زابلي الخوف الغامض، وعادتي أحاسيس اليأس والحيرة

- معك حقّ. الويسكي هذا حكمة غالية، إنّّه كالدين في مرارته، ولكنّ الحكيم الحكيم من يستطيعه ويألفه كما يستطيع الحكماء الدنيا ويألفونها، ويل لمن يجزعون لمرارته أو يقيثون، لن يصبروا إذن مع الحياة. قلت يا بنيّ إنّ معك حقاً. يعجبني والله حسن تمهيدك ولباقتك. تقاطعني حتّاراً ثلاثين عاماً أو ما يقارب هذا، لا تؤاخذني على الخطأ لأنّ الحساب لا وزن له عند الشريب فليس حتّماً أن يساوي واحد وواحد اثنين، وعسى واحداً يساوي عشرة، قلت إنّك تقاطعني عمراً ثمّ تخيبي معتذراً بجملة لطيفة. على أنّي أقبل العذر، ولم لا؟ الحقّ لا أسف على مقاطعة الناس لي. أمّا الضيق الذي تشكو فأمر يهمني جدّاً. فما يضايق ابني يضايقي بالتالي، فإذا تعني يا بنيّ؟

حدّثني نفسي بالذهاب لأنّي لم أجد في ذلك الهديان فائدة ترجى. بيد أنّي نبذت الفكرة في احتجاج وغضب. وعزّ عليّ أن أنكص على عقبي بعد أن أقدمت على ما أقدمت عليه. واستجمعت قواي، وبذلت فوق ما أحتمل عادة في مقاومة الحجل والارتباك وقلت بصوت منخفض:

- أريد أن أتزوّج!

وعاد الرجل السكران إلى قهقهته الكريهة، ثمّ قال بدهشة:

- ما بال أصرتنا لا تنجو أبداً من هذا الداء الويل؟! إنّ أحتك لم تطق صبراً حتّى اختار لها بعلاً كما ينبغي فهرت مع رجل غريب وتزوّجته. وهذا أخوك ما كاد يشبّ عن الطوق حتّى كان راقداً في حضن عروسه. ولا أبرئ نفسي فقد حاولت أن أكون زوجاً مرةً وأخرى وثالثة، أعجبت بها من أسرة! ولعلّك تحتاج مالاً ليتمّ لك ما تريد من زواج؟! لا أستبعد هذا فالزواج وإن كان داء كما قلت إلّا أنّنا نفق عليه أموالاً طائلة، وفي هذا وحده الدليل الناطق على جنون الإنسان! ولعلّك جئتني وحملت نفسك ما لا تؤدّ من رؤيتي لتسألني مالاً تزفّ به إلى عروسك... لا أستبعد هذا، ولكن من أين لي بالمال الذي تريد؟ هل «قالوا» لك إنّ غنيّ ميسور؟ لا أنكر أنّي أتمتّع بدخل

خلصت إلى الطريق محطّم النفس والقلب والأمل .  
وقطعت الطريق إلى المحطة وأنا أسبّ والنعن وأتميّز  
غيظًا وحنقًا: «لم أحتمله أكثر من ليلة واحدة!» .

ربّاه! . . لو أنّ ألف صفقة ألهمت قفاي في ميدان  
عموميّ لما أدتني كما أدتني تلك العبارة! وبلغ منّي التأثير  
مداه فازدحمت الدموع بعينيّ، واستسلمت للبكاء  
مستخفيًا بالظلمة التي تغشى الكون . ليس ثمة فائدة  
ترجى منه . موته وحده بيده أن يغيّر وجه حياتي! أجل  
لا أمل البتّة إلّا في موته . واستقللت الترام وشرودي  
المعهود ينقّس عن كربي بأحلامه التائهة، فرأيت نفسي  
جالسًا مع مدحت وشقيقتي راضية تنقاسم ميراث أبي  
بعد وفاته!! واقترحت عليهما أن يبيع البيت الكبير  
فوافقاني في الحال وأصبحت في غمضة عين مالكا لألف  
جنيه! ولم يكن في الحلم أثر لأمي! فقابلت والد حبيبي  
وفاتحته بشجاعة عن رغبتني في مصاهرته وتمّ كلّ شيء  
دون عراقيل! وشعرت بارتياح خفّف من توتر أعصابي  
الذي أورتني تلك الزيارة المخيفة الفاشلة، بيد أنّي  
تذكرت بسرعة كيف أنّ الحلم لم يجعل لأمي وجودًا،  
وسرت في بدني رعدة خوف وتقزّز، وتقلّص قلبي  
امتعاضًا وندمًا، كيف سمحت لهذا الخاطر الشيطانيّ  
بأن يلوّث نفسي مرّة ثانية؟! ولازمي الامتناع  
والغضب طسوال الطريق . وجعلت أردّد في نفسي:  
«اللّهم بارك لي في عمرها»، ولم يغن عنيّ ذلك شيئًا  
فعدت إلى البيت موّزع النّفس مشتّت البال، ولم يرتح  
لي جانب حتّى طبعت على جبينها قبلة طويلة حارة . .

## ٢٨

وفي عصر اليوم التالي ذهبت إلى محطة الترام لأفوز  
بدقائق السعادة التي لا يجود اليوم إلّا بها . لم يعد لقاء  
الصباح بالملاح إلّا فيما ندر، وذلك منذ غدت حبيبي  
جالسة في الشرفة تحادث شقيقتها، فوقفت متطلّعا،  
منتظرًا زادي من نظرة عينها الذي يمّدي بماء الحياة،  
وانعطف الرأس المحبوب نحوي، ولكنّه ما كاد يراني  
حتّى تحوّل عنيّ فيما يشبه الحدة . ثمّ نهضت قائمة  
وغادرت الشرفة . خفضت بصري ذاهلاً وقد خبا

والكراهية . ثمّ تأملت بعين الاستغراب الحقيقة الماثلة  
أمامي، وهي أنّ هذا الرجل هو أبي الذي أوجدني في  
هذه الدنيا ودعت هذه الحقيقة حقائق أخرى ممّا يتّصل  
بها، بدت في صور محسوسة؛ فساءني منظرها، وآلمني  
وأحزني . وليثت هنيهة من الألم في شبه ذهول، ثمّ  
تنهدت على غير وعي منّي بصوت مسموع، وتنبّه إليّ  
وسألني للمرّة الثانية:

- ألا تدخن؟

فهزّزت رأسي سلبيًا، فقال في تهكم:

- نعم الفتى أنت! لا عيب فيك إلّا أنّك ترغب في  
الزواج! حدّثني عن زواجك أهو رغبة عامّة؟ أم هو  
رغبة خاصّة في بنت من بنات حواء؟ «هنا خفق قلبي  
بعنف وكادت الدموع تسارع إلى عينيّ»، هذا ما يبدو  
لي، ترى كيف الحبّ هذه الأيام؟! لا شك أنّه لا يزال  
محتفظًا بخطورته وقوّته في خداع البشر! ومع ذلك أكرّر  
عليك النصيحة بالألّا تتزوّج على الإطلاق . هذه نصيحة  
رجل مجرب . الزواج سخرة . تصوّر أنّ امرأة تملكك  
ودع ما يقال من أنّك أنت الذي تملكها فهو كذب  
سمج، تنهك قواك وتسلبك مالك وتستبدّ بحريّتك ثمّ  
تستدرجك لاستعباد روحك وما تملك لرعاية شخصها  
وأوائها فإذا متّ سعت إلى رجل غيرك قبل أن تجفّ  
دموعها، الزواج شيء سخيّف لم أحتمله أكثر من ليلة  
واحدة!

ترنّح قلبي تحت وقع الطعنة التي نفذت إلى  
صميمه، ونذت عنيّ على رغمي آهة من الأعماق،  
فنظر إليّ في شبه بلاهة . ورمقته بنظرة نارّة حتّى  
حادثتني نفسي بأن أفدّفه بالقارورة في وجهه، ولكنّي لم  
أكن الرجل الذي ينقذ مثل ذلك الخاطر، وشعرت  
بالقهر لعجزتي، وبرغبة في البكاء قاومتها ما وسعني  
الجهد . وسألني في دهشة:

- هل أملك يا بنيّ؟

فنهضت قائمًا في حق وصحت به:

- السلام عليكم . . .

تمّ ندمت على إفلات هذا السلام منّي في اللحظة  
التالية، وغادرت المكان لا ألوي على شيء، ثمّ



حماسي وفتر. ما الذي أغضبها؟ ألم تحتمل جهودي؟ هل يقضى عليّ بالحرمان من نظراتها الحلوة؟ هل قرّرت أن تقابل جهودي بالإعراض والتجاهل؟ وتولاني الحزن والقنوط والخجل. كان موقفني مخجلًا بلا ريب، ثم خطر لي خاطر بردت له أطرافي، وتساءلت في خوف أأكون لأحد الرجلين اللذين بنافساني في الإعجاب بها شأن بهذا التحول الجديد؟ لئن صحّ هذا، فماذا يبقى لي في الحياة؟! خبّرني يا حبيبتى بحق شبابك الريان، أهى جفوة عطف خانة الصبر أم إعراض قلب ظفر بمبتغاه في ناحية أخرى؟ لن أنسى بؤس ذلك اليوم، ولا الأيام التي تلتها. اختفت حبيبتى من أفق حياتي، وتحامت الظهور بالشفرة حين أكون في المحطة، وفي مرّات التلاقي النادرة في الصباح حرصت ألا يقع بصرها عليّ. رحت أكل الشرفة والنافذة بعينين جائعتين أضناهما التطلع. وكنت أرى الأم أحياناً وهي ترمقني بنظراتها المتفحصة، والأخ وهو يلقي عليّ نظرة غريبة، والشقيقة الصغرى وهي ترمقني بنظرة اهتمام، أمّا حبيبتى فقد توارت، تاركة وراءها شجرة الحياة عارية، قشوراً صفراء وعروقاً ذابلة، ربّاه! ليس هذا بعدم اكتراث، لو كان عدم اكتراث حقاً لما أوجب هذا الحذر كلّهُ، ولوقع عليّ بصرها كما يقع اتفاقاً على المخلوقات والأشياء بالطريق. إنّها تتجنّبي عامدة قاصدة، إنّها غضبي برّمة، ولا شك أنّ قصّة الفتى الذي يبدو محباً قد ملأت البيت. ولا شك أنّ جهوده الغريب كان موضع تعليق ونقد واستفهام! كيف فاتني أن أقدر حرج حبيبتى وحيرتها؟ وتنهّدت من الأعماق، وتندّى جيبني خجلاً، وامتلات سخطاً على حظي التمس، وامتدت السنة سخطي إلى أمي المتوارية وراء كلّ شيء! وانطويت على كدر كأنما سفت ربح الخمسين غبارها على نفسي، فلم أجد ذاتي هدفاً لسخطي وكدري وغضبي، وهي عادة قديمة لي إذا ضاقت بي الدنيا أن أوسع نفسي نقداً وهجاء وكشفاً عن عيوبها ومناقصها، فعدت إلى التنديد معجزي المطلق، وخوفي الشامل من الدنيا والناس وكافة المخلوقات الأخرى، وذلك الكرياء الكاذب الذي

يجعلني أصول وأجول في البيت بلا داعٍ حتّى إذا اصطدم بأحقر موظّف في الدولة انقلب ذلاً وخنوفاً، استسلمت لذلك التفكير الحزين طويلاً حتّى بدت لي نفسي قطعة من البشاعة والهوان، إنّني شخص لا يستحقّ أن يعيش، إنّ أنفه الأعمال يملأني ذعراً وجفولاً، حتّى تمثّيت أن يكون لزيادة الماهية طريق غير الترقية كي لا أجد نفسي أبداً مسئولاً عن عمل كبير، ولن أنسى أنّي بذلت قصارى جهدي حتّى وكلّوا بي في إدارة المخازن الآلة الكاتبة تفادياً لأعمال حقيرة لا تعدو الضرب والجمع والطرح، لست إلّا مخلوقاً غريباً شدّ على قافلة الحياة الحقّة، ومن آي ذلك أنّي لا أحفل بشيء في الدنيا إلّا نفسي وما يتصل بها من قريب، ومن آي ذلك أيضاً أنّي لا أقرأ الجرائد على الإطلاق! ولشدّ ما كانت دهشة زملائي من الموظفين عظيمة حين تبين لهم اتفاقاً أنّي أجهل اسم رئيس الوزارة وقتذاك بعد أن مضت أشهر على توليه الحكم وراحوا يتندرون بجهلي كثيراً وأنا صامت كظيم، وكأني لست من هذا المجتمع، فلا أدري شيئاً عن آماله وآلامه، قاداته وزعمائه، أحزابه وهيئاته. ولكم طرقت أذني أحاديث الموظفين عن الأزمة الاقتصادية وهبوط أسعار القطن وتغيير الدستور فلم أكن أفقه لها معنى أو أجد لها في نفسي صدى، لا وطن لي ولا مجتمع، لا لأنّي أسبق الوطنية ولكن لأنّي لم أدركها بعد! ولعلّي أشعر أحياناً بأنّي أحبّ الناس جميعاً، الناس كشيء معنويّ عام، ولكن ما كان أحد من هؤلاء الناس - إذا اتصلت أسبابه بأسبابي - إلّا ليثير في نفسي الجفاء والنفور. وحتّى لإيماني العميق لم يستطع أن يستنقذني من هذه الوحشية المخيفة، فضلاً عن أنّه أثقل ضميري بالقلق والتأنيب، وأوسعني إحساساً حاداً بالخطيئة من جرّاء العادة المجنونة التي استبدّت بي...

لذلك إذا كان جاء يوم الأحلام انطلقت إلى حانتي الجديدة بسوق الخضّر لا ألوي على شيء، وطلبت الدورق الجهتميّ الذي لم يعد لي عزاء سواه...

الوجه، دقيق القسبات صغيرها، وكان يحلّي أصبعه بخاتم ذي فصّ ماسيّ، ويضع على عينيه نظارة سميكة أحدثت من نظرة عينيه، ويعبث بسلسلة ساعته الذهبية المدلاة من عروة صدرته. سألتني بأدب عتياً أفضله من المشروبات، ولمّا لم أحر جواباً طلب شيئاً، ثم قال:

- اعذرنى عن تطفلي هذا، ولكنّك ستقدّر موقعي بلا شكّ إذا علمت بما حداني إلى دعوتك. واسمح لي قبل كلّ شيء أن أقدم لك نفسي.. محمد جودت مدير أعمال بوزارة الأشغال.

ووقعت كلمة «مدير» من نفسي موقعاً مروّعاً، فقلت:

- تشرفنا يا بك... أنا كامل روبة لاه موظف بوزارة الحربيّة.

وجاء النادل بأقداح الشاي، ولكنتي كنت أفكر في الفرق الكبير الذي يفصل بيننا كموظّفين. هو مدير أعمال، وأنا كاتب على الآلة الكاتبة بإدارة المخازن. ولحمت وراءه امرأة مثبّنة في الجدار، ورأيت صورتي معكوسة على صفحتها، فنظرت إلى وجهي المستطيل وعينيّ الخضراوين، وسرعان ما سرى عنيّ شعور بالارتياح والإعجاب! أمّا صاحبي فقال لي:

- يا أستاذ كامل، إنّي دعوتك لمشاورة أخويّة، وأرجو أن تقدّر رغبة رجل مثلي - اعتبره أخاك الأكبر - في التفاهم الصريح. لست بالمتجنّي على أحد، ولكنتي أرجو أن نكون صرحاء!

واصطنعت الدهشة وقلت:

- أرجو أن تفصح يا سيّدي عتياً تريد وستجدني رهن إشارتك...

فضحك ضحكة قصيرة خافتة، ثم قال بعد تردّد قليل:

- أتفصح عنيّ إذا سألتك سؤالاً ليس لي حقّ في توجيهه؟

ربّاه إنّي أتلهّف على سماعه: أجل إنّي أوقن بأنّه لن يحمل لي نبأ سائراً ومع ذلك بدا لي كأشهى المنى. قلت

كنت واقفاً في المحطة قبيل المغرب، لم أَلْ أن أنطلّع إلى الشرفة والنافذة، ولكنت حبيتي لم ترق لي منذ جفتي، قاطعتني مقاطعة قاسية، وأضنت حياتي كمداً، وكان الشتاء في إبانهِ: وفي السماء سحب جوف انعكس ظلّه الثقيل على الأرض، وهبّت ريح باردة، وقفت ملتفاً في معطفي الأسود، أرفع للبيت المحبوب من أن لاخر بصراً مشوّقاً يائساً، وعلى حين فجأة سمعت صوتاً رقيقاً يقول:

- من فضلك يا أستاذ...

فالتفت ورائي بدهشة، ولكنت دهشتي تضاعفت ومازجها خوف كثير حين رأيت أمامي أحد الرجلين اللذين اتهمتهما بحبّ حبيتي، ذلك الرجل الوقور الذي يقطن في عمارتها وغمغمت بارتباك:

- أفندم؟

فقال بصوته الهادئ الرقيق، وبلهجة تنمّ على الوقار:

- تسمح ثمثي قليلاً معاً...

فتساءلت بحيرة وإن حدس قلبي الخبر:

- لماذا؟

فقال مبتسماً:

- لديّ أمر أوّد أن أحدثك عنه...

فلم أجد مناصاً من أن أقول:

- بكلّ سرور.

فقال وهو يرفع بصره إلى السماء:

- الجوّ بارد جدّاً، فهلاً وافقت على أن نستقلّ الترام

إلى ميدان إسماعيل، وهناك نجلس في مشرب الشاي فأحدثك دقيقتين؟ ألدبك مانع؟

وركبنا ونزلنا، وجلسنا. حدتني نفسي سلفاً بموضوع الحديث، وداخلني إحساس بالخوف، بيد أنّ شعوري بأنّ الحديث سيدور حول حبيتي حملني على الذهاب معه بلا تردّد، بل وبرغبة لا تُقاوم، ولكنتي تساءلت طويلاً عتياً هو قائل، وعتاً يرمي إليه من وراء حديثه، وألقيت عليه أوّل نظرة من قريب ونحن جالسان حول مائدة صغيرة، كان في الأربعين، معروق

مبتسماً في ارتباك:

- بكلّ سرور يا بك . . .

فارتفق المائدة شابكاً أصابع يديه، وقال:

- لاحظت أنّك تبدي اهتماماً خاصاً بشخص ما، ولعلّك أدركت من أعني «هنا خفق قلبي خفقة عنيفة» فلا تؤاخذني إذا سألتك عن حقيقة اهتمامك هذا، هل هناك رغبة أو نية أو صلة؟!

أوشكت أن أنظاهر بالدهشة، وأعلن تجاهلي، ولكنّي عدلت عن ذلك في اللحظة التالية. طالما التقت عينا في المحطة، وطالما رأيته يراقبني وأنا أنطلع إلى الشرفة، كما رأي أراقبه وهو يسدّد عينيه لنفس الهدف، فهو يعرف كلّ شيء، ويعرف أنّي أعرف، فما جدوى التجاهل إلا أن يكشف عن كذبي؟ فقلت متكلّفاً ابنسامة كاذبة:

- حضرتك أخطأت الفهم، فقدّرت أنّي أبدي اهتماماً بشخص ما على حين أنّي أنظر إليه كما أنظر إلى سواه. إنّها محض عادة سيّئة!

وضحكت متظاهراً بالاستهانة، فابتسم إليّ، وقرأت في عينيه عدم التصديق ثمّ بادرني قائلاً:

- إنّك جنتلّان كما قدّرت، فأرجو أن تخبرني صراحة هل لك بالأنسة علاقة ما؟ إذا أجبتني بالإيجاب شددت على يدك مهتئاً وانصرفت إلى حال سبيلي.

فقلت وقلبي يتقطّع ألماً.

- ليس لي بها أيّة علاقة . . .

فتردّد لحظات ثمّ سأل في حرج غير قليل:

- ألم تفكر في طلب يدها؟

تناوبتني أحاسيس متباينة. شعرت أوّل الأمر بعذاب لا يوصف، ثمّ داخلني سرور خفيّ لأنّي أيقنت أنّ الرجل الذي يخاطبني رعديد مثلي وإلاّ لشنق طريقه إلى بيت حبيتي دون أن يعبأ بي، بل أيقنت أنّه يخافني، فأرضى ذلك غروري إرضاء خفّف عني بعض ألمي. ثمّ وجدّني مدفوعاً إلى الادّعاء والكذب بقوة لا تقاوم فقلت بيقين:

- لو فكّرت فيما تقول لما معني مانع من طلب يدها

من زمن طويل!

وساد صمت. ومضى يتفرّس في وجهي وقد تألّقت في عينيه نظرة ارتباك. أيّ مانع بمعني؟ يا للسخرية! إنّ كلّ شيء يبدو كحلّم غريب، هل حقّاً نحن نتكلّم عن حبيبتي، وهل حقّاً أنّي لم أفكر في طلب يدها وليس لي من رغبة في ذلك. ربّاه ما أشدّ عذابي! وتكلّمني شعور باليأس لم أشعر بمثله طول حياتي الحافلة باليأس. وأخيراً خرج «البك» من صمته قائلاً:

- أكثّر المصدرة عن تطلّلي. الحقّ أنّ نيتي قد صدقت أخيراً على طلب يد الأنسة بعد أن زالت من طريقي أسباب صدّتي طويلاً عن التفكير في الزواج، وبدا لي أن أحدثك به حتّى لا أضع رجلي في غير موضعها، والآن لا يسعني إلاّ شكر.

إنّه من فصيلة العجزة - هكذا حدّثني قلبي - إلاّ أنّه صادف من هو أعجز منه، فهو سعيد الخطّ بلا ريب. فلم يعد لبقائي من مسوّغ، فنهضت مستأذاً في الانصراف وأنا أقول:

- مبارك يا سيّدي.

فنهض في أدب، وبسط لي راحته، وشدّ على يدي بامتنان فخلّته يشدّ على عنقي، وشعرت نحو السرور الضاحك في عينيه بحقد نارٍ، ثمّ ودّعته وغادرت المشرب. وساقطني قدماي على غير هدى فاستسلمت لهما، لأنّه لم يكن لي غاية أقصدها، وأخذت نفساً عميقاً وقلت لنفسني: «الحمد لله»، وأعدت القول بصوت مسموع كأنّي أهتئ نفسي! ولعلّي كنت أهتئ نفسي حقّاً على اليأس، وأمّنيها بالخلاص من القلق والعذاب واللهفة التي لازمتني منذ أشهر طوال، أو منذ سكن الحبّ قلبي. وقلت لنفسني أيضاً: «إنّي سعيد، وليس أحقّ منّي بالسرور أحد، انتهت آلامي إلى الأبد!» وخيّل إليّ أنّي لو ألقيت بنفسي من جسر الملك الصالح - كما كان ينبغي أن أفعل في يوم مضى - لحلّقت بدل أن أهوي من شدّة السرور! دقت لذة اليأس في سرور هذيانٍ غريب، ومزّت بي لحظات جنونيّة. والآن علمت لماذا توارت عن عيني؟! فأخذت أفيق من شوقي الجنونيّة الكاذبة. ثمّ نشبت في قلبي

العاشرة بقليل فوقف لي عمّ آدم احتراماً، فحيّته ودخلت بلا طلب استئذان، إمّا لأنّي أبيت أن أستاذن في دخول بيت أعدّه بيتي، وإمّا لأنّي تناسيت ذاك في قلقي وغمي. ومضيت إلى الفراندا وارتقيت السلم متنحنحاً، ولكّني وجدتها خالية، فوقفت مرتبكاً. وأدركني آدم فدفع باباً يفضي إلى الداخل وسبقني وهو يقول:

- كامل بك حضر.

وتنحّى لي، فاجترت العتبة يقدمين ثابتتين. وجدت نفسي في حجرة كبيرة مستطيلة تنتهي بابين في الجدار المقابل علّقت بينهما صورة بالحجم الطبيعي لأبي في عزّ شبابه. وقد غطّيت أرضها ببساط نفيس منمنم، وصُفّت على جانبها الكتب، وأسدت الستائر على نوافذها وأبوابها. ورأيت أبي مرتباً على كنبه تتوسّط الجناح الأيسر للحجرة، وأدوات الشراب أمامه على منضدة أنيقة كأنّها - لعدم انفصالها عنه - عضو من أعضائه. ولم يكن بمفرده، كان الحلاق على كنب منه يجمع أدواته في حقيبته، ثمّ حيّاه بأدب وذهب، وعلى أثر ذهابه تراجع عمّ آدم وردّ الباب. واتّجه بصري وأنا أقرب منه صوب القارورة فوجدتها لم تُمسّ، وداخلني لذلك ارتياح وأمل. ومددت له يدي فتناولها بكفه الغليظة، وجرت على ستفّته ابتسامة باهتة وهو يقول:

- أهلاً بك، أنت في إجازة؟

لم أرتح إلى استقباله، ولكّني غضضت عن ذلك، والحقّ أنّ آلام الليلة الماضية، والصداع الناشب في رأسي ويأسي المرير، تغلّبت على ما طُبعت عليه من خجل وخوف وتخاذل، فقلت:

- نعم في إجازة خاصّة كي أقابلك في الحال.

فرمقي بنظرة لم يحاول إخفاء ما لاح فيها من قلق ممّا أثار حنقي وغیظي، وتساءل باقتضاب:

- أمر هام؟!

تناسيت كلّ شيء إلاّ ألمي المبرّح وألمي الباقي فقلت بانفعال نمت عنه نبرات صوتي:

- هامّ جدّاً، أو بالأحرى هو حياتي ومستقبلي.

أنساب الغيرة السامة، أيمن أن يتمّ هذا حقّاً! لم أستطع أن أصدّق هذا. لماذا؟... ربّما كان مرجع هذا إلى ثقّي التي لا تتزعزع في الله الرحيم ورعايته، ولكن من كان يصدّق أن ينتهي بنا الحظّ إلى الحال التي نعیش عليها! وتنهت من الأعماق في يأس مرير، ثمّ سرت في جسمي رعدة من البرد القارص الذي تنبّهت إليه لأوّل مرّة بعد مغادرتي المشرب فأحكمت المعطف حول نفسي خوف البرد لكثرة ما يتهدّدني الزكام في الشتاء. وألّمت بي رغبة غريبة، هي أن أجد نفسي طريق الفراش!... وتخيّلت بارتياح رقادي تحوط به العناية والحنان! وعلى حين فجأة انهارت أعصابي تحت الضغط الشديد الذي تحمّلته، فوجدت ميلاً لا يقاوم إلى البكاء، فاستسلمت له متشبّجاً بالظلمة التي تلقيني وبكيت، ثمّ ازدادت استسلاماً فأجهشت في البكاء حتّى انتحبت وشهقت كالأطفال.

### ٣٠

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كنت في طريقي إلى الحليميّة، إلى أبي، كيف انتهيت إلى هذا، خاصّة وأنّه لم يكد يمضي شهر على الزيارة المخيفة! إنّه اليأس... قضيت ليلة مسهّدة معدّبة لم يغمض لي فيها جف، وتفكّرت في أمري طويلاً حتّى تحسّست لي الأفكار شخوصاً تصرخ بي أن اذهب إلى أبيك، مهما كلفك الأمر، وليكن ما يكون. ولم يكن التردّد بممكن في مثل حالتي، لقد فقدت رشادي، وأذهلني الألم عن مشاعري الطبيعيّة بالتردّد والخجل والخوف فكان أبي - على رغم كلّ شيء - الأمل الوحيد الباقي لي.

واخترت أن أزوره في الصباح لأنّي أملت أن أجده قبل سكره في حال خير من تلك التي وحدته عليها في الزيارة السابقة المشثومة، وفضلاً عن هذا كلّ فلم يكن بي من صبر أستطيع أن أنتظر به حتّى الأصيل، فتلفت إلى إدارة المخازن معتذراً ومضيت لطیّتي. وكان الصداع يدقّ غلاف رأسي بمطرقة، بعد ليلة سهاد وهمّ، بيد أنّي تماسكت، واستمددت من يأسي قوّة لم أعهد لها في نفسي من قبل. وبلغت البيت بعد

والحنق فقلت بصوت مرتفع ملأ الحجرة الكبيرة:  
- إنك لم تنفق عليّ ملياً واحداً، فماذا يضربك لو  
تنازلت لي عن بضعة مئات من الجنيهات؟!

ونفخ الرجل عابساً، واشتدّ احمرار وجهه، ثم قال  
بصوت غليظ:

- يبدو لي أنك لا تفهم ما يقال، ولا تعي ما  
تقول، قلت لك ليس عندي مال... ليس عندي  
مال... ليس عندي مال!

وأفلت منّي زمام نفسي فكوّرت قبضتي وضربت  
فخذي وصحت به:

- أليس ثمة رحمة في قلبك؟!  
فحدجني بنظرة كأنها يقول لي: «لقد أعيايت  
إقناعك»، وقال باقتضاب وعدم مبالاة:  
- كلاً.

فرمقته بنظرة جامدة وشت بلا شكّ بأحاسيس  
الكراهية والحنق التي تغور بصدري حتّى رأيته يعبس  
ويتجهّم وجهه، ثمّ صاح بصوت كالخوار:  
- ألا تريخونني كي أعيش البقية الباقية من حياتي في  
هدوء؟!

فصحت به كمن فقد وعيه:  
- متى أزعجت حياتك؟ أنت الذي أزعجت حياتنا.  
إنّي في حاجة لبعض المال الذي تنفقه على الخمر بغير  
حساب ولا بدّ أن آخذ ما أحتاج إليه.  
فقبض على الكأس الفارغة بأصابع متشنّجة وزعق  
قائلاً:

- هذا كلام مجانين! أتسبّي في وجهي؟ أتهدّدني؟  
اغربّ عن وجهي ولا تعد إلى هذا البيت ما دمّت  
حيّاً!

فاشتدّ بي الغضب وصحت بانفعال شديد:  
- هذا بيتي، وما به من مال فهو مالي، ولن تمنعني  
قوّة عمّا أريد، أفاهم أنت؟ أفاهم أنت؟  
فنهض قائماً والشرر يتطاير من عينيه، وصفّق بقوة  
جنونيّة وصرخ فيّ قائلاً:

- اغربّ يا ولد عن وجهي وإنيّ أن تعود إلى هذا  
البيت آدم... آدم...

فردّد قولي دون أن يخرج من جموده، وذهوله الذي  
استحال طبيعة أخرى له:

- حياتك ومستقبلك!  
فقلت برجاء وإشفاق:

- زواجي الذي حدّثتك عنه! إنّ رجلاً يوشك أن  
يطلب يد الفتاة التي أريد أن أتزوّجها، فإذا لم أتقدّم  
في التوّ والساعة أفلتت الفرصة من يدي، وضاعت  
حياتي...

أتراه قاذفي بإجابة ساخرة كعادته؟ وانقبض قلبي في  
فزع. ولكنّه لم يكن هادياً ولا معربداً، ومع ذلك بدا  
جامداً سقيماً ذاهلاً، بل ميتاً. كان كلّ شيء يسوّغ لي  
اللباس، بيد أنّي أبيت أن ألبس، وثبت ذهني المكدود  
على فكرة واحدة عميت عمّا عداها في السباق الجنونيّ  
الذي أكابده. انتظرت على جزع حتّى قال:

- اطمئنّ فإنّ حياة الإنسان لا تضيق لضيق امرأة.  
فهتفت بحرارة:

- إنّي أعلم الناس بحياتي!  
فقال بعدم اكترات:

- أنت وشأنك يا بنيّ. لن أندخل فيما لا يعنيني!  
فقلت بعناد:

- إنّي في حاجة قصوى إلى المال، سبق أن أخبرت  
حضرتك بذلك.

فسألني بلهجة نمت عن الملل:  
- وماذا قلت لك؟

فتملّكني الحنق. وبدا لي في صحوه أفضح منه في  
سكره، وقلت مدافعاً عن نفسي بإصرار وقنوط:

- لا بدّ أن أحصل على المال الذي أريد. أرجو أن  
تقدّر حرجي وشدّتي، فإذا ضاعت منّي هذه الفرصة  
انعدم أمني في الحياة.

والقمت نظرة على القارورة، ثمّ قطّب قليلاً وقال:  
- أنت تطلب مالاً وليس عندي مال!

- هذا غير معقول...  
- هو الحقّ الذي لا شكّ فيه!

وأيقنت من لهجته واستهائه وتبرّمه أنّ الساء أقرب  
إلى إثارة اهتمامه وعطفه، وتألّب عليّ القنوط والصداع

وفتح الباب ودخل عمّ آدم كأنه في الانتظار،  
واقترَب مِنّا وهو يقول:

- أفندم يا بك... خير إن شاء الله.

وبردت فجأة كأن «دشًا» انهار عليّ. سكّت عني  
الغضب، وخمد الهياج، وولّى قلبي فراًا. وقبضت يد  
الخوف الباردة على عنقي فتسمّرت في مكاني مرتبّكا  
ذاهلاً زائع النصر. ذهب كامل الذي اصطنعه  
الغضب واليأس، وبقي كامل الآخر كما خلقته  
الطبيعة. ولم يرحم الرجل الهائج ضعفي فصاح  
بالبواب قائلاً:

- أوصِلْ هذا إلى الباب ولا تسمح له بالدخول مرّة  
أخرى. إنّه يتهدّدني بالقتل.

وحملت في وجهه بذهول وانزعاج لا أكاد أصدّق  
أذنيّ، فلاح لي في هياجه الجنونيّ كشيطان رجيم.  
وصرخ في وجهي:

- اغربّ عن وجهي.

ولكنّي لم أبدأ حراكًا، أو بالأحرى لم أستطع أن  
أبدي حراكًا، تمنّيت لو تنشقّ الأرض وتبتلعني، ومثّ  
خوفًا وكمدًا وخجلًا. وانتظر الرجل عابسًا، فلمّا رأي  
لا تحرك ولا يظهره وغادر الحجرة إلى الداخل على  
حين تفهقر البواب إلى الفراندا. وجدت نفسي وحيدًا  
معضضت على شفّتي، واستعدت وعبي فاستطعت أن  
أنهض قائمًا في وجوم، ثمّ غادرت الحجرة متحاميا  
النظر ناحية البواب. وحشت خطاي في الحديقة  
والبواب يتبعني مغمغمًا بالاعتذار والتأسّف، متحللاً  
للبك الأعذار قائلاً: «إنّه دائئًا هكذا».

وابتعدت عن البيت دون أن أنبس بكلمة...

قطعت نصف النهار الأوّل متسكّماً في الطرق مخنّق  
الأنفاس من اليأس والحنق والقهر والحزني  
والخجل... وعدت إلى البيت في الموعد المعتاد حتّى لا  
تتساءل أمّي عمّا جاء بي قبله. وغلبني النوم بعد الغداء  
فاستغرقت فيه حتّى أوّل المساء، ثمّ غادرت البيت  
مثقل النفس كأنّها أحمل الأرض على رأسي، وتساءلت

أين أذهب، فما وجدت إلّا جوابًا واحدًا. نادّني الحانة  
نداء مغربًا، واستصرخني قلبي أن التّبي وأطيع. بيد  
أنّي لم أغفل عن الحقيقة الراهنة وهي أنّ ميزانتي-  
ذلك الشهر- ستختلّ حتمًا بعد السكرة المشتهاة فلا  
أجد ما أنفقه حتّى قبض المرتّب الجديد... على أنّ  
النداء ظلّ عنيفًا لا يقاوم، وبدأ لي في تلك اللحظة  
التعيسة أنّ نشوة ساعة خير من حياة لا خير فيها...  
وتحمّست يدي ساعتى الذهبية فقفز إلى خاطري أن  
أبيعها إذا أعوزني المال، وداخلني ارتياح فابتسمت  
لأوّل مرّة في يومي. على أنّي تساءلت في اللحظة  
التالية عمّا أقول لأمتي إذا افتقدت ساعتى، ولا بدّ أن  
تفتقدها يومًا؟ ولكنّي نفخت ضجرًا وهتفت حائشًا:  
«أمّي، أمّي، دائئًا أمّي! سأفعل ما أشاء». واستقللت  
الترام بلا تردّد. وفي الطريق هفّت على نفسي ذكرى  
جذّبي لغير ما سبب واضح، فذكرت أيّام الرغد والهناء  
التي فقدتها بفقدته ثمّ وجدتني أتمنّى لو كان قبض يده  
الكريمة عني ونشأني على البخل والتقتير، أما كنت  
أكون أقدر على تحمّل حياتي الراهنة! وقرأت الفاتحة  
على روجه المحبوبة. ثمّ غادرت الترام في العتبة  
وقصدت سوق الخضّر حيث توجد حائتي المتواضعة وما  
انتهيت من نزع معطفي والجلوس إلى مائدة حالية حتّى  
جاء النادل اليونانيّ بالدورق. حائتي شعبيّة بلا ريب،  
ولكنّها محترمة لدرجة ما، فلمّا جانب الحوذنة والمجلبين  
تجدد لمة من الموظّفين الكهول الذين لا تسمح لهم  
ظروف المعيشة وأعباء الأسر بارتياح الحانات الغالية.  
ومن هؤلاء موظّف عجوز مغرم بالغناء والطرب. ما  
يكاد يسكر حتّى يسترسل في ترديد الأدوار القديمة  
مثل: «في العشق يا ما كنت أنوح» و«يا ما أنت  
واحشني»، ولم يكن صوته يخلو من تطريب وأداء يبشّر  
له الجلوس ويتطوّع نفر منهم لترديد المذهب في انسجام  
لذيذ. أخذت في الشرب، وكالعادة تولّاني الشعور  
بالارتياح والمرح، ذلك الشعور الذي لا أجده إلّا بين  
السكراري في الحانة، المكان الأوحد الذي أتخفّف فيه  
من وقار الخجل والعبي والحصر والقلق والمخاوف  
ونعمت بطمأنينة وسرور كأنّي أرّدت إلى أهلي وعشيرتي

ساقني عليه في جلسة سلطنة وأبهة غير شاعر بهودة  
الجو ودخلني ارتياح لحركة العربية الحاملة، وسرعان ما  
خامرتني ميل إلى العبث فقلت للحوذني في حذر  
كاذب:

- إن امرأة تنتظري في الطريق وسأخذها معي...  
فقال الرجل:

- رهن أمرك يا بك...

فقلت لنفسي في سخرية إن كل شيء على ما يرام،  
عربة مريحة وحوذني طيع وليل ستار فلا ينقصنا إلا  
المرأة. ثم قلت مستسلماً لداعي الكذب:

- هي سيّدة من الطبقة الراقية فهلاً وجدت لنا  
طريقاً آمناً؟

فقال ضاحكاً:

- أظن جاردين سقي آمن طريق قريب!

فهتفت به:

- خاب فالك، إن قصرها بجاردن سقي؟

فقال ناهتمام:

- أمامنا جزيرة الروضة وإن كان الجو بارداً وأنا  
رجل عجوز لا أحتمل البرد!

فقلت مشجعاً:

- سأعطيك جنيهاً كاملاً!

وشكر الرجل لي بحماسة وقد تمبّأ له أنه عثر على  
كنز، وجعلت أضحك في سري وأتحسّس بأصابعي  
الريال الذي لم يبق لي غيره حتى نهاية الشهر. ومرّ زمن  
ثم رأيت العمارة المحبوبة - عمارة حبيبتني - تقترّب،  
ودبّت في قلبي يقظة غريبة وعلقت بها عيناوي. لم أعد  
أملك حرّية النظر إليها - وكان كلّ عزائي - بعد ما  
كان بيني وبين خطيبتها المرتقب! لم يعد بوسعي أن  
أنتلّع إلى الشرفة أو النافذة. ترى هل خاطب سعادة  
مدير الأعمال أباهما؟ هل صارت حبيبتي مخطوبة حقاً،  
ألم تذكر المحب القديم - الصامت العاجز - وهي تنتقل  
إلى دنياها الجديدة؟ ألم تجد نحوه شيئاً من الأسف؟  
وشعرت برغبة في الانتقام من الدنيا جميعاً، وتولّاني  
إحساس بالذهول والانقباض فلبثت جامداً حتى بلغت  
العربة شارعنا، فأمرت الحوذني بالوقوف وغادرت

بعد اغتراب ثقيل، وتميّت لو كان في الإمكان ألا  
أبرحهم مدى الحياة. وما لبثت أن غمرتني النشوة  
الساحرة، وأفعم وجداني طرباً. ولم يكن الموظف  
الفنان قد بدأ العناء بعد، وكان يحدث رفاقه بصوت  
مرتفع يسمعه الجالسون جميعاً، ولا بأس من أن  
يشتركوا فيه كما يشتركون في الغناء. قال:

- تصوّروا يا هو أن الطبيب ينصحني بالكفّ عن  
الخمير!

- لماذا كفى الله الشرّ؟

- وجد عندي ضغط دم وتصلّباً في الشرايين.

- اشرب حلبة على الريق تضمن صحتك طول  
العمر.

- وقال لي إذا واصلت الشراب ستهلك لا محالة.

- العمر بيد الله!

- فقلت: وإذا لم أواصل الشراب فسأهلك يوماً لا  
محالة.

- إجابة تستاهل عليها دورق كونيّاك على شرط أن  
تدفع ثمنه.

- هل تصدّقون أيّ رأيت هذا الطبيب ذات مساء  
جالساً في سانت جيمس يشرب ويسكي؟!

- وهكذا الأطباء جميعاً! ينتش أحدهم جنيهاً  
ويقول لك «إيّاك والخمر»، ويمضي به إلى سانت  
جيمس ويشرب قارورتين...

واعتدل الموظف العجوز في جلسته قليلاً، وراح  
ينقر على المائدة ويهرّ رأسه، ثم غنّى قائلاً: «أنصف  
عجبك يا جميل»، واتّجهت نحوه الأبصار، وأخذت  
الجوفة أهبتها للترديد. وكنت أشرب، وأجاذب من  
يجاذبني الحديث، وأضحك ملء قلبي ودار رأسي  
كالعادة بسرعة، ورقصت النشوة في قلبي، وطرقت إلى  
سواء السرور واللامبالاة. ومكثت على ذلك زمناً طويلاً  
أو قصيراً لا أدري لأنّ السكران يفقد حاسة الزمن،  
ثم ودّعت الصحاب وغادرت الحانة ورنين الطرب  
يلاحقني. وضربت على وجهي زمناً آخر، ثم ناديت  
عربة وركبت دون مبالاة بالميزانية المنتحرة، وأمرته أن  
يذهب إلى المنزل. وسوّيت المقعد الخلفي ومددت

وذاك أنني كنت خالي الذهن حتى بعد أن دخلت الشقة، ولم ينب إلى خاطري أن أوقفها إلا عندما وقع بصري عليها، فلما أن لبّث ندائي قلت ما قلت بلا تردّد وربما بلا إدراك ولكّني كنت مدفوعاً بقوة لا تقاوم!... ولم أستشعر ندماً وقتذاك، وجعلت أنفّس في وجهها المتألم وهي تنزع ملابسني جامد الإحساس متحجّر الشعور. ثم ابتعدت عنها صوب المشجب فتناولت البيجاما وارتديتها صامتاً، وصعدت إلى فراشي واندستت تحت الغطاء... واقتربت مني، ووضعت راحتها على جبيني، وسألتني بصوت مرتجف النبرات:

- أشكو شيئاً. هل أصنع لك قهوة تسند رأسك؟  
فقلت لها:  
- شكراً. لا أريد شيئاً على الإطلاق.

## ٣٢

مضى على تلك الليلة وما حلّفت من شجن أسبوع، أو أكثر لا أذكر وكنت قد انتهيت من عملي اليومي وجلست أنتظر موعد الانصراف في ملل وتعب، وقيل الساعة الثانية بقليل استدعيت إلى التليفون فانتقلت إليه في دهشة لأنه لم يحدث قبل هذه المرة أن طلبني أحد بالتليفون ولأنني لم أكن أنتظر أية مكالمات تليفونية إطلاقاً. ووجدت المتحدث شقيقى مدحت وقد قال لي باقتضاب:

- والدنا توفي، احضر إلى الحلمية...

وعقدت الدهشة لساني فلم أزد أن قلت:  
- سأحضر في الحال.

وأعدت السّاعة إلى موضعها ولبّث واقفاً في مكاني. وأنجّمت نحوّي الأبصار وسألني الزملاء عما هناك؟ فقلت في ذهول:

- مات أبي...

وتلقّيت التعازي كالعتاد، وما لبّثت دهشتي أن استحالَت خوفاً، لأن الموت يخيفني دائماً، وغادرت الوزارة وانطلقت صوب المحطة. مات أبي إذن! هذه حقيقة لا شك فيها. وأخذت أفيق من وقع الدهشة،

العربة، ونقدته ثمانية قروش فتناولها في دهشة ونغم متسائلاً:

- والمشوار الآخر؟

وانطلقت مني ضحكة خافتة على رغمي ومضيت إلى حال سبيلي. وارتقيت السلم في تشاقل وتعب، وفتحت الباب بمفتاح في جيبي ورددته بلا حذر، ثم سرت إلى حجرة النوم وأثرت الكهرباء فوقع بصري على أمي وهي مستسلمة لنوم عميق ينم عمقه على الجهد الذي تبذله في يومها الشاق الطويل، فوفقت لحظة أنفّس في وجهها، ثم هفت بها قائلاً:

- نينة!

وفتحت عينها وهي نغمغم:

- من!... كامل!

فقلت بهدوء واستهانة:

- إني سكران...

فحملت في وجهي بانزعاج، ثم جلست في الفراش باضطراب وقالت:

- إنك ترعيني بدعابتك.

فقلت بغير مبالاة.

- ليس في الأمر دعابة على الإطلاق، لقد شربت دورقي كونياك أوتار.

وانزلقت من الفراش، واقتربت مني بارتياح وعيناها لا تتحوّلان عن عيني حتى شعرت بأنفاسها تتردّد على وجهي، ثم امتنع لونها وقالت بصوت متهدّج:

- لم فعلت هذا بنفسك؟... كيف تطيع الشيطان

بعد أن تبت إلى الله؟

فلم أنبس بكلمة، واشتدّ بي الدهول، واستدركت هي تقول:

- اخلع ملابسك... دعني أساعدك...

وراحت تنزع عني ملابسني وأنا صامت ذاهل. لماذا فضحت نفسي على ذاك النحو الغريب؟... لم أكن في حالة سكر يتعدّر معها ضبط نفسي، بل من المؤكّد أنني رجعت في ليالٍ سابقة في حالة أشدّ سكرًا فما أحدثت سكرًا، وما تهاونت في حدري كي لا تستيقظ من نومها، فما الذي دهاني تلك الليلة؟ والأعجب من هذا



لم يعد على خلاف عاداته، وانتظره الرجل قلقاً حتى قبيل الفجر ثم أرسل لنا البرقية في الصباح الباكر، وأنا أعلم أن والدنا كان يحلوه الخروج من أن لأن عند الأصائل، وهو تمل - كما تعلم - فيسير قليلاً على قدميه ثم يستقلّ عربة تنطلق به حيثما اتفق ثم يعود إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، ولكنه لم يحدث أبداً أن قضى الليل خارج بيته، ولذلك أثار غيابه قلق الرجل وأوقعنا في حيرة شديدة. ولم نكن نعلم له من صديق أو جهة، ولكن وقع في ظننا أنه ربما يكون ذهب إلى راضية فمضينا إليها ولكنها لم تكن رآته منذ مفارقتها البيت، ولم نشأ أن نضيّع الوقت سدى فاتفقنا أن تذهب هي إلى أمنا من باب التقصي، وأن نستفسر - أنا وعمك - عنه في قسم الخليفة، وهناك أخبرنا الباشاجويش أن حوذيًا جاء إلى القسم أمس يحمل رجلاً له أوصاف أبينا وقد فارق الحياة، وقال الحوذي إنه استقلّ عربته في ميدان باب الخلق وسار به كرجلته في اتجاه الأمام، ولما أراد أن يستفسر منه عن وجهته بالتحديد في أثناء الطريق وجده كالنائم، وناداه ليوقظه فلم يغني عنه النداء، فأوقف العربة وانتقل إليه وهزه برفق، ثم تبين له أنه فارق الحياة، فلم يَزْ بدأ من أن يحمله إلى القسم، وقد قبضوا على الحوذي على سبيل الاحتياط، وحمل أبي إلى القصر العيني حيث اتضح موته ميتة طبيعية بالسكنة القلبية، وانتقلنا إلى القصر العيني فادخلونا إلى بهو الجنث المشرحة...

وسكت مدحت وقد لاحت في عينيه أي الألم والتفجع، ثم استدرك في شبه ثورة مكتومة:  
- يا له من منظر!... لا أدري كيف عرفنا أبي!... كان شيئاً آخر!

واغرورقت عيناه بالدموع، ولم أكن رأيتُهُ إلا ضاحكاً فاشتد بي التأثير وطفرت الدموع إلى عيني. ولزم الصمت حتى استعاد رباطة جأشه، ثم أخبرني بما نم الاتفاق عليه من تشييع الجنائز في الساعة الرابعة، ثم قال لي:

- إنه رافد الآن في مخدعه فاذهب لتلقي عليه النظرة الأخيرة...

وأستشعر نسائم ارتياح عميق تفهو على نفسي! بيد أن صورته تثلت لعيني في وضوح بصلعته المستديرة ونظرته الغائبة، وخيل إلي لحظة آني أستمع إلى صوته الأَجَشَّ وضحكته الساخرة. ترى متى مات؟ وكيف مات؟ ألا ما أغرب الموت! إن الموت لا يتخلّى عمّا له من خواصّ المأساة حتى في حال رجل كأبي عاش جلّ عمره عيشة الأموات بعيداً عن الدنيا والناس، فعيشة الأموات شيء والموت نفسه شيء آخر. وطرحنا على نفسي هذا السؤال: من عسى أن يحزن لموت أبي؟... مدحت؟ راضية؟ بدا لي أنه سيعادر الدنيا غير مودّع بحزن أو أسى، وبدا لي ذاك مأساة أظن من مأساة الموت نفسها. أليس مستكراً أن يحيا إنسان في هذه الدنيا أكثر من سبعين عاماً ثم لا يترك وراءه راثياً! وجدت عند ذلك عطفًا وحزنًا وإثنا لعاطفة غريبة لم تختلج له في صدري من قبل، ولعلها كانت وليدة الارتياح لا الأسى، لأنه في مثل حالي قد تجود النفس بالحزن لتداري سرورها، أو لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو، ولعلها عاطفة صادقة أفصحت عن نفسها بعد أن ذهبت - بموته - العوائق التي كانت تعاقها. مضيت إلى الحليمية، ولما أقبلت على البيت القديم رأيت نفرًا من الأسرة يجلسون صفًا على الكراسي الخيزران، يتوسطهم رجل وقعت عليه عيناى أول مرة وعلمت أنه عمي بعد ذلك، وكان مدحت يجلس إلى يمينه ويليهِ زوج أختي. وسلّمت واجماً مرتبكاً حتى نهض شقيقي ومضى بي إلى الحديقة وقال لي:

- كان يومًا شاقاً مريئاً، ولكن انتهى كل شيء... فسألته:

- لماذا لم تستدعني قبل ذلك؟

فتنهّد مدحت وقال:

- كنت في شغل شاغل، ولولا أن راضية ذهبت بنفسها إلى أمنا فجاءتنا معاً لما علمتُ حتى الآن بالخبر. ألا تدري ماذا حصل؟ لقد تلقيت برقية في الصباح الباكر من عمّ ادم يطلب إليّ الحضور تَوًّا لأنّ والدي لم يعد إلى البيت منذ ليلة أمس، فحضرنا جميعاً، وأخبرنا عمّ ادم بأنّ والدنا غادر البيت قبيل غروب الأمس وأنه

أفضل، حال الصباح أم حال المساء؟! ولم أستطع مقاومة موجة رقيقة من الارتياح والسرور! على أن شعوري الديني العميق احتج احتجاجاً صارخاً وبث في حناياي الخوف والقلق فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم. ورحت أتهرب من إحساس السرور والارتياح الذي يلاحقني، فقلبت متجهماً وأنا لا أدري، ولكن دون جدوى، فسرعان ما هزأ عقلي بهذه المحاولات الصبيانية وانطلق يفكر في الثروة المنتظرة. وذكرت ما سبق أن حلمت به من بيع البيت، فساءلت: ترى هل يتحقق الحلم؟ هل أصبح مالكاً لألف من الجنيهات وثيق؟ ولكن هل تلجأ منافي في اتخاذ الخطوة الحاسمة أم قضى الأمر وليس ثمة أمل! أ تكون الثروة المنتظرة وسيلتي للسعادة المرموقة، أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة! لقد سخر من فقري وعجزتي، وإنه لقادر على أن يسخر من ثرائي وقوتي، ليُريني أنني على الحالتين مقضي عليّ بالحسرة والتعاسة! وفتر حماسي وخذ، وعراي وجوم وقلق، ودعوت الله في رجاء وإشفاق أن يجعل فتاتي من قسمتي ونصيبتي... وانتهيت من أفكاري على توقّف سير الجنائز أمام الجامع. وأدخل النعش للصلاة عليه، على حين انفصل عنا المعزّون مشكورين. ثم أودع النعش سيارة المسوق، وانطلقت بنا وبه إلى الأمام، وانتهى المطاف...

واجتمعت الأسرة ليلاً في الحجرة الكبيرة التي قابلت فيها أبي لآخر مرة، فجلست وعمي وشقيقي وزوج أختي في جانب منها وجلست أمي وأختي وزوجنا عمي وأخي في الجانب الآخر. وكان عمي رجلاً عملياً. وقد ذكرني مظهره بأبي. فتحدثت عن الإجراءات الواجبة لإثبات الوراثة واقترح أن يقدمنا إلى صديق له في وزارة الأوقاف لبيسر لنا قبض مرتبّاتنا الشهرية. وتحدث أخي مدحت فقال إنه يرى أن نبيع البيت ما دام أحدنا لا يرغب في سكناه، ووقع رأيه من نفسي موقفاً حسناً لم أحلم به، فوافقت عليه

وخفقت قلبي خفقة عنيفة، وتملكني خوف شديد، ولكني لم أستطع رفع بصري إليه، ولم أجد مناصاً من التظاهر بالترحيب بفكرته، فأنجّمت صوب الفراندا متعزّراً في خوفي وارتباك، وارتقيت السلم مزدرداً ربيقي فلمحت شقيقتي ولمحتني في وقت واحد، والظاهر أنها أخبرت أمي بحضوري فجاءت على عجل وقابلتني في الفراندا وسألني في قلق عن وجهتي، فقلت:

- أريد أن أرى أبي...

فقال: برجاء وإشفاق.

- هلاً عدلت عن هذا يا كامل؟... إن قلبك

أضعف من أن يحتمل مشهد المتقين إلى رحمة الله... وتنهّدت في ارتياح، وارتفع عن عاتقي حمل ثقيل. لم يكن ما بي شيء غير الخوف. وهل يستطيع أن يواجه الموت في أبشع حالاته وأفظعها قلب تتولاه الرجفة حيال فار أو خنفساء؟! ورجعت إلى الخارج وجلست بين عمي وأخي صامتاً، وقبل الموعد المحدّد لسير الجنائز بنصف ساعة أخذ المشيعون يتوافدون علينا، فجاء بعض الجيران وموظفو إدارة المخازن بالحريّة، ولما لم يكن لأبي معارف، لم يكن لعمي أصدقاء في القاهرة، فلم يزد عدد المشيعين على عشرين. وقال عمي متأثراً أنه سيحجي ليلة المائتم في بيته بالقيوم. ثم أذفت اللحظة الأخيرة، وارتفع صوت أختي راضية يمزق الصمت الثقيل فاهتز قلبي تأثراً ودمعت عيناها.

ولم نلبث أن انتظمنا الجنائز. وغشيتني بادئ الأمر كآبة ثقيلة استتارها في نفسي منظر النعش، وظلّ الموت، وما عاودني من ذكريات جدّي ووفاته. ثم جعلت الغشاوة تنقش والسكينة تعاودني، واسترقت النظر إلى من يحيطون بي فرأيت وجوهاً هادئة، وأخرى باسمّة لسبب أو لآخر، فسُرّي عني وثابت إليّ نفسي. وذكرت بغتة كيف كنت أسير في الصباح صوب الوزارة خالي الذهن ممّا يترصدني من أحداث اليوم، وكيف أسير الآن وراء النعش فعجبت لحياتنا الغريبة، ونخيل إليّ في تلك اللحظة أنّ الحياة تبرز لسانها في شطارة وتهكم مغرقة في الضحك! ثم ساءلت نفسي عن أيّ الحالين

فِي المَقْتِ لأبي، لَكِنْ لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بَالٍ أَنْ أَذْكَرَهَا  
بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَجِيبَةِ. ثُمَّ عَدْنَا إِلَى بَيْتِنَا دُونَ أَنْ يَنْبَسَ  
أَحَدُنَا بِكَلِمَةٍ...

## ٣٣

لَمْ أَعُدِ الْفَقِيرَ الْمُعْوَزَ الَّذِي كُنْتُ، رَفَعْتُ عَنْ كَاهِلِي  
عِبَاءَ الْحَاجَةِ وَالْحَرَمَانِ، غَدَوْتُ ذَا دَخَلٍ لَا بَأْسَ بِهِ  
غَيْرِ الثَّرْوَةِ الَّتِي سَتَوَافَيْتُ فِي خِلَالِ شَهْرٍ أَوْ شَهْرَيْنِ،  
وَلَكِنْ مَسْتَيِّ جَنُونٍ لَمْ يَكُنْ لِي بِهِ عَهْدٌ، جَنُونٌ مَحَبٍّ لَا  
يُقْعِدُهُ الْفَقْرُ! كَانَ لِي مِنَ الْفَقْرِ رَادِعٌ يَحْدُ مِنْ طُمُوحِي،  
وَيَجْعَلُ مِنْ حَيِّ حَسْرَةٍ طَوِيلَةٍ مَنْطُورَةٍ فِي ذَاتِ نَفْسِي،  
وَلِذَلِكَ سَلَّمْتُ بِالْهَزِيمَةِ حَيَالَ مَنَافِسِي مُحَمَّدَ جُودَتِ دُونَ  
مَكَابِرَةٍ، وَانْطَلَقْتُ فِي الطَّرِيقِ أَنْشَجَ كَالْأَطْفَالِ، فَلَمَّا  
قُتِلَ الْفَقْرُ غَدَا الْحَبُّ مَطْمَعًا غَيْرَ مُحَالٍ. فَتَنَاسَيْتِ  
الْعَوَاقِقَ الْآخَرَى، وَرَكِبْنِي جَنُونٌ جَدِيدٌ، جَنُونٌ مَن  
تَبْدُو لَهُ السَّعَادَةُ مُمَكَّنَةٌ، وَلَا يَجُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنْ  
يَتَغَلَّبَ عَلَى خَجَلِهِ فَيَقْتَحِمَ سَبِيلَهُ وَيَجْرِبَ حَقْلَهُ، لَزِمْتُ  
الْمَحْطَةَ طَوِيلًا فِي عَصْرِ الْيَوْمِ التَّالِيِ لِلْوَفَاةِ، وَجَعَلْتُ  
أَنْطَلِعَ إِلَى النَّافِذَةِ الْمُحِبُّوَّةِ بِرَغْبَةٍ جَنُونِيَّةٍ، مَا عَدْتُ أَرَى  
حَبِيبِي، وَمَا أَدْرِي إِنْ كَانَ الَّذِي أَحْشَى قَدْ وَقَعَ، وَلَكِنْ  
كَانَ فُلَانٌ أَجْنِي مِنْ ثُرُوقِي إِلَّا السَّمَّ الزَّرْعَافَ، وَلَكِنْ  
هَبْهَا لَاحَتْ وَرَاءَ النَّافِذَةِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَ! هَلْ  
تَوَاتَيْنِي الشَّجَاعَةُ عَلَى أَنْ أُوْمِئَ لَهَا بِطَرَفِ خُفْيٍّ...  
لَشَدَّ مَا يَنْقَبِضُ قَلْبِي خَوْفًا وَجَفْوَلًا!... لَسْتُ مِنْ  
ذَلِكَ فِي شَيْءٍ... لَوْ كَانَ بِي ذَرَّةٌ مِنْ شَجَاعَةٍ  
لَاقْتَحَمْتُ بَابَ الْعِمَارَةِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلَا سِتَادَنْتِ فِي مَقَابِلَةِ  
الْبَلِكِ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ مَا يَجُولُ بِخَاطِرِي. هَلْ يُعَدُّ هَذَا  
مِنَ الْخَطُورَةِ بِحَيْثُ يَسْتَدْعِي كُلَّ هَذَا الْخَوْفِ؟ وَهَبْ  
عَلَى أَسْوَأِ فُرْصٍ قَدْ اعْتَذَرَ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ، فَلِمَاذَا أَعَدُّ  
هَذَا الرِّفْضَ أَشَدَّ مِنَ الْمَوْتِ وَأَقْتُلُ مِنَ الْقَتْلِ!... لِمَاذَا  
لَا يَكَادُ يَجُولُ بِخَاطِرِي حَتَّى أَنْصَبَّ عِرْقًا وَيَنْتَزِي قَلْبِي  
فِي صَدْرِي! يَا لَلَّهِ!... أَمَا يَتَزَوَّجُ النَّاسُ كُلَّ يَوْمٍ  
بِالْعَشْرَاتِ وَالْمِائَاتِ!... كَيْفَ يَتَلَمَّسُ الْأَزْوَاجَ  
الْوَسَائِلَ وَيَقْتَحِمُونَ السَّبِيلَ! لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ مَبْتَغَايَ إِلَّا  
أَنْ أَطْرُقَ هَذَا الْبَابَ. فإِنَّمَا سَعَادَةُ الْأَمَلِ أَوْ رَاحَةُ

بِحِمَاسٍ نَسِيتُ أَنْ أَدَارِيهِ، وَلَمْ تَمْنَعِ رَاضِيَةً، وَقَالَ  
عَمِّي:

- إِنَّهُ بَيْتٌ قَدِيمٌ ضَخْمٌ لَا يَغْرِي إِلَّا شَارِبًا مَثْرِيًا،  
يَهْدُهُ وَيَشِيدُ مَكَانَهُ عِمَارَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى طَرَازٍ حَدِيثٍ، عَلَى  
أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَبَاعَ بِأَقْلَ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ جَنْيَةٍ.

أَرْبَعَةُ آلَافٍ، آه لَوْ يَكُونُ مَنَافِسِي تَأَخَّرًا وَكِبَرًا عَلَيَّ  
أَنْ أَتَصَوَّرَ أَنْ يَحْيِبَ اللَّهُ رَجَائِي بَعْدَ أَنْ حَقَّقَ أَحْلَامِي  
عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ الْبَاهِرَةِ، إِنَّ ثَقَتِي بِاللَّهِ لَا حَدَّ لَهَا وَهُوَ  
الْخَبِيرُ الْمَطْلَعُ. وَلَاحَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ نَحْوَ أُمِّي فَوَجَدْتُهَا  
صَامِتَةً غَارِقَةً فِي أَفْكَارِهَا وَقَدْ ارْتَفَعَ حَاجِبَاهَا الْخَفِيفَانِ  
وَانْفَرَحَتْ شَفَتَاهَا عَنْ أَسْنَانِهَا الصَّغِيرَةِ اللَّامِعَةِ، تَرَى  
فِيمَ تَحْمَلُ! وَمَا حَقِيقَةُ مَشَاعِرِهَا حَيَالَ الْمُتَوَقِّ؟... هَلْ  
أَعَادَهَا هَذَا الْبَيْتَ الْقَدِيمَ إِلَى عَهْدٍ حَيَاتِهَا الْمَنْطُورَةِ!  
وَشَعَرْتُ نَحْوَهَا بِعُظْفٍ وَحَبٍّ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الْأَفْكَارَ الَّتِي  
تَمَلَّكْنِي فَدَاخِلْنِي إِحْسَاسًا بِالْقَلْقِ وَالْخَوْفِ...

وَلَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ مِنْ مُنْتَصَفِهِ اقْتَرَحَ أَخِي أَنْ نَبْنِي  
لَيْلَتَنَا بِالْبَيْتِ، لَكِنْ أُمِّي أَثَرْتُ أَنْ نَعُودَ إِلَى بَيْتِنَا عَلَى  
أَنْ نَرْجِعَ مَعَ الصَّبَاحِ، وَبِذَلِكَ غَادَرْنَا الْبَيْتَ الْقَدِيمَ  
وَسَرْنَا جَنِبًا إِلَى جَنْبِ صُوبِ الْمَحْطَةِ، وَحَدَّثْتَنِي فِي  
الطَّرِيقِ قَائِلَةً:

- أَمَا كَانَ الْأَفْضَلُ أَنْ تُبْقُوا عَلَى الْبَيْتِ.

فَقُلْتُ بِدَهْشَةٍ:

- وَمَاذَا نَصْنَعُ بِهِ؟. إِنِّي فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى نَصِيْبِي

مِنْ ثَمْنِهِ...

فَقَالَتْ:

- حَسْبُكَ رَاتِبُكَ الشَّهْرِيُّ، أَمَّا هَذَا الْقَدْرُ الْكَبِيرُ فَمَا

أَدْرِي وَاللَّهِ مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ!

تَرَى هَلْ اسْتَشْعَرْتُ قَلْبَهَا خَوْفًا! وَسَاوَرَنِي الْقَلْقُ  
وَالْاِسْتِيَاءُ، وَاخْتَلَسْتُ مِنْهَا نَظْرَةً وَلَكْنِي لَمْ أَتَبَيَّنْ فِي  
الظُّلْمَةِ مَا يَبْدُو عَلَى وَجْهِهَا، وَوَاصَلْتُ حَدِيثَهَا قَائِلَةً فِي  
لَهْجَةٍ تَنْمُّ عَنِ الْإِشْفَاقِ:

- إِيَّاكَ وَأَنْ تَفْرَحَ لِمَوْتِ أَحَدٍ! لَا تَذْكُرْ أَبَاكَ مِنَ الْآنَ

فَصَاعِدًا إِلَّا دَعَوْتُ لَهُ بِالرَّحْمَةِ، فَمَا أَحَبُّ لَكَ أَنْ تَسِرَّ  
لِمَوْتِ إِنْسَانٍ مَعَهَا كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ!

عَجِبْتُ لِهَذَا الْكَلَامِ يَلْقَى عَلَيَّ مِنَ الْفَمِ الَّذِي بَثَّ

عن كل شيء في الوجود إلا هذا المنظر البهيح الذي ارتعدت له جوارحي فرحاً وخوفاً، ورفعت إلى وجهي عينها عرساً فالتقت عينانا لحظة قصيرة، وبدا لي أنها ترددت قليلاً على عتبة المقصورة، ولكن لم يكن وراءها موضع لقدم فغادرت المقصورة على رغمها، والتمس بصرها فيما ورائي مكاناً تقف فيه ولكن كان تكتل الواقفين متماسكاً، فاضطرت أن تحتل الموضع الذي كنت تشاغله وأسندت ظهرها إلى الباب، ووقفت أمامها مسكناً بمقبض الباب، على مرمى الأنفاس منها، هي هي دون غيرها، جادت بها السماء لتبلى جوانحي من الحقائق ما هو أعجب من الأحلام، وهذه أعجب الحقائق. ماذا بي؟... ترى أهذا سرور أم خوف أم وقدة نار؟ لولا دقة الموقف وشدة حيائي لطاب لي أن أبكي! غبت عن كل شيء، فلم أعد أحسن للناس وجوداً على تكتلهم، وحتي حبيتي نفسها لا أذكر لون فستانها ولا ماذا كان بيدها، يبدو لي أن للقلب بصراً إذا اشتد تفرسه غطى على بصر الأعين فينقلب الإنسان أعمى وهو بصير - ولا أدري كيف وائتني الشجاعة فاسترقت إليها النظر، ورأيتها فحقت قلبي غير رحمة وهيئ لي أن وجودي هو الباعث على هذا التودد الفاتن وذاك الارتباك المليح، وتنهدت على رغمي فتموجت خصلة من شعرها لوقع أنفاسي، ورفعت إليّ عينها ثم خفضتها بسرعة فزاراً من عيني، آه... عثرت أخيراً على من يفر مني!... وشاعت في رأسي نشوة اللذ من نشوة الخمر وأحمى، وركبني جنون لا عهد لي به فثبتت على وجهها عيني في جسارة خارقة، بل هي بالنسبة إليّ جنونية، ثم وثبتت إلى شعوري رغبة عربية أن أنطلق وأن أبوح بما يضغط أنفاسي، وازدردت ريتي في توتر عصبي عنيف، وجعلت أتحفز وأتوئب في قلق وهياج نفسي مروع، وأيئدني الجنون الذي يضطرب في روحي، ودفعني ما عانيت في الأيام الماضية من لفقة قلق وقنوط ثم تملكني إحساس يشبه إحساس المنتحر إذا تحمّس للوثة الأخيرة، وتحركت شفتاي بصوت خرج همساً قائلاً:

- أريد أن أقول لك كلمة...

اليأس، بلآلم أتردد وأحجم؟ إنه بيت وليس بحصن، وإني طالب زواج ولست بعدو، فلماذا أخاف كل هذا الخوف! ليست غايي أن أغزو قارة ولا حتى أن أخوض معركة، ليس المطلوب أن أكون نابليون أو هانيبال، لا يعدو الأمر أن أقدم نفسي، وأن أعرض سؤالي، وأنا محوط بالرعاية التي يتلقاها ضيف من مضيف كريم، ثم ليكن الجواب ما يكون فما يجاوز على أسوأ حال الاعتذار الرقيق... قلت هذا لنفسي في يسر وتأنيب: ولكن ما إن تجسم لي الخيال حتى التهب مني الجلين واشتدت ضربات قلبي وأحسست رعدة تسري في أطرافي، وحضرتني بغتة ذكرى ساعة الخطابة المشثومة بكلمة الحقوق التي طوّحت بي بعيداً عن الجامعة، فتنهدت من الأعماق في قنوط قاتل. إن الإقدام فوق طاقتي، وربما كان يوسعي أن أقضي العمر على هذا «الطوار» باكياً، أما عبور الطريق وطرق الباب فما لا أستطيع، وبلغ مني الهلع أن انقلب القلق الذي يساورني حتى تحرق القلب والرأس، ثم انقضت أيام قلائل عشتها فيها يشبه الهذيان، نسيت الثروة التي وقعت عليّ، نهد حماسي للحياة والامل، وتركزت تفكيري في شيء واحد لا يتحول عنه، جعلت أدور حوله دون أن أحرز على الدنوّ منه، أو أستطيع الابتعاد عنه، ووجدت على أمتي وجداً لم أحاول إخفائه، فقلت لنفسي في حق بالغ: لو لم أخشها لبعثتها تحطب لي وتكفيني شرّ الحمى التي تسعر في كياني.

متى تنقشع هذه الغمة؟ لم أكن لأرى لها من نهاية لولا حادث عارض! كنت عائداً من الحلمية، فنزلت في العتبة حين الغروب، وصعدت إلى ترام الجيزة الذاهب عن طريق الروضة كالعادة. وكانت القاطرة مكتظة بالجالسين والوقوف، فرحت أتزحزح حتى أسندت ظهري إلى باب مقصورة الدرجة الأولى. ولما غادر الترام الميدان بقليل سمعت نقرأ على الباب فأدرت أن أحد الراكبين يستأذن لفتحه فابتعدت عنه قليلاً دائراً على عقي لأفسح للمقادم طريقاً، وفتح الباب عن وجه أعرفه، رأيت أمامي حبيتي دون غيرها! وثب قلبي وثبة عنيفة زلزل لها صدري، وغبت

فحزني الإشفاق من إفلات الفرصة إلى الدنو منها،  
متشجعاً بالظلام، ثم قلت بصوت متهدج:

- معذرة... لا تؤاخذيني على تهجمي...

- ماذا تريد؟... وما هذا الذي فعلته أمام الناس؟  
واشتد بي الارتباك، وكنت أسمع صوته لأول مرة  
فهزّني به غثة لطيفة على حدّته وغضبه، وقلت:

- أسألك المغفرة. إني أود أن أقول لك كلمة من  
زمن طويل ولم تنهني لي الفرصة إلّا اليوم!

وشعرت بصعوبة شديدة في التعبير والكلام، وبأنّ  
إحساساتي الحساسة يخونها الإفصاح، ووجدت قهراً  
وضيقاً. وزاد من ضيقي أنّها ولّنتي ظهرها بغير اكتراث  
وعبرت الطريق إلى الطوار عجلة، فتبعته بسرعة  
مندفعاً، وقلت:

- أرجوك... لحظة واحدة، أصغي إليّ، كلمة  
واحدة ثم يذهب كلانا إلى حال سبيله...

فقلت دون أن تنظر إليّ أو تكف عن السير:

- بأيّ حقّ تكلمني يا هذا؟

فهتفت بدون وعي منّي:

- إني أعرفك منذ أكثر من عامين...

فقلت بلهجة تنمّ على الانزعاج:

- ما هذا الافتراء؟!

أيمكن ألا تكون عرفتني؟! يا لي من غبي!... ألم  
تدعن لإرادتي حتّى نزلنا في هذه المحطة؟! يدلّ هذا  
على أنّها ترغب في سماع كلمتي... إنّ الفرصة  
سانحة ولكنّي أفسدها بالعني والحصر والارتباك.  
واستجمعت قواي وقلت بصوتي المتهدج المضطرب  
النرات:

- إني أتلهّف على قول كلمة منذ أشهر وأشهر...

ماذا يضريك لو أصغيت إليّ؟!

لماذا لم أتكلّم بدل أن أسوق هذه المقدمات؟ اللهم  
إني أستعينك على حلّ عقدة لساني! وبدا لي أنّ حبيتي  
فطنت لخبلي المميت. لم أدرك البواعث التي حملتها  
على التوقّف، ولكنّي رأيتها تتحوّل نحوي وترمقني  
بعينيها الجميلتين اللتين أحبّهما أكثر من نور البصر، ثمّ  
تسألني بحدة:

ربّاه... ترى هل بلغ سمعها؟... أجل،...

رمقتني بعين دهشة وقد تورّد وجهها ورمشت عيناها!

وسرّ وقت قاسٍ غليظ. جفّ حلقي وتوالى

ضربات قلبي في سرعة عنف، آية هاوية أوردني

جنوني؟ لقد هوى المتجر وجاء دور الاستغاثة. مع

ذلك داخلني ارتياح عميق لأنّي زحزحت أضخم سدّ

اعترض حياتي. تكلمت، نطق الحجر ولو بعد حين،

لن أموت على آية حال وسرّي دفين صدري. ولكنّ

الترام لا يمهلي طويلاً، وإنّه وشيك الوصول إلى محطة

حبيتي، وها هي ترمي بنظرها خلل النافذة، وها هي

يدها تلمس مقبض الباب لتفتحه، سيّنتهي كلّ شيء!

وركني الجنون تارة أخرى فشددت على مقبض الباب

أمنع فتحه! من أين لي بهذه الجراءة؟! وبدا في الوجه

الجميل الاستياء، ورمقتني غاضبة، فهمست برجاء

كأنّه البكاء:

- كلمة واحدة...

وتوقّعت لحظات قاسية أن تنقُص الصاعقة على

رأسي! أن تزجرني أو تنهني فتستثير غضب

الحاضرين... ثمّ عليّ السلام! ما بي قوّة لاحتفال مثل

هذا الموقف، ولئن وقع لأموّت حيث أنا! ووقف الترام

ويدي قابضة على الباب، ثمّ تحرك ثانية وهي بمكانها

مقطّبة مستاءة ولكن دون أن تبدي اعتراضاً جدّياً أو

ثورة علنية! وسرت في جسدي رعدة السرور والظفر

والجنون وخيل إليّ أنّي أتحوّل إلى عملاق جبار يجرّ له

الموت نفسه صريعاً بضربة واحدة. وانتظرت حتّى

ابتعد الترام محطّتين ثمّ فتحت الباب وأنا أهمس

«تفضّل» فدارت على عقبيها بحركة عصبية وسارت

تشقّ لها طريقاً وسط الزحام وأنا أتبعها، واعترض

نشوتي خاطر، ألا يكون استسلامها حياء وارتباكاً

وتفادياً من الفضيحة؟! ألا يُحتمل أن تكون قد كظمت

غضبها حتّى تصبّه عليّ في الطريق بعيداً عن أعين

النظارة؟ وأوشكت قواي أن تخذلني، وغادرت الترام

وراءها وأنا قلق مضطرب، كانت الظلمة غاشية

والطريق كالمقفر إلّا من سيّارات تذهب وتجيء،

وابتعدت عني بسرعة وهمّت بعبور الطريق إلى الطوار،

- إني أدرك هذا، بيد أنني خفت أن يكون أحد قد سبقني...

فقلت بصوت لا يكاد يُسمع:

- هب هذا حصل...

فهتفت في إشفاق وحسرة:

- أأفلت الفرصة من يدي؟!

فنفخت قائلة:

- لا تتبعني إلى أكثر من هذا لأني أقترّب من البيت...

فسألته وقلبي يفزع بكلّ قواه إلى التملّص من قبضة اليأس:

- أليس ثمة رجاء؟

فقلت وهي تحمّ خطاها:

- لست أنا الذي أحاطب في هذا الشأن..

وتوقّفت عن السير، ولبثت هنيهة جامدًا ذاهلاً. ثمّ صحتُ وأنا أفرقع بأصابعي: يا لي من غيبي! لو أنّها أرادت الرفض لما أعوزها الجواب القاطع! ألم تدعن لي في الترام؟ ألم تصغريّ مني منذ دقائق؟ ألم تقل لي إنّها ليست هي التي تحاطب في هذا الشأن؟ فقيم أطمع وراء ذلك؟ إنّها دعوة متوارية لطيفة. وشاع في نفسي سرور كالخمر، وخيل لي أنّي أترنّج كالثلّمل...

### ٣٤

وعدت إلى البيت وذكريات الساعة الماضية تسجّع في قلبي أعذب الألحان. تملّكني شعور بالقوّة لا حدّ له، وازدهاني الغرور والزهو، وحييت في الدقيقة الواحدة دهرًا طويلًا من السعادة الصافية. وقلت وأنا أرتقي السلم: «سأفانح أمي بالأمر كلّ». قلته بلا خوف ولا تردّد، ربّما بلا رحمة أيضًا، وطرقت الباب، ففتحت لي بنفسها وهي تتمتم مبتسمة كعادتها:

- أهلاً بنور العين...

وجدتها على الأناقة التي أحبّ أن تلقاني بها، وتفرّست في وجهها الوديع الوقور المشرق بابتسامة الترحيب، فبدت لي خطورة ما أنا مقدم عليه،

- ماذا تريد؟

ماذا أريد؟! لم يتيسّر لي القول بعد؟! ها هي تنتظر الكلمة التي أتعبّتها في استئذان قولها، ألم أكن أعددتها؟ وجدت رأسي فراغًا وكأني فقدت النطق. ماذا ينبغي أن يقال؟ وازدردت ريفي الجافّ في شبه قنوط، ثمّ بدا منها ما يدلّ على نفاد الصبر، والتحفّز للسير، فخرجت عن صمّتي هاتفاً:

- صبرًا، أرجوك،... أنا أريد أن أقول... إني راغب في... (وقفت عبارة «طلب يدك» في زوري)... إنك تفهمين بلا شكّ، اليس كذلك؟! فهل يمكن هذا؟!

فتأفّفت وقالت:

- لا بدّ أن أعود إلى البيت فلا تتبعني من فضلك...

وتولّاني الهلع فقلت مندفعًا بلا تردّد هذه المرّة:

- إني أفكر... أعني أنّي أرغب في طلب يدك إذا سمحت لي...

وتنهّدت بصوت مسموع، وغمرني ارتياح واستسلام، تكلمت أخيرًا ونفّست عن صدري وليكن ما يكون...

ومضت ثانية من الصمت العميق مثل الهدوء الذي يعقب عاصفة هوجاء، ثمّ أخذت تسير في خطوات قصيرة دون أن تنبس فعاودني الجزع وتبعته وأنا أقول كمن يستجدي الجواب:

- هذه كلمتي...

فقلت بصوت منخفض خيل لي أنّه بلغ أذني هادئًا لا أثر فيه لحدة أو غضب:

- لا يليق بك أن تتبعني هكذا.

فقلت بعجلة ولهوجة:

- إني استأذنتك فلا تتركيني بغير جواب...

فقلت بضيق:

- لست أنا الذي أحاطب في هذا الشأن!

فخفق قلبي بعنف وفاض به سرور لا يوصف وقلت:

- ما أسعدني بذلك! هذه هي السعادة حقًا. ترى هل جاءتك هذه النية اليوم؟ الآن؟ لماذا لم تخبرني قبل اليوم؟! مبارك، مبارك، مبارك يا بني.  
وأزعجني تهجّج صوتها، واضطراب نبراتهما، وانفعالها الظاهر، فقلت:  
- إني أستاذك لأنّي أحبّ دائماً أن تكوني راضية عني.

فهتفت في لهوجة:  
- وهل تتصوّر أن أبخل عليك ساعة واحدة برضاي؟ يا الله، أبعد هذا الحبّ كلّه أجرى عنه بالتشكّك في إخلاصي؟... ستجدي راضية عنك ولو قتلتني، أنسى أنّ حياتي كلّها لك؟  
فازددت ريفي وقلت وأنا أحتلس منها نظرة قلق:  
- إني أعلم هذا وأكثر يا أمّاه  
فلاح في وجهها وجوم شديد وبدا عليها أنّها تحاول عبثاً أن تضبط عواطفها:

- هذا ما يعلمه القاضي والداني وآية أم لا نخرج لزواج ابنها ولو كانت وحيدة ليس لها سواء! هذه حكمة الحياة، أن أحتضنك العمر كلّه ثمّ أسلمك شاباً رائعاً لعروسك، إني أبكي من الفرح.  
اغرورقت عينها وهي تتكلّم، ونظرت إليّ خلال دموعها وكأنّها ارتاعت لوجومي، فقلت معتذرة:

- معذرة يا كامل، ليست هذه بدموع... إنّها دموع الفرح، بيد أنّك فجأتني مفاجأة، ولم تتلفّف في إخباري، ولكن لا داعي للتلفّف، ألا ترى أنّي أعتذر بما هو أقبح من الذنب؟ ليغفر لي ذنبي حيّي الكبير وحسن نيّتي وقلبي الذي وهبتك إيّاه وإن لم تعد بك حاجة إليه... وإنّك لتعلم بأنّي إذا انفعلت أفلت زمام لساني من يدي. إني أهتلك بمن احترت لنفسك، ولكن هل نبتت هذه الرغبة الآن فحسب؟ إني لا أطيق أن أتصوّر أنّك رغبت في الزواج من قبل ولم تسعفك الوسيلة. أكنت ترغب في الزواج من زمن طويل؟  
فقلت وأنا أداري بابتسامة ميتة:

- كلّاً يا أمّاه ما فُكّرت في ذلك إلّا من زمن قصير حين بدا لي أنّي كبرت...

واعتراني وجوم وخوف، وقلت لها في تردّد غابت عنها أسبابه وبواعثه:  
- لننتقل عمّا قريب إلى مسكن لائق، لأعيدنّ إليك خدمك وحشمك!  
فابتسمت وقالت:  
- هذه أسعد أيام حياتي لأنّي أقوم فيها على خدمتك.

وخلعت ملابسني، وعدت إلى الصالة فجلسنا على كنبه متجاورين وأنا أقول بقلبي: «اللهمّ عونك ورحمتك». واستحوذ عليّ القلق والحياء، إنّها مهمّة شاقة، محزنة، ولكن ما منها بدّ. واسترقت إليها نظرة فوجدتها آمنة مطمئنة، غافلة عمّا أضمره لها، فوخزني الندم، وكادت تتخلّى عني قوّة التصميم. بيد أنّي أشفقت من عواقب التردّد والاستسلام لدواعي الخور، فرميت بنفسني في الهاوية قائلاً:  
- أمّاه أريد أن أحدثك بأمر هام...

ورمقتني بنظرة غريبة، خلعتها مريبة متوجّسة، حتّى حسبتها قد كشفت حقيقة الأمر كلّه بقوّة إلهام خارقة... أتمت نبرات صوتي على ما يدور بنفسني؟!... أم فضحتني نظرة عيني؟! أم لم يكن هناك شيء ممّا حسبت وشبّه لي الوهم ما لا حقيقة له؟! أمّا هي فقلت بهدوء وتساؤل:  
- خير إن شاء الله...

وصمّمت أن أجوز منطقة الخطر دفعة واحدة فقلت مستشعراً خوفاً لا مرأى فيه:

- سأتوكّل على الله وأتزوّج...  
رنت كلمة «أتزوّج» في أذنيّ ربيّناً غريباً، أنكرته، وأخرجني كأنّما تفوّهت بلفظة جارحة معيبة! رفعت هي عينها إليّ في دهشة، واتّسعت حدقتها، ولاح فيها ذهول وغباء كأنّها لم تفهم شيئاً، ثمّ تساءلت:  
- تتزوّج؟!

وكنت قد تخطّيت أكبر عقبة فأمكنني أن أقول:  
- أجل... هذا ما انتويته.  
ونذت عنها ضحكة متقطّعة بالاضطراب والارتباك أشبه، وقالت بصوت متهجّج:

فندت عنها ضحكة هسترة، وصاحت:

- اسمعوا يا هوه، كامل يبدو أنه كبر! وأنا؟! لا بد  
أني عشت أكثر مما ينبغي!  
فتأوهت قائلاً:  
- أمّاه، إنك تحزينيني.

- لا عاش من يحزنك. الأم التي تحزن وليدها لا  
تستأهل نعمة الحياة... ولكنك تقول على نفسك  
بالباطل وتزعم أنك كبرت. يا لك من طفل  
مكابّر!... لكأني أراك تحبو، وأنت تركب منكبي،  
ثم وأنت تختال في بزة الضابط وضفیرتك تنهّذ على  
كتفك، فكيف تدّعي الكبر؟!  
فقلت مغتتاً:

- ألسنت على عتبة الثامنة والعشرين!

- أصغر أبنائي على عتبة الثامنة والعشرين! يا لي  
من امرأة عجوز! لكن مشيتك. ومهما يكن من  
عمرك فستكون أصغر الأزواج، وسأفرح بك فرحاً  
ليس وراءه مذهب لفرحان. ولكن ما بالك واجماً...  
أساءك كلامي؟ يعلم الله أنني لا أحسن الكلام، ولكن  
الموت أحب إلي من الإساءة إليك...  
فقلت بقلب ثقيل:

- ساعحك الله يا أمّاه...

فابتسمت: أي والله ابتسمت وقالت مصطنعة  
المرح:

- لنُدع هذا جانباً، ولنقدّم الأهم على المهم. أصغ  
إلي يا كامل، تزوج بالهناء والسرور، وسأخطب لك  
إذا أمرتني.

فترددت لحظة ثم تمكّني الضيق فقلت:

- ليس ثمة اختيار، فقد وقع اختياري.

فرنت إليّ بدهشة، ولادت بالصمت ملياً، ثم  
تساءلت:

- متى تم ذلك؟

- منذ زمن يسير...

فلاحت في عينيها نظرة لوم وعتاب كأنما عزّ عليها  
أن أكنمها هذا الأمر الخطير، ثم خفضت عينيها في

استسلام، وسألت بصوت هادئ، بل هادئ جداً:  
- من؟

- لا أدري بالضبط، الراجح أنها مدرّسة، وهي  
تقطن العمارة البرتقالي أمام القصر العيني.  
فعاودتها الدهشة، وتساءلت:

- ألم تحدّث بأمرها أحدًا؟

- مطلقاً!

فتفكرت ملياً ثم واصلت حديثها:

- ليس من المحتمل أن تكون مخطوبة، «وهنا خفق  
قلبي بعنف»... ثم ألا تدري عن أهلها شيئاً!...  
من أوهها؟  
- لا أدري...

- ألم أقل لك إنك طفل... الزواج أخطر ممّا  
تظنّ. لعل وجهها أعجبك، وهذا شيء لا وزن له.  
المهم أن تعلم آية فتاة هي وأني قوم أهلها، وما  
مكانتها، وما أخلاقهم. الشاب في الواقع يتزوج من  
أسرة لا من فرد، وينبغي أن يطمئن قبل أن يخطو  
الخطوة الأخيرة إلى من ستغدو أمّاً لأبنائه ومن يكونون  
أخوالاً لهم.

وتولّاني الارتباك، وأحسست بحرق لأول مرة فقلت  
ببقين.

- أسرتها كريمة... لا يداخلني في هذا شكّ.

- ومن أدراك؟

فقلت بلهجة من لا يحتمل في ذلك جدلاً:

- إنني واثق.

فبدأ في وجهها الاستياء وقالت:

- مدرّسة! إن بنات الأسر الطيّبة لا يشغلن  
مدرّسات! والمدرّسة إمّا أن تكون عادة دميمة أو  
مستهترّة مسترجلة.

فوخزني ألم في صميم الفؤاد وهتفت بحدة:

- يا لها من آراء فاسدة!... أنت لا تدري شيئاً  
عن الدنيا التي نعيش فيها، لقد تغيّر كلّ شيء، ولا  
شكّ أنّها فتاة كاملة ومن أسرة عالية!

وغلّبتها الانفعال على هدوئها المصطنع فقالت  
بنرفزة:



مرة أجمع الرأي فيها على قرار حتى أجد همسه يفت في عضدي ويتغص صفوي... بيد أن سعادتي هذه المرة كانت أجل من أن يؤثر فيها مؤثر.

## ٣٥

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى المحطة وبقي أمل جديد مسكر. وكانت كانت تنتظري، رأيته وراء زجاج النافذة معصوبة الرأس بمنديل أبيض. واستخفني الفرح فابتسم مني الفم والعينان والقلب، وتسامت إليها عينا في شجاعة غير معهودة. وما كان أشد سروري وسعادتي حين رأيت الوجه الصبيح يجمود بابتسامة. انتهى عهد التعاسة والحرمان، وانقضت ظلمة النفس، ولاحت طلعة حبيبي بعد اختفاء طويل معذب، وصرنا أصدقاء نتبادل الابتسام! يا لها من حقيقة لا تصدق! حتى هذا الصباح كنت أخاف أن يكون لكلام الأمس معنى غير الذي فهمته. أما بعد هذا الانتظار المثير وهذه الابتسامة المشرقة فأستطيع أن أستسلم لنداء السعادة في صفاء لا يشوبه شك. ذهبت إلى الوزارة كالثلج. ما أغربك يا دنيا! إن من يتعسه الحظ برؤية تجهل لا يتصور أنك تجودين بمثل هذه الابتسامة. وتملت الحقيقة التي لا تصدق، ابتسامة حبيبي، فقلت لنفسي إن معنى هذا أن أبواب السماء مفتحة تسخ على قلبي هناء، ولكن لا يجوز أن أجد أو أن أصمت بعد اليوم، وفزت بابتسامة أخرى عند الأصيل، وثالثة في صباح اليوم التالي، وشعرت بأنه ينبغي أن أقطع الجمود بالعمل الحاسم. وجاء صباح الجمعة بعد ذلك اليوم، فغادرت البيت في معطفي الأسود بادي الأناقة، تمثلتًا تصميمًا وعزمًا. ووجدت حبيبي في الشرفة تتشمس. فتبادلتنا تحية الابتسام ثم ألقيت على ما حولي نظرة حذرة. وأومأت إليها أن تنزل لمقابلتي، يا لها من جراءة! من كان يصدق هذا؟ وثبت نظري عليها في إشفاق وخوف، ورنرت إلي بهدوء، ثم جرت على شفيتها ابتسامة لطيفة وتراجعت إلى الداخل، هل تجيء لمقابلتي؟... رباه لقد قضيت ليلة الأمس كلها في عمل «البروفات» لهذه

- لا داعي لإهانتي من أجل فتاة مدرّسة لا تعرف عنها شيئًا! وما قصدي إلا إرشادك لما فيه خيرك... استند بي الحنق، ولو أنني استسلمت له لتفوّت بما أندم عليه، ولكنني ضبظت نفسي وقلت برجاء: معاذ الله أن أقصد إهانتك، فأرحو أن تمسكي عن كلام يسوؤني...

فدارت انفعالها بابتسامة، واستعادت هدوءها مرة أخرى، وقالت بتسليم: - إن ما يسوؤك يسوؤني، وما يسعدك يسعدني، ونصيحتي إليك إذا شئت أن تتقبلها أن تعرف لرجلك قبل الخطو موضعها، وفكك الله لما فيه الخير والسعادة. فضغطت على يدها برقة، وقلت بصوت ملؤه التودد: - إن رضاك عني بالدنيا وما فيها... فابتسمت قائلة:

- سيدعو لك قلبي آناء الليل وأطراف النهار... وساد الصمت مليًا حتى حسبت الأمر انتهى عند هذا الحد، ولكنها بدت مهتمة متفكرة كأن خاطرًا يلح عليها أن تفصح عنه، وخالستني نظرة قلقة أكثر من مرة، ثم خرجت عن الصمت والتردد بأن قالت في حذر وإشفاق:

- ألا يحسن بك أن تؤجل الشروع في الخطبة حتى يحول الحول على موت أبيك؟ إن أخوف ما أخافه أن يقال عنك إنك خطبت ولمّا ينته الحداد على أبيك كأنك كنت ترصد موته على لهفة؟!

ولم أكد أصدق أذني!... وبدا لي قولها نوعًا من المكر المكشوف لا أحبه ولا أطيقه، وعادوني الحنق والغيط، وكدت أنفجر غاضبًا، ولكنني استمسكت بالصمت حتى ولّت العاصفة، ثم قلت:

- لن يتم الزواج على أية حال قبل مضي عام... وانتهى الحديث عند ذلك كما تمنيت، وشعرت بأنّي تخليت أكبر عقبة في سبيلي. وكان ينبغي أن أكون سعيدًا، وقد كنت سعيدًا بلا شك، ولكن شاب سعادتي إحساس بالقلق طالما عذبني في حياتي. إنه لا يفتأ يطاردي حتى في أحفل ساعاتي بالسرور، وما من

المقابلة المأمولة. ولاحت الشقيقة الصغرى في الشرفة، ثم تبعتها الأم بعد قليل، وجعلتا تنظران نحوي، هل تعلمان؟ هذا ما أتمناه حتى آمن خطر محمد جودت. وبدت حبيتي وراء النافذة وهي ترتدي معطفها، فحقق فؤادي خفقة عنيفة، وانتظرتُ كمن في حلم. ومن عجب أن إحساسي بالسعادة تغير فجأة، فتر، كأنه صوت جبل اعترضته سعة، وساورني قلق لم أدر سببه، وحيرة مؤلمة كأنني أحاول أن أتذكر أمراً هاماً يضمن به النسيان، ثم شعرت بخطورة الخطوة التي أرفع رجلي لأخطوها، فاستحوذ علي التردد والخوف، ونازعتني نفسي إلى الهروب! بيد أنها كانت لحظة عابرة، ولت عني بسرعة، فاستعدت الثقة والسرور، وتنهدت في ارتياح عميق، ورحت أقطع الطوار مجبوراً سعيداً في انتظار حبيبة القلب المشوق... ثم رأيته تبرز من باب العمارة في معطف سنجابي فارعة أنيقة مليحة، وجاءت المحطة تحظر في خطواتها الوقور ووقفت بعيداً عني. وكانت الأم في الشرفة كأنها تبارك اللقاء وتضفي عليه شرفاً، فشعرتُ - إلى سعادي - بالمسؤولية. وجاء الترام الذي سيقَلْنَا، فنظرت إليه بامتنان ودعوت له بالسلامة ولسائقه بالسعادة وزيادة الأجور! وصعدنا معاً، ورأيتها تنج على غير عاداتها إلى مقصورة الدرجة الأولى فتبعتها على الأثر، ولم يكن بالمقصورة إلا رجل وامرأة، فجلست فتاتي موزدة الوجه من الحياء، ولعلها انتظرت أن أجلس إلى جانبها، وأن أسلم عليها، ولكن خائنتني الشجاعة فجلست على المقعد المقابل في ارتباك وحياء وسخط على نفسي. وسار الترام يطوي الطريق، وأنا أخالسهما النظر في صمت وصبر، حتى عبر الترام جسر عباس. فنهضت قائمة وغادرت المقصورة وأنا في أثرها، ونزلنا في المحطة التالية. وسارت صوب شارع يمتد وشاطئ النيل، فتبعتها، وتداينت منها بقلب خافق، متعزراً في خجل قهار وقلت بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير...

فابتسمت دون أن تلتفت إليّ وغمغمت في مثل حيائي:

- صباح الخير...

وغمرني رد التحية بسرور، فسرنا جنباً إلى جنب وأنا أقول في نفسي بحرارة: «يا سيّدة يا أم هاشم نظرة!» كنت خائفاً حقاً شديد الارتباك والحجل. وحاولت أن أتذكر «بروفات» أمس، ولكنّ الاضطراب غلبني على أمري فوجدت رأسي خاوياً ولساني منعقداً، وقطعنا مسافة غير يسيرة دون أن أنبس بكلمة. كيف أبدأ الحديث؟ ما عسى أن أقول؟ وتولّاني ضيق شديد لأنّي أدركت بطبيعة الحال أنه ينبغي أن أتكلّم، وأنه لا يليق بي أن أصمت هكذا، ومع ذلك فلم يفتح الله عليّ بكلمة واحدة، وبدأ كأنّ الكلام وظيفة لم أمارسها قط. وكأنّها أدركت سرّ ارتبائي، فنظرت إليّ وعلى شفيتها ابتسامة رقيقة، فابتسمتُ في حياء شديد، ولم أجد ما أقوله إلا أن أعيد التحية قائلاً:

- صباح الخير.

فازدادت ابتسامتها اتساعاً وقالت:

- صباح الخير.

ربّاه! أأفلس معجمي، وعُدّت إلى العذاب مرّة أخرى؟ إنّي أشعر كأنّ يدين حديديتين تشدان على عنقي. ولن أتحمّل هذا الموقف المزري أكثر من هذا. وتملّكني اليأس فغلب في نفسي الحجل واستغثت بها قائلاً:

- أعذريني!... لا أدري ماذا أقول... هذه أوّل مرّة أخاطب فتاة...

ولم تسالك نفسها فنذت عنها ضحكة قصيرة، ولعلّها تشجعت بحيائي نفسه، فتغلّبت على حيائها، وقالت في دعابة:

- بل هذه ثاني مرّة إن صدقت...

آه! إنّه تشير إلى مطاردي لها منذ ثلاثة أيام! وذكرتها بدهشة، كأنني لم أكن بطلها الجريء. مهسا يكن من أمر فقد شجعتني دعابتها وخففت عني الارتباك والحياء، وأمكنتني أن أقول:

- لا تسيئي بي الظنّ. فوالله لو أسعفني لساني لما وسعتني الدنيا كلاماً...

وضحكت وهي تصعد في نظرها وتصوب ثم قالت:

- ألا ترى أننا لم نتعارف بعد؟

أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال. ليت الحديث يكون أسئلة من ناحيتها وأجوبة من ناحيتي! وقلت بارتياح:

- كامل رؤية لاط بوزارة الحربية.

وتمتت لو كان في الإمكان أن أخبرها بإيرادي الشهري وثروتي المنتظرة، أما هي فقالت:

- رباب جبر مدرسة بروضة الأطفال بالعباسية.

وأعجبني الاسم، فأحببته كما أحب صاحبته، وغمغمت كأنما لاستعيد وقعه في أذني:

- رباب...!

ووجدت أنسا وشجاعة فقلت ببساطة:

- تصوّري!... إنّي أداوم على اختلاس النظرات

من وجهك من عامين وحتى اسمك لا أعرفه!

فلاحت الدهشة في وجهها الجميل وقالت:

- عامين!

فسرّني دهشتها وقلت بحجاسة:

- أجل من قرابة عامين، ألم تظني إلى هذا؟!

فقلت ضاحكة وأنا أجمع انتباهي في أذني لأتملّ الصوت الذي شاقني استماعه طويلاً:

- منذ أشهر فقط! ما أجل صبرك!

هذه وخزة بلا ريب! كأنها تقول لي: وما الذي أسكتك حتى أوشكت الفرصة أن تفلت من بين يديك! وانتهزت الفرصة لأصرّح بما وددت لو كنت صرّحت به، فقلت وقد أصبح الكلام ممكناً:

- قبل منعني ظروف قاسية، لم يكن بوسعي أن أتقدّم وأنا غير كفاء لك، ثم تغيّرت الظروف وتحسّنت الحالة فلم أتردد عن اعتراض سبيلك في الترام في جنون أخرجني عن وعيي، فالحقّ أنّي لم أنتظر وأنا قادر إلّا أياماً معدودات وإن كنت... (كدت أقول: «وإن كنت أحببتك منذ عامين» ولكنّي عجزت)... وإن كان ما تعلمين منذ عامين.

ونظرت فيما أمامها مبتسمة ابتسامة خفيفة وقالت:

- ماذا أعلم ترى!

فلذت بالصمت لحظات أستجمع قواي، وقلت:

- ما تعلمين من أنّي...

ورسّمت شفتاي «أحبك» دون أن تنطقا بها، ولكنّها رأت وفهمت بلا أدنى شك. ونخفضت بصري حياءً، ودقّ قلبي بعنف. وانتزعتني من الوجود غيبوبة عابرة غيّبتني عمّا حولي. واسترقت إليها النظر فالفيتها صامتة رزينة موردة الوجه. هذه لحظة مقدّسة. أجل إنّ الزمن لينوء بما يحمل من جلائل اللحظات التي مرّت بالإنسانية في تاريخها، ولكنّ هذه اللحظة من أجل ما عرف الزمن رغم هذا كله. ولن ينقص منها أنّها معادة وأنها تحدث كلّ يوم آلاف المرات في بقاع الأرض الواسعة، فهي الشيء الوحيد المعاد الذي لا يُملّ، وما ينبغي أن يُملّ وهو يتضمّن سرّ الوجود الأعظم، ألا وهو الحب. لم يكن بوسعي أن أضّمها إلى صدري - لا لمرور قافلة جمال تحمل برتقالاً - ولكنّ لأنّه لم يكن بوسعي أن المسها على الإطلاق، وقطعنا شوطاً صامتين، وحال حيائي دون مواصلة الحديث في هذه النقطة بالذات، وعادت التفكير في المسألة من وجوها الأخرى فقلت مبسّلاً:

- وماذا تمّ من أمر محمّد جودت؟

وحدجنتي بدهشة عظيمة، وسألتني:

- من أدراك به؟

فقصصت عليها نبأ المواجهة التي تمّت بين محمّد جودت وبينني وهي تصغي إليّ باهتمام شديد، ثمّ قالت:

- إنّه رجل فاضل محترم، وموظّف كبير، وقد رُحّب به أبي، أمّا أمّي فقابلت عرضه بفتور لأنّه يكبرني كثيراً، ولأنّه سبق أن تزوّج وله بنت في الخامسة عشرة. وقد حادثت أمّي عن لقائنا في الطريق منذ ثلاثة أيّام... فاشترطت أن يعرفوا عنك كلّ شيء قبل أن تعلن عن رأيها.

وخفق قلبي في مزيج من سرور وقلق، وسألته وإن لم أكن في حاجة إلى السؤال:

- وهل تعلم بمقابلتنا هذه؟

- أُرشدني الآن إلى ما ينبغي فعله .  
 فسألني في دهشة قائلة :  
 - ماذا تعني ؟  
 فقلت بحيرة :  
 - ينبغي أن أتقدم لطلب يدك .  
 فنظرت فيا أمامها بحيرة ولم تنبس . وكنت في حيرة  
 من أمري فسألتها :  
 - كيف . . . كيف يخطف الناس عادة ؟  
 فنذت عنها ضحكة رقيقة ، وقالت برقة :  
 - بوساطة السيدات أو بالاتصال الشخصي ، ألم تدرِ  
 شيئاً عن هذا ؟  
 وذكرني قولها «وساطة السيدات» بأني فأنقبض  
 قلبي فيما يشبه الذعر . ثم تساءلت ترى هل أستطيع  
 أن أنوم بما يتطلبه الاتصال الشخصي من لباقة  
 وشجاعة ؟ وذكرت عند ذاك أنني لا أعرف شيئاً عن  
 أبيها فسألتها :  
 - هلاً تكرمت وأخبرتني عن والدك !  
 فحدثني بنظرة ملؤها الشك وغمغمت :  
 - ألا تعرف عنه شيئاً ؟  
 فقلت ببساطة وصدق :  
 - كلاً والأسفاه . . .  
 وأدركت أنها كانت تظنني نشطت لمعرفة ما ينبغي  
 معرفته عن الأسرة التي أطمح للاندماج فيها ؟ وعجبت  
 كيف أنني لم أحرك ساكناً طوال عهد حبي قانعاً بالنظر  
 واللهفة واليأس . وقالت رباب بلهجة لا تخلو من  
 زهو :  
 - جبر بك السيد مفتش ريّ بالأشغال . . .  
 فقلت بإجلال :  
 - تشرفت .  
 واستشعرت ثقل التبعة الملقاة على عاتقي ، ولكني لم  
 أجد بداً من أن أقول :  
 - سأقابلة بنفسي ، متى يحسن أن أقابله ؟  
 - في بحر الأسبوع القادم لأنه سيسافر بعد ذلك في  
 رحلة تفتيشية كمادته ، وهو لا يكاد يغادر البيت عقب  
 عودته من الوزارة . . .

فابتسمت ولم تحر جواباً ، وذكرت «وظيفتي» بعدم  
 ارتياح وخجل ، ولكن لم يخطر لي على بال أن أكذب أو  
 أبذل من الواقع فقلت :  
 - إنني كما قلت لك موظف بالحربية ، ولكن لي دخلاً  
 ستة عشر جنيهاً من أوقاف ، وأملك إلى ذلك قدرًا من  
 المال يجاوز الألف الجنيه ، وليس في سيرتي ما يشين ،  
 وسترين إذا ما تحروا عني أنني التزمت الصدق حقًا . . .  
 فابتسمت قائلة في إخلاص :  
 - لا شك في هذا مطلقًا .  
 ورنوت إليها بامتنان عميق ، وذكرت في تلك  
 اللحظة آلامي وما عانيت من تشوق إليها وحسرة  
 عليها فهزني سرور يحلّ عن الوصف . بيد أنني  
 تساءلت في خوف : ترى هل أروق في عيني الأم ؟ . . .  
 ألا تستصغر وظيفتي ، أو لا تجدني أهلاً لهذه الأستاذة  
 المحبوبة ؟ . . . وانقبض قلبي ذعراً ، وحدثني نفسي  
 بأن أفاتها فيها يكدر صفوي ، ولكن عَقَلَنِي الحياء . ثم  
 خطر لي خاطر جديد فسألتها على الفور :  
 - هل تواصلين العمل في وظيفتك إذا تم الأمر كما  
 أرجو ؟  
 - ولم لا ؟ إنني أحب عملي حباً جماً ، وكثيرات من  
 زميلاتي . . .  
 وأدركت ما كانت على وشك قوله فحقق قلبي  
 بغبطة ونظرت إليها نظرة حيية ملؤها الحب والأمل ،  
 ثم قلت برضا :  
 - هذا حسن . . .  
 ساد الصمت قليلاً فعلا وقع أقدامنا على أرض  
 الطريق المفروشة بأشعة الشمس ، ولاحت مني التفاتة  
 إلى النيل فرأيت صفحته السمراء تترقرق تحت لؤلؤ  
 النور المنشور ، وأخذت أتصفّح وجوه المازة القلائل  
 الذين يمرون بنا في حياء وارتباك . وقد لطفتم الشمس  
 من برودة الجوّ وبنت في حنايانا نشاطاً وحبوراً فشعرت  
 بطيب الحياة كما لم أشعر به من قبل ، وامتلاأت امتناناً  
 حتى وددت لو ألتهم الثرى شكراً . بيد أنني لم أنس ما  
 يشغلني من خطير الأمور ، أو ما يبدو لي من خطيرها ،  
 فلذلك سألتها :

بسطة لأمالك أنفاسي. حتى طالعي باب الشقة المغلق  
فخارت قواي، ووسوست لي نفسي أن أعود، أن أفرّ  
بنفسي، أن أوّجّل الزيارة الخطيرة ليوم آخر. ولكنّي  
نفيت عني فكرة التأجيل بغضب، وبدا لي أن أنزل  
وأن أخفّف عن توتر أعصابي بالمشي ومعاودة ترتيب  
أفكاري. وهممت بالتراجع، ولكنّي تساءلت في  
اللحظة التالية ألا يرتاب البوّاب في أمري إذا رأي  
نازلًا بعد دقيقة من مخاطبته ثمّ رأي بعد دقائق عائداً  
إلى العمارة؟... وعدلت عن فكرة النزول، ووقفت  
مع ذلك ساكنًا لا أبدي حراكًا. وجمد بصري على  
الباب حتى خلت ثقبه عينًا تحدّق في وجهي بسخريّة.  
وانتقلت عيناى إلى زرّ الجرس وثبتت عليه بخوف  
وهلع. ما عسى أن يحدث لي لو فتّح الباب فجأة عن  
وجه من الوجوه التي أعرفها وتعرفني! وتغيّبت في تلك  
اللحظة لو كانت حياتي واصلت مسيرها الوثيد دون أن  
تصطدم بهذا الحبّ الذي قلبها رأسًا على عقب!  
وجاءني بغتة صوت رفيع من الداخل يصيح: «افتحي  
الراديو يا صباح» فارتعدت أوصالي وأرهفت السمع في  
خوف متزايد. وتُلي منك يا أمّاه، أما كان الأفضل أن  
تكوني في مكاني هكذا؟ ثمّ قرع أذنيّ وقع قدمين  
صاعدتين فتضاعف اضطرابي ولم أجد من التقدّم  
مناصًا، وتدائنت من الباب، ورفعت يدي إلى زرّ  
الجرس، وترتّبت لحظة في اضطراب، ثمّ ضغطت  
عليه فرنّ رنينًا مزعجًا، وتنحّيت جانبًا، منتظرًا في  
حالة يرثى لها. وفتّح الباب وبرز وجه أسود كاللحم  
الجارية في الخمسين، فحدّثني بعينين برّاقتين وقالت:  
- أفندم؟

وقلت وأنا أتمنّى أن يكون البك خارج البيت لسبب  
أو لآخر:

- جبر بك موجود؟

ولكنّها أجابت قائلة:

- نعم يا سيّدي... مين حضرتك؟

فاستخرجت من محفظتي بطاقة وقدّمته لها قائلاً:

- أرجو أن يأذن لي البك بمقابلة قصيرة...

ومضت الجارية بالبطاقة وانتظرتُ خافق الفؤاد

وكنا قد توغلنا في الطريق طويلاً فاقرحت أن  
نعود، ودرنا على عقيبنا عائدين. ولم نتبادل في عودتنا  
إلا كلمات قلائل، وكنت من السعادة في حلم، ولكنّي  
لم أغفل لحظة عمّا أنا مقبل عليه من جلائل الأمور...

### ٣٦

واستحوذ عليّ الخوف والقلق، وعادوني ذلك  
الإحساس الخائق الذي قهرني يوم دعاني أستاذي بكلّيّة  
الحقوق إلى منصّة الخطابة. هل تستطيع قدمي أن  
نحملاني إلى بيت جبر بك؟ هل أستطيع مكاشفة  
الرجل بما في صدري؟ اللهم أدركني برحمتك فإنّ الحبّ  
يركبني مركبًا صعبًا لا يقبل لي به، ولما ضقت بالواقع  
المخيف روّحت عن نفسي بالأحلام، فرأيتني في جزيرة  
مهجورة، وليس بها حيّ إلّا حيبيتي، حيث الحبّ  
لا يسمّى المحبّ خطبة ولا كلامًا ولا اتّصالًا بأحد،  
وهفّت نفسي في محنتي إلى تلك الجزيرة المهجورة.

ومضى السبب والأحد في عذاب نفسيّ عنيف،  
فصمّمت على أن أستجير من عذاب الفكر بقاء الخطر  
وجهاً لوجه. وغادرت البيت عصرًا بعد أن أخذت  
زينتي، وقطعت الطريق واجف القلب وأنا أتلو آية  
الكرسيّ. ولما عبرت الجسر ولاح لي عن بُعد جانب  
من العمارة ثقلت قدمي وكدت أرجع من حيث  
أتيت، ولكن كان تصميمي رافعًا، وكان إشفافي من  
أن تستبطئ حبيبيتي قدومي لا يدع لي فرصة للتردد.  
وجعلت أشجع نفسي قائلاً إنّ لو لم يكن ثمة أمل لما  
رضيت حبيبيتي بأن تلقاني يوم الجمعة، ولما مهّدت  
السبيل لمقابلة أبيها، ودفعْتُ قدمي الثقيلتين فأخذت  
أقترب رويدًا من العمارة. ولم يكن بالنافذة ولا الشرفة  
أحد فارحمت لذلك لأنّي اضطرب في سيري تحت وقع  
الأعين، ثمّ وجدتي مقبلًا نحو البوّاب، فوقف الرجل  
متسائلًا فقلت:

- جبر بك السيّد.

فقال:

- الدور الثاني...

وارتقيت السلم في رهبة وخوف، متوقّفاً عند كلّ

- إني تشرفت بمعرفتك يا أستاذ كامل! ... ترى  
أحضرتك من حيناً هذا؟  
فقلت وقد سررت بما هيأ لي من سبب للحديث:  
- نعم يا بك، إني من سكان منيل الروضة!  
- حيّ هادئ لطيف.  
فقلت وقد آنست إليه:

- وإني من مواليدته أيضاً، وقد أقام به جدّي  
الأميرالاي عبد الله بك حسن منذ أكثر من سبعين  
عاماً!  
فقال متفكراً:

- عبد الله بك حسن! ... أظنني سمعت بهذا  
الاسم! أهو جدّك لوالدك؟  
فقلت مضطرباً:  
- كلاً، إنّه جدّي لأمي، أما أبي فمن أسرة  
لاظ...

- وهل كان ضابطاً أيضاً؟  
فقلت وقد تزايد قلقي:  
- كلاً... كان أبي رحمه الله من الأعيان...  
فابتسم قائلاً:

- حسبته كذلك لأن أهل المهنة الواحدة كثيراً ما  
يرتبطون بالزواج فيما بينهم...  
وأمنت على قوله، وسكت الرجل فلم أجد ما  
أقوله، وعدت إلى تذكر محفوظاتي فحضرتني الجملة  
الخطيرة التي يتوقّف عليها حقلي في الحياة، ولكن  
خاني لساني، فلذت بالصمت، وما لبث أن عاودني  
الاضطراب والهلع، والتهب رأسي حياء وارتباكاً، وفي  
تلك اللحظة جاءت الخادم الصغيرة - التي تعرفني حقّ  
المعرفة - تحمل صينيّة الشاي، فوضعتها على منضدة  
مُكفّت سطحها بمرآة مصقولة، وتراجعت وهي تداري  
ابتسامة خفيفة! ورحت بدخولها وبالشاي الذي حملته  
لأنها استنقذاني من حرج الصمت الذي ثقلت وطأته  
عليّ. وملأ البك قدحين ودعاني للشراب، فتناولت  
قدحي شاكراً ورحت أرتشفه متمهلاً وعقلي لا يني عن  
التفكير. وفرغت منه على رغمي، ووجدتني مرّة أخرى  
حيال جبر بك وابتسامته اللطيفة الغامضة التي.

مضطرب النفس. وتميّلت البك وهو يقرأ البطاقة  
بصوت مرتفع فيتبادل الجميع النظرات والابتسامات،  
ويهرعون إلى مكان آمن يروني منه حين دخولي،  
فالتهب وجهي حياء وازدادت اضطراباً، وبرز رأس  
الجارية مرّة أخرى وهي تقول:  
- تفضّل.

ودخلت خافض الرأس، فأرشدتني إلى باب على  
يمين الداخل مباشرة، فدخلت حجرة الاستقبال، وهي  
حجرة أنيقة ذات أثاث كحليّ، فالتجّحت إلى مقعد  
يفصل بين كنيّتين وجلست، بعيداً عن سمت الباب.  
لم أكد أصدّق أنّي بلغت حقّاً مجلسي هذا من البيت.  
وجعلت أرهف السمع في خوف وقلق وهلع. وتميّت  
لو يتأخّر البك ريثما أسترّد أنفاسي، ثمّ دفعني العذاب  
إلى تمّي حضوره سريعاً لوضع حدّ لآلامي. ولا أدري  
كم انتظرت حتّى سمعت وقع أقدام تقترب. دخل  
البك فنهضت قائماً، ثم سلّم عليّ في أدب وترحيب  
وأوماً إلى المقعد وهو يقول:  
- تفضّل بالجلوس...

وجلس على الكنبه غير بعيد. كان طويلاً نحيلاً،  
في الخمسين من عمره، له قامه حبيبي وعيناها،  
فسرعان ما أحببته، وكان يتلقّع بعباءة فضفاضة ضاربة  
للحمرة، ويسطع من راحتيه عطر زكيّ، ونظر إليّ  
مبتسماً وقال مرحباً:

- شرفتنا يا أستاذ كامل... أهلاً وسهلاً...

فقلت بامتنان:

- شكراً لك يا بك...

ترى هل علم بالغرض من الزيارة؟... هل سمع  
قبل الآن بهذا الاسم الذي قرأه في البطاقة؟  
على أنّه مهما يكن أمره فلا مناص من مفاتحته في  
الموضوع كما لو كان يجهله. وكنت قد كتبت صورة نما  
ينبغي قوله كما تصوّرتّه، وقرأتها مراراً حتّى حفظتها  
قبل مغادرة البيت، فقلت بصوت منخفض:

- إني أسف على إزعاجي سعادتك بهذه الزيارة على  
غير سابق معرفة...

فقال والابتسامة اللطيفة لا تفارق شفثيه الرقيقتين:

ولست من ذلك كله في شيء، ولكن رباب لا تودّه، ولو كان بها من رغبة فيه لما قابلتني وشجعتني على مقابلة أبيها، ورطب هذا الخاطر قلبي المحترق وردني إلى نشوتي، ولكنه لم يستطع أن يستأصل الشك والقلق من قرارة نفسي. وتتابع أيام الانتظار وما أزداد إلا كآبة وتشاؤماً، ولذلك أخفيت سرّي عن أمي حتى لا تعلم بإخفاقي إذا كان مقدوراً، وكابدت الانتظار ومرارة الشك في وحدة مخيفة، ومن عجب أننا لم نعد إلى موضوع الزواج منذ ذلك المساء العنيف. وقد اعتور سلوكها شيء من التحفظ والتغير لم يخفيها عن إحساسي الدقيق. وبدت في أحيان كثيرة كالطفل الغاضب وانطوت على نفسها. وكنت إذا أقبلت عليها محدثاً تلقّيتني بريبة لا تزيلها حتى تطمئن إلى نوع الحديث. وأحتقني تغيرها ولكنّي لزمّت معها الأدب والتودّد. وفي أثناء ذلك أسرّ إليّ زميل من الموقّفين بأن «بعضهم» يتحرّى عني كما أخبره موظف بإدارة المستخدمين، وسرعان ما ذاع بين موظفي إدارة المخازن أنّي شارع في الزواج، وجعلوا يعرضون لي بما في أنفسهم مداعين فأزداد امتعاضاً وحنقاً، ولما انقضت فترة الانتظار مضيت إلى مقابلة جبر بك السيّد، ولكنّي لم أذهب إلى بيته - حال دون ذلك خوفي من الخذلان - فقابلته في وزارة الأشغال، ورحّب بي الرجل ترحيباً جميلاً وأعلن لي موافقته! هكذا انتهى عذابي ورُدّت إليّ الروح. وفي تلك المقابلة اتّفقنا على يوم الخطبة. وإذا كانت حياة الإنسان خليطاً من الشقاء والسعادة فقد بدا لي أنّ أيام شقائي قد ولّت، وأنّي سأجزى عن صبري وتعاسي وغاوفي سعادة صافية فيها بقي لي من عمر. ورجعت إلى البيت ودعوت أمي وأخبرتها بما تمّ، وقد استمعت إليّ في استسلام ودهشة وقالت لي متسائلة:

- ولماذا أخفيت عني الأمر كلّهُ؟

فقلت متضاحكاً في ارتباك:

- لم أكن أقدر أن ينتهي مسعالي إلى ما انتهى إليه...

فقلت بحدّة:

- يا لله! أكنت تتصوّر أن يرفضوا يدك؟! يا لك

تستحقّني في صمت على الكلام، لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، وإلا انقلبت الجلسة إلى مهزلة تستثير السخرية. لأصطنع شيئاً من الرجولة أمام الرجل الذي أروم مصاهرته أن أصغر في عينيه. ولمت أطراف شجاعتي وقلت وإن هدّج صوتي وتحلّخت نبراته:

- سيّدي، أردت... أعني... الحقّ أنّي أرجو التشرّف بمصاهرتك...

ولم تكن الجملة التي كتبها وحفظتها لتفترق عني قلت كثيراً، وقد اعتراني الاضطراب بعد أن فتحت فيّ بالكلام ولكنّ الله سلّم وأفصحت عن رأيي بعبارة لا بأس بها ونظرت إلى الرجل فوجدته ما يرال مبتسماً، وترتّب لحظات استغلظ وقعها في نفسي المروعة، ثمّ قال بأدب جَمّ:

- أشكر لك حسن ظنّك بنا...

وصمت لحظات أخرى متفكّراً ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- ولكن أرجو أن تمهلي أسبوعين لمشاورة أصحاب الشأن الآخرين.

فبادرته قائلاً:

- طبعاً... طبعاً... ولا يسعني إلّا شكرك على كرم أخلاقك وحسن ضيافتك؟

ونفضت قائماً مستأذناً في الانصراف، ولكنه دعاني للبقاء فترة أخرى، فاعتذرت شاكرًا له جميل أدبه، وسلّمت وذهبت. وتنهّدت في الخارج من الأعماق وشعرت كأنّ حملاً ثقيلاً رُفع عن عاتقي. وبدا لي الأمر هيئاً لا يستدعي بعض ما عانيت من خوف وقلق وهلع، فابتمست في ارتياح، ثمّ استرسلت ضاحكاً...

### ٣٧

تملّيت نشوة الارتياح والظفر حتّى المساء، ثمّ عاودني القلق ذلك الرفيق القديم الذي لا يملّ عشري... أيرضى جبر بك بموظف صغير مثلي زوجاً لابنته؟... ألا ترجح كفّة عمّد جودت رغم دخلي من الأوقاف؟... إنّه مهندس كجبر بك، وجار وصدّيق،

- ينبغي أن نجد علاجًا لحبلك، فوالله ما رأيت  
مثلك رجلًا.  
ولم آبه لانتقاده وسخريته. كنت سعيدًا. . .

## ٣٨

. . . ثمّ هان عليّ عناء الزيارات، اعتدتها وأنست  
إليها. أمكنني أن أضغط على زرّ الجرس دون أن  
ينخلع قلبي، وأن أمضي إلى حجرة الاستقبال دون أن  
أعثر بطرف سجّادة أو قطعة أثاث، وأن ألقى آلي  
الجدد غير خافض الرأس ولا ملهوج الحديث، بل  
أمكنني أن أتحدّث أيضًا وأن أضحك إذا دعى الداعي  
للضحك، في حدود طاقتي. وأسرتي الجديدة أسرة  
لطيفة حقيقة بالمودة، حبيبي عنوانها، وحسبها هذا  
شهادة وثناء، وقد توثّقت الأسباب بيني وبين جبر بك  
السيد فصرنا صديقين، وقربت الألفة بيني وبين نازلي  
هانم فكأننا ابن وأُم. وأسرتي الصغيران محمد وروحية  
بظرفهما، حتّى الخادم الصغيرة والجارية السوداء حظيتا  
بنصيب من ودي، فأحببتهم جميعًا حبًّا دلّ على ما  
بقلبي من هيام بحبيبي وشوق مكبوت للمعايشة  
والتودّد.

وكان جبر بك السيد من أولئك الرجال الذين لا  
يرحون بيوتهم إلّا للضرورة القصوى، فإن لم يكن في  
الوزارة أو في رحلة تفتيشية بالأقاليم فهو في بيته وبين  
زوجه وأبنائه، بدا لي من أول يوم لتعارفنا مهذبًا رقيق  
الحاشية، ولم يخفّ عن عينيّ - على ضعف ملاحظتي -  
أنّه من الأزواج المطيعين وأنّ زوجه هي الأمرة الناهية  
في البيت، ولكنّ ذلك لم يضعف من منزلته، ولعلّه  
حظي من حبّ أبنائه بما لم تحط به الأمّ نفسها، ولم يخلُ  
من ميل للفخر والمباهاة على تجاوزه الخمسين، وما  
أسهل أن تلاحظ ذلك إذا سمعته محدّثًا عن عمله  
ومركزه وصلاته بأقرانه ومرءوسيه، أو منوّهاً برحلاته  
التفتيشية وملاحظاته، وما أكثر ما ينتقد المهندسين  
الشبان ممن تلقّوا علومهم في إنجلترا وألمانيا، فيقول إنّ  
علم الهندسة في مصر هو علم الهندسة في أوروبا، وإنّ  
القدم لا ترسخ في العلم إلّا بالتجربة والممارسة، الأمر

من طفل غريرا ألا تعلم أنّ الفتيات لا حصر لهنّ،  
وخيرًا من فتاتك ألف مرّة، يرضين بك عن طيب  
خاطر!

فقلت بلهجة نمت عن عدم رغبتني الاسترسال في  
النقاش:

- إني أنتظر تهنتك يا أمّاه. . .

فمالت نحوي حتّى لثمت خدي وتمت:

- إني أحقّ منك بالتهاني. . .

ودعت لي طويلًا، وكان وجهها كالصفحة المصقولة  
لا تخفى بها خافية، ولم تكن تحسن مداراة ما يعتمل في  
نفسها، فلمست في نظرة عينيها خيبة عميقة نغصت  
عليّ صفوي، بيد أنّي تجاهلتها وتظاهرت بتصديق  
كلماتها، وسرعان ما شغلت عنها بسعادتي، وكتبت في  
نفس اليوم لأخي خطابًا أخبرته بما كان ودعوته لشهود  
الخطبة، وزرت אחتي راضية ودعوتها كذلك، وذهبت  
جميعًا في اليوم الموعد. ولست أدري كيف واتني  
شجاعتي ذلك اليوم. لقد شبكت ذراعي بذراع  
شقيقي مدحت ورجوته أن يكون مرشدي، ولشدّ ما  
أعتبه بجمودي وارتباكّي وخجلي.

لم أنبس بكلمة طوال السهرة، ولم أرفع عينيّ عن  
الأرض، ولبثت محاصرًا بأعين المستطلعين رجالًا  
ونساء، ولم تزايلني الرهبة حتّى بعد انصراف الأقارب  
واقتصار الموجودين على الأهل. وقد ضحكك حرم  
جبر بك وقالت لي:

- أنت خجول يا سيّ كامل. . . وقد أدركت الآن  
السّرّ في أنّك كنت تخوم حول عروسك أشهرًا طويلاً  
كالخائف. . .!

وخفق قلبي لقولها، واختلست من أمّي نظرة لأرى  
وقعه في نفسها فوجدتها مشتبكة مع جبر بك في  
حديث. وجلست طوال الوقت بجانب رباب دون أن  
أستطيع إرواء قلبي الظامئ لرؤيتها. وما ألقبت عليها  
إلّا نظرة سريعة حيّة حين دخولها الحجرة في حالة من  
نور وبهاء ثمّ غبت في حيائي وارتباكّي، ولمّا انفضّ  
الحفل العائليّ وغادرت البيت ضحك أحي مدحت في  
الطريق مقهقهة وقال لي بدهشة:



أخلو إليها، وأن أتملى بإدامة النظر إلى وجهها الصبيح في أمن من الرقباء، على أنني لم أخل من خوف من مثل هذه الخلوة المأمولة وما أنا حريء بأن أعانيه فيها من عي وحصر وحرَج واضطراب، فكنعت بالمبدول لي في حظيرة الأسرة، راضياً آمناً، مكتفياً إلى حين بالنظرة الخاطفة والمحاورة المقتضبة، سعيداً بالنشوة التي يَبْثُها وجودها في قلبي وروحي، ووجدت حديثها لطيفاً طبيعياً، لا أثر فيه لشهادتها العالية - وهو ما كنت أحاذره وأشفق منه - فلا تفلُس ولا ادعاء ولا حذلة.

وتمّ الاتفاق فيما بيننا على أن يكون الزواج في العطلة الصيفية، ولم يألو جهداً في إعداد الجهاز، واقترحت نازلي هانم أن ينتقلوا إلى شقة كبيرة على أن أنضم إليهم، ولكن الاقتراح أزعجني وذكرني بأمي، فاعتذرت من عدم استطاعتي قبوله قائلاً إنّي لا يمكنني التخلي عن أُمّي، وعند ذاك قالت نازلي هانم: - والدتك سيّدة محترمة ولطيفة ولكن يبدو لي أنّها لا تميل إلى المعاشرة!

وفهمت ما تعنيه، والحق أنّ أُمّي لم تزر بيت خطيبي منذ إعلان الخطبة إلّا مرّة واحدة تحت ضغط وإلحاح، فقلت في ارتباك غير قليل: - لقد اعتادت أُمّي الوحدة... ولم تألف الزيارات قط...

وقصصت عليهم جانباً من حياتي متحامياً الفجوات التي لا تطيب ذكراها. ولا أنكر أنّ ملاحظة نازلي هانم أزعجتني، وذكرتني بأمر أخافها، فدعوت الله مخلصاً أن يقيني مغبة الشقاق في حاضري ومستقبلي. وفي مرّة، وكنت جالساً إلى فتاتي وأمها فقط، واتتني الشجاعة فذكرت عهد تطلعي الصامت إلى «رباب»، وعجبت كيف انتهت إلى هذا الختام السعيد وهو ما لم أكن لأحلم به! وضحكت حبيبي وقالت:

- ومع ذلك فلم تكذ تخطو خطوة واحدة حتى تمّ كلّ شيء في غمضة عين!

وقالت نازلي هانم:

- طالما تساءلنا ماذا يريد هذا الشاب؟! ولشدّ ما

الذي يتجاهله الشبان. وكان في تلك الأيام قلقاً على مركزه بالوزارة، ولا يفتأ شاكياً ما يلقي من اضطهاد سياسي مرّده في رأيه إلى صلته بالوزير الوفدي السابق، حتّى أنّه صرّح مرّة بأنّه يفكر في طلب تحويله إلى المعاش والاشتراك في النشاط السياسي، ولكنّه لم يستطع الاسترسال في شرح رأيه لتصدّي زوجه له بالمعارضة الحاسمة التي لا تحتمل مناقشة. وكنت أجد حياله شعورين متضادين: شعوراً بالضالة لتفاهة مركزي في الحكومة وقلة حظّي من الثقافة، وشعوراً بالزهو لانتسابي لرجل مثله عظيم في قدره ومركزه وعلمه. أمّا نازلي هانم فعلى نقيضه ميّالة للقصر مفرطة في السمّة، وكانت على اقترابها من الخمسين ذات وسامة لا بأس بها تدلّ بلا ريب على ما كانت تتمتع به من جمال في صباها. وكانت على سمتها المفرطة بالغة في نشاطها ويقظتها وسهرها على رعاية بيتها وأبنائها وزوجها، وقد شكّا زوجها مرّة إلى حرصها الزائد عن الحدّ على تنسيق البيت وتنظيفه ومراقبة الخادم والطاهية، وإفراطها في ذلك إفراطاً هو أدنى إلى الوسوسة والإرهاق، ولكنّه لم يخل في شكواه ممّا يشي بإعجابها ورضاه.

وبدت لي ظريفة في غير ما تكلف، ولشدّ ما ضحكّت من ذكريات تطلعي الصامت إلى الشرفة والنافذة، وقارنت بين حياتي وبين وقاحة الشبان، وعلقت على ذلك قائلة:

- فمن حسن الحظّ أن تكون لرباب، ومن حسن الحظّ أن تكون رباب لك، فهي ليست كفتيات اليوم أيضاً.

هذا حقّ، حبيبي ليس كمثلهما شيء، هي الحياة والذكاء والجمال، وإنّ الأيام لتزديني بها تعلّقاً وهيئاً وإعجاباً، ما أرحم صوتها، وما أرشق إيماءتها، وما أجمل رزانتها، وكانت إلى هذا كلّه أنوثة ناضجة كاملة، وإنّ عينها لتطالعاني بالإخلاص والمودة والصدق من غير ما حاجة إلى خفة مصطنعة أو تكلف غير بريء. ولم أكن أفوز بها في خلوة أبداً، ولم تنهني لي فرصة للانفراد بها منذ إعلان خطبتنا. وشاقني كثيراً أن

- أترين ضرورة في إحياء ليلة الزفاف؟  
فرمقتني بنظرة استنكار كأنّ تساؤلي أدهشها وقالت:  
- طبعاً!  
فغمغمت في ذهول:

- قيان وزفاف ورقص وغناء!  
- ينبغي أن تكون ليلة فريدة غناء...  
وتملّكني الخوف، ورفعت إليها عينين ملؤهما الرجاء  
والاستعطاف، ثمّ قلت بياس:  
- لا يمكنني أن أرفّ بين المدعوّين! هذا فوق ما  
أستطيع.  
فلاححت في وجهها الدهشة والانزعاج وقالت  
بغربة:  
- لست أفهم شيئاً!... هل يعجزك الحياء لهذا  
الحدّ؟

فقلت بضراعة، وبحرارة من يدافع عن نفسه حيال  
الموت:  
- لا أستطيع... لا أستطيع... صدّقيني يا  
سيدتي إنّ الموت أهون عليّ من الزفاف بين المدعوّين  
والقيان...  
- هذا شيء عجيب، إنّك تكون أوّل رجل يهرب  
من الزفاف!  
فقلت بأشئى وقد شعرت بالسنة الخجل تلهب جيبيني  
وخذني:  
- ربّما، ولكن ما باليد حيلة، إنّّي أستحلفك بالله أن  
ترحميني...  
فتساءلت في إنكار:  
- وما عسى أن نفعل؟

فقلت بلهفة وقد عاودني الرجاء:  
- نكتب العقد في جمع من الأهل فحسب، ثمّ  
أمضي بالعروس إلى بيتنا!  
- وكيف يكون هذا فرحاً!  
لو كان الأمر غير ما يتّصل بالخجل لسلمت دون  
عناء، والحقّ أنّي سريع للمطاطوعة مهما كلّفتني الأمر من  
تضحية إلّا إذا كنت بموقف الدائد عن حيائي، هناك  
أنقلب إلى الاستماتة والتشبّث. وقد استمددت من

حدّرت «رباب» أن تكون من الشبان الذين يطاردون  
الفتيات في الطريق! وقدّرنا في وقت ما أنّك مشغول  
بالتحرّي عتاً كما يفعل طلاب الزواج. فلمّا طال تردّدك  
بعد ذلك داخلني استياء وتساءلت عتاً لم يعجبك  
فيها؟!

فقلت مرتبكاً متألّماً:  
- ما فعلت شيئاً من هذا، وحتّى الأسماء ظللت على  
جهلي بها حتّى اللحظة الأخيرة...  
وكان لديّ من المال ما يُعدّ بالقياس إلى ثروة،  
فأغدقت على حبيبتي الهدايا، وجعلت من شقيقتي  
راضية مشيرتي في هذه الأمور التي أخفيت عنها عن أمي  
فمحضتني المشورة وأرشدتني إلى «الواجب» وخاصّة في  
المواسم كعيد الفطر وعيد الأضحى، فأصبحت بفضل  
رأيها خطيباً مشرفاً؟

وظلّت العلاقة بيني وبين أمي على ما يرام، على  
الأقلّ في الظاهر، وحرصت على أن أشركها في مهمّة  
الإعداد للحياة الجديدة لتبدو وكأنّها تباركها، فكلفتها  
بأن تبحث لنا عن شقّة جديدة، ووقع اختيارها على  
عمارة في شارع قصر العيني على بعد محطات ثلاث من  
عمارة حبيبتي، ولم يبدر منها ما يعكّر صفوي، ولكنّها  
بدت كشخص مغلوب على أمره، تزحزح على رغمه  
إلى هامش الحياة، فانطوت على نفسها انطواء لم أجد  
في معالجته حيلة، وقطّع قلبي. ولكن لم يكن في وسع  
شيء في الوجود أن يعتاق تيّار السعادة المتدفّق الذي  
يسكرني ليل نهار. والواقع أنّ تلك الفترة من حياتي  
هي أسعد ما لقيت في الدنيا من أيّام...

## ٣٩

وقالت لي نازلي هانم يوماً، وكانت الأسرة قد  
أعدّت عدتها للزواج:  
- إنّ رباب أوّل عهدنا بالأفراح فينبغي أن تكون  
ليلتها بالغة المسرة.

وولّى قلبي فراژاً، ولم يعد بدّ من مواجهة الأمر  
الخطير الذي طالما تحاميته إشفاقاً وجبناً. وتساءلت في  
قلبي:

وتقضى نصفه الأول في تهيئتي، فمضى بي شقيقي مدحت إلى حلاق مشهور عدت من لدنه على أحسن حال، حتى قالت لي أختي في دعابة:

- أنت أجمل من عروسك!... اليس كذلك يا أمّاه؟

وهمت أمي بالكلام، ولكنها أطبقت شفتيها دون أن تنبس، وجعلت أتساءل عما أرادت قوله. وارتديت بدلة العرس السوداء على حرارة الجو، ثم ذهبنا إلى بيت العروس قبيل العصر بقليل ومعني أمي وأخي وأختي وزوجها وعمي وبعض بناته وخالي وأسرتها. ولما اقتربنا من مدخل العمارة رأيت الأرض قد فُرشت رملاً فافع اللون، وتدلت مصابيح كهربائية كبيرة من عمد ملوثة، فداخلي اضطراب وقلت لنفسي: «هذا خروج عن الاتفاق!» وارتقينا السلم وقد أبيت إلا أن أسير في المؤخرة شابكاً ذراعي بذراع مدحت... وما كاد أولنا يدخل الشقة حتى استقبلتنا عاصفة من الزغاريد المجلجلة، فشددت على ذراع أخي وشعرت برغبة في التسواري، ولكن أين؟ وخفضت عيني، وسرت، بل جرّني أخي، إلى حجرة الاستقبال، دون أن أرى شيئاً مما يحيط بي وإن أحسست بأذني وأنفي أنّ البيت مكتظ برواد السرور... وأجلست وأنا متشبّث بذراع مدحت وقد همست في أذنه:

- أرجو ألا تفارقني...

فرّد عليّ هامساً:

- تشجّع وإلا بدت عروسك دونك خجلاً!

ولم أكبد أتنفس الصعداء لمروور لحظة الاستقبال المفزعة حتى جاءني جبر بك السيد ليقدّمني لصفوة المدعوين، فوقف مرتبكاً كالعادة، وراحت يدي تسلم، ولساني يردّد كالآلة «تشرّفنا... تشرّفنا» ثم جلست مرة أخرى دون أن أحفظ اسماً واحداً. ودار حديث طويل، لم يفزع عقلي لفهمه فصلاً عن الاشتراك فيه، ولم يغب عني حرجي، فتضاعف ارتباك، وخيل لي أنّ الجميع يتغامزون بي، أو يهزّون بي في سرّاتهم. ومَرّ الوقت قاسياً حتى دُعيت إلى كتابة العقد، وخفّف عني أن تمّ ذلك في حجرة

يأسي وخوفي قوّة فتوسّلت وضرعت وألحفت حتى كَفّت السيدة عن المناقشة وهي تهزّ رأسها عجباً، ولم يكن بي خوف أن يظنّوا بي تهرباً من تكاليف الزفاف لما أبديت من سخاء كخطيب كان حديث الجميع، على أنّ جبر بك السيد أخبرني بعد ذلك بأنّه مصمّم على دعوة نفر من خاصّة أصدقائه، وأنّه سيولم للجميع وليمة عشاء فاخرة، ثمّ أخبرني بعد حين بأنّ أحد أصدقائه من هواة الغناء والموسيقى تطوّع بإحياء الليلة في حدودها الضيقة، وقال مخفّفاً عني وقع الخبر:

- وهكذا يحبي ليلتك موظّف كبير...

فقلت محزوناً:

- يؤسفني والله ألاّ أحقّق رغبتكم في إحياء ليلة زفاف باهرة ولكنّي لا أحتمل أن أُرّف!

فهزّ كتفيه في عدم اكتراث وقال مبتسماً:

- لا أحبّ أن أضايقك فلك ما تشاء...

وحمل الجهاز إلى الشقة الجديدة، وفُرشت حجرة خاصّة لأمي، وانتقلنا من المنيل إلى الشقة الجديدة قبل الليلة الموعودة بأسبوع. وأشرفت شقيقي على فرش شقة العروس بنفسها. وبهرت شقة العروس عينيّ فجعلت أنتقل بين الحجرات في غبطة وفرح ساوي. ولما جاء دور المخدع اجتزت بابه بعد تردّد، وفي حياء شديد ورهبة. يا له من منظر خليق بأن يهزّ الفؤاد هزّاً جعلت أقلب ناظريّ فيما حولي وأنا بين مستيقظ وحالم. فراش كالذهب، وأغطية حريرية في لون الورد الزاهر، ومراة مصقولة رقاقة. دبّت الحياة في قطع الأثاث فلم تعد جامدة ولا صلبة، وحاكت ألوانها الجذابة تورّد الخدود والتساع الأعين، ونادت عن حواشيها المسدولة همسات خافتة منغومة خفق لها الفؤاد خفقاً منتابعا.

\*\*\*

وفي صباح اليوم الرهيب ساءلت نفسي متى أعود بعروسي وقد خلّفت ورائي الناس والضيّوضاء؟ ليت التقاليد كانت تقضي بأن ينتظر الرجل عروسه في بيته من غير هذا العناء كلّ! بدا لي يوماً عسيراً لم يُخلَق لأمثالي، فلم يفارق قلبي الشعور بالرهبة والخوف.

فسرت في جسدي رعدة وهتفت في هلع:  
- كلاً... كلاً... اتفقنا على ألا تكون زفة!  
- ليس الأمر كما تتصور، فقد أقمنا في الصالة  
الكبيرة منصّة للعروسين، فتجيء بعروسك وتجلسان  
عليها، الجميع يريدون أن يروا العروسين فما ذنبي  
أنا؟!

كان كلامه ينقلب في مخيلتي صوراً، فرأيتني أمشي  
وسط الجميع إلى حجرة العروس وأعود بها والمدعوون  
يحيطون بنا مهللين، ثم نجلس فريسة للأعين!...  
رباه... سأقع مُغمى عليّ.  
وقلت بحرارة:

- ولكن هذه الزفة!... ليس في مقدوري!...  
أرجو يا بك أن تعفني... لا أستطيع...  
- الأمر أسهل مما تتصور، ولا بدّ مما ليس منه بدّ،  
وإلا ماذا يقول المدعوون؟!

فهتفت في فزع:

- دعهم يقولوا ما يقولون. لا أستطيع... سأنتظر  
العروس على بسطة السلم ثم نذهب إلى بيتنا...  
ولم يتمالك الرجل نفسه فضحك وصاح بي حتّى علا  
صوته على صوت المغني:

- بسطة السلم... يا لك من عريس عجيب!  
وكان مدحت يصغي إلينا صامتاً، فضغط على  
ذراعي وقال لي بحزم:

- ما هذه الأفكار الصبيانية؟!... ألا تريد أن  
تجيء بعروسك؟! ألا تستطيع أن تشقّ طريقك بين  
نخبة من السيّدات الفضليات؟ أتريد البك على أن  
يعتذر عن عدم ظهورك بأنك خجول لا تستطيع  
الظهور أمام المدعوّات؟! وافضحته!

وتشجّع جبر بك بكلام شقيقي، أمّا أنا فحدجت  
أخي بعينين غير مصدّتين، لم أكن أتصوّر أن تجيئي  
الطعنة القاتلة من اليد التي أعتمد عليها، وضحك  
أخي لفزعي وذهولي، وأراد أن يتكلّم، ولكنّي قاطعته  
محزّوناً يائساً:

- كيف تدفّعي إلى ما لا يقبل لي به؟... أتريد أن  
تجعلني أضحوكة المدعوّات؟

تكاد تكون خالية، ولكن انفجرت الزغاريد في تسابق  
عنيف، وعادوني مرّة أخرى رغبتني في التواري،  
وعدت إلى مجلسي الصامت، ومرّ الوقت، ولم يكن  
بالنسبة إليّ إلاّ صمتاً وفكرًا محترقاً ولهفة على الفرار.  
ثمّ دُعينا إلى سباط أعيد على سطح العارة في الهواء  
الطلق. والعشاء عناء جديد لمثلي، ولكنّه محتمل  
بخلاف الحديث، لأنّ المدعوّين يشتغلون بالطعام عمّا  
عداه فيجد من كان مثلي فسحة للطمأنينة  
والسكينة... وعدنا إلى مجالسنا، شابكاً ذراعي بذراع  
أخي، ثمّ بدأ الغناء. وكان المغني الهاوي وفرقة - من  
الهواة كذلك - يتصدّرون حجرة الاستقبال وقد غنى  
«يا ما انت وحشي» بصوت لا بأس به، فاق في نظري  
صوت فتان حانة سوق الخضر. وجاء جبر بك للجوقة  
بقتيتين من الويسكي، وقُدّمت كنوس مترعة  
لآخرين، وقد همس مدحت في أذني:

- ألا تشرب كأساً أو كأسين؟

ف نظرت إليه نظرة لم يفهم معناها وقلت بإنكار:  
- محال...!

فلتها بلهجة تنم عن الاستفظاع، ثمّ خلوت إلى  
ذكرياتي في صمت. لشدّ ما همّت بنشوة الخمر! أفليس  
عجباً أنّي لم أذقها منذ الساعة التي اجترأت فيها على  
مخاطبة حبيبي؟... هجرتها في غير ما عناء كأنّها لم  
تكن، ولم تنازعني النفس إليها ولا مرّة واحدة! وتتابع  
الغناء والحديث وعلا الضحك. وكنت حريّاً بأنّ أس  
الحوّ، وأن يذهب عني الضيق وتوتر الأعصاب، لولا  
شعوري بخطورة الساعة التي تتربّص بي!... متى  
أتلقي عروسي؟ وأين... وهل يحدث هذا في خفية  
عن الأبصار؟! ومرّ الوقت. ثمّ انتهت بغتة على جبر  
بك السيّد وهو يقف حيالي ويضع يده على كتفي قائلاً  
بصوت منخفض:

- هلمّ يا سيّ كامل أزف الوقت.

ورفعت إليه بصري في ارتباك وغمغمت:

- آن وقت الذهاب!

فقال ضاحكاً:

- ليس في الحال ولكن بعد زفة بسيطة؟

- ارفع رأسك، حملق في وجوه الحسان حتى يغيبن حياء!

ولكنني تقدّمت على مهل خافض الرأس. لم أشك في أن منظري استثار الضحك المكتوم. وبلغ مسمعي صوت نسائي يتساءل: «أيها العروس؟» فأجابت أخرى: «الطويل!». كان المكان مكتظًا، وقد رأيت عديدًا من السيقان والأحذية البيض على جانبي الطريق الذي أفسح لنا. ثم سمعت صوت أخي يهمس في أذني:

- بلغنا المنصة، اصعد إليها، حيّ عروسك واجلس.

ارتقيت درجتين، ورفعت عيني في حذر وإشفاق فرأيت حبيبي جالسة تحت ظلّ من الأزهار، في ثوب العرس الأبيض وعلى رأسها هالة من الفلّ والياسمين تنسدل منها على الظهر ذبول من الحرير. وكانت بهاء ونورًا وفلًا وياسمينًا، وقد غضت بصرها ولاحت على ثغرها ابتسامة خفيفة. وصرت منها على قيد خطوة، وتذكرت قول أخي: «حيّ عروسك واجلس». كيف أحبيها؟ ألسلم باليد؟ أم أوجّه إليها تحية المساء؟ وترددت مرتبكا، ورأيت في ابتسامتها الخفيفة الخجلة ما ينم عن انتظار تحيّي، ثم شعرت بما غاب عني لحظات قصار، أو عاودني الشعور بالأعين المحدقة بي تكاد تحرق ظهري، ففقدت جنائي، وجلست على المقعد الخالي دون أن أنبس بكلمة أو أحرك يدي.

أخطأت بلا شك؟! ماذا تقول النسوة؟... ماذا تظنّ حبيبي؟... آه يا له من موقف؟... لو عرفت هذا من قبل ما فكّرت في الزواج أبدًا!... الموسيقى تعزف، والزغاريد تجلجل، وأريج الروائح الزكية يتطاير في الجو. الموت أهون من الزواج! هل أظّل الدهر ضحية للمنصات؟ بالأمس قضت منصة الخطابة بكلية الحقوق على مستقبل، والليلة تكاد تقضي منصة العروس على حياتي! ترى ماذا يقلن عن عيني اللتين لم تزايدا الأرض؟! وذكرت بغتة أمي، ترى أين تجلس؟ إنها تراني في هذه اللحظة بلا ريب، وتضاعف حيائي، وتولاني شعور من يُضبط وهو يقترف عيًّا. ووجدت

وتأثر جبر بك للهجتي الحزينة البائسة، فقال برقة: - المدعوات جميعًا من الأهل. وقد تعرّفت إليهنّ يوم الخطبة، وسترى صدق قولي... .

لم يزل الفزع يتملكني، وتناهى بي الضيق فقلت بتوسّل:

- نشدتكما الله أن ترحماني!

وكان أخي أدرك أن الكلام لا يجدي، فوجّه خطابه لجبر بك قائلاً:

- يمكن أن نتفق على حلّ وسط فتجيء العروس إلى المنصة بين صوحيحاتها، وأذهب مع أخي إليها، فيجلسان معًا بين الأهل ردحًا من الزمن قبل الذهاب... .

وأومأ إلى البك ألا يعارض، فذهب الرجل، والتفت إلى أخي مغيطًا محققًا وقلت له:

- يا لك من أخ خائن!... كيف تسمّي هذا حلًا وسطًا وما هو إلّا التكيل بي... .

فندت عنه ضحكة مجلجلة ذكرتني بأبينا وقال لي:

- إنك تعرّ بلدًا، فدع النضال، وسنذهب معًا... .

ليتني أجد كلّ يوم زفة فاشق سبيلًا طريًا بين النساء! وصمت لحظة قصيرة، ثم لكزني في كتفي وعاد يقول:

- إذا حدّثتك نفسك بالنكوص فاهرب واستغن عن العروس!

واستسلمت إلى الواقع في بأس وضيق وهلع. وعزفت الفرقة نشيد الزفة فخفق قلبي بارتباغ وشعرت بدنو الخطر. وقرعت أذنيّ الزغاريد الآتية من الصالة فانهارت قواي، والتفت إلى مدحت قائلاً:

- أما من حيلة؟ أما من طريق؟

فشدّ على ذراعي ونهض وهو يقول:

- طريق واحد يفضي إلى المنصة كأنك طفل يُساق إلى الختان!

وسار، فتحركت قدمي وقلبي يغوص في صدري... .

وقال لي همسًا ونحن نجتاز الباب:

صورها المعكوسة على مراياه التي ترسم حولها نصف دائرة، وراحت تنزع إكليل الفلّ والباسمين، بينما وقفت في وسط الحجرة مرتفعاً حافة الفراش الخشبية، مردّداً بصري بين ظهرها الرشيق وصُورها المتنافسة في الحسن. هذه الحجرة هي دنيائي، وحسبي بها من دنيا، وهذه الفتاة هي نصيبي من الكون وحسبي بها من نصيب، هي حبي وسعادي وأملي، ولن أسأل الدنيا مطمئناً بعد اليوم.

انتهت حبيتي من نزع إكليلها، وأخذت تسوي ما بعثر من خصلات شعرها الكسنتائي في تمهل من يرغب في اكتساب أقصى ما يسعه من وقت. ولكن ستنتهي حتماً فترة الانتظار فما العمل؟

ربّاه إنّ قلبي يقظ متوّب، وإنّي لأجد رعدة ترعش ركبتي، وإنّي لأتساءل في حيرة عن الخطوة التالية بنفس هيابة وحياء شديد يدور مع دمي. وأدركت رغم اضطرابي أنّه ينبغي أن نبذل ملابسنا، ولكنني لم أدر كيف يتمّ هذا وكلانا في حجرة واحدة مغلقة! وبدت لي وكأنّها تنتظر مني شيئاً، فقد انتهت من تسوية خصلاتها وإن تظاهرت بالعكس، ولاح في وجهها الارتباك والخرج. وإنّي أعلم أموراً ولكن فاتتني التفاصيل، وأعوزتني الحيلة والعزيمة. ليتني استخبرت أخي مدحت، أو ليته كان لي أصدقاء أرجع إليهم في أمثال هذه الأسرار، ولكن قاتل الله الحياء الذي يقيم بيني وبين أخي والناس سداً، ثبأ له! لماذا لا يرايلي وقد صرنا وحدنا!

وبلغ ضيقي بصمتي وجهودي منتهاه، وثار بي الغضب على نفسي، فصممت لأتكلمن - وهو أضعف الإيمان - وقلت بصوت غريب أنكرته أذناي:

- ما أجملك!

هذه أول كلمة غزل أنفقه بها في حياتي!... وقد سددت بصرها نحو صورتي الماثلة في المرآة وابتسمت، ثم غصت بصرها، وشبكت ذراعيها على صدرها. لم يعد يجدي التظاهر بتسوية الشعر فشبت ذراعيها في استسلام المنتظر. وازدادت حرجاً، وعضضت على شفتي قهراً وغيظاً. وبدا لي تغيير ملابسنا كأكبر مشكلة

إحساساً لا يقبل لي بمقاومته يدفعني إلى البحث عن موضعها، وارتفعت عينايا في رفق وحذر، ولكنّها كانت أقرب ممّا أتصوّر، كانت تجلس في الصفّ الأول الذي يحديق بالمنصة، فالتقت عينانا، وتبادلنا ابتسامة رقيقة. وطار خيالي إلى صورة من الماضي البعيد، فرأيتني أقف وراء سور المدرسة الأولى وهي بموقفها على الطوار المقابل للسور، ترنو إليّ بعين التشجيع والتوديع، فشعرت بغمز على قلبي.

وتنفس الصعداء حين أقبلت نازلي هانم نحونا وقالت مبتسمة:

- الآن إلى بيتكما مصحوبين بالسلامة.

ثم خاطبني هامسة:

- ستذهب الجارية صباح مع سيّدتها الصغيرة لأنّها لا تحتمل مفارقتها!... وإنّي أوصيك بها خيراً، وستجد فيها خير طاهية.

وتنحّت المرأة جانباً مغرورة العينين، ونهضنا من مجلسنا، وأخذت بيد عروسي وغادرنا المكان في سير وثيد والزغاريد والأنغام تودّعنا حتى باب العمارة. وكان أحد أصدقاء جبر بك قد وضع سيّارته تحت تصرّفنا حتى نبلغ دارنا. واحتوتنا السيّارة معاً، ثم انطلقت بنا. والتفت نحوها متهدّداً فكأنّي أراها لأول مرة. وقلت بارتياح:

- يا له من موقف قاس!

- يا لك من خجول!... ألهذا الحد؟!

فندّدت عني ضحكة أداري بها ارتباكاً، وجعلت أتملّ غبطة تملأ القلب والعين والروح.

أغلقت باب المخدع بيد مضطربة. كان هذا الجناح من الشقة خالياً صامتاً، تفصله صالتان صغيرتان متداخلتان عن الجناح الآخر حيث توجد حجرتنا أُمّي والاستقبال... وكان مخدعنا مربّعاً يتوسطه الفراش، وعلى يمين الداخل مباشرة مقعد طويل ذو لون وردي، وفي الجدار المقابل التواليت والمشجب. مضت رباب إلى آخر الحجرة وجلست على مقعد التواليت بين

يضمّمها إليه، فماذا يغلّني؟  
إنّ هي إلّا خطوة أقطعها، فهل تكلف خطوة واحدة كلّ هذا العناء؟ كان قلبي متعطّشًا، وكان خجلي حارًّا عجزًا، أمّا جسمي فكان ميتًا لا حراك به! أأظّل هكذا أبدًا؟... لماذا لا أداري موتي بالحديث؟... ولكن ما عسى أن أقول!... لقد عقد الاضطراب لساني، وكلّ دقيقة تمرّ تركني أشدّ ضعفًا واضطرابًا. وعلى حين بغتة انحرف ذهني إلى حجرة أمي دون داعٍ، وتساءلت ترى هل نامت؟ هل تتخيّل ماذا أفعل الآن؟ وتضاعف اضطراب الحجل بنفسي، وشعرت بما يشبه الاختناق. سلّمت من جانبي باليأس والعجز، وتساءلت هل نبقي على هذا الوضع المضحك حتّى الصباح؟ ووجدت في أعماقي نزوعًا إلى الهرب، ولهُفًا عليه، وكدت أتمتّي لو لم يكن ما كان!... وأفقت من أشجائي على صوت حبيبتى وهي تقول:

- الجوّ حارّ... -

وتحوّلت صوب النافذة لتفتّحها، ووجدتُ فرصة مواتية فدفعت نفسي وراءها وأكملت عنها فتح المصريين وهمت حبيبتى بالعودة فقلت كالمستغيث:

- هلاً وقفنا في النافذة قليلاً... -

ولبت حبيبتى نداء الاستغاثة. فوقفنا جنبًا لجنب لا يفصل بيننا إلّا قيراط. وكانت النافذة تطلّ على الناحية الخلفيّة للعمارة، وتقع تحتها مباشرة حديقة كنيسة تقوم بجنباتها أشجار عالية تتصاعد همسات حفيفها في صمت الليل. وهفت على وجهنا نسمة رطبية أنطلّع إليها كما يتطلّع الطفل إلى القمر؟ ها هي ذي لا يفصلنا إلّا قيراط. وملت بجسمي في تودة وحذر، فتماست ملابسنا. ثمّ شعرت رويدًا بلمس طريّ، والتصق الجنبان. ونذت عني تنهدة مسموعة أيقظت حيائي فترثت قليلًا. وخفت أن تصدني أو تبعد عني حياة فأغلب على أمري ولا يعود ثمة أمل، ولكنّها لبثت بمكانها وارتفعت حافة النافذة.

ودفعتُ بيسراي إلى الوراء قليلًا، ووجهتها وراءها حتّى رسمت خلف خاصرتها نصف دائرة، وجعلت

في الوجود، فهل نبقي على هذه الحال الأليم حتّى مطلع الصبح؟... لماذا لا أمضي نحوها فأضمّمها إلى صدري حتّى تحلّ المسألة نفسها بنفسها؟... ولكن كيف أقدم على هذه الخطوة العظيمة؟! إني أستطيع أن اتخيّل، وأن أحادث نفسي، أمّا الإقدام على عمل فهو المحال. وامتلاً قلبي غيظًا وألمًا، وازددت إحساسًا بالعجز والخزي، فصممت أن أخرج من صمتي على الأقلّ، فقلت:

- هلاً بدّلت ملابسك يا عزيزتي؟

فأقلت بعد تردّد:

- ليس أمامك!

لعلّها توقّعت دعاية أو مغازلة ردًا على قولها، ولكنّي لم أفكر في شيء من هذا، وتركزت تفكيري في إيجاد مكان أتوارى فيه ريشًا تخلع هي فستان العرس. وتراجعت قليلًا جاعلاً الفراش بيني وبينها، ثمّ جلست على أرض الغرفة مخفيًا عن عينيها وأنا أقول:

- بدّلي ملابسك يا عزيزتي... -

وحسبني قد ظفرت بالحلّ السعيد. وانتهزت الفرصة فمضيت أخلع ملابسى في هدوء محاذرًا أن يبدو متى شيء، ووضعت البدلة على الفراش، وتناولت البيجاما وكانت ملقاة على المقعد الطويل، وحشرت فيها نفسي وأنا لا أزال ملازمًا موضعي على الأرض. وانتظرت مليًا ثمّ سألتها برقة:

- هل انتهيت يا عزيزتي؟

فأجابتنى بصوت مهموس:

- أجل... -

فنهضت قائمًا وهنا وقع بصري على صورتي في المرآة فرأيت الطربوش ما يزال على رأسي فنزعته مبتسمًا! ونظرت صوبها في حياء فوجدتها بمجلسها السابق وقد التفتت في روب من الحرير الأبيض، وأدارت المقعد مستقبلًا به الحجرة. وعدت إلى موقعي مرتفعًا حافة الفراش، رائيًا إليها في غبطة وهيام، وكلّما رفعت إليّ عينيها غضضت بصري في حياء. انتهينا من تغيير ملابسنا، لكن ليس هذا كلّ شيء!... بدت الليلة وكان لا نهاية لمشاكلها... بيد أنّ قلبي يرغب أن

وذكرت في التوأمي، وتساءلت عما تظن بهذا الاستيقاظ المتأخر، وشعرت بحياء أليم، زاد من ألمه أنه لم يحدث ما يستدعي التأخير قط، وأحسست بضيق نغص عليّ سعادتني، وكأنني أدرك لأول مرة أن الليلة الماضية لم تخلُ من فشل وإخفاق. على أنني قاومت هذا الإحساس الخائن، ورغبت عن الانفراد به فغادرت الحجرة. وقابلتني في الصالة الجارية صباح - التي انضمت إلى أسرتنا - فهتأنتني «بالصباحية» وأخبرتني بأن العروس تنتظرني في حجرة السفرة فمضيت إليها، ووجدتها جالسة كالوردة البيضاء فانشرح صدري بمنظرها وأقبلت نحوها متهللاً وقبّلت خدّها. وتناولنا إفطارنا معاً المكوّن من اللبن والشاي والبيض والجاتوه. وتبادلنا على المائدة حديثاً عادياً، فسألته متى استيقظت، وأجابته بأنها استيقظت في الثامنة، وبأنها تستيقظ في العادة مبكرة مهما تأخر بها وقت المنام. ثم جاءت أمي فهتأتنا معاً، وجالستنا بعض الوقت. وانتقلنا إلى حجرتنا، وقضينا النهار في حديث عذب لا يملّ. وذهبت عني الوحشة فأنست بها وقصصت عليها قصة حيّ من البداية إلى النهاية، وكنا نفضّل حديثنا بالقبّل السعيدة المتبادلة. وسألته متى أحسّت بوجودي في دنياها، فقالت إنها فطنت لجوّاني حولها وتطلّعي إلى الشرفة منذ عام أو أكثر قليلاً، وإن أمها لاحظت ذلك في نفس الوقت تقريباً، ثم صرت بعد ذلك

حديث البيت وكانت الخادمة الصغيرة إذا لمحتني من النافذة آتياً من طريق المنيل قالت لهم ضاحكة «عريس ستّ رباب»، وكانوا يزجرونها بشدة، ولما طال بي المطال دون أن أتقدّم خطوة ظلّوا بي الظنون، ونهتها أمها عن الظهور بالنافذة أو الشرفة في الأوقات التي أكون فيها بالحظّة. وسألته بلهفة:

- ألم تشعرني نحوي بعاطفة ما؟

فابتسمت ابتسامة رقيقة، فتحت فاهها لتتكلم، ولكنّها أطبقت شفيتها دون أن تنبس. وكان بي هم شديد لساع ما يبيلّ جوانحي فألححت عليها أن تتكلم، فقالت بصوت لا يكاد يسمع:

- لا أدري... لا أدري متى أحبتك.

أضيقها على مهل وحذر وخوف حتّى مسّت ثنيات الروب الحريري، فسرت من مسّها لقلبي رجفة وندت عني للمرة الثانية تهلة مسموعة. ثم توتبت بمجامع قلبي وأحطت خاصرتها بذراعي... ولم تُبِد حبيبي لا معارضة ولا حراكاً. ونفضت عني أفكار التردد والهزيمة، وشددتها نحوي مستعيناً بذراعي اليمنى، وتلقّيتها في حضني وأسندت جبينها إلى صدري، فهويت بشفتي على مفرق شعرها، وغمغمت وأنا لا أدري:

- أحبك.

ولبثنا في عناقنا، والله أعلم بما لبثنا ثم تراجعنا متسكّين إلى الفراش، وصعدنا إليه وذراعاي لا تتخلّيان عنها. وأسندنا منكبنا إلى غمرقتين عاليتين، وحبيبي وما عليها من روب على صدري وبين ذراعي، ومن عجب أن بصري لم يتطفّل عليها فاتّجه إلى السماء خلال النافذة. وامتلات نفسي حياة لا عهد لي بها. أمّا جسمي فظلّ جامداً بارداً لا ينبض ولا تدبّ به حياة، كأنّ نفسي استأثرت بكلّ قطرة من حياتي. أسكرتني نشوة روحية باهرة غناء طروب سامية، وظللت على حالي حتّى مطلع الفجر، ولم أدرك كيف استرقّ النوم خطاه إلى جفني...

#### ٤١

استيقظت ونور الشمس يملأ نصف الحجرة تحت النافذة المفتوحة، فوقع بصري على المرأة، وعادتني ذكريات الليلة الماضية في لمح البصر. ودارت عينا في الحجرة فوجدتها خالية، وأدركت أن حبيبي غادرتها وأنا أغطّ في نومي، فتندّى قلبي حناناً وبعثت لها بتحية ودعاء. وقلت لنفسي إنّ متاعب الخطبة والزواج والزفاف قد انتهت، ولن يضمّر لي المستقبل إلّا صفاء لا يكدره مكدر. وراجعت ذكريات الأمس فساحت نفسي في متاهة النشوة والسعادة. بيد أنه لم يغب عني أنني لم أبدأ بعد، وأنني لم أكتب حرفاً واحداً في كتاب الزواج الضخم. وغادرت الفراش ونظرت في الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة، فهالني تأخيري،



مرّت هذه الخواطر برأسي وحيبتي ما تزال بين يديّ. فانقلبت تمثالاً جامداً من شرّ الفكر، وضاعت سعادة السعادة هباء. وتنهّدت، ولعلّها ضاقت بالوقوفه، فوخزني تنهّدتها ولم أعد أطيق جمودي. ورفعتها بين يديّ، وسرت بحملي المحبوب إلى الفراش، وأتمتها في رفق ثم اضطجعت إلى جانبها. ودفعني الشوق إلى تقبيل شفّتها وخذيها وعنقها بسرعة وغزارة، فداخلتها رقة وأحاطت عنقي بذراعها البضة والتصقنا طويلاً وتناهى بها العطف والحنان، واصطُرعت بقلبي أحاسيس الحب واليأس واللذة والخوف فكأنّي في متاهة حمّى يذهب بي هذياناً ويحيي بين أخيلة السرور وأشباح المخاوف. إني في حلم سعيد ولكنّ الخوف لا يزالني واليأس يثير في وجهي غباراً، وكيف لي بالنجاة وجسمي ميت لا حياة فيه؟ وأحرق جفاف الخوف حلقي، ووقفت حيال عجزي ويأسي حائراً أتساءل، ولكنّي لم أفكر لحظة واحدة في التقهقر، وأين المفر؟... بل دفعني اليأس إلى أن أنزع الروب عنها، فجرت يديّ إلى عقدة زناره وحلّتها، وشعرت بصدرها يرتجف تحت صدري، فأزحت جانبها عن صدرها فبدا جسمها الرشيق في قميص من الحرير الأبيض لا يكاد يستر شيئاً، وبادرتُ تُرجع طرف الروب تستر فأزحته مرّة أخرى فانحسر عن القميص الشفاف، ورنوت إلى هيئة الجسم الفاتنة بعينين لم يترك لها الاضطراب إلّا قليلاً من الإبصار. كان حالي ممّا يرثى له. ولم يكن عذاب محتضر يجاهد يائساً للاستمسك بحياة جسده بأسوأ من عذابي. ورغم هذا كلّه تابرت على عنادي، واستمددت من يأسى وعذابي قوّة وإن لم تكن تهدي. إنّ الخجول لا يفرّ إبان المعركة لأنّ الفرار مخجل حيال الغريم. أجل إنّهُ يتحامي المعركة، ويفرّ منها بعيداً عن الأعين، فإذا ولج ميدانها وغدا محطّاً للأنظار بات الفرار - كالعراك سواء بسواء - فوق احتماله. لذلك اجلست حبيبي ونزعت الروب من ذراعها وتركتها قميصاً شفافاً وجسداً بادياً. وأدارت عني رأسها، وأخفته في الوسادة. ولم تكن تعلم بأنّ نفسي تحترق يائساً، وبأنّ

وشعرت بتخدير عميق وددت لو أنام به دهرًا. وجعلت وجهها بين راحتيّ متملّياً شفّتها اللتين برزتا تحت ضغط يديّ، ثم وضعت عليهما شفّتيّ، وذبت في قبلة طويلة، وجدت حبيبي فتنة، حديثها عذب، وبديتها حاضرة، وذكاؤها باهر حتّى بدا حديثي على ضوء حديثها فاتراً باهتاً. وبدت لي لطيفة خفيفة الروح فلم يكن وقارها إلّا تأدّباً واحتشاماً. ولا أدري لماذا كنت أتحلّلها مثلاً لضبط النفس، بل وللبرود أيضاً، ولكنّي لمست في قبالتها حرارة تذيب القلب، وفي نظرة عينها عاطفة عميقة وإحساساً مرهفًا. وانطلقت على سجيّتها بأسرع ممّا توقّعت، وربّما شجّعها على ذلك ما رأت من شدّة حيائي.

ولمّا جاء الليل وأغلقت الباب ورائنا قلت لنفسي وبه رهبة زحفت عليّ مع الظلام «الليلة يتمّ الأمر بإذن الله». لم تكن لي تجارب على الإطلاق، ولم أعرف من الحياة الجنسية إلّا العادة الجهنميّة التي لم أكد أنجو منها، ولكنّي عرفت أموراً بالسّماع عفواً - في الوزارة - لا أدري إن كانت تغني عني شيئاً. ورأيت حبيبي واقفة حيال المرأة تمشط شعرها فراقني منظر قامتها الرشيقة الفارعة، وتدانيت منها، ولففت ذراعيّ حولها، فاستدارت حتّى شعرتُ بمسّ صدرها على قلبي. وضممتها إلى صدري في حنان وهيام. إنّهُ الحبّ، ولكنّي أدركت بغريزتي أنّه ينبغي أن أستنزله من السّماء كثيراً كي أقوم بسواجبي!... ولكن كيف؟ إنّها تسكن إلى صدري كأنّها طيف من نسج السحاب الطاهر. وإني أبدو كروح خالصة لا يحيط بها جسد فكيف أجد جسدي؟! وسرعان ما انسربت إلى نفسي مشاعر قلق وخوف وتوتر أدركتها جميعاً تجربة الأمس الفاشلة. ولم تكن تراءت لي كتجربة فاشلة إلّا في هذا الصباح، وكذّبت رأيي أو كدت في أثناء النهار، ولكنّي عدت إليه في تلك اللحظة بتسليم ويقين ويأس. ثمّ استحوذ عليّ الحياء القاتل فأثلج دمي وأوهن عزيمتي. وركبني خوف شديد من الفراش الذي لا أجد لنفسي عذراً عليه بينا أجد شبه عذر بعيداً عنه.

ليس هو الجسم الذي يلتهم نازًا في العادة الجهنمية!!  
والآم يدوم هذا اليأس... ظل رأسي كقطعة حجارة  
من الحديد يتطاير عنها شرر الأفكار.

## ٤٢

حبيبي عطف ورحمة. وقد طالعتني في الصباح  
بالابتسامة المشرقة. ووثبت هنا وهناك ببشر وسرور  
ومرح، فلم يداخلني شك في أنها عروس سعيدة. ولو  
بدا لي أنها تتظاهر بالبهجة لتخفف عني الحرج لما  
وسعتني الدنيا شقاء، ولكنها كانت تصدر في مرحها  
عن وحي فطرة بسيطة سليمة لا تعرف التصنع ولا  
التمثيل. وشعرت بصدق وحق بأن فتاتي تحبني، وبأنها  
قلب كبير مليء بالحنان والعطف والأنوثة، فعاودني  
الأمل. وقلت لنفسي إننا ما زلنا في البداية وإن  
مسرّات لا حصر لها تنتظرنا إذا عبرنا الخطوة الأولى  
الشاقة، وقضينا النهار معًا، بعضه في الحديث وبعضه  
الأخر في مشاهدة الرسوم والألعاب التي مهرت في  
إبداعها لأطفال الروضة. وحين المساء زارتنا أسرتها،  
وجلسنا جميعًا في حجرة الاستقبال ومعنا أمي أيضًا.  
وتحدّثنا طويلاً، والتهمنا بلذة الشيكولاتة والمثلّس.  
وحاولوا أن يجزّوا أمي إلى الحديث، ولكنها - متلي - لم  
تكن محدّثة ماهرة، فبدت متحفظة، وخيل إليّ أنّ  
محضرها لم يترك أثرًا حسنًا في نفوسهم، وأنّ رباب  
شاركهم نفس الشعور، وما لبثت أن سرت العدوى  
إليّ، وكنت أجد نحوها إحساسين متناقضين. إحساسًا  
بالرغبة في وجودها معي وهو ما ألفته وطُبع عليه،  
 وآخر بالخجل الأليم لوجودها في بيت الزوجية. والحقّ  
أنّي ما كنت أذكرها حتّى يتندّى جيبني خجلًا. ولما  
انفضّ السامر وأقبل الليل استقبلته بكابة وخوف، وما  
كاد باب حجرتنا يغلق وراءنا حتّى نضب معين السرور  
والبشر من قلبي، وغاض منه الأمل الذي ابتعته مرح  
النهار، وبدا لي أنّ فتاتي تعاني بعض ما أعاني، وأنها  
تداري قلقلًا لم تنفع لباقتها في مداراته. تولّت عني الثقة  
في أقلّ من ثانية، وتحاليت لعيني ذكريات الليلة  
الماضية، وتمثّيت لو كان في الإمكان أن ننام دون أن

هذا المشهد ما هو إلّا مهزلة، فتضاعف ألمي وخجلي.  
ومع ذلك مددت يدي مرّة أخرى كأنني ما زلت أطمع  
في أمل لا أدريه. مددتها وهي ترتجف من اليأس  
والبرودة فنّد عن حبيبي صوت يهمس:  
- إني خائفة...

واحجّلتاه!... ممّ تخاف؟!... لقد ألهمتني  
همستها كسوط تحملت أطرافه بالرصاص، ومع ذلك لم  
أتوقف... لم تشني لا المقاومة ولا الصدود... حتّى  
بلغ النظر غايته! ماذا دهاني؟ ليس الموت فحسب ما  
بي. إنّ شيء جديد مفزع مزعج، ماذا دهاني؟! رياه  
حبيبي جميلة لطيفة ولكنّه الجهل والخيال الأعمى!  
كنت غرًا أعمى لم تر عينا نور الحياة، فتخيّلت عنه  
خيالات صبيانية فلما أن رأت النور الحقيقي أنكرته!  
إنّها مأساة. ولعلّه لولا موتي لما كانت مأساة على  
الإطلاق. وقد علّمتني تلك التجربة القاسية أنّ الحبّ  
يخلق الجمال كما يخلق الجلال الحبّ... ومهما يكن من  
أمر فقد ركبني الفزع فوق ما بي من يأس وخجل ولم  
يعد ثمة أمل. ولبثت جامدًا وحبيبي دافئة وجهها في  
الوسادة، مستسلمة تحت رحمة جلاّدها... لبثت  
جامدًا لا أدري ماذا أفعل ولا كيف أترجع ووجدت  
في لحظة رهبة قوة عصبية متوتّرة تدفعني إلى الضحك  
لولا أن تماسكت وشعرت في اللحظة الثانية برغبة في  
البكاء، ولولا أنّ البكاء مخجل لروّحت بالدمع عن  
نفسي الملتاعة... ثمّ استنقلت الجمود كما خفته  
فضممتها إلى صدري وقبّلتها ومشاعير العطف  
والحزن - علينا معًا - تسيل من شفّتي، كان رثاء  
بالقبل. ومرّ الوقت كأنّ دقائقه وتوانيه أسنان منشار  
يجزّ عنقي، ومرّت دقائق وربما ساعات. ثمّ انقلب  
الحال مقلًا مضنيًا، وفي حركة لطيفة تخلّصت من  
ذراعي... وتغلّطت بثيابها وبدا لي النوم نهاية مضحكة  
ولكن ما حيلتي؟! رفدت حبيبي دون أن تلتقي عينانا  
فلم أدري متى رنق الكرى بجفّنيها. ولبثت مسهّدًا متعبًا  
لا أدري بأيّ وجه ألقاها في الصباح. أيّ شيطان  
أغراني بالزواج؟... ألم يكن عذاب الحسرة القديم  
خيرًا من هذا العذاب؟... كيف خانني جسمي؟

فكابدتُ عذابِي وحيدًا صامتًا يائسًا. وكان نهارًا محتملاً، بل بهيجًا بفضل حبيبي التي تذيب روحها راكد الهمِّ، حتَّى إذا جاء الليل غشيتنا كآبة لم تنفع حيلة في تبديدها: كان كلانا يشعر بالخرج والضيق والخوف. ولم تواتني الشجاعة على معاودة التجربة بعد إخفاق الليلتين المتعاقبتين، فكنت أقتنع بأن نضطجع جنبًا إلى جنب، وأضُمَّها إلى صدري، منتظرًا الرحمة في خوف وقلق و هلع، حتَّى يتشلي النوم من عذابِي، ولذلك لم يزل الحياء حجائبًا بيني وبينها، ولو أتيت لنا الامتزاج لرفع الحجاب رويدًا رويدًا، فلم أستطع أن أشكو إليها بَنِي وهَمِّي، وطالما نازعتني نفسي إلى الترويح عنها بالكلام، فما أكاد أفتح شفتي حتَّى أطبقها في ارتباك وخجل. وفي إحدى هذه المرات قالت لي بصوت مهموس:

- هل ترغب أن تقول شيئًا؟ ...

وجدت وراء تساؤلها دعوة إلى الكلام، فخفق قلبي بعنف وقلت في اضطراب أخففته بجهد شديد:

- أرغب دائمًا أن أقول إنِّي أحبُّك!

هذا حق في ذاته، ولكنِّي كنت أرغب بلا ريب أن أقول شيئًا آخر، وأحسست بأنَّها تقرأ صفحة أفكارِي الخفية، فجثم الكذب على صدري كالكابوس، وغمغمت بعد أن جاهدت حياتي جهادًا مريرًا:

- إنَّ ما مضى من حياتنا المشتركة لا يقاس إلى ما ينتظرنا من عمر طويل.

وخيل إليَّ أنَّ وجهها تضرَّج بالاحمرار وإن كنت أراه على ضوء المصباح الساهر الخافت، وداعبت شعري بأناملها، ثمَّ قبلتني قبلة عذبة على شفتي، وسألني في أذني:

- أياضيقك شيء؟

فالتهب جسمي خجلًا وألمًا. وقلت بإخلاص:

- معاذ الله ...

وصممت على رغمي مليًا، وقلبي يخفق بشدَّة وعنف، ثمَّ قلت وبودِّي لو أتوارى عن ناظرِيها:

- إنَّها مسألة وقت ...

هكذا تعاقبت الأيام، ومرة أخرى أقول إنَّه لولا

نَجْرَب محاولة جديدة، وأيقنت بالإخفاق قبل البدء. على أنَّي لم أجد بدءًا مما ليس منه بدء. وأعدت التجربة بحذافيرها من قُبَل وعناق وإخفاق! أجل إخفاق وإخفاق وإخفاق. مسكينة حبيبي، لقد استسلمت بادئ الأمر فيما يشبه الخوف. ثمَّ انتهت بأن لَمْتُ نفسها في حياء وارتباك. انتهينا في ساعة متأخرة كما انتهينا أمس، فنامت هي، وبقيت مسهَّدًا متفكرًا. ماذا بي! ... إنِّي أحبُّها بكلِّ قوَّة نفسي، بل إنِّي أعبدُها عبادة ولئن يغلو بيتي منها بعد اليوم لأهلكنَّ لا محالة، أنكمن المأساة فيما دهاني به النظر من انزعاج لم أتوقَّعه! ولكن هذا محض افتراء لأنَّ موتِي سابق للنظر فليس فيها رأيت دخل فيه، بل إنِّي آلف الحقيقة التي غابت عني سريعًا وتكاد تنهزم خيالات الوهم الصبيانية حيال الواقع الحقيقي، ولم يتغيَّر متي شيء... وقد أثر في حياتها وارتباكها - وهي ترتدي ثيابها - تأثيرًا عميقًا فأقسمت لا أقرِّب ثيابها حتَّى يغيَّر الله ما بي!

ومضت بنا الأيام في حبِّ طاهر، فامتزج روحانا، حتَّى صارا روحًا واحدًا في جسمين غير متصلين. ولولا حبُّها العميق، ومرحها الطليق، وبساطة قلبها الكبير، لمثَّ غمًا وكمدًا ...

وإنَّها لأيام عجيبة، وإنَّه شهر غسل غريب! وكانت حبيبي مشألاً للشعور الحي والرقَّة البالغة والحبِّ الصادق. وكثيرًا ما كنت أسترق إليها نظرات متفحصة مستترية فلم أجد منها إلَّا الصفاء والوداعة والرضا، فكاد يقع في روعي أنَّه لا يعوزنا شيء، وأستطيع أن أقول إنِّي لم أنعم بالراحة إلَّا في تلك اللحظات. وفيما عدا ذلك كانت حياتي جحيماً مستعراً لا يدري به أحد، لم تعد سعادتي إلَّا أويقات طارئة كأنَّها إفاقات مَن يعاني سكرات الموت. وشعرت بشدَّة حاجتي إلى المشير. ولكنَّ حياتي وقف في طريقي سدًّا منيعًا كالجبل الراسخ فاستحالت عليَّ المشورة حتَّى محرَّد تخيلها كان يشبُّ في نارًا ويبعث في نفسي إحساسًا قاهرًا للفرار والاختفاء. وفضلاً عن هذا وذاك فلم يكن لي صديق، وكانت أمِّي - وهي صديقي الوحيد في دنياي - أبعد من أن أذكرها في هذا الأمر خاصَّة،

فتفكرت ملياً كأنما لتزن كلماتها، ثم قالت:  
- قالت لي إنَّ للموقف رهبة، وخاصة بالنسبة  
لشباب طاهر خجول، وإنه إذا دعا الحال فلدينا صباح  
الجارية...  
فاتسعت عيني دهشة وقلت بذهول:  
- صباح!  
فأومأت برأسها بالإيجاب في ارتباك، فتساءلت  
بدهشة:

- وماذا تستطيع صباح؟  
وتردّدت لحظة، ثم أنشأت تشرح لي ما غمض عليّ  
أول وهلة، وأنصتُ إليها باهتمام حتى أدركت كلّ  
شيء، وأخذت أفيق من ذهولي رويداً رويداً. ولست  
أخفي أنّي شعرت بارتياح إلى اقتراح الأمّ، فهو يزيل  
عقبة من سبيلي، ويخلّيني من بعض المسئولية، ويعفيني  
من مراقبة الأمّ، ولا أظنها تسأل بعد ذلك عن  
شيء... وسألت زوجي بحياء:  
- وكيف نخبر صباح؟  
فقلت ببساطة:  
- لقد حضرت صباح جانباً من حديث أمي...  
فهتفت بحياء وانزعاج:  
- كيف؟... كيف بالله!  
فقلت مبتسمة:

- لا عليك من هذا، إنها أمي أيضاً ولا نخفي عنها  
شيئاً.  
وتبادلنا نظراً طويلاً صامتاً... ثم سألت في  
إشفاق:

- وهل علم أحد من الآخرين؟  
قالت بلهجة لا تدع مجالاً للشك:  
- مطلقاً...  
فداخلي ارتياح، ولكن شعرت بحاجة إلى مزيد  
من الاطمئنان، فقلت بلهجة ذات معنى:  
- أرجو ألا تخرج «أسرارنا» من هذا الباب!  
فحدجني بنظرة عتاب وتساءلت:  
- أيدخلك في هذا الشك؟!

حبها العميق ومرحها الطليق وبساطة قلبها الكبير لم تُغَيِّرْ وكمدًا

\*\*\*

وذات مساء - وكان مضى على زواجنا ثلاثة أسابيع -  
لاحظت أنّها تخالسنى نظرات تنم عن الحيرة، وأنّ  
لديها ما تقوله، فقلت لها مدفوعاً برغبة قويّة في  
استدراجها إلى الكلام:  
- في عينيك كلام...  
فكانت مبتسمة في ارتباك:  
- أجل...  
فمضيت إليها وكانت جالسة على المقعد الطويل  
وجلسْتُ لصقها، وقلت مستسلماً للشعور الطارئ  
نفسه:

- هاتي ما عندك...  
- أمي...  
وانفجر الاسم في أذني كالقنبلة، إنّه لفظ واحد  
ولكنّه يتضمّن كتاباً، وإنّي على رغم غبائي أفهم ما  
يعنيه. ولعلّ الأمّ تواحدها بهذا السؤال الطبيعيّ  
المعروف فتسمع ردّاً على سؤالها جواباً واحداً لا يتغيّر  
«كلّاً بعد...»! ولما طال السكوت قالت حبيبي  
برقة:  
- إنّها لا تفتأ تسألني، ولا أدري ماذا أنفد  
صبرها...  
وقتلني الخجل، وتميّزت غيظاً، ثم قلت بهدوء:  
- هذه شؤوننا الخاصّة. أليس كذلك؟  
فكانت كمن تعتذر:

- طبعاً... إنّ هي إلّا تريد أن تطمئنّ علينا. هذا  
كلّ ما هنالك...  
فسألته محزوناً مغتئاً:  
- وماذا قلت لها؟  
فكانت باهتمام وعجلة:  
- لم أقل «شيئاً» مطلقاً... فقط صارحتها بأن لا  
داعي للعجلة.

- وماذا قالت؟!

وعدت وأنا لا أدري إلى أسر العادة الجهنمية التي لم يعرفها زوج قبلي. ألا ما أشد حيرتي وقهري! كيف يقع لي هذا وقلبي يعبدها عبادة!... بل كيف ونظرة إلى وجهها أنفس عندي من الدنيا وأنعمها! إنها حياتي وسعادتي ودنياي جميعاً.

\*\*\*

وجدتها يوماً وكأنها تعاني رغبة الإفصاح عن شيء يعتلج بنفسها، ففحق قلبي قلقاً وخوفاً، ولكن لم يسعني أن أتجاهل ما رأيت مفضلاً أن ألقى الخطر وجهاً لوجه على أن أصيب جديداً إلى ما أكتمه في نفسي من القلق والوساوس، فسألتها:

- ماذا وراءك يا عزيزتي؟

فلاح في وجهها التردد والضيق ولاذت بالصمت، فتضاعف قلقي وقلت بفؤاد منقبض:

- هاتي ما عندك لا تخفي عني شيئاً...

فنفخت قائلة:

- أمي...

وقع قولها من نفسي موقع الفزع والهلوع، ما بال هذه المرأة لا تريح ولا تستريح؟! ولشد ما أبغضتها في تلك اللحظة، على أنني تساءلت متظاهراً بقلّة المبالاة:

- ما لها يا رباب؟

فقال بصوت منخفض وهي تنظر فيما بين قدميها:

- لا تفتأ تسألني هل جدّ جديد في الطريق!

ومن عجب أنني فهمت المراد من هذا المجاز! فهمته بغريزي، أو بالخوف الكامن في نفسي وبلا أدنى تردد، ولكّني تساءلت متجاهلاً:

- ماذا تعنين يا رباب؟

فاومأت إلى بطنها وهمست قائلة:

- تعني هل جدّ جديد هنا؟!

تولّاني فزع شديد، فاطرقت مرتبكاً محزوناً، عمّ تسأل المرأة؟ لعلّها تريد أن تعرف شيئاً أخرى ضمناً، وحنقت عليها حنقاً فظيماً. واختلست من رباب نظرة فوجدتها ساهمة الطرف، صامته... أحقاً يضايقها تساؤل أمّها أم هي تبلّغني وفي نفسها غرض؟ أبانت بدورها تشارك أمّها قلقها وجزعها؟... ولماذا تتوارى

ولكن ليس هذا كلّ شيء في الزواج. وكيف يكون كلّ شيء وهو «واجب» قامت به صباح؟! وتساءلت في سذاجة مضحكة عما ينقص حياتي الزوجية، وهل هو ضروري لهذه الحياة! ومن عجب أنني ترددت عن الجزم! وتساءلت ألسنا سعداء! نحن نعيش في هناء وغبطة، ويجب كلانا صاحبه حباً لا حدّ له ولا يداخل أحداً شكّ في سعادتنا، فلماذا تزعجني الأوهام؟! ولكن الإنسان موكل دائماً بالتفكير فيما ينقصه، حتّى لنسى ما بين يديه بما هو بعيد عن يديه، فلم تزايلني الوسواس، ولم أستتم لحياتي. وفي ليلة من الليالي، وكنت مضطجعاً على ظهري أراود النوم وقد رنق الكرى بجفنيّ حبيبي، طاف بي الفكر مسارح بعيدة حتّى نسيت ما حولي أو كدت، فساورني شعور بالوحدة، قوّاه في نفسي ما يحيط بي من ظلمة، ورويداً وجدت حياة تدبّ في جسدي، كتلك الحياة التي كان يستثيرها الظلام والوحدة.

وسرعان ما استخفني الفرح فكدت أصبح من فرط سروري. ثمّ أقبلت على حبيبي النائمة أيقظها بالقبيل حتّى فتحت عينيها في انزعاج استحالة دهشة، ومرّت ثوان قبل أن تستفيق من دهشتها، ثمّ مدّت ذراعيها إلى عنقي فضممتها إلى صدري بلهفة وشوق، ولكّني ما كدت أفعل حتّى عاد كلّ شيء إلى أصله، وزحف الموت البارد على جسدي حتّى شمله في أقلّ من ثانية، وانقلبت إلى حيرة خرساء وخجل مخزٍ! وتبادلنا نظرة غريبة على ضوء المصباح الخافت، وبدا في وجهها أنها لا تفهم شيئاً فسألني:

- أكنت تحلم؟

ما أصدقها من كلمة وإن قيلت اعتباطاً، ولشدّ ما زلزلتني تلك الحادثة زلزلة عنيفة قضت قضاء مبرماً على ما كان يترأى لي أحياناً من أمل وإه، وعرضت لي خلوات أخرى في ظلام الليل وحبيبي غارقة في نومها، وعساودني ديب الحياة الغريب، ولكن لم تواتني الشجاعة مرّة أخرى على إيقافها، ووجدتني أتردّى من جديد في الهاوية التي انتشلتني الزواج منها قرابة شهر،

تعتري حبيبي الطاهرة المحتشمة هذه الشهوة الوحشية؟ إن هذا لأبغض مما أتصور!

\*\*\*

وانتهت إجازتي فعدت إلى إدارة المحازن بالوزارة، واستقبلني الموظفون استقبالا حافلا، لم يكن لي بينهم صديق، ولكن المناسبة - عودة عروس من شهر العسل - أنستهم تحفظهم فأقبلوا علي بين مهوئ ومداعب وتلقيتهم في صمت وارتباك وخجل، وتكلموا كثيرا. وتطوع أحدهم بتحذيري من الإفراط، واستفص الحديث حتى ألهاهم عني، وخاضوا في طبيعة الرجل وطبيعة المرأة، واستشهدوا بالأمثال والحوادث والحكايات. أنصت إليهم خفية وأنا أظهار بفحص الآلة الكاتبة، بقلب مكلوم ونفس معذبة، وكم تمنيت أن يستشهد أحدهم بحالة «كحالي»، ولكن حالي لم تقع لأحدهم في حسابان، وامتلات نفسي بما سمعت حتى دارت بي الأرض، إن رباب امرأة فهل يصدق عليها ما يصدق على النساء إن صح ما يقوله هؤلاء الموظفون؟ أيمن أن تضيق بحياتها أو تملّ عشري؟! ولكنها سعيدة؟ ما رأيت وجهها إلا متألقا بنور السعادة، وما رنت عيناها إلي إلا بالحب والإخلاص، إن وجهها لا يعرف الرياء، وإنه لصفحة نقيّة ومرتاد طاهر لا يكتم كدبا ولا يداري إثما. كذب هؤلاء الموظفون! إنهم حيوانات فلا يرون الناس إلا حيوانات مثلهم. بيد أنني غير مطمئن، ولن أذوق الطمأنينة مهما أقنعت نفسي بها، لقد نبت دمل الشك. ولما خلوت إلى حبيبي ذلك اليوم جعلت أنظر إليها طويلا متفكرا دون أن أنبس، حتى ضحكت وقالت لي:

- هل عاودك الحنين إلى النظر الصامت القديم؟ وهفت على فؤادي نسمة لطيفة من قديم الذكريات حين فؤادي مضطرم وأملئ مشرق وهذه البلوى لا تدور لي في خلد. وتمليت الذكرى مليا، ثم سألتها في إشفاق:

- رباب... أنت سعيدة؟

خلف أمها؟ إن المكر لا يجمل بمن كانت في مثل جلالها وطهارتها! وما كان أغناها عن اللف والدوران! هكذا حملني الفزع على عدم تقدير موقف فتاتي المظلومة. واستند بي الحرج حتى أرهقني وأعياني، ثم تركّز اهتمامي في شيء واحد، وهو أن أسبر مدى ما تعرف نازلي هانم من أسرارنا، فسألته قائلا:

- وماذا قلت لها؟

فقلت ببساطة:

- قلت لها الحقيقة!

فتشج قلبي تشنجة حادة وصحت بفزع:

- الحقيقة!

فحدجتي بدهشة وتساءلت:

- ما لك؟!

فهتفت في انزعاج:

- أحقا قلت لها الحقيقة؟!

فقلت بعجلة ولهجة:

- أجل قلت لها إنه لم يجد شيء بعد!

وتنفست الصعداء! إنها تعني حقيقة غير التي تشغل بالي. على أنه بقي في النفس شيء. فقلت بحرارة:

- «رباب» أهذا كل ما قالت؟ لا تخفي عني شيئا وأنت قلبي وحياتي.

فقلت بارتباك وقد قرأت البراءة في عينيها:

- عمّ تساءل يا كامل؟ إنني لم أقل لها كلمة واحدة

زيادة عما قلت لك. لقد سألتني عن هذا الأمر فلم يسعني إلا أن أجيب بالحق والصدق، وهو أمر كما تعلم لا ينفع فيه الكذب، فهل تراني أخطأت؟ أم كنت تريدني على أن أظهار بالحبيل؟...

فقلت في ارتياح نسبي:

- كلا يا عزيزتي... لقد أحسنت بصراحتك...

لن أذوق طعم الأمان ما دامت هذه المرأة على مقربة منا. .. رباه، إني أحتضن همي وحدي لا صديق ولا مشير. ولقد ضقت ذرعا بأمها وبأمي وبنفس! وعاودني السؤال القديم: هل ما ينقصنا ضروري للحياة الزوجية؟ هل تجد حبيبي مثل هذا الإحساس الحيواني الذي دفعني إلى اعتناق العادة الآثمة؟! أيمن أن

بالخط الكبير: «الدكتور أمين رضا، أخصائي في الأمراض التأسلية من جامعة دبلن» ولم أكن رأيته من قبل، فحدثني نفسي فجأة باللجوء إلى الطبيب. ومع ذلك لم أستسلم للفكرة بغير تردد. ثار خجلي وخوفي، وكادا يثنيني عما خطر لي ولكنّ تلّهني على النجاة كان أقوى من خجلي هذه المرة، فصممت على الذهاب ذات مساء، وذهبت...

كان الطبيب مشغولاً بفحص مريض. فجلست في حجرة الانتظار، وكانت الحجرة خالية فداخني ارتياح عميق، وإن شعرت بالاستهانة بالطبيب. ولم يطل بي الانتظار، فدُعيت بعد دقائق إلى حجرة الكشف ووجدتها آية في فخامتها وأناقتها، كاملة العدد، وبها من أدوات الرهبة ما ردّ إليّ الهارب من ثقتي. وإلى يمين الداخل مباشرة جلس الطبيب إلى مكتب كبير مزدحم بالكتب والكراسات. كان شائاً في الثلاثين على أكثر تقدير، نحيف القوام، طويل القامة، مجعد الشعر، ذا بشرة سمراء وقسمات دقيقة واضحة، وعينين حادتين تلتصقان وراء نظارة أنيقة. وكان مما يلفت النظر إليه شارب كثيف فاحم غطى فمه وأكسبه وقاراً ليس من سنّه، حيّته فردّ تحيّي باقتضاب، وحدجني بنظرة مستهمة قرأت فيها الترفع والكبرياء، وثقة بالنفس تبلغ حدّ الغرور، فلم أرتح إليه. وكان منظره عامة مخيّباً لألمي، لأنّي توقّعت أن أرى شيئاً مهيباً بساماً كطبيب ذهب بي أمي إليه مرّة منذ أعوام طوال، فاستأنت ووددت لو لم أكن قدت نفسي إلى هذا الشرك. وقال لي بهدوء:

- تفضّل بالجلوس.

فأذعنت وأنا أرمقه بقلق. وجعل ينظر إليّ منتظراً أن أبدأ بالكلام. ولكنّ فكري تشّتت وجفّ حلقي ولبثت ملازماً الصمت حتى قال متسائلاً:

- أفندم؟

فاستجمعت قواي، ولكنّي لم أزد على أن قلت:

- جئت للكشف...

فسألني بهدشة:

- ماذا تشكو على وجه التحديد؟

فنظرت إليّ باستغراب وقالت بصوت ينم عن الصدق:

- سعيدة جداً...

فتساءلت وعيناي تطرقان من فرط الحياء:

- أتحبيني؟

وكانت على بعد شبر منّي فتزحزحت حتى التصقّت

بي ورفعت إليّ وجهها مورّداً وغمغمت:

- أجل أحبّك...

فأحطت خاضعتها بذراعي وقبّلت شفيتها وخذها، وتناولت يدها الصغيرة الجميلة وجعلت أقبل أناملها أغلة أغلة في حنان وهيام، وكنت في الواقع أمهد بما قلت لما أرغب في الإفصاح عنه ممّا ضقت بكتمانها، ولمّا هممت بالكلام خانتني شجاعتي وانعقد لساني. أردت أن أثبتها همّي، وأن أعترف لها بأنّ ما يعتريني حيالها طارئ غريب لا أدري كنهه، وأنّي لم أكن كذلك بل إنني لست كذلك إذا خلوت إلى نفسي، وأن أسألها المشورة والمعونة، هذا ما كنت أريد البوح به، ولكن خانتني العزيمة فنكصت مغلوباً على أمري. ثمّ سلّمت بالهزيمة كعادتي، وجعلت أسوّعها لنفسي قائلاً: إنّ البوح بهذه الأسرار حريّ بأن يسيء إليها ويغضبها، وربّما قضى على سعادتها قضاء مبرماً.

وعندما آوينا إلى الفراش حدثني نفسي بأن أعاود التجربة، ولكنّي تردّدت، وتردّدت طويلاً حتى تمكّنتي الخوف فوّلّ قلبي فرازاً، لقد بتّ أخاف جسمها بقدر ما أحبّها، وتأملت حياتي في صمت الليل وظلمته، فبدت لي غريبة متنافرة، وضاق صدري فلم أجد من متنفس له غير البكاء فبكيت طويلاً...

#### ٤٤

وخطر لي أن أستشير طبيباً، وجاء الخاطر فجأة، بل لعلّه كان محض مصادفة، ولم أكن فكّرت في استشارة طبيب لحنجلي الشديد من ناحية، ولا اعتقادي بأنّ حالتي لا شأن لها بالطبيب من ناحية أخرى، ولكنّ بصري قد وقع يوماً وأنا في طريقي إلى الوزارة على لافتة كبيرة مثبتة على شرفة بشوارع قصر العيني قد كُتب عليها

وعانيت عذاباً شديداً قبل أن أقول:

- لمّا رجل متزوّج . .

ثم سكّ، أو بالأحرى انعقد لساني، ولكنّي استثقلت السكوت، على حين استحثّيتني عينا الطبيب الحاذقان فاعترفت بكلّ شيء! تكلمت بادئ الأمر باضطراب وتعثر، ثم تشجعت بما لاح في وجهه من أمارات الجّد والرزانة فتدفّقت بلا توقّف، وشعرت كأنّما ألقيت عن عاتقي حملاً ثقيلاً، وكأنّما بات هو المسئول من الآن فصاعداً عن الشقاء الذي نغص عليّ صفوي. وسألني الطبيب:

- متى تزوّجت؟

فقلت:

- منذ قرابة شهر ونصف.

- متى وجدت هذه الحال؟

قلت بامتعاض:

- من أوّل ليلة.

- هل انتابتك قبل الزواج؟

- لم يكن لي تجارب مطلقاً. . .

وسألني عن الأخرى فتردّدت لحظة ثمّ أجبت بالصدق. وسألني عن بعض التفاصيل فأجبت به صراحة، ولم أخفِ عنه إفراطي المخيف. وعاد يسألني.

- ألم تمارس عادتك بعد الزواج؟

وأعجبت به لسؤاله الذي بدا لي فراسة ثاقبة فقلت:

- بلى. . .

فقال متفكّراً:

- كأنّ طبيعتك لا تتغيّر إلّا حيال زوجك.

فقلت بحيرة وأسى:

- أجل. . .

فسكت ملياً ثمّ قال:

- سأطرح عليك أسئلة صريحة وأرجو أن تجيبني بالصدق. هل تحبّ زوجك؟

- جدّاً. . .

- أبها شذوذ من أيّ نوع كان، أو برودة في

الطبيعة؟

- أبداً. . .

- هل نشأتما نشأة واحدة منذ الصغر؟

- إنّها ليست من ذوات قرباي. . .

والقى عليّ بعد ذلك أسئلة استفطعتها، ولكن لم يكن بي شيء منها، فأجبت به بصدق وصراحة. ونهض قائماً، ثمّ أجرى عليّ فحصه في أناة وعناية، فاحتملته بقلب واجف ونفس يصطرع بها الأمل واليأس. وعدنا إلى جلستنا السابقة، فراح يقيد في كرّاسه ما يعنّ له ثمّ اعتدل في جلسته وقال لي:

- جسمك سليم. أجل إنّك أسأت إلى نفسك

بعادتك المزدولة فتركت بك أثراً يحتاج لغسيل خاصّ، ولكن لا علاقة لخالتك الأخرى بهذا فيما أعتقد، فليس عجزك بنشأتي عن سبب فيزيقيّ، ولعلّك تعاني أزمة نفسية، أليس في بلادكم عيادات نفسية؟

فلم أفقه معنى للشطر الأخير من كلامه، وعجبت لقوله «بلادكم» كأنّه أجنبيّ عن هذه البلاد. وقلت له بدهشة:

- أنت أعلم منّي بما تسأل عنه يا دكتوراً!

فقال مبتسماً:

- الحقّ أنّي حديث عهد بالوطن، ولم أفتح عيادتي

هذه إلّا منذ أيّام. . .

فأدركت لماذا وجدت عيادته مقفرة، ولماذا لم أر لافتته من قبل. بيد أنّي بت أدرك كذلك أنّ هذه المرمطة التي ابتليت بها قد انتهت إلى لا شيء، فعاودني القنوط والكمّد. واستطرد هو قائلاً:

- ليس بك من نقص مطلقاً، وإنّك تستطيع أن

تقوم بالواجبات الزوجية، وستقوم بها يوماً ما فلا تدع لليأس سبيلاً إلى نفسك. كثيراً ما يحدث هذا لبعض الشبان ثمّ لا يلبثون أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية بعد فترات متفاوتة، فانظر يومك بثقة لا شكّ فيها. وأنصحك أن تمرّ عليّ للغسيل حتّى تزول حالة الاحتقان الخفيفة.

أصغيت إليه باهتمام وبكلّ جوارحي، وتنازعني



مخلصة، ولم تعد إلى ذكر أمها، فلم أدر إن كانت المرأة انقطعت عن تساؤلها أم كانت حببتي تخفي عني ما يدور بينها من حديث. لشد ما أحبها يا ربي، إن امتزاجنا في حياة واحدة لم يُذهب عني سحرها، بل أسكنها أعمق مكان في قلبي. وإني لأهيم بها وهي لصقي على المقعد أو الفراش كما كنت أهيم بها وهي تلوح في الشرفة أو وراء زجاج النافذة. وإنه لمن التعاسة حقاً أن ينقص عليّ سوء الحظ تلك الأيام الحافلة بأشهى فرص السعادة والهناء.

وكأن سوء الحظ لم يقنع بما رماني به في نفسي، فرماني بأمني أيضاً. . .

وأمني على تأذّبها لم تكن لتعلج أبداً في مداراة عواطفها، فإن لم يخفها لسانها خانتها عينها، وإن لم تخفها عينها ثمت عليها ما التزمت من حال عريضة سليبة. انطوت على نفسها، وجعلت من حجرتها سجنًا لا تكاد تغادره، وكأنما فرغت للعبادة والصلاة، ولم تخف على رباب هذه الجفوة الطويلة، وكانت على دمايتها ورقتها تنقلب حيال أمني كأية امرأة من النساء انفعالاً وغضباً، فكانت لا تفتأ تقول لي: «لشد ما تكرهني أمك». ولم تقبل أمني أن تغير من سلوكها، معتلة بأنها لم تعد صالحة للمجاملة والاختلاط. وكنت إذا ذهبت للجلوس معها تلتفتني برقة وابتسام، وحذتني بخضوع واستسلام، فسرعان ما أشعر بغربة الجوّ، وبأنّ حجاباً ثقيلاً يقوم بين نفسيها، وبأنّ حيال شخص آخر غير الأم التي عرفتها طوال تلك الأعوام. وما أكاد أفاقمها بأن زوجي تضيق بتحفظها حتى تقول لي بحدة: «إنّ زوجك تكرهني، هذا كلّ ما هنالك». كنت أتجلّد وأتصبر والألم يميّض نفسي والكآبة تغشى روحي. . .

وذهبت مرة إلى أختي راضية لقضاء يومين، وكان المكان أعجبها فمكثت اليوم الثالث وأوشكت أن يلحق بها اليوم الرابع. كان أول أيام نفترقها في حياتنا المشتركة، فثقل على قلبي فراقها، ووجدت وحشة لا تطاق في خلوّ البيت منها، وذهبت إلى شقيقتي لأعود بها فلم تخيب رجائي وعدنا معاً.

اليأس والأمل بعنف وقسوة. متى يأتي هذا اليوم! وهل يأتي حقاً! انتهى الطبيب من عمله وقوله، ولكنني لم أبدأ حراكاً وظللت متشبّثاً بمكاني، وثبتت عيناى عليه في استغائه وضراعة. ثم سألت:

- ماذا عنت بالعيادة النفسية؟

- أوه. . . إنها عيادات من نوع حديث ولا أحسبها توجد في بلادنا. ولكن لا تلق بالآ لما قلت، ولا أظنك في حاجة إليها.

- قلت إنني ربما كنت أعاني أزمة نفسية. فما معنى هذا؟!

- قلت لك لا تلق بالآ لما قلت قد غالبت في تقديري، ولست على أية حال طبيباً نفسياً فلا أخوض بك أموراً عسى أن تضر أكثر ممّا تنفع. إنّ علاجك بيدك فلا تيأس ولا تفقد ثقتك بنفسك واقهر الخوف والقلق، وانتظر الشفاء بثقة لا شك فيها .

وسألته سؤالاً أخيراً:

- أرايك هذا حاسم لا شك فيه؟

فأجابني بثقة:

- أجل. . .

وغادرت العيادة حيرةً ممّا دخلتها. عدت وبى أمل ورجاء. وقلت لنفسي. إنّ الطبيب لا يكذب ولا يخطئ فاستخفني السرور، وقطعت الطريق إلى البيت مشياً على الأقدام. ومررت في طريقي بالعسارة التي تقطنها أسرة زوجي، عبارة الذكريات، فحلّق بي الخيال بعيداً، وعلى حين فجأة فتر حماسي واستحوذ عليّ القلق، ولم ألبث أن انقلبت إلى التجهّم، بيد أنني رحت أردّد على مسمعي ما أكّده لي الطبيب متلمساً الثقة بأيّ سبيل.

وبالرغم من قلبي الدائم كنت أعلّل النفس بالشفاء. وواصلنا حياتنا البريئة محدوني هذا الأمل. وكنت أسترّق إليها النظر إذا اشتدّ بي القلق وأسأل نفسي ترى أهي سعيدة حقاً كما تبدو لي؟ أما تزال تحبني؟ أما هي فكانت تبدو سعيدة راضية، محبة

وقلت لها في الطريق متودّداً:

- لم أحتمل البيت بغير وجودك...

فافتّر ثغرها عن ابتسامة صافية، وكانت تتأثر بالكلمة الطيبة تأثر الأطفال ولكنها قالت لي:

- يحتمل إليّ أنّ وجودي في بيتك لا معنى له، وأنه يضايقكم.

فأحقتي قولها، وقلت باستياء:

- سأمحك الله على ما ترميننا من تهمة باطلة. لقد تغيّرت يا نينة بلا موجب فتغيّرت الحقائق في نظرك، ولا يسعني إلا أن أقول مرّة أخرى سأمحك الله.

فنظرت نحوي بغرابة وقالت بهدوء ويقين:

- إنّ زوجك تكرهني، وبالتالي فهي لا تودّ بقائي في البيت، وقد ظننت أنّ ما تودّه زوجك ينبغي أن تودّه أنت.

وشعرت بأنّها لا تترقّق بي متعمّدة فكاد ينفجر غضبي لولا رغبتي الصادقة في المسالمة والمصالحة فكظمت نفسي وقلت واجهاً:

- إنّ زوجي لا تكرهك، وهي على العكس من هذا تظنّ أنّها موضع كرهك لما تبدين نحوها من تحفّظ وجفاء ومقاطعة. حرام عليك أن تقولي قولاً ينغص علىّ حياتي.

فبدأ على وجهها الارتباك ولم تنبس بكلمة. ربّاه. لشدّ ما تغيّرت!... ألا يمكن أن تمنحني ابتسامتها المشرقة بدلاً من هذه الابتسامة الباهتة؟... ألا تعود إلى فتح صدرها لي في ثقة وطمأنينة؟ ترى هل ينبغي أن أكاشفها بآلامي لتعلم بأنني لم أنزوّج في الواقع وأنني أشقى إنسان في الوجود فتصفح عني وتعود إلى سابق عهدها؟...

ورجعت من الوزارة يومًا فوجدت زوجي باكية، فهالني الأمر، وأقبلت نحوها في جزع وألم وانزعاج. وكانت صباح حاضرة فأخبرتني أنّها - صباح - كانت تباشر عملها في المطبخ حين دخلت عليها أمي وجرحتها بانتقاد مرّ، فتدخلت زوجي لتصلح الأمر فما كان من أمي إلا أن رمته بكلام قارص غادرت المكان على أثره باكية...

وذهبت من فوري إلى حجرة أمي ثائر الأعصاب، فما روعني إلا أن أجدها محمّرة العينين من البكاء. ولمحت عبوس وجهي فهتفت في توجّع:

- هل أرسلتكَ لتؤدّبني!

فرفعت رأسي إلى السماء وقلت من الأعماق: «يا ربّ الساء خلّذي وأرحني من الدنيا ومَن عليها».

ولكنّها صاحت بي:

- بل يأخذني أنا، إنّ عحوز لا خير فيها. أما كان يحمل بزورك أن تؤجّل شكواها حتّى تخلع ثيابك وتأكّل لقمتك؟... ولكن هيهات أن تدعن لغير عنادها وتجبرها...

فقلت في استياء وغضب:

- إنّها تبكي بكاء مرًّا...

فصاحت بي وكأنّها فقدت أعصابها:

- لقد سبّتي وشتمتني حتّى شبعْتُ، وهما هي تستقبلك بدموعها الكاذبة لتوغر صدرك وقد أفلحت...

ما أضيع الحقّ بين النساء! لقد أعياني الكلام والنضال ولم أنته إلى شيء. وأعجزني أن أصلح بينهما فنكد عيشنا طويلاً وساد البيت جوّ خصام. وكففت يدي يائساً تاركاً للأيام أن توفّق بأناتها فيما أخفقت فيه.

\*\*\*

وبدأت أشعر في حياتي الزوجيّة بفراغ! ولم يداخطني شكّ في أنّ زوجتي تشاركني هذا الشعور. ولم يعد الليل وحده الذي يثقل على أعصابنا، فما كان انفرادنا الطويل نهائياً ممّا يمكن أن نطيقه على وتيرة واحدة إلى الأبد. لذلك اقترحت عليها أن نقتل الوقت بأسباب التسلية حتّى يحين موعد افتتاح الدراسة ونجد ما يشغلها. وتقبّلت اقتراحي بسرور ودعّني لزيارة آلهما الكثيرين، فتتقلنا من بيت لبيت وزارونا بدورهم، ثمّ اقترحت على أن نذهب إلى السينما يومين في الأسبوع فقبلت، ولا أدري إن كنت أروم التسلية حقاً أم أهرب من حياتي الضائعة! ووجدت في السينما راحة وإن كنت بطبعي أؤثر الوحدة والعزلة، ولكنّي ضقت

القلب، ونصحها باتباع إرشاداته دوماً لتتفادى من النوبات في المستقبل.

وطال رقادها بالرغم من أن الطبيب أكد لنا عدم خطورة الحال، ولكن بدا لي أنها تعين المرض على نفسها، وأن روحها توشك أن تنهار. ووقع في نفسي أنني المسئول عن مرضها فعانيت مرارة التأنيب والندم في حزن وصمت، وكأنما أردت أن أكفر عن ذنبي فسهرت بنفسي على رعايتها وتعاهدتها بالخدمة والدواء، ولم تأل رباب في القيام بواجبها. لقد ألتني حقاً ولكن عن حسن نية، أما أنا فقد ألتها عامداً تحت تأثير غضب مخيف. ومرّت بي أيام قاسية مظلمة، كنت أرنو إلى وجهها الذابل الشاحب بفؤاد كبير، وراحتها بين يديّ، ولساني يلهج بالدعاء. وكانت متعبة خابية، ولكن قرأت في عينيها نظرة راضية سعيدة، كأنما نسيت بعطفي وحبي جميع آلامها.

#### ٤٦

وهلّ الخريف بجوّه اللطيف وسحابه الرقيق، واستقبلت المدارس عاماً جديداً، وكنت وزوجي نخرج معاً في الصباح، ونستقلّ تراماً واحداً. وكانت الذكريات تنثال على قلبي في وجد وحزن، حتى قلت مرة:

- في مثل هذه الأيام كنت أهرع إلى المحطة أكاد أموت شوقاً إلى اجتلاء محياك...

فابتسمت رقيقة وقالت:

- وكنت أنتظر بمثل هذا الشوق...

الله محبوبتي!... ما وجدت مثلها محبة راضية مسرورة.

كانت حبيبتي سعيدة مغلصة في غير ما تكلف أو رياء. أكانت تجد آلاماً ثم تتغلب عليها بما طُبعت عليه من مودة وطهر؟ ومن أدراني بما كان يعتلج في أعماق صدرها؟ وما كان يدور في خاطرها عني وعن حياتها؟ ولكنها كانت سعيدة صادقة محبة وهل من داع يدعوها إلى ذاك التظاهر المتواصل بالسعادة إذا كانت تعيش أو كارهة؟! بيد أنه لم يداخلي شك كذلك في نضج

على عجل بالزيارات التي أفقد فيها نفسي وأقع فريسة للحياء والارتباك والعني والحصر، وما لبثت أن تخلفت عنها تاركاً زوجي وحدها تقوم بها.

وكان بوسعي أن أحملها على العدول عنها أسوة بي، ولكنني لم أرد أن أحرّمها سبباً من أسباب التسلية وتزجية الفراغ، ولعلني بتّ أخاف في أعماقي أن تضيق بالوقت كما أضيق به. كنت أودّ بكلّ قلبي أن أهنيّ لها جميع أسباب الراحة والسرور، وما كنت أتردد لحظة عن بذل جميع ما أملك في سبيل مرضاتها، لقد صارت رباب كلّ شيء، ولم أعد شيئاً مذكوراً. ولكن بدا لي أنّ أمي لا ترتاح لحياتنا هذه. وقد قالت لي يوماً:

- لا يجمل بك أن تسمح لزوجك بقضاء كلّ هذا الوقت خارج البيت...

وضاق صدري بملاحظاتها فقلت باقتضاب:

- أنسيت أنّ زوجي موظّف؟

فقالته بلهجتها الانتقادية:

- وإن كانت...

وأشفقت من أن يتأذى بنا الجدل إلى ما لا تُحمد عقباه فقلت ببراء:

- انسيها يا أمّاه تسترحي وترجي!

فغلبها الانفعال وقالت:

- لو كنت لسان دفاع لي كما أنت لها لما احتقرتني وسبّتني...

ولذت بالصمت لعلها تمسك، ولكنّها استطردت تقول:

- إنّها تنيه بلا موجب، فكيف لو كانت أمّاً!!

فقاطعتها صائحاً كالوحش وقد هوى كلامها على رأسي كالطرقة:

- اسكتي... لا تنسي بكلمة أخرى.

وحددتني بارتياح دون أن تنبس، ثمّ أطرقت. ولكنني لم أرث لها ولم أرحها إذ أفقدني الغضب والالم وعيي.

وحدث عقب ذلك بأيام أن شعرت بتعب ألزمها الفراش، وقال لنا الطبيب الذي استدعيته إنه

راح يدق بعنف تباعاً. تملكني الهلع وخجل قاتل،  
وثقل على صدري ضيق غليظ كأنما هويت إلى أعماق  
بئر سحيقة. وإذا بنازلي هانم تقدمني له، ثم تقدمه لي  
قائلة:

- هذا قريب لم تسعدنا الظروف بتقديمه إليك، لأنه  
عاد من أوروبا حديثاً، ولأنه يندر أن يتفضل علينا  
بزيارة: الدكتور أمين رضا ابن عمّي.

وتصافحنا كاللؤلؤ. التقت عينانا لحظة قصيرة،  
فلم أقرأ في عينيه إلا نظرة ترحيب باسمة، لم تش.  
عيناه بأنه تذكرني، وظل ملازماً سمة المترقع المتحصن  
ضد الانفجالات. ولما انتهى من مصافحة الجالسين،  
جلس إلى جوار جبر بك وراحا يتحدثان، وتحت أنا في  
أفكاري الفزعة الشاردة، ترى هل تذكرني!... لعله  
نسيني شأن الأطباء الذين يلقون وجوهاً بعدد  
الدقائق!... ولكنه طبيب جديد قليل الرواد!...  
ومسح ذلك فلم يسد في عينيه أنه عرفني على  
الإطلاق!... أم يكون عرفني وتجاهلني رافة بي!...  
ليتني أجد وسيلة للتحقق من هذه النقطة! وهبه  
عرفني فهل يمكن أن يبوح بسرّي لقريبته نازلي  
هانم!... ما أبعد هذا عن التصور، ولكن ما أبعدي  
عن الطمأنينة كذلك! وجدتي عريقاً في بحر لحي من  
السواسوس والمخاوف فهل كنت في حاجة إلى  
مزيد!...

ودعينا إلى الطعام فخرجت من أفكاري وإن علفت  
بي آثارها، كالخارج من نار. وجلسنا حول المائدة،  
وعند ذلك التفتت نازلي هانم وقالت مبتسمة:  
- أنت حجول يا سي كامل ولكن حذار فالولائم لا  
ترحم الخجولين.

وعلى بعضهم على قولها فسخطت عليها واشتد بي  
الضيق، على أنهم لم يلبثوا أن شغلوا عني بما بين  
أيديهم من لذيق المأكّل. ولم أكد أشعر بالارتباك الذي  
يركبن في أمثال هذه المجتمعات لشرد ذهني فيما هو  
أجل وأخطر، فلا يفل الارتباك إلا الارتباك! ثم عدنا  
إلى حجرة الاستقبال ودارت علينا القهوة. وتناولت  
الفنجان، وقربته إلى فمي، وعلى حين بغة طار خيالي

أنوثتها وعمق عواطفها. كانت أبعد ما تكون عن  
النزق والطيّش، ولكنها كانت عامرة القلب بالحيوية  
والحرارة والعطف. لعلها كانت تحيا حياة يحدوها الأمل  
نفسه الذي أتطلع إليه صابراً متصبّراً. على أن الحق  
الذي لا مِرّة فيه أنني كنت مشغولاً بهومي على حال لم  
تدع لي إلا قليلاً للانشغال بهوم غيري. ربما رجع  
ذلك قبل كلّ شيء إلى أنايتي الفطرية، وكان الجهلي  
كذلك نصيبه. ولعلّي كنت أحسب أنني الضحية  
الأولى - إن لم تكن الوحيدة - في تلك المأساة.

وفي أوائل ذلك الحريف دعانا جبر بك ونازلي هانم  
إلى وليمة غداء أقامها للأهل والأقارب لمناسبة شفاء  
محمد - شقيق زوجي - من مرض ألم به.

وذهبت وزوجي على حين تحلّفت أمي معندرة  
بالنظام الجديد الذي تتبعه في غذائها منذ أشار عليها  
الطبيب بذلك. مضيت مرتبكا كالعادة، لأنّ وليمة  
غداء أشد على نفسي من المرض، ولأنها - هي وأمثالها  
من المجتمعات - تعيد إلى ذهني ذكرى منصّة الخطابة  
بكلية الحقوق. وقد عمدت أن نذهب ميكرين لنسبق  
المدعوين جميعاً فلا أتعرض لنظرات أعينهم حين  
دخولي حجرة الاستقبال. ونجحت خطتي فوجدنا  
البيت قاصراً على أهله. هم أهلي أيضاً، وإني لأحبهم  
جميعاً وإن بت أخاف نازلي هانم خوفاً شديداً يثير في  
نفسي أشدّ الألم. وأخذ المدعوون يتوافدون. فجاء  
أعمام رباب الثلاثة وأخوالها الأربعة مصحوبين  
بزوجاتهم وأبنائهم وحضرت كذلك خالتها، واحدة  
مصطحبة زوجها، والأخرى - وهي أرملة - برفقة  
كبرى بناتها. ومضت نازلي هانم لتستقبل قادمًا جديداً  
فسمعتها تقول له: «لماذا تأخرت يا سي أمين؟» فردّ  
القادم عليها معذراً بصوت خيل إليّ أنّي سمعته قبل  
ذلك، فتطلّعت إلى الباب باهتمام... ودخل المدعو  
الجديد فعرفته من أول نظرة. رأيت أمامي ذلك  
الدكتور الذي زرت منذ شهرين وبعث له بسرّ شقائي  
كله، ثبتت عيناى عليه في ارتياح بادئ الأمر، ثم  
تمالكت نفسي بسرعة وقوة، وإني على إخفاء ما يعتلج  
بصدري لقادر، ولكّني لم أجد حيلة مع قلبي الذي

- إنك مغرم بتحميل نفسك المصير على اختلافها  
كأنك المسئول عن الدنيا ومن عليها. ركز اهتمامك في  
عياتك وحياتك ومسألة زواجك على وجه الخصوص،  
ألا ترى أنك في الثلاثين وهي سن فاصلة؟!  
وهنا قالت لإحدى خالتي رباب:  
- اطمئني يا אחتي فلعلك أن تسمعي أخبارًا سارة  
قبل استدارة هذا العام.

ودار الحديث حول كريمة أحد كبار الأطباء...  
وقالت لي رباب همسًا - وكانت تجلس إلى جانبي - إن  
هذه الفتاة التي يتحدثون عنها حسناء مفرطة في الحسن  
والورثة المنتظرة لثروة طائلة، وإنها زاملتها عهدًا في  
الدراسة. والظاهر أن أحد أحوال رباب كان ممن  
تجذبهم أحاديث السياسة، فما كاد حديث الزواج  
يتمهي حتى قال مخاطبًا الدكتور:

- لا داعي للتشاؤم فكل شيء مصيره إلى الصلاح  
وإن طال الزمن. وما نحن على أبواب انتخابات  
جديدة، ولعل الرياح أن تهب هوائًا ورخاء.

فاشتدت عينا الدكتور وقال بحدّة:

- من الخير لهذا البلد أن تحكمه حكومة فاسدة،  
ذلك أن الحكومة الصالحة لا تستطيع أن تفعل شيئًا ذا  
بال في حدود الأوضاع القائمة، فالخير أن تستبدّ  
الحكومة الفاسدة حتى تعجل بالنهاية... النهاية  
المحتومة!

فضحك جبر بك وقال:

- ما زلت ساخطًا متبرمًا. ألا تجد في مصر ما  
يستحق إعجابك وتقديرك؟  
فأدار الدكتور عينيه البرّاقين في الحاضرين وقال  
مبتسمًا:

- بلى... أم كلثوم...

وضجوا جميعًا بالضحك. وجعلت أصغي إليه  
باهتمام واستغراب، ولكنني لم أكد أفقه معنى لما يقول.  
وعجبت لمن يشغلون أنفسهم بهذه الأمور وأمثالها،  
أليس في حياتهم هموم تشغلهم عنها؟ وتثقل لي في  
حديثه رجل عليم ورأي وثورة، بادي الغرور  
والعجرفة. وكم كانت دهشتي كبيرة حين ذكر أم كلثوم

إلى الحانة القديمة بشوارع الألفي وتراءى لعيني قدح  
الخمرا... كيف جاءتني هذه الذكرى، ما الباعث  
عليها؟... لقد وجدت دهشة صادقة، ولكنني شعرت  
كذلك بارتياح عجيب، كسرور الحبيب بالحبيب،  
الخمرا... النشوة... السرور... ألا ما أشد حاجتي  
إلى مهرّب. كان خاطرًا مفاجئًا غريبًا ولكنّه كان قويًا  
لا يقاوم... وعدت بانتهائي إلى ما حولي في حذر  
 وخوف. واتجهت عينا إلى الطبيب فوجدته منهمكًا في  
الحديث، يلقي أقواله بثقة وفصاحة وترفع، وكثيرًا من  
الحاضرين يتوثّبون للنقاش في اهتمام وسرور. وجزّ  
الحديث إلى الحياة في بلاد الإنجليز فقال الدكتور: إن  
دراسته شغلت جلّ وقته فلم يتمتّع بحياته هناك  
كسائح إلا فيما ندر، على أنه استطاع رغم ذلك أن  
يخبر عن كتب متانة الأسس التي ينهض عليها بنيان  
الحياة السياسيّة، وما يتمتّع به الشعب من مستوى  
عالٍ للمعيشة، وحرية شاملة تتناول كلّ شيء، قال له  
جبر بك:

- كأنك واطيت في إنجلترا على الاهتمام بما كنت  
تهتم به في مصر قبل بعثتك.

وقال أحد المدعوين ضاحكًا:

- أجل يا جبر بك، ذكره بعهد كلية الطب والثورة  
الوطنية.

وقال آخر:

- من كان يظن أنه سينتهي بك المطاف إلى بلاد  
العدو وأنتك ستعود منها حاملًا له هذا الإعجاب كله؟  
فقال الدكتور مبتسمًا:

- العداوة لا تُناقض الإعجاب...

فعاد جبر بك يسأله:

- ألم تزل كما كنت، وفديًا متطرّفًا؟... لقد  
سُجنت يومًا بسبب الوفد!

فقال الشاب وقد مَطّ بوزه برمًا:

- أرى الآن المصريين جميعًا يعيشون في سجن كبير،  
والحق يا سيدي أن الأخبار الوحيدة التي كانت تسوئنا  
ونحن في إنجلترا هي أخبار مصر...

وقالت نازلي هانم مبتسمة:

كالشيء الوحيد الذي يستحق إعجابه في البلد، وتساءلت في حيرة: أيعشق الغناء حقاً مَنْ كان ذا جَدٍّ وصرامة وحِدَّة كهذا الدكتور المجنون؟! ولَمَّا كنت أحبَّ الغناء فقد ارتحت لهذه المشاركة الوجدانية، بعد أن أعياني أن أجد صلة شَبَه بيني وبينه! وكان الدكتور أوَّل المنصرفين، فقام الحاضرون جميعاً لمصافحته، وصافحته بدوري وأنا أنفَعَص عيني به خوف واهتمام فلم أجد فيما وراء نظراتها المترقِّعة ما يرييني. ثمَّ غادرنا نحن البيت في نحو الخامسة. عدنا مشياً على الأقدام ولم تكفَّ حبيبي عن التعليق على المأدبة والمدعوين طوال الطريق ولكنِّي لم أستطع أن ألقى إليها انتباهي، واستسلمت لتيار أفكار الزاخر المضطرب، كيف ألقى الحظَّ العائر في طريقي بهذا الدكتور المجنون؟ وكيف قادني القدر إلى الاعتراف له بسرِّي الذي أخاف عليه آذان الحيطان!

## ٤٧

أوصلت رباب إلى باب العمارة ثمَّ عدت أدراجي إلى المحطَّة معتذراً لبعض أعمال خياليَّة! استقلت الترام إلى العتبة، ثمَّ مضيت إلى شارع الألفي بك. كان قلبي يخفق في خوف ووهبة كما خفق أوَّل مرَّة حملتني قدماي إلى هذا الشارع، وتراءى لعيي خيال الكأس مفترَّة الثغر عن إغراء عنيف. كنت نسيته فلم تخطر لي على بال منذ بلغ قلبي مناه حتَّى رأيتها اليوم في فنجان القهوة فحرَّك أعماق الفؤاد. أمي + زوجي + الدكتور أمين رضا = الخمر، هذه هي المعادلة التي استقرَّت في نفسي. على أنَّني ترددت حين أصبحت من حانتي القديمة على قيد خطوة، وتساءلت في حزن وقلق ألا يُعدَّ إقدامي هذا خيانة لزوجي؟. ولكنِّي أنكرت على نفسي هذا المنطق الغريب وشققت طريقي إلى الداخل. وتراءى لي فجأة خيال أبي، واثالث على ذهني صور من ذكرياته، فاستعرضتها في هدوء، وفي غير ما شِئانة أو كراهية، ثمَّ جلست إلى المائدة وأنا أغغم، «رحمه الله وغفر له».

وجاء النادل مسرعاً فحيَّاني وهو يقول لي:

- أين كنت من زمان؟  
فأجبت مبتسماً وقد سررت لتحيَّته:

- الدنيا...

ثمَّ أريته خاتم الزواج فقال:

- مبارك... مبارك... وهل أنجبت طفلاً؟

وشعرت بامتعاض وألم، وهزرت رأسي سلْباً، ثمَّ طلبت كأساً من الكونياك وشربت في اعتدال، حتَّى شعرت بدبيب النشوة في القلب والرأس، وارتسمت على فمي ابتسامة سخرت من جميع الآمي فقلت لنفسي: «أهلاً وسهلاً ومرحباً»، وحرصت على ألاَّ أجاوز الحدَّ، ثمَّ غادرت الحانة زهاء السابعة، ولم أكد أنتهي إلى شارع عماد الدين حتَّى تذكَّرت حانة سوق الخضرا! وكان رأسي بحالة تستهين بالعقبات فتساءلت في شبه تأنيب: أأنسى في رغدي الحانة التي آوتني في فقري؟ وأوقفت تاكسي وركبته وانطلق بي إلى حانة الموظَّفين المفلسين والحوذية. ووجدتها في حالة غناء وعريضة كما توقَّعت. وكان الموظَّف العجوز يغني «يا ما بكره نعرف» فيردِّد الجميع «وبعده نشوف»، ولَمَّا لمحني قادماً توقَّف عن الغناء وصاح:

- هس يا أولاد الحلال.

وعرفني الرفاق القداماء فتصافحنا في حرارة، وما كدت أطمش إلى مقعدي حتَّى سألني العجوز متغنياً:

- كنت فين يا حلو غايب؟

فقهقهت ضاحكاً وقلت:

- الدنيا...

فقال أحد الصحاب:

- فلنلعن الدنيا التي ترغم الحبيب على نسيان أحبابه...

فلعنَّها معهم عن طيب خاطر. وحدث أن رأى أحدهم خاتم الزواج في إصبعي فهتف:

- دخلت دنيا يا بطة...

وكان لإعلان الخبر أثر شامل فسألني الموظَّف الفنَّان:

- كيف وجدت هذه الدنيا؟...

وأفزعني تحوُّل الحديث إلى هذا الموضوع الخطير،

النور وغمغمت «مَن؟» ثم واصلت نومها دون أن تستيقظ، وخلعت ملابسها في عجلة واضطراب ويديا ترتعشان، وأنفاسي تتردد في دهشة وسرور وجزع، وهرعت إلى الفراش، وانندسست تحت الغطاء، ضممتها إلى صدري ووضعت شفتي على شفتيها حتى فتحت عينيها، وأمطرتها قبلاً بنهم ورغبة وسرور حتى أفاق وبادلتي القبل، وبدا ما بيننا كأنه حلم سعيد يضمن به المنام، حلم لا يصدق بيد أنه كان حلاً قصيراً لم يستغرق ثانيتين من الدقيقة. وأفتت من سحره في طمأنينة وسلام، وبى من السعادة نشوة أضعاف ما بى من الخمر، واضطجعت في حبور، وأغمضت جفني مستسلماً لأمتع الخواطر والأحلام. على أن أحلامي لم تنسج وشيها هذه المرة من مادة الخيال، ولكنها استمدته من الواقع، من صميم حياتي، وألذ العيش ما كان حلمه السعيد صدى للواقع الراهن! لا تلقيت السعادة بامتنان العابد، وأيقنت أن همومي انجلت إلى الأبد. وفي صباح اليوم التالي جعلت أرر إلى حبيتي بثقة وسرور، وشعرت حقاً بأني زوج، وبأني رجل... ولم تزايلني أحاسيس السعادة والفخار طوال اليوم، وعندما أتى المساء ذهبت إلى شارع الألفي بك، ثم عدت إلى حبيتي طائراً على جناحي نشوتي، وعللت من الكأس المترعة، بالسرور نفسه والسرعة نفسها، ثم اضطجعت ضجعة المطمئن، ما كان لثلي أن ينسى ما تجرّع من غصص العذاب، ولكن السعادة الحقة تستثير عطفنا حتى على ذكريات العذاب.

#### ٤٨

وتقضت أسابيع - لعلها لم تجاوز الشهرين - في سعادة وطمأنينة. وإني إذ أعود إلى ذكرى تلك الأيام يمضي شعور بالألم والأسى، لا حسرة على سعادة ذهبت، ولكن أسفاً على أكبر خدعة ابتليت بها في حياتي. لم يكن هنالك ما يستوجب سعادة على الإطلاق. وإذا كنت قد تمتعت بالسعادة زمناً رغداً، فما ذلك إلا لأنني كنت غراً جاهلاً أعمى. وما من بأس أن يتمتع الأعمى بسعادة وهمية على شرط أن يواصل

ولكني لم أجد بداً من أن أقول:

- حلوة!... أأست متزوجاً يا سيدي؟

فضحك الرجل حتى بانث أسنانه المزمرة وقال:

- المرأة إذا تجاوزت الشباب لم تعد امرأة... .

فقال آخر مؤمناً على قوله:

- صدقت. المرأة أقصر المخلوقات عمراً وإن هرمت.

وقال غيره:

- إن زوجي تدبر لي شجاراً نظير كل سهرة في الحانة، وقد قلت لها: إني على أهبة الاستعداد لأن أهجر الحانة تحت شرط واحد وهو أن تهجر هي الدنيا!!

وبدوا جميعاً ساخطين على حياتهم فداخلي عزاء لم أجده من قبل، وعجبت لهذه الأسباب الغريبة التي تؤاخي بين السكرين. ثم لاحظت تغيب «فران» شريب اشتهر بيننا بإدمانه وصمته. فسألت عنه؟ فأجابني العجوز الفنان:

- لم تعد الخمر لتؤثر فيه، فهو يمضي مساء كل يوم إلى البذال ويشرب كحولاً صرفاً...

وواصلوا ما انقطع من الغناء، ورحلت أشرب كالأيام الماضية. ما أعجب قدرتي على الشرب! إني ضعيف رعديد حيال كل أمر، ولا ثقة لي في عقلي ولا في قلبي. أما معدتي فقادرة على ابتلاع حانة! وغادرت الحانة في العاشرة مودعاً بأطيب التحيات، وتنقلت من طريق لطريق لا تسعني الأرض من فرط النشوة والسلطنة، ثم هفا علي طيف حبيتي فتخيلتها بعين السكران: وقد طال بها انتظاري فاستسلمت للرقاد، فانتشت نشوتي، وخفق فؤادي خفقان الوله، وهتفت بنفسي الأشواق، وبحثت عيناى الزائغتان عن تاكسي ثم مضيت إليه لا ألوي على شيء وطلبت إلى السائق أن يسرع بأقصى ما لديه من سرعة، فطار بي يطوي الأرض طياً، وغادرته عند العمارة، وارتقيت السلم في عجلة، ثم دخلت الشقة وسرت إلى حجرتي بلا تردد، وأدرت مفتاح الكهرباء فوق بصري على حبيتي وقد استغرقت في نوم هادئ. وقد تحرك رأسها لدى سطوع

سعدتُ به! أعجبُ بها من حقيقة تحيّرني، ولكن إلامَ أكذب نفسي! إنَّها تبدو كأنَّها تخاف الليل وتتحمّاه، ولا نكاد نخلو إلى نفسينا حتّى يعثورها قلق تفصحها عنها الصافيتان، ثمّ تفتأ - في هذه الأيام الأخيرة خاصّة - تعتذر بشئ الأعدار، فمن تعب إلى توعك إلى رغبة ملحة في النوم. وإذا أذعنت لي فلنأخذن في تسليم لا سرور فيه، ثمّ تنتثر جسمها من جسمي في شبه استياء وغضب! وأقرّ إلى هذا كلّها بأنَّها لم تعد فتاتي الضاحكة المستبشرة الصافية. شابّ ضحكها التكلّف، ودبّ في سعادتها الفتور، وانقلب ودها تودّداً. حاشاي أن أقول إنَّها أعلنت سخطاً أو أساءت أدباً، حبيبي فوق هذا كلّها، ولكنني أحسّ قلقها بقلبي، وأدرك حيرتها بغريزي. ربّاه إنَّ الدنيا جميعاً لا تساوي خردلة إذا تألّت حبيبي؟ فماذا بها؟... إنّي أفتقد حبيبي فلا أجدها، ولا بدّ أن أجدها، أو أموت كمداً...

وبلغ شقائي غايته إذ ترك نفورها في نفسي أثراً عميقاً، تغلغل في حناياها، فحرّك الداء القديم، وولّى الشفاء الساحر، ولم تنفع فيه الخمر. وتناهى بي الحزن حتّى أشفيت على الجنون. أيعاودني العجز؟ وهل أرزّ إلى ذلك اليأس المميت؟. وقلت لها مرّة في قنوط:  
- رباب... ماذا بك؟... لست الحبيبة التي عهدتها.

فلاذت بالصمت، وغضّت بصرها حيرة وارتباكاً، فقلت بتصرّع متسائلاً:

- إنّ قلبي لا يكذبني فخبّرني ماذا غيرك؟  
فهمست قائلة وقد لاحت في عينيها نظرة ساهمة:  
- لا شيء...

فهتفت من الأعماق:

- بل شيء وأشياء، إنّي زوجك يا رباب وحياتي كلّها لك، فلا تخفي عني شيئاً. أه يا رباب إنّي أبكي أيّامنا الماضية.

فتنهّدت ولاح في وجهها الارتباك والألم، ثمّ غمغمت في حذر وإشفاق:

- وإنّي أبكي أيّامنا أيضاً...

عماه، أمّا إذا رُدّ إليه البصر ورأى سعادته سراباً فهل يجني من ذكريات سعادته إلّا حسرة مضاعفة وهماً مقيماً؟ وهذه هي حالي بلا زيادة ولا نقصان، وما فطنت إليها إلّا في ببطء شديد يوافق جهلي وبلادي.

لاحظت أنّ «رباب» تمضي النهار كلّها وشطراً من الليل خارج البيت، بين مدرستها وبيوت أهلها وأقاربها، وقد رافقتها بادئ الأمر رغم طبعي النفور، ثمّ شقّ عليّ الأمر فنكصت على عقبي، ولم أعد أصحبها إلّا فيما ندر من الزيارات. وعادت أمّي تعلن عن ملاحظاتها في مرارة وأسى وأنا أدافع عن زوجي بلا فتور وإن تجاوب لانتقاداتها في نفسي صدق عميق، وكنت فيما مضى أشجّع زوجي على هذه الزيارات لتتسلّى بها عمّا أشعر به من نقص حياتنا المشتركة، أمّا الآن فلم يعد من موجب في نظري للإفراط فيها. ولملت أطراف شجاعتي يوماً وقلت لها:

- كأنك تقاطعين بيتنا يا عزيزتي، فهلّا أقللت من هذه الزيارات المتواصلة؟

وحدجتي بنظرة مريبة وسألني بحدة لم أعهد لها من قبل:

- أما زالت تشغل نفسها بانتقادي؟  
وفهمت أنّها تعني أمّي، وسأني أن تضمّر لها هذا النفور، فأجبتها متلفّفاً:  
- إنّ أمّي لا تتدخل فيما لا يعنينا. وهذا رجائي أنا دون غيري، والحقّ أنّي لا أطيق بيتنا إذا كنت خارجة...

فقالَت وقد استردّت هدوءها: هلمّ نخرج معاً. لماذا تضيق بالناس؟...

فقلت برقة: هكذا أنا...

ولا أدري ماذا غيرها أثر كلمتي تلك فقالَت بحدة:

- إنّ الحياة لا تُحتمل على غير هذا الوجه.

أه يا حبيبي، لم تكن رقتك لتسمح بمثل هذا الضيق، فما الذي حدث؟ وليس هذا كلّ ما في الأمر، فإنّ قلبي أحياناً يرى ما لا تراه عيناى. ينبغي أن أشقّ ستار العمى وأن ألقى الحقيقة على مرارتها وجهها لوجه... يخيّل إليّ أنّ «رباب» لم تسعد بشقائي كما



لا أدري لماذا آلتني رقتها. ثم تذكرت بعض ما سمعت في إدارة المخازن فقلت:

- ولكن لا يمكن أن تتم سعادة المرأة إلا بهذا...

فتورد وجهها وقالت بسرعة ويقين:

- كلاً... كلاً... أنت غطيت في هذا.

ورنوت إليها في حيرة! ترى حقاً تصدقي القول؟ ولكن ما عسى أن يحملها على الكذب؟! لم أكن إلا غرماً جاهلاً، ولن تجد كالغمر الجاهل صيداً سهلاً للهجة التأكيد، فأثر في قولها تأثيراً عميقاً...

هل أكذب حبيبي وأصدق سخفاء الموظفين؟! ألم يعبر قولها هذا عن رأي قديم اعتنفته قبل أن يحولني عنه مجون الزملاء بإدارة المخازن؟... وفضلاً عن هذا وذاك فليس بوسعي وصالحا بعد أن باحت، وبعد أن عاودني من العجز ما عاودني، لذلك كله تظاهرت بالارتياح، واصطنعت ابتسامة. ثم قلت بتسليم:

- ليس لي وراء سعادتك مطلب يا رباب!

وسرّي عنها، ولاح في عينيها نظرة ارتياح، وتدانت مني حتى التصقت بي وقبّلتي!

عدنا كما كنا. عدت زوجاً عذرياً ذا عادة ذميمة، ورحت أقول لنفسي: إنه لا ذنب لي فيما انتهينا إليه. إني رجل كامل ولولا طبعها هي ما انتابتني هذه النكسة! بل إني أتحمل هذه الحياة الغريبة إكراماً لها! يا له من عزاء كنت في ميسيس الحاجة إليه! ولكن هل حقاً صدقت نفسي؟! ومهما يكن من أمر فإن ذكرى عهد السعادة لم تغب عن ذهني لحظة واحدة، كيف انقضى ذاك العهد بتلك السرعة التي لم أتوقعها؟ وكيف أذي حبيبي حتى خرجت عن صمتها بهذه الشكوى السافرة؟ أليس معنى هذا أنني شقي ولا حيلة لي في شقائي؟ آه... لشدة ما نازعتني النفس إلى الحرّة والفرار! وعادوني ذكريات تشردي في الطرق بحنان ولهفة...

هل عاد كل شيء إلى أصله؟! وما زال الحب يجمعنا في عناق وعطف، وعادت حبيبي إلى مرحها وحبورها وهي تقضي يومها ما بين مدرستها وبيوت الأهل والأقارب، وبحسبي أن أراها

فتولاني الدهول والانزعاج وسألتها في حيرة شديدة:

- كيف يا رباب؟... إني لا أفهم شيئاً. أما كان ينبغي لحياتنا أن تكون أوفر سعادة!

ثم وجهها على أنها تعاني من ضروب الحيرة مثلما أعاني، فازددت ذهولاً وانزعاجاً وانتظرت أن تميط اللثام عما يحيرها فتجلو لي ما يحيرني بالتالي. وانتظرت في قلق وإن بات قلبي يحدس أموراً يفرق لها رعباً ويأساً وخزياً. ولما طال بي الانتظار قلت:

- لماذا لا تكاشفيني بذات نفسك!

إنها ترغب في البوح بما ينوء به صدرها الرقيق ولكنها لا تجد سبيلاً إلى الإفصاح أو لا تواتيها الشجاعة عليه، وإني أزداد خوفاً وقنوطاً حتى تنهى بي الجزع فقلت:

- رباب... إنك لا تتراحين لما جد في حياتنا!

فحدجتنني بنظرة غريبة، ثم خفضت بصرها وراحت تقضم ظفرها في حيرة وارتباك. برح الحفاء. بيد أن صمتها أخذ يضايقي فتساءلت فيما يشبه الصجر:

- أليس الأمر كذلك؟

ورنت إليّ بنظرة توسّل واستعطاف وقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

- لنعد كما كنا؟... كانت حياة طيبة!

وكأنّ لطمة هوت على وجهي فغضضت عينيّ حياءً وقنوطاً. ومع أن رغبتها هذه حقيقة بأن تهني لي عذراً أداري به ما عاودني من عجز إلا أنني تلقّيتها بخزي مميت. ولعلّها قرأت ما لاح في وجهي من أمارات الألم فقالت برقة:

- لست أعني شيئاً يمكن أن يكدرك، ولكنّي أهفو

لحياتنا الماضية. كانت حياة طاهرة سعيدة!

فقلت كأنني أكمل حديثها:

- ولم يكن بها ما ينقص صفوك؟

فطرفت عيناها، وتجلّت فيها نظرة عطف وقالت برقة:

- كنا سعداء أليس كذلك؟... ولم يكن ينقصنا

شيء على الإطلاق...

نهضت مستأذناً وغادرت الحجرة. ولاحت مني التفاتة إلى حجرتنا - وكان بابها مفتوحاً كما تركته - فرأيت رباب جالسة على حافة الفراش تقرأ خطاباً. وأدركت لتوي أنّ ساعي البريد جاء به حين كنت منفرداً بأمي وإلا لعلمت به وقت وصوله، وظننته مرسلًا إليّ من أخي لأنّ رباب لم تكن تتلقّى خطابات، فعدت إلى حجرتي مستطعلاً، وشارفت بابها ورباب مغرقة في القراءة لم تنتبه لي حتى قلت لها:

- أهذا الخطاب لي؟

ورفعت رأسها نحوي في دهشة، وطوت يدها الخطاب بحركة آلية سريعة، وسألني في اضطراب ظاهر:

- هل نسيت شيئاً؟

فقلت وقد تولّاني قلق لا أدره:

- كنت في حجرة أُمّي، ورأيتك عند مغادرتي لها تقرئين هذا الخطاب فظننته لي.

فنهضت من مجلسها وتراجعت صوب التواليت، وكانت بلا ريب تحاول أن تضبط عواطفها، ولكنّ عينيها وشتا بما تركه حضوري المفاجئ في نفسها من وقع عميق لم تتوقّعه، وقالت وقد نذت عنها ضحكة مقتضبة جافّة لم تجد في مداراة اضطرابها:

- ليس خطاباً كما تظنّ، إن هي إلا ورقة سجّلت

بها بعض ملاحظات تعلّق بعمل المدرسي...

وداخلني خوف غمّي في مفاصلي. لعلّها لم تجاوز الصدق ولكنّ عدوى اضطرابها انتقلت إلى نفسي فشعرت بذاك الخوف الغريب، كأنه نذير شرّ مجهول يتجمّع في أفقي المكفهر. ما الذي يدعوها إلى الكذب؟ ولكنّي رأيت في يدها خطاباً بلا ريب! وقد خفت أن أتمادى في إظهار الشكّ أن يكون الحقّ معها فأقع في حرج ما أغنائي عنه. على أنّي لم أتمالك أن قلت:

- ولكنّي رأيت خطاباً بيدك..

ووقع قولي من أذنيّ موقعاً سيّئاً، فخيّل إليّ أنّي لم أحسن اختياره، وأثّه بفصح عن شكّ واضح، ورمقتها في إشفاق. وانتظرت أن تبسط لي الورقة في حركة

سعيدة مسرورة. ولعلّ طبعها اعتراه تغير طفيف يبدو في سهومها الحين بعد الحين كما يبدو في سرعة غضبها لأقلّ همسة تصدر من أُمّي.

هل كنت سعيداً؟

كانت حبيتي سعيدة يبدو لي، فكان طبيعياً أن أعد نفسي سعيداً. حقاً لم تنقطع بي الوساسوس ولكنّي متى عرفت الحياة بلا وساسوس؟... وأطرّد تيار الحياة تتقاذفني أمواجه، يسعدني سرور حبيتي، ويشقيني حزن أُمّي، أقضي وقتاً ثقيلاً في الوزارة، وأنفق ساعات حائلة في الحانة على فترات متباعدة. وحتىّ ضميري الذي عانيت طويلاً من شعوره بالخطيئة لم أل أن أغضي عليّ أنّاته وتآوّهاته بضحكات السرور والعريضة، وكنت كلّما ألحّ عليّ وخزّه أقول لنفسي بصوت مرتفع إنّي سعيد، وكلّ شيء حسن!

ومضى الشتاء فالربيع ثمّ الصيف. وعدنا نستقبل الخريف والعام الدراسي الجديد بما تبتدرنا من عزيز الذكريات.

#### ٤٩

وعرض لي أمر بدا تافهاً ولكنّه كاد يقلب حياتي رأساً على عقب، ومن عجب أنّه تكشّف لي عقب مصادفة، فحقّ لي أن أنساءل: أكانت حياتي تستهدف وجهة أخرى لو لم تعرض لي تلك المصادفة؟ ولكن ما هي المصادفة؟ ألا تبدو الحياة أحياناً سلسلة متصلة من المصادفات؟ ماذا ألقي برباب في طريقي غير المصادفة؟ وهل كان يتاح لي الزواج منها لو تأخّر موت أبي شهراً واحداً؟ بل ماذا كان يحدث لي لو أصرّ أبي على استردادني كما فعل براضية ومدحت؟ على هذا المنوال أنساءل: ألم يكن من الممكن أن تطرد حياتي على وتيرة واحدة حتى الموت لو لم يطل اللقاء بيني وبين أُمّي دقائق معدودات ذلك اليوم الذي لا ينسى؟!

كنّا في أواخر الخريف، وكان الوقت عصراً، وقد ودّعنا رباب وغادرت الحجرة لقضاء سهريّ المسائيّة. والتفتت بأُمّي في الصالة وكانت متوتّكة فمضيت معها إلى حجرتها ولبثت معها نتحدّث فطال بنا الحديث، ثمّ

- إنه خطاب، ولن أرجع حتى تعترفي لي بكل شيء...

تراجعت متأوهة حتى استندت إلى مرآة الصوان وقالت بصوت تمرّقه الشكوى:

- بالله لا تسئ بي الظن. لا شيء البتة يستوجب غضبك أو ارتياك، آواه لا تنظر إلي هكذا...

ولكنني لبثت أرمقها بنظرة صارمة قاسية ونفسي تتلهف على الحقيقة، فإمّا النجاة وإما الهلاك. رباه إني لفي كابوس طاغ. وهل كان يقع في ظني أن أقف منها هذا الموقف إلّا في كابوس؟ واستدرت تقول بصوت متقطع الأنفاس:

- لا تنظر إلي هكذا! لقد أخطأت حقًا ولكنك أنت المسؤول عن خطئي! لقد فاجأني فركبني الاضطراب، فتورّطت في كذب لا داعي له...

رباه ما أحوجني إلى النجاة، ما أشدّ تلّهي على قطرة غيث تبلّ جوانحي... وقلت في حيرة:

- كان خطابًا...

فبادرتني قائلة:

- أجل! وكان يبدو لي أمره تافها حتى وقع في نفسك الارتياح. وتجهّم وجهك فتخيلت الأمر التافه جلالًا خطيرًا فالتمست مخرجًا في الكذب، وكان ما كان.

فسألته وما أزداد إلّا حيرة:

- إذا كان خطابًا، فمن أرسله؟

فقال وبها مثلما بي من الحيرة:

- لا أدري...

فنفخت قائلاً:

- ما هذه المعميات؟!

تولّى عنها الذعر رويدًا، وتشجعت بانفشاء غضبي فقالت بصوت ملؤه الأمل:

- دعني أقصّ عليك قصة هذا الخطاب المشوم بالحرف الواحد: لقد تلقّيته صباح اليوم بالمدرسة، ففضضته بدهشة لأنّي لم أعتد تلقّي الخطابات، ووجدته غفلًا من الإمضاء، ولم يكن به سوى سخف وقح، خطّه قلم شخص سمح! وملكني الحق بادي

عصبية وأن ترميني بطرف ساخر مؤتب، ولكنّها كانت تعاني أحاسيس أخرى. وكأنّما قهرتها عاطفة مجهولة فقالت وهي توليني ظهرها:

- قلت لك إنّها وريقة خاصّة بملاحظات مدرسية.

ثم رأيتها تمرّقها بحركة مباغته، وتحولت صوب النافذة ورمت بها! كانت حركة مباغته أبعد من أن أنوقّعها فتسمّرت في مكاني كأنّما حلّ بي شلل. واستقبلتني بوجهها متظاهرة بعدم المبالاة فتملّكني حتى وغضب ويأس، وشعرت بأنّ جدًّا هائلًا قد انقضّ على حياتي فدفنها تحت ركامه، وأنّ عينيّ تفتّحان - بعد أوهم العمى - على حقائق بشعة. وهل غير الحقائق البشعة ما يستثير هذا الاضطراب وذلك الخداع الماكرو؟ وصحت بلا وعي:

- كاذبة... لم تكن وريقة ملاحظات كما قلت كذبًا وخداعًا. ولكنّه خطاب كما رأيت، وقد مرّفته لتواري عنيّ سواء...

وغاص الدم في وجهها فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى، ولكن بدا أنّها لا تريد أن تسلّم بغير دفاع المستبش فغمغمت:

- أنت مخطئ... وظالم... لم يكن خطابًا! فهتفت بها مغيطًا محنًا والألم واليأس يطرقان رأسي بعنف:

- لماذا مرّفته؟... لماذا تولّك الذعر؟... تكلمي... لا بدّ أن أعرف الحقيقة... سأنزل إلى الطريق ألنقط القصاصات.

واتجهت نحو النافذة في عجلة واضطراب وأطللت على الطريق فرأيت العطفة الضيقة التي تفصل مؤخّرة العمارة عن حديقة الكنيسة، فداخلني يأس وأيقنت أنّ الهواء قد حمل القصاصات إلى حديقة الكنيسة. واسودّت الدنيا في عينيّ، وخيل إليّ أنّها تتمخّض عن عالم من الشياطين الراقصة في تيّار من لهيب. كيف أنزع الحقيقة من بين شفّتيها؟ ودرت على عقبي فوجدتها بموقفها، يحاكي وجهها وجوه الموتى، وتلوح في عينيها نظرة ذعر وارتباك، فاشتدّت قسوة قلبي، ورميتها بنظرة طويلة رهيبة، وقلت بإصرار وحق:

وكأنني فقدت وعيي:

- لماذا مرّفته... لماذا مرّفته؟

نفخت فيها يشبه اليأس، ولزمت الصمت ملياً،  
ثم قالت بهدوء واستسلام:

- لقد تسلّمت هذا الخطاب المشنوم في المدرسة،  
ولا أظنك تشك في هذا لأنّه من الجنون أن يرسله إلى  
البيت. والآن اشرح على نفسك هذا السؤال: ما  
الذي يدعوني إلى الاحتفاظ بالخطاب وحمله إلى البيت  
إذا كان به ما يريب؟ لماذا لم أمّرقه في المدرسة بعد  
قراءته!

وعقد الصمت لساني حيال وجهة الحجّة ولعلّي  
أسفت على ما بدر منّي من صياح كاسر. أمّا «رباب»  
فعادت تقول:

- لو كنت مذنب لما وجدتني بهذا الموقف السيئ، ولما  
علمت بشيء وهيهات أن أغفر لك سوء ظنك بي...  
فألني قولها، وداخلني شعور أليم بالخجل فخفضت  
بصري أن ترى به أي الهزيمة. على أنّ ألي لم يُنسني ما  
أحبّ أن أجعله من غامض الأمور فقلت بصوت  
منخفض:

- إنّ قولك مصلّد... ولكن لعلّ صاحب  
الخطاب لم يوقع بامضائه لظنه أنّه من السهل  
الاستدلال عليه، كأن يكون بمن يعترضون سبيلك  
مثلاً...

ولم يخفّف لين نبراتي من ألمها، بل لعلّه جعلها  
تتمادى فيه، وقالت بامتعاض:

- من عاداتي أن أسير فلا ألوي على شيء ولا ألقى  
بالاً لإنسان.

لم أكن في حاجة إلى قولها وقد خبرته بنفسه، ولكن  
لاح لعيني شبحا الرجلين اللذين قاسماني الإعجاب بها  
فيها مضى. فقلت متسائلاً:

- ألا يُحتمل أن يكون جارك الذي شرع في طلب  
يدك... أعني محمّد جودت؟

فقال: بلا تردّد:

- هذا رجل وقور لا ينزل لهذه الأساليب الوقحة،  
وفضلاً عن ذلك فهو وشيك الزواج كما علمت منذ

الأم، ثم لم أعد أباله. وصمّمت على الاحتفاظ به  
لاطلعك عليه وفي ظني أنّي أعدّ لك مفاجأة تضحك  
منها طويلاً. ولكنّي غيرت رأيي عقب عودتك وخفت  
أن يثير بنفسك ما لا داعي له من الاستياء. وأخفيت  
عني أمره حتّى ظننتك غادرت البيت فاستخرجته من  
حقيقتي وأعدت تلاوته وفي نيتي أن أمّرقه ولكنك  
فاجأتني وقت تلاوته، ولم يغيب عني حرج مركزي، ولم  
يعد بوسعي الاعتراف بالحقيقة، فتورّطت كما قلت لك  
في الكذب، وجنيت من كذبي ما جنيت ممّا لا  
أستحقّ.

أصغيت إليها وكليّ أذان. ولمّا انتهت من قصّتها  
لبثت بموقفي جامداً متحيّراً. خفّت وطأة الجنون الذي  
ركبني ولكنّي وقفت بباب التصديق والطمأنينة متردّداً.  
وجدت نفسي في حيرة قاتلة دعوت الله أن يكشفها  
عني، وأن يهني بصيرة نيرة أنفذ بها إلى أعماق هذا  
الصدر الجميل الذي كأنما خلّق لتعذّبي. وأرهقني  
التفكير والتردّد فقلت وكأنني أسأل نفسي:

- من مرّسله؟!

وكان السؤال ألمها، فغضّت بصرها مقطّبة وقالت:

- قلت كان غفلاً من الإمضاء.

فانفلت لساني يقول:

- هذا غير معقول.

فضربت الأرض بقدمها وقالت وقد لاح في وجهها  
الأم والتعسة:

- أنكذبني يا كامل بعد أن صارحتك الحقيقة؟ إنّي  
لا أحتمل هذا...

فاستطردت قائلاً وقد نال منّي تألّها:

- أعني ماذا يفيد الخطاب إذا لم يترك به إشارة تدلّ  
عليه؟ ألم يرسل لك خطاباً قبله؟

- ... هذا أوّل خطاب أتلّقه...

- وماذا كان به؟

فغضّت بصرها وهي تقول بضيق:

- كلام سخيف عن الإعجاب والجمال...

ووثب إلى خيالي منظر يديها وهما تمرّقان الخطاب  
فلسعني الشكّ وانتفض جسمي في هلع فصحت بها

أعرف نفسي جيّدًا، وإني لأغار من الوهم ومن لا شيء! فأين منّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل! وطار الخيال بغتة إلى حجرة أمي فسرت في جسدي قشعريرة وخلتها تقول لي «ألم أقل لك؟» فنفختُ كمن يزيع عن صدره كابوشًا، ولاحت منّي التفاتة نحو «رباب» فوجدتها تحملق في وجهي بدهشة، فخطر لي خاطر جديد لم أتوانَ عن الإفصاح عنه فقلت برقة:

- رباب، لماذا تواصلين خدمتك في الحكومة! لماذا تتجشمين هذه المشقة بلا ضرورة؟ لماذا لا تقنعين ببيتك كغيرك من الأزواج؟

فتفرّست في وجهي بإمعان وأناة، ثم قالت بهدوء:

- ألا تثق بي؟

فابتدتها قائلاً: معاذ الله ولكي... وقاطعتني قائلة:

- إذا كنت لا تثق فيّ فالأولى لي أن أغادر بيتك!

- رباب!

فلم تبال جزعي وقالت:

- إذا كنت ما تزال تثق بي فسأبقى في وظيفتي.

فقلت بتسليم:

- لك ما تشائين!

فالتت باللهجة نفسها:

- لا أحب أن أسمع كلمة أخرى عن هذا الموضوع.

وقد كان. وغادرت البيت، وأخذت أضرب في الأرض على غير هدى حتى تناهى بي الإعياء، فرجعت إلى البيت، وتلاقينا وكأن لم يكن بيننا شيء وتناولنا العشاء معًا، ثم آوينا إلى حجرتنا والتقت أعيننا في نظرات ذات معنى.

ولم تسالك أن انفجرنا صاحكين، ومضينا إلى الفراش فاضطجعنا وقبلتها قبله النوم. ولا أدري لماذا نازعني نفسي إلى معاودة ما تعاهدنا على اجتنابه. والأعجب من هذا أنه لم تكن بي ذرة من ثقة، ومع ذلك كدت أهتم... لولا أن ردتني الخوف إلى وعي! ثم خطر لي أن أسألها عمّا يجعلها تقضي على نفسها بالحرمان؟ وانفجرت شفتاي ولفظ صدري القول،

قراءة شهر في بيت أبي... فتفكرت قليلاً ثم قلت متحيراً:

- كان يوجد رجل سمين يواظب على التهامك بعينه في ذلك العهد الذي كنت أحوم فيه حولك، أفلا يجوز أن يكون هو؟

فروت ما بين حاجبيها مستذكرة، ثم قالت وهي تهز رأسها:

- لا أعلم عنه شيئاً...

وحاولت أن أذكرها به ولكنّها بدت وكأنّها لم تحس له وجودًا، فقلت بيأس وغيظ:

- أريد أن أعرفه كي أؤذبه.

فالتت بصوت دلّت نراته على التعب:

- ليكن من يكون! لو لم يدفعني الارتباك إلى تمزيقه لكنا نقرأه الآن صاحكين، فهلاً نسيته وحسبنا ما نالنا من كدر!

فعضضت على شفتي، وجنحت إلى الصمت مغنيًا مقهورًا، فاستطردت قائلة:

- إنّه أمر تافه، بل أتفه من أن يستحقّ كلّ هذا الاهتمام...

فتنهّدت قائلاً وأنا لا أدري:

- ليتك لم تمزّقه!

والتمعت في عينيها نظرة غاضبة وتساءلت بحدة:

- ألا زال يساورك الشك؟

فقلت بعجلة:

- كلا... ولكنّي لن أهدأ حتى أؤذبه!

فالتت بضجر:

- ولكنّا لا نعرفه فما العمل؟

وأحنقني قولها، ولكنّي تحاميت الإفصاح عن حقيقي أن أشتير غضبها. وكان الوقوف أرهقها فمضت إلى كرسيّ التواليت وجلست عليه، وشعرت عند ذاك بأنّ في ظهري، فدلقت من الفراش واقتعدت حافته. إنّها صادقة بريئة، والأمر جدّ تافه، فليتي أستطيع أن أحوو من مخيلتي صورة يديها وهما تمرّقان الخطاب! لعلّ المجرم أحد أولئك الفضوليين الذين يراقبونها في ذهابها وإيابها! فليتي لم أخلق فريسة سهلة لأنياب الغيرة. إني

ولكنه جمد على طرف لساني! إنه الخوف أيضًا.

٥٠

وعندما فتحت عيني في الصباح الباكر عاودتني ذكريات الأمس، فتأملتها في دهشة، وقد خيل إلي أنه لم يكن هنالك ما يستحق كل ذلك العناء والألم. وقلت لنفسي: لو أنها مرّقت الخطاب في الروضة لما علمت به أبدًا، وفي هذا آية صدقها، ثم تمكّلت لعيني وهي تمرّق الخطاب وترمي به من النافذة، فكأنما هي تمرّق قلبي وتنثر شظاياه في الهواء، وسرت في جسدي رعدة عنيفة. وهزّزت رأسي غاضبًا كأنني أنفض الأوهام وغادرت الفراش. ولمّا فرغنا من فطورنا جلسنا على المقعد الطويل نحسّي الشاي. استرقت إليها نظرة فرأيت وجهها المحبوب هادئًا باسمًا ينم عن جمال وسلام، فغضّني الندم على ما فرط منّي في حقّها وقلت لنفسي: «حقًا إنّ الشيطان غوّى رجيم». وفي اللحظة التالية لاح لي خاطر كالبرق، أليس من الجائز أن تكون قد تسلّمت الخطاب في البيت وأنه لم يكن بوسعها أن تمرّقه في مكان آخر؟ ولكنّي سرعان ما نبذته، إذ إنه غير معقول - كما قالت بحق - أن تبلغ الحماقة من شخص أن يرسل خطابًا غراميًا إلى بيت الزوج! ألا سحقًا للأوهام، إنّ حبيتي أهل لكل ثقة، والثقة هي كلّ شيء، ولولاها ما حال دون الشرّ حائل.

وخرجنا معًا. وركبنا الترام. لعلّ كثيرين يرمقونا بعين الحسد، فهل يتصوّرون كيف نحيا معًا! ألا ما أعجب العوالم التي تنطوي عليها النفوس. وأعجب من هذا أمر رباب، فكيف ترغب عن المعاشرة الزوجية بهذا الإصرار العريب؟ لشّد ما يشوقني أن أغوص في أعماقها. عند ذاك شعرت بحاجتي إلى مرشد أقصّ عليه وأصغني إليه. لم أشعر من قبل بمثل ما شعرت به وقتها من الوحدة والعزلة وقلة الحيلة. وكان طبيعيًا أن أذكر مرشدي الوحيد في الحياة، أمي، ولكن سرعان ما تمكّنتني إحساس قوي بالخلجل والغیظ، حتّى لكأنّ نشر همومي على الملا أهون عليّ

من أن أسارّ أمي بها.

هل أستطيع أن أجلو السرّ بنفسي؟ أليكون الله قد خلقها خلقًا طاهرًا لا تطيب له الحياة إلّا بالعفة؟! هذا فرض محتمل يؤيّد الواقع. ولست آسى عليه، فلولاها لكنت في مأزق حرج. والحقّ أنّ اتصالي بها - حتّى في أسعد أوقاته - لم يخل من قلق وخوف غامضين. وقد عاودني العجز في إبّان جنوحها إلى النفور، ولكنّي كنت آبي إلّا أن أصور نفسي في صورة الضحية لشذوذ حبيتي، والفداء لسعادتها... ولمّا بلغت هذا الحدّ من التفكير - وكنت أشارف الوزارة - اضطرب ذهني وشعرت بقلق طاعٍ لم أدركه. بدا لي الأمر وكأنّه يستدعي الطمأنينة التامة، ومع ذلك لفتني حيرة معذبة فدخلت الوزارة ذاهلاً... من عسى أن يكون الوغد الذي كتب الخطاب؟ معقول جدًّا ألا يكون الرجل الوقور محمد جودت، فمن يكون؟ لماذا لا يكون الفتى الآخر ذا الجسم البدين والنظرة المتغترسة؟ وليس هذا بعيد. إنه في متناول يدي، وإنّي لأعرف موقفه الذي ينتظر به كلّ صباح... ترى هل حقًا جهلته أم كانت تتجاهله؟ على أنّي تمكّنت بقلبي ألا يكونه، إذ لم يخف عني لحظة أنّه قادر على أن يبطش بي بضربة واحدة؟ وقلت لنفسي ساحطًا: لو أنها أبقت على الخطاب لأمكنني كلّ شيء. أيّ شيء أعني؟ لا أدري على وجه التحقيق، لكنّي وجدت عليها مرّة أخرى بعد أن عدّ الأمر منتهيًا. والله ما مرّفته إلّا خوفًا من اطلاعي عليه. ربّاه هل أتردّي ثانية في الجحيم؟ حذار! أن تتبادى! إنّ من يسمح لنفسه بالشكّ في رباب لا يستحقّ أن يكون إسنانًا. ألا يحسن بي أن أسأله في التليفون عمّا إذا كانت تلقت خطابًا جديدًا؟ نازعتني إلى ذلك رغبة حاحّة ولكن حال دون تنفيذها الخوف... ودعاني صوت من الأعماق إلى الهرب! ولكنّ تمنّ أهرب؟ وإلى أين؟ إمّا أن أكون مجنونًا أو سخيًا. إنّنا زوجان سعيدان في الواقع، ولكنّ عقلي شقيّ، فآه لو أستطيع حذف الأمس من الأيام. آه لو تمحى ذكرى تمزيق الخطاب من خيالي. وإليك خاطرًا جديدًا: إذا كانت قرأت الخطاب في المدرسة فلماذا

فرائض الدين حتى لم أعد أواظب إلا على الصوم في حينه، ألسْتُ حقيقاً إذا عدت إلى هدى الصلاة أن يطمئن قلبي ويخفّظ عن ظهري وقر القلب والمخاوف. وكان قلبي على أله يتفياً ظلّ النبوة الظليل، ويعبّ من غير صافٍ مثلوج، ويغمره سكون عميق يدعوني إلى الاستزادة من صفاء الساعة الهنيء. وفي نشوة من نشوات السلام تراءت لي آلامي كخيوط رقيق من نسيج القضاء المهيمن على كلّ شيء فنزعت إلى الرضى والتسليم. ودوّمَ بنفسى صفاء روحيّ سها بي إلى ذروة من البهجة فوق المني فكأنّ القلب يعلو غصناً من أغصان الجنة عهدل عليه حمامة السلام. ولبثت في نشوتي زمناً لا أدري كم لبثت حتى اندسّ إلى خيالي على حين غرة صورة رباب وهي تمزّق الخطاب وقد تمّلكها الملح فأفقت بقسوة وعنف كمن يفيق من نوم على زلزال عنيف، وتنهّدت من قلب مكلموم ثم نهضت قائماً، وتلوت الفاتحة مرّة أخرى وغادرت الجامع، وقد وقع بصري لدى خروجي من الباب على زَمالٍ مَن يستطلعون الغيب، إنّي أومن بهؤلاء الناس إيمان أُمّي بهم. وقد انتظرت حتى انفضّ من حوله جماعة من السائلين واقتربت منه على حياء، وسألته أن يقرأ لي الطالع. وراح الرجل ينكت بإبهامه في نقرات الرمل وينقل فيما بينها قواقه. كان نحيلاً كالومياء، شاحب اللون، متلفّعاً بكساء أبيض، فقال من فم لم تبق فيه إلا ثنيته العليان:

- كثير الهمّ والفكر.

فقلت لنفسى: لقد صدق، وأرهفت السمع بانتباه، فاستطرد قائلاً:

- ولك عدوّ ماكر.

فخفق قلبي! أليس هو صاحب الخطاب؟! وواصل الرجل حديثه قائلاً:

- إنّه يكره مكره وسيردّ الله كيده إلى نحره...

ألا يعني هذا أنّ «رباب» بريئة؟

- وستجيثك ورقة تسرّبها طويلاً...

- أتعني خطاباً؟

- ربّما، إنّي أرى أمامي ورقة...

أعادت قراءته في حجرتنا؟... أَلَدّها أن تعيد تلاوته أم كانت تستوثق من الميعاد؟ أو شكّ جيبني أن يتفجّر من حمّى الفكر...

ولمّا غادرت الوزارة أسعفني هواء الطريق اللطيف بروح من عنده فتنفّست تنفّساً عميقاً، وأحسست انتعاشاً ردّني إلى السكينة. وجعلت أرّدد: ما أحقني! وفي البيت لاقتني رباب بابتسامة وضّاء فانبسّطت أساريرى، وسألته ضاحكاً:

- هل من جديد؟

- أتعني خطاباً جديداً؟

فقلت وما أزال ضاحكاً:

- نعم.

فقال مبتسمة:

- كلّاً انقطع البريد...

وغادرت البيت عصراً وليس لي غاية، وما كدت استقرّ بمكاني في الترام حتى نشأت في صدري رغبة جميلة، هي أن أزور «السيدة» طالما كانت ملجئي وملاذي، ولم أتردد عن تنفيذ هذه الرغبة التي ملكت نفسي. وعندما عبرت عتبة المسجد سرت إلى صدري نسمة ارتياح سعيدة، وطافت برأسي ذكريات محبّة إلى قلبي. رأيتني بعين الخيال أسير ممسكاً بيدي أُمّي إلى الضريح الطاهر. وذكرت يوم جاءت بي لأتوب عن الذنب الذي أكاد ألفه وأعتاده. يا لها من ذكرى أعقبت ندماً وخجلاً حتى شعرت برغبة في التواري والفرار، ولكنني واصلت السير، فطفت بالضريح قارئاً الفاتحة، وتشجّعت إدلالاً بمنزلي منذ الصغر عند صاحبه الطاهرة، فوضعت راحتيّ على الباب وغمغمت في ضراعة: «يا أمّ هاشم، أنت أعلم بقلبي وطيبته، وبأنّي لم أضمر في حياتي أذى لإنسان فاجعلي جزائي من جنس عملي. هذا دعائي يا ست». وانتبذت ركناً وتربّعت على الأرض. سطعت أنفي رائحة ذكيّة لعلّها كانت رذاذاً يرشّه أحد المجذوبين، وتجاوبت في الأركان أصوات الدعاء يرددها الطائفون، على حين مضى شيخ غير بعيد يرتل بصوت مهموس آيات من الذكر الحكيم، وذكرت كيف انقطعت عن

فما العمل إذن؟ الصواب أن ألتبس إجازة من الوزارة، ثم أفرغ للمراقبة في خفاء لا يدري به أحد. أيهون عليّ أن أتجسّس على «رباب»؟! ألا ما أشقّ هذا على نفسي، ولكن كلّ شيء يهون إلّا عذاب الشكّ...

## ٥١

توثّبت للعمل وبني من الألم ما لا يعلمه إلّا الله، فخرجنا معاً كعادتنا كلّ صباح وركبنا الترام معاً، ثمّ نزلتُ في محطة الوزارة وناديت «تاكسي» وأمرت السائق بالذهاب إلى العباسية. سبقتها إلى مكان عملها لأهنيّ لنفسي موضعاً يصلح للمراقبة. وكانت الروضة تقع بشارع كمال - المتفرّع من الطريق العام إلى اليسار - على يمين الداخل بعد فوات بيتين من مدخله، وقفت في المحطة أتفحص ما حولي فرأيت شارعاً فرعياً يقابل شارع كمال على الناحية اليمنى من الطريق تقوم على ناصيته قهوة صغيرة، بدا لي أن أجلس في هذه القهوة حيث يسهل رؤية المدرسة من بعيد، ومراقبة زوجي حين دخولها وحين خروجها. واتّجهت إليها - وكان بابها يفتح على الشارع الجانبى - واخترت مجلساً على عتبة المدخل يمكنني أن أرى منه ما أريد رؤيته، وأن أتوارى إذا دعا الحال برحرحة الكرسيّ قليلاً إلى الوراء. وأدركت من نظرة واحدة مقدار حقارة القهوة، فكانت موائدها قديمة وكراسيها باهتة رثة وروادها من النوبيين، ولكن لم أبال. هذا، بل وجدت به مدعاة للطمأنينة. جلست وعيناي لا تتحوّلان عن شارع كمال، وكلّما جاء ترام من المدينة اشتدّ انتباهي وبقظتي. ولم يطل بي الانتظار فما لبثت أن رأيت زوجي وهي تعبر الطريق متلفّنة يمة ويسرة لتتفادى من المركبات حتّى بلغت «الطوار» الأيمن لشارع كمال، ثمّ سارت بمعطفها الرصاصيّ المنمنم، بطولها الفارع الرشيق ومشيتها اللطيفة المهذّبة، في احتشامها المعهود ووقارها المحبوب ثمّ انعطفت إلى مدخل المدرسة وقد وقف لها البوّاب احتراماً، غلبني الخجل والألم لموقفي ذاك، وترطبّ قلبي المحترق بالعطف والحبّ وأنا أذكر

ما معنى هذا؟! كان الأمر يزداد غموضاً، وسألته: هل تأتي من قبل العدو؟ - كلاً... كلاً!... ناحية أخرى فتنجلي بها همومك. - آية ناحية؟ - يأتيك الخبر من حيث لا تدري.

فتولّنتي الحيرة وتمنّيت لو يزيد بياناً، ولكنّه عاد يقول:

- إذا جدّت صعاب فسيذللها هذا الحجاب بإذن الله.

وأعطاني لفافة صغيرة جدّاً من الورق مربوطة بخيط رقيق ثمّ قال:

- ضعه على القلب، وتوكل على الله...

\* \* \*

ذكرت في طريق العودة ما عانيت من ألم مند عصر الأمس فأيقنت أنّ سعادة عام لا تزن شقاء يوم واحد، لم أهدت إلى مرسى وما أزداد إلّا حيرة وتلبّلاً. إنّ ما يظلّني أحياناً من طمأنينة ما هو إلّا سحابة صيف، ولن يهدأ لي جانب حتّى ألقى الحقيقة وجهاً لوجه، ما كنت أحبّ أن تلوّث نفسي بالشكّ في الوجه الصبيح الطاهر، ولكنّ بدرة الشكّ قد ألفت في أعماقها ولن تزال تنمو وتثمر شوكتها الجهتية. لقد شددت بقوة اليأس على أهذاب الطمأنينة فتهتكت وتخرّقت، وما أطيق أن أحتمل الحياة متردّداً بين ساعة سلام خادعة وساعات عذاب طويل، فما من محيد عن أن أرى وراء الحجب، قد يكون في ذلك هلاكي ولكنّ الحياة تقضي علينا في أحيان كثيرة بأن نجري وراء هلاكنا كأنه اللذّ المني. إنّني أحبّك يا حبيبتي ولعلّ القدر قد رماي بهذا الحبّ ليقضي به عليّ، ولكن هل أملك ردّ قضائه؟ لعلّي أدرك الآن لماذا لم يكن يزايلي القلق حتّى في أصفى ساعات سعادتني، أكان قلبي يشهد لمحات من القدور وراء ستار الغيب؟... على أنّي لا أحبّ أن أتمادى في التشاؤم، فقد يكون المخبوء على غير ما توقّع قلبي، وقد أجد به ما أتلهّف عليه من طمأنينة وسلام.



وارتفعت في القهوة ضحكة فانتشلتني من الأحلام، فعدت إلى وعبي متعباً كالمرضى، وألقيت نظرة على الوجوه السود الدائبة على ثرثرة لا تنقطع بأصوات عربية مكهربة، ونطرت بين يديّ فإذا بفنجان القهوة لم يمس، فرفعته إلى فمي ورشفت منه رشقات باردة، وعدت بصري إلى الطريق حتى استقرت على باب الروضة. إنَّ «رباب» تباشر الآن عملها في طمأنينة، ومن يدري فلعلَّ هذا الرعب كلّه أن يتمخض عن لا شيء، ولعلّي أن أذكر موقفي هذا يوماً فلا أداري خجلي. أتكذب هاتان العينان الصافيتان؟ أيغدر هذا القلب الطاهر؟ وتتابع الدقائق في تفكير متواصل، حتى انتهت على طقطقة نافذة وهي تفتح، فاتجه بصري بحركة عكسية إلى الجانب الآخر من الطريق، فرأيت النافذة في الطابق الثاني من عمارة كبيرة وقد أطلت منها امرأة، ولعلّها عجبت لجلوس أفندي مثلي في قهوة النوبيين، فنظرت صوبي باهتمام، كان في عينيها جراءة، فارتد بصري في حياء. ومع أنّ عيني لم تثبتا عليها إلّا لحظات إلّا أنّها عادت منها بصورة واضحة لوجهها الغليظ وصدرها المكتنز، وداخلني إحساس بالقلق، لأنّ النافذة تطلّ على مجلسي مباشرة، وقد رفعت عينيّ في حذر شديد فرأيتها تدخن سيجارة وتنظر إلى شيء بين يديها على حافة النافذة، فتشجعت بتحوّل عينيها عنيّ وأدمت إليها النظر. كانت فوق الأربعين إن صدق نظري - وقُل أن يصدق في تقدير الأعمار - وكانت على رغم تأنّفها وتزيّنها أقرب للدمامة منها للحسن، ذات وجه مستدير غليظ، وعينين بارزتين ثقيليتي الجفنين، وأنف قصير أفتس، وشفتين ممتلئتين، ووجنتين متكورّتين منتفختين، وشعر جعد لامع. وما لبثت أن غابت من النافذة فكداد يذهب عنيّ القلق، ولكنّ باب شرفة تجاور النافذة فُتح على مضراعيه وبرزت المرأة منه تجرّ كرسيّاً، ثمّ وقفت قليلاً مرتفعة حافة الشرفة، فرأيت جسمها المكتنز المائل إلى القصر، ثمّ جلست على الكرسيّ واضعة رجلًا على رجل. كانت الشرفة أقرب إلى الطريق العام من النافذة، فأمكنني أن ألحظ من فيها دون حاجة إلى

كيف بهرني هذا الجمال الوقور أوّل مرّة، اللهم إذا كانت حبيبي ملائكة فلتحرقي بنقمتك وإذا كانت شيطاناً فلتحرقنا جميعاً، ولتحرق الدنيا معنا فما يكون بها شيء يستحقّ الرحمة، وارتفعت عيناى إلى السماء وغمغمت: «ربّي! إذا شئت حكمتك أن تذرّ سموم الغدر في حنايا هذا الجمال فلتغفر لي الجنون والثورة!».

وتفحصت الطريق أمامي متسائلاً في رهبة: ترى هل أرى بعد ساعات من يقف منتظراً بموضع من هذا الطريق؟ هل أراها وهما يتبادلان إيماءة أو ابتسامة أو يلحق أحدهما بالآخر؟ ما عسى أن أصنع لو انقضت هذه الصاعقة على رأسي!! وانتفض جسمي غضباً ورعباً! وتخيّلت الكارثة كما لو كانت قد وقعت، تخيلتها حتى تجسّمت لناظريّ، ثمّ تساءلت مرّة أخرى عماً عسى أن أفعل! ليس أسهل من البطولة والنصر والبطش في أحلام اليقظة، ومع ذلك فلم يسعفني الخيال بنفحة منها، ولعلّه تحرّج لأنّ الخطر الذي تهدّني لم يكن بعيداً بحيث يسمح له بالاستمتاع بأحلامه، كان على العكس قريباً محتماً، فشكمت الأحلام، وتمثّل لي الموقف البشع في حدود الواقع، فتصوّرت بقلب هيب ونفس مخلخلة القوائم، تمثّل لي العدو شخصاً حقيقياً في طريق مزحوم بالمآزة فما أسعفني الخيال على التصدّي له جهازاً ونشر فضيحي على الملاء، أو خوض معركة لا أشكّ أنّي سأكون فيها من الخاسرين! تصوّر زوجاً خدوعاً صريعاً بلكمة من خادعه! ثبّا لي! لكم حققت في تلك اللحظة على ضعفي! غضبت غضب من يروم دكّ الجبال، وتهدّت تهدّد من يعجز عن رفع حصاة، ولكن ما من الإقدام بدّاً! أرى «رباب» مع صاحب الخطاب ثمّ أقف مكتوف اليدين؟! محال... لأهجم إذن على غريمي وليكن ما يكون، أو أفنع بمشاهدة الجريمة الساعية في الأرض، ثمّ أنظرها في البيت حتى تعود وأقول لها بهدوء واستهانة: «لقد رأيت كلّ شيء بعينيّ، عودي إلى بيتك بسلام!». لماذا أقدمت على هذه الخطوة الجنونية؟ لماذا تزوّجت؟ ما كان ينبغي لمثلي أن يتزوّج.

الشمس ثم تستقرّ عليه... ولاحت منها نظرة إلى القهوة، فلما وقعت عليّ لاح بعينها الاهتمام والدهشة وكأنّها تتساءلان عما دعاني إلى ملازمة مكاني بهذه القهوة الحفيرة طوال هذا الوقت، وتعمّدت أن تظهر لي دهشتها بغير ما حيّاه فلم يبق إلا أن تسألني عما يبقيني في مجلسي ذاك؟ وأشعلت سيجارة، وراحت تدخن بتلذذ، وتسلّى بالنظر إليّ من وقت لآخر. وصمّمت على أن أركّز انتباهي في هدفي، فأرسلت بناظريّ إلى الطريق، ولكن ظلّ شعوري في شغل شاغل! وتبدّدت قوّة إرادتي في مقاومة ما يجذبني إلى رفع بصري، وغلبني الحياء والابتباك إذ تهيّأ لي - لضيق الشارع - أنني والمرأة في حجرة واحدة. ولم أخلّ من إحساس بالارتياح منشؤه أنني أجد نفسي محطّ نظرة امرأة لأول مرة في حياتي، ولم يعد يخفى عليّ ذلك الانفعال الجنسيّ الذي بعثه في أعصابي وجهها الغليظ وساقها المرتويتان، ولئن كانت جرأتها قد أزعجتني فلم تعدم في نفسي إثارة من ارتياح غامض، لعله نوع من الإعجاب الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه، وتساءلت في دهشة: ترى لو كان لجميع النساء ما لهذه المرأة من جرأة أكنت أقطع ما خلا من زماني موحواً بغير رفيق؟! وانسقت وأنا لا أدري إلى مقارنة هذه الجرأة الجذّابة بذاك الاحتشام الجميل الذي تتحلّى به زوجي المحبوبة، ولكنّي سرعان ما أنكرت المقارنة الوقحة، فامتلاّت سخطاً وتقزّزاً، ولبثت المرأة بمجلسها ساعة ثمّ عادت إلى الداخل وأغلقت باب الشرفة، فتنهّدت في ارتياح عميق وغمغمت: «لا أرجعها الله»، وانفرد بي الانتظار، ومرّ الوقت في إعياء وسأم، فجعلت أتسلّى بمراقبة ستّة أو سبعة من النوبيّين هم كلّ من بقي بالقهوة من الزبائن، وقد واصل ثلاثة منهم الثرثرة على حين جمد الآخرون على مقاعدهم كتنايل من البرونز. وحينما أرمي بنظري إلى الطريق العامّ أحصي المارّة نساء ورجالاً، وأشاهد مركبات الترام الذاهبة الآتية، أو أنساءل كلّما قرع أذنيّ أزيز ترام آتٍ من بعيد أن يكون رقم ٣ أم رقم ٢٢، وهل يجرّ مركبة مكشوفة أو مغلقة ثمّ أحصي مرّات الصواب

عطف رأسي، فاخترت نظرات من ساقها المرتويتين السمرائين، وشبّبتها الأحمر الفاقع، وأنقذني وجودها من تيار أفكار الجهنميّ وإن استحوذ عليّ ذلك القلق الطارئ، وراحت تنفخ الدخان من شفّتيها الغليظتين وتقلّب عينها فيما حوّلها، وكلّما التقتا بي تفحصتاني بجرأة منقطعة النظير حتّى شعرت بحرارة الخجل تلهب وجهي، وتساءلت في ارتباك: متى تخفّي؟ فلقد أربكني تفرّسها في وجهي، ولعله ترك في نفسي أثراً آخر غريباً لا يخلو من ارتياح حذر وانفعال جنسيّ لم أعرف له سبباً. وكنت كلّما رفعت إليها عينيّ حولت رأسها نحوي وحدجتني بنظرة وقحة ثاقبة كأنّها ترى بأذنيها، أو أنّها تتمتّع بحساسيّة خارقة تنقل إليها النظرات التي تصوّب نحوها من أيّ مكان كان، فركبني الخوف والحذر، وحرصت على ألا أرفع بصري القلق إليها. ترى هل يطول بي هذا الحذر والتوتّر؟ وعلى حين فجأة رنّ صوتها - صوت ممثليّ رنان - وهي تقول وكأنّها تخاطب أحداً في الطريق: «إنيّ قادمة يا ماما» ثمّ نهضت قائمة ومضت إلى الداخل! ولم أتمالك أن ابتسمت في استغراب واستنكار، فقد هالني أن تقول «ماما» وهي المرأة التي جاوزت سنّ الشباب، كما أدهشني أن تستجيب لنداء أمّها بهذا الصوت الذي رنّ في الطريق بلا داع، وكان بوسعها أن تذهب إليها دون أن تنبس بكلمة، أو أن تخاطبها عقب دخولها إلى الحجرة، فبدت لي - إلى جراتها - غريبة الأطوار، محبة للظهور ولّفت الأنظار، متجاهلة لسنن العقل الذي تعتليّ ذروته. على أنّي سررت لذهابها، ولتخلّصي من سطوة نظراتها، وعدت إلى نفسي، وإلى الطريق الذي عليّ أن أراقبه حتّى ينطوي النهار. وتتابع الوقت فاتعبي تشاقله، واستحوذ عليّ الضجر. ألا يحسن بي أن أمضي هنا وهناك حتّى يقترب موعد انصراف الروضة؟ ولكنّ من يضمن لي ألا تحدث أمور في أثناء تجوالي؟ فلا ظلّ رهين مجلسي هذا حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً! ولبثت بمكانيّ متجرّعاً الصبر دقيقة فدقيقة، وجاءني صوت من الشرفة، فرفعت عينيّ، فرأيت المرأة وهي تنقل الكرسيّ إلى موضع من الشرفة تملأه أشعة

والخطأ. ولَمَّا آن وقت انصراف الروضة عاودتني اليقظة، ثمَّ اشتدَّ بي القلق والجزع، وجالت عيناى في جنبات الطريق ثمَّ استقرتْنا على باب المدرسة، ولشَّدَّ ما خفق قلبي حين رأيت جماعة من المدرسات يغادرن الروضة، وعلى أثرهنَّ خرجت «رباب» بصحبة فتاة من زميلاتنا، واتجهتا نحو شارع العباسية وهما تتحدثان وتضحكان. وافترقنا في الطريق العام فالتجّهت الفتاة إلى اليسار، وسارت زوجي إلى المحطة، ولَمَّا كانت وقفتها بحيث يتّجه وجهها صوب شارع القهوة الجانبيّ فقد تراجعت بالكرسيّ إلى الوراء منتحيًا عن مرمى بصرها، وتفحصت الطوار بعناية وقلبي يكاد يشب من موضعه من شدّة الخفقان فقد حدّثتني نفسي بأنني سألتقى الضربة القاصمة بعد لحظات. وكان على «طوار» المحطة شتيت من الرجال والنساء، ولكنَّ زوجي انتبذت طرف الطوار البعيد ووقفت وقفتها المحتشمة لا تميل برأسها نحو أحد، وتنظر من آنٍ لآخر من وراء كتفها صوب الجهة التي يأتي منها الترام، لم أر ما يرييني، ولم تتحوّل عنها عيناى لحظة واحدة حتّى جاء الترام وصعدت إليه، وبارحت مكاني متعجلاً وناديت تاكسي وركبته وطلبت من السائق أن يتبع الترام عن بُعد وجلست لصق النافذة اليسرى وعيناى إلى مقصورة السيدات، حتّى بلغنا العتبة، ونزلت زوجي من الترام واخترقت الميدان إلى محطة الترام رقم ١٥ الذاهب عن طريق الروضة، فدرت بالتاكسي حتّى وقف بي على كُتب من قسم الموسيكي، رأيتها تقف في زحمة من الخلق فجعل بصري يدور في الحلقة التي تحيط بها ويثبت عليها في سرعة وجنون، وجاء الترام فصعدت إليه، ومضى بها، فتبعته محطة بعد محطة حتّى طوى الطريق إلى محطة عمارتنا ورأيتها تغادره وتعبّر الطريق صوب البيت! وانطلق بي التاكسي محطة أخرى، ثمَّ غادرته وعدت إلى البيت مشيًا على الأقدام، وشعرت في طريق عودتي براحة مشوبة بخجل، وتساءلت في حيرة: ترى هل فتاتي بريئة أم ينطوي الغد على ما لم أعثر به في يومي؟ ولَمَّا انتهيت إلى الشقة وجدت أمي قلقة لتأخري، وكذلك «رباب»

فأخبرتها بأن العمل يستدعي بقائي في الوزارة لهذه الساعة مدّة أسبوع على الأقلّ، وحين الأصيل أخذت «رباب» في ارتداء ثيابها وقالت لي إنّها ستزور أمها، ودعتني - كعادتها كلّما خرجت - إلى مرافقتها، وتساءلت كيف يمكنني مراقبتها في المساء؟ ليس الأمر سهلاً كما في الصباح، فالبیوت التي تتردّد عليها في أحياء متقاربة، وهي تقصدها مشيًا على الأقدام، فيما ندر، فلا أستطيع أن أؤمن على نفسي - إذا تبعتها - من الافتضاح، ولكنّي إذا لزمته في تحوالها أمنت المساء، ولم أدع لها فرصة لأمر، ممّا يضطرّها إلى مقارفة الإثم - إن كان ثمة إثم - في نصف النهار الأوّل فتقع في شبكي من حيث لا تدري.. لذلك تقبّلت دعوتها بسرور وقلت لها ضاحكًا:

- سأذهب معك تفاديًا من الملل الذي يقتلني في غيابك.  
فشرّرت لقبولي دعوتها وقالت برجاء:  
- ليتك تخرج معي دائمًا فليس أحبّ إليّ من أن نذهب ونجى معًا...

## ٥٢

وفي صباح اليوم الثاني خرجنا معًا كعادتنا، وأعدت ما صنعت بالأمس، فاستقللت التاكسي إلى قهوة النوبيين واتخذت مجلسي بمدخلها، وجاءت رباب في موعد الأمس ومضت إلى الروضة، وخطر لي وأنا أتبعها عينيّ أنّه لو كان لها حساسية المرأة الغريبة - لم أذكرها منذ غادرت العباسية بالتاكسي أمس حتّى وتب لذهني هذا الخاطر - فالتفتت صوبي ووقع بصرها عليّ فدارت على عقبها وجاءت إليّ في دهشة تسألني عمّا أتى بي إلى هذه القهوة؟! تصوّرت هذا المنظر في فزع، فانكمشت في مجلسي هلعًا، وعصني الندم والألم، ولكنَّ زوجي مالت إلى المدرسة أمة مطمئنة، غافلة عن العينين اللتين تراقبانها في حذر وارتباب، حتّى غيَّبا الباب عن ناظريّ، فذهب عنيّ التوتر والخوف، وشعرت برهبة حيال الانتظار الذي كان عليّ أن أعانيه في تصبّر وتجلّد نهاريّ آخر، وألقيت نظرة دائرية ضجرة

الشرفة الخشبيّ وجهًا لوجه، وليس بالشارع الجانيّ دكان، ولا يكاد يمرّ به أحد إلّا فيها ندر، وأما زبائن القهوة فعاكفون على ثرثرتهم في الداخل لا يرون شيئاً، ومائدتي بموضعها من المدخل وحيدة، فخلتنا منفردين على نحو ما. وشعرت في اللحظة التالية بالارتباك والخرج، ولم أدر كيف يمكنني البقاء هكذا تحت رحمة عينها الوقحتين، فتمنيت لو لم تحقّق رغبتني الخفيّة، وجعلت أنظر إلى الطريق البعيد تارة، أو أعطف بصري من فوق كفيّ إلى داخل القهوة تارة أخرى، شاعراً في أثناء هذا وذاك بوقوع عينها الثقيلتين على وجهي. إنّي راغب في وجودها ما في هذا من شكّ، ولكنّي لم أحتمله، وما من مرّة أسترق إليها نظرة إلّا وأجدها متفرّسة في وجهي في هدوء وإمعان وبلا حياة أو تردّد، وإنّ هذا ليملائي سروراً وخفّة ولكّنه يسومني ما لا طاقة لي به من خجل وارتباك. إنّ عينها تنظران طويلاً ولكنّها لا تنظران فحسب، إنهما تحدّثان بأجلى لسان، كلّما التقت عينانا خلّتها تخاطبني فأغضّ الطرف وكأني أفرّ فراراً. ونظرت نحوها مرّة فوجدتها تشعل سيجارة، وأطفأت عود الثقاب هزّتين ثمّ رمت به نحوي لولا أن أرجعه الهواء، وأخذتْ نفّساً عميقاً وقد ابتسمت عيناها، فحقّق قلبي بعنف وازددت ريقى بصعوبة... ماذا تريد هذه المرأة؟.. كيف تواتيها الجراة على هذا النظر العارم الوقح؟ بل كيف تطاردني هذه المطاردة الصامتة وهي لم تسبق لها بي معرفة، ولم ترني إلّا مرّة بالأمس ومرّة أخرى اليوم. واستحوذ عليّ الاضطراب، وشغلت بالشرفة انشغالا تاماً فلم أعد ألقي على باب الروضة إلّا نظرات سريعة لا تكاد ترى شيئاً. ورأيتني أنظر نحوها فوضعت رجلاً على رجل جاذبةً عينيّ قهراً إلى جانب عريض من فخذها أحدث التفاوضا واشتباكها طيّات سمراء مثيرة فشعرت بمثل سورة الخمر وجفّ حلقي وطغى عواطفني على حيائي فذاب كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس النارية فحملت فيها بلا خجل ولا تردّد، وما لبثت أن نهضت قائمة وغادرت الشرفة! تركتني في ثورة جاعة. وقلت لنفسي ساخطاً: آية هاوية تنفغر تحت قدمي! ثمّ

على شارع القهوة الجانيّ وما يبدو لي من شارع العباسيّة والقهوة بزبائنها السود، تلك الأماكن التي قضى عليّ بأن أمكث بينها كالسجين المجنون أتخبط في دياجير الأفكار وشوارد الأخيلة الجهنميّة... ولكنّي كنت ذكرت المرأة الغريبة وأنا أراقب زوجي في ذهابها إلى المدرسة، فرفعت عينيّ إلى العارة على الجانب المواجه للقهوة، فرأيت النافذة والشرفة مغلقتين، وتساءلت كيف لي بتحمّل الانتظار نهائياً كاملاً بلا تسليّة أقتل بها الوقت؟ وكان تساؤلاً مريباً أداري به رغبة في رؤيتها كرهت الاعتراف بها، ولكن ماذا يدعوني إلى إنكار هذه الرغبة؟ وهل هي رغبة في التسليّة وقتل الفراغ؟ أجل إنّ المرأة قد أهاجت في صدري انفعالاً جنسياً، ولكن ليس في هذا جديد، فقد كنت ولا زلت ألتقي هذه الانفعالات الجنسية من أقبح الأدميّات، وأقذرهنّ. ولم يغيّر الزواج من حالي، ولم يشغني من دائي، فرُددت إلى عاداتي القديمة جميعاً، وعاودت النظر إلى النافذة مرّة أخرى، وكأني أعاني انتظاري! فلاأحاول فهم نفسي أكثر من هذا، لست طالب تسليّة فحسب، إنّي أرغب في رؤيتها مرّة أخرى، لتلتهمني بنظراتها كما فعلت بالأمس فيعاودني ذاك الشعور العميق بالارتياح والرهو، وأستردّ بعض الثقة المسلوّبة، ولم أكد أستغرق في أفكاري حتّى قرع أذنيّ طقطقة النافذة، فرفعت عينيّ، فرأيتها وهي تفتح على مصراعها، ولاحت وراءها المرأة، والتقت عينانا، ولم تكن تتوقّع رؤيتي بطبيعة الحال. فتجلّت في عينها دهشة واضحة، ولبثت دقيقة أو نحوها وهي ترنو إليّ ثمّ تحوّلت عنيّ واختفت، ودخلني سرور لا يتناسب مع شقاء المهمة التي جثت من أجلها إلى هذا المكان، وانجّه بصري صوب الشرفة المغلقة منتظراً أن تفتح. وقد كان. فدفعت يد مصراعها حتّى اصطدما بعنف بالحائط على الجانبين، ثمّ دخلت المرأة تحمّر الكرسيّ بجسمها القصير المكتنز، وقد بدت لي في الروب الروديّ كبرميل إلّا أنّه مفصّل تفصيلاً بهيمياً، ووضعت الكرسيّ في ركن الشرفة البعيد. وجلست عليه مستقبلة القهوة بوجهها ومدّت ذراعها على حافة

ثبت إلى الهدوء رويدًا فأمضيتي الأسف والحجل وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس: «لا أرجعها الله!». قد يكون الانتظار مؤلماً ولكنّه خير من هذا الشر الذي يتهددني ولم يكن يساورني شك في أنها ستعود، وكان بوسعي أن أغادر القهوة إلى غير عودة، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكنّي أقنعت نفسي بأنّ هذه القهوة المتوارية هي أصلح الأماكن قاطبة لمهمّتي، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمة، وتملّكتي الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذي استخفّني. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا

## ٥٣

أقبح منها، ولكنّي عدت أجالسها النظر وأتمنّى لو تأخذ راحتها وتضع رجلًا على رجل. وعدت أتملّ إيثارها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني عطفها وشعرت بهم الجائع إلى الاستزادة منه، وهل كان هذا الاهتمام إلّا لجسمي وجهي ورشاقة قوامي! وقلت لنفسي في غرور صبيانيّ لعلّها معجبة بالأعين الخضراء والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وعلى حين نغمة انسلّ إلى خاطري صوت هامس يتساءل في سخرية. «وهل أغنى عنك جمالك شيئاً؟!». وتمثلت لعينيّ تعاسي الزوجيّة فكأنّ قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخمدتها وخفت أنفاسي. فترت نشوتي وحلّ محلّها شعور بالغ بالشقاء والحيرة، وتناسيت الشرفة، وهرعت أفكارني إلى الروضة فتمنّيت لو تنكشف لي الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لأنتهي من الأمر كلّ. تمنّيت - إذا لم يكن من الأمر بدّ - أن أرى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويحادثها اليوم لا غدًا ولا بعد غد، بل كان في ذهني شيء آخر - في تلك اللحظة - لا أدري كيف أعبر عنه. كأنني تمنّيت أن يصدق سوء ظني! لست مخطئًا، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفسره؟! هل ثقل عليّ الشك فرغبت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا العجز الغريب الذي جعل من حياتي الزوجيّة مهزلة فتمنّيت أن أجد في جريمة زوجي مهربًا من حياتي؟! أو كان ضميري الرارح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقابًا وتكفيرًا؟! على أنّه لم يكن

ثبت إلى الهدوء رويدًا فأمضيتي الأسف والحجل وألقيت على الشرفة نظرة غاضبة وغمغمت كما غمغمت بالأمس: «لا أرجعها الله!». قد يكون الانتظار مؤلماً ولكنّه خير من هذا الشر الذي يتهددني ولم يكن يساورني شك في أنها ستعود، وكان بوسعي أن أغادر القهوة إلى غير عودة، وأن أبحث عن مكان جديد يصلح للمراقبة والانتظار، ولكنّي أقنعت نفسي بأنّ هذه القهوة المتوارية هي أصلح الأماكن قاطبة لمهمّتي، ولم تطل غيبة المرأة فعادت إلى مجلسها وفي عينيها نظرة باسمة، وتملّكتي الغضب لا لعودتها ولكن للسرور الذي استخفّني. وقلت امرأة وقحة ما رأيت أغلظ ولا أقبح منها، ولكنّي عدت أجالسها النظر وأتمنّى لو تأخذ راحتها وتضع رجلًا على رجل. وعدت أتملّ إيثارها لي بالنظر والاهتمام فازدهاني عطفها وشعرت بهم الجائع إلى الاستزادة منه، وهل كان هذا الاهتمام إلّا لجسمي وجهي ورشاقة قوامي! وقلت لنفسي في غرور صبيانيّ لعلّها معجبة بالأعين الخضراء والبشرة البيضاء والقامة الفارعة. وعلى حين نغمة انسلّ إلى خاطري صوت هامس يتساءل في سخرية. «وهل أغنى عنك جمالك شيئاً؟!». وتمثلت لعينيّ تعاسي الزوجيّة فكأنّ قطعة كبيرة من الثلج وقعت على فورة حماسي فأخمدتها وخفت أنفاسي. فترت نشوتي وحلّ محلّها شعور بالغ بالشقاء والحيرة، وتناسيت الشرفة، وهرعت أفكارني إلى الروضة فتمنّيت لو تنكشف لي الحقيقة مهما كانت بشعة قاسية لأنتهي من الأمر كلّ. تمنّيت - إذا لم يكن من الأمر بدّ - أن أرى صاحب الخطاب يلاقي رباب ويحادثها اليوم لا غدًا ولا بعد غد، بل كان في ذهني شيء آخر - في تلك اللحظة - لا أدري كيف أعبر عنه. كأنني تمنّيت أن يصدق سوء ظني! لست مخطئًا، كان هذا هو الواقع، ولكن كيف أفسره؟! هل ثقل عليّ الشك فرغبت أن أنجو منه ولو بهذا الثمن الفادح؟ أو ضقت بهذا العجز الغريب الذي جعل من حياتي الزوجيّة مهزلة فتمنّيت أن أجد في جريمة زوجي مهربًا من حياتي؟! أو كان ضميري الرارح تحت وطأة الشعور بالإثم يلتمس عقابًا وتكفيرًا؟! على أنّه لم يكن

أنساعاً. وغلبتني ابتسامة فابتسمت وأنا أطرق في خجل لا يوصف. وأطلقت هذه الابتسامة شحنة حبسية من ارتباكك فسُرِّي عني قليلاً، واستطعت أن أحس بما يستخفني من سرور. وشعرت شعوراً قوياً بالفارق بين عمرنا فلذني هذا الشعور، وتمنيت لو يتقهقر بي العمر إلى العشرين أو ما دونها. ربّاه. . .  
إني أهوي بلا وازع. ولكني لم أعد أبالي شيئاً. ولاحت مني التفاتة إلى شارع كمال فصادفت عند ناصيته شيخ فتاة تنعطف إلى اليسار فحال بيني وبينها جدار القهوة. خلّطني رأيت معطفاً رصاصياً كمعطف رباب فخفق قلبي خفقة عنيفة كاد ينخلع لها. ما الذي دعاها إلى مغادرة المدرسة في هذه اللحظة؟ وما الذي جعلها تتجه إلى اليسار على حين أنّ طريق المحطة إلى اليمين فيما لو فرض أنّ عذراً دعاها للعودة؟. . . وانتفضت قائماً وهولت مسرعاً إلى الطريق العام بلا تبصر ولا احتراس، ثم نظرت صوب المنعطف الذي سارت إليه ذات المعطف الرصاصي، فرأيتها: كانت امرأة في الخمسين تحثّ الخطى على الطوارى وتنهّد من الأعماق وغمغمت كعادتي كلّما نجوت من مازق «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، وعدت إلى مقعدي وبى ما يشبه الإعياء والخور. لن أنسى هذه الخفقة التي كاد يتصدّع لها صدري، فماذا يكون أمري لو وقع المحذور! ورفعت رأسي صوب الشرفة فرأيت المرأة تحملق في وجهي دهشة وعباءة تتساءلان عما حلّ بي؟! وارتسمت على شفّي ابتسامة! أجل أنساني الانزعاج خجلي فابتسمت. لم يعد يخفى ما بيننا من ابتسام، وحديث صامت يعبر تارة بالعين وتارة بالحاجب! ولم يعد يخفى عليّ ما يعتلج في صدري من عاطفة جهنمية. ولو كان ما بي حبّ لركبني الخوف وقدرت العواقب، ولكن بدا لي الأمر واضحاً لا لبس فيه فلم تزايلني الثقة. ولبثت ساعة أو أكثر أتلقّى هذا الغزل في صمت وحياء وسرور جنسيّ عجيب، ثم نهضت المرأة قائمة وهي تتمطى فانفرج الروب عن صدر ريان متنفخ يكاد يتهتّك من ضغطه القميص الوردي الشفاف، ثم ألقت عليّ نظرة وداع باسمعة، وغمزت

فقد فتحت النافذة ولاحت وراءها المرأة بغلاظتها وتبرّحها. اتّسعت عينها البارزتان دهشة ورفعت حاجبيها المزججتين كأنها تقول: «أما زلت ملازماً مكانك!» ثم خفضت رأسها لتسواري عن عيني ابتسامتها وخفق قلبي خفقاً شديداً سريعاً في سرور، وعادني الخجل من نفسي فجعلت أقول لضميري بأنني لا أنطلع لإثم، وإنّ مثلي حقيق بأن يسرّ إذا ما وجد من امرأة اهتماماً، أجل إني بريء، وما جئت هذه القهوة إلّا لغرض لا شأن له بهذه المرأة، وسأنقطع بعد يوم أو يومين عن هذا الحيّ كلّه فلا أعود أذكرها بخير أو بشرّ. أما المرأة فقد اختفت من النافذة، ثم فتحت الشرفة ودخلت بكرسيها، وجلست في الركن المواجه لي، وفي عينها ابتسامة من لم يعد بحاجة إلى تعارف. بتّ اليوم أقدر على احتمال هذا الموقف، ولكنني ما زلت أنظأه بالنظر إلى الطريق العام مختلساً من أنّ لأن نظرة إلى الساقين المدملجتين خلال قضبان الشرفة الحديدية، ولم يفارقني الارتباك بل لعلّه تضاعف بهذه الابتسامة التي تلوح في عينها كلّما التقت عينانا، يا لها من امرأة جسور، بوسعها أن تفعل ما تشاء بلا خوف، أما أنا فليس لديّ إلّا غصّ البصر! أيدور لها بجلد أنّي متزوج؟ وأنني ما جئت إلى هذه القهوة إلّا كي أضبط زوجي متلبسة بجريمة الخيانة؟! ترى هل تبقى على اهتمامها بي إذا عرفت هذا كلّه؟ شعرت عند ذلك بخزي أليم. ثم ساءلت نفسي عنها من تكون. أهى زوجة أم أرملة؟! وماذا تريد؟! وحدث أن ارتفعت المنضدة بيساري وافتрشت ظاهر يدي بذقني، فما كان منها إلّا أن ارتفعت حافة الشرفة بيسراها وافتрشت يدها بذقنها وهي ترنو إليّ في دعابة. وتلقّيت الدعابة بخجل جعلني لا أرى شيئاً، وأرسل قلبي ضربات عنيفة طتّت في أذني. إنّها تغازلني صراحة، وأشعر بأنّ «الرجولة» تقضي بأن أخرج من هذا الجمود ولكني لا أبدي حراكاً، واشتدّ بي الارتباك فبتّ في حال يرثى لها. وسحبت يساري، وشبكته بيميناي على صدري فما أسرع أن سحبت يدها وشبكته بالأخرى على صدرها وقد ازدادت ابتسامتها

أيسر مما أتصور. ما أقطع هذا، ولكن ما أروحه لي كذلك، فإذا لم يكن من الكارثة بد فمّن الرحمة أن تقع سريعاً، واستحوذ عليّ القلق والجوع، وأيقنت أنني لن أستطيع مع اليوم صبراً. ولاحت منّي التفاتة إلى النافذة المغلقة فتعلّق بها بصري فيها يشبه الاستغاثة، وتملّكني إحساس عنيف بالضغط الذي يهتصرني وتلهّفت نفسي على منفذ تتسرّب منه بعض الأبخرة المزججّة في أعاقها. أيّ تنفيس ولو جرّ وراءه الإثم والخزي. وعند العاشرة فتحت النافذة وطلعتني الوجه الغليظ بابتسامة مشرقة. وتحوّل انتباهي إليها فأنقذني من نفسي، وثبتت عيناها عليها في جرأة لا عهد لي بها، وانسبست أساري وأنا لا أدري فردّت التحية بمثلها. واختفت من النافذة فسبقتها عيناها إلى الشرفة ولكن طال الانتظار عن المعتاد، ثمّ بدت مرّة أخرى في النافذة، فإذا بها قد ارتدت معطفاً وأخذت أهبتها للخروج. وخطر لي خاطر كالبرق، هل تدعوني إلى مرافقتها إلى مكان ما؟ وغمرتني موجة من السرور والحيرة والخوف. ما أحوجنني إلى هذه الدعوة، ولكن هل أترك رباب في هذا اليوم الحاسم؟! إنّه بالعمر كلّه، وإنّ مصيري معلّق بمصر الجديدة فكيف أقاوم دعوة المرأة إذا دعيتي؟! وفرغت المرأة من زيتها، ثمّ وقفت تنظر إليّ في هدوء وابتسام. ونظرت إلى شيء بين يديها فتتبّعها بصري فإذا بأناملها تطوي ورقة صغيرة، ثمّ تثنيها من الطرفين، وتفتّصت الطريق بنظرة شاملة ثمّ رمت بها فسقطت على كُتب من قديمي... وتناولتها بعجلة وبسطتها وقد سطع منها شذا طيّب تخدّر فوجدت بها هذين السطرين «انتظرني اليوم في تمام الساعة مساءً عند الجسر في نهاية خطّ الترام». وداخلني ارتياح إذ إنّها منحتني مهلة عن غير قصد، ولكن ترى هل يسعني إنجاز الوعد إذا ارتبطت به؟ ألا يقع في مصر الجديدة ما يعوقني عنه؟ ولم أجد فسحة للتفكير والاختيار فقد حدّجتني بنظرة متسائلة وهزّت رأسها مستفسرة، فلم أملك أن حنيت رأسي بالإيجاب. وابتسمت إليّ ابتسامة حلوة وحيّيتني بإيماءة من رأسها ثمّ أغلقت النافذة، فأدركت أنّها ذاهبة إلى

بعينها قبل أن تغيب وراء الباب، تركتني في سعي التهمت ناره ساعات الانتظار الباقية، وفي ميعاد الانصراف غادرت رباب المدرسة واتّجهت كالعادة إلى المحطة. وعدنا إلى البيت كلّ على طريقته. ولم نخرج مساء إذ زارتنا أختي راضية وزوجها فقصينا سهرة عائليّة ممتعة.

## ٥٤

اليوم الرابع، قالت لي رباب ونحن ننتظر الترام على طوار المحطة:

- سأتأخّر اليوم عن ميعاد عودتي لأنّي سأعود زميلة مريضة تغيّبت عن المدرسة من يومين. وألقيت عليها نظرة مريبة لو رأيها لساءت العاقبة. ثمّ خفضت بصري بسرعة، كاطماً عواطفني، وسألته بصوت ينمّ عن عدم الاكتراث:

- أين بيتها؟

- في مصر الجديدة.

- ومتى تعودين؟

- وقت الزيارة ومسافة الطريق... لن أتأخّر عن السابعة.

بدأت تملّص من ظليّ الثقيل! واختلست منها نظرة فبدت لي جميلة رائعة، ثمّ ركبتني نزوة طارئة فتنبّيت لو أهوي عليها بفأس فاشقّها نصفين. وجاء الترام فصعدنا إليه وأنا في أسوأ حال، وغادرتني عند محطة الوزارة وناديت التاكسي، فطار بي إلى قهوة النوبيين. واستقبلت النافذة المغلقة بنظرة طويلة، ثمّ عدت إلى أفكاري. تلك الزيارة في مصر الجديدة! لن أدعها تذهب وحدها. كان تصميمي لا رجعة فيه ولكن هل ينجح مسعاي؟ هبني تأثرتني إلى مصر الجديدة ثمّ رأيتها وهي تدخل بيتاً أو عمارة فمّن يدريني بما يقع وراء الجدران؟ قد تكون في عيادة زميلة حقاً، وقد تكون في أحضان عشيق! وانتفضت انتفاضة قاسية، وعضضت على أسناني حتّى سمعت صريرها كالطقطقة. ولكنّي أبيت أن أثبط عزيمتي. لأتبعها فلعلّي أراها معاً في الطريق، ولعلّي أحد ضبط الجريمة

من هذه الحياة المرة الطافحة بالخبية والشك. سينتهي كل شيء بعد دقائق معدودات، فلا يبقى داعٍ لأن أسأل نفسي أهى بريئة أم مذنب، ولا يسوقني وسواس لتجشّم أهوال المراقبة والتجسس، وسيخلو البيت إلّا من الوجوه القديمة الآمنة، والحياة الهادئة الوادعة. أجل وددت لو أحطّم الرأس الذي حطّم قلبي، ولكنني أضرتّ بنفسى عن أن تضيع بسبب امرأة آثمة. كان غضبي قويًا وحشيًا، ولكنّ حبّي السلامة كان أقوى وأعظم. ألم يكن غريبًا أن تدور أفكاري حول محور الخوف والسلامة حتّى في تلك اللحظة المخيفة؟! وتراءت لي العتبة فتساءلت مرّة أخرى أين تغادر الترام؟ ورأيتها في محطة الميدان شأنها كلّ يوم، فنزلت من التاكسي أن أفقدها في الميدان المكثّف. ثمّ رأيتها تخرقه إلى المحطة الأخرى التي تنتظر بها عادة، فدرت مع محيط الميدان ووقفت عند جدار القسم. وما أحقني إلّا أن تقف في احتشامها المألوف هادئة ساكنة كأنني لا أشتعل من أجلها ناريًا... واستبعدت أن تقابل أحدًا في هذه الزحمة فتطلّعت إلى رؤية الترام الذي تصعد إليه، وتتابع المركبات بأرقامها المختلفة حتّى جاء ترام السروضة فسارعت إليه واستكنّت في مقصورة السيّدات. وتولّتي الدهشة، أليكون الأمر في حيننا؟! وهرعت إلى تاكسي وتبعته الترام. وجعل قلبي يدقّ في عنف، وتشتدّ ضرباته كلّما مررنا بمحطة... ثمّ دخلنا شارع قصر العيني، وقطعنا محطة وثانية وثالثة ورابعة حتّى بلغنا محطة بيتنا، فما راعني إلّا أن أراها تغادر الترام. ونظرت من نافذة التاكسي الخلفية فראيتها تعبر الطريق وتدخل باب عمارتنا! وتوسّدت مسند المقعد وأغمضت عيني في إعياء وذهول. ماذا وراء هذا كلّ؟ هل فقدت عقلي؟ أما من نهاية لهذا العذاب؟ وعدت إلى البيت فوجدتها لم تكذ تكذ تفرّغ من ارتداء الروب بعد أن خلعت ملابسها، وبادرتها قائلاً في دهشة:

- حسبتك في زيارة زميلتك!

فافتّر ثغرها عن ابتسامتها وقالت:

- لم يكن بها إلّا وعكة خفيفة وقد عادت اليوم إلى عملها دون أن تجشّم أحدًا مشقة عيادتها.

زيارة أو نحوها. هكذا ارتبطت بالموعد مدفوعًا بضغفي الذي يجهل المقاومة وإن كنت لا أدري أين أكون وقت أزوفه، وهكذا سقطت في نفس الخطيئة التي أتهم بها زوجي! أخلق بي أن أسرّ بهذه الخطوة الجسور أم أندم عليها؟ وهل ينتهي اليوم بحبّ أو بمأساة؟ لشدّ ما كرهت الحياة في تلك اللحظة. واندججت في تيّار شعوري ألوان من المشاعر المتناقضة من سرور إلى خوف، ومن أمل إلى يأس، ومن حماس إلى فتور، ثمّ علته موجة طاغية من التلهّف على المغامرة لوأدا من الهمّ الذي ينيخ عليّ فيكاد يحرم بي الأرض. وطويت الورقة بعد أن تلوتها عشرات المرات ثمّ دسستها في جيبى. وانفرد بي الانتظار حتّى فتحت الروضة أبوابها ولاحت لي رباب قادمة من بعيد. هذه هي الساعة التي أترصّ بها منذ أربعة أيّام هي أشقى أيّام حياتي. سأتبعها ما في ذلك شكّ تاركًا الموعد للظروف وحدها. وتوقّعت أن تميل إلى اليسار، صوب محطة الترام الصاعد إلى مصر الجديدة، ولكنّها عدلت إلى اليمين، إلى المحطة المعتادة التي تنتظر بها كلّ يوم! وأدركت لتسوي أنّها اختلقت قصّة الزميلة المريضة لتتخلّ عذرًا لغيابها، واضطرب صدري اضطرابًا لم أدر كيف أتمالك أنفاسي. هل أن لي أن أنتهي من هذا العذاب؟ ورمقتها بموقفها من الطوار بنظرة نارية وأنا أعجب لهذا الاحتشام الزائف الذي يطوي في أعماقه شرًا فظيئًا وفسقًا مخجلًا. ثمّ جاء دور المطاردة التي أرجو أن تكون مجدّية هذه المرّة. فصعدت إلى الترام، وناديت التاكسي، وجعلت ناظرني إلى مقصورتها لا تتحوّلان عنها. ترى أين تغادر الترام؟ أين تفعل فعلتها؟ لشدّ ما يكبر عليّ أن أتصوّرهما في أمثال هذه المواقف المريبة! ولئن تكذّبتني الحقيقة الواقعة وتكشف لي عن وجهها الشائه الدميم فما يشبّعني ويطفئ غليّ أن أدكّ رأسها بأحجار هذه المدينة الهائلة، ماذا يدفعها إلى هذا الانزلاق الآثم هي التي تعفّ عن علاقة الزوجية المشروعة؟ أم إنّها لا تبغيها إلّا عوجًا؟ لشدّ ما مرّقتني الحيرة، لشدّ ما عدّبتني الغضب والحقد. على أنني مئيت نفسي بالراحة من هذا العذاب كلّ، والخلاص



المأساة؟... آ... لا يزال أمامي متسع للهرب. ولكني لم أبدأ حراكًا. إن هذه المرأة هي فرصتي الوحيدة لاسترداد الثقة الضائعة. وملكتني روح مغامرة لا عهد لي بها قالت لي: جَرِّب، لن نخسر شيئًا، وعلى أسوأ الفروض فلن نخسر شيئًا جديدًا... واستيقظت من أفكارني على سيارّة متوسطة الحجم تقف أمامي بحذاء الطوار، ثم انخفض زجاج نافذتها الجانبية وبرز منه وجه المرأة الغربية وهي تجلس أمام عجلة القيادة. ابتسمت إليّ، ودعنتي إلى الالتفاف حول السيارّة لأجلس إلى جانبها من الباب الآخر، فأطعت في اضطراب وفي أقلّ من ثانية كنت إلى جانبها، فجذبت الباب والتصقت به وأنا لا أكاد أشعر بما حولي من فرط الحياء. وأحسست بعينها على خدي اليسرى، فلازمت النظر إلى الأمام، حتى ضحكتم ملء فيها بصوت يُعدّ إلى غلظة وجهها وجسمها رقيقًا وقالت بلهجة تنم عن التحريض:

- لم يعد من داعٍ للحياء!

وانطلقت بالسيارة في مهارة ويشر وهي تقول:

- لنذهب إلى طريق الأهرام...

اندفعت بسرعة فائقة فوّلّي قلبي خوفًا، وجعلت كلما اعتاقها عن الاندفاع زحام أو إشارة المرور أتنفّس الصعداء... والأعجب من هذا أنّها خففت من سرعتها الجنونية حين تركت وراءها الطريق المزدحمة. واسترددت أنفاسي، واسترقت إليها النظر، فرأيت جانبًا من وجهها الغليظ عن كسب، وذاك الصدر المكتنز، وتمثّل لعيني صورة ساقها البرونزية المرتوية، وذكرت أنّ قيراطًا واحدًا يفصلها عن ساقني، فاضطرب دمي. وأدهشني هدوؤها وطمانيتها فكأنّها تصاحب زوجها أو أخاها لا رجلًا غريبًا لا يتألك نفسه من الحياء والارتباك. سألتني دون أن تحوّل عينيها عن الطريق:

- ماذا أدعوك؟

فقلت في اقتضاب:

- كامل رؤية...

واكتفيت بذلك عن ذكر اللقب الذي كثيرًا ما يثير

نرى هل تنتهي وسأوسي جميعًا إلى قبضة من الريح؟ ولا أتمنّى على الله من شيء إلا أن أسكن إليها في طمانينة وسلام. وقالت لي وأنا أبذل ثيابي:

- دعني خالتي بالتليفون إلى زيارتها مساء اليوم وكلفّتي أن أنوب عنها في دعوتك...

فقلت لها وأنا لا أدري ماذا أقول:

- إن شاء الله.

وأدركت في اللحظة التالية أنّي تسرّعت بإجابتي تلك إذ ذكرت الموعد عند جسر العباسية. ولكن هل أروم حقًا أن أذهب إليه؟! إنّ الآن بعيد عن النافذة والشرفة وتأثيرهما أفلا أزال أفكر في المرأة تفكيرًا جديدًا؟... أيّ شيطان يغرّبي؟! إنّ قلبي لحبيبي دون سواها، فما بال نداء المرأة الغربية قهّارًا لا يقاوم؟! وتفكرت طويلًا وما أزداد إلا استسلامًا للنداء الشيطاني، حتى لم يعد يحول بيني وبينه إلا ما أخذت به نفسي من ملازمة زوجي مساء. ولكن أكانت تدعوني إلى زيارة خالتها لو كانت تضمّر سوءًا؟! وعادوت التفكير في جهد لأنّه ليس أشقّ عليّ من الاختيار بين أمرين. وتردّدت طويلًا قبل أن أقول:

- أوه لقد نسيت... إنّني مرتبط بموعد هام...

فتساءلت فيما يشبه الكدر:

- أعني أنّك لا تستطيع الذهاب معي؟

فقلت وأنا أشعر بأنّ قديمي تنزلق إلى هاوية ما لها من قرار:

- اعتذري عنيّ للستّ خالتك...

## ٥٥

بلغت جسر العباسية قبل الميعاد بدقائق... كان الجو لطيفًا والظلام شاملاً فاخترت موقفًا تحت مصباح غازي... ذهبت إلى الموعد بحال من القلق والتوتر ذكّرني بحالي يوم حملتني العربة إلى حانة شارع الألفي لأول مرة... كلّ هذا من أجل امرأة لا جمال لها ولا رشاقة، يجعلي والله أن أظهر معها أمام الناس! ولمّا اقترب الميعاد ركبني الخوف الذي تناوبني كثيرًا في فترة الانتظار منذ العصر، ماذا يحدث لو تكرّر وقوع

الضحك، فتمتعت قائلة «عاشت الأساء»، وشعرت بأنه ينبغي أن أسأله كذلك عن اسمها. وتخبرت عبارة مناسبة، واستجمعت قواي للفظها، ولكنّها لم تنتظر، وقالت ببساطة:

- ادعني عنايت إذا شئت.

وغمغمت في خجل «عاشت الأساء» ولكنّها لم تسمع إلّا همساً، والتفتت نحوي فجأة وقالت مبتسمة:

- يا له من حياء غريب! ألم تعلم بأنّ الحياء موضة قديمة؟ وأنّ العذارى أنفسهنّ نبذهن بلا أسف؟ ففيم تستمسك به أنت؟

فندّدت عني ضحكة مرتبكة ولم أنبس بكلمة، فاستطردت قائلة:

- ولكن دعنا من هذا الآن فالدواء الناجح لا ينفع إلّا في حينه، وخبرني بالله عليك ما الذي دعاك إلى غالطة النوبيين في تلك القهوة القذرة؟!

وتفكّرت قليلاً متحيراً حتّى وجدت في الكذب منجى فقلت:

- كنت يوماً راجعاً من مشوار طويل فلم أجد من مكان أستريح فيه إلّا هذه القهوة.

- هذا عن أوّل يوم، وما قولك عن اليوم الثاني والثالث؟

وجاءني على البهامة جواب حسن، فتغلّبت على الحياء وقلت بصوت منخفض:

- إنك المسئولة عن بقية الأيام...

فلحظتني ضاحكة وقالت بمكر:

- أحقّ تقول أم أردت التهرب بالغزل؟

فغمغمت:

- بل قلت الحق...

فرمّت بنظرها إلى الطريق في دلال وقالت:

- فلماذا إذن تلتصق بالباب مبتعداً عني كأنك تكره

لسي!

وتولّاني الاضطراب، ولم أدر ماذا أفعل، ثمّ قلت كالمعتذر:

- ولكننا في الطريق...

وأغرقت في الضحك ثمّ قالت:

- نحن في السيّارة لا في الطريق. إلّا أنّ الطريق نفسه لا يمنع أمثالنا من الالتصاق إذا شاءوا. لا تتواز وراء الأعذار الكاذبة. خبرني ما عمرك؟!

- في الثامنة والعشرين من عمري.

- يا للعارا... وكم امرأة عشقت؟

ولدت بالصمت شاعراً بأنه لا يقبل لي بها. وكانت عجيبت لصمتي فقالت بإنكار:

- أتريد أن تقول إنك لم تعشق امرأة من قبل؟! وهل أنا أوّل امرأة في حياتك؟... ربّاه وعيونك الخضر ألم تجذب أحداً؟! لا شك أنّي أدركتك وأنت مشرف على الغرق، فليجزني الله على صنيعي خير الجزء... ربّاه من يصدّق هذا؟ كيف تعيش وماذا تصنع بحياتك؟

ولم أحر جواباً، وأثر في قولها تأثيراً موجعاً لم تدرك كنهه. ولعلّها قرأت في وجهي الارتباك فرحتني بالصمت ملياً. ثمّ سألتني عن عملي فأجبتها بأنني موظّف... واستدركت قائلاً إنني في إجازة قصيرة.

وساد الصمت مرّة أخرى، وفي أثناء ذلك ترحّزحت قليلاً صوبي حتّى مسّ منكبها منكبي في رفق، فبعثت في قلبي المنكش حياة وبقطة فتابع وجيّه على خوفي وخجلي ولمّا لازمت جمودي والتصاقي بالباب قالت باقتضاب وهي تكتم ضحكة:

- متى خطوة ومنك خطوة. ألا زلت هيباً؟!

ولاقى متّى النداء نفساً راغبة وقلباً خائفاً، ولكن جالدت الخوف مجالدة وترحّزحت في حذر وإشفاق حتّى مسّ جانبي - من أسفل الساق إلى أعلى المنكب - لحماً طرياً يتطاير منه عرف طيّب ساحر، ولبثت هنيهة متملّياً مسّه اللذيذ وكلّ جوارحي تنتفض، حتّى التفتت نحوي وشعرت بأنفاسها تتردّد على خدي، وهمست في أذني:

- أما زلت هيباً؟!

كلّاً، لقد أسكرتني العاطفة. وكانت أنفاسها لا تزال تتردّد على خدي فمال رأسها نحوي حتّى غاص فمي في شفيتها الرأبيتين وسرعان ما حوّلت رأسها عني

ها. إني بين يديها أتمرغ في التراب، ولكنّه تراب طيّب حنون يجود بالثقة والسعادة. وأدركت أخطاء الحياة الماضية، وذكّرت زوجتي المحبوبة في حزن وقنوط أوشكا أن يقصفا بعمر الساعة الساحرة، ولم أتردد عن تحميلها تبعة تعاسي كلّها!... هكذا بدا لي الأمر. على أنّ قلبي هفا إليها حتّى في تلك اللحظة وفي ذلك المكان! أمّا المرأة فقد ضربت أنفي بأغملتها وسألني:

- مبسوط؟...

فقلت من قلبي:

- جدّا.

وأخذت يسراي بين راحتها ورنّت إليّ طويلاً ثم غمغمت:

- يا لك من طفل رائع!

فتضاحكت قائلاً في حياء:

- طفل في الحلقة الثالثة!

ولاحت في عينيها نظرة جدّ واهتمام، وانتهت إلى أصابعها وهي تتحسّس خاتم الزواج، ثم ألقت عليه نظرة ذاهلة وهتفت بي:

- أنت متزوج؟! لم يَدُر لي هذا بخلد!

واستحوذ عليّ الخوف ونظرت إليها صامتاً. وعادت تفهقه ضاحكة ثم قالت:

- كيف لم يخطر لي هذا على بال؟! ولكن كيف أصدّق هذا؟! ربّاه لماذا جريت ورائي؟... ألا تعجبك زوجك؟! يا لك من فاسق!

فخفقت عيني في حيرة وارتباك ولم أنبس بكلمة، فسألني باهتمام:

- ألا تحبّ زوجك؟

وضايقتني السؤال، وتردّدت لحظة لا أدري ماذا أقول، ثم أرغمني حرج الموقف على أن أقول بصوت لا يكاد يسمع:

- إنّها ستّ طيّبة!

فقال بعجلة:

- إني أسألك ألا تحبّها؟

وشعرت بأنّ الكذب ينقلب فضيلة في حضرة

إلى الطريق أمامها، فأحطت خاصرتها الغليظة بيسراي وانهلت على جانب عنقها تقيبلاً. وانحرفت بالسيّارة إلى جانب الطريق وهي تغمغم ضاحكة «رويدك» ثم أوقفتها وهي تقول:

- لنسترح هنا قليلاً فهذا مكان آمن...

والقيت نظرة على الخارج فوجدتها اختارت موقفاً وسيطاً في المسافة بين مصباحين من مصابيح الطريق، تشمله الظلمة ويكتنفه الخلاء من الجانبين، وفيها عدا أزيز السيّارات التي كانت تمرّ بنا مرور البرق كان الصمت عميقاً محيطاً، سألتها هامساً:

- أليس ثمة خطر؟

فقال وهي تلفّ عنقي بيمنها:

- إنّهُ آمن من بيتك؟

واستدارت في جلستها حتّى مسّ متكبها المسند، وثنت ساقها اليمنى تحت فخذه اليسرى، فصرنا وجهاً لوجه، وانبرى لي صدرها العالي ينحسر عنه عنق الفستان ومال وجهي نحو صدرها فتوسّده في حنان وذبول، وأسكرتني رائحة جسم آدميّ أشهى من العرف الذكيّ. وسكنت إليه ما طاب لي السكون ويدها تعبت بشعر رأسي. ثم رفعت إليها وجهي والتهمت شفّتيها، والتهمت شفّتي، وكأنّ كلينا يأكل صاحبه ويزدرده، وولّى الخوف إذ لم يعد له مسوّغ! وامتلائت حياة وجنوناً وثقة لا حدّ لها، لا أدري كيف واتّني الثقة، كانت المرأة سيّدة الموقف فوجدت فيها المرشد الذي ضلّته حياتي كلّها، أعادت إليّ الثقة والطمأنينة لأنّها أخلتني من كلّ مسؤوليّة وأخذتني بالهودة والرفق، أدركت في تلك اللحظة - أكثر من أيّ وقت مضى - أنّ إلقاء أيّة تبعة عليّ خليك بأن يفقدني نفسي، وأنّني لا أجد هذه النفس المتهافئة إلّا بين يدين ثابتتين قويتين. ذابت الدنيا في نشوة جنونيّة ساحرة خرجت منها سكران بخمر الظفر والارتياح العميق. وشعرت من الأعماق رغبة إلى هذه المرأة ليست دون الرغبة إلى الحياة، بل هي الحياة نفسها والكرامة والرجولة والثقة والسعادة. افتّر ثغري عن ابتسامة ظفر وسعادة، ورمقتها بنظرة امتنان لم تدرك عمقه وهيئات

النساء فقلت باستياء أخفيته بابتسامة:

- كلاً...

فانبسطت أساريرها وسألت باهتمام:

- كم مضى على زواجك؟

فقلت وقد أهاجت سيرة الزواج أشجاني:

- قرابة عامين!

- ألم تكن تحبها قبل؟

- كلاً...

- زواجك منها بغير سابق معرفة؟

- نعم...

فهتفت بغضب:

- يا له من إثم لا يغفر، وهي ألا تحبك؟!

فقلت صادقاً لأول مرة:

- إنها لا تحب الحب!

واتسعت عيناها دهشة، وفتحت فاهها - رأيت في

جانب فمها ستيين ذهبيتين لأول مرة - وقالت: آه!

(بصوت مطوًط)... فهتمت كل شيء. توجد نساء على

هذه الشاكلة، لم لا، ليس كل النساء بالكاملات...

وتبادلت نظرة طويلة في ابتسام وصمت، ثم سألتها

ضاحكاً:

- وأنت، ألسنت متزوجة؟

فقلت وهي لا تحوّل عينيها عني:

- لست إلّا أرملة، كان زوجي لواء عظيمًا يدعى

عليّ باشا سلام، تزوجني على كبر وتزوجته على صغر،

ثم مات من بضعة سنين فعدت إلى أمي نعيش معاً،

والله وحده يعلم مع من أعيش غداً!!

جعلت تصفر بفمها وهي تبسم إليّ. ثم تناولت

حقيبتها واستخرجت منها فرشاة بودرة ومسحت على

وجهها وعنقها وصففت خصلات شعرها المبعثرة،

وراحت تلقي نظرة على وجهها في مرآة صغيرة مثبتة في

جانب السيارة وهي تسألني:

- متى تنتهي إجازتك؟

- بعد أيام قلائل...

فقلت بهدوء:

- سنلتقي كثيراً، كل يوم إن أمكن، ولنا في السيارة

متسع حتى نجد مكاناً صالحاً...

واستوت جالسة أمام عجلة القيادة، ولكني أمسكت

بمعصمها، ثم أحطت عنقها بذراعي، وضحكّت

ضحكة قصيرة، وضمتني إلى صدرها الرابي وهي

تقول:

- لماذا تركتني أستعيد زيني يا شاطر؟!

## ٥٦

عدت إلى البيت في تمام العاشرة، ولم أسأل نفسي

عمّا إذا كنت قد أخطأت لأنّ ما استردته من السعادة

والثقة كان فوق الخطأ والصواب، وكانت أمي قد

نامت، أمّا رباب فقد جلست في الفراش تطالع مجلة.

ما إن رأيت وجهها الصبيح حتى أشرق بروحي نور

بهيج وأحسست بأنني أنتقل من دنيا إلى دنيا أخرى.

وألني تفرّز مفاجئ لما صنعت بنفسي، ولكنه لم يتمكن

منيّ، فأنسانيه ذلك الحجاب الكثيف الذي يحول بيني

وبين زوجي... واستقبلتني بابتسامة وأبلغتني سلام

خالتها وعتابها، ثم أخبرتني بأنّ عشائي جاهز على

السفرة فمضيت إليه والتهمته بنهم متعب جائع.

وعدت إلى غدعنا وأنا أتساءل عمّا تفعل رباب لو

علمت بذنبي؟! وأخبرتني بأنها دعيت إلى إعطاء درس

خاصّ لابنة قاضٍ كبير بالسنة الأولى الابتدائية

وسألني عن رأيي. ومع أنّي لم أفهم منها على ما يريب

إلّا أنّي لم أرتج للاقتراح وقلت:

- حسبك ما تتجشمين من مشقة طول النهار!

فقلت بغير اكترار:

- صدقت...

وسررت لموافقتها السريعة، وقلت لنفسي في شبه

نسلم: «هيهات أن أقع على شبهة شك؟».

واضطجعت إلى جانبها، فتحت المجلة جانباً، وأطفأت

النور واضطجعت بسلام. كان النوم حرّاً بأن يسارع

إلى جفنيّ، لكنّ حالت دونه يقظة غريبة في النفس،

طار خيالي إلى عنايات، والسيارة في طريق الهرم، إنّي

خائن! أعجب بها من حقيقة! فمن يصدق أن يتخذ

الزوج العاجز عشيقاً؟ تمنّيت في تلك اللحظة لو تعلم

زوجي بهذه الحقيقة العجيبة، على أنها لم تكن إلا لحظة عابرة، وسرعان ما تقبّض قلبي خوفاً وخجلاً. لقد تعقّبت زوجي وبى شك في خيانتها فعدت خائناً لا شك فيه، أما هي فما وقفتُ منها على غير الاستقامة والاحتشام. كيف كان نصيبي منها العجز والإخفاق على حين أنني نعمت بين يدي المرأة الغليظة بهذه السعادة الجنونية؟! لفتني حيرة شديدة، تلهّفت نفسي على بصيص من النور.

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنها معاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذاب إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترأى لعينيّ رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمي بلا داعٍ فأتخذت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتناهت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة...

عرض عن الحب ما حييت!  
وجاءت السيّارة فأتخذت مكاني كالأمس. وتساءلت المرأة ضاحكة:

- ما الذي جاء بك الآن؟ ألم يكن موعدنا المساء؟  
فقلت مبتسماً:

- أنت أنت السبب...

فابتسمت في سرور وقالت:

- يجب أن نلتق بالغدا فلا ننفلص أبداً...

وتصاعد أزيز المحرك ينذر بانطلاق السيّارة فقلت

برجاء:

- الدنيا غار فهلأ عدلت عن الطرق المزدحمة!

- أخاف أن يراك أحد؟

فقلت بخجل:

- نعم.

- آه! نسيت أنك متزوج!... لا تؤاخذني يا

حضرة الزوج لنذهب إلى مصر الجديدة!

وانطلقت السيّارة بالسرعة الجنونية، وسألتني في

الطريق قائلة:

- ماذا فعلت بزوجك الأمس؟

فقطّبت وأنا لا أدري، ولم أحر جواباً، فقالت:

- لهذا الحد لا تحبّ ذكرها؟

ثمّ تساءلت متجاهلة صمني وارتباك:

- ألا تنامان في فراش واحد؟

وحاولت أن أغتصب ضحكة ولكنني عجزت،

وزاد من حيرتي أنني شعرت شعوراً عميقاً بأنني لا غنى لي عنها معاً. بل لم أجد سبيلاً إلى المفاضلة بينهما، فهذه روحي وتلك جسدي، وما عذاب إلا عذاب من لا يستطيع أن يزاوج بين روحه وجسده. ماذا تكون قيمة الدنيا بغير هذا الوجه الجميل المتسم بالطهر والكمال؟ ولكن ماذا يبقى لي من لذة ورجولة إذا فقدت المرأة الأخرى؟ وأغرقت في التفكير إغراقاً لم يدع للنوم سبيلاً إليّ، ومضت تترأى لعينيّ رباب ثم عنايات، وانحرف الخيال بغتة إلى أمي بلا داعٍ فأتخذت مكانها في شريط هذه الصور المتلاحقة! وتناهت بي الحيرة حتى شملتني حال من الحزن والكآبة...

بيد أن أحاسيس الليل قلّ أن تعيش في ضوء النهار. إنها في الليل تندمج في تيار لحن غامض ينطلق في جوّ أثريّ يكتنفه الضباب، فإذا طلع عليه النهار لم يبق منه إلا أصداً خفيفة لا تمنعنا من أن نلتمس سبيلها في الحياة. جاء صباح اليوم الخامس فانطلقت كالعادة إلى العباسية، ترى أقضي أثر رباب حقاً أم ألبي ذاك النداء المطاع؟ إن سيرة زوجي لا تدع مجالاً للشك، يصرّها كجهرها، فلا شك أنها صدقت فيما قالت عن الخطاب المشنوم، وإذا كان ثمة خائن فهو أنا.

وذهبت إلى قهوة النوبيين، فما أوفقها رمزاً لحبي الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إليّ إشارة ذات معنى أن أنتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل

وذهبت إلى قهوة النوبيين، فما أوفقها رمزاً لحبي الجديد. وانتظرت حتى فتحت النافذة فتبادلنا التحية بابتسامة لطيفة. وغابت برهة ثم بدت لي مرة أخرى وقد أخذت أهبتها للخروج، وأشارت إليّ إشارة ذات معنى أن أنتظرها في مكان الأمس. لم أتوقع أن نتقابل

وشعرت بامتصاص كدّر عليّ صفوي، فقهقتها صاحكة وقالت:

- لشدّ ما أرغب في رؤيتها..

وأرادت أن تسري عني بطريقتها فداعبت شفتي بأصبعها وقالت محاكية الأم التي تداعب طفلها:

- كنتكوي... .

ووقفت السيّارة أمام مشرب شاي... فجلسنا معاً نقلّب الحديث ظهرًا لبطن في لذة وسرور. وأخبرتني أنّ اختيارها قد وقع على بيت الخياطة ليكون مهديًا لغرامنا. وعند الظهر غادرت المكان، وقد أرادت أن تدفع الحساب ولكنني أبيت عليها ذلك، وافترقنا بعد أن تذاكرنا موعد المساء. وتكرّر اللقاء. ولمّا انتهت الإجازة بعد ذلك بيومين واصلنا لقاءنا في الأماشي. وأقنعني التجربة الناجحة بأنّ الحبّ صحّة وعافية. ولم يخفّ على أحد دأبي على السهر، ومع أنّ رباب كانت تفضّل - على حدّ قولها - أن أمضي سهراتي معها في زيارتها التي لا تنقطع، إلّا أنّها تحاشت مضايقتي، فباشر كلانا حياته بالسبيل الذي يرضاه. ولم يخفّ ذلك عن أمي أيضًا، وقد قالت لي: لاحظت يا بنيّ أنّك لم تكن على حالك الطبيعيّة في هذه الأيام الأخيرة، وقد خفت أن أعلن لك ملاحظتي أن تغضب، فإذا وجدت في السهر راحة فاسهر، هكذا الرجال جميعًا!!

## ٥٧

وانقضى شهر أو أكثر على حياة سعيدة لا يشوب صفاءها كدر. حلّ السلام مكان الشكّ وعادت علاقتي برباب إلى أصفى ما كانت عليه من الودّ الطاهر والحبّ البريء، أمّا من الناحية الأخرى فقد أسلمت نفسي لعنايات في حبّ مضطرب وسرور ظافر. إنّها امرأة موفورة الثروة. وما من مرّة نذهب إلى مهدنا المحبوب بيت الخياطة إلّا وتنفتحها بريال وأحيانًا نصف جنيه، وأبت عليّ كرامتي إلّا أن أكون كريماً كذلك، ولو في حدود طاقتي. وهيات لي - وهي لا تدري - معاودة الشراب على حال لا تنقطع، فكانت

الخياطة تحتفظ لنا بقوارير الويسكي والصودا دومًا، بل أوشكت أن تعودني التدخين، وكان لها مزايا وأيّ مزايا. كانت كاملة الأنوثة والحيويّة، فهي متعة للعشّاق على كهولتها ودمامتها المحبوبة، بيد أنّها كانت كذلك على استهتار وجسارة يقشعرّ لها البدن. عندها الحبّ كلّ شيء، وفي سبيله تستطيع أيّ شيء. ولعلّها لم تكن من النوع الهلوك، ولعلّها لم تكن إلّا امرأة هالعة، تشعر دومًا بإدبار الحياة الزاهرة، وذبول الشباب اليانع، فلا تطيق أن يمضي يوم بلا حبّ. وكان أعجب ما في حبيّ لها أنّني فُتنت منها بما هو حرّيّ أن يُعدّ من النقائص في نظر الغير، بكهولتها ودمامتها وجسارتها، وكانت تملؤني ثقة لا حدّ لها، فلم أكن أحمل لشيء همًّا. ولولا ما كان يتناهي من قلق، منشؤه ذلك الانفصال المخيف بين روحي وجسدي، لتملّيت الحياة صفاء خالصًا، على أنّها كانت حياة سعيدة.

وفي ذات يوم، وبعد فراغي من الغداء مباشرة، ذهبت إلى حجرة أمي لأشرب فنجانًا من القهوة وأجاذبها الحديث كعادتي كلّ يوم، وسرعان ما لاحظت أنّها تردّد في وجهي عينيها الصافيتين في قلق وتفكّر، فنفرست في وجهها الذابل الذي فقد مرحه وسعادته، فأدركت لتويّ أنّها تريد أن تقول شيئًا، وداخلني القلق، ولكنّي قلت مبتسمًا:

- ماذا وراءك: هاتي ما عندك!

فلاح التردّد في عينيها لحظات ثمّ قالت:

- بالأمس سمعت أمورًا أدهشتني، فهلّا خبرتني عمّا بين رباب والسّت والدتها؟

كلّ شيء توقّعت إلّا هذا. وغامت عيناها بسُحب ذكريات سود، وتساءل قلبي الخافق: هل عادت المرأة إلى لجاجتها القديمة؟! ولم تكن رباب قد أخبرتني شيئًا عن زيارة أمّها لها بالأمس إلّا أن أقرّأتني سلامها. وعدت إلى أمي أقول لها بصوت هادئ أو جعلته هادئًا:

- ليس بينهما إلّا كلّ خير... .

فهزت أُمِّي رأسها في ارتباب وقالت:

- لعلّه غابت عنك أشياء، أمّا أنا فلم أستطع استقبال نازلي هانم لأنّي كنت متعبة، ولما جاءت صباح لتخبرني بقصدها تصبغت النوم. وطالت الزيارة، فانسَلت من الحجرة لقضاء حاجة، ودنوت من باب حجرة الاستقبال، فما راعني إلّا أن أسمع السّت وهي تقول في انفعال وغضب: «هذا شيء لا يُحتمل» فتردّ عليها رباب بعنف قائلة: «لا تتدخّلي في شئوني!» فما ملكت أن تراجعني إلى حجرتي...

التهب جبيني حياء، ثمّ ركبني الغضب، فشعرت بمقت شديد نحو هذه المرأة الفضوليّة. واقتحمت أُمِّي عليّ أفكار متسائلة:

- ألم تعلم عنها شيئاً؟

- فقلت بحزم:

- لا شأن لنا بها.

وعدت بعد ذلك إلى مخدعي فوجدت رباب مستلقية على المقعد الطويل، فلما رأتني الصقت ساقها بمسندته لتفسح لي مكاناً فجلست متفكّراً، كيف أخفت عنيّ ذلك النزاع؟ هل أشفقت من إزعاجي؟ ولعلّها لم تلاحظ تغرّح حالي فراحت تقول لي: إنّ اليوم الجمعة، وإنّها تقترح عليّ أن نذهب ممّا إلى السينا، فتركناها تتحدّث حتّى انتهت فسألناها قائلاً:

- كيف حال والدتك؟

فأجابني بأنّها على ما يرام، فنظرت إلى عينيها وتساءلت:

- هل مرّت زيارة الأمس بسلام؟

فلاححت في عينيها نظرة ارتباك وقالت:

- ماذا تعني؟

فقلت بحزن وكآبة:

- رباب، لا تحفي عنيّ شيئاً. أعادت والدتك إلى ذلك الموضوع القديم؟

فلاذت بالصمت ملياً وقد تجهم وجهها، ثمّ تساءلت بحدّة:

- من أدراك بذلك؟ أريد أن أعرف كلّ شيء!

فأخبرتها بما قالت لي أُمِّي، وكانت تصغي إليّ

باهتمام ثمّ انفجرت قائلة:

- أمّك... أمّك... ودائماً أمّك!

ووخزني الألم الذي يحزّ في نفسي كلّما لاحت لي أي الكراهية المتبادلة بينهما، وقلت:

- لا داعي للغضب، لقد سمعتُ ما سمعتُ اتّفاقاً، ونقلته إليّ بقصد حسن كما هو ظاهر. بالله لا تستسلمي للغضب، وخبريني هل عادت أمّك إلى ذلك الموضوع القديم؟

وسحبت ساقها من ورائي، وألقته على الأرض، وأطرقت في تجهم وغيظ وقالت:

- الأمر الذي لم أشأّ تعكير صفوك به أنّها اقترحت عليّ أن أعرض نفسي على طبيب ليرى أسباب عدم الحمل، فرفضت اقتراحها بطبيعة الحال فتشاجرنا!

وواصلنا الحديث البغيض ملياً حتّى طلبتُ إليّ أن أمسك، وأن أقبل طلباً للراحة من تعب اليوم، فأذعنت لمشيئتها ومضيت إلى الفراش واستلقيت عليه عزوئاً مكتئباً. ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن أغفو، ولا أدري كم غفوت، ولكنّي استيقظت على شيء أطار عن عينيّ النوم. وفتحت عينيّ في انزعاج فسكّنت مسامعي ضوضاء آتية من الصالة، فأرهفت السمع، ولم ألبث أن أدركت أنّ رباب وأُمِّي يتبادلان أقسى الكلمات في ضجّة وصياح. وفقرت من الفراش في هلع ووثبت إلى الباب ثمّ مرقت منه إلى الصالة فإذا برباب تصيح وقد تطاير الشرر من عينيها:

- هذا تجسّس لا يليق بسيّدة محترمة.

ووقع بصر أُمِّي عليّ فخفضت بصرها وهي تقول:

- لا يسعني أن أجاريك في قلّة أدبك!

وهتفتُ برباب قائلاً: «رباب...» ولكنّها تحامتنى

ورجعت إلى حجرتنا في غضب جنونيّ. ودارت أُمِّي على عقيبتها وسارت إلى حجرتها بخطوات ثقيلة فأجّجهت نحرها صامتاً متألّماً. رأيتهّا تمسك بأكرة الباب ثمّ تقف دون أن تضغط عليها كأنّها عدلت عن الدخول. ورأيتهّا تضع راحتها على جبينها فخيّل إليّ أنّها تنحني رويداً، وأسرعّت نحوها، فما كدت ألمسها حتّى سقطت على يديّ فتلقّيتها بها في رعب وفزع.

قواها؟ فهالني الاقتراح وقلت بارتياح:

- هذا مستحيل.

فابتسمت إليّ متلطفة واستطردت قائلة:

- ألا ترى أنّها تحتاج لخدمة وعناية في كلّ حين، فمنّ ذا الذي يقوم بخدّمتها هنا؟ وأنت مشغول بعملك، وزوجك مشغولة بعملها، وصباح تقوم على خدمة المنزل، فإلى من تكبلُ أمر أمّنا؟

ولكنّي استفظعت اقتراحها، وثرثرت على ما قدّمت من حجج قويّة، وقلت بإصرار صادر من أعماق قلبي:

- لن يطول رقادها بإذن الله، ولن تحتاج إلى من يلازمها إلّا في الأسبوع الأوّل كما قال لي الدكتور، ولأجدنّ خادماً خاصّة تتوفّر للعناية بها.

وحاولت راضية أن تشيبي عن إصراري ولكن لم تجدي محاولتها، وانتهى النقاش بأن قرّرت الإقامة في بيتي حتّى أوفّق لإيجاد خادم. وفي اليوم الثالث لمرض أمّي حضر أخي مدحت - وكنت أخبرته بمرضها في خطاب مستعجل - وجاءت معه زوجته. وقد اشتدّت وطأة المرض على أمّي في الأيام الأولى لمرضها، لم تكن تبدي حراكاً، ولا تكاد تنبس بكلمة، كانت إذا فتحت عينيها المتعبتين لاحت فيها نظرة ذابلة غائمة تقلّبها بيننا في صمت وتسليم فتمزّق قلبي إرباً؛ ولم تكن نفارقها، وكانت إذا عاودتها بقطة خفيفة تردّد عينيها بيننا، وترسم على شفّتيها الجافتين ابتسامة، أو تبسط راحتها وترفع بصرها إلى أعلى وتغمغم داعية لنا بصوت منخفض وإنّ. ولكن لم تطل بها الغيبوبة، فتحسّنت حالها قليلاً في نهاية الأسبوع الأوّل من الأزمة. واستطاعت أن تدرك بوضوح أنّ أبناءها جميعاً يحيطون بها، ولعلّها رأتهم كذلك لأول مرة في حياتها. وقد جمّعنا الفراش مرة فجلست راضية ننظر إلينا في صمت طويل، ثمّ طفح وجهها بالبشر، وهمت بصوت ضعيف:

- ما أسعدني بكم!... الحمد لله والشكر له.

ولاحت في عينيها نظرة رقيقة تنمّ عن الحنان

وناديتها فلم تجب، وتدلىّ رأسها وذراعها. وصرخت منادياً صباح فجاءت تجري، فحملناها معاً وأثمنّاها على فراشها. وجئت بزجاجة كولونيا ورششت منها على وجهها وعنقها، ودلّكت بها أطرافها، وجعلت أناديا بصوت متهلّج مبحرج دون توقّف، وغشيها الإغواء دقائق مرّين بي كالساعات، ثمّ فتحت جفنيها عن عيني غائمتين، فهتفت بها وأنا أزدرد ريقِي:

- أمّاه...

فشخصت بصرها إليّ، وأشارت بيدها إلى قلبها دون أن تنبس بكلمة، وانطلقت مغادراً الشقّة إلى البَدال في أسفل العمارة، وتلفتت إلى طبييها أن يحضر، ثمّ صعدت إلى الشقّة وجلست إلى جانبها في حال من الذعر والحزن لا توصف. لم تفارقها عينا لحظة واحدة حتّى استلّكت نظرة عينيها الغائمة دمعي الحبيس. شعرت بأنّي أشقى إنسان في الوجود، وأفعمت نفسي كآبة وامتعضاً. ثمّ جاء الطبيب وفحصها، وقال إنّها نوبة قلبية، تستلزم رقاداً طويلاً وعناية كبيرة، ووصفّ الدواء كالعادة. وكنت قد قصصت على الطبيب كيف أغمي عليها عقب شجار مع الخادم! فقال لي: إنّ الشجار سبب طارئ ولكنّ الداء قديم. وقضينا ليلة عبوساً. أمّا رباب فقد توارت في حجرتنا في شقاء بالغ وقد ناءت بثقل تبعثها، وما زالت تبكي حتّى انفضّ قلبها من البكاء فلم يسعني إلّا أن أطيب خاطرها وأربّت على منكبي قائلاً:

- حسبك بكاء، هذا قضاء الله، وربّنا يجعل العواقب سليمة...

## ٥٨

وامتلأ البيت بالعواد، فزارتنا أسرة رباب وجمّع من أقاربها، وجاءتنا أختي راضية وأسرته، وعادت رباب المريضة وقبّلت يدها واستوهبتها العفو بعين باكية حتّى رجوت أن نبدأ - بسبب هذا الحادث - حياة جديدة خالية من كدر القلوب. وتحيّنت راضية فرصة خلوّ الحجرة من الأغراب وقالت لي:

- إني أستأذّنك في أن آخذ أمّي إلى بيتي حتّى تستردّ



والتأثر، ثم استدركت قائلة:

- إذا كان المرض يجمعنا هكذا فكم أتمنى ألا يزول.

وبدت - على مرضها - سعيدة، فانتقلت سعادتها إلى قلوبنا. التأمت أسرتنا التي قضى الله على عقدها بأن ينفرط منذ البداية: بتنا تحت سقف واحد، وأكلنا وشربنا معاً، وانتظمت قلوبنا خفقة واحدة. يا لها من أيام رددت أنفاسنا فيها الإشفاق والحنان والسعادة. بيد أنها كانت أياماً قلائل. فقد تقدّمت صحة أمي تقدّماً حسناً، وزال الخطر عنها وإن حتم الطبيب عليها بالآل تبرح الفراش شهراً كاملاً على أقل تقدير. وعند ذاك ودّعنا مدحت وعاد بأسرته إلى الفيوم واعدوا بالزيارة من آن لأن. وعادت راضية كذلك إلى بيتها. وكنت قد وُفِّقْتُ إلى اختيار خادم لأمي - على أن تعود أمها كل يوم. انفَضَّ السامر، وتفرَّقَ الشمل، وعاد كل شيء إلى أصله. ولم يكد يمضي أسبوعان حتى أخذت أمي تسترد حيويّتها ويقظتها، وأمكنها أن تجلس إلى الفراش مستندة إلى وسادة منكسرة. ولشدّ ما سرّني أن تقوم رباب بواجبها نحو حمايتها، ولن أنسى ما عانت من مرارة الألم والقهر في الأيام الأولى للمرض.

ولمّا عاودتنا الطمأنينة، ولم يعد أمام أمي إلا رقاد وإن يكن طويلاً إلا أنه مأمون، عدنا إلى سيرتنا المألوفة في الحياة. عادت رباب تروح عن نفسها بزياراتها المسائية، وانطلقت على سبيلي القديم. وقد استأذنتها في الخروج بضع ساعات ترويحاً عن النفس، فأذنت لي بحماس، وأفصحت لي عمّا كان يساورها من ألم لبقائي إلى جانبها كالسجين. وغادرت البيت متفكراً، متسائلاً ترى لو كنت أنا المريض أكانت تستأذن هي في مغادرة الحجرة ترويحاً عن النفس؟ وبدا لي منطق الحياة قاسياً ولكن لا حيلة لنا فيه!

وطرت إلى عنايات. وكانت تتلفن لي كلّ صباح بالوزارة فبيّنت لها الأسباب التي حالت دون لقائنا. وعدنا كما كنّا نلتقي في مهدنا فنسكّر ونحبّ كانت حياة غريبة، وأخوف ما أحافه أن تكون الذاكرة قد

خانتني ولو في القليل من تفاصيلها. أكنت سعيداً حقاً؟ كان قلبي موزعاً بين أمي وزوجي وعنايات، وبين الذكريات العميقة والهيام السامي والحبّ العارم. وحسبتي قد آويت من زوابع الحياة إلى مرفأ هادئ، ولكنّ القلق القديم عاد يطرق بابي في حذر وتردد كأنما يمنعه الخجل من اقتحامه بلا سبب ظاهر. أجل كنت أمضي في طريقي، ثم أتوقّف حيناً بعد حين في تردد كأنني أتساءل عن شيء أنسيته، هل أجد في السير أم يحسن بي أن ألقى نظرة إلى ما حولي، ثم يتبين لي أنّه ليس ثمة ما يستوجب التردد فأمضي على وجهي...

ويوماً وجدت رباب على غير ما عهدتها من المرح والنشاط فسألتها عمّا بها؟ فقلت لي: إنّها قضت نهائياً متعباً بالمدرسة، وإنّها ترجّح أن تكون مصابة بالإنفلونزا. وعدلت ذلك المساء عن الخروج. وفي صباح اليوم التالي، وعقب استيقاظها بقليل تغيّات بغتة، واستلقت في إعياء ووهن، فاقرحت عليها أن استدعي لها الطبيب، ولكنّها لم توافق قائلة: إنّهُ برد خفيض وستعالجه بغير معونة الطبيب. وجاءت أمها تزورها فلبثت النهار كله بحجرتها. على أنّ رباب أصرت في صباح اليوم الثالث على استئناف عملها وقالت لي: إنّها تشعر بأنّها استردّت صحتها تماماً، ومضت بالفعل إلى الروضة على رغم نصحي لها بالبقاء في البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها فوجدتها أسوأ ممّا كانت في الصباح، ولكنها أصرت على أنّها متمتعة بكامل صحتها، ولم تقنع بهذا فارتدت ملابسها وغادرت البيت يوماً أو يومين آخرين. وعادت من الروضة في ميعادها وكنت في بيت الحياطة ولمّا عدت إلى البيت في منتصف الحادية عشرة لم أجد رباب في حجرتها. وكأنّ صباح كانت تنتظر عودتي فجاءتني على عجل وقالت لي:

- ستبيت ستّ رباب عند والدتها وقد أرسلوا الخادم

لتخبرنا بذلك...

ووقع الخبر من نفسي موقع الدهشة والانزعاج، فسألت صباح قائلاً:

- وما الذي دعاها إلى ذلك؟

فقال الجارية بلهجة تنم عن الإشفاق:

- إنَّها بخير يا سيدي. ولقد زرتها ورأيته بنفسي،  
إلا أنَّ حرارتها مرتفعة قليلاً فلم توافق السَّ الكُبيرة  
على تعريضها للهواء، وآثرت على أن تبثَّ عندها حتَّى  
تنخفض الحرارة.

وغادرت الحجرة بلا تردّد وأنا أقول في حقّ:

- لقد حدّرتها من هذا ورجوتها مراراً ألا ترحل  
البيت.

وقابلتني في الصالة نفيسة «خادم أمي» وأخبرتني بأنَّ  
أمي ترجو أن أذهب إليها، فمضيت إلى حجرتها  
فأفصحت لي عن أسفها وكلفتني بأن أحمل دعاءها إلى  
«رباب» فشكرت لها، وغادرت البيت حانقاً قلماً.

## ٥٩

كان البيت نائماً تشمله ظلمة إلا نوراً ينبعث من  
حجرة الأم، فقصدتها لا أُلوي على شيء، ووجدت  
«رباب» مضطجعة في الفراش، والأم جالسة في فراش  
يقابله بالناحية الأخرى من الحجرة، فقابلتني بابتسامة،  
وانزلت الأم من فراشها وأقبلت عليّ وهي تقول:

- هذا ما قدّرناه قلنا سينزعج ويحيى من توه،  
والأمر لا يعدو أن يكون إنفلونزا.

وانتهجت صوب فراش «رباب»، وتناولت يدها،  
وقلت لها معانِباً:

- ألم أنصحك بعدم مبارحة البيت؟... ماذا  
بك؟... لماذا لم تعودي إلى بيتك؟

فابتسمت إليّ وقالت وهي تشير بأصبعها إلى أمها:

- أردت أن أعود ولكنَّ «ماما» لم توافق.  
فابتدرتني نازلي هانم قائلة:

- إنَّ حالها لا تدعو للقلق مطلقاً، بيد أنَّ تعرّضها  
لللهواء أمر شديد الخطورة.

فقلت بحزم:

- سأدعو الطبيب بلا إبطاء.

فقال الأم:

- لم يفتنا هذا، والطبيب نفسه الذي نصّح بعدم  
تعريضها للهواء، ليس في الأمر خطورة البتّة، وستعود

إلى بيتها بعد أسبوع أو عشرة أيّام على الأكثر.  
وغلبت على أمري فجلست على كنبه وثيرة تتوسّط  
الفراشين، بيد أنَّ هدوء الأم الظاهر انتقل إليّ رويداً،  
وجعلت الأم تقول: إنَّ الإنفلونزا بسيطة في ذاتها  
ولكن ينبغي أن نتقي نكستها.

فأصغيت إليها بغير وعي على حين رنوت إلى  
محبوبي بعيني وروحي، وتطلّعت إلى رباب مبتسمة  
ابتسامة فاترة، يلوح في عينيها الإعياء وقد رانت على  
نظرتها العذبة اللامعة غشاوة. وساد الصمت حيناً، ثمَّ  
تذكّرت جبر بك فجأة فسألت عنه، فأجابني الأم بأنَّه  
في رحلة تفتيشية يعود منها في نهاية الأسبوع، ولما  
دقّت الساعة منتصف الثانية عشرة استأذنت في  
الانصراف، وقبّلت جبين زوجي، وغادرت البيت.

## \*\*\*

وفي صباح اليوم التالي تركت البيت قبل ميعاد  
خروجي المعتاد بثلاث ساعة، وكانت «صباح» قد  
استأذنتني في زيارة رباب، فعهدنا بشئون البيت إلى  
نفيسة، ومضيت من تويّ إلى بيت جبر بك، فقابلت  
على السلم محمّد وروحية، فسلمت عليهما وسألتهما  
عن رباب؟ فأجابني الأخت الصغيرة بأنَّها بخير،  
ودخلت الشقّة وذهبت إلى الحجرة فوجدتها في  
الفراش، والأم جالسة على الكسّة، وردّت تحيّي برقة  
وابتسام، ولكنّي رأيت في عينيها ذبولاً شديداً كأنّها لم  
تم ساعة واحدة في ليلتها الماسية، وساورني القلق  
واستحوذ عليّ الانقباض. ولكنّي أخفيت ما قام بنفسي  
أن أخفيها، وقلت متعمّداً الكذب:

- أراك أحسن حالاً؟

فقال باستسلام أوجع قلبي.

- الحمد لله...

وجلسْتُ على طرف الكنبه قريباً منها، وثبّتُ على  
وجهها عيني، كانت عاصبة وجهها بمندبل بني، يبدو  
وجهها تحته شديد الشحوب، وتلوح في عينيها  
الذابلتين نظرة ساهمة، فغشيت صدري كآبة، وضاعت  
بي الدنيا وبدا لي وجهها قبيحاً كالخا، ولاحظت نازلي

دخلته فيها يشبه الهلع، ودققت الجرس، وفتح الباب بعد قليل، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت أمامي الدكتور أمين رضا، وكان هو الذي فتح الباب، وكانت الصالة الصغرى التي يفتح الباب عليها مغلقة الأبواب وليس بها سواه، ولم أكن رأيته منذ اجتاعنا في مأدبة الغداء بهذا البيت. ترى ما الذي جاء به في هذه الساعة المبكرة؟! وما الذي أبقاؤه وحده في هذه الصالة المغلقة؟ ومددت له يدي وأنا أقول:

- السلام عليكم!

فمد لي يده قائلاً: «وعليكم السلام»، وكأني لاحظت أنه يحدجني بنظرة غريبة من وراء عويناته، فقلت له:

- ألا تفضل بالدخول؟ ...

فتحول عني وهو يقول:

- إني منتظر في حجرة الاستقبال.

وأنجّه بالفعل نحو باب الحجرة، وفتحته، ودخل، ومضيت إلى باب الصالة الكبرى وفتحته ودخلت، وسرت نحو حجرة نازلي هانم، ولكنني ما قطعت خطوتين حتى قرع أذني صوت غريب لا أدري كيف أصفه، أكان تنهّداً طويلاً؟ أكان صراخاً مكتوماً؟ ولكنّه كان آتياً بلا ريب من وراء باب الحجرة المغلقة، حجرة رباب، واندفعت نحو الباب، وأدركت الأكرة وفتحته، ودخلت خافق الفؤاد من الهلع، وأنجّه بصري إلى الفراش فرأيت رباب نائمة، مغطاة إلى عنقها، وقد التفّت منديلها حول وجهها من قمة الرأس إلى أسفل الذقن ماراً بالأذنين، كانت عيناها مغمضتين، وبشرة وجهها شاحبة باهتة، يشوبها بياض خفيف. لقد بعث الوجه المعصوب في نفسي ذكريات غامضة لم أجد وقتاً لتوضيحها ولكنّه حرك رعباً كامناً في أعماقي، ثمّ تبين لي في اللحظة التالية أنّ نازلي هانم جالسة على طرف الكنبه دافئة وجهها في وسادة الفراش، مغرقة في نحيب موجه، وأنّ «صباح» واقفة عند أسفل الفراش تولول باكية فلم تنتبه لدخولي ...

رباه! ... هل حقاً ماتت رباب؟!

هانم كآبتي فقالت بدهشة:

- ألم تحرّب وعكة البرد قبل اليوم؟ إنك تدللها يا سي كامل أكثر مما ينبغي ...

وسري عني قليلاً بأنّ التي تستهين بالحال هي أمّها، ولو كان بزوجي ما يدعو للقلق لما ملكت الأم نفسها. وملتُ نحو الفراش قليلاً، ووضعت راحتي على خدّها فوجدته ساخناً، ولكنّها ابتسمت إليّ وقالت:

- إذا كان بي تعب فالمسئول عنه أرق ألم بي الليلة الماضية، وسأستردّ انتعاشي إذا ما نمت ولو ساعتين ...

فقلت لها برجاء:

- حاولي أن تنامي معها كلّك الأمر ...

ونظرتُ في عينيها طويلاً، فرنت إليّ دقيقة ثمّ خفضت عينيها بلطف، ولم أجد بداً من الانصراف، فنهضت واعدت بالزيارة عقب عودتي من الديوان، وذهبت.

بلغت الديوان بعد الثامنة بعشر دقائق، وعكفت على عملي، ولكنّ العمل لم يستطع أن يغيبني عن نفسي، وعدت بفكري إلى رباب فتمثلت لي نظرة عينيها الساهمة واستشعرت وحشة لم أدر لها سبباً، وحاولت أن أفنى في العمل ولكنّي لم أفر بطائل، وغلبتني على أمري نفسي التي تخلق المخاوف من لا شيء، فاشتدّ بي القلق وجعلت أقول لنفسي: إنّ رباب عجزت عن العودة إلى بيتها، وهي تبدو مهزولة متضعضة فكيف أطمئن؟ ... كيف أتركها؟! ولم يكن تهافت قلبي حيال أخفّ الملّات بجديد عليّ، وطالما جافاني النوم لوعكة خفيفة تنتاب أمي، فلعلّ ذلك الخوف كان أثراً من هذا التهافت المقيم. أفضّطُ بها من كآبة ثقيلة! إنّ قلبي يتقبض في خوف وألم، وكأنّه يكاتم صرخة استغاثة تحاول أن تنطلق. لماذا أعذب نفسي بتجرّع غصص انتظار لا موجب له؟ وعند ذاك طويت الأوراق واستأذنت في الانصراف معتذراً بمرض زوجي. وغادرت الوزارة في منتصف العاشرة، فبلغت البيت قبل العاشرة بدقائق ... وكنت كلّما اقتربت من البيت ازداد قلبي وحشة، حتّى

هتفت كالمجنون:

- خبراني ماذا حدث؟

والتفتت نحوي صباح وصاحت وهي تنشج:

- سيدي... سيدي...

ورفعت المرأة وجهها في فرع ظاهر، وحملت في وجهي بعينين محمّرتين، ولبثت لحظة جامدة لا تتكلم ولا تبكي، كأَن محضري كان عليها أشد من الموت، ثم شهقت وأفحمت في البكاء. رددت بصري بين المرأتين في ذهول ثم استقرّ بصري على الوجه العصبوب. كيف أذعن لحكم هذا الواقع المخيف! ونازعني قلبي المتفتت إلى أن أرتمي على زوجي، وأن أبكي وأصرخ حتى أموت. بيد أنني لم أجد حراكًا، سمّرتني قوّة غريبة في مكاني، وملأتني قسوة وحنونًا... واجتاحني ثورة عارمة تتحدى قوّة الموت نفسه ويطش القضاء. أبيت أن أصلّق عيني، واستعصى عليّ الاقتناع. ما معنى هذا؟ ولوّحت يدي للألم وسألتها بصوت كنت أسمع له لأول مرة:

- كيف... كيف...؟

فبسّطت ذراعها في قنوط وقد خنقتها العبرات، ولكنّ صباح أقبلت نحوي في حال من الهذيان مرعبة وصاحت بصوت مبحوح:

- العملية المشؤمة!... لعن الله العملية.

وتحوّلت إلى الجارية في ذهول وصحت بها:

- عملية؟... أية عملية!!؟

وأدركت عند ذلك أنني أشم رائحة غريبة، فأدرت بصري في الحجرة حتى وقع على خوان في ركن منها صُفّت عليه أدوات طبيّة وأوعية وزجاجات وقطن. اقتربت من الخوان وتفحصته بعينين زائغتين، متى جاءوا بهذا كله؟ ومتى استقرّ الرأي عليه؟ كيف حدث هذا؟... ونظرت إلى المرأة فوجدتها ترمق الجارية بنظرة قاسية غريبة، فازداد ذهولي وحيرتي، ثم تحجّر قلبي قسوة وحنونًا، فألقيت عليها هذا السؤال بصوت رهيب:

- أية عملية التي تتحدّث عنها صباح؟

ونظرت المرأة إلى بارتياح وارتباك ثم قالت بصوت مختنق بالعبرات:

- اشتدّ حال ابنتي فجأة فاستدعيت الطبيب فأشار بإجراء عملية في الحال...

فسألتها وقد استحلّت شخصًا جديدًا مخيفًا غير الشخص الذي عرفه العالم قرابة ثلاثين عامًا:

- في أيّ عضو؟

فقالت المرأة:

- قال الدكتور إنّه البروتون...

وكنت أسمع الاسم لأول مرة، ولكنّي لم أبال. ذلك، وسألت بالصوت الرهيب نفسه:

- هل أجرى العملية؟

فقالت وهي تبكي:

- نعم... وانتهت بما ترى!

فضربت الأرض بقدم حائقة وصحت بها:

- ولكنّي كنت هنا منذ ساعتين ولم يكن بها شيء! ألم تؤكّدي لي أنّ الحال أبسط من أن أجزع لها؟! فقالت بصوت تخنقه الدموع:

- اشتدّت وطأة الألم فجأة!... ما حيلتي؟... ما حيلتي!

فسألتها دون أن تأخذني بها رحمة:

- ومن عسى أن يكون الدكتور القاتل؟! فرمقتني بنظرة كسيرة خلال دموعها وغمغمت:

- لقد بذل ما في وسعي، ولكنّ قضاء الله سبق!

- من عسى أن يكون؟

فصمتت لحظة كأنّها تأخذ نفسها، ثم قالت:

- الدكتور أمين رضا...

فسرّرت في جسدي رعدة شديدة، ردّدت قولها في ذهول: «أمين رضا»، ثم هتفت بها في غضب وازدراء:

- الدكتور أمين رضا؟! إنّه شاب مبتدئ!... ثم إنّه أخصائي في الأمراض التناسليّة!

فتولّاهما الارتباك، وراحت تقول: إنّه كان أقرب طبيب إليها، وإنّها ظنّت أنّ الطبيب يفهم الأمراض كافّة مهما كان اختصاصه، وإنّ الوقت لم يكن يسمح

الجارية بقبضة يدها ضربة هائلة فتراجعت الجارية في فرع، ثم التفتت نحونا ممسكة عن اللطم وصرخت في وجهينا - أنا والطبيب - بصوت كالزئير:

- أنتما اللذان قتلتماها... اغربا عن وجهي.  
وانفلت الطبيب من الباب، ولبثت وحدي أحدها بنظرة قاسية لا تأبه لثورتها. «أنتما اللذان قتلتماها». إن المرأة تهذي، ولن تأخذني بها رحمة، ولن يهدأ خاطري حتى أعمل عملاً ترتج له القلوب. إني حيال جريمة، إلا تكن جريمة جهل وغباء، ولا بد أن يؤدي الثمن غالباً. لقد تمخض خضوع العمر في عن ثورة جائحة وغضب نارٍ وشراً مستطير. نسيت الجثة والحزن وتحاليت الشياطين لعيني. لتنفض الدواهي على رؤوس المجرمين.

وكانت المرأة تعول بصوت مزعج، وصباح تنتحب انتحاباً متواصلًا، فتحوّلت عنها بحركة مفاجئة، وغادرت الحجرة لا أُلوي على شيء، ثم مرقت إلى الخارج مهرولاً كأنّي أفرّ فراؤًا.

## ٦١

بدت الدنيا لعيني حراء قانية. وركبني عناد جهنمي دفعتني دفعا لا قبل لي به إلى ارتكاب أيّ شرّ أنفُس به عن صدري. وكنت في شك من بلوغ أيّة نتيجة تشفي غليلي ولكّني لم أتردد لحظة واحدة، وناديت تاكسي وأمرته أن يذهب بي إلى النيابة. ودخلت دار النيابة وليس في ذهني خطة معينة أو تهمة صريحة. وجدّتي في زحمة خانقة وصكّت مسامعي ضوضاء غير مميّزة كهدير البحر، فلبثت حائرًا لحظات حتى رأيت شرطياً فتقدّمت منه وسألته أن يدلّني على حجرة وكيل النائب، فقال لي بخشونة، «في الطابق الثاني»، فارتقيت السلم واسترشدت بموظف إليها، ثم استأذنت ودخلت، رأيت مكتباً في مواجهة الداخل جلس وراءه شابّ قصير نحيل، مكباً على أوراق بين يديه، فرفع رأسه حين دخولي، وتفحصني بنظرة ثاقبة، ثم سألني:

- ماذا تريد؟

بالتردد الخ... فانتظرتُ حتى انتهت وأنا أنتفض غضباً وحنقاً، ثم انطلقتُ مني ضحكة باردة كرنين النحاس وصحت:

- طبيب تناسلي ويجري عمليّة في البروتون!... لا عجب إذا كنتم قتلتموها...  
ودرت على عقبي واندفعت إلى الباب وصحت بصوت كالرعد:  
- يا دكتور...  
وكرّرت النداء، حتى جاء من أقصى البيت ممتنع الوجه، ودخل الحجرة في خشوع لا يوائم كبرياءه المعهود، فشعرت نحوه بنحو وكرامية تضيق عنهما الأرض، وبادرت قائلاً:

- أخبرتني الهانم أنك أجريت العمليّة التي قتلت زوجي، فهلاًّ دللتني على ما جعلك تأخذ على عاتقك إجراء عمليّة جراحية خطيرة على رغم أنّ الجراحة ليست من اختصاصك؟  
وبدا في وجهه الانزعاج، وحجج نازلي هانم بنظرة غريبة أعادت إلى غيظي نظرة المرأة إلى صباح ففتح بي الخنق، وداخلي شعور غامض بأنهم يدارون عني أمراً خطيراً، وصحت به بوحشية:

- أجبني!

فالتفت نحوي مقطباً، وصمت لحظة كأنّما يشاور كبرياءه الضائع، ثم قال بصوت منخفض:  
- كانت في حاجة إلى عمليّة عاجلة...  
فقلت وأنا أضرب كفّاً بكفّ:

- لماذا لم تدعوني؟... لماذا لم تستدعوا طبيباً جراحاً؟!

فقال الأمّ بجزع:

- لم يكن في الوقت متسع!

فزعقت بها:

- ولكن كان فيه متسع لقتلها...  
وحملت المرأة في وجهي بجنون وجعلت تتردد:

«قتلها... قتلها... قتلها!» ثم انفجرت بغتة ففقدت صوابها، واهالت على خديها لطمًا، وقد أرادت صباح أن تحول بين كفيها وخديها، ولكّتها ضربت وجه

صدمني هذا السؤال البسيط فاستحال عقلي خواء، ووقفت ذاهلاً كأنني لا أدري على وجه التحديد لماذا جئت. ولاح التساؤل على وجه الشاب فأعاد سؤاله قائلاً:

- ماذا تريد؟

ينبغي أن أتكلّم مهتماً بكفني الأمر، فقلت تاركاً مقودي للسان:

- زوجي... (كدت أقول قُلت ولكنّي عدلت عن ذلك خوفاً)... ماتت...

فقطّب الوكيل فيها يشبه الدهشة وقال:

- وما شأن النيابة في ذلك؟! ولكن من حضرتك؟ وتنفست تنفّساً عميقاً، ووجدت رهبة الخوف تزيالي، وعرفته بنفسه ثم قلت:

- إليك قصّتي يا سعادة الوكيل: تركت زوجي متوكة في بيت أمها صباح اليوم، وعدت إلى البيت بعد مغادرتي إياه بساعتين فوجدتها ميتة. وقالوا لي إنّ وطأة التعب اشتدّت عليها فجأة فاستدعوا طبيباً قريباً من أقرّاء أمها، فرأى أنّ حالها تتطلب إجراء عملية عاجلة فقام بها وماتت على الأثر...

وازدردت ربيقي وأنا أرمق الرجل بنظرة طويلة، ولمّا وجدته غير قانع بما سمع استطردت قائلاً:

- الواقع أنّ هذا الطبيب أحصائي في الأمراض التناسلية، فهل يجوز أن يجري عملية جراحية؟ وإذا انتهت هذه العملية بالوفاة ألا يعدّ مسؤولاً عنها فيجب أن ينال جزاءه؟!

فصمت الرجل لحظة ثمّ سألتني:

- هل نُقلت إلى مستشفى؟

- كلاً... أجريت العملية في البيت حيث ترقد ميتة الآن.

- من الذي استدعى الطبيب؟

- حماتي...

- وكيف استدعت طبيباً تناسلياً لا شأن له بمرض

زوجك؟

- لقد سألتها نفس السؤال فقالت لي إنّهُ أقرب الأطباء إليها، وإنّها تظنّ أنّ الطبيب، مهما كان

اختصاصه، فهو يفهم الأمراض جميعاً...

- وهل هو الذي أشار بإجراء العملية؟

- نعم.

- وهو الذي أجراها؟

- نعم! وقد سألته كيف يجري عملية جراحية على

حين أنّه ليس جراحاً؟ فقال لي إنّ الحال كانت تستدعي عملية عاجلة...

فتفكّر الرجل ملياً، ثمّ سألتني:

- هل تتهم هذا الطبيب اتهاماً معيناً؟

فلم أفهم ما يعنيه، ورنوت إليه في حيرة دون أن أنبس بكلمة، فسألني:

- هل لديك من الأسباب ما يحمّلك على اتهامه بقتلها عمداً؟

فخفقت قلبي، وهزّزت رأسي سلّماً، فقال متسائلاً:

- هل تشكّ في حدوث خطأ أثناء العملية أدّى إلى الوفاة؟

- هذا جائز جداً يا سعادة البك، ولن يكون مجرد، خطأ، ولكنّه خطأ رجل ليس له خبرة بالجراحة، فمستولّيته لا شكّ فيها.

فعاد التفكير مرّة أخرى ثمّ قال:

- لا أستطيع أن أفصي برأي قبل أن يفحص الطبيب الشرعيّ الجثة، ويوضح أسباب الوفاة...

فاستحوذ عليّ خوف وكآبة، ولم أطلق تصوّر عبث الطبيب بالجثة، وفاض بي الألم فقلت:

- هلّا استدعيت الطبيب للتحقيق معه أوّلاً؟

فلم يحفل باعتراضي، وأمسك بساعة التليفون وطلب رقمّاً، ثمّ سمعته يحادث الطبيب الشرعيّ، ثمّ سألتني عن عنوان البيت، وطلب إليه أن ينتقل إليه ليفحص الجثة ويكتب تقريراً عن سبب الوفاة، وأنهى الحديث ثمّ التفت نحوي قائلاً:

- إذا كان ثمة مسؤولية جنائية فسادّهب

للتحقيق...

وغادرت دار النيابة بعد إتمام الإجراءات الرسمية وقد فقدت تهوّري، فاستشعرت خطورة ما أقدمت عليه. ليس الأمر لعباً، إنّهُ نيابة وطبيب شرعيّ

فاستثار منظرها وسؤالها خوفاً وشعور الخزي الذي  
ركبني منذ فارقت دار النياحة ولم أعد أطيق حبس السرِّ  
الرهيب في صدري. نازعني نفسي إلى الاعتراف،  
وإلى لقاء الخطر وجهاً لوجه، فقلت بهدوء:

- ذهبت إلى النياحة وطلبت إجراء التحقيق!

فاتسعت حدقتها وفغرت فاهها، وجعلت تحمق في  
وجهي كأنها لا تصدق ما سمعت أذناها، ثم غمغمت  
بذهول:

- النياحة...

فقلت بهدوء رهيب، وبصوت مرتفع لأسمع من في  
حجرة الاستقبال:

- أجل ذهبت إلى النياحة وسيجيء الطبيب الشرعي  
إلى هنا عما قليل.

وسرعان ما بدا الدكتور خارجاً من الثرى، فوقف  
غير بعيد ممتنع اللون ساهم الطرف، وعادت المرأة  
الذاهلة تسأل:

- أية تهمة وجهتها إلينا؟

فقلت وأنا أتملى الحقد والتشقي بوحشية:

- ليس تهمة تهمة، ولكن أجزم بوجود خطأ خطير  
نجمت عنه الوفاة، خطأ خلّيق بأن يقع فيه من ليس  
له خبرة بالجراحة وهو يتصدى للعبث بأرواح  
العباد...

وساد صمت متوتر أليم تلاقت فيه الأعين  
وافترقت. ثم شهقت المرأة شهقة عصبية وهتفت بي:

- كيف هان عليك أن تسلم جثة زوجك للنياحة؟  
ووخزي ألم عميق فكادت تنهار قواي، ولكني  
غطيت على الألم بغضب مفتعل وصحت بعنف قائلاً:

- يهون عليّ ذلك ألا تضع حياتها هدراً!

وفغر الطبيب فاه ليقول شيئاً ولكن الجرس دق بقوة  
هلعت لها القلوب، فمضيت إلى الباب وفتحت، فبدا  
شرطي ابتدرني قائلاً:

- هل توجد في هذه الشقة المرحومة حرم كامل  
أفندي رؤبة الموظف بالحريّة؟

فأجبت بالإيجاب، فتنحى الرجل جانباً وهو يقول  
«سعادة الطبيب الشرعي»، ودخل رجل ربعة يحمل

وبوليس وفضيحة وقيل وقال، وقد يتمخض التحقيق  
عن لا شيء فلا يبقى لنا إلا الفضيحة والقليل والقال،  
بأي وجه ألقى الناس بعد ذلك؟ كيف ألقى أهلها  
وأهلي والناس جميعاً؟! وألم يكف زوجي ما قُدّر لها من  
مصير تعيس حتى أجعلها معرضاً للأطباء الشرعيين  
ومضغة للأفواه؟ واحرّ قلباه! هكذا عدت صوب  
البيت مثقل النفس بالهم والفكر، ولما طالعتني العمارة  
توقفت متردداً وقد أهاب بي نداء أن أنكص هارباً!  
ولكن لم يكن لي مهرّب، ولم يكن بدّ من أن أتجرّع  
مرارة الكأس حتى الثمالة...  
ودقت الجرس، ثم دخلت واجماً مستخزياً...

## ٦٢

كانت الأبواب مغلقة إلا باب حجرة الاستقبال كان  
موارباً، ولم يكن بالبيت أثر من الضجة التي تشمل  
البيوت حين الموت، فتولّتي دهشة عفت على  
اضطراب نفسي. لقد جاوزت الساعة الحادية عشرة  
فكيف لم يطيروا الخبر المفجع إلى بيوت الأهل  
والأقارب! وعادني شعور بالارتباب والحنق...

فنظرت إلى الخادم الصغيرة التي فتحت لي - وكانت  
ملتهبة العينين من البكاء - وسألتها ألم يحضر أحد؟  
فهزّت رأسها سلماً في صمت وحزن، فأشرت إلى  
باب حجرة الاستقبال الموارب وسألتها:

- هل تهمة أحد هنا؟

فغمغمت قائلة «الدكتور أمين» فانتفض جسمي  
غضباً ومقتاً. ثم مضت الخادم إلى باب الصالة الكبيرة  
فدفعته ودخلت وذهبت إلى الحجرة التي ترقد فيها  
رباب في أقصى البيت. لبثت وحيداً في الصالة  
الصغرى لا أدري ماذا أنا فاعل، تتابني مشاعر الرهبة  
بما أقدمت عليه وأحاسيس الغضب والمقت التي يثيرها  
في نفسي الجوّ المحيط بي. ثم سمعت وقع أقدام آتية  
من الداخل، وظهرت من باب الصالة الكبيرة نازلي  
هانم مكلمة في السواد، فألقت عليّ نظرة باردة وسألني  
بانفعال قائلة:

- أين كنت يا سيدي؟

بدفنها في الوقت المناسب، لا تفزعني يا سيدي  
فسيتهي كل شيء في دقائق...

وارتمت المرأة على مقعد مغلوبة على أمرها وراحت  
تنشج باكياً، على حين سرت أنا بين يدي الطبيب إلى  
حجرة رباب! ولما بلغت الباب جاءني نحيب صباح  
من الداخل، فدفعت الباب وناديتها دون أن تواتيني  
الشجاعة على النظر صوب الفراش، ولبت الجارية  
ندائي فتحيتها جانباً موسماً للطبيب الذي دخل  
الحجرة بلا تردد، ثم رددت الباب وراءه، وسألني  
الجارية عن الرجل الذي جثت به فهرتها في جزع  
ودفعتها خارج الصالة. ورحت أذرع المكان جيئة  
وذهاباً في اضطراب شمل أعصابي جميعاً، ورائت على  
صدري كآبة قاتلة، فتصوّرت جثة زوجي الحبيبة بين  
يدي هذا الطبيب الغريب، ينزع عنها الأستار،  
ويعبث بها في برود لا يعرف الرحمة.

لقد ندّ عني أنين موجه، وشعرت بألم حادّ يمزّق  
قلبي إرباً، ومرّت بي لحظات ذهول فخيّل إليّ أنّي  
فريسة كابوس شيطانيّ، وتلفتّ فيما حولي كأنما أتلّمس  
منفذاً للنجاة. ولكن هل نسيت السوجه الشاحب  
المعصوب يمحّم على جبينه شبح الموت الرهيب؟  
ربّاه... إنّني أثوب إلى نفسي رويداً رويداً، تاركاً دنيا  
الجنون الذي ركبني إلى عالم الفجعة الواقع، تمثّلت لي  
الحقيقة المروعة في شيء من الهدوء المحزن فكأنّني أدرك  
لأوّل مرّة أنّ رباب قد ماتت حقّاً. لم تعد من الأحياء.  
وخلت منها حياتي إلى الأبد لن تعود إلى بيتي كما  
قالت أمّها، ولن أصبحها صباحاً إلى الترام، ولن  
أستقبلها مساء عقب عودتها من المدرسة وهي تغالب  
التعب بابتسامة حلوة، انتهى الشباب الرّيان، وانطفأ  
الحبّ الباهر، وصوّحت آمال وآمال. أين مّيّ ذاك  
التاريخ السعيد الذي بدا على طوار المحطّة، فنسج  
ذكرياته من مادّة الحبّ الأثيريّة، وطاف بي في وديان  
السعادة، ثمّ خلّفتني خلّفاً جديداً، أين مّيّ هذا  
التاريخ الساحر؟ هل انتهى حقّاً في دقيقة من الزمان  
بخطأ طبيب أحق؟... وما ذنبي أنا؟... الموت  
كارثة فظيعة بيد أنّه غير مقنع!... ألم يكن أحدثها

حقيبة طبيّة وتبعه الشرطيّ على الأثر، وصادف الطبيب  
الشرعيّ الدكتور أمين في مواجهته فسأله:

- هل حضرتك الزوج الذي بلغ النيابة؟

فقلت له وأنا أغلق الباب:

- أنا الزوج يا بك، وهذا هو الدكتور الذي أجرى  
العملية.

وردّد الطبيب عينيه بيننا في دهشة، وجرت على  
شفثيه ابتسامة خفيفة، ثمّ سأل الدكتور أمين قائلاً:

- أيّ عملية كانت؟

فقال الدكتور أمين بصوت منخفض:

- عملية في البروتون...

- وما سبب الوفاة؟

- حدث ثقب في البروتون نتيجة خطأ خارج عن  
إرادتي...

وقلت عند ذاك في انفعال شديد موجّهاً خطابي  
للطبيب الشرعيّ:

- أسأله يا سعادة الطبيب عمّا جعله يجري عملية  
جراحية وهو ليس جراحاً...

فتردّد الرجل لحظات ثمّ قال بصوت مرتفع:

- لقد جثت لمهمة أخرى. أين الجثة من فضلكم؟

وكانت نازلي هانم واقفة بمكانها على كنب من باب

الصالة الكبرى تردّد عينيها المحمّرتين في وجوهنا في

صمت وذهول، فلما أن سمعت الطبيب يسأل عن

مكان الجثة ندّت عنها آهة وهتفت بلا وعي قائلة:

- هذا لن يكون أبداً...

فرمقها الطبيب بنظرة سريعة ثمّ قال لها برقة:

- تحملي بالصبر يا سيدي...

وألقت عليّ المرأة نظرة مشتعلة بالغضب تمّ عادت

إلى الطبيب تقول برجاء:

- إنّ المتوفاة كريمة رجل من كبار موظفي الدولة،

جبر بك السيّد، كبير مفتشي الوجه البحريّ، لعلك

تعرفه يا سيدي، فارحم ضعف امرأة مثلي وانتظر

عودته، لقد أبرقت له بالفاجعة.

فقال الطبيب برقة:

- ينبغي فحص الجثة بلا إبطاء حتّى يمكن التصريح



بالتحية. وسأل وكيل النائب عن حجرة المتوفاة، ثم مضى إليها توتاً يتبعه الكاتب، ولم أجد الشجاعة للحاق بها، فانتظرت خارجاً. ولم يطل غيابها فعادة مرة أخرى، ونظر الرجل فيما حوله ثم سار إلى حجرة الاستقبال وأنا في أثره، وجلس على كنبه، واقتعد الكاتب كرسياً قريباً باسطاً أوراقه على نضد. ووجه إليّ

أسئلة عن اسمي وعمسري ووظيفتي وطلب إليّ أن أروي معلوماتي عن الحادث. فصعدت بأمره والكاتب يستجل كل كلمة أقولها. ثم استدعى الدكتور أمين رضا فجاء الدكتور جامد الوجه شاحب اللون، وسمح له بالجلوس أمامه، ثم وجه إليّ الخطاب قائلاً:

- بوسعك أن تبقى معنا إذا شئت!

وخيل إليّ أنّي وجدت في لهجته ما يشبه الأمر، وكانت رغبتني في حضور التحقيق لا توصف، فجلست على مقعد ملاصق للكنبة التي جلس عليها المحقق وقد ملكتني الرهبة والتأثر. وبدأ الرجل يلقي عليه أسئلة عامة عن الاسم والعمر والمهنة، ثم قال له:

- أخبرني كيف اتصلت بهذا الحادث من بادئ الأمر؟

فقال الدكتور أمين بلا تردد:

- استُدعيتُ إلى عيادة المريضة زهاء التاسعة صباحاً فوجدتها في حال سيئة من الألم، ففحصتها فتيّنت لي أنّ البروتون ملتهب وأنّه يستوجب عملية عاجلة فقررت إجراءها إنقاذاً لحياة المريضة، وأعلنت رأيي لأمها فوافقت، وفي الحال أجريتها، ولكن حدث أن ثقب الغشاء ثقباً خطيراً، وذهبت مجهوداتي في إنقاذها سدى، فتوفيت...

- هل سبق لك أن عاجلت المتوفاة؟

- كلاً...

- ولا في هذا المرض الأخير؟

- كلاً، وقد علمت أنّها رقدت ليلة واحدة وكانوا يظنونها مصابة بنوبة برد.

- هل من عادة هذه الأسرة أن تستدعيك فيها يلم بها من أمراض؟...

- لم يحصل هذا، إلى أنّي لم أزاوِل مهنتي إلّا منذ

منذ ساعتين؟ ألم تكن كالوردة البانعة منذ يوم أو يومين؟ فكيف أصدّق أنّها صارت وأول ميت منذ ملايين السنين سواء. ثم إنّها حيّة في نفسي، إنّني أراها رؤية العين، وأسمعها، وألمسها، وأشمّها، إنّها ملء النفس والقلب، فهل من سبيل إلى إصلاح خطأ بسيط؟!

وحدثت حركة - لا أدري إن كانت جاءت من الصالة الخارجية أو من الحجرة المحزونة - ولكنّها أعادتني إلى وعيي فعلق خاطري بالطبيب وما يفعله. عاودني اضطرابي وقلقي ومخاوفي، ماذا أفعل لو لم يعثر الطبيب بشيء ذي بال؟ كيف ألقى القوم فيما بعد؟ لشدّ ما تمّنت أن يُنزل الله عقابه بالقاتل؟ بيد أنّي لبثت على حال من الاضطراب لم تترك لي سبيلاً إلى نفسي أو عقلي. وطال الزمن واستطال حتّى خُيّل إليّ أنّي شخت وهرمت وأنّي أموت. ثم فتح باب الحجرة ولاح وراءه الطبيب بوجه جامد لا يبين عن شيء، وتقدّم خطوات فصار في منتصف الصالة، فوفقت حياله فاغر الفم شاخص البصر، ومسح بأنامله على جبينه ثم قال بنبرات واضحة:

- لقد انتهت من كتابة تقريري، وسأحوّله إلى النيابة في الحال، وأظنّه يستوجب تحقيقاً عاجلاً...

## ٦٣

كان ينبغي أن أشعر بارتياح وتشفّ، ولكن خارت قواي فجأة فارتميت على أقرب مقعد ومددت ساقي واستسلمت لما يشبه النوم. ولم يحدث في فترة الانتظار التي أعقبت خروج الطبيب إلّا اندفاع نازلي هانم وصباح إلى حجرة المتوفاة، وتصاعد النواح والبكاء. ولاحت منّي نظرة إلى الصالة الصغرى فرأيت الدكتور أمين رضا يذرعها في بطء وتثاقل، وقد جلس الشرطي على كرسّي عند باب حجرة الاستقبال.

وعند منتصف الساعة الواحدة دقّ الجرس، فنهض الشرطي وفتح الباب، ودخل وكيل النائب يتبعه كاتب وشرطي، وخفق قلبي في ارتياح لرؤية رجال الحكومة، ونهضت قائماً واتّجهت صوب الرجل، ثم رفعت يدي

شهور لا تجاوز العام، ولا أذكر أنّ أحدًا من الأسرة قد مرض في هذه الفترة .

- هل تظنّهم كانوا يستدعونك في مثل هذه الحال؟

- الواقع أنّهم استدعوني في أوّل حال عرضت لهم.

- ألا يعرفون اختصاصك؟

- بلى ولكن شدّة الحال جعلت الأمّ تستنجد بي،

لقرب عيادتي من ناحية، وللقرابة التي تربطني بها من

ناحية أخرى.

- لا أرى في هذه الظروف ما يمكن أن يؤثر في

اختيار الطبيب، ثمّ أنت كيف توافق على تلبية دعاء

لحال مرضيّة تعلم أنّها ليست من اختصاصك؟ ألا

يشير الأطبّاء في أمثال هذه الظروف باستدعاء الطبيب

المناسب؟

- رأيت اللياقة تقضي بأن ألّبي الدعوة على الفور،

فذهبت وفي ظنّي أنّها حال إغماء أو مغص شديد أو ما

شاكل ذلك ممّا لا يُعجز طبيبًا على الإطلاق، وأظنّ

هكذا ما دار بخلد الذين استدعوني.

- ولكنك وجدت الأمر أخطر ممّا تصوّرت فكيف

كان تصرّفك؟

- فأمسك الدكتور عن الإجابة وخفض بصره في

ارتباك وتروّ، فبادره المحقّق قائلاً.

- لماذا لم تُشير باستدعاء جرّاح؟

- كانت الحاجة ماسّة إلى عمليّة عاجلة.

- هل مارست الجراحة قبل ذلك؟

- في الكلّيّة طبعا!

- أعني بعد ذلك؟

- كلّاً . . .

- يدهشني أن أتصوّر إقدامك على إجراء هذه

العمليّة الخطيرة.

فقال الدكتور أمين وقد تغيّرت نبرات صوته قليلاً

واعترتها حدّة عصبيّة:

- قلت إنّ الحال كانت خطيرة وتستدعي إجراء

سريعاً!

- وكيف أحضرت الأدوات الطبيّة اللازمة لهذه

العمليّة! هل كانت توجد بعيادتك؟

ولأوّل مرّة تردّد الدكتور قبل الإجابة، ثمّ قال:

- كلّاً . . .

- كيف أتيت بها؟

- من زميل.

- جرّاح؟

- أجل . . .

- ولماذا لم تحضره؟

- كان مرتبطاً بعمل في نفس الوقت . . .

- من عسى أن يكون هذا الدكتور؟

فتردّد مرّة أخرى، ثمّ تورّد وجهه الشاحب وقال

بصوت منخفض:

- الحقّ أنّي أحضرتها من المستشفى، مستشفى فؤاد

الأوّل.

- بصرف النظر عمّا إذا كان هذا التصرف سليماً أم

لا من الناحية الإداريّة، ألم يكن الأخلق بك وقد

رأيت أنّك لا بدّ منفق وقتاً غير قصير في إحضار

الأدوات بطريقة غير مشروعة، ألم يكن الأخلق بك أن

تستدعي جرّاحاً خصوصاً وأنّ استدعاءه لم يكن

يستنفد من الوقت أكثر ممّا يستنفده إحضار الأدوات؟

فتفكّر مليّاً ثمّ يارتباك ظاهر:

- كنت متأثراً بحال المريضة فلم أفكر في هذا . . .

- الأقرب إلى المنطق أنّه كان ينبغي أن تفكّر في هذا

بسبب هذا التأثير نفسه. وهب الحقّ كما تقول، فلماذا

لم تنقل المريضة إلى المستشفى حيث يوجد الاختصاصيون

بوفرة؟

- لم توافق أمّها على نقلها . . .

- ألم يكن هذا أقلّ خطورة من تسليمها ليد غير

خبرة؟ ولكنّ لندع هذا الآن . . .

ويسط المحقّق صحيفة بين يديه، جرى بصره على

سطورها، ثمّ قال وهو يعتدل في جلسته:

- ما رأيك في هذا، إنّني أراجع الآن تقرير الطبيب

الشرعيّ فإذا به يؤكّد أنّ التهاب البروتون لا يستوجب

هذه السرعة التي تتحدّث عنها كما تستوجب بعض

حالات الزائدة الدوديّة مثلاً، فما رأيك في هذا؟

فلاذ الدكتور بصمت عميق، ونمّ لمعان عينيه عن

- سأزيد لك المسألة بيانًا، يقرّر الطبيب الشرعي أنّ البروتون قد ثقب حقًا ولكن يؤكّد أنّه لا يوجد به شيء على الإطلاق من مرض أو التهاب، وأنّ حاله لم تكن لتستدعي علاجًا على الإطلاق فضلًا عن عمليّة جراحية!

- ولكنّي أجريت العمليّة بنفسِي.

- لم تُجرِ عمليّة على الإطلاق فيما عدا ثقب البروتون.

فقال الدكتور بصوت متهدّج وبحدّة غاضبة:

- أتريد القول بأنّي ثقتُ البروتون بلا داعٍ! ... ما معنى هذا؟ ...

- أنت ثقتُ البروتون فقتلتها!

- في أثناء إجراء العمليّة ...

- أوّكّد لك أنّك لم تُجرِ عمليّة البروتون ...

فصاح الدكتور في غضب:

- اتّهمني بأنّي تظاهرت بإجراء العمليّة كي أقتلها؟ ... اتّهمني بالقتل يا حضرة المحقّق؟ فقال المحقّق بهدوء:

- إنّي اتّهمك بالقتل حقًا، وستوافقي عمّا قليل على رأيي. وسترى بنفسك - بغير حاجة إلى نصيحتي - أنّه لن يبيّن لك بعض النجاة إلّا الصدق والصراحة.

انكفأ وجه الدكتور وازداد تجهّمًا، وركبته حال نعسة من القهر. أمّا المحقّق فقد ألقي نظرة أخيرة على تقرير الطبيب الشرعي، ثمّ استطرد قائلاً:

- لماذا أحدثت هذا الثقب القاتل بالبروتون؟

فقال الطبيب في تجهّم، وفيما يشبه اليأس:

- لقد أجبت على هذا من قبل!

- يجدر بك ألا تتغاي وأنت بلا شكّ شابّ ذكيّ، لقد أحدثت هذا الثقب لتخلق سببًا ظاهرًا «مشروعًا» للوفاة التي ظننتها لا محالة واقعة ...

أطرق الدكتور صامتًا وبدأ كشخص يعترف مستسلمًا، واستطرد المحقّق قائلاً:

- كنت تجري عمليّة حقًا ولكن في موضع آخر من الجسم، ثمّ حدث ثقب خطأ في هذا الموضع الآخر فظننت لقلة خبرتك بالجراحة أنّه سيفضي على المريضة

تفكيره وقلقه. وعاد المحقّق يقول:

- ويقول أيضًا إنّ العمليّة تستدعي بضع ساعات للتأهّب لها يتناول المريض في أثنائها شربة عادة، ألم تعلم بهذه المبادئ الأولى في فنّ الجراحة؟

- علمت أنّ المريضة تناولت شربة مساء أمس ولم تذق بعدها طعامًا ...

- هل أخذتها استعدادًا للعمليّة؟

- كلًّا ... أخذتها بسبب ما ظنّ بها من برد، أمّا فكرة العمليّة فلم تنشأ إلّا بعد حضوري اليوم.

واشتدّ انتباهي عند ذاك، وعجبت كيف لم يذكر لي أحد أنّ زوجي تناولت شربة. وذكرت كيف أبقيت بهذا البيت مع أنّه كان بوسعها أن تعود إلى بيتنا ولو في تاكسي، ودخلني شعور ثقيل بالغموض والحيرة.

وعاد المحقّق يقول:

- إنّي حيال عمليّة أجريت بسرعة جنونيّة لغير ما سبب فتّي يستدعي ذلك، وببّد طبيب غير جراح كان بوسعه ولا شكّ أن يدعو جراحًا مختصًا ... فما معنى هذا؟

والقى المحقّق على الدكتور نظرة نافذة باردة، فتردّد بصري بينهما في قلق متزايد وخوف غريب. وبعث الاضطراب في نفسي توترًا حادًا. ثمّ سمعت المحقّق يقول:

- إنّي أتساءل عن الضرورة التي حثّمت أن تكون أنت الجراح، وفي هذا الوقت بالذات؟

وسكت مليًا ثمّ استدرك متسائلًا:

- وما سبب الوفاة؟

- ثقب البروتون ...

فقال المحقّق ببرود:

- يقرّر الطبيب الشرعي غير هذا.

فتساءل الدكتور أمين رضا مستنكرًا:

- فما عسى أن يكون السبب إذن؟

- هذا ما يخلق بك أن تدلّني عليه بنفسك!

فقال الدكتور وقد اعتور نبرات صوته ذلك التوتر العصبي:

- لا أفهم ماذا تعني ...

الثلاثة عن ناظري، وغابت الحجرة، ورأيت فراغاً غيظاً تمتزج فيه الحمرة بالسواد، وتراقص فيه أشباح مرعبة من الذكريات والخواطر... عملية إجهاض... كانت رباب حبل! الخطاب. هذا الطبيب الشاب... يستطيع الشيطان ولا شك أن يؤلف من هذه الحقائق المتناثرة جريمة مروعة، ساخراً من شكّي الذي دفعني إلى التجسس حيناً، هازئاً بالطمأنينة التي آويت إليها سادراً حيناً آخر... إن المحقق يسعى جاهداً وراء جريمة طبية، وسيعثر في طريقه الشائك بجريمة أدهى وأمر. ألم يحسد قلبي الكارثة من بادئ الأمر؟! أليكون الطبيب هو صاحب الخطاب؟ أم إنهم استشفعوا بقرابته على التسرّ والكتمان؟ ولكن لا شك أن الأم كانت تعلم كل شيء... كل شيء عن حياتي الزوجية، وزلة ابتها، ولعلها أرادت أن تطمس آثار الفضيحة بالعملية لولا أن هنك الموت تديرها. آه يا رباب! إن كل عذاب نصاب به في هذه الدنيا حق وعدل لأننا نتفانى في حبها على حين أنها لا تستحق إلا الموت.

واستيقظت على صوت المحقق وهو يهتف بي: «هو... اصبح!» فرفعت إليه عيني مرتجفاً وعدت رويداً رويداً إلى الشعور بما حولي. قال الرجل: - إنّي أسألك ألم تصارحك زوجك بكرهيتها للحبل؟ ألم تفض إليك برغبتها في إجهاض نفسها؟ واسترقت من الدكتور أمين نظرة سريعة، وقلت لنفسني إنه يعلم السرّ كله من بادئ الأمر، ولعله يعلم أضعاف ما أعلم، فعزّ عليّ أن أكذب وأن أعرض نفسي لإهانة جديدة، وتمتمت قائلاً: - كلّاً...

- أكنت تراها مسرورة بحبلها؟ فقلت في غير مبالاة وقنوط: - لم أعلم أنها كانت حبل إلا هذه الساعة! فارتفع حاجبا المحقق فوق عويناته، وثبته على عينيه وهو يقدح فكره ثم سألني: - كيف تعلل إخفاءها الأمر عنك؟ لشد ما زلزلني هذا السؤال! إنها كلمة واحدة ثم

حتماً فما عسى أن تفعل؟ لو عُرف سبب الوفاة الحقيقي لكشف الغطاء عن العملية الجراحية وهي غير مشروعة، وهنا هداك عقلك المضطرب إلى حيلة جنونية، وهي أن تثقب البروتون فيظن أنه سبب الوفاة، ثم تدعي كذباً بأنك كنت تجري عملية في البروتون، بذلك تحكم الستار على جريمة العملية غير المشروعة، أما قتلك مريضاً خطأ فلا يقع تحت طائلة القانون، ولكنك أخطأت، فالمریضة لم تمت من الثقب الأول ولكنك قتلتها وأنت تثقب البروتون.

انتفض الدكتور انتفاضة عصبية عنيفة، وهتف بالمحقق وكأنه فقد وعيه:

- كلّاً... كلّاً... لقد توفيت تماماً قبل أن أثقب البروتون...

وجرت على شفتي المحقق ابتسامة خفيفة، ألقى على الدكتور نظرة ظافرة، على حين أطبق الآخر شفتيه في صمت وذهول، ورفع عينيه مرتين إلى وجه المحقق في حلق وقنوط بدا لي وكأنه قد صُرع تحت وقع ضربة قاضية فغلب على أمره. بيد أنني لم ألتجئ بالاً إليه. كان عقلي ينتفض حرارة حركة وهياجاً، عملية غير مشروعة! عملية البروتون ما هي إلا خدعة زائفة للتسرّ على جريمة! إما أن أكون مجنوناً أو يكون الرجلان مجنونين!... توفيت تماماً قبل أن يثقب البروتون!... رباه! أكاد أخرج عن طوري فينفلت لساني هادياً رغم وجود هذا المحقق المخيف. على أن المحقق خرق الصمت الثقيل قائلاً في هدوء:

- اتفقنا، وأظن أنه أن أن تعترف بأنه وقع الاختيار عليك بالذات دون أطباء مصر جميعاً لإجراء عملية إجهاض!

لم يتوقّف عند هذا الحدّ، ولكنّه واصل حديثه، ولعله ذكر فيها قال البنج وأثره أو شيئاً من هذا القبيل، ولعلّ الآخر نطق ببضع كلمات كذلك، ولكنّي لم أعد أعي شيئاً ممّا يقال. تعلّق ذهني بقوله: «عملية إجهاض» وامتنع عن السير. لقد وقعت عليّ هذه العبارة فشطرتني شطرين، ثمّ مرّقتني إرباً، ودوّت في رأسي حتّى ذهلت بها عن كلّ شيء، غاب الرجال

انتفض واقفاً غاضباً، وألقى بالحقيقة من بين شفتيه في غطرسة وكبرياء: «لا تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجة إلا رسمياً فحسب». رباه، لماذا لم أدق عنقه؟ لماذا لم أرم بنفسي عليه وأنشب أظفاري في قلبه؟ لتلهبني هذه الذكرى حتى الموت بمثل السوط اشتعلت أطرافه بالنار. ولكن ما الذي جعله يرمي بنفسه إلى الهلاك؟

هل حمله اليأس من تربة نفسه من إحدى التهمتين على الاعتراف بالأخرى؟ أو أنه راعه ما جنى الحب على حبيبته فنازعته نفسه في ساعة يأس إلى أن يشاظرها المصير الأليم؟ أهي ثورة ضمير أم ثورة قلب أم الاثنين معاً؟ من لي بأن أطلع على سر هذا القلب المتغرس؟ بيد أنني ازدادت حيرة وجعلت أتساءل: كيف هان عليه أن يرسلها إلى القبر مكفنة بالفضيحة؟ ألم يكن الأخلق به أن يتهمز الفرصة المبذولة فينقذ نفسه، ويستتر شرف المرأة التي أحبتها... وأحبته؟... أتراه نادماً الآن على ما بدر منه أم لا يزال منتصب القامة غطرسة وعجرفة؟... إنه لغز، وسيظل لغزاً بالنسبة لي إلى الأبد، وكان قلبي متورماً من الحقد والغضب فوجدت في المصير الذي قضي عليهما به - هي في القبر وهو في السجن - راحة وغبطة.

وكانت قدماي قد حملتني إلى ميدان الإسماعيلية، فلم أجد مهرئاً خيراً من حدائق قصر النيل فأنجّمت صوب الجسر... آه لو أستطيع أن أغيب عن القاهرة عاماً! ولم يدر لي بخلد أن أشيع جنازة المرأة التي كانت زوجاً لي، إذ لم يعد بوسعي أن أبدو أمام أحد ممن يعلمون بحقيقة المأساة. ولكن هل تزوجت حقاً؟ لم تكن إلا مهزلة طويلة، أو مأساة على الأصح، ولشد ما تملك الدهشة أهلي اليوم أو غداً إذا علموا بأن زوجي ماتت ودفنت دون أن يدعى أحد منهم لتشيع الجنازة، ولكن سرعان ما تذهب دهشتهم إذا عرفوا الحقيقة وسرعان ما يلهيهم التندر بها عما عداها، ويسألها من أحدوثة حقيقة بأن تحيي محافل السمرا وتقبض قلبي وشعرت ببرودة تسري في أطرافي. لشد ما تعاودني

يصبح سرّي نادرة المتنّدين. إن مشاعر الحقد والانتقام تستفزني جميعاً إلى نشر هذا السرّ الدفين كي أهلك سرّ الأئمة وأنزل انتقامي بالمجرم. أريد أن أقول إنه لم يكن في حياتنا ما يدعو إلى الحب ليضع المحقق يده القاسية على الفاسق. ولشد ما نازعتني نفسي إلى ذلك، وأوشكت الكلمات أن تثب إلى طرف لساني. بيد أنني لم أنبس بكلمة، وحلّ بي شلل عام لا أدري ما كنهه. هل يمكن أن يكون للخلج أثر حتى في مثل هذا الحال؟... هل يمكن أن تفوق رغبتني في التستر على عجزني تمزقي إلى الانتقام؟ لم أستطع التفوه بالكلمة الفاصلة، وكلما مرّت ثانية ازدادت عجزاً ونكوصاً، ثم تمنت قائلاً وأنا ألهث: - لا أدري...

وما أدري إلا والدكتور ينتفض واقفاً ثم يتراجع خطوتين شابكاً ذراعيه على صدره في تحدّ وكبرياء وغطرسة! ويقول للمحقق بثبات وعجرفة: - تسأله عما لا يدري، إنها لم تكن زوجته إلا رسمياً فحسب، وإني أنا المسئول عن كلّ شيء من البداية إلى النهاية...

## ٦٤

غادرت البيت دون أن أرى أحداً من أهله، فلم يعد البيت بيتي ولا الأهل أهلي. ووقفت عند باب العمارة فجرى بصري إلى المحطة، محطة الذكريات، وطاب لي أن أرده بينها وبين الشرفة، ثم أغمض عيني لأرى موكب الذكريات يمرّ كلمح البصر، صورة صادقة من الحياة، جامعاً بين طرقي ملهاتها ومأساتها. ثم انطلقت في الطريق بلا غاية كأنما أجد في الهروب، استحالة قلبي حجرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والشقاء والمقت. وقد خيل لي أنّ هذه الدنيا العاكفة على هومها ستتناسى شجونها غداً وتغرق في الحديث عن فضيحتي، على أنني لم أكن قد أفقت من دهشتي ولم أزل أتساءل عما حمل الدكتور المجرم على الاعتراف بالحقيقة الهائلة! لقد هاضني الجبن فكتمت الحقيقة، وهبته بذلك فرصة للهرب لو أراد هرباً، ولكنه

صوبها لا يغمض وقد تقلص قلبي وتوالت ضرباته  
فرايت النور يشع من الشرفة والنوافذ. أما أمام مدخل  
العمارة فقد أقيم عمودان طويلان يتدلّى منها مصباحان  
كبيران مضاءان. قضي الأمر...

## ٦٥

ذكرت وأنا أرتقي سلم بيتنا أُمّي فارتعدت فرائصي  
واستحوذ عليّ حقّ فظيع كأنه شيطان، ترى ماذا  
أحتقني؟... وسألت نفسي في حيرة عما عسى أن أقول  
لها... ربّاه! ما الذي جاء بي إلى البيت؟ هل ظننت  
أنه يسعني أن أقضي هذه الليلة في حجرة «رباب» وعلى  
فراشها؟ على أنني واصلت ارتقاء السلم كأنه قضاء  
معتوم، ودخلت الشقة بصدر منقبض ووجه مكفهّر،  
وجاءني صوت أُمّي وهي تتساءل في لهفة وجزع قائلة:  
«من؟» فجمدت في مكاني غاضبًا حانقًا ثم قلت  
بخشونة: «أنا» فهتفت بي بصوت باكٍ:

- كامل. تعال يا بني...

فخفق قلبي بعنف، وأيقنت أنها علمت بمصير  
«رباب» وذهبت إلى حجرتها وكانت جالسة في  
الفراش، فمدّت إليّ يديها وهي تنشج باكياً وقالت  
بصوت تخنقه العبرات:

- ليتني كنت فداها!.. كان ينبغي أن تبقى هي  
لك...

فوقفت في وسط الحجرة متجاهلاً يديها الممدودتين،  
وسألتها في جمود وغلظة:

- كيف علمت بالخبر؟

فهتفت بصوتها المختنق:

- كيف نسيت يا بني أن تخبرني؟ إنّي أدرك من هذا  
شدة حزنك. وقد تفتّت قلبي رثاء لك... ليتني كنت  
الفداء لك ولها، أنا العجوز المريضة، ولكته قضاء  
ربّنا.

لم ينل تأثرها جمود نفسي، فلم أستجب لها،  
وسألتها وكأني لم أسمع كلامها:

- كيف علمت بالخبر؟

- لقد انتظرت عودتك اليوم في قلق، ولمّا أن جاء

تلك الرغبة القديمة في الحرب! أين متّي بلد بعيد لم  
يطرق أبوابه طارق، من لي بأن أقطع كلّ صلة تربطني  
بماضيّ النغيض! أه لو يمكنني أن أولد من جديد في  
عالم جديد لا تطالعني فيه ذكرى من ذكريات هذا  
العالم، أجل لن أستطيع أن أوصل حياتي على حين  
يتبعني هذا الماضي كالظّل الثقيل... وقضيت بقيّة  
النهار متخبّطاً في الطرق أو جالساً شاردًا في الحدائق،  
لا أشعر بحرّ ولا ببرد ولا بظلم، حتّى أذنت الشمس  
بالمغيب وانتشرت سمرة المساء فوق رءوس الشجر،  
فعدت من حيث أتيت في خطو ثقيل، وبلغت ميدان  
الإسماعيلية وقد هبط الظلام على الكون فملكتني الحيرة  
ولم أعرف لنفسي مذهباً، ثم وثبت إلى ذهني صورة  
الحانة فجأة فتهدّت من الأعماق، ونذت عن أعصابي  
المتوتّرة المكلومة أهة ارتياح كأنما حظيت بفرحة بعد  
طول اختناق. وفي اللحظة التالية كان التاكسي ينطلق  
بي إلى شارع الالفني. بيد أنّ ارتياحي ولّى سريعاً،  
وحلّ محله قلق وانقباض وتردد، وجعلت أتساءل: ألا  
يجمل بي أن أولي وجهي وجهة أخرى! وغادرت  
التاكسي حيال الحانة ولكّني لم أمض إليها، ورحت  
أتمشّي على الطوار في خطى بطيئة مثقل الرأس  
والقلب، وغلبني اليأس، فانسقت معه إلى داخل  
الحانة وانتبذت ركناً منفرداً، وشربت كأساً وأخرى،  
وعللت، وما تكاد رأسي تستجيب للخمر، ولكّني  
شعرت بالجوع بغتة فأكلت بنهم وشهوة عجيبة وما  
كدت أفرغ حتّى حلّ بي تعب شمل معدتي ورأسي  
وأعضائي جميعاً فكأنّ جهد اليوم المبرّح قد وجد غرة  
فزحف عليّ بجحافله وناخ عليّ بكلّكله، ونهضت  
مترنّحاً، وغادرت الحانة إلى تاكسي واقف غير بعيد،  
فانطلق بي صوب قصر العيني، علاني التعب والجهد،  
وسرى في جسدي تخدير، وتولّاني شعور طارئ بعدم  
المبالاة، فرمقت مأساتي بعين ساخرة، فبدت لي لحظة  
كأنّها مأساة شخص غريب، أو كأنّها انترعت من حياتي  
الخاصّة واحتلّت موضعها من موكب المأساة الإنسانية  
العامة. وجعل التاكسي يطوي الطريق حتّى شارف  
موقع العمارة التي امتحتني بها الدنيا، وانطلق بصري

يخلو منه بيت...

ولكني لم أرحمها، ولم أفهم في الوقت نفسه كنه القوة التي دفعني إلى تذكيرها بالماضي الأسيف كأنما آسي حقاً على «رباب»، بل غالبيت في الحقن عليها كما لو كانت السبب فيما حلّ بي من كارثة، وضاعف من حنفي ما وقع في نفسي من أنها تداري بهذا الحزن فرحاً وشيئة، فأردفت في غضب قاتلاً:

- الحقّ أنّ الدنيا لا تسعك من الفرح!... إني أعرفك حقّ المعرفة كما أعرف نفسي سواء بسواء، فلا تحاولي خداعي، إنك تدارين فرحك بهذه الدموع الكواذب.

فتأوّهت هاتفة:

- كامل لا تقسُ على أمك، لا تقل هذا، لم أكرهها علم الله، يحزنني ما يحزنك...

فبدرت مني ضحكة باردة كقرعة السوط في الهواء وقلت:

- لأزيدك فرحاً فاعلمي أنها لم تمت ولكن قُتلت! فحملت في وجهي في فزع ولعلها خافت عليّ الجنون وغمغت:

- اللهمّ لطفك.

فصحت باستهانة وجنون:

- قُتلت حين كان الطبيب يجهضها.

فضربت صدرها بيدها وهتفت:

- يجهضها! وهل كانت حبلي؟ ربّاه لم أكن أعلم هذا.

- ولا أنسا!... أخفّته عني لأنني لم أكن أبا الجنين!... وصرخت أمني في فزع:

- كامل، رحمة بنفسك، رحمة بي، أنت لا تدري ماذا تقول.

- بل أدري أكثر ممّا تتوقعين، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جيل، قلت لك أخفت الأمر عني وذهبت إلى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها...

- اللهمّ لطفك يا أرحم الراحمين.

- ألا يزال أرحم الراحمين؟ وداعاً، فلن أعبد بعد اليوم! أمّا أنت فلعلّك تقولين لنفسك في سرور

المساء ولم تحضر بلغ مني الخوف، فوصفت للخادم موقع العبرة وأرسلتها إلى هناك، فعادت إليّ بالخبر الأسود...

ورمقتها بنظرة مستريية وسألتها بصوت منخفض:

- هل علمت كيف ماتت؟

فعاودها البكاء وهي تقول:

- كلّاً يا بني! ولا زلت في حيرتي وذهولي، أسفي على الشابة المسكينة، كيف وافاها الأجل على غير ميعاد؟

وداخلني ارتياح سرعان ما فتر وخمد... فقيم أخدع نفسي براحة كاذبة وما من قوة في الأرض تستطيع أن توارى فضيحتي؟ وأضجرتي بكأؤها، ووقر في نفسي أنّه أمانة حزن كاذب ممّا يصطنعه النساء فقلت بفظاظة:

- ماتت كما يموت الناس أثناء الليل وأطراف النهار، وكما مات جدّي وأبي وكما سنموت جميعاً...

وضغطت على «جميعاً» في حق، ثم بادرتها متسائلاً في سأم:

- لماذا تبكين؟

فرنت إليّ خلال دموعها بوجوم وكآبة وتمتمت:

- وددت لو كنت فداها...

فغلبنى الانفعال وقلت بحدة:

- كذب؟!... محال أن يرضى إنسان بأن يفتردي آخر من الموت... أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة؟!

وأحدقت في وجهي بارتياح، ثم غصّت بصرها في وجوم وألم، وساد الصمت ملياً، حتّى خرّقته متممة:

- أسأل الله أن يُنزل سكينته على قلبك.

فقلت بجفاء:

- لا حاجة بي إلى الدعاء. بيد أنّي أكره الرياء، ولا يمكن أن أنسى أنّك أبغضتها حتّى قبل أن تقع عليها عينك.

فرفعت إليّ وجهها في استعطاف وألم وقالت:

- كامل! رحمة بأمّك... يعلم الله أنّي لا أخادعك، ولكن مثل ما كان بيننا من نقار لا يكاد

غريب: «لقد نالت الأئمة بعض ما تستحق من جزاء، لقد حدثني قلبي بذلك من أول يوم ولكنتك لم تصنع إليّ!».

فزفرت أُمِّي في شقاء وتعاسة وقالت بصوت كالأنين:

- لشد ما يحزنني كلامك، إنك تقتلني بلا رحمة.

فصحت بها كالمجنون:

- اشميتي ما شاءت لك الشبابة، ولكن إياك وأن تتصوّري أننا سنعيش معًا. انتهى الماضي بخيره وشره ولن أعود إليه ما حييت. سأفرد بنفسى انفرادًا أبدئيًا. لن أعيش معك تحت سقف واحد، وسأطلب من الوزارة نقلني إلى مكان قصيّ أقضي فيه البقية من عمري.

أشرق اللدم بعينيهما وعقد الألم لسانها ولبثت ترنو إليّ في فزع ووجوم. وكأنه لم يكني ما قلت فأردفت مرغياً مزيداً:

- اذهبي إلى أختي أو إلى أخي واحسبيني منذ اليوم في عداد الأموات.

ووليّتها ظهري وغادرت الحجرة ونحيبها يقرع أذنيّ.

## ٦٦

لم يحط لي لحظة واحدة أن أذهب إلى حجرتي، كان ذلك أبعد شيء عن تصوّري، حتّى النظر إليها تحاميته، ومضيت إلى حجرة الاستقبال وارتيمت على الكنب في إعياء وقنوط، ومضى الليل ثقيلاً مضجراً فلم يعد نصيبي من النوم إغفاءات متقطّعات تتخلّلها أحلام مزعجة. ثم أخذ خصاص النوافذ ينضح بنور خافت إيذاناً بمطلع الصبح فتنفّست الصعداء وتمطّيت متعباً، ثم نهضت قائماً وغادرت الحجرة مدفوعاً برغبة في الهروب والاختفاء. واقتربت من الباب الخارجي في خطو خفيف حذر حتّى وضعت يدي على مقبضه، ولكنّي جمدت متردداً دون أن أبدي حراكاً، ثمّ تراجعت في سكون نحو حجرة أُمِّي، ودفعت بابها الموارب في حذر بالغ وأدخلت رأسي. كان شخير

الخادم يتصاعد في انتظام، وعلى الفراش رقدت أُمِّي في سكون عميق لا يكاد يُرى من وجهها إلّا نصفه الأعلى. ألقيت عليها نظرة قصيرة، ثمّ تراجعت إلى الخارج، وأنجّبت نحو الباب الخارجي مرّة أخرى ومرقت منه ثمّ أغلقتة دون أن أحدث صوتاً، وترامى إلى أذنيّ، أو خيّل إليّ أنّ صوتاً يهتف بي، فظننتها استيقظت على حذري وحرصى وأنها تناديّني. وتوقّفت ويدي على الدرابزين على حين تراخى قلبي ورقّ، ولكنّي كنت على حال من القنوط لم أحسن معها التدبير فهزّزت منكبيّ استهانة ونزلت. واستقبلت الصباح الباكر في طريق مقفر أو يكاد فهفا على وجهي نسيم رطيب بارد، وتلبّثت متحيّراً لا أدري أين أذهب ثمّ قصدت محطة البترول حيث موقف التاكسي واستقللت واحداً إلى ميدان الإسماعيلية. ومال بصري إلى العمارة الأخرى في الطريق فرأيت نوافذ مغلقة وسكوناً مطبقاً والمصباحين المعلقين وقد انطفأ نورهما. وانتهيت إلى الميدان فمضيت إلى لبّان وجلست إلى مائدة في أقصى المحلّ، وتناولت فطوراً بسيطاً، وعلائي تعب مبالغ فمددت ساقيّ، ثمّ زحف على جوارحي نعاس قهّار لم أعد أملك معه رأسي فاستسلمت لسلطانها. وسرعان ما رحت في سبات عميق. وعادتي اليقظة فوجدتني منكفئاً على المائدة وقد توسّدت ساعديّ، فرفعت رأسي ناظراً فيما حوالي في دهشة وارتباك، وسرعان ما استحوذ عليّ حياء شديد.

وغادرت المكان مغمضاً عينيّ عن الجلوس وما كان أشدّ دهشتي حين رأيت ساعة الميدان تجاوز الثانية عشرة! نمت دهرًا طويلاً غائباً عن دنياي المتجهمة فما لذّ أن أنام إلى الأبد! وأنجّبت صوب حدائق قصر النيل وأنا أشعر شعوراً أليماً برثائه هيئتي وذبول منظرني! وساءلت نفسي وأنا أجذّ في السير عماً عسى أن أصنع بحياتي، ولكن وسوست لي النفس أن أوّجل البتّ في هذه المسألة جرياً مع طبيعتي التي تنكص عادة عن مواجهة المشكلات الخطيرة. ثمّ وجدتني أفكر في رباب! إنّ بنفسى غضباً عليها لا يزول كأنه عاهة مستديمة، ولشدّ ما أتمنّى لو تُبعث حيّة ولو دقيقة واحدة



هل يسعني هجرها! طالما رقت على خاطري الرغبة في هجرها في صور أحلام غامضة، ولكن هل يسعني حقاً أن أهجرها؟ يا لها من خطوة خطيرة ما أخلقني أن أفهم منها موقف المتفكر المتردد. لماذا أقسو عليها؟ فيم أنتقم منها! وإني لأعلم أن خطرة منها تخطر على الفؤاد حقيقة بأن تردني إلى أحضانها نادماً باكياً، يا له من حب بغيض لا أجد إلى الخلاص منه سبيلاً.

ورجعت إلى الميدان بعد الساعة الثانية بقليل، ووجدتني أذكر شارع الألفي بلهفة معهود. وعلى كتب من محطة الترام لمحت زميلاً لي من الوزارة فتجاهلته، ولكنه لمحني أيضاً وأقبل نحوي في اهتمام ووجوم وبسط لي يده قائلاً:

- البقية في حياتك يا كامل أفندي.

فسرت في جسدي رعدة وتساءلت في قلق كيف علم بالخبر وماذا علم عنه، وتمتعت في ارتباك:

- حياتك الباقية.

فقال الرجل وهو يضغط على يدي:

- عن إذنك ريثما أتناول لقمة ثم أعود للاشتراك في تشييع الجنازة.

رباه، كنت أظن أن الجنازة شُيّعت أمس أو صباح اليوم وانتهى المأزق الحرج، ولكنها لا تزال تنتظر مقدمي وقد أذاعوا النعي في الصحف! أيّ مأزق يتربص بي!... وسألته بصوت منخفض:

- هل قرأت النعي في الأهرام؟

فقال لي بدهشة:

- كلاً، لا أظنه ظهر في الأهرام وإلا لكانا علمنا به في الوزارة، ولكنني أطلعت عليه في البلاغ.

واستخرج الجريدة من تحت إبطه وفتحها ثم أشار إلى عمود وهو يقول: «هاك النعي» وتناولت الجريدة في ارتباك وحجل وجرى بصري على السطور القلائل الآتية: «انتقلت إلى رحمة مولاهما كريمة المرحوم الأميرالاي عبدالله بك حسن، والدة مدحت بك رؤية لاه من أعيان الفيوم وكامل أفندي رؤية لاه الموظف بالحريّة وكرم صابر أفندي أمين...»

حملت في وجه صاحبي كالمجنون، ثم أعدت تلاوة

ريثما أبصق على وجهها! وهل أنسى أنني فرحت لموتها فرح حاقده شامت؟... هكذا أنا ولا داعي للخفاء! بيد أنني على حال من السكينة أستطيع معها أن أفهم وأن أأمل. ومن عجب أنني على أنانيتي المفرطة لا أبخل على خصمي بالإنصاف والعدل. لا حباً في الإنصاف والعدالة ولكن لأنني ألفت أن أقيم الأعداء للخصم مداراة لعجزي عن الانتقام منه! لذلك تلمست الأعداء لرباب في مأساتها، وقلت لنفسي: إنني أخطأت في تصديق ما ادّعت من أنها تكره الحب الجنسي، وإن عجزني حيالها هو الذي رمى بها إلى أحضان الغواية، وكيف يمكنني أن أشك في أنها أحببتني بإخلاص؟ وهبت على خيالي الذكريات كما تهفو نسائم عطرة على نار مؤججة، ذكريات النظرات المتبادلة، واللقاء الخالد في الترام، وصدودها عن خطيبها الأول وميلها إليّ في سحر هو أبهج ما اقتنيت من تحف السعادة المولّية. كان حباً صادقاً، ولكن عرضت له ربح ثلجية فاقتلعت جذوره وأغاضت منها ماء الحياة. ألسنت شريكاً في قتلها؟! ودعوت الله في تلك اللحظة أن يختصر الطريق فيقيم القيامة ويرحم العباد من محنة الحياة، كان حبي سروراً إلهياً ثم مضى مخلّفاً وراءه مقتناً وغضباً. ولكن هل مضى حقاً؟ هب ما حلّ بي قد تمخّض بمعجزة عن حلم مزعج ولا شيء غير هذا ألا يعود حبي أقوى ممّا كان؟ بلى، فهو موجود إذن تحت ركام البغض والمقت، إن العضو الذي يفصل عن الجسد لا يعود إليه أبداً فهو غير موجود حقاً، أما الحب الذي يعود فلا يمكن أن يكون قد ذهب حقاً. ولكن ما جدوى هذا التفكير الأليم؟! وقطبت كأنما لأخيف الذكريات التي تتنال عليّ. وصممت على الهرب منها ولو بمواجهة المشكلة الخطيرة التي تهرّبت منها منذ حين قصير ألا وهي مشكلة حياتي وماذا أصنع بها. لا ينبغي أن أترك أموري للمقادير. سأجد طريقة للتخلّص من أثاث رباب ثم أنتقل إلى حيّ جديد. أأسعى حقاً إلى الانتقال لبلد بعيد؟ لشدّ ما تنازعني نفسي إلى الفرار، بيد أنني أعجز من أن أهجر القاهرة. هذا شعوري ويطيني. فهل أهجر أمي حقاً؟

النعي، وجميع جسمي ينتفض، وصرخت بلا وعي:  
- هذا محال... هذا كذب...

ركضت لا أُلوي على شيء نحو تاكسي غير بعيد  
وارغمت داخله وأنا أحث السائق على السرعة. إنه  
لكذب وافتراء، ولأعلمن جليّة الخبر وعندها أعرف  
كيف أؤدّب من رامي بهذا العبث السخيف. وانطلق  
التاكسي يسطوي الأرض وعنقي مشربّ صوب  
الطريق، حتّى تراءى لعيني سراقق مقام أمام بيتنا،  
وتنزى قلبي في صدري وارتعشت أطرافى جميعاً،  
وتوقّف التاكسي فغادرته زائغ البصر، لم أكن حزينا أو  
متألّماً وإنما كنت مجنوناً، ها هو عمّي جالساً عند  
مدخل السراقق، ولهذا أخي مدحت قادماً نحوي.  
وقد هرعت إليه فاقد الوعي وقبضت على رباط رقبته  
وصرخت في وجهه:

- كيف تخفون عني الخبر!

وتخلّص أخي من قبضة يدي بجهد وهو يرمقني  
بقلق وانزعاج، على حين تدانى متاً عمّي وهو يقول:  
- أين كنت يا كامل؟ لقد بحثنا عنك في كلّ مكان  
فلم نعر على أثر...

فردّدت بصري بينهما، ثمّ ألقيت على السراقق نظرة  
غريبة وغمغمت.  
- أحقّ هذا؟

فقال لي عمّي:

- غالك نفسك وكن رجلاً.

فسألت أخي في همس وإشفاق:

- ماتت حقاً؟... كيف؟ متى علمتم؟

فقال مدحت في كآبة:

- تلقّيت برقية في التاسعة صباحاً. هذا قضاء ربنا.

أين كنت؟ لشدّ ما أزعجني أن نضطرّ إلى الخروج  
بالجنازة في غيابك.

فصحت به في غضب:

- فيم هذه العجلة؟ لماذا لم تؤجّلوا الجنازة إلى غد؟

فقال أخي معترضاً:

- أكّد الطبيب أنّ الوفاة حصلت عند منتصف

الليلة البارحة فقرّر رأينا على أن نخرج الجنازة  
اليوم...

وارتعد جسمي المغموم وتمتت في ذهول:  
- منتصف الليلة البارحة؟ ولكنّي رأيتها نائمة في  
فراشها هذا الصباح!...

ولاحت في عيني مدحت نظرة حزينة وقال برثاء:  
- لم تكن نائمة. إنه القلب يا كامل.

تخيّلت صورة ما بدا لي في وجهها من قنوط،  
وأطرافى ترتعش، وأعملت ذاكرتي لأستحضر الصورة  
كما رأيته، وساءلت نفسي أكان وجه ميت حقاً!...

وخارت قواي، ثمّ قلت بصوت ضعيف:  
- أريد أن ألقى عليها نظرة الوداع...

فوضع أخي يده على منكبي وقال:  
- أصبر حتّى تتألك قواك. ثمّ إنّ الحجرة ملأى  
بالنساء.

ولكنّي نحيته عن سبيلي وانددت إلى داخل  
العمارة، وجرى أخي ورائي، فارتقبنا السّلم وثبّا، ثمّ  
مرقت إلى الشقّة وأصوات البكاء تملأ أذنيّ، فما راعني  
إلا أن أجد نفسي محاطاً بالنسوة من جميع الجهات.  
وزاغ بصري وحلّ بي إعاء وارتباك، ولكن أدركني  
أخي فقبض على ذراعي وأنجّه بي إلى حجرة النوم وهو  
يقول:

- لا تقاوم... ينبغي أن تخلو إلى نفسك قليلاً...  
وأجلسني على المقعد الطويل، وأغلق الباب، ثمّ  
جلس على حافة الفراش أمامي وقال بحزن:

- ثب إلى رشدك. لا ينبغي أن يغلبنا الحزن  
كالنساء، أليست هي أمّي أيضاً؟ ولكنّا رجال...

وراح عقلي يتردّد، كبندول الساعة، بين أمرين في  
تركيز جنونيّ بين شجار الأسس المشثوم وبين رؤيتي لها  
هذا الصباح، وعلى حين بغتة وثبت إلى ذهني ذكرى  
فهتفت بأخي:

- كذب الطبيب!... لم تمت عند منتصف  
الليل... لقد سمعتها تتناديني وأنا أغادر الشقّة...

فلاحت الدهشة في وجهه وسألني:  
- وهل ليّبت نداءها؟... هل تحدّثت إليها؟

- صدّق يا أخي، إنك إذا لم توطّن نفسك على تصديق هذه المآسي وأمثالها خرجت من الدنيا كما دخلتها غراً جاهلاً. لقد قتلت زوجي أيضاً ولكن كان معي شريك هذه المرة هو عشيقها.  
وضرب مدحت كفاً بكفّ وهتف بي:  
- لا يمكن أن تغادر الحجرة وأنت على هذه الحال...

فهزّزت رأسي في غضب ونهضت قائماً وأنا أقول:  
- هلم بنا.  
ولم أكد أنّ هذه الجملة حتى غبت عن الوجود...

## ٦٧

لا علم لي بالساعات الطوال التي قضيتها في غيبوبة تامة، ولكن ثمة أوقات أخريات كنت أنحبّط في ظلمات بين الغيبوبة واليقظة. إنَّها دنيا غريبة معتمة، تتوزّعها الأحلام، فكان يداخلني شعور أنني حيّ، ولكن حيّ كميّة وهنّاً وعجزاً، وكم من مرّة جهدت في شقاء ويأس كي أحرّك عضواً من أعضائي فأعيايني الجهد وسلّمت للضغط الحائق والخوف المبهم، وفي أحوال أخرى عابثني الوهم فخيّل إليّ آني غير بعيد من اليقظة، وأني أكاد أميز أصواتاً مألوفة وأرى وجوهاً أعرفها حقّ المعرفة فاستصرختها أن تبرح إلى نجدتي، وناديت أمي كثيراً حتى أحفني تقاعدها عني وعجبت له عجباً شديداً، وطافت برأسي المحموم أحلام غريبة، فرأيت فيما يرى النائم أنني مُتَّطِّط منكبّ أمي وأنها تذهب بي وتجيء كما كانت تفعل على عهد طفولي، ورأيتني حيناً آخر ممسكاً بتلابيب أخي مدحت في نضال عنيف في جوّ صاحب وهو يصيح بي: لا تقتلني، وخيّل إليّ آني رأيت أحلاماً كثيرة ولكن ابتلعها الظلمة. وطالت غيبوتي حتى ظننتها لا تنتهي، ثم تفتّحت عيني، وعدت إلى نور الدنيا، وتنهّدت من الأعماق. ووقع بصري على مرآة تعكس صورتي، وشعرت بوجود شخص عند رأسي فحرّكت عينيّ نحوه فرأيت אחتي راضية جالسة على الفراش ويدها على رأسي، والتقت عينانا فابتسمت أساريرها

فتنهّدت من الأعماق في شقاء عميت وقلت:  
- لم ألبّ نداءها لأنني كنت ناقماً عليها!... لشدّ ما كنت فظاً غليظاً معها...  
وسادنا صمت وحزن. وكان رأسي يكاد ينفجر من الألم والحُمّى. ثم قلت وكأني أحدث نفسي:  
- لقد قتلها ما في ذلك ريب. رباه. كيف هان عليّ أن أقول لها ما قلت!  
فرمقني أخي بوجوم، وقال بلهجة تنمّ عن تحذير:  
- إيّاك وأن تستسلم لهذه الأفكار!...  
فقلت بعناد ورأسي يدور جنونياً:  
- لم أعُدّ الحقّ في قولي. لقد قتلتها، ألا تفهم؟... إذا أردت أن تستوثق من صحّة قولي فادعُ النيابة والطبيب الشرعيّ...  
فتأوّ مدحت قائلاً فيها يشبه الخوف:  
- أنت تهذي بلا ريب، وإلاّ تتألك نفسك فلن أسمح لك بالسير في الجنّازة.  
فندّدت منّي ضحكة باردة وقلت:  
- إنّ أسرّتنا مصابة بداء قتل الوالدين، ولقد حاول والدنا أن يقتل جدّنا فأخفق، وأعدت الكرة على أمنا فنجحت، وهكذا ترى أنني كنت أعظم توفيقاً من أبي.  
فلاح القلق في وجه الشابّ ونهض قائماً. ثم ثبتّ عينيه في وجهي وتساءل:  
- ماذا تنوي أن تصنع بنفسك؟... لم يبق إلّا ساعة على تشييع الجنّازة.  
فقلت في دهشة:  
- أسمح بتشيع الجنّازة دون تحقيق؟ يا لك من أخ رحيم! ولكنّ الواجب فوق الأخوة. ادعُ النيابة، وسادلك على الطريق إليها فقد عرفته بنفسه أسس، وقل لو كبل النيابة إنك تدعوه للتحقيق مع الشخص الذي دعاه أسس للتحقيق في مقتل زوجته.  
وبدا أخي كأنّه تذكّر أمراً مزعجاً فصاح:  
- يا له من حدث أليم!... كيف لم تبرق إليّ يا كامل؟ لقد أخبرتني الخادم اليوم فلم أكد أصدّق...  
فقلت فيها يشبه الهديان:

ولاحت في عينيها نظرة إشفاق وغمغمت بصوت حنون:

- كامل...

وحاولت أن أبتسم. وندت عنها تنهدة حارة وتمتمت:

- أشهد أن لا إله إلا الله.

تشهدت بصوت ينم عما برح بها من خوف وعذاب، ووجدتها لا ترفع يدها عن رأسي، ثم شعرت في اللحظة التالية بوجود شيء تحت راحتها، فسألته بصوت ضعيف وقع في أذني كالصغير المكتوم:

- ما هذا الشيء على رأسي؟

فجاءني صوت آخر يقول:

- كيس ثلج يا سيدي..

فالتفتُ إلى الناحية التي جاء منها الصوت فرأيت أخي مدحت جالساً على المقعد الطويل، وأدركت في تلك اللحظة أين أكون، وهجمت على الذكريات التي فررت منها بهذه الغيبوبة الثقيلة، وطالعتني الحياة بوجهها الكالنج مرة أخرى، ووقع بصري على المنبه فإذا بعقره قد جاوز العاشرة بقليل، العاشرة صباحاً كما يدل عليه ضوء النهار. وإذن فقد انقضت الليلة الكثيرة وأنا في نوم عميق! ونظرت إلى أخي بطرف كسير وتساءلت:

- هل شُيعت الجنازة؟

فألقي عليّ نظرة طويلة ثم قال باقتضاب:

- طبعاً..

وصمت ملياً ثم استدرك قائلاً:

- لعلك لا تدري أنك غبت عن الوجود ثلاثة أيام كاملة.

ورنوت إليه بدهشة، ثم أغمضت جفني في ذهول، وتمتمت في حزن بالغ:

- قضى الله بآلأ أشيع لا أمي ولا زوجي إلى

مرقدهما الأخير.

الرهبة غريبة خالية. وشعرت بفراغ مخيف جداً. فقد خلا البيت، وخلت حياتي، وخلت الدنيا جميعاً. وكنت في حياتها أجد طمأنينة راسخة، وأشعر في أعماق قلبي بأنه مهما نكدت الدنيا فلي فيها حجرة دائمة الإشراف بالابتسام والحنان، أما الآن فما أشبهني بقارب تمزقت حبال مراساته في بحر هائج عاصف وحتى شقيقتي التي تحنو عليّ في مرضي فما أسرع أن تعتذر لي غداً أو بعد غد بيبتها وأولادها وتركني وحيداً. رباه هل خلقت - أنا الطفل المدلل - لمثل هذه الحياة؟!

ونظرت إلى אחتي طويلاً في حبّ وامتنان، وأنعمت النظر في وجهها بشوق لا تدريه مجذوباً إلى مشابه فيه من وجه أمي، فاهتزّ صدري ودرّ حناناً وحزناً عميقاً. وألقيت على ما حولي نظرة حائرة فوجدت أثاث رباب يحدجني بنظرات غريبة، فقلت في ضيق:

- هيهات أن تطيب لي الإقامة في هذا البيت. سأقيم عندك يا أختاه..

فأقلت אחتي بصدق وإخلاص:

- هذا ما كنت عقدت العزم عليه.. أهلاً بك وسهلاً!

وسألته أن تقرب أذنها مني ثم قلت لها بحزن:

- خذيني إلى حجرتها لألقي عليها نظرة..

فأظلمت عيناها واغرورتنا بالدمع، وقالت لي همساً:

- لا يمكن أن تفارق الفراش الآن، ثم إنه لم يعد بالحجرة شيء.

تخلّلت الحجرة الخالية، أربعة جدران وسقفها وأرضاً. ما أشبهها بحياتي. وتنهدت محزوناً وتمتمت:

- ما أشقائي!

فأقلت راضية برجاء وضراعة:

- هلاً أجلت الحزن حتى تبرا!!

\*\*\*

ولازمتُ الفراش زهاء شهر، وأقامت راضية عندي أسبوعاً ثم عادت إلى بيتها مضطربة ولكنها دأبت على زيارتي كل يوم عصرًا، ولم تكن تفارقي قبل أن

وتحول بصري إلى אחتي فرأيت عينيها مغروقتين بالدموع، فغشيتني كآبة موحشة بدت الحياة خلالها كالمرت. لشد ما بدت لي الحياة في تلك اللحظة

في أذنيّ، وتلك طمأنينة السلام تقرّ في قلبي! كان خيالي نشيطاً ولكنّه كان غادراً في كثير من الأحيان، فلم يكن يصعد بي إلى ذاك المرتقى حتّى يتخلّى عنيّ بغتة فأهوي من علّ، ثمّ أعود إلى قلبي القديم وخوفي المقيم... .

\* \* \*

وفي ذات صباح من أيام النقاهة الأخيرة جاءني الخادم العجوز وقالت لي:  
- جاءت سيّدة تريد مقابلتك وقد أدخلتها حجرة الاستقبال.

فرفعت إليها عينيّ في دهشة وسألتها:

- ألا تعرفينها؟

فهزّت المرأة رأسها قائلة:

- لم أرها يا سيّدي قبل اليوم.

ووثب إلى خاطري طيف فانتفض قلبي الضعيف واشتدّت ضرباته حتّى انبهرت أنفاسي. ربّاه أكون هي حقّاً؟ وهل وانتهى الجراة على اقتحام البيت؟ ألم تقدّر العواقب؟ ونظرت إلى الخادم في حيرة شديدة ثمّ تمتت:

- ادعِها إلى حجرتي... .

والقيت على المرأة نظرة متفحّصة، ثمّ تناولت المشط ورَجَلْتُ شعري على عجل، وفي حياء شديد اتّجه بصري نحو الباب. ترى هل يصدق ظنيّ؟ وكيف غابت عن ذاكرتي طوال العهد كأنّها كانت كامنة في دم الصّحة الذي نضب؟ ثمّ سمعت وقع أقدام تقترب، وأطلّ عليّ وجه القادم يتسم في شوق وإشفاق، فهتفت فيها يشبه الاستغاثة وقد وثى صوتي بما شاع في صدري من الانفعال:

- أنت!... .

يُغمض النوم جفنيّ... . وعاد مدحت كذلك إلى اليوم، ولكنّه كان يمضي عندي نهاية الأسبوع.

ولمّا دخلت طور النقاهة كانت الحمى قد عرّقتني وخلفتني جلدّاً على عظم. ولم تكد تبقى ثمة حياة إلّا في خيالي، فازدهرت حيويّته وامتلأ قوّة ونشاطاً فكاد يبلغ حدّ الهوس. ولم يكن شعور الوحشة والخوف ليفارقني ساعة من ساعات اليقظة. فبدت لي الحياة شاقّة مرعبة لا قبّل لي بها، وامتلات أذناي بذاك النداء القديم الذي يهيب بي - عند الشدائد - أن أوتّي فراراً. ولكن أين المفرّ؟ ليتني أخلق شخصاً جديداً، سليم الجسم والروح، لا يعيش بأركان نفسه الخوف والجفاء، فالقي بنفسي في خضمّ الحياة الإنسانيّة بلا خجل ولا نفور، أحبّ الناس ومحّبوني، وأعينهم ويعينوني، وآلفهم وبالفوني، وأندمج في كائهم الكبير عضواً عاملاً نافعاً! ولكن أين منّي هذه السعادة؟! وفيهم أعلّل النفس بالأمان الكاذبة؟ لم أخلق لشيء من هذا، وإنّما خلّقت للتصوّف، ومن عجب أن وردت هذه الكلمة على ذهني بغير قصد، لكن سرعان ما تشبّثت بها بدهشة وحيرة... . التصوّف؟ لست أدري ما هو على وجه التحقيق! ولكنّه وحدة وعزوف وتفكير وما أحوجني للوحدة والعزوف والتفكير عجباً ألم أكن أشكو الوحدة طوال رقادي؟ الحقّ أنّي لم أشكّ الوحدة التي ألقّتها العمر كلّها ولكنني استوحشت الوحدة التي خلّفتها أمّي. أمّا الوحدة المعهودة فما أشدّ لهفتي إليها؟ ينبغي قبل ذلك أن أظهر جسمي ظاهره وباطنه، ثمّ أكرّس قلبي للساء. لقد خلّقت في الواقع متصوّفاً ولكن أضلّتني نوازع الحياة، وتصوّرت نفسي في طهر عجيب، يستحمّ جسدي بماء عطر، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء، فلا مشهد أرنو إليه إلّا الساء ولا خاطر ينبثق في نفسي إلّا الله، وهذه بلابل الجنة تسجع



بِذَلِكَ نَفَايَةُ





- ١ -

وعاد الضابط يتبعه الفتى واجماً، وما إن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم في دهشة:  
- وأنت أيضاً؟! . ماذا حدث؟!  
وتبادلا نظرة حائرة، ثم تبع الضابط الذي مضى متسماً حجرة الناظر. وسأله حسين في لهجة رقيقة مؤدبة:

- ما الذي أوجب استدعاءنا من الفصل؟  
فأجاب الضابط بعد تردد قائلاً:  
- ستقابلان حضرة الناظر.

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة. وكان الشقيقان متشابهين لدرجة كبيرة، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل، وعينان عسلتان واسعتان، وبشرة سمراء ضاربة إلى العمق، إلا أن حسين في التاسعة عشرة، يكبر أخاه بعامين ودونه طويلاً، على حين يمتاز حسين بدقة في قسما وجهه أكسته وضاعة ووسامة. ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر، وتحاول لعينيهما منظره الصارم في رهبة وخوف. وزرر الضابط سترته، ونقر على الباب، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومئ إليهما أن يتبعاه. ودخلا وهما ينظران إلى الرجل وقد انكب على مكتبه في صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم. وحيّاه الضابط بأدب جم وقال:

- التلميذان حسين كامل علي وحسين كامل علي.  
فرفع الناظر رأسه وهو يطوي الرسالة بيديه، وأطفأ عقب سيجارة في النافضة، وجعل يردد بصره بينهما، ثم تساءل:

- في أي سنة أنتما؟

فقال حسين بصوت متهدج:

- رابعة رابع.

ألقى الضابط نظرة كثيبة على الردهة الطويلة التي تفتح عليها فصول الستين الثالثة والرابعة، وقد شمل المدرسة - التوفيقية - سكون عميق، ثم مضى إلى فصل من فصول السنة الثالثة، ونقر على الباب مستأذناً، ودخل متجهاً صوب المدرس وأسر في أذنه بضع كلمات، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس في الصف الثاني وناداه قائلاً:  
- حسين كامل علي.

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق، وغمغم:  
- أفندم؟  
فقال المدرس:

- اذهب مع حضرة الضابط.

فخرج التلميذ عن قِمَطره، وتبع الضابط الذي غادر الفصل في خطوات بطيئة. ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة، وراح يسائل نفسه: ترى أجاءت بسبب المظاهرات الأخيرة؟ وكان قد اشترك في المظاهرات، وهتف مع الهاتفين: «ليسقط تصريح هور» و«ليسقط هور ابن الثور»، وقد ظن أنه نجا من الرصاص والعصي والعقوبات المدرسية جميعاً، فهل كان مغالياً في ظنه؟ وسار وراء الضابط في الردهة الطويلة متفكراً، يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من تهم، ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرابعة ودخوله مستأذناً، ثم بلغ مسمعه صوت المدرس وهو ينادي قائلاً:

- حسين كامل علي.

شقيقه أيضاً؟! ولكن كيف يمكن أن توجه إليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك في المظاهرات بتاتاً؟!

وقال حسنين:

- ثالثة ثالث.

فنظر إليهما ملياً ثم قال:

- أرجو أن تكونا رَجُلَيْنِ كما ينبغي. لقد توفي والدكما كما أبلغني أخوكما الأكبر والبقية في حياتكما..

ووجعا في ذهول وانزعاج، وهتف حسنين وهو لا يدري قائلاً:

- توفي أبي!.. مستحيل!

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه:

- كيف؟ لقد تركناه منذ ساعتين في صحة جيدة وهو يتأهب للخروج إلى الوزارة..

فصمت الناظر قليلاً ثم سألها برقة:

- ماذا يعمل أخوكما الأكبر؟

فقال حسين بعقل غائب:

- لا شيء..

فتساءل الرجل:

- أليس لكما أخ آخر موظف أو شيء من هذا القبيل؟

فهزّ حسين رأسه قائلاً:

- كلا..

فقال الرجل:

- أرجو أن تتحملاً الصدمة بقلوب الرجال، واذها

الآن إلى البيت كان الله في عونكما..

- ٢ -

وغادرا المدرسة إلى شارع شبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع. وكان حسنين أسرعهما إلى البكاء فأراد حسين أن ينهره في حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم ينبس بكلمة. وعبرا الطريق إلى الجانب الآخر، وحثاً خطواتهما قاصدين عطفة نصرالله على مسيرة دقائق من المدرسة. وتساءل حسنين وهو ينظر إلى شقيقه كالمستغيث:

- كيف مات؟

فهزّ حسين رأسه واجماً وتمتم:

- لا أدري. لا أستطيع أن أتصور. لقد تناول

فطوره معنا، وتركناه في صحة جيدة. لا أدري كيف وقع لهذا..

وحاول حسنين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أنه رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق

فحيّاه كعادته قائلاً «صباح الخير يا بابا» فأجابه مبتسماً:

«صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟» واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة، فدعا الرجل الأم إلى مشاركتهم الطعام

فاعترضت بأن نفسها مصدودة، فتذمّر الرجل قائلاً:

«إذا جلست معنا انفتحت نفسك» ولكنها أصرت على الاعتذار، فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة: «على

كيفك». لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك، اللهم إلا نحنة مقتضبة. وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو

يدخل حجرته محفّفاً يديه في منشفته. ثم انتهى، انتهى، أبشع بها من كلمة! واسترق إلى حسين نظرة

مرّوعة فوجده محزوناً واجماً كأنما كبر وشاخ، وعاد إلى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة: لا أصدق أنه مات، لا

أستطيع أن أصدق. ما هو الموت؟ لا أستطيع أن أصدق. انتهى؟ لو كنت أعلم أن هذا آخر ما بقي لنا

من عمره ما غادرت البيت. من أين لي أن أعلم؟ أيموت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا

أستطيع أن أصدق. وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه إلى عطفة نصرالله التي كاد يفوتها في ذهوله.

وسارا في طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات

الغاز والخضر والفاكهة. وسبقهما البصر إلى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل التراب، ثم ترامى

إلى أذنيهما الصوات فتبينتا صوتي أمهما وأختها الكبرى وهزّهما حتى الأعماق فأجهشا في البكاء، وجريا لا

بلويان على شيء، وارتقيا السلم مهرولين إلى الدور الثاني فوجدا باب الشقة مفتوحاً فتدافعا إلى الداخل،

وقطعا الصالة إلى حجرة الأب في نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان. وثبتت عيناهما على الفراش وقد وشى الغطاء

بالجسم الممدّد تحته، ثم اقتربا من حافته وارتقيا عليها وأغرقا في نشيج حارّ. وكفّت الأم والأخت عن

الصوات على حين غادرت الحجرة امرأتان غريبتان.

تغيّرًا شاملاً لا يدريانه، ولكنّها وجداهما كالعهد بها لم يتغيّر منها شيء. لهذا الفراش على يمين الداخل، والصوان في الصدر يليه المشجب، وإلى اليسار الكنية التي ارتمت عليها الأخت وقد أسند إلى حافتها عود انغرس ريشته بين أوتاره، وثبتت عينهما على العود في دهشة ممزوجة بالحزن. طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار، وطالما التفت حولها الأصدقاء مُطربين يستعيدون ويعيد، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق، أرقّ من هذا الوتر. ثم مرّ بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش، لا تزال تدور باعثة دقّاتها الهامسة، ولعلّ الراحل قرأ فيها آخر تاريخ له في الدنيا وأول عهدهما باليتيم. وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت آثار عرقه ببنيقته، فرونوا إليها بحنان عميق، وقد بدا لها في تلك اللحظة أنّ عرق الإنسان أشدّ ثباتاً من حياته العظيمة. وليّت الأم تنظر إليهما في صمت. لم تجر لها خواطرهما على بالٍ ولكنّها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم يدرّ بخلد. ونذت من حسنين تهبّدة حارة لفتت إليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس في أذنه:

- هلمّ بنا.

وألقي الشبان نظرة أحيرة على الجثمان المسجّى وهما يعتقدان - بحكم العادة المتوارثة - أنّ عيني أبيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسيء إعراضهما إلى شعوره، وبعثا إليه بتحيّة قلبية وتقهرقا إلى الباب ثمّ غادرا الحجرة. ولاحت من حسنين نظرة إلى أخيه فطالع في وجهه حزناً عميقاً مؤثراً فحفق قلبه وأحسّ نحوه بالعطف، كما أحسّ بحاجته الشديدة إلى عطفه.

- ٣ -

وغادر الشقيقان الشقّة إلى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسي فوجدا أخاهما الأكبر - حسن - جالساً في صمت وكآبة. وجلسا إلى جانبه يشاركانه صمته وكآبته. لم يكن لديهما فكرة عمّا ينبغي عمله، أمّا حسن فكان ذا تجارب كثيرة. وكان يشبه أخويه إلى حدّ كبير بيد أنّه اختلف عنها في نظرة عينيه التي تنمّ

وأرادت الأم أن تتركها بنفسان عن صدرهما فتأسكت واقفة في جلبابها الأسود وقد احمرت عينها وانتفخ خدّاه وأنفها، أمّا الأخت فقد ارتمت على كنية وأخفت وجهها في مسندها وراح جسمها ينتفض من البكاء. وكان حسين يبكي ولسانه يتلو بطريقة آليّة بعض السور الصغيرة استنزاً للرحمة. وكان حسنين يبكي في جوّ من الخوف والذهول والإنكار. وقف حيال الموت محتجاً ثائراً ولكن في نفس الوقت خائفاً يائساً. «ليس هذا بأبي. لا يمكن أن يسمع أبي هذا البكاء كلّ دون أن يتحرّك. ربّاه لماذا يجمد هكذا؟ إنهم يبيكون ولكن في تسليم من لا حيلة له. لم أكن لاتصوّر هذا، ولا أنصوّره. ألم أزه يمشي في هذه الحجرة منذ ساعتين؟ ليس هذا أبي. وليست هذه حياة». وبدأ الانتظار وكأنّ لا نهاية له، فاقتربت الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة:

- خسيكما. قم يا حسين خذ أخاك خارجاً.

وأعادت القول حتّى قام حسين وأنض أخاه ولكنّها لم يغادرا الحجرة، وقفا يلقيان على الجثث المسجّى نظرة طويلة غائمة بالدموع. ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاة بالحركة التي بدرت من أمّه، فطالعه الوجه الغريب موسوماً بميمس الفناء، تشويه زرقه مروعة، ويرين على صفحته سكون غير دينويّ، في عمق العدم ولا نهائيتته، فسرت رجفة في أوصاله. لم يكن أحد منهما قد رأى ميتاً قبل هذه المرّة فركبهما الخوف والأسى. ونفذ إلى أعماقهما حزن قهّار إلى حيث لم تنفذ عاطفة من قبل. ومال حسين نحو الميت ولثم جبينه فعادته الرجفة. ومال حسنين نحوه كذلك ولثم جبينه في شبه غيبوبة. وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفاني، وحالت بينها وبين الفراش، ثمّ قالت لها بلهجة حازمة:

- اخرجاً.

فتراجعا خطوتين، وتولّى حسنين عناد طارئ فتوقّف، وتشجّع به حسين فتوقّف كذلك. وجال بصرهما بالحجرة فيما يشبه الدهول، وكأنتها كانا يتوقّعان

وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه  
دواعي الحزن والأسف؟! واختلس من الوجوهين  
المحزونين نظرة سريعة من عينيه البرّاقتين ثمّ عضّ  
شفتيه. كان يحبّهما على رغم الظروف التي تدعوه إلى  
الحقد عليهما وفي مقدّمتها جميعاً نجاح حياتهما المدرسيّة  
ومتّعتها بعطف أبيه. ولكنّه لم يكن يرى في المدرسة  
ميزة يحسد عليها أحد، ومن ناحية أخرى كان مقتنعاً  
بأنّ أباه يحبّه كشقيقه وإن ران على حبّه السخط  
والغضب، وأهمّ من هذا كلّهُ أنّ الشعور برابطة  
الأسرة كان ولا يزال قوياً في آل كامل بفضل الأمّ قبل  
كلّ شيء.

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة في ثياب  
رفيّة فعرفوا فيها خالتهن وزوجها عمّ فرج سليمان،  
وقد عزّاهم الرجل وشاركهم جلستهم، على حين  
هرولت الحالة إلى الداخل وهي تصرخ «يا خراب  
بيتك يا اختي» فدوّت العبارة في أذانهم دويّاً مفعجاً  
وعاود الشائين البكاء. وراح عمّ فرج سليمان يحادث  
حسن بينا خلا الشقيقان إلى نفسيهما في صمت طويل.  
والتقت أفكارهما وهما لا يدریان في مصير أبيهما بعد  
الموت. وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثته وبعض  
العلم فلم يداخله شكّ في النهاية، وسأل الله بقلبه أن  
يلقى أباه في ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال  
من رضوان الله. وأمّا حسنين فكان في حيرة من كرب  
الموت لا يدع للعقل راحة للتأمّل والتفكير. وكان يسلم  
بالإيمان تسليماً وراثياً لا شأن فيه للفكر، وقد حملته أمّه  
يوماً على أداء الفرائض فأذاها دون وعي، ثمّ هجرها  
في شيء من التردّد دون تكذيب أو زيف. ولم تتسلط  
العقيدة على فكره. ولم تشغل باله كثيراً، ولكنّه لم يجد  
نفسه خارجاً على حقائقها قطّ. وقد دفعه الموت إلى  
التفكير ولكنّه لم يطلّ به، وسرعان ما عاوده التسليم  
تؤيّد هذه المزة عاطفة حادة: «هل الموت هو النهاية؟  
ألا يبقى من أبي إلّا التراب ولا شيء وراء هذا؟ معاذ  
الله. لن يكون هذا. إنّ كلام الله لا يكذب». ولبث  
حسن وحده لا يشغله شيء من هذه الأفكار ولم يستطع  
الموت نفسه أن يدعوها إلى رأسه، كأنه كان وثيقاً

عن جرأة واستهتار، فضلاً عن أنّ طريقته في ترجيل  
شعره الكثيف المنفوخ، ولبس البدلة، دلّت على عنايته  
بنفسه من ناحية، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من  
ناحية أخرى. كان حسن يعلم بما ينبغي عمله ولكنّه لم  
يبدّ حراكاً لأنّه كان ينتظر مقدم شخص هامّ. وقد  
سأله حسين بتأثر:

- كيف مات والدنا؟

فأجاب قائلاً وهو يقطب:

- مات فجأة فأذهلنا جميعاً. كان يرتدي ملابسه  
وكنّت جالساً في الصالة فما أدري إلّا والدنا تناديني  
بفزع، فهرعت إلى الحجرة، فوجدته ملقى على الكنبه  
وصدره يعلو وينخفض. وجعل يومئ في ألم إلى صدره  
وقلبه فحملناه إلى الفراش، وقدمنا له كوب ماء ولكنّه  
لم يستطع أن يشرب. ثمّ غادرت الحجرة مسرعاً  
لاستدعاء طبيب، ولكنّي لم أكد أبلغ الفناء حتّى صكّ  
مسمعي صوات حادّ فعدت فزعاً، ووجدت أنّ كلّ  
شيء انتهى..

ورأى وجهي شقيقه يتقلّصان من الألم فازداد وجهه  
كآبة. كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجّس خيفة من  
شقيقه أن يظنّوا بحزنه الظنون. كانا يعلنان بطبيعة  
الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة  
بسبب حياته المضطربة المستهترّة؛ فخاف أن يحسباه  
دونها حزناً وأسناً. والحقّ أنّه يجد لوعة الحزن  
والأسى. والحقّ أنّه لم يغيض أباه قطّ على رغم ما  
كان. وإذا لم يكن حزنه كحزنها فمرجع هذا إلى تقدّمه  
عنهما في السنّ - كان في الخامسة والعشرين - وإلى  
تمرّسه بالحياة حلوها ومزّها، ومزّها على الأكثر، الأمر  
الذي يلفظ عادة من مرارة الموت. حقّاً كان قلبه  
يحذّثه بأنّه لن يجد بعد اليوم من يصرخ في وجهه  
قائلاً: «لا أستطيع أن أعول رجلاً خائباً مثلك إلى  
الأبد، فيما دمت قد نبذت الحياة المدرسيّة فشقّ سبيلك  
بنفسك ولا تلقى بنفسك عليّ». حقّاً لن يجد من يقول  
له هذا بعد اليوم، ولكنّه لن يجد كذلك من يؤويه إذا  
ضاق به السبل وكثيراً ما تضيق به حتّى لا يوجد بها  
منفذ لأمل. إنّهُ أعظم إدراكاً لحقيقة الكارثة التي

عمّ جابر سليمان البقال بخير منه، والخلّاق أدهى وأمرّ، ونفر غيرهم غياهم أشرف من حضورهم. وانقبض صدره وغشيه كدر عميق. ولكنّه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتّى تدفقت جماعات الموظّفين حتّى سدّوا عطفة نصرالله سدّا. وردّت إليه الروح فعاد إلى حزنه خالصًا من القلق. ثمّ حدث ما لم يدّر له في حساب، فجاءت سيّارة فخمة تنطق بالعزّ والجاء، ووقفت على بعد يسير من البيت وغادها ساعٍ ففتح بابها ثمّ نزل منها رجل ينمّ مظهره على الألقاب والرتب. وتقدّم بجسمه الطويل العريض الذي عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرج إليه الإخوة بأدب، واندسّ بينهم فريد أفندي محمّد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التي ينبغي أن يقدرها - كموظّف - أكثر من سواه، وتساءل القادم في صوت منخفض:

- أليس هذا بيت المرحوم كامل أفندي عليّ؟

فبادره فريد أفندي قائلاً باحترام:

- بلى يا سعادة البك .

ولم يجدوا ما يقدمونه له إلّا كرسيّاً خيزراناً على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل. وكان حسنين قد امتلأ ارتياحاً لمقدمه ولكنّه وجد ضيقاً لسؤاله عن بيت المرحوم ممّا دلّ على أنّه لم يعرف البيت، واقترب من أخيه حسن يسأله:

- من يكون هذا الرجل؟

فقال حسن:

- أحمد بك يسري، مفتش عظيم بالداخلية،

وصديق حميم للمرحوم . .

فسأله بغرابة:

- لماذا سأل عن البيت كأنّه لا يعرفه؟

فحدّثه حسن بنظرة غريبة وقال:

- كان والدنا كثير التردّد على بيته، أمّا هو . . إنّه رجل عظيم كما ترى . !

وصمت الشاب لحظة ثمّ استدار قائلاً:

- كان المرحوم يحبّه ويعدّه أعزّ صديق.

وتناسى حسنين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه

بالفطرة. والحقيقة أنّه لم يتأثّر بأيّ نوع من التربية أو التهذيب. كان ابن الشارع كما كان يدعو أبوه في ساعات الغضب. وقد طُبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة، وما انفكّ يتخذ منها مادة لمزاحه ودعابته، وحتّى الأثر الخفيف الذي علّق بقلبه من وحي أمّه ضاع في خضمّ الحياة التي اكتوى بنارها. لذلك تاه به الفكر في ديان بعيدة عن الأبدية تتركّز حول هذه الحياة وحظّه وحظّ أسرته منها. بيد أنّه لم يطل به المكث مع شقيقه وزوج خالته فقد تراءى عن بُعد رجل يهول قادمًا ما إن وقع بصر حسن عليه حتّى قال بارتياح كأنّه كان ينتظره:

- فريد أفندي محمّد!

وكان القادم يحفّف جبينه بمندبل على رغم لطافة الجوّ الخريفيّ، ولكنّه كان بدنيّاً مفرطاً في البدانة، ذا كرش عظيمة، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة، على أنّ بدانته وكهولته وأناقته أيضًا أضفت عليه وقارًا ممّا يعزّز به موظّفو الحكومة والكتبة منهم خاصّة. وعلقت به أعين الإخوة برجاء يستحقّه من كان جازاً مثله وصديقاً قديماً لأبيهم، وأقبل الرجل عليهم معزّيّاً. ثمّ خاطب حسن قائلاً:

- طلبت إجازة اليوم من الوزارة. هلّم بنا إلى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثمّ لابتياح اللوازم الضرورية. وجعل يسأل عمّا كان وصّاه به قبل ذهابه إلى الوزارة من إجراءات تستدعيها الوفاة، ثمّ تأبّط ذراعه وذهبا معاً . .

- ٤ -

وعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنيين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه. كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التي يحبّ أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكرثا كثيرًا لهذا الأمر، أمّا هو فكان يعدّ إخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه، غضبًا لأبيه الذي يحبه، ولنفسه هو. وقلّب عينيه فيمن تجمّع من المشيعين فلم يرَ أحدًا يملأ العين إلّا جارههم الكريم فريد أفندي محمّد، أمّا زوج خالته فكان في حكم العمّال، وليس

يإنكار وأسف. ثم نظرت الأم إلى الأبناء وقالت:  
- قوموا للنوم..

وأذعنوا لمشيئتها بلا اعتراض بعد يوم شاقّ أليم،  
ومضوا إلى حجرتهم. وكان بالحجرة ثلاثة أسرة صغيرة  
فاخلوا واحداً لزوج خالتهم الذي لحق بهم على الأثر،  
وشارك حسنين حسين في فراشه. ولكنهم لم يستسلموا  
للنوم، أو تأبى النوم عليهم، فراحوا يتحدثون عن  
أبيهم بحزن وحنان، ويذكرون أيامه الأخيرة، وميته  
المفاجئة. ثم قال حسين:

- كانت جنازته تليق بمقامه حقاً..

فقال عمّ فرج سليمان مؤثماً على قوله:

- كان رحمه الله رحمة واسعة رجلاً عظيماً، فلا  
عجب أن تكون جنازته عظيمة مثله. ولقد امتلأت  
عطفة نصر الله بالمشييعين من البيت إلى شارع شبرا..  
ولم يرتح حسنين لصوت الرجل، وكان يشعر  
لوجوده بضييق، ثم ذكر حانقاً أنه رأى القبر العاري،  
فقال:

- العجيب أنّ والدنا وقد أفنى ماله كثيراً لم يفكر في  
بناء مقبرة تليق بالأسرة.

- هل كان يظنّ أنه سيهلك في مثل هذه السن؟ إنّ  
والدك في الخمسين. وعندنا في الريف كثيرون  
يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة في هذه السن.

وصمت الرجل ملياً ثم استدار قائلاً:

- ولا تنس أنّ والدك قد هاجر مع جدّته من دمياط  
إلى القاهرة وهو في مثل سنّك يا سيّ حسنين، فلست  
من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلاً بعد  
جيل.

فقال حسنين بامتعاض:

- حقاً لسنّا من أهل القاهرة وإن كانت أسبابنا بالنا  
في دمياط قد انقطعت.

وذكر في حزن أنّه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته  
هذه، وسيبقى هذا القبر المغمور في العراء رمزاً  
لضيقهم المخجل في هذه المدينة الكبيرة. وازداد ضيقاً  
بوجود هذا الرجل الذي احتلّ فراشه. فآثر الصمت  
حتى يقطع عليه سبيل الكلام. وساد الصمت حتى

زهوها، وودّ لو يراه - ذلك الفتش - المشييعون جميعاً.  
ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت  
وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ. انتظمت الجنازة  
بالمشييعين جميعاً يتقدمهم النعش. وعلقت أعين  
الشقيقين بالنعش في ذهول وإنكار، وتساقط دمعهما  
طوال الطريق. وبلغوا المسجد وأخذوا في توديع  
المشييعين وشكرهم. وأظهر البعض استعداداً لمرافقة  
النعش حتى مستقرّه الأخير، ولكنّ حسنين همس في  
أذن أخيه الأكبر قائلاً:

- لا تسمح لأحد بالذهاب معها كلّك الأمر.

كان حريصاً على ألا تقع عين على القبر حفظاً  
لكرامة الأسرة. ووقّفوا إلى صرف المشييعين، وركبوا  
سيارة الموتى وليس في ركبهم إلّا عمّ فرج سليمان  
وفريد أفندي محمد الذي أبى الرجوع إباء لم ينفع فيه  
الرجاء. وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر،  
ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور في العراء ثم ووري  
جثمان كامل أفندي في قبر غير بعيد من الطريق الملتوي  
الذي يشقّ المدافن كأنه من قبور الصدقة. ووقف  
حسنين غارقاً في الحزن والبكاء، ولكنّه على حزنه كان  
يسترق النظرات إلى فريد أفندي محمد في خجل  
واستياء «لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءوا معزّين،  
ولرافقي بعضهم حتّى إلى هذا القبر. الحمد لله الذي  
لا يحمد على مكروه سواه. لا مقبرة ولا يحزنون. لماذا  
لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا؟»

- ٥ -

انتصف الليل أو كاد، وخلت الشقة إلّا من أهلها.  
وأوت الأسرة إلى الصالة ومعهم الخالة وزوجها.  
وراحت الأم تعيد قصّة الوفاة للمرة العشرين في ذلك  
اليوم الحزين، وأنصت إليها حسين وحسنين باهتمام،  
على حين وجم حسن متفكراً.

وتحدّث حسنين عن أحمد بك يسري متحاشياً مسألة  
جهله للبيت لوجود خالته وزوجها من ناحية، ولأنّه لم  
يكن يحبّ أن يذكرها من ناحية أخرى. وكان شعور  
العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو إلى باب  
حجرته المغلقة بطرف حزين، ويتخيّل فراشه الخالي

وجدت في محفظته جنبيين وسبعين قرشاً هي كل ما تملك من نقود حتى تتظم الأمور؟ ورنّا بصرها إلى حجرة الأبناء في سهوم. اثنان في المدرسة، معفيان من المصاريف حقاً، ولكن هيهات أن يغني هذا عنهما شيئاً. أما الثالث ففي حكم الصعاليك! وتهدّت من الأعماق. ثم حوّلت عينها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألماً. فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وهذه هي الأسرة التي باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنها لم تكن من النساء اللاتي يفضضن همومهنّ بالدموع. وإنّ حياتها الماضية وإن أمست حلماً سعيداً مولياً إلا أنها لم تكن سيرة خصوصاً في مطلعها حين كان المرحوم موظفاً صغيراً ذا جنبيات معدودات، وقد علّمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائماً قويّة، وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأقهار وضعفهنّ. والأبناء أنفسهم مثال حيّ على التباين بين الأب والأم، فكان حسن شاهداً تعيشاً على رخاوة الأب وتدلّيله، وكان حسين وحسين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها. أجل كانت أرملة قويّة، ولكنّها لم تملك في تلك اللحظة من الليل إلا اجترار الحزن والقلق..

- ٦ -

في مساء اليوم التالي لم يبق في الدار أحد غير أهلها. وقد كُوم أثاث حجرة الراحل في ركن منها وأغلق بابها. واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنّه آن لهم أن يسمعوها. وكانت الأم تعلم بأنّه ينبغي لها أن تتكلّم. ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله، فقد كانت فكّرت فأطالت التفكير، ولعلّه لم يكن يعيّرُها شيء مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدالّ على الحزم والقوّة، وباطنها الذي يندى رحمة وعطفاً على أسرتها البائسة. وخفضت عينها متحامية النظرات المصوّبة نحوها وقالت:

- مصيبتنا فادحة، ليس لنا إلا الله، والله لا ينسى عباده.

لم يكن بوسعها أن تتساءل «ما عسى أن نفعل؟»،

رُتقَ النوم بأحفانهم. وفي الصالة لم تبارح الأم وأختها وابنتها مجلسهنّ، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز. وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى. وقد ارتسمت أماراته على وجه الأم النحيل البضاويّ وعينيها الملتهبتين. وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبّب وجسمها النحيل القصير توحى بأنّها وهبت الأسرة خير ما فيها، فلم يبق من حيويّتها إلا نظرة قويّة تنم عن الصبر والعزم.

وكان التغيّر الطارئ عليها من العمق بحيث يتعدّر تصوّر ما كانت عليه أيام شبابها، إلا أنّ ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقّة كبيرة. كان لها هذا الوجه البضاويّ النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبّب، إلى شحوب في البشرة، واحديداب قليل في أعلى الظهر، فلم تكن تختلف عن أمها إلا في طولها المائل لطول شقيقها حسنين. كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها، على حين ورث الإخوة خلقة أبيهم. وكان الحزن قد أتى عليها فبدت في صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب. أما الأم فعلى حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى. كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح. ولم تستطع أن تنسى أنّها كانت تنعّص عليها حياتها، وأنّها كان يحلو لها كثيراً أن تقارن بين حظّيهما فتقول: إنّ أختها تزوّجت من موظّف أمّا زوجها هي فعامل في محليّ قطن، وإنّ أختها تقيم في القاهرة وهي مقضيّة عليها بالحياة في الريف، وإنّ أبناء أختها تلاميذ وأبناءها هي لا حظّ لهم إلا حظّ العتال، وإنّ كرار أختها لا ينضب معينه أمّا بيتها فلا يعرف السعة إلا في المواسم. لعلّها لا تجد الآن ما تحسدها عليه. وامتلأت نفسها امتعاضاً إلى ما بها من حزن. إنّها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد. انتهى زوجها، وإنّها لتتلفّت بمنة ويسرة فلا تجد أحداً تعرفه إلا هذه الأخت التي لا يُعقد بها رجاء. لا قريب ولا نسيب. ولم يتخلّف الراحل شيئاً. وهيهات أن تأمل في معاش مناسب وقد كان مرتّبته كلّهُ يُستنفد في ضرورات الأسرة. وقد

وهيهات أن تنتظر جواباً من أحد من المحيطين بها، حتى كبيرهم حسن. وليس في الدنيا أحد تستطيع أن تلقي إليه بهذه الاستعانة فتشرکه في بعض همّها. شعرت بالخلاء يكتنفها، ولكنها أبت أن تستسلم لليأس، واستدارت تقول:

- ليس لنا من قريب نعتمد عليه. وقد رحل العزيز الغالي دون أن يترك شيئاً إلّا معاشه، ولا شك أنّه دون المرتب الذي كان لا يكاد يكفينا. فالحياة تبدو كالحاة الوجه، ولكنّ الله لا ينسى عباده. وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى برّ الأمان..

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهي تقول:

- لا أحد يموت جوعاً في هذه الدنيا، وسأخذ الله بيدنا، أمّا المصيبة التي تحمل عن العزاء فهي موته هو. أسفي عليك يا بابا.

ولم تحدث هذه الدموع أثراً عميقاً لأنّ كلام الأم أندر بأمور خطيرة استأثرت بجّل اهتمامهم، فثبتت أعينهم على أمّهم التي عادت تقول:

- لا يجوز إذن أن نياس من رحمة الله، ولكن ينبغي أن نعرف رأسنا من قدمنا وإلّا هلكنا، وأن نوظن نفوسنا على تحمل ما قدّر لنا من حظّ بصبر وكرامة، وربّنا معنا.

وأحسّت بأنّ معين الكلام العامّ قد نفذ، وأنّه ينبغي أن تخاطب الأبناء، كلّ بما يعنيه، ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقلّ خطورة، تمهّد به لمن هو أشدّ خطورة، فنظرت صوب حسين وحسين، وقالت بصوت هادئ أن تكشف عمّا لحق قلبها من تأثر:

- لن يكون في الإمكان إعطاؤكم أيّ مصروف يوميّ، ومن حسن الحظّ أنّ المصروف ينفق عادة في وجوه تافهة..

وجوه تافهة! اشترك نادي الكرة، السينما، الروايات. أهذه وجوه تافهة؟! وقد تلقى حسين الحكم في وجوم، وتاه عقله متخيلاً الحياة بلا مصروف، ولكن دون أن ينبس بكلمة. أمّا حسين فقد انقضّ الحكم عليه كالصاعقة، وسرعان ما قال

معتزّضاً، وبلا وعي تقريباً:

- كلّ المصروف؟! ولا ملّيم؟!!

فحدجته أمّه بنظرة طويلة ثمّ قالت بحزم:

- ولا ملّيم..

أحزنها اعتراضه، ولكنها رحّبت به لأنّه أتاح لها أن تؤكّد قولها بما لا يدع سبيلاً إلى الشكّ فيه، ولكي يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقه. وفتح حسين شفّته، وهمهم دون أن يبيّن، ثمّ قال بصوت منخفض:

- سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف..

فقال أمّه بحدّة:

- إنك واهم، المصائب كثيرة، والتلاميذ المصابون لا حصر لهم.. ولو أنّك فتشت جيوب التلاميذ جميعاً لوجدت أكثرها فارغاً. وهبكم الوحيدين الفقيرين فما في هذا من عيب، ولست المسئولة عمّا وقع..

ولاذ حسين بالصمت متذكّراً أنّه يخاطب أمّه. كان دائماً يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجده عندها، وكان الرجل يحبّه كثيراً فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلّا ابنته نفيسة. أمّا الأمّ فلم تكن تتخلّى عن حزمها قطّ. ولما فرغت من الردّ على اعتراضه استطردت قائلة:

- كذلك أحذركم من ترك نصيبكم من الغداء المدرسيّ كما تفعلان عادة.

وكان الشقيقان يقنعان من غدائهما المدرسيّ بلفحات معدودات كي يتناولوا وجبتها الرئيسية في البيت. وكان التلاميذ الذين يأكلون في المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة. فتساءل حسين برقة:

- لماذا لا نأكل في بيتنا كعادتنا؟

فقال الأمّ بامتعاض:

- من يدري فلعلّه لن يتاح للبيت الطعام الذي تحبّ!

وارتسمت على شفّتي حسن - الذي أصغى إلى الحديث كلّ في صمت عميق - شبه ابتسامة، أخفاها بتقطيع مصطنعة، ولكنها لم تحف على الأمّ، فصمتت



مؤذبة، وشعور ممتلئ عطفاً وتقديرًا للمسئولية، ثم قال:

- إني أدرك كل شيء..

فقالت المرأة في ضيق متسائلة:

- ما عسى أن يجدي الإدراك وحده؟

- لا بدّ من عمل شيء.

فقالت في انفعال:

- هذا ما نسمعه كثيرًا.

- الآن تغيّر الحال.

- أليس ثمة أمل أن تتغيّر أنت؟!

فقال حسن في نبرات قوية:

- مثلي لا يضع في الحياة، إني أستطيع أن أشقّ سبيلي. والفرص كثيرة والأسلحة في يدي لا حصر لها.

أصغِرْ إليّ يا أمّاه لن أطلبك بغير المأوى واللقمة!..

هذا أسلوبه! يبدأ وكأنه يسلم بكل شيء، ثم ينتهي وكأنه يطالب بحقوق جديدة. المأوى واللقمة، وماذا يبقى بعد ذلك؟! ورمقته باستياء وقالت:

- إنّ حالنا لا يحتمل هذا الهذر..

- الهذر؟

- أجل. نحن في حاجة إلى من يطعمنا فكيف نهيم

لك اللقمة؟! لماذا تضطّرني إلى مصارحتك بهذا؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- أعني إلى حين. حتّى تفرج. لن يضيق البيت بي،

أم تريد أن تطردني؟! وسوف ألتقط رزقي ما

وجدت إليه سبيلًا. ولكن هبي آيّاها انقضت دون أن

أجد عملاً فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعًا. وعلى

آبة حال سأقاسمك رغيفك حتّى أجد عملاً

وتنهّد في يأس. إنّا حيال مشكلة حقًا ولا تدري

ماذا تفعل. وأخوف ما تخاف أن يستسلم الحياة البطالة

والكسل والتسكّع خاصّة إذا فتر تأثره بموت أبيه فقالت

برجاء:

- أرجو أن تبحث بجّد وإخلاص عن عمل..

فقال بلهجة تنمّ عن الصدق:

- أعدك بهذا، وأقسم لك بقبر والدنا.

وأثار قسمه عاصفة حزن في الصدور لموقعه

على أن تواجهه بالحقيقة - إن كان حقًا في حاجة إلى ذلك - بعد هذا التمهيد الطويل فتساءلت بلهجة

حزينة:

- وأنت يا حسن؟!

هذا أكبر الأبناء، أوّل من أيقظ أمومتها، الحبيب الأوّل! ولكّنه دليل ملموس على أنّ الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمتّ للفطرة بسبب. لا يعني هذا بطبيعة الحال أنّها كرهته. إنّها أبعد ما يكون عن هذا. ولكّنها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها في حسرة بالغة. انزوى في ركن مظلم، ولم يعد حبّه يتحرّك في فؤاده إلاّ مصحوبًا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات. وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة.

كان في البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله، فلم يُبعث إلى المدرسة إلاّ في سنّ متأخرة. وسرعان ما ظهر تمردّه على الحياة المدرسيّة، وتكرّر هروبه من المدرسة، وتوالى سقوطه عامًا بعد عام، حتّى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نقار وشجار ثمّ إلى ما يشبه العداوة الحقّة، فكان يطرده أحيانًا من

البيت فيقضي آيّاها متسكّمًا ثمّ يعود إلى البيت وقد اكتسب شروئًا جديدة من مخادنة الأشقياء والغوص في الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولمّا بلغ اليأس من أبيه مداه ألحقه بحانوت بقال فمكث به شهرًا ثمّ طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها. ثمّ عمل في شركة سيّارات وطُرد منها أثر عراك أيضًا. ولم يعد يأبه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمّه ففرض نفسه على البيت فرضًا، يلقي سخطهم باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكّنه لا يتزعزع ولا يبحث جادًا عن عمل. وبدا وكأنّه لا يعمل للمستقبل حسابًا، وظلّ سادرًا مستهترًا حتّى فاجأه موت الأب.

إنّه يدرك خطورة الحال، فهو الوحيد الذي عرف مرتّب أبيه، وقدر على وجه التقريب معاشه. وفهم ما تعني الأمّ بتساؤلها «وأنت يا حسن». «أنت تقولين إنّ الله لا ينسى عباده، وأنا عبد من عباده. فلننظر كيف يذكّرنا. لماذا أخذ والدنا؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا؟» ولكّنه طالعها بابتسامة

تألم كثيراً لمصير أخته ولكنه استسخر الاعتراض على اقتراح أوحى به الضرورة. وشعر في آله بأنه تعلم في هذين اليومين ما لم يتعلم في حياته كلها. أما نفيسة فسكنت مغلوبة على أمرها. ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرة فقد أقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معاً. وكانت الخياطة هوايتها وملهاها، فلم يبق إلا أن توطن النفس لقبول الأجر. لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذي لم تعد بعده شيئاً. ثم قطع حسن الصمت قائلاً بلهجة تنم عن الحسرة:

- من المؤسف حقاً أنّ المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعلمها في المدرسة. تصوّروا لو كانت أختنا مدرّسة الآن!

وحده جوه بغربة فادرك أنّه تورّط فيها يشبه الدعابة وهو لا يدري. أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية؟! وقطب مغيظاً وقال:

- التعليم ينفع أمثاله ممن لا حيلة لهم..

- ٧ -

وفي صباح اليوم التالي مضت الأم إلى وزارة المعارف مصطحبة معها حسن أكبر الأبناء. ولمّا علم هناك أنّها أرملة المرحوم كامل عليّ أفندي أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا في خدمتها. وطلبت المرأة صرف المستحقّ من مرتبته فدلّها بعضهم على إجراءات إثبات الوراثة. وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء إلى إدارة المستخدمين. وتبيّن أنّ المرحوم خدم الحكومة حوالي الثلاثين عاماً فبلغ مرتبته ١٧ جنيهاً واستحقّ معاشاً قدره خمسة جنيهاً لورثته. لم تكن المرأة تتصوّر هذا، ولا كانت تعلم شيئاً عن نصيب الحكومة في معاش المتوفّى، ولكنّ الذي أفرعها حقاً هو ما قيل عن الإجراءات الطويلة التي تسبق صرف المعاش، والتي تستغرق أشهراً طويلاً. هالها الأمر فلم تملك أن قالت:

- وكيف يتيسّر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار؟ وقال حسن مسوّعاً قلق أمه:

- نحن لا نملك إلاّ هذا المعاش المنتظر؟

وندم حسن على قوله عقب إلقائه مباشرة لأنّه بدا

الآليم.. وهزّتهم «قبر والدنا» هزة عنيفة. فأجهشت نفيسة في البكاء، وغاص قلب حسين في صدره، على حين رمق حسين أخاه بنظرة حيرة وعتاب. ولبثت الأم صامته ملياً تكابد جرحاً عميقاً، ولكنّها لم تنس - حتّى في هذه اللحظة - أنّها لم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله، فردّدت عينيها اللتين انتفح جفناهما واحمرّت أشفاهما بين أبنائها ثمّ قالت:

- أما نفيسة فتحسن الخياطة. وهي تخيط كثيراً لجاراتنا محبة ومجاملة، ولست أرى بأساً في أن تتقاضى على تعبها مكافأة.

وهتف حسن بحماس:

- عين الصواب..

ولكنّ حسين صاح بغضب وقد اصفرّ وجهه غضباً:

- خياطة؟!!

فأجابه حسن معترضاً:

- ما عيب إلاّ العيب، فلتكن..

فقال حسين بحدة:

- لن تكون أختي خياطة، كلّاً، ولن أكون أختاً لخياطة.

وقطبت الأم في غضب وصاحت به:

- أنت ثور، تاكل وتنام، ولا تدري عن الدنيا شيئاً، وهيئات أن يفهم عقلك الغبيّ حقيقة حالنا! وفتح فاه ليعترض ولكنّها صاحت به:

- اخرس..

فنفخ دون أن ينبس بكلمة. ورأت الأم أنّها فرغت من معارضته فالتفتت إلى حسين، فالتقت عيناها برهة قصيرة، ثمّ خفض الفتى عينيه وثمّ على مضض:

- إذا لم يكن من هذا بدّ فالأمر لله..!

فقالت الأم بتأثر:

- ما عيب إلاّ العيب كما يقول حسن. لست أحبّ

لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام، ولا حيلة لي..

وساد صمت مؤلم. وكان حسين أشبه الأبناء

بأخلاق أمّه في صبرها وعقلها وإخلاصها للأسرة. وقد

غريباً من شخص في مثل طولهِ ورجولته، ولكنَّ الموقِّف قال دون أن يلقي بالاً إلى هذا:

- أعدك يا سيدي بالآ نضيِّع دقيقة واحدة بلا عمل. أمَّا إجراءات وزارة المائيَّة فلا حيلة لنا فيها. .

ما جدوى هذا الكلام الطيِّب؟ ولكن آية فائدة تنتظرها من التذمُّر والشكوى؟! وغادرا الوزارة في شبه ظلام من القلق واليأس. وهتفت المرأة:

- كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟! وكيف نعيش بخمسة جنيهات بعد ذلك؟!

وخفض الشاب بصره في وجوم وضيق. ولاح لعيني المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت:

- سأزور أحمد بك يسري. إنَّه مفتش عظيم نافذ الكلمة، وكان صديقاً عزيزاً لأبيك. .

فقال حسن بأمل:

- رأي حسن. إنَّ الكلمة منه تغيِّر إجراءات الحكومة.

فنظرت إليه باهتمام وقالت:

- لا تضيِّع وقتك معي. لعلَّك تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر. .

وعادت إلى شبرا بمفردها، ولبثت في البيت حتَّى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حيِّ الأعيان كما يسمُّونه. وكان يقع شمال عطوفة نصرالله بثلاث محطّات، متفرِّعا من الطريق العام. تقوم على جانبيه الفيلاّت الأنيقة والعمارات الحديثة. واسترشدت ببعض السابِلة حتَّى استدلَّت على فيلاّ البك. وكانت بناء جميلاً مكوّناً من دورين تحيط به حديقة مؤنّقة. وذكرَت للبواب صفتها «حرم المرحوم كامل أفندي عليّ» فعاد إليها مسرعاً وقادها إلى بهو استقبال فاخر موصل بفراندة كبيرة، ثم أخبرها أنَّ البك قادم بعد ارتداء ملابسه. وخيِّل إليها أنَّ فترة الانتظار قد طالَت، ولكنَّها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها. وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذي يكتنفها. بيد أنَّها كانت كبيرة الرجاء في هذا الصديق العظيم. طالما ذكره المرحوم

يقول برقة:

- تفضِّلِي يا ستِّ بالجلوس. شرفتنا. رحمة الله على زوجك. كان صديقاً عزيزاً أحزنني فقده. وسوف يحزنني طوال العمر. .

فاستبشرت المرأة خيراً بهذا اللقاء، وشكرت له عطفه. وراح البك يحذّنها عن الفقيد حتَّى اغرورقت عينها بالدموع، وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غريزيَّة في استثارة عطفه. ثمَّ ساد الصمت حيناً فأدركت رغم حزنها واضطرابها أنَّ شارب البك وسوالفه مصبوغة، وأنَّه يغالي في العناية بمظهره، إلى ما تطيَّب به من روائح زكيَّة عميقة الأثر.

ولمّا تكرَّم بسؤالها عن طلبتها قالت:

- جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم. قالوا لي يا سعادة البك إنَّ إجراءات صرفه تستنفذ أشهراً.

فتفكَّر الرجل ملياً، ثمَّ قال:

- لن أدخر وسيلة في سبيل ذلك، وسأقابل وكيل المائيَّة بنفسِي.

فأثلج صدرها ارتياحاً، وشكرته، ثمَّ تردَّدت لحظات وقالت:

- الحال يا بك تستدعي السرعة، والله المطلع.

فقال الرجل باهتمام:

- طبعاً، طبعاً. إنِّي فاهم كلَّ شيء. هل أنتِ في حاجة إلى مساعدة؟!

يا له من سؤال! إنَّها لا تملك إلَّا جنيهين هما ما

الأسرة فلم يكن غريباً أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين. وضاق صدره بصمت أخيه فسأله:  
- ما رأيك؟

فتساءل حسين متجاهلاً:  
- فيم؟

- فيها قالت! أحسب حقاً أنّ حالنا بهذا السوء؟  
فهزّ منكبيه قائلاً:

- ولماذا تكذبنا؟

فتألمت عينا الفتى ببريق أمل وقال:

- كي تكسر من حدتنا. كي نخاف وننتد. وليس  
هذا عجباً فالشدّة مرّبة في طبعها، ولولا المرحوم  
والدنا ما عرفنا المرح!

فقال حسين بحزن:

- ليتنا ما عرفناه قط!

- ماذا تقول؟

- أقول ليتنا ما عرفنا الندلّ أبداً، إذن لكانت علينا  
الحياة الجديدة المقضيّ علينا بها!

فقال حسين وقد ساوره الخوف:

- إذن فأنت تصدّق ما قالت! أحقّاً لم يترك والدنا  
شيئاً؟ ألا يسدّ المعاش نفقاتنا؟

فتنهّد حسين قائلاً:

- إني مؤمن بكلّ كلمة نطقت بها. هذه هي  
الحقيقة.

فتساءل حسين في جزع:

- كيف نطبق هذه الحياة؟

فارتسمت على شفّتي حسين ابتسامة حزينة. كان  
يشارك أخاه حزنه وقلقه لكنّه رأى من الحكمة أن يقف  
منه موقف المعارضة فقال:

- كما يطبقها الكثيرون. أم حسبت الناس جميعاً  
يحظون بأب كريم ورزق موفور؟! .. ومع ذلك فهم  
يعيشون ولا ينتحرون.

فامتلاً حسين غيظاً وهو يحذق في وجه أخيه وهتف  
به:

- لشدّ ما يحنقني بروذك..

فقال حسين مبتسماً:

تبقياً من المبلغ الذي وجدته بمحفظة المرحوم، ولن تجد  
سواهما حتّى يُصرف لها ما يستحقّ من مرتبته حتّى  
تاريخ الوفاة. ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة؟  
لم تتعرّض لمثل هذا الموقف من قبل، وإنّهُ لموقف  
يستوجب أن تألفه، وعقل الحياء لسانها فسكتت قليلاً  
ثمّ قالت بصوت منخفض:

- أحمد الله على السر. بوسعي أن أنتظر قليلاً..

وارتاح البك للجواب. لقد انزلق إلى السؤال متأثراً  
بالحياء والذوق. ولم يكن ارتياحه لبخل مركّب في  
طبعه، ولا لأنّه يكره أن يمدّ يد المساعدة إلى أرملة  
صديقه، ولكن لأنّه كان على ثرائه لا يكاد يقي على  
شيء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته. كان يضايقه  
أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتّى تبلغ برّ السلامة. ولكنّه  
كان على استعداد للبدل لو سألت المرأة إياه. وقد غاب  
عن المرأة أنّ زوجها لم يكن صديقاً للبك بالمعنى الذي  
يفهمه البك من الصداقة. ولعلّه كان صديقاً من  
أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبه ويقربه ويودّ سمره  
وفته دون أن يعدّه ندّاً له، أو صديقاً كسائر البكوات  
والباشوات. ولكنّ نيّته صدقت على السعي لخدمة هذه  
المرأة حتّى يُصرف لها المعاش، إكراماً لذكرى الراحل،  
وتفادياً من التورّط في مساعدتها، ونهضت المرأة  
مستأذنة في الانصراف فودّعها بالاحترام. ولما خلصت  
إلى الطريق تنهّدت في أمل، ولكنّها قالت لنفسها في  
شبه ندم: «لو أتيت قدراً من الشجاعة لِمَا ضيّعت على  
نفسي معونة أنا في أمس حاجة إليها..».

- ٨ -

وخلا حسين وحسين لنفسيهما أوّل مرّة بعد الوفاة.  
كانت نفيسة في المطبخ والأمّ في وزارة المعارف سعياً  
وراء همومها الجديدة، وحسن لا يعلم بمكانه إلاّ الله،  
وكان حسين متربّطاً على فراشه، والآخر جالساً إلى  
مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلماً في  
نرفزة ويقول:

- يبدو أنّ الحياة لم تعد تطاق..

وانتظر أن يتكلّم حسين، ولكنّه تجاهل ملاحظته  
فرفع إليه بصره في حق. كان حسين آخر عنقود هذه

- لو جارتك في عواطفك لركبك اليأس وأجهشت  
بأكياً.

فقال حسنين بسخط:

- إن من يستسلم للأقدار يشجعها على التهادي في  
طغيانها!

فابتسم الآخر ابتسامة ساخرة وقال في شبه دعابة:  
- هلم نثر عليها. دعنا نهتف لتسقط الأقدار كما  
هتفنا ليسقط هور.

- ألم تفدنا ليسقط هور؟!

- هيهات أن تفيدنا الأخرى.

وقطب حسنين في كدر وتساءل:

- من لنا الآن؟

فابتسم حسنين ابتسامة عريضة فرطحت أنفه الذي  
بدا في تلك اللحظة شبيهاً بأنف أمه الغليظ. وقال  
بافتضاب:

- الله..!

وزاد الجواب من حقنه! إنه لا يشك في هذا ولكنه  
لا يقنع به. الله للجميع حقاً ولكن كم في الدنيا من  
جائع ومصاب! لم يتنكر يوماً لعقيدته ولكنه يتلهف في  
خوفه على سبيل محسوس للطمأنينة. وتوهم أن أخاه  
يخرجه ليتخلص منه فتشبث بعناده وقال:

- لقد شاء أن يأخذ والدنا ويترتنا بلا معين!

فقال حسنين وكأنه يمعن في إثارتة:

- هو المعين..

فانفجر حسنين قائلًا:

- إن هدوءك الكاذب لا يجوز عليّ.. أأنت مطمئن  
حقاً؟

فأصغى حسنين إليه في امتعاض وألم، ثم قال ولعلّه  
كان يداري عواطفه:

- المؤمن لا تخونه طمأنينته..

- إني مؤمن وقلق معاً!

فقال حسنين في غير إيمان بما يقول:

- هذا من ضعف الإيمان.

فقال حسنين بحق:

- أوه، ليكن.. إني أعرف تلاميذ يجاهرون

بالشك!

- أعلم هذا.

- هم أذكاء ومطلعون.

- أحب أن تفعل مثلهم؟

فقال في خوف:

- كلاً. لست من هواة الاطلاع. أنت نفسك تقرأ  
كثيراً؟

فقال حسنين مبتسماً:

- هذا حق ولكني لم أنتزع الله من قلبي. والحق أننا  
نغالي في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة. ألا ترى  
أن الله إذا كان مسئولاً عن موت والدنا فليس مسئولاً  
بحال عن قلّة المعاش الذي تركه..

وشعر حسنين أن تطوّر الحديث نأى به عن مخاوفه  
الحقيقية فقال بضيق:

- دعنا من هذا وخترني كيف نعيش بلا مصروف؟

أي بلا سينما ولا كرة. والأدهى من هذا كله أنني كنت  
شارعاً في تعلّم الملاكمة!

فقطب حسنين قائلًا:

- نحام ما يؤلم أمتنا، إذا لم يكن في وسعنا أن  
نساعدنا فلا أقل من أن نريحها من منغصات لا داعي  
لها. واذكر أنها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أحوال!

- لا أعمام ولا أحوال! كان هذا يهون لو لم تصبح  
أختنا خيطة! ربّاه ما عسى أن يقول الناس عتاً؟!

وضاق صدر حسنين، وغلبه الحزن، وقعت لفظة  
«خيطة» من نفسه موقعاً مؤلماً، فقال بغضب:

- نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس.

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائماً وغادر الحجرة.

- ٩ -

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة  
بعد الوفاة. لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيغيّر  
كل شيء، هيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ.  
وكانا يعانيان من هذا شعوراً مؤلماً وإن تباينت درجة  
ألمها. ولم يكن قد علم بالوفاة إلا قليل فسرعان ما ذاع  
الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليهما معزيين. وقال  
أحدهم محذراً:

- أرجو أن تعفيني وأخي من الإشتراك في نادي شبرا .

ولاحت الدهشة في وجه الرئيس، وأزعجه الطلب خاصة فيما يتعلق بحسين - جناح الفريق الأيمن - فقال معترضاً:

- لعلّ أمراً ضايقكم!

فقال حسين بتأثر:

- توفي والدنا!

فوجم الرئيس ملياً، ثم عزّاه برقة، وصمت لحظات ثم قال:

- ألا ترى أنّ هذا لا يدعو إلى حرمان النادي من عضوين بارعين مثلكما؟

فقال حسين بلهجة خاطفة:

- إنّ الحداد يقضي بهذا!

فقال الفتى بأشأ:

- إنّ ظروفنا تقضي بهذا. إنّني آسف!

ثم حيّاه مرة أخرى وغادره متحامياً النظر إلى عينيه، وانضمّ إلى أصدقائه. ووجدهم يتحدثون في السياسة، وكان أحدهم يقول:

- رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم!

فقال آخر:

- لا بدّ من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التي يفهمها الإنجليز .

فقال ثالث:

- لمّ يَضِعِ الدم الطاهر غَبْشاً، ألم تسمعوا عن الدعوة إلى الاتحاد؟

- وهذه التيمس تلمّح إلى المفاوضة .

ودقّ الجرس فأُتْجِهوا إلى الفصول وهم يتناقشون .

- ١٠ -

قطعا فناء البيت في صمت حاملين كتبهما، ثم قال حسين وهما يرتقيان السلم:

- عمّا قليل يبدأ فريق نادي شبرا في التمرين استعداداً للمباراة القادمة!

فلاذ حسين بالصمت. وجعل يتخيّل الملعب

- يجمل بذويكما أن يحسنا اختيار الوصيّ عليكما، فإنّي لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبي حتّى ابتليت بوصاية عمّي!

الوصي! وتظاهر حسين بالإصغاء إلى نفر يتحدثون عن المظاهرات الأخيرة والمساغي المبذولة لضّم الصفوف، ولكنّه سمع حسين يجيب صاحبه قائلاً:

- نحن مطمئنون إلى الوصيّ كلّ الاطمئنان .

فقال محدّثه:

- إنّني أغبطكما على حظكما، بيد أنّ الأمر يتوقّف على نوع التركة، فإذا كانت أراضي زراعية تيسّرت سبيل الخداع، وإذا كانت عقاراً ضاقت السبل على الوصيّ بعض الشيء، أو هذا ما تقول أمي .

فقال حسين بهدوء:

- من حسن الحظّ أنّ تركتنا عقاراً!

وأصغى إليه حسين في غيظ. لم يحنقه الكذب فحسب ولكنّه أشفق من عواقبه. وكيف نواجه الحال الجديدة إذا ظلّ بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟ . إنّهُ يكذب بلا مبالاة. سحقاً له! وصوّب عينيه نحو أخيه محدّثاً فتحاشاه الفتى في تذمّر. ثمّ تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسين في تأثر قائلاً:

- قيل لنا إنّهُ مات فجأة. ومن عجب أنّه لمّا رأيته خارجاً إلى المدرسة صباح اليوم الذي توفي فيه، وقبل أن يتوفّى بساعة واحدة، وضع يده على منكبي ورنا إلى في حنان وقال لي بلا داعٍ ظاهر «مع السلامة» . مع السلامة! .

فمن كان يدريني أنّه يودّعني؟!

لم يكن شيء من هذا قد حصل، ولا يدري كيف قاله، والأعجب من هذا كلّهُ أنّه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقاً. وقد نطق به ارتجاءً مدفوعاً برغبة غامضة في تبجيل والده. وعجب حسين لوصفه ثمّ دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام، ونحى وجهه جانباً فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينقّس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى إليه وحيّاه ثمّ قال:

من حالنا، فأظهرت روحًا طيِّبة ووافقت بلا تردّد.  
فقال حسنين في استياء:  
- لو كانت ذات روح طيِّب حقًا لنزلت لنا عن فرق الإيجار مع إبقائنا في شقّتنا!  
فقالت الأمّ في حدة:  
- للناس أعمال أخرى غير العناية برفاهيتك!  
- وكيف ننام ليلتنا؟  
فقالت نفيسة بصوت كسير دلّ على أنّها لم تنفّق بعد من صدمة الوفاة:  
- سننام في الشقّة الجديدة.  
وخرج في تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملًا بين يديه المشجب وهي آخر ما بقي من الأثاث في الحجرات وقال بسرعة:  
- كفاسم نقرأ وهلمّا نرفع الأثاث إلى الدور التحتانيّ فليس بيننا وبين الليل إلا ساعتان.. وأراد أن يضرب لهم مثلًا عمليًّا فرفع كنبه من جانب وخاطب حسين قائلاً:  
- ارفع...  
وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط في السلم بحذر: ترى هل يراها أحد من أسرة فريد أفندي محمّد جارهم الكريم بالدور الثالث؟ ليس الفراق شرًّا ما في الموت. إنّ الفراق حزن المطمئنّ. متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتًا للتفكير في الحزن. لشدّ ما تتغيّر وتندهور، ولكن ينبغي أن نصبر أو في الأقلّ أن نظاهر بالصبر. أكبر جريعة في نظري أن نضاعف بجزعنا شقاء أمتنا. سأخاطب حسنين بحزم أكثر! ثمّ تبعتها الأمّ والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث. ولم يستطع حسنين أن يقف متفرّجًا فانضمّ للعاملين. وما زالت الأسرة في نزول وصعود والأثاث يتحوّل من فوق لتحت. وكانت صاحبة البيت قد أدخلت الشقّة وجّع أثاثها في الفناء إلى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم في العمل. وكانت الأسرة جميعًا - الصامت منهم والساخط - سواء في الحزن والام. ولم يكن وجه الأمّ

واللاعيبين، فكأنّه يسمع الرئيس وهو ينهئ الآخرين بانفصاهما «لظروف الأسرة الجديدة!» لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة. وطرقا الباب ثمّ دخل. وتسوّرت أقدامها وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقّعه. رأيا أثاث البيت مكوّمًا في الصالة في اضطراب شامل وقد رُصّت المقاعد فوق الكنبات ولُفّت الأبسطة وتُكّت الدواليب، ولاحت الأمّ ونفيسة مشمّرتين يعلوهما التراب وتتصبّبان عرقًا على لطافة الجوّ. وهتف حسنين:

- ماذا حصل؟

فقالت الأمّ:

- سنترك الشقّة.

- إلى أين؟!

- إلى الدور التحتانيّ. سنبتدل السكن مع صاحبة البيت.

شقّة أرضيّة بمستوى الفناء التراب، لا شرفة لها، ونوافذها مطّلة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رءوس المازّة، وطبعًا محرومة من الشمس والهواء، وتساءل حسنين في امتعاض ولو أنّه كان يعرف الجواب مقدّمًا:  
- لماذا؟!

فقالت الأمّ بصوت واضح:

- لأنّ إيجارها ١٥٠ قرشًا!

فقال الشابّ متذمّرًا:

- فَرَق الإيجار أقلّ من ٥٠ قرشًا لا يتناسب مع الفرق بين الشقّتين!

فسألته الأمّ ساخطة:

- هل تتعهّد بدفع الفرق النافه؟

- لماذا رضىنا إذن بأن تشتغل نفيسة خياطة؟

فالتهمته الأمّ بنظرة من نار وصاحت به:

- كي نأكل، كيلا تموتوا جوعًا!

وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يفتضح امتعاضه وسأل أمّه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض:

- متى تمّ هذا يا أمّاه؟

فقالت المرأة وهي تمسح جبينها بكمّ ثوبها الأسود:

- عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئًا

مما تسهل قراءته، أما نفيسة فابتلّت عيناها بالدموع. واشتغل حسن بهمة كأنه يتملّق بجهده أمه فلا تلحف في تأنيبه على تعطله. وكان أقلّ الإخوة تأثراً للتغير الذي قلب الأسرة كما ينبغي لرجل ذاق التشريد وألف التسكّع. وهمس حسنين في أذن حسين وهو يلث من الجهد:

- ألا ترى أنّ خسارتنا بموت أبينا لا تعوّض أبداً؟  
وانسابت من عينيه دمعتان.

- ١١ -

غادر حسن البيت مبكراً، عقب خروج شقيقه للمدرسة. لم يكن ثمة داعٍ ضروريّ لهذا الخروج المبكر، ولكنّه أراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته أن يصحبها بنقار هي في غنى عنه بما تكابد من تغير الزمن ونجهم الحظ. انطلق من عطفة نصرالله بلا غاية ولا أمل. «ابحث عن عمل! لا تفتأ تردّد على مسمعي هذه الجملة. أين يوجد هذا العمل؟ صبيّ بقال؟! هذا معناه الإسعاف ثمّ البوليس.» ولكنّه لم يكن يائساً للحدّ الذي ترجه حاله. كان كبير الثقة بنفسه، وكان في طبعه تفاؤل لا يدري من أين يأتيه. ولكنّه لم يستطع أن يتجاهل دقّة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلاً: «يا أبا عليّ، مات الوالد رحمه الله ففقدت الركن الذي كنت تأوي إليه. حقاً كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار، وتتحمل في سبيله السبّ واللعن، ولكنّه كان على أيّ حال رزقاً مضموناً. هذه البدلة التي تجعل منك أفندياً لا بأس به من نقوده رحمة الله عليه. أجل أبى أن يبتاعها لك بادئ الأمر ولكنك هدّته بأن تمشي في الطرق باللباس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحمد بك يسري شبه عارٍ، فأذعن على مضض وكلف الحياط بأن يفصلها لك. الآن لو مشيت عارياً بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك إلّا الشرطيّ!». كانت البدلة حسنة وإن لم تخلّ من بقع باهتة عند ثنية الركبة. وكان يربط رقبته ببابيون فبدا القميص في حال لا يُحسد عليها. وكان شعره أعجب ما فيه: فقد تركه حتّى غزر واسترسل، وتساعد في جعودة جعلت منه رأساً مستقلاً فوق

الرأس الأصليّ. أمّا وجهه فكان حسن كشقيقه إلى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام. سار متفكراً فيما خاطب به نفسه، ثمّ واثته ثقته بنفسه فجأة فقال «يا سيّدي لا تسمح للهمّ بأن يركبك فما يجوز أن يركب إلّا البهائم من عباد الله. سوف تعيش طويلاً وتلقى الحياة بخيرها وشرّها. لم أسمع عن إنسان مات جوعاً. الأغذية تسدّ الطرق سدّاً. ولست طمأخاً فما تريد إلّا اللقمة والسترة وكم كأساً من الكونياك، وكم نفساً من الحشيش، وكم امرأة من النساء، وكلّ أولئك متوفّرة بكثرة، أكثر من الهمّ على القلب. توكلّ على الله ولا تحمل همّاً» ولم يكن خلو الحبيب فقد أشرف على جنازة أبيه، وخرج منها بأربعين قرشاً لم يعلم بها أحد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته؟ «كلّاً لو نزلت عنها ما أفادت أمّي منها نفعاً مذكوراً، ولكنّ ضياعها يضرنّ ضرراً لا شكّ فيه. لا أدري متى يتاح لي الحصول على مثلها!» وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينيه الحادثتين فحثّ خطاه حتّى انتهى إليها. هي قهوة صغيرة لم تؤثّر من ميزة إلا وجودها على الطريق العام. ولم يوجد بها في هذه الساعة المبكرة إلّا زبونان جلسا إلى مائدة على الطوار يتشمّسان ويحتسيان القهوة، على حين قبع في ركن بالداخل شتان ثلاثة يدلّ مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس، فلم يكن عجيباً أن يقصدهم الشاب وينضمّ إلى مجلسهم. وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيّئوا للعب الكومي. وكان كلّ منهم يمّي نفسه بأن يربح رزق يومه - خمسة قروش فوق الكفاية - من رفقاءه. بيد أنّ حسن كثيراً ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولحفة يده وعينيه من ناحية أخرى. لهذا قال أحدهم قبل البدء في اللعب:

- لا نريد غشاً.

فقال حسن:

- طبعاً.

فقال الشاب:

- فلنقرأ الفاتحة.

وقرأوا الفاتحة جميعاً بصوت مسموع، ولعلّ حسن



- نحن رجالك، وفي الخدمة دائماً..  
فهزّ الأستاذ رأسه في رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزّة  
إلا إذا خاطبه أحد أفراد نخته المستعّين، خصوصاً  
حسن، ذلك الشرس الجبّار، الذي ينقلب بين يديه  
وديماً متملّقاً، ثم قال:  
- طبعاً. إنك تردّد تردّداً حسناً، وصوتك لا بأس  
به.

فانطلقت أسارير حسن في بشر وقال:

- ولقد حفظت كثيراً من الطقاطيق...

- مثل ماذا؟!

- اللي حبك، ظالماني ليه، لِمَا انكويت بالنار.

فهزّ الأستاذ منكبيه استهانة وقال:

- إنّ محكّ الفنّ الدور والليالي. ماذا يُسمع الآن في  
الراديو؟ لا شيء. هذا زعيق فارغ وليس بغناء. ولو  
كانت المحطّة تراعي وجه الفنّ وحده لكتبت المذيع  
الأول بعد أمّ كلثوم وعبد الوهاب. وعبد الوهاب  
نفسه، يخاف كثيراً أن تخونه حنجرته فتراه يتحامي  
النفس الطويل، ويشطره أجزاء قصيرة متوارياً وراء ما  
يسمّيه بالتجديد، ثمّ يغطّي ضعفه بضجيج الآلات.  
إليك كيف غنّى «يا ليل» في الحفلة الأخيرة...  
وتنحّح ثمّ راح يغنّي يا ليل مقلّداً عبد الوهاب.  
وجاء النادل بالنارجيلة والقهوة وهو يغنّي فتناول  
الخرطوم دون أن يمسك عن الغناء حتّى انتهى.  
وحينذاك هتف رفاق حسن «الله... الله...» فأخذ نفّساً  
من النارجيلة دون أن يلتفت إليهم، ثمّ قال لحسن  
همساً:

- هذا إعجاب بالصوت لا بالفنّ. اسمع هذه  
الليالي في نفّس واحد كما ينبغي أن تُغنى..

وأنشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتّى رفع  
صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارير  
وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض. وانتهى الأستاذ  
عليّ صبري، وعاد إلى النارجيلة وفي نيتّه أن يشكر في  
هذه المرة للرفاق استحسانهم إذا أبدوه، ولكن ساد  
الصمت فلم يُسمع إلا قرقرة الماء في قنينة النارجيلة،  
وقطّب الأستاذ وقال في ثقة:

تعلم حفظها حول هذه المائدة، ثمّ لعبوا مقدار ساعة  
فريح أحدهم دوراً، وربح حسن دورين. كان صافي  
ربحه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش  
ثمن فنجان القهوة، واقترح بعضهم أن يمدّوا وقت  
اللعب، ولكن دَخَلَ القهوة شاب ما إن رآه حسن حتّى  
نهض قائماً، وأقبل نحوه في احترام وسرور وهو يقول:  
- صباح الخير يا أستاذ عليّ صبري.

فمدّ له القسام يده في حركة تشي بشعوره بقدر  
ذاته، وقال:

- صباح الخير...

وجلسا إلى مائدة متقابلين. واجتاحت نفس حسن  
موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ صبري  
قهوة، ثمّ قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب:  
- ونارجيلة...

وغاص قلب حسن في صدره أن يُلزم بدفع ثمن  
النارجيلة أيضاً فيضيق عليه ما ربح باللعب والحظّ  
واليد والعين. ولكنّه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ إلى  
استطلاع وجه الأستاذ. وكان عليّ صبري في منتصف  
عقده الثالث، متوسط القامة نحيل العود، صغير  
القسما، أمّا شعره فأشبه ما يكون بشعر حسن، إلى  
سواء ترحف حتّى منتصف خدّه، وكان مظهره بوجه  
عامّ يدلّ على سوء الحال ولكنّه يغطّيه بنفخة كاذبة  
وغرور غير محدود. قال حسن بأسف وهو يستطلع  
وجهه:

- لم نسمع صوتك من زمان!

وكان أذاع مرّات من المحطّات الأهليّة وبدا وكأنّ  
الحظّ يتسم له، فلمّا ألغيت المحطّات الأهليّة وأنشئت  
محطّة الإذاعة الرسميّة حيل بينه وبين إحياء الحفلات،  
وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء. وكان حسن  
أحد أفراد نخته المعطلّ، وطبيعيّ أنّ العمل لم يكن يدرّ  
عليه أكثر من قروش في الحفلة، ولكنّه كان يحبّه ويؤثّر  
على العمل الجديّ الذي لم يصادف فيه توفيقاً على  
مشقته و«حقارته»! وقال الأستاذ:

- سأبدأ نشاطاً جديداً عمّا قريب.

فخفق قلب حسن وقال برجاء:

أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يشيره وجوده من  
الأحزان، ولأنها باتت في ميسس الحاجة إلى نقود.  
وكانت ترجو له ثمنًا أكثر من هذا لعله يسدّ بعض  
عوزها الملحّ إلى النقود، ولكنها لم تجد بداً من الإذعان  
فقالت للتاجر:

- غلبتنا ساعك الله ولكنني مضطرة للقبول..  
ودفع الرجل إليها بالجنهيات الثلاثة وهو يشهد الله  
أنه المغلوب، ثم أمر تابعين بحمل الفراش.  
واجمعت الأسرة في الصالة لتلقي نظرة الوداع على  
فراش فقيدها المحبوب. وثقل الراحل لهم فكأنهم  
يرونه رؤية العين، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت في  
البكاء وأطبقت الأم شفيتها كاتمة آلامها. كانت تحرم  
على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن.  
لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن  
تظهر بمظهر الرجولة. لو وجد هذا الشخص للذات  
بالدموع كسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن  
التصبر والتجمل. وفضلاً عن هذا كله فلم تُواتها فرصة  
للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش وأثقاله،  
ووجدت نفسها في الغالب مضطرة إلى تناسي أحزان  
القلب لتتناضل ما يتهدد أسرته من الضراء. «يحزّ في  
نفسه ألا أجد فراغاً للحزن عليك يا سيدي وفقيدي.  
ولكن ما الحيلة؟ حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من  
الفقراء». ولم يكن حسين يتصور أن يفرضوا في  
مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر في الاعتراض. والواقع أنّ  
حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد. ومضى التاجر  
بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حيناً، وأرادت  
الأم أن تبدّد سحابة الحزن التي أظلمتهم فقالت مخاطبة  
حسين وحسين:

- هيا إلى حجرتكما للمذاكرة..  
وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال:  
- لن أسمح لمخلوق بأن يمس ثياب أبي..  
فقال حسن مؤمناً على قولها:

- وما من فائدة ترجى من بيعها..  
وساد الصمت حيناً، ثم قال حسن مستدركاً وكأنه  
يواصل حديثه:

- هذه أصول الفن..  
فقال حسن بحماس:  
- لا شك في هذا..  
فقال بلهجة الناصح:  
- مرّن صوتك، لا تكفّ عن التمرين. أكثر من  
الليالي. ولا تن عن مصّ السكر النبات..  
- يا سلام!

- مفيد جداً.. ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر  
وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة، وهو ما كان  
يفعله سلامة حجازي..  
فضحك حسن وقال:  
- ولكنني أنام عادة قبيل الفجر..  
- إذن قبل النوم.  
- في مسجد؟!

- المهمّ الأذان نفسه في هذه الساعة المبكرة. في  
مسجد، في حانة، كيفما اتفق!  
- وإذا كان الإنسان من غير مؤاخذه سكران أو  
مسطولاً؟

- يكون أفضل. فما تستطيعه وأنت غائب عن  
وعيك أضعاف ما تستطيعه وأنت صاح..  
- ينبغي أن نتقابل كثيراً حتى يفتح الله علينا..  
ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسألهم:  
- ماذا كنتم تفعلون؟  
- كنّا نلعب الكومي..  
فقال الأستاذ عليّ صبري باهتمام:  
- هلّم نجرب حظنا..  
ونفض الرفاق وأقبلوا نحوها بلا تردد، ثم تحلقوا

المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعاً، بيد أنّ حسن كان  
قلقاً مشفقاً من مغبة هذا اللعب. «ما عسى أن أصنع  
مع ابن القديمة هذا؟ إذا كسبت أغضبته وإذا خسرت  
ضاع اليوم هدرًا؟!»

- ١٢ -

- لا أدفع ملياً واحداً أكثر من الثلاثة الجنهيات.  
قالها تاجر الأثاث وهو يلقي نظرة على فراش  
المرحوم. ولم تعد تجدي مساومة الأم. وكانت قد

خيرها لم يخلُ من نكد، وبدا التفكير في تجمعيدها وجهها وهي تقول:

- هدية مشكورة ولكن الواجب أن نهدي ما يماثلها  
عقب العودة من القرفة، فما العمل؟!  
وجد الإخوة خيبة، وأراد حسين أن يخفف عن أمه  
فقال:

- فلنُعِد الهدية إلى أصحابها شاكرين!  
فقالَت الأم في حيرة:  
- يعدّ مثل هذا العمل معيًّا لا أثر للمودة فيه...  
فقال حسن متحمسًا لقول أمه:

- بل يُعدّ سلوكًا عدائيًّا...  
وتناول فطيرة، وشمّها ثم قال باستهانة:  
- لا تحملوا همًّا. إنَّما تُردّ هذه الهدايا في أوقاتها،  
فإذا مات فريد أفندي بعد عمر طويل أهدينا إلى أسرته  
سلة فطائر، ولن يعجزنا صنعه وقتلذ بإذن الله.  
وراح يلتهم الفطيرة. وتبادل الشقيقان نظرة ثمّ مدّا  
يديهما إلى السلة، حتّى نفيسة سمعت تمطّطهم فلم تعد  
تقاوم...  
- ١٣ -

جلست نفيسة على الكنب في الحجرة التي تنام فيها  
مع أمّها مكتبة على ماكينة الخياطة، وقد نثرت على  
أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة. كانت الأم في  
المطبخ، والشقيقان في المدرسة، أمّا حسن فحيث لا  
يدرّي أحد. وقد باتت الفتاة تضرّ لشقيقها الأكبر مرّ  
اللوم، فلو أنّه وجد لنفسه عملاً لما وجدت نفسها في  
الوضع التي هي فيه. لا يؤمن أحد بأنّه جادّ - كما  
يقول - في البحث عن عمل، ولكنّه يغيب النهار  
ونصف الليل ثمّ يعود كما خرج صفر اليدين. ولم تعد  
الأيام تطالعهم إلّا بما يسوء، فالיום اضطرت الأم إلى  
الإستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفّر أجرتها فأصبح  
عليها هي واجبان يوميّان: أن تبتاع حوائج البيت من  
الطريق لتسدّ الفراغ الذي تركته الخادم وأنّ تحكف  
سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة. وقد  
مهّدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت  
لصاحبة البيت حين جاءت بقطعة من القماش

- وفضلاً عن هذا فلن ينقضي وقت طويل حتّى  
تشتدّ حاجتنا إلى الملابس!  
فساءلت نفيسة في ارتياح:  
- أيمكن أن تستعملوا ملابس أبي؟!  
ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولكنّ الرقة مسّت  
قلب الأم فقالت:

- ما في ذلك من ذنب. وليس فيه ما يسيء إلى  
المرحوم، بل لعلّه ممّا يطيب ثراه. ولكنّي سأحتفظ بها  
بنفسي حتّى تمسّ الحاجة إليها حقًّا.  
وتشجّع حسن بقولها فقال في ارتياح:  
- نطقت عن حكمة. وإنّي أذكرك بأنّي الوحيد  
الذي لا أكاد أختلف طولاً أو عرضاً عن المرحوم أبي.  
وتناسى الشقيقان الحزن الذي ران على صدرهما  
فقال حسنين محتجاً:  
- إنّي وإن كنت أطول منك قليلاً إلّا أنّه يمكن مدّ  
ثنية البنطلون!

وقال حسين بلهجة ذات معنى:  
- أو ثنيها مرّة أخرى...  
فقالَت الأم في ضيق:

- لا داعي للنزاع. توجد أكثر من بدلة في حال لا  
باس بها وسأورّعها تبعاً للحاجة إليها.  
ثمّ بلغ المسامح طرّق على الباب فقطع عليهم  
الحديث، وخفّت نفيسة إليه ففتحت، فدخلت خادم  
فريد أفندي محمّد حاملة سلة مغطاة بغطاء أبيض  
وضعتها على السفرة وهي تقول:  
- سنيّ تسلّم عليك يا سنيّ وتقول إنّ هذا فطير  
القرفة.

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من  
حيث أتت. واقترّب حسن من السلة وحسر عنها  
الغطاء، فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرقها  
الشهيّ إلى الأنوف. ولم يكن تهيّاً للأسرة طوال  
الأسبوعين المنصرمين طعام شهيّ لما أخذت به الأم  
نفسها من الحذر والتقتير. ولاحت الرغبة في أعين  
الإخوة. ولكنّ الأم كانت تتجهّم لها الخواطر، وحتّى  
والحقيقة أنّ تلك الأيام لم تكن تضرّ لها خيراً، وحتّى

لتفصيلها:

- هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها؟

فقالت المرأة بلا تردّد:

- أبداً يا ستّ أمّ حسن. هذا حقّ وعدل. وهيهات أن نوفي ما علينا من دين لستّ نفيسة.

ما زال سمعها يرجع هاتين الجملتين. وما تذكر أنّها وجدت نفسها في مثل هذا الموقف طوال عمرها. لقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب فكاد ينضج به، وشعرت بأنّها تهوي من عل، وأنّها أمست فتاة أخرى. ليس بين الكرامة والضعّة إلّا كلمة. كانت فتاة محترمة فانقلبت خيّاطة. وأعجب شيء أنّه لم يستجدّ جديد بالنسبة إلى العمل نفسه، فظلّا خاطت ثياب صاحبة البيت، وامرأة فريد أفندي وابنتها وغيرهنّ من الجيران. فالخيّاطة هوايتها، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبلّة الجيران والصديقات، لشدّ ما تغيّر شعورها. أحسّت بالخزي والهوان والضعّة، وتضاعف حزنها على أبيها، فبكته بكاء حارّاً، وبكت نفسها فيه. مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعزّ ما فيها.

كانت تحميط منقبضة الصدر، لا ضاحكة الثغر ولا مترنّمة كعادتها فيها ولى من أيّام. وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها إليها هذا الصباح. أجل بعثت بها هذا الصباح فحسب، عقب حديث أمّها بيومين، ممّا جعلها تظنّ أنّها أرسلتها على سبيل الإحسان! وقد أفضت بأفكارها إلى أمّها فانتهرتها قائلة:

- لا تسلّطي هذه الأوهام على نفسك وإلّا خاب مسعانا جميعاً.

ولم تكن تجرؤ على معارضة أمّها إلى ما باتت تكتّه لها من الرثاء في هذه الأيام الأخيرة. «ما أغباني. هل حسبتها راضية عن حالي؟ إنّها تكابد حيرة قاتلة وهي أحقنا بالعطف. إنّ التعاسة تنفذ في لحمنا كما تنفذ هذه الإبرة في قطعة القماش. ما كان أبي ليسمع بشيء من هذا ولكن أين هو؟ إنّ حزني عليه يتضاعف يوماً بعد يوم لا للضرّ الذي منّا بعده فحسب ولكن لأنّ هذا الضرّ نزل بمن يحبهم ويحبّ لهم الخير. إنّني ألم

لأله. لا بدّ أنّه متألم لنا، لشدّ ما كان يحبني. كأنّه يحسد ما يرصدني من شقاء. اضحكلي، ما أحبّ ضحكك إلى نفسي، هكذا كان يقول لي كلّما تعالت ضحكك الرثانة. وكان يقول لي أيضاً الخفّة أنفس من الجلال كأنّه يعزّيني على دمامي. لله ما ألطفه وما أعذبه، لم يكن مثله أحد في الرجال. مات. مات. لن أنسى ما حييت إيماءته إلى صدره وهو ملقى على الكنية: أبي يستغيث ولا مغيث. لتندكّ الجبال على الأرض. حياة بغیضة مفعجة لا خير فيها. أبي ميت وأنا خيّاطة. عمّا قليل تحيى صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة. كيف ألفاها؟ بأيّ عين تنظر إليّ؟ حسبي، حسبي، داخ رأسي». وسمعت أمّها تخاطب شخصاً في الصالة فكفّت يدها عن الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ في مساوماته التي لا تنتهي وأمّها تحاوره بصوت ملؤه الإشفاق واللوم. «ليست أمي بلهاء، وما كانت لتُغلب في مثل هذا الموقف، ولكنّها الحاجة القاسية التي تركبها، متى يصرف لنا المعاش؟ لا أدري، ولا أحد يسري يدري. هيهات أن يكفينا المعاش. خمسة جنيهات؟! كارثة. جاء الرجل ليحمل المرأة الكبيرة بحجرة الاستقبال ولما يمض أسبوعان على بيع الفراش العزيز. وسيأتي غداً وبعد غد حتّى يترك الشقة أرضاً عارية. لماذا خُلِقنا أسرى أدلّاء للغذاء والكساء والمسكن؟ هذا سرّ متاعبنا». وخفّت إلى باب الحجرة ففتحت ورأت التاجر ومعاونيه يحملون المرأة الطويلة إلى الخارج وقد فُتح باب حجرة الاستقبال على مصراعيه ووقفت أمّها على عتبتها. وكان الرجل الذي يحمل مؤخّرة المرأة قصيراً فحملت المرأة في وضع مائل ورأت سطحها ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحاً بحركة الرجلين كأنّما سرى بأوصال البيت زلزال. وذكرت وهي لا تدري نعش أبيها. واشتدّ انقباض صدرها وهي تلقي نظرة الوداع على المرأة التي عاشرتها منذ رأت النور. وعادت إلى مجلسها: «ينبغي أن تكون المرأة آخر ما أحزن عليه. لن تعكس لي وجهها أسرّ به. الخفّة أنفس من الجلال! هذا قولك يا

ومضت أسابيع. وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت. وكان الشقيقان يجلسان إلى المكتب متقابلين، منهمكين في المذاكرة، على حين جلست الأم ونفيسة في الصالة في شبه ظلام قانعتين من النور - على سبيل الاقتصاد - بما ينبعث من حجرة الأبناء. وتناجتا في صوت منخفض شأنها كل مساء، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثهما. لم تنزل الحاجة ههنا الأكبر، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميق. بيد أن العادة كانت تحدث أثرها الملطّف في تهوين الخطب وإساغته، فلم يعد التّقصّف في الغذاء مزعجاً كما كان بادئ الأمر، وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة، وتتطّلع إلى زبائن جدد، في شيء من الانكسار وكثير من الرجاء. حتّى الشقيقان، تعوداً أن يجعلاً من غذاء المدرسة وجبتهم الرئيسة، وأن يبيتا بلا عشاء في صبر وجلد. كانت العادة تحدث أثرها، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة. وفي ذاك المساء جاء فريد أفندي محمّد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادتهما إلى حجرة الاستقبال.

وكان فريد أفندي يرتدي جلباباً ومعطفاً، أمّا حرمه فقد التفت بالروب، وكأنتها في شقّتها بغير ما كلفة. وجلس الرجل على الكنبه ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه الودود في لطف وإيناس. وكانت زوجته - ستّ أم بهيّة - بدينة مثله مع ميل إلى القصر، إلّا أنّها كانت تُعدّ أجمل امرأة في العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيها. وقد قالت تخاطب أم حسن متسائلة في لهجة تنم عن العتاب:

- لماذا تلزمان البيت هكذا؟ لماذا لا تروّحان عن أنفسكما بزيارتنا كما كنتم تفعلان؟  
فقالت الأم:

- هجم برد الشتاء وما إن يأتي المساء حتّى يركبنا الكسل، أمّا نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت. . .  
فقال فريد أفندي:

أبي وحدك، ولولاي ما قلته أبداً. لا جمال ولا مال ولا أب. كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلي، مات أحدهما، وشغلت الهموم الآخر. وحيدة، وحيدة، وحيدة في يآسي وألمي، ثلاثة وعشرون عاماً! ما أبشع هذا! لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم أو غداً؟! وهبه جاء راضياً بالزواج من خيطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟ لماذا أفكر في هذا؟ لا فائدة، لا فائدة. سوف أظلّ هكذا ما حييت.

ودقّ الباب، ثمّ جاءت صاحبة البيت متهلّلة كعادتها، واحتضنتها وقبّلتها. ثمّ جلستا جنباً إلى جنب وتحدّثت المرأة برقة ومودة، ولعلّها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذي قبل. وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تداري بهما ارتباكها وخجلها. ولكن من المؤكّد أنّ مبالغة المرأة في إظهار مودتها آلمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها. وقد جرّبت المرأة الفستان الذي انتهت نفيسة من خيطه، وقاست الثياب الداخلية، ثمّ جلست لصقها وغمرت يدها بنقود فضّية وهي تقول:

- هيهات أن نوفي دينك السابق.

ومكثت معها ردحاً من الزمن ثمّ ودّعتها وانصرفت. وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة القروش. وثبتت عينها عليهما وصدرها جيّاش وقلبها خافق. ثمّ قهرها الحياء والهوان «شيء مؤلم، ولكن ينبغي أن أفكر في هذا. ما جدوى وجع الدماغ؟ روّضي نفسك على قبول ما لا بدّ منه. هذه حياتي ولا حياة لي غيرها.». وجاءت الأم وهي لا تزال تنظر إلى النقود فأخذتها من يدها وسألتها:

- أجرة الثياب كلّها أم الفستان وحده؟

فغمغمت الفتاة:

- لا أدري. . .

فقالت الأم وهي تزدد ريقها بصعوبة:

- أجرة حسنة على آية حال.

وتحاشت الأم أن ينمّ وجهها على شيء مما يقوم في نفسها. .

كلّ يوم أو يومًا بعد يوم، هذا رجائي يا ست أم حسن.

وأدركت المرأة أنّ الرجل يهين سبيلًا غير ماسّ بالكرامة لنفح ابنها بمصروف شهريّ يرقّه عنها. هذا واضح كالنهار ويتّفق مع ما طُبع الرجل عليه من دماثة ورقة. وقالت برقة وحياء:

- إنّ حسين وحسين ابنك، وهما طوع أمرك. ١.

فقال الرجل بسرور:

- فليسعفاني بسرعة إذن، وليبدءا يوم الجمعة القادم.

وعادوا إلى حديثهم الطويل، ثمّ غادر الرجل وزوجه الشقة حوالي التاسعة. وهرعت نفيسة إلى حجرة أخيها حاملة خبرًا سائرًا لأول مرّة منذ عهد ليس بالقصير، وقالت بمرح وقد استرذت شيئًا من طبيعتها الأولى:

- مفاجأة!

فرفعا رأسيهما إليها في استطلاع فقالت:

- فريد أفندي راغب في اختيار مدرّس لسالم.

- وما شأننا في ذلك؟

- منكم.

- لأيّ ماذة؟

- الإنجليزي.

فصاح حسين:

- أنا طبعًا!

- والحساب أيضًا.

فقال حسين وهو يتنهد:

- أنا.

فقال في مكر:

- يريدكم معًا، وطبعًا بالمجان!

ففتفا معًا في سرور وقد أدركا ما وراء كلامها:

- طبعًا!

- ١٥ -

لم يكن ثمة ما يدعو إلى ارتداء البدلة في ذهابها إلى شقة في نفس العمارة فارتديا معطفيهما على البيجامتين. وإلى هذا كانت أمهما تحرّم عليها ارتداء البدلة - أن

- نحن أسرة واحدة، وينبغي أن غمضي جلّ فراغنا معًا.

كان فريد أفندي يمتنّ لا يبرحون بيوتهم بغير داعٍ قهّار، ويُرى طيلة فراغه متربّعًا على الكنبّة ومن حوله زوجته وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير، يسمرون، ويمصّون القصب أو يشبون أبا فروة. وكانت الأم تكثر مودة صادقة لعطفه ومروءته، ولا تنسى له ما تحبّس من تعب يوم وفاة زوجها. وفضلًا عن هذا كلّ فقد أقرضها بعض المال لحين صرف المعاش، ولم يكن يني عن الذهاب إلى وزارة المالية للاستعجال والاستعجال. بيد أنّه كان موظفًا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة. ولم يرقّ إلى الدرجة السادسة إلّا حديثًا على بلوغه الخمسين. وكانت جبرته للأسرة ترجع إلى عهد بعيد. وتوثقت أواصر الصداقة بينها لطيب معشرهما وقرب أسباب المعيشة بين الأسرتين. وكانت حياة لا بأس بها، ولا تخلو من ألوان الترفيه. ثمّ نعمت أسرة كامل أفندي برفاهية جديدة حين زوّج المرحوم إلى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام. واستقبل فريد أفندي عهدًا جديدًا منذ عامين، فورث بيتًا بالسيدة زينب يدرّ إيجاره عشرة جنيهات شهريًا، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيهًا، ممّا يعدّ ثروة في عام ١٩٣٣. وبات فريد أفندي سيّد عطفة نصرالله، وزاد ترفعًا على ترهل، ولولا حرص زوجة على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتها وابنها الصغير لنفّذ الرجل ما أراد يومًا من الانتقال إلى شقة بشارع شبرا. وتنقّل بهم الحديث من وادٍ لوادٍ، ثمّ قال فريد أفندي مفصّلًا عن رغبة لعلّها كانت أوّل ما بعثه إلى هذه الزيارة:

- يا ست أم حسن، إنّي قاصدك في رجاء.

فقال الأم:

- مُر يا سيدي.

- إبني سالم، وهو في السنة الثالثة الابتدائية،

ضعيف في الإنجليزي والحساب. وقد رأيت على سبيل الاقتصاد - لأنّ المدرّسين طماعون كما تعلمين - أن أعهد إلى حسين وحسين بالقيام بهذه المهمة، ساعة

وهو يتصفّح وجهيها باهتمام وترحيب، ثم نادى سالم، فجاء الغلام ووقف في حياء واربتاك، فقال فريد أفندي:

- سلّم على أستاذك. أنت تعرفها طبعًا ولكنّها من الآن فصاعدًا شخصان جديدان. هما أستاذك فتأدّب في محضرهما كما تتأدّب أمام معلّمك...

فاقترب منها الغلام في أدب وهو يغالب ابتسامة حيال الشابين اللذين لم يألّف احترامهما بعد، وأشار الأب إلى حجرة إلى يسار الداخل وقال:

- حجرة الاستقبال أوفى حجرة للدرس، وبها الشرفة إذا أراد أحدكم أن يتشّمس...

ومضى الأستاذان إلى الحجرة يستقبلهما التلميذ، وبادر الغلام إلى الشرفة ففتح بابها، ثم أغلق باب الحجرة. وكانا يدخلان الشقة لأول مرة لأنّه لم يكن لفريد أفندي ابن في سنّها فندعوها صداقته إلى التردّد عليها. ووجدوا حجرة الاستقبال بمنزلة حجرتهما بوجه عامّ فهي مكوّنة من طاقم قديم ذي كنبتين إفرنجيتين وستّة كراسيّ، ومراة كبيرة ذات حوض مذهّب يحوي وردًا اصطناعيًا بيد أنّ حجرتهما بقيت على قدامها وبيعت مرآتهما، أمّا هذه فيبدو أنّ يد النجّاد قد جدّدت حشوها وكساءها. وجلس حسين على كنبه فجاء سالم بكرسيّ وجلس قبالة واضعًا بينهما خوانًا صُفّت عليه الكتب والكراسات، على حين خرج حسنين إلى الشرفة في انتظار دوره. وجعل حسين يتصفّح كراسات الغلام وكتبه، ثم قال له:

- سأعيد الدروس من الأوّل شارحًا ما يغمض عليك على أن نبدأ في الدرس التالي بتسميع ما تمّ شرحه.

وبدأ الدرس في اهتمام جدّي.

ووقف حسنين في الشرفة مرتفقًا حافتها كما كان يفعل أيّام كان لهم شرفة. وكان المنظر الذي أثاره لا يزال ناشبًا في مخيلته. الساقان البديعتان، والوجه البدريّ ذو العينين الزرقاوين. نظرة هادئة رزينة توحى بالثبات لا بالخفة. جمال يبهر وإن شابه شيء من ثقل الدم ولكنّه لم يترك أثرًا سيئًا في نفسه. لا يزال دمه

يبليها طول الاستعمال - إلّا للضرورة القصوى. وكان الضحى بسّام الشمس فلطّفت حرارتها من برودة الجوّ. وارتقيا السّلم يملأهما السرور والأمل. ومَرّا في صعودهما بباب شقّتها القديمة فألقيا عليها نظرة صامتة، وانتهيا إلى الشقة العليا فوجدوا الباب مواربًا ووفقًا لحظات متردّدين. ثمّ اقترب حسنين من الباب ورفع يده لينقر عليه ولكنّ يده جمدت في الهواء ورنّت عيناه إلى الداخل على رغمه. رأى فتاة مولية الباب ظهرها ومنحنية على شيء بين يديها - لعلّها تبحث في درج من أدراج البوفيه - وقد برز ردفاها اللطيفان، وانحسر الفستان عن ساقها وباطن ركبتيها، ساقان مدججتان يكسوهما بياض ضاحك تكاد العين تحسّ طراوتها. وثبتت عيناه على المنظر فلم يبد حراكًا. وعجب حسين لموقفه فدنا منه في اهتمام وألقى ببصره من فوق كتفه وهو يشربّ بعنقه فغمرته دهشة، ولكن سرعان ما ارتدّ عن فرجة الباب كالهارب وجذب أخاه من ذراعه وهو يرميه بنظرة حادة كأنّها يقول له «أعجبون أنت؟». ولبثا حينًا وقد ركبهما ما يشبه الشعور بالذنب، وكان المنظر ذرّ في شقوق صدرهما الشطة. ومال حسنين على أذن حسين وهمس:

- بهيّة...

فغمغم الآخر متظاهرًا بعدم الاكتراث:

- لعلّها...

فتردّد حسنين وفي عينيه بسمه شيطانيّة ثمّ قال:

- ألا نسرق نظرة أخرى؟

فلكزه في كتفه ونحّاه جانبًا ثمّ اقترب من الباب وطرقه. وسمعا وقع أقدام آتية، وفتح الباب عن وجه جميل، مستدير، ممتلئ، أبيض مشوب بشحوب خفيف، تزينه عينا زرقاوان صافيتان. وما إن رأت القادمتين حتّى تراجعت في خفر. ثمّ جاء من بعيد صوت فريد أفندي وهو يهتف:

- تفضّلا يا حضرتي الأستاذين الكبيرين!

ودخلا إلى الصالة - حجرة السفارة أيضًا - فرأيا فريد أفندي جالسًا على كنبه في مواجهة البوفيه، في جلباب فضفاض، جعل منه كهيفة المنطاد. وسلّم عليه

المقابلة لحجرتها، أما حسين فقد غَضَّ بصره في وقاره المعهود. وأما هو فقد رنا إليها بنظرة قوية فخفضت عينها في حياء.

- ١٦ -

- كم تظن أن يكون أجرنا؟  
فقال حسين متظاهراً بعدم الاكتراث:  
- لا تكن شحاذاً ثقيلاً..

فقال حسين بأمل:

- نحن ندرّس لسالم يوماً بعد يوم وقد مضى زمن لا بأس به فلعلّه ينقدنا أجرنا أول الشهر، نينة لا تستبعد أن يعطي كلاً منا نصف جنيه وهو مصروف عال! ستعود أيام الكرة والسينما وشيكولاتة المصنف في الفسحة...

كانا يرتقيان السلم وقد غاب نهار الشتاء القصير في ظلمة المساء المبكر. وطرقا الباب كعادتهما وانتظرا أن يجيء من يفتحهما وهما يطويان في صدرهما أملاً يتجدد مساء بعد مساء دون أن يتحقق. وجاءت الخادم وقادتهما إلى حجرة الاستقبال. كانت الصالة خالية والضوء ينبعث من حجرة نوم الوالدين في نهاية الصالة فسار حسين وهو يلحظ المكان بجانب عينيه دون جدوى ثم جاء سالم وأغلق وراء الباب وجلس أمام حسين وبدأ الدرس. وشعر حسين بخيبة وملل. وكان أحضر معه كتاباً يذاكره حتى يجيء موعد درسه فراح ينظر فيه بعينين غائبتين. وجعل يرفع بصره إلى الباب المغلق بحلق شديد، ثم تساءل، بمكر:

- ألا يحسن بنا أن نغلق الشرفة اتقاء للبرد ونفتح الباب؟  
وهمّ سالم بالنهوض ولكنّ حسين أشار له بالجلوس وقال:

- أغلق الشرفة إذا أردت على أن يبقى باب الحجرة مغلقاً.

ورمقه بنظرة ذات معنى فتلقاها حسين باستياء مكتوم. وضاق بمجلسه فقام إلى الشرفة متناسياً أنه كان يقترح إغلاقها منذ لحظات. ووجد حبال الظلمة كآبة مثل تلك السحب التي كانت مرترقة بصفحة

يتدفق حاراً في عروقه، وقلبه يخفق بنشوة المنظر، ورأسه لا يمسك عن خلق الصور والأحلام. هذه أسطح البيوت المكددة به وهذه عطفة نصرالله في أسفل، وهؤلاء خلق كثيرون ذاهبون آثبون، كلّ أولئك يلوح وراء غلالة حمراء نشرها خياله المحتقن الدم، متى تعود السكنية إلى نفسه؟ إنّه يذكر بهيّة. كان يراها كثيراً وهي صغيرة تحجل في فناء العمارة. ولكنّها اختفت منذ الثالثة عشرة، وانقطعت عن المدرسة أيضاً قبل أن تلتحق بالمدرسة الثانوية. ولعلّها في الخامسة عشرة، ولكن كان كأنه يراها لأول مرة. «إني بحاجة إلى مثل هذه الفتاة. نذهب إلى السينما معاً، ونلعب معاً، ونتحدث كثيراً. وما من بأس في أن أقبلها وأعانقها. ليس في حياتي وجه جميل يجذبني إليه. وحسي ما صادقت من فتیان المدرسة ونادي شبرا. أريد فتاة. أريد هذه الفتاة. في أوروبا وأمريكا ينشأ الفتيان والفتيات معاً كما نرى في السينما. هذه هي الحياة. أما هذه فما إن رأتنا حتى توارت عن الباب كأننا وحوش نروم التهامها. وكان أجدادنا يقتنون الجوّاري. لو نشأت في بيت مليء بالجوّاري لعرفت حياة أخرى على رغم أمي وإنذاراتها ولكياتها. حتى الخادمة الصغيرة طردت لفقرنا. ما يخفى لنا المستقبل، أظنّ أكبر ذنب يؤخذ به في الآخرة هو أن نترك هذه الدنيا دون أن نستمتع بحلاوتها. أجل منظر حقاً هو بطن ركبته. في وسطه عضلة رقيقة مشدودة تشفّ بشرتها عن زرقاء العروق. لو انحسر الفستان قليلاً لرأيت مطلع الفخذ. أجل منظر في الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها. أجل من المرأة العارية نفسها. يقولون إنّ مدرّس التاريخ زير نساء. متى أجد نفسي رجلاً حرّاً؟! عندنا غدا حصّة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية. انكحوا ما طاب لكم من النساء، هذا أمرك يا ربّ ولكنّ هذا البلد لم يعد يحترم الإسلام». وتابع أحلامه في نشاط حتى ترامى إليه صوت حسين يدعوّه إلى درس الإنجليزي فغادر موقعه..

وعند انصرافهما بدت لها الفتاة جالسة في الحجرة



عَمَّا يعاني من إغراء. «جسم لندن. عينان جذّابتان. هيهات أن يخفي هذا الفستان الطويل ما انقطع في حسي من صورة الساقين. وبطن الركبة خاصة. لا الفستان ولا الباب ولا الظلام. أعظم واجب في هذه الدنيا أن تلاعب فتاة جميلة تحبها. إنني أعجب كيف أن فتاة يمنعها الحياء من التحديق في وجه حبيبها تستطيع يومًا أن تنزع ثيابها بين يديه دون مبالاة! هذا التطور خاصة خالق بأن يبعث بهيج الأمل في موات النفوس. أو لعلها العادة؟! يجوز. هذه العادة التي جعلتنا نألف المبيت على الطوى! كيف يحق لي أن أفكر في الحب على ما نكابد من قساوة الحياة! شكرًا، الشاي به الكفاية! أحسنت بشكرها صنعًا. لا يجب طبعي الجبن والتردد. وبذلك يمكن أن أقتنص فرص الحب وسط برودة الفقر. الفقرا لو كان الفقر رجلاً لقتلته! ولكنته امرأة. تقتلنا ونحن راضون. ترى هل يتألم أبي لحالنا؟ ترى ما هيئته الآن؟ لهفي عليك يا أبي. حقًا إن الحياة أكذوبة ضخمة. ولكنتها جاءت بنفسها بالسكّرية! جاءت لي أنا في الواقع. أريد أن أكون شارلمان عصري. لو عدت يومًا إلى عطفة نصرالله محاطًا بعظمة فروسيته لألقت بنفسها عليّ من الشرفة... وما يدري إلا وحسين يقول له:

- دورك..

اللغة الإنجليزية! وحلّ محلّ أخيه، وألقى درسًا ممتلئًا عطفًا وحبًا للغلام الذي يجري في عروقه الدم الذي يجري في عروقها. ذلك الدم الذي استشفّه في بطن ركبته. وانتهى بعد زمن لم يدرك له طولًا، ثم غادرا الشقة معًا إلى السلم المظلم. ولم يعد يطيق صبرًا فقال:

- كان ظهورها اليوم مفاجأة بديعة!

فقال حسين بلهجة تنم عن الانتقاد:

- حاذر لا تكن وقحًا. هذا بيت محترم!

- ماذا فعلت فأستحقّ هذا التأييب؟

- لا تفعل شيئًا تندم على فعله إذا كان فريد أفندي

معنا.

وغلبه السرور فقال وكأنه يناجي نفسه:

السماء تزيد الظلمة عمقًا ووحشة، لم يكن بالآفاق نجم واحد، ولاحت أضواء المصابيح خافتة تحت غاشية من الضباب، وخيم على الكون سكوت ثقيل وبرودة صامتة كأنما كتمت أنفاسه. «حنبلّي، حنبلّي». يجب أن يكون رجلًا وقورًا قبل الأوان. ولا يبدو أنه يريد أن يعاونني. من يدري لعلها لو كانت لها أخت لتغيّر سلوكه. إنه كأتمه جاذ صارم. ينبغي أن أفصّل هذه المشكلة بالحلّ الموقّ، وراح يتفكّر باهتمام حتى سمع صوت سالم يناديه فغادر موقفه إلى الحجرة. وقال له الغلام:

- تفضّل شايًا.

ورأى قذحين من الشاي على الخوان فتناول أحدهما وقد خفف منظر الشاي من توتر أعصابه. وقبل مضيّ دقيقة سمعا صرير الأكرة فنظرا صوب الباب ففتح قليلًا وبدت بهيئة! كانت تحمل السكّرية فأعطتها لسالم وهي تقول:

- خذ هذه فربما لم يكف ما بالشاي من سكر..

كانت ترتدي فستانًا بنيًا تكاد تمسّ أهدابه أعلى القدم فأضفى طولها على قامتها المائلة للقصر ملاحظة. وحملق الشقيقان في وجهها وهي لا تحوّل عينيها عن الغلام. ثم غصّ حسين بصره وليّا يفق من وقع المفاجأة بينا ظلّ حسنين يحملق في وجهها كأنه عجز عن استرداد بصره. ورأى الغلام يحيى بالسكّرية، وأخذت الفتاة تردّ الباب فملاّ الجرع قلبه الخافق، وعزّ عليه أن تحتفي وهو غارق في ذهوله وجموده، وطفرت من أعماقه رغبة في الافصاح لا تقاوم، فقال بعجلة:

- شكرًا. الشاي به الكفاية..!

وتحوّلت عيناها إليه في ارتباك، ثم اختفت دون أن تنبس بكلمة، ولعلّ عينيها تمّتا عن ابتسامة مكتومة. وتحاشى النظر صوب أخيه فحصر بصره في قدح الشاي. «مفاجأة لم أكن أنتظرها. حلم سعيد. على الرغم من الباب المغلق!» ورشف رشفة كبيرة من السائل الساخن فلسعت لسانه وسقف حلقه وجعلته ينفخ في جزع. ولكن سخونة الشاي لم تغيّبه طويلًا

فقال الغلام:

- معي أبله بهيمة ..

وابترد صدره بلذة الارتياح والأمل: «الشاي والسكر. السكر خاصة، بل السكرية. سأتحقق اليوم مما إذا كانت تتعمد الظهور أمامي!». وأمر الغلام أن يطلع وبدأ الدرس، وأصغى إليه دقائق ثم مضى يغيب عنه. «هل أطلب شيئاً؟ قلة ذوق! ولكن إذا تأخر الشاي فلا بد من طلبه. إنني مضطرب أكثر مما ينبغي. إننا وحيدان في الشقة أنا وهي. لا يחדش هذه الوحدة سالم أو الخادم الصغير، فنحن وحيدان. فلأنعم طويلاً بهذه الوحدة الخيالية. لو كانت الدنيا بسيطة كبساطتها الحلوة الأولى لقمتم إليها وأخذتها بين ذراعي، وسألتهما باطمئنان كامل أن تكشف لي عن ساقبها. ما الذي يجعلني أحجم عن رغبة كهذه؟ هذا سخف الدنيا الذي قتل أبي وأنزل بنا ما نحن فيه». وانتبه إلى سالم وهو يسأله عن معنى كلمة فذكر له معناها، وأمره أن يواصل المطالعة. وقبل أن يغيب عنه صوت الغلام سمع وقع أقدام تقترب فأعجبه بصره ناحية الباب المفتوح، ثم رأى صينية الشاي تتقدم حاملها، ووقع بصره على الساعدين اللتين تحملانها فحفق قلبه خفقة عفيفة ونهض قائماً كمن به مس، وجاءه صوت رقيق وهو يخطر نحو الباب يقول بصوت كالممس:

- سالم ..

فظهر حياها وهو يتفحصها بنظرة عارمة ثم همس:

- ألف شكر ..

وتورد الوجه الأبيض المائل للشحوب ولعله لم يتوقع ظهوره، ثم غصت بصرها في ارتباك. ومدت حسنين يديه فتناول الصينية، فأطبقت يده اليمنى على أصابع يسراها، وسرى مسها في يده، وذراعه، وجسمه، وروحه، في أقل من الثانية. ولم تقف به جرأته عند حد فضغط على أصابعها ضغطة غير خافية، فاستخلصت يدها في استياء، وفي وجهها عبوسة، وتحولت عن الباب في حدة الغضب. وعاد إلى الخوان بالصينية شديد التأثر، ثم جلس على مقعده وهو يقول

- جاءت بنفسها، الله ما ألطفها!

- ليس في هذا ما يعجب ..

- ترى أكلفها أبوها بإحضار السكرية؟

فقال حسين بملل:

- من أدراي بذلك!

- أم جاءت من تلقاء نفسها؟

- ليكن هذا أو ذاك.

- وإذا كان من تلقاء نفسها فهل جاءت تحت بصر والديها؟

فلم يجبه الآخر وإن ظلّ متبهاً لما يقول في اهتمام شديد، فعاد حسنين يتساءل:

- أو جاءت خفية؟

فهتف حسين:

- خفية؟!

فضغط الشاب على ذراع أخيه وقال وهما يغادران آخر درجات السلم:

- ألا يقولون «من القلب للقلب رسول؟».

- ١٧ -

- جئت الآن وحدي، وسيجيء حسين بعدي، حتى لا يضيق وقتنا بلا ضرورة!

فقال سالم بأدب:

- هذا أفضل ..

واتخذ كلاهما مجلسه، ولكن حسنين قال قبل أن يبدأ درسه: الأوفق أن تغلق الشرفة وتفتح الباب!

ونفض سالم فحقق رغبة أستاذه. ورأى الصالة مظلمة صامتة ولكن لم يفتر أمله، فلا يزال في الوقت متسع للشاي، ثم للسكرية! وأراد سالم أن يتوّد إلى مدرّسه بأن يفضي إليه بما في نفسه فقال:

- بابا وماما عند ستي ..

فحفق قلبه بعنف، ونظر إلى الغلام طويلاً، ثم سأله:

- متى ذهباً؟

- بعد العصر ..

وساوره القلق أن تكون قد ذهبت معها فتساءل:

- وكيف تبقى وحدك في البيت؟

إلى الداخل، ثم جاءه الغلام بالمتدليل فتناوله ومضى وقد نسي أن يشكره . .

- ١٨ -

ورفع حسين رأسه عن المكتب وتفحصه بدهشة ثم سأل:

- ما لك؟

فضحك حسين ضحكة قصيرة دون أن يجيب، فسأله الآخر بلهجة ذات معنى:

- أعطيت درسك؟

فارتدى حسين على فراشه وتساءل:

- هل أبدو متغيرًا؟

- بلا ريب.

فتنهّد الشاب قائلاً:

- يحقّ لي أن أحمد الله على أنّ أمنا تجلس فيها يشبه الظلام.

- ماذا حدث؟

هل يخبره بما حدث؟ ولكن هل يلقى منه إلا زجرًا؟ قال:

- لم يحدث شيء؟

- واضطرابك؟! إنك إذا اضطربت توترت نفسك كالخمار.

قال حسين ذلك ثم تساءل في نفسه هل يتوتر أنف الخمار حقًا، كيف اختار هذا التشبيه؟ ولكن الآخر تضاحك قائلاً:

- هيجان شعور، هذا كلّ ما هنالك. . .

- وبعد؟

- ولا قبل!

فقال حسين بجذّ واهتمام:

- أريد أن أعرف مقصدك.

- لا أفهم ما تقول.

- لا تتجاهل ما أعني أنت تفهم كلّ شيء. لماذا لا

ترتكها وشأنها؟ ألا تخاف أن يفطن فريد أفندي إلى

عشك أو أن يبلغه أمرك عن طريق الفتاة نفسها؟

سترمي بنا إلى مركز حرج. . .

فقال حسين مبتسماً:

للغلام في ارتباك:

- استمر. .

«ترى هل تعجلت الأمر قبل أن ينضج؟ ما أقلّ

صبري، هكذا أنا دائماً. يا لها من عبوسة! عبست

وتولّت. إن يكن حياء فهو عزّ المني، وإن يكن حنقاً

فلعلّه الختام. هيهات أن أتراجع. هيهات أن يطيب

لي التردّد أبداً، لماذا جاءت بنفسها؟ لماذا لم تكلف

الخدام بحمل الصينية؟ جاءت لي أنا. هذا واضح. لا

داعي للخوف». وكان ينتبه إلى سالم في أويقات

متقطعة، ويملي عليه بعض الأسئلة، ثم يغيب عنه في

قلق يراوح بين الإشفاق والسرور. ولما أن انتهى

الدرس خطرت له فكرة فصمّ على تنفيذها دون

تردّد. ونهض قائماً، وغادر سالم الحجرة ليوسع له

الطريق فأخرج منديله من جيب معطفه وتركه على

المقعد، ثم غادر الشقة. ولكنّه لم يبرح مكانه بعد

إغلاق الباب. وقف يرهف السمع إلى خطوات الغلام

حتى ضاعت، وترتّب لحظة ثم نقر على الباب. وانتظر

وقلبه يشب وثباً من شدّة الخفقان. «إذا جاءت الخدام

ضاع تدبيره هباء، ولكن من المحتمل أن تأتي هي.

أمري لله». وأضاء نور الصالة وسمع وقع أقدام قادمة

ثم فُتح الباب. هي. ولم يبال ما ارتسم على وجهها

من أي الدهشة، ولم يضيّع وقته سدّى فتساءل في رقة

وإشفاق:

- أخاف أن أكون أغضبتك!

فتراجعت خطوة دون أن تفتح فهاها فقال بعجلة:

- لا أطيق أن تغضبي أبداً. . .

فغمغمت في استنكار كأنها لا تحتمل أن يوجّه إليها

خطاباً:

- لا، لا، لا، هذا كثير!

ولم يستطع أن يتكلّم لأنّ سالم ظهر على عتبة الغرفة

اليسرى وهو يتساءل:

- جاءت ماما؟

فقال حسين بصوت مرتفع:

- نسيت منديلي في الحجرة!

وجرى سالم إلى الحجرة، وسارعت الفتاة بالعودة

- والله يا أخي لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتركها ما تركتها أو أهلك دونها. . .  
فضحك حسين على رغبته، ثم قال وهو يستعيد مظهر الجدِّ والرزانة:  
- ماذا تريد منها؟

يا له من سؤال! يبدو غاية في البساطة ولكن من له بأن يجيب عليه، ولم يكن طرح على نفسه هذا السؤال فلم يدر له جوابًا. كان اندفاعه بوجي من عواطفه وغرائزه دون حاجة إلى تفكير. ثم قال في حيرة:  
- في مثل حالتي لا تفرق بين الباعث والغاية.  
- لا أفهم ما تقول.

- ولا أنا بفاهم!  
- إذن دعها وشأنها كما قلت لك.  
- لن أزال وراءها حتى...  
فتفحصه حسين بنظرة كثيفة وتمتم متسائلًا:

- حتى ماذا؟  
- حتى تقع كما وقعت.  
- ثم؟!  
فقال الشاب الحائر:  
- حسبي هذا!

فهزَّ حسين رأسه في حدة وقال:  
- أنت مخطئ. إنها فتاة مهذبة، ومن أسرة طيبة، ولن ترضى عن سلوكك..

- هي ما قلت وأكثر ولكني لن أتخلَّى عن أملي..  
وقام إلى المكتب فأخذ كتبه وكراساته وعاد إلى الفراش ثم وضعها على حافة النافذة المغلقة التي تلي فراشه مباشرة، وجلس متربِّعًا حياها كأنه جالس إلى مكتب، فسأله حسين متعجبًا:

- لم لا تجلس إلى المكتب؟  
- أريد أن أترنِّع لأدقِّ ساقتي.

وكان يفكر في أمر ذي بال ففتح كراسة واقتطع منها صفحة وأمسك بالقلم يعمل ذهنه في اهتمام ووجد واضطراب. «سأكتب لها كلمة. لن تتاح لي فرصة لمخاطبتها فلا حيلة لي إلا هذه. ولكن ماذا أكتب؟». وركَّز فكره مستعينًا بالسكون الذي يغشى

الحجرة لا يحدشه شيء إلا خشخشة أوراق الكرّاسة إذا قلبها حسين، ولكن أخذت أذناه تستبين صوت راديو يتسلَّل من النافذة المغلقة وانيًا من بيت من بيوت العطفة. وقطَّب متظاهرًا بالضجر ولكنّه ارتاح إلى سبّاحة هربًا من حيرة أفكاره. وأصغى إلى «عادت ليالي الهناء» فسلمَّ سرّيعًا بمجامع نفسه وجاش صدره بالحنان وندى بالعطف وهفا قلبه نشوة للحبِّ والحياة. وغمرته موجة حماس فامتلاً نشاطًا وتمتَّى لو ينطلق إلى الخلاء متلفعًا بالظلام. وجعل يغيب عن النغم رويدًا بعد أن فتح لروحه أبواب جنة عامرة بالأحلام والرؤى. «يجب أن أكتب كلمتين. جملتين فحسب، حتى لا أسودَّ إلا ورقة صغيرة إذا رميت بها عند قدميها لم يستنّبها أحد». وحرك القلم كاتبًا: عزيزتي بهيَّة إنِّي أسف جدًّا لأنِّي أغضبتك. «أليس الأفضل أن أقول: لا تغضبني يا عزيزتي؟.. سيّان. ثم ماذا؟ ينبغي أن أعترف لها بحبي. أريد جملة غير مبتذلة. اللهمَّ عونك.» وقطع حسين عليه تفكيره متسائلًا:

- ماذا تكتب؟  
- موضوع إنشاء.  
- ما هو؟  
فقال بلا تردّد:

- أثر الموسيقى في نهضة الأمم...  
عزيزتي بهيَّة، إنِّي أسف جدًّا لأنِّي أغضبتك. أبحقَّ لك الغضب لأنِّي أحبك؟ «يكفي هذا فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ. كلّ لا يكفي. النعمة ناقصة. استشهد بيت من الشعر. كلّاً فهذا يثير الضحك عادة. وضحكة واحدة خليقة بأن تفوّت عليّ الغرض. جملة أخرى مؤثّرة. يا ربّ يا معين!» ووثبت إلى ذهنه عبارة لا بأس بها فشرع يكتب: والله ما فعلت ما فعلت.. ولكن حسين قاطعه مرّة أخرى قائلاً:

- هل انتهيت من نقط الموضوع؟  
فانزعج حسين في غيظ مكتوم:  
- تقريبًا.. عن إذنك لحظة واحدة!  
وعاد إلى الخطاب في تصميم من يريد الفراغ منه فكتب: والله ما فعلت ما فعلت إلا لأنِّي أحبك.

تقول:

- ستّ زينب ثنني عليك جميل الشاء. وإني أتوسّم  
فيك الخير..

فابتسمت نفيسة ابتسامة باهتة وانفرجت شفاتها  
دون أن تنبس بكلمة. «لعلّها قالت إني خياطة ماهرة.  
هذا حسن. أمّذح أم ذم؟ لا أدري. ترى هل قصّت  
عليك نباً أسرتنا؟ كان أبي كأبيك. وكنت سيّدة  
مثلك. وطالما انتظرت العريس ولكنّه لم يأت. ولن  
يأتي». وسألت العروس في رقة وهي تعلم الجواب:

- لماذا ترتدين السواد؟  
فأجابتها في حزن:

- توفي والدي منذ شهرين. وكان رحمه الله موظفًا  
في وزارة المعارف.

- حدّثتنا بذلك ستّ زينب. البقية في حياتك.  
- حياتك الباقية. نحن من بنها، وخالي تقيم هناك  
مع زوجها الذي يملك محلجًا للقطن.

ودخلت عند ذاك خادماً حاملة بقجة فوضعتها إلى  
جانب سيّدها وذهبت. وحلّت العروس عقدها  
فانحسرت عن كوم من الحرائر مختلفة ألوانها. وأدركت  
نفيسة من النظرة الأولى أنّها أقمشة للثياب الداخلية.  
ولعلّها أرسلت بالفساتين إلى خياطة كبيرة، وارتاحت  
لهذا لأنّها كانت تشفق من أن تعرّض سمعتها لتجربة  
شائعة لا قبّل لها بها، عمل في حدود طاقتها وريح  
مضمون. وقامت إلى مجلس العروس وراحت تتفحص  
الأقمشة وتحسّسها قائلة:

- مبارك عليك. يا له من حرير نفيس.

فافتّر ثغر العروس عن ابتسامة سعيدة وقالت:

- نبدأ الآن بالقياس. وعلى فكرة أعندك مانع من  
مباشرة العمل هنا في بيتنا؟ عندنا ما تحتاجين إليه من  
الأدوات كلّها، وليس ثمة أطفال في البيت، وفضلاً  
عن هذا كلّه فبيتنا غير بعيد من عطفتكم فتستطيعين  
الحضور كلّ يوم في غير مشقة.

ولم ترّ نفيسة بداً من أن تقول:

- لك ما تشائين يا هانم..

وقامت الفتاة ووقفت أمامها، وجعلت نفيسة تقيس

وسأجّك ما حييت، ولا حياة لي إلّا برضاك عني.  
وأعاد قراءتها بعناية، ثمّ تنهّد في ارتياح عميق،  
وطواها وثني طرفيها ثمّ أودعها جيبيه. «سأنتهز فرصة  
اقترابها من الباب، أو مروري بها في الصالة، ثمّ أرمي  
بها إليها، وليكن ما يكون»..

- ١٩ -

وجدت نفيسة نفسها في حجرة متوسطة الحجم،  
قامت على جانبيها كبتان كبيرتان وبضعة مقاعد، أمّا  
أرضها ففرشت ببساط أسويطي، وفي جدارها المواجه  
لمدخلها شرفة تطلّ من الدور الرابع على شارع شبرا.  
كان الأثاث قديماً والظاهر أنّ الحجرة كانت معدّة  
لجلوس الأسرة في أوقات الفراغ كما يمكن أن يُستدلّ  
عليه من وجود الراديو بداخلها على كُثب من الباب.  
وقد لاحظت الفتاة مذ وطئت قدمها الشقة أنّها على  
قدر وافر من الجاه يبدو في الصالة الصغرى التي أثّنت  
كمدخل للبيت، والصالة الكبرى الفاخرة المعدّة  
للسفرة، فحقّ لها أن تصدّق صاحبة بيتهم بعطفة  
نصرالله حين قالت لها «جئت لك بربونة ملائنة،  
عروس ومن أسرة كريمة، فأرجو أن تحيطي ثيابها بما  
تستحقّ من عناية علّها تفتح لك مغلق الأبواب».  
وكانت نفيسة مضطربة لدخولها بيتاً غريباً للعمل أوّل  
مرة. وجلست على مقعد قريب من الباب تنتظر.  
وكانت ترتدي ثوب الحداد وقد أرسلت شعرها الأسود  
في ضفيرة قصيرة فبدا وجهها العاطل من الزواق  
والحسن شاحباً بائساً. «بيت غريب وأناس غرباء.  
خطوة جديدة في سبيل المهنة. لست إلّا خياطة. ليست  
كرامتي التي تعرّ عليّ ولكن كرامتك أنت يا أبي». ولم  
يطل بها الانتظار إذ جاءت من الحجرة فتاة في العشرين  
على حسن ورشاقة، فقامت تستقبلها، وسلّمت عليها  
القادمة وهي تلقي نظرة متفحّصة ثمّ قالت:

- أهلاً وسهلاً. حضرتك الستّ نفيسة التي  
أرسلتك ستّ زينب؟

فكانت الفتاة في حياء:

- نعم يا هانم. وحضرتك العروس؟

فأومأت بالإيجاب مبتسمة، ثمّ جلستا، وهي

وغادرت بيت العروس قبيل الأصيل متعبة. وكانت عطفة نصرالله تبعد عن البيت محطتين فشقت طريقها بين السابلة على مهل وتراخ. وأنعشها الهواء البارد فحسّت خطاها. ووجدت ذكريات ممّا مرّ بها في بيت العروس تنثال على مخيلتها في لذة وألم معاً: كانت تجلس على كنبه وقد جلس الخطيبان على الكنبه المقابلة. كانا ملتصقين. وكانا يتحدثان في صوت مسموع حيناً، وينخفض حيناً فيصير مناجاة وهمساً. وكم ودّت وقتذاك أن ترفع رأسها عن الماكينة إليهما ولكنّها خافت وعقلها الحياء أن تلتقي عينهما بعينيها. ومرة رفعت عينها من تحت رأسها المنحني فوقع نظرها على ساقين ملتصقتين، ثمّ انتبهت على العروس وهي تضربه على يده قائلة في لهجة تنمّ على الدلال والوعيد:

- حذار!

استغرقها الخيال حتّى كادت تصطدم بالمآزة، ثمّ دخلها إحساس نهم بالتحرقّ إلى الحبّ. لم تحظّ طوال حياتها بقلب يحبّها ويعطف عليها، ولم تجد من متنفس عن توتر أعصابها إلّا في الضحك والسخرية من نفسها وإخوتها والناس فاشتهرت بالعبث الضاحك الذي تتوارى خلفه مرارة في الأعماق. ولم تكن لها حيلة في إحساسها فالواقع أنّ غريزتها الأنثويّة كانت الشيء الوحيد بها الذي سلم من النقص والضعف واستوى ناضجاً حارّاً، فلم يخلُ صدرها من عذاب سجين وقفت له تربيته وكرامته وأسرتها بالمرصاد. ولكنّ منظرًا كالذي رآته اليوم ببيت العروس كان خليقاً بأن يهزّها هزّة عنيفة قاسية. ولمّا تخاللت لعينها عطفة نصرالله عابثها أمل جديد داعبها كثيراً في الأيام الأخيرة. هنالك بقالة عمّ جابر سلمان التي تقع قبل عمارتهم بقليل، أو هنالك سلمان جابر سلمان ابن عمّ جابر وصيّته. ولقد اعتادت التردّد على البقالة بعد طرد الخادم لاتباع ما يلزمهم فعرفت الفتى معرفة أخذت تزداد بمرور الأيام. واستحضرت صورة الفتى بقامته الطويلة المائلة للامتلاء ووجهه البيضاويّ الأسمر،

الأقمشة عليها. امتلأ أنفها الغليظ برائحة الحرير الجديد، وشعرت لمسه وهو ينزلق بين أصابعها بإحساس غريب، فيه اشتها وفيه ألم. بيد أنّها أحسّت كذلك، حيال استسلام الفتاة وما تعقده على مهارة يديها من رجاء بنوع من السيادة. فكأنّها ظفرت بأمل في العزاء، ولكنّه سرعان ما فتر وأخلف وراءه بأساً قائماً «عروس وحرير أحقّاً أخط هذه الثياب لهذه العروس؟. كلاً هذه الثياب الداخلية تهبّ للعريس قبل العروس!.. ستداعب أنامله أهدابها الناعمة ومادتها اللطيفة. إنّني أشارك في هذا الزواج. وسأشارك في زيجات كثيرة دون أن أنزّوج، فأنعة من هذا كلّه بأحلامي المحرقة. يا لها من فتاة مليحة وسعيدة. تكاد السعادة تتوهّج في عينها، اليوم تجهّز الحرير، وغداً تنتظر الحبيب، وتتشمّ أنفاس الأمومة الحارة تهفو عليها من أفق وديّ. طالما حلمت بهذا وأبي يقول لي إنّ الخفة أنفس من الجبال، ثمّ بلغت الثالثة والعشرين بين الإشفاق والرجاء، وبموت مات الرجاء. لماذا خلّقت هكذا دميعة؟. لماذا لم أخلق كإخوتي الذكور؟ ما أجمل حسنين، وحسين، حتّى حسن، إنّني ميتة كأي، وهو في باب النصر وأنا في شبرا» وسمعت العروس تسألها:

- اتّحّين أن تتسلّمي بعض أجرك مقدّماً؟

فقالت بعجلة:

- لا داعي لذلك مطلقاً.

ثمّ عضّها الندم على ما قالت فتضاعف حنقها وبأسها. وسمعت أطيح حذاء يقترب فرفعت رأسها نحو الباب فرأت شابّاً يدخل الحجرة هاشاً، وأقبل على العروس فالتحمت يداهما، وتبادلا ابتسامة سعيدة، ثمّ سألتها:

- أين والدتك؟

- في حجرتها.

ثمّ التفتت إلى نفيسة وقالت تقدّم لها الشاب:

- حسن خطيب.

ثمّ عطف رأسها إليه قائلة:

- ستّ نفيسة الخطّاطة...

الوحيد الذي يمكن أن يتّصف بالجمال في وجهه. وأبى إلا أن يباردها بالكلام فقال:

- أيّ خدمة يا ستّ نفيسة؟

فقال الفتاة وهي ترمش ارتباكًا:

- حلالة طحينيّة بقرش.

فتناول السكّين وقطع لها قطعة وافية، ثمّ قشط قطعة صغيرة وهو يقول بصوت منخفض:

- هذه الزيادة إكرامًا لك يا ستّ نفيسة.

ولفّ الحلالة في ورقة وقدمها لها، ثمّ أخذ القرش وهو يلحظ أباه بطرف خفيّ، ولمّا وجده مكبًا على الدفتر، تشجّع وقال همسًا:

- سأحتفظ بقرشك بركة!

فابتسمت ابتسامة خفيفة وذهبت. ابتسمت عمدًا كأنها تشجّعه وترجّبه به. وقد كلّفها هذا جهدًا كبيرًا. «لم يعد يقنع بلغة العيون فتكلّم، وحسنًا فعل». وعلى رغم ضالة شأنه ومنظره اهتزّ قلبها سرورًا، وجاش صدرها بالانفعال. وكانت تخيلت لهذا الموقف - قبل أن يحدث - وهي عاكفة على عملها بيت العروس فلم يفتّق الواقع عن الخيال إلا قليلًا. تخيلت نفسها واقفة أمامه لتبتاع الحلالة فجعل يلتمهما بعينه ثمّ قال لها وهو يتناول القرش «أنت أحلى من الحلالة». حقًا لم يقل هذا ولكنّه قال قولًا يضاهيه. وتنهّد بارتياح ثمّ طار خيالها إلى ذكريات عشاقها الغابرين! كان أولهم وزيرًا وقد رأيته في صفحة مجلّة المصوّر ثمّ راحت تسجّ حول صورته وشيّا من أحلامها حتّى أنجبت له غلامًا فريدًا وكان فريد أفندي محمّد نفسه العاشق الثاني، وبسببه خاصمت في الخيال زوجه وأسرته. أمّا سلمان فهو أسوأهم حالًا ولكنّه العاشق الوحيد الحقيقيّ. ولمّا بلغت منتصف الفناء خافت أن تلومها أمّها على قضاء النهار خارج البيت فضاق صدرها وقالت كأنما تردّ عليها:

- كفيّ عن لومك فما عدت أحمل أكثر ممّا بي.

وعلا صوتها ورنّ في بئر السلم فنظرت فيما حولها بحذر، وكنمت بأصابعها ضحكة كادت تفلت من شفيتها!!

وعينه الضيّقتين، وتساءلت ترى هل حقًا يبدي نحوها اهتمامًا أو أنّها واهمة؟ خيل إليها كثيرًا أنّه يبتسم إليها في تردّد ولعلّه لم يستطع أن ينسى بعد أنّها كريمة كامل أفندي عليّ. وكانت على جفوة طلعتها تحظى بمظهر الفتيات المحترّفات، أمّا سلمان فما هو إلا ابن بقال بسيط، ولا تعلق منزلته في دكان أبيه عن صبيّ. وكانت تعلم بهذا كلّها ولكن لم يكن بوسعها أن تنفر من إنسان أبًا كان إذا أبدى نحوها ميلًا. لا يسعها إلا أن تحبّ من يحبّها. بيد أنّها ردّت فجأة إلى فنور وامتناع وأطبق عليها شبح اليأس القديم؟ وكان قلبها يقول لها: لا تغرّري بنفسك ولا تسمحي لكواذب الآمال أن تعبت بعقلك. ارتضي اليأس، واقنعي منه بالراحة وهي السلوى الوحيدة لفتاة مثلك لا مال ولا جمال ولا أب لها. ولكنّها كانت تعلم أنّها لن تطيع قلبها أو - على الأصحّ - صوت مخاوفها. وكانت تزداد استسلامًا كلّما قربت من عطفة نصرالله وعادوها الأمل والحنان. الله قادر على كلّ شيء. وكما يقضي عليها بالأحزان يهب إذا شاء الأمل والعزاء، ما لي من رجاء سواه. ولن يخيب عنده رجاء. لم أجنّ ذنبًا استحقّ عليه الهوان. ولم تجنّ أسرتنا ذنبًا. فلا بدّ أن تنكشف هذه الغمّة. ولكن من سلمان؟ هل يرضى به حسنين؟ إنهم جميعًا ذوو كبرياء ولا أظنّ الفقر يغالب على كبريائهم. وحسن ليس له من الأمر شيء. حسن!! ليتّه يغيّر من طبعه ويتشّلنا ممّا نحن فيه. لا معاش أبي ولا عملي بكافيين فإذا صنع هو؟ لن يرضى أحد بسلمان ولن يأتي من هو خير منه. ومن أدراي أنّه يفكر في حقًا؟». ومالت إلى العطفة تسبقها عيناها إلى بقالة عمّ جابر سلمان حتّى بلغتها. وخطر لها أن تمضي إليها لتبتاع شيئًا، أيّ شيء، ومضت إليها دون تردّد. كان عمّ جابر سلمان العجوز جالسًا إلى مكتبه الصغير عاكفًا على دفتر الحسابات، بينا وقف ابنه الشاب سلمان جابر وراء الطاولة التي تعترض مدخل الدكان. وانتبه الفتى إليها حال وقوفها أمامه فنظر إليها متهلّل الوجه وقد لمعت عيناه الضيّقتان. كانت قسّماته تشي بالغباء والحيوانيّة والجبن، وكان شاربه الصغير الشيء

وأغلقت الباب، وابتعدت عن موقفه متجهة إلى الباب. ولم يسمح لها بالإفلات فوثب خطوتين ووقف معترضاً سبيلها، فحدجته بنظرة غضبي واستقام رأسها في حدة وقالت مستنكرة:

- هذا كثير!

فقال الشاب بجرأة ورقة معاً:

- دائماً غضبي! إني أعجب لحظي فما أجد منك غير الغضب!

فلاح في وجهها الضجر وقالت باستياء:

- دعني أمر من فضلك...

فبسط ذراعيه كأنه يريد سد الفراغ كله وقال:

- هذه فرصة لم يكن بوسعي أن أحلم بها فلا يمكن أن أدعها تفلت من يدي. ويحق لي أن أستبقيك بعض الوقت بعد اختفائك المتعمد الذي عدّني أشدّ العذاب، لماذا تختفين؟ أو دعيني أسألك ماذا وجدت برسالي؟

فقطبت في استياء وقالت بحدة:

- أتذكر هذه الورقة! يا لها من جرأة غير محمودة لا أوافق عليها.!

وكان يرنو إليها بين الأمل والخوف. «هل أصدق هذا الغضب الظاهر؟.. قلبي يحدثني بأنه مبالغ فيه. لعلّه عرض من أعراض الحياة. إنه كذلك حتماً. لو أرادت أن تشق طريقها ما وسعني منعها. لا أريد أن أصدق. ولكن لماذا أصررت على الاختفاء؟» وقال باستعطاف:

- جرأة مُحلت عليها بعد أن أعياني الصبر!

فهزّت رأسها متبرّمة وتمتعت:

- الصبر! لا تعبت بهذه الألفاظ، ودعني أذهب من فضلك.

فقال في صدق وحرارة:

- ما قلت إلا الصدق. والصدق وحده كان محرّضي على كتابة رسالتي الصغيرة، فكلّ ما بها صدق. وإنه ليسوعي كلّ الإساءة ألا تلقى عواطفني منك إلا الغضب والنفور!

وازدرد ريقه وهو يلهث ثم استدرك قائلاً بصوت

غادر حسنين شقّة فريد أفندي محمّد، وأغلق الباب وراءه. كان من الكتابة في غاية، واتّجه نحو السلم طاوياً صدره على اليأس والقهر ولكنّه توقّف ويده على الدرابزين، ورفع رأسه متتبّعاً حفيف ثوب. فرأى طرف فستان أو معطف وقد عبر صاحبه بسطة السلم الأخيرة المفضية إلى سطح العمارة. من؟! من عسى أن يرتدي هذا اللون الأحمر من سگان العمارة الذين يعرفهم حقّ المعرفة؟ ودقّ قلبه بعنف وشعر بقوة تدفعه إلى أعلى فألقى على الباب المغلق نظرة حذر وأنصت في انتباه وقلق ثمّ تحوّل عن موقعه وقطع الردهة أمام الشقّة على أطراف مشطه متّجهاً صوب السلم الأخير الصاعد إلى السطح: لعلّها هي. لم يعد يراها منذلقى برسالته المطوية تحت قدميها، لا في الحجرة ولا في الصالة. اختفت غاضبة ولا شكّ غير عابثة برسالته وعواطفه، ولم تعد ساعات الدرس بعدها إلا عذاباً وضجراً. وقد ارتقى السلم دون أن يحدث صوتاً حتّى بلغ البسطة الأخيرة فرأى شعاع الشمس المائلة للغروب في مستوى عينيه، ونسمت على جبينه موجات لطيفة من الهواء، وألقى على السطح نظرة شاملة ما بين سوره المطلّ على عطفة نصرالله وسوره الخلفي فلم يجد أثراً لإنسان، ولم يكن به من قائم إلا حجرتان خشبيتان للدجاج، إحداها في مواجهة باب السطح، والأخرى في ركن السطح عند طرف السور الخلفي وهي الخاصة بأسرة فريد أفندي، واقترب من الحجرة البعيدة في سكون ووقف قريباً من بابها مرهف السمع ولم يسمع بادئ الأمر إلا قوقأة الدجاج، ثمّ سمع صوتاً يدعو الدجاج «ك ك ك ك» فلم يستطع أن يتيّن حقيقة صاحبه، وخاف أن تكون الأمّ التي بالداخل فتراجع خطوة مضطرباً، وهمّ بالهروب، ولكن فُتح الباب وبدت على عتبة بهيّة في معطف أحمر. واتّسعت عينها الزرقاوان دهشة، وثبت بصرها عليه في ذهول، ثمّ تضرّج وجهها بحمرة شديدة كأنّ صفحته استحال رقة من مخمل المعطف. ولكن لم يدم هذا إلا لحظات، ثمّ تمالكت نفسها فجاوزت العتبة



متهتج:

- أجل إني أحبك...

وأدارت وجهها جانباً، وهي لا تزال مقطّبة كما بدا من انقباض حاجبها وزمة شفيتها، ولكنّها لا ذت بالصمت قليلاً - ممّا بعث فيه روحاً جديداً من الأمل - ثمّ قالت بصوت بدا ألطف موقّعاً ممّا سبقه:

- دعني أذهب. ألا تحشى أن يقتحم السطح علينا أحد؟!

ربّاه! ألم يعد يضايقها شيء إلا أن يقتحم السطح عليها أحد؟! وتمشّت في جوارحه نشوة سرور، فقال بحماس وعينه العسلتان تضيئان بنور بهيج:

- دعيني أفصح لك عن شعوري. إني أحبك. أحبك أكثر من الحياة نفسها. بل ليس في الحياة من خير إلا آتي أحبك. هذا ما كتبتّه. وما أقوله وما أعيده. صدّقي ولا تلزمي السكوت فما أطيق هذا السكوت..

فعطفت وجهها نحوه فطالع في صفحته النقيّة الرزانة والجذّ ولكن خيّل إليه أنّه يرى نوعاً من التأثير لعلّها بالغت في كتابته. ثمّ سمعها تقول بصوت منخفض كالهمس:

- حسبك!.. هلّا تركتني أذهب؟!  
تأبى أن تحلو هذا القناع! لشّد ما تستكين لحياها. وتنهد بصوت مسموع وتمتم:

- لا أريد أن أعود لعذابٍ بغير نفحة أمل. لقد فتحت لك صدري وأريتك قلبي ولا أطمع في أكثر من كلمة طيبة تردّ إليّ روحي...

ولكنّها بدت أعجز من أن تقول هذه الكلمة، واشتدّت عليها وطأة الارتباك فنذت عنها هذه العبارة:

- ربّاه!.. كيف أغادر هذا المكان! فغلبه التأثير، ولكن زاده التعلّق بالأمل عناداً وإلحاحاً فقال بحرارة:

- لا تجزعي هكذا؛ إني أحبك. ألا يشير هذا الاعتراف في نفسك إلّا الضيق؟! لن أعود يائساً إلى العذاب. لن. لن..

- وبعده؟!!

وتفحّص وجهها المورّد في سمرة المغيب المأدبة فاستفزّته عاطفة هيام جامحة فشعر بأنّ الهلاك أهون من التراجع وقال باستعطاف منبثق من الأعماق:

- كلمة واحدة! إذا لم تستطيعي فإيماء... وإذا تعذّر هذا فحسبي صمت أستشفّ منه الرضى!

فتحرّكت شفتها دون أن تنبس، ثمّ التصقتا، ثمّ عطفت عنه وجهها وقد اشتدّت تورّده عمقاً. وثبّ قلبه في صدره من حرارة النشوة، وهتف في طمع متزايد:

- ألهذا الصمت الذي أريده؟! إني أحبك، وأعاهدك أن أكون لك حتّى الموت..

ومال وجهها إلى الوراء أكثر دون أن تخرج عن صمتها المحبوب فسرت في جسده هزة سرور طاغية حتّى سكر بصره، وما يدري إلّا وهو ينفو إليها، ولكنّها تراجعت في جفول كمن يستيقظ من حلم عميق على هزة عنيفة، وتفادت منه فيما يشبه الوثب، ثمّ ولّت مسرعة. وتسرّر في مكانه مرسلأ وراها بصراً هائماً حنوناً حتّى غيّبها الباب. وتنهد من القلب وأطلق بصره بعيداً في سمرة المغيب، والأفق أطياف وشيات، فأحسّ بروحه تذوّب في الكون وتفنّى في بهائه. ثمّ تحرّك في ببطء مخموراً متوهّجاً حتّى شارف الباب، ولكنّه شعر وهو يمرّ بالحجرة الخشبيّة الأخرى بشيء يجذب إحساسه فلاحته منه التفاتة إلى يساره فرأى أخاه حسين واقفاً وراء جدار الحجرة..

- ٢٢ -

وقال بدهشة:

- حسين!

وسرعان ما لاحظ تغيّر لونه. كان الشاب غاضباً مكفهراً الوجه. وكان يبذل غاية جهده ليضبط أعصابه ويتألّك نفسه. وتساءل حسين عيماً جاء به إلى السطح ورجّح أن يكون - حين صعد لإعطاء درسه - لمحه وهو يرتقي السلم محاذراً إلى السطح فشكّ في الأمر وتبعه! هذا هو التفسير المعقول. بيد أن التوازي وراء الجدران لاستراق النظر والسمع ليس من شيمه! ولم يدّر له بخلد أن يسأله عيماً جعله يقف هذا الموقف، وعلى العكس من هذا تولّاه الحياء والارتباك. ولم يكن الآخر

- على تغييره - بأقل منه حياء وارتباكًا. لعلّه أراد أن يداري حياءه وارتبائه بالتهادي في الغضب فقال:  
- رأيت أمورًا ساءتني كثيرًا. كيف تطارد الفتاة هذه المطاردة الوقحة؟! هذا سلوك شائن لا يليق بجار يحترم واجبات الجيرة!

ووجد حسنين في لهجة أخيه القاسية ما أنقذه من حيائه وارتبائه فقال عابسًا:

- ما أتيت منكروا!! ولعلك سمعت ما قالت!  
فأغضى حسنين عن ملاحظته الأخيرة وقال بحدة أشد:

- وهل من منكر وراء اعتراضك لسبيلها على هذا النحو غير اللائق؟!

- لا أحسبها تعدّه كذلك!

فقال حسنين:

- ستخبر أباه...

- لن نخبره...

فتناهى الحق بحسين وقال بحدة:

- لشد ما خفت أن تهجم عليها، ولو فعلت لأدبتك ناديبًا قاسيًا!...

ودهش حسنين لهذا الوعيد المتأخر فكاد يطيح الغضب برأسه، ووثبت كلمات شديدة إلى طرف لسانه ولكنّه نجح بأعجوبة في القبض عليها. وصمت مليًا حتى ذهب عنه وقدة الغضب ثم قال:

- ما كان لك أن تخاف حدوث شيء كهذا...

فتفكر حسنين قليلًا ثم قال مترجعًا:

- يسرني على أية حال أن أسمع هذا القول. وإذا حق لي أن أنصحك نصيحتي إليك أن تلزم دائيًا جادة الشرف.

فقال الآخر ببرود:

- لست في حاجة إلى مثل هذه النصيحة...

وغادر موقفه فتبعه حسنين، ونزلا معًا دون أن ينس أحدهما بكلمة. ولم يذهب حسنين إلى شقة فريد أفندي ولا لاحظ حسنين هذا دون تعليق. أمّا الأم فقالت لحسين متسائلة:

- ما الذي عاد بك سريعًا!

فقال حسنين:

- لم يحفظ سالم درسه السابق وسأعود إليه غدًا...  
وذهبا إلى حجرتهما فجلس حسنين إلى كرسيه من المكتب، ومضى حسنين إلى النافذة ففتحها وجلس على حافة الفراش. وأسوأ نهاية لأحسن بداية: ما أحقه! كيف سوّلت له نفسه التجسس عليّ. أفسد عليّ شاعرية الموقف السعيد. كلّ لا يمكن أن يفسدها شيء. سيزول كلّ شيء وتبقى هي وضيئة سعيدة باهرة. هيهات أن أنسى لحظة الصمت الناطق. قالت كلّ شيء دون أن تنبس بكلمة...»

- أغلق النافذة هل أنت مجنون؟!

أفزعته صيحة أخيه، ثم ركب الحنق والعناد فقال:

- الجوّ محتمل ولطيف...

فصاح به حسنين:

- أغلق النافذة بلا مكابرة...

فحملته لهجة أخيه على التهادي في العناد فقال:

- انتقل إلى الكرسي الآخر تبتعد عن تيار الهواء إن

كان ثمة تيار!

فنفخ حسنين متغيظًا وقام إلى النافذة فأغلقها بشدة ففرقت في السكون طقطقة مزعجة وتحطم لوح من الزجاج. وساد صمت ورعب، وسرعان ما أعماه الغضب فلطم حسنين صارتخًا:

- أنت السب!

وجنّ جنون حسنين فضربه بقبضة يده في رأسه، ثم اشتبك في عراك. وما لبثت الأم ونفيسة أن هرولتا إلى الداخل، وبحضور الأم كف كلاهما وهو يدمدم ويهين. ووقفت الأم حيالهما تردّد بينهما بصرا غاضبًا، ثم استقرت عيناها على الزجاج المحطم. وتساءلت في هدوء ينذر بالعاصفة:

- ما خطبكما؟

فقال حسنين بعجلة ولهجة:

- كان يغلق النافذة بقوة فتحطم الزجاج ثم

لطمني...

وقال حسنين بصوت متهدج:

- فتح النافذة في هذا الجو البارد فطلبت إليه أن

يغلقها فأبى بوقاحة فقامت لأغلقها بنفسى وحصل ما حصل...  
 فزفرت الأم قائلة:  
 - رحماك يا ربّي ألا يكفيني ما بي!  
 وقبضت بيديها على منكبيها وجذبتها إلى وسط الحجرة، وصاحت في وجه حسين قائلة:  
 - ألا تخجل من نفسك وأنت في سنّ الرجال.  
 ودفعته في صدره بقبضة يدها مرّتين، ثمّ لطمته، وانقضّت على حسين الذي تراجع وهو يصيح:  
 - هو البادئ بالضرب، وهو الذي حطّم الزجاج...  
 ولكنّها هوت بكفّها على فمه، ثمّ كيّلت له الضربات على رأسه ووجهه حتّى حالت بينها نفيسة. وصاحت المرأة:  
 - حذار أن أسمع لأحدكما صوتًا. أمّا النافذة فستبقى مكسورة حتّى تصلحها بنفسكما...  
 وغادرت الحجرة منكفة الوجه تملأها تعاسة لا حدّ لها. ولبثت نفيسة بينها برهة محزونة ثمّ تمتعت:  
 - زمن العراك انتهى. أنتبا رجلاّن الآن!  
 ثمّ خاطبت حسين مبهمة:  
 - ضقت بالهواء لحظة فماذا أنت فاعل الآن وقد فتحتها إلى الأبد؟! ألصقا جريدة مكان الزجاج وإلاّ فعليه العوض فيكما...  
 وليّا لم تجد لقولها الأثر الذي انتظرت غادرت الحجرة. وعاد حسين إلى كرسيّه صامتًا على حين ارغى حسين على الفراش منفعلًا. كثيرًا ما ينتهي الشجار بينهما بتدخل الأم على هذا النحو. ولم تكن حياتها تخلو من ملاحظة وشجار على صداقتها الوطيدة؛ وصحبتهما التي لا غنى لأحدهما عنها. وكانت الغيرة كثيرًا ما تعكر عليها صفوهما ولكنّها ظلّا رغم هذا صديقين يتبادلان الأخوة والحبّ ولا يستغني أحدهما عن صاحبه. وكان حسين أعقل الأخوين وحسين أقواهما، فكان الأول يقوم بمهمّة الإرشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات يتعلّق أغلبها باللعب والمسائل الاقتصادية الصغيرة، وكان الآخر يحمل عبء الدفاع الأكبر فيما

يشتجر بينها وبين الآخرين من عراك، خصوصًا وأنهما كانا يتفاديان من الاستعانة بحسن إذا اشتدّ الخصم عليهما أن يتحوّل النزاع من عراك بين تلاميذ متخاصمين إلى معركة حقيقيّة دامية وخيمة العواقب، بيد أنّه أصبح من النادر جدًا أن يتشاجرا في الأعوام الأخيرة، ونذر بالتالي أن تؤدّبهما الأم بالضرب، وقد سبقَت المعركة الأخيرة بفترة سلام طويلة كادت تقارب العام. ومهما يكن من أمر فلم يكن أثر الخصام ليحول بينهما أكثر من يوم، ثمّ يبدأ المعتدي بمخاطبة أخيه في شيء قليل من الارتباك، ولا يلبثان أن يتناسيا العراك كأنّه لم يكن. شخص آخر كان يعاني من شجارهما أكثر ممّا يعانيان، هي الأم، فكان يترك في نفسها ألمًا عميقًا ونكدًا متغلغلًا. ولم تجد من وسيلة لتأديبها خيرًا من الضرب لعلّه يصلح ما أفسد الأب بتدليله لها. ولم يكن أبغض لنفسها من أن يشدّ أحد أبنائها عن حدوده، أو أن يبدّر منه ما يعدّ افتئاتًا على رابطة الأسرة المقدّسة. وكان لها من حسنّ عبرة بذلّ الحياة أهون عليها من أن تتكرّر. وحسن نفسه لم ينبج من لكائنها ولكن بعد فوات الأوان وضياع الفرصة. وكانت لا تفتأ تلوم نفسها وأباه على تلفه، ويعذّبها أشدّ العذاب أنّه كان ضحيّة للتهاون والفقّر. وممرّ شطر من الليل والشقيقتان صامتتان جامدان، واشتدّ السكون بعد أن آوت الأم ونفيسة إلى حجرتهما. ثمّ بدأ حسين يطالع في كتاب محاولًا أن يركّز انتباهه المشتّت. وراح حسين يراقبه اختلاسًا وهو يتساءل ترى ماذا يجد نحوه؟ وكان يحظى بذكريات جميلة خليقة بأن تعزّيه عمّا أصابه وبأن تشييه إلى طمأنينته. وسرعان ما رقت على شفّيته ابتسامة. «كلّ شيء حسن. لاذت بالصمت، ومعناه أنّها تحبّني. حقًا؟! لشدّ ما يشوقني أن أسمعها قولًا تتحرّك به الشفتان الشهيتان. رويدك. كلّ اتّ قريب. الصمت بداية أمّا النهاية؟!» ولاحق منه التفاتة نحو أخيه فعاوده الابتسام. «ما كان ضررني لو أغلقت النافذة؟! يبدو أنّه لا يستطيع متابعة القراءة. لو وُهب مثل حظّي السعيد لما أعياه النسيان!» وداخله نحوه شيء من العطف.

- ٢٣ -

عادت نفيسة إلى عطفة نصرالله عند الغروب، كعادتها في هذه الأيام الأخيرة. وكان يبدو عليها أنها أخذت تعبر نفسها اهتمامًا وعناية، وهو ما أهملته طويلًا حدادًا على وفاة والدها، فكحلت عينيها وصبغت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة. شيء خير من لا شيء بل إن دأبه على التودد إليها ومغازلتها خلق بها بعض الثقة بنفسها، والطمأنينة والأمل. ولم تعد تذكر أنه ابن بقال وأنها ابنة موظف فاهتمامه بها أنزله من نفسها منزلة أثيرة رفعت فوق مقام أفضل الناس في نظرها. وانسأقت إلى تشجيعه بدافع من عواطفها المشبوبة المكبوتة، ويأسها الخائق، والرغبة في الحياة التي لا تموت إلا بالموت. وبات مع الأيام صورة مألوفة، بل محبوبة، أنبت لها في جذب الحياة زهرة مترعة بالأمل، فلم تعد تستقبل يومها بعين خابية لا تنتظر جديدًا. وما هي تنقل خطاها في عطفة نصرالله بعد نهار حافل بالعمل فيهرّها سرور حارّ دافق يسري من القلب وينتشر مع دمها في الأعصاب والأعضاء. قال لها مرة «تريدين حلاوة؟ ما الحلاوة إلا أنت!». وغزا قوله نفسها فابتسمت في بهجة ومرح. وقد حدثتها نفسها أن تقول له «لا تكذب، لست من الحلاوة في شيء» ولكنها أمسكت في حيرة وشك، وذكرت نفسها بقول القائل «لكل فولة كيال» من يدري فلعلها ليست بالقبح الذي تظن. وجعلت تطوي الطريق وعيناها إلى الدكان حتى وقفت أمامه وجهاً لوجه. ولاح السرور في وجه سلمان فقال:

- أهلاً وسهلاً كنت أتساءل متى تأتين؟

ومرّت بنظرة إلى مقعد الأب فوجدته خالياً، ثم لمحتة يصلي وراء العمود القائم وسط الدكان محملاً بالعلب والبترمانات فداخلتها طمأنينة وقالت في دلال:

- ولماذا تتساءل؟

فضيق عينيها الضيقتين وقال مبتسماً:

- حزري... اسألي قلبي...

فرفعت حاجبيها المزججين وقالت:

- أسأل قلبك؟؟ ماذا وراءك يا قلبه؟

فقال الشاب همساً:

- يقول قلبي إنه سرّ لرؤياك وينتظره على لهفة!

- حقاً؟!

فاستدرك في جدّ أكثر من ذي قبل:

- ويقول أيضاً إنه يرغب في أن يلقاك الآن في

الشارع ليفضي إليك بأشياء هامة...

والتفت إلى أبيه فسمعه يقرأ التحيات فقال لها بعجلة:

- في وسعي أن أغيب عن الدكان فاسبقيني إلى الشارع العام!

ونظرت إليه في اضطراب وحيرة. وجدت في نفسها رغبة إلى ملاقاته، ولكنها أبت أن تدعن دون ممانعة من جانبها وإلحاح من جانبه فقالت:

- أخاف أن أتأخر...

فقال بجزع وهو يوميئ صوب أبيه محدّراً:

- دقائق معدودات. اسبقيني قبل أن يختم الرجل صلاته.

ولم تجد في الوقت متسعاً للتمنّع والدلال فتحوّلت عن موقفها وقلها يدقّ ثم أجهت بعد لحظة تردّد إلى شارع شبرا. ركبها الاضطراب والقلق والخوف، ولكنها أمعنّت في السير دون أن تفكر في العدول. خطوة جديدة هون من وقعها طول ما حلمت بها. وما لبثت أن تغلّبت على الخوف فارغة للأمل الحلو الذي يتخايل لعينيها في نهاية الطريق. ولما انتهت إلى الشارع نظرت وراءها فرأته يحثّ خطاه وقد ارتدى جاكته على جلبابه، فالت إلى اليمين وأوسعت خطاها مبتعدة عن حيّها. ولحق بها مهرولاً فقال بسرور:

- استأذنت من أبي دقائق...

والقت على زيه نظرة لم يخف عنه معناها فقال كالعتذر:

- لا يمكن أن أرتدي البدة إلا ساعات العطلة!

وكان يبدو فرحاً مسروراً. لم تكن عينه العاشقة من العمى بحيث تراها جميلة ولكنه كان من أبيه المستبدّ في ضيق وحرمان فرحب بهذه الفرصة التي تتيح له الممكن

الكلمة التي تلهّف على سماعها ويريح قلبها؟ وعاد وهو يسأل:

- هل نتقابل إذن يوم الجمعة القادم؟

فتردّت قليلاً ثم غمغمت:

- إن شاء الله .

وعادت إلى البيت كثرة الفكر. هذا بدء الحب الذي طالما تلهّفت عليه. نفّس قلبها الغبار عن جوهره ودبّت فيه حياة مفعمة بالنشوة والحرارة والأمل. كلّ هذا حقّ، بيد أنّها قلقة متحيّرة لا تدري شيئاً عمّا يمكن أن يتمخّض عنه، ولا عمّا يمكن أن يقابل به نبأه في أسرتها!

- ٢٤ -

انتهى حسنين إلى باب السطح ثم تنهّد بصوت مسموع ليبلغها صوته ولكنّها تجاهلته وسارت متمهّلة صوب الحجرة الخشبيّة، فتنحّج، ثم اندفع نحوها بجسارة والشمس تلقي عليها أشعة الوداع، فدارت على عقبيها وطالعتته بوجه كتوم يأبى أن يعلن عن غضب أو رضى، ثم تمتمت:

- أما لهذا من آخر؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- إنّك تؤدّبيني أدباً لن أنساه .

فقالت وهي تحافظ على سكون وجهها:

- ليتك تزدرج.

ففرّق بإصبعه وهتف:

- هيهات!

ثم تنهّد بصوت مسموع وكان يطير من الفرح لما آنسه من رغبتها في محادثته.

- هيهات أن أنثني عن حبك.

فتورّد وجهها، وعبست قائلة:

- لا تردّد هذه الكلمة.

فقال بعناد وهذوء وتوكيد:

- أحبك!

- أتروم إغاظتي!

- لا أروم إلّا حبك.

فقالت بحلّة:

من الحبّ، فتى في مثل حالها من اليأس والدمامة والعجز، ووجد فيها - مهما تكن - أنثى تتسبب للجنس المحبوب العزيز المثال. وخاف أن تمضي الدقائق دون أن يقول لها ما يريد فقال بعجلة:

- الدكان يغلق عادة عقب ظهر الجمعة، فقابليني عصر الجمعة ومن ثمّ نذهب معاً إلى روض الفرج.

فقالت باستنكار:

- نذهب معاً؟! هذه طريقة لا أرضاها.

- ماذا علينا لو فعلنا؟

- لست من أولئك الفتيات!

- حاشاي أن أظنّ بك السوء. ولكن ينبغي أن

نجد مكاناً آمناً للحديث.

- أخاف أن يرانا أحد من إخوتي.

- من السهل أن نتفادى هذا!

فهزّت رأسها وقالت في حيرة:

- لا أحبّ هذه الحياة المليئة بالخاوف.

- ولكن ينبغي أن نتقابل.

فتفكرت ملياً ثم تساءلت:

- لماذا؟

فنظر إليها في دهشة ثم قال:

- كي . . كي نتقابل!

فقالت بقلق:

- لا . . لا . . لست لهذا!

- أليس لدينا ما نقوله؟

- لا أدري.

- لديّ الكثير.

- فما هو؟

- ستعلمينه في حينه. ليس لديّ الآن متسع من

الوقت . . .

فساورها الشكّ حيناً ثمّ قالت وقد تورّد وجهها:

- قلت لك إنّني لست من أولئك الفتيات!

فقال الشابّ بلهجة تنمّ عن الأسف:

- يا سلام يا ستّ نفيسة! أنا رجل سوق وأفهم

الناس!

فداخلها الارتياح، وإن تساءلت لماذا لا يقول

رشاده. وفهم ما فاته فهمه، وأدرك أنّ الأمر جدّ لا هو ولعب. ولم يأسف على هذا بل زاد سرورًا ولكن غشيته غاشية خوف وقلق لم تخف عليه دواعيها. وخرج من حيرته بأن قال:

- إني أدرك وجاهة رأيك، وأوافق عليه، ولكن ليس هذا كلّ شيء. إني أسأل قلبك أولًا...؟

ولانت ملامحها ولكنّها لم تفقد السيطرة على إرادتها، فقالت:

- أرجو ألا تستدرجني لحديث لا أحبه!

- لا تحييه!

ولم تكن تعني ما قالت بالضبط ولكنّها لم ترّ بدءًا من أن تغمغم قائلة بصوت ضعيف:

- أجل... .

فقال حسنين بارتياح:

- هذه طعنة دامية في قلبي!

فقالت بحيرة وارتباك وحياء:

- لا أحبّ أن أسلك سلوكًا أو أقول قولًا يستوجب الإخفاء!

فلم يملك أن ابتسم قائلاً:

- ولكن هذه ضرورة لا بدّ منها، وما فيها من عيب!

فلم ترتج لقلوبه ولا لابتسامته واشتدّ تورّد وجهها فقالت بشيء من الحدة:

- كلًّا! لا أحبّ المداعبات ولا الغزل!

- ولكنّي أحبّك حبًّا صادقًا... .

- أف. لا تقسرنى على سماع ما لا أطيق سماعه!

فتساءل مبتسمًا:

- هل أقتل نفسي؟

فابتسمت أفكارها دون أن يبدو شيء على وجهها وقالت:

- لا داعي مطلقًا لقتل نفسك. لقد قلت ما عندي!

وأعادته العبارة الأخيرة إلى حيرته وخوفه، فقال بعد تردّد:

- لست إلّا شابًا في السابعة عشرة، وتلميذ بالسنة

- سأصمّ أذنّي.

فرفع صوته قليلًا قائلاً:

- أحبك. أحبك. أحبك!

فلاذت بالصمت، وجعل يلتهم وجهها بعينيه في شوق وانجذاب حتّى لم تعد تحتل وقع نظراته فولّته ظهرها مبتعدة ولكن اندفع وراءها فالتفت نحوه مقطّبة، وقالت:

- أرجو أن تدعني وتذهب.

فقال بدهشة:

- لا محلّ لهذا القول الآن. مضى زمنه وبات قديمًا.

نحن الآن في «أحبك»!

- وماذا تريد؟

- أن أحبك؟

وهتّت باتنهاره فغلبها الابتسام الذي أعيهاها كتبانه، ثم ضحكت ضحكة مقتضبة مكتومة خرجت من أنفها نفخة لطيفة، ولم تملك أن خفضت رأسها حياء. وهزّته هذه الحركة فهاجت صوته وأقبل نحوها متشجّعًا طامعًا ومدّ يده ليمسك يدها، ولكنّها تراجعت فيما يشبه الرعب، وخاطبته بلهجة جادة لا تترك ريبة في جدّيتها:

- لا تمسني!

فغاضت ابتسامه الظفر في شفتيه ولكنّها لم تناله واستطردت قائلة بنفس اللهجة الجدّية:

- لا تحاول أن تمسني أبدًا. لا أسمح بهذا ولا أنصوّره!

فوجم قليلًا ثمّ قال بدهشة:

- إني آسف. ما قصدت سوءًا. إني أحبّك بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى صحيح... .

فقالت وهي تنظر إلى قدميها وقد نمّ مظهرها على شعورها بخطورة ما تقدم على قوله:

- إني شاكرة لك هذا، ولكن ليس «أنا» الذي أملك الردّ عليه!!

ووقع قولها من نفسه موقع المفاجأة والدهشة. كان يجري وراء عاطفته مستغرقًا فيها دون أن يفكر فيها عداها. كان يحبّ ولا يرى إلّا الحبّ، فأعاده قولها إلى

الثالثة الثانوية، فكيف أفتح هذا الحديث؟

فنَحَّت عنه وجهها قائلة ببرود:

- انتظر حتى تصير رجلاً!

فقال في دهشة ممزوجة بالاستنكار:

- بهيَّة!

فقالت في هدوء:

- ما من سبيل إلَّا هذا...

شعر بغیظ، وضاق بما تلقاه به من حزم، ولكنَّه أحسَّ في الوقت نفسه بحبِّها يغلبه على أمره ويطيح بخوفه وقلقه، فقال باستسلام:

- لك ما تشائين. سأحدِّث مَنْ بيدهم الأمر...

فرفعت إليه عينيه لحظة ثمَّ خفضتها، وبدت حينًا كأنَّها تمَّ بالكلام ولكن غلبها الصمت فقال:

- سأحدِّث فريد أفندي.

- أنت!

- نعم.

فلاح في وجهها الاعتراض دون أن تنبس،

فتساءل:

- هل من الضروري أن تقوم أمي بهذه المهمة؟

فتردَّدت قليلاً ثمَّ قالت بصعوبة ووجهها يتضجَّر بالاحمرار:

- أظنَّ هذا!

وضاق صدره بهذا القول الصريح الذي يساوره الاعتراف في قلعه. تخاللت لعينيه صورة أمه الحزينة وهي قابعة في الصالة التي لا يضاء مصباحها توفيراً للنفقات فاضطرب صدره، وقال بصوت منخفض:

- سأحدِّثه وأقنعه بمفاتيح أمي في الأمر.

فتساءلت الفتاة في دهشة:

- ولماذا لا تحدِّثها بنفسك؟!

أوشك أن يقول «لا أستطيع» ولكنَّه أطبق فاه، ثمَّ قال متجاهلاً سؤالها:

- لشدَّ ما أخاف أن يسخر مِنِّي، أو أن يعترض على استقبالك في الانتظار حتى أتمَّ مرحلة التعليم الطويلة.

وقالت بصبر نافذ وبلا وعي تقريباً:

- سيوافق على الانتظار ما دمت أوافق عليه!

وعصَّت على شفيتها في حياءٍ ولم تفتلح إليها في لفة وشغف، ومدَّ إليها ذراعيه وقلبه يضطرم اضطراماً، ولكنَّها تراجعت عنه، مقبلة لتخفي تأثرها، وتمتعت:

- كلاً، كلاً، أنسيت ما قلت لك؟!

- ٢٥ -

كان الشقيقان يجلسان حول المكتب كعادتهما كلَّ مساء. وكان حسين يعتمد وجهه بيده غائباً في أفكاره تنمُّ نظراته وقضمه لأظافره من آنٍ لآخر على قلعه وتوتر أعصابه. وحسين نفسه لم يبدُ عليه أنَّه يجني ثمرة تُذكر من نظره في كتاب مفتوح أمامه، وكان يجتلس من وجه أخيه نظرات متقطعة فلا يتمالك نفسه من التبسُّم، وعواطف شتى تتناوب قلبه، وضاق بالصمت فقال بلهجة ذات معنى:

- طالت المفاوضات!

فانتبه إليه حسين في فزع ثمَّ تنهَّد قائلاً:

- مرَّت ساعة، بل أكثر. ترى ماذا هناك؟

فقال حسين ساخراً:

- انقلبت الآية، فالتبُّع أن يذهب آل الشاب لطلب يد الفتاة، ولكن في حالتك يجيء والد الفتاة لطلب يد الفتى!

فقال حسين برفزة وحنق:

- يحقُّ لك أن تسخر مِنِّي فلا خوف عليك. ترى ماذا يقال الآن في حجرة الاستقبال؟ ماذا تقول أمي؟!

فقال حسين في هدوء:

- عمَّا قليل ستعلم بكلِّ شيء!

- أنظِّئها ترفض رجاء رجل كفريد أفندي؟

- من يدري؟ الذي أعلمه علم اليقين أننا سنخسر - في حالة الرفض - مرتبنا الشهري الذي لم نحلم به! فرماه حسين بطرف حائر ثمَّ تساءل:

- إلَّام يطول هذا الانتظار المزعج!

وعادا إلى الصمت وكانا قلباً المسألة على جميع وجوهها، وطال حديثهما عنها في أوقات متقطعة منذ أفضى حسين إلى شقيقه بما كان من حديث بينه وبين

وسألته في هدوء:

- ألا تدري فيم كان يحادثني فريد أفندي وزوجه؟  
فارتبك الشاب الذي لم يكن يتوقع استجوابًا وظنَّ  
أنه - بالنسبة للمسألة كلها - من المتفرجين، فلم يمر  
جوابًا، حتَّى قالت الأم بخشونة:

- أجب... .

فتحوّل بصره صوب حسنين في حيرة واستغالة،  
فاقتنعت الأم بهذه الحركة وسألته:

- متى علمت؟

قال في إشفاق:

- أول أمس!

- ولماذا أخفيت عني؟

فلاذ بالصمت لاعتنا أخاه وحفظه اللذين أورطاه في  
المسئولية بلا ذنب جناه، وتهددت عند ذاك وقالت  
بأسى:

- الأمر لله فإن شقائي بكما فاق ما ألاقى من زماني  
الأسود!

وكانت نفيسة تكره جو الشقاق بطبعها فأرادت أن  
تلطف من حدّته. ولا يعني هذا أنها كانت تشجع  
أخاها على رغبته، ولعلها كانت أشدّ غضبًا من أمها،  
بل إنَّها عدّت الأمر كلّ تدبيرًا دنيئًا لاختطاف شقيقها،  
ولكنها رغبت صادقة في تخامي نزاع لم يعد يجدي،  
فقالته مخاطبة أمها:

- لا تهبجي دمك. ما كان كان، فارحمونا من وجع  
الدماع.

فانتهرتها أمها بحدّة قائلة:

- اخبرني!

والتفتت إلى حسنين قائلة بازدرأ:

- لعلك ملهوف على معرفة ما انتهى إليه مسعاك  
الذي دبرته بليل... .

وهزّت رأسها في أسى ثم قالت:

- لك قلب تحسد عليه، فإنّه يستطيع رغم فجيعتنا  
وتعاستنا أن يعيش، وأن يستهين بنا جميعًا في سبيل  
سعادته، والحقّ أنّي ذهلت حين حدّثني فريد أفندي  
عن آمالك الواسعة، وهيامك العجيب. ولكنّي حدّثته

فريد أفندي محمّد. وقد رحّب الرجل بطلب الشاب  
ترحيبًا وقع من نفسه موقع الدهشة، فلم يكن ينتظره،  
ولم يكن ينتظر بعضه، ثمّ وعد بمخاطبة الأم، وتذليل  
آية عقبة مهما تكن خطورتها! ولمّح حسين - تفسيرًا  
لهذا - إلى أزمة الزواج من ناحية، وطيبة فريد أفندي  
وحبه الماثور لأسرتهم من ناحية أخرى. ولم يبق الآن  
إلا أن ينتظر النتيجة الوشيكة الظهور! وجعل قلق  
حسين يتزايد بمرور الوقت. «بعد دقائق أعلم كلّ  
شيء. هل تكون هبة لي أو أدفن هذا الأمل الوليد؟ لا  
سبيل إليها إلا بهذا. إنّي أريدها ولا غنى لي عنها.  
ترى فيم تفكر هي في هذه اللحظة؟ ألا يتورّعها القلق  
على مصيرنا؟ إنَّها تحبني بلا ريب. حسبي هذا من  
الدنيا جميعًا. ثبّا له إنّه يطالع في هدوء، ويستمتع  
بمراقبة المعركة من بعيد لا حبّ ولا قلق. لشدّ ما  
تسومنا هذه العاطفة الطاغية من عناء. من قال إنَّها  
تقيم في القلب؟ الأرجح أنّها تعشش في العقل؟! وهذا  
سرّ الجنون!» واستيقظ على صوت حسين وهو يقول:  
- إنَّها خارجان!

وأرهف حسنين السمع فبلغه ما يتبادل الرجل  
وزوجه وأمه من عبارات المجاملة المألوفة. ومضوا إلى  
الباب الخارجيّ إلا نفيسة قد جاءت إلى باب الحجرة  
ووقفت تنظر إلى أخيها بغرابة ثمّ قالت:

- يا ما تحت الساهي دواهي! أتريد حقًا أن  
تنزوّج؟!

وغمغم حسين:

- أول الغيث قطرًا!

وانتقل حسنين مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس  
من كرسيه إلى فراشه في أقصى الحجرة لصق النافذة  
التي حلّ ورق الصحف محلّ زجاجها المفقود. ثمّ  
سمعوا وقع أقدام الأم وهي قادمة، ودخلت تسير في  
خطا ثقيلة صلبة القسّات جامدة النظرة، وبحث  
عينها عن حسنين حتّى استقرّتا عليه في آخر الحجرة  
ولبثت تنظر إليه حينًا ثمّ مضت إلى الكرسي الذي تركه  
وجلست عليه في شبه إعياء. ساد الصمت مليًا فلم  
يجرؤ أحد على خرقه حتّى نظرت المرأة إلى حسين



فأنصتت نفيسة باهتمام وقلبها يتابع ضرباته، لم يعد جديداً أن تسير متأبطة ذراعه في شارع من الشوارع المتضرعة عن شارع شبرا حيث يغلب الظلام على جنباتها ويقل المارة. وكان يبدو لها دائماً، على دماسته وحقارته، فتى رائعا لحرارة عاطفته وشدة انكبابه عليها، وكانت لهذا تحبه من أعماقها، بل باتت مجنونة به.

واعتقدت أنه الحبيب الأول والأخير. ليس لها سواه، ولن يكون لها سواه، فتعلقت به بقوة الأمل، وبقوة اليأس، وأحبته بأعصابها ولحمها ودمها، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة نجاة تتشلها من الأعماق.

كان أول رجل بعث فيها الثقة، وطمانها إلى أنها امرأة كبقية النساء. وكان إذا قال لها «أحبك» تُخلق خلقاً جديداً فتري الدنيا - على كثافة الظلام المحيط - نوراً وبهاء. بيد أنها لم تقنع بكلمات الحب، تلهفت إلى شيء آخر ليس دون الحب منزلة، أو لعلها شيء واحد في نظرها. فلم تفتأ تستدرجه حتى قال ما قال ثم تشجعت بالظلمة وتساءلت:

- وماذا أنت فاعل؟

فقال بلا تردد:

- كان من الطبيعى أن أعلن أبي برائي ثم نذهب معاً إلى والدتك لنطلب يدك، أليس كذلك؟

- أظن هذا...

فتنهّد بصوت مسموع وقال:

- يا ليت! هذا أمل بعيد المنال في الوقت

الراهن...

فانقبض قلبها وتساءلت في انزعاج:

- لماذا؟

فقال بغيط:

- أبي!.. لعنة الله عليه. رجل عجوز أحمق عنيد،

ويطمع أن يزوجني من ابنة جبران التوني البقال عند تقاطع شبرا بشارع الوليد. ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنني لم أوافق، ولن أوافق، ولكنني لا أستطيع أن أقترح عليه الزواج من أخرى في الوقت

بدوري عن كفاحنا وتعاستنا. حدثته عن أثنائنا الذي نبيعه قطعة قطعة لنحصل على الضروري من القوت وعن شقاء أحتك التي تمتهن الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذلك، ثم صارحته بأن أحداً من أبنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة.

وسكتت المرأة وعيناها لا تتحولان عن وجهه وهو خافض العينين تعلوه كآبة وقنوط، ثم استطردت قائلة بحزن:

- ومهما يكن من أمر فلا يسعني إلا أن أشكر لك عطفك وإنسانيتك!

وقامت المرأة وغادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الغضب والحزن وخلعت وراءها صمتاً ثقيلاً. وبلغ التأثير من نفيسة فتناست غضبها الدفين واقتربت من حسنين وقالت متظاهرة بالمرح:

- نينة لم تقل كل شيء. وأؤكد لك أن ثمة ما يدعو حقاً لحزنك. وما كان بوسعها إلا أن تبقي على صداقة فريد أفندي ومودته، ومن ذا يستطيع أن ينسى جميله ومروءته؟! قالت له إنها تعد موافقته على طلبك شرفاً كبيراً بيد أنها ذكرت له حالنا الذي يعرفه حتى المعرفة وسألته أن ينتظر حتى تنهض أسرتنا من عثرتها مكتفياً بكلمتها على أن تعلن الخطبة في حينها إذ أنت رجل مسئول. وقالت له أيضاً إنه يسعدها أن تختار بهيئة زوجاً لابنها، فلا داعي للحزن على الإطلاق...

ونظرت الفتاة إلى وجه أخيها والاشراق يعاوده فدخلها غيظ مفاجئ ولكنها أحسنت كتمانها وقالت بلهجة لم تخل من حدة:

- اعذر نينة فهي مسكينة حزينة، ومما يعزّيها ولا شك أن نشاركها همومها أما إذا وجدت متاء... ما علينا، لا أحب أن أعود إلى هذا. وحسي أن أقول لك إن الأمور تسير كما تحب (ثم ضاحكة) لعنة الله عليك وعلى الحب معاً!..

- ٢٦ -

قال سلمان جابر سلمان:

- فلا يداخلك شك في هذا. ستتزوج كما قلت لك. وهذا عهد مّي أمام الله.

الحاضر، وإلا كان جزائي الطرد...

وأحسّت جفافاً في حلقها، ورمقته بازدياد، ثم تساءلت في قلق:

- والعمل؟!

- نصبر، ثم نصبر. ولن تحولي قوة في الأرض عن غايي، بيد أنه يجب أن نأخذ حذرنا أن يفطن الرجل إلى علاقتنا...

- وإلام نصبر؟

فتردد في حيرة ثم تمتم:

- حتى يموت!

فهتفت بانزعاج:

- يموت؟! هبنا متنا قبله!

فضحك ضحكة جافة في ارتباك وقال:

- دعي هذا لي وللزمن. لم تضق بنا الحيل بعد!

كلام عائم لا يروي غلة. «لا أستطيع أن أقول له إنني أخاف أن يتقدم لي أحد في أثناء الانتظار لطلب يدي. هذه حجة وجيهة في يد غيري تمن يحظين بقسط من الجبال أو المال. أما أنا فمن عسى أن يتقدم لي في هذه الأيام التي لا يتزوج فيها أحد. رضيت بالهم ولكنهم لا يرضى بي. ابن بقال! إن البدة تبدو على جسمه قلقة نائية». وشعرت بيد القهر تقبض على عنقها. وزادها الخوف تعلّقاً به فلو وزن في هذه اللحظة بالدنيا كلّها لرجح بها في قلبها. إنّه لا تدري على وجه الوضوح كيف يمكن أن تتزوج منه حتى ولو ذلّ ما يعترضه من عقبات، فإنّ أمّها لا تستطيع أن تقدّم لها شيئاً، فضلاً عن أنّ الأسرة باتت لا تستغني عن القروش التي تربحها لها، ولكنّها تريده، تريده من الأعماق، وبأيّ ثمن. وتجهّم وجهها، وفتحت فاهها لتتكلم ولكن لاحظت منها الفتاة إلى شبح قادم فجمد الدم في عروقها؛ وشهقت شهقة فزعة وكادت تطلق ساقيها هاربة لولا أن مرّ القادم تحت المصباح فتسوّر وجهه وتنهّدت تنهّد الأمان بعد الرعب، وعجب سلمان لشأنها فسألها:

- ما لك؟

فقالت وهي تلهث:

- حسبته أخي حسن!

وانتهز الشاب الفرصة ليفصح عن رغبة طال احتضانه لها فقال:

- لن نأمن الخوف ما دمنا نخبط على وجوهنا في

هذه الطرق. أصغي إليّ، لماذا لا نذهب إلى بيتنا فنمكث فيه قليلاً بعيداً عن الأنظار؟ فصاحت به في دهشة:

- بيتك؟!

- نعم أبي يقضي مساء الجمعة حتّى منتصف الليل عند شيخ الطريقة الشاذليّة، وأمي في الرقازيق عند أختي التي جاءها المخاض اليوم، ليس في البيت أحداً فقالت في ذهول وقلبها يدق بعنف:

- كيف أذهب معك إلى بيتك؟.. أجننت يا هذا؟! فقال بضراعة حارة:

- إنّي ألتمس مكاناً آمناً. بيتي آمن ودعوتي بريئة. أريد أن أخلو إليك في أمان فنعالج همومنا في روية بعيداً عن المخاوف والعيون...

كان يتكلّم وكانت تصغي مقبّبة. وكانت تتخيّل على رغمها البيت الخالي في قلق وخوف، وحاولت أن تطمس خياله بالتهادي في الغضب ولكنّه ظلّ قائماً في رأسها. وقالت في حدة:

- ليس في بيتك...

فقال الشاب باستعطاف وهو يشدّ على راحتها:

- لم لا؟! ظننتك ترحّبين بدعوتي. أليس لك ثقة في؟ أليس لك ثقة في نفسك؟ أريد أن نخلو لذاتنا، وأن نتحدّث، وأن أطلعك على مدى حبي وآمالي وخططي. ليس فيها أدعوك إليه من عيب ولن يدري بنا أحد.

فهزّت رأسها في عناد وقلبها يوالي ضرباته الشديدة. ودّت لو تستطيع أن تخلو إلى نفسها لتتفكّر طويلاً، وشعرت برغبة في الهروب. ولكنّها لم تبدّ حراكاً، وسارت إلى جانبه وراحتها في يده وعيها حاولت أن تبعد خيالها عن البيت الخالي المنتظر. ثمّ جاءت لحظة فشعرت بأنّ باطنها ينقلب رأساً على عقب وأنها تغوص في أعماق ما لها من قرار. وازدادت

اضطرابًا وقلقًا فقالت في ضيق:

- ليس في بيتك!

فشدَّ على يدها بيد مرتجفة وقال:

- بل في بيتي. ففكري قليلًا. ماذا تخافين؟ إنِّي أحبك وأنت تحبينني ونريد أن نتحدَّث عن حبِّنا ومستقبلنا في أمن عن العيون. هذه فرصة وهيئات أن نجد البيت خاليًا مرَّة أخرى. إنِّي أعجب لتردِّدك...

وإنَّها تشاركه عجه من ناحية أخرى. إنَّها تتردَّد حقًا. ولو أرادت أن ترفض رفضًا حاسمًا لما أعيها البيان. ولكنَّها يبدو أنَّها تدأب على الرفض المتردَّد الذي لا يحكم إغلاق الباب. إنَّها في الغالب خائفة وخجولة ولكن لم تعد تستطيع تجاهل الانقلاب الذي حدث في باطنها. وفاضت نفسها بالقلق والاضطراب والتوتر، ثمَّ قالت بصوت ضعيف:

- الأفضل أن نواصل المشي...

فجذبها بإغراء وهو يقول:

- قد تنشقَّ الأرض في أيِّ موضع وفي أيِّ لحظة عن أخيك حسن!

فوجدت نفسها تجاريه في تخوُّفه في استسلام:

- إنِّي أخاف هذا!

فقال وهو يتنهد في ارتياح زافرًا من صدره شواطئ من نار:

- لنذهب إلى البيت...

فقاومت يده في وهن وهي تقول:

- كلاً... لن أذهب.

- دقائق معدودات. عطفتنا معتمة ولن يرانا أحد.

وسار بها وهي تتبعه في تناقل قائلة:

- كلاً...

وكان قلبها يدقُّ بعنف يكاد تصدع له الضلوع...

- ٢٧ -

وفتح الباب بمفتاح معه وهمس في أذنها «تفضَّلي»

فقالت بتوسُّل:

- لنعد...

فدفعها برقَّة وهو يقول:

- لا بدَّ أن تشرَّفي البيت...

ودخل وراءها وأغلق الباب فوجدت نفسها في ظلام دامس، وارتفع وجهها إلى السقف في انتظار النور، ولكنَّها شعرت بيده تتحسَّس منكبيها فسرت بها قشعريرة وهمست في خوف:

- النور.

فقال معتذرًا:

- مصباح الصالة تالف...

فقالت في ضيق:

- أشعل أيَّ مصباح نستضيء بنوره.

فأحاط خاصرتها بذراعه وجذبها معه وهو يقول:

- إنِّي أعرف الطريق إلى حجرتي...

وحاولت أن تتملَّص من ذراعه ولكنَّه شدَّ على خاصرتها فلم يتخلَّ عنها وسار بها ببطء وجنباها ملتصقان، فجثم على صدرها ضيق خائق وجعلت تتساءل في نفسها «ماذا فعلت بنفسي؟» ثمَّ أخذت تألف الظلمة رويدًا فلاححت لها في الظلام أشباح كراسي وصوان وأشياء أخرى لم تتبيها. وقطعا الصالة في بطء وحذر، ثمَّ مدَّ يده الأخرى ففتح بابًا مرقَّ صريه الصمت المخيف، ودفعها أمامه من خاصرتها ثمَّ ردَّ الباب بقدمه، سرعان ما تخلَّصت من يديه وقالت بحلَّة:

- أشعل المصباح فقد ضبقت بالظلمة...

فجاءها صوته يقول برقَّة وحذر في لهفة تنمَّ عن الاعتذار:

- آسف يا ستي فإنَّ شقَّة عمي ملاصقة لشقَّتينا ولا

أمن إذا رأوا نورًا بها أن يطرق أحد منهم بابنا!

فسألته في دهشة واستنكار:

- هل نبقى في الظلام؟

فقال متودِّدًا:

- في نورك الكفاية...

فقالت في توسُّل:

- دعني أخرج...

فتملَّس يدها في الظلام حتَّى عثر بها ورفعها إلى فمه

فقبلها مرَّة ومرَّة ثمَّ قال بصوت مضطرب:

- أعطيني شفتيك أقبّلها، سأقبّلها كثيرًا مائة قبلة أو ألفًا، سأقبّلها حتّى أموت... .

واندلق عليها وقبّل شفتيها قبلة طويلة شرهة حتّى مال رأسها إلى مسند الكنبه ثمّ أمطرها قبلاً نهمه حامية، ورفع وجهه عن وجهها أثملة وهمس:  
- قبّليني... أريد أن أشعر بشفتيك تأكلان شفتي... هه.

وكانت بحال من الإعياء لم تدع لها قدرة على المعصيان فرفعت وجهها قليلاً وقبّلتها، ثمّ غمغمت:  
- لم نجئ هنا لهذا... .

- إذن لماذا؟

- لنجلس ونتحدّث!

فأطبق شفتيه على شفتيها، ثمّ عطف وجهه فجعل يده على فيها وهمس في أذنها:

- هذا أفضل. لقد تكلمنا كثيرًا. وأعيد عليك أنّك زوجي. زوجي ولو ناصبتني الدنيا العدا. هي مسألة وقت لن يطول... .

لعلّه يظنّ أنّها جزءة متعجّلة. فلتدعه في وهمه. ولعلّ الانتظار أوفق لحال أسرتنا التي لا ترحّب بزواجها الآن، ولا تستطيع أن تعدّ العدة له. ليس في الانتظار ضرر ولكنّها لن تعلن عمّا في ضميرها. وعاد سلمان يقول:

- مسألة وقت. ولكن ما أحوجنا في فترة الانتظار إلى الترفيه!

ومدّ يسراه وراء ظهرها، ويمناه حول صدرها، فشعر بثدييها تحت ساعده ناهدين صليبين فغلى دمه وضمّها إليه بوحشيّة، وانهمرت أنفاسه على خدّها وعنقها. وعادوها الذهول والتخدير والرغبة والخوف، وامتزج في صدرها القلق واللذة واليأس، ثمّ اشتدّت الظلمة، ظلمة عميقة غريبة، كأنّها تنشر أجنتها على فضاء لا نهائيّ، فلا مكان ولا زمان... .

\*\*\*

قالت لها أمّها:

- تأخّرت أكثر من كلّ يوم.

فقالت واجمة:

- بل تجلسين لتستريحين، وستألفين الظلمة فلا تزعجك.

ومال نحوها - فيها يشبه الانقضااض - فرفعها بين يديه، وسار بها إلى نهاية الحجرة وأجلسها على كنبه وجلس لصقها وهي مستسلمة من شدّة الاضطراب والذهول، ثمّ قال:

- دعينا من الأخذ والردّ. ينبغي أن نجلس في هدوء وأن نتحدّث. لقد نجّسنا مشقّة كبيرة في سبيل المجيء إلى هنا وسيان أن نمكث في الظلام أو النور. ليس هذا بذى بال ولا يصحّ أن يكذّر صفونا... .

وتناول ساعدها وأمطره قبلات من شفتيه الغليظتين وهي ترتجف وتحاول عبثاً أن تجمع شتات أفكارها. ثمّ تزحزحت بعيداً عن جنبه الملتصق بها لتستردّ أنفاسها فمال نحوها ولكنّها حالت دونه بيديها وهي تقول لاهثة:

- دعني وحدي، إنّي تعب... .

فاستردّ أنفاسه وقال ضاحكاً:

- تشجّعني. ما لك خايفة مرتجفة!.. أنت في بيتك في بيت زوجك.

وكانت نبضات قلبها تدقّ في أذنيها وتقرع رأسها، فتنفّست من الأعياق. وشعرت بيده تتناول يدها فهمت بجذبها ولكنّها عدلت عنه وكأنّها استسحفت نفسها، فأبقاها بين يديه وقال بصوت تغيّرت نبراته:  
- كلّ شيء هادئ ولطيف. إنّي أرى جمالك رغم هذه الظلمة.

فقالت بلا وعي تقريباً:

- لست جميلة... .

فدلك يدها براحتيه وقال:

- دعي تقدير هذا لي، إنّي لا أجنّ للأشياء... .

وساد الصمت ملياً فتركز انتباهها وهي لا تدري في راحتها التي تلتهمها كفّاه، وسرت فيها دغدغة بثّت في ساعديها وذراعيها وصدرها تحديراً فاقشعرّ بدنّها وهمست:

- حبّك... .

فقال بصوت متهدّج:

هي بالخفيفة، ولكن هيات أن يقلل هذا من قيمتها.  
إنه يحبها بعقله وجسمه، أو لعل إحساسه غالب عما  
عده. أتعني حقاً ألا حق له؟ عجباً، لقد حسب أن  
الخطبة ستملكه حقوقاً؟ وحقوقاً؟ قال بدهشة:

- يخيل لي في بعض الأحيان أنه لا قلب لك!  
فتورّد وجهها، وخفضت عينيها في حياء، ثم  
رفعتها قائلة في خشونة:

- ما دليل القلب عندك؟  
فقال في حماس:  
- أن تصرّحي لي بأنك تحبيني، ... وأن ...  
- وأن ...

- وأن نتبادل قبلة ...  
فقالت بحدة:  
- إذن حقاً لا قلب لي.

- يا عجباً ألا تحبيني يا بهية!!  
فلاذت بالصمت في ارتباك وضيق.  
- ألا تحبيني؟  
فتنبّدت قائلة:

- إذن لماذا تمّ ما تمّ؟!!  
فابتل صدره المحترق وهتف برجاء:  
- أحبّ أن أسمعها بأذني ...  
- لا تكلفني ما لا أطيق!  
فتنبّد بدوره في شبه ياس، ثم قال بلين:  
- إن أعيك الكلام فلن تعييك قبلة.  
- يا خبر اسود ...

- يا خبر وردّي كالشهد! من غير هذه القبلة أموت  
كمدّاً.

- إذن فليرحك الله!  
- لا تطيقينها أيضاً؟ لن تكلفك شيئاً. ابقِي كما  
أنت ثم أنقّدم خطوة وأضع شفّتي على شفّتك فتكون  
الحياة التي ما بعدها حياة ...

- أو الفراق الذي ليس بعده تلاقٍ!  
- بهية!  
- أفندم!  
- أنت لا تعين ما تقولين ...

- أردت أن أنتهي من عملي وقد انتهيت ...  
ثم وضعت في يد الأم خمسة وسبعين قرشاً  
واستطردت قائلة:  
- أعطوني الحساب كلّه وساحتفظ لنفسي ببقية  
الجنية.

وسكتت الأم فمضت الفتاة إلى حجرتها وأخذت  
تخلع ملابسها. وفي السكون الشامل ترامي إليها  
صوت حسنين وهو يطالع فترك في نفسها أثراً عجبياً لم  
تدر إن كان خوفاً أم حزناً خالصاً ...

- ٢٨ -

- بهية ولطافة المغيّب هما شيء واحد في نفسي ...  
قالها وهو يوميئ إلى الشمس الغاربة، رائياً إلى  
وجهها الأبيض البدريّ، وقد افترّ ثغرها عن درّ،  
فقالت:

- لن تفتأ تتبعني إلى هنا حتّى يرانا أحداً  
فقال حسنين بزهو:

- إني خطيبك، ولي الحق في كلّ شيء!  
- لا حق لك على الإطلاق!

فضحك من قلب جلد ضحكة من لا يصدّق  
قولها، وملاً عينيه العاشقتين من منظرها. كانت ملتفة  
في معطفها الأحمر، ينحسر جيبه في أعلى الصدر عن  
فستان رماديّ، وتهدل على ظهره غفيران مكتنزان.  
وكان عمق حرته يضيئ على بشرتها البيضاء وعينيها  
الزرقاوين نقاء وبهاء. «هي ميّالة إلى القصر، فلو  
التصقّت بها لمس مفرق شعرها ذقني. ولكنّها بضّة  
ريّانة فتبّأ للمعطف الذي يخفي قسّات هذا الجسم  
وثناياه، حريصة محافظة. تعجبني بقدر ما تغيظني!»  
وقال متعجباً:

- لا حق لي على الإطلاق!!  
فقالت في هدوء ينمّ عن القوة:

- طبعاً ...

أتعني ما تقول حقاً؟! يا لها من جميلة. لقد سما بها  
هذا السطح عن الدنيا وجعل من آفاق السماء إطاراً  
لصورتها. وما من شيء يشابهها كهذا الإطار في هدوئه  
وحشمته وتناثيه. تقول نفيسة عنها إنّها ثقيلة الدم، وما

انقضاضه فتقهقرت فزعة وتلقته براحتيها ثم هتفت به  
لاهثة:

- حسنين، إياك...

لمح في عينيها غضباً يتقد فخدمت حدته، وارتدت  
خجلاً مرتبكاً، فغمغمت:

- احذر أن أغير رأيي فيك...

ثم استدركت في جزع:

- أظن أن لك أن تعود...

ودار ارتبائه بضحكة قصيرة وتمتم:

- على شرط ألا تكوني غاضبة...

فسكتت هنيهة قبل أن تقول بلهجة رقيقة:

- وعلى شرط ألا تعود لهذا مرة أخرى...

وتحول في خطوات ثقيلة، يلوح في مظهره الارتباك  
والياس فرق قلبها له وقالت وهي لا تدري:

- إن سعادتي في أن أصون لك...

وكأنما تنبّهت إلى نفسها فعضت على شفتيها ولم  
تنبس بكلمة.

- ٢٩ -

وجاء عيد الأضحى فجذب أفكار الأسرة وعواطفها  
إلى وادٍ واحد تلتقي فيه ذكريات الأمس واليوم،  
 واجتمعت الأسرة ليلة الوقفة في الصالة حتى حسن  
كان بينهم، واستعرت في الصدور رغبة كظيمة في  
الاحتفال بالعيد. وطافت برؤوسهم ذكريات الأعياد  
الماضية في حنين دافق لم تعلن عنه ألسنتهم. كان  
الخروف - في مثل هذه الليلة - يربطه في شرفة شقته  
الأولى يشرب بعنقه بين قضبانه نائجاً، مذياعاً بثوآجه  
في عطفة نصرالله احتفال الأسرة بالعيد. ولم يكن  
الشقيقان ليفارقانه، فهما إما يعلفانه ويسقيانه، أو  
يناطحانه أو يلحمان بالغد القريب في أمل وفرح.

وفي الصباح وعقب ذبح الضحية يبدأ سباق إلى شيء  
للحوم والتهامها، والأم مشغولة بهذا وتوزيع  
الصدقات على بعض الفقراء كالكناس وصبي الفران  
وغيرهما، أما الأب فيتناول فطوره من الشواء على  
السفرة ثم يأوي إلى حجرته في انبساط فيضمّ عوده إلى  
صدره ويمضي في مداعبة أوتاره. وهناك - غير هذا -

- أعني ما أقول تماماً.

- ولكنها قبله وليست جريمة!

- جريمة في نظري...

- ما سمعت هذا قبل الآن...

فتفكرت قليلاً ثم تمتمت:

- ولكني سمعته كثيراً...

- أين؟

فعاودها التفكير، ترددت ملياً، ثم قالت بصراحة  
وسداجة:

- ألم تقرأ ما تنشره الصباح عن فتيات مهجورات  
لاستهنهن؟ ألا تسمع الراديو؟

ففغر فاه، ونذت عنه ضحكة، ثم صاح:

- من يقول إن القبله استهتار؟ ألم تقرني ما قال  
المنفلوطي في القبله وهو الشيخ المعمم؟ إنك تحرمين  
على نفسك ما أحل الحب الطاهر لنا. الصباح؟...  
الراديو؟... كلام فارغ!

فرمقته بريية وحذر وقالت:

- لا تضحك مني. هو الحق. قالت أمي لي مرة  
«إن الفتاة التي تشبه بالعشاق كما يظهرون في السينما  
فتاة ساقطة خائبة الأمل»...

بنت الكلب!... أمي التي قالت لك هذا؟...  
القصرية الماكرا، أفسدت علي وأفسدت حياتنا. إن  
الغيظ يقتلني. ماذا أفدت من الخطبة التي تجرعت  
بسببها تقريراً ولوفاً مرّاً؟! لا شيء. فتاتي عنيدة  
مجنونة. السبب أمها بنت الكلب «حالة الخطب»  
وتساءل في يأس:

- أناخذين نفسك بهذا التشفّح حقاً؟

- طبعاً.

- إذن هو حب اسمي فحسب؟

- ليكن.

وتفحصها بنظرة طويلة فرآها ثابتة عنيدة قوية.  
وجرى بصره مع عنقها الرقيق، وتحيل أصله المتواري  
تحت الفستان، والمنكبين، والصدر الناهد، فركبته  
عاطفة جاعحة حارة، وأفلت زمامه من يده، فانقضت  
عليها وهو يسدّد ثغره صوب شفتيها. ولم تكن تتوقع

- لحماً طبعاً. هذا أمر ربنا لا حيلة لنا فيه!  
ونذت عن نفيسة ضحكة ولكتها لم تسترسل خشية  
أن تُتهم بتشجيعه وقالت الأم بحزن:  
- هذا أمر ربنا حقاً ولكن كيف لنا بتحقيقه؟  
فقال حسن في ملق بارع:  
- نحققه بفضلك أنت. أنت الخير والبركة. أنت  
الحزم والتدبير. ثم إنك أعظم طاهية في العالم. كيف  
يمضي العيد دون أن نشبع من المشويّ والمسلق  
والمحمر والكفتة والكستلطة والمبار والموزة؟ سفرة  
الست أم حسن، أنعم بها وأكرم...  
وسرى في الجوّ القاتم نسيم مرح لطيف، وجرت  
على فم الأم الجافّ بسمه خفيفة، ولكتها قالت  
بأسف:  
- طاهية ماهرة ولكتها مقطوعة الديدن!  
ونظرت نفيسة إلى أمها نظرات ذات معنى ثم قالت  
لإخوتها:  
- اسمعوا، علمنا أن فريد أفندي سيهدي إلينا  
نصف خروف!  
وتطلّعت إليها الأبصار في دهشة ووجوم. ولم يعد  
في وسع المرأة السكوت فقضت عليهم كيف حادّتها  
فريد أفندي في الأمر بلباقة وكيف رفضت شاكراً فتأثّر  
الرجل لحذّ الغضب وذكرها بأنهم أسرة واحدة. ألخ.  
وكانت تلوح في عيني حسين نظرة كئيبة، وبدا حسين  
وهو يزدرد ريقه بصعوبة أما حسن فقال:  
- يا له من رجل فاضل وفي!  
فهتف حسين في ضيق وألم:  
- مستحيل... لن يقع هذا...  
فبادره حسن قائلاً:  
- ليس في الأمر ما يمسّ الكرامة، إن هي إلا تقاليد  
مرعية، وليس فريد أفندي بالرجل الغريب...  
وخافت نفيسة أن يفضي تصريحها إلى فتنة فقالت:  
- لا داعي للنزاع، فإذا أبيتم قبول الهدية فلنشتري  
بضعة أرطال من الضأن.  
فتساءل حسن في حدة:  
- كم رطلاً؟

العيدية والملابس الجديدة ونزهة الصباح في الخلوات  
وفسحة الليل في السهينة وما بين هذا وذاك من ألوان  
الخلوى واللعب والمفرقات. وها هي الأسرة مجتمعة  
ولكن بلا أب. وإتهم لينظرون فيما حولهم فلا يجدون  
بشيراً بمقدم العيد ولا أملاً في بهجته، ثم يسترقون  
النظر إلى أمهم المتلفعة بالسواد بأعين مستطلعة وألسنة  
قلقة مشفقة. كلاً، لا عيد، ولا بشيراً به. وتساءل  
حسين في سرّه «ترى هل يمكن أن يمضي العيد كما كان  
يمضي غيره من الأيام؟». وقال حسين لنفسه «لا  
عيد. إنني أعلم ذلك. انتهى، انتهى». حسن وحده  
كان أدناهم إلى التفاؤل. ولعلّ كثرة تغيبه عن البيت  
جعلته يبنأى بعض الشيء عن نوع الحياة التي يحياها  
أهله. وكان إلى هذا - شأنه شأن بقية الإخوة - يعدّ  
أمه قادرة على كلّ شيء، وكثيراً ما يتعزّى عن كسله  
وتلفه فيقول لنفسه «لديهم معاش وأرباح نفيسة!» وقد  
اعتاد دائماً إذا رجع إلى البيت أن يخلو إلى نفيسة  
فيسألها «كيف الحال؟» فكانت تجيبه بالشكوى المُرّة  
ولكنّ قلبها لم يكن يطاوعها على تجاهل يده إذا مدها  
لها طامعاً في بضعة فروش. كان متفائلاً رغم ما يحرق  
به من تجهّم، ومثته نفسه بنصيب هائل من اللحم  
يعوّض عليه أيّاماً طويلاً انقضت دون أن يذوق اللحم  
طعماً، وضاق بالجوّ الكئيب الصامت فمال على أذن  
نفيسة وسألها همساً:  
- ماذا أعددتُم للعيد؟  
وفطنت الأم إلى همسه فعاجلته متسائلة:  
- ماذا أعددت للعيد يا رجل الأسرة؟  
فضحك قائلاً:  
- لنا أم نُحسد عليها! خفيفة الروح وبنت نكتة  
ولطيفة. ما أقول يا أمّاه؟ لم يأمر الله بالرزق بعد.  
وحسبكم أتّي كفيتمكم شريّ فلم أكل لقمة في بيتكم  
منذ وفاة أبي إلاّ مرّات معدودات...  
وكانت يشبّ من نصحه ولومه معاً فتنهّدت  
صامته، وتشجّع حسين بفتح باب الكلام فتساءل:  
- ماذا سنأكل في العيد؟  
فتطوّع حسن بالإجابة قائلاً:

- ما يسعنا شراؤه. عشرة مثلاً!

فصاح حسن في انزعاج:

- عشرة أرتال على أربعة أيام! إياكم أن ترفضوا الهدية. النبي قَبِلَ الهدية يا هوه. أم تريدون أن تُغضبوا أسرة تودّ مصاهرتمكم!

فصاح به حسنين:

- هذه شحاذة!

فقال حسن يقيين:

- كلاً. الشحاذة شيء آخر اسألني أنا عنه. أما هذه فهديّة، هديّة، هديّة.

وتكلّم حسين لأول مرّة فقال:

- هديّة من النوع الذي كنّا نهديه في الأعياد إلى الكئناس وصبيّ القرآن...

وغضب حسن لأنّه كان يطمع أن يضمّ حسين إلى رأيه أو أن يبقى على الحياد على الأقلّ، وقال محتثاً:

- لا تخطط بين الهدية والصدقة، إذا أعطيت الكئناس فهي صدقة، أما إذا أعطيت صديقاً فهي هديّة...

وكان حسنين يعلم بأنّ مناقشة حسن هذر غير مجدّ فخفّض عينيه وقال في حياءٍ وألم:

- الواجب أن يكون المهدي هو الخطيب لا الخطيبة...

فقال حسن ساخراً:

- هذا إذا كان هو الذي طلب يد الخطيبة، أمّا إذا كانت هي التي طلبت يده...

- حسن!...

- أرخنا من الفلسفة التي لا تشيع من جوع. لا

عيب في قبول هذه الهدية. كانت هدايا أحمد بك يسري تُحمل إلينا في المواسم، على فكرة ما باله نسينا

هذا العام ابن الكلب؟! هذا رجل غير وفيّ. فريد أفندي رجل الوفاء حقّاً. من حسن الخلق أن تقبل

هديّته. ثق بأنّه إذا كان في القبول ما يمسّ الكرامة لكننت أول الرافضين.

فقال حسين بكآبة:

- تصوّر ماذا يقولون عنّا!

- تصوّر الشواء وأنت تقلّبه على النار والرائحة الشهية تملأ البيت.

والتفت حسنين إلى أمّه وسألها:

- علام نويت؟

فقال المرأة دون أن تنظر إليه:

- لم يسعني إلّا القبول...

وساد الصمت، لا لأنّ أحداً لم يجرؤ على الاحتجاج

فحسب ولكن لأنّ هذا القبول أنقذهم من النزاع القائم في صدورهم بين غصبة ضيائهم ورغبتهم في

الاستمتاع بهجة العيد ولذائذه. وهم إلى هذا كلّ يؤمنون بأنهم إيماناً كبيراً، كأنّها لا يمكن أن تخطئ،

فإذا كانت قد ارتضت قبول الهدية فلا ضير من قبولها. هذا ما قالوه لأنفسهم، أو هذا ما قاله لنفسه الحائر

منهم لينجو من حيرته. وكانت الأم أسوأ حالاً منهم. ولم تجد من عزاء إلّا في هذه الحقيقة وهي أنّ فريد

أفندي اضطرّها إلى القبول بإلحاحه وحرارة صداقته وقد رجّت بإثارة نفيسة للموضوع لعلّها تجد في قبول

الأبناء عزاء، فلمّا أنست من الابنين المهمين معارضة تضاعف ألمها وصرّحت بالحقيقة فيها يشبه الاعتراف

بالذنب، وضاعف من آلامها أنّهم باتوا لا يشعرون إلّا في الأعياد شأن المساكين الذين كانوا يقصدونهم فيمن

يقصدون من أهل الخير. انحدار يعقبه انحدار ولا تدري أين يقف. أمّا حسن فقد اطمأنّ. ولم يرَ بأساً

من أن يتفلسف فقال بلهجة الوعظ:

- قَبِلَ النبي مرّة هديّة أهداها إليه يهوديّ فهل يكون فريد أفندي شرّاً من اليهود؟!

فتساءل حسين في دهشة:

- من قال هذا؟

- التاريخ!

- أيّ تاريخ!

فصاح به حسن: أحسبت أنّهم يقولون لك كلّ شيء في المدرسة؟

فقال حسنين بحدّة:

- حدّثنا عن التاريخ الذي تعلّمه الشوارع!

فتظاهر حسن بالغضب وقال:



ثم قال مستطرذاً بعد تردد:  
- أو خذي إذا شئت به حلاوة أو جيناً.  
فتساءلت مدفوعة بغريزة الحرص:  
- ألا تخاف أن يلاحظ أبوك أنني لا أدفع ثمن ما  
أخذه؟  
فضحك قائلاً:  
- إنه لا يرى أبعد من موضع قدميه...

وجاء ترام روض الفرج فصعدا إليه وجلسا  
متجاورين. «كيف أبذر نقودي على هذا النحو؟ البيت  
في شديد الحاجة إلى كل ملئم أجني من عملي الطويل.  
أمي لا تفتأ تبيع قطع الأثاث. حتى أخي حسن أحتق  
بهذا الشئ من هذا المثلث. ماذا أفعل بنفسي؟ إنني  
أبعثر نقود أخرى لا يتباع البودرة والأحمر. آواه. إنه  
ليس رجلاً. لو كان رجلاً لما تعلق بأبيه هذا التعلق  
المضحك، ولما خافه هذا الخوف. حرمة الرجل يوميته  
كما يحرم الطفل مصروفه. بيد أنني أحبه وأريده. إنني له  
نفساً وجسداً. ليس لي سواه. من أين لي هذه النفس  
التي تسميني هذا كله؟» وسمعته يهمس في أذنيها:  
- من المؤسف حقاً أن أمي عادت من بلدة أختي  
فلم يعد البيت خالياً...

ليست بحاجة إلى من يذكرها بهذا، فهي تعلمه  
حق العلم. بيد أنها سُرّت في أعماقها بفتحها هذا  
الباب. ودبت في جسمها يقظة فنشط خيالها وتذكرت  
الظلمة الشاملة والأصوات الهامسة، تذكرت هذا في  
حرارة مشوبة بخوف. ولم تشأ أن تعلق على قوله  
فتجاهلته عن حياء، وتورد وجهها الذي جعله الزواق  
مثيراً للنظر. أمي عادت، وأبي لا يرضى! متى ينتهي  
هذا كله؟... متى تملكه بلا خوف، ويشرح الله؟ آه  
ثم آه، لشدة ما يركبها الخوف أحياناً فتود الموت نفسه  
والراحة من الحياة جميعاً. وعاد صوته الهامس يقول:  
- ولكنني سأخلق الفرص بنفسني. لا بد أن تعاد  
الفرصة. وأن يخلو البيت...

فقالت بصوت بارد:  
- لا... لا... لا داعي لهذا...  
- الله يسامحك... أنسيت؟... أنسيت حقاً؟ لا

- قسمًا برَب العزة لولا أنك سبب هذه الهدية  
لكسرت رأسك.  
ثم استدرك قائلاً:  
- وعلى هذا كله كان الواجب يقضي بأن يهدوا إلينا  
خروجاً كاملاً لا نصف خروج (ثم ملتفتاً إلى نفيسة)  
احذري أن تقبلي الهدية إلا إذا كان فيها نصف الكبد  
أيضاً...

- ٣٠ -

وقفا متقابلين ينتظران الترام. هي في معطفها  
القديم الذي تود أن تستبدل به أحسن منه ولو نصف  
عمر، وهو في البذلة التي تبدو عليه قلق جافية. وكان  
يلوح في وجهه التردد، والرغبة المذبذبة في الإفصاح عن  
شيء يثقل عليه الإفصاح عنه، ثم خاف أن يجيء  
الترام قبل أن يتكلم فقال في ارتباك:  
- نفيسة... ينجلني جداً أن أصرح لك بأمر...  
فتساءلت الفتاة:

- ماذا بك؟

فقال همساً:

- أمرني أبي أن أصبح اليوم إلى حضرة شيخ  
الشاذلية فرفضت حتى أثرت غضبه...  
وشعرت بخوف لم تدركه، لعل ذكر أبيه الذي  
هيجته، وتوقعت خبراً غير سار، فرمقته بعين متسائلة  
دون أن تنبس، فقال بصوته الهامس:

- ثار غضبه لعنادي وحرمني أجرة يومي!

وحلّت الدهشة محلّ الخوف وسألته:

- أليس معك نقود؟

- كلا. أبي رجل جبّار، ربنا يأخذه...

فقالت لنفسها «آمين» ثم تمتمت:

- معي بعض النقود...

فسكت لحظات في قلق ثم سألتها في خجل:

- هل تدفعين ثمن التذكيرين أمام الجالسين؟

وفطنت إلى ما يريد، فرقت له، وفتحت حقيبتها  
وتناولت شللاً وأعطته إيّاه فأخذه وهو يلحظ الواقفين  
بحذر ثم قال:

- شكراً لك. سأردّه إليك في اللقاء الآتي.

أيمن أيامك؟ فيما عدا أيام العيد لم أتناول لقمة في بيتنا. وماذا يأكلون؟ الفول غذائي الوحيد، فول، فول. الحمير تجد شيئاً من التنوع. «لماذا لا يبحث جاداً عن عمل؟ جرب حظه مرتين فانتهي في كل مرة بمعركة كادت تؤدي به إلى السجن: كلاً ليست هذه الأعمال التافهة بمبتغاه. ولا يزال يؤثر عليها حياة التسكع والمقامرة الحقةرة. الواقع أنه يتعيش من السرقة، إنه ورفاقه يعلمون ذلك حق العلم. إنهم يتصيدون الزبائن الأغراب ويوهومونهم بأنهم يلاعبونهم على حين أنهم يسرقونهم. حياة شاقة محفوفة بالمخاطر في سبيل قروش، كيف يستقيم إلى هذه الحياة! لم يكن لا سعيداً ولا راضياً، وكأنه كان ينتظر معجزة تنشله من هذته إلى حلم من الأحلام. كانت حياته عادة ضارية كالمخدر المهلك، اعتاد أن يعيش بلا عمل حقيقي حائزاً - رغم هذا - مركزاً مرموقاً مرجعه الرهبة والخوف فلم يحتمل أن يبدأ من جديد صانعاً بسيطاً أو عاملاً مطيعاً ولم يكن يغيب عنه مدى حاجة أمه إلى جده، ولا تزال تطن في أذنيه شكائات المكروبة، تطارده كلما أفاق إلى نفسه. إنه يحب أمه ويحب أسرته، ولكنه ينتظر، و ينتظر، دون أن يحرك ساكناً. لا أزال في البداية. عمل حيواني طويل بقروش. حماقة خير منها...

- مساء الخير يا سي حسن.

ورفع رأسه منفثلاً من سحبات أفكاره فرأى الأستاذ علي صبري يجلس قبالة في هدوء وكبرياء فاهتز صدره فرحاً وهتف به:

- مساء الخير يا أستاذ.

ونادى الأستاذ النادل وطلب نارجيلة ثم التفت إلى حسن وقال دون تريث:

- قررت أن نعمل معاً!... أعني أن أضمتك إلى نخي...!

واتسعت عينا حسن ولاح فيهما بريق خاطف. إن التخت هو العمل الوحيد الذي يحبه، لا لميل فني مركب في طبعه، ولكن لأنه يسير ولذيد وينسم جوّه عادة بأريج الخمر والمخدرات والنساء. ومع أن أمه في

يجوز أن نموت في فترة الانتظار. لا أحب الانتظار... ليس الانتظار خيراً مما فعلت بنفسها؟ بلى. كلاً. بلى كلاً. بلى بلى. كلاً كلاً. بلى بلى. كلاً كلاً. وتهدت في حيرة، وعاورها شعور اليأس الذي ألفته، ولكنها قالت:

- لا أحب الانتظار مثلك، ولكني لا أحب هذا أيضاً...

فقال بمكر:

- كاذبة. تحببته وتحببته. هل نسيت...؟ محال...

- لا أذكر شيئاً...

- لن أنسى ما حييت!... أنت غاية في الحرارة والحياة كأن حرارتك لا تزال تلفحني...

- هس. أنت مجنون ولا شك!

- مهما يكن من أمر فسندجد حتماً طرقات خالية مظلمة...

- حذار. بصرك ضعيف كأبيك، وقد تحسب

الطريق خالياً والشرطي أمامك!

- البركة في عينيك أنت...

ثم قال متبهداً بعد لحظة صمت:

- متى يتاح لنا الزواج؟!

فألما تساؤله وأغاظها، وأخجلها في الوقت نفسه، ولازمها فتور ووجوم بقية الطريق.

- ٣١ -

انتهى الليل ولم يكذب في فهوة الجبال إلا نفر قليل، وكان حسن يجلس إلى مائدة خالية بعد أن فارقها أصحابه تاركين في جيبه ما استطاع أن يظفر به من قروشهم. كان يجلس كالمفكر ملقياً على المقهى نظرة جامدة من عينيه المتعبتين. هذا صاحب القهوة وقد أخذ يراجع حساب اليوم مكوماً المراكات في طبق صاج كبير، على حين وقف النادل مستنداً إلى إحدى ضلف الباب واضعاً إحدى يديه في جيب المريلة يعبث بالقروش فيتصاعد وسواسها في إغراق شهوي: «رحمك الله يا أبي، ألا تعلم بأنّي تبعت كثيراً بعد موتك؟ كان نزاعنا لا يهدأ، وكنت أشعر أحياناً بأنّي أمقتك، ولكن

## بداية ونهاية ٢١١

بالنارجيلة واستمتع الأستاذ بالأنفاس الأولى، وتنحنح ثم سأل الأستاذ:

- ما رأيك في مَوَالٍ: يا عيني ليه بتبكي؟

- عال... عال.

وراح حسن ينشد المَوَالٍ في صوت غير مرتفع. مُجيدًا ما وسعته الإجابة، والآخر يذهب معه برأسه ويحيي متظاهرًا بالاستغراق، حتى انتهى حسن، فقال:

- هذا فوق الكفاية بالنسبة لستيد. أحب أن أسمعك في الهنك أيضًا، هل تحفظ «في البعد يا ما كنت أنوح؟».

فتنحنح الشاب مرة أخرى وقد حميت حنجرته واشتعل حماسه واندفع يغني الدور حتى أن عليه، فقال الأستاذ:

- عال، عال، هل تعرف أصول النغم، السيكا والبياتي والحجاز وغيرها.

وكان لا يداخله شك في جهل الأستاذ بهذه الأصول فقال بجرأة ندر أن توجد في غيره:

- طبعًا.

- أسمعني ليا لي رست...

فأنشد بعض الليالي كيفما اتفق، فهز علي صبري رأسه قائلاً:

- برافو... أخرى نهاوند...

وانطلق يغني وهو يغالب سحرته القلقة في صدره والآخر يتابعه باهتمام ظاهري، ثم لاح في وجهه التفكير فجأة وبدا كأنه يريد الإفصاح عن شيء هام. وكان حسن ينتظر هذه اللحظة بغريزته فتساءل متحيرًا ترى هل يريد أن يندبني إلى معركة؟... ماذا يريد على وجه التحقيق؟... وقال الأستاذ:

- صوتك حسن. بيد أن العمل في التخت يتطلب مهارة أخرى. ينبغي أن نتفاهم تمامًا. وعلى سبيل المثال أقول لك إنك يجب أن تأخذ بقسط وافر من أساليب الدعاية...

- الدعاية؟!

- نعم. كأن تنوّه بغني في المناسبات. أن تسعى

علي صبري كان دائئًا محدودًا إلا أنه كان يراه شيئًا خيرًا من لا شيء، ولعلّه عتبة لما بعده، أجل من يدري؟! قال:

- حَقًّا يا أستاذ؟

- بدون شك.

- هل نعمل في صالة أو قهوة؟

فتخلل الأستاذ شعره النائر بأصابعه الطويلة النحيلية وقال:

- ستريسي إلى هذا يومًا قريبًا. وربما غزونا الراديو نفسه. ولكننا سنقتصر بادئ الأمر على الأفراح...

وسرعان ما محمد الحماس. ولو كان علي صبري شخصًا لا يعقد به رجاء ولو ضئيلًا لصعقه بضربة تجعل عاليه سافله. لقد عمل معه بالفعل في بعض الحفلات العائلية نظير ربال والعشاء، وما كان هذا ليحدث إلا مرّات في العام، فما الجديد في هذا؟! وشعر بأن هذه الدعوة أمرًا وداعبه أمل جديد، فتظاهر بالسرور وقال:

- سنحتل المكانة التي تليق بك يومًا بلا شك. أنت لك بحّة ليست لعبد الوهاب نفسه.

فانبسطت أسارير وجهه، ثم سأل:

- ماذا تختار من آلات التخت؟... كنت حدّثني عن المرحوم والدك كعواد بارع؟

- لم أتعلّم آلة على الإطلاق...

- ولا الدفّ؟

فقال حسن بقلق:

- سبق أن جرّبتني كستيد، أظنني أنفع «ستيدًا»...

فهز الأستاذ رأسه قائلاً:

- كما تشاء. هل تحفظ أدوارًا كثيرة؟

- مواويل وأدوار وطقاطيق...

- أحب أن أسمعك منفردًا...

وشعر حسن في أعماقه بسخرية. نفخة كذّابة وامتحان لحساب أمل ضعيف! ولكنّه كان مصممًا على مجاراته إلى النهاية. كان يحلم بأن يغني لحسابه الخاص يومًا ولو في المقاهي البلدية. وانتظر حتى جاء النادل

- خفت ماذا؟  
فضحك عليّ صبري ضحكة قصيرة كشفت عن أسنانه الصفر وقال:  
- أكره الناس إليّ مَنْ يقول «أخلاقي لا تسمح لي بكيت وكيت» أو من يقول «أتق الله» أو مَنْ يتساءل في خوف «والبوليس؟»... فهل أنت أحد هؤلاء؟  
فقال حسن مبتسمًا وهو يُشعره بأن صبره الطويل يوشك أن يظفر بحسن الجزاء:  
- إني أعيش في هذه الدنيا على افتراض أنه لا يوجد بها أخلاق ولا رب ولا بوليس...  
فضحك عليّ صبري بقوة زلزلت القهوة كغناؤه وقال:  
- فلنقصر بقية الليل في بيتي فما زال في الحديث بقية...  
ولبت حسن متفكرًا دون أن تخونه ثقته بنفسه لحظة واحدة. كان قليل الثقة في محدثه ولكنه لم يكن يائسًا منه كلّ اليأس. كان يشعر في أعماقه بأن ثمة انتظارًا طويلًا لا يزال أمامه قبل أن تثبت الأرض القلقة تحت قدميه.

- ٣٢ -

كانت الأم ونفيسة جالستين بالصالة قانعتين من النور بما يشع من حجرة الإخوة حين زارتهما صديقتها صاحبة البيت. ورحبتا بها ترحيبًا يليق بأياديها البيض على نفيسة. وجلست المرأة بينهما على الكنية. أبت حتى أن تضيئًا مصباح الصالة. وجعلت هي والأم تتسليان بالحديث على حين ذهبت نفيسة إلى المطبخ لإعداد القهوة. وكانت الأم تنتظر دائيًا من وراء زيارة صديقتها عملاً مريبًا لنفيسة، وقلّ أن خيبت لها رجاء. لم يكن عقلها يخلو أبدًا من هموم العيش، خاصة بعد أن استدار العام واقتربت العطلة المدرسية، وبات من المتوقع قريبًا أن يضاف إلى واجباتها واجب جديد هو تغذية ابنها بدلًا من المدرسة. كانت تشكو إلى صاحبها ما عانت من حياتها في الأشهر المنقضية والمرأة تواسيها وتشجعها، حتى عادت نفيسة بالقهوة. وأرادت المرأة أن تعلن عما دعاها إلى هذه الزيارة

لإغراء البعض بطلبي لإحياء الأفراح ولك جزاء طبعًا. أن تكون في حفلة يجيئها مغنٌ ما فتعلن نقدك لصوته وتقول لمن حولك آه لو كان عليّ صبري في مكان هذا المغني. وهكذا...

فابتسم حسن قائلاً:

- هذا هيّن، وأكثر منه...

فقال عليّ صبري بعد فترة تفكر:

- ثم إنك شاب قويّ وجريء وينبغي أن تستغل مواهبك إلى أقصى حد. ولكن دعني أسألك سؤالاً قبل كل شيء: أي المخدرات أحب إليك؟

ما الذي يدعوه إلى هذا التحقيق؟ أريد أن ينفضه بهدية؟ إنه يجيد قبول الهدايا، أما الجود بها فهذه عادة لم يمارسها. أم يرمي إلى إشراكه في عمل هام؟ ودق قلبه لهذا الخاطر. طالما حلم بتجارة المخدرات. على أنه أثر الحرص والحذر فقال بمكر:

- أظنّ المخدرات تؤذي الحنجرة...

فضحك عليّ صبري، ثم انطلق يغني من الليالي ما شاء في صوت كالرعد وفي نفس طويل قويّ، ثم تساءل:

- ما رأيك في هذا؟

- لم أسمع له مثيلاً!

فقال ساخراً:

- هذا نتيجة خمسة عشر عاماً من تعاطي الحشيش والأفيون والمنزول، منها خمسة أعوام أدمنت فيها الكوكايين...

- يا سلام!

- المخدرات دم الغناء، وما من مغنٍ يستحقّ هذا الاسم إلّا وقد تعاطى من المخدرات مثلما التهم من الملوخية والفول المدسّس.

فضحك حسن وقال بلهجة تنم عن التسليم:

- هذا لو تيسرت...

- صدقت، وهذا ما تخنته. إنك لا تكره المخدرات ولكنك لا تستطيعها. وإذن فاعلم أنه من اليسر أن نجعل الأنهار خمرًا والجبال حشيشًا. إنك جريء قويّ ولكني لا أخفي عليك باقي خفت كثيرًا...

في دهشة. وظننت الضيفة أنه كبر على الفتاة أن يحظى بمثل هذه العروس شاب تافه كسلمان فقالت:

- نعم سلمان. والظاهر أن عم جبران لم يمانع لصداقته لعم جابر سلمان. وربك يعطي الأرزاق بلا حساب...

أدركت رغم هول الصدمة أنها كادت تفضح نفسها فتماسكت في جهد شديد. لقد انفجرت الصرخة في صدرها بلا وعي وانطلقت من فيها دامية. ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المرأتين وشعرت بأنها تموت موتاً سريعاً منقضاً. وساعدتها الظلمة على إخفاء معالم وجهها فشددت على أصابعها حتى لا تصرخ مرة أخرى. ماذا قالت المرأة! ليس ما بها كابوس أو جنون، إنه حقيقة بلا ريب، سلمان جابر سلمان، دون غيره. وعادتها ذكرى مخاوف قديمة كانت تنتابها من حين لآخر في ساعات انفرادها، مخاوف غامضة أحياناً كقلقي ينشب أظافره في صدرها، أو واضحة أحياناً أخرى تنبذ في صور بشعة يقشعر لها البدن. وخالت في ذهولها لحظة أن ما بها ليس إلا حالة مرعبة من هذه الحالات، ولكن لم تكن إلا لحظة واحدة ثم عاودها هذا الشعور الثقيل الرهيب بأنها تموت. لقد ذاقنا قساوة الدنيا مع أسرته جميعاً ولكنها لم تصدق أنها قاسية إلى هذا الحد، وعصت على شفيتها وهي لا تدري كيف تقاوم هذا الانحلال والتهدم، السارين في روحها وجسدها. ما هي بخيبة الحب، هي خيبة الحياة كلها، ولكن يجب أن تتمالك نفسها، وعسى أن تدعوها الضيفة إلى الحديث لأية مناسبة فلا يصح أن ترتعش نبرات صوتها، أو تحتقن من شدة التأثر. ولعلّه من الخير أن تلوذ بالفرار إلى حين. ولم تن عن تحقيق نيتها فتناولت قدح القهوة ومضت إلى المطبخ. هنالك زفرت من الأعماق، وشدت بيديها على ضفيريتهما القصيرتين بشدة وهي تحمق في سقف المطبخ الملوّث بالهباب وقد عثّش العنكبوت بأركانها، وليثت في جمود كالذاهلة. ولم يكن أملاً، ولكن خدعة، كذبة مفزعة، ضربة قاضية، سرقة، لطخة، جرحاً لا يندمل، وحلاً، لقد انتهت. انتهت بلا أدنى ريب. لا يمكن أن

فقال وهي تبتسم ابتسامة حلوة تنم عن طيبة قلبها: - جئتكم بعروس جديدة...

فضحكت نفيسة ضحكة سرور وقالت:

- يحق لي أن أطلق على نفسي خيطة العرائس!

- أسأل الله أن تعدي ثياب عرسك بنفسك قريباً. فتمتمت الأم قائلة:

- آمين.

وأمنت نفيسة على الدعاء بقلبها، على ما أثار في نفسها من قاتم الذكريات. «متى يمكن أن أكون عروساً؟ ليس قبل أن يموت عم جابر سلمان. يا للسخرية! أمل كلّفي نفسي وجسدي. هل يدور هذا لأمي في خلد؟! إنها تحسب أن هموم المعيشة أكبر الرزايا. يا لها من جاهلة بائسة!» وتساءلت الأم:

- من تكون الزبونة الجديدة؟

- العروس الجديدة هي كريمة عم جبران التونسي البقال...

وتبّعت حواس نفيسة لهذا الاسم الذي لا يمكن أن تنساه فدق قلبها بعنف وقالت متسائلة:

- دكانه عند تقاطع شارعي شبرا والوليد؟

- بالضبط.

وضحكت الأم قائلة:

- أصبحت جوّالة يا نفيسة كشيخ الحارة...

فضحكت الفتاة ضحكة آليّة وقالت لنفسها «هي دون غيرها». هي الفتاة التي كان عم جابر سلمان يرغب في أن يزوّجها لسلمان كما قال لها الفتى. فلتتزوج ولترفع عن صدرها كابوس ذكراها. وتساءلت الأم:

- وهل جبران التونسي هذا غني؟

- على جانب من اليسار لا بأس به...

- ومن العريس؟

فضحكت المرأة وقالت:

- إنه أقرب مما تتصورين. هو سلمان ابن عم جابر

سلمان البقال.

- سلمان!

نذت عن نفيسة كالصرخة، فالتفتت المرأتان صوبها

الربيع. وسارت إلى الباب الخارجي ثم عرجت غير هيّابة إلى دكان عمّ جابر. كان الرجل المعجوز عاكفًا على مراجعة الحساب الختامي لليوم، على حين وقف سلمان مرتفعًا الطاولة ناظرًا فيها بين يديه في شروء. واقتربت منه وهي تلقي عليه نظرة حادة ملتبهة فرفع إليها عينيه الصغيرتين ولم تلبث أن لاحت فيها نظرة جفول وارتيابك ثم قال ببلاهة:

- أيّ خدمة يا ستّ نفيسة؟

فقال بعزم وثبات:

- الحقّ بي في الحال...

فأومأ لها بالإيجاب وهو يتظاهر بأنّه يقدّم لها شيئًا من الدكان. ومضت إلى الشارع ووقفت تنتظر عند رأس عطفة نصرالله وهي تنفّص ما حولها بعناية وحذر. وطابت نفسها بما فعلت. فما كان في وسعها أن تصبر دون حراك حتّى مطلع الصباح. وجعلت تنظر داخل العطفة حتّى رآته قادمًا بجلبابه وجاكتته مسرعًا في خطاه الملهوكة. حقير تافه، شيء تعافه النفس، مخادع غثاقل كذاب. ما أحقر هذا! ماذا هي فاعلة به؟ أترتمي على قدميه باكية مستعطفة؟ هل تضرع إليه أن يظّل لها وحدها؟ بدا أنّ هذا كلّ شيء فظيع مستنكر، وعلى هذا فقد وثى بمشاعر عميقة صادقة لا تدري كيف تفصح عن نفسها، فقبل ساعة واحدة كانت تعدّه رجُلها وتعدّ نفسها امرأته، والهلاك أهون من أن تنفصم هذه العروة بين يديها. كانت شيئًا وليست الآن شيئًا على الإطلاق. عدم خيف ويأس قاتل. واقترب منها في حذر وغمغم دون أن يلتفت إليها:

- خير؟

وأثار صوته حنقها ولكنّها كظمت نفسها وقالت

وهي تسير:

- اتبعني إلى شارع الألفي.

ومضت إلى الشارع الجانبيّ بعيدًا عن الأعين المستطلعة، ثمّ أبطأت الخطو حتّى لحق بها، وبادرته قائلة وقد نفذ صبرها:

- أليس عندك ما ترى إخباري به؟

فتساءل متجاهلًا في قلق وخوف:

تتخلّل أمّها هذا، أمّا حسين وحسين فهيّاهات. ربّاه كيف استطاع خداعها إلى هذا الحدّ؟ كانا معًا يوم الجمعة الماضي فأنيّ مجرم هذا وأيّ إجرام. ماذا يجدي الغضب أو الحقد، أو الكراهية؟ شعرت نحوه بالكراهية تقتل أيّ أثر للخير في النفس. ما أشدّ حاجتها إلى التفكير والتدبّر، إنّها تتلهّف على مكان قصيّ خالٍ ينأى بها عن هذا المحيط الذي باتت تضرمر له البغض أشدّ البغض، مكان تستطيع أن تسأل فيه نفسها كيف هوت بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه السرعة، وبمثل هذا الهوان...

- نفيسة...!

بلغ نداء أمّها مسامعها فانتفضت في ذعر، ثمّ حنقت عليها حنقًا شديدًا كأنه المقت، ولم تأت حراكًا فأعادت الأمّ النداء فذهبت وهي تعضّ على نواجذها، ووجدت الضيفة متأهبة للذهاب وأمّا توذّعها عند الباب الخارجي. وقالت لها وهي تسلم عليها:

- تعالي إليّ بعد غد فنذهب معًا إلى بيت العروس...

فأومات برأسها بدلالة الإيجاب دون أن تنبس، وليّا أغلق الباب قالت الأمّ:

- سلمان! والله ما يستاهل هذا الحظّ...

فشعرت بخنجر ينغرس في شغاف قلبها، ولم تعلق بكلمة. وضاق صدرها بالمكان والجو وأيقنت بأنّها أعجز من أن تتحمّل المكث إلى جانب أمّها، وخطر لها خاطر كلّسان من لبّ انشقّ عنه صدرها فمضت بقدم ثابتة إلى حجرتها، ثمّ عادت وقد ارتدت معطفها فسألته أمّها بدهشة:

- أذهابه إلى الخارج؟

فقال وهي تتوجّه صوب الباب:

- نعم سأشتري شيئًا للعشاء وربّما ذهبت إلى شقّة فريد أفندي ساعة...

- ٣٣ -

ومالت نحو فناء البيت وأنفاسها تتردّد في ثقل وصعوبة، كانت الساء صافية مرصّعة بالنجوم، والجو باردًا بعض الشيء تتخلّله نسائم لطيفة من طلائع

فقال بلهجة تقطر أسفًا وحزنًا:  
- أعرف وأأسفاه. الله وحده يعلم بحزني وأسفي...  
فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارها لهجته الأسيفة  
لحد الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش:  
- حزين وأسف، يا لك من مسكين! وماذا تظنني  
صانعة بحزنك وأسفك؟! إن الحزن وحده لا يصلح  
الخطأ، فإذا تظنني صانعة بحزنك؟ لقد أوقعني في  
ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعني وحدي وتهرب: ألا  
تفهم هذا؟  
وبدا وكأن الحيرة تمسك بلسانه، ونظر صوبها في  
خوف دون أن يمر جوابًا. وأثارها صمته كما أثارها  
تظاهره - كانت متأكدة من هذا - بالأسف، فقالت  
بحدّة:  
- ما عسى أن أصنع؟!  
فازدرد ريقه وقال بصوت متقطع منخفض:  
- وأأسفاه... إني أدرك حرج موقفك... لشد ما  
يؤلني هذا... ولكن... أعني... ما عسى أن  
أصنع أنا؟!  
فقالت بحقد وهي تكظم عواطفها الثائرة:  
- ارفض هذا الزواج. لا نجاة لي إلا بهذا...  
- أرفضه؟! ... فات الوقت...  
- يجب أن ترفضه. لم يفت الوقت بعد. يجب أن  
تفكر في... لا نجاة لي إلا بأن ترفضه...  
وقال بلهجة اليائس وهو يشعر بخوف:  
- ليس في وسعي هذا...  
وتولّاه القنوط، ولم يوح لها الشخص الخائر المائل  
أمامها بأقل رجاء. وصاحت بانفعال:  
- كان في وسعك أن تفعل ما فعلت. وكان بوسعك  
أن تقبل الزواج من هذه الفتاة. ولكن ليس بوسعك  
أن تصلح الخطأ، ليس بوسعك أن تمد يدًا  
لإنقاذي...  
- ما أشدّ ضيقي! إن أسفي لا حد له...  
- ماذا يفيدني هذا الأسف؟  
ولها وجدته صامتًا صرخت في وجهه:

- عَمّا تسألين؟  
فغاضها لدرجة الجنون وقالت بحدّة مخيفة:  
- ألا تدري حقًا عَمّا أسأل؟! هات ما عندك  
وكفّاك خداعًا!  
فتنهّد في تسليم وغمغم في خوف:  
- تقصدين مسألة الزواج...  
فقالت في سخرية مريرة:  
- أظنّ هذا. ألا تراها مسألة تستحقّ السؤال؟  
فقال بصوت شاكٍ:  
- أبي؟  
فصاحت بحدّة وجسمها ينتفض غضبًا وهياجًا:  
- أبي، أبي، أرجل أنت أم امرأة؟!  
فقال بذلّ وخنوع وتسليم:  
- رجل ولكن كعدمه!  
- يعني امرأة!  
- ساعلك الله. لا أسمع إلّا نهرًا وتقريعًا سواء منك  
أو منه. ماذا أصنع؟  
ورمته بنظرة حامية وصدرها يستعر حنقًا وغيظًا.  
امرأة، جبان، حقير، كيف أحبته، كيف هانت عليها  
نفسها فسلمت له! إنّ سعـبـها إليه، وتعلّقها اليائس  
به، وحرصها الذليل على استرجاعه، هي شرّ ما  
تسيمها الدنيا من يؤس وعذاب. وصاحت به:  
- يا لك من شاكٍ بالك حقير. كيف سوّلت لك  
نفسك الغدر بعد ما كان. كيف أخفيت عني الأمر؟  
أجب...  
فنفخ قائلاً:  
- مضى أبي إلى هدفه على رغمي، غير مقيم لرأيي  
وزناً حتّى وجدت نفسي بين أمرين لا ثالث لهما: فإمّا  
النزول عند إرادته، وإمّا الموت جوعًا.  
- لماذا لا تبحث عن عمل في غير دكان أبيك؟  
فتعتم في نبرات يائسة:  
- لا أستطيع، لا أستطيع...  
فاحتدم الغيظ في صدرها وقالت:  
- يا لك من جبان حقير. ألا تعرف ماذا يعني هذا  
بالنسبة إليّ؟!

- ما يفيدني أسفلك؟

فغمغم:

- ماذا عسى أن أصنع؟

وركبها شيطان الغضب والياس فالتفت نحوه، وانقضت عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيبه وهي لا تدري ماذا تفعل، وصاحت في وجهه:

- أنسألني عما تصنع! هل حسبتني لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء؟!

فقال وهو يحاول عبثاً أن يخلص سترته من يديها:

- نفيسة، اعقلي، نحن في شارع...

فصاحت به وقد فقدت وعيها:

- جبان، سافل، وغد، غادر...

وسحبت يدها بسرعة وهوت بقبضتها على وجهه بقسوة جنونية، مرة، وأخرى، حتى رأت الدم يسيل من أنفه، وجعلت تلهث وصدرها يضطرب في عنف وعدم انتظام، وتحسّس سلمان أنفه بيده ويسطها أمام ناظره في صمت، ثم أخرج منديله من جيبه ووضع على فمه وأنفه. وبدا هادئاً ساكناً على غير ما كانت تنتظر. شعر بادئ الأمر بخوف، ثم حلّ محلّ الخوف ارتياح غريب، كأنه جاز منطقة الخطر، ولم يعد ثمة ما يخافه. انفجرت الأزمة، وزال الخطر، وسقط ما كان لها من شبه حتى عليه بعد هذا الدم المسفوح، وقال في هدوء وصبر:

- ساعحك الله يا نفيسة، أنا عاذرك.

وهيجهأ حديثه فجأة فعاودها الجنون، وانقضت عليه مرة أخرى بدافع غريزي، ثم أمسكت بتلابيبه كشيء يريد الإفلات وتأنى عليه - بكلّ قواها - أن يفلت. وركبه الذعر فأنحلّ تماسكه، ونشّ سترته فجأة فخلصها من يدها وتراجع صارخاً:

- إياك وأن تلمسيني. ابعدي عني. ابعدي لا حتى لك عليّ.

وهجمت عليه ولكنّه دفعها في صدرها وصاح بها في هياج أحدثه الذعر:

- لا تلمسيني. لم أجبرك على شيء. لقد ذهبت معي إلى البيت راضية. لا تلمسيني وإلا ناديت

الشرطي!

وواصل تراجعه حتى ابتعد عنها مسافة غير قصيرة ثم دار على عقبيه ومضى مهرولاً كأنه يفرّ فراراً... وتسمّرت في مكانها وجسمها ينتفض انتفاضاً. فقدت سلطان الإرادة على جسدها وروحها وعواطفها. وبدا لها الأمر كحلم، أو هذيان مَرَض، أو حال لا تمتّ بصلة إلى عالم الحقيقة. هذا شارع وهذه شجرة وهذا مصباح وهؤلاء بعض السابلة، أشياء هذه أم أشباح؟! إنها لا تدري. بدا كلّ شيء بعيداً عن الواقع والحقيقة. ولعلّها لم تثب إلى وعيها إلا حين انفجرت باكية بدموع حارّة ملتبهة صاعدة من أعماق صدرها...

- ٣٤ -

كان سلمان يمسح الطاولة حين رأى ظلّ شخص ينعكس عليها فرفع رأسه فرأى حسن واقفاً حياله. وسرت في جسده قشعريرة رعب فكان صاعقة انقضت على رأسه. وكان حسن يقف بقامته الطويلة، منفوش الشعر، وقد حال لون بدلته من كثرة الاستعمال، ينبعث من عينيه نور حادّ ينمّ عن العنف والجرأة. وقال سلمان لنفسه «إني هالك. إذا كانت نفيسة قد أفضت إليه بسرّها فساعتي قد دنت ولا شك» ونظر إليه كما ينظر الفأر إلى القطّ دون أن ينبس. وقال حسن بصوت مرتفع رنّ في أذنيه رنيناً مؤلماً مخيفاً:

- السلام عليكم...

وردّ عمّ جابر سلمان من وراء مكتبه قائلاً:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. كيف حالك يا سي حسن؟...

وذهل سلمان في خوف عن ردّ التحية وقال لنفسه «ما هذه بتحية، هي نذير. ربّاه كيف تعرّضت لفتاة لها مثل هذا الأخ؟!»

وقال حسن:

- الحمد لله لقد جئتكم لأحدّثكم في أمر هامّ جدّاً...

إنّه يعلم بهذا الأمر. عمّا قليل يعلم أبوه بالفضيحة ما هو الشيطان يقترب. لقد رفع طرف الطاولة ومرق



بالفوائد التي تقترن بإحيائي ليلة الفرح. وأهم هذه  
الفوائد في نظري أن شخصاً مهماً بلغ من القوة والشر  
لن تحدّثه نفسه بالاعتداء على الحفلة كما يحدث كثيراً.  
فلاح الاهتمام في وجه الرجل العجوز، وأدرك  
بسهولة ما وراء هذا الكلام الطيب من الوعيد، ونظر  
في وجه الشاب المخيف مبتسماً وتساءل في لين ورقة  
وابنه يتابعه فاغراً فاه:

- لا تخلو ليلة من حفلة فرح عمر بأمّن وسلام.  
فضحك حسن ضحكة غريبة وقال:  
- يوجد كثيرون لا همّ لهم إلا الشر والاعتداء،  
وهم يتصيدون الأفراح عادة للنهب والاعتداء...  
فقال العجوز بحذر:  
- كان هذا في الزمن الغابر، أما الآن فلعلهم  
يخافون الشرطة.

فقال حسن وهو يهز رأسه مبتسماً:  
- إنهم لا يحسبون للشرطة حساباً. ويتنهون من  
عدوانهم عادة قبل حضور الشرطة. وما أيسر عملهم  
الذي يتوجّه بادي الأمر إلى تحطيم المصابيح، فإذا  
انقلب الفرح ظلاماً وركب الخوف النفوس أتمّ  
المدعوون عملهم وهم يتخبّطون في الظلام لا يدرون  
أين تقع أرجلهم، فتتهار الزينات وتنقلب المقاعد  
ويندلق الطعام وتُسرَق الملابس ويصاب أهل  
العروسين بجروح خطيرة. وإذا انجابت موجة الشر  
يجد القوم أنفسهم أشدّ حاجة إلى رجال الإسعاف منهم  
إلى رجال الشرطة. وأين الفاعل؟... مجهول...  
وإذا أرشد إليه أحد عرض نفسه لخطر أكبر يحوّل  
القضية من محكمة الجنح إلى محكمة الجنايات. وأعطني  
عقلك ما جدوى العقاب على فرض نزوله بالجاني بعد  
ضياع الأنفس والأموال؟!

وأنصت عمّ جابر بانتباه، وفي تشاؤم ثقيل، وشعر  
بعجزه حيال الشر المائل أمامه الذي يعرف من سيرته  
ما يعرف الجميع. ولم يدرك كيف يدفعه فتعزّى قائلًا إنّه  
على أيّة حال يحسن الغناء لدرجة لا بأس بها، وابتسم  
الرجل ابتسامة باهتة وقال:

- مهما يكن من أمر هؤلاء الأشرار فلن تسوّل لهم

إلى الدكان. لا يفصله عن قبضة يده شبر. أيّة حماقة  
جعلته يعتدي على نفيسة؟! ليت يمهله حتّى يرفض  
الزواج ويصالح خطاه. ومال حسن على المكتب معتمداً  
حافته بكلتا يديه، وردّد بصره بين الأب والابن،  
وسلمان مُطْرِق في توقّع مروع للضربة المجتمعة. وقال  
حسن:

- علمت أنّ زواج سلمان قريب؟

فقال عمّ جابر:

- إن شاء الله. العقبى لك...

- وليلة الفرح؟

- قريباً جداً إن شاء الله.

فنقر حسن بأصبعه على المكتب وقال بجراحة:

- نحن جيران يا عمّ جابر واحسبني خير من يحبي  
هذه الليلة!

وأتسعت عينا سلمان الصغيرتين. إنّه لا يصدّق  
أذنيه... لهذا الغرض جاء؟ كيف غاب عنه أنّ  
نفيسة تفضّل الموت نفسه على البوح بسرّها لهذا الأخ  
الجبار! ونذت عنه ضحكة. وأردفها بأخرى. ثمّ  
انفجر ضاحكاً ضحكاً عصبياً لم يتمالك معه نفسه حتّى  
التفت حسن وأبوه نحوه في دهشة وإنكار، وسرعان ما  
أمسك. ثمّ خاطب حسن قائلًا في أريحية وسرور:  
- لا كانت الليلة إن لم تحيها أنت...

وابتسم حسن في رضا وخاف الأب عواقب هذا  
الوعد الأحق فقال:

- على العين والرأس يا سي حسن. لا يمكن أن  
يوجد مانع من ناحيتنا، ولكنني أخشى أن يكون لوالد  
العروس رأي آخر...

فرفقه حسن بريّة ثمّ قال:

- الرأي رأي والد العريس.

فقال عمّ جابر برقة:

- أنت من نفضّل يا سي حسن، ولكن أمهلني حتّى  
أشاور عمّ جبران التوني...

فتفكّر حسن ملياً وقد أخذ دم الغيظ يجري في  
عروقه ثمّ قال بلهجة ذات معنى:

- شكراً لك يا عمّ جابر. ولكنني أحبّ أن أذكرك

نفوسهم الاعتداء علينا وأنت مطرب ليلتنا!

فابتسم حسن في ارتياح وقال:

- إنك رجل كريم يا عم جابر، ولعلّ الأيام  
تسعدني بإحياء فرحك أنت إذا نويت الزواج مرة  
أخرى.

فضحك سلمان ضحكة من ينعم بلذة النجاة بعد  
الخطر المحقق. أما الأب فابتسم ابتسامة صفراء  
وغمغم:

- عفا الله عنك...

وسعل حسن سعالاً مصطنعاً وقال بلهجة جديدة  
ودون تلثم:

- لا أحب أن أطيل عليك. أن لي أن أذهب شاكرًا  
بعد قبض مقدم الأتعاب...

فقال العجوز بجزع:

- الآن ١٩

- خير البر عاجله. لست إلّا مغنيًا متواضعًا لا  
تتعدي أتعابه - هو وتخته - الخمسة جنيهاً، وأقنع  
الآن بجنيه واحد...

وصمت الرجل متحيرًا حينًا. ثم قال لنفسه «الامر  
لله من قبل ومن بعده» وفتح درج المكتب وتناول جنيهاً  
ووضعه على المكتب فأخذه حسن وذهب وهو يقول:

- ربنا يتم بالحير...

- ٣٥ -

جاء الترام فركبت نفيسة وتبعته على الأثر صاحبة  
البيت. أرادت المرأة أن تصحبها إلى بيت عم جابر  
التوني لتقدّمها إلى آله بنفسها وقد أخذت نفيسة زيتنها  
وصنعت من وجهها خير ما يمكن أن يصنع منه  
وارتدت أحسن ما عندها من الثياب. ولم يكن يغيب  
عن شعورها لحظة واحدة ما في رحلتها من غرابة. وقد  
قالت لنفسها كثيرًا إنّه من الجنون أن تذهب إلى هذا  
البيت ولكنّها لم تدري كيف تنبذ هذه الفرصة السعيدة  
التي فرحت بها أمّها أيّما فرح. والحقّ الذي لا مريّة فيه  
أنّ حديثها لنفسها هذا لم يعبر عن حقيقة رغباتها، أو  
أنّه دارى هذه الرغبات مداراة لم تحف عنها. كانت تودّ  
رؤية العروس مهمّا كلّفها هذا من عناء، وكانت رغبتها

من القوّة والتغلغل بحيث لا يمكن مقاومتها. وليس  
يمكن القول بأنّها كانت تريد أن تقيس جمالها بجمالها،  
فهي تعلم بالبداية أنّها - العروس - أجمل منها، وليس  
في هذا من جديد، ولكن على رغم وضوح هذه  
الحقيقة ظلّت رغبتها في رؤية الفتاة مشتتة لا تقاوم،  
وكأنّ رباطًا وثيقًا يصل أسبابها بأسبابها، ويقرن  
مصيها بمصيها. ولم تكن أفاقت من أثر الصدمة  
العنيفة التي هربت نفسها وجسدها هرسًا، ولكنّ  
انقضاء أيّام أخذ الثروة الهائلة، في ظاهرها على  
الأقلّ، وأحلّ محلّها مرارة سائمة ويأسًا مميّثًا، وشعورًا  
معذبًا بالوحشة، كأنّها غريبة بين أهلها، شاذّة عن  
المخلوقات، إلى إحساس بالظلم طاغى بعث في نفسها  
رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبًا متواصلًا، رغبة في  
التمرد والجموح ورغبة في الاستزادة من الظلم  
والتعذيب حتّى الموت، وقد ركبت الترام وهي على  
هذه الحال، وتلّفت على اللقاء القريب وهاتان  
الرغبتان المتناقضتان تتعاورانه. وغادرت الترام بعد  
محطات أربع، وانّجحت إلى شارع الوليد، ثمّ مالتا إلى  
عمارة كبيرة تقوم في أسفلها بقالة عمّ جبران التوني.  
وصعدتا إلى الدور الثاني ودخلتا شقّة به. واستقبلتهما  
سيّدة في الخمسين متوسطة القامة مفرطة في السمنة،  
بيضاء البشرة، فدخلن جميعًا حجرة الاستقبال، وما إن  
استقرّ بهم المجلس حتّى قالت الستّ زينب صاحبة  
بيت نفيسة:

- هذه ستّ نفيسة، وستشهادين لها بالمهارة  
والدوق.

فقالت السيّدة:

- حدّثنا ستّ زينب عنك كثيرًا. أهلاً وسهلاً...  
وألمها الثناء كأنّه سبّ وهجاء، وأغاظها وأحنقها  
لسبب لا تدريه، وتزعزعت ثقتها في أعصابها أن يفلت  
زامها من يدها. أمّا السيّدة فمالّت نحو باب الحجرة  
ونادت بصوت مرتفع «عديلة» ودقّ قلب نفيسة،  
ورجّحت أنّها تنادي العروس وخيل إليها أنّها تسمع  
سلمان وهو يهتف بهذا الاسم، وخالته يضمّها إلى  
صدره وقد أذهلته حرارة العاطفة وراح يقول لها بصوته

يتجمّع في أعماقها لم تعبأ معه بالحقيقة والواقع .  
وصمتت العروس هنيهة ثمّ عادت تسألها قائلة :

- هل تسكنين في عمارة ستّ زينب؟

فقال مدفوعة بالإحساس نفسه :

- نعم . منذ أعوام طويلة . كان المرحوم أبي موظّفًا  
بوزارة المعارف . . .

- أخبرتنا بهذا ستّ زينب . ألا تعرفين أنّ بقالة  
العريس قريبة من عمارتكم؟

ووجدت شكّة دامية في قلبها ، وخفضت عينيها أنّ  
تري الأخرى ما ارتسم فيهما ، ثمّ تمتمت :

- تعين عمّ جابر سلمان؟

- هو نفسه . العريس ابنه . ألا تعرفونه؟

«أعرفه أكثر منك! . . لن تعرفيه مثلي قبل  
أشهرًا . . وستجدينه حيوانًا وغداً» . قالت :

- نعرفه حقّ المعرفة . ألم تريه؟

- قابلته هنا مرّة واحدة . . .

وسألته بدافع لم تستطع مغالته :

- هل أعجبك؟

فضحكت ضحكة كرهتها على أثر سماعها أضعافًا ،  
وقالت :

- كانت الحجرة مزدحمة بالمدعوّين ، وأنت تعرفين  
هذا الموقف طبعًا!

فقالت بلهجة باردة :

- لست أعرفه .

فضحكت العروس قائلة :

- دعيني أسألك أنت التي تعرفينه حقّ المعرفة ، ما  
رايك فيه؟

ودهمها السؤال . لم تكن تتوقّعه . وانهارت القوّة التي  
تغالب بها أعصابها . انهارت بغتة كأنّها انفجرت فيها  
قنبلة خفيّة . واجتاحتها موجة طاغية من التمرد  
والجموح والجنون ، فقامت بصوت غريب :

- ليس هو من النوع الذي يعجبني . . .

وغاضت آثار الضحكة في عينيّ العروس ، واتّسعت  
عيناها في دهشة وإنكار ، وجعلت تنظر إلى نفيسة لحظة  
ساهرة واجبة كأنّها لا تصدّق أذنيها ، ثمّ تساءلت

المتهمّج «عديلة . . . أحبك ، أحبك أكثر من الدنيا  
والآخرة معًا» ، فهذا قوله عادة إذا أذهلته حرارة  
الإحساس . وهو قول كاذب أو هكذا كان بالنسبة  
إليها ، والغالب أنّ الدنيا كذبة كبيرة . وتوجّه رأسها  
نحو الباب ، مثالّة قانطة حانقة ، وعندما سمعت وقع  
أقدام آتية داخلها إحساس آخر بالخوف فودّت لو كان  
بوسعها أن تختفي ، ولعلّه كان إحساسًا عارضًا  
سطحيًا . وجاءت فتاة في مقتبل العمر ، متوسّطة القامة  
كأُمّها ببيضاء البشرة ، بيبضاوية الوجه ، كبيرة القسايت  
ولكن في تناسق حسن ، بيد أنّها سمينة لحدّ الإفراط .  
وتساءلت نفيسة في نفسها كيف تصير إذن إذا تزوّجت!  
واضطربت في أعماقها ضحكة ساخرة متوتّرة ، لم يتح  
لها التنفّس . وذهب عنها الخوف العارض وشعرت  
باضطراب عصبيّ بذلت جهدًا شديدًا للتغلّب عليه .  
وتّم التعارف وتبادل السلام دون أن تنبس خشية أن  
تخونها نبرات صوتها . ولدغتها الغيرة بغتة فمزّقت قلبها  
شرّ ممزّق . هذه التي سلّبتها رجُلها ، رجلها دون غيرها  
بعد ما كان ، فلا توجد امرأة لها مثل ما لها عليه من  
حقوق ، فكيف تكون هذه الجاموسة عروسة وتكون  
هي الحياطة التي تعدّ لها ثياب العروس؟! من أجل  
هذا تستحقّ الدنيا أن تكون طعمة للنيران ، ولن تكون  
أحمى من النيران التي تلتهم قلبها . ربّاه كيف تستطيع  
العمل بهذه الأعصاب المريضة؟! وغادرت المرأتان  
الحجرة تاركتين الفتاتين معًا . وجاءت خادم بالاقمشة  
ووضعتها إلى جانب نفيسة على الكنبه فوجدت فيها  
مهربًا من أفكارها وراحت تنفّحها باهتمام ظاهريّ  
وعيناها المنكّستان تسترقان النظر إلى قدّميّ العروس .  
وسألته العروس قائلة :

- هل سبق أن خطت ثياب عرائس؟

ورفعت إليها عينيها فيما يشبه الدهشة كأنّها لم تكن  
تتوقّع أن توجّه إليها خطابًا وقالت باستهانة :

- كثير جدًّا . . .

- أظنّ هذا يجعل العمل يسيرًا عليك .

- لا أجد فيه أثرًا لصعوبة . . .

كانت إجابتها تعبيرًا عن إحساس بالتمرد والثورة

بغربة:

- حقاً! ترى ما النوع الذي يعجبك؟

فقلت ببرود دون أن تفارقها هذه الروح الجنونية:

- دك من هذا... المهم أن يعجبك أنت، أليس كذلك؟

فقلت ولما تفق من دهشتها:

- أظنّ هذا...

- مبارك عليك...

ولكنّ الفتاة لم تقبل أن ينتهي الحديث عند هذا الحدّ. أفادت من دهشتها وكبر عليها قول الأخرى فتار بها الغيظ وقالت متسائلة في تهكم:

- وزبونناك الأخريات من العرائس ألم يكن أزواجهنّ من النوع الذي يعجبك؟

وأدركت نفيسة ما في قولها من التهكم والتحدّي فتبادت بها روح الشرّ التي ركبته واندفعت قائلة وكأنّها تلقي عبثاً ثقيلاً عن كاهلها:

- جميعهم جديرون بالإعجاب حقاً، فهم موظفون محترمون!

فاستكرت العروس هذه الوقاحة التي لم تكن تتوقّعها وتساءلت بغضب:

- ألا يكون الإنسان محترماً إلّا إذا كان موظّفاً؟

فقلت نفيسة بصوت مرتعش النبرات أعيهاها التحكّم فيه:

- أعتقد هذا...

فصرخت العروس قائلة:

- وإذا كان خيّاطة؟

فقلت نفيسة بحقد وغضب:

- لا عليّ أن أكون خيّاطة. إخوتي طلبة مثقّفون،

وكان أبي موظّفاً محترماً...

- حقاً لا يستاهل الرحمة كلّ المساكين ما دام يوجد

بينهم من هو في قلة أدبك!

- لا يدعشني هذا السباب من ابنة بقال...

فهبتّ العروس واقفة وهي تستفّض غضباً وصاحت:

- يا مجرمة، يا قليلة الأدب، اغربي عن وجهي قبل

أن أدعو الخدم ليرموك خارجاً...

ونفضت نفيسة فاقدة الوعي، وتناولت بقجة الأقمشة وقذفتها في وجهها فانثرت الحرائر على كتفي العروس وتحت قدميها، وتلّوت على الأرض في ألوانها الزاهية، ثمّ غادرت الحجرة مهرولة وصراخ الفتاة ينطلق وراءها بأقذع أنواع السباب، وتركت الشقة في هوجة الفرار. وتراخت أعصابها المتوتّرة وداخلها ارتياح غريب. وكاد يغلبها الضحك ولكن هذا لم يدم طويلاً فسرعان ما انقلبت واجمة متفكّرة وبدا لها سلوكها على حقيقته. «ما هذا الذي فعلت؟ سيقولون كلّ شيء لسّ زينب وستقول هذه بدورها كلّ شيء لأمي. لا بدّ أن تغضب أُمّي وستحزن كثيراً على الريح الذي أضعت بحماقتي. ولكنّي أقول لها إنّ العروس خاطبتي بعجرفة، وأهانتي بلا سبب حتّى ثرت لكرامتي. وإذا لم تقبل عذري أبثّ شكواي بصوت مرتفع ليبلغ مسمعيّ حسنين فيغضب لغضبي ويشور لكرامتنا وينتهي كلّ شيء. لهذا حسن. ولكن كيف اندفعت إلى هذا! أيّ جنون! لم يكن في نيتي شيء من هذا فكيف حدث؟ وضاع عمل مربح. ولكن لا داعي للأسف. لديّ عمل لا بأس به في هذا الشارع نفسه. لست آسفة على ما وقع». وانهت إلى شارع شبرا ولم يعد يرى من شعاع الشمس إلّا أثر خفيف في أعلى الدور. وسارت على الطوار في اتجاه المحطة فمرّت في طريقها بجراج لإصلاح السيّارات، وكانت غائبة عمّا حولها في تيّار أفكارها، فما تدري إلّا وشخص يعترض سبيلها وهو يقول «أهلاً وسهلاً» ورفعت رأسها فראت شاباً ذا بنطلون وقميص خاكيّين، مشمّراً عن ساعديه، يدلّ مظهره على أنّه من عمال الجراج، فألقت عليه نظرة شذراء وتنحّت عن موقعه، ولكنّه اعترض سبيلها مرّة أخرى وقال:

- حلمك يا ستّ هانم، انظري إلى يسارك، هذه السيّارة ملك العبد لله. وهي على قدمها تستطيع أن تحملنا إلى أيّ مكان شئت، محسوبك محمّد الفلّ صاحب هذا الجراج ولا فخراً

فصاحت به:

الخ. أما إخوته فالحق أنهم سرّوا برؤيته بعد اختفائه الطويل. كانوا يحبّونه كما كان يحبّهم، وسألته نفيسة: - حمداً لله على السلامة. أين كنت طوال هذه الأسابيع؟

وخلع الشاب سترته وطرحها على المكتب، ثم جلس على الفراش وقال باسماً: - أكل العيش يحبّ التعب! (ثم ملتفتاً إلى أمه). . . أبشري يا ستّ أمّ حسن. أخذت تفرج! فرفعت الأم رأسها ونظرت صوبه بريئة واهتمام معاً، ثم تتمتت في شيء من الأمل: - حقاً؟!

فضحك سروراً بإثارته لاهتمامها بعد ما لاقى من تجاهلها وقال: - سبق أن أخبرتكم بأنّ الأستاذ عليّ صبري ضمّني إلى تحته. . .

فتنهّدت الأم في جزع وقالت: - لا أعتقد أنّ هذا عمل جدّي. . . - لقد دُعي الأستاذ منذ أسبوع إلى إحياء ليلة فرح ببولاق وذهبت معه لقاء ريال غير العشاء طبعاً. إنّي أعلم أنّه مبلغ تافه ولكنّ الرزق دأبه التمتع بادئ الأمر. . .

فقالت الأم في ضيق: - أتوسّل إليك للمرأة الألف أن تبحث لك عن عمل جدّي لخير نفسك إن لم يكن لخيرنا نحن. ما عسى أن أقول يا حسن؟ ألا تعلم بأننا لا نكاد نشبع أبداً؟

وخفض عينيه في ارتباك. كان حبّ أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي يخفق بها قلبه، ولعلّها الأثر الوحيد الذي تركته أمه في خلقه. وغمغم قائلاً: - صبرك، لم أفرغ من كلامي بعد. . . وهنا فاطمه حسنين قائلاً: - أنظرن أنّ عليّ صبري هذا يمكن أن يكون يوماً معيّناً حقاً؟!

فرفع حسن حاجبيه الكثيفين في إنكار، وأراد أن يزيل أثر حديث أمه في مرح:

- ابعد ولا ناديت العسكري. . .

فضحك الشاب وقال:

- لا داعي لذلك. أنا أحبّ النسوان ولا أحبّ العساكر. . .

- ٣٦ -

في الأسابيع التالية أدّى الشقيقان امتحان النقل في ختام العام الدراسي، وكُلّل اجتهداهما بالنجاح فانتقل حسين إلى السنة الخامسة، وحسين إلى السنة الرابعة. كانا يعلمان أنّه لا بدّ لهما من النجاح، وأنّ حال الأسرة لم يعد يحتمل العثرات، فواصلوا العمل بعزيمة صادقة وجاءت النتيجة كما يجبّان. وبدأت العطلة الصيفية التي تمتدّ حوالى الخمسة الأشهر فاستجذت متاعب جديدة للأمّ تتعلّق بغذاء الشاّبين. وكانت الأمّ وابنتها تقنعان عادة بأبسط الطعام، وتعتمدان في الغالب على ما تجلبان من السوق من طعام جاهز اقتصاداً لنفقات اللحم والسمن والوقود، فوجدت المرأة نفسها مضطّرة إلى تعديل هذا النظام القاسي مهما كلفها الأمر من عناء وتدير. وهكذا لم يُسرّ أحد بالنجاح إلّا قليلاً، وبدأت الحياة وكأنّها تزداد مع الأيام تمهّماً وتطالعهم بعبوس بعد عبوس. وفي ذات مساء جاء حسن بعد انقطاع دام ثلاثة أسابيع متواصلة، وأقبل على أسرته ضاحكاً، كعادته، وكثيراً ما يداري بضحكته حرجه وارتبائه، وقال:

- مساء الخير يا أمّي، مساء الخير يا أولاد. أوحشتموني كثيراً. . .

وردّ إخوته التحيّة وهم يرمقونه بدهشة، أمّا أمه فلبثت تنظر فيما بين يديها معلنة على سخطها بالصمت والتجاهل. بيد أنّها عدلت عمّا كانت تلقاه به من التعنيف والحساب أو الحثّ على العمل. هيهات أن يجدي الكلام بعد ما كان. وألحّ عليها الحزن الذي يغشى نفسها كلّما فكّرت في أمره أو وقعت عليه عينها. حتّى السؤال عن غيابه الطويل لم يخطر لها على بال، وإنّها لتعلم سلفاً بما أعدّ - طبعاً - من جواب، سيقول بصوت مؤثّر أنّه يخفي حتّى يوفّر عليها نفقة إطعامه وإيوائه، وإنّه لا يني عن البحث عن عمل

- سفخص على هذا البلد الذي لا يقدّر! الأستاذ عليّ صبري فنان كبير. إنّ «يا ليل» منه شفاء ودواء. هل سمعته وهو ينتقل من البياتي إلى الحجاز ثمّ يعود إلى البياتي؟ لم يفعل هذا إلّا الحمولي، وسلامة حجازي مرة أو مرتين. أمّا محمّد عبد الوهاب فإذا خرج من البياتي فقلّ أن يعود إليه إلّا في حفلة تالية. وليس يعيبه أنّه أحياناً ليلة بجنيهاً معدودات فلا يزال في أوّل الطريق، والتاريخ يحدثنا بأنّ من كبار الفنّانين من أحياناً أولى لياليه لقاء بضعة أرغفة!

وضحك إخوته لذهره أمّا الأمّ فتهدّت قائلة:

- سلّمت أمرك لله!

فألقي عليها نظرة من علّ وقال:

- لندع حديث الفنّ جانباً. المهمّ أن تعلمي أنّي سأحيي حفلة عرس غداً..

- في تحت عليّ صبري؟

- وحدي! سأحييها بنفسي!

ونظرت الأمّ نحوه بإنكار، وسألته نفيسة:

- أصبحت مطرباً حقّاً؟

- يحدث أحياناً أن يُختار أحد أفراد التخت من المشهود لهم لإحياء حفلة كمطرب. خطوة لها ما بعدها..!

وسألته أمّه بلهجة لا تخلو من تهكم:

- ومن الذي دعاك لإحياء ليلته؟!

- عمّ جابر سلمان لإحياء ليلة زفاف ابنه سلمان.

وخفضت نفيسة عينها وقد خبا حماسها، وران على نفسها كدر خائق...

ودهشت الأمّ وخاطبت حسن متسائلة وهي تومئ إلى نفيسة:

- بعدما حدث؟!

فضحك حسن قائلاً:

- تمّ الاتفاق بيننا قبل معركة ستّ نفيسة في بيت العروس، ولم يجرؤ الرجل على خرقه!

وساد الصمت قليلاً والأعين تحدّق فيه في غير تصديق، كان في صوته حلاوة ولكن ليس للدرجة التي تجعل منه مطرباً. وأخيراً سأله أمّه في حيرة:

- أحقّ ما تقول؟

- نعم ورحمة أبي...

- أجر؟!

- خمسة جنيهاً، لك منها جنيهاً كامل.

وسكت حتّى تغلغل أثر كلامه في النفوس ثمّ ردّد عينيه بين شقيقه وتساءل:

- ما رأيكما في أن تعملّا معي سنيدين في التخت وكلاكما ذو صوت لا بأس به؟!

وانفجر الشقيقان ضاحكين، وواصلّا ضحكهما، حتّى قال:

- يا لكما من غبيّن. هذه فرصة نادرة للاشتراك في البوفيه الحافل بما لذّ وطاب من المأكّل والمشارب.

ولم يكفّ الشابان عن الضحك في استهزاء، ولكنّ تمثّل لعينيها منظر المائدة وقد صُفّت عليها الأطباق، وراح خيالهما يشبّ من طبق إلى طبق، في عجلة، وبلا رحمة، حتّى صاحبت به نفيسة بحدّة وغيظ:

- أتريد أن تجعل من شقيقك متسولين في بيوت البقالين؟

فقهقه الشابّ قائلاً لأخته:

- إنّني أدرك تغيّظك يا ستّ نفيسة فإنّ اعتدائك على العروس حرمك حتّى الدعوة إلى هذه الليلة، ولكنّ ما ذنب هذين المسكينين؟! ليس الأمر هوّاً ولعباً ولكنّ طيوراً ولحوماً وفطائر وخضراً وفاكهة وحلوى... ففكّرنا ثمّ فكّرنا...

ولم يجد لدعوته من صدق فهوّ منكبيه استهانة ولم يعد الكثرة. كان حسن النية وأراد لأخويه خيراً ولكنّ حماقتها ضيّعت عليها هذا الخير، هكّذا قال لنفيسة في أسف. ولم يشاركه الشقيقان أسفه ولكنّ نفسيهما اهتزتا في حنان لذكر الطيور واللحوم والفطائر والخضر والفواكه والحلوى. ونشط خيالهما في حسرة وألم زاد من شدّتهما اقتراب وقت العشاء الذي يندر أن تعترف به أمّهما. لم يكن للأسرة عشاء عادة، وكانوا يتحامون أن يجهروا بالجوع أن يضاعفوا من تعاسة أمّهم وسخطها، فلاذ الشابان بالتخيّل دون أن ينبس أحدهما بكلمة، على حين عكفت نفيسة على أفكارها، وهي أبعد ما

الختام فكان عقب انتهاء الحفلة وقد التفت حوله أفراد التخت يطالبونه بأجورهم فقال لهم ببساطة:

- أليس حسبكم ما التهمتم من طعام؟! -

- والأجرة؟! -

فقال بوحشية:

- خذوها بالقوة إن استطعتم!

وانفصلوا عنه ساخطين غاضبين يائسين. شيء واحد أسف له أشد الأسف هو أن أسرته لم تشاركه طعامه الشهية، أمه ونفيسة وحسين وحسين. وكان بؤده أن يعطي أمه فوق ما أعطى ولكن تشده الطويل علمه الحرص. على الأقل ما دامت هذه الحال. وها هو يقصد كلوت بك، بل درب طياب بالذات حيث ينتظره علي صبري الذي مناه بضروب من العيش توافق مزاجه وتلهب حماسه. وكان علي صبري قد أخبره بأنه ينتظره في قهوة وسط الدرب أمام بيت زينب الخنفاء، فارتقى السلم المفضي إلى الدرب وحث خطاه بين بيوت مغلقة لم تستيقظ بعد. وجد الدرب كالمقفر حتى المقاهي الصغيرة كان عمالها ينفضون عنها رماذ سهرة الأمس. وبلغ وسط الدرب ورأى الأستاذ علي صبري جالساً أمام باب القهوة فأنجبه إليه وسلم وجلس على كرسي إلى جانبه. لم تعد قهوة كما كانت يوماً ما، ولكنها باتت مشروع قهوة جديدة إذا صدق ظنه، فبعض العمال يعكفون على تبييض الجدران وإعدادها للحال الجديدة. قال علي صبري مرهواً:

- هنا حيث تراني جالساً سنبداً حياة جديدة... .

فتولت حسن الدهشة لأنه لم يكن سمع عن هذا المشروع على كثرة ما سمع عن مشاريعه وتساءل:

- والتخت والأفراح؟

فبصق الأستاذ بصقة أصابت جدران بيت زينب الخنفاء أمامها - وكان لا يزال مغلقاً - ثم قال:

- سيعمل التخت في هذه القهوة. أما الأفراح فربنا يجعلها مآتم. انتهى زمان الأفراح، ولا نسمع الآن إلا عن «حفل عائلي» اقتصر على آل العروسين» والراديو احتكرته أم كلثوم وعبد الوهاب وشرذمة من المطربين المختصين بالنشاز، وهيهات أن يكون لنا عيش في هذا

تكون عن لذة الطعام، ولذة الحياة عامة. ردّها حديث حسن إلى أشجانها ويأسها وخاوفها، وتساءلت في دهشة أحقاً يجي حسن - شقيقها - ليلة الزفاف؟! -

- ٣٧ -

وحوالى التاسعة من صباح اليوم التالي لليلة الزفاف كان حسن يسير في ميدان الخازندار متجهاً إلى كلوت بك حيث دعاه الأستاذ علي صبري إلى مقابلته. وكان متعباً عقب سهرة الأمس التي لا زالت ذكرياتها تدور برأسه. كانت ليلة وكان جريئاً ليس كمثله جرأته شيء. وقد شق طريقه في السرداق الذي أقيم على سطح بيت عم جابر سلمان بقدمين ثابتتين حتى بلغ المنصة بين أيدي تصفّق وحناجر تهتف للمغني الجديد، وردّ تحياتهم برزاة وجلس وسط تحته المكوّن من عوادم وقانونجي وكمانجي عملوا معه كعازفين وستيدة ممّا. ثم غنى «قد ما أحبك زعلان منك» وما لبث أن لمس بنفسه الفتور الذي استحوذ على الجميع، ولكنّه واصل الغناء دون مبالاة، وأكثر من الشراب. وعند بدء الوصلة الثانية تصايح كثيرون يطلبون «في الليل لِمَا خَلَى» ولم يكن يحفظها فعنى «بستان جمالك» وسرعان ما انقطعت الأسباب بين المدعوين والمطرب، هذا يذبح صوته بغناء لا غناء فيه وأولئك يشربون ويضحكون ثم بلغ الحرج غايته حين وقف سكران مترنحاً وقال بلسان ثقيل موجّهاً خطابه للمطرب:

- والله لو لم تكن فتوة لقلت لك اسكت... .

وعرفه حسن، كان حدّاداً في أوّل عطفة نصرالله، وتوعده شراً ولكنّه واصل غناءه «والله زمان، زمان والله زمان، زمان والله زمان» ذكر هذا ضاحكاً وهو يحث خطاه ثم قال لنفسه: «ما كان كان. لا داعي للأسف ما دمت قد انتزعت الخمسة جنيهاً». وليس هذا فحسب، وهل يمكن أن ينسى البوفيه؟ لشّد ما أبل في فيه بلاء حسناً وقد بلغ القمة حين ازدرد حماسة بعظامها. لم يكن أكلاً ولكن كان التهاماً وخطفاً وسلّياً وعراكاً، وبلغت المعركة ذروتها حين فرغت صحيفة اللحم البقريّ فما كان منه إلا قبض على يد المدعو الذي يليه واستصفى ما فيها من شرائح. أمّا حسن

البلد...

وقوة وجرة فمن لها؟ أنت!

فقال حسن متظاهراً بالاستياء:

- صدقت يا أستاذ (وسكت لحظة ثم تساءل) ولكن ماذا يفعل التخت هنا؟

فمد الأستاذ ساقه فبلغنا منتصف الطريق الضيق وقال مشيراً إلى القهوة التي يعدّها العمّال:

- إليك قهوة بالنهار، وحانة بالليل وسيرقص فيها نسوان الستّ زينب الخنفاء - وهي على فكرة شريكتي - وبين ساعة وأخرى أغني، مجال العمل واسع، والرزق مضمون. ولكن عليك بحفظ أغاني عبد الوهاب يا حلو...

- لا أكاد أحفظ منها شيئاً!

- لا بدّ مما ليس منه بدّ. وطقاطيق أم كلثوم أيضاً، هذا حكم الزمان!

فقال حسن ضاحكاً:

- ربّنا معنا.

فقال عليّ صبري باطمئنان:

- إني متفائل خيراً. هذا المكان مبارك، وهو أصل ثروة محمد العربي نفسه.

وتساءل حسن من أين للأستاذ الثروة التي يبدأ بها هذه الحياة الجديدة؟ زينب الخنفاء! هي فوق الأربعين على أحسن الفروض، وليس بها من جمال فيما عدا جسمها البقري، ولكنها لقية وذات ساعدين مثقلين بالذهب. لا داعي للحسد ما دام سيحظى بنصيبه من هذه الثروة. فُرجت، ولعلّ ليالي التسكّع والجوع قد غارت إلى غير رجعة. ثم سمع الأستاذ يقول:

- ولكنّ عملك كسّيد ثانويّ بالقياس إلى ما يُنتظر منك!

- وماذا يُنتظر مني؟

ألقي سؤاله بثقة وزهو كأنه عالم حقاً بما يُنتظر منه، فقال الأستاذ:

- إنك أدرى الناس بهذه الأحياء، ففي كلّ متر مربّع بلطحيّ أو برجميّ أو سكير عريبد فمن هؤلاء؟ أنت! وهناك المخدرات وتجارتها فنّ هائل يطلب مهارة

وابتسم حسن ابتسامة عريضة، ظلّت مرتسمة على شفثيه طويلاً. وداخله سرور وحماس وفخار. هذه هي الحياة حقاً، حياة تدبّ تحت مهاوي النبايت ومساقط الكراسي وفي دهايز الغرز، حيث السناء ذهب والأرض أشواك والطريق مسارب شتّى يفضي بعضها إلى اللذة والعزة وبعضها إلى السجن والموت فهنا وطنه ومراحه، وما هو بالغريب في هذا الدرب المتعرج المتلاطم الشرفات، حيث تختلط أهات الدلال بعواء العريضة، وأريج البخور بعرف الخمور، وسباب المتعاريك بقيء المخمورين، إلى غناء وعزف وقصص. بوسعه أن يقضي بين أحضانها أعماراً دون ملل، يأكل ويشرب ويربح ويسكر ويحشّش ويغني. وأشرق وجهه بنور الأمل وألقى على ما حوله نظرة. كان السكون يتبدّد تحت وقع أقدام القادمين، فهذه ضحكات معطوطة، وأرداف متأرجحة، ونظرات فاجرة عارمة. وفُتحت الأبواب وأحرق البخور، وصُفّت المقاعد، وطقطقت ضحكة ولعلت أخرى... صباح الخير...

- ٣٨ -

قال حسنين بتأثر:

- شكراً للصيف!

فتساءلت في حياء وهي تدري ما يعني:

- لماذا تشكر الصيف؟

- لأنّه جرّدك من معطفك السميك فتبدّيت في فستان يجلو محاسنك ومفاتنك...

فتوزّد وجهها، وقطّبت تداري لمعة السرور الذي يبعثها النشاء، وقالت:

- ألم أنك عن هذا؟! لا تفتأ تتساهى في ما

يضايقي...

وأصغى إليها على شفثيه ابتسامة حائرة، وعينه تلتهمان جسمها البضّ بارتياح. فستان مؤدّب محتشم ولكنّه على تحفّظه يكشف عن الساعدين وأسفل الساقين والعنق الرقيق الشفاف، ويشي بقسّات الجسم اللدن المدمليج. ثمّ علق بصره بالمشربّة الدقيقة



- إني أعجب ألا تودين حقاً أن تنطبع شفتاي على شفتيك؟

فنفخت في غيظ قائلة:

- يَسْرُكْ بلا شك أن تغيطني!

- وأن تستنيمي إلى دقات قلبي وذراعي تشدان على خاصرتك؟

فأعرضت عنه عابسة، فقال في ضيق:

- إذا لم يكن هذا هو الحب فما هو؟

فغمغمت في توصل:

- كما كنا طوال العهد الماضي...

- لقاء وحديث واحترق؟!

- لقاء وحديث فحسب.

- تكذبين على نفسك.

- ساحك الله.

- أو تحبين بلا قلب!

- ساحك الله.

فضرب الأرض مغيطاً محنقاً وجعل يذهب ويجيء أمامها في حيرة وعبوس، فبدا في وجهها القلق وقالت:

- اعتقدت أنك تناسيت طلباتك المزعجة وطبت نفساً بحياتنا الوديفة اللطيفة فما الذي ينزع بك اليوم إلى إلحاحك المخيف القديم؟ كن طفلاً مهذباً وأمسك عن الإلحاح والطمع. الحب الحقيقي لا يعرف هذا العبث...

فهز رأسه في قهر وياس وعجب. وما أدراك بالحب الحقيقي؟ أي لغزاً؟ أم تحبه حقاً؟ لا يسعه أن يشك في هذا، ولكنه حب لا يفهمه، أو أنه لا يستطيع فهمها هي. يا لها من شابة رزينة هادئة. عينان زرقاوان صافيتان، ليس فيهما ذرة من شيطنة أو خفة، ولا حرارة، باردتان. ومن عجب أن يكون هذا الجسم الفتان لصاحبة هاتين العينين المادنتين الباردتين. إن نار الحب لا تُروى بالماء ولكن بنار مثلها أو أشد منها. وهكذا يمضي اليوم كما مضى أمس وكما يمضي الغد، بلا أمل. وكثيراً ما يبدو له أن حديث الحب يزعجها ويقلقها، وأنها تسترد طمأنينتها حين يشوبها إلى الصمت، أو إلى حديث آملها البعيدة، وهي لا تمل

المكورة فوق الصدر صوّرتها الخياطة حقاً لشدين ناهدين يكادان لشدة نهوضها يطيران لولا ما يسكنهما من صدر أبيض صافٍ، تحيل أنه يدغدغهما بأنامله فانبعث في جسده قشعريرة الرغبة، وتحيل أنه يشد عليهما وأنها يقاومان الشد بصلابتهما فازدرد ريقه في ظمأ. ولكنها لا تريد ولا تتسامح وتصر على عنادها بغير هودة. وكان يظنها تلين مع الزمن ولكن لم يعد ثمة أمل وقال بحزن:

- بهيئة، إنك تتكلمين بقسوة شأن من لم يذق قلبه الحب...

ولاحت في عينيها نظرة اعتراض وقالت:

- إني أنكر الحب الذي تريد، وإنك تسيء فهمي عمداً...

- ولكن الحب واحد لا يتجزأ...

فقال بإصرار وحدة:

- كلا، كلا، لا أوافقك على هذا الرأي.

فتهد في قهر وألقى بنظره إلى الأفق البعيد. كانت الشمس قد توارت خلفه وراءها هالة حمراء مترامية، أفتصاها حمرة دامية، تخفت عند الوسط كأنها تقطر من ورد مصقّى، ثم تشحب عند أطرافها الدانية حتى تبتلعها زرقة عميقة صافية تمنمها هنا وهناك سحاب رفاق كتهدات وانية. وارتد بصره إلى وجهها وقال برجاء:

- إني أحبك، وإني خطيبك، وما أريد إلا أن يحظى حبنا بحقه من الحياة البريئة...

فتجلّت في عينيها الحيرة، وبدت حياءً وكأنها تتعذب، ثم قالت:

- لا أستطيع ولا أريد...

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال:

- إنك تدفعيني إلى أحضان وحشة غريبة لا أطيقها. إني أتحرق إلى أن أطيح قبلة على شفتيك وأن أضمك إلى قلبي. هذا حقّي، وحقّ حبنا...

- كلا، كلا إنك تخيفني...

- ألا تحبينني؟

- لا تسأل عما تعلم...

الحديث عن هذه الآمال، وبه تنسى نفسها والزمان والمكان، فتشعّ عينها نورًا بهيجًا، وتتدفّق في أطرافها حيويّة جديدة. وفي هذه الساعة يجتمع قلبه بيد أنّه حبّ لا يخلو من تكدر، أو من غيظ وحنق في بعض الأحيان، وينقلب متسائلًا لماذا لا ينشرح صدرها أيضًا بالحبّ نفسه؟ لماذا تخافه وتجنّب من ذكره وإشارته؟ وإلاّ يبقى هذا الحجاب قائمًا بينه وبينها؟ وتفترس في وجهها طويلاً فيما يشبه الحنق ثمّ تساءل:

- هل أكابد هذا الحرمان إلى الأبد؟

وابتسمت - على رغمها - وقد زادت الابتسامة من حقه وقالت:

- ليس إلى الأبد!

وشعر برجفة في قلبه، رنا إليها لا يحول عنها عينيه ثمّ قال باقتضاب:

- الزواج؟

فخفضت عينها حتّى لم يعد يُرى إلّا جفنين مسدّلين وخدين موردين، وحينذاك شبتّ بنفسه رغبة في الانتقام والإيذاء ولو باللسان فقال:

- وإذا تمّ الزواج بذلت لي ما تتمنّين عنه بنفس راضية أليس كذلك؟ تهيني شفّتك وصدرك وجسدك وتزعّين عنك ثوبك فتبدّين عارية كالبلّور...

ولكنّها كانت قد غادرته كأنّها تفرّ وحثّت خطاها نحو باب السطح. وكانت الكلمات تُقذف من فيه بحرارة وحنق وتشفّ.

- ٣٩ -

أصبحت قهوة عليّ صبري ملهى صغيرًا بما تحفل به من غناء ورقص وخر، وقد رُكبت على هامتها لافتة كبيرة سطر عليها بالخطّ العريض «عليّ صبري». وأقيمت في نهايتها من الداخل منصّة للتخت، ونُصّدت الموائد والكراسي على الجانبين وبحذاء مدخلها. وكان الأستاذ عليّ صبري قد انتهى من الوصلة الأولى وآس الجلوس بكنوسهم وسمرهم، حين جاء زنجي - طويل رشيق مفتول العضلات يتطاير الشرر من عينيه - فوقف على عتبة القهوة وصاح بصوت وقع مرتفع:

- أين صاحب القهوة؟

فجاء الأستاذ عليّ صبري مداريًا دهشته بابتسامة باهتة وتساءل:

- أفندم؟

فقال الزنجي بتحدّ:

- سمعت أنّ لديك أقذر خر توجد في، هذه الناحية، ولما كانت الخمر الجيدة لم تعد تؤثر في، فقد قصدتك لأسكر..!

وأزاحه عن سبيله بحركة غليظة وأنّجه صوب مائدة يجلس إليها نفر من الأفندية فألقى عليهم نظرة وحشية وقال بلهجة امرأة:

- أدخلوا هذه المائدة!

ولم يسعّر الأفندية إلّا أن ينهضوا صامتين وغادروا القهوة، فجلس الزنجي على كرسيّ وطرح ساقيه على كرسيّ آخر وهو يتفترس في الوجوه بتحدّ وقحة. واقترب صبيّ القهوة من الأستاذ عليّ صبري وهمس في أذنه قائلاً:

- محروس الزنجي. فتوة رهيب يعرفه الحيّ كلّ...

فسأله الأستاذ بقلق:

- ترى هل يمكث طويلاً؟

- إنّه يرتاد ما يشاء من القهوات فيأكل ويشرب دون أن يجرؤ أحد على مطالبة بثمان شيء ممّا يلتهمه، ولعلّه جاء ليعرّفك بنفسه، أو لعلّ...

وتردّد الغلام قليلاً فحثّه الأستاذ قائلاً:

- تكلم...

- لعلّ أحد أصحاب المقاهي في الدرب اتّفق معه على تخريب قهوتنا!...

واختلس عليّ صبري نظرة من الزنجي فرآه كالنائم، آمنًا مطمئنًا كأنّه في بيته، وقد أدخل الزبائن الموائد القريبة منه، فانقبض قلبه خوفًا وإشفاقًا، ثمّ تراجع في سكون إلى منصّة التخت حيث يجلس حسن مع بقيّة الأفراد، وأومأ إليه ثمّ انتحى به وراء المقصف، وأسرّ إليه ما قال الغلام ثمّ سأله:

- ألاّ يحسن بنا أن نستدعي المعلّمة زينب الخنفاء

وصاح به :

- وعليك وعلى أهلك اللعنة، ماذا تريد؟  
وحافظ حسن على هدوئه الظاهري، وقال بنبرات واضحة :

- سمعتك تهتف طالبًا كونياك فرأيت من واجبي أن أخبرك بأن الدفع هنا مقدّم . . .

فسحب محروس ساقيه من الكرسي أمامه وأغرق في ضحك طويل مفتعل وهو يضرب على ركبته من شدة الانفعال، ثم أخذ يهذئ من انفعاله حتى ذهب عنه الضحك، ورمى ببصر هازئ إلى الشاب، وتساءل ساخراً :

- حامي القهوة؟ .. هه ؟

فقال حسن بهدوء :

- وأحب أن أقول لك أيضاً إن هذه المعاملة خاصة بالزبائن غير المحترمين . . .

ومرّت ثوانٍ، وفي أثنائها كان الزبائن القريبون يتدافعون إلى خارج القهوة، وامتلاً الطريق فيما يلي مدخل القهوة بالمائة والنسوة من كل لون وسن، على حين نشط عمال المقصف إلى إخفاء القوارير وما يخافون عليه من التلف من الأكواب والآلات الموسيقية وغيرها. وحمد محروس وعلى شفثيه الغليظتين بسمه هازئة، ثم دفع قدمه بغتة بقوة فأصابت ساق حسن اليسرى فمال مترنحاً إلى الوراء. كان يراقبه بيقظة وحذر بيد أنه ركز انتباهه في يديه متوقفاً أن يقذفه بشيء أو يشهر عليه خنجراً فلم يتنبه إلى قذيفة قدمه حتى كانت منقضة عليه، فانكمش متهاسكاً، وتفادى بهذا من السقوط، ولكنه مال إلى الوراء مترنحاً وهو بعض على نواجذه ليتغلب على الألم الذي بعث جنون الغضب في دمه. ولم يدعه الزنجي ثانية واحدة فوثب عليه كمن يشب إلى الماء، وخاف حسن أن يؤخذ فريسة سهلة فأمسك عن مقاومة الميل إلى الوراء وقفز إلى الخلف بسرعة عجيبة فاصطدم بجدار القهوة زائغاً من خصمه الجبار. ولم يسمح له الزنجي بثانية يتألك فيها توازنه فانقضض عليه موجهاً ضربة إلى بطنه فحال الآخر دونها بيديه، ولكنها كانت ضربة خادعة قصد

لتعالج هذه المصيبة بحكمتها؟

فقال حسن وهو يتفحص عن بُعد الزنجي محروس :

- لا أوافق على أن نستغيث بامرأة. لن تجدي هذه السياسة في هذا الدرب، دع الأمر لي . . .

- يقولون إنه فتوة شديد البأس.

فابتسم حسن قائلاً :

- هذا ما يقال عني أيضاً ولكن أهل الدرب لا يعلمون، دع الأمر لي . . .

وخطر له خاطر فقال لنفسه ساخراً «ليست أمني وحدها التي تكابد من حياتها المرّ في سبيل العيش!» ثم قال للأستاذ :

- ستكون معركة شديدة، لكن هيهات أن يكون لنا عيش هنا بلا معركة ظافرة!

- وإذا لم تكن ظافرة!

- اعتمد على الله وعلي . . .

لن يفرّ من المعركة مهما تكن النتيجة، وهل من سبيل إلى رفع مكانته عند الأستاذ وفي الحيّ كله إذا تفادى من هذه المعركة؟ ولعلّ عليّ صبري على حقّ في تحوّفه، فالقهوة قهوته والمال ماله، ولكن مستقبله هو يتوقّف على نتيجة هذه المعركة، وفي سبيل هذا فليذهب عليّ صبري نفسه إلى الجحيم. ولا ينبغي أن ينسئ إلى هذا كله فتيات زينب الخنفاء فما من سبيل إليهنّ إلا بنصر إن أجلاً أو عاجلاً، فحظّه في الحياة، وربما حظّ أسرته المنهارة - خطرت له هذه الخاطرة كالمعنى المتداعي - يتوقّفان على خوض المعركة.

وتحرّك الزنجي محروس وهو يتمطى ويتجشأ ثم صاح بوحشية :

- أين الكونياك القذر الذي حدّثونا عنه كثيراً؟!

وغادر حسن موقفه في ثبات وهدوء واقترب من الزنجي بخطو وئيد حتى وقف أمامه، ثم قال بهدوء :

- سلام عليكم!

فرفع الزنجي عينيه الملتهتين صوبه في تكبر، وتفحص جسمه الصلب وعينه البرّاقين برية وشر، ثم عبس في حلق فاستحال وجهه هيئة غير آدمية

الباب منتظراً أن تآلف عيناه الظلام. وساد صمت شامل حيناً ثم مضت أذناه تلقطان حس أنفاس تتردد، فصغى إليها مبتسماً، وتوقع قولاً أو فعلاً ولكن لم يحدث شيء، وأنجحه على مهل إلى يساره متمسكاً الأنفاس المترددة حتى مسّت ركبته شيئاً صلباً، جسّه بيده، فأدرك أنه حافة فراش خشبي، ووقف ينظر إلى أسفل بعينين برّاقتين حتى شفت الظلمة الشاملة عن كتلة مظلمة ممتدة لا تبين لها معالم. وهوى بإبهامه رويداً رويداً حتى انغرست أناملته في لحم طري ثم انبعثت تحت أصبعه رجفة ونذت عن الظلمة ضحكة مكتومة...

\*\*\*

ثم أضاء النور وأخذ يرتدي ثيابه. وأخرج من جيبه نصف ريال ووضع على الفراش والمرأة تراقبه بعينين ضاحكتين، ثم وثبت إلى أرض الحجر وسارت بجسمها العاري إلى صوان ففتحته وعادت بورقة مر ذات الخمسين قرشاً وحطتها فوق نصف الريال دون أن تنبس بكلمة، فساءل ضاحكاً:

- أهو الباقي؟

فقالته بهدوء:

- أجرك!

وأتم ارتداء ثيابه في هدوء متظاهراً بعدم الاكتراث ضابطاً عواطفه حتى لا ينم وجهه عن فرحه، ثم تناول النقود ودسّها في جيبه. وسألته وهي ترمقه بنظرة عميقة:

- ترافق؟

فقال مستعياً بالكذب:

- لي رفيقة!

فتساءلت في اهتمام بدا في لمعة عينيه:

- في هذا الدرب؟

- في الآخر.

- أفرنجية؟

- بنت عرب!

وساد السكون دقيقة، ثم سأله:

- ألا تزال لك فيها رغبة؟

فابتسم حسن ابتسامة ذات معنى وقال:

- لكته حب لا نفع فيه. انتظر وسنرى...

وودّع الأستاذ وقام ثم تتبّع الغلام إلى البيت الذي يواجه القهوة، وطرق الغلام الباب ففتح عن شق في حذر فمرق منه الغلام وتبعه حسن، ثم أغلق الباب. ووجد حسن نفسه في مدخل البيت وقد انتثرت على الكنبات بأركانها فتيات، انتحت كل رجل تشاربه وتداعبه، وعلى كرسي في الصدر جلس رجل ضئير ينفخ في الناي، على حين اتخذت المعلمة زينب الخنفاء مجلسها على أريكة عالية ملتفة بملاءتها السوداء وعلى وجهها برقع ذو عروس ذهبية كبيرة تخفي به أنفها المتآكل. وألقى حسن على الحاضرين نظرة متفحصة فلم ير فتاة خالية، ولكن الغلام مال إلى الستار المسدل على مدخل السلم وأزاحه ودخل فتمعه، وارترقيا الأدراج معاً في سكون حتى تساءل حسن:

- من هي؟

- الست سناء...

وذكرها لتوه، امرأة عرفت بسمرتها العميقة وشعرها الجعد وجسمها المكتنز، واشتهرت بشفتين غليظتين وعينين دعجاوين وكانت تجلس سحابة النهار على كرسي عند مدخل البيت واضعة ساقها على ركبته كاشفة عن فخذه حتى السروال الحريري الأبيض. وانتهيا إلى الدور الثاني وسارا في دهليز طويل يفضي إلى صالة صغيرة تحدد بها أبواب ثلاثة، ومضى الغلام إلى الباب الأوسط وطرقه ثلاثاً فجاء صوت له رنين النحاس يهتف:

- ادخل...

ودفع الغلام الباب قليلاً وتنحى جانباً فتقدّم حسن إلى الداخل وقبل أن يردّ الباب وراءه شعر بيد الغلام تربّت ظهره فالتفت صوبه فضحك الغلام وقال وهو يبتعد:

- اقرأ لنا الفاتحة...

وأغلق الباب فوجد نفسه في ظلام دامس. وحذّته نفسه أن يتحسّس وضع الرزّ الكهربائي ليضيء الحجر ولكن سرعان ما عدل عن خاطره، ووقف مستنداً إلى

ثم أحسَّ بيد توضع على كتفه ورأى الأستاذ عليّ صبري يتسّم إليه بوجه تعلوه صفرة الموت، وسمعه يهيمس في أذنه:

- تعال معي أقدم لك كأسًا من الكونياك. . .

فسار معه دون أن ينبس، وجلس على كرسيه على منصّة التخت وجاءه الرجل بكأس مترعة فتجرّعها، وطلب أخرى فأحضرها له، ثم قال بإشفاق:

- لشدّ ما تعبت!

فغمغم حسن بثقة:

- كانت معركة لا بدّ منها.

وجاء النادل يقول ضاحكًا:

- أطلق الناس عليك لقب «الروسي» لأنك صرعته برأسك!

وشعر حسن برغبة في تحاشي الأنظار، فقال لعليّ صبري:

- دعنا نمتح أثر المعركة فابدأ الوصلة الثانية. . .

- ٤٠ -

استعاد حسن توازنه بفضل قوّته وحيويّته واعتياده العراق يومًا بعد يوم. وكان الليل قد جاوز منتصفه بساعة أو أكثر، وأخذت قهوة «عليّ صبري» تلفظ آخر المترنّحين من روادها. وأطفئت الأنوار الخارجية في الدرب فساد شبه ظلام ومضت البيوت تغلق أبوابها مفتوحة سهراتها الداخلية التي لا تنتهي عادة قبل الفجر، على حين مرّ شرطيان يهزان الأرض بسوق أقدامهما الثقيلة. وكان حسن يجلس على كنب من عليّ صبري في نهاية القهوة يعلّقان على إيراد الليلة حين قصدهما غلام يعمل نادلاً ببيت زينب الخنفاء فحيّاهما ثمّ مال على أذن حسن وهمس باسمًا:

- بعضهم يريدك. . .

وسمع عليّ صبري ما همس به الغلام فلاح الاهتمام في وجهه وتمتم:

- امرأة؟!

فقال حسن بعدم اكتراث:

- أظنّ هذا. . .

- ألا تفضّل مثلي الحبّ الطيّاري؟

بها محروس أن يكشف خصمه عن عنقه، وبسرعة البرق قبض بيدين حديديّتين على رقبته وضغط بوحشية ليكنم أنفاسه. وبدا للجميع أنّ المعركة في حكم المنتهية، ودارت الأرض بعليّ صبري، وابتضّت وجوه رجال التخت والعَمال، وتبادلوا نظرات زائغة لا تخلو من دعوة إلى العمل. ولكنّ أحدًا منهم لم يحرك ساكنًا، أمّا الفتيات فشرعن في الصوات استقبالًا للجبّة التي ستقع. وتأكد حسن بعد تمكّن خصمه من عنقه - وفي بدء غيبوته - بأنّه لا قبل له بفكّ الحصار القاتل، وأنّه ماثت لا محالة إذا توافى، فعضّ على نواجذه وشدّ على عضلات رقبته ليركّز فيها قوّته، ثمّ ثنى ساقه اليمنى وطعن أسفل بطن خصمه بركبته بكلّ ما تبقى فيه من قوّة. وشعر في اللحظة التالية بتراحي قبضة الزنجيّ حول رقبته فاستطاع أن يتنفّس وهو يرتجف حقّدًا وحنقًا، ثمّ ثأها بطعنة أخرى، حدث هذا كلّ في نصق الدقيقة الأولى لمحاولة كنم أنفاسه، وانفكّ الحصار، وتراجع محروس بوجه تنعقد في عيوبته الضغينة وعينين تغشى نظراتهما الحمراء سحابة ذهول قاتمة. ولم يضع حسن وقتًا مطمئنًا إلى سيطرته على الموقف فانقضّ على خصمه الذي بذل مجهودًا جبّارًا للتغلّب على ألمه ونطحه بجهته بقوّة خارقة في رأسه، مرّة أخرى، فكان لاصطدامهما طقطقة تقشعر لها الأبدان، دون أن يشبه عس هدفه ما كالمه الآخر من لكمات مزلزلة. وتفرّج الدم من رأس محروس وسال على وجهه كأنّه هب ينبعث من قطران، وبدا وكأنّه يترنّج من دوار، وتغلّب حسن على آلام ساقه وعنقه وصدره ووجّه لعنق خصمه المكشوف ضربة من حافة كفّه - كالسكين - فشقق الزنجيّ وسقط على الأرض غائبًا عن الوجود. وقف حسن عند رأس خصمه وصدره يعلو وينخفض، تهزّه نشوة الظفر، وتهرس عظامه آلام قاسية أخذ صراخها الباطني يتعالى بعد زوال الخطر. ولعلّه لو غابت العين لارتضى أن يرمي إلى جانب خصمه ولكن أقام ظهره الأبصار المتطلّعة إليه فتجلّد وتماسك، واثال على أذنيه صراخ وغوغاء وضجيج، وشعر بحركة غريبة تسري في القهوة كلّها،

فلم يشأ أن يجيب بلا أو نعم، قائمًا بابتسامة ذات معنى، فسألته ضاحكة:

- أين تقطن؟

- شبرا.

- ما أبعداها عن مكان عملك، هل ثمة ما يضطرك إلى المبيت هناك؟

- كلاً...

- مسكني قريب في عطفة حندف بكلوت بك.

تعرفها؟

- سوف أعرفها من الآن فصاعداً...

- ٤١ -

كانت الشمس تميل إلى الغروب حين غادرت نفيسة بيت إحدى زبائنها بشارع الوليد، وكان يلوح في وجهها الضيق، وهي حال لا تفارقها إذا خلت إلى نفسها، ولكن زادها تعاسة أنها لا تحني من عملها إلا مبالغ زهيدة تبتلعها حاجة أسرته الشديدة فلا تكاد تبقي لها على شيء. وكانت إلى هذا تبدو في مظهر جديد ينم عن تغردي بال، فتزيتت في فستان برتقالي مزخرف بأزهار البنفسج أعلن عن جسمها الطويل النحيل، وأخذت زيتنها في غير تحفظ. وسارت وشارع الوليد حتى انتهت إلى شارع شبرا، وانعطفت مع الطوار وهي ترمي ببصرها إلى الجراج عن بعد فذببت في قلبها يقظة وحيوية. وأعادها منظر الجراج - وصاحبه محمد الفل - إلى ذكريات صراع عنيف نشب في نفسها في غير ما رحمة ولا هوادة طوال الأسابيع الماضية، وجعلت تقدم رجلاً وتؤخر أخرى حتى توقفت عن السير تماماً، وعقل الخوف قدميها، ومع أنها كانت قد انتهت من ترددها المعبذب إلى نهاية، إلا أن الخوف ركبها وهي تخطو الخطوات الأخيرة. «ألا يحسن بي أن أستريد من التفكير؟ كلاً، كلاً، لن أجني من التفكير إلا وجع الدماغ. سيعترض سبيلي كما يفعل كل مساء. لا أستطيع أن أنكر أنني ابتسمت لدعاباته فماذا بعد هذا؟ فات أوان التراجع. وهو لا يخفي دواعيه ولا مقاصده، ولست أجهلها، إنني أدرك كل شيء، أدرك لماذا يدعوني إلى سيارته، لا يحاول

خداعي كما فعل غيره، فالأمر واضح، فهل أقدم على هذا؟ لماذا يتعلّق بي؟ لست جميلة، وهيهات أن يغير هذا الزواق من الحقيقة شيئاً. ولكنّ الدمامة نفسها سلعة لا بأس بها في سوق الخلاعة، وعشاق اللذة - أو بعضهم - لا يرفعون عن مطلب. هذه هي الحقيقة. الزواج أمره مختلف أمّا اللذة فلا اختلاف عليها. هل أدع نفسي تهوي! ولماذا أمنعها؟ لن أخسر شيئاً. ليس ثمة ما أخاف عليه. ولكن ألا يحسن أن أمدّ لنفسي حبل التفكير؟ وعادتها ذكريات اليأس الذي أمرت غصصه ريقها، وكيف لم يعد ثمة أمل على الإطلاق. على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التي تشتعل في دماها ولا حيلة لها فيها. وكلما استنامت إلى قبضة اليأس شكتها في الأعماق كشوكة مستعرة. هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها. بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها، وأنكرتها، وقالت لنفسها إنها ترضى «الهوان» في سبيل النقود التي تمس حاجة أسرته إليها. ولم تكن في هذا كاذبة، فإنه حق لا شك فيه، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى، وسرها - إن كان ثمة سرور - أن تبدو لعينها شهيدة، وضحية لليأس والفقر، وبرز الفتى عند ذاك من الجراج ووقف يتحدث بعض العمال فحفظ قلبها ولم تتحوّل عنه عينها. وأدركت بغريزتها أنها لن تراجع فسلمت - على البعد - وهو موليتها ظهره، سلمت تسليماً نهائياً، وانتهى في تلك اللحظة الصراع العنيف المحزن الذي نشب في قلبها منذ أسابيع. وزفرت في يأس وحرارة وغادرت موقفها. واقتربت منه في خطوات وثيدة متجاهلة إياه، حتى أحسّت به يعترض سبيلها قليلاً بجرائه المألوفة: - الصخر نفسه يلين يا ست، هاك السيارة عند منعطف الطريق تنتظرك منذ أجيال.

ثم سار إلى جانبها متشجعاً بابتسامتها وهو يقول:

- كفاك تدللاً، لو كان لي صبر أيوب لنفد...

ما ألدّ الغزل ولو كذب، حال مخزية ولكنها تردّ إليها اعتبارها وكرامتها كأنثى مهیضة الجناح. «ليتته

## بداية ونهاية ٢٣١

تخافه على نفسها. وسمعته يقول ضاحكاً في زهو:  
- ما أطول نَفْسك في التدلُّل!... ولكن طالما قلت  
لنفسى مصير الحلو أن يقع، وما هو قد وقع...  
ورجبت بالكلام لتهرب من أفكارها واضطرابها،  
فارتسمت على شفيتها ابتسامة وتساءلت:

- ومن أدراك أني وقعت؟!

فضحك ضحكة وقال:

- سنرى ما يكون في صحراء المأظلة...

وتساءلت في قلق:

- صحراء المأظلة؟.. هل نغيب طويلاً؟

- حتى منتصف الليل!..!

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه أمها  
وشقيقها، وقالت بلهجة المستصرخ:

- يا خبر اسود، يجب أن أعود إلى البيت قبل  
العشاء؟.. أوقف السيارة ببرك...  
فقال بدھشة وفتور:

- حقاً؟ لا تخافي، سنعود قبل العشاء، ولكن ماذا  
تخافين؟

- أهلي...

فلحظها بارتياح ساخر وسألها بلهجة ذات معنى:

- أهلك!.. ألا تعلمون؟!

ووخزها قوله حتى خرم قلبها كالطعنة الحادة. أهلها  
يعلمون؟ ماذا يظنّ بها؟! واندفعت تقول:

- كيف يعلم أهلي! إخوتي طلبة بالجامعة، وكان أبي  
موظفًا.

وهز رأسه متظاهراً بالتصديق، وقال لنفسه ساخرًا:  
«لا أم غسالة إلا أمي، ولا إخوة صعايلك إلا إخوتي،  
الأمر لله» وضاعف من سرعة السيارة ليبلغ هدفه في  
أقصر وقت، ومضى يستشعر حمياً النبيذ فطاب نفساً  
وسألها:

- ما اسمك؟

- نفيسة.

ولم يعجبه الاسم فسألها:

- لماذا لم تنتقي اسماً أرشق منه؟

- إنّه يعجبني!

يدرري من أنا، ومن كان أبي». ثم سمعته يقول بلهجة  
تنم عن وعيد:

- هاك السيارة فإذا لم تصعدي إليها رفعتك بذراعي  
أمام الرائح والغادي.

وكانا بلغا موقف السيارة في العطفة الثانية فقبض  
على يدها وفتح بالأخرى باب السيارة، وازدردت ريقها  
واندفعت إلى الداخل في حركة عصبية، وجلست،  
فأغلق الباب وراءها، ودار حول السيارة ودخل من  
الباب الآخر وهي لا تكاد تدري به، ومالت إلى الوراء  
لتباعد بين وجهها وبين النافذة المشرقة على الطريق،  
ثم غشيتها غرابة. بدا لها كلّ شيء غريباً خيالياً لا  
يمتّ للواقع بسبب، الطريق الذي تتساقط عليه ظلمات  
المساء وأشباح المازة، والسيارة الهرمة المتهلهلة،  
ونفسها، وأصوات الناس، ودوي عجلات الترام،  
واستعدت إرادتها بقوة لتعود إلى وعيها واسترقت نحوه  
نظرة وهو جالس أمام عجلة القيادة بقوام فارغ ووجه  
معروق صلب ووجنتين بارزتين وأنف ضخّم صخري  
وفم عريض كفم البولندج فأعادها منظره إلى عالم  
الحقيقة، والوعي والأعصاب، والدم والخوف.  
واستخرج الرجل قارورة من تحت مقعده وفضّ  
سداداتها ثم نظر فيما حوله في شيء من الحذر، ورفع  
فوهتها إلى فيه وأفرغ في جوفه جرعات غزيرة، والتفت  
إليها بوجه متقلّص العضلات وسألها:

- ألا تشربين قليلاً من النبيذ؟

فقال بعجلة واضطراب:

- كلا، لا أتعاطى الخمر...

فرفع حاجبيه دهشة وهو يمصمص، وأعاد القارورة  
إلى موضعها، وبدأت السيارة تتحرك وهو يقول:  
- من الحكمة أن أشرب الآن حتى إذا بلغنا مقصدنا  
بلغته في سلطنة...

وانطلقت السيارة مقرقرة تشقّ سبيلها بسرعة  
مستهترة. وعجبت نفيسة من جرأته وبدأ لها قوياً  
جسوراً، وفي الوقت نفسه غير أهل للثقة أو الشرف.  
ولكن ما حاجتها إلى الرجل الشريف؟ لم تعد أهلاً له،  
ولم يعد ضالّتها، ولا تخاف شيئاً في الوجود بقدر ما

- عاشت الأساء يا ستّ نفيسة. لا مؤاخذه...  
وأخيراً مالت السيّارة إلى الطريق الصحراويّ  
تغوص في ظلمة شاملة، ولاحت المدينة عن بعد في  
أنوارها الموصولة كأنها مارد جبّار ذو أعين نارِيّة لا  
حصر لها، وأخذ يهدّي من سرعة السيّارة حتّى أوقفها،  
وأطفأ مصابيحها، وبغثة مدّ ذراعه حول خصرها  
وجذبها نحوه بعنف لم تتوقّعه. فاندلقت عليه متأوّهة،  
فغصر فاه العريض وأطبق على فمها حتّى منتصف  
ذقنها، وضمّتها إلى صدره بوحشية وأنفاسه تتردّد في  
أنفه في نخير محسّج، فشعرت بادئ الأمر بالمرقّ،  
ثمّ مضت آلامها تغيب في ظلمة باطنيّة غريبة كما غاب  
شبحهما في الظلمة المحيطة الشاملة وآمنت بأنّها مدينة  
للظلام بالشيء الكثير، فقد شجّعها، وفي الوقت نفسه  
أخفى عيوبها، وبذلت قصارى جهدها - مدفوعة بحافز  
فطريّ - لإرضائه. ولعلّها وجدت بادئ الأمر حياء إلى  
ما تجذ من قلق وخوف ولكن سرعان ما شملتها حرارة  
جنونيّة تذيب الخوف والقلق والحياء.  
ثمّ قال لها بإغراء:

- ألا يحسن بنا أن ننتظر ثمرة أخرى؟  
فقال بضراعة وهي تحفّف العرق المتصبّب من  
جبينها:

- لا أستطيع، أرجو أن يعود في الحال...  
وتناول القارورة وأروى ظمأه بجرعات متتابعة، ثمّ  
انطلق بالسيّارة بوجه جامد، وظلّ صامتاً حتّى بلغا  
ميدان المحطّة، وقال بغلظة:

- توجد ثمرة دانية، ألا نعود؟

فقال برجاء وجزع:

- كلّاً، كلّاً... لا أستطيع...

وقطّب ساخطاً فجأة، وقال بفضاعة لم تتوقّعها:

- الله يقرّفك، هذه رحلة لا تستاهل البترول الذي  
احترق.

ووقع قوله من نفسها موقع السوط فانعقد لسانها،  
وأفعم فؤادها خيبة ومرارة وخجلاً، ونظرت نحوه في  
ذهول، ولكنّه لم يلتفت إليها، ودفع السيّارة صامتاً  
ساخطاً إلى شبرا. عسى أن تكون رغبته في المزيد عذراً

ولكن أما كان يجمل به أن يترقّق بها أو في الأقلّ أن  
يسمح خشونته بكلمة رقيقة؟ وواصل انطلاقه صامتاً،  
ثمّ عرّج إلى شارع جانبيّ لينزلها في أمن من الأعين.  
وأوقف السيّارة إلى جانب الطوار. وتساءلت وهي  
تغادر موضعها عمّا تفعل إذا سمّى لها موعداً آخر أتقبل  
رغم إهائته أم ترفض على رغمها؟ وجابهتها حيرة لم  
تستعدّ لها، بيد أنّه مدّ لها يده بنصف ريال وهو يقول:

- هذا يكفي لمرة واحدة...

ولمّا رأى جمودها ترك القطعة الفضيّة عند قدميها  
وانطلق بالسيّارة غلّفاً وراءه ذيلًا من دخان خائق،  
وقرقة مزججة. وركبها جنون غضب أعمى فتسرّمت  
في موقفها وجسمها ينتفض. وأتصل انتفاضها وهي  
تعصّ على نواجذها، ثمّ مضت تزفر في عجلة كأنّها  
تنفّس عن صدرها أن ينفجر. لم يتكلّف موعداً آخر.  
مرة عابرة... كأنني... ربّاه، مرة عابرة. ثمّ يرمي لي  
بنصف ريال! وخطر لها خاطر فباخ غضبها وخمد،  
وحلّ محلّه خجل وخيبة، أجل، ألا يجوز أنّها لم ترق له  
ولم تعجبه؟! هذا محتمل. هذا مرجّح. هذا مؤكد!  
وأمصّها شعور أليم بالحزن والقهر، ثمّ تنبّهت لموقفها  
من الطوار فهتّت بمغادرته ولكنّها ذكرت القطعة الملقاة  
عند قدميها فنظرت إليها بغرابة دون أن تدري ما هي  
فاعلة، ثمّ ذكرت لتوّها القطعة ذات الخمسة قروش  
التي اقترضها سلمان منها يوماً على محطّة الترام، ثمّ يوم  
قادها إلى مسكنه، والظلام الدامس وشجارها معه في  
الطريق، وتغرّول أبيها بخفّة دمها، ثمّ عاد انتباهها إلى  
القطعة الفضيّة تحت عينيها، فرنت إليها طويلاً دون  
أن تتحوّل عنها. أيّ شيء ثمة يدعّوها إلى  
تركها؟!...

- ٤٢ -

وفي ذات ليلة زار حسن الأسرة زيارة غير متوقّعة  
بعد انقطاع غير قصير، وكانت الأسرة مجمعة بحجرة  
الإخوة التي تتخذ منها مجلساً مختاراً في شهور الصيف.  
جاء هذه المرّة ويده قفّة فوضعها وراء الباب وأقبل  
عليهم مسلّماً ضاحكاً فاستقبلوه بترحاب كالعادة، أعلنه  
الإخوة في غير تحفّظ، أمّا الأمّ فرمقت القفّة بنظرة



- كان فيلسوفًا رحيماً، ومن أي رحمة أنه امتنع عن أكل اللحوم رحمة بالحيوان...  
 - إني أدرك الآن لماذا تفتح الحكومة المدارس، إنها تفعل كي تبغض لكم اللحوم فتأكلها دون منافس...  
 ونهض حسن وذهب إلى حيث ترك القفّة وعاد بها ووضعها أمام أمه، ثم نزع عنها غطاء من الورق فبدت تحتها فخذ خروف مكتنز تتصل على سطحها حمرة اللحم بياض الدهن. وإلى جانبها علبة من الصفيح متوسطة الحجم. وصاح حسنين:  
 - لا أصدق عيني، وما هذا داخل العلبة؟  
 - سمن!  
 ودبت في الإخوة حيوية ولعت أعينهم، وسرت عدوى الفرح إلى قلب الأم فابتسمت وتمتمت:  
 - ضمناً للغد غداء فاخراً!  
 وهتف أكثر من صوت:  
 - بل عشاء فاخراً، الساعة.  
 - متى ينتهي طهيها؟  
 - ننتظر حتى الفجر.  
 ونهضت نفيسة فحملت القفّة وسبقت أمها إلى المطبخ.  
 وكفّت الأم عن المعارضة وقامت أيضاً فغادرت الحجرة وهي تومئ إلى حسن أن يتبعها فتبعها على الأثر مبتسماً ابتسامة ذات معنى، فانتبذت به ركناً في الصالة وسألته بلهفة:  
 - هل تبسّرت سبل الرزق حقاً؟  
 - بعض الشيء! لا أدري ما يأتي به الغد...  
 - هل أطمئن إلى أنك ستمد لنا يد المعونة؟  
 - كلّما واتاني الرزق. أرجو هذا...  
 وصمتت لحظة ثم سألته:  
 - أين تقطن؟  
 وكان يعلم أنّها تفهمه فهماً لا يجدي معه الكذب فقال:  
 - عطوفة جندف بكلوت بك رقم ١٧.  
 فسألته بعد تردد:  
 - امرأة؟

متسائلة وغمغمت ساخرة «إيش جاب الغراب لأمه؟» فقال ضاحكاً وهو يتخذ مجلسه بينهم.  
 - لا تتعجلي. الصبر طيب...  
 بيد أنهم لم يلقوا بالآ لقفته. ولم يكن من عادتهم أن ينتظروا خيراً منه، قالت له نفيسة:  
 - لا نراك إلا كالزائر!  
 - أخوك سائح في أرض الله الواسعة، يلتقط رزقه في جهد ومشقة، ولكن لا تعجبي إذا لم تريني إلا زائراً فقد وجدت لنفسك مسكناً!  
 وتطلعت إليه الأبصار في اتهام وسألته أمه:  
 - هل هداك الله أخيراً ووجدت عملاً؟  
 - تحت عليّ صبري ولا شيء غيره ولكن الله فتح عليه وعلينا.  
 فقالت الأم بامتعاض:  
 - لا يدخل عقلي بحال أنّ هذا عمل بالمعنى الصحيح...  
 فقال حسن مستنكراً:  
 - لم يا أمّاه!! إني في التخت أغنيّ بينا في المهنة الأخرى أتشاجر كما تعلمين...  
 وسأله حسين:  
 - وهل وجدت لنفسك مسكناً حقاً؟.. أين؟  
 فسكت ملياً ثم سأله:  
 - ولماذا تريد أن تعرف؟  
 - كي نزورك بلدورنا!  
 - كلاً. ليس مسكني معداً للزيارة، وليس هو خاصاً بي إذ يقطنه أفراد التخت جميعاً، دعونا من هذا وخبروني متى أكلتم اللحم آخر مرة؟  
 فقال حسنين ساخراً:  
 - الحقّ أنا نسينا، دعني أتذكر قليلاً... تتخايل لعيني شريحة لحم في ظلام الذكريات ولكن لا أدري أين ولا متى.  
 وضحك حسين قائلاً:  
 - نحن أسرة فلسفية على مذهب المعري.  
 فتساءل حسن:  
 - ومن يكون المعري هذا؟.. أحد أجدادنا؟

فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- نعم.

- زواج؟

فضحك مرة أخرى وتمتم:

- كلاً...

ولم يرَ في الظلام ما ارتسم على وجهها من أمارات الامتناع، ولكنها كانت قد پشت منه من زمن بعيد فأعفت نفسها من لومه أو نصحه، بيد أنها سألته باهتمام وحرارة:

- أليس رزقاً شريعياً؟

فقال بلهجة مطمئنة وتوكيد:

- بلى، لا تشكّي في هذا... إننا نحيا أفرحاً كثيرة ونغني في المقاهي والصالات...

- ٤٣ -

وانقضى عام آخر. وواصلت الحياة سيرها لا تلوي على شيء، ومضى كل فرد من أفراد الأسرة في سبيله بما يلقي من خير وشر. ولو أتيج للأب أن يعود إلى الحياة لأزعجته الدهشة لما طرأ من تغير على أسرته شمل الأرواح والأجساد والصحة ونظرات الأعين، ولكن كان حتماً سيعرفهم، سيعرف أن المرأة هي زوجته وأن الأبناء أبناءه، أما الذي كان ينكره، ولا يعرفه مهما أجهد ذاكرته فهو البيت. اختفى الأثاث أو كاد، فلم يبقَ بحجرة الاستقبال إلا كنية وبساط باهت ناحل كان مفروشاً بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجّادتها، واقتصرت غرفة الأم على كنبتين تستعملان نهائياً للجلوس وليلاً للنوم، وخلت الصالة - حجرة السفارة قديماً - فبيع البوفيه والمائدة والكراسي، وانتهى بهم الحال إلى تناول طعامهم على صينية مقتعدين الأرض، بل بيع فراش حسن. ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان. كانت حياة شاقة عسيرة، ولولا حزم الأم، وحسن تدبيرها، لما نهض المعاش وكسب نفيسة القليل بضرورة المسكن والمأكل. أما حسن فلم تعدّ معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل، وربما ابتاع لأمه من آن لآخر جلباباً أو

مندبلاً أو بعض الثياب الداخلية، وفيما عدا هذه الأوقات فلم يكن يراه أو يسمع به أحد. وكان يعتذر لأمه بمشاق الكفاح وقلة الرزق، ولم يكن في اعتذاره غلوً دائماً. والحق أنه وجد الحياة أشقّ مما كان يتصور. كان يغني في تحت عليّ صبري، وينبري للعراك إذا دعا الداعي، ويتجر بالمخدرات في حدود ضيقة، وفي حوزته امرأة لا بأس بجالها ونقودها، ولكن ظلّ كسبه دون ما كان يحلم به بكثير فضلاً عما أوجبه حياته عليه من الإنفاق السخيّ ليظفر بقلوب أعوانه، وليظفر بالمظهر اللائق به... وكان النزاع بين ضروريات حياته وأنائيته من ناحية وحبه لأسرته من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه، يتغلب ذاك حيناً، ويتغلب هذا في أغلب الأحيان، يمسك يده مستسلماً لتيار حياته الجارف، ثم يجود بما في طوقه، ويتمنى كثيراً لو يردّ أسرته إلى سابق عهدها بالحياة، ثم ينسى أسرته في خضم مغامراته، ثم يعود إلى تذّكرها في ندم وألم، وهكذا إلى غير نهاية. ومهما يكن من أمره فلم تجد فيه الأسرة الرجل الذي يقبل عثرتها أو يأخذ بيدها وإن تنسّت في زيارته نسايم الترفيه والراحة. الأم وحدها كانت عصب حياة الأسرة، وفي سبيل الأسرة انهذ حيلها وهرمت في عامين كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان، فنحلت وهزلت حتى استحالت جلداً وعظاماً، بيد أنها لم تستسلم للمحنة، ولم تعرف الشكوى، ولم تتخلّ عن سجاياها الجوهرية من الصبر والحزم والقوة. وكانت تعمل النهار كله، تطبخ وتغسل وتكنس وتمسح وترتق وترفو، وترعى ابنها خاصة، تراقب لهما، وتحثهما على العمل، وتفرض نزاعهما التافه، وتكبح من نزواتهما، خصوصاً طفلها المتقلب حسين. وبين هذا وذاك تعكف على التفكير في الحاضر والمستقبل، وتجتر كثيراً من الآلام التي تبعثها في نفسها ابتنتها نفيسة في تجوالها الدائم بين بيت وبيت، تعمل كثيراً وتربح قليلاً وتواصل سعيها في مشقة وألم. لشدّ ما تتجرّع غصص الألم في سكون متجملة بصبر لا ييئ، لاثلة بإيمان لا يزعزع، متشبّة بأهداب أمل لا بدّ أن يتحقّق وإن طال انتظاره. ويفضلها

- هيهات أن يعرض شيء عن هلاك روح شابة.  
فقال حسنين ضاحكاً:

- لقد عشت يا أمّاه نصف قرن في ظلّ الاحتلال  
فلندعُ الله أن يمدّ لنا في عمرك نصف قرن آخر في  
كنف الاستقلال...

فقال الأمّ متمعة:

- احتلال، استقلال، لا أدري أيّ فرق بينهما. خير  
لنا أن ندعو الله أن يكشف عنا الغمة وأن يبدّلنا من  
عسرنا يسراً...

فقال حسنين بحماس وإيمان:

- لو لم يكن الاحتلال لما تركت أسرتنا بعد موت أبي  
بلا معين! «ثمّ مخاطباً حسنين» أليس كذلك؟  
فقال حسنين بأمل:

- أعتقد هذا!

وردّت الأمّ نظرها بينهما في شكّ كبير. لم تكن  
تحفل بهذه الأحاديث العامة التي تساق إليها أحياناً من  
حيث لا تدري، أمر واحد يميّهما، وتنسى من أجله  
الدنيا وما فيها، هو أن تبلغ بهذين الشابين اللذين  
تحبّهما أكثر من الحياة نفسها برّ الأمان، وأن تراهما  
رجلين ناجحين سعيدين قد أمنا شرّ الحياة، وآوت  
الأسرة منها إلى ركن ركين...

- ٤٤ -

وفي نهاية العام حصل حسنين على البكالوريا. وقد  
ذاقت الأسرة في فترة الانتظار السابقة لظهور النتيجة  
مرارة الإشفاق والشكّ. ولم يكن أحد يجرؤ على أن  
يتكهّن بما يجدر فيها لو أخفق حسنين وحرم من المجانيّة.  
ولم تكن الأمّ تتصوّر أن ينتهي صبرها هذه النهاية، ولا  
أن تنكشف آمالها عن مثل هذا القنوط. وعندما تناول  
حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ في  
صفحاتها باحثاً عن ثمرته، التفّ به أخوه وأخته وأمّه  
بقلوب خافقة ينبض في أعماقها الأمل ويظّلها الخوف  
والعذاب. فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم إلى  
الأبد. ثمّ كان يوم سعيد، أوّل يوم سعيد منذ عامين  
كثيبين، فطابت النفوس، ولهجت الألسن بالشكر لله،  
وراحوا يُفصّحون عن سعادتهم بالحديث اللطيف

عرف الشقيقان سبيلهما. فلم يجد أيّهما عن جادته،  
وأمكنهما - على ما يكتنفهما من تقشّف وحرمان - أن  
يراصلا اجتهدهما في ماثرة تدعو للإعجاب. وكان  
حسنين يعدّ ما يلقاه من ظروف العيش أهون ممّا يجد  
في حبّه من حرمان، ولكنّ فئاته لم تكن دون أمّه  
عناداً. فأرغمته على الرضى بحبّ ظاهر متقشّف لا  
يستسيغه طبعه الحامي. وأوشكت الحياة الخاصّة أن  
تلهي الشقيقين عمّا انتاب حياة الوطن في تلك الفترة  
من التطوّرات الهامة. والحقّ أنّ حسين لم يبدِ اهتماماً  
يستحقّ الذكر بالسياسة العامة ولعلّ حسنين كان أكثر  
اهتماماً بالسياسة من أخيه، ولكن ليس إلى القدر  
الذي يجعل منه تلميذاً سياسياً، واقتصر اهتمامه في  
الغالب على النقاش الحزبيّ أو الاشتراك في المظاهرات  
السلميّة. وكانت الأمّ أيضاً الحائل بين ابنيها وبين  
الاشتراك في الحياة السياسيّة، فلم تكن لتفقه حرفاً في  
السياسة، واستغرقت الأسرة مشاعرها فلم تترك نصيباً  
للوطنيّة. ولمّا دأبت الأخبار المحزنة عن ضحايا  
المظاهرات من الطلبة أصابها الفزع وراحت تقول  
مخاطبة الشابين:

- قُتلوا يا ولداه فهل تغني عنهم السياسة أو  
المظاهرات؟! فجعوا أهليهم وخبروا بيوتهم وضاعوا  
هباء...

وقال لها حسنين منقّساً عن شعور مكبوت لتخلّفه  
عن النائرين:

- إنّ الأوطان تحيا بموت الأبطال...

فرمته بنظرة صارمة فخفض عينيه وقد عدل عن  
مواصلة حديثه الحماسيّ. ثمّ جدّت أحداث فتكوّنت  
الجهة الوطنيّة، وشرع في المفاوضات، وانتهت  
المفاوضات إلى الاتفاق، وسرى في البلد ارتياح عامّ،  
وحينذاك عاد حسنين إلى حديثه، وكان أجراً على أمّه  
من أخيه، فقال لها يوماً:

- أرايت أنّ الأرواح التي زهقت لم تذهب تضحياتها  
عبثاً.

ولم تغضب هذه المرّة لشعورها بأنّ الخطر قد زال  
وحلّ محلّه السلام ولكنّها لم تثنّ عن رأيها فقالت:

كلامه فقال بإشفاق:  
 - إني أقرر مبدأ عامًا يجوز عليك اليوم وعليّ غدًا.  
 - تعني أنّه يجب أن أجد وظيفة؟  
 فراغ عن الجواب الصريح وتساءل:  
 - ما رأيك أنت؟  
 فالتفت حسين صوب أمّه وسألها مبتسماً:  
 - ما رأيك يا أمّاه؟  
 وأثرت ابتسامته في نفسها تأثيراً عميقاً، وأدركت أنّه يضع مصيره بين يديها. وأنّه يحملها وحدها مسئولية مستقبله. ولكنّها لن تقضي عليه بما لا يحبّ، لن تفعل ولو ذاقوا الهوان أربعة سنوات أخرى. إنّهُ الوحيد الذي يذعن لمشيئتها بلا تردد أو تذمر فهل يكون جزاؤه الفداء؟! وقالت الأمّ بوضوح:  
 - رأيي رأيك يا حسين...  
 فابتسم حسين ابتسامة غامضة وقال مدفوعاً برغبة عابثة في مضايقة حسنين:  
 - أرى أن أكمل مرحلة التعليم العالي...  
 فقالت نفيسة بسرور:  
 - أحسنت...  
 وقال حسنين بعد تردد:  
 - أمامنا أربعة أعوام عجاف أخرى...  
 فقال حسين مبتسماً:  
 - عام واحد فحسب ثمّ تتولّف أنت في نهايته إن شاء الله!  
 فضحك حسنين مغلوباً على أمره وقال بلهجة المعتذر:  
 - لعلّك تظنّ أنّي أريدك على أن تتولّف لتتيح لي فرصة أكمل فيها تعليمي العالي في هدوء وطمأنينة، ولكنّ الحقيقة أنّي أودّ أن أرحم أسرنا ممّا تعانيه، وفضلاً عن هذا وذاك فإذا كان على أحدا أن يضحي بذاته - إذا اعتبرنا التولّف بالبيكوريا تضحية - فأنت الذي يجب أن تبذل هذه التضحية، لا لأنّي أريد لك ما لا أريد لنفسي، ولكن لأنّ أسرنا تستطيع أن تنتفع بتضحيتك الآن على حين يجب أن تنتظر عامًا آخر حتّى يمكنها الانتفاع بتضحيتي أنا.

حيثما، وبالصمت المطمئنّ الباسم حيناً آخر. ثمّ وجدوا أنفسهم يطرقون باب المستقبل، ويفكّرون في الغد القريب والبعيد معاً، فنسوا سعادتهم وهم لا يشعرون، وتخاليلت لأعينهم مرّة أخرى الصعاب التي تكتنف حياتهم، فحلّ التفكير وهمومه محلّ السعادة الصافية العابرة، عرف حسين حقيقة جديدة في حياته وهي أنّ السعادة قصيرة الأجل وأنها لا تعمّر في النفس طويلاً كالخزن أو الحسرة. ولم يكن التفكير في مستقبله بالأمر الجديد عليه، كان بطبيعة الحال ذا آمال وأحلام، ولكنّ الحقائق لم تكن لتغيب عنه كذلك، وكأنّه أراد أن يستدرجهم إلى إعلان آرائهم فتساءل:  
 - ماذا لديكم عن الخطوة التالية؟

وكان للأمّ رغبة، فهي تودّ أن تنتهي الحال التي يكابدونها بأيّ ثمن. وكانت تعلم - قد خلا البيت ممّا يمكن الانتفاع بثمن بيعه - أنّهم لن يستطيعوا مواصلة هذه الحياة بعد الآن. بيد أنّها لم ترتح إلى إملاء رغبتها عليه، ونفرت من التحكّم في مستقبله كما تتحكّم في حياته. أجل لم يعد طفلاً، فإذا وافق على رأيها مختاراً فيها وإلاّ فليقبض في أمر نفسه بما هو قاضٍ، وليمدّوا هم في حبال الصبر والتجلّد، بل والجوع حتّى يأمر الله بالفرج. لذلك قالت باقتضاب:  
 - فلنتدبّر الأمر طويلاً.

ولكنّ حسنين كان يفكر بسرعة مدفوعاً بعواطفه كعادته، وكانت أنانيته تتوارى خلف ما يظنّه الصالح العامّ، فقال:

- لم تعد الحياة تطاق. غذاؤنا سيئ ونحن في حُكم الجباة وثيابنا متداعية عمّرة أو مرفّوة، وبيتنا عارٍ، فلا يصحّ أن نطيل أمد العذاب. لا سبيل إلّا أن نبداً حياتنا العملية...

وكان حسين يفهم أخاه خير الفهم، فأدرك لتوّه ما يرمي إليه، وكان مقتنعاً بما يريد أن يذهب إليه ولكن ساءه مكره فتغيّظ عليه وقال:

- لماذا تقول «نبداً»؟.. لماذا تستعمل صيغة الجمع بينا الأمر يتعلّق بي وحدي؟

وأدرك حسنين أنّ أخاه نفذ كعادته إلى ما وراء

شَقَّى الأزهار التي كست الأرض بألوان بهيجة بدهشة،  
ثُمَّ صعدا إلى السلامك، ثُمَّ إلى بهو الاستقبال  
الكبير، وأتخذا مجلسها بارتباك على كُثب من الباب  
بالموضع الذي اختارته أمهما قبل ذلك بعامين. وجرى  
بصرهما سريعاً على البساط الغزير الذي يغطي أرض  
الحجرة الواسعة، والمقاعد الكثيرة الأنيقة، والطنافس  
والوسائد، والستائر التي تنهض على الجدران كالعالمقة،  
والنخفة المتدلّية في هالة لالألاء من سقف عال انتشرت  
بجوانبه المصابيح الكهربائية. وأشار حسين إلى النخفة  
وقال بسداجة:

- مثل نخفة سيّدنا الحسين!  
وكان حسين يفكر في أمور أخرى فقال:  
- نعم... دعنا من النخفة، ما عسى أن نقول؟..  
ينبغي أن تساعدنا بلسانك!

فقال حسين هازئاً:  
- أنظرنَ أُنّك ستحدث شيطاناً؟.. تكلم بشجاعة،  
وسأتكلّم أنا أيضاً. ملعون أبوه!  
ونذت عنه اللعنة - لا لحق - ولكن ليشجع  
أخاه، وليتشجع هو نفسه. وألقى نظرة ذاهلة على ما  
يحيط به من أي الثراء ثُمَّ تساءل بصوت منخفض:  
- هل يثير موت رجل كأحمد بك حزناً في نفوس  
ورثته؟

فقال حسين بنصف وعي:  
- أما كنّا نحزن لوفاة والدنا لو كان غنياً؟  
فقطّب الشاب متفكراً ثُمَّ قال:  
- أعتقد هذا. ولكن لعلّ الحزن أنواع ودرجات.  
آه... لماذا لم يكن أبونا غنياً...  
- هذه مسألة أخرى...  
- ولكنّها كلّ شيء. خبرني كيف صار هذا البك  
غنياً؟

- لعلّه وجد نفسه غنياً...  
فالتمعت عينا حسين العسليتين وقال:  
- يجب أن نكون جميعاً أغنياء...  
- وإذا لم يكن هذا؟  
- إذن يجب أن نكون جميعاً فقراء...

فضحك حسين قائلاً:

- منطق زائف. إني أعلم علم اليقين أنّك لن  
ترضى بالتضحية لا العام القدام ولا الذي بعده...  
وقالت الأم حسناً للجدل:  
- افعل ما تشاء يا حسين، ولا اعتراض لنا...  
فابتسم إليها في صفاء وقال:

- لم أعني ممّا قلت حرفاً واحداً ولكنّي أردت أن  
يعرف حسين أنّي أحسن فهمه. ولست ألومه أيضاً  
على تفكيره فله عذره. ينبغي أن يضحي أحداً ويرضى  
بالتوقّف الآن، وهذا هو واجبي أنا، أنا أخوه الأكبر،  
وأنا صاحب البكالوريا. إني أدرك الحال على حقيقتها،  
وأعلم أنّه من القسوة الشريفة أن أفكر في تكملة  
تعليمي، فلأرض بحظي، ولندعُ الله جميعاً أن يوفّقنا  
إلى ما نريد...

وقرأ الارتياح في أعينهم جميعاً رغم ما تنطق به  
الستتهم من عبارات الأسف، فداخله شعور طيب  
بالسرور والارتياح على حزنه وأسفه. «أسرتنا كادت  
تنسى معاني الارتياح والطمأنينة. ها أنا أعيد إلى  
نفوسها بعض هذه المعاني. علام آسف! مدرّس أو  
كاتب سيّان. لو كنّا نفتقد في أحلامنا، أو كنّا نستلهم  
الواقع في خلق هذه الأحلام، لما ذقنا طعم الأسف أو  
الحزينة».

- ٤٥ -

وقالت الأم:

- لدينا أحمد بك يسري صديق المرحوم والدكم،  
وهو يستطيع أن يوظّفك في غمضة عين...  
وتفكرت الأم ملياً ثُمَّ واصلت حديثها قائلة:  
- لن أستطيع الذهاب إليه بنفسني لأنّ معظفي لم  
يعد لائقاً للظهور أمام الناس المحترمين، فامضِ إليه  
أنت، وخذ معك أخاك تشجع به. وما عليك إلا أن  
تقولا للبواب إنكما ابنا المرحوم كامل أفندي علي...  
وذهب الشقيقان عصرًا إلى شارع طاهر وقصدا  
بيت البك وطلبا مقابله كما أوصتها أمهما فغاب  
البواب دقائق ثُمَّ جاء ليدعوها إلى حجرة الاستقبال.  
ودخلا يسيران في ممشي الحديقة الوسط وهما ينظران إلى

- وإذا لم يكن هذا؟!

فقال بحق:

- إذن نثور ونقتل ونسرق...

فابتسم حسين قائلاً:

- هذا ما نفعله منذ آلاف السنين...

- يعز عليّ أن أتصور أن تمضي حياتنا في عناء وقذارة

إلى الموت...

فقال حسين مبتسماً:

- لا قدر الله...

وقبل أن يفتح حسين فمه سمعا وقع أقدام آتية

من الفراندا، ثم دخل البك بجسمه الطويل العريض

في بدلة بيضاء حريرية، وسلم عليها مرحباً وهو

يتفرس في وجهيهما بعينين ضاحكتين، ثم سألها وهو

يجلس:

- أهلاً بابي الحبيب المرحوم، كيف حال والدتكما؟

فشكرا له بلسان واحد، وقد نسي حسين في طيب

اللقاء حقه على حين عاود حسين ارتبأكه. وتوجس

أحمد بك خيفة من هذا اللقاء الذي لا بد أن يسفر عن

بذل وعطاء، وكان يسلم سلفاً بأنه لن يستطيع أن

يرفض لهما رجاء إذا سألاه. والحق أنه لم يكن بخيلاً،

بل كان جواداً، ولكن لا عن طيب خاطر، كان يجود

في برم وضيق دون أن يستطيع أن يقول «لا»، وتغلب

حسين على ارتبأكه وقال بصوت رقيق مؤدب تغني

نبراته عن ألفاظ الرجاء والضراعة:

- حصلت يا بك على البكالوريا، وظروف أسرنا

تضطرني إلى البحث عن وظيفة، لذلك رأيت والدتي

أن ترسلني إلى سعادتك لما لنا جميعاً فيك من عظيم

الرجاء...

فجعل البك يعبث بشاربه الغزير المصبوغ، ثم

قال:

- وظيفة؟!.. باب الحكومة ضيق في أيامنا هذه،

ولكني سأبذل ما في وسعي يا بني. لا أعتقد أنني سأجد

لك وظيفة في الداخلية ولكني صديق لوكيل المعارف،

وكذلك وكيل الحربية، جهز طلب استخدام وسأكتب

لك توصية قوية...

وشكرا له كرم أخلاقه ثم سلماً وغادرا الفيلاً،

وألقي حسين على الفيلاً نظرة توديع وهما يتبعان

عنها، وعاد ببصره إلى وجه أخيه فوجده راضياً حالماً

فسأل نفسه في دهشة: ترى هل يفرح الآن بما عده

بالأمس تضحية؟ ثم قال:

- أيقنت الآن فحسب، وبعد أن تنسّمت عبر

الحياة الحقّة في هذه الفيلاً، أنه من الظلم أن نعدّ

أنفسنا بين الأحياء...

وكان حسين مشغولاً بالتفكير في طلب الاستخدام

والتوصية القويّة فلم يعن بالردّ على أخيه، فقال

حسين حائثاً:

- إني أعجب لما تتحلّى به من رضى وهدهو! ولكنّه

تظاهر لا يمكن أن يخدعني...

فغمغم حسين مبتسماً:

- وما جدوى الحق؟.. لن نغيّر الدنيا!

- يجب أن تتغيّر. من حقنا ولا شك أن ننعّم

بالسكن النظيف والمأكّل الصحيّ والمركز المرموق.

ولكني أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيراً أبداً...

فحدّجه حسين بنظرة غريبة لم يفهم معناها وقال

له:

- ولكنك تتمتّع بالحبّ، وستكمل تعليمك. أليس

هذا خيراً؟

ونظر إليه ثمّ نظر في ما أمامه، ترى ماذا يعني؟

وشعر بعدم ارتياح، وتضاعف ضيقه. ثمّ روجّ عن

صدره متسائلاً:

- ألم يكلفك هذا التضحية بنفسك؟ إن لنا حقوقاً

بديّة ولا يجوز أن يضيع شيء منها، فأين نحن من

هذا؟.. كيف نعيش؟.. ماذا تكابد أماناً؟.. أين

أخونا حسن؟.. كيف انقلبت أختنا خيطة؟...

وقطّب حسين وقد تنغص عليه صفوه، وتناسى

جوهر الموضوع ووقف عند الصفة الأخيرة حائثاً،

وصاح بأخيه في لهجة تنمّ على العتاب:

- خيطة...

فقال حسين في هياج وانفعال:

- نعم خيطة، هل تكره هذا حقاً؟ أتمنى حقاً لو

وتبدّلها حالًا بعد حال، فجاء السفر غريبًا لهذا الرجاء، وتحوّلت الأم بين فرحها وحسرتها، وأيقنت أنّ الوظيفة لن ترفّعه عن الأسرة إلا قليلًا، وأنّ خيارها ستتبدّل ما بين طنطا والقاهرة. وإلى هذا كلّه فقد لاح في أفق الأسرة شبح فراق جديد لم تألفه، فتوجّعت قلوبها، وعجبت الأم لهذا الخطّ الذي يأتى أن يمنحها ابتسامة إلاّ تحت عبوسة متجهّمة، والذي يمدّ يد النوى بينها وبين الابن الوحيد الذي لا يخلق لها المتاعب. كانت ترى في حسين صورة من نفسها الهادئة الصابرة، وكانت تجد عنده من الأناقة والراحة ما لا تظفر به عند غيره. أجل لم يكن أحبّ الجميع إلى قلبها، إذ كان حسين الطفل المشاكس الذي يحظى بهذه المنزلة، ولكنّه بدا لعينها وقتذاك كأنفس ما تملك في حياتها. ووقع الفراق من نفس حسين موقعًا سيئًا، وحزن له حُزن رجل لم يتعد عن بيته يومًا واحدًا في حياته، وضاعف أثره في نفسه تعلقه الشديد بأمّه وإخوته وما كان يأمل من الترفيه عنهم بوجوده بينهم. وكان يقول لنفسه كثيرًا «سأعيد نفيسة إلى بيتها سيّدة محترمة حال تسلمّي أوّل مرتّب من الحكومة» ولكنّه رأى حلمه يتبدّل، وغدًا يذهب إلى بعيد خلفًا أسرته المحبوبة وراءه على حال ليست أفضل كثيرًا ممّا كانت عليه. ولعلّ هذا ما جعله يمضي إلى أحد بك يسري مستشفعًا بنفوذه على إبقائه في القاهرة ولكنّ البك - وكان قد ضاق به - أخبره بأنّ رغبته بعيدة عن التحقيق في الوقت الحاضر. ثمّ اعترضته مشكلة جديدة تتعلق بالنقود التي يجب أن تتوافر له ليقم بها أسباب معيشته في طنطا حتّى يتسلم أوّل مرتّب له في نهاية الشهر، من أين له بهذه النقود، وأنّجه نحو أخته نفيسة ولكنّ الفتاة كانت تنزل لأمّها عن جلّ أرباحها المحدودة ولا تكاد تُبقي لنفسها على شيء إلاّ ما يلزم لكسائها، وإلى هذا فما تبقى من أثاث البيت لا يفي ثمنه - إذا بيع جميعه - بمطلبه، فلم يجد من ملاذ أمامه إلاّ أخاه حسن وخاطب أمّه فيما تراءى له فوافقت عليه ولم يداخلها شكّ في نجدة ابنها الأكبر إذا وسعه ذلك، وأطلعت على عنوان أخيه لأوّل مرّة فمضى من توّه إلى شارع كلوت

كانت تزوّجت كأمثالها من الفتيات؟ كذب. لو كانت تزوّجت، بل لو لم تكن خياطة لاضطرّ كلانا إلى الانقطاع عن المدرسة والبحث عن مهنة حقيرة. هذه هي الحقيقة...

واشتدّ الغضب بحسين، لا لأنّه لا يسلم بما قال أخوه، ولكن لأنّه يسلم به في أعماقه، ولأنّه ما كان يرحّب حقًا بزواج الفتاة وسعادتها. «إنّا نأكل بعضنا بعضًا، ينبغي أن تُسرّ بهريج حسن وعبته ما دام يحيينا كلّ شهر بفخذ خروف. وينبغي أن نسرّ بأختنا الخياطة ما دامت تعدّ لنا لقمتنا الجافّة. وهذا الشابّ المتذمّر ينبغي أن يسرّ بانقطاعي عن التعليم ما دام سيتمّ تعليمه هو. يأكل بعضنا البعض. أيّ وحشيّة. أيّ حياة! لعلّي لا أجد إلاّ عزاء واحدًا وهو أنّ قوّة أكبر منّا جميعًا تطحننا طحنًا وتلتهمنا التهامًا وأنّا نصمد ونقاتل.» وتركز تفكيره في الخاطر الأخير، فيما سيّاه العزاء الوحيد، فسكنت نفسه، وسكت عنه الغضب وقال وكأنّه يخاطب نفسه:

نحن لا يأكل بعضنا البعض. لا تقل هذا (لم تكن هذه العبارة من قول شقيقه ولكنّه لم يظن لهذا)... لا تقل هذا أبدًا. نحن أسرة بائسة ولنا نظائر وأشباه لا يحيط بهم حصر. وواجب كلّ واحد منّا أن يجود بما يقدر عليه من البذل والتضحية... ثمّ طلب إلى أخيه في حزم أن يمكس عن الجدل، وكانا بلغا محطة الترام...

- ٤٦ -

وتبيّن لحسين أنّ الوظيفة - أو التضحية التي رضي ببذلها عن طيب خاطر - لم تكن منالًا يسيرًا، فقد انصرفت ثلاثة أشهر وهو يتردّد في همّ ويأس ما بين فيلاً أحمد بك يسري ووزارتي المعارف والحربيّة، وأخيرًا أخبره البيك بأنّه أمكن إلحاقه بوظيفة كاتب بمدرسة طنطا الثانويّة، وحسّه على تقديم نفسه للقومسيون والاستعداد للسفر لتسلم عمله في أوّل أكتوبر. وسرّ الفتى. وسرّت الأسرة، ولكنّه سرور لم يكن خالصًا، وشابته مرارة. كانت الأمّ تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر كي تنتشل الأسرة من وهدهتها

رائحة السلم، ووجد نفسه في دهليز شبه مظلم تكتنفه حجرتان واحدة إلى يمين الداخل والأخرى في مواجهته وإلى اليسار المرافق. وابتسم حسين إلى أخيه وقال كالمعتذر:

- هل أتيت مبكرًا؟.. الساعة الحادية عشرة!

فتشاءب حسن طويلًا ثم قال ضاحكًا:

- إنني أستيقظ عادة حوالي العصر. المغنون ليلهم نهار ونهارهم ليل. ولكن خبرني قبل كل شيء كيف حالكم؟

- بخير والحمد لله... وكيف أنت؟

فقال وهو يسير به إلى الحجرة التي إلى يمينه:

- نحمده...

دخلوا حجرة صغيرة تكاد تقسم مناصفة بين فراش وصوان بينهما إلى الجدار الداخلي كنبه علقت فوقها على الحائط صورة كبيرة تجمع بين حسن وامرأة لحيمة عميقة السمرة قد اعتمدت منكبه بساعديها المشتبكين، فثبتت عينا حسين عليها في دهشة لفتت نظر أخيه فتساءل ضاحكًا:

- ماذا يدور برأسك؟

فسأله حسين بسداجة:

- هل تزوجت يا أخي؟

فأجلسه على الكنبه ووثب إلى الفراش وترجع عليه وهو يقول:

- تقريبًا...

- خطبت؟

- الثالثة...

- الثالثة؟!

- أعني الفرض الثالث!

فرجع الشاب إليه عينين داهشتين في وجوم ثم ابتسم ابتسامة آليّة على الرغم منه ولاح في وجهه ما يشبه الحياء فضحك حسن عاليًا وقال باستهانة:

- هي زوجة في كل شيء إلا العقد...

فسأله حسن في خوف:

- ألسنت وحدك الآن؟

فحنى رأسه دلالة الإيجاب، ثم تشاءب بصوت

بك وراح يبحث عن عطفة جندف. وكان غادر البيت كبير الأمل ثم تسأل القلق إلى نفسه رويدًا رويدًا حتى تسأل في النهاية ترى هل يعطيني حسن ما أريد حقًا؟! وإذا لم يفعل فهل تضيع الوظيفة من أجل بضعة جنيهات لا يجدها؟! ثم اهتدى إلى عطفة جندف وهو على حال من التشاؤم مؤلمة، ووجدتها عطفة ضيقة متعرجة، تقوم على جانبيها بيوت متداعية، وتسطع في هوائها الفاسد رائحة السمك المقلّي، وتكتظ بالمارة وعربات اليد، وتتجاوب في جوها نداءات الباعة ثم تتخللها شتائم ونحنات محشجة وبصقات غليظة، ثم تأخذ أرضها المغطاة بالأتربة ونفايات الخضر وروث الدواب في الصعود تدريجيًا حتى خيل إليه في النهاية أنها مقامة على سفح تل. ومضى الشاب إلى البيت رقم ١٧ وهو بيت قديم من دورين يلفت الأنظار بضيقه فكأنه عمود ضخّم، وقد جلست غير بعيد من مدخله بائعة دوم ولب وفول سودانيّ فدخل كالتردد وارتقى سلمًا حلزونيًا بغير درابزين وقد زكمت أنفه رائحة ننته صاعدة من بثر السلم، حتى انتهى إلى الدور الثاني وطرق الباب. كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحًا، وكان أخوف ما يخافه ألا يجد أخاه في الشقة، وزاد من خوفه أن أحدًا لم يلب الطارق. وعاود الطرق بشدة ويأس حتى كلت يده، ثم وقف يائسًا لا يدري ماذا يصنع، وقبل أن يتحوّل عن موقفه جاءه صوت غليظ من الداخل يهتف بحنق:

- من ابن الكلب الذي يطرق الباب في هذه الساعة المبكرة؟!

- أنا حسين يا حسن...

وقال الصوت بدهشة «حسين»، ثم سمع خشخشة المزلاج وهو يُرفع، وفُتح الباب، فرأى أخاه بشعر هائج مشعث وعينين محمّرتين منتفختين فمدّ له يده وهو يهتف بدهشة:

- حسين!.. أهلاً وسهلاً، ادخل، خيرًا إن شاء

الله. ماذا وراءك؟

فدخل حسين في شيء من الارتباك، وسرعان ما تطاير إلى أنفه عرف بخور طيب بدا عذبًا مريحًا عقب



تصرف المرتبات مؤخرًا!  
وأدرك حسن ما يعنيه قبل أن يتم كلامه، فتفكر  
دون أن يبدو على وجهه شيء مما يدور في نفسه. ثم  
سأله:

- وما المرتب الذي تنتظره؟  
- سبعة جنيهات.  
- يا خبيثها يوم أرسلتك إلى المدرسة! .. وطبعًا لا  
تملك من نفقات السفر ومعيشة شهر أكتوبر مليًا؟  
فابتسم حسين في تسليم وهو يعجب لما شعر به نحو  
أخيه - في هذا الموقف - من الارتباك والحياء كأنه يسأل  
رجلًا غريبًا. وجعل حسن ينظر إليه صامتًا وعقله لا  
يبي عن التفكير. «جاء حسين في ظرف غير مناسب.  
إنني أنتظر نقودًا لا أدري متى تأتي ولكن يدي الآن  
فارغة. مصفاة لا يبقى فيها شيء. تبًا لها! لا يمكن أن  
أصارحك بالحقيقة، لتقم القيامة قبل ذلك. إنه في  
حاجة ملحة إلى النقود، ولا بد أن يحصل عليها.  
مستقبل الأسرة يتوقف على هذه الجنيهات، وليست في  
الواقع بالكثير، ثمن أوقيات حشيش، وينفق مثلها أي  
فتى أرعن في أسبوع بدرج طياب. سناء مفلسة أيضًا،  
لم أعد أبقى لها على شيء. ولكن لا بد أن أعينه،  
كيف؟ ولماذا لم يحضر إلّا اليوم؟ إلّا لم تبقى أسرتنا شوكة  
في جنيبي؟!». وظلّ ينظر إلى أخيه صامتًا حتى امتلأ  
حسين قلقًا وخوفًا. ثم غادر حسن الفراش فجأة  
وذهب إلى الصوان ففتح درجًا وعكف عليه دقائق ثم  
عاد إلى مجلسه ومدّ يده إلى أخيه فإذا فيها أربع أساور  
ذهبية، وقال بسرعة:  
- خذ هذه الأساور، وبعها في الحلال وانتفع  
بشمنها. . .

وجمدت يد حسين فلم تتحرك، واتسعت عيناه  
انزعاجًا وإنكارًا، وهتف وهو لا يدري:  
- ما هذا؟! أساور من هذه؟  
فقال حسن ببساطة وقد ضايقه انزعاج الآخر:  
- أساور سناء، امرأتى!  
- وبأي حق آخذها؟  
- إن أخاك يعطيك إياها. لا شأن لك

مرتفع كالنبيق، ثم قال محذرًا:  
- طبعًا لن نخبر أحدًا؟  
- طبعًا. . .  
فضحك حسن وقال:  
- لا أحب إيذاء مشاعرهم، هذا كل ما هنالك.  
وبهذه المناسبة ألم تجرب النساء؟  
فهز الشاب رأسه سلبيًا في حياء فسأله مستطردًا:  
- وحسين؟  
فارتج قلبه في خوف وألم لم يدري لها سببًا، ثم قال:  
- ولا حسين. . .  
فتفكر حسن مليًا ثم قال:  
- هذا أفضل بالنسبة لكما. . . (ثم ضاحكًا) إذا  
نويت الزواج يومًا فاقصدي أزودك بنصائح عظيمة.  
فقال حسين بهدوء:  
- لست أفكر في الزواج كما تعلم. . .  
- أمن الممكن أن يتزوج حسين قبلك؟  
فخفق قلبه، ولكنه قال بهدوء:  
- هذا مؤكد لأنه مرتبط بوعد قديم. . .  
فقال حسن بتأثر:  
- على أية حال إذا انتهى حسين من دراسته فليس  
ثمة عائق. آه، على فكرة، ماذا جدّ من أنباء الوظيفة  
التي تبحث عنها؟  
وسرّ حسين بما هيّا له من فرصة يلج بها موضوعه  
فقال:  
- لقد جئتك لأخبرك بأنني تعيّنت كاتبًا بمدرسة  
طنطا الثانوية، وبأنني سأسلم عملي في أول  
أكتوبر. . .  
فقال حسن بدهشة:

- هل تسافر إلى طنطا؟ .. وما الفائدة التي تجنيها  
أمك إذا فتحت بيتًا جديدًا في طنطا؟  
- فائدة قليلة، ولكن ما الحيلة؟  
- هذا سوء حظّ قارح، وهذه هي نتيجة المدرسة!  
فابتسم حسين يغالب ارتباك، ولم أطراف شجاعته  
وقال:  
- سأسافر في نهاية سبتمبر، وأنت تعلم أنّ الحكومة

وكانت الأساور ما تزال في يده. فخفض عينيه وقال  
بخجل:

- إني أشكر لك كرمك، وأقبله على العين والرأس،  
وأرجو أن تعدّه دَيْنًا أقضيه عند الميسرة بإذن الله...  
- أقبله هديّة إذا شئت، ولا تنس أن تحبر أمك بأنني  
أقترضت النقود من الأستاذ صبري...

وأثار ذكر أمّه ألمًا حادًا في نفسه فوجد امتعاضًا،  
وتضاعف هذا الامتعاض وهو يتناول الأساور ويدسّها  
في جيبه، ثم قال:

- يؤسفني أنّي أزعجتك، وأظنّ أنّه ينبغي أن  
أذهب كي تواصل نومك...

فمدّ حسن له يده بالسلام، وضغط على يده باسماً،  
ثم قال:

- مع سلامة الله. بلّع تحيَّاتي للجميع، وقل لأُمك  
بأنني سأزورها قريبًا...

وغادر الشقة شاعرًا بغربة وإنكار. وهبط السلم  
الذي لا درابزين له في حذر، ولكنّه لم يتنبّه للرائحة  
النتنة من شدّة إغراقه في تيار أفكاره...

- ٤٧ -

كانوا يجلسون بحجرة الإخوة التي ستصبح من الآن  
فصاعدًا حجرة حسين وحده. ورتت نفيسة إلى وجه  
حسين فغمر الألم قلبها وهتفت:

- ربّاه. هذه آخر ليلة نجتمعنا معًا!

أحسّت الأمّ بطعنة تصيب فؤادها الذي علّمه  
الدهر من الصبر فنوّنا، ولكنّها ابتسمت، أو رسمت  
ابتسامة على شفّتها الجافّتين، وقالت بعطف:

- حسين رجل كامل، وسيعرف كيف يعيش وحده  
دون ارتباك أو اضطراب. وإني مطمئنة كلّ الاطمئنان  
إلى أنّه لن ينسانا، فسيذكرنا دائمًا كما سنذكره دائمًا.  
وهذه هي الحياة يا عبيطة، ومصير كلّ أسرة إلى التفرّق  
السعيد - على ما به من حزن - حيث ينهض كلّ بدوره  
الجديد...

وكان حسن يعرف أمّه جيّدًا فأدرك أنّها تداري  
حزنها بالحكمة والحزم كعادتها دائمًا، فصمّم على أن  
يعالج وحشة قلبه بالحزم كذلك. لقد بكى مرّة

بصاحتها...

واشتدّ انزعاجه وتساءل في امتعاض كيف يعيش  
أخوه؟ ثمّ تتمم:

- لست مرتاحًا إلى أخذها، أما من سبيل آخر؟  
وحنق حسن على هذا «التعقّف» فقال بجفاء:  
- إذا كنت حنبليًا حقًا فما عليك إلّا أن ترفضها،  
وليس عندي غيرها!...

فرمقه بارتياح، ولكنّه قرأ في وجهه الصدق فأحسّ  
بضيق وقهر. «أساور امرأة!... أيّ امرأة!... محال.

شيء لا يصدّق ولا يمكن أن يدور لي بخلد، ولم أعلم  
- ولو في كابوس - بأنّه وقع لي. كيف يمكن أن أحترم

نفسي بعد ذلك؟! أرفض؟ والعمل؟! ليس لديه نقود  
أخرى، ينبغي أن أصدّقه. ولكن محال أيضًا أن أضيّع

الوظيفة، وما عسى أن أصنع لو أفلتت الفرصة؟ كلًّا  
لا يمكن أن أرفض. لا يمكن أن أقبل. لا يمكن أن

أرفض. لا يمكن أن أقبل. أرفض. أقبل. أرفض.  
أرفض. أقبل. أقبل. شيء واحد يستحقّ اللعنة، هو

الحياة، الحياة والحظّ... والوالدان اللذان أتيا بنا إلى  
هذه الدنيا. كان يلعب بأوتار العود ولا يبالي شيئًا!

سحقًا لي، كيف أفكر؟ هيهات أن أذهب من مخيلتي  
صورة جثمانه. رحمة الله عليه، ليس الذنب ذنبه.

كالدجاج نلتقط رزقنا بين القاذورات. حجرة الدجاج  
على السطح ملتقى حسين وبهية. شيء تسمثر منه

النفس؛ فلا أرفض. ولكن لا حياة إلّا بالإذعان. لن  
يدري أحد. ولكنّي سأذكره ما حييت، وسأخجل منه

ما حييت. إنّهُ ينتظر الجواب فإمّا الإذعان وإمّا الموت.  
فلاخذها كذّين ثمّ أقضيه عند الميسرة. إنك تخادع

نفسك. بل إني صادق ولأقضيّ ديني. أرفض أو لا  
تزعم بعد الآن أنّك رجل شريف. إني جائع. شريف

وجائع. ولن أرفض. ثبًا للحياة. إني أدرك الآن ماذا  
ساق أخي إلى هذا الوكر. أسرة ضائعة وحياة قاسية.

يجب أن أبتّ في الأمر وإلّا تفجّر رأسي  
كالدجاج...

- ماذا قلت؟

ورفع عينيه في ذهول وقد أثر فيه صوته تأثيرًا خفيفًا.

سيرتك الحميدة في بلدك الجديد، وأن تحذر صحبة  
السوء...

فابتسم حسين قائلاً:

- اطمئني كلّ الاطمئنان يا أمّاه...

على أنّ عبارة «صحبة السوء» استدعت إلى مخيلته  
صورة عطفة جندب والبيت الذي لا درابزين له  
والأساور الذهبية فشعر بفثور أغاض الإشراف الذي  
رسمته الابتسامة على وجهه فانحنى على الحقيبة ليواري  
وجومه عن الأعين، أمّا الأمّ فاستطردت قائلة باهتمام:  
- ولا تنس أسرتك. حقاً ليس ثمة حاجة إلى  
تنبيهك لهذا، ولكنني أحبّ أن أذكرك بأننا سنظلّ في  
حاجة إلى رعايتك حتّى يتوظّف حسين وتتزوج نفيسة!  
- ما توقّفت إلّا لهذا.

وسرّت في نفس نفيسة قشعريرة رعب، ونفذت  
كلمة «تتزوج» إلى أعماقها وخالتها تنبش ما استتر من  
خبيثتها. ألا يزال هذا الأمل يداعب أمّها؟.. ألا  
تدري أنّ الموت أحبّ إليها منه؟ ونظرت إلى وجه  
حسين بغرابة، إنّه لا يدري، وهيئات أن يخطر لهم  
هذا على بال. هيئات هيئات. وغابت الحجرة عن  
عينها فخيّل إليها أنّها تراهم وقد أحدقوا بها في ثورة  
جنونية وقد جحظت أعينهم ملتبهة بنار الغضب ثمّ  
انقضّوا عليها كالوحوش. وهزّت رأسها لتطرد عنها  
أشباح هذه الأوهام المرعبة فعادت إلى حاضرها، ولكن  
سرعان ما وجدت نفسها تتذكّر على الرغم منها  
ساعات ضعفها تلك الساعات التي تذهل فيها عمّا  
يدفعها إلى تسليم نفسها من دواعي اليأس والفقر،  
هنالك تنسى كلّ شيء إلّا الرغبة المحرومة الجائعة  
فتمثّل بنفسها أفضع تمثيل. تذكّرت ساعات الضعف  
هذه وهي بينهم صامدة فعلاها خجل أليم وخوف لا  
قيل لها به، وعادت تردّد بصرها بين أمّها وشقيقها  
بغرابة. ما يزال أمامها فرصة للتراجع، لا لرأب  
الصدع طبعاً فقد ولّى أوانه، ولكن... ربّاه لا  
تدري ماذا تقول، ما الفائدة؟ أيّ أمل قد بقي في  
الحياة؟.. لقد قضي عليها بأن تقضي على نفسها...

واصلت الأمّ حديثها قائلة:

كالأطفال ولكّنه لن يبكي مرّة أخرى. وتمتّ مقلداً أمّه  
في ابتسامتها:

- سوف نلتقي في الإجازات، ولعلّي أنقل يوماً إلى  
القاهرة. فقال حسين بأمل:

- لا بدّ أن يحدث هذا يوماً ما...

وكان حسين يجد كتابة وحنناً. لم يفترق عن شقيقه  
مذ رأى نور الدنيا فلم يدر كيف يلقي الحياة بدونه.  
كان شقيقه وصديقه ممّا، أجل كثيراً ما نشب النزاع  
بينهما، وبلغ الشجار أحياناً ولكن لم يكن لأحدهما غنى  
عن الآخر. لو كانت بهيمة أقلّ عناداً لما شكّا الوحدة  
قطّ، بيد أنّه بوسعه أن يتعرّى عن الفراق بالرسائل  
يجتريها له من أن لأن فتصل ما ينقطع بينهما من أسباب  
العشرة والحديث، ولعلّه يستطيع أن يسافر إليه في  
العطلة. ترى هل يمكنه أن يجري عليه راتباً شهرياً؟  
خمسون قرشاً أو ثلاثون خصوصاً وهو يعلم بأنّ راتب  
الدروس الخصوصية ينقطع بانتهاء السنة المدرسية!  
ليت شجاعته تؤاثره الآن فيحدثه بأمانيه!.. ولكن  
صبراً، وليؤجل هذا إلى فرصة أوفق.

وكانت الأمّ تواصل التفكير بلا توقّف. لقد وقّفت  
إلى الظهور بالمظهر الذي تحبّ أن تظهر به، أو الذي  
اعتادت أن تظهر به، ولكنّها كانت تعاني ألماً عميقاً  
بلغت شدّته ذروتها عند المساء، كانت تكابد تأنيباً خفياً  
لشعورها بأنّها تؤثر حسين بأكبر جهاد، والآن ماذا  
ترى؟.. ترى الأخ السوديع يضحي بمستقبله ويرمي  
بنفسه بين أحضان النوى في سبيل الأسرة، بل في  
سبيل حسين بالذات. وضاعف من آلامها أنّها كانت  
ترى الواجب يحتم عليها خوض حديث أبعد ما يكون  
عن العواطف، حديث إن دلّ ظاهره على الحذب على  
الفتى المسافر فباطنه يرمي إلى الدفاع عن الأسرة قبل  
كلّ شيء. وجعلت تؤجّله وهو يلجّ عليها حتّى اقتنعت  
بأنّها إذا لم تسقه الآن فقد تفلت منها الفرصة إلى  
الأبد، ونظرت إلى حسين بإشفاق وحنان - وكان يرتّب  
ثيابه في حقيبة أبيه - وقالت:

- إنك رجل عاقل، وهذا ما يجعلني جديرة  
بالاطمئنان ولست أطمع في شيء أكثر من أن تواصل

كبيراً، ووجد نحو الأسرة التي يحبها - الأب والأم والفتاة وتلميذه السابق - امتناناً عميقاً، وجرى الحديث بين ذكريات الماضي وآمال الحاضر لطيفاً صادقاً، مباركة عليك الوظيفة، تسافر مصحوباً بالسلامة، ستترك وراءك وحشة، لقد خسر سالم أستاذًا لا يعوّض، إلخ وبهية نفسها على حيائها وتحفظها قالت بركة «تعود بالسلامة قريباً إن شاء الله» فشكر لها تلفظها بلسانه وقلبه «فتاة حسنة حقاً، مهذبة محتشمة، وحسين شاب رائع وسيكون زوجاً رائعاً. ترى ألم يقبل هذا الثغر؟ طالما شكّا تحصنها متدماً فيا لها من فتاة نادرة حقاً! سأسافر غداً ونمسون صوّراً وذكريات، وستجتمعون كاجتماعكم هذا، وربما لا تذكرني إلا قليلاً، أو لا تذكرني بتاتاً، ولكن كيف أكون؟ وأين؟ وهل أملك مع وحدتي إلا أن أذكركم؟ كلّمّا اشتدّ الدهر ازدادت قوّة وصبراً، ولاظننّ هكذا إلى الأبد!..»

#### - ٤٨ -

غاب وجه حسين في زحمة المؤدعين، وتراجع سقف محطّة مصر الهرميّ حتّى بدا من الداخل مظلماً، كلّ شيء يتراجع بسرعة متزايدة، وداعاً يا مصر. وعاد حسين برأسه إلى الداخل واعتدل في جلسته وهو يغمض عينيه ليخفي دموعاً رقيقة غالبت إرادته طويلاً ورمش سريعاً لينفض نداها عن أهدابه. وكان إلى يساره أفنديّ يتصفّح جريدة على حين جلس قبائله قرويان يتجادبان الحديث ومع أنّ العربية كانت نصف ممتلئة إلا أنّ ضجّة الراكيين كادت تملو على صلصلة عجلات القطار، وذكر في حزن مرطّب بسرور أنّه رأى دموعاً في عيني حسين، أجل لقد تجلّداً وهما يتحادثان على طوار المحطّة، ولكن حين تحرّك القطار وأخذ الفتى يلوح له بيده اغرورقت عيناه بالدموع. وفي البيت كانت نفيسة تبكي صراحة حتّى التهب عينها، لشدّ ما يذكر وجهها - الذي حرمه الله نعمة الحسن - بعطف وثناء وحنان. أمّا أمّه - وقد ابتسم على رغبته - فقد ضمّته إلى صدرها وقبّلت خديّه، ولعلّها تفعل هذا لأوّل مرّة، أو في الأوّل فهو لا يذكر أنّها قبّلت قبل

- أنظر ماذا يلزمك من نقود كي تنهض بضرورات المعيشة وأرسل إلينا الفائض من مرتّبك. لا بدّ من هذا يا حسين لأنّه لم يعد يبقى لدينا ما يستحقّ البيع. - سأبذل قصارى جهدي.

وتبدّد أمل حسين - أو كاد - من الفوز براتب شهريّ من أخيه بعد أن طالبت الأمّ بالفائض من مرتّبه. أجل لا يبعد أن تحسّ الأسرة بشيء من الترفيه ولكنّه لن يروي جفاف يده، خاصّة في العطلة الصيفية الطويلة. ترى هل تطالبه أمّه إذا وُظف يوماً ما بما تطالب به حسين؟ غير معقول. إذا انتهى هو من دراسته فستخفّف أمّه من أثقل واجبات الأسرة، ويسعه وقتذاك أن يتزوّج وأن يعنى بأمر نفسه. إنّ نفيسة وحسين يتصدّيان للزوجة في إبتائها، وقد وجد نحوهما عطفًا وثناء دون أن يمنعه هذا من الفرح بحظّه.

ولم تفرغ الأمّ من الإفصاح عمّا يدور بنفسها كلّها، فودّت لو تحدّره من أن يستدرجه أحد إلى الزواج. ولم تكن تجهل أنّ كثيراً من الآباء والأمّهات يتصدّدون العزّاب أمثاله في غربتهم بسهولة: ولكنّها لم تدرك كيف توجه إليه هذا التحذير وعن يمينه أخوه الأصغر قد خطب وتبيّن للزواج وهو ما يزال تلميذاً!.. عدلت عن رغبتها كارهة، ولكن مطمئنة في الوقت نفسه إلى رجاحة عقله وحسن تقديره. وتحدّثوا طويلاً ما شاء لهم الحديث. ثمّ جاء فريد أفندي محمّد وأسرته لتوديع حسين. واستقبلوهم ما يستقبلونهم عادة بالترحيب والسرور، فليس ثمة أحد إلا ويقدر مودّتهم وكرمهم وحسن جبرتهم. أجل لعلّه طراً على بعض النفوس تغير باطنيّ منذ تمّت خطبة حسين لبهية غير الرسمية، فالأمّ مثلاً أمنت بأنهم رموا شبابهم حول الفتى قبل أن ينهض، وأنهم راموا باستئثارهم أشدّ آمالها تألقاً، أمّا نفيسة فلم يكن بوسعها أن تحبّ شخصاً يطمح إلى امتلاك حسين خاصّة. ولكنّ هذه المشاعر الصامتة لم تكن لتؤثّر في رابطة الودّ والإخاء التي تجمع بين الأسرتين، ولم يكن من الهين أن تنسى الأمّ أيادي فريد أفندي ومروءته. وقد سرّ حسين بزيارة التوديع سروراً

إنَّ مصر تأكل بنيتها بلا رحمة. مع هذا يقال عَنَّا إِنَّا شعب راضٍ. هذا العمري منتهى البؤس. أجل غاية البؤس أن تكون بائسًا وراضيًا. هو الموت نفسه. لولا الفقر لوصلت تعليمي هل في ذلك من شك؟ الجاه والحظ والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية. لست حاقداً ولكنِّي حزين. حزين على نفسي وعلى الملايين. لست فرداً ولكنني أمة مظلومة، وهذا ما يوَلِّد في روح المقاومة ويعزِّزني بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه. كلاً لست حاقداً ولا يائساً أيضاً، وإذا كانت فرصة التعليم العالي قد أفلتت من يدي، فلن تفلت من يد حسنين، وربّما وجدت نفيسة الزوج المناسب. سوف تردّ الروح إلى أَسْرَتنا فنذكر أَيْامنا السود بالفخار» ولاحت منه التفاتة إلى يساره فوجد الأُفنديّ الذي كان يتصفّح الجريدة قد طواها ونظر إليه نظرة من ضاق بالوحدة وألصمت، وكأنّه كان ينتظر هذه الالتفاتة العارضة فقال بلا داعٍ ولا تمهيد وهو يلوح بالجريدة المطوية:

- لولا الطلبة ما ائتلف الزعماء، من كان يتصوّر أن يجلس صدقي مع النحاس على مائدة واحدة؟  
ورحب حسين بالحديث ليريح رأسه من أفكاره وقال:

- هذا حقّ يا سيّدي.  
- ومن كان يصدّق أن يعترف الإنجليز بأنّ مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وأن ينزلوا عن التحفّظات الأربعة؟.. أتظنّ أن تلغى الامتيازات حقاً؟  
- أعتقد هذا.  
فقال الرجل بسرور:  
- سيحكم النحاس إلى الأبد. انتهى عهد الانقلابات. حضرتك وفديّ.

- نعم...  
- قرأت هذا في سباحة وجهك. الوطني هو الوفديّ، وما الأحرار الدستوريّون إلّا إنجليز بطرايش بصرف النّظر عمّا يقال عن الائتلاف وفوائده.  
- هذا حقّ لا شك فيه...  
- حضرتك مسافر إلى الإسكندرية؟

هذه المرّة! لشدّ ما تأخذ نفسها بالحزم حيالهم، هذا طبعها، ولكن هيهات أن يطمس حنانها العميق. ولم تشأ أن تبكي وهي تودّعه إذ أنّها تشاءم من دموع التوديع، ولكنّه قرأ في تقلّص جفניה نديراً بالبكاء لا يلبث أن يستفيض دموعاً إذا واره الباب عن عينيها. قال لنفسه لعلّها بكت طويلاً، ولعلّها لا تزال تبكي، وشعر لهذا بكاءة وحزن. ولم يكن رآها تبكي قبل وفاة والده فاشتدّ تأثره، «يا لها من امرأة عظيمة. شاء الله أن يبتلي أَسْرَتنا بمصيبة قاصمة ولكن سبق لطفه فقدر أن تكون هذه المرأة أمّنا. ماذا يكون مصيرنا لولاها؟ كيف غدّتنا وكسنتنا؟ كيف سيطرت على توجيهنا؟ كيف نهضت بضرورات أَسْرَتنا في هذه الظروف القاسية؟ يا لها من معجزة تحجّر العقول. حتّى حسن أخي فني ظنّي أنّه لولا المرحوم أبي لأمكن أن تجعل منه رجلاً غير الرجل. آه... لاقتصدنّ في الكلام عن حسن. لولاه ما عرفت سبيلي إلى وظيفتي، نفوده هي كلّ مالي حتّى آخر الشهر. الأساور؟ يا للذكرى! انس، ينبغي أن أنسى كي أعيش. سأقضي الدين يوماً وأسدل الستار على أسوأ الذكريات». وأرسل بصره من النافذة فأرأى من أفكاره فرأى الحقول تترامى حتّى الأفق، والخضرة يانعة ناضرة بهيجة تميل رءوسها مع الهواء في موجات متصلة، وهنا وهناك فلاحون وثيران تلوح كالدمى تكاد تبتلعها الأرض، وسوائهم ترعى، وفوق هذا كلّ شيء الخريف متلفعة بياض شاحب ينحسر في أكثر من موضع عن بحيرات من زرق صافية. ومرّ القطار بجدول صافٍ ذابت أشعة الشمس على سطحه زئبقاً يبهز الأعين. ورأى أسلاك البرق في أمواجه المتواصلة تشملها حركة منتظمة كأنّها تسبح في الفضاء على وقع طفطقة القاطرة الرتبية. ثمّ مدّ بصره كرة أخرى إلى الأرض المنبسطة، الصامتة الصابرة، الخيرة، فذكر دون وعي أمّه!.. كهذه الأرض الخضراء صبراً وجوداً والدهر يجرّثها بسنانه! لم يعد بوسعها أن تقوم بزيارة محترمة لأنّها لا تجيد الثياب اللائقة! وتغيّمت عيناه فغابت عن ناظره بهجة المنظر ودعا الله أن يرزقه حتّى يرقّه عن أمّه المتصبرة وأسرته المتجلّدة. «يا للعجب.

- إلى طنطا فقط.

- شي الله يا سيّد يا بدوي، لقد عشت في طنطا أعوامًا...

ولاح الاهتمام في وجه حسين فسأل:

- إني موقف جديد، فهل أدلتني على فندق معتدل الأسعار يصلح للإقامة؟

فجعل الرجل يدعك ذقنه بيده متفكرًا ثم قال:

- عليك بفندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق لصاحبه ميشيل قسطندي.

يمكن أن تقيم في حجرة نظير جنيه ونصف شهريًا...

ثم تحدّثا طويلاً عن الإقامة في الفنادق وسكنى الشقق والمفاضلة بينها...

- ٤٩ -

كانت حجرته بالفندق صغيرة، ذات فراش لشخص واحد وصوان ومقعد خشبيّ ومشجب، وكان جوها يشي بالرطوبة الكامنة، إذ كان بها نافذة واحدة تفتح على عطفة جانبية ضيقة ويحول بينها وبين الفضاء جدار بيت قديم، فلم تجد الشمس سبيلاً إليها. وكان يوجد بالفندق حجرات تطلّ على شارع الأمير فاروق ولكنّها مرتفعة الإيجار فعدل عنها إلى هذه الحجرة البسيطة قائلاً لنفسه: «من العدل أن أعيش كما يعيشون في عطفة نصرالله». وكان أول ما فعل أن فتح النافذة وأطلّ منها مدفوعاً بحبّ الاستطلاع فوقع بصره على عطفة حقيرة تقوم على جانبيها بيوت قديمة فعجب للفرق الكبير بينها وبين الشارع الذي تتفرّع منه، ثم رأى جدار البيت الذي يحجب عنه الفضاء فداخله ضيق وأيقن بأنّه لن يظفر في وحدته بتسليّة. وتحول عن النافذة إلى مرآة الصوان فطالع صورته في هيئة غريبة، بدا وجهه طويلاً وقسماته شائهة إلى ما تنأثر على صفحتها الباهتة من إفرازات الذباب، فتضاحك وقال مخاطباً صورته «إني أجمل منك بفضل الله ورحمته» ثم مضى يخلع ثيابه، وارتدى جلبابه، وربّ ملابسه القليلة في الصوان الذي بدا على صغره فارغاً، والواقع أنّه لم يكن يملك غير بدلة وجلبابين وملابس داخلية

من نسختين، وجميعها قديمة عملت بها يد الرفو والترقيع، وعلى سبيل الاطمئنان دسّ يده في جيب الجاكتة وأخرج رزمة الجنيّهات وعدّها ثم أعادها إلى مكانها وقد عاودته ذكرياتها الأليمة، ثم ذهب إلى الفراش وتربّع عليه. لا يدري ماذا يفعل في بقية النهار، ولمّا لم يجد أحدًا يحادثه ولا عملاً يعمله فقد استسلم بكليته إلى التأملات والأحلام. وشعر بالوحدة والدهشة، وأدرك أنّه سيعاني مرّة العناء من فراغه. أجل إنّهُ يحبّ القراءة ولكن حتّى إذا أمكنه ابتياع ما يريده من الكتب فسيظلّ لديه من الفراغ ما يضيق به. لم يألّف الحياة في هذا الصمت الثقيل، وشعر في وحدته الصامتة بأنّه شيء ضائع تافه لا يحفل به أحد ولا يابه له أحد. أين صوت حسنين الحادّ العصبيّ الذي لا يفتأ يضحّ بالضحك أو بالشكوى، أين صوت نفيسة الرفيع وتعليقاتها اليومية الساخرة على الجيران والحوادث. ولكنّه لم يشأ الاستسلام لشعوره، وأثر أن يبحث شئون ميزانيته التي سينقّم معيشتة على أساسها. مرتبه سبعة جنيّهات، مبلغ لا بأس به في ذاته لولا ما يحرق به من ظروف. منه أجرة سكن ١٥٠ قرشاً، و٢٠٠ قرش للأكل لا يجوز له أن يتعدّها بحال، فول للفظور، وطبق خضر باللحم وأرز ورغيف للغداء، وحلاوة طحينيّة أو جبن للعشاء، وإذا دعا الأمر أفلح عن العشاء كما اعتادوا أن يفعلوا طوال العامين المنصرمين، ومهما يكن من أمر فلن يسمح لمعدته بأن تكون مصدرًا للمتاعب والارتباك، إنّهُ أعظم من هذا وبوسعه أن يقرّر هذه الحقيقة الآن، وهو في مأمن من معارضة حسنين، وإنّ تحمّل المضايقة في سبيل الحياة التي يرضى فيها عن نفسه لالذّ من شهوة الطعام. ثمّ ٢٠٠ قرش لأمّه، وهو قدر زهيد، وكان بوده لو يضاعفه ولكن لا حيلة له فلم يبقّ لنفقاته الثريّة وكسائه إلّا ١٥٠ قرشاً فيما عدا الضرائب التي تخصم عادة من المرتّب. ثمّ تساءل فيما يشبه الحيرة ألا يمكنه أن يقتصد ولو مبلغاً قليلاً في صندوق التوفير؟ إنّهُ لا يطيق الحياة بلا اقتصاد من أيّ قدر كان، ولا يظنّ أنّ إنساناً احتضنته أمّ كأمّه يستطيع أن يمارس

اليوم الأول للفراق ثم يهون الأمر رويدًا رويدًا. وتحير ماذا يفعل، هل يقضي سحابة اليوم في هذه الحجرة أو ينطلق إلى الخارج ليجول جولة في المدينة الجديدة، ثم خطر له خاطر هبط على نفسه كما تهبط أداة النجاة على المتخبط بين الأمواج، وهو أن يكتب رسالة لأخيه. وجاء بخطاب وبدأ يكتب بلا توانٍ فوصف رحلته والفندق وصاحبه قسطندي وحجرته وأشواقه ثم حمّله تحياته إلى أمّه ونفيسة ثم توقف متسائلًا هل يهدي تحية إلى هبة؟ هل يذكرها بالاسم، أو يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد أفندي؟ ثم أثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغي...

- ٥٠ -

وغادر حجرته في الصباح الباكر، ولكنّه وجد الخواجا ميشيل قسطندي جالسًا إلى مكتبه البالي عند أسفل السلم. وقد سأله الرجل عمّا إذا كان يحتفظ بشيء ثمين في حجرته، فابتسم حسين على رغمه وقال له «الأشياء الثمينة في جيبي». وانطلق إلى الطريق. ثم قصد إلى مطعم فول في نهايته كان عرف موقعه في أثناء جولته أمس بالمدينة، وتناول فطوره، ولفت نظره بصفة خاصة سلطة حمّص لم يعرف لها نظيرًا في القاهرة. وتمشّى في المدينة حتى التاسعة ثم ذهب إلى المدرسة الثانوية ليقدم نفسه إلى الباشكاتب ويتسلم عمله رسميًا. وقد اهتزت نفسه لمراى المدرسة، وعاودته ذكريات قرية حية لاحت في عينيه كالخلم. وعرف البواب بشخصيته فمضى به إلى حجرة الباشكاتب وطلب إليه أن ينتظر حتى يحضر الرجل عمّا قليل. وجلس حسين على كرسي قريبًا من المكتب وجعل ينظر خلل الباب المفتوح إلى فناء المدرسة في جوٍ يثقل عليه الصمت. بعد أسبوع يبدأ العام الدراسي وتتمثل هذه المدرسة بحياة حارة. وذكر كيف كان - منذ أشهر - يقضي أسعد أوقاته بالمدرسة في مثل هذا الفناء، وكيف كان يمتلئ خشوعًا حيال أي موظف من موظفيها. إنه الآن أحد هؤلاء الموظفين، بيد أنه لم يستسلم للزهو. إن التلميذ حلم أمّا الموظف فحقيقة، التلميذ مشروع مستشار أو وزير أمّا الموظف فدرجة

الحياة بلا اقتصاد. والحق أن أمّه بين النساء كالمنايا بين الدول قادرة على الاستفادة من كلّ شيء ولو كان زباله! كانت ترقع البنطلون حتى إذا بلغ اليأس قلبته، فإذا أدركه اليأس مرة أخرى قصّت أطرافه وجعلت منه سرورًا داخليًا، ثم تصنع من بعضه طاقة وتستعمل بقيته ممسحة. ولا يلفظه البيت إلا فتيتًا. لا بدّ من الاقتصاد مهما كلفه الأمر، وإنّ قسوة الحياة التي عضّتهم بلا رحمة لحرّية بأن تجعل من الاقتصاد عقيدة لهم. وعندما بلغ هذا الحدّ من التفكير تداعت إلى نفسه مشاعر الخوف التي كانت تعذب أسرته بسبب وبلا سبب والتي لم يكن من باعث لها إلا الفقر. أجل كانوا في خوف دائم من أن تزيد النفقات الضرورية على الإيراد المحدود، كأن يتعرض أحدهم للمرض، أو يجد من ناحية المدرسة طلب، أو تتعطل نفيسة عن الكسب ردحًا من الزمن أو أو، ممّا لا يقف عند حدّ، أوّاه لشدّ ما يشعر بغمز الألم في صميم قلبه وهو يجترّ هذه الذكريات، ومن خلالها يترأى لعينيه وجه أمّه المعروق الجاف كمثل حيّ للصبر والألم، أحبّ الوجوه إلى قلبه على بؤسه ودماسته، ومن عجب أن نفذت إلى نفسه - وقتذاك - نسمة مطلولة بغتة لشعوره بأنّه بات قادرًا على التخفيف عنها ممّا يثقل كاهلها. أجل إنه من الغد موظف من موظفي الدولة، وبعد أعوام قصيرة أو طويلة يصبح حسنين موظفًا أيضًا من درجة أعلى، وسيفآخر هو مدى الحياة بأنّه قنع بشهادة متوسطة ليسانس لأخيه الحصول على شهادة عليا. ترى هل يذكر حسنين هذه العبر؟ إنه يبدو مشغولًا بأمر نفسه عمّا عداها، ذكي بلا ريب، ومجتهد، بيد أنّه... آه فليمسك عن نقده في غربته. فما أشدّ حنينه إليه، وما أكبر شوقه حتى إلى عناده وملاحاته. ومزق الصمت صفير قطار قطع عليه أفكاره وخفق قلبه. وكان الفندق غير بعيد من المحطة، فلم يكن بدّ من أن تذكره القطر بين آن وأن بالقاهرة وأهلها. وعاودته ذكريات الدواع فنهشت قلبه حتى سحّ حينًا دافقًا. ثم غشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكتابة فقال لنفسه يصبرها ويعزّيها: لعلها ضريبة

- إن شاء الله. أحببت أن أعرفك بنفسى، لهذا كلما هنالك. إني ألن نفسي كثيرًا. اللعن مريح في أحيان لا حصر لها، ولولاه لمت كثيرون كمداً. ستعلم عما قريب معنى العمل في مدرسة (ثم متنهّداً) وصل الكتاب الخاص بتعيينك من الوزارة (وبحث عنه في أوراقه حتى وجدته) وهو الرقيم ١١٧٥ بتاريخ ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٦. وقد جئنا ونحن في أشد الحاجة إليك، وستبدأ الآن في مراجعة كشوف الأسماء والمصروفات. لقد تزوّج الكاتب السابق من كريمة مفتش بالوزارة فنقله فجأة إلى القاهرة. حضرتك متزوّج يا حسين أفندي؟

فقال حسين مبتسماً:

- كنت تلميذاً حتى الربيع الماضي!

- وهل تظن أن التلمذة مانعة من الزواج؟ لقد تزوّجت وأنا تلميذ بالثانوي، وهذه أيضاً من عادات أسرتنا كتسمية الابن الأكبر باسم أبيه، وكان لنا عادات أخرى عظيمة أبطلها صديقي باشا لا سامحه الله...

فنظر حسين متسائلاً، فاستطرد الرجل في حزن قائلاً:

- والدي حسن بك وفدي كبير وأحد أعضاء الهيئة الوفدية. وقد طالبه صديقي باشا أثناء حكمه المشؤم بالانفصال عن الوفد ولما أبى كما ينتظر منه حرمه معونة بنك التسليف في عز الأزمة فبيعت الأرض وضاعت الثروة.

فقال حسين:

- ولكنّ النحاس قد عاد إلى الوزارة؟

- ولكنّ الأرض ضاعت. والأدهى من هذا كله أن صديقي انضم إلى الوطنيين وقد خطب أول هذا العام في مستقبله بدسوق فبلغهم تحيات «زعيمي النحاس» يا خسارتك يا حسن حسن حسن!

فتظاهر حسين بالتأثر وغمغم:

- ربنا يعوضكم عن خسارتكم خيراً...

فهزّ الرجل رأسه، وسكت دقيقة، ثم قال:

- حظك سعيد إذ عُينت في المدرسة بعد أن ولّى

ثامنة لا أكثر. ولم يطل به الانتظار فما عثم أن صبغت أذنيه سعة غليظة ونحنة عميقة ثم أزيز بصقة، ورأى على الأثر رجلاً يقتحم الحجرة مهرولاً، قصير القامة، رقيق الجسم، كروي الوجه، أعمش العينين، تعلوه صلعة ناصعة البياض، وقد قبض على طربوشه بيد وراح يحفّف صلعته بمندبل باليد الأخرى، وما إن وقعت عيناه على الشاب حتى صاح به:

- بسم الله الرحمن الرحيم، كيف طلعت هنا؟.. هل بتّ ليلتك في حجرتي؟.. تلميذ مستجداً؟! فوقف حسين مرتبكاً وقال:

- أنا يا بك الكاتب الجديد حسين كامل علي... فقهقه الرجل ضاحكاً. ولكن أدركه السعال وعادته النحنة فامتلاً فمه مرة أخرى ونظر حوله في حيرة، ثم جرى إلى الخارج، وغاب نصف دقيقة ثم عاد أحسن حالاً وهو يقول كالمعتذر:

- لعن الله البرد، أصاب به كلّ مطلع فصل من فصول السنة فتجدني في حيرة دائمة ما بين فصول السنة وفصول المدرسة، لا مؤاخذه يا حسين أفندي السلام عليكم أولاً...

فمدّ حسين يده مبتسماً وهو يرّد تحيته بأحسن منها، ثم جلس الرجل إلى مكتبه ودعاه إلى الجلوس فجلس، وأنشأ الباشكاتب يقول:

- لاسمي حسن حسن حسن. العادة في أسرتنا أن يتسمّى الابن الأكبر باسم أبيه، ألم تسمع بأسرة حسن بالبحيرة؟ كلاً؟.. كلاً كلاً يا سيدي، الله الغنيّ، التلاميذ الكلاب يدعونني بحسان أس³.

فضحك حسين ملء قلبه، ولكنّ الرجل حدّجه بنظرة انتقاد من بصره الأعمش وقال:

- علام تضحك؟ ألم تتخلص بعد من عقلية التلاميذ؟ وبهذه المناسبة أقول لك إني رجل عصبي جداً ولكن قلبي طيب. وكثيراً ما ألن أبا أحسن واحد، بلا قصد سيئ ومع الاحترام الكلي للشخص الملعون! فافهمني ولا تنس آني في سنّ والدك!

فقال حسين في ارتباك شديد:

- لن يحصل بيننا ما يثير الغضب إن شاء الله.



وفرش الأخرى بالأثاث الجديد وكان للحجرة نافذة تطل على شارع وليّ الله - حيث يوجد مدخل البيت - وينسرح أمامها الفضاء بلا عائق لارتفاعها عمّا حولها، فشعر الفتى - بعد ضيق - براحة الفضاء وطلاقة الجو، وسُرّ لذلك كثيرًا. وكان يوم انتقاله إلى الشقة الجديدة يومًا سعيدًا حقًا، إذ إنّه وجد نفسه - لأول مرة في حياته - صاحب بيت وأثاث ومرتب. ولم يكن نسي ذلك الإحساس اللطيف بالارتياح والسرور الذي انبعث في نفسه وهو يتسلّم مرتبه صباح ذلك اليوم، ولا كيف دارى ابتسامة انطلقت من قلبه إلى شفّته حياء أن يطلع الصراف على فرحه، ولكنّ هذا السرور كلّه لا يعدّ شيئًا إلى السرور الذي امتلأ به قلبه وهو يبعث بالجنينين إلى أمّه، كانت لحظة عظيمة عرف أثناءها أنّ صبره الطويل لم يذهب سدى. وما كاد يستقرّ به المقام حتّى زاره حسّان أفندي مهتئًا وقال له «لن تكون غريبًا ما دمت بيننا» فشكر له فضله وحفظ له في نفسه من الامتنان ما هو خليق بقلبه الشكور، وغفر له ما يلقي منه في المدرسة من حدّة الطبع وسوء التصرف والارتباك في العمل، والحقّ أنّه قد ألف هوسه متعرّجًا بطيبة قلبه وخفّة روحه، ولم يرصّ حسّان أفندي أن يتركه منفردًا ودعاه إلى قضاء سهرته بشرفة شقّته فذهب معه مغتبطًا وجلسا معًا وحسّان أفندي يقول:

- يبدو لي أنّك لا تحبّ المقاهي فاجعل من هذه الشرفة ناديك الليلي... .

وكانت الشرفة مهية للجلسة الطيبة ففي جانبها الأيمن كرسيان كبيران من القشّ بينهما خوان وفي الجانب الآخر شلّة كبيرة تقوم وراءها وسادة، وعلى خوان في ركن من الشرفة وضعت صينية صُفّت بها قُلتان وإبريق وقد عام على الماء المجتمع في وسطها الليمون البنزهر. وراح حسّان أفندي يتحدّث بلا توقّف تقريبًا وكيفما اتّفق، وقد بدا في جلبابه الفضفاض أصغر منه في البدلة فلم يكن شيئًا يذكر، أو كان لسانًا فحسب. ورحب حسين بالجلسة لما عاناه من الفراغ في الأسابيع الماضية، فلم يكن يدري ماذا

عهد الإضراب، كادوا يحرقون بنا المدرسة أثناء المظاهرات الأخيرة لعن الله المظاهرات والطلبة وصدقي باشا. أين تقيم يا حسين أفندي؟ - في فندق بريطانيا.

- فندق؟! خيّبك الله، معذرة، أعني ساعلك الله. الفنادق مقام غير صالح للإقامة الطويلة ويجب أن تبحث فورًا عن شقة صغيرة.

- ولكنّي لم أحمل معي أثاثًا؟ فتفكر حسّان أفندي وهو يقرض أظافره باهتمام طارئ ثم قال:

- فرش حجرة لن يكلفك كثيرًا ويمكن أن تؤدّي ثمنه مقسطًا بضمانتي إذا شئت... .

وعاود التفكير وهو يتفرّس وجه الشاب واستطرد: - توجد شقة مكوّنة من حجرتين على سطح البيت الذي أقيم فيه لن تزيد أجرتها عن جنييه واحد فما رأيك؟

ثار اهتمام حسين لأول مرة بعد سماع قيمة الإيجار فقال:

- سافكر في الأمر جدّيًا... .

- الأمر واضح مثل  $1 + 1 = 2$  والآن هلمّ إلى العمل فإنّ الأوراق أكوام مذ تزوّج ابن القديّة ونُقل إلى القاهرة... .

- ٥١ -

وقرّر حسين أفندي أن يبقى في الفندق حتّى يتسلّم مرتبه أول الشهر الجديد، وأخذ يقتنع بمرور الأيام بوجوب الانتقال إلى شقة خاصّة يتهيّأ له فيها الشعور بالاستقرار والطمأنينة على وجه أفضل. وكان حسّان أفندي دائبًا على تزوين فضائل الإقامة في شقة له، حتّى هلّ الشهر الجديد فابتاع له فراشًا وصوآنًا صغيرًا ومقعّدًا بحوالي الجنينين تمّ الاتفاق على أدائها على أربعة أقساط بضمان حسّان أفندي، ولمّا كان إيجار الشقة جنيهاً فلم تزد نفقاته شيئًا. وكانت الشقة الجديدة تشغل نصف سطح البيت الذي يقيم حسّان أفندي بطبقته الوسطى، وكانت مكوّنة من حجرتين غير المرافق. فأغلق الشاب حجرة لعدم الحاجة إليها

اللعب والكلام معاً، وكان اللعب نفسه يهين له فرصاً لا تنتهي للثروة فكان يعلق على أية نقلة للقطع مزهواً بلعبه ساخراً من لعب الشاب، ثم صاح به بعد أن غلبه أول عشرة:

- العن سوء الحظ الذي رمى بك بين يدي، وهيهات أن تذوق الفوز ما دمت حياً. . .

وعادوا للعب بحماس وتحفز، وانهمك فيه حسين انهماكاً شديداً فلم يبق حتى طرق سمعه صوت أقدام خفيفة تقترب من الشرفة، والتفت نحو الباب بحركة عكسية فرأى فتاة تحمل بين يديها صينية شاي، وسرعان ما استرد بصره في حياء وارتابك لأنه أدرك من أول نظرة أن الفتاة لا يمكن أن تكون خادمة. وأحس بشخصها إحساساً غامضاً وهو ينحني قليلاً ليضع الصينية على كرسي خيزران، ثم به وهو يذهب مبتعداً. ولم يكن بصره قد ارتد عنها فارغاً، أجل علفت به صورة وجه ممثل يميل إلى البياض، وعينين سوداوين - أو لعلهما عسلتان؟ - ذواتي نظرة مليحة. ولبت في ارتبائه موزد الوجه على حين أمسك حسان أفندي عن ثروته بغتة، ثم عاد يقول بصوت منخفض:

- هذه ابنتي إحسان، لم أر بأساً في أن تقدم لنا الشاي ما دمت أعدك كأحد أبنائي. . .

وحرك حسين شففيه كأنه يتكلم ولكنه لم ينبس بكلمة، وقال حسان أفندي وهو يصب الشاي في القدحين:

- البنت في البيت نعمة كبرى، لقد تزوج أخواتها واحدة في القاهرة واثنتان في دمهور ولم يبق غيرها!

تمتم حسين في ارتباك:

- ربنا يفرحك بها. . .

ومضيا يحسبان الشاي في صمت. وأخذ الارتباك يذهب عن حسين مخلفاً وراءه شعوراً بالخرج لم يدر له سبباً واضحاً، أو لعله تهرّب من السبب وتجاهله. ووجد إلى هذا أنه لا يزال متأثراً بما علق في مخيلته من صورة الفتاة على غموضها، متأثراً يعرفه في نفسه حيال أية فتاة ولا دلالة خاصة له سوى أنه انفعال مكتوب

يفعل بالوقت، ولم تنفع القراءة في تزجية فراغه إلا قليلاً، لا لأنه كان يضيق بها ولكن لأن نقوده لم تسعفه بشراء ما يحب من الكتب فافتفى مضطراً بكتاب غير الجريدة اليومية. وجرب الاختلاف إلى المقهى ولكنه لم يهش له وخاف أن يجره إلى بعثرة نقوده المكدودة فيما لا يجدي وكان بطبعه حريصاً، لهذا كله رحّب بدعوة حسان أفندي وصدقت نيته على أن يجعل منها تسلية محبوبة مهما كلفه هذا. وتأذى الحديث إلى الشقة الجديدة فقال حسان أفندي:

- لا يهيك تنظيف شقتك فقد أمرت الخادم بأن يتعهدا بالتنظيف كل صباح، وسوف أوصي غسالة تعرفها «الجماعة» بأن تذهب إليك كل يوم جمعة.

فشكر حسين صنيعة في حياء وتأثر، ولكنه تضايق بعض المضايقة لأنه كان يستطيع أن ينظف حجرته بنفسه، ولأن قيام الخادم بهذه الخدمة اليومية يوجب عليه أن ينفحه ببعض النقود بين آن وآخر الأمر الذي لا يمكن أن يتقبله بارتياح. وضحك حسان أفندي بسرور ثم قال:

- أما مفاجأة المفاجآت التي أعدها لك فهي النرد. . . هل تحيد لعبها؟

فقال حسين بسرور:

- بعض الاجادة. . .

فغادر الرجل الشرفة في حماس ثم عاد بالنرد ووضعها على الخوان وهو يقول بفخار صبياني:

- أنا بحمد الله خير من يلعبها بالوجه البحري، وربما بالقبلي أيضاً. . .

سّر حسين حقاً بهذه التسلية التي لم يكن يتوقعها وتساءل:

- عادة أم حبس؟

فقال حسان أفندي بثقة:

- اختر لنفسك ما تشاء، إنك على الحالين مغلوب. . .

وبدأ يلعبان. وقد اتضح لحسين أن حسان أفندي يرش وجه المستمع إليه عن قرب برذاذ ريقه إذا حادثه فأمل أن يلهمه اللعب عن الكلام، ولكنه كان يواصل

بأن أمه قرّرت أن ترصد النقود التي يرسلها لضرورات الكساء وحده، وأنه ظفر منها بجاكته الجديدة يرتديها مع البنطلون القديم، وأنها ابتاعت لنفسها روبا ترتديه فوق فساتينها الخفيفة فيكسيها دفئا تستغني به عن الملابس الصوفية، وكان من نتائج ذلك - رصد نقوده لضرورات الكساء - أنهم لم يستطيعوا الانتفاع بها في تحسين حالهم الغذائية التي ظلت على ما يعلم من التفاهة والسوء. وحذّته عن نفيسة فقال إنها تظفر من آنٍ لأن يتقدّم سير وإن الأم لم تعد تستولي على جلّ كسبها كما كانت تفعل قبل ورود نقوده، فتوفّر لديها مال قليل تنفقه على ثيابها كي تظهر أمام الناس بالظاهر اللائق بهم. أما حسن فيبدو أنّ حياته الجديدة تستأثر به استثنائا شغله عنهم، أو لعله ظنّ بعد توظيفه - حسين - أنهم لم يعودوا بحاجة إليه فانقطع عنهم انقطاعا كليّا. وواصل موافاته بأنباء استعداده لامتحان البكالوريا في نهاية العام قائلًا إنه يستبسل في مذكراته لأنه يعلم ما يعنيه سقوطه. وفي آخر رسالة وردت منه تودّد إلى أخيه تودّدًا كبيرًا ثمّ سأله في ختامها هل يطمح أن يمده بثمان بنطلون منجمًا على أشهر ثلاثة نظرًا لأنّ الجاكته الجديدة قد فقدت بهاءها فوق البنطلون القديم الناحل؟ ووقف حسين عند هذا الرجاء متفكرًا، لا يدري إن كان يستطيع أن يحقق له رغبته دون مساس بالقدر الذي يودعه صندوق التوفير. لكن فيم يفكر وهو يعلم بأنّه لن يجيب لحسين رجاء؟ ربّما كان بوسعه أن يزرجه لو لم يفرّق بينها هذا البعاد، ولكنّ البعاد رفق قلبه وجعل حنينه إلى أهله قوّة لا تقاوم. أجلّ إنه حريص لا يرحّب بشائبا ببعثرة النقود. لكنّ حرصه يتخلّى عنه بلا عناء كبير إذا كان البذل لأهله. لن يضيره التقدير على نفسه ثلاثة أشهر كثيرًا في سبيل إرضاء حسين. إنه يعرفه حقّ المعرفة، ويعلم بأنّه يعدّ ما يقدم من خير واجبًا على الآخرين، فإذا لم يسعفه بالبنطلون نسي في حنقه صنيع الجاكته. ووجد إلى هذا شعورًا غريبًا يدفعه إلى أن يغمر بجميله الفتى الذي يؤمن بأنّه سيكون له مستقبل باهر غدا. لقد ضحّى بمستقبله في سبيله وينبغي أن تكون التضحية كاملة.

على كلّ شابّ بصفة عامّة، وكلّ شابّ بكر بصفة خاصّة، ولعلّ انبعاثه هذه المرّة في بيت - لا في الطريق ولا في الترام - هو الذي أشاعه في جوّ من الحيرة والبهجة والعمق. وكان حتمًا أن يفكر في أمور أخرى بعيدة عنه بعد القاهرة فتساوره مشاعر خوف وحذر، ولبتّ حسن أفندي يراقبه صامتًا، ثمّ ضاق بالصمت فقال:

- اشرب شايبك وتأهب للعشرة الآتية، وقعت في غلالي ولا نجاة لك.

- ٥٢ -

كانت على درجة من الحسن تسوّج تأثره، وقد صدق ظنّه فيما تلا من أيام وأسابيع فراها في الطريق بصحبة أمها، ولحها في البيت أكثر من مرّة. ومن حسن الحظّ أنّها لم ترث من هيئة أبيها إلّا خديّه المنتفخين، ولكنّها جعلها طابعًا خاصًا ولم يقتحها وجهها. وأدرك بسهولة أنّ شقّة حسن أفندي باتت تجذبه إليها بقوّة لا يبرّرها نشدان التسلية وحده. وكان يمتلئ شبابًا وحيوّة، فكان قلبه كان ينتظر أول طارق، وسرعان ما ترعرعت بين جنبيه عاطفة يضطرم فيها الميل والرغبة والاعجاب، فرامها أنسا لوحشته ورأى لظلمته، ولكن لم تغب عنه دقّة موقفه لحظة واحدة من بادئ الأمر، فلم يكن يغفل عن متاعبه ولم يدّر له بخلد أن يتراخى في القيام بواجبه، بيد أنّه لم يعالج أمره بالحزم، وكان هذا فوق طاقته، وكان عليه أن يجتار بين الاغضاء من ناحية وبين الانزواء في حياة جافّة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل. واشتدّت به الحيرة، وفكر مرارًا في العودة إلى الفندق منتحلًا عذرًا من الأعذار، ولكنّه لم يفعل، ثمّ وجد نفسه يسلم للأقدار تاركًا لها الأمر كلّه تقضي فيه بقضائها. وتواصلت الأيام دون أن يجذّ جديد، وكان نادرًا ما يرى الفتاة ولكنّها لم تغب عن خاطره قطّ، أمّا حسن أفندي فلم يخرج عن مألوف ثرثرته وتجاهل الأمر كلّه. وفي أثناء ذلك لم تنقطع عنه أخبار أسرته بفضل رسائل حسين التي لا تترك كبيرة ولا صغيرة، فكانه يواصل حياته بينهم، ويشاركهم عواطفهم جميعًا. وقد أخبره

حال توظّف أخيك، أمّا إذا أصرّ على تكملة تعليمه ووافقت والدتك على هذا فلا يحقّ لها أن تعارض في زواجك، أجل لا يحقّ لها أن تدلّ واحدًا على حساب حرمان الآخر من حقّه الأوّل في الحياة.

ووجد حسين حديث الرجل مؤثّرًا أكثر منه مقننًا، ولكّنه لم يشأ أن يقطع بالرفض أن تنفصم ما بينه وبين الرجل من أسباب المودة، فقال:

- أعتقد أنّه من الممكن أن أحقّق آمالي دون أن أقضي على آمال أخي.

وكان حديث الزواج يدور دون هدف معيّن في الظاهر ولكنّ التفاهم الصامت عن الهدف كان تامًّا بينهما، وسبقت إليه إشارات فيها ينشأ بينهما من أحاديث كلّ مساء، وكأنّ حسين لم يشأ أن يقنع بهذا القدر من التفاهم فقال في حياة شديد:

- وأظنّ أنسة إحسان لم تُعدّ أولى خطي الشباب...

فضحك الرجل عاليًا وقال:

- إحسان صغيرة طبعًا ولكنّ الزواج لم يخلق للكبار...

لم يتقدّم الموقف عن هذا الحدّ فيها تلا ذلك من أيام حتّى اقترح حسن أفندي أن يقدمه لبعض أقرابه في حفل عائليّ فلم يَسعَ حسين إلّا القبول. وخجل أن يظهر أمام الأقارب بمظهره الذي لا يَسرّ حبيبًا، وركبه فجأة ما يشبه الجنون - هكذا وصفه فيما بعد - ففصل بدلة جديدة على أقساط وابتاع حذاء وطربوشًا مدفوعًا إلى هذا كلّه بعواطفه ونزوته الطارئة حتّى إذا جاء أوّل الشهر أدرك أنّه من المستحيل أن يرسل النقود إلى أمّه، وأرسل بدلًا منها خطاب اعتذار كاذب يقول فيه إنّ مرضًا ألمّ به وإنّه أنفق في العلاج ما ناءت به ماهيته المحدودة. وقد كتب الرسالة بيد باردة ونفس منقبضة مقتنعًا في أعماقه بأنّه هوى من خطأ إلى خطأ، وأنّ تعاقب الأخطاء قد أفقده أتران التفكير وسداد الرأي فلم يحسن حتّى اختلاق العذر...

- ٥٣ -

ثمّ كان يوم الخميس، وكان حسين مستلقّيًا على

وعاوده ذلك الشعور السعيد الحزين بأنّه الضحيّة الصابرة على الأقدار التي تجهّم لهم، وأنّه الدرع الذي يتلقّى ضربات دون أن يتحطّم، إنّه عزاء يستمدّ منه قوّة وسرورًا، ويضفي على حياته معنى خلقيًا باهرًا.

ثمّ حدث ما لم يقع له في حسابان - هكذا قال لنفسه وإن لم يكن صادقًا - إذ كان يومًا يجالس حسن أفندي ويتنازعان الحديث كالعادة، فسأله الرجل:

- ألم تفكر في الزواج؟

فاضطرب الشاب، وشعر بما يشبه الذعر، ثمّ غمغم قائلاً:

- كلّ...

فرفع الرجل حاجبيه مستنكرًا وقال:

- وفيم تفكر إذن؟ ولماذا تعيش؟ هل تنظّن للرجل من غاية، خاصّة إذا اطمأنّ جانبه بالوظيفة، سوى الزواج؟

وتردّد حسين قليلًا ثمّ قال:

- عليّ واجبات خليقة بالتقديم عمّا عداها.

ثمّ صارحه بما يكتنف أسرته من متاعب مستعينة بالمبالغة أحيانًا حتّى يقوّي مركزه حياله. وأصغى الرجل إليه ناهتمام حتّى انتهى من قصّته، ولكّنه لم يبدّ عليه الاقتناع، ولم يكن على استعداد للاقتناع بما يحول بينه وبين أمانه، ثمّ هزّ رأسه الأصلع باستهانة وقال:

- أراك تبالغ في تقدير خطورة الحال. حسبك الصبر حتّى يحصل أخوك على البكالوريا، ثمّ تكون في حلّ من التحرّر من مسؤوليتك، وعليه هو أن يتوظّف بدوره. النحاس باشا نفسه تزوّج فهل ترى نفسك أكبر مسؤوليّة منه؟!

فضحك حسين في ارتباك وقال:

- ولكنّ أخي مصتّم على استكمال تعليمه...

فعاد الرجل يقول هازئًا:

- اسمع إذا كانت لك أهداف في الحياة كإعادة دستور سنة ١٩٢٣ مثلاً فالأخلق بك أن تؤجّل زواجك، ولكنّ دستور سنة ١٩٢٣ قد عاد والحمد لله فلماذا لا تتزوّج؟ يجب أن تتزوّج في نهاية هذا العام

- لشدّ ما انزعجنا جميعاً خصوصاً وأنتك طمانتنا على صحتك في خطابك الأسبق...  
ثم استدركت بعد وقفة قصيرة:  
- وتوهّنا في الأمر خطورة، والعياذ بالله، لما رأينا من اضطراك قُطْع نقود هذا الشهر عتاً...  
وشعر بمثل شُكّة الابرة في نفسه، وقال بعجلة مبتسماً ابتسامة باهتة:  
- اضطررت إلى استدعاء طبيب وشراء أدوية فأنفقت أكثر من جنيهين، وأنت تعلمين بأنّه ليس لديّ احتياطيّ للطوارئ!  
- لا عليك من هذا إنّ مسرورة لأني وجدتكَ في صحّة جيّدة، ويحسن بك أن تبعث برسالة في الحال إلى أخيك لتطمئنّه هو ونفيسة اللذين تركتهما في أشدّ حالات القلق...  
ثم ألقت نظرة متفحّصة على حجرته، فعلق بصرها بالبدلة الجديدة على المشجب في خوف وقلق وتهميّا عقله لاختلاق كذبة جديدة، ولكنّها قالت:  
- حجرتك نظيفة وأثاثها جيّد، هلّمّ أرنِي شقّتكَ...  
فضحك حسين قائلاً:  
- ليست شقّتي إلّا هذه الحجرة، وتوجد حجرة أخرى مغلقة لعدم الحاجة إليها.  
- كأنّك تستأجر حجرة بإيجار شقّة!.. ألم يكن الفندق أفضل؟...  
- على العكس فإنّ إيجارها ينقص عن الفندق خمسين قرشاً.  
- أخبرتنا بأنّك لم تحتج إلى خادم أفلا يتعبك تنظيفها؟  
- كلّاً، هذا عليّ هيّن كما تعلمين!  
فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:  
- يبدو لي أنّك مرتاح ومسرور يا بنيّ، ولذا فأنا سعيدة..  
وخيل إليه أنّ الأزمة قد مرّت بسلام فقال بارتياح صادق:  
- أنا السعيد يا أمّاه، وسأستأثر بك شهراً كاملاً.

فراشه يقرأ جريدة الصباح التي يحتفظ بها عادة لوقت العصر، فسمع دقّاً على الباب فظنّه خادماً حسّان أفندي ومضى إلى الباب وفتحّه وإذا به يرى أمّه أمامه. أجل أمّه دون غيرها، ففغر فاه دهشة ثم أخذ يدها بين يديه هاتفاً:  
- أمّاه!.. في طنطا؟! لا أكاد أصدّق عيني!  
وشدّ على يدها، ثم قبل خديّها أو تبادلًا بالأحرى قبلتين، وفي طريقهما إلى حجرته سألهما بدهشة:  
- لماذا لم تخبرني حسين بحضورك كي أنتظر في المحطة؟ فجلست المرأة على الكرسيّ الذي قدّمه لها وهي تقول مبتسمة:  
- لم أجد صعوبة تذكر في الاهتداء إلى مسكنك، إنّ الاهتداء إلى مسكن في شبرا أشقّ من هذا بكثير.  
وقد اقترح حسين أن أنتظر حتّى يخبرك عن حضوري برسالة خاصّة ولكنّي لم أجد داعياً لازعاجك وأنت مريض كما لم أحتمل البقاء في القاهرة وأنا أعلم أنّك هنا وحيد ومريض...  
مريض! أيقظته هذه الكلمة من نشوة اللقاء فشعر بالخوف يقبض قلبه، ولكنّه قاوم الخوف بقوة الخوف نفسه فضحك وقال:  
- يؤسفني أنّي أزعجتك يا أمّاه، ولكنّي ما كنت أطمع في هذه النتيجة السارّة وهي حضورك بنفسك!...  
وجعلت تتفحّصه بعناية بوجه ينمّ عن إشفاق ورحمة ثمّ قالت:  
- ماذا بك يا بنيّ؟.. كيف حالك؟.. حدّثني عن مرضك؟!  
وداخله ارتباك بذل قصاره كي لا تلوح أماراته في وجهه. وكان واثقاً من أنّ مظهره لا يشي بمرض، بل لم يكن يخفي عليه أنّ صحّته تقدّمت تقدّماً ملموساً منذ تولّفه لتحسّن حالته الغذائيّة بصفة عامّة، قال ببساطة:  
- لا شيء ذي بال. أصبت بنزلة معويّة حادة ولكنّها لم تلازمني أكثر من يوم وبضع يوم...  
فقال وعيناها لا تتحوّلان عنه:

فما تمالك أن ضحككت وقالت:

- بل هذه الليلة فحسب. ليس لي مكان أنام فيه، وسأكلُك أكثر مما تحتمل ما دمت تحيي بطعامك من السوق.

وقبل أن يتكلّم دقّ الباب فقام إليه، وسمعت الأم صوتًا يقول بلهجة ريفيّة «سيدي حسان يسأل عيّا أخرّك اليوم» ثمّ سمعت حسين يعتذر بحضور والدته من القاهرة، وأغلق الباب وعاد الشاب إلى مجلسه من الفراش فوجد أنه ينظر إليه بعينين متسائلتين فقال:

- خادم جاري حسان أفندي باشكاتب المدرسة... وكانت تعلم من رسائله أنه الرجل الذي أقنعه بالانتقال إلى الشقة وعاوناه على ذلك بضمانته لأثاثه الجديد فقالت:

- يبدو من قول الخادم أنك تمضي عنده فراغك.

وتوهم لحظة أنّها مطلّعة على سرّه كلّ فقال دون أن ينظر إليها وهو يشعر بلسعة الخوف تجري في لعابه وتعرض زوره:

- كثيرًا ما أفعل. إنّ رجُل طيّب وهو إلى هذا رئيسي وقد وجدت في صحبته ما أغنائي عن المقاهي و«مفاسدها»... لا بدّ للإنسان من تسليّة يزجي بها فراغه...

ثمّ قامت الأم إلى الحُمام فغسلت وجهها، وخلعت معطفها فتناولته حسين ونفض عنه الغبار بفرشاته وهو يدعو الله أن تمرّ الزيارة بسلام. أجل قد تولّاه القلق وخاف على سرّه الافتضاح واضطرب لوجودها في موطن هذا السرّ فلعن الظروف السخيفة التي أجبرته على منع النقود عنها. وعادت المرأة إلى مجلسها وأخذت تسائله عن أحواله وحياته، ولكن لم يمتدّ حبل الحديث طويلًا لأنّ الباب دقّ مرّة أخرى فذهب حسين ليفتحه فيما يشبه الحقن وكان القادم هو الخادم نفسه وقد قال بصوت بلغ مسمعيها:

- السّت الكبيرة ترغب في أن تحيي السّت والدتك.

ونفضت الأمّ مسرعة وخرجت إلى الردهة وقالت للخادم:

- لا يوجد مكان هنا لاستقبالها، سأزورها

بنفسي...

وذهب الخادم فعادا إلى الحجرة وحسين يقول:  
- لا داعي لهذه الزيارة، ولا يجوز أن نفرق دقيقة واحدة في المدة القصيرة التي تمكث فيها هنا.

فتنهّدت قائلة:

- مجاملات لا بدّ منها، ولا يخفى عليك أنّه يهمني أن أجامل أسرة رئيسك...

وعاودا حديثها ردحا من الزمن حتّى خفّت حدة النور وأقبل الأصيل فنهضت الأم لترتدي معطفها قائلة «آن لي أن أزور حرم جارك» وراقبها الفتى بعينين كئيبتين حتّى غادرت الشقة، ثمّ تنهّدت من الأعماق وتساءل «ترى هل يساورها شك؟.. كيف تنتهي هذه الرحلة؟!».

- ٥٤ -

ولبت وحده مغتًا قلقًا، وتزايد قلقه بمرور الوقت، ثمّ لم يعد يشكّ في افتضاح سرّه، ثمّ تساءل مدافعًا عن نفسه فيم هذا الوهم كلّ؟! عسى أن يمرّ كلّ شيء في سلام، لا يمكن أن يلمحوا إلى شيء، هذا مؤكد، ولكن هل تغيب عنها الحقيقة إذا رأت إحسان؟ وتنبّه إلى زحف الظلام فقام وأشعل المصباح الغازي، ثمّ سمع الباب يدقّ فدقّ قلبه معه في عنف ومضى إليه ففتحه فدخلت أمّه وهي تقول:

- لا أظنني غبت كثيرًا.

وعادا إلى الحجرة فوقف هو مستندًا إلى حافة النافذة وراحت هي تتخلع معطفها وحذاءها في صمت، وجعل يقول لنفسه «وراء هذا الوجه شيء، بل أشياء، إنّي أعرف هذا. أراهن على أنّها لم تتجشّم السفر لتطمئنّ على صحّتي. ليست أمّي بالأمّ الضعيفة، إنّها حنونة حقًا ولكنها قويّة ما في هذا من شكّ. ما أظنّ هذا الصمت، متى ينقطع؟» وسأها متظاهرا بعدم الاكتراث:

- كيف وجدتهم؟

فارتقت فراشه وتربّعت عليه ثمّ قالت باقتضاب:

- لا أدري لماذا لم يرتح قلبي إليهم!

إنّه يدري لماذا، برح الخفاء، ووقع المحذور.

وقال:

- الحق أن حسان أفندي رجل طيب...

- ربما. لم أقابلها بطبيعة الحال...

لن يسألها عما لم ترح إليه منهم، فليتجاهل المسألة، ولن يطول هذا طويلاً على آية حال. ووجدها تنظر إلى يديها اللتين شبكتها على حجرها. إنها تفكر فيما ينبغي قوله. لشد ما أخطأ! ما كان ينبغي أن يستسلم لإغراء الظروف التي انتهت بمنع إرسال نقوده هذا الشهر. كيف ضلّ عائل الأسرة؟! ورأى أمه ترنو إليه بطرف واجم ثم تقول:

- أما وقد اطمأننت عليك فلا أظن أن يخجلني أن أصارك بأن منع النقود عنا قد أخافني. اعذرني يا بني إذا اعترفت لك بأنه ساورني بعض الظن بأن يكون المرض مجرد اعتذار!

فصاح وهو لا يدرى:

- أمّاه!

- معذرة يا بني إن بعض الظن إنهم، ولكي كنت أفكر طويلاً فيما يمكن أن يلقي شابٌ وحيد في بلد غريب. أجل إنّي أومن بعقلك ولكن الشيطان شاطر فحفت أن يكون أضلك، ولا تسل عن حزني وأنت تعلم بأنّي أعتمد بعد الله عليك. أخوك حسن لم يعد منّا، ونفيسة فتاة تعيسة الحظ، وحسين تلميذ وسيظلّ تلميذاً طويلاً، وأنت أدرى به! وإنّا لنشقى ونجوع في مغالبة حظنا، وقد خسرنا نصيبك من المعاش ومنخسر عما قريب نصيب أخيك منه.

فقال حسين بانفعال:

- لست في حاجة إلى من يذكّرني بهذا يا أمّاه، لقد أخطأت... اضطررت إلى منع النقود اضطراراً لا حيلة لي فيه. إنّي جدّ حزين يا أمّاه.

فقال بركة وكأنها تحدث نفسها:

- أنا الحزينة...

ثم استطردت بعد لحظة صمت:

- أنا الحزينة لأنّي أبدو كثيراً وكأني أحول بين أبنائي

وبين سعادتهم!

فقال بقلق:

- لشد ما تظلمين نفسك، أنت أمّ رحيمة كاحسن

ما تكون الأمّ رحة...

- يسرّي أنك تفهمني يا بني.

وتنهّدت وهي تنظر في عينيه ثم قالت:

- لا يقلقني شيء في حياتي كما يقلقني مستقبل أختك نفيسة. أودّ لو أغمض عينيّ ثمّ أفتحها فأجدها في بيت زوجها. ولكن كيف؟! لسنا نملك لتجهيزها ملبئياً، وأخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئن عليها. أنتم رجال أما هي فمن الولايات اللاتي لا نصيرهنّ.

فصاح حسين مستنكراً:

- لن تكون بلا نصير ونحن على قيد الحياة...

فتنهّدت مرّة أخرى قائلة:

- مدّ الله في أعماركم، ولكنّ الفتاة لا تضمن

سعادتها في بيت أخيها المتزوّج!

ولاحت في عينيه نظرة ذات معنى. إنّه يفهم ما يقال. إذا كانت الفتاة لا تضمن سعادتها في بيت أخيها المتزوّج، وما دام حسين في حكم المتزوّجين، فلا يجوز له أن يتزوّج! منطق معقول! ورحيم أيضاً! بيد أنّه ينطوي على حكم بالإعدام. ما عسى أن يقول؟ لم يعد يخاف أن تنهال عليه ضرباً كما كانت تفعل أحياناً، ولكنّه لن يتخذ من هذا الأمان مسوّغاً لإغصابها، وعلى العكس سيّخذ منه دافعاً بريئاً للمبالغة في إكرامها، وقال بهدوء:

- اطمئني يا أمّاه. أرجو ألاّ تجد نفيسة نفسها يوماً

في هذا المأزق!

فهزّت رأسها هزّة كأنها تقول له لندع الإدارة جانباً ولنتكاشف ثمّ قالت:

- الحقّ لقد ألحّت عليّ بعض الخواطر فلم أجِد فرجة إلّا في أن أسافر إليك على مشقّة السفر وكثرة النفقات.

فابتسم بلا وعي تقريباً:

- إذن لم تحضري كي تطمئني على صحتي!

وندم في اللحظة التالية على إفلات هذا القول منه،

ولكنّها ابتسمت إليه ابتسامة حزينة وقالت:

- اصغ إلي يا حسين، أترغب في أن تتزوج؟

فتظاهر بالانزعاج ليخفي اضطرابه وقال:

- إني أعجب لما يدعوك إلى هذا الظن!

- ليس أحب إلي من أن أراكم أزواجاً سعداء، ولكن هل ترغب في أن تعجل بالزواج حتى قبل أن تنهض أسرتك من كبوتها؟

- لم أفكر في هذا مطلقاً...

- ألا يضايقك تطفلي هذا؟

- مطلقاً!

- وإذا اقترحت عليك أن تؤجل التفكير في الزواج،

ألا تجد في اقتراحي ظلاً؟

- هو عين العدل والرحمة...

فخفضت عينيها قائلة في حزن:

- ليس شقائي الحق فيما نزل بنا ولكن فيما أراه واجباً مما يبدو لعين المتعجل قسوة وأنانية...

- لست هذا المتعجل على أية حال!

فترددت لحظة ثم قالت:

- إن ما أراه من حسن تقبلك لكلامي يشجعني على

أن أنصحك بأن تترك هذه الشقة وتعود إلى حجرتك بالفندق.

رح الخفاء! وأصيب بذهول، ثم غمغم متسائلاً:

- الفندق؟!

فكانت بحزم:

- أنت لا تدري من أمر الناس شيئاً. ولعل جيرانك

أناس طيبون ولكنهم لا يحفلون إلا بمصلحتهم. وإذا

حافظت على جبرتهم كرهتنا وأنت لا تدري؟

- ٥٥ -

ولم يعودا إلى هذا الحديث مرة أخرى فلم تكن

الثرثرة من طبعها شأن الكثيرات من النساء. وقد قضيا

صباح الجمعة في سعادة شاملة، حيناً في البيت، ثم

انطلقا في المدينة لزيارة السيد البدوي، ولكنها صممت

على الذهاب إلى المحطة مع الضحى فلم يسعه إلا

الإذعان لها مرغماً. وذهبا معاً وقطع لها تذكرة، وفي

أثناء انتظار القطار قال لها:

- سأبقى في البيت حتى نهاية الشهر لأنني دفعت

الإيجار كما تعلمين...

فكان جوابها أن دعت له بالتوفيق والسداد، ثم جاء

القطار فودّعته وصعدت إلى عربة من عربات الدرجة

الثالثة وانحشرت بين جمع حافل من القرويات

والقرويين، وغشيت كآبة ثقيلة، لأنه كان يقف منها

موقف التوديع لأول مرة في حياته، فغمز القطار

الذهاب قلبه غمرة قوية، ولأنه عزّ عليه أن يراها

منزوية في العربة الحظيرة وسط البؤس والبائسين، وعاد

إلى البيت كثير الهم والفكر. «أنا المملوم. إني أدفع ثمن

حماقتي. أيّ شيطان يخضني بعنابته؟ هذه هي المرة

الثانية، الحية تلاحقني دائماً، لا مفر». وجاءه خادم

حسن أفندي يدعو والدته إلى الغداء فأخبره بأنها

سافرت إلى القاهرة. وجاءه مرة أخرى في المساء يدعوه

إلى السهرة المعتادة فلم يسعه إلا الذهاب.

وجلسا حول خوان النرد في الحجرة بعد أن أحكم

الشتاء إغلاق الشرفة. وسأله حسن أفندي:

- كيف عادت والدتك بهذه السرعة؟

فأجاب حسين مبتسماً:

- لا يمكن أن يستغني عنها بيتنا أكثر من يوم...

- تحيى الخميس وتذهب الجمعة؟!.. رحلة لا

تستحق مشقة القطار!

- ولكنها حققت لها ما تريد فاطمأت عليّ وتبركت

بزيارة السيد...

وأشار الرجل إلى داخل الشقة قائلاً:

- قالوا لي إنها ست طيبة جداً.

- بعض ما عندكم...

فتساءل الرجل وهو يرمش بعينيه العمشاوين:

- كنتا نودّ لو زارتنا قبل الرحيل!

- كانت متعجلة، وقد حاولت أن أوخر سفرها إلى

العصر ولكنها اعتذرت بحاجة بيتنا إليها...

فقال الرجل بأسف:

- وأعددتنا لها غداء طيباً فاخترت لها بنفسها ثلاث

دجاجات مسمنة...

فابتسم حسين في ارتباك وتمتم:

- بالهنا والشفاء لكم...



تدرك متاعب أسرة كأسرتنا...  
ونذت عن الرجل ابتسامة خيلاء داراها بعبوسة  
مصطنعة وتمتم:  
- عالج أمورك كما تشاء ولكن لا تنس نفسك. قال  
تعالى: «ولا تنس نصيبك من الدنيا». وكل آت  
قريب، ما هي إلا أشهر معدودات ثم يحصل أخوك  
على البكالوريا فيتغير الموقف. ارم الزهر لنرى من  
يكون البادئ باللعب...  
- ٥٦ -

وبعد مضي أسبوعين جاءته رسالة من حسين ينبئه  
فيها بأنه أدى رسوم الامتحان وأنه يذاكر ليل نهار  
لضمان النجاح. وكان عظيم الثقة بذكاء أخيه ومقدرة  
فلم يداخله شك في النتيجة المأمولة. ونزعت به نفس  
إلى الأحلام مع أنه لم يكن من الذين يستسلمون  
لسحرها عادة، إلى أنه كان يؤمن بكذب هذه الأحلام  
بالذات. ورغم هذا كله تخيل أخاه قد فاز بشهادته.  
واقنع بأنه ينبغي أن يتوظف ليحمل العبء عنه، ثم  
تخيل نفسه يبدأ حياة سعيدة بضمير مطمئن! إنه لا  
يطمح إلى أكثر من حياة مطمئنة هانئة في ظل  
الزوجية. وقد علمته هذه الحياة التي حملها منفرداً في  
شقته المقفرة معنى الأسرة فحنّ إلى حضنها الدافئ حين  
المقرور تحت مطر منهمر إلى المأوى. لم يعد يطبق  
الاختلاف إلى المطاعم العامة لتناول غذائه، وبات  
وكأنه يخاف الانفراد بنفسه في حجرته ولو إلى حين  
قصير، وأتعبه لحد السقم ما تتطلبه حياة الأعزب من  
رعاية متواصلة لشقته وأثاثه وملابسه، وكلّ هذا يهون  
إلى جانب ما يعاني من جوع قلبه وأشواقه. ولم يكن  
يحبّ الفتاة بالذات بقدر ما أحبّ فيها المرأة والحياة  
الزوجية، ولكنّها كانت المثال المحسوس لأحلامه فهنا  
إليها قلبه وحنينه. وزاد من تعلقه بها أنه لم يكن يراها  
إلا في القليل النادر ممّا تجود به المصادفات السعيدة،  
وحسب حسين أنهم يتعمدون إخفاءها، ولكن تبين له  
أنّ حسان أفندي رجل محافظ حقاً وأنه قد يتسامح  
ولكن بالقدر الذي لا يחדش حياء ولا يجاوز حدّاً. ولو  
أنّ حسين رضي بالوظيفة لمضى من توه إلى فتاته

وضحك الرجل، ثم فتح علبة النرد ولكنه بدلاً من  
أن يشرع في إعداد القطع للعب سأل بهتهم:  
- ألم تفتحها بما «اتفقنا» عليه؟  
فشعر حسين بحرج ولكنه قال:  
- كلاً...  
- لمه؟  
- إنّه تعدني رجل بيتها فكيف أفتحها بهذا؟  
فتناول الرجل زهر النرد في قبضته وهزه ورمه، ثم  
قال:

- أنت رجل خواف. كانت أمك خليقة بأن تفرح  
لهذا النبأ.

- إنه خليق بالفرح إذا جاء في حينه...  
فضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال ببطء:  
- لي فلسفتي الخاصة في الحياة، التي بنفسك في  
عبابها ولا تحشّ شيئاً. هل سمعت عن شخص واحد  
بمصر مات جوعاً؟

فقال حسين مبتسماً:

- أصل شعبنا اعتاد الجوع!

فضحك حسان أفندي واستطرد قائلاً:

- كلّ الناس يعيشون. أغمض عينيك ثم افتحها  
تجد الصغير كبيراً والتلميذ موظفاً والأعزب متزوجاً ولا  
تجد خاسراً إلا من كان خوافاً مثلك. هذه هي  
الحياة...

خواف! وضابقت هذه الصفة فثار عليها ثورة  
باطنية. ليس الخوف ولكنه أدرك الموقف على حقيقته.  
أكان يكون شجاعاً حقاً لو تخلى عن المرأة وتركها تعود  
مهيضة الجناح خائبة الأمل! ليس الخوف. الرجل  
الأحقّ سيء فهمه. إنه مصاب في آماله ولا يجد من  
يرحمه ولا من يفهمه. وعندما بلغ هذه النقطة من  
أفكاره وجد رائحة غريبة مفاجئة، أجل وجد سروراً  
في أن يكون على حق وإن أساء الناس فهمه، بل أكثر  
من هذا تركّز السرور في أن سيء الناس فهمه وهو  
على حق، سرور غامض كذلك السرور الذي يخامره  
وهو يستسلم لعنت القضاء. وقال مبتسماً:

- أنت يا حسان أفندي من أسرة كبيرة فلا يمكن أن

يتهرَّب الفأر وراء رجل كرسِيّ لن تغني عنه شيئاً:  
- بوسعي أن أعلن الخطوبة فوراً على أن أنتظر بعد ذلك...

فتساءل حسن أفندي بفتور:

- كم عاماً؟

آه إنّ الرجل يظنّه لا يحسب حساباً إلّا لأخيه، ولا يكاد يدري شيئاً عن نفيسة ومشكلتها المستعصية، ليته كان بوسعه حقّاً أن يصارحه بالحقيقة كلّها بغير خفاء!.. وأجابه قائلاً في إشفاق شديد:

- أربعة أعوام!؟!

ونظر إليه ليرى وقع تصرّجه من نفسه ثمّ بادر قائلاً:

- لن يضيرنا الانتظار شيئاً، ألا تنق في؟! ومطّ الرجل بوزّه وهو يهزّ رأسه ثمّ قال بهدوء خفيف:

- أربعة أعوام! يا ترى من يعيش!.. أتريدني على أن أقول لأُمّها إنّني رفضت ابن عمّها الذي يرغب في الزواج منها الآن كي تنتظر أربعة أعوام!.. يبدو لي يا حسين أفندي أنّك لم تكن جاداً فيما أظهرت من رغبة!

وانتفض حسين في ألم بالغ وهتف:

- ساحك الله يا حسن أفندي! إنّني رجل مخلص ولا زلت عند درغيتي الصادقة، ولا أدري سبباً وجيهاً يحول بيني وبينها.

فقال الرجل بفتور:

- لست أبناً ولا أماً فلا عجب ألا ترى وجهة السبب، والآن فلندع النقاش جانباً وأجبن باختصار ألا تستطيع الإقدام على الزواج في هذا العام؟

وساد الصمت، وطال دون أن ينبس حسين بكلمة. لم يجد شيئاً يقوله، وتفكّر طويلاً في حيرة، ثمّ أطبق شفثيه في يأس وقهر. وابتم حسن أفندي ابتسامة باهتة، وأطبق شفثيه بدوره وقد نمّ وجهه البيضاءي الصغير على الجمود والكدر. وطال الصمت والجمود وفاحت رائحة الخضم كالغبار في يوم خماسيّ فلم تعد تحتملها الأعصاب. ومع ذلك لم يحتمل

وضمّها إلى نفسه وحيي الحياة الحقّة. لهذا حلمه، ولكنّه مجرد حلم، ولا يدري متى يتحقّق. وسيوصل حسين تعليمه وما ينبغي له أن يحقّق لهذا، أجل فليدع الأمور تجري كما يشاء الله ولينتظر. ولكن تبين له ذات مساء أنّه لن ينعم بالانتظار في هدوء وطمأنينة، إذ قال له حسن أفندي عقب فراغهما من احتساء الشاي مباشرة:

- جدّ أمر هامّ يستحقّ أن أشارك فيه.

رفع إليه حسين عينيه متسائلاً فقال الرجل باهتمام:  
- الأمر أنّ ابن عمّ إحسان - وهو تاجر ومزارع بالبحيرة - يرغب في طلب يدها، وقد رأيت أن أسألك عن رأيك قبل البتّ في الموضوع برأيي!!

وكانت مفاجأة سيئة وجم لها الشاب في قهر وحيرة كأنّه لا يصدّق. والحقّ أنّ بعض الشكّ ساوره ولكنّه وجد نفسه في مأزق لا يخرج منه تشكّكه. وشعر بحنق إنسان وضعته ظروف قاسية بين لا ونعم وهو عاجز عن الكلام، فما عسى أن يقول؟! إذا قال نعم خان أسرته، وإذا قال لا قطع ما بينه وبين حسن أفندي. وتراءى لعينه على اضطرابه وحيرته وجه الفتاة التي تعلّقت بها آماله فشرع بقبضة اليأس تشدّ على عنقه، ورمق الرجل الذي يعذبّه بنظرة باردة تخفي وراءها حقّاً متزايداً. وكان الآخر يتفرّس في وجهه صابراً فلمّا طال الصمت غمغم متسائلاً:

- ما قولك يا حسين أفندي؟

ولم يجد بدءاً من الكلام فقال بلهجة تنمّ عن الرجاء:

- لقد فصلت لك ظروفنا بما لا يحتاج إلى مزيد.

فقال الرجل فيما يشبه الضجر:

- سيفرغ أخوك من دراسته في أوائل الصيف القادم.

- ولكنّه فيما أرى مصمّم على مواصلة تعليمه...

فقال الرجل بضيق:

- فكرة سخيفة لا يصحّ أن تدعن لها وتحمّل

مسؤوليتها.

وأراد أن يتفادى من الخطر المائل فقال متهورباً كما

أن يستسلم للحزن، أجل إنه يعلم أنه سيحزن طويلاً ما دام الشعور لا يخضع للعقل، ولكنه يؤمن أيضاً بأن لكل شيء نهاية، حتى هذا الحزن الحائق لا بد أن يدركه العزاء. وانتظر هذا العزاء كما ينتظر فريسة الكابوس صحوة النجاة. إنه آتٍ لا ريب فيه كما علمته المحن، وهناك لن يجد ما يندم عليه وسيجد ما يفخر به ويطمئن ضميره. إن شعوره بالواجب يفوق مشاعره الأخرى، ولشد ما أخطأ الرجل حين اتهمه بالخوف، وبحسبه أن أمه تفهمه وأنها تعدّه الأمل والعزاء، وافتّر ثغره عن ابتسامة لهذا الأمل المنتظر وهو يعاني مرارة الحزن الراهن...

- ٥٧ -

وحوالي منتصف الصيف استقبلت الأسرة - بعطف نصر الله - يوماً سعيداً حين نجح حسين في امتحان البكالوريا. وجلسوا ثلاثتهم جلسة هناء وصفاء، فمرت ساعة لا يشوبها كدر، وثقلت الغبطة قلوب نهكها التعب. وجاء فريد أفندي محمد وأسرته للتهنئة فشعر حسين حيال خطيبته بشعور سعيد بخيلاء ساذجة كأن البكالوريا قد أضفت عليه رجولة جديدة خليقة باحترامها وعطفها. كان كعادته مرحاً لطيفاً فتحدث طويلاً منتشياً بالفوز والضحكات تنطلق من فيه تباعاً، وكان منظر هبة مما يستثير سعادته وألمه معاً، كان يسعده أن تلتقي عيناهما خفية فيقرأ في نظراتها الصافية المحبة العميقة المهذبة، ولكنه لم يكن يحظى بالصفاء تحت نظرتها إلا قليلاً ثم يندلع في قلبه لسان لهب، ثم يذكر حرمانه الطويل فيثور حنقه، ويرمق العامين المنطوين بحسرة وأسف. واسترق إليها النظر خلال الحديث فانصهر بصره على وجهها البدرى وجسمها البض، وتخيّلها - كما كان يطيب له أن يتخيّلها كثيراً - متجردة إلا من شعرها المنسدل فبلغ ريقه درجة الغليان. وجعل يتساءل صامتاً ألا يمكن أن تغير من سياستها بعد حصوله على البكالوريا؟ أليس من العدل أن تنهيه قبله على سبيل التهنئة؟! وظلّ وعيه منتقلاً بينها وبين أخيلته وبين الحاضرين، وكان السرور شاملاً بيد أنه لم يخل من عذاب لا يكاد يرحمه

حسين أن تنجيء القطيعة من ناحيته فتساءل بصوت حزين كأنه كان ينتبأ الجواب سلفاً:

- ألا يمكن الانتظار؟

فقال الرجل بنبرة:

- كلا!

ومكث حسين قليلاً في خجل وألم ثم نهض مستأذناً في الانصراف فادن له. وغادر الشقة لا يكاد يرى ما أمامه من شدة الحزن واليأس، غادرها وهو يعلم أنه لن يعود إليها مرة أخرى. وذهب إلى حجرته فأوقد المصباح الغازي وارتمى على الفراش. وألقى على ما حوله نظرة سخط وعداوة، عداوة لكل شيء، كان في تلك اللحظة عدواً لنفسه وللشخص جميعاً «أضعيف أنا أم قوي؟ وما صنعت بنفسي أهو إقدام أم فرار؟! كل شيء بغضب مقيت، هذه الحجرة التي أودعها وحجرة الفندق التي تنتظرنى بالوحشة نفسها وحسان أفندي وطنطا وحسين وأمي وأنا. ربما تصوّر الرجل أنه يستطيع أن يضايقني في عملي بالمدرسة!.. ثباً له، سيجدني أصلب مما يتصوّر. ولكن ما قيمة هذا كله! الموت أرحم من الأمل. لست أعجب لهذا فالموت من صنع الله والأمل وليد حماقتنا. الأولى خيبة والثانية خيبة فهل قضي عليّ أن أمتي بالخيبة مرة بعد أخرى؟ لماذا لا يتوظّف بالبكالوريا؟! لماذا لا يحب لنفسه ما أحب لي؟! وتناهى به الضيق فلم يعد يحتمل وحدته فقام إلى المشجب وارتدى بدله وغادر البيت، وجعل يخط على وجهه من شارع إلى شارع في ليل بارد حتى أعياه المشي فمضى إلى مقهى. وأنعشه المشي والبرد من حيث لا يدري فاتخذ مجلسه وهو أهدأ نفساً. وراح يتسلّى بمنظر الجلوس ويستمتع إلى ما يتطاير من سمرهم فلم يخل من كلمة أو لفظة تدعو إلى الابتسام. وخبت فورة الغضب الجنونية وانحسرت موجتها الصارخة عن حزن عميق لكنه هادئ وصامت. ولا يخلو في الوقت نفسه من ندم. أكان يؤثر حقاً أن يوافق الرجل على رأيه؟ هل يسره أن يترك أسرته تحت رحمة الأقدار؟ يا له من أحق! من حقّه أن يحزن، ولكن ليس من حقّه أن يغضب هذا الغضب الجنوني. وليس من الحكمة

في محضرها.

ثم خلت الأسرة إلى نفسها مرة أخرى فداخلها إحساس جديد - غير السرور الصافي - بالمسؤولية، لأنهم تعلموا أن الظفر بالكالوريا سعادة يعقبها تفكير ومتاعب. وكان إتمام تعليمه العالي أمراً مفروغاً منه فيما بينهم ولكن الرأي لم يستقر على اختيار بعينه. وقد قالت نفيسة:

- عليك الآن أن تختار المهنة التي تريدها.

فقال حسين الذي كان قد قتل الأمر بحثاً:

- التعليم العالي مرحلة طويلة شاقّة، ومستقبله مجهول.

فنظرت إليه المراتان في دهشة فاستطرد قائلاً:

- لقد فكّرت في الأمر طويلاً، وانتهيت من تفكيري إلى أنه يجب أن أختار مدرسة من مدرستين البوليس أو الحربية!

وهتفت نفيسة بسرور:

- ما أجل هذا!

ولم يحفل بسرورها لأنه كان يفكر في الصعاب التي تعترض آماله فقال:

- دراسة عامين فحسب ثم أصير ضابطاً؛ والنجاح مضمون تقريباً لأنها دراسة باللعب أشبه، والوظيفة في النهاية لا شك فيها. هذه ميزات لا يستهان بها! فهتفت نفيسة بالحماس نفسه:

- دراسة عامين ثم تصير ضابطاً!.. ما أشبه هذا بالأحلام!

وتساءلت الأم بإشفاق:

- والمصروفات؟!

ونظر إليها طويلاً كالحائر ثم قال:

- البوليس غالبية جداً، ولكن الحربية معقولة... مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيهًا.

فنتطّعت إليه المراتان بوجوم ودهشة فبادرهما قائلاً:

- ليس الأمل في المجانية معدوماً أو على الأقل في نصف المصروفات، ولنا في أحمد بك يسري شفيع عظيم القدر في هذه الحال..

ولم يذهب الوجوم من نظرة الأم وبدت قلقة حيال

هذا الأمل. فقالت:

- حدّثني فريد أفندي محمّد عن معهد التربية الابتدائيّ فوجدت فيه ميزات تستحقّ التقدير، فمدة دراسته ثلاثة سنوات بالمجان تضمن بعدها وظيفة مدرّس.

فقال الشابّ بامتناع:

- إنّي أكره أن أعمل مدرّساً، وأكره أكثر أن ألتحق بمعهد بالمجان.

- ولكنك لا ترى مانعاً من دخول الحربية بالمجان.

- ثمة فرق كبير يقوم بين معهد يقوم على المجانية ومعهد قد يعفني من مصروفاته كلّها أو نصفها. سيقول الناس عن الحال الأولى إنّي تعلّمت بالمجان أمّا في الأخرى فهيها أن يعلم بها أحد غير كاتب المدرسة!

فهزّت الأم رأسها غير مقتنعة وتمتمت:

- المسألة أخطر من هذا!

- لا يوجد ما هو أخطر من هذا، أنا أكره الفقر وسيرته، ولا أحبّ أن أخفض رأسي بين أناس مرفوعي الرؤوس!

ولم يكن هذا فحسب دافعه الحقيقيّ إلى هذا الاختيار، والواقع أنّه طمح إلى المدرسة الحربية مدفوعاً بنفسه الظمأى إلى السيادة والقوة والمظهر الخلّاب، بيد أنّ أمّه ظلّت على قلقها وعدم اقتناعها فتساءلت:

- وإذا لم يتيسّر إعفاؤك من المصروفات؟

ففكر متجهماً ثم قال:

- سأحتاج بادئ الأمر إلى الدفعة الأولى من المصروفات وفي مرجويّ أن أناها من أخي حسن! لا أظنّه يتخلّى عنيّ كما لم يتخلّ عن حسين، أمّا الباقي فليس بمتعذّر توفيره إذا نزلت لي عن نقود حسين، إلى ما يمكن أن تجود به نفيسة (ناظرًا إلى أخته) ولا أظنّها تبخل عليّ خاصّة وأنّ عملها يجيئها بكسب لا بأس به...

ونقل بصره بين أمّه وأخته ليسرّ وقع كلامه ولكنّه لم يحظ بما يشجّعه فاستطرد يقول برقة:

- عامان شدة يمرّان كما مرّ غيرهما وبعدهما الراحة

ثم ذكر النقود التي يريد بها فهاهنا الأمر، ماذا لو عجز حسن عن أن يمدّ له يد المعونة؟ وشعر بإصبع باردة تقبض على قلبه وتوشك أن تعصف بآماله. واهتدى أخيراً إلى عطفة جندف وأخذ يرتقي أرضها القذرة باحثاً عن البيت رقم ١٧ حتى انتهى إليه، ورأى غير بعيد بائع بطاطة جالساً القرفصاء على الأرض أمام عربته فسأله مشيراً إلى البيت:

- هل يقيم هنا حسن أفندي كامل؟

فسأله الرجل بدوره:

- تعني حسن الروسي؟

فقال حسنين بدهشة:

- حسن كامل عليّ المغني؟

فقال الرجل:

- هذا بيت حسن الروسي الذي يعمل بقهوة عليّ

صبري بدرب طياب ..

وأغضى حسنين في حياء منزعاً انزعاجاً فظيلاً، لم يعد يشك في أنه حيال بيت أخيه وقد توكد ذلك بذكرى عليّ صبري، ولكنّه لم يتصور أنّه يعمل بهذا الدرب الذي فرقع اسمه في أذنه كالقنبلة. وهذا اللقب: الروسي ما معناه؟ ودخل البيت وكأنّه يفرّ فزكمته رائحة بثر السلم التنته وارتقى السلم الحزوني وهو يشعر بأنّه يهبط إلى هاوية ما لها من قرار. وطرق الباب فجاء صوت امرأة يصيح في ابتذال «من؟» ثمّ فُتح الباب عن امرأة قصيرة بدنية عميقة السمرة تنطق سحنتها بجبال وقع. حدجته بنظرة نافذة وسألته!

- ماذا تريد؟

فقال حسنين بصوت منخفض من الاضطراب:

- حسن كامل ..

- من أنت؟

- أخوه ..

فانبسطت أسارير المرأة وتنحّت جانباً وهي تقول:

- سيّ حسين؟

فتمتم في ذهول:

- حسنين!

ودخل في تمهيب وحياء. من تكون هذه المرأة؟

والهنا!

وشابر على ترديد بصره بينهما في رجاء، ثمّ قال بإغراء:

- أمّ ضابط وأخت ضابط!.. تصوّراً هذا! تصوّراً مغادرتنا لهذه العطفة إلى شقة محترمة بالشارع العام!

ورقت نفيسة لنظرته المتوسّلة فاجتاحها موجة إثارة وكرم فقالت:

- لا تحمل همّاً من ناحيتي، سأهيك أقصى ما يمكني أن أهيه!

فتجلّت في عينيه نظرة امتنان وغمغم:

- شكراً لك يا نفيسة، ولن تكون أمي دونك كرمًا، وسيمضي كلّ شيء على الوجه الذي نحبّ جيئاً ..

ودعت له الأمّ بالتوفيق، لم تكن ترجو من ورائه خيراً كثيراً. وكان أقصى ما تطمح إليه أن يؤجّل زواجه - بعد توظيفه - عامين حتى ترمّم ما تهدّم من أسرتها، ولكن لم يسعها إلّا أن تنزل له عن نقود الانقاذ التي يرسلها حسين وأن تدعوه بالتوفيق من أعماق قلبها. وتأثرت نفيسة بما غمرها من إثارة وكرم ارتقيا بها إلى منزلة عالية من الصفاء والسرور والحماس، ونعمت بهذه السعادة لحظات غالية. ولكنّها لم تدم طويلاً، اصطدم تيّارها الدافق بعقبة كئود من الذكريات السود فتوقّف عن الجريان الساجع وتجمّع وتطّين، وفتّر الحماس فخفضت عينها في خمود، ليس الفرع الصافي من حقّها، وما عسى أن يصنع السرور بنفس ملوثة منطوية على البشاعة والشقاء؟

- ٥٨ -

قال حسنين لنفسه وهو يغادر ميدان الخازندار إلى شارع كلوت بك «سيقول حسن إنّنا لا نسعى إليه إلّا إذا طمعنا في نقوده!» وتأمّل لهذا الخاطر، ولكنّه خفّف من وقعه قائلاً إنّّه هو - حسن - الذي لم يشأ أن يتردّد أحد منهم على بيته. وجعل يتساءل في حبّ استطلاع عمّا سيجد في هذا المسكن المحرّم! ثمّة شيء «غير طبيعي، ولكنّه لا يستغرب من حسن!».

من أخبار حسين ثم قال بلهجة تنم عن العتاب:  
- انقطعت عنا كألك لست منا ولسنا منك، وباتت  
أمتنا في حزن شديد..

وهز حسن رأسه في كآبة وقال:  
- إني غارق في حياتي حتى قمّة رأسي، ولكنّ  
توظيف حسين طمأنني عليكم..

وتساءل حسنين متأثراً بما طرأ على أخيه من تغيّر في  
مظهره ترى هل بقي على حبّه القديم لهم؟ وانساق  
بغريزته إلى التودّد إليه قبل أن يتطرّق إلى مهمّته  
وتساءل في قلق:

- ما هذا يا أخي؟!

فقال حسن ضاحكاً:

- تخلفات معارك. لم تكن حياتي لتخلو من عراق  
وقد أصبح العراق من أهمّ واجباتي في الحياة  
الجديدة..

وودّ لو يسأله عن هذه الحياة الجديدة ولكّنه تحامى  
ذلك بغريزته أيضاً، لقد قصد هذا البيت المحرّم في  
سبيل الحياة، وحسن يتخذ من العراق واجباً في سبيل  
الحياة أيضاً، فما أفضح ما تسيمنّا الحياة من خسف!  
«من كان يحلم بهذا المصير ونحن صغار نلعب! كان  
حسن طفلاً حاذقاً شاطرًا، وكان أبي يحبّه أكثر من أيّ  
شيء في الوجود، ثمّ بدا وكأنّه انقلب له عدوّاً، ولكن  
لم يكن يتصوّر أحد أن ينتهي به المطاف إلى هذا  
البيت! لا شك أنّ حسين أدرك الحقيقة في زيارته لهذا  
البيت في سبتمبر الماضي، ولكن ترى هل تعلم أمي  
بكلّ شيء؟». لم تواته شجاعة على السؤال الصريح  
ولكنّه تساءل في مكر:

- ما العلاقة بين الغناء والعراق؟

فقهقه حسن ضاحكاً ثمّ قال:

- هما شيء واحد في عرف الكثيرين..

وهنا جاء صوت المرأة من خارج وهي تقول:

- إني ذاهبة، هل تريد شيئاً؟

فقال لها باقتضاب:

- مع السلامة..

ولم يستطع حسنين أن يقاوم حبّ استطلاعها فسأله

وكيف عرفت أساءهم؟ هل تزوّج حسن؟ وشعر  
بقشعريرة باردة. أميكن أن يقال عن هذه المرأة إنّها  
زوجة أخيه؟ وإنّ أمّه حماتها؟! وتمنّى من أعماق قلبه أن  
تكون مجرد رفيقة. ومضت المرأة إلى باب في نهاية  
الدهليز ونقرت عليه ففتّحت بعد قليل وظهر حسن على  
العتبة، وكأنّاه شعر بوجوده فاتّجه بصره إليه ثمّ هتف  
بدهشة وسرور:

- حسنين..

وهرع نحوه وشدّ على يده بترحيب وشوق، وقبل  
أن يتكلّم أحدهما تسلّل من الحجرة نفر من الرجال  
متتابعين، ألّقوا على حسنين نظرة عابرة وقال بعضهم  
مخاطباً حسن:

- سنسافر عصر اليوم إلى السويس بإذن الله،  
وتلحق بنا غداً..

ثمّ غادروا الشقّة. كانوا من ذوي الجلايل، تلفت  
سحتهم النظر بغرابتها ولا يكاد يخلو وجه أحدهم من  
تشويه. ودأخل حسنين شعور بالقلق، من يكون  
هؤلاء الرجال؟.. أفراد التخت؟.. ما أبعد هذا عن  
التصوّر! لقد ذكّره منظرهم برجال العصابات كما  
يظهرون على الشاشة وطراّت عليه فكرة مرعبة بأنّ  
شقّة أخيه تناصب القانون العداء! وألقى على حسن  
نظرة متوجّسة فراه يرتدي جلباباً مقلّماً فضفاضاً،  
ويبدو في صحّة وقوّة ولكن يلوح فوق حاجبه الأيسر  
وفي صفحة عنقه اليسرى ندبان كبيران كأنّهما أثرا  
طعنتين شديتين، ربّاه. إنّ أخاه لا يخلو من تشويه  
إجرامي! أيضاً! ولعلّه الآن يستطيع أن يدرك حقيقة  
الأسباب التي حجّبه عن عالمهم. وأوما حسن إلى  
الحجرة في نهاية الدهليز وقال للمرأة:

- رتبي الحجرة واجمعي الأشياء..

وشبك ذراعه بذراع حسنين واتّجه إلى حجرة النوم،  
ثمّ أغلق الباب وراءهما وأجلسه إلى جانبه على الكنية  
وهو يقول:

- كيف حالكم؟.. كيف والوالدة؟.. ونفيسة؟..

وما أخبار حسين؟

وحدّثه عن الأسرة بعقل شارد وروى له ما يعلم

بقلق:

- هل تزوجت يا أخي؟

- كلاً..

فلاح الارتباك في وجه حسنين غير خاف فتساءل

حسن:

- أسركَ هذا؟

- نعم...

- لماذا؟

فقال الشاب بسداجة:

- أفضل أن تختار زوجك من وسط كوستنا..

فقطب حسن كالستاء وقال:

- إنَّها أفضل من سيِّدات كثيرات، تحبني وتخلص لي

ولا تضنَّ عليَّ بما..

وأوشك أن يقول له «ومن مالها الخاص أعطيت

حسين ما احتاجه من نفقات» ولكنه أمسك رحمة بأخيه

- لم يستطع التغيُّر الذي لحق بطبعه أن يؤثر في عواطفه

نحو أخيه حتَّى حين استيائه - ولمَّا رأى القلق والندم

يلوحان في عيني الشاب قال برقة:

- إنَّ إخلاص الزوجة لزوجها لا يخلو من منفعة

وراءه أمَّا هذه المرأة فإخلاصها غير مشوب. سوف

تعلِّمك الحياة أمورًا كثيرة تجهلها..

فهزَّ حسنين رأسه متظاهراً بالاعتناع، وابتسم إلى

أخيه ابتسامة رقيقة متودِّداً. ثمَّ ذكر أمراً كاد ينساه

فرحَّب به ظناً منه أنَّه خليف بأن يضيفي على الجوّ الذي

كاد يتوتَّر روحاً من المرح فسأل أخاه ضاحكاً:

- علمت وأنا أسأل عن بيتك أنَّهم يدعونك الروسيَّ

فما معنى هذا؟

فضحك حسن ضحكة عالية أعادت الطمأنينة إلى

نفس الآخر وهو يشير إلى رأسه:

- نسبة إلى هذا.. إنِّي أكسب بعرق جبيني على

نحو ما (وبسط يده ونطحها برأسه ثمَّ نظر إلى أخيه

نظرة ذات معنى ضاحكاً) أو بالأحرى بدم جبيني. لا

بدَّ من العرق كي تعيش ولكنه يخلِّف العضو الذي

يعرق بين فرد وآخر.

وشعر حسنين بغرابة نحو أخيه، وفكَّر ملياً، ثمَّ

قال بحزن:

- ثمة أناس يكسبون دون أن يعرق لهم جبين!

وبدا حسن وكأنَّه لم يفهم قوله على حقيقته فقال

بحماس:

- هذه غاية الشطارة... أن تكسب بعرق جباه

الآخرين! وسثمَّ حسنين هذا الحديث الذي يجري بلا

ضابط فصمَّ على أن يطرق الموضوع الذي جاء من

أجله. وصمت قليلاً ثمَّ قال بصوت منخفض:

- أظنَّ يسركَ أن تعلم بأنِّي نجحت في امتحان

البكالوريا..؟

فهتف حسن بسرور:

- مبارك. أسرَّ طبعاً بسرورك وسرور أمنا!

تفرَّس في وجه الشاب ثمَّ استطرد في لهجة لا تخلو

من إشفاق وسخرية:

- وظيفة، ثمَّ طنطاً أو الزقازيق، أليس كذلك؟

فقال الشاب متنهِّزاً هذه الفرصة التي هيَّأها الآخر

كي يتقدَّم خطوة جديدة في سبيل غرضه:

- كلاً، في نيتي أن ألتحق بالكلية الحربية!

- الحربية!.. عظيم جداً!.. الحمد لله على أنَّك لم

تختَر مدرسة البوليس!..

- مصروفاتها كبيرة...

- لا أعني هذا ولكنِّي لا أستلطف ضبَّاط البوليس!

فحدجه الشاب نظرة تساؤل فقال حسن مبتسماً:

- ضبَّاط الجيش رجال أفرح، نراهم أمام المحمل

وفي الاحتفالات الكبرى أمَّا ضبَّاط البوليس فلا نراهم

إلَّا عادين وراء خراب البيوت!..

وساد الصمت وراحا يتبادلان النظرات، حسنين في

قلق وحياء وحسن في ابتسام له معناه، ولبنا كذلك

طويلاً حتَّى انفجر حسن ضاحكاً فضحك الآخر وهو

يغضُّ بصره حياءً، وواصل الضحك حتَّى تعباً، ثمَّ

سأله حسن بلهجة ذات مغزى:

- كم؟!

فضحك حسنين مرَّة أخرى وقد احمرَّ وجهه من

الحياء. ثمَّ قال:

- الدفعة الأولى من المصروفات. يؤسفني أن أقول

لأنها مبلغ لا يستهان به ولكنني سأدبر الدفعة الأخرى ومصروفات العام الثاني من نقود حسين وما وعدتني به نفيسة!

وذكر حسن كيف كان يُعَدُّ فيها مضي الخائب الفاشل في الأسرة جميعاً: الآن يرونه ملاذهم في الملمات! وأحسن زهوًا ولكن هذا لم يغير من شعوره الطيب المتأصل في نفسه نحو أسرته بل لعلّه ضاعفه. وساءل أخاه مبتسماً:

- كم هذا المبلغ الذي لا يستهان به؟

فقال حسنين في خوف:

- عشرون جنيهاً!

ولاح الانزعاج في عيني حسن وقال وهو لا يدري:

- عشرون جنيهاً؟ .. إن جيشنا كله لا يساوي هذا

المبلغ! .. هل تنوي الالتحاق بمدرسة اللواءات؟

وانتظر حسنين في اضطراب وقلق ولم ينس بكلمة حتى عاد الآخر يقول بجذّ واهتمام:

- هذا مبلغ جسيم حقاً، ولا يمكنني أن أعطيك -

اليوم على الأقل - أكثر من عشرة جنيهاً!

وسادت فترة من صمت اليم، ثم نفخ حسن في

ضيق وقال:

- لو جئتني قبل أسبوع! .. وعلى أية حال سأسافر

غداً إلى السويس ولعلي أعود بما يكفيك!

وتفكّر ملياً على حين قال حسنين بصوت منخفض:

- يؤسفني أنني أزعجتك!

فقرصه في أنفه ضاحكاً وقال:

- كيف تعلّمت هذا الأدب وعهدي بك طويل

اللسان! لا تنزعج سأتيك بما تريد ولو قتلت قتيلاً ونشلت محفظته.

ثم أعطاه عشرة جنيهاً، وحمله السلام إلى أمه وأخته، وطلب إليه أن يستمسك بالحكمة إذا تحدّث عباً رآه في بيته. وشدّ حسنين على يده شاكرًا وغادر الشقة. وما إن انفرد بنفسه حتى قال بصوت ثقيل كتيب «حياة حسن فضيحة يجب التسرّ عليها، ولعلّ ما خفي منها أدهى وأقطع». وقطع الطريق متفكراً مغتياً يلفّ إحساس بالاشمئزاز والخوف. لم يكن بوسعه

أن ينسى جميله ولا ما أبداه نحوه من عطف أخويّ، ولكنّه لم يستطع كذلك نسيان المرأة والرجال المشوهين والنديين الخطيرين، نقش هذا كله على صفحة قلبه بمداد التقرّز والرعب. ربّاه، لقد انقلب حسن إلى نوع آخر من الأدميّين، لم يعد من الأسرة ولا من المجتمع الذي يعرفه. إنّه يترنّج كأنما ضربة قد هوت على رأسه فأفقدته وعيه، وكلّما جدّ في السير امتلأ شعوره بفداحة الخطب. وذكر حاجته إليه التي جعلته يستوهبه نقوداً لا يدري من أين أتت، فاشتدّ اشمئزازه وحنقه، ولعن هذه الحاجة من أعياق قلبه في يأس وقهر. وأمراً من هذا كله أنّ حاجته لم تنته، فسيعود إليه بعد أيّام ويمدّ إليه يده سائلاً! ترى من أيّ سبيل تأتيه النقود من السويس! إنّ قلبه لا يكذّبه، وفيها رأى بعينه الكفاية لمن ينشد الدليل، ورغم هذا كله سيعود إليه ويسأله أن يتمّ صنيعه له! هل يستطيع أن يغضب لكرامته حقاً؟ هل يستطيع أن يرّد هذه الجنيهاً إلى أخيه ويصيح في وجهه إنّي لا أرضى عن حياتك القذرة؟ ونذت عنه ضحكة مبحوحة مرّة. .. إنّه يعلم أنّه يهذي هذياناً سخيفاً. سيعود إليه راضياً ويأخذ النقود - إذا تفضّل بها - شاكرًا ممتنًا. ولو علم أنّه ذاهب إلى السويس ليسرقها ما وسعه إلّا أن يدعو له بالتوفيق. وقال وكأنّه يحاور ضميره المتوجّع «مهما يكن من أمر فهو بالنسبة لنا أخ فاضل كريم!».

- ٥٩ -

وفي عصر اليوم نفسه مضى إلى فيلاً أحمد بك يسري بشارع طاهر. والواقع أنّه كان يندفع بحيويّة هائلة نحو الأمل الذي ركّز فيه حياته جميعاً، فإمّا الحربيّة أو الموت. وجلس في السلامك ينتظر البك مسرّحاً طرفه في أطراف الحديقة أو في الشطر الأمامي منها على الأصحّ. وكان مشبّت اللبّ فرأها رؤية غامضة، وتنقّل بصره الشارد بين نخيلها الرشيق المنغرس وسط دوائر من الحشائش المنسّقة سُورت بنبات الشيح وانتشرت في رقاعها شجيرات الورد على هيئة أهلة. وارتاح لحظة من أفكاره فاستقرّ ناظره على دائرة حشائش كبيرة تتوسّط المكان ما بين مدخل الفيلاً



فوجد فيها من فتاة الدراجة أثرًا يشبه الأثر الذي تركته الحديقة والفيلا ونجفة بهو الاستقبال، طموحًا وثورة وسخطًا! «ما أجل أن أملك هذه الفيلا وأنا فوق هذه الفتاة». ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة. فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسيلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بي قائلاً «سيدى». هذه هي الحياة. إذا ركبته ركبت طبقة بأسرها! ثم عاودته ذكرى بهية فتضاعف ألمه وامتزج به ما يشبه الندم والخجل. وهنا سمع وقع أقدام آتية من ناحية السلم فالتفت صوبها منقطعاً عن تيار أفكاره فرأى أحمد بك قادماً في بدلة بيضاء من الحرير وقد رشق في عروة الجاكطة وردة حمراء فانفض قائماً وأقبل نحوه في أدب وانحنى على يده مسلماً في إجلال وابتسم اليك مرحباً وسأله وهما يجلسان:

- كيف حال الأسرة يا بني؟

فقال حسنين بتوكد:

- يقبلون يدك الكريمة ويذكرون صنائعك.

فغمغم اليك:

- أستغفر الله.

وأيقن اليك أنه سيتلقى عملاً قليل رجاء بتوظيف هذا الشاب أو نقل أخيه إلى القاهرة الخ. لم يكن يومه يخلو من مثل هذا، وكان يضيق بالرجاوات ولكنه كان في قرارة نفسه يحبها كذلك ولا يطيق أن يخلو بيته يوماً من صاحب حاجة. وقال:

- خير يا بني؟

فقال حسنين بحرارة:

- جئتكم يا سعادة اليك مستنجداً بشفاعتك في إلحاقى بالكلية الحربية...

ودهش اليك وكأنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا الطلب الأرستقراطي وتساءل دون أن يخفي دهشته:

- ولماذا اخترت هذا الباب الضيق؟!

وتألم الشاب لما لاح في وجه الرجل من دهشة وكرهه لحظتها كراهية عمياء، بيد أنه قال بنفس اللهجة المتوددة المهذبة:

- يبدو لي يا سعادة اليك أنه توجد فرصة ذهبية هذا

والسلامك فاستسلم إليها فأزاً من قلقه. وكانت تنبثق من وسطها نخلة قصيرة ذات جذع أبيض ترف عليها روح الطفولة وتغشى سطحها شجيرات الورد بوفرة حتى تماست أغصانها وتعانقت أزهارها فامتزجت في هالة كبيرة انثالت عليها الحمرة والخضرة والصفرة في وئام وائتلاف وسلام. وابتسم وهو لا يدري. وكان الظل قد زحف على أرض الحديقة وما وراءها من الطريق ولاحت آثار الشمس المائلة في أعلى الدور على الجانب الآخر للطريق ولكن الهواء هفا مائلاً للسخونة مفعماً بعرف الياسمين الجاثم على سور الفيلا. وورد على خاطره هذا السؤال «هل يمكن أن أقتني يوماً فيلاً كهذه؟» وتحيل الحياة فيها ما بين المخذع والحديقة وما يتبعها عادة من سيارة وأسرة محترمة. هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها فيلاً أحمد بك يسري، وفي كلتا المرتين انفجر في صدره بركان من الطموح والسخط والتلهف على متع الحياة النظيفة المحترمة. وكان أخوف ما يخافه أن ينحصر في حياة كحياة حسين فيقطع عمر ما بين الدرجتين الثامنة والسادسة بلا أمل ناضر. في الحياة متع عالية وهواء نقى وينبغي أن يأخذ نصيبه منها كاملاً. وتوقف عن التفكير فجأة حين لمح دراجة تمرق من الجانب الأيسر للحديقة وعليها فتاة. وكانت الفتاة توجه الدراجة في حذر على مماشي الفسيفساء بين دوائر الزهور فاستغرقتها الحذر عن النظر فيما حولها. كانت في السادسة عشرة، ترتدي فستاناً أبيض هفهاً وتعصب رأسها بإيشارب منمنم، ذات قامة نحيلة وصدر ناهد وبشرة نقية. وقد أعجبه النظر إلى ساقها المدملجتين اللتين تتناوبان الارتفاع والانخفاض فلم يكذب يتبين وجهها، واختفت وراء جناح الفيلا الأيمن قبل أن يستدرك ما فاتته منها. وثار في عينيه اهتمام ويقظة. إذا لم تكن هذه الفتاة كريمة أحمد بك فمن تكون؟ وابتدرت مخيلته تستدعي صورة بهية بحسمها اللدن الممتلئ ووجهها البدرى، شهية جميلة ولكنها ليست من هذه الرشاقة في شيء! ثم ذكر أخته نفيسة فعجب للاختلاف البين بين مخلوقات من جنس واحد، ثم شعر في قلبه بغمز ألم وعطف وعاد إلى نفسه

البياض. وثار في أعماقها حبّ استطلاع وطمع ولذلك لم تغادر موقفها حين انقطع تيار السيّارات، وحولت نحوه عينها فوجدته ما يزال يحدّق فيها، وكأنّه تشجّع بنظرتها فتقدّم منها في خطوات ثقيلة وهمس وهو يمرّ بها:

- اتبعيني إلى سيّارتي...

ثمّ واصل سيره إلى سيّارة واقفة لصق الطوار مثله في الهرم والوقار، يكاد يعلو سلّمها على الطوار شبرين ويقف عند بابها سائق كالتمثال. وصعد إليها دون أن يغلق الباب وراءه وأمر سائقه فاتخذ مكانه خلف عجلة القيادة. ماذا يريد الشيخ؟ وابتسمت خواطرها في تشوّف، ثمّ عادت تنصت إلى همس الطمع. وكأنّه استبطأها فخلع نظارته ثمّ أومأ لها بيده فما تمالكت أن ابتسمت، وألقت على ما حوّلها نظرة متفحّصة ثمّ اتجهت نحو السيّارة، يحدوها الطمع وحده لأوّل مرّة. وأوسع لها فجلست إلى جانبه وما عتمت أن سطعت أنفها رائحة الخمر الفاتحة من فيه، فاستحوذ عليها القلق، وقالت:

- لا أستطيع أن أتأخّر.

فقال بلسان ثقيل:

- ولا أنا أيضًا!

وأمر السائق بالسير فانطلقت السيّارة. ولم يفارقها شعورها بالغربة في أثناء الطريق، ثمّ غشيتها سحابة حزن وخوف لإحساسها بأنّها تتدهور إلى ما لا نهاية. لم يسبق لها قبل هذه المرّة أن ذهبت مع رجل قبل تعارف طويل أو قصير، ولو بعد رؤيته مرّتين أو ثلاثاً، إلى أنّها لم تكن تخلو من رغبة. أمّا هذه المرّة فما هي تستسلم لعابر سبيل، مدفوعة بالطمع وحده، وبلا أدنى رغبة. أيّ تدهور وأيّ نهاية! ترى كيف عرف أنّها ضالّته! هل انقلب وجهها - على دماسته - يثني بتدهورها؟ وتقبّض قلبها فرقاً، وجهتها حيرة قديمة جديدة ممّا، بين أن تتزيّن فتبدو في هذه الهيئة المبتذلة أو أن تتعطل فتكشف عن دماستها النقاب؟! ووضع الرجل كفّه على يدها وقال بصوت ملثم:

- جميلة كالقمر!

العام لم يوجد مثلاً في السنين الماضية لما تعترمه الحكومة من زيادة عدد الجيش، ومهما يكن من أمر فشفاعتك أهمّ من كلّ شيء!

وتساءل البك باقتضاب:

- والمصرفات؟! وكرهه مرّة أخرى. وسرعان ما تناسى رجاء المجانيّة أو صمّم على أن يؤجّله لفرصة أخرى وقال بثقة وطمأنينة:

- إني على استعداد لأداء المصرفات كاملة!

ففكر البك ملياً ثمّ قال:

- إنّ وكيل الحربيّة صديق قديم وسأحدّثه بشأنك...

فكان جواب حسنين أن أقبل على يده يحاول تقبيلها فسحبها الرجل ونهض قائماً - ربّما إنهاء للزيارة - فقنع حسنين بالانحناء على يده مسلماً وكرّر الشكر وغادر السلامك مريح الصدر بالأمل. وذكر وهو يقطع الحديقة فتاة الدّراجة وتمثّلت صورتها وهو يرنو إلى أثر العجلتين في الممشى، ولكن لم يدم هذا إلّا لحظة قصيرة، ثمّ استأثر بوعيه كلّ مستقبله وآماله...

- ٦٠ -

في نفس الساعة كانت نفيسة في ميدان المحطّة... كانت السماء تتخشّع لهبوط المساء على حين واصل الميدان في حياته الصاخبة يستبق على أديمه الانسان والحيوان والترام والسيّارات. وكانت الفتاة واقفة على طوار تمثال نهضة مصر تنتظر انقطاع تيار السيّارات لتعبر الطريق إلى محطّة الترام فلاحظت أنّ رجلاً واقفاً على بعد أذرع منها ينظر إليها نظرة غريبة باتت مع الأيام تفهمها حقّ فهمها. وتولّتها دهشة وتساءلت: حتّى هذا؟! كان رجلاً في السّنين؟! يجمع في جسمه بين ترهل العمر ووقاره، مرتدياً بدلة صوفيّة على حرارة الجوّ ويقبض بيده على مذبّة أنيقة عاجيّة المقبض، ويضع على عينيه نظارة زرقاء. وقد انحسر طربوشه المائل إلى الوراء عن جبهة عريضة لفحت الشمس أسفلها وبدا أعلاها لامع البياض فيما فوق حرّ الطربوش، أمّا سوائفه وما لاح من قداله فشديد

بالغربة ومغالبة الضحك. وأخيراً ارعنى غموراً وقال بصوت غليظ:

- مدّي يدك إلى مقعد السائق وناوليني الزجاجاة.  
ورفع سدّاتها وعَلَّ منها ثمّ أسلم ظهره إلى المسند وراح يتنفس تنفساً ثقيلاً غليظاً. ولم تعد تحتل ثقل الانتظار فقالت برجاء مشيع بالتودّد لأنها تعلّمت أن تخاف هذه الآونة أكثر من أيّ شيء آخر:  
- آن لنا أن نعود.

فقال وكأنّه يخاطب نفسه:  
- ليتني لا أعود أبداً...

ولم تدرك ما يعني ولكنّها استجمعت شجاعته وغمغمت:

- تسمح!  
ودسّ يده في جيبه وأخرجها في تكاسل ثمّ ترك ريالاً يسقط في حجرها فتناولته في دهشة وانزعاج وحديثه باستنكار وتساءلت وهي تتمييز غيظاً:  
- ما هذا؟

فقال بجفاء مبالغت وعيناه تعكسان بريق الخمر:  
- نعمة كبرى! إذا لم ترضي به عباد إلى موضعه السابق إلى الأبد...

فقالت بحنق:  
- أظنّ مقامك أعلى من هذا بكثير...  
فصبّ في فيه جرعة كبيرة ومصمص بشفتيه مقطّباً وقال:

- هذا حقّ، ولكنّ الريال أعلى من مقامك بكثير! أراهن على أنّه لا توجد امرأة لها مثل هذا الأنف وتطمع في مثله!

وجرحت الاهانة صدرها فاضطرب وقالت وهي تغالب الغضب بالخوف:

- لماذا تحدّثني بهذه اللهجة؟

- لأنك طّاعة... ولأنك السبب فيما يقع لي.  
اعلمي أنّي لا أحمل معي إلّا الفكّة، وحقّ هذه تحاسبي زوجي عليها عقب عودتي إلى البيت، وأهون عليّ أن أضربك من أن تضربني هي.

ولاذت بالصمت وهي تتنفض غضباً وغيظاً فعاد هو

ولم يفتّر ثغرها عن ابتسامة كما كانت تفعل قديماً وقيّمت:

- لست من الجمال في شيء...  
فقال مستنكراً:  
- لا تخلو امرأة من جمال!  
كاذب أو مخادع فلشدّ ما يعمي الفسق العيون، وقالت ببساطة:  
- إلّاي!...

فنقر بأصبعه على ثديها وقال:  
- لولا جمالك ما وجدت هذه الرغبة!

ودّت لو تستطيع أن تصدّق قوله، ولكن هيهات، فلم يظفر بأحد يحبّها أكثر من ساعات. لعلّه يعربد أو يحزّف أو يعاني مرارة اليأس مثلها سواء بسواء. لقد كابدت من الرجال ما جعلها تحقد عليهم ولكن دون أن تحمد لهذا رغبة جسدها الذي يسيماها الهوان فكرهته كما تكره الفقر. ما هي إلّا أسيرة للجسد والفقر ولا تدري كيف تستنقذ نفسها منها. جرفها التيار وجرحتها الصخور فلم تعد ترى من خير في أن تاوي إلى الشاطئ عارية مثخنة بالجراح وبلا نصير أو رحيم، ثمّ سمعت صوته يقول متنبّها «وصلنا» فالتفتت إلى الخارج فرأت السيّارة تدور مع طريق دائريّ تقوم على جانب منه الأشجار الضخمة كأشباح عمالقة وعلى الجانب الآخر يجري النيل في رقعة عظيمة من الظلمة إلّا ما انفرس في جناحه البعيد من رماح الأنوار المنثالة من المصابيح، وقالت كالمثائلة:

- الجزيرة؟  
فضحك ضحكة فاجرة وقال بلهجة ذات مغزى:  
- تعرفينها طبعاً...

وتريّت ريشها غادر السائق موضعه واختفى في الظلام فخلع نظارته وهو يقول:

- أرييني شطارتك فكلّ شيء يتوقّف عليها...

كان هرمًا مجنونًا، يكاد ينزّ خرًا. وانهال عليها بمداعبة غليظة فعصّها بوحشيّة وراح يقرصها حتّى أوشكت أن تصرخ. ولاحت في الجوّ نلر هزء وسخرية، ثمّ تعب حتّى اليأس، انفرج عن إحساس

يقول:

- ضايقتني امرأة ذات مرة في مثل موقفنا هذا فصفعتها وقذفت بها خارج السيارة نصف عارية، ماذا فعلت فيما تظنين؟.. لا شيء! كانت تعلم بلا ريب أن الشرطي أخطر عليها مني. ومع ذلك فهي مظلومة وأنت مظلومة وأنا مظلوم أيضًا، والظالم الحقيقي هي زوجي...

فزفرت زفرة غيظ وتمتعت:

- نمود من فضلك...

فقال وهو يثأب:

- لك هذا. افتحي النافذة ونادي السائق...

وانطلقت السيارة في طريق العودة فترحزحت حتى نهاية المقعد، وسهمت إلى الظلمة بعين خائبة.

- ٦١ -

يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذي لعبته في قبوله فقال لأمه إن الفضل الأول لمزايده الجسميّة وتفوّقه في الرياضة. وقال لنفسه في زهو «أستطيع أن أعدّ نفسي من الضباط منذ الآن» وراح خياله المختال يستعرض الأدميين الذين ستؤثر فيهم بذلته الرسميّة تأثيرها السحريّ - الجنود والفتيات وعامة الشعب بل وأحمد بك يسري نفسه وهو مرح نشوان. وحمل الخبر السارّ بنفسه إلى أسرة فريد أفندي محمّد فاستقبلته بفرحة تحلّ عن الوصف. وقال له فريد أفندي ضاحكًا «شرّفتنا يا حضرة الضابط». وقال الشاب على مسمع من هيئة لغرض في نفسه «سأغيب عنكم أربعين يومًا قبل أن يُسمح لنا بالخروج مرة كلّ أسبوع» وكان يطمع أن يحظى تلك الساعة بما حُرّم عليه عامين ولكنّه لم يتح له أن يخلو إلى الفتاة إلّا دقائق، ولم تكن الدقائق لتمنعه من نيل مشتياه لو أرادت الفتاة أن تجود له به ولكنّها لم تترحزح عن تعفّفها حتّى في هذه اللحظة. وغلّبتها الحياء كعادتها، فانكششت وقلّبتها يخفق بالعطف والألم تأثّرًا بالدواع. وقال لها بعجلة في صوت لا يكاد يسمع «أريد قبلة حارة من شفتيك» ولمّا رأى حياءها وجهوها قال بجزع «أتأتين عليّ هذا حتّى في هذه اللحظة!.. لا يمكن أن أتصوّر أنّك تحبّيني!» وخرجت الفتاة عن صمتها قائلة في قلق «بل لهذا أرفض أن أذعن لك!» وتساءل في إنكار «لا أفهم ما تعنين» فقالت بشجاعة مؤثّرة «أرفض لأنّي أحبّك» وكان يسمع هذا الاعتراف الصريح البسيط لأول مرة فبلغ به التأثير حدّ السكر وهمّ بالاقتراب منها ولكنّها أشارت إليه محدّرة وهي تومئ برأسها ناحية باب الحجرة المفتوح، وما لبث أن عاد فريد أفندي وزوجه ففضى بقية الوقت ممزقًا بين نشوة السكر وقلق الشوق وحنق الغيظ، ثمّ ودّعهم ونزل إلى شقّته وهو يقول لنفسه «هذا حبّ عاقل! حبّ يسيطر عليه الحزم والتدبير. كأنّها رسمت خطة حكيمه كي تضمن زواجي بها. ولكن هل يعرف الحبّ الحقيقيّ هذا المنطق البارد؟!» وكان حديثه لنفسه في الواقع خاضعًا لما استحوذ عليه من غيظ

وكان يوم قبول حسين طالبًا بالكلية الحربيّة أسعد الأيام جميعًا. وكان يحسبه مطلبًا غير عسير كشأنه حيال مطالبه، ثمّ أخذ يتبيّن عسره وعناده حتّى اقتنع آخر الأمر بأنّ تدبيره للدفعة الأولى من المصروفات كان أخفّ متاعبه. وقد طال تردّده إلى فيلّا أحمد بك يسري وكاد الرجل يئأس من قبوله فنصححه بالعدول عن اختياره ولكنّ تصميم الشابّ وتقدّم ترتيبه وحسن هيئته وتفوّقه في الكرة والعدو ثمّ شفاعه أحمد بك قبل كلّ شيء، كلّ أولئك ساعد على إحداث المعجزة - على حدّ تعبيره بعد اليأس - وتمّ القبول وكاد يجنّ من الفرح، والحقّ أنّه علّق آماله كلّها على هذا القبول بحيث لم يكن يدري ماذا يفعل أو كيف يولي وجهه وجهة أخرى لو أخفق مسعاه. كان طموحه إلى الحربيّة يتفجّر من صميم روحه الملهوفة على السيادة الشائرة على تعاسة حياته وضعتها، وبدت الكلية لعينيه كمصنّع سحريّ قادر على تحويله من إنسان مهزول مغمور إلى ضابط مرموق في ظرف عامين، وبأقلّ جهد، وكان سمع مرة صاحبًا له يصف ضباط الجيش بقوله «الضباط مرتّبات عالية ونفخة كاذبة وعمل كاللعب لا خير فيه» فهامت بالحربيّة نفسه وقوي حلمها في روحه. ولمّا علم بقبوله في الكلية أبى أن

والحسرة، وعدّ وداعه لها أسوأ وداع مُنيّ به عاشق. ثمّ أمضى شطراً من الليل بين أمّه وأخته. ولم تستطع نفيسة - كعادتها - مغالبة مشاعرها فدمعت عينها وقالت في حزن «قضي علينا بأن نعيش وحدنا» ولم يخلُ هو من كآبة خليقة بمن يفارق أهله لأول مرة ولكن هون من وقعها أنّ روحه كانت تهفو كثيراً إلى الحياة المستقلّة، في بيت غير البيت ووسط غير الوسط. أمّا الأمّ فحافظت على هدوئها الظاهريّ، ولم تشجّع نفيسة على الاسترسال في حزنها وقالت لها بحسنة «لا تبكي كالأطفال، سنراه كثيراً، وحسبنا سروراً أنّه نال ما تمّنى». بيد أنّ قلبها كان في وادٍ آخر، حرّك الفراق الوشيك أشجانها فرجعت أوتارها الأحزان المنطوية، فذكرت وداع حسين، وتخيّلت خلوّ البيت من أبنائها جميعاً، وتداعمت إلى ذهنها - على كره - ذكرى رحيل زوجها، فعجبت لحياتها التي لا تجود لها بسعادة إلّا مصحوبة بوداع وفراق. فهل قدر لها أن تمضي البقية الباقية من حياتها وحيدة؟ وهي في سبيل هذه النهاية تصبّرت وتجلّدت وعانت ما عانت من مرارة الكفاح؟! ولكنّها لم تستسلم لحزنها إلّا بمقدار يسير، ونادت قوتها الكامنة، وذكّرت ما صادف أبناها من آي التوفيق لتستعين به على تبديد كآبتها. مهما يكن من أمر فلئنّا تؤمن الآن بأنّ ما بذلت من دبر وكفاح لم يضع سدى، وأنّ سفينتها الضالّة في سبيل الهداية إلى مرفأ آمن. ويحقّ لها أن تفرح فما من ثمرة تحيى في هذه الأسرة إلّا وهي غرس يديها وعصارة قلبها.

وفي الصباح الباكر ودّع حسين أمّه وأخته ومضى في سبيله إلى الكلية الجديدة...

- ٦٢ -

ثمّ وجد نفسه في فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة وبحث عينه فيما بينهم لعلّه يجد صاحباً قديماً من التوفيقيّة فيلوذ من وحشته ولكنّه لم يظفر بوجه قديم. وضايقه هذا وإن أحسّ زهواً لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذي قُبِل في الحربيّة. وتمنّى كثيراً أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثمّ مضى يتسلّى بمشاهدة

ثمّ وجد نفسه في فناء الكلية بين جماعة المستجدين من الطلبة وبحث عينه فيما بينهم لعلّه يجد صاحباً قديماً من التوفيقيّة فيلوذ من وحشته ولكنّه لم يظفر بوجه قديم. وضايقه هذا وإن أحسّ زهواً لكونه الطالب الوحيد من مدرسته الذي قُبِل في الحربيّة. وتمنّى كثيراً أن يبدأ أحد بالكلام، وطال انتظاره. ولكن أبى كبرياؤه أن يكون هو البادئ. ثمّ مضى يتسلّى بمشاهدة

وتوترت شفتاه، وانتبذ موضعًا بعيدًا متحاميًا النظر إلى أحد أقرانه وإن تخيلهم وهم يتغامزون ويتضحكون. ماذا دهاه الأحمق! ترى هل أهانه لضغينة اضطغنها عليه أو فقد رشاده؟ أمن الممكن أن يكون هذا هو النظام المتبع في هذه الكلية؟ وليت مستغرقًا في أفكاره لا يرى مما حوله شيئًا حتى نودي على الطلبة المستجدين ودُعوا إلى أول طابور لهم بالملابس المدنية. ووقفوا صفين متوازيين بإرشاد الباشجاويش محمد عرفان وبعض الجنود، وقد تجنب النظر إلى صاحبه القديم الذي وجده معلقًا فوق رأسه كالسيف وكظم عواطفه المستعرة أن يلوح منها أثر في وجهه. ثم جاء ضابط عظيم محاطًا ببعض الضباط من رتب أقل، وألقى عليهم نظرة ثابتة ثم راح يخطبهم عن الحياة العسكرية التي آثروها. وكان يخطب باللغة العامية بصوت أجش يوافق ما ارتسم على أساريه من الصلابة والعنف، وكان يفصل بين كثير من جملة هذه العبارة «العقاب الصارم» حتى صارت كضربات الإيقاع وملأ القلوب رهبة وحذرًا. وما إن انتهى من خطبته حتى بدأ أول يوم في الحياة العسكرية الجديدة. واستقبل به حسنين حياة جديدة لم يسبق له بها عهد. وبدأ اليوم - والأيام جميعًا - شاقًا طويلًا، يتبدى بالبدش البارد في الصباح الباكر، ويثنى بالطابور، ثم الدروس، جهد متواصل، وخشونة في المأكول والملبس والمعاملة حتى إذا جاء وقت النوم استلقوا كالقتلى. وكانت خشونة المعاملة أفظع ما يلاقونه، كان الرؤساء يرونها فرضًا واجبًا، ويكفي أن يحظى طالب بشرط لأقدميته حتى يمارسها كحق من حقوقه، وهو يمارسها في غير رافة وبسطة تبلغ في أكثر الأحيان إهانة صريحة وتجريحًا متعمدًا. ولم يكن ثمة مجال للاعتراض أو الاحتجاج إذ لم يكن للكلية من شعار تحرص عليه كالطاعة العمياء الخرساء البكماء. ولم يجد حسنين من عزاء في ذلك الجو الرهيب إلا أنه سيصير يومًا أومباشيًا ثم باشجاويشًا. وهنالك يقضي ديونه دفعة واحدة! وقد ذكر عهد التوقيفية - الذي وصفه يومًا بالإرهاب - بالترحم والثناء. وبلغ منه الضيق أحيانًا أن ندم على اختياره لهذه الكلية الجهنمية

وتنقّى لو تواتيه الشجاعة على التخلص منها. وكان يشاركه إحساسه هذا كثيرون في الأيام الأولى على وجه الخصوص. وقد عصرتهم قساوة الحياة فسارع إليهم الهزال، ولعل حسنين كان الطالب الوحيد الذي لم يخضع لهذا القانون الطبيعي، بل لعل جسمه اكتسب ارتواء غير منتظر لأن غذاء الكلية - على خشونته - هيأ له وجبات منتظمة لم يعتدها في أعوام الشدة الأخيرة. بيد أنه تعرض لآلام نفسية غير متوقعة في أيام الجمع التي يُسمح فيها عادة بالزيارات. كان فناء المدرسة الخارجي يمثل بالآباء والأمهات والأقارب فيحظى الطلبة جميعًا بنهار ممتع ويعودون إلى حجراتهم مثقلين بالهدايا من حلوى وفاكهة ودسم الطعام، حتى الطلبة الريفين لم يُعدوا أقارب من القاهرة، فلم يكن ثمة طالب يقضي هذا اليوم السعيد وحيدًا إلا أنه، لم يزره أحد ولم ينتظر أحدًا. وكانت أمه قد أخبرت - قبل رحيله - بأنها لن تستطيع زيارته لأنها - كما يعلم - لم تتمكن من ابتياع معطف جديد يليق بالظهور أمام أقرانه، أما نفيسة فقد قالت له بمزاحها المألوف «لا أظن أنه مما يشرفك أن أبدو أمام زملائك بهذا الوجه»، ولم يكن ثمة أمل في أن تزوره بهيئة لحيائها وعدم اعتيادها الظهور في مجتمع من الأعراب، فلم يبق إلا فريد أفندي وكان بطبعه كسولًا لا يكاد يفارق بيته إلا لضرورة قصوى، ومع هذا فقد زاره مرة وحمل إليه هدية من البسكوت. واعتاد في أيام الزيارات أن يختار موقفًا عند مدخل الفناء الداخلي يراقب منه الزوار بعينين كئيبتين ويتملّ بمشاهدة النساء والفتيات مأخوذًا بجملهنّ وأناقتهنّ وآي النعيم البادية في وجوههنّ وثيابهنّ. وعجب لهذه الفوارق التي تباعد بين الأدميين، وبدت لعينيه عجيبة بقدر ما هي مزعجة. وثارَت بنفسه انفجالات السخط والغضب والتمرد فلم يجد من متنفس إلا في أن يناقش ربّه الحساب، متسائلًا - فيما يشبه التحدي - عن أسرار حكمته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن! وسأله مرة زميل له عن سرّ عزلته فقال بلا تردد:

- أبي متوفى. وأخي مدرّس بطنطا. أما الأسرة

بدأت لعيني غريبة لُكَّتْها على غرابتها استتارت حنانها  
وذكرياته . ووقفوا ثلاثتهم والمرأتان ترنوان إليه  
بإعجاب وحب، ثم دعت له الأم وأفصحت عن  
سرورها بعبارات مقتضبة . ثم لاذت بالصمت، أما  
نفيسة فلم يسكن لسانها لحظة «لشد ما أوحشتنا» . .  
«البيت من غيركم كالقبر» . «اضطربني وجهي» . .  
«لم يتمكّن حسين من القيام بإجازته هذا العام لمرض  
زميله وقد كدنا نحن من الحزن» . . «هل حقاً كتبنا  
تتراسلان؟» . . «لقد أخبرني بهذا منذ عشرة أيام» . .  
«ماذا تعلّمت؟ هل تستطيع الآن أن تطلق بندقيّة؟»  
وكان يجيب على أسئلتها في دعاة، ثم خلع طربوشه  
ووضع عصاه وقفّاه على المكتب ولبث واقفاً وهو ينظر  
إلى سترته ليرى ما فعل العناق بها . وجلست أمّه على  
الفرش وهي تقول:

- اجلس يا بني . . .

فتردّد لحظة ثم قال:

- أخاف أن ينكسر البنطلون! . . .

فتساءلت المرأة بدّهشة:

- هل تظّل واقفاً طالما أنت لابس البدلة؟!

وابتسم في ارتباك ثم جلس على الكرسي في حذر  
ومدّ ساقيه وهو يفحص بنطلونه باهتمام، وقال:

- إنّ كسرة واحدة بالبنطلون خليقة بأن توقع عليّ  
عقاباً صارماً لا يقلّ عن حبس شهر بالكلية .

ونظر في وجه أمّه ليرى أثر هذه الكذبة في نفسها  
فقرأ في صفحته الانزعاج فاستطرد قائلاً بصوت ينمّ  
عن التضجّر:

- حياتنا شاقّة لا يمكن أن يتصوّرها إنسان، فهارنا  
كلّه وشطر من الليل نقضيها في الخلاء بين المدافع  
والقنابل والرصاص، وقد تودي هفوة بسيطة بحياة  
فرد!

فاتّسعت عينا نفيسة في فزع، وتساءلت الأم في  
اضطراب:

- كيف يُلقون بأبناء الناس إلى الهلاك؟!

وهتفت نفيسة في انفعال:

- لماذا اخترت هذه المدرسة؟

فمحافظة لم تألف الظهور بين الناس على هذا النحو  
بيد أنّ الأفكار السوداء لم تجد من نفسه مرتعاً  
خصيماً إذ إنّ الحياة العسكرية لا تمهل الأفكار حتّى  
يستفحل خطبها، وقد علّمت أن ينسى باطنه أكثر  
وقته . ثمّ بمرور الأيام، أخذ يألف شدتها وجوها  
الخائقة فمضت تخفّ وطأتها وتحتمل، إلى ما ظفر به من  
صداقات جديدة ابتلّ بها صدره الموحش فاستطاع أن  
يضحك ملء قلبه - رغم كلّ شيء - كعهده القديم .  
وهكذا انقضت الأربعون يوماً . . .

- ٦٣ -

وخيل إليه - لدى خروجه من الكلية بالملابس  
الرسمية - أنّه حقّق حلماً بديعاً بتصديّه للعالم بالبدلة  
الملوّنة . . . كان ينطلق كالعامود في استقامته،  
كالطاووس في خيلائه، ملقياً على صورته التي تعكسها  
مرايا الحوانيت والمقاهي نظرات ارتياح تشمل الشريط  
الأحمر والطربوش الطويل والحذاء اللامع، ملوّحاً  
بعصاه القصيرة ذات الرأس الفضيّ، قابضاً على قفّاه  
كأنّه يتحدّى العالم . ولمّا تراءت لعينه عطفة نصرالله  
جاش صدره بمشاعر متنازعة من العطف والنفور، ثمّ  
مضى إليها مطمئناً إلى أنّ أحداً لن يراه ممّن يؤدّ الآ  
يروه - لم يُطلع أحداً من أقرانه على عنوانه - راجياً أن  
يراه جميع الذين يؤدّ أن يروه، وأحدت به الأعين  
ولوحت له الأيدي من رقّاع الأحذية إلى الحدّاد ومن  
بائع السجائر إلى جابر سلمان البقال . وتطلّع رأسه إلى  
شرفة فريد أفندي فوجدها مغلقة فسرّ لما تهيّأ له من  
مفاجأة سعيدة غير مسبقة بتنبّيه، ثمّ قطع فناء البيت  
إلى الشقّة وطرق الباب وانتظر مبتسماً . وجاءه صوت  
نفيسة وهي تزعم «مَن؟» وفتح الباب فما إن رآته حتّى  
هتفت كالمجنونة:

- حسنين!

وشدّت على يده في انفعال وجعلت تهزّها بقوة  
وفرّح، وجاءت الأم مهرولة على صوت ابنتها فاستسلم  
لذراعيها النحيلتين وهي تضمّه إلى صدرها وقبّل  
جبينها في سرور شابّ شيء من القلق على سترته التي  
طوّقتها ذراعها، ثمّ سار بينهما إلى حجرته القديمة التي

- فهز رأسه بثقة وقال:  
- لا تخافي عليّ! إني ألعب بالنار بمهارة استحققت إعجاب الضباط جميعاً!  
فقالَت الأم بصوت متهذج:  
- ما عسى أن نصنع بإعجابهم إذا أصابك سوء لا قدر الله؟!  
فقال حسنين في سرور خفي:  
- وماذا تصنعين إذا دُعينا إلى الحرب؟.. ألم تسمعا بأن هتلر يعدّ عدته لإشعال نار الحرب؟ وإذا نشبت الحرب هجم موسوليني على مصر فتدعى جميعاً للقتال! وحدجته الأم بارتياح، ثم سأله بجذّ واهتمام:  
- أحقّ ما تقول يا بني؟  
وتراجع قليلاً...  
- هذا ما يقوله بعض الناس!  
- وما رأيك أنت فيما يقوله هؤلاء الناس؟  
وقبل أن يجيب صاحبت به نفيسة:  
- إذا صحّ ما يقولون فاترك المدرسة بلا تردّد.  
فضحك الشاب ملء فيه وقال مشفقاً من إفساد سرور اللقاء:  
- ما أردت إلّا إخافتك... (ثم غيّر لهجته متسائلاً)... فلندع المذر جانباً وخبريني يا ستّ نفيسة ماذا تعدّين لي غداء للغدا؟  
فابتسمت الفتاة وأدركت أنّ أخاها «ضيفها» نصف نهار الخميس ونهار الجمعة وأنّ إكرامه واجب عليها قبل أيّ إنسان آخر. فقالت:  
- سأشتري لك دجاجتين تطبخهما نينة في ملوخية!  
- عال!.. والحلوى؟  
- برتقال.  
- نفسي في الكنافة. فطالما رأيت هداياها تُحمل إلى الطلبة أيام الجمع فيتحلب ريقى من بعيد!  
ولم تهتمّ الفتاة للكنافة قدر ما اهتمّت للسمن اللازم لها ولكنها لم تتراجع في نشوة الكرم التي غمرتها فقالت:  
- وستحلّ بالكنافة كما تشتهي!  
فقال الشاب بعد تردّد:
- لو كنت وقحاً لسألتك أن تحشيها بالفسق والبندق!  
- ولكنك لست وقحاً والحمد لله...  
هكذا تهرّبت بالمزاح وأدرك حسنين أنّه لم يعد بوسعها أن تسخو أكثر ممّا سخت فقال ضاحكاً:  
- آه لو رأيتم الهدايا التي كانت تُحمل إلى الطلبة!.. وفي مرّة أهدى إليّ صديق قطعة من حلوى اسمها «بودنج»!  
- بودنج!  
- نعم بودنج...  
فضحكت نفيسة قائلة:  
- لولا الملامة لقلت إنّها سلاح لضرب النار! ثمّ سأله أمّه:  
- لماذا لا تخلع ملابسك؟  
فقال في شيء من الخجل:  
- سأذهب إلى السينما!  
ولاح التذمّر في عيني الأم فاستدرك قائلاً:  
- وسأعود مبكراً لنسهر معاً، وسنمضي الغد معاً كذلك!
- وعادوا إلى الحديث والذكريات طويلاً، ولكنّه لم يعد يسهه أن يملك خياله الذي ينازعه إلى الشقة العليا! وكان يجد صعوبة في قطع الحديث والإفصاح عن رغبته في زيارة جاره فريد أفندي، وأخيراً قال بعدم اكتراث:  
- أنّ لي أن أترككمم للذهاب إلى السينما ولعليّ أجد بعض الوقت لزيارة فريد أفندي!
- ٦٤ -
- متّته نفسه بالانفراد بفتاته على وجه من الوجوه ولكنّه لم يدر كيف، فقد اجتمع في حجرة الاستقبال بالوالدين، واستفاض الحديث العاديّ وهو يتتظر حضورها بصبر نافذ. ثمّ جاءت تسير على استحياء وقد لفّها روب ورديّ لم يبد منه غير أطرافها فسلمت عليه سلاماً رسمياً والدها يتفحصها بنظرة ضاحكة تنمّ عن إعجاب. وجلست إلى جانب أمّها، واتصل الحديث كما كان ولكنّ محضرها استأثر بأعناق وعبه



- كذبت على أمي بقولك إنك استأذنت والدتك،  
وستغضب نفيسة لأتأك لم تدعها معنا!  
فأشار إليها بالسكوت وأخذها من يدها إلى الفناء  
ثم إلى العطفة، وسارا معًا والوالدان يطلآن عليهما من  
الشفرة. وكانت بهيئة ترتدي المعطف الأحمر الذي يجلو  
نقاء بشرتها فبدت كالقطة الجميلة. بيد أن القلق لم  
يذهب عنها وقالت له في لوم:

- ستعلم أسرتك برحلتنا إن عاجلاً أو آجلاً...  
ولم يدع له سروره بالظفر مكاناً لهم فقال ضاحكاً:  
- لم ترتكب إثماً، ولن تحرق الدنيا!  
- ألم يكن الأخلق بك أن تدعو نفيسة معنا؟  
- ولكني أريد أن أفرد بك!  
فقالت بقلق، وكانت تخاف نفيسة أكثر من أي  
مخلوق آخر:

- أنت لا تبالي شيئاً وأسفاه...  
ولم يكن لديه من وسيلة للانتقام من تحفظها  
وبرودها سوى الكلمات الصريحة وأحياناً النابية فقال:  
- وددت لو كنت ارتكبت معصية معك حتى  
استأهل هذا الوصف عن جدارة...

فتضرج وجهها بالاحمرار وعبست في استياء دون أن  
تنبس بكلمة لأنهما كانا قد اندسّا بين الواقفين على  
طوار المحطة، وجعل ينظر إلى وجهها الساخط في  
سرور باطني، ثم همس مبتسماً:  
- أعني معصية خفيفة!

فأعرضت عنه حتى جاء الترام فصعدا إلى الدرجة  
الأولى ولم يكن بها إلا سيّدة أجنبية فشعر بارتياح،  
وجلس لصقها، ثم سألها في دعاية:  
- كيف كان شوقك إليّ في غيابي؟

فقالت في شبه غضب:  
- لم تخطر لي على بال قط...  
فهز رأسه كالخزين وقال:  
- ما آلني شيء كما آلني إحساسي بتشوّك إليّ.  
فقالت برود وهي تخفي ابتسامة:  
- أصارحك بأنّ الكليّة الجديدة قد زادت دمك

ثقلًا!

فوجد مشقة في تتبّع الكلام النافه ومشقة أكبر في  
الاشتراك فيه. ثم أخذ يستشعر بالملل والضيق، وكلما  
استرق إليها نظرة وتخيّل قوامها البضّ ثار دمه وحقد  
على الجلسة وشهوها. ورأى في عينيها هدأة وطمأنينة  
كأنه لا يكدّر صفوها مكدر، وإنها لكذلك دائماً كأنما  
لا يجري في عروقها دم، وليس أحبّ إليها من أن  
تجلس بين والديها تصغي لحديثه وهي في مأمن من  
نزواته... لذلك يحقن عليها أحياناً، ولكنّه لا يستطيع  
أن يتجاهل ما بثته في حناياه من طمأنينة وثقة فكان  
يشعر بأنّه يأوي من حبّها إلى ركن ركين وعاطفة عميقة  
ثابتة لا تززعها الحداثان. واستمرّ الحديث فلم تجد  
من نفسها شجاعة على الاشتراك فيه فأنهت بهزة من  
رأسها أو ابتسامة من شفيتها فبلغ منه الضيق نهايته،  
وفكر في خرج فخطرت له فكرة جريئة لم يقعد عن  
تنفيذها مدفوعاً بجسارته، فقال موجّها خطابه إلى فريد  
أفندي:

- هل تأذن لي في أن أصحب بهيئة معي إلى السينما؟  
وتبادل الزوجان النظر على حين خفضت بهيئة عينيها  
موردة الوجه، ثم قال فريد:  
- أظنّ العالم الحديث يستسيغ هذا السلوك بين  
خطيبين...

ولكنّ زوجه قالت بلهجة المعارضة:  
- أخاف ألا يروق هذا للسّ والدتك.  
ولم يتورّع حسنين عن الكذب إنقاذاً لمشروعه  
فقال:

- لقد استأذنتها فوافقت بسرور.  
فابتسمت أسارير المرأة وقالت وهي تنظر صوب  
زوجها:

- ما دام والدها موافقاً فلا مانع عندي.  
وطلب إليها فريد أفندي أن تأخذ أهبثها للذهاب  
مع الشاب فمضت متعثرة في خطوات الخجل، وما  
هي إلا دقائق حتى كانا يغادران الشقة معاً. ولاحظت  
بهيئة أنّه جعل يسير في حذر عندما اقتربا من شقة  
الأسرة كأنه يخاف أن ينتبه إليهما أحد من الداخل  
فساورها قلق وهمست في أذنه:

المشتهة... .

فرمته بنظرة وعيد ثم نظرت فيها أمامها. وحاول في الظلام أن يعايشها بكوعه أو بقدمه ولكنها لم تشجعه، ثم اضطرت تحت ضغطه وإلحاحه أن تترك راحتها في راحته على الذراع التي تفصل بين كرسييهما، ومضى الوقت في سعادة شاملة... .

- ٦٥ -

وفي مساء الجمعة كان يقف بميدان الملكة فريدة ينتظر الأتوبيس رقم ١٠ ليحمله إلى الكلية. وكان أمضى نهائاً سعيداً في أسرته وتناول غداء لذيذاً، وبدت نفيسة في مرحها المألوف ولكنها - على ذلك - قالت له على مسمع من أمها وبلهجة ساخرة:

- وددت لو رأيتك وأنت ذاهب مع «الهانم» إلى السينما!

وأدرك أن سره افُضح وأن الحرب أعلنت فضحك عالياً ونظر صوب أمه فأراها صامته وعلى شفثيها ما يشبه الابتسامة، وشكر في نفسه بدلتة العسكرية التي أنقذته من لكراتها إلى الأبد. وعادت نفيسة تقول بنفس اللهجة:

- ما أجلكم من زوجين! حضرتك في طول الغمود والهانم طول الشبر ودمها الثقيل يوسع لكما الطريق!

فنهرتها أمها قائلة:

- لا تكوني عيابة وفيك كل العبرا

فقال الفتاة ضاحكة:

- أنا على الأقل خفيفة، ولكن لك حق يا سي

حسين فوجهي لم يخلق للسينما!

واعتذر لها ما وسعه الاعتذار ولكنه شعر بندم كما يشعر الآن، وما ضره لو كان دعاها للذهاب معه؟ كان يستعيد ذكريات اليوم وهو واقف ينتظر، وما لبث أن انضم إليه كثيرون من زملائه، ثم جاء الأتوبيس فصعدوا إليه متراهمين ولحق بهم آخرون رأى بينهم بعض من قابلهم أمس في السينما فترجح لديه أنهم سيعلقون على فتاته شأنهم في هذه الأحوال، وشر لذلك سرواً كبيراً وانتظر على لهفة الحديث الذي سيكون دون جوابه. ولم يطل به الانتظار لأن أكثر من

وذكر وهو لا يدري ما تعرض به نفيسة من ثقل دم فتاته فرنا إليها متأثلاً فوجدها جميلة فوق ما يشتهي، ولكنها لا تخلو من هذه الصفة! وما غاب عنه أنه يحب هذه الصفة كما يحب العاشق نقائص معشوقه. وعدل فجأة عن معايشها فقال بحرارة:

- لم تغيبني عن نفسي لحظة واحدة طوال ذلك الفراق، وقد تعلمت جديداً وهو أن الحب في القرب - على طموحه المعبذب - جنة أما على البعد فهو مأساة كاملة.

وخفضت عينيهما دون أن تنبس ولكنها شم في استسلامها وما اعترأها من سهوم رائحة الوجد الصامت وامتلات رثاء بارتياح عميق... . وتحذت كيفما اتفق حتى بلغ الترام ميدان المحطة فغادره ومضيا صوب عماد الدين. وطلب إليها أن تتأبط ذراعه ففعلت بعد تردد، ولما كانت تسير شخصاً - غير أمها - لأول مرة فقد تولأها ارتباك وحياء. وشعرت بكوعه وهو يمس - عفواً أو قصداً - لثديها فسحبت ذراعها من ذراعه، وتساءل محتجاً:

- ماذا فعلت!

- هذا أروح لي... .

فتعيط لإفلات الفرصة وقال:

- سيكون من المعجزات تحويلك إلى زوجة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة، أي امرأة محبة تعانق وتقبل الخ الخ!

وبعد حين قصير كانا يجلسان جنباً لجنب في السينما، وعاوده شعور بالزهو والخيلاء، غير أنه استأثر هذه المرة بميزتين بدلتة العسكرية وحيييته. ومر به كثيرون من زملائه الطلبة وخطفت أعينهم من فتاته نظرات متفحصة فتزايد شعوره بالسرور، ومال نحوها وهمس:

- ألا ترين أن جمالك يجذب الأنظار من المقاعد والألواح؟

فافتّر ثغرها عن ابتسامة حيية فأطلق مرحة وهمس مرة أخرى:

- قلبي يحدني بأني سأنال الليلة القليلة

وضحكوا جميعاً، ثم غيروا مجرى الحديث. وانطوى على نفسه في غم وهم يعاني سكرات الهزيمة. تبرا من فتاته وهو لا يدري. أه لو علموا أنها خطيبته وأنه استعصى عليه نيل قبله منها بعد مثابرة عامين! طابع بلدي، ممثلة أكثر مما ينبغي، قصيرة أكثر مما يستحب، دم ثقيل من رتبة لواء، أهذه بهيمة حقاً؟ وهي إلى هذا كله دقة قديمة! لا يخلو هذا القول من حق فهي لا تدري كيف تصحبه في الطريق ولا كيف تحسن الحديث والدعابة، ولا يكاد يذكر من قولها إلا التائب والتذمر. كيف يسعه إذا تزوجها أن يظهر بها أمام الناس؟ سيقولون هذا وأكثر منه. وشعر بكرب وامتعاض، وغاب عما حوله غارقاً في أفكاره فلم ينتبه إلى وقوف الأتوبيس أمام محطة الكلية حتى نهض الطلبة قائمين...

- ٦٦ -

وفي الأسبوع التالي صعد في الوقت المعتاد لزيارة فريد أفندي، وكان الأب وسالم الصغير في مشوار فجلس مع الأم وبهية، واستمتع بقدر من الحرية لا يتاح له بمحضر الأب. وبدت بهية في فستان بيّ تنبسط على أعلى صدره شبه مروحة من الحرير المزركش ينغرز مقبضها أسفل البنيقة وتنتشر أهدابها فوق الثديين، فلم يكن ينقصها إلا المعطف وتصبح متأهبة للذهاب معه إلى السينما إذا دعاها. ولكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير في هذا، وكان صوت نفيسة لا يزال يطن في أذنيه وهي تقول له بعد أن أعطته نصف ريال لسهرته:

- هذا لفسحتك أنت وحدك!

ولكن لم تكن نفيسة كل شيء، كان في الواقع لا يجد الشجاعة للظهور معها مرة أخرى أمام زملائه، وبات ينجل منها وهو لا يدري. كان يحسبها أجل فتاة، ولكنه لم يكن فتح عينيه بعد وجاءت ملاحظات زملائه الساخرة آية على عماها! ورنا إليها فالتقت عيناهما، وهناك نسي أفكاره، وانبعثت حرارة دمه واضطربت به الرغبة مستهينة بكل شيء، مليحة شهية، لا يستطيع أن يماري في هذا ولكن كيف

واحد منهم بدأ متحفزاً، فقال قائل منهم وهو يشير إليه:

- أما علمتم؟.. رُئيَ الصنديد أمس وفي يده فتاة! وودَّ أن يسمع الجميع وأن يخلصوا لحديثه وحده. وتساءل البعض:

- من أي نوع؟!

- النوع البيّ... .

- جميلة؟

وتركز انتباه حسنين واشتدَّ وعيه أما المتحدث فقال:

- لها عينان زرقاوان ولكن يغلب عليها الطابع البلدي!

وتصاعد الدم إلى وجهه وشعر بفتور قضى في الحال على حماسه ونشوته، على حين واصل الآخرون حديثهم في ضحك وصخب:

- ممثلة أكثر مما ينبغي قصيرة أكثر مما يستحب!

- ودمها ثقيل من رتبة لواء!

- دقة قديمة على وجه العموم، أين وجدتها؟!

وأدرك أنَّ السؤال الأخير موجه إليه ولكنه لم ينبس بكلمة، وجعل يضحك متظاهراً بالاستهانة وهو يعاني شعوراً جارحاً بالخلج والقهر. وقال شابٌ بلهجة تنم على الإشفاق:

- احذر أن تكون خطيبتك!

واندفع قائلاً بلا وعي تقريباً:

- كلاً طبعاً!

- حبيبة؟!

فقال مدفوعاً بمشاعر الألم والخذلان التي تصطرع في نفسه:

- نوع من التسلية ليس إلا!

- إذن فلا بأس بها. عذراء؟!

وأجاب باضطراب شديد: نعم...

- حبيب الله أملك! لماذا تنفق وقتك عبثاً؟ ألم تدري

بأنَّ التقاليد تقضي بأن تكون ليلة الخميس للعشيق

ويوم الجمعة للخطيبة أو من يقوم مقامها؟!

فتكأف الشاب ضحكة وقال:

- سأصطحب جدول النساء في المستقبل!

- ماذا أحدثت ذهابنا معاً إلى السينا في بيتك؟  
ووجد فيها تعنيه بسؤالها عذراً ينفعه في تجنّب ما  
يريد تجنّبه فقال:

- لا شيء ذا بال إلّا أنّ والدتي ساءها أن أدعوك إلى  
مخالفة تقاليد أسرتك المحترمة!

فقالت ببرود:

- ليس ممّا يسيء إلى الأسر المحترمة أن تذهب فتياتها  
إلى السينا!

- كما لا يسيء إليها العناق والقبل ولكنك - مثل  
أمي - لا تصدّقين!

فتجاهلت إشارته وتساءلت:

- هل منعتك من العودة إلى تلك المخالفة؟!

- كلّاً!.. ولكنّها تخاف أن أسيء من غير قصد إلى  
أسرتك الكريمة.

- ألم تخبرها بموافقة والدتي؟

- أخبرتها ولكنّها اعتقدت أنّها وافق متورّطين.

- هل أفهم من هذا أنّنا لن نخرج معاً بعد اليوم؟  
ولم يستطع أن يجابهها بما يبطن فقال:

- بل نخرج حين نشاء.

وندم على قوله أثر التفوّه به، أمّا هي فابتسمت في  
حياء وقالت بصوت منخفض:

- ظننت أنّنا سنذهب اليوم إلى السينا!

وعجب لهذه الدعوة تحيّ من ناحيتها هي، ومع  
أنّه رقّ لها إلّا أنّه لم يستسلم لمعاطفته فقال:

- لولا أنّني مرتبط بموعد كما قلت لك.

- آه... هذا أهمّ من ذهابي معك!

- ليس الأمر كذلك لكن سبق منّي وعداً... ثمّ...  
ثمّ لا يجمل بنا أن نعاود ما تظنّه أمي مخالفة للتقاليد

بهذه السرعة!

فهزّت رأسها في ابتسامة حزينة وقالت:

- إذن فليس الموعد الذي يمنعك!

فقال بتسليم:

- كلا الأمرين معاً... لا تؤاخذني أمي على  
عقليّتها القديمة.

فخرجت عن ضبط عواطفها لأوّل مرّة قائلة:

يتعامى عن هذه الحقيقة المرعبة وهي أنّه يتحاشى  
الظهور معها أمام الناس؟! وكانت الأمّ لا تمسك عن  
الحديث وهو يحاورها باقتضاب وشروء حتّى قالت له:

- ما لك يا سيّ حسنين كأنك مشغول البال!

فأفاق إلى نفسه مضطرباً وقال كالمعتذر:

- كان الأسبوع الماضي حافلاً بالتمارين القاسية  
حتّى غادرنا الكلّيّة كالأموات!

وواصل الحديث وهو أشدّ انتباهاً له حتّى استأذنت  
الأمّ لأداء الصلاة فخلا لها الجوّ، وبادرته الفتاة قائلة:

- ما لك؟

فقال مبتسماً ليذهب عنها الشك:

- لا شيء!

- لست كمعادتك!

ونخطر له خاطر مآكر بعثه في نفسه خلّو المكان  
وعواطفه الثائرة فقال متظاهراً بالحزن:

- لا أنسى تحفّظك معي!

- أتعود إلى هذا؟

- طبعاً!.. هذا حقّي ولا أنزل عنه ما حييت.

فقال الفتاة برجاء:

- حسبت أنّنا انتهينا من هذا؟

- إنّني في حيرة من أمرك، جميع زملائي لهم خطيبات  
مثلك ولكنّهنّ لا يجرمنهم حقوقهم من العناق والقبل.

وعغمخت موردة الوجه:

- لسن مثلي ولست مثلهنّ!..

هذا حقّ، ولعلّ زملاءه لم يقتصدوا في توكيد هذا  
ولكنّها لا تدري ماذا تقول! وتفكر فيها ينطوي عليه

قوله من سخريّة لم تُدّرّ لها بخلد، وقبل أن يتكلّم  
عجلّت هي بتغيير مجرى الحديث فسألته:

- أذهب أنت إلى السينا؟

وأدرك أنّها تهيّئ له فرصة ليدعوها للذهاب معه،  
وساوره إحساس بالضيق ولكنّ إشفافه كان أكبر من

حرجه فقال:

- كلّاً سأوافي بعض الزملاء إلى موعد سابق!

وخفضت عينيها في خجل، ثمّ ساد صمت أليم،  
وأخيراً سأله بلهجة ذات معنى:

بشجاعة الرجل الذي يستصحب هذه المرأة دون مبالاة بأحد. ولاحت منه التفاتة إلى يساره فرأى في الكرسي الذي يليه فتاة حسناء مرتدية جاكته رمادية وتأثيراً، ونخيل إليه لحظة أنه لا يرى هذا الوجه لأول مرة. وراح ينقب في طوايا ذاكرته، وفي أثناء ذلك انتقل بصره إلى امرأة تليها ثم إلى رجل ما إن رآه حتى دق قلبه بعنف ونهض قائلاً ومد له يده بأدب وهو يقول:

- مساء الخير يا سعادة البك.

فالتفت الرجل صوبه - كان أحمد بك يسري - وابتسم إليه مسلماً، ثم قدّمه إلى زوجته وكرمه وعقب على التعرّف به قائلاً «ابن المرحوم كامل أفندي عليّ» فسلم عليها في غاية من الأدب وعاد إلى جلسته ومسّ يد الفتاة يسري في جسده، وسأله البك عن حاله في الكلية فأجابه شاكراً ثم فرغ كلّ لحواله. ونظر إلى أمامه وهو يشعر بارتياح لأنه جاز فترة التعارف وهو ثابت متمالك لأعصابه مع أنه كان يقدر إلى عضوين في هذه الجنس اللطيف العالية لأول مرة في حياته. وممّ ذلك نادل يحمل ألواناً من الشيكولاتة والمشروبات

لو كان يملك من النقود ما يسعفه بتقديم بعض منه الأسرة، ولكن لم يكن في جيبه إلا قروش، فحنق عر إفلات هذه الفرصة منه، وحقد على فقره كما لم يحقد عليه من قبل! ثم أطفئت الأنوار وعادت الحياة إلى الشاشة، ولكنه لم يندمج فيها ووجد من وعيه وخياله إباء وجوحاً. تأكد لديه الآن أنه لم يكن يرى هذا الوجه البديع لأول مرة، وذكر الساق العارية التي كشفت عنها حركة الدراجة بحديقة الفيلا. ترى أي أثر قد تركه في نفسها؟ وأي أثر أخلفه قول أحمد بك من أنه «ابن المرحوم كامل أفندي عليّ»؟ كان والده موقفاً صغيراً، وفضلاً عن هذا فلا شك أن المراتين تعلمان بما بذل البك لأسرته من شفاعاة تارة ليوظف حسين، وتارة ليلحقه بالكلية الحربية، وهيهات أن يغيب عنها حقيقة مستواه الاجتماعي. ولعل الفتاة لم ترفيه إلا صنعة لمعروف والدها، ولعلها قالت لنفسها إنه لولا يد أبيها ما ارتدى - هو - بدلتة ذات الشريط الأحمر! كلّ هذا محتمل، بل هو مؤكد، وقد التهب

- فكيف تسمح لنفسية بالخروج كل يوم؟! ولم تعجبه لهجتها، وساءه ما تضمّنته فقال بلهجة لم تخل من حدّة:

- لولا العمل لما غادرت نفيسة البيت أبداً!

وبادرت قائلة بلين وإشفاق وأسف:

- لم أقصد سوءاً بأحد. أردت أن أقول إن الخروج لا يعيب إنساناً...

وساد الصمت قليلاً ثم سمعا وقع أقدام الأم وهي راجعة فتساءلت بهيّة في لهفة وإشفاق:

- حسنين أنت غاضب؟

ولم يستطع أن يجيبها بسبب ظهور الأم فابتسم لها ابتسامة رقيقة أثابت إليها طمانينتها... ومكث معها ساعة ثم ودّعها وانصرف.

- ٦٧ -

لم يكن ثمة موعد كما زعم وقد ذهب إلى السينما بمفرده ودخلها بعد بدء العرض بدقائق فأرشد إلى كرسية في الظلام. وجعل يشاهد الجريدة بنصف انتباه والنصف الآخر هائم في البيت الذي غادره معتذراً بالكذوبة. وذكر كيف ضغطت على يده بحنوّ وهي تودّعه، ضغطة لذيذة أرعشت قلبه وغفرت لها ما تقدّم وما تأخّر من إساءة! «أمنيتي الآن أدنى إلى التحقيق، لو مارست ضبط النفس بدل التهالك والتوسل لفزت بما أشتهي من زمن. لو عبست في وجهها مرتين لما أصرت على قول «لا». ما أحقني! لن أقنع بقبلة. لأضمتها إلى صدري حتى يقطع عظمها تحت ذراعي، بعيداً عن أعين النقاد التي لا تعجبها إلا الملاحة والرشاقة والموضة. ولكن هل أصرّ على إخفائها عن الأعين بعد أن أنزّوج منها؟ لماذا لا أستهيّن بالناس وألستهم؟ يا له من شرّ لا قبل لي بالتعامي عنه! هكذا أنا» وارتاح من أفكاره بتركيز وعيه على الشاشة فرأى هتلر وهو يستقبل سفراء الدول بمناسبة عيد ميلاده، ثم شاهد فصلاً من الصور المتحركة وأضيئت الأنوار. ودار برأسه فيها حوله متفرساً في الوجوه فاستوقف نظره امرأة هائلة مفرطة في السمينة لحدّ مُزّر تجلس لصق زوجها وتنازعه الحديث، ولم يسعه إلا الإعجاب

تركيز انتباهه في الشاشة، ولكنه كان قد استنفذ حيوية كبيرة فبدا المنظر متعباً مملأً، وتصبر عليه في جهد حتى انتهى وأضيئت الأنوار. والتفت الأعين فحنى رأسه تحية ثم انخرط في تيار الخارجين. انفلت من الزحام فتمشى في الطرق ساعة ثم استقل الترام إلى شبرا. وأقبل على حيه فبدت له عطفة نصر الله أشد كآبة من عهدها، وزكمت أنفه رائحتها التي يختلط بها التراب بالدخان بمواد شحمية كثيرة فقطعها برماً خابي العينين.

### - ٦٨ -

وتواصلت الأيام حتى أوشك العام الدراسي على الختام. وفي ثلثة الأخير علم أن وزارة التربية قررت تخريج دفعة الشاب مكتفية بعام دراسي واحد على أن يتم الخريجون تدريبهم في الفرق التي يلحقون بها، وذلك لتواجه زيادة عدد الجيش بعد إقرار المعاهدة. وضعف العمل للطلبة ولكنهم أقبلوا عليه مستبشرين ومتحمسين، والواقع أنها كانت حقيقة أقرب ما تكون إلى الخيال فلم يكن ثمة واحد منهم يصدق أنه سيكون ضابطاً بعد عام دراسي واحد، وكان آخر هؤلاء جميعاً حسنين نفسه. ثم انتهى العام وتخرج الشاب واستخف الطرب الأم وكانت أشبه بملاح تائه تمرق شراعه ونفذ طعامه إذ تكشف الضباب لعينيه فجأت عن مرفأ آمن، ولهج لسانها بحمد الله وجعلت تقول في حرارة وإيمان عميق «أنت وحدك يا ربّي الذي أخذت بيدي، ومن كان يرى حالنا بالأمس ونحن نتخبط في ظلمات اليأس ويرانا اليوم وكل شيء من حولنا يدعو للأمل يقر من صميم قلبه بعدلك ورحمتك». وغبطت نفسها على سعادتها لأول مرة في حياتها وأخذت محتتها الطويلة تترامى لعينها الذابلتين في هالة من الفخار والسرور وكأنها لم تكن سوى عبوسة مصطنعة على جبين الأقدار الرحيمة، فابتلت عيناها بدموع الفرح والشكر. وكانت تقتصد من نقود حسين ونفيسة ما تعدّه لسداد مصروفات السنة التالية فأخذة حسنين ليهيئ به ملابس الضابط الكاملة وشغل بذلك طول المهلة التي تُمنح للخريجين قبل توزيعهم على الفرق المختلفة. ولما كان ترتيبه بين الأوائل فقد

جبينه خجلاً وسخطاً. «لقد رأيت ساقك على الدراجة، عاجية جذابة ولكنّها ليست بمعجزة. لا توجد معجزات في هذه الدنيا. ألسنت تنامين كأي فتاة، وتغييبين عن الوجود كأي امرأة، وتحبلين كما تحبل الخادمة التي طردناها، لفقرنا، وتعوين حين المخاض كأيّة كلبة!» وحك أنفه بسبّابه فجأة فتنسّم شذاً لطيفاً مما علق براحته عند السلام، فيه إثارة للأعصاب ونفاذ إلى القلب كأنه السحر، فأسكروه عرفه وبث في نفسه رضى وسلاماً مسحاً عن صدره أدران الحنق والألم. ولحظ طيفها اللطيف فحدس أنها شابكة ذراعيها على صدرها، وتمنى لو تريخ ساعدها على يد المقعد فتمسّ ساعده عفوًا. ثم تخيل صورة وجهها الذي ألقى عليه نظرة خاطفة وهو يسلم عليها، بطوله الممتلئ وعينها السوداوين اللتين تنان عن حيوية وخفة، وهالة شعرها الأسود العميق السواد، وبشرتها النقية التي تزين وجنتها اليسرى شامة، ثم راح يستحضر صورة بهية، ويعرض الصورتين جنباً إلى جنب حيال مخيلته حتى اقتنع بأن هذه الفتاة ليست أجمل من فتاته، ولكنه شعر في الوقت نفسه بأن بهية جمال جامد وهذه جمال متحرك، كأنما يبت في النفس حرارة ويشع في الخيال حياة. وليس هذا فحسب فإثباتها تثلبت لعينيه الطموحتين كرمز حيّ للدنيا الراقية التي يتطلع إليها بشغف جنوني. لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة. وبرغم نشوته الراهنة لم يحدع عن حقيقة شعوره، ولم يتوهم أنها تغلغل في قلبه حيث استكنّت بهية. فهذه على سلبيتها المطلقة - تقبض على جذور غرائزه وأعصابه، ولكن الأخرى تخاطب مباشرة طموحه الذي لا يقف عند حد، ولعلّه عرف على ضوء عينها جانباً من نفسه كان غامضاً وهو أنه يؤثر في أعماقه الطموح على السعادة والسلامة! ثم هبطت عليه نوبة فتور مفاجئ فقال لنفسه «إني أحلم أحلاماً سخيفة. ولكن لا يحق لي أن أروّج عن صديري بالأحلام؟ أليست الأحلام نفسها حلمًا؟ بلى، إنها حلم، ولا يكدر صفوها إلا شعورنا الوهمي بأنها حقيقة!». وانقضى زمن لا يدرى قبل أن يتمكن من

- كلام يقال ولكنه لن يغني عَنَّا شيئًا وأنت أخبر بالنفوس!

- لا أحب لك يا بني أن تنقص عليك صفوك بأمثال هذه التخيّلات!...

فاستدرك قائلًا وكأنه لم يسمع قولها:

- هذه العطفة الحقيرة تعرفنا على حقيقتنا، فلماذا لا أطيق البقاء فيها...

وأشفقت الأم من تكدير سعادتها الشاملة فقالت بتوسّل:

- ستسوّى هذه الأمور مع الزمن فلا تتعجّل بحمل همّها!

وحدها بنظرة غريبة وغيظها في نفسه على قوّة أعصابها، ولكنّه سرعان ما تغيّظ لعدم اكترائها بالأخطار التي تتهوّل في رأسه وقال بحلّة:

- قد تسوّى هذه الأمور مع الزمن حقًا ولكن بعد أن تكون قد قضيت عليّ!

فلاحت في عيني المرأة نظرة ارتياح وقالت له في عتاب:

- أراك كعادتك نافذ الصبر متعجّلًا للمتاعب، ونصيحتي لك ألا تخلط أفراحك الحقيقية بأتراح وهميّة لا أهميّة لها.

فقال باستنكار:

- لا أهميّة لها!

ماضي نفيسة وما يعرفه هذا الحيّ عَنَّا لا أهميّة له؟

- إذا لم تأخذ نفسك بالايّمان بهذا فلن ننعم بالسعادة أبدًا.

فتنهّد حسنين قائلًا:

- أودّ أن أسدل على الماضي ستارًا كثيفًا.

- تجمل بالصبر وسيكون لك هذا.

فالتهب الشاب غيظًا وقال كمن ضاق صدره:

- لا أخاف شيئًا كخوفي الصبر الذي تدعيني إليه.

انظري إلى هذه العطفة الحقيرة وهذا البيت العاري هل أستطيع أن أخفيها إلى الأبد عن أعين زملائي؟! وشعرت المرأة بتعاسة وأدركت أنّ حياتها لن تخلو من همّ وكدر. وقالت له بمرارة:

ألقى بسلاح الفرسان بالقاهرة وتبيّ للأسرة من حسن التوفيق ما لم تكن تحلم به، وارتدى حسنين بدلة الضابط فتحقّق حلمه القديم وجعلت أمّه تنظر إليه بعينين أذهلهما الفرح حتّى شدّت عن المألوف من صمتها ورزانتها، فهذا هو الابن المحبوب، زهرة حياتها وأملها المنشود. وقد قال لها مرّة:

- إذا حان موعد الاحتفال بالمحمل فسيتاح لك ولنفيسة فرصة باهرة لتشاهداني على صهوة جوادي على رأس فرقة الفرسان!

فلم تتمالك أن قالت له:

- هذا إذا ابتعت لي معطفًا يليق بالظهور في الطريق الغاصّ بالمفتّرجين!

فضحك الشاب قائلًا:

- صبرك حتّى أقبض مرتّبي!

كانت أليّامًا سعيدة صفت لهم فيها الدنيا وطابت. بيد أنّ الشاب كان يفكر في أمور كثيرة، وكان يروم أن يقيم سعادته المتاحة على أسس ثابتة لا يتطرّق إليها الفساد، فانتهاز فرصة انفراده بأتمّة مرّة - كانت نفيسة في الخارج - وقال لها بصوت ينمّ عن الاهتمام الشديد:

- أمّاه، يجب أن تنقطع نفيسة عن عملها المزري في الحال لأنّه لا يجوز لأخت الضابط أن تكون خيّاطة.

فابتسمت الأم وقالت في بساطة:

- سترحبّ بهذا يجمع قلبها يا بني...

كان ينتظر هذا القول بلا ريب بيد أنّه لم يمح من نفسه ما يعتلج بها من مثار الفكر فاستطرد متنهّدًا في كآبة:

- ليتنا نستطيع أن نمحو الماضي من صفحة الوجود!.. أخاف أن يعيّرنا قوم بما كان. وأنت أعلم بنفوس الناس، وأكره ما أكره أن يترامى شيء من هذا إلى أحد من زملائي فأفقد كرامتي بين أقراني...

فسرى إليها بعض همّه ولكنها ربّبت على كتفه مبتسمة وقالت باستهانة:

- كنّا فقراء، وأكثر الناس فقراء ولا عيب في هذا... فهزّ رأسه معترضًا وقال في أسى:

- خطوة خطوة! كنّا لا نجد الطعام فانظر أين نحن الآن!!

فهزّ رأسه في حزن وقال:

- ما أردت إغضابك يا أمّاه ولكِنّي أفكر في هذه الأيام كثيرًا في المتاعب التي تتهدّنا. وقد ذكرت لك بعضها، ولعلّ ما بقي أدهى وأمرّ. فانظري مثلاً إلى أخي حسن وسيرته في الحياة! كيف نستقبل الحياة في هدوء وحولنا هذه المتاعب؟!

وتفرّست في وجهه بدهشة وكأنّها تعجب لقدرته على اصطیاد الهموم، وتتمت فيما يشبه اليأس:

- دع الخلق للخالق. كنّا هكذا دائماً فلم نهلك ولم يقض علينا.

فقال الشاب بإنكار:

- لم أكن ضابطاً أمّا الآن فقد أصبحت سمعتي مهدّدة!

وتجهّم وجه الأمّ ولاذت بالصمت في كرب شديد فتهدّ حسنين قائلاً:

- ينبغي أن يتغيّر كلّ شيء، حتّى قبر والدنسا المكشوف بين قبور الصدقة. تصوّري ماذا يظنّ بنا زملائي لو علموا بمكانه!

ودارت الأمّ مشاعرها بابتسامة وقالت برجاء:

- إنّي أحبّ لنا ما تحبّ ولكِنّي أوصيك بالصبر وأحدرك عواقب ثورة لن تجدي الآن إلّا الحزن. تريد أن تمحو الماضي وتغيّر البيت وتنشئ مقبرة وتبدّل أخاك من حال إلى حال، ولكن هيهات أن يتمّ لك ما تريد قبل زمن طويل فكيف يكون العمل؟ طالما تمّنت أن تسعدنا وأن تسعد معنا فإذا لم تروّض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا!

وضاق بالكلام ضيقه بمتاعبه فأمسك عنه. ولم يقع قولها من نفسه الثائرة موقع الانتناع أو القبول فخيّل إليه أنّها لا تشاركه آماله وعواطفه، وأنّه وحيد في معركة الحياة أو الموت. إنّ نفسه تهفو لحياة أفضل وأنظف، ولن يجيد عن هدفه، وليدافع عن سعادته وآماله بكلّ ما أوتي من قوّة ورغبة في الحياة. ودقّ الباب عند ذاك، وكان المساء يمدّ رواقه، فحدس أنّها

نفيسة عائدة من عملها، فهرع إلى الباب في تصميم جديد.

- ٦٩ -

ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا تُرى تلك الأيام إلّا مبتسمة مستبشرة. واستبان في وجه أمّها سهوً فاقتربت منها وقالت مداعبة:

- تخليّ يا أمّاه عن هذا الجدّ الذي لا داعي له فقد انتهت متاعبنا.

وردد حسنين قولها في نفسه محزوناً، هل حقّاً انتهت متاعبهم؟ إنّ ميزانيّة الجيش كلّها لا تكفي لإنهاء متاعبهم! ثمّ رفع بصره إليها وقال بلهجة ذات معنى:

- أن لك أن تستريحى...

فتساءلت ضاحكة:

- أتعني أن أترك مهنتي؟

- نعم...

- أتركها غير آسفة، وسألزم بيتي كالهوانم، ألسنت شقيقة ضابط؟...

ولم يتالك أن قال ساخراً:

- وشقيقة سي حسن أيضاً!

فردّت عينها بينه وبين أمّها في دهشة وتساءلت عمّا جعله يقحم أخاه بهذه اللهجة المرّة، أمّا هو فسلّاها منهكاً:

- ألا يسرك هذا؟

وقالت الفتاة برقة وعطف:

- مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن أن ينكر.

وتدارك الشاب قائلاً:

- لست في حاجة إلى من يذكرني بهذا، وعلم الله أنّي أحبّه، ولكن لا حيلة لي إذا قلت إنّ سلوكه في الحياة ليس ممّا يشرف.

وثقبت العبارة الأخيرة قلبها فلاح في عينها نظرة زائغة، وتخيّلت أموراً فبردت أطرافها رعباً، ثمّ خيّل إليها أنّه يعينها بالذات، ولم تعد ترتاح للصمت فغمغمت في فتور:

- وأيّة أسرة تخلو من شيء من هذا القبيل!



بدأت الحياة لها عابثة قاسية، تعبت في قسوة. وتقسو في عبث. فتساءلت «لماذا خلقتني الله؟». ومع ذلك كانت تحب الحياة، ولم يكن يأسها وعذابها وخوفها إلا آيات على هذا الحب، وكانت إلى هذا كله تنتظر مع الغد موعداً لم تضر النكوص عنه.

وحملت الصينية بخرقه بالية وعادت إلى الحجرة فوضعتها على المكتب وهي تقول في مرح وكأنها نسيت أفكارها ومخاوفها:

- أقدم لك آخر كنانة من عرق جبيني، وعليك وحذك منذ الآن أن تحلي ألسنتنا!

وأقبلوا على الكنانة بشهوة وقد تطهرت الأنف من همومها، وقالت الأم وهي تغرز أصابعها في الصينية:

- ليت حسين كان معنا. ولوح لها حسنين بإصبعه حتى ابتلع ما في فيه ثم قال:

- آن لنا أن نسعى إلى نقله إلى القاهرة. كان أحمد بك يسري قد وعد بنقله بعد مرور عام أو نحوه وما قد أوشك أن يمضي عامان على تعيينه في طنطا. كان يرغب في معايشة أخيه كعهدهما القديم، وكان يأمل أن يجد فيه عوناً على متاعبه، وقد رحب إلى هذا وذاك بفرصة تتيح له زيارة أحمد بك في قصره.

- ٧٠ -

ذهب مع أصيل الغد إلى فيلاً أحمد بك يسري وفي نيته أن يقدم له فروض الشكر المناسبة فخرجه ثم يستشفعه لنقل أخيه إلى مدرسة من مدارس القاهرة. وقد وقف البواب احتراماً للضابط ثم قاده إلى السلامك ومضى إلى الداخل لانباء البك بحضوره. وجلس حسنين إلى الكرسي الذي جلس عليه أكثر من مرة في أوقات متباعدة وظروف مختلفة، وراح يسرح طرفه في الحديقة. وجرى بصره في المشى الطويل المتعرج الذي رأى الدراجة تقطعه في مهل وحذر منذ أكثر من عام وتساءل ترى ألا تزال تلهو بهذه الرياضة؟ وابتسم للذكرى حيناً ثم تساءل مرة أخرى أحق جاء للشكر والشفاعة وحدهما؟! وعاوذه الابتسام. بيد أنه كان في حيرة من أهدافه قلقاً حيال البواعث التي

فقال حسنين بامتعاض:

- ولكنّه لا يوجد في الأوساط المحترمة.

وركبها الضيق والقلق فرغبت في الاختفاء وتظاهرت بالضحك وقالت في مرح متكلف:

- لا يستحيل أن يوجد شقيقان أحدهما وزير والآخر لص، بالله لا تكدر صفونا، وأعلم أنّي صنعت لك صينية كنانة فدعني أسخنها ولناكل في سلام!

وغادرت الحجرة إلى المطبخ بوجه مكفهر ونفس حائرة يشيع في قلبها خوف وقلق. إنه يدعوها إلى القبوع في البيت أسوة بالنساء المحترمات، وإنها ترحب بهذا ولكن ما كان كان ولا سبيل إلى إصلاحه. وهي تستطيع إذا شاءت أن تتحل لسلوكها الأعذار وأن تقول لنفسها إنها إنما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود التي أقامت بها أود أسرتها في أكلح ساعات حياتها، وهذا حق ولكنّه ليس الحق كله فهناك أيضاً الرغبة المعبّدة واليأس القاتل. وكم ودّت في ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هي بموتها ولكنّها كانت تزداد رغبة وانحداراً ويأساً ثم تمرّداً واستسلاماً. وعانت كثيراً شقاء الذنب وكان عزاؤها الوحيد - إن كان عزاء على الإطلاق - أنّ الأقدار لا يمكن أن تدخر لها حياة أفضل. وكم تمرّقها الحيرة الآن بين ماضٍ تعيش ورغبة لا تسكت عنها. وحتى هذه الحياة الجديدة الموعودة لا تدري إن كانت تستطيع حقاً أن تخلص لها بعد ما كان، فلن تغيض رغبتها ولن يتخلى عنها اليأس، وفيّمْ تأخذ نفسها بصبر لا مطعم لأمل وراءه وليس لديها ما يصحّ المحافظة عليه؟ هل يمكن أن تقنع من الحياة بانتظار طويل ممّ للموت؟ لا تدري إن كان بوسعها حقاً أن تخلص للحياة الجديدة، وأن تتعذّب عذاباً طويلاً متصلاً بعد أن خسرت كلّ شيء. إنها تمقت الماضي وتخافه ولكنها تُشدّ إليه بقوة شيطانية فلا تستطيع منه فكاً، ولن تفتأ تتبعه يائسة مثقلة بالذنب مرتعبة، كمن يسلم للسقوط من علّ شاهق في كابوس بعد أن أيس من اليقظة. وجعلت تنظر في سهوم إلى صفحة الكنانة الموردة حتى تحيلت نفسها في الصينية تخرق وقد اسودّت بشرتها، وفي تلك اللحظة

الارتباك حيال البك وأنداده من عليّة القوم. وذهب  
البواب لاحضار الليمون أما البك فسأله برقة:

- أين كان تعيينك؟

فقال حسنين بزهو مكتوم:

- سلاح الفرسان بالقاهرة.

- كنت من المتقدمين؟

- الثامن....

وهتاه الرجل، ثم ساد الصمت. وكان في عزمه -  
لو قابل البك منفردًا - أن يعدّد أياديه على أسرته وما  
بذل من شفاعاة محمودة له ولأخيه على أن يتدرّج من  
النساء إلى عرض مسألة أخيه حسين، ولكنّه عدل عن  
هذا مصمّمًا على الاحتفاظ بكبريائه أمام المرأتين، وأمام  
الفتاة خاصّة، ولم يرَ ضيرًا في تأجيل مسألة شقيقه إلى  
غد أو بعد غد على أن يحدّث البك عنها في مكتبه  
بالوزارة. وجاء خادم نوبيّ بأقداح الليمون دار بها  
عليهم. وانتهاز حسنين فرصة رفعه للقدح إلى فمه  
فاسترق إلى الفتاة نظرة من فوق حافة القدح فراها  
وهي تحسو شرابها في رفق ولطافة، فلم يندّ عن زورها  
هذه الحركات العصبية التي يبعثها الازدراء العنيف،  
وتمرّزت السائل في رقّة فانسكب في هودة وحياء، وقد  
اكسب وجهها بهدوء بديع واسترخاء حالم كأنها تستقيم  
للمسات النعاس، وأعاد القدح إلى الصينية ثملاً بنشوة  
افتتان تبعثها الأناقة والرشاقة وأمارات الأرستقراطية.  
وتخيّلها فجأة بين ذراعيه مستكنة مستنمة فأصرّ على  
أسنانه. «ما هذا الجنون الذي ينبعث في دمي. ليس  
شهوة فحسب، بل ليس شهوة على الإطلاق، بهيمة  
أشهى منها وإن كان ينجلني الظهور معها أمام الناس،  
ليس ركوب هذه الفتاة بعمل جنسيّ ولكنّه غزو كامل  
وفتح مظفر. هذه!». وانتبه من أفكاره على صوت  
أحمد بك وهو يسأل:

- كيف حال الأسرة؟؟

فخطر له خاطر ظنّ أنّه يرفع من كبريائه، وكانت  
الأكاذيب تنبعث في نفسه أحيانًا بوحى البديهة فقال بلا  
تردد:

- الحمد لله. انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا

تحرّكه، مشفقًا من الاساءة إلى خطيئته، ثمّ ذكر زيارته  
الأخيرة - التي أعقبت تحرّجه - لبيت فريد أفندي  
وكيف مرّت في أحاديث مملولة وشعور أليم بالحرمان.  
حقّ أنّه لم يظفر بجلسة منفردة واحدة بفتاته، ذكر هذا  
فوجد من التذمّر ما هوّن عليه إحساس التائب الذي  
دبّ في أعماقه لسروره بذكريات فيلًا أحمد بك. ونفض  
عن رأسه أفكاره واستسلم لمشاعر الطموح التي تتوهّج  
في قلبه في محيط هذه الفيلا الرائعة فانثالت على مخيلته  
الأحلام، ماضٍ جديد وبيت جديد وقبر جديد وأهل  
جدد ومال موفور وحياة وضّاء لامعة. ومع أنّه صار  
ضابطًا، ولعلّ كثيرين يرمقونه بعين الحسد لذلك، إلّا  
أنّه أدرك الناس بقلبه الذي يحترق لهفة على الحياة  
السامية النظيفة، هذا القلب الذي أورده الجزع موارد  
القلق والسخط والشقاء، ولبث على استسلامه  
للأحلام حتّى عاد البواب من الداخل وتنحّى عن  
الباب في أدب وهمس «سعادة البك قادمًا». ونهض  
حسين، ثمّ ظهر البك في بدلته البيضاء والوردة  
الحمراء تزّين عروته، ولما رأى الشابّ ألقي على بدلته  
العسكرية نظرة شاملة ثمّ قال ضاحكًا:

- أهلاً بالضابط.

وانحنى الشابّ على يده مسلّمًا وهمّ بالكلام ولكنّه  
رأى حرم البك تتبعه قادمة من الداخل وفي أثرها  
الفتاة. وأدرك أنّه جاء في وقت غير مناسب لغرضه لأنّ  
الأسرة متأهبة للخروج، وقد توكّد هذا لديه حين لمح  
السيّارة تدور في الممشى الواسع وتقف عند أسفل  
السلاملك منتظرة الداهيين، فما كان منه إلّا أن سلّم  
على المرأتين وتأخّر بخطوتين قائلاً:

- جئت لأقدّم لسعادتك فروض الشكر لمناسبة  
تحرّجي، وأرى أن أستاذن في الانصراف الآن حتّى لا  
أؤخّركم.

ولكنّ البك قال:

- بل نجلس لنشرب ليمونًا معًا، ما يزال أمامنا  
فسحة من الوقت...

وجلسوا فجلس وهو يبدّل قصاراه ليضبط أعصابه.  
فلم يكن أبغض إليه من أن يتولّاه الاضطراب أو

القضية!

فتساءل البك:

- أي قضية؟

فقال بثبات وثقة:

- قضية قديمة بين أمي وأخوالي على أوقاف وقد حكم لأمي بنصيبها كاملاً!

فقال الرجل:

- مبارك... مبارك...

وشعر حسنين بارتياح وزهو، ثم وهو يقول:

- لقد أشرتكم وأنا أسف يا سعادة البك.

ونفضوا جميعاً وهبطوا إلى موقف السيارة، وتمنى لو يدعوه الرجل إلى الركوب معهم، ولكنه مد له يده مودعاً فسلم عليه وحتى رأسه تحية لأسرته ومضى إلى الباب مسرعاً. كانت الزيارة تبدو مخففة لأنه لم يمس الموضوع الذي جاء من أجله ولكنه كان يرى توفيقه بهذا اللقاء غير المنتظر وهذه الكذبة التي جادت بها البديهة السعيدة أخطر من غرضه الأول الذي لن يؤثر فيه تأجيل يوم أو يومين...

- ٧١ -

وقب وجهه في السماء ولما يرح شارع طاهر فطالع في صفحتها نظرة الغروب الشاحبة فتساءل ترى هل يجد أخاه حسن في بيته إذا جازف بزيارته؟ كان مصمماً على مجابته برأيه وإن كان ضعيف الأمل في إصلاح ما فسد من أمره، ولكن تركيز أفكاره في مستقبله ومستقبل أسرته جعله يستهين بكل شيء حتى مناقلة حسن نفسه. ومضى يشق طريقه بعزيمة لا تنتهي ولكنه كان يحمل قلباً أثقله الهم والشلل. واستقل الترام حتى ميدان الخازندار ثم اتجه إلى شارع كلوت بك وقد تحول انتباهه إلى بدلته العسكرية التي فرضت عليه الظروف - كانت أمه قد استغلت ملابسه القديمة في أغراض جديدة كعادتها - أن يجترق بها طرقات مريبة! لم يكن الاختيار بيده، وكان يرى في حسن مشكلة الأسرة المعقدة الأولى. لقد تحلت نفيسة عن مهنتها، وسوف يهجر قريباً عطفة نصرالله بل وشبرا جميعاً، وربما أسدل ستار النسيان على الماضي البغيض كله،

فلم يبق إلا حسن وهيئات أن يطمئن له جانب ما دام شقيقه مقارفاً حياته الأثمة. وطالعت عطفة جندف فرح إليها متجنباً الأنظار التي تطلعت إليه في دهشة وقطعها مسرعاً إلى بيت أخيه ورمق إليه كالهارب مستقبلاً الرائحة النتنة، وارتقى السلم الحلزوني متعصاً، ذاكراً في صيق وخجل زيارته الأولى لهذا البيت منذ عام، حتى وقف أمام باب الشقة في شبه ظلام وطرق الباب. وفتح الباب عن وجه رجل غريب - وجه شائه من الوجوه التي لم ترح ذاكته منذ زيارته الأولى - وما إن وقع بصره عليه حتى دفع الباب فأغلقه في وجهه بسرعة غريبة وقد نذت عن فيه صرخة قائلة: «بوليس!» فدهش الشاب، ثم حدث ما هنالك فانزعج وأحس بخزي وألم لم يحس بمثلها من قبل. ولبت متسماً في مكانه لا يدري ماذا يفعل. وفكر في العدول عن الزيارة، ولكنه لم يبرح مكانه ووجد من نفسه تصميماً عنيذاً على إنجاز مهمته مهما كلفه الأمر. ليست المسألة لهواً وعبتاً؛ هي حياة أو موت، ولن يستطيع السير في حياته قدماً ووراء هذا البيت. وطرق الباب مرة أخرى، وانتظر وهو يعلم بعث الانتظار، ثم أعاد الطرق بشدة. ترى هل يمكن أن يكونوا قد هربوا من الشقة من إحدى النوافذ؟ وأراد أن ينادي أخاه بصوت مرتفع فيتعرف عليه بصوته ولكنه خاف أن يعرفه كما يريد ثم يعلن شخصيته لصاحبه المذعور ليطمئنه فتذاع الصلة التي يمتنى ألا تُعرف أبداً، ومع هذا فمن أدراه أن حسن لم يخبر أحداً بحقيقة شقيقه ولو على سبيل الفخار! وأصر على أسنانه في خزي ويأس، ولكن اليأس أمده بقوة عناد جديدة فطرق الباب بقبضة يده بعنف وصاح «يا حسن، يا حسن، أنا حسنين!». ولم يطل انتظاره بعد النداء ففتح الباب وبدأ حسن خلفه يطالعه بعينين ذاهلتين. وبدأ كمن يفيق من صدمة، وثبت بصره لحظات دون أن يتحرك، ثم دبّت في عينيه يقظة، وشاع في نظرتها الابتسام وهتف:

- حسنين!!.. ضابط!.. لا أصدق عيني!

وشد على يده. وربّت بالأخرى على ذراعه، وجذبه

إلى الداخل وهو يضحك ضحكة عصبية عالية. ثم سار به إلى حجرة النوم وهو يقول:

- ضابط... يا لها من مفاجأة!.. مبارك مبارك... هذا يوم سعيد..

وجلس حسنين على الكنبه، وأغلق حسن الباب ثم جاء فجلس إلى جانبه. وكان الشاب يذل جهداً جباراً ليتغلب على اضطرابه ويتألك أعصابه، ونظر إلى أخيه مبتسماً وقال:

- إني أحق الناس بالتهنئة ولكذك أنت أحقهم بالشكر.

فضحك حسن بسرور ولعل شعوره بالسرور كان مضاعفاً بعد ما كان من انزعاجه وقال:

- علام أستحق الشكر؟ ما أدبت إليك إلا بعض حقك عندي. دعنا من هذا وخبرني عن حال الأسرة، وكيف أمنا ونفيسة وما أخبار حسين؟

وراح يحدّثه عما يريد بباطن فاتر وظاهر متكلف الاهتمام. وكاد الحديث يسوقه وهو لا يدري إلى سؤاله عما قطعه عنهم، ولكنه أمسك عن السؤال في اللحظة الأخيرة ذاكراً أنّ انقطاعه هذا خير غير مقصود وأنّ وصاله شرّ ما يبتلون به وهو على هذا الحال، ولما فرغ من حديثه قال حسن:

- الحقّ أنّي أحزن إليهم كثيراً ولكنّ حياتي لم تعد تسمح لي بإشباع هذا الحنين. نحن في بلد واحد ولكنّي في الواقع كائن في بلد بعيد منقطع عن العالم، وربما خفّف عني الألم أحياناً أنّهم لم يعودوا بحاجة إليّ وأنّي أدبت بعض الواجب عليّ. وفضلاً عن هذا فلست تجدي في يسر متّصل، فقد يمتلئ جيبني بالنقود أياً ما يفرغ أسابيع. وفي حالة امتلائه تجدي مضطراً للإنفاق بغير وعي. لا عليك من هذا، لقد أصبحت ضابطاً فمبارك عليك حظّك ولا يصحّ أن أخلط بفرحي شيئاً آخر... مبارك يا حضرة الضابط!

وجعل حسنين يصغي إليه وهو يتفرّس في وجهه فهاله ما يرى من تغير وتشويه وغبابة كأنه يستهلك في العام الواحد من حياته المحفوفة بالمهلك أعواماً طوالاً. لقد انتهى حسن، وشعر بانقباض وتشاؤم،

وبثقل المهمة التي جاء من أجلها. ومع هذا فلم يخطر له لحظة واحدة أن يعدل عما يراه واجبه، وعزم على أن يتسلّل إلى هدفه برفق فابتسم وقال:

- أخاف أن أكون قد أزعجتك بزيارتي!  
- ابصق هذه العبارة من فيك!.. ما هذا القول يا حضرة الضابط؟

فأشار حسنين ناحية الخارج وقال متصنّعاً الدهشة:  
- لقد فتح الباب لي رجل غريب ثم صرخ مرتعّباً «بوليس» وأغلق الباب في وجهي!  
فقهقه حسن عالياً وقال:

- حصل سوء تفاهم نادر ولكنّي عرفت صوتك فأنتهى الأمر بخير... فوجد حسنين صعوبة قبل أن يقول متسائلاً:

- وما الذي أخافه؟  
فألقي عليه نظرة كأنما تسائله أيمهل حقاً أم

يتجاهل! ثم قال بعدم اكتراث:  
- يوجد أناس كما تعلم يخافون البوليس!  
فتساءل الشاب بإشفاق:

- أليس من الخطر أن تفتح أبواب بيتك لمثل هؤلاء؟  
فصمت حسن قليلاً ثم قال:

- بلى ولكنّ الإنسان ليس حرّاً في اختيار أصحابه!  
فقال بدهشة:

- كيف هذا يا أخي؟... الإنسان حرّ بلا شك في اختيار أصحابه...

فقال حسن بلهجة من يرغب في تغيير مجرى الحديث:

- فلندع هذا جانباً ولنختر حديثاً لطيفاً!  
- لا أستطيع أن أدعه حتى أطمئنّ عليك... فقال حسن ضاحكاً:

- لا خوف عليّ، اطمئن!  
- إني أعجب لما يدعوك إلى مصادقة هؤلاء الأشرار... أنت فتان محترم وتستطيع أن تختار من بين زملائك أحسن الأصدقاء.

وخفض حسن عينيه ليخفي نظرة التجهم التي

- هما شيء واحد...  
 - حقاً؟! لا أرى رأيك أو دعني أسألك لماذا لم توجه  
 إلي هذه النصيحة من قبل؟.. منذ عام مثلاً؟  
 لا يسعه - بعد أن قال له، وهو لا يدري، إنه إنما  
 جاء لهذا الأمر - أن يدعي أنه كان يجهله، وركبه  
 الضيق، ولكنه تهرب من سؤال أخيه قائلاً:  
 - ألا ترى وجه الخير لك فيما أريد؟  
 فتجاهل حسن سؤاله وقال بنفس اللهجة الساخرة:  
 - كنت قبل عام في حاجة جنونية إلى النقود فلم  
 تهتم بالنصح والإرشاد أما الآن وقد أصبحت ضابطاً  
 فلا يهتك إلا الدفاع عن هذه النجمة اللامعة!  
 ومع أن وجه حسين لم يتغير إلا أن قلبه ماج بالغيب  
 والحق وكأنما أهاجه أن يقرأ الآخر أعماقه بهذه السهولة  
 الساخرة ولكنه قال بلهجة ليئة:  
 - أخي...  
 وأشار إليه الآخر أن يسكت فسكت، ثم قال  
 باستهانة:  
 - سأكون معك صريحاً إلى أبعد حد، وإذا كنت  
 تسأل نفسك حقاً عن عملي فأني أقول لك إنني فتوة  
 قهوة بدرب طيب (ثم مشيراً إلى الصورة فوق رأسه)  
 وعشيق هذه المرأة، وبائع مخدرات.  
 وهتف حسين في انزعاج:  
 - لا أصدق هذا!  
 فقال الرجل مبتسماً في هدوء:  
 - بل تصدقه كل التصديق، ولعلك تحنته فيما  
 مضى، وما قد صحّ تخمينك، فماذا ترى؟!  
 فرنا الشاب إليه صامتاً في إشفاق وألم، حتى ضاق  
 بصمته فقال محزوناً:  
 - ليس أحب إلي من أن تبدأ حياة جديدة شريفة!  
 فضحك حسن عالياً ثم قال بسخرية:  
 - بفضل حياتي غير الشريفة أمكنني أن أدفع عن  
 أسرتنا غائلة الجوع، وأن أزود أخاك حسين بما كان في  
 حاجة إليه كي يباشر عمله الحكومي، وأن أهني لك  
 قسط المصروفات الذي جعلك ضابطاً والحمد لله.  
 ووخزه كلامه بمثل شك الإبر فترأت له الحياة

لاحت فيها. غضب الرجل، ولو ثار غضبه حيال  
 شخص آخر غير حسين لانفجر، ولكنه كظمه وعالجه  
 بالحسن. أغضبه شعوره بأن أخاه يعلم من أمره أكثر  
 مما يتظاهر به، وأنه يعامله معاملة الأطفال. ولو أنه  
 صارحه بذات نفسه، بل لو أنه وصفه بالشر كما  
 وصف أصحابه لما غضب كما يغضب الآن. وعزم على  
 أن يكشف القناع عن الحديث الكاذب فقال باقتضاب  
 وبصوت - رغم كظمه غضبه - غير الذي تكلم به من  
 قبل:

- إني واحد من هؤلاء الأشرار!  
 وفغر حسين فاه دهشة فقال الآخر بجفاء:  
 - حسين إياك والتظاهر بالدهشة. لست غيباً  
 ولست غيباً فيحسن بك أن تحدثني بالصراحة التي  
 تعودت أن تحدثني بها دائماً. ما وجه الغرابة في أن  
 أكون شريكاً؟ ألم أكن طوال عمري هكذا؟  
 وخفض الشاب عينيه في وجوم وخجل وتشتت  
 منطق فانعقد لسانه، وارتاح الآخر لارتبائه فعاوده  
 مرحة وأراد أن ينهي هذا الحديث المؤلم فقال:  
 - لا عليك من هذا، ولعن الله الرجل الرعديد  
 فلولا فزعه الصبياني ما جرى الحديث بيننا هذا المجري  
 السخيف، ولنعد الآن إلى الأهم (ثم ضاحكاً) لا شك  
 أنك جئتني لحديث آخر!  
 فجمع الشاب ما تشتت من أفكاره وقال متنهّداً:  
 - الحقيقة أنني ما جئت إلا لهذا الأمر!  
 فلاح الاستنكار في وجه حسن وقال متهكماً:  
 - حسبك جئت تطلب نقوداً!  
 وشعر الشاب بغضب أخيه ولكن لم ينثن عن عزمته  
 فقال بلهجة رقيقة متودّداً إليه:  
 - بفضلك السابق لم أعد في حاجة إلى نقود ولكن  
 مهتمّي الآن أجل من النقود، إني أريد أن أطمئن  
 عليك...  
 فجدجه بنظرة ثابتة وقال بسخرية:  
 - لا زلت أطالبك بالمزيد من الصراحة!.. إنك يا  
 حشرة الضابط تريد أن تطمئن على نفسك لا علي أنا!  
 فقال حسين وهو يشعر بقهر وغيب:

ضيقه خانقة، ولكن رغبته الحارة في الدفاع عن نفسه أبت عليه أن يسلم بالهزيمة فقال:

- كان هذا بفضل نبلك ولا فضل لهذه الحياة الخطيرة في ذاتها!

- لا تغالط نفسك. إتهم يدعوني بالروسي لا بالنبل. ثم ما هي الحياة غير الشريفة؟ ليس ثمة إلا حياة فحسب، وكلنا يسعى للرزق..

- توجد حياة آمنة، وحياة يفزعها مجرد توهم البوليس..

- هذا من عسف البوليس، ولا ذنب لنا، بالله خبرني ماذا تريد علي أن أعمل؟

فقال حسنين بحماس وقد لاح له بارقة أمل:

- اهجر هذه الحياة واختر لنفسك عملاً شريعاً كسابق عهدك.

وانفجر الرجل ضاحكاً وتساءل في دهشة:

- صبي ميكانيكي؟! هذا كمن يطلب إليك أن تستقيل من الجيش لتبدأ من جديد بالتوفيقية! وعلى حق الشاب في أعماقه مرة أخرى، ولكنّه تساءل في هدوء وابتسام:

- ألا تدري ما النهاية المحتومة لحياتك؟ فقال متهكماً في بساطة:

- أن أسجن أو أقتل.. وإذا قُدر علي أن أقتل أولاً نجوت بطبيعة الحال من السجن!

فتظاهر بالضحك وما يزداد إلا حنقاً، واشتد حنقه خاصة لاستهائته، ومع أنه يش منه أو كاد إلا أنه استطرد قائلاً:

- أرى أن خطورة حياتك لا تغيب عن فطنتك، فلست في حاجة إلى أن أبصرك بعواقبها الوخيمة، وإني أستحلفك بالله أن ترعى نفسك بالحكمة..

فألقي عليه نظرة طويلة باسمه كأنه يقول له «لا تحاول خداعي بتوذك» وقال:

- لا تخف علي، أستغفر الله أعني لا تخف على نفسك أو سمعتك، لا تحمل نفسك هموماً فارغة، هبني كشيء لم يكن، لا تكثر لما يقول الناس عنكم بسببي فإنك تستطيع أن تحيا الحياة التي تروق لك على

رغم كلام الناس..

وتنهّد حسنين في ضيق وقنوط، وحنق عليه في تلك اللحظة حنقاً أسود تمتّى معه لو كان شيئاً لم يكن حقاً، ولكنّه كائن، ومسلط على رأسه كالسيف القاتل، فما عسى أن يفعل؟ وتنهّد مرة أخرى وتساءل:

- أليس ثمة أمل في أن تعود إلى الحياة الشريفة؟.. أهذه كلمتك النهائية؟!

وغضب حسن، وكأنه أشفق على أخيه من غضبه فانفض قائلاً وقطع الحجرة الصغيرة ذهاباً وإياباً مرتين مفرغاً بخار غضبه في حركاته العنيفة، ثم استند إلى حافة السرير، وشبك ذراعيه على صدره، وقال بلهجة من نفذ صبره:

- حياة شريفة، حياة شريفة! لا تعد هذه العبارة على مسمعي فقد أسقمتمني. ميكانيكي بقروش معدودات في اليوم، أهذه هي الحياة الشريفة؟!.. السجن أحب إليّ منها! ولو أنني استمسكت بها طوال حياتي لما حلّيت كنتفك بهذه النجمة، ألحسب أن حياتي وحدها غير الشريفة؟.. يا لك من ضابط واهم!.. حياتك أنت أيضاً غير شريفة، فهذه من تلك، ولقد جعلت منك ضابطاً بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار إلى الصورة)، فانت مدين ببذلتك لهذه المومس والمخدرات، ومن العدل إذا كنت ترغب حقاً في أن أفلح عن حياتي الملوثة أن تهجر أنت أيضاً حياتك الملوثة، فاخلع هذه البذلة ولتبدأ حياة شريفة معاً!

واصفراً وجه حسنين وغضّ بصره في دھول ويأس وقد امتلأ صدره غيظاً وحقداً. وانفجرت شفتاه أكثر من مرة كأنه يهيم بالكلام ولكنّه كان يطبقها في تسليم اليأس. ولم يرحمه حسن على ما بدا من قهره ووجومه فقال:

- أرايت أنك تؤثر النجمة على الحياة الشريفة؟! ولست ألومك فأنا مثلك أوتر رزقي على الحياة الشريفة (ثم ضاحكاً).. نحن شقيقان ويجري في عروقنا دم واحد!

ونفض حسنين عابساً وهو يقول:

بقوة عنيفة ولكن يرغب به عنها ما يرغب به عن عطفة نصر الله وعطفة جندب. لم تعد الأمل الذي يرنو إليه، وما هي إلا لوثة في دمه يبغى منها شفاء. وأدام النظر إليها حتى خال وجهها الهادئ المهذب عقاباً مجسماً فوجد وخزاً في قلبه، وطرده أفكاره دون أن يبت فيها برأي وسمعها تقول له:

- لا تحملق في هكذا...

ما ألد أن يضمها إلى صدره ويمطرها قُبلاً! إنه لا يدري ما هو فاعل بها غداً ولكنه يأسى على طول حرمانه.

وقال مبتسماً:

- إنني أفكر في تقبيلك قبله حارة نبدأ بها حياة جديدة.

- لا يحلو لك إلا هذا الكلام!

- هل ثمة ما هو أحلى؟

فترددت قليلاً ثم خفضت عينها قائلة:

- يوجد ما هو أهم!

وحدس ما تعنيه بلا تردد. وساوره قلق. ولكنه تجاهل ظنه متسائلاً:

- أهم من القبله؟!

- أحب أن تحدّثني جاداً ولو مرة...

- ولكنني أود أن أقبلك جاداً!

فتفكرت فيها يشبه الحيرة، كأنها تغالب خطرة ثم بدا كأنها تغلبت على حيرتها فقالت:

- ألا تدري ماذا قالت أمي؟

صدق حدسه! لا بدّ ممّا ليس منه بدّ! وتساءل متبهاً:

- ماذا قالت؟

فقالت بصوت منخفض وفي عناء من حياء:

- قالت لي لقد طال انتظارك، وها قد صار ضابطاً! وأحسّ في أعماقه بحقّ حامٍ كأنه سمع تجديفاً، ومع أنّه كان يعلم بأنّه ليس له حقّ في حنقه إلا أنّه

كره الأم في تلك اللحظة. ثمّ تساءل:

- هل تتعجّل الزواج؟

فتضجّ وجهها بالاحمرار وغمغمت:

- لا تسخر منّي جزءاً ما أوليتك من نصيحة!

ثمّ انجّه نحو باب الحجرة وهو يقول:

- أستودعك الله..

ولمّا وضع يده على أكرة الباب سأله الآخر برقة مفاجئة:

- ألا تريد أن تسلّم عليّ؟

فتحوّل إليه ومدّ له يده، فشدّ عليها الآخر وأبقاها في يده وهو يقول ضاحكاً:

- يؤسفني أنّي أغضبتك. انس ما كان ولنبق كما كنّا

ولو على البعد، ستجدني دائماً «الروسي» الذي عهدته.

ولا تنس أن تهدي سلامي إلى أمنا ونفيسة. مع ألف سلامة..

- ٧٢ -

وأطلع أمّه على صورة واضحة من سيرة حسن فقد

كان صدره أضيق من أن يتسع لها وحده. واستمع لما

جاد به لسانها من ضروب العزاء والنصح بقلب

مغلق، كان في الحقيقة متجهماً متشائماً حاقداً. ولمّا

كان لديه بضعة أيام من الفراغ قبل أن يبدأ عمله

بالفرقة فقد خطر له أن يسافر إلى طنطا للقاء حسين،

وعاوده شعوره القديم بالحاجة إلى مشاورة أخيه فيها

يلمّ به من أحداث. بيد أنّه لم يقدم على تنفيذ فكرته

وبدا كالتردد، وفيما بين هذا وذلك لم يجد من سلوى

إلا في شقّة فريد أفندي. ولكنه كان يذهب إليها

ناشداً عزاء لا ملتبساً شوقاً، ولم تغب عنه حقيقة متاعره

فحمل كآبته العامة مسئولية تغييره، ثمّ أخذ يستبين أنّ

تغييره أعمق من أن يكون أثرًا عارضاً وقتياً، وتساءل في

حيرة ألم يعد يحبّها؟! عرض له هذا التساؤل أول ما

عرض في ضحى اليوم الذي جاء بعد زيارته لحسن

بيومين، وكان يجالس بهيّة على انفراد بحجرة الاستقبال

على حين شغلت الأمّ بالمطبخ، فجعل ينظر إلى الفتاة

متسائلاً ألم يعد يحبّها؟! هي فتاته بجسمها وروحها،

ولم تزل ماثرة رغبة جاعحة ولكن كأنه يرغب في أن يوتّي

عنها فيما يرغب أن يوتّي عنه من ماضيه جميعاً. وتحير

بين رغبته فيها وما يتساءل عنه من انتهاء حبّه لها!

أيمكن أن يرغب فيها ولا يحبّها في آن؟ إنه يُجذب إليها

- كَلَّا وَلَكِنَّمَا تَرَى أَنَّهُ أَن تَعْلَنَ الْخُطْبَةُ .

- أَلَمْ يَتِمَّ هَذَا؟

فَتَحَسَّسْتُ بِنَصْرِ يَمْنَاهَا فِي حَيَاءٍ وَغَمْغَمَةٍ:

- ثَمَّةُ أُمُورٍ لَمْ تَزَلْ نَاقِصَةً . . .

وفهم ما تشير إليه في استياء لم يدر سببه. لم يكن ثمة شيء مستغرب فيما يطلبون ومع ذلك حنق عليهم جميعاً وركبه شعور المطارد إذا تهدده خطر، وتفرّس في وجهها وهو يذكر ما قال زملاؤه عنها في الأتوبيس وقال لنفسه «فتاة طيبة ولكنّها ليست أهلاً لأن تكون زوج ضابط مثلي، ولو تمّ هذا الزواج لكان الأول من نوعه!» ثمّ قال لها في هدوء باسم:

- هذه أمور لا وزن لها.

- ولكنّها هامة جدّاً في نظر الناس فطلالما تساءل أقاربنا عن الخاتم! . . .

وعجب للحماس، وتمنّى لو كانت تعلن عن بعض هذا الحماس في الحب. «ولكنّها تريد أن تتزوّجني لا أن تحبّني. هذا سرّ برودها وتحفظها. وإذا لم يكن حبّ، بل وحبّ قهّار جنونيّ، فما الذي يغريني بالزواج منها؟» وقال:

- لا داعي للعجلة، ستحقّق آمالنا في الوقت المناسب.

- ومتى يكون هذا الوقت المناسب؟

فقرّب ما بين حاجبيه كأنه يفكّر وقال:

- أظنّ إذا رُقِّيت إلى رتبة الملازم أوّل أصبح في وسعي أن أفتح بيتاً مع معاونة أهلي الذين لا يستغنون عنيّ كما تعلمين.

وبدا في وجهها الوجوم وجعلت تقرض ظفرها حانية الرأس خابية العينين. ومع أنّه ارتاح لتصريحه الذي مدّ له في حرّيته إلّا أنّه رَقّ لمنظرها، وجرى بصره على جسمها فدقّ قلبه وتناسى أفكاره ومخاوفه وحنقه فنهض إليها وجلس إلى جانبها على الكنب، ولكنّها تباعدت إلى نهاية المقعد وحالت دونه بساعديها قبل أن تُذهب روح المقاومة الطارئة مسحة الحزن من عينيها. وقبض على ساعديها وهوى على كفّيهما يقبلهما، حتّى قامت مبتعدة عنه وهي تهتف:

- دعني. . . دعني. . . لم تعد كما كنت.

وقام في أعقابها مدفوعاً بفورة إحساسه وجنون أعصابه وطوّقها بذراعيه وأطرافه ترتعش، ودافعه بقوة فهوى بفيه إلى شفّتها فأملت رأسها إلى الوراء فمست شفّته طرف ذقنها، ثمّ تملّصت من ذراعيه ووقفا وجهها لوجه وهما يلهثان، وصاحت به بصوت متهلّج:

- لا تهجم عليّ غصباً!

وانقلبت شهوته غضباً فحدّثته نفسه بهجر الحجرة، وسار خطوتين صوب الباب، ثمّ تحوّل إليها بغتة وقد انقلب غضبه شهوة جنونيّة فانقضّ عليها مصمّماً على إرواء عواطفه، وطوّقها بذراعيه رغم مدافعة يديها، وضمّها إلى صدره بعنف ووحشيّة، ثمّ طبع شفّته على شفّتها، وكلّما مالت بوجهها عنه اتبعها وجهه لازقاً فاه بفيها، ملاقيّاً دفعات مقاومتها بقوة وحشيّة، حتّى سكنت بين ذراعيه في شبه إغماء. ولم يبال خورها فراح يضمّها إلى صدره حتّى استشعر طراوة جسمها اللدن على بطنه وفخذه ففسّر إلى إحساسه في ارتياح عميق كأنّه كُشف جديد عن لذّة الحياة. ونذت عنها مقاومة طارئة ضعيفة كصحوحة الموت ولكنّه قضى عليها بوحشيّته. وجنّ انفعلاً وتطلّع واستزادة، وانصهر قلبه وسرى ذوبه في أعصابه باعثاً لذّة خياليّة، ثمّ انهارا في تسليم متوقّع مفاجئ معاً. وأفاق كمن يفيق من حلم فوجدها بين ذراعيه وشفّته على خدّها، ولما شعرت بذراعيه تتراخيان عنها دفعته في صدره متراجعة وقالت وهي تتنهّد في صوت ضعيف:

- لن أصفح عنك. . .

ولم يترك قولها في نفسه أثراً، لا حسناً ولا سيّئاً، فلم يابه لها وكأنّ إحساسه تجاهل وجودها. شعر بظفر وارتياح ثمّ غلبه عليها فتور فتراجع إلى مقعده الأوّل وجلس عليه في دهشة. ولبث هي بموقفها كالمتردّة ثمّ عادت إلى مجلسها في استياء وراحت تعاتبه وتعتقه دون أن يلقي إليها بالاً. ورنا إليها بغرابة وساءل نفسه: أهذه هي؟ أهذا أنا، أين هي وأين أنا؟ ثمّ ران عليه فتور ثقيل أكثر ممّا يحتمل.

وجعل يصغي إليها دون أن يحمّل نفسه مشقّة



- لقد خلقت لتكون أبا باراً...  
فابتسم حسين على ما أثار قوله في نفسه من  
ذكريات محزنة ولكنه لم يعلق عليها بكلمة وقال مشيراً  
إلى نجمة الضابط:  
- إني فخور بك...  
فقال حسنين بتأثر:  
- إني مدين بها لنبل تضحياتك.  
وهبط قوله على قلبه برذاً وسلاماً، وتمتم:  
- لا تبالغ! أنت رجل جدير بكل خير...  
وقال حسنين لنفسه «هذا شقيق لا يشين، ولولا  
ماضي نفيسة وحاضر حسن وماضيه ما وجد إنسان على  
الأرض أسعد مني» ثم قال لأخيه بسرور:  
- أبشر لقد رجوت أحمد بك يسري أن يسعى  
لنقلك إلى القاهرة فوعدني خيراً...  
- عفارم! وبهذه المناسبة أخبرك أنني سأعود معك  
إلى القاهرة قائماً بإجازتي السنوية...  
ثم غادر الفراش وهو يقول:  
- اغسل وجهك ونفّض بدلتك من وعشاء السفر  
وهلمّ ننطلق إلى المدينة فلا خير في البقاء في هذه  
الحجرة الضيقة...  
وارتدى بدلته ثم خرجاً معاً يتمشيان في طرقات  
المدينة، ثم مضى به إلى قهوة السمر وجلسا معاً  
يواسلان حديثهما. وتكلم حسين عن حياته في طنطا  
كثيراً، وشكا إلى أخيه وحدته وكيف عودته على غشيان  
المقهى كل مساء فيمضي ساعتين على الأقل مع نفر من  
الموظفين يلعبون النرد حيناً ويسمرون حيناً آخر، ثم  
يعود إلى الفندق فيطالع ساعة أو أكثر قبل النوم،  
وحديثه عن آخر كتاب ابتاعه وهو الاشتراكية لمكدونالد  
المترجم عن الإنجليزية وكيف أنّ النظام الاشتراكي لا  
يتعارض مع الدين ولا الأسرة ولا الأخلاق. كان في  
وحده وضيقه يسعد بأحلام الإصلاح ويتمخّل مجتمعاً  
خيراً من المجتمع الذي يعيش بين أعضائه، وحالاً  
خيراً من الحال المقدورة له، وأسعده الأمل في إمكان  
تحقيق خياله دون الاعتداء على العقائد التي أشرب  
حبها والإيمان بها منذ طفولته.

الاعتذار، وانتهاز فرصة حضور أمها فجالسها دقائق ثم  
قام مستأذناً في الانصراف. ولما غادر الشقة شعر  
برغبة في الهرب، وحينذاك عادته فكرة السفر إلى  
طنطا فابتسم لها في ترحاب وحماس.

- ٧٣ -

عندما انتهى إلى فندق بريطانيا بشارع الأمير فاروق  
بطنطا كانت الساعة حوالي الخامسة مساء وقاده غلام  
إلى حجرة أخيه فنقر على الباب ووقف مبتسماً انتظراً  
للمفاجأة السارة وفتح الباب وظهر حسين في جلبابه،  
وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة فأقبل على القادم وهو  
يهتف:

- حسنين! لا أصدق عيني!

وتعانقا عناقاً حاراً، ثم دخلا الحجرة الصغيرة  
وحسين يلقي عليه نظرة متفحصة في حب وإعجاب ثم  
قال بصوت متهدج من التأثر والسرور:

- يا لها من مفاجأة سعيدة. أهكذا يهجم  
العسكريون بلا إنذار؟ مبارك. لقد أرسلت برقية  
تهنئة...

- وصلتنى ورأيت أن أحيثك بنفسى شاكرًا!

- وكيف حال نينة ونفيسة؟

- على خير حال. وجدت لدي بضعة أيام إجازة  
قبل بدء العمل فضلت أن أمضيها معك...

- أحسنت صنعاً. وحسن؟ أما من جديد عنه؟  
وغاض البشر من وجه حسنين ولكنه أبى أن يخلط  
باللقاء كدراً فقال:

- دعنا منه الآن على الأقل...

وحسد حسين ما أحزنه ولكنه لم يكن أقل رغبة  
منه في تأجيل النكد إلى وقت آخر فدعاه إلى الجلوس  
على الكرسي الوحيد ووثب هو إلى الفراش. وتبادلا  
نظرات مشوّقة متفحصة فلمس كل منهما ما طرا على  
الأخر من أمارات الصحة والعافية وإن كان وزن  
حسين قد زاد أكثر ممّا يتصوره أخوه، كذلك وجده قد  
ربى شاربه بطول شفثيه وعرضها ممّا أكسبه مظهر  
رجولة وقور وجعله يبدو أكبر من سنّه، وقد داعبه  
قائلاً:

- والأسفاه، كان حسن ضحيةً للمرحوم والدنا، وكان والدنا ضحيةً لضيق ذات اليد!

فقال حسنين بجزع:

- ألا تستطيع إقناعه بالإقلاع عن أسلوب حياته؟

فقال الآخر متنبِّهًا:

- لن يقلع عنها مهما قلنا أو فعلنا، شيء واحد يستطيع أن يعدل به عن حياته وهو أن نهبي له رأس مال مناسب كي يبدأ حياة جديدة، فهل يسعنا هذا؟ وتبادل نظرة يائسة لأن السؤال لم يكن في حاجة إلى جواب، ثم قال حسنين بحلّة:

- أتركه في غيّه كي يقضي على آمالنا!

- لقد قضى على نفسه.

- وعلينا! كيف تواجه العالم ولك مثل هذا الأخ؟ سوف تظهر أساؤنا يومًا في الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات!

فتنبّده حسنين محزونًا متفكرًا في كلام أخيه الذي رجّع أصداء أفكار طالما أكرهته في وحدته، ولكنه قال معارضًا أخاه ونفسه معًا:

- لا ذنب لنا، ولا يصحّ أن ندع الخوف يتهوّل في قلوبنا. قد يصيبنا رشاش من السنة الناس، الآن أو فيما بعد، ولكننا لن يمكننا مواجهة الحياة إذا لم نُدّرع بقدر من عدم المبالاة...

بدا له حسنين كأنه لا يعي ما يقول، أو كأنه لا يبالي السمعة الطيبة التي هي أس كلّ أمل في الحياة بيد أنّه مهما يكن من أمره فهو ليس ذا أصدقاء كأصدقائه يشفق من أن يظلموا على أسرار أسرته، كذلك لا تنازعه نفسه إلى المجد والطموح فليس في آماله ما يخاف عليه السنة الناس. أجل أخطأ تقديره ولن يجد من أخيه مشاركة وجدانية، وحقن عليه في تلك اللحظة كثيرًا. واحتقر استسلامه وهذوه. واندفع قائلاً وكأنه لا يروم إلا الترويح عن حنقه:

- هل نعدّ أنفسنا شرفاء؟

فقال حسنين بدهشة:

- ولم لا؟!

- ولكننا استعنا على تقويم حياتنا بنقود ملوثة!

ثم تساءل في نفسه ترى هل أفضت أمّه للشباب بالسّر الذي دفعها إلى زيارته منذ عام ونصف؟ ولما لم يشر حسنين إلى الموضوع بكلمة اطمأنّ إلى أنّها كتبت الأمر كلّ وهو ما ترجّح لديه من بادئ الأمر. وذكره هذا الخاطر بآلامه الماضية ولكنّه ذكرها بقلب خالٍ هادئ لولا حنينه العامّ إلى الرفيق والحبّ ما تشكّى قط، ثم وجد نفسه وهو لا يدري يسأل حسنين عن خطيبته! وأجاب الشابّ إجابة عامّة قائلاً: «بخير والحمد لله»، وساءل نفسه هل يصارح أخاه بما طرأ في نفسه من تغرّر وتطوّر؟ ولكنّه جفل عن هذا، وأجلّه إلى المستقبل إذا جدّ جديد من الأمر، وكان يعلم سلفًا بأنّ حسين لا يمكن أن يوافق على نواياه أو يرضى عن منازعه. وتواصل الحديث بينها طبيبًا لطيفًا حتّى عزم حسنين على خوض الموضوع الخطير الذي يشغله فقال متنبِّهًا:

- تصوّر كم كانت الحياة جميلة لولا ماضينا وأخونا حسن...

وأحسن حسنين بما وراء هذا التنبّه من حزن وسخط فقال ببساطة:

- أعتقد أنّ آلامنا قد انتهت، أمّا ماضينا فليس فيه ما يُججل، وأمّا حسن فلن يضرّ وأسفاه إلّا نفسه... فهو رأسه دلالة على عدم الموافقة وقال في حزن: - أنا علمت أنّ حسن قد انقلب مع الزمن بلطجيًا وتاجر مخدرات؟!

ومع أنّ حسن كان يتخيّل شقيقه الأكبر على أسوأ حال إلّا أنّه لم يكن يظنّ أنّه تردّى إلى هذا القرار، فهتف في ارتياح:

- لا تقل هذا..!

فكان جواب حسنين على ارتياحه أن قصّ عليه ما شاهده في زيارته الأخيرة لحسن وما سمع، وأصغى إليه أخوه في صمت ووجوم. ولما طال صمته سأله حسنين:

- ما رأيك؟

فبسط له راحتيه كأنه يقول له: «ما حيلتنا؟» ثم غمغم:

مكان اللوح الزجاجي المحطم، كل أولئك ذكريات عزيزة. أما سريره فلم يعد له أثر، بيع في الوقت المناسب كالمُتبع، ولحق بسريره حسن، وكأنه لم يعد من أهل البيت! ومع أنه كان يحبس هذا بالبداية إلا أنه شعر بحزن وكآبة. وهنا شعر بنفسية وهي تغادر الحجرة قائلة:

- أمهلاني ساعتين أعدّ لكما غداء طيبًا!

وابتسم ارتياحًا. إنه لم يذق طعامًا طيبًا منذ عهد بعيد، ربما منذ وفاة والده. أجل كان طعامه طيبًا وهو موظف أفضل من طعامه وهو تلميذ كما يشهد بذلك ارتواء جسمه، ولكنه لم يطلق لشهوته العنان قط. على أنه كان مشغولًا بما هو أخطر من لذة الطعام وهو تذوق عودته السعيدة إلى منتهى الأول وجوه الأصلي. كان حنانه كالغنة الحلوة يتردد في حواسه جميعًا، حتى هواء عطفة نصرالله الفاسد وحد له ميل ألفة ورقة ومودة فكأنه الصحة والعافية. وجعل يحادث أمه وعيناه تترددان في أنحاء الحجرة الصغيرة حتى استقرتا على جاكته حسنين المعلّقة بالشجوب فنظر إلى النجمة طويلاً. سيرقى حسنين عامًا بعد عام حتى يصير ضابطًا عظيمًا على حين يبقى هو كاتبًا في الدرجة السابعة - أو السادسة على أحسن فرض - طوال مدة خدمته. على أنه لم يجد أي أثر لشعور الحسد أو الحق، كان أبعد ما يكون عن هذا، بل كان سروره بأخيه لا يداني، ولكنه وجد نفسه يتأمل في صمت حزين الفوارق الطاغية التي تميز بين الموظفين، وامتد خياله وهو لا يدري إلى الفوارق الطاغية التي تفصل بين الناس عامة. ترى ألا يمكنه إذا نُقل إلى القاهرة أن يلتحق بمعهد ليلي عسى أن يتغير من حال إلى حال؟ وابتسم قلبه لهذا الخاطر السعيد وأودعه صدره كامل احتياطي يلجأ إليه في حينه فينجيه من مصير كمصير حسن أفندي حسن! وحتى حسن أفندي نفسه لم يكن ليرقى إلى الدرجة السادسة لولا الوزير الوفدي؛ وذكر عند ذاك أمورًا سمع بها في طنطا فسأل أخاه:

- هل حقًا ما يقال عن احتمال سقوط الوزارة؟

فضحك حسنين قائلاً:

تطايير الشرر بغنة من عيني حسين، وحملق في وجه أخيه وهو صامت، وكأن آلامه الدفينة قد طفت على سطح قلبه داعية معها من الأعماق أسوأ الذكريات، ثم قال بحدة:

- كنا في موقف دفاع عن النفس، والدفاع عن النفس يُجَلِّ القتل...

وشعر حسنين بارتياح خفي لغضب أخيه، وجعل يتساءل في حيرة عما دفعه إلى مجابته بهذا التصريح الأليم. ثم استطال الصمت حتى سئم الموضوع فخاضا في غيره، غير أنه مضى زمن غير قصير قبل أن يطيب لها الحديث...

- ٧٤ -

وبعد بضعة أيام عاد الشقيقان إلى القاهرة فكان يوم في حياة الأسرة لا ينسى. وقبلت الأم حسين طويلاً ثم عانقته نفيسة عناقًا حارًا، وأمضى الشات ساعة طويلة من الظاهر وهو يحدث عن طنطا وحياته بها والمرأتان منصتتان. وجعلت نفيسة تتفرس في شاربته وبدانته الأخذة في النمو فهالها تغيره وقالت باستنكار:

- فيم تبدو كالرجال وأنت طفل!

فقال حسين مبتسمًا:

- لم أعد طفلًا.

وقال حسنين ضاحكًا:

- نحن رجال وأنت أختنا «الكبرى»!

فقال الفتاة بحدة:

- كنت أكبركما فيما مضى أما من الآن فصاعدًا فأنتما

تكبرانني، هل تفهمن؟!

ثم التفتت إلى أمها وساءلتها في اعتراض:

- هل يعجبك هذا الشارب الذي يكبر نفسه

ويكبرنا معه بلا داع؟!

وكان الوقت ظهرًا فراح حسين يخلع ملابسه، وقد بدا البيت لعينيه غريبًا، بيد أن حبه العميق لأسرته وليبته استيقظ ودر حناها فملكه ارتياح شامل، ارتياح من اهتدى إلى مأواه بعد أن تحبّط ضالًا طويلاً، وأجال طرفه في حجرة المذاكرة، هذا المكتب القديم، وهذين الكرسيين، وهذه النافذة التي تقوم صفحة الجريدة منها

- غير مسموح للضابط بالاشتغال بالسياسة.

فضحك الشاب، ثم قال:

- كيف تسقط بعد أن نفخ الإنجليز أيديهم من سياستنا؟

وتساءلت الأم:

- أعود مرة أخرى إلى المظاهرات؟

- من يدري؟

فعدت تقول بقلق:

- لا شأن للجيش مع المظاهرات؟

فقال حسنين بمكر:

- إذا قامت ثورة فلا بد من تدخل الجيش!

وضحك حسنين، وأدركت الأم ما تعنيه ضحكته فرمت حسنين بنظرة شذراء وهزت منكبيها استهانة.

وعادت نفيسة لتقول لهم إنَّ الغداء يتهيأ على أحسن

حال، ثم سألتهم عن السلطة المفضلة لديهم،

وغادرت الحجرة مشمرة عن ساعديها والعرق يتصبب

من جبينها، وساد الصمت فعاد حسنين إلى أفكاره

وفكر هذه المرة في الإجازة وكيف يمضيها. كان

الموظفون في طنطا يدعونه باليهودي لأنه لا يقامر ولا

يسكر ولا ينفق أكثر من قرش واحد في القهوة،

ولكنهم جهلوا حقيقة حاله. أجل إنه ميال بطبعه إلى

الاقتصاد ولكن هل تركت مسؤولياته له شيئاً يقتصد؟!

ولم تدعه أمه لأفكاره طويلاً فعادت تنازعه الحديث،

وخيل إليها أنها ترنو إليه بحنو نادراً ما تعلنه، ترى هل

ذكرت كيف قست عليه يوماً؟! لقد قست عليه حقاً،

ولكن قسوة الدهر عليهم جميعاً كانت أعظم. ترى

ماذا هي فاعلة مع حسنين؟. ولكن لماذا لا يبدو

الفتى متحمساً لزوجاه! لماذا لم يحدثه عنه؟! وحوالي

الساعة الثانية جاءت نفيسة حاملة صينية الغداء،

فوضعتها على المكتب وهي تقول:

- نأكل اليوم على المكتب لأن الموظفين لا يصح أن

يأكلوا على الأرض.

جمعتهم المائدة لأول مرة منذ عامين، ثم عادوا إلى

جلستهم على الفراش الصغير وواصلوا الحديث في

أنس وسرور، وحوالي منتصف الرابعة دق الباب

الخارجي فغادرت نفيسة الحجرة لتفتح للقادِم. ووثب

لرأس حسنين خاطر عجب، أتكون أسرة فريد أفندي

قد جاءت لتتقني العائد؟!.. وفي هذه الساعة؟

وعادت نفيسة جرياً ووقفت على عتبة الحجرة وهي

تنظر إليهم بعينين متسعيتين تلوح فيهما الدهشة

والانزعاج، ثم هتفت قائلة:

- ضابط وعساكر... .

- ٧٥ -

ووقف الشقيقان في دهشة وحسنيين يتناول جاكته

ويرتديها بسرعة متسائلاً:

- ماذا يريدون؟

وكانت نفيسة تردّد بصرها بينهم وبين القادمين

فقال فجأة بذعر:

- رباه... لقد دخلوا الصالة.

واندفع الشابان خارج الحجرة فوجدا ضابطاً

وشرطيّين ورجلاً آخر يبدو من مظهره أنه غبر، فتقدم

حسنيين من الضابط متسائلاً:

- ماذا تريد حضرتك؟

فقال له الضابط:

- لا مؤاخذه، لدي أمر بتفتيش هذه الشقة!

وأطلعه على أمر كتابي فنظر فيه حسنيين بعينين لا

تريان شيئاً، على حين سأل حسنين:

- لعلك أخطأت الشقة. ماذا يدعو لتفتيش بيتنا؟

فقال الضابط:

- نحن نبحث عن حسن كامل عليّ الشهير

بالروسي!

وجم الشابان وهما ينظران إلى الضابط في انزعاج

وقنوط، وكانت المراتان تقفان على عتبة الحجرة فركبها

الذعر وتسمرتا في مكانهما. وعاد الضابط يقول:

- لقد قبض على بعض شركائه ولكنّه اختفى قبل

القبض عليه، ودلنا بعضهم على مسكنه الأول وتحققنا

من هذا بواسطة شيخ الحارة... .

فقال حسنيين بصوت متهتج:

- ولكنّه لا يقيم هنا. لقد غادر بيتنا منذ أعوام ولا

ندري عنه شيئاً.

- بودي لو أقتل!.. لن يروح عن صدري أقل من القتل.

وضاقت الأم بعنفه بنفسه فغمغمت قائلة:

- هدي من روعك يا بني، ماذا يجدي ضربك نفسك هكذا؟

فصاح في غضب:

- دعيني أقتل نفسي ما دمت لا أجد من أقتله!

وخرج حسين عن صمته فقال بصوت غريب:

- يجب أن نتدبر أمرنا في هدوء.

فرماه بنظرة من عينين محمومتين وقال:

- أي أمر نتدبره؟.. لقد افتضحنا وانتهينا!

- هذه مصيبة لا حيلة لنا فيها ولكننا لم ننته، فلنتدبر أمرنا.

لم يكن صدره ليحتمل المناقشة فمضى إلى حجرته وارتمى على فراشه، وكان الخزي يخنقه والغضب يحرقه فمقت أخاه المذنب مقتاً قتلاً ودّ معه لو يخفيه عنه الموت إلى الأبد. واستسلم لخاطر دموية جنونية راح يجترها في ذهول وهذيان، ولحق به حسين فجلس على الكرسي صامتاً متحامياً إثارته، وكان هو نفسه في حالة تستحقّ الرثاء. لم يبلغ منه الحزن يوماً ما بلغه في تلك الساعة، فلم يغب عنه ما أصاب سمعته من طعنة قاتلة، وما يتهددهم من قلاقل في الحاضر والمستقبل وما نزل بأخيه الأكبر من قضاء لا قائمة له بعده. ماذا جنت أسرته حتى تستحقّ هذا كله؟! وأخذت تتجمع في ذاكرته ذكريات من آلام الماضي ويربطها بآلام الحاضر فبدت له كدمل خطير يتكشف فجأة عن مضاعفات سامة في الوقت الذي يظنّ به الاندمال والشفاء. وكعادته قرن آلام أسرته بآلام الناس فوجد نفسه يتأمل حزناً شاملاً، وكان يلقي على تأمله هذا كآبة لا شك فيها ولكنها كثيراً ما توحى بشيء من الصبر والعزاء. ثم نزعته به نفسه إلى تلمس بصيص نور في ظلامه المحيط، وجعل يسترق النظر إلى وجه أخيه المكفهر متحياً فرصة لمحدثه.

ولبت الأم وابنتها بموقفهما ونفيسة لا تمسك عن النحيب. لم يعد بوسع المرأة المحنكة أن تحسن التفكير

فهزّ الضابط رأسه وقال:

- على أي حال سأقوم بتفتيش الشقة تنفيذاً للأمر...

وبدا التفتيش فتراجع أحد الجنديين إلى الباب واقتحم الضابط والأخيران الحجرات، وقد جمد الشقيقان في موقفها كأنهما استحالا حجirin. وقال حسين لنفسه «سأذكر هذه الساعة ما حييت»، وتبع خياله الضابط وهو ينتقل من حجرة إلى حجرة، وكأنه يرى معه الحجرات الخالية العارية ويقلب أثاثها البالي الحقيق ظهراً لبطن. لم يكن تفتيشاً عن حسن فحسب، لأنّ حسن لا يمكن أن يجتئ في درج المكتب أو تحت حشية الفراش، فالفضيحة أفلح مما يتصور. وحتى في تلك اللحظة الرهيبة لم يستطع أحد أن ينتزع من نفسه الخجل الجارح الذي عفى عزة نفسه والضابط يهتك بعينه المتفحصتين حقارة البيت وفقره، وبلغ مسمعه - على ذهوله - صوت بكاء مكتوم فارتفع بصره إلى نفيسة وصاح بها بحدة جنونية:

- اكنمي أنفاسك!

وانتهى التفتيش فأمر الضابط رجاله بمغادرة الشقة ثم اقترب من حسين وقال برقة:

- أكرر الأسف. وإنه ليسرني أنني لم أعثر على شيء

كان حرياً بأن يسبب لكم المتاعب!

ورفع يده إلى جبينه بالتحية وغادر الشقة مخلفاً وراءه سكوتاً محزناً، وتبادل الشقيقان نظرة ذاهلة دون أن ينبسا بكلمة، وأقبلت المرأتان نحوهما بوجهين ميتين. وانتبه حسين من ذهوله بغتة متأوها فوثب إلى الباب وأبرز رأسه رامياً بطرفه إلى فناء البيت فرأى رجال البوليس في نهاية الفناء يشقون طريقهم وسط لمة من الرجال والصبية بينهم البقال والحذاد وبائع السجائر فتراجع وهو يضرب صدره بقبضته صائحاً:

- الجميع يتفرج على فضيحتنا. افتضحنا وانتهينا.

وعاودت نفيسة البكاء ونظرت الأم إلى حسين كأنها تستغيث به ولكن الشاب لم يدر ماذا يقول، وبدا كأنه يقاوم طعنة قاسية. وجعل حسين يذرع الصالة وهو يواصل ضرب صدره بعنف ويقول:

والتدبير، غلبت على أمرها. وقهرها الحزن والأسى. وكان قلبها يعاني الآلام التي تتوزع قلوب أبنائها جميعاً يضاف إليها ألم خاصّ دفين يخيفها بقدر ما يعذبها، وتشفق إشفافاً شديداً من ذبوعه وافتضاحه، هو ألمها لحسن نفسه. أين ذهب؟ ماذا يفعلون به لو قبضوا عليه؟؟ أيّ مصير يرصده؟ لا ينبغي أن تذكر له إلا عطفه وحنانه، وأنه جادّ لهم بخير ما في نفسه، وأنه كان ملاذهم في الملمات. يا له من طريد لا نصير له ولا حبيب! حتّى أهله ينكروونه ويمقتونه. عين حسود أصابتهم، نفسوا عليها الموظف والضابط ونسوا الآلام التي تركتها حطاماً، وتهدّت في عصبيّة لأتّها لم تعد تحتمل نحيب نفيسة وانتهرتها قائلة:

- كفّاك بكاء ارحميني فإنّي لا أجد من يرحمني!

ولكنّ نفيسة لم تكن تملك من نفسها شيئاً، حتّى آلام الموقف الحقيقيّة غابت عنها في حالتها العصبيّة. غلبها خوف غريب ترتعد منه الفرائص. ولم تكن تبكي حزناً أو أسفاً أو غضباً ولكن بكاء هستيرياً تغالب به خوفاً لا يُغلب خيل إليها معه أنّها هي المطاردة. وتوقع قلبها شراً فظيماً، أفضع ممّا وقع، فتلفّت فيها حولها في دعر كأنّها تخشى أن ينقضّ عليها فجأة. وسمعت أمّها تقول بصوت ضعيف «هلّمي بنا إليها» فرحبت بالدعوة لتفرّ من مشاعرها وسارت وراء أمّها إلى الحجرة في خطوات ثقيلة، ثمّ خفق قلبها وهي تجوز العتبة كأنّها تجفل من لقاء أخويها...

- ٧٦ -

ثمّ التفت حسنين إلى حسين وسأله بوحشيّة:

- أين تظنّه هرب؟

وكانت مرّت فترة من الوقت ثاب فيها حسين إلى بعض نفسه فلم يرتح للهجة الشابّ القاسية وقال:

- من لي بأن أعلم! (ثمّ بلهجة لا تخلو من تأنيب) تذكر أنّه أخونا!

- بعد هذا كلّه!

- نعم، بعد هذا كلّه...

نطقها بصوت عميق ليعزّي قلباً يعلم أنّه - على صمته - في أمسّ حاجة إلى العزاء، ولكن ثارت ثائرة

الآخر وصاح به:

- لقد قضى علينا...

فقال حسين بصوت متعب:

- لا تبالي ولا تصح. ينبغي أن تفكر في هدوء.

- إنّ الحيّ كلّ يتحدّث عن فضيحتنا...

فقال حسين في هدوء:

- في وسعنا أن نهجر الحيّ كلّ...

فتطلّع إليه حسنين بعينين حاثرتين انشقت ظلمتهما عن بصيص أمل. هذا دعاء تهفّو له نفسه مليّة وكأنتها هي التي تتكلّم، وغمغم قائلاً:

- ماذا قلت؟

- لم لا؟ القاهرة واسعة لا تُحَدّ، وسيطوي النسيان قصّتنا في أقلّ من أسبوع!

فتهدّ حسنين في شبه ارتياح، ولكنّه قال في حذر:

- لن نمنحو الماضي.

- فلنفكر في المستقبل...

- ولكنّ الماضي سيطارده المستقبل إلى الأبد...

فقال حسين بملل:

- فلنفكر جدّياً في الانتقال إلى مكان آخر. ويجب أن يتمّ هذا قبل انتهاء إجازتي.

وقالت الأمّ برجاء:

- أجدر بنا أن نفكر في هذا حقّاً.

وردّد حسنين نظره بينها حائراً. قد يُقبض على أخيه وقد لا يُقبض عليه ولكنّه سيظلّ على الحاليتين يطارداهم ويتهدّداهم. لن يطمئنّ لهم جانب وهو على قيد الحياة. ثمّ تساءل في فتور:

- أين نذهب؟

فقالت الأمّ في أمل:

- إلى شارع شبرا بعيداً عن هنا.

فندّت عنه حركة تنمّ عن الجرع والسخط وقال:

- أبعد من هذا، أبعد من هذا... إلى مصر

الجديدة!

فقال حسين في شيء من الارتياح:

- كما تشاء...

فلاح في وجهه تردّد طارئ، ثمّ قال متنهّداً:

- ولكُنّا في حاجة ماسّة إلى أثاث جديد!

فقالَت الأمُّ بضيق:

- لا تزدِ الأمور تعقيدًا، ماذا يَهْمُ الأثاث إذا لم تقع

عليه الأعين!

- لا أستطيع أن أخفي بيتنا عن أصدقائي إلى

الأبد!

فقال حسين:

- هذه مسألة أخرى، وبوسعك أن تبتاع كنبه

وكرسیين كبيرين وبساطًا أسبوطيًا فتجعل منها حجرة

استقبال مؤقتة. وإذا شئت خرجنا معًا اليوم أو غدًا

للبحث عن شقّة؟

وبذلك خفّت التوتر قليلًا وإن غشيت جوّ المكان

كأبة استسلموا لها جميعًا في صمت حتّى دقّ الباب

وجاء فريد أفندي وأسرته. كانت زيارة منتظرة ولكنّها

جاءت في أسوأ حال، وذكر حسين في عجب كيف

حلم بها منذ ساعات، وكيف يتلقّاها الآن بفؤاد كسير

ونفس فائرة. أمّا حسين فقد ثار غضبه بلا سبب

ظاهر، ولو لم يره فريد أفندي ونفيسة تتقدّمه إلى حجرة

الاستقبال، لمضى هاربًا إلى الخارج. واجتمعوا في

حجرة الاستقبال، ولقي حسين من الأسرة تحية حارّة

ثم استفاض الحديث عن الماضي والحاضر. وكانوا

يتوقّعون أن يثير الزوّار مسألة التفتيش والبوليس ولكنّ

آل فريد أفندي تجاهلوا الأمر كلّية كأنّهم ما علموا به.

ولم يلفّ هذا التجاهل من حقّ حسين، أو بالحرّي

زاد من ثورته الباطنة وشعر بجرح عميق في كرامته.

والتقت عيناه بعيني بهيّة أكثر من مرّة فوجدها ترمقه

بحزن وحيرة لم تخفّف عنه بواعثها منذ سفره المفاجئ

إلى طنطا. ليكن، لقد ضاق صدره بهذا كلّهُ. الآن،

وفي وقدة حنقه وضيقه، يستطيع أن يواجه خواطره

الباطنة بصراحة وشجاعة. لن تكون هذه المرأة حماته،

ولا هذا الرجل حماه... ولا هذه الفتاة زوجه! كلّ

أولئك هم عطفة نصرالله بلا زيادة، عطفة نصرالله

بذكرياتنا السود وحاضرها الأغبر. إنهم يعلمون بما

جاء بالبوليس كما يعلم الجيران جميعًا ولكنّهم يتكرّمون

عليهم بتجاهل الأمر، ولعلّهم يضيفون هذه المكرمة

الجديدة إلى مكرماتهم السابقة. سحقًا لهم، لشدّ ما

يضيق صدره بالمكرمات قديمها وحديثها، وإنّه ليتطلّع

إلى قوم جدد لا تحول بينه وبينهم المكرمات ولا يربط

الماضي البغيض أسبابه بأسبابهم. «انظري بحزن

وحيرة كيف شئت، لسْتُ لك، لسْتُ لك. ينبغي أن

يتغيّر كلّ شيء. ماذا فتني في هذا الجسم؟! ألأنّه لحم

طري؟ الأسواق ملأى بهذه اللحوم. جوّ بغيض. لو

طال المقام بي هنا أكثر من ذلك سأبغض أسرتي

نفسها». وطالت الزيارة فجعل يتحمّلها في صبر حتّى

انصرفت الأسرة قبيل المغرب بقليل. وقد دسّت الفتاة

في يده ورقة مطوية وهي تسلّم عليه، ولمّا أن خلا إلى

نفسه وبسطها وجد بها هذه العبارة «قابلي فوق

السطح». كانت أوّل رسالة توجّهها إليه، وتفحص

الخطّ بعناية وغبابة فوجده بخطّ الأطفال أشبه، وذكر

لتوّه تعليمها الابتدائي! بيد أنّها كانت على إيجازها

عميقة الدلالة حتّى لكأنّها صرخة استغاثة. ولا شكّ

أنّها كتبتها خلسة في شقّتها قبل الزيارة ممّا يدلّ على أنّ

قلبها توجّس خيفة من أن يواصل فراره منها الذي بدأه

بالرحيل إلى طنطا. وأحسّ بغمز في قلبه وشمله عدم

ارتياح فسخط كما يسخط على كلّ شيء حوله. ولكن

فيمّ يسخط؟ اليس من الخير أن تلمّ بما طرأ على

نفسه؟ وهل كان يظنّ أنّ الارتياح لن يتسرّب إلى

نفسها بعد سفره المفاجئ؟ ليكن. لن يرضخ لضغط

الظروف حتّى يدمرّ نفسه بنفسه، ولن يغامر بسعادته

ومستقبله من أجل عاطفة طفليّة قديمة ووعد صيانيّ.

وخاف أن يخلو إلى نفسه أكثر ممّا خلا فمضى إلى

حجرتة وقال غاطبًا أخاه:

- هلمّ بنا لنخرج.

ونفض حسين موافقًا على دعوته وغادرا الحجرة

معًا. ووجد ما يشبه الندم، وتمنّى لو كان حسين قد

تكاسل عن تلبية دعوته بهذه السرعة ليعاود التفكير

ولم تكن الفرصة قد ضاعت تمامًا، فلم يزل بوسعه أن

يراجع نفسه، ولكنّه لم ينس بكلمة، وواصل سيره إلى

جانب أخيه. لعلّها تنتظر الآن أمام حجرة الدجاج!

وخفق قلبه خفقة شديدة. تنتظر بلا أمل؟ وما أقيح

- أمران لا يمكن تأجيلهما وهما النور الكهربائي وخادم صغير فغير هذين لا يصح أن يبقى هنا يومًا واحدًا.

ولم يعترض على قوله أحد إذ كان مفهومًا أنه هو الذي سيدخل النور الكهربائي ويستحضر الخادم. ثم فكر في الوسط الجديد من زاوية جديدة فتساءل في نفسه ترى هل تصلح أمه وأخته لمخالطة هؤلاء القوم؟ وخيل إليه أنه سمع تعليقات السيدات والهوانم عقب زيارة لبيته فتصاعد دمه إلى رأسه وقال مخاطبًا أمه في لهجة تنم عن التحذير:

- لا ينبغي أن نعرف أحدًا في حيننا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نُزار.

فقالت أمه بعدم اكتراث:

- لا رغبة لي في معرفة أحد...

وقالت نفيسة:

- لا صديق لنا هنا نأسف على قطعه!

فقال لها الشاب بقلق:

- يا حبذا لو أهملت صديقاتك الأخريات أيضًا!

فاضطربت نفس الفتاة، ومع أن الانقطاع عن العالم «الخارجي» كان من أمانيتها إلا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائمًا، ولا تفتأ تساق إليه بقوة بغیضة آسرة، فتساءلت في إشفاق:

- وهل أبقي حياتي سجيئة؟!

وتدخل حسين للدفاع عن أخته فقال:

- لا تغال يا أخي في طلباتك...

فقال الشاب في حدة:

- لا أريد أن يزورنا أحد من حيننا القديم.

- لن يتجسّم أحد زيارتنا فيما عدا فريد أفندي وأسرته.

وصمت حسين طويًا سخطه. وذكر زيارة التوديع التي قامت بها أسرة فريد أفندي أمس، وكيف عرفوا العنوان الجديد وكيف تمّى وقد ذاك لو يغمض عينيه ثم يفتحها فلا يجد أثرًا للماضي كلّ، خيره وشره!.. ترى هل أفضت الفتاة لوالدها بما تجد من فتوره؟.. ترى هل يفلت من هذه العلاقة بيسر أم تنشب به متاعب لا

هذا! وفي نفس المكان الذي لمس حرارته وسمع بهّ وشكواه؟ ما أعجب هذا! وحاول أن يطرد هذه الصورة عن مخيلته بتصميم عنيف، ثم سمع أخاه وهو يخاطبه قائلاً:

- لن نضیع وقتنا، ولن ينقضي هذا الشهر حتى نكون قد انتقلنا إلى البيت الجديد.

- ٧٧ -

وانقضت الأيام في البحث عن مسكن جديد حتى اهتدوا إلى بيت بشارع الزقازيق بمصر الجديدة، ذي موقع ساحر وإيجار مستطاع على حدّ قول حسين، وفي اليوم المحدّد للانتقال اجتمعت كلمتهم على حمل الأثاث مساء على غير المألوف لإخفائه عن أعين المستطلعين، وتقدّ ذلك، ولبت حسين في الشقة مع الأثاث المكوّم على حين عاد حسين إلى عطفة نصرالله ليصحب أمه وأخته إلى المقام الجديد. وودّعا حيّهم ليلاً غير آسفين، بل مستبشرين خيراً، ولما بلغوا الحيّ الجديد تولّتهم دهشة ممزوجة بإكبار لما شاهدوا من اتّساعه وصمته ومناظر العمارات والفيّلات المقامة على جانبيه وهوائه الجافّ النقيّ فلم تتمالك نفيسة نفسها من أن تقول باسمه على رغم أنّ الموقف لم يجلّ من ذكريات حزينة «لقد صرنا من الطبقة العالية حقاً».

وكانت الشقة الجديدة في بيت مكوّن من دورين تحيط به حديقة بسيطة فارتقوا إليها سلماً ذا سبع درجات وهنالك وجدوا حسين في انتظارهم وقد أشعل المصباح الغازي، ونشطت المرأتان إلى فرش الحجرات الثلاث الصغيرة وعاونها الشابان فلم يستغرق تجهيز الشقة الجديدة بالأثاث البسيط أكثر من ساعة تخلّلتها فترة راحة. وبدت الكراسي والكنبتان والفرش غريبة نافرة وسط الحجرات الأنيقة، ولم يفت حسين التعليق على هذا بتدّمر كالعادة ولكنّه وجد بعض العزاء في حجرة الاستقبال التي كانت تفتح على الخارج فلا يضطرّ القادم إلى عبور الصالة الداخليّة إليها. وتحدّثوا غير قليل عن الوسط الجديد والعمارات والشوارع وما يتخيّلونه عن الجيران، وتحدّث حسين عن ضرورات الحياة الجديدة كما يراها حتى قال:



حياته قد دنت، فأما النجاة وأما الهلاك. وتبادلا نظرة طويلة، هي في إنكار وتساؤل وهو بابتسامة باهتة لا معنى لها. ولم تلبث أن سألته مستنكرة:

- لماذا لا تزورنا؟

فقال واجباً:

- أسباب لا تخفى عليك تمنعني من الظهور في حيننا القديم!

ولكنها لم يبد عليها الاقتناع وعادت تسأله:

- لم لم تقابلني فوق السطح بعد أن تركت الورقة في يدك!

- كنت وأخي مرتبطين بموعد هام.

ففسألت بلهجة وشت بحزنها:

- وسفرك المفاجئ إلى طنطا دون أن تخبرني؟

فقال وهو يتحاشى عينيها:

- اضطررت إلى السفر فجأة...

فهتفت في انفعال:

- لم تعد تبالي حتى باختلاق الأعذار المعقولة!

إن الموقف دقيق حقاً، بل أليم، ولكن التخاذل معناه الموت بالنسبة إليه، ولن يتهاون في حق حرّيته ومستقبله. وتنهّد متظاهراً بالحزن وغمغم قائلاً:

- إن ظروفى أعقد من أن تقدّرها.

- أفصح عما تريد قوله. لا أفهم شيئاً إلا أنك تغيّرت. لم تعد كما كنت. لست غبية ولا حمقاء، أنت لا تريد أن تراني.

- ساحلك الله.

ولعل ضيق الوقت حلّ عقدة لسانها فقالت في تألم ظاهر:

- لا تلقِ إليّ بهذه العبارات المبهمة. أريد أن أفهم كل شيء. ماذا بك؟ لماذا تغيّرت هكذا؟ صارحني بما في ضميرك كله.

وحال تشبّثه بالنجاة والفرار دون إحساسه بما في كلماتها من يأس وعذاب فقال:

- لم أُنغّر ولكن ظروفى تغيّرت.

فقالت باستغراب:

- تغيّرت ظروفك حقاً ولكن إلى أحسن!

يحلّم بها؟! ليصمدنّ مهما كان الأمر، الحرّية والمجد فوق المتاعب جميعاً. أجل لو تغلّب على الماضي فسيتمتع بأشرف ما في الحياة من طمأنينة وسلام.

ثم انتحى حسنين بالشباب ليوازن معه ميزانيتها لما جدّ عليها من تكاليف النقل وشراء ما سمّوه «حجرة الاستقبال» إلى ما ينتظر من نفقات جديدة للنور والخدام. وقامت نفيسة للفرجة من نوافذ الشقة واستطلاع الدنيا الجديدة. وخلت الأم إلى نفسها فاستجمعت ما مرّ بها من حوادث في الأيام الأخيرة حتى انتهت بها المطاف إلى هذا الحي الجديد، فلم يستقرّ وعيها إلا على شيء واحد، هو حسن! ترى أين بهيم الفتى؟ ماذا صنع الله به؟ لم تكن تخلو إلى أفكارها حتى يطالعها من ثناياها فيستثير دفين الحسرة والألم... هكذا باتوا أولى ليالهم بمصر الجديدة.

- ٧٨ -

- جئنا نهتئ بالبيت الجديد جعله الله مقاماً سعيداً...

قالت أم بهية ثم جلست هي والفتاة على الكنبه الجديدة. كان الوقت عصراً وكانت الأسرة مجتمعة ما عدا نفيسة التي غادرت البيت قبل وصول الأم وابنتها بنصف ساعة.

وأثنت أم بهية ثناءً جيلاً على المسكن الجديد وحيه الباهر، وشكت الوحشة التي شعروا بها بعد فراقهم، واعتذرت عن تغيب فريد أفندي بانهاكه في العمل بالوزارة بعد الظهر لمناسبة موسم الإجازات. ثم جرى الحديث المألوف واشترك حسنين كالعتاد ولكنه كابد قلقاً لم تخف عنه بواعثه وشعوراً مؤلماً بالخرج.

وجعلت بهية تخالسه نظرات حزينة، فصيحة بغير بيان، فازدادت حاله توتراً، ثم أعربت أم بهية فجأة عن رغبتها في الانفراد بالأم، الأمر الذي زاده قلقاً وتوتراً؛ وما لبثت أن غادرتا حجرة الاستقبال معاً.

ووجد حسنين نفسه غريباً بين خطيبين فغادر الحجرة متحلاً بعض الأعذار، وخلا الجوّ، وهو ما لم يكن يتوقّعه حسنين بحال. وكان يعرف بداهة ما دعا أم بهية إلى الانفراد بأمه، فأدرك أنّ الساعة الفاصلة في

- هُذا في الظاهر فقط أما في الحقيقة فهي أنني بت أدرك مسئولياتي الشاقة.

فقال بلهجة لا تحلو من غيظ:

- ألم تكن تدرك مسئولياتك من قبل؟.. إن مسئولياتك جميعاً لا تحول بينك وبين ما تريد إذا كنت تريده حقاً!

- أريد ولا أستطيع.

فرت إليه شاحبة الوجه وغمغمت:

- بل تستطيع ولا تريد.

ولم يجد ما يقوله، ونضاعف إحساسه بعذاب الموقف، ومع ذلك ازداد تصلباً وتشبثاً فتمتم:

- أنت مخطئة.

وكانت تنفضه في جزع وبأس وكأنها تريد أن تنفذ إلى أعماقه، وابتلعت ريقها بمشقة ثم قالت:

- كلاً، لست مخطئة. لو كنت تريد حقاً لما قلت لا

أستطيع. إن هي إلا معاذير (ثم متنهدة على رغمها) لم تعد تحبني وتريد أن تتخلص مني. هل ثمة سبب آخر!

ومع أن هذا ما كان يؤمن به في أعماقه إلا أن سماعه هاله وأكربه فرفع حاجبيه منكراً وقال:

- لشد ما تظلميني!

ولم تسكن لهجته خاطرهما، أو بالحري مكنت لقبضة اليأس من عنقها. وزاد إحساسها بضيق الوقت من جزعها فتناست حياءها المطبوع وهتفت:

- أنت الظالم، لقد خطبتني ثلاثة أعوام ثم بدا لك أن تتخلص مني...

وتحامي عينها فنظر إلى الأرض. كان متحرّجاً متألماً ولكن تصميمه على عدم التراجع كان أعظم فقال:

- إن ظروفي أقسى من أن تدركها على حقيقتها.

أمامي صبر طويل.

ورقت لهجتها فجأة وقد تورّد وجهها وقالت برجاء:

- إذا لم يكن ثمة سبب آخر فبوسعي أن أشاركك

الصبر!

فتوجّس خيفة من تغير لهجتها وقال:

- إنه صبر طويل.

فقالت باللهجة نفسها:

- لا بأس، إلا أنني أرجو أن تعلن خطبتنا بالطرق

المعهود.

وذهب حيال انقلاب الحديث إلى هذا المجري بعد أن أوشك أن ينقطع، وركبه الخوف والضيق والجزع فهتف وهو لا يدري:

- كلاً!!

وجعلت تحملق في وجهه في ذهول، ثم خفضت

عينها في يأس، واحمرّ وجهها خجلاً. وحركت شفيتها مرة ومرة كأنها تريد الكلام ولا تستطيعه ثم غمغمت:

- أرايت أنني كنت على حقّ لما قلت لك إنك تريد أن تتخلص مني؟...

وبلغ منه الارتباك مبلغاً لم يعهده من قبل، ولاذ بالصمت ملياً، ثم قال كالمعتذر:

- إني جدّ حزين، ربّما أقمت لي العذر يوماً.

فقال في إعياء وقهر:

- حسبك، لا أريد سماع كلمة أخرى.

وساد صمت ثقيل الوطأة كالمرض ملأ الحجرة بأنفاس اليأس الخائفة، ولكن وجد الشاب على حرجه وألمه لوناً من الراحة، فمها يطلّ هذا العذاب فلا بدّ

أن ينتهي، وهناك يجد نفسه حرّاً طليقاً. وتساءل وهو يسترق إليها نظرة ترى ماذا يدور في رأسها؟ ألا زالت

تريده؟ أم كرهته؟ أم تتمنى الانتقام منه؟ لشد ما أحبها عهداً طويلاً، ولكن هكذا انتهى كلّ شيء.

وتساءل ترى فيم تتحدث الأمان؟ وعلام انتهى

الحديث الذي طال؟ ثم قال لنفسه «إن مصيري يتقرّر بيدي لا بيد أخرى». ثم ترامى إليه صوت المرأتين

وهما تتكلمان قادمتين ففحق قلبه واستحوذ عليه قلق مفاجئ. وعادتا إلى مجلسها بوجهين يلوح فيهما الرضا

- ممّا ضاعف قلقه - ثم دق الباب وكانت القادمة نفيسة، ورجع حسين إلى الحجرة، فوجد حسين في

المحيطين به ما انتزع من أفكاره وردّ إليه شيئاً من هدوئه. ومع أن بهية بدت على حال من الوجوم لا

تحفى إلا أن الحديث لم يشدّ عن المألوف حتى انتهت

يكون لديك من الأسباب ما يبرر الإقدام على هذا الخطوة الفظيعة.

- ٧٩ -

وقالت الأم المنزعجة:

- يا للفضيحة!... لقد تمّ الاتفاق بيني وبين الأم في نفس الوقت الذي كنت تهدم فيه ما نبني، فما عسى أن تظنّ بي المرأة؟ ألا يمكن أن تشكّ في أنني كنت أخادعها وأنا أعلم بنواياك؟.. ماذا فعلت يا بني؟... ما سبب هذا كلّ... وماذا يعيب الشابة؟! وضاعت نفيسة بالمتكلمين فصاحت بحدة:

- دعونا نسمع صاحب الشأن.

وقال حسين مخاطباً أمه:

- بهيّة شابة لا غبار عليها، ولكن تبين لي بوضوح أنّها ليست الزوجة التي أطمح إليها.

فقالت الأم:

- لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع؟

وهزّ حسين رأسه مؤمناً على قول أمه ثم قال:

- لهذا حقّ. إنّ فسخ خطبة أمر فظيع. ولا يجوز أن يقع بلا سبب مقنع!

وتساءلت نفيسة باهتمام:

- كيف تبين لك أنّها ليست الزوجة التي تطمح إليها؟ دعوه يتكلّم...

فقال حسين بضيق:

- لا ريب أنّ بهيّة لا تصلح زوجة لي. حقاً لقد خطبتها بنفسني ولكنّي لم أكن أدري هذه الحقيقة وقتذاك...

فقالت الأم بقلق:

- بهيّة فتاة جميلة ومؤدّبة، ولأبيها فضل علينا لا ينسى... وقال حسين بلهجة تتمّ عن استياء:

- إني أعجب لحكمك هذا، ما هي الزوجة الصالحة في نظرك؟ فصمت حسين قليلاً ثم قال:

- أريد زوجة من وسط أرقى، مثقّفة، وعلى شيء من الثراء...

فتساءل حسين بنفس اللهجة:

- أهذه هي الأسباب التي جعلتك تنكث بعهدك؟!

ونظر حسين صوب أمه في قلق متسائلاً فأدركت أنّه يسأل عمّا دار بينها وبين أمّ بهيّة، ونظرت إليه نظرة لا تخلو من فتور وقالت:

- حدّثني ستّ أمّ بهيّة عن وجوب إعلان الخطبة بصفة رسميّة، ووافقتها في النهاية على رأيها.

وقطّب الشاب في حنق وضرب يداً بالأخرى وهتف بها:

- تسرّعت يا أمّاه!

وشعر بما أحدثه قوله من دهشة فعاد يقول:

- لا لوم عليك بطبيعة الحال ولكنني فسخت الخطبة!

وحدّثت به الأعين التي تأبى تصديق ما سمعت وتساءلت الأم:

- ماذا تقول؟

فقال ضاعطاً على مخارج الألفاظ:

- لقد فسخت الخطبة اليوم، الآن، وغادرتنا بهيّة وهي تعلم أنّ كلّ شيء بيننا قد انتهى.

وصاح حسين منزعجاً:

- لا!

وقالت الأم:

- إنك تحيّرني بتصرّحك هذا، ولست أفهم شيئاً؟ هل وقع بينكما خلاف بغتة؟.. متى؟ وكيف؟

وكانت نفيسة أخذت في خلع حدائنها فأمسكت وقالت:

- تكلم يا حسين. هذا خبر لم يتوقّعه أحد!

فقال الشاب بوجوم:

- الواقع أنّي عقدت العزم على فسخ الخطبة من زمن غير قصير ولكنني لم أشأ أن أخبر أحداً، واليوم حين انفرادت بها في هذه الحجرة لم أجد معذري عن إعلان نيّتي فأنتهى كلّ شيء. أرجو ألاّ يسألني أحد عمّا قلت أو عمّا قالت فهذا لا يعني أحداً سواي.

فقال حسين باهتمام وأسف:

- كان موقفاً قاسياً على الفتاة بلا شكّ، وأرجو أن

فقال حسنين متنهّداً:

- نحن فقراء، وبهية في حكم الفقراء كذلك،  
وأخاف إذا متّ قبل نهاية المرحلة - كوالدنا - أن أترك  
أبنائي لقساوة الحاجة كما تركنا. . .  
وهتفت نفيسة قائلة بحماس:

- صدقت!!

فغضب حسين لحماس أخته وسأله:

- هل قدّرت خطورة الخطوة التي أقدمت عليها؟

فقال حسنين بحزن:

- لشّد ما حَزّ في نفسي الأسف ولكُنّي لم أوافق على  
ضياح حياتي! . . .

- وتوافق على ضياح حياتها؟!

- لن تضيع حياتها، لا زالت في عنفوان الشباب،  
والمستقبل أمامها باهر.

فتساءل حسين في حقن:

- هل تسمح لي بأن أصف لك سلوكك؟

فنظر إليه في وجوم ولم ينبس بكلمة فهزّ حسين  
رأسه في الزعاج وتساءل:

- إني أعجب كيف تسخط على سلوك حسن وله من  
الأعذار ما ليس لك!

وامتقع الشاب وقال بحدة:

- لا شك أنّ سلوكي لم يخل من قسوة ولكنّه  
سينتهي بخير بالنسبة لي ولها، وهو على آية حال أفضل  
من زواج غير موفق.

وأعرض الشاب عنه يائساً، وضربت الأم كفّاً بكفت  
وهي تتمتم:

- يا لها من إساءة شديدة لأطيب الناس طرّاً، ربّاه

كيف أخفي وجهي!

ومع أنّها كانت صادقة فيما تقول إلّا أنّ أعماقها لم  
تخل من ارتياح خفيّ. وقد كانت تشفق من أن يبادر  
حسنيين إلى الزواج فتعود الأسرة إلى الترنّج والقلق،  
وكانت ترمق نفيسة دائماً بعين الخوف متسائلة في حزن  
عن المستقبل القريب والبعيد. ولكن إذا كان هذا حقّاً  
لا شكّ فيه فحقّ كذلك ما تجد حيال أسرة فريد  
أفندي من أسباب الخجل والألم. أمّا نفيسة فلم تكن

تحسن إخفاء عواطفها فقالت:

- لا خوف على بهية، ستتزوج اليوم أو غداً.

فقال حسين بامتعاض:

- هذا كلام يصدق على كلّ فتاة ولكنّه لا يصلح  
دفاعاً عن خطئنا. . .

فقالت نفيسة متهمّة:

- لا يصدق على كلّ فتاة! . . والدليل على ذلك أنّه

لا يصدق على أخت حضرتك!

وخفّف تهكمها من التوتّر العامّ، وانتهز حسنين  
الفرصة فقال بلهجة دبّ فيها الحماس:

- أليس الأفضل أن أختار زوجة من نوع خاصّ

ككرمية أحمد بك يسري مثلاً!

وقالت نفيسة بمرح:

- وما هذا على الله بكثير. من يدري لعلنا نراك  
يوماً في فيلاً محترمة وتتدفّق علينا خيراتك يوماً بعد  
يوم. . .

ولم يلتق حسنين إليها بالأ، وقالت الأمّ وكأنّها تحدّث  
نفسها:

- سيعلم فريد أفندي بالخبر هذا المساء، ما عسى  
أن يقول عنّا؟ ليتني أجد الشجاعة لأزورهم وأعتذر  
إليهم!

ففكر حسين طويلاً ثمّ تتمم بهدوء وحزم:

- لا تنقصني أنا هذه الشجاعة.

ووقع قوله من نفوسهم موقع الاهتمام، وسألته  
نفيسة:

- أتذهب حقّاً؟ . . وما عسى أن تقول لهم؟

فقال الشاب مقتطّباً:

- أقول ما يفتح الله به عليّ. ربّاه لا شكّ أنّ في

دنا شيئاً نجساً. . .

ومضى يرتدي ملابسه، ثمّ غادر الشقة. . .

لم يقصد غايته رأساً ولكنّه مضى إلى مشرب شاي  
بمصر الجديدة فجلس ساعة يقلّب الأمر على وجوهه  
ويعدّ له عدّة. سرّح خياله بين ذكريات الماضي  
وحوادث الحاضر، وساءل عقله طويلاً وساءل قلبه،

حسب بنات الناس ألعوبة يلهو بها على هواه، يخطب حين تحلو له الخطبة، ويفسخ حين يطيب له الفسخ؟! لقد عاملته كإني ولم يَدُرْ لي بخلد أنه يطوي صدره على قلب بهذا الخبث والغدر...

وزاد شعور حسين بالحرج وطأة فقال ينتحل الأعذار كيفما اتفق:

- أخي فتى طائش وقد أضاعحت حادثة حسن صوابه.

فتساءل الرجل في إنكار:

- وما ذنبنا نحن؟.. هذا عذر غير مفهوم!

- أقصد أن المصيبة أثارت أعصابه وأفسدت حكمه فضاق صدره بالدنيا جميعاً.

فلوَّح الرجل بيده في عنف وقال ساخطاً:

- كلام غير مقنع. إني رجل مجرب وأعلم أن الرجل لا يغدر بخطيته لمثل هذا السبب. قل غير هذا الكلام إذا شئت أن أصدّقك. قل إنه صار ضابطاً وبات بطمع في نوع آخر من النساء.

فقال حسين بلهجة حزينة:

- وددت بحياتي لو أصلح الأمر.

- فسد الأمر ولا صلاح له. إنه عبث لا يليق بالشرفاء، ولو كنت غير الرجل لقاضيته وأدبته، ولكّني أحمد الله على ما كشف لي من حقيقة نفسه بعد أن خدعت به طويلاً. ما هو إلا شاب نذل جبان، ولا تؤاخذني على قول الحق...

ووقعت هذه الأقوال من نفس الشاب موقعاً ألياً فخفض بصره ملياً ثم قال بصوت ضعيف:

- إني جدّ أسف، بل كلّنا آسفون، ولا مطعم لنا الآن إلا الإبقاء على الود القديم...

وساد الصمت برهة ثم تمت الرجل بفطور:

- ما عهدنا منكم شراً...

وشعر حسين بقلق وتوتر، وذكر ما انتهى إليه رأيه قبل حضوره بقلب خافق مضطرب وتساءل فيما بينه وبين نفسه ترى هل من المناسب الآن الإقدام على الإفصاح؟!.. ومع أنه لم يجد من الجواب مشجعاً إلا أنه أبى التراجع أو التأجيل، ونظر إلى الرجل بعينين

ثم قرّ فكره على رأي. وكان في تفكيره جريئاً حازماً قاطعاً على غير عادته، فلم تعترضه الصعوبات ولم تشبطه المخاوف، حتّى عجب للسرعة التي بتّ بها في الأمر وتساءل في دهشة «ترى أمي من وحي الساعة أم أثار لما تجمّع في نفسي خلال ثلاث سنوات؟».

واستحوذ عليه شيء من الاضطراب، وعاد يسأل نفسه، ويستعرض الظروف المختلفة ولكن لم تكن قوّة لثنيته عمّا عقد العزم عليه. وقام من مجلسه تعتلج في صدره انفعالات شتى من بسطة السرور وقبضة القلق وأريحية المغامرة، ثم اتخذ سبيله إلى عطوفة نصرالله فبلغها في أوّل الليل. ومضى يقترب من البيت القديم وهو يشعر بثقل المهمة وحرج الموقف، ولكنّه أقدم بخطى ثابتة وعزيمة لا تنثني. ثم طرق الباب بقلب خافق ففتحت له الخادم، وحدجته بدهشة أثارت أعصابه، ثم قادته إلى حجرة الاستقبال. وما عتّم أن جاء فريد أفندي بجسمه المترهل فرآه لأوّل مرّة مكفهراً الوجه، يتوهّج الغضب في نظرة عينيه. وما كاد يفرغ الرجل من مجاملات السلام ويستقرّ على مجلسه حتّى قال بانفعال وتأثر شديدين:

- عشرة العمر كلّه، وجيرة العمرة كلّه، وصداقة العمر كلّه، تمرّقونها جميعاً في دقيقة واحدة! فنظر حسين إلى الخوان أمامه في ارتباك وتمتم بصوت منخفض:

- إنّ ما بيننا من ودّ قديم لا يمكن أن يتغيّر، وإنّ نس لا ننسى فضلك ونبل أخلاقك ما حيناً...

فلم يعره الرجل التفاتاً وضرب كفّاً على كفّ وهو يقول:

- لم أدر حين خبروني كيف أصدّق أدني. إنّ طبيعة قلبي تأبى أن تصدّق هذا الغدر الشائن...

- إني عاذرك يا سيّدي. وصدّقني أننا لم نكن أدنى لتصديقه منك، حتّى إنني تركت أمي في حال يرثى لها...

- كنت ألاحظ أنّه يتأقل عن زيارتنا، وقيل لي في تفسير ذلك أعذار صبيانية زادتني تشاؤماً، حتّى علمت هذا المساء بأنّه جاهر بنكث عهده، ما شاء الله، هل

حذرتين وتساءل:

- هل أستطيع أن أقابل الأنسة بهيئة؟

فقال الرجل بجزع وهو يلطم الهواء بظاهر كفه:

- ما الداعي لهذا؟.. فلندعها وحدها، هذا خير ما يفعل!

وغلب التأثر الشاب. ترى ماذا تفعل المسكينة؟ وماذا أحدثت الصدمة بنفسها الرقيقة؟ وماذا هو فاعل أيقدم أم ينكص؟ ألا يقع كلامه من هذا الجو المكهرب موقعا مضحكا! ولكنه شعر شعورا خفيا بأنه إذا تراجع هذه اللحظة فلن يقدم أبدا، وتتهدد تنهدة عميقة أزاح بها التردد عن صدره وقال بسكينة ظاهرة يداري بها اضطرابه:

- سيدي، لا أدري كيف أعرب عما في نفسي، ولست أزعم أي اخترت وقتا مناسباً، ولكنني لا أستطيع أن أقاوم ما يدفعني إلى قول كلمة أخيرة وهي أنني أرجو أن تبارك يوماً رغبتني الصادقة في طلب يد الأنسة بهيئة!

وأتسعت عينا الرجل دهشة وبدا أنه كان يتوقع كل شيء إلا هذا، ولعله أراد أن يتكلم ولكن ارتج عليه، أما حسين فكان قد عبر قمة أزمته فقال مسترداً بعض هدوئه:

- لا تحسبن أن ما يدفعني إلى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرف أخي من حجل، أو ما عسى أن تتصوره عطفاً على حال الأنسة. كلا، وأقسم على هذا. إنها رغبة قائمة بذاتها، منبعثة أولاً وآخرًا من تقديري لكرميتكم ولكم.

وواصل فريد أفندي دهشته الصامتة على حين استمد حسين من انطلاقة لسانه وصمت الرجل شجاعة وحرارة فاستطرد قائلاً:

- شيء واحد يجريني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من أنني غير كفء لها.

فخرج الرجل عن صمته لأول مرة متمتماً:

- لا تقلل من شأنك يا حسين أفندي، أنت عندي

بمنزلة الإبن...

فقال حسين وقد تورّد وجهه:

- شكراً...

وتفكر الرجل قليلاً كالحائر ثم قال:

- لا يسعني إلا شكرك على رغبتك هذه، ويسرني - علم الله - أن تتحقق ولكنتك تدرك طبعاً أن وقت التحدث بشأنها لم يثن بعد؟...

- هذا طبيعي جداً يا سيدي، وبوسعي أن أمدد. أعني أن أنتظر حتى يجيء الوقت المناسب... وانتهى الحديث عند هذا الحد...

- ٨١ -

وعاد إلى مصر الجديدة غارقاً في أفكاره فلم يكدر يرى شيئاً من الطريق، ولكنه استعرض صفحة مطوية طويلة من حياته كما فعل في مشرب الشاي قبل أن يتجه إلى بيت فريد أفندي. وكان على حيرته يشعر بسرور وأمل لم يشعر بمثلها طيلة حياته. لقد أحب الفتاة فيما مضى ولكن حبه مات قبل أن يتزعزع ويزدهر، ولم يبق منها في قلبه الحكيم الوافي إلا المثال الذي يحلم به للزوجة الصالحة، وأنه يذكر أنه تألم كثيراً وصبر كثيراً، فتعلم أنه بشيء من الحكمة يمكن أن يعثر في دنيا الألم على مسرات عالية، وخرج من التجربة ساكن القلب بسام الثغر، وكان يقول لنفسه متعزياً إن مواجهة سوء الحظ بالصبر والتسامح، سرور ينبغي أن يعد من حسن الحظ... وهكذا تعزى ونسي من زمن طويل. ولما أن فتح له باب الأمل المغلق على حين غفلة نسي أنه كاد ينسى وأزهر الحب في قلبه كأن نائوته لم تهدأ لحظة واحدة من الزمان. وانطلق في سرور لا تشوبه شائبة حتى بلغ البيت. ووجد الجميع في انتظاره فما إن وقعت أعينهم عليه حتى صاحوا به:

- ماذا لقيت؟!

ورأى أن يمهد للخبر العجيب الذي يحمله بأن يهول من خطر الأمور فقال وهو يهز رأسه أسفاً:

- وجدتهم على حال من التأثر انزويت معها حجباً وخزياً، ولأول مرة في حياتي رأيت فريد أفندي الرجل الوديع نائراً غاضباً كاسراً...

وسألته الأم بحسرة:

- خبرني عما حصل كله. ألم تقابلك أم بهيئة؟

- كلاً، قابلي الرجل وحده وقبل أن أفتح فمي بكلمة انهل علينا تانيباً وتقريعاً...  
وأعاد عليهم كلام الرجل - فيما عدا الكلمات القارصة - مضيّقاً عليها من عنده ألواناً من التأثير والحزن ليستثير ألامهم ويستدرّ عطفهم حتّى ملأهم الوجوم والحنجل، إلا نفيسة فقد قالت:  
- ما كان ينبغي أن تلقاه الليلة. وعلى آية حال فالخطأ الأول ينصبّ على من يقبل تلميذاً صغيراً كخطيب لا يبتنه فضلاً عن أن يكون هو الساعي بحيله إلى عقد الخطبة. ولا أجد حسنين مستحقاً، للوم فقد كان تلميذاً كما قلت لا يعرف ما يضرّه ممّا ينفعه، فلمّا أن بلغ طور الرجولة تبين أنّ الفتاة لا تصلح زوجة له فماذا عليه إذا تركها؟!

ووصّم حسنين على أن يشقّ طريقه إلى هدفه فقال بهدوء مخاطباً أخته:  
- تكلمي عن الفتاة برفق من فضلك فقد تصبح خطيبة أخيك الأخرى وحملت فيه العين بدھشة. ونذت عن نفيسة آهة سريعة، وتساءل حسنين:  
- ماذا تقول؟ فقال حسنين وهو يتغلّب على ارتباك بقاء إرادته:  
- يجوز أن تصبح خطيبة لي...  
- لك أنت!

- لي أنا...  
وهتفت نفيسة:  
- كلام لا يدخل المخ! ولكنّه الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان. وسألته الأم وهي تتفرّس في وجهه:  
- هل خطبتها حقاً؟ فقال الشاب خافضاً عينيه:  
- نعم، قلت له إنّهُ يسرّني إذا وافق على أن أطلب إليه يد الفتاة...  
فسأله حسنين بقلق:  
- أفعلت هذا رغبة في إصلاح الأمور؟ فتردّد حسنين قليلاً ثمّ قال:

- لا يخلو الأمر من هذه الرغبة، بيد أنّي أكنّ للفتاة تقديرًا كبيرًا، وأعتقد أنّه إذا لم يكن بدّ من الزواج فالأفضل أن يكون من فتاة مثلها...  
فتساءلت نفيسة في لهجة ساخرة:  
- ومن قال إنّهُ لا بدّ من الزواج؟! وتداخلت الأمّ متسائلة:  
- وماذا قال لك فريد أفندي؟ فأجابت نفيسة بالنياحة عنه قائلة:  
- قال على العين والرأس طبعاً...  
وأجاب حسنين دون أن يعبا بها:  
- شكر لي طليبي ولكنّه اعتذر بأنّه لا يستطيع أن يخاطب الفتاة الآن بهذا الشأن وطلب إليّ أن أمهله إلى حين...  
وعاد حسنين يسأل باهتمام:  
- أكنت تضمّر هذه النية حين غادرتنا؟ فأجاب حسنين بفطنة:  
- كلاً...  
فقال الآخر بإشفاق:  
- أخاف أن تستين بعد حين أنّك غير راغب في الزواج حقاً!

فقال حسنين بارتياح:  
- ليس أحبّ إليّ من سعادتك وسعادتها... وصمت قليلاً ثمّ استدرك قائلاً بصوت منخفض:  
- ولي أنا أيضًا آمالي، كأن أتزوّج من كريمة أحمد بك يسري. انتظنه يا أخي أملاً أخرق؟!

فقال حسنين مبتسمًا:  
- لم لا؟... إنّك كفء لها...  
وهتفت نفيسة ضاحكة في شيء من الاضطراب:  
- لنّا الله. أردنا أن نستردّ واحدًا والغالب أنّنا

سنخسر الاثنين، وهذه إصابة عين حامية . . .

وتتمت الأم بهدوء:

- على بركة الله، إني مطمئنة إلى أن أبنائي لن ينسوني . . .

فقال لها نفيسة:

- ما أجهلك بالزواج وأسراره، سليلي أنا عليه.

ضحك حسنين قائلاً:

- أمنا أعرف بنا منك . . .

وساد الصمت فراح حسنين يتساءل في نفسه وهو يسترق النظر إلى أخيه: ترى أكانت خطبته بنت ساعتها حقاً؟!

## - ٨٢ -

«ربما كان الانتظار حكمة، ولكن ماذا يجدي الانتظار إذا طار الطائر؟! هكذا تساءل حسنين فيما يشبه الغضب، وبعد انقضاء قرابة شهر لم ين فيه عن التفكير والتدبر ساعة واحدة. قالوا له - خاصة حسين - إنه ينبغي أن ينتظر حتى يكون ثروة صغيرة ثم يتقدم لطلب يد الفتاة، وليكن رأيهم صواباً، ولكن من ضمن له أن تنتظره الفتاة حتى تتكون هذه الثروة؟ ومما شجعه على نبذ هذا الرأي «الحكيم» أن أحد بك يسري على علو مقامه قريب إليه بحكم العلاقات القديمة، فطمع في أن يوسع له صدره. أما إذا أفلتت من يده الفرصة السعيدة فليس لديه إلا أن ينتظر أعواماً طويلاً قبل أن تفتح له الأبواب أسرة كهذه. ألا يمكن أن يطلب يد الفتاة ثم يستمهل البك حتى يستكمل استعدادة؟ . . . يمكن بلا ريب، وإذا لم يكن فإن احتمال الرفض لا يجب أن يقعه عن المسعى، إنه أجراً من أن يقعه شيء عن غاية، ثم إنه لا يطيق هذه الفضيلة التي يدعونها بالصبر. الآن، ودون خوف أو تردد، وليكن ما يكون. كان الشاب يدير هذه الأفكار في رأسه وهو يقترب من فيلاً أحمد بك يسري بشارع طاهر. صمم وشرع في التنفيذ بلا مبالاة. هذه هي الحياة التي يتلَهف عليها بكل قوة نفسه. وليس ثمة ما يزعجه فقد اختفى حسن وصارت نفيسة آنسة محترمة والماضي في طور الاحتضار، وما يريد إلا الحياة

النظيفة السعيدة لنفسه وذويه. وكان قد أخذ زيتته وتبدى في منظر حسن يجمع إلى رشاقة الشباب فحولة الرجولة. وما انتهى إلى الفيلاً حتى أدخل إلى السلامك فجلس ينتظر بقلب خافق ونفسه قلقة، «أليس عجباً أن أتقدم لطلب يد فتاة هذه فيلتها وأنا لا أملك إلا ما تبقى من مرتبي! وهناك قضية الوقف الوهمية التي حدثت البك عنها ولكن هيهات أن تغني عني شيئاً. لماذا لم يكن لأمي وقف؟ ولكن هذه مسألة أخرى، فلو كنا من أصحاب الوقف لكان الماضي غير الماضي والحاضر غير الحاضر، ليكن ما يكون، لن أراجع، ومهما يكن من أمر فلن يقطع رأسي، إذا ربحت ربحت الدنيا جميعاً وإذا خسرت لم أخسر شيئاً يذكر. إني آسف يا بني، سلام عليكم يا سعادة البك، هذا أظن ما يتوقع. إني كفها بغير جدال. ما عسى أن تريد مما ليس لدي؟ المال؟ عندها المال بالقطار. ما أحقكم يا أهل هذا البيت إذا رفضتم يدي! في هذا الموضع رأيتها أول مرة على دراجتها، ساق تستاهل ثقلها ذهباً وفخذ سبحان الخالق. مسكينة نفيسة. ترى أين حسن الآن؟ ليته يفر إلى بلد غريب فيختفي إلى الأبد. لا تكاد ذكره المزعجة تفارقني فمتى أرتاح من الماضي كله. لن أراجع. في هذا الموضع كادت تهوي بها الدراجة. أقدام البك؟» وأنصت في اهتمام ثم نهض قائماً في احترام حين رأى البك قادماً نحوه وسلم في إجلال والآخر يقول:

- أهلاً بحضرة الضابط، كيف حالك؟

وأجاب الشاب وهو يبذل أقصى جهده للسيطرة على انتباهه وإرادته:

- شكراً لك يا سعادة البك.

وتساءل البك ضاحكاً بلهجة ذات معنى:

- ألا يزال أخوك في طنطا!

ورحب حسنين بأي حديث يطيل له مهلة الاستعداد فقال باهتمام ظاهري:

- بلى يا سيدي!

وكانا قد اطمأنّا إلى مجلسيهما فقال البك:

- ليس في الإمكان نقله هذه العطلة ولكني أخذت



المحارب المخرج بهدنة آمنة وقال:  
- هذا طبيعي يا سعادة البك ولكني أرجو حقاً ألا  
أكون قد جاوزت حدّي.

فابتسم البك قائلاً:

- لا تُعِذْ على مسمعي هذا القول.

ونفض الشاب مستأذناً في الانصراف ثم غادر  
الفيلا. واستعاد في الطريق كلّ كلمة قيلت وما  
صاحبها من حركات وإشارات ولمحات. وحاول أن  
يستشفّ ما وراءها من معانٍ ومقاصد، ومع أنّه كان  
يؤوّل كلّ شيء بخيال جريء طموح متفائل إلا أنّه  
وجد انقباضاً وقلقاً، وفي النهاية قال لنفسه وهو يهزّ  
كتفيه استهانة: «إذا رحبت رحبت الدنيا جميعاً وإذا  
خسرت لم أخسر شيئاً يذكر».

- ٨٣ -

لم يفكر حسين في معاودة زيارة فريد أفندي حتّى  
أوفت إجازته على نهايتها، كأنّما أراد أن يمدّ للرجل في  
مهلة تفكيره حتّى يستخلص منه رأياً قاطعاً. ولم يكن  
يكفّ في أثناء ذلك عن مشاورة والدته، ولم تبد المرأة  
اعتراضاً ولكنّها نصحته أن يؤجّل زواجه عاماً حتّى  
يستكمل استعداداه. ومن عجب أنّها لم تفلح في إسداء  
مثل هذه النصيحة للشاب الآخر المتعجّل ولكنّ حسين  
نفسه لم يكن ليوافق أخاه على تعجّله الذي وصفه  
«بالتهور» ولم يخفّ عليه أنّه إذا وُفقّ حسين إلى هذه  
الزيجة الخياليّة، وتمّ زواجه هو بعد عام، فستجد أمّه  
وأخته نفسيهما وحيدتين بلا عائل، ولهذا طمأن والدته  
إلى أنّه مصمّم أن يضمّ زوجه إلى البيت في كنف  
معيشة واحدة، واطمأن قلبه وفكره فمضى إلى بيت  
فريد أفندي، واستقبله الرجل بترحاب أنعش آماله،  
ومع أنّه لم يكن للزيارة إلا معنى واحد لا يخفى على  
أحد إلا أنّه خاطب الرجل قائلاً في شيء من الارتباك:  
- جئت أستودعكم الله قبل عودتي إلى طنطا  
غداً...

فابتسم فريد أفندي ابتسامته الرقيقة وقال:  
- مع سلامة الله، وإن شاء الله نسلم قريباً عن  
نقلك إلى القاهرة...

وعداً صادقاً بنقله في العطلة القادمة...

وكان حسين يعلم بهذا ولكنّه قال بامتنان:

- هذه مائدة جديدة تضاف إلى مآثرك السابقة.

وساد صمت، وشعر الشاب بأنّه يقتحم لحظة رهيبة  
من حياته، وأنّه لم يعد وراءه ثمة مجال لتردّد أو  
تراجع، فألقى بعزمه قائلاً بصوت لم يخل من  
اضطراب في نبراته:

- الواقع أنّي قصدتك يا بك في شأن يخصني أنا...

فرفع إليه الرجل عينيه متسائلاً:

- خير إن شاء الله؟...

فاعتدل الشاب في جلسته كأنّه يستمدّ من اعتداله  
قوة وقال:

- إنّي أستشفّع بسعادتك لغاية بعيدة أراها فوق  
مطمحي.

فتساءل البك مبتسماً وهو يدلّل بأصابعه شاربه  
الغليظ المصبوغ:

- أتريد أن ترقى لواء؟

فضحك الشاب ضحكة عصبية سرعان ما غاضت  
من أساريه وقال بصوت منخفض:

- أعزّ من هذا. إنّي طامح إلى شرف  
مصاهرتك...

وحلّ اهتمام مفاجئ محلّ النظرة الباسمة، وخيل  
إليه أنّ الرجل استحوذت عليه دهشة رغم ما يتظاهر  
به من الرزانة وضبط النفس، ولكن آية دهشة يا  
ترى؟ دهشة المفاجأة أم الانزعاج؟ ودقّ قلبه بقوة  
وشعر شعوراً عميقاً بخطورة اللحظة التي يكابدها. أمّا  
الرجل فقال بعد صمت وتفكير:

- لا يسعني إلا أن أشكر لك حسن ظنّك...

وتأثّر للقول الرقيق تأثراً لم يخل من ألم غامض وقال  
بتوكيد:

- أرجو ألا أكون قد جاوزت حدّي...

فقال البك مبتسماً:

- حاشا الله. إنّي أكرّر الشكر بيد أنّي أوّجّل  
الجواب حتّى أشاور أصحاب الشأن.  
فارتاح حسين لهذه المهلة التي رحّب بها ترحيب

فقال حسين برجاء:

- أرجو أن يتم هذا في العطلة القادمة. . .

وسأله نفسه ترى هل يفتح «الموضوع» أو ينتظر حتى يتكلم الرجل؟.. لقد شاور أمه في الأمر كأنه أصبح حقيقة مفروغاً منها، ومع هذا فمن يعلم بما دار في نفوس أهل هذا البيت؟! وساوره قلق، أخذ يزايد كلما طال انتظاره للكلمة التي يؤد سماعها، حتى جاءت الست أم بهية فنهض لاستقبالها في أدب وشدة على يدها في حرارة، وتفاعل بمقدمها خيراً. وقد قالت وهما يجلسان:

- إني سعيدة برؤيتك يا بني، كيف حال والدتك؟

فقال حسين بحرارة:

- بخير يا سيدي. وهي تفرّك السلام.

ثم نظر فريد أفندي إلى زوجه وقال لها:

- حسين أفندي جاء يؤدّنا لأنه مسافر غداً وأظن من المناسب أن نخبره بما قرّ الرأي عليه (ثم محوّلًا رأسه إلى الشاب) بخصوص ما حدثني عنه يا حسين أفندي يسرني أن أقول لك «إننا» موافقون.

وتتبّع فؤاده كلام الرجل في خفقان متواصل، استحال ألماً خالصاً عند بعض المقاطع، ثم انتهى بوثبة فرح فقال بصوت متهذّب:

- شكراً لك يا سيدي ألف شكر، إني سعيد حقاً.

فابتسم الرجل وقال مخاطباً زوجه:

- وسينقل إلى القاهرة في العطلة القادمة.

فضحكت المرأة قائلة:

- خير سار، نحن نوّد بطبيعة الحال «أن تكونوا» على مقربة منا.

فتورّد وجه الشاب وقال بصوت وشى بسروره:

- سيتحقّق هذا بإذن الله.

ثم قال فريد أفندي:

- ولكن يحسن بنا أن ننظر فترة معقولة قبل إعلان الخطبة.

ثم ضحك ضحكة لم تخل من الارتباك واستطرد قائلاً:

- حتى ينقضي وقت مناسب بين الخطبتين.

فخفّض حسين عينيه وهو يتمتم:

- إني رهن إشارتكم.

وقام فريد أفندي وغادر الحجرة، وغاب دقائق، ثم عاد تتبعه بهية. ومع أنّ حسين حدس الأمر إلا أنه وقع من نفسه موقع المفاجأة البكر فنهض باذلاً مكنون قوّته لتمالك نفسه. ثم مدّ لها يده في صمت، فتلاقت يداهما، وشعر بيدها على يده ناعمة الملمس رقيقة الموقع، باردة الملمس، فاهتز صدره ودرّ رقة وشكراً. وشعر بأنّه ينبغي أن يقول كلمة، وألح عليه هذا الشعور، ولكنّه وجد رأسه فارغاً، ولم يسعفه الموقف بالتفكير فجلس دون أن ينبس بكلمة. وسرعان ما تناسى مشاعر الأسف المنبعثة من خرسه في موجة السرور والرضا التي غمرت حواسّه جميعاً فنزلت عليه سكونية لطيفة أشبه بالشفاء الذي يعقب نوبة ألم. ما أجملها! كيف يعنى بعض الناس عن هذه المزايا المكتملة؟! إنّه الوداعة والفضيلة اللتان ترويان الحنان الظامئ إلى حياة البيت السعيد. لا تثير استفزازاً من أي نوع كان ولكنها تبثّ سلاماً وطمانينة. لماذا جاء أبوها؟ ليس لهذا إلا معنى سعيد واحد، قال إننا موافقون ثم جاء ببقية «إننا» شاهداً ملموساً بوّده لو يسعه أن يستخبر أفكارها هل أفاقت من الصدمة؟ هل برئ الفؤاد؟ أبدأت حقاً تستشعر ميلاً إليه؟ ولم يتركه الوالدان لتأملاته فعاودا حديثها الذي بدا الآن تافهاً متطوّلاً. ألا يمكن أن تحدث معجزة فيغاردا الحجرة؟ وقد التفت عيناه بعينيها مرّة فتاه في صفاء وزرقة لحظة بهيجة. عنده ما يقوله ولديها ما يقال بلا ريب. ومهما يكن من أمر فالآيام آتية، وسيفصح عما في ضميره، عن كلّ كبيرة وصغيرة. وفي أوقات ما بين الحديث كان يتجمّع في إحساس رقيق سعيد أقتعه بأنّ في الدنيا سروراً خليفاً بأن يُكفّر عن جميع أكارها. سرور يقطر صفاء. ليديم طويلاً، لتدم هذه الجلسة، هذه الحال، هذا المنظر، هذا الإحساس، ليديم عمراً، ليشمل الحياة جميعاً. . .

وتواصل الحديث ولكنها لم تشترك فيه اللهم إلا بإيماءة أو غمغمة، حتى وجب الذهاب فنهض

مستأذناً، وسلّم عليها، وخـادر الثقة وهو يشعر لأوّل مرّة بأنّه مقبل من حياته على وقت حصاد... .

- ٨٤ -

وسافر حسين، وانقضت أيّام من فترة الانتظار التي دعاها حسين بمدة «تحت الاختبار». والتي عاناها في تجلّد اضطراريّ والأمل واليأس يتجاذبان. وقد أسف على سفر أخيه لأنّه كان يفضل بلا شك أن يتلقّى ردّ أحمد بك يسري وهو غير بعيد عن مشورته، كان في الحقيقة يأنس إلى مشاورته وإن غلب عليه الاستبداد برأيه والاندفاع وراءه؛ على أن إقدام حسين على الشروع في الزواج كان قد ترك في صدره راحة لأنّه كان في أعماقه متعباً لسبقه إلى استكمال حياته بالزواج والآخر منزو تحت الأعباء كأنّه محروم من الانتفاع بحياته. ولا يعني هذا أنّه لم يكن مشغولاً بمستقبل أسرته فالحق أنّه كان يرجو من وراء زيجته النفيسة خيراً كبيراً لنفسه ولأسرته على السيّء. هكذا سوّى متاعبه الداخلية بهذا المنطق ليفرغ الملاقاة لحظة بقلب مطمئن. وإنّه لعلّ تلك الحال إذ دعاه أحد الأصدقاء من زملائه إلى موافاته إلى كازينو لونا برك بمصر الجديدة، وكان هذا الصديق - ويدعى عليّ البرديسي - أقرب زملائه مودة إلى قلبه، نشأت صداقتها وتوثقت بالكلية، ثم حافظت على حرارتها رغم تعيينه هو بسلاح الفرسان والتحاق الآخر بالطيران، ومضى إلى مواعده فوجده في انتظاره، وجلسا معاً في حديقة الكازينو، ثم طلب الصديق قدحين من الجعة. وأدرك حسين من اللحظة الأولى أنّ صاحبه قد دعاه لأمر، لأنّه على غير عادته - وبالرغم من مرحة الظاهر - بدا جاداً متفكراً، وما لبث أن سألّه:

- أتذكر الملازم أحمد رأفت؟

فقال حسين بعدم اكتراث:

- طبعاً، إنّه من دفعتنا، وأظنّه ضابطاً بالطوبجيّة،

أليس كذلك؟...

فأوما الصديق دلالة على الموافقة وقال بضيق ومرارة:

- سمعته بالأمس يتحدّث عنك في جمع من

الإخوان بما أغصني وساءني.

فحملق حسين في وجهه بدهشة. كان يتوقّع أيّ شيء إلّا هذا. وتساءل في استنكار:

- ماذا قال؟

فقال عليّ البرديسي بوجوم:

- كنّا، أنا وبعض الأصدقاء، نلعب الورق في بيته بالمعادي.

- وبعد؟

- لا أذكر المناسبة التي أثارَت الحديث. كنّا سكارى. ولكنّي سمعته يخوض في أمور تمسك. خبرني أوّلاً هل سمعت حقّاً إلى طلب يد كريمة رجل يدعى أحمد بك يسري؟

وفجّر الاسم زلزالاً في صدر الشاب فدقّ قلبه دقّة عنيفة، وذكر لتوّه أنّ أحمد رأفت هذا على صلة وثيقة ببعض أقارب أحمد بك يسري. وبذل جهداً صادقاً ليتلّك أعصابه، ثم قال باقتضاب وهو يكابد شعوراً غليظاً بالتشاؤم والخوف:

- ربّما...

- أتعلم أنّ أحمد رأفت صديق لهذه الأسرة؟

- هذا جائز، ولكن خبرني ماذا قال؟

فصمت البرديسي كالتردد حيناً ثمّ تتم بصوت منخفض والخرج بإد في أساريه:

- فهمت من حديثه أنّ الأسرة لم توافق. يؤسفني أن أبغلك هذا...

وشعر بالخير يضغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحتّه وأحسّ بانهايار في كرامته ورجولته. ثمّ فار غضبه حتّى أوشك أن يستسلم لنيرانه ولكنّه ثار على الاستسلام في اللحظة الأخيرة، وأبى إلّا أن يتظاهر بعدم الاكتراث، بل نذت عنه ضحكة وتساءل:

- أهذا ما أساءك يا صديقي؟

فقال الصديق بوجوم وقلق:

- هذا أمر عاديّ، يحدث كلّ يوم، ولكنّه ذكر في

غير لياقة الأسباب التي تبرّر عدم موافقة الأسرة، ومع أنّها أسباب تافهة لا يمكن أن تحطّ من قدر إنسان إلّا أنّه ساءني جدّاً أن يرّدّها في جمع حافل من السكارى.

فهزُ حسنين رأسه في حرارة وردد قول صاحبه في سخرية اليمة:  
 - .. إن الفقر ليس جريمة! .. بديع! .. وماذا قال أيضًا?  
 - لا شيء.  
 - حسبه! أخ قاطع طريق وأخت خد.. عاملة، هه؟ ويريد بعد هذا أن يتزوج من كريمة سك قد الدنيا!

قال البرديسي:  
 - اعتقد أن حسن الخيار قد أخطأك في التقدّم من هذه الأسرة العيابة.  
 فابتسم حسنين ابتسامة مريضة وتمتم:  
 - صدقت...

ثم راح يقول لنفسه «إني غائص في الطين حتّى قَمّة رأسي، ليس لهذه الحال من علاج إلّا أن أدقّ عنق هذا الأحمد رأفت. ولكن هل يغيّر هذا من الواقع شيئاً؟ كلّاً إنّه دفاع غير مجدٍ بيد أنّه لا يجوز أن تغيب عني حقيقة هامّة وهي أنّ اللكمة القويّة تستطيع أن تنتزع الاحترام انتزاعاً وتفرضه فرضاً. إني قادر على هذا والحمد لله فلا تنقصني الشجاعة أو القوة. كان حسن أحقرنا شأنًا ولكنّه كان على ذلك أعظمنا احترامًا. هذا درس بنتفع به». ثم سمع صديقه يقول في عزاء:  
 - لا تكثر أكثر ممّا ينبغي.

فقال وهو يهز منكبّه متظاهراً بالاستهانة:  
 - نصيحة معقولة. ليس في أسرنا ما يشين. كنّا أغنياء في يوم ما ثمّ دهمتنا أيام شداد فلاقيناها بشجاعة حتّى تغلبنا عليها. ليس في هذا ما يشين.  
 - بل فيه من دواعي الفخار ما فيه.  
 فضرب الأرض فجأة بقدمه وقال مستعر العينين من الغضب:

- ولكنّي أعرف كيف أوذّب من تحدّثه نفسه بإهانتي.  
 - هذا حقّ لا شكّ فيه.

وساد صمت مرهق بالتعب والألم فلم يجد البرديسي خيراً من أن يطلب قدحين آخرين من الجعة، ثمّ تمتم

كان يشعر دائماً بأنّ مطرقة ثقيلة من ماضيه معلقة فوق رأسه تهدّده في كلّ حين، وها هي قد أهوت على يافوخه ونثرته هشياً. ليس الأمر بحاجة إلى إيضاح أو سؤال، ولكن أمن الممكن حقاً أن يتجاهل كلّ شيء؟! ورفع بصره إلى وجه صديقه الواجم وسأله بلهجة آليّة:  
 - خبرني عمّا قال.

فعمس الشاب في ضيق وتبرّم ثمّ استطرد:  
 - إنّه حقيق بالإهمال ولكن من الإنصاف أن تعلم بما يقال عنك ولست في حاجة لأن أقول لك إني غضبت لك غضبة صادقة ألحمت ألسنة الهاذين...  
 إذن اتّخذوا منه مائة هذيانهم! وأيّ مائة! كان ينبغي أن يفكر في هذا كلّ يوم أقدم على تلك الخطبة المشثومة. وابتسم إلى صديقه ابتسامة باهتة وقال:  
 - لا يخالجي شكّ في شهادتك. إني أقدر إخلاصك حقّ قدره، ولكن أرجو أن تعيد على مسمعي كلّ كلمة قيلت. كلمة كلمة.  
 وبدا الشاب متأنّقاً، واكتفى بأن يقول في امتعاض شديد:

- قال كلاماً كثيراً عن أخ لك.. حتّى قلت له محتدّاً إني أعرف قاطع طريق في بلدتنا أحوه وزير في القاهرة! فامتقع وجه حسنين، وتأدّى لدفاع صاحبه كأنّه يسمع التهمة نفسها، بيد أنّه ضحك في يأس وقال:  
 - العادة أنّ عين الرضا لا ترى إلّا الوزير أمّا عين الغضب... ما علينا، وماذا أيضًا؟

فقال الشاب في تهرّب:  
 - وكلام سخيف من هذا القبيل.  
 ولكنّ حسنين هتف به في ضيق غلبه على أمره فجأة:

- أرجوك، أرجوك، لا تخفي عني شيئاً...  
 فقال الشاب عابساً من التحدّج:  
 - أكره أن أخوض في الحرمات.  
 - أختي؟!!

- قال إنّها كانت تعمل لترتّق؟ وقلت له غاضباً إنّ العمل الشريف لا يعيب أحداً وإنّ الفقر ليس جريمة.

مبتسماً:

- ستجد إذا شئت من هي خير منها...

فقال حسنين باستهانة:

- أوه، البنات في البلد أكثر من الهواء وأرخص من التراب!

وعلى من الجعة في ظمأ، وشغل الصديق بقدحه أيضاً فعاد الصمت. «آه لو كان في وسع الإنسان أن يخلق حياته من جديد، فيولد في أسرة جديدة، وينشئ ماضياً جديداً. ولكن ما بالي أعذب نفسي بالأمان الكاذبة. هذا أنا، وهذه حياتي، ولن أسمح بأن أتخطم. لم تنته المعركة بعد!».

- ٨٥ -

ولما غادر الكازينو مودعاً من صديقه كانت الصدمة والجعة تكادان تذهبان بعقله. وكان ينبغي أن ينفس عن صدره قبل كل شيء ومهما كلفه الأمر بيد أنه استسخر فكرة مواجهة الضابط أحمد رافت وأغراه شعوره المنطوي على التحدي والغضب بما هو أجل وأخطر. «إن غضبي على هذا الشاب المغرور غير عادل. لقد سمع قولاً بذنباً فردده. ليس لي عليه حق ولا أستطيع الزعم بأننا كنا أصدقاء. إذا سنحت فرصة للتحرش به في المستقبل فلن أدعها تفلت بسلام، ولكن لندع تأديبه حتى سنوح هذه الفرصة. هديني الحقيقي هو البك نفسه ذو الشارب المصبوغ. سأقول له إن أقل ما يستحقه رجل تقدم لطلب كرميتك هو أن تحافظ على كرامته خصوصاً إذا كان ابن صديق قديم، إذا تنصل من التهمة قذفته بالدليل القاطع وقلت له إن الفقر ليس بعيب بخلاف التشيع على الناس فهو عيب حقير. إذا غضب ولا بد أن يغضب كما يحتم مركزه الكبير فلن أقصد في إظهار غضبي حتى أفرغ بخار صدري المكتوم.» وبهذا الشعور المتفجر وما ينبثق حوله من إشعاعات الجعة ألقى بنفسه في أول ترام صادفه فحملة إلى ميدان المحطة، ثم استقل الترام إلى شارع طاهر، وعندما تراءت له فيلاً أحمد بك يسري تناقلت قدماء كآته يمهل نفسه لمعاودة التفكير. وترددت في أعماقه هواتف تهيب به إلى التراجع ولكنها ذابت في

تيار الحمى المستعر في رأسه فدفع إلى الفيلا دفعا حتى وجد نفسه حيال البواب الذي وقف له احتراماً. وشق طريقه إلى الداخل دون استئذان وهو يشعر بغرابة سلوكه وسخافته ولكن دون أن ينشئ. كانت الشمس قد مالت نحو الأفق فلاحت شجيرات الورد والشيخ الناعسة في ظل المغيب، وارتسمت على أرض المشي الوسيط أثار عجالات السيارة في هيئة خطين عريضين منحنيين، فأعجبه نحو السلامك، تشي نظرة الحيرة والتردد التي تتاب تصميمه من حين إلى حين بأنه لم يقتنع كل الاقتناع بوجاهة البواغث التي تدفعه إلى هذا التحدي. ومع هذا ارتقى السلم بسرعة غير متوقعة، وما كاد يبلغ الفراندا حتى وقف متمسكاً تحت صدمة دهشة مفاجئة لم تدر له بخاطر في هذيانه الطويل المتصل. رأى الفتاة - نفسها - جالسة على كرسي كبير وقد رفعت رأسها عن كتاب أو نحوه وتطلعت إلى القادم بعينين متساثلتين. وثبت عيناه عليها في جمود ذاهل وقد صعد صدره من الأعماق إحساس بالخزي أذابه ذوباناً. ثم أدرك أنه حيال موقف لو استسلم فيه لضعفه لباء بخزي جديد فاق ما تعرض له من ألوان الإهانة، فاستمد قوة جديدة من خوفه مصمماً على الخروج من ورطته بكرامة واستهانة. وأفاده التصميم فتمالك نفسه، وحتى رأسه باحترام وقال مبتسماً في لطف:

- مساء الخير يا أنسة. معذرة عن إزعاجي غير المقصود لك. هل أستطيع أن أقابل البك؟  
فقال برقة - وكان يسمع صوتها لأول مرة - دون أن يعتورها أدنى ارتباك:

- والذي معتكف اليوم لوعكة خفيفة.

وحنى رأسه مرة أخرى، ولعله وجد ارتياحاً إلى هذا الخلاص الذي جاء من حيث لا ينتظر، وقال وهو يهيم بالذهاب:

- أستودعك الله...

ودار على عقبه وسار خطوة، وخطوة أخرى، ثم توقف في تصميم مباغت. اختفى منطق السلام وحل محله غضب واستهتار وتلبسته الحال الغريبة التي دفعته

- كنت أودّ أن أسمع رأيك، ولكن حسبي هذا،  
إني آسف، وأرجو أن ترفعي تحيائي إلى البك.  
ودار على عقبيه مسرعًا وهبط السلم ثم سار نحو  
الباب. ومَرّت بخاطره مناظر متباعدة في سرعة  
وتدفّق. كموقفه مع بهيّة في بيتهم الجديد، وحديث  
البرديسي في الكازينو. وهذا الحديث القريب «لست  
عاشقًا خائبًا والحمد لله. كنت على وشك أن أكونه  
ولكن الله سلّم. بيد أنني رجل خائب وهذا أفضع.  
أحبّ أن أفكر طويلًا في هذه الأمور المعقّدة. إني أشعر  
بمرض من نوع جديد، أين الداء؟ أين الخطأ؟ أين  
العلاج؟»  
ولمّا خلس إلى الطريق كان مقتنعًا بأنّه ارتكب  
سخافة لا معنى لها.

#### - ٨٦ -

قالت الأمّ مبتسمة وإن نمت نظرة عينيها عن أسي:  
- من عجب أنك ترمي بنفسك في أمور خطيرة دون  
أن تأخذ العدة لها. هبهم وافقوا على الزواج فماذا كنت  
تفعل؟ ألم تفكر في هذا؟ ألم نحذرك جميعًا من عواقبه؟  
كان قد مضى على حديث صاحبه البرديسي حوالي  
عشرة أيام ومع هذا لم تغب هذه المسألة عن أذهانهم،  
وكانوا كلّما جمعتهم جلسة في الشرفة المطلّة على الطريق  
في أوقات العصاري ولاح في وجهه الشرود أو التفكير  
انبرت الأمّ للحديث ترجو أن تبلغ به موضع التعرّي  
من قلبه وانضمت إليها نفيسة مازجة الجذّ بالمزاح.  
وقال حسنين في ضجر:

- لا يبدو لي الغد خيرًا من اليوم.

فقالت نفيسة:

- كلام فارغ.

وصدّقت الأمّ على كلامها قائلة:

- وستبدي لك الأيام أنّه كلام فارغ، وستتزوج من  
خير منها...

وتساءل في نفسه لماذا يبدو المتشائم الوحيد في هذه  
الأسرة؟ أهى أسرة بلهاء أم هو الأبله؟ أليس الدور  
الذي يلعبه الشيطان في هذه الدنيا أخطر من أدوار  
الملائكة مجتمعين؟ بلى، فلماذا لا يروونه كذلك! ولقد

من مصر الجديدة إلى شبرا.  
ودار حول نفسه مرّة أخرى وواجه الفتاة في جراءة  
غير مبالٍ بنظرها المترقّعة المتسائلة ثمّ قال بصوت أعلى  
ثمّ يستدعي الموقف:  
- معذرة، تعرّ عليّ أن أودّع هذا البيت الوداع  
الأخير دون أن أعرب عن أفكاري.  
فظلّت على تساؤلها الصامت دون أن تنبس بكلمة  
فاستطرد متسائلًا:

- أظنّ بلغك أنني طلبت يدك؟

فقال وهي تغصّ بصرها:

- لم تجر العادة بأنّ يجذّني أحد من زوّار أبي.

فقال فيها يشبه الدهشة:

- ظننتها عادة غير مستنكرة في الأوساط الراقية!

- ليس في جميع الأحوال.

فتبادى في الاستهانة قائلاً:

- اسمحي لي أن أتكلم رغم هذا، إنني قصدت  
البك لمحدثته في الأمر نفسه لأنّه نما إليّ أنّ طلبي عدوّ  
وقاحة لا تغتفر.

فقال دون أن ترفع بصرها:

- يحسن بك أن تؤجّل حديثك حين لقاء البك.

فقال وعينه لا تتحوّلان عن وجهها:

- ولكن ما يسعدني به الحظّ من لقائك - وأنت  
صاحبة الشأن الأوّل - يحتمّ عليّ أن أتكلم، بهمني أن  
أعرف رأيك، هل يعدّ طلبي وقاحة حقًا؟

فقال بما ينمّ عن الضجر:

- أرجو أن تؤجّل حديثك لحينه.

ومع أنّ ضجرها كان شيئًا منتظرًا إلا أنّه آله وأحنقه  
فقال:

- إنّ الذي يسعى إلى يد فتاة يتقدّم عادة بخير ما  
فيه ولكن يحدث أحيانًا لسوء الحظّ ألا يروا إلا شرّ ما  
فيه، كبعض مساوئ تتعلّق بأسرته مثلاً.

فنهضت قائمة عابسة، وهي تقول:

- لا مفرّ من الدهاب.

وانجذبت نحو مدخل البهو فلاحقها بصوت مرتفع  
قائلاً:

معهما حتى السيارة وأعطى الرجل النقود وصرفه  
مستبقياً الآخر، ثم سأل في اضطراب وجزع:

- ماذا حدث؟

فقال الرجل:

- سي حسن أخي وصديقي، ولعلك تعلم أنه كان  
هارباً من وجه البوليس فانتهاز بعض أعدائه هذه  
الفرصة وترئصوا له في بعض الأماكن التي يقطنها  
مستخفياً وانقضوا عليه غدراً وسلبوه ماله ولاذوا  
بالفرار، وقد تحامل المسكين على نفسه حتى بلغ  
مسكني ورجاني أن أذهب به إلى أهله فأخذنا التاكسي  
إلى عطفة نصرالله حيث أخبرنا الجيران أنكم انتقلتم  
إلى هذا البيت فجننا من تونا.

وكان حسنين يصغي إلى الرجل في شبه ذهول،  
ومع أن إحساسات شتى تعاورت قلبه إلا أن إحساس  
الخوف والقلق غلبها جميعاً، ولما انتهى الرجل من  
حكايته غمغم الشاب:

- شكراً لك يا سيدي على مروءتك، هلاً تفضلت  
بالبقاء ساعة حتى تستريح...

ولكن الرجل رفع يده إلى رأسه شاكراً وقال:

- إني ذاهب في الحال، ولي كلمة قبل الذهاب وهي  
أنه يجب الإسراع إلى علاج الجرح الخطير ولكن حذار  
من استدعاء الإسعاف أو حمله إلى القصر وإلا أدى  
الأمر إلى التحقيق ثم إلى البوليس؟

وحياه الرجل ومضى إلى حال سبيله، فعاد الشاب  
إلى الحجرة كمن يشق سبيله في ظلمة حالكة والأرض  
تميد به. ووجد أخاه كما تركه راقداً وكأنه اطمأن إلى  
الجو الجديد فأسلم إلى غيبوبة تامة، وانكبّت عليه  
المرأتان في جزع بادٍ، ولما أحسنا بالقادم تطلعتا إليه  
بنظرة استغاثة. ورننا إلى الراقد طويلاً ثم تساءل  
بصوت غريب:

- ألم يتكلم؟

ف قالت الأم وهي تزدد ريقها الجاف:

- غمغم كلمات لا تعني شيئاً ثم راح في غيبوبة.

أغثنا بدكتور.

ولكن الجريح حرّك يده بجهد، وبدا كأنه يستطيع

أرسل إلى حسين كتاباً بآخر أنباء زواجه فماذا كان  
جوابه؟ لم يكذب يزيد شيئاً عما تقول أمه أو أخته! أماتوا  
وهم أحياء؟ ألم تعد تستهويهم الحياة الرفيعة الشريفة؟!  
وقطع عليه أفكاره جرس الباب الخارجي الذي رنّ  
رنيناً متواصلاً، ثم صوت الخادم وهي تصبح بحالة  
مزعجة بعد أن فتحت الباب «سيدي... سيّ» فهرع  
إلى الصالة مستطلعاً تتبعه أمه وأخته فرأى عند باب  
الشقة المفتوح رجلين غريبين يسندان ثالثاً بينهما، جريماً  
فيما يبدو من عصابة قدرة تطوّق رأسه وتنزّ دماً، وقد  
مال عنقه إلى كتف أحد الرجلين. واقترب حسنين من  
القادمين مبهوراً منزعجاً لا يدرك شيئاً ولا يفهم شيئاً  
حتى صار على قيد خطوات منهم وعيناه لا تتحولان عما  
انحسرت عنه العصابة من وجه الجريح. بشرة شاحبة  
تشوبها زرقة تثير من الأعماق ذكرى الموت، وتعلوها  
فوضى مخيفة من شعر نابت وآثار التهاب، ولكنّ  
العينين المغمضتين رمشتا في إعياء فلاححت خلال  
أهدابها نظرة واهنة غير غريبة سرعان ما انتقلت  
حركاتها الضعيفة إلى ذاكرته وانفجرت بها كالقنبلة.  
وقبل أن يتحرك لسانه جاء صوت أمه من الخلف  
مؤكداً ما انفجر في رأسه هاتفاً في نبرات يمزّقها الخوف  
والإشفاق:

- حسن... هذا حسن...

فصاح حسنين مردداً قول أمه في ذهول:

- حسن...

وهنا قال الرجل الذي يسند عنقه بكتفه ويشارك مع  
الآخر في حمله:

- يجب أن ننيمه في الحال...

وتقدّم الشاب في ذهول منهم وانحنى فوق قدمي  
أخيه وبسط ذراعيه تحت ساقيه ورفعهما في رفق وساروا  
معاً متعاونين في حمله إلى حجرة نومه، وأناموه على  
الفراش في جزع لا يوصف. وفي الصالة أشار الرجل  
الذي تكلم أول مرة - وكان يرتدي جلباباً وطاقية - إلى  
الآخر - الذي كان يتزيّا بزّي الأفندية - وقال:

- لا مؤاخذه، هذا سائق التاكسي.

فأدرك حسنين أنه يلتمح إلى أجرة التاكسي فصار

أن يغالب غيوبته عند الضرورة فقال بصوت باهت ضعيف تجرد من فحولته المهدودة:

- لا دكتور... الدكتور... يبلغ... البوليس.

والقى عليه نظرة متفحصة فرأى العصابة المخضبة بالدم تخفي رأسه وجبهته وجانباً من صفحتي وجهه فلا تبدو إلا عينا المقلتان بالإعياء والذبول وذقنه النابتة الشعر، وقد فغر فماً تتردد فيه أنفاس ثقيلة محشجة، على حين تمزق رباط رقبته وجيب الجاكتة وانتثرت خيوط الأزرار، وراحت يمناه تنقبض وتنسبط، ويثن بين آونة وأخرى. وقف حسنين حيال هذا المنظر ذاهلاً فتناسى مخاوفه وتركز شعوره في إحساس عميق بالألم والإشفاق. نسي برهة كل شيء إلا أنه حيال أخيه الجريح، وأنه ينبغي إنقاذه بأي ثمن. ثم جعلت تطفو من أعماقه مشاعر خوف وقلق طالما طاردته في الأيام الأخيرة في هيئة نذر تنهدد سمعته ومستقبله، فانقبض قلبه، وداخله ألم جارج لهذه المشاعر ذاتها من ناحية، ولتأنيب الضمير على إحساسه بها في مثل هذا الموقف من ناحية أخرى. وكأنه فرغ إلى الحرب من باطنه بالكلام فقال مخاطباً الجريح برقة:

- دعني أحضر طبيباً. حياتك أهم من أي شيء آخر.

وقالت الأم ونفيسة برجاء معاً:

- نعم يا حسن، دعنا نحضر الطبيب.

ولكنه رفع جفنيه الثقيلتين وقال منبراته المضغوطة المتعبة:

- كلاً، لا تخافوا. هذه ضربة تافهة...

ثم حاول أن يأخذ نفساً عميقاً واستراح لحظة، ثم استدرك قائلاً مغمض العينين:

- غدروا بي. الويل لهم. إن كان لي عمر فالويل لهم. ولكن لا تستدعوا طبيباً. الطبيب يبلغ البوليس...

فقال حسنين وكان لا يزال فريسة للنزاع الناشب من باطنه:

- لا بد من إحضار طبيب، وليس عسيراً أن نقنعه بتكتم الخبر.

وتوسلت إليه الأم قائلة:

- ارحمني يا حسن واقبل هذا...

فنفخ الرجل مغمغماً في ضجر:

- ارحموني أنتم ودعوني في سلام... أف

وجعلت الأم تردد بصرها بينه وبين حسنين ولكن الشاب كان من العناء في بلوى. برج الخفاء وتبين حقيقة مشاعره، فليس تألمه لأخيه بشيء يذكر إلى جانب الخوف الذي يلقي عليه ظلاً ثقيلاً من شبهه الجاثم. «قضي علينا، قلبي لا يكذبني على الأقل في الشر، قضي علينا في مصر الجديدة كما قضي علينا في شبرا وسيطاردنا البوليس جميعاً كالمجرمين. أكاد أرى بعيني رأسي المحموم الضابط وهو يفش الحجرات ويلقي القبض على المجرم الهارب. هل سدت منافذ الحياة؟ أتقول إنه أخي؟ أجل إنه أخي، ولكنّها حياتي التي تحطم تحت قدميه في طريقه الوعرة. أف، لشد ما ضاق صدري!» ثم سمع أمه وهي تهتف به في يأس:

- أغثني يا حسنين! ألا ترى أنه يموت بين أيدينا!

«كلّاً لن يموت، أما أنا فإني أموت موتاً بطيئاً قاسياً. إن كرامتي تحضر. وهبه مات حيث هو الآن فسيأتي طبيب للكشف عليه ثم يلحق به البوليس والنيابة ولن يكون لهم سبيل على الجثة ولكن ستفوح النتانة من البيت في هيئة فضيحة رائعة!» ثم حانت منه التفاتة إلى أمه وكانت تردد بين الراقد وبينه نظرة حائرة زائغة فزعرة، ومع أنها كانت مطبقة الفم إلا أنه سمع لنظرتها تلك صرخة مدوية تمزق نياط القلب. وعجب لنفسه فقد حقق عليها بادئ الأمر ثم خيل إليه أن ذكريات غامضة سريعة تطرق قلبه في لمح البصر فتخاذل وضعف وعاد يركز بصره في العصابة الملوثة بالدم، واسترد قوة تفكيره فخطر له خاطر باهر تتمم على أثره بلا وعي «كيف نسيت هذا؟!» ثم قال مخاطباً أمه في عجلة:

- سأحضر طبيباً صديقاً من مستشفى الجيش، انتظري قليلاً فلن أغيب طويلاً.

وهرع إلى بدلته فلبسها متعجلاً وغادر البيت لا



يلوي على شيء...

- ٨٧ -

فلو أنه مات في أرض بعيدة.

ثم ثبت عينيه على الوجه الذي أخذ يختفي تحت الأربطة فسرت في جسده رعدة، وامتلاً يأساً وانقباضاً وأخيراً سمع الطبيب يخاطبه قائلاً:

- انتهيت من الممكن عمله الآن، هلمّ معي إلى الخارج...

وانتظر حتى غسل الرجل يديه وارتدى جاكته ثم سار بين يديه إلى حجرة الاستقبال ولم يجلس الرجل وبدأ متفكراً، ثم قال مهدوء غير منتظر:

- لا أظنّ الحال خطيرة جداً ولكنّه سيحتاج إلى علاج طويل. يا له من اعتداء وحشيّ، لماذا لا تبلغ البوليس؟

فقال حسنين بجزع وإن ردّه قول الطبيب إلى بعض رشاده:

- إني أنفادي من الفضيحة، ومهما يكن من أمر فنحن أسرة واحدة!...

فهزّ الطبيب رأسه فيما يشبه التذمّر ثم قال بشيء من الحزم:

- سأعود لرؤيته صباحاً فإذا وجدته على ما يرام فيها ولأنا فساجدي مضطراً للتبليغ.

وساوره القلق فقال برجاء وكأنّه يخاطب نفسه:

- أرجو ألا يحدث هذا.

ثم خاطب الطبيب قائلاً:

- إني أشكر لك ما تجسّمت من جهد وتعب.

وانّجه الرجل إلى الخارج فوصله إلى الباب الخارجي وهو يشدّ على يده بامتنان، ولم يشأ الطبيب أن يذهب قبل أن يكرّر على مسمعه قائلاً في تأكيد:

- سأعود صباحاً...

ووقف يتابعه بناظريه وهو يستقلّ سيارته حتى انطلقت به مزججة في طريقها فتنهّد كأنّه يزيح ثقلًا لا يتزحزح ثم عاد إلى الحجرة ينقل خطواته في كآبة، وما كاد يلج الباب حتى هرعته إليه أمّه وسألته في لهفة وجزع:

- ماذا قال الطبيب؟

وكره لهفتها وجزعها من أعماق صدره ولكنّه لم يجد

وقف حسنين مستنذاً إلى حافة النافذة يراقب الطبيب وهو مكبّ على عمله الدقيق وقد غادرت الأم والأخت الحجرة ولبثتا وراء الباب المغلق يكاد يسمع تردّد أنفاسهما. كان عابساً شديد التأثر، وتولّاه الفزع، ثم أخذ يهدأ رويداً، ويغيب في أعماق نفسه. وكان قد أخبر الطبيب لدى مقابلته أنّ أخاه أصيب بجرح في رأسه عقب معركة مع أحد أفراد الأسرة ورجاه أن يسعفه مبدئياً له رغبته الحارّة في تكتم الخبر حتى لا تخدش كرامة الأسرة بفضيحة عامّة! ومضى الطبيب معه في تحفّظ، ولمّا أجرى الكشف الابتدائيّ على رأس الجريح قال:

- كسر عميق، إلى ما استنزف من دم غزير. لا أدري ما وجه الحكمة في عدم إبلاغ البوليس؟!

فقال حسنين بتوسّل:

- فلتتخاش هذا بأيّ ثمن!

فقال الطبيب وهو يتهيأ للعمل:

- الظاهر أنّك لا تدري خطورة الأمر... وعلى أيّ فلنؤجلّ هذا إلى حينه!

وتركه طوال العمليّة الجراحية غير مستقرّ ولا مطمئنّ، بل قضى حديثه الأخير على نوازع عطف كانت تتحرّك في أعماقه. كان في ذهابه إلى المستشفى وعودته بالطبيب مجال حسن هيأ له جوّاً طيّباً تنمو فيه إحساسات العطف وتزكو فنزعت به الذكريات إلى الأيام الخوالي التي كان حسن فيها المرفق الوحيد عن بأسائهم، واليد المبسوطة التي تجود فتحقق لهم الآمال. ولكن سرعان ما استثار القلق الخوف فتحجّر قلبه ونضب معين العطف ولم يعد يرى في الرجل الجريح إلّا نذير الشرّ الذي يتهدّد سمعته ومستقبله. ها هو يرقد في غيبوبة شاملة لا يشعر بالأسلحة الدقيقة التي تعبت بلحمه وعظمه، وهكذا كانت حياته دائماً جرحاً عميقاً يبتلي سواه بالآلام. أمّا هو فلم يفق من غيبوبته قطّ: أو لم يشأ أن يفيق منها. ألم يضرع إليه بالدموع أن يغيّر حياته؟ بلى، وكان جزاؤه السخرية الاليمية،

بداً من أن يقول في هدوء:

- إنه مطمئن إلى الحالة وسيعود صباحاً، كيف حاله الآن؟

فأقلت نفيسة:

- لم يفق بعد.

وارتمى على الكرسي الوحيد بالحجرة وأغمض عينيه... «أنا الجريح حقاً. إنه ينام نوماً عميقاً في غيبوبة سعيدة فمن لي بمثل هذه الغيبوبة. لا أظنّ الحال خطيرة جداً، هكذا يقول الطبيب الغافل. كلاً إنهما خطيرة جداً. وإبلاله أخطر من موته. إذا ساءت الحال أبلغ الخبر إلى البوليس، وإذا تحسّنت جثم على صدري حتى يبلغ أعداؤه البوليس عنه، فالفضيحة آتية لا ريب فيها... أين المهرب من هذه الآلام جميعاً. إنّي أمقت هذا الجريح وأمقت نفسي وأمقت الحياة جميعاً. أما من حياة غير هذه الحياة، و مخلوقات غير هذه المخلوقات؟، والظاهر أنّ أفكاره انعكست على صفحة وجهه فتقبّضت أساريره في امتعاض وألم، ولاحت من أمه التفاتة إليه فاشتدّ بها التأثر وقالت له برقة:

- هوّن عليك، أخوك بخير، والله حافظه وحافظنا...

وفتح عينيه في دهشة، ورمقها بنظرة غريبة دون أن ينبس بكلمة...

- ٨٨ -

وجاء الطبيب في صباح اليوم الثاني ثم غادر البيت معلناً اطمئنانه، وبذلك نجا حسنين من الخطر القريب الداهم ليفرغ لقلق متّصل وعذاب بطيء وأوهام لا تفارقه ليلاً ولا نهاراً. وانقضت أيام والأسرة في هدوء نسبي، ومضى الرجل الجريح يفيق ويستردّ حيويته شيئاً فشيئاً، ويعودته إلى الحياة ساورته أفكار قديمة لم تلبث عدواها أن سرت إلى النفوس المحيطة به. وقد ابتسم في بادئ الأمر ابتسامة حزينة يشوبها تسليم لم تألفه طبيعته وقال كالمعتذر:

- أتعبتكم كثيراً، والظاهر أنّ الله لم يخلقني إلّا للتعب... فليسامحني الله!

والتمعت فيها حوله بسبات المجاملة والتودّد فلم يندفع بها، أو لم يندفع بها جميعاً، فمالَت عيناه نحو حسنين وقال:

- لا شك في أنّك غاضب ولعلّك تؤدّ أن تذكرني بمواعظك السالفة!...

فغمغم الشاب قائلاً:

- لا أودّ إلّا سلامتك...

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة، ثم ما عتَم أن تهيم وجهه، وتكالمت عليه الأفكار، فقال في لهجة مضطربة غير التي تكلم بها أوّل الأمر:

- سلبوني نقودي، الويل لهم، كنت عازماً على الهرب، ولا بدّ من الهرب.

وتحمّس رأسه بيده وأغمض عينيه، ثم تتمم وكأنّه يحدث نفسه:

- ماذا فعل الله بسناء؟.. هل يكفون عنها؟.. لن تستسلم لعدوّ من أعدائي، ولكنّها لن تستطيع الهرب معي، فات الوقت وفقدنا نقودنا...

وأصت حسنين صامتاً، جافلاً من ملاقاته هذا الهذيان بغير الصمت، واختلس من أمه وشقيقته نظرة فوجدما تبادلان نظرة حائرة ثم عاد حسن يقول في نبراته المضطربة:

- يجب أن أخفي. إنّ الصديق الذي حملني إلى هنا رجل غلص ولكنّه أجهل من أن يحفظ سرّاً، وليس أحبّ إليه من أن يروي قصّة مروءته لرفيقته، فتقلها هذه لجارتها، حتّى تبلغ أحداً ممّن يترتّبون بي، فلا ندري إلّا والبوليس يقتحم علينا البيت.

وتنهّد حسنين في يأس، وحانت منه التفاتة صوب أمه فالتقت عيناهما لحظة قصيرة قبل أن تغضّ بصرها، وامتلأ حنقاً فحاطبها في سرّه... لماذا أتيت بنا إلى الدنيا؟.. لماذا اقترفت هذا الجرم الشنيع؟.. ثم سمع أخاه يهتف بعنف:

- يجب أن أخفي. سأغادر البيت حالماً أقدر على المشي، وربّما غادرت القطر كلّ...

واستروح حسنين نسمة باردة كالأمّل لأوّل مرّة مذ جاء الرجل محمّلاً كالقضاء والقدر. «هل يمكن أن

تناثرت نفوسهم كالشظايا: فوثب حسنين قائماً وهو يحدّق في وجه الخادم، ورمى حسن بقدمه من على الفراش إلى أرض الحجرة وهو ينظر إلى النافذة في عبوس متمتلاً «الهرب!»، على حين ردّدت الأمّ بينها عينين زائغتين وكان حلقها من الجفاف بحيث لم يسمح لكلمة بالخروج. وجد حسنين في مكانه دقيقة، ثمّ استسخر جوده فهزّ منكبيه في يأس وغادر الحجرة إلى الباب الخارجي حيث وجد الشرطي واقفاً وتبادلاً تحية آليّة ثمّ سأله الشاب في استسلام:

- أفندم؟! -

فقال الرجل بصوت أجشّ:

- هل حضرتك الضابط حسنين كامل عليّ؟

- نعم...

- حضرة ضابط نقطة السكاكيني يرغب في مقابلتك

في الحال.

ونظر حسنين فيما وراء الرجل حتّى الطريق فلم يرَ غيره ممّن كان يتوقّع رؤيتهم، وداخله شيء من الطمأنينة، ولكنّه تساءل في حيرة:

- ماذا يريد حضرته؟

- أمرني أن أبلّغك رغبته دون أن يزيد.

وتردّد الشاب قليلاً ثمّ استطرد ريشاً يرتدي ملبسه وعاد إلى الحجرة، ووجد أخاه وراء بابها ينتصّت فما إن رآه حتّى سأله في لهفة «هل جاءوا؟»، وكزّرت الأمّ السؤال في صوت مريض، فأعاد على مسمعيها ما دار بينه وبين الشرطي وهو يرتدي ملبسه، وما كاد ينتهي حتّى قال حسن:

- لعلّ الضابط من معارفك فأراد أن ينبّهك قبل أن

يكبس البيت. هذا واضح. أصغِر إليّ، إذا سألك عنيّ فقلّ له إنك لم ترني منذ أعوام. لا تتردّد ولا تخش عاقبة الكذب فلن يقفوا لي على أثر. سأخفي عقب ذهابك مباشرة فقلّها ولا تخف وربّنا معكم...

فتساءل حسنين وهو يخفي عنه عينيه حتّى لا يقرأ فيها ما تنفّس في أعماقه من أمل جديد:

- وهل لديك من القوّة ما يعينك على الهرب؟

يحدث هذا قبل أن تقع الواقعة!.. هل يختفي حقّاً فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر؟! فليتنقّد حيث هو، يجب أن أحيّا حياة مطمئنة!.

ثمّ مرّ يوم ويوم ويوم حتّى غدا جرّ البيت على كآبته معهوداً مألوفاً، فلامس حسن الشفاء أو كاد وأخذ يفكر جدّاً في مغادرة البيت ثمّ في الهرب من الوطن كلّه ويرسم لذلك الخطط في صمت وتفكير متواصل، ولم تعد نفيسة تلزم نفسها القبوع في البيت فعادت إلى زياراتها التي لم تكن تنقطع يوماً، وكذلك عاود حسنين حياته العاديّة ما بين عمله وبيته والنادي ولكنّ رأسه لم يتوقّف عن التفكير في أخيه والخطر الذي يتهدّد سمعتهم بسبب إقامته بينهم. وقد دار بينه وبين أمّه مرّة حول هذه النقطة الحساسة فقال لها بعد إشفاق وتردّد:

- إذا كان البوليس لم يند إلى محلّ إقامته حتّى الآن فبمعجزة من الله لا يمكن أن تستمرّ طويلاً...

ونظرت إليه المرأة نظرة غريبة احتار في تفسيرها بادئ الأمر، أمّ عتاب صامت، أم تسليم بالقضاء من العجز عن ملاقاته، أم استنكار يداريه الخوف من الإفصاح، كلّ أولئك بدا راجحاً حيناً لولا أن برح الخفاء فهتكته دعة ترقّرت في محجرها في بطن كالحياء وفي تردّد هو العذاب، هنالك ملأه الانزعاج لأنّه لم يكذّر يذكر أنّ رأى أمّه باكية على كثرة المحن والملمات، وتراجع فيما يشبه الفرار وصور من خزّمها وعزّمها تنثال على مخيلته في دهشة وألم، فكأنّه يشهد احتضار أسد هصور. على أنّه حين خلا إلى نفسه تناسى آلام الآخرين وانفرد بالآلامه هو وخوافه، فاشتدّ به الاستياء والحقن، ولعن نفسه وأمّه معاً...

وفي عصر اليوم التالي مباشرة أرادت هذه المخاوف أن تخطو خطوة جديدة. كان يجلس وأمّه وأخوه على الفراش يتجاذبون الحديث، وكانت نفيسة في الخارج. ورنّ جرس الباب فجأة فذهبت الخادم لتفتح، ثمّ عادت في ارتباك ظاهر وقالت للشاب:

- سيدي. عسكريّ بوليس يرغب في مقابلتك...

فقال حسن وهو يجذب بلدته من على المشجب:

- إني على خير عافية... مع سلامة الله.

وغادر حسنين الشقة ومضى في صحبة الشرطي، وكان أول ما بدا له أن يسأله عن اسم الضابط لعله يكون حقاً من معارفه ولكن الشرطي ذكر له اسماً غريباً لم يسمع به من قبل فعادته الحيرة. وبدأ له الأمر شديد التعقيد. بيد أن عزم حسن على الاختفاء بث في نفسه طمأنينة لا حد لها. وبلغا نقطة البوليس قبل المغرب بقليل، وقاده الشرطي إلى حجرة الضابط ثم أدّى التحية قائلاً:

- حضرة الملازم حسنين كامل علي.

كان الضابط جالساً إلى مكتبه، وعلى بعد ذراع من المكتب وقف رجلان وامرأة من أهل البلد تلوح في وجوههم آثار معركة حديثة العهد، ولكن الرجل نهض لاستقبال حسنين ومد له يده وهو يقول: «أهلاً وسهلاً» ثم أمر الشرطي بإخلاء الحجرة وإغلاق الباب. وطلب إلى الشاب أن يجلس على كرسي أمام المكتب فجلس وهو يقول لنفسه «ترى ما معنى هذا كله؟... ترحاب ومجاملة ثم ماذا؟!».

وخرج الضابط من مجلسه ووقف في مواجهته مستنداً يمينه إلى حافة المكتب، وجعل يتفحصه بنظرة غريبة تلوح فيها حيرة من لا يدري كيف يبدأ حديثه أو من يجد في ذلك قدرًا من الصعوبة لا يخفى. وشعر بفترة السكوت على قصرها غليظة لا تُحتمل، واشتد به إحساس كربه استحوذ عليه منذ اللحظة التي وطأت قدماه فيها أرض نقطة البوليس، إحساس بالرهبة والقلق والضيق «ضابط مهذب يتحرج من إلقاء التهمة في وجهي، هذا غريب في ذاته، تكلم وأرحني فطالما تراءى لي لخيالي كابوس هذه اللحظة. إني أعلم سلفاً ما تريد قوله. تكلم...».

ونفذ صبره فقال:

- دعاني الشرطي لمقابلة حضرتك!

فقال الضابط:

- إني آسف لإزعاجك. كنت أود أن ألقاك في ظرف خير من هذا، ولكنك أدري بما يتطلبه الواجب

أحياناً.

وزفر حسنين آخر نسمة من أمل ضعيف في السلامة وقال في وجوم:

- إني أشكر لك كرم أخلاقك، وها أنا مصغٍ إليك... .

فقال الضابط باهتمام ورقة معاً:

- أرجو أن تتلقى ما سأقول بشجاعة، وأن تسلك سلوكاً جديراً بضابط يقدس القانون... .

فقال الشاب وهو يعاني ما يشبه الهزال والخور:

- هذا طبيعي جداً.

فعض الضابط على أسنانه كما بدا من تقبض

صدغيه ثم قال باقتضاب:

- الأمر يتعلق بأختك... .

ورفع حسنين حاجبيه في استنكار ثم قال:

- تعني أخي؟

- الست أختك، ولكن معذرة أحب أن أسألك

أولاً هل لك أخت تدعى نفيسة؟

فقال حسنين في ذهول:

- نعم، هل وقع لها حادث؟

فعض الرجل طرفه وهو يقول:

- يؤسفني أن أخبرك بأنها ضُبطت في بيت

بالسكاكيني... .

وفزع حسنين واقفاً، متصلاً الجسم، مصفر الوجه

محملقاً في وجه محدته، وهو يلثث قائلاً:

- ماذا تقول؟

فربت الرجل على كتفه متأثراً وقال:

- ادع كل قوة في نفسك كي تضبط أعصابك.

الموقف يستلزم الحكمة لا الغضب. أرجو أن تساعدني

على القيام بواجبي ولا تجعلني أندم على ما اتخذت من

إجراءات راعيت فيها المحافظة على كرامتك قبل كل

شيء.

أنصت إليه وهو لا يزال يميلق في وجهه، تمتلئ

عيناه بوجهه تارة فلا يرى سواه، ويغيب عنها أخرى

فيسمع الصوت ولا يرى شيئاً، وثالثة لا يرى إلا

شفتين تنطبقان وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو

- تركناها في هذه الحجرة لأنه أغمر عليها حين علمت بأنني أرسلت في طلبك بدل أن أطلق سراحها. اسلك سلوك رجل يحترم القانون واذكر أنني مسئول عن الأرواح. إنك رجل محترم ومهذب فعالج الأمر بالحكمة. لا يصح أن يعلم أحد ممن في النقطة شيئاً ولكن هذا يتوقف على سلوكك أنت، تذكر هذا جيداً...

فكرّر قوله بنفس الصوت الميت:

- دعني أراها من فضلك...

مضى الضابط إلى الباب المغلق متساقلاً وفتحته، واقترب حسنين منه كمن يمشي في حلم، وألقى بنظرة من فوق كتفه كمن ينظر ليتعرف على جهة في المشرحة، فرأى لصق الجدار المواجه للباب أريكة ارتمت عليها فتاة قد ألفت برأسها إلى الحائط، عيناها نصف مفتوحتين ولكنها مظلمتان لا تريان شيئاً ميتة أو مغمى عليها أو لعلها في ذهول الإفاقة الأول، وقد التصقت بجبهتها شعيرات مبتلة وعلت بشرتها صفرة الموت. لكنها نفيسة دون غيرها. «قلبي لا يكذبني في المصائب أبداً لو كانت ميتة لادّعت أنني لا أعرفها بلا تردد» ولم تبد حراكاً كأنها لم تحس للقادمين وجوداً، أو أنها لم تستطع أن تبدي حراكاً. ونظر الضابط صوبه متسائلاً ولكن عينيه لم تتحولاً عنها، جمد بصره وتحجر وغشيه ذهول وجد فيه مهرباً مؤقتاً عما كان وما سيكون وخيم عليهم سكون الموت، وانقضت فترة طويلة أو قصيرة، ثم شق الصمت صوت باطني يصرخ في أذنه «انتهى...»، وتحالفت لعينيه صورة أمه كما رآها منذ ساعة واقفة بينه وبين حسن في حيرة يائسة والرجل يتوَّج للفرار. ود تلك اللحظة لويقتحم تجارب الكفر والقسوة والموت «ماذا ينتظر هذا الضابط أن أفعل؟... ماذا ينبغي أن أفعل؟ رباه كيف أغادر هذا المكان؟!...» ثم سمع الرجل يقول:

- لقد قدّمت ما عندي من واجب نحوك فهات ما عندك من حكمة...

فسأله بدوره وهو يتحامي بعينه:

- أين الآخر؟!

الفرع والياس والغرابية، وبين هذا وذاك ترمش عيناه في حركة عصبية فتلتقطان منظرًا غريبًا هنا وهناك، بندقيّة مثبتة في جدار أو صفًا من البنادق أو محبرة، وربما امتلاً أنفه برائحة دخان محبوس أو رائحة جلود غريبة، ثم ينحلّ وعيه ويتراجع فجأة إلى ذكرى بعيدة لا صلة لها بالحاضر فيلوح لذاكرته منظر عطفة نصرالله وهو صبي يلعب حسين البلى «ضبطت في بيت! أي بيت؟ إن أحداً فاقد العقل ولا شك ولكن من هو؟ ينبغي أن أتأكد من أنني عاقل أولاً...» وتنهّد في وهن، ثم سأله في استسلام:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- يوجد في هذا الحي بيت تستأجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق. كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا الست... وجدناها مع شاب، واعتقلناها طبعاً وشرعنا في اتخاذ الإجراءات القاسية التي تعرفها فاضطرت تحت تأثير الخوف أن تعترف لي بأنها شقيقة ضابط على أمل أن أطلق سراحها... - أختي أنا؟... أنت متأكد؟... دعني أراها...

- اضبط نفسك، أرجوك، لو كنت متأكداً من أنها اختك لأطلقت سراحها. ولكني خفت أن يكون اعترافها خدعة، قد عرضت المسألة على المأمور فوافق على وقف الإجراءات على شرط التأكد من صدق قولها...

ومن عجب أنه لم يعد يداخله أدنى شك في حقيقة الواقعة فسرعان ما آمن بها قلبه المتشائم، ووجد في فظاعتها ترجيحاً لأصداء خوف قديم طالما ناوش قلبه وعذبه. أجل لم تُخلق هذه الواقعة إلا لحظه ولأسرته، إنه يعلم هذا علماً لا يتطرق إليه الشك. أهذه هي نهاية المطاف؟! ثم غلبه ذهول شعر معه بأنه أثر من آثار ماضٍ منطوي انقطعت صلته بالحاضر فضلاً عن المستقبل، كان، هذا هو، ولكنه لا يكون ولن يكون. ثم انبعثت منه لهفة على النهاية فقال بصوت ميت:

- أين هي؟... دعني أراها من فضلك...

فأشار الضابط إلى باب مغلق وقال:

وأدرك الضابط ما يعنيه فقال بلهجة لا تخلو من حزم:

- طُبِّقَت عليه الإجراءات وأُطلق سراحه.

فغمغم قائلاً:

- لنترك هذا المكان شاكرين.

- ٩٠ -

في الخارج لفحه هواء بارد وكان الظلام قد خيم فابتعد عن نقطة البوليس في خطوات ثقيلة تتبعه هي على بعد ذراع منكسة الوجه، سارا مع قضبان الترام ولم يكن يدري أين ينتهي به المسير لأنه لم يسبق له المجيء لهذا الحي، ومع أن الليل كان في أوله إلا أن الطريق بدا مقفراً، وتساءل في نفسه ترى أين ينتهي الطريق؟.. ثم بدا له تساؤله آية في الغرابة، فلم يكن المهم أن يعرف أين ينتهي الطريق ولكن الجدير بالمعرفة حقاً أن يعلم ما هو صانع «بها». كان يحسب أنه سيبدأ بالتنفيذ توماً بعد خروجه من النقطة، وكانت هي تتوقع هذا، ولكن أقدامهما تقدّمت بهما دون أن يفعل شيئاً، وكان يشعر بوجودها وراءه في ضيق لا يُحتمل، ويسمع وقع قدميهما كأنه رصاص في ظهره، ويحور أول فأول آية رغبة في أن ينظر إلى الخلف، ومع أنه بدا في صمته - ذلك الصمت الهائل الذي وقف حائلاً بينهما - وكأنه يفكر تفكيراً متواصلاً إلا أنه في الحقيقة كان فارغ الرأس. كان فارغ الرأس بحال مزعجة، لم يُرْدها إرادة، ولكنها فُرضت عليه قسراً وبُثَّت في نفسه إحساساً بالقلق، إحساس من يتلهّف على السيطرة على إرادته سيطرة غاشمة فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. واصطدمت قدمه بحجر صغير اعترض سبيله فانطلقت في صدره شرارة حنق، وكأنها جذبت إليها أفكاره الماربة في الظلام، وسرعان ما وجد نفسه يتساءل في صمته أين هي؟.. أين هي رأسها بحذائه؟.. لا بدّ لصدره من متنفس. وظلّ الصمت الجهنمي سائداً. وبينما كان يجمع عزمه لرحضة هذا الصمت تطوّعت هي - وهو ما عجب له - لرحضته. فسمعها تغمغم في نبرات مرتعشة متهدّجة قائلة:

- لقد أجمت. إني أعلم هذا.. ولن أسألك

غفراً لست جديرة به.

هل حقاً وانتهت قواها على الكلام! يا للشيطان! وأحدث صوتها - على ضعفه - زوبعة من الهياج في صدره، زوبعة عمياء طاغية صبّت الغضب في أطرافه صباً فتوقّف عن السير والتفت نحوها في سرعة غريبة وارتفع ذراعه في الهواء وهوى على وجهها كالقذيفة فتراجعت مترنحة دون أن تنبس ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض. لم تنبس بكلمة ولا ندّ عنها أي صوت، ولكنها جلست على الأرض بسرعة ثم لَمّت نفسها ووقفت وأخذت في التراجع حتى ارتكنت إلى جدار بيت. واقترب منها فترأى لعينيها تصميمه رغم الظلمة التي تُظِلُّ وجهه فلوّحت له بيدها كأنها تسأله أن يقف ثم اندفعت قائلة في عجلة وتوسّل:

- قف، لا تفعل، لست أخاف على نفسي ولكني أخاف عليك، لا أريد أن يمَسَّك سوء بسببي.

وزادته رقة كلامها هياجاً على هياج فصاح بها بصوت كالخوار:

- لا تريد أن يمَسَّني سوء بسببك؟!.. يا عاهرة لقد صببت السوء عليّ صباً.

فأعادت بتوسّل حار:

- ولكني لا أطيق أن يسيثوا إليك ولو كان السبب هلاكي.

- هذا مكر حقير لن ينفعلك في إنقاذ حياتك الحقيمة، هيهات، لن ينالني سوء بقتلك.

فهتفت في حرارة:

- لا ينبغي أن يمَسَّك عقاب وإن هان، ثم بماذا تجيب إذا سُئلت عما دفعك إلى قتلي؟! دعني أقم أنا بهذه المهمة فلا يكدرك مكدر ولا يدري أحد.

فتساءل فيها يشبه الدهول:

- تقتلين نفسك؟!!

فقالته وهي تلهت:

- نعم..

شعر فجأة - قبل أن يتألك نفسه - بأن حملاً ثقيلاً تزحج عن عاتقه وهوى بعيداً. كان مدفوعاً بغضب

فسرت في جسدها رعدة وقالت بذلك:  
 - لا تعذب نفسك ولا تعذبني، سينتهي كل شيء  
 في لحظات.  
 - أكان يعرفني؟  
 فقالت بعجلة وتوكيد:  
 - كلاً...  
 فتردد مرة أخرى وقد تضاعف عذابه ثم تساءل:  
 - أول مرة؟!  
 فعاودتها الرعدة بيد أنها قالت بتوكيد أيضاً:  
 - نعم...  
 فضرب الأرض بقدمه وصاح بها:  
 - كيف استسلمت للغواية؟  
 - أمر الشيطان.  
 - أنت الشيطان... لقد قضيت علينا.  
 فهتفت في رجاء:  
 - كلاً... كلاً... سينتهي كل شيء الآن ولن  
 يدري أحد.  
 - اتعنين ما تقولين؟  
 - طبعاً...  
 - وإذا ساورك الخوف!  
 - كلاً، إن ما ورائي في الحياة أقطع من الموت.  
 وعادا إلى الصمت وكلاهما يشعر بجهد ونصب،  
 ومضى يمدّ البصر مع قضبان الترام في حيرة، ثم سألها  
 بلهجة ساخرة:  
 - إلى أين نحن ذاهبان، فلعلك أدري بهذا الحي  
 مني؟  
 ولم تجب، ولكن تقبضت أساريرها من الألم. ثم  
 لاح لهما ميدان الظاهر فترأت لعينيها آثار الحياة  
 والعمران وترامت لأذنيها أصوات لأحياء، وجعل  
 ينظر في قلق حتى ثبتت عيناه على صفّ من التاكسيات  
 فمضى إلى مقدمها وفتح لها الباب فدخلت ثم دخل  
 وراءها. وفكر قليلاً والسائق ينتظر أوامره، ثم قال له  
 بصوت منخفض:  
 - جسر الزمالك من فضلك.

مستعر وإحساس معذب بالواجب ولكنّ العواقب -  
 كذبيوع الفضيحة والعقاب - ما فتئت تتخايل لعينيها،  
 فالآن بعد هذا الحكم الذي قضت به على نفسها يسعه  
 أن يسترد أنفاسه وأن يستين بصيصاً من النور في هذه  
 الظلمة الخائفة. وغمغم متسائلاً وهو لا يزال مستغرقاً  
 في أفكاره:  
 - كيف؟  
 فقالت وهي تزدرد ريقها:  
 - بأيّ وسيلة كانت.  
 فتفكر قليلاً متجهّم الوجه ثم قال وهو يرمقها  
 بقسوة:  
 - النيل...  
 فقالت بهدوء:  
 - ليكن.  
 فنفخ حقناً وضيقاً ثم تراجع في تناقل وهو يغمغم  
 «هلمي» فغادرت الجدار وتقدّمت في خطو ثقيل، ثم  
 دار حول نفسه وواصل السير فتبعته كما كانا. أحسّ  
 هذه المرة شيئاً من الطمأنينة ولكنّ غضبه فقد عنصرًا  
 كان يعتزّ به وهو لا يدري. فقد شعورًا بالكرامة كان  
 يلازمه وهو مصمّم على قتلها بنفسه، فاستحال من  
 شخص يندفع وراء الكرامة إلى آخر ينشد السلامة.  
 وغصّ حيناً بقهر خائق، ولكنّه لم يكن من القوّة بحيث  
 يعدل به عمّا تراءى له من سبيل النجاة، ولم يكن من  
 الضعف بحيث يتركه في سلام، ونفّس عن صدره  
 قائلاً في خشونة:  
 - كيف فعلت هذا؟! أنت؟! من كان يتصوّر  
 هذا!!  
 فتنبّدت قائلة في استسلام اليأس:  
 - أمر ربّنا.  
 فصاح مزيجاً:  
 - بل أمر الشيطان.  
 فقالت بنفس الصوت المتنهد:  
 - نعم...  
 فتردد لحظة ثم تساءل:  
 - من هو؟

البغض والغضب؟ متى يمسي كل شيء وقد انقضى؟  
هذه هي النهاية الوحيدة. ترى هل تحدس أمي  
الحقيقة؟ لا داعي للتفكير. إني ميتة».

ولبت حسنين مضطرباً متوتر الأعصاب يتجاذبه  
الغضب واليأس والرغبة. «كيف تنتهي هذه المحنة؟  
وكيف أخرج منها؟.. أيمكن حقاً أن يسدل عليها  
الستار دون أن تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من  
هذا العناء كله عبئاً لا طائل تحته؟ إني أختنق. إن  
الماضي لا ينمحي ولكنه يسبق مستقبلي. لماذا لا نعيش  
بلا مبالاة؟ قضي الأمر ولا داعي للتفكير في هذا. لا  
داعي للتفكير مطلقاً. ما أشدّ عذابي، كيف أغتلب  
على هذه التعاسة كلها مهلاً، إني أسوقها إلى الموت،  
وهي تعلم أنها تُساق إلى الموت، ترى هل تواتيها  
القدرة؟ لا شك أنها تفكر الآن تفكيراً متواصلًا،  
ولكن فيها تفكر؟ لا ينبغي أن أفكر فيها. الموت خبر  
نهاية لها. لا يمكن أن تلتقي عيناها فهو فوق ما احتمل  
وفوق ما تحتمل هي. الأمر يتعلق بأختك، آه قاتل الله  
هذا الضابط، يؤسفني أن أخبرك أنها ضُبطت في بيت  
بالسكاكيني، من يتصور هذا! وليس الموت بنهاية  
ولكنه بداية لتعاسة أخرى تنتظرن في البيت. حتى متى  
أواصل هذا التفكير؟ أية مدخنة هذه؟ لعله مصنع،  
نحن نقرب من جسر أبي العلاء، هذه المدخنة تنفث  
دخاناً أسود كثيفاً، لو تحترق أفكاري وتذوب في  
أنفاسي لزفرت أقدر منه. لا أريد أن يمّسك سوء  
بسبي، صدقت، يجب أن تهلكي وحلك. متى يطوى  
الطريق!«.

وعبرت السيارة جسر أبي العلاء فاندفعت إلى  
داخلها موجات غامرة من هواء بارد رطب مشبع بأريج  
النيل فاستقبله الشاب بترحاب من يُضلي نازلاً حامية  
على حين سرت في أطرافها رعدة بثت في حناياها خوفاً  
غامضاً، ودام لحظات ثم ارتدت بعده لحالها الأولى من  
الاستسلام والجمود واليأس. وضاعفت السيارة من  
سرعتها حتى شارفت جسر أمبابة فخفت قوة اندفاعها  
رويداً، ثم التفت السائق نحو حسنين متسائلاً فقال له  
هذا بصوت منخفض «قف»، ودفع له حسابه وغادر

انطلقت السيارة بسرعة إلى شارع فاروق في طريقها  
إلى العتبة ثم إلى أمبابة.

كانا يجلسان كغريبين، أما هو فقد ألقى ببصره إلى  
الطريق خلال النافذة مولياً إيّاها نصف ظهره وأما هي  
فقد خفضت رأسها وغابت في ذهول عميق. لم يكن  
في رأسها شيء، أو شيء ذو بال، كأنه السكون الذي  
يعقب عاصفة هوجاء أو جود الموت بعد نزع أليم.  
وقد بلغ بها الهياج ذروة الجنون قبل أن تسقط مغمى  
عليها وبعودتها إلى الوعي تكالبت عليها الأفكار  
المفرعة، واستعرضت عيناها شريط حياتها في رعب  
جهنمي حتى أثقلت الهموم رأسها فانحنى على صدرها  
كما ينحني رأس من سدّت في وجهه منافذ الحياة تحت  
جدار منار. ويعد ما كان من الانهيار الكامل وظهور  
حسنيين، وما كان بينهما في الطريق، شعرت بأن كل  
شيء قد انتهى، وأحلى الهول مكانه من رأسها، تاركاً  
وراءه فراغاً صامتاً، فلم يعد به شيء، أو شيء ذو بال  
إلا أن تكون ذكرى بعيدة من ذكريات الصبا أو منظراً  
مما ينعكس على عينيها من أرض السيارة. بيد أنها  
كانت تكابد تجربة جديدة لا عهد لها بها من قبل، إذ  
هانت عليها الحياة حقاً، بالفعل لا بالقول، هانت  
الهوان الذي يجعل من الموت نجاة. أجل طالما تدمرت  
فيما مضى من حياتها وسخطت، حتى تمتت الموت  
أحياناً، ولكنها لم تسع إليه مع ذلك لأنه كان ثمة أمل  
في الحياة يدب متوارياً في أعماقها. الآن تقطعت بها  
عن الدنيا الأسباب، واقتلعت الجذور التي تشدّها  
للبقاء، ووجدت مع هذا اليأس العميق راحة  
زحزحت عن كاهلها الأعباء، فلم تعد تفكر في شيء  
ذو بال، ورمقت الموت الذي تنهب الأرض إليه  
باستسلام كأنه التخدير. وقد دارت السيارة حول  
منعطف وهي منطلقة في سرعتها فارتجت الفتاة في  
مجلسها وتنبّت إلى ما حولها فيما يشبه الفرع، ومع أنها  
ظلت منكسة الرأس إلا أنها أحست بوجوده إلى جانبها  
وتراءى شبحه الجاثم عن يمينها لِّلحظها في غموض  
فتقبّض قلبها ألماً وخزياً «ترى فيم يفكر؟ ألا يجد غير



سبات. رآها في وضوح تام تحت الأضواء المشرقة فثبتت عيناه على جانب وجهها المتعكس وهي تقطع الأرض قدماً قدماً حتى بلغت المنتصف فتوقفت عن السير، ورفعت رأسها، وأجالته فيها حولها، ثم استدارت نحو السور وألقت ببصرها إلى الماء المصطخب الجاري. وجعل يكتم أنفاسه ويزدرد في تشنج ريقه الجاف وهو يترقب، ولكن ظهر في تلك اللحظة عند الطرف الآخر من الجسر زجلان ومضيا يقطعان الجسر في سرعة وهما يتحدثان، ثم لاح الترام القادم من أمبابة وهو ينعطف نحو الجسر ممزقاً الصمت بعجيجه، فاسترد الشاب أنفاسه ولكن إلى حين قليل، وسرعان ما ركبته القلق والضيق، وكان قلبه يخفق بعنف حتى خيل إليه من شدة وقع النبض في أذنيه أن العالم الخارجي يسمع دقات قلبه. ثم مرت به لحظات فتوهم أنه يشهد منظرًا غريبًا عنه لا شأن له به، ولكنها كانت لحظات ثم انقضت وغلبته الرهبة على ما في نفسه جميعاً فلم يعد يستشعر حقداً ولا غضباً، ثم اعتزكت الأفكار في رأسه في ثوانٍ ف شعر في حيرته بأنه يروم حل مسألة معقدة غامضة، ولكن لا قدرة له على حلها أو ليس لديه فسحة من الوقت للتفكير فيها، فهو منها في حيرة أي حيرة. وفي أثناء ذلك كان الرجلان قد عبرا الجسر، وسبقهما الترام إلى الطريق، وما زالت الفتاة تحملق في الماء. ونظر هنا وهناك فلم ير أثراً لإنسان. وتجمعت نفسه في لحظة ترقب مليئة بالفزع والرعب. رآها تعطف رأسها يميناً وشمالاً. وبغته، وفي حركة سريعة يائسة تسورت السور. وزلزل قلبه وهو يتابع حركاتها وجحظت عيناه، لا يمكن... ليس هذا... أما هي فألقت بنفسها، أو تركت نفسها تهوي، وقد انطلقت من حنجرتها صرخة طويلة كالعواء تمثل لعيني المبتلي بسماحها وجه الموت، فجاءها بصرخة فزع ولكنها ضاعت في صرختها. وشعر وهي ترمي بنفسها أن بوسعه أن يجد للمسألة المعقدة التي تحيرها حلاً، ولم يكن الحل فيها فعلت بنفسها، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت، ثم صك مسمعيه

السيارة فغادرتها أيضاً من الباب الآخر، وما لبث التاكسي أن عاد من حيث أتى فوجدنا نفسيهما وحيدين على كئيب من مدخل الجسر. وكانت المصباح المقامة على جانبي الجسر تشع نوراً قوياً أحال ظلمته نوراً، بينا أطبق الظلام على ضفاف النيل بطول امتداده شمالاً وجنوباً - رغم المصباح المتباعدة الخافتة - فبدت الأشجار المترامية على جانبيه كأشباح عابئة، وكان المكان مقفراً إلا من مار مسرع هنا أو هناك وقد تناوحت الغصون بأنين ريح باردة كلما كفت هبوبها تعالى هسيس النبات كالهمس. لازما موقفهما في جمود كالذهول، ثم استرق إليها النظر فرآها مقوسة الظهر قليلاً منكسة الرأس غير أن منظرها لم يلق من صدره إلا قلباً متحجراً ونفساً خنق الهم فيه كل رحمة. وثار حنقه على جموده فجأة فقال بغلظة:

- أنت مستعدة؟

فغمغمت بصوت غريب لا عهد له به:

- نعم...

ونفذ الجواب على بساطته إلى أعماقه فلم يعد يطيق موقفه، وتزحزح عنه في خطو ثقيل، وقبل أن يتعد عنها ذراعين سمعها تقول بتوسل:

- لا تذكر إساءتي:

فندد عنه صوت غليظ وهو يوسع خطاه كالهارب قائلاً:

- فليرحمنا الله جميعاً...

تركها وحدها حيال الجسر، وهدف إلى الطوار الممتد إلى يمين الجسر على شاطئ النيل، ثم جد في السير. حدثته نفسه بالهرب ولكن قوة غشوما جعلت تجذبه إلى الوراء، وخارت مقاومته عند شجرة صفصاف ضخمة الجذع على بعد ثلاثين متراً من مبدأ الطور فتوارى وراءها في إعياء وأرسل الطرف نحو الجسر. ولاح له الجسر كتلة صماء متوهجة بأنوار المصباح تمسك من طرفيها بالشاطئ في عناد وتصميم كأنه وحش يغرز أنيابه في فريسته، وعند رأس الجسر، وعلى الجانب المواجه له، رآها تتحرك في خطو ثقيل خافضة الرأس، يعلوها جمود غريب كأنها تمشي في

اصطدامها بالماء فنذت عنه صرخة أخرى...

- ٩٢ -

وثب إلى منحدر الشاطئ وعينه تحملقان في المكان الذي ابتلعها تحت الجسر، ثم جمد في موقفه يكاد يحجراه أن يلفظا عينيه من شدة الحملة. وتوقع مرات أن تطفو على ظهر الماء ثم أدرك أن النيل المندفع إلى ما تحت الجسر لا بد أن يكون قد جرفها معه فلعلها تنخبط في جوف الجسر أو تغوص فيها يليه من النهر. ومزّ بخاطره أن ينزع سترته ويقذف بنفسه وراءها لعله ينتشلها ولكنه لم يحرك ساكناً، ووجد لهذه الخاطرة ما يشبه السخرية المريرة فازداد جموداً وشعر بأنه لم يعد لعقله سيطرة عليه. وما يدري إلا وصوت من وراء يسأله باهتمام محسوس:

- أسمعت صرخة؟

فالتفت إلى وراء فأرى شرطياً تنم حركاته على الاهتمام فقال له في ذهول:

- نعم، لعله غريق...

وجعل الجندي يحدّق في الظلام فوق النهر ثم حثّ خطاه نحو الجسر. وأعاد الجندي إلى شيء من وعيه فتراجع إلى موقفه الأول ولم يعد في طاقته أن يضبط نفسه فاندفع عدواً صوب الجسر ثم عبره إلى سوره المطل على الناحية الأخرى من النهر وألقى ببصره إلى التيار المتدفّق. وما لبث أن رأى آثاراً للحادثة لا تخطئها العين، رأى قارباً يشقّ الماء بسرعة قادماً من الشاطئ الأيسر نحو وسط النهر، وسمع أصوات استغاثة وصراخاً آتية من الشاطئ البعيد. وكان سطح النهر فيما يلي الجسر مضاً بما ينعكس عليه من أنوار المصابيح فتصفّحته عيناه هنا وهناك، ولكنه لم يعثر على ضالته. ثم تبعت عيناه القارب الذي أخذ يقترب من الوسط شاقاً سبيله في الرقعة المضاءة، ثم اندفع مع التيار حتى خرج عنها إلى الظلام. ووجد نفسه يتساءل «ترى هل يفوز القارب في سباق الموت هذا؟». ولم يستبن حقيقة مشاعره، أو لعله هرب من باطنه بتركيز حواسه في القارب فتابعه حتى رآه يتوقّف عن التجديف ثم رأى شخصاً يقفز منه إلى الماء، على حين

تعلت أصوات الباقيين بالقارب. هذه هي اللحظة الفاصلة، وتتابع خفقان قلبه حتى جفّ حلقة، وحاول عبثاً أن يرى شيئاً خلال الظلمة التي لفت القارب أو أن يميّز كلمة معبرة في هدير الأصوات المختلفة، ثم كلّ منه البصر فلم يعد يرى شيئاً وكأنه عمي. وأخذ يتنبّه - دون التفات - إلى تجمهر خلق كثيرين حوله، ثم سمع أحدهم يقول:

- القارب يعود إلى الشاطئ فلعله انتشل الغريق...

وتمتّت في أوصاله رجفة وتساءل «ترى أنجت أم هلكت؟ أذهب أم أفر؟!» ولكنه تحوّل عن موقفه وسار في اتجاه الشاطئ الذي يقصده القارب مدفوعاً برغبة لا تقاوم في تعذيب نفسه إلى أقصى حدّ، ولم يعد السير ليسعف جزعه فأطلق ساقيه للريح وعينه تسبقانه إلى بقعة من الشاطئ تجمهر عندها كثيرون. وبلغها والقارب يرسو إلى الشاطئ فدنا من المتجمهرين بساقين متخاذلتين واندسّ بينهم وأطرافه ترتجف على رغمه ثم ألقى بعينين متحجّرتين إلى القارب الذي اكتنفه ستار خفيف من الظلمة. وكان يقف غير بعيد منه ضابط النقطة المواجهة للشاطئ ونفر من الشرطة. ثم بدت أشباح الرجال وهي تنتقل من القارب إلى الشاطئ حاملة بينها الغريق فصاح بعض المتجمهرين:

- هل نجا من الغرق؟

وأرهمف السمع ليتلقّى الجواب ولكن لم ينبس أحدهم بكلمة ومضوا يرتقون منحدر الشاطئ في شيء من الجهد والأعين محدقة بهم حتى ميّزت حقيقة الحمل فصاح بعضهم في ارتياح:

- إنها امرأة يا ولدا!

وتساءل آخر:

- كيف غرقت؟

فصاح غلام:

- رمت بنفسها من فوق الجسر فرأتها زوج النوبي

واستصرخت زوجها لإنقاذها...

وجعل حسنين يُتابعه ناظريه في طائف من الغرابة والذهول فلم يدر كيف يصدّق أنّ هذه هي أخته وأنّ

النحيل صدمة الماء الغليظ، وماذا دار بذهنها وهي تتخبط بين أمواجه، وأي جهد وجدت والظمي يكتم أنفاسها، وأي عذاب ذاقت ورغبة الحياة تثب بها إلى سطحه فيشدها باطنه إلى الأعماق. إن محاولة الغريق اليائسة للنجاة أشبه بأحلام الشقي بالسعادة، كلتاها أمنية ضائعة. أتراها تراني الآن من عالمها الآخر؟ أراضية هي أم غاضبة أم ساخرة؟! ماذا ترى في موقعي هذا؟ لماذا وقع هذا كله. وذكر بغتة أمه فحجبت صورتها الجثة عن عينيه، وهز رأسه كأنها ليطردها من مخيلته، وصمم بقوة على أن يتحامي التفكير فيها، وعاد بانتباهه المحموم إلى الجثة. وعلى رغمه وجد نفسه يتذكر أيادي الفتاة عليه، ما كانت تكن له من حب وما جادت به من كرم، فما كان يخطر لها ببال أن تكون نهايتها على يديه، وشعر بإعياء وقنوط وتساءل في جزع «لماذا هذا كله؟». وأغمض عينيه لأنه لم يعد يطيق النظر إليها. كان رأسه محموماً، وغيض الهم كل رغبة في الحياة في قلبه، وانقلب وجه الدنيا في عينيه كهذا الوجه الأزرق الناطق بالعدم، وقال لنفسه، وهو يتنهد من الأعماق «رباه، لقد قضي علي». وسمع عند ذاك صوت الضابط وهو يأمر الشهود بالذهاب معه إلى النقطة، ثم رأى الجثة تُحمل ورأى القوم يمشون بها إلى الجهة الأخرى من الطريق فاتبعهم طرفه حتى حال الظلام بينه وبينهم. وفي أقل من دقيقتين وجد نفسه وحيداً يكتنفه حفيف الأشجار التي تكاد تطبق أغصانها الغليظة الملتوية على البقعة كلها. وتراجع في تراخ وترنح حتى أسند ظهره إلى جذع شجرة وراح فيها يشبه السبات وكأنه يتردى في هاوية معتمة ليس بها بارقة أمل. «قضي علي. كنا جميعاً فريسة للشقاء فما كان ينبغي لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه. ماذا فعلت؟ إنه اليأس الذي فعل، ولكنني قضيت عليها بالعقاب الصارم. أي حق اتخذت لنفسي! أحق أي الثائر لشرف أسرتنا؟! أي شر الأسرة جميعاً. حقيقة يعرفها الجميع، وإذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى أقيح ما فيها. ما وجدت في نفسي يوماً إلا تمنيات الدمار لمن حولي فكيف أبحث لنفسي أن أكون

أحدًا لا يعلم بهذه الحقيقة وأنه لا يفعل شيئاً إلا أن يقف بينهم كالغريب المستطلع. وبلغ الرجال طوار الطريق وسرعان ما نشطوا إلى عملية الإسعاف ليفرغوا ما في جوفها من ماء. وقد أمر الضابط العساكر بتشتيت المتجمهرين ولكن أحدًا منهم لم يتعرض لحسين فلبث بمكانه جامدًا لا يطفرف لا تتحول عيناه عن الجسم المقوس الذي تعبت به أيدي الرجال الغليظة. وانتبه الضابط إليه فاقرب منه وحيّاه بإيماء من رأسه وسأله:

- أشهدت الحادث!

فخرج الشاب عن ذهوله في انزعاج ولكنه أجاب بعجلة:

- كلاً...

وأنام الرجل الفتاة على الأرض وجثا أحدهم إلى جانبها ثم جس نبضها وألصق أذنه بصدرها فوق القلب، ثم رفع رأسه قائلاً:

- صعد السرّ الإلهي إلى بارئه، لا حول ولا قوة إلا بالله...

وعاود الشاب إحساسه بالغربة، وغلبه الإحساس على ما عداه، فلم يشعر لا بحزن ولا بارتياح، ولم يتحرك فكره لا إلى الأمام ولا إلى الوراء، وكأنه لم يطق هذا الفراغ المخيف فركز انتباهه في الجثة الراقدة غير بعيد عن قدميه. جرى بصره عليها وقد تبعثر شعرها والتصقت خصلات منه بخدها وجبينها، وران على الوجه جمود صامت لا يبشر ببقطة وعلته زرقة مروعة، وخيل إليه أنه يرى أخايد دقيقة حول الفم الفاجر والعينين كأنهما تقلصات العذاب الذي كان آخر عهده بالدنيا، أما الفستان المشيع بالماء فقد لزق بالجسد وتلوّثت أهدابه بتراب الأرض فتطينت، وبدت قدم ما تزال ممسكة بفردة حذاءها والأخرى في جوربها. ورجع بصره إلى وجهها فجاش صدره وامتلاً فراغه باضطراب وثوران «لماذا اضطرب هكذا؟ ألم أقتنع حقاً بأن هذه هي خير نهاية! ألم أسفها إلى الموت بنفسي؟ ينبغي أن تطمئن نفسي. بيد أنني أتساءل عما داخلها من شعور وهي تهوي إلى الماء، وكيف تلقى جسمها

حافظاً جديداً، وابتعد عن الشجرة وهو يلقي نظرة الوداع على نقطة البوليس ما في شعوره إلا السأم والنزوع إلى الهرب. «لا أريد أن يمسك سوء بسبيي. أمر ربنا. أمر الشيطان. النيل. ليكن. وإذا ساورك خوف. كلاً، إنَّ ما ورائي في الحياة أقطع من الموت. أنت مستعدة؟ لماذا تغيب الملازم حسنين، ألم يرسل خطاب اعتذار؟ رأيت صاحب هذا الوجه عقب انتشال الجثة وسألته هل شاهدت الحادثة وكان مذهولاً.» وبلغ الموضع نفسه من الجسر فارتفق السور وألقى ببصره إلى الماء تتدافع أمواجه في هياج واصطخاب. وأخلى رأسه من الفكرة. «إذا أردت هلم. لن أصرخ. فلاكن شجاعاً ولو مرة واحدة. ليرحمنا الله. .».

قاضياً وأنا رأس المجرمين! لقد قضي عليّ.» وألقى نظرة على ما حوله في حيرة وخوف «أين أذهب؟ أيمكن أن أمرق من هذه المحنة كما مرقت من غيرها من قبل؟.. لشد ما تهزأ بي الأماني. لا تبال، حسن.. ولكن هل يسعك هذا؟ احمل نفسك بشرها وأنشدها النسيان ثم السعادة، هاها. إنني أعبت بنفسي بلا رحمة. طالما أحببت أن أمحو الماضي، ولكن الماضي التهم الحاضر، ولم يكن الماضي المخيف إلا نفسي، لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع. كان ينبغي أن أحب الحياة إلى النهاية، ومهما يكن من أمر، ولكن في طبيعتنا خطأ جوهري لا أدريه. لقد قضي عليّ. .».

واستوى واقفاً إمّا لأنه ضاق بمسنده وإمّا لأنه وجد

بَيْنَ الْقَصْرَيْنِ



وعادت به إلى الحجرة وهو يعكس على السقف من  
 فوهة زجاجته دائرة مهترّة من الضوء الشاحب تحفّ به  
 حاشية من الظلال، ثمّ وضعته على خوان قائم بإزاء  
 الكنبه. وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة  
 الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية  
 المتوازية، إلّا أنّها لاحت كريمة الأثاث ببساطها  
 الشيرازي وفراشها الكبير ذي العُمد النحاسية الأربعة  
 والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير  
 المقطع مختلف النقوش والألوان. وانّجّحت المرأة إلى  
 المرأة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها  
 البتيّ منكمّسًا مترجّعًا وقد تشعّشت خصلات من  
 شعرها الكستنائيّ فوق الجبين، فمدّت أصابعها إلى  
 عقدته فحلّتها وسوّته على شعرها وعقدت طرفيه في  
 أناة وعناية، ومسحت براحتيها على صفحتي وجهها  
 كأنّها لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت في  
 الأربعين متوسّطة القامة، تبدو كالنحيفة ولكنّ جسمها  
 بضّ ممتلئ في حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب.  
 أمّا وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق  
 القسمات، ذو عينيّ صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة  
 عسليّة حاملة، وأنف صغير دقيق يتّسع قليلاً عند  
 فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتها ذقن مدبّب،  
 وبشرة قمحيّة صافية تلوح عند موضع الوجنة منها  
 شامة سوداها عميق نقيّ. وقد بدت وهي تتلّقع  
 بخمارها كالمتعجّلة. وانّجّحت صوب باب المشربية  
 ففتحت ودخلت، ثمّ وقفت في قفصها المغلق تردّد  
 وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة  
 الدقيقة التي تملأ أضلاعها المغلقة إلى الطريق.

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين،  
 ويلتقي تحتها شارع النحاسين الذي ينحدر إلى الجنوب

عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن  
 تستيقظ في هذا الوقت من كلّ ليلة بلا استعانة من  
 منبه أو غيره ولكن بإيحاء من الرغبة التي تبيت عليها  
 فتواظب على إيقاظها في دقة وأمانة. وظلّت لحظات  
 على شكّ من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام  
 وهمسات الإحساس، حتّى بادرها القلق الذي يلمّ بها  
 قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها  
 فهزّت رأسها هزّة خفيفة فتحت عينيها على ظلام  
 الحجرة الدامس. لم يكن ثمة علامة تستدلّ بها على  
 الوقت، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتّى مطلع  
 الفجر، والأصوات المتقطعة التي تترامى إليها أوّل  
 الليل من سُمّار المقاهي وأصحاب الحوانيت هي التي  
 تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر، فلا دليل  
 تطمئنّ إليه إلّا إحساسها الباطن - كأنّه عقرب ساعة  
 واعٍ - وما يشمل البيت من صمت ينمّ عن أنّ بعلمها لم  
 يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات  
 سلّمه.

هي العادة التي توقظها في هذه الساعة، عادة قديمة  
 صاحبت شبابها منذ مطلعها ولا تزال تستأثر بكهولتها،  
 تلقّنتها فيما تلقّنت من آداب الحياة الزوجيّة، أن  
 تستيقظ في منتصف الليل لتتظر بعلمها حين عودته من  
 سهرته فتقوم على خدمته حتّى ينام. وجلست في  
 الفراش بلا تردّد لتتغلب على إغراء النوم الدافئ  
 وبسّملت ثمّ انزلقت من تحت الغطاء إلى أرض  
 الحجرة، ومضت تتلمّس الطريق على هدي عمود  
 السرير وضلفة الشباك حتّى بلغت الباب ففتحت،  
 فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح  
 قائم على الكونصول في الصالة، فدفلت منه وحملته

وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تصل طويلاً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها أوت إليها قبل أن تحصل هي إلى البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دب إلى أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم، وما من مغيب إلا أن تتلو الفاتحة والصمديّة أو أن تهرع إلى المشربّة فتمدّ بصرها الزائغ من ثقبها إلى أنوار العربات والمقاهي وترهف السمع لانتقاط ضحكة أو سعلة تستردّ بها أنفاسها.

ثم جاء الأبناء تبعاً ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحماً طرياً لا يبدد خوفاً ولا يطمئن جانباً، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار في نفسها المتهافئة من إشفاق عليهم وجزع أن يمسه سوء، فكانت تحوهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم في اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجية والرقا والتعاويد، أما الطمانينة الحقّة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته. ولم يكن غريباً وهي منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه، أن تضمّه إلى صدرها فجأة ثم تنصّت في وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هائفة وكأنتها تخاطب شخصاً حاضراً: «أبعد عتاً، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون» ثم تتلو الصمديّة في عجلة وهاجعة. وعندما طالت بها معاشرّة الأرواح بتقدّم الزمن تحففت من غوافها كثيراً واطمأنت لدرجة إلى دعاباتهم التي لم تجرّ عليها سوءاً قط فكانت إذا ترامى إليها حسّ طائف منهم قالت في نبرات لا تخلو من دالة: «ألا تحترم عباد الرحمن!». الله بيننا وبينك فاذهب عتاً مكرماً. ولكنّها لم تكن تعرف الطمانينة الحقّة حتى يعود الغائب، أجل كان مجرد وجوده بالبيت - صاحباً أو نائماً - كفيلاً ببيت السلام في نفسها، فتحت الأبواب أم أغلقت، اشتعل المصباح أم خمد. وقد خطر لها مرّة، في العام الأول من معاشرته، أن تعلن نوعاً من الاعتراض المؤدّب على سهره المتواصل فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهوريّ في لهجة حازمة: «أنا رجل، الأمر الناهي، لا أقبل عل سلوكي آية ملاحظة، وما عليك

وبين القصرين الذي يصعد إلى الشمال، فبدأ الطريق إلى يسارها ضيقاً ملتوياً متلفعاً بظلمة تكثف في أعاليه حيث تطلّ نوافذ البيوت النائمة، وتحفّ في أسافله ممّا يُلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهي وبعض الخوانيت التي تواصل السهر حتى مطلع الفجر، وإلى يمينها التفّ الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهي، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التي تغلق أبوابها مبكراً، فلا يلفت النظر به إلا ماذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المرّة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة. منظر ألفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنّها لم تسأهه، ولعلّها لم تدبّر ما السأم طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه أنيساً لوحشتها وأليفاً لوحدها عهداً طويلاً عاشته وكأنّه لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذلك قبل أن يأتي الأبناء إلى هذا الوجود، فلم يكن يحوي هذا البيت الكبير - بفنائسه التّرب وبشره العميقة وطابقه وحجراته الواسعة العالية الأسقف - سواها، أكثر النهار والليل. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما وجدت نفسها، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربّة للبيت الكبير، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام في حجرة الفرن بالفناء تاركة إيّاها وحيدة في دنيا الليل الخافلة بالأرواح والأشباح، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة.

ولكي يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مائة يدها بالمصباح أمامها فتلقي في أركانها نظرات متفحّصة خائفة ثم تغلقها بإحكام، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأول مُثبّية بالطابق الأعلى، وهي تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفْعاً للشياطين، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق بابها وتندسّ في الفراش ولسانها لا يمكّ عن التلاوة حتى يغلبها النوم، ولشدّ ما كانت تخاف الليل في عهدها الأول بهذا البيت، فلم يغب عنها - هي التي عرفت عن عالم الجنّ أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس - أنّها لا تعيش



الذي تحبه. هذا الطريق الذي تنام الطرق والحواري والأزقة ويبقى ساهراً حتى مطلع الفجر، فكم سلى أرقها وأنس وحشتها وبدد مخاوفها لا يغير الليل منه إلا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهنّ لأصواته جواً تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التي تملأ أركان اللوحة فتضفي على الصورة عمقاً وجلاء، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق في حجرتها، ويسمع الكلام العاديّ فتميّزه كلمة كلمة، ويمتدّ السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خافتته التي تشبه الأنين، ويرتفع صوت النادل وهو ينادي: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذن فتقول لنفسها في سرور: «الله هؤلاء الناس.. حتى هذه الساعة يطلبون مزيداً من التعميرة»، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول: «تُرى أين يكون سيدي الآن؟... وماذا يفعل؟...» فلتصحبه السلامة في الحِلِّ والترحال. أجل قبل لها مرة إنّ رجلاً كالسيد أحمد عبد الجواد في يساره وقوته وجماله - مع سهره المتواصل - لا يمكن أن تخلو حياته من نساء. يومها تسمت بالغيرة وركبها حزن شديد، ولمّا لم تواتها شجاعته على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها، فجعلت الأم تسكن من خاطرها بما وسعها من حلّ الكلام، تمّ قالت لها: «لقد تزوّجك بعد أن طلق زوجته الأولى، وكان بوسعك أن يستردها لو شاء، أو أن يتزوّج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجاً، فلاحدي ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة». ولو أنّ حديث أمها لم يُجِد مع حزنها وقت اشتدادها إلا أنّها مع الأيام سلّمت بما فيه من حقّ ووجاهة، فليكن ما قيل لها حقاً فلعلّه من صفات الرجولة كالسهر والاستبداد، وشرّ على أيّ حال خير من شُرور كثيرة، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرجد، ثمّ لعلّ ما قيل بعد هذا كلّه أن يكون همّاً أو كذباً. ووجدت أنّ موقفها من الغيرة، شأنها حيال المتاعب التي تعترض سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئاً، فلم تُبْثِد إلى وسيلة في مقاومتها إلا أن تنادي الصبر وتستعدي مناعتها

إلا الطاعة، فحاذري أن تدفعيني إلى تأديبك»، فتعلّمت من هذا الدرس وغيره ممّا لحق به أنّها تطيق كلّ شيء - حتى معاشرّة العفاريث - إلا أن يحمرّ لها عين الغضب، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد أطاعت، وتفانت في الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو في سرّها، ووقر في نفسها أنّ الرجولة الحقّة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثمّ انقلبت مع الأيام تباهي بما يصدر عنه سواء ما يسرّها أو يحزنها، وظلّت على جميع الأحوال الزوجة المحبّة المطيعة المستسلمة، ولم تأسف يوماً على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنّما لتستعيد ذكريات حياتها في أيّ وقت تشاء فلا يطالها إلا الخير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحقّ إلا ابتسامة رثاء. لمّ تعاشر هذا الزوج بعلّته ربع قرن من الزمان فجنّت من معاشرته أبناء هم قرة عينها وبيتاً مترعاً بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة.. بل، أمّا مخالطة العفاريث فقد مرّت كما تمرّ كلّ ليلة بسلام وما امتدّت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللّهمّ إلا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه، فلا وجه للشكوى، ولكن الحمد كلّ الحمد لله الذي بكلامه اطمأنّ قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتى ساعة الانتظار هذه، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهي بزوال النهار، أحبتها من أعماق قلبها، فضلاً عن أنّها استحالت جزءاً لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فإنّما كانت ولم تزل الرمز الحيّ لحدبها على بعلها وتفانيها في إسعادها، وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفاني وذاك الحدب. لهذا امتلأت ارتياحاً وهي واقفة في المشربّة، وراحت تنقل بصرها خلال نقوبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوابة حَمَام السلطان ورابعة إلى المآذن، أو تسرّح بين البيوت المتكاثرة على جانبي الطريق في غير تناسق كأنّها طابور من الجند في وقفة راحة تخفّف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر

هيئته ووقاره، خالغاً مزاحه الذي لولا استراق السمع لظنَّته من مستحيل المستحيلات، ثمَّ سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدَّت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله.

## ٢

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحَت تتقدَّمه رافعة المصباح، فتبعها وهو يتمتم:  
- مساء الخير يا أمينة.  
فقالَت بصوت خفيض ينمُّ عن الأدب والخضوع:  
- مساء الخير يا سيدي.

وفي ثوانٍ احتوتها الحجرة، فالتجَّهت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه، في حين علَّق السيّد عصاه بحافة شبَّاك السرير وخلع الطربوش ووضعَه على الوسادة التي تتوسَّط الكنبه، ثمَّ اقتربت المرأة منه لتتنزع عنه ملابسه، وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخَم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعاً جبَّة وقفطان في أناقَة وبحيحة دلَّتْ على رفاهية ذوق وسخاء، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة، وخاتمُه ذو الفصّ الماسيَّ الكبير، وساعته الذهبية، إلَّا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه. أمَّا وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قويّ التعبير واضح الملامح، يدلُّ في جملة على بروز الشخصية والجمال بعينه الزرقاوين الواسعتين، وأنفه الكبير الأشمَّ المتناسق على كبره مع بسطة الوجه، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقَّة لا مزيد عليها. ولمَّا تدانَت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبَّة عنه وأطبقتها بعناية ثمَّ وضعتها على الكنبه، وعادت إليه ففكَّت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرِّجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبَّة، على حين تناول السيّد جلبابه فارتداه ثمَّ طاقبته البيضاء فلبسها، وتمسَّطى وهو يتشأب وجلس على الكنبه ومدَّ ساقيه مسنداً قَدَّاله إلى الحائط. وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه

الشخصية، ملازمها الأوحد في مغالبة ما تكبره، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفارت، ممَّا تحتمل.

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السَّهَر حتَّى ترامى إليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت (حظوراً) يقترب وثيداً ومصباحاه يسطعان في الظلام، فتهدَّت في ارتياح وغمغمت «أخيراً...». ها هو «حظور» أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثمَّ يمضي كالعادة إلى الخرنفش حاملاً صاحبه ونفراً من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحيّ، ووقف «الحنطور» أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول في نبرات ضاحكة:  
- أستودعكم الله...

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودِّع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنَّها تسمعه كلَّ ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه - هي وأبناؤها - إلَّا الحزم والوقار والتزمّت، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحكة التي تسيل بشاشة ورقَّة؟! وكأنَّ صاحب «الحنطور» أراد أن يمازحه فقال له:

- أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربية؟ قال إنَّه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كلَّ ليلة إلى بيته وهو لا يستحقُّ أن يركب إلَّا حملاً...  
وانفجر الرجال بالعربية ضاحكين فانتظر السيّد حتَّى عادوا إلى السكون ثمَّ قال يمجبه:

- أما سمعت بماذا أجابته نفسه؟ قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا...  
وضجَّ الرجال ضاحكين مرَّة أخرى. ثمَّ قال صاحب العربة:

- فلنؤخِّل الباقي إل سهرة الغد...

وتحرَّكت العربة إلى شارع بين القصرين وأنجبه السيّد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجي حتَّى وقفت في رأس السلم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجي وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتخيَّلت وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردّاً

الساعة إقبالاً منه في الحديث وتبسّطاً في فنونه قلّ أن تظهر بمثله في أوقات إفاقته الكاملة. وإنّما لتذكر كم ارتفعت يوم أدركت أنّه يعود من سهرته ثملاً، واستدعت الخمر إلى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهي الأفظع، فتقرّزت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلّها عاد ألاماً لا قبّل لها بها. وبمضيّ الأيام والليالي ثبت لها أنّه حين عودته من سهرته يكون الطف منه في جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترقّ ملاحظته، ويسترسّ في الحديث، فاستأنست إليه واطمأنت وإن لم تنس أن تضرع إلى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه. ولكم تمنّت لو يتطّيع بنفس اللين النسبيّ وهو صاحب متبته، وكم عجبت لهذه المعصية التي ترقق حواشيه، وتحيرت طويلاً بين ما تحبّ نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تحبّ منها من راحة وسلام، ولكنّها دفنت أفكارها في أعماق نفسها، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيها بينه وبين نفسه. أمّا السيّد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر، وربّما جرت على شفّته ابتسامة عريضة - في جلسته هذه - لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه إلى نفسه، ويطبّق شفّته، ويسترق إلى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحق أنّ سهرته لم تكن تنتهي بعودته إلى بيته، ولكنّها تواصل حياتها في ذكرياته، وفي قلبه الذي يجذبها إليه بقوة نهم إلى مسرّات الحياة لا يروى، وكأنّه لا يزال يرى مجلس الأنس تزيّنه النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسّطه بدر من البدور التي تطلع في سماء حياته حيناً من بعد حين، وما برحت تطلّع في أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التي تجود قريحته بدورها إذا هزّ السكر والطرب، وهذه ألحاح خاصّة يراجعها في عناية واهتمام ينضحان بالمعجب والزهو، ويتذكّر أثرها في النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأوّل لكلّ نفس، ولا عجب فإنّه كثيراً ما يشعر بأنّ الدور الذي يلعبه في سهرته من

الممدودتين وراحت تخلع حذائه وجوربيه، ولمّا كشف قدمه اليمنى بدا أوّل عيب في هذا الجسم الهائل الجميل في خنصره الذي تآكل من توالي الكشط بالموسى في موضع كاللؤلؤ مزمن. وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثمّ عادت بطست وإبريق، فوضعت الطست عند قدمي الرجل ووقفت والإبريق في يدها على أهبة الاستعداد، فاستوى السيّد في جلسته ومدّ لها يديه فصبّت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلاً، ثمّ تناول المنشفة من فوق مسند الكنبه ومضى يحقّف رأسه ووجهه ويديه بينا حملت المرأة الطست وذهبت به إلى الحمام. كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدّي من خدمات في البيت الكبير، وقد واطبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعترها الكلال، بل في سرور وانسراح، وبنفس الحماس الذي يستفرّجها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتّى مغيبها، فاستحقّت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم «النحلة» لدأبها ونشاطها المتواصلين.

وعادت إلى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلّة فوضعتها أمام الكنبه وتربّعت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحقّ في أن تجلس إلى جانبه تأدّباً. ومضى الوقت وهي ملازمة الصمت حتّى يدعوها إلى الكلام فتتكلّم، وتراخي ظهر السيّد إلى مسند الكنبه، وبدأ عقب سهرته الطويلة متعباً فتقلّ جفناه اللذان جرى في أطرافهما احمرار طارئ من أثر الشرب، وجعل يزفر أنفاساً ثقيلة مغمورة. ومع أنّه كان يعاقر الخمر كلّ ليلة، إلى إفراط في الشرب حتّى السكر، إلّا أنّه لم يكن ليقرّر العودة إلى بيته حتّى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصاً منه على وقاره والمظهر الذي يجب أن يبدو به في بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذي يلقاه في أعقاب سهرته، ولكنّها لم تلمس من آثار الشرب إلّا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذاً مريباً، إلّا ما كان يبدو منه أوّل عهده بزواجها وقد تناسته، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذه

تهيمه في أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذي تلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدي رجل حلو المعشر يتبسط معها في الحديث ويفضي إليها بما في طويته على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضاً. وهكذا راح يحدثها عن شئون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجن، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد. والحق أنه كان يحق على الأستراليين لسبب خاص به وهو أنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالي اللهو والطرب في الأزبكية فارتد عنها مغلوباً على أمره - إلا في القليل النادر من مختلس الفرص - لأنه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهازاً ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والإهانة عليهم غير رادع. ثم مضى يسأل عن حال «الأولاد» كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل آغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى:

- وكمال؟! إياك وأن تستري على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذي تستر عليه حقاً فيها لا خطر له من اللعب البريء، وإن كان السيد لا يعترف ببراءة أي لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخاشع:

- إنه يلتزم أوامر أبيه.

وصمت السيد قليلاً فبدأ كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة، ثم تراجع مؤثراً ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنه كان يوماً حافلاً، ولما كان في حال لا يستحب معها كتمان شيء مما يطفو على سطح الوعي فقد قال وكأنه يخاطب نفسه:

- يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين!

الخطورة كأنه أمل الحياة المنشودة، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها في سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه، وبين هذا وذاك تسجع في باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردّد في المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه: «آه... الله أكبر»، هذا الغناء الذي يحبه ما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يابه للشقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة لسمع الحامولي أو عثمان أو الملياوي حيثما تكون مغانيهم، حتى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية ما تأوي البلابل إلى شجرة مورقة، فاكسب دراية بالنغم والمذاهب وتوجّح حجة في السمع والطرب، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الرأس واليدان، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى، مثل: «وليه بقى تلاويك وهجر» أو «يا ما بكره نعرف...» وبعده نشوف» أو «اسمع بقى وتعالى ليا أقول لك» وكان حسبه أن تهفو إليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كي تهيج موطن السكر من نفسه فيهرز رأسه طرباً وترف على شفثيه ابتساماً أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنماً إذا كان إلى نفسه خالياً، ومع هذا فلم يكن الغناء هو منفرداً يجذبه لذاته فحسب، ولكنه كان زهرة في طاقة يحلوها ويحلو به ومرحّباً بين الصديق الصافي والحبيب الوفي والشراب المعتق والملحة العذبة، أما أن يصفو له وحده - كما يلقى في البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك، ولكنه غاب عن جوّه وبيئته وملاساته، وهيهات أن يقنع به القلب، إنه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس، وأن يسابق التريد بالتهل من كأس مترعة، ويرى أثر التطريب في وجه الصديق وعين الحبيب، ثم يتعاونون جميعاً على التهليل والتكبير. بيد أن السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات، فمن مزاياها أيضاً أنها

سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت:  
- صَحَّة وعافية...

### ٣

وفي هدوء الصباح الباكر، وذبول الفجر لا تزال ناشبة في أسهم الضياء، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء في ضربات متتابعة كدويّ الطبل، وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة. فتوضأت وصَلَّت ثم نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفي - امرأة في الأربعين خدمت وهي صبيّة بالبيت وفارقت للزواج ثم عادت إليه بعد طلاق - وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على إعداد الفطور. وكان للبيت فناء متسع، في أقصاه إلى اليمين بئر سَدَّت فُوْهَتها بعارض خشبيّ مذ دَبَّت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من إدخال مواسير المياه، وفي أقصى اليسار على كُثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن في إحداها واستعملت بالتالي مطبخًا، وأعدَّت الأخرى مخزنًا. وكان لحجرة الفرن عل عزلتها علاقة بقلبها لا تَهن، فلو حُسِب الزمن الذي قضته بين جدرانها لكان عمرًا، إلى ما تنزّين به الحجرة من مباحج المواسم عند حلولها حين تتطلّع إليها القلوب الهاشئة لأفراح الحياة، وتتخلّب الأفواه لألوان الطعام الشهية التي تقدّمها موسميًا بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه، وكعك عيد الفطر وفطائره، وخروف عيد الأضحى الذي يسمّن ويدلّل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح في أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة في السرائر وكأنتها زينة العيد وبشائره. وإذا كانت أمينة تشعر بأنّها في أعلى البيت سيّدة بالنيابة وممثّلة لسلطان لا تملك منه شيئًا، فهي في هذا المكان ملكة لا شريك لها في ملكها، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها، وهذا الوقود من فحم وحطب في الركن الأيمن يتوقّف مصيره على كلمة منها، والكانون الذي يحتلّ الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو

أما علمت بما فعل؟.. أبي أن يعتلي عرش أبيه المتوفى في ظلّ الإنجليز.

ومع أنّ المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس إلّا أنّها كانت تسمع اسم ابنه لأوّل مرّة، ولم تجد ما تقول ولكتّها - مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلم - كانت تخاف إلّا تعلق على كلّ كلمة يقولها بما يرضيه فقالت:

- رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيد قائلاً:

- وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدًا، وقد تمّ الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر البستان إلى سراي عابدين.. وسبحان من له الدوام.

وأصغت أمينة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره في نفسها أيّ نبأ يجيء من العالم الخارجي الذي تكاد لا تعرف عنه شيئًا، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلمها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفطة عطف تزدهيها، إلى ما في الحدث نفسه من ثقافة يلذّ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتياتها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلاً تامًا، ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرًا من أن تردّد على مسمعيه دعاء تعلم مقدّمًا بمقدار ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هي من أعماقها فقالت:

- ربنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس.

فهزّ الرجل رأسه وتمتم قائلاً:

- متى؟.. متى؟.. علم هذا عند ربّي.. ما نقرأ في الجرائد إلّا عن انتصارات الإنجليز، فهل ينتصرون حقًا أو ينتصر الألمان والترك في النهاية؟ اللهم استجب..

وأغمض الرجل عينيه إعياء، وتشاءب، ثم تمطّى وهو يقول:

- أخرجني المصباح إلى الصلاة.

ونهضت المرأة قائمة وذهبت إلى الخوان فتناولت المصباح ومضت إلى الباب، وقبل أن تجوز العتبة

استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعاً، يغادر الفراش مترنحاً من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلول الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقاً في الدماغ والجفون.

وتوالت دقات العجين على رعوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمي، وكان استيقاظه يسيراً على رغم سهره عاكفاً على كتب القانون، فإذا استيقظ فأول إحساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلاً: «مريم»، ولو أذعن لسلطان الإغراء للبت تحت الغطاء طويلاً، خالياً إلى الخيال الزائر الذي جاء يصحبه بالطف الهوى، فيرنو إليه ما دعاه الشوق ويبدله الحديث ويروح له بأسرار وأسرار، ويتدانى إليه بجساره لا تتأق في غير هذا الرقاد الدافئ في مطلع الصباح، ولكنّه كعادته أجّل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس في فراشه، ثمّ مدّ بصره إلى أخيه النائم في الفراش الذي يليه وهتف:

- ياسين... ياسين... أضح.

انقطع شخير الشاب، ونفخ فيها يشبه الضيق وتمتم من أنفه:

- صاح... استيقظت قبلك.

فانتظر فهمي مبتسماً حتى عاود الآخر شخيره فصاح به:

- أضح...

فتقلّب ياسين في فراشه متدبراً فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذي يضاهي جسم والده ضخامة وبدانة، ثمّ فتح عينين محمرّتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطية تنطق بالتدمر: «أف... كيف طلع الصباح بهذه السرعة!... لماذا لا ننام حتى نشبع... النظام... دائماً النظام... كأننا عساكر»، ونهض معتمداً على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحته منه التفاتة إلى الفراش الثالث حيث يغطّ كمال في نومه الذي لن ينترعه منه أحد قبل نصف ساعة فغطه عليه «يا له من غلام سعيداً». ولما أفاق قليلاً ترتّب على الفراش وأسند

يزغرد بالسنة الذهب بإشارة منها. وهي هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التي يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدّم يداها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفضّل بإطرائها إلاّ عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه، وأمّ حنفي كانت اليد اليمنى في هذه المملكة الصغيرة، سواء تصدّت للإدارة والعمل أم تخلّت عن مكانها لإحدى فئاتها لتتمرّس بفنّها تحت إشرافها، وهي امرأة بدينة في غير تنسيق ولا تفصيل، نما لحمها غمواً سخياً فراعى في غمّوه السمعة فحسب وأهل اعتبارات الجمال، بيدّ أنها رضيت عنه كلّ الرضا لأنها كانت تعدّ السمعة في ذاتها الجمال كلّ الجمال، ولا عجب فقد كان كلّ عمل لها في البيت يكاد يعدّ ثانوياً بالقياس إلى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة - أو بالأحرى إنائها - بما تعدّ لها من «بلاييع» سمحية هي رؤية الجمال وسره المكنون، ومع أنّ أثر البلاييع لم يكن ناجعاً دائماً إلاّ أنّه برهن على جدارته في أكثر من مرة فاستحقّ ما يناط به من آمال وأحلام. فليس عجيباً بعد هذا أن تسمن أمّ حنفي، على أنّ سميتها لم تقلّ من نشاطها، فما إن أيقظتها سيّدتها حتى نهضت بنفس متفتّحة للعمل، وخفّت إلى «ماجور» العجين. وتعالى صوت العجين الذي يؤدّي وظيفة جرس المنبه في هذا البيت، فترامى إلى الأبناء في الدور الأول، ثمّ تصاعد إلى الأب في الدور الأعلى، منذراً الجميع بأنّ وقت الاستيقاظ قد أرف. وتقلّب السيّد أحمد عبد الجواد على جنبه ثمّ فتح عينيه، وسرعان ما قَطَب حانقاً على الصوت الذي أزعج منامه، ولكنّه كظم حنقه لأنّه كان يعلم أنّه يجب أن يستيقظ، وتلقّى أول إحساس يتلقّاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة إرادته وجلس في فراشه وإن كانت تغلبه الرغبة في معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاخبة لتسيه واجب النهار. فهو يستيقظ في هذه الساعة الباكرة مهما تأخّر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثمّ له في القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عمّا فاتته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهذا كان وقت

أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذي يواجه به آل بيته، لهذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسائه المترامية التي ألانها التزلف والتودد والاستغفار. لم يكن يصلي صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤذيها بنفس الحساس الذي ينفضه على ألوان الحياة التي يتقلب فيها جيئاً، كما يعمل فيتنافى في عمله، ويصادق فيفرط في مودته، ويعشق فيذوب في عشقه، ويسكر فيغرق في سكره، مخلصاً صادقاً في كل حال. وهكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى، حتى إذا انفتل من صلاته تربّع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكأله برعايته ويغفر له ويبارك في ذرّيته وتجارته.

وفرغت الأمّ من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين إعداد الصينية وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كمألاً ما زال يغطّ في نومه، فأقبلت عليه باسمه وحطّت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة، وجعلت تناديه وتهزّه برفق حتى فتح عينيه، ولم تدعه حتى فارق الفراش. ودخل فهمي الحجرة فلمّا رآها ابتسم إليها وحيّتها تحية الصباح فردّت عليه قائلة ونظرة الحب تترقق في عينها:

- صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقة صبحت على ياسين «ابن» زوجها فردّ عليها بمودة خليقة بالمرأة التي تنزل من نفسه منزلة الأمّ الجديرة بهذا الاسم. وليّا عادت خديجة من حجرة الفرن تلقّاها فهمي وياسين - وياسين خاصّة - بما يغمرانها به عادة من دعاية. وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحادّ رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعمّد من شؤونها بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التي تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة. وبادرها ياسين قائلاً:

- كنّا نتحدّث عنك يا خديجة، وكنا نقول إنه لو كان النساء جميعاً على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

رأسه إلى يديه، ورغب في معاينة الخواطر اللذيذة التي تحملوها أحلام اليقظة ولكنّه كان يستيقظ - كأبيه - على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام، ولاحت لمخيلته زئوبة العوادة فلم تترك في حساسيته أثراً ممّا تترك في صحوه وإن افترت شفتاه عن ابتسامة.

وفي الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة إلى منبه العجيين. كانت أشبه الأسرة بأمّها في نشاطها ويقظتها، أمّا عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التي كانت تبعث في السرير من نبوض شقيقتها وانزلاقها إلى أرض الحجرة في عنف متعمّد يجزّ وراءه جدلاً وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعاً من الدعابة الفظة، فإذا استيقظت وفزعت من النكار لم تهض، ولكنّها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثمّ دبت الحياة فشملت الدور الأول كله، فُتحت النوافذ وتدفّق النور إلى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملاً صلصلة عجلات سوارس وأصوات العتال ونداء بائع البلبلة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتي النوم والحمام وبدا ياسين في جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتّل، وفهمي بطوله الفارع وقده النحيف وكان - فيما عدا نحافته - صورة من أبيه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأمّهما في حجرة الفرن، وكان في صورتيهما اختلاف قلّ أن يوجد مثله في الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفي قسما وجهها تنافر ملحوظ، وعائشة شقراء تشعّ هالة من حسن ورواء.

مع أنّ السيّد أحمد كان في الدور الأعلى بمفرده إلّا أنّ أمانة لم تدعه في حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنجان مملوءاً حلبة ليغيّر ريقه عليها، وذهب إلى الحمام فتطاير إلى أنفه عرف البخور الطيّب، وألقى على الكرسيّ ثياباً نظيفة مرتّبة في عناية، فاستحمّ بالماء البارد كمادته كلّ صباح - عادة لا ينقطع عنها صيفاً أو شتاء - ثمّ عاد إلى حجرته مستجداً حيوية ونشاطاً، ثمّ جاء بسجادة الصلاة - وكانت مطوية على مسند الكنية - فبسطها وأدّى فريضة الصبح، صلى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسام المشرق الذي يلقي به

فقالت على البداة:

- ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعًا من متاعب الرعوس...  
عند ذلك هتفت الأم قائلة:  
- أعدّ الفطور يا سادة.

#### ٤

كفيه وهو يزدرد ريقه فرقًا، وبدلاً من أن يشجعه على نظافته يقول له مهدداً: «إذا نسيت مرة أن تغسلها قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منها». أو يسأل فهمي قائلاً: «أليذاكر ابن الكلب دروسه أم لا؟» ويعرف فهمي بالبداة من يعني لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجب بأنه يحفظ دروسه جيّداً. والحق أن شطارة الغلام - التي استوجب عليها حق أبيه - لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدلّ عليها نجاحه وتفوّقه، ولكنّ السيد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء الأمر الذي لا يطيقه غلام اللعب أحبّ إليه من الطعام، ولهذا يعلّق على إجابة فهمي قائلاً بامتناع: «الأدب مفضّل على العلم»، ثمّ يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدة: «سامع يا بن الكلب».

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السباط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كتب من خوان وضعت عليه «قلّة»، ووقفت متأهبة لتلبية آية إشارة. وكان يتوسّط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاويّ امتلأ بالمدّس المقلّي بالسمن والبيض، وفي أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة، وفي الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبن، والليمون والفلفل المخلّلين، والشطة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنهم حافظوا على جودهم متجاهلين المنظر البهيج الذي أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكناً، حتّى مدّ السيد يده إلى رغيف فتناوله ثمّ شطره وهو يتمتم: «كلوا»، فامتدّت الأيدي إلى الأرغفة في ترتيب يتبع السنّ، ياسين فهمي ثمّ كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم. ومع أنّ السيد كان يلتهم طعامه في وفرة وعجلة وكأنّ فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل في سرعة وبلا توقّف، ومع أنّه كان يجمع في لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدّمة - الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخلّلين - ثمّ يأخذ في طحنها بقوّة وسرعة وأصابعه تُعدّ اللقمة التالية، إلّا أنّهم كانوا يأكلون متمهلّين في أناة بالرغم ممّا يحمّلهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن ليغيب عن

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلّا من بعض أدوات اللعب التي يلهو بها كمال في أوقات فراغه. وكان السباط قد أعدّ وصفت حوله الشلت، ثمّ جاء السيد فتصدّره متربّعاً، ودخل الإخوة الثلاثة تباعاً فجلس ياسين إلى يمين أبيه، وفهمي إلى يساره، وكمال قباليته. جلس الإخوة في أدب وخشوع، خافضي الرعوس كأنهم في صلاة جامعة، يستوي في هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل آغا. فلم يكن أحد منهم ليجترئ على التحديق في وجه أبيه. وأكثر من هذا كانوا يتجنّبون في محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزرّة خفيفة لا يقيّل له بها. ولم يكن يجمعهم بأيهم إلّا مجلس الفطور لأنهم يعودون إلى البيت عصراً بعد أن يكون السيد قد غادره إلى دكانه عقب تناول الغداء والقليلة، ثمّ لا يعود إليه إلّا بعد منتصف الليل، وكانت الجلسة على قصر مدّتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكريّ إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم في تحاميلها، فضلاً عن أنّ الفطور نفسه يتمّ في جوّ يفسد عليهم تذوّقه واستلذاذه، ولم يكن غريباً أن يقطع السيد الفترة القصيرة التي تسبق مجيء الأم بصينية الطعام في تفحص أبنائه بعين ناقدة حتّى إذا عثر على خلل ولو تافه في هيئة أحدهم أو بقعة في ثوبه انهال عليه نهراً وتأنياً، وربّما سأل كمال بغلظة: «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له أمراً: «أرنيهما» فيسقط الغلام



الخفيفة بل والعادية «لعباً» و«تضييع وقت» لا يجملان بمثله. وقد وُصف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فوائده الأخرى - فجزبه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء مَيَّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء، ففر من أعراضه تلك التي تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج في النفوس ووثبات المزاج والقهقهة، ولكيلا يفقد مزايده الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزلول اشتهر به محمد العجمي بائع الكسكي عند مطلع الصالحية بالصاغة، وكان يعدّه خاصّة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان، ولم يكن السيّد من مدمني المنزلول ولكنه كان يلتمّ به بين حين وآخر كلياً استقبل هوّى جديداً خاصّة إذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم. فرغ السيّد من حسو قهوته ثمّ نهض إلى المرأة وراح يرتدي ملابسها التي قدّمتها إليه أمينة قطعة قطعة، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحّصة، ومسطّ شعره الأسود المرسل على صفحتي رأسه، ثمّ سوّى شاربه وفنله، وتفرّس في هيئة وجهه ثمّ عطفه رويداً إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثمّ إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتّى إذا ارتاح إلى منظرة مدّ يده إلى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التي عبّأها له عمّ حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانته ومنديله، ثمّ وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشراً بين يديه ومن خلفه عرفاً طيّباً. ذلك العرف المقطر من شقّ الأزهار يعرفه أهل البيت جميعاً، وإذا تنشّقه أحدهم تمثّل لعينيه السيّد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث في قلبه - مع الحبّ - الإجلال والخوف. إلّا أنّ انتشاره في هذه الساعة من الصباح كان إيذاناً بذهاب السيّد، فالنفوس تتلقّاه بارتياح غير منكور على براءته، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهي تنفكّ عن يديه وقدميه، ويعلم كلّ أنّه سيستردّ حرّيته عمّا قليل في الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر. كان ياسين وفهمي قد فرغا من ارتداء ملابسهما، أمّا

أحدهم ما قد يتعرّض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضعف فنسي نفسه وغفل بالتالي عمّا يأخذها به من الثأني والأدب. وكان كمال أشدهم تبرّماً لأنّه كان أعظمهم تحوّفاً من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرّض له أحد أخويه نهره أو زجرة فأقلّ ما يتعرّض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه في حذر وضيق، مسترقاً النظر بين أونة وأخرى إلى المتبقي من الطعام الذي يتناقص سريعاً، وكلّما تناقص اشتدّ قلقه، وانتظر في جزع أن يصدر عن أبيه ما يدلّ على فراغه من طعامه فيخلو له الجوّ ليملاً بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه في الاتهام وضخامة لقمته وتشبّعها بشقّي الأصناف كان يعلم بالتجربة أنّ ما يتهدّد الطعام - وما يتهدّد هو بالتالي - من ناحية أخويه أشدّ وأنكى، لأنّ السيّد كان سريع الأكل سريع الشبع، أمّا أخواه فكانا يبدآن المعركة حقّاً عقب جلاء السيّد عن السفرة، ثمّ لا يتخلّيان عنها حتّى تخلو الأطباق من كلّ شيء يؤكل، ولهذا فما كاد السيّد ينهض قائماً ويفارق الحجرة حتّى شمّر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلاً يديه الاثنتين، يدّاً للطبق الكبير، ويدّاً للأطباق الصغيرة، يبيد أنّ اجتهداه بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ إلى الحيلة التي يستغيث بها كلّما هدّد سلامته مهتدّ في مثل هذه الحال، وهي أن يعطس في الطبق عامداً متعمّداً، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظرا إليه حانقين، ثمّ غادرا المائدة وهما غارقين في الضحك، فتحقّق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيداً في الميدان.

وعاد السيّد إلى حجّزته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة ويدها قذح مزجت به ثلاث بيضات نيّات بقليل من اللبن وقدمته له فتجرّعه ثمّ جلس ليحسو قهوة الصباح، وهذا القذح اللدسم خاتمة فطوره، وهو «وصفة» من وصفات يدوم عليها بعد الوجبات أو فيها بينها - كزيت السمك، والجوز واللوز والبنّديق المسكّر - رعاية لصحة بدنه الضخم، وتعويضاً له عمّا تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتّى ليعدّ الأكلة

كحال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته في محاكاة حركاته التي يختلس النظر إليها من زيق الباب الموارب، فوقف أمام المرأة ينظر إلى صورته بلمعان وارتياح ثم قال غاطباً أمه بلهجة أمرة وهو يُغلظ نبرات صوته «زجاجة الكولونيا يا أمينة»، وكان يعلم أنها لا تلبّي هذا النداء ولكنّه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وينظرونه القصير بيديه كأنه يبلّها بالكولونيا، ومع أنّ أمه كانت تغالب الضحك إلا أنّه ثابر على التظاهر بالجدّ والصرامة، وراح يستعرض وجهه في المرأة من جانبه الأيمن إلى الأيسر، ثم مضى يسوّي شاربه الوهمي ويفتل طرفيه، ثم تحوّل عن المرأة وتجنّساً، ونظر صوب أمه، ولمّا لم يجد منها إلا الضحك قال لها محتجاً: «لماذا لا تقولين لي صحّة وعافية؟» فغمغمت المرأة ضاحكة: «صحّة وعافية يا سيدي»، هنالك غادر الحجرة مقلداً مشية أبيه محرّكاً بمناء كأنه يتوكأ على عصاه.

وبادرت الأم والفتاتان إلى المشربّة ووقفن وراء شبّاكها المطلّ على النحّاسين ليُريّن من ثقبه رجال الأسرة في الطريق، وبدا السيّد وهو يسير في تودة ووقار يحفّ به الجلال والجمال رافعاً يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عمّ حسين الخلاق والحاجّ درويش بائع الفول والفولي اللبّان وببومي الشربتلي، فأتبّعنه أعيناً مترعة بالحبّ والزهو، وتلاه فهمي في مشيته المتعجّلة، ثم ياسين في جسم الثور وأناقاة الطاووس، وأخيراً ظهر كمال فلم يكذب بخطو خطوتين حتّى استدار ورفع بصره إلى الشبّاك الذي يعلم أنّ أمه وشقيقته مستخفيات وراءه، وابتسم، ثم واصل سيره متأبّطاً حقيّة كتبه منقّباً في الأرض عن زلطة يركلها.

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم، بيّد أنّ إشفاقها من شرّ الأعين على رجالها لم يقف عند حدّ، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شرّ حاسد إذا حسد» حتّى يغيبوا عن عينيها.

وغادرت الأم المشربّة، وتبعها خديجة، على حين

تلكأت عائشة حتّى خلا لها الجوّ فانتقلت إلى جانب المشربّة المطلّ على بين القصرين ومدّت بصرها من ثقب الشبّاك في اهتمام ولهفة. بدا من لمعة عينيها وعضّها على شفّتيها أنّها تنتظر. ولم يطلّ بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شابّ ومضى مقبلاً متمهلاً في طريقه إلى قسم الجماليّة، عند ذلك غادرت الفتاة المشربّة في عجلة إلى حجرة الاستقبال، وانجّهت إلى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعها عن زيق ووقفت وراءه وقلبا بيعت ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معاً، ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه في حذر دون أن يرفع رأسه - فلم يكن أحد يرفع رأسه في مصر وقتذاك - فأضاعت أساريه بنور ابتسامته متوارية انعكست على وجه الفتاة إشراقة موزّدة بالحياء فتنهّدت... ثم أغلقت النافذة وهي تشدّ عليها بعصبية - كأنّها تخفي آثار جريمة دامية - وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدّة الانفعال، فأسلمت نفسها إلى مقعد وأسندت رأسها إلى يدها وساحت في جوّ مشاعرها اللانهائي. لم تكن سعادة خالصة، ولم يكن خوفاً خالصاً، كان قلبها موزّعاً بين هذا وتلك فهما يتجاذبان بلا رحمة، إذا استنامت إلى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محدّرة متوعّدة فلا تدري أيّجمل بها أن تُقلع عن مغامرتها أم تتهادى في مطاوعة قلبها. كلا الحبّ والخوف شديد، ولبثت في تهويمها كثيراً أو قليلاً، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب، ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، وذكرت - كما يلذّ لها أن تذكر دائماً - كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوماً فلاححت منها نظرة إلى الطريق من النافذة التي فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلّع إلى وجهها في دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجعت فيها يشبه الذعر، ولكنّه لم يذهب قبل أن يترك في غيبتها أثراً باقياً من منظر نجمته الذهبية وشرطه الأحمر، منظر يجلب اللبّ ويسرق الخيال، فظلّ يتخايل لعينيها طويلاً، وفي نفس الساعة من اليوم التالي - والآيام التالية - راحت تقف

وراء الخصاص دون أن يراها، ولمست في فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينه إلى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة، وقلبها المشبوب - الذي يتمطى مستيقظاً لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة في لهفة ويدوقها في سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم، حتى دار الشهر دورته وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة - هذه المرة - أن تُرى، وهكذا يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة - جنونية - وفرجت مصراعي النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معاً، كأنها تعلن حبها له، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليقتي نازاً مستعرة تحيط به.

\*\*\*

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم في ظلّ سلام، ثم أفأقت من حلمها، وصممت على أن تتحامي الخوف الذي ينقص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدراكاً للطمأنينة: «لم تُزلزل الأرض ومرّ كلّ شيء بسلام، لم يربى أحد ولن يرائي أحد، ثم إنّي لم أقترف إثماً!» ونهضت قائمة، ولكي توهم نفسها بخلو البال ترمّت - وهي تغادر الحجرة - بصوت عذب: «يا أبو الشريط الأحمر يا لبي أسرتني ارحم ذلي»، وردّتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهي تزعق في تهكم:

- يا ست منيرة يا مهدية، تفضلي، أعدت لك خادمتك السفرة.

وأثابها صوت أختها إلى نفسها غاماً فيما يشبه الرجّة فهوت من عالم المشال إلى عالم الواقع مرتعبة بعض الشيء لسبب غير ظاهر - ما دام كلّ شيء قد مرّ بسلام كما قالت لنفسها - ولكنّ اعتراض صوت أختها - بالذات - لغنائها وخواطرها أزعجها، ربّما لأنّ خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد، يبد أنّها طاردت هذا

ومع أنّها كانت تتلطف معها في الحديث تفادياً من حدة لسانها إلا أنّ إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلّما سنحت فرصة جعلها تتعلّق أحياناً بإغاضتها فقالت مصطنعة الجذ:

- ألم تنفّق على تقسيم العمل بيننا في البيت؟ فعليك هذا الواجب وعليّ الغناء...

فنظرت خديجة إلى أمّها وقالت متهمّة وهي تعني الأخرى:

- يمكن ناوية تكون عالمة!

ولم تغضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضاً:

- وماله... أنا صوتي كالكروان.

ومع أنّ قولها السابق لم يستر غيظها لأنّه كان يبرّن الدعابة إلا أنّ كلامها الأخير استثاره لأنّه كان واضح الحق، ولأنّها تنفّس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايها فقالت في تهكم:

- اسمعي يا ست هانم... هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهنّ كصوت الحمير ولكنّ يعيبهنّ أن يكنّ كالصورة لا فائدة منهنّ ولا نفع.

- لو كان صوتك جيلاً كصوتي ما قلت هذا!

- طبعاً... كنت تخيّن وأردّ عليك، تقولين يا بو الشريط الأحمر يا لبي... فأقول لك أسرتني ارحم ذلي، وترك للست «مشيرة إلى أمّها» الكنس والمسح والطبخ.

وكانت الأم - التي ألقت هذا النكار - قد اتخذت مجلسها فقالت برّحاء:

- أمسكاً بالله واجلسا لتأكل فطورنا بسلام.

وأقبلتا على السباط وجلستا وخديجة تقول:

- أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد...

فتمتمت الأم في هدوء:

- ساءحك الله، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسي نفسك... «ثم مدت يدها إلى الطبق»... بسم الله الرحمن الرحيم...

كانت خديجة في العشرين من عمرها، فهي كبرى إخوتها فيها عدا ياسين - أخاها من الأب - الذي ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قوية ممتلئة - والفضل لأم حنفي - مع ميل إلى القصر، أما وجهها فقد قيس من قسائم الوالدين على نهج لم يرأغ فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس إلى القدر الذي يغتفر له، ومهما يكن من شأن هذا الأنف في وجه الأب الذي يناسبه ويكسبه جلالاً ملحوظاً فقد لعب في وجه الفتاة دوراً مختلفاً.

أما عائشة فكانت في السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشيقة القُد والقوام - وإن عدّ هذا في محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفي - ووجه بدريّ تزئنه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبيّ دلّلها به قانون الوراثة فخصّها به وحدها من ميراث جدّها لأبيها. وطبيعيّ أن تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفائقة في التدبير المنزليّ والتطريز ولا نشاطها الدائب الذي لا يكلّ ولا يملّ بمُغنين عنها شيئاً، فوجدت على الغالب نحوها غير لم تراع إخفاءها ممّا حمل الفتاة الحسناء على البرم بها في كثير من الأحيان. ولكن من سوء الحظّ أنّ هذه الغيرة الطبيعيّة لم تترك رواسب سوداء في النفس، وكفاها أن تروّج عن حدّتها بسخرية اللسان وسلطته، وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعيّة أمّا بالفطرة عامرة القلب بالحنوّ نحو الأسرة التي لا تعفي أفرادها من مرارة تهكّمها، فلم تكن غيرتها إلّا نوبات تطول أو تقصر ولكتّها لم تنحرف بسجّيتها إلى الحقد أو البغضاء، يبيد أنّ دأبها على السخرية - الذي اقتصر في الأسرة على الدعابة - خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى، لا تقع

عينها من الناس إلّا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب إلى القطب أبداً، وإذا توارت المناقص تمحّلت في الكشف عنها وتكبيرها، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافاً تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم في محيط أسرتها، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهذه السّت أمّ مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها «الله يا أسيادي» لاستعارتها بعض الأدوات المنزليّة من بيتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتّاب بين القصرين «شرّ ما خلق» لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيراً بحكم وظيفته مع قبح وجهه، وبائع الفول «الأقرع» لصلعه، واللّبان «الأعور» لضعف بصره، إلى تسميات مخفّفة بعض الشيء خصّصت بها أسرتها، فأما «المؤدّن» لتبكيرها في الاستيقاظ، وفهمي «عمود السرير» لنحافته، وعائشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «مجة كثر» لسمته وأناقته. ولم تكن سلطة لسانها من وحي السخرية فحسب، فالحقّ أنّها لم تخلّ من قسوة على من عدا أهلها من الخلق وهكذا اتّسم نقدها للناس بالعنف، وتجاو عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التي تلّم بالناس يوماً بعد يوم، وتبدّت هذه الغلظة في البيت في معاملة أمّ حنفي معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل في معاملة الحيوان الأليف كالقطط التي تحظى من عائشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأمّ حنفي مثار خلاف بينها وبين أمها، فالأمّ تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنّها بالناس أنّهم ملائكة فلم تدبّ كيف تسيء الظنّ بأحد، على حين دابت خديجة على سوء الظنّ بالمرأة تمثيلاً مع طبيعتها التي تسيء الظنّ بالناس جميعاً، ولم تخفّ تخوّفها من بيّاتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها: «من أين تمحيثها هذه السمينة المفرطة؟... من الوصفات التي تصنعها؟» كلّنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمّن سميتها، ولكنّه السمن والعسل اللذان تطفح منها بغير حساب ونحن نيام».

الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذي كانت تزعم به منذ حين قصير:

- نينة... حلمت حلمًا غريبًا...

فقالت الأم قبل أن تزدد لقمته مبالغة في إكرام ابنتها المخيفة:

- خير يا بنتي إن شاء الله.

فقالت خديجة باهتمام مضاعف:

- رأيت كأنني أمشي على سور سطح، ربّما كان سطح بيتنا أو غيره، وإذ بشخص مجهول يدفعني فأهوي صارخة.

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جدّي فلازمت الفتاة الصمت قليلًا لتستأثر بأكبر قدر من

الاهتمام حتّى تمتدّ الأم:

- اللّهم اجعله خيرًا.

وقالت عائشة وهي تغالب ابتسامة:

- لم أكن أنا الشخص المجهول الذي دفعك... أليس كذلك؟

وخافت خديجة أن يفسد الجوّ بالمزاح فصاحت بها: - إنّه حلم وليس لعبًا فكفّي عن هذرك «ثمّ مخاطبة أمّها»... هويت صارخة ولكنّي لم أرتطم بالأرض كما توقّعت بل وقعت على جواد، حملني وطار.

وتنهّدت أمينة في ارتياح كأنّها أدركت ما وراء الحلم واطمأنت إليه، وعادت إلى طعامها مبتسمة، ثم قالت:

- من يدري يا خديجة؟... لعلة العريس...

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلّا في هذه الجلسة، وفي إيجاز بالإشارة أشبه، ووجب قلب الفتاة الذي لم يكره شيء كما أكره أمر الزواج، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمّها سرورًا عميقًا، بيّدت أنّها أرادت أن تداري حيائها بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت:

- أنظّنين الجواد عريسًا؟... لن يكون عريسي إلّا حارًا.

فضحكت عائشة حتّى تطاير نثار الطعام من فيها، ثمّ خافت أن تسيء خديجة فهم ضحكتهما فقالت:

لكنّ الأمّ دافعت عن أمّ حنفي ما وسعها الدفاع، ولمّا ضاقت بإلحاح ابنتها قالت: «فلتناكل ما تشاء، الخير كثير، وبطنها له حدّ لا يتعدّاه فلن نجوع على أيّ حال». ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كلّ صباح وأمّ حنفي ترى هذا باسمه لأنّها كانت تحبّ الأسرة كلّها إكرامًا لستّها الطيّبة. وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعًا فلم يكن يهدأ لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، ولمّا مرض كمال بالحصبة أبت إلّا أن تشاركه فراشه، حتّى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلمّ بها أهون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا في بروده ولا في رحته.

وبأنّحاذها مجلسها من السباط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهيّة كانت مضرب الأمثال في الأسرة. وكان للطعام بينهما - إلى فائدته الغذائية - غاية جماليّة عليا بصفته الدعامة الطبيعيّة للسمنة، فكُنّ يتناولونه في تودة واهتمام، ويبالغن في سحقه وطحنه، فإذا شبعن لم يمسن ولكن يستردن منه حتّى يمتلئن، على تفاوت لطاقتهم، فكانت الأمّ أسرعهنّ إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثمّ تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلّى عنها إلّا وهي أطباق مغسولة. ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها في الأكل فضلًا عن عصيانها لسحر البلاييع، ممّا دعا خديجة للسخرية منها والقول بأنّ المكر السيّئ هو الذي يجعلها تربة غير صالحة للبدور الطيّبة التي تلقى فيها، كما كان يطيب لها أن تعلّل نحافتها بضعف دينها فتقول لها: «كلّنا نصوم رمضان إلّا أنت، تتظاهرين بالصوم، وتندسّين في حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثمّ تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكنّ الله لا يبارك لك». وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التي يختلن فيها إلى أنفسهنّ، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونقض السرائر خاصّة في الأمور التي يدعو إلى كتمانها عادة الحياء البالغ الذي تتسم به مجالس الأسرة الحايوة للجنسين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهاكها في

على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلهذا قالت:

- أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستقلين الغسيل، أما التمتعك بالغسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهي العمل في المطبخ فعذر مرفوض مقدّمًا.

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحمام وهي تدندن فقالت خديجة متهكّمة:

- يا بختك بالحمام يرّ فيه الصوت كما يرّ في نغير الفونوغراف فغنّي وسمعي الجيران.

وغادرت الأمّ الحجرة إلى الدهليز ثمّ إلى السلم ورَفَّتْهُ إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة في غير الأوقات التي يوجد فيها الأب في البيت، أو التي يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة، وهي السياسة الوحيدة التي تنتهجها إزاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطبق سواها، أما ما تقتضيه التربية أحيانًا من الحزم فشيء لم تعرفه، ربّما تمثّته دون أن تقدّر عليه. وربّما حاولت تجربته فغلّبتها التأثر والضعف، وكأنّها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحبّ، تاركة للأب - أو لشخصيته التي تسيطر من بعيد - تقويم المعوجّ وإلزام كلّ حدوده. لهذا لم يضعف النقد السخيف من إعجابها بفتاتيه ورضائها عنها، حتّى عائشة المولعة لحّد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرأة، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرًا بالرغم من تكاسلها. وكان هذا حريًا بأن يمدّ لها في أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهي تأتي إلّا أن تشرف على كلّ صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرغت الفتاتان من عملها نشطت هي بالمكنسة في يد والمنفضة في يد وراحت تنفّقد الحجرات والصالات والدهاليز، متفحّصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية، واجدة لدّة وارتياحًا كأنّها تزيل قذّي من عينيها، ومن وسوستها تلك أنّها كانت تفحص الثياب المعدّة للغسيل قبل

- لشدّ ما تظلمين نفسك يا خديجة!.. ما فيك من شيء يعاب.

فحدجتها خديجة بنظرة تنمّ عن الحذر والشكّ على حين راحت الأمّ تقول:

- أنت فتاة نادرة المثال، من يضارحك في مهارتك أو نشاطك؟.. وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟ ماذا تريدان أكثر من هذا؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة:

- ألا يسدّ هذا طريق الأزواج؟!

فقالت الأمّ مبتسمة:

- كلام فارغ... ما زلت صغيرة يا بنية.

وتضايقت للذكر الصغر لأنّها لم تكن تعدّ نفسها صغيرة بالقياس إلى سنّ الزواج، وخاطبت أمّها قائلة:

- لقد تزوّجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة.

فقالت الأمّ التي لم تكن في الحقّ دون ابنتها قلقلًا:

- لا يتقدّم أمر أو يتأخّر إلّا بإذن الله..

وقالت عائشة في صدق:

- ربّنا يفرّحن بك قريبًا يا خديجة.

فلحظتها خديجة بريّة وذكّرت كيف طلبت إحدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن تزوّج الصغرى قبل الكبرى، وتساءلت:

- أتودّين حقًا أن أتزوّج أم تتمنّين أن يخلو لك السبيل فتزوّجي؟!

فقالت عائشة ضاحكة:

- الاثنين معًا..

## ٦

ولمّا فرغن من الفطور قالت الأمّ:

- عليك يا عائشة الغسيل اليوم، وعلى خديجة

تنظيف البيت، ثمّ تلحقان بي في حجرة الفرن.

كانت أمينة تزوّع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة، ومع أنّها ترضيان بحكمها، وترضى به عائشة بلا مناقشة، إلّا أنّ خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات

غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف في تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذي يناهز العاشرة إلى ياسين الذي كان ذا ذوقين متناقضين في العناية بنفسه يتجلبان في تألقه المفرط في مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحداء، وإهماله المعيب لثيابه الداخلية. ومن الطبيعى ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحبّ والسرور، فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تجده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التي لم يكن للبيت الكبيرها عهد قبل انضمامها إليه، خلقتها بروحها خلقاً جديداً على حين ظلّ البيت محافظاً على الهيئة التي شيّد عليها منذ عهد سحيق. هذه الألفاف المثبتة في بعض جدرانها العالية يهدل عليها الحمام من وضعها، وهذه الأكواخ الخشبية يقوق الدجاج في مسارحها من تركيبها، وكم يملكها الفرح وهي ترمي الحبّ أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق إليها الدجاج وراء ديكها، وتنهال مناقيرها على الحبّ في سرعة وانتظام كإبر آلة الخياطة، مخلّقة في الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ. وكم ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها رانية إليها بأعين دقيقة صافية، مستطلعة متسائلة، ناقة مقوفة، في مودة متبادلة ينزّ لها قلبها الحنون. أحبت الدجاج والحمام كما تحبّ مخلوقات الله جميعاً، فهي تناغيها مناغة رقيقة تحسب أنّها تفهمها وتتأثر لها، ذلك أنّ خيالها يخلج الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحياناً الجساد نفسه. وعندها بمنزلة اليقين أنّ هذه الكائنات تسبح بحمد ربّها وتتصل بعالم الروح بأسباب، فعالمها بأرضه وسماه، حيوانه ونباته، عالم حي عاقل. ثمّ لا تقتصر مزايه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة. لم يكن غريباً بعد هذا أن تكثر معانيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو بآخر، هذا لأنّها معمّرة وتلك لأنّها بيّاضة وهذا لأنّها تستيقظ على صياحه، ولعلّها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكّينها في رقابها، وإذا دعتها الظروف إلى الذبح

تخيّرت الدجاج أو الحمام فيها يشبه الضيق، ثمّ تسقيها وتترخّم عليها وتبسم وتستغفر، وتذبحها وعزاؤها أنّها تستمتع بحقّ منحه الله الثّمان وأوسع به على عباده. أمّا أعجب ما في السطح فكان نصفه الجنوبيّ المشرف على النّحاسين حيث غرست يداها في الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها في أسطح الحيّ كلّها التي تغطّي عادة بطبقة من قاذورات الدواجن، بدأت أوّل ما بدأت بعدد قليل من أضص القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عامّاً بعد عام حتّى نضّدت صفوفها بحداء أجنحة السور وثمت ثموا بهيجاً، وخطر لخياها أن تقيم فوق حديقته سقيفة، فاستدعت نجاراً فاقامها، ثمّ غرست شجرتي ياسمين ولبلاب ثمّ أنشبت سيقانها في السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتّى استحالت المكان بستاناً معروشاً ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوّع في أرجائها عرف طيّب سباحر. هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام، وبستانه المعروش، هو دنيهاها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير في هذا العالم الكبير الذي لا تعرف عنه شيئاً، وكشأنها في مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنته، وسقت زرعها، وأطعمت الدجاج والحمام، ثمّ تمّلت طويلاً المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين، ثمّ ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمدّ بصرها من ثغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحدّه حدود. كم تروّعها المآذن التي تنطلق انطلاقاً ذا إبحاء عميق، تارة عن قرب حتّى لترى مصابيحها وهلاها في وضوح كماذن قلاوون وبرقوق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كماذن الحسين والغوري والأزهر، وثالثة من أفق سحيق فتراءى أطيافاً كماذن القلعة والرفاعي، وتقلّب وجهها فيها بولاء وافتنان، وحبّ وإيمان، وشكر ورجاء، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثمّ تستقرّ منها العينان على مثذنة الحسين، أحبّها - حبّ صاحبها - إلى نفسها، فتنفّض نظرتها حناناً وأشراقاً، مشوبة بحزن يطوف بها كلّما ذكرت حرمانها من زيارة

الصدقة. والحق لم يكن السيد مرهوبًا مخوفًا إلا بين أهله، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعلماء فهو شخص آخر، له حفظه الموفور من المهابة والاحترام، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء، ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس. وكان دكانه متوسط الحجم، مكسدة رفوفه وجنابته بجوالات البن والأرز والثقل والصابون، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحي منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية. وفي منتصف الجدار فوق المكتب على إطار من الأنوس نقشت بداخله البسملة عمومة بالذهب. ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى. فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمشابة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة، على حين وقف الحمزاوي عند المدخل شابًا ذراعيه على صدره مواصلاً تلاوة ما تيسر من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفثيه المستمرة، ووسوسة خافتة تند من آن لأن عن أحرف السين والصاد، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضريز رتب السيد كل صباح. وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع إلى التلاوة أو يمد بصره إلى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو، وسوارس التي تكاد تترنح من كبرها وثقلها، والباعة المغنن وهم يترنمون بقطايق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعدما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عامًا فاستنام إليها حتى ليزعجه سكوتها. ثم جاء زبون فشغل الحمزاوي به، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار بمن يجبون أن يقضوا معه وقتًا طيبًا ولو لزم من وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيثون ريقهم - على حد تعبيرهم - على دعاية من دعاياته أو نكته من نكته، الأمر الذي جعله يفاخر

ابن بنت رسول الله وهي على مسير دقائق من مثواه. وتنهدت نهدة مسموعة، استردتها من استغراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلل بالنظر إلى الأسطح والطرفات فلم تزايلها الأشواق، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جيمعًا وهو عالم الغيب، والمجهول بالقياس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخمة التي تترامى إليها أصواتها. ترى ما هذه الدنيا التي لم تر منها إلا المآذن والأسطح القريبة؟! ريع قرن من الزمان خلا وهي حبيسة هذا البيت لا تفارقه إلا مرّات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفس. وعند كل زيارة يصطحبها السيد في حنطور لأنه لا يخطر على ذهنه أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن ساخطة ولا متذمرة، إنها أبعد ما تكون عن هذا. يئد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلق شفثيتها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام. ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمي في هذه اللحظة؟ وأين مدرسة خليل آغا التي يؤكد كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين؟... وقبل أن تغادر السطح بسطت كفها ودعت ربها قائلة: «اللهم أسألك الرعاية لسيدي وأبنائي، وأمي ويس، والناس جميعًا مسلمين ونصارى، حتى الإنجليز يا ربّي وأن تخرجهم من ديارنا إكرامًا لفهمي الذي لا يحبهم».

## ٧

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذي يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوي وكيله قد فتحه وهياه للعمل، فحيّاه السيد تحية رقيقة وهو يتسم ابتسامة وضيئة وأتجه إلى مكتبه. وكان الحمزاوي في الخمسين من عمره، أنفق منها ثلاثين عامًا في هذا الدكان، وكيلاً لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلاً للسيد بعد وفاة أبيه، وظل على الوفاء للسيد بداعٍ من العمل والحب معًا، فهو يحله ويحبّه كما يحله ويحبّه جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو



بنفسه كمحدث فائق البراعة، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التي اكتسبها، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم - مخالطة النذ للنذ - حضور بديته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك الممتازون من حب واحترام وتكریم، ولما قال له أحدهم مرة في صدق وإخلاص: «لو أتيت لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون لكنت محامياً مفوهاً نادر المثال» نفخ قوله في خيالاته الذي يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته. ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباغماً، وتزايدت حركة العمل بالدكان، ثم فجأة دخل رجل مهرولاً كأنها دفعته يد قوية، ووقف في منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره، وسددهما صوب مكتب السيد، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلا أنه أجهد في معاينته بلا طائل ثم هتف متسائلاً:

- السيد أحمد عبد الجواد موجود؟

فقال السيد بأسماً:

- أهلاً وسهلاً بالشيخ متوئي عبد الصمد، تفضل، حلّت البركة...

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوي منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليد الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوي وهو يخرج منديله وقد التقت في صفحة وجهه ابتسامة وتقطبية، واندفع الشيخ إلى المكتب وهو يتمتم «الحمد لله رب العالمين»، ثم رفع طرف عباه ومسح به على وجهه، وجلس على الكرسي الذي قدمه السيد له، وبدأ الشيخ في صفة يحسد عليها على سنه التي تجاوزت الخامسة والسبعين، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار، وفوه المندثر، ما وجد ما يشكوه، وكان يتلقع بعباءة بالية ناصلة وإن أمكنه أن يستبدلها بخيراً منها بما يجود به المحسنون، ولكنه استمسك بها لأنه - فيما يقول - رأى

- أوحشتنا يا شيخ متوئي... منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك.

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة:

- أغيب كما يحلو لي، وأحضر كما يحلو لي، ولا أسأل عن السب...

فابتسم السيد الذي ألف أسلوبه وتمتم قائلاً:

- إذا غبت أنت فلن بركتك لا تغيب...

فلم يئد على الشيخ أنه تأثر لإطرائه، وعلى العكس حرّك رأسه حركة تدل على نفاذ الصبر وقال بخشونة:

- ألم أنبه عليك أكثر من مرة بالآ تفانخي بالحديث، وأن تلزم الصمت حتى أتكلّم أنا؟!

فقال السيد وبه رغبة في التحكك به:

- معذرة يا شيخ عبد الصمد، لئن كنت نسيت تنبيهك فعذري أنني أنسيته لطول غيابك.

فضرب الشيخ كفّاً بكفّ وهتف:

- عذر أقبح من ذنب... (ثم منذراً بسبابته) إذا تماديت في مخالفتي امتنعت عن قبول هديتك!

فأطبق السيد شفثيه بأسطاً راحتيه استسلاماً حاملاً نفسه على الصمت هذه المرة، فترث الشيخ متوئي ليتأكد من دخوله طاعته، وتنحج ثم قال:

- ابدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب.

فقال السيد من الأعماق:

- عليه الصلاة والسلام.

- وأثنى على أبيك بما هو أهله، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنّاته، كأني به متخذاً مجلسك

هذا، لا فارق بين الأب وابنه إلا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش...

فتمتم السيد مبتسماً:

- فليغفر الله لنا...

فتشاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلاً:

- وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى، ياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأهمهم آمين...

ووقع نطق الشيخ باسمي خديجة وعائشة من أذني السيد موقعاً غريباً على الرغم من كونه هو الذي أفضى إليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين،

وليست أول مرة ينطق الشيخ باسميهما، ولا آخر مرة، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيداً عن

الحجرات - ولو على لسان الشيخ متوئلي - حتى يقع من نفسه موقعاً غريباً ينكره ولو إلى حين. بيد أنه غمغم قائلاً:

- آمين يا رب العالمين...

فتنهّد الشيخ قائلاً:

- ثم أسأل الله المنان أن يعيد إلينا أفندينا عباس مؤيداً بجيش من جيوش الخليفة لا يُعرف له أول من آخر...

- نسأله وليس شيء عليه بكثير...

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضباً:

- وأن يُنقِ الإنجليز وأعوامهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة.

- ربنا يأخذهم جميعاً...

فحرك الشيخ رأسه في أشئ وقال بحسرة:

- كنت بالأمس سائراً في الموسكي فاعترض سبيلي جنديان أسرايليان وطالباني بما معي فما كان مني إلا أن

نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشيء الوحيد الذي كان معي وهو كوز ذرة فتناولوه أحدهما وركله كالكرة

وخطف الآخر عمامتي وحلّ الشال ومزقه ورمى به في وجهي.

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراه بالمبالغة في إظهار استيائه صائحاً في استنكار:

- قاتلهم الله وأهلكهم...

فاتمّ الرجل حديثه قائلاً:

- رفعت يدي إلى السماء وصحت: يا جبار مزّق

أمّتهم كما مزّقوا شال عمامتي...

- دعوة مستجابة بإذن الله...

ومال الشيخ إلى السواء وأغمض عينيه ليستريح قليلاً، ولبث على حاله والسيد يتفرّس في وجهه

مبتسماً، ثم فتح عينيه وخطب السيد بصوت هادئ ونبرات تنذر بموضوع جديد، قائلاً:

- يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يا بن عبد الجواد...

فابتسم السيد في رضى وقال بصوت خفيض:

- أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد...

فبادره الشيخ قائلاً:

- لا تتعجل، إن مثلي لا يُلقى الشاء إلا تمهيداً لقول الحق، على سبيل التشجيع يا بن عبد الجواد...

فلاح الاهتمام والحذر في عيني السيد وتمتم قائلاً:

- ربنا يلطّف بنا...

فأشار إليه بسبّابته العجرا وتساءل فيما يشبه الوعيد:

- ماذا تقول، وأنت المؤمن السورع، في ولّك بالنساء؟

كان السيد معتاداً لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال:

- ما عليّ من ذاك، ألا يحدث رسول الله ﷺ عن حبّه للطيب والنساء؟

فقطّب الشيخ ومطّ بوزّه محتجاً على منطق السيد الذي لم يعجبه وقال:

- الحلال غير الحرام يا بن عبد الجواد، والزواج غير الجري وراء الفاجرات...

فعمد السيد بصره للاشئ وقال بلهجة جدّية:

- ما ارتضت نفسي يوماً أن تعتدي على عرض أو كرامة قطّ، والحمد لله على ذلك...

فغضب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة واستنكار:

- عذر ضعيف لا يتحلّه إلا ضعيف، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة، كان أبوك رحمه الله مولعاً بالنساء

بالتفكير الذاتي أو التأمل الباطني. شأنه في ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون إلى أنفسهم، ففكره لا يعمل حتى يبعثه إلى العمل شيء خارجي، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقاً فيه بكليته، فلم يرَ من نفسه إلا صورته المنعكسة على سطح التيار ثم لم يتأخّر توتّبه للحياة مع تقدّم العمر لأنّه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها إلا الشاب اليافع، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التي تراوح بين العبادة والفساد، وحازت جميعاً رضاه على تناقضها دون أن يدغم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير تّما يصطنع الناس من ألوان الرياء، ولكّنه كان يصدر في سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريّة نقيّة وإخلاص في كلّ ما يفعل، فلم تعصف بصدره عواصف الخيرة، وبات قرير العين. وكان إيمانه عميقاً. أجل كان إيماناً موروثاً لا دخل للاجتهاد فيه، بيد أنّ رقة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساساً رقيقاً سامياً نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى، أو طقوساً مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب، وبالجملّة كان أبرز ما يميّز به إيمانه بالحبّ الخصب النقي. بهذا الإيمان الخصب النقي أقبل يؤدي فرائض الله جميعاً، من صلاة وصيام وزكاة في حبّ ويسر وسرور، إلى سريّة صافية وقلب عامر بحبّ الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقاً عزيزاً يستبق القوم إلى الريّ من منهل العذب، وبتلك الحيويّة الفيّاضة المشبوبة فتح صدره لمسرّات الحياة ولذائدها، يهشّ للمأكّل الفاخر، ويضطرب للشراب المعتق، ويهيم بالوجه القسيم، فينهل منها جميعاً في فرح وبهجة وولع، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقاً منحه إيّاه الحياة، وكأنّما لا تعارض بين حقّ الحياة على قلبه وحقّ الله على ضميره، فلم يشعر في ساعة من حياته بأنّه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته، وآخاه في السلام. أكان شخصين منفصلين في شخصيّة واحدة؟! أم كان في اعتقاده في الساحة الإلهيّة

فتزوّج عشرين مرّة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكّب طريق المعاصي؟!

فضحك السيّد ضحكة عالية وقال:

- أأنت وليّ من أولياء الله أم مأذون شرعي؟! كان أبي شبه عقيم فأكثر من التزوّج، وبالرغم من أنّه لم ينجب سواي إلّا أنّ عقاره تبدّد بيني وبين زوجات أربع مات عنهنّ، إلى ما ضاع على النفقات الشرعيّة في حياته، أمّا أنا فأب لثلاثة ذكور وأنثيين، وما يجوز لي أن أنزلق إلى الإكثار من الزوجات فأبدّد ما يسرّ الله علينا من رزق، ولا تنسّ يا شيخ متولّي أنّ غواني اليوم هنّ جوارى الأمس واللاتي أحلّهنّ الله بالبيع والشراء، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم...

فتأوّه الشيخ وقال وهو يهزّ نصفه الأعلى بمئة ويسرة: - ما أبرعكم يا بني آدم في تحسين الشرّ، والله يا بن عبد الجواد لولا حبيّ لك ما باليت أن تحدّثني وأنت قاعد على فاجرة...

فبسط السيّد راحتيه وقال باسماً:

- اللّهُمّ استجب...

فنفخ الشيخ متبرّماً وهتف قائلاً:

- لولا مزاحك لكنت أكمل الناس...

- الكمال لله وحده...

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنه يقول «فلنذع هذا جانباً» ثمّ ساءله بلهجة المحقّق الذي ضيق عليه الخناق:

- والخمر؟... ماذا تقول فيها؟!

وسرعان ما فترت روح السيّد ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت ملياً، وآنس الشيخ من صمته تسليماً فصاح بظفر:

- أليست حراماً لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبّته؟

فبادره السيّد قائلاً في حماس من يدفع بلاء محقّقاً:

- لشدّ ما أحرص على طاعة الله ومحبّته!

- باللسان أم بالعمل؟

ومع أنّ الجواب كان حاضراً إلّا أنّه تمهل متفكّراً قبل أن ينطق به. لم يكن من عادته أن يشغل نفسه

الشيخ وهو يقول ضاحكاً:  
 - في صحتك...  
 فتناولها الشيخ وهو يقول:  
 - رزقك الله رزقاً واسعاً وغفر لك...  
 فغمغم السيد «آمين» ثم سألته بأسياً:  
 - ألم تكن يوماً من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ؟  
 فضحك الشيخ قائلاً:  
 - ساعك الله، أنت رجل كريم طيب القلب،  
 وبهذه المناسبة أحذركم من التهادي في الكرم فإنه لا  
 يتفق وما يطالب به التاجر من القصد...  
 فتساءل السيد دهشاً:  
 - أتغريني باسترداد الهدية؟  
 فنهض الرجل وهو يقول:  
 - هديتي لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يا بن عبد  
 الجواد والسلام عليكم ورحمة الله...  
 وغادر الشيخ الدكان مهولاً وغاب عن الأنظار.  
 ولبث السيد مفكراً، ومضى يدير في نفسه ما ثار من  
 جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه في ضراعة وتمتم  
 «اللهم اغفر لي ما تقدم وما تأخر من ذنب، اللهم  
 إنك أنت الغفور الرحيم».

## ٨

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل آغا يضطرب  
 في تيار زاهر من التلاميذ الذين يسدون الطريق  
 بزحمتهم ثم يأخذون في التفرق، بعضهم إلى الدراسة،  
 وبعضهم إلى السكة الجديدة، وآخرون إلى طريق  
 الحسين، على حين تتحلّق جماعات منهم حول الباعة  
 المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رؤوس  
 الطرقات المتفرقة عن المدرسة بما تحمل سلاهم من  
 اللب والفول السوداني والدوم والحلوى، وإلى هذا فلا  
 يخلو الطريق في هذه الساعة من معارك تشب هنا  
 وهناك بين تلاميذ اضطروا إلى كتمان خلافاتهم في أثناء  
 النهار تفادياً من العقوبات المدرسية. وكانت المرات  
 التي سيق فيها إلى الاشتباك في معركة نادرة جداً،  
 ولعلها لم تعدّ المرّتين طوال العامين اللذين قضاهما في

بحيث لا يصدّق أنها تحرّم هاتيك المرات حقاً، وحتى  
 في حال تحرّمها فهي حريّة بأن تغفو عن المذنبين ما لم  
 يؤذوا أحداً؟ الأرجح أنه كان يتلقّى الحياة بقلبه  
 وإحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل، وجد بنفسه غرائز  
 قويّة، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة، ويتحفّز  
 بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو، وخلطها بنفسه  
 جميعاً آمناً مطمئناً دون أن يشقّ على نفسه بالتوفيق  
 بينها. لم يكن يضطرّ إلى تبريرها بفكره إلّا تحت ضغط  
 انتقاد كالذي جابهه الشيخ متولّي عبد الصمد، وفي  
 هذه الحال يجد نفسه أصيب بالتفكير منه بالتهمة  
 نفسها، لا لأنه يهون عليه أن يكون مثمّلاً أمام الله،  
 ولكن لأنه لا يصدّق أبداً أنه مثمّم، أو أنّ الله يغضبه  
 حقاً أن يلهو لهواً لا يصيب أحداً بأذى، أمّا التفكير  
 فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تهاة علمه بدينه  
 من ناحية أخرى، لذلك تجهّم للسؤال الذي ألقاه  
 الرجل عليه متحذّياً وهو «باللسان أم بالعمل» وأجابه  
 بلهجة لا يخفى فيها الضيق:  
 - باللسان والعمل معاً، بالصلاة والصيام والزكاة،  
 بذكر الله قائماً وقاعداً، وما عليّ بعد ذلك إذا روّحت  
 عن نفسي بشيء من اللهو الذي لا يؤذي أحداً أو  
 يغفل فريضة، وهل حرّم محرّم إلّا لهذا أو ذاك؟  
 فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلّناً عن عدم  
 اقتناعه ثم تمتم:

- يا له من دفاع في سبيل الباطل!  
 وتحول السيد فجأة من الضيق إلى المرح كعادته  
 فقال بأريحية:  
 - الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد، إنّي لا  
 أتصوّره عزّ وجلّ غاضباً أو متجهّماً أبداً، حتى انتقامه  
 رحمة خافية، وإنّي أقدم بين يديه الحبّ والطاعة والبرّ،  
 والحسنة بعشر أمثالها...  
 - أمّا في حساب الحسنات فأنت رابع...  
 فأشار السيد إلى جميل الحمزاوي ليأتي بهديّة الشيخ  
 وهو يقول مسروراً:

- حسّبتنا الله ونعم الوكيل.  
 وجاءه الوكيل باللفة فأخذها السيد وقدمها إلى

عرف عنه من سباحة نفس ورقة شياكل حتى ألان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوه بل وتهّدوا بحايته كأحد أبنائهم، ولم ينته اليوم حتى بعث السيّد بمن يحمل إليهم نفحة من هداياه، ونجا كمال من عصيّ الفتوّات ولكّنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأنّ عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصيّ.

غادر الغلام المدرسة، ومع أنّه كان لرّين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسي فرحة في نفسه لا تعادها فرحة في تلك الأيام إلّا أنّ نسائم الحرّية التي نشقها خارج بوابة المدرسة يصدر رحب لم تمحّ أصداء الدرس الأخير الحبيب - درس الديانة - من قلبه. وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أوحى إليّ أنّه استمع نفر من الجنّ» وشرحها لهم، فتركز فيه بوعيه، ورفع أصبعه أكثر من مرّة سائلاً عمّا أغلق عليه، ولمّا كان الأستاذ يعطف عليه لإقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز، إلى حفظه للسور حفظاً جيّداً، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ، وراح الشيخ يحدّثه عن الجنّ وطوائفهم، وعن المسلمين منهم خاصّة الذين سيظفرون بالجنّة في النهاية أسوة بإحوائهم من البشر، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كلّ كلمة نطق بها، ولم يزل يديرها في نفسه حتى هذه اللحظة التي يعبر فيها الطريق قاصداً دكان البسبوسة على الجانب الآخر، فإلى شغفه بالديانة كان يعلم أنّه لا يتلقّاها لنفسه فحسب، وأنّ عليه أن يعيد ما وعى منها في البيت على أمّه - كما اعتاد أن يفعل مذ كان في الكتاب - فيلقى إليها بمعلوماته وتستعيد هي على ضوئها ما عندها من معلومات عرفت عنها عن أبيها الذي كان شبيحاً أزهرياً، ويتذاكران معارفها طويلاً ثمّ يُحفظها الجديد من السور التي لم يسبق لها حفظها. وانتهى إلى دكان البسبوسة فمدّ يده الصغيرة بالماليم التي احتفظ بها منذ الصباح، ثمّ تناول القطعة في ارتياح شامل لا يشعر به إلّا في مثل هذا الموقف اللذيذ، ممّا جعله يحلم كثيراً بأن يكون يوماً صاحب دكان حلوى ليأكلها لا لبيعها، ثمّ واصل سيره في

المدرسة، لا لندرة خلافاته التي لم تكن نادرة في الواقع، ولا لكرامية للعراك فقد أورثه اضطرابه إلى تحيّبه أسفاً عميقاً، ولكن لتقدّم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه في السنّ ممّا جعله هو وقلة من أترابه غرباء في المدرسة يتعرّون في بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيها بعد الخامسة عشرة وكثير منهم ناهزوا العشرين، فشقّوا طريقهم في صلف وكبرياء وقد طرّ شواربهم. من هؤلاء من كان يتعرّض له في فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيداً كالكرة، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسّها في فمه بغير استئذان مواصلاً ما كان فيه من حديث، فلم تكن الرغبة في العراك لتنقصه ولكّنه كظمها تقديرًا للعواقب، وما لبّاه حتى دعاه إليها أحد أقرانه الصغار، فوجد الهجوم عليه متنفساً لعواطفه الثائرة المكبوتة واسترداده لثقتة بقوّته ونفسه. وليس العراك، أو العجز عنه، بأسوا ما لاقى من وقاحة المعتدين، فإلى هذا ما كان يترامى إلى أذنيه، سواء كان المقصود به أم غيره، من الشتائم والسباب، منه ما فطن لمعناه فحذره، ومنه ما جهله فردّه في البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفرع اتصلت أنباؤها في صورة شكوى لضابط المدرسة الذي كان صديقاً لأبيه، ولكنّ سوء الحظ وحده هو الذي قضى بأن يكون أحد غريميه في المعركتين الوحيديتين اللتين خاضهما من أسرة فتوّات معروفة بالدراسة، فلمّا كان عصر اليوم التالي للمعركة وجد الغلام في انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدجّجين بالعصيّ في حالة من شرّ مستطير، ولمّا أشار إليه غريمه ليبدّل عليه تنبّه لحركته وأدرك ما يترتب به من خطر فراجع هارباً إلى المدرسة وهو يستغيث بالضابط، وعبّأ حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها، وأغلظوا له القول حتى اضطرّ إلى استدعاء شرطيّ ليوصل الغلام إلى داره، وزار الضابط السيّد في دكانه وأنباها بما يتهدّد ابنه من شرّ ناصحاً إيّاه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة، ولجأ السيّد إلى بعض معارفه من تجّار الدراسة فمضوا إلى بيت الفتوّات مستشفعين له، وهنالك استعان السيّد بما

مؤكدّة له أنّ كبير الرأس من كبير العقل، وأنّ النبيّ عليه السلام كان كبير الرأس، وأنّه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع. ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانياً هذه المرّة إلى جامع الحسين الذي قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب. ومع أنّ المكانة التي نزلها الحسين من نفسه - تبعاً لمنزلته من نفس أمّه خاصّة والأسرة عامّة كانت وليدة قرابته من النبيّ - إلّا أنّ معرفته للنبيّ وسيرته لم تكن شفيعاً إلى معرفته بالحسين وسيرته، وما تنهفو نفسه دائماً إليه من استعادة هذه السيرة والتزوّد منها بأنبل القصص وأعمق الإيمان. حتّى لقد وجدت منه على مرّ القرون مستمعاً مشغوفاً ومحبّاً مؤمناً وأسيّفاً بكاء، فلم يهون من بلواه إلّا ما قيل من أنّ رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكناً إلّا في مصر فجاء طاهراً مسبحاً ثمّ نوى حيث يقوم ضريحه. وكم وقف حيال الضريح حالماً مفكراً، يودّ لو ينفذ ببصره إلى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذي أكّدت له أمّه أنّه قاوم غير الدهر بسرّه الإلهيّ فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضيء ظلمة المثلوى بنور غرته، ولما لم يجد إلى تحقيق أمنيته سبيلاً قنع بمناجاته في وقفات طويلة، مفصّحاً عن حبه، شاكياً إليه متاعبه الناشئة من تصوّراته عن العفاريث وخوفه من تهديد أبيه مستنجداً به على الامتحانات التي تلاحقه كلّ ثلاثة أشهر، ثمّ خائفاً مناجاته عادة بالتوسّل إليه أن يكرمه بالزيارة في منامه. ومع أنّ عادة مروّره بالجامع صباحاً ومساءً خفّفت بعض الشيء من شدّة تأثيره به إلّا أنّه لم تكن تقع عليه عيناه حتّى يقرأ له الفاتحة ولو تكرّر ذلك منه مرّات في اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تحاوبها مع قلبه، ولم يزل لمثدثته العالية نداء ما أسرع أن تلبّيه نفسه. قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثمّ انعطفت إلى خان جعفر، ومنها اتّجه إلى بيت القاضي، ولكنّه بدلاً من أن يمضي إلى البيت مخترقاً النحّاسين عبر الميدان إلى درب قمرز على وحشته

شارع الحسين وهو يقضم منها مسروراً مترنماً. نسي وقتذاك أنّه كان سجيناً النهار كلّّه، وأنّه كان محروماً من الحركة فضلاً عن اللّعب والمرح، وأنّه كان عرضة في أيّة لحظة لعصا المدرّس المسلّطة على الرؤوس، يئد أنّه رغم هذا كلّّه لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنّه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع - بسبب تفوّقه الذي يرجع كثير من الفضل فيه إلى شقيقه فهيمي - لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه. ومرّ في طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كلّ يوم في مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملّون الذي يصوّر امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها دخان متعرّج، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل، وكان يدعوها فيها بينه وبين نفسه «أبلة عائشة» لما بين الاثنين من شبه يتمثّل في الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين، ومع أنّه كان يناهز العاشرة إلّا أنّ إعجابه بصاحبة الصورة فاق كلّ تقدير، فكّم تحيّلها متمتعة بالحياة في أبهى مناظرها، وكم تحيّل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة، ومنظر ريفيّ متاح لها - لها - أرضه ونخيله وماؤه وسياؤه، يسبح في الوادي الأخضر أو يعبر النهر في قارب بدا في نهاية الصورة كالطيف، أو يهزّ النخيل فيساقط عليه الرطب، أو يجلس بين يدي الحسناء طامح الطرف إلى عينيها الحاملتين. على أنّه لم يكن جيلاً كأخويه، ولعلّه كان أشبه الأسرة بأخته خديجة، فمثلها قد جمع في وجهه بين عيني أمّه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذباً بعض التهذيب كما ورثته خديجة، إلى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروّاً واضحاً جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر ممّا هما في الواقع، وكان من سوء الحظّ أن نّه إلى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبي «رأسين» فأهاج غضبه وأورطه في إحدى المعركتين اللتين خاضهما، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا في البيت حزنه إلى أمّه التي تكذّرت لكدره وراحت تعزّيه

وإثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكان أبيه. كان يرتعد فرقا من أبيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه إذا زعق به غاضبا، وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة التي يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو إليه نفسه من اللعب والمرح، فلو أنه أذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له، في البيت أو في الطريق، وظل الرجل على جهل بأمره إلا أن يبلغه شيء بوشاية من أهل البيت إذا ضاقوا بخلوه وإفراطه، من ذلك أنه جاء يوما بسلم وارتقاه إلى عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول، ثم غلب إشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمد قدميه وانهاه عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذي ملأ البيت، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد إخوته في الصالة وهم يغالبون ضحكهم إلا خديجة التي حملته بين يديها هامة في أذنه «تستاهل... كيف تلعو اللبلاب وتناطح السماء! أحسبت نفسك زبلن؟!» على أنه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تستر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء. ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة، وكيف كان يتسلّى بمداعبته وكيف كان ينفحه من أن لاخر بألوان شتى من الخلوى، وكيف هو عليه يوم الختان - على فظاعته - فملا حجره بالشيكلات والمالبس وشمله بعطفه ورعايته، ثم ما أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة، ومناغاته زعقا، ومداعباته ضربا، حتى الختان نفسه اتخذ أداة لإرهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب! وليس الخوف وحده الذي شعر به نحو أبيه فإجلاله له لم يكن دون خوفه منه، كان يعجب بمظهره العظيم

القوي، ومهابته التي تعنوها الهام، وأناقته ملبسه، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذي هو له عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته أو إجلاله أو ثروته. أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحدّ العبادة فانسرب حبه إلى قلبه الصغير بإجماع البيعة، بيد أنه ظلّ جوهرة مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب. مضى يقترب من قبور درب قرمز المظلم الذي تتخذ العفاريت مسرعا لألعابها الليلية، والذي أثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السقف المنحني، وسبقته عيناه إلى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحدّثه نفسه بالظهور من العفاريت، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدّرع بآيات الله، أما أبوه فلن يدرا غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله. وخرج من القبو إلى الشطر الآخر من الدرب، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان، ثم لاحظت لعينيه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فاقتّر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدّخره له هذا المكان من أفانين المرح، فعما قليل يهرع الغلمان إليه من جميع البيوت المجاورة إلى فناءه الواسع الذي يحوي عدّة حجرات تتوسطها القرن فيكون لعب وهو وبطاطة. وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهة إلى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور مأكرو، وما لبس أن دس حقيقته كتبه تحت إبطه الأيسر وجرى وراءها حتى أدركها ثم وثب إلى سلمها الخلفي، ولكن الكمساري لم يتركه في سروره طويلا فجاءه يطالبه بثمان التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن رغبة وتحذّر فقال له متودّدا إنه سيغادرها حالما تقف لأنه لا يسعه النزول وهي سائرة، فتحول الرجل عنه إلى السائق وهتف به أن يوقف العربّة وهو يزجر غاضبا فانتهاز الغلام فرصة تحوله عنه وشبّ على أمشاط قدميه وصفعه ثم وثب إلى الأرض وانطلق

هاربًا وشتائم الكمساري تلاحقه أشدّ من الأحجار المطينة... لم تكن خطّة مدبرة، ولا هي من مختار شطارته، ولكنّه رأى غلامًا يفعلها في الصباح فراقت له، ثمّ وجدها سائحة لإعادتها بنفسه ففعل.

## ٩

واجتمعت الأسرة - ما عدا الأب - قبيل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة. وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الإخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد قرّشت الصالة بالخضر الملوّنة وقامت في أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد. وتدلى من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح غازي في مثل حجمه. وكانت الأم تجلس على كنبه وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتّى النصف في جمرتها التي يعلوها الرمد، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صقّت عليها الفناجين، يجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمي ومن لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال. تلك ساعة محببة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائلية، وينعمون بلذة السمر، وينضوون جميعًا تحت جناح الأمومة في حب صافي ومودة شاملة. وبدت في جلساتهم راحة الفراغ وتحرّره فكانوا بين مرتبّع ومضطجع، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحسان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع في فناجينهم راح ياسين يتحدث حينًا ويقرأ في قصّة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينًا آخر. كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار لا لإحساسه بنقص تعليمه - فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبًا صغيرًا - ولكن غرامًا بالتسلية ولعلّا بالشعر والأساليب الجزلة. وقد بدا بجسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض كقربة هائلة إلا أنّ مظهره لم يتعارض - بحكم الزمن - مع قسامة في وجهه الأسمر الممتلئ بعينيه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفثيه

الشهوانيتين، ونمّ بجملته - رغم حداثة سنّه الذي لا يجاوز الواحدة والعشرين - على رجولة مفعمة بالفحولة. ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمي إليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكفّ عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه إلحاحه على أخيه من الضيق كي يشبع أشواقًا تشتعل بخياله في مثل هذه الساعة من كلّ يوم، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق في المطالعة متفضّلًا عليه بين حين وآخر - كلّما اشتدّ إلحاحه بكلمات مقتضبة إن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فما أخرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده، ثمّ لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ في المطالعة التي تبيح له مفتاح العالم السحريّ بعين الحسد والحزن، فكم حزّ في نفسه عجزه عن قراءة القصّة بنفسه، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلّبها كيف شاء دون أن يسمعه حلّ رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام، فقد وجد في هذا الجانب من ياسين مثارًا لخياله هيّا له من ألوان المسرة ما هيّا، وهيج من أسباب الظما وعذابه ما هيج، وكثيرًا ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله في لهفة: «وماذا حدث بعد ذلك؟» فينفخ الشاب قائلاً: «لا تضيّق عليّ بأسئلتك ولا تتعجّل حظّك فإن لم أقصّ عليك اليوم فغدًا»، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتّى اقترنت لفظة الغد في ذهنه بالخسرة، ولم يكن نادرًا أن يتحوّل إلى أمّه بعد تفرّق المجلس وبه أمل أن تقصّ عليه ما «حدث بعد ذلك» ولكنّ المرأة كانت تجهل قصة اليتيمتين وغيرها ممّا يقرأ ياسين إلّا أنّها يعزّ عليها أن تردّه خائبًا فتروي له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيروغ خياله إليها رويدًا ظافرًا بزاد من العزاء. في مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبًا أن يشعر بأنّه ضائع مهمل بين أهله، لا يكاد يلتفت إليه أحد، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التي لا تنتهي. فلم يتورّع عن الاختلاق في سبيل الاستثارة باهتمامهم ولو إلى حين، ولذلك رمى نفسه في مجرى الحديث معترضًا تبارّه بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرًا



خطيراً بغتة :

الأيام على صدقه ولكن احتجاجة ضاع في ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء في هارموني واحدة، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت:

- ما أكثر ضحاياك، لو صدقت فيما تروي من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حياً... ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه؟!

ووجد في خديجة مهاجماً يقدر عليه، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلاً:

- أقول له إن الحق على منحور أختي...!

فقالت الفتاة وهي تضحك:

- من بعض ما عندهم. السنّا في البلوى سواء!

وهنا قال ياسين مرة أخرى:

- صدقت يا أختاه.

وتحوّلت إليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلاً:

- هل أغضبتك...! لماذا...! ليس إلا أنني

جاهرت بالموافقة على رأيك...

فقالت له حانقة:

- اذكر عيوك قبل أن تعرض بعيوب الناس...

فرفع عينيه متظاهراً بالحيرة ثم تمتم:

- والله إن أكبر عيب ليهون إلى جانب هذا

الأنف...

وتظاهر فهمي بالاستنكار ثم تساءل في نبرات

وشت بانضمامه إلى المهاجرين:

- ماذا قلت يا أخي، أهو أنف أم جريمة؟

ولمّا كان فهمي لا يشترك في مثل هذا النضال إلا

نادراً فقد رحب ياسين بقوله في حماس وقال:

- هي الاثنان معاً، فكر في المسؤولية الجنائية التي سيتحمّلها من يقدّم هذه العروس إلى عريسها المنكود.

وقهقه كحال ضاحكاً بصوت كالصفير المتقطع ولم

ترتج الأم إلى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجرين

فأرادت أن ترجع الحديث إلى أصله وقالت بهدوء:

- خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث،

كان حديثاً عن السيد كمال أصدّق في أخباره أم لم

يصدق، ولكن أظنّ أنّه لا داعي إلى الشكّ في صدقه

- يا له من منظر لا ينسى الذي رأيته اليوم وأنا عائداً... رأيت غلاماً يشب إلى سلّم سوارس ثمّ صفع الكمساري وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل إلا أن عدا وراءه حتّى أدركه ثمّ ركله في بطنه بكلّ قوّته...

وقلّب عينيه في الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولس إعراضاً عن خبره المثير وتصميماً على مواصلة الحديث، بل رأى يد عائشة تمتدّ إلى ذقن أمّه وتحولها عنه بعد أن همّت بالإصغاء إليه، ولمح إلى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفطي ياسين الذي لم يرفع رأسه عن الكتاب، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع:

- وسقط الغلام يتلوّى وازدحم حوله الناس فإذا به قد فارق الحياة...

وأبعدت الأم الفئحان عن فمها وهتفت:

- يا ولداه!... أتقول إنّه مات؟!

وسرّ باهتمامها وركّز قوّته فيها كما يركّز المهاجم اليائس قوّته في نقطة ضعيفة من سور منيع فقال:

- أجل مات، ورأيت بعينيّ دمه وهو يسيل بغزارة...

وحججه فهمي بنظرة ساخرة كأنّها تقول له «إني أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع» وقال متسائلاً في تهكم:

- قلت إنّ الكمساري ركله في بطنه؟... فمن أين سال الدم؟!

وانطفأت شعلة الظفر التي تلالأت في عينيه منذ جذب أمّه إليه، وحلّ محلّها سهوم الارتباك والحنق، ولكن أسمعفه الخيال فاستردّت نظرة عينيه حيويّتها وقال:

- لمّا ركله في بطنه سقط على وجهه فشجّ رأسه! وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمتين:

- أو أنّ الدم سال من فيه، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة إلى جرح ظاهريّ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب - كالعادة - فلا تخف...

واحتجّ كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ

- مضى أربع سنوات ونحن نردّد هذا الكلام...

فقال فهمي برجاء وإشفاق:

- لكلّ حرب نهاية، ولا بدّ أن تنتهي هذه الحرب،

ولا أظنّ الألمان ينهزمون!...

- هذا ما ندعو الله أن يتحقّق، ولكن ماذا يكون

رايك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الإنجليز؟!

ولمّا كانت المعارضة تشعل حدّته فقد علا صوته

وهو يقول:

- المهمّ أن نتخلّص من كابوس الإنجليز، وأن تعود

الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهّداً...

وتدخّلت خديجة في الحديث متسائلة:

- ولماذا تحبّون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقي

قنابله علينا؟!

وراح فهمي يؤكّد - كعادته - أنّ الألمان قصّدوا

الإنجليز بقنابلهم لا المصريين، فانتقل الحديث إلى

مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها

وخطورتها، حتّى استوى ياسين في جلسته ونهض إلى

حجرته ليرتدي ملابسه تمهيداً لمغادرة البيت إلى سهرته

المعتادة، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيّأ وأخذ زيتته،

فترأى أنيق الملبس، جميل المظهر، وبدا بجسمه

الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النبات أكبر من سنّه

كثيراً، ثمّ حيّاهم وانصرف وشيّعهم كيال بنظرة تنمّ عيّا

يغبطه عليه من التمتّع بحريّته في انطلاق ساحر، فلم

يغب عنه أنّ أخاه لم يعد يُحاسب - منذ تعيينه كاتباً

بمدرسة النحاسين - على ذهابه وإيابه، وأنّه يسهر كما

يشاء ويعود حين يشاء، ما أجلّ هذا وأسعده، وكم

يكون إنساناً سعيداً لو ذهب وجاء كما يحبّ، ومدّ

سهرته إلى حيث يشاء، وقصر القراءة - حين تنمّ له

أداتها - على الروايات والأشعار، ثمّ سال أمّه فجأة:

- أيمكنني إذا وظّفت أن أسهر في الخارج كياسين؟

وابتسمت الأمّ قائلة:

- ليس السهر في الخارج بالغاية التي يصحّ أن تحلم

بها من الآن!

فصاح محتجّاً:

- ولكن أبي يسهر، وياسين يسهر كذلك.

بعد أن حلف... أجل كيال لا يحلف كذباً أبداً...

وباخ سرور الغلام الانتقاميّ لتوّه، ومع أنّ إخوته

واصلوا المزاح حيناً آخر إلّا أنّه انقطع عنهم بروحه،

متبادلاً مع أمّه نظرات ذات معنى، ثمّ خالياً بنفسه

متفكّراً في قلق وكدر. كان يدرك خطورة الحلف

الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه، ويعزّز عليه

جدّاً أن يحلف كذباً بالحسين خاصّة لولعه به، ولكنّه

كثيراً ما وجد نفسه في مأزق حرج - كما وجد اليوم - لا

مخرج منه في نظره إلّا بالخلف الكاذب، فينساق وهو لا

يدري إلى التورّط فيه. بيّد أنّه لم يكن ينجو، خاصّة

إذا دُكر بجريّته، من المهمّ والقلق، ويودّ لو يقتلع

الماضي السيئ من جذوره، وأن يبدأ صفحة جديدة

نظيفة، وذكر الحسين، وموقفه عند أصل مثذنته حيث

تتراعى وكانّ هامتها تتّصل بالسما، وسأله في ضراعة

أن يعفو عن زلّته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على

حبيب يأساء لا تغفر. وغرق في توسّلاته مليّاً ثمّ أخذ

يفيق إلى ما حوله ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث

فيه ألعاد وفيه الجديد، وقليل منه ما يسترعي انتباهه،

ولكنّه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منزعة من ماضي

الأسرة البعيد أو القريب، وأنباء ممّا يجري عن مسرّات

الجيران وأحزانهم، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما

الجبّار، تنبري خديجة إلى استعادة وصفها وتحليلها على

سبيل الفكاهة أو الشماتة، ومن هذه وتلك نمت للغلام

معرفة تبلورت في مخيلته على صورة غريبة تأثّر تكوينها

غاية التأثير بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجميّة

وروح أمّه السمحة العفوة. وانتبه أخيراً إلى فهمي وهو

يقول مخاطباً ياسين:

- إنّ هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا

يبعد أن يكون الهجوم الفاصل في هذه الحرب.

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء

متّسم بقلّة الاكتراث، تمثّى مثله أن ينتصر الألمان

وبالتالي الترك وأن تستردّ الخلافة سابق عزّتها، وأن

يعود عبّاس ومحمّد فريد إلى الوطن ولكنّ أمنيّة من

هذه الأماني لم تكن لتشغل قلبه في غير أوقات الحديث

عنها، وقد قال وهو يهزّ رأسه:

فرغت الأم حاجيها ارتباكاً وتمتت:  
- شدّ حيلك أولاً حتى تصير رجلاً ثم موثقاً،  
ووقتها يفرجها ربنا!

ولكن كمال بدا متعجباً فتساءل:  
- ولماذا لا أتوقف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام؟  
وصاحت خديجة في سخرية:

- تتوقف دون الرابعة عشرة!... وماذا تصنع إذا  
بلت على نفسك في الوظيفة؟!  
وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمي  
بازدراء:

- يا لك من حمار... لماذا لا تفكر في دخول  
الحقوق مثلي؟... إن ظروف ياسين القاهرة هي التي  
جعلته يأخذ الابتدائية في العشرين من عمره، ولولاها  
لأتم تعليمه... ألا تدري كيف تتمنى يا كسول!

#### ١٠

عندما صعد فهمي وكمال إلى سطح البيت كانت  
الشمس على وشك الاختفاء، فلاح قرصاً أبيض  
مسالماً تولّت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ  
توهجه، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب  
والياسمين في ظلمة وانية، ولكن الشاب والغلام مضيا  
إلى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور  
حجاب، ثم مالا إلى السور الملاصق لسور السطح  
المجاور، سطح الجيران. وكان فهمي يرقى بكمال إلى  
هذا الوضع كلّ مغيب بحجة مراجعة دروسه في الهواء  
الطلق على الرغم من أنّ جو نوفمبر أخذ يميل إلى  
البرودة في هذه الساعة من اليوم، وأوقف الغلام  
بحيث جعل ظهره إلى السور، ووقف هو لقاءه بحيث  
أمكنه أن يمدّ بصره إلى سطح الجيران الملاصق دون  
تلفت كلماً بدا له. وهناك بين حبال الغسيل لاح  
فتاة - شابة في العشرين أو نحو ذلك - وقد انهمكت في  
جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها في سلة كبيرة. ومع  
أنّ كمال راح يتكلّم بصوت مرتفع كعادته إلا أنّها  
واصلت عملها وكأنّها لم تنبه إلى مجيء الطارئین. أمل  
كان يجيء به دواماً في مثل هذه الساعة لعلّه يفوز منها

بنظرة إذا اتفق ودعاها إلى السطح بعض شأنها، ولم  
يكن تحقيقه يسيراً كما دلّ تورّد وجهه الناطق بفرط  
سروره، وخفقان قلبه المتتابع بهجة مفاجئة، فجعل  
ينصت إلى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أفلقهها  
استراق النظر، وهي تترأى تارة وتحتجب أخرى، أو  
يبدو بعضها ويغيب بعضها، كيفما اتفق موقفها من  
الثياب والملاءات المنشورة... كانت فتاة متوسطة  
القامة صافية البشرة مع ميل إلى البياض، سوداء  
العينين، تنطق مقلتها بنظرة تفيض حياة وخفة  
وحراة، إلا أنّ جمالها وعاطفته المتوثبة وإحساسه  
بالظفر لرؤيتها لم تستطع أن تمحو القلق الذي يدبّ  
وراء قلبه - وائياً حين حضورها ثم قوياً إذا خلا إلى  
نفسه - لجأها على التعرّض لعينه كأنه ليس بالرجل  
الذي ينبغي أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه، أو كأنّها  
فتاة لا تبالي التعرّض للرجال، وطالما ساءل نفسه ما  
بالها لا تفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت  
إحداها نفسها في مثل موقفها! أيّ روح عجيب يشدّ  
بها عن التقاليد المرعية والأداب المقدسة!، وألاً يكون  
أهدأ جانباً لو بدا منها ذاك الاحتشام المتفقد ولو على  
حساب سروره الذي يفوق الوصف برؤيتها؟!...  
بيد أنّه دأب على انتحال الأعذار لها من قديم الجوار  
ووحدة النشأة، وربما الوداد أيضاً. ثم لا يفتأ وراء  
نفسه يحاورها ويجادلها حتى تشجع وترضى. ولما لم  
يكن جريئاً كجراتها فقد جعل يختلس من الأسطح  
المجاورة النظر ليطمئن إلى خلوها من الرقيب لأنّه لم  
يكن ممّا يُغضّ الطرف عنه أن يجرح شاب في الثامنة  
عشرة حرمة الجيران، وخاصة من كان منهم في طيبة  
جارهم السيّد محمد رضوان ولهذا أفلقه دائماً شعوره  
بخطورة فعلته، وخوفه من أن يترامى نبؤها إلى أبيه  
فتكون الطامة. ولكنّ استهانة الحبّ بالمخاوف عجب  
قديم فلم يقدر شيء منها على إفساد نشوته أو انتزاعه  
من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهي تبدو أو تختفي  
حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداعها  
الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعا تنقبض  
وتنبسط على مهل وتؤدّ كأنّها تتعمّد إطالة عملها.

إلى موقفه هذا مساء بعد مساء؟... وكيف يلقي قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته؟... وتخيل نفسه متخطيًا سور السطوح إلى مكانها في الظلام، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهتم بالفرار، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقُبُل، بيد أنها كانت عجز تخيلات وأوهام، وكان أدرى الناس - بما جبل عليه من دين وآداب - ببطلانها ومحالها. وبدأ الموقف صامتًا إلا أنه كان صمتًا مكهربًا يكاد ينطق بغير لسان، وحتى كمال لاحت في عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجلد الغريب الذي يثير استطلاعاً على غير جدوى، ثم نفذ صبره فرفع صوته قائلاً:

- لقد حفظت الكلمات، ألا تسمعه لي؟

وأفاق فهمي على صوته فتناول الكرّاسة منه ومضى يسأله عن معاني الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سبباً وأي سبب فرفع صوته عمداً وهو يسأله عن معناها قائلاً:

- قلب...؟

وأجاب الغلام وتهبّج الآخر يتلمّس أثر موقع الكلمة من وجهها، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلاً:

- حب...؟

وارتبك كمال قليلاً ثم قال بصوت يدلّ على الاعتراض:

- ليست هذه الكلمة في الكرّاسة...

قال فهمي باسماً:

- ولكنّي ذكرتها لك مراراً، وكان يجب أن تحفظها...

وقطّب الغلام كأنه يشدّ قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكنّ أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلاً:

- زواج...

وحس قلبه ذاك التعمّد وهو بين الشكّ والتمنيّ ولكنّه لم يقتصد في الانطلاق مع فرحته إلى أبعد الآفاق حتى استحال بطنه رقصاً وأنغاماً، ومع أنها لم ترفع عينها إليه قطّ إلا أنّ هبتها وتورّد وجنتيها وتحاميتها النظر إليه نمت جميعاً عن شدّة إحساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على إحساسها. وبدت في هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هي التي تشيع الفرحة والبهجة في بيته إذا زارت شقيقته، أو ليست هي التي يعلو صوتها في جنبات الدار وترنّ ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه في يده استعداداً للتظاهر بالاستدكار إذا طرّقه طارق، ويروح يستقبل بوعيه المركز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملبسة لها التي لا يكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيس يجذب إليه الصلب وحده من بين أخلاط شتى، وربما لحظ بعضاً منها وهو يعبر الصالة، وربما التقت عيناهما في لمحة خاطفة ولكنّها كافية لإسكاره وإذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها، وملاً بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه، على الرغم من أنها كانت مسترقة خاطفة إلا أنّها مستأثرة بروحه وإحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة التي تأتي النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق، كأنها انبثاق البرق الذي يتوهج لحظة قصيرة فتضيء شرارته الرحاب وتحطف الأبصار، وتمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنّه لم يخجل - كحالة أبداً - من ظلّ أسى يتبعه كما تتبع رياح الحُمسين مشرق الربيع، لأنّه لم يكن يكفّ عن التفكير في الأربعة الأعوام التي يتمّ تعليمه فيها، والتي لا يدري كم من يد قد تمتدّ في أثنائها إلى الثمرة الناضجة لتقطفها. ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخائض الذي تشدّ على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلتمس إلى سلام قلبه أقصر السبل، ولكنّه خاف دائماً أن ينفس عن آماله فيعرّضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها. وتساءل وهو يمدّ بصره فوق رأس أخيه ترى أيّ أفكار تدور برأسها؟ ألا يشغله حقاً إلا ما تجمع من قطع الملابس؟... ألم تشعر بعد بما يجذبه

وخيّل إليه عند ذاك أنّه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه في سرعة وحرارة، وملأه شعور بالظفر لأنّه أمكنه أخيراً أن ينقل إليها شحنة من الكهرباء التي تستعر في صدره، بيد أنّه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها إلّا عند هذه الكلمة، ألاّتها استنكرت سابقتها أم أنّ الأخيرة كان أوّل ما وعت أذناها؟! ... وما يدري إلّا وكهال يقول محتجّاً بعد أن أعياه التذكّر:

- هذه الكلمات صعبة جدّاً. . .

وأمن قلبه بقوله أخيه البريّة، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت. وهمّ بالكلام ولكنّه رآها انحنت على السّلة ثمّ حملتها وأنجّمت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها، قريبة من موقعه لا يفصلها عنه إلّا ذراعان، ولو شاءت لاختارت موضعاً آخر من السور ولكنّ كأنّها تعمّدت أن تتصدّى له وجهها لوجه، فبدت في هجومها جريئة لحدّ أخافه وأربكه، وإن عاود قلبه الخفقان السريع الحارّ حتّى شعر بأنّ الحياة تبيح له من كنوزها لوئاً جديداً لم يذره، لطيفاً بهيجاً مفعماً حيويّةً وأفراحاً. ولكنّ وقفها القريبة لم تطلّ فما لبثت أن رفعت السّلة بين يديها واستدارت موليّة صوب باب السطح حتّى مرقت منه وغابت عن ناظره. وجعل ينظر إلى الباب مليّاً دون مبالاة بأخيه الذي عاود التشكّي من صعوبة الكلمة ثمّ شعر برغبة في الانفراد لتلميّ ما استجدّ من تجارب الهوى فقلّب عينيه في الفضاء في تظاهر بالدهشة كأنّما يتنبّه إلى الظلمة الزاحفة في الأفق لأوّل مرّة، وتمتم قائلاً:

- أن لنا أن نعود. . .

وكان كهال يستذكر دروسه في الصّالة، تاركاً حجرة الاستذكار لفهمي وحده، ليكون غير بعيد عن مجلس أمّه وأختيه: وكان ذلك المجلس امتداداً لمجلس القهوة إلّا أنّه يقتصر على النسوة وحديثهنّ الخاصّ الذي يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة، وقد جلسن

كعادتهنّ متلاصقات كأنّهنّ جسم واحد ذورءوس ثلاثة في حين ترّبع كمال على كتبة أخرى قبالتهنّ فأنحاً كتابه في حجره يقرأ فيه حيناً، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حيناً آخر، ويتسلّى بين هذا وذاك بالنظر إليهنّ والإصغاء لحديثهنّ، ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيداً عن مراقبته إلّا على كره ولكنّ تفوّق الغلام في المدرسة شفع له في اختيار المكان الذي يحبّ أن يستذكر فيه. والحقّ كان اجتهداه فضيلته الوحيدة التي تحمده له، ولولا شقاوته لاستحقّق عليها تشجيع أبيه نفسه، ولكنّه على اجتهداه وتفوّقه كانت تلمّ به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتّى ليغبط أمّه وأختيه على خلوّ بالهنّ وما يحظّين به من راحة وسلام، وربّما تمّنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظّ الذكور في هذه الدنيا كحظّ النساء. إلّا أنّها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسبه ما يتمنّع به من مزاي دعته في أحيان كثيرة إلى التناول عليهنّ بالفخر والمباهاة لداعٍ ولغير ما داعٍ فلم يكن من النادر أن يسألنّ وفي صوته رنة من التحدّي «من منكنّ تعرف عاصمة الكاب؟» أو «ما معنى شابّ بالإنجليزية؟» فيجد من عائشة صمناً لطيفاً على حين تقرّ له خديجة بجهلها ثمّ تعرّض به قائلة: «ليس لهذه الطلاسم إلّا من كان له رأس كراسك!» أمّا أمّه فتقول له في إيمان ساذج: «لو علّمتني هذه الأشياء كما تعلّمي الديانة لما قصّرت فيها دونك». ذلك أنّ أمّه - على استكانتها ورقّتها - كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبيّة المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم، ولم تكن تظنّ أنّها بحاجة إلى مزيد من العلم أو أنّه استجدّ من العلم ما يستحقّ أن يضاف إلى ما لديها من معارف دينيّة وتاريخيّة وطبيّة، وضاعف من إيمانها بها أنّها تلقّته عن أبيها أو في بيته الذي نشأت فيه، وكان الأب شيخاً من العلماء الذين فضّلهم الله - لحفظهم القرآن - على العالمين. فلم يكن معقولاً أن تعدل بعلمه علماً ولو لم تجهر برأيها إيتاراً للسلامة، ولهذا كثيراً ما أساءت الظنّ ببعض ما يقال للأبناء في المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء في تفسيره أو في السماح بتلقينه للناشئين،

كان لا يشرب جرعة الماء من القُلة إلا إذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتلّ بريقها. ومضت الجلسة كما تمضي كل ليلة حتّى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودّعتا أمّهما وذهبتا إلى حجرة نومهما، وعند ذلك عجل الغلام بقراءة درسه حتّى فرغ منه ثمّ تناول كتاب الديانة وانتقل إلى جانب أمّه على الكنبّة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينمّ عن الإغراء:

- استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدًا.

فاستوت المرأة في جلستها وهي تقول باحترام وإجلال:

- كلام ربّنا عظيم كلّ... .

وسرّه اهتمامها وهزّه شعور بالغبطة والعزّة لا يجده إلا حين هذا الدرس الأخير من اليوم. أجل كان يجد في هذا الدرس الدينيّ أكثر من سبب للسعادة، فإنّه يقوم في أثناء نصفه على الأقلّ بدور المدرّس، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرّسه وحركاته وما يتمثّله فيه من إحساس بالاستعلاء والقوّة، وإنّه يستمتع في نصفه الآخر بما تلقّيه عليه أمّه من ذكريات وأساطير، وإنّه يستأثر وحده في شطريه بآمّه دون شريك. ونظر كمال في الكتاب فيما يشبه الإدلال ثمّ قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل أوحى إليّ أنّه استمع نقر من الجنّ فقالوا إنّنا سمعنا قرآنًا عجيبًا، يهدي إلى الرشْد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحدًا... .» حتّى أتته السورة ولاح في عيني الأمّ التردّد والخيرة، إذ كانت تحدّره من التفوّه باسمي العفريت والجنّ درءًا لشُرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض إشفاقًا ومبالغة في الحيطّة، فلم تدر كيف تتصرّف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين في سورة شريفة، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالعتاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام في وجهها هذه الخيرة فداخله سرور مأكّر، وجعل يبدأ ويعيد ضاغظًا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقّعًا أن تفصح أخيرًا عن إشفاقها

بيد أنّها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام في المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها، ولمّا كان الدرس المدرسيّ لا يكاد يتّسع إلا لقراءة السور وتفسيرها وتبيّن المبادئ الدينيّة الأولى فقد وجدت متّسّعًا لقصّ ما عندها من أساطير لا تنفصل في اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلّها رأت فيها دائيّة حقيقة الدين وجوهره، وجلّها معجزات وكرامات عن النبيّ والصحابة والأولياء، وتعاوّد شتّى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصّدّقها الغلام وآمن بها، لأنّها صادرة عن أمّه من ناحية، ولأنّها جديدة في موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينيّة المدرسيّة من ناحية أخرى، وفضلاً عن هذا وذاك فلم تكن عقليّة مدرّس الديانة كما تنكشف في تبسّطه في الحديث أحيانًا - لتختلف عن عقليّة أمّه كثيرًا أو قليلًا، ثمّ إنّ شغف بالأساطير شغفًا لم يظفر بمثله في الدروس الجافّة فكان درس أمّه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال. أمّا فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرًا إذا نهّأت أسبابه، من ذلك أنّها اختلفت مرّة عن الأرض وهل هي تدور حول نفسها في الفضاء أو تهض على رأس ثور، ولمّا وجدت من الغلام إصرارًا تراجعت متظاهرة بالتسليم، ولكنّها تسلّلت إلى حجرة فهمي وسألته عن حقيقة الثور الذي يحمل الأرض وهل ما زال على عهدِه يحملها. ورأى الشاب أن يترقّق بها ويحيبها باللغة التي تحبّها فقال لها إنّ الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته. وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذي سرّها وإن لم يتّخ من مخيلتها ذاك الثور الكبير. على أنّ كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستدكاره رغبة منه في الفخر بعلمه أو حبًّا في النزاع الفكريّ، كان في الحقّ يحبّ بكلّ قلبه آلا يفارقهنّ ولو في وقت عمله، وكان يجد لمرآهنّ سرورًا لا يعادله سرور، فهذه الأمّ يحبّها أكثر من أيّ شيء في الدنيا ولا يحتمل تصوّر الوجود بدونها لحظة واحدة، وهذه خديجة وهي تلعب في حياته دور أمّ أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها، وهذه عائشة التي وإن لم تتحمّس يومًا للخدمة إنسان إلا أنّها أحبّته حبًّا عظيمًا فبادلها حبًّا بحبّ حتّى

بتأثير الضياء، وساءل نفسه متى يرى الله، وفي أي صورة يتبدى، وإذا به يسأل أمه مغيرًا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى:

- أخفاف أبي الله؟!

فتولتها الدهشة وقالت في إنكار:

- يا له من سؤال غريب!... أبوك رجل مؤمن يا بني، والمؤمن يخاف ربه.

فهز رأسه في حيرة وقال بصوت خفيض:

- لا أتصور أن أبي يخاف شيئًا.

فهمت المرأة في عتاب:

- ساعحك الله... ساعحك الله...

واعترض عن قوله بابتسامة رقيقة، ثم دعاه إلى حفظ السورة الجديدة، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان. ولما استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب إلى حجرة النوم فتبعته حتى اندس في فراشه الصغير، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسي، وانحنى فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقه بذراعه وردّ بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير. وكانت تلقى دائمًا صعوبة في التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستيقظها إلى جانبه أطول مدة ممكنة إن لم يفز باستبقائها حتى يغيب في نومه وهو بين ذراعيها، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرًا من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه. إذا ختمت آية الكرسي - سورة ثانية ثم ثالثة، حتى إذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسّل إليها معتلاً بخوفه من وحدته في الحجرة أو بما يترأى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسور الشريفة، وربما تمدى في تشبّثه بها إلى حدّ تصنّع المرض، غير واجد في تحايله هذا جورًا، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحقّ من حقوقه المقدّسة التي هضمت أظفح هضم يوم فصل عن أمه ظلماً وعدواناً وجيء به إلى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه. كم يذكر مع الحسرة عهدًا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحدًا، وحين ينام متوسّدًا ذراعها وهي تسكب في أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء، وحين النوم يغشاه قبل رجوع

في لون من ألوان الاعتذار، ولكنّها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال:

- ها أنت ترين أن من الجنّ من استمع إلى القرآن وآمن به، فلعلّ سكّان بيتنا من هؤلاء الجنّ المسلمين ولأما ما أبقوا علينا طوال هذا العمر.

فالت المرأة في شيء من الضيق:

- لعلمهم... ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم، فيحسن بنا ألا نردّد أساءهم!

- لا خوف من ترديد الاسم... هكذا قال مدرّسنا.

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت:

- المدرّس لا يعرف كلّ شيء!...

- وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشعرت بحيال تساؤله بقهر ولكنّها لم تجد بداً من أن تقول:

- كلام ربنا بركة كلّ.

واقنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلاً:

- ويقول شيخنا أيضًا إنّ أجسامهم من نار!

وبلغ بها القلق غايته فاستعادت بالله وبسملت عدّة مرّات، أما كمال فاستطرد قائلاً:

- وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار، فأجابني بحدّة قائلاً إنّ الله قادر على كلّ شيء.

فرنا إليها باهتمام ثم تساءل:

- وإذا التقينا بهم في الجنة ألا تحرقنا نارهم؟!

فابتسمت المرأة وقالت في ثقة وإيمان:

- ليس فيها أدنى أو خوف.

وسرح الغلام بعينه حالمًا وإذا به يسأل مغيرًا مجرى الحديث فجأة:

- أنرى الله في الآخرة بأعيننا؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان:

- هذا حق لا ريب فيه.

فلاحت في نظرتها الحاملة أشواق كما تلوح في الغلس

- ما سمع أحد لي شخيراً قط، ولكّتها لا تدعي  
أنام بثرثرتها المتواصلة.  
فقالت الأم في عتاب:

- أين وصيّتي لكما بأن تكفّا عن هذركما وقت النوم؟  
وردّت الباب وسارت إلى حجرة الاستذكار فطرفت  
بأبها بخفة ثمّ فتحت وأدخلت رأسها وهي تقول  
باسمة:

- أفي حاجة إلى خدمة يا سيّدي الصغير؟  
فرفع فهمي رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق  
الوجه بابتسامة لطيفة، فردّت الباب وابتعدت عنه  
وهي تدعو لفتاتها بالفلاح وطول العمر، ثمّ عبرت  
الصالة إلى الدهليز الخارجي وارتقت السلم إلى الدور  
الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيّد وصومتها يسبقها  
تالياً الآيات.

## ١٢

لما غادر ياسين البيت كان يدري بطبيعة الحال  
وجهته التي يقصد مساء بعد مساء ولكّته بدا - كعادته  
دائماً إذا مشى في الطريق - وكأنّه لا وجهة له. كان  
شأنه إذا سار أن يسير متمهلاً في هودة ورفق، مختلاً  
في عجب وزهو، كأنّه لا يغفل لحظة واحدة عن أنّه  
صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفاضل  
حيويّة وفحولة، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظّها -  
وأكثر - من العناية، إلى منشة عاجيّة لا تفارق يده  
صيقاً أو شتاء، وطربوش طويل مائل يمنة حتّى يكاد  
يمسّ حاجبه، ومن عادته أيضاً إذا سار أنّه كان يرفع  
عينيه - دون رأسه - مستطعاً ما وراء النوافذ لعلّ  
وعسى، فلم يكن يقطع طريقاً حتّى يشعر في نهايته بما  
يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه، إذ كان ولعمه  
بالتهام النسوة اللاتي يصادفنه داء لا شفاء منه، فهو  
يتفحصهنّ مقبلات ويتبع عينيه أردافهنّ مديرات،  
ويظلّ في قلقه كثور هائج حتّى ينسى نفسه فلا يعود  
يتدبّر مداراة مقاصده، الأمر الذي تنبّه له مع الزمن  
عمّ حسنين الحلاق والحالّج درويش بائع الفول والفوليّ  
اللّبان ويومي الشربلي وأبو سريع صاحب المقل

أبيه من سهرته، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل إلى  
الحمام، فلم يكن يرى مع أمّه ثالثاً، وكانت الدنيا له  
بلا شريك. ثمّ بقضاء أعمى لم يدّر له حكمة فرقوا  
بينها، وتطلّع إليها ليرى أثر نفيه في نفسها فبا عجب  
إلا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتمنيتها له قائلة: «الآن  
صرت رجلاً فمن حقّك أن يفرد لك فراش خاصّ»،  
من قال إنّه يسره أن يكون رجلاً أو أنّه يطمح إلى أن  
يفرد له فراش خاصّ! ومع أنّه بلّل أوّل وسادة  
خاصّة له بدمعه، ومع أنّه أنذر أمّه بأنّه لن يعفو عنها  
مدى الحياة، إلا أنّه لم يجرؤ على التسلّل إلى مضجعه  
القديم لأنّه كان يعلم أنّ وراء تلك الحركة الجائرة  
الغادرة تجثم إرادة أبيه التي لا تردّ، ولشّد ما حزن حتّى  
رسبت عكارة الحزن في أحلامه، ولشّد ما حنق على  
أمّه - لا لأنّه لم يسعه أن يحنق على أبيه فحسب - ولكن  
لأنّها كانت آخر من يتصوّر أن يخيّب عنده الأمل، يئد  
أنّها عرفت كيف تسترضيه وتردّه إلى الصفاء رويداً  
ودأبت على ألا تفارقه بادئ الأمر حتّى يوافيه النوم،  
وجعلت تقول له: «لم نفرّق كما تزعم، ألسنت ترانا  
معاً؟ وسنبقى دائماً معاً، لن يفرّق بيننا إلاّ النوم الذي  
كان يفرّق بيننا ونحن في فراش واحد». والآن لم تعد  
تطفو على شعوره حسرة ممّا تخلف عن تلك الذكرى،  
واستنام إلى حياته الجديدة، يئد أنّه لم يكن يدعها  
تذهب حتّى يستنفذ الحيل لاستبقائها إلى جانبه أطول  
مدّة ممكنة، وقد قبض على راحتها في حرص شديد كما  
يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها.  
وراحت هي تلو الآيات على رأسه حتّى غافله  
الكرى، فودّعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة  
وانجّهت إلى الحجرة التالية ففتحت بابها في خفة  
ونظرت صوب فراش لاح شبّه في جانبها الأيمن  
وتساءلت في رقة: «ثمّ؟» فجاءها صوت خديجة وهي  
تقول:

- كيف يتأتّى لي النوم وشخير ستّ عائشة يملأ عليّ  
الحجرة؟!!

ثمّ سُمع صوت عائشة وهي تقول في نبرات  
ناعسة:



الأرائك. واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة - مجلسه المختار منذ أسابيع - وطلب الشاي. جلس بحيث يواجه بصره في سر ودون إثارة ظن إلى الكوة، ومنها يصعد كلاً يشاء إلى نافذة صغيرة في بيت على الجانب الآخر للطريق، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التي لم يعن بإحكام إغلاق خصاصها، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالم» ولم تكن «العالم» مطمحة فدون هذا مراحل من المجنون عليه أن يجتازها في صبر وأناة، ولكنّه راح يرصد ظهور زئوبة العوادة ربيبة «العالم» ونجمة تحتها اللامعة. وكانت فترة توطئه بالحكومة عهداً حافلاً بالذكريات جاءه بعد طول تقشّف إجباريّ عاناه محاذراً في ظل أبيه الرهيب، فانطلق من ثمة كالشلال ينحدر في مهاوي الأزيكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفهم عجلة الحرب إلى القاهرة، ثم ظهر في الميدان الاستراليون فاضطروا إلى التخلي عن مغاني العبت فراوا من وحشيتهم وضافت به السبل فمضى يتقلب في أزقة حيّه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائنة برتقال أو غجيرة تمن يقران الطالع، حتى رأى يوماً زئوبة فتبعها مذهولاً إلى موطنها، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبيل صدره. كانت امرأة وكل امرأة عنده رغبة، بيد أنها كانت إلى هذا ذات حسن فهوسته، وليس الحب لديه إلا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهي أسمى ما عرف من ألوانه، وجعل يمدّ بصره خلال القضبان إلى النافذة الخالية في جزع وقلق أنسيه نفسه فحسا الشاي دون أن ينتبه إلى سخونته إلا وهو يزدرد وراح ينفض متألماً، ثم أعاد القدح إلى الصينية الصفراء مسترقاً النظر إلى السمار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هي المسئلة عن لسعته أو أنها السبب في عدم ظهور زئوبة بالنافذة. . . «ترى أين الملعونة؟. . . أتعتقد الاختفاء. . . من المحقق أنها تعلم بوجودي هنا. . . ولعلها رأني قادماً. . . فإذا اصطنعت التدلل إلى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامي المحرقة». وعادوا استراق النظر إلى الجلوس ليرى هل يلاحظ أحد منهم ولكنّه وجدهم

وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه مأخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالإغفاء والتسامح. كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله، فلم تدع له وقتاً يستريح فيه من استفزازها، وشعر دائماً بالسستها تلهب حواسه ووجدانه، وكانت عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء، بيد أنه عفريت لم يخفه أو يضييق به، ولم يودّ الخلاص منه، بل لعله رام منه المزيد. ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكاً لطيفاً حين اقترب الشاب من دكان أبيه، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته، وتحلّى بأدب وحياء، وحث خطاه لا يلوي على شيء، ولما مرّ بباب الدكان التفت إلى داخله فرأى خلقاً كثيرين ولكنّه التقى بعيني أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى في إجلال رافعاً يده إلى رأسه في أدب، فردّ الرجل تحيته مبتسماً، ثم استأنف مسيره مسروراً بهذه الابتسامة كأنما حظي بنعمة نادرة المثال. والحق أن عنف أبيه المعهود، ولو أنه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى في سلك موظفي الدولة إلا أنه لم يزل في نظره نوعاً من العنف الملطف بالكياسة، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذي ملأ قلبه وهو تلميذ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وأن الآخر الأب، وما فتئ يتضاءل بمحضرة على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصة، وما إن ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استردّ خيلاء وعادت عيناه إلى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال، إذ كان العفريت الذي يركبه مولعاً بالنساء كافة، متواضعاً يستوي عنده الرفيع والوضيع منهنّ، فبائعات الدوم والبرتقال - على سبيل المثال - وإن شابهن الأرض التي يقتنعن لها لوئاً وقذارة لا يخلين أحياناً من ميزة حُسن، كثنيتين ناهدين أو عيين مكمولتين. وماذا يروم غير هذا؟. . . ثم اتجه صوب الصاغة ومنها إلى الغورية، ومال إلى قهوة سي علي على ناصية الصناديق، وكانت شبه دكان متوسط الحجم يفتح بابها على الصناديق وتطلّ بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها

انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قزمي ذي أهداب منمنمة، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتيها لعباً وشيطنة. واقتربت من العربية ومدّت يدها بالعود فتناولته امرأة، ثم رفعت قدماً إلى أعلى العجلة فاشترأت ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنية الجيوب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان يرتقالي... «آه لو تغوص بي الأريكة في الأرض مراً... ربّاه... إن وجهها أسمر ولكن لحمها المكنسون أبيض... أو شديد الميل للبياض... فكيف يكون الورك!... وكيف يكون البطن!... البطن يا هوه...» وثبتت زئوبة راحتها على سطح العربية وتحاملت عليها حتى حطّت ركبتها على حافة العربية ثم مضت تتحرك رويداً على أربع... «يا لطيف... آه لو كنت على باب البيت... أو حتى في دكان محمد الطرابيشي... انظر إلى ابن الكلب كيف يحمل في الطابيّة بعينه... ما أجدر أن يسمي نفسه منذ اليوم محمد الفاتح... يا لطيف... يا منقذ...» وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربية، وفتحت الملاء وقبضت على طرفيها وجعلت تهزّها بيديها هزّات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه، ثم لفّتها حول جسمها لفّة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت - خاصّة - عجيّزة مدملجة رقرقة، ثم جلست عند مؤخرة العربية فتكوّر ردفها تحت الضغط متبلوراً ذات اليمين وذات اليسار فينعم الوسادة... ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربية قد تحرّكت فتبعها متمهلاً وهو يلهث ويصرّ على أسنانه من شدّة الانفعال. وراحت العربية تسير سيرتها المتمهّلة المتأيلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركّز الشابّ عينيه في وسادة العوادة، يذهب معها ويحيى حتى خالها بعد حين ترقص. وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق وأخذت كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها، إلى أن غلبت المائة كانت من جمهور العاملين العائدين إلى بيوتهم منهوكي القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب

جميعاً منهمكين في أحاديثهم التي لا تنتهي، فداخله ارتياح وأرجع بصره إلى الهدف المرموق، بيّد أنّه اعترضت ثيّر أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التي صادفته في المدرسة إذ شكّ الناظر في أمانة متعهّد اللحوم فقام بتحقيق اشتراك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة، ثم بدا منه شيء من التراخي في عمله حمل الناظر على نهره ممّا نغص عليه صفوه بقيّة اليوم وجعله يفكر في أن يشكو الناظر إلى أبيه - وهما صديقان قديمان - لولا خوفه أن يجد أباه أشدّ عليه من الناظر... «اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة... انتهينا من المدرسة والناظر عليها اللعنة... حسبي الآن ما ألاقى من القارحة بنت القارحة التي تبخل علينا بنظرة» وإذا بأحلام عارية تنشال على خياله، أحلام كثيراً ما تمثّل على مسرح أوهامه وهو يرنو إلى امرأة أو يستعيد ذكراها، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أعطيتها وتجعلها عارية كما خلقها الله غير مستتية جسده هو، ثم تمضي في فنون من العبث لا عاصم لها، ولكنّه ما كاد يستنيم إلى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذيّ وهو يصيح على حمارة «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة. وتساءل ترى أ جاءت العربية لتحمل أفراد التخت إلى فرح من الأفراح؟... ونادى صبيّ القهوة ودفع إليه الحساب متأهباً لمغادرة المكان في آية لحظة إذا دعا داع. ومضت فترة انتظار وترقّب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهي تجرّ رجلاً أعمى مرتدياً جلباباً ومعطفاً وسوداء ومتأبطاً القانون، وصعدت المرأة إلى العربية وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى، وأعاناه الحوذيّ من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين في مقدّمة العربية، وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفاً، ثم ثالثة متأبطّة صرّة، وقد تبدّين في ملاءاتهنّ اللفت سافرات، كاسيات - بدلاً من البراقع - بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهنّ بعرائس المولد أشبه. ثم ما هذا؟... رأى بصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب في جرابه الأحمر... وأخيراً بدت زئوبة وقد

حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينها باب صغير- ووقف عند مدخلها مختلطاً بالزبائن ريشاً يتفحص الطريق أن يكون أباه هنا أو هناك، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلي ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح في طريقه رجلاً واقفاً أمام الميزان والخواجة كستكي نفسه يزن له لغة كبيرة، فانجذب رأسه إليه بلا إرادة، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت في بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفاً واشمئزازاً. لم يكن في مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية. كان في الحلقة السادسة، مرتدياً جلباباً فضفاضاً وعمامة، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة، إلا أن ياسين واصل سيره مضطرباً كأنما يفر قبل أن تطلع عليه عينا الرجل، ودفع باب الحانة بشيء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض...

## ١٣

ارتجى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهماً، ثم دعا النادل وطلب دُورق كونيكا بنبرات تمت على نفاد صبره. وكانت الحانة بالحجرة أشبه، تدل من سقفها فانوس كبير، وصفت بجنايتها موائد خشبية وكراسي خيزران جلس إليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أضص القرنفل. من عجيب أنه لم ينس الرجل، وأنه عرفه من النظرة الأولى، متى رآه آخر مرة؟... لا يستطيع أن يجزم، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيابه في مدى اثنتي عشرة سنة إلا مرتين إحداهما التي زلزلته الآن. وقد تغير الرجل ما في ذلك من شك فغداً شيئاً هادئاً وقوراً!... ألا سحق الله المصادفة العمياء التي ألقت به في سبيله. والتوت شفتاه تقزراً وامتناعاً وشعر بمرارة الهوان تجري في ريقه. يا له من هوان مدل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد كالتى ترده إليه ذكرى من الذكريات المعتمة أو مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فيقلب ذليلاً منكسراً... ضائعاً. وعلى رغمه حملت عيناه في الماضي البغيض،

متسماً للإنعام النظر والأحلام في أمن ودعة... «اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية، ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام... يا لها من عجيبة سلطانية جمعت بين العجرفة واللفظ يكاد البائس مثلي يحس بطراوتها وشذتها معاً بالنظر المجرد... وهذا المفرق العجيب الذي يشطرها تكاد تنطق الملاء عنده... وما خفي كان أعظم... إني أدرك الآن لماذا يصلي بعض الناس ركعتين قبل أن يبني بعروسه... أليست هذه قبة؟... بلى وتحت القبة شيخ... وإني لمجدوب من مجاذيب هذا الشيخ... يا هو... يا عدوى...» وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتوكل فالتفتت زنوبة وراها ورأته. ثم خيل إليه، وهي تعيد رأسها، أنه لمح على شفتها بشير ابتسامة قد قلبه في عنف وسرت في وجدانه سكرة سرور ملتهب، ومرقت العربة من بوابة المتوكل ثم مالت إلى اليسار، وهناك اضطر الشاب إلى التوقف عن متابعتها لأنه رأى عن كذب معالم زينات وأنوار وجهوراً مهلاً فتراجع قليلاً وبصره لا يفارق العودة، وجعل يراقبها بنهم وهي تنزل على الأرض، وهي ترمي ناحيته بنظرة عابثة، ثم وهي تتجه إلى بيت العروس حتى واراها الباب في ضجة من الزغاريد. وتهد تنهدة حامية، ولفته حيرة حانقة فبدا قلقاً كأنه لا يدري أي وجهه يقصد... «لعنة الله على الاستراليين! أين أنت يا أزيكية لأبئك همتي وأشجاني وأنزود منك بشيء من الصبر... ثم دار على عقبيه وهو يتمتم «إلى العزاء الباقي... إلى كستكي»، وما كاد ينطق باسم البدال اليوناني حتى تنل رأسه حينئذ إلى حميا الشراب... كانت المرأة والخمر في حياته متلازمتين متكاملتين، ففي مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة، ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها، بيد أنه لم يتج لها- المرأة والخمر- أن يتلازما دائماً، وخلت ليلال كثيرات من النساء، فلم يجد بداً من أن يخفف لوعته بالشراب، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها. وعاد من نفس الطريق الذي جاء منه، وقصد بدالة كستكي عند رأس السكة الجديدة-

بقوة الهياج المثار في رأسه وقلبه، فانشقّ الظلام عن أشباح شائنة طالما ناوشته كرموز للعذاب والكراهية، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق، وطالعه صورة غامضة المعالم، هي صورته وهو صبيّ، فراه وهو يحثّ خطواته المتقاربة إلى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثمّ حمّله قرطاسًا مليئًا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورًا وعاد به إلى المرأة التي بعثته وانتظرت، إلى أمّه دون غيرها وأسفاه! وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق، ثمّ استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعًا أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه؟... أكان يذكر فيه الصبيّ الصغير الذي عرفه قديمًا ابنًا لتلك المرأة؟... وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضاءل في حسّه حتّى استحال لا شيء. وجيء عند ذاك بالدُّورق والقدح فصبّ ونهل في نهم وعصبية متعجلاً حظّ الشاربين من الانتعاش والنسيان. ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضي وجه أمّه فلم يتمالك من أن يصبق. أيها يلعن: الحظّ الذي جعلها أمّه أمّ جمالها الذي شغف كثيرين حبًا وأحاطه بالكوارث!... والحقّ أنّه لم يكن بوسعه أن يغيّر أمرًا مما قدّر عليه، ولم يكن بوسعه إلّا أن يدعن للقضاء الذي هرس عزة نفسه، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنّه هو الجاني الأثيم!... ولم يذر لمّ استحقّ اللعنة، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا في حضانة أمّهات مطلّقات مثله غير قليلين، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمّه حنانًا غير مشوب وحبًا لا يعرف الحدود وتدلّيلًا سابقًا لا تشكّمه رقابة أب فتمتّع بطفولة سعيدة قوامها الحبّ واللين والدمائة. ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق، كسطحه الذي يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى ماذن وقبابًا من نواحيه الأربع، ومشربيته التي تطلّ على الجبالية حيث تمرّ ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فينجلي أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابت وتسيل الدماء. في ذلك البيت أحبّ أمّه حبًا لا مزيد عليه وفيه شاعت

في قلبه الريبة الغامضة، وفيه رمى إلى صدره بالبذور الأولى لنفور غريب - نفور ابن من أمّه - التي قدّر لها أن تنمو وتستفحل حتّى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال، وكثيرًا ما قال لنفسه إنّه ربّما كان في وسع الإرادة القويّة أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكنّا لن يكون لنا - مهما أوتينا من إرادة - إلّا ماضٍ واحد لا مفرّ منه ولا مهرب. والآن يتساءل - كما تسأل من قبل كثيرًا - متى فطن إلى أنّ أمّه لم تكن الشخص الوحيد في حياته!... بعيد جدًا أن يعرف هذا على وجه اليقين، وما يذكر إلّا أنّه في فترة ما من طفولته وعث حواسّه شخصًا جديدًا كان يطرأ على البيت من حين لآخر، ولعلّه - ياسين - كان يتطلّع إليه بغرابة وشيء من الخوف، ولعلّ الآخر بذل ما في وسعه لإيناسه وإرضائه، إنّه يجملق في الماضي على استكراه ونفور شديدين، ولكنّه وجد المقاومة لا تمجدي، كأنما ذاك الماضي دُمّل يودّ لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسّه من أن يآخر. ثمّ إنّ هناك أمورًا لا يمكن أن تنسى... ففي مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر... في ذاك المكان كان يذكر أنّه اطلع فجأة - في ظروف فرضها النسيان - على ذلك الشخص الطارئ وهو كأنّه يفترس أمّه، فها عمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيًا حتّى أقبلت المرأة عليه في اضطراب بادٍ وراحت تطيبّ خاطره وتسكّن نائره. وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلّب عينيه فيها حوله واجمًا، ثمّ صبّ من الدُّورق في القدح وشرب، وقد لمح وهو يعيد القدح إلى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكته فظفها خمرًا وأخرج منديله وأنشأ يدلّكها، ثمّ خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدم فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجع عنده أنّ ما سقط على سترته ماء لا خمر واستردّ طمأنينته... ولكن أيّ طمأنينة خادعة! لقد رجعت عيناه إلى امرأة الماضي البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولكنّه يذكر بلا ريب أنّ الشخص المفترس لم

ينقطع عن البيت القديم، وأنه كثيرًا ما تودّد إليه بما لذّ وطاب من ألوان الفاكهة، ثمّ كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس العطفة إذا استصحبته أمّه معها في مشوار، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها إليه فكانت تجذبه في عنف بعيدًا عنه وتمنعه من الإيحاء إليه حتّى تعلّم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق، وازداد الشخص في نظره إبهامًا وغموضًا، ثمّ حذّره من أن يعود إلى ذكره أمام خالٍ عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتّبع تحذيرها وما يزداد إلّا حيرة. ولم يقنع الحظّ منه بذلك القدر فكانت أمّه - إذا غاب الرجل عن البيت أيامًا - يكون مبعوثًا إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة»! وكان الرجل يستقبله بلطف ويملاً قرطاسًا من التفّاح والموز، ويحمّله موافقته أو اعتذاره كيفما اتّفق، ثمّ يبلغ به الحال أنّه إذا اشتاق إلى لذيق الفاكهة استأذن أمّه في أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هذا وجبينه يندى خزيًا ثمّ نفخ في قهره، ثمّ صبّ وجرح، ورويدًا انبعث الحميّة في دمه، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حلّ متاعبه... «قلت ألف مرّة إنّني يجب أن أدع الماضي مدفونًا في قبره... لا فائدة... لا أمّ لي وحسبي امرأة أبي الرقيقة الطيّبة... كلّ شيء طيّب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتها... تُرى لم أجاري إلخافها عليّ فأبعثها من قبرها حيّنا بعد حين!... لم!... سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقه اليوم ولكنّ مصيره أن يموت يومًا... أودّ أن يموت كثيرون... لم يكن الرجل الوحيد...» بيد أنّ خياله الشائر واصل إسرائه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخفّ توترًا، أجل لم يعد في تلك القصّة بالذات من بقية طويلة، ولعلّها - هذه البقية - تمتاز بما يضيئها من نور نسبيّ بعد عبور طور الطفولة المعتم. كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله إلى حضن أمّه، وقد وجدت أمّه الشجاعة لتصارحه بأنّ ذاك «الفكهاني» يتردّد عليها طلبًا ليدها، وأنها متردّدة في قبوله، وأنها غالبًا سترفض إكرامًا له! تُرى أصدّق ما قيل له؟... هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته، ولكنّه كان بلا ريب يشرّب للإدراك والفهم، ويعاني نوعًا من الريبة الغامضة التي تنكشف للقلب دون العقل، ويكابد ألوانًا من القلق أطار عن هامته حمامة السلام، فتهيّأت في نفسه تربة لتلقي بذرة النور التي صارت مع الأيام إلى ما صارت إليه. ثمّ انتقل في التاسعة من عمره إلى حضن أمّه الذي لم يكن رآه إلّا مرّات معدودة تحميًا للاحتكاك بأمّه. انتقل إليه غلامًا على الفطرة لم يتلقّن من مبادئ العلم كلمة واحدة، ومضى يكفّر عن سيئات التدليل الذي غلّته به أمّه فتلقّى العلم بنفس كارهة وإرادة خائرة، ولولا شدّة السيّد وطية جوّ البيت الجديد ما دُفع إلى النجاح في الابتدائية بعد أن نيف على التاسعة عشرة من عمره. وبنموّ عمره وإدراكه حقائق الأشياء، استعرض حياته الماضية في بيت أمّه وقلوبها على وجوهها، ملقيًا عليها من خبرته الجديدة أنوارًا فاضحة فتكشّفت له الحقائق بشاعتها ومرارتها، وكلّما تقدّم في الحياة خطوة بدا له الماضي سلاحًا مسمومًا منغمسًا في صميم نفسه وكرامته، وقد دأب أبوه بادئ الأمر على أن يسأله عن حياته في بيت أمّه ولكنّه على حدّاته سنّه، نحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة في استشارة اهتمام أبيه وحبّ الثرثرة الذي يستهوي أمثاله من الغلمان، ولزم الصمت حتّى ترامى إليه نبأ غريب عن زواج أمّه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلاً، واشتدّ ضغط السخط على صدره حتّى فضفض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهاني» الذي زعمت يومًا أنها رفضت الزواج منه إكرامًا له!... وانقطعت صلته بها من ذاك العهد - منذ إحدى عشرة سنة - فلم يعد يدري عنها شيئًا إلّا ما ينقله إليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفخام بعد انقضاء عامين على زواجها منه، ثمّ زواجها من باشجويش في العام التالي لطلاقها، ثمّ طلاقها مرّة أخرى بعد حوالي عامين إلخ... إلخ... وفي فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرًا إلى رؤيته، فكانت ترسل إلى أبيه من يستأذنه في السماح له بالذهاب إليها، ولكن ياسين صدّ

ينقطع عن البيت القديم، وأنه كثيرًا ما تودّد إليه بما لذّ وطاب من ألوان الفاكهة، ثمّ كان يراه بعد ذلك في دكان الفاكهة عند رأس العطفة إذا استصحبته أمّه معها في مشوار، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها إليه فكانت تجذبه في عنف بعيدًا عنه وتمنعه من الإيحاء إليه حتّى تعلّم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق، وازداد الشخص في نظره إبهامًا وغموضًا، ثمّ حذّره من أن يعود إلى ذكره أمام خالٍ عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتّبع تحذيرها وما يزداد إلّا حيرة. ولم يقنع الحظّ منه بذلك القدر فكانت أمّه - إذا غاب الرجل عن البيت أيامًا - يكون مبعوثًا إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة»! وكان الرجل يستقبله بلطف ويملاً قرطاسًا من التفّاح والموز، ويحمّله موافقته أو اعتذاره كيفما اتّفق، ثمّ يبلغ به الحال أنّه إذا اشتاق إلى لذيق الفاكهة استأذن أمّه في أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هذا وجبينه يندى خزيًا ثمّ نفخ في قهره، ثمّ صبّ وجرح، ورويدًا انبعث الحميّة في دمه، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حلّ متاعبه... «قلت ألف مرّة إنّني يجب أن أدع الماضي مدفونًا في قبره... لا فائدة... لا أمّ لي وحسبي امرأة أبي الرقيقة الطيّبة... كلّ شيء طيّب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتها... تُرى لم أجاري إلخافها عليّ فأبعثها من قبرها حيّنا بعد حين!... لم!... سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقه اليوم ولكنّ مصيره أن يموت يومًا... أودّ أن يموت كثيرون... لم يكن الرجل الوحيد...» بيد أنّ خياله الشائر واصل إسرائه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخفّ توترًا، أجل لم يعد في تلك القصّة بالذات من بقية طويلة، ولعلّها - هذه البقية - تمتاز بما يضيئها من نور نسبيّ بعد عبور طور الطفولة المعتم. كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله إلى حضن أمّه، وقد وجدت أمّه الشجاعة لتصارحه بأنّ ذاك «الفكهاني» يتردّد عليها طلبًا ليدها، وأنها متردّدة في قبوله، وأنها غالبًا سترفض إكرامًا له! تُرى أصدّق ما قيل له؟... هيهات أن

قبل اليوم أنَّ باطنك بهذا اللون الرائق... أف ينبغي أن أحو الفكر من رأسي... الحق أن أُمي كالضرس الثائر، لا يسكن حتى ينخلع...»

## ١٤

جلس السيّد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبت أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلّما جرفه تيّار خواطره، ويرنو إلى لا شيء بوجه تنمّ معالنه عن ارتياح ورضى. إنّه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حبّ ومودة، ولو عرض له من حُبهم دليل كلّ يوم لأوجد له كلّ يوم سرورًا مشرقًا لا يلبيه التكرار، وقد أتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطرابه إلى التخلّف ليلة الأس من شهود حفلة أنس دعاه إليها أحد الأصدقاء، فما استقرّ به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتّى وافاه السداعي وبعض الإخوان من المدعوّين وأوسعوه عتابًا لتخلّفه وخلّوه تبعه ما ضاع عليهم من بهجة وطرب، ثمّ قالوا - فيما قالوا - إنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه، ولم يجدوا للشراب لذّة التي يجدون في منادمته، وأنّ مجلسهم خلا - على حدّ تعبيرهم - من روحه. وها هو يستعيد أقوالهم في سرور وزهو لظنًا كثيرًا بما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته، بيّد أنّه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على إرضاء الخلّان، بذار إلى الليل من موارد الصداقة والمودة في إخلاص وإيثار، فكاد يكدّر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم في نفسه من أريجيّة الرضا والعجب، أجل طالما كان الحبّ الذي يجذبه إلى الناس ويجذبهم إليه معنيًا لقلبه يغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو بريء وكأنّه خلق للصداقة قبل كلّ شيء. وثمة آية أخرى على هذا الحبّ - والأصدق أن يقال إنه حبّ من نوع آخر - تجلّت له ضحى اليوم حين ألّمت به أمّ علي الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران: «ألا تعلم أن ست نفوسة أرملة الحاج علي الدسوقي تملك سبعة دكاكين في المغربلين؟» وابتسم

عن دعوتها بإباء ونفور شديدين رغم نصيح أبيه له بالتسامح والعفو. والحقّ أنّه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح، فأغلق دونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنًا إلى هذا بأنّه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلها فعالها. «امرأة. أجل ما هي إلا امرأة... وكلّ امرأة لعنة قذرة... لا تدري امرأة ما العفة إلّا حين تنتفي أسباب الزنا... حقّ امرأة أبي الطيّبة، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبي!» وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلاً: «الخمر كلّها فوائده، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه... الخشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر... أمّا الخمر فكلّها فوائد...» فتساءل صاحبه: «وما فوائدها؟» فقال الرجل مستنكرًا: «وما فوائدها! ما أعجب سؤالك!... كلّها فوائد كما قلت... وأنت تعلم هذا وتؤمن به...» فقال صاحبه: «ولكن الخشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به...» الناس جميعًا يقولون هذا فهل تخالف الإجماع؟! وترثّ الرجل قليلًا ثمّ قال: «كلّها مفيدة إذن، الكلّ، الخمر والخشيش والأفيون والمنزول وما يستجدّ!» فعاد صاحبه يقول بلهجة تنمّ عن ظفر: «ولكن الخمر حرام!» فقال الرجل محتدًا: «وهل ضاقت السبيل، زكّ... حُجّ... أطعم المساكين... أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها...»

وابتسم ياسين في شيء من الارتياح، أجل أمكنه أخيرًا أن يبتسم في شيء من الارتياح: «لتذهب إلى الجحيم، ولتأخذ الماضي معها... لست عن شيء مسئولًا... كلّ إنسان ملوث في هذه الحياة ومن يزج الستاريز عجبًا... شيء واحد يهمني جدًّا هو عقارها. دكان الخمزاوي وربيع الغوريّة والبيت القديم بقصر الشوق... وإني أعِدُّ أمام الله إذا ورثته كاملاً يومًا أن أترحم عليها بلا أسف... آه... زُتوية... كدت أنساك وما أنساك إلّا الشيطان. امرأة عذبتني وامرأة أنس عندها العزاء... آه يا زُتوية ما علمت

السيد، وفطن بالغريزة إلى ما تومئ إليه المرأة وحدته قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتان، ألم يخجل إليه في أكثر من مناسبة أن الست نفوسة تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه لابتياح حوائجها؟.. بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال باهتمام ظاهري: «عليك باختيار زوج صالح لها، فما أعز المطلوب!»، وظنت أم علي أنها بلغت الغاية فقالت: «قد اخترتك من دون الرجال. فما قولك؟»، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة: «لقد تزوجت مرتين، أخفقت في الأولى ووفقتي الله في الأخرى، ولن أبتر بنعمة الله». والحق أنه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص موالية، بقوة إرادة لا تنثني، وكأنه لم ينس مثل أبيه الذي انزلق إلى زيجات متلاحقة بلا وعي، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب، ولم تبق له هو- عقبه الوحيد- إلا على شيء من المال لا يغني، ثم إنه من ربحه ودخله في بسطة من العيش هيأت لأسرته هناك ورغدًا وأتاحت له ما يشاء للإنفاق في مسراته وملاهيته فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع المتناسق الذي يكفل له الكرامة والحرية؟! أجل لم يجمع السيد ثروة، لا لقصور في وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل إنفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذي يؤمن به، إلى إيمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة وآمنه من الخوف الذي يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم. على أن صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامت له فرصة طيبة، وبالتالي لم يستطع أن يتناسى أن سيده جميلة كالست نفوسة توده بعلًا لها. وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزيائن بعينين غابيتين وأسارير حاملة باسمه، وذكر- بأسًا أيضًا- ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابنه معرضًا بأناقته وتعطره: «حسبك. حسبك يا عجوز!... عجوز؟!... إنه في الخامسة والأربعين حقًا، ولكن ما قول العاذل في هذه القوة العارمة

والصحة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد! لم ين إحساسه بالشباب ولا تراخي، وكأن فتوته ما تزداد مع الأيام إلا قوة، إلى أن مزايه لم تكن لتغيب عنه، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها، منظويًا في أعماقه على زهو وعجب. يحب الثناء حبًا جمًا، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه، ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرًا وكياسة إلا أنه لم يثقل أبدًا على أحد من الناس، لأن تواضعه كان طبعًا وسجية كذلك، ولأنه نبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصًا وحبًا. والحق أنه كان ينزع بفطرته إلى أن يحب كما يحب، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب، فأنجحت طبيعته بوحى من غريزته الظامنة للحب إلى الإخلاص والوفاء والصفاء والتواضع، تلك السجايا التي تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفرائش، ومن هنا استوى أن يقال إن تواضعه كياسة أو طبيعة والأصح أن يقال إنه طبيعة تستمد كياستها من وحي الغريزة لا تدبير الإرادة فتجلت طبعًا بسيطًا لا تكلف فيه ولا تعمل، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزياته بل والتندر بعيوبه وهناته التماسًا للعطف والحب أحب إليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة إلى الاستفزاز والحسد، وهي كياسة سديدة دفعت المحبين إلى التنويه بما يغضي عنه حكمة وحياء، وأذاعت سجايه على نحو لم يكن ليقدّر عليه بنفسه دون التضحية بأجل جوانب شخصيته، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبها شائبة. وبهذا الوحي الغريزي نفسه استهدى حتى في جانب حياته الماكن، في مجالس أنسه وطربه، فلم يتخل فيها - مهما لعب الشراب برأسه - عن لباقة وكياسته، ولو شاء بما أوتي من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخريّة، لاكتسح السّار بلا عناء، ولكنه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحية تفصح المجال لكل سامر، ويشجع أهل الدعابة وإن خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة، إلى حرصه الشديد على ألا يخلف مزاحه في نفس جرحًا، فإن اضطره الموقف إلى الحملة

ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها في ببطء شديد على قدر ما تسمح به طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها في أثناء نزولها. وكالمحمل وقفت مليًا وهي تتنهد كأنها تستجيم من عناء النزول، وكالمحمل راحت تتأيل وتخطر إلى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية في لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها:

- وسع يا جدد أنت وهو للست زبيدة ملكة العوالم.

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب:

- الله يسامحك يا جلجل... ملكة العوالم مرة واحدة... هلاً عرفت فضيلة التواضع!

وهرع إليها جميل الحمزاوي مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، كان حقاً علينا أن نفرش الأرض بالرمال.

ونفض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمماً تحية وكيله:

- بل بالخائن والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل إذا أقبل غير مسبوق بشير؟...

ورأى السيد وكيله وهو يتجه إلى كرسي ليأتي به فسبقه إليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانباً وهو يداري ابتسامة، وقدم السيد لها الكرسي بنفسه وهو يوميئ براحته مرحباً كأنه يقول لها «تفضلي» بيد أن راحته انبسطت - ربما بلا شعور منه - لآخر طاقته وانفجرت ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة، ولعله تأثر في بسطها بما تركه في خياله منظر العجيزة الهائلة التي ستملا مقعد الكرسي وتفيض على جوانبه حتى. وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذي أسفر حسنه بغير حجاب، وجلست وهي تشع بزواقتها وحليها نوراً، ثم التفتت إلى جاريتها وخاطبتها قائلة وهي تعني بالخطاب غيرها:

- ألم أقل لك يا جلجل أنه ليس ثمة ما يدعوننا

على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد إليه ولو بالسخرية من نفسه. فلا ينفص المجلس إلا وقد حظي كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد. على أن كياسته الفطرية أو فطرته الكيسية، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب، ولكنها امتدت إلى جوانب هامة من حياته الاجتماعية، فأعلنت عن نفسها أروع إعلان في كرمه الماثور. سواء ما يتجلى منه في الولائم التي يدعو إليها من حين لآخر في البيت الكبير أو في الهبات التي ينفع بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه. وفي شهامته ومروته ونجدته التي فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعاً من الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيثون إليها إذا دعت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق، أجل ارتضى لنفسه وظائفاً يؤذيها بلا أجر - غير الحب - فكان سمساراً ومأذوناً ومعكماً، ثم وجد دائماً في أداؤها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة. مثل هذا الرجل الذي تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطوبها كأن في نشرها أدنى وأنى أدنى، مثل هذا الرجل يكون خليقاً - إذا خلا إلى خواطره وانقشع عنه الحياء الذي يتولاه حيال الناس - بأن يتملى مزاياه طويلاً ويستسلم لزهوه وعجبه. لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم علي الخاطبة بلذة وسرور وانسراح تعانقت في قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه...

«نفوسة هانم سيده ذات مزايا لا يستهان بها... يتمناها كثيرون ولكنها رغبت في أنا... بيد أنني لن أتزوج، هذا أمر مفروغ منه، وليست هي بالمرأة التي تقبل أن تعاشر رجلاً بغير زواج... هذا أنا وهذه هي فكيف يمكن أن نلتقي!... ولو صادفتني في غير هذه الأيام التي سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لكان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن في حاجة إليها فواسفاه».

وقطع عليه أفكاره وقوف حنطور أمام مدخل الدكان فمدّ بصره مستطلعاً فرأى العربية وهي تميل



للتخبط هنا وهناك لاتباع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاجر؟

فأمنت الجارية على قول سيدها قائلة:

- صدقت كعادتك يا سلطنة، لماذا نذهب بعيداً وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد!

فترجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهدده على استنكارها وقالت وهي تداري ابتسامة:

- واخجلناه!... حدثك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد أحمد!...

وشعر فؤاد السيد الذكي بالجو الودي الذي ينفته حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم بأسماً:

- الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطنة. فرفعت حاجبيها في دلال وقالت بعناد لطيف: - ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد.

وبدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالجو الطيب الذي خلقته السلطنة، فهذا جميل الحمزاوي يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر إلى ما تيسر من جسم العالمة، وهؤلاء الزبائن جعلوا يُجِيلون أبصارهم بين البضائع لتمر في الذهاب والإياب بالست، بل بدا أن الزيارة الماركة قد لفتت بعض الأنظار في الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطنة وأن يولي الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين، بيد أن هذا لم يُنسيه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع:

- قضى الله جلّت حكمته أن يكون الجهاد أحياناً أسعد من الإنسان.

فقالت بلهجة ذات معنى:

- أراك تغالي. لن يكون الجهاد أسعد حظاً من الإنسان، ولكنه كثيراً ما يكون أجلاً فائدة.

فتقبها السيد بعينه الزرقاوين متظاهراً بالدهشة: - أجلاً فائدة!... (ثم مشيراً إلى الأرض)... هذا الدكان!

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا

تخلو من خشونة مدبرة:

- أريد سكرًا وبنًا وأرزًا فهل يغني الإنسان فيها عن الدكان شيئاً!... (وبنرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال)... ثم إن الرجال أكثر من همّ على القلب.

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطراً من البيع والشراء، فقال محتجاً:

- ليست كلّ الرجال سواء يا سلطنة، فمن قال لك إن الإنسان لا يغني عن الأرز والسكر والبن شيئاً؟ الإنسان حقاً من تجددين فيه الغذاء والحلاوة والكيف! فساءلته ضاحكة:

- إنسان أم مطبخ هذا؟

فقال السيد بلهجة تدلّ على الظفر:

- لو نظرت من قريب لوجدت تشابهاً عجيباً بين الرجل والمطبخ... كلاهما حياة للبطن!...

وغضت المرأة بصرها ملياً، وانتظر السيد أن ترفعه إليه موسوماً بابتسامتها المشرقة، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحسّ لتوه أنها غيّرت «السياسة» أو لعلها لم ترتع كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول في هدوء:

- أفادك الله!... ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر.

وتحوّل السيد عنها متظاهراً بالجدّ ودعا إليه وكيهه ثم وضاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بأنه قرّر أيضاً العدول عن «التودّد» والعودة إلى «العمل»، ولكنها لم تكن إلاّ مناورة استعداد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطباً السلطنة:

- الدكان وصاحبه تحت أمرك!

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة في دعابة:

- أريد الدكان وتأني إلا أن تجود بنفسك!

- نفسي بلا ريب خير من دكاني، أو خير ما في دكاني.

فأشرق وجهها بابتسامة مأكرة وهي تقول:

- هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك!

فقهه السيد قائلاً:

- ما حاجتك إلى السكر وفي لسانك هذه الحلاوة كلها؟!

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضياً عن نفسه، ثم فتحت العاملة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضي وراحت تنظر في صورتها فمضى السيد إلى مكتبه ووقف مستنداً إلى حافته وهو يتفرس في وجهها باهتمام. والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عينه بأنها جادت بالزيارة لأمر غير الشراء والبيع، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكداً لظنه، فلم يعد أمامه إلا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه أو يؤدعها الوداع الأخير. ولم يكن رآها لأول مرة، فقد رآها مرّات في أراح بعض الأصدقاء، وعرف عن الرواة أنّ السيد خليل البنان اتخذها خليله دهرًا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد، ولعلّ هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد!... وهي موفورة الحسن وإن لم تغد منزلتها كعالمه المرتبة الثانية بين العوالم، بيد أنّ المرأة تهتم أكثر من العاملة، وإنّها لشهية لطيفة وبها من طيّات اللحم والدهن ما يدفئ المرقور في زمهرير الشتاء الذي غدا على الأبواب، واعترض أفكاره مجيء الحمزاوي حاملاً ثلاث لفات، فتناولتها الجارية، ودست الست يدها في الحقيبة لتخرج النقود فيها بدا، ولكنّ السيد أشار إليها عذراً وهو يقول:

- يا له من عيب!

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت:

- أيّ عيب يا سي السيد!... ليس في الحق عيب.

- هذه زيارة ميمونة يحقّ علينا أن نحییها بما هي أهلها من الإكرام، وهيئات أن نوفيها حقها.

وكانت قد نهضت وهو يتكلّم فلم تُبَدِّ مقاومة جدية لكرمها ولكنّها قالت:

- ولكنّ كرمك هذا سيجعلني أتردد مرة ومرتين قبل أن أقصدك مرة أخرى.

فقهه السيد قائلاً:

- لا تخافي، إني أكرم الزبون في المرة الأولى ثمّ

أعوّض خسارتي في المرّات اللاحقة ولو بالسرقة! هذا شعارنا نحن التجّار!

فابتسمت الست، ومدّت له يدها قائلة:

- الكريم مثلك يُسرق ولا يسرق... أشكرك يا سيد أحمد.

فقال من كلّ قلبه:

- العفو يا سلطنة.

ووقف ينظر إليها وهي تتبخر صوب الباب حتى صعدت إلى العربة واتخذت مجلسها، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها، وتحركت العربة بحملها النفيس، ثم غابت عن ناظره، هنالك قال الحمزاوي وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب:

- كيف يمكن أن يسدّد هذا الحساب؟!

فألقي السيد على وكيله نظرة باسمه وقال:

- اكتب مكان الأرقام «بضائع أتلفها الهوى».

ثمّ غمغم وهو يمضي إلى مكتبه «الله جميل يجب الجمال».

## ١٥

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره تحفّ به المهابة ويتضوّع منه عَرف طيّب ثمّ مضى صوب الصاغة، ومنها إلى الغورية حتى قهوة سي علي فلحظ في مروره بها بيت العاملة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التي تمتدّ على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة في تدفّقه، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثمّ استأذن عائداً إلى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة، وجعل يقترب من البيت آمناً مطمئناً، ثمّ طرق الباب وانتظر وهو يدقّق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور إلّا ما ترامى من كوة قهوة سي علي، ومصباح غازي على عربة يد عند منعطف السكّة الجديدة. وفتح الباب وبدا شيخ خادم صغيرة فبادرها متسائلاً بصوت قويّ غير متردّد لبوحي بما يؤدّ من الصدق والثقة:

- الست زبيدة موجودة؟

فرفعت إليه الخادم رأسها وسألته بدورها في تحفّظ

فواصلت تقدّمها بعد التوقّف وهي تقول في خوف مصطنع:

- عينك!... أعوذ بالله!...

فنهض السيّد مستقبلاً يدها الممدودة بترحاب وتشمّم شذا البخور بأنفه العظيم وقال:  
- ألتخافين الحسد وعندك هذا البخور؟!  
فاستخلصت يدها من يده وتراجعت إلى كنية جانبية وجلست وهي تقول:

- بخوري خير وبركة، إنّه أخلاط من أنواع شتّى بعضها عربيّ وبعضها هنديّ أؤلف بينها بنفسي، فهو جدير بأن يخلّص الجسد من ألف عفريت وعفريت...

فعاود السيّد الجلوس قائلاً وهو يلوّح بيديه في يأس:

- إلّا جسدي!... بجسدي عفاريت من نوع آخر لا يجدي معها البخور، الأمر أجّل وأخطر...

فضربت المرأة صدرًا ناهضًا كالقربة وهتفت:

- ولكيّ أحيي حفلات أفرّاح لا حفلات زارا!  
فقال السيّد برجاء:

- سنرى إن كان لدائي عندكم شفاء!

وساد الصمت قليلاً فجعلت السلطانة تنظر إليه فيما يشبه التفكير وكأنّها تستخبره عن سرّ حضوره وهل جاء حقًا للاتّفاق على إحياء ليلة كما قال للخادم?...  
وغلبتها الرغبة في الاستطلاع فسألته:

- فرح أم ختان؟

فقال السيّد بأسًا:

- لك ما تشائين!

- عندك مختون أم عروس؟

- عندي كلّ شيء...

فأنذرتة بنظرة كأنّها تقول له «كم أنت متعب!» ثمّ تمتعت في تهكّم:

- نحن في خدمتك على أيّ حال...

فرفع السيّد يديه إلى قمّة رأسه في هيئة تنمّ عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه:

- عظم الله قدرك... بيّد أنّي ما زلت مصرًا على

ألمته عليها ظروف وظيفتها:

- من أنت يا سيّدي؟

فقال بصوته القوي:

- شخص يروم الاتّفاق معها على إحياء ليلة.

وغابت الخادم دقائق ثمّ عادت وهي تقول:

«تفضّل»، وأوسعت له فدخل ورقي وراءها في سلّم

متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثمّ فتحت له بابًا

في مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظلّ واقفًا على

كتب من المدخل وهو ينصت إلى أقدام الخادم وهي

تجري، ثمّ وهي تعود حاملة مصباحًا، وتتبعها بعينه

وهي تضعه على خوان وتجيء بكرسيّ إلى وسط الحجرة

وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلّى من السقف

ثمّ تعيد الكرسيّ إلى موضعه وتحمل المصباح الصغير

وتغادر الحجرة قائلة في أدب: «تفضّل بالجلوس يا

سيّدي»، وأنجّه السيّد إلى كنية في صدر الحجرة وجلس

في ثقة وهدوء دلّ على اعتياد هذا الموقف وأمثاله،

وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضي ويطيب، ثمّ خلع

الطربوش وحطّه على مُرقعة تتوسّط الكنية ومدّ ساقيه في

ارتياح. رأى حجرة متوسطة الحجم نصّدت بجنباتها

الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسيّة وقام

حيال كلّ كنية من كنياتها الثلاث الكبرى خوان مطعّم

بالصدف، وقد أسدلت الستائر على نافذتها وبابها

فحبست في جوّها شذا بخور سرّ به متسلّيًا بالنظر إلى

فراشة راحت ترفّ على المصباح في نشاط عصبيّ،

وانتظر بعض وقت جاءت في أثناؤه الخادم بالقهوة،

حتّى ترامى إلى أذنيه وقع شبشب منغوم ذي دقّات

مدغدغة فتنبّهت أعصابه وحذّق إلى الباب الذي

سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لفّ

لفّة شهوانيّة في فستان أزرق، وما كادت عينا المرأة

تقعان عليه حتّى توقّفت دهشة وهتفت:

- بسم الله الرحمن الرحيم... أنت...!

فجرى بصره على جسمها في عجلة ونهم كما يجري

الفار على جوال أرزّ ليجد لنفسه منفذًا، وقال

بإعجاب:

- باسم الله ما شاء الله...!

- يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه  
الخلاعة والفجور، الآن صدقت حقاً ما قيل لي  
عنك. . .

واستوى السيد في جلسته في اهتمام وتساءل:  
- وماذا قيل؟! . . اللهم اكفنا شرّ القيل والقال. . .  
- قالوا لي إنك زير نساء وعبد شراب. . .  
فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال:  
- حسبه ذمّاً والعياذ بالله. . .

- ألم أقل لك إنك رجل قارح فاجر؟  
- هي الشهادة لي بأنّي حزت القبول إن شاء  
الله. . .

فرفعت المرأة رأسها في غطرسة وقالت:  
- بُعذك! . . . لست كمن عرفت من النساء. . .  
إنّ زبيدة معروفة ولا فخر بعزّة النفس ودقّة  
الاختيار. . .

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر إليها في تحدّ  
مُشرب باللفظ وقال بطمأنينة:  
- عند الامتحان يُكرّم المرء أو يهان. . .  
- من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد  
بشهادتك؟

فقهقه السيد طويلاً حتّى قال:  
- لا تصدّقي يا ختونة. . . وإن كنت في شك. . .  
ولكمته في منكبه قبل أن يتمّ جملة فأمسك ثمّ أغرقا  
في الضحك معاً، وسرّ بمشاركتها إيّاه في ضحكها،  
وحدس وراء ذلك - بعد ما جرى بينهما من تلميح  
وتصريح - لوئاً من الجهر بالرضا بثبته في وعيه بسمه  
دلال سالت بطرفها المكحول، وراح يفكر في أن يحثي  
هذا الدلال بتحيّة تليق به لولا أن قالت له محذرة:  
- لا تحملي على مضاعفة سوء الظنّ بك. . .  
فأعاده قولها إلى تذكّر ما ردّده عن القيل والقال،  
وسألها باهتمام:

- من الذي حدّثك عني؟  
فقالت باقتضاب وهي تلحظه بنظرة اتهام:  
- جلييلة. . .!

وفجأه الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم

أن أترك لك الاختيار!

فتنهّدت بغيط بالدعابة أشبه وقالت:

- لآني أفضل أفرح العرايس بطبيعة الحال!  
- ولكني رجل متزوّج ولا حاجة بي إلى زفّة من  
جديد. . .!

فصاحت به:

- يا لك من رجل مهذار. . . إذن ليكن ختائناً. . .  
- ليكن. . .

وتساءلت وهي تحاذر:

- وليدك؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه:

- أنا! . . .

فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقرّرت العدول  
عن التفكير في مسألة إحياء الليلة التي ختمت خبيثتها  
وهتفت به:

- يا لك من رجل قارح، لو طالتك يدي لقصمت  
ظهرك. . .

فنهض السيد وأقبل عليها قائلاً:

- لا أحرمتك رغبة قطّ. . .

وجلس جانبها فهتمت بضربه ولكنها تردّدت ثمّ  
أمسكت، فسألها بقلق:

- لماذا لم تتكرّمي بضربي؟

فهزّت رأسها وقالت ساخرة:

- أخاف أن أنقض وضوئي. . .

فتساءل في لهفة:

- أأطمع في أن نصلي معاً؟!

واستغفر الله في سرّه عقب النطق بدعابته مباشرة  
لأنّ هذره وإن كان لا يقف به في سكرة المجون عند  
حدّ إلا أنّ قلبه لم يكن ليطمئنّ ويواصل ابتهاجه حتّى  
يستغفر في باطنه صادقاً ممّا يعيث به لسانه مازحاً. أمّا  
المرأة فتساءلت في دلال ساخر.

- أتعني، يا صاحب الفضيلة، الصلاة التي هي

خير من النوم؟

- بل الصلاة التي هي والنوم سواء. . .

ولم تنالك إلا أن تقول ضاحكة:

- لآني من صلب رجال يتزوّجون في السّتين...  
 - بدافع العشق أم بدافع الخرف؟  
 ففقهه السيّد قائلاً:  
 - يا وليّة اتقي الله ودعينا نتكلّم في الجدّ...  
 - الجدّ؟... أتعني إحياء الليلة التي جئت تتفق عليها؟  
 - أعني إحياء العمر كلّ...  
 - كلّ أم نصفه؟  
 - ربّنا يقدرنا على ما فيه الخير...  
 - ربّنا يقدرنا على الطّيب...  
 واستغفر الله في سرّه مقدّماً ثمّ تساءل:  
 - نقرأ الفاتحة؟  
 ولكنّها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع:  
 - ربّاه... سرقني الوقت ولديّ الليلة عمل هام...  
 ونهض السيّد بدوره، ومدّ يده فتناول يدها ثمّ بسط راحتها المخضبة بالحناء، ورنا إليها بشوق وافتنان، وأصرّ على احتفاظه بها رغم جذبها إيّاها مرّة ومرّتين، حتّى قرصته في أصبعه ورفعت يده إلى شاربه مهدّدة:  
 - دعني أو تخرج من بيتي بفردة شارب واحدة...  
 ورأى ساعدها قريباً من فيه فزهّد في النقاش وقرب منه شفّتيه رويداً حتّى غاصتا في لحمه الطريّ فتطايّر منه إلى أنفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو، ثمّ تنهّد مغمغماً:  
 - إلى الغد؟  
 فتخلّصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرّة، وحدّقت إليه طويلاً ثمّ ابتسمت وتمتمت:  
 عصفوري يا أمّه عصفوري  
 لالعب وأوريّ له أموري  
 وجعلت تردّد «عصفوري يا أمّه» مرّات وهي تودّعه، وغادر السيّد الحجرة وهو يردّد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنّما يستخبر الألفاظ عمّا وراءها من معاني...

ابتسامه دلّت على حرجه. جليّة، تلك العالمة المشهورة التي عشقها دهرًا حتّى فصل بينها الشبع ثمّ عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد، بيّد أنّه كخبير بالنساء لم يَزْ بدأ من أن يقول في لهجة صادقة:  
 - لعنة الله على وجهها وصوتها معًا!... (ثمّ متهرّباً)... دعينا من هذا كلّ ولنتكلّم في الجدّ... فتساءلت متهكّمة:  
 - ألا تستحقّ جليّة كلمة أرقّ وألطف؟... أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتهنّ من النساء؟  
 وداخل السيّد شيء من الحرج إلّا أنّه ذاب في موجة الزهو الجنسيّ التي أثارها في نفسه حديث عشيقته جديدة عن عشيقه ولّت، وأخذ مليّاً بنشوة ظفر حلوة ثمّ قال بلباقة معهودة:  
 - لا يسعني وأنا بمحضر من هذا البهاء أن أغادره إلى ذكريات طويت ونسيت...  
 وبالرغم من أنّ السلطانة حافظت على نظرتها التهكميّة إلّا أنّها استجابت للثناء كما بدا في رفع حاجبها ومداراتها لابتسامه خفيفة اندسّت إلى شفّتيها، ولكنّها خاطبته بازدراء قائلة:  
 - لسان تاجر يسخو بالحلوة حتّى ينال غرضه...  
 - لنا الجلّة نحن التجّار بما يظلمنا الناس...  
 وهزّت كتفيها استهانة ثمّ سألت في اهتمام غير خاف:  
 - متى رافقتها؟  
 فلوّح السيّد بذراعه كأنّه يقول «ما أبعد من زمن!» ثمّ تمتم:  
 - منذ أزمان وأزمان...  
 فضحكت في تهكّم وقالت بنبرات تنمّ عن التشفّي:  
 - في أيّام الشباب الذي مضى...!  
 فرنا السيّد إليها معاتباً ثمّ قال:  
 - بودّي أن أمصّ من لسانك الأذى.  
 ولكنّها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة:  
 - أخذتك لحناً وتركك عظماً...  
 فأوماً إليها حدّراً وقال:

جلست زبيدة متربعة على الديوان وإلى يمينها زُتوبة العوادة ربيبتها، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضريع، واستوت النسوة جلوساً عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدَف أو ماسحة على الدربكة أو عابثة بالصنّج. وآثرت السلطانة السيّد أحمد بأول مجلس في الجناح الأيمن، وأتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأَنهم أصحاب الدار، ولا عجب فلم يكن الجوّ بالجديد عليهم، ولا السلطانة بالتي يرونها لأول مرة، وقَدّم السيّد أحمد أصحابه إلى العالمة مبتدئاً بالسيّد علي بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة:

- ليس السيّد علي بالغريب فقد أحيت فرح كريمته في العام الماضي...  
ثمّ ثَقِيَ بالسيّد الفار تاجر النحاس، ولَمّا رماه أحدهم بأنّه من رَوَادِ بَمِيّة كَثُرَ بادر الرجل قائلاً:  
- وجئت تائباً يا سَتَ.

وتتابع التعارف حتّى تَمَّ، ثمّ جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوّين، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالأريجيّة والمرح، وبدا السيّد عريس الحفلة بلا منازع، بهذا دعاه الأصدقاء، وبهذا شعر في أعماقه، وقد وجد لذلك بادئ الأمر لَوْناً من الارتباك قَلَّ أن يلمّ به، فداراه بالإسراف في الضحك والمرح، حتّى إذا أخذ في الشراب زايله بلا عناء، فاستعاد طمأنينته واندمج في الطرب بكلّ قلبه. وجعل كلّما لَجَّ به الشوق - والأشواق في مغاني الطرب تثار - يمدّ بصره إلى سلطنة المجلس بنهم فيتلجّأ ناظره عند طيّات جسمها المكتنز، فطاب قلباً بما أفاء عليه الحظّ من نعمة، وهنّاً نفسه على ما يترقبها من لذّذ المسرات، هذه الليلة والليالي الأخرى: «عند الامتحان يكرم المرء أو يهان»، هذا التصريح الذي تحدّثتها به، يجب أن أكون عند كلمتي، أيّة امرأة هي يا ترى، وأيّ مدّى مداها، سأعرف الحقيقة في الساعة المناسبة ثمّ ألبس لكلّ حال لبوسها، لكي تضمن الانتصار على غريم ينبغي أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس. لن أحيّد عن شعاري القديم وهو أن أجعل من لذّتي أنا مطلباً ثانوياً ومن لذّتها هي الهدف

كان ما يُطلق عليه بهو الحفلات بيتت العالمة زبيدة يتوسّط الدار كالصالّة، أو كأنّ الصالّة بالفعل استجذت لها أغراض أخرى. ولعلّ أهمّ أغراضه أنّها كانت تقوم فيه - هي وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغاني الجديدة، وقد اختارته لبعده عن الطريق العامّ بما يفصل بينها من حجرات النوم والاستقبال. وجعله اتّساعه - إلى هذا - صالحاً لإحياء الحفلات الخاصّة التي تتراوح عادة بين الزار والغناء، والتي تدعو إليها الخاصّة من أصدقائها ومعارفهم المقربين. ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريجيّة كرم فحسب - إن كان ثَمّة كرم على الإطلاق فإنّه غالباً ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنّها رمت من ورائها إلى الإكثار من الأصدقاء الممتازين الخليقين بأن يدعوها لإحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة في الأوساط التي يتقلّبون فيها، ومن بينهم - إلى هذا كلّه - تنتقي الخليل بعد الخليل. وجاء دور السيّد أحمد عبد الجواد ليشرّف البهو السعيد محاطاً بالخاصّة من معارفه. والحقّ أنّه تبدّى على نشاط جَمّ عقب المكافحة الجريئة التي ثَمّت بينه وبين زبيدة في بيتها فسرعان ما حُلّ رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا... إلى مدفاة أوصى على صنعها ونقشها وطيها بالفضّة لتكون - جميعاً - عربوناً للمودة المقبلة. ففي لقائه هذا دعت السلطانة، تاركة له الخيار في دعوة من يشاء من أصدقائه، إلى حفلة تعارف تكريماً للحبّ الجديد - ولشّد ما كان البهو موسوماً بطابع بلديّ جذّاب بكنبته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة، الممتّدة على الجانبيين حتّى الصدر حيث يقوم ديوان السّت تكتنفه الشلت والوسائد المعدّة للجوقة، أمّا أرضه المستطيلة فمفروشة بسجّاد متعدّد الألوان والشكول، وعلى كونصول يتوسّط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أوقدت الشموع منغوسة في الفناير، غير مصباح ضخم يتدلّى من قَمّة مثوّر يتوسّط سقف الحجرة ذي منافذ على سطح الدار تفتح في الليالي الدافئة وتغلق بأصلاص زجاجيّة في ليالي البرد.

- كيف ترون صاحبكم؟  
فقالوا في نفس واحد:  
- معذور!!  
وهنا حرك عازف القانون الضربير رأسه يمنة ويسرة  
وقد تدلت شفته السفلى وتمتم:  
- قد أعذر من أنذر.  
ومع أن حكمته لاقت ترحيباً إلا أن الست التفتت  
نحوه كالغاضبة ولكزته في صدره هاتفة:  
- اسكت أنت وسد فاك الذي يبلع المحيط...  
وتلقى الضربير الضربة ضاحكاً ثم فتح فاه كأنها  
ليتكلم ولكنه أغلقه مرة أخرى مؤثراً السلامة فوجهت  
المرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن  
الوعيد:  
- هذا جزء من يجاوز حدّه.  
فقال السيد متظاهراً بالانزعاج:  
- ولكنني جئت لأتعلّم قلة الأدب.  
فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت:  
- يا خبر!... أسمعتم قوله؟!...  
فقال أكثر من واحد منهم في وقت واحد:  
- إنه خير ما سمعنا حتى الآن.  
وأضاف إلى هذا أحد الرفقاء قائلاً:  
- بل عليك بضربه إذا جاوز حدود قلة الأدب.  
وقال آخر مؤمناً على قوله:  
- الزمي طاعته ما قل أدبه.  
فتساءلت المرأة وهي ترفع حاجبيها لتعلن عن  
دهشة لا أثر لها في نفسها:  
- لحدّ هذا تجبّون قلة الأدب!  
فتنهّد السيد قائلاً:  
- ربّنا يديها علينا.  
فما كان من العالمة إلا أن تناولت الدفّ وهي تقول:  
- سأسمعكم شيئاً أفضل.  
ونقرت عليه فيما يشبه العبث، ولكن علا النقر في  
حومة اللغو كالنذير حتى أسكته، وداعب الأذان متودّداً  
فبدّل القوم حالاً بعد حال، تحفّز أفراد الجوقة للعمل،  
وفرغ السادة الكنوس ثم مدّوا رءوسهم نحو السلطانة

والنهاية، وبذلك تتحقّق لذّي على أكمل وجه». ومع  
أنّ السيّد لم يخبر من ألوان الحبّ - على وفرة مغامراته -  
إلا الحبّ العضويّ وحُبّ اللحم والدم، إلّا أنّه تدرّج  
في اعتناقه إلى أرقّ صورة وأنفاها، فلم يكن حيواناً  
بحثاً ولكنه إلى حيوانيته وهب لطافة إحساس ورهافة  
شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب، فسمّا بالشهوة إلى  
أسمى ما يمكن أن تسمو إليه في مجالها العضويّ. بهذه  
البواعث العضوية وحدها تزوّج أوّل مرّة ثمّ ثاني مرّة،  
أجل أنّرت عاطفته الزوجية - بمرور الأيام - بعناصر  
جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت في جوهرها  
جسدية شهوانية، ولمّا كانت عاطفة من هذا النوع -  
خاصّة إذا أوتيت قوّة متجدّدة وحيوية دافقة - لا يمكن  
أن تستنيم إلى لون واحد فقد انطلق في مذاهب العشق  
والهوى كالثور المائج، كلّما دعت صبوة استجاب لها في  
نشوة وحاس. لم يَز في آية امرأة إلا جسداً، ولكنه لم  
يكن يخفي هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقاً حقاً بأن  
يرى ويلمس ويشمّ ويذاق ويسمع، شهوة نعم ولكنها  
ليست وحشية ولا عمية، بل هدّبتها صنعة، ووجّهاها  
فنّ فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جرّاً  
وطاّراً. فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه، فهو مثلها  
في الضخامة والقوّة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية  
ولكنّه - مثلها أيضاً - فيها ينطوي عليه في أعياقه من  
لطف ورقة ومودة على ما يتسرّب به أحياناً - متعمّداً  
من الصرامة والشدة. ولذلك فلم يتركز خياله  
النشيط - وهو يلتهم السلطانة بنظراته - في المضاجعة  
ونحوها ولكنه تاه - إلى هذا - في أفانين من أحلام  
اللهو واللعب والغناء والسمر. وأحسّت زبيدة بحرارة  
عينيه فقالت تخاطبه وهي تقلّب عينيها في وجوه  
المدعوّين بعجب ودلال:  
- حسبك يا عريس، هلّا استحييت حيال رفاقك!  
فقال السيّد متعجباً:  
- وما انتفاعي بالحياء حيال قنطار من اللحم  
والدهن!  
فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت في غاية من  
الانبساط:

- ما رأيكم في عصفوري يا أمه؟  
 وحدها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير في نفسها إجماع  
 هذه الطقطوقة التي توجت بها حوار تعارفها في حجرة  
 الاستقبال منذ أيام قلائل، ولكن جاء صوت من أقصى  
 البهو يصيح ساخرًا:  
 - الأولى أن تطلبها من أمك! . . .

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجّر من قهقهات  
 أفست على السيد خطته، وقبل أن يكرّر المحاولة  
 طلب نفر «يا مسلمين يا أهل الله» وطلب آخرون  
 «سلامتك يا قلبي» ولكنّ زبيدة التي تحاشت أن ترضي  
 فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم «على  
 روعي أنا الجاني» فاستقبلت بترحاب حارّ. ولم يجد  
 السيد بدءًا من توطئ النفس على الانبساط مستعينًا  
 بالشراب، وبأحلام ليلته الواعدة، فتألّق ثغره بابتسامة  
 وضيفة أدرك بها ركب النشاوى بلا كدر، بل وجد  
 عطفًا على رغبة المرأة في محاكاة الفحول إرضاء  
 لمستمعها الراسخين في السماع وإن لم يتخلّ حالها من  
 غرور تألفه الغواني. وفيها تهيّأت الجوقة للغناء نهض  
 أحد الرفاق وهتف بحماس:

- دعوا الدفّ للسيد أحمد فهو به خبير!  
 فهزّت زبيدة رأسها عجبًا وتساءلت:  
 - حقًا؟!

فحرك السيد أصابعه في سرعة ورشاقة كأنما يعرض  
 عليها مثالًا من صناعته فقالت زبيدة باسمه:

- فيمّ العجب وأنت تلميذ جلييلة!

وضحك السادة في غير ما تحفّظ، وتواصل الضحك  
 حتّى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلاً:

- وماذا تنوين أن تعلّميه أنت؟

فقالت بلهجة ذات معنى:

- سأعلّمه القانون. . . ألا يرولك هذا؟

فقال السيد باستعطاف:

- علّمني الهنك إن شئت.

وحثّ كثيرون السيد على الانضمام إلى التخت  
 وأخذ الدفّ فما كان منه إلّا أن نهض وخلع الحِجّة فبدأ  
 بطوله وعرضه في القفطان الكموني كجواد يقف

وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدّة التهيؤ  
 للطرب. وأومات العالمة إلى الجوقة فانطلقت تعزف  
 بشرف عثمان بك، وراحت الرعوس تذهب مع الأنغام  
 وتجيء، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذي جعل  
 يلذع قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد  
 طويل حافل بليالي الطرب كأنها ذرّات نفض تساقط على  
 جمر مكنون، أجل كان القانون أحبّ آلات الطرب إلى  
 نفسه - لا لمهارة العقّاد وحدها - ولكن لسرّ مستلهم  
 من طبيعة أوتاره، ومع أنّه كان يعلم أنّه يستمع إلى  
 العقّاد أو سي عبده إلّا أنّ قلبه العاشق دارى بعشقه ما  
 قصّر دونه الفنّ. وما إن فرغت الجوقة من عزف  
 البشرف حتّى انطلقت العالمة تنشد «والذي أسكر من  
 عذب اللها» فلحقت بها الجوقة في حماس، وكان أجمل  
 ما يطرب فيها صوتان متجاويان، أحدهما غليظ  
 عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة  
 لزنبوبة العوادة، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر  
 الكأس الذي بين يديه فأفرغه في جوفه واندفع يشارك  
 في إنشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته - عند مطلع  
 الغناء - بشرق في حلقه لاندفاعه إلى الإنشاد قبل أن  
 يتمّ بلع ريقه، وما لبث أن تشبّع بقيّة الرفاق فحدّوا  
 حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت  
 واحد. ولما ختم التوشيح تبيّأت روح السيد - بحكم  
 العادة - لاستماع التقاسيم والليالي ولكنّ العالمة ذبّلت  
 الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها  
 وعجبها، ومضت تهيّ أفراد الجوقة المستجدين مداعبة  
 وتسلّم عن الدور الذي يؤدّون سماعه، وانزعج السيد  
 في باطنه ومرت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالغناء  
 امتحانًا قاسيًا لم يفتن إليه كثيرون ممّن حوله، ولكنّه  
 أدرك في اللحظة التالية أنّ زبيدة ليست كفّاءًا لتقاسيم  
 الليالي شأن جميع العوالم بما فيهنّ «مجة كشر» نفسها،  
 فتمنّى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة ممّا تغني للسيدات  
 في الأفراح، مفضلاً هذا عن محاولة غناء دور من أدوار  
 الفحول ستعجز حتّى عن إجادة ترجمه، وصمّم على  
 أن يتفادى من المتاعب التي تخافها أذنه بأن يقترح أغنية  
 خفيفة تناسب حنجرة الست فقال:



بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرًا  
فتركتهم كأدواح راقصة في حومة عاصفة هوجاء.

ورويذاً رويذاً شارف الدور الختام وراحت زبيدة  
تختمه مرددة نفس المطلع الذي افتتحت به وهو «على  
روحي أنا الجاني» ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير  
والوداع والنهاية، وغابت الأنعام كما تغيب طيارة  
بحبيب وراء الأفق. ومع أن الختام قوبل بعاصفة من  
التهليل والتصفيق إلا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت  
دلّ على همود أنفُس أعيانها الجهد والانفعال، ومضت  
فترة لم يسمع فيها إلا سعلة أو نحنحة أو حكة عود  
ثقاب أو كلمة لا تستحقّ المراجعة، وقال لسان الحال  
للمدعوين «تفضّلوا بسلام» فلاحت من بعضهم  
نظرات إلى قطع الثياب التي تحفّفوا منها في فورة  
الطرب فوضعوها وراءهم على مساند، ولكنّ البعض  
الأخر مَن تعلّقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن  
يغادروها حتّى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق،  
فصاح أحدهم:

- لا نبرح حتّى نرّف السلطنة إلى السيّد أحمد.

وقبل الاقتراح بترحاب وتأييد، على حين أغرق  
السيّد والعائلة في الضحك غير مصدّقين، وما يدريان  
إلا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثمّ  
يشيرون إلى الجوقة لتشرع في النشيد السعيد.

وقفا جنبًا لجنب، هي كالمحوّل وهو كالجمل،  
عملاقين ملطفين بالحسن، ثمّ تأبّطت في دلال ذراعه  
وأشارت إلى المحدثين بهما ليفسحوا الطريق. ونفرت  
الدقّافة على الدفّ فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعوين  
يردّدون نشيد الرقة «انظر بعينك يا جميل» ومضى  
العروسان في خطر وثيد يتبختران طربًا وسكرًا فلم  
تتمالك زنوبة مع هذا المنظر إلا أن تمسك عن اللعب  
بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس  
لوتجسّدت لبدت لسانًا متعرجًا من لهب يشقّ الفضاء  
كالشهاب. وتسايق الأصدقاء يزجون النهائي تباهاً:

- بالرفاء والبنين.

- ذرّية صالحة من الراقصات والمغنيات.

وصاح به أحدهم محذّرًا:

مستوفزًا على رجله الخلفيتين، ثمّ شمّر عن ساعديه  
ومضى إلى الديوان ليأخذ مجلسه إلى جانب الستّ،  
ولكي تفسح له قامت نصف قومة مترحّلة إلى اليسار  
فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء  
مشربة بلون ورديّ من أثر الحفّ والتنفّ على أسفلها  
بخلخال ذهبيّ أعيا ضمّمها ذراعيه، ورأى بعضهم ذاك  
المنظر فصاح بصوت كالرعد:

- تحيا الخلافة!

وكان السيّد يغمز ثديي المرأة بعينه فهتف وراءه:

- قلّ يحيا الصدر الأعظم.

فصاحت العالمة محذّرة:

- خفّضوا أصواتكم أو يبيّتنا الإنجليز في السجن.

فهتف السيّد الذي لعبت الخمر برأسه:

- أذهب معك مؤبّدًا مع الشغل.

وعلا أكثر من صوت يقول:

- لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما.

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذي أثاره منظر

ساقها فمدّت يدها بالدفّ إلى السيّد وهي تقول:

- أربي شطارتك.

وتناول السيّد الدفّ، ومسح عليه براحته مبتسمًا،  
وبدأت أصابعه تنقر عليه في مهارة على حين انطلقت  
آلات الطرب عازفة، ثمّ غنّت زبيدة وهي ترنو إلى  
العين المحذّقة إليها:

على روحي أنا الجاني

ونجّلي في الهوى رمانى

ووجد السيّد نفسه في موقف عجيب، تنهّوا إليه

أنفاس السلطنة بين اللفّة واللفّة فتلقّي بإشعاعات

الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة، فما

أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولي وعثمان

والمنيلاي، وعاش في لحظته الراهنة قانعًا سعيدًا، ثمّ

سرى إليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستعر

نشاطه ولعب بالدفّ لعبًا لا يدانيه المحترفون، وما

بلغت المرأة في الغناء قوتها «أمانة يا رايح يمه تبوس لي

الحلو من فمه» حتّى كان من النشوة في سكرة عاتية

ملهمة مدغدغة محرقة، ولحق به الرفاق أو سبقوه إذ

- لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.

ولم تزل الجوقة تواصل الإنشاد، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضي إلى داخل الدار.

## ١٧

كان السيد أحمد جالساً إلى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار، ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة، إذ لم يكن من الطبيعي أن يزور الفتى أباه في دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته في بيته، وإلى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة... وأقبل على أبيه مكتئباً برفع يده إلى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسي نفسه، ثم قال بلهجة ثمت عن شديد تأثره:

- السلام عليكم يا أبي، جئت لأحدثك في أمر هام...

ورفع السيد إليه عينيه متسائلاً وقد ساوره قلق استعان على إخفائه بقوة إرادته ثم قال بهدوء:

- خير إن شاء الله...

وجاء جميل الحمزاوي بكرسي وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسي من مكان أبيه وجلس، وبدا لحظات كالمتروّد، ثم زفر نائراً بتردده وقال بنبرات متهذجة وفي اقتضاب مؤثر:

- المسألة أن أُمّي شارعة في الزواج...

ومع أن السيد توقع خيراً سيئاً إلا أن خياله لم يجنح في جولته التشاؤمية إلى تلك الناحية التي أودعها ركناً مهجوراً من ماضيه، لذلك لقيت منه المفاجأة صيداً غافلاً، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى، وتولاه لذلك ضيق، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة في صميم كرامته، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديداً ولكن ليلتمسوا منفذاً للنجاة من الواقع وهم يائسون، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروّي وتمالك الأعصاب، وسأله:

- ومن أدراك بهذا؟

- قريبها الشيخ حمدي، زارني اليوم بمدرسة النحاسين وألقى عليّ الخبر مؤكداً بأنه سيتم في ظرف شهر...

الخبر حق لا ريب فيه، وما هو بالأول من نوعه في حياتها، ولن يكون الأخير إذا اتخذ الماضي مقياساً للمستقبل، ولكن أيّ ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدّد الأذى؟ وجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفاً، وعزّ عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس في الملأت، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم!... فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه، ثم شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر، ولكنه لم يستسلم لها، إمّا لأنه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقاً واتساعاً وإمّا لأنه أنكرها على نفسه لما آسبها من حبّ استطلاع، لا يليق بالمسأة الراهنة، موجّه إلى المرأة التي كانت زوجاً له، بيد أن ياسين قال منفعلًا من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته:

- ونحن نتزوج!... من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز في الدراسة... في الثلاثين من عمره!

واشتد انفعاله وتهجّص صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما يلفظ شظية، فانتقل إحساسه إلى أبيه تقزراً واشمئزاً، وجعل يردّد في سرّه: في الثلاثين من عمره... يا له من عمل فاضح... إنّه فسق في ثياب زواج... غضب الرجل لغضب ابنه، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى إليه نبأ من مبادها كأنما يتجدّد شعوره بتبعته في اعتبارها يوماً زوجة له، أو كأنما يعزّ عليه - ولو بعد مرور ذلك الزمن الطويل - أنها أفلتت من تأديبه والإذعان لسنّته! وإنه ليذكر أيام معاشرته لها - على قصرها - كما يذكر الإنسان حمى هاضمته، ورتباً كان مغالياً في تصوّره، ولكن رجلاً في مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى في مجرد الرغبة عن الإذعان لمشيتته جريمة لا تغتفر وهزيمة

فقال ياسين في حزن وقنوط:  
- ولكنّها شيء كائن يا أبي!... ومهما يكن من أمر  
تعاهدنا فلن تزال أمي إلى ما شاء الله، سواء في نظري  
أم في نظر الناس جميعاً... لا مفّر ولا خلاص...  
ونفخ الشاب من الأعصاق، ورنا إلى أبيه بعينه  
السوداوين الجميلتين - اللتين ورثهما عنها - في استغاثة  
صارخة وكأنّه يقول له: «إنّك أبي الجبار القادر فمدّ لي  
يدك»، فبلغ التأثير بالسيد غايته ولكنّه واصل تظاهره  
بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلاً:  
- لا أنكر عليك تألّك ولكنّي أنكر عليك أن تغالي  
فيه، كذلك يطيب لي أن أعذرك على غضبك ولكنّ  
قليلاً من العقل حريّ بأن يردّك بلا عناء، سائل  
نفسك في هدوء ماذا عليك من زواجها؟... امرأة  
تتزوج، كما تتزوج النساء كلّ يوم وكلّ ساعة، وليست  
هي بالتي تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من  
سلوكها، بل لعلّها خليقة بأن تشكر عليه، وكما قلت  
لك مراراً لن يرتاح لك بال حتّى تسقطها من حسابك  
كانّها لم تكن، فافعل بالله وأرخ نفسك، وتعزّ - مهما  
يكن من أمر القليل والقال - بأنّ الزواج علاقة  
مشروعة... شريفة...

قال السيد هذا بلسانه فحسب - إذ كان يناقض كل  
المنافضة ما طبع عليه من غيرة متطرّفة فيما يتصل  
بالآداب المطلقة للأسرة - ولكنّه قال بحرارة كالصدق،  
منشئها ما مارسه من لباقة أهله لأن يكون الحكم  
الحكيم ووسيط الخير الذي لا يعجزه فضّ نزاع بين  
الناس، ومع أنّ كلامه لم يضع هباء - حيث إنّّه من  
المستحيل أن يضع كلام للسيد هباء حيال أحد من  
أبنائه - إلّا أنّ غضب الفتى كان أعمق من أن يتبحّر  
بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من إبريق بالماء  
المغلّي، وما لبث أن خاطب أباه قائلاً:

- هو علاقة مشروعة حقّاً يا أبي ولكنّها تبدو أحياناً  
أبعد ما تكون عن الشرع، إنّي أسأل نفسي عمّا يدفع  
هذا الرجل إلى الزواج منها؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه في  
شيء من السخرية «أولّ بك أن تسأل عمّا يدفعها

قتالة. ثمّ إنّها كانت - ولعلّها لا تزال - جميلة مترعة  
أنوثة وجاذبيّة فتعيم بمعاشرتها أشهراً حتّى بدا منها شيء  
من المقاومة لإرادته التي نزع إلى فرضها على المتصلين  
به من آله، ولم ترّ بأساً في الاستمتاع بالحرّيّة ولو بالقدر  
الذي يتيح لها زيارة أبيها من آنٍ لآن، فغضب السيد  
وحاول منعها بالزجر أوّلاً ثمّ بالضرب المبرّح أخيراً، فما  
كان من المرأة المدلّة إلّا أن فرّت إلى والديها وأعمى  
الغضب الرجل المتعجرف فظنّ أنّ خير سبيل إلى  
تأديبها وإرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلقها إلى  
حين - إلى حين طبعاً لأنّه شديد التعلّق بها - فطلقها،  
وتظاهر بإهمالها أيّاماً وأسابيع وهو ينتظر أملاً أن يجيئه  
وسيط خير من آلهاء، فلمّا لم يطرق بابها أحد داس  
كبرياءه وبعث هو بمن يجسّ النبض تمهيداً للصالح فعاد  
الرسول يقول إنهم يرحّبون به على شرط ألاّ يسجنها أو  
يضرّ بها!... ولكنّه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا  
شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيما بينه وبين نفسه  
ألاّ يضمّهما رباط إلى الأبد. هكذا ذهب كلاهما إلى  
حال سبيله، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيداً  
عن أبيه وأن يلقى من حياته في بيت أمّه ما لقي من  
ضروب المدلّة والالم...

ومع أنّ المرأة تزوّجت أكثر من مرّة، ومع أنّ الزواج  
كان - في نظر ابنها - أشرف سقطاتها، إلّا أنّ هذا  
الزواج الجديد المتوقّع بدا أظفّع من سوابقه وأمعن في  
الإيلام، لأنّ المرأة استوت على الأربعين من ناحية،  
ولأنّ ياسين اكتمل شاباً مدرّكاً بوسعه إذا شاء أن يدفع  
عن كرامته الإساءة والهوان من ناحية أخرى، فقد  
جاوز إذن موقفه القديم الذي ألزمه إيّاه حدّاته سنّه  
حين كان يتلقّى الأنباء المثيرة عن أمّه بالدهش  
والانزعاج والبكاء إلى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه  
رجلاً مستولاً، لا يصحّ له أن يلقى الإساءة مكتوف  
اليدين. دارت هذه الخواطر بذهن السيد، وقدر  
خطورتها بقلق، ولكنّه صمّم على التهوين من شأنها ما  
وسعته الحيلة ابتعاداً بابنه الأكبر عن المتاعب، فهزّ  
كتفيه العريضين متظاهراً بالاستهانة وقال:

- ألم نتعاهد على اعتبارها كشيء لم يكن!؟...

هي!»، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلاً:

- إنه الطمع... ولا شيء غيره!

- أو لعلها رغبة صادقة في الزواج منها...

ولكن الشاب هاج ناثره وهتف في حنق وألم معاً:

- بل الطمع وحده...

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة

اللهجة التي خاطبه بها ابنه، بل لم يتجمل الرجل من

ضيق إلى تقديره لحاله وحزنه أن يعود إلى توكيد قوله

السابق، فلما لم يفعل استطرد قائلاً في هدوء نسي:

- إن ما يدفعه إلى الزواج من امرأة تكبره بعشرة

أعوام هو الطمع في مالها وعقارها...

وجد السيد في تحول النقاش إلى هذه النقطة فائدة لم

تغب عن ألمعيته، فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره في

أمور أشد حساسية وأبعث للألم وبحسبه أن يصرفه عن

النظر فيما يدفع أنه إلى الزواج إلى ما يدفع الرجل،

وإلى هذا كله لم تخف عليه ما في رأي ابنه من وجهة

فيما يتعلق بالزواج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه

فيه. أجل إن هنية - أم ياسين - غنية لدرجة لا بأس

بها، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت

من تجارب الزواج والهورى، بيد أنها كانت فيما مضى

شابة حسنة ذات سحر وسلطان، يخاف منها ولا يخاف

عليها، أما الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها -

فضلاً عن أنفس الآخرين - ما ملكت، وإذن فثروتها

خليقة بأن تتبدد في معركة الغرام التي لم تعد من

رؤماتها، وإنه لحرام وأي حرام أن يخرج ياسين من

جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين، وقال

السيد مخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها

الرأي:

- أراك على حق يا بني فيما تقول، إن امرأة في سنّها

صيد يسير خليق بأن يغري الطماعين من البشر، فما

عسى أن نفعل؟ أنتلّس سبيلاً إلى ذاك الرجل لنحمله

على العدول عن مغامرته؟... إن الحملة عليه

بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به

بين الناس، كذلك التوسّل إليه بالرجاء والاقتناع مهانة

لا تهضمها كرامتنا... فلم يبق أمامنا إلا المرأة

نفسها!... ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من

قطيعة كانت بها - ولا تزال - خليقة، بل الحقّ أنّي لا

أرتاح إلى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما

استجدّ من أعدار قهرية، فللضرورة أحكام، ومهما

يشقّ عليك الرجوع فهو رجوع إلى أمك، ومن يدري

فلعلّ ظهورك المفاجئ في أفقها يردّها إلى شيء من

الصواب...

وبدا ياسين أمام أبيه، كالوسيط أمام المشوم

المغناطيسي في اللحظات التي تسبق ما يوحي به إليه،

ذاهلاً صامتاً، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل إلى نفسه،

أو لعلّه دلّ على أنّه لم يفاجأ بهذا الاقتراح، وأنّه يحتمل

أن يكون ممّا دار بنفسه قبل مجيئه، بيد أنّه تمتم قائلاً:

- ليس ثمة حلّ أوفق...؟

فقال السيد بقوة ووضوح:

- أراه أوفق الحلول...

فقال ياسين وكأنّه يحدث نفسه:

- كيف أرجع إليها؟... كيف أزعج نفسي في

ماضٍ فررت منه وليس أحبّ إليّ من أن يُبسر من

حياتي بترّاً... لا أمّ لي... لا أمّ لي...

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنّه وُفّق

إلى جذبه إلى رأيه فقال بلباقة:

- هذا حقّ، ولكن لا أظنّ أنّ ظهورك أمامها فجأة

بعد ذاك الغياب الطويل يمضي بلا أثر، لعلّها إذا رأتك

بين يديها شاباً ناضجاً أن تتحرّك أمومتها فتجفل ممّا

عساه يسيء إلى كرامتك وتعدل عن سيرتها... من يدري؟!

فطامن ياسين رأسه غارقاً في أفكاره، غير مبالي بما

دلّ عليه من ضيق ويأس، كان يرتعد خوفاً من وقوع

الفضيحة، ولعلّ هذا كان أفزع ما يكرّبه ولكنّ خوفه

على ضياع الثروة التي ينتظر أن يرثها يوماً لم يكن دون

ذلك، وما عسى أن يفعل؟!... مهما يقلّب أوجه

الرأي فلن يجد حلاً أوفق ممّا ارتأى أبوه، بل إنّ صدور

الرأي عن أبيه البسه في نظره - على تقلقل حاله -

وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة. ليكن... هكذا

قال في نفسه، ثمّ قال مخاطباً أباه:

- كما ترى يا أبي...

صاحبها ويقول «نية تطلب منك أن تحضر الليلة»، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير، أو وهو يلفت نظراً في الطريق إلى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيداً أن يلفت إليهما الأنظار، أو وهو ينشج باكياً أمام منظر الافتراس الوحشي الذي يخلقه خلقاً جديداً - كلما ورد على ذهنه - على ضوء تجاربه الراهنة فيقلب البشاعة نفسها، طفقت الصور الملتبته تطارده وهو يجد في الفرار منها، ولكنه ما إن يتملص من قبضة إحداها حتى يقع في قبضة الأخرى، مطاردة عنيفة وحشية أثارت في أعماقه بركان الحق والحقد فواصل السير إلى غايته وهو على أسوأ حال «كيف أرق إلى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان... وهذا الرجل. أترأه بموقفه القديم منه؟... لن ألتفت نحوه، أي قوة مأكرة تغريني بالنظر، أيعرفني إذا التقت عينانا؟... إذا بدا منه أنه عرفني قتلته. ولكن كيف له أن يعرفني؟... لا هو ولا أحد من الحي، أحد عشر عاماً، تركته غلاماً وأعود إليه ثوراً ذا قرنين! ثم لا تواتينا القوة على إبادة الحشرات السامة التي لا تنفك تلدغنا...؟

ومال إلى العطفة مسرعاً بعض الشيء، متخيلاً القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين «أين ومتى رأينا هذا الوجه!»، ورفي في الطريق المتصاعد في غير استواء، جامعاً عزمه على نقض الغبار الخائق عن وجهه ورأسه ولو إلى حين، وتشجيعاً لعزمه فر بنفسه بعيداً وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلاً: «لا تضيق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيراً وأنت تترحل على منحدره فوق لوح من الخشب!» بيد أنه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت: «إلى أين أسير؟... إلى أمي!... يا للتعجب. لا أصدق، كيف ألفاها وكيف تلتقاني!... وددت لو...» ومال يميناً إلى عطفة مسدودة ثم انجبه إلى أول باب في جانبها الأيسر. هو البيت القديم بلا أدنى شك، قطع الطريق إليه كما كان يقطعه وهو صغير، بلا تردد أو تساؤل وكأنه ما تركه إلا أمس القريب، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود، ورفي في الدرج

لما بلغت به قدماه طريق الجالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يختنق. لقد غاب عنه أحد عشر عاماً. أحد عشر عاماً تصرمت فلم ينازعه القلب إليه مرة واحدة، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته إلا في هالة قائمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واثته فرصة ففر منه فراراً، ثم ولّاه ظهره غاضباً يائساً، ثم تجبّه بكل قوة فلم يعرفه بعد ذلك كغاية في نفسه أو معبراً إلى سواه من الأحياء بيد أنه هو الحي كما عهده في طفولته وصباه، ولم يتغير منه شيء، ما زال ضيقاً تكاد تسده عربة يد إذا اعترضت سبيله، وما هي بيوته تكاد تتماس مشربياتها، ودكاكينه الصغيرة في تلاصقها وزحمتها والطينين الصادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلاً، وغلمان الذين يغشون جوانبه ويطبعون على أديمه آثار أقدامهم الخافية، وسابيلته الذين لا ينقطع لهم تيار، ومقل عم حسن ومطعم عم سليمان، كل أولئك باقي كما عهده فتكاد ترف على شفثيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يستر عنها لولا مرارة الماضي وسقم الحاضر...

وترأت لعينيه عطفة قصر الشوق فحفق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيه، ثم لاحظ على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض شفتيه وعض طرفه في خزي. الماضي ملطخ بالعار، مدفون الرأس في الطين من الحجل، دائم الجار بالشكوى من الخزي والألم، ولكنه كله في كفة وهذا الدكان في كفة وحده، بل إنه يرجح به، إذ أنه رمزه الحي الباقي على الزمن. جمعت في صاحبه وسلاله وفاكهته وموقعه وذكرياته الخزي متبجحاً، والألم ناطقاً بالهزيمة مولولة. وإذا كان الماضي أحداثاً وذكريات هي بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهداً مجسماً يكشف مخلخله ويفضح منسيه. وكان كلما تقدّم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاوياً الزمن على رغم إرادته وكأنه يرى في الدكان «غلاماً» يرفع رأسه إلى

وبالشجوش. وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنته نكاحاً متورماً وغاص في قيحه. ولم يطل انتظاره، ولعلّه جاء أقصر مما يتصور، إذ ابتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة، وصوت يتردد محاوراً نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن اللفاظه، ثم أحس بها - وهو لم يزل مولياً الباب ظهره - وضلفة الباب المغلقة تطفلق تحت صدمة منكبها، ثم جاءه هتافها وهي تقول بأنفاس مبهورة:

- ياسين!... ابني!... كيف أصدق عيني؟!... ربي... صار رجلاً!...

وتدافع الدم إلى وجهه المكتنز، واستدار نحوها في ارتباك وهو لا يدري كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء، ولكن المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت إليه واحتوته بذراعيها وضمت إليه بشدة عصبية وراحت تقبل صدره - وهو غاية ما وسع شفتها أن تبلغاه من جسمه المنتصب - ثم اختنقت نراها واغرورقت عيناها فدفنت وجهها في صدره مستسلمة ملياً ريثما تسترد أنفاسها. لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة، ومع أنه شعر شعوراً عميقاً ألياً بأن جموده أشد من أن يحتمل إلا أنه لم يبدر منه ما ينم عن حياة: أي حياة، فلازم جموده وخرسه، بيد أنه كان متأثراً غاية التأثير وإن لم يتضح له نوع التأثير بادئ الأمر بحال يطمئن إليها، ولكنه، على حرارة استقبالها، لم يجد رغبة للارتقاء في حضنها أو تقبيلها، لعلّه لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشئة في نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا، ومع أنه وجه إرادته بعزم وتصميم إلى إخلاء المسرح من الماضي في اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته، إلا أن الماضي المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالاً قائمة كذبابة نشأت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرثومة تسري، فأدرك في ذاك الموقف الرهيب أكثر مما أدرك في ماضيه كله الحقيقة المحزنة التي طالما أدمت فؤاده وهي أن أمه قد اقتلعت من صدره. ورفعت المرأة رأسها إليه وهي تدعوه إلى تقريب وجهه فلم يستطع الإباء وأدنى وجهه منها فقبلته في خديّه وجبينه، التقت أثناء العناق عيناها

بخطوات ثقيلة بطيئة. وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقاً بينه وبين صورته المحفوظة في خياله فالفاه أضيّق قليلاً مما في ذاكرته وقد تاكلت بعض جوانبه وتهدمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلّة على بشر السلم، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله. ومزّ وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى إلى الدور الأخير، ووقف لحظات يتنصّت وصدره يعلو وينخفض، ثم هزّ منكبها كالمستهين ونقر على الباب، وبعد دقيقة أو نحوها فُتح الباب عن وجه خادم متوسط العمر ما إن تبينت فيه رجلاً غريباً حتى توارت وراء الباب وهي تسأله في أدب عما يريد. واثارت أعصابه فجأة وبلا داعٍ معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة وأتمجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة أمرة:

- قولي لستك ياسين هنا...

«تري ماذا تظنّ الخادم بي؟... والتفت وراءها فوجدتها مسرعة إلى الداخل، إمّا لأن لهجته الأمرة غلبتها على أمرها، وإمّا... وعضّ على شفتيه وهو يرق إلى داخل الحجرة. إنها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعي في لهجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل، ولو وجد في ظرف غير الظرف لطف مسترجعاً ذكرياته من الحلم الذي كان يُحمل إليه وهو يبيكي إلى المشربية التي كان ينظر من وراء ثقبها إلى موكب الزفة مساء وراء مساء. تُرى أأثاث الحجرة الراهن هو أأثاث الماضي البعيد؟

إنه لا يذكر من الأثاث القديم إلا امرأة طويلة ثبتت في حوض مذهب تنبثق من ثغرات في سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان، وتركز في زاويتي المتباعدتين فناير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها إلى المكان فيلوح في حلق غريبة يذكر إغراءها وإن غاب عنه منظرها، ولكن لا داعي للتساؤل، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس، لا لجذته فحسب، ولكن لأن حجرة امرأة مزواج خليفة بأن تتغير أو تتجدد، كما تتغير أبوه، وتاجر الفحم،

صباح مساء بأن له أمًا، ولكن أي شيء وأي أشياء؟  
ورفع إليها عينيه في حيرة دون أن ينبس فالتقت  
عيناهما لحظة، وابتدرته المرأة قائلة:

- لماذا لا تتكلم؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال  
وكأنه لم يجد بداً مما قال:

- ذكرتك كثيراً، ولكن آلامي كانت أظفح من أن  
تطاق.

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذي ينبعث من  
نظرتها قد خمد، واحتلت الحدتين غمامة خيبة وفنور  
ساقتها رياح تهب من جوف الماضي الأسيف، فلم تعد  
تطبق التحديق في عينيه وخفضت جفניה وهي تقول  
بلهجة حزينة:

- ظننتك برئت من أحزان الماضي، وإنها علم الله  
لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حلك على  
هجري أحد عشر عاماً.

وعجب لعناها عجباً أحققه، واستنكره استنكاراً دُر  
على غضبه المكتوم فلفلاً فانفعل انفعالاً لولا القصد  
الذي جاء من أجله لثار بركانه، أتبعي المرأة حقاً ما  
تقول؟ أهان عليها ما فعلت لهذا الحد؟ أم نظن به  
الجهل بما كان؟ بيد أنه ضبط أعصابه بقوة إرادته التي  
لم تغفل عن هدفها وقال:

- تقولين إنها لا تستحق غضبي؟ ... أراها تستحق  
الغضب كل الغضب وأكثر.

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبه كشيء  
تهدم، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة:

- ما وجه العيب في أن تتزوج امرأة بعد طلاقها؟  
فشعر بنيران الغضب تنأجج في عروقه وإن لم تبدُ  
منها آثار إلا في انطباق شفثيه ثم التصاقهما، لا زالت  
تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها! ...  
وتساءل عن وجه العيب في أن تتزوج «امرأة» بعد  
طلاقها، حسن، لا عيب في أن تتزوج «امرأة» بعد  
طلاقها، أما أن تكون المرأة أمه فهذا شيء آخر، شيء  
آخر جدًّا، وأي زواج الذي تعنيه؟! ... إنَّه زواج  
وطلاق ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق؟ ... هناك

فلثم جبينها تأثراً بارتباكها وحيائه لا لعاطفة أخرى، ثم  
سمعها تغمغم:

- قالت لي ياسين هنا، قلت ياسين! من يكون  
هكذا؟! ولكن من يكون غيره؟ ليس لي إلا ياسين  
واحد، ذاك الذي حرّم بيتي على نفسه وحرّم نفسه  
عليّ، فإذا حدث؟ وكيف استجيب الدعاء آخر  
الدهر؟! وجئت عدوًّا كالمجنونة لا أصدق أذني، وها  
أنت، أنت دون غيرك والحمد لله، تركتني غلامًا  
وعدت إليّ رجلاً، كم قتلني الشوق إليك وأنت لا  
تحس لي وجودًا ...

وأخذته من ذراعه إلى الكنبه فمضى معها وهو  
يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من  
الاستقبال الحارّ حتى يتبيّن الطريق إلى هدفه، وجعل  
يسترق إليها النظر في استطلاع مقرون بالدهشة  
والقلق؟ ... كأنها لم تتغير إلا أن يكون جسمها قد زاد  
امتلاءً ولكنه لا يزال محافظاً على حسن تقطيعه، أما  
الوجه القمحي المستدير والعينان السوداوان المكحولتان  
فعل سابق عهدهما تقريباً من القسامة البارعة. ولم  
يرتج إلى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق  
كأنه كان ينتظر أن تغير أعوام القطيعة من دأبها القديم  
على العناية بنفسها وولعها بالترجّ لداعٍ ولغير ما داعٍ  
أي حتى في تلك الأوقات التي تخلو فيها إلى نفسها.  
وجلسا جنباً إلى جنب وهي تحدّق إلى وجهه بحنان تارة  
وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم  
تمتمت بصوت متهذّب:

- آه يا ربّي لا أكاد أصدق عيني، أنا في حلم، هذا  
ياسين! أيّ عمر ذهب هباء، كم دعوتك ورجوتك،  
وبعثت إليك الرسول تلو الرسول، ماذا أقول؟ ...  
دعني أسألك كيف قسا قلبك عليّ لهذا الحد؟ ...  
كيف أعرضت عن دعواتي الحارة؟ كيف تصاممت عن  
نداء قلبي المكروب؟ ... كيف ... كيف ... كيف  
نسيت أن لك أمًا منزوية هنا؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة  
تدعو إلى السخرية والرائء معاً، وكأنها أفلتت منها في  
ذهول الانفعال، أجل يوجد شيء وأشياء، تذكره

ما هو أدهى وأمره، ذلك «الفكهاني»!... أيدكرها به؟... أیضعها بما في نفسه من مرّ ذكرياته؟ أیصارحها بأنّه لم يعد جاهلاً كما تظنّ؟ وأرغمته حدّة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرّة فقال بامتعاض شديد:

- زواج وطلاق، زواج وطلاق، هذه أمور شائعة لم تكن لتليق بك، ولشدّ ما مرّقت نياط قلبي بلا رحمة... .

فشبكت ذراعها على صدرها في استسلام اليأس وقالت بإشفاق حزين:

- إنّه سوء الحظّ ولا شيء غيره، إنّ سيّئة الحظّ، هذا كلّ ما هنالك.

فبادرها قائلاً، وقد تقلّصت أساريه وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنّها يلفظ مستخبّئاً تعافه النفس:

- لا تحاولي أن تبرّئي ساحتك فما يزيدني هذا إلّا ألماً على ألم، من الخير أن نسدل على آلامنا ستاراً يخفيها ما دمنّا لا نستطيع أن نمحوها من الوجود محرّواً. ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق إشفاقاً شديداً من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه في نفسها من آمال، وجعلت تلحظه بقلق كأنّها تستخبره عمّا يطوي عليه صدره، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكّية:

- لا تلجّ في تعذيبي وأنت وحيدتي.

ووقع الكلام من نفسه موقعاً غريباً كأنّها يكشف له لأول مرّة، بيد أنّه وجد فيه باعثاً جديداً للهاج والتوتر، إنّه ابنها حقّاً، إنّها أمّه الوحيدة كذلك، ولكن

كم رجلاً!... وأشاح عنها بوجهه ليخفي ما ارتسم على صفحته من أي التقرّز والغضب ثمّ أغمض عينيه فراراً من ذكريات مناظر بشعة، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسّل:

- دعني أعتقد بأنّ سعادتي الراهنة حقيقة لا وهم، أجل حقيقة لا وهم، وبأنّك جئتني منفضاً عن قلبك أحزان الماضي كلّهُ إلى الأبد... .

فنظر إليها نظرة طويلة مركّزة وشت بخطورة أفكاره إلى حين، ولم يكن شيء في تلك اللحظة يستطيع أن

يعدل به عن النفاذ إلى غرضه ولو بتأجيله، فقال بصوت يدلّ على أنّ ألفاظه التي يتفوّه بها أقلّ بكثير من المعاني التي يوحى بها:

- هذا يتوقّف عليك أنت، فإن شئت كان لك ما تحبّين... .

فتجلّت في عيني المرأة نظرة قلق ثمّت عمّا تعاني من إجماء الخوف وقالت:

- إنّني أرغب في مودّتك من أعماق قلبي، وطالما تمّنتها، وكم سعيت إليها فردّدتني بلا رحمة. ولكنّه كان مشغولاً عن كلامها الحارّ بما يضطرب في ذهنه فقال:

- بيدك ما تتمنّين، بيدك أنت وحدك، إذا جعلت من الحكمة رائدك.

فتساءلت المرأة في انزعاج:

- ماذا تعني؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمّر:

- مضمون كلامي واضح، هو أن تعدلي عمّا لو صحّ ما بلغني عنه لكان فيه الضربة القاضية عليّ! فأتسعت عيناها وتجهّم وجهها في يأس غير خافٍ، وتمتمت وهي لا تدري:

- ماذا تعني؟

بيد أنّه ظلّ أنّها تصرّ على التجاهل فقال بغیظ:

- أعني أن تلغي مشروع الزواج الجديد، وألا تسمح لي لنفسيك بمعاودة التفكير في شيء من هذا القبيل، لم أعد طفلاً، وليس بصبري متّسع لطعنة جديدة.

أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنّها أخذتها سيّنة من النوم، ثمّ رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في وجهها أعمق ممّا قدّر، ثمّ قالت بصوت ضعيف وكأنّها تخاطب نفسها:

- إذن جئت من أجل هذا؟! ودون تفكير فيما يقول قال:

- نعم!

فوقع جوابه كطلفة نارية فإذا بكلّ شيء حوله يتغيّر ويتبدّل سريعاً، ويكفهر الجوّ. وقد استرجع فيما بعد -



هذه الفضيحة بأيّ ثمن.  
ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها مثل قفص  
بالبرودة وهي تقول:  
- وماذا يهمك منها؟  
فصاح في دهش:  
- كيف لا تهمني فضيحة أمي؟!  
فقالت في حزن مشوب بما تيسر من التهمك:  
- أنت في الحق لا تعذني أمّا لك.  
- ماذا تعنين؟  
فغمغمت في يأس متجاهلة تساؤله:  
- ما دمت قد خلعتني من نفسك فيجدر بك أن  
تدعني وشأني.  
فهتف غاضباً:  
- حسبي ما كان، لن أسمح لك بتلويث سمعي  
من جديد.  
فقالت وهي تزدد ريقها:  
- لا شيء هنالك ممّا يلوث السمعة، والله شهيد.  
فسألها مستنكراً:  
- أنصرين على هذا الزواج؟  
فصمتت ملياً، مطرقة محزونة غارقة في اليأس، ثم  
نذت عنها تنهدة عميقة، ثم قالت بصوت لا يكاد  
يسمع:  
- قضي الأمر، وكتب العقد، ولم يعد بوسعي منعه!  
فانتفض ياسين قائماً وقد تصلّب جسمه البدين  
وعلت وجهه صفرة وركّز بصره في رأسها المطرق وهو  
يغلي غضباً، ثم صاح بها بصوت كالزئير:  
- يا لك من امرأة... مجرمة...  
فغمغمت بصوت مغموس يدلّ على الاستسلام  
المطلق:  
- ساعحك الله.

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف... ممّا نظنّ أنّه  
يجهله... من ماضي سيرتها، بحديث «الفكهاني»  
الأسود، قذيفة يصبها على رأسها بغتة فتنتثر إرباً ويثار  
بها أفضع الثأر، وتوهج في عينيه بريق خفيف تطاير من  
تحت جبهة عابسة مكفّهة تجمعت في أحاديدها نُذر

وهو خالٍ إلى نفسه - ما دار من حديث بينه وبين أمّه  
في هذه المقاتلة فأقرّ أقواله جميعاً حتّى بلغ هذا الجواب  
الآخر فتردّد حياله لا يدري أخطأ أم أصاب، وظلّ  
على تردّد طويل. أمّا المرأة فقد غمغمت وهي تنظر  
فيها أمامها:  
- لشدّ ما أتمنّى أن أكذب أذني.

وأدرك أنّه تعجّل بعد فوات الفرصة، وسخط على  
نفسه حانقاً، ثمّ صبّ سخطه على ما حوله. فاندفع  
قائلاً بلا وعي مدارياً خطاه بما هو أمعن في الخطأ:  
- إنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب،  
وكنت أنا دائماً الضحية التي تتلقّى الإساءة بلا ذنب  
جنته، وقد ظننت العمر رادك إلى شيء من العقل فما  
أعجب إلا لقائل يقول إنك شارعة في الزواج من  
جديداً... يا لها من فضيحة تتجدّد كلّ بضعة أعوام  
كان لا نهاية لها...

من شدة اليأس راحت تصغي إليه فيما يشبه  
اللامبالاة، ثمّ قالت بأبى:  
- أنت ضحية، وأنا ضحية، كلانا ضحية لما  
يوسوس به إليك أبوك وتلك المرأة التي تعيش في  
كنفها!

وعجب لهذا الانحراف في مجرى الحديث الذي بدا  
له مضحكاً، يتبدّ أنّه لم يضحك، ولعلّه ازداد غضباً  
وهو يقول:

- ما دخل أبي وزوجه في هذا الشأن!... لا  
تتملّص من فَعالك بلقاء التهم في وجوه الأبرياء.  
فهتفت بصوت يشبه الرنين:  
- ما رأيت ابناً أقسى منك!... أهذا خطابك لي  
بعد فراق أحد عشر عاماً!

فلقّح بيده في احتجاج غاضب وقال بحدّة وسخط:  
- الأمّ الخاطئة خليفة بأن تلد ابناً قاسياً.  
- لست خاطئة... لست خاطئة... ولكنك  
قاسٍ غليظ القلب كأبيك.

فنفخ في ملل وصاح بها:  
- رجعنا إلى أبي!... حسّنا ما نحن فيه... اتقي  
الله وتراجعي عن الفضيحة الجديدة... أريد أن أمنع

والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة، أنسيه كأنما لم يكن هو  
الباعث الأول لهذه الزيارة...!

١٩

فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها وهي  
تقول برقتها المعهودة:

- أفي حاجة إلى خدمة يا سيدي الصغير؟

فجاءها صوت فهمي قائلاً:

- تعالي يا نينة، خمس دقائق فقط...

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفاً أمام  
مكتبه يلوح في وجهه الجذ والاهتمام فأخذها من يدها  
إلى كنبه غير بعيدة من الباب وأجلسها ثم جلس إلى  
جانبها وهو يتساءل:

- ناموا جميعاً؟

وأدركت المرأة أنها لم تُدعَ لتقديم خدمة عابرة وإلا  
ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام  
بسرعة إلى نفسها المطوعة للإيحاء وقالت تحييه:

- ذهبت خديجة وعائشة إلى حجرتها في معياد كل  
ليلة، أما كمال فقد تركته الآن في فراشه.

كان فهمي يترقب هذه اللحظة منذ أوى إلى حجرة  
المذاكرة عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز  
انتباهه في الكتاب الذي بين يديه، وجعل يتابع، بين  
أونة وأخرى، أحاديث أمه وشقيقتيه في جزع لا يدري  
متى ينتهين، ثم إلى أمه وكمال وهما يحفظان معاً جملة  
من سورة عم. حتى ساد الصمت ثم جاءت أمه  
لتحييه تحية المساء فدعاها إليه وقد تناهى به توتر  
الانتظار. ومع أن أمه بدت كالحمامة الوديدة، ومع أنه  
لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف، إلا أنه وجد  
عسراً في التعبير عما يريد الإفصاح عنه، فعلاه ارتباك  
الحياء، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن  
يقول مختلج الجفنين:

- دعوتك يا نينة في أمر يهمني جداً.

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفاً  
أو شبيهاً بالخوف وقالت:

- إني مصغية إليك يا بني...

الشّر والوعيد، وفغر فاه ليطلق قذيفته، ولكنّ لسانه لم  
يتحرك، التصق بسقف حلقه كأنما جذبته إليه مخّه الذي  
لم يُعِمه العناء عن البلاء، ومَرّت اللحظة الرهيبة في  
سرعة الزلزال الخاطف الذي يشعر فيه الإنسان  
بأنفاس الموت تتردّد على وجهه لحظات ثم يعود كلّ  
شيء إلى مستقرّه، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف  
وجبينه يسبح عرقاً بارداً. وقد ذكر موقفه هذا - فيما  
بعد - فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح  
لتراجعهِ كلّ الارتياح وإن عجب له أشدّ العجب،  
وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه إنمّا تراجع رحمة  
بنفسه لا رحمة بها وكأنه تسرّ على كرامته لا على  
كرامتها وإن لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر!

وأفرغ غضبه في كفيه فجعل يضرب واحدة على  
الأخرى ويقول:

- مجرمة... فضيحة مجسّمة... كم سأضحك  
من غيائي كلّما أذكر أنني أملت خيراً من هذه  
الزيارة... (ثم بلهجة تهكميّة)... إني أعجب  
كيف طمعت بعد هذا في مودتي!

فجاءه صوتها وهو يقول في انكسار وحسرة:

- متّني نفسي أن نعيش على مودة رغم كلّ  
شيء... وبعثت زيارتك المفاجئة في قلبي آمالاً حارة  
خيّل ليّ معها أنّي أستطيع أن أهبك أسمى ما في قلبي  
من حب... بلا كدر.

وابتعد عنها متفهقراً كأنما يفرّ من لين كلامها الذي  
لم يعد شيء يورث غضبه مثلما يؤرّثه. وشعر حائقاً  
يائساً بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه في هذا الجو  
الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمّته إلى الخارج:

- وددت لو أستطيع قتلك...

فغضّت بصرها وقالت في حزن بالغ:

- لو فعلت لأرحمتني من حياتي...

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة  
مظلمة بالملت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتجّ  
تحت وقع قدميه. وعندما انتهى إلى الطريق، وأخذ  
يثوب إلى نفسه، ذكر لأول مرة أنه نسي حديث العقار

يراه الغير شيئاً عادياً...  
 فقطب فهمي قائلاً:  
 - ليس في الأمر ما يدعو إلى الغضب أو الاعتراض.  
 - هذا رأيي...!  
 - وغني عن البيان أنّ الزواج سيؤجل حتى أنتم  
 دراستي وأجد نفسي عملاً...  
 - طبعاً... طبعاً...  
 - فيم يكون الاعتراض إذن؟!  
 فنظرت إليه نظرة كأنما تقول له: وومن ذا يحاسب  
 أباك إذا أراد أن يبنذ المنطق جانباً؟ هي التي لم تعرف  
 حياله إلا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ، عدل أم  
 ظلم، بيد أنها قالت:  
 - أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول...  
 فقال الشاب بحماس:  
 - لقد تزوّج أبي وهو في سنيّ هذه. ولست أقصد  
 شيئاً من هذا، ولكنّي سانتظر حتى يكون الزواج طبعياً  
 لا اعتراض عليه من أيّ ناحية...  
 - ربّنا يحقّق رجاءنا...  
 وسكنا إلى الصمت ملياً وهما يتبادلان النظرات،  
 مجتمعين في فكرة واحدة وهما عن بدهاة يدریان إذ كان  
 كلاهما يفهم صاحبه خير فهم، ويقرأ ما يدور بخاطره  
 في غير ما عسر. ثمّ قال فهمي مفصّحاً عمّا يشغلها  
 معاً:  
 - بقي أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع...!  
 وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق  
 روحها، وأدركت أنّ ابنها الأريب يذكرها بالسواجب  
 الذي لا يستطيع أن يؤدّيه أحد سواها بالأسرة، ولم  
 تعترض على هذا لأنّه لا سبيل غيره، إلّا أنّها قبلته على  
 كره كما تقبل أموراً كثيرة وهي تسأل الله حسن العاقبة،  
 وقالت برقة وعطف:  
 - ومن غيري يفاتحه؟... ربّنا معنا...  
 - إني آسف... لو كان بوسعي أن أفاتحه لفعلت.  
 - سأحدّثه، وسوافق بإذن الله. مريم فتاة جميلة،  
 مؤدّبة، من أسرة كريمة...  
 وسكنت لحظة ثمّ استدركت متسائلة كأنما خطر لها

فتنفّس تنفّساً عميقاً ليخفّف عن أعصابه وقال:  
 - ما رأيك فيما لو... أعني أليس من الممكن  
 أن...  
 وتوقّف متردّداً، ثمّ غير لهجته قائلاً برقة وتردّد  
 وارتباك:  
 - ليس لي من أفضي إليه بدخيلة نفسي إلّا أنت...  
 - طبعاً طبعاً يا بنيّ.  
 فقال متشجّعاً عمّا قبل:  
 - ما رأيك إذا اقترحت عليك أن تخطبي لي مريم  
 بنت جارنا السيّد عمّد رضوان...؟  
 وتلقّت أمانة كلماته بدهشة أوّلاً، فأجابته أوّل ما  
 أجابت بابتسامة تدلّ على الحيرة أكثر من الفرح ثمّ  
 انقشع الخوف الذي قبض صدرها حيناً وهي تترقّب  
 إفصاحه عمّا يريد، ثمّ اتّسعت ابتسامتها وأشرقت  
 معلنة عن سرور صافٍ، وتردّدت لحظات لا تدري  
 ماذا تقول، ثمّ اندفعت قائلة:  
 - أهذه رغبتك حقّاً؟... سأقول لك رأيي  
 صراحة... إنّ يوماً أمضي فيه لأخطب لك بنت  
 الحلال هو أسعد أيام حياتي...  
 فتورّد وجه الشاب وقال بامتنان:  
 - شكراً لك يا أمّاه...  
 ورنّت إليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء:  
 - يا له من يوم سعيد، لقد تعبت كثيراً وصبرت  
 كثيراً، وليس بالكثير على الله أن يجزييني على تعبتي  
 وصبري بمثل هذا اليوم المرجّي، بل بأيّام مثله كثيرة  
 ليقرّ عيني بك، وبأختيك خديجة وعائشة...  
 وغابت عيناها في رؤى الأحلام السعيدة التي بدا لها  
 ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها في قلق كقطة أقبل  
 نحوها كلب، وتمتمت في إشفاق:  
 - ولكن... أبوك؟!  
 وابتسم فهمي تمتعاً وقال:  
 - من أجل هذا دعوتك للمشاورة...  
 ففكرت المرأة قليلاً ثمّ قالت وكأنّها تخاطب نفسها:  
 - لا أدري ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء؟ أبوك  
 شخص غريب، غير الناس جميعاً، وقد يرى جريمة فيما

الخاطر لأول مرة:

- ولكن أليست هي في مثل سنك أو تزيد؟!

فقال الفتى جزعاً:

- لا يهمني هذا بتاتاً!

فقالت مبتسمة:

- على بركة الله، ربنا معنا... «ثم وهي تنهض»

أدعك الآن لعناية المولى، وإلى الغد...

ومالت نحوه وقبلته ثم غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها. لكن كم أدهشها أن ترى كمال جالساً على الكنبه مكباً على كرّاسة بين يديه فهتفت به:

- ما الذي عاد بك إلى هنا؟

فنهض الغلام مبتسماً في ارتباك وقال:

- تذكرت أنني نسيت كرّاسة الإنجليزي فعدت

لأخذها ثم بدا لي أن أستعيد الكلمات مرة أخيرة.

وذهبت معه مرة أخرى إلى حجرة النوم ولم تتركه

حتى تمثّد تحت الغطاء، ولكنّه لم ينم. وكان النوم

أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التي تنبعث في

شعوره، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى إلى

سمعه وقع أقدام أمّه وهي ترقى السلم إلى الدور

الأعلى، ثم فتح الباب وجرى إلى حجرة شقيقته ودفع

بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق

بالصالة منفذاً يضيء منه جانباً من الظلمة الغاشية في

الداخل، وهرع إلى الفراش وهو يهمس «أبلة

خديجة!» فجلست الفتاة في الفراش دهشة فوثب إلى

جانبها وهو يلهث من الانفعال، وكأنّه لم يقنع بمستمعة

واحدة ليستودعها السرّ الذي أطار النوم من عينيه فمدّ

يده إلى جسم عائشة وهزّه، ولكنّ الفتاة كانت قد

تنبّهت إلى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت

رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة:

- ماذا جاء بك الآن؟

لم يأبه لللهجة الاحتجاج لأنّه كان على يقين من أنّ

كلمة واحدة يشير بها إلى سرّه خليقة بأن تقلبها رأساً

على عقب، وقفز لهذا قلبه بهجة وسروراً، ثم قال

هامساً كأنّه يحاذر أن يسمعه رابع:

- عندي سرّ غريب...

فسألته خديجة:

- أيّ سرّ هذا؟!... هات ما عندك وأرنا

شطارتك...

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال:

- أخي فهمي يريد أن يخاطب مريم...

عند ذاك جلست عائشة في الفراش بدورها في

حركة آليّة سريعة كأنّها التصريح رشّة ماء بارد ألقيت

في وجهه وسنان، وتقاربت الأشباح الثلاثة في شكل

هرميّ كما بدا على الضوء الخافت النافذ إلى الحجرة

والمنعكس على أرضها فيما يلي الباب المفتوح على هيئة

متوازي الأضلاع مذبذب الأطراف تبعاً لدبذبة ذبالة

المصباح الذي تعرّض - بترك الباب مفتوحاً - إلى تيّار

وإن نسّم من خصائص النافذة إلى الصالة في لطف

همسات تذيع سرّاً، ثمّ تساءلت خديجة في اهتمام:

- كيف عرفت هذا؟

- تركت فراشي لأحضر كرّاسة الإنجليزي، وعند

باب أخي جاءني صوته وهو يتكلّم فلبدت في

الكنبة...

ثمّ أعاد على مسمعيهما ما تسرّب إليه من وراء

الباب الموارب وهما تنصتان إليه في اهتمام ملّك عليهما

الأنفاس حتى فرغ من حديثه، وهنا تساءلت عائشة

كأنّ بها حاجة إلى المزيد من الاقتناع:

- أتصدّقين هذا؟

فقالت خديجة بصوت كأنّه ينبعث من تليفون بمدينة

بعيدة:

- أنتصوّرين أن يخترع هذا «مشيرة إلى كمال» حكاية

طويلة عريضة كهذه؟

- لك حقّ «ثمّ ضاحكة لتخفّف من حدّة اهتمامها»

اختلاق موت غلام في الطريق شيء، أمّا هذه الحكاية

فشيء آخر.

فتساءلت خديجة دون أن تلقي بالاً إلى احتجاج

كمال الذي اعترض على التعريض به:

- كيف وقع هذا يا ترى؟!

فضحكت عائشة قائلة:

- ألم أقل لك مرةً إنّي أشكّ في أنّ اللبّاب هو الذي

جملة من العيوب والنقائص، بُدِّ أنها لم تتالك نفسها -  
حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التي لخديجة  
منها أكبر نصيب - من أن تبسم مستتر بالظلمة،  
ونحاشت إثارتها فقالت بتسليم:  
- لندع الأمر لله . . .

فقالت خديجة بثقة وإيمان:  
- الأمر لله في السماء ولأي في الأرض وسوف نرى  
ماذا يكون رأيه غداً . . . «ثم موجّهة الخطاب إلى  
كمال» . . . آن لك أن تعود إلى سريرك بسلام.  
عاد كمال إلى حجرته وهو يقول لنفسه «لم يبقَ إلّا  
ياسين، وسأخبره غداً» . . .

## ٢٠

جلست خديجة وعائشة القرصاء متواجهتين لصق  
الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى  
وهما تكتبان أنفاسهما في حذر وتعدّان أذانهما إلى الداخل  
في اهتمام وتلقّف. كان الوقت قبيل العصر بقليل،  
وكان السيّد قد نهض من قيلولته فتوضّأ وجلس كعادته  
يحتسي القهوة منتظراً الأذان ليصلي قبل عودته إلى  
الدكان، فتوقّعت الأختان أن تفتح الأم أباهما في الأمر  
الذي أنبأهما عنه كمال، إذ لم يكن أنسب لذلك  
الغرض من هذا الوقت. وتناهى إليهما من الداخل  
صوت أبيهما الجمهوريّ وهو يتحدث عن أمور البيت  
العاديّة فانصتتا في جزع وترقّب وهما تتبادلان النظر  
متسائلتين حتّى سمعتا أخيراً الأم وهي تقول في أدب  
بالغ ولهجة خاشعة:

- سيّدي، إذا أذنت لي حدّثتك عن شأن رجائي  
فهمي أن أبلغك إيّاه.

عند ذاك أوامات عائشة بذقتها إلى الداخل كسأها  
تقول «هذا هو الحديث» على حين راحت خديجة  
تتخلّل حال أمّها وهي تنهّياً للكلام الخطير فرق قلبها  
لها وعظّت على شفقتها في إشفاق شديد، ثم جاءها  
صوت السيّد وهو يتساءل:

- ماذا يريد؟

وساد الصمت قليلاً، أو طويلاً بالقياس إلى اللتين

يدعو فهمي إلى السطح كلّ يوم؟!

- إته اللباب الآخر الذي التفت حول ساقه هو.

فترنّمت عائشة بصوت خفيض:

- لا ملام عليك يا عيوني في حبّه.

فنهرتها خديجة قائلة:

- هس . . . ليس هذا وقت الغناء . . . مريم في

العشرين وفهمي في الثامنة عشرة . . . كيف توافق نينة  
على هذا؟!

- نينة؟! . . . نينة حمامة وديعة لا تدري كيف تقول  
لا، ولكن صبراً، أليس من الحق أن أقول إنّ مريم  
جميلة وطيّبة؟! . . . ثم إنّ بيتنا هو البيت الوحيد في  
الحبي الذي لم يعرف الأفراح بعد . . .

كانت خديجة - كعائشة - تحبّ مريم، ولكنّ الحب  
لم يستطع أبداً أن يخفي عن عينيها مواضع الانتقاد في  
المحبوب أيّما كان شأنه، فلم يكن يعجزها - عند  
الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب، ولمّا  
كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة، وغيرتها، فقد  
انقلبت على صديقتها دون مشقّة، وأبى قلبها أن يقبلها  
زوجة لأخيها، ومضت تقول:

- مجنونة أنت؟! . . . مريم جميلة ولكنّها دون فهمي  
بمراحل بعيدة . . . فهمي يا حمارة طالب بالعالى،  
وسيكون قاضياً يوماً ما، فهل تتصوّرين مريم زوجاً  
لقاضٍ كبير المقام؟! . . . إنّها مثلنا على أكثر تقدير،  
بل هي دوننا في أكثر من ناحية ولن تتزوّج إحداها  
بقاضٍ . . .

وتساءلت عائشة في نفسها: «من قال القاضي  
أحسن من الضابط؟!» ثم سألتها محتجّة:

- لم لا؟!

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها:

- يستطيع فهمي أن يتزوّج بفتاة أجمل من مريم  
مائة مرّة، وفي نفس الوقت تكون متعلّمة وغنيّة وبنت  
بك أو حتّى بنت باشا، فلماذا يتسرّع بخطبة  
مريم؟! . . . ما هي إلّا أميّة طويلة اللسان، أنت لا  
تعرفينها كما أعرفها . . .

وأدركت عائشة أنّ مريم انقلبت في نظر خديجة إلى

خديجة ارتياح، ثم سمعا صوت الأم المستخذي وهي تقول:

- لا تجشّم نفسك مشقة الغضب يا سيدي، كلّ شيء يهون إلّا غضبك، ما قصدت من ناحيتي إساءة قطّ، ولا تحيلها ابني وهو يحملني رغبته براءة، ولكنّه رجائي بحسن نيّة فرأيت أن أعرض الأمر عليك، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه إياه، وسيدعن له بكلّ خضوع كما يذعن لأمرك دائماً...

- سيدعن أراد أم لم يرد، ولكنّي أريد أن أقول لك إنّك أمّ ضعيفة لا يرجى منها خير...  
- إني أتعهدهم بما توصي به...

- خبريني عمّا دعاه إلى التفكير في هذا الرجاء؟  
وأرهفت الفتاتان السمع في اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذي لم تتوقّعه، ولكنّها لم تسمعا لأمتها جواباً وتصوّراتها وهي ترمش في ارتباك وخوف فعطف قلبهما في إشفاق شديد:

- ماذا أخرسك؟... خبريني هل رآها؟  
- كلّاً يا سيدي، إنّ ابني لا يرفع عينيه إلى جارة ولا إلى غيرها...

- كيف رغب في خطبتها دون أن يراها؟... ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون النظر إلى حرّمت الجيران!

- معاذ الله يا سيدي معاذ الله... إنّ ابني إذا سار في الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهو في البيت لا يكاد يغادر حجرته إلّا لضرورة...

- ما الذي دعاه إلى طلاها إذن؟  
- لعلّه يا سيدي سمع شقيقته وهما تتحدّثان عنها...

وسرت في بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما في فزع وهما تنصتان...

- ومتى كانت شقيقته خاطبتني!... يا سبهان الله أينبغي أن أهجر دكاني وعملي وأقع في البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهتفت الأم في نبرات باكية:  
- بيتك أشرف البيوت، بالله يا سيدي إلّا ما هوّنت

تسترقان السمع، ثمّ قالت المرأة برقة:

- فهمي يا سيدي شابّ طيّب، حاز رضاك بجده وتفوّقه وأدبه، حماه الله من شرّ الأعين، ولعلّه بلغني رجاءه إلهاماً بمنزلته عند والده...  
فقال الأب بلهجة تحيلته معها راضياً:  
- ماذا يريد؟... تكلمي.

ومال رأسهما نحو الباب وكلّ منهما تحملق في الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول:

- سيدي يعرف جازنا الطيّب السيّد عمّاد رضوان؟...  
- طبعاً...

- رجل فاضل مثل سيدي وأسرة كريمة وجيران ولا كلّ الجيران...  
- نعم...  
واستطردت بعد تردّد:

- فهمي يسأل يا سيدي هل يجوز له والده أن...  
يخطب مريم كريمة جازنا الطيّب لتبقى على ذمّته حتّى يصير أهلاً للزواج؟

وهنا علا صوت السيّد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار:

- يخطب؟!... ماذا تقولين يا وليّة؟... هذا الغلام!... ما شاء الله... أعيدي على سمعي ما قلت...

فقال الأم بصوت متهدّج وقد تحيلتها خديجة وهي تنكمش في ذعر:

- ليس إلّا أنّه يتساءل، مجرّد تساؤل يا سيدي والأمر لك...

فقال الصوت المتفجّر بالغضب:

- لا عهد لي ولا له بهذا التدلّل المائع، ولا أدري ما الذي أثلّف تلميذاً حتّى يتبادى في مطالبه إلى هذا الحدّ؟... ولكنّ أمّا مثلك خليفة بأن تفسد أبناءها، فلو كنت أمّا كما ينبغي لما جسر على مفاحتك بمثل هذا الهذر الوقح...

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما في قلب

التقى ببعض الأصدقاء فقصّ عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجة لأنه يكره أن يلقي أحداً بالفاجعات، ولكن كدعابة سخيفة، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم، فغادروه وهو يهقه في غير تحفظ... بدت له «النادرة» في الدكان على غير ما بدت في حجرته بالبيت. وأمكنه أن يضحك منها، بل وأن يعطف عليها، حتى قال لنفسه أخيراً باسماً راضياً «من شابة أباه فما ظلم»...

## ٢١

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشياً الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التي قل أن تتاح له في مثل ذاك الوقت المتأخر إلا زهوه بالرسالة الشفوية التي حمّله إياها فهمي، فلم يغب عنه أنه عهد بها إليه وحده دون غيره، في جو من السرية والتكتم الأمر الذي أضفى عليها - وعليه بالتالي - أهمية خاصة أحسنها قلبه الصغير ورقص لها طرباً وفخاراً. وتساءل في عجب عما زلزل فهمي حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا في لباسها القاتم شخصاً غريباً لم يره ولم يسمعه من قبل، هو مثال وحده، إن أباه يشور كالبركان لأتفه الأسباب، وإن ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب، حتى خديجة وعائشة لا تحلوان من نوبات عفرته، هو مثال وحده، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب، وهذوه عميق على صدق عواطفه وأصالة حماسه، فلم يذكر أنه رآه على الحال التي رآه عليها اليوم. لن ينسى كيف خلا إليه في حجرة المذاكرة، بصر زائغ وصوت متهذج، ولا كيف خاطبه لأول مرة في حياته بلهجة توّسل حارة عجب لها أشدّ العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التي حملها أن تكرر عليه مرّات ومرّات. وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أنّ للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذي استرق السمع إليه من وراء الباب، والذي نقله إلى شقيقته فائزاً بينها جدلاً ونزاعاً، وبالجملة أنه يتعلّق بمريم، تلك الفتاة التي كثيراً ما تعابته ويعابها، ويأنس إليها

عليك الغضب، انتهى الأمر وكأنّ ما كان لم يكن... فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد:

- قولي له أن يتأذّب ويستحي ويلزم حدوده، وأن من الخير أن يتفرّغ لدروسه...

وسمعت الفتاتان حركة في الداخل فقامتا في حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما...

رأت الستّ أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها إذا ندّ عنها عفواً ما يثير غضبه فلا تعود إليها بعد ذلك إلا إذا دعاها، إذ علّمتها التجربة أنّ مكثها بين يديه حال الغضب ثمّ سعيها إلى تسكينه بريق الكلام لا يزيد النار إلا استعاراً. ووجد السيّد نفسه وحيداً فزايّلته آثار الغضب المحسوسة التي تثور عادة في عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه، ولكن بقي الغضب في أعماق صدره كالعكارة في قعر القدر.

من المحقّق أنّه كان يغضب في البيت لأتفه الأسباب لا اتباعاً لحظته الموضوعية في سياسة بيته فحسب، ولكن مدفوعاً كذلك بحدة طبعه التي لا تشكّمها بين آله فرملة الكياسة التي يتقن استعمالها خارج البيت، وربّما ترويحاً عما يعاني بين الناس كثيراً من ضبط النفس والتسامح واللفظ ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأيّ ثمن، وليس بالندر أن يتضح له أنّه استسلم للغضب في غير موجب ولكنّه حتى في تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأنّ غضبته للتأفّه من الأمر عسّية بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحقّ الغضب عن جدارة، بيد أنّه لم يعد ما بلغه عن فهمي ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج في نفس تلميذ من آل بيته، وما كان يتصوّر أن تتسرّب «العواطف» إلى بنیان البيت الذي يحرص على أن يشبّ في جوّ من النقاء الصارم والطهارة المنقّشة، ثمّ جاءت صلاة العصر فرصة طيّبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلباً وأزوّج بالاً، فوسعه أن يترنّع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له في ذرّيته وماله، وأن يدعو خاصّة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق. فلما أن غادر البيت كان تجهّمه مظاهرة يراد بها التخويف لا أكثر. وفي الدكان

متسائلاً عن «حكايتهما» فتقصّر عليه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره. لم يكن البيت بالغريب عليه إذن، فشقّ سبيله إلى الصالة دون أن يشعر به أحد، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيّد محمّد رضوان راقداً في فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات. كان يعلم أنّ الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيراً أنّه مشلول، حتّى سأل أمّه مرّة عن معنى الشلل... فجذعت وراحت تستعيد بالله من شرّ الاسم الذي نطق به فانكمش مترجعاً، ومنذ ذاك اليوم والسيّد يستثير رئاه واستطلاع المرقون بالخوف. ثمّ مرّ بالحجرة التالية فرأى أمّ مريم واقفة أمام المرأة ويدها ما يشبه العجين تمطّه فوق خدّها وعنقها وتجدبه جذبات سريعة متتابعة ثمّ تتحسّس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسّه وتطمئنّ إلى نعمته. ومع أنّها كانت فوق الأربعين إلّا أنّها كانت بارعة الحسن كابتنتها، شغوفة بالضحك والدعابة، فما تلقاه حتّى تقبل عليه في مرح فتقبّله ثمّ تسأله فيما يشبه نفاذ الصبر «متى تبلغ رشذك لأنزّجك؟» فيعلوه الحياء والارتباك وإن استلذّ مداعبتها ووة الإكثار منها. وكم أثارت فضوله هذه العمليّة التي تعكف عليها من حين لآخر أمام المرأة، وقد سأل أمّه عنها مرّة فنهرته - والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب - مؤثّبة إيّاه على سؤاله عمّا لا يعنيه، بيد أنّ أمّ مريم أكبر سباحة ورقّة فلما لحظته مرّة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ما حسبه أوّل الأمر عجيبة وبسطة له صفحة وجهها وقالت ضاحكة «اشتغل وأرني شطارتك» فمضى يقلّد حركاتها حتّى أثبت لها شطارته بخفّة غبّطته عليها، ولكنّه لم يقنع بلذّة التجربة فسألها «لماذا تفعلين هذا؟» فقهقهت «هلاً انتظرت عشرة أعوام أخرى حتّى تعرف بنفسك؟! ولكن لا داعي لانتظار أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة؟... هذه هي؟...» وقد مرّ بابها بخفّة حتّى لا يشعرها بنفسه لأنّ رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد إلّا مريم وحدها التي وجدها في الحجرة الأخيرة متربّعة على فراشها تقرّز ربّاً وبين يديها

حيثاً ويضجر منها حيثاً آخر، دون أن يعرف لها هذه الخطورة التي أحاطت بهدوء أخيه وسلامته، مريم!... لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كلّها بأخيه العزيز الرائع!! ووجد في الجوّ غموضاً، كذاك الغموض الذي يكتنف حياة الأرواح والأشباح، والذي طالما استثار حبّ استطلاع وخوفه، فتوتّب قلبه للنفاذ إلى مكنون سرّه في تطلّع وحيرة، ولكنّ حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتّى يضمن ألا يضيع منه حرف واحد من مضمونها، فمرّ تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها، ثمّ مال إلى أوّل عطفة تليه حيث يوجد باب البيت. لم يكن البيت بالغريب عنه، فطالما تسلّل إلى فوائه الصغير حيث تنزوي في ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعيّناً بخياله على إصلاح عجالاتها وتحريكها حيث شاء، وطالما تردّد بين حجراته بغير استئذان فقول بالترحيب والمداعبة من ربّة البيت وابنتها اللتين يعدّهما «على حدّائنه سنّه» صديقتين قديمتين، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التي تتوسّطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التي تطلّ على حمّام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء. وإلى هذا خلّفت بعض متعلّقات البيت أثراً في نفسه استجابت له عهداً طويلاً من صباه، كعشّ يمّامة في أعلى المشربيّة المتصلة بحجرة مريم الذي تبدو حافته فوق ركن المشربيّة الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القشّ والريش ويلوح منه أحياناً ذيل اليمّامة الّأمّ أو منقارها كيفما اتّفق وضعها فيتطلّع إليه تتنازع رغبتان، إحداهما - وهي المنبعثة من نفسه - تدعوه إلى العبث به واختطاف الصغار والأخرى - وهي المكتسبة عن أمّه - توقّفه عند حدّ التطلّع والعطف والمشاركة الخياليّة في حياة اليمّامة وأسرتها، وكصورة للسفيرة عزيزة معلّقة بحجرة مريم أيضاً زاهية الألوان رقاقة البشرة وسيمة القسّات فاقت بجهاها الحسنة التي تطالعه صورتها عصر كلّ يوم بدكّان ماتوسيان فكان يديم النظر إليها



طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رآته قالت بدهشة:  
- كمال!... «كادت تسأله عما جاء به في هذه  
الساعة ولكنها عدلت عما همّت به أن تخفيه أو  
تخجله... شرفت البيت... تعال اجلس إلى  
جانبي...  
فمدّ لها يده بالسلام. ثم فكّ أزرار حذائه ذي  
الرقبة الطويلة وخلعه، ووثب إلى الفراش في جلباب  
مقلّم وطاقيّة زرقاء منمنمة بخطوط حمراء. وضحكت  
مريم ضحكاتها الرقيقة ودست في يده شويّة لبّ وهي  
تقول:  
- قزقر يا عصفور وحرك أسنانك اللؤلؤيّة...  
أتذكر يوم عضضت معصمي وأنا أدغدغك...  
هكذا...  
ومدّت يدها صوب إبطه ولكنها - بحركة عكسيّة -  
شبك ذراعيه على صدره ليحمي إبطيه، ونذت عنه  
ضحكة عصبيّة كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل،  
ثم هتف بها:  
- في عرضك يا أبله مريم...  
فأمسكت عنه وهي تتعجب من خوفه قائلة:  
- لماذا يقشعرّ بدنك من الدغدغة؟! انظر كيف لا  
أبالي بها.  
وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهي ترميه بنظرة  
ازدراء فلم يملك أن قال لها متحدّياً:  
- دعيني أدغدغك أنا وسنرى!  
فما كان منها إلّا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها  
فغرس أصابعه تحت إبطيها وراح يدغدغها بما وسعه  
من خفّة وسرعة، مثبتاً عينيه في عينيها السوداوين  
الجميلتين ليتلقّف أوّل بادرة تضرّض عنهما، حتّى  
اضطرّ أن يستردّ يديه متنهّداً في يأس وخجل فشيعته  
بضحكة رقيقة ساخرة وقالت:  
- أرايت أيّها الرجل الصغير العاجز!... لا تزعم  
أنك رجل بعد اليوم «ثمّ بلهجة من تذكر أمراً هاماً  
بغته»... يا داهيقي!... نسيت أن تقبّلني!... ألم  
أنبّه عليك مراراً بأن تكون تحيّة لقائنا قبله؟!  
وأدنت وجهها منه فمدّت شفثيه ولثمّ خدّها، ثم رأى

فتأتا من اللب المتسرّب من زاوية فيه قد التصق بخدّها  
فأزاله بأنامله في حياء، أمّا مريم فتناولت ذقنه بأنامل  
يمينها وقبّلت شفثيه مرّة ومرّة، ثمّ سألته فيها يشبه  
الإعجاب:  
- كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم في هذه  
الساعة!؟... لعلّ تيزة تبحث عنك الآن في كلّ  
حجرات البيت.  
آه لقد استنم إلى الحديث واللعب حتّى أوشك أن  
ينسى الرسالة التي جاء من أجلها، ولكنّ تساؤلها ذكره  
بمهمّته فرنا إليها بعين أخرى، العين التي تودّ أن تنقّب  
في ذاتها عن السرّ الذي زلزل أخاه الرزين الطيب. إلّا  
أنّ تشوّفه نهافت حيال شعوره بأنّه يحمل أنباء غير  
سارّة، فقال بوجوم:  
- فهمي الذي أرسلني.  
ارتسمت في عينيها نظرة جديدة تفيض جدّاً،  
وتفرّست في وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأنّ  
الجوّ قد تغيّر كأنّها انتقل من فصل إلى فصل، ثمّ  
سمعها تسأل بصوت خافت:  
- كيه!؟  
فقال لها بصراحة دلّت على أنّه لم يقدر خطورة  
الأنباء التي يحملها رغم شعوره الفطريّ بخطورتها:  
- قال لي بلّغها تحيّيّاتي وقل لها إنّهُ استأذن والده في  
خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو  
تلميذ، وطلب إليه أن ينتظر حتّى يتمّ دراسته.  
كانت تحدّق إلى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ  
السكوت خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة،  
فغشيت الجلسة صمّة واجمة ضاق بها قلبه الصغير،  
وتلهّف على كشفها مهما كلّفه الأمر فقال:  
- إنّهُ يؤكّد لك أنّ الرّفص جاء على رغبته وأنّه  
يتعجّل السنين حتّى يحقّق ما يتمنّى.  
ولمّا لم يجد لكلامه أثراً في إخراجها من غشاوة  
الصمت ازداد تلهّفه على إعادتها إلى ما كانت عليه من  
بهجة ومرح فقال بإغراء:  
- هل أحدثك عما دار بين فهمي وبين نينة من  
حديث عنك؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه :

- ماذا قال وماذا قالت؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئي وقصص عليها ما ترامى إليه من حديث من وراء الباب حتى ألقى عليه، فخيّل إليه أنها تنتهد، ثم قالت بتبرّم: - إنّ والدك رجل شديد غييف، الكلّ يعرفه هكذا.

فقال وهو لا يدري:

- نعم... أبي كذلك.

ورفع رأسه إليها في خوف وحذر ولكّنه وجدها كالغائبة، فسألها متذكّراً ما وصّاه به أخوه:

- ماذا أقول له؟

فضحكت من أنفها وهي تمزّ كتفيها، وهمت بالكلام، ولكنّها أمسكت متفكّرة مليّاً، ثمّ قالت وقد التمتعت في عينيها نظرة مأكرة:

- قل له إنّها لا تتري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب في أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظارا

وعني كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر ممّا عني بفهمها، وسرعان ما شعر بأنّ مهمّته قد انتهت فأودع بقية اللبّ جيب جلبابه، ومدّ لها يده بالسلام، ثمّ انزلق إلى أرض الحجرة خارجاً.

## ٢٢

بدت عائشة وهي تنظر في المرأة شديدة الإعجاب بنفسها، دون الأسرة اللامعة، بل أيّ فتاة في الحيّ كلّه تتحلّى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين؟! إنّ ياسين يتغزّل بها جهازاً، وفهمي لا يخلو إذا تحدّث إليها لأمر أو لآخر من نظرات تنمّ عن الإعجاب، حتّى كمال الصغير لا يجلو له الشراب من قلة إلا من الموضع المتبلّ بريقها، وهذه أمّها تدلّلها فتدعوها «قمر» وإن لم تحفّ قلبها نحو نحافتها ورقّتها الأمر الذي جعلها تحبّ أمّ حنفي على تركيب وصفة لتسمينها. أمّا عائشة فلعلّها كانت أعرف الجميع بحسبنا البارع كما تدلّ عليه عنايتها الشديدة به واستثنائها إليه، على أنّ هذه العناية المفرطة لم تمرّ

بخديجة دون تعليق، بل مؤاخذه وتقريع، لا لأنّها تستنيم إلى الإهمال الفالح أنّ خديجة هي الورثة الأولى لأنّها في الواقع بالنظافة والأناقة، ولكن لأنّها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتّى قبل القيام بواجبات المنزل كأنّها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية، ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هي الباعث على هذا التجمّل الباكر، فعند ذهاب الرجال كلّ إلى عمله - تأوي إلى حجرة الاستقبال وتفرّج بين ضلّفتي الشباك المطلّ على بين القصرين زيقاً رقيقاً فتقف وراءه مائة بصرها إلى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف. هكذا وقفت ذاك الصباح فظلّ طرفها حائرّاً ما بين حمّام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتيّ يواصل خفقاته حتّى تراءى عن بُعد «المنتظر» وهو ينعطف قادماً من الخرنفش خاطراً في بذلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه، وجعل كلّما اقترب من البيت يرفع في حذر عينيه دون رأسه، حتّى تداين من البيت فهتت في أساريه ابتسامة خفيفة آية في الخفة - تدرك بالقلب أكثر ممّا تدرك بالحواس - كأنّها الهلال في ليلته الأولى، ثمّ اختفى تحت المشربية فاستدارت في عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلّة على النحاسين فما راعها إلّا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبه بين النافذتين ملقبة بنظرها على الطريق من فوق رأسها!...

فرتّ منها آهة، وأتسعت عيناها في رعب فاضح، فتسمّرت في موقفها... متى وكيف جاءت! كيف علت الكنبه دون أن تشعر بها؟!... وماذا رأت؟!... متى وكيف وماذا؟ أمّا خديجة فقد ثبتت بصرها وهي تضيقّ عينيها رويداً صامتة، مطيلة الصمت كأنّها لتطيل تعذيبها، ثمّ تماكنت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها في جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عبثاً - بضبط الأعصاب وهي تغمغم:

- أرعبتني يا شيخه!

لم تُبد خديجة اكترائاً، ظلّت بموقفها على الكنبه

اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تُشَرِّق بالبكاء،  
إلا أنَّ اليأس نفسه دفعها إلى الاستماتة في الذود عن  
نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه:

- ما هذا الكلام غير المفهوم؟!

ولكن لم يَئِدْ على خديجة أنها سمعت كلامها  
فواصلت مخاطبة نفسها قائلة:

- ولهذا أيضًا تتزيّن في الصباح الباكر! طالما ساءلت  
نفسى أيعقل أن تتبرّج بنت قبل الكنس والمسح  
والتنفيض؟! ولكن أيّ كنس وأيّ تنفيض يا خديجة يا  
مسكينة، يا من ستعيشين بلهاء، وتموتين بلهاء، اكسبي  
أنت ونفسي أنت، ولا تتزيّني لا قبل العمل ولا حتّى  
بعده، ولماذا تتزيّنين يا تعيسة؟! انظري من زيق  
الشباك من اليوم إلى الغد فإن اعتنى بك عسكري  
دوريّة أقطع ذراعي!

فهتفت عائشة في اضطراب وعصبية:

- حرام عليك... حرام.

- لها حقّ يا خديجة، هذه فنون لا تستطيعين فهمها  
بعقلك المظلم، عيون زرق، وشعر من سبائك  
الذهب، شريط أحمر ونجمة لامعة، شيء مفهوم،  
شيء مفهوم ومعقول.

- خديجة، أنت مخطئة، كنت أنظر إلى الطريق  
فحسب، لا لأرى أحدًا ولا ليراني أحد.

فالتفت خديجة إليها كأنما تنبّه إلى اعتراضها لأوّل  
مرّة وتساءلت كالمعتذرة:

- هل تخاطبيني يا شوشو؟! لا مؤاخذه إنّي أفكّر في

بعض الأمور الهامة فأجّلي حديثك إلى حين...

وعادت تهزّ رأسها في تفكير وتخطّط نفسها قائلة:  
- شيء مفهوم ومعقول، ولكن ما ذنبك أنت يا سيّد  
أحمد عبد الجواد؟ أسفي عليك يا سيّد يا شريف يا  
كريم، تعال شوف حرمك يا سيدي وتاج راسي!

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها، فدار  
رأسها، ورد على ذهنها قول السيّد لأُمّها وهو يحمل  
على رغبة فهمي في خطبة مريم: «أخبريني هل  
رأها؟!». «ما كنت أحسب أنّ لي أبناء يسترقون  
النظر إلى حرّات الجيران»، هذا رأيه في الابن فكيف

وعيناها إلى الطريق خَلَل الزيق... ثمّ تمتمت  
ساحرة:

- أربعتك؟... اسم الله عليك!... أصلي  
بعي...!

وعصّت عائشة على نواجذها في غيظ وحنق ويأس  
بعد أن تراجعت قليلًا إلى مأمن من عينيها، إلاّ أنها  
قالت بصوت هادئ:

- رأيتك فجأة فوق رأسي دون أن أشعر بدخولك،  
لماذا تسترقين الخطو؟

فوثبت خديجة إلى الأرض، ثمّ جلست على الكنبه  
في استرخاء ساخر وهي تقول:

- أسفة يا أختي، في المرّة القادمة سأعلّق جرسًا في  
عنقي مثل عربة المطافئ لتنتبهي إلى حضوري فلا  
ترتعي.

فكانت عائشة في ضيق والرعب لم يفارقها:

- لا لزوم لتعليق الجرس، حسبك أن تسيري  
كالناس الذين خلقهم ربّنا...

فكانت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهي ترميها  
بنظرة ذات معنى:

- ربّنا يعلم أنّي أسير كالناس الذين خلقهم، ولكن  
الظاهر أنّك إذا وقفت وراء النافذة - أقصد وراء هذا  
الزيق - استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدن الوعي بما  
حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربّنا.

فنفخت عائشة مغمغمة:

- هكذا أنت دائمًا.

وعادت خديجة إلى الصمت قليلًا، ثمّ حوّلت  
عينيها عن فريستها، ورفعت حاجبيها كأنما تفكّر في  
مشكل عسير، ثمّ تظاهرت بالسروور كأنما اهتمت  
للحلّ الموقّ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرّة دون أن  
تنظر إلى الأخرى:

- إذن لهذا فهي تغني كثيرًا «يا بو الشريط الأحمر يا  
للي أسرتني ترحم ذي!»... وكم حسبته بسلامة نيتي  
غناء بريئًا لمجرّد التسلية!

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية، وقع المذخور ولم  
يعد ينفع التعلّق بأوهام الأمانيّ الكاذبة، وركبها

يكون في البنت! وهتفت بصوت غنوق النبرات:  
- خديجة... لا يليق هذا... أنت مخطئة...  
أنت مخطئة...

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:  
- تُرى أهدا هو الحب؟! يمكن! ألم يقولوا عنه:  
«الحب كبش في قلبي... قُربت أرواح منه طوكر».  
تُرى أين طوكر هذه؟! لعلها في النحاسين، بل  
لعلها في بيت السيد أحمد عبد الجواد.  
- لم أعد أحتمل كلامك، ارحمني من لسانك،  
رباه... لماذا لا تصدقيني؟!

- تدبري أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعباً،  
وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا  
مرّاً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسرّ إلى  
والدك؟! الحقّ أنّي لا أدري كيف أخاطبه في مثل هذا  
السرّ الخطير، ياسين؟! ولكنّه كعدمه وغاية ما يرجي  
منه أن يترنّم بكلام غير مفهوم، فهمي؟ ولكنّه يعطف  
بدوره على الشعر الذهبيّ أصل البلوى كلّها، أظنّ من  
الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرف بما ترى.  
ونذت عنها حركة كأنها تمتمّ بالقيام فهرعت عائشة  
إليها كدجاجة مذبوحه وأمسكت بكتفها صائحة  
بصدر يعلو وينخفض:

- ماذا تريدين؟

فتساءلت خديجة:

- أتهدّيني؟!

هتّت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت  
بكلام مزّقه البكاء شرّ ممزّق، وجعلت خديجة تحدّق  
إليها صامته متفكّرة، ثمّ زایل أساريرها عبث السخريّة  
حتّى تجهم وجهها وهي تصغي في غير ارتياح إلى نشيج  
الفتاة، ثمّ قالت بلهجة جدّية لأوّل مرّة:  
- لقد أخطأت يا عائشة.

وأمسكت ووجهها يشتدّ تجهمه، وكأنّ أنفها ازداد  
بروزاً، وبدا عليها التأثير واضحاً فاستطردت قائلة:

- يجب أن تقرّي بخطئك، خبريني كيف سلّوك  
لك نفسك هذا العبث يا مجنونة؟  
فغمغمت عائشة وهي تجفّف عينيها:

- أنت تسيئين الظنّ بي.

فنفتخت خديجة مقبلة كأنما ضاقت بهذه المكابرة  
الضائعة، بيد أنّها عدلت نهائياً عن نيّة الاعتداء أو  
حتّى المعابثة، إنّها تعرف دائماً أين ومتى تقف فلا تجاوز  
الحدّ، وقد أشبعت السخريّة ميولها العدوانيّة القاسية  
فقنعت بها كما تقنع بها عادة، ولكن بقيت لديها ميول  
من نوع آخر - أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة - لم  
تشبع بعد، ميول تنبثق من عاطفة الأخت الكبرى،  
بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة  
مهما اشتدّت حملتها عليه، وتحت تأثير الرغبة في إشباع  
هذه الميول الودّية قالت:

- لا تكباري، لقد رأيت كلّ شيء بعيني، لست  
الآن أهزل ولكّني أريد أن أصارحك بأنك أخطأت  
خطأ كبيراً، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت في الماضي  
ولا يؤدّ أن يعرفه في حاضره أو مستقبله، إنّهُ الطيش  
وحده هو الذي أوقعك فيه، أصغني إلّيّ واعقلي  
نصيحتي، لا تعودني إلى هذا أبداً، لا يخفى شيء وإن  
طال كتمان، فتصوّري ماذا يكون أمرنا جميعاً لو لمحك  
أحد من الجيران، وأنت أدري بالسنة الناس، تصوّري  
ماذا يكون لو نغى الخبر إلى أبي والعياذ بالله!

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن  
اعترافها، وقد تضرّج وجهها بحمرة الخجل، ذلك  
الدم الذي ينزفه الضمير في الداخل إذا جرحته  
خطيئة، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة:

- حذار، حذار، فاهمة؟... وثمّ نسمت عليها  
نسمة سخرية فغيّرت لهجتها شيئاً ما، ألم يركّ؟ فإذا  
يقعده عن أن يتقدّم لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقتها  
نقول لك مع ألف سلامة، بل في ستّين داهية يا  
سقي...

استردّت عائشة أنفاسها، فافتّر ثغرها عن ابتسامة  
لاحت كلمعة اليقظة الأولى في العين عقب غيبوبة  
طويلة، وكأنّ خديجة عزّ عليها - برؤية هذه الابتسامة -  
أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها  
فترة طويلة فصاحت بها:

- لا تطغّي أنّك بلغت برّ الأمان، إنّ لساني لا

ولبت دون حراك ثواني، مستغرقة في خواطرها الجديدة، في الحلم السعيد الذي تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وإن بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة، ثم أفاقت إلى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر، وما إن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهي لا تملك نفسها من الفرح:

- ثلاث سيّدات غريبات في حجرة الاستقبال... ارتدي خير ملابسك... واستعدي...

ولما تورّد وجه خديجة تورّد وجهها أيضًا كأنما انتقلت إليه عدوى الحياء، ثم غادرت الصالة إلى حجرتها في الدور الأعلى لتستعدّ بدورها لاستقبال الزائرات، وجعلت خديجة تنظر إلى الباب حيث اختفت أمها، غائبة الطرف، وقلبها يخفق لحذّ الألم متسائلة «ما وراء هذه الزيارة؟» ثم نزعَتْ نفسها من موقفها، وسرعان ما استردّ عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذي جاءها من حجرة فهمي فبادرته قائلة:

- اذهب إلى أبله مريم وقل لها إنّ خديجة تفرّك السلام وترجوكم أن ترسلي لها معي علبة البودرة والكحل والأحمر...

وتلقّف الغلام الأمر وهو يعدو إلى الخارج، أما خديجة فأسرعت إلى حجرتها ومضت تحلج جلبابها وهي تقول لعائشة التي لحظتها بعين متسائلة.

- اختاري لي أحسن فستان... أحسن فستان بلا استثناء...

فتساءلت عائشة:

- ما الداعي إلى هذا الاهتمام؟... زائرة؟ من؟

فقال خديجة بصوت خافت:

- ثلاث سيّدات... «ثم وهي تضغط على مخارج اللفظ»... غريبات...

فترجع رأس عائشة في دهش، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورًا، وهتفت:

- آه... هل يُفهم من هذا أنّ... يا له من خبر!

- لا تسرّعي في الحكم... فمن يدري عمّا هناك... فأنجّمت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقي الفستان

يسكت إذا لم تحسني مشاغلته...

فتساءلت الأخرى في ارتياح:

- ماذا تعنين؟

- لا تتركه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشرّ، أليه بشيء من الحلوى ليشغل بها عنك، علبة ملبس مثلاً من شنجرلي... لك ما تشتهين وأكثر.

وساد الصمت فشغلت كلتاها بأفكارها. على أنّ قلب خديجة كان - كما كان من بادئ الأمر - مرتعًا لضروب من المشاعر متباينة... غيرة وحنق وإشفاق وحنان...

## ٢٣

كانت ستّ أمينة مشغولة بإعداد أدوات القهوة استعدادًا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أمّ حنفي مهرولة، يبشّر لمعان عينيها بأنباء سارة، ثم قالت بلهجة موحية:

- ستيّ ثلاث سيّدات غريبات يرغبن في زيارتك...

أخلت الأمّ يديها من كلّ شيء، وانتصبت قامتها في عجلة دلّت على تأثير الخبر في نفسها، وحذجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها، ثمّ تمت استزادة من التوكيد:

- غريبات؟!

فقال أمّ حنفي بلهجة تنمّ عن فرحة الظفر:

- نعم يا ستيّ، طرqn الباب ففتحت لهنّ فقلن لي «أليس هذا بيت السيّد أحمد عبد الجواد؟» فقلت لهنّ «بلى» فقلن «أهوانم فوق؟» فقلت «نعم» فقلن «نريد أن نتشرف بالزيارة» فسألتهنّ «أقول من الزائرات؟» فقلت لي إحداهنّ ضاحكة «دعي هذا لنا، وما على الرسول إلّا البلاغ» فجتك يا ستيّ طائفة وأنا أقول لنفسي «يا ربّ حقّق لنا الأحلام»...

فقال أمّ بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها:

- ادعيهنّ إلى حجرة الاستقبال... أسرعي...

المناسب وهي تقول ضاحكة:

- في الجَوْ شيء... إِنَّ الفرح يُشَمُّ كالروائح الزكيّة... .

فضحكت خديجة لتخفي اضطرابها، واقتربت من المرأة ونظرت إلى صورتها بإمعان، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم:

- لا بأس بوجهي الآن، وجه مقبول، «ثم رافعة راحتها»... أما على هذه الحال فرَبْنَا وحده المنجّي! فقالت عائشة ضاحكة وهي تساعد في نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موثى بأزهار بنفسجية:

- لا تخمطي نفسك... ألا يسلم شيء من لسانك!... ليست العروس أنفًا فحسب، هناك العينان والشعر الطويل، والدم الخفيف! فلوت خديجة بوزها قائلة:

- الناس لا ترى إلّا العيوب...

- هذا صحيح بالقياس إلى من على شاكلتك من الناس، ولكن ليس كلّ الناس على شاكلتك والحمد لله...

- سوف أجيبك حين أفرغ لك...

فرَبَّت الأخرى على خاصرتها وهي تسوّي الفستان قائلة:

- ولا تنسي هذا الجسم البضّ الممتلئ... يا له من جسم!

فضحكت خديجة في سرور وقالت:

- لو كان العريس أعمى ما عملت حسابًا لشيء... وإني أرضى به في تلك الحال ولو كان شيخًا من شيوخ الأزهر...

- وماذا يعيب شيوخ الأزهر!... أليس منهم من خيراته كالبحر؟!

ولمّا فرغت من الفستان نَدَّت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة:

- ماذا بك؟

فقال بتذمّر:

- ليس في بيتنا كلّ نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كان

ليس به نساء...!؟

- من الأفضل أن تبْلغي هذا الاحتجاج لوالدنا...

- أليست نينة سيّدة ومن حقّها أن تتزيّن؟

- إنّها جميلة هُكذا بلا زينة!

- وحضرتك؟ هل تلقين الزائرات هُكذا؟

فقال خديجة ضاحكة:

- أرسلت كمال إلى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر، وهل وجهي وجه أقابل به الحاطبات عاقلًا؟! ولمّا كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعّت خديجة منديل رأسها وأخذت تحلّ ضفيريّتها الغليظتين الطويلتين، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهي تقول:

- يا له من شعر بسيط طويل... ما رأيك؟ سأجده في ضفيرة واحدة، ألا يكون ذلك أروع؟

- بل ضفيريّتين... ولكن خبّرني هل أبقى الجراب في قدميّ أو أدخل عليهنّ عارية الساقين؟

- إنّ الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكيّ أخشى إذا أبقيته أن يحسبنّ بساقلك عيبًا تتعمّدين إخفاءه...

- صدقت، إنّ المحكمة أرحم من الحجرة التي تنتظري الآن...

- قوّي قلبك، ربّنا يوعدنا...

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعًا وهو يلهث فقدم إلى أخته أدوات الزينة وهو يقول:

- قطعت السّلم والطريق جريًا...

فقال له خديجة باسمه:

- عفّارم، عفّارم... ماذا قالت لك مريم؟

- سألتني هل عندنا صيوف... ومَن هنّ، فأجبته بأنّي لا أدري...

فتجلّت في عيني خديجة نظرة اهتمام وهي تسأله:

- وهل قعت بهذه الإجابة؟

- حلّفتني بالحسين أن أصرّح لها بما عندي فحلّفت

لها بأنّه ليس عندي غير ما قلت...

فضحكت عائشة قائلة ويدأها لا تكفّان عن

العمل:

- ستخمن ما هنالك...

فقالت عائشة ضاحكة:

- طبعًا أنا...

فلكرتها بكوعها، ثم تنهدت قائلة:

- لو تعيريني أنفك كما أعارتني مريم علبة بودرتها!

- تناسي أنفك ولو الليلة على الأقل، إنَّ الأنف -

كالدمل - يضحخ بالدأب على التفكير فيه!...

أوشكتنا عند ذاك على الفراغ من عملية التجميل،

فترأخى انتباه خديجة عن التركيز في مظهرها واتجه في

رهبة إلى موقف الامتحان الذي ينتظرها فشعرت

بخوف لم تشعر بمثله من قبل، لا بالقياس إلى جدته

فحسب ولكن - قبل كل شيء - بالقياس إلى خطورة

عواقبه، وما لبثت أن قالت متشككة:

- آية جلسة هذه التي قضي عليَّ بها!... تصوّري

نفسك في مكاني، بين نسوة غريبات لا تدريين أيَّ

خُلُقٍ خُلُقِهِنَّ ولا أيَّ أصلٍ أصلِهِنَّ، وهل جئن بنية

صادقة أو لمجرد الفرجة والتسلية، وماذا يكون من

أمري لو كنَّ عيَّابات شَتَامات (ثم ضاحكة ضحكة

مقتضبة) مثلي مثلًا... هه؟ وماذا بوسعي إلَّا أن

أجلس بينهنَّ في أدب واستسلام أنلقَى نظراتهنَّ من

اليمن والشمال، ومن الأمام والخلف، وأصدع بأمرهنَّ

بلا أدنى تردد، إذا طلبن قيامًا قمت، أو مشيًا مشيت

أو كلاً ما تكلمت حتَّى لا يفوتهنَّ شيء من جلوسي

وقيامي وصمتي وكلامي وأعضائي وقسايتي، وعلينا بعد

هذه «البهذلة» كلُّها أن نتودَّد إليهنَّ ونُطري لطفهنَّ،

وكرمهنَّ، ثم لا ندري بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز

بالغضب، أف... أف... ملعون الذي أرسلهنَّ!

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى:

- بعد الشرَّ عنه!

فقالت خديجة ضاحكة أيضًا:

- لا تدعي له حتَّى نتأكَّد أنه من نصيبنا... آه يا

ربِّي كم أنَّ قلبي يدقُّ!...

فتراجعت عائشة خطوة خطوة عن مرمى كوعها

وقالت:

- صبرك... ستجدين في المستقبل فرصًا كثيرة

للاتنقام من مجلس اليوم الرهيب، فكم سيُصلين من

فقالت خديجة وهي تلدِّر البودة على وجهها:

- إنَّها بنت هرمة، وهيئات أن يفوتها شيء،

وأراهنك على أنَّها سوف تزورنا غدًا على الأكثر لإجراء

تحقيق شامل...

ولم يشأ كمال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر، أو

لعلَّه لم يستطع مغادرتها تحت إغراء المشهد الذي يمثِّل

أمام عينيه، والذي يراه لأوَّل مرَّة في حياته فلم يسبق

له أن رأى وجه أخته وهو يلقي هذا التغيّر الذي

استحال معه وجهها جديدًا، البشرة تبيض والوجنتان

تنورّدان والعيان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم

لها حدودًا جذابة ويضفي على حدقتيهما صفاء بهيجًا،

وجه جديد هشّ له قلبه فطرب هاتفاً:

- أنت يا أبله الآن كالعروس التي يشتريها بابا في

مولد النبي...

فضحكت الفتاتان، وسألته خديجة:

- هل أعجبك الآن؟

فاقترب منها مسرعًا ومدَّ يده صوب أرنبه أنفها وهو

يقول:

- لو تزول هذه!

فتفادت من يده، ثم قالت لأختها:

- أخرجني هذا النّام.

فقبضت عائشة على يده وجذبتة إلى الخارج رغم

مقاومته حتَّى أخرجته وأغلقت الباب، ثم عادت إلى

استئناف عملها الجميل، فواصلتا نشاطهما في صمت

وجدّ. ومع أنَّه كان من المتفق عليه في الأسرة أن

تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها إلَّا أنَّ

الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر:

- ينبغي أن تتأهّبي أنت أيضًا لاستقبال الزائرات.

فقالت عائشة بمثل مكر أختها:

- لن يكون هذا قبل أن تزقِّي إلى عريسك!

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة:

- أما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر؟!

فرمتها أختها بنظرة مسترربة وتساءلت:

- من يكون القمر؟

نار لسانك وأنت ست البيت... ولعلهنّ يذكرن  
امتحان اليوم وهنّ يقلن لأنفسهنّ يا ليت الذي جرى  
ما كان!...

وقنعت خديجة بالابتسام. لم يكن في الوقت متسع  
لردّ الهجوم، ولم تجد في الهجوم - الذي تجد فيه عادة  
سرواً شافياً - لذة على الإطلاق لغلبة الرهبة على  
نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء، ولمّا فرغت من  
مهمّتها وقفت تلقي على صورتها نظرة شاملة،  
وعائشة - إلى الوراء خطوتين - تردّد نظرها بعناية بين  
الصورة والأصل، وجعلت خديجة تتمتم:

- أحسنت يدك، منظر حسن أليس كذلك؟...  
هذه خديجة حقاً... لا بأس بأنفي الآن... جلّت  
حكمتك يا ربّ، بقليل من الجهد صار كلّ شيء  
مقبولاً فلماذا (ثمّ مستدركة) أستغفر الله العظيم، لك  
في كلّ شيء حكمة...

وتراجعت خطوات وهي تفحص صورتها بعناية ثمّ  
قرأت الفاتحة في سرّها، والتفتت نحو عائشة قائلة:  
- ادعي لي يا بنت...  
وغادرت الحجرة...

## ٢٤

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة  
تمثّلت في المدفأة الكبيرة التي توسّطت الصالة فتكأكات  
حولها الأسرة، الذكور في معاطفهم والنساء ملتفات  
بخماراتهنّ، فهبّا لهم المجلس إلى لذة الشراب وحلو  
السمير متعة الدفء. وقد بدا فهمي - على حزنه  
الصامت الطويل في الأيام الأخيرة - كمن يتحفّز  
لمواجهة أهله بخبر هامّ، ولم يكن تردّده وطول تفكيره  
إلاّ دليلاً على خطورة الخبر وأهمّيته، بيّد أنّه انتهى من  
تفكيره وتردّده إلى التصميم على إبلاغه ملقياً عبثه بعد  
ذلك على والديه والأقارب، فلذلك قال:

- عندي خبر هامّ لكم فاسمعوا...

فتطلّعت إليه الأعين باهتمام لن يشدّ عنه أحد، لأنّ  
ما عُرف به الشاب من أثران جعل الجميع ينتظرون  
خبراً هامّاً حقّاً كما قال، أمّا فهمي فاستطرد قائلاً:

- الخبر هو أنّ حسن أفندي إبراهيم ضابط قسم  
الجماليّة - وهو من معارفي كما تعلمون - قابلني ورجاني  
أن أبلغ والدي رغبته في خطبة عائشة...!

وأحدث الخبر - كما قدّر فهمي من قبل ما دعاه إلى  
التردّد وطول التفكير - آثاراً جدّ متباينة، فتطلّعت الأمّ  
إليه باهتمام شديد، على حين صفر ياسين وهو يرمق  
عائشة بنظرة مداعبة ويهزّ رأسه، وخفضت الفتاة  
الصغيرة رأسها حياءً ولتخفي وجهها من الأعين أن  
تفضحها أساريرها فتعلن للنّاظرين ما يضطرب في  
قلبها الخافق، أمّا خديجة فقد تلّقت الخبر بدعشة بادئ  
الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفاً وتشاؤماً لم تدّر لها سبباً  
واضحاً ولكنّها كانت كتلميذ يتوقّع بين آونة وأخرى  
ظهور نتيجة الامتحان - إذا تناهى إليه نجاح زميل له  
بلغته النتيجة من مصدر خاصّ، وتساءلت الأمّ في  
ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة:

- أهذا كلّ ما قال؟

فقال فهمي وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة:

- بداني بقوله إنّه يؤدّ أن يتشرّف بطلب يد شقيقي  
الصغرى.

- وماذا قلت له؟

- شكرت له حسن ظنّه بطبيعة الحال...

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال في رغبة استطلاع  
شيء تؤدّ معرفته، ولكن لتداري ارتباكها وتنتزع من  
المفاجأة مهلة للتروّي. ثمّ راحت تتساءل ترى هل  
لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتي جئنّها منذ أيّام؟  
وذكرت عند ذاك كيف قالت إحداهنّ - قبل ظهور  
خديجة - وهي بمعرض الحديث عن أسرة السيّد أحمد  
لئن سمعن أنّ للسيّد كريمتين فأدرت وقتها أنّهنّ  
جئن لرؤية الفتاتين ولكنّها تصامّت عن الإشارة، وقد  
انتسبت الزائرات إلى أسرة تاجر بالدرب الأحمر - غير  
والد الضابط الذي قال فهمي عنه مرّة إنّه موظّف  
بوزارة الأشغال - ولكن هذا لا ينفي نفيّاً قاطعاً العلاقة  
بين الأسرتين لأنّه المؤلف أن تبعث الأسر بخاطبات  
من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص،  
وكم ودّت أن تسأل فهمي عن هذه النقطة بالذات



تساءلت:

- ألا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك إذا سألتني عما دعا الضابط إلى طلب عائشة بالذات، ولماذا لم يطلب يد خديجة، ما دام لم يرَ هذه ولا تلك؟...

وانتهت الفتاتان إلى ملاحظة أمهما معاً، ولعلهما ذكرتا موقفهما وراء النافذة في وقت واحد، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذي يأبى إلا أن يجزي النزق والاستهتار بالإحسان، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الخلق - وهو نشوان بازدراد أكلة لذيدة شهية - شوك حادة مدسوسة في الطعام، وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التي كان ينتفض بها روحها. فهمي وحده الذي ثار على قول أمه، لا دفاعاً كما بدا عن عائشة - فإنه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة في هذه النقطة الحساسة بالذات - ولكن غضباً لحزنه العظيم الذي لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه، فقال محتدًا يخاطب أباه في شخص أمه، وهو لا بدري:

- هذا تعسف ظالم لا مبرر له، من عقل أو حكمة ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتي لا يقصدن بحديثهن إلا الجمع بين رجل وامرأة في الحلال. ولكن الأم لم تقصد باعتراضها إلا توارياً وراء أبيه حتى تجد مخرجاً من المأزق الذي وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة. فلما صارحها فهمي باحتجاجه لم تجد بداً من مصارحته بما يدور:

- ألا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا بنا الزائرات؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التي أبت عليها إلا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يسطرعه داخلها من القلق والتشاؤم. فقالت:

- هذا شيء وذاك شيء آخر وليس ثمة داعٍ لتأجيل

وكأنها أشفقت من أن يجيء الجواب مصداقاً لمخاوفها فيقضي على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة، بيد أن خديجة نابت عن أمها - اتفاقاً - بطرح ما يعتلج في صدرها خارجاً حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة:

- لعله هو الذي بعث بالزائرات اللاتي زرنا منذ أيام.

ولكن فهمي بادر قائلاً:

- كلا، فقد قال لي إنه سيرسل أمه إلينا في حالة الموافقة على طلبه...

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق، لم يكن صادقاً فيما قال، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتي زرن والدته قريباته، بيد أنه أشفق من إبلام شقيقته الكبرى التي كان - على حبه عائشة - واقتناعه بجدارة صديقه الضابط - يعطف عليها عطفاً أخوياً، وبالم أشد الألم لسوء حظها، ولعله كان لما مني به من خيبة أثر قوي في البلوغ بهذا العطف ذروته. وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صياني:

- يبدو أننا سنجمع قريباً بين فرحين...

فهتفت الأم في فرح صادق:

- ربنا يسمع منك...

- هل تخاطبين أبي نيابة عني؟...

نذ عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها، ولكنه - عقب النطق به - وقع من أذنيه موقعاً غريباً، فكأنه ألقي عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه، أو كأنه حين ألقي على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص إلى أعماقه ثم طفا عالقاً به ما علق به من ذكرياته، وللحال ذكر سؤالاً مماثلاً لهذا السؤال توجه به إلى أمه في ظروف مشابهة فانقبض قلبه، وهاجت آلامه، وعاوده إحساسه بالظلم الذي وأد أمه، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مراراً في الأيام الأخيرة، كم كان يكون سعيداً بيومه مستبشراً بغده راضياً عن الحياة كلها لولا إرادة أبيه القاسية، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره، فاستسلم للحزن الذي يقرض شغاف قلبه، أما الأم ففكرت ملياً ثم

هذا من أجل ذاك...  
 فقالت الأم هدهو مؤثر:  
 - كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة.  
 ولم يسع عائشة إلا أن تقول برقة وتسليم:  
 - هذا أمر مفروغ منه...  
 وعاد كمال يسألها:  
 - وهل ستتزوجين أنت أيضًا يا نينة؟

وضّح الجميع ضحكًا فحَقَفَ هذا من حدة التوتر،  
 وانتهاز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلاً:  
 - اعرضي الأمر على أبي، فالكلمة كلمته على أيّ حال...  
 وقالت خديجة بإصرار غريب:  
 - لا بدّ من هذا... لا بدّ من هذا...  
 كانت تعني ما تقول: لأنّها من ناحية تعلم باستحالة  
 إخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها، ولأنّها من ناحية أخرى  
 تعتقد بأنّ والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة  
 عليها، ولأنّها - إلى هذا وذاك - ما زالت تصرّ على  
 التظاهر باللامبالاة، ومع أنّها لم تكن تعلم بما بين  
 الضابط والزائرات من سبب... إلا أنّ القلق  
 والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادئ الأمر لم يتخليا  
 عنها لحظة واحدة...

## ٢٥

مع أنّ السيّدة أمينة جرّبت في حياتها أكثر من سبب  
 من الأسباب التي تكدر الصفو إلا أنّها لم تكن قديمة  
 عهد بنوع طارئ من هذه الأسباب، امتاز بطابع  
 خاصّ به، إذ بدا في ذاته - على خلاف سوابقه - ممّا  
 يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهريّة  
 في الدنيا، ومع هذا انقلب في بيتها، بل في قلبها  
 خاصّة، باعثًا هامًا من بواعث القلق والكدر، وكم  
 كانت صادقة وهي تسأل نفسها: من كان يظنّ أنّ  
 مقدّم عريس، الأمر الذي تلهّف النفوس على  
 استقباله، يجرّ علينا هذا التعب كلّ!... ولكن هكذا  
 جرى الحال، فتنازع قلبها أكثر من رأي دون أن  
 تطمئنّ إلى واحد منها، رأت حينًا أنّ الموافقة على زواج

لا أوافق على أنّ هذا أمر مفروغ منه، فليس من  
 العدل أن يملككم حظّ عائس على كسر حظّ  
 سعيدا...  
 وتنبّه فهمي إلى ما ينطوي عليه كلام خديجة من  
 حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالإيثار فانزع  
 نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادمًا على ما صدر  
 منه من قول في غضبته ممّا قد تحسبه خديجة ميلًا صريحًا  
 منه إلى قضية أختها فقال موجّها خطابه إليها:

- إنّ مفاجئة بابا عن رغبة حسن أفندي لا تعني  
 التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك، وما علينا  
 من بأس إذا نلنا موافقته على الخطبة، أن نؤجل إعلانها  
 لوقت مناسب...  
 ولم يكن ياسين مقتنعًا بوجهة الرأي الذي يحتمّ

تقديم زواج على زواج، ولكنّه لم يجد الشجاعة الكافية  
 للإفصاح عن رأيه إلا أنّه روجّ عنه بكلام يفهم منه  
 من يشاء ما يشاء فقال:

- الزواج مصير كلّ حيّ، ومن لم تتزوج اليوم  
 فستتزوج غدا.

وهنا انطلق صوت كمال الرفيف الذي كان يتابع  
 الحديث باهتمام متسائلًا على غير انتظار:

- نينة... لماذا كان الزواج مصير كلّ حيّ؟

أجل، علمت بهذه العلاقة، وهي منفردة بفهمي، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفي أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعده بالتفكير في المسألة طويلاً، وترددت بين قبولها ورفضها، ثم مالت أخيراً إلى كتمانها كما اقترح فهمي، ولكنّها حين جويت بسؤال السيد وهي تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج تشتتت عزيمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد:

- نعم يا سيدي، علم فهمي أنّ قريبات صديقه...

فعبس السيد غاضباً وكعده إذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطايير الشر من عينيه. من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه، ومن يمسّ كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته، ولكنّه لم يدرك كيف يعلن غضبه إلا عن طريق صوته الذي علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء:

- من هو هذا الصديق؟

فقالت وهي تجرد للنطق بالاسم قللاً لا تدري له من سبب:

- حسن إبراهيم ضابط قسم الجبالية.

فقال السيد متسائلاً في انفعال:

- قلت إنّك أدخلت خديجة وحدها على السيدات؟...

- نعم يا سيدي...

- هل زرنك مرة أخرى؟

- كلا يا سيدي وإلا كنت أخبرتك.

فسألها متتبعاً كأنما هي المسئولة عن هذه الغرابة:

- أرسل قريباته فرأين خديجة، وإذا به يطلب

عائشة!... ما معنى هذا؟...

فازدردت الأم ريقها الذي جفّ بين الأخذ والردّ وتمتعت:

- في مثل هذا الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود إلا بعد أن يزرن كثيراً من بيوت الجيران متحريات عمّا يهمنّ، وبالفعل قد أشرن في حديثهنّ معي إلى أنّهن سمعن بأنّ للسيد كريميتين، ولعلّ تقديم واحدة دون الأخرى...

عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضي على مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حيناً آخر أنّ الإلحاح في معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب، وإلى هذا ذاك - شقّ عليها أكثر أن توصل الباب في وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظّ بمثله مرة أخرى. ولكن ما عسى أن يكون موقف خديجة إذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظّها ومستقبلها؟!... لم تدّر لنفسها مستقراً، خاصة وأنّ ما طبعته عليه من سلبية شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلاً موفّقاً لمشكل من المشاكل، ولهذا وجدت راحة وهي تتحفّز للإلقاء العبد كلّ على عاتق السيد، بل وجدت هذه الراحة بالرغم ممّا يخامرهما من خوف كلّما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب في حسن تقبّله له، وقد انتظرت حتّى فرغ من احتساء قهوته ثمّ قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع:

- سيدي... حدّثني فهمي قال إنّ صديقاً له رجاء أن يعرض عليك رغبته في خطبة عائشة...

سدّت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنية إلى حيث تجلس المرأة على شلّة غير بعيدة من قدميه، كأنما يقول لها: «كيف تحدّثيني عن عائشة وأنا في انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث»... ثمّ تساءل ليستوثق ممّا سمع:

- عائشة؟...

- نعم يا سيدي...

ونظر السيد أمامه في ضيق، ثمّ قال وكأنّه يحدث نفسه:

- قرّرت من زمن بعيد أنّ هذا سابق لأوانه...

فقالت المرأة في عجلة أن يظنّ بها معارضة لرأيه:

- إنّني أعلم رأيك يا سيدي، ولكن يجب أن أطلعك على كلّ شيء يدور بيننا...

تفحصها الرجل ببصر حادّ كأنّه يسبر ما في قولها من صدق وإخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارئ حال بينه وبين تفحصها، فتساءل في اهتمام وقلق:

- ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتي زرنك؟

- كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدًا لم يرها؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف:

- قلت يا سيدي لعلهن سمعن عنها.

- ولكنه يعمل في قسم الجالية أي في حينًا، وكأنه من أهله.

فقالت الأم في تأثر شديد:

- إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي منذ انقطاعها عن المدرسة في سن الطفولة.

فضرب كفًا بكف وصاح بها:

- مهلاً... مهلاً... هل حسبتني أشك في هذا يا ولية؟! لو شككت فيه ما أشبعني القتل!...

إنما اتحدت عمًا يجري في عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا، «إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتي»... ما شاء الله، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليها؟!... يا لك من مجنونة مهذارة، إنني أردت ما قد تشيع به السنة السفهاء من الناس، أجل... إنه ضابط الحي، سير في شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن احتفال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علموا بزواجه منها... لا أحب، لا أريد أن أعطي ابنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي، بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدي أن دافعه الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخاصة في مصاهرتي أنا... أنا... أنا... «لم تقع عين رجل على إحدى ابنتي»... مبارك... مبارك يا ست أمينة.

وأصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجر، ثم غرض الرجل فأذنها نهوضه بأنه سيشرع في ارتداء ملابسه استعدادًا للعودة إلى الدكان فبادرت بالقيام، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفع له لخلعه، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد:

- ألم يقدّر سي فهمي خطورة الطلب الذي تقدّم به صديقه؟...

(ثم محرّكًا رأسه في أسف)... يحسدني الناس على

أرادت أن تقول «لعلّ تقديم واحدة دون الأخرى وتكد لديهنّ ما سمعن عن جمال الصغرى» ولكنها أمسكت خوفًا من مضاعفة غضبه من ناحية، وإشفافًا من الجهر بهذه الحقيقة التي ترتبط في ذهنها باللون قائمة من القلق والأسى من ناحية أخرى، فأمسكت مكتفية بإتمام الحديث بإشارة من يدها كأنما تقول «الخ الخ» وحج السيد إليها بنظر حادّ حتّى غصّت الطرف استخذاء، وانقلب إلى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب في صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسًا أو ينشد صحبة، ثم صاح بصوت عاصف:

- عرفنا كلّ شيء، ها هو ذا عريس يتقدّم طالبًا يد ابنتك فاسمعي رأيك؟...

شعرت بسؤاله يستدرجها إلى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردّد وهي تبسط راحتها في تسليم:

- رأيي رأيك يا سيدي ولا رأي لي غيره... فصاح في زعجرة:

- لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتني في الأمر.

فقالت في لهجة ملهوجة وإشفاف:

- ما حدّثك يا سيدي إلا لأخبرك عمًا جدّ في الأمر، لأنّ واجبي يقضي عليّ بأن أطلعك على كلّ ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد... فهزّ رأسه في حقّ قائلًا:

- من يدري. إي والله من يدري... ما أنت إلا امرأة، وكلّ امرأة ناقصة عقل، والزواج خاصّة يفتنك عن الرشاد، فلعلّك...

فقاطعت بصوت متهدج:

- سيدي أعوذ بالله ممّا تظنّ بي، إنّ خديجة ابنتي ومن لحمي ودمي كما هي ابنتك... وإنّ حظّها ليفتت كبدي، أمّا عائشة فما تزال في أول ربيعها ولن يضرها أن تنتظر حتّى يأخذ الله بيد شقيقتها.

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتّى توقّف فجأة، كأنما تذكر أمرًا ونساءل:

- هل علمت خديجة؟

- نعم يا سيدي.

فلوّح بيده غاضبًا وهو يصيح:

نقار بريء، وإلى هذا ذاك كان إحساسه الباطني بأنه نصف أخ فقط يقعه عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن إبداء الرأي الخلق بجرح أحد من أفرادها... ولم تكن عائشة قد نسبت بكلمة ففسرت نفسها على الكلام قسراً أن يشي صمتها بآلامها التي صممت على إخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها منها سامها ذلك من عذاب وتوتر، بل أجمعت على إعلان الارتياح مجارة لجو البيت الذي لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها... والذي تُدارى فيه أهواء القلوب بأفئدة الزهد والرياء، فقالت:

- لا يصح أن أتزوج قبل خديجة، والخير كل الخير فيما يرى أبي (ثم مبتسمة)... لماذا تتعجلون الزواج؟... ومن أدراكم بأننا سنحظى في بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتي نحظى بها في بيت أبينا؟ ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شروء ذهنها وتشتت نفسها، وكم في الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التي تندفع مبسوطة الجناحين - كأنما تنتفض حيوية ونشاطاً - على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيًا آخر قطرات الحياة.

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها، أن لا ثمة غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل في كسب النمرة الأولى في اليانصيب الكبير... وقد تطوَّعت أول الأمر للمعارضة في زواجها مدفوعة بأرحمة الظفر والسعادة، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ، الآن خدعت الأرحمة ونضب العطف، فلم يبق إلا الامتناع والسخط والياس. ليس لها من الأمر شيء. هذه إرادة الأب ولا معقب لها، وما عليها إلا الإذعان والاستسلام، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح، لأن محض الوجود ذنب لا يغفر، أما الاحتجاج فإثم لا يطيقه أدها وحياتها. أفاق من سكرة السعادة الغامرة التي انتشت بها يوماً وليلة على ياس مظلم، ما اكتف الظلمة بجيء عقب النور الباهر، في تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة، ولكنه يضاعف مرّات ومرّات بالحسرة على

إنجاب ثلاثة ذكور، والحق أي لم أنجب إلا إنثاً... خمس إنث...

## ٢٦

على أثر مغادرة السيد للبيت ذاع رأيه في خطبة عائشة، ومع أنه قوبل بتسليم عام - تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم - إلا أنه كان متباين الصدى في النفوس، أسف فهمي للخبر، وساءه أن تفقد عائشة زوجاً صالحاً مثل صديقه حسن إبراهيم، أجل كان قبل أن يبت أبوه في الأمر متردداً بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق، فلما أن قضي الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب في سعادة عائشة وأمكنه أن يجهر برأيه فقال:

- لا شك أن مستقبل خديجة يمتنا جميعاً ولكنني لا أوافق على الإصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التي تتاح لها، الحظ غيب لا يعلمه إلا الله، ولعل الله يذخر للمتأخر حظاً أوفر من المتقدم.

ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعوراً بالخرج لوقوفها للمرة الثانية عثرة في سبيل أختها، لم تكن تفكر في الخرج وهي تحت المطرقة، ولكن حين نما إليها رأي أبيها الحاسم، وتقهر الخطر الذي يتهدها، زایلها الخلق والألم وحل محلها شعور أليم بالخلج والخرج، ومع أن حديث فهمي لم يترك في نفسها أثراً حسناً لأنها طمعت في أعماقها أن تجد من الجميع حامساً لرأي أبيها وأن تبقى هي الوحيدة المعارضة له، إلا أنها قالت معلقة عليه:

- صدق فهمي فيما قال، وكان هذا رأيي دائماً...

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلاً:

- الزواج مصير كل حي... لا تخافوا... ولا تجزعوا...

قنع هذه المرة بالكلام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم، ولكنه خاف أن يعلن رأيه صراحة أن تسيء خديجة فهمه أو تظن أن ثمة علاقة بين هذا الرأي وبين ما ينشب بينهما كثيراً من

وارتضى لها هذا العذاب كله، ومع أنها كانت متألّمة حائقة ساخطة إلا أنّ ألمها وحقتها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدّت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج إذا اعترضه مروّضه الذي يحبه ويخافه، لم يسعها أن تحمل عليه، ولو في أعماق سريرتها، وظلّ قلبها على ولائه وحبّه فلم تضمّر له إلا الإخلاص والوفاء كأنّه إلّه لا يجوز أن تقابل قضاءه إلا بالتسليم والحب والوفاء.

شدّت الصغيرة ذاك المساء جبل اليأس حول عنقها الرقيق فأمن قلبها المتفتّح بأنّه نضب وأجذب إلى الأبد، وضاعف من توتّر أعصابها الدور الذي صمّت على أن تمثّله بينهم، دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة في سمرهم حتّى ناءت هامتها الذهبيّة بحمله، وانقلبت الأصوات في أذنيها وقراء، فما جاء وقت الانسحاب إلى حجرة النوم حتّى مضت في إعياء كالمرضى، وهناك في أمن من ظلمة الحجرة تحبّهم وجهها لأوّل مرّة وعكس صورة صادقة من قلبها.

بيّد أنّه لحق بها رقيب - خديجة - أيقنت من بادئ الأمر أنّ تصنّعها لن يجدي معها شيئاً وقد تحامت في المجلس نظراتها أمّا الآن - إذ جلست إليها - فلا مهرب منها ولا مفرّ. وتوقّعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف، وانتظرت تسلّل صوتها إلى أذنيها بين لحظة وأخرى، ورحّب قلبها بالحديث، لا لأنّه سيبيح رجاء جديداً، ولكن لأنّها أملت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتّى شيئاً من العزاء. ولم يطل الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشقّ الظلمة قائلاً:

- عائشة، إني حزينة آسفة، ولكن علم الله لا حيلة لي، وكم وددت لو تواتني الشجاعة فأرجو أبي أن يعدل عن رأيه.

وتساءلت عمّا وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعة بثورة حتى ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة، ولكنّها اضطرتّ إلى العودة إلى استعادة النبرات التي ظنّت تتحدّث بها في مجلس أمّها فقالت:

- فيمّ الحزن والأسف، ما أخطأ أبي وما ظلم ولا

النور الذاهب وتساءل نفسها إذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليّاً فلماذا لم يواصل الضياء، لماذا يخبو، لماذا خبا، فتكون حسرة جديدة تنضمّ إلى بقية الحسرات التي ينسجها الحزن حول قلبها منتزعاً إيّاها من ذكريات الماضي وواقع الحال وأحلام المستقبل، وعلى إغراقها في التفكير في هذا كله وحضوره - تبعاً لذلك - في شعورها فلانها تعود تتساءل وكأنّها تتساءل لأوّل مرّة، وكأنّ الحقيقة المرّة ترتطم بشعورها للمرّة الأولى: هل حقّاً خبا النور؟!

هل تمرّقت الأسباب بينها وبين الشاب الذي ملأ قلبها وخيالها؟!

سؤال جديد رغم تكراره، وصدمة جديدة رغم نفاذها إلى العظام، ذلك أنّ الحسرة الكاوية لا تنفكّ يتنازعها اليأس المستقرّ في الأعماق والأمال المتطايرة في الهواء كلّما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير، ثمّ تعود فتستقرّ في الأعماق، ثمّ تطفو مرّة أخرى، وثالثة، حتّى تأوي إلى مستقرّها - وقد ودّعت النفس آخر آمالها - فلا تغادره إلى الأبد، انتهى كأن لم يكن، لا سبيل إليه أبداً، ما أهون الأمر عليهم، عاجلوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا نأكل غداً، أو حلمت ليلة أمس حلماً غريباً، أو رائحة الياسمين تملأ جوّ السطح، كلمة من هنا... كلمة من هناك... واقتراح يعلن ورأي ييسط، في هدوء وحلم غريبيين، ثمّ تعزية باسمة، وتشجيع كأنّه الدعاية - ثمّ تغير الحديث وتشعب، انتهى كلّ شيء، وأدرج في التاريخ الذي تنزل عليه الأسرة النسيان. أين قلبها من هذا كله؟! ... لا قلب لها، لا تصوّر وجوده أحد، لا وجود له في الواقع، ما أشدّ غربتها، ضائعة مفقودة، ليسوا منها وليست منهم، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات، ولكن كيف تنسى أنّ كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها، كانت تكفي لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقاً جديداً؟! ... كلمة واحدة لا أكثر، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثمّ تحدث المعجزة، لم تكن لتكلّفه إلا عُشر ما تكلف من جهد في المناقشة الطويلة التي انتهت إلى الرفض. ولكن لم تجرّ بذلك مشيئته،

- أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا إذا تزوجتما؟  
فصاحت به خديجة:  
- انتظر حتى يجيء الزواج!  
فتساءل في عناد:  
- ولكن ما هو الزواج؟  
- كيف أجيبك وأنا لم أتزوج... اذهب ونم الله لا  
يسئلك...  
- لن أذهب حتى أعرف.  
- يا حبيبي توكل على الله وفارقنا.  
قال بصوت حزين:  
- أريد أن أعرف هل تغادران البيت إذا تزوجتما؟  
فقال في ضجر:  
- نعم يا سيدي... ماذا تريد أيضًا؟  
فقال في جزع:  
- إذن لا تتزوجا... هذا ما أريد...  
- سمعًا وطاعة...  
فعاد يقول في احتجاج ناثر:  
- أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدًا عنا وسادعو الله ألا  
يزوجكما...  
فهتفت:  
- من فمك لباب السما... عال... عال...  
ربنا يكرمك. تفضل فارقنا مع السلامة...

## ٢٧

سرى في البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرحقة  
بالتزم يوم راحة يستطيع - إذا شاء - أن يستروح فيها  
نسمة من الحرية البريئة في أمن من الرقيب. فظن كمال  
أنه غدا في حل من أن يقطع اليوم كله في اللعب  
داخل البيت أو خارجه، وتساءلت خديجة وعائشة ألا  
يمكن أن تنسلا مساء إلى بيت مريم لقضاء ساعة في هو  
ومرح؟ لم تحي هذه الراحه نتيجة لانقضاء شهور الشتاء  
الكالح وحلول بشار الربيع ملوحة بالدفء والباشاشة،  
إذ ليس من شأن الربيع أن يهب هذه الأسرة حرية  
يحرمها إياها الشتاء، ولكنها جاءت نتيجة طبيعته لسفر  
السيد أحمد إلى بور سعيد في مهمة تجارية تدعوه كل

داعي للعجلة!  
- هذه ثاني مرة يؤجل زواجك بسبي!  
- لست آسفة مطلقا.  
فقال خديجة بلهجة ذات مغزى:  
- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى.  
أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق،  
فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة، وبكى ودا وحبا،  
ذلك الحب الكامن يثار بالإشارة تحييه من الخارج عفوا  
أو قصدا كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك،  
وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم  
تسعهفا فخافت أن تفضحها نراتها، وعند ذاك تنهدت  
خديجة قائلة:  
- لهذا تجدينني في غاية الحزن والأسف، ولكن ربنا  
كريم، وما شدة إلا وبعدها الفرج، فعسى أن ينتظر  
ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا.  
وهتفت جوارحها: «يا ليت». أما لسانها فقال:  
- سيان عندي، الأمر أبسط مما تظنين.  
- أرجو أن يكون كذلك... إني جد حزينة وآسفة  
يا عائشة.  
وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال في الشعاع  
الخافت الذي تسلل من فرجة الباب فصاحت به  
خديجة في ضيق:  
- لماذا جئت؟ وماذا تريد؟  
فقال الغلام بصوت يشي باحتجاجه على سوء  
مقابلتها له:

- لا تنهيني... وأفسحي لي...  
ووثب إلى الفراش وركع بينهما، ثم دس يدا إلى  
واحدة ويذا إلى الأخرى، وراح يدغدغهما ليهتم  
لحديثه جوا طيبا غير الجوا الذي أنذرت به نبرة  
خديجة، ولكنها نترتا يديه، وقلتا بصوتين متتابعين:  
- أن لك أن تنام، فاذهب ونم.  
ولكنه هتف في غيظ:  
- لن أذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه!  
- غم تسأل في هذه الساعة من الليل؟  
فقال مغبرا لهجته حتى تستجيبا له:

استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرّمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية، أجل بدت زيارة الحسين عذراً قوياً - له صفة القداسة - للطفرة اليسارية التي نزعت إليها إرادتها، ولكنها لم تكن وحدها التي تمخّضت عنها نفسها إذ لبّت دعاءها في الأعماق تيارات حبسية متلهّفة على الانطلاق كما تلبّي الغرائز المتعطّشة للقتال نداء الدعاء إلى الحرب بحجّة الدفاع عن الحرية والسلام. ولم تدّر كيف تعلن عن استسلامها الخطير، ولكنها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت متهذّب:

- زيارة الحسين منية قلبي وحياتي... ولكن...

أبوك؟

فضحك ياسين قائلاً:

- أبي في طريقه إلى بور سعيد ولن يعود قبل ضحي الغد، ويوسعك - زيادة في الحيلة - أن تستعيري ملاءة أم حنفي اللّف حتّى إذا اتّفق أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين إليه ظنك زائرة... ورددت عينيها بين الأبناء في خجل وتيبّ كاتبها تنشد المزيد من التشجيع، فتحمّست خديجة وعائشة للاقتراح، وكأنّهما تعبّان بحماسها عن رغبتها الحبيسة في الانطلاق، وفرحتها بزيارة مريم التي باتت - بعد هذا الانقلاب - في حكم المقرّر، وهتف كمال من أعماق قلبه:

- سأذهب معك يا نينة لأدّلك على الطريق...

وحدها فهمي بنظرة عطف أثاره في نفسه ما طالعه في وجهها البريء من سرور حائر كسرور الطفل إذا مُني بلعبة جديدة فقال لها في تشجيع واستهانة:

- ألقى نظرة على الدنيا، لا عليك من هذا فإني أخاف أن تنسي المشي من طول لزومك للبيت!.. وفي فورة الحماس جرت خديجة إلى أم حنفي ثمّ عادت بملاءتها، وتزامحت الأصوات بالضحك والتعليق، فغدا اليوم عيداً سعيداً لا عهد لأحد به، واشترك الجميع - وهم لا يدرون - في الثورة على إرادة الأب الغائب. والتفت الستّ أمينة في الملاءة وأسدتل البرقع الأسود على وجهها، ثمّ نظرت في المرأة فلم

عدّة أعوام إلى السفر يوماً أو بعض يوم، واتّفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسميّة بين أفراد الأسرة... وتجاوبت رغباتهم الظمأى إلى الحرية في الجوّ الطليق الأمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلّها، بيد أنّ الأمّ وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردّد، لأنّها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة، وأنّ تلتزم - في غياب الأب - الحدود التي تلتزمها في حضوره خوفاً من مخالفته أكثر منها اقتناعاً بوجاهة شدّته وصرامته، ولكنها ما تدري إلّا وياسين يقول لها:

- لا تعارضي بالله... إنّنا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس، بل أريد أن أقول شيئاً جديداً... لماذا لا تروّحين عن نفسك أنت؟!... ما رأيكم في هذا الاقتراح؟

وتطلّعت إليه الأعين في دهشة ولكنّ أحداً لم ينبس بكلمة، ولعلّهم - كأثمهم التي رمته بنظرة تأنيب - لم يحملوا قوله محمل الجدّ، إلّا أنّه استطرد قائلاً:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟!... لم أخطئ في البخاري، وليس تمّة جريمة والحمد لله، ما هو إلّا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحيّ الذي عشت فيه أربعين عاماً دون أن تري منه شيئاً...

فتنهّدت المرأة متمتمة:

- سأمحك الله...

فقهقه الشابّ قائلاً:

- غلام يساعني... هل اقترفت ذنباً لا يُغتفر؟

والله لو كنت مكانك لمضيت من تويّ إلى سيّدنا الحسين ألا تسمعين؟... حبيبك الذي تهمين به على البعد وهو قريب، قومي إنّّه يدعوك إليه...

وخفق قلبها خفقاناً لاحث آثاره في احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفي تأثرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوة تفجّرت في نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممّن حولها حتّى ياسين نفسه، كأنّما زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدّر كيف



تتمالك من أن تضحك طويلاً حتى اهتز جذعها، وارتدى كمال بذلته وطربوشه وسبقها إلى فناء البيت، ولكنّها لم تتبعه، ركبها شعور الرهبة الذي يلزم المواقف الفاصلة، فرفعت عينها إلى فهمي وتساءلت: - ما رأيكم. هل أذهب حقاً؟ فصاح بها ياسين: - توكلّي على الله... وتقدّمت منها خديجة ووضعت يدها على منكبيها ودفعتها برفق وهي تقول: - الفاتحة أمانة... ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها إلى السلم، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع في أعقابها... ووجدت أم حنفي في انتظارها، فألقت الخادم على سيّدها - أو بالأحرى على الملاة الملتقة بها - نظرة فاحصة، ثم هزّت رأسها هزّة انتقاديّة، وتقدّمت منها وأعدت لفّ الملاة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها في الوضع المناسب، فانقادت لها سيّدها التي كانت ترتدي الملاة اللفّ لأوّل مرّة، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدّها في تفصيل وسيم، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة، فألقت خديجة عليها نظرة إعجاب باسمه وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا في الضحك... ولاقت وهي تعبر عتبة الباب الخارجي إلى الطريق لحظة دقيقة جفّ لها ريقها فضاغ السرور في نوبة القلق ووطأة الإحساس بالذنب، وتحركت في ببطء وهي قابضة على يد كمال بحال عصبيّة، وبدت مشيتها مضطربة مغلخلة كأنّها عاجزة عن مبادئ المشي الأولى، إلى ما اعترأها من حياء شديد، وهي تتعرّض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصائص المشربيّة - عمّ حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبان ويومي الشربتلي وأبو سريع صاحب المقلّي - حتى توهّمت أنّهم سيعرفونها كما تعرفهم - أو لأنّها تعرفهم - ووجدت مشقة في تثبيت حقيقة بديهيّة في رأسها وهي أنّ عيّناً منهم لم تقع عليها مدى الحياة، وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قرمز لأنّه وإن

يكن أقصر الطرق إلى جامع الحسين إلّا أنّه كان لا يمرّ - كطريق النحاسين - بدكان السيّد فضلاً عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المازّة عنه إلّا فيها ندر، وتوقّفت لحظة قبل أن توغل فيه، والتفتت صوب المشربيّة فرأت شبحي ابتيتها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة أخرى عن وجهي ياسين وفهمي الباسمين، فاستمدّت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها، ثم جدّت في السير - هي وغلماها - يقطعان الدرب المقفر في شيء من السطمأينية، لم يغب عنها القلق ولا الإحساس بالذنب ولكنّها ترجعا إلى حاشية الشعور الذي احتلّت مركزه عاطفة استطلاع حساسيّة نحو

الدنيا التي يترأى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها، ووجدت سروراً ساذجاً لمشاركة الأحياء في الحركة والانطلاق، سرور من قضت ربع قرن سجيّة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأنّها في الخرنفش - بضع مرّات في العام - تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيّد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر إلى الطريق... وجعلت تسأل كمال عمّا يصادفها في طريقها من مشاهد وأبنية وأماكن، والغلام يحدّثها في إسهاب مزهواً بدور المرشد الذي يقوم به، فهذا هو قبو قرمز المشهور الذي يجب - قبل الدخول فيه - تلاوة الفاتحة، وقاية من العفاريت التي تسكنه، ولهذا ميدان بيت القاضي بأشجاره الباسقة وكان يسمّيه ميدان «ذقن الباشا» مطلقاً عليه اسم الزهر الذي يعلو أشجاره، أو يسمّيه أحياناً أخرى «ميدان شنجرلي» ساحباً عليه اسم بائع الشيكولاتة التركيّ، أمّا هذا البناء الكبير فهو قسم الجماليّة، ومع أنّ الغلام لم يجد به ما يستحقّ اهتمامه سوى السيف المدلّي من وسط الديدبان إلّا أنّ الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحبّ الاستطلاع الخلق بمكان يقيم به الرجل الذي سعى إلى طلب يد عائشة، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولى، التي قضى بها عاماً قبل التحاقه بمدرسة خليل آغا الابتدائيّة، فأشار إلى شرفتها الأثريّة وهو يقول «في هذه الشرفة كان الشيخ مهدي يلصق وجوهاً بالجدار

لأقل هفوة، ويركلنا بحدائه خمساً أو سناً أو عشرًا كما يحلو له» ثم أومأ إلى دكان يقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير «وهذا عمّ صادق بائع الحلوى»، ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قرشًا وابتاع به ملبئًا أحمر، انعطفا بعد ذلك إلى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجي للجامع الحسين، يتوسطه شبّاك عظيم الرقعة محلىّ بالزخارف العربيّة، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح فتساءلت والبشر يسجع في صدرها «سيدنا الحسين؟» ولما أجابها بالإيجاب مضت تقارن بين المنظر الذي تقترب منه - وقد حثت خطاها لأوّل مرّة منذ غادرت البيت - وبين الصورة التي خلقها خيالها له مستعينا في خلقه بنماذج من الجوامع التي في متناول بصرها كجامع قلاوون فوجدت الحقيقة دون الخيال لأنها كانت تنفخ في الصورة طولاً وعرضاً على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها بيد أنّ هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئاً في فرحة اللقاء التي ثملت بها جوانحها. ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا في زحمة الدخالات. ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأنّ بدنها يدوب رقّة وعطفاً وحناناً، وأنها تستحيل روحاً طائراً يرفرف بجناحيه في سماء يسطع بجنابتها عرف النبوة والوحي فاغرورقت عينها بالدمع الذي أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبّها وإيمانها وأريحية امتنانها وفرحها، وراحت تلتهم بأعين شقيقة مستطلعة، جدرانه وسقفه وعمّده وأبسطته ونجفه ومنبره ومخاريبه، وإلى جانبها كان كمال ينظر إلى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصّة به ترى أنّ الجامع يكون مزاراً للناس في النهار والهزيع الأوّل من الليل، وبيتاً من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويحيى مستعملاً ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه، فيطوف بأرجائه ويصلي في المحراب ويرتقي المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيّه المحيط، وكم تمثى حالماً لو ينسونه في الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقي الحسين وجهها لوجه وأن

يمضي في حضرته ليلة كاملة حتى الصباح، وتخيّل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من أي الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة، تخيّل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة «من أنت؟» فيجيبه وهو يقبل يده «كمال أحمد عبد الجواد» ويسأله عن عمله فيقول له «تلميذ». ولن ينسى التنويه بتفوقه - بمدرسة خليل آغا» ويسأله عما جاء به في هذه الساعة من الليل، فيجيبه بأنّه حبّ آل البيت عامّة والحسين خاصّة، فيسم إليه عطفاً، ويدعوه إلى مرافقته في تجواله الليليّ، وعند ذاك يروح له بأمانيه جملة قائلاً: «اضمن لي أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه، وأن تبقى عائشة وخديجة في بيتنا إلى الأبد، وأن تغتفر طبع أبي، وأن تمدّ في عمر أُمّي إلى ما لا نهاية، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتي، وأن ندخل الجنة جميعاً بغير حساب». . . هذا وتيار الزائرات الزاحف في بطن يدفعها رويداً حتى وجدا نفسيهما في مثنوى الضريح، طالما تلهّفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تلهّفت على حلم يستحيل تحقيقه في هذه الدنيا، ها هي تقف بين أركانها، بل ها هي لصق جدران الضريح نفسه، تشرف نفسها عليه خلال الدموع، وتودّ لو تترثّ لتتملّى مذاق السعادة لولا شدّة ضغط الزحام، ومدّت يدها إلى الجدران الخشبيّة، واقتدى كمال بها، ثم قرأ الفاتحة، ومسحت بالجدران وقبّلتها ولسانها لا يني عن الدعاء والتوسّل، ودّت لو تقف طويلاً أو تجلس في ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمّل ثم لتعيد الطواف، ولكن خادماً المسجد وقف للجميع بالمصداق، لا يسمح لواحدة بالتلذّذ ويحثّ المتباطئات، ويلوح منذراً بعصاه الطويلة، وهو يدعو الجميع إلى إتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة، ارتوت من المنهل العذب ولكّنها لم تطفئ ظمأها، وهيئات أن يزوى لها ظمأ، لقد أهاج الطواف حنينها فتفجّرت عيونها وسال وزخر ولن يزال يشدّ المزيد من القرب والابتهاج، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انزعجت نفسها منه

بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشيء فراح يردّد عينيه بين أمّه الملقاة عند قدميه وبين الناس في حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثمّ ارتقى على ركبته إلى جانبها ووضع كفه على منكبيها وناداه بصوت تفتّت نبراته بحرارة الرجاء ولكنّها لم تستجب له فرفع رأسه مقلّباً عينيه في وجوه الناس، ثمّ صرخ باكياً في نحيب حارّ علا على الضجّة التي تكتنفه حتّى كاد يسكتها وتطوّع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها، وانحنى آخرون فوق أمّه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان: تشد إحداها السلامة للضحّة، وتنزع الأخرى - في حال اليأس من السلامة - إلى أن ترى الموت - ذلك الختم المؤجّل - وهو يطرق باباً غير باهم، وينزع روحاً غير روحهم كأنهم يودّون أن يقوموا بشبه بروفا آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعاً أن يخنموا الحياة بلعبة، وصاح أحدهم قائلاً «صدمها باب السيّارة الأيسر في ظهرها»، وقال السائق الذي غادر السيّارة ووقف مختنقاً بجو الاتهام الذي يطبق عليه «لقد انحرفت عن الطوار بفتة فلم أستطع أن أتفادى من صدمها، ولكنّي قرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة، ولولا رعاية الله لدستها... وجاء صوت من المحذّرين إليها قائلاً «ما زالت تنتنّس... أغمي عليها فقط»، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطيّ قادماً يترنّح سيفه بجنبه الأيسر «إنّها صدمة خفيفة... لم تتمكّن منها أبداً. إنّها بخير... بخير يا جماعة والله...» ثمّ انتصبت قامة أوّل رجل تقدّم لفحصها وقال كأنما يلقي خطبة «ابتعدوا ولا تمنعوا الهواء... فتحت عينيها... بخير... بخير والحمد لله...» كان يتكلّم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذي ردّ إليها الحياة، ثمّ تحوّل إلى كمال الذي غلبه بكاء عصبيّ فاسترسل فيه في انفعال لم تجد معه مواساة المواسين، تحوّل إليه وربّت على خدّه بحنان وقال له «حسبك يا بني... أمك بخير... انتظر... هلمّ ساعدني على إقامتها...» ولكنّ كمال لم يمكّ عن البكاء حتّى رأى أمّه تتحرّك فبال نحوها ووضع يسراها على كتفه، وعاون الرجل

انتزاعاً، وأودعته قلبها وهي توليه ظهرها، ثمّ مضت حسرى يعدّها شعورها بأنّها تودّعه الوداع الأخير، بيد أنّ ما طبعت عليه من قناعة واستسلام أخذها على ما استسلمت له من الحزن فردّها إلى تمليّ ما ظفرت به من سعادة طارت بها هواجس الفراق، ودعاها كمال إلى مشاهدة مدرسته فمضيا إليها في نهاية شارع الحسين. ووفقا عندها مليّاً. ولمّا أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمّه التي لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفریط فيها واستتات في الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا في السكّة الجديدة حتّى الغوريّة، ولكي يقضي على المقاومة التي بدت في صورة تقطيعية باسمه من وراء البرقع حلّفها بالحسين فتنهّدت. واستسلمت ليدّه الصغيرة، ومضيا يشقان طريقهما في زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين في جميع الجهات ممّا لم تجد عشر معشاره في الطريق الهادئ الذي جاءت منه فعلاها الارتباك، وأخذت تفقد نفسها في اضطراب شامل، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وإعياء، ولكنّ تهالكه على إتمام الرحلة السعيدة جعله يصمّ أذنيه عن شكاتها ويشجّعها على مواصلة السير ويلهبها عن متاعبها بلفت نظرها إلى الدكاكين والعربات والمائة، وهما يقتربان في بطء شديد صوب منعطف الغوريّة، وعند ذاك المنعطف لاح لناظريه دكان فطائر فسأل لعابه وثبت عيناه عليها لا تتحوّلان وراح يفكر في وسيلة لإقناع أمّه بالدخول إلى الدكان وابتياح فطيرة، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر، ولكنّه ما يدري إلّا وأمّه تفلت من يده فالتفت نحوها في ذهول ورعب دون أن يبدي حراكاً ولكنّه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه - في نفس الوقت تقريباً - سيّارة تفرمل محدثة صوتاً عنيقاً ومرسلة وراءها ذيلًا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر، وتعالى صياح وحدثت ضجّة وهرع الناس إلى المكان من جميع نواحي الطريق كما تهرع الصبّية إلى صفّارة الحاوي ففرضوا حولها حلقة غليظة بدت أعياناً مستطلعة ورءوساً مشرّبة والسنة تهتف

الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها «يا ربّي ماذا حدث؟ ماذا رأيت يا كمال؟ كأنه حلم مفزع، خيّل إليّ أنّ أهوي من علّ إلى هاوية مظلمة، وأنّ الأرض تدور تحت قدمي، ثمّ غبت عن كلّ شيء حتى فتحت عينيّ على ذلك المنظر المخيف، ربّاه... هل أراد حقّاً أن يذهب بي إلى القسم؟ يا لطيف يا ربّ... يا منجيّ يا ربّ، متى نبلغ بيتنا؟! بكيت كثيراً يا كمال لا دمت عينيك أبداً... جفّ عينيك بهذا المندبل حتى تغسل وجهك في البيت... آه».

وتوقّفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلّص وجهها، فرفع كمال وجهه إليها منزعجاً وسألها: - ماذا بك؟!

فأغمضت عينها وهي تقول بصوت ضعيف: - إنّ تعباً، تعباً جداً، لا تكاد تحملني قدمائي، ادعُ أوّل عربة تصادفك يا كمال.

ونظر كمال فيها حوله فلم يرَ إلّا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذيّ الذي بادر إلى سوق العربة حتى وقف بها أمامها واقتربت الأمّ منها متكنة على كتف كمال ثمّ صعدت إلى سطحها بمعونته واعتماداً على منكب الحوذيّ الذي وطّأ لها حتى تربّعت وهي تتنهد في إعياء شديد، وجلس كمال إلى جانبها ثمّ وثب الحوذيّ إلى المقدّمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوثيدة والعربة تترنّج وراءه مقطّقة... وتأوّهت المرأة متمتمة «ما أشدّ ألمي، عظام كتفي تتفكّك» لهذا وكمال يرمقها في جزع وقلق... ومَرّت العربة في طريقها بـدكان السيّد دون أن يعيرها التفاتاً، ومضى كمال يتطلّع إلى الأمام حتى لاحت لعينيّه مشريّات البيت... لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة إلّا نهايتها المحزنة...

فتحت أمّ حنفي الباب فأذهلها أن ترى سيّدتها متربّعة على عربة كارو، وقد ظنّت لأوّل وهلة أنّه رُجماً

على إقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينها في إعياء ونحور وقد سقطت عنها الملاءة التي امتدّت بعض الأيدي لتعيدها إلى موضعها - بقدر الإمكان - حول كتفيها، ثمّ قدّم لها الفطائريّ الذي وقعت الحادثة أمام دكانه مقعداً فأقعدها عليه وجاءها بقدر من الماء فتجرّعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسيّة وهي تزفر زفرة عميقة. وجعلت تردّد أنفاساً مضطربة بصعوبة وتنظر في وجوه المحدقين بها في ذهول وهي تتساءل «ماذا جرى؟... ماذا جرى؟... ربّاه لماذا تبكي يا كمال؟!» وعند ذلك اقترب الشرطيّ منها وسألها «هل بك سوء يا سيّدتي؟ وهل تستطيعين السير إلى القسم؟» فصدم اسم «القسم» عقلها فرجّها من الأعماق وهتفت بنزع «لماذا أذهب إلى القسم؟... لا أذهب إلى القسم أبداً» فقال لها الشرطيّ «لقد صدمتك السيّارة فأوقعتك، فإذا كان بك سوء وجب أن تذهبي أنت وهذا السائق إلى القسم لتحرير المحضر» ولكنّها قالت وهي تلهث «كلّاً... كلّاً... لن أذهب... أنا بخير» فقال لها الشرطيّ «توكّدي ممّا تقولين، انهضي وامشي لئري إن كان أصابك سوء»، ولم تتردّد عن النهوض - مدفوعة بالفزع الذي أثاره ذكر القسم - فنهضت وأصلحت ملائحتها ثمّ سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال إلى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب، ثمّ قالت للشرطيّ وهي ترجو أن تنتهي هذه الحال المؤلمة بأيّ ثمن «إنّي بخير... (ثمّ مشيرة إلى السائق)... دعوه... لا شيء بي» لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف، هالها منظر الناس المحدقين بها، خاصّة الشرطيّ الذي يتقدّمهم، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوّبة نحوها من كلّ مكان متحدّية باستهانة بالغة تاريخاً طويلاً من التسرّ والتخفي فتخالبت لعينها فوق هذا الجمع صورة السيّد وكأنّها تفرّس في وجهها بعينين باردتين متحرّجتين منذرتين بما لا تطيق تصوّره من الشرّ، فلم تأل أن قبضت على يد الغلام وأنجّته به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيّبها منعطف

يلجّ عليهما من أسئلة إلى حين، وحمل الأم إلى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنب، ثم سألهما فهمي قلقاً معذباً:

- خبّرني عمّا بك يا نينة، أريد أن أعرف كلّ شيء.

ولكنّها مالت برأسها إلى السوراء ولم تنس بكلمة ريثما تستردّ أنفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأمّ حنفي وكمال حتّى فقد فهمي أعصابه فثار بهنّ ونهرهنّ حتّى أمسكن، ثمّ جذب كمال إليه ليستجوبه عمّا يريد، كيف وقع الحادث، وماذا فعل الناس بالسائق، وهل أخذوكما إلى القسم، وكيف كان حال الأمّ في أثناء ذلك كلّ، هذا وكمال يجيبه على أسئلته بلا ترددّ وفي إسهاب، وعن أكثر التفاصيل، وكانت الأمّ تتابع الحديث بالرغم من وهنّها فلمّا سكّت الغلام استجمعت قواها وقالت:

- إني بخير يا فهمي، لا تزعج نفسك، كانوا يريدون أن أذهب إلى القسم فرفضت، ثمّ واصلت السير حتّى نهاية الصاغة وهناك خارت قواي فجأة، لا تنزعج، سأستردّ قواي بعد راحة قصيرة.

إلا أنّ ياسين عانى - إلى انزعاجه للحادث - حرجاً شديداً لأنّه كان المسئول الأوّل عن الرحلة المشثومة - بهذا وصفت بعد الحادث - فاقتراح عليهم أن يستدعوا طبيباً، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأي الآخرين، وارتعدت الأمّ لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجّت فهمي أن يلحق بأخيه وأنّ يثنيه عن عزمه مؤكّدة له بأنّها ستبرأ دون حاجة إلى طبيب ولكنّ الشابّ رفض الإذعان لرجائها ميّناً لها أوجه الفائدة الملوطة بمجيئه، وفي أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاء عنها، وجاءتها أمّ حنفي بقدح ماء ثمّ أحاطوا بها جميعاً وهم يتفتّصون بقلق وجهها الذي علاه الشحوب ويسألونها مراراً وتكراراً عمّا تجد، وهي تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو أن تقنع بأن تقول إذا ألجّ عليها الألم «ثمة ألم خفيف في كتفي اليمنى» ثمّ تستدرك قائلة «ولكن لم يكن من داعٍ لاستدعاء طبيب»، والحق أنّها لم ترتج

يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة في العربة على سبيل اللهو فلاححت على وجهها ابتسامة ولكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت عيني كمال المحمرّتين من البكاء فارتدّت عيناها إلى سيّدتها في انزعاج واستطاعت هذه المرّة أن تلمس ما تعاني من إعياء فنذّت عنها آهة وهرعت إلى العربة هاتفة «سقي، مالك، بُعد الشرّ عنك» فقال الحوذني «تعب بسيط إن شاء الله، عاونيني على إنزالها» وتلقّتها المرأة بين ذراعيها، وسارت بها إلى الداخل وتبعها كمال واجماً محزوناً، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا في الفناء وكلتاها تفكّر في دعابة تلقى بها القادمين فما راعها إلا أن تطلع عليها أمّ حنفي من الدهليز الخارجي وهي تكاد تحمل الأمّ حملاً فنذّت عنها صرخة، وهرعتا إليها فزعتين وهما تهتفان:

- نينة... نينة... مالك!

وتعاونوا جميعاً على حملها، ولم تكفّ خديجة في أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عمّا حدث حتّى اضطرّ الغلام إلى أن يغمغم في خوف بالغ:

- سيّارة!

- سيّارة!...

هكذا هتفت الفتاتان معاً مردّدتين الاسم الذي وقع من نفسيهما موقعاً مفزعاً فاق الاحتمال. فولولت خديجة هاتفة «يا خبر أسود... بُعد الشرّ عنك يا نينة» أمّا عائشة فانعقد لسانها وأفحمت في البكاء، ولم تكن الأمّ غائبة عن الوجود وإن كانت من الإعياء في نهاية فهمست على إعيائها رغبة في تسكين اضطرابها:

- إني بخير، لم يحدث سوء، ما بي إلاّ تعب.

وتناهت الضمجة إلى ياسين وفهمي فخرجوا إلى رأس السلم، وأطّلا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عمّا حدث، ولم تملك خديجة إلاّ أن تشير إلى كمال ليحجب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فأنجّه الشابان إلى الغلام الذي عاد يغمغم بحزن وارتباك:

- سيّارة!

ثمّ انتحب باكياً، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما

للخوف مطلقاً... والآن دعوني أعمل...  
ومها يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد  
أن جفت منهم الحناجر، وبدا هذا الأثر واضحاً بين  
الجماعة خارج الحجرة فتمتت خديجة:  
- فلتحلّ بها بركة سيّدنا الحسين الذي ما خرجت  
إلا لزيارته.

وكأنما تذكر كمال بقولها أمراً هاماً أنسيه طويلاً فقال  
بدهشة:  
- كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبرّكها  
بزيارة سيّدنا الحسين؟

ولكنّ أمّ حنفي قالت ببساطة:  
- ومن أدرانا بما كان يحدث لها - والعياذ بالله - لو لم  
تتبرّك بزيارة سيّدها وسيّدنا؟  
ولم تكن عائشة قد أفادت من أثر الصدمة فضاقل.  
صدرها بالحديث وهتفت برجاء حارّ:  
- آه يا ربّي متى ينتهي كلّ شيء كأنه لم يكن!  
وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة:

- ما الذي ذهب بها إلى الغوريّة؟! لو رجعت بعد  
الزيارة إلى البيت مباشرة لما حدث لها الذي حدث!  
فدقّ قلب كمال خوفاً وانزعاجاً وتجنّساً ذنبه لعينيه  
جريمة نكراء ولكنّه حاول التملّص من الشبهات فقال  
بلهجة تنمّ عن لوم:  
- أرادت أن تتمسّى في الطريق وعبتاً حاولت أن  
أثنيها عن إرادتها.

فحدجته خديجة بنظرة اتّهام وهمت بالردّ عليه ولكنّها  
أمسكت إشفافاً وعطفاً على وجهه الذي علاه  
الاصفرار، ثمّ قالت لنفسها «حسبنا ما نحن فيه  
الآن».

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول  
للشايين اللذين تبعاه:

- ينبغي أن أعودها يوماً بعد يوم حتى يجبر الكسر،  
وكما قلت لكم لا داعي للخوف مطلقاً.

واقترح الجميع الحجرة فراءوا أمهم قاعدة في  
الفراش، مسندة الظهر إلى وسادة مكسورة وراءها ولم  
يكن ثمة تغيير إلا ارتفاع في كتف الفستان فوق منكبها

لاستدعائه أبداً، لأنّها من ناحية لم تلقَ طبيباً قطّ - لا  
لحصانة صحتّها فحسب - ولكن لأنّها نجحت دائماً في  
مداواة ما يلّم بها من توغّع أو انحراف بطبّها الخاصّ  
فلم تؤمن بالطبّ الرسمي، إلى أنّه اقترن في ذهنها  
بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة، ومن ناحية  
أخرى فقد شعرت بأنّ استدعاء الطبيب من شأنه أن  
يهوّل الأمر الذي تودّ له السرّ والطّي قبل عودة  
السيد... ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها،  
ولكنّهم لم يهتموا في تلك اللحظة الدقيقة إلا بشيء  
واحد، هو سلامتها.

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأنّ عيادة  
الطبيب كانت في ميدان بيت القاضي، ثمّ عاد يتقدّم  
الرجل الذي أدخل على الأمّ حال حضوره، وأخلّط  
الغرفة فلم يبق بها معه إلا ياسين وفهمي، وسأل  
الطبيب الأمّ عمّا تشكو فأشارت إلى كتفها اليمنى وقالت  
وهي تزدد ريقها الذي جفّ من الخوف:  
- أشعر هنا بالـم.

وعلى هذّي إشارتها، إلى ما حدّثه به ياسين في  
الطريق عن الحادث جملة، تقدّم لفحصها، وطال وقت  
الفحص في شعور الشايين المنتظرين في الداخل،  
وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات  
القلب، وتحوّل الطبيب عن المصاغة إلى ياسين قائلاً:  
- كسر في الترقوة اليمنى، هذا كلّ ما هنالك.

وأحدثت «لفظة» الكسر ارتباكاً في الداخل  
والخارج، وعجب الجميع لقوله «هذا كلّ ما هنالك»  
كأنّ وراء الكسر شيئاً يتّسع له احتمالهم، على أنّهم  
وجدوا في ذات التعبير، واللهجة التي ألقى بها ما  
يغري بالطمأنينة فتساءل فهمي وهو بين الخوف  
والأمل:

- وهل هو شيء خطير؟

- كلاًّ البتّة، سأعيد العظم إلى سابق موضعه وأشدّه  
ولكن عليها أن تنام بضع ليالٍ وهي قاعدة مسندة  
الظهر إلى وسادة لأنّه سيتعزّر عليها أن تنام على الظهر  
أو الخنيتين، وسوف يجبر الكسر وتعود إلى ما كانت عليه  
في ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، لا داعي

- خصوصًا إذا قلنا له إنَّ خروجنا كان لزيارة سيِّدنا الحسين.

وردَّدت المرأة عينيها الحابيتين بين ياسين وفهمي وتساءلت:

- ما عسى أن أقول له؟

فقال ياسين الذي هاضته شدَّة مسؤوليته:

- أيَّ شيطان أضلَّني حين نصحت لك بالخروج، كلمة جرت على لساني وليَّتْها ما جَرَّتْ، ولكن هُكذا شاءت الأقدار لترمي بنا في هذا المازق الأليم، على أنِّي أقول لك بأننا سنجد ما نقوله، وأيا كان الأمر فلا ينبغي أن تشغلي فكرك بما سيكون. دعي الأمر لله، وحسبك ما قاسيت في يومك من آلام ومخاوف.

تكلَّم ياسين بحماس وعطف معًا، فصبَّ سخطه على نفسه، وعطف على الأمِّ عطف المتألِّم لحالها، ومع أنَّ كلامه لم يقدِّم ولم يؤخِّر إلَّا أنه رُوِّح عن شعوره الضيق بالحرج، وأفصح به في نفس الوقت عمَّا عساه يدور في عقول بعض - أو كلِّ - من يقفون إلى جانبه فأغناهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم إذ أنَّ التجربة علَّمته بأنَّه أحيانًا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم عليها وأنَّ الاعتراف بالذنب يغري بالصفح بقدر ما يغري الدفاع عنه بالغضب، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهازًا مسؤوليًا ما أدَّت إليه مشورته وتتخذها سبيلًا إلى مهاجمته فسبقها إلى غرضها قاطعًا عليها الطريق، ولم يكذب ظنَّه فالحقُّ أنَّ خديجة كانت على وشك أن تطالبه - بصفته المسئول الأوَّل عمَّا وقع - بأن يجد لها مخرجًا، فلمَّا ألقي خطابه استحييت من مهاجمته خاصَّة وأنها لا تهاجمه عادة إلَّا على سبيل النكار لا الكراهة، بذلك تحسَّن موقفه بعض الشيء ولكنَّ الموقف العامُّ بقي على سوته، وظلَّ كذلك حتَّى خرجت خديجة من صمتها قائلة:

- لماذا لا ندَّعي أنَّها سقطت من السَّم؟

فقطلَّعت إليها أمُّها بوجه يتلهف على النجاة من أيَّ سبيل، وقلَّبت بين فهمي وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل، بيد أنَّ فهمي تساءل في حيرة:

الأيمن وثني بالرباط الذي تحته، فهرعوا إليها وهتفوا:  
- الحمد لله.

وكم اشتدَّ بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنيئًا متواصلًا، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليًا، ولكن زایلها الآن الألم، أو هُكذا بدا، وشعرت براحة نسبية وسكنية، بيد أنَّ زوال حدَّة الألم مكَّنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكِّر في الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهي تردَّد بينهم بصيرًا زائغًا:

- ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع؟

اعترض هذا السؤال - ساخرًا متحديًا - نسمات الطمأنينة التي سكنوا إليها كما تعترض الصخور النائمة سبيل سفينة آمنة، على أنَّه لم يحنِّ مفاجئة لوعيهم، بل لعلَّه اندسَّ في زحمة المشاعر الأليمة التي ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنَّه ضاع في زحمتها فتأجَّل حسابه إلى حين، الآن قد عاد ليحتلَّ الصدارة من نفوسهم، فلم يجدوا مهربًا من مواجهته، ورأوا بحقَّ أنَّه أشدَّ عليهم وعلى أمِّهم من الإصابة التي خرجت منها وشيكة الشفاء. وشعرت الأمُّ - للصمت الذي قوبل به سؤاها - بعزلة المذنب إذا تخلَّى عنه رفاقه حين انكشاف تهمة فتمتعت بنبرات شاكية:

- سيعلم حتمًا بالحادث، وسيعلم أكثر من هذا بخروجي الذي أدَّى إليه.

ومع أنَّ أمَّ حنفي لم تكن دون أفراد الأسرة قلقًا ولا أقلَّ إدراكًا لخطورة الموقف إلَّا أنَّها أرادت أن تقول كلمة طيبة، لتطيئًا للجوِّ من ناحية، ولأنَّها كانت تشعر من ناحية أخرى بأنَّ الواجب يقضي عليها - كخادم الأسرة القديمة الأمانة - بالآ تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظنَّ بها عدم اكتراث، فقالت وهي أدرى ببعده قولها عن الواقع:

- إذا علم سيِّدي بما وقع لك فلن يسعه إلَّا أن يتناسى هفوتك حامدًا الله على نجاتك.

وقوبل قولها بالإهمال الذي يستحقُّه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية، إلَّا أنَّ كمال آمن به، وقال متحمسًا وكأنَّه يتمَّ كلام أمَّ حنفي:

- والطبيب؟ ... سيعودها يومًا بعد يوم وسيقابل أبي بالضرورة.

ولكن ياسين أبي أن يغلق الباب الذي تسَلَّت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه وخوافه فقال: - تتفق مع الطبيب على ما ينبغي أن يقال لأبي؟

وتبدلت النظرات بين التصديق والتكذيب، ثم شاع في الوجوه البشر للإحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القائم إلى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة الساوية في دقائق معدودات ثم تضيء الشمس، قال ياسين وهو يتنهد: - نجونا والحمد لله.

فقالت خديجة بعد أن استعادت في الجو الجديد نشاطها المؤلف:

- بل نجوت أنت يا صاحب المشورة...

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال:

- أجل نجوت من عقرب لسانك، طالما توقعت أن تمتد لي بين حين وآخر لتلسعني...

- ولكنك هي التي أنقذتكم، ومن أجل الورد يسقى العليق...

كادوا ينسون من فرحة النجاة أن أمهم طريجة الفراش مكسورة الترقوة، ولكنها هي نفسها كادت أن تنسى...

## ٢٩

فتحت عينيها فوق بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين إليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء، فتنهتت ثم التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة:

- تمت طويلاً...

فقالت عائشة:

- ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن... يا لها من ليلة لن أنساها مهما امتد بي العمر...

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالثناء - لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا إلى جانبها طول الليل يبادلانها الألم والأرق - وتحركت شفتاها وهي تستعيز بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء:

- شد ما أتعبتكما!...

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة:

- تعبك راحة، ولكن إياك وأن تعودني إلى إرعابنا... (ثم بنبرات غلبها التأثر)... كيف هاجمك ذاك الألم المخيف؟!... لقد حسبتك استغرقت في النوم وأنت على أحسن حال، واستلقيت لأنام بدوري، وإذا بي أستيقظ على أنينك، ثم لم تمسكي عن آه... آه حتى مطلع الفجر...

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهي تقول:

- على أي حال أبشري، لقد أخبرت فهمي عن حالك حين سألني عن صحتك في الصباح فقال لي إن الألم الذي انتابك دليل على أن العظم المكسور كان أخذًا في الالتئام...

وجذبها اسم فهمي من لجة أفكارها فتساءلت:

- ذهبوا بسلامة الله؟

فقالت خديجة:

- طبعًا، كانوا يودون عبادتك ليطمئثوا عليك بأنفسهم ولكني لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذي لم تدخليه حتى شئيتنا...

فتنهتت الأم في استسلام:

- الحمد لله على كل حال، ربنا يجعل العواقب سليمة... في أي وقت نحن الآن؟...

فقالت خديجة:

- كلها ساعة ويؤذن الظهر...

ودعاها تأخر الوقت إلى أن تخفض عينيها متفجرة ثم رفعتها فإذا بها تعكسان نظرة قلق، وتمتمت:

- لعلّه الآن في الطريق إلى البيت...

وأدركتا من تعني، ومع أتهما شعرتا بدبيب الخوف في قلوبهما إلا أن عائشة قالت بثقة:

- أهلاً به وسهلاً، لا داعي للقلق، اتفقنا على ما



ينبغي أن يقال وانتهى الأمر...

ولكن اقتراب عودته أشاع في نفسها المهزولة القلق فتساءلت:

- تُرى هل يمكن التستر على ما وقع؟

فقالته خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد:

- ولم لا؟... سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام...

تمت في تلك الساعة لوبقي ياسين وفهمي إلى جانبها ليشجعاهما، تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمّر الأمر بسلام، ولكن هل يظل ما وقع سرًا

مغلقًا إلى الأبد... ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها إلى الرجل؟... كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف

الحقيقة، ولا تدري أيّ مصير يترصّ بها... ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاهما لتتكلم حين

دخلت أم حنفي مهرولة وهي تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة:

- سيدي جاء يا سي...

وخفت قلوبهنّ في اضطراب. وجلت الفتاتان عن الفراش في وثبة واحدة ثم وقفنا حيال أمهما يتبادلن

جميعاً النظر صامتات حتى غمغمت الأم:

- لا تتكلمي أنتما فإني أخاف عليكم مغبة خادعتي، اتركا لي القول والله المستعان...

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذي يركب أطفالاً في الظلام إذا قرع أذانهم وقع أقدام من

يظنونهم عفاريت يجوسون في الخارج، حتى ترامى إليهنّ وقع أقدام السيد على السلم وهي تقترب

فأزاحت الأم كابوس الصمت بمشقة وغمغمت...

- إذا تركناه صعد إلى حجرته لم يجد أحداً؟!...

ثم التفتت صوب أم حنفي قائلة:

- أخبريه بأنني هنا، مريضة، ولا تزيدني...

وازدردت ريقها الجاف، أما الفتاتان فمرفقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاهما وحيدة، ووجدت نفسها

وكأنها في عزلة عن العالم كله فاستسلمت للمقادير، وكثيراً ما يبدو هذا الاستسلام في سلوكها - الأعزل من

كلّ سلاح - كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبية،

واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك في سلامة تدبيرها لم يزيلها قط وكمن في أعماق

شعورها معلناً عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة

فغمغمت «رحمتك يا ربّ وعونك» ثم تطلّع بصرها إلى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض، ورأته

وهو يدخل مقترباً ملقياً عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين حتى وقف في منتصف الحجرة وهو يتساءل

بصوت خائت رقيقاً على غير عادته:

- مالك؟...

فقالته وهي تغضّ بصرها:

- حمدًا لله على سلامتك يا سيدي، بخير ما دمت

بخير...

- لكنّ أم حنفي قالت لي إنك مريضة...

فأشارت بيسراها إلى كتفها وقالت:

- أصيب كتفي يا سيدي لا أراك الله سوءاً...

فتساءل الرجل وهو يتفرّس في كتفها باهتمام وقلق:

- ماذا أصابه؟

حمّ الأمر، وجاءت الدقيقة الفاصلة، ما عليها إلا أن تتكلم، أن تنطق بكذبة النجاة، فتمرّ الأزمة بسلام

وتستزيد من العطف المتاح، ورفعت عينيها وهي تتوتّب، فالتقت عيناها بعينه، أو بالأحرى عيناها في

عينيه، فاشتدّ وجيب قلبها، وتتابع بلا رحمة، هناك تبخر ما جمعت في رأسها من رأي، وانتثر ما كتلت في

إرادتها من عزم، ورمشت عيناها في اضطراب وذهول، ثم رنت إليه بطرف حائر دون أن تنبس

بكلمة، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلاً:

- ماذا حدث يا أمينة؟!

لا تدري ماذا تقول، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات في حكم اليقين أنه لم يعد بوسعها أن تكذب،

أفلتت الفرصة دون أن تدري كيف، ولو أنها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة، كانت

كمن يسير وهو منوم تنوّمًا مغناطيسيًا على حبل إذا دُعي إلى إعادة مخاطرته وهو صاح، وكلما مرّت الثواني

جوه المنقبض نُذِر الخوف والوعيد، وتغيرت من أمره لا تدري عن أي قضاء يتمخض ولا إلى أي مصير يقذف بها، حتى جاءها صوته وهو يقول في هدوء غريب:

- وماذا قال الطبيب؟ ... هل ثمة خطر على الكسر؟!

فالتفت رأسها صوبه بذهول ... أجل توقعت كل شيء إلا أن يجود بهذا القول اللطيف، ولولا رهبة الموقف لاستعاده لتؤكد من صحة ما سمعت، وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعان غزيران فشدت على شفثيها أن تفحم في البكاء، ثم غمغمت في ذلة وانكسار:

- قال الطبيب إنه لا داعي للخوف مطلقاً، نجاك الله من كل سوء يا سيدي ... ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه إلى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول:

- الزمي فراشك حتى يأخذ الله بيدك ...

### ٣٠

هرعت خديجة وعائشة إلى الحجرة بعد ذهاب والدهما، ووقفنا حيال أمهما تنظران إليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق، ثم لاحظنا احمرار عينيها من أثر البكاء، فوجتتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

- خير إن شاء الله؟ ...

فلم تعد الأم أن قالت باقتضاب وهي ترمش بعينيها ارتباكاً:

- اعترفت له بالحقيقة ...

- الحقيقة! ...

فقال باستسلام:

- لم يسعني إلا الاعتراف، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عليه إلى الأبد، وحسناً فعلت ...

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت:

- يا نهارنا الأسود ...

على حين بهتت عائشة فحملت في وجه أمها دون

غضاظت في الارتباك والهزيمة حتى أشقت على اليأس ...

- لماذا لا تتكلمين؟ ...

ها هي لهجته بدأت تنم عن نفاد صبر ولا يبعد أن تقعق قريبا بالغضب، رباه لشد ما هي في حاجة إلى العون، أي شيطان أغواها بتلك الخرجة المشثومة ...

- عجباً ألا تريدان أن تتكلمي؟ ...

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهر:

- أخطأت خطأ كبيراً يا سيدي ... صدمتني سيارة ...

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيها انزعاج مقرون بالإنكار ... وكأنه بات يشك في صحة قواها العقلية، ولم تعد المرأة تحتل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملاً مهما تكن العواقب، كمن يقدم - مغامراً بحياته - على إجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به، وتضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تُغنْ بلخفاء نبراته الباكية إما لأنه غلبها على صوتها أو لأنها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاستدرا العطف ...

- ظننت أن سيدنا الحسين يدعوني إلى زيارته فلبيت ... ذهبت للزيارة ... وفي طريق العودة صدمتني سيارة ... قضاء الله يا سيدي ... ولقد نهضت من سقطني دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادئ الأمر بأي ألم فحسبني بخير وواصلت السير حتى عدت إلى البيت، وهنا تحرك الألم فأحضروا لي الطبيب ففحص كتفي وقرّر أن به كسراً ووعد بأن يعودني يوماً بعد يوم حتى يجبر الكسر، لقد أخطأت خطأ كبيراً يا سيدي وجوزيت عليه بما أستحق ... والله غفور رحيم ...

أنصت السيد إليها صامتاً جامداً، لم تتحول عنها عيناها، ولم يثد في وجهه أثر مما يعتلج في صدره على حين نكست هي رأسها في تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم، وطال الصمت، واشتد، وشاعت في

أن تبس بكلمة، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقع منه إلا غضباً كاسحاً يعصف بها وبمستقبلها... أجل شعرت بزهو وحياء وهي تنهتاً للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثر وإشفاق، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

- كان بي رحيماً أطل الله عمره، أنصت إلى قصتي صامتاً، ثم سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وغادري وهو يشير عليّ أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدي.

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زایلها الخوف سريعاً فتهتدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر، وهتفت خديجة:

- أرايت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

- لكل شيء حدود حتى غضب بابا، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال، الآن عرفنا قيمتها عنده... (ثم مخاطبة أمها في دعابة)... يا لك من أم محظوظة، هنيئاً لك التكريم والعطف!

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء:

- أطل الله عمره... (ثم متنددة) والحمد لله على النجاة!

وتذكرت أمراً فالتفتت إلى خديجة وقالت باهتمام:

- يجب أن تلحقي به لأنه سيحتاج إلى خدمتك حتى... .

وشعرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت في شرك، فقالت محتدة:

- ولماذا لا تذهب عائشة؟!

ولكن الأم قالت في عتاب:

- أنت أقدر على خدمته، لا تتلكني يا شابة إذ رُبما يكون في حاجة إليك الآن... .

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغني عنها شيئاً كما لا يغني عنها عادة كلمها دعيت إلى أداء واجب ترى الأم

أنها أقدر عليه من أختها، ولكنها أصرت على إعلانه كما تصر عادة على إعلانه في أمثاله من المواقف، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب، وجرياً مع نزعتها العدوانية التي تجد من لسانها أطوع أداة وأحدها، ثم لتحمل أمها على إعادة القول بأنها «أقدر على كبت وكبت من عائشة» كإقرار من أمها وإنذار لشقيقتها وعزاء لها هي نفسها، والحق أنه لو حدث أن عهدت بواجب من هذه الواجبات «الخطيرة» لعائشة دونها لثارت ثورة أشد ولحالت بينها وبينه، ما دامت تجد - في أعماق قلبها - أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتناز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأُمها في البيت، ولكنها أبت في الوقت نفسه أن تعترف جهاراً بأنها تمارس - بالقيام بها - حقاً من حقوقها ولكن واجباً ثقيلاً تقبله مضطرة، حتى تُدعى إليه - إذا دُعيت - في حرج من الداعي، ولتحتج عليه - إذا احتجت - في غضب يروح عن نفسها، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذي تود، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جيلاً تستحق من أجله الشكر!... . ولذلك غادرت الحجرة وهي تقول:

- في كل مازق تنادين خديجة، كأنه لا يوجد أمامك غير خديجة، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة!

ولكن خيلاءها تحلّ عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محلّه رهبة واضطراب فجمبت كيف يتألق لها أن تمثل بين يدي الرجل، وكيف تقوم على خدمته، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو أخطأت! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو في حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة، فبادرت تُعدها ثم قدّمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء... . ورجعت إلى الصالة فمكثت بها لتكون رهن إشارته إذا دعاها فلم يفارقها إحساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التي يقضيها في البيت يوماً بعد يوم حتى تنقضي الأسابيع الثلاثة؟!... . وبدا لها الأمر شاقاً حقاً وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذي تسده أمها في البيت فدعت لها بالشفاء، حباً فيها من ناحية ورحمة بنفسها من

أن تبس بكلمة، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورد وجهها الشاحب وهي تستعيد ذكرى العطف الذي شملها به حين لم تكن تتوقع منه إلا غضباً كاسحاً يعصف بها وبمستقبلها... أجل شعرت بزهو وحياء وهي تنهتاً للحديث عن عطف السيد عليها في محنتها وكيف نسي غضبه فيما اعتراه من تأثر وإشفاق، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

- كان بي رحيماً أطل الله عمره، أنصت إلى قصتي صامتاً، ثم سألني عن رأي الطبيب في خطورة الكسر وغادري وهو يشير عليّ أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدي.

وتبادلت الفتاتان النظرات في دهشة وعدم تصديق ولكن زایلها الخوف سريعاً فتهتدتا في ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر، وهتفت خديجة:

- أرايت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

- لكل شيء حدود حتى غضب بابا، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال، الآن عرفنا قيمتها عنده... (ثم مخاطبة أمها في دعابة)... يا لك من أم محظوظة، هنيئاً لك التكريم والعطف!

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء:

- أطل الله عمره... (ثم متنددة) والحمد لله على النجاة!

وتذكرت أمراً فالتفتت إلى خديجة وقالت باهتمام:

- يجب أن تلحقي به لأنه سيحتاج إلى خدمتك حتى... .

وشعرت الفتاة - لما يركبها في محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت في شرك، فقالت محتدة:

- ولماذا لا تذهب عائشة؟!

ولكن الأم قالت في عتاب:

- أنت أقدر على خدمته، لا تتلكني يا شابة إذ رُبما يكون في حاجة إليك الآن... .

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغني عنها شيئاً كما لا يغني عنها عادة كلمها دعيت إلى أداء واجب ترى الأم

ناحية أخرى...

السؤال وكأنه لم يعبا بساع الجواب الذي استنتجه مقدّمًا، أو لعله أراد أن يسجل عليها الخطأ بلا اكترات بإقرارهما به... ولم يزد بعد ذلك على أن يشير إلى باب الحجرة آذنا لها بالانصراف، وعندما مضيا إلى الخارج سمعاه يقول غاطبًا نفسه:

- ما دام الله لم يرزقني رجالاً فليهبني الصبر.

ومع أن الظواهر دلّت على أن الحادث قد هزّ نفس السيّد حتّى غير المألوف من سلوكه تغيّرًا دهش له الجميع إلا أنه لم يستطع أن يثني إرادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية... فما جاء المساء حتّى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشراً بين يديه شذاً طيّباً، إلا أنه مرّ في طريقه إلى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلاً ممّنة شاكرة... لم ترّ في ذهابه إلى سهرته - وهي طريحة الفراش - تحافياً للعطف، ولعلّها وجدت في مروّره بها وسؤاله عنها تكريماً فاق ما كانت تنتظر، بل أليس مجرد امتناعه عن صبّ غضبه عليها ممّة لم تكن تحلم بها؟... وكان الإخوة - قبل مبارحته حجرته - قد تساءلوا «تُرى هل يعدل الليلة عن سهرته؟» ولكنّ الأم أجابت قائلة «ولماذا يبقى بعد أن علم أنّ الحال مطمئنة؟» ولعلّها تمثّت فيما بينها وبين نفسها لو يتمّ نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزواج أصيبت زوجه بما أصيبت هي به، ولكنّها كانت أدري بطبعه فسبقته بانتحال العذر له حتّى إذا انطلق إلى سهرته كما تتوقّع أمكنها - مداراة لموقفها - أن تسوّغ انطلاقه بالعذر الذي انتحلت لا بقلّة الاكترات. ولكنّ خديجة قالت «كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال؟» فأجابها ياسين «لا عليه إذا فعل ما دام قد اطمأنّ عليها، حزن الرجال غير حزن النساء، وذهاب الرجل إلى سهرته لا يتنافى مع حزنه، بل لعلّ التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة». ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته في الانطلاق التي بدأت تتحرّك في أعماقه، إلا أنّ مكروه لم يجرّز على خديجة فسألته: «هل تطيق أنت مثلاً أن تسهر في قهوتك الليلة؟» فبادرها قائلاً وهو يلعبها في سرّه:

ومن سوء حظّها أنّ السيّد شعر برغبة في الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان كما كانت تأمل، واضطّرت تبعاً لذلك أن تبقى في الصالة كالسجينة، وفي أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسلّلت إلى الصالة حيث تجلس أختها، دون أن تحدث صوتاً لترى نفسها وتغمز لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود إلى أمّها تاركة إيّاها وهي تغلي من الغيظ إذ كان ممّا يجنّحها أشدّ الحنق أن يعابها أحد بالمزاح وإن لدّها هي أن تعابث الجميع، ولم تستردّ حرّيّتها - إلى حين طبعاً - إلا عندما أسلم السيّد جنبه للنوم فطارت إلى أمّها وأنشأت تحدّثها عمّا قدّمت لأبيها من خدمات حقيقة ووهيّة وتصف لها ما قرأت في عييه من آي العطف والتقدير لخدماتها... ولم تنس أن تعرّج على عائشة فتنال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرّف صبيانيّ، ثمّ عادت إلى الأب بعد استيقاظه فقدّمت له الغداء، ولتّا فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتاً غير قصير ثمّ دعاها إليه وطلب إليها أن تبعث له ياسين وفهمي بمجرّد رجوعهما إلى البيت...

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حزّ في نفس الرجل غضب مكظوم وأتته يروم الآن - في الشائين - متنقّساً عن غضبه، ولتّا جاء ياسين وفهمي وعليهما بما كان، ثمّ بلّغنا أمر أبيهما بمقابلته، دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا إلى حجرته وهما يتوجّسان خيفة، ولكنّ الرجل خيّب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألها عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب. فحدّثاه طويلاً بما يعلمان وهو يصغي إليهما باهتمام، وفي النهاية سألهما:

- أكنتم في البيت حين خروجهما؟

ومع أنّ هذا السؤال كان متوقّعا من بادئ الأمر إلا أنّه وقع من نفسيهما - بعد الهدوء العجيب غير المنتظر - موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدّمة لتغيير طبقة النعمة التي ارتاحا إليها ارتياح النجاة، ولم يسمعها الكلام فلاذا بالصمت... بيد أنّ السيّد لم يلحف في

فربما تساءلت تُرى ألم يفقد البيت - أو أحد من أهله - بتخليها عنه شيئاً من نظامه أو راحته؟ وأنها يا تُرى أحب إليها، أن يبقى كل شيء كما كان بفضل فتاتها - غرس يديها - أم أن يختل شيء من توازنه يكون خليقاً أن يذكر الجميع بالفراغ الذي خلفته وراءها؟ وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهميتها أو لسخطه على ذنبها الذي جرّ هذا كله؟ تحيرت المرأة طويلاً بين عاطفتها المستحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتها، ولكن المحقق أنه لو اختل شيء من النظام لأحدث لها كرباً شديداً، كما أنه لو حافظ على كماله كان لم يطرأ نقص لما خلعت من ضيق...

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسده أحد، وأثبت البيت أنه أكبر من الفتاتين على نشاطهما وإخلاصهما... ولم تسرّ الأم لهذا لا في الظاهر ولا في الباطن، توارى شعورها نحو ذاتها، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعاً حاراً صادقاً، ثم ركبتها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبراً على انزوائها...

### ٣١

وفي فجر اليوم الموعد الذي انتظرته طويلاً هبت من الفراش في خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود إلى عرشه بعد نفي... ونزلت إلى حجرة الفرن متدركة عاداتها التي انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفي، واستيقظت المرأة وهي لا تصدق أذنيها، ثم نهضت إلى سيدتها فعانقتها ودعت لها، ثم باشرت عمل الصباح في سرور لا يوصف، وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت إلى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهاني والقُبل، ثم مضت إلى حيث ينام كمال فأيقظته، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحاً، ثم تعلّق بعنقها ولكنها بادرت إلى التخلص من ذراعيه برقة وهي تقول:

- ألا تخاف أن تردّ كنتي إلى ما كانت عليه؟...

فأمطرها قبلاً ثم ضحك متسائلاً في خبث:

- متى يا عزيزتي نخرج معاً مرة أخرى؟!

«طبعاً لا، ولكن أنا شيء وبابا شيء آخر!».

ولمّا فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذي يعقب النجاة من خطر محقق فتألّق محياها بابتسامة وقالت:

- لعله رأى أنّ جزائي كفاف ذنبي فعفا عني، عفا الله عنه وعنا جميعاً...

فضرب ياسين كفّاً بكفّ وهو يقول محتجاً:

- إنّ رجالاً غيورين مثله، منهم أصدقاء له، لا يرون بأساً في السماح لنسائهم بالخروج كلّما دعت ضرورة أو مجاملة، فما باله يقيم لكُنّ من البيت سجناً مؤبداً؟!

فلحظته خديجة بهزء وسألته:

- لمّ لمّ تلقى بدفاعك هذا وأنت بين يديه؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجبت كرشه ثم أجابها قائلاً:

- يلزمي مثل أنفك أولاً كي أدافع به عن نفسي عند الضرورة...

وتتابعت أيام الرقاد، فلم يعاودها الألم الذي هصرها أول ليلة وإن تهدّد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأنيها، ثم تقدّمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القويّة وحيويّتها الدافقة التي تكره بطبعها السكون والقعود ممّا جعل الإذعان لأوامر الطبيب مهمّة شاقّة غطى عذابها على آلام الكسر إبان احتدامها، ولعلّها لولا تشدّد الأبناء في مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأمرها... على أنّ رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها، ومراجعة الفتاتين بدقّة متعبة فيما يعهد إليهما به... خاصّة عن دقائق الواجبات التي تخاف عليها الإهمال أو النسيان، فتسأل وتلجّ في السؤال «هل نفضت أعلى الستائر؟... وخصاص الشبايبك؟... هل بخّرت الحمام لأبيك؟... هل سقيت اللبلاب والياسمين؟» الأمر الذي أحقّ خديجة مرةً فقلت لها «اعلمي أنك إذا كنت تعنين بالبيت قيراطاً فإنّي أعنى به أربعة وعشرين»... وإلى هذا كله أورثها تخليها الإجباريّ عن مركزها المرموق شعوراً معقّداً عانت منه كثيراً،

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

- عندما يهديك الله فلا تسوقني رغم إرادتي إلى الطريق الذي كدت أهلك فيه...!

وأدرك أنها تشير إلى عناده الذي كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذبذب وافته النجاة بعد أن ظلّ ذنبه معلّقاً فوق رأسه ثلاثة أسابيع، أجلّ لشد ما خاف أن يجرّ التحقيق الذي باشره إخوته إلى معرفة الجاني المستتر، وقد أوشكت الريبة التي سلّطتها عليه خديجة حيناً وياسين حيناً آخر تكشفه في الركن المنزوي فيه لولا صمود أمّه في الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسؤولية الحادث وحدها، فلمّا انتقل التحقيق إلى يدي والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابلته، لهذا إلى عذابه - طوال الأسابيع الثلاثة - وهو يرى أمّه المحبوبة طريحة الفراش، شديدة العناء، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معاً... الآن مضى الحادث، ومضت في أثره عقابيله، وانتهى التحقيق، وعادت أمّه توقظه في الصباح، وسوف تيمه في المساء، رجع كلّ شيء إلى أصله، ونشر الأمان ألويته، فحقّ له أن يضحك ملء فيه وأن يبتئ ضميره على الراحة المتاحة... .

وغادرت الأمّ الحجرة فصعدت إلى الدور الأعلى، ولمّا تدانت من باب حجرة السيّد ترامى إليها صوته وهو يردد في صلاته «سبحان ربّي العظيم» فحقّق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمرتدة، ثم وجدت نفسها تتساءل «أندخل لتصبح أو الأجد أن تعدّ مائدة الفطور أولاً؟» لا على سبيل التساؤل حقاً ولكن فراهاً مما شاع في نفسها من الخوف والحجل، أو كليهما معاً، كما يقع للإنسان أحياناً أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشقّ عليه فضّها... ومضت إلى حجرة المائدة فأقبلت على العمل بعناية مضاعفة، إلّا أنّ قلقها تزايد، فلم تنتفع بمهلة التفكير التي اقتنصتها، ولم تجد لها راحة كما أملّت ولكن عنة انتظار أشدّ عناء من الموقف الذي نكصت عن مواجهته... . وعجبت كيف جفلت من دخول «حجرتها» كأنّها كانت تهّم بدخولها لأول مرة، خاصّة وأنّ السيّد لم ينقطع عن

زيارتها يوماً بعد يوم في أثناء رقادها، ولكن الحقّ أنّ برءها رفع عنها الحماية التي ضربها حولها المريض فشعرت بأنّها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها... ولمّا جاء الأبناء تبعاً خفّت وحشتها قليلاً، وما لبث أن دخل السيّد الحجرة في جلبابه الفضفاض ولكن لم يثد في وجهه أثر لدى رؤيتها، وقال بهدوء وهو يتّجه إلى مكانه في المائدة:

- جئت؟ (ثم مخاطباً الأبناء وهو يتخذ مجلسه)... . اجلسوا... .

وأخذوا في تناول فطورهم على حين وقفت هي بمكانها المعتاد، ومع أنّ الخوف تناهى بها حال دخوله إلّا أنّها مضت تستردّ أنفاسها بعد ذلك، أي بعد أن تمّ أوّل لقاء بعد الشفاء ومرّ بسلام، وشعرت عند ذاك بأنّها لن تجد مشقّة في الانفراد به في حجرته عمّا قليل... . وانقضت المائدة فعاد السيّد إلى حجرته، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينيّة القهوة التي وضعتها على الخوان وتحت جانباً في انتظار فراغه من احتساؤها لتساعده على ارتداء ملابسه. وحسا السيّد قهوته في صمت عميق، لا ذاك الصمت الذي يقع عفواً أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث، ولكنّه صمت صامت مسربل بالتمعّد، ولم تكن تعدم أملاً - ولو ضعیفاً - في أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة، أو في الأقلّ أن يلّم بشأن من شئون حديثه المعتاد في مثل هذه الساعة من الصباح، فحيرها صمته المتعمّد وعادت تسائل نفسها تُرى ألا يزال بنفسه شيء، وأخذ القلق ينشب إبره في قلبها مرة أخرى، على أنّ الصمت الغليظ لم يمتدّ طويلاً... . كان الرجل يفكر في سرعة وتركيز لم يذق معها طعمًا، لا ذاك التفكير الذي ينبعث من وحي الساعة، ولكن آخر عنيداً قد يما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضية... . وأخيراً تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجال القهوة الفارغ:

- استرددت صحتك؟

فقال أمينة بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيّدي.

الذي صارت جزءاً منه لا يتجزأ... أما السيد فقد تخلص - بكلمته الأخيرة - من عبء فكر دؤخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية... وقد بدأ الصراع في اللحظة التي اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهي طريحة الفراش، لم يصدق أذنيه لأوّل وهلة، ثم أخذ يفيق إلى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التي تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه، بيد أنه أجلّ حنقه ريثما يرى ما أصابها، أو أنه - وهو الأصدق - لم يسعه أن يفكر فيها تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حدّ الخوف والجزع على المرأة التي يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفاً أنساه خطأها وسأل الله لها السلامة، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوي عليه نفسه من حنان موفور فعاد - يومذاك - إلى حجرته محزوناً مكتئباً وإن لم يفصح وجهه... إلا أنه مضى يستعيد طمأننته وهو يراها تتألم للشفاء بخطئ سريعة ثابتة، ومضى بالتالي يعيد النظر إلى الحادث كلّ - أسبابه ونتائجه - بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التي اعتاد أن ينظر بها في بيته، فكان من سوء حظّ - حظّ الأم طبعاً - أن يعيد النظر في هدوء وهو خالٍ إلى نفسه، وأن يقتنع بأنّه إذا غلب العفو ولبّى نداء العطف - وهو ما نزعت إليه نفسه - فقد أضاع هيئته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعاً وأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التي يابى إلا أن يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجملّة لن يكون في تلك الحال أحمد عبد الجواد ولكن شخصاً آخر لن يرتضي أن يكونه أبداً... أجل كان من سوء الحظّ أن يعيد النظر في هدوء وهو خالٍ إلى نفسه، إذ لو أتيح له أن ينقّس عن غضبه حين اعترافها لانفث حنقه ومزّ الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة، ولكنّه لم يسعه الغضب في وقته كما لم يكن ممّا يرضي كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها - بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع - إذ أنّ هذا الغضب يكون أقرب إلى الزجر المتعمّد منه إلى الغضب الحقيقي، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة من طبع وتعمّد معاً، ولما كان الجانب الطبيعي منها لم يجد متنفساً في حينه

فاستطرد الرجل قائلاً بمرارة:  
- إني أعجب - وهيهات أن ينتهي لي عجب - كيف أقدمت على فعلتك!  
فدق قلبها بعنف وأطرقت في وجوم... لم تكن تطيق غضبه وهي تدافع عن خطئ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهي المذنبة!... وعقل الخوف لسانها ولكنّه بانتظار الجواب واصل حديثه متسائلاً في استنكار:  
- أكنت مخدوعاً بك طوال هذه السنين وأنا لا أدري؟!  
عند ذاك بسطت راحتيها في جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة:  
- أعوذ بالله يا سيدي، إنّ خطئي كبير حقاً ولكنّي لا أستحقّ هذا القول.  
ولكنّ الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذي يهون إلى جانبه الزعيق قائلاً:  
- كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير!... ألاّني ابتعدت عن البلد يوماً واحداً؟!  
فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التي ملكت جسمها:  
- أخطأت يا سيدي، وعندك العفو، كانت نفسي تتوق إلى زيارة سيّدنا الحسين، وحسبت أنّ زيارته المباركة تشفع لي في الخروج ولو مرّة واحدة.  
فهزّ رأسه في شيء من الحدة كأنما يقول «لا فائدة تُرجى من الجدال» ثم رفع إليها عينيه متجهماً ساخطاً وقال بلهجة لا تقبل المراجعة:  
- ليس عندي إلا كلمة واحدة! غادري بيتي بلا تواء.  
هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لا تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكاً، طالما توقّعت في أشدّ أوقات محتتها - وهي تنتظر عودته من رحلة بور سعيد - الوأناً من المخاوف، كان يصبّ عليها غضبه أو يصمّمها بزعيقه وسبابه، حتّى الضرب لم تستبعده، أما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطراً، لا شيء إلا أنّها سكنت إلى معاشرته حسناً وعشرين عاماً فلم تتصوّر أنّ ثمة سبباً يمكن أن يفرّق بينها أو ينزعها من البيت

فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد أتاحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب، وهكذا انقلب الخطر الذي تهدد حياتها حيناً والذي أمنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير. . . ونهض مقلطاً فولاًها ظهره مستقبلاً ملابسه على الكتبة ثم قال بجفاء:

- سأرتدي ملابسني بنفسي.

كانت لم تزل متسمة في مكانها ذاهلة عما حولها فأفاقت على صوته، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فأنجھت نحو الباب في خطى لا وقع لها، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول:

- لا أحب أن أجذك هنا إذا عدت ظهراً.

### ٣٢

خارت قواها في الصالة فارتمت على طرف كنية وكلماته القاسية الحاسمة تردد في باطنها، ليس الرجل هازلاً، ومتى كان هازلاً؟! ولم تستطع مبارحة مكانها - على رغبتها في الفرار - أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف رية الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا إلى أعمالهم متجرعين خبر طردها، وثمة إحساس آخر - لعله الحياء - أفعدها عن أن تلقاهم في ذلك المطرود وقررت أن تبقى حيث هي حتى يغادر البيت، أو أن تأوي إلى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه إذا مضى إلى الخارج فتسللت إلى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلثة ساهمة واجمة. ثرى ماذا يعني؟ أيطردها إلى حين أم إلى الأبد؟ إنها لا تصدق أنه ينوي تطليقها، هو أكرم من هذا وأنبى، أجل إنه غضوب جبار ولكن من الإسراف في التشاؤم أن تغيب عنها أي سهامته ومروءته ورحمته. وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد؟ . . . وكيف عادها يوماً بعد يوم مستفسراً عن صحتها؟ . . . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يجرب

بيتاً أو يكسر قلباً أو ينزع أثماً من بين أبنائها. وجعلت تدبر هذه الأفكار في رأسها كأنها لتدخل بها بعض الطمأنينة إلى نفسها المزعزعة، وألحت في هذا إلحاحاً إن دلّ على شيء فعلى أن الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنياً بقوتهم كلما ازدادوا إحساساً بضعفهم إذ كانت لا تدري ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تغني الحياة لها لو خاب الرجاء ووقع المحذور. وترامى إلى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضي خارجاً فأطار أفكارها وأنصتت باهتمام تتابعه حتى غاب وشعرت عند ذاك بالأم جارج لحالها وسخطها على الإرادة المتحجرة التي لم ترع لضعفها حقاً، ثم نهضت فيما يشبه الإعياء وغادرت الحجرة لتزل إلى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تباغاً فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمي وكمال وهما يتابعان ياسين إلى الباب المفضي إلى الفناء، هناك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته، وعجبت لنفسها كيف تركتها يذهبان دون أن تودعهما، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما. . . ألياً أو أسابيع؟ وربما لا تراهما مدى العمر إلا لماماً كالغريباء؟ . . . وعادوها غمز الحنان متتابعاً وهي بموقفها من السلم لا تريم، بيد أن قلبها - على امتلائه - كبر عليه أن يصدق أن يكون لهذا المصير الأسود نصيبها المقدور، لإيمانها اللانهاضي بالله الذي حفظها في وحدتها الغابرة من العفاريث نفسها، ولثقتها برجلها التي تأبى أن تنهار، ولأنها لم يصيبها في حياتها الماضية شرٌ خطير خلى بأن يسلبها الطمأنينة إلى الحياة الوادعة فمالت نفسها إلى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشبكتين في جدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينيهما الخابية، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتهما خديجة في قلق:

- ماذا بك يا نينة؟

- لا أدري والله ماذا أقول. . . إني ذاهبة. . .

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة



الهدف إلا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معاً:

- إلى أين؟!

فقال بانكسار وهي تشفق سلفاً من وقع كلامها من أذنيها بل ومن أذنيها هي نفسها:

- إلى أمي .

فهرعتا إليها مذعورتين وهما تقولان:

- ماذا تقولين؟ ... لا تعيدي هذا القول ... ماذا جرى؟!

وجدت في فزع فتاتيهما عزاء ولكنّه كشأنه في مثل هذا الموقف فجرّ أشجانها فقالت بصوت متهدّج وهي تمنع دموعها:

- لم يَسْ شَيْئاً ولم يَغْفُ (رددت هذا بأشئ دَلّ على عمق حزنها) ... كان يضمر لي الغضب ويؤجله ريثما

أبرأ، ثم قال لي غادري بيتي بلا تَوَانٍ ... وقال لي أيضاً لا أَحِبّ أن أجِدك هنا إذا عدت ظهراً (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعاً وطاعة ... سمعاً وطاعة ...

فصاحت خديجة بحال عصبية:

- لا أَصْدَق. لا أَصْدَق. قولي قولاً آخر ... ماذا جرى للدنيا؟!

وصاحت عائشة بصوت متهدّج:

- لن يكون هذا أبداً، أهانت عليه سعادتنا جميعاً لهذا الحد؟!

وعادت خديجة تتساءل في حدة وحنق:

- ماذا يقصد ... ماذا يقصد يا نينة؟

- لا أدري، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان .

اكتفت أوّل وهلة بهذا القول، ولعلّها رغبت بالاقصرار عليه أن تستريد من عطفهما وتتعرّى

بجزعهما، ولكن غلبها الإشفاق من ناحية والرغبة في طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة:

- لا أظنّه يقصد أكثر من إبعادي عنكم أيّاماً عقاباً

لي على ما فرط مني .

فتساءلت عائشة محتجة:

- أما كفاه ما وقع لك؟!

فتنهّدت الأم محزونة وغمغمت قائلة:

- الأمر لله ... يجب الآن أن أذهب .

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهي تقول بصوت مختنق بالبكاء:

- لن ندعك تذهبين، لا تتركي بيتك، فلا أظنّه يصبر على غضبه إذا عاد ووجدك بيننا .

وقالت عائشة برجاء:

- انتظري حتّى يعود فهمي وباسين، ولن يرضى أبي أن ينتزعك من بيننا جميعاً .

ولكنّها قالت فيما يشبه التحذير:

- ليس من الحكمة في شيء أن نتحدّى غضبه، فمثله من يلين بالطاعة ويشتدّ بالعصيان .

وهنّتا بالاعتراض مرّة أخرى ولكنّها أسكتتهما بإشارة من يدها واستطردت قائلة:

- لا جدوى من الكلام، لا بدّ من الذهاب، سأجمع ثيابي وأرحل، لا تجزعا، لن يطول افتراقنا، وسنجتمع مرّة أخرى إن شاء الله .

وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثاني والفتاتان في أعقابها وهما تبكيان كالأطفال، وأخذت تخرج ملابسها

من الصوان حتّى أمسكت خديجة بيدها وسألتهما بانفعال:

- ماذا تفعلين؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتها، أن تستسلم للبكاء الذي صمّمت

على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيهما، فأشارت بيدها كأنّها تقول «الحال يوجب أن أجمع ملابسي» .

ولكنّ خديجة قالت بحدة:

- لن تأخذني معك إلاّ تغييرة واحدة ... واحدة فقط .

فندّت عنها تنهّدة . ودّت تلك اللحظة لو يكون الأمر كلّ حلماً مزعجاً، ثم قالت:

- أخاف أن تثور ثائثرته إذا رأى ملابسي بكانها!

- سنحفظها عندنا .

وجمعت عائشة الثياب إلاّ تغييرة واحدة كما اقترحت

أختها فأذعنّت الأم لهما في ارتياح عميق كأنّ بقاء

ملابسها في البيت مما ثبت لها حقاً في العودة إليه، ثم جاءت ببقعة وصرّت فيها الملابس التي سمح لها بها، وجلست على الكنية لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران في حزن ذاهل حتى رَقَّ قلبها لهما فقالت متكلّفة الهدوء:

- سيعود كلّ شيء إلى أصله، تشجّعاً حتى لا تستفزّ غضبه، إنّي أعهد إليكما بالبيت وآله ولي كلّ الثقة في كفاءتكما، ولا شكّ عندي في أنّك ستجدين من عائشة كلّ معاونة، قوماً بما كنّا نقوم به معاً كما لو كنت معكما، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتنا وتعمّره.

ونفضت إلى ملائمتها فارتدتتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض في تمهّل متعمّد لتؤجّل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذّبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية. لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع، ولم ثوات إحداها الشجاعة على الارتقاء في حضنها كما توذّ ومرت الشواني محمّلة بالعذاب والقلق بيد أنّ المرأة المتجلّدة خافت أن يخونها تجلّدها فخطت خطوة نحوهما ومالت إليهما فقبّلتها بالتابع وهي تمس:

- تشجّعاً، ربّنا معنا جميعاً.

هنالك تعلّقنا بها وأفحمنا في البكاء.

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعها وهو يتميّع...

٣٣

طرقت باب البيت القديم وهي تفكّر - بألم وحياء معاً - فيما سيحدثه مجيئها مغضوباً عليها من الانزعاج والكدر، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرّعة من شارع الخزنفس تنتهي بزاوية أقيمت بها الصلاة عهداً طويلاً ثم هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهدّمة لتذكّرها - كلّما زارت أمّها - بطفولتها حين كانت تنتظر بابها أباهما حتى يفرغ من صلاته ويعود إليها، وحين تمذّ رأسها داخلها في أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الرُكع السجود، أو حين تنفّرج على

بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار. ولما فتح الباب أطلّ منه رأس جارية سوداء في العقد الخامس، ما إن رأت القادمة حتى تمهّل وجهها وهتفت مرحّبة بها، ثم تنحّت جانباً لتوسع لها فدخلت أمينة، ولبت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض:

- أغلّقي الباب يا صديقة...

فتساءلت الجارية بدّهشة:

- ألم يأت السيّد معك؟

فهزّت رأسها بالنفي متجاهلة دهشتها ومضت - عابرة فناء البيت الذي تصدّره حجرة الفرن وتقع البئر في ركنه الأيسر - إلى سلّم ضيق فرقيته إلى الدور الأوّل والأخير. ثم اجتازت دهليزاً إلى حجرة أمّها ودخلت، رأت أمّها متربّعة على كنية في صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلّية في حجرها، متّجهة العينين صوب الباب في تطلّع آثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين، ولما تدانّت أمينة منها تساءلت:

- من...؟

وافترّ ثغرها وهي تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنمّ عن البشّر والترحاب، كأنما حدست هويّة القادم، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن:

- أنا أمينة يا أمّي...

فألقت العجوز بساقها إلى الأرض وتحسّست بقدميها موضع الشبّشب حتى عثرت عليه فدسّتها فيه ووقفت باسطة ذراعها منتظرة في شوق فرمت أمينة بالبقعة إلى طرف الكنية وانطوت بين ذراعي أمّها وهي تقبّل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتّفق وقوع شفّتها عليه من الرأس والخذ والعنق، ولما انتهى العناق ربّت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلّعة صوب الباب وعلى شفّتها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد، كما فعلت صديقة من قبل

فأدرت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت

بامتعاض واستسلام:

- جئت وحدي يا أمي...

فتحوّل الرأس إليها كالمسائل، وتمتعت المرأة:

- وحدك؟! ... (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد

ما انتابها من قلق) سبحة الذي لا يتغيرا

وتراجعت إلى الكنبه فجلست وهي تتساءل بلهجة أفصحت هذه المرة عن قلقها:

- كيف الحال؟! ... لماذا لم يحضر معك كعادته؟

فجلست أمينة إلى جانبها وهي تقول بلهجة التلميذ الذي يعترف برداءة إجاباته في الامتحان:

- إنه غاضب عليّ يا أمي...

ورمشت الأم واجهة ثم تمتعت بنبرات حزينة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قلبي لا يكذبني

أبدأ، وقد انقبض وأنت تقولين لي «جئت وحدي يا

أمي» ترى ماذا هيّج غضبه على ملاك كريم مثلك لم

يَحْفَظَ رجل به قبله؟! ... خبريني يا بنتي...

فقال أمينة متنبّهة:

- زرت سيدنا الحسين في أثناء سفره إلى بور

سعيد...

فتفكرت الأم في حزن وكآبة ثم تساءلت:

- وكيف علم بأمر الزيارة؟

حرصت أمينة من بادئ الأمر على ألا تشير إلى

حادث السيارة رحمة بالعجوز من ناحية وتحفظًا من

المسؤولية من ناحية أخرى، ولهذا أجابتها بما أعدته

سلفًا لهذا السؤال قائلة:

- لعلّ أحدًا رأي فوشى بي عنده...

فقال العجوز بحدّة:

- لا يعرفك أحد من البشر إلّا من اختلط بك

داخل بيتك، ألم تشكّي في أحد؟! هذه المرأة أمّ

حنفي؟! أو ابنه من المرأة الأخرى؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين:

- لعلّ جارة رأني فأخبرت زوجها بحسن نيّة فأعاد

الرجل الخبر على مسمع السيّد غير مقدّر لخطورة

عواقبه، ظنّي ما تشائين إلّا الشكّ في أحد من أهل

بيت...

فهزّت العجوز رأسها في حيرة وشكّ وأنشأت

تقول:

- طول عمرك سليمة الطوية، الله وحده هو المطلع

وهو الكفيل برّد كيد الكائد، ولكن زوجك؟! ...

الرجل العاقل... الداغل على الخمسين... ألم يجد

وسيلة لإعلان غضبه إلّا طرد عشيرة العمر من بين

أولاده؟! ... سبحانك يا ربّ... الناس تكبر تعقل

ونحن تكبر نتهوّر، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة

سيدنا الحسين! ألا يسمح أصدقاؤه، وهم لا يقلّون

عنه غيرة ورجولة، لزوجاتهم بالخروج لمختلف

الأغراض؟! ... أبوك نفسه الذي كان شيخًا من حملة

كتاب الله كان يأذن لي في الذهاب إلى بيوت الجيران

للتفرّج على المحمل.

وغلب الصمت والكآبة مليًا حتّى التفتت العجوز

ناحية ابنتها وعلى شفيتها ابتسامة عتاب حائرة ثمّ

تساءلت:

- أيّ شيء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل

من الطاعة العمياء؟! ... لشدّ ما يحيرني هذا... إذ

مهما يكن من حيّة طبعه فهو زوجك ومن السلامة

الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد،

أليس كذلك يا ابنتي؟! ... أعجب شيء أنّي لم أجدك

يومًا في حاجة إلى نصيح ناصح...!!

فندّت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها

على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء،

وغمغمت:

- تحكّم الشيطان!

- عليه لعنة الله، أيزلّ اللعين قدميك بعد خمسة

وعشرين عامًا من الوثام والسلام! ... ولكنّه هو

الذي أخرج أبانا آدم وأثنا حواء من الجنة! ... لشدّ ما

يحزني يا ابنتي، ولكنّها سحابة صيف ثمّ تنقشع ويعود

كلّ شيء إلى أصله... (ثمّ وهي كأنّها تحدث نفسها)

ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم؟! ... ولكنّه رجل،

ولن يخلو رجل من عيوب تحفي عين الشمس... (ثمّ

بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعي ملابسك

عرفتها بخبرها وشرها، فربما قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما «يا سقي أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافة من الأمور؟! فتجيبها محتدة «يا لثيمة إنك لا توصيني بالعبادة حباً فيها ولكن كي يخلو لك مجال العبث والإهمال والقذارة والسلب والنهب، إن الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسنتك عبادة وثواب!» ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله في صدرها، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة موسوية ومشجعة فقالت:

- ما أراد السيد بإخراجك من بيتك إلا إعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأيك أو جد كجدك...

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يتنل صدر المنقطع به الطريق في الظلمات إذا ترامى إليه صوت الغفير وهو يهتف «هوه» فأمن قلبها بقول أمها لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب، ولكن لإيمانها قبل كل شيء ببركة الشيخين الراحلين، فلم تكن إلا صورة من أمها في حسنها وإيمانها وجل طابعها. واثالثت على وجدانها في تلك اللحظة ذكريات أبيها الذي أفعم قلبها وليدة بالحب والإيمان-فدعت الله أن ينتشلها من ورطتها إكراماً لبركتها. وعادت العجوز إلى مواساتها فقالت وعلى شفيتها الجافتين ابتسامة رقيقة:

- إن الله يرعاك دائماً برحمته، اذكري عهد الوباء لا أرجعه الله وكيف نجاك الله من شره ففضى أخواتك ولم يمسك سوء!

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت، وتفرست في غيش من الماضي كاد يحويه النسيان فوضحت- بعض الوضوح- من خليط الذكريات صورة أحييت في نفسها أصداء من عهد الرعب، وهي صبية تمجمل خارج أبواب غلقت على أخوات مستلقيات على أسرة المرض والموت، وهي وراء النافذة تنظر إلى سيل من النعوش

إلى اختيار أمر من اثنين: فلما أن تسمع للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شيء لديها بعد ابتها وأحفادها، وإما أن تتركه مهجوراً فتتخذ الغفارت ملعباً بعد أن ظل طوال عمره مقاماً لشيخ من حلة كتب الله هو زوجها، إلا أن انتقلها إلى بيت السيد كان خليقاً بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض في نظرها بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح إليه بحال، أم تنزل له عن معاشها لقاء إقامتها في بيته وهو ما يقلق غريزتها في الامتلاك التي أضحت- مع الكبر- عنصرًا جوهريًا من عناصر «وسوستها» العامة؟! بل قد توهمت أحياناً عند إلحاحه عليها في الانتقال إلى بيته أنه يضم نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذي سيخلو بعد انتقالها ففزعت إلى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند إرادتها قالت له بارتياح «لا تؤاخذني بإصراري يا ابني، ربنا يكرمك بما أوليتني من عطف، ألا ترى أنه لا يسعني أن أهجر بيتي؟... وما أجدرك أن تجاري عجزاً مثلي على علانها بيد أتي استحلفك بالله إلا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتي الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجي من البيت متعللاً» وهكذا بقيت في بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضي العزيز. وإذا كان بعض هذه العادات، كالمغالة الشادة في الاهتمام بشئون البيت والمال، مما يتنافى مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتساعها، وبالتالي مما يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسية، فثمة عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب، وبأن تضفي على الشيخوخة جلالاً، تلك هي العبادة. كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق

آمالها وسعادتها، رضعتها صغيرة في كنف أب شيخ من شيوخ الدين، وتغلغل في أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعاً وتقوى. وظلت تمارس بحب وإخلاص غير مفرقة في إخلاصها بين ما هو دين حقاً وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة. صديقة الجارية وحدها هي التي

واستريحى، لا تجزعى، ماذا يضربك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك في الحجرة التي ولدت فيها؟  
 فجرى بصرها في غير اكتراث على الفراش القديم الذي حال لون عمده، والسجادة البالية التي انجرد وبرها ونسلت أطرافها وإن بقيت رسوم ورودها حافظة لخميرتها وخضرتها، ولكن صدرها - لما ران عليه من فرقة الأحباب - لم يكن مهيتاً لتلقي موجات الذكريات، فلم تهج دعوة أمها في قلبها الخنان الذي تهبجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهي قريرة العين، ولم يسعها إلا أن تتهدّ قائلة:  
 - ما بي إلا قلق على الأولاد يا أمي...  
 - إنهم في رعاية الله، ولن يطول بُعدك عنهم بإذن الرحمن الرحيم...  
 قامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة - حزينه أسيفة لما سمعت - من موقفها عند مدخل الحجرة الذي لزمته أثناء الحديث، ثم عادت المرأة إلى مجلسها جنب أمها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهراً لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأنّ في تقابلها جنباً لجنب ما يدعو إلى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة في مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة في مرآة الماضي وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير إلى الصراع الهيب الناشب بين قوانين الوراثة التي تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذي يدفع إلى التغيّر والنهاية من ناحية أخرى، ذلك الصراع الذي ينجلي عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعاً بقوانين الوراثة حتى يغدو قصارها أن تؤدّي وظيفة متواضعة في نطاق قانون الزمن الصارم.  
 في نطاق ذلك القانون استحالت الأمّ العجوز جسماً نحيلاً ووجهاً ذابلاً وعينين لا تبصران إلى تطوّرات باطنية لا تناهلها الحواس، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة إلا ما يدعونه بجبال الشيخوخة أي السمّ الهادئ والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع باليباض. بيد أنّها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلاية المقاومة فلم يكن طعنها فيها بعد الخامسة

والسبعين بمقعدتها عن أن تنهض في الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتحتسّس سبيلها - بدون إرشاد الجارية - إلى الحثام فتتوضّأ ثم تعود إلى حجرتها فتصلي، أمّا بقية النهار فتقطعها في التسبيح والتأمل الصامت الذي لا يدري به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت، أو مستأنسة إلى حديث المرأة إذا فرغت لمجالستها، حتى الصفات التي تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحواس للحياة لم تزيلاها بحال، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كلّ صغيرة وكبيرة فيما يتعلّق بالمصروفات، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكؤها إذا تلكأت في مهمة، وتأخرها إذا تأخّرت في مشوار، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئنّ إلى صحّة تقاريرها على غسل الحثام والأواني وتنفيض النوافذ، دقة بالوسوسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمراراً لعادة تأصّلت في صدر الشباب، كما أنّه من الجائز أن تكون تكلمة ممّا يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرّفة استمساكها بالبقاء في بيتها في شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلمها، ثم إصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها، متصاممة عن دعوات السيّد المتكرّرة لها بالانتقال إلى بيته لتعيش في رعاية ابنتها وأحفادها، ممّا عرضها لتهمة الخرف وجعل السيّد يعرض عن دعوتها نهائياً، ولكنّ الحق أنّها كرهت هجر بيتها لتعلّقها الشديد به، ولتحاميتها ما عسى أن تلقى في البيت الجديد من إهمال غير مقصود أو ما يستوجب وجودها من لقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المقل بالواجبات، ولنفورها من الزجّ بنفسها في بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهي لا تدري إلى ملاحظاته الأمر الذي تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها، وأخيراً لما تنطوي عليه في قرارة نفسها من حياء وكبرياء حبّاً إليها الحياة في البيت الذي تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذي تركه لها زوجها الراحل، على أنّ ثمة أسباباً أخرى لإصرارها على البقاء في بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة، كخوفها - إذا أخلت البيت - من أن تجد نفسها مضطّرة

لا ينقطع والناس تفرّ من طريقها، أو وهي تسمع إلى جماهير من الشعب التقت في ذعرها وبأسها برجل من رجال الدين - كما كان يتفق لأبيها - وراحت تجار بالشكوى وترسل الدعوات إلى ربّ السماء، وعلى رغم استفحال الشرّ وهلاك أخواتها جميعاً فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدّر صفوها إلاّ عصير الليمون والبصل الذي كانت تجبر على تحرّعه مرّة أو مرتين في اليوم. واستطردت الأمّ بصوت ثمت رفته وحنانه على الاسترسال في الأحلام كأنما قد ردها التذكّر إلى العهد الخالي فاستعادت حياته وذكرياته - العزيزة الغالية لاقتراها بالشباب - خالصة من شوائب الالم النسبي، فقالت:

- ولم يقنع حظك السعيد بإنقاذك من الوباء لكنّه أبقاك وحيدة الأسرة وكلّ ما لها في الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرت في صميم قلوبنا.

لم تعد أمينة ترى الحجرة - بعد هذا الخطاب - كما كانت تراها قبله، بعثت جدّة الشباب في كلّ شيء، في الجدران والسجادة والسريّر، في أمّها وفيها هي نفسها، وردّ أبوها إلى الحياة واتخذ مجلسه المعهود، وعادت تصغي إلى مناشاة الحبّ والتدليس وتحلم بقبصص الأنبياء والمعجزات، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفّار إلى عرابي باشا والإنجليز، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعادتها المرجوة ثمّ قالت العجوز بلهجة من يقرّر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدّمات منطقية:

- أليس الله حافظك وراعيك؟ ...

بيد أنّ القول نفسه تضمّن عزاء موحياً ذكّرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضي السعيد عائدة إلى كاتبها كما يعود السالي إلى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تلقى إليه بحسن نيّة، ولبثت إلى جانب أمّها في حال من الفراغ الصارم لم تعهدها إلاّ حين مرضها فأنكرتها وضاعت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمّها إلاّ نصف انتباهها على حين بقي النصف الآخر مرغى للضيّق والقلق، ولمّا جاءت صديقة ظهرًا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية

ابتتها أوّلًا «جاءك رقيب ليكشف عن سرقائك؟» ولكن أمينة لم يكن يهتمّها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتزم الأمانة، ولم تردّ الجارية على سيّدتها إكرامًا للضيقة من ناحية ولأنّها من ناحية أخرى ألفت مرارة سيّدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنين. وباستدارة النهار اشتدّ تعلّق فكرها ببيتها وتهالك عليه لأنّه في ذلك الوقت يعود السيّد إلى البيت للغداء والقبلولة، ثمّ يرجع الأبناء تبعًا عقب خروج الرجل إلى الدكان، فرأت بخيالها الذي استمدّ من الالم والحنين قوّة خارقة، البيت وآله كأنهم شهود. رأت السيّد وهو يخلع جيّته وقفطانه دون مساعدتها التي تخاف أن يكون قد ألب الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل. وحاولت أن تقرّ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا، هل يستشعر الفراغ الذي خلّفته وراءها، وكيف كان إحساسه حين لم يجد لها من أثر في البيت، ألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر؟ ... وها هم الأبناء عائدون، وها هم يهرعون إلى الصالة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغراً، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة، ترى كيف يتلقّى فهمي الخبر، وهل يدرك كمال - وهنا خفق قلبها خفقة جارحة - معنى غيابها؟ أيتشاورون طويلاً؟ ... ماذا ينتظرون؟ ... لعلمهم في الطريق يستبقون إليها ... يجب أن يكونوا في الطريق، أم يكون قد أصدر أمرًا بعدم زيارتها؟ يجب أن يكونوا في الخرنفش ... سترى عيّاً قليل ...

- أتمدّثيني يا أمينة؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز خيالها فانتبهت إليها في دهشة ممزوجة بالخياء، إذ فطنت إلى أنّ كلمات - من حديثها الباطن مع نفسها - قد تسلّلت في غفلة منها إلى طرف لسانها محدثة الحسّ الذي التقطته أذن أمّها المرهفة فلم ترّ بدّاً من أن تحيها قائلة:

- إني أتساءل يا أمي ألا يجيء الأولاد لزيارتي؟

- أظنهم جاءوا ...

قالت العجوز وهي ترهف السمع مادّة رأسها إلى الامام فأنصتت أمينة صامته فترامى إليها صوت مطرقة

وتردد طويلاً بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه، على مسمع من الجدة أن تعاتبه أو تضمر له حقاً، وبين السكوت على ما به من رغبة في التنفيس عن تحرجه، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمي إلى لغة أخرى قائلاً:

- أجل نحن المذنبون وأنت المتهم، (ثم ضاغطاً على غجارج الكلمات كأنها يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين، وسوف تنقش السحابة التي تظللنا جميعاً.

ولفت كمال وجهها إليه من ذقنها، وانهاه عليها بسيل من الأسئلة، عن معنى مغادرتها البيت، وكم تطول إقامتها في بيت جدته، وعما يحدث لو عادت معهم، وغير ذلك من الأسئلة التي لم يسمع عنها جواباً واحداً حقيقياً بأن يسكن خاطره الذي لم ينفذ في تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هي، ذلك العزم الذي كان أول من يرتاب في قدرته على تحقيقه، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه، فآخذوا يعالجون الموقف معالجة جذية لأنه - كما قال فهمي - «لا يجدي التكلم فيما كان ولكن ينبغي أن نتساءل عما سيكون» وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلاً «إن رجلاً كائناً لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مرّاً كريماً، فلم يكن بدّ من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل» بدا هذا الرأي مقتناً لما صادف من ارتياح النفوس إليه فقال فهمي مفصلاً عن اقتناعه ومرجوه معاً «والدليل على صحّة رأيك أنه لم يقدم على فعل شيء آخر، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحّت نيته عليه». وتكلّموا كثيراً عن «قلب» أبيهم فاتفقت كلمتهم على أنه قلب خير رغم ثورته وحذته وأن أبعد شيء عن تصوّرهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسيء إلى السمعة أو يؤذي أحداً وعند ذاك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهي تعلم باستحالة ما تدعو إليه:

- لو كنتم رجالاً حقاً لالتستم الوسيلة إلى قلب أبيكم ليتحوّل عن عناده...

فتبادل ياسين وفهمي نظرات ساخرة من هذه

الباب وهي ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت بيعث في لهفة بصرخات استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهي تدقّ عليها باب حجرة الفرن، وسرعان ما هرعت إلى رأس السلم وهي تنادي صديقة لتفتح الباب، ثم أطلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يشب فوق درجات السلم وفي أثره فهمي وياسين وتعلّق كمال بعنقها فعاقها قليلاً عن عناق الآخرين، ثم دخلوا الحجرة وهم، من جيشان النفس وتبليبل الخاطر، يتكلّمون في وقت واحد لا يبالي أحدهم ما يقول الآخرون، ولما رأوا الجدة واقفة مبسطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحبّ أمسكوا عن الكلام إلى حين وأقبلوا عليها تباغاً فساد صمت نسبيّ تخلّته همسات القبل المتبادلة وأخيراً هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن:

- نحن الآن لا بيت لنا، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى إليه.

وأوى كمال إلى حجرها كالهارب وهو يقول مفصلاً لأول مرة عن نيته التي طوى صدره عليها في البيت وفي الطريق:

- سابقى هنا مع نينة... ولن أعود معكم...  
أنا فهمي فقد رنا إليها طويلاً صامتاً، كشأنه إذا أراد أن يحدثها بالنظر، فوجدت في نظراته الصامته خير معبر عما يعتلج في صدرها معاً. هذا الحبيب الذي لا يفوق حبّه لها إلا حبّها له، والذي يندر أن يشير في أحاديثه معها إلى عواطفه ولكن تشي به خطرات نفسه وكلماته وفعاله، وقد قرأ الفتى في عينيها نظرة تدلّ على الألم والخجل فاشتدّ تأثره وقال بحزن وتأمّل:

- نحن الذين اقترحنا عليك الخروج، وشجعناك عليه، ولكن ها أنت وحدك تتلقّين العقاب...  
فابتسمت الأم في ارتباك وقالت:

- لست طفلة يا فهمي، وما كان ينبغي لي أن أفعل...

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل، واشتدّ كربه لفرط إحساسه بالخرج بصفته صاحب الاقتراح المشوم،

«الرجولة» المزعومة التي تذوب لدى ذكر أبيهم، وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث بين الشابين والجلدة إلى ذكر حادث السيارة فافهمتها بالإشارة - وهي تردّد يدها بين كتفها وأمها - أنها أخفت عنها الأمر، ثم قالت تخاطب أمها وكأنها تنبهي للدفاع عن رجولة الشابين:

٣٤

- لا أحب أن تعرّض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو...  
وهنا تساءل كمال:

- متى يعفو؟

فأشارت الأم بسبابتها إلى فوق وهي تغمغم «ربّنا عنده العفو». وكالمألوف في مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كلّ ما سبق له قوله بنفس الألفاظ أو بألفاظ جديدة من إثارة متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون أن يستجدّ به جديد، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل. وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذي يسبق العاصفة، اللهم إلا كلمات لا يراد بها إلا التخفيف من وطأة الصمت أو التهزّب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأنّ كلّ منهم يلقي تبعة إعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عينها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبات السبحة في عجلة ولهوجة، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التي يترقّب فيها الحالم في كابوس سقطة من علّو شاهق، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول «أظنّ أنّ لنا أن نذهب، وسنعود لناخذك معنا قريباً إن شاء الله» وتسمّعت العجوز لترى كيف تهذّج نرات ابنتها عند الكلام، ولكنّها لم تسمع كلاماً بل سمعت حركة دالة على خوض الجلوس، وأصوات قبل وهممة توديع، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاه، ثم جاء دورها في التسليم في جوّ مشبع بالحزن والفتور، وأخيراً أخذت الأقدام تبتعد تاركة إياها في حدة وشجن.

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تنصّت في قلق حتى هتفت بها:  
- أتبيكين؟ يا لك من عبيطة! كأنك لا تطيقين أن تبقي ليلتين في حضن أمك!

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم، فإلى حزنهما الذي يشاركهما فيه الإخوة تحمّلتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب بيد أنّ أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما، أمّا خدمة الأب فهي التي عملتا لها ألف حساب ونزعت عائشة إلى الهرب من منطقة أبيها معتلة بأنّ خديجة سبق لها أن تدرّبت على خدمته في أثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة إلى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التي تكابدها وهي على كعب من السيّد أو وهي تقضي له حاجة من حاجاته. ومنذ الساعة الأولى للذهاب الأم قالت خديجة «ينبغي ألاّ تطول هذه الحال، إنّ الحياة بدونها في هذا البيت عناء لا يطاق» فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة في وسعها غير الدموع فذرقتها، وانتظرت عودة إختوتها من بيت الجلدة حتى جاءوا وقبل أن تلفظ كلمة مما يدور في نفسها راحوا يتحدثون عن حال أمهم في «منفاها» فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاءهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة:

- إذا قنع كلّ مناّ بالسكوت والانتظار فربّما تلاحقت الأيام والأسابيع وهي مبتعدة عن بيتها حتى يرضيها الحزن، أجل إنّ مخاطبة بابا في هذا الشأن مهمة شاقة ولكنّها ليست أشقّ من السكوت الذي لا يليق بنا، ينبغي أن نجد طريقة... ينبغي أن نتكلّم...

ومع أنّ صيغة «نتكلّم» التي ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين إلاّ أنّه قصد بها - كما فهم بالبداية - شخص أو شخصان شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تحفّ بواعثه على أحد، بيد أنّ خديجة واصلت حديثها قائلة:

- لم تكن مهمّة مخاطبته فيها يعرض من أمور بأيسر



فرغ حاجبيه في ارتباك متطلّعا إليها بنظرة كأنما يقول لها «أنت أدري بالعواقب!» حقًا كان يتمتّع بمزايا لا يتمتّع ببعضها أحد في الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق، وهو أكبرهم عقلًا وأنفذهم رأيًا، وله من ضبط النفس في المواقف الحرجة ما يدلّ على الشجاعة والرجولة ولكّنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه إذا مثل بين يدي أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء. وبدا وكأنه لا يدري ماذا يقول فحثّته على الكلام بإيماءة من رأسها فقال متحرّجًا:

- هل ترينه يقبل رجائي؟... كلاً... ولكّنه سينهري قائلاً: «لا تتدخل فيما لا يعينك». هذا إذا لم يثر غضبه فيوجّه إليّ كلامًا أشدّ وأقسى!

وارتاح ياسين إلى هذا الكلام «الحكيم» الذي وجد فيه دفاعًا عن موقفه أيضًا فقال وكأنه يكمل رأي أخيه:

- وربما جرّ تدخّلنا إلى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على أنفسنا فتحة لا ندري كيف نسدها!

فالتفت الفتاة نحوه مغبطة محنقة وقالت بمرارة وسخرية:

- لا منك ولا كفاية شرك!

فقال فهمي الذي استمدّ من غريزة «حبّ البقاء» قوّة جديدة للدفاع عن نفسه:

- فلنفكر في الأمر بعناية شاملة... لا أظنّه يقبل لي أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين في الخطأ، وعليه فالقضية خاسرة إذا تقدّم أحدهما للدفاع عنها، أما إذا حدّثته واحدة منكما فلعلّها تنجح في استعطافه أو لعلّها تجدد - على أسوأ الظنون - إعراضًا هادئًا لا يبلغ حدّ العنف، فلماذا لا تحدّثه إحداكما؟... أنت مثلاً يا خديجة؟!

فانقبض قلب الفتاة التي وقعت في الشرك وحذجت ياسين وفهمي بنظرة غيظ وهي تقول:

- ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال!

فقال فهمي مواصلاً هجومه السلمي:

- العكس هو الصحيح ما دمنا نتوسّخ نجاح

على نينة ممّا هي علينا ومع ذلك لم تكن تتردّد عن مخاطبته إكرامًا لأيّ واحد منّا، فمن الإنصاف أن نتحمّل نفس التضحية من أجل خاطرها.

تبادل ياسين وفهمي نظرة فضحت إحساسهما بالخناق الذي أخذ يضيق حولهما سريعًا ولكنّ واحدًا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهي به الكلام إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجيء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرّة، وتركت خديجة التعميم إلى التخصيص فالتفتت إلى ياسين قائلة:

- أنت أخونا الأكبر وإلى هذا فأنت موظّف، أي رجل كامل. فأنت أجدرنا بهذا الواجب.

ملأ ياسين صدره بالهواء ثمّ نفخ وهو يعبث بأنامله في ارتباك ظاهر وتتمّ قائلاً:

- والدنا رجل نارٍ الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه، وأنا من ناحيتي لم أعد غلامًا بل صرت رجلًا وموظّفًا كما تقولين، وأخوف ما أخاف أن ينفجر فيّ غاضبًا فيفلت منّي زمام نفسي ويثور غضبي بدوره!

وغلهم الابتسام على أعصابهم المتوتّرة المحزونة فابتسموا، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها في كفّيهما، ولعلّ حالهم المتوتّرة نفسها ممّا هيّأهم لقبول الابتسام كمسكّن وقويّ للتوتّر والألم كما يحدث للنفوس أحيانًا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها، ذلك أنّهم عدّوا قوله نوعًا من الدعاية الجديرة بالضحك والسخرية، وكان هو أوّل من يعلم بعجزه التأمّ عن مجرّد التفكير في الغضب أو المقاومة حيال والده وأوّل من يعلم أنّه قال ما قال فرارًا من مواجهة أبيه واتّقاء لسخطه، فلمّا رأى هزءهم لم يسعه إلّا أن يتبسم بدوره وهو يهزّ منكبيه كأنما يقول لهم «دعوني وشأني». فهمي وحده بدا متحفّظًا في ابتسامه لشعوره أنّ القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته، وصدق شعوره إذ أعرضت خديجة عن ياسين في ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء وإشفاق:

- فهمي... أنت رجلنا!...

المسعى، ولا تنسى أنكما لم تتعرضا لغضبه طول حياتكما إلا في النادر الذي لا يقاس عليه، فهو يألف الفرق بكما كما يألف البطش بنا!

فاطرت خديجة متفكرة في قلق غير خافٍ، وكأثما خافت إن طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة في قرعتها فرفعت رأسها قائلة:

- إذا كان الأمر كما تقول فعائشة أخلق مني

بالكلام!

- أنا... كيه؟!

- ما دمنا نعجز جميعاً عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا الست أم مريم.

وما إن نطقت باسم «مريم» حتى لحظت فهمي بحركة عكسية فالتفت عيناها لحظة قصيرة في نظرة لم يرتج لها الشاب لإيجائها فأشاح عنها بوجهه متظاهراً بعدم الاكتراث، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمي منذ نبذت فكرة خطبتها، أما مراعاة لعواطفه، وإما لأن مريم اكتسبت معنى جديداً بعد اعترافه بحبها سلكها في زمرة المحرمات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن، وبالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب... ولم تُفُت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه إلى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتعريض:

- هذا رجلنا الحق، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليعيد إليه أمه!

لم يحمل كلامه محمل الجذ أحد، وأولهم كمال نفسه، بيد أن قول ياسين وثب إلى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائداً من المدرسة، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه المنفية، فتوقف عن السير صوب درب قرمز، والتفت إلى طريق النحاسين متردداً وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألم، ثم غير طريقه متجهاً نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأي، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمه، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه، فضلاً عن مخاطبته أو التوسل

نطقت بها عائشة في فرع من وجد نفسه في مرمى الخطر بعد أن اطمأن طويلاً إلى موقف المتفرج الذي ليس له من الأمر شيء خاصة وأثما - لحدائث سنّها وغلبة إحساس الطفولة المدللة عليها - لم تكن تندب لشيء هام فضلاً عن أخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم، إلا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد أنها أصرت عليه في عناد مشيع بالمرارة والتهكم فقالت تحجب شقيقتها:

- لأنه ينبغي الانتفاع بصفرة شعرك وزرقه عينيك

في إنجاح مسعانا!

- وما دخل شعري وعيني في مواجهة أبي؟!

لم تكن خديجة تهتم في تلك اللحظة بالإقناع بقدر ما تهالكت على إيجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان إلى أمور هي بالمعابة أشبه تمهيداً للتقهقر، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع في مأزق حرج وتعوزه الحجة في الدفاع عنه فيلجأ إلى المزاح ليمهد لنفسه مفراً في ضجة من السرور بدلاً من الشائنة والازدراء لذلك قالت:

- أعرف لهما تأثيراً ساحراً في كل من يتصل بك،

ياسين... فهمي... حتى كمال، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبي؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج:

- كيف أخاطبه في هذا الشأن وأنا لا تقع عليّ عيناه

حتى يطير ما في رأسي؟!

عند ذاك - وبعد أن تهربوا تبعاً من المهمة الخطيرة - لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم

إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محدثاً في هذا الأمر، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحقيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينه باب الدكان كأنما ينزع إلى إرضاء قلبه المعذب ولو إرضاء عميقاً - كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته - وتدانى من الباب حتى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يغرق في الضحك كذلك، فاذهلته المفاجأة، فستمر في مكانه مستشرفًا وجه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه وخیل إليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك - على ما به من شبه بأبيه - شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويغرق في الضحك، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوق بصره على الغلام المتطلع إليه بدهول فاخذته الدهشة لموقفه وهيته على حين استردت أساريه بسرعة مظهر الجذ والرزانة، ثم سألوه وهو يتفرس في وجهه:

- ماذا جاء بك؟

وللمحال دبّت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس - رغم ذهوله - فتقدم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

- أتريد شيئاً؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثراً السلامة «إنه لا يريد شيئاً وأنه كان في طريقه إلى البيت» ولكن السيد استبطاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكان الكلام قد التزق بسقف حلقه، فازداد

الأب ضيقاً وهتف بحدة:

- تكلم... هل فقدت النطق؟

وتجمعت قوته كلها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأي ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلاً كيفاً اتفق له:

- كنت عائداً من المدرسة إلى البيت...

- وماذا أوقفك هنا كالمعتوه؟

- رأيت... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك...

فتجلّت في عيني السيد نظرة استرابة، وقال بجفاء وتهكم:

- أهذا كل ما هنالك... أوحشتك لهذا الحد؟

ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل يدي إذا أردت؟... اسمع... إياك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة... سأعرف كل شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

- لم أعمل شيئاً وحيات ربنا...

فقال الرجل بنفاد صبر:

- إذن تفضل... ضيبت وقتي بلا مناسبة... عُرّ من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحوّل عيني أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

- رجّع نيتة الله بخيليك...

وأطلق ساقيه للريح...

كان السيد يجتسي قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع ألا يسمع:

- جارتنا ست أمّ مريم تريد مقابلة حضرتك...

فتساءل السيد متعجباً:

- حرم السيد محمد رضوان؟ ماذا تريد؟

إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محدثاً في هذا الأمر، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحقيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينه باب الدكان كأنما ينزع إلى إرضاء قلبه المعذب ولو إرضاء عميقاً - كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته - وتدانى من الباب حتى وقف على بُعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يغرق في الضحك كذلك، فاذهلته المفاجأة، فستمر في مكانه مستشرفًا وجه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه وخیل إليه أن شخصية جديدة قد حلت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك - على ما به من شبه بأبيه - شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويغرق في الضحك، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوق بصره على الغلام المتطلع إليه بدهول فاخذته الدهشة لموقفه وهيته على حين استردت أساريه بسرعة مظهر الجذ والرزانة، ثم سألوه وهو يتفرس في وجهه:

- ماذا جاء بك؟

وللمحال دبّت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس - رغم ذهوله - فتقدم من أبيه ومدّ يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

- أتريد شيئاً؟

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثراً السلامة «إنه لا يريد شيئاً وأنه كان في طريقه إلى البيت» ولكن السيد استبطاه فلاح في وجهه الضيق وقال بخشونة:

- لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد...

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكان الكلام قد التزق بسقف حلقه، فازداد

الأب ضيقاً وهتف بحدة:

- تكلم... هل فقدت النطق؟

وتجمعت قوته كلها في إرادة واحدة وهي أن يخرج من صمته بأي ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلاً كيفاً اتفق له:

- كنت عائداً من المدرسة إلى البيت...

- وماذا أوقفك هنا كالمعتوه؟

- رأيت... رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك...

فتجلّت في عيني السيد نظرة استرابة، وقال بجفاء وتهكم:

- أهذا كل ما هنالك... أوحشتك لهذا الحد؟

ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل يدي إذا أردت؟... اسمع... إياك وأن تكون قد عملت عملة في المدرسة... سأعرف كل شيء...

فقال كمال بسرعة واضطراب:

- لم أعمل شيئاً وحيات ربنا...

فقال الرجل بنفاد صبر:

- إذن تفضل... ضيبت وقتي بلا مناسبة... عُرّ من وجهي...

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحوّل عيني أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

- رجّع نيتة الله بخيليك...

وأطلق ساقيه للريح...

كان السيد يجتسي قهوة العصر في حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع ألا يسمع:

- جارتنا ست أمّ مريم تريد مقابلة حضرتك...

فتساءل السيد متعجباً:

- حرم السيد محمد رضوان؟ ماذا تريد؟

فقال خديجة:

- لا أعرف يا بابا...

فأمرها بإدخالها وهو يمسك عن التعجب. ومع أن مجيء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته - لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين أزواجهن من أصدقائه لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة إلى مقابلته واحد من هذه الأسباب. وخطرت على ذهنه، وهو يتساءل، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجها، ولكن أي علاقة ثمة بين هذا السر الذي لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة؟! ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمت إليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار، لا تربطه به إلا صلة الجيرة التي لم ترتفع يوماً لمرتبة الصداقة، فاقصر تزاورها قديماً على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرّات، ثم لم يعد يطرق بابه إلا في الأعياد. على أن ست أم مريم ليست بالغريبة عليه، فإنه ليدكر أنها قصدت دكانه مرة لابتاع بعض الحوائج وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديراً بحسن الجوار، ومرة أخرى التقى بها عند باب بيته إذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كرميتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة «مساء الخير يا سي السيد»، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيما يتشدد فيه متطرقاً من التزام الآداب المتوارثة للأسرة، فلا يرون بأساً من أن تخرج نساؤهم للزيارة أو للاستبضاع، ولا يجدون حرجاً في توجيه تحية بريئة كالتي وجهتها أم مريم إليه، ولم يكن - رغم حنبلتيه - بالذي يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم، بل لم يكن يسيء الظن حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم في العُربات للتنزه في الخلوات أو لغشيان الملاهي البريئة مكتئباً في مثل هذه الحال بترديد قوله «لكم دينكم ولي دين»، أي أنه لا ينزع إلى تطبيق آرائه على الناس تطبيقاً أعمى، إلى أنه يحسن التمييز حقاً بين ما هو خير وما هو شر، إلا أنه لا يفتح

صدره لكل «ما هو خير» ضالماً في ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى أنه عدّ زيارة زوجته للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها في حياته الزوجية الثانية، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسيء بأخلاقها الظن. وسمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة تنذر بالدخول، ثم دخلت ملتفة في ملاءتها، مستورة الوجه برقع أسود تنوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف، فهض السيد لاستقبالها وهو يمدّ يده قائلاً:

- أهلاً وسهلاً، شرفت البيت وأهله.

فمدّت له يدها بعد أن لفتها في طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت:

- ربنا يشرف قدرك يا سي السيد...

ودعاها للجلوس فجلست، ثم جلس وهو يسألها بجمالة:

- كيف حال السيد محمد؟...

فقالته متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها:

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ربنا يلف بنا جميعاً...

فهز السيد رأسه كالأسف وتمتم:

- ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية...

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تنهياً للحديث الجدّي الذي جاء من أجله كما ينهيا المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غصّ السيد بصره تحشياً تاركاً على شفثيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر:

- يا سيد أحمد، أنت في المروءة مثل يضرب في الحى كله، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعاً مروءتك.

فتمتم السيد بصوت حيي وهو يتساءل في نفسه «تري ما وراء هذا كله؟!...»

- أستغفر الله...

وعذب، فلما قالت «بل أعز من الأخ» جهر الصوت بحنان دافئ نشر في الجو المحتشم نفحة طيبة، فتعجب وتساءل، ولم يعد يطبق غضب بصره على الشك فرفعه مستأنياً... واسترق إلى وجهها النظر - فوجدتها - على غير ما توقع - تتطلع إليه بعينيها الدعجاوين، فجاش صدره وخفض بصره مستعجلاً بين الدهشة والخرج ثم قال مواصلاً الحديث كي يغطي على تأثيره:

- أشكرك على ما أوليتني من أخوة...

وعاد يتساءل تُرى أكانت تتطلع هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلعها إليه؟ وما القول في أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين؟ ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلاً لنفسه إن ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهم أرفها حاسة سوء الظن عنده، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوّره، أو لعل المرأة من النساء اللاتي يفضن الحنان طبعاً وسجية فيظنه من لا يعرفهن غزلاً وما هو بالغزل، ولكي يتحقق من صدق رأيه - لأنه لم تزل ثمة حاجة إلى التحقيق - رفع بصره مرة أخرى فما هاله إلا أن يراها رانية إليه، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلاً فلم تزل ترنو إليه باستسلام جسور حتى غض بصره في حيرة شاملة، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول:

- سأرى بعد هذا الرجاء إذا كنت حقاً أثيرة عندك...

أثيرة؟ لو قيلت هذه الكلمة في غير هذا الجو المشيع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة، لمرت دون أن تترك أثراً، أما الآن؟ وعاود النظر في غير قليل من الخرج فقرأ في عينها بعض المعاني التي عابثت ظنونه، هل يصدق إحساسه؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجه؟ ولكن كيف يعجب من كان في مثل خبرته بالنساء؟ سيّدة لعوب ذات بعل مشلول. وسرت في وجدانه وثبات بهيجة ملائه حرارة وزهواً، ولكن متى نشأت هذه العاطفة؟ أهي قديمة وكانت تتحيّن الفرص؟ ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب... ولكن الدكان ليس بالمكان الذي تطمئن إليه مثلها في

- المسألة أنني جئت الساعة لأزور أختي ست أم فهمي فما هالني إلا أن أعلم بأنها ليست في البيت وأنت غاضب عليها!...

وأمسكت المرأة لتسر أثر كلامها ولتسمع رأي السيد فيه، ولكنه لا بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح إلى فتح هذا الموضوع إلا أن ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه...

- هل توجد ست أكمل من ست أم فهمي؟ ست العقل والحياء، جارة عشرين عاماً وأكثر، لم نسمع خللاً منها إلا ما يسرّ خاطر، فما عسى يمكن أن تحني ممّا تستحقّ عليه غضب رجل عادل مثلك؟!

فثابر السيد على صمته متجاهلاً تساؤلها، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه... تُرى أجاءت زيارة المرأة للبيت اتفاقاً أم أنها استدعيت بتدبير مدبر؟! خديجة؟ عائشة؟ أمينة نفسها؟ إنهم لا يملّون الدفاع عن أمهم، هل ينسى كيف تهرأ كمال على الصراخ في وجهه مطالباً بعودة أمه، الأمر الذي عرّضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه؟!

- يا لها من سيّدة طيبة لا تستأهل عقاباً... ويا لك من سيّد كريم لا يليق به العنف، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نبلك بإفساد كيده... وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من أن يجتمل مجاملة للزائرة فتمتم قائلاً باقتضاب متعمّد:

- ربّنا يصلح الحال...

فقالت أم مريم بحماس متشجّعة بما أصابت من نجاح في استدراجه إلى الكلام:

- لشّد ما يعزّ عليّ أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذلك العمر الطويل من السر والكرامة... - ستعود المياه إلى مجاريها، ولكن لكل شيء ميعاد...

- أنت أخي، بل أعز من الأخ، ولن أزيد على هذا كلمة واحدة...!

جدّ جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجّله كما يسجّل المرصد الزلزال البعيد مهما تدقّ حركته. خيل إليه وهي تقول «أنت أخي» أن صوتها رقّ

«الصدق وذ دائم والعشيقه هوى عابر»، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينبه لانتهاز فرصته، وأحياناً يستأذن الخليل القديم قبل أن يتوّد إلى من كانت خليلته، مواصلاً العشق في سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه إحن النفوس. بمعنى آخر أنه نجح في التوفيق بين «الحيوان» المتهالك على اللذات وبين «الإنسان» المتطلع إلى المبادئ العالية توفيقاً اثلاثياً يجمعهما في وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة في سر وارتياح، كما وفق من قبل في الجمع بين التدين والغواية في وحدة خالية من الإحساس بالذنب والكبت معاً، غير أنه لم يكن يصدر في وفائه عن إخلاص مجرد للأخلاق ولكن - إلى هذا أو قبل هذا - عن رغبته التليدة في أن يظل حائزاً للحب متمتعاً بالسمعة العطرة، إلى أن غزواته المظفرة في العشق هزّت عليه الإعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة، وفضلاً عن هذا وذاك فإنه لم يعرف الحب الحقيقي الذي كان خليقاً بأن يدفعه إلى إحدى اثنتين: فلما الإذعان للعاطفة القويّة دون مبالاة بالمبادئ، وإما الوقوع في أزمة عاطفيّة خلقيّة حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها. فلم يكن في أمّ مريم إلّا صنف لذيق من الطعام لن يضيره - إذ هدّه تناوله بسوء الهضم - أن يعدل عنه إلى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التي تحفل بها المائدة، لذلك أجابها برقة قائلاً:

- شفاعتك مقبولة إن شاء الله وستسمعين ما يسرك  
عماً قريب...

فقامت المرأة وهي تقول:

- ربنا يكرمك يا سي السيد...

ومدّت له يداً بضّة فمدّ لها يده وهو يغضّ بصره فخيّل إليه - وهي تسلّم - أنها ضغطت قليلاً على يده، وجعل يتساءل أهذه طريقتها في التسليم أم أنها تعمّدت الضغط على يده، وحاول أن يتذكّر كيفيّة تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم تسعفه، وقضى

بثّ هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة، أم هي عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة في الغرفة الخالية؟ لو صحّ هذا فهي «زبيدة» أخرى في لباس سيّدة مصونة، وليس غريباً أن يجهل أمرها - وهو العليم ببنات الهوى - ما دام يحرص الحرص كلّ على احترام الجيران احتراماً مثاليّاً، وأياً كان الأمر فكيف يجيبها؟ «أنت أتر عندي ممّا تظنين؟» قول جميل ولكنّها حرّية بأن ترى فيه تحيّة استجابة لدعائها، كلّاً إنّه لا يريد هذا، إنّه ياباه كلّ الإباء، لا لأنّه لم يشبع بعد من زبيدة، ولكن لأنّه لا يقبل أن يجحد عن مبادئه في تقديس الأعراض عامّة، وما يسّ الأصدقاء والجيران منهم خاصّة. لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخرى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على إفراطه في العشق والصبوات، ولم يزل دأبه أن يخاف الله في لوه كما يخافه في جدّه فلا يبيح لنفسه إلّا ما يراه مباحاً أو في حدود الهفوات. لا يعني هذا أنّه أوتي إرادة خارقة تعصمه من الأهواء، ولكنّه لهج بالهوى المبدول، وصان طرفه عن الحرمات حتى أنّه لم يتعمّد النظر إلى وجه امرأة من حيّه طوال عمره، على أنّه ممّا يذكر له أنّه صدّ مرّة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه، إذ جاء يوماً رسول يدعوّه إلى لقاء أخت ذلك الرجل - أرملة نصف - في ليلة سهاها فتلقّى السيّد الدعوة صامتاً وصرف الرسول متلفظاً كعادته ثمّ قاطع الطريق الذي يوجد به البيت أعواماً متواصلة. ولعلّ أمّ مريم كانت أوّل تجربة - عرضت لمبادئه - يكابدها بعينيه، ومع أنّها أعجبتّه إلّا أنّه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار، صائناً سمعته التي يتحدّث بها الناس عن موطن المؤاخذه، كأنّ هذه السمعة الطيبة أتر عنده من اقتناص لذّة مواتية، متعرّياً في نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب، وهذه الروح الراعية للعهد المخلصة للإخوان لا تنزايه حتى في مغاني اللهو والشهوة، فلم يؤخذ عليه أبداً أنّه سطا على محظية صاحب أو طمح بطرف إلى خليله صديق، مؤثراً الصداقة على الأهواء، لأنّه كما اعتاد أن يقول

على البيت من حين لآخر، حرم المرحوم شوكت، والمرحوم شوكت من قبل، أسرة ارتبطت مع أسرته بأصرة الوُدِّ الخالص من عهد الجدود، كان للراحل منزلة الأب من نفسه، ولم تزل أرملته عنده - وعند أسرته بالتبعية - بمنزلة الأم، هي التي خطبت له أمانة بنفسها، وتلقت أبنائه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هذا كله قال شوكت أناس صدقاتهم شرف، لا لأصلهم التركي فحسب، ولكن لمرتبهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوي وبين الصوريين، وإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال، ولعل الأمومة التي تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هي التي جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والخرج، فليست هي بالتي تلتزم الاحترام في مخاطبته، ولا بالتي تتعب في استعطافه، فضلاً عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معاً، أجل ليست هي...

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها، ثم نهض وهو يقول بترحيب:

- أهلاً وسهلاً، زارنا النبي...

اقتربت منه سيّدة طاعنة في السن، تدبّ على مظلة وهي ترفع إليه وجهها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكذب يحجب منه شيئاً برقعها الأبيض الشفاف، وتلقت تحيته بابتسامة جلّت عن أسنانها الذهبية، وسلّمت، ثم اتخذت مجلسها إلى جانبه بلا كلفة وهي تقول:

- من يعيش يرّ، حتّى أنت يا زين الرجال!... وحتى هذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التي لا يطيب التحدّث عنها!... شئت وربّ الحسين وبأدرك الحرف...

واسترسلت في الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعها أو التعقيب عليها، حدّثته كيف جاءت للزيارة، وكيف اكتشفت غياب زوجها «ظننت بادئ الأمر أنّها خرجت في زيارة فداققت صدري بيدي دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا؟!... وكيف سمح لها السيد بالخروج مستهيناً

أكثر الوقت الذي سبق عودته إلى الدكان وهو يفكر في المرأة، حديثها، ولينها، وتسليمها...

### ٣٦

- تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك. رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصباح بها: - لماذا؟

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته النائرة على أنّه لم يقصد الوقوف عند مدلول «لماذا» وكأنّه أراد أن يقول لها «لم أكد أفرغ من وسيط الأمس حتّى جئتني بوسيط جديد اليوم، من قال لك إنّ هذه الخيل تجوز عليّ؟... كيف تجسرين أنت وإخوتك على المكر بي؟».

واصفّر وجه خديجة وهي تقول بصوت متهذّب: - لا أدري والله...

فحرّك رأسه حركة كأنّها تقول لها «بل تدرين وأدري أنا أيضاً ولن يحرك مكرّك إلّا إلى أوحم العواقب» ثم قال ساخطاً:

- خليها تفضّل، لن أشرب قهوتي براحة بال بعد الآن، أصل حجرتي محكمة وقضاة وشهود، وهذه هي الراحة التي أجدها في بيتي، لعنة الله عليكم أجمعين!...

اختفت خديجة قبل أن يتمّ كلامه كما يختفي الفأر إذا قرعت سمعه قرعة، وظلّ السيد لحظات متجهّماً حانقاً، حتّى خطرت على ذهنه خديجة وهي تنسحب خائفة فعرّثت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب، فارتسمت على شفّتيه ابتسامة إشفاق مسحت غضبته المتعسّفة وقطرت على صدره عطفاً، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة، وأنّجه بصره إلى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسط أساريه كأنّه لم يصبّ غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها، ولكن لم يجد له حيلة فيما يركبه من غضب - وهو في بيته - لاتفه الأسباب أو بلا سبب على الإطلاق، وفضلاً عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصّة لا يرتقي إليها أحد من النساء اللاتي يتردّدن

يزوّج الصغرى حتّى تتزوّج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه إهمالها... رغبة عالتها بها من لا تهمل تصميمه ذلك ممّا دلّ على أنّها ترفضه سلفاً وتابى أن تنزل عند حكمه...

- ما لك صامتاً كأنك لم تسمعي؟  
وابتسم السيّد ارتباكاً وحياء، ثمّ قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريشاً يقلّب الأمر على وجوهه:  
- هذا شرف عظيم لنا...

فرمته السيّدة بنظرة كأنّها تقول له «ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام» وقالت بلهجة هجومية:

- لا حاجة بي إلى الضحك عليّ بأجوف الكلام، لن أرضى بغير الموافقة التامة، لقد ندبني خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندي عروس هي خير ما يمكن أن تظهر به فسرّ لاختياري ولم يعدل بمصاهرتك شيئاً... فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة، متى أنا، بالصمت والتهرّب؟! الله... الله...

الإلم يقع في هذه المشكلة المعقّدة التي لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصدمة قاسية؟!... ونظر إليها كما يستجدي عطفها على موقفه، وغمغم:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، رغبتك فوق العين والرأس، ولكن...

- آه من لكن!... لا تقل إنك قرّرت ألا تزوّج الصغرى حتّى تتزوّج الكبرى، من أنت حتّى تقرّر هذا أو ذاك؟!... دع ما لله الله وهو أرحم الراحمين. إن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوّجن قبل الكبار فلم يحلّ زواجهنّ دون زواج أخواتهنّ بأحسن الأزواج، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجاً صالحاً عندما يشاء الله... الإلم تقف حائلاً بين عائشة وبين حظّها؟!... أليست هي الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك؟!...

قال لنفسه: إذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها؟!... وهم بإحراجها كما أحرجه ولكنّه خاف أن ترميه بإجابة تتضمن إساءة - ولو بحسن نية -

بالشرائع الإلهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية!...» بيد أنّها سرعان ما عرفت الحقيقة كلّها «فثبت إلى رشدي وقلت الحمد لله الدنيا بخير، هذا حقّاً هو السيّد، وهذا أقلّ ما ينتظر منه» ثمّ غيّرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنّب على قسوته، ولم تقتصد في الرثاء لزوجها التي تعدّها آخر امرأة تستحقّ عقاباً، وجعلت كلّها همّ بمقاطعتها تصيح به «هس، ولا كلمة...» دع حديثك الحلّ الذي تحسن تنميقة فلن أهدع به، إنّني أريد عملاً صالحاً لا مزوّفاً وصارحته بأنّه يغالي في المحافظة على أسرته مغالاة خرقّت المالوف، وأنّه يجعل به أن يأخذ نفسه بشيء من الهوادة والرفق، استمع السيّد إليها طويلاً، ولمّا سمحت له بالكلام - بعد أن أعياها الكلام، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحارّ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكّد لها بأنّ سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحوّل عنها وإن وعدّها في النهاية - كما وعد أمّ مريم من قبل - خيراً، وظنّ أن آن للجلسة أن تنفضّ ولكنّه ما يدري إلّا وهي تقول:

- غياب أمانة هانم مفاجأة غير سارة لي لأنّي كنت أريدها لأمر هامّ جدّاً، ولأنّ الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحّتي، ولا أدري الآن إن كان يحسن بي أن أتكلّم فيها أردت الكلام فيه أم أنتظر عودتها؟! فقال السيّد مبتسماً:

- كلنا تحت أمرك...

- وددت لو كانت هي أوّل من يسمعي وإن كنت لم تترك لها من الأمر شيئاً، ولكن لئن فاتني هذا فعزائي لها فرصة سعيدة للعودة...

فاحتار السيّد في فهم حديثها وحجج إليها متسائلاً:  
- ما وراء هذا؟

فقال وهي تنكث السجادة بسنّ مظلتها:

- لا أطيل عليك، لقد وقع اختياري على عائشة لتكون زوجاً لخليل ابني...

ودهش السيّد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقّع فركبه الارتباك، بل الانزعاج، لبواعث غير خافية، أدرك من أوّل وهلة أنّ تصميمه القديم على ألا



يصدق هذا من لا يروونه إلا مكشراً أو صاخباً أو ضاحكاً ساخرًا... إن مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليفة بأن تنغص العيش كله وتطيق وجه الحياة في عينيه، ولكم يسعده أن يجود بكل غالٍ في سبيل إسعاد فتاته سواء هذه التي يرى في وجهها الجميل وجه أمه أو تلك التي لم تُصب من الحسن إلا لونها شاحباً، كلتاها من نبض قلبه وعصارة روحه، بيد أن الزوج الذي تقدمه حرم المرحوم شوكت لفتة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فتى في الخامسة والعشرين، ذو دخل شهري لا يقل عن الثلاثين جنيهاً، حقاً إنه كثير من الأعيان لا عمل له، وحقاً إن حظّه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه الطيبة وكرم الأخلاق، ما عسى أن يفعل؟... يجب أن يحسم أمره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله - ولو لحظة قصيرة - كمن لا رأي قاطعاً له، ألا يشاور خاصته المقربين؟ إنه لا يرى غضاضة في مشاورتهم كلماً جدّ أمر، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر إلى الدنيا التي لا تعترف بالهموم والمشاكل، ولكنه قدر ما يستبد في باطنه برأيه فلا يجيد عنه، فهو من الذين يلتصقون في الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه، ولكنها حتى في هذه الحال عزاء ومتنفس، ولما ضاق الرجل بأفكاره هتف قائلاً:

- من يصدق أنّ ما بي من همّ لا يحتمل ما هو إلا نتيجة لخير أكرمني به الله؟...!

### ٣٧

لم يكن لأمنية من عمل في أيام منفاه إلا الجلوس إلى جانب أمها والاسترسال في الحديث، في كل ما يخطر على البال من أحاديث تجاذبها الماضي البعيد والماضي القريب والحاضر، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت إلى حياتها الجديدة كمعلقة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية في عالم الذكريات.

لخديجة وبالتالي له هو، وقال بصوت ملؤه الجذّة والاهتمام:

- ليس إلا أنني أشفق على خديجة.

فقالت بحذّة كأنما هي المطالبة لا هو:

- كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك أحداً، إن الله يكره من عبده العناد والمكابرة، اقبل رجائي وتوكل على الله، لا ترفض يدي فأني ما مددتها إلى أحد قبلك...!

فدارى السيد انفعاله بابتسامه وقال:

- هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة... فقط أمهليني قليلاً ريثما أراجع نفسي وأرتب أموري، وستجدني رأيي عند حسن ظنك إن شاء الله...!

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث:

- لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت، ثم إنه كلما طال الأخذ والرّد خيل لي أنك لا تقبل رغبي بقبول حسن، ومثلي من تطمع إذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لتّ وعجن، فلن أزيد عما قلت إلا كلمة واحدة: خليل ابني وابنك وعائشة بنتك وبنتي...!

وقامت فقام السيد ليودّعها، لم يكن يتوقع إلا كلمة توديع ونحية، ولكنها أبت إلا أن تذكّره بوصاياها جملة. كأنما خافت أن يفوته شيء منها فأعادتها تفصيلاً، وما يدري - أو تدري - إلا وهي ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر، ثم غلبها تداعي الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جلّ ما قالت عن الخطبة، وإلى هذا كله لم تشأ أن تنهي ذاك الحديث دون أن تودّع حديث الأمّ المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعي الأفكار يغلبها مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه، ثم أوشك أن يضحك في النهاية وهي تقول له: «لا يجوز أن آخذ منك أكثر مما أخذت» وأوصلها إلى الباب مشفقاً في كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتتشبك في الكلام كزة أخرى، ثم عاد أخيراً إلى مجلسه وهو يتنفس من الأعياق. عاد مغتتماً مكتباً، قلب رقيق، أرقّ مما يظنّ الكثيرون، بل أرقّ مما ينبغي، فكيف

كبيرة ولا صغيرة مما في أعقابها إلا سجلته، لشد ما ودت أن تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها، ولكن الفرح استخفها فضحكت أساريها ونطقت بابتهاج صبياني، وفي نفس الوقت تولأها حياء لم تدر له سبباً، وطال جودها في مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها رامياً بثقله إلى الوراء حتى طاعوته ناهضة، ووقفت قليلاً في ارتباك غريب وما تدري إلا وهي تلتفت إلى أمها متسائلة:

- أذهب يا أمي؟

بدا السؤال الذي ندد عنها - في نعمة الارتباك والحياء - غريباً، فابتسم فهمي وياسين، ودهش كمال وحده فيها يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذي جاءوا به، أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحدثت باطنها فرق قلبها وتخاصت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة، وقالت بلهجة جدية:

- إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله . . .

فذهبت أمينة لترتدي ملاءتها وتصرّ ثيابها وكمال أعقابها، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة خففتها بابتسامة رقيقة:

- أما كان الأخلق بأيكم أن يأتي بنفسه . . .؟

فأجابها فهمي كالمعتذر قائلاً:

- أنت أدري يا جدتي طبع أبنينا . . .

على حين قال ياسين ضاحكاً:

- فلنحمد الله على ما كان . . .!

فهممت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما تردّ على مهمتها:

- على أي حال السيد أحمد رجل ولا كلّ الرجال.

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد في

آذانهم، وقطعوا الطريق لأول مرة في حياتهم حتى بدا

المنظر في أعينهم بالغاً في غرابته فتبادل فهمي وياسين

نظرات باسمة. وتذكر كمال يوم سار - كما يسير الآن -

ممسكاً بيد أمه يقودها من عطفة إلى عطفة، ثم ما تلا

ذلك من آلام وخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه

فتعجب طويلاً، بيد أنه تناسى سريعاً أحزان الماضي في

فرحة الساعة، ووجد من نفسه ميلاً للدعابة فقال لأمه

بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذي تخاف وما بلغها من شفاعاة أم مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيد، كلّ أولئك ثبت قلبها وروح عن نفسها، إلا أن زيارات الأبناء المسائية التي لم تنقطع يوماً واحداً طلّت جوى صدرها بنفحات أمل متجددة. ومع أن الزمن الذي يتغيّونه عنها في البيت الجديد لم يزد كثيراً عن نظيره في البيت القديم - في كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلا حين فراغهم في جلسة المساء - إلا أنها باتت تشتاق إليهم اشتياق المغترب في بلد بعيد إلى أحباب فرق الدهر بينه وبينهم، اشتياق من حرّم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم، والإشراف على مواطن جدّم ولهوهم، كأنّ الجسم كلّما قطع في طريق الفراق قراطاً كابده القلب أميلاً، ودأبت العجوز على أن تقول لها كلّما وجدت منها صمتاً أو آنست في حديثها الشرود:

- الصبر يا أمينة، إنّي أرثي لحالك، الأمّ غريبة ما ابتعدت عن أبنائها، غريبة ولو حلّت في البيت الذي ولدت فيه.

أجل إنّها غريبة، كأنه ليس البيت الذي لم تعرف حياتها الأولى سواء موطناً، وكأنّها ليست الأمّ التي لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة، لم يعد «بيتها» ما هو إلا منقّى تنتظر بين جدرانها على لَهف العفو من السماء. وجاء العفو بعد طول انتظار، حمله الأبناء ذات مساء، دخلوا عليها وفي أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتزّ لها الصدر كلّها حتى أشفقت من أن تكون ذهبت في تأويلها إلى أبعد مما تحتمل، ولكنّ كمال جرى نحوها وتعلّق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتألك نفسه من الفرح:

- البسي ملاءتك وهيا بنا . . .

وقهقه ياسين قائلاً:

- جاء الفرج (ثم هو وفهمي معاً) دعانا أبي وقال لنا اذهبا فعودا بأنكما . . .

وغضّت بصرها لتداري فرحتها الغامرة. ما أعجزها عن كتمان ما يضطرب في نفسها من شتى العواطف، كأنّ وجهها مرآة شديدة الحساسية لا تترك

ضاحكًا:

- تعالي نخطف أرجلنا إلى سيدنا الحسين...!

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى:

- رضي الله عنه، إنه شهيد يحب الشهداء...

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصاصها فهفا قلب الأم إليهما في حنو واشتياق، ثم وجدت وراء الباب أم حنفي في استقبالها فغمرت يدي سيدتها بالقُبْل، والتقت في فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال، ووقوا السلم في مظاهرة صاخبة، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقرّوا جميعًا في حجرتها فتبادروا إلى نزع ملابسها - رمز الفراق البغيض - وهم يضجّون بالضحك، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر. وأراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرًا من أن يقول لها:

- هذا اليوم أعزّ عندي من المحمل نفسه!

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير في مجلس القهوة، فعادوا إلى السمر في جوّ من المسرة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيام فراق وكآبة تزداد لذّة اليوم الدقيء يحيي في أعقاب أسبوع من الزمهرير، ولم تنس الأم - التي استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا - أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرّجة من حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين، كما سألت كثيرًا عن الأب، وكم سرّها أن تعلم أنّه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها، فمهما يكن من أمر الراحة التي تهتأت له في غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمّله بلا ريب عناء سيزول بعودتها، عودتها التي تكفل له - وحدها - الحياة التي يألّفها ويرتاح إليها...! الشيء الوحيد الذي لم يخطر لأمنية على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت في هذه العودة بالذات مبررًا لاجترار الحزن والأسى! ولكن هكذا كان، فهذه القلوب التي شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت إلى التفكير في أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم، كالمغص الشديد الطارئ نسي به رمدًا مزمنًا حتى إذا ذهب عادتنا آلام الجفون، عاد فهمي يقول لنفسه «لكلّ حزن - فيها

يبدو - نهاية، هذه أمي قد رفع عنها الهم، ولكن حزني يبدو كأن لا نهاية له»، ورجعت عائشة إلى أفكارها التي لا يطلع على سرّها أحد، تراءى لها الأحلام وتلمّ بها الذكريات وإن عدّت بالقياس إلى أخيها أهدأ حالًا وأسرع إلى النسيان خطوة، ولكنّ أمانة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينقص عليها صفوها منقص، ولمّا آوت إلى حجرتها ليلاً تبين لها أنّ النوم لا يجد متسعًا في نفسها التي أفعمها الفرح فلم تدقه إلّا لما حوّل انتصف الليل فغادرت الفراش إلى المشربية تنتظر كعبيها مسرّحة البصر من خصائص النوافذ إلى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تنهّدي حاملة بعليها إلى بيته، خفق قلبها بشدّة، وتورد وجهها حياء وارتباكًا، كأنها ستلقاه لأول مرة، وكأنها لم تفكر طويلاً في هذه اللحظة... لحظة اللقاء المنتظر، كيف تقابله؟ كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة؟... ما عسى أن تقول له أو يقول لها؟ لو يسعها أن تتصنّع النوم! ولكنّها لا تحيد التمثيل قط ولا تطيق أن يدخل عليها وهي مستلقية، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج إلى السلم بالمصباح لتضيء له، وأكثر من هذا كلّ أنّها بعد ظفّرها بالعودة وزوال السخط عنها - شاعت أريحية الرضا في قلبها ففعت عمّا سلف بل وحملت نفسها الذنب كلّ حتى رأت بعليها - بالرغم من أنّه لم يُغن بالذهاب إلى بيت أمّها لمصالحاتها - حقيقًا بالاسترضاء، فتناولت المصباح ومضت إلى السلم ومدّت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد إليها، لقينته برأس مطاطاً فلم ترّ وجهه عند اللقاء، ولم تدّر أيّ تغير طرأ عليه حين مرّأها، حتى سمعته يقول بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضي القريب الأسيف:

- مساء الخير.

فغمغت:

- مساء الخير يا سيدي...

وذهب إلى الحجرة وهي في أثره رافعة يدها بالمصباح، وبدأ يخلع ملابسه صامتًا فتقدّمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردّد أنفاس الراحة.

ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشثوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء «سأرتدي ملابسى بنفسى» إلا أن ذكره خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التي غشيتها وقتذاك، وشعرت وهي تتعده بهذه الخدمة التي لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك في الوجود. واتخذ مجلسه على الكنبه فتربتت على الشلثة عند قدميه دون أن ينس أحدهما بكلمة، وكانت تتوقع أن يشيع «الماضي الأسيف»، بكلمة، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك، وعملت لذلك ألف حساب ولكنّه سألها ببساطة:

- كيف حال أمك؟

فأجابته وهي تتهدد بارتياح:

- بخير يا سيدي وتهديك التحية والدعاء.

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيها يشبه عدم الاكتراث:

- حرم المرحوم شوكت فاتحتني برغبتها في اختيار عائشة زوجًا لخليل.

فرفعت إليه أمينة عينها في دهشة ناطقة بأثر المفاجأة، ولكنّه هز كتفيه استهانة، وكأنما خاف أن تدلي برأي يتفق أن يكون موافقًا لقراره الذي لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه أخذ برأيها فسبق قائلاً:

- فكّرت في الأمر طويلاً فأنتهى بي التفكير إلى الموافقة، لا أريد أن أعترض حظّ البنت أكثر ممّا فعلت، والله الأمر من قبل ومن بعد.

### ٣٨

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل، وكادت لا تصدق أذنيها حين زف إليها الخبر، هل حقًا وافق أبوها؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلًا ذا دعابات قاسية؟... لم يكن قد فات على الحنية التي منيت بها إلا قرابة أشهر ثلاثة، ومع أن وقعها في نفسها كان شديدًا قاسيًا إلا أنه مضى يخف ويهون حتى أمسى ذكرى شاحبة تستثير - إذا استثيرت - حزنًا رقيقًا

غير ذي خطورة، كل شيء في هذا البيت يخضع خضوعًا أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هي بالسيطرة الدينيّة أشبه، حتى الحب نفسه - بين جدرانها - يسترق خطاه إلى القلوب في حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد، إذ لا استبداد هنا إلا لتلك الإرادة العليا، ولذلك فعندما قال الأب «لا» استقرّ قوله في أعياق نفسها وأمنت الفتاة إيمانًا راسخًا أن كل شيء قد انتهى حقًا، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع، كأن «لا» هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار، غير مجيد أيّ اعتراض عليها، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها، وعمل هذا الإيمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على إنهاء كل شيء فأنتهى، على أنها تساءلت فيها بينها وبين نفسها: إذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذي هفا فؤادها إليه؟... ألا ينطوي حظها السعيد نفسه - تبعًا لذلك - على معاكسة غير مفهومة؟ بيد أنه تساؤل ظلّ في طيّ الكتان، لم يطلع عليه أحد ولا أمها نفسها، لأن إعلان الفرح بالعريس - كشخصية معنوية فحسب - عدّ استهتارًا يجافي الحياء، فما بالك بإظهار الرغبة في رجل بالذات! ولكن بالرغم من هذا كله، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولاً لديها إلا فيما حدّثت عنه أمه في جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة، ووجدت عواطفها الزاخرة قطبًا تنجذب إليه في هيئتها، كأن حبها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقًا برجل بالذات، فإذا استبعد رجل وحلّ محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها، ومضى كل شيء في سبيله، وقد يكون رجل أثر عندها من آخر ولكن ليس إلى الحد الذي يفسد معه طعم الحياة أو يدفع إلى التمرّد والعصيان، ولما طابت نفسًا ورفّ قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها - كشأنها في مثل هذه الحال - عطف ورحمة غير مشوين، فودّت لو أنها سبقتها إلى الزواج، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع:

فيما يتعلّق بالعواطف - عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه في ظلّ الإرهاب الأبويّ، وبين الحق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذاباً متصلاً وجهداً مطرداً. وأبوها؟! ماذا عدل به عن رأيه القديم؟! أهانت عليه بعد إعزاز؟! هل نفذ صبره في انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار؟! لشّد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شيء لا يكون، نسيت في ثورتها مواقفهم السابقة في الدفاع عنها فلم تذكر إلّا «خيانتهم» الأخيرة، على أنّ غضبتها العامة هذه لم تكن شيئاً بالقياس إلى ما تجمّع في صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحقن! كرهت سعادتها، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة، وكرهت جمالها الذي بدا في عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع في عين المطارد، ثمّ كرهت الحياة التي لم تعد تدخر لها إلّا اليأس، وتتابعت الأيام لتزيدها حزنًا على حزن بما حملت إلى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت في الجوّ كلّ من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها في غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات في البركة الأسنة، ثمّ شرع السيّد في تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلوسات الأسرة المسائية، تعرض عليها أنواع من الأثاث والشباب فتطري شيئاً وتعرض عن شيء، توازن بين لون ولون، في اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة، وحتى هي نفسها اضطرت - مجارة لما تتظاهر به من رضى - إلى المشاركة في نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التي لا تنتهي. بيد أنّ هذا الموقف العاطفيّ المعقّد، الذي يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شرّ لا تحمد عواقبه، تغير فجأة حين انجبه التفكير إلى تفصيل ثياب العروس وبالتالي حين تعلّقت الأبصار بخديجة وتركّز فيها الاهتمام كلّ والأمل كلّ. وقد توقّعت هذا الواجب كأمر لا مفرّ منه، يحقّقها قبوله أشدّ الحق ولا يسعها رفضه وإلّا فضحت خبيثتها، ولكنّها حين تطلّعت إليها الأبصار فاوصتها أنّها باختها خيراً ورنّت إليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء

- وددت لو تقدّمتني إلى بيت الزوجية!... ولكنّها القسمة والنصيب، وكلّ آتٍ قريب.

ولكنّ خديجة - التي تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف - تلقت قولها بامتعاض شديد لم تحفّ عليها. وقبل ذلك اعتذرت لها أمّها قائلة برفقتها وحياتها المعهودين:

- تمّينا جميعاً أن يكون دورك السابق - وعملنا على هذا أكثر من مرة، ولكن لعلّ عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذي عاق حقلك إلى اليوم، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله، وكلّ تأخيرة فيها خيرة.

وجدت من ياسين وفهمي نفس العطف يديانها تارة بالكلام المباشر، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلّت - ولو إلى حين - محلّ المزاج القارص الذي كان مألوفاً بينها وبينها وبين ياسين خاصة، الحقّ أنّه لم يعدل حزنها على سوء حظّها إلّا نرفزتها من العطف الشائع في جوّها لا لنفور من العطف مركّب في طبعها، ولكن لأنّ مثلها مثل المصاب بالأنفلونزا يضار بالتعرّض للهواء الطلق الذي ينعشه عادة وهو صحيح، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنّه بديل غير مجرّد لأمل ضائع، ولعلّها ارتابت - إلى هذا كلّه - في البواعث التي تدفعهم إلى إغداق العطف عليها، ألم تكن أمّها الواسطة دائماً بين الخاطبات وبين أبيها؟ فمن يديرها أنّها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لا سعيّاً وراء رغبة خفية في تزويج عائشة؟! أوليس فهمي هو الذي حمل رسالة ضابط قسم الجالية؟!... ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رأيه من وراء وراء؟!!

أوليس ياسين... ولكن بأيّ وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه إليها؟!... فأنيّ عطف هذا؟! بل أيّ رياء وأيّ كذب! لذلك برمت بالعطف، وذكرت به الإساءة لا الإحسان، فامتثلت حنقاً وامتعاضاً ولكنّها طوتها في الأعياق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرّض نفسها - هكذا صوّرها - سوء ظنّها - لشهامة الشامتين، على أنّه لم يكن لها محيد عن كتان عواطفها لأنّ الكتان في هذه الأسرة - خاصة

أثنا كانت - منذ صباها - تجاري أمها في تدتيها ومحافظتها على الفرائض بمثابة دلت على يقظة عاطفتها الدينية، لا كعائشة التي تلمّ بالعبادة في نوبات حماسية متباعدة ولا تطبق المداومة عليها، وطالما تعجبت خديجة - وهي بمعرض المقارنة بين حفظها وبين حظّ أختها - من سوء الجزاء الذي تثاب على إخلاصها، وحسن الجزاء الذي تثاب به الأخرى على تهاونها... «إني أحافظ على الصلاة أما هي فلم تطلق المحافظة عليها يومين متتاليين، وإني أصوم رمضان كلّ وأما هي فتصوم يوماً أو يومين ثمّ تتظاهر بالصوم على حين تنسلّ خفية إلى المخزن فتملأ بطنها بالثقل حتى إذا أطلق مدفع الإفطار هرعت إلى المائدة قبل الصائمين!». ... وحتى من ناحية الجمال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط، نعم إثمها لم تجهر برأيها لأحد، بل لعلها تؤثر كثيراً أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفّزين ولكونها كانت تطيل النظر إلى وجهها في المرآة وتناجي نفسها قائلة: «عائشة جميلة بلا شكّ ولكنها نحيلة، السمنة نصف الجمال، أنا سمينة، واكتناز وجهي يكاد يغطي على كبر أنفي، لم يبق إلا أن يشدّ بخني حيله». على أثنا فقدت ثقته بنفسها في الأزمة الأخيرة، ومع أثنا عاودت كثيراً تلك المناجاة عن الجمال والسمنة والبخت إلا أثنا عاودتها هذه المرة لتذري - أمام نفسها - إحساسها المقلق بعدم الثقة كما نلجأ أحياناً إلى المنطق لنستمدّ منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحبّ والكراهية - لا تمتّ إلى المنطق بسبب... ولم تنس أمانة - رغم كثرة مشاغلها كأمّ العروس - خديجة، أو أنّ فرحها للعروس كان يذكّرها بحزنها على أختها كما تذكّرنا الراحة التي نحظى بها بفعل مخدّر بالألم الذي سيعاودنا بعد حين، وكان زواج عائشة قد أثار غاؤها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماساً للطمأنينة من أيّ سبيل - أمّ حنفي إلى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها. وعادت المرأة بنوع من البشري فقالت لسيدتها إنّ الشيخ قال لها «ستحملين إلى رطلين من السكر عمّا

وقال فهمي لعائشة على مسمع منها: «لن تكوني عروساً حقاً حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس»، وقال ياسين معلّقاً على قوله: «صدقت... هذه الحقيقة فوق الجدل»، حين حدث هذا كلّ فتر حنقتها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البذور الكامنة تحت الطين، ولم ترتّب في بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل في بواعث العطف «الزائف» لشعورها بصدقه من ناحية ولأنه أنجبه إلى براعتها التي لا شكّ فيها من ناحية أخرى. فكأنه اعتراف جامع بأهمّيتها وخطورة شأنها، وبأنّ هذه السعادة - التي أبت أن تكون من نصيبها - لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هي فيها، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تحفّفت إلى أقصى حدّ ممكن من انفعالاتها السوداء، إنّ الانفعالات السوداء تلمّ بهذه الأسرة كما تلمّ بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقرّ. منهم من قابلته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخهم سحابها حتى تمطر رذاذاً، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة. لا يعني هذا أنّ خديجة نسبت أحزانها ولكنّ السباحة صفّتها من الضغينة والحقد، ويوماً فيوماً لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ما عتبت على بختها حتى نصبته في النهاية هدفاً لامتعاضها وتذمرها، ذلك البخت الذي قترّ عليها في الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف، واستسلمت أخيراً - كأثما - للمقادير. عجز جانبها الخامي الموروث عن أبيها، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيتها، عن معالجة حفظها العاثر، فوجدت السلامة في أن تلوذ بالجانب السلمي الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير؛ كالفائد الذي تعيه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقفاً ذا حصانة طبيعياً ليثبت فيه فوله، أو يدعو إلى الصلح والسلام. وراحت تشكو بثها في الصلاة ومناجاة الرحمن. والحقّ

العوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير- ملازمة  
قهوة سي علي مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو  
والابتسام وقتل الشارب وتلعيب الحجاب- إلى دور  
المفاوضة والتأهب للعمل. حدث ذلك في عطفة  
التريبة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات  
الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا  
النحل. ولم تكن التريبة بالجديدة عليه، كيف وهي  
سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها  
لابتياح ما خفت حمله وجلت فوائده من مختلف صنوف  
العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع، فهي هدفه كلما  
خلا طريقه من هدف يجذبه إليه، وهي مراحه صباح  
الجمعة يقطعها متمهلاً- بحكم الزحمة والرغبة معاً-  
من طرف إلى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء  
حاجة وهو في الحقيقة يتفحص الوجوه والأجسام وما  
تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات، ما يرى  
جملة وما يرى تفصيلاً، ما يسطع هنا وهناك من روائح  
زكية، ما يندّ من حين لآخر من أصوات أو يوسوس  
من ضحكات، ملتزماً عادة حدود الأدب لغلبة  
العناصر الطيبة على الزائرات، قانئاً بالمشاهدة والموازنة  
والنقد، لاقطاً من المراثيات صوراً ممتازة يزين بها  
متحف ذاكرته، لا يفوق سعادته إذا ظفر بلون بشرية  
صافٍ لم يره من قبل، أو يلحظ عين لم يتعرض لمثلها،  
أو لثدي عجيب في نهوده، أو لعجيزة خرقت المؤلف  
في ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول  
«فاز بالسبق اليوم نهد الست التي كانت واقفة أمام  
الدكان الفلاني» أو «هذا يوم الكفل الرابي رقم ٥» أو  
«يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة... هذا يوم  
الحقائب المشرقة» إذ تأدّى به مزاجه إلى التهالك على  
جسم المرأة متجاهلاً شخصيتها ثم إلى تركيز العناية في  
أجزاء من الجسم متجاهلاً جملته، وكأنه في هذا كله  
ينعش آماله ويجدد أبدأ كرجل لا يقدم على النسوان  
غاية في دنياه- عند الفرص المحتملة المذخرة ليوم أو  
لغد، إلى ما يسبح له في هذه الجولات الجنسية من  
صيد طيب في أحوال نادرة، ففي ذات أصيل- وهو  
بمجلسه تحت الكوة بقهوة سي علي- رأى العوادة تغادر

قريب» ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع  
تزف إليها عن خديجة إلا أنها أملت لها خيراً ورخت بها  
كمسكن للقلق الذي لا يزايلها...

### ٣٩

«ألم يثن الأوان يا بنت المركوب!؟ دُبْتُ يا  
مسلمين، ذبت كالصابونة ولم يبق منها إلا رغوة، هي  
تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدلّي... تدلّي  
يا بنت المركوب، ألم تنق على هذا الميعاد؟ ولكن لك  
حق... فردة ثدي من صدرك تكفي لحراب  
مالطة... وفردة تالية تطير مع هندنرج، عندك كنز،  
ربنا يلطف بي، ربنا يلطف بي ويكل مسكين مثلي  
يؤرقه الثدي الناهد والعجيزة المدملجة والعين  
المكحولة، العين المكحولة في الآخر، إذ ربّ ضريبة  
ربّا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء  
مسحاء مكحولة العينين، يا بنت العالمة وجارة  
التريبة... تلك لفتتك أصول الدلال وهذه تمذك  
بأسرار الجمال، لهذا ينهد ثدياك من كثرة من عبث بها  
من العشاق، اتفقنا على الميعاد لست أحلم، افتحي  
النافذة، افتحي يا بنت المركوب، افتحي يا أجمل من  
اقشعرت له سرتي، ومصّ الشفة ورضع الحلمة  
لانتظر حتى مطلع الفجر، ستجدينني طوع بنائك،  
إن أردت أن أكون مؤخر عربة الكارو التي تتأرجحين  
عليه أكنه، إن أردت أن أكون الحمار الذي يجزّ العربة  
أكنه، يا وقعتك يا ياسين، يا خراب بيتك يا بن عبد  
الجواد، يا شيانة الأسترالين فيك... يا أنا يا طريد  
الأزبكية وحبيس الجالية، الحرب يا هوه، شئها غليوم  
في أوربّا ورحت ضحيتها أنا في النحاسين، افتحي  
النافذة يا روح أمك، افتحي يا روعي أنا...»  
هكذا جعل ياسين يحدث نفسه وهو جالس على  
الأريكة بقهوة سي علي، وعيناه تتطلعان إلى بيت زبيدة  
العائلة خلل الكوة المطلّة على الغورية، كلما شكّه  
الجزع غرق في أحلامه وخواطره فترقه جزعه وتبيح  
أشواقه معاً، كبعض المنومات الطيبة التي تعالج الأرق  
وتتعب القلب، كان قد تقدّم خطوة في مغازلة زبوبة

البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها، ومالت إلى عطفة التريبعة فمال وراءها، ثم وقفت أمام دكان فوقف إلى جانبها، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانظر ولم تلتفت ناحيته فاستدلّ بذلك «التجاهل» على أنّها فطنت لوجوده - كما لا بدّ أن تكون حدثت متابعتها لها من بادئ الأمر - فهمس قريباً من أذنها «مساء الخير» فواصلت النظر إلى الأمام إلّا أنّه لمح بجانبها فيها انحراف ابتسامة ردّاً لتحيتها، أو مكافأة له على طول متابعتها لها مساء بعد مساء، فتتهدّ تنهدّ الراحة والظفر مطمئناً إلى جني ثمرة صبره فسأل لعاب شهوته كما يتحلّب ريق الجائع النهم إذا تطايرت إلى أنفه رائحة الشواء الذي يهبّ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنّها جاءاً معاً فأدّى ثمن مشترياتها من الخناء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنّه - بأداء هذا الواجب اللذيذ - يكتسب حقاً اللذّ وأمتع، غير مكترث لما بدا منها من الميل إلى الإكثار من المشتريات حين اطمأنت إلى أنّه سيدفع الثمن. وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق «يا ستّ الحسن والجبال قضيت العمر كما تشهدين وراءك، وجزاء المحبّ اللقاء فقط؟» فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكمّ «اللقاء فقط؟» فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله إذا أخذته نشوة فرح ولكنّه بادر إلى إحكام إغلاق فيه أن يحدث ضجّة تلفت الأنظار وأجابهامها «اللقاء ولوازمه!» فقالت بلهجة انتقادية «الواحد منكم يطلب بكلّ بساطة (اللقاء)... كلمة صغيرة... ولكنّه يعني بها عملاً ضحكاً لا ينال عند بعض الناس إلّا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة وألهمر والجهاز والمأذون، أليس كذلك يا حضرة الأفندي الذي يضاهي الجمل طولاً وعرضاً؟!» فتورّد وجهه فيها يشبه الارتباك وقال «يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فإنّه من شفتيك كالشهد، أليس هكذا العشق يا ستّ الحسن منذ خلق الله الأرض ومن عليها؟» فقالت وهي ترفع حاجبها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه «ومن أدراني بالعشق يا جملي؟... لست إلّا عوادة، ترى

هل للعشق لوازم أيضاً؟» فقال وهو يغالب الضحك «هي ولوازم اللقاء شيء واحد» «بلا زيادة ولا نقصان؟» «بلا زيادة ولا نقصان» «ولا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة؟!» «... لا واحدة نازلة ولا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة» «لعلّها التي يسمونها الزنا؟!» «بلحمه وعظمه!» فنذت عنها ضحكة، قالت «أتفقنا... انتظر حيث تنتظر كلّ مساء بقهوة سي عليّ وعندما أفتح النافذة قم إلى البيت». انتظر مساء ومساء ومساء، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو، ومساء ذهبت مع العالمة في حنطور، ومساء لم يتدّ على البيت أثر للحياة، وما هو ينتظر وقد أعيا أعصاب رأسه طول النظر إلى الشبّاك. وممرّ مؤمن من الليل فاغلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الغوريّة ظلام، ووجد - كما يقع له كثيراً في إقفار الطريق وإظلامه مثاراً غريباً لمكمن الشهوة في جسده فازداد جزعاً على جزع، بيدّ أنّه لكلّ شيء نهاية حتى الانتظار الذي يبدو وكأن لا نهاية له فترامى إليه من ناحية الشبّاك الغارق في الظلمة طقطقة نفخت في حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل في نفس التائه في القطب إذا ترامى إلى سمعه أزيز الطائرة التي يحبس أنّها جاءت للبحث عنه بين الثلوج، ولاحت فرجة يشعّ منها ضوء، ثمّ تنوّر شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابراً الطريق إلى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرقة فانفتحت كأنّ يداً رفعت مزلاجه فمرق إلى الداخل ليجد نفسه في ظلمة دامية لم يَتهَيّد معها إلى موقع السّلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من قلق: ترى أدعته زنوبة على غير علم من العالمة؟ وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها في بيتها؟ ولكنّه أبرز لسانه استهانة لأنّ رادعاً لم يكن ليثنيه عن مغامرة، ولأنّ ضبط عاشق في بيت تقوم جدرانها على مهج العاشقين ليس ممّا تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينه ضوء شاحب يهبط من أعلى، ثمّ لمحّه يترنّع على الجدران التي وضحت رويداً فتبيّن موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السّلم عن يمينه، وما عثم أن رأى زنوبة قادمة ويدها مصباح فمضى نحوها



لتحت ومن تحت لفوق، ولكنّه قبل أن ينفذ نيّة من عشرات النوايا التي اعتلجت في صدره قالت زُتوبة كأنّما تصل ما انقطع من حديثها:

- رجل لا نظير له في لطفه وطربه، أمّا كرمه فحدّث عنه من اليوم إلى الغد... هُكذا يكون العشق ولّا فلا... .

لم يرغب عنه ما في إشارتها إلى «كرم» عشيق العالة من معانٍ، ومع أنّه سلّم من بادئ الأمر بأنّ غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة إلّا أنّ تلميحتها - الذي بدا له مبتدلاً - ضايقه، فلم يسعه إلّا أن يقول مدفوعاً بغريزة الدفاع عن النفس:

- لعلّه رجل واسع الثراء!  
فقالت وكأنّها تحبّيه على مناورته:  
- الشراء شيء والكرم شيء آخر... ربّ ثريّ بخيل...

فتساءل لا عن رغبة في المعرفة ولكن تبادياً من الصمت الذي خاف أن يفضح استياءه:

- تُرى من يكون هُذا الرجل الكريم؟  
فقالت وهي تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته:  
- إنّه من حيّنا ولا بدّ أنّك تسمع عنه... السيّد أحمد عبد الجواد...

- من...!  
فالتفت نحوه دهشة ل ترى ما أفرعه فألفته متصّلّب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة:

- ما لك؟  
كان تلقّي الاسم الذي نطقت به كأنّه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فنّد عنه التساؤل في نبرات صارخة

من الفزع وهو لا يدري، وغاب عمّا حوله لحظات مليئة بالدهول، ثمّ تراءى له وجه زُتوبة في حالة من الدهشة والإنكار فخاف افتضاح أمره وركّز إرادته كلّها في الدفاع عن موقفه فعمد إلى التمثيل يداري به فزعه فضرب كفّاً بكفّ كأنّما لا يصدّق ما قيل عن الرجل لظنّه الوقار به وتمتّ مستغرباً:

- السيّد أحمد عبد الجواد!... صاحب دكّان النحاسين؟

في سكرة من الشوق وضغط في حنان على ساعدها امتناناً ورغبة حتّى ضحكت ضحكة رقيقة أوحى على رقتها بأنّها لا تحاذر، وتساءلت بمكر:

- طال انتظارك؟  
فمسّ سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاكٍ:  
- شاب شعري الله يسامحك (ثمّ بصوت خافت) الستّ هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت:  
- نعم... في خلوة مع رفيق قدّ الدنيا...  
- ألا تغضب إذا علمت بحضوري في هذه الساعة؟  
فاستدارت وهي تهزّ منكبيها استهانة ورقيت الدرج وهي تقول:

- وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك؟

- إذا لا ترى بأساً في اجتماعنا ببيتها؟  
فحرّكت رأسها حركة راقصة وقالت:  
- لعلّها ترى كلّ البأس في عدم اجتماعنا!...  
- عاشت... عاشت...

فاستطردت في لهجة تنمّ عن الفخار قائلة:  
- لست عوّدة فحسب، أنا بنت أختها، وهي لا تضنّ عليّ بغال... تقدّم بسلام...  
ولمّا بلغ الدهليز جاءها من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودقّ فأنصت ياسين قليلاً ثمّ تساءل:

- خلوة أم حفلة؟  
فهمسّت في أذنه:

- خلوة وحفلة معاً، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدقّ والكاس والضحك... عقي لك...

ومالت إلى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها، ووضعت المصباح على كونصول ثمّ وقفت أمام المرأة لتلقي نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدّد عينيه المنهومتين إلى الجسم المشتهى الذي بدا لناظريه متجرّداً عن الملاة لأوّل مرّة سدّدها بقوّة وتركيز وحرّكها في أناة وتلذّد من فوق

كأخطر شيء في الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم إلى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيمة كأنما يقول «يا لها من أيام كلها عجائب!» ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده:

- ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يراني؟

فقلت معترضة:

- أمرك عجيب، وما الداعي إلى هذا التجسس؟

فقال برجاء:

- منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتني منه...

فضحكت باستهانة وقالت:

- عقل طفل في جسم جمل، أليس كذلك يا

جملي؟... ولكن لا عاش من يخيب لك رجاء...

أنزرو في الدهليز وسأدخل عليها بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحاً حتى أرجع...

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق

وانزوى في ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت

العودة سيرها إلى المطبخ، وبعد قليل عادت حاملة

طبقاً من العنب فالتجّحت إلى الباب الذي ينبعث منه

الغناء فنقرت عليه، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت

دون أن تغلقه وراءها، هناك بدا مجلس الطرب في

صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهي تلعب

بالأوتار بأناملها وهي تغني «يا مسلمين يا أهل الله»

وعلى كئيب منها جلس «أبوه» دون غيره - وقد اشتدّ

خفقان قلبه لدى رؤيته - متجرّداً من جبّته مشمّراً عن

ساعديه راعشاً الدفّ بين يديه متطلّعاً إلى العالمة بوجه

يقطر بشاشة وبشراً. لم يلبث الباب مفتوحاً إذ ريشا

رجعت زئوبة، دقيقة أو دقيقتين، ولكنّه رأى فيهما

منظراً عجيباً، حياة غامضة، قصّة طويلة عريضة،

استيقظ في أعقابها كالذي يستيقظ من نوم طويل عميق

على قلقة زلزال عنيف، رأى في دقيقتين عمراً كاملاً

ملخصاً في صورة كمن يرى في حلم هنيهة صورة

جامعة لأحداث شيء يستغرق وقوعها في عالم الحقيقة

أعواماً طويلة، رأى أباه حقاً، أباه دون غيره من

البشر، ولكن لا كما تعود أن يراه، فلم يسبق له أن

راه متجرّداً من جبّته في جلسة مريحة مناسبة مع

فحدجته بنظرة انتقاد مرّ لإزعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة:

- نعم هو... فماذا استصرخك كأنك عذراء تُفَضّ بكارتها؟

فضحك ضحكة آليّة وقال كالدهاش وهو يحمد الله

في سرّه على أنّه لم يذكر لها اسمه كاملاً يوم التعارف:

- من يصدّق عن هذا الرجل الوقور الورع؟!

فرمته بنظرة ارتياب وقالت ساخرة:

- أهذا ما أفرعك حقاً؟... ولا شيء غيره؟!

أظننته من المعصومين؟... وماذا عليه من هذا؟...

هل يكمل الرجل إلّا بالعشق؟...

وقال بلهجة المعتذر:

- صدقت... لا شيء يستحقّ الدهش في هذه

الدنيا (ثمّ ضاحكاً في عصبيّة) تصوّري هذا الرجل

الوقور وهو يطّارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر

ويطرب للغناء...

فقلت وكأنّها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة:

- ويلعب بالدفّ بيد ولا يد عيوشة الدقّافة وينثر

النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكاً، وليس عجيباً -

بعد هذا كلّ - أن يرى في دكّانه مثلاً للجدّ

والوقار... فالجدّ جدّ واللهو لهو، وساعة لرّبك،

وساعة لقلبك...

يلعب بالدفّ بيد ولا يد عيوشة الدقّافة!... ينثر

النكات فيقتل من حوله ضحكاً!... من عسى أن

يكون هذا الرجل؟!

أبوه السيّد أحمد عبد الجواد؟! الصارم الجبار

الرهيب التقّي الورع؟! الذي يقتل من حوله رعباً؟!

كيف يصدّق ما سمعت أذنائه؟! كيف،

كيف؟... ألا يكون ثمة تشابه في الأسماء وآلا

علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدقّاف؟! ولكنّ

زئوبة وافقت على أنّه صاحب دكّان «النحاسين» وليس

في النحاسين من دكّان تحمل هذا الاسم إلّا دكّان

أبيه!... ربّاه هل ما سمعه حقيقة أو أنّه يهذي؟!

لشدّ ما يؤدّ أن يطلع على الحقيقة بنفسه، أن يرى

بعينيه دون وسيط، رغبة تملّكنه لحظّتها فبدأ تحقيقها

لوقوع شيء باعتباره بعيداً عن التصديق ما دمت المسه واقفاً! إنه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلاً هل يمكن تصديق هذا. فلا صدق ولا تعجب... وماذا عليه من هذا! ولم يشعر إلى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير، لا لأنه كان بحاجة إلى مشجع ليواصل حياته الشهوية، ولكن لأنه - كأكثريّة الغارقين في الشهوات المحرّمة - يستأنس إلى الشبيه، فكيف إن وجد في شخص أبيه - القدوة التقليديّة - الذي طالما أزعجه، بشعور وبلا شعور منه، أن يجد نفسه وإياه على طرفي نقيض، تناسى كل شيء إلا فرحته، كأنها أعزّ ما ظفر به في حياته، وشعر نحو أبيه بحبّ وإعجاب جديدين - غير الحبّ والإعجاب اللذين اكتسبهما قديماً تحت ستار كثيف من الإجلال والخوف. حبّ وإعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى، بل كأنها وحبّ الذات والإعجاب بها شيء واحد، لم يعد الرجل بعيداً عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيّاً قريباً، قطعة من نفسه وقلبه، أباً وإبناً، روحاً واحداً، ليس الرجل الذي يرعش الدفّ في الداخل السيّد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه، كما يكون وكما يجب أن يكون، وكما ينبغي أن يكون، لا يفرّق بينها إلا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة «هنيئاً لك يا والدي، اليوم اكتشفتك، اليوم عيد ميلادك في نفسي، يا له من يوم ويا لك من أب، لم أكن قبل الليلة إلا يتيمّاً، أشرب وألعب بالدفّ لعباً، ولا يد عيوشة الدقافة، إني فخور بك، هل تغني أيضاً يا تُرى؟...».

- ألا يغني السيّد أحمد عبد الجواد أحياناً...؟  
- ألا زال فكرك مشغولاً به؟! يا ويل الناس من الناس!... بل يغني أحياناً يا جلي... يشترك في الهنك إذا سكر...  
- وكيف صوته؟...  
- غليظ جميل كعنفه....

«إلى هذا الأصل ترجع الأصوات التي تغني في بيتنا، الجميع يغنون، أسرة عريقة في الطرب، ليتني أسمعك ولو مرة، لا أحفظ لك في ذاكرتي إلا الزعق

سجّيتها، ولا رأى شعره الفاحم نائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر، ولا رأى - إي والله - الدفّ بين يديه يرعش باعثاً شخصخته الراقصة المتقطع بالنقر الرشيق، ولا رأى - ولعلّه أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالودّ والصفاء الذي أذهله كما ذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعاً برغبته في الإفراج عن أمّه، رأى هذا كله في دقيقتين، ولمّا أغلقت زنوبة الباب وعادت إلى حجرتها كبّت بموقعه يستمع إلى الغناء وخشخشة الدفّ برأس دائر، نفس الصوت الذي استمع إليه حال دخوله البيت، ولكن أيّ تغيّر اعتور الأثر الذي ينطبع منه على نفسه، أيّ معانٍ وصوّر جديدة ينقلها الآن إلى وجدانه كرنين جرس المدرسة يهشّ له الطفل إذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب في أذنيه نذيراً لمتاعب جمّة إذا سمعه وهو ضمن تلاميذها. ونفرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوته ومضى إليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطرباً أو ذاهلاً فدخل وعلى شفّيته ابتسامة عريضة:

- هل أنساك نفسك ما رأيت؟!!

فقال بلهجة تشي بالرضا والارتياح:

- منظر نادر، وغناء بديع...

- أحبّ أن نفعل مثلها؟

- في ليلتنا الأولى؟!... كلاً... لا أحبّ أن

أخلط بك شيئاً آخر ولو كان الغناء نفسه!...

ولئن تكلف بادئ الأمر الحديث ليبدو أمامها - وأمام نفسه على السواء - هادئاً طبيعياً فقد انتهى إلى الانهك فيه بلا تكلف ثم إلى استرداد حاله الطبيعيّ بأسرع ممّا قدّر، كالذي يتصنّع هيئة الباكي في مأثم فينخرط في البكاء. على أنّه ربّما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه «أعجب بها من حال لم تخطر لي على بال من قبل، أنا هنا مع زنوبة وأبي في الحجرة القريبة مع زبيدة، كلانا في بيت واحد!» ولكنه سرعان ما يهزّ كتفيه ويستطرد في حديثه مع نفسه «كيف أحمل نفسي مشقّة العجب

والنهر، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا «يا ولد- يا ثور- يا بن الكلب» أريد أن أسمع منك «الوداد في الملاح صُدف» أو «حيّيت يا جميل» كيف تسكر يا أبي؟ كيف تعربد؟ ينبغي أن أعرف لأحتذي مثالك وأحيي تقاليدك، كيف تعشق؟ كيف تعانق؟...

وانتبه إلى زُوبة فراها أمام المرأة وهي تسوي أهداب شعرها بأناملها وقد لاح إبطها من فرجة الفستان أملس ناصعاً يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت في بدنه سكرة الهياج وانقضّ عليها كأنه فيل ينقضّ على غزال...

## ٤٠

وقفت ثلاث سيّارات تطوّع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيّد أحمد في انتظار العروس وحاشيتها لحملهنّ إلى بيت آل شوكت بالسكّرية، كان الوقت أصيلاً وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرّت على البيوت المواجهة لبيت العروس. ولم تكن ثمة مظاهر تدلّ على عرس، اللهمّ إلّا الورد التي أرزنت بها أولى السيّارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المازّة، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونُقل الجهاز وعُقد القران فلم تنطلق من البيت زغردة أو تعلق بابيه زينة أو تشي بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التي تفاخر الأسر بإعلانها في أمثال هذه المناسبات، وتعلّل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد، ثمّ كلّ شيء في صمت وهدوء فلم يدر به إلّا الأقارب والأصدقاء وخاصّة الجيران، وأبى السيّد أن يتزحزح عن تزوّجه أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة، وفي ظلّ هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوّات البيت رغم احتجاج أمّ حنفي على الخرجة الصامتة، فمرقت عائشة إلى السيّارة في سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتعل فستان العرس أو قناعه الحرير الأبيض الموشى بالفلّ والياسمين تحت نظرات المتطلّعين، وتبعته

خديجة ومريم وبعض الفتيات، واستقلّت الأمّ وبعض النسوة من الأهل والجارات السيّارتين الأخريين، على حين اتّخذ كمال مجلسه إلى جانب سائق سيّارة العروس، ورغبت الأمّ في أن يمضي الركب إلى السكّرية عن طريق الحسين لتلقي نظرة جديدة على مقامه الذي كلّفها الشوق إليه قبل ذلك غالباً ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء، فاخترقت السيّارات الطرق التي قطعته هي ذلك اليوم مع كمال، ثمّ مالت إلى الغوريّة عند المنعطف الذي كادت تلقى فيه حفّتها حتّى وقفت بهنّ عند بوابة المتولّي أمام مدخل السكّرية الذي يضيق عن دخول السيّارات، وترجلن جميعاً ودخلن العطفة فطالعتهنّ معالم الزينات وهرع إليهنّ غلمان الحارة هاتفين وتعالّت الزغاريد من بين آل شوكت، أوّل بيت إلى يمين الداخل- حيث ازدحمت نوافذه بـءوس المطلّات المزغردات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت وياسين وفهمي، وتقدّم خليل مبتسماً من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تُبِد حراكاً حتّى بادرت مريم إلى يدها فشبكته بساعده، ثمّ سار بها إلى الداخل مازّاً بحذاء الفناء المزدهم والورد والملبس ينال على أقدامها وعلى أقدام من تبعها من حاشية العروس حتّى واراهاً باب الحريم، ومع أنّ قران عائشة بخليل تمّ قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر إلّا أنّ منظر اشتباكها وسيرهما معاً لاقى من ياسين وفهمي - والأخير خاصّة - دهشة مقرونة بالحياء وشعوراً بالإنكار أشبه كأنّ جوّ أسرتها لا يهضم حتّى طقوس حفلات الزفاف المشروعة، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذي جعل يجذب أمّه من يدها في انزعاج وهو يشير إلى العروسين اللذين يتقدّمان الجميع على السّلم كأنّه يستعديها على دفع شرّ فظيع، وخطر للشّابين أن يسرقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أيّ أثر تركه ذاك المنظر الفريد، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنّها لم يقفأ له على أثر، لم يوجد عند المدخل، ولا فيها يلي هذا من فناء البيت الذي اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت في صدره منصّة

إلى الجلوس بين أفراد تحتها، وبهذا وغيره جذب الأنظار إليه فأخذت المدعوات في مداعبته، ولكن أمه لم ترح إلى الضجة التي أثارها، وآثرت على كره منها - إشفافاً على البعض من عبثه وإشفافاً عليه من أعين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان، انضم إلى مجلس الرجال، وتردد بين الصفوف، ثم وقف بين فهمي وياسين حتى ختم صابر دور «يس له تعشق يا جميل» واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمد رأسه وما يدري إلا وعينه تلتقيان بعيني والده فسمّر في مكانه وعجز عن استردادهما، وراه أحد أصدقاء أبيه - السيد محمد عفت - فناده فلم يجد بداً من تلبية النداء ليتفادى من إغصاب أبيه فتداني من الرجل على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين إلى جانبيه كأنه عسكري في طابور، وصافحه الرجل قائلاً:

- ما شاء الله... في أي سنة يا عم؟

- سنة ثالثة رابع...

- عال... عال... سمعت صابر؟

ومع أنه كان يجب على أسئلة محمد عفت إلا أنه راعى من بادئ الأمر أن تكون إجاباته بحيث ترضي أباه... فلم يذّر كيف يجيب على السؤال الأخير أو أنه تردّد قبل أن يعدّ الإجابة ولكن الرجل بادره متلفظاً:

- ألا تحب الغناء؟

فقال الغلام بتوكيد:

- كلاً...

وبدا من بعض الحاضرين ما يدلّ على أنهم سيعلقون على هذه الإجابة - آخر ما ينتظر من شخص ينتمي إلى عبد الجواد - مازحين، ولكن السيد حذرهم بعينه فامسكوا، أمّا السيد محمد عفت فعاد يسأله:

- ألا تحب أن تسمع شيئاً؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه:

- القرآن الشريف.

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يثأّر له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلاً:

الغناء. والواقع أنّ السيد خلا إلى نفر من خاصّة أصدقائه بمنظرة الغناء فلم يفارقها مذ حلّ بالبيت مصمّياً على ألا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعداً بنفسه عن «الجمهور» الصاحب خارجها، لم يكن أشدّ إحراجاً لنفسه من الظهور بين آله في ليلة زفاف، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته في يوم خالص السرور، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعي الفرح، وفضلاً عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم، ولو كان الأمر بيده لتّم الزفاف في صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه في هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته، وأبت إلا أن تحييها ليلة حافلة فاتّفت على إحيائها مع العالمة جلييلة والمغني صابر، وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرّة وسرور كأنه عريس الليلة، وكان أحد أفراد قلائل أبيع لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم في الداخل وبين مجلس الطرب في فناء الدار، لبث طويلاً مع أمه بين النساء منقلاً طرفه بين زبنتهنّ وحليهنّ مصغيّاً إلى دعابتهنّ وأحاديثهنّ التي يستأثر الزواج بخلاصتها، أو منصتاً معهنّ إلى العالمة جلييلة التي تصدّرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشّد الطفاطيق وتعاقر الشراب جهاراً، فاستأنس إلى الجوّ الضاحك لغرابته وجاذبيّته - والأهمّ من هذا كلّ - لوجود عائشة على حال من التبرّج لم يحلم بها من قبل، وشجّعته أمه على البقاء ليظّل تحت رعايتها، بيد أنّها عدلت عن موقفها بعد حين واضطّرت إلى أن تحفّه همساً على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمر لم تتوقّع حدوثها، من ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة، بفستانها حيناً وبزواقيها حيناً آخر، فخيف منه على هندامها، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرّة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلاً: «انظري يا نينة إلى أنف هذه الست...» أليس أكبر من أنف أبله خديجة أو ما فاجأ به الجميع وجلييلة تغني من الاشتراك مع التخت في ترديد «يمامة حلوة...» ومنين أجيبها حتى دعت العالمة

- إن صحَّ هذا فالغلام ابن زنا!  
فضحك السيّد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير إلى حيث كان يقف كمال:  
- هل رأيتم أكر من ابن الكلب يدّعي التقوى أمامي!... رجعت مرّة إلى البيت فترامى صوته وهو يغني «يا طير يا ليلي على الشجر».  
فقال السيّد عليّ:  
- آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه إلى صابر وشفته تتحرّكان مع الغناء في انسجام تامّ ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه.  
على حين خاطب محمّد عفت السيّد أحمد متسائلاً:  
- المهمّ أن تحبونا هل أعجبك صوته في دور «يا طير يا ليلي على الشجر»؟  
فضحك السيّد قائلاً وهو يشير إلى نفسه:  
- ذاك الشبل من هذا الأسد.  
فهتف الفار قائلاً:  
- الله يرحم اللبؤة الكبيرة التي أنجبتكم.  
غادر كمال المنظر إلى الحارة وكأنّه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشّى مزهوّاً بملابسه الجديدة، مغتبطاً بحريته التي جعلت من المكان كلّهُ - فيها عدا المنظر المخبّفة - مجالاً مباحاً لتقديمه دون معترض أو رقيب، فأثّرت ليلة هذه في الزمان! شيء واحد جعل ينقص عليه صفوه كلّما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة إلى هذا البيت الذي باتوا يدعونه «بيتها» هذا الانتقال الذي نفّذ على رغمه دون أن يستطيع أحد إقناعه بوجاهته أو فائدته، تساءل طويلاً كيف سمح أبوه به وهو الذي لا يسمح لظُلّ امرأة من آلِه بأن يلوح وراء خصائص النافذة فتلقّى الجواب ضحكاً عالياً، وساءل أمّه في عتاب، كيف تفرّط في عائشة لحذّ النزول عنها للغير فأجابته بأنّه سيكبر يوماً ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيع إليه بالزغاريد، وسأل عائشة هل يسرها حقاً أن تهجرهم فأجابته أن لا، ولكن الجهاز هل حمل إلى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التي لا يطيب له الرّئيّ إلا من موقع شفتيها، حقاً أنّ الفرح

الراهن ينسي أشياء ما كان يتصوّر أن ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر في ليلة صافية السماء، ومن عجب أنّ سروره بالغناء في تلك الليلة فاق أيّ سرور عداه، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال في مرحهم المطلق أو حتّى عيش السراي والألمظيّة على مائدة العشاء، ولئن أدهش اهتمامه الجذّي بسباع جلييلة وصابر - الذي لا يتفق مع سنّه - كلّ من لاحظته من النساء والرجال، فلم يدهش أحدًا من أسرته التي تعرف سوابقه في الغناء مع معلّمته عائشة كما تعرف حُسن صوته الذي تعدّه أحسن أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب - الذي لا يسمعونه إلّا مزججراً - أحسنها جميعاً، وقد استمع كمال طويلاً إلى جلييلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف نخته أحبّ إلى قلبه وأخذ لنفسه، فرسخت منه في ذاكرته جمل غنائية مثل «تعشق ليه... علشان كده» لجُلّ يردّها بعد ليلة الزفاف طويلاً في سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم، وشاركت أمينة وخديجة كمال في بعض ما أتيج له من أسباب السرور والحريّة، فلم يسبق لها - مثله - أن شهدت ليلة كتلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح، وأبهج أمينة خاصّة ما لاقت من الرعاية والمجاملة بصفقتها أمّ العروس، هي التي لم تنعم في حياتها برعاية أو مجاملة، حتّى خديجة اختفى همّها في أنوار الفرح كما تختفي الظلمة عند إشراق الصباح، نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطليّة، وازدادت لها نسياناً بفضل حزن جديد خالص الطويّة منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك، شعور أثمر حبّاً وعطفًا خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحيّة، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحبّ منه جانباً ويكره جانباً أن تتوارى - ساعة الفراق مثلاً - الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر، هذا إلى ما شاع في نفسها من ثقة حين تبدّت في زينة أضفت على جسمها ووجهها سواء لفت إليها أنظار

واراها باب الحريم، ثم عاد إلى مجلسه منزول النفس كأنه قارب تعرض بغتة لإعصار، يئيد أنه كان قبل رؤيتها هادئ النفس لاهياً بشجون السمر شأن السالي الناسي، والحق تمر به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجيم من العناء، ولكن ما إن تخطر خطرة أو تهفو ذكرى، أو يجري اسمها على لسان، أو... أو، حتى يخفق فؤاده ألماً، ويفرز الحسرة تلو الحسرة كالضرس المسوس الملتهب تحيي عليه فترة فيسكن ألمه حتى إذا هرس لقمة أو مس جسماً صلباً انفجر به الألم، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفساً، صائحاً بأعلى صوته أنه لا زال حبيساً لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان. طالما تمقى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوي على قدميه رجلاً حرّ التصرف في تقرير مصيره، وقرب أمنيته كز الأيام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينقصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلفان له ضروباً من الألم والغيرة إن تكن وهمية فليست دون الواقع - فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة، حتى بات التمني نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالي الألم والغيرة فودّ كلماً اشتد به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأماني العابثة من الراحة والسلام، ولكنه لم يستسلم للشجن في مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء، إلا أنه كان تلقى من منظر مريم وهي تسير وراء أخته «أثراً» لا يمكن أن يمضي بلا رد فعل محسوس، ولما لم يسعه أن يجتر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالإغراق في الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، على أنه كلماً خلا إلى نفسه ولو لحظات شعر في أعماقه بعزلة قلبية عمّا حوله، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهي تخطر في معية العروس قد هيّجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموماً ذا قابلية للأرق، وأنه لم ينعم على الأقل هذه

بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أملاً وأحلاماً عاشت بها زمناً رغداً.

وجلس ياسين وفهمي جنباً لجنب - يراوحان بين السمر والسباع، وجلس خليل شوكت - العريس - ينضم إليهما بين ساعة وأخرى وكلما وجد فرجة بين أشغال ليلته الشاقة الممتعة، وبالرغم من الجوّ المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت في عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروي ظمأه ولو بكأس أو بكاسين؟ لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت - وكان صديقاً للأخوين وهمس قائلاً:

- أدركني قبل أن تضيع الليلة.

فقال له الشاب وهو يغمز بعينه مطمئناً:

- أفردت مائدة في حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء.

عند ذاك اطمأن باله وعادته حيويته للسمر والدعابة والسباع، لم يكن في نيته أن يسكر، ففي مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعدّ القليل من الخمر فوزاً كبيراً، خاصة وأن والده وإن انزوى في المنظرة - غير بعيد - فلم يكن وقوفه على أسرار حياته يزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه، لم يزل قائماً بحصنه الحصين من المهابة والإجلال، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السر الذي أطلع عليه خفية لم يفكر في البوح به لإنسان ولا لفهمي نفسه أقرب المقربين إليه، لهذا كله قنع من بادئ الأمر بكأس أو بكاسين يتملق بهما رغبته الجائعة، ويتهيأ بهما لنذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التي لم يعد لها عنده طعم بغير شراب. فهمي - بخلاف ياسين - لم يجد، أو لم يطمئن إلى أنه سيجد ريثاً لظمئه، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجيء العروس، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلي فوقع بصره على مريم وهي تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله، لاهية بالزغاريد والورود عنه، وقد شفت قناعها الحريري عن ديباجة وجهها الصافي، فتبعها نظره بقلب خائف حتى

الليلة - بصدر مستقرّ، وأنّ شيئاً ممّا يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها أو الابتسامة التي حيت بها جوّ الاستقبال الحارّ المشبع بالزغاريد والورود، ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خليّ متشوّق للهدوء والسرور، ابتسامة لا يوحى رواؤها بأنّه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلّصات الألم، فهوّ منظرها قلبه وكاشفه بأنّه يكابد الألم منفرداً ويحمل متاعبه وحده، ولكنّ ألا يقهقه هو الآن عاليّاً، يحرك رأسه مع الأنغام كالمنبسط الطروب؟... ألا يجوز أن يجذع الناظر بحاله ويظنّ به ما ظنّ هو بها؟... وجد في تفكيره شيئاً من العزاء ولكن ليس أؤكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه «ألا يحتمل أن أشفى كما يشفى فلان الذي أصيب به قبلي»، وما لبث أن ذكر رسالتها التي عاد بها كمال إليه منذ أشهر وهي: قل له إنّها لا تدري ماذا تفعل لو تقدّم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار... وتساءل كما تسأل عشرات المرّات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات؟... أجل لا يستطيع إنسان مهما بلغ به التعتّن أن يؤاخذها على كلمة منها، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تضمّنته من عقل وحكمة ولكنّ هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما أحقّه بالتالي عليها، إذ يندر أن يرضي العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود، وعاد إلى الحاضر، إلى مجلس الطرب، إلى الحبّ الهائج. ليست رؤيته لها وحدها التي رجّته هذه الرّجّة العنيفة، فلعلّ ذلك لأنّه رآها لأول مرّة، في مكان جديد - فناء بيت آل شوكت - بعيداً عن داره التي لم يرها خارج نطاقها من قبل، كان وجودها الدائم في المقام القديم قد سلكها في آليّة العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجئ في المكان الجديد - ذاك الظهور الذي خلقها في عينيه خلقاً جديداً - حياة جديدة في وجدانه، أيقظت الحياة الأصليّة الكامنة، ثمّ تعاونتا معاً على إحداث هذه الرّجّة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضاً لأنّ وجودها بعيداً عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدّاً من اليأس، وجودها في جوّ من

الحريّة والانطلاق، وعلى حال لم يعهدها من التبرّج والحركة، وجودها في بيئة الزفاف وما توحى من خواطر الحبّ والوصال، كلّ أولئك أطلقها من قمقمها إلى حيث يراها القلب أملاً غير عسير، وكأنّها تقول له «انظر أين تراني الآن، ما هي إلّا خطوة أخرى فتجديني بين ذراعيك» ولكنّ ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهّماً في إحداث الرّجّة العنيفة، ولعلّ ذلك أيضاً لأنّ رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخاً في نفسه وتغلغلاً في حياته - ونشوبها في ذكرياته، فإنّ الصور تتعمّق في أنفسنا باندماجها في مختلف الأماكن التي تمتدّ إليها تجاربنا، وكما اقترنت مريم قديماً بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكال وتسميع الكلمات الإنجليزيّة ومجلس القهوة وحديثه مع أمّه في حجرة المذاكرة والرسالة التي عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكّريّة وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك ممّا ينشال على سمعه وبصره وكافة حواسّه، ومثل هذه العمليّة... لا يمكن أن تتمّ دون أن تشارك في إحداث الرّجّة العنيفة التي دوّخته... وحدث في فترة الاستراحة أن ترامى صوت العالمة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلّة على الفناء وهي تغني «حبيبي غاب» فشط إلى السماع باهتمام شديد وجمع حواسّه كلّها في النغمات، لا لأنّ صوت جليّة أعجبه ولكن لظنّه أنّ مريم تنصت إليها في تلك اللحظة، لأنّ الجملة الغنائيّة تتخاطب أذنيها في وقت واحد معاً، لأنّها ألّفت بينهما على حال واحدة من الإنصات ورتما من الإحساس، لأنّها خلقت لهما موعداً يلتقيان فيه بروحيهما، وحمله هذا كلّ على احترام الصوت وحبّ النغمات كي يجتمع بها في إحساس واحد. وحاول طويلاً أن ينفذ إلى نفسها بالرجوع إلى نفسه، أن يتلّسذبذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره، ليعيش في ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران، وحاول إلى هذا أن يستخبر الجمل الغنائيّة على آثارها في النفس المحبوبة، ماذا تركت في قلبها جملة «حبيبي غاب» أو «بقي له زمان ما بعثت جواً»، تُرى هل غابت في لجج



لم يكن أشبه بفهمي في عزلته الباطنية - وإن اختلفت الأسباب - من أبيه الذي لزم النظرة بين نفر من خاصة خلّائه، حتى الأصدقاء الذين لم يطبقوا التوقّر، والغناء يجلجل في الخارج، انفضّوا من حوله وتفرّقوا بين المستمعين يطربون ويلهون، فلم يبقَ معه إلا النفر الذين مجلسه أحبّ إليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعاً في رزاة غير معهودة كأنما يؤذون واجباً أو يشهدون مأثماً، هذا ما قدّروه من قبل، حين دعاهم السيّد إلى ليلة الزفاف، لما خبروه من طبيعته المزدوجة التي عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته، ولم يفهم وجهه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذي يحتفلون فيه «بليلة زفاف» وبين مجالسهم المسائية المعربة التي لا يحتفلون فيها بشيء! وما عثموا أن جعلوا من توقّره موضوعاً للمزاح الخفيف الهادئ فما إن علا صوت السيّد عفت مرّة وهو يضحك حتى بادره السيّد الفار واضحاً سبّابته على شفّيته كأنما يأمره بخفض صوته وهمس في أذنه محدّراً زاجراً: نحن في فرح يا رجل!... ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم ملياً فإذا بالسيّد عليّ يقبّب عينيه في وجوههم ثم يقول رافعاً يده إلى رأسه كالشاكِر: «شكر الله سعيكم» وعند ذلك دعاهم السيّد إلى اللحاق بصحبه في الخارج ومشاركتهم لهوهم ولكن السيّد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب قائلاً: نترك في مثل هذه الليلة؟! وهل يعرف الصديق إلا عند الضيق؟! فما تمالك السيّد أن ضحك قائلاً: ما هي إلا عدّة ليالي زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعاً... على أن ليلة الزفاف تضمّنت في نظر السيّد أحمد معاني أخرى غير التوقّر الإجباري في مجلس أنس وطرب، معاني تخصّه وحده كآب ذي طبيعة خرفت المألوف من الطبائع، فلم يزل يجد لفكرة زواج كرمته إحساساً غريباً لا يرتاح إليه وإن لم يقرّه عقله أو دينه. لا يعني هذا أنه ودّ ألا تنزوّج كرمته، فالحقّ أنّه كسائر الآباء جميعاً رجا السترة لفتاته، ولكن لعلّه تمّ كثيراً لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا «الستر» ولعلّه تمّ لو كان الله قد خلق البنات على

الذكريات؟... أو لم تنحسر موجة منه عن وجهه؟... ألم ينقبض قلبها لشكّة ألم أو لحزّة حسرة؟ أم لها سادراً طوال الوقت لا يجد في النعمة إلا فرحة الطرب؟... وتصورها وهي تهب انتباهها للنغم سافرة متبرّجة الحيويّة أو وثرها يفتّر عن ابتسامة كتلك التي لمحها على شفّيتها عند مجيئها فألمته لأنّه توسّم فيها رمز السلو والنسيان، أو وهي تحدث إحدى أختيه كما يحلو لها كثيراً وهو ما يحسدّها عليه على حين لا تجدان فيه الأمر الذي يدهشه لحدّ الانزعاج إلا حديثاً عادياً كسائر الأحاديث التي تشتبك مع غيرها من فتيات الجيران، أجل طالما عجب لموقف أختيه منها، لا لأنّها لا تكثران لها فالحقّ أنّها تحبّها، ولكن لأنّها تحبّها كما تحبّان غيرها من فتيات الجيران كأنّها مجرد «فتاة» من فتيات الجيران، وكيف تلقياها بترحيب عاديّ دون أن يضطرب لها نفس كما يلقي هو فتاة عابرة أو أيّاً من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق، وكيف تتحدّثان عنها فتقولان «مريم قالت أو مريم فعلت» وتطلقان بالاسم كما تطلقان بأيّ اسم... أم حنفي مثلاً كأنّه ليس الاسم الذي لم ينطق به على مسمع من غيره إلا مرّة أو مرّتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنّه ليس الاسم الذي لا ينطق به في وحدته إلا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة في خياله بتهاويل الأحلام التي لا ينطق بأحدها حتى يردف «رضي الله عنه» أو «عليه السلام»... وكيف إذن عطل الاسم - بل الشخص نفسه - عندهما من سحره وقديسيّته؟! وعندما انتهت جلييلة من الأغنية تعالى الهاتف والتصفيق فركّز فيه انتباهه باهتمام لم تحظّ الأغنية نفسها بمثلّه لأنّ حنجرة مريم ويديها اشتكت فيه، وتمنّى لو كان بوسعه أن يميّز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطئ، على أنّه وهب حبّه للهِتاف كلّهُ وللتصفيق كلّهُ بلا تمييز كالآم التي يترامى إلى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التي يتبعها ابنها فتدعوهم جميعاً بالبركة والسلامة.

أخيراً إلا منطقاً عاطفياً يعكس ما يكمن في نفسه من رغبة في تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج، فالاعتراف مهَّد إلى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفُس عن العاطفة العدائية، كمدمن الأفيون الذي تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلَّى بالحديث حيناً وبالسَّخا حيناً آخر، ففتح صدره للرُضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة، حتَّى نظرت الانتقادية لخليل شوكت استحالت إحساساً ساخراً غير مشوب بالحق. وعندما دعي المدعوون إلى الموائد افترق فهمي وياسن لأوّل مرّة فقاد خليل شوكت الأخير إلى المائدة الخاصّة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكنّ ياسين بدا حذراً مقدّراً للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقام بشجاعة - أو بجبن - تيار الشراب المتدفّق حتّى إذا ما لسعته النشوة فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت إرادته فرغب في الاستزادة من النشوة إلى القدر الذي لا يخرجّه عن حدود الأمان فتناول كأساً ثالثة ثمّ فر بنفسه عن المائدة إلّا أنّه - على سبيل الاحتياط أو لأنّه لم يزل عيئاً في الجئة وعيئاً في النار - أخفى زجاجة مملوءة حتّى النصف في مكان خفيّ للرجوع إليها عند الضرورة القصوى، وعادوا إلى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها إلى الجوّ المحيط سرور محرّر من القيود...

وفي الحريم كان السكر قد بلغ بالعالة جليلة حدّ السلطنة، وإذا بها تقلّب عينيها في وجوه المدعوّات وتتساءل:

- من منكنّ حرم السيّد أحمد عبد الجواد؟  
فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماماً شاملاً حتّى غلب الحياء أمانة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحمّل في وجه العالة بحيرة وإنكار، ولمّا أعادت العالة السؤال تطوّعت حرم المرحوم شوكت بالإشارة إلى أمانة وهي تقول:

- ها هي حرم السيّد أحمد ففيمّ يا تُرى التساؤل؟  
فتفحصتها العالة بعينين ثاقبتين ثمّ أطلقت ضحكة

طبيعة لا تحتم الزواج. أو لعلّه تمّ في الأقلّ لو لم يكن أنجب إنثاً قطّ، أمّا وتلك أمان لم تتحقّق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بدّ من أن يرجو الزواج لفتاته ولو كما يرجو الإنسان أحياناً - ليأسه من دوام العمر - مينة شريفة أو مينة مريجة! طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متباعدة سواء عن شعور أو لا شعور، فربّما حدث بعض خلصائه قائلاً: «تسألني عن إنجاب الإناث؟ إنّه شرّ لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر إلى الله واجب على أيّ حال. لا يعني هذا أنّي لا أحبّ ابنتي فالحق أنّي أحبّها كما أحبّ ياسين وفهمي وكهال سواء بسواء ولكن كيف يطمئنّ خاطري وأنا أعلم بأنّي سأحملها يوماً إلى رجل غريب مهما يبدو لي من مظاهر فالله وحده المطلع على باطنه؟... ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهي بعيدة عن رعاية أبيها؟... وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوماً وقد مات أبوها فلجأت إلى بيت أخيها لتعيش عيشة المنبوذين؟ لست أخاف على أحد من أبنائي لأنّه مهما يحدث لأتهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أمّا البنت... اللهم احفظنا!» أو يقول فيما يشبه الصراحة: «البنت مشكلة حقّاً... ألا ترى أنّها لا تألوا أن تؤذّيها ونهذّيها ونحفظها ونصونها؟... ولكن ألا ترى أنّ بعد هذا كلّه نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء... الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه...» وتحمّس هذا الإحساس القلق الغريب في النظرة الانتقادية التي والى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسّفة عيابة أبت أن ترجع قبل أن تظهر بعيب يرضي تعنتها، كأنّه ليس من آل شوكت الذين ألّفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان، أو كأنّه ليس الشاب الذي شهد له كلّ من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه، ولكنّه وقف طويلاً عند وجهه الرّيان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدلّ بها على ما تركه الفراغ في حياته من حيوانية قائلاً لنفسه «ما هو إلّا ثور يعيش ليأكل وينام!» لم يكن اعترافه بمزاياه أوّلًا ثمّ فحصه عن أيّ عيب ليلصقه به

رثانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى:

- حسناء وحق بيت الله، إن ذوق السيد لا يُجارى...

وبدت أمينة كالعذراء في حياتها، بيد أن الحياء لم يكن كلّ ما تعانيه، ساءلت نفسها في حيرة وانزعاج عمّا يعنيه حديث العالمة عن حرم السيد أحمد عبد الجواد، وعن إطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعها لنفسه إلا الخبير به، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التي رددت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسألنهن رأيهن في «هذه المرأة السكّيرة»، ولكنّ جلييلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحوّلت عينيها إلى العروس وتفحصتها كما تفحصت أمها من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهي تقول بإعجاب:

- قمر ورسول الله، أنت بنت أبيك حقًا، ومن يَر هاتين العينين يذكر من توه عينيه... (ثم مقهقهة)... أراكنّ تتسألن من أين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد؟!... إني أعرفه من قبل أن تعرفه زوجه نفسها، إنه ربيب حينًا وقرين صباي، وكان والدانا صديقين، أم تحسبن العالمة؟ لا أب لها؟... كان أبي شيخ كتاب من أهل البركة... ما رأيك يا زينة الستات؟!...

وجّهت السؤال الأخير إلى أمينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودّد إلى أن نجّيتها - وهي تقاوم ما ركبها من ارتباك - قائلة:

- رحمه الله، كلنا أبناء حواء وآدم.

فجعلت جلييلة تحرك رأسها يمنة ويسرة وهي تضيق عينيها كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته، أو لعلّ رأسها السكران وجد في هذه الحركة رياضة التّدبها، ثم استطردت قائلة:

- وكان رجلًا غيورًا، ولكنّي نشأت بفطرتي لعوبًا لا أبالي كأنما رضعت الغنّج في المهد، كنت أضحك الضحكة في الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال في الشارع، فما يبلغه صوتي حتّى ينهال عليّ ضربًا ويرميني بشرّ الصفات، ولكن ما حيلة التأديب فيمن

قدّرت عليها فنون العشق والطرب والدلال؟!... ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل إلى الجنّة ونعيمها، وقُضي عليّ بأن أُنخذ عمّا رماني به من شرّ الصفات شعارًا لي في الحياة... هي الدنيا... ربّنا يطعمك خيرها ويكفيك شرّها... ولا حرّمتنا الله جميعًا من الرجال سواء في الحلال أو في الحرام...

وعزف الضحك في جنبات الحجرة حتّى غطّى على تأوهات الدهش التي ندّت هنا وهناك، ولعلّ ما استثاره قبل أيّ شيء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الإباحيّ الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحّي - في ظاهرها على الأقلّ - بالجدّ والتأني، أو بين ما تقنّعت به المرأة من ستار الجدّ والرزانة وما جهرت به أخيرًا من مزاح مكشوف، حتّى أمينة نفسها - وعلى رغم ارتباكها - ما تمالكت أن ابتسمت وإن نكست وجهها لتواري ابتسامتها، على أنّ النساء كنّ يستجنّ - في مثل هذا المجلس - لدعابات مهرّجات العوالم ويرحبن بمزاحهنّ وإن خلدش الحياء أحيانًا كأنما ينقّس به على طول ترمّتهنّ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة:

- وكان جعل الله الجنّة مثواه سليم الطوّة، وآي ذلك أنّه جاءني يومًا برجل طيّب مثله وأراد أن يزوّجني منه (وكرّرت ضاحكة)... أيّ زواج يا عمر؟! وماذا بقي للزوج بعد ما كان ممّا كان؟!... وقلت لنفسني انفضحت يا جلييلة وواقعتك كحل...

وأمسكت مليًا لتستزيد من التشويق، أو لتتمتّع أكثر بصمت الانتباه المركّز فيها الذي لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثمّ عادت تقول:

- ولكنّ الله سلّم فأدركتني النجاة قبل الفضيحة المتوقّعة بأيّام إذ هربت مع المرحوم حسّونة البغل تاجر المنزل، وكان للمرحوم أخ عوّاد عند العالمة نيزك فعلمني العود، ثمّ طاب له صوتي فعلمني الغناء، وأخذ بيدي حتّى ضمّني إلى تحت نيزك التي حللت محلّها بعد وفاتها، ومارست الغناء دهرًا عرفت فيه من العشاق مائة و... (وقطّبت وهي تتذكّر بقية العدد ثمّ التفتت إلى الدفّافة وسألته) وكم يا فينؤ؟

فبادرتها الدقافة قائلة:

- وخسة في عين من لم يصل على النبي...

وتعالى الضحك منرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكنن الضاحكات ليصفو الجو للعالة ولكنها نهضت بغتة وانجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالآ إلى اللاتي تساءلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب، ولكن أحدًا لم يلح عليها في السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة إذا نادتها لبثت دون مراجعة، وهبطت السلم إلى باب الحريم ثم مرقت منه إلى فناء الدار، ولما جذب ظهورها المفاجئ بعض الأنظار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يعدته منظرها فيهم من اهتمام طمعت في أن تتحدى به صابرًا وهو في ذروة التطريب، وتحققت رغبتها إذ سرت عدوى الالتفات نحوها - كالتثاؤب - من فرد إلى فرد وتردد اسمها على اللسان، ثم شعر صابر نفسه - رغم انهياكه في الغناء - بالفجوة الفجائية التي فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره إلى الهدف الذي استشرفته الأعين حتى استقر على العالة وهي تنظر إليه من بعيد برأس مائل إلى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر إلى الإمساك عن الغناء وأشار إلى قمته فتوقف عن العزف، ثم رفع يديه إلى رأسه تحية لها... كان صابر خبيرًا بنزوات جليلة - وعلى خلاف الكثيرين - عاليًا بطيبة قلبها، ومقدّرًا في الوقت نفسه لخطر معاندتها، فأظهر لها التودد بلا تحفظ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهتفت به «واصل غناءك يا سي صابر فما جئت إلا لسماعه» فصفق المدعوون وعادوا إلى صابر مهللين على حين اقترب منها إبراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقي الذي دعاها إلى المجيء وسألته بدورها بصوت ترامي إلى الكثيرين ومنهم - وهو الأهم - ياسين وفهمي:

- ما لي لا أرى السيد أحمد عبد الجواد؟! أين يختبئ الرجل؟

فأخذ إبراهيم شوكت بيدها وسار بها إلى المنطرة

باسمًا، على حين تبادل فهمي وياسين نظرة ملئت دهشًا واستغرابًا وشيخاها بعينين متسائلتين حتى واراها الباب، ولم يكن السيد دون ابنه دهشًا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تمخطر فحدها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صاحبه نظرات باسمه ذات معانٍ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة:

- مساء الأنس يا رجال...

وركزت عينيها في السيد فما تمالكت أن أغربت في الضحك وهي تتسأل ساخرة:

- هل أخافك جيئي يا سيد أحمد؟!

فأشار السيد إلى الخارج محذرًا وهو يقول لها جادًا:

- اعقلي يا جليلة، ماذا حملك على المجيء إلى هنا تحت أنظار الناس جميعًا؟!

فقالت كالمعتذرة وإن لم تزايلها بسمه ساخرة:

- عز عليّ ألا أهنتك على زواج كريمك!...

فقال السيد في ضيق:

- لك الشكر يا سيّ، ولكن أما فكّرت فيها يثيره جيئك لدى من يشهده من ظنون؟

فضربت جليلة كفًا بكفت وقالت فيها يشبه العتاب:

- هذا أحسن ما عندك لي من استقبال!... (ثم موجهة الخطاب إلى صاحبه)... أشهدكم يا رجال على الرجل الذي لم يكن يتلّ صدره حتى يغرز فردة شارب في سرتي، انظروا إليه كيف لا يطيق الآن رؤيتي...

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها «لا تزيد الطين بلّة» وقال برجاء:

- علم الله ما بي استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين...

هنا قال السيد عليّ كأنما ليذكرها بما لا ينبغي لها أن تنساه:

- لقد عشتما حبيين وافترتما صديقين، وليس بينكما ثار، ولكن أهله فوق وأبناءه في الخارج...

فقالت متعادية في إغاظة السيد:

- لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسق! فرماها بنظرة احتجاج قائلاً:

على شيء من أمره قبل أن يبلغوا أشدهم أي حين لا يهّمه كثيراً أن ينكشف لهم سرّه، ولكن شيئاً من هذا لم يستطع أن يلطف من أسفه على ما وقع. حقاً لم يُنل من سرور ومن تيه جنسيّ، إذ أنّ عجيء امرأة كجليله بنفسها إلى مجلسه لتهنّئه أو لتعابه أو حتى لتتهكّم بعشقه الجديد «حادث» له مغزاه الهامّ في الأوساط التي تشهد لبياليه، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئاً، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيداً عن هذه البيئة العائليّة!

أمّا ياسين وفهمي فلم تتحوّل عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جلييلة حتّى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمّد عفت. دهش فهمي دهشة بكراً دار لها رأسه كياسين حين سمع زئوبة وهي تحبّيه قائلة: «إنّه من حيّنا ولا بدّ أنّك تسمع عنه...» السيد أحمد عبد الجواد...، على حين ركب ياسين حبّ استطلاع نهم فأدرك - في سعادة - أيقظت في قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانيّة التي شعر بها نحو أبيه في حجرة زئوبة - أنّ جلييلة مغامرة أخرى في حياة أبيه التي بات يؤمن بأنّها سلسلة ذهبيّة من المغامرات، وأنّ الرجل فاق كلّ ما تصوّره خياله عنه، ولبث فهمي يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأنّ العالمة إنّما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلّق بدعوتها إلى إحياء فرح عائشة حتّى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكاً بأنّ جلييلة «تداعب السيد» وبأنّها «تتودّد إليه تتودّد الصديق للصديق» وعند ذلك لم يطق ياسين صبراً على كتمان ما عنده من سرّ ووثبت نشوة الشراب به إلى الإدلاء بمعلوماته فانتظر حتّى غادر خليل ثمّ مال على أذن أخيه قائلاً وهو يغالب ضحكته «كتمت عنك أشياء تخرّجت من البوح بها في حينها، أمّا وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها» ومضى يقصّ عليه ما سمع وما رأى في بيت زبيدة العالمة، وفهمي يقاطعه من أونة لأخرى قائلاً في ذهول «لا تقل هذا...» «هل فقدت وعيك»، «كيف تريدني على أن أصدّقك» حتّى أتى الشاب على قصّته بكلّ تفاصيلها.

- جلييلة... لا حول ولا قوّة إلّا بالله.  
- جلييلة أم زبيدة يا وليّ الله؟  
- حسبي الله ونعم الوكيل..  
فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتها لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكّم لا الإعجاب هذه المرّة وقالت بصوت هادئ جادّ كالقاضي ينطق بالحكم:  
- سيّان عندي أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفني ورأس أمي أن تتمرّع في التراب بعد أن غرقت حتّى أذنيك (مشيرة إلى نفسها) في القشدة...  
عند ذلك نهض السيد محمّد عفت - وكان من أقرب المفترّين إليها - وقد خاف أن يتبادى بها السكر إلى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامساً في أذنها:  
- حلّفتك بالحسين إلّا ما رجعت إلى مستمعاتك المنتظرات على نار...  
فطاوعته بعد ممانعة ولكنّها التفتت نحو السيد وهي تبتعد رويداً وقالت:  
- لا تنس أن تبلغ تحيّي إلى القارحة، ونصيحتي إليك - بحقّ الأخوة - أن تعتسل بعدها بالكحول لأنّ عرقها مصاص للدماغ.  
شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظّ الذي قضى بأنّ ينكشف أمام كثيرين خاصّة أهله - ممّن عرفوه مثلاً للجدّ والرزانة، أجل لم يزل ثمة أمل في ألاّ يبلغ الحادث أحداً من آله ولكنّه أمل ضعيف، ولم يزل ثمة رجاء في ألاّ يفهموه إذا بلغهم - بما طبعوا عليه من براءة - على حقيقته ولكنّه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب بيد أنّه على أسوأ الفروض لا يحقّ له أن يجزع لأنّ خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يززعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها، وفضلاً عن هذا فإنّ احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديمهم جميعاً لم يكن عنده يوماً بالفرض المستحيل، ولكنّه لم يقلق لذلك أكثر ممّا ينبغي، لثقتة بقوّته، ولأنّه لم يعتمد في تربيتهم على القدوة والإقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعاً لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها، ولأنّه استبعد أن يطلّعوا

الأكل، ويعشق والعشق كان ملهواة الخلفاء، أقرأ ديوان الحامسة والأخبار التي بهامشه، ليس على أبينا حرج، اهتف معي ليُخَي السَيِّد أحمد عبد الجواد، ليُخَي أبونا، سأتركك لحظة ريشا أزور- لهذه المناسبة- الزجاجة التي أخفيت تحت الكرسي.

بعودة العالة إلى التخت شاع في الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانقل من لسان إلى لسان حتى تناهى إلى الأم وخديجة وعائشة ومع أتهن كن يسمعن شيئاً كهذا لأول مرة إلا أن سيدات كثيرات- ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المودة- تلقين النبأ في غير ما دهش وغمزن بأعينهن باسمات شأن الذي يعرف أكثر مما يقال، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض في الموضوع إما لأن الخوض فيه جهازاً أمر لا يحمل بهن أمام كريمتهن وإما لأن دواعي المجاملة أملت عليهن بأن يسكن عنه حيال أمينة وكريمتهن، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة «حذار يا أمينة هانم فالظاهر أن عين جلييلة زاغت إلى السيد أحمد» فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها، لأول مرة تلمس دليلاً محسوساً على ما قام بنفسها قديماً من شكوك، ومع أنها ألفت الصبر والتسليم بما قدّر عليها إلا أن ارتطامها بدليل محسوس حرّ في قلبها فأحسّت عذاباً لا عهد لها به وجرحاً دامياً في صميم كبرياتها، وأرادت امرأة أن تعلّق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت «من يكن له وجه كوجه ست أم فهمي قسامة فلا يحق لها أن تخشى زياناً عين زوجها إلى امرأة أخرى» فاهتزّت جوانحها للثناء وعادتها ابتسامتها الحية ووجدت- على أي حال- بعض العزاء عمّا تعانیه من ألم صامت، إلا أنه لمّا بدأت جلييلة أغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشعرت ثواني بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكتها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قطّ بحقّ الغضب. هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلنا نظرة حائرة وتساءلنا بعينيهما عمّا يعنيه الأمر كلّ، بيد

لم يكن فهمي، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية، على استعداد لفهم- بله هضم- السيرة الخفية التي تنكشف له لأول مرة خاصة وأن والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائمه مثاليته، ولعلّ ثمة وجهاً من التشابه بين شعوره وهو يعاني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين- إن صدق الخيال- وهو ينتقل من مستقرّ الرحم إلى مضطرب الحياة، ولعلّه لو كان قيل له إنّ جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة أسفل بنائه والضريح عاليه، أو كان قيل له إنّ محمّد فريد خان رسالة مصطفی كامل وباع نفسه للإنجليز لما كان هذا أو ذاك بادعى إلى إنكاره وانزعاجه. «أبي يذهب إلى بيت زبيدة ليشرب ويغني ويضرب الدف!... أبي يذعن لمداعبة جلييلة وتودّدها!... أبي يقترب السكر والزنا، كيف اجتمعت الثلاث!... إذن هو غير الأب الذي عرفته في البيت مثلاً للورع والقوة!... أيها الصحيح؟... كأي أسمعه الآن وهو يردّد: الله أكبر... الله أكبر، فكيف تردّده للغناء!... حياة تمثيل ورياء! ولكنّه صادق، صادق إذا رفع رأسه للدعاء، صادق إذا غضب... أيكون أبي رذيلة أم يكون الفسق فضيلة!...»

- ذهلت؟!... ذهلت أنا أيضاً عندما نطقت زنوبة باسمه، ولكن سرعان ما استسختفت نفسي وسألتها ماذا عليه من هذا؟!... كفرا كهذا الرجال جميعاً أو كهذا يجب أن يكونوا...

«هذا القول جدير ياسين حقاً... ياسين شيء وأبي شيء آخر... ياسين!... ما ياسين؟!... ولكن كيف يحق لي أن أردّد هذا الآن وأبي، أبي نفسه، لا يختلف عنه في شيء إن لم يقف تدهوراً... كلاً ليس تدهوراً... ثمة أمر أجهله... أبي لا يخطئ... غير قابل للخطأ. فوق الشبهات... وعلى أي حال فوق الاحتقار.

- ما زلت ذاهلاً؟!...

- لا أتصوّر شيئاً ممّا قلت!

- لماذا؟!... اضحك وافهم الدنيا، يغني وماذا في الغناء من عيب؟ ويسكر وصدّقني أن السكر ألذ من

فأشارت بيدها إلى الأمام، في اتجاه السيد الذي كادت تبخله الظلمة «هس»، ولكنه كان مشغولاً باستحضار صور ممّا مرّ به في بيت العرس إلى مخيلته، رأى أنّها متناهية في غرابتها وفيها بعثه في نفسه من حيرة فاجذب يدها إليه لئيبعد بها عن خديجة وأمّ حنفي ثمّ هس متسائلاً وهو يشير إلى الوراء:

- أما علمت بما يدور هنالك؟

- ماذا تقصد؟

- نظرت من ثقب الباب.

فانقبض قلب الأمّ جزعاً لأنّها حدثت أيّ باب يعني ولكنها سألتها مكذّبة نفسها:

- أيّ باب؟

- باب غرفة العروس!

فقال المرأة بانزعاج:

- يا له من عيب أن ينظر الإنسان من ثقب الأبواب!

فهمس من فوره:

- ما رأيته أعيب!

- اخرس...

- رأيت أبله عائشة وسي خليل يجلسان على الشيزلنج... وهو...

فلكرته في كتفه بشدة حتّى أمسك ثمّ همست في أذنه:

- يجب أن نخجل ممّا تقول، لو سمعك أبوك لقتلك.

ولكنّه قال بإصرار ويلهجة من يشعر أنّه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصوّر هي وقوعها:

- كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها.

ولكرته مرّة أخرى بقسوة لم يعهد لها من قبل فأدرك أنّه أخطأ حقاً وهو لا يدري وسكت خائفاً، ولكنّه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية

الأسرة - وقد تخلّفت عنها أمّ حنفي لتسكّ الباب وتضبّبه وتترسه - ألحّ عليه ما يكابد من حيرة ورغبة في

الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء:

- لماذا يقبلها يا نينة؟!

أنّ دهشهما لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمي ولا بأنّ كما حدث لأتهما، ولعلّهما وجدنا في قيام امرأة كجليلية من تحتها وتكبّدها مشقة النزول إلى مجلس أبيهما لتحيته ومعادته شيئاً مثيراً للإعجاب حقاً، ثمّ شعرت خديجة برغبة غريزيّة في استطلاع وجه أمّها فاسترقت إليها النظر ومع أنّها رأته تبسم إلا أنّها تكابد السّما وارتباكاً ينقصان عليها صفوها وأحسّت بضيق وما لبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كلّه.

ولمّا أزفت ساعة الزّفة نسي كلّ همّه. أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة في ثوب الزفاف لا تبرز الأذهان.

\*\*\*

بدت الغوريّة متلّعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العروس عائدة إلى النّحاسين. سار السيّد أحمد في المُقدّمة وحده، وتبعه على بعد أمتار فهمي وياسين الذي أفرغ ما في وسعه كيما يتالك نفسه ويتحكّم في مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب، ثمّ جاءت في المؤخّرة أمينة وخديجة وكمال وأمّ حنفي، انضمّ كمال إلى القافلة على رغمه فلولا الحادي الذي يتقدّمها لوجد سبيلاً إلى عصيان يد والدته وانقلب راجعاً إلى حيث غادروا عائشة، وجعل لهذا يتلقّت بين خطوة وأخرى صوب بوابة المتوّي ليودّع أسيفاً محزوناً آخر ما لاح من مظاهر الفرح، ذلك المصباح المضيء الذي رقي عامل في سلّم خشبيّ إليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكّرية، لشدّ ما يقطع قلبه أن ينظر إلى أسرته فيجدها قد تخلّت عن أحبّ أفرادها إليه بعد أمّه، ورفع بصره إلى والدته وسألها هامساً:

- متى تعود أبله عائشة إلينا؟

فاجابته بمثل صوته:

- لا تكرّر هذا وادع لها بالسعادة، ستزورنا كثيراً ونزورها كثيراً.

فهمس مرّة أخرى محنّفاً:

- ضحكتم عليّ!

فقلت له بحزم:

- إذا عدت إلى هذا أخبرت والدك!

#### ٤١

أوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة، ما كاد يخلو إلى فهمي ويأمن الرقباء - سرعان ما غطَّ كمال في نومه عقب وضع رأسه على المخدّة مباشرة - حتّى جمحت به رغبة في العريضة كردّ فعل للجهد العصبيّ الذي بذله طوال السهرة، خاصّة في طريق العودة، كيما يضبط نفسه وسيطر على سلوكه، ولكّنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعريدته فمال إلى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمي وهو ينزع ملابسه وقال ساخراً:

- قارن بين خيبتنا وبين براعة أبينا... حقاً إنّه لرجل...

وعلى رغم ما حرّك هذا الكلام من ألم فهمي وحيرته إلّا أنّه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفّيته الممتعضتين شبه ابتسامة:

- البركة فيك فأنت نعم الخلف.

- أيجزلك أن يكون والدنا من كبار القناصة؟

- وددت لو تمتدّ يد التغيير إلى صورته المائلة في نفسي.

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه في سرور:

- الصورة الحقيقيّة أبهى وأمتع، أعظم به من أب هو المثل الأعلى، آه لو رأيته وهو قابض على الدفّ والكأس بين يديه تزهراً! عفارم... عفارم يا سيّد أحمد!

فتساءل فهمي في حيرة:

- وحزمه وتقواه؟!

فقطّب ياسين ليركّز فكره في المسألة ولكّنه وجد نفسه في حال الجمع بين الأضداد أرواح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعاً بالإعجاب وحده:

- ليس ثمة مشكلة على الإطلاق، عقلك الرعدي وحده الذي يخلق المشكلة من العدم، أبي حازم ومؤمن ويجب النسوان، شيء بسيط واضح  $1 + 1 = 2$ ،

ولعلّي أشبه الناس به على وجه التقريب لأنّي مؤمن وأحبّ النسوان وإن قلّ نصيبي من الحزم، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحبّ النسوان، ولكنّ بينا تحقّق إيمانك وحزمك إذا بك تنكص عن الثالثة (ثمّ صاحكاً) والثالثة هي الثابتة!

لعلّه نسي عند آخر كلامه باعث الإعجاب الذي دفعه إلى الاسترسال فيه، فجاء قوله دفاعاً عن أبيه في الظاهر فقط، أمّا في الحقيقة فلم يكن إلّا تعبيراً عن شعور وهاجّ هاج به دمه المخمور، عن نشوة جامحة ركّبه عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب، فرغب جسده في الحبّ رغبة جنونيّة عجزت إرادته عن شكّمها أو ملاطفتها، ولكنّ أين يجد مطلبه؟ هل يتّسع له الوقت؟!... زبوبة؟!... ماذا يحول بينه وبينها؟!... طريق قصير، ضجعة قصيرة، ثمّ يعود فينام نومًا عميقًا هادئًا، هشّ للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجع فاندفع إلى تحقيقها بلا تردّد، وما لبث أن قال لأخيه:

- الجوّ حارّ، سأصعد إلى السطح لأتنسّم هواء الليل الرطيب.

وغادر الحجرة إلى الدهليز الخارجي، ومضى يهبط متلمّساً طريقه في ظلمة غاشية، محاذراً غاية الحذر أن يندّ عنه صوت. ثرى كيف يستطيع الوصول إلى زبوبة في هذه الساعة من الليل؟ هل يطرق الباب؟ ومن عسى أن يجيء لفتحه؟ وبمّ يجيبه إذا سألته عن مقصده؟ وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب؟ أو إذا جاء الخفير ليراقبه بتطفله المعروف؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخّه كالفقاقيع ثمّ انداحت غارقة في تيّار الخمر الجارف فلم يتجهّم لها كعواقب ينبغي تقدير عواقبها ولكّنه ابتسم لها كدعابات ممّا قد يؤنس وحشة مغامرته، ثمّ جاوزها خياله طائراً إلى حجرة زبوبة المطلة على مفرق الغوريّة والصنادقيّة فتخيّلها في قميص النوم الأبيض الشفاف الذي يتقوّس مطاوعاً فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجّج جنونه وودّ لو يثب فوق



لها التي بدأت مع صباه، لم يلتفت إليها قط. بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها آية قدرة على التمييز فأعتمته الشهوة، وأي شهوة؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيتها ولا لألوانها، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح، والكلّ عندها في «الأزمات» سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه في القمامة، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى - زنوبة - مخوفة بالتعاب مجهولة العواقب، ولم يعد «الوصول إليها في هذه الساعة من الليل، وطرق الباب، وما يقول لفاتحه، والخفير» دعابات ييسم لها، ولكن عوائق يجدر به أن يتفادى منها. تقدّم في خفة وحذر فاعترّاه، ذاهلاً عن كلّ شيء إلا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذي بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أهبة لاستقباله. حتى توقّف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة، ثم انحنى عليها قليلاً قليلاً بلا وعي تقريباً، وبإغراء شديد من الداخل والخارج معاً، وما يدري إلا وهو ينبطح فوقها. لعلّه لم يتعمّد الذهاب إلى هذا الحدّ دفعة واحدة، ولعلّه همّ بشيء من التمهيد كان لا ينبغي أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة، ولكنّ الجسم الذي انبطح عليه اضطرب اضطراباً فزع شديدة ونذّت عنه صرخة مدوينة - سبقت يده التي رامت كتفها - فمزّقت السكون الشامل ولطمت تحه لطمة قوية ردّت إليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهيم في أذنها بقلق وخوف بالغين:

- أنا ياسين، أنا ياسين يا أمّ حنفي، لا تخافي... وطفق يكرّر قوله حتى اطمأنّ إلى وعيها وإيّاها فاستردّت راحته، ولكنّ المرأة - التي لم تمسك عن المقاومة قط - تمكّنت أخيراً من تنحيته عنها، فاستوت جالسة وهي تلهث من الجهد والانفعال ثمّ سألت بصوت أزعجه أيّما إزعاج:

- ماذا تريد يا سي ياسين؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء:

- لا ترفعي صوتك هكذا، قلت لك لا تخافي،

ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف بتاتاً...

فعدت تسأله بجفاء وإن خفضت من صوتها قليلاً:

الدرجات لولا الظلمة الغاشية. خرج - بخروجه إلى الفناء - إلى ظلمة أخفت قليلاً بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلاً نوراً أو كالنور. وعندما خطا خطوتين متجهاً إلى الباب الخارجي في آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضغ أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريباً على جسم منطرح على الأرض فتنوّره على ضوء السراج فعرف أمّ حنفي التي بدت وكأنها استحبّت النوم في الهواء الطلق فراراً من جوّ حجرة الفرن الخانق. وهمّ بمواصلة السير ولكن ثمة شيء استوقفه فعطف رأسه مرّة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينها من موقفه، الذي لم يفصله عنها إلا بضعة أمتار، بوضوح غير منتظر، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التي رسمت في الهواء بحافة الجلباب الملتصقة بالركبة هرمًا قائماً وكشفت في نفس الوقت عن فخذها اليسرى التي لاحت عارية فيما يلي الركبة ثم غرقت في ظلمة الفرجة التي انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة مع أنّ إحساسه بضيق الوقت وجوب البدار إلى غايته لم يهّن إلا أنّه لم يستردّ بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه، أو لعلّه لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدري إلى تفرّسه بأمعان بدا في يقظة عينيه المحمّرتين وانفراج شفّيته المثلثتين، فاستحالت يقظة العين - وهي تتفحص الجسم اللحيم الذي شغل فراغاً كبيراً كأنه جاموسة مسمّنة - رغبة مريبة حتى استقرّ البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة، ثمّ تحوّل التّيار المضطرب في شرايينه من التطلّع صوب باب الخروج إلى حجرة الفرن، وكأنه يكتشف لأول مرّة المرأة التي خالطها أعواماً طويلة بغير مبالاة. على أنّ أمّ حنفي لم تحظّ بسمّة واحدة من سمات الحسن، وبدا وجهها أكبر من سنّها الحقيقية التي لم تكد تتجاوز الأربعين، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان - لتنافره وسوء تنسيقه - بالانتفاخ الغليظ أشبه، ولذلك، وربّما أيضاً لطول انزوائها في حجرة الفرن وقديم معاشرته

- ماذا جاء بك؟

فجعل يربت على يدها متودّداً وهو يتنهد في شبه ارتياح لم يُقل من عصبية كأنما رأى في خفضها لصوتها أماراً مشجعة وقال لها:

- ماذا أغضبك؟ لم أريد بك سوءاً (مبتسماً ابتسامة وشت بها نبراته) هلّمي إلى حجرة الفرن...

فقال المرأة بصوت مضطرب ولكنّه ذو دلالة حازمة:

- كلّاً يا سيدي، اذهب إلى حجرتك، اذهب، الله يلعن الشيطان...

لم تزن أم حنفي كلماتها بميزان ولكنّها نذت عنها كما اقتضى الحال. لعلّها لم تعبّر أصدق التعبير عن رغباتها، ولكنّها عبرت تماماً وبغير شعور منها على شدة المفاجأة،

مفاجأة لم تسبق يوماً بتمهيد من أي نوع كان، التي انقضت عليها في نومها كما تنقض الحداة على الفرخ، فصذت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقي في

الصدّ أو الزجر، بيد أنّه أساء فهمها فامتلاً حقاً وثارت برأسه الخطاير... «ما العمل مع بنت الكلب هذه! لا يمكن أن أراجع بعد أن كشفت نفسي

وتماذيت إلى حدّ الفضيحة، لا بدّ مما أريد ولو لجأت إلى القوة» وفكر بعجلة في أنجع وسيلة للتغلب على ما

ترأى له من مقاومة ولكنّه - قبل أن يتخذ قراراً - سمع حركة غريبة، لعلّها أقدام، آتية من باب السلم، فوثب قائماً وهو من الفزع في نهاية، مزدرداً شهوته كما

يزدرد اللصّ فصّ المساس المسروق إذا بسوغت في مكمنه، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة ماذا ذراعاً بالمصباح. تسمر في

مكانه محتظف الدم مستسلماً ذاهلاً يائساً. أدرك من توه أنّ صرخة أم حنفي لم تضع هباء، وأنّ النافذة الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصداً، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخّر؟... لقد وقع في فخّ القضاء والقدر.

وجعل السيّد يتفرّس في وجهه بقسوة صامتاً، مطيلاً الصمت، وهو ينتفض غضباً، ودون أن يحول عينيه القاسيتين أشار بيده إلى الباب يأمره بالدخول، ومع أنّ

الاختفاء كان أحبّ إليه في تلك اللحظة من الحياة

نفسها إلّا أنّه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك

ساكناً، فضاق صدر الأب ولاحت في عبوسه بؤادر الانفجار ثمّ زجر صائحاً وعيناه - اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه -

ترسلان شرّاً...

- اطلع يا مجرم يا بن الكلب...

فما ازداد إلّا استمسكاً بجموده حتّى هجم عليه السيّد فقبض على ذراعه بيمنه وشدّ عليها بغلظة ثمّ جذب به شدّة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة

فكاد يقع على وجهه، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فرعاً، وفرّ بنفسه وثباً وهو لا يبالي ظلمة.

## ٤٢

علم بفضيحة ياسين شخصان - غير أبيه وأم حنفي - هما ستّ أمينة وفهمي، سمعا صرخة أم حنفي، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين

السيّد، ثمّ حدسا ما هنالك دون حاجة إلى كبير ذكاء، على أنّ السيّد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدقّقاً عمّا

تعلم من أخلاق «أم حنفي» فدافعت أمينة عن خادماتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذُكرت السيّد بأنّه لولا «صرختها» ما درى أحد بما كان،

فقضى الرجل ساعة وهو يسبّ ويلعن، سبّ ياسين، وسبّ نفسه لأنّه «ما كان ينبغي أن ينجب أطفالاً

ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة» واستفاض به الغضب فسبّ البيت وأهله جميعاً!... وظلّت أمينة صامته كما واصلت صمتها فيها بعد كأنما لم تدر شيئاً،

كذلك تجاهل فهمي الأمر كلّ، تظاهر بالاستغراق في النوم حين عاد أخوه إلى الحجرة لاهثاً عقب الموقعة

الخاسرة، ولم يبدّ منه فيها بعد ما ينم عن علمه بشيء، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذلّ ومهانة إكراماً لاحترام يكنّه له بصفته أخاه الأكبر،

احترام لم يُدبه كلّ ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدّم هو به عليه من علم وثقافة، أو ما يبدو من

ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزمام أحد من إخوته

باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة، أجل لم يزل

يَكُنْ له احترامًا لعلَّ حرصه على الإبقاء عليه راجع إلى ما يأخذ به نفسه من تأديب وجدٍّ ورزاة أكسبته مظهرًا أكبر من سنّه، بُدِّ أن خديجة لم يَفْتَحْها أن تلاحظ - غداة الواقعة - أنَّ ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسأله باستغراب عن المانع فأجابها بأنّه لم يهضم عشاء الفرج، وشعرت الفتاة - بسوء ظنّها الطبيعيّ المرهف - بأنّ ثمة علةً لتخلّفه غير عسر الهضم فسألت أمّها ولكنّها لم تجد جوابًا شافيًا، ثمّ رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضًا، لا بدافع من حبّ الاستطلاع أو الأسف، ولكن أملًا أن يجد في الجواب ما يشرّه بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين، وكاد الأمر ينسى لولا أنّ ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك في مجلس القهوة الممهود، ومع أنّه اعتذر لفهمي والأمّ بارتباطه بميعاد إلّا أنّ خديجة قالت بصراحة «في الأمر شيء، لست عبيطة... أقطع ذراعي إن لم يكن ياسين متغيّرًا». وعند ذلك اضطّرت الأمّ أن تعلن غضب السيّد على ياسين لسبب لم تعلمه... وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتّى أمانة وفهمي اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع. وظلّ ياسين على تحبّبه للمائدة أبيه حتّى دُعي ذات صباح إلى مقابلته قبل الفطور. لم تفجّاه الدعوة، وإن أزعجته رغم ذلك - فكّم توقّعها يومًا بعد يوم لاستيثاقه من أنّ أباه لا يمكن أن يقنع من زلّته بتلك الجذبة العنيفة التي كادت أن تلقّيه على وجهه، وأنّه لا بدّ عائداً إليها بطريق أو بآخر ولعلّه توقّع أيضًا معاملة لن تليق بحال بموظّف مثله ممّا حله حينًا على التفكير في مغادرة البيت إلى حين أو إلى الأبد. أجل لا يجمل بأبيه - أبيه كما عرفه في بيت زبيدة خاصّة - أن يلقي زلّته بهذا العنت كلّ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجوله فالأكرم له أن يفارقه، ولكن إلى أين؟... ليس إلّا أن يعيش عيشة مستقلّة بمفرده، ولن يعجزه هذا، بيد أنّه قلب الأمر على مختلف وجوهه، قدّر النفقات وتساءل عمّا يبقى له بعدها للملأه: لقهوة سيّ عليّ وحانة كوستاكي وزنوبة. هنالك فتر حماسه حتّى انطفأ كما تنطفئ شمعة سراج

تعرّضت لهبة هواء عنيفة، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه «لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدًا خبيثًا لا يليق بأسرتنا، مهما يقلّ أبي أو يفعل فهو أبي وهيئات أن نضام حيال تأديبه» ثمّ قال بصراحته التي يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة «شيئًا من التواضع يا ياسين بك، دعنا من الكرامة وحياة أمك، أيّها أحبّ إليك كرامة سيادتك أو كونياك كوستاكي وسرّة زنوبة». وهكذا عدل عن التفكير في مغادرة البيت وليث ينتظر الدعوة المتوقّعة حتّى وقعت فجمع نفسه ومضى كارهاً متوجّسًا، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدًا عن مجلس أبيه من غير أن يمرّو على التسليم عليه، وانتظر. وألقى السيّد عليه نظرة طويلة ثمّ هزّ رأسه كالمتعجّب وهو يقول:

- ما شاء الله!... طول وعرض، شارب وقفا، إذا رآك الرائي في الطريق قال لنفسه بإعجاب نعم الرجل ونعم الابن، فليت القائل يجيء إلى البيت ليراك على حقيقتك!...

ازداد الشاب ارتباكًا وحياء ولكنّه لم ينبس بكلمة ومضى السيّد يتفحصه بسخط ثمّ قال باقتضاب وبلهجة جافّة أمرّة:

- قرّرت أن تتزوّج...  
ودهش ياسين دهشة لم يكذب صدق معها أذنيه، كان يتوقّع سبًا ولعنًا فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنّه سيسمع قرارًا خطيرًا يغيّر مجرى حياته كلّها فما تمالك أن رفع عينيه إلى وجه أبيه حتّى إذا ما التقتا بعينيه الزرقاوين الحادّتين خفضهما متورّد الوجه لائثًا بالصمت، وفطن السيّد إلى أنّ ابنه بوغت بهذا القرار «السعيد» بدلًا من المعاملة الفظة التي كان يتوقّعها فثار حنقه على الظروف التي أملّت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليف بتكذيب ظنّه بجبروته المعروف فبثّ حنقه في نبرات صوته، وهو يقول عابسًا:

- الوقت ضيق وأريد أن أسمع جوابك...  
ما دام الرجل قد قرّر أن يزوجه فهو يأبى إلّا أن يسمع جوابًا واحدًا، ولا مانع من أن يُسمعه الجواب

الذي يريد، لا طاعة لأمره فحسب، ولكن تلبية لرغبته هو أيضًا. أجل ما كان والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصوّر له «عروسًا» حسناء، امرأة تكون ملك يمينه ورهن إشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوْشك أن يفصح صوته وهو يقول:

- الرأي رأيك يا بابا...

- تريد أن تتزوَّج أو لا؟... انطق...

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعدّ له ماليًا:

- ما دامت هذه إرادتك فأني موافق على العين والرأس.

فخفّف السيّد من خشونة لهجته وهو يقول:

- سأطلب لك كريمة صديقي السيّد محمّد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوي، لقيه ظفرها برقبة ثور مثلك.

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مدهانًا:

- ولكنّي بفضلك أصير كفتًا لها.

فومقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها إلى أعماق مدهانته وقال:

- من يسمع كلامك لا يتصوّر فعالك يا منافق...

اغرب عن وجهي...

وهمّ ياسين بالتحرك ولكنّه أوقفه بإشارة من يده ثمّ تساءل مستدرّكًا كأنما عرض التساؤل له اتفاقًا:

- أظنّك حوّشت المهر؟

لم يجر جوابًا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيّد وتساءل مستنكرًا:

- ولكنّك عشت رغم توفّلك في كفّالي كما كنت تعيش وأنت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك؟

فلم يزد على أن حرّك شفّتيه دون أن ينبس فحرّك الأب رأسه متمعضًا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توفّله «لو طالبك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلًا مسئولًا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنّي لن أطالبك بمليم واحد كي أهيئ لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك إذا دعت الحاجة إليه» ودلّ ذلك

التصرّف من جانبه على ثقته بابنه، والحقّ أنّه لم يتصوّر أن يجنح أحد من أبنائه - بعدما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين - إلى هوى من الأهواء الجاحشة التي تبدّد المال، لم يتصوّر أن ينقلب ابنه «الصغير» سكريرًا ماجنًا، فالخمر والنساء التي يراها في حياته هو لوئًا من اللهو لا يمسّ رجولة ولا يؤذي إنمّا تنقلب إذا «لوئت» أحدًا من أبنائه جريمة لا تغتفر، ولذلك فإنّ زلّة الشاب التي كشفها في فناء البيت طمانته بقدر ما أغضبتة لأنّ أمّ حنفي في نظره لا يمكن أن تغري شابًا إن لم يكن تحمّل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة... أجل لم يشكّ في براءة ابنه بيّد أنّه ذكر ما لاحظته كثيرًا من ولعه بالأناقة وتخيّره النفيس من البذل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتح إلى ذلك وحذّره الإسراف ولكنّ تحذيرًا هيئًا، إمّا لأنّه لم ير في الأنافة جريمة، وإمّا لأنّ تشبّه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه - الذي لا يرى بأسًا في أن يكرّره أبنائوه - حرّكًا في صدره العطف والتسامح، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح؟ وهي ما وضح له الآن من تبذيره نقوده في التافه من الكماليّات. ونفخ الرجل مغيظًا محنقًا وقال له محتدًا:

- اغرب عن وجهي...

غادر ياسين الحجرة مغضوبًا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلّته كما توقّع وهو ذاهب إلى الحجرة، تبذيره الذي لم يكرهه من قبل فسلم إليه نفسه بلا تفكير ولا تدبّر، ينفق ما في جيبه حتى يفرغ غارقًا في ساعته، متعاميًا عمّا يسمّونه «المستقبل» كأنه شيء لا وجود له، ومع أنّه غادر الحجرة مرتبكًا وجلًا لنهرة أبيه إلّا أنّه لم يُخلّ من ارتياح عميق إذ أدرك أنّ تلك النهرة لا تعني طرده فحسب ولكن أيضًا أنّ السيّد سيتكفّل بنفقات زواجه، ومضى كالطفل الذي يضيق أبوه بإلحاحه في طلب قرش فينقده إياه ويدفعه خارجًا فينسى شدة الدفعة في فرحة الظفر، ولبت الأب ساخطًا راح يردّد «يا له من حيوان، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ» أغضبه إسرافه كأنّه لم يتخذ هو من الإسراف شعارًا في الحياة - ولكنّه لا يرى بأسًا في إسرافه كسائر أهوائه - ما

تتغير في الواقع بتغير الأحوال وإن عمل من جانبه على ألا يفطن أحد إلى نية التغيير الباطنة ثم قال: «الحق أتى لا أقبل أن أمد يدي الآن على ياسين ولا حتى على فهمي، والحق أتى جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ناثر ومن غير أن أقدر المدى الذي ذهبت إليه» ثم استطرد قائلاً وهو يكرّ إلى فترة من الماضي البعيد «كان أبي رحمة الله عليه يلتزم في تربيتي شدة تهون إلى جانبها شدتي مع أبنائي ولكنه سرعان ما غير من معاملته لي منذ أن دعاني إلى معاونته في الدكان، ثم استحالته معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين، وقد بلغ بي الاعتزاز بالنفس أن عارضت في زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لي «أتعارضني يا ثور... وما دخلك في هذا الشأن؟ إنني أقدر منك على إرضاء آية امرأة» فما تماثلت أن ضحككت وطيبت خاطره معتذراً ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل «إذا كبر ابنك أخيه» فشعر - ربما لأول مرة في حياته - بتعقد مهمة الأبوة كما لم يشعر بها من قبل. في نفس الأسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين في مجلس القهوة، كان فهمي قد علم بها عن طريق ياسين نفسه، أما خديجة فما تماثلت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظناً منها أن الغضب إنما وقع نتيجة لرغبة ياسين في الزواج قياساً على ما كان بين الأب وفهمي للسبب نفسه فصرت برأيا كالتسائلة فقال ياسين ضاحكاً وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك:

- الحق أن ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة...

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح:

- بابا معذور في غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت...

فجارها ياسين في سخريتها قائلاً:

- وسوف يزداد موقف أبي حرجاً إذا ما علم السيد الكبير المذكور أن للعريس أختاً مثل حضرتك!

دام لا يفقره وينسيه واجباته أو يدهور شخصيته، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين؟... فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شفقاً عليه وإن دلّ شفق هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور. وزايله الغضب كعادته، بنفس السرعة التي ركبها، فصفت نفسه وانسبطت أساريه وأخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف مساح... «تريد أن تتشبه بأبيك يا ثور... إذن لا تأخذ جانباً وتمهل الجوانب الأخرى، كن أحمد عبد الجواد كله إن استطعت أو فالزم حدودك، أحسبني حقاً سخطت على تبذيرك لأنني كنت أرجو أن أزوجه بنقودك؟! خسئت... إنما رجوت أن أجذك مقتصدًا كي أزوجه بنقودي على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجاء الذي خيبت. وهل حسبني لم أفكر في اختيار زوجة لك إلا بعد ضبطك متلبساً بالزنا، وأي زنا... زنا حقير كحجارة ذوقك وذوق أمك؟! كلا يا بغل إنني أفكر في سعادتك منذ توظفت، كيف لا وأنت أول من جعلني أبا... وأنت شريك في العذاب الذي أضلّتنا إياه أمك اللعينة!... ثم أليس من حقّي أن أفرح بك خصوصاً وأنه عليّ أن أنتظر طويلاً حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق وبأثرى من يعيش؟!...» في اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قصّ على السيد محمد عفت «جرمة» ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التي كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمة للشاب - الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتيح ياسين - وكيف قال له الرجل «ألا ترى أنه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة إذا توظف وصار رجلاً مسئولاً؟ (ثم ضاحكاً) الظاهر أنك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر أبناؤهم بالثورة عليهم». وكيف أجابه بثقة قائلاً: «هيهات أن تتعرض الرابطة بيني وبين أبنائي لتغير الزمن» صدرت عنه الإجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها، على أنه اعترض له بعد ذلك أن معاملته

عند ذاك تساءل كمال :

- هل سيركتنا ياسين كما تركتنا أبله عائشة؟

فقالت له أمه باسمه :

- كلاً ولكن سنتنضم إلى بيتنا أخت جديدة هي العروس...

ارتاح كمال إلى هذه الإجابة التي لم يكن يتوقعها، ارتاح إلى بقاء «روايته» الذي يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبقى عائشة أيضاً؟ فاجابته أمه بأن العادة قضت بأن العروس تنتقل إلى بيت العريس وليس العكس، لم يدر من سن هذه العادة وكم تمخى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى بياسين ولطائفه. بيد أنه لم يستطع أن يجهر برغبته فأوضح عنها بنظرة ناطقة رنا بها إلى أمه، فهمي وحده الذي أثار الخبر أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج غدا شأنها أن توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أم فقدت ابنها... في موقعة ظافرة...

### ٤٣

تحرك الحنطور مقلداً الأم وخديجة وكمال في طريقه إلى السكّرية. سيكون زواج عائشة إيداناً بعهد جديد من الحرية؟ أيقدر لهم أخيراً أن يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسوا هواءها الطليق؟ بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث، فالذي حرّم عليها زيارة أمها فيما ندر قادر على أن يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك. ولم تنس أنه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمي وحتى أم حنفي دون أن يؤذن لها هي بزيارتها أو تواتيها شجاعته على الاستئذان للزيارة، تحرّزت من تذكيره بأن لها ابنة في السكّرية يجب أن تراها، ولازمت الصمت وإن لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها، على أنه لِمَا ضاق صدرها بالأم التصبّر استجمعت إرادتها وسألته :

- إن شاء الله يكون سيدي عازماً على زيارة عائشة قريباً لنطمئن عليها؟...

فطن السيد إلى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها، لا لأنه كان قرّر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة، ولكن لأنه ودّ - كشأنه في مثل هذه الحالة - أن يصدر السماح منه منحة غير مسبقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو أثر في استصدار السماح، فكرة أن تسعى إلى تذكيره بهذا السؤال الماكر، ومن قبل فُكر في الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها، ولذلك هتف بها حانقاً :

- عائشة في بيت زوجها ولا حاجة بها إلى أحد منا، على أنني زرتها كما زارها أخوها فإذا يقلقك عليها؟ غاص قلبها في صدرها وجفّ ريقها يأساً وقهراً، أما السيد فقد تعمّد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عدّه مكرّاً منها لا يغتفر، ثم أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر إلى ما غشي أساريرها من كمد، حتى حان وقت انصرافه إلى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :

- اذهبي غداً إلى زيارتها...!

تدافع دم الانشراح إلى الوجه الذي لا تخفي بصفحته خافية فبدت في سرور الطفل فما عثم أن عاوده حنقه فصاح بها :

- لن تريها بعد ذلك إلا إذا سمح لها زوجها بزيارتنا...! فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهداً حملته وهي تشاور خديجة في مفاتحه فقالت بعد تردد وإشفاق :

- هل يسمح سيدي بأن آخذ معي خديجة؟ فهزّ رأسه كأنما يقول «ما شاء الله... ما شاء الله...» ثم قال لها محتذاً :

- طبعاً... طبعاً!... ما دمت قد قبلت أن أزوّج ابنتي فيجب أن تنضمّ أسرتي إلى أبناء الشوارع... خذها، ربنا يأخذكم جميعاً...

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تُلّقي بالاً إلى الدعاء الأخير الذي ألفت سماعه... وأكثر - في أوقات غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء - كانت تعلم بأنه من طرف لسانه وأنه أبعد ما يكون من قلبه، مثله

أمها وأختها وهو على ذلك الوضع! بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمي، وكيف غلبها الشوق إليهم على خوفها من أبيها فواتتها الجراً على أن ترجوه بالسباح لهم بزيارتها!... قالت «لا أدري كيف طواعني لساني حتى تكلمت! لعل مظهره الجديد الذي لم يترأى لي به من قبل هو الذي شجّعني، بدا لطيفاً وديعاً بأسياً، إي والله بأسياً، على أنني ترددت رغم ذلك طويلاً، خفت أن ينقلب فجأة فينتهري، ثم توكلت على الله ونطقت!» فسألها أمها عن رده كيف كان فقالت «قال لي باقتضاب: إن شاء الله، ثم استطرد مسرعاً بلهجة جدية تنم عن تحذير: ولكن لا تظني المسألة لعباً فكل شيء بحساب. فحقق قلبي ورحت أدعوه طويلاً تودّذا واسترضاء!» ثم رجعت إلى الورا قليلاً فوصفت حالها عندما قيل لها «السيد الكبير في حجرة الاستقبال» قالت «ركضت إلى الحمام فغسلت وجهي لأزيل كل أثر للمساحيق حتى تساءل سي خليل عما يدعوه إلى ذلك كله ولكنني قلت له: أدركي، لا أستطيع أن ألقاه بفرسان صيفي يكشف عن ذراعي! ولم أبرح موضعي حتى تلقّعت بشال كشميري!» ثم قالت «ولمّا علمت نينة... (ضاحكة) أعني نينة الجديدة... كما قص عليها سي خليل ما جرى ضحكك وقالت له: إني أعرف السيد أحمد تمام المعرفة... هو هذا وأكثر (ثم ملتفتة إليّ) ولكن اعلمي يا شوشو أنك لم تعود من آل عبد الجواد، أنت الآن شوكتية فلا تبالي الآخرين...». أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والإعجاب فحملق كمال فيها كما فعل في ليلة الزفاف وتساءل محتجاً «لماذا لم تكوني تبدين هكذا وأنت في بيتنا؟» فأجابته على الفور ضاحكة «لم أكن وقت ذاك شوكتية» حتى خديجة رمقتها بعين الحب. انقطعت بزواج الفتاة دواعي الملاحاة التي كانت تنشب بينها بسبب الاختلاط، ومن ناحية أخرى لم يبق من الإحساس بالحق الذي ركبها عند السباح بزواج الفتاة قلباً إلا أثر باهت حملته «بختها» من دون

كمثل القطّة تبدو، حين تحمل صغارها، وكأنها تلتهمها. تحقّق الرجاء وانطلقت العربية بهم في طريقها إلى السكّرية. بدا كمال، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمّه وأخته وركوبه الحنطور، أوفر الثلاثة سروراً، وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو أنه رغب في إعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار إلى شخصه وهو يتخذ مجلسه في الحنطور بين أمّه وأخته فما اقتربت العربية من دكان عمّ حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفاً «يا عمّ حسنين... انظروا» فنظر الرجل إليه ولمّا لم يجده وحده غضّ بصره في عجلة مبتسماً فذابت الأم خجلاً وارتباكاً وجذبت من طرف جاكته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنّبه على فعلته «الجنونية». بدا بيت السكّرية - وليس كذلك بدا في حلّة الأنوار ليلة الفرح - عتيقاً هرمّاً ولكن دلّ عتقه نفسه فضلاً عن ضخامة بنيانه ونفاثة أثائه على السؤدد والجاه، قال شوكت أسرة «قديمة» وإن لم يبق لهم من عزّة القدم - خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم - إلا الاسم، وقد أقامت العروس بالدور الثاني على حين نزلت حرم المرحوم شوكت - ومعها ابنتها الأكبر إبراهيم - الدور الأول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقي دور ثالث شاغراً لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه. ولما أدخلوا شقة عائشة همّ كمال، منطلقاً مع سجيته كما لو كان في بيته، يجوس خلالها كي يعثر بنفسه على أخته مستمتعاً بلذّة المفاجأة التي تحيّلها وهو يرقى في السلم ولكن أمّه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدري إلا والخادم تقودهم إلى حجرة الاستقبال ثم تركهم وحدهم! شعر بأنهم يعاملون معاملة «الغرباء» أو «الضيوف» فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردّد في جزع «أين عائشة؟... لماذا تبقى هنا؟» فلا يسمع إلا كلمة «هس» وتحذيراً من منعه من الزيارة مرّة أخرى إذا علا صوته!... ولكنه سرعان ما زابله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطّى سناها على أضواء حلّتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلّق بعنقها، فتبدل التسليم بينها وبين

الفتاة، فلم يعد ينطوي قلبها إلا على الحب والشوق، لشد ما تفتقدها كلما آنتست من نفسها حاجة إلى أنيس تفضي إليه بذات نفسها. ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد، عن المشربية التي تطل على بوابة المتولي، والمآذن التي تنطلق عن قرب، وتيار السابلة الذي لا ينقطع. كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية «ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندهم (ثم بشيء من الفتور) وإن كان المحمل لا يمر تحتها كما أخبرني سي خليل!» وواصلت حديثها «تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل ختم الليل: شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل، أولئك جبراني الجدد، إلا أن ضارب الرمل أسعدهم حظاً، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالهم، كم وددت لو كانت مشربتي أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم، والذ منظر، منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر إذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضاقت عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحدثاً الآخر أن يراجع ليفسح السبيل، يبدأ الكلام ليئنا بعض اللين فيحدث، ثم يخشوشن، ثم تهدر الخناجر بالسباب والشتائم، وتحي في أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدري أحد كيف يعود الحال إلى ما كان عليه، هنالك أقف وراء الخصاص أكااتم الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر» وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم، حجرة الفرن والمخزن وحمايتها سيده الفناء والجارية سويدان «لا أجد لي عملاً فلا أذكر المطبخ حتى تحمل إليّ صينية الطعام» وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة «نلت ما طالما تمنيت!» لم يجد كمال في الحديث شيئاً ذا بال إلا أنه أحس في نغمته العامة بما يوحي «باستقرار» المتحدثة فداخله الانزعاج وسألها:

- ألن تعودي إلينا؟ ...

فملاً الحجرة صوت يقول:

- لن تعود إليكم يا سي كمال ...

وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكاً وهو يرفل بجسمه الربعة في جلباب حرير أبيض. كان ذا وجه بيضاويّ ممتلئ، أبيض البشرة في عينيه جحوظ خفيف وفي شفثيه غلظة، أما رأسه الكبير فينتهي بعجين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه في لونه وتسريحته شعر السيد، تلوح في عينيه نظرة طيبة وخول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى. انحنى على يد الأم ليقبلها فجذبها بسرعة في خجل وارتباك وهي تتمتم شاكراً ثم سلّم على خديجة وكمال وجلس وكأنه - على حدّ تعبير كمال فيما بعد - واحد منهم. وانتهاز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرّس في وجهه طويلاً، ذاك الوجه الغريب أصلاً الذي برز في محيط حياتهم ليحتل مكاناً مرموقاً يؤهله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قريباً لوجه عائشة، كلما خطر هذا على باله جرّ وراءه ذاك كما يجرّ الأبيض الأسود. تفرّس فيه طويلاً وهو يردّد في نفسه قوله الممتلئ ثقة «لن تعود إليكم يا سي كمال» فوجد نحوه إنكاراً ونفوراً وحقداً وكادت تتمكّن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى إلى الخارج ثم عاد حاملاً صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسماً - وإن كشف افتراق ثغره عن بيشتين ركبت إحداهما الأخرى - نخبة من أشهى الأصناف، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلّوا بمشابهته خليل على أنه أخوه الأكبر، ثم وكّد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها «إبراهيم ابني ... ألم تعرفوه بعد؟!» وعندما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمه «نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرة ... لا بأس ... فطنت أمينة إلى أن المرأة تشجعها وتهوّن عليها الأمر فابتسمت، ولكن ساورها شيء من القلق وتساءلت: ترى هل يوافق السيد على مقابلتها لهذا الرجل - وإن عدّ عضواً جديداً في الأسرة كخليل سواء بسواء - بغير نقاب؟ ... وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها إيثاراً للسلامة؟ ... كان إبراهيم و خليل أشبه بالتأمين لولا فارق



فانتقل إلى جوار العروس وأبدى لها إشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة، ظنته قانعاً بمجالستها في الصالة ولكنه جذبها من يدها إلى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى أرتج. انطلقت أساريه ولعت عيناه، وتطلع إليها طويلاً ثم تصفح الحجرة ركنًا ركنًا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجديد مازجها أريج زكي لعله بقيّة ثَمًا انتشر من أيدي المتطيين وصدورهم، ثم رنا إلى الفراش الوثير، إلى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها «ما هما؟» فأجابته «وسادتان صغيرتان» فسألها «أتوسدينها؟» قالت باسم «كلاهما للزينة فقط» فأشار إلى الفراش متسائلًا «أين تنامين؟» فأجابته باسم «في الداخل» فسألها كأنه متأكد من أنه ينام معها «وسي خليل؟» فأجابته وهي تقرص خدّه برقة «في الخارج...» عند ذاك التفت صوب «الشيزلنج» بغرابة، وسار إليه وجلس، ودعاها إلى الجلوس جنبه فجلست، وما لبث أن غاب في الذكريات غاضبًا بصره ليخفي نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر إليها بما رأى من ثقب الباب، راودته نفسه على أن يبوح لها بسرّه، أن يسألها عنه، تحت ضغط إغراء لا يخلو من قسوة، ولكنّ الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكّم رغبته على رغمه، ثم رفع إليها عينين صافيتين وابتسم لإليها، فابتسمت إليه ومالت نحوه فقبلته، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة:

- لأملأنّ جيوبك بالشيكولاتة...

#### ٤٤

تصايح الغلمان المتجمهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين، تميز صوت كمال وهو يهتف «هلت سيّارة العروس» وردّها ثلاثًا فخرج ياسين - وهو في كامل زينته وأبهته - من بين الجماعة الواقعة عند مدخل القناء ومضى إلى الطريق فوقف أمام البيت متّجهاً صوب النحاسين فرأى موكب

السّن، على أنّ اختلافها بدا أقلّ من القليل بالقياس إلى اختلاف عمرهما، والحقّ أنّه لولا قصر شعر إبراهيم، ولولا شاربته المفتول، لما كان ثمة ما يميّزه عن خليل، كأنه لم يبلغ الأربعين، أو كأنّ شبابه ومظهره لا يتأثّران بمرور الأعوام، لذلك ذكرت أمينة ما حدّثها به السيّد مرّة عن المرحوم شوكت من أنّه «كان يبدو أقلّ من عمره الحقيقيّ بعشرين عامًا أو يزيد» أو قوله عنه «إنّه رغم طبيسته ونبله كان كالحَيوان لا يسمح لفكره أبدًا بأن يتغنّص عليه صفوه»، أليس عجيبًا أن يبدو إبراهيم في الثلاثين مع أنّه تزوّج في صدر شبابه وأنجب طفلين ثمّ ماتت زوجته وطفلاه؟! ولكنّه مرق من تجربته القاسية سالماً لم يسسّ، ثمّ عاود الحياة مع أمّه في خمول ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعًا، راق خديجة أن تسترق النظر - كلّها أمنت أعين الرقباء إلى الشقيقتين، إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما، ببضاوئة الوجه وامتلائه، جحوظ العينين الواسعتين، البدانة، الخمول، فحرّك كلّ أولئك السخرية الكامنة في نفسها حتّى ضحكت أفكارها ومضت تذخر في ذاكرتها من الصوّر ما تعود إليه إذا ضمّتها مجلس القهوة ومالت جرياً على سنّتها في التهكّم إلى العبث والإضحاك، وإلى هذا فكّرت باهتمام في اختيار اسم وصفّي عيّاب لها على مثال الأسماء الوصفية التي تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأئمّها التي تطلق عليها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها عند الحديث. واسترقت مرّة نظرة إلى إبراهيم فما راعها إلّا أن تلتقي عينها بعينيّه الواسعتين وهما تتفرّسان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضّت بصرها في حياء وارتباك، وتساءلت في خوف المريب عمّا عسى أن يظنّه بنظرها، ثمّ وجدت نفسها تفكّر بقلق في منظرها وما يمكن أن يتركه في نفسه من أثر. تُرى أيسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخوله؟! واستغرقها التأمل والقلق...

سئم كمال الجلسة التي وإن تكن جمعتة بعائشة إلّا أنّها جمعتة بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تتحقّق - عدا ما منحت من حلوى - شيئاً من رغبته،

فقطعا الفناء بين صفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من ألها اللواتي تعالت زغاريدهن كانهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن، هكذا لعلت الزغاريد في البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شئانة بريئة مرحة روت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذي قضى بالآ تكون زغاريد ولا غناء ولا هو، وبأن تمضي ليلة زفاف الابن البكر كما تمضي غيرها من الليالي. وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متساثلات باسماً وتكأكان على خصائص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد في نفس السيد فرأينه يحدث السيد محمد عفت ضاحكاً فتمتعت أمينة قائلة: «لن يسعه الليلة إلا أن يضحك مهما يبدو ممّا لا يروقه!» وانتهزت أم حنفي الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مججلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت - في ظلّ الإرهاب - من فرص المرح والمسرّة على عهد خطبتي عائشة ياسين، وأقبلت على سيّداتها الثلاث وهي تزغرد حتى استغرقن في الضحك، ثم قالت لهنّ «زغردن ولو مرة في العمر...» إنه لن يدري الليلة من المزغردا»، رجع ياسين بعد إيصال العروس إلى باب الحريم فالتقى بفهمي الذي لاحت على شفثيه ابتسامة موحية بالحرج والإشفاق لعلها أثر ممّا خلّفته في نفسه هذه الضجّة البهيجة «المحرمة»، وكان يخالس أباه النظر ثم يردّه إلى وجه أخيه ضاحكاً ضحكة مقتضية مغضوضة، فما كان من ياسين إلا أن قال له بلهجة لا تخلو من استياء:

- أيّ استنكار في أن نحبي ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد؟... وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالة أو مغنّ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التي لم تجد إلى الإفصاح عنها من سبيل إلا أن تحوّل ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه، ولكنّ السيد اعتذر وأبى إلا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسرّاتها على

العروس وهو يتقدّم على مهل كأنه يتبختر. في تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة على رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت، بدا ثابتاً غير هيّاب مغنّاً رجولة وفحولة، لعلّ ممّا أيّده في ثباته إحساسه بأنّه محطّ الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين في حال تمجّل منها الرجولة، ولعلّه أيضاً علم بأنّ أباه منكمش في مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء - التي تضمّ آل العروسين من الذكور - بحيث لا تمتدّ إليه عيناه، فوسعه أن يتالك نفسه وهو يرنو إلى السيّارة الموشّاة بالورود التي تحمل إليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وإن لم تقع عيناه عليها بعد، أو الأمل الذي صاغه بأحلامه الظامّة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام. وتوقّفت السيّارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيّارات فأخذ أهبطه للاستقبال السعيد وقد استجدّت عنده الرغبة في أن يستشفّ النقاب الحريري ليرى وجه عروسه لأول مرة، ثمّ فتح باب السيّارة وترجّلت جارية سوداء في الأربعين قوية البنية لسّاعة البشرة نجلاء العينين فاستدلّت بما يلوح على حركاتها من الثقة والإدلال على أنّها الجارية التي تقرّر إلحاقها بخدمة العروس في بيتها الجديد، تنحت جانباً ووقفت منتصبّة القائمة كالديديبان ثمّ خاطبته بصوت كرنين النحاس وهي تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة:

- تفضّل خذ عروسك...

فتقدّم ياسين من باب السيّارة ومال إلى الداخل قليلاً فرأى العروس في حلّتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيّب مفتحة للجوارح فتاه في جوّ الحسن منبهراً، ومدّ لها ذراعه لا يكاد يرى شيئاً كما يكلّ بصر طالع نوراً ساطعاً، وعقل الحياء العروس فلم تبيد حراكاً فتطوّعت التي إلى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة:

- تشجّع يا زينب...

دخلا جنباً لجنب وهي من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها

العشاء الفاخر. وعاد ياسين يقول آسفًا:

- لن أجد من تزفني هذه الليلة التي لن تتكرر أبد الدهر!... سأدخل حجرة العروس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأني راقص يهز جذعه دون إيقاع.

ثم لاحظت في عينيه ابتسامة مرحة مأكرة فقال:  
- الذي لا شك فيه أن أبانا لا يطيق «العالم» إلا في بيوتهم!

مكث كمال في الدور الأعلى الذي أعدّ جلوس المدعوّات ساعة ثم نزل باحثًا عن ياسين في الدور الأول الذي هُتمّ لاستقبال المدعوّين ولكّنه وجده في فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذي أقامه الطاهي فأقبل نحوه مسرورًا إدلالًا بأداء المهمة التي عهد بها إليه وقال له:

- فعلت كما أمرتني فتبعت العروس حتّى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها...

فانتحى به جانبًا وهو يسأله بأسًا:

- هه؟... كيف عودها؟

- في عود أبلّة خديجة...

صاحكًا:

- في هذه الناحية لا بأس؟... أتعجبك كعائشة؟

- كلًّا... أبلّة عيشة أجمل كثيرًا!...

- يخرب بيتك أتريد أن تقول إنّها كخديجة؟

- كلًّا إنّها أجمل من أبلّة خديجة...

- كثيرًا؟!

فهزّ رأسه مفكرًا فسأله الشابّ بلهفة:

- حدّثني عمّا أعجبك فيها؟...

- أنفها صغير كأنف نينة... وعيناها كعيني نينة

أيضًا...

- ثم؟...

- لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة

جدًّا...

- نحمده... ربّنا ييسّرك بخير...

وخيل إليه أنّ الغلام يغالب رغبة في معاودة الكلام

فسأله في شيء من القلق:

- هات ما عندك ولا تخفّ!

- رأيته تخرج منديلًا ثمّ تتمخّط!

والتوت شفتاه تقزّزًا كأنّما كبر عليه أن تنذّ الفعلية عن عروس في زيّق فتنتها، فما عمالك ياسين أن ضحك قائلاً:

- لحدّ هنا عال، ربّنا يجعل العواقب سليمة!

ألقي نظرة كثيفة على الفناء الخالي إلّا من الطاهي وصبيان، وبعض الأولاد والبناات فتخيل ما كان ينبغي أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرق ومجلس المدعوّين، من قضى بهذا؟... أبوه!... الرجل الذي يفوح عرقه بالمجون والعريضة والطرب... أعجّب به من رجل يحلّ لنفسه اللهو الحرام ويحرّم على بيته اللهو الحلال، وراح يتخيّل مجلس السيّد كما رآه في حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدري إلّا وقد وثبت إلى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى، تلك هي التشابه بين طبعي أبيه وأمه! طبيعة واحدة في شهوانيتها وجريها وراء اللذة في استهتار لا يقيم وزنًا للتقاليد، ولعلّ أمّه لو كانت رجلًا لما قصّرت عن أبيه في اللّهج بالشراب والطرب أيضًا! لذلك انقطع ما بينها - أبيه وأمه - سريعًا، فما كان لمثله أن يطبق مثلهما وما كان لمثلهما أن تطبق مثله، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراحنة! ثمّ صاحكًا ضحكة لم يتج لها روعه من هذه «الفكرة الغريبة» روجًا من السرور «عرفت الآن من أكون، لست إلّا ابن هذين الشهوانيين، وما كان لي أن أكون غير ما كنت!» في اللحظة التالية تساءل ثرى ألم يخطئه الصواب عند إغفال «دعوة أمّه إلى زفافه»! تساءل رغم إصراره على الاعتقاد بأنّه لم يتنكّب عن الصواب، لعلّ أباه رام إراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدّة ليالٍ «أرى أن تبّلغ أمك، ولك إن شئت أن تدعوها إلى شهود زفافك» ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيها يعتقد، فما يتصوّر أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذي اتخذته أمّه زوجًا لها من بعد أزواج كثيرين، وأن يتودّد إليها على مرأى منه بأن

الهادئة وغير قليل من الأسى. وجاء كمال الذي كان يتراءى في أي مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق في وجهه:

- الطاهي قال لي إن الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وإنه سيبقى منها مقدار وفير. . .

## ٤٥

زاد مجلس القهوة وجهًا جديدًا بانضمام زينب إليه، وجهًا زكاه بريق الشباب وفرحة العرس، وفيها عدا هذا، وفيها عدا فرش الحُجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين في الدور الأعلى بجهاز العروس، فلم يحدث زواج ياسين تغييرًا يذكر في النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التي ظلت خاضعة بكل معاني الكلمة لسلطان السيد وإرادته أو من الناحية الإدارية الداخلية التي ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج. التغيير الجوهرى حقًا كان الذي طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس، إذ لم يكن من اليسير أن تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعها وبقيّة أفراد الأسرة بيت واحد دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطوّر ذو شأن، رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحدّر، هذه الفتاة التي قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلًا ربما امتدّ حتى نهاية العمر، أيّ إنسان تكون؟ ماذا تخبئ وراء ابتسامتها الرقيقة؟ بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنًا جديدًا فيؤمّله ويحاذره، أما خديجة فعلى رغم المجاملات التي تبودلت بينها جعلت تسدّ نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظنّ، منقبة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها إلى البيت وفوزها بالزواج من أخيها إلا ضيقًا خفيًا، فلمّا اعتكفت الفتاة في حجراتها الأيّام الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهما في حجرة الفرن «ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق (بها)؟» ومع أنّ الأم وجدت في تهجمها ترويحًا عن حيرة ظنونها إلا أنّها اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة: «صبرك، لم تزل عروسًا في بدء

يدعوها إلى شهود زفافه، لا كان الزفاف، ولا كانت أيّ سعادة في هذه الدنيا إن حملته يومًا على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة. . . تلك الفضيحة. . . تلك الذكرى المخزية! وما كان منه إلا أن أجاب أباه وقتذاك قائلًا: «لو كان لي أم حقًا لكانت أوّل من أدعو إلى زفافي!» انتبه فجأة إلى الأولاد والبنات وهم يرنون إليه ويتهايمسون فخصّ البنات بنظرة وسألن بصوت جهوريّ ضاحك «هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات؟» وأنجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس «إياك وأن تستسلم غدًا للحياء بين المدعوين وإلا عرفوا الحقيقة المرّة وهي أنّ أباك الذي زوجك ونقد مهره وجملة تكاليف ليلتك، ولكن تحرك بلا توقّف، تنقل بين حجرات المدعوين، ضاحك هذا وكلم ذاك، اطلع وانزل، تفقّد المطبخ، اهتف وازعق، لعلك توهم الناس بأنك حقًا رجل الليلة وسيدها!» فمضى ضاحكًا وفي نيّته أن يمثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم في أناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق، ذهب وجاء، ونزل وطلع، وإن لم يفعل شيئًا، بيد أنّ الحركة نفضت عن نفسه طوارئ الفكر فصفت نفسه لمفاتيح الليلة. ولمّا خطرت العروس على قلبه سرت في بدنه قشعريرة بهيمية، ثمّ ذكر آخر ليلة قضاها عند زنوبة العودة من شهر، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودّعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ «يا بن الكلب! . . . كتمت الخبر حتى نلت وطسرك! . . .

(المركب اللي توّدي أحسن من اللي تحيب) . . . مع ألف شبشب يا بن المركب»، لم يعد لزنوبة من أثر في نفسه، ولا لغيرها، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته إلى الأبد، ربّما عاود الشراب فما يظنّ أن تموت رغبته فيه، أمّا النساء فلم يتصوّر أن تزيف عيناه إلى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه، عروسه لذّة متجدّدة، ربيّ للظمأ الوحشيّ الذي طالما قلقل كيانه، ثمّ راح يتمثّل حياته المقبلة، الليلة، والليالي الآتيات، الشهر والعام فالعمر كلّ، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لحظها فهمي بعين مليئة بحبّ الاستطلاع والغبطة

شهدت من رحلات في حنطور والدها وبصحبتها إلى الملاهي البريئة والحدائق فوق الحديث كله من نفس الأم موقعاً أدهشها إلى حد الانزعاج. عجبت لتلك الحياة التي تسمع عنها لأول مرة، وأنكرتها، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغربية استنكاراً جاوز كل تقدير، إلى أن المباهاة بالأصل التركي - وإن لطفت بالأدب والبراءة - ساءتها كثيراً لأنها كانت - على تحشعها وانطوائها - شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلا فترى أنها بهما في مكانة لا تدان، إلا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها إلا اهتمام الإصغاء وابتسامة المجاملة، ولولا حرص الأم الشديد على السلام لانفجرت خديجة حنقاً ولساءت العاقبة، على أنها نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام كتعليقها على أنباء الرحلات مثلاً - وهي التي لم يسمعها أن تجهر فيها برأيها - بالمبالغة في إظهار الدهشة، أو بالهتاف وهي تحمق في وجه محدثتها «يا خيراً!» أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهي تقول: «ويراك السابلة وأنت تمشين في الحديقة!»، أو بقولها: «ما كنت أتصور إمكان هذا يا ربي!» وغير ذلك من العبارات التي وإن لم تفصح ألفاظها عن إساءة إلا أن لهجتها المبطونة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التي يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن إذا ما أنس من ابنه غير البعيد عنه إخلالاً بالنظام أو الأدب وعزاً عليه لزجره صراحة أن يخرج من الصلاة، لذلك لم تكن تخلو إلى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذي عز عليه المتنفس «يا سلام يا سلام على عروسك النزهية». فيقول لها ضاحكاً «هذه هي الموضة التركية التي تسمو على إدراكك!» فتذكرها صفة «التركية» بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول «على فكرة، ست الدار تباهي كثيراً بأصلها التركي، لماذا؟... لأن جدّ جدّ جدّ جدّ جدّها تركي!... حذار يا أخي فإن خاتمة التركيات الجنون» ولكّته يقول لها مجارياً سخرتها «الجنون أحب إليّ من وجه أنفه يجئن ذاك الذوق السليم» تراءى لأعين المتنبئين النفاذ المتوقع بين

عهدهما الجديد! فتساءلت الأخرى بلهجة تشي بالاستنكار «ومن ذا الذي قضى بأن نكون خدماً للعرائس؟! فسألتهما أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هي «أفضلين أن تستقل بمطبخها؟» فهتفت خديجة معترضة «لو كان المال مال أبيها لا مال أبي لحاز هذا! ولكنّي أعني أنها يجب أن تعمل معنا» على أنه لماً قررت زينب، بعد انقضاء أسبوع على الزواج، أن تحمل بعض الأعباء في حجرة الفن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها: «لم تجئي لتعاونك ولكن لتأمرس ما لعلها تدعيه لنفسها من حق»، أو تقول ساخرة «طالما سمعنا عن آل عفت أنهم من الصفوة وأنهم يأكلون ما لا يأكل الناس... فهل وجدت في طهيها شيئاً عجباً لم نسمع به؟» بيد أن زينب اقترحت يوماً أن تصنع «الشركسية» باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها - وهي المرة الأولى لدخول الشركسية في بيت السيد - فحازت لدى تناولها إعجاباً شاملاً بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة، أما خديجة فجئن جنونها وجعلت تهزأ بالصنف قائلة «قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا رأينا؟ أرزاً وصلصة في هيئة بوليتيكا، طعمها لا هنا ولا هناك، كالعروس تزف إلى عريسها في حلّة خلابة وحليّ لالاء حتى إذا نرعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل أي اللحم والعظم والدم!» ثم ما كاد يمضي على الزواج أسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وكمال إن العروس وإن كانت بيضاء البشرة وذات حظ «معتدل» من الجبال إلا أن دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء، قالت هذا في نفس الوقت الذي أكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها المعترف به! على أن ثمة أحاديث صدرت عن زينب بحسن نية - في الأقل لأن وقت سوء النية لم يثن بعد - فاثارت الخواطر وألقت عليها ظلاً من الشك إذ طاب لها كلماً تهبأت مناسبة أن تنوّه بأصلها التركي وإن التزمت الأدب واللفظ كما لذ لها أن تروي لهم بعض ما

تدري أنّ زواج عائشة هو الذي قدّر له أن يفتح لها أبواب الحظّ المغلقة.

- ما أجل أن تكون السلفة هي الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ في الأسر (ثمّ ضاحكة) فلا تبقى إلّا حاتها وأظنّ أمرها هيئاً!  
- إن تكن سلفتها هي شقيقتها فحياتها هي أمّها بلا نقصان.

لم تزل الأمان تتجاملان. لقد أحبّت العجوز وهي تزفّ إليها البشرى بقدر ما أبغضتها يوم خطبت عائشة! يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم، لا تطيق أن تؤجله إلى الغد، لا تدري ما الدافع إلى هذه الرغبة الملحة، لعلّه قول مريم لها غداة خطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنّهم انتظروا حتى تتمّ خطبتك أنت؟!» فأغراها وقتذاك سوء ظنّها المطبوع باتهام براءته الظاهرة. ولما انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة:

- الحقّ أنّي مذ رأيت إبراهيم شوكت قلت لنفسي ما أجدر هذا الرجل الثور الذي لا يبدو أنّه يفرّق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوماً على زوجة مثل خديجة.

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة:

- هل عرفت الأدب والحياء أخيراً!  
بيد أنّ وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكّر صفوهم إلّا حين تساءل كمال في قلق:  
- أتركنا خديجة أيضاً؟  
فقالت الأمّ تعزّيه وتعزّي نفسها:  
- ليست السكّرية بعيدة.

على أنّ كمال لم يستطع أن يدلي بما عنده في حرّية كاملة إلّا حين انفرد بأمّه ليلاً فترتّب قبالتها على الكنبه وسأله بصوت ينمّ عن الاحتجاج واللوم:

- ماذا جرى لعقلك يا نينة؟... أنفّرطين في خديجة كما فرّطت في عائشة؟  
فأفهمته أنّها لم تفرط فيهما ولكنّها ترضى بما يسعدهما.

خديجة وزينب في أفق الأسرة فتبّهما فهمي إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شيء من هذرها، وأشار محدّراً إشارة خفيفة إلى كمال الذي دأب على التنقل بينهم وبين العروس تنقل الفراشة - حاملة اللقاح - بين الأزهار! ولكن غاب عنه - كما غاب عن الأسرة جميعاً - أنّ القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوجّج بالنهاية التي توجّت بها، قالت العجوز مخاطبة الأمّ على مسمع من خديجة:  
- يا أمينة هانم جئتكم اليوم خاصّة لأخطب خديجة لابني إبراهيم...

فرحة بلا تمهيد وإن طال انتظارها حتّى شقّ، فلذلك سجع صوت المرأة في أذني الأمّ سجعاً جميلاً حتّى إنّها لم تذكر أنّ قولاً - قبله - بل صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بلّه فكاد يستخفّها الفرح وهي تقول بصوت متهدّج:

- ليس لي في خديجة أكثر ممّا لك، هي ابنتك ولتجدنّ في جاك أضعاف ما تجد في بيت أبيها من السعادة...

استرسل الحديث السعيد إلّا أنّ خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول، خفضت عينها في حياء وارتابك وقد زایلها روح السخرية التي طالما توهّجت في حدقتها، فشملتها وداعة غير معهودة ثمّ جرت مع تيّار خواطرها، حاء الطلب مفاجأة، فكما بدا عسيراً في غيابه بدا غير مصدّق في حدوثه حتّى لقد غشيت فرحتها موجة ثقيلة من الدهول... «لأخطب خديجة لابني إبراهيم»... ماذا دهاه؟... إنّهُ على خوله الذي أثار هزءها حسن المحيا وجهه في الرجال، فماذا دهاه؟!

- ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين في بيت واحد.

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكّد الحقيقة ويزكي وجوها... ليس ثمة شكّ... إبراهيم مثل خليل مألّ وجاهلاً فأتى حظّ آخرته لها الأقدار، لشدّ ما أسفت على أنّ عائشة سبقتها إلى الزواج إذ لم تكن

فقال محذراً كأنما ينهبها إلى شيء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى:

- ستذهب هي الأخرى، ربّما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة، ولكنّها لن تعود، وستزورك إذا زارتك كالضييفة فيا إن تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم، إني أقولها في صراحة إنّها لن تعود.  
ثمّ محذراً وواعظاً في آن:

- ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق، من يعينك على الكنس والتنفيض؟... من يعينك في حجرة الفرن؟ من يحالسنسا في جلسة المساء؟... من يضحكننا؟... لن تجدي إلاّ أمّ حنفي التي سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كلّ.

فأنهت مرة أخرى أنّ في الزواج سعادة!...  
- أوكد لك أنّه لا سعادة مطلقاً في الزواج. كيف يحظى أحد بالسعادة بعيداً عن نينة؟

ومردفاً بحماس:  
- ثمّ إنّها لا ترغب في الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل... لقد صارحتني بذلك ذات ليلة في فراشها!

ولكنّها قالت له إنّها لا بدّ للفتاة من أن تتزوج، فلم يتمالك من أن يقول:  
- من قال بأنّه لا بدّ للفتاة من أن تذهب إلى بيوت الغرباء!... ثمّ ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول دفتها هي الأخرى و...  
عند ذاك زجرته وأمرته بالآ يتكلّم فيها لا يعنيه

فضرب كفّاً بكفّ وهو يقول منذراً:

- أنت حرة... وسترين!

في تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنها الساء المقمرة لا تغشاها الظلماء، فظلّت مستيقظة حتى جاء السيّد بعد منتصف الليل، ثمّ رقت إليه البشرى فتلقاها بغبطة أطارت عن رأسه الخمار بالرغم ممّا في هذا الرأس من نظريّات غريبة عن زواج البنات، إلاّ أنّه نجّهم بفتة متسائلاً:

- هل أتيج لإبراهيم أن يراها؟  
ساءلت المرأة نفسها ألاّ يمكن أن يدوم ابتهاجه -

مضى شهر العسل وياسين متفرّغ بكلّيته لحياته الزوجيّة الجديدة، لا يصرفه عنها عمل في النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفيّة، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنّه لم يكن يغادره إلاّ للضرورة القصوى كابتئاع زجاجة كونيّاك مثلاً، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملاً أو معي أو صفة خارج نطاق الزوجيّة فاندلق عليها بقوّة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظنّ أنّه ينقذ الخطوات الأولى في برنامج ضخّم من المتعة الجسديّة سيتمتدّ يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً

المراة، ليس يدري كيف يخلص حقًا للنوايا الحسنة التي فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب - على الأقل - من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغني بأحضان زوجه عن العالم الخارجي، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله، ذلك حلم من أحلام الشهوة في سذاجتها، وسيجد من الآن فصاعدًا أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو إليه، وأنه ينبغي أن يتلمس وسيلة أو أخرى - الوقت بعد الوقت - ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته، حتى المغني المجيد إذا طال في تقاسيم الليالي انبعث في نفس السامع الشوق إلى الدخول في الدور، ثم إنه في الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التي تلح عليه، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافي لكل داء... وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شافٍ لكل داء؟ يحسن به من الآن ألا يرسم برامج بعيدة المدى، لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخيل. ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هي - زوجته - عليه بأن يخرجًا معًا.

ما تدري الأسرة ذات مساء إلا ويأسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدًا على مقصدهما بالرغم من أنها قضيا معهم سهرة المساء. بدا الخروج بالنظر إلى وقته المتأخر من ناحية وإلى وقوعه في بيت السيد من ناحية أخرى حادثًا غريبًا أثار شتى الظنون فما عتمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها. عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابته الجارية بصوتها الرنان في بساطة متناهية:

- ذهب يا سيّ إلى كشكش بك.

فهتفت خديجة وأمها في نفس واحد:

- كشكش بك!

ليس الاسم غريبًا عليهم، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه كل من هبّ ودبّ ولكنّه على ذلك يبدو بعيدًا كابطال الخرافات أو كزبلن إبليس الساء. أن يذهب ياسين بزوجه إليه أمر مختلف جدًا ليس دونه أن

بعد عام. ولكنّه أدرك في الثلث الأخير من الشهر أن تفاوله لا بد أن يكون مبالغًا فيه على نحو ما أو أن خللاً لا يدري كنهه قد طرأ على حياته. كان يعاني في حيرة بالغة ولأول مرة في حياته ذاك المرض المتوطن في نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن يمينه ويجوزها تحت سقف بيته، فأجّ فتور يتبخر من تلك «الملكيّة» الأمانة المطمئنة... الملكيّة ذات الظاهر الحلاب المغربي لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحدّ اللامبالاة أو التقزّز كأنها الشيكولاتة المزيّفة التي تُهدى في أول إبريل بقشرة من الحلو وحشو من الثوم، وأيّ مأساة في أن تندمج نشوة القلب والجسد في آليّة العادة المنظّمة العاقلة الباردة المتكرّرة القاتلة للشعور والجذّة كأنها رؤية روحانيّة رفيقة تمسّدت في صلاة لفظيّة ترددها الذاكرة بلا وعي!... وراح الفتى يتساءل عما دهم ثورته، عما هدى شياطينه، عن ذاك الشيع وأين جاء، عن تلك الفتنة أين ذهبت، أين ياسين وأين زينب، أين الأحلام، لهذا شأن الزواج أم شأنه هو، وكيف إذا تتابعت الشهور في أعقاب الشهورا ليس أنه لم يعد له رغبة فيها، ولكنّها لم تعد رغبة الصائم في لذيذ المأكّل، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض ردّ الفعل أو بالأحرى أنّها تزيد حيويّة ورغبة فحينها يظنّ أنّ النوم بات واجبًا بعد طول التعب لا يدري إلّا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفواً حتى قال لنفسه «يا عجبا... أحلامي عن الزواج تحقّقت عندها هي!» إلى هذا كلّ وجد في عنفها نوعًا من الاحتشام وإن طاب له أول الأمر أنه جعله يهيم آخرًا في وديان الذكريات التي ظنّ أنه ودّعها إلى الأبد، طغت على رأسه من الأعماق «زنوبة» وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشرّ يبيّت فالحقّ أنه مرق إلى عشّ الزوجيّة عامر القلب بالنّيّة الحسنة، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمّل، وليقتنع أخيرًا أنّ «العروس» ليست المفتاح السحريّ لدنيا



وذاك الكرب كله، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذي يباع في الأسواق بجسم متوَّب في دعابة ووجه ضاحك ذي لحية عريضة وجبة فضفاضة وعمامة مقلوطة؟ أليس هو من تُنسب إليه الأغاني المرحّة التي استظهر بعضاً منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوي وكيل أبيه؟ فبأيّ شرّ يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التي ارتبطت في خياله بالفكاهة والمرح؟... لعلّ مصدر هذا الكدر إلى اصطحاب ياسين لزوجته لا لكشكش بك نفسه، فإن كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم في الانزعاج من جرأة ياسين خصوصاً وأنّ زيارة أمّه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن ترح مخيلته، أجل كان الأجدد بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه «هو» إن كان يريد رفيقاً لا سبياً وأتته في عطلة الصيف فضلاً عن نجاحه المتفوق في المدرسة، وما يدري إلّا وهو يقول متأثراً بأفكاره:

- ألم يكن من الأفضل أن يأخذني أنا... ١٩٠٠

اندسّ تساؤله في الحديث كما تندسّ نعمة غريبة مقتبسة في لحن شرقيّ صميم، فقالت خديجة:  
- من الآن فصاعداً يحقّ علينا أن نعذرَكَ في قلّة عقلك...!

فندّت عن فهمي ضحكة قائلاً:

- ابن الورّ عوام...

بيد أنّ المثل رنّ في أذنيه رنيناً جافياً وكّد أثره السيئ تحديق أمّه وأخته خديجة في عينيه باستغراب فانتبه إلى خطئه غير المقصود وتداركه قائلاً وقد دخله امتعاض وخجل:

- أخو الورّ عوام!... هذا ما قصدت أقوله...

دلّ الحديث في جملة على تحامل خديجة على زينب من ناحية، وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى، بيد أنّ أمينة لم تعلن ما في نفسها كله. في تلك الليلة عرفت في نفسها أموراً لم تكن تعرفها من قبل. أجل كثيراً ما وجدت نحو زينب إنكاراً وضيقاً ولكنه لم يبلغ أن يكون نفوراً أو كراهية فعزته إلى خيلاء الفتاة بداعٍ وبغير داعٍ، ولكن هالها اليوم أن تحرق الآداب والتقاليد، وأن تحلّ لنفسها ما لا يحلّ -

يقال ذهباً إلى محكمة الجنايات. ردّدت الأمّ عينها بين خديجة وفهمي وتساءلت فيما يشبه الخوف:

- متى يعودان...

فأجابها فهمي وابتسامة لا معنى لها تغم على شفّيته:

- بعد منتصف الليل، وربما قبيل الفجر.

صرفت الأمّ الجارية وانتظرت حتّى غاب وقع أقدامها ثمّ قالت في لهجة وانفعال:

- ماذا دهم ياسين؟! كان جالساً بيننا في كامل عقله... ألم يعد يعمل حساباً لأبيه؟  
فقالت خديجة في حنق:

- ياسين أعقل من أن يدبّر رحلة كهذه، ليست قلّة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال، أقطع ذراعي إن لم تكن هي حرّضته.

فقال فهمي مدفوعاً برغبة في تلطيف الجو المتوتر وإن نفر بطبعه الموروث من جرأة أخيه:

- ياسين ذو ميل قديم إلى الملاحية.

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التي اندفعت قائلة:

- لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله، له أن يحبّ الملاهي كما يحلّوله، أو أن يواصل السهر في الخارج حتّى مطلع الفجر كلّما شاء، ولكنّ اصطحاب زوجته المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلّها جاءت عن إيماء عجز عن مقاومته خصوصاً وأنه يبدو مستكيناً بين يديها كالقطة الأليفة، ثمّ إنّها فيما أرى لا تتورّع عن رغبة كهذه. ألم تسمعها وهي تروي قصص الرحلات التي شاهدتها بصحبة والدها؟! لولا إيماءها ما أخذها معه إلى كشكش بك - يا للفضيحة! - في هذه الآثام التي ينجر فيها الرجال في البيوت كالفيران رعباً من الأستراليين.

لم يقف التعليق على الحادث عند حدّ لما أثاره في النفوس - سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة - من امتعاض، كمال وحده تابع النقاش المحتدم في صمت يقط من دون أن يفسن إلى السرّ الذي جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذلك النقاش كله

بصوت خافت مضطرب كأنها تناجي نفسها:  
- تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه!  
فحملت السيد في وجهها وتساءل في عجب:  
- وزوجه؟... أين ذهباً؟  
ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف، من السيد  
ومن نفسها معاً، ولكن لم تجد بداً من أن تقول:  
- سمعت الجارية تقول إنهما ذهباً إلى كشكش بك!  
- كشكش!

عزف الصوت عاليًا في شراسة وتطاير الشرر من  
العينين اللتين ألهبهما الكحول، وراح يطرح عليها  
السؤال تلو السؤال مزجراً مدممًا حتى طار النوم عن  
رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر  
وهو يغلي من الحنق، ولما كان غضبه ينعكس على  
نفسها رعباً فقد ارتعبت كما لو كانت هي المذنب، ثم  
غضت بالندم على ما بدر منها، ندم عاجلها مبادراً  
عقب البوح بسرّها مباشرة كأنها لم تبج إلا كي تندم،  
فلم تكن تبخل بغالٍ مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع أن  
تصلح خطأها، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها  
بالوقية والشر، ألم يكن الأجدر بها أن تتسرّ عليها  
على أن تنبّهها إلى خطئها غداً إن كانت تريد  
الإصلاح حقاً لا الانتقام؟.. ولكنها أذعنت لعاطفة  
شريرة، عن عمد وسوء نية، فهيأت للفنّي وعروسه  
نكداً لم يدّر لها بخلد وجرت على نفسها ندماً بات  
يحرق نفسها الملعونة حرقاً بلا رحمة، وراحت تدعو  
الله - خجلى من ذكره - أن يلفظ بهم جميعاً، مضى  
الوقت تفرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتهت على صوت  
السيد وهو يقول متهكّياً بمرارة:

- جاء سي كشكش...

فأرهفت السمع وهي تتطلع بناظريها إلى النافذة  
الفتوحة المطلّة على الفناء فترامى إليها صرير الباب  
الكبير وهو يغلق، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت  
بطريقة آلية ولكنها تسمرت في مكانها جبناً وخزيًا  
وضربات قلبها تندافع حتى سمعت صوته الجهر وهو  
يخاطب القادمين قائلاً «اتبعاني إلى حجرتي» فتنهّى بها  
الخوف فتسلّلت من الحجرة هاربة... عاد السيد إلى

في نظرها هي - إلا للرجال، عابت هذا السلوك بعين  
امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران، امرأة دفعت  
صحتها وسلامتها ثمناً لزيارة بريئة لزين آل البيت لا  
لكشكش بك، فهاجج انتقادها الصامت شعور طافح  
بالمرارة والغيط كأن منطلقها غدا يردّد فيها بينها وبين  
نفسها «إما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة  
هباء». هكذا تلوّث بالحنق والموجدة - في الشهر الأول  
من معاشرته لامرأة جديدة - القلب الطاهر الورع  
الذي لم يعرف طول حياته المحفوفة بالجدّ والصرامة  
والتعب إلا الطاعة والعفو والصفاء. ولما آوت إلى  
حجرتها لم تدر إن كانت تودّ - كما دعت بلسانها أمام  
أبنائها - أن يستر الله على «حنائية» ياسين أم أنها ترجو  
أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجها جزاءها من الزجر  
والتأنيب؟ بدت تلك الليلة وكأنها لا يعينها من أمر  
الدنيا شيئاً إلا أن تُصان تقاليد الأسرة من كلّ عبث  
وأن يدفع عنها ما يتحرّش بها من عدوان، بدت غيوراً  
على الآداب إلى حدّ القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة  
المالوفة في الأعماق باسم الإخلاص والفضيلة والدين  
متعلّلة بها فراراً من ضميرها المتألم كالخلم الذي ينفس  
عن غرائز مكبوتة باسم الحرّة أو غيرها من المبادئ  
السامية. جاء السيد وهي على تلك الحال من  
التصميم إلا أنّ منظره بثّ الخوف في حناياها فانعقد  
لسانها، راحت تتابع حديثه وتحيب عن أسئلته بذهن  
شارد وفؤاد خائف لا تدري كيف تنفس عمّا احتدم  
بخاطرها، وكلّما مرّ الوقت واقترب موعد النوم ألحت  
عليها رغبة عصبية في الكلام، كم ودّت لو تتكشّف  
الحقيقة بنفسها كأن يجيء ياسين وزوجه مثلاً قبل  
إخلاق أبيه إلى النوم فينتبه السيد بنفسه إلى فعلته  
النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه في سلوكها بغير  
تدخل منها هي - الأم - لا شكّ أنه يحزنها بقدر ما  
يرمجحها... انتظرت طويلاً في لهفة وقلق أن يطرق  
الباب الكبير، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تئاءب  
السيد وقال بصوت مترخّ:

- أطفئي المصباح..

حاققت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت

مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب، فحذج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلاً ياسين ثم قال بحزم وإن نقى نبراته من الغلظة والجفاء:

- أصغي إلي يا بنتي جيّداً، أبوك أخي أو أوثق صلة ومودة، فأنت ابنتي كخديجة وعائشة على السواء، ما قصدت أبداً أن أكدر صفوك ولكن ثمة أمور أهدأ السكوت عنها جريمة لا تغتفر، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل، لا تحسبي أنّ في وجود زوجك معك عذراً عن هذا السلوك الشاذّ فإنّ الزوج الذي يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقلل من العثرات التي هو للأسف أول دافع إليها، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنّه لا ذنب لك إلا أنّك جاريته على هواه فرجائي إليك أن تعاونيني على إصلاح أمره بالآل تستسلمي إلى غواياته مرة أخرى...

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الدهول، وعلى أنّها كانت تحظى في كنف أبيها بقسط من الحرّية إلا أنّها لم تجرد في نفسها شجاعة على مناقشة الرجل بله معارضته، كأنّ إقامتها في بيته شهراً أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لإرادته التي يفرّق حيالها كلّ حيّ في البيت. احتجّ باطنها بأنّ أباه نفسه استساغ أكثر من مرة أن يصطحبها إلى السينما، وأنّه لا يحقّ له منعها من شيء سمح به زوجها، إلى اقتناعها بأنّها لم تحرق أدباً أو تهتك حرمة، قال باطنها هذا وأكثر بيد أنّها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيّه الملمزتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذي بدا - وهو يرفع رأسه - كأنّه مسدّس مصوّب نحوها، فانكتم حديثها الباطنيّ تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتيّة في جهاز الاستقبال بالمذياع بإغلاق مفتاحه، ثمّ ما تدري إلّا وهو يسأله وكأنّه يتبادى في تحدّيه لها:

- ألك اعتراض على قولي؟

فهزّت رأسها بالنفي ورسمت شفتها حرف «لا» دون أن تنطق به فقال لها:

- اتّقنا. تفضّلي إلى حجرتك بسلام...

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيّد صوب

ياسين الذي أخفى عينيّه في الأرض، ثمّ قال وهو يهزّ رأسه في أسف شديد:

- الأمر جدّ خطير ولكن ما حيلتي؟... لم تعد طفلاً وإلّا كسرت رأسك، ولكنك وأسفاه رجل وموظّف وزوج أيضاً وإن كنت لا تتورّع عن العبث برباط الزوجيّة، فما عسى أن أصنع بك؟ أهذه نهاية تربيتي لك؟... (ثمّ بصوت أذهب في التأسف)... ماذا دهاك؟... أين الرجولة؟... أين الكرامة؟... يعزّ عليّ والله أن أصدّق ما وقع.

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلّم فظنّ صمته خوفاً وشعوراً بالخطأ - إذ لم يتصوّر أن يكون ما به سكر - ولكنّه لم يجد في ذلك عزاء، بدا الخطأ أقطع من أن يترك بلا علاج حاسم، فلماذا لم يكن من سبيل إلى العلاج القديم - العصا - فلا أقلّ من الحزم وإلّا انتثر سلك الأسرة جميعاً، قال:

- ألم تعلم بأنّي أحرم على زوجي الخروج ولو لزيارة الحسين؟ كيف إذن سوّلت لك نفسك أن تأخذ زوجك إلى ملهى داعر لتسهر فيه إلى ما بعد منتصف الليل؟... يا أحمق أنت تدفع بنفسك وبزوجك إلى الهاوية فأنّي شيطان ركبك؟

وجد ياسين في الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل في الحديث بطلاقة مربية تنمّ في النهاية على سكره، لا سيّما وأنّ خياله أصرّ على التسلّل - هازئاً بالموقف الخطير - من الحجرة فانطلق إلى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة تارة ومترنّحة أخرى، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعت في نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التي غناها المهرجون في المسرح فكانت تثب إلى ذهنه - على رغمه - بين لحظة وأخرى كالأشباح في ليل المرعوب هامة:

أبيع هدومي عشان بوسة

من خدك القشدة يا ملبين

يا حلوة زيّ البسبوسة

يا مهلبية كيان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثمّ تظفر راجعة، ولكنّ أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضباً:

يعود إلى سماتها هي قبل كل شيء! على أن «جمالها» لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل أثق له أن رآها بعينيه، بيد أن جميع مظاهر السعادة التي أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذي دبّ في أعماقها لوشك البين، حين خلّق بفنائه مثلها لم يخفق قلبها بحبّ شيء في الوجود كحبّها لأهلها وبيتها جميعاً من الوالدين المعبودين إلى الدجاج والبلابل والياسمين، حتّى الزواج نفسه الذي طالما تحرّقت في انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهوّن عليها مرارة الفراق، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حبّ البيت وإعزازه، وربّما غلب عليها الضجر في مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأنّ الحبّ كالصخّة، يهون في الوصال ويعزّ عند الفراق، فلمّا أن اطمأنت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة إلى حياة دون جزع شديد كأنّها يكفّر عن إثم أو يضرّ بغالٍ، تطلّع كمال إليها صامتاً، لم يعد يتساءل هل تعودين، بعد أن عرف أنّ التي تتزوّج لا تعود إلّا أنّه خاطب شقيقته مغنماً (سوف أزوركما كثيراً عقب الخروج من المدرسة) فرحبت به معاً بيد أنّه لم تعد تغرّر به الآمال الكاذبة، كثيراً ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة. يجد مكانها أخرى مترجّة تلقاه بتودّد بالغ يشعره بالغربة ثمّ لا يكاد يخلو إليها حتّى يدرّكها زوجها الذي لا يغادر البيت قانعاً من ألوان التسلية بسجائره وجليونه وعود يعث بأوتاره بين حين وآخر، لن تكون خديجة خيراً من عائشة، فليس من رفيق في البيت إلّا زينب، وهي لا تتودّد إليه كما يحبّ إلّا بمشهد من أمّه كأنّها تتودّد إليها هي فإذا غابت الأمّ تجاهلته كأنّه لا يكون! ومع أنّ زينب لم تشعر بأنّها ستفقد عزيزاً بذهاب خديجة إلّا أنّها استنكرت الجوّ الرزين الصامت الذي يغشى يوم الزفاف، فتعلّلت بذلك لتفصح عمّا تكنه لروح السيّد المسيطرة من حقّ وغيط فراحت تقول متهمّة «ما رأينا بيتاً يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا... حكم!» غير أنّها لم تشأ أن تودّع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوّت كثيراً بمقدرتها، وأنها «ست بيت» خليقة بأن يهتأ عليها

- انطق حدّثني عن رأيك فإنّي مصمّم على ألا يمرّ الحادث بسلام!...

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهمّاً مضطرباً ثمّ قال وهو يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه:

- كان والدها يعاملها بشيء من التسامح... (ثمّ متعجّلاً) ولكنّي أقرّ بأنّي أخطأت...

فصاح السيّد مغضباً ومتجاهلاً الجملة الأخيرة:

- لم تعد في بيت أبيها، عليها أن تحترم آداب الأسرة التي صارت عضواً فيها، أنت زوجها وسيدها وببدك وحدك أن تصوّرها في أيّ صورة تشاء، خبرني عن المسئول عن ذهابها معك أنت أم هي؟

شعر على سكره بالفتح المنصوب له ولكنّ الخوف دفعه إلى التوازي فغمغم:

- لمّا علمت بنّيتي في الخروج توسّلت إليّ أن أصطحبها...

فضرب السيّد كفّاً بكفّ وهو يقول:

- أيّ رجل في الرجال أنت؟... كان الجواب الخلق بها لطمّة!... إنّه لا يفسد النساء إلّا الرجال وليس كلّ الرجال جديراً بالقيام على النساء... وتذهب بها إلى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا...؟

تخالفت لعينيه الصور التي أفسدها تعرّض أبيه له على رأس السّلم وعادت الانغمات تتجاوب في رأسه «أبيع هدمي...» ولكن ما يدري إلّا والرجل يقول له متوعداً:

- لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطّن نفسك على احترامه ما رغبت في البقاء فيه...

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأنّ التزيين خير مهمة تؤدّيها في الحياة على أكمل الوجوه، فبدت خديجة عروساً حقاً تأخذ أهبتها للانتقال إلى بيت العريس وإن ادّعت - جرئاً على عاداتها في التقليل من شأن الخدمات التي يؤدّيها لها الغير - أنّ أكبر الفضل في إظهارها بالمظهر اللائق إنّما

- بعلمها، فأمنت عائشة على قولها وأردفت قائلة:
- لا عيب فيها إلا لسانها!... ألم تجرّبه يا زينب؟
- فما عمّالكت أن ضحككت قائلة:
- لم أجربه والحمد لله ولكنني سمعته وغيري يجربه.
- وتعالى الضحك، وخديجة أولى الضاحكات، حتى
- رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفية «هس» فأمسكن
- مرة واحدة، فترامى إليهنّ صُوات من الخارج فصاحت
- خديجة من فورها منزعة:
- مات السيّد رضوان!
- كانت مريم وأمّها قد اعتذرتا عن عدم شهود
- الزفاف لاشتداد المرض على السيّد محمد رضوان فلم
- يكن غريباً أن تستدلّ خديجة بالصوات على موت
- الرجل، وغادرت الأمّ الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثمّ
- عادت وهي تقول بأسف شديد:
- مات الشيخ محمد رضوان حقّاً... يا له من
- موقف حرج!
- فقال زينب:
- عذرنا واضح كالشمس، لم يعد في وسعنا تأجيل
- الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بليته في بيته وهو
- بحمد الله بعيد، أمّا أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا
- الصمت البليغ؟!
- لكنّ خديجة شردت في خواطر أخرى انقبض لها
- قلبها خوفاً فتطيّرت من النبأ المحزن وغمغمت كأنّها
- تخاطب نفسها:
- يا لطيف يا ربّ...!
- فقرأت الأمّ أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنّها
- أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارئ أو أنّ ابنتها
- تستكين له فقالت باستهانة متصنّعة:
- لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده،
- والتشاؤم من عند الشيطان...!
- انضمّ ياسين وفهمي إلى المجتمعات بحجرة
- العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسها فأخبرا الأمّ
- بأنّ السيّد ناب عن الأسرة - بالنظر إلى ضيق الوقت -
- في تقديم واجب العزاء إلى آل السيّد رضوان، ثمّ
- حدج ياسين إلى خديجة وقال ضاحكاً:
- أبي السيّد رضوان أن يبقى في الدنيا بعد رحيلك
- عن جواره...!
- فردّت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها
- فمضى يتفحصها بعناية وهو يهزّ رأسه متظاهراً بالرضى
- ثمّ قال متنبّها:
- صدق من قال «لئس البوصة تبقى عروسة»...!
- فقطّبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثمّ نهزته
- قائلة:
- اسكت، إنّي متطيّرة من موت السيّد رضوان في
- يوم زفافي.
- فقال ضاحكاً:
- لا أدري أيّكما جنى على صاحبه؟
- ثمّ وهو يواصل الضحك:
- لا خوف عليك من موت الرجل، لا تشغلي
- فكرك به، ولكنّي أخاف عليك من لسانك فهو الأحقّ
- بأنّ تتطيري منه، ونصيحتي التي لا أملُ ترديدها أن
- تنقيّه في شراب مشبع بالسكّر حتى يحلو ويصلح
- لمخاطبة العريس...!
- عند ذلك قال فهمي متلفظاً:
- مهما يكن من أمر السيّد رضوان فيوم زفافك لم
- يُخلّ من بركة طال انتظار الأرض لها: ألم تعلمي أنّ
- الهدنة قد أعلنت؟
- فهتف ياسين:
- كدت أنسى هذا! ليس زفافك المعجزة الوحيدة في
- يومنا هذا. حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهت
- الحرب وسلم غليوم.
- فتساءلت الأمّ:
- هل يذهب الغلاء والأستراليون؟!
- فقال ياسين ضاحكاً:
- طبعاً... طبعاً... الغلاء والأستراليون ولسان
- خديجة هانم.
- لاح التفكير في عيني فهمي، ثمّ قال وكأنّه يخاطب
- نفسه:
- غلب الألمان!... من كان يتصوّر هذا؟!... لا
- أمل بعد اليوم في أن يعود عبّاس أو محمد فريد،

وعينين مرتعشتين «ألا يعني هذا أنه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة؟ (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله؟ كأي كنت في حلم سعيد! أين كان يدخر هذا العطف الجميل؟» ثم دعت له طويلًا حتى اغرورقت عينها بالدموع...

وجاءت أم حنفي تعلمهم بوصول السيارات...

## ٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل، على أن خديجة تركت فراغًا لم يسد فكأنها استلّت روحه وسليته حيوته وحرمة مزايلا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت في مجلسنا كالمح في الطعام، ليس الملح في ذاته لذيذًا ولكن ما لذة الطعام من دونه؟» بيد أنه لم يجهر برأيه بجملة لزوجته إذ أنه لم يزل - على خيبة أمله في الزواج التي لم يعد لها من دواء في البيت - يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسيء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى في «القهوة» كما يزعم لها، ولئن كان مزاحه يفوق جدّه، إن كان ثمة جدّ، إلا أنه فقد النديم الذي طالما طارحه الدعابة وهيا له دواعيها فلم يبق له إلا أن يقنع بالقليل في هذه الجلسة التقليدية، ها هو يترّج على الكنية، يحسو القهوة، ويمدّ بصره إلى الكنية المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين في أحاديث لا طائل تحتها، ولعلّه يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من «ثقل الدم» ويسلم بوجهة نظرها... ثم يفتح ديوان الحياصة أو غادة كربلاء ويقرأ، أو يقصّ على كمال شيئًا مما قرأ، ويلتفت إلى يمينه فيرى فهمي متوقّفًا للحديث، عن أي شيء يا ثري، محمد فريد، مصطفى كامل،... لا يدري ولكنه سيتكلّم بلا ريب، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسقاء المنذرة بالمطر، هل ينكسه؟... كلاً، لا حاجة به إلى ذلك، ها هو يستقبله باهتمام شديد ويحدّجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله:

كذلك آمال الخلافة قد ضاعت، لا يزال نجم الإنجليز في صعود ونجمنا في أفول فله الأمر... فقال ياسين:

- اثنان كسبا الحرب هما الإنجليز والسلطان فؤاد، فلا أولئك كانوا يملكون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يملك بالعرش...

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكًا:

- وثالث لا يقلّ حظّه عن السابقين هو عروستنا

التي ما كانت تحمل بالعريس...

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت:

- تأبى أن أغادر البيت من غير أن ألدغك...

فتراجع وهو يقول:

- من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنًا من

غليوم أو هندنرج...

ثم نظر إلى فهمي الذي لاح في وجهه التفكير بحال

لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له:

- اطرح السياسة وراء ظهرك وتبيّ للطرّب ولذيذ

المأكّل والمشارب...

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على

قلبها أحلام وأحلام إلا أن ذكرى قريبة - من ذكريات

الصباح فحسب - ألحّت عليها من شدة تأثرها بها حتى

كادت تحجب غيرها من الشجون، تلك دعوة أبيها لها

على انفراد لمناسبة اليوم الذي يعدّ مبدأ حياة جديدة في

حياتها، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسًا شافيًا من وعكة

الحياء والرغبة التي اعترتها حتى تعثّرت في مشيتها، ثم

قال لها بروقة وقعت من نفسها موقعًا غريبًا لا عهد لها

به:

- ربّنا يسدّد خطاك ويمهّن لك التوفيق وراحة

البال، وما من نصيحة تُسدّى إليك خيرًا من أن أقول:

اقتدي بأمك في كلّ كبيرة وصغيرة...

وأعطاهما يده فقبّلتهما ثم غادرت الحجرة لا تكاد

تري ما بين يديها من الانفعال والتأثر، وجعلت تردّد

طول الوقت «كم أنه لطيف رقيق رحيم!» ثم تذكر

بقلب ملؤه السعادة قوله «اقتدي بأمك في كلّ كبيرة

وصغيرة» وتقول لأُمّها التي أصغت إليها بوجه متورّد

- ألم تبلغك أنباء جديدة...؟

يسأله هو عن أنباء جديدة! عندي أنباء لا عدّ لها... الزواج أكبر خدعة، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع، لا تحزن على ما فاتك من مريم أيها السياسي الغرّ، أتريد أنباء أخرى؟! لديّ منها الكثير لكنّها على وجه اليقين لا تهمك البتّة، ثم إنّ الشجاعة تخونني إذا سؤلت لي نفسي إذاعتها على مسمع من زوجي، وما يدري إلّا وهو يستشهد - في سرّه طبعاً - بقول الشريف:

عندي رسائل شوق لست أذكرها

لولا «الرقيب» لقد بلغتها فاك

ثمّ تساءل بدوره:

- أيّ أنباء جديدة تعني؟...

فقال فهمي باهتمام شديد:

- ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كلّهُ وهو أنّ وفدًا مصريًا مكوّنًا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعليّ شعراوي باشا توجّه أمس إلى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال...

ورفع ياسين حاجبيه في اهتمام ولاحت في عينيه نظرة شكّ مقرونة بالدهشة، لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم في نفسه شيئًا ذا بال اللّهمّ إلّا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك في قلبه - الذي لا يكاد يعبأ بالأمور العامّة - أثرًا عاطفيًا يدلّ عليها ولو من بعيد، إلّا أنّ الاسمين الآخرين كانا يقعان في أذنه لأول مرّة، يئد أنّ غرابة الأسماء ليست شيئًا يذكر إلى جانب الحركة التي قام بها أصحابها إن صحّ ما يقول فهمي، إذ كيف يتصوّر أن يطالب الإنجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر؟! وسأله:

- ماذا تعرف عن هؤلاء السادة؟

فقال فهمي بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يؤدّ لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنيّ: - سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعيّة، وعبد

العزيز فهمي وعليّ شعراوي عضوان بها، الحقّ أنّي لا أعرف شيئًا عن الآخرين أمّا سعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها ممّا ترامى إليّ عن كثيرين من زملائي الطلبة الوطنيّين الذين يختلفون فيه كثيرًا، منهم من يعدّه ذنبًا من أذنان الإنجليز ولا شيء أكثر من هذا ومنهم من يقرّ له مجازيا عظمة جدية بأن ترفعه إلى مصافّ رجال الحزب الوطنيّ أنفسهم. ومهما يكن من شأن فالخطوة التي أقدم عليها مع زميليه - ويقال إنّ كان الداعي إليها كذلك - عمل مجيد لعلّه لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرزين من الوطنيّين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد...

بدا ياسين جادًا أن يظنّ به الآخر استهانة بحماسة وردّد قائلاً وكأنّه يسائل نفسه:

- المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال!...

- وسمعنا أيضًا أنّهم طالبوا بالسفر إلى لندن للسعي إلى الاستقلال، وأنّهم لهذا القصد قابلوا السير «ريجنالد ونجت» نائب الملك!...

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء:

- الاستقلال!... أتعني هذا حقًّا؟... ماذا تعني؟...

فقال فهمي بلهجة عصبيّة:

- أعني إخراج الإنجليز من مصر، أو الجلاء كما عبّر عنه مصطفى كامل ودعا إليه...

يا له من أمل!... لم يكن السعي إلى حديث السياسة من طبعه ولكنّه يقبل دعوة فهمي كلّها دعا إليه، اتّقاء لتكديره، وطلبًا لنوع طريف من التسلية، وربّما ثار اهتمامه بين الحين والحين وإن لم يبلغ درجة الحماس، بل ربّما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة، ولكنّه أثبت طوال حياته أنّه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامّة، كأنّه لا غاية له وراء التّنعّم بطيّبات الحياة ولذاتها، لذلك لم يجد في نفسه استعدادًا

للاخذ بهذه الأقوال مأخذ الجدّ وتساءل مرّة أخرى:

- هل يقع هذا في حدود الإمكان حقًّا؟

فقال فهمي بحماس لا يخلو من لوم:

- لا يأس مع الحياة يا أخي!...

فأثارت هذه الجملة في نفسه ما تثيره أمثالها من ميل إلى السخرية بَيِّدَ أَنَّهُ تساءل متظاهراً بالجد:

- وكيف لنا بأن نخرجهم؟

ففكر فهمي قليلاً ثم قال عابساً:

- لهذا طلب سعد وزميلاه السفر إلى لندن!

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كي تفهم أقصى ما يسعها فهمه منه كدأها كلما شار حديث في الشؤون العامة البعيدة كلَّ البعد عن اللغو المنزلي، تلك الأمور تشوقها، وتدعي القدرة على فهمها، ولا تتردد إذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها في أحيان كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف، ولكن لم يكن شيء ليحطم مجاديفها أو يصدّها عن الاهتمام بهذه الشؤون «الكبيرة» التي يبدو أنّها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التي تدفعها إلى التعلّق بدروس كمال الدينيّة أو مناقشة ما يلقي عليها من معلوماته الجغرافيّة والتاريخيّة على ضوء معارفها الدينيّة أو الأسطوريّة، وقد أكسبها هذا الجد شيئاً من الإلمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبّها لهم إخلاصهم للخلافة الأمر الذي قرّبهم في نظرها - كشخص يقدر الرجال بحسب منازلهم الدينيّة - من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم، ولما أن ذكر فهمي أنّ سعداً وزميليه يطلبان السفر إلى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة متسائلة:

- أيّ بلاد الله لندن هذه؟

فبادرها كمال باللهجة المنغومة التي يسمّع بها التلاميذ دروسهم:

- لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاين وعاصمتها الكاب... .

ثم مال على أذنها هامساً «لندن بلاد الإنجليز» فتولّت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمي:

- يذهبون إلى بلاد الإنجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا

من مصر؟!... ليس هذا من الذوق في شيء... .

كيف تزورني في بيتي وأنت تضمّر طردي من بيتك؟!...

أصجرت مقاطعتها الشاب فنظر إليها باسمًا معاتباً

في آن ولكنّها ظنّت أنّها بسبيل إقناعه فأردفت قائلة:

- وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة

طالت هذا الدهر كله؟! لقد ولدنا وولدتم وهم في

بلادنا فهل من «الإنسانيّة» أن نتصدّى لهم بعد ذاك

العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح

العبرة - وفي بلادهم أيضاً - اخرجوا؟!...

ابتسم فهمي كاليأس على حين قهقهه ياسين، أما

زينب فقالت جادة:

- كيف تواتيهم الجراة على أن يقولوا لهم هذا في

بلادهم!... هب الإنجليز قتلهم هناك فمن ذا

يدري بهم؟!... ألم يجعل جنودهم المشي في الشوارع

البعيدة من المخاطرات غير المأمونة؟!... فكيف بمن

تحدّثه نفسه باقتحام ديارهم؟!...

ودّ ياسين لو يسترسل مع المرأتين في حديثها الساذج

إرواء لعواطفه الظامئة إلى المزاح ولكنّه لمس ضجر

فهمي فأشفق من إغضابه، فتحوّل إليه مواصلاً ما

انقطع من الحديث وهو يقول:

- في كلامها حقّ لم تحسنا التعبير عنه، خبرني يا

أخي ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعدّ الآن

سيّدة العالم بلا منازع؟

فوافقت الأم على قوله بإيماءة من رأسها كأنّ

الحديث كان موجّهاً إليها وراحت تقول:

- كان عرابي باشا أعظم الرجال وأشجعهم، لا

يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارساً وكان مقاتلاً،

فماذا لقي من الإنجليز يا ولداه؟ أسروه ثم نفوه إلى

بلاد وراء الشمس... .

فلم يتألّك فهمي من أن يقول لها بلهجة جمعت

بين الرجاء والضيّق:

- نينة!... هلاً تركتنا نتحدّث؟!...

فابتسمت فيها يشبه الحياء مشفقة كلّ الإشفاق من

إغضابه فغيّرت لهجتها الحسّاسية كأنّما هي بتغيير لهجتها

تعلن تغيّر رأيها كله ثمّ قالت برقة واعتدار:

- يا سيدي لكلّ مجتهد نصيب، فليذهبوا في رعاية

الله، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة... .



له ملابسه، فشيّعه فهمي بنظرة لا تخلو من غضب، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة، لشد ما تثير أحداث الوطنية أكبر الأحلام في نفسه، في دنياها الساحرة تترأى لعينيهِ دنيا جديدة، ووطن جديد وبيت جديد، وأهل جدد، ينتفضون جميعاً حيوية وحاسة ولكن ما إن يفيق على هذا الجوّ الخائق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتّى تشبّ بين أضلعه نار الحسرة والألم فزوم في قهرها متنقّساً - أيّاً ما كان - تنطلق منه إلى السماء، ودّ في تلك اللحظة بكلّ قوّته لو ينطوي الليل في غمضة عين ليجد نفسه مرّة أخرى في مجمع الطلاب من إخوانه فيروي ظمأه إلى الحساس والحريّة ويسمو في وئدة حماسهم إلى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعدّ اليوم بحقّ سيّدة العالم، وهو نفسه لا يدري على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد، ولا يدري ماذا يمكن أن يصنع، ولكنّه يشعر بكلّ ما في قلبه من قوّة بأنّ ثمة ما يجب عمله، ربّما لم يجده ماثلاً في عالم الواقع، ولكنّه يشعر به كامناً في قلبه ودمه، فما أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع أو فلتتمض الحياة عبثاً من العبث وباطلاً من الأباطيل...

#### ٤٩

بدا الطريق أمام دكّان السيّد أحمد - كمادته - مكتظاً بالسبلة والمركبات ورواد الدكاكين المترافعة على الجانبين إلّا أنّ هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جوّ نوفمبر اللطيف الذي حجبت شمسهُ وراء سحائب رفاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنّها بحيرات من نور، لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف ممّا اعتاد السيّد أن يراه كلّ يوم، ولكنّ نفس الرجل، والأنفُس الموصولة بنفسه وربّما أنفُس الناس جميعاً تعرّضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتّى قال السيّد إنّهُ لم تمرّ به أيّام كهذه الأيّام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم بإحساس

فما يدري الشابّ إلّا وهو يسألها في غرابة:  
- أيّ ملكة تقصدين؟  
- الملكة فيكتوريا يا بنيّ، أليس هذا اسمها؟...  
طلما سمعت أبي وهو يتحدث عنها، هي التي أمرت بنفي عرابي ولكنها أعجبت بشجاعته كثيراً فيها قيل...  
فقال ياسين ساخراً:  
- إذا كانت قد نفت عرابي الفارس فهي أجدر أن تنفي سعداً العجوزاً...  
فقال الأمّ:  
- مهما يكن من أمرها فهي لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شكّ قلباً رقيقاً فإذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتودّدون إليها جبرت بخاطرهم...  
وجد ياسين سروراً كبيراً في منطق الأمّ التي جعلت تتحدّث عن الملكة التاريخيّة كما لو كانت تتحدّث عن أمّ مريم أو غيرها من الجارات، ولم يعد يرغب في مجارة فهمي، فسألها بإغراء:  
- خبرينا عمّا يحسن أن يقولوه لها؟  
فاعتدلت المرأة في جلستها مسرورة بهذا السؤال الذي أقرّ لها بالجدارة «السياسيّة» ومضت تفكر باهتمام لاح في تقارب حاجبيها في صيغة مناسبة لأوّل «مفاوضة» بيد أنّ فهمي لم يمهلهما حتّى تتمّ تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء:  
- الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد، لا تتعبني نفسك بلا طائل!

انتبه ياسين عند ذاك إلى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصائص النوافذ فأدرك أنّه آن له أن يودّع المجلس ليمضي إلى سهرته، ولتّما كان يعلم حقّ العلم بأنّ ظمأ فهمي لم يرو بعد فقد رغب في أن يقدّم له اعتذاره عن ذهابه في صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذي أخذ بلبّه فقال له وهو ينهض:

- إنهم رجال يدركون بلا شكّ خطورة ما أقدموا عليه فعلمهم أعدوا له الوسيلة الناجحة، فلندعّ لهم بالتوفيق.

وغادر المجلس وهو يشير إلى زينب لتلتحق به فتجهّز

الهامّة من صلات القرى. كان السيّد عَفَت دأبًا همزة الوصل بين جماعته الأصليّة المكوّنة من تجّار وبين من انضمّ إليها بمضيّ الزمن من موظّفين ممتازين ومحامين وإن تفرّد السيّد أحمد بمنزلة الإعزاز بفضل شخصيّته وسجاياه، غير أنّ صلة القرى هذه التي لم تفقد شيئًا من خطورتها قطّ لدى أصدقائه التجّار الذين يتطلّعون إلى الموظّفين وذوي الألقاب بنظرة ملؤها الإكبار، صلة القرى هذه قد زادت خطورة في هذه الأيام التي بات فيها «الخبر الجديد» أهمّ من الماء والغذاء!... بسط السيّد عَفَت صحيفة كانت مطوّية بيمينه ثمّ قال:

- خطوة جديدة... لم أعد ناقل أنباء فحسب ولكيّ بَثّ رسولاً أحمل إليك وإلى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد...

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسمًا «اقرأ» فتناولها السيّد وقرأ:

- نحن الموقعين على هذا قد أنبأنا عنّا حضرات سعد زغلول باشا وعليّ شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمّد عليّ علوية بك وعبد اللطيف المكيّات ومحمّد محمود باشا وأحمد لطفي السيّد بك، ولهم أن يضمّوا إليهم من يختارون، في أن يسعوا بالطرق السلميّة المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلاً في استقلال مصر استقلالاً تامًّا...

فتهلّل وجه السيّد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصريّ الذين سمع بهم فيما سمع من أبناء الحياة الوطنيّة التي تردّدها الألسن، وتساءل:

- ماذا تعني هذه الورقة؟

فقال الرجل بحماس:

- ألا ترى هذه الإمضاءات؟... وقع تحتها بإمضاءك وادع جميل الحمزاوي ليوقع بإمضاءه أيضًا. هذا توكيل من التوكيلات التي طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتحذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصريّة... أمسك السيّد بالقلم ووقع بإمضاءه في سرور تجلّ في تألّق عينيه الزرقاوين وهو يتبسّم ابتسامة رقيقة غمت عن شعوره بالسعادة والخلاء إذ يوكل عن نفسه سعدًا وزملاءه، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على

واحد. فهمي الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأ هو بالحديث، نقل إليه في إسهاب ما اتّصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك، وفي مساء اليوم نفسه، وفي مجلس الطرب، أكّد نفر من الصحاب أنّ الخبر حقيقة لا يرتقي إليها الشكّ، وفي دكانه حدث أكثر من مرّة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة، بل ما يدري هذا الصباح إلّا والشيخ متولّي عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى إلّا أن يعلن نبا الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأوّل مرّة ولمّا سأله السيّد - مداعبًا - عمّا يظنّ أن تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ «محال!... محال أن يخرج الإنجليز من مصر، أتحسبهم مجانين كي يجلبوا عن البلد بلا قتال!... لا بدّ من قتال، ولا قتال لنا، فلا سبيل إلى إخراجهم، فلعلّ رجالنا يوفّقون ولو إلى إبعاد الأستراليّين حتّى يعود الأمن إلى سابق عهده، والسلام؟» أيام أنباء ومشاعر فيّاضة صادفت في السيّد رجلًا ذا قابليّة شديدة لعدوى الأشواق الوطنيّة والسياسيّة فبات على حال من الانتظار والتوقّع جعلته يُقبل بانفعال على قراءة الجرائد التي بدت في الأغلب وكأنّها تصدر في بلد غريب لا انفعال فيه ولا توتّب، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلّف عمّا وراءهم من جديد، وعلى تلك الحال استقبل السيّد محمّد عَفَت حين دخل الدكان مهزولًا، لم تكن نظرة القادم الحادّة ولا حركته النشيطة ممّا يوحي بأنّه مجرد زائر قد عرّج إلى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة، فوجد السيّد في مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوّقة فبادره قائلاً والآخر يشقّ طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوي على قضاء حوائجهم:

- صباحنا نادر، ماذا وراءك يا سبع؟

اتّخذ السيّد محمّد عَفَت مجلسه لصق المكتب وهو يتبسّم ابتسامة وشت بالعجب كأنّ قول السيّد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذي يتكرّر كلّما لاقى أحدًا من صحبه - إقرار بأهمّيّته في هذه الأيام البالغة في أهمّيّتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيّات المصريّة

السيد فهمس في أذن صاحبه:  
- كأي لشدة سروري بهذا التوكيل الوطني نيل يعل  
الكأس الثامنة بين فخذي زبيدة...!  
فحرك محمد عفت رأسه في تأثر كأن الصورة التي  
جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته،  
وغمغم:

- يا ما بكره نسمع...

ثم غادر الدكان والسيد في أعقابته مبتسماً:

- وبعده نشوف...!

ثم عاد إلى مكتبه وأثر المزاج منبسط في أساريه  
وانفعال الحماس في قلبه لا يخمد، شأنه في كل ما  
يعرض له من مهام الحياة بعيداً عن داره، فهو يجد  
الجد كله كما دعا الداعي إلى الجد ولكنه لا يتردد عن  
تلطيف جوّه بالمزاج والدعابة كلما لاح له صادراً في  
ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وإن بدا قدرة عجيبة  
على التوفيق بينها، فلا جدّه بظاهر مزاحه ولا مزاحه  
بفسد جدّه، ولما كانت دعابته ليست ترفاً مما يدور  
على هامش الحياة، ولكن ضرورة تنوّعها كالجد سواء  
بسواء، فلم يسعه يوماً الاقتصار على الجد الخالص أو  
تركيز همته فيه، وبالتالي قنع دائماً من «وطنيته»  
بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل  
يغيّر وجه الحياة الذي أنس إليه فلا يرضى عنه بديلاً،  
لذلك لم يدر له بخلد أن ينضمّ إلى لجنة من لجان  
الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه، ولا حتى أن  
يجثم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته، أليس في ذلك  
إهدار لوقته «التمين»؟ ليس الوطن في حاجة إليه على  
حين يتلهّف هو على كل دقيقة منه لينفقها في أسرته أو  
تجارته أو على الخصوص في لهوه بين الأحباب  
والخلائ؟! ليكن إذن وقته خالصاً لحياته، وللوطن ما  
يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلما تيسّر، إذ لم يكن  
يضمّن به إذا وجب التبرّع لغرض من الأغراض، وإلى  
ذلك فلم يشعر مطلقاً بأنه مقصّر في واجبه على نحو  
ما، وعلى العكس عُرف بين صحبه بالوطنية، إمّا لأنّ  
قلوبهم لم تشحّ بعواطفها كما سخا قلبه، وإمّا لأنّ

حدائث شهرتهم حيث حرّكوا منها أهواء عميقة مكبوتة  
كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم  
استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأوّل مرّة، ودعا  
الحمزاوي فوقّع بإمضائه كذلك، ثمّ التفت إلى صاحبه  
وهو يقول باهتمام شديد:  
- المسألة جدّ فيما يبدو...

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثمّ قال:  
- غاية الجدّ، كل شيء يسير بقوة وتصميم، أما  
علمت بما دعا إلى طبع هذه التوكيلات؟ قيل إنّ  
«الرجل» الإنجليزي تسأل عن الصفة التي كلمه بها  
سعد وزميله في صباح ١٣ نوفمبر الماضي فما كان من  
الوفد إلّا أن عمد إلى هذه التوكيلات ليثبت أنّه يتكلّم  
باسم الأمة...  
فقال السيد بتأثر:

- لو كان محمد فريد بيننا ما عدا هذا.

- لقد انضمّ إلى الوفد من رجال الحزب الوطني  
محمد عليّ علوبة بك وعبد اللطيف المكباني...  
ثمّ هزّ منكبيه لينفض عنها الماضي كله ثمّ قال:  
- كلنا نذكر سعداً بما كان يثير من ضجّة عظيمة  
على عهد تولّيه لنظارة المعارف ثمّ الحفانيّة، ما زلت  
أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وإن لم أنس  
حملاته عليه بعد ذلك، بل لا أنكر أنّي ملّت مع انتقاد  
المنتقدين له لشدة تعلّقي بالمغفور له مصطفى كامل،  
ولكنّ سعد أثبت دائماً أنّه جدير بإعجاب المعجبين،  
أما حركته الأخيرة فهي خليقة بأن تحلّه من القلوب في  
أعزّ مكان...

- صدقت... حركة مباركة، لنذخ الله أن يتولاها  
بتوقيفه...

ثمّ باهتمام:

- ثرى أيؤذن لهم في السفر؟... وماذا تُراهم  
فاعلين إذا سافروا؟...

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثمّ نهض وهو  
يقول:

- ما الغد بعيد...

في طريقها إلى باب الدكان غلبت روح الدعابة

ومال الرجل نحوه ليفضي إليه كيف غنى إليه الخبر. . .

٥٠

في نفس الوقت الذي شغل فيه الوطن بحريته كان ياسين دائبًا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك، فإن انطلاقه إلى سهراته الليلية - بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما أعقب الزواج من أسابيع - لم يفر به بلا نضال، ثمة حقيقة كثيرًا ما ردها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد. هي أنه لم يكن يتصور - وهو في سكرة حلم الزواج - أنه سيرتد إلى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكي، اعتقد مخلصًا أنه ودّع ذاك إلى الأبد مضمّرًا لحياته الزوجية أحسن النيات، حتى دهمته الخيبة المستعصية في الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمّل الملل أو الحياة الفارغة كما دعاها، وفزع بكل قوة نفسه المدلّلة الحساسة إلى الترفيه والتسلية والنسيان، إلى القهوة والحانة، لا كحياة هو عابرة كما ظلّها في الماضي والزواج أمل مدّخر، ولكن كحياة هي كلّ ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريّة، كالذي تشرّده الآمال عن وطنه فيرده الإخفاق إليه تائبًا، بيد أن زينب التي عهدت عنده التودّد الحارّ والتملّق النهم، بل الإعزاز الذي بلغ به يومًا أن ذهب بها إلى مسرح كشكش بك مستهينًا بالسياج المسلّح من التقاليد الصارمة الذي يضربه أبوه حول الأسرة. . . زينب هذه كابدت من انصرافه عنها إلى منتصف الليل بعد أخرى وعودته ثملًا يترنّح، صدمة عزّ عليها احتياها فما تماكت أن كاشفته بأحزانها، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة في حياته الزوجية لا يمكن أن تمرّ بسلام فتوقّع من بادئ الأمر المعارضة على أيّ لون جاءت، عتابًا أو خصامًا وأعدّ العدة المناسبة ليحسم موقفه بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعًا من كشكش بك «إنه لا يفسد النساء إلّا الرجال، وليس كلّ الرجال جديرًا بالقيام على النساء» فما تشكّكت حتى قال لها: «لا داعي للحزن يا عزيزة، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال، هكذا

الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا إلى حدّ التبرّع بالمال مثله، فتميّز بوطنيته، وعرف هو ذلك فأضافه إلى بقيّة مزاياه التي يباهي بها سرًا في أعماق قلبه، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضقّ - على ازدحامه - بالعاطفة القومية، وهي وإن قنعت بالقلب مجالًا لحيويتها إلّا أنها كانت قويّة عميقة تشغل النفس وتهمّها، لم تجده عرضًا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه، وكم كان منظرًا فريدًا - أهاج التأثر والضحك معًا - يوم رُئي وهو يبكي كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل، تأثر صحبه لأنّ أحدًا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا في الضحك في مجلس الطرب الليلي حين تذكروا المنظر إذ لم يكن من اليسير أن يرى «ربّ الضحك» وهو يجيش بالبكاء! اليوم، بعد سني الحرب الخاملة، بعد موت الزعيم الشابّ ونفي خليفته، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا، بعد هزيمة تركيّا، وانتصار الإنجليز، بعد هذا كله، أو بالرغم من هذا كله، تسري أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير. . .

مواجهة الرجل الإنجليزي بمطالب الاستقلال، إمضاء التوكيلات الوطنية، التساؤل عن الخطوة التالية، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفس تشرق بالآمال، ماذا وراء هذا كله؟! . . . إنّ خياله السلمي الذي ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى، وإنه ليتعجّل الليل ليهرع إلى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية «مزة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التي تجذب حنانه إلى سهرته كزبيدة وحبّ الإخوان والشراب والطرب وإنه لتبدو في ذلك الجوّ الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغني القلوب بشقّي عواطف الحساس والحبّ من دون أن تستأديه ما لا طاقة له به! . . . وإنه ليفكر في هذا كله إذ اقترب منه جميل الحمزاوي وهو يقول:

- أما سمعت عن الاسم الجديد الذي أطلق على بيت سعد باشا. . .؟ إنهم يدعونه «بيت الأمة» . . .

مثال زوجها، فلم تَر في استمتاع ياسين بحرّيته عجباً ولكن شكوى زوجه بدت هي العجب. فهمي وحده قدّر أحزانها فتطوّع لترديدها على مسمع من ياسين ولو أنّه أيقن من بادئ الأمر أنّه يدافع عن قضية خاسرة، ولعلّ ما شجّع على ذلك كان كثرة تلاقيهما في قهوة أحمد عبده بخان الخليلي، تلك القهوة التي تقع تحت سطح الأرض كأنّها كهف منحوت في جوف جبل، مسقوفة بربوع الحيّ العتيق، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة، وباحتها التي تتوسّطها نافورة صامته، ومصاييحها التي توقد ليل نهار، وجوها الهادئ الحالم الرطيب. كان ياسين قد مال إلى هذه القهوة لدنوّها من حانة كوستاكي من ناحية ولاضطرابه إلى هجر قهوة سي عليّ بالغوريّة بعد قطع زوّية من ناحية أخرى، ثمّ لمّا خصّت به القهوة الجديدة من طابع أثريّ صادف هوّى من نفسه الميالة للشعر، أمّا فهمي فلم يعرف طريق المقاهي لخلل طراً على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لداء تلك الأيام الذي دعا الطلبة وغيرهم إلى التجمّع والتشاور، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده - لنفس ميزاتها الأثريّة التي جعلتها بئامن من العيون - للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث. كثيراً ما التقى الأخوان في حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل أي حتّى يصل زملاء فهمي أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال إلى حانة كوستاكي، وفي مرّة من هذه المرات أشار فهمي إلى كدر زينب مُبدياً دهشته لسلوك أخيه الذي لا يتفق مع حياة زوجيّة ناشئة. ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحقّ، كلّ الحقّ، في أن يضحك من سداجة الآخر الذي ارتضى بأن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهمه، بيد أنّه لم يشأ أن يبرّر سلوكه مباشرة مؤثراً أن ينقّس عن صدره بما يعنّ له من قول، قال مخاطباً الشاب:

- رغبت يوماً في الزواج من مريم، ولست أشكّ في أنّك حزنّت جدّ الحزن لموقف أبيك الذي منع تلك الرغبة من أن تتحقّق... أقول لك، وأنا أدري بما أقول، إنّك لو علمت وقتذاك بما يخفي الزواج وراء

الرجال جميعاً، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثمّ إنّني أتزوّد من السهرة ترويحاً عن النفس وبهجة يجلّان من حياتنا متعة كاملة» ولمّا عرضت بسكره محتجّة بأنّها «تخاف على صحّته» ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقّة والحزم «كلّ الرجال يسكرون، إنّ صحّتي تتحسنّ بالسكر (ثمّ ضاحكاً مرّة أخرى) سلي أبي أو أبك!» إلّا أنّها همت بالاسترسال في مناقشته جرياً وراء أمل كاذب فشدّ حبل الحزم متشجّعاً بملله الذي هوّن عليه ما لم يكن يهون من إغضابها فراح ينوّه بما للرجال من حقّ مطلق في أن يفعلوا ما يشاءون، وما على النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود «انظري إلى امرأة أبي هل رأيها اعترضت يوماً على تصرف لأبي؟... على ذاك فيها زوجان سعيدان وأسرة مطمئنة، ينبغي ألاّ نعود إلى هذا الموضوع»... لعلّه لو كان تُرك إلى شعوره وحده ما اصطنع في خطابها ما اصطنع من سياسة فإنّ خيبته في الزواج جعلته يجد نحوها أحياناً ما يشبه الرغبة في الانتقام، وأحياناً أخرى نوعاً من الكراهية المتقطّعة وإن لم يكفّ عن الرغبة فيها بين هذا وذاك، ولكنّه راعى عواطفها إكراماً - أو خوفاً - من أبيه الذي علم بعظيم تعلّقه بأبيها السيّد محمّد عفت. والحقّ لم يكن يكرهه شيء كإشفاقه من أن تشكوه إلى أبيها فيشكوه هذا بدوره إلى أبيه، حتّى لقد صمّم جاداً، إذا وقع شيء ممّا يحاذر، أن يستقلّ بمسكن مهمل لكنّ العواقب ولكنّ مخاوفه لم تتحقّق، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنّها امرأة «عاقلة» كأنّها من طراز امرأة أبيه نفسها، قدّرت موضعها حقّ قدره ونزلت عند حكم الواقع، مطمئنة - لبعليها - بما يرّده دائماً من إخلاصه وبراءة سهراته، قانعة من الألم والحزن ببثّها في دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظفر بتأييد جدّي، وكيف لها بذلك في بيئة ترى الخضوع للرجال ديناً وعقيدة، بل لعلّ السّت أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح إليه من استئثار غريب ببعليها، لأنّها لم يكن يسعها أن تتصوّر النساء إلّا على مثالها هي ولا الرجال إلّا على

سطحه لحمدت الله على الفشل...

مباهجها الأحلام، وطالما ساءلت نفسي: هل يجمعني حقًا بيت واحد بغادة حسناء إلى الأبد؟ يا له من حلم!... ولكنّي أؤكد بأنّه ليست ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسنة إلى الأبد... وغمغم فهمي في حيرة رجل يعزّ عليه - فيها يكابد من أشواق الشباب - تصوّر الملل: - لعلّه بدت لعينك أشياء وراء الظاهر الذي لا يعاب!

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة:

- لا أشكو إلّا الظاهر الذي لا يعاب!... شكواي في الحقّ منصّبة على الجمال نفسه!... هو... هو الذي مللت لحدّ السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأوّل مرّة ثمّ لا تزال تردّده وتستعمله حتّى يستوي عندك وألفاظ مثل «الكلب» و«الدودة» و«الدرس» وسائر الأشياء المبتذلة، يفقد جدّته وحلاوته، وربّما نسيت معناه نفسه فغدا مجرّد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله، ولعلّه لو عثر عليه الغير في إنشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم، ولا تسلّ عمّا في ملل الجمال من فجعية، إذ أنّه يبدو مللاً بلا عذر مقبول، وبالتالي قضاء محنّوماً... فيتعذّر التفادي من يأس ليس له من قرار. لا تعجب لقولي، إنّ عاذرك لأنك تنظر من بعيد، والجمال كالسرّاب لا يُرى إلّا من بعيد...

على مرارة اللهجة شكّ فهمي في حقيقة بواعثها إذ أنّه مال من بادئ الأمر إلى اتّهام أخيه - لا الطبيعية البشريّة - لما عرفه عنه من انحراف السلوك، ألا يجوز أن تُردّ شكواه في الحقّ إلى ما لهج به من مجون في حياته السابقة على الزواج!... أصرّ على هذا الظنّ إصرار رجل يأبى أن يفجع في أعزّ آماله، ولمّا كان ياسين لا يهتمّ بأراء أخيه بقدر ما يهتمّ بالإفصاح عمّا في صدره هو، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأوّل مرّة ابتسامة وضيئة:

- أصبحت أدرك موقف أبي حقّ الإدراك!...

وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العريبد الراكض وراء العشق أبداً!... كيف كان يتأقّ له أن يصبر على

دهش فهمي لحدّ الانزعاج لأنّه لم يتوقّع أن يباغت في أوّل جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين «مريم» و«الزواج» و«الرغبة»، أفكار لعبت على مسرح صدره أدوارًا لا تنسى ولا تمحى آثارها، فلعلّه بالغ في إظهار دهشته ليخفي ما أثارته الذكريات في نفسه من الشجن والتأثر، ولعلّه لذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة، فتابع ياسين حديثه وهو يلوّح بيده سأمًا ومللاً قائلاً:

- ما كنت أتصوّر أن يتجلى الزواج عن هذا الخواء، إنّهُ في الحقّ لا يعدو أن يكون حلماً كاذبًا، وقاسيًا ككلّ شيء خبيث الخداع!

بدا له قوله عسير المضمّ مثيرًا للريب كما يخلق شبّاب تتدفّق ينابيع حياته الوجدانيّة نحو هدف واحد لا يتمثّل له إلّا في صورة «زوجة» وتحت مقولة «الزواج» فعزّ عليه أن يتناول أخوه المستهتر مقولته المقدّسة بهذه المرارة الساخرة، وتقمّم في دهشة بالغة:

- ولكنّ زوجك سيّدة... كاملة!

فهتف ياسين ساخراً:

- سيّدة كاملة! هو ذاك، أليست كريمة رجل فاضل؟... وربيبة أسرة كريمة؟... جميلة... مهندّبة... ولكن لا أدري أيّ شيطان موكل بالحياة الزوجيّة يجعل من جميع المزايا السالفة أعراضاً نافهة لا يُلقى إليها ببال تحت ضغط الملل المُسقيّم كأنّها بعض ما تغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلّما تراءى لنا أن نعزّي فقيراً عن فقره...

فقال فهمي ببساطة وصدق:

- لا أفهم حرفاً ممّا تقول.

- انتظر حتّى تعرف بنفسك!...

- لماذا إذن يصّر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة؟...

- لأنّ الزواج - كالموت - لا ينفع معه التحذير ولا

الحذر...

ثمّ مستطرداً وكأنّه يخاطب نفسه:

- لشدّ ما عبث بي الخيال فسما بي إلى عوالم تفوق

بذاك، وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة، بل أثيرة ذات مزايا تفتقد. «فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي؟! . لا شيء!... إنهن حيوانات أليفة كالحیوانات الأليفة ينبغي أن يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتسقل على حياتنا الخاصة وإنما عليها أن تنتظر في البيت حتى نفرغ لداعتها، أن أكون زوجاً خالصاً للحياة الزوجية هو الموت، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد لا تزال تتكرر وتتكرر... حتى تنقلب الحركة والجمود سئين، والصوت والصمت توأمين، كلاً كلاً، ما لهذا تزوجت... إن قيل إنها بيضاء، ألتست ذا مآرب من السمراء، بل والسوداء... وإن قيل إنها مدملجة فما عزائي عن النحيلة والجسيمة، أو أنها مهذبة سلية نبل وكرم فهل عسلت من المزايا ربيبة العربات الكارو؟!... إلى الأمام... إلى الأمام...».

## ٥١

كان السيد مكباً على دفتاره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غريزي، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللث منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود على جبين ناصع وعينين مكحولتين، فابتمت أساريره في ترحاب طال تشوقه إليه، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيراً، ولما كان جميل الحمزاوي مشغولاً ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كنب من مكتبه، فأقبلت المرأة تحطرت وجلست على المقعد الصغير الذي فاضت عنه أعطافها وهي تلقي إليه بتحية الصباح، ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذي يتكرر كلما جاءته «زبونة» تستحق التكريم، فإن الجو الذي غشى ركن الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة، لاحت أمارات لها في الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية، والنظرة المتربصة فوق سفحي الأنف العظيم من ناحية أخرى، كهرباء خفية صامتة إلا أن نورها

طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلني الملل بعد خمسة أشهر؟!

فقال فهمي وقد قلق لإحجام أبيه في الحديث: - حتى على افتراض أن شكواك صادرة عن تعاسة مركبة في الطبيعة البشرية، فالحل الذي تبشر به... (هم بأن يقول: بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون أكثر منطقية فقال)... بعيد عن الدين... فقال ياسين الذي كان يقنع من الدين دون اكتراث جذبي لأوامره ونواهيه:

- الدين يؤيد رأيي، وآي ذلك أنه سمح بالزواج من أربع غير الجوارى اللاتي كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء، فقد فطن إذن إلى أن الجمال نفسه - إذا ابتذلت العادة والألفة - مل وأسقم وقتل... فقال فهمي باسماً:

- كان لنا جد يمي مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعلك أن تكون وريثه... فتمتم ياسين متنهداً:

- لعل... .

على أن ياسين - حتى ذاك الوقت - لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة، حتى أنه رجع إلى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة، قبل أن ينزلق إلى زنوبة أو إلى غيرها، وما الذي جعله يفكر ويتردد؟... ربما لم يجل من إحساس بالمسؤولية حيال الحياة الزوجية، وربما لم ينبج من تهيب لرأي الدين في «الزوج الفاسق» الذي تؤكد لديه أنه غير رأيه في «الشاب الفاسق» وربما أيضاً أن خيبة أقوى أمل تردد في جوانبه صدمت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق، على أن واحدة من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائفاً جذياً خليفاً بأن يقف مجرى حياته، إلا أنه وجد إغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه، وما بدا من زوجه من «حكمة» قرنتها في ذهنه بامرأة أبيه فينشط خياله إلى رسم تخطيط لحياتها المستقبلية معه على مثال حياة الست أمينة مع أبيه، أجل تمتئ كثيراً لو تظمتن زينب إلى الحياة التي تقدر عليها كما تظمتن امرأة أبيه إلى حياتها، فيشب هو مثل وثبات أبيه الموقفة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادئ وزوجة مستنيمة.

تحاشى هذا الخطر أن يفسد عليه الجو كله، ثم تساءل: هل يهاجم أو يمكس حتى يستدرجها إلى الهجوم؟ لكل طريقة لذاتها... يُبد أنه لم يشأ أن ينسى أن يعيشها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه، فاستطرد قائلاً وكأنه يتم حديثه الأول:

- بل فرصة طيبة كي أراك!

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء أو الارتباك أو كليهما معاً، ولكنها فضحت قبل كل شيء فطنتها إلى ما وراء مجاملته الظاهرة من معانٍ خفية، على أنه رأى في حياها استجابة لشعورها الباطني الذي دفعها إلى زيارته أكثر منه استجابة لقلوه، فازداد اطمئناناً إلى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناءه في نعمة رقيقة قائلاً:

- أجل فرصة طيبة كي أراك.

عند ذاك قالت بلهجة تتم عن عتاب حبيس:

- لا أظن أنك تعدّ رؤيتي فرصة طيبة!

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور، لكنه قال كالمحتج:

- صدق من قال إن بعض الظن إثم.

فهزت رأسها هزة كمن تقول له «هيهات أن يؤثر في مثل هذا الكلام» وقالت:

- ليس ظناً فحسب، إنني أعني ما أقول، إنك رجل لا يعوزك الفهم، وأنا كذلك وإن توهمت غيره... فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه.

ومع أن صدور هذا الكلام عن امرأة لم يقص على وفاة زوجها شهران أثار في نفسه شعوراً بالسخرية والمرارة، فإنه تطوّر لانتحال الأعداء لها - الأمر الذي لم يكن ليفكر فيه في ظروف أخرى - قائلاً لنفسه: ما أحرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها، ثم تخلّص من شعوره الطارئ بقوة وقال متصنعاً الأسى:

- غاضبة عليّ؟! يا له من حظ سيئ لا أستحقّه!

فقالت في شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد:

- قلت لنفسى وأنا في الطريق إليك «ما ينبغي أن

الكامن كان متحفزاً في انتظار لمسة كي يسطع ويشعشع ويستعر نائراً... كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التي انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكراً وهيّجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب في الطبيعة والأحياء، زال بموته الشجا الذي اعترض إحساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن إلّا جازاً - لا صديقاً - ورحل، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذي أعرض عنه قديماً حفاظاً على كرامته أن يعتر عن ذاته ويطلب بنصيبه من المتعة والحياة، إلّا أن عاطفته نحو زبيدة، كان أدركها العطب كالفاكهة في نهاية موسمها، فلاقت المرأة منه - على خلاف الزيارة السابقة - ذكراً متوثباً وعاشقاً متحرّزاً... على أن خاطرة ثقيلة - أن تكون الزيارة بريئة - مرّت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة، مستشهداً بما بدا منها في الزيارة القديمة من رقيق الإشارات وبديع الرب، مؤكداً ظنونه بهذه الزيارة نفسها التي ليس ثمة ما يوجبها إن لم يكن مثل ما يدور بنفسه، ثم صمّم أخيراً على أن يتلمس سبيله كخبير قديم... فقال لها برقة باسماً:

- خطوة عزيزة!

فقالت في شيء من الارتباك:

- الله يكرمك، كنت راجعة إلى البيت فمررت بالدكان فترأى لي أن آخذ لوازم الشهر بنفسى.

فطن إلى «اعتذارها» عن المجيء ولكنه أبى أن يصدقه فإن يترأى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئاً إن لم يكن وراءه دافع، لا سيما وأنها تدري بالبداهة والغريزة أن يعيشها بعد «مقدمات» الزيارة القديمة خليق بأن يثر في نفسه الريب، وإن يبدو لعينيه «تمحّكاً» غير خافي الدلالة، فزادته مبادرتها إلى الاعتذار ثقة وقال:

- فرصة طيبة لأحييك ولأكون في خدمتك!

فشكرته في اقتضاب أصغى إليه بنصف انتباه إذ شغل بالتفكير في الكلمة التالية، لعله كان من الطبيعي أن يعرج على ذكر الزوج الراحل مترجماً ولكنه



- العفو كثيرًا ما يكون كلمة السرّ لولوج الجنة .  
ثمّ وهو يرونو إلى ابتسامه عذبة لاحت في عينيها:  
- الجنة التي أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين  
بالنحاسين، ومن جميل التوفيق أنّ بابها يفتح على  
عطفة جانيبة بعيدًا عن أعين الرقباء، وألا حارس لها!  
وفطن إلى أنّ حارس الجنة السّاوية سَمّي «المرحوم»  
الذي كان حارسًا للجنة الأرضيّة التي يتلقّس طريقه  
إليها، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد  
فطنت إلى نفس الحقيقة السّاخرة ولكّنه وجدها مهومة  
فيما يشبه الحلم فتنهّد وهو يستغفر الله في سرّه . وكان  
جميل الحمزاوي قد فرغ من زبائنه، فأقبل على السيّدة  
ليقضي حوائجها فساحت للسيّد فرصة للتأمل، فراح  
يذكر كيف رغب ابنه فهمي يومًا في خطبة مريم ابنة  
هذه المرأة، ثمّ كيف ألهمه الله الرّفص، وقد اعتقد  
وقتذاك أنّه إنّما يتفدّ مشيئة حرمه فحسب، فلم يدّر له  
بخلد أنّه جنّب ابنه شرّ مأساة يُنكب بها زوج، وهل  
يمكن أن تنهج فتاة إلّا على مثال أمّها؟ . . . وأيّ  
أمّ؟ . . . امرأة خطيرة! . . . قد تكون جوهرة ثمينة  
عند أمثاله من الصيّادين، ولكّنها في البيوت مأساة  
دامية، تُرى أيّ طريق سلكت طوال الأعوام التي  
عاشها زوجها ميتًا حيًّا؟ . . . كلّ القرائن تشير إلى  
طريق واحد، ولعلّ كثيرين من الجيران يعرفون، بل  
لعلّه لو كان في بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما  
خفي عليه شيء، ولما بقيت زوجه على الولاء لها  
والإيمان بها حتّى هذه الساعة، وعادوته رغبة -  
استحوذت عليه أوّل مرّة عقب الزيارة المريبة القديمة،  
ولم يجد عندئذ سبيلًا آمنًا إلى تحقيقها دون إثارة  
الريب - وهي أن يحول بين المرأة المستهترّة وبين بيته  
الطاهر، الآن يرى الظرف مهيئًا - لتحقيق رغبته،  
وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويّدًا رويّدًا  
منتحلًا ما يمنّ له من أذار حقيقة ببلوغ الهدف دون  
مساس بكرامتها، هذه المرأة التي باتت أقرب ما تكون  
إلى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه في لحظة واحدة!  
ولما انتهى الحمزاوي من إعداد حوائجها نهضت مائة  
يدها إلى السيّد فسلمّ بأسًا وهو يقول بصوت خافت:

تذهبي . . . فلا يحقّ لي الآن أن ألوم إلّا نفسي!  
- بعض هذا الغضب يا ستّ! . . . إني أسائل  
نفسي عمّا جنيت؟!  
فتساءلت بلهجة ذات معنى:  
- ما عسى أن تصنع إذا حيّيت إنسانًا بتحية فلم يردّ  
بثلها ولا حتّى بأسوأ منها؟!  
فأدرك من توه أنّها تشير إلى ما بدا منها في الزيارة  
القديمة من تودّد قابله بالصمت، ولكّنه تجاهل  
الإشارة . . . وقال مجارة لأسلوها الرمزي:  
- لعلّها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر.  
- إنّه قويّ السمع والحواسّ جميعًا.  
فجرت على فمه ابتسامه عجب لم يتالكها، قال  
بلهجة المذنب إذا أنشأ يعترف:  
- لعلّه لم يردّها حياء أو تقوى.  
فقالت بصراحة أعجبت وهزّت فؤاده:  
- أما الحياء فلا حياء له، وأما سائر الأذار فمن  
أين للقلوب الصادقة أن تبالها؟  
فندّت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق  
النظر إلى جميل الحمزاوي الذي بدا منهمكًا في العمل  
بين نفر من الزبائن، ثمّ قال:  
- لا أحبّ أن أعود إلى الملابس التي قست عليّ  
وقتذاك، على أنّه لا يجوز لي أن أياس ما دام ثمة ندم  
وتوبة وعفو!  
فتساءلت في إنكار:  
- من يدرينا بالندم؟  
فقال بلهجة حارة برع في تجويدها عامًا بعد عام:  
- تجرّعته طويلًا والله شهيد!  
- والتوبة؟  
فقال وهو يثقبها بنظرة متوهّجة:  
- أن تردّ التحية بعشر أمثالها؟!  
فتساءلت في دلال:  
- ومن أدراك بأنّ ثمة عفوًا؟  
فقال بلباقة:  
- ليس العفو من شيم الكرام؟  
ثمّ في نشوة مسكرة:

- إلى اللقاء .

فغمغمت وهي تهتم بالانصراف :

- نحن في الانتظار .

كان فهمي يملئ الكلمات، كلمة كلمة، في أناسة وبصوت واضح النبرات والآم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذي انكب كمال على كتابته، مركّزاً وعيه في ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صواباً أو خطأ . لم يكن غريباً أن يلقي فهمي على شقيقه الصغير درساً في الإملاء أو غيرها في جلسة القهوة، ولكن موضوع الإملاء بدا جديداً حتى للآم وزينب، أما ياسين فنظر إلى أخيه مبتسماً :

- أرى هذه المعاني قد ملكت عليك نفسك . . . فلم يفتح الله عليك بإملاء لهذا الغلام المسكين إلا خطبة سياسية وطنية ينفث لها المغلق من أبواب السجون .

فبادر فهمي إلى تصحيح رأي أخيه قائلاً :

- هي من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع .

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :

- وكيف كان ردّهم عليه؟

فقال فهمي بانفعال :

- لم يجي ردّهم بعد، والكلّ يتساءل عنه في حيرة وقلق، إنها غضبة مزعجرة في وجه أسد لم يؤثّر عنه الحلم أو العدل .

ثمّ وهو يتنهد مغنيلاً محنقاً :

- كان لا بدّ من غضبة بعد أن مُنع الوفد من السفر، وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته .

ثمّ مضى إلى حجرته مسرعاً، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها إلى أخيه وهو يقول :

- ليست الخطبة كلّ ما عندي، اقرأ هذا المنشور الذي يورّع سرّاً متضمناً رسالة الوفد إلى السلطان . . .

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :

- «يا صاحب العظمة . . .» .

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصريّ أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي :

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرّية والعدل أساساً للصالح وأعلنوا أنّ الشعوب التي غيرت

غادرته أوفر سعادة، نشوان بالظفر والمُعجب، ولكنّها خلقت له أيضاً همّاً لم يكن، همّاً جديراً بأن يحتلّ مكاناً بارزاً من مشاغله اليومية، سوف يتساءل من الآن فصاعداً عن أمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذي يتساءل به عمّا فعلت السلطة العسكرية وعمّا يبيّت الإنجليز وعمّا ينوي سعد، أجل جدّ جديد من السعادة يحجّر وراءه - كالعادة - ذيلاً من الفكر . لولا حرصه الشديد على حبّ الناس له، ذلك الحبّ الذي يحظى منه بأسعد سعادته، لكان عليه هجر العالمه بعد أن بلي حبه وذوت أزهاره وأغرقه الشيع في مستنقع آسن، ولكنه يشفق دائئاً من أن يترك وراءه قلباً حانقاً أو نفساً حاكمة، وكم يؤدّ كلّما ضيق الملل أنفاسه لو يبدأه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجوراً بدل أن يكون هاجراً، وكم يؤدّ أن تنتهي علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المنتقاة، ثمّ يستحيل إلى صداقة وطيدة، فهل تقبل زبيدة - التي يظنّ أنّها ليست دونه شعباً - اعتذاره بقبول حسن؟ وهل يطمع في أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجر؟ . . . هل تثبت أنّها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلاً؟ هذا ما ينبغي أن يفكر فيه طويلاً وأن يهيمّ له أنجع الذرائع . وتنهد تنهداً طويلة كأنّها يشكو ما جعل الحبّ فانيّاً لا يدوم ليكفي القلب متاعب الأهواء ثمّ شرد به الخيال طاوياً النهار فترأى له وهو يدبّ في الظلّاء متلمّساً سبيله إلى البيت الموعد، والمرأة تنتظر بيدها سراج .

«أعلنت إنجرلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهي حامية باطلة لا وجود لها قانوناً بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها . . .» .

العمل لاستقلال بلادكم، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرهما احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جُلبتم عليه من حب الخير لبلادكم، والاعتداد بمشيئة شعبكم، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أتهم لم يلفتوا إلى الأمة في هذا الظرف العصيب وهي إنما تطلب منكم - يا أرشد أبناء محررها الكبير محمد علي - أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها، مهما كلفكم ذلك، فإن همتكم أرفع من أن تحددها الظروف. كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدي باشا لا تسمح لرجل مصري ذي كرامة وطنية أن يخلفه في مركزه؟!... كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج

مضاد لمشيئة الشعب مقضي عليها بالفشل؟!

عفوًا مولانا قد تكون مدخلتنا في هذا الأمر وفي غير هذا الظرف غير لائقة... ولكن الأمر قد جلّ الآن عن أن يُراعى فيه أي اعتبار غير منفعة الوطن الذي أنت خادمه الأمين. إن مولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها، وفي أكبر رجاء لها، وإننا لا نكذبه النصيحة إذا تضرعنا إليه أن يتعرف رأي أمته قبل أن يتخذ قرارًا نهائيًا في أمر الأزمة الحالية، فإننا نؤكد لسدته العلية أنه لم يتبق أحد في رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحرر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة، لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التي هي الآن أشد ما تكون رجاء في استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار، والتي تطلب إليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف في صفها فتنال بذلك غرضها... وأنه على ذلكقدير...».

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفي عينيه دھول وفي قلبه نبض جديد من التأثير، بيد أنه هز رأسه قائلاً: - يا له من خطاب!... لا أحسبني أستطيع أن أوجه مثله إلى ناظر مدرستي دون أن ينالني العقاب الرادع!...

فرغ فهمي منكبيه استهانة وقال:

الحرب مركزها يؤخذ رأيها في حكم نفسها، أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام ما دام أن الحق للأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة، ولم تكن في الواقع إلا ضرورة حربية نزول بزوال الحرب، اعتمادًا على هذه الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم في صف القائلين بحق حرية الأمم الصغرى، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريًا على المبادئ التي أسس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقًا منه بأننا إنما نعبر عن رأي الأمة كافة... فلما لم يُسمح لنا بالسفر وجبنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة، ولما لم يستطع دولته أن يحتل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن الشعب يصادر في مشيئته، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما. ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما في وقفتهما الشريفة دفاعًا عن الحرية عضد قوي من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن ليتوقع أحد في مصر أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين، لأن في ذلك متابعة للطامعين في إذلالنا وتمكينًا للعقبة التي ألقبت في سبيل الإدلاء بحجة الأمة إلى المؤتمر، وإذنا بالرضى بحكم الأجنبي علينا إلى الأبد.

قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذي خلا بانتقال أخيك المغفور له السلطان حسين، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن

- الأمر قد جَلَّ الآن عن أن يراعى فيه أيَّ اعتبار غير منفعة الوطن...!

ردَّد العبارة عن ظهر قلب كما وردت في المنشور، فلم يتمالك ياسين أن يقول ضاحكًا:

- أحفظت المنشور!... ولكنِّي لا أعجب لهذا، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كي تلقى إليها بكلِّ قلبك، ولعلِّي لا أدخل من مثل شعورك وآمالك، ولكنِّي لا أقرِّك على الاحتفاظ بهذا المنشور... خصوصًا بعد استقالة الوزارة وتخرُّش الأحكام العرفية...!

فقال فهمي في فخار:

- إنِّي لا أحفظ بها فحسب، ولكنِّي أقوم بتوزيعها ما سمح الجهد...!

فأستعت عينا ياسين في قلق وهمٍّ بالكلام... ولكنَّ الأم كانت أسبق إليه منه فقالت بانزعاج:

- لا أكاد أصدِّق أدنِّي، كيف تعرَّض نفسك للشرِّ وأنت سيِّد العقلاء؟!!

لم يذِر فهمي كيف يجيبها، ولكنَّه شعر بما جرَّه عليه تهوُّره من حرج، لم يكن أشفق عليه من محادثتها في هذا الأمر، كانت الساء أقرب إليه من إقناعها بأنَّ تعرض نفسه للخطر في سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كلُّه لا يساوي في نظرها قلامة ظفر، بل قد بدا له أنَّ إخراج الإنجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب إخراجهم أو إغرائها ببغضهم، فما إنَّ يدور الحديث حول ذلك حتَّى تقول ببساطة «لماذا تكرههم يا بني!... أليسوا أناسًا مثلنا لهم أبناء وأمهات؟!» فيقول لها بحدة: «ولكنَّهم يحتلون بلادنا!... وتحسُّ بحدة الغضب في نبراته فتلوذ بالصمت وهي تداري نظرة إشفاق لو نطقت لقاتلته «لا عليك من هذا»... ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها: «لا حياة لقوم إذا حكمهم أجنبي» فقالت له في استغراب «ولكنَّا لا نزال أحياء رغم أنَّهم يحكموننا من زمن بعيد، وقد أنجبتكم جميعًا في ظلِّ حكمهم!... إنَّهم يا بني لا يقتلون ولا يتعرَّضون للمساجد ولا نزال أمة محمَّد بخيرا» فقال الشاب

يائسًا: «لو كان سيِّدنا محمَّد حيًّا ما رضي أن يحكمه الإنجليز» فقالت بلهجة الحكيم: «هذا حقٌّ، ولكنَّ أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام...؟ كان الله يعينه بملائكته...» فهتف بها حانقًا: «سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله» ولكنَّها هتفت وهي ترفع ذراعها كأنَّما تدفع بلاء لا دافع له: «لا تقل هذا يا بني، استغفر ربَّك، اللهم رحمتك وغفرانك!... هذه هي، فكيف يجيبها الآن وقد استشعرت في توزيع المنشور خطرًا يتهدده؟... لم يسعه إلَّا أن يركن إلى الكذب فقال متصنِّعًا الاستهانة:

- ما أردت إلَّا المزاح فلا تنزعجي للاشيء...

فعادت المرأة تقول بنبرات تنمُّ عن ضراعة:

- هذا ما أومن به يا بني، هيهات أن يخيب ظنِّي في أرشد الراشدين، ما لنا نحن وهذه الأمور إذا رأى باشواتنا أن يخرج الإنجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم.

بدا كمال طوال الحديث وكأنَّه يحاول أن يتذكَّر أمرًا ذا بال، فما بلغ الحديث تلك النقطة حتَّى صاح:

- مدرِّس العربي قال لنا بالأمس إنَّ الأمم تستقلُّ بعزائم أبنائها!...

فهتفت الأم ساخطة:

- لعلَّه قصد بخطابه كبار التلاميذ، ألم تحدَّثني يومًا بأنَّ عندكم تلاميذ قد ظهرت شواربهم؟ فتساءل كمال بسداجة:

- وأخي فهمي أليس تلميذًا كبيرًا؟

فقالت الأم بحدة على غير مألوفها:

- كلًّا ليس أخوك كبيرًا، إنِّي أعجب لذلك المدرِّس كيف سوَّلت له نفسه أن يتحدَّث إليكم في غير الدرس!... إذا شاء أن يكون وطنيًّا فليوجِّه هذا الكلام إلى أبنائه في البيت لا إلى أبناء الناس!...

كاد الحديث يحمَّس ويستمرُّ لولا أن سنحت كلمة عابرة فغيَّرت مجراه، أرادت زينب أن تتودَّد إلى الأم بتأييدها في دفاعها فحملت على مدرِّس العربي ونعته بأنَّه «مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلًا ذا شأن في

- أما سمعتم بأخر الأنباء!... مالطة!  
وضرب يداً بيد وراح يقول:  
- النفي إلى مالطة، لم يعد أحد منهم بيننا، نفوا  
سعداً وأصحابه إلى جزيرة مالطة...  
وهتف الجميع في نفس واحد:  
- نفوهم!...

أثار «النفي» في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من  
ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا ونهايته، ففسألوا  
وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: أيجري نفس المصير  
على سعد زغلول وصحبه؟... أينقطع حقاً ما بينهم  
وبين الوطن إلى الأبد؟... أتموت هذه الآمال الكبار  
وهي لا تزال في مهد الإزهار؟... وشعر السيد بحزن  
لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقيل غليظ شاع في  
صدره كما يشيع الغثيان، عانى تحت وطأته خموداً  
وهموداً واختناقاً وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة،  
ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، لاثرة بلا  
صخب، وفي الريق مرارة واحدة، ثم جاء في أثر الفار  
صاحب وثنان وثالث مرددين نفس النبا، آمليين في أن  
يجدوا عند الآخرين مسكناً لما يستتر في نفوسهم، فلا  
يظفرون إلا بالخزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران  
الكظيم.

- هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس؟  
فلم يُجِرْ أحد جواباً، ولبت المستأثر يقَلِّب عينيه في  
الوجوه دون جدوى، لا جواب تأوي إليه النفس من  
مضطربها وإن أبت أن تسلم جهازاً بما يميته خوفاً،  
نفي سعد... هذا حق، ولكن هل يعود سعد ولو  
بعد حين؟... وكيف يعود سعد؟... أية قوة تعيده؟  
لن يعود سعد، فأين تذهب هذه الآمال العراض؟  
لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة عميقة يأبى  
استحواؤها عليهم أن يسلمهم لليأس ولكتهم لا  
يدرون كيف يعلنون النفس بيعتها من جديد.  
- ولكن أليس ثمة أمل في أن يكون الخبر شائعة  
كاذبة؟

لم يُعِرْ أحد القائل التفاتاً في حين لم يحفل هو بهذا  
التجاهل لأنه لم يقصد بقوله في الحق إلا تلمس

غفلة من الزمان... ولكن ما إن سمعت الأم هذه  
الإهانة توجه إلى «المجاور» حتى أفادت من انفعالها  
وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قيلت تأييداً لها،  
مدفوعة بكل ما تنطوي عليه نفسها من إجلال لذكرى  
أبيها فتحوّلت إلى زينب وقالت بهدوء:

- أنت يا ابنتي تحقرين أشرف ما فيه، الشيوخ  
خلفاء الرسل، إنما يلام الرجل على خروجه عن حدود  
وظيفته الشريفة، ألا ليتنه قنع بأن يكون مجاوراً  
وشيخاً!...

ولم يفت ياسين سرّ تحوّل الأم المفاجئ، فبادر  
بالتدخل ليمحو الأثر الذي تركه دفاع زوجته  
البريء...

### ٥٣

- انظر إلى الطريق، انظر إلى الناس، من يقول بعد  
هذا إن الكارثة لم تقع؟!

ولكن السيد أحمد لم يكن في حاجة إلى مزيد من  
النظر، الناس يتساءلون، ويرجعون، وأصحابه  
يخوضون في الحديث خوفاً حاراً تجاوبت فيه الحسرة  
مع الحزن مع الغضب، إلى أن الخبر قد تردّد على  
اللسنة كافة من مرّ به من الأصدقاء والزبائن، أجمع  
الكلّ على أن سعد زغلول وصفوة أصحابه قد اعتقلوا  
وسيقوا إلى مكان مجهول في القاهرة أو خارجها، قال  
السيد عفت وهو محقق الوجه بدم الحق:

- لا تشكّوا في صحّة الخبر فإنّ لأخبار السوء رائحة  
تزكم الأنوف... ألم يكن هذا متوقّعا بعد خطاب  
الوفد للسلطان؟... أو بعد رده على الإنذار البريطاني  
بذلك الخطاب الجبار إلى الوزارة الإنجليزية؟...  
فقال السيد بوجوم شديد:

- يعتقلون الباشوات الكبار!... يا له من حدث  
خفيف، تُرى ما عسى أن يصنعوا بهم؟  
- الله وحده يعلم، البلد يُختنق في ظلّ الحكم  
العرفي...

ودخل عليهم السيد إبراهيم الفار تاجر النحاس  
مهرولاً وهو يهتف لاهتاً:

مهرب - ولو وهمي - من اليأس الخائق .  
 - أسره الإنجليز . . . ومن ذا يغالب الإنجليز !  
 - رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة  
 باهرة ، ومضى .

- كالحلم . . . وسوف يُنسى فلا يبقى منه إلا ما  
 يبقى من حلم عند الضحى . . .  
 وهتف هاتف بصوت أبَّحه الألم :  
 - الله موجود . . .

فهتفوا بصوت واحد :  
 - نعم . . . وهو أرحم الراحمين . . .

ذكر اسم الله فكان كالقطب الممغنط ، جذب إليه  
 شواردهم وجمع أفكارهم التي شتتها اليأس . وفي مساء  
 ذلك اليوم - ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد - بدا  
 مجلس الإخوان مجافاً للهُو والطرب يغشاها الوجوم ،  
 وتتجه أحاديثه جميعاً إلى الزعيم المنفي . قهرهم  
 الحزن ، وإن يكن وُجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة  
 في الشراب مثلاً ، فقد غلب الأولى على الثانية احتراماً  
 للشعور العام ومجارة للموقف ، بيد أنه لَمَّا طال بهم  
 مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه  
 الصمت ، وما لبث أن ركبهم قلق خفي وشى بحكة  
 الإدمان التي تنثُر في أعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون  
 إشارة الجسور الذي يتقدم الصفوف ، ولكن السيد  
 محمد عَفَت قال فجأة :

- آ ن لنا أن نعود إلى بيوتنا . . .  
 لم يكن يعني ما يقول ، ولكن كأنما أراد أن ينذرهم  
 بأنهم إذا تركوا الوقت يمضي كما مضى فلن يبقى أمامهم  
 إلا أن يعودوا إلى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة  
 لقنتهم دقيق التفاهم بالإشارة فتشجع عليّ عبد الرحيم  
 بائع الدقيق بهذا الإنذار الخفي وقال :

- أنعود إلى البيت دون كأس تحفّف من بلوى هذا  
 اليوم !

فأحدث قوله في النفوس ما يحدثه الجراح في أهل  
 المريض إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول  
 « الحمد لله . . . نجحت العملية » ، إلا أنّ الذي تنازعه  
 الحزن والرغبة في الشراب قال فيها يشبه الاحتجاج

متستراً على ما أثلج صدره من ارتياح :  
 - نشرب في مثل هذا اليوم !  
 فحده السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال  
 متهكماً :

- دعهم يشربوا وحدهم وهلمّ بنا إلى الخارج يا  
 بن . . . الكلب .

ندّت عنهم ضحكات لأوّل مرة ثمّ جاءوا بالقوارير  
 وكأنّما أراد السيد أن يعتذر عن السلوك فقال :

- إنّ اللهو لا يغيّر ما بقلوب الرجال !  
 فأمّنا على قوله ، كانت أوّل ليلة يتردّدون طويلاً  
 قبل الاستجابة إلى نداء الصبوات ، وما لبث السيد أن  
 قال متأثراً بمنظر القوارير :

- إنّما ثار سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا  
 تحجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب .  
 لم يكن الحزن يمنعه من المزاح ، بيد أنّ الليلة لم تنأ  
 بصفاء خالٍ من الكدر ، حتى وصفها السيد فيها بعد  
 بأنّها « ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر »

\*\*\*

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدي في جوٍّ من  
 الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمي في حديث  
 ثوري والدموع في عينيه ، واستمع ياسين أسفاً حزناً ،  
 وودّت الأم أن تبدّد الكتابة أو تحفّف البلوى ولكنّها  
 أشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثمّ ما لبثت عدوى  
 الحزن أن انتقلت إليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذي  
 انتزعوه من بيته وزوجته إلى منفى بعيد ، قال ياسين :  
 - أمر عزن ، رجالنا جميعاً ، عبّاس ومحمد فريد  
 وسعد زغلول . . . مشرّدون بعيداً عن الوطن . . .  
 فقال فهمي بانفعال شديد :

- يا لهم من أوغاد هؤلاء الإنجليز . . . نخطبهم  
 باللغة التي كانوا يستعطفون بها الناس في محنتهم  
 فيجيبون بالإنذارات العسكرية والنفي والتشريد . . .  
 لم تُطِقي الأم أن ترى ابنها منغلاً على تلك الحال  
 فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :

- ارحم نفسك يا بني ، ربّنا يلفظ بنا . . . !  
 ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجاً فصاح دون

أن يلتفت إليها:

- إذا لم تقابل الإرهاب بالغضب الذي يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذي قدّم نفسه فدية لها يعاني عذاب الأسر...!

فقال ياسين متفكرًا:

- من حسن الحظّ أنّ الباسل باشا بين المنفيين، إنّه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظنّ رجاله يسكتون على نفيه...!

فقال فهمي بحدة:

- والآخرون؟ أليس وراءهم رجال أيضًا؟... إنّها ليست قضية قبيلة ولكنّها قضية الأمة كلّها...!

جرى الحديث بلا توقّف وما يزداد إلّا حدة وعنفاً

ولكنّ المرأتين لاذتا بالصمت إشفاقاً ورعباً، لم تستطع

زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم

لها معنى، نفي سعد ورجاله معه، ومن المؤكّد أنّهم لو

عاشوا كما يعيش «عباد الله» ما فكّر أحد في نفهم،

ولكنّهم لم يريدوا ذلك، أرادوا أموراً خطيرة مرادها

وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو إليها، ومهما

يكن من أمرهم فهاذا يبعث فهمي على هذا الغضب

الجنونيّ كأنّ سعدًا أبوه أو أخوه؟ بل ماذا بعث

ياسين - وهو الرجل الذي لا يأوي إلى فراشه إلّا

مترنّحًا من السكر - على هذا الأسف؟! أمّحزن حقًا من

كان مثله على نفي سعد أو غيره من الناس؟! كأنّ

حياتها في حاجة إلى مزيد من التنغيص حتّى يعكّر

فهمي عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التي لا

معنى لها. جعلت تفكّر في هذا كلّه وهي تلحظ زوجها

من أنّ لآخر متعجّبة ساخطة ولسان حالها يقول له:

«إن كنت صادقًا حقًا في حزنك فلا تذهب هذا

المساء - هذا المساء فقط إلى الحانة؟» ولكنّها لم تنبس

بكلمة، كانت أحكم من أن تلقي بأفكارها الباردة في

هذا التيّار الناريّ، في هذه الناحية الأخيرة شابهتها الأمّ

التي سريعًا ما تفقد شجاعته حيال الغضب وإن هان،

لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهي

تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج، ولكنّها كانت أعظم

من زوج ياسين إدراكًا لبواعث هذه العواصف فإنّ

رأسها لم يتخلّ من ذكرى عرابي كما أنّ قلبها لم يتخلّ من

أسف على أفندينا، أجل لم تكن كلمة «النفي» عاطلة

من المعاني في نفسها، بل لعلّها خلت من الأمل الجدير

بأن يداعب شخصًا كهفي فقد اقترنت في ذهنها - كما

اقترنت في ذهن زوجها وأصحابه - باليأس من العودة،

ولأ فأن أفندينا؟... ومن أجدر منه بالعودة إلى

وطنه؟... ولكن أظنّ فهمي على حزنه ما امتدّ النفي

بسعد. ترى أيّ نحس في هذه الأيام يأتى إلّا أن

يبيّتهم بنبأ ويصحبهم بنبأ حتّى زلزل أمنهم وكسّر

صفوهم؟! كم تتمنّى أن يعود السلام إلى ربوعه، وأن

تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كلّه، وأن تنبسط

أسارير فهمي وليدّ الحديث، كم تتمنّى...!

- مألطة...! هذه هي مألطة!

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة

البحر الأبيض وقد ثبتّ أصبعه على رسم الجزيرة ونظر

إلى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول

نفسه، ولكنّه وجد منه وجهًا متجهّمًا كالحا، لا

استجاب إلى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام

وأعاد بصره إلى رسم الجزيرة في ارتباك وحياء، ومضى

يتأمله طويلًا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين

الإسكندرية وبين القاهرة ويتخيّل صورة مألطة

الحقيقيةّة ما شاء له الخيال، ومنظر أولئك الرجال الذين

يتحدّثون عنهم وهم مسوقون إليها. ولمّا كان قد سمع

فهمي وهو يقول عن سعد إنّ الإنجليز قد انتزعوه على

أسنّة الرماح فإنّه لم يسعه أن يتصوّره إلّا محمولًا على

أسنّة الرماح، لا متألّجًا أو صارخًا كما يتوقّع في مثل تلك

الحال ولكن «ثابتًا كالطود» كما وصفه أخوه أيضًا في

مرحلة أخرى من الحديث، وكم ودّ لو يستطيع أن

يسأل أخاه عن كُنه ذلك الرجل الساحر العجيب

الذي يثبت على أسنّة الرماح كالطود، ولكنّه حيال ثورة

الغضب التي التهمت سلام المجلس كلّه أجل تحقيق

رغبته إلى فرصة أنسب، وأخيرًا ضاق فهمي بمجلسه

بعد أن أيقن أنّ ما يصدره من عاطفة أكبر من أن

تروّج عنها محادثة أخيه في هذا المكان الذي يقف من

شعوره موقف المتفرّج إن لم يكن موقف الإنكار، نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه في قهوة أحد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الإعراب عما يضطرم في قرارها من الإحساس والرأي، هناك يسمع أصدااء الغضب المتقد في قلبه ويستأنس بإيجاءاته الجسورة الملتهبة في جوّ باهر من التعطّش إلى الحرّية الكاملة، مال إلى أذن ياسين وهمس:

- إلى قهوة أحمد عبده...

فتنفّس ياسين من الأعماق لأنّه كان بدأ يتساءل وهو من الحرج في غايته - عن وسيلة لبّقة ينسحب بها من المجلس، ليمضي إلى سهرته، دون أن يزيد من غضب فهمي اشتعالاً، لم يكن ما به من أسف تصنّعاً، أو لم يكن تصنّعاً كلّ، هزّ النّبأ الخطير قلبه، ولكنّه لو ترك إلى نفسه لتناساه بغير جهد كبير، ولمّا فرض على أعصابه ما فرض من تكلف مجازاة لفهمي ومعاملة له واحتراماً لغضبه الذي لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه: «حسبي اليوم ما بذلت من جهد في سبيل الحركة الوطنيّة فإنّ لبدني عليّ حقاً».

#### ٥٤

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمي عينيه، كانت الحجرة مغلقة النوافذ، في شبه ظلام إلّا ما لاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ، ترمى إلى أذنيه همس أنفاس كمال المتردّدة فعطف رأسه إلى فراشه القريب، ثمّ انثالت عليه ذكريات الحياة، هذا صباح جديد، إنّه يستيقظ من نوم عميق سلّمه إلى تعب شمل النفس والجسم، وإنّه لا يدري إن كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبداً، لا يدري ولا أحد يدري، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولاً وعرضاً ويرقص في أركانها، يا للعجب، ها هي أمّه تعجن كعنها منذ قديم، وها هو كمال يغطّ في نومه ويتقلّب في أحلامه، وذاك ياسين يدلّ وقع قدميه فوق سقف الحجرة على

أنّه انتزع نفسه من الفراش، أمّا أبوه فلعلّه الآن منتصب القامة تحت ماء الدشّ البارد، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه في رقّة بالغة، كلّ شيء يواصل حياته المعهودة كأنّ شيئاً لم يحدث، كأنّ مصر لم تنقلب رأساً على عقب، كأنّ الرصاص لا يعزف باحثاً عن الصدور والرءوس... كأنّ الدم الزكيّ لا يخضّب الأرض والجدران. وأغمض الشابّ عينيه وهو يتنهد مبتسماً إلى تيّار مشاعره الزاخر بما يعمل في موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان.

حقّاً لقد حيي في الأيام الأربعة المنطوية حياة عربية لم يكن له بها عهد من قبل، أو أنّه لم يعرفها إلّا أطباقاً في أحلام اليقظة، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أثنى منها وأجلّ، تتعرّض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد، وتمجّم عليه باستهانة، وإذا أفلتت مخالبه مرّة عادت إليه كرامة أخرى متنجّبة عن ذكر العواقب جانباً، شاخصة طوال الوقت إلى نور رافع عنه لا تحيد، مدفوعة بقوة لا قبل لها بها، مسلّمة مصيرها لله وهي تشعر به محيطاً بها كالهواء يغمرها من كلّ جانب. هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرّة، وجلّت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض، تأخى الموت والحياة فكانا يدّاً واحدة في خدمة أمل واحد، هذه تؤيّد بالجهاد وذاك يؤيّد بالفداء، لو أنّ الانفجار الرهيب لم يقع لمات غمّاً وكمداً، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوثيد على أطلال الرجال والآمال، كان لا بدّ من انفجار ينقّس عن صدر الوطن وصدوره كالزلازل الذي ينقّس عن أبخرة باطن الأرض المتجمّعة، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه في خيضها... متى حدث هذا؟... وكيف حدث؟... كان راكباً ترام الجيزة في طريقه إلى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوّحين بقبضاتهم: نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فليأما أن يعود سعد ليواصل جهاده وإمّا أن نفى معه، وانضمّ الراكبون من الأهالي إليهم في الحديث والوعيد حتى الكمساري أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلّم، يا لها من



الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد «لتسقط الحماية... لتسقط الحماية» فتلقاهم الرجل ببرود لم يحرق به حدّ اللطف ونصحهم بالعودة إلى دروسهم داعياً إياهم إلى ترك السياسة إلى آبائهم، هناك تصدّى له أحدهم قائلاً: - إنَّ آباءنا قد سُجنوا، ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من أعياق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل. ودَّ الشابُّ مرّةً ثانية لو كان هو القاتل، لشدَّ ما تنال المعاني على روحه ولكن يسبقه السابقون إلى إعلانها فيشتدّ حماسه ويتعزّى بأنّ فيما ينتظره عوضاً عمّا يفوته، وجرت الأمور سراعاً، دعا الداعي إلى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجّهوا إلى مدرسة المهندسخانة فصرعان ما انضمت إليهم ثمّ إلى الزراعة فهرع طلبتها إليهم هاتفين كأنهم على ميعاد، ثمّ إلى الطبّ فالتجارة وما بلغوا ميدان السيّدة زينب حتّى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت إليها جموع الأهالي وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد، وكلّما تقدّموا خطوة ازدادوا حماساً وثقة وإيماناً بما يلقون في كلّ مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهيّة، وما يصادفون من نفوس متحفّزة تصدّعت بالغضب حتّى وجدت في مظاهرةهم التّمسّس. تساءل - ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه - «كيف حدث هذا كلّهُ؟». لم تكن مضت إلّا بضع ساعات على الصباح الذي شهد قنوطه وانزاعه، ها هو الآن، قبيل الظهر، يشترك في مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كلّ قلب بأنّه صدّى لقلبه، ويردّد هتافه، ويناشده بإيمان لا يتزعزع أن يسير إلى النهاية، فأبى سرور سروره، وأبى حماس حماسه!... لقد انطلقت روحه في سماء من الأمل لا تحدّها الأفاق، نادمة على ما اعتورها من قنوط، خجلة بما رمت به الأبريل من ظنون، وفي ميدان السيّدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب. رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش إنجليزيّ تقدّم ساحة وراءها ذبولاً من الغبار، والأرض تضطرب

ساعة!... فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قائمة، فأيقن أنّ هذه النار المتقدّة لن تبرد، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظّاً صاحباً مرعداً فسبقتهم قلوبهم إليه، تمّ هرعوا إلى زملائهم تحدّثهم نفوسهم بحدث وشيك، وما لبث أن انبرى أحدهم منادياً بالإضراب!... شيء جديد لم يسمع من قبل، بيد أنّهم هتفوا بالإضراب وهم يتأبطون كتب القانون، وجاءهم ناظرهم المستر والتون في لطف غير معهود ونصحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أن صعد شابّ منهم إلى أعلى السلم المفضي إلى حجرة السكرتير وراح يحطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر إلّا الانسحاب. وأنصت إلى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان إلى عينيه، وقلبه يتابع دقّاته في سرعة ونشاط، ثمّ ودّ لو يصعد إلى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر، ولكنّه لم يكن ذا استعداد قويّ للخطابة فقع بأن يردّد غيره هواتف نفسه، وتابع الخطيب بانتباه حاسي حتّى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعاً في نفس واحد «يجيا الاستقلال» ثمّ تابع الإنصات باهتمام بثّ اهتاف فيه حيويّة جديدة حتّى انتهى الخطيب إلى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين «لتسقط الحماية» ووالى الإصغاء بجسم متصلّب من الانفعال وهو يعصّ على أسنانه ليحبس الدمع الذي زفره جيّشان نفسه حتّى إذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين «يجيا سعد»، هتاف جديد، وكلّ شيء جديداً بدا ذلك اليوم، بيد أنّه هتاف مطرب رجّعه قلبه من الأعماق وظلّ يردّده مع دقّاته المتتابعة، كأنّه صدّى للسانه، بل هتاف لسانه كان صدّى لقلبه، فإنّه ليذكر كيف ردّد قلبه هذا الهتاف في صمت مكثوم طوال الليلة السابقة للانفجار التي باتها مغموماً محسوراً، كانت عواطفه المكبوتة، حبّه وحماسه وطموحه وتطلّعه إلى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتّى انطلق صوت سعد مدوّياً فانجذبت طائفة إليه كما ينجذب الحمام السابح في الفضاء إلى صفير صاحبه، ثمّ لا يدرون إلّا والمستر إيموس نائب المستشار القضائيّ البريطانيّ لوزارة

متشابهات في أفراحها وأحزانها، مظاهرات فتهافت فرصاص فضحايا، ألقى بنفسه في خضمتها جميعاً يندفع بحماس، ويسمو إلى آفاق بعيدة من الإحساس النبيل، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث أن أضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة. وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب إضراب المحامين والموظفين. إن قلب البلاد يخفق حقاً نائراً ولن تذهب الدماء هدراً ولن يُنسى المنفيون في مناهم، لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادي النيل.

تقلب الفتى في فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة أخرى مقلباً ناظره في أركان الحجر التي أخلدت تستبين على النور المشرق رويداً وراء النوافذ المغلقة. أمه تعجن! ولن تزال تعجن صباحاً بعد صباح، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير في إعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث، إن كبار الحوادث لا يعطل صغار الأعمال، وسيُتسع صدر المجتمع دائماً للجليل والتافه من الأمور فيرحب بها جنباً إلى جنب، ولكن مهلاً، ليست الأم على هامش الحياة هي التي أنجته والأبناء وقود الثورة، وهي التي تغذيه والغذاء وقود الأبناء، الحق أن ليس ثمة شيء تافه في الحياة... ولكن ألا يجيء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريي جميعاً فلا تفرق عنده القلوب كما تفرقت في مجلس القهوة منذ خمسة أيام؟ ألا ما أبعد هذا اليوم! ثم جرت على شفثيه ابتسامة إذ وثب إلى ذهنه هذا السؤال: «ما عسى أن يصنع والده إذا علم «بجهاده» المتواصل يوماً بعد يوم؟ ماذا يصنع أبوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمه الرقيقة الخنون؟» ابتسم في حيرة وهو يعلم أن المتاعب التي قد تعترضه في تلك الحال ليست دون المتاعب التي قد تعترضه إذا غنى سره إلى السلطة العسكرية نفسها، ثم أزاح الغطاء عن صدره وجلس في الفراش وهو يغمغم: «سيان أن أحيا أو أن أموت، الإيمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الدل، فهنئاً لنا الأمل

تحت وقع السنايك، إنه ليذكر كيف مدّ بصره نحوهم في دھول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم، وتلفت فيها حوله فرأى وجوهاً يلمع في محاجرها الحماس والغضب فتهدد في عصبية ولوح بيده هاتفاً، أحاط الفرسان بجموعهم ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذي يضطرب فيه إلا رقعة محدودة يغرق في رعوسها المشرقة، ثم ترامى إليهم أن البوليس اعتقل طلاباً كثيرين ممن تصدوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فلمرة الثالثة ذلك اليوم تمى، وكان تمّيه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن يخرج من الدائرة التي يتحرك فيها بجهد جهيد.

على أن ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس إلى اليوم الذي تلاه، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم إضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر، بُعثت مصر بلداً جديداً يهتف إلى الاحتشاد في الميادين للحرب بغضب طال كتمان، وألقى هو بنفسه بين الجموع في نشوة فرح وحاس كأته تائه ضالّ عثر على أهله بعد فراق طويل، وسارت المظاهرة مسيراً مشهوداً مارة بدور المعتدلين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم: «الإنجليز!» وما لبث أن فرقع الرصاص مغطياً على أصوات الهافتين فسقط أول القتل، وواصل قوم تقدّمهم في حماس جنوني، وتسمر آخرون، وتفرّق كثيرون يلودون بالبيوت والمقاهي، وكان هو ضمن الآخرين، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسياً كل شيء إلا حياته، ولبث على ذلك زمناً لا يدره حتى شمل السكون الدنيا جميعها فمدّ رأسه، ثم قدّمه، ومضى إلى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد إلى بيته فيما يشبه الذھول، وفي وحدته الحزينة تمى لو كان من الذاهبين أو في الأقل من الثابتين، وفي وقلة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير متسعاً وقريباً.

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين، أيام

كلّما تدانّت منه، وأتّه حَتْمٌ عليها أن تتأخّر عنه مسيرة أمتار. على تلك الحال مضى إلى مدرسة خليل آغا صباح الخميس وهو خامس أيّام المظاهرات في القاهرة، ولَمّا بلغا باب المدرسة اقتربت أمّ حنفي من البوّاب وسألته تنفيذًا للأمر اليوميّ الذي تلقّته في البيت:

- هل يوجد تلاميذ في المدرسة؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث:

- منهم من يدخل، ومنهم من يذهب، والناظر لا يتعرّض لأحد!

كانت هذه الإجابة مفاجئة سيّئة لكمال، كان مهينًا النفس لسماع الإجابة التي باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهي «التلاميذ مضربون» فيعودان إلى البيت حيث يمضي سحابة النهار في حرّية حبّبت إلى قلبه الثورة من بعيد، ونازعته نفسه إلى الهرب تفاديًا من عواقب الإجابة الجديدة فخطب البوّاب قائلاً:

- أنا مَن يذهبون.

وابتعد عن المدرسة والمرأة في أثره، بيد أنّها سألته: لماذا لا يدخل مع الداخلين؟ فرجأها متردّدًا لأوّل مرّة في حياته - أن تقول لأمتّه أنّ التلاميذ مضربون، وزيادة في الرجاء والتودّد دعا لها - وهما يمزّان بجامع الحسين - بطول العمر والسعادة، إلّا أنّ أمّ حنفي لم تستطع إلّا أن تصارح الأمّ بالحقيقة كما سمعتها فألبّته الأمّ على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلفها بلسان حادّ راميًا إياها بالخيانة والغدر، لم يجد في المدرسة إلّا لِداتَه . . . ذوي الأسنان الصغيرة، أمّا مَن عداهم، وهم الأغلبية الساحقة، فكانوا مضربين، وألّقى في فصله، الذي كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول - نحوًا من ثلث التلاميذ، بيد أنّ المدرّس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكبّ هو على تصحيح بعض الكُرّاسات فتركهم في شبه إضراب في الواقع. فتح كمال كتابًا متظاهراً بالقراءة دون أن يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء في المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو في البيت يتمتّع بالفراغ الذي جادت،

الذي هانت إلى جانبه الحياة، أهلاً بصباح جديد من الحرّية، وليَقْضِ الله بما هو قاضٍ».

## ٥٥

لم يعد أحد يستطيع الادّعاء بأنّ الثورة لم تغبّر ولو وجّها من وجوه حياته، حتّى كمال نفسه عرض لحرّيته التي تمتّع بها طويلاً في ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئ ثقيل ضاق به كلّ الضيق وإن لم يستطع له دفْعاً، ذلك أنّ الأمّ أمرت أمّ حنفي بأن تتبعه في ذهابه إلى المدرسة وعند إيابه منها، وآلاً تتخلّى عنه بحال كي تعود به إلى البيت إذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكؤ، أو مطاوعة نزوات الطيش، دار رأس الأمّ بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتجّ قلبها لحوادث الاعتداء الوحشيّ على الطلبة فعانت من ذلك الزمن أيّاماً كالحات ملأتها هلعاً وجزعاً فودّدت لو تستبقي ابنها إلى جانبها حتّى تثوب الأمور إلى مستقرّها، ولكنّها لم تجد إلى تحقيق مرادها من سبيل خصوصاً بعد أن وعد فهمي - وهو مَن ثقتها في «عقله» لا تتزعزع - أنّه لا يشترك في الإضراب بتاتاً، وبعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كمال في البيت لعلمه بأنّ المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك في الإضراب. سلّمت الأمّ بذهاب الأخوين إلى المدرسة على كره منها ولكنّها فرضت على كمال رقابة أمّ حنفي وهي تقول له: «لو كان بوسعي أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسي» وقد عارضها كمال بما وسعه من قوّة لأنّه أدرك بالبدهة أنّ هذه الرقابة التي لن تخفي عن أمّه خافية من شتونه ستقضي قضاء مبرماً على كلّ ما يتمتّع به في الطريق من ألوان العبث والشطارة، وإنّها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردّد بينهما: البيت والمدرسة، إلى هذا امتعضت نفسه، أشدّ الامتعاض من السير في الطريق مصطحباً هذه المرأة التي ستلفت الأنظار حتّى يبدانتها المفرطة ومشيئتها المتهاكمة، ولكنّه لم يسعه إلّا أن يذعن لرقابتها سيّما بعد أن أمره أبوه بقبولها، فصارى ما استطاعه تنفيّساً عن صدره أنّه كان ينتهرها

به هذه الأيام العجيبة بلا حسابان. ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل، وهنا خياله إلى أولئك المضربين في الخارج بدهشة واستطلاع، كثيراً ما تساءل عن حقيقة أمرهم، أهم كما تدعي أمه «متهورون» لا يرحمون أنفسهم ولا أهلهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة، أم هم كما يصفهم فهمي أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم؟! وكثيراً ما مال إلى رأي أمه لحنقه على التلاميذ الكبار - فئة المضربين - الذين خلفوا في نفسه ونفوس أضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدثونهم في فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم، يبد أنه لن يستسلم إلى هذا الرأي كل الاستسلام طالما كان لقلول فهمي من الإقناع في نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به، لن يسعه أن يسلبهم ما يضيفه عليهم من ضروب البطولة حتى ودّ لو يطّلع من مكان آمن على معاركهم الدامية، قامت قيامة الدنيا ما في ذلك من شك، أو فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود؟! وأيّ جنود؟! الإنجليز؟ الإنجليز الذين كان يكفي ذكر اسمهم لإخلاء الطرقات!... ماذا حَدَثَ للدنيا وللناس؟!... ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تُنقش عناصره الجوهرية في نفس الغلام بلا وعي أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول، الإنجليز، الطلبة، الشهداء، المشورات، المظاهرات، من القوى المؤثرة الموحية في أعيانه وإن وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر. وضاعف من حيرته أن آله استجابوا للحوادث استجابة متبينة وأحياناً متناقضة، فبينا يجد فهمي نائراً يحمل على الإنجليز بحق قاتل ويحنّ إلى سعد حينئذ يفجّر الدمع، إذا بياسين يناقش الأخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادئ لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص، ثم السهر حتى منتصف الليل، أما أمه فلا تكفّ عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصقّي قلوب المصريين والإنجليز جميعاً، والأدهى من كل أولئك زينب زوجة أخيه التي أفزعته الأحداث

فلم تجد من تصبّ عليه غضبها إلا سعد زغلول نفسه متهمّة إياه بأنه سبب هذا الشرّ كلّ، وأته «لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ما تعرّض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران». لذلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه، وحزنه يفيض بفكرة الموت في ذاته دون أن يكون لنفسه معني واضحاً لما يدور حوله من بعيد أو قريب، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل آغا إلى الإضراب - لأول مرة - فسندحت له فرصة ليشهد مظاهرة عن كتب أو يشترك فيها ولو في فناء المدرسة، ولكن الناظر بادر إلى حجز صغار التلاميذ في فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية في دهشة مزوجة بسرور خفي، لعل مبعثه الفوضى التي نشبت في كل شيء فعصفت بالروتين اليومي الثقيل بلا رحمة. أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك في مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ في البيت، وسيبقى مغلولاً في هذه الجلسة المملّة ينظر في الكتاب بعينين لا تريان شيئاً، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر في حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل، ولكن ثمة شيء استرعى انتباهه فجأة، قد يكون صوتاً غريباً بعيداً أو وثناً في الأذن، ولكي يستوثق من حاسته نظر فيها حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معاً صوب النوافذ المطلّة على الطريق، إنه حقيقة وليس وهمًا ما استرعى انتباههم، إنها أصوات مندجّة في صوت ضخّم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد، الآن وقد أخذت تشتدّ يمكن أن تسمّى ضوضاء، بل ضوضاء تقترب، وسرت في الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلاً: «مظاهرة!» فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب، وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافاً يردد ويزجر في جميع الجهات المحيطة بالمدرسة، وعادت تفرع أذنيه الأسياء التي ملأت ذهنه طوال الأيام الماضية. سعد... الاستقلال... الحماية، وتدان الهتاف وعلا حتى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت

فقال عمّ حمدان:

- لم نَرْ شيئاً كهذا من قبل، ربّنا يحميهم.  
تفجّر الهتاف في الحناجر يزلزل الجوّ زلزلاً، حيناً  
عن قرب كأنّه يدويّ في الدكان، وحيناً عن بعد في  
ضوضاء شديدة غير متميّز كهزيم الريح، وتواصل بلا  
انقطاع، في حركة بطيئة مستمرة دلّ عليها تفاوت  
درجات الشدّة والارتفاع بين الأمواج القادمة  
والذاهبة، وكلّما طُنّ أنّه انقطع جاء غيره حتّى بدا وكأن  
لا نهاية له، تركّزت حياة كمال في أذنيه وهو يرهف  
السمع في اضطراب وقلق، يُبدّ أنّه لتتابع الوقت  
دون وقوع مكروه استردّ أنفاسه ومضى يعاوده الشعور  
بالطمأنينة، ثمّ وسعه أخيراً أن يفكر فيما يدور حوله  
كطارئ لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه في  
البيت لبروي لأمّه ما وقع له؟. «اقتحمت علينا  
الفصول مظاهرة لا أوّل لها ولا آخر، وما أدري إلّا  
وتيّارها الزاخر يحيط بي ويجرفني إلى الشارع، وهتفت  
مع من هتف: ليحيى سعد، لتسقط الحياية، ليحيى  
الاستقلال. وما زلت أنتقل من طريق إلى طريق حتّى  
هجم الإنجليز علينا وأطلقوا الرصاص». ستفزع عند  
ذاك لحذّ البكاء ولا تكاد تصدّق أنّه حيّ يرزق وستتلو  
آيات كثيرة وهي ترتحف. «ومرّت رصاصة جنب رأسي  
ما زال زعيقها يطنّ في أذني، وتخطّط الناس كالمجانين،  
وكدت أهلك مع الهالكين لولا أن جذبني رجل إلى  
دكان...».

انقطع حبل أحلامه على صباح عالٍ غير منتظم  
ووقع أقدام متدافعة في اضطراب، ففحق قلبه ونظر في  
وجوه من حوله فرآهم محمّلين في الباب كمن يتوقّع  
ضربة على أمّ رأسه، واقترب عمّ حمدان من الباب  
وانحنى حتّى نظر من الفرجة في أسفله ثمّ تراجع وأنزله  
حتّى ألصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم في اضطراب:  
- الإنجليز...!

وصاح كثيرون في الخارج: «الإنجليز...»  
الإنجليز» ونادى آخرون «الثبات... الثبات» وهتف  
غيرهم «غوت ويحيا الوطن...» ثمّ سمع الغلام لأوّل  
مرة في حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب

قلوب التلاميذ وأيقنوا أنّ الطوفان لا بدّ مغرقهم،  
ولكنّهم قابلوا ذلك بسرور صبيانيّ تنكّب عن تقدير  
العواقب في حيّة نزوعه إلى الفوضى والانطلاق، ثمّ  
ترامى إليهم وقع أقدام مقبلة في سرعة وصخب، ثمّ  
فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة  
واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريّين  
كما تندفع المياه من فوهة الخزّان وهم يصيحون:  
«إضراب... إضراب... لا ينبغي أن يبقى أحد»،  
وفي لحظات وجد نفسه غائصاً في موج مصطخب  
يدفعه أمامه دفعاً يعطل كلّ مقاومة وهو من  
الاضطراب في غاية، تحرك في بطء شديد تحرك حبوب  
البّن في فوهة الطاحونة لا يدري أين تقع عيناه، ولا  
يرى من الدنيا إلّا أجساماً متلاصقة في ضجّة تصكّ  
الأذان حتّى استدلّ بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ  
الطريق، واشتدّ الضغط عليه حتّى كادت تكتم أنفاسه  
فصرخ صراخاً حادّاً عالياً متواصلًا من شدّة الفزع،  
وما يدري إلّا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهي  
تشقّ بين الناس طريقاً حتّى ألصقته بجدار على  
الطوار، فراح يلهث ويتلمّس فيما حوله منجّي حتّى  
عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها  
الحديديّ إلى ما فوق العتبة بقليل، فهرع إليه ودخل  
زحفاً على ركبتيه، ولما قام في الداخل رأى عمّ حمدان  
الذي كان يعرفه حتّى المعرفة وامرأتين وبعض صغار  
التلاميذ فأسند ظهره إلى جدار القائمة التي تحمل  
الصواني وصدره يعلو وينخفض بلا توانٍ وسمع عمّ  
حمدان وهو يقول:

- أزهريّون، طلبية، عمّال، أهالي... جميع  
الطرقات المؤدّية إلى الحسين مكتنّظة بالبشر... ما كنت  
أحسب قبل اليوم أنّ الأرض تستطيع أن تحمل كلّ  
هؤلاء البشر.

إحدى المرأتين بدهشة:

- كيف يصمّون على التظاهر بعدما كان من إطلاق  
النار عليهم؟

المرأة الأخرى بحسرة:

- ربّنا الهادي، كلّهم أبناء ناس يا ولداه.

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضاً حتى بلغ منعطف خان جعفر، فرأى شيخاً واقفاً وسط الطريق يشير إلى الأرض ويخاطب نفرًا من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعاً حمراء ملبسة بالتراب، وسمعه يقول بلهجة رثائية:

- هذا الدم الزكيّ يستصرخنا إلى مواصلة الجهاد، وقد شاء الله أن يسفك في رحاب سيّد الشهداء لنصل في الاستشهاد حاضرينا بماضيها، والله معنا... وأحسن فزعاً يركبه، فاستردّ بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون.

## ٥٦

كانت أمينة تتلمّس طريقها إلى باب الحجرة خلال ظلمة السحر، في حذر وتمهّل أن توقظ السيّد، حين ترمى إلى أذنيها لغط غريب صاعداً من الطريق يطنّ طنين النحل. لم يكن يطرق أذنيها في هذه الساعة التي اعتادت أن تستيقظ فيها إلا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمّال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردّد في الصمت الشامل صائحاً بين حين وآخر «وحدوه» أمّا هذا اللغظ الغريب فلم تسمعه من قبل، وحاترت في تفسيره فتطلّعت إلى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة إلى نافذة بالصالة مطلّة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت في الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس إلى الحدّ الذي تستطيع معه رؤية ما يجري تحتها، بيّدت أنّ اللغظ ازداد ارتفاعاً، وازداد في الوقت نفسه غموضاً، حتى تبيّنت فيه أصواتاً آدميّة مجهولة النسب. دارت عينها في الظلام الذي أخذت تألفه شيئاً ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحاً آدميّة غير واضحة المعالم، وأشياء على هيئة أهرامات صغيرات، وأخرى كأنّها الأشجار القصار، فارتدّت في حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمي وكبال، ثم تردّدت، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحلّ لها تلك الألغاز أم تؤجّل ذلك إلى حين استيقاظه؟! ثم

فرعفها بالبداهة وارتعدت أوصاله، وما إن ندّت عن المرأتين صرخة حتى أفحم في البكاء، وجعل عمّ حمدان يقول بصوت متهلّج: «وحدوا الله... وحدوا الله» ولكن الغلام شعر بالخوف، بارداً كالموت يزحف على جسمه كلّ من قدميه إلى رأسه. وتوالت الطلقات، وصكّت الأذان صلصلة عجلات وصهيل خيل، تتابعت الأصوات والحركات في سرعة فائقة تلاحقها زجرات وصرائح وأنين، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرًا في حضرة الموت... ثم حلّ صمت غيف كالإغماء الذي يعقب تبريح الألم، تساءل كمال بصوت متهلّج مبحوح:

- ذهبوا؟!...

فوضع عمّ حمدان سبّابته على فيه وهو يغمغم «هس... وتلا آية الكرسيّ، فتلا كمال في سرّه. إذ خائنه قدرته على الكلام - «قُلْ هو الله أحد» لعلّها تطرد الإنجليز كما تطرد العفاريت في الظلام. على أنّ الباب لم يفتح إلا عند الظهر فانطلق الغلام إلى الطريق المقفر ثم أطلق للريح ساقيه، وفيما هو يمرّ بالسلم الهابط إلى قهوة أحمد عبده لمح شخصاً صاعداً عرف فيه أخاه فهمي فهرع إليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فرعاً، ولمّا عرفه هتف به:

- كمال؟! أين كنت أثناء الضرب؟

ولاحظ الغلام أنّ صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج، بيّدت أنّه أجابه بقوله:

- كنت في دكان عمّ حمدان وسمعت الرصاص وكلّ

شيء...

فقال له بعجلته ولهوجته:

- اذهب إلى البيت ولا تقل لأحد إنك قابلتني...

سامع؟

فسأله الغلام بارتباك:

- ألا تعود معي؟!...

فقال باللهجة نفسها:

- كلّاً... ليس الآن... سأعود في موعدي

المعتاد، لا تنس أنّك لم تقابلني قطّ.

المظاهرات في منابتها...  
وجعل يقطع الحجرة ذهاباً وإياباً وهو يقول في سرّه  
حانقاً «هيهات... هيهات» حتّى سمع أمّه تقول:  
- سأوقظ والدك لأخبره بالأمر...  
قالت المرأة كآخر ما عندها من حيلة، كأنّ السيّد -  
الذي يحلّ لها جميع مشكلات حياتها - كفيل أيضاً بأن  
يجد حلاً لهذا المشكل يبلغ به برّ الأمان، ولكنّ الشابّ  
قال لها بأسى:  
- دعيه حتّى يستيقظ في وقته...  
فتساءلت المرأة في رهبة:  
- ماذا نفعل يا بنيّ وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا؟  
فهزّ فهمي رأسه في حيرة قائلاً:  
- ماذا نفعل؟! (ثمّ بلهجة أكثر ثقة) لا داعي  
للخوف، ليس إلّا أنّهم يرهبون المتظاهرين...  
قالت وهي تزدد ريقاً جافاً:  
- أخاف أن يعتدوا على الأمنين في بيوتهم...  
ففكر قليلاً في قولها ثمّ تتمم:  
- كلّاً لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما  
وقفوا ساكنين حتّى الآن...  
لم يكن مطمئناً إلى قوله كلّ الاطمئنان ولكنّه وجده  
أوفق ما يقال، وعادت أمّه تُسائله:  
- وحَتّى متى يقيمون بيتنا؟  
بطرف شارد أجابها:  
- من يدري؟!... إنّهم ناصبون الخيام فلن  
يرحلوا سريعاً...  
تنبّه إلى أنّها تسأله كما لو كان قائد القوّات  
العسكريّة فنظر إليها في عطف وهو يداري بسمة  
ساخرة فرّجت ما بين شفثيه الممتعتين، وفكّر لحظة في  
مداعبتها ولكنّ كآبة الموقف صدّت نفسه، فعاوده الجذّ  
كما يقع له أحياناً إذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر  
والده تدعوه بطبيعتها إلى الضحك ولكن يصدّه عنه  
القلق الذي يعتريه كلّما أطلع على جانب من شخصيّة  
أبيه الخفيّة، وسمعا وقع أقدام تهول نحوهما، ثمّ  
اقتحم الحجرة ياسين تبعه زينب على الأثر، وصاح  
الشابّ الذي بدا منتفخ العينين مشعث الشعر:

أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتّى موعد استيقاظه عند  
مطلع الشمس الوشيك، ثمّ صلت، ثمّ صلت، ثمّ صلت، ثمّ صلت  
مدفوعة بحبّ الاستطلاع إلى النافذة فأطلّت منها. بدا  
وشي الشروق ناشباً في غلالة السحر وأضواء الصباح  
تسيل من ذرى المآذن والقباب، فأمكنها أن ترى  
الطريق في كثير من الوضوح وفُتشت عينها عن  
الأشباح التي راعتها في الظلام فتبيّنت حقيقتها ونذت  
عنها آهة فزع وارتدت مهرولة إلى حجرة فهمي  
فأيقظته بلا احتراس فانتفض الشابّ جالساً في فراشه  
وهو يتساءل منزعجاً:

- ما لك يا أمّه...؟

فقال وهي تلهث:

- الإنجليز يملأون الطريق تحت بيتنا...

هَبّ الشابّ من فراشه واثباً إلى النافذة ورمى  
ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكراً صغيراً  
يشرف على رموس الطرق التي تتفرّع عنده، يتكوّن  
من عدد من الخيام، وثلاث لوريّات وشراذم متفرّقة  
من الجند، وفيها يلي الخيام أقيمت البنادق أربعاً أربعاً،  
كلّ مجموعة تتساند رموسها وتفرّق قواعدها على هيئة  
هرم، وقد وقف الحُرّاس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر  
الأخرون وهم يترابطون ويتضحكون، ورمى الشابّ  
ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكراً ثانياً عند تقاطع  
النحاسين بالصاغة كما رأى في الناحية الأخرى من بين  
القصرين معسكراً ثالثاً عند منعطف الخرنفش، ابتدره  
خاطر أهوج لأوّل وهلة أنّ هؤلاء الجنود قد جاءوا  
للقبض عليه!... ولكنّه ما لبث أن استسحقه معتذراً  
عنه بقومته المزعجة من النوم الذي لم يكد يفيق منه،  
وبهذا الإحساس بالمطاردة الذي لم يفارقه منذ شبت  
الثورة، ثمّ وضحت له الحقيقة وريذاً، وهي أنّ الحيّ  
الذي أتعب السلطة المحتلّة بمظاهراته المتواصلة قد  
احتلّ احتلالاً عسكرياً. لبث ينظر خلال الخصاص  
متفحصاً الجنود والخيام والبنادق واللوريّات وقلبه يخفق  
في رهبة وحزن وحنق، حتّى تحوّل عن النافذة شاحب  
اللون وهو يتمتم غاطباً أمّه:

- إنّهم الإنجليز كما تقولين، جاءوا للإرهاب ومنع

- أرايتم الإنجليز...؟  
وهتفت زينب:  
- أنا التي سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وأيقظت سي ياسين...  
وواصل ياسين الحديث قائلاً:  
- لقد نقرت على باب والدي حتى استيقظ وأخبرته ولما رآهم بنفسه أمر بالآيغادر البيت أحد وألا يرفع مزلاج البيت، ولكن ماذا هم فاعلون؟... وما عسى أن نصنع؟... ألا توجد في البلد حكومة تحميننا؟... فقال له فهمي:  
- لا أظنهم يتعرّضون لغير المتظاهرين.  
- ولكن حتى متى نظلّ محبوسين في بيوتنا؟... إن البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها؟  
فغمغم فهمي في ضيق:  
- سيجري علينا ما يجري على غيرنا فلنصبر ولننتظر...  
وهتفت زينب في عصبية ظاهرة:  
- لم نعد نسمع أو نرى إلا الرعب والحزن، ربنا على أولاد الحرام...  
عند ذاك فتح كمال عينيه فرددها دهشاً في المجتمعين في حجرته على غير انتظار، ثم جلس في فراشه وتطّلع إلى أمّه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربّت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة، فسألها الغلام:  
- ماذا جاء بكم إلى هنا؟  
رأت أن تبلغه الخبر في أحسن صورة ممكنة فقالت برقة:  
- لن تذهب اليوم إلى المدرسة...  
فتساءل بابتهاج:  
- بسبب المظاهرات؟  
فقال فهمي بشيء من الحدة:  
- الإنجليز يسدون الطريق!  
شعر كمال بأنه أدرك سرّ تجمعهم فقلّب عينيه في الوجوه مذهولاً، ثم وثب إلى النافذة ونظر من
- خصاصها طويلاً ثم عاد وهو يقول باضطراب:  
- البنادق أربع أربع...  
ونظر إلى فهمي كالمستغيث وتمتم في خوف:  
- سيقتلوننا...؟  
- لن يقتلوا أحداً، جاءوا لمطاردة المتظاهرين...  
ومضت فترة صمت قصيرة وإذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه:  
- ما أجل وجوههم!...  
فسأله فهمي ساخراً:  
- هل أعجبوك حقاً؟...  
فقال كمال بسداجة:  
- جدّاً، كنت أتمنّاهم كالشياطين...  
فقال فهمي بمرارة:  
- من يدري، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم...!  
لم يرفع مزلاج الباب في ذلك اليوم، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلّة على الطريق ولو لتغيير الهواء وإدخال الشمس، ولأول مرة تبسّط السيّد أحمد في الحديث على مائدة الإفطار فقال بلهجة العلم الخبير إنّ الإنجليز يتشدّدون في منع المظاهرات وإتهم لهذا احتلوا الأحياء التي تكثر بها المظاهرات وإنه رأى أن يمكثوا يومهم في البيت حتى تتضح الأمور. استطاع الرجل أن يتكلّم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال وألا يدع منفذاً لأحد يتسرّب منه إلى القلق الذي تفسّى في باطنه مُدْهَبٌ من فراشه على نقر ياسين، ولأول مرة كذلك جسر فهمي على مناقشة رأي أبيه فقال بأدب:  
- ولكن يا والدي قد تظنّني المدرسة إذا مكثت في البيت من المضربين!  
لم يكن السيّد يعلم شيئاً طبعاً عن اشتراك ابنه في المظاهرات فقال:  
- للضرورة أحكام، أخوك موظّف وموقفه أدقّ من موقفك ولكنّ العذر واضح...  
لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يغضبه من ناحية، ولأنه - من ناحية أخرى - وجد في أمره بمنع مغادرة البيت عدلاً يبرّز به أمام ضميره امتناعه عن



فلذا بهنّ نَحِذْنَ من  
سود الشّباب شِعَارَهُنَّ  
فطلعن مثل كواكب  
يسطعن في وسط الدجّنْه  
وأخذن يجتزن الطريق  
ودار سقيد قصدهنّ  
فاهتزّت نفس ياسين وقال ضاحكًا:  
- ما كان أجدرني أنا بحفظها...  
وفكّر فهمي في خاطر طارئ ثمّ تساءل بحزن:  
- تُرى أترامت أنباء ثورتنا إلى سعد في منفاه؟...  
أعلم الشيخ الكبير بأنّ توضيحته لم تذهب هباءً أم تراه  
غارقًا في يأس المنفى؟...

#### ٥٧

لبثوا على السطح حتّى الضحى، وراق للأخوين أن  
يراقبا المعسكر البريطانيّ الصغير، فرأيا نفرًا من الجنود  
قد أقاموا مطبخًا وراحوا يعدّون الغداء، وتفرّق  
كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين  
القصرين في خلاء من المازّة، وبين حين وآخر كان  
يتجمّع كثيرون في طابور على نداء النفير ثمّ يأخذون  
بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذي ينطلق بهم  
صوب بيت القاضي ممّا دلّ على قيام مظاهرات في  
الأحياء القريبة، وكان فهمي يراقب تجمّعهم وذهابهم  
بقلب خافق وخيال متقدّ...

وأخيرًا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو  
كيف شاء وحده، وأويا إلى حجرة المذاكرة، فأقبل  
فهمي على كتبه يراجع ما فاتّه في الأيام المنقضية،  
وتناول ياسين «ديوان الحماسة» و«غادة كربلاء» وخرج  
إلى الصالة يستعين بها على قتل الوقت الذي توافر  
وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود، كانت  
الروايات - بوليسيّة وغيرها - أشدّ استحوادًا على قلبه  
من الشعر، ولكنّه أحبّ الشعر كذلك. وعرفه من  
أسر سبله، يفهم ما يسهل فهمه، ويقنع من الصعب  
بموسيقاه، فندر أن يلجأ إلى الهامش المشحون  
بالشروح، ورثيًا حفظ البيت وترنّم به وهو لا يفقه من

الخروج إلى الطريق المحتلّ بالجنود المتعطّشين إلى دماء  
أمثاله من الطلبة. انفضّت المائدة فأوى السيّد إلى  
حجرته، وما لبثت الأمّ وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما  
اليوميّة، ولما كان اليوم مشمسًا، وهو يوم من أيام  
مارس الأخيرة التي تكتنز في أعطافها نسائم دافئة من  
أنفاس الربيع فقد صعد الإخوة الثلاثة وجلسوا تحت  
عرش اللباب والياسمين. ووجد كمال في حُصّ  
الدجاج تسليه وأيّ تسليه فانتقل إليها، وراح يبذر  
للدجاج الحبّ ويطاردها مسرورًا بدجديتها ويلتقط ما  
يعثر عليه من البيض في حين راح الأخوان يتحدثان  
بالأنباء المثيرة التي تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة  
في جنبات الوادي من أقصى شِماله إلى أقصى جنوبه.  
تكلم فهمي عَمّا يعلم من قطع السكك الحديد  
والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات في شتّى  
المديريات والمعارك التي تنشب بين الإنجليز والثوّار  
والمذابيح والشهداء والجنّازات الوطنيّة التي تشيّع فيها  
النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمّالها  
ومحاموها والتي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات إلّا  
العربات الكارو، ثمّ قال الشابّ بحرارة:

- هذه الثورة حقًّا؟... فليقتلوا ما شاءت لهم  
وحشيتهم فلن يزيدنا الموت إلّا حياة...  
فقال ياسين وهو يهزّ رأسه عجبًا:  
- ما كنت أنصوّر أنّ في شعبنا هذه الروح  
المكافحة...

فقال فهمي وكأنّه نسي كيف أشفى على اليأس قبيل  
نشوب الثورة حتّى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها:  
- بل إنّه ممثّل بروح الكفاح الخالد التي تشتعل في  
جسده الممتدّ من أسوان إلى البحر الأبيض، استثارها  
الإنجليز حتّى ثارت ولن تخمد إلى الأبد.

فقال ياسين وعلى شفثيه ابتسامة:  
- حتّى النساء خرجن في مظاهرة...  
فتمثّل فهمي أبياتًا من قصيدة حافظ في مظاهرة  
السيدات:

خرج الغواني يمتجج  
من ورخت أرقب جمعهنّ

معناه إلا أقله، أو يتصور له معنى لا يمت إلى حقيقته بسبب، أو لا يدرك له معنى على الإطلاق، ولكن رغم هذا كله رسب في عقله من صوره وألفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر، فإذا عرض له يوماً أن يكتب رسالة تهياً لها تهَيُّو الكتاب وأقحم عليها من الألفاظ الرثانة ما يعلق بحافظته، وضمّنها ما فتح الله به عليه من مآثور الشعر حتى عُرف بين معارفه بالبلاغة، لا لأنه كان بليغاً حقاً، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياحهم حيال غريب محفوظاته. قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذي قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروماً من أسباب الحركة والتسلية، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها، ولكنه اعتاد أن يلتم بها في رفق، وفي الأوقات القصيرة التي تسبق خروجه إلى سهرته اليومية دون غيرها، وحتى في تلك الأوقات لم يكن يجد بأساً في أن يقطع القراءة بالمشاركة في أحاديث مجلس القهوة، أو يطالع قليلاً ثم يدعو كمال ليروي له ما قرأ مستلداً بإقبال الغلام على الإصغاء بذلك الشغف المآثور عن الأطفال والغلمان. إذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتالي تستطيع أن تؤنس وحشته يوماً كيومه هذا، وقد قرأ أبياتاً من الشعر وفصولاً من «غادة كربلاء»، ومضى يتجرّع الملل قطرة فقطرة، لاعتناً الإنجليز من أعماق قلبه، ضجراً برماً ضيق الصدر، حتى حان وقت الغداء، جمعتهم المائدة مرة أخرى، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمرة وأرزاً، وأتمت أطباقها - التي حرمت من الخضار بسبب الحصار المضروب حول البيت - بجبن وزيتون ومش، وأحضرت عسلأ أسود بدلاً من الحلوى، ولكن لم يأكل بشهوة إلا كمال أما السيد والأخوان فلم يسعدوا بقبليّة قويّة للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة، بيد أن الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد ياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتاً شاء وكيفما أحبّا. وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل إلى الدور التحتانيّ لشهود جلسة القهوة

ولكنّها كانت جلسة قصيرة إذ أنّ الأم لم يسعها أن تترك السيد وحده طويلاً فودّعتهم وطلعت إليه، ولبث ياسين وزينب وفهمي وكمال يتسامرون في جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمي ومضى إلى حجرة المذاكرة ثم دعا إليه كمال فغودر الزوجان منفردين. «ما عسى أن أصنع من الآن إلى ما بعد منتصف الليل؟»... أزعجه هذا السؤال الذي ألحّ عليه طويلاً وبدا له اليوم كثيباً ذمياً منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذي يتدفق في الخارج حافلاً بالسرّات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حظاً. لولا الحصار العسكريّ لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده، يحسو الشاي الأخضر، ويسامر معارفه من روادها ويمتّع النفس بجوّها العتيق الذي يستهوي شعوره بمقدمه ويستائر خياله بحجراته المظمورة تحت أنقاض التاريخ. قهوة أحمد عبده أحبّ المقاهي إلى قلبه، ولولا الغرض - والغرض مرض كما يقولون - ما اختار غيرها، ولكنه الغرض الذي جذبه فيها مضى إلى الكلوب المصريّ لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذي أغراه بالانتقال بعد ذلك إلى قهوة سي عليّ بالغوريّة لوقوعها أمام بيت زنوبة العوادة. فهو يبذل المقاهي تبعاً لغرضه، بل إنه يبذل من تعرض له صداقتهم فيها تبعاً له، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا أصدقاء له، أين الكلوب المصريّ وأصحابه؟... أين قهوة سي عليّ ومعارفها؟... من حياته ذهبوا، ولعله لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرب منه، والدور الآن على قهوة أحمد عبده وسأراها، والله وحده يعلم ما يجتبه الغد من مقاهٍ وأصدقاء. على أنّه لم يكن يملك بقهوة أحمد عبده طويلاً فسرعان ما يسرق الخطى إلى بقالة كوستاكي أو بالأحرى إلى حانته السريّة ليحظى بالقارورة الحمراء أو «العادة» كما يحلو له أن يدعوها... أين منه «العادة» هذا المساء الكالح؟! وسرت في بدنه لتذكّر حانة كوستاكي رعدة شهوة، ثم ما لبث أن لاحت في عينيه نظرة سام عميقة وتلملّ تلملّ السجين. بدا البقاء في البيت حسرة طويلة زاد من حدة ألمها ما طاف بمخيلته

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع  
تساؤلها التهكمي من نفسه موقع الضربة الطاشنة من  
الدمل فاندفع قائلاً بصراحة مؤلمة وإصرار:

- بلى...

ومع أنها تحامت النكار من بادئ الأمر إلا أن لهجته  
آذنها أشد إيذاء فقالت بحدة:

- لا ذنب لي في هذا، أليس عجيبي ألا تطيق  
التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة...

فقال متسخطاً:

- دلّني على شيء واحد يجعل البيت محتملاً...

فقامت غاضبة وهي تقول في نبرات منذرة بالبكاء:

- سأخلي لك المكان لعلّه يطيّب لك...

وولّت كالحاربة وهو يتبعها بصراً جامداً، ثم قال  
لنفسه «يا لها من حقاء لا تدري أنّ القدرة الإلهية  
وحدها هي التي تبقي عليها في بيتي». ومع أنّ الشجار  
نفس عن حنقه قليلاً إلا أنه كان يفضل ألا يقع حتى  
لا يضاعف من كآبة فراغه، ولم يكن يعجز عن  
استرضائها لو أراده ولكنّ عقله الفتور الذي ران على  
مشاعره جميعاً. غير أنّه لم تمض دقائق حتى شمله هدوء  
نسبيّ فرنّ صدى عباراته القاسية التي وجهها إليها في  
أذنيه فأقرّ بقسوتها، وبأنّه لم يكن ثمة ما يدعو إليها،  
وداخله شبه ندم، لا لعنوره فجأة على ثالة حبّ لها في  
زوايا قلبه ولكن لحرصه على ألا يشدّ في معاملتها عن  
حدّ الأدب - ربّما إكراماً لبيبها أو خوفاً من أبيه - حتى  
في فترة الانتقال العصبية التي أخذ على نفسه فيها  
إخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم، واعتذر عن  
إسرافها بالغضب، ولم يكن الغضب بالانفعال  
المستغرب في هذه الأسرة، فما يركبهم الحلم إلا حين  
قيام الأب بينهم مستائراً لنفسه من دونهم بكافة حقوق  
الغضب.

بيد أنّ غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع  
الانطفاء ثم يردّون إلى ألوان من الأسف والندم، إلى  
هذا كلّ خصّ ياسين بالمكابرة فلم يدفعه أسفه إلى  
مصالحة زوجه بل قال لنفسه: «هي التي استشارت  
غضبي... ألم يكن بوسعها أن تحاطبني بلهجة

من صور الهناء وذكريات النشوة المقرّنة بالحنانة  
والقارورة، فعذبته الأحلام وضاعفت من وجّده، وقد  
جرّت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية  
ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغدغ الحارّ السائل بهجة  
وأفراحاً، فلم يدرك قبل ذاك المساء أنّه أعجز من أن  
يصبر على هجر الشراب يوماً واحداً ولم يحزن لما بدا له  
من ضعفه وعبوديته، ولا لام نفسه على إسرافها الذي  
جرّ عليه التعاسة لأهون الأسباب، كان أبعد ما يكون  
عن لوم نفسه أو السخط عليها، ولم يذكر من بواعث  
ألمه إلا الحصار الذي شتّه الإنجليز حول البيت، وأنّه  
يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد، ثمّ لاحت منه  
التفاتة إلى زينب فوجدها تتفرّس في وجهه بنظرة كأنما  
تقول له حانقة «ما لك شاردًا، ما لك واجماً، أليس  
لوجودي أيّ أثر في التسرية عنك؟... أدرك معناها  
كلّه في لحظة خاطفة التقت فيها عيناها، ولكنّه لم  
يستجب لعتابها الخائق الحزين، وبالعكس لعلّه أحفقه  
وأثار نائوته، أجل لم يحقد على شيء كما حقد على  
اضطراره للبقاء معها طوال الليل، بلا رغبة، ولا  
مسرة، وحتى محروماً من النشوة التي يستعين بها على  
تحمل حياته الزوجية. جعل يسترق إليها النظر  
ويتساءل في غرابة أليست هي هي!... أليست هي  
التي خلّبت ليّ ليلة الزفاف؟... أليست هي التي  
شغفتني هيّاماً ليالي وأسابيع؟! فما لها لا تحرك فيّ  
ساكنًا... أيّ شيء طرأ عليها! ما لي أتملّل برّماً  
وساماً فلا أبجد من حسننها وأدبها ما يغنيني عن سكرة  
تأجّلت! ومال - كما فعل مرّات من قبل - إلى رميها  
بالنقص فيها برعت فيه زنوبة ومثيلائها من ضروب  
الخدمة والشطارة، والحق أنّ زينب كانت أولى تجاربه  
في المعاشرة الدائمة. فلم تطل به معاشرة العوادة ولا  
بائعة الدوم، ولم يكن تعلّقه بإحداها بمآلعه من التنقّل  
إذا سنحت دواعيه، وقد ذكر لحظات حيرته هذه  
وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه  
ومن الحياة عامّة ما لم يجز له في خاطر. وانتبه على  
تساؤلها:

- لعلّك غير مرتاح إلى البقاء في البيت؟!...

أرقاً!.. إنه يجب دائماً أن تتحلّى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواء مطمئناً إلى خطوطه الخلفية. اشتدّ ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان إلى السطح. وجد الجو لطيفاً والليل ساجياً والظلمة شاملة إلا أنّها كثيفة تحت عرش اللباب والياسمين، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبة الساء المرصعة بلائاً النجوم. وراح يقطع السطح ذهاباً وجيئة ما بين السور المطلّ على بيت مريم ونهاية حديقة اللباب المشرفة على قلاوون، مستسلماً لخالات شقى، وفيها هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلّل إلى أذنيه خفيف، أو لعلّه همس، بل أنفاس تتردّد بين لحظة وأخرى فحملق في الظلام متعجباً وهتف متسائلاً:

- من هنا؟

فجاء صوت يعرفه حقّ المعرفة وهو يقول في نبرات نحاسية:

- أنا نور يا سيدي...

تذكّر من توه أنّ نور جارية زوجه تأوي ليلاً إلى حجرة خشبية لصق خُصّ الدجاج تحوي بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتّى ميّز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنّه قطعة من الليل تكاثفت وتجمّدت، ثمّ تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على سبورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترسم في تخيلته بطريقة تلقائية، سوداء في الأربعين متينة البنية، غليظة الأطراف، ناهدة الصدر، عبلّة الأداف، ذات وجه لامع، وعينين برّاقتين، وشفتين ممتلئتين، فيها قوّة وخشونة وغرابة، أو هكذا بدت له مذ طرأت على بيته. وفجأة، وعلى حين غرّة، تفجّرت في صدره نيّة الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقات بلا سابق إنذار، ولكن قوّة ميطرة كأنّها تركّز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أمّ حنفي ليلة زفاف عائشة، انبعثت في وجدانه الخامد حياة فوّارة، وانتشر القلق في دمه حتّى تكهرب، وحلّ محلّ الملل والسأم اهتمام حارّ نائر جنونيّ، كلّ أولئك في لمح البصر، ودبّ النشاط في مشيته وفكره وخياله، وكفّ

وهو لا يدري عن قطع السطح من أوّله إلى آخره مقصّراً خطّ ذهابه وإيابه إلى الثلاثين ثمّ إلى النصف، وكلّما مرّ بها اضطرب جسمه برغبة عارمة. جارية سوداء؟... خادم؟... وإن كانت، له سوابق غير منكورة، ليس حتّى أن تقع بغيته على طراز زنوبة، ميزة حُسن واحدة تغني كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن إبطيها وتلبّد الطين على ساقبيها. بل الدمامة نفسها - ما دامت قد ركّبت على امرأة - اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلّع إليها عند أمّ حنفي أو عند ضاربة رمل عوراء خلاها وراء بوابة النصر، نور على آية حال ذات جسم مكنتر صلب يوحى - لا شك - ملمسه بالقوّة والصراع، إلى أنّها جارية سوداء تعد بطرافة في الوصال وجدة في التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفع. وبدا الجوّ من حوله مهيباً آمناً مظلماً فاستحزّت رغبته وتوثّبت أعصابه واسترسل قلبه في دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال في سيره إليها بحيث «يتفق» له أن يحتكّ بها على نحو ما حين مروره بها مؤجّلاً الجهر برغبته حتّى يتاح له جسّ النبض في جوّ من الحذر أن تكون - كما حنفي - بلهاء فتجاوب أركان البيت بفضيحة جديدة، تقدّم في خطوات وثيدة عملياً صوبها، يودّ بكلّ ما اضطرم في صدره من شهوة لو تفدّ كلمات عينية - رغم الظلمة الفاشية - إلى نفسها، حتّى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه، ثمّ حاذاها فمسّ كوعه أعلى جسمها ولكنّه واصل سيره كأنّ ما وقع كان عفواً، غير أنّ رعدة سرت في بدنه عند لمس الموضع الذي لم يتحقّق من هويته في الغيبوبة التي تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الإفاقة النسيبة في نهاية السطح إلاّ مسّ طريّ غزير الحنان وما ندّ عن صاحبه من تراجع بريء أيّد ما رجّحه من عدم ارتياحها في أمره فاستدار مصمّماً على إعادة الكرة. أعاد نحوها ثانية ذراعه حتّى مسّ كوعه لإحدى ثدييها - لم يخطئه إحساسه هذه المرّة - ثمّ لم يسحبها كما كان ينتظر من شخص يدعي أنّه ضلّ السبيل، بل تركه يصافح الثدي الأخرى مصافحة

شهوته من ناحية ولخلوّ لهجتها من الاحتجاج الذي يستوحيه مدلول عبارتها، فجذبها بيده وهو يغمغم:

- تعالي يا حلوة.

فسلست ليد، ربّما عن رضىّ وربّما عن طاعة، وهو يغمر خدّها وصفحة عنقها بقبلاته مترنّحا من شدّة الانفعال، وفي نشوة السرور جعل يقول:

- ماذا غيّبك عنيّ طول هذه الأشهر!

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أيّ احتجاج:

- عيب يا سيّدي.

فقال وهو يتسم:

- ما أرقّ ممانعتك، زبديني منها!...

ولكنّها أبدت شيئاً من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة:

- عيب يا سيّدي... (ثمّ كالمحدّرة)... الحجرة ملأى بالبقّ.

فدفعها وهو يهمس في قفاها:

- أنام على العقارب من أجلك يا نور.

جارية، هكذا بدت بأدقّ ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، وقفت مستسلمة بين يديه في الظلام فوضع شفّتيه على شفّتيها وقبلها بحرقه وتشوّق وهي ساكنة مستسلمة كأنّها تشاهد منظرًا لا دور لها فيه، حتّى قال لها بانفعال: «قبليني» ثمّ أعاد لصق شفّتيه بشفّتيها وقبّل فقبّله! ثمّ طلب إليها أن تجلس فردّدت قولها «عيب يا سيّدي» الذي بدا مضحكًا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة، وما لبث أن وجد لذّة جديدة في تردّدها بين السلبيّة والإذعان فجذّ في طلب المزيد منه وتتابع الممانعة اللفظيّة والإذعان الفعلّي فنسي الزمن، ثمّ خيّل إليه أنّ الظلام من حوله يتحرّك أو أنّ مخلوقات غريبة في طبّاته تراقص، ربّما الجهد أصابه من طول ما لبث إن كان طال لبثه فإنّه على وجه اليقين لا يدري كم لبث، أو لعلّها التّيارات المتوقّدة المتلاطمة في رأسه تولّد من ارتطامها في بصره أنوار وهميّة، ولكن مهلاً، إنّ جدران الحجرة تتهاوج، ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانًا يهتك الأسرار، ورفع رأسه

رفيقة لا تبالي دفع الريب، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايقي بلا شكّ، بل لعلّها أدركتها فنذّ عنها ما يوحي بأنّها أرادت أن تتنحي جانبًا ولكنّها أبطأت، أو بوغت فذهلت، على أيّ حال لم تتقيني باليد، ولم تحرك ساكنًا، فلن تصرخ فجأة كسما فعلت بنت المركوب، لنجرّب مرّة ثالثة. عاد هذه المرّة متعجّلًا جزعًا، فتناقل حيالها، ثمّ مذّ كوعه إلى الصدر الناهد كقربة صغيرة منتفخة، ثمّ حرّك ذراعه حركة ناطقة بالترّدّد والريبة معًا، وهمّ بمواصلّة السير مدفوعًا برغبة في الفرار لولا أن وجد منها استسلامًا أو بلاءة أغرقت ثمالة وعيه في تيّار من الجنون فتوقّف متسائلًا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرًا متهذّبًا:

- هذه أنت يا نور؟!

فقالّت الجارية وهي تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتّى التصق ظهرها بالخائط وأوشك هو أن يلتصق بها:

- نعم يا سيّدي...

أراد أن يقول أيّ كلام يعنّ له حتّى يتمكن من الجهر بما يضطرب في أعماقه كالملاكّم الذي يلوح بقبضته في الهواء متحيّنًا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جيبيها:

- لمّ لم تذهبي إلى حجرتك؟

فقالّت الجارية التي تعثّرت في نطاق حصاره:

- كنت أشمّ الهواء قليلاً...

وكأنّما غلب النهم تردّده فمذّ راحته إلى خاصرتها ثمّ جذبها برفق إلى صدره وهي تبدي ممانعة تحول بينه وبين ما يريد، ثمّ همس في أذنها وهو يلصق خدّه بخدّها:

- هلمّني إلى الحجرة.

فتمتمت في ارتباك:

- عيب يا سيّدي...

رنت نبراتنا النحاسيّة في الصمت رنينًا أزعجه، لم تكن تمعّدت أن ترفع صوتها ولكنّها - فيما بدا - لا يتأتّى لها الهمس أو أنّ من طبع همسها الرنين ولو في أخفض درجاته، على أنّه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقّد

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوءه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولّت هاربة وعويلها يمزّق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه «انفضحت وما كان كان» ولبت بموقفه ذاهلاً عما حوله حتى انتبه إلى نفسه فغادر الحجرة إلى السطح دون أن يحظر له أن يتجاوز. لم يذر ماذا يصنع ولا إلى أيّ مدى تذاع الفضيحة، أتنحصر في شقته أم تنتقل إلى الشقة الأخرى؟... ثم راح يوبّخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعه من أن يلحق بها كي يحصر الفضيحة في أضيق حدود، ثم تساءل وهو في أشدّ حالات الضيق كيف يتلقّى هذه الفضيحة؟ هل يسعفه الحزم هنا أيضاً؟ ربما لو لم يتسرّب نبؤها إلى أبيه. وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشوومة فالتفت نحوها فرأى شيخ الجارية يغادرها ويده لفة كبيرة، ثم هولت نحو باب السطح ومقرت منه، هزّ كتفيه استهانة، وفيما هو يتحسّس صدره بيده أدرك أنّه نسي أن يرتدي الفانلة فعاد إلى الحجرة مسرعاً.

## ٥٨

في الصباح الباكر طُرق الباب، وكان الطارق شيخ الحارة، فقابل السيّد أحمد وأخبره بأنّه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ سكّان الأحياء المحتلة بأنّ الإنجليز لن يتعرّضوا إلّا للمتظاهرين وأنّ عليه أن يفتح دكانه، وعلى التلميذ أن يذهب إلى مدرسته والموظّف إلى وظيفته، وحذّره من حجز التلاميذ أن يظنّوا من المضربين لافتاً نظره إلى الأوامر المشدّدة بمنع المظاهرات والإضراب، بذلك استردّ البيت نشاطه الذي يستقبل به الصباح. وتنفّس رجاله الصعداء لإطلاق سراحهم بعد حبس البارحة، واستروحت النفوس شيئاً من الطمأنينة والسلام. قال ياسين لنفسه تعقيباً على زورة شيخ الحارة: «الأحوال خارج البيت تتحسنّ أمّا داخله فهي طين ووحل»، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزّق أوصالها النكد، زينب لم يستطع الصبر الذي تغلق به صدرها على حزنها وتذمّرها أن يصمد للمنظر المروّع الذي رآته

عملقاً فرأى نوراً خافتاً يتسلّل من شقوق الجدار الخشبيّ مقتحماً عليه خلوته، ثم ارتفع صوت زوجه في الخارج وهي تنادي الجارية قائلة:

- نمت يا نور؟... نور. ألم تري سي ياسين؟

فانتفض قلبه فزعاً ووثب قائماً واندفع على عجل ولهفة يتخطّف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائع لعله يجد غيباً بين كراكيها، ولكنّ نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صكّ أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتالك الجارية من أن تقول بصوت بالّ:

- أنت السبب يا سيّدي، ماذا أفعل الآن؟!

فلكرها في كتفها بقسوة حتى أمسكت، وحقّق في الباب بفزع ورأس وهو يتقهقر - بدافع لا شعوريّ - إلى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار، وتجمّد في موقفه يترقب. تتابع النداء ولا يجيب، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدّمها مصباح وهي تهتف:

- نور... نور...

فلم يسع الجارية إلّا أن تخرج من صمتها مغممة بصوت شاحب حزين:

- نعم يا سيّتي.

فقال زينب بصوت ينمّ عن الحنق والتعنيف:

- ما أسرع أن تنامي يا شيخّة! ألم تري سي ياسين؟... سيّدي الكبير أرسل في طلبه فبحث عنه في الدور التحتانيّ والغناء وهما أنا لا أجده فوق السطح، هل رأيته؟

وما أتمّت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطلّ على الجارية المرتبكة في جلستها باستغراب، ثم بحركة غريزيّة التفتت إلى يمينها فوق بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزي والهوان، التقت عيناها لحظة قبل أن يغضّ بصره، ومزّت لحظة أخرى في صمت قاتل، ثم نذت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهي تهتف ضاربة صدرها بيسراها:

- يا فضيحتك السوداء!... أنت!... أنت!...

عينها في حجرة جارتها فتفجّر صدرها قاذفًا بشواظه كلّ سبيل، تعمّدت تعمّدًا أن يقرع عويلها أذان السيد فجاءها مهرولًا متسائلًا... وكانت الفضيحة... قصّت عليه كلّ شيء متشجّعة بانفعالها الجنوني الذي لعلّها لولاه ما واثتها شجاعته على مواجهته بما قصّت لما باتت تجد نحوه من تهيّب لم تجد مثله حيال أحد من الناس، انتقمّت بذلك لكرامتها الذبيحة، وللصبر الذي تجرّعته حينًا مختارة وحملت عليه في أكثر الأحيان: «جارية! خادمة! في سنّ أمّه! وفي بيتي! ماذا عساه أن يفعل في الخارج إذن؟» لم تكن تبكي غيرة أو لعلّ الغيرة توارت إلى حين وراء حجب كثيفة من التقرّز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان، وكأنّها غدّت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يومًا واحدًا بعد ما كان، أجل هجرت مخدعها فقصّت الليل في حجرة الاستقبال يقطي أكثره تهذي هذيان المحمومين ونائمة أقلّه نومًا ثقیلاً مريضًا مزعجًا. أصبحت وهي مصمّمة على هجر البيت. لعلّ هذا التصميم وحده الذي وجدت فيه مسكّنًا لأوجاعها. ماذا بوسع حميها نفسه أن يفعل؟... لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع، ولن يسعه مهما يكن جبروته أن ينزل بزوجه العقاب الذي يستحقّه حتّى يستشفى صدرها، أقصى ما يراه أن يزرجه، أن يصبّ عليه غضبه، وسينصت - الفاسق - خافض الرأس كي يواصل فيها بعد سيرته الخبيثة!... هيهات. لقد رجاها السيد أن تدع الأمر بين يديه، ونصحها طويلًا أن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها، ولكتّها لم تعد تحتمل الصبر أو العفو. جارية سوداء فوق الأربعين!... كلّ. ستهجره هذه المرّة بلا تردّد، ستفضي إلى أبيها ببئها كلّ، وستبقى في كنفه حتّى يثوب إلى رشده، فإذا جاءها بعد ذلك نادمًا، وغير من سلوكه أو فلنذهب هذه الحياة كلّها - بخيرها وشرّها - إلى الشيطان، أخطأ ياسين حين ظنّها قد طوت صدرها على كربها عقلًا وحكمة، الحقّ أنّه غلبها الجزع من بادئ الأمر فبثّت همّها إلى أمّها، ولكنّ الأم أثبتت أنّها

امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تسرّب إلى الأب، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة إنّ الرجال يسهرون - كوالدها مثلاً - وإنّهم أيضًا يشربون، وإنّه حبسها أنّ بيتها عامر بالخير، وأنّ زوجها يعود إليها مهما سهر ومهما سكر. أصغت الفتاة إلى النصيحة على مضض، وجاهدت نفسها أيّما جهاد متحمّلة بالصبر ولم تأل أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصًا وقد دبّ الجنين في بطنها مشرًّا بالأمومة المرموقة. ربّما كمن التذمّر في أعماقها بيد أنّها راضت نفسها على التسليم متأسيّة بأمّها تارة وطورًا بامرأة سيّدها الكبير، ثمّ لم يخلُ الحال من ريبة تختلج في صدرها بين حين وآخر عمّا يمكن أن يفعل زوجها في سهراته الخمرية، وحدث أن أفضت إلى أمّها بمخاوفها، بل لم تحفّ عنها ما لحق بالرجل من فتور في عواطفه. ولكنّ الأم الحكيمة أفهمتها أنّ ذلك الفتور ليس حتمًا نتيجة لما يقع في خاطرها، إنّّه «شيء طبيعي» وإنّ الرجال جميعًا لديه سواء، وأنّها سوف تقتنع به بنفسها كلّما تقدّمت بها تجارب العمر... على أنّه لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة؟... هل تراها تهجر بيتها لأنّ زوجها يلمّ بغيرها من النساء؟... كلّ. وألف مرّة كلّ، لو تخلّت امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأفترت البيوت من الفضليات، والرجل قد يطمح طرّفه إلى امرأة أو أخرى ولكنّه يعود دائمًا إلى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت، والعاقبة للصابرات. ومضت تذكّرها بالمطلقات بلا ذنب واللائي يشركهنّ في أزواجهنّ أخريات، أليس طيش زوجها - إن صحّ - خطيئًا أخفّ من سلوك أولئك؟! ثمّ إنّّه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومصره يعقل فيثوب إلى بيته ويشغل بذرّيته عن الدنيا جميعًا، ومعنى هذا أنّه ينبغي لها الصبر حتّى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق؟! رذّدت المرأة هذا، وغيره ممّا يجري مجراه، حتّى سلس جراح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه. بيد أنّ واقعة السطح قصّت على كلّ ما وظّنت النفس عليه فانهار البنيان جميعًا كان لم

يكن.

لنفسه ما لا يُحِلُّ لأحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليه التزام الحدود التي يريد هم على أن يلتزموها فلعل غضبه على ما في ذنب ياسين من «تحدُّ» لإرادته و«استهانة» بوجوده و«تشويه» للصورة التي يجب أن يتصوَّره بها أبناؤه، كان أضعاف غضبه على الذنب نفسه، على أن غضبه - كما هي عادته - لم يستمر طويلاً، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقَّده فعاوده الهدوء رويداً وإن شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والأسى، عند ذاك أمكنه أن ينظر إلى «جريمة» ياسين من أكثر من زاوية واحدة، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقرَّ فانجلي له قتاها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرابية. أوَّل ما ابتدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذراً، لا حباً في التسامح فإنَّه يكره التسامح في بيته، ولكن ليَتَّخذ من ذاك العذر المرجى «مبرراً» لخروجه عن إرادته، كأنما يقول لنفسه «إنَّ ابني لم يشقَّ عصا الطاعة... هيهات، ولكن عذره كيت وكيت...» ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق؟... كلاً. إنَّ الشباب عذر عن الذنب وليس عذراً عن خروجه على إرادته وإلَّا لجاز لفهمي بل لكيال أن يتبادي في الاستهانة بتعاليمه، ليلتمس العذر إذن عند رجولته، هذه الرجولة التي تحلَّ له أن يستقلَّ بنفسه عن إرادته ولو شيئاً ما وتعفيه هو - السيّد - من تحمُّل مسئولية فعله، كأنما يقول لنفسه: «إنَّه لم يخرج على إرادتي، هيهات، ولكنَّه بلغ السنَّ التي لا يعدُّ فيها ذنبه خروجاً على إرادتي...» وغنيَّ عن القول إنَّه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحقِّ ولن يعفو عنه لو يجاسر على المطالبة به، بل إنَّه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه إلَّا في حال الوقوع في معصية تستوجب مبرراً للخروج على إرادته، ولم ينس حتى في تلك الحال أن يذكر نفسه التماساً للمزيد من الطمأنينة - بأنَّه أذبه تأديباً غليظاً نادراً قلَّ من يستبيحه من الآباء فقبول بخضوع كامل قليل من يتحمَّله من الأبناء... وعرج خاطره إلى زينب متفكِّراً ولكنَّه لم يجد نحوها أيَّ عطف، لقد واساها إكراماً لأبيها العزيز الحبيب، ولكنَّه لا يظنُّ أنَّ الفتاة جديرة بأبيها حقاً، ما

ومع أنَّ السيّد لم يظنَّ إلى هذه الحقيقة المؤسفة فظنَّ الفتاة قد امتثلت لنصيحتة إلَّا أنَّ غضبته كانت أشدَّ من أن تمرَّ بسلام، وقد أحسنت الجارية صنعاً بفرارها، أمَّا ياسين فلم يبرح السطح، لبث يفكر منزعجاً في العاصفة التي ترتبص به، حتَّى ترامي إلى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقة السياط فدقَّ قلبه، ولكنَّه لم يجب ولم يستجب وتسمَّر يائساً في مكانه، وما يدري إلَّا والرجل يقتحم عليه السطح ثمَّ يقف مدمدماً لحظات وهو يتفحص المكان حتَّى يعثر على شبحه فيتجه إليه ويقف على كُتُب منه شابكاً ذراعيه على صدره مصوِّباً نحوه رأساً متصلباً متعجرفاً، ملتزمًا الصمت ومطيله كي يطيل له به العذاب والإرهاب، كأنما أراد بصمته أن يعبرَ له عمَّا يجد نحوه ممَّا يعي الألفاظ حمله، أو أنَّه أراد أن يرمز به إلى ما كان يؤدُّ أن يؤذبه به من مُبرِّح الركل واللکم فمنعه منه استواؤه رجلاً وزوجاً، ثمَّ لم يعد يستطيع مع الصمت صبراً فانهاه عليه سباً وتعنيفاً وهو يتفض غضباً وهياجاً «أنت تتحدَّاني تحت سمعي وبصري...» فلتذهب أنت وخزبك إلى جهنم... دُنست بيتي يا وغد، هيهات أن يتطهر هذا البيت ما دمت فيه... كان لك قبل الزواج عذر وإه فأتى عذر لك الآن؟!... «لو أصاب كلامي حيواناً لأذبه ولكنَّه ينصبَّ على حجر...» إنَّ بيتاً يضمُّك خليك بأن تُستنزَل عليه اللعنات... نفَس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنَّه يوشك أن يذوب في الظلام، حتَّى أجهد الرجل الزعقُ فولَّاه ظهره وغادر المكان وهو يلعه ويلعن أباه وأمه، ومضى إلى حجرته يفور بالغضب فوراً. في ثورة الغضب رأى زلَّة ياسين جريئة تستحقُّ الإبادة، وفي ثورة الغضب لم يعد يذكر أنَّ ماضيه كلَّه صورة مطوَّلة متكرِّرة من ذلَّة ياسين، وأنَّه لا يزال دائباً على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشبَّ أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات. لا لأنَّه في ثورة الغضب ينسى حقاً، ولكن لأنَّه يُحِلُّ



ورود الوازع الأخير على ذهنه، وخيل إليه أنه يغبط ياسين على ريق شبابيه وجنون زلته معاً!... مهما يكن من أمر فالطبعيتان مختلفتان، لم يكن السيد - كإبنة - مغرمًا بالمرأة بلا قيد ولا شرط، امتازت شهوته دائماً بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع، بل أثرت في ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت إلى الميزات الطبيعية المألوفة، كان مغرمًا بالجمال الأنثوي في لحمه وتبخره وأناقته، فلم تخل جليلة أو زبيدة أو أم مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو أكثر من هذه الميزات، وفضلاً عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب إلا بالنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمير وغناء، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقه جديدة حتى تظن إلى هواه فتتهيئ له ما تنفوق إليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورد والبخور والمسك، وكما كان يعشق الجمال مجرداً كان يعشقه كذلك في هالاته الاجتماعية اللاألة. تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد، ويلذ له أن ينوّه خاصته بعشقه ومعشوقاته إلا فيما ندر من أحوال توجب التسرّ والكتان كحال أم مريم، على أن هذا الحب «الاجتماعي» لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال، فالجمال والصيت - في هذا المجال - يسيران جنباً لجنب كالشيء وظله، وغالباً ما يكون الجمال اليد الساحرة التي تشق السبيل إلى الصيت والمكانة المرموقة، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تحبب إحداهن نزوعه إلى الجمال وولعه بالحسن. هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدياد وهو يردد مستنكراً «أم حنفي! نورا!... يا له من حيوان» إنه بريء من هذا الشذوذ بيد أنه ليس في حاجة إلى أن يتساءل طويلاً عن مصدره فإنه لم ينس بعد ذلك المرأة التي أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة، إنه مسئول عن قوة شهوته أمّا هي فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة إلى الخسيس. وقد عاوده في الصباح التفكير «الجنسي» في المسألة فكاد يدعو الزوجين إليه كي يصفي ما بينهما - وما بينه وبين كليهما - من حساب، ولكن أرجأ ذلك إلى متسع من الوقت أنسب من الصباح.

كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها - مهما تكن الظروف - على النحو الذي فضحت به ياسين!... لشد ما أعولت!... لشد ما صرخت!... ماذا كان يصنع هو - السيد - لو أن أمينة فجأت يوماً بمثل هذا التصرف!... ولكن أين هي من أمينة!... ثم كيف قصّت عليه ما رأت دون حياء!... أف!... أف! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة عمّد عفت لحق لياسين أن يؤدبها بل لما رضي هو أن تمرّ هذه الواقعة دون عقاب زاجر، لقد أخطأ ياسين ولكنها أخطأت خطأ أكبر. ثم عاد إلى ياسين سريعاً فراح يفكر - بباطن مبتمس - في الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما، تلك الطبيعة الموروثة عن الجدّ بلا ريب، ومن يدري لعلها تضطرم الآن في صدر فهمي تحت قناع التهذيب والاستقامة، بل ألا يذكر كيف عاد يوماً إلى البيت على غير انتظار فترامى إلى سمعه صوت كمال وهو يغني «يا طير يا ليلى على الشجر»!... تأخر لحظتك ذلك وراء الباب - لا ليتظاهر بأثفه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت متدوّقاً معدنه سابراً طول نفسه، حتى إذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى إلى الداخل طائفاً صدره على ابتهاج لم يفتن إليه أحد، كم يلذّه أن يرى نفسه مترعرة من جديد في حياة أبنائه على الأقلّ في ساعات الهدوء والصفاء، ولكن رويداً... إن لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها، أو أنه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة إذا روعي المعنى الدقيق لهذه الكلمة، ياسين حيوان أعمى... ينقضّ مرة على أم حنفي ويضبط مرة أخرى مع نور، يتمرّع في التراب دون مبالاة، وما هكذا هو! أجل إنه يدرك مقدار الضيق الذي ألمّ بياسين لاضطراره إلى قضاء الليلة في شبه سجن، يدرك لأنه كابده هو أيضاً كثيلاً محزوناً كمن فقد عزيزاً، ولكن هبه كان ينتزه في بستان السطح - كما فعل الفتى - فصادف جارية - ولنفترض أنها تكون ملبّية لذوقه - أكان يقدم على المغامرة؟... كلاً. مؤكّد كلاً، ولكن أيّ وازع كان يشكّمه؟... لعله المكان؟ الأسرة! ولعله العمر الرشيد. آه. لقد تضايقت عند

ولكنه لم يفعل بغير استعطفها. لم يتجاسر على أن يتحدثهم ولو بالنظر وهو يلمس سبيله تحت رحمتهم، تخشى أن ينحرف بصره إلى أحدهم، ومضى إلى البيت متسائلاً في سخرية عما كانوا يفعلونه لو أنهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم في شبه معركة، أو أنه وزع في مطلع اليوم عشرات المنشورات التي تحرص على قتالهم، جلس يستعرض ما لاقاه في يومه مستحضرًا أقله كما وقع وأكثره كما كان يتمنى أن يكون. هكذا كان رآيه أن يعمل نهارًا وأن يحلم مساء. تحدوه في الحالين أسمى العواطف وأظفعتها، حب قومه من ناحية والرغبة في التفتيل والإبادة من ناحية أخرى، أحلام يسكر بها وقتًا يطول أو يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وفتر لسخافة تصوراتها، أحلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك، واستيلاء على سلاح للعدو ثم الهجوم عليه، هزيمة الإنجليز، خطبة خالدة في ميدان الأوبرا، اضطراب الإنجليز إلى إعلان استقلال مصر، عودة سعد من المنفى ظافرًا، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم، مريم بين شهود الافتتاح التاريخي. أجل كانت أحلامه تتوَّج دائمًا بصورة مريم رغم انزوائها - طوال تلك الأيام - في ركن قصي من قلبه الذي شغلته الشواغل كلها كما ينزوي القمر وراء السحب إبان العاصفة. وما يدري إلا وأمه تقول له وهي تشد المندبل حول رأسها في ارتباك:

- ذهبت زينب إلى بيت أبيها غضبانة.

آه... كاد ينسى ما ألم بأخيه وأسرته في الصباح، الآن تأكد لديه ما حدسه حين علم باختفاء الجارية نور، وتخشى عيني أمه حياء أن تقرأ ما يدور بخلده خصوصًا وأنه أيقن بأطلاعها على جليلة الأمر، ولم يستبعد أن تفسن إلى إدراكه له أو في الأقل أن ترجحه، فلم يذّر ما يقول لا سيّما أنه لم يعتد في عاداتها أن يبدي خلاف ما يظن، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينها، فقنع بأن يتمتع قائلاً:

- ربنا يصلح الحال...

ولمّا ساءل فهمي ياسين عما دعاه إلى التخلّف عن المائدة أجابه مقتضباً «شيء تافه سوف أحدثك عنه فيما بعد» وظلّ فهمي جاهلاً سرّ غضب أبيه على أخيه حتّى علم باختفاء الجارية نور فحدس الأمر كلّ. شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكراً ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرًا صوب الجنود والأم من وراء خصائص المشربية تدعو الله أن يقيهم من كلّ سوء. ولم تشأ أمينة أن تقحم نفسها في «واقعة» السطح فنزلت إلى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلحق بها زينب كالعادة. لم تكن تقرأها على غضبتها لكرامتها فعذتها تدليلاً أثار استياءها، وجعلت تتساءل «كيف تدّعي لنفسها من الحقوق ما لم تدّعه امرأة قط؟...».

لا ريب أنّ ياسين قد أخطأ فدّس البيت الطاهر ولكنه أخطأ في حقّ أبيه وحرمة لا في حقّها هي... ألسنت ملائكة بالقياس إلى هذه الفتاة!... ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها وأقنعت نفسها بوجوب الذهاب إليها مواسية فصعدت إلى شقتها ونادتها، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على أثر، ومضت من حجرة إلى حجرة وهي تنادي حتّى فُتشت البيت ركنًا ركنًا، ثم ضربت كفًا بكف وهي تقول «ربّاه... هل ارتضت زينب أن تهجر بيتها؟!...».

## ٥٩

لم تنج أمينة سحابة النهار من قلق، فإنّ احتمال تعرّض الجنود لأحد من رجالها في ذهابه أو إيباه لم يكد يفارق رأسها. وكان فهمي أوّل العائدين فتخفّفت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها رآته متجهماً فسألته:

- ماذا بك يا بني؟

فهتف فهمي متأففاً:

- أكره أن أرى هؤلاء الجنود...

فقالت المرأة بإشفاق:

- لا تُبِد لهم الكراهية، إن كنت تحبني لا تفعل...

الوسكي، ملأه الامتنان والزهو، تورّد وجهه المكتنز وضحكت أساريه وكأنّ عبارة «ثانك يو» نيشان سامٍ تقلّده على الملأ، إلّا أنّها ضمنت له أن يذهب ويحيى أمام المعسكر آمنًا، وما كاد الرجل يبدي أوّل حركة للذهاب، حتّى قال له متودّدًا من أعماق فؤاده:  
- حظّ سعيد يا سيّدي.

ومضى إلى البيت كالترنّح من الفرح. أيّ حظّ سعيد ظفر به هو!... إنجليزيّ - لا أستراليّ ولا هنديّ - وابتنس له وشكره!... إنجليزيّ أي رجل يتمثّل في خياله كأثمدوج لكمال الجنس البشريّ، ربّما أبغضه كما يبغضه المصريّون جميعًا، ولكنّه في قرارة نفسه يحترمه ويحبه حتّى ليخيّل إليه كثيرًا أنّه من طينة غير طينة البشر، هذا الرجل ابتنس له وشكره!.. وقد أجابه إجابات صحيحة مقلّدًا ما وسعته مرونة شذقيه طريقة النطق الإنجليزيّة فنجح نجاحًا باهرًا استحقّ عليه الشكر... كيف يصلّق ما ينسب إليهم من الأعمال الوحشيّة!! لماذا نفوا سعد زغلول إذا كانوا على هذا الظرف كلّهم؟! غير أنّ حماسه فتر بمجرّد أن وقع بصره على الستّ أمينة وفهمي واستطاع أن يقرأ نظرتهم، وسرعان ما اتّصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه، انتبه إلى أنّه يواجه مرّة أخرى المشكلة التي هرب منها مع الصباح الباكر. تساءل وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

- لماذا لا تجلس معكم؟ ألا تزال غضبانة؟  
فتبادلت أمينة مع فهمي نظرة ثمّ غتمت بارتباك:  
- ذهبت إلى أبيها.  
فرفع حاجبيه دهشة وانزعاجًا ثمّ سألها:  
- لماذا تركتها تذهب؟  
فقالّت أمينة وهي تتنهد:  
- تسلّلت دون أن يشعر بها أحد.  
شعر بأنّه يجب أن يقول قولًا يرضي كرامته أمام أخيه وأمه فقال باستهانة:  
- إلى حيث... .

وقرّر فهمي أن يقاوم رغبته في اللواذ بالصمت كي يوهم أخاه بأنّه لم يتطلّع على سرّه وبالتالي أن ينفي

لم تنبس أمينة بكلمة كأنّ اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفي جملة إخباريّة وأخرى دعائيّة في معالجته، وما لبث فهمي أن دارى ابتسامه كادت تفضح تحفّظه إذ أدرك أنّ أمّه تكابد مثل شعوره وأنها تعاني ارتباكًا لعجزها الفطريّ عن التمثيل، لم تكن تحسن الكذب، وحتّى إذا اضطرتّ إليه أحيانًا كشفتها طبيعة لا تستقرّ على بساطتها الأقنعة، على أنّ ارتباكها لم يطل فما هي إلّا دقائق حتّى رأيا ياسين مقبلًا نحوهما. خيّل إليهما أنّه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التي تترصّد في البيت وإن لم يعلم بعد بمدى ما بلغته، ولم يدهش فهمي لذلك كثيرًا لما يعلمه من استهائته بالمتاعب التي تنوء بغيره من الناس، ولكنّ الحقيقة أنّ ياسين غلبه شعور باهر بأنّه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته إلى حين جلّ متاعبه. كان في طريقه إلى باب البيت حين اعترض سبيله جنديّ كأنّما انشقت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقع شرًّا لا قبل له به أو في الأقلّ إهانة جارحة علّ مرأى من أصحاب الحوانيت والمازّة، ولكنّه لم يتردّد في الدفاع عن نفسه، فقال برقة وتودّد مخاطبًا الجنديّ كأنّما يستأذنه في المرور:  
- من فضلك يا سيّدي.

ولكنّ الجنديّ طلب عود ثقاب وهو يبتسم - أجل يتسم - فذهل ياسين لابتسامته حتّى استعصى عليه أن يفهم مراده حتّى أعاده، لم يكن يتصوّر أنّ جنديًّا إنجليزيًّا يبتسم على هذا النحو، أو - إذا كان الجنود الإنجليز يبتسمون كسائر البشر - أن يبتسم له أحدهم فيها يشبه الأدب، فاستخفّه سرورًا أربكه حتّى لبث جامدًا لحظات لا يجري جوابًا ولا يبدي حراكًا، ثمّ توتّب بكلّ ما فيه من قوّة لأداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجنديّ العظيم المبتسم، ولمّا كان غير مدخّن فلا يحمل ثقابًا فقد بادر إلى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع إلى الجنديّ ماؤًا له يده بها فتناولها الجنديّ وهو يقول:  
- أشكرك.

لم يكن أفاق من أثر الابتسامه السحريّة فجاء الشكر كقدح البيرة الذي يعلّ به من استوفى طاقته من

شبهة إذاعته هذا السرّ عن أمّه فسأله ببساطة:

- ما الذي دعا إلى هذا النكد؟!

فحججه ياسين بنظرة متفحصة ثمّ لَوَح بيده الغليظة وهو يَمِطُّ بوزه كأنما يقول له «ليس ثمة ما يدعو إلى النكد» ثمّ قال:

- بنات اليوم لم تعد بهنّ طاقة على حسن المعاشرة. ثمّ ناظرًا إلى ستّ أمينة:

- أين هنّ ستّات الأمس؟!

نكّست أمينة رأسها حياء في الظاهر، وفي الحقّ لتداري ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التي يتخذها ياسين الآن، صورة المتأمل الواعظ المجنّي عليه، والصورة التي ضبط بها مساء أمس فوق السطح. على أنّ انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذي سمح له الموقف بأن يتظاهر به، فإنّه على فداحة الخيبة التي مُني بها في حياته الزوجيّة لم يفكر لحظة في قطع هذه الحياة، وجد فيها ملاذًا مستقرًا ورعاية إلى ما بشرت به من أبوة وشبكة رَحَب بها أيّما ترحيب، تَمَنّى دائميًا أن تبقى وراء ظهره ليعود إليها من شتّى جولاته كما يعود الرّحالة في نهاية العام إلى وطنه، ولم يغب عنه ما سيجرّه عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه وبين السيّد عَقَت، إلى ما يلبس هذا كلّ من فضيحة ستفوح رائحتها حتّى تزكم الأنوف... بنت الكلب!... لَشَدَّ ما كان مصمّمًا على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنّها أخطأت خطأ أكبر من خطئه، بل لعلّه اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين، فأقسم ليحملها على الاعتذار وليأخذنّ نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل، ولكنّها ذهبت... قلبت خططه رأسًا على عقب... وضعته في مأزق غير يسير. بنت الكلب!... وانتزع من تيّار أفكاره على صوت صراخ يمزّق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمي وأمّه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنّه صادر عن امرأة، ولكنّ تساءلت أعينهم عن الناحية التي يترامى منها وعن سببه: أنعي ميت أم عراك أم استغاثة، وراحت أمينة تستعيد بالله من الشورور جميعًا حتّى قال

فهمي:

- إنّه قريب... لعلّه في طريق بيتنا.

ونفض فجأة مقطّبًا جبينه وهو يتساءل:

- ألا يكون الإنجليز قد هاجموا امرأة مازّة بالطريق؟ وهرع إلى المشربيّة والأخيران في أثره، بيد أنّ الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلًا على الناحية التي ترامي منها، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرّت على امرأة لفتت الأنظار بوقفها الغريبة وسط الطريق وبمن أحاط بها من المازّة وأصحاب الحوانيت، على أنّهم عرفوها لأوّل وهلة وهتفوا معًا:

- أمّ حنفي...

وتساءلت أمينة التي كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة:

- ما لي لا أرى كمال معها؟! وماذا يوقفها هُكْذا كالجماد! كمال... ربّاه... أين كمال؟

ثمّ مدفوعة بشعور غريزيّ:

- هي التي كانت تصرخ... عرفت الآن صوتها... أين كمال؟... أغيثوني...

لم ينبس فهمي ولا ياسين بكلمة. استغرقتهما فحص الطريق عامّة والمعسكر الإنجليزيّ خاصّة حيث راوا أنظار المتجمّعين - وفي مقدّمهم أمّ حنفي - تتّجه. لم يكن ثمة شكّ لديها في أنّ أمّ حنفي هي التي صرخت حتّى جمّعت الناس حولها، بل شعرا بالبداهة أنّها كانت تستغيث لأنّ ثمة خطرًا تهدّد كمال، ثمّ تركّزت مخاوفها في الإنجليز. ولكن أيّ خطر هو؟... وأين كمال؟... ماذا حدث للغلام؟ إنّ الأمّ لا تكفّ عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنّان خاطرها، لعلّهما في حاجة إلى من يسكنّ خاطرها... أين كمال؟... إنّ الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطّيته، كلّ مشغول بشأنه كأنّ شيئًا لم يقع وكأنّ أحدًا من الناس لم يتجمّع. وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمي في كتفه:

- ألا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين؟... إنّ كمال يقف

بينهم... انظر.

فلم تملك الأم أن صرخت قائلة:

- كمال بين الجنود... ها هو يا ربّي... ربّاه...  
أغيثوني.

وإشارات يديه التي استعان بها على الإفصاح عن أفكاره فدلّ التفاهم بينه وبينهم على أنّهم يستطيعون إلى حدّ ما استعمال اللغة العربيّة، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له؟... هذا ما لم يستطع أحد أن يخمّنه، بيد أنّهم ثابوا إلى رشدهم، حتّى الأم نفسها استطاعت أخيراً أن تشاهد المنظر العجيب الذي يمثّل تحت ناظرها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة، على حين جعل ياسين يضحك قائلاً:

- الظاهر أنّنا غالينا في التشاؤم حيننا ظننا أنّ احتلال هؤلاء الجنود لحينّا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهي.  
ومع أنّ فهمي بدا ممتناً لسلوك الجنود مع كمال، إلاّ أنّه لم يرتح إلى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحوّل عيناه عن الغلام:

- ربّما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال. لا تغلّ في تفاؤلك.

وكاد ياسين يندفع متحدّثاً عن مغامرته السعيدة، ولكنّه أدرك لسانه في اللحظة المناسبة فأمسك تفادياً من إثارة أخيه، ثمّ قال على سبيل الملاطفة والتودّد:

- ربّنا يخلّصنا منهم على خير.

وتساءلت أمينة في لهفة:

- ألم يثنّ لهم أن يدعوه مشكورين؟

ولكن بدا على دائرة كمال أنّ ثمة جيّداً ينتظر، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة إلى خيمة قريبة ثمّ عاد بعد قليل بكرسيّ خشبيّ فوضعه أمام كمال، وما لبث الغلام أن وثب إلى الكرسيّ فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، كأنّما ينتظمه طابور القسم المخصوص، وقد انحدر طربوشه إلى قذاله - دون شعور منه في الغالب - كاشفاً عن مقدّم رأسه الكبير البارز. ما خطبه؟ ماذا وراء هذه الوقفة؟ لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو يشد:

يا عزيز عيني بسدي أروح بلدي

يا عزيز عيني السلطة خدت ولدي

غناها مقطّعةً مقطّعةً بصوته اللطيف والجنود يتطلّعون إليه فاغري الأفواه ضاحكي الأسارير تلاحق أكفّهم تردّده بالتصفيق، وكان أحدهم قد تأثر بما

أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكي الأذرع، وقد مرّت عينا فهمي أكثر من مرّة دون أن تعثرا على ضالّتهما، في هذه المرّة لمح كمال واقفاً وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجنديّ الذي يوليهم ظهره، خيّل إليه أنّهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتّى يقضوا عليه، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلاً بنبرات مضطربة:

- سأذهب إليه مهما تكن العواقب...

ولكنّ يد ياسين قبضت على منكبيه وهو يقول بصوت حازم «قف»... ثمّ خاطب الأم بصوت هادئ باسم قائلاً:

- لا تخافي... لو أنّهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما تردّدوا... انظري إليه ألا يبدو منهمكاً في حديث طويل؟ ثمّ ما هذا الشيء الأحمر الذي بيده؟ أراهن على أنّها قطعة من الشيكولاتة!... هدّئي روعك... إنّهم يتسلّون به «ومتنبّها» شدّ ما أفرعنا على لا شيء.  
سكن روع ياسين، وما لبث أن تذكّر مغامرته السعيدة مع الجنديّ فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر في لطفه ورقة، ثمّ رأى أن يدعم قوله ويثبتّه في فؤاد الأم اللتان فأشار إلى أمّ حنفي التي لم تزل في موقفها قائلاً:

- ألا تريان أنّ أمّ حنفي لم تكفّ عن الصراخ إلّا حين لم تجد داعياً له. ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمأنينة.

فغمغمت أمينة بصوت مرتعش:

- لن يطمئنّ قلبي حتّى يعود إليّ...

وتركّزت أعينهم في الغلام، أو فيها يلوح منه بين آونة وأخرى غير أنّ الجنود استردّوا أذرعهم المتشابكة وضمّوا سيقانهم المنفرجة كأنّما اطمأنّوا إلى عدول كمال عن التفكير في الحرب، فبدا الغلام بكامل هيئته، بدا باسمًا يتكلّم كما استدلّوا عليه من حركة شفّتيه

أدركه من بعض معاني الأغنية فراح يهتف «أروّح بلدي... أروّح بلدي»... فتشجّع كمال بما حظي من سرور سامعيه وأقبل بمجود من إنشاده ويحسن من ترنمه ويعلي من صوته، حتى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذي شاركت فيه الأسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والإشفاق. أجل شاركت الأسرة في الاستحسان بعد أن شاركت بقلوبها أيضًا. في الغناء، تتبعوه بإشفاق وقلق، دعوا له بالسلامة والإجادة، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغني بالإنابة عنهم جميعًا، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرتهم، وكأنّ كرامتهم - أفرادًا ومجموعة - أمست متعلّقة بنجاح الغناء، نسيت أمانة في لجة هذا الشعور مخاوفها، حتى فهمي لم يكن يفكر في أثناء ذلك إلّا في الغناء وما يرجو له من نجاح، فلمّا انتهى بخير تنهّدوا من الأعماق وودّوا أن يبادر كمال إلى العودة قبل أن يطرأ طارئ يفسد عليهم مسك هذا الختام. والظاهر أنّ الحفلة أذنت بانتهاء فقد قفز كمال إلى الأرض فسلم على الجنود فردًا فردًا ورفع يده محييًا ثم انطلق يعدو صوب البيت. فهولت الأسرة من المشيئة إلى الصالة لتكون في استقباله. أقبل عليها لهاثًا موزّد الوجه مبتلّ الجبين تنطق عيناه وأساريه وحركات أعضائه المرسلة بلا أتران أو غاية بالفرح والفوز. أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان بوسعه إلّا أن يعلن عنها بكلّ سبيل ودعو الآخرين إلى الاشتراك فيها كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه... ولكنّ الفرّح أعماه فهتف بهم:

- عندي خبر لن تصدّقوه ولن تتصوّروه...

فقهقه ياسين متسائلًا في سخرية:

- أيّ خبر يا عزيز عيني؟

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شمس فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصّحة ناطقة، بيد أنّ علمه برويتهم لمغامرته عوّضه عمّا ضاع من فرصة إدهاشهم بحديثه العجيب فأغرق

في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه، ثمّ قال وهو يغالب الضحك:

- أرايتموني حقًا...؟

عند ذاك جاء صوت أمّ حنفي وهي تقول بنبرات متشكّية:

- كان الأفضل أن يروا تعاسي!... علام هذا الفرّح كلّ بعد أن سيّبت مفاصلي؟... حادثة أخرى كهذه والله يرحمني...

لم تكن قد خلعت ملاعتها فبدت كزكية فحم منتفخة، يعلو وجهها الشحوب والإعياء وتلوح في عينها نظرة استسلام غريبة، فسألته أمانة:

- ماذا حدث؟... ماذا دعاك إلى الصراخ؟... لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئًا مفرعًا...

فأسندت أمّ حنفي ظهرها إلى ضلفة الباب وأخذت تقول:

- حدث ما لن أنساه يا ستي... كنّا عاشرين وإذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير إلى سيّدي كمال ليذهب إليه ففزع سيّدي وجرى إلى درب قرمز، ولكن جنديًا آخر اعترض سبيله فانحرف إلى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبي من الخوف وجعلت أستغيث بأعلى صوتي وعيناي لا تفارقانه وهو يجري من جندي إلى جندي حتى أحاطوا به... كدت أموت من شدّة الخوف وزاغ بصري فلم أعد أرى شيئًا، وما أدري إلّا والناس قد اجتمعوا حولي ولكنّي لم أكفّ عن الصراخ حتى قال لي عمّ حسنين الحلاق: «ربّنا يكفيه شرّ أولاد الحرام. وحدي الله... إنهم يلاطفونه...» آه يا ستي لقد حضرنا سيّدنا الحسين ودفع عنّا الشر...

فقال كمال معترضًا:

- لم أصرخ أبدًا...

فضربت أمّ حنفي صدرها بكفّها قائلة:

- لقد ثقب صراخك أذني حتى جئتني...

فقال بصوت منخفض كالمعتذر:

- ظننتهم يريدون قلتي، ولكنّ أحدهم جعل يصفر لي ويربّت كتفي ثمّ أعطاني (وهنا جسّ جيبه)

- شيكولاتة فذهب عني الخوف... .
- زابل أمينة السرور، لعلّه كان سرورًا زائفًا متعجلًا، الحقيقة التي يجب ألا تغيب عنها هي أنّ الفزع ركب كمال دقائق، وأنه يجب أن تدعو ربّها طويلاً كي ينجّيه من عواقبه، لم تكن ترى في الفزع مجرد شعور عابر، كلّاً... . إنّه شعور شاذّ تكتنفه هالة غامضة تأوي إليها العفاريث كما تأوي الخفافيش إلى الظلام، فإذا أحاط بشخص - خصوصاً الصغار - مسّه بضرسٍ سيئٍ العاقبة، لذلك فهو يستوجب في نظرها مزيداً من العناية والحيلة، تلاوة من القرآن كانت أم بخوراً أم حجاباً، قالت بحزن:
- أفزعوك! قاتلهم الله... .
- وقرأ ياسين ما يدور في خاطرها... . فقال مداعباً:
- الشيكولاتة رقيقة ناعمة للفزع... . (ومخاطباً كمال)... هل دار الحديث بالعربي؟
- رحّب كمال بالسؤال لأنّه فتح له مرةً أخرى أبواب الخيال والمغامرة، منتشلاً إياه من مضايقات الواقع، فقال وقد استعادت أساريه انبساطها:
- كلّموني بعربي غريب... . ليتك سمعته بنفسك! وراح يحاكي طريقتهم في الكلام حتّى ضحك الجميع، حتّى أمّه ابتسمت... . فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه:
- ماذا قالوا لك؟
- كلاماً كثيراً... . ما اسمك، أين بيتك، أتحبّ الإنجليز؟
- فهمني ساخراً:
- وبم أجبتهم على هذا السؤال الفريد؟
- فرمق أخاه كالمتردّد... . ولكنّ ياسين أجاب عنه قائلاً:
- طبعاً قال إنّه يحبّهم... . ماذا كنت تريد أن يقول؟... .
- على أنّ كمال استطرد يقول متحمّساً:
- ولكنّي قلت لهم أيضاً أن يعيدوا سعد باشا. فلم يتمالك فهمني أن ضحك عاليًا... . وسأله:
- حقاً!... . وماذا قالوا لك؟
- فقال كمال مستردّاً ارتياحه بضحك أخيه:
- أمسك أحدهم بأذني وقال لي «سعد باشا نو...».
- فعاد ياسين يتساءل:
- وماذا قالوا أيضاً؟
- فقال كمال ببراءة:
- سألوني... . ألا يوجد بنات في بيتنا؟ فتبدلت نظرة جدّية بينهم لأوّل مرّة منذ قدّم كمال، ثمّ سأله فهمني باهتمام:
- وماذا قلت لهم؟
- قلت لهم إنّ أبلّة عائشة وأبلّة خديجة تزوّجتا، ولكنّهم لم يفهموا كلامي فقلت ليس في البيت إلّا نينة، فسألوني عن معنى نينة فقلت!... .
- رمى فهمني أخاه ياسين بنظرة كأنّها يقول: «أرأيت كيف أنّ سوء ظنيّ في محلّه!» ثمّ ساخراً:
- لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله... .
- فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلاً:
- ليس ثمة ما يدعو إلى القلق... .
- وأبى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال:
- وكيف دعوك إلى الغناء؟
- فقال كمال ضاحكاً:
- في أثناء الحديث انطلق أحدهم يغنيّ بصوت منخفض، فاستأذنتهم في أن أسمعهم صوتي... !
- فقهقه ياسين قائلاً:
- يا لك من فتّى جريء... ! ألم يعاودك الخوف وأنت بين أرجلهم؟
- فقال كمال في مباهاة:
- أبداً... . (ثمّ بتأثر)... ما أجملهم!... . لم أر أجمل منهم من قبل. عيون زرق... . وشعر من ذهب... . وبشرة ناصعة البياض... . كأنّهم أبلّة عائشة!
- وجرى فجأة إلى حجرة المذاكرة ورفع رأسه إلى صورة لسعد زغلول ثبتت في الجدار إلى جانب صورة الخديو ومصطفى كامل ومحمّد فريد... . ثمّ عاد وهو

يقول:

- إنهم أجل من سعد باشا كثيرًا...

فهز فهمي رأسه كالأسف وقال:

- يا لك من خائن...! اشتروك بقطعة من الشيكولاتة... لست صغيرًا ليغفر لك هذا القول، من مدرستك من يستشهد كل يوم، خيبة الله عليك...

وكانت أم حنفي قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن... وأخذت أمينة تهنئ القهوة للجلسة التقليدية، عاد كل شيء إلى أصله إلا ياسين فقد عاود التفكير في زوجه الغاضبة، على حين انتحى كمال جانبًا وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورّد اللامع، بدا أن تعنيف فهمي ضاع في الهساء إذ لم يكن في قلبه وقتذاك إلا الرضى والحب...

٦٠

تعدّدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها أحد، وما يدري السيد أحمد إلا ومحمد عفت قادم عليه في الدكان في اليوم التالي لالتجاء زينب إلى بيته، ثم قال قبل أن يستردّ يده التي شدّ عليها السيد بالسلام:

- يا سيد أحمد... جئتك برجاء... يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن...

بهت السيد، أجل قد ساء سلوك ياسين أكبر إساءة، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلًا فاضلاً كالسيد محمد عفت إلى المطالبة بالطلاق، لم يتصور أن تدعو هذه «المفوات» إلى الطلاق مطلقًا، بل لم يحجر له على بال أن تحيي المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدًا، فخيّل إليه أن الدنيا انقلبت رأسًا على عقب، وأبى أن يصدّق أن محدثه جاد في طلبه فقال بلهجته اللطيفة التي طالما استأسرت قلوب أصدقائه:

- ليت الإخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفني بهذه اللهجة القاسية!... أصغ إلي... باسم صداقتنا أمتنعك من أن تجري للطلاق ذكرًا على

لسانك...

ثم تفرّس في وجهه ليسبر أثر كلامه فيه، ولكنه وجدته متجهّما كالحما ينذر بالشرّ والتصميم، فبدأ يستشعر الخطورة والتشاؤم... دعاه إلى الجلوس فجلس وما تزداد صورته إلا ظلامًا. إنه يعرفه حق المعرفة، عنيد شديد المراس إذا ركبته الغضب كفر بالموّدة والمجاملة فتمزّقت على سنان حدّته أسباب القربى والعطف جميعًا، قال السيد:

- وحّد الله... ولتحدّث في هدوء...

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذي توهّج به حدّاه:

- صداقتنا في حرز، فلندعها جانبًا... ابنك ياسين لا يعاشر، تحقّقت من هذا بعد أن عرفت كل شيء، كم تصبّرت المسكينة!... حضنت همومها طويلاً، أخفت عني كل شيء، ثم بثّتها جملة حين تصدّع صدرها... يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا، أهانها ولفظها، ثم ماذا كانت عقيب صبرها الطويل؟! أن تضبطه في بيتها مع خادماتها! (ويصق على الأرض)... جارية سوداء؟... بنتي لم تخلق لهذا... كلاً وربّ السماوات، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندي، كلاً... وربّ السماوات، لا كنت محمد عفت إذا سكّت على هذا...

قصة معادة، ولكن ثمة جديدًا صدمه حتى زلزله هو قوله إن ياسين «يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرًا»!... أعرف طريق الحانة أيضًا؟... متى؟... كيف!... آه ليس في الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج، ليخفّف انفعاله كلّ، الساعة تتطلّب هدوءًا وضبطًا للنفس، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر... قال بنبرات أسيفة:

- إن ما يحزنك يحزنني أضعافًا، ومن سوء الحظ أن سوءة من السوءات التي حدّثني عنها لم تتصل لي بعلم أو تحجّر لي على بال، اللهم إلا الحادثة الأخيرة وقد أدّبه عليها تأديبًا لا يستبيحه لنفسه أب غيري، ما عسى أن أصنع؟... لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان



لا يتسامح من ذرة غبار إذا مسّت لها ظفراً!...  
لكنّه رغم هذا كلّه تعدّر عليه أن يقيس الأمور بغير  
مقياسه، وكان يفاخر دائماً، بأنّ محمّد عفت على فظاعة  
غضبه إذا غضب، لم يحتدّ عليه ولو مرة واحدة طوال  
معاشرتهما المديدة!... قال متسائلاً:

- رويدك، ألا ترى أنّ مبادئنا واحدة وإن اختلفت  
التفاصيل؟ جارية سوداء أو عالة... أليست كلتاهما  
أمرأة؟!

فانتفخت أوداج محمّد عفت وضرب حافة المكتب  
بقبضته... وانفجر قائلاً:

- أنت لا تعني ما تقول! الخادمة خادمة والسيدة  
سيّدة، لماذا لا تعشق الخادّات إذن؟! لم يشابه ياسين  
أباه، إني آسف لكون ابنتي حبلى، كم أكره أن يكون  
لي حفيد تجري في دمه القذارة!...

وخزته الجملة الأخيرة فغضب، ولكنّه استطاع أن  
يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذي يحبوه أصدقاؤه  
وأحابيه، حلم بين الأصدقاء لا يعادله في قوّته إلّا  
غضبه بين آله... ثمّ قال بهدوء:

- أقترح عليك أن تؤجّل الحديث إلى وقت  
آخر...

فقال محمّد عفت محتدّاً:

- أرجو أن تحقّق رجائي الساعة!...

آه... لقد بلغ به الامتناع حدّاً لم يكن الطلاق  
نفسه معه بالحلّ المستكره ولكنّه كان يشفق على صداقة  
العمر من ناحية، وتعرّض عليه الهزيمة من ناحية أخرى،  
أليس هو الرجل الذي يتشفّع به الناس ليفضّ  
الخصومات وليصل ما انقطع من المودّات  
والزيجات؟!... فكيف تحلّ به الهزيمة وهو يدافع عن  
ابنه فيرضى بحكم الطلاق؟!... أين حلمه؟...  
أين كياسته؟... أين لباقته؟...

- لقد أصهّرت إليك لأوثق أسباب الصداقة  
بيننا... فكيف أقبل أن أعرضها للوهن؟...

فقال الرجل بإنكار:

- صداقتنا في حرزنا... لسنا أطفالاً، ولكن  
كرامتي لا يمكن أن تمسّ...

صبيّاً، ولكن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تهزّ من  
تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة.

قال محمّد عفت وهو يتحاشى عيني السيّد بالنظر إلى  
المكتب:

- لم أجيء لأوجّه إليك لوماً أو أحلك تقصيراً، أنت  
كاتب مثالي يعتذري ولا يجاري... ولكن هذا لن يغيّر  
من الحقيقة المحزنة، وهي أنّ ياسين كان غير ما أردت  
له أن يكون، وأنّه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة  
الزوجيّة.

فقال السيّد في عتاب:

- رويدك يا سيّد محمّد!...

فقال الرجل مستدرّكاً ولكن مصمّماً على رأيه:

- على أيّ حال لن يصلح زوجاً لابنتي، سيجد من  
تقبله على علاّته ولكن غيرها، لم تخلق ابنتي لهذا...  
أنت أدري الناس بمنزلتها عندي...

أدنى السيّد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت  
منخفض... وكأنّما يداري ابتسامة:

- ليس ياسين بين الأزواج بنادرة، فكم منهم من  
يسكر ويعريد ويعمل البدع!

فقطّب محمّد عفت لينفي عن نفسه شبهة الاستجابة  
لهذا الكلام الموحى بالدعابة... وقال بحفء:

- إن كنت تشير إلى جماعتنا أو إلّايّ أنا خاصّة، فالحقّ  
أني أسكر وأعريد، وأعشق، ولكنّي... بل نحن  
جميعاً، لا نوحل في القاذورات!... جارية  
سوداء!... أهذه التي قضى على ابنتي بأن تتخذها  
ضرة؟!... كلّاً... كلّاً وربّ السماوات... لن  
تكون له ولن يكون لها...

أدرك السيّد أحمد أنّ محمّد عفت - ربّما كابنته سواء  
بسواء - مستعدّ لأن يعفو عن أمور كثيرة، إلّا أن يخلط  
ياسين بين كرميته وبين جاريته السوداء، إنّه يعرفه  
تركياً في عناد البغل، ثمّ ورد على ذهنه قول صديقه  
إبراهيم الفار يوم كاشفه بنبّته في خطبة زينب لابنه  
ياسين، فقد قال له: «أصيلة بنت أصيل، محمّد أخونا  
وحبيبنا، ابنته ابنتنا، ولكن هل فكّرت رويداً في منزلة  
الفتاة من نفس أبيها... هل فكّرت في أنّ محمّد عفت

فقال السيد برقة:

- ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتمّ عامها الأول؟

فقال محمد عفت بعجرفة:

- لن يرجع عاقل العيب إلى ابنتي...

آه... مرة أخرى... ولكنّه تلقّاها بنفس الحلم، بدا وكأنّ استيائه لعجزه عن التوفيق قد غطى استيائه من تهوّر الرجل الغاضب فلم يتمّ بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير إخفاقه... راح يعزّي نفسه بأنّ الطلاق بيده هو وحده، إذا شاء منحه وإذا شاء منعه، محمد عفت يعلم ذلك حقّ العلم، لذلك جاء يستوهبه إيّاه باسم الصداقة التي لا شفيح له غيرها، فإذا قال لا فلا رادّ لكلمته، وسترجع الفتاة إلى ابنه طوعاً أو كرهاً... ولكن تسمي الصداقة القديمة في خبر كان، أمّا إذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجمل، وليس من العسير أن يتذرّع بكلّ أولئك في المستقبل لوصل ما انقطع، وإذن فالطلاق وإن يكن هزيمة إلّا أنّه هزيمة مؤقتة تتضمّن تسامحاً ونبلاً غير منكورين وقد تنقلب فوزاً بعد حين. وما إن اطمأنّ إلى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتّى شعر بالرغبة في معاتبته على ما فرط في حقّه... فقال بلهجة ذات معنى:

- لن يكون الطلاق إلّا بموافقتي... أليس كذلك؟... بيد أنّي لن أنبذ رجاءك ما دمت مصرّاً عليه، إكراماً لك، إكراماً للصداقة التي لم ترع لها حقّاً في مخاطبتي...

فتنهّد محمد عفت... إمّا ارتياحاً للنهاية المنشودة أو احتجاجاً على عتاب صديقه أو للإثنين معاً، ثمّ قال بلهجة قاطعة خلّت من حدّة الغضب ولأول مرة:

- قلت ألف مرة إنّ صداقتنا في حرز...! إنّك لم تسئ إليّ قطّ، على العكس من ذلك فإنّك تكرميني بتحقيق رجائي وإن كرهته...

فردّد السيد قوله محزوّناً:

- نعم... وإن كرهته...

ثار حنقه حالماً غاب الرجل عن ناظره. انفجر

الغيط المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين، ياسين خاصّة، ثمّ تساءل: ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة في حرز حقّاً فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقّعة؟... آه. لم يكن ليضنّ بنفسه في سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزّة القاسية... لكنّه العناد التركيّ، لكنّه الشيطان، بل لكنّه ياسين، أجل ياسين دون غيره... قال له بغضب وازدراء:

- كدّرت صفو ودّ لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له...

ثمّ قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت:

- خيّبت أملي فيك فحسبي الله ونعم الوكيل، ربّيتك وأدبتك ورعيتك... ثمّ انجلى تعبي كلّهُ عن ماذا؟... سكير صعلوك تسوّّل له نفسه الاعتداء على أحقر الخادّات في بيت الزوجيّة، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، ما كنت أتصوّر أن يخرج من حضناتي ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد، ما عسى أن أصنع بك؟... لو كنت قاصراً لكسرت دماغك، ولكنّ لتكسرّها الأيام، ها أنت تنال جزاءك الحقّ فتتبرّأ منك الأسرة الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان!...

لعلّه وجد نحوه بعض الرثاء، بيّذ أنّ سخطه غلب ثمّ استحال شعوره كلّ ازدراء، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوّته وجماله وضخامته، يوحد في القذارة كما قال محمد عفت قتاله الله، وعجز عن كبج جراح امرأة، ما أصغره، سرعان ما لحقت به الهزيمة التي لم يتّجّع هو نفسه من هوانها من جرّاء طيشه. ما أحقره، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظّل السيد المطاع، أمّا أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره، لم يشابهه أباه كما قال أيضاً محمد عفت قتاله الله، إليّ أفعل ما أشاء ولكنّي أظّل السيد أحمد وكفي، حكمة رائعة تلك التي ألهمتني أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة، فإنّه لما يشقّ أن ينهجوا نهجي ويحفظوا في نفس الوقت بالكرامة والاستقرار، ولكن وأسفاه ضاع جهدي هباء مع ابن هنيء!...

- أمرك يا أبي...

أيّ عيشة وأيّ بيت وأيّ أب، زجر وتأديب ونصائح، ازجر نفسك... أدب نفسك... انصح نفسك، أنسيت زبيدة؟... وجليدة؟... والغناء والشراب؟ ثمّ تطالعنا بعمامة شيخ الإسلام وسيف أمير المؤمنين، لم أعد طفلاً، اغتنّ بالقصّر ودعني وشأني، تزوّج... أمرك يا فندم... طلق... أمرك يا فندم... ملعون أبوك.

٦١

خفّت حدّة المظاهرات شيئاً ما في حيّ الحسين بعد احتلال الجنود الإنجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطراً إلى حين، أمكنه أن يصطحب أبناءه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة... عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد... كان يدعو ابنه إليها حالما يبلغ صباه ليوجّه قلبه إلى العبادة مبكّراً، مستوهباً من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعاً، ربّما كانت أمانة وحدها التي لا ترتاح إلى تحرّك القافلة في نهاية كلّ أسبوع حاملة رجالها، ثلاثة رجال كالجبال طولاً وعرضاً إلى فتوتهم وإشراقهم، كانت تُتبعهم ناظرها من خصائص المشريّة فيخيل إليها أنّهم ملقني الأنظار فتجنّز وتدعو الله أن يقيهم شرّ العين، وما ملكت يوماً أن أفضت بمخاوفها إلى السيد فبدا وكأنّه تأثّر لتحذيرها حيناً، بيّد أنّه لم يستسلم للخوف طويلاً وقال لها: «إنّ بركة الفريضة التي نذهب لتأديتها حقيقة بأن نحفظنا من كلّ شرّ».

وكان فهمي يلبي دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر، مطيعاً في ذلك - قبل إرادة أبيه - عاطفة دينيّة صادقة، تمتاز إلى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به، استمدّه ممّا اطلع عليه من آراء عمّد عبده وتلاميذه... لذلك كان الوحيد في الأسرة الذي يقف من إيمانها بالتعاونيد والرقى والأحبة وكرامات الأولياء موقف المشكّك، وإن أبت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشكّكه أو يعلن استهائته،

- وهل وافقت يا أبي؟...

تردّد صوت ياسين كالخشجرة... فأجابه بخشونة قائلًا:

- نعم، إبقاء على صداقة قديمة ولأنّه أوفى حلّ في الوقت الحاضر على الأقلّ.

جعلت يد ياسين تنقبض وتنسبط في حركة آليّة عصبية، كأنّما كانت تشفط الدم من وجهه حتّى انقلب شديد الشحوب، شعر بهوان لم يشعر بمثله إلّا فيها كابد من سلوك أمّه، حموه يطالب بالطلاق... أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقلّ توافق عليه... أيّهما الرجل وأيّهما المرأة؟! ليس عجيباً أن ينبذ الإنسان حذاء أمّا أن ينبذ حذاء صاحبه!! كيف رضي أبوه له بهذا الخزي الذي لم يسمع بمثله من قبل؟! حدج أباه بنظرة حادة وإن عكست ما يعتلج في صدره من أنات الاستغاثة، ثمّ قال بلهجة حرص الحرص كلّه على أن ينقيها من أيّ أثر للاحتجاج أو الاعتراض، كأنّما يريد بها أن يذكره بما عسى أن يكون أنسب:

- ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز...

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التأثّر، ولذلك لم يخل عليه ببعض ما يدور في نفسه... فقال له:

- أعلم ذلك... ولكنّي اخترت أن نكون من الكرماء. محمّد عفت عقل تركيّ حجريّ ولكنّ قلبه من ذهب، هذه الخطوة ليست الأخيرة، ليست النهاية، لم أغفل مصلحتك وإن كنت لا تستأهل خيراً، دعني أنصّرّف كما أشاء...

كما تشاء... منذاً يردّ لك مشيئة؟! تزوّجني وتطلّقي... تخيبي وتخيتني، لست هنا، خديجة عائشة فهمي ياسين... الكلّ واحد، الكلّ لا شيء، أنت كلّ شيء... كلّ شيء... لكلّ شيء حدّ، لم أعد طفلاً، رجلاً مثلك سواء بسواء، أنا الذي أقرّر مصيري، أطلق أو أودعها بيت الطاعة، تراب حذائي بمحمّد عفت وزينب وصداقتكما...

- ما لك لا تتكلّم؟...

فقال دون تردّد:

هكذا رأهم طريق النحاسين مرة أخرى وهم يحقون الخطى إلى بيت القاضي، السيد في المقدمة ياسين وفهمي وكمال وراءه صفًا، حتى اتحدوا مجالسهم في الجامع وراحوا ينصتون إلى خطبة الجمعة بين رءوس مشرّبة إلى المنبر في صمت شامل، لم يكن السيد على شدة إنصاته يكفّ عن الدعاء الباطني، وتوجّه قلبه إلى ياسين خاصّة، كأنما رآه بعدما لحق به من عثار الحظّ أحقّ بالرحمة، فدعا الله طويلاً أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوجّ من أمره ويعوّضه عمّا فقد خيرًا... على أنّ الخطبة جبهته بمعاصيه، أخلت ما بينه وبينها فطالعتها وجهًا لوجه في حالة مرعدة من صوت الواعظ الجمهوري الرّنان الناقد حتى خيل إليه أنّه يعنيه بالذات، وأنّه يشدّ على أذنه صارخًا فيها بأعلى صوته، وأنّه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلاً: «يا أحمد ازدجر... تطهر من الفسق والخمر وتب إلى الله ربك» فلمّ به قلق وضيق كما ألما به يوم ناقشه الشيخ متولي عبد الصمد الحساب، وهو ما يقع له كثيرًا عند سماع الخطبة فيسترسل في طلب الغفران والعفو والرحمة، ولكنّه - كابنه ياسين - لم يكن يطلب التوبة وإن طلبها فبلسانه دون قلبه، يقول بلسانه «اللهم التوبة» على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما ألتان موسيقيتان تعزفان معًا في أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان، لأنّه لم يتصوّر أن يرى الحياة بغير العين التي يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذي تبدو به، فإذا ألحّ عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه... ولكنّه يلقي دفاعه في صورة دعاء واستغفار فيقول «اللهم إنك أعلم بقلبي وإيماني وحبي، اللهم زدني استمسكًا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير، اللهم إنّ الحسنة بعشر أمثالها، اللهم إنك أنت الغفور الرحيم»... وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدًا. لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنّه لم يشعر قطّ بحاجة إليها، لم تكن موضع تفكيره يومًا، يهيم بالحياة كما يشتهي ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو، ثمّ يستسلم للتّيار دون مقاومة أو ممانعة، قرعت

بل كان يتقبّل حجاب الشيخ متولي عبد الصمد الذي يجيء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهري. أمّا ياسين فكان لبّي دعوة أبيه لأنّه لم يكن من تلبّيتها بدّ، لعلّه لو ترك لشأنه ما فكر يومًا في أن يدسّ جسمه الضخم في زحمة المصلّين، لا عن تزعزع في العقيدة، ولكن استهانة وتكاسلاً... لذا كان ليوم الجمعة عنده همّ يكابده مع مطلع الصباح، فإن حان وقت الذهاب إلى الجامع ارتدى بذلته في شيء من التذمّر، ثمّ يسير وراء أبيه كالأسير، ولكن كلّما اقترب من الجامع خطوة تخفّف من تذمّره رويدًا، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدّي الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق في أعماقه أن يستجيب دعاؤه فينقلب زاهدًا في اللذات التي يجبّها حبًا لا يرى للحياة بدونه معنى. كان يعلم علم اليقين أنّ التوبة واجبة، وأنّ مغفرة لن تكتب له بدونها، ولكنّه كان يرجو أن تحيى في الوقت «المناسب» حتى لا يخسر الدارين، ولذا كان على تكاسله وتذمّره يحمّد في النهاية الظروف التي تدفعه إلى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن - عند الحساب - أن تمحو بعضًا من سيئاته وتخفّف من أوزاره، خصوصًا وأنّه لا يكاد يؤدّي غيرها فريضة.

أمّا كمال فلم توجّه إليه الدعوة إلّا حديثًا. مذ جاوز العاشرة، نهض إلى تلبّيتها في زهو وخيلاء وفرح، شعر شعورًا غامضًا بأنّها تتضمن اعترافًا بشخصه، وأنّها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمي وياسين وأبيه نفسه، ثمّ سرّ على وجه الخصوص أن يسير في ركاب أبيه آمنًا دون أن يتوقّع من ناحيته شرًا، وأن يقف في الجامع إلى جانبه على قدم المساواة مؤمّن جميعًا بإمام واحد. بيد أنّه كان يستغرق في صلاته اليومية - في البيت - استغراقًا لا يظفر بمثله في صلاة الجمعة بالنظر إلى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر، ولإشفاقه من أن تنذّ عنه هفوة فتلتقطها إحدى حواسّ أبيه، إلى أنّ شدة شعوره بالحسين - الذي يجبه أكثر من نفسه - وهو في مسجده كانت تحول بينه وبين التوجّه الخالص لله كما ينبغي للمصلّي... .

ذاك انتثر سلك النظام، استردت الحرية أنفاسها، نهض كل لوجهته، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبث للحديث أو تريث حتى يخف الزحام... فاختلطت تياراتهم أيما انتشار، أزفت الساعة السعيدة التي مني كمال بها... ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة إصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعداها، بدأ يتحرك ببطء في ركاب أبيه... وما يدري إلا وشاب أزهرى يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم في حركة عنيفة لافتة للأنظار، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانباً ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثابتة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نار الغضب من صفحته المكفهرة. عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين، على حين بدا ياسين أشد عجباً فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلاً، ثم انتبه أناس إلى المشهد فركّزوا فيه أنظارهم مترقبين في دهشة واستطلاع وعند ذاك لم يتالك السيد أن خاطبه متسائلاً في استياء:

- ما لك يا أخي تنظر إلينا هكذا؟!!

فأشار الأزهرى إلى ياسين وصاح بصوت كالرعد:

- جاسوس!

نفذت الكلمة إلى صدر الأسرة كالرصاصة فدار رأسها وحملت أعينها وجدت في أماكنها، على حين جرت التهمة على الألسن فردتها في فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشتبك في حذر لتحصرهم في دائرة ما لها من منفذ، وكان السيد أول من تاب إلى وعيه، ومع أنه لم يفهم شيئاً مما يدور حوله... إلا أنه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضباً:

- ماذا تقول يا سيدنا الشيخ؟... أي جاسوس

تعني؟!

ولكن الشاب لم يابه للسيد، فأشار مرة أخرى إلى ياسين وصاح:

- حذار أيها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الإنجليز اندس بينكم ليتسقط الأنبا ثم

أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطني سائلاً الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفي طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقة، إن الله أرحم من أن يحرق مسلماً مثله بهفوات عابرة لا تؤذي أحداً من عباده، ثم هنالك التوبة!... ستأتي «يوماً» فتمحو ما قبلها، واسترق نظره إلى أبيه وتساءل وهو يعرض على شفّته كأنما يكتف ضحكة نادرة مما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاتهام البادي إلى الخطيئة؟... أهو يعاني العذاب كل صلاة جمعة أم تراه ينافق ويخادع؟... كلاً... لا هذا ولا ذاك... إنه مثله - ياسين - يؤمن برحمة الله الواسعة، لو أن الأمر بالخطورة التي يصفه بها الواعظ لاختار أبوه إحدى السبيلين، استرق إليه نظرة أخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدتين المتطلعين إلى المنبر، شعر نحوه بإعجاب وحب خالصين، لم يعد للحنق أثر في نفسه، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق، حتى بثّ همه إلى فهمي قائلاً: «لقد خرب أبوك بيتي وجعلني أضحوكة بين الناس» إلا أنه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شيء، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيراً من أبيه... بل هو على وجه اليقين أمعن في الضلال، حدّثه عنه مرة أحد الأصحاب في قهوة أحمد عبده فقال: «إنه يؤمن بشيئين... بالله في السماء وبالغلطان في الأرض، إنه من طراز حسّاس ترفّ عينه وهو في الحسين إذا تأوّه غلام في القلعة، بيد أنه لم يحقد عليه لذاك، وعلى العكس وجد فيه كما وجد في أبيه ما يجد الجندي في الخنادق المحفورة في الخطوط الأمامية التي على العدو أن يقتحمها قبل أن يصل إليه.

ثم دعا الداعي إلى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة، وقفوا صفوفًا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير، صار المسجد أجساداً ونفوساً ذكّر كمال احتشادها مشهد المحمل في النحاسين واتصلت الأزياء في خطوط طويلة متوازية وحدتها البذل والجنب والجلال، ثم انقلب الجمع جسماً واحداً تصدر عنه حركة واحدة مستشرقة قبله واحدة، وتردّدت التلاوات الهامسة في همهمة شاملة حتى أذن بالسلام... عند

- هذا السيد أحمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين... ولا يمكن أن يضمّ بيته جاسوسًا، فترثوا حتى تنجلي الحقيقة.

ولكنّ الأزهرى صرخ حانقًا:

- لا شأن لي بالسيد أحمد أو السيد محمد، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من أمر أبيه، رأيت يضاحك الجلّادين الذين زحوا القبور بأبنائكم.

وما عثم أن صاح أناس لا حصر لهم:

- ليضرب بالأحذية...

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة، فأقبل متحمسون من كلّ صوب ملوّحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانبياس والياس، دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا إلّا على وجه متحرّش يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيد وفهمي بجانب ياسين بحركة غريزيّة كأنما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه إيّاه، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه، على حين انقلب انتحاب كمال صراخًا كاد يغطّي على أصوات الثائرين. كان الأزهرى أوّل المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضًا على بنيقة قميصه ثمّ جذبته بعنف لينزعه من المأوى الذي لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لا تخطئه الأحذية، ولكنّ ياسين قبض على معصميه مقاومًا ودخل السيد بينهما، ورأى فهمي أباه في الموقف المشير لأوّل مرّة في حياته... فاستقرّ غضب شديد أذهله عمّا يحدّق بهم من خطر، دفع الأزهرى في صدره دفعة قويّة ردّته إلى الوراء فصاح به متوعّدًا:

- حذار أن تتقدّم خطوة واحدة!

فصرخ الأزهرى وقد جنّ جنونه:

- أدّبوهم جميعًا...

عند ذاك علا صوت قويّ يقول بلهجة أمّرة:

- انتظر يا سيّدنا الشيخ... انتظروا جميعًا...

فالتجهت الأنظار إلى الصوت، فإذا بأفندي شابّ يبرز من بين الجموع إلى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة في مثل سنّه وزيّه، تقدّموا في خطوات ثابتة توسحي بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وذويه، تهامس

ينقلها إلى سادته المجرمين.

ركب الغضب السيد فتقدّم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفسه:

- أنت تهرف بما لا تعرف، فلمّا أن تكون مجرمًا أو مجنونًا، هذا الشابّ ابني لا خائن ولا جاسوس، كلّنا وطنيون وهذا الحيّ يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

فهزّ الشابّ منكبّه استهانة وصاح بصوته الخطابيّ: - جاسوس إنجليزيّ حقير، رأيت بعيني رأسي مرارًا وهو يناجي الإنجليز عند بين القصرين، عندي شهود على ذلك، ولن يجرؤ على تكذبي... إني أتحده... ليسقط الخائن...

وتجاوبت في أركان الجامع دمدمة غاضبة، تعالّى الهتاف هنا وهناك «ليسقط الجاسوس»، وصاح غيرهم «فليؤدّب الخائن».

ولاحت في أعين القريين نُذُر الوعيد تترصد بادرة أو إشارة كي تنفضّ على الفريسة، لعلّه لم يؤخّر إقدامها إلّا منظر السيد المؤثر الذي وقف لصق ابنه كأنما يتلقّى عنه ما يتهدّده من أذى، ودموع كمال الذي أغرق في الانتحاب، أمّا ياسين فقد وقف بين السيد وفهمي فاقد الوعي من الاضطراب والوجل، وجعل يقول بصوت متهدّج لم يسمعه أحد:

- لست جاسوسًا... لست جاسوسًا... الله على صدق قولي شهيد...

ولكنّ الغضب بلغ بالناس مداه، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعّدون «الجاسوس» شرًا، على أنّ صوتًا من وسط الزحام ارتفع هاتفًا:

- تمهلوا يا سادة... هذا ياسين أفندي كاتب مدرسة النحاسين...

فانطلقت أصوات كالهدير:

- مدرسة النحاسين أو الحدّادين فليؤدّب الخائن. وكان رجل يشقّ طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر، فما بلغ الصفّ الأماميّ حتى رفع يديه وهو يزعم: «اسمعوا... اسمعوا». ولمّا هدأت الأصوات قليلًا قال وهو يومئ إلى السيد أحمد:

كثيرون متسائلين «بوليس... بوليس؟» بيد أن التساؤل انقطع حينما مدّ الأزهرى يده إلى يد قائد الجماعة وشدّ عليها بحرارة، ثمّ سأل الأفندي الأزهرى بنبرات حاسمة:

- أين هذا الجاسوس؟

فاشار الشيخ إلى ياسين بازدرء وتقرّز، فالتفت الشاب إليه وثبت عليه عينيه متفحصاً إيّاه بدقّة وقسوة، وقبل أن ينبس بكلمة تقدّم فهمي خطوة إلى الامام كأنّما ليسترعي انتباهه فلمحه الآخر... وسرعان ما اتّسعت عيناه دهشة وإنكاراً فغمغم قائلاً:

- أنت...

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم:

- هذا الجاسوس أخي!

فالتفت الشاب إلى الأزهرى متسائلاً:

- أأنت متأكد مما تقول؟

فبادره فهمي قائلاً:

- ربّما صدق في قوله... إنّه رآه يحدث الإنجليز ولكن أساء التفسير أيّما إساءة، إنّ الإنجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرّضون لنا في الذهاب والإياب فتتورّط أحياناً في محادثتهم على كره... لهذا كلّ ما هنالك.

وهّم الأزهرى بالكلام ولكنّ الشابّ أسكته بإشارة من يده، ثمّ خاطب الجمع قائلاً وهو يضع يده على منكب فهمي:

- هذا الشابّ من الأصدقاء المجاهدين، كلانا يعمل في لجنة واحدة فكلامه عندي مصدّق... أخلوا سبيلهم.

لم ينبس أحد بكلمة، انسحب الأزهرى بلا تردّد ومضى الناس يتفرّقون، صافح الشابّ فهمي ثمّ ذهب يتبعه رفاقه، ربّت فهمي على رأس كمال حتّى كفت عن البكاء، ساد الصمت فأخذ كلّ يضمّد جراحه، انتبه السيّد إلى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون إليه عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه الأزهرى ومن ضلّ به من الناس، ويؤكدون له أنّهم لم

## ٦٢

في الطريق استردّ أنفاسه، فداخله ارتياح لا يتعبه عن الناس الذين شاركوا في «الحادث» ولو بمجرّد الرؤية. كره وقتذاك كلّ شيء وراءه وقذفه باللعنات، لم يكد يرى من الطريق الذي يسير فيه شيئاً، فتبادل التحيّة مرّتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلّف لم يعهد فيه من قبل، تركّز شعوره في ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما فار بالغضب... كان أحبّ إلّى أن تنتهي الحياة من أن أقف ذلك الموقف المزري، كالأسير بين طغمة من اللثام، ولهذا المجاور المقمل مدّعي الوطنية الجوعان تهجم على بكلّ وقاحة، لم يترع لي حرمة سنّ أو مهابة، لم أخلق لهذا، ليس «أنا» الذي يهان بتلك الكيفيّة، وبين أبنائي... لا تعجب... أناؤك هم أصل البلوى... هذا الثور ابن المره لن يعفيك من متاعبك أبداً. فقس الفضائح في بيتي وأوقع بيني وبين أعزّ الأصدقاء، ثمّ توجّ عامنا بالطلاق... لم يكفه هذا كلّ، كلّاً. ابن هنيّة لا بدّ أن يسامر الإنجليز جهازاً كي أدفع أنا الثمن للسفلة المتهجمين، اذهب بهم إليها كي يكمل متحف عشاقها بالإنجليز والأستراليين.

- يبدو لي أنّي لن أخلص العمر من متاعبك؟

نذت عنه هذه الجملة بحدّة، بيد أنّه قاوم رغبته في تأديبه لأنّه رغم غضبه قدّر حاله الذي يرثى لها، رآه ذاهلاً شاحباً متوعّكاً فلم تطاوعه نفسه في الهجوم عليه، حسبه الآن ما حاق به، ليس وحده الذي يتحفه بالمتاعب، هنالك البطل، ولكن فلنؤجّل همّه حتّى نفيق من متاعب الشور، شور في البيت، في الحانة... ثور أمام أمّ حنفي ونور، أمّا في المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة، يا أولاد الكلب!

الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت، آه... لمأذا تسوقني قدماي إلى البيت؟... لم لا أتناول لقمتي بعيداً عن الجوّ المسموم؟ ستولول هي الأخرى إذا علمت بالخبر، لست في حاجة إلى مزيد من القرف، إلى الدهان... سأجد حتماً صديقاً أقصّ عليه رزقي وأشكوا إليه همتي... كلاً... لديّ متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا. البطل، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها علاجاً، إلى الغداء المسموم، ولولي... ولولي... ولولي... ملعون أبوك أنت الأخرى.

لم يكده فهمي يغيّر ملابسه حتّى دُعي إلى مقابلة والده، فلم يملك ياسين على خموده وكربه إلّا أن يغمغم قائلاً:  
- جاء دورك...

فتساءل فهمي متجاهلاً المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه:

- ماذا تعني؟

فضحك ياسين - أجل وسعه أخيراً أن يضحك - وقال:

- انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين...! لشّد ما تمّنى أن تغيب النعوت التي نعته بها صديقه في الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال، ولكنّها لم تغب، ها هو ياسين يرددها، ولا شك أنّ أباه يدعوه من أجل مناقشتها. تنهّد فهمي من الأعماق ثمّ ذهب، وجد السيّد متربّعاً على الكنبه يعبث بحبّات سبخته وفي عينيه نظرة تنمّ عن تفكير كثيب، فعياه بأدب جمّ ووقف على بعد مترين من الكنبه في خضوع وامتنال، وردّ الرجل تحيّة بحركة خفيفة من رأسه تدلّ على الضيق أكثر ممّا تدلّ على التحيّة، وكأنّما تقول له: «إني أردّ تحيتك مرغماً كما تقضي اللباقة ولكن أدبك الزائف هذا لم يعد ينطلي عليّ». ثمّ حدّجه بنظرة متجهّمة ينبعث منها شعاع الارتباك كأنّه مصباح كشاف يفتش عن مخبئٍ بالظلام وقال بحزم:

- دعوتك لأعرف كلّ شيء، أريد أن أعرف كلّ شيء، ماذا قصد في لجنة واحدة؟ صارحني بكلّ شيء

دون تردّد.

ومع أنّ فهمي اعتاد في الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطاراً شتى، حتّى الطلقات النارية ألف أزيزها، إلّا أنّه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة، ركبته الرهبة وشعر بأنّه لا شيء، وتركّز تفكيره في تحاشي غضبه ونشّدان النجاة فقال برقة وأدب:

- الأمر بسيط جدّاً يا بابا، لعلّ صديقي بالغ في قوله كي ينتشلنا من ورطتنا.

فقال السيّد وقد نفذ صبره:

- الأمر بسيط جدّاً... عال... ولكن أيّ أمر هو؟... لا تخفّ عني أيّ شيء.

وكان فهمي يقلّب الأمر على مختلف وجوهه في سرعة خاطفة ليختار ما يصحّ قوله وتؤمن مغبّته... قال:

- سيّاه لجنة وهي لا تعدو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدّثون كلّما اجتمعوا في الشؤون الوطنية.

فهتف السيّد مغيظاً مخنقاً:

- ألّهذا استحققت لقب المجاهد...؟!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنّما عزّ عليه أن يحاول ابنه اللعب به... وارتسم الوعيد في تجعّدات عبوسته. فسارع فهمي - دفاعاً عن النفس - إلى الاعتراف بشيء ذي بال ليقتنع أباه بأنّه امتثل لأمره كالمتّهم الذي يتطوّل بالاعتراف طمعاً في الرافّة... قال فيما يشبه الحياة:

- يحدث أحياناً أن نقوم بتوزيع بعض النسيئات الخائنة على الوطنية...

فتساءل السيّد بانزعاج:

- المنشورات!... هل تعني المنشورات؟!

ولكنّ فهمي هزّ رأسه سلّماً، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذي يقرن في البلاغات الرسميّة بأقصى العقوبات، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفّف من خطورة اعترافه:

- ليست إلّا نداءات تحثّ على حبّ الوطن.

ترك الرجل السبحة تسقط من يده إلى حجره، وراح يضرب كفّاً على كفّ ويقول وهو لا يتألّك نفسه



من الانزعاج:

- أنت من مؤرعي المنشورات... أنت!...

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب:

مؤرّع منشورات... من الأصدقاء المجاهدين!...

كلانا يعمل في لجنة واحدة!... هل بلغ الطوفان

مرقده!... طالما راعه فهمي بأدبه وبرّه وذكائه، لولا

أنّ الشاء في نظره مفسدة وأنّ الحفاظة تهذيب وتقويم

لأوسعه ثناء، كيف انجلى هذا كله عن مؤرّع

منشورات... مجاهد... كلانا يعمل في لجنة

واحدة!... إنه لا يحتقر المجاهدين، هو أبعد ما

يكون عن ذلك، طالما تابع أبناءهم بحماس ودعا لهم

عقب كلّ صلاة بالتوفيق، طالما ملأته أخبار الإضراب

والتخريب والمعارك أملاً وإعجاباً، ولكنّ الأمر يختلف

كلّ الاختلاف إذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن

من أبنائه، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق

التاريخ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة

ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شكّ

فيها ما دامت بعيدة عن بيته... فإذا طرقت بابه،

وإذا تهذّدت أمنه وسلامه وحياة أبنائه، تغيّر طعمها

ولونها ومغزاهاء، انقلبت هوساً وجنوناً وعقوقاً وقلة

أدب، فلتشتعل الثورة في الخارج وليشارك فيها هو

بقلبه كله، وليبذل لها ما في وسعه من مال... وقد

فعل ولكنّ البيت له وحده دون شريك، ومن تحدّثه

نفسه - فيه - بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا

على الإنجليز، إنه يترحم ليل نهار على الشهداء

ويعجب كلّ الإعجاب بالشجاعة التي يتذرّع بها آلم

فيما يروي الرواة، ولكنّه لن يسمح لابن من أبنائه بأن

ينضمّ إلى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي

يتذرّع بها آلم، فكيف سولت نفس فهمي له بالإقدام

على هذه الخطوة الجنونية؟... كيف ارتضى - وهو خير

أبنائه - أن يعرّض نفسه إلى الهلاك المين؟... انزعج

الرجل انزعاجاً لم يشعر بمثله من قبل، فاق انزعاجه في

مازق الجامع نفسه، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة

ووعيد كأنه أحد مفتشي البوليس الإنجليزي:

- ألا تعلم ما جزاء الذي يُضبط وهو يورّع

منشورات...!

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره

فيه، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه،

ذكرى هذا السؤال نفسه بنصّه ومعناه حينما طرحه عليه

الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية - بين جملة أسئلة

أخرى - وهو بصدد اختياره عضواً فيها، ثمّ ذكر بالتالي

كيف أجابه وقتذاك بعزم وحاس «كلّنا فداء للوطن»

وقارن بين الطرفين اللذين ألقى فيهما السؤال الواحد،

فاعتراه شعور بالسخرية، بيّد أنّه أجاب والده برقة

وبصوت يوحي بالتهوين:

- إنّي أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط،

ولا شأن لي بالتوزيع العام... فليس ثمة مخاطرة أو

خطر...

فهتف السيد بغلظة وكأنّه يداري خوفه على ابنه

بحدة الغضب:

- إنّ الله لا يكتب السلامة لمن يعرّض نفسه

للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بالألّا نعرّض أنفسنا

للتهلكة...

ودّ الرجل أن يستشهد بالآية التي تترجم هذا

المعنى، ولكنّه لم يكن يحفظ من القرآن إلّا السو

القصيرة التي يتلوها في صلواته، فخاف أن يسهو عر

لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزراً لا يغتفر، فاكتمى

بترديد المعنى وكوّره حتّى بلغ مداه، ولكنّه ما يدري إلّا

وفهمي يقول بلهجته المهذّبة:

- ولكنّ الله يحثّ المؤمنين على الجهاد كذلك يا

بابا...

ساءل فهمي نفسه فيما بعد متعجباً كيف واتته

شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذي فضح ما

داراه من استمساك برأيه... لعلّه احتفى بالقرآن

فوقف وراء معنى من معانيه مطمئناً إلى أنّ أباه

سيحجم في تلك الحال عن مهاجمته، وقد بوغت السيد

مباغته شديدة بجرأة ابنه وحجّته معاً، ولكنّه لم

يستسلم للغضب لأنّ الغضب ربّما أسكت فهمي

ولكنّه لن يسكت حجّته، فتناسى جرأته إلى حين ريثما

يقرع حجّته بحجّة مثلها من القرآن نفسه حتّى تتمّ

فرجل خفيف ومحبوب، وهو يعبد به بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بعصيان، وثمة إحساس آخر لا سبيل إلى تجاهله هو أن وراء الثورة على الإنجليز مثالية نبيلة، أما وراء التمرد على أبيه فليس إلا الخزي والتعاسة، وماذا يدعو إلى هذا كله؟... لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء؟... لم يكن الكذب في هذا البيت بالرديلة المخزية، ولم يكن في وسع أحد منهم أن يتمتع بالسلامة في ظل الأب دون حماية من الكذب، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم، بل ويتفقون عليه في الموقف الحرج، وهل كان في نية الأم يوم تسَلَّت في غيبة السيد إلى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها؟ وهل كان في وسع ياسين أن يسكر، وهو أن يحب مريم، وكحال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب؟... ليس الكذب مما يتورع عنه أحد منهم، ولو أنهم التزموا الصدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعمًا، لهذا كله قال بهدوء:

- أمرك مطاع يا بابا...

وأعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة، فظن فهمي أن استجوابه قد انتهى بسلام، وظن السيد أحمد أنه انتشل ابنه من الهاوية، وبينما كان فهمي ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، قام الأب فجأة واتجه إلى صوان الملابس ففتحه ودسَّ يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئًا ثم عاد إلى مجلسه حاملًا القرآن، ونظر إلى فهمي مليًا ثم مدَّ يده بالكتاب إليه وهو يقول:

- أقسم لي على هذا الكتاب...

وتراجع فهمي بحركة عكسية نذت عنه قبل أن يتدبر أمره، كأنما يفر من لسان لهب امتدَّ إليه فجأة، وتسمَّر في موقفه وهو يحلق في وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا، فلبث السيد مادًا يده بالكتاب وهو ينظر إليه في غرابة وإنكار، ثم احمرَّ وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق خفيف، وتساءل في ذهول وكأنه لا يصدّق عينيه:

- ألا تريد أن تقسم؟

ولكن لسان فهمي انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد

الهداية للابن الضال، وله بعد ذلك أن يعود إلى محاسبته كيفما شاء، وفتح الله عليه فقال:

- ذاك كان جهادًا في سبيل الله...

اعتبر فهمي جواب أبيه قبولًا للمناقشة والمحاجة، فتشجع مرة أخرى قائلاً:

- جهادنا في سبيل الله كذلك، كل جهاد شريف فهو في سبيل الله...

أمن السيد بقوله في قلبه، ولكن هذا الإيمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام محدثه، هو ما جعله يرتد إلى غضبه دون إبطاء... بيد أنه لم يكن غضبًا لكبريائه فحسب، ولكن أيضًا لإشفاقه من أن يتهادى الشاب في غيّه حتى يودي بنفسه، فكفَّ عن الجدل وتساءل مستنكرًا:

- أحسبني قد دعوتك لتناقشني!

انتبه فهمي إلى ما تنطوي عليه كلمات أبيه من نذير، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه... أما السيد أحمد فعاد يقول بحدة:

- لا جهاد في سبيل الله إلا ما أريد به وجه الله وحده - أي الجهاد الديني - لا جدال في هذا... والان أريد أن أعرف ألا يزال أمري مطاعًا؟ فبادره الشاب قائلاً:

- بكل تأكيد يا بابا...

- إذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة... ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة أصدقائك!

إن قوة في الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطني! لن يتراجع مطلقًا ولو خطوة واحدة، انتهى زمان ذلك إلى غير رجعة، إن هذه الحياة الحارّة الباهرة التي تنبعث من أعماق قلبه وتضيء جوانب نفسه لا يمكن أن تغيض وهيئات أن يغيضها هو بيده، كل هذا حق لا شك فيه، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة إلى إرضاء أبيه وتحامي غضبه؟... إنه لا يستطيع أن يتحداه ولا أن يجهر بمخالفة أمره... أجل استطاع أن يثور على الإنجليز وأن يتحدّى رصاصهم كل يوم تقريبًا، ولكن الإنجليز عدو خفيف ويغضب معًا أما أبوه

ناحية أخرى، فاسترسل قائلاً في ضراعة ورجاء:  
- ساحني يا بابا، أمرك مطاع فوق العين والرأس  
ولكنني لا أستطيع، إننا نعمل يداً واحدة فلا أرضى ولا  
ترضى لي أن أنكص وأتخلف على إخواني، هيهات أن  
تطيب لي الحياة إن فعلت، ليس ثمة خطر وراء ما  
نعمل، غيرنا يقوم بأعمال أجلّ كالاشتراك في  
المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون، لست خيراً  
منهم، إن الجنازات تشيع بالعشرات معاً ولا هتاف  
فيها إلا للوطن، حتى أهل الصحايا يمتضون ولا  
يكون. فما حياتي؟... وما حياة أيّ إنسان؟... لا  
تغضب يا بابا وفكر فيما أقول... وأكرر على مسمعك  
بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمي الصغير...  
وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففرّ  
من الحجرة هارباً، كاد يصطدم وراء الباب بياسين  
وكمال اللذين وقفاً ينصتان وقد ارتسم على وجهيهما  
الارتياح.

### ٦٣

كان ياسين ماضياً إلى قهوة أحمد عبده حينما التقى  
في بيت القاضي بأحد أقرباء أمه، فأقبل الرجل نحوه  
باهتمام ثم صافحه وهو يقول:  
- كنت ذاهباً إلى البيت لمقابلتك...  
حدس ياسين وراء كلامه أبناء عن أمه التي أورتته  
الهموم، فأحسن ضيقاً وتساءل بفتور:  
- خير إن شاء الله...؟  
فقال الرجل باهتمام غير عادي:  
- والدتك مريضة، مريضة جداً في الواقع، أصابها  
المرض منذ شهر أو أكثر ولكنني لم أعلم به إلا في هذا  
الأسبوع، وقد ظنوه بادئ الأمر حالة عصبية فسكتوا  
عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء أنه  
ملاريا شديدة...  
دهش ياسين للخبر الذي لم يكن يتوقعه، كأنه  
يتوقع حديثاً عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل  
ذلك، أما المرض فلم يقع له في حساب، تساءل وهو  
لا يكاد يتيّن مشاعره من شدة اعتلاجها:

حراكاً، فتساءل الرجل بصوت هادئ تخلّته رعشة  
متهذجة أذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما  
ينذر البرق بقعقة الرعد:

- أكنت تكذب عليّ...؟

لم يطرأ على فهمي تغير إلا أنه غصّ بصره فراراً من  
عيني أبيه، ووضع السيد الكتاب على الكنبه ثم انفجر  
صائحاً بصوت مدوّ خاله فهمي كفوراً تهوي على  
خذي:

- أنت تكذب عليّ يا بن الكلب!... أنا لا أسمع  
لمخلوق بأن يضحك على ذقتي، ماذا تظنّ بي وماذا  
تظنّ بنفسك!... أنت حشرة خبيثة مجرمة، بنت  
كلب خدعت بظاهرها طويلاً، لن أنقلب امرأة على  
آخر الزمن، سامع! لن أنقلب امرأة على آخر  
الزمن، حيرتوني يا أولاد الكلب وجعلتموني أضحوكة  
الناس، أنا أسلمك بنفسي إلى البوليس، فاهم!؟  
بنفسني يا بن الكلب، الكلمة هنا كلمتي أنا، أنا أنا  
أنا... (ثم متناولاً الكتاب مرة أخرى) أقسم...  
أمرك بأن تقسيم...

بدا فهمي وكأنه في غيبوبة، كانت عيناه مثبتتين على  
بعض الصور الغربية المنقوشة على السجادة الفارسية  
دون أن تريا شيئاً، وكأنّ تلك النقوش قد انطبعت  
بإدانة النظر على صفحة عقله فاستحال شيئاً من  
الفوضى والخواء، وكلما مرّت ثانية أمعن في الصمت  
والياس، لم يبق له إلا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية  
اليائسة، ونهض السيد والكتاب في يده فاقترب خطوة  
منه ثم زعق:

- أتوهمت أنّك رجل؟... أتوهمت أنّك تستطيع  
أن تفعل ما تشاء!؟... لو أشاء أضربك حتى أكسر  
رأسك...

لم يملك فهمي عند ذاك إلا أن يبكي، لا خوفاً من  
التهديد فما كان يبالي في موقفه وتأثره بأيّ أدّى بصيبه،  
ولكن تنفيساً عن قهره وترويحاً عن الصراع الناشب في  
صدره، ثم جعل يعضّ على شفتيه ليكتم البكاء، ثم  
اعتراه الخجل لما ركه من ضعف بيد أنه وسعه أخيراً  
أن يتكلّم لشدة تأثره من ناحية ومداراة لخلجه من

- وكيف حالها الآن...؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين:

- حالها خطيرة!... امتدّ العلاج دون أن يبشّر بأدنى تقدّم، وبالأحرى ازدادت الحال سوءاً، وقد أرسلتني إليك كي أصارحك بأنّها تشعر بدنوّ أجلها، وأنّها ترجو أن تراك دون تأخير...

ثمّ بلهجة ذات معنى:

- يجب أن تذهب إليها بلا تردّد، هذه نصيحة ورجاء، والله غفور رحيم.

لعلّ كلام الرجل لم يخلّ من مبالغة أراد بها دفعه إلى الذهاب ولكنه ليس اختلافاً كلّهُ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده، ها هو يخترق مرّة جديدة منحى الطريق المفضي إلى الجماليّة بين بيت المال وحارة الوطاويط، إلى يمينه عطفة التيه حيث تلبّد بائعة الدوم في ذكريات الظلام المرتعشة وإلى الأمام طريق الآلام، سيرى عمّا قليل دكان الفاكهة فيغضّ البصر ويتسلّل كاللصّ الهارب، كلّما ظنّ أنّه لن يعود إليه عادت به تعاسته، ما من قوّة كانت تستطيع أن تعيده إليها... إلّا الموت؟... الموت!... ترى هل تحمّت النهاية حقّاً؟!... قلبي يخفق، ألها؟... حزناً؟... لا أدري إلّا أنّي خائف، إذا ذهب فلن أعود إلى هذا المكان مرّة أخرى... سيغشى النسيان سالف الذكريات... ثمّ تردّ إلى البقيّة الباقية من أملاكي، ولكني خائف... وحائق على هذه الأفكار الخبيثة، اللهمّ احفظنا...

حقّ إذا حظيت بعيشة أرغد وبألأصفى فلن ينجو قلبي من الآلام، حين الموت سأودّع أمّا بقلب ابن... أمّ وابن أليس كذلك؟... لست إلّا معدّياً لا وحشاً ولا حجراً، بيد أنّ الموت زائر جديد عليّ لم أشهد محضره من قبل، وددت لو كانت النهاية بغيره، سيموت جميعاً... حقّاً! يجب ألاّ أستسلم للخوف، إنّ أبناء الموت لا تنقطع عنّا ليل نهار في هذه الأيام، في شارع الدواوين والمدارس والأزهر، وهنالك في أسبوط كلّ يوم ضحايا، حقّ المسكين الفولي اللبّان فقد ابته أمس، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء؟... أيقضون

العمر بكاء؟... إنهم يبكون ثمّ ينسون وهذا هو الموت، أف... يخيل لي أنّه ليس ثمة مفرّ من المتاعب الآن، ورائي في البيت فهمي وعناده وأمامي أمّي فما أبغض الحياة! وإذا كان الأمر مكيدة ووجدتها في خير وعافية؟!... ستدفع الثمن غالياً... يقيناً لتدفعنّ الثمن... لست لعبة أو أضحوكة، لن تجد «الابن» إلّا حين الموت، ترى ماذا بقي لي من ثروة؟... وإذا دخلت البيت ألتقي بذلك (الرجل) هنالك؟... لا أدري كيف أقابله... ستلتقي عينانا في لحظة رهيبة، الويل له، أتجاهله أو أطرده هذا هو الحلّ، هنالك ألوان من العنف لا تحظر له ببال، ولكنّ ستجمعنا الجنّازة حتّى... وهذا مضحك، تصوّر أن يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن داعم العينين... حتم وقتذاك أن تدمع عيناى... أليس كذلك؟... لن يكون في وسعي أن أطرده من الجنّازة فتلاحقني الفضيحة حتّى اللحظة الأخيرة... ثمّ تدفن، أجل تدفن وينتهي كلّ شيء، ولكني خائف ومتألّم ومحزون، إنّ الله وملائكته يصلّون... هذه هي الدكان المجرمة... وهذا هو... لن يعرفني، هيهات، إنّنا نتنكر بالعمر، يا عمّ... أمّي تقول لك...

فتحت له الخادم الباب - نفس الخادم التي استقبلته منذ عام فأنكرته - فتطلّعت إليه كالمستائلة لحظة، وسرعان ما غلبت نظرة التساؤل وراء لمعة كأنما تقول له: «آه... أنت الذي تنتظر» ثمّ أفسحت له وهي تومئ إلى حجرة على يمين الداخل قائلة:

- تفضّل يا سيّدي... لا يوجد أحد...

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوّة كأنما جاءته جواباً شافياً لبعض حيرته، فأدرك أنّ أمّه أدخلت له الطريق، ألجّه إلى الحجرة، تنحّج، ثمّ دخل، وقعت عيناه على عيني أمّه وهما ترفعان إليه من فراش على يسار الداخل، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتها الواهنة كأنما تتطلّع إليه من بعيد، وبالرغم من ذبولها وما أوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتت على وجهه ثبوت

جديدة استمدتها من محضره - تقول:

- في أول الأمر كانت تتأبني رعدة غريبة فحسبتها طارئة عصبية، نصحوني بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندي والسوداني والعربي، ولكن لم تكن الحال تزداد إلا سوءاً... أحياناً كانت تملكني رجفة متواصلة لا تدعني حتى أكون قد أشفيت على الهلاك، وعمر بي أوقات أجد جسمي بارداً كالثلج، وأوقات أخرى تمتد النار في جسدي حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيراً صممت... (أسكت عن النطق بالفاعل متبهة في اللحظة الأخيرة إلى الخطأ الذي كانت ستقع فيه). أخيراً استحضرت الطبيب، ولكن لم يتقدم بي العلاج خطوة واحدة نحو الصحة إن لم يكن تأخر خطوات، لم تعد ثمة فائدة ترجى.

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها:

- لا تيأسي من رحمة الله، إن رحمة واسعة.

فافتتر ثغرها الممتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت:

- يسرني أن أسمع هذا، يسرني أن أسمع منك أنت قبل الناس جميعاً، أنت عندي أعلى من الدنيا ومن عليها، صدقت إن رحمة الله واسعة، طالما ساءني الحظ، لا أنكر الهفوات والأخطاء، العصمة لله وحده. آنس - جزعاً - من حديثها ميلاً إلى ما يشبه الاعتراف، فانقبض صدره وجفل جفولاً حادثاً من أن تردد على مسمعيه أموراً لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير. فتوترت أعصابه حتى أوشك أن تبدل حالاً بعد حال، قال بتوسل:

- لا تعبي نفسك بالكلام.

رفعت إليه عينيها باسمه وهي تقول:

- مجيئك رد إلي الروح، دعني أقل لك إنني لم أقصد في حياتي سوءاً بإنسان، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندني الحظ العاثر، لم أسئ إلى أحد ولكن كثيرين أساءوا إلي.

شعر بأن رجاءه أن تمضي الساعة بسلام سيخيب... وأن عاطفته الصافية تعاني أزمة من التغيص، فقال بلهجة التوسل السالفة:

العرفان، وانفجرت شفتها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان، لم يكن يبدو منها إلا وجهها إذ اشتملت ببطانة حتى الذقن، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورّد وشفّ جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للراء والفناء، وقف ذاهلاً منكراً كأنه لا يصدق أن ثمة قوة في الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسي، فقبض قلبه فزعاً كأنه يرى الموت نفسه، تخلّت عنه كأنما ارتدّ طفلاً وافتقد أباه آتياً افتقاد، ثم دفعه تأثر لا يقاوم إلى الفراش حتى انحنى فوقها مغمماً في نبرات أسيفة:

- لا بأس عليك... كيف حالك؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت في حرارته آلامه المزمنة كما تغيب - في أحوال نادرة - ظاهرة مرضية ميثوس منها، كالشلل، عند هجوم فزع هائل مفاجئ... كأنه يلقي أم طفولته التي أحبها قبل أن تواربها عن قلبه الآلام، فتشبّت - وعينه مرسلتان إلى الوجه الفاني - بهذا الشعور المستجد الذي رده أعواماً طويلة إلى الوراء - إلى ما وراء الألم - كما يتشبّت المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها إحساساً باطنياً بوشك الزوال، تشبّت به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التي تهدهده، وإن دلّ تشبّته نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم في الأعماق منذرة إياه بما يترصده من حزن إذا هويتاهون فخلط بشعوره الصافي ما يفسده من مشاعر أخرى، وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يداً معصومة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد، وعند ذاك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلاً:

- كما ترى، صرت خيلاً.

فغمغم:

- ربنا يدركك برحمته، ويردك إلى خير مما كنت.

فندّت عن رأسها المعصوب بخيار أبيض حركة دعائية كأنما تقول: «ربنا يسمع منك»، وأشارت إليه أن يجلس فجلس على الفراش ثم استرسلت - بقوة

- دعي الناس بخيرهم وشرهم، صحتك الآن أهم من أي شيء آخر...
- فربت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق بها، ثم همست:
- فاتتني أشياء، لم أؤد إلى الله حقّه، وددت لو طال عمري حتى أستدرك بعض ما فاتني، بيد أنّ قلبي كان دائماً مفعماً بالإيمان والله شهيد.
- فقال وكأنه يدفع عن نفسه وعنهما معاً:
- القلب هو كلّ شيء، هو عند الله فوق الصوم والصلاة.
- فشدت على يده بامتنان ثم غيّرت مجرى الحديث قائلة بترحاب:
- وعدت إليّ أخيراً، لم أجرو على دعوتك حتى انتهى بي المرض إلى ما ترى، داخلي شعور بأنني أودع الحياة فلم أطق أن أفارقها قبل أن أملأ عينيّ منك، فأرسلت إليك وبني من الخوف من رفضك أكثر مما بي من خوف الموت نفسه، ولكنك رحمت أمك وأقبلت تودّعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبّله.
- اشتد التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره، تناقلت الكلمات الخنونة في فيه متعثرة فيها يشبه الحياء أو الغرابة حالما أراد توجيهها إلى المرأة التي ألف مجافاتها ونبذها، بيد أنه وجد في يده أداة تعبير طيعة حساسة، فضغط على راحتها مغمغماً:
- ربّنا يكتب لك السلامة.
- وجعلت تدور حول المعنى الذي أفصحت عنه جعلتها الأخيرة، مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها ممّا يدلّ على نفس معناها طوّراً آخر، وراحت تفصّل الحديث بازدداد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد أنفاسها، ممّا دعاه مرّات إلى أن يرجوها بالكفّ عن الحديث، ولكنها كانت تبسم لمقاطعتها ثم تعود إلى مواصلة الحديث، حتى توقفت وقد لاح في وجهها اهتمام طارئ كلّما تذكرت شيئاً ذا بال... وقالت:
- تزوّجت؟
- فرغ حاجبيه في شيء من الضيق وتورّد وجهه،
- ولكنّها أخطأت فهمه فيادته كالمعتذرة:
- لا عتاب... حقاً كنت أود أن أرى عروسك وذريّتك، ولكن بحسبي أن تكون سعيداً.
- فما ملك أن قال باقتصاب:
- لست متزوّجاً، طلّقت منذ شهر تقريباً.
- لأول مرّة لاجت آي الانتباه في عينيها، لو كان في الإمكان أن يلتصعاً لالتصعاً... ولكن انبعث منها شبه ضوء كالضوء الحالم الذي تنضح به ستارة كثيفة، وتمتعت:
- طلّقت يا بنيّ! ما أحزني!
- فابتدراها قائلاً:
- لا تحزني، لست حزينا ولا أسفاً (ثمّ بأسفاً) أخذت الشرّ وراحت.
- ولكنّها تساءلت بنفس اللهجة:
- من الذي اختارها لك... هو أم هي؟!
- فقال بلهجة نمت عن رغبته في قفل باب هذا الحديث:
- اختارها الله، كلّ شيء قسمة ونصيب!
- أعلم هذا، ولكن من الذي اختارها لك؟ امرأة أبيك؟
- كلّ أبي الذي اختارها، ولا غبار على اختياره فهي من أسرة كريمة... ولكنها القسمة والنصيب كما قلت.
- فقال ببرود:
- القسمة والنصيب واختيار أبيك... هذه هي! ثمّ بعد وقفة قصيرة:
- حبلى...؟
- نعم...
- وهي تتنهد:
- الله ينكّد عيشة أبيك!
- تعمد ألا يعقب عليها، كما يمتنع عن حكّ قرحة تآكله لعلّها تسكن... فشملها صمت، وأغمضت المرأة عينيها كأنما أنهكها التعب، بيد أنّها فتحتها هنيئة فابتسمت إليه وهي تسأله بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال:

أنه ارتاح إلى نومها كلَّ الارتياح ولكنَّه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف... خوف لم يدرك له سبباً فتمنَّى لو تصحو من سباتها وتعود إلى الحديث، حتّام ينتظر... هبها استغرقت في النوم حتّى الصباح!... لن يسعه أن يبقى طويلاً فريسة للخوف والقلق هكذا، يجب أن يضع حدّاً لآلامه... غداً أو بعد غد تكون تهنة أو تعزية... تهنة أو تعزية؟ أيها أحب إلى نفسه! يجب أن يقف عن الحركة، تهنة كانت أم تعزية لا ينبغي أن أسبق الحوادث، غاية ما يمكن قوله لو قدّر علينا أن نفرق الآن لافترقنا صديقين، تكون خير نهاية لأسوأ حياة، أما إذا مدّ الله في عمرها... سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان - في الجهة المقابلة - التي عكست صورة الفراش فرأى جسم أمّه مطروحاً تحت البطّانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى إلّا يدها التي أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وأدخلها تحت الغطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية، عاد ينظر إلى المرأة فخطر له هذا الخاطر! ربّما عكست هذه المرأة غداً فراشاً خالياً عارياً!... ليست حياتها - حياة أيّ إنسان... لم لا؟ - بأسخ دواماً من هذه الصور الوهمية!... فاشتدّ به شعور الخوف وهمس لنفسه «يجب أن أضغ حدّاً لألامي... يجب أن أذهب»، بيد أنّ بصره تحرك تاركاً المرأة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجلة التفّ خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبّت عليها في دهشة وإنكار سرعان ما حلّ مكانها شعور هائج بالتقرّز والغضب، ذلك الرجل! هو بلا رب صاحب هذه النارجيلة... تخيله متربّعاً على الكنبه القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذّذاً وأمّه تروح له على الجمرات... آه تُرى أين هو الآن، في مكان بالبيت أم في الخارج؟ هل رآه من حيث لم يره؟... لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر ممّا بقي فالتقى نظرة على وجه أمّه التي وجدها مستغرقة في النوم ثم زایل مجلسه بخفّة وسار إلى الباب، ولما التقى بالخادم في الردهة الخارجيّة قال لها:

- ستك نامت، سأعود غداً صباحاً.

- تُرى هل يمكن أن تنسى الماضي؟  
فغضّ بصره منتفضاً وهو يشعر برغبة في الهرب لا تقاوم، ثم قال برجاء:

- لا تعودني إلى ذكره، فليذهب إلى غير رجعة.  
لعلّ قلبه لم ينع ما يقول، ولكنّ لسانه قال ما ينبغي أن يقال... أو لعلّ ذلك القول كان تعبيراً صادقاً عن شعوره لحظتنا ذلك، تلك اللحظة التي استغرقه فيها بكلّيته الموقف المحيط به، ولعلّ قوله: «فليذهب إلى غير رجعة» قد وقع من مسمعه - ومن قلبه - موقعاً غريباً خلف وراءه قلماً، ولكنّه أبى أن يجعله موضوعاً لتأمّله، فر من ذلك فرازاً، وتشبّث بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبّث بها من بادئ الأمر، أمّا أمّه فعادت تسأله:

- وهل تحبّ أمك كما كنت تحبّها في الزمن السعيد؟  
فقال وهو يربّت على راحتها:  
- أحبّها وأدعو لها بالسلامة.

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنيّ فيما انطبع على وجهها الذواوي من روح السلام والارتياح العميق، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبته ما يكتنه صدرها من امتنان، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمه حاملة أشاعت في الحجرة جوّاً من الطمأنينة والمودة والحزن، لم يعد يبدو منها ما يدلّ على رغبتها في الحديث أو لعلّ الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة، ثم تراخت جفونها رويداً حتّى انطبقت، جعل ينظر إليها كالمتسائل ولكن لم تندّ عنه حركة، ثم انفرجت شفتاها قليلاً وانبعث منها شخير خفيف متقطّع. اعتدل في جلسته وهو يتوسّم وجهها ثم أغمض عينيه قليلاً ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذي طالعه به منذ عام فانقبض صدره وعادوه شعور الخوف الذي طارده طوال الطريق، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرّة أخرى؟ وبأيّ قلب يلقاه إن عاد؟ لا يدري، لا يحبّ أن يتصوّر المضمّر في علم الغيب، يؤدّ أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها، وأحاط به شعور الخوف والقلق، عجباً! لقد ركبتنه رغبة في الهرب وهو ينصت إلى حديثها حتّى خيل إليه

والتفت إليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجي قائلاً:

- غداً صباحاً.

كأنما يتنبه الرجل نفسه إلى موعد حضوره ليختفي من وجهه، مضى إلى حانة كُستاكى رأساً. شرب كعادته ولكنّه لم يطب بالشراب نفساً، أعياءه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق، ومع أنّ أحلام الثروة وراحة البال لم تغب عن ذهنه إلا أنّها لم تستطع أن تمحو عن مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء. ولما عاد إلى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه في انتظاره بالدور الأول فنظر إليها متعجباً ثمّ تساءل خافق القلب:

- أمي؟

فأحنت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت:

- جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة، العمر الطويل لك يا ابني...

## ٦٤

تطوّرت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيّين إلى صداقة متبادلة، وقد حاولت الاسرة أن تتدرّع بمأسة ياسين في جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنّه أجابهم بأنّه «صغير»، أصغر من أن يتهم بالجاهلية، ولكي يتفادى من منعهم إتياء بالقوة كان يمضي إلى المعسكر رأساً بعد عودته من المدرسة تاركاً حقيبة كتبه مع أمّ حنفي فلم تكن ثمة وسيلة إلى منعه إلا باستعمال القوة الأمر الذي لم يروا له موجباً لا سيّما وأنّه يرح في المعسكر تحت أعينهم متقبلاً في كلّ موضع بالترحيب والتكريم، حتّى فهمي نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأساً في التسليّ بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود «كقرد يلهو في غابة من الوحوش».

- قولوا لسَيدي الكبير.

هكذا اقترحت أمّ حنفي وهي تشكو تجرؤ الجنود عليها - بسبب الصداقة اللعينة - ومحاكاة بعضهم لمشيئتها بطريقة «يستحقّون عليها قطع رقبتهم» ولكنّ أحداً لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجدّ، لا رحمة بالغلام

فحسب، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجرّ التحقيق إلى معرفة تسرّهم الطويل على هذه الصداقة، فتركوا الغلام وشأنه، ولعلّهم لم يخلوا من رجاء في أن يقوم الشعور الطيّب المتبادل بين الغلام والجنود حائلاً بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرّضوا له من عبث وأذى في الذهاب والإياب! أسعد ساعات يومه كانت تلك التي يدخل فيها المعسكر، لم يكن جميع الجنود «أصدقاء» بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه، كان يصافح الأصدقاء ويشدّ على أيديهم بحرارة على حين يكتفي برفع يده، تحية للآخرين، وربّما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشاً باشاً وهو يمدّ يده فما يروعه إلا أن يلقي منه جوذاً غريباً مثيراً كأنما يتجاهله أو كأنما تحوّل إلى صنم فلا يدرك أن ليس في الأمر تجاهل أو غضب إلا من إغراق الآخرين في الضحك. ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصغير الإنذار، هنالك يهرعون إلى الخيام ثمّ يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم ونحوذاتهم وحملوا بنادقهم، ويتحرّك لوري من موقفه وراء سبيل بين القصرين إلى وسط الطريق فيمضون إليه ويقفزون إلى داخله حتّى يكتظّ بهم، بات يدرك من المنظر الذي أمامه أنّ مظاهرات قامت في جهة ما وأنّ الجنود ذاهبون لتفريقها وأنّ قتلاً سينشب بينهم وبين المتظاهرين، ولكن لم يكن يهّمه في تلك الأوقات إلا أن يتفقّد الأصدقاء ببصره حتّى يعثر عليهم في زحمة اللوري وأن يملاّ منهم عينيه كأنما يودّعهم، وأن يبسط كفيه واللوري يتعد بهم صوب النحاسين داعياً لهم بالسلامة ثمّ نالياً الفاتحة... على أنّه لم يكن يقضي في المعسكر أكثر من نصف ساعة كلّ أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيّبه عن البيت عقب عودته من المدرسة، نصف ساعة لم تكّد تغفو فيها حاسّة من حواسّه دقيقة واحدة، يدور حول الخيام، يسير بين اللوريات مستطلّماً قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام البنادق طويلاً متفحّصاً أجزاءها جزءاً جزءاً خاصة فوهة الماسورة التي يكمن فيها الموت... يقف على بعد لا



النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحاً بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلاً حتى تستوجب نهاية تنتهي إليها، هنالك يجد نفسه في موقف حائر، أيّ جانب ينتصر؟... في جانب أصدقائه الأربعة وعلى رأسهم جوليون، وفي الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمي!... في اللحظة الأخيرة يقرّر النصر للمتظاهرين فينسحب اللوري بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرةً بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاي ومختلف ألوان الحلوى... وكان جوليون أعزّ أصدقائه، امتاز إلى جماله بدمائه الخلق فضلاً عن براعته النسبية في التكلم بالعربية، وهو الذي جعل بدعته إلى الشاي حقاً ثانياً كما بدا أشدّ الجنود تأثراً بغنائه حتى كان يدعو كل يوم تقريباً إلى غناء «يا عزيز عيني» فيتابعه باهتمام ثم يغمغم في تشوّق وحنين:

- أروّح بلدي... أروّح بلدي!

وأنس كمال منه هذه الروح فازداد له ألفة واطمئناناً حتى قال له مرةً جاذاً وكأنما يدلّه عن مخرج من كربه:

- أرجعوا سعد باشا وعودوا إلى بلادكم!...

ولكنّ جوليون لم يلقَ اقتراحه بالارتياح الذي كان ينتظر وعلى العكس طلب إليه - كما فعل من قبل في ظرف مشابه - ألا يعود إلى ذكر سعد باشا قائلاً:

«سعد باشا... نوا!» وهكذا فشل - على حدّ تعبير

ياسين - أول مفاوض مصري!... ما يدري يوماً إلا

وأحد «الأصدقاء» يقدم له صورة كاريكاتورية رسمها،

فنظر كمال إليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه

«صورتى؟! ليست هذه صورتى!» ولكنه شعر في قرارة

نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما، ثم رفع

عينيه للواقفين فالفهم يضحكون فأدرك أنها نوع من

المزاح وأنّ عليه أن يتقبّله بسرور فجاراهم في

ضحكهم مدارياً بالضحك خجله، ولما أطلع عليها

فهمي تفرّس هذا فيها بدهشة ثم قال:

- ربّاه... لم تترك عيباً إلا أبرزته!... الجسم

النحيف الصغير، الرقبة الطويلة الهزيلة، الأنف

يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حشرات على اللعب بها أو على الأقلّ لمسها، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاي فكان يمضي مع أصدقائه إلى المطبخ القائم عند مدخل درب قمرز ويأخذ مكانه في نهاية طابور «الشاي» كما يدعوّه ثم يعود وراءهم حاملاً قدح شاي باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحسّون شراهم وينشد الجنود أغاني جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظراً دوره في الغناء، تركت حياة المعسكر في نفسه أثراً عميقاً بثّ في خياله وأحلامه يقظة شاملة، أثراً نقش على صفحة قلبه إلى جانب الآثار التي نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير، وقصص ياسين الذي جذب روحه إلى دنياها الساحرة، والأطياب والرؤى التي تتخيل له في أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين واللباب وأصص الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والعصافير والدجاج، من ثم أنشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت أم مريم معسكراً كامل العدد والعدد، أقام خيامه بالمناديل والأقلام، وأسلحته بعيّدان الخشب، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر، وعلى كنب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى. يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها في الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تثله هو) ينتحون جانباً، يأخذ في محاكاة الغناء الإنجليزي ثم يجيء دور الحصاة لتغني «زوروني كلّ سنة مرة» أو «يا عزيز عيني»، ينتقل إلى الحصى فينضّده صفوفاً ويهتف «يحيا الوطن... تسقط الحماية... يحيا سعد»، يعود إلى المعسكر مصفّراً فتنتظم النوى صفوفاً كذلك وعلى رأس كلّ صفّ قمره، ثم يدفع قبقاباً وهو ينفخ محاكياً أزيز اللوري، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مرةً أخرى صوب الحصى فتتشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين!... ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر في سير المعركة، على الأقلّ في بدنها ووسطها، كانت تتحكّم فيه رغبة واحدة هي أن يجعلها معركة «صادقة مشوّقة» يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعاقد الإصابات فتظلّ

الكبير، الرأس الضخم، العينان الصغيرتان...  
ثم صاحكًا:

- الشيء الوحيد الذي يبدو أن «صديقك» يضمّر نحوه إعجابًا هو بذلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك في ذلك وإنما الفضل لنيئة التي لا تترك شيئًا في البيت إلا هندمته!

ورمى إليه بطرف شامت ثم قال:

- بان السرّ الذي حبّيك إليهم!... إنهم يتسلّون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة، يعني بالعربي لست إلا «قره جوز» في نظرهم... ماذا كسبت من وراء خيانتك؟!...

ولكنّ كلام فهمي لم يحدث أثرًا لأنّ الغلام كان يدرك مدى عداوته للإنجليز فظنّها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم!... وجاء يومًا المعسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلّع باهتمام إلى العطفة التي يفتح عليها بيت المرحوم السيّد محمّد رضوان فمضى نحوه ولكنّه رآه يلوّح بيده محدّدًا إشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيّد أنّه توقّف عن التقدّم ملبيًا إحساسًا غريزيًا خفي عنه معناه، ثم أغراه حبّ الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السبيل متسلّلًا إلى ما وراء جوليون وأن يمدّ بصره إلى الهدف الذي يتطلّع إليه، هنالك رأى كوة في جناح بيت آل رضوان الذي يسدّ العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحًا باسماً مستجيبًا وقف يردّد النظر بين الجندي وبين الفتاة في ذهول كأنما يأبى أن يصدّق عينيه، كيف اقترفت مريم الظهور في الكوة؟!... كيف تصدّت لجوليون على هذا النحو الفاضح؟! هو يلوّح بيديه وهي تبتسم!... أجل ها هي الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها!... وها هما عيناها يستغرقهما النظر إليه حتّى أنّها لم تفتن بعد إلى وجوده هو! ونذت عنه حركة لفتت إليه جوليون فما كاد يطلّع على موقفه حتّى أغرق في الضحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة في دعر بيت. راح يتطلّع إلى الجندي في ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وإن بدا له الأمر كلّ غموضًا في

غموض.

سأله جوليون متودّدًا:

- تعرفها؟...

فأخى رأسه بالإيجاب ولم ينبس. غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملًا لفافة كبيرة قدّمها إلى كمال قائلاً وهو يشير إلى بيت مريم:

- اذهب بها إليها!...

ولكنّ كمال تراجع جافلاً وهو يهزّ رأسه بمنة ويسرة في عناده، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته، ومع أنّه شعر بخطورتها من بادئ الأمر إلا أنّه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها إلا حين قصّ القصّة في مجلس القهوة مساء. استوت أمينة في جلستها وهي تتباعد وقد ظلّ فنجان القهوة معلّقًا بين أصبعيها لا هي تقربه من فيها ولا هي تضعه على الصينية على حين غادر فهمي وياسين الكنية المواجهة لمجلس الأمّ مهرولين إلى الكنية التي تجلس عليها هي وكمال وجعللا يحدّقان إليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كلّ ما توقّع.

قالت أمينة وهي تزدرد ريقها:

- رأيت هذا حقًا!... ألم تحدّك عيناك؟! وتأنّف فهمي:

- مريم؟! مريم؟! أمّاكّد أنت ممّا تقول؟! وتساءل ياسين:

- أكان يشير إليها وكانت تبتسم إليه؟!... أرايتها تبتسم حقًا؟!...

وأعادت أمينة الفنجان إلى الصينية فأسندت رأسها إلى راحتها قائلة بلهجة تنمّ عن الوعيد:

- كمال! الكذب في مثل هذا الأمر جريمة لا يغفرها الله... راجع نفسك يا ابني... ألم تعدّ الحقّ في شيء؟!...

وحلف كمال بأغلظ الأيمان فقال فهمي بيأس ومرارة:

- إنّه لا يكذب، ليس في وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال، ألا تدركون أنّ اختراع مثل هذه القصّة هو أبعد ما يكون عن تصوّر واحد في سنّه؟!...

- فتساءلت الأم بصوت حزين:  
- وكيف يسعني أن أصدقَه!  
فقال فهمي وكأنه يحدث نفسه:  
- أجل كيف يمكن تصديقه!... (ثم بصوت حاد)  
ولكنه وقع... وقع...!  
وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر،  
كرّرها وكأنما يكرّر الطعن متعمداً، حقاً شغلته عن  
مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح إلا في حاشية  
أحلام يقظته، ولكن الطعنة التي أصابت سمعتها  
نفذت إليها خلال قلبه. إنه ذاهل... ذاهل...  
ذاهل، لا يدري إن كان نسي أم لم ينس، يحب أم  
يكره، يغضب للكرامة أم للخيرة... ورقة شجر جافة  
في مهب زوبعة متناوحة...  
- كيف يسعني أن أصدقَه؟... طالما كانت ثقتي في  
مريم كثفتي في خديجة أو عائشة، أمها من الفضليات،  
أبوها طيّب الله ثراه كان من الأكرمين... جيران  
العمر ونعم الجيران...  
قال ياسين - الذي بدا طول الوقت مستغرقاً  
بالفكير - بلهجة لم تُخل من سخرية:  
- علام تعجبون؟... منذ القدم والله يخلق من  
صلب الأبرار أشراراً.  
فقالت أمينة محتجة كأنما تأبى أن تصدّق أنها خدعت  
طوال ذلك الدهر:  
- يشهد الله آتي لم ألاحظ عليها ما يسوء قط...  
فقال ياسين بحذر:  
- ولا أحد منا، حتّى خديجة العيابة الكبرى، بل  
خدع بها من هو أظن منك ومي!  
فهتف فهمي متألماً:  
- من أين لي أن أطلع على الغيب؟! إنه أمر يشقّ  
تصوّره.  
وحق على ياسين لدرجة الغليان، ثم بدا له الخلق  
جميعاً بغضاء، الإنجليز والمصريّون على السواء...  
الرجال والنساء - والنساء خاصّة - إنه يختنق... هفت  
نفسه إلى الاختفاء ليتنشّق في وحدته نسمة راحة بيّد  
أنه لم يبرح مكانه كأنما شدّ إليه بحبال غلاظ...  
اتجه ياسين إلى كمال متسائلاً:  
- متى رأته؟  
- عندما التفت إليّ جوليون...  
- ثم فرّرت من النافذة؟  
- نعم...  
- هل رأته أنك رأيتها؟  
- التقت عينانا لحظة...  
ياسين ساخراً:  
- مسكينة!... إنها دون شكّ تتخيّل الآن مجلسنا  
هذا وحديثنا ذا الشجون!  
- إنجليزي!...  
هتف فهمي وهو يضرب كفّاً على كفّ.  
- بنت السيّد محمّد رضوان!...  
غمغمت أمينة متنبّلة وهي تمهّز رأسها عجباً...  
فقال ياسين متفكراً:  
- مغازلة إنجليزي ليست بالمسألة الهيّنة على فتاة،  
هذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة...  
فسأله فهمي:  
- ماذا تعني؟  
- أعني أنّه لا بدّ أن تسبقها درجات من الفساد!  
فقالت أمينة برجاء:  
- أستحلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث...  
فواصل ياسين حديثه، كأنه لم يسمع رجاها،  
قائلاً:  
- مريم بنت سيّدة لها في التبرّج فنون بشهادتك  
أنت وخديجة وعائشة...!  
فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر:  
- ياسين!...  
فقال ياسين كالمراجع:  
- أريد أن أقول إنّنا أسرة تعيش في حقّ مغلق لا  
تكاد تعلم شيئاً عمّا يدور حولها، قصارى جهدنا أن  
نتصوّر الناس على مثالنا، اختلطت بنا مريم أعواماً  
طوالاً ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتّى كشفها لنا  
آخر من ينشد عنده كشف الحقائق...  
وربّت على رأس كمال ضاحكاً، ولكنّ أمينة عادت

تقول بتوسّل حاز:

- أستحلفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث...

ابتسم ياسين ولم ينبس، فأطبق الصمت، لم يعد فهمي يتحمّل البقاء بينهم فاستجاب إلى الصوت الباطني الذي يستصرخه ملهوفاً على الفرار... بعيداً عن الأنظار والأسماع، هنالك يستطيع أن يخلو إلى نفسه، أن يعيد إليها الحديث من ألفه إلى يائه، كلمة كلمة، عبارة عبارة، جملة جملة، ليفهمه ويفهمه ثم ينظر أين يكون وضعه...

## ٦٥

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيّد أحمد عبد الجواد بيت أمّ مريم متلفعاً بظلمة العطفة المسدودة. بدا الحيّ كلّهُ - كما أمسى يبدو مع الهزيع الأوّل من الليل مذ عسكر الإنجليز فيه - غارقاً في النوم متدنّراً بالظلام، لا مقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مارّ يدبّ، فلم يكن فيه أثر للحياة أو النور إلا ما انبعث من المعسكر، ومع أنّ أحدًا من الجنود لم تعرّض له بسوء في الذهاب أو الإياب إلا أنّه لم يكن يخلو قطّ في قلق وتوجّس كلّما اقترب من المعسكر في طريقه إلى البيت خاصّة وأنّه يعود - آخر الليل - على حال من الإعياء والاسترخاء والذهول يشقّ معها مجرد التفكير في السير الآمن المطمئنّ، انحدر إلى طريق النحاسين ثمّ انعطف يمنة متّجّهاً إلى البيت وهو يختلس النظر إلى الديديبان حتّى دخل أشدّ مناطق الطريق خطورة... تلك التي ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر، هنالك عاوده الإحساس الذي يخامرّه كلّما دخلها وهو أنّه هدف يسير لأيّ صائد، فحثّ خطاه ليخرج منها إلى الظلام المفضي إلى مدخل بيته ولكنّه ما كاد يخطو خطوة حتّى صكّ أذنيه صوت أجشّ غليظ يزعم وراءه راطناً فادرك على جهله رطائنه - من عنف اللهجة واقتضاها - أنّه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقّف عن السير والتفت وراءه مرتاعاً فرأى جندياً - غير الديديبان - يتّجه نحوه بقوة شاكي السلاح، ماذا جدّ حتّى دعا إلى هذه المعاملة...

أ يكون الرجل ثملاً؟ أم لعله أذعن لنزوة اعتداء طارئة؟ أم هو يتبغي السلب والنهب؟ جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من رأسه. وقف الجنديّ على بعد خطوة منه ثمّ وجّه إليه بلهجة أمرة كلاماً سريعاً قصيراً - لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيّد في وجهه بيأس واستعطاف وهو يعاني مرارة العجز عن التفاهم معه كي يقنعه ببراءته ممّا يتّهمه به أو كي يعرف على الأقلّ ما يريد، ثمّ خطر له أنّه قصد بإشارته إلى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظناً منه أنّه غريب فراح يشير إلى بيته بدوره ليفهمه أنّه من سكّانه وأنّه عائد إليه ولكنّ الجنديّ تجاهل حركته وهو يدمدم ثمّ أصرّ على إشارته وهو يهزّ رأسه في نفس الاتجاه كأنّما يحثّه على الذهاب، ثمّ بدا أنّه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه في ظهره فوجد السيّد نفسه يتحرّك متّجّهاً نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم - ومفاصله تكاد تسبب - إلى المقادير، جاوز في مسيره المجهول المعسكر ثمّ سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر أثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل، لا منظر يرى إلاّ أشباح البيوت ولا صوت يسمع إلاّ وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه في نظام ميكانيكيّ كأنّها بعدّان الدقائق الباقية له في الحياة، ولعلّها ثوان، أجل كان يتوقّع في أيّة لحظة أن ينقضّ عليه بخيطة تهوي به إلى النهاية فمضى يترقّبها بعينين محمّلتين في الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقة تتحرّك حركة عصبيّة من أن لأن كلّما ازدرد ريقه الجافّ الملتهب حتّى بوغت بوميض يجذب بصره إلى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الملح وقد تهاوى قلبه ولكنّه تبيّنه دائرة من الضوء تذهب وتحجى فادرك أنّها شعاع من بطّارية أضواءها سائقه ليتعرّف على طريقه خلال الظلمات. استردّ أنفاسه بعد أن تخفّف من الذعر المبالغ ولكنّه لم يستشعر نسمة راحة حتّى تلقّفه خوفاه الأوّل، خوف الموت الذي يساق إليه، فعاد يترقّب حتفه بين لحظة وأخرى كأنّه

غريق توهم في تحبّطه أنّه يرى تمساحًا يتوتّب لمهاجمته ثمّ تبين له أنّ ما رأى أعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمي لم تكد تنفّس حتّى اختفت تحت ضغط الخطر الحقيقي المحيط به، إلى أين يسوقه؟ لو يستطيع أن يراطنه فيسأله! يبدو أنّه سيواصل سوقه حتّى يدفع به إلى قرافة باب النصر، لا أثر لإنسان ولا لحيوان، أين الغفير؟ وحيد تحت رحمة من لا يرحم، متى كان مثل هذا العذاب... هل يذكّر؟ الكابوس... أجل إنّ الكابوس. كابده أكثر من مرّة خلال نوم مريض، إنّ ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو أحيانًا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم إحساس حنون بأنّ ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنّه سينجو من شرّه الآن أو بعد حين، هيهات أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل، أنّه صاحب لا نائم وهذا الجندي الشاكي السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذي يشهد ذلّه وأسرّه شيء ملموس خفيف لا وهم، عذابه حقيقة لا سبيل إلى الشكّ فيها، إنّ أقلّ حركة مانعة تندّ عنه خليقة بأن تطيح رأسه... لا سبيل إلى الشكّ في هذا أيضًا. قالت له أمّ مريم وهي تودّعه: «إلى الغد» الغد؟! هل يطلع ذلك الغد؟! سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهره... سل البندقية ذات السونكي الحاذق المدبّب، قالت له أيضًا وهي تمزّحه «تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرني»، الآن طارت الخمر وطار عقله، ولّت ساعة الصبوة، منذ دقائق معدودة... كانت الصبوة كلّ شيء في الحياة. الآن العذاب هو كلّ شيء... وليس بين هُذا وذاك إلّا دقائق معدودة، دقائق معدودة؟!... عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض في الظلام فلحظ الطريق فرأى بطّارئة تتحرّك في يد جندي آخر يسوق بين يديه أشباحًا لم يتبين عددهم!... تساءل ترى هل صدرت إلى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلاً؟!... وإلى أين يسوقونهم؟... وأي عقاب سيقضون به عليهم؟ تساءل طويلًا وهو من الدهش والانزعاج في نهاية بيد أنّ رؤيته للضحايا الجدد

أدخلت على قلبه شيئًا من العزاء والارتياح، لم يعد على الأقلّ وحيدًا كما كان يظنّ، وجد في بلواه أنسًا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير، كان يتقدّم قافلتهِم بمسافة قصيرة فراح ينصت إلى وقع أقدامهم مستأنسًا إليها كما يستأنس الضالّ في مفازة إلى أصوات آدمية ترامت إليه مع الريح، ولم تكن أمنية أعزّ على نفسه آنئذ من أن يلحقوا به لينضمّ إلى جماعتهم، سواء كانوا معارف أو غرباء، لتخفق قلوبهم معًا وهم يحشّون الخطى نحو المصير المجهول. هؤلاء الرجال أبرياء وهو بريء فقيم القبض عليهم؟ فيم القبض عليه هو مثلاً؟ لا هو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتّى من الشبان فهل يطلعون على الأفئدة ويحاسبون على المشاعر؟... أو تراهم يعتقلون أفراد الشعب بعد ألف فرغوا من اعتقال الزعماء! لو كان يعرف الإنجليزيّة فيسأل أسرّه؟... أين فهمي ليحادثة نيابة عنه؟... وخزه الألم والحنين، أين فهمي وباسين وكمال وخديجة وعائشة وأمههم؟ هل يمكن أن تتصوّر أسرته ما آل إليه حاله من هوان وهي التي لم تره إلّا جبارًا جليلاً؟ هل تتصوّر أنّ جنديًا دفعه بعنف حتّى أوشك أن يطرحه أرضًا وأن يسوقه كما تساق السائمة؟ وجد لذكر آله ألماً وحنينًا فكادت تدمع عيناه. كان يمرّ في طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها، ومقامه كان يومًا - خاصّة عهد الصبا والشباب - من سمارها، فأحزنه أن يمضي بها سيرًا دون أن تنهض لنجدته أو حتّى ترثي لحاله، شعر حقًا بأنّ أحزن صنوف الهوان ما حاق به في حيّه، ثمّ رفع عينيه إلى السماء باعثًا بفكره إلى الله المطلع على قلبه، بعث إليه بفكره دون أن يجري له ذكرًا على لسانه ولو همسًا مستحيًا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام، وما لبث أن تضاعف خوفه من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة، أو أن يلقي مصيرًا كفاء لما سلف من استهتاره، فغشي صدره تطير وكآبة، وأشفى على اليأس، حينما شارف سوق الليمون ترامى إلى الصمت الذي لا يؤنسه إلّا وقع أقدام أصوات مبهمّة فأرهف محمّلًا في الظلام - وهو يتقدّم بين

ويفرغونها فيها، الكلّ يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر في خوف إلى الجنود الإنجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة. اقترب منه شرطي ورمى إليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد:

- افعل كما يفعل الآخرون...

ثم همسا:

- أسرع حتى لا يصيبك أذى...

كانت هذه الجملة أول تعبير «إنساني» يلقاه في رحلته المخيفة فسرت في صدره سرى النسمة في حلق المختنق، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطي همسا:

- هل يطلق سراحنا إذا تمّ العمل؟

فأجابه بنفس الصوت:

- إن شاء الله.

تنهد من الأعماق، راودته نفسه على البكاء، شعر بأنه يولد من جديد. رفع يسراه الجثة من طرفها ودسّه في حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف إلى طوار البوابة حيث تراكت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها في المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب إلى الحفرة فأفرغه فيها وعاد إلى الطوار، واصل العمل بين جماعات مختلفة من الناس ضمت الأفندية والمعممين، الهرمين والشبان، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم في الحياة، وإنه ليملا مقطفه إذ لكزه كوع فالفتت إلى مصدره فرأى صديقاً يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيتون بالجمالية تمن يلمون بمجالس لهو بين حين وآخر ففرح به فرحة عظيمة كما فرح به الآخر، وسرعان ما تهامسا:

- أنت وقعت أيضاً!..

- قبلك.. وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلم مقطفك فجعلت في ذهابي وإياي أتبع طريقاً يميل إليك رويداً رويداً حتى جاورتك.

- أهلاً.. أهلاً، أليس ثمة أحد من أصدقائنا؟

- لم أعر على غيرك.

- قال لي الشرطي إنهم سيطلقون سراحنا حالما تمّ

الخوف والرجاء - فتناهد إلى أذنيه لجة لم يدر إن كان مصدرها إنسان أو حيوان، غير أنه تبين بعد قليل لغظاً فلم يتالك أن قال لنفسه في لهفة «أصوات آدمية!» ومال مع الطريق فلاححت لعينيه أضواء متحركة حسبها بادئ الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانباً من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون، ثم تراءى له جنود من البوليس المصري ردّ منظرهم إلى صدره الدماء، سأعرف ما يراد بي، لم يبق إلا مسيرة خطوات، ماذا دعا إلى تجمعهم الجنود الإنجليز والمصريين عند البوابة؟ لماذا يسوقون الأهالي من شتى أنحاء الحي؟ عما قليل أعرف كل شيء، كل شيء؟ فلاستعد بالله ولاسلم إليه أمري، سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر إن كان في العمر بقية، الرصاص... المشقة... دنشواي... أنضمّ إلى سجلّ الشهداء؟ أصبح نبأ من أنباء الثورة يتناقله محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار كما كنا نتناقل الأخبار في سهرات المساء؟ تصوّر السهرة ومكانك شاغر؟ رحمة الله عليك... كان وكان... لشدّ ما يبكونك، وسيتذكرونك طويلاً، ثم تنسى، ما أشدّ اضطراب قلبي، سلم أملك للذي خلّقتك، اللهم حوالينا ولا علينا. ما إن اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار إليه باردة قاسية متوقدة فغاص قلبه في الأعماق مخلّفاً وراءه في الأضلع ألماً حاداً، ثرى هل أن له أن يتوقّف؟ تشاقلت قدماه ولّفه التردّد والحيرة...

- ادخل...

هتف بها شرطي وهو يشير إلى داخل البوابة فنظر السيد إليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة، ثم مرّ بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويودّ لو يغطي رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التي تستصرخه. هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرًا عرفه بما يراد به غير حاجة إلى سؤال، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق، كما رأى جمهوراً من الأهالي يعملون بلا توقّف وتحت إشراف الشرطة لسدّ الحفرة بأن يحملوا الأتربة في مقاطف

العمل.

- قيل لي ذلك أيضًا، ربنا يسمع منك.

- سيّبا ركبى الله يخرب بيوتهم..

- لم تعد لي ركب على ما أظن!

وتبادلا ابتسامة مقتضبة..

- ما أصل هذه الحفرة؟

- يقال إنّ فتّات الحسنيّة حفروها أوّل الليل

ليمنعوا مسير اللوريات ويقال أيضًا إنّ لوريًا وقع فيها!

- إن صحّ هذا فقل علينا السلام!

وعندما تجاورا مرّة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا

الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتّى أنّها لم يتمالكَا

أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء

فهمس غنيم:

- حسنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب..

فهمس السيّد بأسًا:

- أرجو أن يعطونا أجرًا مناسبًا!

- أين قبض عليك؟

- أمام البيت.

- طبعًا!

- وأنت؟

- كنت بالعمّا منزولة، ولكنني أفقت تمامًا، الإنجليز

أقوى من الكوكابين!

- أقوى من القويّ نفسه!

مضى الرجال يذهبون ويحيثون عجّلين ما بين طوار

الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل، أثاروا التراب حتّى

انتشر في فراغ القبة خالفاً جوّاً خانقاً فعلاهم البهر

وتصبّب منهم العرق من جبهاتهم واغرّرت وجوههم

وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنتهم أشباح انشقت

عنهم الحفرة، على أيّ حال لم يعد وحده، هذا

الصديق وهؤلاء الرجال من حيّه، جنود البوليس

المصريّون معهم بقلوبهم، أيّ ذلك أنّهم جرّدوا من

سلاحهم.. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنيّ يتدلّل

من أحزمتهم، اصبر.. اصبر.. لعلّ هذه الغمّة أن

تنكشف، هل كنت تتصوّر أنّك ستعمل حتّى مطلع

الصبح وربّما حتّى الضحى، شدّ حيلك، ليس ثمة

ألك ستحمل التراب وتُسحّر في سدّ الحفرة؟ لا تريد

الحفرة أن تمتلئ، لا فائدة ترجى من الشكوى، ولن

تشكو؟ جسمك قويّ صلب العود يستطيع أن يتحمّل

رغم سكرة الليلة وعبثها. كم الساعة الآن؟ ليس من

الحيطة أن تنظر فيها، لو لم يقع لي هذا لكنت الآن

مستلقياً على الفراش منعماً بلذيد المنام، كنت أستطيع

أن أغسل رأسي ووجهي وأشرب شربة رويّة من القلّة

المعطّرة بالزهر، هنيئاً لنا هذه المشاركة في جحيم

الثورة، لم لا؟ البلد ثائر.. كلّ يوم.. كلّ ساعة

ضحايا وشهداء، بيد أنّ قراءة الصحف وتناقل الأخبار

شيء أمّا حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر،

هنيئاً لكم أيّها النائمون في أسرّتكم، اللّهمّ احفظنا،

لست لها.. لست لها، اللّهمّ اهزم المشركين بقوّتك،

نحن ضعفاء.. لست لها، هل يتصوّر فهمي أيّ خطر

يتهدّده؟ إنّهُ يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق

بأبيه، قال لي: «لا لأوّل مرّة في حياته، قالها بدموعه

ولكن سيّان عندي. المعنى واحد، لم أقلّ لأمه، لن

أقول لها، أأكشف لها عن عجزتي؟ أأستعين بضعفها

بعد أن أخفقت بقوّتي؟ كلّ.. لئنقّ جاهلة بكلّ شيء،

يقول إنّهُ لا يعرّض نفسه للخطر، حقّاً؟ اللّهمّ

استجب، لولا هذا ما رحّمته أبداً، اللّهمّ احفظه،

اللّهمّ احفظنا جميعاً من شرّ هذه الأيام، كم الساعة

الآن؟ إن طلع علينا الصباح أمّا القتل، لن يقتلونا

أمام الخلق. الصباح؟

- بصقت على الأرض كي أتخلّص من الغبار اللازق

بسقف حلقي فرماني أحد الأبالسّة بنظرة وقف لها شعر

رأسي!

- لا تبصق، تشبّه بي، لقد بلعت من التراب قدرًا

يكفي لسدّ هذه الحفرة.

- لعلّ زبيدة دعت عليك!

- لعلّها..

- ألم يكن سدّ حفرتها أطيب من سدّ هذه الحفرة؟

- بل أشقّ!

تبادلا ابتسامة سريعة ثمّ قال غنيم متنبّها:

- انقصم ظهري يا هو!

كله؟ يا بن بنت رسول الله، غزوة الخندق.. هكذا دعاها سيّدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه.. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم! فساد الزمن.. فسادي أنا، هل يسكرون أمام البيت حتّى تنتهي الثورة؟

- ألم تسمع الديكة؟

أرهف السيّد أذنيه ثم غمغم:

- الديكة تصيح! الفجر؟

- نعم.. ولكنّها لن تمتلئ قبل الصباح.

- الصباح!

- المهمّ أنّي محصور، محصور جدًّا.

اتّجه ذهن السيّد إلى أسفل فشعر بأنّه محصور أيضًا، وبأنّ جانبًا من آلامه يعود بلا شكّ إلى ذلك، وسرعان ما اشتدّ ضغط المثانة عليه كأنّما هيّجها تفكيره فيها، قال:

- وأنا كذلك.

- والعمل؟

- ما باليد حيلة!

- انظر هناك إلى ابن القرد الذي وقف يبول أمام دكان على الزجاج!

- آه..

- إخراج شويّة بول أهمّ الآن عندي من إخراج الإنجليز من مصر كلّها..

- إخراج الإنجليز من مصر كلّها؟ ليخرجوا أوّلًا من النحّاسين.

- ربّاه.. انظر.. لا يزال الجنود يأتون بالناس!

رأى السيّد جماعة جديدة تشقّ طريقها صوب الحفرة.

## ٦٦

استيقظ السيّد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع في الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهتئين بالسلامة فراح يقصّ القصّة ويعيدها بأسلوب لم يخلُ - رغم جدّيّة الأمر - من فكاهة وتهويل حتّى أثار شتّى التعليقات. كانت أمانة

- مثلك، عراؤنا أننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم.

- ما رأيك في أن أرمي بالمقطف في وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتي «يحيى سعد»؟!

- اشتغلت المنزلّة من جديد؟

- يا للخسارة!.. كانت قطعة «قد فصّ العين» حرّكتها بالشاي مرّة ومرّتين وثلاثًا، ثمّ ذهبت إلى الطمبكشيّة أسمع الشيخ علي محمود في بيت الحمزاوي، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسني «الوليّة الآن تنتظر لا أفلح من خيب لها رجاء» حين طلع ابن القرد وساقني من قفاي..

- ربّنا يعوّض عليك.

- أمين.

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينيّة والبعض الآخر من ناحية النحّاسين وسرعان ما انضمّوا إلى «العَمَل». ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة في جميع الجهات، يذهبون إلى الطوار ويرجعون إليها في حركة لا تنقطع وأنوار المشاعل تضئ من وجوها لاهثة نال منها الإعياء والذلّ والخوف كلّ منال. الكثرة بركة وأمان، لن يذبّحو هذا الجمع الغفير من الناس، لن يأخذوا البريء بالذنب، تُرى أين المذنبون؟ أين هؤلاء الفتّوات؟ هل يعلمون الآن أنّ إخواننا لهم وقعوا في الحفرة التي حفروا؟ قاتلهم الله هل حسبوا أنّ حفر حفرة سعيّد سعدًا أو يخرج الإنجليز من مصر! لأنقطع عن السهر إن كتب الله لي عمرًا جديدًا، أنقطع عن السهر! لم يعد السهر بمأمون، كيف يكون طعم الحياة، لا طعم للحياة في ظلّ الثورة، الثورة.. أيّ جنديّ يقبض عليك.. تحمل التراب بكفّيك، فهمي يقول لك لا، متى تعود الدنيا إلى أصلها؟

صداع؟.. بل صداع وغثيان، دقائق من الراحة.. لا أطمع في مزيد! بهيجة في سابع نومة، أمانة تنتظر كما تنتظر «وليّة» غنيم، هيهات أن يخطر لكم ما حاق بآبيكم، ربّاه إنّ التراب يملأ أنفي وعيني، يا سيّدنا الحسين، امتلئي.. امتلئي.. أما كفّاك هذا التراب



لم تنكّر إحدى شقيقتيه - ولو مرة واحدة - بأن تحببه قائلة مثلاً «أذهب أنت وسألقى بك غداً!» بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التي تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلّم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تحيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع في مزيد. وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحياناً إذا رأهما مقبلتين من أن يقول متمنياً «لو تعودان إلى البيت فتقيان فيه كما كنّا!» فبادره أمّه قائلة «ربّنا يكفيهما شرّ غمّنا لك الطيبة!». بيد أن أعجب ما صادفه في حياتهما الزوجية كان ذلك التغيّر الذي طرأ على البطن.. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطوراً غريبة كالأساطير، وفدت على حافظته ألفاظاً جديدة كالجلّ والوحم وما اكتنف الأخير من قيء وتوَعَك والتهايم لحبّات الطين الجافة.. ثم ما شأن بطن عائشة؟ متى يقف عن النمو الذي جعله كالقربة المنفوخة؟ وهذا بطن خديجة بدا - فيها يبدو - يخطو نفس الخطوات، وإذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبي قد وجمت على الطين فعلى أي شيء توجم خديجة؟ غير أن خديجة لم تحقّق مخاوفه فتوجّمت على المخلّ حتى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع!.. وتقول أمّه إن بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالي - سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قوّة عينه.. ولكن أين يقيم هذا الطفل، وكيف يعيش، وهل يسمع ويرى، وماذا يسمع وماذا يرى، وكيف وجد، ومن أين جاء؟.. على أن هذه الأسئلة لم تهمل، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقاً بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويد وغير ذلك من المواد التي تزخر بها دائرة معارف أمّه.. لذلك سأل عائشة مستطعلاً باهتمام:

- متى يخرج الطفل؟

فأجابته ضاحكة:

- اصبر لم يبق إلا قليل.

فتساءل ياسين:

- أظنك في الشهر التاسع؟

فأجابته:

أول من سمع القصة، ألقاها عليها وهو مشّت النفس خائر القوى لا يكاد يصدّق حقاً أنه نجا فتلقّت وحدها الجانب المفجع خالصاً، وما كادت تغادره نائماً حتى استرسلت في البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته، ودعت الله طويلاً حتى كلّ لسانها. ولكنّه حينها وجد نفسه محوطاً بأصدقائه خاصّة المقرّبين منهم أمثال إبراهيم الفار وعلي عبد الرحيم ومحمّد عفت، استردّ الكثير من روحه المعنوية فتغذّر عليه أن يغفل الجانب الفكاهي من الحادث حتى غلب على ما عداه فانتهى الحديث إلى نوع من المزاح كأنما كان يقصّ عليهم مغامرة من مغامراته. وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانيّ فيما عدا الأم التي شغلت مع أم حنفي بتهيئة القهوة والأشربة، شهدت الصلاة من جديد اجتماع ياسين وفهمي وكمال وخديجة وعائشة في مجلس الأم التقليدي، وقد انضمّ إليهم خليل شوكت وإبراهيم شوكت سحابة النهار ولكنّها صعدا إلى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للإخوة، وكان الحزن الذي غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زایلهم بعودة الطمأنينة إلى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوجّبوا للسمر والمرح كعهدهم في الأيام الخوالي. على أن الطمأنينة لم تستقرّ بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم، أقبلوا عليه واحداً في إثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة في نظام وأدب عسكريين. ومع أن السيّد اكتفى بمذّ يده لياسين وفهمي وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة إلا أنه ابتسم إلى خديجة وعائشة وسألها في رقة عن الحال والصحة، رقة لم تحظيا بها إلا بعد زواجهما، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذي يحظى بها. والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقته كلّما هلّت.. كان ينعم في أثنائها بسعادة عميقة لا يعكّر عليه صفوها إلا التفكير في النهاية المتوقّعة. ودائماً كان يحجيء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين - إبراهيم أو خليل - إذا تمطّى أو تشاءب ثم قال «أن لنا أن نذهب» أمر مطاع لا يردّ،

- نعم ولو أن حاتي تصرّ على أني في الثامن!

فقال خديجة بحة:

- أصل حمانك تصرّ دائماً على أن يكون لها رأي مخالف، هذا كلّ ما هنالك!

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيراً بين خديجة وحاماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثمّ ضحكوا. وقالت عائشة:

- أودّ أن أقترح عليكم أن تنتقلوا إلى بيتنا فتبقوا معنا حتّى يجلو الإنجليز عن شارعكم.

فقال خديجة بحماس:

- أجل، لم لا؟ إنّ البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة، فيقيم بابا وبنينة عند عائشة لأنّها في الدور الأوسط، وتقيمون أنتم عندي.

رحّب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنمّ عن التحريض:

- من يقول لبابا؟

ولكنّ فهمي قال وهو يهزّ منكبيه:

- إنكمّا تعلّمان حتّى العلم أنّ بابا لا يمكن أن يوافق.

فقال خديجة بأسف:

- ولكنّه يحبّ السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود، يا لهم من مجرمين!

ساقوه في الظلام وحملوه التراب!... آه. رأسي يدور كلّما تصوّرت هذا.

فقال عائشة:

- كنت أنتظر دوري لتقبيل يده وأنا أتفحص جسمه جزءاً جزءاً لأطمئنّ عليه، كان قلبي يدقّ... وعيناي تغالبان الدمع... لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب!

فابتسم ياسين... وقال لعائشة محدّراً وهو يلحظ كمال غامراً بعينه:

- لا تسيّ الإنجليز هكذا فإنّ لهم بيننا أصدقاء!

فقال فهمي متهمكاً:

- لعلّه ممّا يسّر له بابا أن يعلم أنّ الجنديّ الذي يقبض عليه ليلاً ما هو إلّا صديق من أصدقاء كمال. فابتسمت عائشة إلى كمال متسائلة:

- ألا تزال تحبّهم بعد ما كان منهم؟

فغمغم كمال وقد تورّد وجهه حياء وارتباكاً:

- لو عرفوا أنّه أبي ما تعرّضوا له بسوء!

فما تمالك ياسين إلّا أن يضحك ضحكة عالية حتّى أنّه غطّى فمه بيده وهو ينظر في حذر إلى السقف كأنّما يخاف أن يترامى صوت ضحكته إلى الدور الأعلى... ثمّ قال ساخراً:

- الأحرى بك أن تقول: إنهم لو عرفوا أنّك مصريّ ما صبّوا العذاب على مصر والمصريّين، ولكنّهم لا يعرفون؟

فقال خديجة بلهجة لاذعة:

- دع هذا الكلام لغيرك أنت...! أتكرّر أنّك من أصدقائهم كذلك؟!

ثمّ مخاطبة كمال بلهجة لاذعة:

- أتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلّي الجمعة في سيّدنا الحسين؟

فقطن ياسين إلى مرمى هجومها وقال مظهرًا الأسف:

- يحقّ لك أن تتطاولي عليّ ما دمت قد تزوّجت فاكتسبت بعض حقوق الأدميّين...

- ألم يكن لي هذا الحقّ من قبل؟!

- الله يرحم أيّام زمان...! ولكنّه الزواج يعيد إلى البائسات الروح...! اسجدي شكراً للأولياء... ولتعاويد وأقراص أمّ حنفي.

فقال خديجة وهي تغالب ضحكة:

- يحقّ لك أن تتهمّج على الناس بالحقّ وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت من عداد الملاك.

فقال عائشة بفرح صبيانيّ كأنّما لم تدر من الأمر شيئاً:

- أخي في عداد الملاك!... ما أجل أن أسمع هذا!... أنت غنيّ حقّاً يا سي ياسين؟!

فقال خديجة:

- دعيني أعّد لك أملاكه، اسمعي يا ستي: دكان الحمزاوي وربع الغوريّة وبيت قصر الشوق...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه مغمضاً عينيه:

- النساء . . . ومن شرّ حاسد إذا حسد . . .  
فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته:  
- وما خفي من الحليّ والنقود المخبّاة أعظم . . .  
فهتفت ياسين في أسف صادق:  
- اختفت كلّها وحياتك، سرت، سرقها ابن  
الكلب، جعلت أبي يسأله عما إذا كانت تركت حليّاً أو  
نقوداً فقال اللصّ «ابحثوا بأنفسكم، علم الله أنّي كنت  
أنفق عليها في أثناء مرضها من جيبِي الخاصّ» . . .  
اسمعوا يا هوه . . . جيبه الخاصّ ابن الغسّالة! . . .  
فقال عائشة بتأثر:  
- يا ولداه! . . . مريضة طريجة الفراش تحت رحمة  
رجل طامع في ماها! . . . لا صديق ولا حبيب،  
غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد.  
فتساءل ياسين:  
- من دون أن يحزن عليها أحد؟!  
فأشارت خديجة من خلال باب موارب إلى ملابس  
ياسين المعلّقة بالمشجب وقالت محتجّة احتجاجاً  
ساخراً:  
- وهذا البايون الأسود! . . . أليس آية على  
الحزن؟!  
فقال ياسين جاداً:  
- لقد حزنّت عليها حقّاً، ربّنا يرحمها ويغفر لها، ألم  
نكن تصافينا في آخر لقاء؟ الله يرحمها ويغفر لها  
ولنا . . .  
فخفّضت خديجة رأسها قليلاً رافعة حاجبيها ثمّ  
نظرت إليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظّارته وهي  
تقول:  
- إحم . . . إحم . . . اسمعوا سيّدنا الواعظ (ثمّ  
وهي ترميه بنظرة شكّ) ولكن لم يبد عليك فيما أظنّ  
حزن شديد؟!  
فرماها بنظرة مغيظة قائلاً:  
- ما قصّرت في واجبي نحوها والحمد لله، أقمت  
لها مأثماً استمرّ ثلاث ليالٍ، وكلّ جمعة أزور القرافة  
محمّلاً بالرياحين والفواكه . . . أم تريدني ألطم وأعول  
وأحشو التراب على رأسي! إنّ للرجال حزناً غير حزن
- النساء .  
فهزّت رأسها كأنما تقول «أفدّني أفادك الله» ثمّ  
قالت متنبّدة:  
- آه من حزن الرجال! . . . ولكن خبرني وحياتي  
عندك ألم يخفّف الدكان والربيع والبيت من لوعة  
الحزن؟!  
فقال متأفّفاً:  
- صدق من قال: إنّ قبح اللسان من قبح  
الوجه . . .  
- من قائل هذا؟ . . .  
أجابها باسمّاً:  
- حماتك!  
فضحكت عائشة، وضحك فهمي وهو يسأل  
خديجة:  
- ألم تتحسّن العلاقات بينكما؟  
فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة:  
- سوف يتحسّن ما بين الإنجليز والمصريّين قبل أن  
يتحسّن ما بينهما . . .  
فقال خديجة بحقّ لأوّل مرّة:  
- امرأة قويّة، ربّنا عليها، والله أنا بريئة  
ومظلومة . . .  
فقال ياسين متهمّاً:  
- نصّدّقك يا أختي بلا قسم، هذا شيء نشهد به  
أمام الله في يوم العذاب!  
فعاد فهمي يسأل عائشة:  
- وأنت كيف حالك معها؟  
فقال عائشة وهي تلحظ خديجة بإشفاق:  
- على ما يرام . . .  
فهتفت خديجة:  
- آه من أختك عائشة . . . تعرف كيف تسوس  
وتطاطئ الرأس . . . اتفوخخص . . .  
فقال ياسين متصنّفاً الجذّ:  
- على أيّ حال فلمحاتك الرحمة ولك صادق  
التهنئة!  
فقال بسخرية:

- التهنته الحقة لك أنت قريباً إن شاء الله حين تزف  
إلى عروسك الثانية!... أليس كذلك؟

فما تمالك إلا أن ضحك ثم قال:

- ربنا يسمع منك...

فتساءلت عائشة باهتمام:

- حقاً؟...

ففكر قليلاً... ثم قال في شيء من الجذ:

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكن من يعلم  
بما يأتي به الغد؟! ربما ثانية وثالثة ورابعة...

فهتفت خديجة:

- هذا ما أتوقعه. الله يرحم جدك!

فضحكوا جميعاً حتى كمال، ثم عادت عائشة تقول  
بصوت أسيف:

- مسكينة زينب!... كانت فتاة لطيفة وطيبة...

- كانت...! وكانت حمقاء أيضاً، أبوها - مثل

أبي - لا يطاق، لورضيت بمعاشرتي كما أحب ما فرطت  
فيها أبداً...

- لا تعترف بهذا، حافظ على كرامتك، لا تشمت  
بك خديجة...

قال باستهانة:

- نالت الجزاء الذي تستحقه، فلينقعهأ أبوها  
ويشرب ماءها.

فغصمت عائشة:

- ولكيها حبل ي ولداه!... أترضى لوليدك بأن

ينمو بعيداً عن رعايتك حتى تسترده غلاماً؟...

آه، أصابت مقتلاً، ينمو في حضانة أمه كما نما أبوه  
من قبل، ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد... ربما نمت  
معه كراهية لأمه أو لأبيه، تعاسة على أي حال. قال  
عائشاً:

- ليكن حظه كحظ أبيه، ما باليد حيلة!

وساد الصمت قليلاً حتى سأل كمال خديجة:

- وأنت يا أبله متى يخرج الطفل...؟

فأجابته ضاحكة وهي تتحسس بطنها:

- إنه لا يزال في سنة أولى.

فعاد يقول لها براءة وهو يتفرس في وجهها:

- نحفت جداً يا أبله وصار وجهك قبيحاً...!  
ضحكوا جميعاً وهم يغطون أفواههم بأيديهم،  
ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك، أما خديجة  
التي لم يكن الاستياء من كمال مما تستطيعه فقد مالت  
إلى أن تجاري التيار فقالت ضاحكة:

- أعترف لكم بأنني خسرت في أيام الوح كمل  
اللحم الذي تعبت أم حنفي أعواماً في جمعه ولمه،  
نحفت وبسرز أنفي وغارت عيناي وخيل إلي أن  
«الرجل» يقلب عينيه مفتشاً عبثاً عن العروس التي  
زفوها إليه؟...

ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين:

- الحق أن زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية  
وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشامي على  
المغربي...

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمي قائلة وهي تومئ إلى  
عائشة:

- كلاهما - زوجي وزوجها - في الغباء سواء! لا  
يكادان يبرحان البيت ليل نهار، لا هم ولا عمل، أما  
زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه  
شحاذ من الشحاذين الذين يمرّون على البيوت في  
الأعياد، وأما زوجي فلا تراه إلا مستلقياً يدخن ويثرثر  
حتى يدوخ دماغه...

فقالت عائشة للمعتدرة:

- الأعيان لا يعملون!

فقالت خديجة هازئة:

- العفو!... يحق لك أن تدافعي عن هذه الحياة،  
الحق أن الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينك،  
كلاكما في الكسل والدعة والحمول شخص واحد،  
والنبي يا سي فهمي يمرّ اليوم كله وهو يدخن ويعزف  
وهي تزوّق نفسها وتذهب وتجيء أمام المرأة...

تساءل ياسين:

- لم لا ما دامت ترى منظرًا حسنًا...؟!

وقبل أن تفتح خديجة فاهها سألتها مستعجلاً:

- خبريني يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيهاً

بك؟

نفساً مسيحة فإنه لم يَلَقْ هذه المَرَّةَ إلَّا حنقاً وامتناعاً،  
 ربّما كان ذلك لما عاناه في الأيام الأخيرة. كثيراً ما تَوَقَّع  
 أن يسمع عن زواج مريم، كان ذلك همه وكرهه بيد  
 أنه سلّم به سلفاً تسليم اليأس، وكاد يألّفه بكرور  
 الأيام، إلّا أنّ حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذي  
 شغلته الشواغل الكبرى، حتّى وقعت واقعة جوليون  
 فزلزل زلزالاً. تغازل إنجليزياً لا مطمع لها في الزواج  
 منه فأَيُّ معنى تتضمّنه هذه المغازلة؟ هل تصدر إلّا عن  
 متهتكة؟ مريم متهتكة؟ وفيَم كانت أحلامه الماضية؟  
 ولم يكن يخلو بكمال حتّى يدعوه إلى إعادة القصة من  
 جديد محتّماً عليه أن يصف التفاصيل بدقّة، كيف  
 لاحظ ما يدور، وأين كان موقف الجنديّ، وأين كان  
 موقفه هو، وهل هو متأكّد من أنّ مريم نفسها التي  
 كانت في الكوة؟ وأنها كانت تنظر حقّاً إلى الجنديّ؟  
 وهل رآها تبتسم إليه، وهل وهل وهل، ثم يسأله وهو  
 يعضّ على أسنانه كأنّما يهرس الشقاء الذي يعذّبه:  
 وهل تراجعت في خوف حين وقعت عيناها عليك؟ ثمّ  
 يمضي متخيلاً المواقف والمناظر، موقفاً موقفاً، ومنظراً  
 منظراً، وتخيّل الابتسامة طويلاً حتّى كأنّه يرى  
 الشفتين المفترتين كما رآها يوم زفاف عائشة وصاحبتهما  
 تتبع العروس في فناء بيت آل شوكت.  
 - يبدو أنّ نينة لن نجالسنا اليوم.  
 قالته عائشة بصوت يدلّ على الأسف.  
 فقالت خديجة:  
 - الزوّار يملأون البيت.  
 ياسين ضاحكاً:  
 - أخاف أن يشته الجنود في كثرة القادمين فيظنّوا أنّ  
 اجتماعاً سياسياً ينعقد في بيتنا.  
 خديجة في مباهاة:  
 - إنّ أصدقاء بابا يحجبون عين الشمس...  
 فقالت عائشة:  
 - رأيت السيّد محمّد عَفَت نفسه على رأس  
 القادمين.  
 فأمنت خديجة على قولها قائلة:  
 - كان صديقاً حميماً لبابا من قبل أن نرى نور

كانت شبت من مهاجته فأجابته جادّة:  
 - سيجيء بإذن الله شبيهاً بأبيه أو جدّه أو جدّته أو  
 خالته، أمّا... (ثمّ ضاحكة) أمّا إذا أبى إلّا أن يجيء  
 شبيهاً بأمه فالنفي يكون أحقّ به من سعد باشا!  
 ولكنّ كمال قال بلهجة خبير عليم:  
 - الإنجليز لا يهتمّهم الجمال يا أبلّا، إنهم يعجبون  
 كثيراً برأسي وأنفي...  
 فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة:  
 - يدعون صداقتك وهم يعيشون بك... ربّنا  
 يسلّط عليهم زبلن من جديد.  
 ورمت عائشة فهمي بنظرة رقيقة وهي تقول:  
 - كم يسرّ دعاؤك بعض الناس...  
 فابتسم فهمي مغمغماً:  
 - كيف أسرّ ولهم في بيتنا أصدقاء مغفلون؟  
 - يا خسارة تربيتك له...  
 - من الناس من لا تنفع فيه التربية.  
 فتساءل كمال محتجاً:  
 - ألم أزعّ جوليون أن يعيد سعد باشا؟  
 فقالت خديجة ضاحكة:  
 - في المَرَّة القادمة حلّفه برأسك الذي يعجب به.  
 شعر فهمي أكثر من مرّة بأنّ من حوله يسعون كلّما  
 بدت فرصة إلى استدراجه إلى الحديث والتسلية، بيد  
 أنّ ذلك لم يجد شيئاً في التخفيف من الإحساس  
 بالغرابة الذي غشيه طوال الوقت، هو إحساس كثيراً ما  
 يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغرابة أو الوحدة  
 رغم زحمة المجلس، ينفرد بقلبه وحزنه وحامسه بين  
 أناس لا هين ضاحكين، حتّى نفي سعد يتخذون منه  
 دعاية إذا لزم الأمر... إختلس منهم النظرات تباعاً  
 فوجدهم راضين، عائشة... هائلة وإن تكن تعبت  
 قليلاً بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكلّ شيء حتّى  
 بتعبها، خديجة... متوتّبة ضاحكة، ياسين... صحّة  
 وعافية وغبطة، ممّن من هؤلاء يكثرث لحوادث هذه  
 الأيام! من منهم يهّمه بقي سعد أم نفي، جلا  
 الإنجليز أم مكثوا! إنّه غريب، أو غريب على الأقلّ  
 بين هؤلاء. ومع أنّ هذا الإحساس كان يلقي منه عادة

الدنيا.

فقال ياسين وهو يهز رأسه:

- اتهمني بابا ظلمًا بأنني قطعت ما بينها.

- ألا يفرق الطلاق بين أعز الأصدقاء؟!

ياسين بأسًا:

- إلّا أصدقاء أبيك!

عائشة بفخار:

- من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا؟ والله ما في

الدنيا كلُّها نظير له...

ثم وهي تنتهد:

- كلِّما تصوَّرت ما وقع له أمس شاب شعر

رأسي...

أحيرًا ضاقت خديجة بوجوم فهمي فعزمت على أن

تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت - فيها رأت -

الطرق غير المباشرة، فالتفت إليه متسائلة:

- أرايت يا أخي كيف أن ربنا أكرمك يوم لم يأذن

بتحقيق رغبتك نحو... مريم؟!

نظر فهمي إليها بين الدهشة والحياء، سرعان ما

تركزت فيه الأبصار حتى كمال تطلَّع إليه باهتمام، وساد

صمت نَم عمقه عن شعور مكبوت طال في الصدر

تجاهله أو إخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجرأة

فتطلَّعوا إلى الشاب في صمت المنتظر للجواب كأنما هو

نفسه الذي طرح السؤال، غير أن ياسين رأى أن ينهي

الصمت قبل أن يستفحل فيبعث على الألم فقال

متظاهراً بالسرور:

- أصل أخيك وليّ والله يحب أوليائه...

وكان فهمي يكابد حرجًا وحياء فقال باقتضاب:

- هذه مسألة قديمة عفاها النسيان...

فقالت عائشة بلهجة المعتذر:

- لم يكن سي فهمي وحده الذي خدع بها، كلُّنا

خدعنا بها...

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها - بأقصى ما في

وسعها - تهمة الغفلة:

- على أيّ حال أنا لم أقتنع لحظة واحدة فيما مضى،

حتى مع اعتقادي ببراءتها، بأنّها جديرة به...

فعاد فهمي يقول متظاهراً بالاستهانة:

- هذه مسألة قديمة عفاها النسيان، إنجليزي...

مصري... سيّان، دعونا من هذا كله...

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير في «مسألة»

مريم... مريم؟!... لم يكن ينظر إليها فيما مضى -

إن مرّت في مجال بصره - إلّا عابراً، ثمّ زاده زهدًا فيها

تعلّق فهمي بها، حتى ذاعت فضيحتها في الأسرة...

هناك ثار اهتمامه، تساءل طويلاً أيّ فتاة هي؟ ودّ لو

ملأ عينيه منها، تمثّى لو كان سبر الفتاة التي استرعت

تشوّق «إنجليزي»... إنجليزيّ جاء الحيّ مقاتلاً لا

مغازلاً، لم يبد سخطه عليها إلّا مجارة للحديث كلّما

تناولها أمّا في الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود

«مفضوحة» جريئة مثلها على كُتب منه فلا يفصله عنها

إلّا جدار، شاع في صدره العريض المكتنز ذاك الطرب

البهيميّ الذي يدعوه إلى الصيد وإن وقف - احترامًا

لحزن فهمي الذي يحبه - عند حدّ الشعور واللذة

السلبية المجردة، لم يعد في الحيّ من يستثير اهتمامه

كمريم.

- أن أوّان الذهاب.

قالت خديجة ذلك وهي تنهض على حين ترامى

إليهم صوت إبراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من

الردهة الخارجية. قام الجميع، من يتمطى ومن يحبك

ملابسه، إلّا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلَّع إلى باب

الصالة بحزن وقلب خافق...

٦٧

جلس السيّد أحمد إلى مكتبه، مكبًا على دفاتره،

يزاول عمله اليوميّ الذي يتناسى به - ولو إلى حين -

هوموم الشخصية والهجوم العامّة التي تنطّير بها الأنباء

الدامية. غدا يجب الدكان حبه مجالس الأنس والطرب

لأنّه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر، إلّا

أنّ جوّ الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح

وغير ذلك من شئون الحياة العادية، حياة كلّ يوم، فلا

تخلو من أن تبعث في نفسه شيئًا من الثقة الموحية

بإمكان عودة كلّ شيء إلى أصله، إلى حالته الأولى من

بين الورا والأمام كأنه راكب جملاً، فبال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتماً «الكريسي على يمينك، تفضل بالجلوس» فأسند الشيخ متوئلي عصاه إلى المكتب وجلس على الكريسي ثم اعتمد يديه على ركبتيه وهو يقول:

- الله يحفظك ويصونك...

فقال السيد من قلبه:

- ما أطيب دعاءك وما أحوجني إليه!

ثم ملتفتاً صوب جميل الحمزاوي الذي كان يزن أرزاً لزبون:

- لا تنس أن تهني لفة سيدنا الشيخ...

فجاء صوت جميل الحمزاوي قائلاً:

- من ذا الذي ينسى سيدنا الشيخ!

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء في هيمنة لم يسمع منها إلا وسوسة متقطعة، ثم عاد إلى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح:

- أبدأ بالصلاة على نور الهدى.

فقال السيد بحرارة:

- عليه أزكى الصلاة والسلام...

- وأثني بالترحم على أبيك طيب الذكر.

- رحمه الله رحمة واسعة.

- ثم أسأل الله أن يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذريتك.

- آمين.

متنبهاً:

- وأدعوه أن يعيد إلينا أفندينا عباس ومحمد فريد

وسعد زغلول...

- اللهم استجب.

- وأن يخرب بيت الإنجليز بما أثموا وبما

يأثمون...

- سبحان المنتقم الجبار.

عند ذلك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم

قال:

- أما بعد فقد رأيتك في منامي تلوح بيديك فيما

الاستقرار والسلام. السلام؟ أين ذهب ومتى يأذن بالعودة؟!... حتى في هذا الدكان تجري أحاديث الدماء همساً مفاجئاً، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فيما تالو ألسنتهم أن تردّد الأنباء وتندب الأحداث، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح أسيوط والجناسات التي تشيع فيها النعوش بالعشرات والشباب الذي انتزع من العدو مدفعاً رشاشاً أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنية فانغrust في جسمه عشرات المقذوفات، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القاني تفرغ أذنيه بين حين وآخر في المكان الذي يلوذ به ناشداً النسيان. ما أتعس الحياة في ظل الموت، هلاً عجّلت الثورة بتحقيق غايتها من قبل أن يمتدّ أذاها إليه أو إلى أحد من ذويه!... إنه لا يخلج بمال ولا يضرّ بعاطفة أما بذل الحياة فأمر آخر، أيّ عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء! لم تعد الثورة «فرجة» حماسية، إنها تهدّد أمنه في الذهاب والإياب، وتتوعد ابنه «العاصي». فترحماسه لها، هي دون غايتها، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة أو دماء، أو زعر، يهتف مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلّقاً بالحياة فمكث وحده في المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف أغصانها، لن يوهن شيء وإن جلّ من حبه للحياة، فلتبق له إلى آخر العمر، وليؤمن فهمي إيمانه لتبقى له حياته إلى آخر العمر كذلك، فهمي العاق الذي رمى بنفسه إلى التيار بلا حزام نجاة...

- هل السيد أحمد موجود؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقذوف آدمي رفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متوئلي عبد الصمد يتوسط المكان رامشاً بعينيه الملتهيتين مدقّقاً النظر - عبثاً - صوب المكتب فهشّ قلبه وابتسمت أساريره ثم هتف بالقادم:

- تفضل يا شيخ متوئلي، حلّت البركة...

فلاح الاطمئنان في وجه الشيخ وتقدّم يهتّز أعلاه ما

فتحت عينيَّ حتَّى صَحَّ عزمي على زيارتك.

فابتسم السيّد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:

- لا أعجب لذلك فإني في مسيس الحاجة إلى بركتك، زادك الله بركة على بركة ..

فمال وجه الشيخ نحو السيّد في عطف وتساءل:

- أحقّ ما بلغني عن حادث بوابة الفتوح؟

فأجاب السيّد مبتسماً:

- نعم ... من أبلغك يا ترى؟

- كنت ماراً بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفني وقال لي

«ألم يبلغك ما فعل الإنجليز بحبيبك السيّد أحمد وبني؟»

فاستوضحته منزعاً فقصّ عليّ العجب العجائب ...

قصّ عليه السيّد الحادث بتفاصيله، لم يكن يملّ

ترديده، ولعلّه قصّه في الأيام القلائل الأخيرة عشرات

المرّات.

وأصغى الشيخ وهو يتلو همساً آية الكرسيّ: أفزعت

يا بنيّ؟ كيف كان فزعك ... خبّرني ... لا حول

ولا قوّة إلا بالله ... ولكن هل قعت بالسلامة؟ ...

أنسيت أنّ الفزع لا يمضي إلى حال سبيله؟ ... صليت

طويلاً وسألت الله النجاة! هذا جميل ولكن يلزمك

حجاب ...

- كيف لا! ... يزيدنا بركة يا شيخ متوليّ ...

والأولاد وأمّهم، ألم يدركهم الفزع؟

- طبعاً ... قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة

والإرهاب، الحجاب ... الحجاب ... وفيه

الشفاء ...

- أنت الخير والبركة يا شيخ متوليّ.. فقد نجّاني الله

من شرّ كبير، ولكن ثمة شرّ لا يزال يتهدّدني ويقصّر

مضجعي.

مال وجه الشيخ نحو السيّد في عطف مرّة أخرى

وتساءل:

- ماذا بك يا بنيّ عفا الله عنك؟

فرنا السيّد إليه بطرف واجم وغمغم في ضجر:

- ابني فهمي ...

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلاً أو منزعاً ثمّ

قال برجاء:

- محفوظ بإذن الرحمن ...

فهزّ السيّد رأسه بأثني وقال:

- عقّني لأوّل مرّة والأمر لله ...

فبسط الشيخ متوليّ ذراعيه أمامه كأنما يتقيّ بهما

البلاء وهتف:

- معاذ الله، فهمي ابني، وأنا أعلم علم اليقين أنّه

طبع على البرّ.

فقال السيّد أحمد متسخطاً:

- يأيّ حضرته إلّا أن يفعل كما يفعل الشبّان في هذه

الأيّام الدامية ...

فقال الشيخ في دهش واستنكار:

- أنت أب حازم ما في ذلك شكّ، ما كنت أتصوّر

أنّ ابناً من أبنائك يجرؤ على أن يرّد لك أمراً ...

حزّ هذا القول في قلبه حتّى آدماه وضاق به صدره،

ثمّ وجد من نفسه نزوعاً إلى التهوين من عصيان ابنه

ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام

نفسه معاً فقال:

- لم يجرؤ على هذا صراحة طبعاً ولكنّي دعوته إلى

أن يحلف على المصحف بأنّ لا يشترك في أيّ عمل من

أعمال الثورة فبكي، بكى من دون أن يجسر على قول

لا، ما عسى أن أصنع؟ لا أستطيع أن أحبسه في البيت

ولا يسعني أن أراقبه في المدرسة، وأخاف أن يكون تيّار

هذه الأيّام أقوى من أن يقاومه شابّ مثله، ماذا

أصنع؟ ... أأهّده بالضرب؟ ... أضربه؟ ... لكن

ما عسى أن يجدي التهديد مع شخص لا يبالي تعريض

نفسه للموت!

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق:

- وهل ألقى بنفسه في المظاهرات؟

فقال السيّد وهو يهزّ منكبيه العريضين:

- كلّاً ولكنّه يوزّع المنشورات، لمّا ضيّقت عليه

زعم أنّه يكتفي بالتوزيع على خاصّة أصدقائه.

- ما له ولهذه الأعمال! ... إنّه الوديع ابن الوديع

ولهذه الأعمال رجال من صنف آخر، ألم يعرف أنّ

الإنجليز وحوش لا تتطرّق الرحمة إلى قلوبهم

الغليظة؟ ... وإنّهم يتغلّدون صباح مساء بدماء



صغارها، بالأمس قال ابني فؤاد لأُمّه إنّه ودّ لو يشترك في مظاهرة!

فقال السيّد بقلق:

- يعملها الصغار ويقع فيها الكبار!... ابنك فؤاد صديق ابني كمال وكلاهما في مدرسة واحدة، ألا تحدّثه نفسه... ألا تحدّثهما نفسيهما مرّة بأن يسيرا في مظاهرة!... هه... ما من عجيبة تعدّ الآن عجيبة!...

فقال الحمزاوي وقد ندم على ما فرط منه:

- ليس إلى هذا الحدّ يا سي السيّد، على أيّ أدبته بلا رحمة على غمّيّاته الساذجة، إنّ سي كمال لا يخرج إلّا مصحوبًا بأمّ حنفي حفظه الله ورعا...

ساد الصمت فلم يعد يسمع في الدكان إلّا خشخشة الورقة التي يلفّ فيها الحمزاوي هديّة الشيخ متولّي عبد الصمد، ثمّ تنهّد الشيخ وقال:

- فهمي ولد عاقل، لا ينبغي أن يمتكّن الإنجليز من نفسه العزيزة، الإنجليز... حسبي الله... ألم تسمع بما فعلوا في العزيزة والبدرشين؟...

كان السيّد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة في التّساؤل، إلّا أنّه لم يتوقّع جديدًا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام، فاكتمى بأن يرفع حاجبيه متظاهرًا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

- كنت أوّل أمس في زيارة الحسيب النسيب شدّاد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعبّاسيّة، دعاني إلى الغداء والعشاء فأتمخّفته بأحجبة له ولآل بيته، وهناك حدّثني بحديث العزيزة والبدرشين...

سكت الشيخ قليلاً فتساءل السيّد أحد:

- تاجر الأقطان المعروف؟

- شدّاد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن، لعلّك عرفت ابنه عبد الحميد بك شدّاد فقد كان يومًا على صلة وثيقة بالسيّد محمّد عفت؟...

فقال السيّد ببطء ليملي لنفسه في التذكير:

- أذكر أنّي رأيته مرّة في مجلس السيّد محمّد عفت قبل نشوب الحرب، ثمّ سمعت عن إبعاده عن القطر عقب عزل أفندينا، أما من جديد عنه...؟

المصريّين المساكين؟... كلّهم بالحنسي، عظه، بين له النور من الظلام، قل له إنّك أبوه وإنّك تحبّه وتحاف عليه، أمّا أنا فساأعمل من ناحيتي على إعداد حجاب من نوع خاصّ وأدعوه في صلاتي وخاصّة صلاة الفجر، والله المستعان من قبل ومن بعد...

قال السيّد بحزن:

- إنّ أنباء القتل تتواتر كلّ ساعة معلنة أي التحذير لمن يعتبر فما الذي أصاب عقله؟ لقد ضاع ابن الفولي اللبّان في غمضة عين فشهد مأتمه معي وعزّي والده المسكين، كان الشابّ يوزّع سلاطين اللبن الزبادي فصادف في طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعي، وما هي إلّا ساعة أو نحوها حتّى خرّ صريعًا في ساحة الأزهر، لا حول ولا قوّة إلّا بالله... إنّنا لله وإنّا إليه راجعون، لمّا تأخّر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى إلى زبائنه يسأل عنه، قال له بعضهم إنّهم جاءهم بالزبادي وذهب وقال آخرون إنّهم لم يمسّ عليهم كعادته، حتّى بلغ حروشًا بائع الكنافة فوجد عنده الصبيّة وما تبقي من السلاطين التي لم توزّع وأخبره الرجل بأنّه تركها عنده واشترك في مظاهرة المساء، فجئن جنون المسكين وقصد من توه قسم الجماليّة فوجّهوه إلى قصر العيني وهناك عثر على ابنه في المشرحة، لقد علم بالقصّة بحذافيرها كما قصّها علينا الفولي ونحن في بيته نعزيه، علم كيف فقد الشابّ وكأنّ لم يوجد ولمس حزن أبيه المبرّح وسمع صوات أهله، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الإنجليز، لو كان حجرًا لعقل ولكّنه خير أبنائي فلله الحمد والشكر...

فقال الشيخ متولّي بصوت أسيف:

- أعرف ذلك الشابّ المسكين، إنّ أكبر أبناء الفولي ليس كذلك؟... كان جدّه مكاريًا وكنت أكثرّي حمارة للذهاب إلى سيّدي أبي السعود، إنّ للفولي أربعة أولاد ولكنّ الفقيد كان أحبّهم إلى قلبه.

هنا اشترك جميل الحمزاوي لأوّل مرّة في الحديث قائلاً:

- إيماننا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتّى

يثلم... أين رحمة الله؟... أين انتقامه؟...  
الطوفان... نوح... مصطفى كامل. تصوّر...!  
كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد!  
أيّ ذنب جنت!... وهو بأيّ وجه؟...!

ضرب الشيخ بيده ثلاثاً على ركبتيه ثم عاد إلى  
الحديث وقد تهّدج صوته فصار بالنواح أشبه، قال:  
- وأضرمو النار في البلدتين مستعنيين بما على  
أسقف الدور من حطب وقشّ وبما صبوا عليها من  
بترول، استيقظت القرى في فزع رهيب وفرّ أهلوها  
عن بيوتهم كالمجانين، وعلا الصراخ والأنين، وامتدّت  
ألسنّة اللهب في كلّ مكان حتّى استحالت البلدتان  
شعلة من النيران...!

هتف السيّد بلا وعي:

- يا ربّ السماوات والأرض!

فمضى الشيخ قائلاً:

- وضرب الجنود نطاقاً حول البلدتين المشتعلتين من  
بعيد يترصّون بالأهالي البؤساء الذين انطلقوا هائمين  
على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلاب والققط يرومون  
سبيلاً للنجاة من النار، فما إن بلغوا مواقف الجنود حتّى  
انهال هؤلاء على الذكور ضرباً وركلاً، ثمّ حجزوا  
النساء ليسلبوا حليهنّ ويهتكوا أعراضهنّ، فإذا قاومت  
إحداهنّ قتلت، وإذا نذت عن زوج أو أب أو أخ  
حركة دفاع رمي بالرصاص...  
ثمّ التفت الشيخ متولّي إلى السيّد الذاهل وضرب  
كفّاً على كفّ وهو يهتف:

- وساقوا بقيّة الضحايا إلى معسكر قريب وهناك  
أجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمّن اعترافهم  
بجرائم لم يرتكبوها وإقراراً بأنّ ما أنزله الإنجليز بهم  
جزاء حقّ على ما فعلوا، هذا ما حصل يا سيّد أحمد  
للعزيّة والبدرشين، هذا مثل من أمثلة التنكيل التي  
نسأها بلا رحمة ولا شفقة، اللّهمّ فاشهد...!

وساد صمت كثيب اليمّ خلا فيه كلّ إلى أفكاره  
وتخيّلاته حتّى قطعه جميل الحمزاوي وهو يهتف متأوّهاً:

- ربّنا موجود...!

فهتف السيّد مؤمّناً على قوله:

فقال الشيخ متولّي بلهجة سريعة عابرة كأنّما يضع  
كلامه بين قوسين ليعود إلى حديثه الأوّل:

- لا يزال مبعداً عن البلاد، وهو يقيم في بلاد  
فرنسا ومعه زوجه وأولاده، لشدّ ما يخاف شدّاد بك أن  
يموت قبل أن يرى ابنه في هذه الدنيا...!

وسكت مرّة أخرى، ثمّ مضى يهزّ رأسه يمنة ويسرة  
ويقول بصوت منغوم كأنّما يشدّ مطلع توشيح نبويّ:  
- بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام  
حاصر البلدتين بضغّ مئآت من الجنود البريطانيين  
مدجّجين بالسلاح...!

انتبه السيّد انتباهة قاسية... حاصروا البلدتين  
والناس نيام؟... أليس أولئك المحاصرون من جنس  
هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت؟... بدعوا  
بالاعتداء عليّ فأنيّ خطوة تالية يضمرون؟...!

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنّما إنشاده ينوّع من  
الإيقاع ثمّ استطرد قائلاً:

- واقتحموا على العمدتين داريهما فأمرهما بتسليم  
السلاح ثمّ مرقوا إلى الحريم فنهبوا الحلّى وأهانوا النساء  
وجرّوهنّ من شعورهنّ إلى الخارج وهنّ يولولن  
ويستغثنّ وما من مغيث، عطفك اللّهمّ على  
المستضعفين من عبادك...!

دار العمدتين!... العمدّة شخصيّة حكوميّة أليس  
كذلك؟... لست عمدّة ولا داري بدار عمديّة، ما  
أنا إلّا رجل كسائر الناس، ما عسى أن يصنعوا  
بأمثالنا. تصوّر أمانة مجرورة من شعرها، أيقضى  
عليّ بأنّ أتمنّى الجنون!... الجنون؟...!

واصل الشيخ حديثه وهو يهزّ رأسه قائلاً:

- وأجبروا العمدتين على أن يدلّوهما على بيوت  
مشايخ البلدتين وأعيانها ثمّ اقتحموا البيوت محطّمين  
الأبواب، نهبوا كلّ ثمين، اعتدّوا على النساء اعتداء  
إجرامياً بعد أن قتلوا اللاتي حاولنّ الدفاع عن  
أنفسهنّ، وضربوا الرجال ضرباً مبرّحاً، ثمّ غادروهما  
بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم  
يثلم...!

ليذهب كلّ ثمين إلى الجحيم... «أو عرض لم

بنفسها. ها هي عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به أمومتها، كما استهلّت هي أمومتها بخديجة، هكذا تمتد الحياة التي انبثقت منها إلى غير نهاية، ومضت إلى الأب فزقت إليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة، مبالغة هذه المرة في حيائها وتهذيبها أن يستشف وراء صوتها رغبتها الحارة في الانطلاق إلى ابنتها غير أن السيّد تلقى الخبر في هدوء ثم أمرها بالذهاب دون إبطاء... راحت ترتدي ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزاي التي تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بإنجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات أحياناً، وعلم الأخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل. علت وجوههم ابتسامة وتبادلو نظرة متسائلة. عائشة أم! ليس ذلك غريباً؟ ما وجه الغرابة فيه. كانت نينة أصغر منها يوم ولدت خديجة. هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها؟ ابتسامتان. هذا نذير لي، عمّا قليل تلد بنت الكلب أيضاً... من تعني؟! زينب. آه لو سمعك بابا. عائشة أم، وأنا أب، وأنا خال وعمّ، ستكون أنت أيضاً خال وعمّ يا سي كمال، يجب أن أتخلّف اليوم عن المدرسة لأذهب إلى أبلأ عائشة. جميل جدّاً، استأذن بابا إن استطعت على المائدة... أووه. نحن في حاجة إلى مزيد من المواليد لنسدّ العجز الذي أوقعه الإنجليز بنا... لو تخلّفت عن المدرسة ما حدث شيء غير عاديّ، ثلاثة أرباع التلاميذ مضربون أكثر من شهر، قل هذا لبابا وسيقتنع حتّى بحجّتك فيضربك بطبق الفول في وجهك. أووه. مولود جديد، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدّاً ونينة جدّة ونحن أخوالاً. شيء خطير، كم مولوداً يا ترى يرى نور الدنيا في هذه اللحظة؟... وكم إنساناً يغيب عنه هذا النور في هذه اللحظة؟... يجب أن نبليج جدّي. أستطيع أن أذهب إلى الحرنفش لإبلاغها إذا تخلّفت عن المدرسة! قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك، قل لبابا وسيرحب بفكرتك. أووه. لعلّ عائشة تتأمّل الآن. مسكينة المحبوبة، إنّ الطلق لا يلين للشعر الذهبي والأعين الزرق ربّنا يقيّمها بالسلامة، عند ذاك نشرب المغات

- نعم! (ومشيراً إلى الجهات الأربع) في كلّ مكان...

وخاطب الشيخ متوتري السيّد قائلاً:

- قل لفهمي إنّ الشيخ متوتري ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلّم إلى الله ربّك فهو القادر وحده على إهلاك الإنجليز كما أهلك من قبلهم يمين شقروا عصا طاعته...

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيّد إلى جميل الحمزاوي فجاءه بالهدية ووضعها في يده ثم ساعده على النهوض. صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول:

- «غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون»... صدق الله العظيم...

## ٦٨

عند الغلس، ونور الصباح يولد رويداً من ظلمة الفجر، طرقت خادم من السكّرية بيت السيّد فأخبرت أمينة بأنّ عائشة قد جاءها المخاض. كانت أمينة في حجرة القرن فعهدت بالعمل إلى أم حنفي وهرعت إلى باب السكّم. بدا على أم حنفي الاستياء ربّما لأوّل مرّة في تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت، أما كان يحقّ لها أن تشهد ولادة عائشة؟ لها كلّ الحق... كأمينة سواء بسواء، فتحت عائشة عينيها في حجرها، كلّ ابن في هذا البيت له أمان: أمينة وأمّ حنفي، كيف يحال بينها وبين ابنتها في هذه الساعة الرهيبة... هل تذكرين ولادتك؟... وربع الطمبكشيّة، كان المعلّم في الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل، وجدت في أم حسنيّة صديقة وقابلة معاً... ترى أين أمّ حسنيّة الآن؟... ألا زالت على قيد الحياة؟ ثمّ جاء حنفي بعد تأوهات الألم، ذهب بين تأوهات الألم أيضاً، وهو في المهّد، لو عاش لكان ابن عشرين الآن؟... سيّدي الصغيرة تتأمّل وأنا هنا أهنيّ الطعام. امتلا قلب أمينة بفرح موصول بإشفاق، هو الإحساس الذي خفق به قلبها أوّل مرّة يوم استقبلت التجربة

مع شخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فاستردّ كمال عينيه وهو يزدرد ريقه، عند ذلك لمح في داخل المنظرة إبراهيم شوكت وياسين وفهمي قبل أن يفرّ إلى الداخل، رقي في السلم وثبّا حتى انتهى إلى دور عائشة فدفع باباً موارباً ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفاً في الصلاة، ورأى باب حجرة النوم مغلقاً وقد تراسى من ورائه إلى سمعه أصوات تتحدث ميمز منها أمّه وحرّم المرحوم شوكت وصوتاً ثالثاً لا يعرفه، سلّم على زوج أخته ثمّ سأله وهو يتطلّع إليه بطرف باسم:

- أبلا عائشة ولدت؟

فرجع الرجل سبّابته إلى شفتيه محذراً وهو يقول:

- هس...؟

أدرك كمال أنّه لم يرحّب بالسؤال، بل أنّه لم يرحّب بمقدمه كسالف عاداته فخجل وعانى قلقاً لم يدبر له سبباً، وأراد أن يتقدّم من الباب المغلق ولكنّ صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر:

- لا...!

فتحوّل نحوه متسائلاً ولكنّ الرجل قال له في عجلة ولهجة:

- انزل يا شاطر والعب تحت...!

انكسرت نفس الغلام فنقهقر متثاقلاً بائئناً وقد عزّ عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس، ولما بلغ عتبة الصلاة صكّ أذنيه صوت غريب أت من الحجرة المغلقة، بدأ رفيعاً حاداً عالياً، ثمّ غلظ وترهلّ حتى بحّ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية، ثمّ غاب لحظة مقدارها تردّد النفس المقطوع، ثمّ بعث آهة عميقة شاكية، بدا له غريباً أوّل الأمر كأنّه لم يعرف صاحبه، ولكنّ نبرة من نبراته المعذبة تميّزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهويّة مصدره، صوت عائشة بلا ريب، أو هو عائشة مذابة منصهرة، ثمّ تأكّد من طئه عند تردّد الآهة العميقة الشاكية، فارتعشت جوارحه، وخيل إليه أنّه يراها تتلوّى على حال من الألم دعت إلى مخيلته بصورة القطة القديمة، وعطف رأسه صوب خليل فالفاه

ونشعل الشموع، ذكر أم أنثى؟... أيّها تفضّل؟... الذكر طبعاً، ربّما بدأت بأنثى كماها. لم لا تبدأ بذكر كأيها؟ هاها، عندما يحين معاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكّن من مشاهدة خروجه. أتريد أن تراه وهو يخرج؟ طبعاً. أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت!... كان كمال أشدّ الجميع تأثراً بالخبر، شغل به عقلاً وقلباً وخيالاً، لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنّه يحصى حركاته وسكناته ليبلغها أوّل فأول إلى أبيه لما كان في وسعه أن يقاوم الإغراء الذي يناديه للذهاب إلى السكّرية. ومكث في المدرسة جسداً بلا روح، هامت روحه في السكّرية تتساءل عن القادم الجديد الذي ترقّب مقدمه أشهراً وهو يمّني النفس بالاطّلاع على سرّه المكنون. شهد مرّة ولادة قطّة وهو دون السادسة إذ استرعت انتباهه بموائها الحادّ فهرع إليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوّى السّما وقد جمحظت عيناه، ثمّ رأى جسمها يتصدّع عن فلذة ملتبهة فتراجع متقرّزاً وهو يصرخ بأعلى صوته. طافت هذه الذكري بمخيلته وألحت عليه حتى عاوده تقزّه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب غير أنّه لم يستسلم للخوف، أبى أن يتصوّر أنّ ثمة علاقة بين القطة وعائشة إلّا ما يكون بين الحيوان والإنسان وهو- في إيمانه- أبعد ممّا بين الأرض والسماء، ولكن ماذا يحدث في السكّرية إذن؟... ماذا طراً على عائشة من غرائب الأمور؟... ثمة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب... ما كاد يغادر المدرسة عصرًا حتى اندفع يقطع الطريق عدواً إلى السكّرية.

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث، ومضى إلى باب الحريم فلاحته منه التفاتة إلى المنظرة فما يدري إلّا وعيناه تلقيان بعيني والده الذي جلس شابكاً راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمر في مكانه جامداً مغملقاً كأنما نؤمّ تنويمًا مغناطيسيًا، لم يطفرف ولم يد حراكاً، ركه شعور بالذنب لا يدري فلبث يترقّب انقباض العقاب عليه وبرودة الخوف تسري في أطرافه حتى اشتبك السيّد أحمد في حديث

ابني بدا اليوم خوفاً على غير عادته، على أنه لا ضرر  
ألبسة من مجيء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت  
خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب...

لم يعد السيد يطبق ما يلتزم به عادة من وقار وبرود  
أمام أبنائه فسألها في قلق غير خاف:

- ماذا بها؟... ألا أستطيع أن أراها؟...

فابتسمت المرأة وقالت:

- سترأها عما قريب وهي بخير وعافية، الحق على

ابني المجنون هو الذي أزعجكم بغير موجب...

كان وراء الصدر العريض القوي والوقار الحازم

المهيب قلب يتعذب أشد العذاب، كان وراء العينين

الواجمتين الرزيتين دمع متجمد... ماذا دهم

الصغيرة؟ الطبيب؟ لماذا تحول العجوز بيني وبينها؟!

ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة مني أنا، مني أنا خاصة،

حقيقة بأن تخفف من آلامها، زواج وزوج وألم، لم

تذق في بيتي مرارة الألم قط، العزيرة الجميلة الصغيرة

رحمتك اللهم، فسد طعم الحياة، إنه ليفسد لأهون

أذى يتهددهم، فهمي... أراه واجاً مثلكم... هل

أدرك معنى الألم؟... من أين له أن يعرف قلب الأم!

العجوز مطمئنة واثقة بما تقول، ابنها أزعجنا بغير

موجب، اللهم استجب، أنت أعلم بحالي بأن تنجيها

كما نجيتني من الإنجليز، قلبي لا يطيق هذا العذاب،

عند الله الرحمة، وهو قادر على حفظ أبنائي من كل

سوء، لا طعم للحياة بغير ذلك، لا طعم للسرور

والطرب واللهو إذا انغrust في جنبي شوكة حادة،

قلبي يدعو لهم بالسلامة، لأنه قلب أب، ولأنه لا

تطيب المسرات إلا للخلي، هل ألقى سمار الليل بقلب

سعيد؟... أحب إذا ضحكت أن تنطلق الضحكة

من أعماق قلبي صافية، القلب القلبي كالوتر المختل،

حسبي فهمي، إنه يلح علي كوجع الأسنان، ما أبغض

الألم، دنيا بلا ألم، لا شيء على الله بكثير، دنيا بلا ألم

ولو تكون قصيرة، دنيا تقر فيها عيني بهم جميعاً.

هنالك أضحك وأغني وأهو، يا أرحم الراحمين،

عائشة يا أرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوباً بالطبيب

يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم «يا لطيف يا رب»

فخيل إليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط

مثل راحة الرجل، لم يعد يملك من نفسه شيئاً فركض

إلى الخارج مفتحاً في البكاء، وعندما انتهى إلى باب

الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع

رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به

دون أن تنتبه إليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم

نادت سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعاً فقالت له

«الحمد لله يا سيدي»، لم ترد على ذلك شيئاً ولم تنتظر

حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت

إلى السلم فركبت فيه دون تردد، رجع إبراهيم إلى

المنظرة مهتل الوجه فلبث كمال وحده لا يدري ما

يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد إبراهيم يتبعه

السيد أحمد فياسين ثم فهمي فتتخى الغلام جانباً حتى

مرّوا ثم صعد في أعقابهم خافق القلب، وقابل خليل

الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له:

- الحمد لله على السلامة...

فغمغم خليل في وجوم:

- الحمد لله على كافة الأحوال!...

فسأله السيد باهتمام:

- مالك...؟

فقال بصوت منخفض:

- إني ذاهب لاستدعاء الطبيب...

فتساءل السيد قلقاً:

- المولد...؟

فأجابه وهو يهز رأسه سلباً:

- عائشة!... ليست على ما يرام، ساجيء

بالطبيب حالاً...

وذهب غلغلاً وراءه وجوماً وقلغاً واضحين، ثم

دعاهم إبراهيم شوكت إلى حجرة الاستقبال فمضوا

إليها صامتين. وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل

فسلمت وهي تبسم لتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ثم

جلست وهي تقول:

- قاست المسكينة طويلاً حتى أنهكت قواها، ولكنها

حال عارضة وستزول وشيئاً، إني واثقة بما أقول ولكن

فدخلوا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما، وعلم السيد بمقدمهما فقام وأتجه إلى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلاً وهو يمدّ البصر إلى الباب المغلق ثم عاد إلى مجلسه فجلس. قالت حرم المرحوم شوكت:

- لَتَعْلَمَنَّ صدق رأيي حالما يتكلم الطبيب...

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

- عنده العفو...

- الأعمار بيد الله، ولكنّي وجدت قلبها ضعيفاً، من المحتمل أن تموت الليلة، وإذا مرّت الليلة بسلام جازت الخطر المائل ولكنّي لا أظنّ أنّها تعمّر طويلاً، في تقديري أنّه لا يمكن أن يمتدّ بها العمر إلى ما بعد العشرين، ولكن من يعلم؟ الأعمار بيد الله وحده...

ولمّا ذهب الطبيب إلى طيّته التفت خليل نحو أمّه وعلى شفّته ابتسامة خفيفة تنمّ عن أسف وقال:

- كان في نيّتي أن أسمّيها نعيمة باسمك...

فقال المرأة وهي تلوّح بيدها مؤثّبة:

- الطبيب نفسه قال: إنّ الأعمار بيد الله أفنكون أنت أضعف إيماناً منه، سمّها نعيمة، يجب أن نسمّيها نعيمة إكراماً لي، وسيكون عمرها بإذن الله مديداً كعمر جدّتها!

كان السيد يحدث نفسه: دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب، بغير موجب!... يا له من أحمق. ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة:

- حقّاً الخوف يفقد الرجال حسن الرويّة، أما كان يجمل بك أن تفكّر قليلاً قبل أن تبادر إلى إحضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه؟!

لم يجب خليل، ولكنّه نظر فيمن حوله وقال بجذّة:

- لا يجوز أن تعلم عاتشة بما قال الطبيب...

٦٩

- ماذا في الطريق؟...

تساءل السيد أحمد وهو ينهض في عجلة من وراء مكتبه، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوي وبعض الزبائن. لم يكن طريق النحاسين طريقاً هادئاً. كان أبعد ما يكون عن الهدوء، صوته الجهير لا يخفت من الفجر إلى ما قبل الفجر، حناجر عالية متّافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة، يتحادثون وكأّتهم يخطبون، حتّى أخصّ الشئون تترامى إلى جوانبه وتطير حتّى مآذنه، إلى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حيناً وطققة الكارو حيناً آخر، لم

عمّا قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشكّ مهما تكن العواقب. إنّ قلبه يخفق خفقاناً سريعاً متواصلًا، فليصبر، لم يبق إلّا القليل. إنّ إيمانه بالله قويّ عميق لا يتزعزع فليسلمّ إليه أمره، سيخرج الطبيب طال مكثه أم قصر وعند ذاك يسأله عمّا وراءه، الطبيب؟... لم يفكّر في ذلك من قبل، طبيب عند نفساء؟... مع الرحم وجهًا لوجه، أليس كذلك؟ ولكنه طبيب!... ما الحيلة؟ المهمّ أنّ ربّنا يأخذ بيدها فلنساله السلامة، وجد السيد إلى قلقه حياة وامتعاضًا. واستمرّ الفحص زهاء ثلث ساعة ثمّ فتح الباب فنهض السيد ومضى من توّه إلى الصالة، وتبعه الأبناء حتّى تجمّعوا حول الطبيب. كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسمًا ثمّ قال:

- بخير وعافية...

ثمّ في شيء من الجذّة:

- جاءوا بي للوالدة ولكنّي وجدت أنّ التي في حاجة

إلى العناية حقّاً هي المولودة...

تنفّس السيد بارتياح لأوّل مرّة منذ حوالي الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة:

- أأطمئنّ إذن على عهدتك؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش:

- نعم، ولكن ألا تهتمّك حفيدتك؟!

فقال السيد باسمًا:

- لا عهد لي بعد بواجبات الجدّ...

وتساءل خليل:

- أليس ثمة أمل في حياتها؟

فقال الرجل وهو يزوي ما بين حاجبيه:

التي تألفت ارتجالاً ما بين النحاسين والصباغة وبيت القاضي هاتفة قلوبها لسعد، وسعد وسعد ثم سعد، في المآذن التي اعتل المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون، في العربات الكارو التي تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللفّ وهنّ يرقصن ويردّدن الأغاني الوطنية، لم يعد يرى إلا آدميين أو بالأحرى هاتفين، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد في كلّ مكان كأنّما الجوّ قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقّف مردّدة اسمه. وجرى نبأ فوق الرؤوس الحاشدة أنّ الإنجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهباً للرحيل إلى العباسية فاستمرّ الحماس وحست النشوات. لم ير السيّد أحمد منظراً كهذا من قبل فراح يقلّب عينين متألّقتين وفؤاده يخفق وثباً وباطنه يردّد مع النسوة الراقصات «يا حسين... حلة وإنشالت!» حتى أدنى جميل الحمزاوي رأسه من أذنه قائلاً:

- الدكاكين توزّع الشربات وترفع الأعلام...  
فقال له بحماس:

- اصنع كما يصنعون وأكثر، أربي همّتكم...!  
ثمّ بصوت متهذّب:

- علّق صورة سعد تحت البسملة...  
فنظر إليه جميل الحمزاوي كالمتردّد ثمّ قال محدّثاً:  
- هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج ألاّ يحسن بنا أن نزيّث حتى تستتبّ الأمور؟  
فقال السيّد باستهانة:

- مضى عهد الخوف والدماء إلى غير رجعة، ألا ترى أنّ المظاهرات تمرّ تحت أعين الإنجليز دون أن يتعرّضوا لها بسوء؟ علّق الصورة وتوكّل على الله.  
غار عهد الخوف والدماء، أليس كذلك؟ سعد حرّ طليق ولعلّه في طريقه الآن إلى أوروبا، لم يعد بيننا وبين الاستقلال إلاّ خطوة أو كلمة، مظاهرات الزغاريد بدلاً من مظاهرات الرصاص، الأحياء ممّا قوم سعداء، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين، رحمة الله على الشهداء، فهمي؟! نجا من خطر لم يقدره، والحمد لله والشكر لله، أجل نجا فهمي، ماذا تنتظر؟... صلّ

يكن طريقاً هادئاً بحال ولكن تعالت ضجّة فجائية وفدت من بعيد في بادئ الأمر كهدير الأمواج ثمّ غلظت واشتدّت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لُقّت الحيّ كلّ قريبه وبعيده، بدت غريبة شاذّة حتى في هذا الطريق الصاخب، ظلّها السيّد أحمد مظهرة ثائرة كما ينبغي لرجل عاش في تلك الأيام، ولكن جلبلت في طيّاتها زغاريد مبشرة بالأفراح، فمضى الرجل متسائلاً إلى الباب ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذي أقبل مندفعاً وهو يهتف بوجه ظفر منه البشر:

- أبلغك الخبر؟

فقال السيّد وعيناه تلمعان تفاؤلاً من قبل أن يسمع شيئاً:

- كلّ... ماذا وراءك؟

قال الرجل بحماس:

- سعد باشا أفرج عنه...

فما تمالك السيّد أن تساءل صائحاً:

- حقّاً؟!

فقال شيخ الحارة بيقين:

- أذاع اللنبي الساعة بياناً بهذه البشري...

في اللحظة التالية كانا يتعانقان، واشتدّ التأثير بالسيّد أحمد فاغرورت عيناه ثمّ قال وهو يضحك مداراة لتأثره:

- كان العهد به دائماً أن يذيع الإنذارات لا

البشريات فماذا غيّر ابن الهرمة؟!

فقال شيخ الحارة:

- سبحان الذي لا يتغيّر...

وصافح السيّد ثمّ غادر الدكان وهو يصيح «الله أكبر، الله أكبر، النصر للمؤمنين!».

وقف السيّد على عتبة الدكان مقلّباً عينيه في أنحاء الطريق بقلب ارتدّ إلى براءة الطفولة وبهجتها، طالع أثر الخبر السعيد في كلّ مكان... في الدكاكين التي سدّت مداخلها بأصحابها وزبائنهم وهم يتبادلون التهاني، في النوافذ التي تزاخت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، في المظاهرات

- إلى الله ربّك .  
 لَمَّا اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة  
 بيوم مليء بالهتاف، كان مساء سعيدًا، ثُمّت عن  
 سعاده الأعين والثغور والحركة والكلام حتّى أمانة نهل  
 قلبها من نخب السعادة المبدول مشاركة للأبناء  
 واستبشارًا بعودة السلام وفرحًا بالإفراج عن سعد:  
 - من المشربيّة رأيت ما لم ترّ عين من قبل، هل  
 قامت القيامة ونصب الميزان؟! وأولئك النسوة هل  
 جُنُنٌ؟! لا يزال صدى ترديدهنّ يرنّ في أذني «يا  
 حسين... حلة وانشالت» .  
 قال ياسين ضاحكًا وهو يبعث بشعر كمال:  
 - تحيّة شبيّعوها الإنجليز الراحلين كما يشيّع  
 الضيف الثقيل بكسر القلّة وراءه!...  
 نظر إليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت  
 أمانة تتساءل:  
 - أرضي الله عنا أخيرًا...؟  
 فأجابها ياسين قائلًا:  
 - بلا ريب (ثمّ غاطبًا فهمي) ماذا تظنّ؟  
 قال فهمي الذي بدا في فرح الأطفال:  
 - لو لم يسلم الإنجليز بمطالبتنا لما أفرجوا عن سعد،  
 سوف يسافر إلى أوربا ثمّ يعود بالاستقلال، هذا ما  
 يؤكّده الجميع، ومهما يكن من أمر سيبقى يوم ٧ إبريل  
 سنة ١٩١٩ رمزًا لانتصار الثورة.  
 فعاد ياسين يقول:  
 - يا له من يوم! اشترك الموظفون في المظاهرات  
 علانية، ما كنت أظنّ أنّ بي هذه القدرة العظيمة على  
 السير المتواصل والهتاف العالي!...  
 فضحك فهمي قائلًا:  
 - وددت لو رأيته وأنت تهتف متحمسًا، ياسين  
 يتظاهر ويتحمّس ويهتف!... يا له من منظر فريد!  
 يوم عجيب في الأيام حقًا، اكتسحه سيله الزاخر  
 فحمله بين أمواجه العاتية كورقة لا وزن لها حتّى طار  
 به كلّ مطار، لا يكاد يصدّق أنّه ثاب إلى رشده وأ أنّه  
 آوى إلى برج المراقبة الهادئ يشاهد من منظاره  
 الحوادث في هدوء وعدم اكتراث!... جعل يستحضر  
 الحال التي تلبّسته في المظاهرات على ضوء ملاحظة  
 فهمي حتّى قال بغرابة:  
 - الواحد ممّا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانًا  
 غريبًا فكأنّه يبعث شخصًا جديدًا...  
 سأله فهمي باهتمام:  
 - أكنت تشعر بحماس صادق؟  
 - هتفت لسعد حتّى يبحّ صوتي واغرورت عيني  
 مرّة أو مرّتين.  
 - كيف اشتركت في المظاهرة؟  
 - بلغنا نبأ الإفراج عن سعد ونحن في المدرسة  
 ففرحت فرحًا عظيمًا حقًا، أكنت تتوقّع غير هذا؟...  
 وإذا بالمدرّسين يقترحون الانضمام إلى المظاهرة الكبيرة  
 في الخارج فلم أجد من نفسي ميلًا إلى مجاراتهم  
 وفكرت في التسلّل إلى البيت، غير أنّي اضطررت إلى  
 السير معهم حتّى تسنح لي فرصة للزيغان، ماذا حصل  
 بعد ذلك! وجدت نفسي في بحر متلاطم من الناس  
 وجوّ مكهرب من الخسّاس فما ملكت أن ذهلت عن  
 نفسي واندجيت في التيار كأشدّ ما يكون المرء - صدّقني  
 في هذا - حماسًا وأملًا...!  
 فهزّ فهمي رأسه وهو يغمغم:  
 - شيء عجيب...  
 ضحك ياسين عاليًا ثمّ قال:  
 - أحسبني فاقد الوطنية؟! المسألة أنّي لا أحبّ  
 الزباط والعنف، ولا أجد حرجًا في التوفيق بين حبّ  
 الوطن وحبّ السلامة...  
 - وإذا شقّ التوفيق بينها...؟  
 فقال مبتسّمًا ولكن دون تردّد:  
 - قدّمت حبّ السلامة! نفسي أوّلًا... ألا يستطيع  
 الوطن أن يسعد إلّا بالتهام حياتي؟! يفتح الله، أنا لا  
 أفرط في حياتي ولكّني ساحب الوطن ما دمت «حيًا» .  
 قالت أمانة:  
 - هذا عين العقل (ثمّ متطلّعة إلى فهمي) هل عند  
 سيّدي رأي آخر...؟  
 قال فهمي بهدوء:  
 - كلّ طبّعا، إنّه عين العقل كما قلت... .



- كنت كلما بلغني نبأ أسيف تقطع قلبي حزناً وقلت  
لنفسى «يا ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته؟!»  
على أن رجلاً يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يحبه  
كذلك...

ثم متنبهة بصوت مسموع:  
- أسفى على الهالكين، كم أمّا تبكي الآن  
بحرارة؟... كم أمّا لم تزدها فرحة اليوم إلا حسرة  
على حسرة.

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه:  
- الأمّ الوطنية حقاً تزغرد لاستشهاد ابنها...  
فوضعت أصبعها في أذنيها وهتفت:

- اللهم إني أشهدك على ما يقول سيدي  
الصغير!... أمّ تزغرد لاستشهاد ابنها! أين؟! على  
هذه الأرض؟ ولأ تحت الأرض في عالم الشياطين!...  
فهقه فهمي عالياً ومضى يفكر ملياً، ثم قال وعيناه  
تلمعان باسمتين:

- نينة...! سأبوح لك بسرّ خطير أن له أن يذاع.  
لقد اشتركت في المظاهرات وقابلت الموت وجهاً  
لوجه...

سهمت إليه غير مصدّقة ثم قالت وعلى شفيتها  
ابتسامة باهتة:

- أنت؟!... محال...! إنك من لحمي ودمي  
وقلبك من قلبي، لست كالأخرين...  
فقال بيقين وهو يبتسم إليها:

- أقسم لك على ذلك بالله العظيم...  
اختفت الابتسامة واتسعت العينان في ذهول، ثم  
رددت بصرها بينه وبين ياسين الذي حدّده بدوره  
بنظرة متسائلة، ثم غمغمت وهي تزدد ريقها:

- ربّاه!... كيف أصدّق أذنّي!  
ثم بعد أن هزّت رأسها في حيرة أليمة:  
- أنت!...

كان يتوقّع انزعاجها ولكن ليس - بالنظر لمجيء  
اعترافه بعد زوال الخطر - إلى الحدّ الذي بدا عليها،  
فبادرها قائلاً:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، لا داعي الآن

ولم يرَ كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لا سيّما أنّه  
كان مقتنعاً بأنّه لعب في يومه دوراً خطيراً حقاً فقال:

- وأضرّبتنا نحن كذلك ولكنّ الناظر قال لنا: إنّنا ما  
زلنا صغاراً، وإنّنا إذا خرجنا من المدرسة داستنا  
الأقدام، ثمّ سمح لنا بالتظاهر في فناء المدرسة  
فتجمّعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عالياً: يحيا سعد) طويلاً  
جداً، ثمّ لم نعد إلى الفصول لأنّ المدرّسين كانوا قد  
غادروا المدرسة منضمّين إلى المتظاهرين في  
الخارج...!

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال:  
- ولكنّ أصدقاءك ذهبوا...!  
- في داهية...!

نذت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهي أبعد ما تكون  
عن حقيقة شعوره، لأنّ الحال تقتضيها من ناحية،  
ولأنّه أراد أن يداري بها هزيمته أمام سخرية ياسين من  
ناحية أخرى، أمّا قلبه فكان يكابد دهشة وغمزاً، لم  
ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة في المكان  
المهجور الذي كان يحتله المعسكر يقبّل عينيه في أرجائه  
في صمت أليم وعيناه مغرورتان. سوف يمضي وقت  
طويل قبل أن ينسى مجلس الشاي على طوار سبيل بين  
القصرين والإعجاب الذي كان يحظى به غناؤه،  
والمودة التي كان يلقاها من الجنود خاصّة جوليون،  
والصداقة التي ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلنون في  
اعتقاده على سائر البشر! قالت أمينة:

- سعد باشا رجل سعيد الحظّ، الدنيا كلّها تهتف  
باسمه، ولا أفندينا في زمانه... رجل مؤمن بلا ريب  
لأنّ الله لا ينصر إلّا المؤمنين. نصره على الإنجليز  
الذين غلبوا زبلن نفسه، أيّ فوز وراء هذا؟!...  
لقد ولد الرجل في ليلة القدر.

سألها فهمي بأسياً:  
- أنحبّته...؟

- أحبّه ما دمت تحبّه...  
بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكراً ثمّ قال:  
- لا يعني هذا شيئاً...!

فتنهّدت فيها يشبه الارتباك ثمّ قالت:

فقال بإصرار ونرفزة:

- صه... أنت لا تحب... أمك، ساعحك الله...

فضحك فهمي في شيء من الارتباك. قال كمال لأمه وهو يتسهم بمكر:

- أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار؟ رأيته وأنا عائد في الطريق المقفر فنبه عليّ بالأخبر أحدًا بآتي رأيته...

ثم نظر إلى فهمي وسأله باهتمام وتشوق:

- قصّ علينا يا سي فهمي ما لقيت في المظاهرات، كيف كانت تقع المعارك؟ وكيف يصرخ القتلى؟ ألم تطلق النار قط؟...

فدخل ياسين في الحديث قائلاً للأم:

- ذاك تاريخ مضى وانتهى، اشكري الله على نجاته، هذا أولى بك من الانزعاج...

سألته بجفاء:

- أكنت تعلم بذلك...؟

فبادرها قائلاً:

- لا وحياة تربة أمي (ثم مستدركاً) وديني وأيماني وربّي...

ثم نهض من مجلسه، منتقلاً إلى جوارها فوضع يده على منكبيها وقال برقة:

- أنطمئين حين كان ينبغي الانزعاج وتنزعجين حين ينبغي الاطمئنان! وحدي الله، زال الخطر وعاد السلام، ها هو فهمي بين يديك... (وضاحكاً) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولاً وعرضاً، ليلاً ونهاراً، بلا خوف أو قلق...

وقال فهمي جاداً:

- نينة، رجائي إليك ألا تكذري صفونا بحزن لا موجب له...

تهدت... فتحت فاهها لتتكلم ولكنها حرّكت شفتيها دون أن تنبس، ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه، ثم نكست وجهها لتخفي عينيها

المغرورتين...

بات فهمي تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيه مهما كلفه الأمر، وفي صباح اليوم التالي صمّ على تنفيذ عزمه دون تردد، ومع أنّه لم يضمّر لآبيه - طول فترة العصيان - أي إحساس بالغضب أو التحدي فإنّ ضميره كابد شعوراً بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء. حقاً لم يتحدّاه بلسانه ولكنّه خالف إرادته بالفعل، بل خالفها مراراً وتكراراً، فضلاً عن امتناعه عن القسم يوم دعاه إليه في حجرته وإعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم إرادة الرجل، كلّ أولئك أحله - على حسن نيته - موقفاً عاقاً شريراً لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله، ولم يكن سعى إلى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلامه، لأنّه قدّر أن يدعو السيّد إلى القسم تكفيراً عما بدر منه فيضطرّ مرّة أخرى إلى الامتناع مؤكّداً عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه. الحال اليوم غيرها بالأمس، انتشى قلبه بالسور والظفر، الوطن كلّهُ ثمل بخمر السعادة والفوز، فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظنّ ولو لحظة واحدة، الاسترضاء، فالعفو الذي يهفو إليه، ثم السعادة الحقّة التي لا تشوبها شائبة، دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوي سجادة الصلاة مغمغماً بالدعاء، لمح الرجل بلا ريب ولكنّه تجاهله فمضى إلى الكنبّة دون أن يلتفت صوبه وجلس. عند ذاك تراءى فهمي بموقفه عند الباب ملفوفاً بالارتباك والحياء فحدّجه بنظرة جافّة مستنكرة كأنما تتساءل «من هذا الواقف وماذا جاء به؟!» فتغلّب فهمي على ارتبائه وتقدّم من مجلس أبيه في خطى خفيفة حتّى انحنى على يده فتناولها فلتّمها باحترام لا حدّ له، وصمت ملياً ثمّ قال بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير يا بابا.

واصل التحديق فيه صامتاً كأنّه لم يسمع نحيته حتّى غصّ الشابّ بصره ارتباكاً وغمغم في نبرات نمت عن اليأس:

- إني آسف...

- صمت وإصرار على الصمت...  
- أسف جدًا، لم أذق طعم السكينة منذ...  
وجد أن الكلام كاد يستدرجه إلى ذكر ما ودَّ من  
كلِّ قلبه أن يتحاشاه فأمسك، وما يدري إلَّا والسيد  
يسأله بجفاء وتبرُّم:  
- وماذا تريد؟...  
رَحَّب بإقلاقه عن الصمت أيما ترحيب فتنهَّد  
بارتياع كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء:  
- أريد أن تكون راضيًا عني...  
قال السيد بضجر:  
- غُرَّ من وجهي...  
فقال فهمي وهو يشعر بقبضة اليأس تترأخى قليلًا  
عن عنقه:  
- عندما أنال رضاك...  
تساءل السيد متحوِّلًا فجأة إلى التهكُّم:  
- رضاي!... لم لا؟... هل فعلت لا سمح الله  
ما يستوجب السخط؟!  
رَحَّب بالتهكُّم أضعاف ترحيبه بالإقلاق عن  
الصمت، التهكُّم عند أبيه أوَّل خطوة نحو الصفح،  
غضبه الحقيقي صفع أو لكم أو ركل أو سبَّ أو كلَّ  
أولئك جميعًا، التهكُّم أوَّل بشير بالتحوُّل، انتهز  
الفرصة وتكلَّم، تكلَّم كما ينبغي لرجل قد يعمل في  
المحاماة غدًا أو بعد غد، هذه فرصتك! وتكلَّم،  
الاستجابة لنداء الوطن لا تعدُّ عصيًّا لإرادة  
حضرتك، لم أفعل شيئًا يحسب بين الأعمال الوطنيَّة  
حقًا، توزيع منشورات على الأصدقاء... وما توزيع  
المنشورات على الأصدقاء؟ أين أنا ممَّن بذلوا الحياة  
رخيصة؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على  
حياتي لا لأنك تستنكر حقًّا الواجبات الوطنيَّة، ففمت  
بشيء من الواجب وأنا مطمئن إلى آتي - في الواقع - لا  
أخالف لك إرادة... إلخ... إلخ...  
- علم الله أنه لم يخطر بباله قط أن أعصي لك أمرًا.  
قال السيد بحدَّة:  
- كلام فارغ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنَّه لم يعد ثمة  
داع إلى العصيان، لم لم تطلب رضاي قبل اليوم...؟
- قال فهمي بحزن:  
- كانت الدنيا في دم وكرب وكنت من الحزن في  
شغل شاغل...  
- شغلك عن طلب رضاي؟!  
قال بحرارة:  
- شغلني عن نفسي لا عن طلب رضاك...  
ثمَّ بصوت منخفض:  
- لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك...  
قَطَّب السيد، لا غضبًا كما تظاهر، ولكن ليخفي  
الأثر اللطيف الذي بعثه كلام الشاب في نفسه، هكذا  
يكون الكلام وإلَّا فلا، يجيد صناعة الكلام حقًّا، هذه  
هي البلاغة أليس كذلك؟ سأعيد أقواله على مسامع  
الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره في نفوسهم، ترى ما  
عسى أن يقولوا؟ الولد سرَّ أبيه... هذا ما ينبغي أن  
يقال، قديمًا قيل لي إنني لو أتممت مراحل التعليم  
لكنت أبلغ المحامين، إنِّي أبلغ الناس بغير التعليم  
والمحاماة، الحديث اليومي كالقانون سواء بسواء في  
الكشف عن موهبة البلاغة، كم من محامٍ أو من  
موظف كبير ينكمش في المجلس أمامي كالعصفور! ولا  
فهمي نفسه بمستطيع أن يسدَّ مكاني يومًا ما، سيقولون  
لي وهم يضحكون حقًّا الولد سرَّ أبيه، امتناعه عن  
القسم لا يزال يحزُّ في نفسي، لكن أليس من دواعي  
الفخر لي أنَّه اشترك في الثورة ولو من بعيد؟ ليته  
اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر  
حتى اليوم، سأقول من الآن فصاعدًا إنَّه خاض غمار  
الثورة، أنظِّنون أنَّه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان  
يؤكِّد لي؟ لقد رمى ابن الكلب بنفسه في التيار  
الدامي، يا سيد أحمد ينبغي أن تشهد لابنك بالوطنيَّة  
والشجاعة... لم نشأ أن نقول لك هذا في إبان الخطر  
أمَّا وقد استقرَّ السلام فلا حرج من قوله... أتتكبر  
أنت شعورك الوطني؟... ألم يثن عليك جامعو  
التبرعات من مندوبي الوفد... والله لو كنت شابًّا  
لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنته عصاني! عصي لسانك  
وأطاع قلبك! الآن ما عسى أن أفعل؟ يريد قلبي أن  
يبه العفو ولكني أخاف أن يستهين بمخالفتي!

- وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت إرادتي، أحسبت أن الخطبة الفارغة التي صَبَّحتني بها على غيار الريق يمكن أن تؤثر في؟  
هم فهمي بالكلام ولكن أمه دخلت في تلك اللحظة وهي تقول:  
- الفطور جاهز يا سيدي.

وقد دهشت لوجود فهمي على غير انتظار فرددت عينيها بينهما، وتلکأت قليلاً لعلها تسمع شيئاً مما يدور ولكنّها رأت في الصمت - الذي خافت أن يكون عجيباً باعته - ما دعاها إلى مغادرة الحجرة على عجل. نهض السيد للانتقال إلى حجرة المائدة فتنحى فهمي جانباً وقد علاه حزن شديد لم يتخف أثره عن عيني الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيراً بصوت سلمي:  
- أريد مستقبلاً ألا تصرّ على حماقتك وأنت نحاطبي..

وسار فتبعه الشاب ممثناً باسم الأسارير، ثم سمعه يقول متهمكاً وهما يقطعان الصالة:  
- أظنك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا عن سعدا

غادر فهمي البيت قرير العين فمضى من توه إلى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر في تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التي سمحت السلطة بقيامها للإعراب عن ابتهاج الشعب والتي تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها، دام الاجتماع وقتاً غير قصير، ثم تفرق المجتمعون كل إلى وجهته فركب الشاب إلى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذي عهد به إليه وهو الإشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية. لئن كان يعدّ ما يعهد عادة إليه - بالقياس إلى غيره، من الأدوار الثانوية إلا أنه كان يقوم به بدقّة وعناية وغبطة كأنما هو أسعد ما يحظى به في حياته غير أنه لم يكن يخلو في جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه، منشوها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جرأة وإقداماً... أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التي دعت إليها اللجنة ولكنّه كان يفقد جناحه عند ظهور

اللوريات المحملة بالجنود وخاصّة عند إطلاق الرصاص وتساقط الضحايا... فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطاً بعيداً حتى وجد نفسه في قفافة المجاورين، أين هو من حامل اللواء في مظاهرة بولاق، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمّى، الذي استشهد ويده قابضتان على اللواء وقدماه ثابتان في الطليعة وحجرتة تهتف باللبات؟ أين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا إلى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص؟ أين هو من ذلك الشهيد الذي انتزع المدفع الرشاش من أيدي الجنود في الأزهر؟ أين هو من هؤلاء جميعاً وغيرهم ممن تطير الأنباء بأي بطولتهم واستشهادهم؟ كانت أعمال البطولة تترأى لعينيه رائعة باهرة تحطف الأبصار، وطالما أنصت إلى نداء باطني يهيب به إلى الإقدام والتأسي بالأبطال، ولكن كانت تحذله أعصابه في اللحظة الحاسمة فما إن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه في المؤخرة إن لم يكن مختبئاً أو هارباً، ثم يعود إلى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتياسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة في الكمال لا تحمّد، متعزّياً أحياناً بقوله «ما أنا إلا محارب أعزل، ولئن فاتني الرائع من أعمال البطولة فحسبي أنني لم أتردد مرة واحدة عن الإلقاء بنفسي في أتون المعركة». في طريقه إلى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات، كان الجميع يتوجّهون - فيما بدا - وجهته، طلبة وعمّالاً وموظفين وأهلين راكبين وراجلين، تظلمهم جميعاً طمأنينة خليقة يقوم ذاهبين إلى مظاهرة سلمية مصرّح بها، إنّه مثلهم، يشعر بشعورهم، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه إلى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب تثقل ضرباته كلّما تخاليل لعينيه شبح الهلاك. ذاك عهد مضى، اليوم يمضي مطمئنّ الجانب باسم الثغر... انتهى الجهاد؟ خرج منه سليماً لا عليه ولا له. ولا له؟ ليتة عانى شيئاً مما تعرّض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو إصابة غير مميتة! أليس من المحزن أن تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتي قلباً كقلبه وحاساً كحاسه!

الحاذء بالحقيقة العارية. موزء منشورات وجنديء من جنود المؤخرة! هذا هو بلا زيادة، اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فواجه زعامة كبيرة. ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو؟! لشء ما يحبونه بالاحترام والمحبة، لم يعقد اجتماع إلا وكان له فيه رأي مسموع، والخطابة؟ ليس من الضروري أن تكون خطيباً... أليس كذلك؟ ليس محالاً أن تكون عظيمًا وأنت غير خطيب ولكن أي خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدي الزعيم فيسبق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت، كلاً لن ألوذ بالصمت، سوف أتكلّم، سأطلق لقلبي العنان أجاد أم لم يجد، متى تقف بين يدي سعد؟ متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك؟ إن قلبي يخفق وعيناي تحنان للدموع، سيكون يوماً عظيماً، ستخرج مصر كلّها لاستقباله، لن يكون يومنا هذا إلى ذلك إلا كالقطرة إلى البحر، رباه! امتلأ الميدان، امتلأت الشوارع المفضية إليه. عبّاس نوبار الفجالة، لم تسبق كهذه مظاهرة، مائة ألف، طرابيش عسائم، طلبة... عيال... موقظون... الشيوخ والقساوسة، القضاة... من كان يتصوّر هذا، لا يبالون الشمس... هذه مصر، لم أذع باباً؟ صدق ياسين... الواحد ممّا ينسى بين الناس نفسه، يعلو على نفسه، أين همومي الشخصية؟... لا شيء، لشء ما يخفق قلبي، سأتحذث عن هذا طويلاً الليلة وما بعدها. ثرى هل ترتعد نينة مرة أخرى؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن، أريد أن ألس أثره في وجوه الشياطين! ها هي ثكناتهم تشرف على الميدان، الراية اللعينة ترفرف، هناك رءوس في النوافذ... فيم تهامس؟! الديدبان ثمال لا يرى شيئاً، لم تقص رشاشاتهم على الثورة، افقهوا هذا، سترون عمًا قريب سعد في هذا الميدان عائداً مظفراً تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح، سوف ترون قبل الجلاء. تحرك المركب العظيم فتدققت موجاته تابعاً مرءدة الهتافات الوطنية، بدت مصر مظاهرة واحدة، بل رجلاً واحداً، بل هتافاً واحداً، تابعت طواير الطوائف طويلاً، طويلاً جداً، حتى خيل إليه أن الطلائع

كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة... أتذكر سرورك بالنجاة؟ أكنت تفضّل أن تكون من الشهداء؟ كلاً، أكنت تمنى لو كنت من المصابين غير المالكين؟ نعم، كان ذلك في وسعك فلم نكصت؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير ميمّة أو أن يكون السجن عابراً، أنت لا تكره الإصابة الراهنة ولكنك تمنى لو كان أصابك شيء دون أن يغير من هذه النهاية الجميلة، ينبغي إذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب؟ امضي إلى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق - بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فأخذ مكانه في الموضع الذي حدّد له! باب المحطة. لم يكن بالميدان إلا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف، وكان الجو معتدلاً إلا أن شمس أبريل صبّت على من تعرّض لأشعتها لظى، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية إليه، ومضت كلّ جماعة صوب عملها، بذلك شرع فهمي في عمله بلذة وفخار، بالرغم من بساطة العمل الذي لم يعد أن يكون ترتيباً للمدارس كلّ وراء علمها إلا أنه ملأ نفسه زهواً وخيلاء سبياً وأنه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنّاً حتى بدت التسعة عشر عاماً التي يجزها وراءه ذيلًا قصيراً في زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم، ولاحظ أعياناً ترمقه باهتمام وشفاهها تهامس عليه كما سمع اسمه - مقروناً بصفته الشعبية - يجري على بعض الألسن «فهمي أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا» فحرك أوتار قلبه حتى أطبق شفثيه دون أن تند عنها بسمه حياء أو ارتباك من «مهابته». أجل ينبغي أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا، على الجد والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من شباب المجاهدين كي ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحدس ما يخفي وراءه من أعمال البطولة والكفاح، فلتتحقق تلك الأعمال الحارقة - التي عجز عن تحقيقها في الواقع في أخيلتهم، لن تفر له رغبة في المزيد منها وإن وخز قلبه إحساسه

النسيان؟ بل إنك نسيت بالفعل، مريم... من هي؟! ذلك التاريخ القديم؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضي... جيز... جيز... مستر جيز... مستر جيز... هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه، عد إلى الهاتف كي تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارئ. مضت «مظاهرتة» تقرب رويداً من حديقة الأزبكية التي لاحت أشجارها الباسقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رهوياً متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولاً وعرضاً. كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردّد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد، ولما شارفوا سور الحديقة دوت - على حين بغتة - فرقة حادة فشتت حنجرتة وتلفت فيها حواليه متسائلاً في انزعاج، صوت معهود كثيراً ما صكّ أذنيه في الشهر المنصرم وكثيراً ما تردّد صداه في ذاكرته في هدأة الليل بيد أنه لم يستطع أن يألّفه فما يكاد يدوي حتى يخطف دمه ويوقف قلبه على الخفقان...

- رصاص...!

- غير معقول، ألم يصرّحوا بالمظاهرة؟...

- أسقطت من حسابك الغدر؟

- ولكن لا أرى جنوداً...!

- حديقة الأزبكية معسكر هائل مكتظ بهم...

- لعلها فرقة عجلة سيارة...

- لعلها...

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب إلى السكينة، وما هي إلا لحظات حتى دوت فرقة ثانية... آه... لم يعد ثمة شك، رصاصة كسابقتها، أين ترى استقرت؟ ليس يوم سلام؟! شعر بحركة اضطراب تسري بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التي تدفعها إلى الشاطئ باخرة تمخر وسط النهر، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعئين في كل ناحية دفعات جاعحة جنوبية من الاضطراب والارتباك والارتطام، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهدّ البنيان المشيد. تلاحقت جملة من

ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته أمام باب المحطة، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها، لا رصاص من ناحية ولا زلّط من الناحية الأخرى، وافتّر ثغره عن ابتسامة، رأى الجماعة التي تعسكر أمامه مباشرة تتحرّك فدار على عقبه كي يواجه مظاهرتة «الخاصة» ورفع يديه فستت في الصفوف حركة تأهب وتوثّب، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقراً. واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلّى عن الثانية لغيره ممن أحاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها، دار على عقبه مرّة أخرى سائراً بوجهه، يشرب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدّم من جسم المظاهرة التي لم يعد يرى لها أولاً وتلفت بمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يردّدون الهتافات. امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوّة إلى قوّة وطمانينة على طمانينة، كأنها دروع منصوبة حواليه، قوّة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص، إنّ قوات البوليس تتعمّد النظام بعد أن أعيها الطعان والهجوم، إنّ منظر هؤلاء الرجال الداهيين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة، الحكمدار؟! ليس هذا هو رسل بك... بل هو إنه يعرفه حق المعرفة، وهذا وكيل الحكمدار يحبّ وراءه ملقياً على الأفق نظرة جامدة مترقّعة كأنما تحتجّ احتجاجاً صامتاً على السلام الذي احتضن المظاهرة، ما اسمه؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذي ملأ الأسباع في الأيام السود الدامية؟! أوله جيم ليس كذلك؟ جا... جو... جي... يابى أن يستجيب إلى الذاكرة، جوليون!! أوه كيف تسلّل هذا الاسم البغيض إلى وعيه؟! هوى عليه كالتراب فاطناً حماسه، كيف لنا أن نلبي نداء الحماس والظفر ما دام القلب ميتاً! قلب ميت؟! لم يكن ميتاً منذ دقيقة، لا تستسلم للحزن، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة، ألم تعاهد نفسك على

واللهجة الجذبة التي يتكلمون بها! ثم الساعة جاوزت السابعة مساءً. ألا يرون الحمزاوي وهو يرفع الزكائب إلى الرفوف إيداناً بإغلاق الدكان؟ أليكونون من جامعي التبرعات، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة، وأنا لم أعد صالحاً الآن إلا للسهرة! يا هؤلاء اعلّموا أنّي لم أغسل رأسي ووجهي بالكولونيا وأمشط شعري وشاربي وأحبك جيتي وقفطاني كي ألقى وجوهكم! ماذا تريدون؟ غير أنه خجل إليه وهو يرنو إلى محدثه أنّ وجهه ليس غريباً عليه، رآه من قبل؟ أين؟ متى؟ تذكر، من المؤكد أنه لا يراه لأول مرة، آه... قال باسماً وقد شاع الارتياح في وجهه:

- أليس حضرتك الشاب النبيل الذي تقدّم لإنقاذنا في الوقت المناسب يوم حل الناس علينا في مسجد الحسين رضي الله عنه؟

فقال الشاب بصوت خفيض:

- بلى يا سيدي...

صدق ظني، يقول البلهاء إنّ الخمر تضعف الذاكرة؟ لكن ما بالهم ينظرون إليّ هكذا؟ انظر، انظر؟ هذه النظرات لا تنبئ عن خير، اللهم اجعله خيراً، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. قلبي ينقبض لأمر ما، جاءوا لأمر يتعلّق ب...

- فهمي؟! جئتم تريدونه... لعلكم؟!

نكّس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدّج:

- مهمّتنا شاقة يا سيدي ولكنها فرض واجب، ربّنا يلهمك الصبر!...

مال السيّد فجأة إلى الأمام معتمداً على حافة المكتب وهتف:

- الصبر؟ علام؟ فهمي؟!...

قال الشاب بحزن بالغ:

- يؤسفنا أن ننعي إليك أخانا المجاهد فهمي أحمد...

صاح بلهجة منكّرة وإن لاحظت في عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس:

- فهمي؟!...

- استشهد في مظاهرة اليوم...

الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وأنين الألم، ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته إلى جميع المنافذ لا تبقي على شيء في طريقها ولا تذر. اهرب، ما من الهرب بدّ، إن لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام، همّ بالهرب أو بالتراجع أو حتّى التحول عن موقفه ولكنّه لم يفعل شيئاً، ما وقوفك وقد تشتت الجمع؟! في خلاء أنت، اهرب... صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية. ما أشدّ الضوضاء، ولكن بَمَ علا صراخها؟ هل تذكر؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات. ماذا تريد؟ أن تهتف؟ أيّ هتاف؟ أو نداء فحسب... من؟ ما؟ في باطنك يتكلّم، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولكن أين؟ لا شيء، لا شيء، ظلام في ظلام، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب... تصاحبها وشوشة. باب الحديقة. أليس كذلك؟ يتحرّك حركة موجيّة سائلة، يذوب رويداً، الشجرة السامقة ترقص في هواده، الساء... الساء؟ منبسطة عالية، لا شيء إلا الساء هادئة باسمه يقطر منها السلام.

## ٧١

سمع السيّد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبّان يتقدّمون نحوه تعلوهم سيّما الجدّ والرزانة حتّى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون:

- السلام عليكم ورحمة الله...

فنهض السيّد قائلاً بأدبه المعهود:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثمّ مشيراً إلى الكرسي) تفضّلوا...

ولكنّهم لم يلبّوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم:

- حضرتك السيّد أحمد عبد الجواد؟

فقال السيّد باسماً وإن لاح في عينيه التساؤل:

- نعم يا سيدي...

ماذا يريدون يا ترى؟ الشراء مستبعد... ما للشراء والمشية العسكرية التي جاءوا عليها! ما للشراء

وقال الذي إلى يمينه :

- انتقل إلى جوار الله وطنياً نبيلًا وشهيدًا كريمًا. . .  
تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم  
الصمت شفتيه واسترسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة .  
مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى  
جميل الحمزاوي تسمّر تحت الرفوف ذاهلاً يمدّ إلى  
الرجل بصراً ملؤه الجزع، أخيراً عاد الشاب يغمغم :  
- لشدّ ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا إلا أن نتلقّى  
قضاء الله بصبر المؤمنين، وإنك لمن المؤمنين يا  
سيدي . . .

إنهم يعزّونك، لا يعلم هذا الشاب أنك أوّل من  
يحسن إلقاء التعازي في مثل هذا الموقف! . . . ماذا  
تعني هي للقلب المصاب؟ لا شيء! من أين للكلام أن  
يطفىء النار؟ . . . مهلاً . . . ألم تحطّر الرزية بقلبك قبل  
أن يتكلّم قائلهم؟ بل . . . تخاليل لعينيّ شبح الموت،  
الآن والموت حقيقة تلقى إلى سمعك تأبى أن تصدّق،  
أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدّق، كيف أصدّق  
أنّ فهمي مات حقاً، كيف تصدّق أنّ فهمي الذي  
كان يطلب رضاك من ساعات فتناقلت عنه، فهمي  
الذي تركنا هذا الصباح ممثلاً صحّة وعافية وأملًا  
وسروراً، مات . . . مات! لن أراه بعد اليوم لا في  
البيت ولا في أيّ مكان من ظهر الأرض؟ كيف يكون  
البيت من غيره؟ كيف أكون أنا بعده؟ أين تذهب  
الآمال المعقودة عليه؟ لم يعد ثمة أمل إلا في  
الصبر . . . الصبر؟ آه . . . هل تشعر بوخز الألم الحاد؟  
هذا هو الألم حقاً . . . كنت تخدع أحياناً فتزعم أنك  
متألم . كلاً . لم تتألم قبل اليوم، هذا هو الألم حقاً . . .  
- سيدي، شدّ حيلك وسلّم أملك إلى الله . . .

رفع السيّد رأسه إلى الشاب، ثمّ قال بصوت  
مريض :

- ظننت عهد القتل قد انتهى . . .

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

- كانت مظاهرة اليوم سلمية، وقد أذنت بها  
السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى  
الهيئات، وسارت أوّل الأمر في أمان حتى بلغ منتصفها

حديقة الأزيكّة، وما ندري إلّا والرصاص ينهال علينا  
من وراء السور بلا سبب، لم يتعرّض أحد للجنود لا  
بخير ولا بشرٍ حتىّ الهتاف بالإنجليزيّة امتنعنا عنه  
تفادياً من الاستفزاز، ولكنهم منهم جنون القتل فجأة  
فعمدوا إلى بنادقهم وأطلقوا النار، وقد انعقد الإجماع  
على توجيه احتجاج شديد إلى دار الحماية، بل قيل : إنّ  
أللنبي سوف يعلن أسفه عمّا بدر من الجنود . . .

قال السيّد بنفس اللهجة المريضة :

- ولكنّه لن يردّ حياة إلى ميت . . .

- وأسفاه! . . .

قال السيّد بتفجّع :

- لم يشترك في المظاهرات الخطرة، هذه أوّل مظاهرة  
ينضمّ إليها! . . .

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم  
بكلمة . . . وكأنما ضاق السيّد بالحصار المضروب حوله  
فقال وهو يزفر :

- الأمر لصاحب الأمر، أين أجده الآن؟

قال الشاب :

- في قصر العينيّ «ثمّ وهو يشير إلى السيّد متمهلاً  
ليّاً رآه يتعجل الذهاب» ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر  
شهيداً من إخواننا في تمام الساعة الثالثة من مساء  
الغد . . .

هتف السيّد في جزع :

- ألا يترك لي تشيع جنازته من بيته! . . .

فقال الشاب بقوة :

- بل تشيع جنازته مع إخوانه في احتفال شعبيّ . . .  
ثمّ برجاء :

- القصر محاصر الآن بقوّة من البوليس، ولا بأس  
من الانتظار ما دمنا نحرص على تمكين أهالي الشهداء  
من توديعهم قبل تشييع الجنازة، لا يليق أن يشيع  
فهمي في جنازة عاديّة كمن قضوا في بيوتهم . . .

ثمّ مدّ له يده مودّعاً وهو يقول :

- اصبر وما صبرك إلّا بالله . . .

وصافحه الآخرون مكرّرين له العزاء، ثمّ ذهبوا  
جميعاً . . . أسند رأسه إلى راحته وهو يغمض عينيه



فجاءه صوت جميل الحمزاوي وهو يعزّيه بنبرات باكية، ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية، ولم يعد يحتمل البقاء فزائل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان، ينبغي أن يخرج من حيرته، فإنه لا يدري حتى كيف يحزن، يودّ لو يخلو إلى نفسه ولكن أين؟ سينقلب البيت جحيمًا بعد دقيقة أو دقيقتين، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير... متى يتأمل الخسارة التي مني بها... متى يتهبّأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعًا؟ يبدو هذا بعيدًا... ولكنه آتٍ لا ريب فيه، ولهذا قصارى ما يجد من عزاء في راحته... أجل سيأتي وقت يخلو فيه إلى نفسه ويفرغ إلى حزنه بكل كيانه، هنالك ينعم النظر في موقفه على ضوء الماضي والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه إلى ريق شبابه، ما أثار من آمال وما خلّف من ذكريات مطلقًا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها، حقًا أن أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعي للجزع، انظر إلى ذكرى الملاحاة التي نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب، كم يستغرقان من وقته تأملًا وتذكرًا وشجنًا؟ كم يستهلكان من قلبه؟ كم يهيجان دموعه؟ كيف يجزع؟ الأيام تذخر له كلّ هذه

السعادة؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاححت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدامه... ما عسى أن يقول لها؟ كيف تتلقّى الخبر؟ الضعيفة الرقيقة التي تبكي لمصرع عصفورا! أتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولي اللبان؟! ماذا تصنع لمقتل فهمي؟... مقتل فهمي!... أهذه هي نهايتك حقًا يا بني؟... يا بني العزيز التيس!... أمينة... ابننا قتل، فهمي قتل... يا له... أتأمر بمنع الصوت كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل؟... أم تصوت بنفسك أم تدعو النائحات؟!... لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أحرّ فهمي، سوف يتأخّر طويلًا، لن تراه أبدًا... ولا جثته، ولا نعشه، يا للقسوة، سأراه أنا في القصر أما أنت فلن تراه، لن أسمع بهذا... قسوة أم رحمة؟ ما الفائدة؟... وجد نفسه أمام البيت فامتدّت يده إلى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح في جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل... ترامى عند ذاك إلى سمعه صوت كمال وهو يغني بعذوبة:

زوروني كلّ سنة مرة حرام الهجر بالمرّة



قَصْرُ الشُّوْقِ



- ١ -

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت في خطوات مترامية، وطرف عصاه ينغرز في الأرض التربة كلما توقف عليها في مشيته المتثابة. تشوّق وحوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذي سيغسل به وجهه ورأسه وعنقه كي يلطّف - ولو إلى حين - من حرارة يوليه والنار المستعرة في جوفه ورأسه، فهشّ لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريه. ولما جاز باب السلم لاح له الضوء الواني الهابط من أعلى يتحرّك على الجدران وأشيًا بحركة اليد القابضة على المصباح، فرقي على السلم يداً على الدرايزين ويّداً على عصاه التي بعث طرفها دقات متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعاً خاصاً غدا ينمّ عنه كما تنمّ عنه سماته. وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح في يدها، حتى إذا انتهى إليها توقّف وصدره يعلو وينخفض ريثما يستردّ أنفاسه، ثم حيّاها تحيّة الليليّة المألوفة قائلاً:

- مساء الخير.

فغمغمت أمينة وهي تتقدّمه بالمصباح:

- مساء الخير يا سيدي!..

في الحجرة هرع إلى الكنبه فتهالك عليها، ثم تخلّص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قذاله على المسند ماداً ساقيه إلى الأمام حتى انحسر جناحا الحبة عن قفطانها، وكشف القفطان عن رجلتي سرواله

المتداخلتين في جوربه، وأغمض عينيه وهو يجفّف بمنديله جبهته وخديّه وعنقه؛ على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان، ثم وقفت تترقّب قيامه لتساعده في نزع ثيابه، وهي تنظر إليه باهتمام مشوب بقلق، وتودّ لو تواتيها شجاعتها فتسأله أن يعفي نفسه من الدأب على السهر الذي لم تعد تنهض به صحته بالاستخفاف المعهود قديماً. ولكنّها لم تدّر كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة! توالّت دقائق قبل أن يفتح عينيه، ثم نزع الساعة الذهبيّة من قفطانها والخاتم الماسيّ فأودعهما داخل الطربوش، ثم هض ليخلع الحبة والقفطان بمعاونة أمينة، هناك بدا جسمه كالعهد به: طويلاً، وعرضاً، وامتلأ. لولا شعيرات اغتصبها المشيب من فوديه، وعندما أدخل رأسه في طاقة الجلباب الأبيض غلبه الابتسام فجأة، إذ ذكر كيف تقياً السيد عليّ عبد الرحيم الليلة في مجلس الأنس، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصاب معدته. وكيف تعمّدوا أن يعيروه به زاعمين أنّه لم يعد يحتمل الشراب، وأنّه ليس كلّ الرجال من يستطيعون معاشره الخمر إلى نهاية العمر ألخ الخ، وذكر كيف غضب السيد عليّ وجداً في دفع الريبة عنه، يا عجباً.. ألهذا الحدّ يعير بعض الناس أهميّة لهذه الأمور التوافه؟! ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك فلمّ فاخر هو في صخب الحديث الضاحك بأنّه يستطيع أن يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة؟! تضطرب له معدة؟!

لسان، وذو الصوت المبحوح الذي يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر، وذو الصوت العصبي الذي يتصيد بخته في «الكومي» و«الولد»، ووالد هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكي الذي يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء»، آه.. كأن المشربة ركن من القهوة هي جليسته. كانت ذكريات الطريق ترسم على مخيلتها وراء عيني لا تفارقان الرأس المتوسد لمسدن الكنية، فلما انقطع التيار تركز انتباهها في الرجل فتبينت في صفحتي وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تظلمها في أعقاب الليالي الأخيرة، ولم تكن تتراح إليها فتساءلت في إشفاق:

- سيدي بخير..؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

.. - بخير، والحمد لله (مستدركاً) ما أفضح الجوار! الزبيب خير مُشكر في الصيف.. هكذا قالوا له وأعادوا، ولكنه لا يطيقه، فإما اليوسكي وإلا فلا. عليه إذن أن يعاني خمار سكرة صيف - وصيف شديد - كل ليلة. شدّ ما ضحك هذه الليلة.. ضحك حتى كلت عروق عنقه. ولكن فيم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئاً، وليس هناك شيء يروى أو يعاد، ولكن جو المجلس كان مشحوناً بكهرباء لطيفة بحيث إن أي لمسة كانت تُحدث اشتعالاً، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس» حتى انفجروا ضاحكين، فعدت «نادرة» من نوادر الخمر اللسانية. وابتدروه قائلين: «وسيمكث في المفاوضة ريثما يستردّ صحته، ثم يبحر إلى الدعوة تلبية للندن التي تلقاها من» أو «وسينال رامزاي مكدونالد من الاستقلال على الموافقة» و«سيعود حاملاً مصر إلى الاستقلال»، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات..

حقاً.. إنّ دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخص في ثلاثة: عمّد عفت، وعليّ عبد الرحيم، وإبراهيم الفار.. فهل يستطيع أن يتصور للعالم وجوداً من دون

جلس على الكنية مرة أخرى ومدّ ساقيه للمرأة التي راحت تخلع الحذاء والجورب، وغابت عن الحجرة قليلاً، وعادت بالطست والإبريق وجعلت تصبّ له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض، وأخيراً ترتّب في جلسته مستعرضاً نسمة الهواء التي تهفو في لطف ما بين المشربة والنافذة المطلّة على الفناء.

- يا له من صيف فظيع صيف هذا العام!

فقالت أمينة وهي تسحب الشلّة من تحت السرير، وترتّب بدورها عليها على كتب من قدميه:

- ربّنا يلطف بنا (ثمّ وهي تنتهد) الدنيا كلّها كوم وحجرة الفرن كوم! السطح هو المتنفّس الوحيد في الصيف بعد مغيب الشمس.

بدت في جلستها غيرها بالأمس، نحفت واستطال وجهها، أو لعلّه تراءى أطول ممّا هو لما حلّ بالخدين من رقة، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه منديل رأسها من خصلات، فأضفى عليها روح كبر أكثر ممّا تستحقّ.. وغلظت الشامة في وجنتها قليلاً، على حين نمت عيناها - إلى نظرة الخضوع القديمة - عن شرود مُزج بالحنن، كما اشتدّت حيرتها لما طرأ عليها من تغير. ولئن كانت قد رحّبت به بادئ الأمر على سبيل التعزّي إلا أنّها أخذت تتساءل في قلق: أليست هي في حاجة إلى صحّتها ما دام في العمر بقية؟ بلى! والآخرين في حاجة إلى صحّتها أيضاً، ولكن كيف يعاد الشيء إلى أصله؟! ثمّ إنّها تقدّمت سنين، لعلّها لم تكن بالكثرة التي تبرّر هذا التغير ولكنها ممّا يترك أثراً ولا شكّ.

هكذا كانت تقف في المشربة الليالي المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص، فتري طريقاً لا يتغير، والتغير يدبّ إليها غير متوانٍ. وعلا صوت النادل في القهوة فتطايّر إلى الحجرة الصامتة كالصدى، فابتسمت وهي تسترق النظر إلى السيد.

ما أحبّ هذا الطريق الذي يسهر الليالي سامراً إلى قلبها، إنّهُ الصديق الغافل عن القلب الذي يحبه من وراء خصائص، معالمة ملء نفسها، سُماره أصوات حيّة تعيش في مسامعها، هذا النادل الذي لا يستكنّ له

- نعم، أخبرني محمد عفت بذلك الليلة! ..  
 - من؟  
 - موظف يدعى محمد حسن، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف.  
 فتساءلت بوجوم:  
 - يبدو أنه متقدم في السن؟  
 فقال كالمعتزض:  
 - كلاً، في الحلقة الرابعة، خمسة وثلاثين.. ستة وثلاثين.. أربعين عاماً على الأكثر!  
 ثم بلهجة تهكمية:  
 - جرّبت حفظها مع الشباب فأخفقت، أعني الشباب الذين لا يرفعون رأساً، فلتجرب حفظها مع الرجال العقلاء!  
 فقالت أمينة بأسف:  
 - كان ياسين أولى بها، على الأقل من أجل خاطر ابنها..  
 كان هذا رأي السيد، وعنه دافع طويلاً لدى محمد عفت، بيد أنه لم يعلن موافقته على رأيها إدارة لخبية مسعاه، فقال متسخطاً:  
 - لم يعد للرجل به من ثقة، والحق أنه غير جدير بالثقة، لذلك لم ألح عليه، لم أقبل أن أستغل صداقتنا في حمله على ما لا خير فيه..  
 فغمغمت أمينة في شيء من الإشفاق:  
 - هفوة شباب لا يضيق عنها العفو!  
 هان على السيد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب، فقال:  
 - لم أقصر في حقّه ولكنّي لم أصادف ترحيباً، وقال لي محمد عفت برجاء: «إنّ السبب الأوّل في اعتذاري هو إشفاقي من تعريض صداقتنا إلى الشقاق»، وقال لي أيضاً: «لا أستطيع أن أرفض لك رجاء، ولكنّ صداقتنا أعزّ لديّ من رجائك».. فأمسكت عن الكلام..  
 قال محمد عفت هذا حقّاً، ولكنّه لم يصرّح به إلّا مدافعة لإلحاحه. والحق أنّ السيد كان شديد الرغبة في وصل ما انقطع من مصاهرة محمد عفت لمكانته من

وجودهم؟! إنّ إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته، سعادة لا تدانيها سعادة. التقت عيناه الحاملتان بعيني أمينة المستطلعتين، فقال وكأنّه يذكرها بأمر هام:  
 - غداً..  
 فقالت، وقد شاعت في وجهها ابتسامة:  
 - كيف أنسى!  
 فقال بشيء من الفخار لم يحاول مداراته:  
 - قيل لي إنّ نتيجة البكالوريا كانت سيئة هذا العام..  
 فقالت وهي تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام:  
 - ربّنا ينجح مقاصده، ويكّد في عمرنا حتّى نشهد نجاحه في الدبلوم..  
 فتساءل:  
 - هل ذهبت اليوم إلى السكّرية؟  
 - نعم، ودعوتهم جميعاً، وسوف يحضرون إلّا الستّ الكبيرة التي اعتذرت بتعبها، فقالت: إنّ ابنها سينوبان عنها في تهنئة كمال.  
 فقال السيد، وهو يومئ بذقنه صوب جبهته:  
 - جاءني اليوم الشيخ متولّي عبد الصمد بأحجية لأولاد خديجة وعائشة، ودعا لي قائلاً: «إن شاء الله أعمل لك أحجية لأولاد أحفادك».  
 ثمّ وهو يهزّ رأسه بأسماً:  
 - لا شيء على الله ببعيد، ها هو الشيخ متولّي نفسه كالخديد رغم الثمانين!..  
 - ربّنا يمتّعك بالصحة والعافية!  
 فتفكّر ملياً، وهو يعدّد على أصابعه، ثمّ قال:  
 - لو امتدّ العمر بأبي - رحمه الله - ما زاد على عمر الشيخ كثيراً..  
 - رحم الله الراحلين..  
 وخيم الصمت ريثما ذهب الأثر الذي تركه ذكر «الراجلين»، ثمّ قال الرجل بلهجة من تذكر أمراً هاماً:  
 - زينب خطبت!  
 اتّسعت عينا أمينة، وهي ترفع رأسها قائلة:  
 - حقّاً!؟..

- نفسه ومكانة أسرته من المجتمع، ولم يكن يطمع في أن يجد لياسين زوجة خيراً من زينب، ولكنّه لم يسعه إلا التسليم بالهزيمة، خاصّة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصّة، حتّى قال له: «لا تقل لي إنّنا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين، فالحقّ أنّنا نختلف بعض الشيء، والحقّ أنّي لا أرضي لزينب ما ارتضيت لأمتها!». تساءلت أمينة:
- هل علم ياسين بما كان؟
- سيعلم غداً أو بعد غد، هل ترينه يكثرث لذلك؟ إنّهُ أبعد ما يكون عن تقدير الزيجة المشرفة.. فهزّت أمينة رأسها أسفاً، ثمّ تساءلت:
- ورضوان؟
- فقال السيّد مقطّباً:
- سيبقى عند جدّه، أو يلحق بأّمه إن لم يصبر على فراقها، الله يخيّر من حيّره..!
- مسكين يا ربّي، أمّه في ناحية وأبوه في ناحية، أتطبق زينب فراقه..؟
- فقال السيّد فيما يشبه الازدراء:
- للضرورة أحكام (ثمّ متسائلاً) متى يبلغ السنّ؟.. ألا تذكرين؟
- فتفكّرت أمينة قليلاً، ثمّ قالت:
- إنّهُ أصغر قليلاً من نعيمة بنت عائشة، وأكبر قليلاً من عبد النعم ابن خديجة، فيكون في الخامسة يا سيّدي، سوف يستردّه أبوه بعد عامين، أليس كذلك يا سيّدي؟
- قال السيّد، وهو يتثاءب:
- يا ترى من يعيش (ثمّ مستطرداً) وكان متزوّجاً، أعني الزوج الجديد!
- وله أولاد؟
- كلّاً لم ينجب من زوجه الأولى..
- لعلّ هذا ما حسّنه في عيني السيّد محمّد عفت..
- فقال السيّد بامتعاض:
- ولا تنسني مقامه..
- فقالت أمينة معترضة:
- لو أنّ الأمر أمر مقام ما عدل بابتك أحداً، على الأقلّ من أجلك أنت..
- فشعر باستياء حتّى لعن في سرّه - على حبّه - محمّد عفت، ولكنّه عاد يجرّ خطاً تحت النقطة التي يتعرّى بها، فقال:
- لا تنسني أنّه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا في حرز حريز ما تردّد عن قبول رجائي..
- فقالت أمينة معربة عن نفس الإحساس:
- طبعاً، طبعاً يا سيّدي، إنّها صداقة العمر، وليست لهواً ولعباً.
- عاوده التثاؤب مرّة أخرى، فتمتم قائلاً:
- خذي المصباح خارجاً..
- قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيه قليلاً، ثمّ نهض دفعة واحدة كأنّها ليقاوم الكسل وأنّجه نحو الفراش فاستلقى عليه.. إنّهُ الآن خير حالاً! ما أهنا الرقاد بعد التعب! أجل. لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكنّ رأسه لا يكاد يخلو من شيء ما، فليحمد الله على أيّ حال الصفاء الكامل ماضٍ مضى، ثمّة شيء نفتقده كلّما خلونا إلى أنفسنا ولكنّه لا يعود، يلوح لنا من الماضي بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذي تشفّ عنه شراعة الباب. فليحمد الله على أيّ حال! ولينعم بحياة يغبط عليها الغابطون! الأجدى أن يقطع برأي فيما إذا كان سيقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلّا ياسين.. فإنّهُ مسألة الأمس واليوم والغد، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى، ولكنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم. متى تسطع هداية الله فتملأ الأرض حتّى يبهز نورها الأعين؟ هنالك يهتف من الأعماق أنّ الحمد لله، ولكن ماذا قال محمّد عفت؟ إنّ ياسين يصول ويجول في الأزبكية حتّى سراديبها.. كانت الأزبكية معنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويجول، وهزّه الحنين مرّات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات، فليحمد الله على أنّه علم بسرّ ياسين قبل أن يُقِيم، وإلّا لضحك الشيطان من أعماق قلبه



كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة.  
قديمًا استخبرت السنين فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا  
سيوافق تاريخ ليسانس ذاك، حفل لم يجئ ونذر لم  
يوق. ١٩.. ٢٠.. ٢١.. ٢٢.. ٢٣.. ٢٤..  
شباب العمر اليافع الذي حُرمت من احتضان ينعه،  
من قسمة التراب كان، يا انصداع القلب الذي  
يسمونه الحسرة.

- ستفرح ست عائشة بالبقلاوة، وتذكر أيام زمان يا  
سني...

ستفرح عائشة وأم عائشة ستفرح أيضًا، نهار وليل  
وشبع وجوع ويقظة ونوم، وكأن شيئًا لم يكن. سلي  
الزعيم الذي زعم بأنك لن تعيشي بعده يومًا واحدًا،  
عشت لتحلني بترتيه، إذا زلزل القلب فليس معناه أن  
تزلزل الدنيا، كأنه نسي منسي حتى تزار المقابر، كنت  
ملء العين والنفس يا بني ثم لا يذكرونك إلا في  
المواسم، أين أنتم يا هؤلاء؟ كل مشغول بشواغله،  
إلا أنت يا خديجة قلب أمك وروحها حتى وصيتك  
يومًا بالصبر، لم تكن كذلك عائشة، مهلاً لا ينبغي  
أن أكون ظلمة، حزنت حزنها كما ينبغي، كمال لا لوم  
عليه، رفقًا بالقلوب الغضة، بات الأول والأخير،  
شاب شعرك وصرت كالخيال، هكذا تقول أم حنفي،  
لا كانت الصحة ولا كان الشباب، تقاريرن الخمسين  
وهو لم يتم العشرين، حبل ووجم وولادة ورضاعة  
وحب وآمال، ثم لا شيء... ترى هل خلا من  
الأفكار رأس سيدي؟ دعيه وشأنه! ليس حزن الرجال  
كحزن النساء، هكذا قولك يا أمي جعل الله الجنة  
مثواك، يحز في نفسي يا أمي أنه عاد إلى سيرته، كأن  
فهمني لم يم، وكأن ذكره قد تبخرت، بل يلومني كلًا  
لج بي الحزن، أليس هو أباه كما أنا أمه؟... يا أمينة  
يا مسكينة... لا تفتحي صدرك لهذه الأفكار... لو  
صح أن نحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب  
أحجارًا... إنه رجل وليس حزن الرجال كحزن  
النساء... لو استسلم الرجال للأحزان لناءت بها  
كواهلهم المثقلة بالأعباء، عليك إذا أنست منه حزنًا أن  
تسري عنه... إنه ركنك يا ابنتي المسكينة». غاب

الهازي. أوسيعوا الطريق للأبناء فقد شبوا، عنها صدك  
الاستراتيجيون أول الأمر، وأخيرًا هذا البغل  
الاستراتيجي...

## - ٢ -

تتابع دقات العجين من حجرة الفرن في هدأة  
السحر مع صباح الديكة، كانت أم حنفي مكبة على  
جرة العجين بحسمها اللحيم، يلوح وجهها ريان على  
ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن، لم ينل  
الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابت ملامحها  
جهامة واخشوشنت قسماها، وإلى يمينها قعدت أمينة  
على كرسي المطبخ تفرش ألواح العجين بالردة استعدادًا  
لاستقبال الأقراص، ثوابل العمل - في صمت - حتى  
توقفت أم حنفي عن العجين. فاستخرجت يدها من  
الجرة ومسحت على جبينها المبتل بالعرق ببطن مرفقها،  
ثم لوحت بقبضتها المغطاة بالعجين كقفاز ملاكمة  
أبيض، وقالت:

- أمامك يا سني يوم شاق ولكنه لذيذ، كثر الله من  
أيام السرور...

فغمغت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها:

- علينا أن نقدّم مائدة شهية...

فابتسمت أم حنفي، وهي تومئ بذقنها إلى سيدتها،  
قائلة:

- البركة في المعلمة...

ثم غرست يديها في الجرة مرة أخرى، وعادت إلى  
ملاكمة العجين.

- وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين.

فقالت أم حنفي بلهجة معاتبة:

- لن يكون بيننا غريب.

فتمتمت أمينة بصوت لم يخل من ضيق:

- ولكنها وليمة وضجة على أي حال، فؤاد ابن  
جميل الحمزاوي نال البكالوريا أيضًا، ولا من رأى ولا  
من سمع!

ولكن أم حنفي أصرت على المعاتبة، قائلة:

- ما هي إلا فرصة نجتمع فيها بمن نحب.

أففسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا؟! في عام الحداد والتقصّف كاد الحزن يقتله قتلاً، عام طويل لم يذق فيه شراباً، ولم يسمع نغمًا، ولم تندّ عن فيه ملحّة حتّى شابّت شعيراته... أجل لم يتسلّل الشيب إلى شعره إلّا في ذلك العام، رغم أنّه عاد إلى الشراب والسّماع رحمة بالأصدقاء المقرّبين الذين انقطعوا عن اللذات إكرامًا لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالآخرين، وما على الآخرين من ملام، حزنوا لحزنك، ثمّ جعلوا يراوحون بين مجلسك الجافّ ومجالسهم النديّة فأبى تثرّب عليهم؟! بيد أنّ الثلاثة المحيّين أبوا أن ينالوا من الحياة نصيبًا أوفى ممّا ارتضيت لنفسك، وعدتّ رويّدًا إلى أشياء، إلّا المرأة رأيّتها كبيرة فلم يلبّثوا عليك أوّل الأمر، لشدّ ما تأبّيت وحزنت، لم يؤثّر فيك رسول زبيدة، رددت أمّ مريم بوقار حزين حازم وأنت تكايد آلامًا لا قبّل لك بها، ظننت أن لن تعود أبدًا، وخاطبت نفسك المرّة تلو المرّة... «أعود إلى أحضان الغواني وفهمي في قبضة التراب؟!» آه... ما أحوّجنا في ضعفنا وتعاستنا إلى الرحمة! فليداوم على الحزن من يضمن إلّا يموت غدًا، من قاتل هذه الحكمة؟ واحد من اثنين: عليّ عبد الرحيم أو إبراهيم الفار. محمّد عفت بك لا يجود بالحكم. رفض رجائي، وزوّج البنت من رجل غريب، ثمّ ضحك عليّ بالقبل، لا ينكر غضبه ويشفق من أن يطالعني به كما وقع قديمًا، الله هو أيّ وفاء وأيّ ودّ أتذكر كيف امتزج دمه بدمعك في القرافة؟ ولكنّه القاتل فيما بعد «أخاف عليك الكبر إن لم تفعل... تعال إلى العوامة». ولما آنس تردّدًا قال: «لتكن زيارة بريئة... لن يجردك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة». لم أحزن قليلًا علم الله، بموته مات جزء جسيم منّي. مات أملي الأوّل في الدنيا، منذ يلومني على الصبر والعزاء؟ قلبي جريح وإن ضحك! ترى، كيف هنّ؟ ماذا فعل بهنّ الزمان في خمسة أعوام؟ خمسة أعوام طوال؟

\* \* \*

كان شخير ياسين أوّل ما تلقى كمال من عالم

ذلك الصوت الحنون وصادف فقدّه قلبًا مترعة بالحزن فلم يكذب يبيكه أحد، وشهد شاهد حكمتها ليلة عاد في أخريات الليل ثملًا، ثمّ ارتقى على الكنبه مجهشًا في البكاء، وتمنّيت ليلتئذٍ له السلامة ولو بالنسيان الأبديّ، أنت نفسك ألا تنسين أحيانًا؟ ثمّة ما هو أقطع من ذلك، هو تتمتعك بالحياة وحرصك عليها. هذه هي الدنيا. هكذا يقولون! فتردّدين ما يقولون وتؤمنين به. كيف جاز لك - يومًا - بعد هذا أن تحنّقي على ياسين برعه ومواصلته مألوف الحياة! مهلًا، الإيمان والصبر... سلّمي إلى الله، فكلّ ما جاءك من عنده، «أمّ فهمي» إلى الأبد، سوف أظّل ما حييت أمك يا بنيّ وتظّل ابني...

تتابعت دقات العجن، ففتح السيّد عينيه على نور الصباح الباكر، وراح يتمكّن ويتشّاب بصوت مرتفع معطوط، تصاعد كالتذمّر أو الاحتجاج، ثمّ جلس في الفراش مستندًا براحتيه على ساقيه الممدودتين، فبدا ظهره مقوّسًا وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق، وجعل يحرك رأسه بمنّة وسرة كأنّما لينفض عنه وطأة الوحوم، ثمّ انزلق إلى أرض الحجره، ومضى متهاديًا إلى الحتمّ إلى الدشّ البارد... الدواء الوحيد الذي يغيّر عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتزانته وإلى نفسه اعتدالها، تجرّد من ثيابه، ولما تعرّض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التي وُجّهت إليه أمس، فحفق فؤاده الذي تلقّى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معًا، عليّ عبد الرحيم قال: «نظرة إلى وراء، إلى حبيبات رمان، لا يمكن أن تمضي الحياة هكذا إلى الأبد، إنّي أعرف الناس بك». أيقيد على هذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها؟ أم أطلقها نيّة صادقة دون تورّط في التوبة؟... لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، ليس صغيرًا من يدنو من الخامسة والخمسين. ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل! كحاله يوم دُعي إلى السماع فلّتي، هل يلبّي النداء إلى حبيبات زمان بالمثل؟ متى يبعث الحزن ميتًا؟، هل أمرنا الله أن نهلك

عابرة. صادفها بعد ذلك في الموسكي مع أمها، فالتقت العين على سهوة، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان، وتمت بسمات لا تكاد تُرى بالعين المجردة عن عرفانها، فتحرك قلبه، تحرك للعرفان - فحسب - أول الأمر، ثم للطيف الأثر الذي خلفه وجه عاجي مكحول العينين، وجسم نابض بالفتوة والحيوة، ذكره بزنب في إبانها... فمضى إلى طيئه متفكرًا هائجًا. غير أنه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحد عبده، هفت عليه ذكرى محزنة بعثت في قلبه الشجن، بُعث فهمي في خياله بشئ ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه في الحديث والحركة ففتر وجهه وباح وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهي كل شيء... لم؟...

عاد يتساءل بعد ساعة، أو بعد أيام، فكان الجواب: فهمي... أية علاقة بين الاثنين؟. ودّ يومًا أن يخطبها، ولم لم يفعل؟... أبوك لم يوافق. فقط... هذا في الأقل أصل المسألة. ثم؟ جاءت فضيحة الإنجليزي، فمحت ما بقي من أثر باهت... أثر باهت؟... أجل لأنه على الأرجح كان نسي. إذن نسي أولًا، ونبد أخيرًا؟ نعم، فآية علاقة هنالك؟... لا علاقة؟ ولكن... أعني شعور الأخوة، هل يمكن أن يرقى شك إلى شعورك؟... كلاً وألف مرة كلاً. الفتاة تستحق... نعم، وجهًا وجسمًا؟... وجهًا وجسمًا فما انتظارك؟...

في النافذة كان يلمحها حينًا بعد حين، ثم فوق السطح... فوق السطح مرّات، ومرّات... لم طَلّقت؟... لسوء في خلق زوجها، فيكون الطلاق من حسن حظها. أو لسوء في خلقها فيكون الطلاق من حسن حظك أنت.

- قم ولا غلبك النوم.

فتنأب وهو يتخلّل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ، ثم قال:

- يا بختك بعطلتك المدرسيّة الطويلة!

- ألم أستيقظ قبلك؟

- ولكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت...

- لا أشاء كما ترى...

البقطة، فلم يتالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه في ميعاده، ولاحقه بصوته غير متوانٍ حتّى ردّ عليه الآخر بصوت كالنزع تشكيًا وتذمرًا، ثم تقلّب بجسمه الضخم فطقطق الفراش فيها يشبه الأنين والتوجّع ثم فتح عينين حراوين وتأوّه.

لم يكن ثمة - في رأيه - ما يدعو إلى هذه العجلة ما دام أحد منها لن يذهب إلى الحتام قبل عودة الأب منه، لم يعد من اليسير استعمال حمام الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت - منذ خمسة أعوام - بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيها عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التي فُرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلًا لها، ومع أنّ ياسين وكمال لم يرحبا - قط - بالإقامة مع الأب في دور واحد، إلّا أنّها لم يجدا بدءًا من احترام الرغبة في مقاطعة الدور الأول الذي لم تعد تدخله قدم إلّا حين يلّم بالبيت زائر. أغمض ياسين عينيه، ولكنّه لم ينم، لا لأنّ معاودة النوم كانت عبثًا فحسب، ولكن لأنّ صورة انبعثت في خياله فأشعلت إحساسه... وجه مستدير، تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان. مريم! فاستجاب لداعي الأحلام... واستسلم لتخدير الذّ من تخدير المنام.

قبل أشهر معدودات، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط، وكأنّها لم تكن، حتّى سمع أمّ حنفي تتحدّث - ذات مساء - إلى امرأة أبيه، فنقول: «أما سمعت بالخبر يا ستي؟... ستّ مريم طَلّقت من زوجها وعادت إلى أمّها» هنالك عاوده ذكر مريم، وفهمي، والجنديّ الإنجليزيّ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه، ثم ذكر بالتالي اهتمامه القديم بشخصيتها الذي جاش بها صدره عقب ذبوع الفضيحة، ما يدري إلّا وقد أضاءت فجأة في نفسه لوحة معتبرة، كما تضيء الإعلانات الكهربائية في الليل، سَطّر عليها «مريم... جارتك... الجدار لصق الجدار...

مطلّقة... ذات تاريخ وأيّ تاريخ... أبشر»، ولكنّه ما لبث أن جفل من نفسه، لأنّ اقترانها بذكرى فهمي صدّه وآلمه وأهاب به أن يغلق هذا الباب وأن يُحكم إغلاقه، وأن يندم - إن كان ثمة ندم - على فكرة خفيّة

ضحكك ياسين ضحكة لا معنى لها، ثم تساءل:

- ما اسم الجندي الإنجليزي صديقك القديم؟

- أوه... جوليون...

- أجل جوليون...

- ما الذي دعاك إلى السؤال عنه؟

- لا شيء!!

لا شيء؟ ما أسخف لساننا، أليس ياسين خيرًا من جوليون؟ في الأقل جوليون عابر وياسين مقيم، في وجهها شيء يتسم إليك دوامًا، ألم تلاحظ مئابرترك على الظهور فوق السطح؟ بلى وذكر جوليون، ليست ممن يفوتهن معنى، ردّت تحيكتك... أول مرة أدارت رأسها باسمه، في المرة الثانية ضحكت، ما أجمل ضحكته! في الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محدّرة، سأعود بعد الغروب. هكذا قلت في جراءة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام؟

- لشّد ما أحببت الإنجليزي في صغري!... انظر كيف أمقتهم الآن مقتًا...

- سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم!

هتف كمال بحدة:

- والله لأبغضنهم ولو وحدي...

وتبادلا نظرة أسي صامتة، تناهى إليها وقع قبقاب السيد وهو راجع إلى حجرته مبسملاً محوّلًا، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتشاءب.

تقلّب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخيًا وثني ساعديه شابكًا راحته تحت رأسه، ومضى ينظر فيها أمامه بعينين لا تريان شيئًا... لتسعد بك رأس البر، لم تخلق بشرتك الملائكية لتصلّى حرّ القاهرة، فلتطّب بموطئ قدميك الرمال، وليهنأ بمشهدك الماء والهواء، سوف تشيدن بالمصيف، وعيناك تنطقان بالمسرة والحنين، فأنطلق إليهما بقلب مشوق وعين تسائل الغيب - في حسرة - عن المكان الذي استهواك فاستحقّ عن جدارة رضاك... ولكن متى تعودين ومتى ينسكب في أذني تغريدك المسحور؟ كيف المصيف؟ ليتني أدري... قيل إنّه حرّية كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبّات

الرمال... وخلق كثيرون يحظون بمحبّاك... أنا... أنا الذي خفقات قلبه تشّ لشكايتها الجدران فأنطلق في سعي الانتظار. هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق بالبشر وأنت تغمغمين: «سنسافر غدًا... ما أجمل رأس البر!» ولا اكتثابي وأنا أنلقى نذير الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقّى السمّ مدسوسًا في طاقة من الزهر الفواح، ولا غيوتي من الجهاد الذي قدر على إسعادك حين عجزت وحظي بمودتك حين حرمت. ألم تلحظي حين الوداع اكتثابي؟ كلّ لم تلحظي شيئًا، لا لأنّي كنت واحدًا بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلحظين... كأنما كنت شيئًا لا يسترعي انتباهك... أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعا من علّ بعينين هائمتين في ملكوت لا ندره... هكذا وقفنا وجهًا لوجه... أنت شعلة من سعادة سادرة، وأنا رماد من وجوم وكآبة... تحظين بحرّية مطلقة أو تدعنين لسنن فوق مداركنا، وأنا أدور في فلكك مجذوبًا بقوة هائلة... كأنك الشمس، وكأني الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرّية لم تنعمي بها في مغاني العباسية؟ كلًّا، وحقّ قدرك عندي... لست كالأخريات... في حديقة القصر والطريق، آثار عطرّات لقدميك... وفي قلب كلّ صديق ذكريات وآمال... آنسة سهلة متمتعة، تطوف بنا على غير مثال، كأنّ الشرق قد استوهبها الغرب في ليلة القدر... أيّ جديد من الجلود ترى تهين إذا امتدّ الشاطئ وترامى الأفق واكتظّ الساحل بالمعجبين؟ أيّ جديد يا أملي وحسرتي؟! القاهرة في غيبتك خواء تنضح كآبة ووحشة، كأنها عكّارة الحياة والأحياء... ثمّة مناظر ومعالم، ولكنّها لا تخاطب وجدًا ولا تحرك قلبًا، كأنّها عاديّات الدنيا وذكرياتها في قبر فرعون لم يفضّ... ما من مكان بها يعدني بعزاء أو تسلية أو مسرة... إخالني حينًا نختنق حينًا سجينًا وحينًا مفقودًا ضالًا غير مفتقد. يا عجبًا أكان وجودك ينبل أملًا أفقدنيه البعاد؟ كلًّا يا قضائي وقدري، ولكنك كالأمنية، الاستغلال بجناحها برّد وسلام وإن

اعتصمت بالمحال، هل يُغني المشتاق المتطلع إلى ظلمة السماء معرفته أنَّ البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض؟... كلاً وإن لم يدر للبدر امتلاكاً. إنما أطمع إلى الحياة في صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم، بل أنت حائلة في ما خفق الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحري: الذاكرة. عن إعجازها غفلت حتى عرفتكَ، اليوم أو غداً أو بعد دهر في العباسية أو رأس البر أو في أقصى الأرض لن تبحر مخيلتي عينك السوداوان الساجيتان، وحاجباك المقرونان، وأنفك السوي اللطيف، ووجهك الدرّي الخمرّي، وجيدك الطويل، وقامتك الهيفاء، وما شئت من سحر يكتنفك مزرياً بكل وصف مسكراً كعرف الفلّ والياسمين، لأملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة لتقوّض عوائق وموانع فيكون المصير إليّ... إليّ وحدي بما أحببت هذا الحب كله... وإلا فخيرني عن معنى هذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام. لا تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب، السمع والبصر والذوق والحدّ واللهم والمودة والظفر مسرات تهوي عند من فعم الحب قلبه، من أول نظرة، يا قلبي. ما ارتدت عنها عيناك حتى آمنت بآثارها زيارة مقيم لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن في مثلها تُخلق الأرواح في الأرحام وتزلزل الأرض... ربّاه لم أعد أنا... قلبي تلاطمه جدران الأضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتهاى حتى يمس الجنون، اللذة تسطع حتى تعانق الألم، أوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكنون، دمي يصرخ مستغيثاً لا يدري ممّ يستغيث، الأعمى يبصر والكسيع يسير والميت يحيا، حلفتك بكل عزيز ألا تذهبي أبداً، أنت يا إلهي في السماء وهي في الأرض، آمنت بأن ما مضى من حياتي كان تمهيداً لبشارة الحب، لم أمت صغيراً ولم ألحق بمدرسة غير فؤاد الأول ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم... ولم... كلّ أولئك كي أضع يوماً إلى قصر آل شداد، يا للذكرى! يكاد القلب من وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسماعيل وحسن منهمكين في شقّ الأحاديث حين ورد مسامعنا

صوت رخيّم محيياً، التفّت وأنا من الدهول في غاية... من تكون القادمة؟... كيف لفتاة أن تقتحم على غرباء مجلسهم؟... ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل... وتناسيت التقاليد جميعاً... وجدتي حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه الأرض جاء. بدت وكأنها صديقة للجميع إلّا، فقال حسين يعارف بيننا: «صديقي كمال... أخي عابدة» ليلتذّ عرفت لم خلقت... لم لم أمت... لم دفعتني المقادير إلى العباسية، وحسين، وقصر آل شداد، متى كان ذلك؟ كان الزمان نسيّاً منسياً وأسفاه! إلّا اليوم، كان يوم الأحد... عطلة مدرستها الفرنسية الذي صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبي، وعلى اليقين كانت مولدي أنا، ما قيمة التاريخ؟ سحر التقويم أنّه يومنا بأنّ الذكرى تُبعث حياة وتعود ولو أنّ شيئاً لا يعود، لن تفتأ تجدّ في البحث عن التاريخ، ولن تفتأ تردّد: مطلع السنة الثانية بالمدرسة... أكتوبر نوفمبر... حين زيارة سعد للصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية... مستخيراً الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلا أنك تشبّث تشبّث اليأس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد. لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسها، وهو ما تتخيّله حيناً بعد حين بشعور ملؤه الشكّ والهيام، كأنما هي مخلوق غير جسماني لا مسّ له... وهكذا ضاعت فرصة كالخلم كما ضاع الزمان، ثم أقبلت على صديقها تحادثها ويحادثانها - بغير كلفة - وأنت قابع في مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة التشبّع بتقاليد حيّ الحسين، حتى عدت تتساءل: ترى، أهي تقاليد خاصّة بالقصور، أم نفحة من باريس التي نشأ المعبود بين أحضانها؟... ثم تستغرق في رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنتشي بتغريده وتمتلئ بكلّ حرف يندّ عنه، ولعلك - يا مسكين - لم تدرك وقتها أنك تولد من جديد، وأنت كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياح والدموع. وقالت ذات الصوت الرخيّم: «سندهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة». فسألها إسماعيل بأساً:

«أتحبين منيرة المهدية؟»... فترددت كما ينبغي لأنسة نصف باريسية، ثم أجابت: «ماما تحبها»، ثم اشترك حسين وإسماعيل وحسن في حديث عن منيرة وسيد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا، ثم ما أدري إلّا والصوت الرخيم يسأل: «وأنت يا كمال، ألا تحب منيرة؟»، أتذكر ذلك النداء الذي نزل على غير انتظار؟ أعني أتذكر النغمة الطبيعية التي تجسمها؟ لم يكن قولاً، ولكن نغماً وسحرًا استقرّ في الأعماق كي يغرد دومًا بصوت غير مسموع ينصبّ فؤادك إليه في سعادة ساوية لا يدرها أحد سواك، كم روعك وأنت تتلقاه، كأنّ هاتفاً من السماء اصطفاك فردّد اسمك، سُقيت المجد كلّهُ والسعادة كلّها والامتنان كلّهُ في نهلة واحدة وددت بعدها لو تتفّ مستنجدًا: «زملوني... دثروني»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت، لبثت دقائق ثم ودّعنا ومضت، في عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنمّ إلى جمالها الفاتن عن صراحة محبة وجرأة مصدرها الثقة - لا الاستهتار أو الفحة - وترفع مروّع، كأنّها تجذبك وتدفعك معًا... جمالها فتنة لا أدرك له كنّها ولا أدري له شبها، وكان يجلّ إلى كثيرًا أنّه ليس إلّا ظلًّا لسحر أعظم يكمن في شخصها... من أجل أيّ هذين أحبها؟... كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبي. يتراجع ذلك اليوم كلّ يومًا إلّا أنّ ذكرياته ناشبة في قلبي أبدًا. لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلّب القلب في جنباتها نشوان حتّى يخال أنّها الحياة جميعًا، فيتساءل فيما يشبه الشك: هل كانت ثمّة وراء ذلك حياة؟... هل حقًا مضى زمن قبلها حلا من الحبّ قلبي وأقصر من تلك الصورة الإلهية نفسي؟. ربّما أسكرتك السعادة حتّى تحزن على ما ضاع من ماضٍ جديب وربّما لسعك الألم حتّى تذوب حشرات على السلام الذي ولّى، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلًا، فيمضي ملتئمًا الشفاء في شقّ العقاقير الروحية، يستمدّها من الطبيعة آنًا، ومن العلم آنًا، ومن الفنّ حينًا، وفي العبادة أحيانًا كثيرة... قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية... أيّها الناس

حبّوا أو موتوا... لسان حالك وأنت تسير مزهوًّا فخورًا بما تحمل بين جنبيك من نور الحبّ وأسراره... يزدهيك علوّ فوق الحياة والأحياء، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة، وأنت أنت الذي تخلو حينًا آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسية الأيمة مريضة بإحصاء النقائص وتقصيها بلا رحمة في كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الآدمية... ربّاه، كيف تخلق نفسك من جديد؟ هذا الحبّ طاغية يتيه فوق كافّة القيم وفي ركاية يتألّق معبودك، لا تكملهُ الفضائل ولا تنقصه المثالب، النقيصة تلوح في تاجه الدرّي حسنا يشغلك إعجابًا، هل أزرى بها في نظرك أن تخرج على التقاليد المرعية؟ كلّاً، بل إنّ خروجها بالتقاليد المرعية أزرى. يطيب لك أحيانًا أن تسأل نفسك: ماذا تروم من حبّها؟ أجب بكلّ بساطة: أن أحبّها، أيجوز أن تنبثق في النفس هذه الحياة كلّها ثم يتساءل عن غاية وراءها؟ لا شيء وراءها. العادة هي التي ربطت بين لفظي الحبّ والزواج، ليست فوارق السنّ والطبقة هي وحدها التي تجعل من الزواج غاية مستحيلة في مثل حالي، ولكنّه الزواج نفسه، بما يستنزل الحبّ من سائه إلى أرض العقود والعرق... ويسألك الذي يابى إلّا أن يحاسبك، يَمّ جادت عليك لقاء التهانك في حبّها؟. أجهه بلا تردد: ابتسامة فاتنة، و«يا كمال» الغالية، وزيارتها للحديقة في الأوقات السعيدة النادرة، وترائيها مع الصباح النديّ، وسيارة المدرسة غضي بها، ومعايشتها الخيال في سباحات البقطة وتهويم الأحلام. ثمّ تسألك النفس الطمّاعة المجنونة: أمن المحال أن يكون المعبود مشغولًا بأمر عابده؟... أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن يذكر عند العودة اسمنا...».

- بسرعة إلى الحمام، هل تأخّرت؟!

مالت عينا كمال - وقد لاح فيهما رجع المفاجئة - إلى ياسين الذي عاد إلى الحجرة وهو ينشّف رأسه بالفوطة، ثمّ وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل نحيفًا، وألقى نظرة طويلة على المرأة كأنّها يتفحص

أن يتعرف على تاريخ آخِر شتمة تلقاها من أبيه، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب، أو بعد حبه - الذي غدا يؤرخ به - بعام، إذ شعر وقتذاك بأن مصادقته لشبان من طراز حسين شذاد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة في مصروفه كي يتأتى له مجاراتهم في هوهم البريء، فشكا أمره إلى أمه راجياً إياها أن تخاطب أباه في شأن الزيادة المأمولة، ومع أن مخاطبة الأب - في مثل هذا الأمر - لم تكن يسيرة على الأم، إلا أنها هانت بعض الشيء بتغير معاملته لها عقب وفاة فهمي، فحدثته منوّهة بعلاقة جديدة مشرفة لابنتها بأصدقاء من «الأكابر»، وعند ذلك دعا السيد كمال، وصب عليه غضبه، حتى صاح به: «هل ظننتني تحت أمرك أو أمر أصحابك!... ملعون أبوك وأبوهم»، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظن أن الأمر انتهى عند ذلك... ولكنّه ما يدري إلا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالي، وما إن سمع اسم حسين عبد الحميد شذاد، حتى سأله باهتمام: «من العباسية صاحبك؟». فأجاب كمال بالإيجاب، وقلبه يخفق، فقال السيد: «كنت أعرف جدّه شذاد بك، وأعرف أيضاً أن أباه عبد الحميد بك كان مبعداً في الخارج لسابق علاقته بالخديو عباس... ليس كذلك؟»، فأجاب كمال بالإيجاب مرة أخرى، وهو يغالب وجده الذي أهاجه الحديث عن والد معبودته وذكر لثوّه ما علم عن الأعوام التي قضتها الأسرة في باريس، حيث ترعرعت معبودته في نور مدينة النور، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودة مضاعفة، وعدّ معرفته لجدّ معبودته رقية سحرية تنسبه - ولو من بعيد - إلى منزل الوحي ومبعث السناء. ثم ما لبثت أنه أن رقت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه.

منذ ذلك اليوم لم يتعرض لشتمة جديدة، إمّا لأنه لم يرتكب ما يستوجبها، وإمّا لأن أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقاً... وقف كمال إلى جانب أمه في المشربية يشاهدان السيد أحمد في الطريق، وهو يردّد - في وقار ولطف - تحيات عمّ حسين الخلاق والحاج

رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذي تراءى لكبره وقوّته كأنه منحوت من الجرانيت، ثم تناول فوطته من على شبك السرير ومضى إلى الحمام.

وكان السيد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه، سائلاً الله الهداية والستر في الدارين... وفي أثناء ذلك كانت أمينة تعدّ المائدة، ثم ذهبت إلى حجرة السيد، فدعته - بصوتها الوديع - إلى تناول الفطور، وانجذبت إلى حجرة ياسين وكمال فكررت الدعوة.

اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية، ويسمّل الأب وهو يتناول رغيفاً معلناً بدء الأكل، فتبعه ياسين ثم كمال، على حين وقفت الأم وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القل. كان مظهر الأخوين يدلّ على الأدب والخشوع، ولكن خلا قلبهما - أو كادا - من الخوف الذي كان يركبهما - قديماً - في حضرة الأب، ياسين: لأنّ بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة، وضمناً ضدّ الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة، وكمال: لأنّ بلوغه السابعة عشرة، وتقّده في الدراسة وهباه نوعاً من الضمان أيضاً إلا يكن بقوة ضمان ياسين، فإنه لم يخلّ من العفو والتسامح على الأقلّ في الهفوات النافهة، إلى أنه آنس من أبيه في السنوات الأخيرة أسلوباً من المعاملة تخفّف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الأكلين بعد أن كان الصمت يتحكّم في مجلسهم تحكّماً خيفاً، إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهجة ولو بضم ممتلئ بالطعام. أجل لم يعد غريباً أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلاً: «زرت أمس رضوان في بيت جدّه، وهو يقرنكم السلام ويقبل يدكم»، فلا يعدّ السيد الخطاب جراءة غير محمودّة، ولكنّه يقول له ببساطة: «ربّنا يحفظه ويرعاه»... ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب، محدثاً بذلك تطوّراً خطيراً في علاقته التاريخية بأبيه: «متى يستحقّ رضوان شرعاً لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيد: «عندما يبلغ السابعة»، بدلاً من أن يصيح به: «اخرس يا ابن الكلب». طاب لكمال يوماً

درويش بائع الفول والفولبي اللبان ويومي الشربتي، وأبو سريع صاحب المقل. ثم رجع إلى الحجره حيث وجد ياسين واقفاً أمام المرأة يتألق في عناية وصبر. جلس على كنية بين السريرين، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورّد المكتنز بنظرة باسمه غامضة، كان يَكُنْ له حباً أخوياً صادقاً، بيد أنه لم يكن يستطيع - كلما أنعم فيه الفكر أو النظر - أن يقاوم شعوراً خفياً بأنه حيال «حيوان أليف جميل»، على رغم أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص، ربّما تساءل، تساؤل من يرى في الحب جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصوّر ياسين عاشقاً؟ فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة، أجل ما للحب وهذه الكرش المترعة! ما للحب وهذا الجسم اللحيم! ما للحب وهذه النظرة الشهوانية الساخرة! ثم لا يتمالك أن يجد نحوه إحساساً بالازدراء الملطف بالعطف والود، وإن لم يخل أحياناً - خاصة في الأوقات التي تعترى حبه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط - من عاطفة إعجاب بل حسد، كذلك بدا ياسين لعينه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذي بؤاه إياه قديماً حينما كان يظنه عالماً ساحراً مالكا لفنون الشعر والقصص، تكشف له قارئاً سطحياً يقنع من وقت مجلس القهوة بضع ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد عبده، حياة عاطلة من بهاء الحب وأشواق المعرفة الحقيقية وإن كنّ لصاحبها حباً أخوياً لا تشوبه شائبة... لم يكن كذلك فهمي، كان مثله الأعلى في الحب والعقل، ولكنّه بدا أخيراً كالمختلف بعض الشيء عما يطمح إليه، أجل ساوره شك يقارب اليقين في أنّ فتاة كرميم يمكن أن تبعث في النفس حباً حقيقياً كالحب الذي يضيء به نفسه، كما ارتاب في أن تضاهي الثقافة القانونية التي نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التي يتشوقها بكلّ قوّة نفسه، كان يتأمل من حوله بعين تنفتح على التأمل والنقد، وذهب في ذلك كلّ مذهب، إلّا أنّه وقف عند عتبة أبيه لا يجرؤ على أن يرفع قدماً، لاح الرجل لعينه شيئاً هائلاً يترّبع على

عرشه فوق النقد! - أنت اليوم عريس! اليوم عيد من أعيادك الظافرة، أليس كذلك؟ لولا نحافتك ما وجدت ما أوأخذك عليه... قال كمال مبتسماً: - إنّي راضٍ عنها. ألقى ياسين على صورته نظرة أخيرة، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله مينة بعناية حتى أوشك أن يمس حاجبه، ثم قال وهو يتجشأ: - أنت حمار كبير يحمل البكالوريا، تمتّع بالطعام والراحة فهذه هي العطلة، كيف تسوّل لك نفسك أن تقرأ في العطلة أضعاف ما تقرأ في عامك الدراسي؟! اللهمّ إنّي بريء من النحافة وأصحابها! ثم، وهو يغادر الغرفة والمنشأة العاجية في يده: - لا تنس أن تختار لي قصة جيّدة، مثل «باردليان»، و«فوستا»، هه... مضى زمن كنت تستجديني فصلاً من رواية، هاك زمناً أغبر أشحذك فيه القصص! ارتاح إلى الوحدة التي يخلو فيها إلى نفسه، فنهض وهو يغمغم: من أين له بالبدانة والقلب لا ينام؟! لم تكن تحلو له الصلاة إلّا خالياً، صلاة بالجهاد أشبه ويشترك فيها القلب والعقل والروح، جهاد من لا يرضنّ بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقي ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على الهفوة والخطاة... أمّا الدعاء في أعقاب الصلاة، فلها، لها وحدها... - ٣ - عبد المنعم : الفناء أوسع من السطح، ولا بدّ أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها... نعيمة : ستغضب ماما وخالتي وجدتي... عثمان : لن يرانا أحد... أحمد : البئر فظيعة، وموت من ينظر فيها. عبد المنعم : نرفع الغطاء، ثم ننظر من بعيد... (ثم بصوت مرتفع)... هيّا بنا نزل. أم حنفي : (معتزلة باب السطح) لم يبق في حيل للنزول والطلوع، قلت نطلع السطح فطلعنا السطح،



وقلتم نزل الفناء فنزلنا إلى الفناء، نطلع السطح مرة ثانية فطلعنا السطح مرة ثانية، ماذا تريدون من الفناء؟... الجوّ حارّ تحت، أمّا هنا فالنسمة جارية، وعمّا قليل تغيب الشمس.

نعيمّة : سيرفعون غطاء البئر لينظروا فيها...  
 أمّ حنفي : سأنادي ستّ خديجة وستّ عائشة.  
 عبد المنعم : نعيمة كذّابة، لن نرفع الغطاء، ولن نقترّب منه، سنلعب في الفناء قليلاً ثمّ نعود، ابقِ هنا حتّى نعود.

أمّ حنفي : أبقى هنا؟! رجّلي على رجلكم، الله يسديكم... ليس في البيت كلّ مكان أجمل من السطح، انظروا إلى هذا البستان!

محمّد : نامي لأركبك...  
 أمّ حنفي : كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى، الله، الله... انظروا إلى الياسمين واللبّاب، انظروا إلى الحمام...  
 عثمان : أنت قبيحة كالجاموسة، ورائحتك نتنة...  
 أمّ حنفي : الله يسامحك، عرقي سال من الجري وراءكم.

عثمان : خلّينا نر البئر ولو شويّة صغيرة.  
 أمّ حنفي : البئر ملأى بالعفاريّات، ولذلك سدناها. عبد المنعم : كذّابة، لم تقلّ ماما ولا خالتي هذا...  
 أمّ حنفي : الحقيقة عندي أنا، أنا وستّي الكبيرة، كنّا نراهم رؤية العين، فانتظرنا حتّى دخلوا، وألقينا على فوهة البئر الغطاء الخشبيّ وأثقلناه بالحجارة. لا تذكروا البئر، وقولوا معي: «باسم الله الرحمن الرحيم»...  
 محمّد : نامي لأركبك.

أمّ حنفي : انظروا إلى اللبّاب والياسمين! ليت عندكم مثلها، ليس في سطحكم إلّا الدجاج والخروفان اللذان تسمّونهما للعيد.

أحمد : ماء... ماء... ماء...  
 عبد المنعم : هاتي سلّمًا لنطلع عليها!  
 أمّ حنفي : يا ساتر يا ربّ، الولد لحاله، العبوا في الأرض لا في السماء.

رضوان : في شرفة بيتنا وفي السلامك أخصّ ورد أحمر وأبيض وقرنفل...  
 عثمان : عندنا خروفان ودجاج...  
 أحمد : ماء... ماء... ماء...  
 عبد المنعم : أنا في الكتاب، من منكم في الكتاب؟  
 رضوان : أنا حافظ «الحمد».  
 عبد المنعم : الحمد، كُبة لمه!  
 رضوان : إخّص، أنت كافر.  
 عبد المنعم : هذا ما يتغنّى به العريف في الطريق...  
 نعيمة : قلنا ألف مرّة لا تردّد كلامه...  
 عبد المنعم : (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالي ياسين؟  
 رضوان : أنا عند ماما.  
 أحمد : أين ماما؟  
 رضوان : عند جدّي الآخر!  
 عثمان : أين جدّك الآخر؟  
 رضوان : في الجباليّة!... في بيت كبير وسلامك.  
 عبد المنعم : لماذا أمّك في بيت، وأبوك في بيت؟  
 رضوان : ماما عند جدّي هناك، وبابا عند جدّي هنا...  
 عثمان : لمّ لا يوجدان في بيت واحد مثل بابا وماما...؟  
 رضوان : القسمة والنصيب، هذا ما تقوله جدّي الأخرى!  
 أمّ حنفي : قرّعوه حتّى أقرّ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله! ارحموا والعبوا...  
 أحمد : نامي لأركبك...  
 رضوان : انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبّاب...  
 عبد المنعم : هاتوا سلّمًا، وأنا أقبض عليها...  
 أحمد : لا ترفع صوتك، إنّها تنظر إلينا وتسمع كلّ كلمة نقولها...  
 نعيمة : ما أجملها، عرفت! هي العصفورة التي رأيتهَا أمس فوق جبل الغسيل عندنا...  
 أحمد : الأخرى في السكّريّة، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدّي...؟

عبد المنعم : يا حمار، العصفورة تطير من السكّرية إلى هنا وتعود قبل المساء .

عثمان : أهلها هناك وأقاربها هنا . . .

محمّد : نامي لأركبك، أو أبكي حتى تسمعي ماما . . .

نعيمة . . . بلعب الحجلة؟

عبد المنعم : بل نتسابق . . .

أم حنفي : من غير شجار بين السابق والمسبق .

عبد المنعم : اسكتي يا جاموسة . . .

عثمان : ناع ع . . . ناع ع .

أحمد : ماء . . . ماء . . . ماء .

محمّد : سأدخل السباق راكباً، نامي لأركبك . . .

عبد المنعم : واحد . . . اثنان . . . ثلاثة . . .

احتفى السيّد أحمد عبد الجواد بالمُدعوين فأخلى نفسه لهم النصف الأوّل من النهار كلّهُ، ثمّ توسّط مائدة الوليمة التي ضمّت: إبراهيم شوكت، وخليل شوكت، وباسين وكمال. ثمّ دعا بالرجلين إلى حجرة نومه في جلسة عائليّة، فمضوا يتسامرون في جوّ من المودة والمؤانسة وإن لم يخلُ من تحفّظ من ناحية السيّد وتأدّب من ناحية صهره، مصدره ما يلتزمه الرجل في المعاملة مع آل بيته حتى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة في السنّ بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة.

ودعي الأطفال إلى حجرة الجدّ ليقبلوا يده ويتلقّوا هداياه النفيسة من الشيكولاطة والملمن، فتقدّموا إليه بترتيب أسنانهم: نعيمة بنت عائشة أوّلًا، فضوان بن ياسين، فعبد المنعم بن خديجة، فعثمان بن عائشة، فأحمد بن خديجة، ثمّ محمّد بن عائشة. راعى السيّد المساواة المطلقة في توزيع عطفه وابتساماته على أحفاده، منتهزًا فرصة خلوّ الحجرة من مراقبين - عدا إبراهيم وخليل - ليتخفّف بعض الشيء من تحفّظه الماثور، فهزّ الأيدي الصغيرة بترحاب، وقرص الخدود الموردة بحنان، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمازح ذاك، وظلّ مراعيًا المساواة حريصًا عليها حتى مع رضوان أحظى الصغار بمحبّته.

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتفحصه بشغف، مدفوعًا بعواطف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحبّ الاستطلاع. وكان يجد لذة كبيرة في تتبّع ملامح الأجداد والآباء والأمّهات في السلالات الجديدة الصاخبة التي لم تكد تلقّن احترامه فضلًا عن مخافته، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين التي فاقت أمّها نفسها حسنًا ورواءً، فأتمحت الأسرة بقسمات غنيّة من الحسن بعضها مشتقّ من أمّها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمّد مع ميل واضح إلى ملامح الأب - خليل شوكت - خاصّة في عينيه الواسعتين البارزتين ذواتي النظرة الهادئة الخاملة، وعلى خلاف هذا تبدّى عبد المنعم وأحمد ابنا خديجة، فبشرتها وإن تكن شوكتيّة، إلّا أنّ عينيها هما عينا الأمّ أو الجدّة الصغيرتان الجميلتان، أمّا الأنف فينذر بمشابهة أنف الأمّ أو الجدّ على الأصحّ، أمّا رضوان فما كان له إلّا أن يكون جميلًا حظي بعيني أبيه أو عيني هنيّة السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفت العاجيّة، وأنف ياسين المستقيم. أجل تفرقت الملاحاة في وجهه أسرة. مضى زمن طويل مذ كان يتعلّق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم، يا لها من أيام! ويا لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمي ثمّ عائشة وكمال، ما منهم إلّا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكرون؟ لقد كاد هو ينسى، على أنّ نعيمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلّية بالحياء والأدب، أمّا أحمد فلم يكفّ عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاطة والملمن، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأمّا محمّد فهورل إلى الساعة الذهبيّة والخاتم الماسيّ في جوف الطربوش وكبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلّا بالقوّة. ومّرت لحظات توزّع السيّد الارتباك والحيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهذّب من كلّ جانب بالأحفاد الأعزّاء . . . وقيل العصر غادر السيّد البيت إلى الدكان، وبذاهبه تمتعت الصالة - حيث اجتمع بقيّة

خديجة، ولكن خليل شوكت بادر قائلاً:  
- صدقت خديجة هانم، إنَّ لطواجنها فضلاً علينا جميعاً، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخي...  
فردَّ إبراهيم نظره بين زوجته وحامته، وهو يبتسم كالمعتذر، ثم قال:  
- معاذ الله أن أنكر هذا الفضل، ولكني بصدد التحدّث عن المعلّمة الكبيرة (ثم وهو يضحك) وعلى أيّ حال فانا أنوّه بفضل والدتك لا والدتي أنا!  
وانتظر حتّى خفّت أصوات الضحك التي أثارها قوله الأخير، ثمّ واصل تقرّظه مُتلفّناً نحو الأمّ، وهو يقول:

- نعود إلى الطواجن، ولكن لم نقصر كلامنا على الطواجن!؟ الحقّ أنّ الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجن لذّة وفخامة، خذوا مثلاً: البطاطس المحشوّة، الملوخيّة، الأرزّ الملففل بالكبد والقوانص، المحاشي المتنوّعة، والله أكبر على الدجاج ولحمه المكتنز... خبّرني أيّ غذاء تطعمينه يا حماتي؟  
أجابته خديجة في تهكّم:  
- من الطواجن تطعمه!  
- سأقفر طويلاً عن إقراي بالفضل لأهله، ولكنّ الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندعُ الله أن يكثر من أيّام الأفراح... مبارك عليك البكالوريا يا سيّ كمال، وعقبى للدبلوم إن شاء الله...  
قالت أمينة بامتنان، وكانت موزّدة الوجه من الحياء

والسرور:

- ربّنا يفرّحك بعبد المنعم وأحمد، ويفرّح سيّ خليل بنعيمة وعثمان ومحمّد، (ثمّ ملتفتة إلى ياسين) ويفرّح ياسين برضوان...  
كان كمال يسترق النظر إلى إبراهيم حيناً وإلى خليل

آخر، وعلى شفّيته ابتسامة ثابتة يداري بها عادة ملله من الحديث، الذي تنعدم متعته وتقضي اللياقة بالاشتراك فيه ولو بحسن الإنصات. إنّ الرجل يحدث عن الطعام وكأنّه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل. الطعام... الطعام... الطعام... لم استحقّ هذا التقديس كلّهُ؟ هذان الرجلان العجيبان

أفراد الأسرة - بكامل حرّيّتها. ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور، ففرّشت بحصيرها وكنباتها، وعلّق بسقفها الفانوس الكبير، فغدّت مجلساً ومقهى لمن تبقّى من الأسرة في البيت القديم. وقد حافظت طوال اليوم - رغم امتلائها - على هدوئها، حتّى إذا لم يعد يبقى من السيّد إلّا ما سطع في الجوّ من عرف الكولونيا التي تَطْلُبُ بها، استردّت أنفاسها، فتعالت بها الأصوات والضحكات، ودبّت فيها الحركة، وأخذ المجلس هيئته كالعهد القديم، فتربّعت أمينة على كنبه أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى المواجهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانبية قعد ياسين وكمال، وما لبث أن انضمّ إليهم إبراهيم شوكت، وخليل شوكت - بعد ذهاب السيّد - فجلس إبراهيم إلى يمين حماته، وخليل إلى يسارها.  
لم يكد إبراهيم يستقرّ على مجلسه، حتّى خاطب أمينة قائلاً بلهجة متودّدة:

- بارك الله في اليد التي قدّمت لنا أشهى الطعام وألذّه (ثمّ وهو يردّد عينيه البارزتين الخاملتين في الجلوس كأنّما يلقي محاضرة) الطواجن... الطواجن!... معجزة هذا البيت، ليس الطاجن بما يحويه من المأكول - وإنّ لذّ وطاب - ولكن بتسيّكه قبل كلّ شيء. التسيّك هو كلّ شيء. هو الصنعة، وهو المعجزة، دلّوني على طواجن كالتّي التهمناها اليوم!...

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهي بين التأييد له اعترافاً بمهارة أمّها والاحتجاج عليه لتجاهله إيّاها، فلمّا أمسك كي يهتّئ للمنصّتين فرصة للإقرار برأيه، لم تتمالك من أن تقول:

- هذا حكم مسلّم به وليس في حاجة إلى شهادة شاهد، غير أنّي أذكّر - وأحبّ أن أفكر أيضاً - بأنك ملأت بطنك في بيتك مرازاً من طواجن لا تقلّ صنعة عن طواجن اليوم!

ارتسمت ابتسامة - ذات معنى - على وجوه عائشة وياسين وكمال، وبدا على الأمّ أنّها تغالب حياءها، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء

لا يبدو أنّها يتغيّران مع الزمن، كأنّهما بنأى عن تيّاره. وبينما عاد خليل إلى تأكيد الشئ، أنّجهت عينا إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكده يطراً عليه من إشرافه على الخمسين إلّا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيها حول طرفيّ الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقاراً بقدر ما أكسبته مزيداً من الخمول، ولكنّ شعرة واحدة - سواء في رأسه أم في شاربه المفتول - لم

تشب، وبدانته لم تزل مدججة قويّة لم يعثرها ترهل، إلى أنّ التشابه الذي جمع بين الشقيقتين إلّا في أغراض لا يعتدّ بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثلها في الصلّة والنظرة الحاملة كان ممّا يبعث على الضحك والازدراء حقاً. وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض وقد نزع

كلّ منها جاكته فلاح قميصه الحريريّ والأزرار الذهبية تلمع في عرا أكرامه. مظهر ينمّ على وجاهة هي كلّ ما هنالك. في بحر السنوات السبع التي وصلت بين الأسرتين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منها كثيراً أو قليلاً، ولكنّ حديثاً واحداً ذا طعم لم يجرّ بينهم!... فيمّ الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفّق بينها وبين شقيقته! إنّ الازدراء - من حسن الحظّ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة. أوه... يبدو أنّ حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سي خليل شوكت يتهمّاً ليلقي كلمته:

- لم يعد أخي إبراهيم الحقّ فيما قال، يدّ لا عدمنها، ومائدة جديرة بأن ينادي بها المنادون... كانت أمينة في أعماقها تحبّ الشئ، وكثيراً ما تعاني مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجهل الدائب الذي تبذله عن حبّ وطوعية في خدمة البيت وآله، وكثيراً ما نهمت إلى سماع كلمة طيبة من السيّد، ولكنّ السيّد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففي اقتضاب وفي أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم و خليل في موقف عجب غير مألوف ملأها سروراً حقاً، ولكنّه هيج لحدّ الارتباك حيائها، فقالت تداري مشاعرها:

- لا تبالغ يا سي خليل، أنت لك أمّ من يالف صحّ ولو في الأحلام أن تظفر مثلها بزواج من آل طعامها يزهّد في أيّ طعام سواه!...

وبينما عاد خليل إلى تأكيد الشئ، أنّجهت عينا إبراهيم بحركة عكسيّة إلى خديجة، فالتقى بعينيهما وهما تحدّجان إليه كأنّما توقّعت نظرته فاستعدّت لها، فابتسم كالظافر، وقال يخاطب حماته:

- لا يقرّك بعض الناس على هذا السراي يا حماتي... أدرك ياسين مرمى هذه الملاحظة، فضحك ضحكة عالية، وسرعان ما ضجّ المجلس بالضحك، حتّى أمينة ابتسمت ابتسامة عريضة واهتزّ نصفها الأعلى بضحكة مكتومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنّما تنظر في حجرها، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت حتّى هدأت العاصفة، ثمّ قالت بتحدّ:

- لم يكن خلافنا حول الطعام وطهيه، ولكن حول حقّي في الاستقلال بشئون بيتي، ولا عليّ من هذا... تجددت في النفوس ذكرى المعركة القديمة التي استعرت في العام الأوّل من زواج خديجة بينها وبين حماتها حول «المطبخ»، وهل يظنّ واحداً للبيت كلّ تحت إشراف الأمّ، أو تستقلّ خديجة بطبيعتها كما أرادت. كان خلافاً خطيراً هدّد وحدة الأسرة الشوكيّة وترامت أنباؤه إلى بين القصرين، حتّى علم به الجميع ما عدا السيّد الذي لم يجرؤ أحد على إبلاغه إيّاه، لا هو ولا سائر الخلافات التي نشبت تبارعاً بعد ذلك بين الحماة وكُنّتها. وأدركت خديجة مذفكرت في الكفاح أنّ عليها أن تعتمد على نفسها وحدها، فزوجها على حدّ تعبيرها «رجل نائم» لا هو لها ولا عليها، كلّما حرّضته على استخلاص حقّها قال لها كالمداعب: «يا ست... دعينا من وجع الدماغ»، ولكنّه إذا كان لم يؤيّد بها فإنّه كذلك لم يشكّمها. فانبرت إلى الميدان وحيدة ورفعت رأسها حيال العجوز المبجلة بجرأة لم تكن متوقّعة وبعناد لم يخلدها حتّى في ذلك الموقف الدقيق. عجبت العجوز لجرأة البنت التي تلقّتها على يدها من عالم الغيب. وسرعان ما احتدم الخصام وجنّ الغضب، وراحت تذكّرها بأنّه لولا فضلها عليها ما شوكت، ولكنّ خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها

فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقاً لها دون اللجوء إلى حدة لسانها الماثورة، لسابق منزلة العجوز من ناحية، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى، ثمّ هداها مكرها إلى أن تحرّض عائشة على العصيان، ولكنّها وجدت من الفتاة الكسول إعراضاً وجبناً، لا حباً في الحياة ولكن إثارة للراحة والدعة اللتين تمتعت بهما - بغير حساب - في ظلّ الحضانة الإيجارية التي فرضتها حماها على الجميع، فصبت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة، ثمّ ركبها العناد فواصلت «الجهاد» بلا توانٍ أو تردّد حتى ضاق صدر العجوز فسلمت كارها بحقّ كبتها «العجزيّة» بالاستقلال بمطبخها وهي تقول لابنها الأكبر: «أنت وشأنك. إنك رجل ضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك، وجزاؤك الحقّ أن تحرّم من طعامي إلى الأبد!». ظفرت خديجة ببغيها فاستردت أدوات جهازها النحاسيّة، وهباً لها إبراهيم المطبخ كما رسمت، ولكنّها خسرت حماها وفتكت بأسباب المودة التي ربطت بينها مذ درجت في المهّد، ولم تحتل أمانة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثمّ سعت سعيها عند السيّدة المبجلة مستعينة بإبراهيم وخليل حتى تمّ صلح، ولكن أيّ صلح كان؟... كان صلحاً لا يكاد يستقرّ حتى يصطدم بنقار، ثمّ يعقبه صلح، فنقار من جديد، وهكذا... وكلّ واحدة منها تلقي التبعة على الأخرى، وأمانة بينهما حائرة، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرّج، كأنّ الأمر لا يعنيه، فإذا رأى أن يتدخل تدخّل وانياً وقنع بترديد النصيحة في هدوء بل برود غير مبالٍ بتوبيخ أمّه أو عتاب زوجها، ولولا إخلاص أمانة ودماثة خلقها لسارت العجوز بشكوها إلى السيّد أحمد، ولكنّها عدلت عن ذلك كارها ومضت تنفّس عن صدرها في أحاديثها الطويلة مع كلّ من يلقاها من الأهل والجيران، معلنة على رؤوس الأشهاد بأنّ اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها في حياتها وأنّ عليها أن تتحمّل الجزاء.

قال إبراهيم معقّباً على كلام خديجة، وهو يبتسم، كأنّما ليخفّف بابتسامته من وقع تعقيبه:

- ولكنك لم تكتف بالمطالبة بحقك، بل طعنت بلسانك ما حلا لك الطعن، هذا إذا لم تكن خاتني الذاكرة...

ورفعت خديجة رأسها المعصوب بمنديل بيّ في تحدّ، وقالت وهي ترمق زوجها بنظرة تهكمّ وغيط:

- ولم تخونك الذاكرة؟! هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى تخونك! ليت للناس جميعاً ذاكرة هادئة مطمئنة خالية البال كذاكرتك! لم تخنك ذاكرتك يا سيّ إبراهيم، ولكنّها خاتنتني أنا! والحقّ أنّي لم أتعرّض لمقدرة نيتك، ولم يكن لي بها شأن ولا حاجة إليها، فإني أعرف بحمد الله كافّة واجباتي وأعرف كيف أوذيها على خير وجه، ولكنّي كرهت أن أقبع في بيتي وأن يبحثن الطعم من الخارج كنزلاء الفنادق، وفضلاً عن هذا كلّه فإني لم أطق - كما يحلو «لبعض الناس» - أن أمضي نهاري نائمة أو لاهية وغيري يقوم بمهامّ بيتي.

أدركت عائشة من توهّا المقصود من «بعض الناس»، فضحكت ولما تكمل خديجة كلامها، ثمّ قالت بلهجة لطيفة كأنّما دافعها الإشفاق:

- افعلي ما يحلو لك ودعي الناس - أو بعض الناس - وشأنهم، لا شيء الآن يدعو إلى كدرك، فأنت سيّدة مستقلة - عقبى لمصر - وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل: في المطبخ، والحمام، وفوق السطح، وتعين في وقت واحد بالأثاث والدجاج والأولاد، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شفتك أو حمل ابن من أبنائك، ربّاه... لم هذا العناء وقليل منه يغني؟! أجابت خديجة بحركة من ذقنها، وهي تغالب ابتسامته دلّت على أنّها وجدت في كلام عائشة ما استأنست إليه، وعند ذاك قال ياسين:

- بعض الناس يُخلقون للسيادة، وبعضهم يُخلقون للعبوديّة...

فقال خليل شوكت، وهو يبتسم كاشفاً عن ثنيتيه المترابطين:

- خديجة هانم مثال صالح لست البيت، غير أنّها

تتجاهل حقها من الراحة.

فقال إبراهيم شوكت مؤمناً على قوله:

- هذا رأيي بالتهايم، صارحتها به مراراً، ثم أثرت  
السكوت تفادياً من وجع الدماغ...

نظر كمال إلى أمه، وكانت غملاً فنجان خليل للمرأة  
الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته،  
فعلت شفثيه ابتساماً، ثم مدَّ بصره إلى إبراهيم  
مدهوشاً وهو يقول:

- كأنك تخافها!

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير:

- أنا أنفادي من النكد ما وجدت سبيلاً إلى  
السلامة، وأختك تفادي من السلامة ما وجدت سبيلاً  
إلى النكد!

هتفت خديجة:

- اسمعوا الحُكم (ثم وهي تشير إليه كالمُتحدِّية)  
أنت تفادي من اليقظة ما وجدت سبيلاً إلى النوم!  
فقلت لها أمها، وهي تحدجها بنظرة تحذير:

- خديجة!

فربت إبراهيم على منكب حماته، قائلاً:

- عندنا من هذا كثيراً... ولكن اشهدي بنفسك!  
وكان ياسين يردّد بصره بين خديجة القويّة المثلثة،  
وعائشة النحيّة الرقيقة بحركة متعمّدة للفت الأنظار،  
ثم قال كالمستنكر:

- حدّثتمونا عن تعب خديجة المتّصل من الفجر إلى  
الليل، فأين أثر ذلك التعب؟!... كأنها هي الالهية  
وكان عائشة هي العاملة!...

فقلت خديجة، وهي تبسط راحة يدها في وجهه  
مفرجة بين أصابعها الخمس:

- ومن شرّ حاسد إذا حسد!

ولكنّ عائشة لم ترتع لمجرى الحديث الأخير،  
فلاحت في عينيها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض،  
واندفعت للذود عن نحافتها متجاهلة الغاية الواضحة  
من ملاحظة ياسين، وهي تعاني شيئاً من الغيرة  
فقالت:

- لم تعد السهانة موضة العصر (ثم مستدركة عندما

شعرت بأنّحاء رأس خديجة نحوها)، أو على الأقلّ  
فالنحافة موضة كذلك عند كثيرات...!  
فقلت خديجة بتهكّم:

- النحافة موضة العاجزات عن السهانة.

خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى  
سمعه، فوثب من باطنه إلى مخيلته صورة القامة  
الفارعة والقَدّ المشوق، فرقص قلبه بطرب روحانيّ  
وانبثقت منه النشوات، ثم احتضنته فرحة صافية نسي  
في حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه. فلم  
يدير كم فيها لبث حتّى انتبه على ظلّ سحابة من الأسى  
تجيء كثيراً ذيلًا لحلمه، لا كما يجيء الغريب الدخيل  
أو العنصر المتنافر، ولكنّها تتسرّب إلى الحلم الباهر  
كأنّها خيط من نسجه أو نعمة من هارمونيته. تنفّس  
تنفّساً عميقاً، ثم جال ببصره الحالم في الوجوه التي  
يجبها من قديم، والتي يبدو أنّها تتباهى على نحو أو  
آخر بحسنها، خاصّة الوجه الأشقر الذي هام زمناً  
باحتراس الماء من موضع شفثيه... استرجع هذه  
الذكرى في حياء - وما يشبه التأفّف - ف شعر بأنّ أيّ  
نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليف بأن يثير  
تعصّبه وإن حظي بعطفه وحبه.

- لن أرضى عن النحافة ولو في الرجال (واصلمت  
خديجة حديثها). انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى  
بزيادة وزنه، لا تظنّ يا بنيّ أنّ طلب العلم هو كلّ  
شيء.

أصغى كمال إليها باسماً في استهانة وهو يتفحص  
جسمها الذي تراكم لحمه وشحمه، ووجهها الذي  
توارت بالاكتناز عيوبه، معجباً بروح السعادة والفوز  
التي تكتنفها، غير أنّه لم يجد في نفسه الرغبة في مناقشة  
رأيها، أمّا ياسين، فقال بتحدّ وسخرية معاً:

- إذا فانت راضية عنيّ، لا تكابر في هذا!

كان ثانياً ساقه اليمنى تحته طارحاً الأخرى على  
الأرض، وقد فتح - من الحرّ - طوق جلبابه، فبدت  
من فتحة فائلته الواسعة خصلات من شعر صدره  
الأسود الأثيث، فألقت عليه نظرة نافذة، ثم قالت:

- لكّنك زدتها حبّتين، ثم إنّ شحمك وصل إلى

المخ، وهذا شيء آخر.

نفخ ياسين كالياس، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلاً في إشفاق وعطف:

- خبّرني عمّا تصنع بين زوجك - وهذه حالها - وبين والدتك؟

أشعل إبراهيم سيجارة، وأخذ نفساً، ثم نفخه وهو يمتدّ بوزنه مشاركاً أخاه خليل - الذي لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلّم - في تعفير جوف الصالة، ثم قال في عدم اكتراث:

- أذنّا من طين وأذنّا من عجّين، هذا ما تعلّمته من التجربة!

فقال خديجة، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشي بغيتها:

- لا دخل للتجربة في ذلك، التجربة بريئة وحياتك عندي. المسألة أنّ ربّنا أعطاه طبعاً مثل دندورمة عمّ بدر التركي، ولو تحرّكت مئذنة الحسين ما اهتزّت له شعرة...!

رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتّى ابستمت الابنة وخفضت عينيها فيما يشبه الحياء، وإذا بخليل شوكت يقول في فخار لطيف:

- هذا طبع آل شوكت، وهو طبع سلطانيّ. أليس كذلك؟!

فقال خديجة - بلهجة ذات مغزى - وهي تضحك لتخفّف من وقع كلامها:

- من سوء حظّي يا سيّ خليل أنّ والدتك لم تتطّبع بهذا الطبع السلطانيّ!

فبادرتها أمينة قائلة وقد نفذ صبرها:

- حمائك لا نظير لها في النساء، سيّدة جلييلة بكلّ معنى الكلمة!

فقال رأس إبراهيم يسرة، وهو يحدج زوجه بنظرة من علّ التمتع بها عينا البارزتان، ثم قال وهو يتنهد في ظفر:

- وشهد شاهد من أهلها، الله يكرمك يا حماتي...

(ثمّ مخاطباً الجميع) يا هوه أمّي ستّ كبيرة، وفي سنّ تستوجب الرعاية والحلم، وزوجي لا تعرف عن الحلم شيئاً...

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة:

- أنا لا أغضب بلا سبب، ولم يكن الغضب من طبعي في يوم من الأيام، وهاك أهلي فسلهم عمّا تشاء! ساد الصمت. كان أهلها لا يدرون ما يقولون، حتّى نذت عن كمال ضحكة، فلفتت إليه الأنظار، فلم يتمالك أن يقول:

- أبله خديجة أغضب حليلة عرفتها! فتشجّع ياسين قائلاً:

- أو هي أحلم غضوب، والله أعلم...

انتظرت خديجة حتّى هدأت ثائرة الضحك التي أعقبت ذلك. ثمّ أومأت إلى كمال وهي تهزّ رأسها في حسرة، قائلة:

- خانني الذي حملته على حجري أكثر ممّا حملت أحمد وعبد المنعم.

فقال كمال كالمعتذر:

- لا أظنّني أفشيت سرّاً...

وسرعان ما اتخذت أمينة موقفاً جديداً للدفاع عن خديجة التي بدلت في مركز لا تُحسد عليه، فقالت باسمّة:

- جُلّ من له الكيال...

وجارها إبراهيم شوكت في لباقة قائلاً:

- صدقت، إنّ لزوجي مزايا لا يُستهان بها، لعنة الله على الغضب الذي يصيب أوّل ما يصيب صاحبه، لا شيء في الدنيا يستحقّ في نظري الغضب! فقالت خديجة ضاحكة:

- يا بختك!... لذلك تمضي الأيام - عيني عليك

باردة - وأنت من التغيّر في حصن!

بدا على أمينة الاستياء - لأوّل مرّة - بصورة جدّيّة، فقالت في عتاب:

- ربّنا يصون له شبابه، هو وأمّثاله!

تساءل إبراهيم ضاحكاً، وهو لا يخفي سروره بدعاء حماته:

- شبابه؟!

فقال خليل شوكت يمينه، وإنّ وجهه الخطاب لأمينة:

- إنَّ التاسعة والأربعين في آل شوكت تُعدُّ من مراحل الشباب!

فعادت أمينة تقول في إشفاق:

- يا بني لا تتكلَّم هكذا ودعونا من هذه السيرة...  
ابتسمت خديجة لما بدا من أمِّها من إشفاق كانت هي على علم وإيمان بأسبابه وبواعثه، ذلك أنَّ الإشادة بالصحة جهراً في البيت القديم - صراحة - مكروهة، لتجاهلها «العين» وشرَّها، وهي نفسها - خديجة - لم تكن لتعالن بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت، حيث لا تحظى عقائد كثيرة - كالحسد مثلاً - بإيمان عميق، وحيث يخوضون في أمور شتى بلا خوف - كبير الجحش والموت والمرض - يحول الإشفاق والحذر دون الخوض فيها في البيت القديم، إلى هذا كله، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق مما تبدو في الظاهر، فلم يكن ثمة ما يتهدهدها من قول أو فعل، كانا زوجين موفقين، يشعر كلاهما في أعماقه بأنه لا غنى له عن الآخر رغم شتى المآخذ، وقد كان مرض إبراهيم يوماً فرصة غريبة جَلَّتْ مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة ووفاء. أجل! لم يكن النقرار ليسكت بينها، على الأقل من ناحيتها هي، فلم تكن أمُّه هدفها الوحيد، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يُعيها أن تكتشف فيه موضعاً كلَّ يوم لانتقاد. مثل: كثرة نومه، قبوعه في البيت بلا عمل، تكبره على مجرد فكرة أن يكون له عمل في الحياة، ثرثرته التي لا تنتهي، تجاهله لما ينشِب بينها وبين أمِّه من نزاع وملاحاة... حتى مرَّت أيام وأيام - على حدِّ تعبير عائشة - لم يكن لها من حديث إلا شكّه ولسعه - ولكن رغم هذا كله - أو بفضل هذا، من يدرى؟! فالنقرار نفسه يقوم أحياناً بوظيفة الشطة في تهيج شهوة الطعام. ظَلَّتْ عواطفها قوية ثابتة لا تتأثر بما يكدّر الظاهر، كأثبات التيارات المائية العميقة التي لا يتحوّل مجراها بفورات السطح وتشنجاته، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقدّر نشاطها حقَّ قدره، بعد أن لمس آثاره في رونق مسكنه ولذة مطعمه وأناقته وملبسه وهندمة ابنيه. فكان

يقول لها مداعباً: «الحقَّ أنَّك لقيّة يا غجرية!» رغم رأي أمِّه في هذا النشاط الذي لم تتردّد عن الجهر به في أوقات الخصام، وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هذه فضيلة الخدم لا الهوانم»، فتبادرها خديجة قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب، سيّد البيت الحقيقي من يخدمه»، فتقول العجوز مواصلة تهكمها: «لَقْنُوكَ هذا الكلام في بيتك كي يخفوا عنك أنَّك لم تكوني تصلحين في نظرهم إلا للخدمة!»، فتصيح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك عليّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزناً في بيتي»، فتصرخ العجوز: «يا ربِّ اشهد. السيّد أحمد عبد الجواد رجل طيّب، ولكنّه أنجب شيطانة، أنا أستحقّ ضرب الشبشب جزاء اختياري لك». فتمضي خديجة وهي تغمغم، حتّى لا تتبيّن المرأة كلامها: «أنت تستحقّين ضرب الشبشب... لا أجادل في هذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يبتسم في خبث: - ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهي تهزّ كتفها متظاهرة بالاستهانة:

- وقاع يسعى بوقية بين أختين!

- أنا؟!... حسبي الله، فهو المطلع على حسن نيتي!

وهي تهزّ رأسها كالأسفة:

- لم تكن يوماً ذا نيّة حسنة!

وقال خليل شوكت، معلّقاً على كلام ياسين:

- نحن نعيش في سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش»!

فضحكت خديجة حتّى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة، وقالت بلهجة لم تخل من تهكم:

- بيت سي خليل بيت أفرح، لا يزال هو يلعب بأوتار العود، والهانم تسمع أو تستعرض نفسها في المرأة أو تحدث هذه أو تلك من صويحباتها من النافذة أو المشربية، ونعيمة وعشيان ومحمد يلعبون بالمقاعد والوسائد، حتّى إنّ عبد المنعم وأحمد إذا ضاقا برفايتي فرّا إلى شقّة خالتهما فانضمّا إلى فرقة التخریب...!



- تساءلت عائشة باسمه:
- أهذا كل ما ترين في بيتنا السعيد؟
- قالت خديجة بنفس اللهجة:
- أو تغنين ونعيمة ترقص...!
- عائشة بمباهاة:
- حسبي أن جميع الجارات يحبينني، وأن حماي تحبني كذلك...!
- لا أتصور أن أفتح صدري لإحدى أولئك النسوة الثرثارات، أما حماك ففتح من يتملقها ويسجد لها...!
- يجب أن نحب الناس، وما أسعد أن يحبنا الناس كذلك، حقاً من القلب للقلب رسول، إنهن جميعاً يحشينك وكثيراً ما قلن لي: «أختك لا ترحب بنا ولا تعب من تقصينا!»... (ثم مخاطبة أمها وهي تضحك)... لا تزال تسمي الناس بأسماء هزلية، ثم تتندر بها في البيت، فيحفظها عبد المنعم وأحد، ويرددانها في الحارة بين الغلمان فتذيع!
- عاود الضحك الصامت أمينة، كذلك ضحكت خديجة في شيء من الارتباك، كأنما طافت بها ذكريات بعض مواقف محرجة، على حين راح خليل يقول في ابتهاج غير خاف:
- بالجملة نحن تحت صغير، فيه العواد والمطربة والراقصة! حقاً لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين والمرددين، ولكني أتوسم في أولادي خيراً، والمسألة مسألة وقت!
- فقال إبراهيم شوكت، موجّها الخطاب إلى أمينة:
- أشهد أن بنت ببتك نعيمة راقصة بارعة!
- ضحكت أمينة حتى تورّد وجهها الشاحب، ثم قالت:
- رأيته وهي ترقص، ما لطفها!
- قالت خديجة بحماس نطق بحنانها العائلي المأثور:
- ما أجملها! كأنها صورة من صور الإعلانات.
- فقال ياسين:
- ما أجملها عروساً لرضوان!
- فقالت عائشة ضاحكة:
- ولكنّها بكريّة الأسرة!... آه... لم يمكنني أن
- أغلظ في عمرها كما يجدر بالأمهات!
- فتساءل ياسين بعدم اكتراث:
- لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سناً من العريس؟
- فلم يجبه أحد، حتى قالت أمينة:
- لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب! فعادت خديجة تقول:
- ما أجملها يا ربّي! لم أرَ لجمالها مثيلاً... فتساءلت عائشة ضاحكة:
- وأمها؟... ألم تري أمها؟ فقطبت خديجة لتضفي على كلامها صفة الجدّة، وهي تقول:
- هي أجل منك يا عائشة، لن تستطيعي المكابرة في هذا!
- ثم ما لبثت أن عاودتها سخريتها فقالت:
- وأنا أجل منك ما!
- «هؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال! ماذا عرفوا من كنه الجمال؟ تعجبهم ألوان: بياض العاج، وسبائك الذهب. سلوني أنا عنه، ولن أحدثكم عن السمرة الصافية والأعين السود السواجي والقامة الهيفاء والأناقة الباريسية. كلاً أولئك جميل، ولكنّه خطوط وشكول وألوان تخضع في النهاية للحواس والقياس. الجمال هزة في القلب جارحة وحياة في النفس عامرة وهيمان تسبح الروح على أثره حتى تعانق السماوات... حدثوني عن هذا إن استطعتم...».
- لم يلتبس نساء السكرية وخديجة هانم؟..
- ربّما كان لها مزايا - كما يشهد بذلك زوجها - ولكنّ الناس عامّة يستهوها الوجه الصبيح واللسان الحلو...!
- قال ياسين ذلك كي ينكش خديجة من جديد، بعد أن رأى الحديث يتحوّل عنها في سلام، فرمته بنظرة كأنما تقول له: «تأبى أن أرحمك».
- ثم قالت وهي تتندّد بصوت مسموع:
- حسبي الله ونعم الوكيل، لم أكن أعلم أن لي هنا حاة أخرى.

الناس...»

قال إبراهيم شوكت، مخاطبًا كمال:

- لسنا كما تتهمنا أختك. لقد دخلت امتحان

الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١، كانت الابتدائية على أيّامنا شيئًا عظيمًا على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد، لم نواصل التعليم، لأنّه لم يكن في نيّتنا أن نتوقّف، أو بمعنى آخر لم نكن في حاجة إلى الوظيفة...!

أعجب كمال إعجابًا ساخرًا بقوله «دخلت امتحان الابتدائية»، ولكنّه قال مجاملًا:  
- هذا أمر طبيعي...!

كيف يكون للعلم قيمة ذاتيّة عند ثورين سعيدين؟، كلاهما تجربة ثمينة علّمتني أنّه من الجائز أن أحبّ - أيّ حبّ كان - من أحتقر... أو أن أفتقّ الخير - كلّ الخير - لشخص تثير مبادئه في الحياة نفوري وتقرّزي، لا أملك إلّا أن أكره الحيوانيّة من صميم قلبي، صار ذلك حقيقة وحقًا مذ هفّت على القلب نسمة الساء!

هتف ياسين في حماس هزليّ:

- لتحمي الابتدائية القديمة!

- نحن حزب الأغليّة على أيّ حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه - وأخاه ضمّنًا - على حزب الابتدائية التي لم ينالها، ولكنّه لم يجد بدًّا من التسليم، على حين راحت خديجة تقول:

- سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتّى ينالا الدبلوم العالي، سيكونان عهدًا جديدًا في آل شوكت، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيّدًا: عبد المنعم إبراهيم شوكت، أحمد إبراهيم شوكت... ألا يرنّ الاسم رنين «سعد زغلول»؟!

فصاح إبراهيم ضاحكًا:

- من أين لك هذا الطموح كلّ؟

- لم لا؟... ألم يكن سعد باشا مجاورًا بالأزهر؟! من الجراية إلى رئاسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها، ليس شيء على الله بكثير!!

تساءل ياسين متهمكًا:

- هلاّ قنعت بأن يكونا مثل عدلي أو ثروت؟

ثمّ إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع، ولكنّ بلهجة جدّية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقّع، فتقول:

- ليس عندي متّسع من الوقت كي أضيّعه في الزيارات، البيت والأولاد يلتهمون وقتي كلّ، خاصّة وأنّ زوجي لا يهتمّ لا بالبيت ولا بالأولاد! قال إبراهيم شوكت، مدافعًا عن نفسه:

- اتقي الله ولا تغالي شأنك في كلّ شيء، الأمر وما فيه أنّه ينبغي لمن كان له زوجة كزوجي أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر، الدفاع عن قطع الأثاث التي تكاد تنبري من كثرة النفص والمسخ، والدفاع عن الأولاد الذين تحمّلهم فوق ما يطيقون... آخر العهد بذلك، ما علمتم من دفعها عبد المنعم إلى الكتاب ولما يبلغ الخامسة من عمره!

قالت خديجة بفخار:

- لو اتّبع رأيكم لاستبقيته في البيت حتّى يبلغ سنّ الرشد! كانّ بينكم وبين العلم عداوة، كلّ يا حبيبي، سينشأ أولادي على ما نشأ عليه أخوالهم. إلّا إذاكر عبد المنعم في دروسه بنفسه!

ياسين مستنكرًا:

- أنت تذاكرينه؟!

- لم لا؟! كما كانت نيّة تذاكر كمال، أجالسه كلّ مساء فيسمعي ما يحفظونه في الكتاب.

ثمّ وهي تضحك:

- وبذلك أيضًا استذكر مبادئ القراءة والكتابة التي أخاف أن أنساها بمرور الزمن...

تورّد وجه أمينة حياء وسرورًا، فرنت إلى كمال كأنما تستجديه إشارة إلى ذكر الليالي الخوالي فابتسم إليها

ابتسامة ذكور «لتنشئ خديجة ابنيتها على ما نشأ عليه أخوالها، ليكن منها من يتأثر كمال الذي يشقّ السبيل إلى المدرسة العليا، ليكن منها من يتشبّه ب... آه

ما أضعف الصدور المتصدّعة عن تحمّل الخفقات الوالهة، لو امتدّ به العمر لكان اليوم قاضيًا أو في الطريق إليها، كم حدّثك عن آماله أو آمالك! أين مضى كلّ ذلك؟ ليتّه عاش ولو فردًا من غمار

فصاحت كالمستعيزة بالله:

- الخونة؟! لن يكونا من الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار!

أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلاً، ومسح به وجهه الذي زادت حمرة عمقا بحرارة الجؤ ونضح عرقاً بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثم قال وهو آخذ في تحفيفه:

- لو أنّ لشدة الأمهات فضلاً في خلق العظماء، فأبشري من الآن بما ينتظر ابنك من مجد كبير!  
- تريدني على أن أتركها وشأنها؟  
قالت عائشة برقة:

- لا أذكر أنّ نينة انتهرت أحداً منا فضلاً عن ضربه، ألا تذكرين؟  
فقالت خديجة كالأسفة:

- لم تلجأ نينة إلى الشدة، لأنّ بابا كان هناك! كان ذكره كافياً للإلزام كلّ حده، أمّا عندي، أو عندك فالحال من بعضه، فالأب غير موجود إلّا بالاسم (اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك؟ إذا كان الأب أمّا، فعلى الأم أن تكون أباً...!

ياسين مبتهجاً:

- يقيني أنّك نجحت في أبوتك! أنت أب... هذا ما شعرت به طويلاً، ولكن كانت تنقصني معرفته!  
فتظاهرت بالرضى قائلة:  
- أشكرك يا بجة كثر...

«خديجة وعائشة، صورتان متعارضتان... تأمل جيّداً، أيهما تظنّ الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها؟... أستغفر الله! معبودتي على غير مثال، لا أتصوّرها ربّة بيت. ما أبعد هذا عن التصوّر! معبودته في ثياب البيت تنهه طفلاً أو ترعى مطبخاً؟! يا للفرع ويا للتقرّز، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلّة باهرة في حديقة أو سيرة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للعالم، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلّا قلبي، لا يجمعها وهؤلاء النسوة إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، لا يجمع جمالها وجمال

عائشة وسائر ألوان الجمال إلّا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، هاك حياتي أكرّسها لمعرفتك، هل ثمة وراء ذلك ظمأ لعرفان؟».

- يا ترى ما أخبار مريم؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة بها، فأحدث الاسم آثاراً متباينة في كثير من الجالسين، تغيّر وجه أمينة حتّى نمت أساريره عن الامتناع الشديد، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاغلاً بتفحص أظافره، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزّت نفسه هزّاً، أمّا خديجة فأجابتها بلهجة باردة:

- أيّ أخبار جديدة تتوقّعين؟ طلّقت وعادت إلى بيتها!

انتهت عائشة - بعد فوات الفرصة - إلى أنّها انزلت سهواً إلى ورطة، وأنّها أساءت إلى أمّها بهفوة لسان. ذلك أنّ أمّها أمنت منذ عهد بعيد بأنّ مريم وأمّ مريم لم تصدقا في حزنها على فهمي، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذلك، لما سبق من معارضة السيّد في خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البادئة بترديد ذلك الظنّ، فتابعها الأمّ عليه بلا تردّد أو تفكير، وسرعان ما تغيّرت عواطفهما نحو جارتها القديمة حتّى أوحى ذلك بالتنگر الفلّطية.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عمّا بدر منها:  
- لا أدري ماذا دعاني للسؤال عنها؟  
فقالت أمينة بانفعال ظاهر:

- ما ينبغي لك أن تفكر في فيها.

كانت عائشة قد أعلنت شكّها - عند ذلك التاريخ - في واقعة التهمة التي ألصقت بصديقتها، معتلة بأنّ الخطبة وما دار حولها بقي طي الكتمان، فلم يتناه نبؤه إلى بيت مريم في حينه، ممّا ينفي على الفتاة وأهلها دواعي الشبهة... ولكنّ أمّها لم ترّ رأيها محتجّة بأنّ مسألة خطيرة كهذه المسألة ممّا يتعذّر منع تسرّب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلاً خشية أن تُتهم بمحاباة مريم أو بفنور حماسها لذكرى شقيقها، لكنّها بإزاء انفعال أمّها، وجدت

نفسها مسافة إلى تلطيف وقع هفوتها، فقالت:  
 - لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله... لعلها بريئة  
 مما رميناها به.  
 فاشتد امتعاض أمينة على خلاف ما توقعت عائشة،  
 حتى لاحت في وجهها بواذر غضب بدت غريبة عنها لما  
 عُرف عنها من حلم وهذوء، وقالت بصوت متهذج:  
 - لا تحدّثيني عن مريم يا عائشة.  
 وصاحت خديجة مشاركة أمها في عواطفها:  
 - قطعت مريم وسيرتها!

فابتسمت عائشة في ارتباك دون أن تنبس. وقد  
 لبث ياسين متشاعلاً بأظافره حتى انتهى ذاك الحديث  
 الحامي، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشجعاً بقول  
 عائشة «لا يدري بالحقيقة يا نينة إلا الله...»، ولكن  
 اندفاع أمينة إلى الردّ عليها بذاك الصوت المتهذج غير  
 المعهود أسكته. أجل أسكته وانطلق لسانه باطنياً  
 بالشكر على نعمة السكوت. وكان كمال يتابع الحديث  
 باهتمام وإن لم يبد أثره على وجهه، وقد أكسبه حمل  
 الحبّ عهداً طويلاً - في ظروف حساسة غير مواتية -  
 قدرة على التمثيل تحكّم بها في كتمان عواطفه ومطالعة  
 الناس - إن دعت الضرورة - بمظهر على نقيض مخبره،  
 فذكر ما سمع قديماً من «شائعة» آل مريم، ومع أنّه لم  
 يأخذ التهمة مأخذ الجدّ إلا أنّه تذكّر عهد الرسالة  
 السريّة التي ذهب بها إلى مريم والردّ الذي عاد به إلى  
 فهمي، ذلك سرّ قديم صانه ولم يزل مستمسكاً بصونه  
 رعاية لعهد أخيه واحتراماً لرغبته، وقد لذّ له أن  
 يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التي حملها إلا  
 أخيراً، حين انبثقت معانيها في نفسه خلقاً جديداً...  
 كان - على حدّ تعبيره - حجراً يحمل نقوشاً مبهمه حتى  
 جاء الحبّ فحلّ رموزها، ولم يفته أن يلاحظ غضب  
 أمه، وهو ظاهرة جديدة في حياتها لم تكن تعرفها قبل  
 العهد المشثوم، لم تعد كما عهد، أجل لم تتغيّر تغيراً  
 خطيراً أو دائماً ولكنها غدت عرضة بين الحين والحين  
 لنوبات لم تكن تطراً عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم  
 لها، ما عسى أن يقول في ذلك؟ إنّ قلب الأمّ الجريح  
 الذي لا يعرف عنه إلا شذرات وقع عليها ضمن

مطالعته، شدّ ما يتألم لها، ثمّ ما وراء عائشة وخديجة؟  
 هل يمكن أن تُرمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمي؟ لا  
 يتصوّر هذا ولا يطيقه، إنّها امرأة سليمة الطوية وفي  
 قلبها متسع للصدقة والمودة، تميل فيما يبدو - ولها  
 عذرها - إلى تبرئة مريم، ولعلها تحنّ إلى عهد هذا  
 القلب المفتوح للناس جميعاً، أمّا خديجة فقد ازدرجت  
 الحياة الزوجية، لم تعد إلاّ أمّاً وربّة بيت، لا حاجة بها  
 إلى مريم أو غيرها، لم يبق لها من ماضيها إلاّ عواطفها  
 الثابتة نحو أسرتها، نحو أمها خاصّة، فهي تدور حيث  
 تدور، ما أعجب هذا كلّهُ!

- وأنت يا سي ياسين إلّا ما تبقى أعزب؟  
 وجّه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين، مدفوعاً برغبة  
 صادقة في تنقية الجوّ ممّا شابهُ، فأجابه ياسين مازحاً:  
 - غادري الشباب وقضي الأُمرا!  
 فقال خليل شوكت بلهجة جدّية، دلّت على أنّه لم  
 يفظن إلى ما في قول ياسين من مزاح:  
 - لقد تزوّجت وأنا في مثل سنّك تقريباً، ألسنت في  
 الثامنة والعشرين؟  
 فتضايقت خديجة من ذكر سنّ ياسين الذي كشف  
 بطريقة غير مباشرة عن سنّها، فخاطبت ياسين قائلة  
 بلهجة حادة:  
 - هلّا تزوّجت وأرحت الناس من حديث  
 عزوبيتك؟  
 فقال ياسين رامياً - قبل كلّ شيء - إلى التودّد إلى  
 أمينة:

- مرّت بنا أعوام أنست الإنسان رغبته!  
 ارتدّ رأس خديجة إلى الوراء، كأنّها دفعت قبضة يد،  
 ثمّ رمته بنظرة كأنّها تقول «غلبتني يا شيطان»، ثمّ  
 قالت وهي تتنهد:  
 - آه منك! قل إنّ الزواج لم يعد يروقك وهو  
 الأصدق!  
 فقالت أمينة ممتنة لتودّده:

- ياسين رجل طيّب، والرجل الطيّب لا يمتنع عن  
 الزواج إلّا مضطراً، الحقّ أنّ لك أن تفكر في استكمال  
 دينك...

باب النصر وهي قرية من بيت جدك، فخذها ولا تتشاجر!

فقال رضوان، وهو يهز رأسه بإباء:

- فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هو!

عند ذاك علا صوت عائشة، وهي تقول برجاء وإغراء:

- صلّوا على النبي، أمامكم فرصة نادرة كي تسمعوا نعيمة وهي تغني، ما رأيكم في هذا الاقتراح؟...

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصالة جميعاً، حتى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها «أسمعي هذا الجمهور صوتك. الله... الله... إياك والخليل، أنا لا أحب الخجل»، ولكن نعيمة غلب عليها الخجل، فدفنت وجهها في حجر أبيها حتى لم يعد يبدو منه إلا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة التفاتة، فرأت محمد وهو يحاول عبثاً أن ينزع الشامة من خدّ جدته، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته، ثم واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألحّ معها خليل حتى همست الصغيرة في أذن أبيها بأنها لن تغني إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمح لها بما أرادت، فزحفت على أربع حتى لبدت بين ظهره ومسند الكنية... وعند ذاك شمل الصالة سكون بابيم مترقب، وامتدت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكن صوتاً رقيقاً لطيفاً بدأ يتكلم فيما يشبه الهمس، ثم أخذ يتشجع رويداً رويداً، حتى سرت في نبراته الحرارة فعلاً مغنياً:

حوّذ من هنا وتعال عندنا يا اللي أنا وانت نحب بعضنا وراحت الأيدي الصغيرة تصفق على إيقاعه.

- ٤ -

- آن لك أن تخبرني عن المدرسة التي تنسوي الالتحاق بها... .

كان السيّد أحمد عبد الجواد متربّعاً على الكنية

يا طالما فكر في استكمال دينه، لا ليجرّب حظّه من جديد فحسب ولكن رغبة في ردّ الإهانة التي لحقت به يوم اضطرّ - بدافع من أبيه - إلى تطليق زينب إنفاذاً «المشيئة» أبيها محمد عفت! ثم كان مصرع فهمي فصرفه عن التفكير في الزواج حتى كاد يآلف هذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنه قال لأمينه، وكان يؤمن بما يقول:

- لا بدّ مما ليس منه بدّ، وكلّ شيء رهن بوقته... . قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجّة وصياح وضوضاء جاءت من ناحية السّلم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فالتجّحت الأبصار متسائلة نحو باب السّلم، وما هي إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفي على عتبة الباب عابسة لاهثة، وهي تصيح:

- الأولاد يا ستي، سي عبد المنعم وسي رضوان متشابكان، رموني بالحصى وأنا أخلّص بينهما... .

قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثم نفذا إلى السّلم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بعدها، ياسين قابضاً على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهي تلكمه برحمة في ظهره، ثم تابعت البقية مهلّلة، فجرت نعيمة إلى أبيها خليل، وعثمان إلى أبيه عائشة، ومحمد إلى جدته أمينة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثم جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتنذره بأنه لن يرى بيت جدّه مرّة أخرى، حتى صاح بصوت بالّ، وهو يشير متهمّاً إلى رضوان الذي جلس بين أبيه وكمال:

- قال إنهم أغنى منا... .

فصاح رضوان محتجّاً:

- هو الذي قال لي إنهم أغنى منا، وقال أيضاً: إنهم يملكون بوابة المتويّ بكنوزها!

فطّيب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكاً:

- اعذره يا بنيّ، إنّه مزّاع مثل أمّه... !

فقال خديجة لرضوان، وهي لا تتمالك نفسها من الضحك:

- تتشاجران على بوابة المتويّ؟! عندك يا سيّدي

بمحجرة نومه، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شائبًا ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة. ودَّ السيد لو يجيبه الفتى قائلاً: «الرأي رأيك يا أبي». بيد أنه كان مسلمًا بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التي يدعي لنفسه فيها حقًا مطلقًا، وأن موافقة الابن عامل جوهري في الاختيار، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدودًا جدًا، وقد استمدَّ أكثره مما يثار أحيانًا في بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن في اختيار نوع دراسته تفضيلًا من الإخفاق والفشل، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الأمر شوري مسلمًا أمره إلى الله...

نويت يا بابا بإذن الله، وبعد موافقة حضرتك طبعًا، الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا! نذت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان، وهو يحدج ابنه بغرابة، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار: المعلمين العليا!... مدرسة المجانية! أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردد: رجبًا، لا أدري شيئًا عن هذا الموضوع... فلوح السيد بيده مستهزئًا، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء: هي كما قلت لك، ولذلك ينذر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم... أتدري شيئًا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنني عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئًا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسًا من الأعيان والموظفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مها تكن مكانته...

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلاً: فقال كمال بعد تردد: رجبًا، لا أدري شيئًا عن هذا الموضوع... فلوح السيد بيده مستهزئًا، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء: هي كما قلت لك، ولذلك ينذر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم... أتدري شيئًا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنني عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئًا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسًا من الأعيان والموظفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مها تكن مكانته...

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلاً: فقال كمال بعد تردد: رجبًا، لا أدري شيئًا عن هذا الموضوع... فلوح السيد بيده مستهزئًا، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء: هي كما قلت لك، ولذلك ينذر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم... أتدري شيئًا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنني عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئًا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسًا من الأعيان والموظفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مها تكن مكانته...

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلاً: فقال كمال بعد تردد: رجبًا، لا أدري شيئًا عن هذا الموضوع... فلوح السيد بيده مستهزئًا، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء: هي كما قلت لك، ولذلك ينذر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم... أتدري شيئًا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنني عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئًا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسًا من الأعيان والموظفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مها تكن مكانته...

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلاً: فقال كمال بعد تردد: رجبًا، لا أدري شيئًا عن هذا الموضوع... فلوح السيد بيده مستهزئًا، كأنما أراد أن يقول له: «ينبغي أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأي فيما ليس لك به علم»، ثم قال بازدراء: هي كما قلت لك، ولذلك ينذر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيبين، ثم إن مهنة المعلم... أتدري شيئًا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هي مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس، إنني عليم بما يقال عن هذه الشئون، أما أنت فغر صغير لا تدري من أمور الدنيا شيئًا، هي مهنة يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسًا من الأعيان والموظفين المحترمين يابون - الإباء كله - أن يزوجوا بناتهم من معلم مها تكن مكانته...

- لا يجب! وما دخل الحب في العلم والمدارس؟! قل لي ماذا تحب في مدرسة المعلمين؟ أريد أن أعرف أمارات الحسن التي فتنك فيها، أم أنت ممن يحبون الرمامة؟ تكلم ها أنا مصغر إليك...

نذت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأي، ولكنه كان مسلماً بصعوبة مهمته، ومقتنعاً في الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيداً من السخريات التي ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش، وفضلاً عن هذا كله، فلم يكن يستبين هدفاً واضحاً محدداً حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه، فما عسى أن يقول؟ في وسعه إذا تأمل قليلاً أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببعيثة ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذي يريد؟ إن في نفسه أشواقاً تحتاج إلى عناية وتأمل حتى تتضح أهدافها، ولعله غير متأكد من أنه سيظفر بها في مدرسة المعلمين، وإن رجح عنده أن تكون - هذه المدرسة - أقصر سبيل إليها. أشواق تهرها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودينية، وملحمة عنتر، وألف ليلة وليلة، والحياة، والمنفلوطي، ومبادئ الفلسفة، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التي كاشفه بها ياسين قديماً، بل والأساطير التي سكبتها في روحه أمه من قبل ذلك... كان يحلوه أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «المفكر»، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبيعتها النوراني على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة... هي كذلك! وضحت معالمها أم لم تتضح، فاز بها في مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبداً، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرية بحبه! كيف كان ذلك؟ ليس بين «معبودته» وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما

- إن الأزهرين يتعلمون كذلك بالمجان ويشغلون بالتدريس، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحتقر علومهم...

فأوما له بدقته باحتقار، وهو يقول:

- الدين شيء، ورجال الدين شيء آخر!

فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذي لم يتعود إلا طاعته:

- ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدة:

- لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولي عبد الصمد وأحبه كذلك، ولكن أن أراك موظفاً محترماً أحب إلي من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم سوء بالأحجية والتعاويد... لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعرض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى في عصبية. يا عجباً! لهذا الحاضر يصر الناس على ما فيه ضرر محقق لهم؟ وأوشك أن ينفجر غاضباً، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمراً خارجاً عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وسأله:

- ولكن ما الذي جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله؟ ما الذي لا يروقك في مدرسة الحقوق مثلاً؟ أليست هي المدرسة التي تخرج الكبراء والوزراء؟ أليست هي المدرسة التي تثقف بعلموها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟

ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجبة:

- وهي المدرسة التي وقع اختيار المرحوم فهمي عليها بعد روية وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء، أليس كذلك؟ قال كمال بتأثر:

- جميع قولك حق يا بابا، ولكنني لا أحب دراسة القانون!

ضرب الرجل كفاً بكف، وهو يقول:

شاكل ذلك من المعارف التي يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بيننا وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوّف إليها في هزة الطرب وأريج النشوة. إنه يجد هذا كله في نفسه ويؤمن به كلّ الإيمان، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه؟ لجأ مرة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

- إن مدرسة المعلمين تدرّس علومًا جليّة، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظّات، وكاللغة الإنجليزيّة!

كان السيّد يتفحصه وهو يتكلّم، وإذا بمشاعر الاستياء والحق ترائله فجأة. تأمل - وكأنّه يراه لأوّل مرّة - نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد في منظره غرابة تضاهي ما في آرائه من شذوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك في باطنه، ولكنّ عطفه وحبّه أيا عليه ذلك، غير أنّه تساءل فيما بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة، الأنف عندي مصدره، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب؟ ليس من المحتمل أن يعرض له شخص - مثلي - ممّن ينقّبون عن العيوب صيدًا لمزاحهم؟ ضابقت هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأذن إلى الحلم والنصح، قال:

- العلم في ذاته لا شيء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفضي بك إلى وظيفة القضاء، أمّا التاريخ والعظّات فموّذاها أن تكون معلّمًا بائسًا، عند هذه النتيجة قف طويلًا وتأمل (ثمّ ونبرات صوته تعلو قليلًا في شيء من الحدة) لا حول ولا قوّة إلّا بالله، عظّات وتاريخ وسخام، هلّا حدّثتني بكلام معقول؟!

تورّد وجه كمال حياء وألّمًا وهو يستمع إلى رأي أبيه في المعارف والقيم السامية التي يقُدّسها، وكيف استنزها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنّه لم يُعَدِّمْ عزاء فيها ورد ذهنه - في لحظته تلك - جليل دون شكّ، إلّا أنّه ضحيّة زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدي معه النقاش؟ هل يجزّب حظّه مرّة أخرى مستعينًا بمكر جديد؟

- الواقع يا بابا أنّ هذه العلوم تحوز أكبر التقدير في الأمم الراقية؟ إنّ الأوروبيّين يقُدّسونها، وقيّمون

التأثيل للنابغين فيها! حوّل السيّد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللهمّ طوّلك يا روح»، بيد أنّه لم يكن غاضبًا حقًا، ولعلّه رأى الأمر كلّهُ مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال، ثمّ أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

- بصفتي والدك أريد أن أطمئنّ على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف اثنان في هذا؟ الذي يهمني حقًا أن أراك موظّفًا مهابًا لا مدرّسًا بائسًا وإن أقاموا له تمثالًا كإبراهيم باشا أبي أصبح! يا سبحان الله! عشنا وشفنا وسمعنا العجب! ما لنا نحن وأوروبا؟ أنت تعيش في هذا البلد، فهل هو يقيم التأثيل للمعلّمين؟... دلّني على تمثال واحد لمعلّم! (ثمّ بلهجة استنكارية) خبّرني يا بني: أتريد وظيفة أم تمثالاً؟!

ولمّا لم يجد إلّا الصمت والارتباك، قال فيها يشبه الحزن:

- في رأسك أفكار لا أدري كيف اندسّت إليه، إنّي أدعوك إلى أن تكون واحدًا من الرجال العظّاء الذين يهزّون الدنيا بجلاهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلّع إليه لا أدريه؟ صارحني بما في نفسك حتّى يرتاح بالي وأدرك غرضك، الحقّ أنّي في حيرة من أمرك!! فليتقدّم خطوة جديدة بفصح بها عن بعض ما في نفسه وأمره الله، قال:

- هل من العيب يا بابا أن أتطلّع إلى أن أكون كالمنفلوطي يومًا ما؟ قال السيّد بدهشة:

- الشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي؟ رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرّة في سيّدنا الحسين... لكنّه لم يكن معلّمًا فيها أعلم، كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتابه، ثمّ إنّه كان من الأزهر لا من المعلّمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله... هكذا يقولون عنه!! نحن نبحت في مستقبلك والمدرسة التي ينبغي أن تدخلها ولندعّ ما لله الله، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضًا، فستكون في عظمة المنفلوطي وأنت وكيل نيابة أو قاضٍ، لم لا؟!



- اعذري يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيي، أريد أن أواصل دراستي الأدبية التي بدأتها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر، أما المستقبل فأمره بيد الله!  
فهتف السيد متهكًا حائقًا، وكأنما يُتم سرد ما سكت كمال عنه:

- وادرس أيضًا فنَّ الحواة والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين. لم لا، اللهم غفرانك، أكنت حقًا تدخري هذه المفاجأة؟... لا حول ولا قوة إلا بالله!  
اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدّر، فحار في أمره، وجعل يسائل نفسه: أأخطأ فيها أباح لابنه من حرّية القول والرأي؟ كلّما مدّ له في جبل الصبر والتسامح لجّ الآخر في العناد وتماهى في الجدل... وما لبث أن قام في نفسه صراع بين نزعته الاستبدادية وبين تسليمه بحقّ «اختيار المدرسة»، حرصًا على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانزمام من ناحية أخرى، ولكنّه انتهى على غير عادته - أو بالأحرى على غير عادته في الزمن القديم - بتغليب الحكمة، فعاد إلى النقاش وهو يقول:

- لا تكن غرًا، ثمة شيء في عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة، ليس المستقبل لهوًا ولعبًا، ولكنّه حياتك التي لن تكون لك حياة غيرها، فكّر في الأمر طويلاً، الحقوق خير مدرسة لك، إنّي أفهم الدنيا خير منك، ولي أصدقاء من كافّة الطبقات ولا خلاف بينهم في ذلك، أنت طفل أحمق، ألا تدري ما هي النياية وما هو القضاء؟ هذه وظائف تهزّ الأرض هزًّا وفي وسعك أن تتبوّأ واحدة منها، كيف تُعرض عنها بكلّ بساطة وتختار أن تكون... معلمًا!

شدّ ما يتألّم - لا غضبًا لكرامة المعلم فحسب - ولكن غضبًا لكرامة العلم أولًا وأخيرًا، العلم الحقيقيّ في نظره! لم يكن حسن الظنّ بالوظائف التي تهزّ الأرض هزًّا، فطالما وجد الكتاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فأمن - تبعًا لأقوالهم - بالأعظمة الحقيقيّة إلّا في حياة العلم

كمال، وهو يناضل في استماتة:  
- لست أنطلمع إلى شخص المنفلوطي فحسب ولكن إلى ثقافته أيضًا، ولا أجد مدرسة هي أقرب إلى تحقيق غرضي، أو في الأقلّ إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين، لذلك آثرتها، ليس بي من رغبة خاصّة في أن أكون معلمًا، بل لعليّ لم أقبل هذا إلّا لأته السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر...

الفكر؟!... ورّد مقطع أغنية الحامولي «الفكر تاه اسعفيني يا دموع العين» الذي طلما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه، ألهذا هو الفكر الذي يسعى وراءه ابنه؟ سأله بدهشة:

- ما هي ثقافة الفكر؟  
لجّت به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض:

- لعليّ لا أعرفها، (ثمّ يتسم متودّدًا) لو كنت أعرفها لما كان بي حاجة إلى طلب تعلّمها!  
فسأله مستنكرًا:

- إذا كنت لا تعرفها فبأيّ حقّ اخترتها؟...  
هه...؟ هل تهيم بالضعة لوجه الله؟

تغلّب على ارتباكها بجهد شديد، وقال مدفوعًا باستماتته في الدفاع عن سعادته:  
- إنّه أكبر من أن يحاط بها، إنّه تبحث فيها تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأمل مليًا في ذهول قبل أن يقول:  
- أمن أجل هذا تريد أن تضخّي بمستقبلك؟ أصل الحياة ومآلها؟ أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنة أو النار، أم جدّد جديد في ذلك؟  
- كلّاه، أعلم هذا، أريد أن أقول...

فعاجله قائلاً:  
- هل جنت؟!... أسألك عن مستقبلك، فتجيبني بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟!... وماذا تعمل بعد ذلك؟... تفتح دكانًا لاستطلاع الغيب؟!  
خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يُغلب على أمره أو يضطرّ إلى التسليم بوجهة نظر أبيه، فقال مستنجدًا شجاعته:

والحقيقة، واقتربت من ثمّ كلّ مظاهر السلطان والجاه في ذهنه بالزيف والتفاهة، غير أنّه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أبيه، وقال برقة وتودّد:

- على أيّ حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا!

تفكّر السيّد مليّاً، ثمّ قال متبرّماً يائساً:

- إذا لم تكن بك رغبة في الحقوق، وبعض الناس يعشقون التعاسة، فاختر مدرسة محترمة: الحربيّة، البوليس... وشيء خير من لا شيء!

فقال كمال منزعجاً:

- أدخل الحربيّة أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

- ما حيلتي إذا لم يكن لك في الطب نصيب؟

عند ذاك شعر بضوء آتٍ من ناحية المرأة ألقى عينه اليسرى، فمدّ بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة التسرّبة إلى الحجرة من النافذة المطلّة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للفراش حتّى غيّبت جانب المرأة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان، فترجّح قليلاً مبتعداً عن الضوء المنعكس، ثمّ نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت - أو بثّرت - في الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجماً:

- ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره حرجاً لعجزه عن إرضاء أبيه:

- لم يبقَ إلّا مدرسة التجارة ولا أرب لي فيها!

ومع أنّ مبادرته إلى الرفض أحقته، إلّا أنّه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلّا الفتور، لظنّه أنّها إنّما تخرّج «تجاراً»، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجراً. لم يرغب عن علمه أوّل الأمر أنّ متجرّاً كمتجره - وإنّ هياً له حياة صالحة - فإنّه أعزّ من أن يهتّى هذه الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا روعي ما سيفرّق من دخله على بقية المستحقّين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحلّ محله، على أنّ ذلك لم يكن السبب الجوهريّ لفتوره، كان في الحقّ يكبر الوظيفة والموظّفين ويدرك خطورهم ومنزلهم في الحياة العامّة كما لمس ذلك

بنفسه، سواء في أصدقائه من الموظّفين أو في بعض اتّصالاته الحكوميّة المتعلّقة بعمله، فأراد أبنائه على أن يكونوا موظّفين وأعدّهم لذلك، كذلك لم يكن يخفى عليه أنّ التجارة لا تحظى بربح ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وإنّ أخلفت أضعافها من المال. وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه، بل كان يعتزّ بإكبار الموظّفين له فيعدّ نفسه من الناحية «العقليّة» موظّفاً أو نذاً للموظّفين، ولكنّ من غيره يسعه أن يكون تاجرًا ونذاً للموظّفين معاً؟ ومن أين لأبنائه بشخصيّة مثل شخصيّة؟ آه يا لها من خيبة أمل! كم تمخّى قديماً أن يرى ابنًا من أبنائه طبيباً، وكم ناط بفهمي أمنيته حتّى قيل له إنّ البكالوريا الآداب لا تؤدّي إلى مدرسة الطبّ فرضي بالحقوق واستبشر بما بعدها خيراً، ثمّ علّق أمله بكالٍ فاختر قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق، ولكنّه لم يتصوّر قطّ أن تنجلي المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابغة» الأسرة، وبإصرار كمال على أن يكون معلّماً! أيّ خيبة أمل! وبدا السيّد حزينا حقاً، وهو يقول:

- لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حرّ فيما تختار لنفسك، ولكن ينبغي أن تذكر دائماً أنّي لم أوافقك على رأيك، فكّر في الأمر طويلاً، لا تتعجل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلّا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة، أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف!!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتياً حركة دلّت على شروعه في القيام ليأخذ أهبة لمغادرة البيت، فنهض كمال في أدب وحياء، وانصرف.

عاد إلى الصالة فوجد أمّه وباسين جالسين يتحدّثان، وكان مؤرّع النفس كاسيف البال لمعارضته لأبيه ولإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثمّ لما بدا عليه أخيراً من ضيق وحزن، فقصّ على ياسين خلاصة ما دار في الحجرة من نقاش، وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفّته ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنّه من رأي السيّد وأنّه يعجب لجهله للقيم

- ولكنهم يقولون إِنَّ المعلمَ لا حظَّ له في المناصب الرفيعة!

فلوحت بيدها باستهانة قائلة:

- المعلم موفور الرزق. أليس كذلك؟ حسبك هذا، إِنِّي أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم، كان جدك يقول: «إِنَّ العلم أعزُّ من المال»!

أليس عجيبي أن يكون رأي أمه خيرًا من رأي أبيه؟ ولكنه ليس برأي، إنه شعور سليم، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعية التي أفسدت رأي أبيه. ولعلَّ جهلها بشئون العالم هو الذي صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور - وإن سما - إذا كان مصدره الجهل؟ وألا يكون لهذا الجهل نفسه أثره في تكوين آرائه؟...

ثار على هذا المنطق، وقال يحاوره: إنه عرف الدنيا خيرها وشرها في الكتب وأثر الخير عن إيمان وتفكير، وقد يلتقي الشعور الفطري الساذج بالرأي الحكيم دون أن تهوي سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة.

أجل! إنه لا يشك لحظة في صدق رأيه وجلاله، ولكن هل يدري ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلم بالتي تجذبه، إنه يحلم أن يؤلف كتابًا، هذه هي الحقيقة، أيّ كتاب؟ لن يكون شعرًا، إذا كانت كراسة أسرارته تحوي شعرًا، فمرجع ذلك إلى أن عابدة تحيل النثر شعرًا لا إلى شاعرية أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثرًا، وسيكون مجلدًا ضخماً في حجم القرآن الكريم وشكله، وستحرق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عمّ يكتب؟ ألم يحو القرآن كلَّ شيء؟ لا ينبغي أن يأس، ليجد موضوعه يوماً ما، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهز الأرض خيرًا من وظيفة وإن هزت الأرض؟ كل المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!

- ٥ -

- مساء النور!...

لا تحيب! هذا ما قدرته وما أنا به عليم. هي البداية دائمًا... منذ قديم وإلى الأبد، ها هي توليك

الجليلة في هذه الحياة، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هذا؟! إنه سلوك رائع كما يبدو في فصل من فصول المنفلوطي أو في نظرة من نظراته، أما في الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر، وأنت تعيش في الحياة لا في كتب المنفلوطي... أليس كذلك؟ الكتب تقرّر أمورًا غريبة وخارقة، مثال ذلك، أنك تقرأ فيها أحيانًا «كاد المعلم أن يكون رسولاً»، ولكن هل صادفت مرة معلمًا يكاد أن يكون رسولاً؟ تعال معي إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك، ودلني على واحد منهم يستحق أن يكون آدميًا لا رسولاً! وما هذا العلم الذي تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كل أولئك جميل للتسلية، حاذر من أن تفلت من يديك فرصة الحياة الرفيعة، كم أتمحّر أحيانًا على معاكسة الظروف التي حالت بيني وبين مواصلة الدراسة!

تساءل عندما خلا إلى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين، ترى ما رأيها؟... لم تكن ممن يؤخذ رأيهم في مثل هذا الأمر، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، إلى أنها كانت على علم برغبة السيد في إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذي باتت تتطير منه فلم ترتج إليه، على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

- إن العلم الذي أرغب في دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته! فتطلق وجه أمانة، وقالت بحماس:

- هذا هو العلم حقًا، علم أبي، علم جدك، إنه أجل العلوم!

وفكرت قليلاً وهو ينظر إليها من طرف خفيّ باسمًا، ثم عادت تقول بنفس الحماس:

- منذ الذي يحقر المعلم يا بني؟ ألم يقولوا في الأمثال «من علمني حرفًا صرت له عبدًا»؟

فقال مرددًا حجة أبيه الذي هاجم بها اختياره، وكأنما يستوهمها رأيًا يؤكد به موقفه:

ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو حبل الغسيل، تحبك المشابك، ألم تحبكيها من قبل؟ ... بل ولكنتك تدارين موفك، إني أفهم كلّ الفهم، عشرة أعوام في المجون ليست بالخبرة القليلة، متّع عينيك بمنظرها قبل أن يستقرّ الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحًا، سمنت واكتنرت، زادت حسنًا عما كانت أيام صباها. كالغزال كانت ولكتها لم تكن ثلك هذه الأرداف العبله، رويدًا... لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زعم أهلك قديمًا أنك في سنّ خديجة. رأي خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات. امرأة أبي تؤكّد هذه الأيام أنك في الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع: أيام كنت حبل في خديجة كانت صبية في الخامسة الخ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستعاشرها حتى الكبر؟! في الأيام القصيرة تستوي الشابة والنصف، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة، آه، نظرت صوب الطريق ولحظتك، أرايت مقتلها وهي تلحظك كالدجاجة؟ لن أبرح موقفي يا مليحة، فتي تعرفين الشيء الكثير عن جماله وقوّته وماله، أليس هو خيرًا من ذلك الإنجليزي القديم...؟

- هل التحية عندهم لا تستحقّ ردًا ولو بمثلها؟  
ولئك قذالها مرة أخرى، مهلاً... ألم تبسم؟ بل ومن سوى جلالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهّدت لهذه الخطوة الأخيرة فأحسنتم التمهيد، لا شكّ أنها تعلم بكلّ حركاتي ومناوراتي السابقة، آن لي... وأنّ لك... من حسن حظّي أنك لست من المصابات بداء الخشمة، ذاك الإنجليزي... جوليون، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن، ألا تسمعين حممته؟

- ليس للجار عندهم إكرام؟... إني أشحذك تحية هي من صميم حقوقي!  
جاءه صوت رقيق خافت - بدا لتحول الوجه عنه كأنه آتٍ من بعيد - وهو يقول:  
- ليست من حقك... على هذا النحو!  
أجيب الطارق. رُفعت سقّاطة الباب. لن تنظفر بالمناعة حتى تلعق الزجر. اثبت، الثبات...  
الثبات... كما يهتف به المجاورون.  
- إذا كان صدر مّي ما أغضبك فلن أغتفره لنفسي ما حييت؟  
هي في عتاب:  
- إنّ سطح بيت أم عليّ، الداية، في مستوى سطحنا وسطحكم، ما عسى أن يظنّ الناظر إذا رأى موفك مّي وأنا أنشر الغسيل؟...  
ثمّ في تساؤل هازئ:  
- أم تريد أن تجعل مّي أحدوثة؟  
بُعْد الشرّ عنك؟ هل راعيت هذا الحذر في موفك مع جوليون في الزمن القديم؟ لكن مهلاً، إنّ جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدّم وما تأخّر من ذنبك!  
- لا أبقاني الله في الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس، ولم أقرب من السور حتى ثبت عندي خلوّ سطح أم عليّ الداية...  
ثمّ وهو يتنهد بصوت مسموع:  
- وعذري بعد ذلك أيّ واليت صعود السطح أبدًا كي أظفر بهذه الخلوة... فلما وجدتها الساعة استخفّني السرور، وعلى أيّ حال ربّنا يستر...  
- عجيبة!... لم هذا التعب كله؟  
سؤال لا يبعث عليه الجهل، يسألنّ عما يعرفنّ، ارتضت أن تحاورك فاهنا بحوارها...  
- قلت لنفسي: أن تحيّيها وتردّ تحيتك الدّ من الصّحة والعافية!  
التفتت إليه برأس دلت حركته في شبه الظلام على تكتم الضحك، وقالت:  
- لسانك أطول من جسمك، ترى ماذا وراء كلامك؟  
- وراءه؟!.. هلّا اقتربت من السور؟ عندي حديث طويل، منذ أيام وأنا أغادر البيت إلى الطريق، لاحت مّي التفاتة إلى الأرض فرايت ظلّ يد تتحرّك، فنظرت إلى فوق فرايتك مطّلة من السور، رايت منظرًا جميلًا لا يمكن أن يُنسى...  
دارت على عقبيها ولكنها لم تقرب خطوة، ثمّ قالت

- ثم رأيتك أخيراً فرأيت شابة جميلة كالزهرة،  
تتطلع في ظلام الليل فتتوره، فكأنما أراك لأول مرة،  
ساءلت نفسي أكون هذه جارتنا مريم التي كانت  
تلعب مع خديجة وعائشة؟ كلا... هذه فتاة اكتمل  
لها الحسن ونضج، وشعرت بأن الدنيا تتغير من  
حولي...

قالت، وقد عاود صوتها عبثه:  
- في تلك الأيام لم تكن عينك تستبحان التطلع إلى  
أحد! كنت جازاً بمعنى الكلمة، ولكن ماذا بقي من  
تلك الأيام؟ تغير كل شيء، عدنا كالأغرب، وكأننا لم  
نبادل كلمة، ولم نشأ معاً نشأة الأسرة الواحدة. هذا  
ما أراده أهلك.

- دعينا من هذا، لا تحمليني همًا إلى هم.  
- اليوم تتطلع بعينيك... في النافذة، وفي  
الطريق، وما أنت تقطع علي السطح!  
ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقاً تريدني؟  
كذلك ألد من الشهد يا نور الظلام...  
- هذا قليل من كثير، إنني أطلع إليك أيضاً من  
حيث لا تدرين، وأراك في الخيال أكثر مما تتصورين،  
أقول لنفسي الآن وأنا على بيّنة مما أقول: أما القرب  
وأما الموت!

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه، ثم تساءلت:  
- من أين لك هذا الكلام؟  
أشار إلى صدره، وهو يقول:  
- من قلبي!

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب  
حقيقاً يندر بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها، وقالت:  
- ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغي أن أذهب!  
بحماس علا به صوته أولاً حتى انتبه إلى نفسه  
فخفضه:

- بل يجب أن تأتي، أن تأتي إلي، الآن وإلى  
الأبد... (ثم بكى) إلى قلبي... هو لك وما يملك!  
وبلهجة وعظيمة عابثة:  
- لا تفرط في نفسك على هذا النحو، حرام علي أن  
أحرمك قلبك وما يملك...

في لهجة تنم عن الاتهام:

- كيف تنظر إلى فوق؟!... ولو كنت جازاً حقاً  
كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تخرج جارتك،  
ولكنك سيئ النية فيما بدا منك باعترافك فيما يبدو  
منك الساعة!

حق أنه سيئ النية، أليس الفسق من سوء النية؟  
سوء نية من النوع الذي تحببته، آه من النسوان، بعد  
ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك، بعد ساعتين  
سأهرب وتجدّين في أثري، على أي حال ليلتنا فل...  
- ربنا يعلم بحسن نيتي، نظرت إلى فوق لأني لا  
أستطيع أن أمنع النظر عن مكان تكونين فيه، ألم  
تدركي هذا؟ ألم تشعرني به؟ جارك القديم يتكلم وإن  
تأخر به الزمن.

هازئة:

- تكلم. أطلق الحرية للسانك الطويل، ارفع  
صوتك، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة  
أبيك فرأتك ورأتني؟

لا تزوغي يا بنت اللبوة، سيكون من المعجزات أن  
أطوي عقلك، أتحافين امرأة أبي حقاً؟ آه... إن ليلة  
في حضنها تساوي العمر كله!

- سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خلّينا فيما نحن  
فيه...

- ما هذا الذي نحن فيه؟

- إنه يجلّ عن الوصف!

- لا أجد شيئاً مما تقول، لعلّ هذا ما أنت وحدك  
فيه!

- لعله، إنه لأمر مؤسف حقاً، أمر مؤسف أن  
يتكلم قلب فلا يجد من يستجيب له، إنني أذكر أيام  
زياراتك لبيتنا. تلك الأيام التي كنّا فيها وكأننا أسرة  
واحدة، وأتحسّر...

غمغمت وهي تهز رأسها:

- تلك الأيام!

لم عدت إلى الماضي؟ أخطأت خطأ كبيراً، احذر أن  
يفسد عليك الألم جهدك كله، ركّز إرادتك كي تنسى  
كل شيء إلا الحاضر...

- إلى أي مدى ذهب بك الفهم؟ إنّي أحاطب فيك  
اللبوة التي أحبّها، لست بلهاء وحقّ ذكرى جوليون،  
تعالى يا بنت القديمة، أخاف أن أضيء في الظلام من  
شدة النار التي تستعر في جسدي ...
- هو وما يملك لك عن طيب خاطر، سعادته في أن  
تقبله وتملكيه، وأن تكوني له وحده!  
قالت ضاحكة:
- أرايت يا ماكر؟ ... تريد أن تأخذ لا أن  
تعطي ...
- من أين لك بهذا اللسان؟ ولا زنوبة في زمانها،  
ملعونة الدنيا من غيرك! ...
- أريد أن تكوني لي كما أكون لك ... أين الظلم  
في هذا؟
- صمت، ونظر متبادل بين الشبيين، حتّى قالت:
- لعلهم يتساءلون الآن عمّا أخرّك!  
فقال مستعظفاً بكراً:
- ليس ثمة في الدنيا من يهتمّ بأمرى!  
عند ذاك غيّرت لهجتها متسائلة بجذّة:
- كيف ابنك؟ ... لا يزال عند جدّه؟  
ماذا وراء هذا السؤال الغريب؟
- بلى ...
- ما عمره الآن؟
- خمس سنوات ...
- وما أخبار والدته؟
- إنّها تزوّجت أو ستزوّج في القريب العاجل ...
- خسارة! ... لم تردّها ولو إكراماً لرضوان؟
- يا بنت اللبوة! ... أفصحى عمّا ترومين ...
- أهذه رغبتك حقّاً؟
- وهي تضحك ضحكة خافتة:
- يا بخت من وفق رأسين في الحلال!
- وفي الحرام؟!
- لكنني لا أنظر إلى الوراء ...
- ساد صمت بدا غريباً مليئاً بالفكر ... حتّى قالت
- صوت جمع بين التحذير واللين:
- إنّك وأن تقطع على السطح مرّة أخرى.
- فقال بجرأة:
- أمرك مطاع، ليس السطح بالمكان المأمون، ألم  
تعلمي بأنّ لي بيتاً في قصر الشوق؟!
- هتفت مستنكرة:
- بيتك! أهلاً يا سيّ بيته!
- فسكت قليلاً، كأنّها يجاذر، ثمّ تساءل:
- حمّي فيم أفكر؟
- لا شأن لي بهذا ...
- صمت، ظلام، خلوة، ما أفضع تأثير الظلام في  
أعصابي ...
- إنّي أفكر في سوزي سطحننا المتلاصقين، بم  
يوحي منظرهما إليك؟
- لا شيء ...
- منظر حبيين متلاصقين ...
- لا أحبّ سماع هذا الكلام ...
- تلاصقهما يذكر أيضاً بأنّه ليس ثمة ما يفصل  
بينهما.
- هيه!
- نذت عنها كاستدراج مليء بالوعيد، فقال ضاحكاً:
- كأنّها يقولان لي: اعبرا!
- تراجعت خطوتين حتّى التصق ظهرها بملاءة  
منشورة، ثمّ همست في تحذير جدّي:
- لا أسمع بهذا!
- هذا ... ما هذا؟
- هذا الكلام.
- والفعل؟
- سأتركك غاضبة!
- كلّا وحياتك الغالية ... اتعنين ما تقولين؟ أنا  
أغبي ممّا أظنّ؟ أم أنت أملك ممّا أتصوّر؟ لم تكلمت  
عن رضوان وأمه؟ هل تلوّح بالزواج؟ ما أشدّ رغبتك  
إليها؟ رغبة جنونيّة ...
- قالت مريم بغتة:
- آه ... ما الذي يدعوني إلى البقاء؟
- ودارت حول نفسها، ثمّ تظامن رأسها لتمرّ من  
تحت الغسيل، فأرسل صوته وراءها قائلاً في جزع:

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زيتته، فحيّاهما وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم - وهو على يقين من هويته - فدخل شابٌ يماثله في السن، قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتدياً جلباباً وجاكته، فقصد أمينة وقُبِلَ يدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه... كان في سلوكه - رغم ما أخذ به نفسه من التأدب - ألفة كأنما كان واحداً من أهل البيت، وأكثر من هذا فقد أقبلت أمينة تحادثه وهي تدعوه بكلّ بساطة «يا فؤاد»، وتساله عن صحّة أبيه جميل الحمزاوي والدته، فيجيبها مستشعراً السرور، والامتنان في حسن استقبالها، وترك كمال صديقه مع والدته، ومضى إلى حجراته ليرتدي جاكته، ثم يعود إليه فينطلقاً معاً.

#### - ٦ -

سارا جنباً إلى جنب صوب درب قمرز، متجئتين طريق النحاسين، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداها... كمال بقامته الطويلة النحيلة، وفؤاد بقامته القصيرة، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تساءل فؤاد بصوت هادئ:

- أين تذهب هذا المساء؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالي:

- قهوة أحمد عبده...

كان كمال - عادة - يقرّر، وفؤاد يوافق رغم ما عُرف عن الأخير من رجاحة العقل، ورغم نزوات كمال التي كانت تبدو مضحكة في عين رفيقه، مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم والقلعة والخيمية لتسريح النظر - على حدّ تعبيره - في مخلفات التاريخ وعجائب الحاضر، ولكن الحق أنّ العلاقة بين الصديقين لم تخلُ من تأثر بفارق طبقيتهما، وكون الأول ابن صاحب الدكان والأخر ابن وكيله، وعمقُ هذا التأثر أنّ فؤاد اعتاد في صباه أن يؤدّي ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيّد أحمد، وأن يكون صنيعة لكرم أمينة التي لم تكن ترضى عليه بأحسن ما

- تذهبين دون تحيّة!

اشترأت رأسها فوق جبل الغسيل، ثم قالت:

- البيوت من أبوابها، هذه تحيّي...

وأجهت مسرعة نحو باب السطح فمرت منه.

عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمينة عن طول غيبته بحرارة الجوّ في الداخل، ثم ذهب إلى حجراته ليرتدي بذلته. كان كمال يُتبعه عينيه في دهشة وتفكير. ونظر إلى أمّه فالفأها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح؟... هو نفسه لم يزايله القلق منذ اطلع مصادفة على منظر المتناجين حين مضى وراء أخيه مستطلعاً غيبته، فعل ياسين ذلك، هل هانت عليه ذكرى فهمي؟ لا يستطيع أن يتصوّر هذا، كان ياسين يحبّ فهمي حباً صادقاً، وقد حزن عليه حزناً شديداً، لا يجوز أن يرتاب في إخلاصه، إلى أنّ هذه «الحوادث» كثيراً ما تقع، ثم إنّه لم يدري لم يربطون دائماً بين فهمي ومريم؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون في حينها، ثم مرّ زمن طويل بدا عليه أنّه نسيها نسيّاً تاماً وشغل عنها بما هو أجل وأخطر، وما كانت تستحقّ غير ذلك وما كانت يوماً كفتاً له. إنّه ممّا يدعو إلى النظر حقّاً أن يتساءل: هل يمكن أن ينسى الحبّ؟ الحبّ لا يُنسى، هذا ما يؤمن به، ولكن من أدراه أنّ فهمي أحبّ مريم بالمعنى الذي يفهمه - أو يشعر به - هو من الحبّ؟ لعلّها كانت رغبة قويّة، كهذه الرغبة التي تستحوذ الساعة على ياسين، بل كذلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التي ناوشته هو على عهد البلوغ وعابثت أحلامه، أجل وقع هذا أيضاً، وعانى منها المين: ألم الرغبة وألم الندم، وكانا في القوّة متعادلين فلم ينقده من شرهما إلّا زواج مريم واختفاؤهما. يهّمه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وخزه الندم؟ وإلى أيّ مدى؟ لا يتصوّر أن يكون الأمر جرى سهلاً مهما يكن ظنّه بحيوانيّة ياسين وفنور حماسه للمثل العليا، وعلى رغم نظراته المتساحمة للأمر كلّه شعر بامتعاض وقلق كما ينبغي لإنسان لا يعدل بمثاليته شيئاً في الوجود.

عندها من مأكّل - وكثيراً ما يصادف مجيئه أوقات الغداء - وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال، فربط بينها منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى... وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله، إلّا أنّ أثره النفسي لم يُقتلَع من الأعماق، وقد قضت ظروف بالآ يجد كمال من رفيق تقريباً طوال العطلة الصيفيّة إلّا فؤاد الحمزاوي، ذلك أنّ رفاق صباه من أهل الحيّ لم يواصلوا التعليم إلى النهاية: منهم من توظّف بالابتدائية أو الكفاءة، ومنهم من اضطرّ إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبيّ قهوة بين القصرين وصبيّ الكوّاء البلديّ بخان جعفر. كان كلاهما من أقرانه في الكتّاب، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلّما اتّفق لهم اللقاء، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتها لما يضيّفه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بالموّدة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة، أمّا أصدقائه الجدد الذين اكتسب صداقتهم في العباسيّة: حسن سليم، وإسماعيل لطيف، وحسين شدّاد فكانوا يقضون العطلة في الإسكندرية ورأس البرّ، فلم يبقَ له من رفيق إلّا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرّها الغريب في جوف الأرض تحت حيّ خان الخليلي، وأنّحها إلى مقصورة خالية، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة تتم فؤاد في شيء من الحياء:

- ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما!

وشئ قوله برغبته في الذهاب إلى السينما، ولعلّها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال في بيته ولكنّه لم يفصح عنها، لا لأنّه لا يستطيع أن يثني كمال عن رأي فحسب، وإنّما لأنّ كمال هو الذي يقوم بنفقات السينما إذا ذهب إليها معاً، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتّى استقرّ بها المجلس بالقهوة حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة.

- سندّهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصريّ

لمشاهدة شارلي شابلن، فلنلعب الآن عشرة دومينو...

خلعا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شايًا أخضر ودومينو. بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة، طُمر تحت ركام التاريخ إلّا رأسه الكبير، فقد تشبّث بسطح الأرض فاغراً فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدحل ذي سلّم طويل، وثمة في الداخل صحن واسع مربّع الشكل مبلّط بالبلاط المعصرانيّ تتوسطه فسقيّة رُصّت على حافتها أصص القرنفل، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فُرشت بالحصير المزركش والوسائد، أمّا جدرانها فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة، كأنّ الواحد منها كهف منحوت في الحائط، لا نافذة بها ولا باب لها، واقتصر أثاثها على مائدة خشبيّة وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار في كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل. وكأنّ القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته، فهي تهمّ في هدوء غير مألوف لسائر المقاهي، وضوء غير باهر، وجوّ رطيب، وقد انطوت كلّ جماعة على نفسها في مقصورتها أو فوق أريكتها، تدخّن النارجيلة وتحسو الشاي وتهيم في دردشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة إلّا أن تقطعها في فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخّن منهم. كانت قهوة أحمد عبده في نظر كمال مجتلى للمتأمل وتحفه للحالم، أمّا فؤاد - وإن لم تغب عنه طرافتها أوّل عهده بها - فلم يعد يجد فيها إلّا مجلسًا كثيبًا تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد، ولكنّه لم يكن يملك إلّا أن يلتي كلّما دُعي إليها!

- أتذكر يوم أن رأنا أخوك سي ياسين ونحن في مجلسنا هذا؟

قال كمال بآسًا:

- نعم، سي ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرني أبدًا بأنّه أخي الأكبر، بيد أنّ رجوته يومذاك ألاّ يشير إلى مجلسنا في البيت لا خوفًا من أبي، فإنّ أحدًا عندنا لا يجروّ على مكاشفته بمثل هذا الأمر، ولكن إشفافًا من



والتسلية، بل الحق لم يكن ثمة فارق - في اهتمامه وحماسه - بين جدّه ولسوه. على أن تفوّق فؤاد في المدرسة لم يكن دون تفوّقه في الدومينو، كان أول فرقته بينما كان هو في الخمسة الأوائل، فهل ثمة دور للحفظ في ذلك أيضًا؟ كيف يعمل تفوّق الشاب الذي ينطوي له في الأعماق على شعور بالاستعلاء ظلّ أنّه ينبغي أن يمتدّ إلى المواهب العقلية على السواء؟ لم يُقدم رأيًا يهون به من تفوّق صاحبه، فهو يقول إنّه يكرّس وقته كلّهُ للمذاكرة وإنّه لو كان عقله بالتفوّق الذي يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت، ويقول أيضًا: إنّهُ يتجنّب الألعاب الرياضية وقد برّز هو في أكثر من نوع منها، ويقول أخيرًا: إنّ فؤاد يقتصر في مطالعته على الكتب المدرسية، وإذا تراءى له أن يقرأ كتابًا غير مدرسيّ في العطلة لاحظ في اختياره أن يكون مفيدًا لدراسته اللاحقة، أمّا هو فلا تحدّ مطالعته حدود ولا توجّهها منفعة، فما وجه الغرابة في ذلك في أن يسبقه الشاب في الترتيب؟ غير أنّ سخطه هذا لم يعرّض صداقتها للوهن، كان يحبّه ويحبّ في رفقته مؤانسة ومسرّة إلى أنّه لم يرضَ - على الأقلّ فيها بينه وبين نفسه - بالإقرار بفضائله ومزاياه.

تواصل اللعب وانتهت العشرة - على غير ما أُنذر به مطلعها - بانتصار كمال! فطلّق وجهه، وضحك ضحكة عالية، ثمّ سأل غريمه: «عشرة أخرى؟» لكنّ فؤاد قال بأسًا: «حسبنا اليوم ما كان» لعلّه كان ملّ اللعب، أو لعلّه أشفق من أن تنجيء نتيجة العشرة المقترحة مخيبة لآمال كمال فينقلب سروره غمًا، فهزّ كمال رأسه كالمتعجب وقال:

- إنّك كالسمك من ذوي الدم البارد!  
ثمّ بلهجة المنتقد، وهو يدلّك أرنبة أنفه العظيم بإبهامه وسبّأته:

- إنّني أعجب لك، إذا غلبت لم تأبه للأخذ بثأرك، وتحبّ سعد ولكنتك تنكص عن الاشتراك في مظاهرة أريد بها تحيته يوم ولي الوزارة، وتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتزّ لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أنّ جثثانه غير ثاوٍ في ضريحه القريب! إنّني أعجب لك...

إزعاج والدتي، تصوّر أنّها ترتعب إذا علمت بتردّدنا على هذه القهوة أو غيرها، وتظنّ أنّ أغلبية رواد المقاهي من الحشاشين وسيئي السمعة!

- وسي ياسين، ألم تعلم بأنّه من رواد المقاهي؟  
- إذا قلت لها هذا قالت لي: إنّ ياسين «كبير» ولا خوف عليه، أمّا أنا فصغیر! الظاهر أنّي سأظلّ معدودًا في الصغار في بيتنا حتّى يدركني المشيب!

جاء النادل بالدومينو، وقدحين من الشاي على صينية فاقعة الاصفرار، فتركها جميعًا على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحسّيه من قبل أن تحفّ حرارته، ينفخ السائل ثمّ يتمرّزه، وينفخ مرّة أخرى ويمصّص شفتيه كلّما لسعته الحرارة، ولكنّ ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة في عناد وجزع كأنّه محكوم عليه بالفراغ منه في دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتًا أو يمدّ بصره إلى لا شيء وهو مستند إلى ظهر مقعده في رزانة أكبر من سنّه، تلوح في عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، ولم يمدّ يده إلى قدحه حتّى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، وعند ذاك أقبل يتحسّى الشاي في تأنّ مستطعمًا مذاقه مستلذًا نكهته، وهو يغمغم بعد كلّ حسوة «الله... ما أطيبها!»، والآخر يحثّه على الفراغ منه بصبر نافذ كي يأخذ في اللعب، وهو يقول منذرًا:  
- لأهزمك اليوم. لن يحالفك الحظّ أبد الدهر...  
فيبتسم فؤاد مغمغمًا:

- سنرى...

وأخذوا يلعبان...

كان كمال يولي المباراة اهتمامًا عصبياً، كأنّه يخوض معركة تتوقّف على نتائجها حياته أو كرامته، بينما مضى فؤاد في نظّم. قطعهُ همدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه، أقبل الحظّ أم أدبر، هتّ كمال أم عبس، وقد خرج كمال - كماداته - عن طوره، فهتف به: «لعب سخيف، وحظّ سعيد». فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذّبة لا تثير حنقًا ولا توحى بتحدّ. طالما قال كمال لنفسه وهو يتميّز غيظًا «لن يبرح حفظه راكبًا حظّي»، ولم يكن يلتقي اللعب بالتسامح الخلق باللهو

- شدّ ما يحقنه البرود، إنّ ما يسمّونه «العقل» لا يطيقه، وكأنّه يحبّ الجنون ويهيم به، إنّّه يذكر يوم قيل لها في المدرسة: «إنّ ضريح الحسين رمز له ولا شيء غير ذلك». عادا يومذاك معاً وفؤاد يردّد ما قاله مدرّس التاريخ الإسلاميّ، وكان كمال يتساءل منزعجاً: كيف أوتي صاحبه تلك القوّة التي تحمّل بها الخبر كأنّه شأن لا يعنيه؟! أمّا هو فلم يستسلم لتفكيره، لم يستطع أن يفكر البتّة، وكيف لاثار أن يفكر؟ سار كالمترنّح من هول الطعنة التي نفذت إلى صميم قلبه، كان يبكي خيالاً نضب وحلماً تبدّد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يوماً من الأيام، أين ذهبت القبلات التي طُبعت على باب الضريح في صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار؟ لا شيء من هذا كلّهُ، لم يبقَ إلّا رمز في الجامع ووحشة وخيبة في القلب، وبكى ليلئذاك حتّى بلّل وسادته، تلك كانت الصدمة التي لم تحرك في صديقه العاقل إلّا لسانه حين علّق عليها مرذّداً أقوال مدرّس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!
- هل علم والدك برغبتك في دخول مدرسة المعلمين؟
- قال كمال بحدّة جاءت معبّرة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلّف عن مناقشة أبيه معاً:
- نعم!...
- وماذا قال لك؟
- فقال يروّج عن صدره بمهاجمة محدّثه عن طريق غير مباشر:
- وأسفاه!... إنّ والدي كأكثر الناس ممن يهيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة... النيابة... القضاء... هذا كلّ ما يهيمه، لم أدري كيف أفنّعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقة بالنشدان في هذه الحياة! غير أنّه ترك لي حرّيّة التصرف...
- جعلت أصابع فؤاد تعبت بقطعة من الدومينو، وهو يقول في حذر وإشفاق:
- قيم جليّة بلا شكّ، ولكن أين البيئة التي ترفعها الطويلة وهو حبيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق إلى المنزلة اللاتقة بها؟
- لا يمكن أن أبذل عقيدة سامية لا شيء إلّا أنّ من حولي لا يؤمنون بها...  
فعاد يقول في هدوء مسكّن:
- روح جديرة بالإعجاب!... ولكن ألا يحسن بك أن تقدّر مستقبلك في ضوء الواقع؟  
فتساءل كمال بازدياد:
- ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة، أكان يفكر جدّيّاً في أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال؟  
ابتسم فؤاد ابتسامة كأنّها تقول «رغم ما في حجتك من وجهة فهي لا تصلح قاعدة عامّة في الحياة»، ثمّ قال:
- ادخل الحقوق حتّى تضمن عملاً محترماً، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!
- لم يجعل الله لامرئ من قلوب في جوفه، ثمّ دعني أحتجّ على ربطك العمل المحترم بالحقوق! كأنّ التدريس ليس عملاً محترماً!!
- فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة:
- لم أقصد هذا مطلقاً، ومنذا الذي يقول إنّ حفظ العلم ونشره ليس عملاً محترماً؟... لعليّ كنت أردّد رأي الناس وأنا لا أدري، والناس كما أشرت إليّ شيء من هذا تبهرهم أضواء القوّة والنفوذ!
- فهزّ كمال منكبّه استهانة، وقال بإصرار:
- إنّ حياة تكسّر للفكر هي أجلّ حياة...  
هزّ فؤاد رأسه كالموافق دون أن ينبس، وظلّ لاثناً بالصمت حتّى سأله كمال:
- ما الذي دعاك إلى اختيار الحقوق؟  
ففكر قليلاً ثمّ أجابه:
- لم أكن مثلك واقفاً في غرام الفكر، فكان عليّ أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق...
- أليس هذا هو صوت العقل؟ بل إنّهُ هو، شدّ ما يثير حنقه، تمرّده، أليس من الظلم أن يمضي العطلة الطويلة وهو حبيس هذا الحيّ ولا رفيق له إلّا هذا «العاقل»؟ ثمّة حياة أخرى تعارض حياة الحيّ العتيق

- كلاً؟ ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو في فناء البيت المهجور. نضج جسيهما، وعمّا قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاء اللفّ ولكنّها كانت سافرة فقلت لها صاحكاً: لو لبست البرقع ما تجرّأت على محادثتك!

قال كمال بإصرار:

- كلاً...

- لم؟

- لم أعد أطيق القذارة!

ثمّ بحدة ثمت عن ألم دفين:

- لا أستطيع أن ألقى الله في صلاتي وثيابي الداخلية ملوثة!

فقال فؤاد بسداجة:

- تطهّر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، وهو يهزّ رأسه للاستعارة الضائعة:

- إنّ الماء لا يطهّر من الدنس...

ذلك الصراع القديم، كان يمضي في لقاء قمر مضطرباً بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك، ثمّ عقب الصلاة يستغفر استغفاراً حارّاً طويلاً، لكنّه يمضي مرة أخرى مغلوباً على أمره ثمّ يعود بالعذاب ليستغفر من جديد... يا لها من آيا نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب، ثمّ انبثق النور. هناك وسعه أن يحبّ وأن يصلي معاً، كيف لا؟ والحبّ من منبع الدين يقطر صافياً! قال فؤاد في شيء من الحسرة:

- انقطعت علاقتي بنرجس منذ مُنعت من اللعب في

الحارة!

فسأله كمال باهتمام:

- ألم تكن - وأنت المؤمن - تتعذب بتلك العلاقة؟

فقال فؤاد، وهو يخفض البصر حياء:

- هنالك أمور ما منها بدّ...

ثمّ متسائلاً وكأنّه يداري حياءه:

- أترفض حقاً انتهاز هذه الفرصة؟

- بكلّ تأكيد!

- لوجه الدين وحده؟

معارضة الضدّ للضدّ، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق تهفو نفسه، إلى العباسيّة، إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كلّ شيء إلى الأناقة الرفيعة والنغمة الباريسيّة والحلم البديع... إلى معبودته، آه... إنّ نفسه تنازعه إلى البيت، إلى حجرته كي يخلو إلى نفسه فيدعو كراسته، يراجع تاريخاً أو يستعيد ذكرى أو يسجل نشة. ألم يثبّ له أن يقوّض هذا المجلس ويذهب؟

- قابلت أناشاً فسألوني عنك...

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد:

- من؟

فؤاد صاحكاً:

- قمر ونرجس!

قمر ونرجس ابنتا أبو سريع صاحب المقل، قبو قمرز، الأزقة المظلمة بعد الغروب، العبث المشوب بالسداجة الدنسة أو الدنس الساذج، المراهقة المحمومة، ألا يذكر هذا كلّ؟ ما لشفتيه تنقلصان تقزّزاً؟ ذلك التاريخ قديم نسبياً، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلا ويثور قلبه سخطاً وألماً وخجلاً كما ينبغي لقلب أترع بشراب الحبّ الطهور. كيف قابلتهما؟

- في زحمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبيها دون تردّد أو ارتباك، كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولدا!

- يا لك من جريء!

- أحياناً، سلّمت فسلمت، وتحادثنا ملياً، ثمّ سألتني

قمر عنك!

تورّد وجهه قليلاً، وهو يسأل:

- ثمّ؟

- اتّفقنا مبدئياً على أن أخبرك، ثمّ نتقابل جميعاً!

هزّ كمال رأسه في نفور، ثمّ قال باقتضاب:

- كلاً...

فقال فؤاد في دهش:

إلى كلماته عن الزواج والذرية، فصمّم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن، فقال:  
- الذين يحبّون ما فوق الحياة لا يتزوّجون، هذا ما عنيت.

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعلّه كان يقاوم ضحكة، غير أنّ عينيه العميقتين لم تنمّا عمّا وراءهما، واكتفى بأن قال:  
- هذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق لأوانه، فلندعها مرهونة بأوقاتها...  
فرجع كمال منكبيه استهانة وثقة، وقال:  
- فلندعها ولنتنظر...

فؤاد في وادٍ وهو في وادٍ، على ذلك فهما صديقان، لا يسعه أن ينكر أنّ الخلاف في نفسه يجذبه إليه على ما في ذلك من جهد تعانیه أعصابه المرة بعد المرة، ألم يشنّ له أن يعود إلى البيت؟ الوحدة ومناجاة النفس تتجاذبانه، الكرّاسة النائمة في درج مكتبه تهبّج جيشان صدره، لا بدّ للمكدود في مكابدة الواقع من انتجاع بعض الراحة في الانطواء...  
آن أن نعود...

## - ٧ -

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتّى وقف أمام عوامة في نهاية الثلث الأول من طريق أمبابة، وما لبث أن غادره السيّد أحمد عبد الجواد ثمّ تبعه على الأثر السيّد عليّ عبد الرحيم.

كان الليل قد جثم في مجثمه وغشيت الظلمة كلّ شيء إلّا أضواء متباعدة تطلّ من نوافذ العوامات والذهبيّات التي ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطاً، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية في نهاية الطريق كالسحابة الناصحة بوهج الشمس في سماء ملبّدة بالغيوم الدكن.

كان السيّد أحمد يجيء للعوامة للمرة الأولى على رغم اكتراء محمّد عفت لها منذ أربع سنوات - ذلك أنّ صاحبها خصّصها لمجالس الغرام وقد حرّمها السيّد أحمد على نفسه منذ مصرع فهمي - فتقدّمه عليّ عبد

- أليس هذا كافياً؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال:

- كم تحمّل نفسك ما لا يُحتمل...

فقال كمال بإصرار:

- إني لكذلك وما ينبغي لي أن أكون غير ذلك...

وتبادلا نظرة طويلة، أفصحت في عيني كمال عن الإصرار والتحدّي، فانعكست في عيني فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجهنميّة التي تنعكس على سطح الماء للألاء ضاحكاً، ثمّ واصل كمال حديثه:

- إني أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة الاستسلام لها، لعلّها لم تخلق فينا إلّا كي تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامي حتّى تلعو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانيّة الحقّة، إمّا أن أكون إنساناً وإمّا أن أكون حيواناً...

فترثّ فؤاد قليلاً، ثمّ قال بهدوء:

- أظنّ أنّها ليست شرّاً خالصاً، فهي الدافع إلى الزواج، فالذرية!!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد في خاطره، أهذا هو الزواج في النهاية؟ لكنّه لم يكن يجهل هذه الحقيقة في جملتها وإن كان في حيرة لا يدري كيف يوفق الناس بين الحبّ والزواج، إنّها مشكلة لم يرتطم بها في حبّه، لأنّ الزواج بدا دائماً - ولأكثر من سبب - فوق مرتقى أمانيه ولكنّ ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلّب الحلّ. ما كان يتصوّر أن يكون اتّصال سعيد بينه وبين معبودته إلّا عن طريق العطف الروحيّ من ناحيتها والتطلّع الهيمان من ناحيته، طريق بالعبادة أشبه، بل هو لعبادة نفسها، فأيّ شأن للزواج في هذا؟

- الذين يحبّون حقّاً لا يتزوّجون.

تساءل فؤاد بدهش:

- ماذا قلت؟...

فطن حتّى قبل تساؤل فؤاد إلى أنّ لسانه خان إرادته، فبدا عليه الارتباك لحظة حرجة، وراح يتذكّر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتّى اهتدى بشيء من الجهد - على حداثة العهد بساعها -

الرحيم ليدلّه على المعبر، حتّى إذا قارب السّلم، قال  
محدّراً:

- طلع البدر علينا...

ثمّ عانقه إبراهيم الفار، قائلاً:

- أثنائي زماني بما أرضني...

وتنحّى الرجال جانباً، فرأى جلييلة، وزبيدة،  
وامرأة ثالثة وقفت متأخّرة عنها خطوتين ما لبث أن  
تذكّر فيها زنوبة العوادة. آه... الماضي كلّ قد جُمع  
في إطار واحد، وتطلّقت أساريه وإن بدا عليه شيء  
من الارتباك، ولكنّ جلييلة ضحكت ضحكة طويلة،  
ثمّ فتحت ذراعيها وعانقته، وهي تقول بنبرات غنائية:  
- كنت فين يا حلو غايب...

ولمّا أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالتردّة وإن  
أضاء وجهها نور الترحيب والسرور، فمدّ نحوها  
ذراعه فشُدّت عليها، وعند ذاك زوّت ما بين حاجبيها  
المرجوجين في عتاب، قائلة بلهجة لم تخلُ من تهكّم:

- من بعد تلتاشر سنة...

فما تمالك أن ضحك من أعناق صدره، وأخيراً رأى  
زنوبة بموقفها لم تبرحه، وقد ارتسمت على ثغرها  
ابتسامة حياء كأنّها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقّاً في  
رفع الكلفة بينها، فمدّ لها يده مصافحاً، وهو يقول  
مشجعاً ومجاملاً:

- أهلاً بأميرة العوادات...

ورجعوا إلى مجالسهم، فشبك محمّد عفت ذراعه  
بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه، فأجلسه إلى جانبه،  
وهو يتساءل ضاحكاً:

- وقعت أم الهوى رماك؟

فغمغم السيّد أحمد:

- رمانى الهوى فوقعت...

أخذ المكان يستين لعينيه اللتين غابتا عنه أوّل الأمر  
في حرارة اللقاء ومزاج المرتحين، فوجد نفسه في حجرة  
متوسطة الحجم، طليت جدرانها وسقفها بلون  
زمرديّ، تطلّ على النيل بنافتين وعلى الطريق  
بنافتين، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها،  
يتدلّى من سقفها مصباح كهربائيّ ذو غطاء مخروطيّ  
من البلّور يركّز نوره على سطح خوان توسط الحجرة

- السّلم ضيق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له،  
ضع يدك على كتفي وانزل على مهل...

هبطاً بحذر شديد، وخزير الماء المتلاطم على  
الشاطئ ومقدّم العوامة يداعب آذانها، وقد فغمت  
أنفيها رائحة نباتيّة مازجها عرف الطمي الذي جاد به  
الفيضان في ذلك الوقت من أوّل سبتمبر، قال عليّ عبد  
الرحيم وهو يتحسّس زرّ الجرس على جدار المدخل:

- هذه ليلة تاريخيّة في حياتك وحياتنا، ينبغي أن  
نطلق عليها اسماً مناسباً احتفالاً بها، ليلة رجوع  
الشيخ؟... ما رأيك؟...

قال السيّد أحمد، وهو يشدّ قبضته على منكبه:

- لكنّي لست شيخاً، الشيخ الحقيقيّ كان  
أبوك!...

عليّ عبد الرحيم وهو يضحك:

- سترى الآن وجوهاً لم ترها منذ خمس سنوات...

قال السيّد كالتردّد:

- لا يعني هذا أنّي أغير من سلوكي أو أحيد عن  
خطّي (ثمّ بعد لحظة سكوت) قد... قد...

- تصوّر كلّنا يعد بالألّا يقرب اللحم إذا ترك في  
المطبخ!

- الكلب الحقيقيّ كان أبوك يا بن الكلب...

رنّ الجرس، فُتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه  
نوبيّ عجوز، تنحّى جانباً وهو يرفع يديه إلى رأسه تحيّة

للقادمين، فدخل الرجلان ومالا إلى باب على يسار  
الداخل فجازه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائيّ

يتدلّى من السقف، وقد حلّي جداراه المتقابلان بمزيتين  
قام تحت كلّ منها مقعد جلديّ كبير وخوان، وكان في

نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشي  
بأصوات السّمار التي اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد،

فدفعه عليّ عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيّد، ولكنّه ما  
كاد يعبر عتبة حتّى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم

وقوف، وقد أقبلوا نحوه مرتحين مهلّلين يكاد يطفّر  
البشر من وجوههم، وكان محمّد عفت أسرعهم إليه

روحًا خائبًا رغم ما يكتنفه من لآلاء بَرّاق يستخفي  
حيثًا وراء الابتسام واللعب ثم يبين على حقيقته فيها  
بين ذلك فقرًا فيه نعي الشباب، إنه الرثاء الصامت،  
أليست زبيدة في الخمسين من عمرها؟ وجليلة جاوزتها  
بأعوام، إنها لدته ولن تكابر في هذا مهما أنكره لسانها،  
ثمة تغير في قلبه أيضًا ينذر بالنفور والتقلص، لم يكن  
كذلك حين جاء، جاء يجري لاهثًا وراء صورة لم يعد  
لها من وجود، ليكن، حاشا أن يستسلم للهزيمة...  
اشرب، واطرب، واضحك، لن يدفحك أحد على  
رغمك إلى ما لا تود...

قالت جليلة:

- لم أكن أصدق أنّ عينيّ ستقمان عليك في هذه  
الدنيا!

وجد إغراء شديدًا في أن يسألها:

- كيف ترييني؟

فتدخّلت زبيدة بينهما قائلة:

- كالعهد بك، جل ولا كلّ الجمال، شعرة بيضاء  
تلمع تحت طربوشك ولا شيء خلاف ذلك!

فقالت لها جليلة محتجة:

- دعيني أجب أنا، لأنّ سؤاله كان لي (ثم غاطبة  
السيد) أراك كما كنت، لا غرابة في ذلك، ما «نحن»  
إلا أبناء الأمس القريب!

فطن السيد إلى ما رمت إليه، فقال متكلفًا الجذّ  
والصدق:

- أما أنتما فقد ازدتما حسنا ورواء، لم أكن أنتظر  
هذا كلّ.

زبيدة، وهي تتفحصه باهتمام:

- ما الذي غيّبك عنّا ذلك العمر كلّ؟ (ثم  
ضاحكة) كان بوسعك، لو كان فيك خير، أن تلقانا  
لقاء بريئًا، ألا يكون لقاء بيننا إلا إذا كان الفراش  
تحتنا؟

قال السيد إبراهيم الفار، وهو يرعش ذراعه في  
الهواء ليحسر كمّ القفطان عنه:

- لا علم له ولنا بأنّ ثمة لقاء بريئًا يمكن أن يجمع  
بيننا وبينكن!

حاملًا الأقداح وقوارير الويسكي، وقد فُرشت الأرض  
ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف، وقامت  
في كلّ جانب من الحجرة كنبّة كبيرة شُطرت بنمرقة  
وعُشيت بغطاء مزركش، أما الزوايا فقد احتُلت  
بشلت ووسائد. جلست جليلة وزبيدة وزنوبة على  
الكنبة المجاورة للنيل، واقعد الرجال الثلاثة الكنبّة  
المواجهة لها، بينما انتشرت على الشلت آلات الطرب  
كالعود والدقّ والدربجة والصنج. أجال بصره في  
المكان مليًا، ثم تنهّد بارتياح، وقال بتلذذ:

- الله... الله، كلّ شيء جميل، لم لا تفتحون  
النافذتين المطلّتين على النيل؟

فأجابه محمّد عفت:

- يُفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية،  
وإذا بُليتيم فاستروا...

فبادره السيد أحمد بأسًا:

- وإذا استترتم فابتلوا!

فهتفت جليلة كالمحتدّة:

- أرنا شطارة زمان!

لم يقصد بقوله إلا المزاح، والحق أنّ إقدامه على  
هذه الخطوة الثورية - بحيته إلى العوامة - بعد طول  
الإحجام أورثه قلقًا وترددًا، لكنّ ثمة شيء آخر، تغير  
من نوع ما عليه أن يكشفه بنفسه ولنفسه، فليسدّد  
بصره وليمعن النظر، ماذا يرى؟ هاك جليلة وزبيدة،  
كلتاها كالمحمل - كما كان يقول قديمًا - أو لعلّها  
ازدادتا شحًا ولحًا، ولكنّ ثمة شيء يكتنفهما، لعلّه إلى  
متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحسّ، إلا أنّه  
وجه من وجوه الكبر بلا مرأ، لعلّ أصحابه لم يفتنوا  
إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المرأتين مثلما انقطع، ترى  
ألم يطرأ عليه هو أيضًا مثل الذي طرأ عليهما؟ انقبض  
قلبه وفتر حماسه، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو  
أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هذا  
التغير حتّى يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء  
واحدة في رأسها... ولكن ما للشيب ورءوس  
الغواني؟ وليس ثمة تجعدات كذلك. هل غلبت على  
أمرك؟ كلا، إليك نظرة هاتين العينين، إنها تعكس

زبيدة متأففة:

- أعوذ بالله منكم يا رجال، لا تودّون المرأة إلّا مطيّة!

فقهت جلييلة قائلة:

- يا ست أمك احمدي ربنا على ذلك، أكنت تكتنزين هذا الشحم كلّ لو لم تضمري في نفسك أن تكوني مطيّة أو حشية؟

فقال لها زبيدة معاتبه:

- خلي بيني وبين المتهّم كي أحقق معه...

قال السيّد أحمد بأساً:

- كنت محكوماً عليّ بخمس سنوات بريئة بدون شغل...

فعدت زبيدة تهاجمه قائلة في تهكم:

- يا ولداه! حرّمت على نفسك اللذات كلّها، كلّها يا ولداه، حتّى لم يبق لك منها إلّا الطعام والخمر والطرب والمزاج والسهر حتّى مطلع الفجر كلّ ليلة!

فقال السيّد كالمعتذر:

- هذه أشياء لا بدّ منها للقلب الحزين، أمّا الأخرى...

زبيدة وهي تلوّح له بيدها كأنما تقول له «آه منك آه»:

- علمت الآن أنك تعدّنا شراً من كافّة الذنوب والخطايا...

محمّد عفت هاتفاً مقاطعاً، كأنما تذكر أمراً هاماً كاد يفلت منه:

- هل جئنا من أقصى الأرض كي نتكلّم، على حين نطلّ علينا الأقداح ولا نجد من يعنى بها! املاً الأقداح يا عليّ، اربطي الأوتار يا زُنبوبة؟ اخلع ملابسك يا

حضرة المحترم، أنت حاسب نفسك في مدرسة؟ انزع الجبّة والطربوش، لا تظنّ أنك أعفيت من التحقيق، ولكن يجب أولاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثمّ

نعود إلى التحقيق، جلييلة أصرت على تأجيل السّكر حتّى يحضر سلطان الفرشة أو كما قالت، هذه الوليّة

تعزّك إعزاز الشيطان للضالّ الزمن، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك...

في صحّة مكدونالد صديق المصريّين، تساءل عليّ عبد

نض السيّد أحمد ليخلع الجبّة، قام عليّ عبد الرحيم ليتولّى - كعادته - مهمّة الساقى، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار، دندنت زبيدة في غمغمة، سوّت جلييلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيها بين ثدييها، تابعت أعين بشوّق يذّي عليّ عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح، تربّع السيّد أحمد في مجلسه وهو يحيل بصره في المكان والناس حتّى التقت عيناه اتفاقاً بعيّ زُنبوبة فابتسمت الأعين تحيّة، قدّم عليّ عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس. قال محمّد عفت: صحتكم ومحبّتك، قالت جلييلة: نخب العودة يا سيّ أحمد، قالت زبيدة: نخب الهداية بعد الضلال، قال أحمد: نخب الأحياب الذين فرّق الحزن بيني وبينهم... شربوا عندما رفع السيّد أحد كأسه إلى شفّتيه، رأى من فوق سفح الكأس وجه زُنبوبة مرفوعاً كذلك إلى كأسه فهزّته نضارته، قال محمّد عفت لعليّ عبد الرحيم: املاً الثاني، وقال له إبراهيم الفار: والثالث في أثره حتّى نثبت الأساس، قال عليّ عبد الرحيم وهو يشمّر: خادم القوم سيّدهم. وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زُنبوبة وهي تربط الأوتار، فتساءل عن عمرها ثمّ قدّره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين، ساءل نفسه مرّة أخرى عمّا جاء بها... العود؟!... أم أنّ خالّتها زبيدة تهيّئ لها سبيل الرزق؟ قال السيّد إبراهيم الفار: إنّ النظر إلى ماء النيل يدوّخه. فهتفت به جلييلة: يا ابن الدايحة! سأل عليّ عبد الرحيم: إذا رميت امرأة في حجم جلييلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فأجابه السيّد أحمد بأنّها تطفو إلّا إذا كان بها ثقب، ساءل السيّد أحمد نفسه عمّا يحدث لو نزعته به نفسه إلى زُنبوبة، فأجابت نفسه بأنّ ذلك يكون فضيحة لو أراده الآن، أمّا بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج، وأمّا بعد زجاجة فيكون واجباً... اقترح محمّد عفت أن يشربوا كأساً في صحّة سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين سيسافران في نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأساً آخر في صحّة مكدونالد صديق المصريّين، تساءل عليّ عبد

قالت جلييلة بظفر وارتياح:

- لست تمنّ نجيب عندهم الرجاء .

همّ بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان»، ولكنّه خاف أن يُدعى للامتحان أو أن يُفهم قوله على أنّه تقديم في الامتحان، على حين كان كلّما أنعم النظر تمكّن منه شعور بالفور وبالزهد لم يجرّ له في خاطر قبل المجيء . أجل ثمة تغير لا ينكر، مضى الأمس، وليس اليوم كالأمس، لا زبيدة بزييدة ولا جلييلة بجلييلة، وليس ثمة ما يستحقّ المغامرة، ليقنع بالأخوة التي نزهت بها جلييلة، وليمدّها حتّى تظلّل زبيدة نفسها، قال برقة:

- من أين للكبر أن يدرك آدمياً وهو بينكنا!

تساءلت زبيدة وهي تقلّب عينيها في الرجال الثلاثة:

- أيكم الأكبر؟

فقال السيّد أحمد براءة:

- أنا ولدت في أعقاب ثورة عرابي...!

فقال محمّد عفت محتجاً:

- قل كلاماً غير هذا، لقد بلغني أنّك كنت من

جنود عرابي...!

فقال السيّد أحمد:

- كنت جندياً من بطونهم، كما يقال الآن: تلميذ

من منازلهم...

فتساءل عليّ عبد الرحيم كالداهش:

- وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل

خارج إلى المعركة؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس في فيها:

- لا تهربوا بالهزار، إني أسألكم عن أعماركم...

قال إبراهيم الفار بتحدّ:

- ثلاثتنا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل

تكاشفاننا بعمركما؟...

هزّت زبيدة كتفيها استهانة، وقالت:

- أنا ولدت...

ثمّ ضاقت عيناها المكحولتان وهما تُرفعان إلى المصباح في حال تذكّر، غير أنّ السيّد أحمد عاجلها

الرحيم عمّا عناه مكدونالد بقوله: «إنّه يستطيع أن يحلّ القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذي كان بين يديه». فأجابه أحمد عبد الجواد بأنّ ذلك يعني أنّ الإنجليز يشرّب فنجان القهوة - في المتوسط - في نصف قرن، تذكّر السيّد أحمد كيف ثار على الثورة عقب مصرع فهمي وكيف ناب رويداً إلى مشاعره الوطنية الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار بصفته والد لشهيد نبيل، ثمّ كيف انقلبت مأساة فهمي مع الزمن مفخرة يباهي بها وهو لا يدري!

رفعت جلييلة كأسها صوب السيّد أحمد وهي تقول:

- صحتك يا جملي، طالما كنت أسائل نفسي هل نسيتنا حقّاً السيّد أحمد؟ ولكنّي علم الله عذرتك ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء، لا تعجب فأنا اختك وأنت أخي...

فسألها محمّد عفت بخبث:

- إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدّعين، فهل يفعل الأخوان ما فعلتما في زمانكما؟

فأطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام ١٩١٨ وما قبله، وقالت:

- سل أخوالك يا روح أمّك...

قالت زبيدة وهي تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر:

- بدا لي رأي آخر في تفسير غيبته الطويلة...

سألها أكثر من صوت عمّا بدا لها، على حين تتمم السيّد أحمد بصوت المستعيز:

- يا ساتر استر...

- بدا لي أنّه ربّما كان حصل عنده ضعف ممّا يدرك الكهول أمثاله، فاعتلّ بالحزن واختفى...

قالت جلييلة معترضة وهي تهزّ رأسها على أسلوب العوالم:

- إنّه آخر من يدركه الكبرا

فسأل السيّد محمّد عفت السيّد أحمد:

- أيّ الرأيين أصحّ؟

فقال السيّد أحمد بلهجة ذات معنى:

- الرأي الأوّل يعبر عن الخوف والآخر يعبر عن الرجاء؟



متمِّماً ما توقَّفت عن إتمامه:

- عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلاً حتى ألعبت لهم الوسطى، ولكنَّ  
جليلة لم ترحَّب بالحديث فيما بدا، فصاحت بهم:

- دعونا من هذه السيرة المقطرة! ما لنا نحن  
والأعمار! ليسأل عنها صاحب الأمر في سماواته، أمَّا  
نحن فالمرأة منَّا شابة ما وجدت من يرغب فيها،  
والرجل منكم شاب ما وجد من ترغب فيه...

هتف عليّ عبد الرحيم بغتة:

- هتثوني!

وسئل عليّ يهتاً عليه، فواصل الهتاف قائلاً:

- سكرت...

قال أحمد عبد الجواد: إنهم ينبغي أن يلحقوا به قبل  
أن يضلَّ وحده في عالم السكر، حتَّتهم جليلة على أن  
يتركوه وحده جزاء تعجَّله، أوى عليّ عبد الرحيم في  
ركن وفي يده كأس مترعة وهو يقول لهم: ابحثوا عن  
ساقٍ غيري. قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها  
الخارجية وفحصت في حقيبتها عن حُقِّ الكوكابين حتى  
اطمأنت إلى أنه في مكانه، اغتمم إبراهيم الفار فرصة  
خلو مكان زبيدة فجلس فيه ثم أسند رأسه إلى كتف  
جليلة وهو يتنهد بصوت مسموع، نهض محمَّد عفت  
إلى النافذتين المطلَّتين على النيل وأزاح الخصاص عنها  
جانبا فلاح سطح الماء ظلَّات متحرَّكة عدا خطوط من  
الضياء الهادئ رسمتها على الأمواج الأشعة المرسلة من  
مصابيح الذهبيات الساهرة، لعبت زُتوبة بأوتار العود  
محدثة نغمة راقصة فأنجَّهت عينا السيِّد إليها ملياً ثم قام  
ليملأ كأسه لنفسه، عادت زبيدة فجلست بين محمَّد  
عفت وأحمد عبد الجواد وهي تضرب الأخير على  
سلسلة ظهره، علا صوت جليلة وهي تغني:

«يوم ما عَضَّتني العَضَّة...».

هتف إبراهيم الفار بدوره: هتثوني... اشترك  
محمَّد عفت وزبيدة في غناء جليلة عند جملة: «وجابولي  
طاسة الخَضَّة»، اشتركت زُتوبة في الأغنية، فعاود  
السيِّد أحمد النظر إليها وما يدري إلَّا وهو ينضمُّ إلى  
المغنين. جاء صوت عليّ عبد الرحيم من ركن الحجرة

مؤيِّداً. هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسنداً إلى  
كتف جليلة: مغثون ستَّة وسمِّيع واحد هو أنا. قال  
السيِّد أحمد لنفسه دون أن يتوقَّف عن الغناء: سوف  
تلَّي وهي من الرضى والسرور في نهاية، ثم ساءل  
نفسه أيضاً: إلَّيلة عابرة أم معاشرة طويلة؟ قام  
إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع  
يصفِّقون على الواحدة ثم غثوا معاً:

«خذني في جيبك بقة... بين الحزام والمنطقة».

ساءل السيِّد أحمد نفسه: ترى أتعلم زبيدة أن  
يكون اللقاء في بيتها؟... انتهت الأغنية والرقص  
فاستبقوا إلى التراشق بالدعابات دون توقُّف، جعل  
أحمد عبد الجواد كلياً أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه  
زُتوبة ليرى أثرها فيه، اشتدَّ المهرج والمرج، ومضى  
الوقت منسرفاً...

- آن لي أن أذهب...

قال عليّ عبد الرحيم ذلك، وهو ينهض متَّجهاً إلى  
ملابسه. فصاح به محمَّد عفت ساخطاً:

- قلت لك أن أحضرها معك حتى لا تقطع  
السهرة!

تساءلت زبيدة وهي ترفع حاجبيها:

- من هي المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

- رفيقة جديدة، معلَّمة قذ الدنيا وصاحبة بيت  
بوجه البركة...

فسأله السيِّد أحمد باهتمام:

- من...؟

أجاب عليّ عبد الرحيم، وهو يحبك الجبَّة ضاحكاً:

- صاحبك القديمة سنَّية القللي...

فانتسعت عينا السيِّد الزرقاوان، وتجلَّت فيها نظرة  
حاملة، ثم قال بأسياً:

- اذكرني عندها وأقرئها السلام...

قال عليّ عبد الرحيم، وهو يفتل شاربه ويتأهَّب  
للذهاب:

- سألتُ عنك واقترحْتُ عليّ أن أدعوك إلى قضاء  
سهرة في بيتها بعد مواعيد العمل، فقلت لها إنَّ بكره

«تانا خطي العتبة... تانا خطي العتبة».  
 الخمر تشلّ العضو الذي يفرز الحزن، غمغمت  
 جليلة قائلة: «حسبنا»، ونهضت فغادرت الحجرة إلى  
 ردهة تفضي إلى مخدعين متقابلين، فالت إلى المخدع  
 المجاور للنيل ودخلت، وما لبث أن ترامت إليهم  
 طقطقة الفراش وهو يلتقي جسمها العظيم، راقّ زبيدة  
 تصرّف جليلة فأتبعت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة  
 وراءها طقطقة أعنف، قال إبراهيم الفار: «إنّ لسان  
 السرير قد نطق». تناهى إليهم من المخدع الأول  
 صوت وإن يترنم محاكيًا بحّة منيرة: «يا حبيبي تعالى»،  
 فقام محمّد عفت وهو يجيب مترنمًا كذلك: «آديني  
 جي». نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد  
 متسائلًا، فقال له السيّد: «إذا لم تستح فاصنع ما  
 شئت»، فقام وهو يقول: «لا حياء في العوامة!...»  
 خلا الجوّ، ها هي الساعة التي رصدتها طويلًا، نحت  
 الصغيرة العود جانبًا وتربعت وهي تسبل حاشية  
 الفستان على ساقها المتشابكتين. ساد صمت وتبادل  
 نظر ثمّ مدّت بصرها إلى لا شيء، تكهرب الصمت  
 فلم يعد يحتمل، نهضت فجأة فسألها: إلى أين؟  
 فغمغمت وهي تمزق من الباب: «الحمام»، قام بدوه  
 إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره،  
 وهو يتساءل: «أليس ثمة حجرة ثالثة؟» لا ينبغي  
 لقلبك أن يدقّ هكذا كأنما الجنديّ الإنجليزي يسوقك  
 أمامه في الظلام، ليلة أمّ مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى  
 ذكراها فهي ألم، عادت من الحمام... ما  
 أنضرها!...

- أتضرب العود؟

أجاب باسمًا:

- علميني...

- حسبك الدفّ فإنّك من رجاله!

وهو يتنهد:

- تلك أيّام خلّت، ما أطفها، كنت طفلة! ما لك

لا تجلسين؟

تكاد تلمسك، ما أحلّ أوّل الصيدا

- خذي العود وأسمعي...

اسم النبيّ حارسه قد بلغ السنّ التي تعدّ في أسرهم  
 موجبة للدخول في وجه البركة وغيرها من وجوه  
 الفسق، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقي به في إحدى  
 جولاته...!

وضحك الرجل ملء شذقيه، ثمّ سلّم وغادر  
 الحجرة إلى الدهليز، فتبعه على الأثر محمّد عفت وأحمد  
 عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب الخارجيّ واستمروا  
 يتحدّثون ويتضاحكون حتّى غادر السيّد عليّ العوامة،  
 وعند ذاك غمز محمّد عفت دراع أحمد عبد الجواد،  
 وهو يتساءل:

- زبيدة أم جليلة؟

فقال السيّد أحمد ببساطة:

- لا هذه ولا تلك!

- لمّ؟ كفى الله الشرّ!

فقال بلهجة القانع:

- خطوة خطوة، سوف أكتفي ما بقي من هذه

الليلة بالشراب وسماح العود...!

ألحّ عليه أن يقدّم رجله خطوة أخرى، ولكنّه  
 اعتذر فلم يثقل عليه، عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة  
 الوعي فاستردّا مجلسيهما. قام إبراهيم الفار مقام  
 الساقى، افتضحت أمارات السكر في وهج العيون  
 وسلس الحديث وتحرّر الأعضاء، غثّوا جميعًا وراء  
 زبيدة:

«البحر يبضحك ليه...».

لوحظ أنّ صوت السيّد أحمد عبد الجواد علا حتّى  
 كاد يغطّي على صوت زبيدة، روت جليلة تناتيش من  
 مغامراتها. مذ وقع بصري عليك شعرت بأنّ الليلة لن  
 تمرّ بلا مغامرة، ما أملح الصغيرة، الصغيرة؟ هي  
 كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن. تحسّر إبراهيم الفار  
 على العصر الذهبيّ للنحاس على أيّام الحرب، فقال  
 لهم بلسان ثقيل «كنتم تقبلون يدي من أجل رطل  
 نحاس» فقال له السيّد أحمد: «إن كان لك عند  
 الكلب حاجة قل له يا سيّدي». اشتكت زبيدة شدّة  
 السكر فقامت تتمشّي ذهابًا وجيئة، وعند ذاك جعلوا  
 يصفّقون على إيقاع مشيتها المترنحة ويهتفون بها:

الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد  
وخزة في كبريائه، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفثيه  
ابتسامة متكلفة حتى سألها:

- ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت مليًا، ثم شبكت ذراعيها على  
صدرها.

- إني أتساءل عما أغضبك؟

قالت باقتضاب:

- لا تسل عما تعلم...

ضحك فجأة ضحكة عالية معلًا بها عن استهانتها  
وعدم تصديقه، وقام بدوره فملاً الكأسين ثم قدّم لها  
كأسها، وهو يقول:

- روقي مزاجك...

فتناولت الكأس تآذيًا ثم أعادتها إلى المائدة، وهي  
تغمغم «أشكرك» فتراجع إلى مجلسه وقعد، ثم رفع  
كأسه إلى شفثيه وتجرّعها دفعة واحدة وقهقه ضاحكًا.

أكان في وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة؟ لو أستطيع  
أن أرجع في الزمن ربع ساعة إلى الوراء، زُنوبة...  
زُنوبة... ولا شيء غير زُنوبة فهل تصدّق ذلك؟ لا

تشتت حيال الصدمة، من يدري لعلّه دلال موضّة  
١٩٢٤ يا حمصائي ١٩٠٠، ماذا تغيّر في؟... لا  
شيء... لكنّها زُنوبة... أليس ذلك هو اسمها؟

لكلّ رجل حتّى من امرأة تعرض عنه، وما دامت زبيدة  
وجلييلة وأمّ مريم يسعين إليك فمّن غير زُنوبة - هذه  
الخنفساء - تعرض عنك؟ تحمّل حتى تحتمل، ليس

الأمر على أيّ حال بكارثة، آه، انظر انظر، ساقها  
مليحة مدملجة، أساسها متين، لم تظنّ أنّها أعرضت  
عنك حقًا؟...

- اشربي يا حلوة...

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

- عندما يروق لي الشراب...

فسدّد نحوها بصره، ثمّ تساءل بلهجة ذات معنى:

- ومتى يروق لك...؟

فقطّبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم  
تجيب...

- شبعنا غناء وعزفًا وضحكًا، عرفت الليلة أكثر من  
ذي قبل لماذا يفتقدونك في كلّ سهرة!

فابتسم ابتسامة وشت بسروره، ثمّ قال بمكر:

- ولكنّك لم تشبعي شربًا؟

فأجابت بالإيجاب وهي تضحك، فوثب كالجواد إلى  
المائدة، ثمّ عاد بزجاجة مملوءة حتى النصف، وكأسين،  
وجلس وهو يقول: «لنشرب معًا. الشرهة اللذيذة

تنفث عيناها شيطنة وسحرًا، سلها عن الحجرة  
الثالثة... سلّ نفسك: ليلة أمّ معاشرة... وعن  
العواقب لا تسل، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح

ذراعيه لزُنوبة العوادة... بصحاف الفاكهة كانت  
تقف بين يديك... لكن لتحلّ بك السعادة جزاء  
نضارتك، أمّا الكبر فلم يكن أبدًا من شيمي... رأى

كفّها القابضة على الكأس قريبة من ركبته، فمدّ راحته  
وربّت عليها بلطف، ولكنّها سحبتها في صمت إلى  
حجرها دون أن تلتفت إليه، فسأله نفسه ترى هل

يحلو التدلّل في هذا الوقت المتأخّر خاصّة إذا كان  
الداعي مثله وكانت المدعوّة مثلها؟ غير أنّه لم يجد عن  
سنن الملاينة والملاطفة، فسألها بلهجة ذات معنى:

- أليس ثمة حجرة ثالثة في العوامة؟

قالت تحييب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهي  
تشير صوب باب الدهليز:

- في الناحية الأخرى...

تساءل وهو يقتل شاربه مبتسمًا:

- أليست تسع كليتنا؟

فقال بصوت لا أثر للدلال فيه، وإن لم يجاوز  
حدود الأدب:

- تسعك وحدك إن طاب لك النوم!

فسألها كالداهش:

- وأنت؟

فقال بنفس اللهجة:

- مستريحة كما أنا...

تزعزع قليلًا مقتربًا منها، ولكنّها قامت فوضعت  
كأسها على المائدة، ثمّ مضت إلى الكنبّة المقابلة له،  
فجلست راسمة على وجهها صورة الجحد والاحتجاج

متدَلِّلة... اسلخها بلسانك... اركلها بقدمك...  
ادفعها أمامك إلى الحجرة قهراً. الأجدر أن تشيح عنها  
بوجهك وتغادر المكان فوراً، في أعيننا لعنة تذُلُّ  
الأعناق، ما ألطف جيدها، لا تمار في حلاوتها، طاش  
الرأي ووجب الألم...

- لم أكن أتوقَّع هذا الجفاء...  
وقطَّب مصمَّماً وقد تجمَّهم وجهه، فنهض رافعاً كتفيه  
في استهانة، وهو يقول:  
- ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقاً فخاب ظني، ولن  
ألوم إلا نفسي...

سمع وسوسة شفتيها وهي تمتص ريقها مصَّة  
الاحتجاج والانتقاد. ولكنَّه مضى إلى ملابسه فأخذ  
يلبسها على عجل حتَّى انتهى منها في أقلَّ من نصف  
المُدَّة التي تتطلَّبها عادة أناقته. كان مصمَّماً غاضباً،  
ولكنَّ اليأس لم يبلغ به نهايته، ظلَّ جزء من نفسه  
متمرداً يأبى أن يصدِّق ما وقع أو يعزَّ عليه أن يسلم  
به، فتناول عصاه وهو يترقَّب بين لحظة وأخرى أن  
يحدث شيء فيكذب ظنَّه ويصدِّق أمانيَّ كبريائه  
الجرَّيح، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع  
الجدِّ الزائف، أو أن تهرع إليه مستنكرة غضبه، أو أن  
تتب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب، أجل كثيراً ما  
تكون مصَّة الريق التي نذَّت عنها مناورة يعقبها  
الاستسلام، غير أنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث.

ولبثت وهي بمجلسها تنظر إلى لا شيء، متجاهلة  
إيَّاه كأنَّها لا تراه، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى  
الباب الخارجي ثمَّ إلى الطريق وهو يتنَّهَّد في حزن  
وأسف وغيظ. قطع الطريق المظلم مشياً على الأقدام  
حتَّى بلغ جسر الزمالك وجوَّ الخريف الرطيب يتسلَّل  
في لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقلَّ  
تاكسي، فطوى به الأرض طياً وهو ذاهل من السكر  
والفكر، حتَّى انتبه إلى ما حوله في ميدان الأوبرا  
والسيَّارة تدور به في طريقها إلى العتبة الخضراء، في  
أثناء دورانها حانت منه التفاتة فلمح على ضوء  
المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتَّى  
غَيَّبه عنه منعطف الطريق، ثمَّ أغمض عينيه وهو يشعر

تساءل السيِّد، وكان يشعر في تلك اللحظة أنَّه  
يتدهور:

- ألم يصادف توذدي القبول؟  
فطامنت من رأسها لتخفي وجهها عن عينيه،  
وقالت برجاء حازم:  
- هلَّا كففت عن هذا؟  
تملَّكه غضب فجائيَّ فجاء كردُّ فعل لإحساسه  
بالتدهور، فتساءل داهشاً:  
- لم تحيئين إلى هنا؟

قالت باحتجاج، وهي تشير إلى العود المستلقي على  
الكنبة غير بعيد عنه:

- أجيء من أجل هذا...  
- فقط؟... لا تناقض بين هذا وبين ما أدعوك  
إليه...!

تساءلت باستياء:  
- بالقوَّة؟

فقال وهو يعاني سكرات الخيبة والحنق:  
- كلاً، ولكنِّي لا أجد سبباً للرفض!  
فقالت برود:

- لعلَّ عندي أسباباً...  
ضحك ضحكة عالية فاضية، ثمَّ غلبه الحنق،  
فقال هازئاً:

- لعلَّك تخافين على بكارتك!  
رنت إليه بنظرة طويلة قاسية، ثمَّ قالت بحنق  
وتشفُّ:

- أنا لا أرضى إلا بمن أحبَّه...  
همَّ بأن يضحك مرَّة أخرى، ولكنَّه أمسك بعد أن  
ضاق صدره بهذه الضحكات الآليَّة المحزنة، ومدَّ يده  
إلى القارورة فصبَّ منها في كأسه بلا تدبُّر حتَّى امتلأت  
إلى النصف، ولكنَّه تركها على المائدة، وراح ينظر إلى  
المرأة في حيرة لا يدري كيف يخرج من المأزق الذي  
دفع نفسه إليه... الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا  
بمن تحبَّه، هل يعني هذا إلا أنَّها تحبَّ كلَّ ليلة رجلاً!  
هيهات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة! السادة  
هناك في الداخل، وأنت هنا تحت رحمة عوادة

هذا القلق كله؟ إني أنألم، أجل! إني أنألم، إني مكروب بما نزل بي من مهانة، أتوعدّها بالازدراء ثم تحطّر منها على القلب خطرة فستعر عروقي... استبق الحياء ولا تجعل من نفسك أضحوكة، إني أستحلفك بالأولاد من بقي منهم ومن ذهب... هنيئة كانت المرأة الوحيدة التي هجرتك فجريت وراءها، ماذا لقيت منها؟ ألا تذكر! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول ويجول، ثم يعمل عصاه في المصاييح وطاقت الورد والمزامير والمدعوّين، حتى يغطّي الصلوات على الزغاريد... ذاك رجل؟ كن فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض. ما أضعف أعداءك وما أقواهم، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشي غير أنّها تهدّ الجبال الرواسي، ما أقطع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة، ما أطفئ أماسيه خاصة ما يكون منها في العوامة. إنّ بعد العسر يسراً...

فكر في أمرك وانظر في أيّ اتجاه تسير، المكتوب لازم تشوفه العين، الإقدام مرّ والنكوص مرعب، كم كنت تراها وهي في ميعة الصبا فلم توقظ فيك نائماً ومررت بها كأنها شيء لم يكن، ماذا جدّ حتى زهدت فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد، ليست أجمل من زبيدة ولا جلييلة ولو كان بها جمال ينافس جمال خالتها ما اصطحبتهما، على ذلك فانت تريدها وتريدها بكلّ قوة نفسك... آه!! ما جدوى المكابرة؟! لا أرضى إلّا بمن أحبه!! أحبك برص يا بنت اللبوة... تألم حتى تخشع، ما أذلّ الإنسان مثل نفسه، هل تذهب إلى العوامة؟ ليست خير مكان لإذاعة الفضائح، البيت؟ هناك زبيدة!! أهلاً أهلاً!! أعدت أخيراً إلى عرينك؟ بم تجيبيها؟ لم أعد لذلك، ولكنّي أريد بنت أحسبك! يا له من سخف! دع الهذر. هل فقدت صوابك؟! استعن بالفار أو بمحمّد عفت. السيّد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيع إلى... زبوبة... ليس من الأفضل أن تفصد نفسك حتى يتفصد الدم الخبيث الذي يسمك الذلّ!

كان الليل قد غشي الغوريّة وأغلقت أبواب حوانيتها، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكانه عقب

بشكّة تنفذ إلى أعماق قلبه، ووجد في باطنه صوتاً كالأنين يهتف في عالمه الصامت داعياً بالرحمة للفقيد العزيز، فلم يجزّ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشيع بالخمر، وعندما رفع جفنيه، ذرفت عيناه دموعين غزيرتين...

## - ٨ -

لم يدري ماذا ركبته!! شيطان رجيم أم داء وبيل؟ نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخب الليلة الماضية، بسخب السكر دعاه، وللسكر سخب لا ريب فيه يفسد لذاته ويقلب مسرّاته، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلّب، ورشاش الدش يترشش على جسده العاري تشبّت فكره وخفق قلبه، تخايل لعينيه وجهها وطلّت في أذنيه وسوسة شفيتها ورجّع قلبه صدى الألم، ثمّ تجرّ أفكارك الظائمة كفتى مراهق والطريق من حولك يحميك تحية الإجلال. يحيون فيك الوقار والورع وحسن الجوار، ولو علموا أنّك تردّ تحياتهم في آليّة وفكرك عنهم غائب مهموم في حلم جارية عالمة... عوادة... امرأة تعرض جسدها كلّ ليلة في سوق المضاجع... لو علموا ذلك، لألوك بدل التحية ابتسامة هزة ورثاء. فلتقلّ الأفعى «نعم» وعند ذلك أعرض عنها بكلّ ازدراء وارتياح، ماذا دهاني وماذا أروم، هل أدركك الكبر؟ أتذكر ما ابتلى جلييلة وزبيدة من عاديّات الزمن؟ تلك أثار بغیضة يجدها القلب ولا يدركها الحسّ، لكن مهلاً، حذار أن تسلم للوهم فيسلمك الوهم لقمة سائغة للانبهار... ما هي إلّا شعرة بيضاء، لغیر ذلك من البواعث أعرضت عنك العوادة الحفيرة... الفظها كما تلفظ ذبابة اندسّت في فيك وأنت تتشاءب، وأسفاه!! أنت تعلم أنّك لن تلفظها، لعلها الرغبة في الانتقام ولا شيء سوى ذلك. ردّ اعتبار ليس إلّا. ينبغي أن تقول الجارية «نعم»، ولك أن تهجرها بعد ذلك قرير العين. لا شيء فيها يستحقّ النضال. أتذكر ساقها وجيدها وشهوة عينيها؟ لو داويت كبرياتك بلعقة من الصبر لفزت - من ليلتك - بالمتعة والبهجة، ماذا وراء

كله؟! هل يسرك حقاً أن تترك من وراء الخصاص  
لتهزأ من تدهورك؟ إنك لا تدري ماذا تصنع بنفسك،  
أنتبت عينيك في عجزيهما ودوّخت دماغك، لن تبدو  
لك، والأدهى من هذا أن تتفرّج عليك ساخرة من  
وراء خصاص، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينيك  
منها. اعترف، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن...

أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها... أن تتابع أناملها  
المخضبة، فيم هذا كله؟ لم يسلف لك شيء كهذا مع  
من فُقتها حسناً ووراء وشهرة، أقضي عليك أن تتعذب  
وتهون في سبيل الشيء الحقير. لن تبدو... تطلّع  
كيفما شئت... الفُت إليك الأنظار... السيد أحمد  
عبد الجواد في قهوة سي عليّ يسترق النظر من الكوة،  
لشدّ ما تدهورت!! من أدراك أنها لم تفش سرّك؟  
لعلّ التخت يدري، ولعلّ زبيدة نفسها تدري، ولعلّ  
الجميع يدرون!! مدّ يده المحلاة بالختام الماسيّ إليّ  
فصددته ثمّ توسّل إليّ فأصررت على صدّه... هذا  
هو السيد أحمد عبد الجواد الذي تشيدون به!...

لشدّ ما تدهورت!! أقصى التدهور ما تنحدر إليه، بل  
ما تصرّ على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما  
ينطوي عليه فلكك المشين من مذلة وهوان، إذا عرف  
السّر أصحابك وزبيدة وجليلة، فماذا أنت صانع؟!  
حقاً أنت ماهر في مداراة الحرج بالنكتة، ولكن سوف  
تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة  
المرة... هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدها. لا تكذب  
على نفسك، فأنت تريدها حتّى المساء. ماذا  
أرى؟... تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت  
فوقفت أمام بيت العالمة، ثمّ ما لبث أن فُتح الباب  
فخرجت عيّوشة الدقافة ساجدة وراءها عبده  
القانونجي، ثمّ تبعها بقيّة الجوقة، فأدرك أنّهم ذاهبون  
إلى فرح من الأفراح. وشعر الرجل شعوراً غنيماً  
بخفقتان قلبه وهو يتطلّع إلى الباب في ترقب مشوق  
محزن. اشرأب بعنقه في غير ما حيلة متجاهلاً ما حوله  
من الناس، ثمّ رنّت ضحكة وراء الباب، ثمّ برز  
العود في جراب بمبيّ يسبق صاحبه التي خرجت في  
نشاط ثوريّ ضاحكة ثمّ وضعت العود على مقدّم

إغلاقها، يسير في خطوات وثيدة وعيناه تتفحصان  
الطريق والنوافذ، لاح وراء نافذتي زبيدة ضوء، ولكنّه  
لم يدبّ ماذا كان يدور وراءهما، أوغل في الطريق وقتاً  
ثمّ عاد من حيث أتى، فوصل مسيره إلى بيت عمّد  
عفت بالجلاليّة حيث يلتقي الأصدقاء الأربعة قبل  
انطلاقهم إلى السهرة معاً. قال السيّد مخاطباً محمّد  
عفت:

- ما ألطف ليالي العوامة، لا يزال قلبي يحنّ إليها!  
فقال محمّد عفت ضاحكاً في ظفر:

- هي رهن إشارتك في أيّ وقت تشاء...

وعقب عليّ عبد الرحيم على ذلك بقوله:

- حننت إلى زبيدة، يا عكروت...

فيادر السيّد قائلاً في جدّ:

- كلّاً...

- جليلة؟

- العوامة ولا شيء عداها...

فسأله محمّد عفت بمر:

- أتريدها سهرة قاصرة علينا، أم ندعو إليها

صديقات الزمان الأوّل؟

فضحك السيّد ضحكة أعلن بها هزيمته، ثمّ قال:

- بل تدعوهم يا بن الماكرة، وليكن ذلك مساء

الغد، لأنّ الوقت تأخّر بنا الليلة، ولكنيّ لن أجاوز  
الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة...

قال إبراهيم الفار «إحم»، وقال عليّ عبد الرحيم:

«على روحي أنا الجاني»، وقال محمّد عفت ساخرًا:

«سمّه كما تشاء، تعدّدت الأسماء والفعل واحد».

ثمّ كان اليوم التالي كأنما اكتشف قهوة سي عليّ

لأوّل مرّة. انجذب إليها قبيل الأصيل، وجلس على

الأريكة تحت الكوة، فأقبل عليه صاحب القهوة

مرحبًا، فقال له السيّد وكأنّه يبرّر مجيئه إلى القهوة لأوّل

مرّة:

- كنت راجعاً من بعض الأعمال، فنازعني النفس

إلى احتساء شايبك العذب.

زيارة لا يبدو أنّها من السهل أن تتكرّر... رويدًا

رويدًا!! ستفضح نفسك أمام الناس، ما جدوى هذا

نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة.

ولما قام عليّ عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقّع من أحد ليعود إلى بيته، وعبثًا حاولوا أن يشنوه عن عزمه أو أن يستنظروه ساعة، فذهب مخلّفًا وراءه دهشة، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنونًا لم تقع.

ثمّ كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل، ولأنّه ليسير في شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الوطاويط في طريق الجامع!... آه... لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعقبها على الأثر جود شمل حركته النفسية كلّها، حتّى خيل إليه - فيما يشبه الغيبوبة، وخلافًا للواقع - أنّه توقّف عن السير، وأنّ العالم من حوله صمّت صمّت القبور، كمثّل السيّارات التي تتوقّف محرّكاتنا عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنّها تسير بقوة القصور الذاتي في سكون شامل، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تتقدّمه بمسافة غير قصيرة، فتبعها على الأثر دون تدبّر أو روية، فمرّ بالجامع دون أن يعرّج إليه، ثمّ مال وراءها عن بُعد إلى السكّة الجديدة. ماذا ينبغي؟. إنّ لا يدري!! كان يطيع ردّ الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعقّب امرأة في الطريق ولا في أيّام شبابه الأوّل فأخذ ينتابه الحرج والحذر، ثمّ دهشته فكرة ساهرة مفزعة معًا: أن يهتّك سرّ المطاردة الخفية، ياسين أو كمال! على أنّه حرص على ألاّ تقصر المسافة بينه وبينها عمّا كانت عليه مذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وظمًا وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام، حتّى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صائغ من معارفه يدعى يعقوب، تباطأت قدماه كي يتيح لنفسه فرصة للتدبّر وتضاعف شعوره بالحرج والحذر: ألا يعود من حيث أن؟ أم يمرّ بالدكان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترّب من الدكان رويدًا، حتّى إذا لم يبق بينه

العربة، وصعدت إليها بمعونة عيوشة، وجلست في الوسط حتّى لم يعد يُرى منها إلّا منكبًا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشة وعبد الضير. أصرّ السيّد على أسنانه حنيًا وحنقًا معًا. أتبع العربة عينيه وهي تتساييل ذات اليمين وذات الشمال موغلة في الطريق، مخلّفة في صدره إحساسًا عميقًا بالكآبة والهوان، وتساءل: هل يقوم فيتبعها؟ غير أنّه لم يحرك ساكنًا ولم يزد على أن قال لنفسه: «وكان المجيء إلى هنا حافّة جنوبيّة».

ذهب في المساء الموعود إلى العوامة بإمبابية، لم يكن استقرّ على رأي فيما ينبغي أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر في ذهنه. ثمّ أخيرًا، رهن حلّ مشاكله بيد الظروف والفرص... حسبه أنّه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها في آخر الليل، سوف يجسّ النبض من جديد وربّما أعاد الكرة مستعينًا هذه المرّة بكافّة ضروب الإغراء، دخل العوامة كالوجلّ، وعلى حال لو رآها على غيره وحدس بواعثها لأغرقه ضحكًا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجيلية وزبيدة ولكنّه لم يعثر للعوادة على أثر!! وقد استقبل استقبالًا حارًّا، وما كاد يخلع جيّته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتّى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج في جوّها بقوة مرونته. حدّث ونكّت ومازح وداعب مغالبًا قلقه محاورًا همّه، غير أنّ مخاوفه كمنت تحت تيّار المرح دون أن تتبدّد كما يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدّر، وما برح يأمل أن يفتّح باب فتأتي منه أو أن يشير إليها بكلمة تفسّر غيابها أو تَعُدُّ بقرب حضورها، وكلّما مضى الوقت متاثلاً متاثبًا شحب أمله وفتّر حماسه وغيم المأمول من صفوه.

ترى أنّها كان الطارئ: حضورها أوّل أمس، أم تخلفها اليوم؟ لن أسأل أحدًا، الظواهر تنمّ على أنّ سرّك لا يزال مصوّنًا، لو علمت به زبيدة ما تورّعت أن تجعل منه فضيحة وجرسة. ضحك كثيرًا وشرب أكثر، سأل زبيدة أن تغنيه «أضحك من الفم وأبكي من صميم قلبي»، أوشك مرّة أن يخلو بمحمّد عفت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرّة أن يجسّ نبض زبيدة

والشجاعة على الانتقال المباشر من تعقّب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع، ألم ينقضّ نزقه وضوءه؟ بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدي الرحمن؟ عدل عن الصلاة محزونًا متألّمًا فسار في الطرقات ساعة على غير هدى، ثم عاد إلى البيت معاودًا التفكير في ذنبه، على أنّ رأسه - حتّى في تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم - لم يغلق بابه دون زُتوبة! قال مخاطبًا محمد عفت، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء:

- أريد منك خدمة، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العوامة!

ضحك محمد عفت، وقال له:

- إن كنت تريدها فلمَ هذا اللَّفّ والدوران! لو طلبتها أوّل ليلة لفتحت لك ذراعيها على الرحب والسعة...

فقال أحمد عبد الجواد في شيء من الحرج:

- أريد أن تدعوها وحدها...!

- وحدها؟! يا لك من رجل أنانيّ لا تفكر إلّا في نفسك، والفار وأنا؟! بل لنجعلها ليلة من ليالي العمر، ولنُدعُ زبيدة وجلييلة وزُتوبة أيضًا...

تساءل أحمد عبد الجواد فيها يشبه الاستنكار:

- زُتوبة؟!...

- لمَ لا؟! إمّا احتياطيّ لا بأس به، يُرجع إليه عند الضرورة...

ما آلني! كيف تمنّعت بنت القديمة ولم؟!...

- أنت لم تدرك بعد غايي، الحقّ أنّي لا أنوي المجيء غدًا!

قال محمد عفت في استغراب:

- تطلب أن أدعو زبيدة! وتقول إنك لن تحيى غدًا! ما هذه الألغاز!

ضحك أحمد ضحكة عالية يداري بها ارتباكها، ثم لم يجد بداً من أن يقول كاليائس:

- لا تكن بغلاً، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها،

كي تبقى زُتوبة في البيت وحدها!

- زُتوبة يا بن أمّ أحمد؟!...

وبينها إلّا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردّد متجاهلاً خطورتها، وهي أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلاً أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كمادته إلى الجلوس فيلتيّ دعوته! مضى متمهلاً فوق الطوار حتّى بلغ الدكان، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفوًا، فالتقت عيناه بعيني يعقوب... وإذا بالخواجاج يهتف به:

- أهلاً بالسيد أحمد، تفضّل...

ابتسم السيد متودّداً ثم عرّج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواجاج إلى كوب خرّوب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنبه جلديّة من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان. لم يبدُ عليه أنّه فطن إلى وجود ثالث في الدكان حتّى جلس فترأت أمام عينيه زُتوبة وهي واقفة حيال الخواجاج تقلّب بين يديها قرطاً فتظاهر بالدهش، والتقت عيناهما وهو على تلك الحال... ابتسمت فابتسم، ثم بسط راحته على صدره محيّيًا، وهو يقول:

- صباح الخير... كيف حالك؟

فقال وهي تعاود النظر إلى القرط:

- بخير ربّنا يكرمك...

كان الخواجاج يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلافًا عليه، فانتهمز السيد فرصة انشغالها ليملاّ عينيه من صفحة خدّها، ولم يغب عليه ما في المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسنى، لعلّ وعسى... غير أنّها قطعت عليه سبيله وإن لم تدّر بما أضمر، فردّت القرط إلى صاحبه وهي تعلنه بأنّها عدلت نهائيًا عن المبادلة، وطلبت إليه إصلاح الأسورة، ثمّ حيّته، وحيّت السيد بإحشاء من رأسها وغادرت الدكان! حدث هذا كلّهُ بسرعة لم يكن ثمة داعٍ إليها فيها بدا له، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق. ولبت مع الخواجاج يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتّى شرب كوب الخرّوب، ثمّ استأذن في الانصراف وذهب.

ذكر - في خجل شديد - صلاة الجمعة التي أوشكت أن تفوته، ولكنّه تردّد في المضيّ إلى الجامع، لم ثواته



مضى إلى الحجرة ثم جلس في الموضع الذي كان يجلس فيه في العهد القديم على الكنية الوسطى، فنزع طربوشه وحطه على النمرقة التي تشطر الكنية، ومدّ ساقه وهو يلقي نظرة فاحصة على ما حوله... إنه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلا أمس القريب، هذه الكنيات الثلاث، وهذه المقاعد، وهذا البساط الفارسي، وهذه الأخوة الثلاثة المطعمة بالصدف، كلّ شيء كان بصفة عامّة كما كان! هل يذكر متى جلس آخر مرة في هذا المكان؟ إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تمّ بينه وبين زبيدة في هذه الحجرة، في هذا الموضع بالذات! وجملته ما دار فيه، لم يكن أحد يومذاك مثله خلّو بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته في نفسها؟ إلى أيّ درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنه جاء من أجلها هي لا من أجل خالتها؟ إن أخفق هذه المرة فقلّ عليه السلام!

سمع وقع شيشب خفيف، ثم بدت زئوبة عند الباب في فستان أبيض منمنم بورد أحمر، ملتفة بوشاح مرصّع بالترتر، أما رأسها فحاسر، وأما شعرها فمجدول في ضفّيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها... استقبلها واقفاً باسماً متفائلاً بالزينة التي تبدّت فيها، فحيّته بابتسامة، وأشارت إليه أن يجلس، ثم جلست على الكنية التي تتوسّط الجدار الذي إلى يمينه، وهي تقول بصوت لم يخلُ من دهش:

- أهلاً وسهلاً، أيّ مفاجأة!

فابتسم السيّد متسائلاً:

- من أيّ نوع يا ترى هذه المفاجأة؟

قالت وهي ترفع حاجبيها في حركة غامضة لم تنمّ عمّا إذا كانت ستكلّم جادّة أم ساخرة:

- سارة طبعاً!

ما دمنا قد أطعنا أقدامنا حتّى جاءت بنا إلى هنا فعلياً أن نتحمّل الدلال بكافة أنواعه: ثقيله وخفيفه. تفحص جسمها ووجهها - في هدوء - كأنّها ينقب فيها عمّا لوّعه وعبث بوقاره، فساد الصمت حتّى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس، ولكن في حركة تمّت

ثمّ وهو يسترسل في الضحك:

- لم كلّ هذا التعب؟ لم تطلّ عليها أوّل ليلة في العوامة؟! ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك، ولزقت فيك بالغراء!

ابتسم ابتسامة فارغة، رغم شعوره الأليم بالامتعاض، ثم قال:

- نفّذ ما أمرت به، هذا ما أريد...

قال محمّد عقّت وهو يفتل شاربه:

- ضعّف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جاداً جداً:

- ليكن هذا سرّاً بيننا...

طرق الباب في ظلام دامس وفي خلاء من المازّة، وكانت الساعة تدور في التاسعة، فُتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح، ثمّ جاءه صوت ارتجّ له فؤاده ارتجّاجاً يتساءل قائلاً: «من؟» فقال بهدوء «أنا»، وهو يدخل بغير استئذان، ثمّ ردّ الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهي واقفة على آخر درجة من السلم مائة ذراعها بالمصباح، حدجته بنظرة داهشة، ثمّ غمغمت:

- أنت!

فوقف صامتاً مليّاً، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنمّ عن الإشفاق والقلق، ولمّا لم يأنس منها اعتراضاً أو غضباً تشجّع قائلاً:

- أهذا هو استقبالك لصديق قديم؟!

فولّته كشحها، ومضت ترقى في الدرج، وهي تقول:

- تفضّل...

تبعها صامتاً، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنّها بمفردها في البيت، وأنّ مكان الجارية جلجل التي ماتت منذ عامين لا يزال شاغراً... تبعها حتّى دخلا إلى الدهليز، فعلقّت المصباح بمسار في الجدار على كتب من الباب، ثمّ دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المدلّى من السقف - زادته هذه الحركة اطمئناناً إلى استنتاجه - ثمّ خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت...

- عن تساؤل مُشربٍ بأدب، كأنما تقول له: «نحن في الخدمة».
- فتساءل السيد في مكر:
- هل يطول انتظارنا للسلطنة؟ ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها؟
- فحدجته بنظرة غريبة وهي تضيق عينيها، ثم قالت:
- السلطنة ليست في البيت...
- فتساءل متظاهراً بالدهشة:
- أين هي يا ترى؟
- فقال وهي تهز رأسها، راسمة على شفيتها ابتسامة غامضة:
- علمي علمك...
- فكر في إجابتها قليلاً، ثم قال:
- ظننتها تطلعك على خط سيرها؟
- فلوحت بيدها كالمنكثرة، وقالت:
- إنك حسنَ الظنِّ بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهى! وإن شئت فأنت أحقُّ مِنِّي بالاطلاع على خط سيرها!
- أنا؟!
- لمَ لا، أَلستَ صديقها القديم؟
- قال، وهو يحدها بنظرة باسمية عميقة ناطقة:
- الصديق القديم والغريب سواء، ترى هل يطلع أصدقاءك القدماء على خط سيرك؟
- رفعت منكبها الأيمن وهي تمطّ بوزها، قائلة:
- ليس لي أصدقاء، لا قدماء ولا حديثون...
- فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول:
- لهذا كلام لمن لا عقل له، أما من له ولو شيء من العقل فلا يتصور كيف يمكن أن تكوني بين قوم يصبرون ولا يستبقوا إلى صداقتك...
- إن هي إلّا تصوّرات الكرماء أمثالك! ولكنّها لا تعدو التّصوّرات الخياليّة، الدليل على هذا أنّك صديق قديم لهذا البيت، فهل راق لك يوماً أن تهني قسماً من صداقتك؟
- قطّب في ارتباك، ثم قال بعد تردّد:
- كنت وقتذاك، أعني أنّه كانت ثمة ظروف... ففرقت بأصابعها، وقالت ساخرة:
- لعلّها نفس الظروف التي حالت بيني - يا عيني - وبين الآخرين!
- ألقي بظهره إلى مسند الكنبه في حركة سريعة تمثيلية ثم مدّ نظره إليها من فوق أنفه العظيم، وهو يهزّ رأسه كالمتعيّد بالله منها، ثم قال:
- أنت عقدة، وها أنا أعترف بأنّي لا قبل لي بك! فدارت ابتسامة بعثها الثناء، ثم تظاهرت بالدهشة، وهي تقول:
- لا أفهم ممّا تعني شيئاً، الظاهر أنّك في وادٍ وأنّي في وادٍ، المهمّ أنّك قلت إنّك جئت لمقابلة خالتي، فهل من رسالة أبلغها ليّاها عند عودتها؟
- ضحك السيد ضحكة قصيرة، ثم قال:
- قولي لها إنّ أحمد عبد الجواد جاء ليشكوني إليك، فلم يجدها!
- تشكوني أنا! ماذا صنعت؟
- قولي لها إنّني جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان!
- يا له من قول خليق برجل يجعل من كلّ شيء مادة لمزاحه ودعابته!
- فاعتدل في جلسته، وقال جاداً:
- معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو الدعابة؟! إنّ شكواي صادقة، ويخيّل إليّ أنّك واقفة على سرّها، ولكنّه دلال الحسان، وللحسان الحقّ كلّ الحقّ في التدلّل، ولكن عليهنّ مراعاة الرحمة أيضاً. فمصممت بشفتيها قائلة:
- عجب!...
- لا عجب البتّة!! أتذكرين ما كان بالأمس في دكان يعقوب الصائغ؟ هل يستحقّ ذلك اللقاء الجاف من كان يعتزّ بمثل مودّتي لكم وقدم عهدي بكم؟ وددت لو استعنت بي مثلاً فيها كان بينك وبين الصائغ، ووددت لو أنحت لي الفرصة كي أضع خبرتي في خدمتك، أو أن تتواضعي درجة أخرى فتسمحي لي بأن أنهض بالأمر كلّ كما لو كانت الأسورة أسوري

أرعشت حاجبها الأيمن وهي تتساءل:  
 - ألا تخاف أن تكبنا السلطانة على غفلة؟  
 - لا تخافي، لن تعود السلطانة الليلة...  
 فحدجته بنظرة حادة مريبة، وتساءلت:  
 - من أدراك بذلك؟  
 انتبه إلى عثرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه  
 الارتباك، ولكنه تخلّص منه قائلاً في لباقة:  
 - السلطانة لا تبقى في الخارج حتى هذه الساعة إلا  
 لضرورة تستدعي بقاءها حتى الصباح!  
 جعلت تحدّق في وجهه طويلاً دون أن تنبس، ثم  
 هزّت رأسها في سخرية ظاهرة، ثم قالت بصوت مليء  
 بالثقة:  
 - يا لمكر الكهول! يضعف فيهم كلّ شيء إلا  
 مكرهم! هل حسبتني غفلة؟ كلّاً وحياتك، إني أعلم  
 كلّ شيء...  
 عاد إلى العبت بفردة شاربه في شيء من الضيق،  
 ثم سألها:  
 - ماذا تعلمين؟  
 - كلّ شيء!  
 وترثت قليلاً لتزيد من ارتباكها، ثم استطردت:  
 - أتذكر يوم جلست على قهوة سي عليّ لتسترق  
 النظر من نافذة القهوة؟ يومها عيناك حفرت جدار بيتنا  
 من شدة النظرا ولما ركبت العربة الكارو مع أفراد  
 التخت ساءلت نفسي: ترى هل يتبعنا مهلاً وراعا كما  
 يفعل الصبية؟ ولكنك عقلت وانتظرت فرصة أحسن!  
 قهقه الرجل حتى اشتدت حمرة وجهه، ثم قال  
 بتسليم:  
 - اللهم اعف عني...  
 - ولكنك نسيت عقلك أمس، عندما رأيتني أمام  
 خان جعفر فتبعني حتى دخلت ورائي دكان  
 يعقوب...  
 - عرفت هذا أيضًا يا بنت أخت زبيدة؟  
 - نعم يا زين العشاق، بيد أيّ لم أكن أتصوّر أنك  
 ستدخل ورائي الدكان، ولكني ما لبثت أن وجدت  
 جالساً فوق الكنية ولا عفريت النسوان نفسه، ولما

أو كانت صاحبها صاحبي...  
 ابتسمت، وهي ترفع حاجبها في شيء من  
 الارتباك، ثم قالت باقتضاب:  
 - تشكر...  
 تنفّس الرجل تنفّساً عميقاً ملأ به صدره العريض،  
 ثم قال بحماس:  
 - مثلي لا يقنع بالشكر، ماذا يفيد الجائع إن  
 أعرضت عنه، وأنت تقولين له: «على الله؟!»، الجائع  
 يريد الطعام، الطعام الشهوي اللذيذ.  
 شبكت ذراعيها على صدرها وهي تتظاهر  
 بالدهش، ثم قالت ساخرة:  
 - أنت جائع يا سي السيد؟! عندنا ملوخيّة وأرانب  
 تستاهل فمك...  
 وهو يضحك عاليًا:  
 - عال، اتفقنا، ملوخيّة وأرانب، تضاف إليها  
 زجاجة ويسكي، ثم نحليّ بشيء من العود والرقص،  
 ونتمدّد ساعة معاً حتى نهضم...  
 فلوّحت له بيدها كأنما تهتف به «إلى الوداء»،  
 وقالت:  
 - الله الله، سكتنا له دخل بحماره... بُعدك!  
 ضمّ أصابع يمينه الخمس، حتى صارت كفم  
 مزوم، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة، وهو يقول  
 بلهجة وعظيّة:  
 - يا بنت الحلال لا تضيّعي الوقت الغالي في  
 الكلام...  
 وهي تهزّ رأسها في زهو ودلال:  
 - بل قل لا تضيّعي الوقت الغالي مع الكهول...!  
 مسح السيد صدره العريض بكفّه في حركة توحى  
 بالتحذّي الباسم، ولكنها هزّت منكبيها ضاحكة،  
 وهي تقول:  
 - ولو...  
 - ولو؟ يا لك من طفلة، حرام عليّ النوم إن لم  
 أعلمك ما ينبغي أن تعلميه، هاتي الملوخيّة والأرانب  
 والويسكي والعود وزنار الرقص، هيا... هيا...  
 ثنت سبابة يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر، ثم

تظاهرت بالدهشة لرؤيتي كدت أطلق لساني فيك بما قسم، ولكنَّ الموقف أملَى عليَّ الأدب...

تساءل ضاحكًا، وهو يضرب كفًّا بكفٍّ:

- ألم أقل إنَّك عقدة؟

فواصلت الحديث وهي في نشوة من الفوز والسرور:

- وما أدري ليلة إلَّا والسلطانة تقول لي: استعدي، إنَّنا ذاهبتان إلى عوامة محمد عفت، فمضيت لأستعد، ولكنِّي سمعتها تقول يعد ذلك: إنَّ السيّد أحمد هو الذي اقترح الدعوة! لعب في عُمِّي الفسار، وقلت لنفسني: السيّد أحمد لا يقترح شيئًا لوجه الله، وفهمت الفولة، فلم أذهب معتلةً بصداع!

- يا لي من مسكين! وقعت في مغالب من لا يرحم، هل عندك مزيد؟...

- لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع....

- ما أحلَّ هذا الكلام! قلَّد الوعاظ، يا أفسق خلق

الله!

وهو يضحك عاليًا:

- الله يسامحك....

ثمَّ متسائلًا في سرور غير خافٍ:

- فهمت الفولة هذه المرَّة أيضًا، ولكنَّك بقيت،

فلم تغادري البيت أو تخفي نفسك...

ونهض قبل أن يتمَّ جملة فأنجَّه نحوها، وجلس إلى جانبها، ثمَّ تناول طرف الوشاح المرصع بالترتر فقَبَّله، وهو يقول:

- اللهمَّ إني أشهد بأنَّ هذه المخلوقة الجميلة الَّدَّ من أنعام عودها، لسانها سوط، وحبَّها نار، وعاشقها شهيد، وسوف يكون لهذه الليلة شأن في التاريخ كلّه...

أبعدته عنها بكفَّها قائلة:

- لا تأخذني في دوكة، هوه! عد إلى مجلسك...

- لن يفصل بيننا شيء بعد الآن....

جذبت وشاحها فجأة من يده و نهضت مبتعدة قليلًا، ثمَّ وقفت على بعد ذراع منه تمنع فيه نظرًا صامتًا، وكأنَّما تراجع نفسها في أمور ذات شأن، ثمَّ قالت:

- لم تسألني عَمَّا جعلني اتخلف عن الذهاب إلى العوامة - يوم دعانا محمد عفت - بناء على اقتراحك...

- كي تزيدي النار اشتعالًا!

ضحكت ثلاث ضحكات متقطعة، ثمَّ صمتت مليًا، ثمَّ قالت:

- فكرة لا بأس بها ولكنَّها قديمة، أليس كذلك يا زين الفساق؟... ستظلُّ الحقيقة سرًّا حتَّى أرى أن أفشيء عندما يحلو لي...

- أقدم حياتي ثمنًا له...

ابتسمت ابتسامة صافية لأوَّل مرَّة، ولاحت في عينها نظرة رقيقة جاءت في أعقاب سخرياتها، كما يجيء الهدوء في أعقاب زوبعة، وبشَّر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد، فاقتربت منه خطوة ومدَّت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تجذله بعناية، ثمَّ قالت بنبرات لم يسمعها من قبل:

- إذا قدَّمت حياتك ثمنًا لهذا، فإذا بقي لي أنا؟

وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة في العوامة، وكأنَّما كان يفوز بامرأة لأوَّل مرَّة في حياته، تناول يديها من فوق شاربه وأودعهما بين راحتيه الكبيرتين، ثمَّ قال بحنان وامتنان:

- أنا نشوان يا ست الكلِّ، نشوان لحدِّ يعجزني عن الوصف، دمت لي إلى الأبد، إلى الأبد، لا عاش من ردَّ لك رجاء أو طلبًا، أتمِّي نعمتك عليَّ وهيَّي مجلسنا، الليلة ليست كالليالي الأخريات، وهي تستحقُّ أن نحتفل بها حتَّى مطلع الفجر...

قالت وهي تلعب بأناملها بين راحتيه:

- ليست هذه الليلة كالليالي الأخريات حقًّا، ولكن

ينبغي أن نقنع منها بالقليل...

القليل! هل ثمة صدَّ بعد هذا اللطف كلّه؟ لم يعد بك صبر.

مضى يربّت كفَّيها، ثمَّ بسط راحتيها، ونظر بافتتان في لون الحنَّاء الوردِي الذي يصبغها، وما يدري إلَّا وهي تسأله بصوت ضاحك:

- هل تقرأ الكفَّ يا سيِّدنا الشيخ؟

- ابتسم، وقال مداعبًا:  
- أنا من المشهود لهم في قراءته، اتَّحَيَّن أن أقرأ لك كَفَّك؟
- أحنت رأسها بالإيجاب. فراح يتأمل راحتها اليمنى متظاهراً بالتفكير، ثم قال باهتمام:  
- في طريقك رجل سيكون له شأن في حياتك...  
تساءلت ضاحكة:  
- في الحلال يا ترى؟  
ارتفع حاجباه وهو يمعن النظر في كفَّها، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح:  
- بل في الحرام!  
- أعوذ بالله! ما عمره؟  
نظر إليها من تحت حاجبيه، ثم قال:  
- غير واضح ولكن إذا قسسته بمقياس مقدرته فهو في عنفوان الشباب...  
فتساءلت بمكر:  
- أهو كريم يا ترى؟  
آه، لم يكن الكرم مِمَّا يزكِّيك عندهنَّ قديمًا.  
- لم يعرف البخل قلبه...  
فكرت قليلًا ثم عادت تتساءل:  
- هل يرضيه أن أبقى كالتابعة في هذا البيت؟  
العجل وقع هاتوا السكاكين...  
- بل سيجعلك سيِّدة قَدِّ الدنيا...  
- أين يا ترى سأقيم في كنفه؟  
زبيدة نفسها لم تكلفك شيئًا من هذا، سيقولون فيك ويعيدون...  
- شقَّة جميلة...  
- شقَّة؟!...  
عجب للبهجتها المستنكرة، فسألها داهشًا:  
- ألا يعجبك هذا؟  
قالت وهي تشير إلى راحتها:  
- ألا ترى ماء يجري؟... انظر جيِّدًا...  
- ماء يجري!... أتودِّين السكنى في حَمَّام؟  
- ألا ترى النيل... عوامة أو ذهبيَّة... ١٩...  
أربعة جنيهات أو خمسة شهريًّا دفعة واحدة، غير عندي وحياتي عندك!...
- النفقات الأخرى، آه!، لا تعشقوا أولاد السفلة!...  
- لماذا تختارين مكانًا بعيدًا عن العمران؟...  
اقتربت منه حتَّى مسَّت ركبتيها ركبتيه، وقالت:  
- لست دون محمَّد عَفَّت جَاهُها، ولستُ دون السلطانة حُظًّا ما دمت تحبُّني كما تقول، وفي وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك، إنَّها حلمي فحقَّقته لي...!
- أحاط وسطها بذراعيه، ولبث صامتًا ليستشعر في هدوء مسَّها ولينها، ثم قال:  
- لك ما تشائين يا أملي...  
فكان الشكر أن ألصقت راحتها بخدَّيه، ثم قالت:  
- لا تظنَّ أنَّك تعطي دون أن تأخذ، اذكر دائمًا أنَّه من أجلك سأغادر هذا البيت الذي عشت عمري فيه إلى غير رجعة، واذكر أنَّي إذ أطلبك بأن تجعلني سيِّدة فما ذلك إلَّا لأنَّه لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن تكون أقلَّ من سيِّدة!...
- شدَّ ذراعيه حول وسطها حتَّى التصق صدرها بوجهه، ثم قال:  
- إنِّي أدرك كلَّ شيء يا نظري، سيكون لك ما تحبِّين وأكثر، أحبُّ أن أراك كما تحبِّين أن تري نفسك، والآن هيَّئي لنا مجلسنا، أريد أن أبدأ حياتي من الليلة...  
أمسكت بساعديه، ثم ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار، وقالت برقة:  
- عندما نجتمع في عوَّامتنا على النيل...  
قال لها محدِّثًا:  
- لا تشيري جنوني، هل تستطيعين أن تقاومي صولتي؟  
فتراجعت وهي تقول بلهجة تجمع بين التوسُّل والإصرار:  
- ليس في البيت الذي عملت فيه وصيفة، انتظر حتَّى يجمعنا المسكن الجديد، مسكنك ومسكني، عند ذاك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك

- ١٠ -

«خير إن شاء الله»...

هذا ما رددّه أحمد عبد الجواد في نفسه وهو يطالع ياسين مقلّباً نحوه في الدكان... كانت زيارة غريبة وغير متوقّعة، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكانه، يوم جاءه ليشاوره فيما ترامى إليه من اعتزام المرحومة أمّه الزواج للمرّة الرابعة، والحقّ أنّه أيقن أنّه لم يجتهد لتبادل التحيّة والسلام ولا للحديث في شأن عاديّ ممّا يمكن أن يحدثه في البيت، أجل إنّ ياسين لا يجيء إلى مقابلته في الدكان إلّا لشأن خطير. صافحه، ثمّ دعاه إلى الجلوس، وهو يقول:

- خير إن شاء الله...

جلس ياسين على كرسيّ قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه، مولياً بقية الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوي أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن، ونظر إلى أبيه في شيء من ارتباك وكّد حدسه، فأغلق الرجل دفترًا كان يسجّل فيه أرقامًا واعتدل في جلسته متأهّبًا لما يجيء، وقد بدت إلى يمينه الخزينة نصف مفتوحة، وفوق رأسه صورة سعد زغلول في بدلة الرياسة معلقة في الجدار تحت إطار البسملة القديم. ولم يكن قصد الدكان اعتبارًا ولكن عن تدبّر وتفكير باعتباره آمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله، إذ أنّ وجود جميل الحمزاوي به ومن يتفق وجودهم من الزبائن خليك بأن يهتّم له درعًا واقياً من الغضب إذا جاءت دواعيه، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التي اكتسبها بتقدّم العمر والمعاملة الطيبة التي يحظى بها بوجه عام... قال ياسين بأدب بالغ:

- اسمح لي بقليل من وقتك الغالي، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك، ولكنّي لا يمكن أن أخطو خطوة دون استنارة برأيك، واعتاد على رضاك...

ابتسم باطن السيّد أحمد هازنًا من هذا الأدب الجمّ، وجعل يتأمّل فتاه الضخم الجميل الأنيق في حذر، ملفّيًا عليه نظرة إجمالية شملت شاربه المجدول على طريقته - هو - وبذلتة الكحليّة وقميصه ذا البنيقة

المنشيّة والبابيون الأزرق والمنشّة العاجيّة والحذاء الأسود اللامع، ولم يكن ياسين قد مسّ مظهره - تأدّبًا في محضر أبيه - إلّا في نقطتين، فأخفى طرف منديله الحريريّ الذي يطلّ من جيب جاكته الأعلى، وعدّل طربوشه الذي يعوجه عادة إلى اليمين. يقول: إنّ لا يمكن أن يخطو خطوة دون استنارة برأيه!! مرحى... هل استنار به وهو يسكر؟ وهو يسبح على وجهه في وجه البركة الذي حرّمه عليه؟ هل استنار به ليلة وثب على الجارية فوق السطح؟ مرحى!! مرحى!! ماذا وراء هذه الخطبة المنبريّة؟

- طبعًا، هذا أقلّ ما يُنتظر من رجل عاقل مثلك،

خير إن شاء الله؟

التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوي ومن معه، ثمّ قرّب الكرسيّ من المكتب، واستجمع شجاعته، قائلاً:

- اعتزمت - بعد موافقتك ورضاك - أن أكمل نصف ديني...

مفاجأة حقيقة! غير أنّها مفاجأة سارة على غير ما توقّع، ولكن مهلاً!! لن تكون سارة حقًا إلّا بشروط، فليستظر حتّى يسمع الأهمّ من الحديث!! أليس ثمة ما يدعو إلى القلق؟ بل! تلك المقدّمة البالغة في الأدب والتودّد، إثارة الدكان مكانًا للحديث لدواعٍ لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفطن، أمّا الزواج في ذاته فطالما تمناه له، تمنّاه حين ألحّ على محمّد عفت ليردّ إليه زوجته، وتمناه حين دعا الله في أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وبنات الحلال، بل لعلّه لولا إشفاقه من أن يخرجه مع أصدقائه كما أخرجته من قبل مع محمّد عفت لما تردّد من تزويجه مرّة أخرى، فليستظرا وعسى ألاّ يتحقّق شيء من مخاوفه...

- اعتزام جميل أوافق عليه كلّ الموافقة، فهل وقع اختيارك على أسرة معيّنة؟

خفض ياسين عينيه لحظة، ثمّ رفعها قائلاً:

- وجدت بغيتي، بيت كريم خبرناه بطول الجوار، وكان ربّه من معارفك المحمودين...

معذور ويبدو - ولهذا طبيعي - أنه لا يدري شيئاً عن سيرة أم الفتاة التي يرومها زوجة، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل، ولعلّ آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به، فما العمل؟ أجل قد تكون الفتاة مهذّبة، ولكن من المؤكّد أنّها لم تظفر بأحسن أمّ ولا بأحسن بيئة، ومن المؤسفّ أنّه لا يستطيع أن يجهر برأيه - ذاك - ما دام لا يسهه أن يقرن القول بالدليل، خاصّة وأنّه رأي خليك بأن يقابل - ممّن يسمعه لأوّل مرّة - بالإنكار والانزعاج، والأدهى من ذلك أنّه يخاف أن يلتمح إليه فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو - أبيه - فتكون الفضيحة التي ليس وراءها فضيحة.

المسألة إذن دقيقة حرجة، ثم إنّ ثمة شوكة حادة تكمن في تضاعفها - هي - تاريخ قديم يتّصل بفهمي، ألا يذكر ياسين ذلك؟ كيف هان عليه أن يرغب في فتاة تطلّع إليها قديماً أخوه الراحل؟ أليس هذا سلوكاً بغيضاً؟ بل إنّ كذلك وإن كان لا يشكّ في إخلاص الشاب لأخيه الراحل، إنّ منطق الحياة القاسي يقيم عدراً لأمثاله، إنّ الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك!

قَطَب الرجل ليشعره بتضايقه، ثمّ قال:

- إنّ قلبي لم يرتح لاختيارك، لا أدري لماذا، كان المرحوم السيّد محمّد رضوان رجلاً طيّباً حقّاً، ولكنّ الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظنّ بأحد، كلّاً! ولكنّه كلام يقال، ربّما ردّه بعض الناس، هه؟ الأهمّ عندي أنّ الفتاة مطلّقة، لماذا طُلّقت؟ هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغي أن تعلم جوابها، لا يصحّ أن تأمن مطلّقة حتّى تستقصي كلّ شيء عنها، لعلّ هذا ما أردت قوله، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيّبين.

قال ياسين متشجّعاً بأسلوب أبيه، الذي اقتصر على النقاش والنصح:

- بحثت بنفسي وبواسطة آخرين، فتبيّن لي أنّ الحقّ كان على الزوج، إذ كان متزوّجاً وأخفى عنهم

رفع السيّد حاجبيه متسائلاً دون أن ينبس، فقال ياسين:

- المرحوم السيّد محمّد رضوان!

- لا...!

نذت عن السيّد أحمد قبل أن يتمالك نفسه، نذت عنه في تأنّف واحتجاج حتّى شعر بأنّه ينبغي أن يبرّر تأنّفه واحتجاجه بسبب وجيه يداري به حقيقة مشاعره، ولم يعوزه ذلك، فقال:

- أليست كرمته مطلّقة؟! فهل ضاقت الدنيا حتّى تتزوّج من ثيب؟!...

لم يفاجأ ياسين بهذا الاعتراض، كان يتوقّعه منذ اللحظة التي عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنّه كان قويّ الأمل في التغلّب على معارضة أبيه التي لم يتصوّر أن تكون إلّا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تحبّياً لامرأة عسيّة بأن تذكره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين في النهاية بهذين المأخذين الواهين، بل كان يعتمد كلّ الاعتماد على موافقته في التغلّب على المعارضة الحقيقيّة التي يتوقّعها عند امرأة أبيه... تلك المعارضة التي وقف أمام التفكير فيها حائراً حتّى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كي يتزوّج كما يحلو له مواجهها الجميع بالأمر الواقع، ولولا أنّ إغضب أبيه كان فوق طاقته لفعل، إلّا أنّه عزّ عليه أن يتجاهل عواطف أمّه الثانية - بل أمّه الأولى - قبل أن يبذل قصاره لاستمالتها واقتناعها برأيه، قال:

- لم تضق بي الدنيا، ولكنّها القسمة والنصيب... أنا لا أبحث عن المال أو الجاه، وحسبي الأصل الطيّب والخلق القويم...

إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقّدة المؤسفة، فهو صدق رأيه الذي لا يكذب أبداً. هذا هو ياسين بلا زيادة ولا نقصان، إنسان - أو حيوان - تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه، ولو جاء نبأ سعيد أو زفّ إليه بشرى سارة لما كان ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه، لعلّه ممّا لا يعيبه ألا يبحث في الزوجة عن المال أو الجاه أمّا الخلق فمسألة أخرى، ولكنّ البغل

- إني على يقين مما أقول! خبرته بنفسه وسمعته بأذني، لا شك في ذلك مطلقاً... .

في ظروف أخرى لم يكن هذا القول - ولا أبلغ منه - كافياً لإقناعه بصدق ياسين، لكنه كان في الحق متعظشاً إلى تصديقه، فصدقه وآمن به، وامتلأ قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج - في تلك اللحظة على الأقل - مما يكرهه، ولاذ بالصمت ملياً هائثاً بالسلام الذي غمر قلبه، ورويداً رويداً! مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال، فعاد يفكر في مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

- مهما يكن من أمر فلإني أود أن تولي المسألة تفكيراً أعمق، وحذراً أشد، لا تتعجل، مدّ لنفسك فسحة التدبّر والمراجعة، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإني على استعداد لأن أختار لك بنفسه مرة أخرى إذا وعدتني وعد رجل صادق ألا تجعلني أندم على تدخلتي لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكراً، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف بالخرج، حقاً أن الرجل يتحدث بحلم عجيب، ولكنه لم يخف قلقه وعدم ارتياحه. فإذا أصرّ على رأيه بعد ذلك فقد يجرحها النقاش إلى شقاق غير مستحب، ولكن هل ينكص تفاقماً من هذه العاقبة؟ كلا! لم يعد طفلاً سيتزوج بمن يشاء كما يشاء، ولكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه! قال:

- لا أريد أن أجسمك تعباً جديداً، شكراً لك يا بابا، غاية ما أتمنى أن أحظى بموافقتك ورضاك... .  
لوح السيد يده في نفاذ صبر، وقال بلهجة لم تخل من حدة:

- تأبى أن تفتح عينيك على ما في رأيي من حكمة... .

فقال ياسين برجاء حار:

- لا تغضب يا بابا، أستحلفك بالله ألا تغضب، إن رضاك بركة، ولا أطيق أن تضنّ عليّ بها، دعني أجرب حظي وادع لي بالتوفيق... .

ذلك، فضلاً عن عجزه عن الإنفاق على بيتين في وقت واحد وسوء خلقه!

سوء خلقه! إنه يتكلّم - بلا حياء - عن سوء الخلق، البغل بمدك بمادة بكر لمزاح سهرة كاملة! قال:

- إذن فرغت من البحث والتقصي!

قال ياسين بحياء، وهو يتهرّب من عيني أبيه الحادّتين:

- تلك خطوة بديهية... .

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه:

- ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا؟

اعتراه الارتباك حتّى اختطف لونه، وهو يقول:

- لم يكن من الممكن أن يغيب عني هذا، ولكنه وهم لا أصل له، فلإني أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كلّه إلّا أياماً معدودات ثمّ نساه نسياناً تاماً، وأكاد أجزم بأنّه ارتاح فيها بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأنّ الفتاة لم تكن طلبته كما توهم... .

ترى: أيقول ياسين الحق، أم يدافع عن موقفه؟ كان نجى المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يزعم أنّه مطلع على ما لا علم للآخرين به من خاصّة شؤنه، فليته كان صادقاً! أجل، ليته كان صادقاً إذن لأعفاه من عذاب يؤرّقه كلّما ذكر أنّه وقف يوماً عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلّما خطر بباله أنّه ربّما مات تعيس القلب أو ناقماً عليه استبداده وتعتته، تلك الآلام التي نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه منها؟

سأل ياسين بلهفة لم يفتن الشاب إلى عمقها:

- أأنت حقاً على يقين مما تقول؟ هل صارحك به؟ ولثاني مرة في حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلّا يوم مصرع فهمي، وهو يقول له:

- كاشفني الحقيقة عارية عن كلّ تخفيف، الحقيقة الكاملة، هذا يهمني فوق ما تتصور، (وكاد يعترف له باله، ولكنه أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه)... الحقيقة الكاملة يا ياسين!

فقال ياسين دون تردّد:



لا يعني أنه أضمر نحوه سوءاً أو أنه اتخذ ذريعة مؤقتة لقضاء ليلته، فالحق أيضاً أن نفسه - رغم تقلباتها التي لا تنفك عنها - كانت تمفو إلى حياة الزوجية والبيت المستقر...

مرّ هذا كلّ بخاطره وهو متخذ مكانه - إلى جنب كمال - بمجلس القهوة، ذلك المجلس الذي يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه، ومضى يجيل طرفه بين كتاباته وحصره الملوّنة والفانوس الكبير المدلّ من سقفه في كثير من الأسى، وكانت أمينة متربّعة كعادتها على الكتبة القائمة بين بابي حجرة نوم السيّد وحجرة المائدة، عاكفة على المعجزة رغم دفء الجو لتصنع قهوتها، وقد تلّفت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجيّ نمّ عن ضمورها، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن، كما الشاطئ إذا استكنّ شفت عمّا في باطنه. شدّ ما شعر بالأسف والحرج وهو يأخذ أهبتها للإفصاح عمّا في ضميره، ولكن لم يكن من الإفصاح بدّ، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يذوق لها طعمًا: - والله يا نينة لديّ مسألة أريد أن أستشيرك فيها...

وتبادل مع كمال نظرة دلّت على أنّ الأخير على علم سابق بموضوع الحديث، وأنه يترقب عواقبه باهتمام لا يقلّ عن اهتمام ياسين نفسه. قالت أمينة:

- خير يا بنيّ...

قال ياسين باقتضاب:

- قرّرت أن أتزوّج...

فتجلّى في عينيها العسليّتين الصغيرتين اهتمام باسم، ثمّ قالت:

- خير ما قرّرت يا بنيّ، لا ينبغي أن يطول انتظارك أكثر ممّا طال.

ثمّ لاحت في عينيها نظرة متسائلة، ولكّنها بدل أن تفصح عن تساؤلها، قالت وكأنّها تستدرجه إلى الاعتراف كأنّ ثمة سرّ:

- خاطب والدك أو دعني أخاطبه، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيرًا من الأولى...

قال ياسين في رزاة بدت لها أكثر ممّا يستدعي الأمر:

اقتنع أحمد عبد الجواد بأنّ عليه أن يسلم بالأمر الواقع، فسلم به في حزن ويأس... أجل! ربّما كانت مريم - رغم استهتار أمّها - فتاة شريفة وزوجة صالحة، ولكن لا شكّ كذلك في أنّ ياسين لم يوفق إلى اختيار أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت.

الأمر لله، مضى الزمن الذي كان يملّي فيه إرادته إملاء فلا يجد رادًا لها، وياسين اليوم رجل مستول ولن يجني من محاولة فرض رأيه عليه إلّا العصيان... فليسلم بالأمر الواقع، وليسأل الله السلامة...

عاود النصّح والتبصير فلجأ ياسين كزّة أخرى إلى الاعتذار والتودّد حتّى لم يعد ثمة زيادة لمستزيد... غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنّه نال موافقة أبيه ورضاه، على أنّه كان يعلم أنّ الأزمة الخطيرة حقًا هي التي تنتظره في البيت، وكان يعلم أيضًا أنّه سيترك البيت حتّى، لأنّ مجرد التفكير في إمكان ضمّ مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فرجا أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقّدًا، إذ لم يكن من اليسير عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتنكر لعهداها وفضلها عليه، لم يكن يتصوّر أن تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآلّه، ولكن تعقّدت الأمور وضائق السبل حتّى لم يبق من منفذ إلّا الزواج. والعجب أنّه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التي رُسمت للإيقاع به، سياسة قديمة تتلخّص في كلمتين: التودّد والتمنّع. ولكنّ الرغبة في الفتاة كانت قد تسرّبت إلى دمه ولم يعد بدّ من إروائها بأيّ سبيل ولو كان الزواج، وأعجب من ذلك أنّه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعًا - عدا والده بطبيعة الحال - ولكنّ رغبته طغت فلم يصدّه ذلك عن فكرته أو يزهده فيها، وقال لنفسه: لم أكرب قلبي على ماضٍ فات لست مسئولًا عنه، سنبدأ معًا حياة جديدة، ومن هنا تبدأ مسؤوليّتي، وإنّ تقني بنفسني لا حدّ لها، وإذا حدث أن خيبت ظنيّ نبذتها كما يُنبذ الحذاء البالي... والحقّ أنّه لم يستلهم فيما عزم فكره ولكّنه استخدمه في تبرير رغبته الجائعة التي لا تزدرج، فأقبل على الزواج هذه المرّة كبديل من مخادعة امتنعت عليه، غير أنّ ذلك

- خاطبت أبي بالفعل، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديدًا لأنني اخترت بنفسى، وقد وافق أبى، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضًا.
- تورّد وجهها حياءً وسرورًا بما أولاها من أهميّة، فقالت:
- ربّنا يوفّقك إلى ما فيه الخير، عجل حتّى تعمّر لنا الدور المهجور، ولكن من بنت الحلال التي قرّرت أن تتخذها زوجة؟
- تبادل مع كمال نظرة أخرى، ثمّ قال في عناء:
- جيران تعرفينهم!...
- ارتسم بين حاجبيها التقطيب التذكّر وهي تمدّ نظرها إلى لا شيء، محرّكة سبّابها كأنما تحصى من في غيبتها من الجيران، ثمّ قالت:
- إنك تحبّري يا ياسين، هلّا تكلمت وأرحتني!
- قال وهو يتبسّم ابتسامة شاحبة:
- جيراننا الأقربون!
- من... ١٩.
- ندّت عنها في إنكار وانزعاج وهي تحملق في وجهه، فخفض رأسه وأطبق شفّتيه متجهّم الوجه، فعادت تقول بصوت متهدّج، وهي تشير بإبهامها إلى الوراء:
- أولئك؟! مستحيل، هل تعني ما تقول يا ياسين؟!
- فأجاب بالصمت المتجهّم حتّى زعقت:
- خبر أسود... أولئك الذين شمتوا بنا في أجل مصاب؟!
- فلم يتمالك أن هتف بها:
- أستحلفك بالله ألا ترددي هذا القول، إنّه وهم باطل، ولو اقتنع به قلبي لحظة واحدة...
- طبعا تدافع عنهم، ولكنّه دفاع لا ينطلي على أحد، لا تتعب نفسك في إقناعي بالمحال، يا ربّي!
- أيّ ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة؟! كلّهم نقائص وعيوب، فهل من فضيلة واحدة تبرّر هذا الاختيار الجائر؟ قلت إنك نلت موافقة أبك، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئًا، قل إنك خدعته...
- قال ياسين بتوسّل:
- هذّني روعك، ليس أكره عندي من إغضابك، هذّني روعك ولتكلّم في هدوء...
- كيف أسمع لك وأنا أتلقّى منك هذه اللطمة القاسية؟! قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا سخيفًا، مريم؟! الفتاة المستهترّة التي تعرف من أمرها ما نعرف جميعًا؟... هل نسيت تاريخها الفاضح؟... هل نسيت حقًا أن تريد أن تحيي بهذه الفتاة إلى بيتنا؟!
- قال وهو يزفر كأنما يطرد من صدره الكرب والاضطراب:
- لم أقل هذا قطّ، هذا أمر لا أهميّة له، المهمّ عندي حقًا أن تنظري إلى المسألة كلّها نظرة جديدة خالية من التحامل...
- أيّ تحامل يا هذا؟! هل ادّعت عليها بالباطل؟ تقول إن أبك وافق، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيّبين يا ربّي؟!
- هذّني روعك، دعينا نتحدّث في هدوء، ماذا يجدي هذا الهياج؟!
- صاحت بحدّة لم تكن من طباعها في الزمن الأوّل:
- إنّ روعي لا يمكن أن يهدأ ما دام الأمر يتعلّق بالكرامة.
- ثمّ بصوتٍ باكٍ:
- وأنت تسيء إلى ذكرى أخيك الغالي.
- ياسين وهو يزدرد ريقه:
- أخي؟ رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته، إنّ هذا الأمر لا يمَسّ ذكراه في أيّ شيء، صدّقيني فلنّي أدري بما أقول، لا تُقلّقي مرقده!
- لست أنا التي أقلق مرقده، إنّما يقلق مرقده حقًا أخوه الذي يتطلّع إلى هذه الفتاة، أنت تعلم هذا يا ياسين!! ولا تستطيع أن تنكره...
- ثمّ في انفعال شديد:
- لعنك كنت تتسلّط إليها حتّى في ذلك الزمن البعيد!
- نينة!!

بإساءة ساعة، إنها معذورة كما قلت، ولكن كيف أطلعها بوجهي صباح مساء، وهذا ظنّها بي؟

ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة:

- لا تصدّق أنّ مريم أدمت قلب المرحوم، لقد

استأذن المرحوم يومًا في أن يخاطبها فرفض أبوك،

وتناسى المرحوم الأمر حتى نسيه فأنتهى كلّ شيء، فما

ذنب الفتاة في ذلك، وما ذنبي أنا إذا أردت أن

أتزوّجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ؟!

قال كمال برجاء:

- لم تعد الحقّ فيها قلت، وسوف تقتنع نينة به

عاجلاً، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء في

البيت مجرد هفوة لسانية...

فقال ياسين وهو يهزّ رأسه في حزن:

- أنا أوّل من يعزّ عليه هجر هذا البيت، ولكنّي

سأتركه عاجلاً أو آجلاً ما دام انتقال مريم إليه

مستحيلاً، فلا تنظر إلى مسألة ذهابي إلّا من هذه

الزاوية، سأنتقل إلى بيتي بقصر الشوق، ومن حسن

الحظّ أنّ شقّة أمي لا تزال خالية، وسأقابل والدي في

الدكان وأوضح له أسباب ذهابي متحاشياً كلّ ما يعكر

صفوه، لست غاضباً، سأترك البيت أسفاً عليه كلّ

الأسف، أسفاً على فراق أهله وأولهم نينة، لا تحزن

ستعود المياه إلى مجاريها في وقت قريب، ليس في هذه

الأسرة قلب أسود، وقلب والدتك أنصعها بياضاً...

ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه، وجعل ينظر إلى

ملابسه ولوازمه، وتردّد قليلاً قبل أن ينفذ ما عقد

العزم عليه، فالتفت إلى كمال، وهو يقول:

- سأتزوّج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير،

ولكنّي - علم الله - مقتنع كلّ الاقتناع بأنّي لم أسئ إلى

ذكرى فهمي، أنت أعلم يا كمال بما كان من حيي له،

كيف لا؟ إذا كان هناك من سيساء بهذا الزواج، فهو

أنا...!

- ١١ -

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثمّ

انصرفت. كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيّد محمّد

رضوان لأوّل مرّة في حياته، وكانت الحجرة - على

- لم تعد لي ثقة في شيء، كيف تبقى لك ثقة في

شيء بعد هذا الغدر؟! هل ضاقت الدنيا وأقفرت حتى

لم تحجد من فتياتها زوجة إلّا الفتاة التي أدمت قلب

أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا

إلى قصّة الجنديّ الإنجليزي؟!...

بسط ياسين ذراعيه في توسّل، قائلاً:

- فلنؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر، سأثبت لك

فيما بعد أنّ المرحوم لم ينداء ربّه وليس في قلبه أيّ أثر

لهذه الفتاة، أمّا الآن فلم يعد الجوّ صالحاً للكلام...

صاحت به غاضبة:

- هيهات أن يصلح عندي جوّ هذا الكلام، إنك

لا ترعى ذكرى فهمي...!

- ليتك تتصوّرين ما يُحدثه فيّ كلامك من حزن!

صاحت، وقد بلغ بها الغضب متناه:

- أيّ حزن؟! إنك لم تحزن على أخيك! من الغرباء

من حزن عليه أكثر منك!

- نينة...!

وهمّ كمال بالتدخل في الحديث، ولكنّها أسكتته

بإشارة من يدها، وهتفت:

- لا تدعني نينة، لقد كنت لك أمّا حقاً، ولكنك لم

تكن لي ابناً ولم تكن لابني أخاً!

لم يعد يحتمل البقاء، فنهض عزوّناً مكتئباً، وغادر

الصالة إلى حجرته، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن

دونه حزناً وكآبة فقال له:

- ألم أحذرك؟...

فقال ياسين مقطّباً:

- لن أبقى في هذا البيت دقيقة واحدة بعد

الآن...!

فقال كمال بجزع:

- يجب أن تعذرها، أنت تعلم أنّ والدتي لم تعد كما

كانت، إنّ أبي نفسه يغضي عن بعض هفواتها أحياناً،

ما هي إلّا غضبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على

كلامها، هذا رجائي إليك...

قال ياسين، وهو يتنهد:

- لن أحاسبها يا كمال، لن أبيع جميل الأعوام

يحملها على السكوت... في قصر الشوق صادفتك أول مفاجأة سعيدة في هذا الجو العاصف!! هو موت الفكاهي وحلول ساعاتي محله، إلى القبر...! سمع نحنحة عند الباب، فأنجبه بصره إليه وهو ينهض، وما لبث أن رأى ست بهيجة وهي تدخل بجانبها، إذ أن مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتسع لها إذا دخلت بعرضها، ولمح عن غير قصد الخطوط التي تحدد تفاصيل جسمها الجسيم، فلم يتمالك من العجب عندما مرت أمام عينيه عجيزتها التي كادت قمتها تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذيها، فكأتمها كرة منطادا!! وأقبلت نحوه في خطوات متمهلة ناءت بقناطير اللحم والشحم، ثم مدت له يداً بضمة بيضاء برزت من كم فستانها الأبيض الفضفاض، وهي تقول:

- أهلاً وسهلاً، شرفت ونورت...

فصافحها ياسين بأدب، ولبت واقفاً حتى جلست على الكنية المجاورة فجلس... كان يراها عن كثب لأول مرة، إذ أن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأم في السن والاحترام حملاه على تجنب تفحصها - كما يفعل مع غيرها من النساء - كلها لمحها عن بُعد في الطريق، لذلك خيل إليه أنه عثر على كشف جديد. وكانت ترتدي فستاناً قد غطى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين، وحتى القدمان وارتبها في جورب أبيض رغم دفء الجو، بينا امتد كُما الفستان على ذراعيها وساعديها حتى المعصمين، ولقت رأسها وعنقها بخمار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت في احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذي قارب الخمسين - فيما علم - وإن تبدت في صحة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب. ولاحظ فيما لاحظ أنها تطلعه بوجه طبيعي لم يمس زخرف أو زواق رغم ما عُرف عنها من حب التبرج وإتقان التزين، الأمر الذي نصّبها من قديم مرجحاً لكل ما يتعلّق بالذوق النسائي من ملابس وزواق في الحيّ كله. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلها عن لأحد أن ينتقد

طراز الحجرات بيت أبيه - واسعة الأركان، مرتفعة السقف، فيها مشربية تشرف على شارع بين القصرين ونافذتان تطلّان على العطفة الجانبية التي يفتح عليها مدخل البيت، وقد فُرشت أرضها ببسط صغيرة، واصطقت في جوانبها الكنبات والمقاعد، وأسدت على الباب والمنافذ ستائر من مخمل رماديّ باهت من القَدَم، وعلى الجدار المواجه للباب عُلقَت البسملة في إطار أسود كبير، بينا توسّطت الجدار الأيمن - فوق الكنية الرئيسية - صورة للمرحوم السيّد محمد رضوان تمثله في أوسط العمر...

اختار ياسين أول كنية صادفته إلى يمين المدخل، فجلس وهو يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على وجه السيّد محمد رضوان الذي بدا وكأنه يبادل النظر بعيني مريم! ابتسم ابتسامة راضية وراح ينشئ لا شيء بمنشئته العاجية... ثمّة مشكلة قد واجهته مذ فكر في المجيء لخطبة مريم، هي خلوّ البيت من جنس الرجال وعدم توقيفه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه. فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من شجرة - على حدّ تعبيره - الأمر الذي أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة، غير أنه كان مطمئناً من ناحية أخرى إلى أن مريم لا بدّ وأن تكون قد مهّدت له السبيل عند أمها، بحيث أن مجرد إعلان زيارته سيثي بما جاء من أجله، ومن ثمّ يهيئ له جواً طيباً لإنجاز مهمته.

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة، فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهي تخبره بأن ستها الكبيرة في الطريق إليه... وستها الصغيرة ترى هل علمت بحضوره؟ وما صدى ذلك في نفسها الرقيقة؟ سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق، ولتفعل بنا القوة ما تشاء! من كان يظنّ لأمنية هذه القدرة على الغضب؟ كانت في وداعة الملاك. قاتل الله الحزن!! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له في الدكان بأنه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثره وحزنه. ترى: هل تطلعه أمينة على تاريخ مريم؟ غصّب الثكلي شيء خفيف، ولكن كمال وعد بأن

إفراطها في التبرّج، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه الأسباب في السنوات الأخيرة رامية إياها بقلّة الحياء وتحأهل ما يستوجه عمرها من احتشام.  
- خطوة عزيزة يا ياسين أفندي...  
- الله يكرمك!!

كاد يجتم جلته بقوله «يا تيزة» ولكن إحساساً غريزياً خوّفه في اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصّة وأنه لاحظ أنّها لم تدّعه «بيا ابني» كما كان المنتظر، وعادت المرأة تسأل:

- كيف حالكم؟ والدك وأمّ فهمي وخديجة وعائشة وكيال؟  
أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين ناصبوا العداء بلا سبب وجيه:  
- كلّهم بخير، سألت عنك العافية...  
لا شك أنّها تفكّر الآن في الجفاء الذي قوبلت به في بيت أبيه عقب وفاة فهمي فاضطرّها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كلّها. يا له من جفاء!! بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلّا أن أعلنت امرأة أبيه يوماً أنّ «شعورها» يتحدثها بأنّ مريم وأمّها لم تصدقا في حزنهما على فهمي! لم كفى الله الشرّ؟

قالت إنّ من غير المعقول أن يكون رفض السيّد لخطبة مريم لم يبلغها في حينه عن طريق أو آخر أو حتّى استنتاجاً، ومن غير المعقول أن تعلمها به ولا تضطغنها عليهم! ورددت كثيراً أنّها سمعت أنّ مريم تندب فهمي في الماتم فتقول: «أسفي على شبابك الذي لم تتمتع به» فترجتها إلى «أسفي على شبابك الذي وقف أهلك في سبيله فلم تتمتع به!». وزادت على ذلك ما شاء لها حزنها وقهرها، ولم تنفع معها حيلة في تحوّلها عن «شعورها»، وسرعان ما تغيّر سلوكها نحو مريم وأمّها حتّى كانت القطيعة!... قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والخرج:

- لمن الله الشيطان!  
فقالت بهيجة مؤمنة على قوله:  
- ألف لعنة!... طالما ساءلت نفسي عمّا جنيت حتّى ألقى ما لاقيت من السّت أمّ فهمي، ولكنّي

أعود فأدعو لها بالصبر... المسكينة!  
- جزاك الله كلّ خير على نبل خلقك وطيبة قلبك، حقّاً إنّها مسكينة وفي حاجة إلى الصبر!!  
- ولكن ما ذنبي أنا؟!  
- لا ذنب لك، إنّ الشيطان لعنة الله عليه...  
هزّت المرأة رأسها هزّة الضحية البريّة، وصمتت قليلاً، حتّى حانت منها التفاتة إلى فنجال القهوة الذي بدا كالمسيّ على صينيّة القهوة، فقالت وهي تومئ إليه:

- ألم تشرب قهوتك بعد؟  
فرفع ياسين الفنجال إلى فيه، وحسا الحسوة الأخيرة، ثمّ أعاده إلى الصينيّة، وتنحنح قليلاً، ثمّ أنشأ يقول:

- شدّ ما ساءني ما انتهت إليه صداقة الأسرتين، ولكن ما باليد حيلة، على أيّ حال ينبغي أن نتناسى ذلك تاركين أمره للزمن، والواقع أنّي لم أكن أحبّ أن أثير أسيف الذكريات، فما لهذا جثت، إنّما جثت لغرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة...  
هزّت المرأة رأسها هزّة كأنّها تطرد الذكريات الأسيفة، ثمّ ابتسمت ابتسامة استعداد لسماع جديد، كانت تهزّ رأسها وابتسامتها كالآلة الموسيقيّة المصاحبة للمغنيّ إذا غيّرت عزفها تمهيداً لدخول المغنيّ في طبقة جديدة من النغم، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها طلاقة:

- أنا نفسي لا تخلو حياتي من ذكريات أسيفة تتصل بحياتي الماضية... أعني تجربتي الأولى في الزواج الذي لم يوقّني الله فيه إلى بنت الحلال! ولكنّي لا أريد أن أرجع إلى ذلك، الواقع أنّي جثت بعد أن عزمت - متوكّلاً على الله - على فتح صفحة جديدة مستبشراً الخير كلّها فيها اعتزمت...  
التفت عيناهما على الأثر فطالع فيهما الترحيب الجميل... ترى: هل كان موقفاً في الإشارة إلى زواجه الأول؟ ترى ألم يترام إلى سمع هذه المرأة شيء عن الأسباب الحقيقيّة لفشل ذلك الزواج؟ لا تشغل

ولكن هيتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضًا «رأيتك!». لينس الهفوة فهذا خير حل، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يومًا ما؟ متى يجيء هذا اليوم؟! للآم مزايا لا يوجد بها الزمان إلا في النادر، يا لها من امرأة!! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هي أن يمزق الصمت، قال:

- إذا حاز طلبي القبول، فستجديني رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة...

ضحكت ضحكة قصيرة، فبدا وجهها في إشراقتها لطيفًا شابًا، وقالت:

- كيف لا يجوز القبول يا ياسين أفندي؟! أصل وجوار على رأي المثل...

قال، وقد تورّد وجهه:

- إنك تأسريني بلطفك!

- ما عدوت الحق، والله شهيد!

ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير:

- هل تمت موافقة البيت؟

تجلّت في عينيه نظرة جدّ لحظة، ثم ضحك ضحكة فائرة من أنفه، وقال:

- دعينا من البيت وسيرته!

- لم كفى الله الشر؟

- ليس البيت على ما يرام!

- ألم تشاور السيد أحمد؟

- أبي موافق...

فصبرت يداً على يد، وقالت:

- فهمت، أم فهمي؟! أليس كذلك؟! إنها أوّل من

تبادر إلى ذهني وأنت تفاتحني بالموضوع، طبعًا لم

توافق، هه؟ سبحان الذي لا يتغير، امرأة أهلك امرأة

غريبة!

هزّ كتفيه استهانة، وهو يقول:

- لا يقدّم هذا ولا يؤخّر...

قالت متشجّية:

- طالما ساءلت نفسي عمّا جنيت؟ أيّ إساءة أسأت

بها إليها!

- لا أحبّ أن أقدم على حديثنا حديثًا آخر لا يجني

بالك، إنّ ملاحظها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حدّ، ملاحظها الجميلة!! أليس كذلك؟ بلى، لولا فارق السنّ لكانت أجمل من مريم، كانت بلا مرء أجمل من مريم في شبابها الذاهب... كلّاً! إنها أجمل من مريم رغم فارق السنّ... إنها لكذلك...

- أظنّك فطنت إلى مقصدي، أعني إلى أنّي جئت طالبًا يد كرميتك مريم هانم...

أضواء الوجه الرقراق ابتسامة بثّت فيه حيويّة جديدة، وقالت:

- لا يسعني إلا أن أقول أهلاً وسهلاً، نعم الأسرة ونعم الرجل، أمس أوقعنا سوء الحظّ فيمن لا خلاق له، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير حقًا بإسعادها، وستكون بفضل الله جديرة بإسعاده، ونحن - مهما فرّق بيننا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن...

اغتنبت ياسين حتّى راحت أصابعه تسوّي البابيون بلمسات سريعة غير مقصودة، ثمّ قال وقد تورّد وجهه الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبي، جزى الله عني لسانك الحلو، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أيّ شيء، ومريم هانم فتاة يزدان بها حينًا كلّ أصلًا وخلقًا، أرجو أن يعوّضها الله من صبرها خيرًا وأن يعوّضني بها من صبري خيرًا.

غمغمت «آمين» وهي تنهض، ثمّ أقبلت بجسمها المفتخر نحو المنضدة، فتناولت صينيّة القهوة وهي تنادي باسمينة، ثمّ استدارت حاملة إياها فأعطتها الخادم التي جاءت على عجل، ولفتت عنقها فجأة لتقول له «آنستنا» فباغتته وهو يحمق في رديفها الثقيلتين!! وشعر لتوّه بأنّه «ضبط في حالة تلبّس» فبادر بخفض عينيه ليومها بأنّه كان ينظر إلى الأرض، ولكن بعد فوات الأوان...

وارتبك وجعل يسأل نفسه عمّا عسى أن تظنّ به، ثمّ اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفّيتها ابتسامة خفيفة كأنّها تقول له «رأيتك». لعن عينيه اللتين لا تعرفان الحياء، وتسأل عمّا يمكن أن يكون قد دار في رأسها... أجل إنّها تحاول أن تبدو كأنّها لم تر شيئًا،

بخطورة الموقف. إمّا أن يكون مجنوناً وإمّا أن تكون - هي - المجنونة، أو فلا هذا ولا ذاك؟ مَنْ له بمن يتشله من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت، ثم تحوّلت عن النافذة متّجهة إلى مجلسها. فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة - قبل تحوّلا - متظاهراً بالاستغراق في تفحصها، ولم يلفت رأسه نحوها حتّى صدرت عن الكنبه طقطقة تنبئ بجلوسها، وعند ذاك التقت عيناهما، فرأى في عينها نظرة باسمه مأكرة أشعرته بأنّه لم تحفّ عنها خافية، وكأنتا تقول له بأفصح لسان «رأيتك!». لبث حيناً مضطرب النفس وال خاطر، ولم يكن على بيّنة من شيء فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرّض نفسه أمامها للاتّهام، وبدا له أنّه سيحاسب على كلّ حركة تبدر منه، وأنّ أيّ هفوة قد تنقلب فضيحة.

- ما زال الجوّ مائلاً إلى الحرارة والرطوبة...  
جاء صوتها هادئاً طبيعياً، ودلّ - إلى ذلك - على رغبتها في إزاحة الصمت، فقال بارتياح:  
- أجل إنّهُ كذلك...

عاودته الطمأنينة، غير أنّه ما لبث أن تخايل لعينه المنظر الذي رآه عند النافذة، وجد نفسه على رغبة يجترّه ويتيه في جاذبيّته، ويتمنّى لو كان عثر على مثله في إحدى مغامراته. لو كان لريم مثل هذا الجسم! ألا في مثله فليتنافس المتنافسون. ولعلّها ظنّته - لصمته - لا يزال مشغولاً بما أثارته من حديث خلاصه مع امرأة أبيه، فقالت فيما يشبه الدعابة:

- لا تشغل بالك، لا شيء في هذه الدنيا يستحقّ شغلة البال!

ثمّ لوّحت يديها ورأسها - واهترّ جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصّة - كأنّها لتحنّهُ على الاستهانة بالهموم، فابتسم مطوّعاً وهو يغتم: «نطقت بالحقّ». غير أنّه كان يبذل قصاراه ليملك نفسه. أجل فقد حدث أمر جلل. لم يكن في ظاهره إلّا تلك الحركة الشاملة التي أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحته عليها، إلّا أنّها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار، وقد

منه الإنسان إلّا وجع الدماغ، ليكن ظلّها ما يكون، المهمّ أنّي ماضٍ إلى هدفي، ولا يعنيني إلّا موافقتك أنت...

- إذا لم يتّسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك...  
- شكراً... لديّ بيتي بقصر الشوق بعيداً عن الحيّ كلّهُ، أمّا بيت أبي فقد غادرته من أيّام...  
ضربت صدرها بيدها هاتفة:

- طردتك!...  
قال ضاحكاً:

- كلّاً لم يبلغ الأمر إلى هذا الحدّ، المسألة وما فيها أنّ اختياري ألّهما لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخي (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أنّي لم أجد في معارضتها وجه حقّ مقنع، فإنّني رأيت من اللياقة أن أعدّ للزوجيّة بيتاً جديداً...

سألته، وهي ترفع حاجبها وتهزّ رأسها فيما يشبه الشكّ:

- لم تنتظر في بيتك حتّى يحين ميعاد الزواج؟  
فضحك ضحكة تسليم، وقال:  
- آثرت الابتعاد خوفاً من تفاقم الخلاف!  
فقال كالمتهكّمة:

- ربّنا يصلح الحال...  
وقامت مرّة أخرى قبل أن تتمّ جملتها، فأتّجهت إلى النافذة المطوّلة على العطفة الجانيّة وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربيّة غير كافٍ لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغبة وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطالعه كالقبة. رآها وهي تعتمد على الكنبه بركبتها ثمّ تميل على حافة النافذة لتشيك مصراعها فرأى منظراً عجيباً ترك في نفسه أثراً دامياً. تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه: لمّ لم تدعّ الخادم لتفتح النافذة؟ كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظريه - اللذين باغتهما منذ قليل في حالة «تلبّس»- هذا المنظر الذي لا يخفى عنها مغزاه؟ لمّ وكيف وكيف ولمّ؟ كان فيما يتّصل بالنساء مرهف الحسّ سنّ الظنّ، فلاح له شيء كالشكّ يتردّد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يختفي، ولكنّه بادر فأغمض عينيه متأثراً

نَدَّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عَمَّا التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذلك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديدة حقًا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيِّدة مصون! ولم يكن لإزعاجه إلَّا لحظة عابرة، فسرعان ما حلَّ محلُّه إحساس بسرور شهوانيٍّ مأكراً، وراح يتذكَّر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل، على زَنُوبة؟ جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ آه... هذه هي! وخيَّل إليه أنها رغم سنِّها أشهى من مريم والدِّ، وغلبته فطرته فحدَّثته نفسه بأن يجسَّ النبض وألا يقف إن أمكن عند حدٍّ! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنه سيسلك طريقاً وعراً لم يطرُق من قبل، ولكنه لم يعتد يوماً أن يزجر النفس عن هوى... أين يتأدَّى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمِّها! كلاً! إنه لا يضمّر ذلك قط، ولكن تصوَّروا كلِّنا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعقَّف؟... بيد أنها مجرد أفكار وتخيُّلات وفروض! فلأنتظروا... وتبادل ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما، أمَّا ابتسامتها فكانت فيما بدا تحيةً مضيف لضيف، وأمَّا ابتسامته فقد انغمست، على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق.

- نورت بيتنا يا ياسين أفندي...  
- يا سني بيتك لا ينقصه النور، أنت تنورين البلد وما فيها...  
ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء، وهي تتمتم:  
- الله يكرمك يا ياسين أفندي...  
كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمي موعداً آخر لمواصلة الحديث، ولكنه لم يعد إلى الحديث ولم يستأذن في الانصراف... بل راح يمدجها بنظرات ربية تطول نَدَّت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عَمَّا التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيثة طبيعتها وهي لا تدري، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذلك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديدة حقًا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيِّدة مصون! ولم يكن لإزعاجه إلَّا لحظة عابرة، فسرعان ما حلَّ محلُّه إحساس بسرور شهوانيٍّ مأكراً، وراح يتذكَّر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل، على زَنُوبة؟ جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ آه... هذه هي! وخيَّل إليه أنها رغم سنِّها أشهى من مريم والدِّ، وغلبته فطرته فحدَّثته نفسه بأن يجسَّ النبض وألا يقف إن أمكن عند حدٍّ! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره، وبأنه سيسلك طريقاً وعراً لم يطرُق من قبل، ولكنه لم يعتد يوماً أن يزجر النفس عن هوى... أين يتأدَّى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمِّها! كلاً! إنه لا يضمّر ذلك قط، ولكن تصوَّروا كلِّنا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعقَّف؟... بيد أنها مجرد أفكار وتخيُّلات وفروض! فلأنتظروا... وتبادل ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما، أمَّا ابتسامتها فكانت فيما بدا تحيةً مضيف لضيف، وأمَّا ابتسامته فقد انغمست، على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق.

- خذي راحتك، أنت في بيتك، ولا غريب في البيت...  
- ليت أن مريم كانت في البيت لأزفَ إليها الخبرا  
خفق قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم، وتساءل:  
- وأين هي؟  
- عند جماعة من معارفنا في الدرب الأحمر.  
وداعاً يا عقلي! خاطب بنتك يريدك وأنت تريدته،



لمريم ذكر بينها إلا حين قالت له مرة:  
- لم أستطع أن أخفي عن مريم نبأ زيارتك، لأنّ  
خادمتنا تعرفك، ولكنّي قلت لها: إنك فانتحني برغبتك  
في خطبتها بعد تذليل العقبات التي تعترض سبيلك في  
محيط الأسرة!

ووجد نفسه مذهولاً عن مناقشتها، فأبدى موافقته  
واستحسانه. واستقبلاً معاً حياة حافلة بالمتعة، وجد  
ياسين ذات «الكنز» مليئة بين يديه، فانطلق انطلاق  
الجواد الجامح، ولم تكن الحجرة التي أنشئت على عجل  
واقتصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام، ولكنّه لم يأل  
عن تهيئة الجوّ الخلّاب بتوفير الطعام والشراب حتّى  
يطيب له الوصال فيواصل صلولاته بذلك النهم  
الغريزيّ الذي لا يعرف حدّاً أو اعتدالاً. وما لبث أن  
أدركه الملل قبل أن يتمّ الأسبوع الأوّل دورته. هي  
نفس الحلقة التي تدور فيها شهورته حتّى غدا الدواء  
نوعاً من الداء بيد أنّه لم يؤخذ على غرة، كلاً ولم  
يضمّر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أيّ نية  
حسنة ولا قدّر لها أيّ دوام، بل لعلّه لم يبلغ من وراء  
المغازلة في حجرة الاستقبال إلا ضجعة عابرة، غير أنّه  
وجد من المرأة تعلّقاً به وحرصاً عليه وأملًا في أن يكون  
قنع بها راضياً وعدل عن مشروع الزواج، فلم يرَ بداً  
من مجاراتها كيلا يفسد على نفسه لذتها مؤمناً بأنّ الزمن  
وحده كفيل بإرجاع كلّ شيء إلى أصله! وما أسرع أن  
رجع كلّ شيء إلى أصله بالنسبة إليه هو، بل ربّما  
أسرع ممّا قدّر، وكان جاراها وهو يظنّ أنّ جدّة محاسنها  
خليقة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهرًا، ألا يا ربّما  
كذب الظنّ!... أمّا عن مظهرها الشهيّ فبحسبه أن  
جعله يرتكب أكبر حماقة في حياته العامرة بالحماقات،  
ولكنّ الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء  
تورّد الخدين الكاذب، وإنّ القناطير المقتطرة من اللحم  
البشريّ المتحبّكة تحت طيّات الثياب - على حدّ قوله -

غيرها إذا تجرّدت، للعيان، وليس كاللحم البشريّ  
مسجّل لآثار العمر الحزينة، حتّى قال لنفسه «الآن  
أدرك لماذا تعبد النساء الملايس!» لم يكن عجيّباً بعد  
ذلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه أنّها

ليرحم الله من يحسنون الظنّ بالنساء، لا يمكن أن  
يكون في رأس هذه المرأة عقل، جارة العمر ولا تعرفها  
إلا اليوم!... مجنونة... مراهقة في الخمسين!...

- متى تعود مريم هانم؟

- قبيل المساء ..

قال بخبث:

- أشعر بأنّ زيارتي قد طالت...

- لم تطل زيارتك، أنت في بيتك...

فسألها بخبث أيضاً:

- ترى هل أطمع في أن تردّي لي الزيارة؟

فابتسمت ابتسامة عريضة، كأنما تقول له «إنّي أدرك  
ما وراء هذه الدعوة»، ثمّ أطرقت في حياء وإن لم يغب  
عنه ما في حركتها من تمثيل، ولكنّه لم يبالها، وراح  
يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقّته من  
البيت، وهي مطرقة صامته باسمه. ترى ألم تشعر بأنّها  
تسيء إلى ابنتها بأبلغ إساءة، وأنّها تعتدي عليها أنكر  
اعتداء؟!

- متى تتكرّمين بالزيارة؟

غمغمت وهي ترفع وجهها:

- لا أدري ماذا أقول!

فقال بتوكيد وثقة:

- أقول أنا بالنيابة عنك، مساء الغد، ستجدني في  
انتظارك!

- ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها!

- سنعمل حسابها معاً... في بيتي!

وقام من فوره وهمّ بأن يتقدّم نحوها، فأشارت إليه  
وهي تلتفت نحو الباب محدّرة، ثمّ قالت وكأنما لا  
تقصد إلا التفادي من صولته:

- غداً مساء...!

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة.  
كانت إذا نشر الظلام ستاره، تلتفّع بملاءتها، وتمضي  
إلى الجماليّة، فإلى بيت هنية... وهنالك تجد ياسين في  
انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة في الشقّة. لم يجز

«مرض»، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها. وعادت مريم - بعد اخمود النزوة الجنونية - إلى سابق مكانتها من نفسه، كلاً، لم تكن بارحتها، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجلى وجه القمر، عجباً! لم تعد رغبته في مريم مجرد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التي كان يعتدّها مصيراً محتوماً ومرغوباً فيه أيضاً. واستوصى بالصبر - كارهاً - على أن تثوب بهيجة إلى رشدّها، أن تقول له يوماً «حسبنا لعباً وهلم إلى عروسك» ولكنه لم يجد لأمله صدى في نفسها، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تزداد إلا إغراقاً وتهالكاً، وشعر بأنها تمتلئ مع الزمن إيماناً بحقّها عليه كأنه بات محور حياتها وملك يمينها.

أجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هذا تكشف نفسها له عن خفة وطيش ونزق أفتنته جميعاً بأن سلوكها الشاذّ معه في أول مقابلة لم يكن أمراً مستغرباً، فاستهان بها وازدراها وتضخّمت عيوبها في عينيّه الزاريتين حتّى ضاق بها كلّ الضيق وصمّم على التخلص منها في أول فرصة تسنح، وإن حرص على تحيّب الفظاظة أن تبثّر العراقل في طريق مريم. قال لها مرّة:

- ألا تتساءل مريم عن سرّ اختفائي؟

فقال وهي تطمئنّه بحركة من رأسها:

- إنّها على بينة من معارضة أسرتك.

فقال بعد تردّد:

- أصارحك بأننا كنّا نتحدث أحياناً فوق السطح،

وأني ردّدت لها مرّات بأنني مصمّم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين.

فحدجته بنظرة نافذة، وهي تتساءل:

- ماذا تريد؟

قال متظاهراً بالبراءة:

- أريد أن أقول إنّها سمعت منّي ذلك التوكيد،

وإنّها علمت بعد ذلك بزيارتي لك، فينبغي أن تقتنع

بسبب وجيه لاختفائي!...

فقال بغير مبالاة أدهشته:

- لن يضيرها ألا تقتنع، فليس كلّ كلام بمفضّ إلى خطبة ولا كلّ خطبة بمفضية إلى زواج، إنّها تعلم علم اليقين...

ثمّ بصوت منخفض:

- ولن يضيرها أن تفقدك، إنّها شابة في عزّ جمالها، ولن تُعدم خاطباً اليوم أو غداً...

كانّها تعتذر عن أنانيّتها، أو تلمح إلى أنّها هي - لا ابنتها - التي يضيرها فقده، فلم يزد قولاها إلا ضيقاً ومللاً، إلى أنّه أخذ يتوجّس خيفة من معاشرّة امرأة تكبره بعشرين عاماً، متأثراً بما يتردّد بين العامّة من أنّ مخادنة الكهلات تدبّل الشبان، حتّى شحنت ساعات اللقاء - من ناحيته - بالتوتّر والحذر فمقتها مقتاً...

وانّه لعلّ ذلك إذ صادف مريم يوماً في السكّة الجديدة، فتقدّم منها دون تردّد، وسلّم عليها، وسار إلى جانبها كأنّه من ذوي قرباها، كانت قلقة عابسة، فأخبرها بأنّه كان يقنع والده بالموافقة حتّى ظفر بها، وأنّه يعدّ مسكنه بقصر الشوق ليكون صالِحاً لهما، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله، ثمّ قال لها: «أخبري والدتك بأنني ساجيء غداً لمقابلتها للاتفاق على عقد القران!» ومضى سعيّداً بانتهاز الفرصة التي سنحت على غير ميعاد، غير عابئ - في غمرة السعادة - بما سيكون موقف بهيجة منه. وفي مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة في ميعادها إلى قصر الشوق، ولكنها جاءت هذه المرّة كسيرة النفس، بادرت هاتفة قبل أن

ترفع برقعها:

- بعثني غيلة وغدراً...

ثمّ انحطّت على الفراش، وهي تنزع برقعها في نرفزة، وتقول:

- لم يطف بخاطري أنّك تضمر لي هذا الغدر كلّهُ،

ولكنك جبان غادر كسائر الرجال...

قال ياسين برقة المعتذر:

- ليس الأمر كما تتصوّرين، الحقّ أنّي قابلتها

صدفة...

فصاحت بوجه مكفهر:

أدرك خطورة التسليم بذلك، فغضّ بصره ولاذ بالصمت، فقالت وهي تزفر من الغيظ:

- أرايت أنك كذاب كما قلت لك؟

ثم صارخة:

- أرايت؟! أرايت يا غادر يا ابن الغادر؟!

قال بعد تردد:

- إنَّ سرّاً لا يمكن أن يخفى إلى الأبد، تصوّري

ماذا يقول الناس لو كشفوا سرّ علاقتنا، بل تصوّري

ماذا تقول مريم!

فصرفت بأستانها من الحق، وقالت:

- يا لك من خنزير! لم تذكر هذه الاعتبارات يوم

وقفت أمامي سائل اللعاب كالكلب؟ آه يا جنس

الرجال، جهنّم الحمراء عقوبة نافهة لكم!

ابتسم خفياً، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة

الجبن، ثم قال بتودّد ورقة:

- لقد قضينا وقتاً طيباً سوف أذكره دائماً بكلّ خير،

حسبك غضباً واستياء، ما مريم إلا ابنتك، وإنك أوّل

من يروم سعادتها...

وهي تهزّ رأسها بتهكم:

- أنت الذي ستسعدّها؟! اسمعي يا حيّطان،

المسكينة لا تدري أيّ إبليس ستزوّج، أنت دائر ابن

دائرة، وربّنا يكفينّا شرّ ما وقعت فيه...

قال بهدوء الذي التزمه من أوّل الأمر:

- عند ربّنا الصلاح، إنّي أرغب رغبة صادقة في

بيت مستقرّ، وزوجة بنت حلال!!

قالت هازئة:

- أقطع ذراعي إن صدقت، سوف نرى، لا تظنّ

بأمومي الظنون، إنّ سعادة ابنتي مقدّمة عندي على كلّ

اعتبار، ولولا أنّك خدعتني وغدرت بي ما كان يهمني

أن أهديك إليها على الخداء!

ساءل ياسين نفسه: ترى هل مرّت الأزمة بسلام؟

وانتظر أن تلبس برقعها وتودّعه، ولكنّها لم تحرك

سائناً، ومضى الوقت - وهي بمجلسها من الفراش،

وهو بمجلسه على الكرسيّ قبلتها - لا يدري كيف، ولا

متى تقوِّض هذه الجلسة الغريبة المتوتّرة، واسترق

- كذاب! كذاب! وحقّ من هو قادر على أن يريني

فيك ما أشتهي. هل تظنّني أصدّقك ما حييت بعد ما

كان (ثمّ وهي تحاكيه محاكاة كاريكاتورية) الحقّ أنّي

قابلتها صدفة! أيّ صدفة يا عمر؟! وهبها صدفة

حقّاً، فلمّ كلمتها في الطريق أمام الرائع والغادي؟

ليس لهذا فعل الغادر السعّ النية؟ (ثمّ وهي تعود إلى

المحاكاة الكاريكاتورية) الحقّ أنّي قابلتها صدفة...!

فقال في شيء من الارتباك:

- وجدنتني معها فجأة - وجّها لوجه - فامتدّت يدي

بالسلام عليها! ما كان بوسعي تجاهلها بعد ما كان من

تحادثنا فوق السطح.

فصاحت به بوجه مصفرّ من الغضب:

- فامتدّت يدي بالسلام عليها! اليد لا تمتدّ إلّا إذا

مدّها صاحبها، قطعت اليد وصاحبها، قل إنك

مددت يدك إليها لتتخلّص مني...

- لم يكن من السلام بدّ، أنا إنسان وفي وجهي دم!

- دم؟! أين هو ذاك؟ دم يلطّشك يا غادر يا ابن

الغادر...

ثمّ بعد أن ازدردت ريقها:

- ووعدك إيّاها بالمجيء للاتّفاق على عقد القران،

هل أفلت منك أيضاً كما أفلتت يدك؟... تكلم يا

سي دم...

قال بهدوء عجيب:

- إنّ كلّ الحيّ يعلم الآن بأنّي هجرت بيت أبي

لأزوّج من ابنتك، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك

وأنا أحدثها...

فصاحت بحدة:

- كان بوسعك أن تتحلّ من الأعداء ما تشاء لو

كانت بك رغبة إلى ذلك، لست بمن يعيهم الكذب،

ولكنك أردت التخلّص منّي، هذه هي الحقيقة...

قال وهو يتحاشى نظرتها:

- ربّنا يعلم بحسن نيّتي!

فحدجته بنظرة طويلة، ثمّ سأله في تحدّ:

- أتعني أنّك تورّطت في وعدك لها على غير رغبة

منك؟

- ١٣ -

- يا سيّد أحمد لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تبدّر  
نقودك هذه الأيام بلا حساب . . .

قال جميل الحمزاوي ذلك بلهجة جمعت بين أدب  
المستخدم وإدلال الصديق. وكان الرجل لا يزال قويّ  
البنية جيّد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من  
عمره، أمّا رأسه فقد رصّعه المشيب، ولم تؤثر السنون  
في نشاطه شيئاً فلم يزل يومه ينقضي على حركة دائبة في  
خدمة الدكان وعملاته كعهده منذ التحق به على أيام  
منشئه الأول. وقد اكتسب مع طول العهد حقوقاً ثابتة  
واحتراماً جديراً بنشاطه وأمانته، فنزل من نفس أحمد  
عبد الجواد منزلة الصديق، ولم يكن عطف الرجل عليه  
الذي تمثّل أخيراً في معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة  
الحقوق إلّا مضاعفاً لإخلاصه وموجباً عليه مصارحته  
عندما تحب المصارحة لدفع ضرر أو تحقيق منفعة. على  
أنّ أحمد قال بلهجة مطمئنة، ولعلّه كان يشير إلى  
الرواج الذي لم تزل تشمل السوق بسكرته:

- الحال معدن، والحمد لله . . .

فقال جميل الحمزاوي باسمًا:

- ربّنا يزيد وبارك، غير أنّي لا أزال أكرّر القول  
عليك بأنك لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما  
اتخذت حرفتهم، لكنت الآن من كبار الأغنياء . . .

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهزّ منكبيه  
استهانة. ربح كثيرًا وأنفق كثيرًا، فكيف يأسف على ما  
جنى من لذات العيش؟ لم يفقد يوماً حاسة التوازن بين  
دخله ومنصرفه، ولم يخلُ رصيده من الستر، وقد  
تزوّجت عائشة وتزوّجت خديجة، وطرق كمال باب  
المرحلة النهائيّة من حياته الدراسية، فإذا عليه لو تمتّع  
بعد ذلك بطيّبات الحياة؟ على أنّ الحمزاوي لم يعد  
الحقّ في ملاحظته على تبيّره. فالحقّ أنّه يبدو - هذه  
الأيام - أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد، تشعبت  
وجوه نفقاته: فالهدايا تستنزف مالاً لا يُستهان به،  
والعمامة تستحلب دسمه، ومحطّيته تستأديه القرايين،  
وفي الجملة فإنّ زنوبه تدفعه إلى الإسراف دفعاً، وهو  
من ناحيته يدفع بلا مقاومة تُذكر، لم يكن كذلك في

النظر إليها، فوجدها ترنو إلى الأرض كالسارحة على  
حال من التسليم نزعته به إلى العطف عليها، هل  
تعود مرّة أخرى إلى المهاترة؟ غير مستبعد! ولكنّها -  
فيما يبدو - تفكّر في موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها  
وتنحني أمام مقتضياته، وما يدري إلّا وهي تنزع  
الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم «الجوّ حارٌّ» ثمّ  
تزحزحت حتّى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه،  
ومدّت ساقها غير عابئة بالخذاء الذي انغرز كعباه في  
طيّات اللحاف، ثمّ واصلت شرودها، ترى: ألا يزال  
لديها ما تقول؟ سأله بلهجة بالغ في رقتها:

- هل تسمحين لي بأن أزورك غداً . . .؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثمّ حدجته بنظرة  
كاللعة، وقالت:

- على الرحب والسعة يا بن القديمة!

ابتسم قائماً وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه،  
وعادت هي تقول بعد هنيهة:

- لا تظنّني بلهاء، كنت موقّنة النفس على توقّع  
هذه النهاية عاجلاً أو آجلاً، ولولا أنّك تعبّلتها  
بطريقة . . . (ثمّ بتسليم وازدراء معاً) . . . ما  
علينا . . .

لم يصدّقها، ولكنّه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول:  
إنّه كان واثقاً من ذلك، وإنّه يرجو أن تغفو عنه  
وتشمله برضاها، ولكنّها لم تعن بالإصغاء إليه،  
وتزحزحت - مرّة أخرى - إلى حافة الفراش، فطرحت  
ساقها على الأرض، وقامت فأخذت تحبّك ملاءتها،  
وهي تقول: «أستودعك الله» . . . فقام صامتاً وتقدّمها  
إلى الباب وفتحها، ثمّ تقدّمها مرّة أخرى إلى الخارج،  
وما يدري إلّا وصفعة تهوي على فقهه، على حين مرقت  
المرأة من جانبه إلى السلم وتركته وراءها كالذاهل وكفّه  
منطرحاً على موضع الصفعة، التفتت نحوه ويدها على  
الدرازين، وقالت:

- تعيش وتأخذ غيرها، آذيتني أكثر من هذا، ألا  
يحقّ لي أن أشفي غليلي ولو بصفعة يا ابن  
الكلب . . .؟

عينها، وذكر بها جليلة وزبيدة، شدّ ما يستبسل أولئك النسوة في معركة الحياة والشباب، أما أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول!... وقربت بهيجة الكرسي من المكتب، ثم قالت بصوت خافت:

- لا تؤاخذي يا سي السيد على هذه الزيارة، فللضرورة أحكام...

فقال أحمد - من فوره - وقد كان يبدو رزينًا جدًا: - أهلاً وسهلاً، إن زيارتك تشريف لنا وتكريم...

فقالت باسمه، وقد ثمت نبرات صورتها على الامتنان:

- تشكر، والحمد لله على أي وجدت بك بخير وعافية!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحة والعافية، فعدت تشكر له شكره ودعاه وتدعو له من جديد، ثم سكنت لحظات، وقالت باهتمام:

- جئت لك لأمر هام، قيل لي: إنّه بلغ إليك في حينه، وإنّه نال موافقتك، وأعني طلب ياسين أفندي ليد ابنتي مريم، فهل صحيح ما قيل لي؟ هذا ما جئت من أجل التحقق منه...

خفض أحمد عبد الجواد عينه أن تقرأ فيها الحق الذي اشتعلت به جوانحه وهو يتابع كلامها، ولم يحدع بتظاهرها بالاهتمام بموافقتها، فلتحاول خداع غيره ممن يجهلون خباياه، أما هو فيعلم علم اليقين أنّ موافقته وعدمها عندها سواء، بل ألم تدرك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه؟... ولكنّها جاءت لتحمله على الإقرار بالموافقة، وربما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه، رفع إليها عينين هادئتين، وقال:

- حدّثني ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق، كانت مريم ولم تزل ابنتنا...

- الله يبارك لي في عمرك يا سي السيد. هذه المصاهرة ستشرفنا بين الناس...

- أشكر حسن ظنّك...

فقالت بحماس:

الأيام الخالية، حقًا كان ينفق عن سعة!! ولكنّ امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حدّ الاعتدال أو تضطرّه إلى ركوب الإسراف. كان بالأمس مستشعرًا قوّته، ولم يكن يبالي كثيرًا أن تجاب كلّ مطالبه الحبيبة، ولم يكن يبالي إن تدلّلت عليه أن يتدلّل عليها تيّاهًا بفتوّته وفحولته. اليوم أذلّ حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالي، وكأنّه لم يعد يروم من مطلب في هذه الحياة وراء استبقاء مودّتها واستمالة قلبها، وبها لها من مودة متعزّزة، وبها له من قلب عصيّ!! ولم يكن في واقع حاله ليغيب عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن، وذكر به أيام عزّته في لهفة وأسى وإن لم يقرّ بأنّها ذهبت وتولّت، ولكنّه لم يحرك إصبعًا للمقاومة الجديّة ولم يكن ذلك في طوقه! وقال مخاطبًا جميل الحمزاوي فيما يشبه السخرية:

- لعنّه من الظلم أن تعدّني تاجرًا!!... (ثمّ في تسليم)... الله هو الغني...

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوي، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتّى رأى قادمًا يزحم الباب على سمته ويتّجه إليه متبخّرًا. كانت مفاجأة وذكر لتوّه أنّه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثمّ نهض مرحّبًا مدفوعًا بأدبه وحده، وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً، بجارتنا المكرّمة...

فمدّت له أمّ مريم يدها ملفوفة في طرف ملائتها قائلة:

- أهلاً بك يا سيّد أحمد...

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسيّ الذي جلست عليه يومًا يُعتبر الآن من التاريخ، ثمّ قعد وهو يتساءل... لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته في هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمي محاولة استدراجه إلى بيتها مرّة أخرى. عجب يومئذٍ لجرأتها - ولم يكن أفاق من الحزن - فقابلها بجفاء وشيّعها ببرود. ترى ما الذي جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدتها كالعهد بها: جسامه وأناقة، يفوح من أعطافها الطيب، وتتلألأ عيناها فوق البرقع. غير أنّ تبرّجها لم يجيد في إخفاء ديب الزمن، فلاح أمارات الكبر تحت

- ويسرني أن أصارك بأني أجلت إعلان موافقتي حتى أتأكد من موافقتك أنت! فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنما تقول «دعينا من قارحة!». لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى ياسين!

- أكرّر الشكر، يا ستّ أمّ مريم...  
- لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندي، دعني أتأكد أولاً من موافقة والدك، فإنّ كلّ شيء يهون إلّا سخطه!

الله... الله! لم تكذ تسرق البغل حتى نشطت لرمي الأحابيل حول صاحبه...  
- ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول النبيل!

فواصلت حديثها في حماس مظفر، قائلة:  
- إنك يا سيّ السيد رجُلنا، وخير من يفخر به حيناً كلّهُ!

مكر النساء، ودلال النساء، ما أضيّقه بهما معاً، هل خطر لها ببال أنه يتمرّغ في التراب مناشدة لعطف عوادة زهد فيها السكاري؟! قال في تواضع:  
- أستغفر الله...

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلاً، حتى خاف أن يبلغ الموجودين بالناحية الأخرى من الدكان، فحرّك رأسه نحوهم محدّراً:  
- لشّد ما حزنت عندما أنبأني بأنّه هجر بيت والده...

فبادرها قائلاً وقد تجمّهم وجهه:  
- الحقّ أنّ سلوكه أغضبني. فعجبت كيف تأقّى له أن يرتكب تلك الحماقة، كان ينبغي أن يستشيرني أولاً، ولكنّه حمل متاعه إلى قصر الشوق، ثمّ جاء يعتذر إليّ! عبث صبيانيّ يا ستّ أمّ مريم. وقد وبّخته ولم أكثرث لخلافه المزعوم مع أمينة. ذلك تعلّل سخيف حاول به أن يبرّر حماقة أسخف منه!

- هذا ما قلته له وحياتك، ولكنّ الشيطان شاطر، وقلت له أيضاً: إنّ ستّ أمينة معذورة، ربّنا يصبرها على ما ابتلاها به... وعلى أيّ حال فمثلك يرجى منه

الصفح يا سيّ السيد...  
فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنما تقول «دعينا من هذا» فقالت متودّدة:  
- لكنتي لا أقنع إلّا بالصفح والرضى...  
أف، ليتّه يستطيع أن يصارحها بمدى اشمزازه منهم جميعاً، هي وابنتها والبغل الكبير...  
- ياسين ابني على كلّ حال، وقّعه الله إلى الهداية...  
أمالت رأسها إلى الوراء قليلاً، وأبقته على وضعه ملياً ريثما تستمتع بلذّة النجاح والارتياح، ثمّ عادت تقول في نبرات لطيفة:  
- ربّنا يجبر خاطرك يا سيّد أحمد، ساءلت نفسي وأنا قادمة إليك؛ ترى: أيكسفيني ويردني خائبة، أم يعامل جارتة القديمة بما تعود أن يعاملها به في الأيام الخالية؟ الحمد لله فانت دائماً عند حسن الظنّ بك، مدّ الله في عمرك ومتّعك بالصحة والعافية!!  
تظنّ أنّها ضحكت على ذقته، يحقّ لها هذا، ما أنت إلّا أب خائب مات خير أبنائه، وخاب الابن الثاني، وركب الثالث رأسه، كلّ هذا على رغمي يا قارحة...  
- إني عاجز عن شكرك... وهي تخفض رأسها:  
- مهما قلت فيك فهو دون ما تستحقّ، طالما أقررت لك به فيها مضي...  
آه، ذلك الماضي! أوصدي ذلك الباب وحيّة البغل الذي جثت تسجّلين حقّ ملكيته! وبسط راحته على صدره آية على الشكر، فراحت تقول بلهجة حاملة:  
- كيف لا، ألم أعزّك إعزازاً لم يحظّ به إنسان قبلك ولا بعدك؟  
هذا هو المطلوب، كيف لم يظنّ إليه من أوّل لحظة؟! لم تحبّيني من أجل ياسين ولا من أجل مريم، ولكن من أجلّي أنا، بل من أجل نفسك! أنت أنت لم يغيّر الزمن منك شيئاً، إلّا شبابك، ولكن رويدك!! هل تستطيعين أن تردّي الأمس الذي ولى؟ مرّ بقوها دون تعليق مكتفياً بابتسامة شكر، فابتسمت ابتسامة

قال بأدب، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته في إنهاء الحديث:

- اطمئني يا ست أم مريم إلى أنني لا أقتل نفسي حزناً، فأنتي أتسلى عن همهم بشئى ضروب التسلية...  
تساءلت وقد فتر حماسها قليلاً:  
- أيكفي هذا للترفيه عن رجل مثلك؟  
فقال بقناعة:

- لا تتطلع النفس إلى شيء وراءه...  
بدا أنه تنغص صفوها، وإن تظاهرت بالارتياح وهي تقول:  
- أحمد الله على أنني وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه...

لم يعد ثمة قول يقال، فنهضت وهي تمد له يدها ملفوفة في طرف الملاعة، فتصافحا، ثم قالت وهي تهم بالذهاب:  
- فتك بعافية...

وذهبت وهي تحول عنه عينين لم يجد التصنع في إخفاء ما غشيها من خيبة...  
- ١٤ -

طوت سوارس شارع الحسينية، ثم أخذ جوادها المزهولان يجبان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهمها بسوطة الطويل. كان كمال جالساً في مقدمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلي السائق، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه - في غير جهد - شارع العباسية ممنداً أمام عينيه، في اتساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يلوح له منتهى، أرضه مستوية ملساء، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحبية بعضها يزدان بحدائق غناء.

كان يضمّر للعباسية إعجاباً كبيراً ويكنّ لها حباً وإجلالاً يبلغان حدّ التقديس، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيم على ربوعها، وكلّ أولئك سمات لا يعرفها حيّ العتيق الزيات. وأما الحبّ والإجلال فمرجعهما إلى أنّها وطن قلبه ومنزل وحي حبّه ومثوى قصر معبودته.  
منذ أعوام أربعة وهو يتردد عليها بقلب مرهف

عريضة كشفت عن أسنانها من ثقب البرقع، وقالت فيها يشبه العتاب:

- يبدو أنك لا تذكر شيئاً...  
أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن يمّس إحساسها فقال:  
- لم يبق في الرأس عقل أندكر به...  
فهتفت بإشفاق:

- لشد ما أغرقت في الحزن، الحياة لا تحمل هذا ولا تسخغه، وأنت - ولا تؤاخذي على ما سأقول - رجل ألفت الحياة المليحة، فالخزن إذا أثر في الإنسان العاديّ قيراطاً يؤثر فيك أربعة وعشرين قيراطاً...

موعظة يراد بها منفعة الواعظ، ليت أنّ ياسين كان يعتصم بمثل شعبي، لماذا أتقرّز منك؟ أنت دون شك أطوع من زنوبة وأقل نفقة بما لا يقاس، ولكن يبدو أنّ قلبي أصبح مولعاً بالمتاعب. قال بدهاء ومسكنة معاً:  
- من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندفعت تقول بحماس وكأنتا شامت برق أمل:  
- اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حتّى يضحك

هو، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرات زمانك الأول وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تمفو إليك وتقيم على عهدك رغم إغراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رغمه وتاه هذا ما ينبغي أن يقال حقاً لأحمد عبد الجواد، وما كان يسكب في أذنيه على قرع الكئوس في ليالي الطرب، أين العودة لتسمع هذا المديح علّها تخفّف من غلوائها؟! لكن يردده من أنت عنه راغب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

- ولّى ذلك الزمان...  
مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكاراً، وقالت:  
- لم تزل شاباً وربّ الحسين!... (ثم وهي تبتسم في حياء) جل له طلعة البدر! لم يولّ زمانك ولن يولّي أبداً، لا تكبر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك...  
مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكاراً، وقالت:  
- لم تزل شاباً وربّ الحسين!... (ثم وهي تبتسم في حياء) جل له طلعة البدر! لم يولّ زمانك ولن يولّي أبداً، لا تكبر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التي ترى بها نفسك...

وحواس مشحونة حتى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مدَّ بصره ارتدَّ إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن في ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست - في جملتها - جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولَّى وجهه فثمة مناد يدعو القلب للسجود.

وأخرج من جيبه خطابًا تلقاه من البريد أول أمس، وكان مرسله حسين شذاد يبنه فيه بعودته - وصديقيه

حسن سليم وإسماعيل لطيف - من المصيف، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعاً في بيته الذي تسير به سوارس إليه... نظر إلى الخطاب بعين حاملة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبدة، لا لأن مرسله شقيق محبوبته فحسب، ولكن لظنه أن الخطاب كان مودعاً في مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وأنه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه في ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمست له سبب أو لآخر أو حتى عفواً، بل حسبه أن يظن أنه كان مودعاً في نفس المكان الذي يجعل فيه جسمها وتعمره روحها كي يستحيل الخطاب إلى رمز قدسي تهفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أول أكتوبر» أي أنها شرّفت العاصمة منذ أربعة أيام وهو لا يدرى، كيف لم يدر! كيف لم يظن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة؟! كيف جاز للوحشة التي غشيت طوال الصيف أن تمّد ظلّها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة؟! هل رانت الكتابة المتواصلة على حساسيته ببطقة من البلادة والجمود؟ على أيّ حال فالساعة يرفّ قلبه وتخلّق روحه في أجواء من السمر والسعادة!! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها في هالة من الشفافية والنورانية كأنها أطياف في دنيا الملائكة!! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوة ونشوة الحبور وسكرة الطرب!! الساعة - أو حتى في هذه الساعة - يطوف به طائف الألم الذي يلازم مسرة الحبّ عنده ملازمة الصدى للصوت. قديماً كانت

تحملة سوارس في هذا الطريق نفسه وقلبه من الحبّ خالٍ لم يمسّ، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحبّ إلا ذكرى مجردة، ينكرها ما عرف للحبّ قدره، ويحنّ إليها كلّما نبا به ألم، ولكنّها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير، لذلك بات يؤرّخ بالحبّ حياته، فيقول: كان ذلك قبل الحبّ «ق. ح»، وحدث ذلك بعد الحبّ «ب. ح».

وقفت العربة عند الوايلية، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متّجهاً إلى شارع السرايات وعيناه تتطلّعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلي صحراء العباسية. بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخماً عالياً، يتّصل مقدّمه بشارع السرايات وينتهي مؤخره بحديقة رحيبة تراءت رؤوس أشجارها العالية من وراء سور رماديّ متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معاً ويرسم مستطيلاً هائلاً تمتدّ في الصحراء التي تكتنفه من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعاً على صفحة نفسه، يستأسره جلاله وتفتنه أي فخامته، ويرى في عظمته تحية مزجاة عن جدارة بصاحبه، وتلوح لعينه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر، فيلمح في تحفّظها وانطوائها ما يرمز إلى عزّة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه، وهي معانٍ تؤكّدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة في الأفق، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلّق جداراً أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالثّمار تسارّه بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدّت طلاً للحبيب ونفحة من روحه وانعكّسا للملاحه، ناشرة بجملتها - وبما عرف من أنّ باريس كانت لأهل القصر منفى - جواً من الجمال والحلم توائم مع حبّه في سموّه وقداسته وبذخه وتطلّعه إلى المجهول.

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البوّاب والطاهي وسائق السيّارة جالسين فوق أريكة على كُثب من الباب كعادتهم في العصارى، فلما بلغ مجلسهم وقف البوّاب، وقال له «حسين بك ينتظرك في الكشك»



فدخل مستقبلاً مزيجاً من عرف الفلّ والقرنفل والورد التي نُصّدت أصصها على جانبي السلم المفضي إلى الفراندا الكبيرة التي تطالع القادم على بعد يسير من الباب، ثمّ مال يمينه إلى ممرّ جانبيّ يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتّى مشارف الحديقة فيما يلي الفراندا الخلفيّة للقصر.

ليس من الهين على قلبه الخفاق أن يمشي في هذا المحراب الكبير، ولا أن يطأ أديمًا وطئتة قدمها من قبل، إنّهُ يكاد من إجلال يتوقّف، أو يمدّ يده إلى جدار البيت تبرّكًا، كما كان يمدّها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنّه لم يكن إلّا رمزًا، ترى: في أيّ مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعت بلفتها الفاتنة؟ ليتّه يجدها في الكشك كي تجزى عين عن طول التصبّر والتشوّق والتسهّد!

ألقي على الحديقة نظرة شاملة حتّى سورها الخلفيّ الذي ترامت وراءه الصحراء، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشوارع تجلو منها أعالي الأشجار والنخيل وسقائف الياسمين المطبّنة للسور من كافّة نواحيه، ودوائر الأزهار والورود ومربعاتها وأهلّتها تكتنفها ممرّات الفسيفساء، ثمّ سار في ممشى وسيط يفضي إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شذّاد، وضيّفاءه: حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوسًا على كراسي خيزران حول مائدة مستديرة خشبيّة انتثرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فأدّنه بانتباههم إلى مقدمه، وما لبثوا أن قاموا للقاءه فعانقهم واحدًا واحدًا بعد فراق دام الصيف كلّهُ، حمداً لله على السلامة، أنت أوحشتنا جدًّا، شدّد ما اسمرت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل، بل أنت بيننا كأوروبيّ بين ملوّنين، عمّا قليل يعود كلّ شيء إلى أصله، كنّا نساء لم لا تلوّنا شمس القاهرة؟ منذاً يجرؤ على التعرّض لشمس القاهرة إلّا من رام ضربة شمس! ولكنّ ما سرّ هذه السمرة المكتسبة؟... أذكر أنّنا تلقينا تفسيرًا لهذا في بعض دروسنا، أجل لعلّه في الكيمياء، لقد درسنا الشمس

خلال علوم شتّى كالجغرافيا الفلكيّة والكيمياء والطبيعة، ففي أيّ من أولئك نجد تفسيرًا لسمرة الصيف! هذا سؤال متأخّر عن أوانه لأننا انتهينا من الدراسة الثانويّة! إلينا إذن بأخبار القاهرة، بل عليك أنت أن تحدّثنا عن رأس البرّ، وعلى حسن وإسماعيل أن محدّثانا بعدك عن الإسكندريّة، انتظروا فلكلّ وقت حديثه...

لم يكن الكشك إلّا مظلة خشبيّة مستديرة تقوم على عمود ضخّم، وأرضه رملية تحلق بها أصص الورد، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبيّة والكراسي الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مؤيّن وجوههم شطر الحديقة. بدؤا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرّق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيّفان عادة في الإسكندريّة، ومضوا يتباحثون لأقلّ سبب، وأحياناً لمجرّد تبادل النظر كأنّما يجتريون ذكريات مزاح ماضية. وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصاناً حريريّة وبنطلونات رماديّة. كمال وحده بدا في بدلة رصاصيّة خفيفة، إذ كان يعتبر رحلة العبّاسيّة ذات صفة رسميّة على خلاف حيّه الذي يجول فيه مكتفياً بلبس الجاكّة فوق الجلباب. كلّ شيء من حوله كان يخاطب قلبه فيهرّه من الأعماق. هذا الكشك الذي تلقّى فيه رسالة الحبّ، وهذه الحديقة التي خصّصت وحدها بسرّه، وهؤلاء الأصدقاء الذين يجتبههم للصدّاقة ويجتبههم مرّة أخرى لاقترانهم بسيرة حبّه، كلّ شيء يخاطب حبّه وقلبه، يتساءل متى تجيء؟ وهل يمكن أن تمضي الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوّقتان؟ وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شذّاد ما وسعه ذلك، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب، لأنّ أخوّته لمعبودته أضفت عليه سحرًا من السحر وسرًا من السرّ، فبات يكنّ له - إلى الحبّ - إكبارًا وتقديسًا ودهشًا. وكان حسين يشبه شقيقته إلى حدّ كبير بعينييه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السودا ولفتاته وسكناته الجامعة بين السموّ واللطافة، فلم يكن ثمة فارق جوهريّ بينهما إلّا في أنفه الأقنى الممتلئ وبشرته التي

غشيتها سمرة المصطاف. ولمّا كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين في امتحان البكالوريا ذلك العام - مع ملاحظة أنّ الأولين كانا في السابعة عشرة والأخير في الحادية والعشرين - فقد تحدّثوا عن الامتحان وما تفرّج عنه من شئون المستقبل، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف، وكان إذا تحدّث تطاول بعنقه كأنما ليداري قصر قامته وضآلة حجمه - على الأقلّ بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة غير أنّه كان مدمج الخلق مفتول العضلات، وفي نظرة عينيه الضيّقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبّب الحادّ وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القويّ ما يكفي لتحذير من تحدّثه نفسه بالتهجّم عليه. قال:

- نتيجتنا هذا العام مائة في المائة، لم يحصل شيء كهذا من قبل - على الأقلّ - فيما يخصّني أنا. كان ينبغي أن أكون في السنة النهائية من التعليم العالي كحسن الذي دخل معي مدرسة فؤاد الأوّل في يوم واحد وسنّ واحدة، وقد سألني أبي ساخراً لمّا رأى رقمي في الجريدة بين الناجحين «ترى هل يمدّ الله في عمري حتّى أراك من حملة الدبلوم؟!». قال حسين شدّاد:

- لست متأخّراً إلى الحدّ الذي يبرّر يأس والدك...

قال إسماعيل ساخراً:

- صدقت فقضاء عامين في كلّ فصل ليس بالشيء الكثير...

ثمّ موجّهاً الخطاب إلى حسن سليم:

- أمّا أنت فلعلّك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق، فأدرك أنّ إسماعيل لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيها بنويه عقب الفراغ من الدراسة، غير أنّ حسين شدّاد سبقه إلى الردّ على إسماعيل قائلاً:

- لا داعي لأن يشغل نفسه، سوف يحصل حقاً على وظيفة في النيابة أو في السلك السياسي!

خرج حسن سليم عن هدوئه المتسم بالكبرياء،

ولاح في وجهه الحسن الدقيق القسّات التحقّز للنضال، فتساءل متحدّياً:

- من أين لي بما يجعلني أطمئنّ إلى رأيك؟

وكان يعتزّ باجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يقرّوا له بها، ولم يكن أحد يماري في ذلك، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنّه نجل سليم بك صبري المستشار بحكمة الاستئناف، وأنّ تمتّعه بهذه الأبوّة ميزة يفوق أثرها كلّ ما للذكاء والاجتهاد من أثر، بيد أنّ حسين شدّاد تحاشى ما يهيج، فقال:

- في تفوّك الضمان الذي تسأل عنه...

ولم يتركه إسماعيل لطيف كي يستمتع بإطراء حسين له، فقال:

- وهناك والدك، وهو فيها أعتقد أهمّ من التفوّك بكثير...

ولكنّ حسن قابل الهجوم باستماتة غير متوقّعة، إمّا لأنّه ملّ مناخزة إسماعيل الذي لم يكذ يفترق عنه يوماً طيلة اصطيفاتها بالإسكندرية، وإمّا لأنّه بات يرى في صاحبه مشاكساً «معتزّفاً» لا يصلح أن يأخذ أقواله دائماً مأخذ الجدّ. على أنّ رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدليّ يبلغ أحياناً حدّ الشغب دون أن يوهن من قوّتها. تساءل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهمكاً:

- وأنت كيف انتهى سعي الساعين لك؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، كشف عن أسنانه الحادة المصفرة من أثر التدخين الذي كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانويّ، وقال:

- نتيجة لا تسرّ، لم تقبلني الطبّ ولا الهندسة لنقص المجموع، فلم يبقّ أمامي إلّا التجارة والزراعة، فاخترت أولاهما...

لاحظ كمال في تأثّر كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلمين كأنما ليست في الحسبان، غير أنّه وجد في إثارة لها، مع قدرته على دخول الحقوق التي لا نزاع في مكانتها، وجد في ذلك مثاليّة تعزّي بها على حزنه ووحشته. ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة التي تجلو جمال ثغره وعينه، وقال:

- آه لو اخترت الزراعة! تصوّروا إسماعيل في حقل

- أجل بصفة مؤقتة أيها المشاكس، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهي أن أقطع دراستي المحليّة كي أسافر ولو بحجّة دراسة القانون في معاهدها، وهناك أهل من منابع الثقافات بغير قيد، وهنالك أفكر وأرى وأسمع...

إسماعيل لطيف مصرًا على محاكاة لهجته وحركاته، وكأنما يتم ما ظنّ أنّ الآخر سكت عنه:

- وأذوق والمس وأشم...

واصل حسين شدّاد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً:

- ثق بأنّ مقصدي غير ما تحلم به!

صدّقه كمال بكلّ قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنّه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب، ولكن لأنّه يؤمن بأنّ الحياة التي يتطلّع إلى الاستمتاع بها في فرنسا خليقة «وحدّها» باستهواء النفوس، هيهات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها، لا هو ولا أضرابه ممّن لا يؤمنون إلّا بالأرقام والمظاهر. طالما أثار حسين أحلامه، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال، حلم عامر بشار الروح والفكر والسمع والبصر! كم طاف بي في نومي أو في يقظتي، ثمّ بعد شدّة التطلّع وطول السعي انتهى المطاف بي وبه إلى مدرسة المعلمين!! وسأل حسين:

- أتعني حقًا ما قلت من أنّك لا تريد أن تعمل؟! فقال حسين شدّاد وفي عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حاملة:

- لن أكون مضاربًا في البورصة كأبي؛ لأنّي لا أطيق حياة: العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موظّفًا، لأنّ الوظيفة عبوديّة في سبيل الرزق، ورزقي موفور. أريد أن أحيّا في الدنيا سائحًا، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر، وأنقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل...

قال حسن سليم معترضًا، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف دارها بتحفظه الأرستقراطي:

- ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائمًا، إنّى مثلاً

يقضي عمره بين الفلاحين...

قال إسماعيل بقناعة:

- لا عليّ من هذا لو كان الحقل في عماد الدين... عند ذاك نظر كمال إلى حسين شدّاد متسائلًا: - وأنت؟

مدّ حسين بصره إلى بعيد متفكرًا قبل أن يجيب، فأتاح لكمال فرصة كي يتوسّمه، شدّ ما تفتنه فكرة أنّه شقيقها، أي أنّ بينهما ما قام يومًا بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة، تصوّر يعزّ عليه أن يعتنقه، لكنّه يجالسها ويحدثها ويفرد بها ويلمسها، يلمسها! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطّق؟ هل تأكل الملوخية والمدّس مثلاً؟ ما أبعد هذا عن التصرّو أيضًا! المهمّ أنّه شقيقها، وأنّه - كمال - يلمس يده التي تلمس يدها، لو أتيح له أن يشمّ أنفاسه التي تماثل ولا شكّ أنفاسها! أجاب حسين شدّاد:

- مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة...

ألا يحتمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوي صديقًا؟ لمّ لا؟ لا شكّ أنّ الحقوق مدرسة جليّة الشأن حقًا ما دام حسين سيلتحق بها، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوي...

قال إسماعيل لطيف ساخرًا:

- لم أكن أعلم أنّ من الطلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة! حدّثنا عن هذا من فضلك... قال حسين شدّاد جادًا:

- جميع المدارس عندي سواء، ليس في هذه المدرسة أو تلك ما يجذبني إليها، حقًا أريد أن أتعلّم، ولكنّي لا أريد أن أعمل، ولن أجد في مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل، ولكنّي لم أظفر في بيتنا بشخص يوافقني على رأيي، ولا أرى مناصًا من أن أجارهم إلى حدّ ما، وساءلهم أيّ مدرسة تختارون؟ فأجاب أبي: وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسماعيل لطيف محاكيًا لهجته وحركاته:

- بصفة مؤقتة...

ضحكّ عام، ثمّ استطرد حسين شدّاد قائلاً:

- وربما تزوجت هناك كي أقضي العمر سائحاً في عالمي الواقع والخيال!

لم يبدُ على وجه حسن سليم أنه يولي الحديث اهتماماً جدّياً، أما إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين، تاركاً عينيه تُفصّحان عما يضطرب في صدره من مكر وسخرية. كمال وحده الذي بدا متأثراً متحمّساً، إنه يستشرف نفس الآمال مع شيء من تعديل لا يمسّ الجوهر، لا تتمه السياحة ولا الزواج في فرنسا، ولكن من له بهذه المعارف التي لا تتقيد بنظام أو امتحان؟ إنها أجدى بلا جدال من التراب الذي سيشحن به رأسه في المعلمين كي يفوز في النهاية بذرّات من التبر، باريس؟! غدت حلماً جليلاً منذ علّم بأنها احتضنت عهداً غيضاً من عمر معبودته، لا تزال تدعو حسين بسحرها، وتفتن خياله هو بشقّي وعودها، كيف الشفاء من لوعة الآمال؟ قال بعد تردّد وإشفاق:

- يخيّل إليّ أنّ أقرب المدارس في مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هي المعلمين العليا!

تحول إسماعيل لطيف نحوه فيما يشبه القلق، وسأله:

- ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المعلمين! ربّاه، نسيت أنّ بك لومة قربة الشبه بلوثة حسين! ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخرية العظمين، وقال:

- التحقت بالمعلمين للسبب الذي ذكرت!... فنظر حسين شدّاد إليه باهتمام، ثم قال باسماً:

- لا شك أنّ ميولك الثقافية أتعبتك كثيراً قبل أن يقع اختيارك...!

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة تمتّ عن الاتهام:

- إنّك مسئول لدرجة كبيرة عن توكيد ميوله هذه، بل الحقّ أنّك تتكلّم كثيراً وتقرأ قليلاً، أمّا المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجدّ ويقرأ لحّد العمى، انظر إلى تأثيرك السيئ فيه كيف دفع به إلى المعلمين نهاية الأمر!...

استطرد حسين حديثه متجاهلاً مقاطعة إسماعيل:

- هل ثبت لديك أنّ في المعلمين ما تودّ؟

في غنى عن السعي إلى الرزق، ولكن يهمني بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنّه يجب على الإنسان أن يعمل، وإنّ العمل السامي هدف يُراد لذاته.

وقال إسماعيل لطيف، مصدّقاً على قول حسن:

- هذا حقّ، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنياء (ثمّ ملتفتاً إلى حسين شدّاد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهي في حدود طاقتك...؟

وقال كمال مخاطباً حسين أيضاً:

- السلك السياسي حقيق بأن يهتّى لك العمل السامي والسياسي معاً!

ولكنّ حسن سليم قال بلهجة ذات معنى:

- إنه باب ضيق!

فقال حسين شدّاد:

- للسلك السياسي مزايا رائعة بلا ريب، إلّا أنّه في الغالب وظيفة شرفيّة فلا يتعارض كثيراً مع رغبتني عن عبوديّة العمل، وهو سياحة وفراغ يتيحان لي ما أحب من الحياة الروحيّة والجماليّة، ولكنني لا أظنني بالغه، لا لأنّه باب ضيق كما قال حسن، ولكن لأنّي أشكّ في أنّي سأواصل التعليم النظامي حتّى نهايته...!

إسماعيل لطيف، وهو يضحك متخابثاً:

- يغلب على ظنيّ أنّك تريد فرنسا لأمر لا شأن لها بالثقافة، وحسنّاً تفعل...!

ضحك حسين شدّاد وهو يهزّ رأسه سلماً، ثمّ قال:

- كلّاً، أنت تفكّر بأهوائك، إنّ لرغبتني عن التعليم

المدرسيّ أسباباً أخرى، أولها: أنّي غير مكترث لدراسة

القانون، ثانيّاً: أنّه لا توجد مدرسة يمكن أن تمدّني بما

أريد الإلمام به من شقّي المعارف والفنون، كالمرح

والتصوير والموسيقى والفلسفة. ما من مدرسة إلّا

وستشحن رأسك بالتراب كي تعثر فيه - إن عثرت -

على ذرّات من التبر، في باريس يتاح لك أن تشهد

محاضرات في شقّي الفنون والمعارف دون تقيد بنظام أو

امتحان، إلى ما يتهيأ لك من الحياة السامية

الجميلة...!

ثمّ مستطرداً بصوت خافت، وكأنّه يخاطب نفسه:

تخرجوا في المدرسة...

انقطع حديث المدرسة عند ذاك، فساد الصمت، وحاول كمال أن يلقي بروحه في أحضان الحديقة، غير أنَّ الحديث ترك في رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبرد، وسنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء المثلوج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة طالما مئته بالسعادة في مثل ظرفه هذا، أن يملاً كوباً ويشربه لعلّه يلمس بشفتيه موضعاً منه يكون قد اتفق أن لمسته شفتاها وهي تشرب مرة، فقام إلى المائدة، وملاً من الدورق كوباً وشربه، ثم عاد إلى مجلسه مركزاً انتباهه في نفسه وهو يترقب، كأنما كان ينتظر - فيها لو حالقه الحظ فأصاب الهدف - أن يتغير شأنه، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن يتشبي بنشوة إلهية يرقى بها في معارج السماوات السعيدة، ولكنه، أجل!! ولكنه قنع في النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل، ثم راح يتساءل في قلق: متى تهيء؟... هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواعدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية؟... وعادت عيناه إلى الدورق، فطافت به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هذا الدورق أو بالحري عن الماء المثلوج الذي لا يقدم شيء خلافه في سراي شدادا وكان إسماعيل قد أشار - وهو بصدد الحديث عن ذلك - إلى النظام الاقتصادي الدقيق الذي تخضع له السراي من السطح إلى البدر، وتساءل: أليس ذلك نوعاً من البخل؟، غير أنَّ كمال أبي أن توصم أسرة معبودته بما يشين، فدفع عنها التهمة مستشهداً ببذخها وخدمها وحشمها والسيارتين اللتين تملكهما: المنيرفا، والفليات التي يكاد يختص بها حسين، فكيف تُتهم بعد ذلك بالبخل؟! هنالك قال إسماعيل - ولم يكن يعوزه طول اللسان - إنَّ البخل أنواع، وإنه لَمَّا كان شداد بك مليونيراً بكل معنى الكلمة، فإنه رأى لزماً عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنه اكتفى بما يعد في «بيتته» من الضروريات، أما القاعدة المتبعة التي لا يجيد عنها فرد من الأسرة، فهي ألا يتسامح في إنفاق مليم واحد في غير موضعه وبلا موجب... الخدم

قال كمال بحماس، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار:

- حسبي أن تناح لي دراسة الإنجليزية لأتخذ منها وسيلة ناجعة للاطلاع غير المحدود، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة - فيما أظن - لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس...

فكر حسين شذاد قليلاً، ثم قال:

- عرفت كثيراً من المعلمين الذين خالطتهم عن كتب في دروسي الخصوصية، لم يكونوا مثلاً طيباً للرجل المثقف، ولكن لعل النظام الدراسي العتيق هو المسئول عن ذلك...

فقال كمال بحماس لم يفتر:

- حسبي الوسيلة، الثقافة الحقّة تتوقف على الإنسان لا المدرسة!

وتساءل حسن سليم:

- أتتوي أن تصير معلماً؟

ومع أنَّ حسن طرح سؤاله بأدب، فإنَّ كمال لم يطمئن إليه كلَّ الاطمئنان، إذ أنَّ التزامه الأدب كان طبعاً مأثوراً عنه فلا يزياله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره في العراك، وذلك نتيجة طبيعية لرزائنه من ناحية، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى، فلم يكن من اليسر على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقاً من الاستنكار أو الازدراء، لذلك حرك منكبته استهانة، وقال:

- لا مفر من ذلك ما دمت مصمماً على تعلُّم ما أروم من العلم!

وكان إسماعيل لطيف يتفحص كمال من طرف خفي... رأسه وأنفه، وعنفقه الطويل وقامته النحيلة، وكأنما كان يتخيّل أثر هذه الصورة في التلاميذ عامة وفي أشقيائهم خاصة، فما ملك أن غمغم:

- تلك لعمرى كارثة!

أما حسين شداد، فعاد يقول في لطف وشي بميله إلى كمال:

- الوظيفة شيء ثانوي عند ذوي الأهداف البعيدة، على أنه لا ينبغي أن ننسى أنَّ نخبة من نابهي مصر قد

لم يبدُ على حسن سليم أنه اُكثرت لحديث العظيمة، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف - ولعلّه رأي أبيه المستشار أيضًا - في سعد زغلول الذي يكاد هو من حبّ وإخلاص أن يقّده. لم يكن سعد زغلول إلّا مهرّجًا شعبيًّا في نظر حسن سليم، وكان يرّدّ هذا الوصف في تقرّز وازدراء مثيرين خارقًا المعتاد من أدبه ودمائه، ثمّ يمضي في السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية، منوّها في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت ومحمّد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال إلّا «خونة» أو إنجليز مطرّشين! أجاب حسن سليم بهدوء:

- كنّا نتحدّث عن المفاوضات التي لم تستمرّ إلّا ثلاثة أيّام، ثمّ قُطعت! فقال كمال بحماس:

- يا له من موقف وطنيّ جدير بسعد حقًّا، طالب بحقوقنا الوطنيّة مترفعًا عن المساومة، ثمّ قطع المفاوضات حين وجب قطعها، وقال قوله الخالدة: «لقد دعونا إلى هنا لكي ننتحر، ولكنّا رفضنا الانتحار، وهذا كلّ ما جرى».

قال إسماعيل لطيف، وكان يجد في السياسة مادة للعبث:

- لو قبل أن ينتحر لتوّج حياته بأجلّ خدمة يمكن أن يؤدّيها إلى بلاده!

انتظر حسن سليم حتى فرغ إسماعيل وحسين من الضحك، ثمّ قال:

- ماذا أفدنا من هذه المأثورة؟ ليست الوطنيّة عند سعد إلّا نوعًا من البلاغة التي تستهوي العامة، «لقد دعونا إلى هنا لكي ننتحر ألخ ألخ»، «يعجبني الصدق في القول ألخ ألخ»... كلام في كلام، هنالك رجال لا يتكلّمون ولكنّهم يعملون في صمت، وقد حقّقوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث...

احتدم الغيظ في قلب كمال، ولولا ما يكنّه لحسن من احترام لشخصيّته وسنّه لانفجر، وعجب كيف

يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقلّ الطعام، وإن كسر أحدهم طبقًا خصم ثمنه من مرتّبه. حسين شدّد نفسه فتي الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفًا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعوّد بعثرة النقود بلا ضرورة، أجل ربّما اتباع له أبوه كلّ عيد عددًا من الأسهم أو السندات، ولكنّه لا يعطيه قرشًا في يده... أمّا زوّار النجل العزيز، فلا يقدّم لهم إلّا الماء المثلّوج!... أليس هذا بخلاً، وإن يكن بخلاً أرسقراطيًّا؟! ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق، وتساءل كما تساءل قديمًا في ارتياح: أمن الممكن أن ترتقي إلى أسرة معبودته هنة من الهنات؟ أبى قلبه أن يصدّق هذا إباء من ينزّه الكمال عن المآخذ وإن هانت بيد أنّه خُيّل إليه أن ثمة شعورًا بما يشبه الارتياح يعابه هامسًا في أذنه «لا تفرح... أليس هذا النقص إن صَحّ بما ينزلها ولو درجة إليك، أو يرفعك ولو درجة إليها؟!»، ومع أنّه وقف من أقوال إسماعيل موقف التحقّق والارتياح، فإنّه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدري في «ردّيلة» البخل، فيقسّمها إلى نوع دنيء وآخر ليس إلّا سياسة حكيمة عمّد الحياة الاقتصاديّة بأسس بارعة من النظام والدقّة، فمن الإسراف كلّ الإسراف تسميته بخلاً أو اعتباره ردّيلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيّارات واتّخاذ كافّة مظاهر البذخ والبلهنيّة؟ كيف لا، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهّرة من الخبايا والضعف؟! مطهّرة من الخبايا والضعف؟! استيقظ من أفكاره على يد إسماعيل لطيف وهي تقبض على ذراعه وتهزّه، ثمّ سمعه وهو يقول مخاطبًا حسن سليم:

- حذار، ها هو مندوب الوفد يرّد عليك! أدرك من فوره أنّهم طرّقوا حديث السياسة وهو عنهم ساو، حديث السياسة... ما أشقّه وما ألّده، دعاه إسماعيل «مندوب الوفد» فلعنّه يتهكّم، فليتهكّم ما شاء له أن يتهكّم، الوفد عقيدة تلقّاها عن فهمي واقترنت في قلبه باستشهاد وتضحّيته. نظر إلى حسن سليم، وقال بأسًا:

- أيّها الصديق الذي لا تبهره إلّا العظيمة، ماذا قلت عن سعد؟

يتابع «شاب» مثله أباه - وهو من جيل قديم على أي حال - في انحرافه السياسي!

- أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شيء، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه في النهاية إلى كلمات، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة، نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف! تخلل حسين شذاد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول:

- أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد...! لم يعبأ حسن بمقاطعة حسين شذاد، فقال مخاطباً كمال: - إن الأمم تحيا وتتقدم بالعقول والحكمة السياسية والسواعد، لا بالخطب والتهريج الشعبي الرخيص... نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شذاد، وهو يتساءل ساخراً:

- ألا ترى أن من يُتعب نفسه في الكلام عن إصلاح هذا البلد كالنافخ في قربة مثقوبة؟ التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردّد عن مخاطبته وجهًا لوجه، قال منفسًا عن غيظه:

- أنت لا تهتم السياسة في شيء، لكن مزاحك يفصح أحياناً عن موقف «قلّة» من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نهوض الوطن، يأس الاحتقار والتعالي لا يأس الطموح والتطوّر، ولولا أن السياسة مطيّة لأطعامهم لاعتزلوها كما تفعل أنت! ضحك حسين شذاد ضحكته اللطيفة، ومدّ يده إلى ذراع كمال، فشّد عليها قائلاً:

- أنت محادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشارك الإيمان به، على أنني كما تعلم محديد، لا من الوفديين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولكن لاعتقادي بأن السياسة تفسد الفكر إلى ذراع كمال، فشّد عليها قائلاً:

- أنت محادل عنيد، يعجبني حماسك وإن لم أشارك الإيمان به، على أنني كما تعلم محديد، لا من الوفديين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولكن لاعتقادي بأن السياسة تفسد الفكر

والقلب، ينبغي أن تعلق عليها حتى تتراءى لك الحياة ميداناً لانهائياً للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد...

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقة إذا وافقه على رأي، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياة ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته، فإنه لم يحنق عليه لذلك ولم ير فيه نقیصة ولكن وسّعها عفوه وحلمه وتسامحه، قال يجاريه:

- الحياة هي لهذا كله، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال، فأني وجه تتجاهله من وجوها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقد تركت على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن، لا تحتقر السياسة أبداً، فالسياسة هي نصف الحياة، أو هي الحياة كلها إذا عدت الحكمة والجمال ممّا فوق الحياة... حسين شذاد كالمعتذر:

- فيما يتعلق بالسياسة، أصارحك بأنني لا أثق في جميع أولئك الرجال... سأله كمال كالمتموّد:

- ماذا نزع ثقتك من سعد؟ - بل دعني أسألك عما يجعلني أضع ثقتي فيه!... سعد وعدلي وعدلي وسعد، ما أسخف هذا كله، على أنه إذا كان سعد وعدلي سيّين عندي في الناحية السياسية فإنني لا أراهما كذلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أتجاهل ما يمتاز به عدلي من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أما سعد - وإياك أن تغضب - فما هو إلا أزهرى قديم!...

آه، شدّ ما يحزّ في نفسه أن يندّ عن حسين أحياناً ما يشي بتعالیه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن في نهاية كأنه يتعالى عنه هو أو - وهو الأدهى والأمر - كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعاً، أجل، إنه إذا حادثه أشعره كأنما يتكلّم عن شعب غريب «عنهما» ممّا، ولكن أكان ذلك عن خطأ في التصوير أم عن مجاملة؟ ومن عجب أن موقف حسين لهذا لم يغضبه من ناحية دلالة العامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالة الخاصّة به، فلم يستثر

- لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم، والحق الذي لا ريب فيه، أنه لم يعد بين أبي وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء، وفضلاً عن ذلك فليس ثمة حزب - كما تعلمون - يدعو اليوم إلى عودة الخديو...

قال حسن سليم:

- أمسى الرجل وعهده في ذمة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه في كلمتين، وهما، أن سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم!

لم يكذب يتلقى الضربة كمال حتى جاوبه قائلاً:

- الحاضر في كلمة واحدة، أن ليس في مصر من يتكلم باسمها إلا سعد، وأن التفاف الأمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال...

وشبك ذراعيه على صدره، ومدّ ساقيه حتى مسّ طرف حذائه رجل المائدة، وهمّ بالاسترسال في حديثه لولا أن جاءهم من وراء صوت غير بعيد يتساءل «ألا تريدان يا بدور أن تحيي أصدقاء القديما؟» فانعقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجّت صدره رجاً أفزعه أول الأمر وآله، وفي أسرع من لمعان البرق استغرقت سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثر، ثم وجد أن كلّ خاطرة تنبض بها نفسه قد اتجهت صوب السماء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى وراء، فرأى على بعد خطوة من الكشك عابدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقته الصغرى ذات الأعوام الثلاثة، وهما يتطلّعان إليهم بأعين هادئة باسمه... ها هي ذي بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذي تملأ «صورته» روحه وجوارحه ويقظته، ونومه، ها هي قائمة أمام عينيه شاهداً على أن الألم الذي لا حدّ له والسرور الذي لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوم في السماء، إن كلّ أولئك ربما رجعت في آخر الأمر إلى آدمي لطيف ترك قدماه انطباعاتها على أرض الحديقة! ورنّا إليها فجذب مغناطيسها شعوره كلّهُ حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسي والنفس، فعاد وكأنّه روح مجرّدة تسبح في فراغ نحو معبودها... على

عداوته الطبقية ولا إحساسه الوطني... انهزمت هذه المشاعر حيال بشاشة وضيفة تنم عن الصراحة وحسن الطوية، وتراجعت أمام حبّ لا تنال منه الآراء والأحداث، على الضدّ من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شدّاد منه، فكان - رغم صداقتهما - يبيح غضبه لوطنه، ولم يشفع له عنده تأذبه في الخطاب وتحفّظه في إظهار مشاعره، بل لعلّه آنس فيها «حكمة» تضاعف من مسؤوليته وتؤكد تعصّبه الأرستقراطي المربّج ضدّ الشعب، قال مخاطباً حسين: - أفي حاجة أنا أن أذكرك بأنّ العظمة شيء غير العسامة والطربوش أو الفقر والغنى؟ يبدو لي أنّ السياسة تضطرنا أحياناً إلى مناقشة البدييات!...

قال إسمايل لطيف:

- إنّ ما يعجبني في الوفدين - أمثال كمال - هو شدة تعصّبهم!

ثمّ وهو يجيل بصره في الجالسين:

- أمّا ما يسوءني منهم، فهو شدة تعصّبهم أيضاً!

قال حسين شدّاد ضاحكاً:

- أنت سعيد الحظّ، لأنك مهما أبديت في السياسة من رأي، فلن يعترض سيالك معقّب...!

هنا سأل حسن سليم حسين شدّاد قائلاً:

- تزعم أنّك تربأ بنفسك عن السياسة، فهل تصرّ على ذلك حتى إذا تعلّق الأمر بالخديو السابق؟

اتجهت الأعين نحو حسين في تحدّ باسم لما هو معروف عن تشييع والده شدّاد بك للخديو السابق، الأمر الذي أبعد من أجله أعواماً قضاها في باريس، ولكنّ حسين قال في غير مبالاة:

- لا تعنيني هذه الأمور في كثير أو قليل، كان والذي ولا يزال من رجال الخديو، ولكنّي لست مطالباً باعتناق آرائه...

سأله إسمايل لطيف، وفي عينيه الضيّقتين بريق ضاحك:

- أكان والدك من الذين يهتفون «الله حيّ»...

عبّاس جي؟

فقال حسين شدّاد ضاحكاً:



سعيداً فخوراً، ليست التي بين يديه إلا فلذة من جسد الأسرة، فهو يضمّ الكلّ إذ يضمّ الجزء إلى صدره، هل أمكن اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة؟... والسحر كلّ السحر في هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها، كأنّ المطمئنة إلى صدره عائدة نفسها في طور من أطوار حياتها الماضية، كانت يوماً مثل بدور سنّا وحجماً وجوداً فتأمل!... فليهنأه هذا الحبّ الطاهر... ليسعد بعناق جسم تعانقه هي... ويتقبل وجنة تقبلها هي... وليحلم حتى يشرد منه العقل والقلب. إنه يدري لم يحبّ بدور ولم يحبّ حسين ولم يحبّ القصر وحديقته وخدمه، إنه يحبّها جميعاً إكراماً لعائده، أمّا الذي لا يدريه فهو حبّ عائده نفسها!... رددت عائدة عينها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف، ثمّ سألتها:

- كيف وجدتما الإسكندرية؟

فقال حسن:

- رائعة!...

على حين تساءل إسماعيل:

- ماذا يجذبكم إلى رأس البرّ دوماً؟

فقال بصوت رخيم مشربة نبراته بعدوية موسيقية:

- صيفنا مرّات في الإسكندرية، ولكنّ الاصطيف لا يطيب لنا إلا في رأس البرّ، هنالك الهدوء والبساطة واللفة لا تجدها إلا في بيتك!

فقال إسماعيل ضاحكاً:

- من سوء الحظّ أنّ الهدوء لا يطيب لنا...

ما أسعده بهذا المنظر... هذا الحديث... هذا الصوت، تأمل أليست هذه هي السعادة؟! فراشة كنسمة الفجر تقطر ألواناً بهيجة وترشف رحيق الأزاهر... هذا أنا، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد!...

قالت عائدة:

- كانت رحلة ممتعة، ألم يجذبكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقادية:

- بل كانوا يتناقشون في السياسة!

أنّ إدراكه لها هي نفسها لم يكن حسناً بقدر ما كان روحياً، تمثل في نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأنّ قوّة انفعاله الروحي استأثرت بكلّ حيويته فغودرت حواسه وقواه العاقلة والمدرّكة والملاحظة في سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائماً أطوع لذاكرته منها إلى حواسه، لا يكاد يرى منها وهو في محضرها شيئاً، ولكنّها تتراعى فيها بعد في ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدريّ الخمريّ وشعر عميق السواد مقصوص «ألا جرسون» ذي قصّة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيها نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسه كالنغمة الساحرة نفى في سماعها فلا نذكر منها شيئاً حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة في اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو في ساعة انسجام، فتتردد في أعماق الشعور في لحن متكامل. وتساءلت أحلامه وأمانيه: ترى هل تغير من طريقته المألوفة فتمدّ يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرة في الحياة؟ لكنّها حينهم بابتسامة وتحنية من رأسها، وهي تتساءل بذلك الصوت الذي يزري بأحبّ الألحان إليه:

- كيف حالكم جميعاً؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة على سلامة العودة، عند ذاك عبثت أناملها الرشيقة برأس بدور وهي تقول لها:

- صافحي أصدقاءك!

فثنت بدور شفتيها داخل فيها وعصّت عليهما وهي تردّد عينها بينهم في حياء حتى استقرّتا على كمال، فابتسمت وابتسم! قال حسين شذّاد، وكان على علم بما بين الطفلة وكمال من مودة:

- إنّها تبتسم لمن تحبّه!

- أنحنّين لهذا حقّاً؟ (ثمّ وهي تدفعها نحوه) إذن سلّمي عليه...

مدّ لها كمال يديه متورّد الوجه من السرور، فأقبلت نحوه، فرفعها بين يديه حتى أفرّها في حضنه، وراح يقبل خديّها في حنان وتأثّر شديدين، كان بهذا الحبّ

فالتفتت ناحية كمال قائلة:

- هنا شخص لا يحلو له إلا حديثها...

- هُزم المختلط بالرغم من أن فريقه يضم أبطالاً أفذاذاً...

من عينيها نظرة تلقى إليك كالرحمة، صفاؤها يجلو روحاً ملائكيّاً، بعثت كما يبعث عبّاد الشمس في ضوئها المشرق، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد!...  
- لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم...  
فقالَت باسمَة:

- لكنك اغتنمت الفرصة...

ابتسم في تسليم، وعند ذاك حوّلت عينيها إلى بدور هاتفت:

- أتسوين أن تنامي بين ذراعيه!... كفساك سلاماً...

غلب الحياء بدور، فدفت رأسها في صدره، فجعل يرتّب على ظهرها في حنان، غير أن عابدة توعدّتها قائلة:

- إذن سأتركك وأرجع وحدي...

فرفعت بدور رأسها ومدّت لها يدها وهي تغمغم «لا»، فقبلها كمال وأنزلها إلى الأرض، فجرت إلى عابدة وقبضت على يدها، ألقت عابدة عليهم نظرة

- ها هو ذا...

شاملة ثم لوّحت بيدها تحيةً وذهبت من حيث أتت. عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق. هكذا كانت تقع زيارات عابدة في كشك الحديقة، مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنّه بدا قانعاً، وشعر بأنّ تصرّبه طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدراً، لم لا يتنحّر الناس ضناً بالسعادة كما ينتحرون فراراً من الشقاء؟ ليس من الضروري أن تسبح كما يؤدّ حسين أن يسبح كي تلقى متع الحواس والعقل والروح، فمن الجائز أن تفوز بكلّ أولئك في لحظة خاطفة دون أن تبرح مكانك! من أين لبشر أن يؤثّر القدرة على إحداث هذا كلّهُ؟! أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام الخصام وتصادم الطبقات؟... ذابت كلّها وتوارت تحت نظرة من عينيكَ يا معبودتي، ما الفاصل بين الحلم والحقيقة وفي أيّهما تراني أهيم الساعة؟

- تذهين إليه؟

حنّت الصغيرة رأسها بالإيجاب، فضحكت عابدة من هذه الرغبة التي لن تتحقّق، على حين مضى هو يتوسّمها متشجّعاً بضحكاتها - غارقاً بروحه في حور عينيها وملتقى حاجبيها مسترجعاً صدى ضحكاتها المترعة ونبرات صوتها الدافئ حتّى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام، ولما كان الموقف يملي عليه أن يتكلّم، فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة:

- كان الموسم الماضي موسم الأهلّي دون شريك!

- هل ذكّرتني في المصيف؟

قالت عايدة وهي تتراجع برأسها قليلاً:

- سلها هي، لا شأن لي بما بينك وبينها!

ثم مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة:

- هل ذكّرتها أنت؟

آه، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمي، قال

بحرارة:

- لم تغب عن ذاكرتي يوماً واحداً...

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت

عايدة في وقفاتها ورفعت بدور بين يديها، ثم قالت

معلقة على كلامه وهي تهتم بالذهاب:

- يا له من حبّ عجيب!

وغابت عن النافذة...

## - ١٥ -

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكمال،

وحسب كمال كان يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلبث

الأم بمفردها أو تدعو أم حنفي إلى مؤانستها حتى يحين

وقت النوم. وكان ياسين قد خلف وراءه فراغاً، ومع

أن أمينة حرصت دائماً على ألا تعود إلى ذكره فإن كمال

شعر لغيابه بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد في مجلس

القهوة من متعة. وكانت القهوة - قديماً - شراب

المجلس الذي يجتمع حوله الأبناء للسمر. فانقلب

اليوم - عند الأم - كل شيء فيه، فأسرفت في حسوها

إسرافاً وهي لا تدري حتى صار صنع القهوة وحسوها

سلوة وحدتها، فربما احتست خمسة أو ستة - وأحياناً

عشرة - فناجيل تباعاً، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق

ويحذرها من عواقبه، فتردّ عليه بابتسامة كأنها تقول له

«وماذا أفعل إذا لم أشرب؟» ثم تقول له بلهجة الواثق

المطمئن «لا ضرر من القهوة»... جلسا متقابلين،

هي على الكنبه الفاصلة بين حجرتي النوم والمائدة،

وهو على الكنبه المتوسطة لحجرتي نومه ومكتبه، وكانت

عاكفة على المجمرة التي دفنت الكنبه حتى نصفها في

جراتها، وكان صامتاً شارد النظرة، وفجأة سأله:

- فيم تفكر يا ترى؟ دائماً تُرى وكأنك مشغول

الفكر بأمر ذي بال.

أنس من صوتها ما يشبه العتاب، فقال:

- العقل يجد دائماً ما يشغله!

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسلتين كالمسائلة،

ثم قالت في شيء من الحياء:

- مضى زمن كنا لا نجد وقتاً يتسع لحديثنا!

حقاً؟ ذلك ماضٍ مضى، عهد الدروس الدينية

وقصص الأنبياء والشياطين، عهد تعلّقه بها لحدّ

الجنون، انقضى ذلك العهد، فيم يتحدثان اليوم؟ إلا

تكن دردشة لا معنى لها فلا وجه للكلام على

الإطلاق، ابتسم كأنها يعتذر بابتسامته عن صمته

السابق واللاحق معاً، ثم قال:

- نحن نتكلّم كلّنا وجدنا للكلام موضوعاً.

فقالت برقة:

- ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلّم، ولكنك

تبدو غائباً دائماً أو كالعائب...

ثم بعد تفكير:

- أنت تقرأ كثيراً، في عطلتك تقرأ كما تقرأ في وقت

دراسك، لم تستوف يوماً حظك من الراحة، أخاف

أن تكون أتعبت نفسك أكثر ممّا ينبغي...

فقال كمال بلهجة دلّت على أنّه لم يرحّب بهذا

التحقيق:

- اليوم طويل جداً، وقراءة ساعات لا يمكن أن

تُعب إنساناً، ليست إلا نوعاً من التسلية وإن تكن

تسلية مفيدة...

فقالت بعد تردد:

- أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيراً

من الصمت والشرود...

كلاً ليست القراءة، القراءة ملاذ من التعب لو

تعليمين، شيء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم

منه وقت القراءة نفسه، شيء لا علاج له عندها ولا

عند غيرها من البشر، إنّه مرض قلب يتعبّد حائراً ولا

يدري ماذا وراء عنائه يروم! قال بمكر:

- القراءة كالقهوة لا ضرر منها! ألا تحبّ أن أصير

«عالمًا» كجدّي؟

كلّما أردت، تصوّري أيّ حرمان كنت تمثّين به نفسك  
لو لم يفكّ أبي قيودك!

رفعت إليه عينيها فيها يشبه الارتباك أو الخجل،  
كأنّما كبر عليها أن تذكّر بامتياز نالته نتيجة لشكلها، ثمّ  
أطرقت في وجوم ولسان حالها يقول «ليتنى بقيت كما  
كنت وبقي لي فقيدي»، غير أنّها تحاشت الإفصاح عمّا  
جاش به صدرها إشفاقاً من تكدير صفوه، وقنعت بأن  
تقول وكأنّها تمتدّر عمّا حظيت به من حرّية:

- ليس خروجي بين حين وآخر فرجة أستمتع بها،  
إني أزور الحسين لأدعوك، وأزور أختيك لأطمئنّ  
عليهما ولأحلّ مشكلات لا أدري من كان غيري  
يحلّها!

فابتدء المشكلات التي تعني، ولما كان يعلم أنّها  
زارت السكّرية اليوم، فقد تساءل:

- هل من جديد في السكّرية؟

قالت وهي تتنهد:

- العادة...!

هزّ رأسه أسفاً، وهو يبتسم قائلاً:

- مخلوقة للنقار، هذه هي خديجة...

قالت أمينة بحزن:

- قالت لي حماتها: إنّ أيّ محادثة معها مخاطرة غير  
محمودة العواقب...

- الظاهر أنّ حماتها - نفسها - قد خرفت!

- لها من الكبر أعدار، ولكن ما عذر أختك؟

- ترى آثارها على الحقّ أم أثرت الحقّ عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتنهدت أمينة مرّة  
أخرى، وقالت:

- أختك حامية الطبع، وسرعان ما تضيق حتّى  
بالنصيحة الخالصة، ويا ويلي إذا جاملت حماتها مراعاة

لسنّها ومكانتها، هنالك تسألني وعيناها تحمّازان «أنت

معي أم عليّ؟»، لا حول ولا قوّة إلّا بالله، معي أم

عليّ!... هل نحن في حرب يا ابني؟. ومن الغريب

أن يكون الحقّ أحياناً على حماتها ولكتّها تتأدّى في

الخصام حتّى ينقلب الحقّ عليها هي...!

هيهات أن يسخطه عليها شيء، كانت ولا تزال أمّه

فشاعت البهجة والفخار في الوجه المستطيل  
الشاحب، وقالت:

- بل، إني أوّد ذلك بكلّ قلبي، ولكنتي أحبّ أن  
أراك دائماً منشراح الصدر...

قال باسماً:

- إني منشراح الصدر كما تحبّين، فلا تشغلي البال  
بمحض أوهم.

كان يلاحظ أنّ رعايتها له ازدادت في السنوات

الأخيرة أكثر ممّا ينبغي، وأكثر ممّا يودّ، وأنّ تعلّقها به

وحدها عليه وإشفاقها ممّا يضرّه - أو ممّا تنوّه أنّه

يضرّه - باتت شغلها الشاغل إلى حدّ ضايقه واستفّزه

للذود عن حرّيته وكرامته، بيد أنّه لم تغب عنه أسباب

هذا التطوّر الذي بدأ عقب مصرع فهمي وابتلائها

بفقدته، فلم يجاوز أبداً في ذوده عن حرّيته حدود

اللطف والأدب:

- يسرّني أن أسمع هذا منك وأن يكون حقّاً

وصدقاً، لست أبغي إلّا سعادتك، ولقد دعوت لك

اليوم في سيّدنا الحسين دعاء أرجو أن يمنّ الله

باستجابته!

- آمين...

ونظر إليها وهي ترفع الكنجة لتملأ فنجانها للمرّة

الرابعة، فانفجرت ركناً فيه عن ابتسامة خفيفة... ذكر

كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية في حكم

المستحيل، ها هي اليوم تزوره كلّما زارت القرافة أو

السكّرية، ولكن ما أفدح الثمن الذي دفعته نظير هذه

الحرّية الضئيلة! هو نفسه له أمانيه التي في حكم

المستحيل فأيّ ثمن تقتضيه كي تتحقّق؟ ألا إنّ أيّ

ثمن - وإنّ جلّ - يهون في سبيل ذلك، عاد يقول

ضاحكاً ضحكة مقتضبة:

- إنّ لزيارة الحسين ذكريات لا تُنسى...

تحسّست ترقوتها بيديها، وهي تبتسم قائلة:

- وأثر باقي لا يزول...

فقال كمال في شيء من الحماس:

- لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديماً، أصبح

من حقّك أن تزوري خديجة وعائشة أو سيّدنا الحسين

دون الوجه الملائكي بما لا يقاس، وتشر فيها حولها شذى عطرًا وروعة أسرة، ود لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأتلغان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان. شغفا بمعرفة حياة تمت إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبد الراي إلى كبار الكهنة والسدنة؟ قال بهدوء: - لو تطبعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة...

ابتسمت أساريرها في سرور، غير أن سرورها ارتطم بالحقيقة المرة، وهي أن طباعها لم تستطع على دمائها أن تضمن لها السعادة دأماً، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شفيتها لتداري بها أفكارها السوداء التي تشفق من إطلاعها عليها:

- هو وحده الهادي، ربنا يزيد طبعك حلوة حتى تكون من الذين يحبون الناس ويحبهم الناس...

فبأدراها متسائلًا:

- كيف تجديني؟

فقالت بإيمان:

- أنت كذلك، وأكثر...

لكن كيف يتأتى لك أن تحبك الملائكة؟! ادع صورتها السعيدة وتأمل قليلاً، هل يمكن أن تنخلها مسهدة طريحة حب وجوى؟ وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون، إنها فوق الحب ما دام الحب نقصاً لا يدرك الكمال إلا بالحبيب، اصبر ولا تلو قلبك من الألم، حسبك أن تحب، حسبك منظرها الذي يشعشع بالنور روحك، وأنغام نبراتها التي تسكر بالسطيرب جوارحك، من المعبودة ينبثق نور تتبدى فيه الكائنات خلقاً جديداً، الياسمين واللبلاب من بعد صمت يتناجان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء، معالم الحي العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تستأنف زفرات الصراير، الحنان يفيض من الجحور، الأناقة تزحف الأزقة والدروب، عصافير الغبطة ترقز فوق القبور، الجهادات تته في صمت التأملات، قوس قزح يتجلى في الحاصرة التي تطرح عليها قدميك، هذه دنيا معبودتي!

الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجميلة السادرة التي تشبعت بالشوكتية حتى ذابتها!

- وعم أسفر التحقيق؟

- بدأ الشجار بالزوج هذه المرة وعلى غير المألوف، دخلت الشقة وهما يتجادلان في عنف حتى عجبت لما أهاج الرجل الطيب، فتدخلت بينهما بالسلام، ثم عرفت سبب هذا كله، كانت معترمة أن تنفض الشقة، ولكنه ظل نائماً حتى التاسعة فأصرت على إيقاظه حتى استيقظ غاضباً، وركبه عناد مفاجئ فأب أن يغادر الفراش، وسمعت والدته الزعق، فجاءت على عجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكدها الشجار أن ينتهي حتى شب آخر بسبب أحمد الذي عاد من الطريق مطين الجلباب، فضرته وأرادت أن يستحم من جديد، فاستغاث الولد بأبيه، وتصدى الرجل لحمايته، فكان الشجار الثاني في نصف نهار!

وهو يضحك:

- وماذا فعلت؟

- بذلت ما في وسعي ولكني لم أسلم، فلامتني طويلاً على وقوفي موقف الوسيط، وقالت لي: كان ينبغي أن تنضمي إلي كما انضمت أمه إليه! ثم وهي تتهد ثلاث مرة:

- قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت ترينني أمام والدك، فقالت بحدّة: «هل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبي في هذه الدنيا؟!».

وردت مخيلته على غير معاد صورة عبد الحميد بك شدّاد وحرمة سنية هانم، وهما يسيران جنباً إلى جنب، من الفراندا إلى السيارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساوين، يتحادثان في غير كلفة وهي تتأبط ذراعه، حتى إذا بلغا السيارة تنحى البك جانباً حتى تركب هي أولاً! هل يتأتى لك أن ترى والدك في مثل هذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحركان في جلال خليق بالمعبودة التي أنجبها، ولو أن الهانم لم تكن دون أمه كهولة إلا أنها كانت ترتدي معطفاً نفيساً آية في الدوق والأناقة والغندرة، وتنطلق سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن

ترضى أن تدفن أبناً في كل خمسة أعوام، لا بدّ للحياة  
المشائية من قرابين وشهداء... الجسم والعقل  
والروح قرايبها، فحبي ضحى بحياة واعدة في سبيل  
ميتة رائعة، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه؟  
قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حطم قلب هذه الأم  
التعيسة، ميتة تستنزف جرحاً وتضمد جروحاً، يا له  
من حب... أجل، ولكنته ليس الذي بيني وبين بدور  
وأنت تعلمين، الحب العجيب حقاً هو حبي لك، هو  
شهادة للدنيا ضدّ المشائمين من خصومها، علمني أنّ  
الموت ليس أفظع ما نخاف وأنّ الحياة ليست أبهج ما  
نبتغي، وأنّ من الحياة ما يغلظ ويفرّ حتى يلتبس  
الموت، ومنها ما يرقّ ويشرى حتى يهفو إلى الخلود،  
ومناداتها لك ما أطربها، بصوت لا تدري كيف تصفه،  
لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل «فا» السلم الموسيقيّ  
المنبعث من كنان، رنينه في صفاء النور، ولونه لو  
تخيّلت له لوناً في زرقة السماء العميقة، دافئ الإيمان،  
داعية إلى السماء...

- ١٦ -

- يوم الخميس القادم ساعقد زواجي متوكلاً على  
الله...  
- ربّنا يوفقك!  
- سيكون التوفيق من نصيبي إذا رضي عني  
أبي...  
- إنّه راض عنك، والحمد لله...  
- سيقصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هنالك  
ما يضايق حضرتك.  
- عظيم عظيم!!  
- وددت لو كانت نينة في الحاضرين، ولكن...  
- ما علينا، المهمّ أن تمرّ الليلة في هدوء...  
- لم يغب عني هذا بطبيعة الحال، أنا أعرف الناس  
بطبعك، ولن يعدو اليوم كتابة العقد وشرب  
الشرابات...  
- عظيم، ربّنا يهديك إلى سواء السبيل...  
- كلّفت كمال أن يبلغ والدته تحيَّاتي وأن يرجوها

- كنت مازة بالأزهر في الطريق إلى الحسين،  
فقابلتني مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكّرتني بالماضي،  
هل جدّ جديد يا بني؟

قال:

- الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!

قالت بحذّة، وفي عينيها نظرة غضب تبرى:

- الإنجليز... الإنجليز!... متى تنزل عليهم

نقمة الله العادل؟

انطوت دهرًا لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية،  
لولا أن أقنعها في النهاية بأنّه لا يجوز أن يعضوا  
شخصاً أحبه فهمي!.. وعادت تتساءل في قلق ظاهر:  
- ماذا تعني يا كمال؟ هل نعود إلى أيام البلاء؟

فقال بامتعاض:

- لا يعلم الغيب إلّا الله!

فاعتراها ضيق بدا في تقلّصات وجهها الشاحب،  
وقالت:

- اللّهمّ قنا العذاب فلنتركهم لغضب القهار، هذه  
هي الخطّة المثلّ، أمّا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة فهو  
الجنون والعياذ بالله!

- هدّئي من روعك، لا محيد من الموت، الناس  
يموتون بسبب أو بآخر، وبلا سبب على الإطلاق!  
قالت في استياء:

- لا أنكر أنّ قولك حقّ، ولكنّ لهجتك لا تعجبني!

- كيف تريدان أن أتكلّم؟

قالت بصوت مؤثّر:

- أريد أن تعلن موافقتك على أنّه من الكفر أن  
يعرّض الإنسان نفسه للتهلكة...

قال في تسليم، وهو يداري ابتسامة:

- أوافق...

فرمقته بارتياح، وقالت بتوشّل:

- وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان...

- بالقلب أتكلّم...

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثالي، أنت تتطلّع  
بحماس إلى المثل الأعلى في الدين والسياسة والفكر  
والحبّ، الأمّهات لا يفكرن إلّا في السلامة، أيّ أمّ

معالم مألوفة في البيت، مرّ بها من قبل في ظروف جدّ مختلفة، فهجمت عليه ذكريات الماضي محدثة في نفسه ألواناً من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذي جاء يمثله كوالد وقور للعريس، وراح يلعن في سرّه ياسين الذي أوقعه - وأوقع نفسه وهو لا يدري - في هذا المأزق، غير أنّ الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه وعينيها قائلاً: إنّه ليس على الله بكثير أن يخلّق البنت على غير مثال الأمّ، وأن يجد ياسين في مريم زوجاً صالحة - بكلّ معنى الكلمة - وأن يقيه نزق أمّها، ثمّ سأل الله السترا

وكان ياسين آخذاً زيتته، بادي السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه، وسرّه - على وجه الخصوص - أن لم يتخلّف أحد من إخوته عن الحضور، وكان يشفق من أن تؤثر الأمّ في بعضهم فيتخلّف! أكان في وسعه أن يستغني عن مريم إكراماً لهم؟ كلّاً، أحبّها، ولم تجعل هي من سبيل إليها إلّا الزواج فلم يكن من الزواج بدّ، لمّ لا؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعادلة أو ممّا يكثرث لعواقبها، ثمّ إنّ مريم أوّل امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر، وهو إلى هذا متفائل جدّاً بزواجه ويرجو أن تستقرّ به حياة زوجيّة دائمة، أليس كذلك؟ بلى وهو يشعر أنّه سيكون زوجاً طيباً وستكون زوجة طيبة وسيجد رضوان في مقبل الأيام بيتاً سعيداً ينمو فيه وينضج، لقد دار كثيراً وأنّ له أن يستكنّ، في غير الظروف التي اكتنفت زواجه لم يكن يتردّد عن أن يحتفل به احتفالاً شاملاً لشقّي ألوان البهجة والسرور، ليس كهلاً ولا فقيراً ولا هو ممّن «يدّعون» كراهية الليالي الملاح حتّى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت الذي هو بالمأتمّ أشبه، ولكن مهلاً، فللضرورة أحكام، وليزج تقشّفه هذا تحيّة لذكرى فهمي .

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة - بعد فراق طال أعواماً - مؤثراً على تحفّظه ولم يخلُ من حرج بين . تبادلن القبلات والتهاني، وتحادثن طويلاً فشرّقن وغرّبن، ولكنّهنّ تجنّبن الماضي ما استطعن إلى ذلك سبيلاً. وكانت اللحظات الأولى أخرجها جميعاً.

عني ألاّ تحرمني من دعائها الطيب كما عودتني من قديم، وأن تعفو عنيّ كان... .

- طبعاً... طبعاً!!

- أرجو أن تكرّر على سمعي أنّك راضٍ عنيّ.

- إنّي راضٍ عنك، والله أسأل أن يكتب لك

التوفيق والفلاح، إنّه سميع الدعاء... .

هكذا سارت الأمور ضدّ مشيئة السيّد أحمد، واضطرّ إلى مجاراتها أن يتصدع ما بينه وبين ابنه، وكان قلبه في الحقّ أرقّ من أن يتصدّى لياسين بخصام جدّي فضلاً عن القطيعة، فقبل أن يسلم بيده ابنه البكر إلى بنت بهيجة، وأن يبارك - بنفسه - العلاقة التي ستضمّ خليلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم يقبل تدخّل أمينة حين أعربت له عن رجاها في أن يمتنع «إخوة فهمي» عن شهود زواج ياسين من مريم، فقال لها بلهجة حاسمة «فكرة سخيفة، من الناس من يتزوّج من أرملة أخيه على حبّه والوفاء له، ومريم لم تكن زوجة فهمي ولا حتّى خطيبته، وذلك تاريخ قديم مضى عليه سنّة أعوام، لست أنكر أنّه لم يوفّق في اختياره ولكنّه حسن النية بقدر ما هو بغل، ولم يسيء إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها، وفنّاة مطلّقة، الأمر لله وذنبه على جنبه»... . سكنت أمينة كأنّها سلّمت بحجّته، فلمّا وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جرأة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيّد إلّا أنّها لم تكن من القوّة بحيث تجعلها تراجع أو تجادله، ولذلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأنّ ياسين دعاها إلى حضور زواجه، وأنّها تفكّر في ادّعاء المرض لتتخلّف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها.

وجاء يوم الخميس، فذهب السيّد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم محمّد رضوان، حيث وجد ياسين وكمال - الذي سبقه إليه - في استقباله، ثمّ لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت و خليل شوكت مصحوبين بخديجة وعائشة، ولم يكن في البيت من آل مريم سوى بضع نساء، فاطمأنّ السيّد أحمد إلى مرور اليوم بسلام! وكان في طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى

فتوَّعت كلَّ واحدةٍ منهنَّ تَريدًا لذكرى ماضية على نحوٍ يثير عتابًا أو ملامًا، ماذا دعا إلى تقاطعهنَّ أو لمَ تعكَّرتِ الجُوءُ، ولكنَّها مرَّت بسلام، ثمَّ وَّجَّهتِ مريمَ الحديثَ بلباقةٍ إلى ثيابِ خديجةٍ ورشاقةٍ عائشة التي لا زالت تحافظ عليها رغمَ إنجابها ثلاثة، ثمَّ سألتِ مريمَ وأمَّها عن «الوالدة»، فكان الجوابُ أنَّها بخيرٍ ولم يزدن حرقًا. ونظرتِ عائشة إلى صديقتها القديمة بعينٍ ملوَّها المودةَ والحنانَ وقلبٍ متعطَّشٍ إلى حبِّ الناسِ دواءً، ولولا إحساسٌ بالإشفاق لساقت الكلامَ إلى الذكرياتِ الماضيةِ ولضحكتِ ملءَ فيها، أمَّا خديجةُ فجعلتِ تسترقُ إليها نظراتٍ متفحَّصة، ومع أنَّ مريمَ ظلَّت سنواتٍ لا تحظرُ لها على بالٍ فإنَّ أنباءَ زواجها من ياسينٍ أطلقتِ لسانها بالملاحظاتِ المرَّة، وراحت تذكُّرَ عائشةَ بواقعةِ «الإنجليزيِّ» وتتساءلُ عَمَّا أعمى ياسينَ وأصمَّه! على أنَّ شعورَ خديجةِ العائليِّ المرهفِ الذي يتقدَّمُ سائرَ مزاياها، لم يسمح لها بلُوكِ شيءٍ من ذلك على مسمعٍ من آلِ شوكتٍ غيرِ مستثنيةٍ زوجها نفسه، حتَّى نُبَّهتِ أمَّها إلى ذلك قائلةً «سواءَ رضينا أم لم نرضَ فستصبحُ مريمُ من أسرتنا!»... ولا عجب، فما زالت خديجةُ حتَّى بعدَ إنجابِ عبدِ المنعمِ شوكتٍ وأحمدِ شوكتٍ تعدُّ آلَ شوكتٍ «أغرابًا» لدرجةٍ ما.

وجاء المآذونُ في مطلعِ المساءِ، ثمَّ عقدَ الزواجُ، ودارتِ أكوابُ الشراباتِ، وانطلقتِ زغرودةٌ واحدة، وتلقَّى ياسينُ التهاني والدعواتِ الصالحاتِ، ودُعيتِ العروسُ إلى مقابلةِ «سَيِّدها الكبير» وآلِ زوجها، فجاءتِ محاطةً بأُمَّها وخديجةٍ وعائشةٍ وقبَّلتِ يده وصافحتِ الآخرينَ وعندَ ذلكَ قدَّمُ السَيِّدُ لها هديةَ الزواجِ، أسورةٌ ذهبيةٌ ذاتُ فصوصٍ دقيقةٍ من الماسِ والزمردِ، واستمرَّتِ الجلسةُ العائليةُ وقتًا غيرَ قصيرٍ، وحواليَ التاسعةِ أخذَ الحاضرونَ في الانصرافِ تباعًا، ثمَّ جاءَ حنطورُ فحملَ العروسينَ إلى بيتِ ياسينَ بقصرِ الشوقِ الذي جُهِزَ دورهُ الثالثُ لاستقبالِ العروسِ، وظنَّ الجميعُ أنَّ الستارَ قد أسدلَ على الزواجِ الثاني لياسينَ بخيره وشرِّه؛ ولكنَّ حدثَ بعدَ مرورِ أسبوعينَ من تاريخِ الزواجِ أنْ شهدَ بيتُ المرحومِ محمَّدِ رضوان

حفلاً آخرَ لزواجٍ جديدٍ، عُدَّ بحقٍّ مفاجأةً غريبةً في بيتِ السَيِّدِ أحمدَ والسُّكريةِ وقصرِ الشوقِ بل في حيِّ بينِ القصرينَ جميعًا!! فعلى حينِ غرَّةٍ - ودونِ سابقِ إنذارٍ - لم يدرِ الناسُ إلَّا وبهيجةٍ تعقدُ زواجها على بيومي الشربتلي... عجبُ الناسُ لهذا الزواجِ كلَّ العجبِ، وكأنَّما كانوا يفتنونَ - لأوَّلِ مرَّةٍ - إلى أنَّ دكانَ بيومي الشربتلي تقعُ على ناصيةٍ عطفةٍ بيتِ آلِ رضوانِ تحتِ إحدى مشربياتِ البيتِ العتيقةِ مباشرةً، فوقفوا أمامَ هذهِ الحقيقةِ يتساءلونَ، وحُقَّ للناسِ أنْ يعجبوا، فالعروسُ أرملةٌ رجلٍ عُرفَ في حياته بينهم بالطيبةِ والتقوى، وهي معدودةٌ من «سَيِّداتِ» الحيِّ المحترَماتِ رغمَ ولعها بالتبرُّجِ، فضلًا عن بلوغها الخمسينَ من عمرها، بينا كان الزوجُ من العامةِ ذوي الجلايبِ يبيعُ الخُرُوبَ والتمرهندي في دكانٍ صغيرٍ، ولم يجاوزِ الأربعينَ من عمره إلى كونه زوجًا رسختِ قدمه في الحياةَ الزوجيةَ عشرينَ عامًا، أنجبَ خلالها تسعًا من الإناثِ والذكورِ! كلُّ ذلكِ أثارَ القيل والقال!! فخاضَ الناسُ - دونَ تورُّعٍ - في مقدِّماتِ الزواجِ التي لم يشعرَ بها أحدٌ، متى وكيف بدأتِ ثمَّ كيف نضجتِ حتَّى انتهتِ بالزواجِ؟! وأيُّ الطرفين كان البادئُ الداعي وأَيُّهما كان المستجيبُ الملتزمُ؟!...

قالَ عَمَّ حسنينُ الحلاقُ، وكان دكانه يقعُ في الجانبِ الآخرِ من الطريقِ لصقِ سبيلِ بينِ القصرينَ إنَّه كثيرًا ما كان يرى ستَّ بهيجةٍ واقفةً أمامَ دكانِ بيومي تشربُ الخُرُوبَ، ربَّما تبادلًا حديثًا قصيرًا، فلا يظنُّ - لحسنِ نيَّتهِ - إلَّا خيرًا... وقالَ أبو سريعٍ صاحبُ المقلِّ، وكان دكانه يتأخَّرُ ميعادَ إغلاقه عن بقيةِ الدكاكينَ: بأنَّه - أسْتَغْفِرُ اللهَ - لاحظَ مرَّاتٍ أنَّ قومًا يتسلَّلونَ ليليلٍ إلى داخلِ البيتِ، ولكنَّه لم يكن يعلمُ أنَّ بيومي بينهم! وتكلَّمُ درويشُ بائعِ الفولِ، وتكلَّمُ الفولِّيَّةُ اللَّبانُ، ومع أنَّهم تظاهروا بالثناءِ للأبِ المليلِ وانتقدوا - بمرارةٍ - الرجلَ الأخرقَ الذي تزوَّجَ امرأةً في سنِّ أمِّه، فلأنَّهم في قرارةِ النفسِ نفسوا عليه حقَّه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذهِ الحيلةِ «غيرِ المناسبةِ»، ثمَّ طالَ الحديثُ بعدَ ذلكَ عن تقديرِ



دفع بهيجة إلى هذا الزواج الغريب، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعزّ عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومي الشربتلي دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشقّ القلاقل بالاقتران منه، لم أقدمت على هذه الحفاقة غير مبالية بزواج الرجل وعياله ولا عابثة بعواطف ابنتها وآلها الجدد كأنما قد أصابها مس؟ ألا يكون الإحساس المحزون بالكبر هو الذي جعلها تفرع إلى الزواج، بل والتضحية بكثير مما تملك جرياً وراء سعادة كان يضمها لها الشباب الذي تحلّى عنها؟ تأمل هذه الفكرة في حزن واكتئاب، وذكر مذلة بين يدي زنوبة العودة التي أبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى العوامة، تلك المذلة التي زعزعت ثقته بنفسه وحملته - على طمانينته الظاهرة - على التجهّم للزمان الذي سبق فتحّمه.

على أيّ حال لم تتمتع بهيجة بزواجها طويلاً! مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دماً في ساقها، ثم تبين بالكشف الطيّب أنها مصابة بمرض السكر فقلّت إلى قصر العيني، وترامت الأخبار عن خطورة حالها أياماً، ثم وافاها الأجل المحتوم.

#### - ١٧ -

أمام سراي آل شداد وقف كمال متأبطاً حقيية صغيرة، في بدلة رمادية أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير. . . بدا طويلاً نحيفاً، وبرز عنقه من فوق بنينة القميص غير عابئ بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم. وكان الجوّ لطيفاً تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان في السماء سحب متفرّق ناصع البياض يتحرك وائتياً فيحجب شمس الصباح حيناً بعد حين. وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج، حتى خرجت منه الفيات يسوقها حسين شداد ثم دارت في شارع السرايات ووقفت أمامه، وأخرج حسين شداد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال:

- ألم تجيئنا بعد؟

\*نفخ في البوق ثلاثاً، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب:

«ميراثه» المنتظر في البيت، وعن الغنائم المحتملة من نقود وحلي!

أما بيت السيّد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق قد زلزلوا زلزلاً شديداً، يا للفضيحة! . . . هكذا هتفت ألسنتهم، وغضب السيّد أحمد غضباً أروع آل بيته فتجنّبوا مخاطبة أيّاماً متتابعات، أليس من حقّ بيومي الشربتلي أن يدّعي قرابته من الآن فصاعداً؟ ملعون ياسين وملعون شهواته، بيومي الشربتلي أصبح «عمّه» وأنف الجميع في الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقت النبا «يا خير أسود»، ثم قالت لعائشة «منذا يلوم نينة بعد الآن؟ إنّ قلبها لا يكذبها أبداً»، وأقسم ياسين - بين يدي أبيه - على أنّ الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه، وأنه أحزنها حزناً فاق كلّ تصوّر، ولكن ما حيلتها؟! ولم تقف الفضيحة عند هذا الحدّ، فإنّه ما كادت زوجة بيومي الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها، فغادرت بيتها كالجنونة سائقة أمامها ذريّتها جميعاً، ثم انقضّت على بيومي في دكانه، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعم والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستنجدون بالمارة حتى تجمهر الناس أمام الدكان السائلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلّصوا بين الزوجين وجروا المرأة جراً إلى الطريق، فوقفت تحت مشرّبة بهيجة مشفوقة الجلباب مزوّقة الملاء منفوشة الشعر دامية الأنف، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحمّلة أطرافه بالرصاص المنقوع في السمّ، والأدهى من هذا كلّها أنها برحت موقفها رأساً إلى دكان السيّد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسّلت إليه بلهجة خطابية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها في الرجوع عن غيّه، فاستمع السيّد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره، ثم أفهمها برقة - ما استطاع - أنّ هذا الأمر كلّه خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصوّر، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلي من الحق، على أنه رغم حقّه فكّر طويلاً وهو بين الحيرة والتساؤل فيما

- تعال اجلس إلى جانبي...

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم «صبراً». وترامى إليه صوت بدور من ناحية الحديقة، فالتفت صوبه فرأها مقبلة تركض وفي أثرها عابدة... أجل، المعبودة تحط بقوامها البديع في فستان سنجابي قصير على أحدث موضة، توارى أعلاه تحت درّاعة من الحرير كحليّة اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحرق بقذالتها وعارضيهما وتنوس بحركة مشيتها نوساناً عجيباً، أما أسلاك قصتها الحريرية فاستكنت على الجبين كأسنان المشط، وفي وسط هذه الهالة بدا الوجه البدرى في طابع من الحسن أنيق ملائكيّ كأنه سفير سامٍ لدولة الأحلام السعيدة. تسرّ في موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسيّ، على حال بين القطة والنوم، ولم يبقَ من الدنيا في وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هي تقرب في خفة وتبخر كأنها نغمة حلوة مجسّمة حتّى سطعه من أعطافها عبر باريقيّ، ولما التقت العين لمعت في ناظرها وشفيتها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطية معاً فردّ عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه، عند ذاك خاطبها حسين قائلاً:

- اجلسي أنت وبدوري في المقعد الخلفيّ.

تأخّر كمال خطوة ففتح باب السيّارة الخلفيّ ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسيّة، وانتظر حتّى دخلت بدور فالمعبودة، ثمّ أغلقه واندسّ إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرّة أخرى وهو ينظر صوب القصر، فما لبث أن جاء البواب حاملاً سلّة صغيرة فوضعتها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكاً وهو ينقر بأصبعه على السلّة والحقيبة:

- ما جدوى رحلة بلا طعام؟!

وزجرت السيّارة وهي تتحرّك، ثمّ انطلقت إلى شارع العباسيّة وحسين شدّاد يقول مخاطباً كمال:

- عرفت عنك أشياء كثيرة، اليوم يتاح لي أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك، ويبدو لي

أنك رغم نحافتك أكول، فهل تراني مخطئاً؟

فقال كمال باسماً، وكان سعيّداً منشرحاً فوق مطمح البشر:

- انتظر حتّى تعرف بنفسك...

سيّارة واحدة تحملها معاً، مشاركة من نوع ما تعرّض فيها عدا الأحلام، همس الأمانى: لو جلست أنت في المقعد الخلفيّ وجلست هي في المقعد الأماميّ للمأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب، لا تكن طمّاعاً جحوداً واسجد حمداً وشكراً، استنقذ رأسك من شتّى الفكر وخلّص نفسك من تيار الوجد وعش بكلّ وعيك في الساعة الراحنة، أليست ساعة بالعممر أو أكثر؟

- لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هذه!

نظر كمال إليه كالمسائل دون أن ينبس. بيد أنّ قلبه خفق في سرور وحياء لهذا الامتياز الذي حُصّ به وحده، على حين استطرد حسين قائلاً بلهجة المعتذر:

- السيّارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع...

فقال كمال بصوت خافت:

- هذا واضح...

فعاد الآخر يقول باسماً:

- وإذا لم يكن من الانتخاب بدّ فانتخب من يشابهك، ولا شك أنّ ميولنا متقاربة في هذه الحياة، أليس كذلك؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التي غمرت قلبه:

- بلى...

ثمّ وهو يضحك:

- غير أنّي قانع بالرحلة الروحيّة، أمّا أنت فيبدو أنّك لن تقنع حتّى تصل الرحلة الروحيّة بالرحلة حول الأرض...

- ألا تنهو نفسك إلى السياحة في جنبات الأرض الواسعة؟

فكر كمال قليلاً، ثمّ قال:

- يخيّل إليّ أنّ مطبوع على حبّ الاستقرار وكأني

الزمالك في سرعة عدّها كمال جنوبيّة:  
- في السماء غيم، ولكنّا في حاجة إلى مزيد منه  
لنضمن نهراً سعيداً في سفح الهرم.  
وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا  
قائلاً:

- انتظري حتى نصل إلى الهرم، وهنالك اجلسي  
معه كيفما يحلو لك...

فسألها حسين صاحكاً:

- ماذا تريد بدور؟

- تريد يا سيدي أن تجلس مع صاحبك...

صاحبك! لم تقولي «كمال»؟ هلّا أسعدت الاسم  
بما لا يطمح إليه صاحبه؟ وخاطبه حسين قائلاً:

- أمس سمعها بابا وهي تسألني: هل يجيء معنا  
أنكل كمال إلى الهرم؟ فسألني من يكون كمال؟ ولما  
أجبتة سألتها: «أتخمين أن تنزّجي أنكل كمال؟» فأجابته  
بكلّ بساطة «نعم».

فالتفت كمال إلى السوراء، ولكنها ترجعت حتى  
التصقت بمسند المقعد وأخفت وجهها في كتف أختها،  
فتزوّد كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثم أعاد  
رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء:

- لعلّها عند الجدّ لا تنسى كلمتها!

ولما بلغت السيّارة طريق الجيزة ضاعف حسين من  
سرعتها فعلاً أزيها وساد الصمت، رحب كمال  
بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملّى سعادته، كان أمس  
حديث الأسرة فاختاره ربّها زوجاً للصغيرة، يا أغاريد  
الزهور والسعادة، احفظ عن ظهر قلب كلّ كلمة  
تقال... املاّ نفسك بعبير باريس، زوّد أذنك  
بالهديل والبغام، علّك تعود إليها إذا عادت ليالي  
السهاد، كلمات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء  
ودرر الأدباء، فما بالها تمزّك حتى الأعماق وفي فؤادك  
تفجّر ينابيع السعادة! هذا الذي جعل السعادة سراً  
تتبه فيه العقول والأفهام، أيها المجدّون اللاهثون وراء  
السعادة إنّي وجدتها في الكلمة الفارغة والبطانة  
الغامضة والصمت أيضاً وفي لا شيء، ربّاه ما أعظم  
هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعاقب أعاليها فوق

أجفل من فكرة الرحلات، أعني من الحركة  
والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع، وددت لو كان  
من الميسور أن يطوف بي العالم حيث أنا!  
ضحك حسين شدّاد ضحكته اللطيفة المنبئة من  
القلب، وقال:

- قف في منطاد ثابت إن استطعت، وانظر إلى  
الأرض وهي تدور من تحتك!

تملّى كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة ملياً،  
فوردت ذهنه صورة حسن سليم وراح يقارن بين  
هذين اللونين من الأرستقراطية: أحدهما يمتاز باللفظ  
والبشاشة، والآخر يتسم بالتحفّظ والكبرياء، وكلاهما  
بعد ذلك جليل. وقال كمال:

- من حسن الحظّ أنّ الرحلات الفكرية لا تقتضي  
التنقل حتّى...

فرفع حسين شدّاد حاجبيه فيما يشبه الشكّ، غير  
أنّه عدل عن متابعة الموضوع قائلاً بابتهاج:

- المهمّ الآن أننا نقوم برحلة قصيرة معاً، وأنّ ميولنا  
مقاربة في هذه الحياة...

وما يدري إلّا والصوت العذب يجيء من السوراء  
قائلاً:

- وبالاختصار فإنّ حسين يحبّك كما تحبّك  
بدور...

نفذت هذه الجملة المعطرة بالحبّ الملحّنة بالصوت  
الملائكيّ في قلبه فطيرته نشوة وطرباً، كالتغمة الساحرة  
التي تنّد فجأة في تضاعيف أغنية فوق المنتظر والمألوف  
والمتخيّل من الأنغام، فتترك السامع بين العقل  
والجنون. المعبود يعبث بالفاظ الحبّ سادراً، يلقيها  
عليك غافلاً عن أنّه يلقي مغسوساً على قلب يحترق،  
استرجع صداها لتستعيد رنين الحبّ في أوتار ثغره،  
والحبّ لحن قديم غير أنّه يضحى جديداً عجيباً في  
ترنيمة خالقة، يا إلهي! إنّي أفنى من فرط السعادة.  
قال حسين معلّقاً على قول أخته:

- عابدة تترجم أفكارني بلغتها النسائية الخاصة...  
انطلقت السيّارة إلى السكاكيني فإلى شارع الملكة  
نازلي ثمّ إلى شارع فؤاد الأوّل، ومنه مرقت إلى

الطريق فتنتشر سماء من الخضرة اليانعة، وهذا النيل الجاري مكتسباً من وشي الشمس غلالة من اللآلئ، متى رأيت هذا الطريق آخر مرة؟ في رحلة إلى الهرم وأنا في السنة الثالثة، في كل رحلة عاهدت نفسي بالعودة إليه منفرداً، وراءك تجلس من ترى بوحيا كل شيء جديداً وجيلاً حتى مجرى الحياة الأثرية في الحي العتيق، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه؟ ... نعم: أن تواصل السيارة انطلاقها على هذه الحال التي نحن عليها إلى الأبد، رباه أهذا هو الجانب الذي طالما أعيالك وأنت تتساءل عما تريد من هذا الحب؟ هبط عليك من وحي الساعة يكتفه المحال، اسعد بالساعة المتاحة، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيراً، وعما قليل تقف عند قدميه كالنملة عند أصل الشجرة الفارعة. ...

- نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول!

فقال كمال ضاحكاً:

- لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية. ...

فقال حسين ساخرًا:

- وطن أجلّ خلفاته قبور وجثث! ... (وهو يشير

صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع. ...

قال كمال بحماس:

- ذلك الخلود! ...

- أوه. ... سوف تنشط كعادتك للدفاع، أنت وطني

لحدّ المرض، لن نختلف في هذا، ربّما كان أحبّ إليّ أن أكون في فرنسا من أن أكون في مصر. ...

فقال كمال وهو يوارى ألمه تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيين أعظم أمم الأرض وطنية! ...

- نعم، الوطنية مرض عالمي، لكنّي أحبّ فرنسا نفسها، وأحبّ في الفرنسيين مزايا لا تمتّ إلى الوطنية بسبب. ...

هذا محزن مؤسف حقاً بيد أنه لا يثير حفيظته، لأنه صادر عن حسين شّداد. ... إسماعيل لطيف يحنقه أحياناً باستهائته. ... حسن سليم يغضبه أحياناً بتكبره. ... أمّا حسين شّداد فيحظى برضاه على أيّ

حال من الأمر.

وقفت السيارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضّمة إلى صفّ طويل من السيارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرّقوا جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حملاً أو جلاً أو تسلّق الهرم، غير باعة ومكاريين وجمالين، أرض واسعة لا تحدّ إلاّ أن الهرم انطلق في وسطها كمارد خرافي، أمّا تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة، رهوس أشجار وخطّ مياه وأسطح عيارات، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كله؟ والبيت القديم؟ أين أمّه وهي تسقي الدجاج تحت سقيفة الياسمين؟

- فلنترك كلّ شيء في السيارة لتتجول أحراراً. ...

غادروا السيارة، ومضوا صفّاً واحداً بدأ من السيارة باعيدة فحسين ثمّ بدور، وأخيراً كمال الذي أمسك بيد صديقه الصغيرة، وطاقفوا بالهرم الأكبر متفحصين أركانه ثمّ أوغلوا في الصحراء. وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقهم، غير أنّ الهواء هنا لطيفاً منعشاً، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمّعات السحب في آفاق السماء ترسم في اللوحة العالية صوراً تلفائية تعبت بها يد الهواء كيفها اتفق. قال حسين وهو يميلأ رثتيه بالهواء:

- جميل. ... جميل. ...

ورطنت عايدة بالفرنسية، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة في تلك اللغة أنّها تترجم قول أخيها، وكانت الرطانة عادة مألوفة لديها، فخففت من غلوائه في التعصّب للغة القومية من ناحية، وفرضت على ذوقه كإمارة من أمارات الحسن النسائي من ناحية أخرى. قال كمال بتأثر، وهو يتأمل ما حوله:

- جميل حقاً، سبحان الله العظيم!

فقال حسين ضاحكاً:

- إنك تجد دائماً وراء الأمور إمّا الله وإمّا سعد زغلول. ...

- أظنّ أنّه لا خلاف بيننا فيما يتعلّق بالأول!

- ولكنّ دأبك على ذكره يضفي عليك مسحة دينيّة خاصّة كأنك من رجال الدين، (ثمّ بلهجة تسليم) فيم

- هذا هو رأي الإنجليز، ألم تقرأ برقيات الأهرام؟  
فليس عجيبي أن يردده الأحرار الدستوريون، إن من  
مفاخر سعد أن يثير العداوة ضد الإنجليز...  
تدخلت عائدة متسائلة، وفي عينيها نظرة عتاب أو  
تحذير مازجتها ابتسامة جذابة:

- رحلة أم سياسة؟  
فأشار كمال إلى حسين، وهو يقول معتذراً:  
- إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع...  
فقال حسين ضاحكاً، وهو يتخلل شعره الحريري  
الأسود بأصابعه الرشيقة:  
- رأيت أن أقدم تعزيتي في استقالة الزعيم، هذا  
كل ما هنالك!

ثم متسائلاً بلهجة جدية:  
- ألم تشترك في المظاهرات الخطيرة التي كانت تقوم  
في حيكم على عهد الثورة؟  
- كنت دون السن القانونية!  
فقال حسين بلهجة لم تخل من سخرية لطيفة:  
- على أي حال تُعد واقعة دكان البسوسة اشتراكاً  
في الثورة!

وضحكوا جميعاً، حتى بدور اشتركت في الضحك  
محاكاة لهم، فصدر عنهم أوركسترا رباعي مكون من  
بوقين وكمبان وصفارة، وبعد هنيهة صمت، قالت  
عائدة كأنما لتدافع عنه:  
- كفاية أنه فقد أخاه!...

فقال كمال مدفوعاً بشعور الفخار الذي دب في  
قلبه، واستزادة من عطفها:  
- أجل، فقدنا خير أسرتنا...

فعادت تسأله باهتمام:  
- كان في الحقوق... أليس كذلك؟ كم كان يكون  
عمره لو عاش حتى الآن؟

- كان يكون في الخامسة والعشرين... (ثم بلهجة  
أسيفة)... كان نابغة بكل معنى الكلمة...  
فقال حسين، وهو يفرقع بأصبعيه:

- كان!... هذه هي الوطنية، كيف تتعلق بها بعد  
ذلك؟!

العجب وأنت من حي الدين؟!  
أنكمن وراء هذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن  
تشاركه عائدة في سخريته؟ ترى ما رأيها في الحي  
القديم؟ وبأي عين تنظر العباسية إلى بين القصرين  
والنحاسين؟ هل مسك الحجل؟ مهلاً إن حسين لا  
يكاد يبدي أي اهتمام بالدين، المعبودة فيما يبدو أقل  
اهتماماً منه، ألم تقل يوماً إنها تحضر دروس الدين  
المسيحي في الميردي ديه وأنها تشهد الصلاة وترنم  
بأناشيدها؟ ولكنها مسلمة! مسلمة رغم أنها لا تعرف  
عن الإسلام شيئاً يذكر! ما رأيك في هذا؟ أحبها،  
أحبها لحذ العباد، وأحب دينها رغم وخز الضمير،  
اعترف بهذا مستغفراً رباً!

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من آي الجمال  
والجلال، ثم قال:

- هذا ما يستهويني حقاً، أما أنت فمجنون  
بالوطنية، قارن بين هذه الطبيعة الجليلة وبين  
المظاهرات وسعد وعدلي واللوريات المحملة بالجنود!  
فقال كمال باسماً:

- الطبيعة والسياسة كلتاها شيء جليل!...  
تساءل حسين فجأة كأنما قد تذكر بشداعي المعاني  
أمراً هاماً:

- كدت أنسى، لقد استقال زعيمك!  
فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب، فقال الآخر  
بقصد إغاضته:

- استقال بعد أن ضيع السودان والدستور، هه؟!  
قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه في غير هذه  
الظروف:

- كان قتل سير لي ستاك ضربة موجهة إلى وزارة  
سعد...

- دعني أكرر على سمعك ما قاله حسن سليم،  
قال: إن هذا الاعتداء مظهر للكراهية التي يضمورها  
البعض - ومنهم القتلة - للإنجليز، وسعد زغلول هو  
المسئول الأول عن تهيج هذه الكراهية!

كظم كمال الغيظ الذي أثاره «رأي» حسن سليم في  
نفسه، وقال بالهدوء الواجب في حضرة المعبودة:

فقال كمال بأسًا:

- سوف نكون جميعًا في خبر كان، ولكن شتان بين مينة ومينة!

تسرح شعرها وترتّب خصلاته بأناملها.

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله منتقدًا:

- لماذا تلبس الطربوش في هذه الرحلة؟

فتزع كمال طربوشه ووضعه في حجره قائلاً:

- ليس من المألوف عندي أن أسير بدوني...

فضحك حسين قائلاً:

- إنك مثال طيب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعني بقوله مدحًا أم ذمًا؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح، ولكن عايدة مالت إلى الأمام قليلًا ملتفتة نحوه لتلقي نظرة على رأسه ففسى ما كان بسبيله، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس في قلق، إن رأسه يبدو الآن حاسرًا فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة، وما هما العينان الجميلتان ترنوان إليه، فأثّر يعكسه عليهما؟ تساءل الصوت الموسيقي:

- لماذا لا ترّبي شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوي وجميع الرفاق بالحليّ العتيق، ياسين لم يُرَ يطلق شعره وشاربه حتى توظف، هل يتصور أن يلقي أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصبّف؟

- ولم أرتبه؟

فتساءل حسين مفكرًا:

- ألا يكون أجمل؟

- ليس هذا بذى بال...

حسين ضاحكًا:

- يخيّل إليّ أنّك خلّقت لتكون معلّمًا.

مدح أم ذم، على أيّ حال ليهنا رأسك بالرعاية السامية.

- أنا خلّقت لأكون طالبًا...

- جواب جميل... (ثم رفع طبقة صوته متسائلًا)... لم تحدّثني عن مدرسة المعلمين حديثًا شافيًا، كيف وجدتّها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟ - أرجو أن تكون مدخلًا لا بأس به للعالم التي

فرقع حسين بأصبعيه مرّة أخرى دون تعليق، يبدو أنّه لا يرى في قوله معنى، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسرّ، شغل الشعب بعداوتة الحزبيّة عن الإنجليز، سحقًا لهذا كلّ، يخلق بمن يتنسّم الفردوس ألا يكرّب صدره بهوم الأرض، ولو إلى حين، أنت عمشي في مينة عايدة في صحراء الهرم، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتى تسمع بناء الهرم، معبود وعابده يسيران معًا فوق الرمال، العابد من شدّة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلّى بعد الحصى، لو كان مرض الحبّ معدّيًا، ما باليت بالامه، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلّل هالة شعرها ويسري في أعماق صدرها... ألا ما أسعد الهواء! أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود رائية للعابد مرّدة بلسان الزمان: ليس أقوى من الموت إلا الهوى، تراها على بعد أشبار منك ولكتّها في الحقّ كالافق تخاله منطبقًا على الأرض وهو في ذروة السماء يخلق... كم مثيت النفس بأن تمسّ في هذه الرحلة راحتها، ولكن يبدو أنّك سترحل عن هذه الدنيا قبل أن تعرف مسها، لم لا تكون شجاعًا فتهدوي إلى انطباعة قدمها فتلثمها؟... أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابًا بقي من آلام الحبّ في ليالي الفكر؟ وأسفاه! كلّ الدلائل تشير إلى أنّه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتيل أو الجنون، فرتل أو جُنْ...

شعر باليد الصغيرة تجذب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه ذراعها داعية إيّاه إلى حملها، فانحنى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أنّ عايدة قالت معترضة:

- كلًّا، بدأ التعب يساورنا، فلنسترح قليلًا...

على صخرة عند رأس المنحدر المفضي إلى أبي الهول جلسوا على نفس الترتيب الذي ساروا عليه، مدّ حسين ساقيه غارًا كعبيه في الرمال، جلس كمال واضعًا رجلًا على رجل ضامًا بدور إلى جنبه، على حين قعدت عايدة إلى يسار أخوها فتناولت مشطها وراحت

- إنَّها تعبت!  
قال حسين ذلك وهو يضحك، فبادرت تقول:  
- كلاً، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تُكُنْه...  
النحلة فطرتها الطبيعة ملكة، البستان مغناها،  
رحيق الزهر شرابها، الشهد نفثها، وجزء الأدمي  
الطائف بعرشها... لسعة... لكنَّها قالت «كلاً».  
عادت تسأله:

- هل قرأت من القصص الفرنسيَّة شيئاً؟  
- بعض ما تُرجم عن ميشيل زيفاكو، لا أستطيع  
أن أقرأ الفرنسيَّة كما تعلمين...  
فقال بحماس:  
- لن تكون مؤلفاً حتَّى تتقن الفرنسيَّة، اقرأ بلزك  
وجورج صاند، ومدام دي ستال ولوتي، واكتب بعد  
ذلك قصَّة...  
فقال كمال باستنكار:  
- قصَّة؟! إنَّها فنٌّ على الهامش، إنَّما أنطلُع إلى عمل  
جديّ...  
فقال حسين جاداً:

- القصَّة في أوربا عمل جديّ، ثمة كتَّاب ينفرغون  
لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة  
الخالدين، لست أهرف بما لا أعرف، ولكن أستاذ  
اللغة الفرنسيَّة أكَّد لي ذلك...  
هزَّ كمال رأسه الكبير في شكٍّ، فاستطرد حسين  
قائلاً:

- حاذر أن تُغضب عايده، إنَّها قارئة معجبة بالقصَّة  
الفرنسيَّة، بل إنَّها بطلة من بطلاتها!  
فقال كمال إلى الأمام قليلاً، ومدَّ إليها بصره ليقرأ  
أثر قول حسين فيها مغتتماً الفرصة المتاحة ليملاً عينيه  
من منظرها البهيج، ثمَّ تساءل:  
- كيف كان ذلك؟

- إنَّ القصَّة تستغرقها استغراقاً غريباً، فرأسها  
مفعم بحياة خياليَّة، مرَّة رأيتهما تحتال أمام المرأة،  
فسألتهما عمَّا بها؟ فأجابته «هكذا كانت تسير أفروديت  
على ساحل البحر بالإسكندريَّة!».  
قالت عايده وهي تقطَّب تقطبية باسمه:

أنطلُع إليها، وتراني أحاول الآن أن أعرف عن سبيل  
الأساتذة الإنجليز معاني للكلمات المحيرة مثل «أدب»  
و«فلسفة» و«فكر»...

- هذه هي الثقافة الإنسانيَّة التي نتطلُع إليها...  
فقال كمال بحيرة:  
- ولكنَّها خضَم مضطرب فيما يبدو، ينبغي أن  
نعرف الحدود، ينبغي أن نعرف ما نريد على نحو  
أوضح، إنَّها مشكلة...

لاح الاهتمام في عيني حسين الجميلتين وهو يقول:  
- الأمر بالنسبة إليَّ لا يُعدُّ مشكلة، إنِّي أقرأ قصصاً  
ومسرحيات فرنسيَّة مستعيناً بعايده على فهم الصعب  
من نصوصها، وأستمع معها أيضاً إلى مختارات من  
الموسيقى الغربيَّة تعزف هي بعضها بمهارة على البيانو،  
وقد طالعت أخيراً كتاباً يلخِّص الفلسفة الإغريقيَّة في  
يسر وسهولة، لست أبغي إلَّا السباحة للعقل  
والجسم، أمَّا أنت فتريد أيضاً أن تكتب، وهذا  
يقتضي أن تعرف الحدود والأهداف...

- الأدهى من ذلك أنَّني لا أدري فيم أكتب على  
وجه التحديد!

تساءلت عايده بلهجة باسمه:  
- أتريد أن تكون مؤلفاً؟  
فقال وهو يتلقَّى موجة عالية من السعادة التي عزَّت  
على البشر:  
- ربَّما!...

- شاعراً أم ناثراً... (وهي تميل إلى الأمام لتتمكَّن  
من رؤيته)... دعني أحنَّ بفراستي...  
استنفدت الشعر في مناجاة طيفك، الشعر لغتك  
المقدَّسة فلا أمتنه، غاضبت دموعي ي نابيه في سواد  
الليالي، ما أسعدني في مرمى ناظريك وما أتعسني، إنِّي  
أحيا تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس...

- شاعر، أجل أنت شاعر...  
- حقاً؟ كيف عرفت هذا؟

اعتدلت في جلستها، فندت عنها ضحكة خافتة  
كأنَّها وسوسة الأمانى، ثمَّ قالت:  
- الفراسة بداهة، فكيف تطالب بتفسير لها؟

- لا تصدّقه، إنّه أغرق مَنّي في الخيال، ولكنّه لا يرتاح حتّى يرميني بما ليس في...  
أفروديت؟... ما أفروديت يا معبودتي؟! يحزنني

وحقّ كمالك أن تتخيّل نفسك في صورة غير ذاتك!  
قال بإخلاص:

- لا عليك من هذا، إنّ أبطال المنفلوطي وريدر هجارد يستأثرون بخيالي...!

فضحك حسين ضحكة رائعة، وهو يهتف:

- ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا نبقي على

الأرض ما دمنا نفهو هكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن

تحقّق هذا الحلم، لست كاتباً ولا أريد أن أكون كاتباً،

ولكن في وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت في كتاب

واحد.

عايدة في كتاب تكون أنت مؤلّفه! صلاة أم تصوّف

أم جنون؟!  
- وأنا؟!!

علا صوت بدور فجأة متسائلاً في احتجاج فضجّ

ثلاثتهم بالضحك، وقال حسين في لهجة تنبيه:

- لا تنس أن تحجز مكاناً لبدورا!

فقال كمال وهو يضمّ الصغيرة بساعده في حنان:

- ستكونين في الصفحة الأولى...

تساءلت عايدة وهي ترمي بناظرها إلى الأفق:

- ماذا نكتب عنّا؟

لم يدر ماذا يقول، فدارى ارتباكها بضحكة وانية،

ولكنّ حسين أجاب عنه قائلاً:

- كما يكتب المؤلفون، قصّة غراميّة عنيفة تنتهي

بالموت أو الانتحار!

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون.

- أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل

وحده؟

قالت عايدة ذلك ضاحكة.

البطل أعجز من أن يتصوّر معبوده فانيّاً، وتساءل:

- هل حُتم أن تنتهي بالموت أو الانتحار؟

فأجاب حسين ضاحكاً:

- هي النهاية الطبيعيّة لقصّة غرام عنيف!

فراّ من الألم أو ضناً بالسعادة تراءى الموت أمنيّة.  
قال كالساخر:

- شيء مؤسف حقّاً...

- ألم تكن تعرف هذا؟ يبدو أنّك لم تجرّب الغرام

بعد...!

من لحظات الحياة الحيّة لحظة يقوم البكاء فيها مقام

البنج في العمليّة الجراحية، وعاد حسين يقول:

- المهمّ عندي ألا تنسى أن تحجز لي مكاناً أيضاً في

كتابك ولو كنت بعيداً عن الوطن...

حدّجه كمال بنظرة طويلة، ثمّ سأله:

- ألا تزال تراودك فكرة السفر؟

فانساب الجّد في لهجة حسين شدّاد، وهو يقول:

- كلّ ساعة، أريد أن أحيّا، أريد أن أسيح على

وجهي طويلاً وعرضاً وارتفاعاً وعمقاً، ثمّ ليأت الموت

بعد ذلك...

وإن جاء قبل ذلك؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ ما

للحزن يكاد أن يقتلك؟ أنسيّت فهمي؟ الحياة لا

تقاس بالطول والعرض دائماً، كانت حياتك لمحة

ولكنّها كانت كاملة، أو فما جدوى الفضيلة والخلود؟

لكنك حزين لسبب آخر، كأنما عزّ عليك أن يهون

فراقك على الصديق المتشوّق إلى السفر، كيف تكون

دنياك من بعده؟ كيف تكون إذا حال رحيله بينك

وبين القصر الحبيب؟ ما أكذب ابتسامة اليوم، إنّها

الآن قريبة، صوتها في أذنك وعبيرها في أنفك فهل

تستطيع أن توقف عجلة الزمن؟ هل تعيش بقيّة العمر

حائثاً من بعيد حول القصر كالمجانين...

- إن أردت رأيي فأجلّ سفرك حتّى تتمّ

دراسك...

فقالت عايدة بحماس:

- هذا ما قاله له بابا مراراً...

- هو الرأي الصواب...

فتساءل حسين متهمكاً:

- أمن الضروريّ أن أحفظ المدنيّ والرومانيّ كي

أتلذّق جمال دنياي؟

عادت عايدة مخاطب كمال قائلة:



- شدّ ما يسخر أبي من أحلامه، إنّه يتمنى أن يراه قضائياً أو عاملاً معه في دنيا المال... .

- القضاء... المال! لن أكون قضائياً، حتّى إذا نلت الليسانس وفكرت جدّاً في اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسيّ وجهتي، أما المال فهل تطمعون في مزيد منه؟ إننا أغنى مما يطيق الإنسان... .

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم ممّا يطيق، قديماً تحلّلت أن تكون تاجراً كأيّك وأن تملك خزانة كخزائنه، لم تعد الثروة من أحلامك، ولكن ألا تتمنى أن تكون قادراً على تجريد نفسك للمغامرات الروحيّة؟ ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق.

- إنّ أسرتي جيماً لا تفهم آمالي، يروني طفلاً مدلّلاً، قال خالي مرّة متهمكاً على مسمع منّي «لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد في الأسرة خيراً من هذا»، لم هذا كلّ؟، لأنّي لا أعبد المال ولأنّي أؤثر الحياة عليه، أرايت؟ إنّ أسرتنا تؤمن بأنّ أيّ نشاط لا يؤدّي إلى أيّ زيادة في الثروة ضرب من العبث الباطل، وتراهم يجلّمون بالألقاب كأنّها الفردوس المفقود، أتدري لم يجنّون الخديو؟ طالما قالت لي ماما: «لو بقي أفندينا على العرش لنال أبوك الباشويّة من زمن بعيد»، والمال العزيز يهون ويُنفق بلا حساب في استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته... (ثمّ وهو يضحك)... لا تنس أن تسجّل هذه الغرائب إذا فرغت يوماً لتأليف الكتاب الذي اقترحتّه عليك.

لم يكد يفرغ من حديثه حتّى بادرت عايدة تخاطب كمال قائلة:

- أرجو ألا تتأثّر في تأليفك بتحمّل هذا الأخ العاق حتّى لا تظلم أسرتنا!

فقال كمال بلهجة ساجدة:

- معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يديّ! وفضلاً عن ذلك فليس فيها قال ما يشين... .

فضحكت عايدة في ظفر، على حين ارتسمت على شفطي حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالداهش. وكان الأثر الذي تركه حديث حسين في نفسه أنّه لم يكن صادقاً كلّ الصدق في حملته على

أسرته، أجل لم يشكّ في قوله أنّه لا يعبد المال وأنّه يؤثر الحياة عليه، وأبى - إلى ذلك - أن يُرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتّساع أفق صاحبه أوّلاً ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنّه حُبل إليه أنّ ما ورد في حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنّما ورد على سبيل الفخر المدغم في الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنّما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله، أو لعلّه كان يسخر منها حقّاً، ولكنّه لم يجد غضاضة في التشهير بها أمام شخص لا يشكّ في أنّها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجاراته له في انتقاده. عاد حسين يتساءل في هدوء باسم:

- أينما سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايدة أم بدور؟ هتفت بدور «أنا!»، فقال لها كمال وهو يشدّ عليها «أتفقنا»... ثمّ أجاب حسين:

- سيقى هذا سرّاً حتّى يولد الكتاب!

- وأيّ عنوان ستختار له؟

- حسين حول العالم!

فضجّ ثلاثهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيلية «البربري حول العالم» التي كانت تمثّل في الماجستيك، وسأله حسين بالمناسبة قائلاً:

- ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟

- كلا، في السبينا الكفاية الآن... .

قال حسين مخاطباً عايدة:

- إنّ مؤلّف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساء!

فقال له عايدة متهمّة:

- على أيّ حال فهو خير من الذين يُسمح لهم بالطواف حول العالم!

ثمّ التفتت صوب كمال، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفاً:

- أمن العيب حقّاً أن يتمنّى أب أن ينشأ ابنه على مثاله في النشاط والجاه؟! أمن العيب أن يسعى في الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية؟

أبقي حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب

والقيم العالية كي تسمو جميعاً بلشم موطن قدميك،  
كيف أجيّب وفي الجواب الذي تودّين انتحاري؟ يا  
ويح قلبك من مرام لا يُرام!  
- لا عيب في هذا أبداً... (ثم بعد انقطاع قصير)  
على شرط أن يوافق مزاج الشخص!  
فاستطردت قائلة:

- وأيّ مزاج لا يوافقه هذا؟! والعجيب أنّ حسين  
لا يزهد في هذه الحياة الرفيعة طموحاً إلى ما هو أرفع  
منها، كلّاً يا سيدي، إنّه يحلم بأن يحيا بلا عمل، في  
فراغ وبطالة! أليس هذا بعجيب؟!...  
تساءل حسين ضاحكاً في سخرية:

- ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟  
- لأنّه ليس فوق حياتهم حياة يتطلّع إليها، أين  
أنت من أولئك يا تنبل؟  
التفت حسين ناحية كمال قائلاً بصوت لم يخلُ من  
أثر للغيط:

- القاعدة المتبعة في أسرنا هي العمل على زيادة  
الثروة ومصادقة ذوي النفوذ فتأمل من وراء ذلك في  
رتبة البكوة، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإثراء  
الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتّى تنال الباشوّة،  
وأخيراً أن تجعل غايتك العليا في الحياة التودّد إلى  
الأمراء والقناعة بذلك ما دامت الإمارة لا تُنال بالعمل  
أو اللباقة، أتدري كم كلّفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟...  
عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت في ابتغاء أثاث  
جديد وتحف نادرة من باريس!

فعارضته عائدة قائلة:  
- لم يُنفَق ذلك المال تودّداً لأمر من حيث هو أمير  
فحسب، ولكن لكونه شقيق الخديو، فالدافع إلى  
المجاملة كان الوفاء والصداقة لا التودّد والزلفى، وهو  
بعد شرف لا يماري فيه عاقل.

ولكنّ حسين غمادي في عناده قائلاً:  
- ولكنّ بابا لا يفتأ يوطد علاقته بعدي وثروت  
ورشدي وغيرهم بمن لا يمكن أن يُتهموا بالإخلاص  
للخدو!... أليس في ذلك تسليم بالحكمة القائلة بأنّ  
الغاية تبرّر الوسيلة؟...

- حسين!...  
هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل، بصوت نَمَ  
عن الكبرياء والاستياء والتأنيب، كأنما أرادت أن تنبّه  
إلى أنّ هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو في الأقلّ أن  
يجهر به على مسمع من «غريب» فاحمّر وجهه خجلاً  
والسماً وفترت السعادة التي حلّت في أجوائها ساعة  
بالاندماج في هذه الأسرة الحبيبة. وكانت هامتها  
مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفي عينيها نظرة موحية  
بالتقطيب وإن لم يلمح له أثر في جبينها، كانت بالجملة  
غضبي ولكن كما يخلق بالملكة العريقة أن تغضب، ولم  
يكن رآها من قبل منفعة، ولم يكن يتصوّر أنّها  
تتفعل، فرنا إلى وجهها في دهش وارتياح، وامتلأ  
إحساساً بالخرج حتّى ودّ لو يتنحل عذراً يتنصّر به عن  
متابعة الحديث، ولكن لم يمضِ على ذلك ثوان حتّى  
أفاق من غشيته وراح يتملّ جمال الغضب الملكي في  
الوجه الملائكي، ويتذوّق لفحة الكبرياء واستعلاء  
الإباء وتجهّم الساء، ثمّ عادت كأنما لتسمعه هو:

- إنّ صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم  
سابق على خلع الخديو...  
عند ذلك رغب كمال صادقاً في أن يبدّد هذه  
السحابة، فسأل حسين مداعباً:  
- إذا كان هذا رأيك فكيف تحقر سعد لأنّه كان  
أزهرياً؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول:  
- إنّي أكره التودّد إلى الكبراء، ولكن لا يعني هذا  
أن أحترم العامة... إنّي أحبّ الجمال وأزدري القبح،  
ومن المؤسف أنّ الجمال قلّ أن يوجد في العامة!...  
ولكنّ عايده تدخّلت في الحديث قائلة بصوت  
معتدل:

- ماذا تعني بالتودّد إلى الكبراء؟ إنّه سلوك يُعاب  
على من ليس منهم، ولكن أظننا من الكبراء أيضاً،  
وليس تودّدنا إليهم دون تودّدهم إلينا...  
فتطوّع كمال للإجابة عن حسين قائلاً بإيمان:

- هذا حقّ لا مرأ فيه...  
وما لبث أن نهض حسين وهو يقول:

- حسبنا جلوسًا، هلموا نواصل السير... نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أبي الهول في جو ظليل انتشرت تجمعات السحب في آفاقه حتى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسى منها لونًا أبيضًا يقطر صفاء وملاحة، والتقوا في طريقهم بجاعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالًا، فقال حسين مخاطبًا عابدة، ولعلّه أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر:

- إنَّ الأوربيّات يتفرّسن في فستانك باهتمام،

مبسوطة؟

فافتّر ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح، وقالت بلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في كبرياء لطيف:

- طبعي...!

فضحك حسين وابتسم كمال، ثم قال الأوّل مخاطب الآخر:

- عابدة تُعدّ مرجعًا للذوق الباريسيّ في حيننا جميعه...

فقال كمال وهو لا يزال يتنسم:

- طبعي...

فكافأته عابدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذي تركه النزاع الأرستقراطيّ البديع!... العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها. فاعرف أين أنت من هؤلاء الملائكة، المعبود الذي يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتى على أهله المقرّبين، فما وجه العجب في هذا؟! ما كان ينبغي أن يكون له أهل أو أسرة، فلعلّه اتخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه، أعجب به في هدوئه وحدته وتواضعه وتكبّره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه، كلّ أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامئ. انظر إليها، إنّ الرمال تعوق مشيتها فتوانت خفتها واتسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الواني ولكتها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشي تضارع في جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة، وإذا التفّ إلى الوراء فرأيت آثار

القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال، فاعلم أنّها تقيم معالم للطريق المجهول يتهدي بها السالكون إلى سبحات الوجد وإشراقات السعادة، في زيارتك السالفة هذه الصحراء كان نهارك ينقضي في اللعب والوثب سادًّا عن نفحات المعاني لأنّ برعمة قلبك لم تكن تفتّحت... أمّا اليوم فأوراقها نديّة برضاب الهوى تقطر بهجة وتنزّ السّيا فإِنَّ تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامي... حياة القلب وأنشودة النور...

- جعّت...

نذت الشكوى عن ثغر بدور، فقال حسين:

- آه لنا أن نعود، ما رأيكم؟ على أيّ حال أماننا مسافة طويلة سيجوع في نهايتها من لم يجع...

ولمّا بلغوا السيّارة أخرج حسين الحقيرة والسّلة المملوءتين بالطعام، فوضعهما على مقدّمة السيّارة وراح يزيح الغطاء عن سلّته، غير أنّ عابدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطّوا الحقيرة والسّلة في وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلى. بسط كمال جريدة كانت في حقيبته وطرح عليها الطعام الذي جاء به، دجاجتين وبطاطس وجبنًا وموزًا وبرتقالًا، ثمّ تابع يديّ حسين وهو يستخرج من السّلة طعام «الملائكة»، فإذا به: سندوتشات أنيقة، وأكواب أربع، وتروموت... ومع أنّ طعامه كان أدسم فإنّه بدا - في ناظره على الأقلّ - عاطلاً عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عمّا إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من الحقيرة سكاكين وشوكًا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح، وهنا نزعت عابدة سدّادة التروموت وراحت تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمتلئ بسائل أصفر كالذهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشًا:

- ما هذا؟

فضحكت عابدة ولم تجب، أمّا حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته بعينه:

- بيرة...!

- بيرة؟!

هتف كمال كالحائف، فقال حسين بتحدٍّ وهو يشير إلى السندوتشات:

- ولحم خنزير!...

- أنت تعبت بي! لا أصدِّق هذا...

- بل صدِّق وكُل، يا لك من جحود! جئناك بأنفس ما يؤكل والذَّ ما يُشرب!

أفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشدَّ ما يزعه أن هذا الطعام والشراب جُهِّز في البيت، وبالتالي عن علم أهله ورضاهم!

- ألم تذق شيئاً من هذا من قبل؟

- سؤال في غير حاجة إلى جواب.

- إذن ستذوقه لأول مرة، والفضل لنا!

- هذا محال...

- له؟

- له؟! سؤال في غير حاجة إلى جواب أيضاً...

رفع حسين وعابدة ويدور أكوامهم وشربوا جرعات ثم أعادوها، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنما يقولان له «أرايت أنه لم يحدث لنا شيء!»، ثم قال حسين:

- الدين!.. هه؟ كوب البيرة لا يُسكر، ولحم الخنزير كلُّه لذَّة وفوائد، لست أدري ما حكمة الدين في شئون الطعام!

تقلَّص قلب كمال لوقع هذا الكلام، بيد أنه لم يخرج عن رفته وهو يقول معاتباً:

- حسين. لا تجذِّف...

ولأول مرة منذ افتُتحت المأدبة تكلمت عابدة فقالت:

- لا تسيِّ بنا الظنَّ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلّا، ولعلَّ مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيّتنا، أمّا لحم الخنزير فلذيذ جدًّا، جرِّبه ولا تكن حنبليًّا، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كي تطيع الدين فيها هو أهم من هذا كلّه...

ومع أن كلامها لم يختلف في جوهره عن كلام حسين، فإنّه نزل على قلبه المتألم برذاً وسلاماً، وإلى هذا فقد صادف منه نفساً حريصة كلَّ الحرص على ألا تكذّر لهم صفواً أو تخدش لهم شعوراً، فابتسم في تسامح رقيق، ومضى يتناول طعامه وهو يقول:

- دعوني أكل الطعام الذي آلفه، وأكرموني بالمشاركة فيه.

ضحك حسين، ثم قال مخاطباً كمال وهو يشير إلى أخته:

- اتَّفَقنا في البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا، ولكن يخيّل إليّ أننا لم نحسن تقدير ظروفك، على هذا فإنني سأتحلّل من ذلك الاتفاق إكراماً لك، ولعلَّ عابدة أن تقتدي بي...

فنظر كمال نحوها برجاء، فقالت باسمه:

- إذا وعدتني بالأّ تسيء الظنَّ بنا...

فقال كمال بابتهاج:

- لا عاش من أساء بكم الظنَّ...

أكلوا بشهوة عظيمة، حسين وعابدة أوّلاً ثم تشبّع كمال بهما فتابعهما، وكان يقدّم الطعام بنفسه إلى بدور التي اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة في استراق النظر إلى حسين وعابدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما، أمّا حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد، غير أنّه لم يفقد طابعه الممتاز الذي يمثّل في عيني كمال الأرسقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيّتها، وأمّا عابدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهدّيب في طبيعتها الملائكيّة سواء في قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الشعر عند المضغ، ومضى هذا كلّه يسيراً هيّئاً لا أثر للتكلّف أو القلق فيه، الحقّ أنّه انتظر هذه الساعة بشوْف وإنكار كأنما كان في شكّ من أنّها تأكل الطعام كسائر البشر... ومع أن معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينيّ أيّما إزعاج فإنّه وجد في «غرابته» وخروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابة تربطه بأكله،

يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر، وكانت مربيتنا يونانية، وعائدة تعرف عن المسيحية وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك في حكم الوثنيين... (ثم مخاطباً عايدة)... إنه يقرأ القرآن والسيرة...!

فقلت بلهجة ربما دلت على شيء من الإعجاب:  
- حقاً؟! برافو، ولكن أرجو ألا تسيء بي الظن أكثر مما ينبغي، فإني أحفظ أكثر من سورة...  
فغمغم كمال كالحالم:

- بديع، بديع جداً، مثل ماذا؟  
فكفّت عن الأكل حتى تتذكر، ثم قالت باسمه:  
- أعني آتي كنت أحفظ بعض السور، لا أدري ماذا تبقى منها... (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكر شيئاً أعياه طلابه) مثل السورة التي يقول فيها إن ربنا واحد الخ...  
ابتسم كمال، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكراً، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة، ثم قالت:

- لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما في الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود...  
فقال كمال بعد تردد:  
- إن نساءنا لا تستهينّ بالنعافة...  
فوافقه حسين على رأيه قائلاً:  
- ماما نفسها من هذا الرأي، ولكن عائدة تعدّ نفسها باريسية...  
عفا الله عن استهانة معبودتي، شدّ ما أزعجت نفسك المؤمنة، كما أزعجتني من قبل خطرات الشكّ التي صادفتها في مطالعتك، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشكّ من نقد وغضب؟ هيهات، نفسك لا تنطوي لها إلا على الحبّ الخالص، حتى عيوبها فأنّت تحبّها، عيوبها؟ لا عيب لها ولو كان ما بها خفة في الدين واجترأ على المحرمات، تلك عيوب لو وُجدت في غيرها، أخشى ما أخشاه ألا تروق في عيني حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة في الدين واجترأ على المحرمات، هل مسك القلق؟

فارتاح لها خياله الحائر المتسائل، وتناوبه شعوران متناقضان، قلق بادي الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان، ثم داخله شيء من الارتياح لما قربت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة! على أن نفسه لم تعفه من علامات الاستفهام عند هذا الحدّ، فوجدها تدفعه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدي سائر الوظائف الطبيعية الأخرى؟ لم يسعه أن يقول لا، ولم يهن عليه أن يقول نعم، فأضرب عن الإجابة وهو يعاني إحساساً لم يعرفه من قبل تضمّن - فيما تضمّن - احتجاجاً صامتاً على نوايس الطبيعة!

- إني معجب بشعورك الديني ومثاليّتك الأخلاقية...  
نظر كمال إليه في حذر المرتاب، فقال حسين بتوكيد:

- عن صدق تكلمت لا عن دعاية...  
ابتسم كمال في حياء، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبيرة قائلاً:  
- بالرغم من هذا، فإنّ احتفالكم بشهر رمضان يفوق كلّ وصف، أنوار تضاء، قرآن يتلى في بهو الاستقبال، المؤذّنون يؤذّنون في السلامك، هه؟  
- إنّ أبي يحيي ليالي رمضان حباً وكرامة واستمسكاً بالتقاليد التي أتبعها جدّي، وإلى هذا فهو وماما يواظبان على الصوم...  
قالت عائدة باسمه:

- وأنا...  
فقال حسين بجذّ أريد به السخرية:  
- عائدة تصوم يوماً واحداً من الشهر، وربما أفلست قبيل العصر!

فقلت عائدة على سبيل الانتقام:  
- وحسين يأكل في رمضان أربع وجبات يوميّاً، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحور!  
فقال حسين ضاحكاً، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:

- أليس غريباً ألا نعرف عن ديننا شيئاً ذا بال؟! لم

الباردة - وأنَّ الفرص بالتالي ستسبح لرؤية عايدة التي لا يتاح لقاءها إلَّا في الحديقة، على أنَّ الشتاء إذا كان يحرمه من لقاءها في الحديقة، فإنَّه لم يحلِّ دون رؤيتها في النافذة المشرفة على الممرِّ الجانبيِّ للحديقة أو في الشرفة المطلَّة على مدخل القصر، في هذه أو تلك، عند مقدمه أو حال منصرفه، ربَّما لمحها وهي معتمدة الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها، فيرفع نحوها عينيه حائثاً رأسه في ولاء العابد، فتردُّ تحيته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضيء له أحلام اليقظة وأحلام المنام. على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر، ثمَّ من النافذة وهو يقطع الممرَّ الجانبيِّ ولكنَّه لم يجدها لا في هذه ولا في تلك، فأتَّجه - وهو يمتُّ النفس باللقاء في الحديقة - نحو الكشك حيث رأى حسين جالساً بمفرده على غير العادة. تصافحا وقلبه يشرق بهجة المودة التي تبعثها في نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح، أليف روحه وعقله، واستمع إليه وهو يرحب به في لهجته المرحية الصافية قائلاً:

- أهلاً بالمعلم! الطربوش والمعطف! لا تنس في المرَّة القادمة الكوفيَّة والعصا، أهلاً... أهلاً...

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة، وطرح المعطف على كرسيٍّ وهو يتساءل:

- أين إسماعيل وحسن؟

- إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم، أمَّا حسن فقد تلقن لي صباحاً بأنَّه سيتأخَّر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات... أنت تعلم أنَّه طالب مثاليٍّ مثل حضرتك، وهو مصمِّم على نيل الليسانس هذا العام...

جلسا على كرسيَّين متقابلين مولين القصر ظهرهما وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها، جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنَّها استخلو في الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ معاً الذي يدعو إليه حسن سليم، والملاحظات التهكميَّة اللاذعة التي يبعثها إسماعيل لطيف دون حساب، استطرد حسين قائلاً:

- أنا على العكس منكما طالب رديء، أجل إنِّي

استغفر الله لنفسك ولها، وقل إنَّ هذا كلُّه عجيب، عجيب كأبي الهول، ما أشبه حبَّك به أو ما أشبهه بحبِّك، كلاهما لغز وخلود!!

أفرغت عايدة آخر ما في الترموث في الكوب الرابع، ثمَّ قالت لكمال بإغراء:

- هلَّا غيَّرت أريك؟ ما هي إلَّا شراب منعش... فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعهُ إلى فيه، وهو يقول:

- أنا بدل كمال... (ثمَّ وهو يتأوَّه)... يجب أن نمسك وإلَّا متنا امتلاء...

فرغوا من الطعام، ولكنَّ فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات، فخطر لكمال أن يوزَّعها على الغلمان الذين يتجولون في المكان، غير أنَّه رأى عايدة وهي تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلَّة، فلم يرَ بداً من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة وقد وردته ذكرى حديث إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصادية لال شدَّاد! ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول:

- لدينا مفاجأة ساءة لك، أحضرنا معنا فونوغرافاً وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم، ستسمع أسطوانات أوربيَّة من مختارات عايدة وأخرى مصريَّة مثل «حرَّز فزَّر»، و«بعد العشي»، و«حوود من هنا»... ما أريك في هذه المفاجأة؟...

#### - ١٨ -

انتصف ديسمبر، غير أنَّ الجوَّ لم يجاوز حدَّ الاعتدال إلَّا قليلاً على رغم أنَّ الشهر هلَّ بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارص. وكان كمال يقترب من سراي آل شدَّاد في خطوات متَّسدة سعيدة طارحاً معطفه المطويَّ على ساعده الأيسر وقد دلَّ مظهره الأنيق - خاصَّة مع ملاحظة ميل الجوّ إلى الاعتدال - على أنَّه جاء بمعطفه استكمالاً لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيطة لتقلُّب الجوّ، وكانت شمس الضحى ساطعة فرجح عنده أنَّ مجلس الأصدقاء سينعقد في كشك الحديقة - لا في الثوى حيث يجتمعون في الأيام

المناصب إلى حدّ التقديس، فلم يكن بدّ من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحياناً. ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظره نظرات هادئة يشوبها شيء من الأسف، فقد تجرّدت جدائل النخيل وتعرّت شجيرات الورد، وشحبت الخضرة اليانعة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم، وبدت الحديقة غارقة في الحزن حيال زحف الشتاء، ثمّ قال وهو يشير أمامه:

- انظر إلى فعل الشتاء، هذه آخر جلسة لنا في الحديقة، ولكنك من هواة الشتاء...

إنّه يهوى الشتاء حقّاً، ولكنّ عابدة أحبّ إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معاً، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة، غير أنّه قال موافقاً:

- الشتاء فصل جميل وقصير، وفي البرد والغيمة والرضا حياة يستجيب لها القلب.

- يحبّل إليّ أنّ هواة الشتاء يكونون عادة من ذوي النشاط والاجتهاد، فهكذا أنت، وهكذا حسن سليم...

ارتاح كمال إلى هذا الثناء ولكنه أراد أن يُخصّص - من دون حسن سليم - بأكثره، فقال:

- ولكنّي لا أعطي إيجاباتي المدرسيّة إلاّ نصف نشاطي فحسب، الحقّ أنّ حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير...

هزّ حسين رأسه مستحسناً، وقال:

- لا أظنّ أنّ ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذي تكرّسه للعمل يومياً... على فكرة: أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكنّ أغبطك أحياناً، خبرني ماذا تقرأ الآن؟

ابتهج كمال بهذا الحديث الذي كان - بعد عابدة - أحبّ شيء إلى نفسه وأجاب قائلاً:

- أستطيع أن أقول لك الآن: إنّ مطالعاتي أخذت تتبع نوعاً من النظام، لم تعد قراءة حرة كيفما اتفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعريّة ومقالات نقدية، أصبحت أتلّمس سبيلي على قدر من الضوء لا بأس

أستمع إلى المحاضرات مفيداً من قدرتي على تركيز الانتباه، غير أنّي لا أكاد أطيق مراجعة كتيبي المدرسيّة، قالوا لي كثيراً: إنّ دراسة القانون تتطلّب ذكاء نادراً، الأحرى أن يقولوا: إنّها تتطلّب غباء وصبراً. حسن سليم طالب مجدّد شأن الذين يحدهم الطموح، طالما تساءلت عمّا يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهر، وهو لو شاء - كأمثاله من أبناء المستشارين - لقمع من العمل بما يكفل له النجاح اعتماداً على نفوذ أبيه الذي سيضمن له في النهاية نيل الوظيفة التي يتطلّع إليها، فلم أجد تفسيراً لذلك إلاّ كبرياءه الذي يجبّب إليه التفوّق ويدفعه إليه دفعاً لا هواة فيه، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كمال في صدق:

- حسن شابّ جدير بالإعجاب لخلقه وذكائه...

- سمعت أبي يقول مرّة عن أبيه سليم بك صبري:

إنّه مستشار فذّ عادل، فيما عدا القضايا السياسيّة...

صادف هذا الرأي هوى في نفس كمال، لما سبق إلى علمه من تشييع سليم بك صبري إلى الأحرار الدستوريين، فقال ساخراً:

- معنى هذا أنّه قانونيّ بارع، ولكنه غير أهل للقضاء.

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- نسيت أنّي أخاطب وفدياً...

فقال كمال وهو يرفع منكبيه:

- لكنّ والدك ليس وفدياً! تصوّر أن يجلس سليم

بك صبري للفصل في قضية عبد الرحمن فهمي والنقراشي!

هل صادف قوله عن سليم بك صبري ارتياحاً في

نفس حسين؟ نعم، هذا يبدو جلياً في العينين

الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء، ولعلّه راجع

إلى المنافسة التي تقوم عادة - مهما اتّسمت بالتهذيب

وآداب اللياقة - بين الأنداد، وقد كان شدّاد بك

مليونيراً ومن رجال المال ذوي المكانة والجاه فضلاً عن

صلته التاريخيّة بالخدو عبّاس، غير أنّ سليم بك

صبري مستشار في أكبر هيئة قضائيّة وفي بلد تفتتها

بالاطلاع ولكنك تريد أن تفكر وأن تكتب، ولن يتاح لك - فيما أعتقد - أن تكون فيلسوفًا وأديبًا في آنٍ... !  
- لن ينقطع ما بيني وبين الأدب، إنَّ حبَّ الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال، ولكنَّ العمل شيء والراحة شيء آخر، وقد عازمت على أن أجعل الفلسفة عملي والأدب راحتي...

فضحك حسين فجأة، ثم قال:  
- هكذا تتملَّص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلاً:  
- ولكنِّي أأمل أن أكتب يومًا عن «الإنسان» فيشملكم ضمناً!  
- لا يهمني الإنسان بقدر ما يهمني أشخاصنا، انتظر حتى أشكوك إلى عايده!

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحية وحنان وشوق، فانقلب نشوان كأنما قد ثمل روحه بلحن معرب بالطرب، هل يرى حسين حقاً أنه أتى من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذه عايده؟ ما أجهل حسين! كيف غاب عنه أنه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأملها أو شوق يستشرفه إلّا وآفاقها تترقق بهواء عايده وروحها!

- انتظر أنت، وسوف تثبت لك الأيام أنني لن أنحلّ عن عهدي ما حييت...

ثمّ متسائلاً بعد قليل بلهجة جدية:  
- لم لا تفكر في أن تكون كاتباً؟ كلّ الظروف الراهنة والآتية تمهيّ لك التفرغ لهذا الفنّ!  
فهزّ حسين كتفيه استهانة، وقال:

- أأكتب ليقرا الناس؟ ولم لا يكتب الناس لأقرأ أنا؟

- أيهما أعظم شأنًا؟  
- لا تسألني أيهما أعظم شأنًا، ولكن سلني أيهما أسعد حالاً، إنّي أعدّ العمل لعنة البشرية، لا لأنّي كسول، كلّاً، ولكن لأنّ العمل مضيعة للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هي الفراغ السعيد...

به، فعمدت أخيراً إلى تخصيص ساعتين كلّ مساء للقراءة في دار الكتب وهناك أنظر في دائرة المعارف باحثاً عن معاني الكلمات الغامضة الساحرة، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجلاً في الوقت نفسه أسماء الكتب التي تصادفني، إنّه عالم بديع تذوب فيه النفس شغفاً واستطلاعاً...

كان حسين يصغي إليه بانتباه واهتمام طارحاً ظهره على مسند الكرسيّ الخيزران، واضعاً يديه في جيبي جاكته الكحلّية الإنجليزّية، وعلى شفّتيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانيّة صافية، قال:

- جميل جداً، بالأمس كنت أحياناً تسألني عما ينبغي أن يُقرأ، اليوم جاءت نوبتي لأسألك أنا، هل وضع لك الطريق؟  
- رويداً... رويداً، يغلب على ظنيّ أنني سأنتجه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجبا حسين كالمسائل، ثمّ قال بأسياً:  
- الفلسفة؟ إنَّها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طالما اعتقدت أنك ستنتج نحو الأدب...

- لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عيني، إنّ مطلبي الأوّل الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادّة؟! الفلسفة هي التي تجمع كلّ أولئك في وحدة منطقيّة مضيئة كما عرفت أخيراً، هذا ما أروم معرفته من كلّ قلبي، وهذه هي الرحلة الحقيقيّة التي تُعدّ رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلباً ثانوياً، تصوّر أنه سيمكنني أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعاً...

نور الشوق والحناس وجه حسين وهو يقول:  
- هذا بديع حقاً، لن أتوان عن مرافقتك في هذا العالم الساحر، بل لقد طالعت بالفعل فصولاً عن الفلسفة الإغريقيّة وإن لم أخرج منها بشيء يعتدّ به، لست أحبّ الاندفاع مثلك، ولكنّي أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سبيلاً، والآن دعني أصارك بأنّي أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب، فأنت لا تقنع



حدجه كمال بنظرة دلت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجذ، ثم قال:

- لا أدري ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل؟. إن ساعة من الفراغ المطلق تنقضي أثقل من عام حافل بالعمل...

- يا للتعاسة! إن صدق قولك نفسه هو ما يؤكد هذه التعاسة، هل حسبتني أطيق الفراغ المطلق؟ كلاً وأأسفاه، لا أزال أشغل وقتي بالنافع والضار، ولكني أمل يوماً أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة...

هم بالتعليق على قوله، ولكن جاء صوت من ورائها يتساءل «فيم تتحدثان يا ترى»، صوت أو بالحرى نغمة حلوة ما إن تردّد في سمعيه حتى تعزف أوتار قلبه مجاوبة إيّاها من الأعماق كأنها عناصر مؤتلفة في لحن واحد وسرعان ما خلّت نفسه من متوائب الفكر فغمرها فراغ مطلق - ترى أهو الفراغ المطلق الذي يحلم به حسين؟ - هو ذاته لا شيء، ولكنّه السعادة كلّها...

والنفت إلى الورا، فرأى عايذة قادمة على بعد خطوات تتقدّمها بدور حتى وقفنا أمامهما، كانت ترتدي فستاناً كمونياً وسترة صوفيّة زرقاء ذات أزرار مذهبة، وقد تجلّت بشرتها السمراء في عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطر. وهرعت بدور إليه فتلقّفها بين ذراعيه وضّمّها إلى صدره كأنما ليواري في عناقها ما اعتراه من هيمان، وعند ذاك جاء خادم مسرعاً فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون». فقام حسين مستأذناً، ومضى نحو السلالم والخدام يتبعه...

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد - وجود بدور لم يكن ليغيّر من هذا المعنى - لأول مرة في حياته، تساءل في إشفاق: ترى أتبقى أم تذهب؟ ولكنّها تقدّمت خطوات حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده، ولكنّها هزّت رأسها بالرفض باسمه، فقام واقفاً ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبت يرت رأس الصغيرة في ارتباك وهو يبذل كلّ قوّته كي يملك عواطفه ويتغلّب على انفعاله... مضت فترة

صمت لم يسمع خلالها إلّا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصفور، فبدا المكان فيها لمحت عيناه من أرضه وسبائه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصّة المعبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتيها، بدا كلّ أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدري - على وجه اليقين - إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظريه أم خيالة ملوحة حيال ذاكرته، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطباً بدور فيها يشبه التحذير: «لا تضايقيه يا بدورا» فكان جوابه أن ضمّ بدور إلى صدره قائلاً: «إن تكن هذه هي المضايقة فما أحبّها إلى نفسي!»، ورنا إليها وفي عينيه أشواق، وراح يتملّى منظرها آمناً هذه المرة من الرقباء منعماً فيها التأمّل كأنما يستكنه أسرارها ويطلع على صفحة تخيلته ملاحظها ورموزها، فتاه في سحر المنظر حتى بدا ذاهلاً أو غائباً، وما يدري إلّا وهي تتساءل:

- ما لك تنظر إليّ هكذا...؟

فأفاق من غشيته، وتجلّى في عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة:

- هل تريد أن تقول شيئاً؟

هل يريد أن يقول شيئاً؟ إنه لا يدري ماذا يريد، حقاً إنه لا يدري ماذا يريد، وتساءل بدوره:

- هل قرأت في عينيّ هذا؟

أجابت وثرغها يفتر عن ابتسامة غامضة:

- نعم...

- ماذا قرأت فيها؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجبة، وهي تقول:

- هذا ما أردت معرفته...

أيوب لها بسرّه المكنون قائلاً بكلّ بساطة «أحبك» وليكن ما يكون! لكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة - كما هو الراجح - إلى الأبد؟ وانتهى - وهو يتأمّل - إلى النظرة التي تلوح في عينها الجميلتين، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسها جريئة لا يعتورها ارتباك أو خجل، نظرة كأنما تهبط عليه من علّ بالرغم

المنطق وحده، فلو صحَّ منطقهُ لوجب أن يكون أسعد الناس بحبِّه ومحَبِّه، ولكن، أين هو من ذلك؟! الحقُّ أنَّ تاريخ حَبِّهِ الطويل لم يعدم لحظات أمل خلت كان يضيء ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولوإذا بقول سائر له احترامه في نفسه مثل «من القلب للقلب رسول»، فكان يتعلَّق بالأمل الخَلَب في إصرار اليائس حتَّى تعيده الحقيقة إلى وعيه، ها هو الساعة يتلقَّى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المرَّ ليتداوى بها مُستقبلاً من كواذب الآمال، وليعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون، ولَمَّا لم يُجِزْ جواباً على سؤالها الذي تحدَّته به، هتفت معبودته ومعذِّبته بلهجة المنتصر:

- عُلِّيت ...!

واستحكم الصمت مرَّة أخرى، فعاود مسمعيه خفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافَّة وزقزقة المصفور، غير أنَّه تلقَّاها هذه المرَّة بوجد فاتر وقلب خائب، ولاحظ أنَّ عينيها تنفخصانه بإمعان لا داعي له، وأنَّ نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحي بالعبث، وأنها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدَّت للذكر، فشعر بغمز في قلبه وبرودة، وتساءل هل قُدِّر له أن ينفرد بها لتقوِّص أحلامه دفعة واحدة؟! ولاحظت قلقه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت في دعابة وهي تومئ إلى رأسه:

- لا يبدو أنَّك شرعت في تربية شعرك؟

فقال باقتضاب:

- كلاً ...

- ألا يروقك ذلك؟

وهو يميَّك بوزه باستخفاف:

- كلاً ...

- قلنا لك إنَّه أجهل ...

- هل ينبغي للرجل أن يكون جميلاً ...؟

فقال باستغراب:

- طبعاً الجمال محبوب، سواء في الرجال

والنساء ...؟

من أُنْها في مستوى نظره، فلم يرتح لها وزادته تردُّداً، ماذا وراءها يا ترى؟ وراءها فيما رأى شعور بالاستهانة، وربَّما العبث كأنما هي بالغ ينظر إلى طفل، ولعلَّها لم تخلُ كذلك من تعالٍ لا يمكن أن يبرِّره فارق السنِّ وحده إذ لم تكن تكبره إلَّا بعامين على أكثر تقدير، أفلا تكون هذه النظرة الخليفة بأن يلقبها هذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم بين القصرين؟ ولكن لم لم يلمحهما في عينيها من قبل ذلك؟ ربَّما لأنَّها لم تنفرد به من قبل أو لأنَّه لم يتج له أن ينعم فيها النظر إلَّا هذه الساعة، وآلمه ذلك وأحزنه حتَّى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إياه لحملها، فتناولها في حضنه، وإذا بعابدة تقول:

- يا للعجب!، لماذا تحبُّك بدور كلِّ هذا الحبِّ؟

فقال وهو ينظر في عينيها:

- لأنِّي أكنُّ لها مثله وأكثر ...

فتساءلت كالمرتابة:

- أهذا قانون يُركن إليه؟

- الحكمة السائرة تقول «من القلب للقلب

رسول» ...

فجعلت تنقر المنضدة بأغللتها وهي تتساءل:

- هب فتاة جميلة أحبُّها كثيرون، فهل تحبُّهم جميعاً؟

أرني كيف يصدق قانونك في هذه الحال ...

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كلِّ شيء حتَّى

أحزانه:

- يكون من أمرها أن تحبَّ أصدقهم حبًّا لها ...

- وكيف تفرزه من الآخرين؟ ...

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد!

- أحييك مرَّة أخرى إلى الحكمة السائرة «من

القلب للقلب رسول»!

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر، وقالت

في تحدٍّ:

- لو صحَّ هذا ما خاب محبُّ صادق في حبِّه! فهل

هذا صحيح؟!

صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستنيم إلى

فاغرقت عايده في الضحك وهي تميل برأسها إلى الوراء، ولم يملك هو أيضًا إلا أن يضحك، ثم سأل بدور مداراة لارتبائه:

- وأنت يا بدور، هل هالك أنفي؟!...

وترامى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا، فغيّرت عايده من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير:

- إناك أن تزعل من مزاحي!...

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسيه داعيًا كمال إلى الجلوس فاقتدى به - بعد تردد - واضعًا بدور على حجره، غير أن عايده لم تلبث بعد ذلك إلا قليلًا فأخذت بدور وحيتها، ثم انصرفت وهي تلحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص، وكأنها تكرر تحذيره من الزعل، لم يجد من نفسه أيّ رغبة في استئناف الحديث فاكتفى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباهًا أكثر مما عنده، وهو رغبته في السفر إلى فرنسا ومعارضه أبيه التي يأمل في التغلب عليها قريبًا. أما الذي كان يشغل قلبه وفكره معًا فهو ذلك المظهر الجديد الذي تبدّت به عايده في الدقائق التي جمعت بينها على انفراد أو على شبه انفراد، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عبثت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يُعَمِّل المصوّر ريشته في الخلقة الأدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة في قبحها وصدقها معًا.

ذكر ذلك المظهر ذاهلاً، ومع أن الألم كان يسري في روحه كما يسري السم في الدم ناشراً فيها ظلاً ثقیلاً من القنوط والكتابة، فإنه لم يجد في نفسه سخطاً أو غضباً أو احتقاراً له، اليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بلى، لعله أن يكون غريباً كولعها بالרטانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خليقة بأن تشرف بهذا الانتساب وإن عُدت في غيرها نقيصة أو استهتاراً أو

هم بأن يردّد محفوظاته مثل «جمال الرجل في أخلاقه» ألخ، ولكن غريزة من غرائزه أوحى إليه بأن مثل هذا القول - مع صدوره عن شخص في صورته - لن يلقى عند معبودته إلا الهزء والسخرية، فقال وهو يعاني وخزاً في قلبه داراه بضحكة مصطنعة:

- لست من رأيك...

- أو لعلك تنفر من الجمل كما تنفر من البيرة ولحم الخنزير!

فضحك ضحكة يعالج بها بأسه وقهره، فعادت تقول:

- الشعر الطبيعي غطاء طبيعي اعتقد أن رأسك في حاجة إليه، ألا تعلم أن رأسك كبير جداً؟

ذو الرأسين! أنسيت ذلك النداء القديم؟... يا للتعاسة!

- هو كذلك...

- له؟...

أجاب وهو يهز رأسه في إنكار:

- سليه بنفسك فإنني لا أدري.

ضحكت ضحكة خافتة، أعقبها صمت، معبودك جميل فائن ساحر، ولكنه ذو جبروت كما ينبغي له، دُق جبروته وتلقن شتى أنواع الألم. ولم ترحمه فيما بدا، لم تزل عينها الجميلتان تصعدان البصر في وجهه وتصوبان حتى تثبتا على...، أجل على أنفه!... هنالك وجد قشعريرة في أعماقه حتى قفّ شعره وغضّ البصر وهو خائف يترقب، وسمعتها تضحك، فرفع عينيه وهو يتساءل:

- ماذا يضحكك؟

- ذكرت أموراً مثيرة طالعتها في مسرحية فرنسية معروفة، ألم تقرأ «سيرانودي ببرجراك»؟.

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حدّه، قال بهدوء واستهانة:

- لا داعي للمداراة، أنا أعرف أن أنفي أكبر من رأسي، ولكن أرجو ألا تسالي مرة أخرى «له؟» سليه بنفسك إن شئت...!

وإذا ببذور تمدّ يدها فجأة فتقبض على أنفه،

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ عن صفة من صفاتها  
 ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام العيب عيبه هو لا  
 عيبها هي، وهل كانت هي التي كُتِرَ رأسه أو  
 غلُظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على  
 الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هذا فانتفى عنها  
 الملام وحقّ عليه الألم، وعليه أن يتقبّله بتسليم صوفيّ  
 كما يتقبّل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنّه

### - ١٩ -

غادر حسن وكمال سراي آل شدّاد والساعة تدور في  
 الواحدة، وهم كمال بافتراق عن صاحبه أمام باب  
 القصر، ولكنّ الآخر قال له برجاء:

- هلاً تمثّيت معي قليلاً من الوقت...!

فلبّي كمال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا في  
 شارع السرايات جنباً إلى جنب... كمال بقامته  
 الطويلة، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه، لم  
 يكن يخلو من تساؤل!! خاصّة وأنّ الوقت لم يكن  
 أنسب الأوقات للمشي الذي ليس وراءه هدف، وما  
 يدري إلّا وحسن يلتفت إليه متسائلاً:

- فيم كنتما تتحدّثان؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلاً:

- في أمور شتى كالعادة، سياسة... ثقافة الخ...

فكانت مفاجأة حقاً أن يقول له بصوته الهادئ  
 المتزن:

- أعني أنت وعائدة...!

فاستولت الدهشة على كمال، حتّى لبث ثواني لا  
 يتكلّم، ثمّ تمالك نفسه فسأله:

- كيف عرفت هذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح في وجهه أيّ  
 تغيير:

- جئت في أثناء حديثكما، فترأى لي أن أذهب إلى  
 حين حتّى لا أقطعه عليكما...

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه في موقفه؟  
 واشتدّت به الحيرة وخالطه شعور بأنّه مقبل على حديث  
 مثير ذي شجون، قال:

- لا أدري ماذا حملك على ذلك التصرف، ولو  
 لمحتك ما تركتك تذهب...

معصية، ولا ذنب لها هي أن نشأ عن صفة من صفاتها  
 ألم في قلبه أو يأس في نفسه ما دام العيب عيبه هو لا  
 عيبها هي، وهل كانت هي التي كُتِرَ رأسه أو  
 غلُظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على  
 الصدق والواقع؟ لم يحدث شيء من هذا فانتفى عنها  
 الملام وحقّ عليه الألم، وعليه أن يتقبّله بتسليم صوفيّ  
 كما يتقبّل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيماناً بأنّه  
 قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنّه صادر عن  
 معبود كامل لا مظنة في صفة من صفاته أو إرادة من  
 إراداته... هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة  
 التي صهرته منذ دقائق وهو أشدّ ما يكون ألماً وعذاباً  
 ولكن دون أن ينال ذلك من قوّة حبه وافتنانه  
 بالحبيب!... الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم  
 الرضى بحكم قاسم قضى عليه بعدم الأهلّة، كما  
 عرف من قبل - عن طريق الحبّ أيضاً - ألم الفراق وألم  
 الإغضاء وألم الوداع وألم الشكّ وألم اليأس، وكما عرف  
 أيضاً ألماً مجتملاً وألماً يُستلذّ وألماً لا يسكن معها قدّم  
 له من قرايب التأوهات والدموع، كأنما أحبّ ليتفقّه في  
 معجم الألم، ولكنّه على الشراع الشر المتطاير من  
 ارتطام آلامه يرى نفسه ويعرف أشياء، ليس الله  
 والروح والمادّة - فحسب - ما يجب أن تعرفه، ما  
 الحبّ؟... ما البغض؟... ما الجسال؟... ما  
 القبح؟... ما المرأة؟... ما الرجل؟... كلّ أولئك  
 يجب أن تعرف أيضاً، أقصى درجات الهلاك تمّاس أولى  
 درجات النجاة، اذكر ضاحكاً أو اضحك ذاكرًا أنّك  
 هممت بالإفضاء إليها بمكنون سرّك؟ اذكر باكياً أنّ  
 أحذب نوتردام ملأ حبيبته رعباً وهو يحنو عليها  
 مواسياً، وأنّه - أحذب نوتردام - لم يستثر عطفها  
 البريء إلّا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، «إياك أن  
 تزعل من مزاحي»! حتّى راحة اليأس تضمّن بها  
 عليك، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علناً نخرج من  
 جحيم الحيرة ونطمئنّ في قبر اليأس، هيهات أن يقتلع  
 اليأس جذور الحبّ من قلبي، ولكنّه على أيّ حال  
 مناجاة من كواذب الآمال!...  
 والتفت حسين نحوه ليسأله عن سرّ صمته، ولكنّه

يستحق أن أخبرك به ما كتبتك عنه، ليس إلا أننا تكلمنا بعض الوقت في شئون عادية وهذا كل ما هنالك، غير أنك أيقظت حب الاستطلاع في نفسي فهل لي أن أسألك - ولو من باب العلم بالشيء - عن الأسباب التي تراها مبررة لسؤالك؟. لست ألح بطبيعة الحال، بل إنني على أتم الاستعداد للنزول عن سؤالي إذا لم يصادف منك قبولاً...!

قال حسن سليم بهدوءه وأترانه المألوفين:

- ساحتك عماً تسأل عنه، ولكن أرجو أن تنتظر قليلاً، يبدو أنك لا تود إخباري عما دار بينكما من حديث، وهذا حقك لا ريب فيه، بل لا أجد فيه إخلالاً بواجب الصداقة، ولكني أود أن ألفت نظرك إلى أن كثيرين يُجدعون بحديث عابدة ويفسرونه تفسيراً لا يمت للواقع بسبب، وربما أحدثوا لأنفسهم بسبب ذلك متاعب لا داعي لها...!

أفصح عماً تريد قوله، في الجوّ نذر نجهم لا يلبث أن ينقلب إعصاراً فيعصف بقلبك المطعون، كأن به موضعاً سليماً لم يُطعن! أنت أنت المخدوع يا صاح، ألا تدري أنه الحياء وحده الذي يعني من أن أفضي إليك بما كان؟! فلتصعقي الصواعق إن أرحت لك بالاً!

- لم أفهم مما قلت حرفاً...!

علا صوت حسن قليلاً، وهو يقول:

- لسانها يجود في يسر بالطف الكلام، فيحسبه السامع ذا مغزى أو أن وراءه عاطفة ما، ولكنه محض كلام لطيف تخاطب به كل من يحادثها سراً أو جهراً! .

وكم خدع كثيرين...!

برح الخفاء، صاحبك مصاب بالداء الذي هصره من يكون حتى يدعي العلم بالباطن؟! شد ما يشير حنقي! قال بأسماً وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

- يبدو أنك واثق مما تقول؟!

- إنني أعرف عابدة حق المعرفة، نحن جيران منذ بعيد...!

الاسم الذي يهاب النطق به في السرّ فضلاً عن الجهر ينطق به هذا الشاب المفتون بلا مبالاة، كأنه

- للياقة أحكام! أعترف بأنني شديد الحساسية في هذه الناحية...!

آداب أرسقراطية!... أين أنت من إدراكها.

- لا تؤاخذني إذا صارحتك بأنك تدقق أكثر مما ينبغي...!

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفثيه، ثم بدا كالمتنظر، ولمّا طال به الانتظار عاد يتساءل:

- نعم؟... فيما كتبنا تتحدثان؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا الاستجواب؟! وفكر لحظات في توجيه هذه الملاحظة إليه، غير أنه دقق في اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام الذي يكتنه له - احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما يرجع إلى سنّه - حتى قال:

- المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله، غير أنني أتساءل عن مدى التزامي بالإجابة!

فبادره حسن قائلاً بلهجة المعتذر:

- أرجو ألا ترميني بلهجة المتطفل أو بدس أنفي في خاصّ شئونك، فإن لديّ من الأسباب ما يبرّر هذا السؤال، وسوف أحدثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلني أحدثك عنها من قبل، غير أنني اعتقدت - اعتماداً على ما بيننا من صداقة - أنك لن تضيق بسؤالي، أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا الوجه...!

خفّ التوتر، ولعلّه سرّ لتلقي هذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات، الشخص الذي طالما رآه مثلاً للأرسقراطية والنبيل والكبرياء، فضلاً عن أنه كان أرغب منه في استفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلّق بمعبودته. لو كان إسما عيل لطيف هو صاحب السؤال ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللفّ والدوران حول ما يجب وما لا يجب وما يليق وما لا يليق، وربما كان أفضى إليه بكلّ شيء وهما يتضاحكان، ولكن حسن سليم لا يخرج عن تحفظه أبداً ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤدّي ثمن تحفظه! قال:

- أشكرك على حسن ظنك، وثق بأنّه لو كان ثمة ما

الآخرين أيضًا... هزّ حسن رأسه كأنما يتمنى لو يستطيع أن يؤمن برأيه في «الآخرين»، غير أن كمال لم يعنِ بالتعليق على ملاحظته الصامتة، كان سعيدًا بالدفاع عن معبودته، سعيدًا بالفرصة التي تهيأت له لإعلان رأيه في طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقًا في حماسه، لا لأنه كان يبطن غير ما يعلن - فطالما آمن بأن معبودته فوق منال الشبهات - ولكن حزنًا على الأحلام السعيدة التي قامت على افتراض وجود «سر» وراء دعابات المعبودة وتلميحاتها الرقيقة، إنَّ حسن يبذّر تلك الأحلام كما يبذرها حديث اليوم تحت الكشك، ومع أن قلبه المكشوف كان يجاهد سرًا للاستمسك ولو بخيط وادّ من خيوط الأمل، فإنّه جارى حسن سليم مجارة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومداراة لهزيمته وإبطالاً لادّعاء الآخر بأنّه «العارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول:

- لا غرابة في أن تدرك هذا فإنك شابّ لبيب، الواقع كما قلت إنَّ عايده بريئة ولكن... معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربّما بدت غريبة في عينيك، وربّما كانت مسئلة لحّد كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعني شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كلّ من يتّصل بها من الشباب!... لا تنس أنه شغف بريء، فلنّني أشهد بأنّني لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها، ولكنّها مولعة بقراءة الروايات الفرنسيّة، كثيرة التحدّث عن بطلاتها، مفعمة الرأس بالخيال!

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد بها عن أنّه لم يسمع جديدًا فيها قال صاحبه، ثمّ قال مدفوعًا برغبة في إغاضته:

- عرفت هذا كلّ من قبل، دار حديثنا يومًا - أنا وحسين وهي - عن الموضوع ذاته!

تمكّن أخيرًا أن يخرججه عن وقاره الأرستقراطيّ، فنطقت أساريه بالدهش وتساءل كالمنزعج:

- متى كان ذلك؟ لا أذكر أنّي حضرت هذا الحديث! هل قيل أمام عايده أنّها تودّ أن تكون «فتاة أحلام» كلّ شابّ؟...

رمى كمال ما طرأ عليه من تغيرّ بعين الظفر

اسم فرد من غمار الملايين! هذه الجرأة فيه تخفضه في قلبه درجات وترفعه في خياله درجات، وجملة «نحن جيران منذ بعيد» حزّت في قلبه كالخنجر فاطاحت به كما تطيح النوى بالغريب. سأله بلهجة مؤدّبة وإن لم يخل مدلولها من سخريّة:

- ألا يجوز أن تكون خُدعت أيضًا كالآخرين؟

فتراجع رأس حسن في كبرياء، وهو يقول في يقين:

- لستُ كالآخرين!...

شدّ ما أحقّه عطرسته، شدّ ما أحقّه جماله وثقته بنفسه، هذا الابن المدلّل للمستشار الخطير الذي ترتقي الشبهات إلى أحكامه السياسيّة! ونذت عن حسن «هه» كأنّه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريه، أراد أن يمهد بها للانتقال من طبقة صوتيّة متغطّرة إلى طبقة أخرى لطيفة، ثمّ قال:

- إنّه فتاة ممتازة لا تشوبها شائبة، ولو أنّ مظهرها وحديثها وأنسها تجرّ عليها الظنون أحيانًا!

فبادره كمال قائلاً بحماس:

- إنّ مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كلّ ظنّ! فحنّ حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له «أحسنّت»، ثمّ قال:

- هذا ما ينبغي أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أنّ ثمة أمورًا تجرّ بعض الأفهام، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح: إنّ البعض يسيء فهم اختلاطها في الحديقة بأصدقاء أخيها حسين، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقيّة، والبعض الآخر يقف متسائلًا حيال عمادتها لهذا وملاطفتها لذلك، وآخرون يتوقّمون وراء الدعابة اللطيفة - تصدر عنها عفواً - سرًا خطيرًا، هل أدركت ما أعني؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق:

- إنّي أدرك ما تعني طبعًا، ولكنّي أخشى أن تكون مغاليًا في ظنونك، عني أنا شخصيًا لم يساورني شكّ قطّ في أيّ تصرّف من تصرّفاتنا، لأنّ أحاديثنا ودعابتنا ظاهرة البراءة، ولأنّها من ناحية أخرى لم تتلقّ تربية شرقيّة خالصة حتّى تطالّب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها، وأظنّ أنّ هذا هو رأي

- ولكنتك لا تستطيع أن تؤكّد أنّها لا تحبّ إطلاقاً؟  
- لم يقل هذا...

فرمقه بالعين التي يتطلّع بها الإنسان إلى العرّاف،  
ثمّ سأله:

- أتدري إذن أنّها تحبّ؟

فحنى رأسه بالإيجاب، وقال:

- إنّما دعوتك إلى المشي لأحدّتك عن هذا...

غاص قلبه في أعماق صدره كأنّما يحاول الفرار من  
الآلم ولكنته غرق في عباب الآلم، كان قبل ذلك يتألّم  
لأنّها لا يمكن أن تحبّه، ها هو معذّب به يؤكّد له أنّها  
تحبّ... إنّ العبودة تحبّ... إنّ قلبها الملائكيّ  
يخضع لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة  
جميعاً إلى شخص معيّن! أجل كان عقله - لا شعوره -  
يسلم أحياناً بإمكان ذلك، ولكن كما يسلم بالموت  
كفكرة مجرّدة لا كحقيقة باردة ناشبة في جسد عزيز أو  
في جسده هو بالذات، لذلك فاجأه الخبر كأنّه يتحقّق  
لأوّل مرّة في الوجود والفكر معاً، تأمل هذه الحقائق  
جميعاً واعترف بأنّ ثمة آلاماً في هذه الدنيا لم تخطر لك  
على بال رغم خبرتك العميقة بالآلم، استطرّد حسن  
قائلاً:

- قلت لك من بادئ الأمر إنّ لديّ من الأسباب ما  
يبرّر هذا الحديث معك، وآلاً ما سمحت لنفسي  
بالتدخّل في خاصّ شئونك...

ينبغي أن تلتهمه النار المقدّسة حتّى آخر ذرّة من  
رماد.

- إنّني مقتنع بما تقول، وها أنا مصغر إليك...  
ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحى بتردّده حيال  
الكلمة الأخيرة الفاصلة، فصبر كمال، ثمّ تعجّله -  
رغم أنّ قلبه استشفّ الحقيقة المفجعة - قائلاً:

- قلت إنّك تدري أنّها تحبّ...؟

فنبذ حسن التردّد قائلاً:

- نعم، يوجد بيننا ما يجعل لي الحقّ في ادّعاء ما  
قلت...

عابدة تحبّ أيّتها السهوات! أوتار قلبك تنقبض  
باعثة لحناً جنائزياً، هل يكنّ قلبها لهذا الشاب السعيد

والارتياح، غير أنّه أشفق من النياي، فقال بحذر:

- لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذي يؤدّي  
إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسيّة  
وإغراقها في الخيال!

استردّ حسن هدوءه وآنزانه، ولزم الصمت ملياً  
كأنّه يحاول أن يستجمع فكره الذي نجح كمال في  
تشتيته إلى حين، وبدا كالمتردّد لحظات حتّى شعر كمال  
بأنّه يودّ أن يعرف كلّ شيء عن الحديث الذي دار بينه  
وبين عابدة وحسين، متى وقع؟ ماذا جعلهم يطرقون  
هذه الشئون الحسّاسة؟ وما تفصيل ما قيل فيه؟ لولا  
أنّ كبرياءه كان يمنعه من السؤال، وأخيراً قال:

- ها أنت نفسك تشهد لصدق رأيي، ولكن من  
سوء الحظّ أنّ كثيرين لم يفهموا سلوك عابدة كما فهمته  
أنت، فلم يفتنوا إلى حقيقة هامة وهي أنّها تحبّ حبّ  
الشخص لها لا الشخص نفسه!

لو اطّلع الأحقّ على الواقع ما تحسّم كلّ هذا  
التعب الضائع، ألا يعلم بأنّي لا أطمع حتّى في أن  
تحبّ حبّي؟ انظر إلى رأسي وأنفي وانعم بالآلا قال  
بصوت لم يخلّ من تهكم:

- تحبّ حبّ الشخص لها لا الشخص نفسه! يا لها  
من فلسفة!

- هي حقيقة أنا بها عليم!

- ولكنتك لا تستطيع أن تضمن صدقها في جميع  
الأحوال؟

- بلى أستطيع وأنا مغمض العينين.

غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهراً بالدهش:  
- أتستطيع أن تؤكّد عن يقين أنّها لا تحبّ هذا  
الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بثقة واطمئنان:

- أستطيع أن أوكّد أنّها لم تحبّ أحداً من يتوهمون  
أحياناً أنّها تحبّهم!

اثنان يحقّ لها أن يتكلّم بهذه الثقة: المؤمن والأحقّ،  
وهو ليس بالأحقّ، ترى لم يتحرّك الآلم ولا جديد فيها  
سمعت؟ الحقّ أنّي تألّمت اليوم تألّم عام من أعوام  
الحبّ.

لنا فرص للحديث . . .

- على انفراد؟

أفلتت العبارة منه بلا وعي، فارتبك نادماً وتورد وجهه، ولكن الآخر قال ببساطة:

- أحياناً . . .

كم يؤد أن يراها في هذا الدور - دور المحبة - الذي لم يخطر له في خيال، كيف تتجلى في العين الساجية التي تلقي إليه بنظرها من علّ لمعة الوجد والحنان؟ منظر يضيء العقل بقبس من الحقيقة المقدسة ويقتل القلب قتلاً، بهذا تُستباح لعنة الكفر الأبدية، روحك يتمللم كطائر سجين يؤد أن ينطلق، العالم ملتمقى خرابات يستعذب عنه الرحيل، لكنك حتى إذا صحّ عندك أن الشفاء تلاقى في قبلة وردية فلن تُعدم في دوامة الجنون لذّة الحرّة المطلقة، وسأله مدفوعاً برغبة انتحارية لم يستطع مقاومتها فضلاً عن فهمها:

- كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين؟ تريث حسن قليلاً قبل أن يجيب قائلاً:

- لعلّي لا أرتاح إلى ذلك كلّ الارتياح، ولكنّي لا أجد فيه مأخذاً وهي تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع ويحكم تربيتها الأوروبية، ولا أخفي عليك أنّي فكّرت أحياناً في مكاشفتها بامتعاضي ولكنّي كرهت أن ترميني بالغيرة، وكم تؤد لو تثير غيري! أنت تعرف طبعاً هذه الحيل النسائية وأعترف لك بأنّي لا أستسيغها . . .

لا عجب أن إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودوخ رءوساً.

- كأنّها تتعمّد مضايقتك!

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة:

- على أنّه في وسعي دائماً أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت!

أثارته هذه الجملة واللّهجة التي قيلت بها إلى حدّ الجنون، وتمنّى لو يجد سبباً يعتلّ به على ضربه ليمرّغه - وإنّه لقادر - في التراب، ولحظه من علّ فلاح له الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير، لم لم تحبّ أيضاً الذي دونها سناً؟ وآمن قلبه بأنّه خسر الدنيا.

مثل ما يكتنه لها قلبك، إن صحّ أنّ هذا من الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدّع، ليس صاحبك بكاذب لأنّ النبيل الجميل لا يكذب، قصارى أملك أن يكون حبّها من جنس خلاف حبّك، وإذا لم يكن من الفاجعة بدّ فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب، من العزاء أيضاً أنّ الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام عينيك، هذا الغنى الساحر العجيب! قال كالذي يضغط على زناد المسدّس وهو يعلم أنّه فارغ:

- يبدو أنّك مطمئنّ إلى أنّها تحبّ - هذه المرّة - الشخص نفسه لا حبّ الشخص لها!

فندّت عنه «هه» مرّة أخرى ليعرب بها عن ثقته. ولمحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول، ثمّ قال:

- لم يكن حديثنا قطّ - أنا وهي - من النوع الذي يحتمل معنيين!

أي نوع من الحديث هو؟ حياتي كلّها أهبها ثمناً لكلمة منه، أعرف الحقيقة كلّها وأتجرّع العذاب حتى الثمالة، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له «أحبّك»؟ بالفرنسيّة قالها أم بالعربيّة؟ بمثل هذا العذاب تشتعل النيران، قال بهدوء:

- أهتثك، كلاهما فيما أرى جدير بصاحبه!

- شكراً . . .

- غير أنّي أتساءل عمّا دعاك إلى الإفشاء إليّ بهذا السرّ الثمين؟

فرفع حاجبيه حسن، وهو يقول:

- لمّا وجدتكما تتحدّثان على انفراد أشفقت أن تُخدع ببعض القول كما تُخدع كثيرون، فصمّمت على مصارحتك بالحقيقة، لأنّي كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات . . .!

غمغم كمال قائلاً «شكراً» تأثراً بالعطف السامي، عطف الشاب الموهوب الذي تحبه عابدة، الذي كره له الانخداع فقتله بالحقيقة، ترى ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التي أغرته بمصارحته بسرّه؟ ولكن أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه؟! استطرد حسن قائلاً:

- إنّها ووالدتها كثيراً ما تزوران بيتنا، وهناك تسنح



له بيدها المطلقة، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكن عايذة جذبتها نحوها وهي تقول: «أَنْ لَنَا أَنْ نذهب»، ثُمَّ حَيْتَهُمْ ومضت إلى حال سبيلها! آه، ما معنى هذا؟ إِنَّ عايذة غضبانة عليه وما أرادت بمجيئها إِلَّا أَنْ تعالنه بغضبها، ولكن فيم أخذته؟ أيّ ذنب جنّ؟ أيّ هفوة كبيرة أو صغيرة أتى؟ يا لها من حيرة هزّت بمنطقه وشتتت يقينه، بيد أنّه قبض على زمام نفسه بيد قوّة أن تفضحه شجونه، وكان على ضبط النفس قادراً، فمثل دوره المألوف تمثيلاً حسناً ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوُّض المجلس: إِنَّه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأنّ يسلم بأنّ عايذة حرمته - اليوم على الأقل - من نعمة صداقتها... إِنَّ في قلبه العاشق مستجلاً كهربائياً دقيقاً لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إِلَّا سجّلها. حتّى النوايا يَطْلِع عليها وحتّى الآتي البعيد يتندهه، ليكون السبب ما يكون أو ليكون الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطّب سرّه، فإنّه في الحالين يرى كأنّه ورقة شجر انتزعته ريح عاتية من فنن غصن وألقت بها في غثّ النفايات.

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم، ألم يختم حديثه معه بقوله «على أنّه في وسعي دائماً أن أحملها على الإذعان لمشيئتي إذا أردت؟» ولكنّها جاءت اليوم كعادتها، إنّ بلواه من تجاهلها إيّاه لا من غيابها، ثُمَّ إِنَّه وحسن افترقا على صفاء، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هي بالتي تمتثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالمذنب، فما سرّ التجنّي يا ربّ السواوات؟ إِنَّ لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وعيئه الجارح برأسه وأنفه وكرامته لم يخلُ من مودة ودعابة ثُمَّ خُتم بما يشبه الاعتذار، ربّما يكون قد قضى على أمله في الحبّ ولكنّه لم يكن في حبه أمل، أمّا لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل، بالنبد، بالصمت، بالموت، ولأنّ يحفّو الحبيب أو يقسو خير على أيّ حال من أن يمرّ بعابده وكأنّه شيء لم يكن، يا للتعاسة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذي

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته، فاعتذر شاكرًا، ثُمَّ تصافحا وافترقا.

عاد فاطر النفس مثقل القلب بالقنوط، وكان يؤدّ أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأملاً حتّى يستصفي معانيها كلّها، بدت الحياة متلفعة بشوب حداد، ولكن ألم يكن يعلم من أوّل الأمر أنّ هذا الحبّ ضائع؟ فأيّ جديد جلبت به الحوادث؟ على أيّ حال لكن عزّاه أنّ الآخرين يتكلّمون عن الحبّ، أمّا هو فيحبّ ملء قلبه. إنّ الحبّ الذي ينور روحه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوّقه، ولن يتخلّى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته في الساء، في الساء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، في الساء ستكون عايذة لي وحدي بحكم قوانين الساء...

## - ٢٠ -

كأنّه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتّى إِلَّا عن تعمد، فطن إلى ذلك أوّل ما فطن إليه صباح الجمعة التالي - بعد مضيّ أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات - في اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسراي آل شدّاد. كانوا يتحدّثون فجاءت عايذة كعادتها مصطحبة بدور، لبثت عندهم قليلاً تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعيره التفاتاً، فظنّ أوّل وهلة أنّ دوره سيجيء. ولكن طال به الترقّب، ولاحظ إلى هذا أنّ عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينيّه أو لعلّهما تجتنباه فخرج عن موقفه السلبيّ واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته، ولكنّها واصلت الحديث متجاهلة إيّاه، ومع أنّ أحدًا لم يتنبّه فيما بدا إلى مناوئته الفاشلة - لانهاكهم في الحديث المحبوب - فإنّ ذلك لم يخفّف من وقع اللطمة التي تلقّاها من غير أن يدرك لها سبباً، غير أنّه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه، وجعل يتحيّن الفرص لتجربة حقّه من جديد وهو من الإشفاق في غاية، وإذا بدور تحاول الإفلات من يد عايذة ملوّحة

على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب؟ أو أنه يستريد من الجحيم ناراً ظمأً إلى برودة الرماد؟! سار في ممر الذكريات إلى الحديقة، وإذا به يرى عابدة جالسة على كرسي واضعة بدور على حافة المائدة أمامها، وليس في الكشك سواها أحداً! توقّف عن المسير وفكّر في العودة إلى الخلوّج قبل أن تلتفت ناحيته، ولكنه نبذ هذه الفكرة بتحدٍّ وازدراء، وتقدّم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة في مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذي فتك بأمنه وسلامه، هذا الكائن اللطيف الجميل، هذا الروح الشفاف المتنكر في فستان امرأة، هل يدري ماذا فعل به جفاه؟ هل ينام ضميره قرير العين لو شكاً إليه ما عاناه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذي قضى عليها بأن تدور حولها في دائرة مرسومة - لا تقرب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهي - إلى الأبد! لو تجرّد بابتسامة فيندأوى بها من آلامه جميعاً؟! وكان يقرب منها متعمداً أن يحدث في مشيته صوتاً لتنبيهها، فادارت رأسها نحوه كالتسائلة، ثم لم تنصح أساريرها عن شيء، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها، وحنى رأسه في خشوع، وقال باسماً:

- صباح الخير...

فحنت رأسها حنوة صغيرة، ولكنها لم تنبس، ثم نظرت فيها أمامها.

لم يعد ثمة شك في أنّ الأمل جنة هادمة، وخيل إليه أنّها ستصبح به «أذهب عني برأسك وأنفك حتى لا يحجبا عني ضوء الشمس!»، غير أنّ بدور لوّحت له بيدها، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحوها ليداري في عطفها البريء هزيمته فتعلقت بذراعيه، فهوى رأسه إليها وقبّل خدّها قبله حنان وامتنان، وإذا بالصوت الذي فتح له فيها مضى أبواب الموسيقى الإلهية يقول بجفاه:

- من فضلك لا تقبلها، القبلة تحية غير صحيحة...!

نذت عنه ضحكة حائرة لم يدرك كيف ولا لم نذت، ثم امتنع لونه، وبعد دقيقة واجمة ذاهلة قال منكرًا:

يحمّله على صدره، ضريبة جديدة للحب، وما أفدح ضرائبه، يؤدّي بها ثمن النور الذي يضيئه ويحرّقه.

واحتقن بالغضب صدره، عزّ عليه جدًّا ألا يحظى على حبّه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد المتعجرف، وحزّ في نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحبّ والولاء، وألا يردّ اللطمة إلا بالابتهاال والدعاء، ولو كان المتجنّي عليها شخصاً آخر ولو كان حسين شدّاد نفسه لقطعه دون تردّد، أمّا وهو المعبود فقد رُدّت شظايا الغضب إلى نحره، وانصبّت العداوة على هدف واحد هو نفسه، فنزعت به الرغبة في الانتقام إلى إنزال العقاب بالجاني - الذي هو نفسه - قضى عليها بالحرمان من الدنيا، وامتلأ بشعور عنيد محزون أملّى عليه الإعراض عنها إلى الأبد! رضي فيها رضي بصداقتها، بل اعتبرها فوق أحلام مطعمه بالرغم من أنّ قوّة حبّه تضيق عنها السماوات والأرض، ورضي أكثر من هذا باليأس من حبّها قائماً من عريضة الأماني بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته، غير أنّ التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثمّ من الدنيا جميعاً نبذه، ولعلّه أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر، لم ترحمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذي قضاه بعيداً عن قصر آل شدّاد، وتهالك شعوره في اجترار الحياة التي قرعته لحظة بعد أخرى، وهو في البيت صباحاً يفطر على مائدة أبيه، وهو في الطريق يسير بحواس زائفة، وهو في مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب، وهو يقرأ مساء بانتباه مشتت، وهو يتدلّل للنوم كي يقبله في ملكوته، ثمّ وهو يفتح عينيه في الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعي ترصده أو كأنما هي التي طرقت بجزع النهم كي تواصل التهامه كزّة أخرى، ألا ما أظفح النّفس إذا خانت صاحبها!...

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحبّ والعذاب، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل. لماذا ترقّب هذا اليوم بصبر نافذ؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمح أن يجد ولو نبضاً بطيئاً ضعيفاً ليوهم نفسه بأنّ جنة الأمل لم تفارقها الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة تردّ معبوده إلى الرضى

- إنها ليست القيلة الأولى فيها أذكرا

فرفعت كتفها كأنما تقول «هذا لا يغير من الحقيقة شيئاً». آه، أيمضي إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعاً عن نفسه؟

- اسمحي لي أن أتساءل عن سرّ هذا التغير الغريب، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضي دون أن أظفر بجواب؟

لم يبدُ عليها أنها سمعته، وبالتالي لم تعن بالردّ عليه، فعاد يقول وقد وشى صوته بحيرته وألمه:

- إن ما يميزني حقاً هو أنّي بريء لم أجنّ ما أستحقّ عليه العقاب!

ولم تزل مصرة على الصمت، فخاف أن يجيء حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكي والترجي:

- ألا يستحقّ صديق قديم مثلي أن يكشف على الأقلّ بذنبه؟

فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفّهة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر، ثمّ قالت بلهجة غاضبة:

- لا تدعِ البراءة الكاذبة...

يا ربّ السماوات هل تُرتكب الذنوب بلا وعي من الجاني؟! قال في نبرات متدافعة، وهو يرتّب بحركة آليّة يذّي بدور التي حاولت أن تجذبه إليها وهي لا تدرك ممّا يدور شيئاً:

- صدقت ظنوني والأسفاه! هذا ما حدّثني به قلبي فكذبته، إنّني مذنب في نظرك، أليس كذلك؟ ولكنّ بأيّ ذنب تتهميني؟! خبريني وحياتك، لا تنتظري أن أكون البادئ بالاعتراف لسبب بسيط، وهو أنّني لم أجنّ شيئاً يستحقّ الاعتراف، مهما أنقّب في زوايا نفسي وحياتي وتاريخي فلن أعرّ على نية أو كلمة أو فعل وجّه صدك بسوء، إنّني أعجب كيف لا تأخذين هذا مأخذ البديهيّات من الأمور؟! فقلت بازدياء:

- لست بمن يؤثّر فيهنّ التمثيل، سلّ نفسك عمّا قلت عني!

فقال بانزعاج:

- ماذا قلت عنك؟ ولبن قلته؟ أقسم لك... فقاطعت بهضيق قائلة:

- لا يهمني القسم في كثير أو قليل، وقره لنفسك، إنّ الذي يغتاب الناس لا يؤثّر على قسم، المهمّ أن تذكر ماذا قلت عني...

رمى بمعطفه على مقعد كأنما ليأخذ كامل أهبتة للنضال، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلّص من محاولتها اليرثية في الاستئثار بانتباهه، ثمّ قال بحرارة ناطقة بالصدق:

- لم أقلّ عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمّعك، لم أتفوّه عنك بكلمة سوء في حياتي وما كان ذلك في وسعي لو تعلمين، وإذا كان «بعضهم» قد أبلغك عني ما أغضبك، فهو واشٍ حقير لا يستحقّ ثقتك، وإنّي على استعداد لمواجهة أمامك لثري بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرّي مدى كذبه. ماذا بك من عيب حتّى أتحدّث به؟! لشدّ ما أسأت بي الظنّ! فقلت بهتّم:

- شكراً على هذا الثناء الذي لا أستحقّه، لا أظنّني أخلو من نقص، على الأقلّ فإنّي لم أتلق تربية شرقيّة خالصة!

نشبت هذه الجملة الأخيرة في انتباهه، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعاً الشبهات عن معبودته، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشكّ في حُسن مقصده؟! حسن سليم النبيل؟ هل يتأتّى هذا حقّاً؟ شدّ ما يدور رأسه! قال وعينه تنطقان بالدهش والأسف:

- ماذا تقصدين؟! أعترف لك بأنّي قائل هذه الجملة، ولكن سلي حسن سليم يخبرك، أو ينبغي له أن يخبرك، بأنّي قلتها وأنا أنوّه بمزايك...

فحدجته بنظرة باردة، وتساءلت:

- مزايي؟! وهل رغبت في أن أكون «فتاة أحلام» كلّ شابّ من بين هذه المزايي؟! فهتف كمال بانزعاج وغيظ:

- هو قائل هذا عنك لا أنا، هلاً انتظرت حتّى

يحضر لأتحذاه أمامك؟! ...

فواصلت تساؤلها الذي تتابع في مرارة وسخرية قائلة:

- وهل ملاطفتي إياك من بين هذه المزايا أيضًا؟

قال يائسًا وقد عجز، حيال انصباب التهم، عن الدفاع:

- ملاطفتك إياي؟! أين؟ ومتى؟

- في هذا الكشك؟! هل نسيت؟! أتتكر أنك أوهمته ذلك؟!!

آلتة سخريتها وهي تتساءل «هل نسيت؟!» وأدرك لتوه أن حسن سليم - يا للحماقة - قد ظنّ بلقاء الكشك الظنون، فكاشف حبيته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقق منها... جيل خبيثة راح هو ضحيتها! قال بحزن وحنق:

- أنكر، أنكر بكلّ قوة وصدق، إني نادم على حُسن ظنيّ بحسن!

فقالت بكبرياء، كأنما اعتبرت جملته الأخيرة موجّهة إليها هي:

- إنه عند حُسن الظنّ دائمًا...

زفر غبارًا، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته الجرائنيّة الهائلة التي لم تتحرك منذ آلاف السنين، ثم هوى بها عليه، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد، قال بصوت متهدج:

- إذا كان حسن هو الذي أبلغك عني هذه الأكاذيب فهو كاذب وضيع، ويكون هو الذي اغتابني لا أنا الذي اغتبتك...!

لاحت في عينيها الجميلتين نظرة قاسية، وتساءلت بحدة:

- أتتكر أنك انتقدت أمامه اختلاطي بأصدقاء حسين؟!!

أهكذا يحرف النبل الأرستقراطيّ الكلام؟! قال بتأثر شديد:

- كلاً، لم يحصل ذلك، علم الله أيّ لم أقله منتقدًا، ولكنّه ادّعى ادّعاءات كبيرة، قال... قال إنك تحبّينه! وقال إنه إن شاء منعك من الاختلاط بنا!

ولم أكن أقصد...

قاطعته قائلة بازدياء وهي تقف منتصبّة القامة في كبرياء، حتّى تموجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها المرفوع:

- أنت تهذي! لا يهمني ما يقال عني، إني فوق هذا كله، ولا خطأ لي فيها أعتقد إلا أنني أهب صداقتي دون تمييز...

وانزلت بدور إلى الأرض وهي تتكلم، فتناولت يدها ثم ولّته ظهرها، وغادرت الكشك، فهتف بها متوسلاً:

- انتظري لحظة من فضلك كي...

ولكنّها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر مما ينبغي حتّى خيل إليه أنه أسمع الحديقة كلّها، وأنّ الأشجار والكشك والكراسيّ ترمقه بنظرة جامدة ساخرة، فأطبق فاه واعتمد براحته حافة المائدة، فمال فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط القهر، لم يمكث وحده طويلاً، فما لبث أن جاء حسين شذاد طلق المحيّا كعادته، فحيّاه تحيته الصافية الحلوة وجلسا على كرسيّين متجاورين، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف، وأخيراً جاء حسن سليم يسير في خطواته المتمهّلة وحركاته المترقّعة. وتساءل كمال في حيرة: ترى ألم يلحمهما حسن من بعيد كما لمحمها في المرّة السابقة؟ ومتى - وكيف - يدري بما دار بينهما من حديث قاطع أسيف! وانفجر في صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر الزائدة، بيد أنه آلى على نفسه ألاّ يُشمت به غريبًا، وألاّ يضع شخصه موضع السخرية أو العطف الزائف، وألاّ يميّز أحداً من أن يطالع في صفحة وجهه أثرًا مما تضطرب به جوانحه، فألقى بنفسه في تيار الحديث، ضحك للملاحظات إسماعيل لطيف، وعلّق طويلاً على تكوّن حزب الاتحاد وخروج الخارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت باشا في هذا كله، بالاختصار مثل دوره خير تمثيل حتّى انفضّ المجلس بسلام، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراي آل شذاد عند الظهر، وكان كمال لم يعد يحتمل مزيداً من الصبر، فخطب حسن قائلاً:

- أريد أن أحدثك قليلاً . . .  
فقال حسن بهدوء:  
- تفضّل . . .  
فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذر، وقال:  
- على انفراد!  
همّ إسماعيل بالانسحاب، فأوقفه حسن بإشارة من يده، وقال:  
- لست أخفي عن إسماعيل شيئاً . . .  
فأحقت هذه الحركة فاستشفّ وراءها مريباً يتوجّس، غير أنّه قال دون مبالاة:  
- إذن فليسمعنا، فلست أخفي عنه شيئاً أيضاً . . .  
وانتظر قليلاً حتّى باعد المشي بينهم وبين سراي آل شدّاد، ثمّ قال:  
- قبل حضوركم اليوم اتّفق لي أن قابلت عائدة في الكشك على انفراد، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنّك نقلت إليها بعض حديثنا في شارع السرايات - أتذكره؟ - مشوّهاً محرّفاً حتّى دخل في روعها أنّي حملت عليها حملة ظالمة باغية . . .  
ردّد حسن بين شفتين تمتعضتين لفظي «مشوّه» ومحرّف» ثمّ قال ببرود وهو يلقي عليه نظرة كأنما يريد بها أن يذكره بأنّه إنّما يخاطب «حسن سليم» لا شخصاً آخر:  
- يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد في تحيّر الألفاظ . . .  
فقال كمال بانفعال:  
- هذا ما فعلته! فالحق أنّ كلامها لم يدع لي شكّاً في أنّك أردت الوقعة بيني وبينها!  
حال لون حسن غضباً، ولكنّه لم يستسلم له، فقال بصوت أمعن في البرود:  
- يؤسفني أنّي أحسن الظنّ طويلاً بفهمك وتقديرك للأمور (ثمّ بلهجة ساحرة) هلاً أخبرني عمّا عسى أن أجنيه من وراء هذه الوقعة المزعومة؟! الحقّ أنّك تندفع بلا رويّة أو عقل . . .  
فاشتدّ الغضب بكمال، وهتف قائلاً:  
- بل سؤلّت لك نفسك سلوكاً شائناً . . .!
- وهنا تدخّل إسماعيل قائلاً:  
- إني أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!  
فقال كمال بإصرار:  
- إنّ الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة، وهو عارف وأنا عارف!  
فعاد إسماعيل يقول:  
- قصّ علينا ما دار في الكشك بينك وبينها لعنا . . .  
ولكنّ حسن قال بكبرياء:  
- أنا لا أقبل محاكمة . . .!  
فهتف كمال متفصّلاً عن غيظه، وإن كان يعلم أنّه من الكاذبين:  
- على أيّ حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أنّنا أصدق قولاً!  
فصاح حسن بوجه ممتنع:  
- فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار!  
اندفع كمال نحوه مكبّوراً قبضته فحال إسماعيل بينهما، وكان أقوى الثلاثة رغم ضالة حجمه، ثمّ قال بحزم:  
- لا أسمح بهذا، كلاكما صديق، محترم ابن محترم، دعانا من هذا العبث الخليق بالأطفال . . .  
عاد ثائراً هائجاً جريماً يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية ويأطنه يستعر بالألم، طعن في قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فما بقي له في الدنيا؟! وحسن، الذي لم يحترم زميلاً كما أحترمه ولا أعجب بخلق أحد كما أعجب بخلقه، كيف انقلب في ساعة من الزمان وقاعاً سبّاباً؟! الحقّ أنّه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التي اتهمه بها إيماناً خالصاً من كلّ شكّ أو تردّد، فلم يزل يعاوده التفكير في الأمر، فيسائل نفسه: ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟! أليكون حسن شوّه كلامه، أم تكون عائدة قد أساءت الفهم أو بالغت في التكهن أو استسلمت للغضب؟ غير أنّ الموازنة بين ابن التاجر

بل عن الحيّ كلّهُ، بل عن الدنيا كلّها فما عاد يجد لها طعمًا، أيّمكن أن يطول هُذا الفراق إلى ما لا نهاية؟... ودّ لو كان قصدها أن تعاقبه حيًّا ثمّ تعفو، أو في الأقلّ أن يذكر حسين شَداد سببًا لغياها يكذب غماؤه، ودّ هُذا أو ذاك كثيرًا، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة.

كان إذا مضى لزيارة السراي أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان في محجريها بين اليأس والرجاء، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة، وإلى نافذة الممرّ الجانبيّ نظرة، ثمّ يلحظ شرفة الحديقة وهو في طريق الكشك أو السلامك، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلًا بالمفاجأة السعيدة التي لا تريد أن تقع، وينفضّ المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبّة حزينة من النافذة والشرفات، خاصّة نافذة الممرّ الجانبيّ التي كثيرًا ما تظهر في أحلام يقظته إطارًا للصورة المعبودة، ثمّ يذهب متجرّعًا اليأس زافرًا الكرب، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شَداد عن سرّ اختفاء عايدة، غير أنّ تقاليد الحيّ العتيق الذي تشبّع بها عقلته فلم ينطق، وجعل يتساءل في قلق عن مدى إلام حسين بالظروف التي أدّت إلى توارى المعبودة، أمّا حسن سليم فلم يشر إلى «الماضي» بكلمة ولم يبدُ في صفحة وجهه أنّه يفكر على أيّ وجه فيه، ولكن لا شكّ أنّه كان يرى في كلّ جلسة تجمعهم شاهدًا على هزيمته - كمال - المجسّمة، وكم كان يتألم كمال لهذا الخاطر، تعذب كثيرًا، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه، وبهذيان العذاب يخالط عقله، وكان شرّ ما يعذّبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيق اليأس، وأفطع من هُذا كلّهُ الإحساس بالهوان، بأنّه المنبوذ من روضة الرضى، المحروم من أنغام المعبود وأضوائه، فجعل يردّد وروحه تذرف دموع الأسى والقهر «أين أنت من أولئك السعداء أيّها المخلوق المشوّه»، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء؟ أين تجد عيناه النور؟ ويتلقّى قلبه الحرارة؟ وتنعم روحه بالغبطة؟ فلتبّد المعبودة بأيّ ثمن ترضاه، فلتبّد لتحبّ من تشاء حسن كان أو غيره، فلتبّد، ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح

وابن المستشار رمت به في جحيم من الغضب والألم جعلًا من محاولة إنصاف حسن ضربًا من العتب. وقد ذهب بعد ذلك إلى سراي آل شَداد في موعد اللقاء المعهود، فوجد حسن معتذرًا عن التخلف بطاري، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس: بأنّه - حسن - آسف جدًّا على ما بدر منه حين الغضب عن «ابن التاجر وابن المستشار»، وأنّه مؤمن بأنّه - كمال - ظلّمه ظلْمًا فادحًا باستنتاجاته الواهمة وأنّه يرجو ألاّ تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينها، وأنّه - حسن - كلّفه بإبلاغه ذلك عن لسانه، ثمّ تلقّى منه خطابًا بهذا المعنى مشدّدًا الرجاء في ألاّ يعودا إلى الماضي إذا تلاقيا وأن يسدلا عليه ستار النسيان، وختمه بقوله «اذكر جملة ما أسأت به إليّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تقتنع معي بأنّ كلانا مخطئ وأنّه لا يصحّ لأحدنا تبًا لذلك أن يرفض اعتذار صاحبه!». وطابت نفس كمال بالرسالة حيًّا، بيد أنّه لاحظ أنّ ثمة تناقضًا بين كبرياء حسن المعروف وبين هُذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع، أجل غير المتوقع!! فما كان يتصوّر أنّه يعتذر لأيّ سبب من الأسباب؟ فماذا غيره؟ لا يمكن أن يكون لصداقته هو هُذا التأثير الضخم في كبرياء صاحبه، فلعلّه - حسن - أراد أن يستردّ سمعته المهذّبة أكثر ممّا أراد استرداد صداقته، ولعلّه حرص أيضًا على ألاّ يستفحل الشقاق فتراعى أنبأؤه إلى حسين شَداد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر - وهو ابن تاجر - وابن المستشار! أيّ سبب من أولئك له وجهته وهو أدنى إلى المنطق في حال حسن من اعتذار لا يراد به إلّا وجه الصداقة وحدها؟! كلّ شيء يهون، فليصالحه حسن أو فليخاصمه، المهمّ حقًّا أن يعرف هل قرّرت عايدة الاختفاء؟ لم تعد تطوف بمجلسهم، أو تبدو في النافذة، أو تلوح في الشرفة. لقد أفشى لها قول حسن بأنّه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن - اعتمادًا على كبرائها - إصرارها على زيارة الكشك فلا يُحرم من رؤيتها. لكنّها اختفت رغم ذلك، كأنّها رحلت عن البيت كلّهُ،

إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة! سوف تبقى الألام ما بقي في متاهة الحياة أو في الأقل لن تمحي آثارها. أين تذهب ليالي يناير الطوال وهو دافن في الوسادة عينيه الدامعتين؟ وبسط راحتيه إلى ربّ السماوات وهو يدعو من الأعماق «اللهم قل لهذا الحب كُنْ رَمَادًا كما قلت لنار إبراهيم كوني بردًا وسلامًا؟! وتمنّيه لو كان للحب مركز معروف في الكائن البشري لعلّه يستره كما يُبتر العضو النائر بالجراحة؟ وهتافه باسمها المحبوب ليتلقّى صدها في سكون الحجرة الصامتة بقلب خاشع كأنما كان غيره المتأذى؟ ومحاكاته لصوتها حينما دعت باسمه ليستعيد حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر في كرامة الذكريات للتثبت من أنّ ما كان حقيقة لا وهماً من الخيال؟!

ولأول مرة منذ أعوام تطلّع إلى ما قبل الحب من الماضي بلهفة كما يتطلّع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة، أجل لم يتصور شخصاً هو أشبه بحاله من السجين، غير أنّ قضبان السجن بدت أطوع للتخيط وأرقّ أمام الزمام من أغلال الحب الأثيرية التي تستأثر المشاعر في القلب والأفكار في العقل والأعصاب في الجسد ثم لا تؤذن بانحلال، ووجد نفسه يوماً يتساءل: ترى هل ذاق فهمي مثل هذا العذاب الذي يعانيه؟ وهفّت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين. تنهّد في أعماق النفس. فذكر كيف قصّ يوماً على مسمعه مغامرة مريم مع جولبون، فأغمد خنجرًا مسمومًا في قلبه بلا حيلة أو حذر. وجعل يستحضر في ذاكرته وجه فهمي، فتخيّل إليه هدوءه الذي انخدع به وقتذاك، ثم تصوّر تقلّصات الألم في قسياته الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاته الشاكية التي لا شك غرق فيها كما هو يفرق الآن في تأوهات وأنيته. فشعر بغمز في قلبه وراح يقول: لقد عانى فهمي ما هو أشدّ من الرصاص قبل أن يستقرّ الرصاص في صدره! ومن عجب أنّه وجد في الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته. فكان يطالع أنباءها في الصحف وكأنما يطالع مواقف ممّا مرّ به في بين

واللعب، إنّ اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماح صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة رانية لتمسح عن صدره سخام الكآبة والوحشة، ولتسرّ قلبًا أمسى مفتقد السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبذّر وإن تتجاهله، فإنّه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك في مجتلى ضوئها البهيج، أمّا بغير ذلك فلن تكون الحياة إلّا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان خروجها من حياته إلّا كخروج العمود الفقري من الجسم الإنساني يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة؟

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل الانتظار حتّى يجيء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراي من بعيد لعلّه يلمحها في نافذة أو شرفة أو في خطراتها وهي تظنّ أنّها بمنأى عن عينيه، على أنّ الانتظار في بين القصرين كان من فضائل اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران. لم يرها، ولكنّه رأى مرّات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه، فكان يُتبعه عينًا متفحصة متعجّبة كأنما تُسائل المقادير عمّا جعلها تخصّ هذا الإنسان بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطّلاع على شئّ أحوالها، مستلقية أو مترنمة أو لاهية، كلّ ذلك من حظّ هذا الإنسان الذي يعيش في المحراب ولا تشغل قلبه العبادة!

وفي جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شدّاد وحرمة المصون وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التي كانت في انتظارهما أمام الباب، رأى الشخصيتين السعيدين اللذين تقف عابدة أمامهما - من دون العالمين - بإجلال واحترام، اللذين يخاطبانهما بلسان الأمر أحيانًا فلا تملك إلّا أن تطيع! وهذه الأم المقدسة التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، فما من ريب في أنّ عابدة كانت جنيًا فوليدة كتلك المخلوقات التي كان يرنو إليها طويلًا في فراشي عائشة وخديجة. وليس من

على كنبتين متقابلتين، وكانت الوجوه جادة، وكانت خديجة متجهمة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولكن أحداً منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذي جمعهم حتى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معاً:

- هذه المنازعات تقع في كل بيت، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعبنا على الناس، خصوصاً أولئك الذين لا ينبغي أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة، حسبي الله ونعم الوكيل... تحرك إبراهيم في معطفه كأنه يستوي في مجلسه، ثم ضحك ضحكة مختزلة لم يدر أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها، فحدثته خديجة بنظرة ارتياح وهي تتساءل:

- ماذا تعني بهي هي؟... ألا يهتم قلبك بشيء في الدنيا؟

وأعرضت عنه كاليائسة، ثم استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة:

- هل يرضيكما ذهابها إلى أبي في الدكان لتشكوني إليه؟ هل يجوز إقحام الرجال - خاصة من كان على شاكلة أبي - في منازعات النسوان؟ ما كان ينبغي أن يعلم شيء من هذا، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذلك... ولكنها ما زالت تلح عليه حتى وعددها بالمجيء، ما أبشع تصرّفها، لم يخلق أبي هذه الصغائر، فهل يرضيك هذا التصرف يا سي خليل؟

فقطب خليل في استياء، وقال:

- أمي أخطأت، صارحتها أنا نفسي بذلك حتى صبت علي غضبها، غير أنها ست كبيرة، وأنت تعلمين أن الإنسان في مثل سنّها يحتاج إلى المداواة والحلم كالأطفال، حبذا...

فقاطعه إبراهيم في ضجر قائلاً:

- حبذا... حبذا... كم كررت حبذا هذه حتى مللتها، أمك كما قلت ست كبيرة، ولكن قرعتها وقعت على من لا ترحم...!

التفت خديجة إليه بحدة وقد عبس وجهها واتسع منخراها، وقالت:

القصرين أو العباسية. هذا سعد زغلول - مثله هو - شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة والخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما - هو وسعد - يكابدان أحزاناً من اتصاها بأناش علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعلهم. تقمص شخص الزعيم في كدره كما تقمص حال الوطن في قهره، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول «أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟»، وكأنما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور «خان الأمانة واستحل القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة»، وكأنما كان يعني عابدة وهو يقول عن مصر «هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟»!

## - ٢١ -

كان بيت آل شوكت بالسجيرة من البيوت التي لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة، لا لأن أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب، ولكن بسبب خديجة قبل أي شيء آخر. كانت الأم العجوز تقيم في الدور التحتاني، وخليل وعائشة وأبنائهما: نعيمة، وعثمان، وعمد في الدور الفوقاني، ولكن ضوضاء أولئك جميعاً لم تكن شيئاً بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيرات في نظام البيت كانت خليفة بحصر أسباب الضوضاء في أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع في جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلت عنه حمتها ودواجنها، كان كل ذلك خليقاً بتخفيف الضوضاء إلى حد كبير، ولكن الضوضاء لم تخف، أو لعلها خفت بقدر لم يلحظه أحد، على أن روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور، ولم يكن سيره - فيها بدا - خافياً، فإن عائشة وخليل انتقلا إلى شقتها ليشاركا في تفريج الأزمة - أجل الأزمة - التي أزمتهما، جلسوا: الأخوان، والأختان في الصالة



- الله... الله...، لم يبق إلّا أن تعيد هذا الكلام الجائر أمام بابا...!

فقال إبراهيم وهو يلوح بيده آسفًا:

- بابا ليس معنا الآن، وهو إن جاء فلن يجيء ليستمع إليّ أنا، ولكنّي أقرّر الحقيقة التي يسلم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها، أنت لا تطيقين أمّي ولا تحتملين ظلّها، أعوذ بالله، لم كلّ هذا يا شيخة؟ بشيء قليل من الحلم والكراسة كان يسعك أن تأسريها، ولكنّ القمر أقرب منالاً من حلمك، هل تستطيعين أن تنكري كلمة واحدة ممّا قلت؟!

فردّدت عينيها بين خليل وعائشة لتشهدهما على هذا «الظلم» الصارخ، فبدوا حائرين بين الحقّ والسلامة، حتّى تمت عائشة وهي من الإشفاق في نهاية:

- سي إبراهيم يقصد أن تغضي قليلاً عمّا يبدر منها...

وهزّ خليل رأسه بالموافقة في ارتياح من ظفر أخيراً بسلم النجاة، ثمّ قال:

- هو ذلك، أمّي سريعة الغضب ولكنّها بمنزلة والدتك، وبشيء من الحلم تغفين أعصابك من مشقة المشاحنة...

فنفتخت خديجة وهي تقول:

- الأصوب أن يقال إنّها هي التي لا تحتل لي ظلّاً، لقد أتلّفت أعصابي، وما من مرّة نتلاقى إلّا وتُسمعي - تصرّيحاً أو تلميحاً - كلمة تهيج الدم وتسمّ البدن، ثمّ أطلب أنا بالحلم! كائن مخلوق من ثلج، أليس يكفيني عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبري وحلمي؟! يا هو أين أجد منصفاً؟!

فقال إبراهيم في تهكم وهو يتسم:

- لعلّك تجددين هذا النصف في شخص أبيك؟!

فهتفت قائلة:

- أنت شامت بي، أنا أفهم كلّ شيء، ومع ذلك فرّبنا موجود!

فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدلّ على التسليم والتحدّي في آن:

- ربّنا موجود!

وقال خليل بعطف:

- هدّئي روعك حتّى تلقّي والدك بنفس مطمئنة!

من أين لها بالنفس المطمئنة؟ لقد انتقمت العجوز منها شرّ انتقام، وعمّا قليل تُدعى إلى لقاء أبيها في موقف يفرّ منه قلبها ودمها. وهنا ترامى إليهم صباح عبد المنعم وأحمد من وراء باب حجرتها وأعقبه صوت أحمد وهو يبكي. فقامت على عجل رغم سمانتها وأنجحت نحو الحجرة، فدفعت الباب ودخلت وهي تصيح بدورها:

- ما معنى هذا؟! ألم أنهكما عن الشجار ألف مرّة؟ خصيمي المعتدي منكبا...

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب:

- مسكينة كأنّ بينها وبين الراحة عداء مستحكماً، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كلّها فلا تسكن حتّى تأوي إلى الفراش، يجب أن يذعن كلّ شيء إلى إرادتها وتفكيرها، الخادم، الأكل، الشرّب، الأثاث، الدجاج، عبد المنعم، أحمد، أنا، الكلّ يجب أن يذعن لتنظيمها، إنّني أشفق عليها، وأؤكّد لكم أنّ بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة...

فقال خليل بأساً:

- ربّنا يعينها...

- ويعيني معها!

قال إبراهيم ذلك وهو يهزّ رأسه بأساً أيضاً، ثمّ أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره، ونهض متّجهاً إلى أخيه فقدّمها له فتناول خليل سيجارة، ودعا عائشة لتتناول واحدة ولكنّها رفضت ضاحكة، وأومات إلى الباب الذي توارت وراءه خديجة، وهي تقول:

- خلّ الساعة تمرّ بسلام...

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة، ويقول مشيراً إلى الباب نفسه:

- محكمة، في الداخل الآن محكمة، ولكنّها ستعامل هذين المتهمين بالرحمة ولو على رغمها...

عادت خديجة وهي تقول متأففة:

- كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة في هذا البيت! كيف ومتى؟!

وتكاثر وجفّ جلده فلم يبق شيء منه على ما كان عليه إلا أسنانها الذهبية، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة على السيد أحمد، ولم يهونَ قَدَمُها من فخامتها، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات قد انجردت أو تهتكت عند المقابض والمساند، فإنّ بساطها العجيب قد صان رونقه أو استجدّ نفاسته، إلى أنّ جوّها تنسّم برائحة بخور لطيفة ممّا تولع به العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول:

- قلت لنفسي إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدني، فلا هو ابني ولا أنا أمه...

فابتسم السيد قائلاً:

- لا سمح الله، إني طوع أمرك، فأنا ابنك وخديجة ابنتك!

فمطّت بوزها، وقالت:

- كلّمكم أبائنا! أمينة هانم ابنتي الطيبة، أنت سيّد الناس، أما خديجة (ورنت إليه وعيناها تتسعان) فلم ترث سجيّة واحدة من سجايا والديها الطيّبين... (ثمّ وهي تهزّ رأسها) يا لطيف الطّف...!

فقال السيّد بلهجة المعتذر:

- إني أعجب كيف أغضبتك لهذا الحدّ؟ كان الأمر كلّهُ مفاجأة شديدة عليّ، لا أقبل هذا مطلقاً، ولكنّ هلاًّ حدّثني عمّا فعلت؟

فقالت المرأة مقطّبة:

- هذا شيء قديم، كنّا نخفي عنك كلّ شيء إكراماً لتوسّلات والدتها التي أعيتها الحيل في إصلاحها، ولكّني لن أقول كلمة واحدة إلّا في وجهها، في وجهها يا سيّ السيّد كما عزمت أمامك في الدكان...

عند ذاك جاءت الجماعة، دخل إبراهيم في المقدّمة، وتبعه خليل، فعائشة، ثمّ خديجة، وصافحوا السيّد واحداً فواحداً حتّى جاء دور خديجة، فانحنت في أدب مثاليّ حتّى لثمت يده، فلم تسهالك العجوز من أن تقول في عجب:

- ربّاه ما هذه البوليتيكا، أأنت خديجة حقّاً؟ لا تحدّثك الظواهر يا سيّد أحمد...!

فقال خليل معاتباً أمه:

وجلست وهي تتنهد، ثمّ قالت مخاطبة عائشة: - نظرت من المشريّة فوجدت الطين المتخلف من مطر الأمس لا يزال يغطّي أرض الحارة، فخبّرني ورثك كيف يشقّ أبي سبيله؟!... ولمّ هذا العناد كلّهُ؟!

فسألته عائشة:

- والساء؟ كيف حالها الآن؟

- قطران! ستجعل الحارات بحوراً قبل الليل، ولكن هل أجدي ذلك في حمل حماتك على تأجيل ما بيّنت من شرّ ولو إلى يوم آخر؟ كلّاً، ذهبت إلى الدكان رغم ما يسببه المشي لها من متاعب، وما زالت بالرجل حتّى تعهد لها بالحضور، ولو سمعها سامع في الدكان وهي تشكوني في هذه الظروف العسيرة لحسبني ربّاً أو سكيناً!

وضحكوا جميعاً مغتنمين الفرصة التي أتاحها لهم للتنفيس عن صدورهم، وتساءل إبراهيم:

- أتحسّين نفسك أقلّ شأنًا من ربّا وسكيناً؟!

وسمّع نقر على الباب، ولما فتحت الخادم لاح وجهه الجارية سويدان فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

- سيّد الكبر حضر...

ثمّ سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون وهي تقول بصوت خافت:

- لا تركونا وحدنا...

فقال خليل ضاحكاً:

- معك إلى النهاية يا خديجة هانم!...

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسّل:

- كونوا في جانبي...

وغادرت الشقّة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحّصة على صورتها في المرآة لتتوكّد من خلوّ وجهها من أيّ أثر للأصباغ.

كان السيّد أحمد عبد الجواد يجلس على كنبه في صدر الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت، على حين جلست الأم على مقعد قريب في معطف كثيف لم تعجل كثافته في إخفاء ضلالة جسمها الذي احدودب أعلاه، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده

واحتملته وصبرت عليه، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستنتهي، ولكن هل صدق ظني؟. كلاً وحياتك.

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها، وراحت تسعل حتى انتفخت أوداجها، وخديجة تلحظها وهي تدعو الله في سرّها أن يأخذها قبل أن تتم حديثها، ولكن السعال سكّت فازدردت ريقها وتشهدت، ثم رفعت إلى السيّد عينيّن دامتين، وسألته بصوت لم يخل من يَحّ:

- أتستكف أنت يا سيّد أحمد أن تقول لي يا أمّي؟ فقال الرجل الذي تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليّل:

- معاذ الله يا أمّي...  
- عوفيت يا سيّد أحمد، لكنّ ابنتك تستكف من هذا، تدعوني «تيزة»، أقول لها مراراً ادعيني «نينة»، فتقول لي «وماذا أدعو التي في بين القصرين؟»، أقول لها أنا نينة، وأمك نينة، فتقول لي «ليس لي إلا نينة واحدة ربّنا يخلّيها لي». انظر يا سي السيّد، أنا التي تلقّيتها بيديّ من عالم الغيب!

ألقي السيّد أحمد على خديجة نظرة غاضبة، وسألها محتئداً:

- صحيح هذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلّمي...  
كانت خديجة كأثما فقدت القدرة على النطق، كانت من الغيظ في نهاية، وكانت من الخوف في نهاية، وإلى هذا كلّ كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدثها غرائز الدفاع عن النفس على التذرّع بكافّة ضروب الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:

- أنا مظلومة، كلّ واحد هنا يعلم بأنّي مظلومة، مظلومة والله يا بابا...  
كان السيّد أحمد في دهش ممّا يسمع، ومع أنّه فطن من أوّل الأمر إلى حال «الكبر» التي تسيطر على المرأة، ومع أنّه لم يغيب عن ملاحظته ما يكتنف الجوّ من فكاة بدت آثارها في وجهي إبراهيم وخليّل، فإنّه صمّم على التظاهر بالجدّ والصرامة إرضاء للعجوز وإرهاّباً لخديجة، وكان يعجب لما يتكشّف له من عناد

- هلّا تركت والدنا حتى يستريح! ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق!

فعلا صوت المرأة وهي تحبّيه قائلة:  
- ما الذي جاء بك؟! ما الذي جاء بكم؟ دعوها واذهبوا عنّا بسلام...  
فقال إبراهيم برقة:  
- وحّدي الله...  
فصاحت به:

- أنا موحدّة أحسن منك يا بغل! لو كنت رجلاً حقاً ما أحوجتني إلى استدعاء هذا الرجل الطيّب، ما الذي جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاطّاً في نومك كالعادة؟!!

ابتلّ صدر خديجة ارتياحاً إلى هذه البداية، فتمنّت لو تشدّد حتى تغطّي على قضيتها، ولكن السيّد سألها بصوت مرتفع سدّ الطريق في وجه المعركة المأمولة:  
- ما هذا الذي سمعته عنك يا خديجة؟! أحقّ أنّك لست الابنة المؤدّبة المطيعة لوالدتك، استغفر الله، بل لوالدتنا جميعاً؟!!

خاب أمل خديجة، فغضّت بصرها، وتحركت شفتها في همس دون أن تبين وهي تهزّ رأسها نفياً، ولكنّ الأمّ لوحت بيدها للجميع كي ينصتوا، ثمّ أنشأت تقول:

- هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك في هذه الجلسة، منذ أوّل يوم لها في هذا البيت وهي تخصمني بلا سبب، وتخاطبني بأطول لسان عرفته في حياتي، لا أحبّ أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات، أو يزيد، كثير كثير، وقبيح قبيح!! عابت إشرافي على البيت وتنقّصت طهبي - هل تتصوّر هذا يا سي السيّد؟- وما زالت حتى انفصلت بشقّتها عنيّ فانشطر البيت الواحد بيتين، حتى الجارية سويدان حرّمت عليها دخول شقتها لأنّها جاريتي، وجاءت بخادم خصوصيّة لها، السطح، السطح على سعته يا سي السيّد، ضيّقته عليّ حتى اضطررت إلى نقل دواجني إلى الفناء!! ماذا أقول أيضاً يا بنيّ؟ هذا قليل من كثير، ولكن ما علينا، قلت لنفسي ما فات فات،

خديجة وحدة طباعها، الأمر الذي لم يخطر له في خيال من قبل، أكانت على هذا الخلق مذ كانت في بيته؟ أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكتشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التي كوّنها كما سبق أن اكتشف لياسين؟!

- أريد أن أعرف الحقيقة؟! أريد أن أعرف حقيقتك، إنّ التي تحدّثت عنها والدتنا امرأة أخرى غير التي عهدتها، فأيتها تكون الصادقة؟!

ضمت المرأة أناملها وهزت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتمّ حديثها، ثم استطردت قائلة:

- قلت لها: إنّ تلقّيتك بيدي من عالم الغيب، فقالت لي بلهجة شريرة لم أسمع بمثلها من قبل: «إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة!».

ضحك إبراهيم وخليل، وخفضت عائشة رأسها لتخفي ابتسامتها، فقالت العجوز غاطبة ابنيها «اضحكا، اضحكا، اضحكا من أمكما»، ولكنّ السيّد تجهّم وإن يكن باطنه ضحك، ترى أخلقت بناته على مثاله أيضًا؟ أليس هذا ممّا يستحقّ أن يروى على إبراهيم الفار وعليّ عبد الرحيم ومحمّد عفت؟!

قال لخديجة بغلظة:

- كلاً... كلاً، لأعرفن كيف أحاسبك على هذا حساباً عسيراً...

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة:

- أمّا سبب شجار الأمس، فهو أنّ إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدّمت لهم الشركية فيها قدّم من أطعمة، وفي المساء سهر عندي إبراهيم وخليل وعائشة وخديجة، وجاء ذكر الوليمة فنوّه إبراهيم بشيء المدعوّين على الشركية، فانبسطت ستّ خديجة، ولكنّها لم تقنع بذلك، بل راحت تؤكّد أنّ الشركية هي الصنف المأثور عن بيتها الأوّل، فقلت بحسن نيّة: إنّ زينب زوجة ياسين الأولى هي التي أدخلت الشركية في بيتكم، وإنّ خديجة لا بدّ وأن تكون تعلّمتها منها، أقسم لك أنّي ما تكلمت إلّا عن حسن نيّة وأنّي ما قصدت أحداً بسوء، ولكن أجارك الله يا حبيب، انتفضت غاضبة وصاحت وجهي

«هل تعرفين عن بيتنا أكثر ممّا نعرف؟» فقلت لها: إنّني أعرف بيتكم من قبل أن تعرفه أنت بعمر مديد، فصرخت قائلة: «أنت لا تحيّن لنا الخير ولا تطيقين أن يُنسب لنا شيء حميد ولو كان طهي الشركية، الشركية تؤكّل في بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة في مثل سنّك» أي والله هذا يا سي السيّد ما قذفتني به أمام الجميع، فأيتنا الكاذبة برّبك وصلاتك؟!

قال السيّد غاضباً ساخطاً:

- رمتك بالكذب في وجهك! يا ربّ السماوات والأرض، ما هذه ابنتي...

غير أنّ خليل قال لأمه باستياء:

- ألهذا جئت بوالدنا؟! أيصحّ أن نكدر خاطره ونضيع وقته بسبب نزاع صبياني حول الشركية؟! هذا كثير يا أمّاه...

فحملت المرأة في وجهه مقبّلة وصاحت به:

- اخرس، اغرب عن وجهي، لست كاذبة، ولا يصحّ أن يرميني مخلوق بالكذب، إنّني أعرف ما أقول ولا حياء في الحقّ، لم تكن الشركية بالطعام المعروف في بيت السيّد قبل أن تدخله زينب، وليس في ذلك ما يعيب أحداً أو ينتقصه، ولكنّها الحقيقة. هاكم السيّد فليكدّبنّي إن كنت كاذبة، إنّ طواجن بيته مضرب الأمثال ويليها الأرزّ المحشو، أمّا الشركية فلم تقدّم على مائدته قبل عجيء زينب، تكلم يا سي السيّد أنت وحدك الحكم...

قاوم السيّد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة، ثمّ قال بلهجة عنيفة:

- ليت ذنبها اقتصر على الكذب والادّعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب، هل شجّعك على هذا السلوك السيئ ابتعادك عن قبضة يدي؟! إنّ يدي تمتدّ إلى حيث يجب أن تمتدّ بلا تردّد، من المؤسف حقّاً أن يجد أب ابنته مستحقّة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأمّاً...

واستطرد ملوّحاً بيده:

- إنّني غاضب عليك، والله إنّه ليؤلمني أن أرى

- لم أسمع من قبل أن أختًا دُعيت للشهادة على أختها...!

فصاحت به أمه:

- ولم أسمع من قبل أن أبناء يتكثلون ضد أمهم كما تفعلون. (ثم ملتفتة إلى السيد) ولكن حسي صمتها، إن صمت عائشة شهادة لي يا سي السيد...  
ظننت عائشة أن عذابها قد انتهى عند هذا الحد، ولكن ما تدري إلا وخديجة تقول لها برجاء وهي تحجف عينيها:

- تكلمي يا عائشة، هل سمعتني أشتنهما؟

لعتنها في سرها من صميم قلبها، وراح رأسها الذهبي يهتز اهتزازة عصبية، فهتفت العجوز:  
- جاءنا الفرج، هي التي تطالب بالشهادة، لم يبق لك عذر يا شوشو. يا ربّي إذا كنت ظالمة حقًا كما تقول خديجة فلم لم أظلم عائشة؟ لم تسير الأمور بيني وبينها على خير حال، لم يا ربّي لم؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثم جلس إلى جانب السيد، وقال له:

- يا والدي، يؤسفني أننا أتعبتك وأضعنا وقتك الثمين هباء، فلندع الشكوى والشهادة جانبًا، لندع الماضي كله جانبًا ولننظر فيما هو أهم وأجدي، ينبغي أن يكون محضرك خيرًا وبركة، فلنعقد الصلح بين أُمّي وزوجي، ولتتعهدا لك بأن تحافظا عليه على الدوام...

ارتاح السيد أحمد إلى هذا الاقتراح، غير أنه قال بلباقة وهو يهز رأسه معترضًا:

- كلاً، لن أقبل أن أعقد صلحًا، فإن الصلح لا يكون إلا بين نذيين، والطرفان هنا هما والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى، وليست الابنة كالأم، فيجب أولاً أن تعتذر خديجة إلى أمها عمًا سلف، لتعفو أمها عنها إذا شاءت، ثم نتكلم بعد ذلك في الصلح...

ابتسمت العجوز حتى تضامّت تجاعيدها، غير أنها نظرت نحو خديجة بحذر، ثم أعادت بصرها إلى السيد ولم تنبس، فاستطرد السيد قائلاً:

وجهك أمامي...

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذلك عن تأثير وتدبير معًا، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع، ثم قالت بصوت مهتج تخنقه العبرات.

- أنا مظلومة، والله أنا مظلومة، إنها لا ترى وجهي حتى ترميني بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لي «لولاى لفضيت العمر عانسًا» وأنا لم أنلها بسوء أبدًا، وكلهم شهود على ذلك...

لم تعد الحركة التمثيلية - الصادقة الكاذبة - أثرًا تركته في النفوس: قطب خليل شوكت حانقًا، ونكس إبراهيم شوكت رأسه، والسيد نفسه ولو أن مظهره لم يعتوره تغيير إلا أن قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم، أما العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشبيين، وكأنها تقول لها «مئلي دورك يا مأكرة لن يجوز عليّ»، ولمّا استشعرت في الجو عطفًا على الممثلة قالت بتحدّ:  
- هاكم عائشة أختها؟ إنّي أستحلفك بعينيك، أستحلفك بالقرآن الشريف إلا ما شهدت بما سمعت ورأيت، ألم ترميني أحتك بالكذب في وجهي؟ ألم أصف نزاع الشركسية دون مبالغة أو تجاوز، تكلمي يا بنية تكلمي، إن أختك ترميني الآن بالظلم بعد أن رمتني بالكذب، تكلمي ليعلم السيد من الظالم ومن المعتدي...

روعت عائشة بجرها المباغت إلى حومة القضية التي ظنّت أنها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية، وشعرت بالخطر يحرق بها من كلّ جانب، فرددت عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة، فهم إبراهيم بالتدخل، ولكن السيد أحمد سبقه إلى الكلام، فخطب عائشة قائلاً:

- إن والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن تتكلمي...

فاضطربت عائشة حتى شحب لونها، ولكن شفيتها لم تتحرك إلا عند ازدراد ريقها، وغمضت عينيها فرارًا من عيني أبيها وأصرت على الصمت. قال خليل محتجًا:

- ٢٢ -

- يبدو أن اقتراحي لم يصادف قبولاً ...

فقلت العجوز بامتنان:

- إنك لا تنطق إلا عن الصواب: سلم فوك،  
وبارك الله في عمرك ...وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقتربت  
منه في انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتى مثلت بين  
يديه، فقال لها بحزم:- قبلي يد والدتك، وقولي لها: اصفحي عني يا  
نية ...آه، ما كانت تتخيل - ولا في الكابوس - أنها يمكن  
أن تقف هذا الموقف أبداً، ولكن أباه - أباه المعبود -  
هو الذي قضى به، أجل قضى به من لا تستطيع  
لقضائه رداً. فلتكن مشيئة الله. تحولت خديجة إلى  
العجوز، ومالت نحوها، ثم تناولت اليد التي رفعها  
إليها - إي والله رفعها إليها دون ممانعة ولو في الظاهر  
- ولشمتها، وهي تشعر باشمزاز وتقزز وقهر أليم، ثم  
غمغمت قائلة:

- اصفحي عني يا نية! ...

فنظرت العجوز إليها ملياً وقد شاع البشر في  
وجهها، ثم قالت:- صفحت عنك يا خديجة، صفحت عنك إكراماً  
لأبيك، وقبولاً لتوبتك ...ونذت عنها ضحكة صبيانية، ثم استطردت تقول  
بتحذير:- لا جدال بعد اليوم في الشركسية، ألا يكفيكم  
أنكم فقمتم الدنيا في الطواجن والأرز المحشو ... ؟

قال السيد بسرور:

- الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى  
خديجة) ... نية دائماً ليست تيزة، هذه نية كالأخرى  
سواء بسوء ...

ثم بصوت خفيض أسيف:

- من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة؟ ما كان

ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه، أنسيت أمك وما  
تتحلى به من أدب ودماعة؟ أنسيت أن أي شر تأتينه إنمايسود وجهي أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى  
حديث أمك، ولسوف أعجب طويلاً ...رقيت الجماعة في السلم عائدة إلى مساكنها عقب  
رحيل السيد أحمد عبد الجواد، كانت خديجة تتقدم  
القافلة بوجه مريد تعلوه صفرة الغضب والحنق، وكان  
الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون  
عن القلوب فأشفقوا مما سيتمخض عنه صمت  
خديجة، لذلك صحب خليل وعائشة خديجة وإبراهيم  
إلى شقتهم، رغم أن زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان  
حرماً بأن يعيدهما إلى شقتهم فوراً، ولما عادوا إلى  
مجلسهم بالصالة قال خليل - وهو بسبيل جس النبض  
- مخاطباً أخاه:- كانت كلمتك الختامية حاسمة فأنت بخير  
النتائج ...

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال:

- أتت بالصلح أليس كذلك؟ هي السبب فيما نزل  
بي من مذلة لم أتعرض لمثلها من قبل ...

فتساءل إبراهيم كالمتنكر:

- لا مذلة في أن تقبلي يد أمي أو تستصفحها ...  
فقلت دون مبالاة:- إنها أمك أنت، ولكنها عدوتي أنا، ما كنت  
لأدعوها نية لولا أمر بابا، أجل فما هي إلا نية بأمر  
بابا، وبأمر بابا وحده!مال إبراهيم إلى مسند الكنية وهو يتهد يائساً،  
وكانت عائشة قلقة ولا تدري أي أثر تركه امتناعها عن  
الشهادة في نفس أختها، وزاد من قلقها تجنب خديجة  
النظر إليها، صممت على محادثتها لتحملها على  
معاللتها بحقيقة مشاعرها، فقالت برقة:- ليس في الأمر مذلة وقد تصافيتنا، ويجب ألا  
تذكرني إلا حسن الختام ...فتصلب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة، ثم  
قالت بحدة:- لا تكلميني يا عائشة، أنت آخر شخص في الدنيا  
يحق له أن يكلمني ...فتظاهرت عائشة بالدهش، وتساءلت وهي تقلب  
عينها بين إبراهيم وخليل:

- أنا؟! لماذا لا سمح الله؟!  
فأقلت بصوت كالرصااص برودة وحدة:  
- لأنك ختنتني وشهدت بصمتك علي! لأنك آثرت  
إرضاء الأخرى على مظاهره أختك، هذه هي الخيانة  
بعينها...!
- أمرك عجيب يا خديجة!... كل واحد يعلم بأن  
الصمت كان في صالحك!  
فأقلت بنفس اللهجة أو أشد:  
- لو راعيت صالحني حقاً لشهدت لي بالحق أو  
بالباطل لا يهتم، ولكنك آثرت التي تُطعمك على  
أختك، لا تكلميني، ولا كلمة واحدة، لنا أم يكون  
عندها الكلام.
- وفي ضحى اليوم التالي ذهبت خديجة لزيارة أمها  
رغم توخّل الطرقات وامتلأ منخفصاتها بالمياه  
الراكدة، ومضت إلى حجرة الفرن، فنهضت أمها  
لاستقبالها في سرور وحرارة، وأقبلت نحوها أم حنفي  
مهللة، ولكنها ردّت السلام بكلمات مقتضبة حتى  
تفحصتها أمها بنظرة متسائلة، فأقلت دون تمهيد:  
- جئتكم لآتي رأيك في عائشة... فلم يعد بي  
طاقة لأتحمل أكثر مما تحمّل...
- لاح في وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى، فأقلت  
وهي تشير إليها برأسها كي تسبقها إلى الخارج:  
- ماذا حدث كفى الله الشر؟ حدثني أبوك بما كان  
في السكّرية، فما دخل عائشة في ذلك؟ (ثم وهما  
ترقيان في السلم)... ربّاه يا خديجة، طالما رجوتك  
أن توسعي من صدرك، حماك عجزو ينبغي مراعاة  
سنّها، إنّ ذهابها إلى الدكان وحده في جوّ كجوّ أمس  
برهان على ضعف عقلها، ولكن ما الحيلة؟ كم غضب  
أبوك! لم يكن يصدّق أنّه يمكن أن تندّ عنك كلمة  
سوء، ولكن ماذا أغضبك من عائشة؟ لقد صمتت  
أليس كذلك؟ لم يكن في وسعها أن تخرج عن  
الصمت...!
- وجلسنا في الصالة - مجلس القهوة - على كنية جنباً  
إلى جنب، وخديجة تقول مدّرة:  
- نينة أرجو ألا تنضمّي إليهم، ما لي يا ربّي لا أجد
- نصيراً في هذه الدنيا!  
فابتسمت الأم ابتسامة عتاب، وقالت:  
- لا تقولي هذا، لا تصوّري هذا يا بنتي، ولكن  
خبريني ماذا وجدت من عائشة؟  
وهي تدفع بيدها الهواء كأنّها تلطم عدواً:  
- كلّ شرّ، شهدت عليّ، فأوقعت بي شرّ هزيمة...  
- ماذا قالت؟  
- لم تقل شيئاً...  
- الحمد لله...  
- إنّ المصيبة جاءت من أنّها لم تقل شيئاً...  
تساءلت أمينة، وهي تبسم في عطف:  
- وماذا كان في وسعها أن تقول؟  
وكأنّها كبر عليها تسأول أمها، فأقلت بعبوس  
وحدة:  
- كان في وسعها بأن تشهد بأنّي لم أعتد على المرأة،  
لم لا، لو فعلت ما جاوزت واجبات الأخوة، كان في  
وسعها على الأقل أن تقول إنّها لم تسمع شيئاً، الحقّ  
أنّها آثرت المرأة عليّ، خلّلتني وتركتني أقع تحت رحمة  
الماكرة الشامتة، لن أنسى هذا لعائشة ما حييت!...  
أقلت أمينة، بإشفاق ولم:  
- خديجة لا تعيبيني، كان يجب أن يكون كلّ شيء  
قد نُسي في الصباح...  
- نُسي؟! لم أنم من الليل ساعة، شهدت وبرأسي  
مثل النار، كلّ مصيبة كانت تهون لو لم تحييء من  
عائشة، من أختي؟! لقد ارتضت أن تنضمّ إلى حزب  
الشیطان، حسناً، ليكون ما تشاء! كان لي حماة فأصبح  
لي اثنتان، عائشة... ربّاه طالما سترتها، لو كنت  
خاتنة مثلها لقصصت على أبي ما تزخر به حياتها من  
قلّة الأدب، إنّها تحبّ أن يعرف عنها أنّها ملك كريم  
وأني شيطان رجيّم. كلّاً، أنا خير منها ألف مرّة، إنّ  
لي كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبي (وهنا اشتدّت  
نبرات حدّة) لما استطاعت قوّة في الأرض أن تحمّلني  
على أن أقبل يد عدوّي أو أن أدعوها نينة!  
ربّنت أمينة كفها برقّة، وهي تقول:  
- أنت غضبي، دائماً غضبي، هدّئي من روعك،

ستبقين معي حتى نتغدى معا ثم نتحدث في هدوء...

- إنني في كامل عقلي وأعرف معنى ما أقول، أريد أن أسأل أبي، أيتها خبير من الأخرى: التي تلزم بيتها، أم التي تزور بيت الجيران فتغني وترقص ابنتها؟!

تهدت أمينة، وقالت بحزن:

- إن رأي أبيك في هذا لا يحتاج إلى سؤال، ولكن عائشة سيّدة متزوجة والرأي الأعلى في سلوكها لزوجها، وما دام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنها تغني بين صديقاتها اللاتي يحبين صوتها في شأننا نحن؟! لك الله يا خديجة... أئسمين هذا قلة أدب؟! هل يغبك حقاً أن ترقص نعيمة؟! إنها في السادسة وما رقصها إلا لعباً، لست إلا غاضبة يا خديجة، ساحك الله...

فقال خديجة بإصرار:

- إنني أعني كل كلمة قلتها، وإذا كان يعجبك أن تغني ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها، فهل يعجبك أيضاً أن تدخن، كالرجال؟! نعم، ها أنت تدهشين! أكرر على مسمعك أن عائشة تدخن، وأن التدخين صار لها كيفاً لا تملك الامتناع عنه، وأن زوجها يعطيها العلبه ويقول لها بكل بساطة «علبك يا شوشو»، رأيتها بنفسها وهي تأخذ النفس وهي تُخرجه من فمها وأنفها، أنفها أئسمين؟ لم تعد تخفي عني ذلك كما كانت تفعل أول الأمر، بل دعيتي إليه مرة بحجة أنه مهذئ للأعصاب الحامية. هذه هي عائشة، فما قولك؟ وما قول أبي يا ترى؟

ساد الصمت، وبدت أمينة في حيرة شائكة، غير أنها صممت على خطة التهدة التي التزمتها، قالت:

- التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم، أبوك لم يدخن قط، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء؟! ولكن ما القول أيضاً إذا كان زوجها هو الذي أغراها به وعلمها إياه؟ ما الحيلة يا خديجة؟ إنها لزوجها لا لنا، ولم يبق إلا النصيح إن كان يجدي...

فجعلت خديجة تنظر إليها في صمت وشئ بترددها

قبل أن تقول:

- إن زوجها يدلّ لها تدليلاً معيياً حتى أفسدها وأشركها في كافة معاصيه، ليس التدخين بشرّ عاداته، ولكنه يشرب الخمر في بيته دون حياء، إن بيته لا يخلو من الزجاجة كأنها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها في الخمر كما أوقعها في التدخين، لم لا؟ العجوز تعلم بأن شقة ابنها حانة ولكنها لا تكثر لذلك، سوف يسقيها الخمر، بل إنني أقطع بأنه فعل فإني شممت مرة في فمها رائحة غريبة، وسألته عنها وضيق عليها رغم إنكارها، أوكد لك أنها شربت الخمر وأنها بسبيل اعتيادها كالتدخين...

صاحت الأم في يأس:

- ألا هذا يا رب، ارحمني نفسك وارحميني، اتقي الله يا خديجة...

- إنني تقية وربنا عالم، لا أدخن ولا تفوح من في روائح مريبة! ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقتي! ألم تعلمي بأن البغل الآخر حاول أن يقتني هذه الزجاجة المحرمة؟! ولكنني وقفت له بالمرصاد، قلت له بصريح العبارة: إنني لا أبقي مع زجاجة خمر في شقة واحدة، فتراجع أمام تصميمي، وجعل يحتفظ بزجاجته عند أخيه في شقة الهانم التي خانتني بالأمس، وكلما صرخت لاعة الخمر وشاربيها، قال لي - قطع الله لسانه - «من أين جئت بهذه الحنبلية؟ هذا أبوك منبع الأنس كله وقل أن يخلو له مجلس من الكاس والعودا» أسمع ماذا يقال عن أبي في بيت آل شوكت؟!

لاحت في عيني أمينة نظرة حزن وجزع، وجعلت تقبض راحتها وتسطها في اضطراب وقلق، ثم قالت بصوت ثمت نبرات عن التشكي والتألم:

- رحماك يا ربّي، لم نخلق لشيء من هذا، عندك العفو والرحمة، يا ويل النساء من الرجال، لن أسكت ولا يصح أن أسكت، سأحاسب عائشة حساباً عسيراً، ولكنني لا أصدق ما تقولين عنها، إن سوء ظنك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له، ابنتي طاهرة وستظل طاهرة ولو انقلب زوجها شيطاناً رجيماً، سأحدثها حديثاً صريحاً، وسأحدث سي خليل نفسه إن



ياسين إلى زيارة قصر الشوق، ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنني لم أذهب، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمي حتى قالت لي مريم «لم لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان؟» ولكنني اعتذرت بشق المعاذير، وبذلت كل حيلها لاجتدائي، وجعلت تشكو لي معاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها، عليها ترقق قلبي ولكنني لم أفتح لها صدري... عائشة على خلاف ذلك، تستقبلها بالترحاب والقبل، الأدهى من ذلك أنها تبادلها الزيارة، وقد صحبت معها مرة سي خليل، وفي مرة أخرى صحبت نعيمة وعثمان ومحمد، لشد ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم، وقد نتهتها إلى مجاوزتها الحد في ذلك فقالت لي «لا تأخذ على مريم إلا أننا رفضنا يوماً أن نجعل منها خطيبة للمرحوم العالي، فأني وجه للعدل في هذا؟»، قلت لها «أنسيت الجندى الإنجليزي؟» فقالت لي «لا ينبغي أن نذكر إلا أنها زوجة أخي الأكبر». هل سمعت يا نينة عن شيء كهذا من قبل؟

استسلمت أمينة للحزن، فنكست رأسها ولاذت بالصمت، فجعلت خديجة تنظر إليها ملياً، ثم عادت تقول:

- هذه هي عائشة بلا زيادة ولا نقصان، عائشة التي شهدت عليّ أمس فأذلتني أمام العجوز المخرفة...

تنهدت أمينة من الأعماق، ورمقت خديجة بعينين فائرتين، ثم قالت بصوت خافت:

- عائشة طفلة تأتي أن يكون لها عقل أو وزن، ولن تزال كذلك مهما امتد بها العمر، فهل يسعني أن أقول غير ذلك؟! لا أودّ ولا أستطيع، هل هانت عليها ذكرى فهمي؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك، ألم يكن في وسعها أن تقتصد في عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكراماً لي؟! لكن لن أسكت عن هذا، سأقول لها إنها أساءت ليّ وإنني غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك...

فأمسكت خديجة بخصلة من سوافها، وقالت:

- أحلق هذا لو صلح لها حال! إنها تعيش في دنيا

لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه... أما ابنتي فحدّ الله بينها وبين الشيطان...

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة، فتابعته جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريباً بمدى الخسران الذي مُنيت به جزاء خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة في التصوير أو حدة في الوصف مما جعلها تسمي شقة أختها حانة، وهي تعلم بأن إبراهيم و خليل لا يقربان الخمر إلا في أحوال نادرة وفي اعتدال لم يبلغ حدّ السكر أبداً، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأنس... إلخ، فقول أعادته على أمها بلهجة استنكار لا تدع مجالاً للشك في كفرها به، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم و خليل وأمه العجوز، خصوصاً وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه في غير ما تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم ينوّهون بأريجته ويعقدون له زعامة الظرف في عصره، قابلت ذلك الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثم داخلها الشك رويداً وإن لم تعلنه، ووجدت عسراً شديداً في مزج هذه الصفات الجديدة بالشخصية الوقور الجبارة التي آمنت بها طوال حياتها، غير أن هذا الشك لم يهون من شأنها وجلالها، بل لعلها أثرت في نظرها بما انضاف إليها من ظرف وأريحية. لم تقنع بما أحرزت من نصر، فعادت تقول بلهجة التحريض:

- عائشة لم تخفي فحسب، ولكنها خانتك أيضاً...

وصمتت ريثما يتغلغل قولها في الأعماق، ثم استطردت قائلة:

- إنها تزور ياسين ومريم في قصر الشوق...

هفت أمينة وهي تحملق فيها بفزع:

- ماذا قلت؟

فقالت وهي تشعر بأنها تسوّرت ذروة الظفر:

- هذه هي الحقيقة المحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة، زارا عائشة وزاراني، أقول الحق إنني

اضطّرت لاستقبالهما وما كاد يسعني إلا أن أفعل

إكراماً لياسين غير أنه كان استقبلاً متحفّظاً، ودعاني

غير الدنيا التي نعيش فيها، لست أتعامل عليها وربنا يعلم، إنني لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت، حق أنني طالما حملت عليها لما يقع منها من إهمال لأطفالها أو غمَلَق مزِر لحياتها وغير ذلك مما حدَثتكَ عنه في حينه، ولكنّ حملتي لم تتجاوز حدّ النصيح الحازم أو النقد الصريح، هذه أوّل مرّة يضيّق بها صدري فأعالتها الخصام:

- ٢٣ -

- آه...!

نذت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عابدة خارجة من باب القصر. كان يقف كعادته كلّ أصيل على طوار العبّاسيّة يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها في شرفة أو نافذة. وكان يرتدي بدلة رصاصيّة أنيقة كأنما أراد أن يجاري الجوّ الذي بعث فيه الأيام الأخيرة من مارس أريجيّة ولطفًا وبشاشة، فضلًا عن أنّه كان يزداد تأثّقًا كلّما ازداد السّما وقنوطًا. وكانت عيناه لم ترياها مذ خاصمته في الكشك، ولكنّ الحياة لم تكن تتيّسر له إلّا أن يمحّج كلّ أصيل إلى العبّاسيّة فيطوف بالقصر من بعيد في مثابرة لا تعرف اليأس، معتلًا نفسه بالأحلام، قانعًا إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات. وكان الالم في الأيام الأولى للفراق كالمجنون في هذيانه ووسوسته، ولو طال به الأمد على ذلك لقضى عليه، ولكنّه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذي وطّن النفس عليه من قديم، فانسرب الالم إلى مستقرّ له في الأعماق يؤدّي فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيويّة كأنّه عضو أصيل في الجسم أو قوّة جوهريّة في الروح، أو أنّه كان مرضًا حادًا هائجًا ثمّ أزمّن فزايَلته الأعراض العنيفة واستقرّ، غير أنّه لم يتعزّز - وكيف يتعزّى عن الحبّ، وهو أجَلّ ما كاشفته به الحياة؟ - ولكنّه كان يؤمن إيمانًا عميقًا بخلود الحبّ، فكان عليه أن يصبر كما ينبغي للإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر.

ولمّا رآها وهي تغادر القصر فجأة نذت عنه هذه الالهة، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقّة التي طال تشوّقه إليها حتّى رقصت روحه رقصة قطر هيئاتها حينئذ وطربًا، ومالت العبادة إلى اليمين وسارت في شارع السرايات، فشبت في روحه ثورة اجتاحت

فقالَت الأمّ برجاء وإن ظلّ وجهها ممتعضًا:  
- دعي الأمر لي يا خديجة، أمّا أنت فلا أحبّ أن يفصل بينك وبينها خصام أبدًا، لا يصحّ أن يفترق قلباكما وأنتما تعيشان معًا في بيت واحد، لا تنسي أنّها أختك وأنتك أختها، بل أختها الكبرى، إنّ قلبك أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحبّ لأهلك جميعًا، إنّّي كلّما اشتدّ أمر لم أجد عزاء إلّا في قلبك، وعائشة معها يكن من هفواتها هي أختك، لا تنسي هذا...!

فهتفت في تأثّر:

- إنّّي أغفر لها كلّ شيء إلّا شهادتها عليّ...!

- لم تشهد عليك، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حاتمها فلاذت بالصمت، إنّها تكره أن تغضب أحدًا - كما تعلمين - وإن كانت رعونتها كثيرًا ما تغضب الكثيرين، لم تقصد الإساءة إليك أبدًا، فلا تحملي تصرّفها أكثر ممّا يحتمل، سأزورك غدًا لأصفيّ حسابي معها، ولكنّي سأصلح بينكما وإنّك أن تمتنعي عن الصلح...

ولأوّل مرّة تتجلّى في عينيّ خديجة نظرة قلقة مشفقة حتّى أنّها غضّت عينيها لتخفيهما عن أمّها، وصمتت قليلًا، ثمّ قالت بصوت خافت:

- ستجيبين غدًا...؟

- نعم، لم يعد الحال يحتمل الصبر.

خديجة كأنما تحدّث نفسها:

- سوف تتهمني بأنّي أفشيت أسرارها...!

- ولو!...

ولمّا آنست منها مزيدًا من القلق والإشفاق، عادت تقول:

- على أيّ حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال...!

فقالَت خديجة بارتياح:

- أعاقبتك أنا؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كي يتملّ سحر الحال، فقد رضيت أن تحاوره، وأن تتمهلّ في خطوها السعيد، وسواء أكان هذا لأنها تودّ أن تستمع إليه أم لأنها تتعمّد إطالة المسافة حتّى تتخلّص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغيّر هذا من الحقيقة الباهرة، وهي أنّها يسيران جنبًا إلى جنب في شارع السرايات، تحفّ بهما أشجار الطريق الباسقة، وترون إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة، في هدوء عميق يتعطّش قلبه المستعر إلى نفحة منه، وقال:

- عاقبتني أشدّ عقاب باختفائك عنيّ ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذّب عذاب المتهّم البريء...  
- بحسن ألا نعود إلى ذلك...

في انفعال وضراعة:

- بل يجب أن نعود إليه، إنّي مُصرّ على ذلك وأتوسّل إليك باسم العذاب الذي عانيته حتّى لم يعد بي قوّة لتحملّ المزيد منه...

تساءلت في هدوء:

- ما ذنبي أنا في ذلك؟

- أريد أن أعرف: ألا تزالين تعذّبنني معتديًا؟ الأمر المؤكّد أنّي لا أستطيع أن أسيء إليك بحال، ولو تذكّرت مودّتي طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأيي دون عناء، دعيني أفصّل لك الأمر بكلّ صراحة، لقد دعاني حسن سليم إلى مقابلته عقب الحديث الذي دار بيننا في الكشك.

قاطعته فيها يشبه الرجاء:

- دعنا من هذا، إنّه ماضٍ انتهى...

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع، ثمّ قال بتأثّر بدا في نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار:

- انتهى...، أعلم أنّه انتهى، لكنّي أطمع في حسن الختام، لا أريد أن تذهبي وأنت تظنّين بي الغدر، أو الغيبة، إنّي بريء ويعزّ عليّ أن تسيئي الظنّ بشخص يكرّ لك كلّ إعزاز واحترام، فلا يجري

الهزيمة التي راضٍ عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون. وأنّجه دون تردّد إلى شارع السرايات. كان في الماضي يحذر الكلام أن يفقدها، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه، إلى أنّ العذاب الذي عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع له سبيلًا إلى التردّد أو التراجع. ولم تلبث أن انتبهت إلى اقتراب خطاه، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها، ولكنّها أعادت رأسها إلى وضعه الأوّل دون مبالاة. لم يكن يتوقّع استقبالا لطف، ولكنّه قال معاتبًا:

- أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟!

فكان الجواب أن حثّت الخطى دون أن تعبره أدنى التفات، فأوسع خطوه مستمدًا من أله عنادًا، ثمّ قال وهو يوشك أن يحاذيها:

- لا تتجاهليني فهذا شيء يفوق الاحتمال ولا داعي له لو راعيت الإنصاف...

وكان أخوف ما يخاف أن تصرّ على تجاهله حتّى تبلغ هدفها المقصود، ولكنّ الصوت الرخيم خاطبه قائلاً:

- من فضلك ابتعد عنيّ، ودعني أسير في سلام.

فقال بإصرار وتوسّل معًا:

- ستسيرين بسلام، ولكن بعد أن نصقّي الحساب...

فقال بصوت تردّد عميقًا واضحًا في صمت الطريق الأرستقراطيّ الذي بدا خاليًا أو شبه خالٍ:

- لا أدري شيئًا عن هذا الحساب، ولا أريد أن أدري، أرجو أن تسلك سلوك الجنتلمان...

فقال بحرارة ووجد:

- أعدك بأن أسلك سلوكًا يُعتبر بالقياس إلى الجنتلمان نفسه مثاليًا، وليس في وسعي أن أفعل غير هذا، إذ إنك أنت التي توحين إليّ بسلوكي.

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته:

- أعني أن تتركني في سلام، هذا ما عنيته...

- لا أستطيع، لا أستطيع قبل أن تعلن براءتي من التهم الظالمة التي عاقبتني عليها دون استماع إلى دفاعي...

لك ذكر على لسانه إلا مقرونًا بكلّ ثناء...  
 ألقت عليه نظرة وهي تميل برأسها إلى الناحية  
 الأخرى كأنما تداعبه قائلة «من أين لك بهذه البلاغة  
 كلها؟»، ثم قالت بشيء من الرقة:  
 - يبدو أنه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولكن ما  
 فات فات...  
 بحماس وأمل:

- بل لا يزال في النفس شيء من الشك فيما أرى.  
 فقالت بتسليم:  
 - كلاً، لا أنكر أنّ أسأت الظنّ حيناً، ولكن تبين  
 لي الحقّ بعد ذلك...  
 فطفأ قلبه فوق موجة من السعادة ترنّح فوقها  
 كالشمّل، ثمّ تسأل:  
 - متى عرفت ذلك؟  
 - منذ زمن غير قصير...  
 ورنّا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو  
 معها نوع من البكاء، ثمّ قال:  
 - عرفت أنّي بريء؟...  
 - نعم...  
 هل يستردّ حسن سليم احترامه عن جدارة؟  
 - وكيف عرفت الحقيقة؟  
 فقالت بعجلة توحى الرغبة في إنهاء التحقيق:  
 - عرفتُها... وهذا هو المهمّ...  
 تجنّب الإلحاح أن يضايقها، ولكنّ خاطراً خطراً  
 فأظلمت على قلبه سحابة من الكدر حتّى قال متشكّكاً:

- ومع ذلك أصررت على الاختفاء! لم تكلفني  
 نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنّك  
 افتننت في إعلان الغضب! ولكنّ عذرَكَ واضح، وهو  
 عندي مقبول...  
 - أيّ عذر هذا؟  
 بصوت حزين:  
 - إنك لا تعرفين الألم، وإنّي أسأل الله مخلصاً ألا  
 تعرفه أبداً...  
 قالت كالمعتذرة:  
 - ظننت أنه لا يملك أن تكون متهمًا...!

- ساد صمت مقطّع بأنفاسه المترددة، وكانت تنظر  
 إلى الأمام فلم يطلع عينها ولكنّه وجد في صمتها  
 راحة لأنّه على أيّ حال أخفّ من كلمة سادرة وعده  
 توفيقاً. تصوّر أن يجيئك صوتها ناعماً عذباً محرباً عن  
 الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه  
 المكنون؟ لم يكن إلاّ كفافز رامّ الارتفاع قدّمًا فوجد  
 نفسه يحلّق فوق هامة الجوّ! ولكن أيّ قوّة نستطيع أن  
 تشكّمه بعد ذلك؟  
 - لا تذكريني بما لا أحبّ ساعه فإنّي في غنى عن  
 ذلك، لن أنسى رأسي لأنّي أحمله ليل نهار، ولا أنفي  
 فإنّي أراه مرّات كلّ يوم، ولكنّ عندي شيء لا نظير له

بأسمة:  
 - لم يكن ضرباً واحداً من ضروب الألم إذن؟  
 فشجّته الابتسامة - كما تشجّع الطفل - على  
 الاسترسال في عاطفته، فقال بوجود وانفعال:  
 - بلى، وكانت التهمة أخفّ الآلام، أمّا أشدها  
 فكان اختفاؤك، كان لكلّ ساعة من ساعات الأشهر  
 الثلاثة الماضية نصيبها من آلامي، عشت أشبه ما  
 يكون بالمجانين، لهذا أدعو الله صادقاً ألاّ يمتحنك  
 بالألم، دعاء مجرّب، فإنّ لي بالألم تجربة وأيّ تجربة،  
 وأقنعتني هذه التجربة القاسية بأنّه إذا كان مقدوراً عليّ  
 أن تحتفي من حياتي، فمن الحكمة أن أبحث لي عن  
 حياة أخرى، كان كلّ شيء كلّعة طويلة مقيّنة، لا  
 تهزّني بي، أنا أتوجّس من ناحيتك شيئاً كهذا دائماً،  
 ولكنّ الألم أجلّ من أن يُهزّا به، لا أتصوّر أن يهزّا  
 ملاك كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعي جانباً  
 أنّك سبيه، لكن ما الحيلة؟ قضّي عليّ من قديم أن  
 أحبّك بكلّ قوّة نفسي...

الأنغام الكامنة في نفسه حتّى برز منها لحن مليح، عند ذلك تراءت قسّات العبودة رموزًا موسيقية للحن سواوي مرموقة على صفحة الوجه الملائكيّ.

- ستجدينني قانعًا بما دون الرجاء، لأنني كما قلت لك: أحبّك. . .

والفتت صوبه في رشاقة طبيعية، فألقت عليه نظرة باسمة ثم استردّتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها، آية نظرة كانت يا ترى؟ . . . نظرة رضى؟ تأثّر؟. عطف؟. استجابة؟. سخريّة مهذّبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصّت بالرأس والأنف؟ وجاءه صوتها قائلاً:

- لا يسعني إلّا أن أشكرك، وأعتذر لك عن إيلاّمك الذي لم أتعمّده، أنت رقيق وكريم. . .

ونزعت به النفس إلى الارتغاء في أحضان الأحلام السعيدة، ولكتّها استطردت قائلة بصوت خافت:

- الآن دعني أسألك عمّا وراء ذلك؟

ترى أسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو؟ هذه الجملة بنصّها محلّقة في مكان ما من سماء بين القصرين مخفوفة بتنّهّداته، هل أنّ له أن يجد لها جوابًا؟. . . تسألك في حيرة:

- هل وراء الحبّ شيء؟!

ها هي تبتسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لكّنك غير الابتسام تروم، عادت تقول.

- إنّ الاعتراف بداية وليس نهاية، إنّني أسألك عمّا تريد. . .؟

فاجاب بحيرة أيضًا:

- أريد. . . أريد أن تأذني لي بأن أحبّك. . .

فما ملكت أن ضحكت، ثمّ تسألت:

- أهذا ما تريد حقًا؟! ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم أذن لك؟

فقال وهو يتنّهّد:

- في هذه الحال أحبّك أيضًا.

فتساءلت فيها يشبه الدعابة، الأمر الذي أربعه:

- فيم إذن كان الاستئذان؟

حقًا ما أسخف هفوات اللسان، إنّ أخوف ما

عند الآخرين، حبّي لا نظير له، إنّني فخور به، ويجب أن تكوني به فخورًا أيضًا ولو زهدت فيه، هكذا كان مذ رأيك أوّل مرّة في الحديقة، ألم تشعري به؟. لم أفكر في الاعتراف من قبل لأنّي خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردني من الفردوس، لم يكن من اليسير عليّ أن أغامر بسعادتي، أمّا وقد طردت من الفردوس فعلام أخاف؟!

سال سرّه على لسانه كأنّه دم تعذّر منعه، ولم يكن يرى من الوجود إلّا شخصها البديع، كأنّ الطريق والأشجار والقصور والقلة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلّا عن فرجة لاحت منها العبودة الصامته بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسم بالملاحة المنطوي على الأسرار، يبدو في الظلّ حينًا أسمر صافيًا، وحينًا - إذا مرًّا بطريق جانبيّ - وضّاء منيرًا تحت شعاع الشمس المائلة للغروب، ولم يكن يبالي أن يسترسل في الحديث حتّى الصباح!

- أقلت لك إنّني لم أفكر في الاعتراف من قبل؟ في هذا تجاوز، الواقع أنّني هممت بالاعتراف يوم التقينا في الكشك ونودي حسين للتليفون، كدت أعترف لولا أن عاجلتي بمهاجمة رأسي وأنفي، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالخطيب الذي همّ بفتح فيه فأنهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هادئة صامته كما ينبغي لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدّث بلغة البشر أو الاهتمام بشؤونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سرّه؟! . . . الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتيل فنّ من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذي استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه؟. . . الحلم سرعان ما يبتلعه النسيان، أمّا الدموع أو بالحرّي ذكرها فتبقى رمزًا خالداً، وإذا بها تقول:

- لم أقل ما قلت إلّا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألا تغضب. . .

هذا الشعور الرطيب جدير بالتذوق، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضررس وضرباته، وتداعت

- يخاف أن ينحط على الأرض فجأة كما سما عنها فجأة،  
وسمعها تقول:  
- أنت تحبني، ويدو لي أنك تحب نفسك أيضًا...  
قال بجزع:  
- إني... حائر؟ ربما، ولكنني أحبك، ماذا وراء  
ذلك؟ يخيّل إليّ أحياناً أنني أطمع إلى أمور تعجز  
الأرض عن حملها، ولكنني إذا تأملت قليلاً عجزت عن  
تحديد هدف لي، خبريني أنت عن معنى هذا كله،  
أريد أن تتحدثني وأن أستمع، هل عندك ما يتشلىني  
من حيرتي؟...  
قالت باسمه:  
- ليس عندي مما تسأل شيء، كان ينبغي أن تكون  
أنت المتحدث وأنا المستمعة، ألسنت فيلسوفاً؟  
قال واثماً ووجهه يتورّد:  
- أنت تسخرين مني...!  
فكانت بعجلة:  
- كلاً، غير أنني لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما  
غادرت البيت، فاجأني بما لم أتوقع، وعلى أيّ حال  
فإنّي شاكراً ممتنة، ولا يسع إنسان أن ينسى عواطفك  
الريقة المهدّبة، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يخطر على  
بال...  
نغمة آسرة ومناعمة عذبة، ولكنه لا يدري أيّجّد  
المعبود أم يلهو، وهل تفتح أبواب الأمل أم توصل في  
خفة النسيم، وقد سأله عما يريد فيما أجاب لأنه لا  
يدري ماذا يريد، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح  
إلى الوصال، وصال الروح بالروح، وأن يطرق باب  
السّر المغلق بعناق أو قبلة، ألا يكون هذا هو  
الجواب؟! وعند مفترق الطرق الذي ينتهي عند شارع  
السرائيات، توقفت عابدة عن السير، ثم قالت برقة  
ولكن بلهجة قاطعة:  
- هنا...!  
فتوقّف عن السير أيضاً وهو يميلق في وجهها  
بدهش، «هنا» تعني أنّه يجب أن نفترق هنا، لم يكن  
لجملة «أحبك» هذا الامتداد في المعنى الذي يعني عن  
السؤال، قال دون تدبّر أو تفكير:
- كلاً...!  
ثمّ هاتفاً، كمن ظفر بكشف مضى بغتة:  
- ماذا وراء الحب؟ أليس هذا سؤالك؟ هاك  
الجواب: ألا نفترق...!  
قالت بهدوء باسم:  
- ولكن يجب أن نفترق الآن...!  
تساءل بحرارة:  
- لا كدر ولا سوء ظن؟  
- كلاً...  
- أعودين إلى زيارة الكشك؟  
- إذا سمحت الظروف.  
بقلق:  
- كانت الظروف تسمح في الماضي!  
- الماضي غير الحاضر...  
آله الجواب إيلاًماً عميقاً، فقال:  
- يبدو أنك لن تعودين...  
فكانت كأنما تنبّه إلى وجوب الافتراق:  
- سأزور الكشك كلّما سمحت الظروف،  
سعيدة...  
وغادرت موقفها متّجهة نحو شارع المدرسة فوقف  
يرنو إليها كالسحور، وعند منعطف الطريق التفتت  
نحوه فألقت عليه نظرة باسمه ثم غابت عن ناظره.  
ماذا قال وماذا سمع؟ سيخلو إلى هذا عمّا قليل،  
بعد أن يفق، متى يفق؟! إنّه يسير الآن وحده،  
وحده؟ وخفقات القلب وهيمان الروح وأصداء النغم؟  
ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزت صميم فؤاده،  
وفغمة شذا ياسمين ساحراً آسراً ولكن ما هوئته؟ ما  
أشبهه بالحب في سحره وأسرّه وغموضه، لعلّ سرّ هذا  
يفضي إلى ذلك، ولكنه لن يحلّ هذا اللغز حتّى يأتي على  
تراثيل الحيرة...

- ٢٤ -

قال حسين شدّاد:  
- هذه جلسة الوداع وأأسفاه!  
امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع، ورمق حسين

بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقًا  
كما نطق به لسانه! على أنه استشعر جو الوداع منذ أكثر  
من أسبوع، إذ إن مجيء يونيه يؤذن عادة برحيل  
الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية، فما هي إلا أيام  
حتى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء، أما  
المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضي به  
الرحيل، وأصرّت عليه رغم الصلح الذي تُوج به  
حديث شارع السرايات، لكن هل يمضي يوم الوداع  
دون زيارة؟ هل هانت المودة إلى حدّ الضنّ بنظرة  
عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟ تساءل كمال بأسًا:  
- لمّ قلت «والأسفاه»؟  
فقال حسين شذاد باهتمام:  
- وددت لو سافرتم معي إلى رأس البر، يا  
سلام!... أيّ تصنيف كان يكون؟!...  
كان يكون عجبًا بلا ريب، حسب أنه المعبودة لا  
تستطيع مواصلة الاختفاء هناك! وخاطبه إسماعيل  
لطيف:  
- كان الله في عونك! كيف تحتمل حرّ الصيف هنا،  
إنّ الصيف لم يكد يبدأ بعد، ومع ذلك انظر إلى حرّ  
اليوم!  
كان الجوّ شديد الحرارة رغم تقلّص ذيل الشمس  
عن الحديقة والصحراء الممتدة وراءها، غير أنّ كمال  
قال بهدوء:  
- لا شيء في الحياة لا يمكن احتياله...  
وفي اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل  
كيف أجاب بها، وإلى أيّ حدّ يمكن اعتبار أنّ أقوالنا  
تعبير صادق عمّا في نفوسنا؟ ونظر فيها حوله فرأى أناسًا  
سعداء ما في ذلك ريب، بدوا في قمصانهم ذوات  
الأكمام القصيرة وبنطلوناتهم الرمادية كأنما يتحدثون  
الحرّ، كان هو وحده الذي يرتدي بدلة كاملة - وإن  
تكن بدلة خفيفة بيضاء - وطربوشًا وقد وضعه على  
المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف ينوّه بنتيجة الامتحان  
قائلًا:  
- نتيجة نجاح مائة في المائة، حسن سليم نال  
الليسانس، كمال أحمد عبد الجواد منقول، حسين

شذاد منقول، إسماعيل لطيف منقول...  
قال كمال ضاحكًا:  
- لو اكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات  
بداهة!  
فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:  
- كلانا بلغ هدفًا واحدًا، أنت بعد كدّ وتعب  
تواصلنا طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!  
- هذا دليل على أنّك عالم بالفطرة!  
فتساءل إسماعيل ساخرًا:  
- ألم تقل مرّة في أحد أحاديثك التافهة إنّ برنارد شو  
كان أخيب تلميذ في عصره؟  
فقال كمال ضاحكًا:  
- الآن آمنت بأنّ عندنا نظيرًا لشو، على الأقلّ في  
خيته...!  
عند ذاك قال حسين شذاد:  
- عندي خبر ينبغي إذاعته قبل أن يسرقنا  
الحديث...  
ولمّا وجد أنّ قوله لم يجد كثيرًا في لغت الأنظار إليه  
نهض فجأة، ثمّ قال بلهجة لم تخلّ من تمثيل:  
- دعوني أرفّ إليكم خبرًا طريفًا وسعيّدًا (ثمّ  
مستدرّكًا وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك؟  
(ثمّ وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمّت أمس  
خطبة الأستاذ حسن سليم على أختي عايدة...  
وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بغتة كما يجد إنسان  
نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون عينًا بالسلامة  
والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطه طيّارة منطلقة  
في فراغ هوائي، بل هي صرخة فزع باطنية تصدّعت  
الضلوع دون تسرّبها إلى الخارج، وقد عجب -  
خصوصًا فيما بعد - كيف استطاع أن يضبط مشاعره  
ويلاقي حسين شذاد بابتسامة التهنية، فلعلّه شغل عن  
القارة - ولو إلى حين - بالصراع الذي نشب بين  
نفسه وبين الذهول الذي طوّقها، وكان إسماعيل  
لطيف أوّل من تكلم فردّد عينية بين حسين شذاد  
وحسن سليم الذي بدا هادئًا رزينًا كعادته وإن شابه  
هذه المرّة شيء من الحياء أو الارتباك، ثمّ هتف:

- حقاً؟ يا له من خبر سار، سار ومفاجئ، سار ومفاجئ وغادراً غير أنني سأؤجل الحديث عن الغدر إلى حين، حسبي الآن أن أقدم خالص التهاني...  
ونهض فصافح حسين وحسن، فقام كمال من فوره للتهنئة كذلك، وكان مأخوذاً رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتى خيل إليه أنه في حلم غريب وأن المطر ينهمر فوق رأسه وأنه يتلفت باحثاً عن مأوى، وقال وهو يصافح الشابين:  
- خير سار حقاً، تهاني القلبية...  
عاد المجلس إلى سابق هيئته، واختلس كمال من حسن سليم نظرة على رغبته فراه هادئاً رزيناً، وكان يشفق من أن يجده مختلاً أو شامئاً - كما تصوّر هذا - فداخله شيء من الارتياح العابر، وراح يستجدي نفسه أقصى ما لديها من قوة ليسترجع جرحه الدامي عن العيون البواقظ ولينفادي من موضع الهزء والزراية، تجلّدي يا نفسي وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا كله فيما بعد، بأن نتألم معاً حتى نهلك، وبأن نفكر في كلّ شيء حتى ننجّ، ما أمتع هذا الموعد في هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع، حيث يباح الألم والهذيان والدموع دون زراية زارٍ أو لومة لائم. وثمة البشر القديمة أزعج عن فوهتها الغطاء وصرخ فيها مخاطباً الشياطين ومناجياً الدموع المتجمعة في جوف الأرض من أعين المحزونين، لا تستسلم، حذار، فالدنيا تبدو لناظريك حراء كعين الجحيم. عاد إسماعيل لطيف يقول متخذاً لهجة الاتهام:  
- مهلاً، لنا عندكم حساب، كيف حدث هذا ودون سابق إنذار؟ أو فلندع هذا إلى حين، ولنسأل كيف تمت الخطبة دون حضورنا؟  
قال حسين شذاد مدافعاً عن موقفه:  
- لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع على خاصة الأهل، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير، ستكونان من الداعين لا المدعويين...  
يوم الكتاب! كأنه عنوان لحن جنائزي، حيث يشيع قلب إلى مقبرة الأخير محفوقاً بالورود مودّعاً بالزغاريد، وباسم الحبّ تعنو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة

الكتاب، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنة. قال كمال باسماً:  
- العذر مقبول والوعد مأمول.  
فصاح إسماعيل لطيف محتجاً:  
- هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها في الأفق مائدة تناست دواعي العتاب، وتغنّت بالتسامح والثناء، كلّ ذلك في سبيل لقمة دسمة! حقاً إنك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحاذة، أما أنا فلست كذلك...  
ثم مواصلاً حملة الاتهام على حسين شذاد وحسن سليم:  
- يا لكما من داهيتين، صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطبة، هه؟ حقاً يا أستاذ أنك الخليفة المنتظر لثروت باشا...  
قال حسن سليم وهو يبتسم معتذراً:  
- إن حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلا قبيله أيام معدودات...  
فتساءل إسماعيل:  
- خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير؟ رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإباء ولكنّه فرض عليها وما كان كان، وضحك كمال ضحكة عالية، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه:  
- استعينوا على قضاء... لا أذكر ماذا بالكتان! قالها عمر بن الخطاب، أو عمر بن أبي ربيعة، أو عمر أفندي، والله أعلم...  
وقال كمال فجأة:  
- جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور في صمت، على أنني أقر بأن الأستاذ حسن أشار في حديث له معي مرة إلى شيء كهذا!  
فرمقه إسماعيل بارتياح، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة، وقال مستدرّكاً:  
- كان كلاماً أشبه بالعناوين...!  
تساءل كمال في دهش كيف ندّ عنه ذلك القول؟ إنّه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير، كيف يطمع - بهذا الأسلوب الشاذّ - أن يقنع حسن بأنه كان على



- ينبغي أن أعرف أولاً إن كنت سأبقى في مصر أم لا...؟  
فقال حسين شذاد معقّباً:

- إمّا أن يعيّن في النيابة، أو في السلك السياسي...  
هكذا يبدو حسين شذاد مسروراً بالخطبة، فأستطيع

أن أزعّم أنّي كرهته ولو دقيقة عابرة، كأنه خانني فيمن خانوني، أخانني أحد؟ اختلطت الأمور عليّ، غير أنّ هذا المساء يعدني بخلوة حافلة...  
- أيّها تفضّل يا أستاذ حسن؟

فليختر ما يحلو له، النيابة... السلك السياسي... السودان... سوريا إن أمكن...  
- النيابة بهدلة، إنّني أفضل السلك السياسي...  
- يحسن أن تُفهم والدك ذلك جيّداً حتّى يركّز عنايته في إلحاقك بالسلك السياسي...  
أفلتت هذه الجملة أيضاً؟ ولا شك أنّها أصابت

الهدف، ينبغي أن يتألمك أعصابه وإلاّ وجد نفسه مشتبكاً مع حسن في نزاع عليّ، ثمّ ينبغي أن يراعي خاطر حسين شذاد، فهما الآن أسرة واحدة، ما أفسى هذه الشكّة من الألم. هزّ إسماعيل رأسه كالأسف، وقال:

- هذه آخر أيّامك معنا يا حسن، بعد عشرة العمر كلّه، يا لها من نهاية محزنة!  
يا للحقاقة! يحسب أنّ الحزن يمسّ قلباً واحة العبود مرتعه.

- الواقع أنّها نهاية محزنة يا إسماعيل...  
كذب في كذب، مثل تهنتك له، يستوي في هذا ابن التاجر وابن المستشار. قال:

- أيّني هذا أنّك ستقضي عمرك كلّه خارج القطار؟  
- هذا هو المتوقّع، لن نرى مصر إلّا في القليل النادر...  
قال إسماعيل متعجباً:

- حياة غريبة! هلّا فكّرت فيها ينتظر أولادك من متاعب؟  
واقبله! أيليق هذا العبث بالمعاني! يحسب الشرير

علم بنواياه وأنّه لم يفاجأ بها أو يكثر لها؟ يا للحقاقة! أمّا إسماعيل فقد قال لحسن وهو يعدّجه بنظرة عتاب:  
- ولكيّ لم أحظّ بعنوان واحد من هذه العناوين!

قال حسن بجّد:  
- أوّكد لك أنّه إذا كان كمال قد وجد في حديثي معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة، فإنّما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكملاهني.

ضحك حسين شذاد ضحكة عالية، وقال مخاطباً حسن سليم:

- إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنّّه إذا كنت سبقتّه إلى الليسانس بثلاث سنوات فلا يعني هذا أن تضنّ عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره! فقال إسماعيل باسمًا، وكأنّما كان يداري مضايقته:

- إنّني لا أرتاب في زمالته القديمة، ولكيّ أحاسبه حتّى لا يعود إلى الوقوع في الإهمال يوم القرآن! فقال كمال باسمًا:

- نحن أصدقاء الطرفين، فإذا أهملنا العريس فلن تهملنا العروس...  
إنّه تكلم ليثبت أنّه حيّ، لكنّه حيّ يتألم، شدّ ما يتألم، ترى هل جرى في خاطره يومًا أن يكون لحبه نهاية غير هذه النهاية؟ كلًّا، غير أنّ الإيمان بأنّ الموت

حتم مقدّر لا يمنع من الجزع حين حضوره، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم في أيّ موضع يكمن أو عن أيّ ميكروب يصدر؟! وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور...  
- ومتى يُعقد القرآن؟

إنّ إسماعيل يسأل عمّا يدور بخاطره كأنّه موكّل بأفكاره، ولكنّه لا ينبغي له أن يصمت. قال:  
- نعم، هذا مهمّ جدًّا حتّى لا نؤخذ على غزّة، متى يُعقد القرآن؟

فتساءل حسين شذاد ضاحكًا:  
- لمّ تتعجّلان الأمر؟ فليهنّا العريس بما بقي من عهد عزوبيّته...  
وقال حسن بهدوئه المعتاد:

فقال حسين شذاد ضاحكًا:  
- لمّ تتعجّلان الأمر؟ فليهنّا العريس بما بقي من عهد عزوبيّته...  
وقال حسن بهدوئه المعتاد:

فقال حسين شذاد ضاحكًا:  
- لمّ تتعجّلان الأمر؟ فليهنّا العريس بما بقي من عهد عزوبيّته...  
وقال حسن بهدوئه المعتاد:

- أن المعبودة تحبل وتتوخم وتنداح بطنها وتتكور ثم يجيئها  
المخاض فتلد! أتذكر خديجة وعائشة في الأشهر  
الأخيرة؟ هو الكفر، لم لم تشترك في جمعية الكفّ  
السوداء؟ الاغتيال خير من الكفر وأنجع، وتجد نفسك  
يوماً في قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبري  
والد صديقك الدبلوماسي وهو معبودتك، كما مثل بين  
يديه قتلة السردار في هذا الأسبوع، الخائن!...
- حسين شدّاد ضاحكاً:  
- أتقطع الدول علاقاتها السياسية حتى يربّي أولاد  
الدبلوماسيين في بلادهم؟!  
بل تقطع الرؤوس! عبد الحميد عنایت...  
الخراط... محمود راشد... علي إبراهيم... راغب  
حسن... شفيق منصور... محمود إسماعيل...  
كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شنعاً، القاضي الوطني  
سليم بك صبري، القاضي الإنجليزي مستر كرشو،  
الاغتيال هو الجواب، أتريد أن تقتل أم تُقتل!...  
وخاطب إسماعيل حسين قائلاً:  
- رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على  
رفض فكرة سفرك أنت!...  
فقال حسين شدّاد باطمئنان:  
- قضيتي تقترب من الحلّ الموفّق بخطى ثابتة...  
عايدة وحسين في أوروبا! إنسان يفقد في ساعة حبيبه  
وصديقه، تفتقد روحك معبودها فلا تجده ويفتقد  
عقلك أليفه فلا يجده، وفي الحَيِّ العتيق تعيش وحيداً  
مهجوراً كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمل  
الآلام التي ترصدك، أن لك أن تحصد ثمار ما زرعت  
من أحلام في قلبك الغرّ، توصل إلى الله أن يجعل  
الدموع دواءً للأحزان، وعلّق إن استطعت جسمك  
بحبال المشائق أو وضعه على رأس قوّة مدمّرة تنقضّ بها  
على العدو، غداً تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس  
ضريح الحسين، يا خيبة الآمال، والمخلصون قتلوا أما  
أبناء الخونة فسفروا. قال إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب  
نفسه:  
- لن يبقى في مصر إلّا أنا وكمال، وكمال غير مأمون  
الجانب، لأن صديقه الأوّل - قبل أو بعد أو مع حسين
- هو الكتاب...  
فقال حسين في ثقة وإيمان:  
- لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب...  
فخفق قلب كمال رغم فتوره، وقال:  
- على أنّ قلبي يجذّني بأنك لن تحتمل الغربة إلى  
الأبد...  
- هذا هو الراجح، ولكنك ستفيد من رحلتي بما  
سأرسله لك من كتب، سواصل أحاديثنا بالرسائل  
والكتب...  
هكذا يتكلّم حسين كما لو كان السفر قد بات أمراً  
مفروغاً منه، هذا الصديق الذي يسعد ببقائه سعادة  
فاتنة فحتى الصمت يستمتع به في محضره، ولكلّ عزاء  
فذهاب المعبودة سيعلّمه كيف يستهين بالخطب وإن  
جلّ، هكذا هانت وفاة جدّته المحبوبة على النفس التي  
اكتوت بنار الحزن على فهمي، غير أنّه ينبغي أن يذكر  
دائماً أنّه في جلسة الوداع كي يملأ عينيه من الورود  
والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالي في أيّ حزن يهيم،  
وثمة مشكلة ينبغي أن يجد لها حلاً: كيف يسمو بشر  
إلى معاشره المعبود أو كيف يهبط المعبود حتى يعاشره  
بشر؟! فإذا لم يجد لذلك حلاً فسوف يسير في طريقه  
بقدمين ترسّفتان في الأغلال وفي حلقة شحماً، والحبّ  
حمل ذو مقبضين متباعدين خلّق لتحمله يدان...  
فكيف يحمله وحده؟ وكان الحديث يطّرد ويتفرّع وهو  
يتابعه بعينه وهزّات رأسه وكلّيات يثبت بها أنّ الخطب  
لم يقضِ عليه بعد، وكان الأمل معقوداً بأنّ قاطرة  
الحياة تسير وأنّ محطة الموت في الطريق على أيّ حال،  
وها هي ساعة الغروب... ساعة الظلام والهدوء...  
تحبّها كما تحبّ الفجر، وعابدة واللم لفظان لمعنى واحد  
فينبغي أن تحبّ الألم وأن تطرب للهزيمة منذ اليوم؛ ولا  
تزال عجلة الحديث في دوران غير منقطع والأصدقاء  
يتضحكون ويتناظرون كأنّ واحداً منهم لم يعرف الحبّ  
قلبه... حسين ضحكة الصّحة والصفاء، وإسماعيل  
ضحكة العريضة والعدوان، وحسن ضحكة التحفّظ  
والاستعلاء، وبأبي حسين إلّا أن يتحدث عن رأس  
البرّ، أعدك بأن أحجّ إليها يوماً وأن أسأل عن الرمال

- نعم أنت، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما، هذا يبدو لي محققاً رغم أنه لم ينس لي عنه بكلمة، إنه ذو كبرياء شديد - كما تعلم - ولكنني أعرف كيف أصل إلى ما أريد، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم؟ الظاهر أنه طالبها بأن تتحد من حرّيتها في الاختلاط بالأصدقاء، والظاهر أنها ذكرته بأنه لا حق له في مطالبته فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق!

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته:  
- لكنني لم أكن الصديق الوحيد! كانت عابدة صديقتنا جميعاً!  
فقال إسماعيل متهمكاً:  
- ولكنّها اختارتك أنت لتثير قلقه! ربّما لأنّها آنتست في صداقتك حرارة لم تجدّها عند غيرك، على أيّ حال، إنّها لا تلقى الأمور ارتجاءاً، وقد صمّمت منذ قديم على الظفر بحسن فجنّت أخيراً ثمرة صبرها!  
«الظفر بحسن»؟ «ثمرة صبرها»! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون «شروق الشمس من الغرب»، قال وقلبه يتأوّه:  
- ما أسوأ ظنّك بالناس! إنّها ليست على شيء ممّا تتصوّر!

فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه:  
- لعلّ الأمر وقع اتّفاقاً أو لعلّ حسن كان واهماً، على أيّ حال جاءت العواقب في صالحها...  
هتف كمال غاضباً:  
- صالحها! ماذا تظنّ؟! سبحان الله، إنّك تتحدّث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفراً لها لا له!!  
فحدّجه إسماعيل بنظرة غريبة، ثمّ قال:  
- إنّك فيها يبدو غير مقتنع بأنّ أمثال حسن قليلون؟ أسرة ومركز ومستقبل، أمّا مثيلات عابدة فلسن قليلات، هنّ أكثر ممّا تتصوّر، ترى هل تقدّرّها أكثر ممّا تستحقّ؟ إنّ أسرة حسن ارتضت زواجه منها لثروة أبيها الهائلة فيما أعتقد، إنّها فساة... (ثمّ بعد تردّد)... ليست بارعة الجمال على أيّ حال!...

التي وطئتها أقدام المعبودة لآلئها ساجداً، الآخرين يتغيّبان بسان استنفان ويتحدّثان عن أمواج كالجمال، حقّاً؟ تصوّر جثة تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ وقد امتصّ البحر الرهيب جماها ونبلها؟ ولتعرّف بعد هذا كلّه بأنّ الملل يطوّق الكائنات وأنّ السعادة ربّما كانت وراء أبواب الموت، وتواصل السمر حتّى أنّ للجمع أن يفرّق، فتصافحوا بحرارة... شدّ كمال على يد حسين، وشدّ حسين على يد كمال، ثمّ مضى وهو يقول:

- إلى اللقاء... في أكتوبر!  
كان في مثل هذا الموقف من العام الماضي وما قبله يتساءل في لهفة متى يعود الأصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد، ستظلّ مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجرّ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا. لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنّها تُبعد بينه وبين عابدة، فالهوة التي تفصل بينهما أعمق من الزمن، وقد كان يعالج الزمن بجراحات الصبر والأمل، ولكنّه يخاصم اليوم عدواً مجهولاً وقوة خارقة غامضة لا يدري من تعاويذها ورقاها حرّاً واحداً... فليس أمامه إلّا الصمت والتعاسة حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. تراءى له حبه معلّقاً فوق رأسه كالقدّر، يشدّه إليه بأسلاك من الألم المبرّح، أشبه ما يكون في جبريته وقوّته بالظاهرة الكونيّة، فتأمله بعين ملؤها الإكبار والحزن.

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراي آل شدّاد: فسار حسن سليم إلى شارع السرايات، وأنجبه كمال وإسماعيل نحو الحسينيّة في طريقهما المعهود الذي يفترقان في نهايته، فيمضي إسماعيل إلى غمرة، ويمضي كمال إلى الحيّ العتيق، وما إن انفردا حتّى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة، فسأله كمال عمّا أضحكّه، فقال في خبث:

- ألم تفطن بعد إلى أنّك كنت في الأسباب الجوهرية التي دعت إلى الإسراع في إعلان الخطبة؟  
- أنا؟!

ندّت عن كمال وعيناه تتسعان في ذهول، فقال إسماعيل في استهانة:

سمرة حاملة، وعلى الأرائك والرفوف جوالق مرصوصة  
 مترعة بالخناء الخضراء والشفقة الحمراء والفلفل الأسود  
 وقوارير الورد والعطر والقرطاس الملونة والموازين  
 الصغيرة، وتندلى من علّ الشموع في أحجام وألوان  
 شتى كأنها التهاويل، في جوّ مفعم بشذا العطارة  
 والعطر كأنها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه،  
 أما الملاءات اللث والبراقع السود والعرائس الذهبية  
 والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنا جميعاً أستعيد  
 بواهب النعم، سير الحالم في تهاويل حلم جميل رياضة  
 محبوبة بيّدت أيّ أشكو ضيّي القلب والعين، إن تعدّ  
 النسوان هنا لا تحصيهنّ، مبارك المكان الذي يضمهنّ  
 ولا منجى لك إلّا أن تهتف من أعماق الفؤاد: يا  
 خراب بيتك يا ياسين، هنالك يجيبك صوت أن افتح  
 دكان في التريعة واستقرّ، أبوك تاجر. سيّد نفسه...  
 ينفق في مسرّاته أضعاف أضعاف مرتّبك، افتحها  
 وتوكل ولو بعث لذلك ربع الغورية ودكان الحمزاوي،  
 تحيء مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس  
 يربك، تجلس وراء الميزان فيجيبك النسوان من كلّ  
 فجّ: صباح الخير يا سي ياسين، واقعد بالعافية يا سي  
 ياسين، عليّ وعليّ إن تركت مصونة دون تحية أو  
 متهتكة دون ميعاد! ما ألذّ الخيال وأقساه على من  
 سيقى إلى آخر العمر ضابطاً بمدرسة النحاسين،  
 والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قُلب فوارحته  
 لمن خلق بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة، تهذّب  
 الرجاء فلا جدوى من الكذب، ويوم حملتها إلى قصر  
 الشوق كان الأمل يعدك بحياة هادئة مطمئنة، قاتل  
 الله الملل كيف يمازج النفس كما تمازج مرارة المرض  
 للعب! عدوت وراها عائلاً ثمّ مللتها في أسابيع فما  
 التعاسة إن لم تكن هذا؟ بيتك أوّل بيت يضجّ  
 بالشكوى في شهر العسل، سلّ قلبك أين  
 مريم؟!... أين الملاحه التي لوّعتك؟!... يجيبك  
 بضحكة كالتأوه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتقرّز من  
 رائحة الطعام، وهي مأكرة يستعذب اللعب بها ولا  
 تفوتها شاردة، مرّة بنت مرّة، اذكروا حسنات موتاكم  
 هل كانت أمك خيراً من أمّها؟! المهمّ أنّها ليست

إمّا أن يكون مجنوناً وإمّا أن تكون مجنوناً أنت! حزّه  
 ألم كهذا من قبل يوم اطلّ على كلمة جارحة تهجم بها  
 كاتبها على نظام الزواج في الإسلام، ألا لعنة الله على  
 الكافرين جميعاً، تساءل بهدوء يغطّي به على لوعته:  
 - لمّ إذن كثُرّ المعجبون من حولها؟

أبرز إسماعيل فكّه الأسفل فارتفع ذقنه في حركة  
 استهانة، ثمّ قال:

- لعلّك تعني فيمن تقصدا لا أنكر أنّها خفيفة  
 الروح، وطراز وحدها في الأنافة، إلى أنّ أسلوها  
 الغربيّ في البلياقة الاجتماعية يريق عليها فتنة وإغراء،  
 لكنّها بعد ذلك سمراء نحيلة لا شيء فيها يُشتهى!  
 تعال معي إلى غمرة ترّ ألواناً من الجمال تزري بجمالها  
 جملة وتفصيلاً، هنالك ترى الملاحه الحقّة في البشرة  
 الوجيهة والنهد الكاعب والردف المليء، هذا هو الجمال  
 إن أردته... لا شيء فيها يُشتهى!...

كأنّها شيء يُشتهى كقمر ومريم! عهد كاعب وردف  
 مليء... كمن يصف الروح بصفات الجسد! يا لشدة  
 الألم، كُتب عليه اليوم أن يتجرّع كأس الألم حتّى  
 ثملتها، إذا توالى الضربات القاتلة فمن الخير أن  
 ترحب بالموت...

وعند الحسنيّة افترقا، فسار كلّ إلى سبيله...

## - ٢٥ -

تنقضي السنون ولا يفتر حبّه لهذا الطريق، قال  
 لنفسه، وهو يلقي على ما حوله نظرة ضيقة: «لو شابة  
 حبيّ للمرأة التي يختارها قلبي حبيّ لهذا الطريق  
 لأراحي من متاعب جنة»، أعجب به من طريق  
 كالتيه، لا يكاد يمتدّ بضعة أمتار طويلاً حتّى ينعطف يمنة  
 أو يسرة، وفي أيّ موضع منه يطالعك منحني يطوي  
 وراه مجهولاً، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعاً  
 وألفة فهو كالحيوان الأليف، والجالس في دكان على  
 يمينه يستطيع أن يصفاح الجالس في دكان على يساره،  
 سقوف بمظلات الخيش تمتدّ بين أعالي الحوانيت  
 فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنفث في الجوّ الرطب

- كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت،  
لا هي بالتي تغضي ولا أنت بالذي يقنع، هيهات أن  
تُشبع جوعك المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك،  
ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية سعيدة! ما  
أعظم أباك وما أحقرك! لم تستطع أن تكون مثله  
ودواؤك أن تكون مثله؟! رباه ما هذا الذي أرى؟!  
أهذه امرأة حقاً؟! كم قنطاراً يا ترى تزن؟! اللهم إني  
لم أر من قبل طولاً كهذا الطول ولا عرضاً كهذا  
العرض، كيف تملك هذه الضيعة؟! إني أنذر إذا  
وقعت بين يدي امرأة في قدرها أن أنيمها في وسط  
الحجرة عارية، وأن أدور حولها سبعا وأنا أفقر...  
- أنت...!
- جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه، وسرعان ما  
تحولت عيناه عن المرأة الضخمة إليه، فرأى شابة في  
معطف أبيض، فما تمالك أن هتف:  
- زنوبة!...
- وتصافحا في حرارة وهي تضحك، غير أنه حثها  
على السير حتى لا يلفتا إليها الأنظار، فسارا جنباً إلى  
جنب يشقان الزحام. هكذا التقيا بعد طول الفراق،  
ولم تكن ترد على خاطره إلا في القليل النادر بعد أن  
شغلته عنها الشواغل، ولكنه وجدها جميلة كيوم  
هجرها أو لعلها ازدادت جمالاً، ثم ما هذا الزئ  
الحديث الذي استبدلته بالملاءة اللف؟! وانبعثت فيه  
موجة من النشاط والسرور، وإذا بها تتساءل:  
- كيف حالك؟  
- عال، وأنت؟  
- كما ترى...  
- عال جداً والحمد لله، أنت غيّرت زيك، لم أكن  
أعرفك عند أول نظرة، لا أزال أذكر مشيتك في الملاءة  
اللف...  
- وأنت لم تتغير، لم تكبر، ازدادت سمانه، هذا كل  
ما في الأمر...  
- أنت الآن شيء آخر! بنت أفرنجية!... (وهو  
يبتسم في حذر)... إلا أن ردفها من الغورية!  
- لسانك!
- أربعتني! كأنك تبت أو تزوجت...!  
- لا شيء على الله بكثير...  
- أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها، وأما  
الزواج فلا يبعد أن تسوقك قلّة العقل يوماً إليه!  
- حاسب، إني متزوجة تقريباً...!  
ضحك - وكانا يميلان إلى الموسكي - قائلاً:  
- مثلي تماماً...  
- لكنك متزوج بالفعل، أليس كذلك؟  
- كيف عرفت هذا؟!... (ثم مستدركاً) أوه...  
كيف نسيت أن أسرارنا عندكم أول بأول!  
ضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت  
ابتسامة غامضة، وقالت:  
- تقصد بيت السلطانة؟  
- أو بيت أبي، أليس الود متصلاً؟  
- تقريباً!  
- كل شيء عندك الآن بالتقريب! أنا كذلك متزوج  
تقريباً، أعني أنني متزوج وأبحث عن رفيقة...  
هشّت بيدها ذبابة على وجهها، فوسوست أساورها  
الذهبية المحيطة بساعدها وهي تقول:  
- أنا مرافقة وأبحث عن زوج!  
- مرافقة؟! من السعيد ابن ال...  
قاطعته وهي تشير إليه مخدرة:  
- إياك والسب، إنه رجل ذو مقام...  
فقال وهو يلحظها ساخراً:  
- ذو مقام؟! حق حق، زنوبة!... أود لو  
أنطحك...  
- أتذكر متى تقابلنا آخر مرة؟  
- أوه، ابني رضوان عمره الآن ستة أعوام، فنكون  
قد تقابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام... تقريباً!  
- عمر طويل...  
- ولكن لا ينبغي لي أن يأس في هذه الدنيا من  
اللقاء...  
- ولا الفراق...  
- الظاهر أنك خلعت الوفاء مع الملاءة اللف!  
فحدجته بنظرة مقابلة وهي تقول:

- أنتحدّث عن الوفاء يا ثور!
- فسره رفع الكلفة إلى هذا الحدّ وشجّع مطامعه، فقال:
- الله وحده يعلم كم سررت بلقائك، كثيرًا ما كنت تحطرين ببالي، ولكنّها الدنيا!
- دنيا النسوان، هه؟
- فقال متظاهراً بالتأثر:
- دنيا الموت، ودنيا المتاعب...
- لا يبدو أنّك تحمل للمتاعب همًا، إنّ البغال لتحسّدك على صحتك...
- لولا أنّ العين الجميلة لا تحسّد...
- أخاف على نفسك! كأنك عبد الحليم المصريّ طولًا وعرضًا...
- فضحك غتلاً، وصمت قليلاً، ثمّ قال بلهجة جديدة جادة:
- أين كنت ذاهبة؟
- لم تذهب الواحدة إلى التريّعة؟ أم ظننت الناس مثلك لا همّ لهم إلّا التحكّك بالنسوان؟
- مظلوم والله...
- مظلوم! لِمَا لمحتك وجدتك تغوص بعينيك في امرأة كالبوابة...
- بل كنت شارداً أفكر لا أعي فيم أنظر...
- أنت! إني أنصح من يروم لقاءك أن ينقّب في التريّعة عن أضخم امرأة، وأنا كفيلة بأنّه سيجدك وراءها لا بدًا كما تلبّد القراصة في الكلب...
- أنت يا وليّة لسانك كلّ يوم يطول عن يوم...
- اسم الله على لسانك أنت...
- ما علينا، خلّينا في الأهمّ، أين أنت ذاهبة الآن؟
- سأتسوّق قليلاً، ثمّ أعود إلى بيتي!
- فصمت لحظة كالتردد، ثمّ قال:
- ما رأيك في أن نقضي معًا بعض الوقت؟
- فلحظته بعينها السوداوين اللعوبتين، وقالت:
- ورائي رجل غيور...
- فقال وكأنّه لم يسمع اعتراضها:
- في مكان لطيف لشرب كأسين...
- فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه:
- قلت لك ورائي رجل غيور...
- فاستطرد قائلاً دون اكتراث:
- توفابيان، ما رأيك؟ إنّهُ مكان لطيف وابن حلال، سأنادي هُذا التاكسي...
- فندّ عنها صوت احتجاج، ثمّ تساءلت في استياء وشي وجهها بغيره قائلة: «بالقوّة؟!» ثمّ نظرت في ساعتها بمعصمها - وقد كادت هذه الحركة الجديدة تُضحكها - وقالت بلهجة الشارط:
- على ألاّ أتأخّر، الساعة الآن السادسة، وينبغي أن أكون في البيت قبل الثامنة...
- تساءل والتاكسي يطوي بهما الطريق: ترى هل لمحتهما عين ما بين التريّعة والموسكي؟ غير أنّه هزّ كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشّته العاجيّة، ماذا يهّمه؟!
- مريم وحيدة وليس وراءها وحش مثل محمّد عفت الذي قوّض أوّل بيت زوجيّة بناه، وأمّا أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنّه لم يعد الطفل الغريب الذي نُكّل به في فناء البيت القديم. وفي حديقة توفابيان جلسا حول مائدة متقابلين، كان المشرب غاصّاً بالنساء والرجال، والبيانو الميكانيكيّ يعزف مقطوعاته الرتيبة، على حين هفّت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصيّ.
- وأدرك من ارتباكها أنّها تجلس في مكان عامٍّ لأوّل مرّة فداخله سرور حريف، ثمّ أيقن في اللحظة التالية أنّ ما به حنيئًا حقًا لا محض رغبة عابرة، وبدت له أيامها الغابرة أسعد الأيام كلّها. وطلب قارورة كونياك ثمّ طلب شواء، وجرى ماء الحياة في خديّه، ثمّ خلّع طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقًا من الوسط على جانبي الرأس كشعر أبيه، فما إن لمحته زُنبوبة حتّى ارتسمت على شفّتها ابتسامة خفيفة لم يفتن بطبيعة الحال إلى ما وراءها. كانت أوّل مرّة يجالس فيها امرأة في حانة غير حانات وجه البركة، وكانت أوّل مغامرة له بعد زواجه الثاني مع استثناء المامة واحدة بدرب عبد الخالق. وربّما كانت أوّل مرّة كذلك يشرب فيها كونياك «راقبًا» خارج البيت، إذ أنّه لا يتناول الجيّد

- منه إلا فيها يقتني من زجاجات في البيت للاستعمال  
«الشرعي» على حدّ تعبيره. ملأ الكأسين في زهو  
وارتياح، ثم رفع كأسه وهو يقول لها:  
- صحّة زنوبة مارتل!  
فقالت بكبرياء خفيف الظلّ:  
- إني أشرب الديوارس مع البك...  
فقال متأنّفاً:  
- دعينا من سيرته، ربّنا يقدّرنا على جعله في خبر  
كان...  
- بعدك!...  
- سنرى، كلّما شربنا كأساً تفتّحت لنا أبواب  
وانحلت عقد...  
ولاحساسهما بقصر الوقت المتاح تعجّلا الشراب  
فامتلا الكأسان وفرغا تباغاً، وهكذا أخذ الكونيك  
يزغرد بلسانه الناريّ في معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة في  
ترمومتر العروق، أما الأوراق الخضراء المتطلّعة من  
الأصص وراء سور الحديقة الخشبيّة فافتّرت ثغورها  
عن بسمات مثالفة، وأخيراً وجد البيانو آذاناً متساحمة،  
والوجوه الحاملة المعريدة تلاقى أعينها مراراً في أنس  
ومودة، وجوّ الأصيل سبّح في موجات موسيقىّة  
صامته، وبدأ كلّ شيء طيِّباً وجميلاً:  
- أتعرف ماذا طفر إلى لساني أوّل ما رأيته اليوم  
وأنت تحملي في المرأة كالمسحور؟  
- أفندم؟... ولكن أفرغي كأسك أوّلاً حتّى  
أملأه...  
وهي تتناول ريشة شواء:  
- كدت أصيح بك: يا بن الكلب...  
وهو يضحك ضحكة ريانة:  
- ولم لم تفعلّي يا بنت القارحة؟  
- أصلي لا أشتّم إلاّ الأحباء! وكنت وقتها غريباً أو  
كالغريب!  
- والآن ماذا ترينني؟  
- ابن ستين...  
- يا سلام، الشتيمة تُسكر أكثر من الخمر أحياناً،  
هذه الليلة المباركة ستحدّث عنها الجرائد غداً...  
- لم كفى الله الشرّ؟ ناوي تعمل حادثة؟  
- الطفّ يا ربّ بي وبها...  
وعند ذاك قالت في شيء من الاهتمام:  
- لم تحدّثني عن زوجك الجديدة...؟  
فربت ياسين شاربه وهو يقول:  
- حزينه المسكينة! ماتت أمّها هذا العام...  
- العمر الطويل لك، كانت غنيّة؟  
- تركت بيتاً، البيت المجاور لبيتنا، أعني المجاور  
لبيت والدي، ولكتّها تركت في نفس الوقت شريكاً  
لزوجي فيه وهو زوجها!  
- لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فأنت لا تقع إلاّ على  
النقاوة...  
فقال بحذر:  
- لها جمالها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...  
- آه منك آه...!  
- هل عرفتي كاذباً أبداً؟  
- أنت؟! أنا أشكّ أحياناً في أنّ اسمك هو ياسين  
حقّاً...  
- إذن فلنشرب هذه الكأس أيضاً...  
- تُسكّرني كي أصدّقك؟!  
- إذا قلت لك إنّني أرغب فيك وأحنّ إليك فهل  
تشكّين في صدقي؟ انظري في عينيّ، وجسّي  
نبضي...  
- أنت خليك بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة  
تصادفك...  
- هذا كما يقال إنّ الجائع يودّ ألوان الطعام جميعاً،  
ولكنّ الملوخيّة مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصّة...  
- الرجل الذي يحبّ امرأة حقّاً لا يتردّد عن الزواج  
منها...  
فنفخ، ثم قال:  
- أنت مخطئة، بودّي لو أقف فوق هذه المائدة  
وأصرخ بأعلى صوتي: من يجبّ منكم امرأة فلا  
يتزوّجها، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج.  
صدّقني، إني مجرّب، وقد تزوّجت مرّة وأخرى وأعرف  
مدى صدق ما أقول...  
- لا بدّ أنّ زوجك جميلة، فأنت لا تقع إلاّ على  
النقاوة...  
فقال بحذر:  
- لها جمالها، غير أنّه لا يقاس بجمالك أنت...  
- آه منك آه...!  
- هل عرفتي كاذباً أبداً؟  
- أنت؟! أنا أشكّ أحياناً في أنّ اسمك هو ياسين  
حقّاً...  
- إذن فلنشرب هذه الكأس أيضاً...  
- تُسكّرني كي أصدّقك؟!  
- إذا قلت لك إنّني أرغب فيك وأحنّ إليك فهل  
تشكّين في صدقي؟ انظري في عينيّ، وجسّي  
نبضي...  
- أنت خليك بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة  
تصادفك...  
- هذا كما يقال إنّ الجائع يودّ ألوان الطعام جميعاً،  
ولكنّ الملوخيّة مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصّة...  
- الرجل الذي يحبّ امرأة حقّاً لا يتردّد عن الزواج  
منها...  
فنفخ، ثم قال:  
- أنت مخطئة، بودّي لو أقف فوق هذه المائدة  
وأصرخ بأعلى صوتي: من يجبّ منكم امرأة فلا  
يتزوّجها، أجل، لا شيء يقتل الحبّ كالزواج.  
صدّقني، إني مجرّب، وقد تزوّجت مرّة وأخرى وأعرف  
مدى صدق ما أقول...

والحركات وغيرها تغري جميعاً بالضحك، والوقت يمر كالشهاب، وحاملو ميكروب العريضة يوزعون بين الموائد بوجوه أثقلتها الرزاة، أما أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد يغطي عليها صليل عجلات الترام، وغلجان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطاً كطين الذباب، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع وتستقر، كأنك تنتظر حتى يجيئك الساقى فيسالك: أليس للشوان مقر؟ وأنت عن ذاك وما هو أجل لاه سادر، لو تسجد مريم بين يديك هامسة: حسي غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى من النساء، أو يربت ناظر المدرسة كتفك كل صباح قائلاً: كيف حال والدك يا بني؟ لو تشق الحكومة طريقاً جديداً أمام دكان الحمزاوي وربع الغورية، أو تقول لك زنوبة: ساهجر غداً بيت صاحبي وأكون طوع بنانك، لو حدث هذا لاجتمع الناس عقب صلاة الجمعة يتبادلون قبل الصفاء، أما حكمة الليلة فهي أن تجلس على الكنبه وأن ترقص زنوبة عارية بين يدك، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة فوق سرتها:

- كيف حال الشامة المحبوبة؟

تساءل وهو يشير إلى بطنه باسمًا، فقالت ضاحكة: - تبوس يدك...

فألقي نظرة زائغة على المكان، وقال:

- أترين هؤلاء الناس، ما منهم إلا فاسق وابن فاسق، هكذا كل الناس السكيرين...

- تشرّفنا، أما أنا فمخّي يتطاير...

- أرجو أن يطير الجزء الذي يقيم فيه رفيقك...

- آه لو علم بما هو حاصل لنا! سوف يطعنك يوماً بفردة شاربه

- أهو شامي من ذوي الشوارب الجبّارة و...

- شامي؟! ... (ثم ترنمت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم.

- هس، لا تلتفتي إلينا الأنظار...

- أي أنظار يا أعمى! لم يبق إلا نفر قليل...

وهو يمسح على بطنه نافحاً:

- لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التي تناسبك...  
- تناسبني؟ كيف تكون هذه المرأة؟ وبأي حاسة يهتدى إليها؟ وأين تكون هذه المرأة التي لا تمّل؟  
فضحكت في فتور، وقالت:  
- كأنك تتمنى أن تكون ثوراً في حديقة أبقار، هذا هو أنت!

ففرق بأصبعه طرباً، وقال:

- الله... الله، منذ الذي كان في زمان مضى يدعوني بالثور؟... إنه أبي ربنا بمشيئه بالخير، كم أود لو أكون مثله، حظي بامرأة هي آية الطاعة والقناعة، وانطلق على هواه لا يجد في حياته المتاعب، موقفاً في زواجه، موقفاً في عشقه... هذا ما أريد...  
- ما عمره؟

- أظنه في الخامسة والخمسين، بيد أنه أقوى من الشباب...

- لا عظيم أمام السنين، ربنا يمتعه بصحته...

- إلا أبي، إنه معشوق العشوقات من النساء، ألا ترينه الآن في بيتكم؟

فقالت ضاحكة وهي ترمي بعظمة إلى قطة تموء تحت قدميها:

- هجرت ذلك البيت منذ أشهر، الآن لي بيتي الخاص وأنا سيّدة!

- حقاً؟! حسبك تمزحين، وهل هجرت التخت أيضاً؟

- هجرته، إنك تحدث سيّدة بكل معنى الكلمة...

فقهقه في انبساط، ثم قال:

- إذن اشربي ودعيني أشرب، وربنا يلفظ بنا...

في النفس فتنة وفي الجوف فتنة، ولكن أيها الصوت وأيتها الصدى؟ وأعجب من هذا أن الحياة تدب في

الجلادات، الأصص ترنح هامسة والأركان تتناجى، السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلم،

وبينه وبين صاحبه رسائل متبادلة تفصح عن المكنون في جو مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهز

الفؤاد ويزغل العين، وفي الدنيا شيء يدغدغ البشر فلا يتركها حتى تغرق بالضحك، الوجوه والكلمات



- الخمر مجنونة...  
- المجنونة أمك...  
- صوتك يعلو أكثر مما ينبغي، قومي بنا...  
- إلى أين؟  
- عمرك أطول من عمري، لنسرع الأمر إلى قدمينا...  
- وهل يفلح من يترك قياده إلى قدميه؟  
- إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر...  
- فكّر قليلاً في...  
فقاطعها وهو ينهض مترجّحاً:  
- علينا أن ندبر أمورنا بلا تفكير، لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد، قومي بنا...  
- ٢٦ -  
أسبلت المساكن جفونها، وأفقرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أما الصمت فقد خلا له الجوّ فتاة ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشزراء، كأنك مريض يترجّح فهم يجنبوه، أجل إنك تلاقى الإعراض بالازدراء ولكنك ستظلّ بلا مأوى، وقد ضمّ الرقاد العاشقين فيلامّ تهم على وجهك، وها هو حوزي يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب، فوارحمته للذي يسحب المرأة في أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين...؟  
- إلى أين؟  
أجاب الحوزي باسماً:  
- تحت الأمر...  
فقال له ياسين:  
- لم أقصّدك بسؤال...  
فقال الرجل:  
- تحت الأمر على أي حال...  
عند ذاك قالت زئوبة:  
- لا تسألني أنا سل نفسك، لم تفكر في ذلك قبل أن تسكر؟!  
عاد الحوزي يقول متشجّعاً بوقوفها أمام العربة:
- النيل! أحسن مكان، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل؟  
فتساءل ياسين محتدّاً:  
- أحوزي أنت أم نوتي؟! ماذا نفعل عند النيل في هذا الوقت من الليل؟!  
قال الحوزي بإغراء:  
- هنالك النور ضئيل والمكان خال...  
- جو مناسب لقطاع الطرق!  
زئوبة بخوف:  
- يا خير أسود، أذناي وعنقي وساعداي محملة بالذهب!  
فقال الحوزي وهو يهزّ منكبيه:  
- الدنيا بخير، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما، ونعود على أحسن حال...  
زئوبة بحدة:  
- لا تذكر النيل على لسانك، إنّ بدني يقشعرّ للذكره!  
- بُعد الشرّ عن بدنك...  
صاح ياسين وكان قد اتّخذ مجلسه في العربة إلى جانب زئوبة:  
- كلّمني أنا، مالك أنت وبدنها!  
- يا بك أنا خدامك...  
- الليلة كلّ شيء متعقّد...  
- ربّنا يحلّ عسيرها، إن أردت فندقاً ذهبنا إلى فندق...  
- تشاجرنا في ثلاثة فنادق، ثلاثة أم أربعة يا زئوبة؟ شُفّ غيرها.  
- نرجع إلى النيل...  
زئوبة بغضب:  
- الذهب يا عمر...!  
ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفي:  
- فضلاً عن أنّه ليس هناك مكان...  
فقال الحوزي:  
- أمّا عن المكان فلديك العربة...  
هتفت زئوبة:

- هل أنذرنا مضايقتي؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربه:

- لك حق، لك حق، ثم إنَّ العربَ مكان غير صالح، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن، اسمع...

مدَّ الرجل أذنه، فصاح ياسين بنفخة أمرة:

- إلى قصر الشوق!

طق طق طق، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم، في الأفق قلق يلوح، ثم لا يلبث أن يغرق في بحر النسيان كالذكرى المستعصية، ذلك أنَّ الإرادة ذائبة في كأس من الخمر، وإذا رفيقة الهناء تساءلت بلسان ملعثم عن: أين يقصد في قصر الشوق؟ أجاب إلى بيتي الذي ورثته عن أمي، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم، والليله يحتضن سيِّدة الليالي الخوالي، وزوجك أيها السكران؟ في النوم مغرقة، أليس لكل شيء حساب... وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه، اقطني من لآلئ النجوم ما ترصعين به جبينك، وغني في أذني وحدي: هاتيلي حبي يا نينة الليلة...

- وأين أقضي بقيَّة الليل...؟

- سأوصلك إلى حيث تريدن...

- لن تستطيع أن توصل قسَّة.

- باريس في الوجه البحري...

- لولا أنَّ أخافه!

- من هو؟!

بصوت منكسر وهي تلقي برأسها إلى الوراء:

- من يدري؟ نسيت...

غشي الجماليَّة ظلام داس، حتَّى القهوة أغلقت أبوابها. وقفت العربى عند مدخل قصر الشوق فغادرتها ياسين وهو يتجشأ، وتبعته زُنوبة معتمدة على ذراعه، ثم مضيا معًا في حذر لم يغني عن الترنج، يتعقبهما

سعال الحوذني وأطيط حذاء الخفير الذي مرَّ بالعربة

وهي تدور مستطلما، وقالت له: إنَّ الطريق وعمر،

فقال لها: لكنَّ الدار أمان، وقال لها أيضًا: لا تشغلي

البال. وعينًا حاولت أن تذكره بأنَّ زوجته في الشقة التي إليها يسعيان، فضلًا عن أنَّها كانت تحاول تذكيره وهي تبتسم في الظلام ابتسامة بلهاء، وكادت قدمها تعثر مرتين وهي ترقى السلم، حتَّى وقفا أمام الشقة وهما يلتهان، بعثت رهبة الموقف في شعورهما المبعثر يقظة عابرة حاولت أن تلتم شتاته بقبضة وانية، فأدار المفتاح في القفل بحذر ثم دفع الباب برفق بالغ، وبحث في الظلام عن أذن زُنوبة حتَّى عثر عليها، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء، وفعل مثلها، ثم تقدَّمتها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل، ثم دفع بابها وانسلَّ إلى الداخل وهي في أثره. تنهَّدًا معًا بارتياح، وردَّ الباب ثم قادها إلى الكنبه وجلسا معًا، قالت متضايقه:

- الظلام شديد، أنا لا أحب الظلام!

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنبه:

- ستألفينه بعد قليل...

- بدأ تحي يدور...

- الآن فقط؟!

وقام فجأة دون أن يلقي إلى ما أجابت به بالأ وهو يهمس في ارتياح:

- لم أغلق الباب الخارجي...

ومدَّ يده ليخلع طربوشه فهتف:

- نسيت الطربوش أيضًا! في العربى يا ترى أم في

توفابيان؟

- الطربوش في داهية، أغلق الباب يا عمر...

تسلَّل مرَّة أخرى إلى الصالة، ثم إلى الباب الخارجي فأغلقه بحذر شديد، وفي طريق عودته خطرت له فكرة مغرية، فأنجبه نحو الكنصول وهو يمدُّ يده أمامه رائدة لتقيه الاصطدام بكرسيِّ السفرة، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضًا على زجاجة كونيَّاك مملوءة حتَّى نصفها، وضع الزجاجة في حجرها وهو يقول:

- جئتكَ بدواء لكلِّ شيء...

فتحسَّست يداها الزجاجة، وقالت:

- خمر؟! ... حسبك! أتريد أن نطفح؟!

بحق، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافاً متهذباً  
مخشوشاً بالحقد والغضب، قالت:  
- في بيتي!... في بيتي!؟، في بيتي يا مجرم يا بن  
الشياطين!

ودوى صوتها كالرعد يصب على اللعنات وينعته  
بكل خبيث، صرخت وصوتت حتى شق صوتها  
الجدران، ونادت السگان والجيران وهي تحلف  
لتفضحته وتشهد عليه النائم. وكان ياسين ينذرهما  
بشقي الوسائل ليسكتها، لوح لها بيده وحمل فيهما  
بعينه، وصاح بها مزجراً، فلما خابت وسائله نهض  
منفعلاً وأتجه نحوها بخطوات واسعة ليلبغها في أقصر  
وقت دون اندفاع خشية أن يختل توازنه، ثم انقض  
عليها مسدداً راحته إلى فيها ليسده، ولكنها صرخت في  
وجهه كالهرة البائسة وركلته بقدمها في بطنه، فتراجع  
مرتجاً مكفهر الوجه من الحق والألم ثم سقط على  
وجهه كالبيان المتهدم، انطلقت من زئوبة صرخة  
مدوية فجرت مريم نحوها وارتمت عليها، وجذبت  
شعرها بيدها وأنشبت أظفارها الأخرى في عنقها  
وجعلت تبصق في وجهها وهي تسب وتلعن، وما لبث  
ياسين أن نهض ثانياً هائلاً رأسه بعنف كأنما ليطرده عنه  
الخسار، فتحوّل إلى الكنبه وسدد نحو ظهر زوجته  
الراقدة فوق غريمته قبضة شديدة فصرخت مريم  
وتراجعت زائغة عنه، فتبعها وقد أعماه الغضب موجهاً  
إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينها السفرة، وعند  
ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب  
صدره فجري نحوها، وراحا يدوران في الصالة وهو  
يصيح بها «اغربي عن وجهي، أنت طالق...»  
طالقة... طالقة...». وإذا بيد تنقر الباب وصوت  
الجارقة المقيمة في الدور الثاني ينادي «ست مريم...  
ست مريم»، فتوقّف ياسين عن الجري وهو يلهث،  
أمّا مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملأ  
السلم كله:

- تعالي انظري داخل الحجرة وخبريني هل رأيت  
مثل هذا من قبل!؟ عاهرة في بيتي تسكر وتعربد،  
ادخلي وانظري.

- جرعة نسترد بها أنفاسنا بعد هذا الجهد!  
شرب حتى ظن أنه قادر على كل شيء، وأن الجنون  
حال تستطاب، وهاج البحر فعلاً مع موجه وسفل ثم  
دار في دوامة ما لها من قرار، وسلت في أركان الحجرة  
السنة تنطق في الظلماء لغواً وهذراً، وتند عنها  
ضحكات معربة، في ضجة كضوضاء السوق حتى  
الغناء جرى في أثيرها، وهوت الزجاج على الأرض  
فأحدثت صوتاً كالندير، ولكن كان أمامه شوط عليه  
أن يقطعه ولو في بحر من العرق، طال الوقت أم قصر  
فليس الزمان في حسابانه، لذلك تحرك الظلام وشاب  
إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة، وكما يستيقظ الحالم  
السعيد وهو يمد اليد ليقطف لذة جديدة استيقظ هو  
على صوت وحركة، فتح عينيه فرأى نوراً وظلاً  
يتراقص على الجدران، وثني رقبته فلمح عند الباب  
مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح  
عابسة وعينين تشعان شر الغضب. تبودل بين  
المنظرين على الكنبه والواقفة عند الباب نظرات  
طويلة غريبة، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة  
بالغضب من الناحية الأخرى، ثم لم يعد الصمت ثماً  
يُستطاع. أعربت زئوبة عن قلقها بأن فتحت فاهها  
لتتكلم ولكنها لم تقل شيئاً، ثم غلبها بغتة ضحك  
طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها  
بكفيها، وإذا بياسين يصيح بها بلسان ثقيل:

- كفي عن الضحك!... هذا بيت محترم!  
وبدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعها لسانها  
أو أعجزها الغضب، فقال لها ياسين ولم يكن يدري  
ماذا يقول:

- وجدت هذه «الس» في حالة سكر شديد،  
فجئت بها إلى هنا حتى تفيق...

ولم تسكت زئوبة، فقالت معترضة:  
- هو السكران كما ترين، وقد جاء بي بالقوة...

ندت عن مريم حركة خطيرة كأنما همت بأن تقذفها  
بالمصباح، فصلبت قامه ياسين ونظر إليها متحفظاً،  
ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام،  
فوضعت المصباح على منضدة وهي تصر على أسنانها

فقال الجارة باستحياء:

- هذئي نفسك يا ست مريم، تعالي معي حتى الصباح...

هتف ياسين دون مبالاة:

- اذهبي معها، لا حق لك في البقاء في بيتي...  
فصرخت مريم في وجهه:  
- يا فاسق، يا مجرم، تحيئي بعاهرة في بيت الزوجية...

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها:

- أنت العاهرة، أنت وأهلك...

- تسب أمي وهي بين يدي الله!

- أنت عاهرة، أنا أعلم ذلك عن يقين، ألا تذكرين الجنود الإنجليز؟! الحق عليّ لأني لم أستجب إلى تحذير الناس الطيبين!

- أنا ستك وتاج رأسك، أنا أشرف من أهلك ومن أهلك، سل نفسك عن الرجل الذي يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت! هل يكون إلا قوادًا خسيسًا؟! .. (وهي تشير إلى حجرة الاستقبال)...  
تزوج من هذه، إنها من النوع الذي يوافق مزاجك القدر...

- كلمة أخرى، وسيل دمك حيث تقفين...

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتذف اللهب حتى تدخلت الجارة لتحول بينها إذا دعا داع، وجعلت تربت منكبها متوسلة إليها أن تمضي معها حتى يطلع الصبح، واشتد الضيق بياسين فصاح بها:

- خذي ثيابك واخرجي، ابعدي عن وجهي، لا أنت زوجي ولا أنا أعرفك، أنا داخل الحجرة الآن وإياك أن أجعلك إذا عدت...

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجت لها الجدران، ثم ارمى على الكنبه وهو يجفف عرق جبينه، همست زنوبة قائلة:

- إني خائفة...

فقال بخشونة:

- اسكتي، مم تخافين؟! (ثم بصوت مرتفع) أنا حر... أنا حر...

فقال وكأنها تخاطب نفسها:

- ماذا أصابني في عقلي حتى طاوعتك وجئت معك إلى هنا؟

- اسكتي!... ما كان كان ولست أسفًا على شيء... أف...

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق، فدلّت على أنّ أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة، ثم سمع صوت مريم وهي تقول بلهجة باكية:

- هل سمعتم عن هذا من قبل؟ عاهرة من عرض الطريق في بيت الزوجية؟ استيقظت على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنيان! إي والله كانا يغنيان بلا حياء بعد أن أذهلهما السكر، خبروني أهذا بيت أم ماخور؟! وإذا بصوت امرأة تقول محتجة:

- أجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح أن تغادره، فلتنادره الأخرى...

فهتفت مريم:

- لم يعد بيتي، لقد طلقني المحترم!

فقال أخرى:

- لم يكن في وعيه، تعالي الآن معنا ولنؤجل الحديث إلى الصباح، ومهما يكن من أمر فياسين أفندي رجل طيب وابن ناس طيبين، لعنة الله على الشيطان، تعالي يا ابنتي ولا تحزني...

فصاحت مريم:

- لا كلام ولا حساب، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة...

ثم تتابع وقع الأقدام مبتعدًا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلا أصوات مبهمه، ثم دوت صفقة الباب وهو يغلق. نفخ ياسين طويلًا ثم استلقى على ظهره...

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة، وجد في رأسه ثقلًا لا عهد له به رغم أنها لم تكن أول

مرةً يستيقظ بعد ليلة مغمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زئوبة وهي تغطّ في نومها إلى جانبه، هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية في لقطة واحدة: زئوبة في فراش مريم، ومريم!؟ عند الجيران، والفضيحة!؟ في كلّ مكان، يا لها من وثبة جبّارة في هاوية التهدير، ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكلّ شيء قد يتغيّر إلّا أمس، أيوقظها؟ ولكنّ له؟ فلتمتلئ نومًا حتّى تشبع، ولتبق حيث هي فما ينبغي أن تغادر البيت قبل أن يُقبل الظلام، ولم يكن بدّ من استعادة شيء من حيويّته ليلاقي به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثمّ مضى إلى الخارج ثقيلًا منفوش الشعر منتفخ الجفون عمرّ العينين. ثناءب في الصلاة بصوت كالخوار ثمّ نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثمّ أغمض عينيه متأوّمًا من ثقل رأسه وقصد إلى الحّمّام. أمامه يوم عسير حقًا، مريم عند الجيران والأخرى محتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفي آثار جرمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسرّبها قبل أن يآوي إلى فراشه فكيف توانى عمّا يجب!؟ أيّ غاشية غشيتة!؟ بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم!؟ إنّه لا يذكر شيئًا، لا يذكر حتّى كيف ومتى استجاب للنوم، والجملة أنّها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنّها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهمّ والصداع...

ولكن لا عجب فهذه الشقّة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركة أمّ غفر الله لها، مضت الأمّ وبقي الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكّان والجيران وغداً تهرع الأنباء إلى بين القصرين... فإلى الأمام! قرار هاوية سحيقة من العريضة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذي تغتسل به يطهر النفس من ذكريات السوء، ومن يدري فلعلّك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمةً ترصد خروج المرأة التي طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلّا لن تسمح لها بالخروج معها يكن من أمر، أمّا مريم فقد طلقها! طلقها وما أردت ذلك وأمّها لم يجفّ ماؤها في قبرها بعد، فإذا

يقول عنك الناس أيّها المفترى!؟ وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة يُنعش به حواسّه، فغادر الحّمّام إلى المطبخ، وفي أثناء عبوره الدهليز الذي يفصل بينها لمح الكنصول في الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهرقة في غرفة الاستقبال، وتساءل لحظة عمّا أصاب السجّادة، ثمّ ذكر في اللحظة التالية وفي أسف ساخر أنّ أثاث الشقّة كلّ لم يعد ملكه وأنّه سيلحق عسًا قليل بصاحبته، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبًا مملوءًا حتّى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم، وهنالك وجد زئوبة جالسة في الفراش تتمطّى وتشاءب، فالتفت نحوه وقالت:

- صباحنا خير، وإن شاء الله نغيّر ريقنا في القسم! فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب، ثمّ قال:

- قولي يا فتّاح يا عليم... فلوّحت بيديها حتّى وسوست الأساور الذهبية حول ساعديها، وقالت:

- أنت السبب في كلّ ما حصل... فجلس على حافة السرير فيما يلي ساقها الممدودتين، وقال بضيق:

- محكمة! هه! قلت لك قولي يا فتّاح يا عليم! فربّنت سلسلة ظهره بكعب قدميها، وهي تقول متأوّهة:

- خربت بيتي، الله وحده يعلم ما ينتظرني هناك...

فوضع ساقًا على ركبته حتّى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت مكتنزة مغطّاة بغابة من الشعر الفاحم، وقال:

- رفيقك؟ خيبة الله عليه! ما يكون هذا إلى طلاق زوجي!؟ أنت التي خربت بيتي، وبيتي أنا السدي خرب...

قالت وكأنّها تحدّث نفسها:

- ليلة سوداء لم أعرف لي فيها رأسًا من قدمين، لا تزال الضوضاء تدوّي في رأسي، لكنّ الحقّ عليّ، ما كان ينبغي لي أن أطاوعك من بادئ الأمر...

- كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة، الغرباء في الطريق يتساحون مع السكاري المرعدين، هي التي جئت على نفسها بالطلاق، وماذا كنت تقول لها؟... يا عاهرة يا بنت العاهرة، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز...؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يحدجها بنظرة عنقة متسائل كيف رسخت هذه الألفاظ في ذاكرتها، وغمغم في ضيق:

- كنت غاضباً لا أدري ماذا أقول!

- إحم!

- إحم في يافوخك!...

- الجنود الإنجليز؟... هل جئت بها من بار فنشي؟!

- أستغفر الله، إنها بنت ناس وجيران العمر، ولكنّه الغضب عليه ألف لعنة...

- لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!

- وحياة خالتك حسبنا ما نحن به...

- خبّرني عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسي... بصوت عال محتد:

- قلت إنه الغضب وكفى...

شهقت ساخرة، ثم قالت:

- أتدافع عنها؟... اذهب فاستردّها...

- ملعون أبو البارد الذي لا يستحي...

- ملعون أبوه...

غادرت الفراش إلى المرأة فتناولت مشط مريم، وراحت تمشط شعرها بعجل وهي تتساءل:

- ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بي؟

- قولي له مع السلامة، أمّا بيتي فمفتوح لك على الدوام...

فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة:

- أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنّا بسبيل التفكير الجدّي في الزواج.

- الزواج! وهل ما زلت تفكرين فيه بعد ما رأيت

من أحواله في الليلة الماضية؟!

قالت في دهاء:

خيّل إليه أنّها راضية رغم تشكيها، أو أنّها تدّعي التشكيّ ادّعاء، ألم يعرف في الأزبكية نساء يتباهين بكلّ عراك دمويّ ينشِب من أجلهنّ؟! على أنّه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حدّ اليأس فأعفته من مشقّة النهوض لمعالجتها، فلم يملك إلّا أن يضحك وهو يقول:

- شرّ البليّة ما يُضحك! اضحك، خربت بيتي واحتللت، قومي فاصلحي من شأنك واستعدّي لإقامة طويلة حتّى يُقبل الليل، لن تغادري البيت حتّى يأتي الليل...

- يا خبر أسودا سجيّة! أين زوجك؟

- لم يعد لي زوجة...

- أين هي؟

- في المحكمة الشرعيّة إن صدق ظنيّ...

- أخاف أن تعتدي عليّ عند خروجي...

- تخافين؟! ربّنا يرحمنا! إنّ ليلة أمس على فظاعتها

لم توهن من مكرك وخبتك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدأ أنّها تقرّ بالتهمة الموجّهة إليها، وفي مباهاة أيضاً، ثمّ مدّت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلاً منها، ثمّ ردّها إليه وهي تتساءل:

- والان؟

- كما ترين، لا علم لي أكثر منك، ولكن يحزّ في نفسي أن أنكشف أمام الناس كما انكشفت في الليلة الماضية...

هزّت منكبيها في استهانة قائلة:

- لا تهتمّ بذلك، ما من رجل إلّا ويخفي تحت ذقنه مخازي تضيق عنها الأرض.

- رغم هذا فالفضيحة فضيحة، تصوّري الشجار والعيول والطلاق عند الفجر! تصوّري الجيران وقد فزعوا إلى شقّتي مستطلعين فرأت أعينهم كلّ شيء. قطّبت قائلة:

- كانت هي البادئة!

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة، فعادت تقول بإصرار:

- أنت لا تفهمني! لقد ضقت ذرعًا بالحياة الحرام، ليس وراءها إلا البوار، إنَّ مثلي إذا تزوجت قدَّرت الحياة الزوجية خير قدرها!
- من المغفل يا ترى؟! التخت لم يكن يعدّها بأكثر من عوادة، وحياة الهوى ليس وراءها بعد الثلاثين - وستبلغها قريبًا - إلا التلف، فالزواج هو الأمل الموعود، هل تقصّديك بهذا الحديث؟... ما ألدَّ الشيطانة! لا أنكر أنني أريدها، أريدها بكلِّ قوّة، وفضيحتي تشهد على ذلك...
- أتحبّيه؟
- كالغاضبة:
- لو كنت أحبّه ما وجدتني الآن سجيّة هنا!...
- اهتزّ صدره حنّانًا رغم ارتبابه في صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلًا لا شكّ فيه.
- لا غنى لي عنك يا زُتوبة، في سبيلك ارتكبت جنونًا غير مهال بالعواقب، أنت لي وأنا لك من قديم الزمان...
- وساد الصمت، بدت كأنّها تنتظر مزيدًا على لَهف، ولكنّه لم ينبس فقالت:
- هل أقطع أسبابي بذلك الرجل؟ لست من اللاتي يستطعن أن يجتمعن بين رجلين...
- من هو؟
- تاجر من ناحية القلعة يدعى محمّد القللي...
- متزوِّج؟
- وله أولاد، ولكنّه كثير المال...
- وعذك بالزواج؟
- يغريني به، ولكنني متردّدة، لأنَّ ظروفه وكونه زوجًا وأبًا ممّا يندّر بالمتابع...
- احتمل مكرها من أجل جمال عينيها.
- لمْ لا نعود كما كنّا؟... لست فقيرًا على أيِّ حال...
- لا يعنيني مالك، ولكن ضقت بحياة الحرام!
- والعمل؟
- لهذا ما أسأل عنه...
- أفصحني...
- قلت ما فيه الكفاية...
- يا له من هجوم غير متوقّع، أجل إنّه يبدو أوّل ما يبدو مضحكًا، غير أنّه يريدّها فلا يسعه أن يردّ على الهجوم بمثله، قال بعد صمت:
- لا أخفي عنك أنّي بئس أنطير من الزواج...
- كما أنطير من الحرام!...
- لم تكوني كذلك أمس!
- كان في قبضة يدي زوج، أمّا اليوم!...
- قليل من المرونة حتّى نتلاقى، شيء واحد لا ينبغي أن يغيب لك عن بال، وهو أنّي معها تظل بي عشرتك فلن أتخلّى عنك...
- فهمتحت محتدة:
- سوابقك تشهد على صدقك...
- فقال بلهجة جدّية يداري بها ضعف مركزه:
- الإنسان لا يتعلّم بلا ثمن...
- لم تعد تغرّر بي الأقوال، آه منكم يا رجال!
- ومكنّ يا نساء أليس ثمة آه؟! يا بنت أخت زبيدة رحمتك، جاءت بعد منتصف الليل سكّرى وفي الصباح ضاقت بالحرام، لعلّها قالت لنفسها: إذا كانت زوجة الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجة الثالثة؟! هانّ ياسمين، أنسيّت ما ينتظرك في الخارج من المتاعب؟ دع المتاعب تنتظرك ولكن لا تفقد زُتوبة بكلمة نابية، كما فقدت مريم، مريم؟ الآن كفّرت عن ذنبي يا أخي، قال بهدوء:
- يجب ألاّ ينقطع ما اتّصل بيننا...
- بيدك انقطاعه واتّصاله...
- يجب أن نلتقي كثيرًا ونفكر كثيرًا...
- من جانبي لا حاجة بي إلى تفكير جديد!
- فليمّا أن أقنعك برأيي، ولمّا أن تقنعيني برأيك...
- لن أقنع برأيك...
- وغادرت الحجرة وهي تداري عنه ابتسامة فاتّبع ظهرها المتأوّد نظرة استغراب، أجل كلّ شيء يبدو غريبًا، ولكن أين مريم؟ وحيدة على أيِّ حال ولن

صَحَّ عنده صدق هذه الشيطانة، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقي من عمره، هل آن له أن يثوب إلى رشده؟ مهلاً...

- متى عدت إلى العوامة؟

فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد، وراحت تتأمل شبشبها البمبي ذا الوردة البيضاء وأصابها المخضبة بالخناء، ثم قالت:

- هلاً جلست أولاً وخلعت طربوشك لأرى مفرق

شعر رأسك؟ عدت يا سيدي مع الضحى...

- كذابة!

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضباً ويأساً، ثم استطرد قائلاً في عنف قبل أن تفتح فاهها:

- كذابة، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر،

لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرتين فلم أجذك...

وجمت قليلاً ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضحك:

- الحق أني عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريباً،

لم يكن ثمة ما يدعوني إلى اختلاق الكذب لولا أنني

لمحت في عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله،

الحق أن باسمينة ألحت علي في الصباح كي أتسوق

معها، ولما علمت بانفصالي عن خالتي عرضت علي

أن أنضم إلى تحتها على أن تنييني عنها في بعض

الأفراح، وطبعاً لم أوافق، لسابق علمي بأنك لن

ترضى عن سهري مع التخت، المقصود أنني بقيت معها

لعلمي بأنك لن تحيي إلى هنا قبل التاسعة مساءً، هذه

هي الحكاية فاجلس وصل على النبي...

حكاية مختلقة أم صادقة؟ لو يطلع أصحابك على

موقفك هذا؟ لشدة ما تهزأ بك المقادير، على أنني أعفو

على أضعاف هذا في سبيل قطرة من الراحة، تشد

الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل، هكذا هانت

عليك نفسك أمام العوادة، كانت موكلة يوماً بخدمتك

تقدم لك في مجلس الأنس الفاخرة وتنصرف في صمت

وأدب، إنما الراحة أو فلتستعير نيران الجحيم.

- باسمينة العالمة ليست في جبال الواق، سوف

أسألك عن حقيقة الحكاية...

تذوق نفسه الراحة والسلام، وسيُسال غداً في بين القصرين وبعد غد في المحكمة الشرعية، ولكن كانت حياتها في الأيام الأخيرة تضالاً متواصلاً، حتى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت عيشتك، لم أخلق كي أوفق في الزواج، وهكذا كانت حياة جدتي؟ إني أشبه الأسرة فيما يقال، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوج مني...

- ٢٨ -

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيد أحمد عبد الجواد القنطرة الخشبية المؤدية إلى العوامة، ودق الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زئوبة في فستان من الحرير الأبيض نمت شفافيته عن محاسن جسدها، فلما رآته هتفت:

- أهلاً... أهلاً، قل ماذا فعلت أمس؟ تصورت

حضورك ودق الجرس دون نتيجة ووقوفك حيناً ثم

ذهابك... (وهي تضحك) ووساوسك، قل ماذا

فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذي يتطاير منه بدا وجهه متجهماً وعيناه جامدتين تعكس حداثتهما استياء، سال قائلاً:

- أين كنت أمس؟

فتقدمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط

الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على النيل ولم يجلس، أما

هي فجلست على مقعد بين النافذتين وهي تتظاهر

بالهدوء والثقة والابتسام، ثم قالت:

- خرجت - كما تعلم - أمس لأستبضع، فقابلت في

بعض الطريق باسمينة العالمة فدعني إلى بيتها،

وهناك أبت علي أن أنصرف، وما زالت بي حتى

أجبرتني على المبيت عندها، لم أكن رأيته منذ انتقلت

إلى هذه العوامة، لو سمعتها وهي تطعن في وفائي

وتسألني عن سر الرجل الذي أنساني عشيرتي وجيراني!

صادقة أم كاذبة؟ هل عانى آلام أمس واليوم بلا

سبب حقاً؟ إنه لا يريج ملياً ولا يخسر ملياً بلا سبب،

فكيف عانى تلك الآلام المروعة بلا سبب؟! دنيا

ماكرة... غير أنه على استعداد لأن يلثم تراها إذا



قالت وهي تلوح بيدها في استهانة واستياء: - سألها كيف بدأ لك...  
وغلبتة أعصابه الثائرة المنهكة فجأة، فقال بعناد: - سوف أسألك هذا المساء، إنني ذاهب إليها، الآن... حققت لك كل رغباتك فينبغي أن تحترمي حقوقي كاملة...  
وانتقلت إليها عدوى هياجه، فقالت بحدة: - مهلاً، لا ترميني في وجهي بالتهم، فقد اتسع لك حلمي حتى الآن، ولكن لكل شيء حد، أنا إنسانة من لحم ودم، فتح عينك وصل على أبي فاطمة!...  
تساءل في ذهول: - أبهذه اللهجة تخاطبيني؟  
- نعم ما دمت تخاطبني بمثلها! اشتدّت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف: - أنا أستاهل، فأنا الذي خلقت منك سيّدة وهيأت لك حياة تحسدك عليها زبيدة نفسها!...  
واستفزها قوله فبدت كاللبوة الهائجة، وصاحت: - خلقتني الله سيّدة لا أنت، لقد ارتضيت هذه الحياة بعد توسلاتك الحارّة، فهل نسيت هذا؟! لست أسيرة أو عبدة لك، تحقيق ومحضر، ماذا تظن بي؟ هل اشتريتني بمالك؟ إذا كانت حياتي لا تعجبك فليذهب كل منّا إلى حال سبيله...  
يا ربّ السماوات أهكذا تستحيل الأظافر المدلّلة إلى مخالب؟ إن كنت في شك من الليلة البارحة فاستخير هذه اللهجة الوقحة، جنس غرود ابتليت به فتجرّع الألم حتى الثمالة، انهل من الإهانة حتى تكتفي، والآن ما جوابك! بأعلى صوتك اصرخ في وجهها: اخرجني إلى الطريق الذي التقطت منك منه. اصرخ، أجل اصرخ، ماذا يمنعك؟! لعنة الله على ما يمنعك، خيانة القلب شرّ من ألف خيانة، هذا هو ذلّ القلوب الذي كنت تسمع عنه وتهزأ منه، شدّ ما أكره نفسي إذ تحبّها...  
- تطرديني؟  
بنفس النبرات المحتدّة الغاضبة: - إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبّسني هنا كالرقيق وأن ترميني بالتهم كلّما حلا لك، فمن الخير لي ولك أن تنتهي...  
وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها في هدوء غير طبيعي بالذهول أشبه. أقصى ما أسأل الله من سعادة أن أنبذها دون مبالاة، هي ذلك وحققك ولكن تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد لها من أثر؟  
- لم أكن شديد الثقة في نبلك، ولكنّي لم أتصوّر أن يذهب بك الجحود هذا المذهب!  
- ترينني حرجاً لا شعور له ولا كرامة!  
أنت أحقر من هذا لو تعلمين!...  
- بل أريدك شخصاً يعرف للجميل حقّه وللعشرة حقّها...  
مغيرة لهجتها من الغضب إلى السخط والتشكي: - فعلت لك أكثر ممّا تتصوّر، ارتضيت أن أهجر أهلي وعملي لأبقى حيث تريد، حتى الشكوى كنتها كي لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأنّ «بعض الناس» يؤدّ لي حياة خير من هذه فلم ألق إليهم بالاً! أثمة متاعب أخرى لم تقع لي في حساب؟ تساءل كالجريح: - ماذا تعنين؟  
فحكفت على أسورة ذهبيّة تديرها حول ساعدها الأيسر، وهي تقول: - رجل محترم يريد أن يتزوّجني ويلجّ في ذلك بلا ملل...  
الحرارة والرطوبة يخفقانك خفقاً أمّا «العكنة» فقد فغرت فاها لتبتلعك، ما أسعد هذا الملاح الذي يطوي شراعه أمام النافذة!...  
- من هو؟  
- رجل لا تعرفه، فسّمه كيف شئت!  
تراجع خطوة، ثمّ جلس على كنبه تتوسّط مقعدين كبيرين، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألك: - متى رآك؟ وكيف علمت برغبته؟  
- كان يراني كثيراً حينما كنت أقيم مع خالتي، وفي الأيام الأخيرة كان يحاول مكالمتي كلّما صادفني في

طريقه، ولكي تجاهلته فحرض إحدى صديقاتي على  
إبلاغي رغبته، هذه هي الحكاية!

ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدتك أمس قاتلني ألم  
واحد، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب،  
اتركها إن استطعت، اهجرها فهجرتها هو سبيل  
السلام. أليس الناس مخطئين في تصوّرهم أنّ الموت  
شرّ ما يتلون؟! - أحب أن أعرف صراحة، هل تؤدّين قبول هذا  
العرض؟

تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه  
بوجهها فيها يشبه الكبرياء، ثم قالت بتوكيد:  
- قلت لك إنّ تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما  
أقول...

يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا  
تتكرّر ليلة أمس، غربل نفسك من الهواجس.

- صارحيني هل زارك أحد في العوامة؟  
- أحد؟! أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هذه العوامة أحد  
سواك...

- زئوبة، إنّني أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي  
عني شيئاً، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندني  
بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك...

قالت محتجة غاضبة:  
- إذا أصررت على الشك في صدقي فخير لنا أن  
نفترق...

أذكر الذبابة التي رأيتهما تحتضر في صباح اليوم في  
خيط العنكبوت؟! - حسبنا، دعيني أسألك الآن، هل قابلتك هذا  
الرجل أمس؟! - أخبرتك أين كنت أمس...

نافحاً على رغمه:  
- لماذا تعذّبيني، وما حرصت على شيء حرصي على  
سعادتك؟

ضربت كفّاً بكفّ، كأنما قد كبر عليها شكّه، ثمّ  
قالت:  
- لم لا تريد أن تفهمني؟... إنّني أرفض كلّ غالٍ

طريقه، ولكي تجاهلته فحرض إحدى صديقاتي على  
إبلاغي رغبته، هذه هي الحكاية!

ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدتك أمس قاتلني ألم  
واحد، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب،  
اتركها إن استطعت، اهجرها فهجرتها هو سبيل  
السلام. أليس الناس مخطئين في تصوّرهم أنّ الموت  
شرّ ما يتلون؟! - أحب أن أعرف صراحة، هل تؤدّين قبول هذا  
العرض؟

تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه  
بوجهها فيها يشبه الكبرياء، ثم قالت بتوكيد:  
- قلت لك إنّ تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما  
أقول...

يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتّى لا  
تتكرّر ليلة أمس، غربل نفسك من الهواجس.

- صارحيني هل زارك أحد في العوامة؟  
- أحد؟! أيّ أحد تعني؟ لم يدخل هذه العوامة أحد  
سواك...

- زئوبة، إنّني أستطيع أن أعرف كلّ شيء، لا تخفي  
عني شيئاً، صارحيني بكلّ كبيرة وصغيرة ولك عندني  
بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك...

قالت محتجة غاضبة:  
- إذا أصررت على الشك في صدقي فخير لنا أن  
نفترق...

أذكر الذبابة التي رأيتهما تحتضر في صباح اليوم في  
خيط العنكبوت؟! - حسبنا، دعيني أسألك الآن، هل قابلتك هذا  
الرجل أمس؟! - أخبرتك أين كنت أمس...

نافحاً على رغمه:  
- لماذا تعذّبيني، وما حرصت على شيء حرصي على  
سعادتك؟

ضربت كفّاً بكفّ، كأنما قد كبر عليها شكّه، ثمّ  
قالت:  
- لم لا تريد أن تفهمني؟... إنّني أرفض كلّ غالٍ

ما أجل هذه النعمة، المأساة أنّها يمكن أن تصدر  
عن قلب فارغ، كالمنغني الذي يذوب في نغمة حزينة  
شاكبة وقلبه ثمل بالسعادة والفوز.

- إنّني أشهد الله على قولك، صارحيني الآن: من  
يكون هذا الرجل؟

- ماذا يهمّك منه؟ قلت لك إنّك لا تعرفه، تاجر  
من غير حيّنا ولكنته كان يجلس من حين لآخر في قهوة  
سي عليّ...

- اسمه؟

- عبد التّوّاب ياسين، هل عرفته؟...

اكتريت هذه العوامة لقضاء وقت سعيد، هل تذكر  
أوقاتك السعيدة؟! أنّها الدنيا هل تذكرين أحد عبد  
الجواد الذي لم يكن يبالي شيئاً؟، زبيدة...

جليلة... بهيجة... سليهن عنه، إنّهُ بلا ريب غير  
هذا الرجل الخائر الذي اشتعل الشيب في فوديه...

- إنّ شيطان النكد هو أنشط الشياطين...

- بل هو شيطان الشك لأنّه يخلق من لا شيء...

جعل ينقر الأرض بطرف عصاه، ثمّ قال بصوت  
عميق:

- لا أريد أن أعيش أعمى، كلّ ولا شيء بقادر  
على أن يجعلني أتهاون في رجولتي وكرامتي، بالاختصار  
لا أستطيع أن أهضم ميتك في الخارج ليلة أمس...

- رجعنا مرّة أخرى!

- وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة  
عاقلة، واليوم تحدّثيني عن ذلك الرجل! هل غرّك  
حقاً وعده بالزواج منه؟

أجابت بكبرياء قائلة:

- إنّني أعلم أنّه لا يخدعني، وآي ذلك أنّه وعدني  
بالأ يقربني حتّى يعقد زواجه مني...

- أترغبين في هذا الزواج؟

قطّبت في استياء، ثمّ قالت بلهجة المتعجّب:

- ألم تسمع ما قلت؟! إنّني أعجب لما تبدي اليوم  
من كسل، لكن على أيّ حال لست الساعة كالعهد  
بك، أفنّ من الكدر الذي جلبته على نفسك بلا سبب

الأمل، إني مستعد أن أنسى ليلة أمس المشئومة...  
أنسى شغبي وألمي... على أن تقلع عن هذا المكر  
الخبث...

- كنّا نعيش في سعادة ووثام، فهل هانت عليك  
العشرة؟

- لم تنه ولكنّي أريد أن أجعل منها شيئاً أفضل،  
أليس الحلال خيراً من الحرام؟  
تقلّصت شفّته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها،  
ثمّ قال بصوت خافت:

- الأمر بالنسبة لي مختلف جدّاً...

- كيف؟

- أنا زوج، وابني زوج، وبناتي أزواج، الأمر دقيق  
جدّاً كما ترين... (ثمّ بلهفة) ألم تكن نعيش في سعادة  
كاملة؟

قالت بضجر:

- لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريّتك!  
كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة!  
فقال بإشفاق:

- ليس الزواج في مثل... حالي ممّا يهون أمره، أو  
يعرض في حياة الإنسان بلا قليل وقال:

ضحكت ساخرة، ثمّ قالت:

- كلّ الناس يعلمون أنّك عشيق وأنت لا تبالي  
بهم، فكيف تشفق من قيلهم وقاهم على زواج مشروع  
إن أردت الزواج...؟

قال بأسماً في ارتباك وضيق:

- قليل من الناس من يطلع على أسراري، إلى أنّ  
أهل بيتي هم أبعد الناس عن الشكّ في أمري...

رفعت حاجبيها المزجّجين في إنكار، ثمّ قالت:

- هذا ظنّك، أمّا الحقيقة فلا يعلمها إلّا الله، أيّ

سرّ يصان ووراءه ألسنة الناس؟

ثمّ استدركت غاضبة قبل أن يتكلّم:

- أم لعلّك لا تراني أهلاً للتشرف بالانتساب  
إليك؟

أستغفر الله، زوج زنوبة العوادة على سنّ ورمح!

- ما قصدت هذا يا زنوبة...

واسمع منّي للمرأة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل ورغبته  
إكراماً لك...

رغب أن يعرف سنّه ولكنّه لم يدر كيف يصوغ  
السؤال، الشباب والكهولة أمور لم تجر له في حساب  
من قبل، قال بعد تردّد:

- لعلّه من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردّد!

- ليس طفلاً، إنّه في الثلاثين من عمره!

أي أنّه يتأخّر عنه ربع قرن، والتأخّر مكروه إلّا في  
العمر، أمّا الغيرة فتقتلنا بلا حياة.

وعادت هي تقول:

- تجاهلته رغم أنّه وعدني بالحياة التي أتمنّاها!

يا بنت القديمة! فات زبيدة أن تتعلّم منك  
الكثير...

- حقّاً؟

- دعني أصارحك بأنّي لم أعد أطيق هذه الحياة...

اذكر مرّة أخرى الذبابة والعنكبوت...

- حقّاً!

- أجل، أريد حياة مطمئنة في ظلّ الحلال، أم

تراني مخطئة؟

جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هي التي  
طردتك فمن أين لك هذا الحلم كلّ؟ اخجل من  
نفسك ما بقي لك من أيام، أتفهم ما تعني إيماءاتها؟  
ما أجل الأمواج المتلاطمة في ساعة المغيب! ولما طال  
به الصمت استطردت قائلة بهدوء:

- لن يغضبك هذا، أنت رجل تقّي رغم كلّ

شيء، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذي  
تودّه، لا أودّ أن أكون بردعة لكلّ راكب، لست  
كخالتي، لي قلب مؤمن وأخاف الله، وقد صدق عزمي  
على هجر الحرام...

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج، وجعل

يتفحصها بحنق داراه بابتسامة باهتة، ثمّ قال:

- لم تحدّثيني عن هذا من قبل، كنّا حتّى أوّل أمس

على خير حال!

- لم أكن أدري كيف أكشفك بما في نفسي...

إنّها تبتعد عنك بسرعة مخيفة خبيثة، يا خيبة

فقلت باستياء:

- لن تخفي عني مشاعرك طويلاً، سأعرفها غداً إن لم أعرفها اليوم، فإن كان زواجي يعزك فمع السلامة...

تحية لتطرد لها فتطردك، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تحريك بين الزواج أو الذهاب، ماذا أنت صانع؟ ماذا يقيقك بلا حراك؟ إنه القلب الخائن، إن نزع عظامك من لحمك أهون من هجر هذه العوادة، ليس من المحزن ألا تبطل بهذا الحب الأعمى إلا على كبر!

تساءل في عتاب:

- ألهذا هو قدرتي عندك؟

- لا قدر عندي لمن يأنف مني كآتي بصقة معدية!

قال بهدوء حزين:

- أنت أعز علي من نفسي...

- كلام سمعنا منه الكثير...

- ولكنه صدق وحق...

- أن لي أن أعرف هذا من غير اللسان!

غض بصره في كرب ويأس، لم يكن يدري كيف يقبل ولم يكن بوسعه أن يرفض، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغله ويشتت فكره، قال بصوت خفيض:

- أعطني مهلة كي أدبر أمري...

فقلت بهدوء وهي تخفي ابتسامة مأكرة:

- لو كنت تحبني حقاً ما ترددت...

فقال بعجلة:

- ليس هذا، أعني أموري الأخرى...

وحرك يده كأنها يفسر بها قوله وإن كان لا يدري على وجه التحديد ما تعني فابتسمت قائلة:

- إذا كان الأمر كذلك فأنا رهن انتظارك...

فشعر براحة وقتية، كالراحة التي يجدها الملاكم الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة، وانبعثت في نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتفيس عن قلقه، فقال لها وهو يمد نحوها يده:

- تعالي إلى جانبي...

فتراجعت في مقعدها إلى الوراء بإصرار وهي تقول:

- عندما يأذن الله...

## - ٢٩ -

غادر العوامة يشق سبيله في ظلام وسار وشاطئ النيل في طريق مقفر متجهاً إلى جسر الزمالك. كان الهواء ينفو لطيفاً فنفس رأسه الملتهب، وبعث في أغصان الأشجار الهائلة المشابكة حركة وانية نذ عنها هسيس كالهمس، وكانت تبدو في الظلام كالكتبان أو السحب الجون، كلما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالهّم الجاثم على صدره، وهذه الأضواء المنبثقة من نوافذ العوامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهم؟ ولكن ليس كهّمك هم، ليس من يموت كمن ينتحر، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار. واصل السير، لم يكن أحب إليه وقتذاك من المشي ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضي إلى الإخوان، وهنالكَ يخلو إليهم ويكشفهم بكل شيء، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن خُن سلفاً ما سيقولون، ولكنه سيعترف أمامهم مهما كلفه الأمر، وأنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتي، لم يغب عنه أنه يُعدّ في حكم الموافق على الزواج من زئوبة، ولم ينكر شعوره الدليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقق هذا في صورة زواج رسمي ولا كيف يزف البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعاً. ومع أنه كان يريد أن يطيل المشي ما وسعه ذلك إلا أنه اندفع يسير بسرعة وفي خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض التربة كأنها يتعجل الذهاب إلى هدف ولا هدف له. تأبّت عليه وصدته، هل تعيب عن تجربته وحنكته هذه الأساليب؟... ولكن الضعيف يقع في الشرك وهو يدري. ومع أنه استجذ بالمشي والهواء النقي بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشّت الفكر مشعت الوجدان، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام

في كهولتنا! لتشرب هذه الليلة حتى يرفعوك على الأعناق، ما أحته إلى الشراب، كأنك لم تشرب منذ عام الفيل، إن الآلام التي تجرعتها في عامك هذا خليقة بأن تمحو حسنات السعادة التي تمتعت بها العمر كله.

ضرب بعصاه الأرض، ثم توقف عن السير، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفتح قلبه إلى الإخوان، ليس هو بالذي يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلاً، فما هو إلا عضو في جماعة وجزء من كل، وهنالك تحل المشكلات كما اعتادت أن تحل. واستدار ليرجع إلى الجسر، وعند ذاك انتفض جسمه غضباً وتقرّزاً، فقال بصوت غريب تمزقه الشكوى والالم والحنق: «ليلة كاملة تبيتها في الخارج... في مكان مجهول... ثم توافق على الزواج منها! وطئه إحساس ثقيل بازدياد النفس عصر جذعه وعصر قلبه. ياسمينة؟!... يا للسخرية! بل أمضت ليلتها في حضن الرجل الذي لم يزايلها حتى وافاهما عصر اليوم التالي، لبثت عنده وهي عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعني هذا؟! ليس إلا الغرام أنساها الوقت. يا جحيم الآخرة! أو أنك هنت للحقد الذي لا تبالي عنده بغضبك، كيف حاورتها مسترضياً بعد ذلك أيها المسحور؟ وكيف تمضي حاملاً وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة، كأنك لم تشعر بالقرن الذي ارتضيته من شدة ضغط الهم على رأسك، قرن تكلم به هامة أسرة لتخزي به جيلاً بعد جيل، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغر؟ إن الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفي للتكفير عن استسلامك وضعفك، لشدة ما تضحك منك الآن وهي مستلقية على ظهرها في العوامة، ولعلها لم تقتسل بعد من عرق رجلها الذي سيضحك منك بدوره، لا ينبغي أن يطلع الغد وفم يضحك منك، اعترف بخورك واعرضه على مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم... اعذروه كبر وخرف... اعذروه فقد جرب كل شيء إلا متعة القرون! زبيدة: أبيت أن تكون سيّداً في بيتي وارفضيت أن تكون قواداً في بيت

حتى لم يعد يحتمل حاله فخل إليه أنه سيجن إن لم يحسم الأمر بحل ولو يكن الضلال نفسه.

في هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلا تردد أو حياء، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء، وتواري خواطره الحقول المترامية إلى يمينه، ويتلغ مشاعره ماء النيل الجاري إلى يساره، ولكن حذار من النور، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعياً وراءه الغلمان وهواة العجائب، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها، كان ولم يزل ذا شخصيتين، يعيش بوحدة بين الإخوان والأحباب، ويطلع بالأخرى الأهل وسائر الناس، وهذه الأخيرة التي تمسك عليه جلالة ووقاره وتقرر له منزلة لا يطعم إليها أحد، وهي هي التي تتأمر نزواته عليها وتهدها بالفناء الأبدي. وتراعى له الجسر بمصايحه الوهاجة فتساءل إلى أين؟... بيد أنه رغب في مزيد من الوحدة والظلام فمرّ أمام الجسر إلى طريق الجيزة. ياسين! ذكره يربحك، جبينك يحترق خجلاً، لم؟ سيكون أول من يفهمك ويتسامح معك أم تراه يشمت بك ويتندر؟ طالما زجرته وأدبته ولكن قدمه لم تنزل بعد إلى مثل هاويناك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطلع على الذنب في أسارك، خديجة وعائشة؟ سينكس منها الجبين في بيت آل شوكت، زنوبة امرأة أبيك، زفاف يصفق له أهل المجون. في صدرك غوايات فاختر مسرّحاً غير دنياك لها، هل ثمة مملكة ظلام بعيداً عن تناول البشر كي تمارس رذائلك في سلام؟! غداً فلتنظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا تبقى من الذبابة؟ استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراصير، ما أسعد هذه الحشرات، كن حشرة لتسعد بلا حساب، أما فوق سطح الأرض فلن يسعدك إلا أن تكون «السيد» أحمد، مرّ الليلة بأهل بيتك جميعاً... زوجك... كمال... ياسين... خديجة... عائشة... ثم كاشفهم بئيتك إن استطعت، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك. هنية! أتذكر كيف نبذتها على حبيها؟ لم تحب امرأة كما أحبتها، ولكن يبدو - وأسفاه - أننا نخسر العقول

عَوادتي، جلييلة: لست أخفي ولا حتى أخفي! إني أشهد  
هَذَا الطريق الرهيب وَهَذَا الظلام الكثيف وَهَذِهِ  
الأشجار الهرمة على هرولي في الظلام باكيًا كالطفل  
الغريز، لا بَتَّ ليلتي حتى أَرَدَ الإهانة إلى الطاغية!  
وَتَمَنَعْتَ عَلَيْكَ! لَمْ؟ لَأَنَّهُ ضَاقَتْ بِالْحَرَامِ! الْحَرَامِ الَّذِي  
لَمْ تَغْتَسِلْ مِنْهُ، قُلْ إِنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَطِيقُ وَكَفَى، مَا أَفْطَحَ  
الْأَلَمَ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ عَلَيَّ وَعِبَادَةٌ، كَمَنْ يَنْطَحُ الْجِدَارَ حَتَّى  
يَهْتَمُّ رَأْسُهُ تَكْفِيرًا عَنْ ذَنْبٍ، الشَّيْخُ مَتَوَلَّى عَبْدَ  
الصَّمَدِ يَظُنُّ أَنَّهُ يَعْرِفُ أُمُورًا كَثِيرَةً، أَلَا مَا أَجْهَلُهُ! مَرَّةً  
بَجَسَرِ الزَّمَالِكِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى طَرِيقِ أُمِّيَّةٍ، وَجَعَلَ  
يُحِثُّ خَطَاهُ بِعِزْمٍ وَعِنَادٍ مَصْنُوعًا عَلَى غَسْلِ مَا لَطَخَهُ مِنْ  
خِزْيٍ، وَكَلَّمَا أَلَحَّ عَلَيْهِ الْأَلَمُ جَدُّ فِي السَّيْرِ ضَارِبًا بَعْصَاهُ  
الْأَرْضَ كَأَنَّمَا يَسِيرُ عَلَى ثَلَاثٍ.

وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتد  
هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره  
برجولته وكرامته واطمأن خاطره بعد أن استقرَّ على  
رأْي، وانحدر على السلم فمرَّ فوق الجسر الخشبي ثم  
طرق الباب بعصاه، وكرَّرَ ذَلِكَ بعنف، حتى جاءه  
الصوت متسائلًا في انزعاج:

- من الطارق؟!

فأجاب بقوة:

- أنا...

انفتح الباب عن وجهها المتعجب، فأفسحت له  
وهي تغتمغم «خيرًا»، فمرق إلى حجرة الجلوس حتى  
توسَّطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهي تقترب منه  
متسائلة حتى وقفت حiale وراحت تتفحص وجهه  
المتجهَّم بقلق، قالت:

- خير إن شاء الله!! ما عاد بك؟!

فقال بهدوء مريب:

- خير والحمد لله كما ستعلمين...

جعلت تتساءل بعينها دون أن تتكلَّم، فاستطرد  
قائلًا:

- جئت لأخبرك بالألَّا تتعلَّقِي بما قلْتُ، فَإِنَّ الْأَمْرَ  
كَلَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا دَعَابَةً سَخِيفَةً.

هبط جذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار

والحق، ثم هتفت:  
- دَعَابَةٌ سَخِيفَةٌ! كَيْفَ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ دَعَابَةٍ سَخِيفَةٍ  
وَبَيْنَ كَلِمَةٍ شَرَفٍ ارْتَبَطَتْ بِهَا؟  
قال ووجهه يزداد اكفهرًا:  
- يحسن بك وأنت تخاطبينني أن تلتزمي حدَّ الأدب  
الواجب، فَإِنَّ نِسَاءَ مَنْ طَبَقْتِكِ يَرْتَزِقْنَ فِي بَيْتِي  
خَادِمَاتٌ...

صاحت وهي تمهل في وجهه:  
- هل رجعت لتسمعي هَذَا الكلام؟ لَمْ لَمْ تَقْلَهُ مِنْ  
قَبْلُ؟ لَمْ وَعَدْتَنِي وَاسْتَعِظْتَنِي وَتَوَدَّدْتَ إِلَيَّ؟ أَتَحْسَبُ أَنَّ  
هَذَا الْكَلَامَ يُخَفِّفُنِي؟ لَمْ يَعِدْ بِي مَتَّسِعٌ لِلدَّعَابَاتِ  
السَّخِيفَةِ.

لَوَّحَ لَهَا بِيَدِهِ غَاضِبًا فَاسْكَنْتَهَا، ثُمَّ هَتَفَ:  
- جِئْتُ كَيْ أَقُولَ لَكَ إِنَّ الزَّوْجَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِثْلِكَ  
خِزْيٌ لَا يَلِيقُ بِكَرَامَتِي، وَإِنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ  
يَكُونَ دَعَابَةً يَتَنَدَّرُ بِهَا هَوَاةُ الدَّعَابَاتِ الْمَخْجَلَةِ، وَإِنَّهُ مَا  
دَامَتْ أَمْثَالُ هَذِهِ الْأَفْكَارِ تَدُورُ بِرَأْسِكَ فَأَنْتَ لَمْ تَعُودِي  
أَهْلًا لِمَعَاشِرَتِي، إِذْ لَا يَصِحُّ أَنْ أَعَاشِرَ الْمَجَانِينَ...

كانت تصغي إليه وشرر الغضب يتطاير من  
حدقتيها، بيد أنها لم تستسلم لتيار الغضب كما تمَنَّى،  
ولعلَّ مَنْظَرَ غَضَبِهِ بَتَّ فِي حَنَائِهَا خَوْفًا وَتَقْدِيرًا  
لِلْعَوَاقِبِ، فَقَالَتْ بِلَهْجَةٍ أَخْفَتْ مِنَ السَّابِقَةِ:

- لَنْ أَتَزَوَّجَ بِالْقُوَّةِ، لَقَدْ كَاشَفْتِكَ بِمَا يَجُولُ  
بِخَاطِرِي تَارِكَةً لَكَ الْخِيَارَ، الْآنَ تَرِيدُ أَنْ تَتَحَلَّلَ مِنْ  
وَعْدِكَ، لَكَ مَا تَشَاءُ، وَلَا دَاعِي لِسَبِّي وَإِهَانَتِي،  
لِيَذْهَبَ كُلُّ مَنَّا إِلَى حَالِ سَبِيلِهِ فِي سَلَامٍ...

أهَذَا قِصَارَى جَهْدِهَا فِي الْحِرْصِ عَلَيْكَ! أَلَمْ تَكُنْ  
تَكُونُ أَسْعَدَ حَالًا لَوْ - فِي سَبِيلِ امْتِلَاكِكَ - أَنْشَبْتَ  
فِيكَ الْأَظَافِرَ؟ اسْتَمَدَّ مِنْ أَمْلِكَ غَضَبًا:

- سَيَذْهَبُ كُلُّ مَنَّا إِلَى حَالِ سَبِيلِهِ، غَيْرَ أَنِّي أَرَدْتُ  
أَنْ أَصَارِحَكَ بِرَأْيِي فِيكَ قَبْلَ أَنْ أَذْهَبَ، لَا أَنْكَرُ أَنِّي  
سَمِعْتُ إِلَيْكَ بِنَفْسِي، رَجَا لَأَنَّ النَّفْسَ تَوَلَّعَ أَحْيَانًا  
بِالْقَاذُورَاتِ، فَهَجَرْتُ مِنْ كُنْتُ تَسْعِدِينَ بِخِدْمَتِهِنَّ كَيْ  
أَرْفَعَكَ إِلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ، لِذَلِكَ لَا أَدْهَشُ لَأَنِّي لَمْ أَحْظَ  
عِنْدَكَ بِمَا حَظَّيْتُ بِهِ عِنْدَهُنَّ مِنَ الْحَبِّ وَالتَّقْدِيرِ، ذَلِكَ

من الفكر، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريبة أو الماضية صده بعزم، اللهم إلا منظرًا واحدًا رحب باستعادته عن طيب خاطر، ذلك هو المنظر الأخير الذي سجل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معًا، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كل شيء والحمد لله ولاكونن شديد الحذر فيما يقبل من أيام حياتي».

بدا اليوم هادئًا في مطلعته، فاستطاع أن يفكر في فوزه المبين وأن يهني نفسه عليه، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملاً بل خامداً، فلم يجد من تفسير لذلك إلا أنه رد الفعل للجهد العصبي المضني الذي بذله في اليومين الماضيين، بل في الأشهر الماضية على تفاوت في الدرجة، إذ الحق أن معاشرته لزنوبة بدت لعينه في تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها. لم يكن من الهيئ عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه في حياته الغرامية الطويلة، كان لذلك رجوع شديد الأثر في قلبه وخياله، وكان يثور كلما همس له عقله بأن الشباب قد ولّى، معترًا بقوة وجماله وحيويته، ثم يصرّ على ذلك التعليل الذي جاهر به المرأة أمس وهو أنها لم تحبه لأن القدر لا يقدر إلا القدرًا لشد ما تشوق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلما دنا موعده نفذ صبره فمضى متعجلًا إلى بيت محمد عفت بالجمالية، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان، وسرعان ما قال له:

- انتهيت منها...

فتساءل محمد عفت:

- زنوبة؟!

فأومأ بالإيجاب، فتساءل الآخر بأسًا:

- بهذه السرعة؟

ضحك كالساخر، ثم قال:

- هل تصدقني إذا قلت إنها طالبتني بالزواج حتى

ضقت بها؟!

فضحك كالساخر، ثم قال:

- زبيدة نفسها لم تفكر في ذلك! يا للعجب! لكنها

معذورة، فقد وجدت لك أكثر مما تحلم به فطمعت في المزيد...

أن القدر لا يقدر إلا من كان على شاكلته، وقد آن لي أن أربأ بنفسني عنك، وأن أعود إلى حظيرتي الأولى...

بدا في وجهها القهر، قهر من يحجزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر، وتمت بصوت مرتعش النبرات:

- مع السلامة، اذهب ودعني في سلام...

قال بحنق وهو يكظم آلامه:

- لقد نزلت فهنت...

هنا أفلت الزمام، فصاحت به:

- حسبك، كفاية، ارحم الحشرة القذرة واحذرهما،

اذكر كيف كنت تقبل يدها والخشوع في عينيك، نزلت فهنت؟... هه؟... الحق أنك كبرت، قبلتك على كبر وما أنا أتلقى الجزاء...

لوح بعصاه وهو يصيح بغضب:

- اخروسي يا بنت الكلب، اخروسي يا دون، لسي

ثيابك وغادري العوامة...

فصاحت بدورها وهي ترفع رأسها في تشنج:

- املا أذنك بما أقول، كلمة أخرى أملا عليك

العوامة والنيل والطريق صوائًا حتى تحضر الحكمداية كلها، سامع؟... لست لقمة سائغة، أنا زنوبة والأجر على الله، اذهب أنت، هذه العوامة عوامتي وعقد إيجارها باسمي، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب في زفة...

لبث قليلاً كالمرتد ينظر إليها باحتقار وازدراء، ولكنّه عدل عن مغامرة قاسية تفاديًا من الفضيحة، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الخارج في خطوات واسعة ثابتة...

- ٣٠ -

ذهب من توه إلى الإخوان، فوجد محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتى سكر كعادته وتعدى عادته، وضحك كثيرًا وأضحك كثيرًا، ثم مضى في الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نومًا عميقًا. واستقبل مع الصباح يومًا هادئًا، خلا في أوله

فغمغم السيد أحمد قائلاً باستهانة:

- مجنونة...

فضحك محمد عفت مرة أخرى، وقال:

- لعلها تهالكت في حبك؟!

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من الم...

- قلت إنها مجنونة وكفى...

- وماذا فعلت؟

- صارحتها بسأني ذاهب إلى غير رجعة،

وذهبت...

- كيف تلتفت ذلك؟

- سبت مرة، وهذت أخرى، وقالت في داهية

ثالثة، ثم تركتها كالمجنونة، كانت غلطة من بادئ الأمر.

قال محمد عفت وهو يهز رأسه مقتنعاً:

- نعم، ما منّا إلا من ضاجعها، ولكنّ أحدًا لم

يفكر حتى في مجرد معاشرتها...

تصول وتجول في ميادين الأسود ثم تُهزم أمام فارة، اخضب عارك حتى عن أقرب المقرّبين واحد الله على أنّ كلّ شيء قد انتهى...

لكنّ شيئاً في الواقع لم ينته، لم تبرح مخيلته، وصحّ لديه فيها تلا ذلك من أيام أنّ تفكيره فيها لم يكن مجرداً ولكنّه اقترن بآلم عميق تزايد وتفشّى، وصحّ لديه أيضاً أنّ ذلك الآلم لم يكن غضباً لكرامته فحسب ولكن كان آلم الحسرة والحنين، وآله فيها بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقل من تدمير من يعانيتها. بيد أنّه كان شديد الاعتزاز بما سجّل ساعة انتصاره، فمضى نفسه بقهر مشاعره المستبلة الخائنة في مهلة تطول أو تقصر كيفما اتفق. ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فامضى وقته متفكراً مجتراً أحزانه معدّياً بخيالاته وذكرياته. وكان يبلغ به الضعف أحياناً أن يفكر في مصارحة محمد

عفت بما ينوء به من آلام، بل تمادى به الخاطر مرة إلى حد الاستعانة بزييدة نفسها، ولكنّها كانت فترات ضعف كنوبات الحمى ثمّ فبق إلى نفسه وهو يهز رأسه متعجباً متحيراً.

وقد صبغت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة

قاومه ما استطاع بحلمه وكياسته، فلم يفلت منه الزمام إلّا قليلاً، وهذا القليل لم يلحظه إلّا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدماعة والتسامح والرقّة، أمّا أهل بيته فلم يفظنوا إلى شيء، لأنّ سلوكه حيالهم بقي هو هو لم يكد يتغيّر، إذ أنّ الذي تغيّر حقّاً هو العاطفة المسترة وراءه فاستحالت من شدّة مصطنعة إلى شدّة حقيقيّة لم يدرك مداها سواه. على أنّه هو نفسه لم ينبج من قسوته هذه، بل لعلّه كان هدفها الأوّل، فيها حمل به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة، وأخيراً بما أخذ يفرّ به رويداً رويداً من ذلّه وتعاسته وهجران شبابه، ثمّ يعزّي نفسه فيقول: لن أنحرّك، لن أسيم نفسي مزيداً من الذلّ، فلتدّر بي الأفكار كلّ مدار، ولتقلب بي العواطف كلّ منقلب، ولأبقرنّ حيث أنا لا يعلم بالمي إلّا الله الغفور الرحيم. لكنّه ما يدري إلّا وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال في العوامة أم تركتها؟ وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقيّة من ماله تغنيها عن الناس، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك؟ تساءل كثيراً وفي كلّ مرة يلقي عذاباً ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهصره هصرًا، لم يكن يجد شيئاً من القرار إلّا عند استحضاره المنظر الأخير في العوامة الذي أوهمها فيه - وتوهم - أنّه نبذها وعلا عليها، ولكنّه كان يستدعي مناظر أخرى سجّلت ذلّه وضعفه، ومناظر غيرها سجّلت ألواناً من السعادة لا تنسى!.

وخلق الخيال له مناظر جديدة التقيا فيها، فتشاجرا، وتحاسبا، وتعاتبا، ثمّ أدركهما سلام الصلح والوصال... حلم كثيراً ما يترأى له في عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة، لم لا يتأكّد بنفسه ممّا طرأ على العوامة وسكّانها؟ في الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد...

وذهب متستراً بالظلام كاللصّ، فمرّ أمام العوامة ورأى النور يوصوص من خصائص النافذة، ولكنّه لم يدّر إن كانت هي التي تستضيء به أم ساكن جديد، بيد أنّ قلبه شعر بأنّ النور نورها هي دون غيرها، وخيل إليه وهو يتطلّع إلى العوامة أنّه يستشفّ روح صاحبتها، وأنّه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلّا



فتبعها على بعد مرتحبا بظلمة الطريق، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيد الجديد؟ ولكن ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادي العاشقين؟! وبلغت حي الحسين فضاعف انتباهه أن تضيق منه في زحمة الملاءات اللث. لم تستن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية، ولكن كان مدفوعا برغبة في الاستطلاع اليمية وعقيمة وإن تكن في نفس الوقت عنيفة لا تجدي معها المقاومة... سارت أمام الجامع فأتجهت إلى حارة الوطاويط حيث يقل المارة ولبلد الشاذون المتعبون، ثم إلى الجمالية حتى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقا من أن يلقاه ياسين في الطريق أو يراه من نافذة، فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق، وما يدري إلا وهي تنعطف إلى أول حارة، تلك الحارة التي لم يكن بها من بيت إلا بيت ياسين، فدق قلبه بقوة وثقلت قدماه! كان يعرف سكان الدورين الأول والثاني، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزوبة رابطة! وزاغ بصره قلنا واضطرابا، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدّر للعواقب، فأتجه نحو الباب حتى ترامى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثم دخل بثر السلم رافعا رأسه منصتا إلى وقع الأقدام فشعر بمروها بالباب الأول ثم الثاني، ثم وهي تطرق باب ياسين!...

تسمر في مكانه وهو يلهث، فدار رأسه وشعر بخور وتهلّم، ثم تهتد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه في زحمة الأفكار وارتطام الخواطر...

ياسين كان الرجل! فترى هل علمت زوبة بعلاقته الأبوية بياسين؟! وراح يدفع الطمانينة في نفسه كما يدفع سدا غليظا في فوهة ضيقة قائلا: إنه لم يمر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها، فضلا عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفا على سره، وأنه ليذكر كيف جاءه منذ أيام لينهي إليه طلاق مريم، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولكن في براءة وإخلاص لا تشوبها

أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح في الأيام الذاهبة، السعيد منها والتعيس على السواء، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل؟! حقا أنها قريبة ولكن ما أبدها، وقد حرّم عليه هذا المعبر إلى الأبد. آه... هل مرت به هذه الحالة في حلم من الأحلام! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثم مضت في سبيلها كأنه لم يعرض لها يوما وكأنها لا تشعر له بوجودها إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرات ومرات حتى صار التردد أمام العوامة بد جثوم الليل عادة يمر بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان، ولم يبد عليه أنه يريد أن يفعل شيئا ذا بال، وكأنه كان يرضي بها حب استطلاع عقيم جنوني. وكان يهيم بالعودة مرة إذ انفتح الباب وخرج شبح لم يتبينه في الظلام فدق قلبه في خوف ورجاء، ثم عبر الطريق مسرعا ووقف في جوار شجرة وعيناه تحملقان في الظلام. قطع الشبح المعبر الخشبي إلى الطريق ثم سار في اتجاه جسر الزمالك، فوضح له أنه امرأة... وحذته قلبه بأنها هي. وتبعها عن بعد وهو لا يدري على أي وجه تنتهي الليلة. هي أو غيرها فإذا يقصد؟! غير أنه واصل سيره مركزا انتباهه في شبحها، ولما بلغت الجسر ودخلت في مرمى مصابحه توكد إحساس قلبه وأيقن أنها زوبة، غير أنها كانت ملتفة في الملاءة اللث التي تخلصت عن ارتدائها طوال معاشرتها له. عجب لذلك وتساءل عن معناه فظن... ما أكثر ظنونه... وراءه أمرا. رآها تتجه إلى محطة ترام الجزيرة وتنتظر، فسار محاذيا للحقول حتى جاوز الموضع قبالتها، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدا عن مرمى بصرها. وجاء الزام فاستقلته، وعند ذاك هروا إليه فركب جاعلا مجلسه في نهاية المقعد المطلة على السلم ليراقب النازلين، وعند كل محطة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة متجسسا. نزلت في العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتجه إلى الموسكي مشيا على الأقدام

شائبة، وإنه ليفترض كل شيء إلا أن يقدم ياسين. على خيائته وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأن أباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأي امرأة في الوجود، فله أن يطمئن من هذه الناحية، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفت يومًا من الأيام، فلن تطلع ياسين على سر خليق فأن يقطع ما بينها، وواصل السير مؤجلًا الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنانه فمضى في اتجاه العتبة على تعبه وإعيائه.

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كله قانعًا بالصبر؟! احمد الله على أن الظروف لم تجمعك بياسين وجهاً لوجه في بؤرة الفضيحة، كان ياسين هو الرجل، متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرة خائنه معه وهو لا يدري؟! أسئلة لن تبحث لها عن جواب، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من الأمر شيئاً، وهل عرفها قبل أن يطلّق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه، فافترض أسوأ الفروض أيضاً إراحة لرأسك المصدوع، ياسين كان الرجل! قال إنه طلقها لقلة أدها! كلام كان يمكن أن يعلل به طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقي حال وقوعه، سوف تعرف الحقيقة يوماً، ولكن ماذا يهّمك من أمرها؟ ألا زلت مشغولاً بالجري وراء الحقيقة؟! أنت مبعثر الرأس معذب القلب، أيمكن أن تغار من ياسين؟ كلاً ليست هذه بالغيرة، على العكس مما تظن أنت خليق بالعزّي، إذا لم يكن بدّ من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك، ياسين جزء منك، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر، أنت المغلوب وأنت الغالب، ياسين قلب مغزى المعركة، كنت تشرب كأساً مزاجها الألم والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء، لن تتحسر على زنوبة بعد اليوم، غالبت في الاعتداد بنفسك، عاهد نفسك على ألا تُسقط الزمن من حسابك بعد الآن، ليتك تستطيع أن توجه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء

دوره، أنت سعيد، لا داعي للندم، ينبغي أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل جديد، دع الراية في يد ياسين، وسوف تفيق من دوارك ويمضي كل شيء وكأنه لم يكن، لن يُتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثاً يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك، علّمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوي الصدر على أمور كثيرة، آه... ما أعظم تشوّقي إلى الشراب!...

أثبت السيد أحمد في الأيام التالية أنه أقوى ممّا اعترضه من أحداث، فسار في طريقه قدماً، وقد ترامت إليه أبناء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد عليّ عبد الرحيم نقلاً عن غنيم حميدو وآخرين، وإن لم يتعرّف الراوون على حقيقة المرأة التي نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة... وابتمس السيد، وضحك طويلاً من كل شيء، وكان ماضياً إلى بيت عمّد عقت - ذات مساء - حين شعر بثقل قبجج في أعلى الظهر والراس حتى هُت. لم يكن الأمر جديداً كلّ الجدة، فقد جعل الصداق ينتابه كثيراً في الأيام السابقة ولكنّه لم يشتدّ عليه كهذه المرة، ولما شكّا حاله إلى عمّد عقت أمر له بقدر من شراب الليمون المثلوج، وأمضى سهرته حتى نهايتها، ولكنّه استيقظ في اليوم التالي أسوأ حالاً من الأمس، وبلغ به الضجر أن فكّر في استشارة الطبيب، والواقع أنه لم يكن يفكّر في استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى.

### - ٣١ -

تتطوّر الأشياء بالمناسبات كما تتطوّر الألفاظ بما يستجدّ من معانٍ جديدة، لم يكن قصر آل شدّاد في حاجة جديدة كي يزداد في عينيّ كمال جلالاً، ولكنّه بدا في ذلك المساء من ديسمبر في زيّ جديد من أزياء الحياة. أريقت عليه الأنوار حتى غمرته. أجل: كان كلّ ركن من أركانه وكلّ موضع من جدرانها يتقلّد عقداً من اللآلئ المضيئة... مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من أعلى السطح إلى أسفل الجدار، كذلك السور الكبير، والباب الضخم،

تغنيه، كان حسين يفكر في دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنتي منعتة فاكنتى بأن يدعوهم إلى مائدتنا، سيكون لنا مائدة خاصة، هذا أهم خبر أرفقه إليك الليلة... هنالك ما هو أهم، سوف أعجب من نفسي طويلاً لقبولي هذه الدعوة، لم قبلتها؟! لتبدو كأنك لا تبالي، أم لأنك غدوت مغرماً بالمغامرات المخيفة؟! - هذا حسن، ولكن لم لا نذهب ولو قليلاً إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين؟..

قال إسماعيل لطيف بازدرار:

- لن تحظى بما تريد حتى لو ذهبنا، فإن الباشوات والبيكوات خصّوا بالبهو الأمامي وحدهم، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء في البهو الخلفي وليس هذا ما تريد، وددت لو أمكن أن نندسّ في الحجرات العليا التي تموج بأفخر مُثُل الجبال... .

مثال واحد يعنيني، مثال المثل، الذي لم تقع عليه عيناى منذ يوم الاعتراف، هتك سرّي وذهب. - لا أكتمك أي مشوّق إلى رؤية الكبراء، قال حسين لي إنّ والده قد دعا كثيرين بمن أقرأ عنهم في الصحف... .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، وقال:

- أتحمّل بأن ترى كبيراً وله أربع أعين أو ست أرجل؟! إنهم أناس مثلي ومثلك فضلاً عن أنهم طاعنون في السن وذوو منظر لا يسرّ كثيراً، إنني أفهم سرّ تطلّعك إليهم، ما هو إلا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة... .

يجدر بي ألا أهتم بشيء ما في هذه الدنيا، لم تعد لي ولم أعد لها، غير أنّ اهتمامي بالكبراء مستمّد في الحقيقة من هيامي بالعظمة، أنت توّد أن تكون عظيمًا لا تنكر، ولك مؤهلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدين بهذا التطلّع للتي حرمتك النور بذهابها، غداً لن تجد لها أثراً في مصر كلّها، يا جنون الألم إنّ لك لسكرة!... قال بتشوّف:

- قال لي حسين إنّ الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب... .

كذلك أشجار الحديقة بدت كأنما استحالت أزهارها وثمارها أنواراً حمراً وخضراً وبيضاء، ومن النوافذ جميعاً انبعثت الأضواء، فكل شيء يهتف مؤذناً بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنّه يحجّ إلى مملكة النور لأول مرة في حياته. وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالغلّمان، وقرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب، وفتّح الباب على مصراعيه، كذلك باب السلامك فلاح من داخله نجفة كبيرة في سقف البهو المعدّ لاستقبال المدعوين، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيفة من الغيد في ثياب السهرة البهيجة. ووقف شدّاد بك وجماعة من رجال الأسرة في مدخل السلامك يستقبلون الوافدين، أما شرفة السلامك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء.

ألقي كمال على المنظر كلّ نظرة شاملة سريعة، ثمّ تساءل: ترى أعائدة في الشرفة العليا بين المطلّات؟ وهل وقعت عيناها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدّمه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يخلُ من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب، ولكنّه لم يتّجه إلى السلامك كالآخرين، وأنما مال إلى «ممرّه» القديم المفضي إلى الحديقة كما نبّه حسين شدّاد من قبل كي يتاح لجماعتهم البقاء معاً أطول مدّة ممكنة في الكشك المحبوب. كأنما كان يخوض بحرًا من نور، وقد وجد السلامك الخلفي - كالأمامي - مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يعجّ بالمدعوين، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أما في الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف في بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدواني هيئة لطيفة لم يره في مثلها من قبل، ألقي إسماعيل عليه نظرة سريعة، ثمّ قال:

- بديع، لكن لم أتيت بالمعطف؟ حسين لم يمتك معي إلا ربع ساعة ولكنّه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات، أما حسن فقد لبث معي دقائق ولا أظنّه سيتمكّن من مجالستنا كما نوّد، هذا يومه وله عتّا أمور

- صحيح، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاي المعروفة بالنادي السعودي، واليوم شذاد بك يدعوههم إلى زفاف كرمته، رأيت من أصدقائك الوفدين، فتح الله بركات، وحمد الباسل، وجاء من الآخرين: ثروت، وإسماعيل صدقي، وعبد العزيز فهمي. شذاد بك يعمل بهمة عالية، وحسنًا فعل، لقد ولّى عهد أفندينا، كان الشعب يهتف منشداً: «الله حي... عباس جي»، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شذاد بك للمستقبل حسابه، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الخيطة، ثم يعود ليواصل سيره الموفق... .

قلبك يمت هذه الحكمة، إن محنة سعد بالأمس القريب أثبتت أن الوطن مليء بهؤلاء الحكماء، ترى أشدّاد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟ مهلاً، إن المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر، ليتفتت قلبك حتى يعجزك لم أجزاءه المتناثرة.

- تصوّر أن حفلة كهذه تمضي بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسماعيل بلهجة ساخرة:

- آل شذاد نصف باريسين، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل، ولا يسمحون لعالمة بأن تحيي حفلة في بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذي أراه الليلة لأول مرة في حياتي؟ إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع في جروبي، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليضطرب الكبراء، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هي العشاء والشمبانيا!

جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة؟ شتان بين الجوين، كم كنت سعيداً في تلك الأيام! الليلة يشيع الأوركسترا حلكم إلى القبر، أتذكر الذي رأيت من ثقب الباب؟... أسفي على الآلهة التي تتمرغ في التراب!...

- هذا شيء يهون، الذي آسف عليه حقاً وسأسف عليه طويلاً هو أنني لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن

كتب، كنت أتطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامّين: أولهما الموقف السياسي على حقيقته وهل بات من المأمول حقاً بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية؟ والثاني كلام هؤلاء الناس العادي الذي يتبادلونه في مناسبة سعيدة كهذه، أليس بديعاً أن تصغي إلى ثروة باشا مثلاً وهو يثرثر ويمزح؟!

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن تمت حركات الاستهانة نفسها عن مباحاة:

- أتيح لي أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبي من أمثال سليم بك والد حسن وشذاد بك، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام... .

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر؟ كيف كان جلّ حظ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه؟! أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر؟... .

لكنك لا تدري كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه!...

- على أي حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعني...!

ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها. هذه الضحكات تحيي من الداخل مفعمة بالغبطة، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة الساحر، وبين هذه وتلك تمجّوب كالذي بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحده حيناً وطاققة من الحان شتى حيناً آخر، ثم تكون كلها - الضحكات والأنغام - إطاراً وردياً يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة كبطاقة سوداء في طاقة ورد... .

وما لبث حسين شذاد أن جاء متهللاً بقامته الفارعة ووجهه المتألق يخال في الرندنجوت، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحرارة، ثم لحق به حسن سليم في برّته الرسمية، جميلاً في كبريائه الطبيعي الملفوف في مظهره المؤدّب المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيراً صغيراً، فتصافحا أيضاً بحرارة، وهتّاه كمال من أعماق لسانه. وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التي لا تكاد في أغلب الأحيان تتميز

اللحن إلى ذروته العليا، تلك الذروة التي توحى بتداني الختام. انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن، فانخرط في غدوها حتى تدافع دمه وهلت منه الأنفاس، وسرعان ما داخلته رقة وأسكرته أريججة جعلت من حزنه نشوة دامعة، فتنهّد مع النهاية من الأعماق، وتعلّى أصدااء اللحن المترنّمة في روحه بانفعال وتأثر، فخيّل إليه أنّه يتساءل: ألا يمكن أن تنتهي عواطفه المتأججة في ذروتها إلى ختام كذلك؟ ألا يمكن أن يكون للحبّ - كهذا اللحن وككلّ شيء - نهاية؟! وذكر أحوالاً مرّت به في أوقات نادرة، فترات من الفطور حتى بدا وكأنّه لم يبقَ من عابدة إلّا اسمها، أتذكر هذه الفترات؟ وكان يهزّ رأسه حيرة ثمّ يتساءل: هل انتهى حقاً كلّ شيء؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى نفسه غريقاً في بحر الهوى مكبّلاً بأصفاد الأشر. جرّب إذا حلّت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكلّ قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقرّ بك الشقاء، أجل حاول أن تفني خلود الحبّ. قال حسين شداد بأساً:

- بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة!

القرآن؟! ما ألطف هذا! الباريسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلّا بماذون وقرآن! وهكذا سيقتزن زواجها في ذهنك بالقرآن والشمبانيا.

- حدّثنا عن نظام الحفلة؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت:

- عمّا قليل يُعقد القران، وبعد ساعة يُدعى الجميع إلى الموائد، ثمّ ينتهي كلّ شيء، وتبيت عابدة هذه الليلة في بيتنا لآخر مرّة ثمّ تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقلّ بعد غد الباخرة إلى أوروبا...

ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون ذاذاً لأملك الشره، كروية اسمها الجميل وهو يكتب في الوثيقة الشرعية، ومنظر وجهها المتطّلع إلى إعلان النبا السعيد، ولون الابتسامة التي يفتّر عنها ثغرها عند زفاف البشرى، ثمّ منظر العروسين وهما يتلاقيان، حتى أملك يعوزه الزاد...

- وهل يعقد القران مأذون؟!

عن المكر السيئ:

- كمال آسف لأنّه لم تُنخّ له مجالسة ثروت باشا وصحبه!

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المعهود:

- فلينتظر حتى يسجّل مؤلفاته المنتظرة، وعندها يجد نفسه واحداً منهم!...

أمّا حسين شداد فقال محتجاً:

- أهأوي تزمت أنت؟! إنّما أريد أن تمرّ الليلة كلّها ونحن مستمتعون بحرّيتنا الكاملة...

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفاً، إذ كان في الواقع كالغراشة لا يستقرّ بموضع. ومدّ حسين ساقه أمامه، وراح يقول:

- غداً يسافرون إلى بروكسل، سبّاني إلى أوروبا، ولكنّ بقائي هنا لن يطول، وغداً تكون ملهاتي التنقل ما بين باريس وبروكسل...

وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية، بلا حبيب ولا صديق، هذا جزء من يتطلّع إلى السماء، ستردّد بصرك بين أركان المدينة حائراً ولن تبرا عيناك من لوعة الشوق، املاً رثيتك من هذا الهواء الذي تعبه أنفاسها، غداً سوف ترثي لنفسك.

- يجيّل إلى أيّ سألحك بك يوماً...

تساءل حسين وإساعيل معاً:

- كيف؟

لكنّ كذبتك ضخمة كالك...

- ثمة اتفاق بيني وبين أبي على أن أسافر في بعثة على حسابي الخاصّ بعد إتمام دراستي...

هتف حسين بسرور:

- لو تحقّق هذا الحلم!

أمّا إساعيل فقال ضاحكاً:

- أخاف أن أجد نفسي وحيداً بعد بضع سنين!

تلاقت آلات الأوركسترا جميعاً في حركة متدفقة سريعة، أعلنت - فيما أعلنت - عمّا في كلّ آلة من مرونة وقوة، كأنّها تشتبك كلّها في سباق عنيف بات الهدف منه في مرمى العين ومتناول الطموح، فسما بهما

- طبعاً!

هكذا أجاب حسين، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية، وقال:

- بل قسيس!

أي سخافة في سؤالك!... سَلْ أيضًا هل يبيتان الليلة معًا! أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون؟ ولكن دودة حقيرة هي التي تأكل جدث أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحتم القضاء؟ شيء هائل يملأ الطريق أم لمة تمضي؟... وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نورًا بلا تغاريد فشعر بخوف وانقباض. الآن، في مكان ما، لعلها هذه الحجرة أو تلك، ثم لعلت زغرودة طويلة مجلجلة أحييت ذكرى قديمة، زغرودة كتلك الزغاريد التي عرفها من قبل فلا تمت إلى باريس بسبب، ثم تبعها زغاريد مجمعة كالصواريخ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأي بيت من بيوت القاهرة. وتابعت دقات قلبه الزغاريد حتى لثت، ثم سمع إسماعيل يهتف فهتأ بدوره، وعثى عند ذاك لو كان منفردًا، ثم تعزى بأنه سيفرد بنفسه أيامًا وليالي فوعد ألمه بزايد لا يفنى. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حتى المعرفة هي «النفوس يا سيد الملاح» فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شيء قد انتهى، إن التاريخ نفسه قد انتهى، إن الحقيقة جميعًا قد انتهت، إن الأحلام التي فوق الحياة قد انتهت، وإنه يواجه الصخر المدبب الأطراف ولا شيء غيره. قال حسين متأملًا:

- كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منا في دنيا جديدة، سوف نعرف ذلك كلنا يومًا ما...

فقال إسماعيل لطيف:

- سوف أبعاد ما استطعت بيني وبين ذلك اليوم...

كلنا؟! إنا السياء وإنا لا شيء!

- لن أذعن لذلك اليوم أبدًا...

بدا عليهما أنها لم يكرثا لقوله أو أنها لم يحمله على

حمل الجد، بيد أن إسماعيل عاد يقول:

- لن أتزوج حتى أقتنع بأن الزواج ضرورة لا يحصى عنها...

وجاء نوب حاملاً أكواب الشربات، ثم تبعه آخر بصينية محملة بعلب الحلوى الفاخرة. علبة من البلور على قوائم أربع مذهبة، موه زجاجها الكحلي بزخارف فضية، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لافتة هلالية في عقدته الحرفان الأولان لاسمي العروسين «ع. ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به في ذلك اليوم. فقد وعدته العلبة الفاخرة بأن معبودته ستترك وراءها أثرًا خالداً كحبها، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقي هو على الأرض رمزاً لماضٍ غريب وحلم سعيد وفتنة سامية وخيبة راثية. ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تأمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعابدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها... وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه ينزف فلا يظفر بأسى، ولم يجد ما يرد به على هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة حُرمت من الإفصاح، بل أجبرته الظروف على التظاهر بالسرور كأنما يهتف القوى الباغية على تنكيلها به ونبذها خارج حدود البشرية السعيدة، فأضمر لها جميعاً حنقاً خالداً ترك للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه، أجل شعر بأنه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذاً سهلاً أو يرضى فيها بالقرب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء، وأن طريقه سيكون شاقاً عسيراً ملتوياً غاصاً بالمضض والغضاضة والألم، ولكنه لم يفكر في التراجع. قبل الحرب وأبى الصلح، وأندر وتوعد، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذي سينزله والوسيلة التي سيحارب بها. قال حسين شداد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشربات:

- لا تعلن الثورة على الزواج، أعتقد - إذا أتيت لك

أن تسافر كما تقول - أنك ستجد زوجة تعجبك...

كأنك لم تجد التي تعجبك هنا، ابحث عن وطن

وقالت له نفسه «اشرب» لا رغبة في الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة في الثورة، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وتمردّه، قال مبتسماً:

- أمّا هذه فلا، شكرًا...

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأسًا مترعة:

- لا حقّ لك في هذا، حتّى الورع يبيع لنفسه السكر في حفلات الزفاف...

مضى يتناول طعامه الشهيّ في هدوء، وكان يراقب بين حين وآخر الأكلين والشاربين أو يشترك معهم في الحديث والضحك. إنّ سعادة المرء تناسب تناسبًا طرديًا مع عدد مرّات شهوده لمقاصف الأفراح، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا؟! نلتهم طعامهم ونحقّق معهم! شمبانيا!... هذه فرصة لتذوّق الشمبانيا... شمبانيا آل شدّاد ماذا قلتم؟ ما للأستاذ كمال لا يقرب الخمر؟ لعلّه ملأ بطنه فلم تعد تتسع لمزيد، الحقّ أنّي أكل شهوة لا تجارى، كأنما أعصاب معدتي لا تتأثّر بالحزن أو أنها تتأثّر به تأثّرًا عكسيًا...

هكذا تغذّيت في مائتم فهمي، امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب ولأ نفق. موت المنفلوطي وسيّد درويش وضياع السودان أحداث كلّت زماننا بالسواد، لكنّ الائتلاف وهذا المقصف من أنباء زماننا السارة، أكلنا ثلاثة من الديكة الروميّة وثمة رابع لم يمس بعد... هو هذا! ربّاه إنّّه يشير إلى أنفي فيضحّون جميعًا بالضحك! إنهم سكارى فلا تغصب! اضحك معهم متظاهرًا بالاستهانة والمرح، أمّا قلبي فينتفض غضبًا، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه، أمّا آثار هذه الليلة البهيجة فهيها أن تنجو منها أبد الدهر، وهاك اسم فؤاد الحمزاوي تتناقله الألسن، عن تفوّقه ونبوغه يتحدثون فهل لذعتك الغيرة؟ سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما:

- كان طالبًا مجدًا منذ طفولته!

- أتعرفه؟

أجاب حسين شدّاد عنه:

- والده موظّف في متجر والد كمال...

في قلبي ارتياح لعن الله القلوب...

جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الرعوس الشاذّة، والأنوف الكبيرة، إمّا السماء وإمّا الموت. قال وهو يهزّ رأسه كالقنّاع:

- هذا رأيي...

فقال إسماعيل لطيف ساخرًا:

- أتعرف ماذا يعني الزواج من أوريّة؟ إنّ كلمة واحدة «الظفر» بامرأة من أحطّ طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رَجُل تشعر في أعماقها بأنّه عبد من العبيد.

حظيت بهذه العبوديّة في وطنك الكريم لا في أوربا التي لن تراها.

قال حسين مستنكرًا:

- مغالاة!...

- انظر إلى المدرّسين الإنجليز كيف يعاملوننا!

قال حسين شدّاد بحماس هو بالرجاء أشبه:

- الأوروبيون في بلادهم غيرهم في بلادنا!

هل من سبيل إلى قوّة القاهرة تبيد الظلم والظالمين؟ يا ربّ العالمين أين عدالتك السماويّة؟!

دعا الداعي إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلامك، ثمّ إلى حجرة جانيّة تنفرّج عن البهو الخلفي، فوجدوا مقصفًا صغيرًا يتسع لعشرة على الأقلّ، ولحق بهم شبّان بعضهم من أقرباء آل شدّاد والبعض من أصدقاء المدرسة، ومع أنّ العدد دون الحدّ المقرّر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق، إلّا أنّهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوّة وعنف حتّى ساد الجوّ نشاط السباق، وكان ينبغي لهم أن يتحرّكوا دوائماً ليطوفوا بشقّى ألوان الطعام التي امتدّت صحافها على طول المائدة تفصل بين كلّ مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورود. ولوّح حسين بإشارة من يده إلى السفرجي، فجاء بقوارير الويسكي وزجاجات الصودا، فهتف إسماعيل لطيف:

- أقسم أنّي تفاءلت خيرًا بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها.

ومال حسين على أذن كمال قائلاً برجاء:

- كأسًا واحدة من أجل خاطري...

قال كمال:

- كان والده ولا يزال الرجل المجذ الأمين.

- وما تجارة والدك؟

كم أحيط «التاجر» في خيالي بهالة الإكبار، حتى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار:

- تاجر جملة للبقالة...

الكذب أداة نجاة حقيرة، انظر إليهم كي تستشف ما يدور وراء أقنعة وجوههم ولكن أي رجل في هذا البيت يضارع أباك جمالاً وقوة؟!

وعقب الانصراف عن الموائد عادت الأكثرية إلى مجالسها في البهو، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون، فمرّ وقت هادئ خامل، ثم أخذ المدعوون في الانصراف، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثاني ليقدموا التهانى إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة في المجلس السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثم تأبط ذراع إسماعيل وغادر سراي آل شداد، قال إسماعيل وهو يلقي على صاحبه نظرة مخمورة:

- الساعة الحادية عشرة، ما رأيك في أن نتمشى في شارع السرايات حتى أفيق قليلاً؟ فوافق كمال عن طيب خاطر، لأنه وجد في المشي وقتل الوقت فرصة مواتية يبتها، سارا معاً في نفس الطريق الذي سار فيه من قبل إلى جانب عايده، يعترف لها بحبه ويبثها آلامه. لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذي القصور الجليلة الصامته، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنة وروعة الخيال السامي، ولن يفتأ قلبك كلما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرعش باعثاً بخفقات الحنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمي أوراقها وثمارها، ومهما يكن من فنل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يذخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هي على أسوأ التقديرات خير من راحة العدم ووحشة المهجر وخمود العاطفة، وهل أنت واجد في مستقبلك زاداً للقلب إلا

أماكن تنطلع إليها بعين الخيال وأسماء تمدّ لها أذان الشوق؟! تساءل كمال:

- ترى ماذا يحدث الآن في الدور الأعلى؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم:

- أوركسترا يعزف مقطوعات غربية، العروسان

فوق المنصة يبسمان وحولها آل شداد وآل سليم، رأيت مثل هذا الجمع مرّات عديدة...

عايده في ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت شيئاً كهذا ولو فيما يرى النائم؟!

- وإلامّ يمتدّ الحفل؟

- ساعة على الأكثر كي يتمكن العروسان من النوم ما داما سيسافران في الصباح إلى الإسكندرية.

كلمات كالحناجر، اغرز منها ما تشاء في قلبك...

- ولكن متى عرفت ليالي الزفاف النوم؟!

وضحك ضحكة عالية معربة، ثم تجشأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأففاً ثم بسط صفحة وجهه، وقال:

- ربنا لا يحكم عليك بنوم العشاق، لا نوم لهم يا عيني، لا يغرنك تحفّظ حسن سليم، سيصول ويجول كالفحول حتى مطلع الصبح، هذا قضاء لا نجاة منه...

تذوق هذا النوع الجديد من الألم المقطر، روح الألم أو ألم الألم، ليكن عزائك أنك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك، وأنه سيهون عليك الجحيم إذا قدّر عليك يوماً أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لحيه، ألم!! لا تفقد الحبيب فإنك ما طمحت يوماً في امتلاكه، ولكن لنزوله من علياء سائه، لتمرّغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب... لأنه رضي لخده أن يقبل، ودمه أن يسفح! ولجسده أن يبتذل. ما أشدّ حسرتي وألمي!...

- أحتقّ ما يقال عن ليلة الدخلة؟

هتف إسماعيل:

- أتجهل بالله هذه الأمور؟



- كيف يقدّسون الدنس؟ ...
- لا أجهلها طبعًا، كنت حتى زمن قريب لا أدري عنها شيئًا، وثمة أمور أودّ أن تعاد علي مسمعي ...
- قال إسماعيل ضاحكًا:
- إنك تبدو لي أحيانًا أحمق أو أبله ...
- دعني أسألك، أيهن عليك أن يفعل هذا بشخص تقدّسه؟
- تجشأ مرة ثانية حتى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:
- لا يوجد شخص يستحق أن يقدّس ...
- ابنتك مثلاً، لو كان لك ابنة ...؟
- لا ابنتي ولا أمي، كيف جئنا نحن؟ هذا هو قانون الطبيعة ...
- نحن! الحقيقة نور لآلاء، فغُضّ الطرف، وراء ستار القداسة الذي سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال، ما لكل شيء يبدو خاويًا! الأم ...
- الأب ... عابدة، كذلك ضريح الحسين ... مهنة التجارة ... أرسقراطية شداد بك، يا لشدة الألم.
- ما أقدر قانون الطبيعة! ...
- تجشأ إسماعيل للمرة الثالثة، وقال وقد نَمّ صوته عن الضحك وإن لم يُسمع له ضحك:
- الحقيقة أنّ قلبك موجه، إنّه يغنيّ مع المطربة الجديدة أم كلثوم «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيّع» ...
- كمال في انزعاج:
- ماذا تعني؟
- فقال إسماعيل بلهجة تعمّد أن تشي بسكره أكثر من الواقع:
- أعني أنك تحبّ عابدة!
- ربّاه! كيف افترض سرّه؟ ...
- أنت سكران! ...
- هي الحقيقة والجميع يعرفونها!
- هتف وهو يحمق صوبه في الظلام:
- ماذا تقول؟
- أقول إنّها الحقيقة، والجميع يعرفونها.
- الجميع؟! من هم؟! من افترى هذا علي؟
- عابدة!
- عابدة؟
- عابدة هي التي أذاعت سرّك ...
- عابدة؟ لا أصدّق هذا، أنت سكران.
- نعم أنا سكران ولكن هذه هي الحقيقة أيضًا، من فضائل السكران أنّه لا يكذب ... (ثمّ بعد ضحكة رقيقة) ... هل أغضبك هذا؟ عابدة كما تعلم شابة لطيفة، حالمًا لفتت الأنظار سرًا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدري، لا بدافع السخرية ولكن لأنّها تنيه دلالةً بالمغرمين، وقد كاشفت حسن أوّل الأمر فوجّه حسن نظري إليك مرّات، ثمّ أفضى بالسرّ إلى حسين، بل علمت أنّ سنيّة هانم سمعت عن العاشق الولهان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم، فالكمل يعرف قصّة العاشق الولهان ...
- شعر بخور، وخيل إليه أنّ الأقدام المتحرّكة تطأ كرامته بقسوة، فانطبقت شفتاه على حزن مرير، أهكذا يبعثر السرّ المصون. وعاد الآخر يقول:
- لا تتأثر، كان الأمر كلّه دعاية بريئة صدرت عن قلوب تكنّ لك الودّ، حتى عابدة لم تدع سرّك إلّا بدافع المباهاة!
- توهّمت فأنخدعت! ...
- فقال إسماعيل ضاحكًا:
- إنكار حبّك عبث كإنكار الشمس في رابعة النهار! ...
- صمت كمال صمتًا مليئًا بالشجن والاستسلام، وفجأة تساءل:
- ماذا قال حسين؟
- ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول:
- حسين؟! إنّه صديقك الأمين، طالما أعلن عن عدم ارتياحه لأسلوب أخته البريء، وكان يجيئها منوهاً بمزايك!
- تنهّد في ارتياح. إذا كان في الحبّ قد خاب أمله، فقد بقيت له الصداقة، آه، كيف يسعه أن يدخل

سراي آل شدّاد بعد الليلة؟!

وقال إسماعيل بلهجة جدّية كأنما يشجّع صاحبه على مواجهة الموقف:

- كانت عابدة في حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام، ثمّ إنّها أكبر منك سنًا، وهذه العواطف تُنسى عقب النوم، فلا تهتمّ ولا تحزن. هذه العواطف تنسى! تساءل باهتمام غير خاف:

- أكانت تسخر منّي وهي تنوّه بهذا الغرام المزعوم؟ - كلاً، قلت لك إنّها تسعد بالحديث عن عشاقها! كانت معبودتك إلهاً قاسياً ساخراً ينشر صدره للهزء بعابديه، أتذكر يوم مثّلت برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة في قوّته وقسوته، كيف هرعت بعد ذلك متهلّلة إلى ليلة الدخلة كأني فتاة؟! أمّا أمك فشيئتها الحياء كأنما تشعر بذنبها!

وكانا قد توغّلا في الطريق فاستدارا راجعين في صمت كأنما قد تعبنا من الحديث وشجونته، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغني بصوت رديء «يا ما شاء الله ع التحفجّة»، ولكنّ الآخر لم يخرج عن صمته فضلاً عن أنّه لم يد عليه أنّه انتبه إلى غناؤه، ما أخجله! أحذوثة كان، وكأنّه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة فظّة لا يستحقّها، فهل يكون هذا جزاء الحبّ والعبادة؟! ما أقسى المعبودة وما أفظع الألم! لعلّ نبرون عندما غنى وروما تحترق كان ينتقم لحال كحاله هذه. كن قائداً غازياً يختال على متن جواد، أو زعيماً يُحمل على الأعناق، أو تمثالاً من صلب فوق سارية، أو ساحراً يتصوّر في أيّ صورة شاء، أو ملاكاً يطير فوق السحاب، أو راهباً منزوياً في صحراء، أو مجرماً خطيراً يزلزل الأمنين، أو مهرجاً يأسر الضاحكين، أو منتحراً يهزّ الرائيين. لو علم فؤاد الحمزاوي بقصّته لقال له وهو يوارى سحرته تحت طلاء أدبه المعهود: الحقّ عليك، فأنّت الذي هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احتقرت قمر ونرجس فدقّ هجر الألهة. الساء أو لا شيء هذا هو جوابي. فلتتزوج كما تحبّ، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، وليتقدّم بها العمر حتّى يذوي

عودها الرّيان، فلن تظفر بحبّ كحبي. لا تنس هذا الطريق فوق أديمه سكرت بخلب الآمال ثمّ تجرّعت غصص اليأس، لم أعد من سكّان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغي أن أحيا حياة الغريب.

عندما مرّا بسراي آل شدّاد في طريق العودة وجدا العمّال عاكفين على نزع الزينات وأسلالك المصابيح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار، فتجرّد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلّا حجرات ظلّ النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها. انتهى الحفل وتفرّق الجمع وأذن الحال بأنّ لكلّ شيء نهاية، وما هو يعود حاملاً علبة الحلوى كأنه طفل يلهم عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة، وواصل السير على مهل حتّى بلغا مطلع الحسينيّة، فتصافحا، وافترقا. . .

لم يكد كمال يتقدّم في شارع الحسينيّة أمّتاراً حتّى توقّف، ثمّ انقلب عائداً إلى العباسيّة التي بدت مقفرة مغرقة في النوم، وحثّ خطاه صوب سراي آل شدّاد، وعندما شارف البيت مال يمينه إلى الصحراء التي تكتنفه وأوغل فيها حتّى بلغ موضعاً فيما وراء السور الخلفي للحديقة يطلّ على السراي على بعد، وكان الظلام كثيفاً شاملاً يطمئنّ الرقباء ستائره، ولأوّل مرّة في ليلته شعر بالبرودة في ذلك الخلاء العاري، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل. . . تراءى له شيخ البيت وراء سوره العالي كالقلعة الضخمة، فجالت عيناه باحثة عن هدف غالي حتّى استقرّتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها في أقصى الجناح الأيمن من الدور الثاني، تلك غرفة العرس، الغرفة الوحيدة الميظى في هذا الجانب من القصر، كانت بالأمس حجرة نوم عابدة وبدور، وأزّينت الليلة لشهود أعجب ما جرت به المقادير. تطلّع إليها طويلاً، أوّل الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلّع إلى عشّه فوق الشجرة، ثمّ بحزن عميق كأنما يرى بعينه مصرعه فيما وراء الغيب، ماذا يدور وراء هذه النافذة؟. . . لو يتاح له أن يتسلّق هذه الشجرة في الحديقة ليرى! إنّ البقيّة الباقية من عمره ثمن زهيد يؤدّيه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة،

وهل قليل أن ترى المعبود في خلوة زفافه؟ كيف يقبىان وكيف تلتقي العينان؟ وبأي حديث يتناجيان؟ وفي أي مكان من الدنيا ينزوي الآن كبرياء عابدة؟ إنه يتحرّق شغفًا إلى الرؤية وإلى تسجيل كلّ كلمة تنذ أو حركة تصدر أو أمانة تنطق بها أسارير الوجه، بل إلى خطرات النفس وتصوّرات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز... كلّ شيء ولو كان بشعًا مرعبًا أو محزنًا مؤلمًا، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف، ولبت بمكانه والوقت يمضي لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يملّ التساؤل. ماذا كان يفعل لو كان في مكان حسن سليم؟ ودوّخته الحيرة دون الجواب، إنّ العبادة لن تغني عن هذه الليلة شيئًا، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجّه إلى عابدة، أمّا حسن سليم فمن طائفة لا تتقيّد بالعبادة. هكذا يتعذّب في الصحراء وهناك تبادل قبل ممّا عهدته الناس وتنهدات تتصبّب عرقًا وغيوبة تنزّ دماً وغلالة تنحسر عن جسد فان، كهذا العالم الفاني وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة... فابك ما بدا لك على هوان الآلهة، وليمتلّ قلبك بالمأساة، ولكن أين يمضي الشعور الباهر الرائع الذي نور قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهما ولا صدق لوهيم، إنّ حياة الحياة، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فأنيّ قوّة تستطيع أن تتناول إلى الروح، وهكذا لتبقيّن المعبودة معبودته، والحبّ عذابه وملاذه، والحيرة ملهاته، حتّى يقف أمام الخالق يومًا يسأله عما حيرته من معضلات الأمور، آه لو يطلع على ما وراء النافذة، لو يكشف سرّ أسرار وجوده؟... وكان البرد يقرصه أحيانًا فيذكره بموقفه وبالوقت الذي يمرّ سادراً، ولكن فيم يتعجّل العودة؟... أيطمع حقاً أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة؟

- ٣٢ -

جئنك بحنطور، وكان الأسلم أن نجيشك بقارب... وكانت الأمطار قد انهملت يوماً ونصف يوم حتّى سالت الأرض وغرقت الحواري والأزقة، ومع أنّ السياء أمسكت - بعد ذلك - إلا أنّ تجهّمها لم ينكشف، وظلّ وجهها متوارياً وراء سحب جون أظّل الأرض بمظلة قائمة بعثت في الجوّ عكارة كأنها نذير ليل بهيم. واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمّد عفت يطمئنّ إلى مجلسه عند ركن المكتب حتّى قال كأنما ليجلو سرّ مجيئه:

- لا تعجب لمجيئي في هذا الجوّ رغم أننا سنلتقي في مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولكّني اشتقت إلى الانفراد بك!

وضحك محمّد عفت، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله، فضحك السيّد أيضاً، ولكّنها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب. وذهب جميل الحمزاوي - وكان ملتفّعاً بكوفيّة ضمّت قمّة رأسه وما تحت ذقنه - إلى الباب، فنادى صبيّ قهوة قلاوون ليحضّر قهوة، ثمّ عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل، أمّا السيّد أحمد فقد حدّثه قلبه بأنّ وراء الزيارة أمراً، فقد وقعت في وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة، إلى أنّ الأزمات النفسية التي عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيراً، كلّ أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته، غير أنّه دارى قلقه بضحكة لطيفة، ثمّ قال:

- كنت قبيل حضورك أتذكّر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطعه.

فقال محمّد عفت بأسياً:

- كلنا تلاميذك! وبهذه المناسبة دعني أنقل إليك ما يشيعه عليّ عبد الرحيم عنك، إنّ يقول إنّ الصداق الذي انتابك في الأسابيع الماضية ما هو إلّا عارض لخلوّ حياتك من النساء في الأيام الأخيرة!...

- لخلوّ حياتي من النساء! وهل للصداق من سبب غير النساء؟

وجاء صبيّ القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء، فوضعها على ركن المكتب الذي يجلس حوله

وقف الحنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد، وقد لطّخ عجلاته الوحل المتراكم في شارع النحاسين والمياه المتجمّعة في فجواته، فغادره السيّد محمّد عفت في جبة صوفية، ودخل الدكان وهو يقول بأسياً:

جعلت يسراه تعبت بشاربه بسرعة عصبية، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

- لهذا الحد! كيف أصدق هذا! كيف أخفى عني الأمر؟!

- الحال تقتضي الكتمان! اصغ إلي، لقد أثرت أن أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة، ولكن لا يصح أن نعيها أكثر مما تستحق، وينبغي قبل كل شيء ألا تستسلم للغضب، لم يعد الغضب ممّا تحتمله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيد يائسًا:

- في الأمر فضيحة؟! هذا ما حدثني به قلبي، هات ما عندك يا سيد محمد...

هزّ محمد عفت رأسه أسفًا، ثم قال بصوت منخفض:

- كن دائمًا أحمد عبد الجواد الذي عهدناه، لقد تزوّج من زُوبة العوادة!  
- زُوبة!...

وتبادلا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدا الارتباك في وجه أحمد والإشفاق في وجه صاحبه، ثم لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى في الأهمية، فتساءل السيد أحمد بلهجة لاهثة:

- ترى هل تعلم زُوبة بأنه ابني؟!

- لا يداخلني في هذا شك، غير أنني أكاد أوقن بأنها لم تطلع على سرّك لتتمكن من إيقاعه في الشرك، وقد نجحت نجاحًا تستحقّ عليه كلّ تهنة!

ولكنّ أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة:

- أم تراه أخفى عني الأمر لعلمه بما كان؟

- كلا، لا أصدق هذا، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها، إنه شاب طائش ما في ذلك من ريب، ولكنّه ليس نذلًا، وإذا كان قد أخفى عنك الأمر، فما ذلك إلاّ لأنه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنّه تزوّج من عوادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين، الحقّ أنني تألّت كثيرًا، ولكنّي أكرّر الرجاء بالألا تستسلم للغضب، ذنبه على جنبه، وأنت بريء من فعلته ولا لوم عليك.

الصديقان، ومضى، وشرب محمد عفت شربة ماء، ثم قال:

- شرب الماء البارد في الشتاء لذيق، ما رأيك في هذا؟ لكن فيم سؤالي وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمّون كلّ صباح بالماء البارد حتّى في هذه الأيام من فبراير... الآن خبرني، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطني الذي احتشد في بيت محمد محمود؟ عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدلي وثروت في جبهة واحدة! فتمتم السيد قائلاً:

- ربّنا من حكمته أنّه يقبل التوبة...

- إني لا أتق في هؤلاء الكلاب...

- ولا أنا، ولكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيّها، ومن المحزن أنّ المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز.

ثمّ مضيا يجتسيان القهوة في صمت إن دلّ على شيء فعلى أنّ الحديث العابر لم يعد له محلّ، وأنّ على محمد عفت أن يدلي بما عنده. واعتدل الرجل في جلسته، وخاطب السيد بلهجة جدّية متسائلاً:

- أعندك أخبار عن ياسين؟

انعكس السؤال في عيني السيد الواسعتين اهتمامًا مشوّبًا بقلق، وفي الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروعة، قال:

- خيرا! إنّه يزورني من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضي فهل من جديد؟ أمر يتعلّق بريم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيرًا أنّ بيومي الشربتلي اشترى نصيبها في بيت أمها.

قال محمد عفت وهو يتكلّف ابتسامة:

- الأمر لا يتعلّق بريم، من يدري لعلّها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لفّ أو دوران زواج جديد.

فخفق قلبه مرة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول:  
- زواج جديد؟! ولكنّه لم يشر إلى ذلك بتاتاً في أحاديثه معي!

هزّ محمد عفت رأسه أسفًا، وقال:

- لقد تزوّج بالفعل من شهر أو أكثر، حدثني بذلك غنيم حميدو منذ ساعة فقط، وكان يظنّ أنّك تعلم كلّ شيء!

تَهْدَ أَحْمَدُ عَبْدَ الْجَوَادِ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، ثُمَّ سَأَلَ صَاحِبَهُ:

- خَبِّرْنِي كَيْفَ عَلِقَ غَنِيمٌ حَمِيدُو عَلَى الْخَبْرِ؟  
فَلَوْحٌ مُحَمَّدٌ عَقَّتْ بِيَدِهِ مُسْتَهْتِنًا، وَقَالَ:

- سَأَلْنِي: كَيْفَ يَرْضَى السَّيِّدُ أَحْمَدُ عَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا. فَتَأَسَّفَ وَقَالَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْمَدِيِّ الْبَعِيدِ بَيْنَ الْأَبِّ وَابْنِهِ! كَانَ اللَّهُ فِي عَوْنِهِ.

قَالَ أَحْمَدُ بِلَهْجَةٍ رَائِيَةٍ:

- أَهْذِهِ عَاقِبَةُ تَرْبِيَتِي لَهُمْ؟ إِنِّي فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ يَا سَيِّدَ مُحَمَّدٍ، الْمَصِيبَةُ أَتَانَا نَفْتَقِدُ السَّيْطَرَةَ الْفَعْلِيَّةَ عَلَيْهِمْ فِي السَّوْقِ الَّذِي تَسْتَرْجِبُ مَصْلَحَتَهُمُ الْحَقِيقِيَّةَ سَيَطَرْتَنَا، إِنَّمَا بِحُكْمِ الْعَمْرِ يَتَحَمَّلُونَ مَسْئُولِيَّةَ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يَسَيِّئُونَ اسْتِعْمَالَهَا دُونَ أَنْ نَسْتَطِيعَ تَقْوِيمَ مَا يَعْجُجُ مِنْهُمْ، نَحْنُ رَجَالٌ وَلَكِنَّا لَمْ نَلِدْ رَجَالًا، مِنْ أَيْنَ جَاءَ الْعَيْبُ يَا تَرَى؟ هَذَا الثُّورُ.

امْرَأَةٌ فِي مَتَنَاوِلِ كُلِّ يَدٍ فَهَذَا دَعَا إِلَى الزَّوْجِ مِنْهَا؟! فَلَنْبِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وَضَعَ مُحَمَّدٌ عَقَّتْ يَدَهُ عَلَى مَنْكَبِ صَاحِبِهِ بِحَنَوٍّ، وَقَالَ:

- لَقَدْ أَذَيْنَا مَا عَلَيْنَا مِنْ وَاجِبٍ، الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِصَاحِبِ الْأَمْرِ، وَهِيَئَاتُ أَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ مُسْتَحَقًّا لِلْوَم.

عِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ صَوْتُ الْحَمَزَاوِيِّ الْأَسِيفِ وَهُوَ يَقُولُ:

- لَا يَسْتَطِيعُ مَنْصُفٌ أَنْ يَلُومَكَ عَلَى أَمْرٍ كَهَذَا يَا سَيِّدَ السَّيِّدِ، عَلَى أَنَّهُ يَخْتَلِلُ إِلَى أَنَّ الْأَمَلَ فِي الْإِصْلَاحِ لَمْ يَنْعَدَمْ، انْصَحْهُ يَا سَيِّدَ السَّيِّدِ...

- إِنَّهُ يَبْدُو بَيْنَ يَدَيْكَ طِفْلًا مَطِيعًا، وَهُوَ سَيَطْلُقُهَا حَتْمًا غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ فَخَيْرُ الْبَرِّ عَاجِلُهُ...

فَتَسَاءَلَ السَّيِّدُ مُتَشَكِّيًا:

- وَإِنْ كَانَتْ قَدْ حَبَلَتْ؟

فَجَاءَ صَوْتُ الْحَمَزَاوِيِّ وَهُوَ يَقُولُ جَزَعًا:

- لَا قَدَّرَ اللَّهُ وَلَا سَمَحَ...

وَبَدَأَ أَنَّ عِنْدَ مُحَمَّدٍ عَقَّتْ مَزِيدًا مِنَ الْقَوْلِ، فَنَظَرَ إِلَى صَاحِبِهِ بِإِشْفَاقٍ، ثُمَّ قَالَ:

- وَمَنْ الْمُؤَسَّفُ حَقًّا أَنَّهُ بَاعَ دُكَّانَهُ بِالْحَمَزَاوِيِّ لِيُؤْتِيَ بَيْتَهُ مِنْ جَدِيدٍ!

حَلَقَ أَحْمَدُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَطَّبَ مَنْفَعَلًا، وَهَتَفَ حَانَقًا:

- كَأَنِّي غَيْرُ مُوجُودٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا!... حَتَّى فِي هَذَا لَا يَشَاوِرُنِي!...

ثُمَّ وَهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفِّ:

- ضَحِكُوا عَلَيْهِ بِلَا رِيْبٍ، وَجَدُوا فِي طَرِيقِهِمْ لَقِيَّةً، بَغْلًا بِلَا سَائِسٍ فِي ثِيَابِ أَفْنَدِي...  
فَقَالَ مُحَمَّدٌ عَقَّتْ مَتَأَثِّرًا:

- تَصَرَّفَاتُ أَطْفَالٍ!... نَسِيَ أَبَاهُ وَنَسِيَ ابْنَهُ! وَلَكِنْ مَا الْفَائِدَةُ مِنَ الْغَضَبِ؟

صَاحَ أَحْمَدُ عَبْدَ الْجَوَادِ:

- يَخْتَلِلُ إِلَيَّ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ آخُذَهُ بِالْحَزْمِ مِمَّا تَكُنُ الْعَوَاقِبُ...  
مَدَّ مُحَمَّدٌ عَقَّتْ ذِرَاعِيهِ كَأَنَّمَا يَدْفَعُ رِزْقَهُ، وَقَالَ بَتَوَسُّلٍ:

- إِنَّ كِبَرَ ابْنِكَ آخِزِهِ، لَا تَخْطِئِي وَأَنْتِ سَيِّدُ الْعَارِفِينَ، لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا النَّصِيحَةُ وَلِيَقْضِ اللَّهُ بِمَا هُوَ قَاضٍ...

وَخَفَضَ مُحَمَّدٌ عَقَّتْ عَيْنِيهِ مُتَفَكِّرًا، وَبَدَأَ لِحَظَاتٍ كَالْمُتَرَدِّدِ، ثُمَّ قَالَ:

- ثَمَّةُ أَمْرٍ يَهْمُنِي كَمَا يَهْمُكَ أَلَا وَهُوَ رِضْوَانُ! وَتَبَادُلُ الرِّجْلَانِ نَظْرَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ اسْتَطَرَدَّ مُحَمَّدٌ عَقَّتْ قَائِلًا:

- سَيَبْلُغُ الْغُلَامُ السَّابِعَةَ مِنْ عَمْرِهِ بَعْدَ أَشْهُرٍ، وَأَخَافُ أَنْ يَطَالِبَ بِهِ فَيَنْشَأَ بَيْنَ أَحْضَانِ زَنْوِيَّةٍ، هَذَا شَرٌّ يَجِبُ دَفْعُهُ، وَلَا إِخَالَكَ تَوَافُقُ عَلَيْهِ، فَأَقْنَعُهُ بِأَنْ يَتْرِكَ الْغُلَامَ عِنْدَنَا حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا...

لَمْ يَكُنْ مِنْ طَبَعِ أَحْمَدَ عَبْدَ الْجَوَادِ أَنْ يَرْحَبَ بِأَنْ يَبْقَى ابْنُ ابْنِهِ عِنْدَ آلِ أُمِّهِ بَعْدَ انْقِضَاءِ فِتْرَةِ الْحِضَانَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى لَمْ يَشَأْ أَنْ يَقْتَرِحَ ضَمَّهُ إِلَى بَيْتِهِ هُوَ حَتَّى لَا يُضِيفَ إِلَى أَعْبَاءِ أُمِّيَّةٍ عَبَثًا جَدِيدًا لَمْ تَعُدْ بِحُكْمِ سَهْوِهَا أَهْلًا لِحَمْلِهِ، فَقَالَ فِي اسْتِسْلَامِ أَسِيفٍ:

- لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَرَبَّ رِضْوَانُ فِي بَيْتِ زَنْوِيَّةٍ هَذَا مَا أَفْرَكَ عَلَيْهِ...

فقال محمد عفت وهو يتنهد بارتياح:

- إن جدته تحبه من كل قلبها، وحتى لو دعت ظروف قهرية في المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمه فسوف يجد هناك جواً صالحاً، إذ أن زوج أمه رجل في الأربعين أو جاوزها، وقد حرمه الله من نعمة الذرية...

فقال أحمد عبد الجواد برجاء:

- لكنني أفضل أن يبقى عندك...

- طبعاً... طبعاً، إنني تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألا تضطر إليها، الآن لم يبق لي إلا أن أرجوك أن تترقب في مخاطبته ومحاسبه حتى يتيسر إقناعه بترك رضوان لي...

وهنا جاء صوت الحمزاوي المسالم وهو يقول:

- السيد أحمد سيد الحكماء، وهل يغيب عنه أن ياسين رجل؟ وأنه مثل كافة الرجال حر التصرف في شئونه وأملأك؟ هذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيد، وما عليه إلا النصيحة، والباقي على الله...

استسلم أحمد عبد الجواد بقية النهار إلى التفكير والحزن. قال لنفسه: إن ياسين في كلمة ابن مخيب للآمال، وليس أفجع من ابن مخيب للآمال، إن ماله بين ويا للأسف! ولن يحتاج إلى قوة بصيرة كي يتصوره، أجل سوف ينحدر من سبيل أسوأ وعند الله اللطف. وقد رجاه جميل الحمزاوي أن يؤجل مخاطبة ياسين إلى الغد، فأنصاع لرجائه يائساً أكثر منه قادراً لوجاهة النصيح.

وعند عصر اليوم التالي استدعاه إلى مقابلته، فلبى ياسين مبادراً كما ينبغي للابن المطيع. والحق أن ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب. كان البيت القديم المكان الوحيد الذي لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدة حنينه إليه، وما من مرة كان يلتقي فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه. أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تمح من صفحته آثار ما سباه تعنتها معه، بيد أنه أبى أن ينسى كذلك العهد القديم، عهد لم يكن يعرف أمّاً إلهاً. ولم ينقطع عن زيارة أخته، كما كان يقابل كمال أحياناً في قهوة أحمد

عبد أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشاب مريم أولاً ثم زئوبة أخيراً. أما أبوه فكان يزوره في دكانه مرة على الأقل كل أسبوع، وهنا أتبع ياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التي يأسر الناس بها، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة، غدتها صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى. غير أن ياسين وهو يتفرس في وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذي طالما بعث في أطرافه الرعب، ولم يتساءل عما طرأ عليه، لأنه كان واثقاً من أنه سيقف على سره عاجلاً أو آجلاً، فلم يشك في أنه ملأقي العاصفة التي توقع هبوبها منذ أقدم على فعلته. بادره الرجل قائلاً:

- يحزنني أن أجد نفسي بهذا الهوان، وماذا وراء أن أعرف أبناء ابني من الآخرين؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينس، فشار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذي يطالعه به، وصاح:

- اخلع هذا القناع، دعك من النفاق وأسمعني صوتك، طبعاً أنت تعلم ما أعنيه!

فقال ياسين بصوت لم يكذب يسمع:

- لم أجد الشجاعة لإخبارك...

- هذا شأن من يتستر على ذنب أو فضيحة!

حذرته غريزته من أن يلجأ إلى أي نوع من أنواع المعارضة، فقال باستسلام:

- نعم...

فسأله السيد ذاهلاً:

- إذا كان هذا هو رأيك حقاً، فلم فعلتها؟!

لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى، فخيّل إلى الأب أنه يقول له بصمته «عرفت أنها فضيحة ولكنني أذعنت للحب!»، وذكره هذا بموقفه المخزي أمام المرأة ذاتها، يا للعار! غسلت خزيك بغضبة كبرى، ولكنك عدت تسعى إليها! أما هذا الثور فما أضيعه!

- فضيحة ارتضيها أنت دون تقدير للعواقب لتتعذب بها نحن جميعاً!

هتف بسذاجة قائلاً:

- أنتم جميعاً؟! معاذ الله...

- طَلَّقْهَا؟ طَلَّقْهَا قَبْلَ أَنْ تُصِيرَ أُمًّا وَتَفْضَحْنَا إِلَى أَبَدِ  
الْأَبَدِينَ! ...  
تَرَدَّدَ يَاسِينَ مَلِيًّا، ثُمَّ تَمَتَّ:  
- حَرَامٌ عَلَيَّ أَنْ أَطْلُقَهَا بِلَا ذَنْبٍ!  
يَا بَنَ الْكَلْبِ! ... أَتُحَفِّتُنِي بِنَكْتَةٍ بَارِعَةٍ لِسَهْرَةٍ  
الَلَّيْلَةِ! ...  
- سَوْفَ تَطْلُقُهَا عَاجِلًا أَوْ أَجَلًا، وَلَكِنْ قَبْلَ أَنْ  
تَنْجِبَ لَكَ طِفْلًا يَكُونُ مُشْكَلَتَكَ وَمُشْكَلَتُنَا ...  
تَنْهَدُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ مُسْتَغْنِيًا بِذَلِكَ عَنِ الْكَلَامِ،  
عَلَى حَيْنِ رَاحِ الْأَبِ يَتَفَحَّصُهُ فِيهَا يَشْبَهُ الْحِرَّةَ، فَهَمِي  
مَاتَ، كِهَالِ أَبْلِهِ أَوْ مَجْنُونٍ، وَهَذَا يَاسِينَ لَا أَمَلَ فِيهِ.  
الْمَحْزُونُ أَنَّهُ أَعَزَّ الْجَمِيعِ لَدَيْ. دَعِ الْأَمْرَ لِلَّهِ، رَبَّاهُ! مَاذَا  
يَكُونُ الْحَالُ لَوْ زِلْتُ قَدَمِي إِلَى الزَّوْجِ ...  
- بِكُمْ بَعْتَ الدُّكَّانَ؟  
- مَائَتِي جَنِيهِ ...  
- تَسْتَحَقُّ ثَلَاثَةَ مَوَاقِعَ عَمَّا زِلْتُ جَدًّا يَا جَاهِلُ، لِمَنْ  
بَعْتَهَا؟  
- عَلَيَّ طَوْلُونِ، بَائِعِ الْخَرْدَوَاتِ.  
- مَبَارَكَ مَبَارَكَ، هَلْ ضَاعَ الْمُبْلَغُ فِي الْجِهَازِ الْجَدِيدِ؟  
- لَدَيْ مِنْهُ مَائَةٌ ...  
بِلَهْجَةٍ سَاخِرَةٍ:  
- أَحْسَنْتَ، فَالْعَرِيسُ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ النُّقُودِ ...  
ثُمَّ بِلَهْجَةٍ جَادَّةٍ حَزِينَةٍ:  
- يَا يَاسِينَ اسْمِعْ كَلَامِي، أَنَا أَبُوكَ، احْتَرَسَ وَغَيْرَ  
سِيرَتِكَ، أَنْتَ نَفْسُكَ أَبُ، أَلَا تَتَفَكَّرُ فِي ابْنِكَ وَمُسْتَقْبَلِهِ؟  
فَقَالَ مَدَافِعًا مُتَحَمِّسًا:  
- إِنَّ نَفَقَتَهُ الشَّهْرِيَّةَ تُصَلِّهِ عَلَى آخِرِ مَلِيْمٍ!  
- أَهِيَ مَسْأَلَةٌ تِجَارِيَّةٌ؟ إِيَّيْ أَنْكَلَمَ عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ، بَلْ  
عَنْ مُسْتَقْبَلِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ!  
فَقَالَ يَاسِينَ بِاطْمَئِنَّانٍ:  
- رَبَّنَا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَحَضْرَتِكَ تَبَدَّدَا قُلْ لِي ...  
واعتدل في جلسته، ثُمَّ تساءل وهو يركّز فيه عينيه  
القويّتين:

عاود السيّد الغضب، فصاح به:  
- لَا تَتَصَتَّعِ الْجَهْلُ، لَا تُدْعِ الْبَرَاءَةَ، أَنْتَ تَعْلَمُ  
أَنَّكَ فِي سَبِيلِ شَهْوَاتِكَ لَا تَبَالِي مَا يَصِيبُ سَمْعَةَ أَبِيكَ  
وَإِخْوَتِكَ، أَفَحَمَتَ عَلَى الْأُسْرَةِ عَوَادَةً لِتَكُونَ هِيَ وَمَنْ  
بَعْدَهَا ذَرِيَّتَهَا مَتًا، لَا إِخَالَكَ كُنْتَ تَجْهَلُ هَذَا قَبْلَ أَنْ  
أَذْكُرَهُ، وَلَكِنَّكَ تَسْتَهِينُ بِكُلِّ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ شَهْوَتِكَ،  
هَانَتْ كِرَامَةُ الْأُسْرَةِ عَلَى يَدَيْكَ، وَأَنْتَ نَفْسُكَ تَنَاهَارُ  
حَجَرًا بَعْدَ حَجَرٍ، وَسَوْفَ تَجِدُ نَفْسَكَ فِي النِّهَايَةِ  
خَرَابًا ...  
غَضَّ الْبَصَرَ لَانْدًا بِالصَّمْتِ حَتَّى نَطَقَتْ حَالَهُ  
بِالذَّنْبِ وَالتَّسْلِيمِ، لَنْ تَكْلُفَكَ هَذِهِ الْفَضِيحَةُ إِلَّا قَدْرًا  
مِنَ التَّمَثِيلِ كَمَا أَرَى، حَسِبَكَ هَذَا، أَمَّا أَنَا فَسَارِزُ  
غَدًا بِحَفِيدِ أُمِّهِ زَنُوبَةٍ وَخَالَتِهِ زَبِيدَةٍ، مُصَاهِرَةٍ طَرِيفَةٍ  
بَيْنَ السَّيِّدِ أَحْمَدِ التَّاجِرِ الْمَعْرُوفِ وَزَبِيدَةِ الْعَالِمَةِ الذَّائِعَةِ  
الصَّبِيحِ، لَعَلَّنَا نَكْفُرُ عَنْ ذُنُوبٍ لَا نَدْرِيهَا!  
- إِنَّ بَدَنِي يَقْشَعُرُ كُلَّمَا فَكَّرْتُ فِي مُسْتَقْبَلِكَ، قُلْتَ  
لَكَ إِنَّكَ تَنَاهَارُ وَسَوْفَ تَنَاهَارُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ، خَبَّرَنِي مَاذَا  
فَعَلْتَ بِدُكَّانِ الْحَمْزَاوِيِّ؟  
رَفَعَ إِلَيْهِ عَيْنَيْنِ كَثِيبَتَيْنِ، وَتَرَدَّدَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ:  
- كُنْتُ فِي حَاجَةٍ مَاسَّةٍ إِلَى الْمَالِ ...  
ثُمَّ وَهُوَ يُخَفِّضُ عَيْنِيهِ:  
- لَوْ كَانَتْ الظُّرُوفُ غَيْرَ الظُّرُوفِ لَاقْتَرَضْتُ مَا  
أَحْتَاجُهُ مِنْ حَضْرَتِكَ وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَانَ مُحَرِّجًا ...  
السَّيِّدُ حَائِقًا:  
- يَا لَكَ مِنْ مَرَاءٍ! أَلَا تَحْجُلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ أَرَاهِنَ  
عَلَى أَنَّكَ لَمْ تَجِدْ فِي كُلِّ مَا فَعَلْتَهُ أَيْ غَرَابَةٍ أَوْ إِنْكَارٍ، أَنَا  
عَارِفُكَ وَفَاهِمُكَ فَلَا تَحَاوُلُ أَنْ تُخَدِّعَنِي، لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا  
كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنْ كُنْتَ أَعْلَمُ مَقْدَمًا أَلَّا طَائِلَ تَحْتَهَا:  
أَنْتَ تَحْرِبُ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ وَنَهَايَتِكَ سُودَاءَ ...  
عَادَ يَاسِينَ إِلَى صَمْتِهِ مُتَظَاهِرًا بِالْأَسَى. الثُّورُ! هِيَ  
جَذَابَةٌ شَيْطَانَةٌ وَلَكِنْ مَاذَا اضْطَرَّكَ بِالزَّوْجِ مِنْهَا؟ كُنْتَ  
أَظُنُّ أَنَّهَا طَالِبَتُنِي بِالزَّوْجِ طَعْمًا فِي تَقَدُّمِ عَمْرِي، لَكِنَّهَا  
أَوْقَعَتْ هَذَا الثُّورَ عَلَى شَبَابِهِ. وَوَجَدَ عِنْدَ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ  
الْإِرْتِيَاحِ وَالْعِزَاءِ. كَانَتْ خَطَّتُهَا الْمُدْبِرَةُ أَنْ تَنْزَوِّجَ بَائِيَّ  
ثُمَّنْ إِلَّا أَنَّهَا أَثَرَتْ غَيْرِي عَلَيَّ، فَوَقَعَ هَذَا الْآخِيقُ:

- رضوان على عتبة السابعة، فإذا أنت صانع به؟  
أناخذة لينشأ في أحضان حرمكم؟

لاح في الوجه الممتلئ الارتباك، ثم تساءل بدوره:

- ماذا أفعل إذن؟ لم أعمل في الأمر فكري...

هز الرجل رأسه في أسى ساخر، وقال:

- دفع الله عنك شرّ الفكر! وهل لديك وقت لتبذره فيه؟! دعني أفكر عنك، دعني أقول إن رضوان يجب أن يبقى في حضنة جدّه...

فكر قليلاً، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلاً بانصياع:

- الرأي رأيك يا أبي، هذا في صالحه ولا شك...

قال الأب متهمكماً:

- يبدو لي أنّه في صالحك أيضاً كيلا تشغل نفسك

بأمور تافهة!

ابتسم دون تعليق، كأنما يقول له «إني واثق من

أنك تمزح ولا بأس من ذلك».

- ظننت أنّه سيشتق عليّ إقناعك بالتخلي عنه!

- إنّ ثقتي في رأيك هي التي جعلتني أبادر إلى

الموافقة!

فساءل السيّد بدهشة ساخرة:

- أثقت حقاً في رأيي؟ لم لم تعمل به في الأمور

الأخرى؟!

ثم وهو يتنهد أسفاً:

- القصد! ربنا يهديك، وذنبك على جنبك،

سأحدث محمد عفت الليلة في شأن الاحتفاظ

برضوان، على أن تقوم بكل نفقاته فعسى أن

يوافق...

عند ذاك نهض ياسين وسلم على أبيه وأتمجه نحو

باب الدكان، وما إن خطا خطوتين حتى أدركه صوت

أبيه وهو يسأله:

- ألا تحبّ ابنك ككلّ الآباء؟

فتوقّف ياسين متلفّظاً نحوه، وهو يقول بإنكار:

- وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبي! إنّه أعزّ شيء في

الحياة...

فرفع السيّد حاجبيه، وقال وهو يهزّ رأسه هزّة

غامضة:

- مع السلامة...

- ٣٣ -

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحد

عبد الجواد كمال إلى حجرته، لم يكن يدعو أحداً من

أهل بيته إلى مقابلته إلّا لأمر هامّ، والحقّ أنّه كان

مبلبل الفكر، متحفّزاً لاستجواب ابنه عمّا يشغله.

وكان بعض أصحابه قد وجّهوا نظره مساء أمس إلى

مقال ظهر في البلاغ الأسبوعي بقلم الأديب الناشئ

«كمال أحمد عبد الجواد»، ومع أنّ أحداً منهم لم يقرأ

من المقال إلّا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء

وهو الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد» فلم يتم

اتّخذوا منه مادةً للتعليق والتهنئة وممازحة السيّد، حتّى

فكر الرجل جاداً في أن يكلف الشيخ متولّي عبد

الصمد بعمل حجاب للشاب. قال له محمد عفت

«سجّل اسم ابنك مع أسماء كبار الكتاب في مجلّة

واحدة، طب نفساً وادعُ الله أن يكتب له مستقبلاً

باهراً كما كتب لهم»، وقال له عليّ عبد الرحيم

«سمعت من شخص محترم أنّ المرحوم المنفلوطي ابتاع

عزبة بقلمه فأبشر خيراً»، وحديثه آخرون عن القلم

وكيف شقّ السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكام

والزعماء، ضارين الأمثال بشوقي وحافظ والمنفلوطي،

وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلاً «سبحان

الذي خلق من ظهر الجاهل عالماً»، أما السيّد فقد

ألقي نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ»،

ثم وضع المجلّة فوق جبهته التي كان قد نزعها بسبب

حرارة يونه وحمياً الويسكي مؤجّلاً قراءتها حتّى يفرد

بنفسه في البيت أو في الدكان، ثم واصل سهرته بصدر

منشرح وضمير تائب فخور، بل جعل يراجع نفسه لأوّل

مرّة في سخطه المكظوم على إشار الشاب لمدرسة

المعلّمين قائلاً إنّ «الولد» فيما يبدو سيكون «شيئاً» رغم

اختياره غير الموفّق، وبني أحلاماً على ما قيل عن

«القلم» وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطي، أجل، من

يسدري؟ لعلّه لا يكون معلّماً فحسب ولكن يشقّ



عاطفية، وهو آمن كل الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها، فلم يدر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذي كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر، ثم يقول له معلقاً «هذا ثمرة توجيهي الأول لك، أنا الذي علّمتك الشعر والقصص، جميل يا أستاذ، ولكن هذه فلسفة عميقة جداً فمن أين جئت بها؟» أو يقول مداعباً «من الحسنة التي ألهمتكم هذه الشكوى الرقيقة؟ ستعلم يا أستاذ يوماً أنّهن لا يجدي معهنّ إلا ضرب المراكيب»، ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب، تلك المقالة التي شبّ التفكير فيها معركة جهنمية في صدره وعقله كاد يحترق في أنونها، فكيف حدث هذا؟ وهل يجد له من تفسير إلا عند أصدقاء أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد والمجلات الوفدية؟ وهل يطمع في أن يخرج سالماً من هذا المأزق؟ رفع عينيه عن المجلة، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الإنصاح عن اضطرابه:

- بلى، خطر لي أن أكتب موضوعاً تشبّهت بالمعلوماتي وتشجيعاً لنفسي على مواصلة الدرس...

قال السيد أحمد بهدوء المصطنع:

- لا عيب في ذلك، الكتابة في الصحف كانت ولم تزل الوسيلة إلى الجاه والخطوة عند الكبراء، ولكنّ المهمّ الموضوع الذي يكتب فيه الكاتب، ماذا أردت بهذه المقالة؟ أقرأها وأشرحها لي، فقد غمض عليّ مرمك...

يا للتعاسة! ليس هذا المقال للجهر، وخاصة على مسمع من أبيه!

- إنّه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إني أشرح فيه نظرية علمية...

حدّجه الرجل بنظرة برّاقة متحفّزة، أهدأ ما يدعونه بالعلم الآن؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء...

- ماذا تقول في هذه النظرية؟ لقد فتت نظري عبارات غريبة تقول إنّ الإنسان سلالة حيوانية، أو شيئاً من هذا القبيل، أحقّ هذا؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته ورّبه نضالاً عنيقاً أعيا روحه وجسده، واليوم عليه أن يناضل أباه، غير أنّه

السيبل حقاً إلى حياة لم تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراغه من الصلاة والإفطار، تربّع على الكتبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلئ بمعانيها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنّه يقرأ المقالات السياسيّة فيفهمها دون عناء، أمّا هذه المقالة فإنّها دارت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بعناية فطال كلاً عن عالم يدعى «دارون» ومجهوده في جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتّى وقف مبهوئاً عند تقرير غريب يزعم أنّ الإنسان سلالة حيوانية! بل أنّه متطوّر عن نوع من القردة! وكرّر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجاً، ثمّ لبث ذاهلاً أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهي أنّ ابناً من صلبه يقرّر - دون اعتراض أو مناقشة - أنّ الإنسان سلالة حيوانية! انزعج الرجل انزعاجاً شديداً وتساءل في حيرة: هل حقاً يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة في مدارس الحكومة؟ ثمّ أرسل في طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عمّا يختلج في رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيّام ليهنّئه على النقل إلى السنة الثالثة فظنّ بالدعوة الجديدة خيراً. وبدا صاحب الوجه ضامر الجسم كمعهده في الفترة الأخيرة في حال علّلتها الأسرة بالجهد الشديد الذي بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرّها الحقيقي وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيراً لعاطفة مستبّدة جهنمية كادت تودي به، وأشار السيد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكتبة متّجهاً نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمّه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها، أمّا الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعيّ إلى الفراغ الذي يفصل بينهما على الكتبة وقال بهدوء مصطنع:

- لك مقال في هذه المجلة، أليس كذلك؟

خطف غلاف المجلة عيني كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلّت على أنّه لم يكن يتوقّع هذه المفاجأة قطّ... من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجدّ على المجلات الأدبية؟! لقد سبق أن نشر في الصباح «تأملات» بين النثر والشعر المنشور ضمّنها نظرات فلسفية بريئة وأنات

كان في الجولة الأولى معذبًا عمومًا... أما في هذه الجولة فهو خائف مرتعب، إنَّ الله قد يؤجِّل عقابه، أمَّا أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب...  
- هذا ما تقرره هذه النظرية!

علا صوت السيّد وهو يتساءل في انزعاج:  
- وآدم أبو البشر الذي خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟!  
طلما طرح هذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أبيه انزعاجًا، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح، وتقلّب في الفراش متسائلًا عن آدم والخالق والقرآن، وقال لنفسه مرّة وعشرًا: القرآن إمّا أن يكون حقًّا كلّهُ أو لا يكون قرآنًا، إنَّك تحمل عليّ لأتّك لم تدبر بعذابي، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركني الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:  
- دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلّم عن «سيدنا» آدم...  
هتف الرجل غاضبًا:

- لقد كفر دارون ووقع في حبائل الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قرودًا أو أيّ حيوان آخر، فلم يكن آدم أبًا للبشر... هذا هو الكفر عينه، هذا هو الاجترأ الوقح على مقام الله وجلاله! إنّي أعرف أقباطًا ويهودًا في الصاغة وكلّهم يؤمنون بآدم، كلّ الأديان تؤمن بآدم فمن أيّ ملّة دارون هذا؟ إنّه كافر وكلامه كفر، ونقل كلامه استهتار، خبرني أهو من أساتذتك في المدرسة؟

ما أدعى هذا إلى الضحك لو كان في القلب فراغ للضحك، لكنّه قلب أفعمته الآلام، ألم الحبّ الخائب، وألم الشكّ وألم العقيدة المحتضرة، إنَّ الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولكن كيف يَسع عاقل أن يتنكر للعلم، قال بصوت متواضع:  
- دارون عالم إنجليزي مات منذ زمن بعيد...  
وهنا نذ عن الأمّ صوت يقول بهتَج:  
- لعنة الله على الإنجليزيّ أجمعين...

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث، ولكن سرعان ما

انصرفا عنها وعاد الأب يقول:  
- خبرني، هل تدرسون هذه النظرية في المدرسة؟  
التفت جبل النجاة الذي تدلّى إليه فجأة، فقال لائيذا بالكذب:

- نعم...  
- أمر غريب! وهل تدرّس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك؟!  
- كلًّا، سأكون مدرّس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية...  
ضرب السيّد كفًا بكفّ، ودّ في تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان، وهتف محنًا:  
- إذن لماذا يدرّسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر في قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتجّ:  
- معاذ الله أن يؤثّر في عقيدتنا مؤثّر...  
فتفحصه بارتياح وهو يقول:  
- ولكنتك نشرت الكفر بمقالك!  
- أستغفر الله، إنّي أشرح النظرية ليلّم بها القارئ لا ليؤمن بها، هيهات أن يؤثّر في قلب المؤمن رأي كافر...  
- ألم تجد موضوعًا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردّد طويلًا قبل أن يرسلها إلى المجلّة، ولكنّه كان كأنما يودّ أن ينعي إلى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشكّ التي أرسلها المعريّ والخيام، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية، على أنّي لست كافرًا، لا زلت أومن بالله، أمّا السدين...؟ أين السدين؟ ذهب! كما ذهب رأس الحسين، وكما ذهبت عابدة، وكما ذهبت ثقتي بنفسي! ثمّ قال بصوت حزين:

- لعليّ أخطأت، عذري أنّي كنت أدرس هذه النظرية...  
- ليس هذا بعذر، وعليك أن تصلح خطأك...

تفهمين، انتبهي إلى عملك، الله يقطعك...  
ثم ملتفتاً إلى كمال بوجه متجهّم:  
- خبرني، هل أنت فاعل ما قلت لك؟  
عليك رقيب في البيت لم يتبلّ الأحرار بمثله في  
الدول، لكنك كما تخافه تحبّه، فلن يطاوعك قلبك على  
الإساءة إليه. تجرّع الألم فقد اخترت حياة النضال...  
- كيف يمكن أن أردّ على هذه النظرية؟ لو  
انحصرت مناقشتي في الاستشهاد بالقرآن لما جاءت  
بجديد، فالكلّ يعلم بما عندي ويؤمن به، أمّا  
مناقشتها علمياً فشأن المختصين من العلماء...  
- ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به؟  
اعتراض وجيه في ذاته، غير أنّه من المؤسف أنّه لا  
يحدّ الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنّه آمن بالنظرية بصفتها  
حقيقة علمية، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها  
في إنشاء فلسفة عامّة للوجود خارج نطاق العلم، أمّا  
السيد فقد ظنّ صمته إقراراً بالخطأ فتضاعف أسفه  
وحقته. إنّ الضلال في هذا الميدان شديد الخطورة  
سئم العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربما  
وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضالّ كما  
وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انقلابه من  
وصايته، فهل يجري عليه ما جرى على الآباء الآخرين  
في هذه الأيام الغريبة؟ إنّ أبناء كالأساطير تترامى إليه  
عن شباب «اليوم»، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين،  
وآخرون يعيثون بكرامات المدرسين، وغير هؤلاء  
وأولئك قد تمرّدوا على آبائهم. أجل لم تكن هيئته،  
ولكنّ عمّ أسفر ذلك التاريخ الطويل من الخزم  
والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحلّ، وها هو  
كمال يناقش ويجادل ويحاول التملّص من قبضته:  
- أصغ إليّ بكلّ وعيك، لا أريد أن أقسو عليك  
فإنّك مؤدّب ومطيع، أمّا عن موضوعنا فلا أملك لك  
إلا النصيحة، وينبغي أن تذكر أنّه ما من أحد قد  
خالف نصيحتي وسلم...  
ثمّ بعد صمت قصير:  
- إليك ياسين شاهداً عمّا أقول، وقد نصحت قديماً  
«المرحوم» بالألّا يلقي بنفسه إلى التهلكة، ولو امتدّ به

يا له من رجل طيّب! إنّهُ يطمع في أن يحمل على  
مهاجمة العلم في سبيل الدفاع عن أسطورة. حقاً لقد  
تعذّب كثيراً ولكنّه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد  
للأساطير والخرافات التي طهره منها، كفى عذاباً  
وخداغاً، لن تعبت بي الأوهام بعد اليوم، النور النور،  
أبونا آدم! لا أب لي، ليكن أبي قسداً إن شاءت  
الحقيقة، إنّهُ خير من آدميين لا عدد لهم، لو كنت من  
سلالة نبيّ حقاً ما سخرت منّي سخرتها القاتلة!...  
- وكيف أصلح الخطأ؟  
فقال السيد ببساطة وحدة معاً:  
- عندك حقيقة لا شك فيها، وهي أنّ الله خلق  
آدم من تراب، وأنّ آدم هو أبو البشر، هذا مذكور في  
القرآن، فما عليك إلّا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك  
هيّن، وإلّا فما فائدة ثقافتك؟  
وهنا جاء صوت الأم قائلاً:  
- ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن،  
قل لهذا الإنجليزي الكافر: إنّ الله يقول في كتابه  
العزیز: إنّ آدم هو أبو البشر، كان جدّك من حملة  
كتاب الله فعليك أن تتهجّج سبيله، لقد سرّني أنّك  
تبغي أن تكون مثله من العلماء...  
لاح الضيق في وجه السيد، فانتهرها قائلاً:  
- ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟  
دعينا من جدّه وانتبهي إلى ما بين يديك...  
فقال في حياء:  
- أريد يا سيدي أن يكون كجدّه من العلماء الذين  
يضيئون الدنيا بنور الله...  
فصاح الرجل ساخطاً:  
- ها هو قد بدأ ينشر الظلام...  
فقال المرأة بإشفاق:  
- معاذ الله يا سيدي، لعلّك لم تفهم...  
حدجها السيد بنظرة قاسية. لقد خفّف من شدّته  
في معاملتهم فماذا كانت النتيجة؟ ها هو كمال يذيع أنّ  
أصل الإنسان قرد، وها هي أمّه تناقشه وتقول له لم  
تفهم؟ صاح بها:  
- دعيني أتكلم، لا تقاطعيني، ولا تتدخل فيّ لا

- ٣٤ -

العمر لكان رجلاً ناهياً.

وهنا قالت الأم بصوت كالآنين:

- قتلوه الإنجليز، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون!  
وواصل السيد حديثه قائلاً:

- إذا وجدت في دروسك ما يخالف الدين، واضطرت إلى حفظه كي تنجح في الامتحان، فلا تؤمن به، ومن باب أولى لا تنشره في الصحف وإلا حملت وزره، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية...

تدخل الصوت الرقيق الحبيّ مرة أخرى قائلاً:

- ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله...

فصاح بها السيد:

- قلت ما فيه الكفاية دون الحاجة الى آرائك!

فعدت إلى ما بين يديها، وجعل السيد يحدّق فيها متوعداً حتّى اطمأنّ إلى صمتها، فالتفت إلى كمال متسائلاً:

- مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة:

- بكل تأكيد.

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعلية بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدي، أمّا عن أمّه فقد وعدّها في سرّه بأن يكرّس حياته لنشر نور الله، أليس هو نور الحقيقة؟ بلى، وسيكون في تحرّره من الدين أقرب إلى الله ممّا كان في إيمانه به، فما الدين الحقيقي إلّا العلم، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله، ولو بُعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة، مخلّفاً وراءه تلك العاصفة - التي صارح فيها الجهل حتّى صرعه - حدّاً فاصلاً بين ماضٍ خرافيّ وغد نورانيّ، بذلك تفتّح له السبل المؤدية إلى الله، سبل العلم والخير والجمال، وبذلك يودّع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة...

بعناية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراي آل شدّاد، فلمّا عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحص ما حوله، فقد آمن أخيراً بأنّ هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته، كيف لا وقد انتزع حسين في النهاية موافقة أبيه على سفره إلى فرنسا؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه المرّ الجانيّ المفضي إلى الحديقة، والنافذة المطلّة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعني شيئاً كنظرات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتغريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين، ثمّ المنظر الكليّ للحديقة المبسوط بين مؤنّس القصر والصور العريض المشرف على الصحراء، وما بين هذا وذاك من أعراش الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد، وأخيراً الكشك العتيّد الذي تملّى تحت سقفه بنشوات الحبّ والصدّاقة. وذكر المثل الإنجليزّي الذي يقول «لا تضع كلّ بيضك في سلّة واحدة» وابتسم ابتسامة حزينة، فإنّه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلّا أنّه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كلّ قلبه في هذا البيت، بعضه للحبّ وبعضه للصدّاقة، وقد ضاع الحبّ وها هو الصديق يحزم أمتعته استعداداً للرحيل، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق، كيف يمكن أن يتعرّى عن هذا المنظر؟ قد انطبع في صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين، القصر والحديقة والصحراء، جملة وتفصيلاً، كانطباع أسماء عايذة وحسين شدّاد في حافظته، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المازّة؟ هو الذي لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوماً مداعباً بالوثنيّ!...

وكان حسين شدّاد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيّين متقابلين أمام المنضدة التي وُضع عليها الدورق التقليديّ والأكواب الثلاثة، وكانا كعادتهما في الصيف يرتديان قميصاً مفتوح الطوق وبنطلوناً من الفانلة البيضاء، فطالعهما بوجهيهما المتناقضين: حسين بوجهه الجميل الراضي، وإسماعيل بوجهه الحادّ القسّات

ونظراته التهجّمية، فأقبل عليهما ببذله البيضاء ممسكاً بطربوشه الذي تدلّ زره، وتصافحوا، ثمّ جلس جاعلاً ظهره إلى البيت، البيت الذي ولّاه - من قبل - ظهره! وسرعان ما قال إسماعيل مخاطباً كمال، وهو يضحك ضحكة ذات معنى:

- يتعيّن علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد لتقابل فيه...

ابتسم كمال ابتسامة باهتة. ما أسعد إسماعيل بسخريته التي لم تعرف الألم، وهو وفؤاد الحمزاوي اللذان بقيا له، صديقان يؤنان القلب ولا يمازجان، يهرع إليهما هرباً من الوحشة، ولا حيلة إلّا أن يرضى بما قسم له.

- سنلتقي في المقاهي أو الطرقات ما دام حسين قد قرّر هجرنا...

هزّ حسين رأسه في أسف، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجامل بإعلان حزنه على فراق يهون، ثمّ قال:

- سأغادر مصر وفي قلبي حسرة على فراقكها، الصداقة عاطفة مقدّسة، إنّي أقدّرها من أعماق قلبي، والصديق هو القرين الذي يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك وأفكارك، لا يهّم أن نختلف في كثير ما دام الجوهر متشابهاً، لن أنسى هذه الصداقة أبداً، وستصل الرسائل ما بيننا حتّى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى...

كلام جميل هو العزاء للقلب المكلم المهجور. ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافياً؟ هكذا تركني وحيداً بلا صديق حقيقيّ، وغداً يُقتل المهجور ظمأً إلى الألفة الروحية الساخرة. تساءل في كآبة:

- متى نعود إلى اللقاء مرّة أخرى؟ لم أنس بعد تطلّعك الحارّ إلى السياحة الدائمة، فمن يضمن لي ألا يكون ذهابك إلى الأبد؟

فأمن إسماعيل على قوله قائلاً:

- قلبي يحدّثني بأنّ العصفور لن يعود إلى القفص...

ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنّها وشت

بسروره، ثمّ قال:

- لم أظفر بموافقة أبي على سفري حتّى وعدته بمواصلة دراستي القانونية، ولكيّ لا أدري إلى أيّ مدى سيمكنني المحافظة على وعدي؟ لا استلطف بيني وبين القانون، أكثر من هذا يخيّل إليّ أنّي لن أصبر على الدراسة النظامية، لا أريد إلّا ما أحبّه، وقلبي موزّع بين معارف شتى لا تجمعها كلفة واحدة كما قلت مراراً وتكراراً، أريد أن أتلقي محاضرات في فلسفة الفنّ، وأخرى في الشعر والقصص، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى، وأن أعشق وألهو، فأنيّ كلفة تحوي هذه الألوان جميعاً؟! وثمة حقيقة أخرى تعرفانها وهي أنّي أفضل أن أسمع على أن أقرأ، أريد أن يشرح غيري لأستمع أنا، ثمّ أنطلق بحواسّ مجلّوة وعقل مضيء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب والمقاهي والمراقص، وسوف تصلكم تباعاً تقاريري عن هذه التجارب الفدّة!

كأنّه يصف الجنة التي نبذ هو الإيمان بها! بيد أنّها جنة سلبية تأخذ ولا تعطي، وهو يطمح إلى مثال آخر، أمّا حسين فهيهات أن يجرّ إلى مغناه القديم، إذا ضمّته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد. وكأنّ إسماعيل كان يردّد خواطره حين قال مخاطباً حسين:

- لن تعود إلينا، الدواع يا حسين! حلّمنا واحد على وجه التقريب، دع جانباً فلسفة الفنّ والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح الجبال... ألخ، فنكون شخصاً واحداً! أذكرك للمرّة الأخيرة بأنّك لن تعود إلينا...

وحده كمال بنظرة متسائلة، كأنما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل، فقال:

- بل سأعود كثيراً، ستكون مصر ضمن سياحتي الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثمّ موجّها الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن!

من يدري لعلّ كذبه تصدق فيجوب تلك الآفاق، مهما يكن من أمر فقلبه يحدّثه بأنّ حسين سيعود يوماً

وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيع هباء. إن قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا تقتلع جذوره من القلب والأسفاه! قال برجاء:

- سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك، على أن تخرج منها سائحاً كلما طابت لك السياحة.

فأمن إسماعيل على رأيه:

- لو أنك ابن حلال حقاً لقبلت هذا الحلّ الوجيه الذي يوفق بين رغبتك ورغبتنا...

قال حسين وهو يطامن رأسه كأنما قد اقتنع:

- سينتهي بي المطاف إلى هذا الحلّ فيما أعتقد...

كان يصغي إليه وهو يملأ من منظره ناظره، خاصة العينين السوداوين اللتين تشبهان عيني عايدة، ولفتاته الجامعة بين السمو واللفظ، وروحه الشفاف الذي يكاد يتمثل أمامه خلقتاً يرى ويحس، إذا غاب هذا العزيز فماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحب؟

الصداقة التي تلقنتها على يديه ألفة روحية وسعادة مطمئنة، والحب الذي ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم؟ وعاد حسين يقول وهو يشير إليها واحداً بعد الآخر:

- عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسباً في وزارة المالية، وأنت مدرّساً، ولا يبعد أن أجذكما والدين! ما أعجب هذا!

تساءل إسماعيل ضاحكاً:

- هل تستطيع أن تتخيلنا موظفين؟ تصوّر كمال مدرّساً! (ثم موجّهاً الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمع كثيراً قبل أن تواجه التلاميذ، سوف تلقى جيلاً من العفاريات نحن نعدّ بالقياس إليهم من الملائكة، وسوف تجد نفسك وأنت الوفديّ العنيد مضطراً بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضرين بأمر الوفد!

أخرجه ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذي كان مسترسلاً فيه، فوجد نفسه يتساءل: كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه المشهورين؟ وجد امتعاضاً ومرارة، وخيل إليه - قياساً على شواذ المدرّسين الذين عرفهم في حياته - أنه سيلتزم القسوة

في معاملته التلاميذ ليحمي شخصيته المهذبة! غير أنه تساءل: ترى هل يسعه أن يكون قاسياً على غيره كما يقسو على نفسه؟ قال ارتجافاً:

- لا أظن أنني سأمتعن مهنة التدريس إلى النهاية...

لاحظ في عيني حسين نظرة حاملة وهو يقول:

- من التعليم إلى الصحافة على ما أظن، اليس كذلك؟

وجد نفسه يفكر في المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذي حلم كثيراً بتأليفه، ولكن ماذا بقي من موضوعه الأول؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنة والجهنم، وليس علم الإنسان إلا فصلاً من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرتجلاً أيضاً:

- لو أتمكّن يوماً من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد!

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد:

- بل السياسة هي السلعة الرائجة، خصّص للفكر إذا شئت عاموداً في الصفحة الأخيرة، وفي البلد متسع لكاتب وفديّ هجاء جديد...

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال:

- لا يبدو أنّ صاحبنا سياسيّ إيجابيّ، حسب أسرته ما قدّمت من فدية، أما الفكر فالمجال أمامه واسع فيه... (ثم غاطباً كمال) لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحادية ظفيرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل...

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التي وجد فيها تحية لثورته وتعلّقاً لغروره، قال وقد تورّد وجهه:

- ما أجهل أن يكرّس الإنسان حياته للحق والخير والجمال!...

صفر إسماعيل ثلاثاً، لكل قيمة صغيراً، ثم قال متهمكاً:

- اسمعوا وعوا!

أما حسين فقال جاداً:

- إنّي مثلك! ولكني قانع بالمعرفة والمتعة!

- فقال كمال بحماس وإخلاص:  
- الأمر أجل من هذا، إنه كفاح في سبيل الحق يستهدف خير الإنسانية جميعاً، وبغيره لا يكون للحياة معنى في نظري...  
ضرب إسماعيل كفاً بكف - وقد ذكرته هذه الحركة بأبيه - وقال:  
- إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى! كم تعبت وشقيت حتى تحررت من الدين! لم أتعب أنا تعبك، ولكن الدين لم يكن شغلي أبداً فهل تعذني يا ترى فيلسوفاً بالفطرة؟! حسبي أن أعيش الحياة التي لا تحتاج إلى تعريف، غير أن هذا الذي أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلا بالكفاح المرير، أستغفر الله، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت - حتى بعد إلحادك - تؤمن بالحقيقة والخير والجمال وتريد أن تكرر لها حياتك، أليس هذا مما يدعو إليه الدين؟! فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع؟  
لا تبال رفيق المزاح، لكن لم يبدو ما يؤمن به من القيم مثاراً للسخرية؟! هبك خُيرت بين عايده وبين الحياة السامية فأتيها تختار؟!... لكن عايده تتخايل لعيني دائماً وراء المثل...  
قال حسين يجيب عن كمال، إذ طال به الصمت:  
- المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين، أما الحر فيحبها لذاتها.  
رباه متى أراك مرة أخرى؟ أما إسماعيل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة، وسأل كمال:  
- خبرني ألا زلت تصلي؟ وهل تنوي أن تصوم رمضان القادم؟  
كان دعائي لها أمتع ما في الصلاة، وليالي هذا القصر أسعد ما في رمضان...  
- لم أعد من المصلين، ولن أكون من الصائمين...  
- وهل تعلن إفطارك...  
ضحكاً:  
- كلاً...  
- آثرت النفاق!  
فقال ممتعضاً:  
- ليس من ضرورة تدعوني إلى إسلام الذين أحبهم...  
فتساءل إسماعيل ساخراً:  
- أنظن أنك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يوماً بما يكرهه!  
كليلة ودمنة؟! بهجة الخاطرة غطت على الامتعاض، ربه هل عبرت على أساس الكتاب الذي لم يتبلور في ذهني بعد؟  
- مخاطبة القراء شيء، ومخاطبة والدين على الفطرة شيء آخر!  
فخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلاً:  
- إليك فيلسوفاً من أسرة عريقة في الجهل! لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق يحاورها، فازض بالصمت أو حاور نفسك كالمجانين. وساد الصمت قليلاً. وكانت الحديقة صامته أيضاً فلا نسمة تهفو، أما الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحر، وحسرت الشمس ثوبها المضيء عن الحديقة فلم يبق منه إلا حاشية في أعلى السور الشرقي. أنهى إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين شذاد، وسأله:  
- ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعايده هانم؟  
يا لله!... خفقة قلب أم القيامة قامت في صدري؟  
- عندما يستقر بي المقام في باريس، سأفكر حتماً في القيام برحلة إلى بروكسل...  
ثم وهو يبتسم:  
- تلقينا خطاباً من عايده الأسبوع الماضي، يبدو أنها تعاني متاعب الرحم!...  
هكذا الألم والحياة توأمان، لست الآن إلا أليماً خالصاً في ثياب رجل، عايده منداحة البطن سائلة الإفرازات؟! مأساة أم مهزلة الحياة؟! نعمة الحياة الفناء، ليتني أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم. قال

إسماعيل لطيف: - نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة  
- سيكون أبنائها أجنب! والاتلاف، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى  
- من المتفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا باريس...

فهمت إسماعيل مخاطباً حسين وهو يشير إلى كمال: طور الطفولة.  
هل تراهم يوماً بين تلاميذك؟ تسائل نفسك أين  
رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخافق أنها مقيمة هنا منذ قديم، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأي قلب تعاقبه! أنها النسيان... هل أنت خرافة أيضاً! عاد حسين يقول:

- شد ما أسهيت في الحديث عن حياتها الجديدة، لم تخف سرورها بها حتى بدا حنينها إلى الأهل مجرد مجاملة...  
مهادنة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرعها، أي شيء في هذه الدنيا لم يحب فيه أملك؟ غير أنه ضحك عاليًا، ثم قال:

- بل يشاء هذا الاتلاف أن يفرض على دائرتنا نائباً من الأحرار! مثل هذه الحياة في الأوطان المثالية خلقت، أما مشاركتها في الطبائع الأدمية فعبث من الأقدار التي عبث شقّ مقدساتك، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير في خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى؟ ولكن من أدراك بأنها لا زالت تذكرهم؟ وعادهم الصمت مرة أخرى، بدا الغيب يقطر سمرة هادئة، ولاحت في الأفق حداة مولى، وترامى إليهم نباح كلب، وأقبل إسماعيل على الدورق يشرب، وراح حسين يصفر بفيه، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ وقلب يتحسّر.  
- الحزّ هذه السنة ملعون...

قال إسماعيل ذلك، ثم جفّ شفّتيه بمنديله الحريريّ المزركش ثم تجشأ، وأعاد المنديل إلى جيب بظلوله.

فراق الأحباب ألعن...  
- متى تسافر إلى المصيف؟  
- في آخر يونيه.

أجاب إسماعيل بارتياح، فعاد حسين يقول:  
- سنسافر غداً إلى رأس البرّ حيث أمكث أسبوعاً معهم، ثم أسافر بصحبة أبي إلى الاسكندرية فأستقلّ الباخرة في ٣٠ يونيه.

وينتهي تاريخ فترة من الزمن، وربما انتهى قلب. حدّق حسين إلى كمال ملياً، ثم ضحك قائلاً:  
ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه، ثم جاء دوره فتعانقا طويلاً، طبع على خدّه قبلة وتلقّى مثلها، فغمت خياشيمه رائحة آل شدّاد ممثلة في صاحبه،



الخيال، الزبيب أبقحها رغم أنف صالح، فيه طعم  
الأنيسون الذي تجزع منه معدتي، فلا تقاطعني...

- معذرة...!

- وهناك البيرة، ولكنّها شراب الحرّ ونحن والحمد  
لله في سبتمبر. وهناك النبيذ، غير أنّ عاقبتة لطسة بنت  
كلب...

- إذن... إذن... فهر الويسكي...

- برافوا توسّمت فيك النجاجة من قديم، ولعلّك  
توافقني بعد قليل على أنّ استعدادك للهزل يفوق  
استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية  
إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التي تُتعب بها  
قلبك دون جدوى...

ونادي النادل، فطلب كأسين من الويسكي.

- من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة...

- قد تكون هذه هي الحكمة، غير أنّنا لم نجئ هنا  
لطلب الحكمة، وسوف تعلم بنفسك أنّ الجنون الدّ  
من الحكمة، وأنّ الحياة أخطر من الكتب والفكر،  
اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك...

- لا أحبّ أن أفقد الوعي، أخاف أن...

- كن حكيم نفسك...

- المهمّ عندي أن أجد الشجاعة للسير في الدرب  
إيّاها بلا تردّد، وأن أدخل عند الحاجة...

- اشرب حتّى تشعر بأنّك لا تبالي أن تدخل...

- حسن، أرجو ألاّ أندم على فعلتي فيما بعد...

- تندم؟! طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر  
بالتقوى والدين، ثمّ جاهرت بأنّك لم تعد تؤمن  
بالدين، فكثرت عليك الدعوة، فما أعجب إلاّ  
لرفضك باسم الخلق! لكن يجب أن أعترف بأنّك  
اتّبع المنطق أخيرًا...

أجل أخيرًا. بعد فترة من القلق والحيرة بين أبي  
العلاء والخيام، أو بين التقشف واللذة. وقد نزع به  
طبعه إلى مذهب الأول، فإنّه وإن بشرّ بحياة قاسية إلاّ  
أنّها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد، ولكنّه لم يدر إلاّ  
ونفسه تهفو إلى الفناء، وكأنّ صوتًا خفيًا راح يهمس في  
أذنه: لا دين ولا عابدة ولا أمل، فليكن الموت. عند

زكيّة لطيفة كأنّها عير غير آدمي، أو نفثات حلم دؤم  
في سماء مليئة بالمسرات والالام، فأفعم بها حناياه حتّى  
ثمل، وليت صامتًا مليًا حتّى يملك عواطفه، غير أنّه  
عندما تكلم تهّدج صوته وهو يقول:  
- إلى اللقاء ولو بعد حين...

- ٣٥ -

- لا يوجد أحد إلاّ الخدم!

- ذلك لأنّ ضوء النهار لم يكد يخفي بعد، والزبائن  
يفدون عادة مع الليل، هل ضايقتك خلوّ المكان؟  
- أبدًا. خلوّ المكان عامل مشجّع على البقاء،  
خاصّة وأتّها أوّل مرّة.

- للحنانات هنا ميزات لا تقدّر بثمن، فهي تقوم في  
طريق لا يقتحمه إلاّ ساع وراء لذة محرّمة، فلن يكدر  
صفوك هنا لائم ولا زاجر. وإذا عثر بك شخص  
تحرّمه كأبيك أو وليّ أمرك، كان هو الأحقّ باللوم  
والأخلق بأن يتجاهلك أو يفرّ من سبيلك إن  
استطاع...

- اسم الشارع وحده فضيحة!

- لكنّه أدعى إلى الطمأنينة من غيره، لو أنّنا ذهبنا  
إلى إحدى حانات شارع الألفي أو عماد الدين أو حتّى  
محمد عليّ، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عمّ أو ذو  
مال! ولكنهم لا يميّزون إلى وجه البركة فيما أرجو.  
- منطقتك سليم، غير أنّي لا زلت مضطربًا.

- صبرك، الخطوة الأولى دائمًا عسيرة، ولكنّ الخمر  
مفتاح الفرج، لذلك أعدك بأنّك ستجد الدنيا عند  
ذهابنا ألطف وأعذب ممّا عهدتها قبل ذلك...

- حدّثني عن أنواع الخمر، أيّها الأوفى أن أبدأ  
به؟

- الكونياك عنيف وإذا مُزج بالبيرة فقلّ على شاربه  
السلام، الويسكي مقبول الطعم جيّد الأثر، أمّا  
الزبيب...

- لعلّ الزبيب ألذّها! ألم تسمع صالح وهو يغني  
«وسقاني شراب الزبيب»...

- طالما قلت لك إنّّه لا عيب فيك إلاّ الإغراق في

فؤاد الحمزاوي ذكي ولكن لا فلسفة له؛ نفعي حتى في تذوق الجمال... يبغى وراء الأدب بلاغة ينتفع بها في تحبير المرافعات، من لي بوجه حسين وروحه؟ وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضملي الكعب، وفَضَّ سداة قارورة الصودا وصَبَّ في الكأسين فتحوَّل الذهب إلى بلاتين عمَّو باللائل، ورصَّ أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتلدلا، ثم ذهب. ردَّد كمال بصره بين كأسه وبين إسمايل، فقال الأخير بأسيا:

- افعل كما أفعل، ابدأ بجرعة كبيرة، صحتك... غير أنه اكتفى بحسوة وراح يتذوقها، ثم لبث يترقب... ولكنَّ عقله لم يطر كما كان يتوقع فتجرَّع جرعة كبيرة، ثم تناول قطعة من الجبن ليغيِّر الطعم الغريب الذي انتشر في فيه.

- لا تتعجلني!  
- العجلة من الشيطان، المهم أن تترك مكانك وأنت على حال غمك من اقتحام ما تريد...

ما الذي يريد؟ امرأة ممن استرثن تقززه ونفوره وهو مفيق فهل يحلِّي الشراب مرارة الابتذال. كان يناضل الغريزة بالدين وعابدة، أما الآن فقد خلا للغريزة الجوّ. غير أن حافزا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذي تنطوي عابدة نفسها تحت جنسه ولو كره. لعلَّ في ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطوي سرّها في جوف الليل المكتوم، وتكفيّرًا عن العذاب الدامي الذي لا أمل في التداوي منه إلا باليأس والذهول. الآن يستطيع أن يقول إنه خرج من زنزانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى في طريق الخلاص وإن يكن طريقًا مخمورًا مخفوفًا بالشهوات والمكاه. وتجرَّع جرعة أخرى وانتظر، ثم ابتسم... أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينفث حرارة وصبوة، فتابعه مستسلًا كما يتابع نعمة حلوة. وكان إسمايل يراقبه بإمعان، فقال بأسيا:

- أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر؟  
أين حسين أين؟  
- سوف أكتب له عنه بنفسي، هل رددت على

ذاك ناداه الحيام بلسان هذا الصديق فلبّى محتفظًا بمبادئه السامية رغم هذا، وإن يكن قد وسَّع من معنى الخير حتى وسع مسرات الحياة جميعًا، قائلًا لنفسه: إن الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانية أسمى أنواع الخير، وإنه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان، ومهما يكن من أمر فإنه لم يجد سوى هذه الحياة الواعدة منقذًا من الموت...

- إني معك في هذا، ولكني لم أتخلَّ عن مبادئتي...  
- أعلم أنك لن تتخلَّ عن أوهامك، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها، لا بأس أن تقرأ بل وأن تكتب ما وجدت قراء، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة، ولكن لا تأخذها مأخذ الجد، كنت متدينًا عنيًا، وأنت الآن ملحد عفيف، دائمًا عفيف، قلق كأنك مسئول عن البشرية، الحياة أبسط من هذا كله، مركز في الحكومة يرضي النفس ومهيئ مستوى لا بأس به من المعيشة، استمتع بلذات الحياة بقلب متفتح خالٍ من الهموم، استمسك بقدر من القوة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فيها ونعمت، وآلا فذنبه على جنبه...

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر في شيء واحد ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملاذي ولكنَّ ارتقاء الجبال الصعبة سيظلُّ مطلبني، عابدة ذهبت فيجب أن أخلق عابدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معانٍ، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها.

- ألم تشغل فكرك أبدًا بما فوق هذه الحياة من معانٍ؟

- هؤا شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالخيال بحياتي أنا، ليس في بيتنا كافر وليس فيه متدين، وهكذا أنا!

صديق ضروري مثل وقت الفراغ، شاذ المنظر مثل منظره، موصول الذكريات بعابدة فهو في القلب، رائد هذه الدروب الغناء، جبار إذا تحدّيته، يُفتقد في المسرات دون الجسد والملمات، ليس فيه للروح موضوع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل...

رسالته الأخيرة؟

- نعم، رددت برسالة موجزة كرسالته...

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة، يا للسعادة التي خُص بها وحده، ولكن لا ينبغي أن ييؤ بسرّ رسالته أن يثير غيرة مدرّبه...

- كانت رسالته إليّ موجزة أيضًا فيما عدا الحديث الذي تعرفه ولا تحبه!

- الفكر! (ثمّ وهو يضحك)... ما حاجته إلى هذا هو الذي سيرث ثروة تملأ المحيط، ما سرّ ولعه بهذه الخزعيلات؟ التكلف أم الغرور أم الاثنان معًا؟

جاء دور حسين ليُمدّ تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عنيّ في غيابي؟!

- لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظنّ، لقد ازدهر الفكر في اليونان القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرّغ للعلم...

- صحتك يا أرسطو...

أفرغ بقية كأسه وترقب. ثمّ تساءل هل مرّت به حال كهذه من قبل؟ نافث الحرارة الوجدانية ينطلق في الدورة الدموية، يحرف في طريقه الفجوة التي تتجمّع بها نفايات الاكدار، قمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرات مترنمة، وهذا صدى نغمة مطربة، وهذه ذكرى أمل واعد، وذاك طيف بهجة عابرة، الخمر لعاب كلّ السعادة.

- ما رأيك في كأسين آخرين؟

- عمرك أطول من عمري...

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يوميّ إلى النادل بإصبعه، ثمّ قال بارتياح:

- أنت سريع الاعتراف بالجميل...

- هذا من فضل ربّي...

وجاء النادل بالكأسين والمزّة. وأخذ الزبائن يفدون مطريشين ومقبّعين ومعتمّين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح فتألّقت المرايا اللصقة بالجدران مصوّرًا على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكور، وترامت من الخارج ضحكات ملعلة كالأذان غير أنّها تدعو

للفجور، وصوّت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم، ثمّ ورد من الطريق بائع جبري صعيديّ فبائعة فول ذات ثنتين ذهبيتين، وماسح أحذية، وصبيّ كباجي هو في الوقت ذاته قوّاد كما دلّ ترحيب الجلوس به، وقارئ كفت هنديّ، ثمّ لا تسمع هنا وهناك إلّا «صحتك» وها ها، وفي مرآة تلي رأس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه مورّدًا وبصره لامعًا باسمًا، وفيها وراء صورته عكست المرأة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثمّ يتمضمض بحركة أرنيّة ويزدرد الشراب، ثمّ يقول لجليسه بصوت مسموع «المضمضة بالويسكي سنّة عن جدّ لي مات وهو يسكر» فحوّل كمال وجهه عن المرأة، وقال لإسماعيل:

- نحن أسرة محافظة جدًّا، أنا أوّل ذائق للخمر فيها...

فهزّ إسماعيل منكبيه هازئًا، ثمّ قال:

- كيف تحكم على ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أمّا أبي فيتناول كأسًا مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب في الخارج، أو لهذا ما يدّعيه أمام والدتي...  
لعاب إله السعادة يتسرّب إلى مملكة الروح، وهذا الانقلاب الغريب الذي حدث في لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه في أجيال وأجيال، وهو في جملته يوجد بمعنى باهر جديد لكلمة «السحر»، وأعجب شيء أنّه لم يكن جديدًا كلّ الجدّة فلعلّه طاف بالروح مرّة ولكن متى وكيف وأين؟ إنّه موسيقى باطنية تعزفها الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلّا كقشور التفّاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سرّ السائل الذهبيّ الذي صنع هذه المعجزة في لحظات معدودات؟ لعلّه طهر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أوّل مرّة حرّة مطلقة ونشوة خالصة، فهذا هو الشعور الطبيعيّ بوثبة الحياة إذا تحرّرت من ربة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف المستقبل، موسيقى راقية نقية تقطر طربًا وتصدر عن طرب، مثلها طاف بروحي من قبل

ولكن متى وكيف وأين؟ آه... يا للذكرى... إنها  
الحب! يوم نادت «يا كمال» أسكرتك وأنت لا تدري  
ما السكر فقرّر بأنك سكر قديم، وأنت عربرت دهرًا  
في طريق الهوى المخمور المعبد بالأزهار والرياحين،  
كان ذلك قبل أن يتحوّل قطر الندى الشفاف إلى  
وحل، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة  
الآلام، فحبّ نسكر أو اسكر تحبّ...  
- الحياة جميلة مهما قلت وأعدت...  
- ها ها، أنت الذي تقول وتعيد...  
طبع المقاتل على خذ غريمه قبلة صافية فحلّ السلام  
على الأرض، وغرّد البلبل فوق غصن ريان، فطرب  
العاشقون في أربعة أركان العمورة، وطار طائر  
الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارًا بباريس فاستقبل  
بالحنان والأناشيد، وغمس الحكيم شبة قلمه في مداد  
قلبه فسجّل وحيا منزلا، ثم أوى المجرب إلى  
شيخوخته فالتّم به ذكرى دامعة بعثت في صدره ريحا  
مكتّمًا، أما أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين  
فكعبة يتّجه إليها الثملون في حانات الوجد.  
- كتاب وكأس وحساء وارمني في البحر  
- ها ها، سيفسد الكتاب الكأس والحساء  
والبحر.  
- لسنا متفقين في فهم معنى اللذة، تراها أنت لهوا  
وعبثا وهي عندي الجدّ كلّ الجدّ، هذه النشوة الأسرة  
هي سرّ الحياة وغايتها العليا، وما الخمر إلّا بشيرها  
والمثال المحسوس المتاح لها، وكما كانت الحدأة مقدّمة  
لاختراع الطائرات، والسلمة تمهيدا لاختراع  
الغواصة، فالخمر ينبغي أن تكون رائد السعادة  
البشرية، والمسألة تتلخّص في هذه الكلمة: كيف  
نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون  
الالتجاء إلى الخمر؟ لن نجد الجواب في النضال  
والتعمير والقتال والسعي، فكلّ أولئك وسائل وليست  
بغايات، السعادة لن تتحقّق حتّى نفرغ من استغلال  
الوسائل كلّها لتتمكّن من أن نحيا حياة عقلية روحية  
خالصة لا يكدرها مكدر، هذه هي السعادة التي  
أعطينا الخمر مثالها، كلّ عمل وسيلة إليها أمّا هي

فليست وسيلة لشيء...  
- الله يجرب بيتك...  
- لمه؟!...  
- كان أمني أن أجذك في نشوتك محدثا طريقا  
لطيفا، ولكنك كالمريض يزيد مرضه الخمر استفحالاً،  
فيم تتحدّث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟  
- لن أشرب أكثر ممّا شربت، إنّي الآن سعيد وفي  
وسعي أن أدعو آية امرأة تعجّبي...  
- هلا انتظرت قليلاً؟  
- ولا دقيقة واحدة...  
سار متبّطاً ذراع صاحبه غير هيّاب ولا متردّد،  
ينتظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من  
الوجهة المضادة، في طريق ملتو ضيق برّاده. كانت  
الرؤوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى،  
وعلى الجانبين بدت مضيقات الطريق قائمات وقاعدات  
يقلّبن في وجوههنّ المقتنعات بالزواق الفاقع أعين  
الترحيب والإغراء، ولا تمض آونة حتّى يبرق أحدهم  
من التيار إلى إحداهنّ فتنبه إلى الداخل وقد مسحت  
عن عينيها نظرة الإغراء لتحلّ محلّها نظرة الجدّ  
والعمل. وكانت المصابيح المركّبة فوق أبواب البيوت  
والمقاهي تضيء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت في  
أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ  
الجوز والنارجيلات، أمّا الأصوات فقد تلاقت  
واختلطت في دوامة صاخبة دارت بها الضحكات  
والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو  
ومزيكة اليد وتصفيق الأيدي الراقصة وزعيق الشرطي  
والشخير والنخير وسعال الحشّاشين وصراخ السكّاري  
واستغاثات مجهولة وقرع عصي وغناء فرديّ وجماعيّ،  
وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت  
البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف. كلّ حسناء  
هنا في متناول اليد، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة  
قروش لا غير، فمن كان يصدّق هذا قبل أن يراه؟  
وخاطب إسماعيل قائلاً:  
- هارون الرشيد يخطر في بهو الحريم...  
فتساءل إسماعيل ضاحكاً:

ذلك جأذاً بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تساءل  
ساخرًا عما تبيته له، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينيها  
طولاً وعرضاً، ولمّا مرّتا برأسه وأنفه داخله قلق، غير  
أنّه أراد أن يتغلّب على قلقه فاقترب منها فأنحأ ذراعيه،  
ولكنّها استنظرت به بحركة جافّة من يدها وهي تقول  
«انتظر» فتسمّر في مكانه. بيد أنّه كان مصمّماً على  
تذليل العراقيل، فقال باسمًا فيها يشبه السذاجة:

- أنا اسمي كمال...

فحدجته بنظرة داهشة وهي تقول:

- تشرفنا!...

- ناديني! قولي لي «يا كمال»!

فقالت وما تزداد إلا دهشة:

- لماذا أناديك وأنت أمامي كالرزية؟!

أعوذ بالله! ترى أتمازحه؟ وازداد تصميمًا على إنقاذ  
الموقف، فقال:

- قلت لي انتظر، ماذا أنتظر؟

- في هذا لك حق...

قالت ذلك، ثم نزعَت ثوبها بحركة بهلوانيّة ووثبت  
إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها  
وراحت ترتّب بطنها بأناملها المهضبة بالحناء. اتّسعت  
عيناه إنكارًا، لم يكن يتوقّع هذه المفاجأة البهلوانيّة،  
وشعر بأنّ كلّاً منها في وادٍ، وما أبعد المدى بين وادي  
اللذة ووادي العمل... انهدم في لحظة ما أقامه الخيال  
في أيّام، وجرت مرارة الامتعاض في ريقه، غير أنّ  
الرغبة في الاكتشاف لم تفتر فغالب انزعاجه ثم حرّك  
ناظريه صوب الجسد العاري حتى استقرّ على هدف  
وبدا حينًا كأنّه لا يصدّق عينيه، وأحدّ بصره في انزعاج  
وتقرّر حتى شعر في النهاية بما يشبه الرعب. ألهذه هي  
الحقيقة أم أنّه أساء اختيار المثال؟ ولكنّ مهما يكن من  
سوء اختياره فهل يغيّر هذا من الجوهر؟! ونزعم أنّنا  
نحبّ الحقيقة! شدّ ما ظلموا رأسك وأنفك! وحدّثه  
نفسه بالهرب، وأوشك أن يصغي إليها، ولكنّه تساءل  
فجأة لماذا لم يهرب الرجل الذي سبقه؟ وماذا يقول  
لإسماعيل إذا عاد إليه؟ كلّاً لن يهرب، لن يتراجع أمام  
المحنة...

- ألم تعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فأشار كمال إلى بيت، وقال:

- كانت تقف عند هذا الباب الخالي، ترى أين  
ذهبت؟

- مع زبون في الداخل يا أمير المؤمنين، فليتنظر  
مولانا حتى يقضي أحد رعاياه وطره...

- وأنت ألم تجد ضالتك؟...

- لآني قديم عهد بالطريق وأهله، ولكنّي لن أمضي  
إلى وجهتي حتى أسلمك إلى صاحبك، ماذا أعجبك  
فيها؟! يوجد أجمل منها كثيرات...

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها، وفي حنجرتها وتر  
يذكّر من بعيد بتلك الموسيقى الخالدة، وقد تجد العين  
نوعًا من الشبه بين بشرة المختق وأديم السماء  
الصفافية:

- أتعرفها؟!

- تدعى هنا وردة، واسمها الحقيقي عيوشة.

عيوشة - وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغيّر ماهيّة  
كما يغيّر اسمه! في عابدة نفسها شيء يشبه مركّب  
عيوشة - وردة، وفي الدين، وفي عبد الحميد بك  
شدّاد، وفي الأمال العريضة، أوّاه! لكنّ الخمر  
ترفعك إلى عرش الآلهة فترى هذه المتناقضات غارقة في  
أمواج الفكاهة المقهقهة، مستحقّة للعطف، وشعر  
بكوع لإسماعيل ينهزه في جنبه وهو يقول (دورك)، فنظر  
صوب الباب فرأى رجلًا يغادر البيت متعجلًا، وإذا  
بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أوّل مرّة، فأنجّه نحوها  
بقدمين ثابتتين فتلقّته بإبتسامه، ثم مضى إلى الداخل  
وهي في أثره تغني «ارخي الستارة اللي في ريعنا»...  
ووجد سلّمًا ضيقًا فرقي فيه وقلبه يخفق حتى انتهى إلى  
دهليز يفضي إلى صالة، وصوتها يلاحقه قائلًا من حين  
لآخر «مينك»، «شالك»، «هذا الباب الموارب»...  
حجرة صغيرة مورقة الجدران، مكوّنة من فراش  
وتسريحة ومشجب وكرسّي خشب وطست وإبريق...  
ووقف في وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانها.  
ومضت هي تغلق الباب والنافذة التي كان يترامى منها  
صوت دفّ وصفارة وتصفيق، ولاح وجهها في أثناء

- ما لك واقفاً كالتمثال؟  
هذه النبرة التي هزّت الفؤاد، لم تكذب الأذنسان  
ولكنّ الجهل كذاب، سوف تضحك كثيراً من نفسك  
ولكن وأنت ظافر لا هارب، هب الحياة مأساة فعليك  
أن تلعب دورك.  
- أتقف هكذا حتى الفجر؟  
قال بهدوء غريب:  
- نطفئ النور...  
فهبّت جالسة في الفراش وهي تقول بجفاء وحذر:  
- بشرط أن أراك في النور!  
تساءل في إنكار:  
- لمه؟  
- حتى أطمئن إلى صحتك!  
وتجرّد للاختبار الصبحي في منظر بدا له آية في  
الهزل، ثم ساد ظلام دامس.  
وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلباً  
فاتراً مليئاً بالحزن، وتخيل إليه أنه وسائر البشر يعانون  
تدهوراً مؤلماً وأن الخلاص منه بعيد. ورأى إسماعيل  
مقبلاً نحوه راضياً ساخراً متعباً وهو يتساءل:  
- كيف حال الفلسفة؟  
فتأبط ذراعه وسار به يسأله بدوره جاداً:  
- هل النساء جميعاً متشابهات؟  
فألقي عليه الشاب نظرة متسائلة، فأفصح له كمال  
عن شكوكه ومخاوفه في عبارة موجزة، فقال إسماعيل  
باسمياً:  
- على العموم الأصل واحد وإن اختلفت  
الأعراض! إنك مضحك لدرجة تستحق الرثاء، هل  
أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟  
- بل سأعود أكثر مما تظنّ، دعنا نشرب كأساً  
أخرى...  
ثم وكأنه يحدث نفسه:  
- الجمال... الجمال!... ما هو الجمال؟

الأبد. أيجعل من الإعراض عن هذه الحقيقة مذهبه؟  
سار متفكراً في طريق الحانة يكاد لا يلقي بالاً إلى ثروة  
إسماعيل. إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم،  
ليست الحقيقة قاسية ولكنّ الانفلات من الجهل مؤلم  
كالولادة، اجبر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك  
الأنفاس. ارضَ بالألم حتى تخلق نفسك من جديد،  
هذه المعاني تحتاج إلى عمر لاستيعابها. عمر من التعب  
تتخلّله سويغات من الخمر...

### - ٣٦ -

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده، جاء  
ثملاً يترنم بصوت هامس، غير هيّاب وهو يشقّ بين  
تيار البشر الصاحب سبيلاً، ووجد باب وردة خالياً  
ولكنّه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب، وإنما قصد  
البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى  
إلى الدهليز، وهناك مدّ بصره إلى الباب المغلق الذي  
بدا ضوء في ثقب مفتاحه، ثم مال إلى حجرة انتظار  
فألفاها لحسن الحظّ خالية وجلس على مقعد خشبيّ  
ماداً ساقيه في ارتياح. وبعد مرور دقائق سمع صرير  
الباب وهو يفتح فتوتّب للقيام، وغادر الرجل الآخر  
الحجرة كما نمت عليه أقدامه متّجهاً نحو السلم،  
فترتّب لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز، فرأى  
وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهي تعيد ترتيب  
الفراش، فلما لمحته ابتسمت وهفت به أن يعود إلى  
مجلسه دقيقة واحدة، فعاد من حيث أتى وهو يتسم في  
ثقة، ثقة الزبون الذي جاز فترة الحضانة. ولم تكد تمرّ  
دقيقة على جلوسه حتى ترامى إليه وقع أقدام صاعدة  
فاستقبلها بضيق، لأنّه يكره البقاء مع غيره من  
المنتظرين غير أنّ القادم اتّجه نحو حجرة وردة، وما  
لبث كمال أن سمع المرأة وهي تحاطب القادم قائلة  
برقة:

- عندي زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر...  
ثم رفعت صوتها منادية إياه وهي تقول «تفضّل»،  
فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم في  
الدهليز، وجد نفسه وجهاً لوجه مع ياسين! التقت

تأقت نفسه في هذه اللحظة إلى التطهّر والانعزال  
والتأمل، وحنّ إلى ذكرى الحياة التي عاشها معذباً في  
ظلّ المعبودة، ثم بدا وكأنّه آمن بقسوة الحقيقة إلى

عينها في نظرة ذاهلة، وسرعان ما غَضَّ كمال جفنيه وهو يذوب خجلاً وارتباكاً واضطراباً، وأوشك أن يندفع هارباً لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رثت في سقف الدهليز رنيناً عجيباً، فرغ الشاب إليه عينيه فرأه فاتحاً ذراعيه وهو يهتف في سرور:

- يا ألف ليلة بيضا! ... يا ألف نهار سلطاني! \* أبيض! نحن أصدقاء من قديم الزمان، أنا أول من عد...

- الله الله! ... هل أنتظر حتى مطلع الفجر! دفع ياسين كمال وهو يقول:

- ادخل معها وسوف أنتظر أنا... ولكن كمال تقهقر وهو يهز رأسه بالرفض القاطع، ثم تكلم لأول مرة قائلاً:

- كلاً... ليس... ليس الليلة. ودسَّ يده في جيبه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة. فهتف ياسين بإعجاب:

- تحيا الشهامة! لكنني لن أتركك وحدك... وربت كتف وردة مودعاً، ثم تأبط ذراع كمال وذهبا معاً حتى غادرا البيت، قال ياسين:

- يجب أن نحتفل بهذه الليلة، فلنمض بعض الوقت في بار، إني عادة أشرب في شارع محمد علي مع نفر من الموظفين وغيرهم، ولكن المكان غير مناسب لك فضلاً عن بعده، فلنختر مكاناً قريباً حتى نتمكن من العودة مبكرين، بت حريصاً مثلك على العودة المبكرة منذ زواجي الأخير، أين سكرت يا بطل؟...

غمغم كمال في حياء:

- فنش... - عال! هلم بنا إليه، نتمتع بوقتك دون تمهون، فغداً حين تصبح معلماً سيتعذر عليك زيارة هذا الحي ببيوته وحاناته (ثم وهو يضحك): تصور أن يلقاك هنا أحد تلاميذك! على أن ميدان اللهو واسع وسوف تتدرج فيه من حسن إلى أحسن... ومضيا إلى فنش صامتين. كان من حسن الحظ أن العلاقة بين ياسين وكمال لم تفسد بعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التي تكفلها له مكانته في

عند ذاك جاءت وردة وهي تسأل ياسين:

- صديقك؟ فقال ياسين ضاحكاً:

- بل أخي ابن أبي وأ... كلاً ابن أبي فقط، رأيته أنك معشوقة الأسرة يا بنت اللذين؟

فتمتمت قائلة «عفارم»، ثم خاطبت كمال قائلة:

- واجب الأدب يقضي بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو... فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- واجب الأدب! منذا الذي علمك آداب الوصل؟ تصوّري أختاً ينتظر أخاه على الباب!... ها... ها... فرمته بنظرة تهذيب وهي تقول:

- اضحك بصوتك المخيف حتى تسمع البوليس يا سكير، ولكنك تعذر ما دام أخوك النونو لا يجيئي إلّا مترنحاً

حدج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار، ثم قال:

- أعرفت هذا أيضاً! رباه حقاً إننا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى، قرب فاك لأسمه! ولكن لا فائدة

سريع صاحب المقل، تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟ هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكروت، ولكن لا شك أنك قنعت بالبعث السطحي حتى لا تجد نفسك مضطراً إلى مصاهرة عمّ أبو سريع، كما صاهرت حماتي السابقة بيومي الشريتلي، هه؟ وما هو قد أصبح من ذوي الأملاك وجاركم الملاصق! ترى أين اختفت مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئاً، كان أبوها رجلاً طيباً، ألا تذكر السيد محمد رضوان؟ فانظر ما آل إليه بيته! لكنّها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت!

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلاً:

- والرجل ألا يلحقه من استهانتته شيء؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

- الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، خبرني كيف حال والدتك؟ الست الطيبة، ألا زالت حانقة عليّ حتى بعد طلاق مريم؟

- لا أظنها تذكر شيئاً من الأمر كلّ، قلب أبيض كما تعلم...

فأمن على قوله، ثم هزّ رأسه كالأسف. وجاء النادل بالشراب والمزّة وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول: «صحّة آل أحمد»، فرفع كمال كأسه ثم شرب نصفها على أمل أن يستردّ ما ذهب من مرحه، وقال ياسين بضم مملوء بالخبز الأسود والجبن:

- كان يجيّل إليّ أنك ستكون أقرب إلى خلق والدتك، كما كان المرحوم، فتنبأت لك بالاستقامة، ولكنك، ولكنك...

وحدجه كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول بأساً:

- لكننا خلّقنا على مثال أبينا...

- أبينا! إنّه الجدّ الذي لا تطاق معه الحياة!

فقهقه ياسين عاليّاً، وترثّ قليلاً، ثم قال:

- إنك لا تعرف أباك، وقد كنت أجعله مثلك، ثم

تكشّف لي عن رجل آخر قلّ أن يجود الزمان بمثله.

وتوقّف عن الكلام، فقال كمال بحبّ استطلاع

واهتمام:

- ماذا عرفت بما لم أعرف...؟

- عرفت أنّه قطب اللطافة والطرب، لا تحمق في

الأسرة، إلى أن مخالطة كمال له وأطلّعه على سيرته عن كذب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنّه رغم هذا كلّ قد بوغت بلقائه في بيت وردة مباغته عنيّة، إذ لم يذهب به الخيال إلى حدّ تصوّر ياسين سكريراً أو متسكّماً في هذا الدرب! وبمرور الوقت أخذ يتخفّف رويداً رويداً من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله، ثم حلّ محلّه إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولمّا بلغا فنش وجداه مكتنّاً بالجلوس، فاقترح ياسين أن يجلسا في الخارج، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق لبيتعدا ما أمكن عن الناس، ثم جلسا متقابلين وهما يبتسمان:

- أشربت كثيراً؟

أجاب كمال بعد تردّد:

- كأسين...

- لا شك أنّ لقاءنا غير المتوقع طيّر أثرهما، فلنجد الكرة، أمّا أنا فلا أشرب إلا قليلاً، سبعة أو ثمانية...

- يا خبر! أيعدّ هذا قليلاً؟

- لا تدهش كالسدّج فإنك لم تعد ساذجاً...

- على فكرة، قبل شهرين لم أكن أدري شيئاً عن طعمها...

فقال ياسين كالمستنكر:

- شهرين!! يبدو أنّي احترمتك أكثر ممّا تستحق!

وضحكا معاً. ثم طلب ياسين كأسين، وعاد

يتساءل:

- ومتى عرفت وردة؟

- عرفت وردة والويسكي في ليلة واحدة...

- وما خبرتك بالنساء عدا ذلك؟

- لا شيء...

فحنّ ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطّياً في ابتسام، كأنما يقول له «اطلع من دول»، ثم قال:

- إنّك وادّعاء البلاهة، لم يفتني أن أطلع في زمن

مضى على مناورات كانت تدور بينك وبين بنت أبو



عايدة المعبودة وعايدة الحبلى؟ أنا نفسي ما أنا؟! لماذا تأملت ذلك الألم الوحشي الذي لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتى تنفخ.

- ما عسى أن يقع لو رأنا بمجلسنا هذا؟

فرقع ياسين بأصبعه، ثم قال:

- أعوذ بالله!

- وهل زبيدة جميلة حقًا؟

فصفر ياسين وهو يرعش حاجبيه.

- أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدسم، على

حين لا نجد نحن إلا الفتات؟

- انتظر حظك، ما زلت في أول الطريق.

- ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سرّه؟

- إلا هذا!

لاحظت نظرة حاملة في عيني كمال وهو يقول:

- ليته أعطانا من لطفه نصيبًا!

- ليته . . .

- ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد!

- حبّ النساء والخمر ليس من الفساد في شيء . . .

- وكيف تفسّر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟

- وهل أنا كافر؟ وهل أنت كافر؟ وهل كان

الخلفاء كفرة؟ الله غفور رحيم! . . .

ما عسى أن يكون جواب أبي؟ شدّ ما أتوق إلى

مناقشته، كلّ شيء محتمل إلا أن يكون منافقًا، كلّ

ليس هو بالمنافق، وما ازداد له إلا حبًا! وغمرته الجرعة

الأخيرة رغبة في الدعابة، فقال:

- من المؤسف أنّه لم يتعلّم فنّ التمثيل!

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- لو علم بما يتهيأ للممثل من حياة حافلة بالنساء

والخمر لكّرّس حياته للفنّ! . . .

أهذا الكلام الهازئ عن السيّد أحمد عبد الجواد

حقًا! ولكن هل يكون هو أجّل من آدم؟ ومع ذلك

فالمصادفة وحدها هي التي عرّفتك بحقيقة الرجل،

والمصادفة هي التي لعبت في حياتك أخطر الأدوار، لو

لم أصادف ياسين في الدرب لما انقشعت عن عيني

غشاوة الجهل، لو لم يجذبني ياسين على جهله إلى

كالمعتوه، ولا تظنني سكران، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق!

- أبي؟ . . .

- أول ما عرفته في بيت زبيدة العالة . . .

- زبيدة ماذا؟ . . . ها . . . ها . . .

ولكنّ وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل،

فكفّ كمال عن الضحك قبل أن تزايل أساريه هيئة

الضحك، ثم أخذ فمه يضيّق رويدًا رويدًا حتى

انطبقت شفتاه فحملق في وجه أخيه صامتًا وهذا يحدثه

عما رأى أو سمع عن أبيهما في تبسّط وإسهاب. هل

يفتري ياسين على أبيه كذبًا؟ كيف يمكن أن يقع هذا

وأنيّ بواعث تبرّره؟ كلاً إنّه لا ينطق إلا بما علم،

وهذا إذن هو أبوه، ربّه! والجذّ والجلال والوقار ما

أمرها؟! إذا سمعت غداً أنّ الأرض مسطّحة أو أنّ

أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج، وأخيرًا

تساءل:

- أتدري والدتي بذلك؟

ياسين وهو يضحك:

- لا شك أنّها تدري بسكره على الأقلّ . . .

ترى كيف كان أثر ذلك في نفسها هي التي تفزع

من لا شيء؟! أأتكون أُمّي - مثلي - ظاهرًا من السعادة

وباطنًا من الشقاء؟! قال وكأنّه يتنحل أسبابًا للدفاع لا

يؤمن بها:

- الناس هواة مبالغة فلا تصدّق جميع ما يزعمون،

ثمّ إنّ صحّته تدلّ على أنّه رجل معتدل في حياته.

فقال ياسين بإعجاب، وهو يشير إلى النادل أن يعيد

الكرّة:

- إنّه أعجوبة! جسمه معجزة، وروحه معجزة،

كلّ شيء فيه معجزة، حتى طول لسانه (ضحك منها

معًا) . . . تصوّر أنّه بعد هذا كلّه يحكم آله كما تعلم

ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى! . . ما

أضيعني! . . .

تأمل هذه العجائب: أنت وياسين تشاربان! أبوك

شيخ ماجن! هل ثمة حقيقيّ وغير حقيقيّ؟! ما علاقة

الواقع بما في رؤوسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين

القراءة لكنت اليوم في مدرسة الطبّ كما تمقّي أبي، ولو التحقت بالسعيدية ما عرفت عابدة، ولو لم أعرف عابدة لكنت إنساناً غير الإنسان ولكن الكون غير الكون، ثمّ يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتناؤه على المصادفة في تفسير آلية مذهبه. قال ياسين مستعيراً لهجة الحكيم:

- سوف تعلّمك الأيام ما لم تعلم...

ثمّ وهو يسخر من نفسه:

- ها هي تعلّمني أن أقضي لذاتي مبكراً حتى لا أثير شكوك زوجتي...

وهزّ رأسه وهو ينظر إلى عيني كمال المتسائلتين الباسمتين، ثمّ استطرد:

- إنها أقوى زوجاتي الثلاث، ويخيل إليّ أنّي لن أخلّص منها!

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب:

- ما الذي جاء بك إلى هذا وأنت متزوّج للمرأة الثالثة؟

فردّد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التي سمعها كمال أوّل ما سمعها في دخلة عائشة:

- علشان كده... علشان كده... علشان كده...

ثمّ قال مبتسماً في شيء من الارتباك:

- قالت لي زُوبة مرّة «أنت لم تتزوّج قطّ، كنت

تعتبر الزواج نوعاً من العشق، وقد آن لك أن تنظر

إليه بعين الجدل»، أليس غريباً أن يصدر هذا القول عن

عوادة؟! ولكنّها فيما يبدو أحرص على الحياة الزوجية

من سابقتها، وهي مصمّمة على أن تبقى زوجة لي

حتىّ تغمض عينيّ، لكنّني لا أستطيع أن أقاوم

النسوان، سرعان ما أحبّهنّ وسرعان ما أمْلهنّ، لذلك

عمدت إلى هذه الدروب لأقضي اللبانة مبكراً دون

التورط في عشق طويل، ولولا الملل ما سعت إلى

امرأة في درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد:

- أليست هي امرأة ككلّ النساء؟

- كلا، إنّها امرأة بلا قلب، الهوى عندها سلعة!

فعاد كمال يسأل وعينه تلمعان بالأمل:

- ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هزّ ياسين رأسه في زهو إدلّالاً بالمكانة التي وضعت

فيها أسئلة كمال، ثمّ أجاب بلهجة خيّر:

- درجة المرأة تتقرّر في كادر النساء تبعاً لمزاياها

الأخلاقية والعاطفية بصرف النظر عن أسرتها

ومركزها، فزُوبة أفضل عندي من زينب لأنّها أعمق

عاطفة وأشدّ إخلاصاً وحرصاً على الحياة الزوجية،

ولكنّك في النهاية تجهّدين شيئاً واحداً، عاشر الملكة

بلقيس نفسها فلا محيص من أن تجهّدها آخر الأمر

منظراً معاداً ونعمة مكرّرة...

خبا اللمعان في عيني كمال، ترى هل أمست عابدة

منظراً معاداً ونعمة مكرّرة؟! ما أبعد هذا التصوّر عن

التصديق! ولكن ما أنت إلّا صريع الواقع، وحتىّ

الشهانة بها تكبر عليك وتعزّز، وإنّه لما يبعث على

الجنون أن يعلم المعبود الذي تذهب النفس حسرة

عليه أنّه كان في وسع الأيام أن تجعل منه منظراً معاداً

ونعمة مكرّرة، بل أيّ الحالين أحبّ إليك إن

استطعت جواباً؟ غير أنّي أتحسّر أحياناً على الملل من

شدّة الشوق كما يتحسّر ياسين على الشوق من شدّة

الملل، وارفع رأسك أخيراً إلى ربّ السماوات وسله عن

حلّ سعيد:

- ألم تحبّ أبداً؟

- إذن ما هذا الذي أنا غارق فيه؟!

- أعني حبّاً حقيقياً لا هذه الشهوة العابرة...؟

أفرغ كأسه الثالثة، ومسح على فمه بظاهر كفّه، ثمّ

قتل شاربه وقال:

- لا تؤاخذي، الحبّ يتركز عندي في بعض مواضع

كالقلم واليد الخ الخ.

ياسين جميل، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه،

ولكنّه بما قال يبدو حقيقياً بالرائء، كأنّ الإنسان لا

يكون إنساناً إلّا أن يحبّ، ولكن ما جدوى ذلك وما

جنيت من الحبّ إلّا الألم؟! واستطرد ياسين قائلاً،

وهو يميّته بالإشارة على الفراغ من كأسه:

- لا تصدّق ما يقال عن الحبّ في الروايات، الحبّ

وحياً ملائكيًا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث في ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التي تشوق إلى اقتحامها، بذلك تقف على سرّ مأساتك وتكشف النقاب عن سرّ عايدة المكنون، لن تجدها ملائكة ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه، أما الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائح فما أتعسني!

قال كمال بأسى لم يظنن إليه أخوه:

- الإنسان مخلوق قدر، ألم يكن من الممكن أن يُخلق خيرًا وأنظف ممّا كان؟!

رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شيء بالذات، وقال بسرور عجيب:

- الله... الله، النفس شعشت واستحالت أغنية، وانقلبت الأعضاء آلات طرب، والدنيا حلوة، والكائنات حبيبة للقلب، والجو عذب، والحقيقة خيال، والخيال حقيقة، أما المنقصات فأسطورة، الله... الله، ما أجمل الخمر يا كمال، الله يطول عمرها ويدعيها علينا ويعطينا الصحة والعافية لنشربها حتى آخر العمر، ويخرب بيت الذي يمسها بسوء أو يتقول عليها بغير الحق، تأمل هذه النشوة الحلوة، تأمل، أغمض عينيك، هل وجدت لذة كهذه؟... الله... الله... الله، (ثم وهو يخفض رأسه ناظرًا إلى كمال) ... ماذا قلت يا ولدي؟ الإنسان مخلوق قدر؟ أساءك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلّم لأثير اشمئزازك منها، الواقع أنّي أحبّها، أحبّها بكلّ ما فيها، ولكنّي أردت أن أبرهن لك على أنّ المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدري إن كنت أحبّها إن وُجدت! فلنّي مثلاً - كأبيك - أحبّ الأرداف الثقيلة، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذّر عليه الطيران، افهمني جيّدًا ولا تسئ فهمًا وحياة أينا السيّد أحمد...

وما لبث كمال أن شاركه نشوته، فقال:

- لشدّ ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سرّت الخمر في الروح!...

- يسلم فمك، حتّى النعمة المألوفة يترنّم بها شحمّاذ الطريق تقع من الأذن موقع السحر...

عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظنّ!

كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحبّ ممكن؟ لم أعد كما كنت، إنّني أتسلّل من جحيم العذاب فتشغلني الحياة حينًا حتّى أرجع إليه، وكان الموت قبلي واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل، العجب أنّك تنور على فكرة النسيان كلّما خطرت، كأنما تعاني تبكيت الضمير، أو لعلّك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قدّست عن وهم، أو أنّك تأبى على يد العدم أن تعبت بالحياة الرائعة التي بدونها تغدو ومن لم يولد سواء، لكن ألا تذكر لمّ بسطت الراحتين داعيًا الله أن يتشكّل من العذاب وأن يلهمك النسيان؟!

- ولكنّ الحبّ الحقيقي موجود، نقرأ حوادثه في الصحف لا في الروايات...

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثم قال:

- بالرغم من أنّي مبتلى بحبّ النسوان فلنّني لا أعترف بهذا الحبّ، إنّ المآسي التي نقرأ أخبارها تحدث في الواقع عن شبّان غير مجرّبين، أسمعت عن مجنون ليلي؟ لعلّ له نظائر في هذه الحكايات، ولكنّ المجنون لم يتزوّج من ليلي؟ دلّني على شخص واحد جنّ بحبّ زوجته! وأسفاه! إنّ الأزواج عقلاء جدًّا، عقلاء ولو كرهوا، أمّا الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها، لأنّها لا تقتنع بأقلّ من أن تزدرد زوجها، ويخيّل لي أنّ المجانين يصيرون عشاقًا لأنهم مجانين لا أنّ العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق، تراهم يتحدّثون عن المرأة كأنّما يتحدّثون عن ملاك، والمرأة ليست إلّا امرأة، طعام لذيذ سرعان ما تشبع منه، دعهم يشاركونها الفراش ليطلّعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشمّوا رائحة عرقها وسائر الروائح التي قد تصدر عنها وليحدّثوني بعد ذلك عن الملاك. فتنة المرأة ما هي إلّا طلاء أو أداة إغراء حتّى تقع في الشرك وعند ذلك يبدو لك المخلوق الآدمي على حقيقته: لذلك فالأبناء ومؤخّر الصداق والنفقة الشرعية هي سرّ قوّة الزواج لا الجمال أو الفتنة...

ما كان أجدره أن يغيّر رأيه لو رأى عايدة، غير أنّه ينبغي أن تفكّر من جديد في أمر الحبّ. كنت تراه

- حتّى أحزاننا تبدو كأنّها أحزان شخص آخر...  
- بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنّها تبدو وكأنّها  
نساؤنا...  
- هما شيء واحد يا بن أبي...  
- الله... الله، لا أريد أن أفيق...  
- من رذالة الحياة أنّها لا تمكّننا من الاستمرار في  
السكر كما نهوى...

- ليكن في معلومك أنّي لا أرى في السكر لهوًا،  
ولكن غاية سامية كالعرفة والمثل الأعلى...

- إذن فانا فيلسوف كبير!

- عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك...  
- الله يطوّل عمرك يا أبي، فقد أنجبت فلاسفة  
مثلك!

- لم يبدو الإنسان تعيسًا مع أنّه لا يطلب أحسن من  
كأس وما أكثر القوارير، وامرأة وما أكثر النساء؟

- له... له...؟

- سأجيبك عندما أشرب كأسًا أخرى...

- كلًّا...

قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة، ثمّ  
استطرد عذرًا:

- لا تفرط، إنّ شريكك الليلة فانا مسئول عنك،  
كم الساعة الآن؟...

وأخرج ساعته فنظر فيها، ثمّ هتف:

- منتصف الواحدة، وقع المحذور يا بطل، كلانا  
قد تأخّر، ورائك أبونا وورائي زنوبة، قم بنا...

ولم تمض دقائق حتّى غادرا البار، فاستقلّا عربية  
انطلقت بهما صوب العتبة، دارت العربية حول سور  
الأزبكية في طريق يسوده الظلام، وبين آونة وأخرى  
يرى عابر مهوولًا أو مترنّحًا، وكلّما مرّت العربية بشارع  
مقاطع ترمى إليهما صوت غناء تحمله نسمة رطبية،  
أما فوق المباني وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألّقت  
النجوم اليواظ.

قال ياسين ضاحكًا:

- أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرّج بأنّي لم أت  
منكرًا...

فقال كمال في شيء من القلق:

- أرجو أن أصل البيت قبل أبي...

- الخوف شرّ أنواع التعاسة، لتحيا الثورة!

- أجل لتحيا الثورة!

- لتسقط الزوجة المستبذة!

- ليسقط الأب المستبذ!

- ٣٧ -

طرق كمال الباب في خفة حتّى فُتح عن شيخ أمّ  
حنفي، ولما عرفته قالت بصوت هامس:

- سيّدي الكبير على السّلم...

فانتظر وراء الباب حتّى يطمئنّ إلى وصول أبيه إلى  
الدور الأعلى، غير أنّ صوته جاء من داخل السّلم وهو  
يسأل بشدة:

- من الطارق؟

فخفق قلبه ولم ير بدءًا من التّقدّم وهو يجيبه:

- أنا يا بابا...

ترأى له شيخ أبيه على بسطة الدور الأوّل على  
حين لاح ضوء المصباح الذي تمسك به الأمّ في أعلى  
السّلم، ونظر السيّد إليه من فوق الدرابزين، وهو  
يتساءل في دهش:

- كمال؟... ما الذي أثّرَكَ خارج البيت حتّى  
هذه الساعة؟

أخّرني الذي أخّرَكَ...

قال بلشفاق:

- ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقرّرة علينا  
هذا العام...

فصاح ساخطًا:

- هل أصبحت المذاكرة في المسارح؟! ألا يكفي أن  
تقرأ وتحفظ؟ كلام فارغ سمع، ولمّ لم تستأذني؟

توقّف كمال على بعد درجات من موقف أبيه، وقال  
معتذرًا:

- لم أتوقّع أن تمتدّ السهرة إلى هذه الساعة المتأخّرة.

فقال الرجل بغضب:

يواظب هو عليه؟!

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار، لَكِنَّه سمعها تضحك من أنفها لتوهمه بأنها لم تحمل قوله على محمل الجد، وقالت:

- كل الرجال يسهرون، وسوف تصير رجلاً عَمَّا قريب، أما الآن! وأنت طالب...

فقاطعها قائلاً بلهجة من يودّ الفراغ من الحديث:  
- مفهوم... مفهوم، لم أقصد بقولي شيئاً، لماذا تعبّ نفسك بالمجيء إليّ؟ عودي مصحوبة بالسلامة...  
قالت برقة:

- خفت أن تكون متكذّراً، سأتركك الآن ولكن عدني بأن تنام صافي النفس، اقرأ الصمدية حتّى يأتيك النوم...

وشعر بابتعادها، ثمّ سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول «مساء الخير»، نفخ مرّة أخرى، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملك في الظلام... أما مذاق الحياة كلّها فكان مرّاً، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة؟ وما هذا الكرب الخائق الذي حلّ محلّها؟ ما أشبهه بخيبة الحبّ التي ورثت أحلامه السايوية، ومع ذلك فلولا الأب ما انقلب حاله. هذه القوة الجبّارة التي يخافها كلّ الخوف، يخافها ويحبّها معاً، ما كنهها؟ ليس إلّا رجلاً لولا مرحه الذي خصّ به الغرباء لم يكن شيئاً، فكيف يخافه؟ وحتّى متى يدعن لقوة هذا الخوف؟ إنّه وهم كسائر الأوهام التي امتنّحن بها، ولكن ما جدوى المنطق في مقاومة العواطف الثابتة؟ وقد قرعت يده أبواب عابدين في المظاهرة الكبرى التي تحدّت الملك هاتفة «سعد أو الثورة»، فتراجع الملك واستقال سعد من الوزارة... أما حيال أبيه فإنّه يصير لا شيء. كلّ شيء تغير مدلوله ومعناه، الله... آدم... الحسين... الحب... عايده نفسها... الخلود. قلت الخلود؟ نعم، فيما يجري على الحبّ وفيما جرى على فهمي، ذلك الأخ الشهيد الذي استضافه الفناء إلى الأبد، أُنْذِر التجربة التي قمت بها وأنت في الثانية عشرة من عمرك لتعرف

- شُفّ لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعدار السخيفة...

ومضى يرقى في السلم وهو يدمدم، فترامت إليه كلمات من دمدّمته مثل «مذاكرة المسارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف الليل»، «حتّى الأطفال»، «ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقرّرة». ارتقى السلم حتّى الدور الأخير ومضى إلى الصالة، فتناول مصباحاً مضاء من فوق منضدة ودخل حجرته مكفهرّ الوجه، وضع المصباح على المكتب ووقف مستنذاً بكلتا يديه يتساءل عن تاريخ آخر شتيمة قذف بها أبوه فلم يتذكّر على وجه التحديد، ولكنّه كان واثقاً من أنّ سنوات دراسته العالية مرّت في سلام وكرامة، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه - رغم أنّه لم يواجهها - موقفاً أليماً. وتحولّ عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع في نزع ملابسه، وعلى حين فجأة شعر بدوار في رأسه وجزع في معدته، فغادر الحجرة مسرعاً إلى الحمام حيث قذف جوفه بما فيه في عنف ومرارة، وعاد إلى الحجرة مرّة أخرى منهوك القوى متقرّز النفس يجحد في صدره ألماً أشدّ وأعمق، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثمّ استلقى على الفراش وهو ينفخ في ضيق وضجر، ولكن لم تمض دقائق حتّى سمع الباب وهو يُفتّح برفق، ثمّ جاءه صوت أمّه متسائلاً في إشفاق:

- نمت...؟

فقال بلهجة طبعيّة راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه:

- نعم...

فتداني شبحها من الفراش حتّى وقفت فوق رأسه، ثمّ قالت كالمعتذرة:

- لا تتكذّر، أنت أعلم الناس بأبيك...

- مفهوم... مفهوم!

فقالت وكأنّها أرادت أن تفصح عمّا ساورها هي:

- إنّه مقلع على جدك واستقامتك، ومن هنا جاء إنكاره لتأخّرك غير المألوف حتّى هذه الساعة...

فركبه الغيظ حتّى لم يتألك من أن يقول:

- إذا كان السهر يستوجب كلّ هذا الإنكار، فلماذا

مصريه المجهول؟... يا للذكرى المحزنة!... اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها، وكفنتها وحفرت لها قبراً صغيراً في فناء البيت على كتب من البثر القديم ثم دفنتها فيه، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة، فإذا رأيت وماذا شممت؟ وذهبت إلى أمك باكياً تسألها عن مصر الميت، كل ميت، ومصر فهمي خاصة فلم يصدك عنها إلا إفحامها في البكاء، فماذا بقي من فهمي بعد سبع سنوات؟ وماذا سيبقى من الحب؟ وعم تمخض الأب الجليل؟

ألفت عيناه ظلام الحجرة فترأى المكتب والمشجب والكرسي والصوان أشباحاً قائمة، ونذت عن الصمت نفسه أصوات مبهمه، وامتلاً رأسه بالأرق المحموم، أما مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل هل غط ياسين في نومه؟ وعلى أي حال كان لقاء زنوبة له؟ وهل آوى حسين إلى فراشه الباريسي؟ وعلى أي جانب تنام عايدة الآن؟ وهل تكوّر بطنها وانداح؟ وماذا يفعلون في نصف الكرة الآخر الذي تتربّع الشمس في كبد سائه؟... والكواكب المنيرة، أليس ثمة حياة تعمورها خالية من التعاسة؟ وهل يمكن أن يُسمع أنينه الخافت في ذلك الأوركسترا الكوني اللانهائي؟!

أبي! دعني أكاشفك بما في نفسي، لست ساخطاً على ما تكشف لي من شخصك، فإن ما كنت أجهله منك أحب إليّ مما كنت أعرف، إني معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب الدميث منك الذي يعشقه جميع عارفيه، وهو إن دلّ على شيء فعلى حيوتك وهيامك بالحياة والناس، ولكني أسألك لم ارتضيت أن تطالعلنا بهذا القناع الفظ المخيف؟ لا تعتل بأصول التربية فانت أجهل الناس بها، وأي ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكي، فما فعلت إلا أن أذبتنا كثيراً وعذبنا كثيراً بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك، لا تجزع فإني ما زلت أحببك وأعجب بك، وسأبقى على الدوام مخلصاً لحبك والإعجاب بك، غير أن نفسي تضمر لك لوماً شديداً يعادل ما جرّعتني من ألم، لم نعرفك صديقاً كما عرفك

الغرباء، ولكن عرفناك حاكماً مستبداً شرساً طاغية، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل «عدوّ عاقل خير من صديق جاهل»، لذا سأكره الجهل أكثر من أي شيء في الحياة، فهو المفسد لكل شيء حتى الأبوة المقدسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لأبنائك، وإني أعاهد نفسي - إذا صرت يوماً أباً - أن أكون لأبنائي الصديق قبل أن أكون المرءي، غير أنني ما زلت أحببك وأعجب بك حتى بعد أن زایلتك صفات الألوهية التي توهّمتها فيما مضى عيني المسحورتان. أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة، فلست مستشاراً كسليم بك ولا غنياً كشّداد بك ولا زعيماً كسعد زغلول ولا داهية كثروت ولا نبيلاً كعدلي. ولكنك صديق محبوب وحسبك هذا، وما هو بالقليل، فليتك لم تضنّ علينا بصداقتك، ولكن لست وحدك الذي تغيّرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذي عبده قديماً، إني أغربل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية، ولست أدري أين ينبغي أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه، بل إن نفسي تحدّثني بأنني لن أقف عند حدّ وبأنّ النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم. قد لا يهّمك هذا بقدر ما يهّمك أن تعلم أنني قرّرت أن أضع حداً لاستبدادك، استبدادك الذي يغشاني كما يغشاني هذا الظلام المحيط، والذي يؤلني كما يؤلني هذا الأرق اللعين، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لي، وأأسفاه إذا كانت الخمر أيضاً وهماً خادعاً فما بقي للإنسان؟ أقول لك إني قرّرت أن أضع حداً لاستبدادك، لا بالتحدي والعصيان فانت أكرم على نفسي من أن أفعل بك هذا، ولكن بالهجرة! أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمي، وفي أحياء القاهرة متّسع لكل مضطهد، أتدري ماذا كانت عواقب حبّي لك رغم استبدادك بي؟ أنني عبدت مستبداً آخر طالما ظلّمني بظاهره وباطنه معاً، استبد بي دون أن يحبني، ورغم ذلك كلّه عبده من أعماقي ولا زلت أعبدّه، فانت أول مسئول عن حبّي وعذابي. ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة؟! لست مرتاحاً

مثلي من الخمار والغثيان فادعُ لها بالشفاء العاجل . . .

### - ٣٨ -

فترحماس ياسين حال انفراده بنفسه في العربة بعد ذهاب كمال، وبدا كالمثفغر رغم سكره، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير في الهزيع المريب من الليل، وسوف يجد زئوبة إمّا يقظى تنتظر وتغلي وإمّا ستستيقظ حين دخوله، وعلى أيّ حال فلن تمرّ الليلة بسلام، بسلام كامل على الأقلّ.

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهزّ كتفيه العريضين في استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس «ليس ياسين الذي يعمل حساباً لامرأة»، وكرّر هذا القول وهو يرقى في الدرج مسترشداً في الظلام بالدرابزين، غير أنّ تكراره إيّاه لم ينمّ عن طمأنينة قاطعة. وفتح الباب ودخل، ثمّ مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة، وألقى على الفراش نظرة فராها نائمة، فردّ الباب ليحول دون تسرّب الضوء الخافت الآتي من الصالة، وراح يخلع ملابسه في هدوء وحذر وهو يزداد اطمئناناً إلى استغراقها في النوم، ويرسم في ذهنه خطة للتسلّل إلى موضعه في الفراش دون أن يحدث صوتاً.

- أشعل المصباح لأكلّ عينيّ برؤيتك!

التفت رأسه نحو الفراش ثمّ ابتسم في تسليم، وأخيراً تساءل كالداهش:

- أأنت يقظى؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك!

- قلبك طيّب، كم الساعة الآن؟

- الثانية عشرة على الأكثر، فإني غادرت المجلس حوالى الحادية عشرة، وجئت ماشياً واحدة واحدة. . .

- لازم كان مجلسك في بنا!

- لماذا؟ . . . هل تأخّرت؟

- انتظر حتّى يجيبك ديك الفجر بنفسه.

- لعله لم ينم بعد!

وجلس على الكنبه ليخلع حذاءه وجوربه ولم يكن عليه إلّا القميص والسروال، وعند ذاك ندّت عن

إليها ولا متحمّساً لها، ومهما يكن من واقعيّة الحبّ فلا شكّ أنّه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة في النفس، فلنتركها الآن معلّقة حتّى نعود إليها بالدرس فيما بعد، وعلى أيّ حال فأنّت يا أبي الذي هوّنت على الإحساس بالظلم بمداومتك على الاستبداد بي، وأنت يا أمّي لا تحملقي في وجهي بإنكار أو تنسائي ما ذنبي وما جنيت على أحد، إنّه الجهل. هو جنابتك. الجهل. . . الجهل. . . الجهل. . . أبي هو الفظاظة الجاهلة، وأنّت الرقة الجاهلة، وسوف أظّل ما حييت ضحيّة هذين الضدّين، وجهلك أيضاً هو الذي ملأ روحي بالأساطير، فأنّت همزة الوصل بيني وبين عالم الكهوف. وكم أشقى اليوم في سبيل التحرّر من آثارك كما سأشقى غداً في سبيل التحرّر من أبي، وما كان أحراراً أن توفّرنا على هذا الجهد المضني، لذلك أقترح - وظلام هذه الحجرة شهيد - أن تلغي الأسرة - هذه الحفرة التي يتجمّع فيها الماء الأسن - وأن تزول الأبوة والأمومة، بل هبني وطناً بلا تاريخ وحياء بلا ماضٍ، ولننظر الآن في المرأة فماذا نرى؟ هذا الأنف الضخم وهذا الرأس الكبير. أعطيتني أنفك يا أبي دون مشورة أو رحمة فأنّت تستبدّ بي حتّى قبل أن أولد، ومع أنّه يبدو في وجهك مهيباً جليلاً فإنّه - بذاته وشكله - يلوح مضحكاً في صفحة وجهي الضيفة كأنّه جنديّ إنجليزيّ في حلقة ذكر، وأعجب منه رأسي لأنّه لا إلى فصيلة رأسك ينتمي ولا إلى فصيلة رأس أمّي فعن أيّ جدّ بعيد انحدر إليّ؟ فليظّل ذنبه معلّقاً فوق رأسيكما حتّى يتّضح لي الحقّ. قبيل النوم يجب أن نقول «الوداع» فقد لا يطلع الصبح علينا. إنّي أحبّ الحياة رغم ما فعلته بي على طريقة حبّي إياك يا أبي. وفي الحياة أشياء جديدة بالحبّ وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف، غير أنّ النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن، والراجح أنّي لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعاً أيّتها الخمر، ولكن مهلاً. أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقداً العزم على ألاّ أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذلك زبونها الأثير، ويخيّل إليّ أنّ الإنسانيّة تتنّ

- السريـر طقـطقة ورأى شـبـحـها يـسـتـوي جـالـسـًا، ثـم سمعـها تـقـول فـي حـدة:
- أشـعـل المـصـباح.
- لا داعي لـذـلك، فـقـد فرغت من خـلـع مـلـابـسي.
- أريد أن نصـفـي حـسـابنا فـي النـور...
- تصفية الحـسـاب فـي الظلام أـلـطف!
- وصـدـرت عـنـها نـفـخة غـيـظ ثـم غـادرت الفـراش، ولـكـنـه مـدّ ذراعـيـه من مـجـلـسـه القـريـب فأصـاب منـكـبـها فـجـذبـها إـلى الكـتـبة وأجـلـسـها إـلى جـانـبـه و هو يـقـول:
- لا تـشـعـلي الفـتـنة...
- تـخـلـصت من يـدـه، وقـالـت:
- أين ما تـعـاهدنا عـلـيـه؟ لـقـد قـبـلت أن تـسـكر فـي الحـانـات كـما تـحـبّ عـلى شـرط أن تـعـود إـلى بـيـتـك فـي وـقـت مـبـكـر، قـبـلت هـذا عـلى رـغـمـي لأنـك لو سـكـرت فـي بـيـتـك لو فـرت عـلى نـفـسـك مـالـًا كـثـيـرًا يـضـيع هـبـاء، و مع ذـلك فـها أنـت تـعـود قـبـيل الفـجـر غـيـر مـبـالٍ بـما تـعـاهدنا عـلـيـه!
- من يـسـتـطـيع أن يـخـادع رـبـيـة التـخـت والعـود؟ وإـذا ثـبـت لـها خـيـانـتـك يـومـًا فـهـل تـقف عـند حـدّ الشـعـجار أم...؟ فـكـرُ مـرّـتـين، ولا تـنس كـذـلك أن فـقـدهـا لا يـهـون، إنـها أحـبّ زـوجـاتـي إلـي، خـبـيرة بـما يـسـعـدني، مـتـمـسـكة بـحـياتنا، لولا المـلـل...
- كـنت فـي مـجـلـس كـلّ لـيـلـة لم أـغـادره إلـّا إـلى بـيـتي، وعـنـدي شـاهد تـعـرفـيـنـه، أتـدريـن من هـو؟ (و ضـحـك بصـوت عـالٍ)
- ولـكـنـها قـالـت بـرود:
- تـكـلـم فـي المـوـضـوع!
- فـقال و هو لا يـزال يـضـحـك:
- كان جـلـيـسي اللـيـلـة أخـي كـمال!
- فـلم تـدهـش كـما تـوقـع، وقـالـت فـي نـفـاد صـبر:
- مـن يـشـهد لـلعـروس؟!
- لا تـكـابـري... بـراءـتي كـالـشـمـس!... (ثـم متـأفـفًا)... يـجـزني و الله أن تـرتـاي فـي سـلـوكـي، شـبـعت من الدـوران حـتّى المـرض، ولا رـغـبـة لـي الآن إلـّا الحـيـاة الهـادئة، أمّا الحـانـة فـتـسـليـة بـريـة لا غـبار عـلـيـها، ولا بـدّ لـلـإنـسان من مـخـالـطـة النـاس...
- فـقالـت بصـوت دلت نـبـراتـه عـلى الـانـفـعال:
- آه منـك. أنـت تـعـلم أنـي لـست طـفـلة، وأنّ الضـحـك عـلـيّ مـطـلـب عـسـير، وأنـه من الخـير لـكـلـينا ألا تـدخـل بـيـننا الرـيـبة...
- مـوعـظـة أم وعـيد؟! أين مـتي حـيـاة أبي المـثـالـيـة، الرـجـل الـذي يـفـعـل ما يـشـاء فـإذا رـجـع إـلى بـيـتـه و جـد الـاسـتـقـرار والـحـبّ والطـاعـة، لم يـتـحـقّق لـي هـذا الحـلم عـلى يـد زـينـب ولا مـريـم وأخـلق بـه ألا يـتـحـقّق عـلى يـد زـنـوبـة، لا يـنـبـغي هـذه العـوادة الجـمـيـلة أن تـيأس طـالـما هـي عـلى ذمّـي! قال بحـزم:
- لو كان بـي رـغـبـة إـلى مـزـيد من الحـرام ما تـزـوجـتـك!...
- فـهتـفت بـحـدة:
- ولـكـنـك تـزـوجت من قـبـل مـرّـتـين، فـلم يـمـنعك الزـواج من الحـرام!
- نـفـخ نـاشـرًا أنـفـاسًا مـخـمـورة، ثـم قال:
- حـالـتـك غـيـر الحـالـتين السـابـقتـين يا غـيـبة، الزـوجـة الـأوـلى اخـتـارها أبي وفـرضـها عـلـي، والزـوجـة الثـانـيـة لم تـجـعـل لـي من سـبـيل إـلـيـها إلـّا بالزـواج فـتـزـوجـتـها، أمّا أنـت فـلم يـفـرضـك أحـد عـلـي، ولم يـغـلق بابـك دـونـي قـبـل الزـواج، ولم يـكـن الزـواج مـنـك لـيـعـدي بـشـيء جـديـد لم أـعـرفـه، فـلـم تـزـوجـتـك يا غـيـبة إن لم يـكـن الزـواج نـفـسـه - أي الحـيـاة المـسـتـقـيـمة المـسـتـقرّة - مـطـلـبي؟! والله لو كان بـك ذرّة من عـقـل ما سـمـحت لـنـفـسـك بـالشـكّ فـي أبـدًا...
- حـتّى إن جـئتـني عـند الفـجـر؟!
- حـتّى إن جـئتـك عـند الصـبـح!
- فـهتـفت بـحـدة:
- نه، قل كـلامًا آخـر أو فـعـل الأـمـن السـلام!
- فـقال بـحـدة و هو يـقـطـب فـي نـرفـزة:
- ألف سلام!
- أرحـل، أرض الله واسـعة والرـزق عـلى الله...
- فـقال فـي اسـتـهانة مـتـعـمـدًا:
- أنـت وشـأنـك...
- فـقالـت بصـوت واثـنٍ بالوعـيد:



الدوران ولم يبق لي في حياتي إلا أنت!  
تنهدت بصوت مسموع، وكأنما أرادت أن تقول له  
«أودّ أن تكون صادقاً فيما تقول»، فمدّ يده لاعباً وهو  
يقول:

- يا سلام، هذه التنهيدة حترقت قلبي، الله  
يقطعني...

قالت برجاء وهي تستجيب ليده رويداً رويداً:  
- لو ربنا يهديك!

من يصدّق أنّ هذه الأمنية صادرة عن عوادة!  
- لا تقابليني بالشجار أبداً، إنّ الشجار يشبط  
النشاط!

علاج ناجع ولكنّه لا ينفع في جميع الأحوال، لو  
نلت عيوشة الليلة ما تيسّر...

- أرايت أنّ ارتياك لم يكن في محله؟!

### - ٣٩ -

كان السيّد أحمد عبد الجواد منهمكاً في عمله وإذا  
بياسين يدخل الدكان مقبلاً على مكتبه، فما إن تصفّح  
وجهه حتّى أدرك أنّه جاء مستنجداً: كانت في عينيه  
نظرة حائرة شاردة، ومع أنّه تبسّم له في أدب ومال  
على يده ليقبّلها إلا أنّه شعر بأنّه يقوم بهذه الحركات  
التقليدية بلا وعي، وأنّ وجدانه كلّه غائب في مكان لا  
يعلمه إلا الله. أشار إليه بالجلوس فقرب الكرسيّ من  
مجلس أبيه ثمّ جلس، وجعل ينظر إليه حيّاً ثمّ يخفض  
بصره أو يتبسّم ابتسامة باهتة، تساءل السيّد عمّا دعا  
إلى هذه الزيارة، وكأنّما أشفق من أن يترك ابنه  
الصامت إلى صمته، فقال كالمسائل:

- خير؟... ماذا بك؟ لست كعادتك...  
فنظر ياسين إليه طويلاً كأنّما يستثير عطفه، ثمّ قال  
وهو يخفض عينيه:

- سينقلونني إلى أقاصي الصعيد!

- الوزارة؟

- نعم...

- له؟

- أرحل غير أنّي كالشوكة لا تنزع بيسر.  
فتمادى في الاستهانة بها قائلاً:  
- خزعبلات! تذهيبن بأيسر ممّا يُخلع الحذاء...  
ولكنّها غيّرت النغمة من التحدي والتهديد إلى  
التشكي، فهتفت:

- أأرمي بنفسي من النافذة فأريح وأستريح...!  
فهزّ كتفيه استهانة، ثمّ نهض وهو يقول بلهجة  
أخفت:

- ثمّة طريق أفضل هو أن تقومي إلى الفراش،  
هلمّي لننام واخزي الشيطان...

اتّجه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوّه كأنّما طال  
به الشوق للرقاد، أمّا هي فعادت تقول وكأنّها تحدّث  
نفسها:

- مكتوب على من يعاشرك التعب...

التعب مكتوب عليّ أنا أيضاً، جنسك هو المسئول،  
لا واحدة تغني عن الأخريات وقهر الملل فسوق  
طاقتهنّ، ولكن لن أعود إلى العزوبة مختاراً، لا  
استطيع أن أبيع كلّ عام دكاناً في سبيل زواج جديد،  
فلتبق زنوبة على شرط ألا تركبني، الرجل المجنون  
يحتاج إلى امرأة عاقلة، زنوبة وعاقلة؟!

- أتبقي على الكنبه حتّى الصباح؟  
- لن يغمض لي جفن، دعني لما بي وثّق أنت  
بالنوم...

لا بدّ ممّا ليس منه بدّ، مدّ ذراعيه حتّى قبض على  
منكبها، ثمّ جذبها إليه وهو يغمغم:

- فراشك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثمّ استسلمت ليده  
فمضت إلى الفراش وهي تقول متأوّهة:

- متى تُتاح لي راحة البال كسائر النساء؟

- اطمئني، ينبغي أن تضعي في كلّ ثقتك، إنّني  
أهل للثقة، مثلي لا يكون سعيداً إلا إذا سهر، ولن  
تسعدني أنت إذا أتعبتني بوجع الدماغ، حسبك أن  
تؤمني ببراءة سهري، صدّقيني ولن تندمي، لست جباناً  
ولا كذاباً، ألم أجيّ بك ليلة إلى هذا البيت وفيه  
زوجتي؟ فهل يفعل هذا جبان أو كذاب؟ شبت من

هز رأسه كالمعترض، وقال:  
 - سألت الناظر فحدّثني عن أمور لا علاقة لها بالعمل، ظلم...  
 سأله الرجل بارتياح:  
 - أيّ أمور؟ أوضح.  
 - وشايات وضيمة... (ثم بعد تردد) عن زوجتي...  
 تضاعف اهتمام السيّد، فسأله فيها يشبه الإشفاق:  
 - ماذا قالوا؟  
 لاح الضيق في وجه ياسين حينئذ، ثم قال:  
 - قال السفهاء إنّي متزوّج من... عوادة!  
 ألقى السيّد نظرة جزعة على الدكان، فرأى جميل الحمزاوي يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلّا أذرع، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن لم يخلّ انخفاضه من تهيج الغضب:  
 - لعلهم سفهاء حقاً، ولكن هذا ما حدّرتك من عواقبه، إنك ترتكب كلّ كبيرة دون مبالاة ولكنّ العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد، ماذا أقول؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات، طالما قلت لك هذا مراراً وتكراراً، فلا حول ولا قوة إلّا بالله، كأنّي يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعاً لأنفّرغ لهومك أنت وحدها!  
 فقال ياسين في ارتباك وحيرة:  
 - ولكنّها زوجتي الشرعيّة، ولا لوم على الإنسان في حدود الشرع، فما شأن الوزارة في ذلك؟  
 قال السيّد بغيط مكتوم:  
 - يجب أن تخرص الوزارة على سمعة موظفيها... هلاً تركت الكلام عن السمعة لغيرك!  
 - ولكن هذا تحجّ وظلم بالنسبة لرجل متزوّج! وهو يلوح بيده ساخطاً:  
 - أتريدني أن أرسوم لوزارة المعارف سياستها؟ فقال بانكسار ورجاء:  
 - كلا، ولكنّي أرجو أن توقف النقل بنفوذك... وجعلت يسراه تعبث بشاربه وهو يحدج ياسين بنظرة لم تره لأتّها بدت مشغولة بالتفكير، وراح ياسين

يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أنّ كلّ اعتياده بعد الله عليه، ولم يغادر الدكان حتّى وعده الرجل بالسعي في وقف نقله.  
 وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيّد أحمد إلى قهوة الجنديّ بميدان الأوبرا للمقابلة ناظر المدرسة، فما إن رآه الرجل حتّى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له:  
 - كنت منتظراً جيّثك، فياسين جاوز كلّ حدّ، إنّي آسف لما يسبّبه لك من متاعب...  
 فقال السيّد وهو يجلس قبالة في الشرفة المطلّة على الميدان:  
 - على أيّ حال فياسين ابنك أيضاً...  
 - طبعاً، ولكن لا شأن لي بالمسألة كلّها، إنّها محصورة بينه وبين الوزارة...  
 فقال السيّد كالمحتجّ وإن بدا وجهه مبتسماً:  
 - أليس عجيباً أن يعاقبوا موظّفاً لأنّه تزوّج من عوادة! أليس هذا شأننا عينيه وحده؟ ثم إنّ الزواج علاقة شرعيّة لا يصحّ أن يتعرّض لها أحد بسوء!...  
 قطّب الناظر متفكّراً متسائلاً، كأنّه لم يفهم ما قال صاحبه، ثم قال:  
 - لم يحمي ذكر الزواج إلّا عرضاً وأخيراً! أما علمت بالخبر كلّ؟ يخيّل إليّ أنّك لم تعلم بكلّ شيء!  
 انقبض صدر الرجل، فتساءل في إشفاق وقلق:  
 - أيوجد مطعن آخر؟  
 فقال الناظر نحوه قليلاً، وقال بأسف:  
 - المسألة يا سيّد أحمد أنّ ياسين تعارك في درب طياب مع ساقطة، فخرّ له محضر بلغت صورته إلى الوزارة...  
 بهت الرجل فأتسعت حدقته واصفرّ وجهه، حتّى لم يتمالك الناظر من أن يهزّ رأسه أسفاً وهو يقول:  
 - هذه هي الحقيقة، وقد بذلت قصارى جهديّ لأخفّف العقوبة، حتّى وقفت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكنتني بنقله إلى الصعيد...  
 تهنّد السيّد مغمغماً:  
 - الكلب...!  
 فقال الناظر وهو يرمقه بعطف:

تحاشى السيّد أن يطرق في حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقيّ، واكتفى بأن قال له حين وُفّق إلى إلغاء النقل:

- ما كلّ مرّة تسلم الجرّة! لقد أتعبتني وأخجلتني، ولن أتدخل في أمورك بعد اليوم، فافعل ما بدا لك، وربّنا بيني وبينك!...

ولكنّه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه، فدعاه يوماً إلى الدكان، وقال له:

- آن لك أن تفكر في حياتك تفكيراً جديداً يعود بك إلى طريق الكرامة وينتشلك من الحياة المنبوذة التي تحياها، لا يزال في الوقت متّسع كي تبدأ عهداً جديداً، وإني أستطيع أن أهئ لك الحياة التي تليق بك فأصغ إليّ وأطعني...

ثمّ عرض عليه مقترحاته قائلاً:

- طلق زوجك وعُدّ إلى بيتك، وإني، أتعهد بأن أزوّجك زوجاً لائقاً فتبدأ حياة كريمة!

فتورّد وجه ياسين، وقال بصوت خافت:

- إني أقدر رغبتك الصادقة في إصلاح شأني، وسوف أعمل من ناحيتي على تحقيق هذه الرغبة دون إيذاء أحد...

فهدف الرجل ساخطاً:

- وعد جديد كوعود الإنجليز! الظاهر أنّ نفسك تراودك على زيارة السجن، أجل سيجيتني صراخك المروّة القادمة من وراء القضبان، لا زلت أكرّر عليك أن تطلق هذه المرأة وتعود إلى بيتك...

فقال ياسين وهو يتنهد، متعمّداً أن يسمع أباه تنهده:

- لئنما حبلى يا أبي، ولا أريد أن أضيف ذنباً جديداً إلى ذنوبي!...

اللهم احفظنا! في بطن زنوبة حفيد لك يتكوّن! أكان في وسعك أن تتصوّر ما يدخر لك هذا الشاب من متاعب ساعة تلقّيته وليداً في يوم عُدّ من أسعد أيام حياتك؟!...

- حبلى؟!...

- نعم...

- إني أسف جداً يا سيّد أحمد، غير أنّ هذا السلوك لا يليق بموظّف، لا أنكر أنّه شابّ طيّب ومثابر على عمله، بل أصارحك بأنّي أحبّه، لا لأنّه ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضاً، ولكن ما أعجب ما يقال عنه! ينبغي أن يصلح من شأنه ويقوّم سلوكه وإلاّ خسر مستقبله!

صمت السيّد طويلاً والغضب مرتسم على وجهه، ثمّ قال وكأنّه يخاطب نفسه:

- معركة مع ساقطة! فليذهب إذن في داهية!...

ولكنّه لم يتركه للداهية وإنّما بادر إلى مقابلة معارفه من النّوّاب وعليّة القوم مستشفّعاً بهم في وقف النقل، وكان محمّد عفتّ على رأس الساعين معه، فتوالّت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتّى أثمرت فألغى النقل، ولكنّ الوزارة أصرّت على ندمه للعمل بديوانها، ثمّ أعلن رئيس المحفوظات - صهر محمّد عفتّ أو زوج زوجة ياسين الأولى - عن استعداده لقبوله في إدارته - بإيعاز من محمّد عفتّ - فتّمّت الموافقة على ذلك، وتقلّ ياسين في أوّل شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات. ولم تمرّ المسألة في سلام تامّ فقد سجّل عليه عدم صلاحيّته للعمل في المدارس، كما صُرف النظر عن بحث ترقّيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميّته في الثامنة التي جاوزت عشرة أعوام، ومع أنّ محمّد عفتّ قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألاّ تساء معاملته فإنّ ياسين لم يرتح إلى وضعه الجديد تحت رئاسة زوج زينب، وقد عبّر عن مشاعره حين قال يوماً لكمال:

- لعلّها شرّت بما وقع لي، ووجدت فيه تأييداً لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إليّ، إني خبير بعقول النساء ولا شكّ في أنّها شمّت بي وإنّه لمن سوء الحظّ ألاّ أجد مكاناً كريماً إلاّ تحت رئاسة هذا التيس! ما هو إلاّ كهل لا خير فيه للنساء، وما أعجزه عن أن يسدّ الفراغ الذي تركه ياسين، فلتشمت الحمقاء فإني شامت...

ولم تقف زنوبة على سرّ النقل، وقصارى ما علمت أنّ زوجها نُدب للعمل بمركز أفضل في الوزارة، كذلك

- وتحاف أن تضيف ذنباً جديداً إلى ذنوبك؟! -

ثم منفجراً قبل أن يفتح الآخر فاه:

- لم لم يؤثبك ضميرك وأنت تعتدي على الطيبات من بنات الطيبين! أنت لعنة وحق كتاب الله!...

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عينين ملييتين بالرائ والازدراء. لم يكن يوسعه إلا أن يعجب بمظهره الذي ورثه عنه، أما مخبره الذي ورثه عن أمه...! وذكر بغتة كيف أوشك هو يوماً أن يتردى في الهاوية على يد زنوبة نفسها! ولكنه ذكر في الوقت نفسه كيف شكّم نفسه في اللحظة المناسبة. شكّم نفسه؟! وشعر بامتعاض وقلقى، فلعن ياسين، ثم لعن... ياسين!

- ٤٠ -

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشرع بأنه يوم لا كبقية الأيام، على الأقل بالقياس إليه هو، ففي ساعة منه وجد نفسه في هذه الدنيا، وسجل ذلك في شهادة حتى لا يمكث أكثر أو أقل مما تم الاتفاق عليه... وكان يرتدي معطفه ويقطع حجرته ذهاباً وجيئة، ثم يلقي نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحاً على صفحة بيضاء رُقم أعلاها بتاريخ الميلاد، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى، ويواصل حركته مستمداً منها شيئاً من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة. وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة - متوارية وراء سحب متجهّم والمطر ينزل قليلاً ويسكت قليلاً محرّكاً في نفسه بواعث التأمل والحلم. لا بدّ من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده، ذلك أنّ البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد. وأمه نفسها لم تدر أنّ اليوم من الأيام التي لا ينبغي أن تنساها، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التي وقعت فيها والألام التي صاحبته فهي لا تعرف عن ميلاده إلا أنه «كان في الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجع وأصرخ يومين متتابعين» قديماً كان يذكر أبناء ميلاده فيملاً الرثاء لأمه قلبه، ثم تضاعف شعوره بالرائ عندما شاهد ميلاد نعيمة فحرق

قلبه ألماً لعائشة، أما اليوم فإنه يفكر في ميلاده بعقل جديد، عقل قد علّ من منهل الفلسفة المادّية حتى ألمّ في شهرين بما تمخّض عنه تفكير الإنسانية في قرن من الزمان. تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كلّه إلى الإهمال أو الجهل، وكان يتساءل وكأنما يستجوب متّهماً قائماً بين يديه. ففكر في عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمتخ أو الجهاز العصبي فتلعب دوراً خطيراً في حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شرّ. ألا يمكن أن يكون نهالكة في الحبّ نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير في غيابات الرحم منذ تسعة عشر عاماً؟ أو أن تكون تلك المثلثة التي أضلته طويلاً في مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدراراً فوق مذبح العذاب ما هي إلا عاقبة محزنة لعبث داية جاهلة؟! وفكر فيما قبل الولادة، بل فيما قبل الحمل، في المجهول الذي تنبثق منه الحياة، في تلك المعادلة الكيميائية الآلية التي تستوي كائناً حياً فيثور أوّل ما يثور على أصله مزدرياً، ويتطلّع إلى النجوم مدّعياً له نسباً في مداراتها. بيد أنه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفة، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عاماً وتسعة أشهر إلا نطفة، نطفة قدفت بها رغبة بريئة في اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشاد أو حتى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة القابعة في البيت، فابن أيّ حال من تلك الأحوال كان! لعلّه جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب، فإنّ الشعور بالواجب لا يزايله، وحتى اللذات لم يُقبل على ممارستها إلا بعد أن تمثّلت له فلسفة تُتبع ورأيًا يُعتنق، إلى أنه لم يخلّ من الصراع والالم ولم يأخذ الحياة أخذاً سهلاً، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة في البوق وثقبها، ثم انزلقا إلى الرحم معاً، فتحولاً إلى علقة، فكسيت العلقة لحماً وعظماً، ثم خرجت إلى النور والالم بين يديها يسير، ثم بكت قبل أن تستبين معالمها، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتنبلور مستجدة على مرّ الأيام عقائد وآراء حتى أنحمت، وعشقت عشقاً زعمت لنفسها به نوعاً

هَذَا مِنْظَرُ السَّيَاءِ يُخَاطَبُ الرَّجْدَانِ بِلِسَانِ الْوَجْدِ فَمَا أَجْدَرُهُ أَنْ يَسْتَلْهِمَهُ طَوِيلًا لِيَتَأَمَّلَ مَوْقِفَهُ مِنَ الْحَيَاةِ فِي مَطْلَعِ عَامِهِ الْجَدِيدِ. لَمْ يَعِدْ يَجِدْ رَفِيقًا يَحَاوِرُهُ بِمَكُونِ رُوحِهِ مَذْغَادِ حَسَنِ شَدَادِ أَرْضِ الْوَطَنِ، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ إِلَّا نَفْسُهُ لِيَحَاوِرَهَا إِذَا اسْتَشْعَرَ حَاجَةً إِلَى الْخَوَارِ، فَاتَّخَذَ مِنْ رُوحِهِ صَدِيقًا بَعْدَ أَنْ فَارَقَهُ صَدِيقَ الرُّوحِ، وَسَأَلَ رُوحَهُ: هَلْ تَوْثِقُ بِوُجُودِ اللَّهِ؟ فَسَأَلَتْهُ بِدَوْرِهَا لِمَاذَا لَا تَحَاوِلُ أَنْ تَتَبَّ مِنْ نَجْمٍ إِلَى نَجْمٍ وَمِنْ كَوْكَبٍ إِلَى كَوْكَبٍ كَمَا تَتَبُّ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ فَوْقَ السَّلَمِ؟ وَعَنِ الصَّفْوَةِ الْمُخْتَارَةِ مِنْ أَبْنَاءِ السَّيَاءِ فَقَدْ رَفَعُوا الْأَرْضَ إِلَى مَرْكَزِ الْكَوْنِ وَجَعَلُوا الْمَلَأَكَةَ تَسْجِدَ لِلطِّينِ حَتَّى جَاءَ أَخُوهُمْ كَوْبِرُ نِيكُوسَ فَأَنْزَلَ الْأَرْضَ بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا الْكَوْنُ جَارِيَةً صَغِيرَةً لِلشَّمْسِ، ثُمَّ تَلَاهُ أَخُوهُ دَارُوبِينَ فَهَتَكَ سِرَّ الْأَمِيرِ الزَّائِفِ وَأَعْلَنَ عَلَى الْمَلَأِ أَنَّ أَبَاهُ الْحَقِيقِيَّ هُوَ حَبِيسُ قَفْصِهِ الَّذِي يَدْعُو الْأَصْدِقَاءَ لِلتَّفَرُّجِ عَلَيْهِ فِي الْأَعْيَادِ وَالْمَوَاسِمِ، وَفِي الْأَصْلِ كَانَ السَّدِيمُ فَتَنَّاثَرَتْ مِنْهُ النُّجُومُ كَالرَّشَاشِ الْمَتَطَايِرِ مِنْ عَجَلَةِ الدَّرَاجَةِ، وَتَجَاذَبَتْ النُّجُومُ فِي لَهْوِهَا الْأَزَلِيِّ فَانْجَبَتْ الْكَوَاكِبُ، وَانْطَلَقَتْ الْأَرْضُ كِرَةً سَائِلَةً وَالْقَمَرُ فِي أَثَرِهَا يَعَابِشُهَا وَهِيَ تَقْطُبُ لَهُ بِجَانِبِ مِنْ وَجْهِهَا وَتَبْسِمُ لَهُ بِجَانِبِ آخَرَ حَتَّى فَتَرَ حِمَاسَهَا فَاسْتَقَرَّتْ سَيَاتُهَا جِبَالًا وَنُجُودًا وَقِيَعَانًا وَصَخُورًا ثُمَّ حَيَاةٌ تَدْبُ، وَجَاءَ ابْنُ الْأَرْضِ يَزْحَفُ عَلَى أَرْبَعٍ وَيَسَائِلُ مَنْ يَصَادِفُهُ عَنِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى. لَا أَخْفِي عَنْكَ أَنِّي ضَبَقْتُ بِالْأَسَاطِيرِ ذَرْعًا، غَيْرَ أَنِّي فِي خِضَمِّ الْمَوْجِ الْعَاتِي عَثَرْتُ عَلَى صَخْرَةٍ مِثْلُةِ الْأَضْلَاحِ سَادَعُوهَا مِنَ الْآنِ فَصَاعِدًا صَخْرَةُ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ وَالْمَثَلِ الْأَعْلَى. وَلَا تَقُلْ إِنَّ الْفَلَسَفَةَ كَالِدِينَ أُسْطُورِيَّةِ الْمَزَاجِ، فَالْحَقُّ أَنَّهُمَا تَقُومُ عَلَى دَعَائِمٍ ثَابِتَةٍ مِنَ الْعِلْمِ وَتَتَّجِهُ بِهَا إِلَى غَايَتِهَا، أَمَّا الْفَنُّ فَفِتْنَةٌ سَامِيَةٌ وَامْتِدَادٌ لِلْحَيَاةِ غَيْرُ أَنَّ مَطْمَعِي أَبْعَدُ مِنَ الْفَنِّ مِثَالًا، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَوِي إِلَّا بِالْحَقِيقَةِ، وَالْفَنُّ بِالْقِيَاسِ إِلَى الْحَقِيقَةِ يَبْدُو فَنًّا انْتَوِيًّا، وَفِي سَبِيلِ هَذِهِ الْغَايَةِ تَرَانِي مُسْتَعْدًّا لِلتَّضْحِيَةِ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا يَمْسِكُ عَلَيَّ الْحَيَاةَ، أَمَّا عَنِ مَوْهَلَاتِي لِلدُّورِ الْخَطِيرِ فَرَأْسُ كَبِيرٍ وَأَنْفٌ ضَخْمٌ وَحَبٌّ خَسَائِبٍ وَأَمَلٌ فِي

مِنَ الْأَلُوْهِيَّةِ، ثُمَّ زُلْزِلَتْ فَتَهَاوَتْ عَقَائِدُهَا وَانْقَلَبَتْ أَفْكَارُهَا وَخَابَ قَلْبُهَا فَرُودَتْ إِلَى مَكَانَةِ أَذَلٍّ مِنَ الَّتِي جَاءَتْ مِنْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ! إِذْنُ فَقَدْ مَضَى مِنَ الْعُمُرِ تِسْعَةُ عَشْرَ عَامًا يَا لَهُ مِنْ عَهْدٍ طَوِيلٍ! وَيَا لِلشَّبَابِ الَّذِي يَنْطَوِي بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، هَلْ مِنْ عَزَاءٍ إِلَّا أَنْ تَتَمَلَّى الْحَيَاةَ سَاعَةً فَسَاعَةً بَلْ دَقِيقَةً فَدَقِيقَةً قَبْلَ أَنْ يَنْعَقَ غُرَابُ الْغُرُوبِ؟ مَضَى عَهْدُ الْبَرَاءَةِ، وَلَحِقَ بِهِ الْعَهْدُ الَّذِي كَانَتْ تَوْرُخُ فِيهِ الْحَيَاةُ بِالْحَبِّ - ق. ح، ب. ح - الْيَوْمِ الْأَشْوَاقِ كَثِيرَةً إِلَّا أَنَّ الْمَحْبُوبَ بِمَجْهُولِ الْكُنْهِ، فَلَمْ يَجِدْ عَلَى غَيْبِهِ إِلَّا بَعْضَ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى، فَهُوَ الْحَقِيقَةُ وَمَسْرَّةُ الْحَيَاةِ وَنُورُ الْعِلْمِ، وَالسَّفَرُ فِيهَا يَبْدُو طَوِيلًا، وَكَأَنَّ الْمَحَبَّ قَدْ اسْتَقْلَّ قَطَارَ أَوْجَسَتْ كُنُوتُ فَمَرٍّ بِمَحْطَةِ اللَّاهُوتِيَّةِ الَّتِي كَانَ شِعَارُهَا «نَعَمْ يَا أُمَامَ»، وَهِيَ هِيَ يَطْوِي الْأَرْضَ فِي إِقْلِيمِ الْمِيتَافِيزِيْقِيَّةِ الَّتِي شِعَارُهَا «كَلَّا يَا أُمَامَ» وَعَنِ بَعْدِ تَتْرَائِي خِلَالَ الْمَنْظَارِ الْمَكْتَبِ «الْوَاقِعِيَّةِ». وَعَلَى قَمَتِهَا سَجَلُ شِعَارِهَا «فَتَحْ عَيْنِيكَ وَكُنْ شَجَاعًا». وَتَوَقَّفَ عَنِ السَّيْرِ أَمَامَ الْمَكْتَبِ فَتَبَتَتْ عَيْنَاهُ عَلَى كَشْكُولِ الذِّكْرِيَّاتِ، وَتَسَاءَلُ: أَيْجَلِسُ لِيَسُودَ صَفْحَةُ الْمِيلَادِ كَيْفِيًّا يُوْحِي الْقَلَمُ، أَمْ يُوْجَلُّ ذَلِكَ حَتَّى تَتَبَلُّورَ الْأَفْكَارِ فِي رَأْسِهِ؟ وَعِنْدَ ذَلِكَ طَرَقَ أَذْنِيهِ وَقَعَ الْمَطَرُ عَلَى الْجُدُرَانِ كَالدَّنْدَنَةِ، فَاتَّجِهَ بِصَرِهِ إِلَى زَجَاجِ النَّافِذَةِ الْمُطَلَّةِ عَلَى بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ فَرَأَى لِأَيِّ عَالِقَةٍ بَرَقَعَتِهِ الْمَمُوءَةُ بِرُطُوبَةِ الْجَوِّ، وَمَا لُبِثَتْ لَوْلُؤَةٌ أَنْ انْسَابَتْ إِلَى حَافَةِ الْإِطَارِ السُّفْلِيِّ رَاسِمَةً عَلَى الرِّقْعَةِ الْمَمُوءَةِ خَطًّا نَاصِعًا مَنَعُطًا كَالشَّهَابِ فَمَضَى إِلَى النَّافِذَةِ وَرَفَعَ عَيْنِيهِ يَتَابِعُ الْأَمْطَارَ الْمُنْهَلَّةَ مِنَ السَّحَبِ الْمَتْرَعَةِ وَقَدْ وَصَلَتْ السَّيَاءَ بِالْأَرْضِ بِأَسْلَافِ لَوْلُؤِيَّةٍ، عَلَى حَيْنٍ لَاحَتْ الْمَآذِنُ وَالْقُبَابُ غَيْرَ عَابِتَةٍ بِالْمَطَرِ وَقَدْ بَدَأَ الْآفَقُ وَرَاءَهَا إِطَارًا مِنْ فِضَّةٍ، وَاكْتَنَفَ الْمَنْظَرُ كُلَّهُ لِسُونِ أَبْيَضٍ مُشْرَبٍ بِسَمَرَةٍ سَاجِيَةٍ يَقْطُرُ جَلَالًا وَأَحْلَامًا... وَتَرَامَتْ مِنْ الطَّرِيقِ صِيْحَاتُ أَطْفَالٍ، فَالْقَى نَظْرَةً إِلَى تَحْتِ لَبْرِ الْأَرْضِ تَسِيلُ بِأَلْمِيَاءِ وَالْأَرْكَانِ تَعْبُجُ بِالْوَحْلِ وَقَدْ تَعَثَّرَتْ الْعَرَبَاتُ وَتَطَايِرُ الرِّشَاشُ مِنْ عَجَلَاتِهَا وَخَلَّتْ مَعَارِضُ الدِّكَائِكِ مِنَ السَّلْعِ وَلَاذِ الْمَارَّةِ بِالْحَوَانِيتِ وَالْمَقَاهِي وَمَا تَحْتِ الشَّرَفَاتِ.

بالتغلب عليها إذا كَوَّنَّا عنها فكرة واضحة متميِّزة. أسرك أن وجدت الحب يُنسى؟... سرِّي لأنه يعدني بالنجاة من الأسر، وأحزني بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره، ومهما يكن من أمر فسأملت ما حييت الأشر وأعشق الحرَّة المطلقة.

سعيد من لا يفكر في الانتحار أو يتمنّى الموت، سعيد من تتوهج في قلبه شعلة الحواس، وخالد من يعمل أو يتهبّ صادقاً للعمل، حيّ من يتأثر الخيام بكتاب وكأس ومعشوق، والقلب اللهب بالأمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكي لا تتسع للصودا، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيراً حسناً وأن إقبالك على المرأة لا تعرّض عقبات من تفرّز أو نفور، أما حنينك من حين لآخر إلى الطهر والتشّيف فلعلّه بقية من تديك القديم.

ولم ينقطع المطر عن الانهلال لحظة، وقعقع الرعد، وبلغ البرق، وأقفر الطريق، وسكت الصياح، وخطر له أن يلقي نظرة على فناء الدار فغادر الحجرة إلى الصالة ثم إلى النافذة، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللين فتخذّه ثم تتدفّق صوب البشر القديمة، وفاض عنها جانب فتجمّع في نفرة بين حجرة الفون والمخزن، هذه النفرة التي ينجم فيها غبّ الجفاف - ممّا يتساقط عفواً من حنطة أو شعير أو حلبة من يدي أم حنفي - نبت يكسوها حلّة سندسية فيترعرع أياماً حتى تدوسه الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلئ قلبه الآن شوقاً وحنيناً، ومسرة يغشاها حزن وإن كسحابة شفاة تغشى وجه القمر. وتحوّل عن النافذة ليعود إلى حجّره فانتبه إلى وجود من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمّه متربّعة على الكنبه بأسطة ذراعها فوق المجرمة ولا جليس لها إلا أم حنفي وقد تربّعت على فروة قبالتها. فذكر المجلس القديم في أيامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات، وكانت المجرمة هي الأثر الوحيد فيه الذي لم يكد يطرأ عليه تغيير ينكره الرائي.

المرضى. واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عارض من أعراض مرض الشيخوخة يدعو المرضي بالحكمة، وليس من تناقض في أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوبر نيكوس واستولد وماخ، فالجهاد في سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنسانيّ كذلك. والوطنية فضيلة ما لم تتلوّث بالكراهية العدوانيّة، غير أنّ كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس، وليست الوطنية على ذاك إلا إنسانيّة محليّة، وتساالي هل أومن بالحبّ؟ فاجيب: نأّن الحب لم يبرح فؤادي بعد، فلا يسعي إلا أن أقرّ بحقيقة الإنسانية، ومع أنّ جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإنّ تقوُّص المعابد المقدّسة لم يزعر أركانها أو يقلّل من خطورة شأنه اقتحام محرّابه بالدراسة والتحليل، وفرز عناصره البيولوجيّة والسيكولوجيّة والاجتماعيّة، فكلّ أولئك لم يوهن من خفة القلب إذا هفت ذكرى أو تخاللت صورة، ألا زلت تؤمن بخلود الحبّ؟ ليس الخلود أسطورة. فلعلّ الحبّ يُنسى ككلّ شيء في هذه الدنيا، وقد انقضى على زواج.... عابدة - لم تتردّد قبل التفوّه باسمها؟ - عام فقطعت شوطاً في طريق النسيان، مرت بطور الجنون فطور الدهول فطور الألم الحادّ ثم طور الألم المتقطع، الآن قد يمضي يوم بأكمله فلا تخطر لي على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرتين في أثناء النهار، ويتفاوت تأثري بالتذكّر ما بين حنين ينبعث معتدلاً أو حزن يمزّ مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلا أن تشور النفس بغتة كالبركان فتدور بي الأرض، وعلى أيّ حال غدوت أومن بأنّي سأواصل الحياة بلا عابدة. علام تُعوّل في طلب النسيان؟... على دراسة الحبّ وتعليقه كما سلف، والتهوين من الآلام الفرديّة بالتأمّلات الكونيّة التي يبدو عالم الإنسان في مداراتها هباءة تافهة، والترويح عن النفس بالشراب والجنس، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذي يرى الزمن شيئاً غير حقيقيّ وبالتالي فالانفعالات المرتبطة بحادث في الماضي أو المستقبل مضادة للعقل، ونحن خليقون

فقال جليلة كأنما تشجعه :

- لا شأن لك به فلا حجاب بيننا وبينه . . .

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكم :

- أنا أحقّ الناس بأن أقول ذلك، أليس هو بنسبي؟!

فقط السيد إلى ما تُعرّض به، وتساءل في قلق عن مدى ما اتّصل بعلمها في هذا الشأن كلّ، ولكنّه قال برقة :

- لي الشرف يا سلطنة!

فتساءلت زبيدة وهي ترمقه بنظرة ارتياب :

- أنت مسرور حقًا بما كان؟

فقال بلباقة :

- ما دمت خالتها . . .

فقال وهي تلوّح بيدها في استياء :

- أمّا أنا فلن يرضى عنها قلبي أبدًا . . .

وقبل أن يسألها السيد عن السبب، هتف عليّ عبد الرحيم وهو يفرك يديه :

- أجّلوا الحديث حتّى نعرّم رؤوسنا . . .

ونضض إلى المائدة ففضّ زجاجة وملاّ الكؤوس ثمّ قدّمها إليهم واحدًا واحدًا بعناية ثمّت عن ارتياحه المهدود إلى القيام بمهمّة الساقى، ثمّ انتظر حتّى تهيّأ كلّ للشرب، وقال «صحة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعًا لنا»، فرفعوا الكؤوس إلى شفاههم باسمين، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه . . . هؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حمل المودة والوفاء قرابة الأربعين عامًا، فكان كأنّه يرى فلذات من صميم نفسه، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوة الصادقة. ومالت عيناه إلى زبيدة، فعاد إلى حديثها متسائلًا :

- ولماذا لا يرضى عنها قلبك؟

فانجّحت إليه بنظرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه، وأجابته :

- لأنّها خائنة لا ترعى العهود، خانتني منذ أكثر من عام فغادرت بيتي دون استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم . . .

- ٤١ -

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطئ النيل في طريقه إلى عوامة محمّد عفت، وكان الليل ساجيًا والسماء صافية متألّقة النجوم، والهواء مائلًا للبرودة، فلمّا انتهى إلى هدفه وهمّ بالميل إليه لم ينس - بحكم العادة وحدها - أن يرمي ببصره بعيدًا إلى حيث تقوم العوامة التي دعاها يومًا «عوامة زُنبوبة». كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى في قلبه إلّا الامتعاض والحجل، وكان من آثارها المتخلّفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمي، فثابر على ذلك عامًا حتّى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعيًا على قدميه إلى المجلس المحرّم، وما هي إلّا دقيقة حتّى أقبل على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلّفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين، أمّا الأصدقاء فكان آخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس، وأمّا المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه التحديد - منذ تلك الليلة التي أقحم فيها زُنبوبة في حياته. ولم يكن شيء قد بدأ بعد، فالفوارير لم تنفضّ والنظام لم يمسّ، وكانت جليلة محتلة كنية الصدارة، تعبت بأساورها الذهبية وكأنما تنصت إلى وسوستها، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلّي من السقف، تنظر في مرآة صغيرة بيدها، متفحّصة زينتها، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكي وصحافة المزة. وتفرّق الأصدقاء حاسري الرؤوس وقد خلّعوا جباهم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثمّ صافح المرأتين بحرارة، فرحّبت به جليلة قائلة «أهلاً بأخي الحبيب» أمّا زبيدة فقالت له باسمّة في عتاب «أهلاً بالذي لولا الأدب ما استحقّ منا السلام». ونزع الرجل جبّته وطربوشه، ثمّ ألقي نظرة على الأماكن الخالية - وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة - وتردّد قليلًا قبل أن يمضي إلى كنية المرأتين ويتخذ مجلسه عليهما، ولم يغب تردّده عن عين عليّ عبد الرحيم، فقال :

- هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ!

ترى ألم تعلم حقاً أين ذهبت في ذلك الوقت؟ ولم يشأ أن يعلّق على قولها بحرف، فعادت تسأله:

- ألم يبلغك ذلك؟

فقال بهدوء:

- بلغني في حينه!

- أنا التي كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأم، فانظر كيف كان الجزاء! سفخص على الدم النجس!

فقال عليّ عبد الرحيم مازحاً، وهو يتظاهر بالاحتجاج:

- لا تسيّ دمها فإنّ دمها هو دمك!...

ولكنّ زبيدة قالت جادة:

- دمي بريء منها!

وهنا سألهما السيّد أحمد:

- من كان أباهما يا ترى؟

- أباهما؟!

نذت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من السخريات، ولكنّ محمّد عقّت بادره قائلاً:

- تذكر أنّ الحديث عن حرم ياسين!

فزايلت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت في شيء من الاتباك، على حين عادت زبيدة تقول:

- أمّا أنا فلا أهزل فيما أقول عنها، وطالما رمقتني بعين الحسد وطمعت في منافستي وهي في رعايتي، فكنت أدارياها وأغضّ عن مساوئها (ثمّ وهي تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة!

وردّدت عينيها في الحاضرين، ثمّ قالت بلهجة ساخرة:

- لكنّها أفلست فتزوّجت!...

تساءل عليّ عبد الرحيم في إنكار:

- هل الزواج في عرفك إفلاس؟!

فضيّقت له عينا، ورفعت حاجب الأخرى، وهي تقول:

- نعم يا عمرا!... العالة لا تهجر التخت حتى

تفلس...

وهنا غنّت جلييلة هذا المقطع «أنت المدام يا روعي أنت أنستنا»، فابتسم السيّد ابتسامة عريضة وحيّاها

بأهة لطيفة وشت بانبساطه، غير أنّ عليّ عبد الرحيم نهض مرّة أخرى وهو يقول:

- لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكأس...

وملأ الكئوس ووزّعها بينهم، ثمّ عاد بكأسه إلى مجلسه. وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة، فالتفتت نحوه باسمه ورفعت يدها بكأسها كأنّها تقول له «صحتك»، ففعل مثلها وتشاربا، وجعلت في أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمه. مضى عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأنّ التجربة القاسية التي امتحن بها قد أخذت حماسه، أو لعلّه الكبرياء أو لعلّه المرض، غير أنّ نشوة الخمر ونظرة التودّد حرّكتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصّد، واعتدّها تحيّة طيّبة من الجنس الذي هام به حياته، لعلّها تضمّد جرح كرامته التي قست عليها الخيانة وتقشّر العمر، وكأنّ ابتسامة زبيدة الناطقة كانت تقول له: «لم يولّ عهدك بعدا» فلم يحوّل عن نظرتها عينيها ولم يبلغ ابتسامته.

وجاء محمّد عقّت بعود ووضعه بين المرأتين، فتناولته جلييلة وراحت تلعب بأوتاره، ولما أنست من السامعين انتباهاً غنّت «وعدي عليك ياللي بحبك»، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلّما سمع جلييلة أو زبيدة، وذهب مع النغمة برأسه وجاء، كأنّها يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته. والحقّ أنّه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلّا ذكريات، فقد ذهب الحامولي وعثمان والمينلاوي وعبد الحيّ، كما ذهب شبابه وكما ولّت أيام النصر، ولكن ينبغي أن يوطّن النفس على الرضى بالموجود وأن يبتعت عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته، وقد دعاه حيّه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهديّة غير أنّه لم يهوّ الغناء التمثيليّ، فضلاً عن أنّه ضاق بجلسة المسرح الذي شَبّهه بالمدرسة، كما استمع في بيت محمّد عقّت إلى أسطوانات المطربة الجديدة أمّ كلثوم ولكنّه أعارها أدنأ حذرة مضمرة سوء الظنّ، فلم يتذوّقها رغم ما قيل من أنّ سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أنّ مظهره لم يشر بحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتطلّع



- الصَّبْ تفضحه عينه...  
وتساءل إبراهيم الفار منكراً:  
- أم تحسبن نفسك في زاوية العميان؟  
فقال أحمد عبد الجواد متظاهراً بالأسف:  
- بهذه الصراحة لن نكونوا قوادين كما تحبون!  
أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت:  
- أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنني أحسده على شبابه؟ انظروا إلى رأسه الأسود بين رءوسكم البيض وأجيبوني هل تعطونه يوماً واحداً فوق الأربعين؟  
- أنا أعطيه قرناً...  
فقال أحمد عبد الجواد:  
- من بعض ما عندهم!  
وعند ذاك ترممت جلييلة بمطلع الأغنية «عين الحسود فيها عود يا حلييلة»، فقالت زبيدة:  
- لا خوف عليه من الحسد، فإن عيني لا تؤذيه؟!  
فقال محمد عفت وهو يهز رأسه هزة ذات معنى:  
- أصل الأذى كله من عيونك!  
وهنا قال أحمد عبد الجواد موجّهاً الخطاب إلى زبيدة:  
- أتحدثين عن شبابي؟ أما سمعت بما قال الطبيب؟  
فقالت كالمستنكرة:  
- أخبرني محمد عفت، ولكن ما هذا الضغط الذي يتهمك به؟  
- لفت حول ذراعي قربة غريبة، وراح ينفخ بمنفاخ جلدي، ثم قال لي «عندك ضغط»...  
- ومن أين جاء الضغط؟  
فأجاب السيد ضاحكاً:  
- لا أظنه جاء إلا من ذات النفخ!  
قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفّاً بكفّ:  
- لعله مرض معدي، فإنه لم يكد يمضي شهر على إصابة المحروس به حتى ذهبنا جميعاً تبعاً إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف في جميع الحالات واحدة: الضغط!...

إلى جلييلة راضياً سعيداً ويردّد مع الجميع لازمة «وعدي عليك» بصوته الرخيم، حتى هتف الفار بحسرة:  
- أين أين الدف؟! أين الدف لنسمع ابن عبد الجواد؟  
سئل أين أحمد عبد الجواد الذي كان ينقر على الدف؟! آه، لم يغيرنا الزمان؟ وختمت جلييلة غناها في هالة من الاستحسان، ولكنها قالت في لهجة اعتذار وهي تبسم شاكرة:  
- إني متعبة...  
ولكن زبيدة كئلت لها الشاء كما يدور بينها كثيراً على سبيل المجاملة أو حرصاً على السلام العام، ولم يكن يخفى على أحد أنّ نجم جلييلة كعائلة آخذ في الأفول السريع الذي كان آخر آياته هجر الدقافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر، وهو أفول طبيعي إذ كان الذبول قد أدرك كافة المزاي التي قام عليها مجدها القديم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زبيدة تجدها نحوها غير تذكر فوسّعها أن تجاملها دون مضض، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها، تلك الذروة التي لا خطوة بعدها إلا نحو الانحدار. وكان الأصدقاء كثيراً ما يتساءلون عما إذا كانت جلييلة قد أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة، وكان رأي أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل، وأنهم بعض من عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها، ولكنه جاهر في الوقت ذاته بأنها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأيّ سبيل، وأيده على ذلك عليّ عبد الرحيم قائلاً:  
إنها تتاجر بجمال نساء تحتها وإن بيتها يتحوّل رويداً رويداً إلى شيء آخر. أما زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنها - رغم مهاراتها في ابتزاز الأموال - جوادة مفتونة بالمظاهر التي تحرق المال حرقاً، إلى ولعها بالشراب والمخدرات وخاصة الكوكايين. قال محمد عفت مخاطباً زبيدة:  
- اسمحي لي بأن أبدي إعجابي بنظراتك الحلوة التي تخصّن بها بعضنا؟  
فضحكت جلييلة، وقالت بصوت خافت:

فقال عليّ عبد الرحيم:  
 - أنا أقول لكم سرّه، إنّه عرض من أعراض  
 الثّورة، وآي ذلك أنّه لم يسمع به أحد قبل اشتعالها!  
 وسألت جلييلة السيّد أحمد:  
 - وما أعراض الضغط؟  
 - صداع ابن كلب، وتعب في التنفّس عند  
 المشي...  
 فتمتعت زبيدة وهي تبتسم ابتسامة دارت بها شيئاً  
 من القلق:  
 - ومن يخلو ولو مرّة من هذه الأعراض؟ ما رأيكم  
 أنا عندي ضغط أيضاً!...  
 فسألها أحمد عبد الجواد:  
 - من فوق أم من تحت؟  
 وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتّى قالت  
 جلييلة:  
 - ما دمت قد خبرت الضغط، فاكشف عليها لعلّك  
 تعرف علّتها!  
 فقال أحمد عبد الجواد:  
 - عليها أن تحضر القرية وعليّ أن أحضر المنفاخ!  
 فضحكوا مرّة أخرى، ثمّ قال محمّد عفت  
 كالمحتج:  
 - ضغط... ضغط... ضغط... لا نسمع الآن  
 إلّا الطبيب وهو يقول كأنّما يأمر عبيده: لا تشرب  
 الخمر، لا تأكل اللحوم الحمراء، احذر البيض...  
 فتساءل أحمد عبد الجواد ساخراً:  
 - وماذا يصنع إنسان مثلي لا يأكل إلّا اللحوم  
 الحمراء والبيض ولا يشرب إلّا الخمر؟  
 فقالت زبيدة من فورها:  
 - كُل واشرب بالهنا والشفا، الإنسان طبيب نفسه،  
 وربّنا هو الطبيب...  
 ومع ذلك فقد اتّبع تعاليم الطبيب في الفترة التي  
 اضطرّ فيها إلى الرقاد، فلمّا نهض تناسى نصيح الطبيب  
 جملة وتفصيلاً. عادت جلييلة تقول:  
 - أنا لا أومن بالأطباء، ولكنّي أقيم لهم العذر فيما  
 يقولون ويفعلون، فإنّهم يتعيّشون من الأمراض كما  
 نتعيّش نحن العوالم من الأفراح، ولا غناء لهم عن  
 القرية والمنفاخ والأوامر والنواهي كما لا غناء لنا عن  
 الدفّ والعود والأغاني...  
 فقال السيّد بارتياح وحماس:  
 - صدقت، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر  
 الله وحده، ومن توكل على الله فلا يحزن...  
 إبراهيم الفار ضاحكاً:  
 - اشهدوا يا ناس على هذا الرجل، إنّه يشرب بفيه  
 ويفسق بعينه ويعظ بلسانه!  
 أحمد عبد الجواد مقهقهةً:  
 - لا عليّ من ذلك ما دمت أعظ في ماخورا!...  
 عمّد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد، ويهرّ  
 رأسه متعجباً:  
 - وددت لو كان كمال بيننا لينتفع معنا  
 بوعظك!...  
 فتساءل عليّ عبد الرحيم:  
 - على فكرة، ألا يزال على رأيه من أنّ أصل  
 الإنسان هو القرد؟  
 فضربت جلييلة صدرها بيدها هاتفة:  
 - يا ندامتي!...  
 زبيدة في دهش:  
 - قرد؟!... (ثمّ كالستدركة) لعلّه يقصد أصله  
 هو!  
 قال لها السيّد محدّراً:  
 - وأثبت أيضاً أنّ المرأة أصلها لبؤة!  
 فقالت وهي تهاهئ:  
 - ليتني أرى سليل القرد واللّبؤة!  
 فقال إبراهيم الفار:  
 - سيكبر يوماً فيخرج عن محيط أسرته، ويقتنع بأنّ  
 البشر من آدم وحواء...  
 فبادره أحمد عبد الجواد:  
 - أو أحضره معي يوماً إلى هنا ليقتنع بأنّ الإنسان  
 أصله كلب!  
 وقام عليّ عبد الرحيم إلى المائدة ليملا الكئوس،  
 وهو يسأل زبيدة:

- أنت رجل رجعي، تتعلّق دائماً بالماضي... (ثمّ وهو يغمز بعينه)... ألسنت تصرّ على حكم بيتك بالخدّيد والنار حتّى في عهد الديموقراطيّة والبرلمان؟

السيد ساخرًا:

- الديموقراطيّة للشعب لا للأسرة...

عليّ عبد الرحيم جادًا:

- أنظرن أنّه يمكن التحكّم بالطريقة القديمة في شبّان اليوم؟ هؤلاء الشبّان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف في وجه الجنود؟

فقال إبراهيم الفار:

- لا أدري عمّا تتكلّم، ولكنّي متّفق في الرأي مع أحد، كلانا أب للذكور، والله المستعان...

محمّد عفت مداعبًا:

- كلاكما متحمّس للحكم الديموقراطيّ باللسان ولكنكما مستبدّان في بيتكما...

فقال أحمد عبد الجواد كالمحتجّ:

- أتريدني على ألاّ أبتّ في مسألة حتّى أجمع كمال وياسين وأمّ كمال، ثمّ نأخذ الأصوات؟

فهاهنا زبيدة قائلة:

- لا تنس زنوبة من فضلك...

وقال إبراهيم الفار:

- إذا كانت الثورة هي سبب ما نعاني من أولادنا، فالله يسامح سعد باشا...

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح، وتعالّت الضجّة واختلطت الأصوات، وتقدّم الليل غير عابئ بشيء، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده ينظر إليها، وقال لنفسه: إنّه ليس في هذا الوجود إلّا لذّة واحدة، وأراد أن يفصح عن فكرته ولكنّه لم يفصح، إمّا لأنّ حماسه للإفصاح فتر أو لأنّه لم يستطع، ولكن كيف جاء هذا... الفتور؟ وتساءل مرّة أخرى: أتكون لذّة ساعة أم معاشرة طويلة؟ ونزعت نفسه إلى الناس التسلية والعزاء، ولكنّ ثمة وشّ كأنّ أمواج النيل تمسّ في أذنيه، ومع ذلك فمتمتصف الحلقة السادسة في تناول اليد، سلّ

- أنت أعرف منا بالسيد فإلى أيّ حيوان ترجعينه؟ فتفكّرت قليلاً وهي تتابع يديّ عليّ عبد الرحيم وهما تصبّان الويسكي في الكئوس، ثمّ قالت باسمة:

- الحمار!

فتساءلت جلييلة:

- ذمّ هذا أم مدح؟

فقال أحمد عبد الجواد:

- المعنى في بطن القاتل!

وعاودوا الشراب على أصفى حال، وتناولت زبيدة العود وغنّت «ارخي الستارة اللي في ريحنا».

وفي نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة، رافعاً الكأس التي لم يبق فيها إلّا الثمالة أمام عينيه، ناظرًا خلالها إلى المرأة كأنّما يروم أن يراها بمنظار خريّ. وبرح الخفاء إن كان ثمة خفاء ووضح أنّ كلّ شيء - بين أحمد وزبيدة - قد عاد إلى قديمه، وردّدوا الغناء وراء زبيدة، فعلا صوت أحمد في طرب وسرور حتّى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق. وما لبث محمّد عفت أن قال لجلييلة:

- لمناسبة «الصبّ تفضحه عيونه» ما رأيك في أمّ كلثوم؟

فقالت جلييلة:

- صوتها - والشهادة لله - جميل، غير أنّها كثيرًا ما تصرّع كالأطفال!

- البعض يقولون إنّها ستكون خليفة منيرة المهدية، ومنهم من يقول بأنّ صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها...

فهتفت جلييلة:

- كلام فارغ! أين هذه الصرصة من بحّة منيرة؟ وقالت زبيدة بازدراء:

- في صوتها شيء يذكّر بالمقرئين، كأنّها مطربة بعمامة!

فقال أحمد عبد الجواد:

- لم أستطعها، ولكن ما أكثر الذين يبيمون بها، والحقّ أنّ دولة الصوت زالت بموت سي عبده...

فقال محمّد عفت مداعبًا:

الحكباء كيف ينطوي العمر ونحن ندري دون أن الطبيب إنها أزمة ضغط، وحُجْم المريض فملاً طستاً من دمه، دم أسود كما قالت خديجة في وصفه ندرى...

- ماذا أسكتك كفى الله الشر؟

- أنا؟... شوية راحة...

أجل ما ألدّ الراحة! ضجعة طويلة تقوم بعدها كمال ذاهلاً كأنما يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة صحيحاً، ما ألدّ الصحة، ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام، وهذه النظرة أليست فاتنة ولكن همسات الأمواج تملو فكيف تسمع الغناء؟

- كلاً، لن نتركه حتى يزفّ، ما رأيكم؟. يدري إلى تصوّر النهاية التي يخافها قلبه، تصوّر عالم لا يوجد فيه الأب، فضاق صدره وجزع قلبه، وتساءل في إشفاق كيف يمكن أن تتحمّل هذه النهاية أمه؟ إنها تبدو الآن كالمنتهية ولما يقع شيء، ثم وردت ذهنه ذكرى فهمي، فتساءل: أيمن أن ينسى هذا كما نسي ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات.

الزفة... الزفة!...

- قُم يا جلي...

- أنا؟... شوية راحة...

الزفة... الزفة، كما حدث أول مرة في بيت الغورية... ذلك عهد قديم...

وعلم ياسين بالحادث في اليوم التالي لوقوعه، فجاء إلى البيت لأول مرة مذ غادره عند زواجه من مريم،

- نجدّه، الزفة... الزفة...

وقصد حجرة أبيه رأساً فألقى عليه نظرة طويلة صامته ثم انسحب إلى الصالة مذهولاً، فالتقى بأمنية فتصافحا بعد طول فراق، واشتدّ تأثره وهو يصافحها فامتلات عيناه بالدموع. ولبت السيّد راقداً، ولم يكن أول الأمر يتكلّم أو يتحرّك، فلما حُجِم دَبّ فيه شيء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة يفصح بها عما يريد، ولكنّه في الوقت ذاته شعر بالآلم فصدر عنه الأنين والتأوهات. ولما خفّت حدّة الآلام ألرَضِيّة أخذ يضيق برقاده الإجباريّ الذي حرّمه نعمة الحركة والنظافة، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل ما تعافه نفسه في مكان واحد هو فراشه. وكان نومه متقطّعا، وكان ضجره متصّلاً، غير أنّ أول ما سأل عنه كان خاصاً بكيفية إحضاره إلى البيت مغشياً عليه، وأجابته أمينة بأنّه جيء به في خنطور مع صحبه محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وأنهم حملوه برفق إلى فراشه، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخّر الوقت. وسأل بعد ذلك باهتمام عن عوّاده فقالت له المرأة إنهم لا ينقطعون ولكنّ الطبيب منع المراقبة إلى

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يومياً، وكانت الحال من الشدّة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتّى الأبناء كانوا يتسلّلون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثم ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهرّبون منها في ذات الوقت. قال

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يومياً، وكانت الحال من الشدّة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتّى الأبناء كانوا يتسلّلون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثم ينسحبون وفي الوجوه اكفهرار وفي الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهرّبون منها في ذات الوقت. قال

حين . وكان يردّد بصوت خافت «الأمر لله من قبل ومن بعد» و «نسأل الله حسن الختام»، ولكنّ الحقّ أنّه لم يستشعر اليأس، ولم يحسّ بدنوّ النهاية، ولم تضعف ثقته بالحياة التي يحبّها رغم آلامه وخوفه، عاوده الأمل بمجرد عودة الوعي إليه، فلم يحدث أحداً بحديث الراحلين كان يوصي أو يودّع أو يعهد لمن يهّمه الأمر بأسرار عمله وثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوي وكلفه ببعض أعمال المبادلة التي لم يكن يعلم عنها شيئاً، كما أرسل كمال إلى خياطه البلديّ بخان جعفر ليحضّر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدفع ثمن خياطها، لم يكن يذكر الموت إلّا بتلك العبارات يردّدها كأنّها يداري بها قسوة الأقدار. وعند ختام الأسبوع الأوّل صرّح الطبيب بأنّ مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام، وأنّه لم يعد يلزمه إلّا بعض الصبر كي يستردّ صحّته كاملة ويستأنف نشاطه. وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حدّره منه عند ارتفاع ضغطه أوّل مرّة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقاً على

حين مرض وبرىء معه حين منّ الله عليه بالشفاء . فتطلّق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحدّثهم طويلاً عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأنّ على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكّلاً على الله وحده، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال - مخليّن الصالة لمرور العرّواد المنتظر توافدهم - وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشذّ على يدها وهو يقول:

- لم أحدّثك بما في نفسي طيلة الأسبوعين الماضيين، لأنّ مرض بابا لم يترك لي عقلاً أفكر به، أمّا الآن وقد أمر الله بالسلامة فأودّ أن اعتذر عن رجوعي إلى البيت دون استئذنانك، الحقّ أنّك استقبلتني بالعطف الذي عهدته منك في الأيام السعيدة الخالية، ولكن عليّ الآن أن أقدم فروض الاعتذار...

فتورد وجه أمينة وهي تقول بتأثر:

- ما فات فات يا ياسين، هذا بيتك تحلّ فيه أهلاً وسهلاً حين تشاء...

فقال ياسين ممثلاً:

- لا أحبّ أن أعود إلى الماضي، ولكن أحلف برأس أبي وحياة رضوان ابني أنّ قلبي لم يحمل قطّ سوءاً لأحد من أهل هذا البيت، وأنّي أحببتهم جميعاً كما أحب نفسي، ربّما يكون الشيطان قد دفعني إلى خطأ، وكلّ إنسان عرضة لهذا، ولكنّ قلبي لم تشبه شائبة أبداً... فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض، وقالت بإخلاص:

- كنت دائئاً واحداً من أنساني، ولا أنكر أنّي غضبت مرّة، ولكن زال الغضب والحمد لله، فلم يبق إلّا الحبّ القديم، هذا بيتك يا ياسين، أهلاً بك أهلاً...

وجلس ياسين ممثلاً، فلمّا غادرت أمينة الحجرة، قال للحاضرين بلهجة خطابية:

- ما أطيب هذه المرأة، إنّ الله لا يغفر لمن يسيء إليها، لعن الله الشيطان الذي أورطني يوماً فيما جرح مشاعرها...

فقال له خديجة وهي تحدّجه بنظرة ذات معنى:

- لا يكاد يمضي عام حتّى يورطك الشيطان في

وهكذا مرّت الأزمنة بسلام، فاستردّت الأسرة أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع الثاني سُمع للسيد بمقابلة عوّاده فكان يوم سعيد، وكانت أسرته أوّل من احتفل بهذا اليوم فزاره أبنائوه وأصهاره وتحذّثوا إليه لأوّل مرّة منذ الرقاد، وقلّب الرجل عينيه في وجوههم - ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت وخليل شوكت - وراح بلباقته - التي لم تخنه في موقفه هذا - يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمد، فقالوا له: إنّهم لم يجيئوا بهم حرصاً على راحته، ودعوا له بطول العمر وتقام الصحّة والعافية، ثمّ حدّثوه عن حزنهم لما ألمّ به وسرورهم بسلامته، تكلمت خديجة بصوت متهذّج، وتركت عائشة على يده وهي تقبّلها دمعة تغني عن كلّ بيان، أمّا ياسين فقال بزلاقة لسان: إنّهُ مرض معه

مصيبة، كأنك لعبة في يديه...  
فنظر إليها بعين كأنما يتوسل إليها أن تعفيه من مباحة:

لسانها، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه:  
- زوّار من الأكابر!

وتتابع وصول العوّاد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب، موظفين ومحامين وأعيان وتجّار، وكانت منهم قلة لم تحي البيت من قبل، وآخرون لم يأتوا إلّا مدعوّين لبعض الولائم التي يولمها السّيد في المناسبات، وغير هؤلاء وأولئك رجال تُرى فقال ياسين في كبرياء مصطنع:

لم تعد زوجتي تحيي أفرأحا بعد، إنّها الآن سيّدة بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى...  
فتساءلت خديجة في تهكم:

- لم تأتِ معك بالمدام «لثّحي» لنا هذا اليوم المبارك؟  
فقال ياسين با لهجة جدّية، لا أثر للتهكم فيها:

- يا خسارتك يا ياسين، ربّنا يتوب عليك ويهديك...  
قال إبراهيم شوكت، كأنما يعتذر عن صراحة زوجته:

- لا تؤاخذني يا سي ياسين، ولكن ما حيلتي إنّها أختك!  
فقال ياسين باسماً:

- كان الله في عونك يا سي إبراهيم!..  
وهنا قالت عائشة وهي تنتهّد:

- الآن وقد أخذ الله بيد بابا، فإنّي أصارحكم بأنّي لن أنسى ما حبيت منظره أوّل يوم رأيته، ربّنا لا يحكم على أحد بالمرض...  
خديجة بصدق وحماس:

- هذه الحياة لا تساوي بدونه قلامة ظفر...  
فقال ياسين بتأثر:

- إنّهُ ملاذنا عند كلّ شدّة، رجل ولا كلّ الرجال!..  
وأنا؟ أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك

- لا تعجب، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم!

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدّم مساعداتها. أمّا تيّار العوّاد فلم ينقطع، وقد جاء جميل الحمزاوي بعد أن أغلق الدكان، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة الجماليّة، ثمّ محمّد العجمي بائع الكسكسي بالصالحية. وإذا بعائشة تهتف وهي تشير إلى الطريق من وراء النافذة:

- الشيخ متولّي عبد الصمد! ترى أيسطيع أن

وتعالى من الطريق رنين جرس حنطور، فوثبت عائشة

يصعد إلى الدور فوقاني؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكئًا على عصاه،  
متنحنًا - من حين لآخر - لينبّه من في طريقه إلى  
حضوره. وأجاب ياسين:

- إنه يستطيع أن يصعد إلى قَمّة مئذنة... (ثمّ  
مجيئًا خليل شوكت الذي تساءل عن عمر الرجل بعينه  
وأصابه)... بين الثائنين والتسعين! ولكن لا تسل  
عن صحّته!...

وتساءل كمال:

- ألم يتزوَّج في حياته الطويلة؟

فقال ياسين:

- يقال إنّه كان زوجًا وأبًا، ولكنّ زوجته وأبناءه  
انتقلوا إلى رحمة الله.

وهتفت عائشة مرّة أخرى، ولم تكن برحت موقفها  
من النافذة:

- انظروا! هذا خواجه! من يكون يا ترى؟...

كان يقطع الفناء ملقيًا على ما حوله نظرة متردّدة  
متسائلة، واضعًا على رأسه قُبعة مستديرة من الخوص  
لاح تحت حافتها أنف مجذور مقوَّس وشارب منقوش،  
فقال إبراهيم:

- لعنّه صائغ من تجّار الصاغة!...

فتمتم ياسين في حيرة:

- ولكنّه يونانيّ السحنة، أين يا ترى رأيت هذا  
الوجه؟!

وجاء شابّ ضريّر ذو نظّارة سوداء، يجرّه من يده  
رجل من أهل البلد ملثّمًا بكوفيّة رافلاً في معطف أسود  
طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلم، فعرفهما  
ياسين - من أوّل نظرة - وهو من الدهش في نهاية: أمّا  
الشابّ الضريّر فكان عبده عازف القانون بتخت  
زبيدة، وأمّا الآخر فصاحب قهوة مشهورة بوجه البركة  
يدعى الهيايوني، فتوّه وبلطجي وبرجي ألخ...،  
وسمع خليل وهو يقول:

- الضريّر قانونجيّ العالمّة زبيدة!...

فتساءل ياسين متصنّعًا الدهش:

- وكيف عرف بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول:

- والدك من السّميعة القدامى، ولا غرابة في أن  
يعرفه جميع أهل الفنّ!...

وابتسمت عائشة دون أن تدبر رأسها المتّجه إلى  
الطريق لتداري ابتسامتها، ياسين وكمال رأيا ابتسامة  
إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها. وأخيرًا جاءت سويدان  
جارية آل شوكت تتعزّز في خطوات الكبر، فتمتم خليل  
وهو يشير إليها «رسول أمّنا للسؤال عن السيّد».

وكانت حرم المرحوم شوكت قد زارت السيّد مرّة،  
ولكنّها لم تستطع أن تعيد الكرّة لما اعترأها في الأيام  
الأخيرة من آلام روماتيزميّة تحالفت مع الكبر عليها.  
وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهي تقول  
مبدية التشكّي مضمرة المباهاة:

- يلزمنا قهوجيّ ليقدم القهوة بنفسه!...

كان السيّد جالسًا في فراشه، مسند الظهر إلى  
وسادة منكسرة، ساحبًا الغطاء حتّى عنقه، على حين  
جلس العوّاد على الكنبّة والكراسيّ التي أحدثت  
بالفراش، وبدأ سعيّدًا رغم ضعفه، فلم يكن يسعده  
شيء كالنفّاس الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته  
ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاه المرض بالشّر فإنّه  
ينكر حسنته فيهما وجد من جزع إخوانه لما أصاب  
وتحسّروهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة في  
مجالسهم أثناء اعتكافه، وكأنّما أراد أن يستزيد من  
العطف، فجعل يقصّ عليهم ما لاقى من آلام وسأم،  
واستباح في سبيل ذلك أن يهوّل ويبالغ، فقال متنهّدًا:  
- في الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بيني وبين  
نفسي بأنّي انتهيت، فجعلت أنشده وأقرأ الصمدية،  
وفيا بين هذا وذاك أذكركم كثيرًا فتقسو عليّ فكرة  
فراقكم...

فعلا أكثر من صوت قائلًا:

- لا كانت الدنيا بدونك يا سيّد أحمد...

وقال عليّ عبد الرحيم بتأثر:

- سترك مرضك هذا في نفسي أثرًا لن يزول مع

الأيّام...

وقال محمّد عفتّ بصوت خافت:

هتف الشيخ متولي عبد الصمد، وهو يلتفت نحو الخواجا مسدداً نحوه بصرًا لا يكاد يرى:

- الآن عرفتك يا وجه المصائب، عندما سمعت صوتك في المرة الأولى تساءلت أين سمعت هذا الشيطان؟

وسأل محمد العجمي بائع الكسكسي الخواجا مانولي، وهو يغمز بعينه ناحية الشيخ متولي:

- ألم يكن الشيخ متولي من زبائنك يا مانولي؟ فقال الخواجا باسمًا:

- فمه ملآن بالطعام، فأين يضع الخمر يا جيبني؟ وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه:

- تأذّب يا مانولي! فصاح به العجمي:

- أتنكر يا شيخ متولي أنك كنت أكبر حشّاش قبل أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوّح الشيخ بيده محتجًا، وهو يقول:

- ليس الحشيش حرامًا، أجريت صلاة الفجر وأنت مسطول؟ الله أكبر.. الله أكبر!

ووجد أحمد عبد الجواد الهمايوني صامتًا، فالتفت إليه باسمًا وهو يقول على سبيل المجاملة:

- كيف حالك يا معلّم؟ والله زمان!... فقال الهمايوني بصوت كالنعير:

- والله زمان زمان والله! أنت السبب يا سيّد أحمد وأنت الهاجر، ولكن لِمَا قال لي السيّد عليّ عبد الرحيم

إنّ عدوك رافد ذكرت أيام الصبوات كأنّها لم تنقطع، وقلت لنفسي: لا كان الوفاء إن لم أزر بنفسني الرجل

الحبيب، رجل المروءة والفرشة والأنس، ولولا الملامة لجئت معي بفطومة وقملي ودولت ونهاوند، كلّهنّ

مشتاقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سي أحمد، أنت أنت سواء شرفتنا كلّ ليلة أم هجرتنا سنين!...

ثمّ وهو يجيل عينيه الحديديتين:

- هجرتمونا كلّكم، البركة في السيّد عليّ، ربّنا يخلّي لنا سنّة القليّ التي تجذب إلينا، من فات قدّمه تاه، عندنا أصل الأنس، ماذا غيّبكم عنّا؟ لو كانت التوبة

لعذرناكم، ولكنّ التوبة لم يثن أوانها، ربّنا يبعدها

- أتذكر تلك الليلة؟ ربّاه لقد شَيّتنا!...

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلاً، وقال:

- نجّاك الذي نجّانا من الإنجليز ليلة بوّابة الفتوح!...

تلك الأيام السعيدة، أيام الصحة والعشق، وفهمي كان النجاة والأمل الموعود.

- الحمد لله يا سيّد حميدو!...

وقال الشيخ متولي عبد الصمد:

- إني أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حقّ؟ ولا داعي للجواب، ولكنّي أدعوك إلى إطعام أولياء

الحسين... فقاطعه محمد عفت متسائلاً:

- وأنت يا شيخ متولي، ألسنت من أولياء الحسين؟ وضح هذه النقطة...

فاستطرد الشيخ - دون مبالاة - وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كلّ عبارة:

- أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم، أراد محمد عفت أم لم يرد، وعليه هو أيضًا أن يطعمهم إكرامًا

لك، وأنا على رأسهم، وعليك أن تؤدّي فريضة الحجّ هذا العام، ويا حبّذا لو أخذتني معك ليضاعف الله

لك الجزاء... ما أطيبك وأقربك إلى قلبي يا شيخ متولي، أنت من معالم الزمن.

- أعدك يا شيخ متولي بأن آخذك معي إلى الحجاز، إذا أذن الرحمن.

عند ذاك قال الخواجا، وكان قد خلع قبعته عن شعر خفيف ناصع البياض:

- شويّة زعل، الزعل سبب كلّ شيء، اترك الزعل ترجع مثل البمب.

مانولي الذي باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عامًا، بائع السعادة وسمسار القرافة.

- هذه عاقبة بضاعتك يا مانولي!

فنظر الخواجا في بقية وجوه الزبائن، وقال:

- لم يقل أحد إنّ الخمر تأتي بالمرض، كلام فارغ، الانبساط والضحك والفرشة تسبّب المرض؟



فنهتف متولّي عبد الصمد:  
 - إمّا السجن وإمّا المشنقة! ...  
 فلم يتألك الهمايوني من أن يضحك عاليًا، ثمّ  
 قال:  
 - حقًّا إنّه وليّ، فهذه هي النهاية المتوقّعة (ثمّ مخاطبًا  
 الشيخ) لكن اضبط لسانك، ولألا حقّقت بك  
 نبوءتك! ...  
 عليّ عبد الرحيم، وهو يقرب رأسه من وجه  
 السيّد:  
 - قم يا حبيبي، الدنيا لا تساوي قشرة بصلّة من  
 غيرك، ماذا جرى لنا يا أحمد؟ أترى أنّه يحسن بنا ألا  
 نستعين بالمرض بعد ذلك؟ كان آباؤنا يتزوّجون وهم  
 فوق السبعين، فماذا جرى؟!  
 متولّي عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه:  
 - كان آباؤكم مؤمنين طاهرين، لم يسكروا ولم  
 يفسقوا، في هذا الجواب الذي تريد...  
 وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلاً:  
 - قال لي الطبيب إنّ التباذي في الاستهانة مع  
 الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله. هذا ما وقع  
 لصاحبنا الوديني أكرمه الله بحسن الختام، إنّي أسأل  
 الله إذا حمّ القضاء أن يكرمني بالموت، أمّا الرقاد  
 أعوامًا بلا حراك...! اللهمّ رحمتك!  
 وهنا استأذن العجمي وحيدو ومانولي في  
 الانصراف، وذهبوا وهم يدعون للسيّد بالصحة  
 والعمر المديد. ومال محمّد عقّت على السيّد، ثمّ همس  
 بصوت هامس:  
 - جلييلة تقرئك السلام، وكم ودّت لو تراك  
 بنفسها! ...  
 فالتقطت أذن عبده القانونجي مقالته، ففرقع  
 بأصابعه، وقال:  
 - وأنا مبعوث السلطنة إليك، وقد كادت أن تنزّي  
 بزيّ الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفقت  
 عليك من العواقب غير المتوقّعة، فأرسلتني وقالت لي  
 قل له:  
 وتنحنح مرّة ثمّ مرّة، وغنّى بصوت خافت:

بطول العمر والأفراح!  
 أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه:  
 - ها أنت ترى أنّنا قد انتهينا! ...  
 فقال المعلّم بحماس:  
 - لا تقل هذا يا سيّد الرجال، وعكة وتخفي إلى غير  
 رجعة، لن أتركك حتّى تنذر أن تعود إلى وجه الربة -  
 ولو مرّة - إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة! ...  
 فقال محمّد عقّت:  
 - الزمن تغير يا معلّم همايوني، أين وجه البركة  
 الذي عرفناه قديمًا؟ ابحث عنه في التاريخ، أمّا ما بقي  
 منه فمراح الشبان من أهل اليوم، كيف نسير بينهم  
 وفيهم أبناؤنا؟  
 وقال إبراهيم الفار:  
 - ولا تنس أنّنا لا نستطيع أن نغالط ربّنا في العمر  
 والصحة، انتهينا كما قال سي أحمد، ما منّا إلّا من  
 اضطرّ إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك، لا  
 تشرب... لا تأكل... لا تنفّس، وغير ذلك من  
 الوصايا المقرّفة، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلّم  
 همايوني؟  
 فقال المعلّم وهو يحدّجه بنظرة:  
 - داو أيّ مرض بسكرة وضحكة ولعبة، وإن  
 وجدت له أثرًا بعد ذلك الزقه في كبدي!  
 فصاح مانولي:  
 - قلت له هذا وحياتك أنت!  
 وقال محمّد العجمي، كأنّما يُتمّ ما بدأ صاحبه:  
 - ولا تنس المنزل الأصيل يا معلّم...  
 فهزّ الشيخ متولّي عبد الصمد رأسه متعجّبًا،  
 وتساءل في حيرة:  
 - دلّوني يا أهل الخير أين أنا، أفي بيت ابن عبد  
 الجواد أم في غرزة أم في حانة؟ دلّوني يا هوه! ...  
 تساءل الهمايوني وهو يرمق الشيخ متولّي شزّرًا:  
 - من صاحبكم؟  
 - وليّ كلّ خير...  
 فقال له متهمّكًا:  
 - اقرأ لي الطالع إن كنت وليًّا!

أمانة يا رايح يمه تبوس لي الحلو من فمه  
وقل له عبدك المغرم ذليل  
فاتبسم الهمايوني كاشفًا عن طاقم ذهبي، وقال:  
- نعم الدواء، جرب هذا ولا تلقِ بالألأ إلى وليّ الله  
المتنبئ بالمشانق.

زبيدة؟! لا شوق بي إلى شيء. دنيا المرض شيء  
كريحه، ولو وقع المحذور لمثّ سكران، ألا يعني هذا أنّه  
لا بدّ من صفحة جديدة؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت:  
- تعاهدنا على ألا ندوق الخمر وأنت راقد...  
- إني أعفيتكم من تعهدكم، وسأحوني عمّا فات!  
عليّ عبد الرحيم مبتسماً في إغراء:  
- لو كان في الإمكان أن نحفل هنا الليلة بشفائك!  
متوليّ عبد الصمد موجّهاً خطابه للجميع:  
- أدعوكم إلى التوبة والحجّ...  
الهمايوني محققاً:  
- كائنك عسكري في غرزة.

وبإشارة متوقّ عليها من الفار، تقاربت رؤوس  
محمد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس  
السيد، وراحوا يغنون بصوت خافت:  
أما إنت مش قدّ الخمرة بس تسكرليه.  
على نغمة:

أما إنت مش قدّ الهوى بس تعشّق ليه.  
على حين جعل الشيخ متوليّ عبد الصمد يتلو آيات  
من سورة التوبة، أما أحمد عبد الجود فقد أغرق في  
الضحك حتّى دمعت عيناه، ومرّ الوقت بلا حساب  
حتّى بدا في وجه الشيخ متوليّ عبد الصمد الجزع،  
فقال:

- ليكن في معلومكم أنّي آخر من سيخادر هذه  
الحجرة، لأنّي أريد أن أدخل إلى ابن عبد الجواد...

### - ٤٣ -

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين،  
فكان أوّل ما فعله أن صحب ياسين وكمال إلى زيارة

الحسين والصلاة في مسجده شكراً لله. وكان نبأ وفاة  
عليّ فهمي كامل فد نشر في الصحف، فتأمّله السيد  
أحمد طويلاً وخاطب ابنه - وهم يغادرون البيت -  
قائلاً: - سقط ميتاً وهو يخطب في جمع حافل، وها أنا  
أسعى على قدميّ بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية  
العين، فمنذا يستطيع أن يعلم الغيب؟! حقّاً إنّ  
الأعمار بيد الله، وإنّه لكلّ أجل كتاب...

كان عليه أن يصبر أيّاماً وأسابيع حتّى يستردّ وزنه،  
غير أنّه بدا رغم ذلك مستوفياً أي وقاره وجماله. وقد  
سار في المقدّمة وتبعه ياسين وكمال. وهو منظر لم يَر  
بهيته الكاملة منذ وفاة فهمي. وفي الطريق ما بين بين  
القصرين والجامع لمس الشابان المكانة التي يحظى بها  
أبوهما في الحيّ كلّ، فما من تاجر من أصحاب  
الدكاكين القائمة على جانبي الطريق إلّا وقد صافحه  
وتلقاه بين ذراعيه وهو يهنئه بالسلامة. واستجابت نفسا  
ياسين وكمال لهذه المودة الحارة المتبادلة، فملكهما  
السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم  
تفارقهما طوال الطريق، غير أنّ ياسين تساءل في براءة:  
لم لم يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما في الجلال والجمال  
والعيوب سواء؟! أما كمال فبالرغم من تأثّره الوقتيّ  
استدعى أفكاره الغابرة عن هذه المكانة المرموقة  
ليسرها بعين جديدة. كانت في الماضي تتمثّل لعينه  
الصغيرتين آية للجلال والعظمة أمّا الآن فإنّه يراها لا  
شيء أو لا شيء بالقياس إلى مثله العليا، ما هي إلّا  
المكانة التي يحظى بها رجل طبّب القلب لطيف المعشر  
جمّ المروءة، والعظمة شيء قد يناقض ذلك كلّ  
المنافضة، فهي دويّ يزلزل قلوب الخاملين ويطير النوم  
عن أعين الراقدين، وهي عسيّة بأن تستثير الكراهية لا  
الحبّ، والسخط لا الرضى، والعداوة لا المودة، إنّها  
الكشف والهدم والبناء، ولكن أليس من السعادة أن  
ينعم الإنسان بمثل هذا الحبّ والإجلال؟ بلى وأي  
ذلك أنّ عظمة العظماء تقاس أحياناً بمقدار تضحيتهم  
بالحبّ والطمأنينة في سبيل أهداف أسمى، على أيّ  
حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته. انظر إليه ما  
أجله! كذلك ياسين ما لطفه! وما أعجب منظره!

مكان فمقي يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه؟ وهذا الصوت الجهير الذي يترامى من أقصى الجامع يذكّر الناس بالآخرة فمقي كان للزمن آخر؟ وما أجل أن ترى إنساناً يغالب الأوهام ليغلبها ولكن مقي ينتهي القتال ويعلن المقاتل أنه سعيد؟ وإن الدنيا لتبدو لعيني غريبة فهل تراها خلقت أمس؟ وهذان الرجلان هما أبي وأخي فلم لا يكون جميع الناس آبائي وإخوتي؟ وهذا القلب الذي أحله بين جنبي كيف ارتضى أن يسمني العذاب ألواناً؟ وما أكثر أن أرطم كل ساعة بشخص لا أودّه فلماذا نزع الذي أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض؟

ولمّا فرغوا من صلاتهم، قال الأب:

- لنمكث قليلاً قبل أن نقوم للطواف.

وظلّوا متربّعين صامتين، حتّى عاد الأب يقول

بصوت رقيق:

- لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم!

فقال ياسين بتأثر:

- الفاتحة على روح فهمي...

وتليت الفاتحة، ثمّ سأل الأب ياسين فيما يشبه

الارتياح:

- ترى هل شغلّتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين؟

فقال ياسين الذي لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام

إلا مرّات معدودات:

- لا يمكن أن يمرّ أسبوع دون أن أزور سيدي!

فالتفت الأب نحو كمال، ورمقه بنظرة كأنّها تسأله

«وأنت؟»، فقال كمال وهو يجد استحياء:

- وأنا كذلك!

فقال الأب بخشوع:

- إنّه حبيبنا وشفيعنا إلى جدّه يوم لا ترجى فيه أمّ

ولا أب...

قام من المرض هذه المرّة - بعد أن ألقى عليه درساً

لا يُنسى - وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدمت

نيتّه على التوبة، وقد كان يؤمن دائماً بأنّ التوبة آتية

مهما طال بها الانتظار، فافتنع بأنّ تأجيلها بعد ذلك

ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم. وكان كلّما

بينهما كأنّ صورة تنكّرت في كرنفال، ازعج ما شاء لك الزعم أنّ الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يمحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب. وقد برئ أبي من الضغط فمقي أبرأ من الحبّ؟ والحبّ مرض غير أنّه كالسرطان لم تُكتشف جرثومته بعد. إنّ حسين شدّد يقول في رسالته الأخيرة: «إنّ باريس عاصمة الجمال والحبّ» فهل هي أيضاً عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز ييخل برسائله كأنّها يقطرها من دمه الغالي، أريد عالماً لا تُخدع فيه القلوب ولا تُخدع.

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعياق بصوت جمع بين رقّة التحية وحرارة الاستغاثّة «يا حسين» ثمّ حثّ خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفّته ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنّه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلّا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة في عقيدته؟! أمّا هذا الجامع فلم يعد في نظره إلّا رمزاً من رموز الحيلة التي ابتلي بها قلبه. كان في الماضي يقف تحت مثبنته وقلبه خفّاق ودمعه متحفّز وصدره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلّا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتلّ مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حقّ! بيد أنّه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتّى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأيوّة واحتراماً للناس أو اتّقاء لشُرّهم، وهو سلوك ينافي الكرامة والصدق، أريد عالماً يعيش فيه الإنسان حرّاً بلا خوف ولا إكراه!

وخلعوا أحذيتهم ودخلوا تباطاً، فأنجّه الأب إلى المحراب ودعا ابنه إلى الصلاة تحية للمسجد، ثمّ رفع يديه إلى رأسه مقيماً الصلاة فائتياً به. استغرق الأب في الصلاة كمعادته فأرخى جفونه وامتلأ، ونسي ياسين كلّ شيء إلّا أنّه بين يدي الله الغفور الرحيم. وجعل هو يحرك شفّته دون أن يقول شيئاً، وانحنى واستوى ثمّ ركع وسجد وكأنّه يؤدّي بعض الحركات الرياضية الفاترة، وقال لنفسه: إنّ أقدم الآثار المتخلّفة على وجه الأرض أو في باطنها معابد وحتّى اليوم لا يخلو منها

طافت به ذكريات اللهو تعزى بما ينتظره في حياته من مسرات بريئة، كالصدقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيما اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور القصار التي يحفظها.

ونفض فنهضا وراءه، ثم مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيب يذكو في المكان وغمجمة تلاوات همس في الأركان، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عيننا كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثم استقرت ملياً فوق الباب الخشبي الذي طالما لثمته شفته. فقارن بين عهد وعهد، وحال وحال، وذكر كيف انجلى سر هذا القبر عن أول مأساة في حياته، ثم كيف تنابت المآسي بعد ذلك غير مبقية على حب أو عقيدة أو صداقة، وكيف أنه رغم ذلك كله لا يزال واقفاً على قدميه، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتى المرارة انداحت على شفثيه فارتسمت ابتسامة، أما السعادة العمياء التي تضيء وجوه الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف، وكيف يشترى السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتوح العينين، مؤثراً القلق الحي على الطمأنينة الخاملة، وبقطة السهاد على راحة النوم.

#### - ٤٤ -

كانت أم حنفي مترتبة على الحصيرة بالصالة، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنية قبالتها. وكانت النافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطفا من جو أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة، غير أنه لم تكد تهفو نسمة واحدة فظل المصباح الكبير المتدلي من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أما الحجرات فبدت مظلمة صامتة. وكانت أم حنفي خافضة الرأس، شابكة ذراعها فوق صدرها، ترفع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنية لحظة ثم تغمضها، ولم تكن تتكلم ولكن شفثها لم تتوقفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

- إلى متى يبقى خالي كمال فوق السطح؟

فتمتمت أم حنفي:

- الجوّ حارّ هنا، لم يبقوا معه؟

- الدنيا ظلام، ونعيمة تخاف الحشرات.

وهنا قال أحمد في ضجر:

- إلى متى نبقي هنا؟ هذا هو الأسبوع الثاني، لآني

أعدّ الأيّام يوماً يوماً، وأريد أن أعود إلى بابا وماما. . .

أم حنفي برجاء:

- إن شاء الله تعودون جميعاً وأنتم على أسعد حال،

ادعوا الله فإنه يستجيب للصغار الأطهار. . .

فقال عبد المنعم:

- إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما

توصيننا. . .

فقالت المرأة:

- ادعوه في كلّ وقت، ادعوه الآن، هو وحده القادر

على كشف غمّتنا. . .

ولمّا فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس

ملياً في مثنوى الضريح، فاتجهوا إلى ركن وجلسوا

متقاربين، ولمح السيد بعض معارفه، فأقبلوا عليه

مصافحين مهثئين، وجالسه نفر منهم، وكان أكثرهم

يعرفون ياسين - إمّا عن طريق دكان والده وإمّا عن

طريق مدرسة النحاسين - أمّا كمال فلم يكده يعرفه أحد

منهم، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيد

قائلاً:

- ما لابتك هذا كالبرص؟

فبادره السيد قائلاً، وكأنه يردّ تحية بأحسن منها:

- أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتسم كمال، وكان أول مرّة يطلع

فيها على شخصيّة أبيه «السريّة» التي سمع عنها

الكثير. هكذا بدا الأب رجلاً لا تفوته النكتة حتى وهو

سي عبد المنعم وسي أحد ليلعبا معك، وخالك كمال يحبك قد عينيه، وستعودين قريباً إلى ماما وبابا وعثمان ومحمد... لا تبكي يا ستي الصغيرة وادعي لبابا وأخويك بالشفاء...

أحد متأقفاً:

- أسبوعان عددتها على أصابعي، ثم إن شققتنا في الدور الثالث والمرض في الدور الثاني، لم لا نعود إلى شققتنا ونأخذ معنا نعيمة؟  
- أم حنفي كالمحدرة وهي تضع أصبعها على شفيتها:

- سيغضب خالك كمال إذا سمع بما قلت، إنه يشتري لكم الشكولاتة واللبن، فكيف تقول إنك لا ترغب في البقاء معه؟ لم تعودوا صغاراً، أنت يا سي عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر، وكذلك أنت يا نعيمة!

فقال أحمد متراجعاً بعض الشيء:

- دعونا على الأقل نخرج لنلعب في الطريق!  
فأمن عبد المنعم على الاقتراح قائلاً:  
- كلام معقول يا أم حنفي، لم لا نخرج إلى الطريق لنلعب؟

فقالت أم حنفي بحزم:

- عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة، وعندكم السطح أيضاً، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سي كمال وهو صغير لا يلعب إلا في البيت، وعندما أفرغ من شغلي أقص عليكم الحكايات... ألا تحبون ذلك؟

أحمد محتجاً:

- أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت!  
نعيمة وهي تحقّق عينها:  
- خالتي خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما لنغني معاً؟

أم حنفي باستعطاف:

- طالما رجوتك أن تغني لنا وأنت ترفضين!  
- لا أغني هنا! لا أغني وعثمان ومحمد مرضى...  
المرأة وهي تنهض:

وبسط عبد المنعم راحتيه، ثم نظر إلى أحمد داعياً إياه إلى مشاركته، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه، ثم قالاً معاً كما تعودا أن يقولاً في الأيام الأخيرة:

- يا رب اشفِ عمنا خليل، وعثمان ومحمد ابني عمنا، حتى نعود إلى بيتنا مجبورين الخاطر...

وبدا التأثر في وجه نعيمة فأرخت أساريرها في حزن واغرورت عينها الزرقاوان بالدموع، وهتفت:

- بابا وعثمان ومحمد كيف حالهم؟ وماما أريد أن أراها، أريد أن أراهم جميعاً...

فتحوّل عبد المنعم إليها قائلاً بصوت المواسي:

- لا تبكي يا نعيمة. قلت لك كثيراً لا تبكي، عمي بخير، عثمان بخير، محمد بخير، وسنعود قريباً إلى بيتنا، جدتي تؤكد هذا، وخالي كمال أكدّه أيضاً منذ قليل...

فقلت نعيمة وهي تجهش في البكاء:

- كلّ يوم أسمع هذا، ولكنهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمد، أريد ماما...

قال أحمد بتذمر:

- أنا أريد بابا وماما أيضاً...

عبد المنعم:

- سنعود عندما يشفون.

هتفت نعيمة بجزع:

- لنعد الآن، أريد أن أرجع، لم يبعدونا عنهم؟

فأجابها عبد المنعم:

- إنهم يخافون أن نشم المرض!

قالت نعيمة بعناد:

- ماما هناك، وخالتي خديجة هناك، وعمي إبراهيم هناك، وجدتي هناك، فلماذا لا يشمون المرض؟

- لأنهم كبار!...

- إذا كان الكبار لا يشمون المرض، فلماذا مرض بابا؟...

تنهدت أم حنفي، وقالت برقة:

- هل ضايقت شيء؟... هذا بيتك أيضاً، وما هو

- ساجّهز لكم العشاء ثمّ ننام، جبن وبطيخ وشام، هه؟!  
كان كمال جالساً على كرسيّ في جانب السطح المكشوف فيما يلي سقيفة الياسمين واللبلاب، لا يكاد يُرى في الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض، وكان ماذاً ساقيه في استرخاء، مصعداً رأسه إلى الأفق المرصع بالنجوم، مستغرقاً في التفكير، يكتنفه صمت لا يكدره شيء إلا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبث قوفاة عن حجرة الدجاج، وكان في وجهه أثر نما طراً على الأسرة في الأسبوعين الأخيرين، فقد اختلّ نظام البيت المعهود واختفت منه أمّه إلا في أوقات نادرة، وتشبّع جوّه بتدسّر المساجين الصغار الثلاثة الذين يهيمون في رحابته متسائلين عن «بابا» و«ماما» حتّى أعيته الحيل في ملاطفتهم وملاعبتهم.  
أما في السكّريّة فإنّ عائشة لم تعد تغني وتضحك كما قيل كثيراً عنها، ولكنّها تقضي الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزّاء، زوجها وطفليها، وكم تمّنى صغيراً لو تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن تضطرّ إلى العودة مهيمضة الجناح كسيرة القلب، وأما أمّه فهمس في أذنه «لا تزر السكّريّة، وإذا زرته فلا تمكث طويلاً» وإنّه ليزورها من حين لآخر، ثمّ يغادرها تفوح من راحتيه رائحة المطهّرات الغربية ويستحوذ القلق على فؤاده، وأعجب شيء أنّ جرائيم التفود - كسائر الجرائيم - آية في الضالّة، لا تراها العين، ولكنّها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن تتحكّم في مصير العباد، وأن تشبّت إذا أرادت الأسرة. محمّد المسكين كان أول المرضى، ثمّ تبعه عثمان، وأخيراً - وعلى غير توقّع - وقع الأب، والليّلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأنّ أمّه ستبيت في السكّريّة، ثمّ قالت - عن أمّه وعن نفسها - إنّه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق! إذن لم تبيت الأمّ في السكّريّة؟ ولم يقبض صدره؟ على أنّه - رغم هذا كلّه - من الممكن أن يصفو الجوّ في غمضة عين، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان، ويتألّق وجه عائشة ويضيء، وهل نسي كيف ابتلي بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية

أشهر؟ وما هو أبوه يسعى في كامل صحّته وعافيته، وقد استردّت عضلاته قوّتها، وعيناه بريقهما الجذاب، ثمّ رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغنّاء، فمنذا يعترض على أنّه يمكن أن يتغيّر كلّ شيء في غمضة عين؟!  
- أنت هنا وحدك؟  
عرف كمال الصوت، فقام متلفّظاً صوب باب السطح، ومدّ يده للقدام وهو يقول:  
- كيف حالك يا أخي؟ تفضّل...  
وقدّم له مقعداً، فتنفّس ياسين تنفّساً عميقاً ليعيد إلى رثيته توازنها الذي اضطرب بصعود السكّرم، فامتلاً صدره بشذا الياسمين، ثمّ جلس وهو يقول:  
- الأولاد ناموا، وأمّ حنفي نامت كذلك...  
فسأله كمال وهو يتخذ مجلسه مرّة أخرى:  
- مساكين، لا يستريحون ولا يريحون، كم الساعة الآن؟  
- في الحادية عشرة، الجوّ هنا اللطف من الطريق بكثير...  
- وأين كنت؟  
- متردّداً ما بين قصر الشوق والسكّريّة، وعلى فكرة والدتك لن تعود الليلة...  
- سويدان أبلغتني ذلك، ماذا جدّ؟ كنت من القلق في نهاية...  
ياسين وهو يتنهّد:  
- كلّنا في القلق سواء، وربّنا عنده اللطف، والدك هناك أيضاً...  
- في هذه الساعة؟  
- تركته في البيت... (ثمّ مستطردّاً بعد قليل)...  
كنت في السكّريّة حتّى الثامنة مساءً، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرني بأنّ زوجي قد جاءها الطلق، فذهبت من فوري إلى أمّ عليّ الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجي في رعاية بعض الجارات، ومكثت هناك ساعة غير أنّي لم أطق سماع الأنين والصراخ طويلاً، فعدت إلى السكّريّة مرّة أخرى فوجدت والدك جالساً مع إبراهيم شوكت...

تلاقيه بالابتسام إذا تصدّيت له دواءًا بالتأمل الصادق  
والفهم الصحيح والتجرّد الأصيل، ذلك هو الانتصار  
على الحياة والموت معًا، ولكن أين من عائشة ذلك  
كلّهُ؟!

- رأسي يدور يا أخي!  
فقال ياسين بلهجة الحكيم، ولأوّل مرّة فيها سمع  
كمال:

- هذه هي الدنيا، ويجب أن تعرفها على  
حقيقتها...

ثمّ قام فجأة وهو يقول:

- يجب أن أذهب الآن...

فقال كمال كالمستغيث:

- ابقى معي بعض الوقت...

ولكنّه قال كالمعتذر.

- الساعة الحادية عشرة، ويجب أن أذهب إلى قصر  
الشوق لأطمئنّ على زُنوبة، ثمّ أعود إلى السكّرية  
لأكون إلى جانبهم، لن أنام من الليل فيما يبدو ساعة  
واحدة، والله أعلم بما ينتظرنا غدًا...

فقام كمال وهو يقول في جزع:

- إنك تتكلّم كما لو كان كلّ شيء قد انتهى،

سأذهب من فوري إلى السكّرية...

- بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتّى مطلع النهار،  
وحاول أن تنام ولّا نندمت على مصارحتي إيّاك  
بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب  
البيت، وعندما مرّا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال،  
قال كمال بأسف:

- يا لهم من مساكين هؤلاء الأطفال، وشدّ ما بكّت  
نعيمه في الأيام الأخيرة كأنّ قلبها حدّس ما  
هنالك...

فقال ياسين باستهانة:

- الأطفال سرعان ما ينسون، ادعُ بالرحمة

للكبار...

ولمّا خرجا إلى الفناء، ترمى إليهما من الطريق

- ماذا يعني هذا، خبّرني بما عندك...

ياسين بصوت منخفض:

- الحال خطيرة جدًّا...

- خطيرة؟!

- نعم، جئت إلى هنا لأريح أعصابي قليلاً، ألم تجد  
زُنوبة ليلة تلد فيها إلّا هذه الليلة؟ لشدّ ما تعبت بين  
قصر الشوق والسكّرية، وبين الداية والدكتور، والحال  
خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت في وجه ابنها  
وهتفت «أمان يا رب... كان يجب أن تأخذني قبله!»  
فانزعجت أمك انزعاجاً شديداً، ولكنّها لم تحفل بها،  
وقالت بصوت مبجوح: «هذه صورة آل شوكت إذا  
حضرهم الموت، رأيت أباه وعمّه وجده من قبل!»، لم  
يبقَ من خليل إلّا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا  
قوة إلّا بالله...

ازدرد كمال ريقه، ثمّ قال:

- عسى أن تحبّ الظنون!

- عسى! كمال... لست صغيراً، ينبغي أن تعلم  
بما أعلم أنا على الأقلّ، الطبيب يقول إنّ الأمر جدّ  
خطيراً...

- عن الكلّ؟!

- الكلّ!... خليل وعثمان وعمّاد، ربّاه! ما أتعس  
حظّك يا عائشة!...

ثمّلت لعينيه في الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما  
كانت تبدو له في الماضي. السعداء الضاحكون الذين  
مارسوا الحياة كأنّها لهُ خالص، متى تضحك عائشة  
من قلبها مرّة أخرى؟ كما اختطف فهمي، الإنجليز أو  
التيفود سيّان، أو غير ذلك من الأسباب، الإيمان بالله  
هو الذي جعل من الموت قضاءً وحكمة يبعثان على  
الحيرة، وهو ليس في الحقيقة إلّا نوعاً من العبث.

- أفضح ما سمعت في حياتي!...

- هو ذلك، ولكن ما الحيلة؟ وماذا جنت عائشة

حتّى تستحقّ هذا كلّهُ؟! اللهمّ عفوك ورحمتك...

هل ثمة حكمة رقيقة يمكن أن تبرّر القتل بالجملة؟  
إنّ الموت يتبع قوانين «النكّة» بدقّة، ولكن كيف لنا  
أن نضحك ونحن هدف النكّة؟ ولعلّك تستطيع أن

فتبعه صامتاً ولماً يفق من ذهوله، لو في غير هذا  
الظرف الحزين ما درى كيف يتحمل النباء، ولكنَّ  
المصائب إذا تلاقى تحدى بعضها بعضاً، هكذا ماتت  
جذته في أعقاب مصرع فهمي فلم تجد لها باكياً - إذن  
مات سعد. النفي والشورة والحريّة والدستور مات  
صاحبها، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه  
وتربيته!

ووقف ياسين مرّة أخرى ليفتح الباب، ثمّ مدّ يده  
له فتصافحا، وعند ذلك تذكر كمال أمراً طال نسيانه  
له، فقال لأخيه وهو يجد من نسيانه حياء:  
- أدعو الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة...  
فقال ياسين وهو يهيم بالذهاب:  
- إن شاء الله، وأرجو أن تنام نوماً هادئاً...

صوت يصيح بقوّة «ملحق المقطّم» فتمتم كمال  
متسائلاً:

- ملحق المقطّم؟!

فقال ياسين بلهجة أسيفة:

- أوه إنّي أعرف عمّا ينادي فقد سمعت الناس  
يتناقضونه وأنا قادم إليك... سعد زغلول مات...  
هتف كمال من الأعماق:

- سعد!؟

فتوقّف ياسين عن السير، والتفت نحوه قائلاً:

- هوّن عليك وحسبنا ما نحن فيه!...

فحملق كمال في الظلام دون أن ينطق أو يأتي  
حراكاً، كأنّما قد ذهل عن خليل وعثمان ومحمّد  
وعائشة، عن كلّ شيء إلا أنّ سعد زغلول قد مات،  
وواصل ياسين السير وهو يقول:  
- مات مستوفياً حظّه من العمر والعظمة فإذا تريد  
له أكثر من ذلك! ليرحمه الله...



السُّكْرِيَّة



من عمرها، مجللة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة في شبابها أو أفتن ملاحه، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عيناها نظرة ودیعة حاملة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنها لا تؤد أن تفارقها لحظة. وقالت أم حنفي وهي تفرك يديها فوق المجرمة:

- سينزل البناون عن العمارة في هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل...

فقال نعيمة في نغمة ساخرة:

- عمارة عم بيومي الشرباتي...

ارتفعت عينا عائشة عن المجرمة إلى وجه أم حنفي لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة، قد علموا في حينه بهدم البيت الذي كان يوما بيت السيد محمد رضوان ثم إعادة بنائه عمارة مكونة من أربعة أدوار باسم عم بيومي الشرباتي، تلك الذكريات القديمة، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم، وأم مريم وبيومي الشرباتي الذي استولى على البيت بالوراثة والشراء، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال! وعادت أم حنفي تقول:

- أجل ما فيها يا ستي دكان عم بيومي الجديدة، ثريات ودندمة وحلوى، كلها مرايا وكهرباء، والراديو ليل نهار، يا عيني على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولي اللبان وأبو سريع صاحب المقلي وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعمارته...

فقال نعيمة وهي تشبك الشال حول منكبيها:

- سبحان ربك الوهاب...

فعدت نعيمة تقول وهي تحيط عنق أمها بذراعيها:

تقاربت الرؤوس حول المجرمة وانبسطلت فوق وهجها الأيدي، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان، ويذا عائشة المتحجرتان، ويذا أم حنفي اللتان بدتا كغطاء السلحفاسة، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدي نعيمة. وكان يرد يناير يكاد يتجمد ثلجاً في أركان الصالة، تلك الصالة التي بقيت على حالها القديم بمحصرها الملونة وكنباتها الموزعة على الأركان، إلا أن الفانوس القديم بمصباحه الغازي قد اختفى وتدلّى مكانه من السقف مصباح كهربائي، كذلك تغير المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأول. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيراً للأب الذي لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالي. ثمّة تغير أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جفّ عود أمينة واشتعل رأسها شيئاً، ومع أنها لم تكذب تبلغ الستين إلا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكن تغير أمينة كان لا شيء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان ممّا يدعو إلى السخرية أو الرثاء أن شعرها لم يزل مذهّباً وعينيها زرقاوان، ولكن هذه النظرة الخامدة لا توحى بحياة، وهذه البشرة الشاحبة بأي مرض تنضح؟ وهذا الوجه الذي نتأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة في الرابعة والثلاثين؟ وأما أم حنفي فبدا أن الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها، لم تكذب تمس لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغرها، غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت في حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت في هذه المجموعة كالوردة المغروسة في حوش مقبرة، استوت شابة جميلة في السادسة عشرة

- سدّ جدار العمارة سطحننا من هذه الناحية، وإذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نغضي الوقت فوق السطح؟

لم يكن في وسع أمينة أن تتجاهل سؤالاً توجهه حفيدتها الجميلة مراعاة لحاظر عائشة قبل كلّ شيء فقالت:

- لا يهّمك السكان، امرحي كيف شئت...

واستقرت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة، إذ إنّها باتت من شدّة الخوف عليها وكأنّما تخافها، ولكنّ عائشة كانت مشغولة في تلك اللحظة بالتطلّع إلى مرآة فوق نضد بين حجرة السيّد وحجرتها، لم تزايلها عادة التطلّع إلى المرآة وإن لم يعد لها معنى، وعبور الزمن لم يعد يروّعها منظر وجهها الضحل، وكلّما سأله صوت باطني «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «أين محمّد وعثمان و خليل؟»، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينبض قلبها، وسرعان ما يسري الانقباض إلى أمّ حنفي التي اندمجت في الأسرة حتّى ورثت عنها هومها. ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهي تقول:

- ميعاد إذاعة الأسطوانات يا ماما...

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفساً عميقاً، وجعلت أمينة ترنو إلى الدخان وهو ينبسط سحابة خفيفة فوق المحجرة، وانبعث من الراديو صوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل يا ريت تعودتي». وعادت نعيمة إلى مجلسها وهي تحبك الروب حول جسمها. كانت - كماها في الزمان الخالي - تهوى الغناء. وهبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن. لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينيّ الذي غلب على كافّة مشاعرها، فهي تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتحلم كثيراً بعالم الغيب، وترحب بغبطة لا حدّ لها بزيارة الحسين إذا دعته جدّتها إليها، ولكنّها في الوقت نفسه لم تقلع عن حبّ الغناء، فهي تغني كلّما خلت إلى نفسها في حجرتها أو في الحفام. وكانت عائشة ترضى عن كلّ ما

يصدر عن وحيدتها، الأمل المضيء في أفقها المظلم، تعجب بتديّنها كما تعجب بصوتها، وحقّ عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذي بدا خارقاً للحدّ - فهي تشجّعه وتحمّيه ولا تطيق أن تسمع عنه آية ملاحظة، بل هي تضيق بالنقد عامّة وإن هانّ وحسن القصد فيه. من ذلك أنّه لم يكن لها من عمل في البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعته أمّها إلى المشاركة في عمل - لا حاجتها إلى مساعدتها ولكن لتخلّق لها ما تتسلّى به عن أفكارها - امتعضت وقالت جملتها المشهورة «أف... دعيني وشأني». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمّد للعمل يداً، كأنّما كانت تخاف عليها أقلّ حركة، ولو أمكن أن تصلي نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة. وكم من مرّة حدّثتها أمّها في هذا الشأن قائلة إنّ نعيمة أصبحت «عروساً» وينبغي لها أن تلّم بواجبات «ست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينمّ عن الضجر «ألا ترينها كالحبال؟. إنّ ابنتي لن تتحمّل أيّ جهد فدعيها وشأنها، لم يعد لي من أمل في الدنيا سواها». ولم تكن أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتقطّع حزناً عليها، وتنظر إليها فتجدها مثلاً مجسّماً لخيبة الأمل، وترى وجهها التعيس الذي فقد كلّ معنى للحياة فتذهب نفسها حشرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك اعتادت أن تتحمّل ما قد ينمّ عنها من جفاء في الردّ أو قسوة في الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغني «يا عشرة الماضي الجميل». وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصغي إليه. هذا الغناء الذي كانت تحبّه، ولا زالت تحبّه، فالحزن واليأس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلّها قوّياه في نفسها بما يردّده عادة من معاني الشجن والحسرات، ولو أنّ شيئاً في الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضي الجميل، بل إنّها لتساءل أحياناً أكان هذا الماضي حقيقة لا حلماً ولا خيالاً؟ إذن أين البيت العامر؟ وأين الزوج الكريم؟ وأين عثمان وأين محمّد؟ وهل لا يفصلها عن ذلك الماضي إلّا ثمانية أعوام؟. ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغاني إلّا في النادر. إنّ فضيلة الراديو الأولى في

اليوم كالصبيان... فقالت أم حنفي باحتقار:  
- يتعلّمن لأنهنّ لا يجدن العريس، أمّا الجميلة  
مثلك...

فهزّت أمينة رأسها موافقة ثمّ قالت:  
- وأنت متعلّمة يا ستّ البنات. حائزة على  
الابتدائية، ماذا تريدن أكثر من ذلك؟، ولست في  
حاجة إلى الوظيفة، فلندعُ الله أن يقوّيك وأن يكسو  
جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.  
فقالت عائشة بحدة:

- أريد لها العافية لا السانة، السانة من العيوب  
خاصّة في البنات، أمّها كانت زين أيامها ولم تكن  
سمينة.

فابتسمت أمينة وقالت برقّة:  
- حقاً أمك يا نعيمة كانت زين أيامها...

فقالت عائشة وهي تتنهد:

- ثمّ صارت عبدة الأيام!

فغمغمت أم حنفي:

- ربّنا يفرّحك بنعيمة...

فقالت أمينة وهي تربّت على ظهر نعيمة بحنان:

- آمين يا ربّ العالمين...

وعُدنّ إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد  
الذي كان يغني «أحبّ أشوفك كلّ يوم»، وإذا بباب  
البيت يُفتح ثمّ يُغلق فقالت أم حنفي «سيدي الكبير»  
وقامت مسرعة إلى الخارج لتضيء مصباح السّلّم. وما  
لبش أن سمعن دقّات عصاه المعهودة، ثمّ تراءى عند  
مدخل الصّالة فوقفن جميعاً في أدب. ووقف قليلاً ينظر  
إليهنّ خلال أنفاسه المبهورة ثمّ قال: «مساء الخير»  
فردّدن في صوت واحد: «يسعد مساك»، وسبقت أمينة  
إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها في حالة  
من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كي يستردّ  
أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء.  
ظلّت أناقته كما كانت في الماضي، فالجبّة الجوخ  
والقفطان الشاهي والكوفيّة الحريري كالعهد القديم، أمّا  
هذا الرأس المرصّع بالبياض، والشارب الفضيّ،  
والجسم التحيل الذي خلا من سگانه، فكانت جميعاً -

نظرها أنّه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أمّا  
الأغاني فكانت تجزع عند تلقّي معانيها الحزينة وتشفق  
على ابتتها من سماعها حتّى قالت مرّة لأمّ حنفي «أليس  
هذا هو النواح؟». كانت لا تُني عن التفكير في عائشة  
حتّى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هي من أعراض  
الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلّا في زيارة  
الحسين وغيره من الأولياء، وشكرًا للسيد الذي لم يعد  
يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحبّ. لم  
تعد - هي أيضًا - أمينة العهد الماضي. غيّر لها كثيرًا  
الحزن والتوّعك. وقد فقدت مع الزمان مشابرتها  
العجيبة على العمل وطاقتها الحارقة في التنسيق  
والتنظيف والتدبير، ففيها عدا شئون السيد وكمال لم  
تكن تعنى بشيء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأمّ  
حنفي، قانعة بالإشراف وحده، وحتّى الإشراف كانت  
تتهاون فيه. وكانت ثقتها في أم حنفي لا حدّ لها،  
فليست هي بالغريبة عن الدار وأهلها، ثمّ إنّها شريكة  
العمر ورفيقة السراء والضراء، وقد اندمجت في الأسرة  
حتّى صارت قطعة منها، وتمثّلت بكلّ قلبها مسرّاتها  
وأحزانها. وساد الصمت حيناً كأنما استأثر الغناء  
بوعيهن، حتّى قالت نعيمة:

- لمحت في الطريق اليوم صديقتي سلمى، كانت  
معي في الابتدائية، وستقدّم العام المقبل في امتحان  
البكالوريا...

فقالت عائشة بامتناع:

- لو سمع جدّك لك بالاستمرار في الدراسة لتفوّقت  
عليها، ولكنّه لم يسمح!  
وفطنت أمينة لما أوحى به جملة «ولكنّه لم يسمح»  
من الاحتجاج فقالت:

- جدّها له آراؤه التي لا ينزل عنها، ترى أكنت  
ترحّين باستمرارها في التعليم رغم ما في ذلك من  
تعب وهي العريضة الرقيقة التي لا تتحمّل  
التعب!...

فهزّت عائشة رأسها دون أن تنبس، أمّا نعيمة  
فقالت بحسرة:

- وددت لو أنمت تعليمي، كلّ البنات يتعلّمن

من المأكّل والمشرب والهنا؟، وأين مسيره في الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق؟ وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشئى المسرات؟، اليوم يُقضى عليه بأن يعود من سهرته في التاسعة كي ينام في العاشرة والأكل والشرب والمشي بحساب دقيق مسجّل في دفتر الطبيب، وهكذا البيت الذي غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه، وعائشة التعيسة شوكة في جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيئات أن يطمئن على حالها، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم؟ وما يعاينه من قلق على صحته هو المهذّدة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبائه، وهذه الأفكار التي تحوم حوله كالذباب فيستعيد بالله من شرّها، أجل ينبغي أن يسمع الأغاني القديمة ولو لينام على الأنغام...

- اتركي الراديو مفتوحاً حتى لو نمت...

فهرّت رأسها بالإيجاب باسمه، فعاد يقول متنهّداً:

- ما أشقّ السّلم عليّ!

- استرح يا سيّدي عند كلّ بسطة...

- لكنّ جوّ السّلم شديد الرطوبة، ما ألعن هذا

الشتاء... «ثمّ متسائلاً»... أراهن على أنّك زرت

الحسين كالعادة رغم هذا البرد...

فقال في حياء وارتيابك:

- في سبيل زيارته يهون كلّ صعب يا سيّدي...

- الحقّ عليّ وحدي!...

فقال في استرضاء:

- إنّني أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصّحة

والعافية.

ما أمسّ حاجته إلى صادق الدعاء، فكلّ طبّيب يدبر عنه، حتّى الدشّ البارد الذي اعتاد أن يعش به جسده كلّ صباح حُرّم عليه لخطورته - فيما قيل - على شرايينه، وإذا صار كلّ طبّيب ضاراً فليرحمنا الله. ومضى وقت قصير ثمّ ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينها متمتمة «كمال». ولم تكد تمرّ دقائق حتّى دخل كمال الحجرة في معطفه

كعودته المبحّرة - من طوارئ الزمن الجديد. ومن طوارئ هذا الزمن أيضاً سلطانيّة اللبن الزباديّ والبرتقالة اللتان أعدّتا لعشائه، فلا خمر ولا مرّة ولا لحوم ولا بيض، وإن بقي بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أنّ رغبته في الحياة لم تفتّر ولم ته. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمتعاد، ثمّ ارتدى جلبابه الصوفيّ وتلفّع بالعباءة ولبس طاقيته ثمّ ترتّب على الكنية. وقدّمت له صينيّة العشاء فتناوله دون حماس، ثمّ قدّمت له أمينة قدحاً مملوءاً حتّى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب في القدح ستّ نقط، ثمّ تجرّعه بوجه مقطب متقرّز، ثمّ تمتم «الحمد لله ربّ العالمين». طالما قال له الطبيب إنّ الدواء مؤقّت أمّا «الرجيم» فدائمه، وطالما حدّره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفحل، والقلب قد تأثّر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرّة خرج عن حدّه حتّى تداركه الجزاء، وأخيراً أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلّا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكنّ قلبه لم يتخلّ عن الأمل في أن يستردّ يوماً - بقدرة قادر - صحته وأن ينعم بحياة طبيّة هادئة، وإن تكن حياة الماضي قد ولّت إلى الأبد. وامتدّت أذنه إلى الغناء المترامي من الراديو في ارتياح، وكانت أمينة تحدّثه من مجلسها فوق الشلّة عن برد اليوم والمطر الذي انهمر في الضحى فلم يلتقِ إليها بالأ وقال في سرور:

- قيل لي أنّه ستُذاع الليلة بعض الأغاني القديمة...

فابتسمت المرأة في ترحيب إذ كانت تحبّ هذا اللون من الغناء، ربّما متابعة لحبّ السيّد له أكثر من أيّ شيء آخر، ولبث السرور متألقاً في عينيّ الرجل لحظات حتّى أدركه فتور. لم يعد بمستطيع أن ينعم بشعور سائر دون تحفّظ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتبطلاً بالواقع، الواقع يحدق به من جميع النواحي، أمّا الماضي فحلّم، فيمّ السرور وقد ولّت إلى الأبد أيام الأناجس والطرب والعافية؟. وانطوى اللذيد

فلم ينبس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرفض المؤدب، فعاد الرجل يقول متأسفًا:

- تأبى هذا كي تصيح وتك في قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟  
وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة:

- ينبغي أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجّهة الخطاب إلى السيّد وهي تبسم في خيلاء) إنه كجده لا يعدل بحب العلم شيئًا...  
فقال السيّد متأفّفًا:

- رجعنا إلى جدّه!... يعني كان الإمام محمّد عبده؟  
ومع أنّها لم تعرف شيئًا عن الإمام إلا أنّها قالت بحماس:

- لم لا يا سيّدي؟! كان كلّ الجيران يقصدونه في شئون دينهم ودنياهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيّد فقال ضاحكًا:

- مثله الآن كلّ عشرة بقرش!  
واحتجّ وجه المرأة دون لسانها. وابتسم كمال بعطف وارتباك، واستأذن في الانصراف ثم غادر الحجرة. وفي الصالة اعترضت نعيمة طريقه لتريه فستانها الجديد، وذهبت لتجيء به، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر، كان - كبقية أهل البيت - يجامل عائشة في شخص نعيمة، ولكنّه إلى هذا كان معجبًا بالفتاة الحسنة إعجابه بأنّها قديمًا. وجاءت نعيمة بالفستان فبسّطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدي الإعجاب، وكان يتأمل صاحبة الفستان بعطف وحبّ. مأخوذًا بجهاها البديع الهادئ الذي اكتسى من صفاتها ورقّتها نورانيّة ذات بهاء. ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن، إنّ مصاحبة أسرة حتّى شيخوختها لجمًا يُحزن. ليس ممّا يهون أن يرى أباه في وهنه بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمّه وتواربها وراء الكبر، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها، هذا الجوّ المشحون بنذر التعاسة والنهاية. ورفي في السّلم إلى الدور الأعلى - شقّته كما يسمّيه - حيث يعيش منفردًا بين حجرة نومه ومكتبته المطلّتين على بين القصرين. وخلع ملابسه ومضى

الأسود الذي نمّ على نحافته وطوله، يتطلّع إلى أبيه خلال نظّارته الذهبية، وقد أضفى عليه شاربهِ المربّع الغزير الأسود وقارًا ورجولة. انحنى على يد والده مسلّمًا فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة بأسبًا:

- أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحبّ هذه اللهجة الودّية اللطيفة التي لم يحظّ بها إلا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنية:

- كنت في القهوة مع الأصحاب.

ترى أيّ نوع من الأصحاب؟ بيد أنّه يبدو جادًا رزينًا وقورًا أكثر من ستّه، ثمّ إنّ أكثر لباييه تقضى في مكتبته، شتان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكلّ آفته، وعاد يسأله بأسبًا:

- أشهدت اليوم المؤتمر الوفديّ؟

- نعم، وسمعنا خطبة مصطفى النحاس، كان يومًا مشهودًا.

- قيل لنا أنّه كان حدثًا عظيمًا ولكنّي لم أستطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصّحة تحتلّ التعب...

فداخل كمال العطف وتمتم:

- ربّنا يقوّيك...

- ألم تقع حوادث؟

- كلّ مرّة اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عاداته بالمراقبة...

فهزّ الرجل رأسه في ارتياح، ثمّ قال في لهجة ذات معنى:

- نعود لموضوعنا القديم، ألا زلت عند رأيك

الخاطي عن الدروس الخصوصية؟!

لم يزل يشعر بالارتباك والخرج كلّما وجد نفسه مضطرًا إلى إعلان مخالفته لرأي والده، فقال برقة:

- لقد انتهينا من هذا الموضوع!

- في كلّ يوم يطلب إليّ أصدقاء أن تعطي دروسًا خصوصيةً لأبنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إنّ الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرّسين، والذين يطلبونك من أعيان الحيّ...

مرتدياً جلبابه متلفعاً بالروب إلى المكتبة، وكانت مكتونة من مكتب كبير فيها يلى المشربة وصقّين من خزانات الكتب على جانبيها. وكان يريد أن يقرأ فصلاً على الأقل في كتاب «منبع الدين والأخلاق» لبرجسون، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهري لمجلة «الفكر» الذي اتفق أن كان عن البراجمزم. هذه السويغات الموهوبة للفلسفة، التي تمتد حتى منتصف الليل هي أسعد أوقات يومه، وهي التي يشعر فيها - على حدّ تعبيره - بأنه إنسان، أمّا بقية اليوم الذي ينقضي في عمله كمدرّس بمدرسة السلحدار الابتدائية أو في إشباع شئى مطالب الحياة الضرورية، فمداره الحيوان الكامن فيه، المستهدف أبداً تأمين ذاته وتحقيق شهوراته، ولم يكن يحبّ عمله الرسمي ولا يحترمه، ولكنّه لم يعلن سخطه، خاصة في بيته، أن يشمت به الشامتون، ومع ذلك فقد كان مدرّساً ممتازاً حائزاً للتقدير، وكان الناظر يعهد إليه ببعض النشاط المدرسي، حتى رمى نفسه متفكّهاً بالعبودية، ليس هو العبد الذي يتقن العمل الذي لا يحبّه ١٩. والحق أن ولعه بالتفوق الذي اعتاده منذ الصغر هو الذي دفعه إلى الاجتهاد والامتناز دفعا لا هواده فيه. وقد صمّم من بادئ الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرّسين فكان له ما أراد، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معاً، رغم رأسه وأنفه العظيمين... ولا شك أنه كان لها - رأسه وأنفه - أو كان لإحساسه الأليم بها الفضل الأول في هذا التصميم القوي الذي خلق منه هذه الشخصية المهابة. كان يعلم بأن رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستلّ عزمه ليردّ عنها وعنه كيد العابثين. أجل لم ينجأ أحياناً من غمز وتعرّض في أثناء الدرس أو في ملعب المدرسة، فكان يلقي المهجوم بحزم شديد، ثم يلفّطه بعطفه المطبوع، إلى ما أثر عنه من مقدرة في الشرح والتفهم، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمسّ القومية أو ذكريات الثورة، كلّ أولئك جعله يستميل إليه «الرأي العام» بين التلاميذ، وكان ذلك إلى حزمه المتوثّب عند الضرورة - كفيلاً بالقضاء - على الفتن في مهدها! ولشّد ما آله أول الأمر الغمز

الجراح، ولشّد ما استثار المسي من أحزانه، بيد أنه سرّ آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التي بات يحتلّها في نفوس الصغار الذين كانوا يتطلعون إليه بإعجاب وحب وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلق بمقالاته الشهرية في مجلة «الفكر»، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرّسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحياناً العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومسئولية «المدرّس» ولكن من حسن الحظ أن أحداً من المسئولين لم يكن بين قراء «الفكر»، ثم تبين له بعد ذلك أن المجلة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدر نصفها إلى البلاد العربية، فشجّع ذلك على الكتابة إليها وهو آمن على نفسه ووظيفته. وفي هذه السويغات القلائل ينقلب «مدرّس اللغة الإنجليزية بالسلحدار الابتدائية» سائحاً حراً يجوب أجواء لا تُحدّ من الفكر، فيقرأ ويدوّن الملاحظات التي يجمعها بعد ذلك في مقالاته الشهرية، تحته على جهاده الرغبة في المعرفة وحبّ الحقيقة وروح المغامرة النظرية والخنين إلى العزاء والتخفيف من جوّ الكآبة الذي يغشاها والشعور بالوحدة الذي يستكنّ في أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا، أو يتعرّى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهاور، أو يهون من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز في تفسير الشرّ، أو يروي قلبه المتعطّش إلى الحبّ من شاعرية برجسون، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد في تقليد مخالب الحيرة التي تبلغ حدّ العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمي دلالاً وتمنّعا ولعباً بالعقول وإثارة للشكّ والغيرة مع إغراء عنيف بالتمكّن والوصال، وهي كالمعشوق الآدمي عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلّبات، ولا تخلو في كثير من الأحيان من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأغياه الجهد يقول متعزّياً «قد أكون معذباً حقاً ولكنني حيّ، إنسان حيّ، ولن تكون حياة الإنسان الخليفة بهذا الاسم بلا ثمن!».



فخفض الحمزاوي عينيه وقال:  
- موقفي لا أحسد عليه، ولا أدري كيف  
أتكلم...

فقال السيد مشجعاً:  
- ولكني عاشرتك أكثر مما عاشرت أهلي فتستطيع أن  
تفضي إليّ بكلّ ما في نفسك...

- العشرة هي التي تصعب عليّ يا سي السيد...  
العشرة؟! لم يخطر له هذا على بال...  
- أتريد؟... حقاً!

قال الحمزاوي بحزن:  
- أن لي أن أعترل، الله لا يكلف نفساً إلا  
وسعها...

وانقبض قلب السيد، فاعتزل الحمزاوي للعمل  
ليس إلا نذيراً له بالاعتزال، كيف ينهض بأعباء العمل  
في دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر؟ ونظر  
إلى وكيله في حيرة فعاد الرجل يقول متأثراً:

- إني آسف جداً، ولكني لم أعد أطيق العمل، ولّي  
ذلك الزمان، غير أنّي دبّرت الأمر فلن أتركك وحدك،  
سيملاً مكاني من هو أقدر منّي...

إنّ ثقته في أمانة الحمزاوي قد رفعت عن كاهله  
نصف متاعبه، فكيف يعود ابن الثالثة والسّتين إلى  
ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟ قال:

- ولكنّي اعتزال العمل والقبوع في البيت يسرعان  
بالإنسان إلى التدهور، ألا ترى هذا في أصحاب  
المعاش من الموظفين؟

فقال الحمزاوي باستياء:  
- التدهور موجود قبل الاعتزال.

وضحك السيد فجأة كأنما ليداري الحرج الذي  
شعر به مقدّماً قبل أن يقول له:

- يا عجوز يا مكّار، أنت تهجرني تلبية لإلحاح  
ابنك فؤاد.

فهتف الحمزاوي متأثراً:  
- معاذ الله، إنّ حالتي الصحيّة لا تخفى على أحد،  
وهي السبب الأوّل والأخير...

من يدري؟ فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء  
أبيه عاملاً بسيطاً في دكان ولو كان صاحب الدكان هو

اليوم السابق، كلّ ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤدّيه  
على خير الوجه وبالدفّة المعهودة فيه من قديم غير أنّه  
يؤدّيه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر  
والمرض. وكان منظره وهو منكّب على دفاتره تحت  
لافتة البسملة، وشاربه الفضيّ يكاد يختفي تحت أنفه  
الكبير الذي زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك  
المنظر ممّا يستحقّ العطف، غير أنّ منظر وكيله  
ومساعدته جميل الحمزاوي الذي كان يهدف إلى  
السبعين كان ممّا يستحقّ الرثاء، ولم يكن يفرغ من  
زبون حتّى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد  
يقول لنفسه في شيء من الامتعاض «لو كنّا موظّفين  
لأغنانا المعاش في مثل سنّا من الكدّ والعمل!». ورفع  
السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

- لا زالت الحالة متأثرة بعض الشيء بالآزمة  
الاقتصادية...

فارتسم الامتعاض على شفطي الحمزاوي الباهتين  
وقال:

- بدون شكّ، غير أنّ هذا العام خير من العام  
السابق، والعام السابق خير من الذي قبله، الحمد لله  
على أيّ حال...

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي  
كان التّجار من أصحابها يسمّونها أيّام الرعب. حين  
استبدّ إسماييل صدقي بالحياة السياسيّة وسيطر القحط  
على الحياة الاقتصادية، ويقبلون الأكفّ وهم يتساءلون  
عما يجيئ لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شكّ  
لأنّ ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذي تهدّده عامّاً بعد  
عام.

- أجل الحمد لله على أيّ حال...

ووجد جميل الحمزاوي يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها  
تردّد وحرج، ماذا عنده يا ترى؟ وقام الرجل فقرب  
مقعده من المكتب ثمّ جلس وهو يتنسم في ارتباك.  
وكان البرد قاسياً رغم سطوع الشمس، وكان للهواء  
حملات قويّة ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى  
الصفيّر. قال السيد وهو يعتدل في جلسته:

- هات ما عندك، إني موقن بأنك ستقول شيئاً  
هاماً.

- لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت في حياتي، فإما أن تمدني بسلفة أخرى، وإما أن تجد لبيتي شاريًا، ويا حُذا لو تكون أنت الشاري!

فقال أحمد عبد الجواد متنهّدًا:

- أنا؟ يا ليت، الزمن غير الزمن يا سلطنة، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدّقين يا سلطنة...

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

- السلطنة مفلسة، فما العمل؟

- في المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكنّ الحال لا يسمح بتكرار ذلك...

فتساءلت في قلق:

- ألا يمكن أن تجد لبيتي شاريًا؟

- سأبحث لك عن شاري. أعدك بذلك.

فقال ممتنة:

- هذا ما يُنتظر منك يا سيّد الكرماء (ثمّ بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التي تغيّرت ولكنّ الناس تغيّروا أكثر، سامح الله الناس، في أيام العزّ كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائي، والان إذا لمحوني على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر.

لا بدّ أن يتنكر للإنسان شيء، بل أشياء، الصّحة أو الشباب أو الناس، أمّا أيام العزّ، أيام الأنغام والحبّ فاين هي؟!

- ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطنة لم تعملي للأيام حسابها...

فتنهّدت آسفة وهي تقول:

- نعم، لست كأختك جلييلة التي تتاجر بالأعراض وتقتني المال والبيوت، وفضلاً عن ذلك فقد ابتلاني الله بأولاد الحرام حتّى بلغ الفجر بحسن غير أنّه كان يبيعي شمة الكوكابين - عندما ندر في الأسواق - بجنيه!

- لعنه الله.

- حسن عنبر؟... ألف لعنة!

- بل الكوكابين.

- والله الكوكابين أرحم من الإنسان.

الذي مهّد له السبيل ليتبوأ مركزه في النيابة، ولكنّه شعر بأنّ تصرّجه قد آلم وكيله الطيّب فتراجع متسائلاً في لطف:

- متى يُنقل فؤاد إلى القاهرة؟

- في صيف هذا العام أو في صيف العام القادم على الأكثر...

ومضت فترة سكون مشحونة بالخرج حتّى قال الحمزاوي مجاريًا السيّد في لطفه:

- وإذا أقام معي في القاهرة وجب التفكير في تزويجه، أليس كذلك يا سي السيّد؟ إنّه ابني الوحيد على سبع بنات، ولا بدّ من تزويجه، وكلّما فكّرت في ذلك جرت في خاطري الأنسة المهذّبة حفيدتك...

واسترق إلى وجه السيّد نظرة استطلاع ثمّ غتم:

- لسنا قدّ المقام طبعًا...

فلم يَسع السيّد إلّا أن يقول:

- أستغفر الله يا عمّ جيل، نحن أخوان من قديم الزمن...

ترى أحزّضه فؤاد على جسّ النبض؟. وكيل نيابة شيء عظيم والعبرة في الأصل بالطيبة، ولكنّ أهذا وقت التحدّث في الزواج؟

- حدّثني أوّلًا أنت مصمّم على اعتزال العمل؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول:

- يا ألف صباح الخير...

- أهلاً وسهلاً... (ثمّ وهو يشير إلى المقعد الذي

أخلاه الحمزاوي) تفضّل!

جلست زبيدة بجسم قد ترهّل، ووجه قد تقنّع بالأصباغ، أمّا الحليّ فلم يعد لها أثر في عنقها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للجمال القديم مكان، وجعل السيّد يرحّب بها كعادته مع كلّ زائر لا أكثر، أمّا قلبه فلم يرتج للزيارة، فما من مرّة تحييه إلّا وترهقه بالمطالب.

سألها عن الصّحة فأجابت وهي لا تعني شيئاً «الحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت... أهلاً... أهلاً، فابتسمت شاكرة ولكنّ بدا أنّها استشعرت الفتور الكامن في مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجوّ الذي يكتنفها. وكانت الأيام قد علّمتها البرود، ثمّ قالت:

بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلاً في لهجة الغزل:  
- من هذا الذي يجلس وراء المكتب كالقمر؟  
بدا الشيخ متوتراً عبد الصمد في جلباب خشن رثّ  
لا لون له، ومركوب متفوّز، معصوب الرأس بتلفيفة  
من وبر، مستند القامة على عكاز، وكان يرمش بعينه  
الحماوين مسدداً بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب  
السيد وهو يظنّ أنّه يسدّه نحوه... فابتسم السيد  
رغم همّه قائلاً:  
- تعال يا شيخ متوتري، كيف حالك؟  
فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو  
يهتف:  
- يا ضغط زُلّ، يا صحبة عودي إلى سيد  
الناس...  
وقام السيد فأنجّه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه  
ولكنّه تراجع في الوقت نفسه كالهارب، ثمّ جعل يدور  
حول نفسه، مشيراً إلى الجهات الأربع وهو يصيح «من  
هنا تفرج... ومن هنا تفرج». ثمّ تحوّل إلى الطريق  
قائلاً:  
- ليس اليوم، غداً، أو بعد غد، قل الله أعلم...  
ومشى في خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره  
البالي...

### ٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعمر البيت  
القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا  
عنه. ولم تعد أمينة «بطلة» يوم الجمعة كما كانت قديماً،  
فأمّ حنفي تبوّأت المركز الأوّل في المطبخ، ولم تكن  
أمينة تني عن تذكير القوم بأنّ أمّ حنفي تلميذتها فإنّ  
غرامها بالثناء كان يتشجّع على الإفصاح عن ذاته كلّما  
شعرت بقلّة استحقاقها له، إلى أنّ خديجة - رغم أنّها  
في حكم الضيفة - لم تقصّر في إهداء معونتها. وقبل  
ذهاب السيد إلى الدكان التفّ به الضيوف، إبراهيم  
شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وياسين وابناه رضوان  
وكريمة، يكتنفهم ذلك الخشوع الذي يجعل من  
ضحكهم ابتساماً ومن حديثهم همساً. وكان السيد يجد  
في حضورهم سروراً يزداد تعلّقاً به كلّما تقدّم به

- لا... لا، من المحزن حقّاً أنّك وقعت في شرّه.  
فقال بتسليم وقنوط:  
- هدّ حيلي وضبيّ مالي، ما علينا، متى تجد لي  
شارياً؟  
- إن شاء الله عند أوّل فرصة.  
فقال في عتاب وهي تنهض:  
- اسمع، إذا زرتك في المرّة القادمة فابتسم من  
قلبك، كلّ إساءة تهون إلّا التي تحيطني من ناحيتك، أنا  
عارفة أنّي أضايقك بمطالبي ولكنّي في ضيق لا يعلم به  
إلا الله، وأنت أنبل الناس في نظري.  
فقال لها معتدراً:  
- لا تتوهمي ما ليس فيّ، الأمر أنّي كنت مشغولاً  
بمسألة هامة عند قدومك، وهموم التجار لا تنتهي كما  
تعلمين!  
- رفع الله عنك الهموم.  
فحنى رأسه شاكراً وهو يوصلها، ثمّ ودّعها قائلاً:  
- أهلاً بك من القلب في كلّ حين...  
ولمّح في عينيها نظرة خابية تفيض غمّاً فرق لها،  
وعاد إلى مجلسه منقبض الصدر فالتفت إلى جميل  
الحمازوي وقال:  
- دنيا...  
- كفّاك شرّها وأطعمك خيرها.  
غير أنّ نبرات الحمازوي قست وهو يستدرك قائلاً:  
- ولكنّها عاقبة عادلة لامرأة مستهترّة!  
فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه هزّة مقتضبة سريعة كأنّما  
يعلن بها احتجاجاً صامتاً على قسوة هذه الموعظة، ثمّ  
سأله بصوت رجح به إلى النعمة التي قطعها مجيء  
زبيدة:  
- ألا تزال مصمّماً على رأيك في هجرنا؟  
فقال الرجل في حرج:  
- ليس هجرّاً ولكنّه تقاعد وأنا آسف من كلّ  
قلبي.

- كلام كالذي داريت به زبيدة منذ دقيقة!  
- استغفر الله، إنّي أنكّم من قلبي، ألا ترى يا  
سيدّي أنّ الكبر يكاد يعجزني؟  
ثمّ دخل الدكان زبون فمضى الحمازوي إليه، وإذا

العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته في الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل أن يفهم أنه يتوق إلى رؤيته كل حين؟. وابنه رضوان جميل المحيّا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذي يعكس جماله ألواناً متنوّعة تذكّره مرّة بياسين ومرّة بهنية أم ياسين وثلاثة بصديقه الحبيب محمّد عفت فهذا أحبّ الأحفاد إلى قلبه، وكرمة أخته مصغر شابة في الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجاً عجيباً كما تشهد عينها السوداءوان - عينا زنوبة أمها - اللتان يبسم لهما خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات. أمّا عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى في وجهيهما قدراً لا يُستهان به من أنفه العظيم كما يرى عيني خديجة الصغيرتين، غير أنّها أجراً من الآخرين في مخاطبته، وكلّهم - هؤلاء الأحفاد - يشقّون طريق دراستهم بنجاح يدعوا إلى الفخار، لكنّهم يدون مشغولين بأنفسهم عن جدّهم، فمن ناحية يعزّونه بأنّ حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكّرونه بأنّ شخصه يتراجع رويداً عن مركز الاهتمام الذي كان يستأثره، ولم يكن ذلك ليحزنه،

فإنّ الإيغال بالعمريجيء بالحكمة كما يجيء بالوهن والمرض. ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفّق، عندما كان مثل هؤلاء في مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلّم قليلاً ويلهو كثيراً ما بين مغاني الجالية ومرتاد الأزيكية، وفي ركابه يجري محمّد عفت وعليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيداً قليلاً، ويرقّ له كثيراً، وكان العمر صفحة مطوية مكنتة بالأمال، ثمّ كانت هنية... ولكن مهلاً! لا ينبغي أن تستخفّه الذكريات.

وقام ليصليّ العصر فكان ذلك إيذاناً بالانصراف، ثم ارتدى ملابسه ومضى إلى الدكان، وتجمّعوا هم في مجلس القهوة حول مجمرة الجدة، في جوّ التلاقي والسمر. احتلت الكنية الرئيسية أمينة وعائشة ونعيمة، أمّا الكنية اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكرمة، وعلى الكنية اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتّخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسيّ توسّطت الصالة تحت المصباح

الكهربائي. وكان إبراهيم شوكت كعادته التي لم يغيّرهما الزمن ينوّه بألوان الطعام التي أعجبته، غير أنّ تنويهه اقتصر في الفترة الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة، وكانت زنوبة تعيد ثناءه كالصدي فإثما لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودّد بها إلى أحد من أهل زوجها. والحق أنّها مذفّنت لها أبواب آل زوجها وأتاحت لها مغالطتهم وهي تعمل بلباقة على توثيق علاقتها بهم، لأنّها عدت ذلك اعترافاً بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهي تعيش في عزلة كالمنبوذة. وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقي في زيارة أهله لبيته للتعزية، فصافحت يدها أيديهم لأوّل مرّة منذ زواجها، وتشجّعت بذلك فزارت السكرية، ثمّ زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيّد، بل أقدمت على زيارته في حجرته فتقابلا كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركاً بينهما. هكذا اندجعت زنوبة في آل أحمد حتّى غدت تخاطب أمينة فتقول لها يا تيزة وتنادي خديجة فتقول لها يا أختي، وبدت دائماً مثلاً للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهنّ تحبّبت التبرّج خارج بيتها، حتّى بدت أكبر من سنّها، إذ بادر الذبول إلى جمالها قبل الأوان، فلم تصدّق خديجة أبداً أنّها في السادسة والثلاثين، ولكنّها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيبة لها حتّى قالت عنها أمينة يوماً «لا شك أنّ أصلها طيّب، ربّما أصلها البعيد، فليكن، ولكنّها بنت حلال، هي الوحيدة التي عمّرت مع ياسين!». وبدت خديجة في شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنّها سعيدة بذلك، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحد وحياتها الزوجية الموفّقة عامّة، بيد أنّها لم تكفّ يوماً عن التشكّي أثناء العين. وقد تغيّرت معاملتها لعائشة تغيّراً كلياً فلم تندّ عنها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنمّ عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل الممازحة، بل حرصت الحرص كلّ على الترفّق بها والتودّد إليها وملاطفتها، خشوياً حيال تعاستها وخوفاً من الأقدار التي قضت عليها بما قضت، وإشفافاً من أن تضع المرأة المحزونة حظّها موضع المقارنة، وقد وقفت موقفاً كريماً يوم حتمت على

يتنفس في جو الآمال القديمة، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلاً لا يحتاج إلى تعريف أما كاتب مقالات مجلة «الفكر» فربما احتاج إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها! ولم يدعه أحمد إبراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينه الصغيرتين البارزتين وهو يقول:

- إنني أترك الجواب لخالي كمال...

وابتسم إبراهيم شوكت ابتسامة يداري بها حرجه، أما كمال فقال دون حماس:

- ادرك ما تشعر بأنه يوافق موهبتك.

ويدا الظفر في وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

- ولكن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالاً من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك إذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاء لها...

- بل سأنتج إلى العمل في الصحافة.

- الصحافة!... «صاح إبراهيم شوكت»... إنه لا يدري ماذا يقول.

فقال أحمد مخاطباً كمال:

- إن قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شيء واحد في أسرتنا!

فقال رضوان ياسين بأسماً:

- إن أكبر قادة الفكر في وطننا من الحقوق...

فقال أحمد في كبرياء:

- إن الفكر الذي أعنيه شيء آخر!

فقال عبد المنعم شوكت عابساً:

- وهو شيء خيف هدام، إنني أعلم وأسفاه بما تعني...

وعاد إبراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول:

- فكنر قبل أن تقدم، إنك لا زلت في السنة الرابعة، لن يعدو ميراثك المائة جنيه في العام، وإن بعض أصحابي يشكون من الشكوى من أن أبناءهم الجامعين لا يجدون عملاً، أو يعملون كتبة بمربّات تافهة، وأنت حر بعد ذلك فيها تختار...

إبراهيم شوكت أن ينزل عن حقه المشروع في ميراث أخيه المتوفى لنعيمة فالأ ميراث كله لعائشة وكرمتها دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعها في حينه ولكن عائشة استغرقها دمول غيب عنها كرم أختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنما انقلبت أمماً أخرى لها، ولم تكن تطمع في أكثر من رضاها ومودتها كي تطمئن على أسباب التوفيق التي هيأها لها الله. وأخرج إبراهيم شوكت عليه سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة، وتناول أخرى وراحا يدخنان. كثيراً ما يكون إفراط عائشة في التدخين وتعاطي القهوة ملتقى ملاحظات وإن تكن تقابل منها عادة بهز الكتفين. أما أمها فتقنع بأن تقول في لهجة الدعاء «ربنا يصبرها» وأما ياسين فكان أجراً الأهل في نصحتها كأنما قد أهله لذلك فقد وليده، غير أن عائشة لم تكن تعده مصاباً مثلها وتضنّ عليه بمكانة مرموقة في دولة المبتلين إذ إن ابنه مات وهو دون العام لا كعثان أو عمّمد، والواقع أن حديث المصائب كان يبدو كثيراً هوايتها المفضلة، كأنما كانت تعترّ بدرجة الممتازة في دنيا الشقاء، واستمع كمال إلى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع بأسماً، وكان رضوان ياسين يقول:

- كلنا من القسم الأدبي، فليس أمامنا كلّية جديدة بالاختيار إلّا الحقوق.

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القوي المفعم بنبرات التوكيد، وكان يهز رأسه الضخم الذي جعله أقرب الشبان شبهاً إلى كمال:

- مفهوم... مفهوم، ولكنّه لا يريد أن يفهم!

وأوماً عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذي ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فانتهاز إبراهيم شوكت الفرصة وقال مشيراً إلى أحمد أيضاً:

- ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعني بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكنني لا أفهم الآداب! وغضّ كمال بصره فيها يشبه الأسى، إذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين. إنه لا زال

شعر كمال كأن هذا القول انتقاد مرّ موجه إلى شخصه، أما عائشة فقالت لأول مرة:

- إنه يريد أن يخطب نعيمة.

وفي فترة الصمت التي استقبل بها الخبر قالت أمينة:

- أبوه فاتح جدّها أمس...

وتساءل ياسين جاداً:

- وهل وافق أبي؟

- هذا سابق لأوانه.

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة:

- وما رأي عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد:

- لا أدري...

فقالت خديجة وهي تنفّسها بعمق:

- ولكنك أنتِ الكلّ في الكلّ...

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيبة لصديقه فقال:

- فؤاد شابّ ممتاز حقّاً...

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالمسائل:

- أظنّ أهله من السوقة؟

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوي:

- نعم، خاله مكاري، وخاله الآخر قران، وعمّه كاتب محامٍ (ثمّ بلهجة استدرائية ضعيفة) ولكن هذا لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أنّ ابن أخته يريد أن يقرّر حقيقتين

يؤمن بهما على تنافرهما، أولاً وضاعة أصل فؤاد، وثانياً

أنّ وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل

أدرك أكثر من هذا أنّه يحمل في الأولى على فؤاد وأنّه

يكفّر في الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينية

القوية. ومن عجب أنّ تقرير هاتين الحقيقتين أراحه

وكفاه شرّ الإفصاح عنها بنفسه، فإنّه كابن أخته لم

يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضاً يميل

للحملة على فؤاد والخط من شأنه الذي يدرك خطورته

وتفاهته هو بالقياس إليه. والظاهر أنّ أمينة لم ترتح

لهذه الحملة فقالت:

- أبوه رجل طيّب، خدّمنا العمر كلّه بأمانة

وإخلاص.

فجمعت خديجة شجاعته وقالت:

وتدخل ياسين في المناقشة بأن اقترح قائلاً:

- لنسمع رأي خديجة، إنّها المدرسة الأولى لأحمد،

وهي أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب...

وامتلات الثغور بالابتسام، حتّى أمينة ابتسمت

وهي عاكفة على كنجة القهوة، بل حتّى عائشة

ابتسمت، فتشجعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت:

- سأقصّ عليكم قصّة طريفة، أمس بعد العصر

بقليل - والدنيا تظلم بسرعة في الشتاء كما تعرفون -

كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكرية، فشعرت

كأنّ رجلاً يتبعني، وإذا به يمرّ بي تحت قبة المتولّي وهو

يقول «على فين يا جميل»، فالتفت نحوه قائلة: «على

البيت يا سي ياسين!».

وضجّت الصالة بالضحك. ونظرت إليه زئوبة

نظرة ذات معنى تجلّ فيها الانتقاد واليأس، أمّا ياسين

فجعل يشير للضحاكين بيده حتّى عاد السكون، ثمّ

تساءل:

- أمن المعقول أن يصيبني العمى إلى هذا الحدّ؟

فحدّره إبراهيم شوكت قائلاً:

- حاسب!

أمّا كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنّها رغم

كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصّة عمّتها،

وقالت زئوبة تعليقاً على الحال:

- شرّ الأمور ما يضحك.

وحلج ياسين خديجة بنظرة غيظة وهو يقول

«حفرت لي حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة:

- إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب

فهو أنت لا أحمد ابني المجنون!

وصدّقت زئوبة على قولها، أمّا رضوان فدافع عن

أبيه ودعاه بالبريء المظلوم، وظلّ أحمد ينظر إلى كمال

متعلّقاً به كالأمل، أمّا عبد المنعم فكان يسترق النظر

إلى نعيمة التي تبدّت لصق أمّها كالوردة البيضاء،

وكانت كلّها شعرت بعينيه الصغيرتين تورّد وجهها

الشاحب الرقيق، حتّى عاد إبراهيم شوكت يقول مغيّراً

مجرى الحديث مخاطباً أحمد:

- انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوي

وكيل نيابة قذّ الدنيا...

- ولكن ربّما عاشرت نعيمة - لو تمّ هذا الزواج -  
أناسًا ليسوا أهلاً للمعاشرة، الأصل كلّ شيء.  
وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر أحد، فقالت  
زُتوبة:  
- صدقت، الأصل كلّ شيء!  
واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة  
وهو يتساءل عن رجوع قول زوجته في نفسها، وتعليقها  
الباطنيّ عليه وما يستدعيه ذلك إلى خواطرها عن عالم  
العوالم والتخت. حتّى لعن زُتوبة في سرّه على  
«فنزحتها» الفارغة واضطرّ أن يتكلّم ليغطي على كلام  
زوجته، فقال:  
- تذكّروا أنكم تتحدّثون عن وكيل نيابة...  
فقالت خديجة متشجّعة بسكوت عائشة:  
- أبي الذي جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التي  
صنعتها!  
فقال أحمد شوكت في سخرية نطقت بها عيناه  
البارزتان اللتان تذكّران بالمرحوم خليل شوكت:  
- نحن مدينون لأبيه أكثر ممّا هو مدين لنا!  
فأشارت إليه خديجة بسبّابتها وهي تقول بلهجة  
ملؤها الانتقاد:  
- أنت دائماً ترمينا بكلام غير مفهوم.  
فقال ياسين بلهجة من يأمل في إنهاء الموضوع:  
- أريخو أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا...  
ورّعت أمينة فناجيل القهوة، وأجهت أعين الشباب  
إلى حيث جلست نعيمة لصق أمّها. قال رضوان  
لنفسه: بنت لطيفة وجيلة، ليتّه كان في الإمكان أن  
أصادقها وأزاملها، لو مشينا في الطريق معاً لاحتار  
الرجال أينما الأجل، وقال أحمد لنفسه أيضاً: جيلة  
جداً، ولكنّها كأنّها هي ملزوقة في خالتي بالغرا، ولا  
حظّ لها من الثقافة. أمّا عبد المنعم فقال: جيلة وسّ  
بيت وشديدة التقوى، لا يعيها إلّا ضعفها، وحتّى  
ضعفها جميل، خسارة في عين فؤاد، ثمّ جاوز الحديث  
الباطنيّ فسألها:  
- وأنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك؟  
فتورّد الوجه الشاحب، وقطّبت ثمّ ابتسمت، وتوتّر  
حالتها وهي تمزج الابتسام بالتقطيب لتخلص منها معاً،
- ثمّ قالت في حياء واستياء:  
- لا رأي لي، دعني وشأني!...  
فقال أحمد ساخراً:  
- الحياء الكاذب...  
ولكنّ عائشة قاطعته متسائلة:  
- الكاذب؟!  
فاستدرك قائلاً:  
- الحياء موضة قديمة، ينبغي أن تتكلّمي وإلّا  
ضاعت منك الحياة...  
فقالت عائشة بمرارة:  
- إننا لا نعرف هذا الكلام.  
فقال أحمد متشكّكاً دون أن يعبا بنظرة أمّه المنذرة:  
- أراهن على أنّ أسرتنا متأخّرة عن العصر الحديث  
بأربعة قرون!  
فسأله عبد المنعم ساخراً:  
- لم حدّدتها بأربعة؟  
فقال دون اكتراث:  
- على سبيل الرأفة!  
وإذا بخديجة توجّه الخطاب إلى كمال متسائلة:  
- وأنت!... متى تتزوّج أنت؟!  
بوغت كمال بالسؤال فتهرّب قائلاً:  
- حديث قديم!  
- وجديد في الوقت نفسه، ولن نتركه حتّى يجمع  
الله شملك على بنت الحلال...  
تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف،  
فزواج كمال أعزّ أمانيتها، وكم رجته أن يحقّق أمنيّتها  
حتّى تقرّ عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:  
- عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنّه  
يتعلّل دائماً بعذر أو بآخر...  
- أعذار واهية، كم عمرك الآن يا سيّ كمال؟...  
تساءل إبراهيم شوكت ضاحكاً...  
- ثمانية وعشرون عاماً!... فات الوقت...  
أنصتت أمينة إلى رقم العمر بدّش كأنّها لا تريد أن  
تصدّق، أمّا خديجة فاحتدّت وهي تقول:  
- أنت مغرم بتكبير عمرك!  
أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف

فابتسمت زئوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت:

- ولم لا ترغب في الزواج؟

فقال كمال فيها يشبه الضجر:

- الزواج حبة وأنتم تجعلون منه قبة...

ولكنه كان يؤمن في أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة، وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيفضي عليه قضاء مبرماً. وأنقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له:

- أن لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرحباً بدعوته، ومضى خارجاً وعبد المنعم وأحمد ورضوان في أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا إلى البيت القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائي بين صفين من خزائن الكتب، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثم اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات في تاريخ الإسلام»، وجاء أحمد بكتاب «مبادئ الفلسفة»، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يردد بصره بينهم صامتاً، حتى قال أحمد متضامناً:

- لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل.

وتمت عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

- لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال أحمد ساخطاً:

- أخي يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عامي في خان الخليلي...

فصاح به عبد المنعم:

- صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلاً:

- وأنت ألا تريد كتاباً؟

فأجاب عنه عبد المنعم:

- وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية!

فقال رضوان وهو يوميئ إلى كمال:

- في هذا يتفق معي عمي!

عمه لا يؤمن بشيء ورغم ذلك فهو وفدي! كما أنه

غير مباشر عن عمرها. مع أن زوجها بلغ الستين إلا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها في الثامنة والثلاثين، أما كمال فلم يكن يدري ماذا يقول، ولم يكن الموضوع في نظره مما يحسم بكلمة، ولكنه كان يشعر دائماً أنه مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر:

- إني مشغول نهاري بالمدرسة وليلي بمكتبي!

فقال أحمد بحماس:

- حياة عظيمة يا خالي، ولكن الإنسان ينبغي مع ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذي كان أعرف الجميع بكمال:

- أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب «الحقيقي» ولكن الحقيقة في هذه الشواغل، لن تعرف الحياة في المكتبة، ولكن الحقيقة في البيت والشارع...

فقال كمال ممعناً في الهرب:

- تعودت أن أنفق مرتبتي لآخر ملّيم، ليس عندي مدّخر، كيف أتزوج؟

فقالت خديجة تحاصره:

- اتو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له.

وقال ياسين ضاحكاً:

- إنك تنفق مرتبك لآخر ملّيم حتى لا تتزوج... كأنها شيء واحد. ولكن لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين؟ أجل مضت فترة في ظل الحب فكان الزواج ضرباً من العبث، وتبعها فترة حل محل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بينهم، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إن المفكر لا يتزوج وما ينبغي له. كان ينظر إلى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان - وما زال - يلدّ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج في ميكانيكية الحياة. وإنه ليضنّ بحريته كما يضمن البخيل بماله، ثم إنه لم يبقَ عنده من المرأة إلا شهوة تُقضى، وإلى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثم إنه حائر يداخله الشك في كل شيء، والزواج نوع من الإيمان، قال:

- أرحبوا أنفسكم، سأتزوج عندما أرغب في الزواج.



وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطلّ عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله - فيما بدا له - يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطني - عيد ١٣ نوفمبر - فردّد عينيه في الوجوه مستطلعًا ومرحّبًا.

والحقّ أنّه يشارك في هذه الأعياد كأشدّ المؤمنين بها وإن آمن في الوقت نفسه بآل إيمان له. وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة «الوفدية» التي ألّفت بين قلوبهم، قال أحدهم:

- عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكلّ معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون...  
فقال آخر:

- يجب أن يُردّ فيه على هور وتصريحه المشؤم.  
وثار ثالث لذكر هور فصاح:  
- ابن الكلب قال: نصحنّا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟  
فأجابه رابع:  
- لا تنس أنّه قال قبل ذلك: «على أنّنا عندما استشارونا نصحنّا» إلخ...

- أجل، من الذين استشاروه؟  
- سلّ عن ذلك حكومة القوّادين!  
- توفيق نسيم... كفى! أنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفد؟!

- لكلّ شيء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.  
أصغى كمال إليهم، بل اشترك في حديثهم، وأعجب من هذا أنّه لم يكن من دونهم حماسًا، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده، وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسيّة التي خلّفتها الأعوام السابقة. أجل «لقد عاصرت عهد محمّد محمود الذي عطّل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرّيّة الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات!». كما عشت سنين الإرهاب التي فرضها إسماعيل صدقي على البلاد، كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكمًا له ولكنّه يجد فوق رأسه دائمًا أولئك الجلاّدين البغضاء، تحميمهم هراوات الكونستبلات الإنجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو

يشكّ في الحقيقة عامّة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يرّدّ عينيه بين عبد المنعم وأحد:

- وأنتما وفديّان كذلك فما وجه الغرابة؟ وكلّ وطنيّ فهو وفديّ، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينيّ:  
- الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنّه في ذاته لم يعد مقننًا كلّ الإقناع...  
فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّي أوافق أخي على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافق على رأيي إلّا هذا، وربما اختلفنا في درجة الإقناع الخاصّة بالوفد، أكثر من ذلك فإنّ الوطنيّة نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إنّ الاستقلال فوق كلّ نزاع، أمّا معنى الوطنيّة بعد ذلك فينبغي أن يتطوّر حتّى يفنى في معنى أشمل وأسمى، وليس بعيد أن ننظر في المستقبل إلى شهداء الوطنيّة كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التي تنشب بين القبائل والأسر!

معارك حمقاء يا أحمق! فهمي لم يستشهد في معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقين؟. ورغم خواطره قال بحدّة:

- أيّ قتيل في سبيل شيء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغيّر قيم الأشياء أمّا موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغيّر...

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبًا عبد المنعم ردًا على ملاحظته له:

- السياسة أخطر وظيفة في المجتمع...  
ولما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

- وهكذا فنحن نرّي ونوجّه وننصح ولكن كلّ ولد يندمج في مكتبة، وهي عالم مستقلّ عنّا، يزحمنا فيه أناس غريباء، لا ندري عنهم شيئًا فما عسى أن نصنع؟!

كان الترام مكتظًا حتّى لم يعد به موضع لواقف،

فشارك في حياتهم ويعتق آلامهم وآلامهم. إنّه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بدّ منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية، حياة الناس، فلتؤجل مشكلات المادّة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة، وليمثل اهتمامًا بما يحبّ هؤلاء الناس وما يكرهون، بالدستور... بالأزمة الاقتصادية... بالموقف السياسي... بالقضية الوطنية. لذلك لم يكن عجيبًا أن يهتف «الوفد عقيدة الأمة، غداة ليل قضاء في تأمل عبث الوجود وقبض الريح، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة، فهو يعشق الحقيقة ويهوى النزاهة ويتطلع إلى التسامح ويرتطم بالشكّ ويشقى في نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات، فلا بدّ من ساعة يأوي فيها المتعب إلى حضن الجماعة ليجدد دماءه ويستمدّ حرارة وشبابًا. في المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون مثل دارون وبرجسون ورسل. في هذا السراقد آلاف من الأصدقاء، بيدون بلا عقول، ولكن يتمثل في مجتمعهم شرف الغرائز الواعية، وليسوا في النهاية دون الأوّل خلّقًا للحوادث وصنّعًا للتاريخ. في هذه الحياة السياسيّة يحبّ ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كلّ شيء ولا قيمة له. وكلّما واجه هذا التناقض في حياته زعزعه القلق. ولكن ليس ثمة موضع في حياته يخلو من تناقض وبالتالي من قلق. لذلك شدّ ما يحنّ قلبه إلى تحقيق وحدة منسجمة تتسم بالكمال والسعادة، ولكن أين هذه الوحدة؟. ويشعر بأنّ الحياة العقليّة لا مفرّ منها ما دام به عقل يفكر فلا يقعه ذلك عن التطلع إلى الحياة الأخرى تدفعه كافّة القوى المعطلة المكبوتة، فهي صخرة النجاة. فلعلّه لذلك بدا هذا الجمع رائعا، وكلّما ازداد كثرة ازداد روعة. وما هو القلب ينتظر ظهور الزعماء بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين. وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أمّا رضوان وصاحبه حلمي عزّت فيسيران في الممرّ الذي يشقّ السراقد ذهابًا وحيثة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيا لها من شائين ذوي نفوذ! وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لغطا عامًا أمّا الأركان التي احتلّها الشباب

بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المعارك دون توقّف فيخرج من كلّ وهو يلهث، حتى التخذ في النهاية موقفًا سلبيًا، شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان إلّا من الوفديّين من ناحية والطفة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرّج وراح يشجّع رجاله في همس دون أن يمدّ لهم يدًا. إنّ قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنّه يخفق معه دائمًا، رغم عقله التائه في ضباب الشكّ. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار في طابور غير منتظم نحو سراقد الاحتفال المقام في جوار بيت الأمة، تقابلهم بين كلّ عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستبل إنجليزي تنطق وجوهم بالصراة والبلادة. والتقى قبيل السراقد بعبد المنعم وأحمد ورضوان وشابّ لا يعرفه وقد وقفوا معًا يتحدّثون، فأقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت. منذ شهر تقريبًا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أمّا أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانويّ، وإنّه ليراهم في الطريق «رجالًا» بخلاف ما يراهم في البيت فليسوا إلّا أبناء أخته وأخيه. وما أجمل رضوانا، كذلك جميل، صاحبه الذي قدّمه إليه باسم حلمي عزّت وقد صدق من قال إنّ الطيور على أشكالها تقع. وكان أحمد يسره، ويتنظر منه دائمًا قولًا غريبًا متمعًا أو سلوكًا لا يقلّ عنه غرابة، إنّه أقرب الجميع إلى روحه، أمّا عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء، لذلك فحسب يحبه، أمّا يقينه وتعصّبه فما أردّلهما! وأقبل على السراقد الضخم، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة، مسرورًا بكثرتها الهائلة، وتطلّع مليًا إلى المنصة التي سيعلو عندها عمّا قليل صوت الشعب، ثمّ التخذ بمجلسه. إنّ وجوده في مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة في الوحدة شخصًا جديدًا ينتفض حياة وحماسًا. هنا ينحبس العقل في قمقم إلى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة إلى حياة مفعمة بالمواطن والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل، وعند ذاك تتجدّد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدّد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس

المقاعد ترتجّ بمن فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدري إلا والجموع تتجه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقي نظرة عامّة باحثاً عن شباب أسرته ولكنه لم يعثر لهم على أثر. وغادر السراقق من الباب الجانبي، ثم سار مستهدفاً شارع قصر العيني في خطوات سريعة حتى يسبق الجموع. ومَرَّ في طريقه بيت الأئمة وكان كلما مرَّ به يعلق به بصره وردّد عينيه بين الشرفة التاريخية والفناء الذي شهد أجلّ الذكريات الوطنية، أجل لهذا البيت مثل السحر في نفسه، فها هنا كان يقف سعد، وها هنا كان يقف فهمي وأقرانه، وفي هذا الطريق الذي يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقرّ في صدور الشهداء، إنّ قومه في حاجة دائمة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التي تترصد سبيل نهضتهم، في حاجة إلى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضدّ الأمراض الخبيثة، والحق أنّ الاستبداد هو مرضهم المتوطن. هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطني في تجديد نفسه فلم يكن يمه في تلك اللحظة إلا أن تحجب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قامته النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتدّ وقع خطاه وهو يتقدّم أمام الجامعة الأمريكية متخيلاً أموراً جلييلة وفعالاً خطيرة. حتى المدرّس ينبغي أن يثور أحياناً مع تلاميذه. وابتسم فيما يشبه الكتابة... مدرّس كبير الرأس مقضيّ عليه بأن يعلم مبادئ الإنجليزّة - المبادئ فحسب - رغم أنّه يطلع بها على أسرار وأسرار، يحتلّ جسمه من مزدحم الأرض موضعاً ضئيلاً أمّا خياله فيضطرب في الدوام التي تحيط بمغالق الطبيعة. يسأل في الصباح عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين، وفي الصباح أيضاً يضطرب فؤاده بالثورة على الإنجليز وفي الليل تدعو الأخوة العامّة المعذّبة - أحوته لبني الإنسان - للتعاون أمام لغز القضاء. وهزّ رأسه في شيء من العنف كأنما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الإسماعيلية فأدرك أنّ المتظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العيني، ودعاه الشعور بالنضال الذي يعمر صدره

فعلا ضجيجها وتخلّلت الهتافات، ثمّ ترامى هتاف قويّ ذو دلالة من الخارج فتطلّعت الرؤوس إلى مدخل السراقق الخلفي، ثمّ هبّوا واقفين، وتعالى هتاف يصمّ الأذان، ثمّ لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحمي الألف بابتسامة وضيفة ويدين قويتين. وتطلّع إليه بعينين اختفت منها نظرة الشكّ إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكلّ شيء؟. ألأنّ رمز الاستقلال والديمقراطية؟. مهما يكن من أمر فإنّ التجاوب الحارّ المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهي بلا شكّ قوّة خطيرة تلعب دورها التاريخي في بناء القومية المصرية. وتشبّع الجوّ بالحساس والحرارة، وتعب المشرفون على الحفل حتى نشروا السكون في الأركان، كي يسمع الناس المقرئ وهو يتلو ما تيسر من القرآن مردّداً فيما يتلو «يا أيّها النبي حرّض المؤمنين على القتال»، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتجّ بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراماً لكتاب الله. وأثار قولهم في نفسه ذكريات قديمة يوم كان يُدّّ واحداً من هؤلاء المتزمتين فارتمت على شفثيه ابتسامة ما واستشعر من توه عالمه الخاصّ الخافل بالمتناقضات الذي يبدو من تعارض متناقضاته وكأنّه فراغ. ووقف الزعيم وراح يلقي خطابه. ألقاه بصوت رنان وبيان نافذ فاستغرق إلقاؤه ساعتين، ثمّ ختمه جاهراً في عنف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحساس من القوم مداه فوققوا على المقاعد، وجعلوا يهتفون بحساس جنونيّ. ولم يكن دونهم حماساً وهتافاً، نسي أنّه مدرّس مُطالب بالوقار وتخيل إليه أنّه رجع إلى الأيام المجيدة التي سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تُلقي بهذه القوّة؟. أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحساس؟. أكان الموت لذلك يهون؟. من مثل هذا الموقف بدأ فهمي دون ريب، ثمّ اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى الفناء؟. أأمن الممكن أن يستشهد رجل في مثل حاله من الشكّ؟. لعلّ الوطنية - كالحب - من القوى التي ندعن لها وإن لم نؤمن بها... إنّ فورة الحساس عالية، الهتافات حارة متوعدة،

الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشيّة، إنّها مذبحة مدبّرة يا إلهي! وجاء صوت من آخر المقهى يقول: «كان قلبي يحدّثني بأنّ اليوم لن يمضي على خير، فأجاب آخر: «أيّام تنذر بالشرّ، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقّع أحداثاً خطيرة، هذه معركة وستتلوها معارك، وأؤكد لكم هذا!». - الضحايا الطلبة دائماً، أعزّ أبناء الأمة، وا

أسفاه!...

- ولكنّ الضرب سكّت أليس كذلك؟!، أنصتوا... - المظاهرة الأصليّة عند بيت الأمة، وسيستمرّ الضرب هنالك ساعات طويلة!...

ولكنّ الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلاً مشحوناً بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتّى أضيّت أنوار المقهى ثمّ لم يعد يُسمع صوت كأنّما حلّ بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فترأى الميدان خالياً من المارّة والمركبات. ثمّ جاء طابور من فرسان البوليس ذوي الخوذات الفولاذيّة فظاف بالميدان يتقدّمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكفّ عن التساؤل عن مصير الأبناء. ولما دبّت الحركة في الميدان غادر المقهى متعجّلاً، ولم يعد إلى بيته حتّى مرّ بالسكّرية وقصر الشوق واطمأنّ على عبد المنعم وأحمد ورضوان.

وخلا إلى نفسه في مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظلّ عقله غائباً في منطقة بيت الأمة، في هور والخطبة النائرة والهاثاف الوطنيّ وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكّر اسم صاحب دكان البسبوسة التي اختبأ بها قديماً ولكنّ الذاكرة لم تسعها!.



كان منظر بيت محمّد عفت بالجماليّة من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هذه البوابة الخشبيّة التي تبدو من الخارج كأنّها مدخل وكالة قديمة، وذلك السور العالي الذي يخفي ما وراءه خلا رءوس

إلى التوقّف لعلّه يشترك على نحو ما في مظاهرة ١٣ نوفمبر. شدّ ما طال بالوطن موقف الصابر الذي يتلقّى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقي وأوّل أمس محمّد محمود، تلك السلسلة المشثومة من الطغاة التي تمتدّ إلى ما قبل التاريخ، كلّ ابن كلب غرّته قوّته يزعم لنا أنّه الوصيّ المختار وأنّ الشعب قاصر.

مهلاً!... إنّ المظاهرة تغلي وتغور، ولكن ما هذا؟!، التفت كمال إلى الوراء في اضطراب. سمع صوتاً اهتزّ له قلبه، وأنصت في انتباه فصلك الصوت مسامعه مرّة أخرى. إنّ الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون في دوامة خطيرة لا يتّضح له أمرها، ولكنّ جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد يهبون الأرض. وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتدّ انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساءلت دقّاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلاً اضطراباً وغضباً، وتلفّت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتّجه إليها. وقد أغلق بابها نصف إغلاق. وما إن مرق منها حتّى تذكر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأوّل مرّة، وشاع الاضطراب في كلّ مكان. وانطلق الرصاص في غزارة خفيفة ثمّ متقطّعا. وتراكت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزججة دلّت على أنّ تجمّعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشروب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عمّا وراءه: «إنّ رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثمّ جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدّج: «غدروا بالأبرياء غدراً، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص في الهواء من مواقعهم البعيدة، ولكنّهم سايروا المظاهرة في هدوء مصطنع، وجعلوا يوزّعون أنفسهم على مخارج الطريق، وفجأة أشهروا المسدّسات وأطلقوا الرصاص، على ألقااتل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبّطون في دمهم، الإنجليز وحوش ولكنّ

بصينية عليها ثلاثة أقداح شاي وكأس ويسكي بالصودا فتناول محمد عفت الكأس باسماً وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاي. وكان هذا التوزيع الذي يتكرر كل مساء كثيراً ما يضحكهم؛ فقال محمد عفت وهو يلوح بالكأس في يده ويشير إلى أقداح الشاي في أيديهم:

- عفا الله عن الأيام التي أدبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنهذا:

- إنها أدبتنا جميعاً، وأنت أولنا، غير أنك قليل الأدب...

وكان صدر إليهم أمر طيبي واحد في أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر، غير أن طبيب محمد عفت سمح له بكأس واحدة في اليوم، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدّد فيه طبيبه هو، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكن الطبيب حذره في جدّ وحزم قائلاً: «إن حالتك غير حالة صديقك»، وقد افتضح أمر سعيه إلى طبيب محمد عفت فكان موضع نقاش وتندر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكاً:

- لا شك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوهاً وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عفت:

- كدت والله أنسى نشوتها!

فقال له عليّ عبد الرحيم مازحاً:

- فسدت توبتك بهذا القول يا عرييد.

فاستغفر الفار ربّه ثمّ ثتم في استسلام:

- الحمد لله...

- بتنا نُحسد على كأس واحدة!... أين... أين

النشوات؟!

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكاً:

- إذا ندمتم فاندموا على الشرّ لا على الخير يا أولاد

الكلب!

- إنك كسائر الوعاظ، أستهتم في دنيا وقلوبهم في

دنيا أخرى...

الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظللة بأشجار التوت والجَمَيز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفَلّ والياسمين فشأنها عجيب، وعجيب أيضاً بركة المياه التي تتوسطها، ثمّ الفراندا الخشبية التي تمتدّ بعرض الحديقة. وكان محمد عفت واقفاً على سلم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزلية، أما عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين. وسلّم أحمد على الإخوان ثمّ تبع محمد عفت إلى الكنبه التي تتوسط الفراندا وجلسا معاً. وكانت بدانتهم قد زایلتهن جميعاً فيها عدا محمد عفت الذي بدا مترهلاً كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلع عليّ عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شيئاً، وانتشرت في صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا عليّ عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشدّ إذعائاً للكبر، غير أنّ حمرة وجه محمد عفت كانت بالاحتقان أشبه، وبقي أحمد رغم ضموره وشبهه جيلاً صافياً. وكان أحمد يحبّ هذا المجلس حباً جماً، كما يحبّ منظر الحديقة التي تترامى حتىّ السور العالي المشرف على الجمالية، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلاً كأنما ليتمكن أنفه العظيم من الارتواء بعبر الفلّ والياسمين والحناء، وربما أغمض عينيه أحياناً ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجَمَيز. غير أنّ أنبل ما خالط قلبه في تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصداقة الذي يكنّه هؤلاء الرجال. كان يرنو بعينه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التي نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه، وكان أشدهم تعلقاً بالماضي وذكرياته، يفتنه كلّ ما يذكر بجمال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل:

- مَنْ يلاعبني؟

فقال أحمد مستنكراً وكان قليلاً ما يشترك في ألعابهم:

- أجّل اللعب إلى حين، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة.

فعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثمّ جاء نوب

- إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن، ستصبح الانقلابات في خبر كان...

- نعم، وإذا فكر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد من يسانده!

وعاد محمد عفت يقول:

- سيجد الملك نفسه بين اثنتين فإمّا احترام الدستور

وإمّا السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشك:

- وهل يتخلّى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟

- وإذا سلّم الإنجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك؟

فتساءل الفار مرة أخرى:

- وهل يسلم الإنجليز بالجلاء حقاً؟!

قال محمد عفت في ثقة من يعتز بثقافته السياسية:

- لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات،

وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى

الائتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أوكد لكم أنّ

الإنجليز راغبون الآن في المفاوضة، حقاً إنّ الإنسان لا

يدري كيف تنكشف هذه الغمّة، كيف يمكن أن

يذهب الإنجليز أو ينتهي نفوذ الخوارج، ولكنّ ثقتنا

في مصطفى النحاس لا نهاية لها...

- ثلاثة وخمسون عاماً من الاحتلال تنتهي بشوّة

كلام حول مائدة؟!

- كلام قد سبق بدم زكي مسفوح...

- ولوا!

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:

- سيجدون أنفسهم في مركز حرج وسط حالة دوليّة

خطيرة!

- يستطيعون أن يجدوا دائماً من يؤمن ظهرهم،

وإسماعيل صدقي حيّ لم يمّت!

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف:

- حادثت كثيرين من المظّلين فوجدتهم متفائلين،

يقولون إنّ العالم مهّد بحرب طاحنة، وإنّ مصر في

فوهة المدفع، وإنّ من صالح الطرفين الاتفاق

المشرف...

ثمّ واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه في ثقة

واطمنان:

وإذا بعليّ عبد الرحيم يقول رافعاً صوته إلى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث:

- يا رجال! ما راكّم في مصطفى النحاس؟!

الرجل الذي لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض

فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة

١٩٢٣»...

ففرقع محمد عفت بأصابعه وقال في سرور:

- برافو... برافو!... إنّهُ أصلب من سعد

زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضاً باكياً

ثمّ يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويردّد في ثبات

صوت الأمة التي أولته زعامتها قائلاً: «دستور سنة

١٩٢٣ أولاً»، وهكذا عاد الدستور، فمن كان يتصوّر

ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يهزّ رأسه في عجب:

- تصوّروا هذا المنظر، الملك فؤاد وقد حطّمه

المرض والشيخوخة، يضع يده على كتف مصطفى

النحاس في مودة بالغة! ثمّ يدعوه إلى تأليف وزارة

ائتلافية، فلا يتأثر النحاس لذلك كلّهُ، ولا ينسى

واجبه كزعيم أمين، يغفل لحظة واحدة عن الدستور

الذي توشك الدموع الملكية أن تغطّي عليه، لا يتأثر

لشيء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة: دستور سنة

١٩٢٣ أولاً يا مولاي.

عليّ عبد الرحيم محاكياً نفس اللهجة:

- أو الخازوق أولاً يا مولاي!

أحمد عبد الجواد ضاحكاً:

- قسماً بمنّ جرت مقاديره بأن نرى الويسكي بيننا

ونتجنّبه إنّهُ لموقف عظيم!

وشرب محمد عفت بقية كأسه ثمّ قال:

- نحن في عام ١٩٣٥، ثماني سنوات مرّت على

موت سعد، وخمسة عشر عاماً على الثورة، ولا يزال

الإنجليز في كلّ مكان، في الثكنات والبوليس والجيش

وشقّي الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من

كلّ ابن لبوة سيّداً مهاباً ما زالت قائمة، ينبغي أن

تنتهي هذه الحال المؤسفة...

- ولا تنس الجلاّدين أمثال إسماعيل صدقي ومحمد

محمود والإبراشي!

الجامع الحرام، فقلت في نفسي خفف الوطء يا ابن المركوب!

وعلا الضحك، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة في الضحك. وتساءل محمد عفت بلهجة ذات مغزى وهو يحدق في وجه أحمد:

- ما وجه العجب في ذلك أليس هو ابن حضرتك؟! فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجباً:

- عرفته دائماً مؤدّباً مهذباً هادئ الطبع، لا يرى إلا في مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشفقت عليه من الإغراق في الانزواء والإفراط في عمل لا جدوى منه...

فقال إبراهيم الفار مداعباً:

- من يدري فلعل في بيت جلييلة فرعاً من دار الكتب!

وقال عليّ عبد الرحيم:

- أو لعله يعتزل في مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الإنسان أصله قرد؟!

وصحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذي كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجدّ في أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفاً سهلاً للمزاح والقفز، ثم قال:

- لهذا لا يفكر الملعون في الزواج حتى ظننت به الظنون!...

- ما عمر المحروس الآن؟

- في التاسعة والعشرين!...

- يا سلام! . يجب أن تزوجه، لماذا يرغب عن الزواج؟

تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول:

- هذه موضحة فحسب ولكن بنات اليوم يزحمن الشوارع فضعت الثقة بهن، ألم تسمعوا الشيخ حسين وهو يغني «يا ما نشوف حاجات تجش، البيه والهانم عند مزين؟!».

- ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام

- إليكم خبراً هاماً، وعدت بأن أرشح في دائرة الجمالية في الانتخابات القادمة، وعدني النقراشي نفسه.

وتهللت وجوه الأصدقاء سروراً، ثم لما جاء دور التعليق قال عليّ عبد الرحيم متصتعاً الجدّ:

- لا يعيب الوفد إلا أنه يرشح حيوانات أحياناً باسم نواب!

فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد:

- وماذا يفعل الوفد؟ إنه يريد أن يمثل الأمة كلها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثل أولاد السفلة إلا الحيوانات؟!.

فلكزه محمد عفت في جنبه وهو يقول:

- عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاهما عجوز وقارح!...

- إني أرضى لو رشحوا جليلة، فهي عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال عليّ عبد الرحيم باسمياً:

- قابلتها أول أمس أمام عطفها، ما زالت كالمحمل ولكن الكبر أكل عليها وبال!

فقال الفار:

- صارت معلّمة قد الدنيا، بيتها شغال ليل نهار، ويموت الزمار وصباعه ييلعب.

فضحك عليّ عبد الرحيم طويلاً ثم قال:

- كنت ماراً أمام باب بيتها فرأيت رجلاً يتسلل إليه وهو يظن أنه بمأمن من الرقباء، فمن تظنونه كان؟...

(ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد)...

المحروس كمال أفندي أحمد خوجة مدرسة السلحدار!...

ضحك محمد عفت والفار ضحكة عالية، أما أحمد عبد الجواد فقد اتسعت عيناه دهشاً وانزعاجاً، ثم تساءل في ذهول:

- كمال ابني؟!...

- أي نعم، كان ملتقاً في معطفه، وعلى عينه نظارته الذهبية، وشاربه الغليظ يجتال وقاراً، كان يسير في رزاة ومهابة كأنما ليس هو ابن «ضحكجي أغا»، وبفس الوفار انعطف إلى البيت كأنما ينعطف إلى

متعزياً لأنه ربّاه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرّساً محترماً فله أن يفعل ما يشاء. ولعلّه من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين! ولو أنصف الحفظ لتزوَّج كمال منذ سنوات، ولما تزوّج ياسين أبداً، ولكن من يدعي القدرة على حلّ هذه الرموز؟ وإذا بالفار يسأله:

- متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فأجاب أحمد بعد تذكّر:

- في يناير الماضي، أي منذ عام تقريباً، يوم جاءني في الدكان لأبيع لها البيت...

فقال إبراهيم الفار:

- اشتريته جليلة، ثم وقعت المجسونة في حبّ عربي كادوا فتركها على الحديدة، وهي الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العالمة في حال من الاضمحلال يرثى لها!

فهزّ أحمد عبد الجواد رأسه في أسف، وتمتم:

- السلطانة في حجرة فوق السطح! سبحان من له الدوام. فقال عليّ عبد الرحيم:

- نهاية محزنة، بيد أنّها كانت متوقّعة...

فندّت عن محمّد عفت ضحكة رثاء وقال:

- فليرحم الله من يأمن إلى هذه الدنيا!

ثم دعا الفار إلى اللعب فتحذّاه محمّد عفت، وسرعان ما التقوا جميعاً حول النرد، وأحمد عبد الجواد يقول:

- ترى من يكون حظّه كجليلة، ومن يكون كزبيدة!

## ٦

في إحدى حجرات قهوة أحمد عبده، جلس كمال وإسماعيل لطيف. وهي نفس الحجرة التي كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوي في مطلع شبابه. وبالرغم من برودة ديسمبر كان جوّ القهوة دافئاً، إذ أنّه بإغلاق مدخلها يسدّ المنفذ الوحيد لها إلى سطح الأرض، فكان من الطبيعي أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في جنباتها بدرجة محسوسة. ولم يكن لإسماعيل لطيف

الشباب. إنّ خزيجي الجامعة يتوظّفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!

وتساءل أحمد عبد الجواد في قلق بين:

- أخاف أن يعرف أنّ جليلة كانت يوماً صاحبتني أو تعرف هي أنّه ابني!

فتساءل عليّ عبد الرحيم ضاحكاً:

- أحسبتها تستجوب الزبائن؟!

فقال محمّد عفت وهو يغمز بعينه:

- لو عرفته الفاجرة لقصّت عليه قصّة أبيه من

الألف إلى الياء!

فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

- لا قدر الله ولا كان...

فتساءل إبراهيم الفار:

- أتخسب أنّ الذي يستطيع أن يعرف أنّ جدّه

الأوّل قرد يعجز عن معرفة أنّ أباه فاسق فاجر؟!

فضحك محمّد عفت عالياً حتى سعل، وصمت لحظات ثم قال:

- الحقّ أنّ مظهر كمال خدّاع، رزين هادئ

متزمّت، خوجه بكلّ معنى الكلمة...

فقال عليّ عبد الرحيم بلهجة الترضية:

- يا سيدي ربّنا يخبئه ويطول عمره، ومن شابه أباه

فما ظلم... فعاد محمّد عفت يتساءل:

- المهمّ أهو «حلنج» كآبيه؟... أعني هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهنّ؟

فقال عليّ عبد الرحيم:

- أمّا هذا فلا أظنّ! يخيل إليّ أنّه يظّل متقدّماً

برزاقته ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة

النصيب، ثم يأخذ في نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار،

ثم يرمي عليها، وهو في الغاية من الجذّ والرزانة كأنّما يلقي درساً خطيراً!

- يخلق من ظهر الحلنج دهل!

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخوط:

لماذا يبدو لي الأمر غريباً؟! وصمّم على أن يتناسى

الخبر. وكما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود

به، قال دون تردّد أنّه آن لهم أن يلعبوا. بيد أنّ

أفكاره ظلّت تدور حول الخبر الجديد. وقال لنفسه



الذي زامله فيما بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧، تلك الفترة الفدّة في حياته التي عاشها بكلّ جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد، فكانت عهد الصداقة الحقّة متمثلة في حسين شّداد، وعهد الحبّ الصادق متبلورًا في عابدة، وعهد الحفاصة العارمة مستمّدة من شعلة الثورة المصريّة الرائعة، ثمّ عهد التجارب العنيفة التي قدّفت بها الشكّ والمجون والأهواء، وقد كان إسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فإن هو اليوم من ذلك؟. وعاد إسماعيل لطيف يقول في شيء من التذمّر:

- بيد أنّ هناك أمورًا تشغل بالنا باستمرار، كالكاثر الجديد ووقف الترقّيات والعلاوات، وأنت تعلم أنّي تعودت على الحياة الرغيدة في كنف أبي، ولكنّ أبي لم يترك ميراثًا، ووالدي بدورها تستهلك كلّ معاشها، لذلك رضيت في سبيل الرزق أن أعمل في طنطا، وهل كان مثلي يرضى بذلك؟!

فضحك كمال قائلاً:

- مثلك ما كان يرضى بشيء!

فابتسم إسماعيل فيما يشبه الزهو اعتراضًا بماضيه الخافل الذي هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

- ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضي؟

- كلّاً شبت من كلّ شيء، وأستطيع أن أقول بأنّي لم أضجر من حياتي الجديدة بعد، كلّ المطلوب منّي أن أبدي شيئًا من المهارة بين حين وآخر، حتّى أفوز ببعض النقود من والدتي، كذلك على زوجي أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ إنّني لا زلت مغرمًا بالحياة الرغيدة...

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكًا:

- علّمنا وتركتنا وحدنا على الطريق...

فضحك إسماعيل ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيرًا من ملامح الماضي الماكرة، وقال:

- آسف أنت على ذلك؟. كلّاً، أنت تحبّ هذه

الحياة بإخلاص عجيب، غير أنّك رجل معتدل، إنّني فعلت في سنوات لعبي القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثمّ بلهجة جدّية»... تزوّج وغيّر حياتك!

ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في مجارة كمال. إنّ الصديق القديم الذي لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أنّ مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيرًا محاسبًا مذ تخرّج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتّصل به تليفونيًا بمدرسة السلحدار، ونال منه موعدًا للقاء في هذا الركن الأثري. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملاحمه المدبّبة الحاذة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثلاً طيّبًا للزوج والأب، الذي كان يومًا مثلاً فذاً للقحة والاستهتار والفظاظة. وصبّ كمال الشاي الأخضر في قدح صاحبه ثمّ في قدحه وهو يقول بأسًا:

- يبدو أنّ قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسماعيل في تطاوله المعهود، وقال:

- إنّها غريبة حقًا، ولكن لماذا لا نختار مكانًا فوق

سطح الأرض؟!

- على أيّ حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين

أمثالك.

فضحك إسماعيل وهو يهزّ رأسه في تسليم، كأنما يقرّ بأنّه أصبح جدّيرًا حقًا بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذلك سأله كمال مجاملًا:

- كيف الحال في طنطا؟

- عال، أمّا النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأمّا الليل فأقضيه مع زوجي وأولادي.

- وكيف حال الأبناء؟

- نعمده، إنّ راجتهم دائمًا على حساب تعبنا،

ولكن نعمده في جميع الأحوال...

فسأله كمال مدفوعًا بحبّ الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامّة:

- وهل وجدّتهم حقًا السعادة الحقيقيّة، كما يقول

العارفون؟

- نعم، إنّهم لذلك.

- رغم متاعهم؟

- رغم كلّ شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشدّ. هذا شخص جديد لا يكاد يمتّ بصلة إلى إسماعيل لطيف

فقال كمال بلهجة عابثة:

- هذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خُلِقَ إسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أي حال إنّه الصديق القديم الباقي، أما حسين شذّاد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه، لم يعد لهما من سبب في القلب وأسفاه، لم يكن إسماعيل لطيف يوماً صديق الروح. ولكنّه ذكرى حيّة من الماضي العجيب، لذلك فهو خليق بأن يعترّ به، وأعترّ به أيضاً لوفائه، لا مسرّة روحية في مصاحبته، ولكنّه آية حيّة على أنّ الماضي لم يكن خيالاً، ذلك الماضي الذي أحرص على إثبات حقيقته حرصي على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عابدة في هذه اللحظة من الزمان؟. وأين هي في عالم المكان؟. وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبّها؟... كلّ أولئك أعاجيب... .

- إنّي معجب، يا سيّد إسماعيل، أنت شخص جدير بكلّ توفيق.

والقى إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحاملة والعاكفين على السمر واللعب، ثمّ تساءل:

- ماذا يعجبك في هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنّه قال بلهجة آسفة:

- أما علمت؟!. سوف تهدم في القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة، سيخفي هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

أنطقَ بالحق؟. ربّما، ولكنّ للقلب لواعجه، يا

قهوتي العزيزة أنت قطعة من نفسي، فيك حلمت كثيراً

وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعواماً، واجتمع

فهمي بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل،

ثمّ إنّي أحبّك لأنك مصنوعة من مادة الحلم، ولكن ما

جدوى هذا كلّهُ؟. وما قيمة الحنين إلى الماضي؟. ربّما

ظلّ الماضي أفيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب

به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاكّ: فلنقل أيّ

كلام ما دمنا لا نؤمن بشيء.

- في هذا صدقت، إنّي أقترح أن يهدموا الهرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الهرم!. ما دخل الهرم في قهوة أحمد عبده؟!

- أعني الآثار، أعني أن نهدم كلّ شيء في سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتطاول بعنقه - كما كان يفعل قديماً كلّما تحدّى - ثمّ قال:

- أحياناً تكتب كلاماً يناقض هذا القول، إنّي كما

تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلّة الفكر إكراماً لك،

وسبق أن صارحتك برأيي، أي نعم، مقالاتك

عسيرة، المجلّة كلّها جافّة والعياذ بالله، لم أستطع

المثابرة على اقتنائها لأنّ زوجتي لا تجد فيها شيئاً يُقرأ،

ولا تؤاخذني فهذا قولها!. أقول إنّي وجدت أحياناً فيها

تكتب نقيض ما تقول الآن، ولكنّي لا أزعج أنّي أفهم

كثيراً - وبينك وبينك ولا قليلاً - ممّا تكتب، وبهذه

المناسبة أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب

المحبسون؟، لو فعلت لوجدت جمهوراً كبيراً،

ولربحت مالاً وفيراً.

في زمن مضى كان يحقر هذا الرأي في عناد وثورة،

الآن لا زال يحقره ولكن دون ثورة، لكنّه يشكّ في

هذا الاحتقار، لا لشبهة في أنّه في غير موضعه، ولكن

لأنّه يرتاب أحياناً في قيمة ما يكتب، وربّما ارتاب في

ارتيابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيها بينه وبين نفسه

بأنّه قد ضاق بكلّ شيء ذرعاً، وأن الدنيا تبدو أحياناً

كلفظة قديمة اندثر معناها.

- إنك لم ترض يوماً عن عقلي!

إسماعيل وهو يقهقه:

- أتذكر؟. يا لها من أيام!

أيّام مضت، لم تعد نيرانها تحرق، لكنّها مصنوعة في

موضعها كالجئة العريضة، أو كعلبة الملابس المستكنة في

مكانها منذ ليلة عائدة... .

- ألم يبلغك شيء عن حسين شذّاد أو حسن

سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

- ذكّرني! حدثت أمور في العام الماضي الذي

قضيته بعيداً عن القاهرة... .

- لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعائدة، ولكن لا أحد منهم في مصر الآن.  
- وكيف عاد حسين تاركاً أسرته على حالها؟ ومن أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

- سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملاً في أثناء إقامته الطويلة في فرنسا، لا أدري شيئاً عن هذا، فأنا لم أره منذ ودّعناه معاً، كم مضى على ذلك؟. عشرة أعوام على وجه التقريب. أليس كذلك؟. إنه تاريخ قديم، كم أثار شجوني!

كم وكم، أما هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدا، وقلبه يقطر حزناً، فيذكر بذلك القلب الذي اتخذ من الحزن شعاراً، إن هذا الخبر قد رجّحه رجلاً عتيقاً حتى كاد ينفذ عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذي كان حباً خالصاً وحزناً خالصاً، أهذه هي نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار. كأنما قضي بأن تؤذبه هذه الأسرة بأدب الالهة الساقطين! الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عابدة لا تزال في بحيرة من العيش بفضل مكانة زوجها، فإذا طرأ على كبرياتها الملائكي؟. وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى...  
- كان لحسين أخت صغيرة. ما اسمها؟. إنّي أذكره حيناً وأنساه أحياناً كثيرة!

- بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة...  
تصوّر آل عائدة في حياة متواضعة. كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضي بدور يوماً بجورب مرفوف؟. وهل تتخذ من الترام مركباً؟. آه... لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأي في الطبقات وفوارقها، فإنك تشعر من جرّاء هذا الانقلاب بانهايار خفيف، ويعزّ عليك أن تسمع بأنّ مثلك العليا تتمرّغ في التراب، فلتهنأ على أيّ حال بأنّه لم يبق من الحب شيء، أجل... ماذا بقي من الحب القديم؟. إذا قال لا شيء فإنّ قلبه يخفق في حنان عجيب عند تردد أيّ أغنية من أغاني ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما

ثم استطرد في اهتمام متزايد:  
- علمت حال عودتي من طنطا أنّ أسرة شدّاد انتهت.

تفجّرت في قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعانى كثيراً وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:  
- ماذا تعني؟

- أخبرتني والدتي أنّ شدّاد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم في حوزته، انتهى شدّاد، ثمّ إنه لم يتحمّل الصدمة فانتحرا.

- يا له من خبرا. متى حدث ذلك؟  
- منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع، ذلك القصر الذي عشنا في حديقته زمناً لا ينسى...

أيّ زمن وأيّ قصر، وأيّ حديقة، أيّ ذكريات، أيّ ألم نسي، أيّ نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، أليس هذا الجيّدان أضخم ممّا ينبغي أن يستدعيه الحال؟! وهذه الحقيقة التي تمخّض عنها القلب أشدّ ممّا تستحقّ ذكريات عفى عليها النسيان؟.

قال كمال بصوت حزين:  
- انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل في امتعاض:  
- لم تعد لأمّ صديقنا إلّا خمسة عشر جنيهاً شهرياً من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقّة متواضعة بالعباسية، وقد زارتها والدتي فعاتت تصف حالها وهي تبكي، تلك السيّدة التي تقلّبت في نعيم لا يتصوّره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شك، أم يظنّه نسي؟. يذكر الحديقة والكشك والنسيم الذي كان يترنّم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنّ الساعرة حزين حقّاً، إنّ الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحقّ له أن يحزن بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التي يتهدّدها الزوال، فكلّ شيء ينبغي أن ينقلب رأساً على عقب.  
- إنه لشيء حزن، ومما يضاعف الحزن أنّنا لم نقم بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

## ٧

مليح هذا المجلس... غير أن اليد قصيرة، من هذا الموضع الدافئ ترى الغادي والرائع... من شارع فاروق وإليه... ومن الموسكي وإليه... ومن العتبة وإليها، ولولا برودة ينابير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركًا رغم أنه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتي الربيع يومًا... أجل سيأتي غير أن اليد قصيرة، ستة عشر عامًا أو يزيد وأنت حبيب الدرجة السابعة، دكان الحمزاوي بيع بأبخس الأثمان... وريح الغورية على ضخامته لا يدر إلا جنهات... أما بيت قصر الشوق فمُسكني وماوأي، وإذا كان لرضوان جد غني فكرمة لا عائل لها غيري، رب أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة.

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذي شارب مرتب ونظارة ذهبية، يخطر في معطفه الأسود قادمًا من الموسكي متجهًا نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما بهم بالقيام، ولكنه لم يفارق مجلسه. ولولا أن الشاب كان مسرعًا لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته. كمال خير سمي حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لم تعجلت الزواج قبل الأوان؟. ولم وقعت فيه مرة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأولى؟. ولكن من ذا الذي لا يشكو: أعزب كان أم متزوجًا؟. وكانت الأزيكية ملاذًا ومتعة، ثم حل بها البوار فهي اليوم بؤرة الخالة والسفلة، لم يبق لك من عالم المسرات إلا لذة المشاهدة في هذا المفرق من الطريق ثم، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية من العاملات في الأسر الإفرنجية... فهي في الغالب مهذبة المظهر نظيفة، أما سيد مزايها دون منازع فضعف الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار.

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كل ذات حسن، فتتطبع على عدسة عينه صور النساء

معنى ذلك؟. لكن مهلاً، إنها ذكرى الحب لا الحب نفسه، ونحن نحب الحب في جميع الأحوال خاصة الأحوال التي لا حب فيها، أما في هذه اللحظة فلأنني أشعر كأنني غريق في بحر الهوى، ذلك أن المرض الكامن ينث سموه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشك زلزل الحقائق جميعًا يقف عند الحب في حذر، لا لأنه شيء فوق الشك، ولكن احترامًا للحزن، وحرصًا على حقيقة الماضي.

وعاد إسماعيل إلى المأساة سائلاً كثيرًا من التفاصيل، حتى ضاق بها فيها بدا، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها:

- الدوام لله إنه شيء مؤسف حقًا، ولكن حسبنا نكد...

ولم يحاول كمال أن يدعوه إلى مزيد. كان فيها قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان يبكي بكاء صامتًا بدموع غير منظورة يذرفها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضًا قديمًا قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجبًا: تسعة أعوام أو عشرة! ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عايده الآن؟. كم يود أن يديم إليها النظر ليطلع على سر ذلك الماضي الساحر. بل ليقف على سر نفسه. إنه الآن لا يراها إلا لمحا خاطفًا في نغمة قديمة معادة، أو صورة في إعلان صابون. أو من سباته كالفرع وهو يمس: هذه هي! ولكن ما هي على الحقيقة قسمة من قسماات نجمة سينائية، أو ذكرى متسللة، فيستيقظ والواقع ١٩ ونبا به مجلسه، فتأقت نفسه إلى رحلة مغامرة في دنيا الغيب، فقال لإسماعيل:

- أتقبل دعوتي إلى كأسين في مكان لطيف مأمون؟  
فقهقه لإسماعيل قائلاً:

- إن زوجتي تنتظرني لنذهب معًا إلى زيارة خالتها...

ولم يكثرث لرفض دعوته. طالما كانت نفسه نديمه. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أي حديث. وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه: قد نضيق بالحب إذا وجد، ولكن شد ما نفتقده إذا ذهب.

يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطلّ على عطفة الماوردي، قد صفّت بها ثلاث موائد متفرقة في الأركان، خلّت اثنتان وأحّدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهّلّلين، شأنهم كلّ مساء. كان ياسين - رغم شكواه - أصغرهم سنًا، أمّا أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات، يليه في مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فرئيس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثمّ حمامٍ من ذوي الأملاك غير مشتغل. كان الإدمان يلوح في سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا في الهزيع الأخير من الليل، يتجرّعون أردًا أنواع الخمر وأشدها مفعولًا وأرخصها ثمنًا، غير أنّ ياسين لم يكن يلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا في القليل النادر، وفيما عدا ذلك فكان يُمضي معهم ساعتين أو ثلاثًا كيفما اتفق، وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلاً:

- أهلاً بالحاج ياسين. . .

وكان يصّر على وصفه بالحاج إكرامًا لاسمه المبارك، أمّا المحامي وكان أشدهم إدمانًا فقال:

- تأخّرت يا بطل، حتّى قلنا لقد عثر في امرأة ستحرمنّا من أنسه الليلة كلّها. . .

فعلّق الأعزب العجوز على كلام المحامي متفلسفًا:

- لا يفرّق بين الرجل والرجل إلا امرأة!

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف:

- لا خوف عليك من هذه الناحية. . .

فقال العجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه:

- إلا لحظات شيطانية، فقد تستشيرني بنت في الرابعة عشرة.

فقال الباشكاتب:

- الاسم لطوبة والفعل لأمشيرا.

- لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد.

- ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والتمرس، فتناول ياسين

الكأس وهو يقول:

من ذوات المعاطف والملاءات اللفّ، يَراها كلاً وأجزاء في مثابة لا تعرف الكلال. كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتّى العاشرة، وفي أحيان أخرى ربّما لم يطل به الجلوس إلا ريثما يشرب قهوته، ثمّ ينهض مسرعًا في أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصًا، كأنّه تاجر روبايكيا. ولكنّه يقنع في الغالب بالمشاهدة، وربّما تبع الحساء دون مقصد جدّي، أمّا الإقدام الحقّ، كان يصطاد خادمًا خليعة أو أرملة فوق الأربعين، فكان يقع على فترات وفي حرص شديد. إذ إنّه لم يعد الرجل الذي كان، لا لأنّ الموارد ناءت بالأعباء فحسب، ولكن لسنّ الأربعين التي نزلت به ضيقًا دون دعوة أو استئذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وشعرة بيضاء في عارضني طالما أوصيت الخلاق بمعالجتها، وقال الخلاق إنّ أمر الشعرة هيّن، ولكنّ الشيب لا يلبث أن ينفجر. ثبّا لها، للخلاق وللشيب، ووصف الرجل صيغة مفيدة ولكنّي لن ألجأ إليها. بيد أنّ أبي بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أبي؟ لا في الشيب وحده، كان شابًا في الأربعين، وكان شابًا في الخمسين، أمّا أنا! ربّاه لم أفرط أكثر ممّا أفرط أبي». أريح رأسك وأتعب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًا كما يروها الرواة؟ أين زنوبية من هذا كلّها؟ جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكنّ قوّته في أنّك تحتضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتنقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمخّض عن امرأة سارحة ورجل جادّ في أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنات، فأين راحة القلب أين؟ وأتعس ما في الدنيا أن تتساءل يومًا ذاهلاً أين أنا؟!

وغادر القهوة في منتصف العاشرة، فقطع العتبة متمهلاً إلى شارع محمّد عليّ، ثمّ مال إلى حانة «النجمة»، وحيّا «خالو» المائل وراء البار في وقفته التقليدية، فردّ الرجل تحيّة بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مرثمة، ثمّ أشار بذقنه إلى الحجرة الداخلية كأنّها ليخبره بأنّ أصحابه في الانتظار. وكان يمتدّ أمام البار دهليز ينتهي إلى ثلاث حجرات متداخلة يضيّج جوّها بالعريدة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم

- يناير هذا العام شايف كيفه.

فقال رئيس المستخدمين:

- لله في خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنّه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة!

فصاح المحامي:

- أنقذونا من السياسة، ما زلنا نسكر ونمزّ بالسياسة حتّى أخذت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية...

فقال رئيس المستخدمين:

- حياتنا في الواقع سياسيّة ولا شيء غير هذا...

- أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة؟

فقال الرئيس محتدًا:

- درجة سادسة قديم من فضلك، من أيّام سعدا

فقال الأعزب العجوز:

- أنا درجتي السادسة من أيّام مصطفى كامل، لذلك أحلت بها على المعاش إكرامًا لذكراه... اسمعوا، أليس من الأفضل أن نسكر ونغني؟

فقال ياسين وهو يهيم بإفراغ كأسه:

- لنسكر أولًا يا والدي...

لم يتمتّع ياسين في حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنّه كان له في كلّ مجلس - قهوة أو حانة - أصحاب، وكان يألّف بسرعة ويؤلّف بأسرع من ذلك. ومنذ اتّخذ هذه الحانة - تبعًا لتطوّر حالته المادّيّة - مجلسًا ليليًا مختارًا عرف هذه الجماعة، وتوقّعت أسباب السمر بينهم، غير أنّه لم يقابل أحدًا منهم في الخارج، ولم يسعَ إلى ذلك، جمع بينهم الإدمان والاسترخا، وكان رئيس المستخدمين أرفاههم مركزًا، ولكنّه كان كثير العيال، أمّا المحامي فقد جاء هذه الحانة جريًا وراء سمعة خمرها القويّة، بعد أن لم تعد تؤثّر فيه الخمور النظيفة إلّا في النادر، ثمّ ألفها واعتادها. وجعل ياسين يشرب ويثرثر، قاذفًا بنفسه في دوامة العريضة التي تحتاح المكان وترتطم بأركانه. وكان العجوز الأعزب أحبّ أفراد الجماعة إليه. ولم يكن يشبع من مداعبته خاصّة فيما يتعلق بالرموز الجنسيّة، فكان الرجل يحذّره من الإفراط. ويذكره بمسؤوليّاته العائليّة، فيقول له ياسين في استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكذا أبي،

وهكذا كان جدّي من قبل، وأعاد هذا القول في هذه السهرة، فتساءل المحامي مازحًا:

- وأمّك؟... أكانت كذلك أيضًا؟

وضحكوا كثيرًا وضحك ياسين، غير أنّ قلبه غاص في صدره متوجّعًا وأفراط في الشراب. وخيّل إليه رغم نشوئه أنّه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفي كلّ مكان يتغامزون عليّ، فأين أنا من أبي؟. ليس أتعمس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك، بيد أنّ رحمة الشراب واسعة، تفيض عليك أنسا، أنسا رقيقًا وعزاء جميلًا يهون عنده كلّ خطب، فقل ما أعظم مسرتي، لن يعود العقار الذي ضاع، ولا الشباب الذي انقضى، ولكنّ الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعتها شابًا يافعًا، وها هي تؤنس رجولتي، وسوف يهتزّ لها طربًا رأسي المجلّل بالمشيب، بذلك يفرح منّي القلب رغم العناء، وغدًا عندما يستوي رضوان رجلًا وتتهادى كريمة عروسًا، أشرب أنخاب السعادة في العتبة الخضراء، فما أعظم مسرتي».

وإذا بالجماعة تغني «أسير العشق ياما يشوف هوان»

ثمّ غنّت «يا جارة الوادي» في جوّ صاحب وأصوات معربة، فردّد الغناء أقوام من سائر الحجرات والسدهليز، ثمّ ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدّث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التي تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم في ليبيا، فما كان من الجماعة إلّا أن ردّدت في صوت واحد «إرخي الستارة اللي في ريحنا... أحسن جيرانا تبحرنا». ورغم إفراط العجوز في الشراب والعريضة، فقد احتجّ على هذه الإجابة الماجنة، ورماهم بالهذر فيها يليق به الجحدّ. فأجابوه في صوت واحد مردّدين «صحيح خصامك وإلا هزار» فلم يسعَ الشيخ إلّا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفّظ.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته في قصر الشوق حوالى الواحدة صباحًا. وكعادته كلّ ليلة جعل يمرّ بحجرات شقّته كأنما يقوم بجولة تفتيشيّة، فوجد رضوان في حجّرتة يذاكر، وقد رفع

الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو في نشوة من الخمر والحب، كان يمازحهم ويسامرهم، وربما قصّ عليهم نوادر السكاري الذين صادفهم في الحانة، غير عابئٍ بأثر ذلك في الأنفس البريئة، مستهينًا باحتجاجات زُنوبة التي تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنما نسي نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفي حجرته وجد زُنوبة - كالعادة - نائمة وليست بنائمة. هكذا كانت أسدًا، فقبل أن يلج الحجرة يترامى إليه شخيرها، حتى إذا توسّطها تحرّكت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمدًا لله على السلامة». ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها. وقد بدت في صورتها الطبيعية أكبر من سنّها، وكثيرًا ما ظلّها تماثلها سنًا. ولكنّها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره، تلك الغانية القديمة التي نجحت في معاشرتة فيما لم تنجح فيه سيّدة من قبل، فأرست حياته الزوجية على أساس متين، نعم لقد انثابت حياتها في أوّل الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنّها بدت دائيًا حريصة على حياتها الزوجية كلّ الحرص. ومع الأيام صارت أمًا، ومنيت بالثكل، فلم يبق لها غير كريمة، غير أنّ ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمسك بحياتها الزوجية، خاصة بعد أن تهدّدها الذبول وناوها الكبر المبكر، ثم علّمتها الأيام أن تتحلّى بالصبر والمهادنة، وأن تتمرّس بدور «السيدة» بكلّ معنى الكلمة، وغالت في ذلك إلى حدّ أنّها لم تكن تتبرّج خارج بيتها حتى فازت أخيرًا باحترام بين القصرين والسكينة إلى حدّ ما، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة، على الرغم من أنّها لم تكن تجد نحوه حبًا، خاصة بعد أن ثكلت في الذكر الوحيد الذي أنجبته لياسين، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقته ونظافتها، وقد لاحظها ياسين باسمًا وهي تعيد ترتيب شعرها أمام المراة، ومع أنّه كان يضيّق بها أحيانًا إلى حدّ الضجر، إلّا أنّه كان يشعر بحقّ بأنّها أصبحت شيئًا ثمينًا في حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال. وجاءت بشال فتلقّفت به وهي تقفّف من البرد، وقالت متشكّية:

الشابّ رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحبّ بينهما عميقًا، كذلك الاحترام رغم أنّ رضوان كان يعلم أنّ والده لا يعود هذه الساعة إلّا ثملًا. أمّا ياسين فكان يعجب بجياله ابنه أيّما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذي سيرفع من شأنه، ويعزّز من كبريائه، ويعزّيه عن أمور كثيرة، سأله:

- كيف تجد دروسك؟

وأشار إلى نفسه كأنما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هنيئة المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

- أيزعجك إذا أدت الفونوغراف؟

- أمّا عني فلا. ولكنّ الجيران نائمون في هذه الساعة المتأخرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئًا:

- نوم العافية!

ومرّ بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغطّ في نومها على فراش صغير، على حين بقي فراش رضوان في الجانب الآخر من الحجرة خاليًا ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنّه ذكر ما يصحب إيقاظها في تلك الساعة من تدمّر فعدل عن خاطرتة. وأنجّه صوب حجرته. أجمل الليالي في هذا البيت حقًا هي ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدّسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة - بصرف النظر عن الساعة التي يعود فيها - فإنّه لا يتردّد في أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصلاة، ثم يوقظ كريمة وزُنوبة، ويدير الفونوغراف، ويمضي في محادثتهم وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل. كان مغرمًا بأسرته - خاصة رضوان - أجل لم يكن يشغل نفسه - أو لم يكن لديه من الوقت - ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركًا أمرهم لعناية زُنوبة وحكمتهم الفطرية! ومهما يكن الأمر فإنّه لم يطق لحظة واحدة أن يثقل حيالهم الدور القاسي الذي مثله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق في قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذي كان يجده نحو أبيه! والحقّ أنّه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراد. وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف

- ما أشدَّ البرد!.. هلَّا رحمت نفسك من السهر في الشتاء؟! .

فقال سانحاً:

- الخمر تغَيِّرَ الفصول كما تعلمين، لم تتعين نفسك بالاستيقاظ؟

فنفضت قائلة:

- فعلك متعب وكلامك متعب! .

بدا في جلبابه كالمنطاد، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو إلى المرأة في ارتياح، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان، ثم ضحك فجأة قائلاً:

- لو رأيته وأنا أتبادل التحية مع العساكر! أمسى عساكر آخر الليل أصدقائي الأعزاء! .

فغمغمت وهي تتنهد:

- يا فرحتي! .

## ٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير في الغوريّة بخطواته المثبّدة ممَّا يلتفت الأنظار حقّاً. كان في السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق الملبس إلى حدِّ التبرّج، ينتسب ببشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشعُّ بهاءً ونوراً، وتنمّ حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله، وعندما مرَّ بالسكّرية اتّجه رأسه إليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لتوه عمّته خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحقّ أنّه لم يجد من نفسه مشجّعاً - ولو مرّة - على أن يتخذ أحداً من أقربائه صديقاً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وسرعان ما اجتاز بوابة المتولّي، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتّى بلغ به المسير باب بيت قديم فطره وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمي عزّت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلّية الحقوق، ومنافسه - فيما بدا - في الجمال. وتهلّل وجه حلمي لرؤياه، ثمّ تعانقا وتبادلا قبلة كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معاً يصعدان السلم، وفي أثناء ذلك جعل حلمي يَنوّه بربطة رقبته صديقه وتحاوّب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بهما المثل في الأناقة وحسن الدوق، فضلاً عن

أنّ اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دلّ وجود الفراش والمكتب بها على أنّها معدّة للنوم والذاكرة معاً. والحقّ أنّها طالما سهرت بها يذاكران، ثمّ ناما جنباً إلى جنب على الفراش الكبير ذي الأعمدة السوداء والناموسية. ولم يكن بيتا رضوان خارج البيت بالشئ الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدّة أيّام، كبيت جدّه محمّد عفت بالجمالية، أو بيت أمّه بالميرة التي لم تنجب غيره رغم زواجها من محمّد حسن، ولذلك وليل أبيه الطبيعيّ إلى اللامبالاة، وترحيب زنوبة الخفيّ بكلّ ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة في البيات عند صديقه في مواسم الذاكرة، ثمّ صار الأمر بعد ذلك مألوفاً فلم يكن أحد ليعيره أيّ اهتمام، وفي مثل هذا الجوّ من اللامبالاة نشأ حلمي عزّت. توفيّ أبوه - وكان مأمور قسم - منذ عشرة أعوام. وفي ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوّجن، فعاش وحده مع أمّه العجوز، ووجدت المرأة صعوبة في بادئ الأمر في السيطرة عليه، ثمّ ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كلّه. وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأوّل من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيبة منذ وفاة الأب، ولكنّ حلمي لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتّى التحق بكلّية الحقوق، محافطاً في أثناء ذلك كلّه على ما تنطّلبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمي بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلّا به، لذلك بعث وجوده في نفسه نشاطاً وحماسة، فأجلسه على الكنبه الملاصقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر في اختيار موضوع - وما أكثر المواضيع لمحدثته - غير أنّ نظرة واجهة لاحت في عيني رضوان اعترضت تيار حماسه، فرنا إليه متسائلاً، ثمّ تخنّ ما هنالك فتمتم:

- زرت والدتك؟ أراهن أنّك قادم من هناك...

أدرك رضوان أنّ صدق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضجر في عينيه، وهزّ رأسه



الصمت وهما يذبيان السكر. وتغير تعبير وجه رضوان فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورغب حلمي بذلك فقال في ارتياح:

- تعودت المذاكرة معك، فلا أدري كيف أذاكر وحدي...

فابتسم رضوان متجاوبًا مع هذا الشعور الرقيق، ولكنّه سألّه فجأة:

- هل أطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد المفاوضات؟

- نعم. ولكنّ كثيرين يغطون متشائمين بالجو الذي يحيط بالمفاوضة، ويبدو أنّ إيطاليا - التي تهدّد حدودنا - هي محور المفاوضات الحقيقي، والإنجليز من جانبهم يهدّدون في حال فشل الاتفاق!

- إنّ دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعندنا دماء جديدة!

فهزّ حلمي رأسه قائلاً:

- هذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام، ما رأيك؟

- على أيّ حال فإنّ للوفد أغلبية ساحقة في هيئة المفاوضات، تصوّر أنّي سألت محمّد حسن زوج أمي عن رأيه في الموقف، فقال لي ساخراً: «أتتوهم حقاً أنّ الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟!»، هذا هو الرجل الذي ارتضته أمي زوجاً!

فضحك حلمي عزّت عالياً وسأله:

- وهل يختلف رأي أبيك عن ذلك؟

- إنّ أبي يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.

- أكرههم من صميم قلبه؟

- إنّ أبي لا يكره ولا يحب شيئاً من صميم قلبه!

- إنّني أسألك عن رأيك أنت، فهل أنت مطمئن؟

- لم لا، حتّى متى تبقى القضية معلّقة؟ أربعة وخمسون عاماً من الاحتلال، أف، لست أنا التيس وحدي!

فتناول حلمي عزّت آخر رشقة من قدحه وقال بأساً:

- يبدو لي أنّك كنت تحاذني بهذه الحفاصة عندما وقعت عيناه عليك!

بالإيجاب دون أن يتكلّم، فسأله حلمي:

- وكيف حالها؟

- عال...

ثمّ وهو يتنهد:

- ولكنّ هذا المدعوّ محمّد حسن!!، أنت لم تعرف

معنى أن يكون لأهلك زوج غير أبيك!

فقال حلمي مواسياً:

- كثيراً ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثمّ إنّ شيء قديماً!

فهتف رضوان حانقاً:

- لا لا لا، إنّهُ دائماً في البيت، لا يرحله إلّا إلى عمله في الوزارة، نفسي مرّة أزورها فأجدها وحدها، ويطلب له أن يمثّل دور الوالد والمرشد، سحقاً له، وعند كلّ مناسبة يذكّرني بأنّه رئيس أبي في إدارة المحفوظات، ولا يتردّد عن انتقاد مسلكه في عمله، ولكنّي من ناحيتي لا أسكت له...

وصمت دقيقة حتّى يهدأ انفعاله، ثمّ واصل حديثه:

- أمي حمقاء إذ رضيت أن تتزوّج من هذا الرجل، ألم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبي؟

وكان حلمي يعرف الكثير عن سيرة ياسين المشهورة، فقال بأساً:

- في العشق يا ما كنت أنوح!

فلوّح رضوان بيده معانداً وهو يقول:

- ولو! إنّ ذوق النساء سرّ خفيف والأدهى من ذلك

أنّها فيها يبدو راضية!

- لا تسع وراء ما ينغص صفوك.

فقال رضوان في نبرات حزينة:

- يا للعجب، إنّ جانباً عريضاً من حياتي ينضح بالنعاسة، إنّني أمقت زوج أمي ولا أحب امرأة أبي، جوّ مشحون بالبغضاء، إنّ أبي - كأمي - لم يحسن الاختيار، ولكنّ ماذا في وسعي أن أفعل؟!، وامرأة أبي تحسن معاملتي ولكن لا أتصوّر أنّها تحبّني، هذه الحياة ما أردّها!

وجاءت خادم عجوز بالشاي، فتحلّب ريق رضوان الذي عانى في الطريق من رياح فبراير القاسية. وساد

- من؟  
 فابتسم حلمي عزت ابتسامة غريبة، وقال:  
 - كلنا تحمست تورّد وجهك وبرز جمالك في أحسن  
 أحواله، وفي لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك  
 ولا شكّ وأنت تحدّثني، كان ذلك يوم ذهب وفد  
 الطلبة إلى بيت الأمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك  
 اليوم؟  
 فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاءه:  
 - نعم، ولكن من هو؟  
 - عبد الرحيم باشا عيسى!  
 فتفكّر رضوان قليلاً ثمّ تمتم:  
 - رأيته مرّة عن بُعد...  
 - أما هو فقد رآك اليوم لأوّل مرّة.  
 وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام، فعاد  
 حلمي يقول:  
 - وعندما قابلني عقب انصرافك سألني عنك،  
 وطلب إليّ أن أفدّمك إليه في أوّل فرصة!  
 وتبسّم رضوان ثمّ قال:  
 - هات كلّ ما عندك.  
 فقال حلمي وهو يربّت منكب صاحبه:  
 - دعائي وسألني بخفّة - على فكرة هو خفيف  
 جدّاً - «مَن المليح الذي كان يحدّثك؟» فأجبت أنّه  
 زميل في الحقوق وصديق قديم واسمه كذا ألخ.  
 فسألني باهتمام: «ومتى تقدّمه إليّ؟» فسألته بدوري  
 متجاهلاً غرضه: «ولم يا باشا؟» فانفجر قائلاً  
 كالغاضب - هكذا تبلغ به خفّة الروح أحياناً -:  
 «لأعطيهِ درساً في الديانة يا بن الكلب». فضحكت  
 بدوري حتّى كنتم فمي بيده...  
 وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح في الخارج،  
 وترامى صوت ارتطام ضلفة شبّاك بجدار، ثمّ علا  
 صوت رضوان وهو يتساءل:  
 - سمعت عنه كثيراً، أهو كما يقال؟  
 - وأكثر...  
 - لكنّه عجوز!  
 فقال حلمي عزت وأسايره تنطق بالضحك دون  
 صوت:

- هذا في المرتبة الأخيرة من الأهميّة، إنّهُ رجل كبير  
 المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعلّ شيخوخته أجّل فائدة  
 من الشباب...  
 فعاود رضوان الابتسام، ثمّ تساءل:  
 - أين منزله؟  
 - فيلاً هادئة في حلوان.  
 - آه تكتنّظ بالقاصدين من كافّة الطبقات!  
 - سنكون ضمن مريدبه، لم لا؟، إنّهُ من شيوخ  
 الساسة ونحن من شباهم!  
 فتساءل رضوان في شيء من الحذر:  
 - وزوجه وأولاده؟  
 - يا لك من جاهل، إنّهُ أعزب، لم يتزوّج قطّ ولا  
 يحبّ هذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده  
 مع خدمه كأنّه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن  
 تسلو عنه أبداً...  
 وتبادلا نظرة باسمّة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتّى  
 قال حلمي عزت في شيء من الجزع:  
 - سلمي متى نذهب لزيارته من فضلك؟  
 فقال رضوان وهو ينظر إلى ثالثة الشاي في قدحه:  
 - متى نذهب لزيارته؟

## ٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع  
 النجاة بحلوان آية في البساطة والأناقة. فيلاً سمراء  
 مكوّنة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة  
 أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهلّ بسلامك. وكان  
 البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة في صمت  
 مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البوّاب  
 وسائق السيّارة، بوّاب نوبيّ بارع القسمات ممشوق  
 القوام، وسائق في ريق الشباب موّرّد الخدين. وهمس  
 حلمي عزت في أذن رضوان وهو يمدّ بصره نحو  
 السلامك:

- صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمي عزت معروفاً لدى البوّاب والسائق،  
 فوفقا لاستقباله في أدب، ولما داعبها مهازحاً انطلقا

- المخابرة يا سعادة الباشا مع وليّ الأمر؟  
فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة  
رضوان، ثمّ دعاها إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد  
كبير على كنب منها، وقال باسماً:  
- وليّ أمرك هذا ملعون يا رضوان، أليس هذا هو  
اسمك؟ أهلاً وسهلاً، لقد رأيتك في صحبة هذا  
الولد الشقيّ، فراقني أدبك وثمنت لقاءك، وما أنت لم  
تضنّ عليّ به...

- إنّي سعيد بالشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا.  
فقال الرجل وهو يدير خاتماً ذهبياً كبيراً في بنصر  
يسراه:

- أستغفر الله يا بنيّ، لا تستعمل عبارات التعظيم  
وألقاب التفضيم، إنّي لا أحبّ شيئاً من هذا كلّ،  
الذي يهمني حقاً هو الروح اللطيف والنفس الصافية  
والإخلاص، أما سعادة الباشا وسعادة البك فكأننا أبناء  
آدم وحواء، الواقع لقد راقني أدبك فوددت لو أدعوك  
إلى بيتي، فأهلاً وسهلاً، أنت زميل حلمي في كنيّة  
الحقوق، أليس كذلك؟

- نعم يا فندم، إننا زملاء من عهد خليل آغا  
الابتدائية...

فرغ الرجل حاجبيه الأشبيين في إعجاب قائلاً:  
- زمالة صبا!... (ثمّ وهو يهزّ رأسه)... جميل،  
جميل، لعلك مثله من حيّ الحسين؟  
- نعم يا سيّدي، ولدت في بيت جدّي السيّد محمّد  
عفّت بالجلايّة، وأقيم الآن بمنزل والسدي بقصر  
الشوق...

- أحياء مصر الأصيلة، البقاع الطيبة، ما رأيك لقد  
عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبي في بيرجوان، كنت  
وحيد أبويّ، وكنت عفريّتا، وطالما جمعت الصبيان في  
شبه زفة ومضيّنا من حارة إلى حارة نعاكس طوب  
الأرض، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا،  
وكان أبي يثور غضبه فيجري ورائي بالعصا... قلت  
يا بنيّ إنّ جدك هو محمّد عفّت؟

فقال رضوان بفخار:

- نعم يا سيّدي...

فتفكّر الباشا قليلاً ثمّ قال:

يضحكان دون كلفة. وكان الجوّ قارص البرودة رغم  
جفائه، فدخل بهو استقبال آية في الفخامة، تتصدّره  
صورة كبيرة لسعد زغلول في بذلة التشريفة، ومال  
حلمي عزّت إلى مرآة ممتدّة طولاً حتّى السقف تتوسّط  
الجدار الأيمن، فألقى على صورته نظرة متفحّصة  
طويلة، فلم يتردّد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن  
منظره بنظرة مثلها، حتّى قال حلمي باسماً:

- قمران يرتديان بذلة وطربوشاً، واللي يعشق جمال  
النبيّ يصليّ عليه!

وجلسا متجاورين على كنيّة مذهّبة ذات غطاء أزرق  
وثير. ومَرّت دقائق ثمّ سُمعت حركة آتية من وراء  
الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فأنتجه  
ناحيتهما رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن  
ترأى الرجل في بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه  
رائحة زكيّة، وقد بدا داكن السمرة، حليق الوجه،  
نحيل الجسم، مائلاً إلى الطول نوعاً، ذا قسّات دقيقة  
برأها الكبر، وعينين صغيرتين ذابلتين، أما طربوشه  
فقد مال إلى الأمام حتّى كاد يمسّ حاجبيه، وكان يتقدّم  
هادئاً وقوراً في خطوات متقاربة وبطيئة معاً، فانعكس  
منه إلى قلب الشابّ إجلالاً وطمأنينة. ولزم الصمت  
حتّى وقف أمام الشابين اللذين وقفا لاستقباله، ثمّ  
تفحّصهما بنظرة ثاقبة ثبتت على رضوان طويلاً حتّى  
اختلج جفناه، ثمّ ابتسم فجأة، فشاع في الوجه  
القديم إناس وجاذبيّة قربت المسافة التي تفصل بينه  
وبينها حتّى لم تعد شيئاً. ومدّ حلمي يده فتناولها الآخر  
واستبقاها في يده، ثمّ مدّ بوزه وانتظر، فأدرك حلمي  
غرضه، وسرعان ما عرض له خنّده فقبّله، ثمّ نظر  
صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

- لا تؤاخذني يا بنيّ، فهذه هي طريقة السلام  
عندي...

ومدّ رضوان يده في حياء، فتناولها الرجل وهو  
يتساءل ضاحكاً:

- وخذلك؟

فتورّد وجه رضوان، وهتف حلمي مشيراً إلى  
نفسه:

وسوف نتحدث طويلاً وتندرس العبر كيف تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة . . .

فنظر حلمي إلى رضوان قائلاً:

- ألم أقل لك إنّ صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجّهاً الخطاب إلى رضوان الذي لم تكذب تتحوّل عنه عيناه:

- إنّني أحبّ العلم وأحبّ الحياة وأحبّ الناس، وديدي أن آخذ بيد الصغير حتّى يكبر، وأنّي شيء في الدنيا خير من الحبّ؟. يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونيّة أن نحلّها معاً، وإذا فكرنا في المستقبل أن نفكر معاً، وإذا نازعنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معاً، ما وجدت رجلاً حكيمًا مثل حسن بك عماد، اليوم هو من رجال السلك السياسيّ العدودين، ودعك أنّه من أعدائي السياسيّين. ولكنّه كان إذا تفرّغ لبحث قتله، وإذا طرب رقص عاريًا، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع . . . الإدراك! أليس واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمي عزّت من فوره:

- إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه! . . .

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفليّة نمت عن رغبته التي لا حدّ لها في المسرّة، وقال:

- هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتي؟ إنّهُ زميل صباك يا بخته، ولست أنا القاتل إنّ الطيور على أشكالها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبّرني يا رضوان من أنت؟. هه. إنّك تركتني أنكلّم بلا وعي وأنت صامت كدهاء السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحبّ وماذا تكره؟.

عند ذاك دخل الخادم حاملًا صينيّة القهوة، وكان فتى أمرد شبيهاً بالبواب والسائق، فشرّبوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول:

- الماء بالزهر شراب أهل الحسين، أليس كذلك؟.

فغمغم رضوان باسماً:

- نعم يا سيّدي.

فقال الباشا وهو يهزّ رأسه طرباً:

- يا أهل الحسين مدّدا.

وضحكوا جميعاً، حتّى الخادم ابتسم وهو يغادر

- أذكر أنّي رأيته مرّة في بيت نائب الجاليّة، رجل وجيه ووطيّ صادق، كاد يرشّح نائباً في الانتخابات القادمة لولا تنحيّه في آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إنّ الاتحاد الأخير أوجب الصداقة في الانتخابات حتّى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريّون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمي في الحقوق! . جيل، القانون سيّد الدراسات، وهو يتطلّب لدراسته ذكاءً كماً، أمّا عن المستقبل فما عليك إلّا الاجتهاد! وجد في نبراته الأخيرة ما يوحي بالوعد والتشجيع، فدبّ في قلبه الطموح والحماسة فقال:

- نحن لم نفشل ولا مرّة واحدة في حياتنا الدراسية!.

- برافو، هذا هو الأساس، بعد ذلك تحيي النباية ثمّ القضاء وسيوجد دائماً من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شيء عظيم، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحيّ، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنية تحتم علينا أحياناً أن نهجر أعمالنا المحبوبة ولكن إلى اليوم تجد من يضرب بنا المثل في العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك في الاجتهاد والنزاهة وأنت حرّ بعد ذلك في حياتك الخاصّة، قم بواجبك وافعل ما تشاء، أمّا إذا قصّرت في الواجب فلن يرى الناس فيك إلّا النقص، ألا ترى أنّه لا يحلو لكثير من الفضوليين إلّا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانيّ. وفلان الشاعر به الداء العلانيّ. حسن، ولكن ليس كلّ المصائب وزراء وشعراء، فكن وزيراً وشاعراً أولاً وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيبن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان . . .

وهنا قال حلمي عزّت بخبث:

- كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه، أليس كذلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

- طبعاً، سبحان من له الكمال وحده، الإنسان ضعيف جدّاً يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قويّاً في الجوانب الأخرى. مفهوم؟. لو تشاء أحدثك عن كبار الرجال في الدولة ولن نجد واحداً خالياً من داء،

فؤاد هو الذي عارض في ترقيتي يومًا، والملك فؤاد آخر من يتكلم في الأخلاق، وعلى أي حال سأقابلك غدًا في النادي، سلام عليكم يا باشا...

وعاد الرجل متجهًا الوجه، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلاً:

- نعم يا سيّد رضوان، تعارفنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بالآ تتخلّى عن الواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحدثك عن الطرب والهناء.

وهنا نظر رضوان في ساعته، فلاح الجزع في وجه الباشا وقال:

- إلّا هذا! الساعة عدوّ مجالس الأنس.

فتمتم رضوان في شيء من الارتباك:

- ولكنّا تأخّرنا يا سعادة الباشا.

- تأخّرنا! اتعني أنّه تأخّر بي العمر! أخطأت يا بنيّ، ما زلت أحبّ السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نقل إلّا بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السيّارة تحت أمركما حتى الصباح، وبلغني أنّك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلندأكر، لِمَ لا؟ ما أحلى أن أعود إلى المدخل في القانون العامّ أو شيء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرّس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مسأه الله بالخير، إنّه كابتن عظيم، لا تدهش، سنؤرّخ يوماً لكلّ رجال العصر، يجب أن تفهم كلّ شيء، ليلتنا ليلة محبة وصدافة، خبرني يا حلمي ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمي باطمئنان:

- ويسكي وصودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

- وهل الشواء شراب يا شقي؟

١٠

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغيّر. وهكذا جمعت الصلاة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، ولمّا كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست

البهو، واستطرد الباشا متسائلًا:

- ماذا تحبّ؟ وماذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعني أيسّر لك الجواب، أنّت مهتمّ بالسياسة؟

فقال حلمي عزّت:

- كلانا في لجنة الطلبة.

- هذا أوّل سبب للمقاربة بيننا، وهل لك في الأدب؟

فأجاب حلمي عزّت:

- إنّه مغرم بشوقي وحافظ والمنفلوطي...

فنهز الباشا قائلاً:

- اسكت أنت، أريد يا أخي أن أسمع صوته...

فضحكوا، وقال رضوان باسماً:

- إنّ أموت في شوقي وحافظ والمنفلوطي...

فقال الباشا بإعجاب:

- «أموت في» يا له من تعبير، لا تسمعه إلّا في الجماليّة، أهي نسبة إلى الجمال يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فضّة ذهب» و«في الليل لما خلى» و«من يكن» و«فن يشيله وفن يحطه»، الله... الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جماليّة، وهل تحبّ الغناء؟

- إنّ من غواة...

- اسكت أنت.

فضحكوا مرّة أخرى، وقال رضوان:

- أمّ كلثوم.

- جميل، لعلّي من عشاق القديم، ولكنّ الغناء كلّه جميل، فانا أحبه، ثقيله وخفيفه، كما يقول المعريّ، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جدًّا، الليلة عجب.

ودقّ جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع السيّارة على أذنه وهو يقول: آلو.

- أهلاً أهلاً معالي الباشا.

- ...

- أنا قلت رأيي للزعيم صراحة، وهو رأي ماهر والنقاشي أيضًا.

- ...

- آسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أنّ الملك

المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيرًا، كما أنّ نحافتها كانت تغيظها فقالت باستياء:

- قلت ألف مرة إنه يجب أن تغيرًا ريقك على البابونج ليفتح شهيتك، يجب أن تأكلًا جيدًا، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابتان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

- ولماذا لا تضربين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمّة:

- إني أترك لهما الحكم والخيار.

فقال إبراهيم محتجًا:

- عينك يا شبيخة أصابني! لذلك نصحني الدكتور بأن أخلع أسناني...

فلاحت في عينيها نظرة رقيقة، وقالت:

- لا تجزع، ستذهب بشرها، ولن تشكو ألّا بعد ذلك إن شاء الله...

وهنا خاطبها أحمد قائلاً:

- جارنا ساكن الدور الثاني يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم، قابلي على السلم فرجاني في ذلك!

فسألته وهي تنظر إليه مقطبة:

- وماذا قلت له؟

- وعدته بأن أحدث أبي...

- وهل حدثت أباك؟

- ها أنا أحدثك أنت!

- إننا لا نشاركه في شقته فلا يجوز له أن يشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه ل تبعه ساكن الدور الأول،

أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيها لا عينيك...

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلًا:

- ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلاً:

- في عرضك لا تصدع دماغي، عندك أمك...

فعاد أحمد إلى أمّه قائلاً:

- إذا تساهلنا مع رجل مزنون فلن نجوع...

فقالت خديجة بامتعاض:

بينهم وهي تطرز غطاء مائدة، وقد بدا الكبر أخيرًا على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبارة، فشاب شعره وترهل بعض الشيء، وإن حافظ فيما عدا ذلك على صحة مجسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنه في هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الحمول واللامبالاة التقليدية، على حين لم ينقطع الشابتان عن الحديث، فيما بينهما حينًا، أو مع الأب أو الأم التي شاركت في الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد في الجؤما ينقص على خديجة صفوها، إذ لم يبق من ينازعها السيادة في بيتها منذ توفيت حماتها. كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تحذلها أبدًا، وترعى سماتها بعناية فائقة وهي جوهر جمالها كله، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابن، فيطاول الرجل، وأما عبد المنعم وأحمد فيشق كل سبيله كما يرى مستعيزين بحبها من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات في حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبّا على ذلك من قبل، غير أنّ أحمد توقف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرّب من استحواب أمّه كلما استجوبته أو يتعلّل بعذر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحبّ ابنه حبًا جمًّا، ويعجب بها أشدّ الإعجاب، وينوّه في كلّ فرصة بنجاحها المتواصل الذي بلغ بعبد المنعم كلّية الحقوق ويأخذ نهاية المرحلة الثانوية، وفي ذلك كانت خديجة تقول في مباحة:

- كلّ هذا ثمرة اهتمامي أنا، لو ترك الأمر لك ما فلع أحدهما ولا كان له شأن...

وقد ثبت أخيرًا أنّها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال ممّا جعلها هدفًا لسخرية إبراهيم، حتى اقترح ابنها أن يذكرها بما نسيت ردًا لجميلها الذي تباهي به، فغضبت قليلًا وضحكت كثيرًا، ثمّ لخصت الحال في كلمة قائلة:

- لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام!

بدت في أسرتها سعيده راضية، ولعلّ شهية عبد

- بالصراحة إنَّ رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل...  
- إنه...  
- اسمعي، هذا الشاب لا دين له، هذا ما بت أعنقده...

فلوح أحمد بيده كالغاضب، وهتف متسائلاً:  
- من أين لك الحق في الحكم على القلوب؟  
- الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يداري ابتسامة)  
يا عدو الله!

فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمانينته:  
- لا تتهم أخاك ظمناً.

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهي تلحظ أحمد:  
- لا تسلب أخاك أعز ما يملك الإنسان، كيف لا يكون مؤمناً؟، إنَّ آل أمه لا تنقصهم إلا العرائم ليكونوا من رجال الدين، وكان جدّه من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلّون ويتعبّدون كأننا في جامع!  
فقال أحمد متهمّاً:  
- مثل خالي ياسين...!

ونذت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:  
- تكلم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربّنا يهديه، انظر إلى جدّك وجدّتك.  
- وخالي كمال؟  
- خالك كمال من محاسيب الحسين، أنت لا تدري شيئاً.

- بعض الناس لا يدرون شيئاً...  
فسأله عبد المنعم محتثاً:  
- لو كان الناس جميعاً مهملين في دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟

فقال أحمد في هدوء:  
- على أيّ حال اطمئنّ، فلن تؤخذ يوماً بذنبي!  
وهنا قال إبراهيم شوكت:  
- كفاساً خصاماً، نفسي أراكما كرضوان ابن خالكما...

- لقد حدّثني زوجة وأجلت لها الدفع فليترحم بالك، ولكنّي أفهمتها أنّ أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أفي ذلك خطأ؟، إني ألام أحياناً لأنّي لم أأخذ من جاراتي صديقات، ولكن من يعرف الناس يحمّد الله على الوحدة...

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه:  
- وهل نحن خير الناس؟  
فعبست خديجة قائلة:  
- نعم، إلّا إذا كان لك في نفسك رأي آخر!  
فقال عبد المنعم:

- رأيي في نفسه أنّه خير الناس جميعاً، لا رأيي إلّا رأيي، والحكمة موقوفة على رأسه!  
فقال خديجة متهمّة:  
- ومن رأيي أيضاً أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!

فقال عبد المنعم ضاحكاً:  
- إنه غير مقتنع بأنّه من حقّ بعض الناس أن يملكوا بيوتاً على الإطلاق...

فقالت خديجة وهي تهزّ رأسها:  
- يا عيني على الرأي الفقري...  
وحدج أحمد أخاه بنظرة غاضبة، فهزّ عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول:  
- راجع نفسك قبل أن تغضب...  
فقال أحمد محتثاً:

- يحسن بنا ألاّ نتناقش معاً!  
- بل انتظر حتّى تكبر...  
- إنك أكبر منّي بعام لا أكثر...  
- أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة...  
- هذا المثل لا أومن به!

- اسمع، لا يهمني إلّا شيء واحد، هو أن تعود إلى الصلاة معي...

فهزّت خديجة رأسها بأسف وهي تقول:  
- صدق أخوك، الناس تكبر تعقل أمّا أنت فأعوذ بالله منك، حتّى أبوك صلّى وصام، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟، إني أتساءل ليل نهار!  
فقال عبد المنعم بصوت قويّ شديد الثقة بنفسه:

السائكة في الدور الأول، فقالت خديجة وهي تهتم بالقيام:

- ماذا تريد يا ترى؟... إن كان في الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالية!

## ١١

كان الموسكي شديد الزحام، اكتظّ بأهله وما أكثرهم فضلاً عما استجدّ عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل الصافية تقذف لهباً، فشقّ عبد المنعم وأحد سليلهما في جهد غير يسير وهما يتصببان عرقاً. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه:

- حدثني عن شعورك...

فتفكّر عبد المنعم قليلاً، ثم راح يقول:

- لا أدري، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظاً بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنائزين، ولكن يبدو لي أنّ أكثر الناس كان متأثراً على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريين قوم عاطفيون...

- لكنّي أسألك عن شعورك أنت؟

فعاد عبد المنعم يفكّر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثم قال:

- لم أكن أحبه، وهذا اعتقناهما جميعاً فأننا لم أحزن، ولكنّي لم أسرّ كذلك، تابعت النعش بعين من لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أنّ فكرة الجثّة في النعش أثرت فيّ، لا يمكن أن يمرّ منظر كهذا دون أن يؤثر فيّ، لله الملك جميعاً، هو الحيّ الباقي فليت الناس يعلمون، غير أنّه لو مات الملك قبل أن تتغيّر الحالة السياسية التي كانت قائمة لزگرد كثيرون وكثيرون جدّاً، وأنت ما شعورك؟

- أنا لا أحبّ الطغاة أيّاً كانت الحالة السياسيّة!

- هذا حسن، ولكن منظر الموت؟

- ولا أحبّ الرومانتيكية المريضة!

فتساءل عبد المنعم في ضجر:

فحدثته خديجة بنظرة استياء، كأنما عزّ عليها أن يعدّ رضوان خيراً من ابنها، فقال إبراهيم موضوعاً رآه:

- لهذا الشاب على صلة بكبار الساسة، شاب ذكي، وقد ضمن بذلك مستقبلًا باهرًا...

فقالت خديجة غاضبة:

- لست من رأيك، رضوان شاب سئم الحظّ، ككلّ شابّ يحرمه سوء الحظّ من رعاية أمه، وزنوبة «هانم» لا تهتمّ في الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا يقرّ للمسكين قرار، وأكثر أيامه يبيتها خارج بيته، أما صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنّه طالب مع عبد المنعم في سنة واحدة، فما معنى هذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال...

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنما يقول لها: «لا يمكن أن تقرّني على رأي»، ثم قال مواصلاً إيضاح رأيه:

- ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيّرت كلّ شيء، فكلّ كبير له مريدوه منهم، والطموح الذي يريد أن يشقّ سبيله في الحياة لا بدّ له من كبير يرجع إليه، إنّ مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

- أبي يسعى الناس إلى التعرّف به ولا يسعى هو إلى أحد، أمّا عن السياسة فأبناي لا شأن لهم بها، لو أتيت لها أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامي، بين يحيا فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمي لكان من أكبر القضاة اليوم...

فقال عبد المنعم:

- لكلّ طريقته، نحن لا نقلد أحداً، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنا...

فقالت خديجة:

- أحسنت!

وقال له أبوه باسماً:

- أنت كأمك، وكلامك لا تساويان شيئاً...

ودقّ الباب، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارة



- أشرت إذن؟  
- تمتيت أن تمتد بي العمر حتى أرى العالم وقد  
خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم  
وأوصافهم...  
وسكتنا قليلاً وكان التعب قد نال منها كل منال، ثم  
عاد أحمد يتساءل:  
- وماذا عما بعد ذلك؟  
فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التي اشتهر بها:  
- فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق،  
فإذا سارت الأمور سيراً حسناً، فنجحت المفاوضات،  
وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقر الأمور وينقضي  
عهد المؤامرات... المستقبل حسن فيما يبدو...  
- والإنجليز؟  
- إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء،  
وبالتالي ينقطع التحالف القائم بين السراي والإنجليز  
ضد الشعب، فلا يجد الملك بداً من احترام الدستور.  
- الوفد خير من غيره...  
- بلا شك، إنه لم يحكم طويلاً حتى يعرف مدى  
قدرته، وقريباً تكشف التجربة عن إمكانياته الحقيقية،  
إني أوافئك على أنه خير من غيره، ولكن طموحنا لن  
يقف عنده!.  
- طبعاً، إني أومن بأن حكم الوفد نقطة ابتداء  
حسنة لتطور أعظم، وهذا كل ما هنالك، ولكن هل  
تتفق مع الإنجليز حقاً؟  
- إنما الاتفاق وإما العودة إلى حكم صديقي، في  
أمتنا احتياطي من الخونة لا ينفد، كل مهمته دائماً  
تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وإنهم لفي  
الانتظار، هذه هي المسألة...  
وعندما بلغا السكة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة  
أمام جدّهما أحمد عبد الجواد الذي كان متجهاً صوب  
الصاغة، فتقدّما إليه وسلمّا عليه بإجلال، فسألها  
باسماً:  
- من أين وإلى أين؟  
فقال عبد المنعم:  
- كنّا نتفرّج على جنازة الملك فؤاد...  
فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفثيه:  
- سعيكما مشكوراً!  
ثم صافحهما ومضى كل إلى حال سبيله، وأتبعه  
أحمد نظره قليلاً، ثم قال:  
- جدنا ظريف وأنيق، لقد ملأ أنفي شذاً طيباً...  
- نينة تروي عن جبروته الأعاجيب...  
- لا أظنه جباراً، هذا شيء لا يصدق.  
فضحك عبد المنعم قائلاً:  
- إن الملك فؤاد نفسه بدا في أواخر عهده لطيفاً  
طيباً...  
وضحكا معاً. ومضيا إلى قهوة أحمد عبده. وفي  
الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيئاً مرسل اللحية  
حاذٍ البصر يتوسط جمعاً من الشبان يتطلعون إليه في  
اهتمام، فتوقف وهو يقول لأخيه:  
- الشيخ علي المنوفي صديقك، أخرجت الأرض  
أثقالها، ينبغي أن أتركك هنا...  
فقال عبد المنعم:  
- تعال اجلس معنا، أحب أن تجالسه وتسمع له،  
ناقشه كيفما شئت، كثير ممن حوله من طلبة  
الجامعة...  
فقال أحمد وهو يخلص ذراعه من ذراع أخيه:  
- لا يا عمّ، كدت مرّة أشتبك معه في عراك، أنا لا  
أحب المتعصّين، مع السلامة...  
فحدّجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثم قال بحدّة:  
- مع السلامة، ربنا يهديك...  
وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ علي المنوفي ناظر  
مدرسة الحسين الأولى، فهض الرجل لاستقباله - وقد  
نهض معه جميع الجلوس حوله - وتعانقا، ثم جلس  
الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحصاً عبد المنعم بعينيه  
الحادثتين:  
- لم نرك أمس؟...  
- المذاكرة...  
- الاجتهاد عذر مقبول، وما لأخيك قد تركك  
وذهب؟  
فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ علي  
المنوفي:  
- ربنا الهادي، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا

نكون مسلمين فعلاً، لقد منّ الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقّت الذلّة علينا، فلنعد إلى الكتاب، لهذا هو شعارنا، العودة إلى القرآن، بذلك نادى المرشد في الإسماعيلية، ومن ساعتها ودعوته تسري في الأرواح، غازية القرى والدساكر حتّى تملأ القلوب جميعاً. . .

- ولكن أليس من الحكمة أن نتجنّب السياسة؟  
- الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة، إنّ الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه، ولهذا في الواقع هو درسنا الليلة. . .

كان الشيخ شديد الحماسة، وكانت طريقته أن يقرّر حقيقة ما، ثمّ تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث. وكان يتحدث وكأنّه يخطب، أو كأنّه يخطب الجالسين في القهوة جميعاً. فسمعه أحمد وهو جالس في أقصى المكان، يحتسي الشاي الأخضر، وعلى شفّته ابتسامة ساخرة. وكان يقيس الشقّة بينه وبين هذه المجموعة المتحمّسة في عجب، ويمجد نحوها ازدراء وغضباً، وثار به التحديّ مرّة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتّى لا يعرّك على رواد القهوة صفاء راحتهم، ولكنّه عدل عمّا هم به في اللحظة التي تذكّر وجود أخيه بينهم. وأخيراً لم يجد بداً من مغادرة القهوة، فقام ساخطاً وغادرها. . .

## ١٢

عاد عبد المنعم إلى السكّرية حوالى الثامنة مساءً. وكان الجوّ سكّنت حنقه فمال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع. كان الدرس ما يزال يكبر في رأسه ويتردّد في قلبه، ولكن أعياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت في ظلام دامس ثمّ انجّه إلى السلم، وفي تلك اللحظة فتح باب الدور الأوّل، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقّة رأى شبّاحاً يتسلّل إلى الخارج ثمّ أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السلم. ونفق قلبه وجرى دمه حارّاً كحشرة هيّجها القيظ. رآها في الظلام تنتظر عند أوّل بسطة وتتطلّع نحوه فتطلّع نحوها، ولم يتحوّل عنها رأسه. وعجب كيف يستغفل الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجّة زيارة الجيران، وسوف

كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشدّ المخلصين لدعوته، ذلك أنّ الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوّه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله. . .

وقال أحد الجالسين:

- ولكنّ مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ علىّ المنوفي معاتباً:

- انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه! ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف؟ من جنود الأرض يتمتّع بقوّتكم؟ وأيّ سلاح أحد من سلاحكم؟ الإنجليز والفرنسيّون والألمان والطلّيان جلّ اعتمادهم على الحضارة المادّيّة، أمّا أنتم فاعتمادكم على الإيمان الصادق، إنّ الإيمان يفلّ الحديد، الإيمان أقوى قوّة في العالم، املاؤا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم. . .

فقال آخر:

- نحن مؤمنون، ولكننا أمة ضعيفة.

فكّور الشيخ قبضته وشدّ عليها وهو يهتف:

- إذا كنت تستشعر ضعفاً فإيمانك يعتوره نقص وأنت لا تدري، الإيمان خالق القوّة وباعثها، إنّ القنابل تصنعها أيدي كأيدينا وهي ثمرة القوّة قبل أن تكون من مسبباتها، كيف انتصر النبيّ على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كلّهُ؟

فقال عبد المنعم بحماسة:

- الإيمان. . . الإيمان. . .

غير أن صوتاً رابعاً تساءل:

- ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوّة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخلّلاً لحيته بأصابعه وهو يقول:

- لكلّ قوويّ إيمانه، إنهم يؤمنون بالوطن

وبالمصلحة، أمّا الإيمان بالله فهو فوق كلّ شيء، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها. يجب أن يُبعث الإسلام كما بُعث أوّل مرّة، نحن مسلمون اسمًا فيجب أن

- نحن في بيتنا، في غرفتنا، هذه البسطة هي غرفتنا.

- العصر وأنا ذاهبة إلى خالتي نظرت إلى فوق لعلّي أراك في النافذة، فإذا بوالدتك تطلّ على الحارة فالتقت عيني بعينها فارتعدت من الخوف.

- ماذا خفت؟

- خيّل إليّ أنّها عرفت عمّن أبحث وأنّها كشفت سرّي...

- تعنين سرّنا، إنّ شيء واحد يربطنا، ألسنا الآن شيئاً واحداً؟

وضمّهما إلى صدره بعنف في رغبة جامحة، وفي الوقت نفسه كأنّما كان يجذّ هارباً من أصوات المعارضة الخافتة في أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأجّجة، واحتوته قوّة قادرة على إذابة اثنين في دوامة واحدة...

ونذّ عن الصمت تنبّهة ثمّ تردّد أنفاس، وشعر أخيراً بأنّه هو وأنّها هي وأنّ الظلام يضمّ شبحين. ثمّ جاءه همسها الرقيق يقول في استحياء:

- نتقابل غداً؟

فرّد في امتعاض حاول ما استطاع التسرّع عليه:

- نعم... نعم، ستعلمين في حينه...

- أخبرني الآن...

فقال والامتعاض يزداد ثقلاً على قلبه:

- لا أدري كيف يكون وقتي غداً!

- كيه؟...

- اذهبي بالسلامة، سمعت صوتاً!

- كلاً، لا صوت هناك...

- لا ينبغي أن يجِدنا أحد هكذا...

وربّت كتفها كأنّما يربّت خرقه ملوّنة، وتخلّص من ذراعها في رقة مفتعلة ثمّ رقي في السّلم على عجل. كان والداه جالسين في الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشّراعة ممّا دلّ على أنّ أحمد يذاكر، فحيّاهما تحيّة المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحمّ، وتوضّأ، وعاد إلى حجرته فصلّى، ثمّ تربّع على سجّادة الصلاة وراح في تأمل عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة،

تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السّلم المستكنّة في الظلام. ولتوّه وجد رأسه فارغاً، تبخّر ما كان يصطرع فيه من أفكار وتطايّر، وتركّز هو في رغبة واحدة هي أن يشبع النهم الذي بات يؤرّق أعصابه وأعضائه. أمّا ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنّه ولّى غاضباً، أو غاص في الأعماق يدمدم حائفاً ولكنّ صوته ضاع في أزيز النار المستعرة. أليست هي فتاته؟ بلى، تشهد بذلك حنايا الخوش وبثر السّلم وركن السطح المطلّ على السكزية. وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقي به في اللحظة المناسبة. كلّ هذا العناء من أجله هوا. ومضى متعجّلاً حذراً حتّى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينها شيء، وقد سطع أنفه شذاً شعرها، ودغدغ عنقه تردّد أنفاسها. وربّت منكبها برقة هامساً:

- نصعد إلى البسطة الثانية فنكون في موضع آمن من هذا.

تقدّمته دون أن تبس فتبعها محاذراً. وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين. فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثمّ أحاطها بذراعيه فقاومه بحكم العادة مقدار ثانية ثمّ سكنت في حضنه...

- حبيبي...

- انتظرتك في النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شمّ النسيم.

- كلّ سنة وأنت طيّبة، دعيني أشمّ النسيم بين شفتيك...

والتقت شفتاهما في قبلة طويلة جائعة. ثمّ تساءلت:

- أين كنت؟

ذكر في سرعة خاطفة درس السياسة في الإسلام، ولكنّه أجاب:

- مع بعض الأصدقاء في القهوة...

قالت بلهجة تشي بالاحتجاج:

- القهوة ولم يبق على الامتحان إلّا شهر؟

- ولكنّي أعرف واجبي، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنّك بي...

- صوتك عال، أنسيت أين نحن؟

ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له في الجلوس. شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو إلى الأستاذ الكبير الذي تلقى عنه النور والعرفان في الأعوام الثلاثة الماضية، سواء عن مؤلفاته أم مجلته، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذي وخط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوة إلا عينان عميقتان تشعان بريقاً نفاذاً. لهذا أستاذة، أو أبوه الروحي كما يدعوه، وإنه الآن في حجرة الوحي التي لا جدران لها ولكن رفوف الكتب تمتد عالياً حتى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل:

- أهلاً وسهلاً؟

فقال أحمد بلباقة:

- جئت لأسدّد الاشتراك.

ولما اطمأن إلى الأثر الطيب الذي أحدثه قوله استدرك قائلاً:

- وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من أسبوعين.

فابتسم الأستاذ عدلي كريم وهو يتساءل:

- اسم حضرتك؟

- أحمد إبراهيم شوكت.

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطعية التذكر ثم قال:

- إني أذكرك، أنت أول مشترك في مجلتي، نعم،

وجئتني بثلاثة مشتركين، هه؟ إني أذكر اسم شوكت،

وأظنني أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة؟

فقال أحمد بارتياح ممتاً لهذا التذكر الجميل:

- جاءني كتاب حضرتك، اعتبرتني فيه «صديق

المجلة الأول»!

- هذا حق، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدأ ولا

بد لها من أصدقاء مؤمنين لتشق طريقها في زحمة

مجلات الصور والاحتكار، فأنت صديق المجلة، أهلاً

وسهلاً، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل؟

- كلاً، إني لم آخذ البكالوريا إلا في هذا الشهر.

فضحك الأستاذ عدلي كريم قائلاً:

- أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلا الحاصل على

البكالوريا؟!

فابتسم أحمد في ارتباك وقال:

وكان صدره يضطرم شجناً، وهفت نفسه إلى البكاء، ودعا ربّه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشدّ أزره في مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذي يعترضه في صورة فتاة ويندفع في دمه رغبة جامحة. ودائماً أبداً يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثم يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذي ينتهي بالهزيمة والندم. كل يوم تجربة وكل تجربة جحيم فمضى ينقضي هذا العذاب؟، إن نضاله الروحي كله مهدد بالخراب وكأنما يبني قصوراً في الهواء ولن يقرّ قرار لغارق في الطين، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت.

## ١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة «الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع في مكان وسط بين محطتي الترام، وكان مكوّناً من دورين ويدروم، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما استدلّ من الغسيل المعلق في شرفته، أما الدور الأول فقد ثبتت لافتة باسم المجلة على بابها، وأما البدرم فقد خصّص للمطبعة التي رأى آلائها خلل قضبان النوافذ. وصعد درجات أربعا إلى الدور الأول، ثم سأل أول من التقى به - وكان عاملاً يحمل بروفات - عن الأستاذ عدلي كريم صاحب المجلة، فأشار الرجل إلى باب مغلق في نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلفّت فيما حواليه علّه يجد حاجباً ولكنه ألفى نفسه منفرداً بالباب فتردّد لحظة ثم طرق برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول «ادخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه في نهاية الصالة بعينين واسعتين تحدّقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين، فردّ الباب وراءه وقال بصوت المعتذر:

- لا مؤاخذه، دقيقة واحدة...

فقال الرجل بصوت رقيق:

- تفضّل...

وتقدّم أحمد من مكتب كُدّست فوقه الكتب والأوراق، ثم سلّم على الأستاذ الذي قام لاستقباله،

- كلاً طبعاً، أعني أنّي كنت صغيراً.

فقال الأستاذ جاداً:

- لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين، في بلادنا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شباباً بعقولهم، وفيها شبان في ربيع العمر ولكنهم معمرّون - منذ ألف سنة أو أكثر - بعقولهم، ولهذا هو داء الشرق... (ثمّ بلهجة أرقّ) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

- ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال، ثمّ مقالة أخيرة كنت أطمع في نشرها!

- عن ماذا؟، لا تؤاخذني فلنّني أتلقّى عشرات المقالات يومياً؟

- عن رأي لوبون في التعليم وتعليقي عليه!  
- على أيّ حال ستبحث عنها في السكرتارية -  
الحجرة المجاورة للحجرتي - وتعلم بمصيرها...

وهمّ أحمد بالقيام ولكنّ الأستاذ عدلي أشار إليه بالاستمرار في الجلوس وهو يقول:

- المجلّة اليوم في شبه إجازة، أرجو أن تمكث معي قليلاً لتتحدّث.

فتمتم أحمد بارتياح عميق:

- بكلّ سرور يا فندم.

- قلت إنّك أخذت البكالوريا هذا العام، كم سنّك؟

- ستّة عشر عاماً.

- سنّ مبكّرة، حسن، هل المجلّة منتشرة في المدارس الثانوية؟

- كلام للأسف...

- أعلم هذا، أكثرية قرّائنا في الجامعة، القراءة في مصر ملهاة رخيصة، ولن تتطوّر حتّى نؤمن بأنّ القراءة ضرورة حيويّة.

ثمّ بعد قليل من الصمت:

- وما حال التلاميذ؟

فنظر إليه أحمد متسائلاً كأنّما يستزيده تفسيراً لقوله، فقال الرجل:

- إنّني أسأل عن الناحية السياسيّة باعتبارها أوضح من غيرها...

- الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديون...

- ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة؟

- مصر الفتاة؟... لا وزن لها، فرقة تُعدّ على الأصابع، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلّا أقارب زعمائها، وهناك قلة لا تهتمّ بشئون الأحزاب كافّة، وآخرون - وأنا منهم - نفضّل الوفد على غيره ولكننا نطمح فيما هو أكمل...

فقال الرجل بارتياح:

- هذا ما أسأل عنه، الوفد حزب الشعب، وهو خطوة تطوّريّة خطيرة وطبيعيّة في آن واحد، كان الحزب الوطنيّ حزباً تركيّاً دينيّاً رجعيّاً، أمّا الوفد فهو مبلور القوميّة المصريّة ومطهرها من الشوائب والخبائث، إلى أنّه مدرسة الوطنيّة والديمقراطيّة، ولكنّ المسألة أنّ الوطن لا يقنع وما ينبغي له أن يقنع بهذه المدرسة، نريد مرحلة جديدة من التطوّر، نريد مدرسة اجتماعيّة، لأنّ الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنّه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستوريّة والاقتصاديّة والإنسانيّة.

فهتف أحمد بحماس:

- ما أجل هذا الكلام!

- ولكن ينبغي أن يكون الوفد نقطة البدء، أمّا مصر الفتاة فحركة فاشستيّة رجعيّة مجرّمة، ليست دون الرجعيّة الدينيّة خطراً وهي ليست إلّا صدى للعسكريّة الألمانيّة والإيطاليّة التي تعبد القوّة وتقوم على الاستبداد وتزري بالقيم الإنسانيّة والكرامة البشريّة، إنّ الرجعيّة داء مستوطن في الشرق كالكوليرا والتيفود فينبغي استئصاله...

فعاد أحمد يقول متحمّساً:

- إنّ جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهذا كلّ الإيمان...

فهزّ الرجل رأسه الكبير في أسف وهو يقول:

- ولذلك فالمجلّة هدف للرجعيّين من كافّة النحل،

إنّهم يرمونني بإفساد الشباب!

- كما اتّهموا سقراط من قبل...

فابتسم الأستاذ عدلي كريم في ارتياح وقال:

- وما وجهتك؟ أعني أيّ كليّة تقصد؟

- الآداب...

فاعتدل الأستاذ في جلسته، وقال:

- الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنّه قد يكون وسيلة للرجعية، فاعرف سبيلك، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مَرَضِيَّة عملت أجيالاً على تجميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من أمر - ولا تدهش أن يصارحك بهذا الرأي رجل معدود في الأدباء - فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغي أن ندرس العلوم وأن نشبع بالعقلية العملية، الجاهل بالعلم ليس من سگان القرن العشرين ولو كان عبقرياً، وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم منه. لم يعد العلم وقفاً على العلماء، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف، ولكن على كل مثقف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلّى بأسلوبه، ينبغي أن يحلّ العلم محلّ الكهانة والدين في العالم القديم...

فقال أحمد مؤمناً على قول أستاذه:

- ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هي تطوير المجتمع على أساس علمي...

فقال عدلي كريم باهتمام:

- أجل على كل منا أن يقوم بواجبه، ولو وجد وحيداً في الميدان...

فهزّ أحمد رأسه موافقاً فعاد الآخر يقول:

- ادرس الآداب كما تشاء، واعنّ بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات، ولا تنسّ العلم الحديث، ولا يجب أن تخلو مكتبك - إلى جانب شكسبير وشوبنهاور - من كونت ودارون وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغي أن تذكر أنّ لكل عصر أنبياءه، وأنّ أنبياء هذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحّت بأنّها تحية الختام فنهض أحمد مادّاً يده، وسلّم ثمّ غادر الحجرة ممتلئاً حياة وسعادة. وفي الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فسأل إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب مستأذناً ثمّ دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان خاليان، والثالث جلست عليه فتاة. لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر إليها في حيرة وتساؤل. كانت في

العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر، وكان في أنفها الدقيق وذقنها المدبّب وفمها الرقيق ما يوحي بالقوة، دون أن يفسد ملاحظتها. ساءلت وهي تتفحصه:

- أفندم؟

فقال يعزّز مركزه:

- الاشتراك...

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفي أثناء ذلك كان قد تغلّب على ارتبائه فقال:

- كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة، وأخبرني الأستاذ عدلي كريم بأنّها في السكترارية.

وهنا دعتة للجلوس على كرسيّ أمام المكتب فجلس ثمّ سألت:

- عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة:

- التعليم عند لوبون.

فتحت دوسيهها، وفُتّت أوراقاً حتّى استخرجت المقال، ولح أحمد خطّه فحفق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنّها وفّرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

- موقع عليه بما يأتي «يلخص وينشر في باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبت لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثمّ تساءل:

- في أيّ عدد؟

- في العدد القادم.

فسأل بعد تردّد:

- ومن الذي يلخصه؟

- أنا.

وداخله شعور بالامتعاض، ولكنّه سأل:

- ويوقع عليه باسمي؟

فقال ضاحكة:

- طبعاً، يُنشر عادة ما يفيد بأنّه جاءتنا رسالة من الأديب (ثمّ تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم شوكت ثمّ نورد تلخيصاً وافياً لفكرتك! فتردّد قليلاً ثمّ قال:

أمه وهي تهمس قائلة:  
- سوف يطلب يد نعيمة...  
ولما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:  
- صديقك بالداخل، ما أطفه، أراد أن يقبل يدي  
فمنعته!  
ورأى والده مترعًا على الكنية وفؤاد جالسًا على  
مقعد قبالة، فتصافح الصديقان القديمان وكما يقول:  
- حمدًا لله على السلامة، أهلاً وسهلاً... أنت في  
إجازة؟  
فأجاب عنه السيد أحمد بأسياً:  
- بل نُقل إلى نيابة القاهرة، نُقل أخيراً بعد غربة  
طويلة في الصعيد...  
فجلس كمال على الكنية وهو يقول:  
- مبارك، من الآن فصاعداً نرجو أن نراك من آن  
لآخر.

فقال فؤاد:  
- طبعاً، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية،  
استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلي...  
لم تتغير هيئة فؤاد كثيراً، ولكن صحته تقدّمت  
بدرجة محسوسة فامتلاً عوده وتورّد وجهه، أما عيناه  
فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكي. وسأل السيد  
أحمد الشاب قائلاً:

- وكيف حال والدك؟... لم أره منذ أسبوع.  
- ليست صحته على ما يرام، إنه لا يزال أسفاً على  
ترك المحلّ، لكنّ المأمول أن يكون خليفته قائماً  
بالواجب.  
- الأمر يقتضي اليوم بقطة متواصلة، كان والدك  
يقوم بكلّ شيء شفاه الله وعافاه...  
واعتدل فؤاد في جلسته ووضع رجلاً على رجل  
فلفتت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أما  
السيد فلم يبدُ عليه حتّى أنّه لاحظها. أهكذا تتطوّر  
الأمور؟ أجلّ إنه وكيل نيابة قذّ الدنيا، ولكن أنسي من  
يكون الشخص المتربّع أمامه؟، ربّاه ليس هذا  
فحسب، لقد أخرج عليه سجائر وقدمها للسيد فاعتذر  
شاكراً! حقاً إنّ النياحة تُنسي، ولكن من المؤسف أن  
يمتدّ نسيانها إلى وليّ النعمة الذي يبدو أنّ فضله تبدّد

- كنت أفضل لو نُشرت بأكملها...  
فقالت باسمّة:  
- المرّة القادمة إن شاء الله...  
فجعل ينظر إليها صامتاً ثمّ سألها:  
- حضرتك موظفة هنا؟  
- كما تراني!  
نازعته نفسه أن يسألها عن مؤهلاتها ولكنّ شجاعته  
خذلته في اللحظة الأخيرة فسألها:  
- اسم حضرتك من فضلك لأطلبك في التليفون  
إذا لزم الأمر!  
- سوسن حماد.  
- متشكّر جداً.  
ونفض عينيّاً إياها بيده، وقبل أن يغادر الحجرة  
التفت نحوها قائلاً:  
- أرجو أن تلخصيها بعناية.  
فقالت دون أن تنظر إليه:  
- إنّي أعرف واجبي!  
فغادر الغرفة نادماً على قوله...

## ١٤

كان كمال في حجرة مكتبه عندما جاءت أمّ حنفي  
لتقول له:

- سي فؤاد الحمزاوي عند سيدي الكبير...  
ونفض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة  
مسرّعاً إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة  
عام، عاد وكيل نيابة قنا العتيدي. وكانت تحيش  
بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أنّ شواثب عدم  
الارتياح شابته، فصادفته لفؤاد كانت ولا تزال  
تنطوي على نوع من الصراع، صراع من الحبّ  
والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى  
بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الإسفاف الدنيويّ.  
فلم يكن يشكّ وهو يهبط السلم في أنّ هذه الزيارة  
ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها في الوقت نفسه  
ستنكأ جروحاً كادت أن تندمل. وعندما مرّ في الصالة  
بمجلس القهوة المكوّن من الأمّ وعائشة ونعيمة سمع

في الهواء كدخان هذه السبجارة الفاخرة. ولم يكن في حركات فؤاد تكلف من أي نوع كان، كان سيدًا قد تعود السيادة، وقال السيد مخاطبًا كمال:

- وهنته أيضًا فقد رُفِي من مساعد إلى وكيل نيابة. فقال كمال بأسًا:

- مبارك. مبارك، أرجو أن أهتلك قريبًا بكرسي القضاء.

فقال فؤاد:

- الخطوة التالية إن شاء الله.

ربما استباح لنفسه - عندما يصير قاضيًا - أن يبول أمام الرجل المترع أمامه! أما مدرّس ابتدائي فيظل مدرّسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الخليط وأطنان الثقافة التي عوّجت رأسه.

ونظر السيد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

- وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

- وقّعت المعجزة! وقّعت المعاهدة في لندن، أصغيت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفظات الأربعة فلم أصدق أذني، من كان يصدق هذا؟

- إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهزّ رأسه هزة أصحاب الشأن:

- في الجملة نعم، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأملنا الظروف التي تحيط بنا، وذكرنا أنّ شعبنا صبر على عهد صدقي رغم مرارته دون أن يثور عليه، فينبغي أن نعدّ المعاهدة خطوة موفقة، أزالنا التحفظات ومهدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحددت مدة الاحتلال بعد قصره على منطقة معينة، إنها خطوة عظيمة بلا شك.

كان حماس السيد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقل، وكان يؤدّ أن يتجاوب الآخر معه تحاوبًا أشدّ، فلمّا خاب ظنه قال بعناد:

- على أيّ حال ينبغي أن نذكر أنّ الوفد قد أعاد إلى الأمة دستورها وحقق لها الاستقلال ولو بعد حين... وفكر كمال: كان فؤاد دائمًا «باردًا» في الناحية

السياسية، ولعلّه لم يتغيّر، ولكنّه يبدو مائلًا إلى الوفد، أمّا أنا فطالما كنت مندفعًا مع العاطفة، ثمّ انقلبت لا أومن بشيء، والسياسة نفسها لم تسلم من شكّي النهم، ولكن قلبي لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلي. وعاد فؤاد يقول ضاحكًا:

- إنّ النيابة في عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتل البوليس المقدمة، إذ إنّ عهود الانقلاب عهود بوليسية، فإذا عاد الوفد إلى الحكم رُدّت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففي عهد الحكم الطبيعي يكون القانون هو الكلمة العليا. فعلق السيد على ذلك قائلاً:

- وهل يمكن أن ننسى عهد صدقي؟!، لقد كان الجنود يجمعون الأهالي بالعصي أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهرها وإفلاسهم ثمنًا لثباتهم على مبدأ الوفد، ثمّ إذا بنا نرى «الشیطان» ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيين الأحرار!

فقال فؤاد:

- كانت الظروف توجب الاتحاد، ولم يكن هذا الاتحاد ليكمل دون أن ينضمّ إليه الشيطان وأعوانه، والعبرة بالخواتيم.

ولبث فؤاد في حضرة السيد فترة غير يسيرة، احتسى في أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه إلى بذلته الحريرية البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التي تزيّن عروبتها، وإلى الشخصية القويّة التي أضفتها عليه الوظيفة، فشعر في أعياقه بأنّه سيسرّ - رغم كلّ شيء - إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أنّ فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدأ عليه أنّه يرغب في الذهاب وما لبث أن قال للسيد:

- أن وقت ذهابك إلى الدكان، سأملك بقيّة الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفري إلى الاسكندرية، حيث أتيّ قرّرت أن أقضي بقيّة أغسطس وبعض سبتمبر في المصيف.

ونفض قائمًا فصافح السيد مودعًا ثمّ غادر الحجرة يتقدّمه كمال، وصعدا معًا إلى الدور الأعلى حيث استقرا في حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفّح الكتب



المصروفة على الأرفف بأسيا ثم تساءل:

- ألا أستطيع أن أستعير منك كتاباً؟

فقال كمال وهو يداري عدم ارتياحه:

- بكل سرور، ماذا تقرأ عادة في أوقات فراغك؟

- عندي دواوين شوقي وحافظ ومطران، وبعض

كتب الجاحظ والمعري، وأحب بصفة خاصة «أدب

الدنيا والدين»، إلى مؤلفات كتابنا المعاصرين، هذا

إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكنّ انكبابي

على القانون يلتهم أكثر وقتي...

ثم نهض فجال جولة استعراضية بين الكتب قارئاً

عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلاً:

- مكتبة فلسفية قحة، لا ناقة لي فيها ولا جمل، إني

أقرأ مجلة الفكر التي تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التي

تظهر تباعاً منذ سنوات، لا أزعج أي قراءتها جميعاً، أو

أي أذكر منها شيئاً، إن المقالة الفلسفية أثقل ما يُقرأ،

ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب في

الموضوعات الجذابة؟

طالما سمع بأذنه نعي مجهوده، ولكنه لم يحزن لذلك

كثيراً كأنما اعتاده، إن الشك يلتهم فيها يلتهم الحزن

نفسه، والشهرة ما هي؟ والجاذبية ما هي؟ ولكنّ بما

يسره حقاً ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه.

وسأله:

- ماذا تعني بالموضوعات الجذابة؟

- الأدب مثلاً.

- قرأت لطائف منه منذ كنا معاً ولكنني لست

أديباً...

فضحك فؤاد قائلاً:

- إذن ابق في الفلسفة وحدك، ألسنت فيلسوفاً؟

ألسنت فيلسوفاً؟ عبارة مطبوعة في أعماقه، ارتجف

من هول وقعها قلبه، هكذا هي منذ ألقيت عليه في

شارع السرايات من ثغر عايدة. ولكي يداري جيشة

صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التي كان

فؤاد يتودّده ويتبعه كظله، ها هو الآن يطالعه رجلاً

خطيراً جديراً بالتودّد والولاء. ماذا جنيت من

حياتي؟ وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك

فجأة قائلاً:

- ولوا...

فتساءل كمال بعينه عن معنى هذا فعاد الآخر

يقول:

- كلانا يجري نحو الثلاثين دون أن يتزوج، جيلنا

مكتنّ بالعزّاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟

- لا أنزعج...

- لا أدري لم أعتقد بأنك لن تتزوج أبداً.

- أنت بعيد النظر طول عمرك.

فقال وهو يتسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفاً

عماً سيقول:

- أنت رجل أناني، تأبى إلا أن تستأثر بكلّ حياتك

لنفسك، يا أخي لقد تزوّج النبي ولم يمنعه ذلك من

ممارسة حياته الروحية العظيمة...

ثم مستدركاً وهو يضحك:

- لا تؤاخذني على ضرب المثل بالنبي، كدت أنسى

أنك... ولكن مهلاً، إنك لم تعد الملحد القديم،

أنت الآن تشكّ حتى في الإلحاد، وهذه خطوة كسب

للإيمان...

فقال كمال بهدوء:

- دعنا من التفلسف فإنك لا تحبه وخبرني لم لم

تتزوج أنت ما دام هذا هو رأيك في العزوبة؟

وشعر لتوه بأنه ما كان ينبغي له أن يطرح هذا

السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنّه استدراج إلى

الكلام في خطبة نعيمة! ولكنّ فؤاد لم يبدُ عليه أنّه فكر

في هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن

حدّ الوقار، وقال:

- أنت تعلم أنّي لم أفسد إلا متأخراً، لم أفسد مثلك

في زمن مبكر، فأنّا لم أشبع بعد!

- أنتزوج إذا شبع؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب

وقال بلهجة المعترف:

- ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلا صبر فترة

أخرى، أصبر حتى أرقى قاضياً مثلاً فيسعي أن أصاهر

وزيراً إذا شئت...

يا بن جيل الحمزاوي! عروس من صلب وزير

وحاتها من المبيضة! أتحدّى لينتّر أن يبرّر هذا ولو كما

يبرّر وجود الشرّ في الخليقة!.

- أنت تنظر إلى الزواج نظرة... .

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا:

- خير من الذي لا يعبره نظرة على الإطلاق!... .

- ولكنّ السعادة... .

- لا تتفلسف! السعادة فنّ ذاتيّ، قد تجدها عند

كرمية وزير بينا لا تجد إلّا التعاسة في وسطك، الزواج

معاهدة كالتّي وقّعها النّحاس بالأمس، مساومة وتقدير

ودهاء ويُعدّ نظر وفوائد وخسائر، وفي بلدنا لا تأتي

الرفعة إلّا عن هذا السبيل، في الأسبوع الماضي عُيّن

مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم

القضاء عمري مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهذا المركز

السامي!

ومعلّم ابتدائيّ ما قوله؟ في الدرجة السادسة

ينقضي عمره، ولو طُفح بالفلسفة رأسه... .

- إنّ مركزك يغيّك عن أمثال هذه المغامرات... .

- لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يؤلّف

وزارته!.

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال:

- أنت في حاجة إلى شيء من الفلسفة، تحتاج إلى

جرعة من سبينوزا... .

- اشبع منه أنت، لكنّ دعنا من هذا، وخبرني عن

أماكن اللهو والشراب، في قنا كنت أختلس اللذة في

حذر، إنّ مركزنا يحتم علينا الانزواء ومجانبة البشر،

والصراع الأبديّ بيننا وبين البوليس يوجب الحذر

أكثر، وكيل النيابة مركز خطير متعب... .

عودة إلى الحديث الذي هدّد مرارتي بالانفجار،

حياتي في ضوئك تأديب وتهذيب وأشدّ امتحانًا لفلسفتي

الحائرة في هذه الحياة... .

- تصوّر أنّ الظروف تجمعي بكثير من الأعيان، ثمّ

يدعوني إلى سراياتهم، فأجد أنّ الواجب يقضي بأنّ

أرفض دعوتهم كيلا يؤثّر مؤثّر في قياي بواجبي، ولكنّ

عقليّتهم لا تفهم هذا، فأعيان الإقليم جميعًا يرموني

بالكبر وأنا منه براء.

«بل أنت غرور وكبر وغيره على الواجب معًا».

وقال موافقًا:

- نعم... .

- ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس، أنا لا

أرضى عن طرقهم الملتوية، لذلك أقف لهم بالمرصاد،

ورائي القانون، ووراءهم همجية القرون الوسطى، إنّ

الجميع يكرهوني ولكنّ الحقّ معي... .

الحقّ معك، هذا ما أعرفه فيك من قديم، الذكاء

والنزاهة، ولكنّك لا تحبّ ولا يمكن أن تحبّ، أنت لا

تتمسك بالحقّ لوجه الحقّ وحده ولكنّ لوجه الحقّ

والغرور والكبرياء والشعور بالنقص، هكذا الإنسان،

إنّي أصطدم بأشالك حتّى في الوظائف الحقيرة،

الإنسان العذب القويّ أسطورة، ولكنّ ما قيمة

الحبّ؟ وما المثالية؟ وما أيّ شيء؟!

وهكذا طال بهما الحديث، وعندما همّ فؤاد

بالذهاب مال على أذن كمال متسائلًا:

- أنا جديد في القاهرة، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل

بيوتًا، مستورة طبعًا؟.

فقال كمال باسما:

- إنّ المدرّس كوكيل النيابة يتحرّى السّر دائمًا... .

- عال. سنلتقي قريبًا، إنّي مشغول الآن بترتيب

الشقّة الجديدة ولا بدّ أن نسهر كم مرّة معًا.

- اتّفقنا... .

وغادرا الحجرة معًا فلم يتركه حتّى أوصله إلى باب

السكّة، وعندما مرّ بالدور الأوّل في أثناء عودته التقى

بأمّه واقفة تنتظره عند المدخل، فسألته بلهفة:

- ألم يكلمك؟.

فادرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بألم لم يشعر

بمثله، ولكنّه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

- عن ماذا؟

- نعيمة!... .

فأجاب متعصّبًا:

- كلّا... .

- عجيبه!... .

وتبادلا نظرة طويلة، ثمّ عادت أمينة تقول:

- ولكنّ الحمازوي كلّم أبالك!.

فقال كمال وهو يداري ما استطاع من ثورة حنقه:

- لعلّه لم يكن فيما قال ناثبًا عن ابنه... .

إليه بمقالاته الفلسفية، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أن جميع كتّاب المجلة كانوا من المتعاونين في سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده!...

وكان عبد العزيز يرحّب بكافة الكتّاب المتطوّعين حتّى المختصّين - مثله - في الفلسفة الإسلامية، ومع أنّه كان أزهرّي النشأة إلّا أنّه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محضاً ومستمعاً دون أن يحصل على درجة علميّة، وكان في غنى عن السعي للرزق بعقار يملكه يدرّ عليه شهرياً خمسين جنيهاً ولكنّه أنشأ مجلّة «الفكر» في عام ١٩٢٣، وثابر على إصدارها بالرغم من أنّها لم تكن تزيد دخله شيئاً يضاهي بعض ما يبذله فيها من جهد. وما كاد يستقرّ المجلس بكهال حتّى دخل الحجرة رجل في مثل سنّه، يرتدي بذلة من التيل الرماديّ، طويل القامة، وإن كان دون كهال طولاً، نحيفاً، ولكنّه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط الجبين، ممتلئ الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبّب أضفى على سمته طابعاً خاصاً. تقدّم خفيفاً باسم الثغر فمدّ يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثمّ قدّمه إلى كهال قائلاً:

- الأستاذ رياض قلّدت مترجم بوزارة المعارف، انضمّ حديثاً إلى جماعة كتّاب «الفكر»، وقد أمدّ مجلّتنا العلميّة بدم جديد بتلخيصه الشهريّ للمسرحيّات العالميّة وكتابة القصّة القصيرة.

ثمّ قدّم كهال قائلاً:

- الأستاذ كهال أحمد عبد الجواد، لعلّك من قراء

مقالاته!

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:  
- إنّي أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيّمة بكلّ معنى الكلمة...

فشكر كهال متلقياً ثناءه بحذر، ثمّ جلسا على كرسيّين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذي مضى يقول:

- لا تنتظري أستاذ رياض أن يرّد عليك بالمثل قائلاً إنّه قرأ قصصك القيّمة، إنّه لا يقرأ قصصاً البتّة... فضحك رياض ضحكة جذّابة كشفت عن أسنان

فقال أمينة غاضبة:

- هذا عبث لا يليق... ألا يدري من يكون هو ومن تكون هي؟ كان ينبغي أن يفهمه جدّك حقيقة مركزه.

- إنّ فؤاد بريّ، لعلّ والده أسرع دون تدبّر بحسن نيّة...

- ولكن حدّث ابنه دون شكّ فهل رفض الآخر؟ ذلك الذي جعلناه موظّفاً محترماً بنقودنا!...

- لا داعي للكلام في هذا الموضوع...

- إنّ هذا يا بنيّ أمر لا يتصوّره العقل، ألا يدري أنّ مصاهرته لا تشرفنا!...

- إذن لا تأسفي عليها...

- لست أسفة ولكيّ غاضبة للإهانة...

- لا إهانة هنالك، ليس إلّا سوء تفاهم...

وعاد إلى حجرته حزناً خجلاً، وجعل يحدث نفسه: نعيمة وردة جميلة، بيد أنّي رجل لم يبق لي من الفضائل إلّا حبّ الحقيقة فينبغي أن أسأل نفسي أهى حقاً كفاء لوكيل نيابة؟. يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك في حياته من هي أجل ثقافة وأعزّ محتداً وأكثر مالاً وجمالاً أيضاً، لقد تسرّع أبوه الطيّب وليس هذا خطؤه، ولكنّه كان وقحاً في حديثه معي، وهو وقح بلا شكّ، إنّه رجل ذكيّ نزيه كفاء وقح مغرور، وما هذا بذنبه ولكنّ الذنب ذنب هذه الفوارق التي تخلّق فينا شتى الأمراض.

كانت مجلّة «الفكر» تشغل الدور الأرضي بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز، وكان حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطي تطلّ بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار، والحقّ أنّه كلّما أقبل كهال على إدارة المجلّة ذكره موضعها الأرضي وراثته أثاثها بمكانة «الفكر» في بلده، وبمكانته هو في مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وودّ، ولا عجب فقد اتّصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أي منذ بدأ كهال يبعث

نضيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثم قال :

- ألا تحبّ الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلّا وله فلسفة خاصّة عن الجمال، وهي لا تتأقّق له إلّا بعد اطلاع واسع على شتىّ الفنون ومنها الأدب طبعا. . .

فقال كمال في شيء من الارتباك :

- لست أكره الأدب، طالما ارتحت في جنّات شعره ونثره، ولكنّ أوقات الراحة قليلة!

- معنى ذلك أنّك قرأت ما استطعت من القصص إذ إنّ الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصّة والتمثيلية. . .

فعاد كمال يقول :

- قرأت عدداً وفيراً منها على مدى العمر، بيد أنّي. . .

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسبوطي قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

- عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعداً أن تقنعه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنّه فيلسوف، وأنّ ولعه مرّكز في الفكر.

ثمّ التفت إلى كمال متسائلاً :

- جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفاً متوسطاً ووضعه في سكّون أمام الأستاذ الذي تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثمّ تصفّح العنوان وهو يقول :

- عن برجسون؟ حسن!

فقال كمال :

- فكرة تقديم عامّة تبيّن الدور الذي لعبته فلسفته في تاريخ الفكر الحديث، وربما ألحقتها بمقالات أخرى تفصيلية. . .

وكان رياض قلّس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدّج كمال بنظرة لطيفة :

- تتبّع مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهي مقالات متنوعة وأحياناً تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فادرّكت أنّك مؤرّخ، بيد أنّي حاولت عبثاً أن أهتدي إلى موقفك أنت ممّا تكتب، وأيّ فلسفة تنتمي إليها. . .؟

فقال عبد العزيز الأسبوطي :

- نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العامّ، ولعلّ الأستاذ كمال يتمخّض فيما بعد عن فلسفة جديدة، ولعلّك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم!

فضحكوا جميعاً، وخلع كمال نظّارته وراح يجلو ناظرها، وكان سرعان ما يندمج في الحديث خاصّة إذا آنس إلى محدّثه، وبدأ الجوّ صافياً عذباً، وقال كمال :

- إني سائح في متحف لا أملك فيه شيئاً، مؤرّخ فحسب، لا أدري أين أقف. . .

فقال رياض قلّس في اهتمام يتزايد :

- أي في مفترق الطريق، وقفت في ميدانك عهداً قبل أن أعرف وجهتي، ولكنّي أرجّح أنه موقف ذو قصّة، لأنّه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة، ألم تعرف ألواناً من الإيمان قبل موقفك هذا؟ نغمة هذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب، هذا الشاب وهذا الحديث، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتّى اعتاد أن يحدّث نفسه كلّما افتقد من محدّثه، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هذا النشاط الروحيّ في صدره، لا إساعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوي ولا عشرات المدرّسين، هل آن للمكان الذي خلا بذهاب حسين شدّاد أن يُشغل؟! وأعاد وضع النظّارة على عينيه وابتسم قائلاً :

- لذلك قصّة طبعا، وكالعادة كان لي إيماني الدينيّ، ثمّ إيماني بالحقيقة. . .

- أذكر أنّك عرضت الفلسفة المادّية بحماس يدعو للريبة. . .

- كان حماساً صادقاً ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتاباً. . .

- لعلّها الفلسفة العقلية؟

- ثمّ لم ألبث أن حرّكت رأسي مرتاباً، الفلسفات قصور جميلة ولكنّها لا تصلح للسكّ. . .

فقال عبد العزيز باسمًا :

- وشهد شاهد من أهلها!

فهزّ كمال كتفيه استهانة، أما رياض فواصل تحقيقه قائلاً:

- هنالك العلم فلعلّه نجا من شكّك؟

- إنّه دنيا مغلفة حيالنا لا نعرف إلّا بعض نتائجها القريبة، ثمّ اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون في مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية، وآخرين يتوّهون بقانون الاحتمال، وغيرهم ممّن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألبث أن حرّكت رأسي مرتاباً!

فابتسم رياض قلّدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول:

- حتّى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتّى أذني، ودار رأسي، وما زال يدور في فضاء مخيف، ما الحقيقة؟ ما القيم؟ ما أيّ شيء؟، إلّا أحياناً أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشرّ...

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:

- لقد انتقم الدين منك، هجرته جرياً وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليمين!

وقال رياض قلّدس، وكان يبدو في قوله مجاملاً لا أكثر:

- موقف الشكّ هذا لذيذ! مشاهدة وتأمل وحرّة مطلقة، وأخذ من كلّ شيء أخذ السائح!

فقال عبد العزيز مخاطباً كمال:

- أنت أعزب في فكرك، كما أنت أعزب في حياتك! وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم إنّ الاثنين نتيجة لشيء ثالث؟ وقال رياض قلّدس:

- العزوبة حال مؤقتة، وربّما كان الشكّ كذلك!

فقال عبد العزيز:

- ولكنّه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبداً...

فقال رياض متعجباً:

- ما الذي يحول بين الشكّ والحبّ؟ وما الذي يمنع حبّاً من الزواج؟، أمّا الإصرار على العزوبة فليس من الشكّ في شيء، الشكّ لا يعرف الإصرار! فتساءل كمال، وهو غير جاذٍ في باطنه:

- ألا يحتاج الحبّ إلى شيء من الإيمان؟

فقال رياض قلّدس ضاحكاً:

- كلاً، إنّ الحبّ كالزلازل الذي يربّج الجامع والكنيسة والمآخوذ على السواء...

زلازل؟ ما أصدقه من تشبيه، زلازل يهدم كلّ شيء يفرقه في صمت الموت.

- وأنت يا أستاذ قلّدس، لقد أطريت الشكّ، فهل أنت من أهله؟

فقال عبد العزيز ضاحكاً:

- إنّه ذلك نفسه!

وضجّوا بالضحك، ثمّ قال رياض وكأنّما كان يقدّم نفسه:

- لبثت فيه فترة ثمّ مرقت منه، لم أعد أشكّ في الدين لأنّي كفرت به، ولكنّي أؤمن بالعلم والفنّ، إلى الأبد إن شاء الله!

عبد العزيز متسائلاً في تهكم:

- إن شاء الله الذي لا تؤمن به؟

فقال رياض قلّدس بأسياً:

- الدين ملك الناس، أمّا الله فلا علّم لنا به، منذ الذي يستطيع أن يقول لا أؤمن بالله، أو يقول أؤمن بالله؟. الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيون، وذلك أتهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه!

فقال كمال:

- ولكنك تؤمن بالعلم والفنّ؟

- نعم...

- الإيمان بالعلم له وجاهته، ولكن الفنّ...؟ أنا أفضل أن أؤمن بالأرواح على أن أؤمن بالقصّة مثلاً!

فحدّجه رياض بنظرة عاتية، وقال هدهو:

- العلم لغة العقول، والفنّ لغة الشخصية الإنسانية جميعاً!

- ما أشبه هذا الكلام بالشعر!

فتقبّل رياض تهكم كمال بابتسامة متساعجة، وقال:

- العلم يجمع البشر في نور أفكاره، والفنّ يجمعهم في عاطفة سامية إنسانية، وكلاهما يطوّر البشريّة ويدفعها إلى مستقبل أفضل...

يا للغرور! يكتب قصّة من صفحتين كلّ شهر،

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة، فعاد كمال من الموسكي والساعة تدور في الثامنة مساءً، يتنفس جواً خائفاً شديد الحرارة، وتمهل عند عطفة الجوهرى ثم مال إليها، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل، ورقى في الدرج حتى الدور الثاني، ثم دق الجرس، ففتحت الشراة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية، وفتحت الباب فدخل صامتاً، أما المرأة فقالت ترحب به:

- أهلاً بابن الحبيب، أهلاً بابن أخي...

وتبعها إلى صالة تتوسط حجرات، فيها كنبان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة، وشذا بخور في الأركان، كانت المرأة بدينة، هشة من كبر، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشي بوطاة الكيف، وفي تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم، تربعت على الكنب أمام النارجيلة، وأومات إليه ليجلس إلى جانبها، فجلس وهو يسأل بأساً:

- كيف حال الست جلييلة؟

فهتفت محتجة:

- قل عمّي...

- كيف حالك يا عمّي؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد، ... (ثم بصوت مرتفع أجش) ... بنت يا نظلة...

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين ووضعتها على الخوان، فقالت جلييلة:

- اشرب، طالما قلتما لأبيك في الأيام الحلوة الماضية...

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكاً:

- من المؤسف حقاً أنّ جئت بعد فوات الأوان!

وهي تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التي تغطي ساعديها:

- يا عيب الشوم، أكنت تريد أن تعيث فساداً حيث سجد أبوك؟!

ويظنّ أنه يطوّر البشرية، وأنا لست دونه سحاجة، فلأني ألخص فصلاً من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج، أطالب في أعماقي بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوي وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟ أف من كلّ شيء!

- وما قولك في العلماء الذين لا يشاركونك في حماسك للعلم؟

- لا ينبغي أن نفسر تواضع العلم بالعجز أو اليأس، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها، وهو دين المستقبل... والقصة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يداري استياءه، فاستدرك الآخر كالمعتذر:

- أعني الفنّ عموماً؟

فقال رياض قلّدس متسائلاً في حاسة:

- أتستطيع أن تعيش في وحدة مطلقة؟ لا بدّ من النجوى، من العزاء، من المسرة، من الهداية، من النور، من الرحلة في أنحاء المعمورة والنفس هذا هو الفنّ...

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز:

- خطر لي خاطر... أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث في شتى الفكر، على أن ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا»...

فقال رياض قلّدس وهو يرمق كمال بنظرة ودّية:

- إنّ حديثنا لن ينقطع، أو هذا ما أوّده، أنعدّ أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحماسة صادقة:

- بكلّ تأكيد، يجب أن نتقابل في كلّ فرصة...

شمل كمال إحساس بالسعادة لهذه «الصدّاقة الجديدة»، كان يشعر بأنّ جانباً سامياً من قلبه استيقظ بعد سبات عميق، فاقنع أكثر من قبل بخطورة الدور الذي تلعبه الصدّاقة في حياته، وبأنّها عنصر حيوي لا غنى له عنه، أو يظّل كالظلمة المحترق في صحراء...

«كلّما لجّت بي الحيرة، إنّ الحيرة تدفعني إليك قبل الشهوة».

- كلّما ماذا يا سيّد نينة؟

- كلّما فرغت من العمل...

- قل غير هذا الكلام. أفّ من زمانكم أفّ، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطربكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفساً ثم غتّت:

يا خوجة البنات علّمهم ضرب الآلات ونغمهم فضحك كمال، ومال نحوها فقبّل خذّها قبلة جمعت بين المودّة والمداعة، فهتفت:

- شاربك كالشوك، كان الله في عون عطية!

- إنّها تحبّ الأشواك...

- بهذه المناسبة كان عندي بالأمس ضابط النقطة على سنّ ورمح، ولا فخر، كافّة زبائني من سادة القوم، أم نظنّ أنّك تتصدّق عليّ بزيارتك؟! - يا ستّ جلييلة، إنّك لجليلة...

- أحبك إذا سكرت، فإنّ السكر يُذهب عنك وقار الخوجة ويردّك إلى شيء من أهلك، لكن خبّرني ألا تحبّ عطية؟... إنّها تحبك!

هذه القلوب التي حجّرتها فظافة الحياة كيف تحبّ؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التي تجود بالحبّ وتستطيعه؟ فإمّا أن تحبه بنت صاحب المقلي فيعرض عن حبّها، وإمّا أن يحبّ عايذة فتعرض عن حبّه، فقاموس حياته لم يعرف للحبّ من معنى سوى الألم، ذلك الألم العجيب الذي يحرق النفس حتّى تبصر على ضوء نيرانه المتقدّة عجائب من أسرار الحياة، ثمّ لا تخلف وراءها إلّا حطاماً، قال يعلّق على قولها متهمكاً:

- أحبتك العافية...

- لم تعمل في المقدّر إلّا منذ طلاقها!

- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروهه سواء!...

- الحمد لله في جميع الأحوال.

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت كالمحتجّة:

ثمّ مستدركة:

- ولكن أين أنت من أهلك؟ كان متزوّجاً للمرّة الثانية حين عرفته، تزوّج مبكّراً على عادة أهل زمان، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقني زمناً كان أحلى الحياة، ثمّ رافق زبيدة ربّنا يأخذ بيدها، ثمّ عشرات غيرنا ساعده الله، أمّا أنت فلا تزال أعزب، ولا تزور بيتي مع ذلك إلّا كلّ ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجولة أين؟!

أبوه الذي عرفه عن لسانها غير أبيه الذي عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذي حدّثه عنه ياسين، رجل الغريزة، والحياة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتّى ليلة الجمعة التي يزور فيها هذا البيت لا يصفو له «الحبّ» فيها إلّا بالخمر، فلولا السكر لبدا له الجوّ متجهّماً باعثاً على الانهزام، وأوّل ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لا تُنسى، رأى المرأة لأوّل مرّة فدعته إلى مجالستها ريثما تفرّغ له فتاة، ولما جرّه الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة: أنت ابن السيّد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين؟ نعم أتعرفين أبي؟. يا ألف أهلاً وسهلاً... أتعرفين أبي!... أعرفه أكثر ممّا تعرفه أنت... مازج عرقه عرقي... وزفت له اختك... كنت في أيّامي كأمّ كلثوم في أيّامك الكالحة... سل عتيّ طوب الأرض، تشرّفنا يا ستيّ، اختر من بناتي من تعجبك وليس بين الخيّرين حساب، هكذا فسق أوّل مرّة في هذا البيت على حساب والده. وجعلت تنظر إلى وجهه طويلاً حتّى انقبض قلبه، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ أين هذا الرأس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدريّ المورّد؟ ثمّ طال الحديث كلّ مطال، فعرف عنها تاريخ أبيه السريّ، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفيّ صفاته، «وأنا من شدّة الحيرة متردّد أبداً بين وهج الغريزة ونسمة التصوّف».

فقال كمال يخيّبها:

- لا تبالغي يا عتيّ، أنا مدرّس والمدرّس يحبّ الستر، ولا تنسي أنّي في العطلة أزورك كلّ أسبوع مرّات لا مرّة، ألم أكن عندك أوّل أمس؟ إنّني أزورك كلّما...

والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال، فكيف كان هذا الحب؟ وكيف ظلت ذكراه مصونة بالإجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شيء؟

- الدنيا حرّ، أف... .

- إذا لطستنا الخمر استوى لدينا الحرّ والبرد... .

- لا تأكلني بعينيك، وارفع نظارتك!

مطلّقة ذات بَين، تغطّي كآبتها المعتمة بالعريضة، وتمتصّ الليالي النهمة أنوثتها وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط في أنفاسها الوجد الكاذب بالمت، وهي للاستعباد شرّ صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هي نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومدّت يدها البضة إلى الزجاجية وأخذت تملأ الكأسين، هذه الزجاجية تباع في هذا البيت بضعف ثمنها، كلّ شيء هنا غالٍ إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس، كي يغيب عن عين البشرية المحملقة في اشمئزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من مؤسسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

وبحلول الكأس الثانية في جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرّة. «هذه المرأة أشتهيها منذ زمن وحتى متى لا أدري، الشهوة سلطان مستبدّ أما الحب فشيء آخر، وكم يبدو في لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتيج لي يوماً أن أجدها في كائن بشريّ عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لي عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» في الحياتين العامّة والخاصّة، لا أدري أيهما أصل الأخرى، ولكنّي متأكّد أنّي تعس رغم سلوكي في الحياة الذي ضيّع لي حظّي من مسرّات الفكر ولذّات الجسد، كالقطار الذي ينطلق في قوّة ولكنّه لا يدري من أين ولا إلى أين. والشهوة حسنة طاغية سرعان ما يصعرها القرف، ويهتف القلب ناشدًا في يأس اليم السعادة السرمديّة، عبثًا، لذلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغي أن نتجاوب مع حكمتها الخفيّة كي نتقبّل هذه الخدع راضين، فنكون كالممثل الذي يُعيي دوره الكاذب على المسرح، ولكنّه رغم ذلك يعبد فنّه».

- أتستكثر عليّ أن أنوّه بحمد الله؟ آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لي ولا بنت، وقد شبعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أن حديث المرأة تتردّد فيه كثيرًا هذه النغمة الموحية بالزهدي. وجعل يختلس إليها النظر وهو يتجرّع بقيّة كأسه. وكانت الخمر تأخذ في نفث سحرها معه من أوّل كأس. ووجد نفسه يتذكّر عهدًا مضى أيام كان للكأس فرحة سبّوّة، ما أكثر الأفراح التي ولّت، في البدء كانت الشهوة ثورة وانتصارًا، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء، ثم أخذ نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل في أحيان كثيرة من عذاب التردّد بين السماء والأرض، ذلك قبل أن يسري الشكّ بين الأرض والسماء.

ودقّ الجرس. ودخلت عطية، بيضاء لدنة ممثلة، لحذاثها أليط ولضحكتها رنين، فقبّلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمّة على الكأسين الفارغتين وهي تقول مداعبة كمال:

- ختني!

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلًا، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلمة، فلكرته جليّة قائلة:

- قم يا نور العين... .

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينيّة عليها زجاجة وكأسان ومزّة خفيفة، فقالت لها عطية:

- هاتي لنا رطلين من العجّاتي، أنا جوعانة!

خلع الجاكنة ومدّ ساقيه في ارتياح، ثم جلس يراقبها وهي تخلع حذاءها وفستانها، ثم وهي تسوّي قميصها أمام المرأة وتسرح شعرها. الجسم الذي يحبه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عابدة؟ كثيرًا ما تبدو لذاكرته وكأنّها لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فإنّها تستقرّ في روحه كالمعاني المجردة، أمّا ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر ألبيّة أنّ حواسّه اتّجهت إلى شيء منها، واليوم لو عرضت له حسنة كلّ ميزاتها الرشاقة والسمرة



- مساء الخير...  
فجاء الصوت الرقيق يقول:  
- مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتي  
ولبست معطفك...  
فغلبه التأثر لرقتها، ذابت في حلقه كلمة أوشك أن  
يجهها بها، ثم قال مدارياً ارتبكه:  
- خشيت أن تمطر السماء...  
فرفعت رأسها إلى أعلى كأنها تنظر إلى السماء،  
وقالت:  
- ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس في السماء نجم،  
وقد ميّزت بك بصعوبة عندما دخلت الحارة.  
فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيها يشبه التحذير:  
- الجو بارد، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة!  
فقال الصغيرة بصراحة تعلّمها على يديه:  
- لا أشعر بالبرد في قربك!...  
فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل، ونمّ حاله  
على أنه سيعاود الخطأ على رغمه، وجعل يستعدي  
إرادته ليتغلب على الرجفة السارية في بدنه، فسألته:  
- ما لك لا تتكلّم؟  
وأحسن بيدها على منكبه تضغطه برقة، فما تمالك أن  
طوّقها بذراعه، وقبّلها قبلة طويلة، ثم أمطرها قبلات  
حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثاً:  
- لا أطيق البعد عنك...  
فواصل عناقه متداوياً في حضنها، وهي تهمس في  
أذنه:  
- أتمنى لو أبقى هكذا إلى الأبد...  
فشدّ عليها الوثاق قائلاً بصوت متهذّب:  
- يا للأسف!  
فتباعد رأسها في الظلام قليلاً، وهي تتساءل:  
- علام تأسف يا حبيبي؟  
فقال بعد تردّد:  
- على الخطأ الذي نتردى فيه...  
- أيّ خطأ بالله؟  
تخلّص منها برقة، وراح يخلع معطفه، فطواه، ثم  
همّ بأن يضعه على الدرابزين، ولكنّه عدل عن فكرته  
في اللحظة الأخيرة - لحظة هائلة - فثناه على ذراعه ثمّ

وتجرّع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية  
في الضحك، وهي تحبّ السكر من صميم قلبها ولكنّه  
يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدّها علا  
صوتها فتشّجت ثمّ بكت وتقايات. ولعبت الخمر  
برأسه فاهتزّ طرباً، ومدّ إليها بصره فانبسّط  
أساريه. هي الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنّه لم  
تعد ثمة مشكلة في الوجود، الوجود نفسه - أثقل  
مشكلة في الحياة - لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق  
في القتل...  
- ما أطفك إذا ضحكك بلا سبب!  
- إذا ضحكك بلا سبب فاعلمي أنّ الأسباب أجلّ  
من أن تُذكر...

## ١٧

عاد عبد المنعم إلى السكزية ملتقاً في معطفه، يحبك  
من أن لاخر طاقته ليتقي بها برد الشتاء القارص،  
وكان الظلام شاملاً رغم أنّ الساعة لم تجاوز السادسة  
مساء، وما كاد يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور  
الأول وتسلسل الشيخ اللطيف الذي كان ينتظر. وخفق  
قلبه وجعل يحمق في الظلام بعينين متقدتين، وتابع  
شبهها وهو يرقى في السلم في خفة وحذر أن يحدث  
صوتاً، فوجد نفسه موزعاً بين رغبة تغريه بالاستسلام  
 وإرادة تحمّنه على السيطرة على أعصابه التي تلوح  
بالخيانة والانهيار. وذكر - الآن فقط - أنها واعدته  
الليلة من قبل، وقد كان بوسعه أن يقدّم موعد عودته  
أو يؤخّره فيتجنّب هذا اللقاء، ولكنّه نسي ذلك كلّهُ،  
لشدّ ما ينسى! ولم يكن ثمة وقت للتدبّر والتذكّر،  
فليترك هذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه في  
حجرته، إلى تلك اللحظة التي ستشهده. 'منتصراً'  
ظافراً أو منهزماً مغلوباً على أمره، وارتقى السلم في  
أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملقياً بنفسه في خضمّ  
الامتحان، ولم يكن شيء لبنيته آلام صراعه الأبدي.  
وفوق البسطة خيل إليه أنّ شبهها يضخم حتى ملأ  
عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفي قلقه ويضمر  
الصمود مهما كلفه الأمر:

درسًا لك، احذري الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجراءة؟

تردد في الظلام انتحايها، ولكنه لم يرق قلبه، كان منتشياً بلذّة نصر قاسية:

- عي كل كلمة، ولا تغضبي، واذكري أنني لو كنت نذلًا ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضي عليك، أستودعك الله...

ورقي في السلم وثيًا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب الندم، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ عليّ المنوفي: إنّ مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هذا. وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

- أريد أن أدخل قليلاً إلى والدي في حجرة المكتب، فانتظر قليلاً من فضلك...

وفي طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

- خير؟...

- سأحدث أبي أولاً، ثم يأتي دورك...

وتبعه إبراهيم شوكت صامتًا، كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد، وعادته طمأنينته الحاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنبًا إلى جنب والأب يقول:

- خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد:

- أريد يا أبي أن أتزوج!

فحمل الرجل في وجهه، ثم قطب باسماً كأنه لم يفهم شيئاً، وهز رأسه في حيرة ثم قال:

- الزواج؟ كل شيء رهن بوقته، لماذا تحدّثني عن ذلك الآن؟

- أريد أن أتزوج الآن...

- الآن؟، ما زلت في الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتى تأخذ شهادتك؟

- لا أستطيع...

وهنا فُتح الباب ودخلت خديجة، وهي تتساءل:

- ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار

ترجع إلى وراء خطوة. كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزيمة اعترضت تيار استسلامه فقلبت كل شيء. وعادت يدها تتلمس السبيل إلى عنقه فأمسك بها، وانتظر حتى هدأت أنفاسه، ثم قال بهدوء:

- هذا خطأ كبير...

- أيّ خطأ؟. لست أفهم شيئاً...

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، أنت تعبت بها إشباعاً لرغبة لا ترحم، ولن يكون لهذا اللعب من غاية، ليس إلّا عبثاً تجلب به غضب الله ومقته.

- يجب أن تفهمي، أنستطيع أن نعلن ما نفعل؟ - نعلنه؟

- انظري كيف تستنكرين! ولكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عيباً مزرباً؟.

وشعر بيدها تنصيده، فارتقت إلى أولى درجات السلم التالية، وكان مطمئناً إلى أنه جاز منطقة الخطر بسلام:

- اعترفي بأننا مخطئان، فلا ينبغي أن نصرّ على الخطأ...

- عجيب أن أسمع منك هذا الكلام...

- لا عجب، إنّ ضميري لم يعد يحتمل الخطيئة، إنّها تعذبني وتفسد عليّ صلاتي.

«صامتة! أذيتها فليسأخني الله، يا للآلم، ولكنّي لن أترجع، أحمد الله على أنّ الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شرّ منه...».

- يجب أن يكون ما حصل درساً لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجري مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت في نبرات باكية:

- لم أخطئ... أتتوي هجري؟. ماذا تقصد؟

وكان قد تمالك قوّته فقال:

- عودي إلى بيتك، لا تفعلي شيئاً ترين وجوب التسرّ عليه، لا تقابلي أحداً في الظلام...

فقال الصوت متهدّجاً:

- أتهجرني؟. أنسيت كلامك عن حبّنا؟

- كلام من لا عقل له، أنت مخطئة، ليكن هذا

- أبداً، صدّقي، اختاري لي بنفسك...  
 - وما الداعي إلى السرعة إذن؟ دعني أختار لك،  
 أعطني مهلة، إنها مسألة عام أو عامين!  
 فعلاً صوته وهو يقول:  
 - أنا لا أهزل، دعيني فهو يفهمني خيراً منك!  
 فسأله أبوه بهدوء:  
 - ما وجه السرعة؟  
 فقال عبد المنعم وهو يغضّ بصره:  
 - لا أستطيع البقاء دون زواج.  
 فتساءلت خديجة:  
 - وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟  
 فقال الشاب غاطباً أباه:  
 - لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!  
 فتفكر إبراهيم قليلاً، ثم قال حسناً للموقف:  
 - يكفي هذا الآن، وسنعود إلى الموضوع في فرصة  
 أخرى...  
 وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها، وأخذها  
 من يدها فغادرا الحجرة إلى مجلسهما في الصالة.  
 وتحادث الزوجان مقلّبين الأمر على جميع وجوهه، وبعد  
 أخذ وردّ طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه،  
 وتولّى بنفسه إقناع زوجته، حتى سلّمت بالمبدأ، وعند  
 ذاك قال إبراهيم:  
 - عندنا نعيمة بنت أخي، فلن نتعب في البحث  
 عن عروس...  
 فقالت خديجة باستسلام:  
 - أنا التي أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث  
 المرحوم إكراماً لعائشة، فلا اعتراض لي على اختيار  
 نعيمة زوجة لابني، إنّ سعادة عائشة تهمّني جداً كما  
 تعلم، ولكنّي أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب  
 للشذوذ الذي طرأ عليها، ألم نلمح أمامها مرّات عن  
 رغبتنا في تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيل  
 إليّ أنّها كانت ترحّب بابن جميل الحمزاوي عندما قيل  
 إنّ والده طلب له يدها...  
 - هذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر،  
 والحمد لله أنّه لم يتمّ، فما كان يشرفني أن يأخذ بنت  
 أخي شاب مثله معها تكن وظيفته، الأصل عندي كلّ

تحلّ لأبيك وتحرم عليّ؟  
 فقَطَب عبد المنعم متترفّفاً، على حين راح إبراهيم  
 يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:  
 - عبد المنعم يريد أن يتزوَّج...  
 فتفحّصته خديجة كأنّها تخاف عليه الجنون،  
 وهتفت:  
 - يتزوَّج؟ ماذا أسمع؟ هل قرّرت أن تترك  
 الجامعة؟  
 فقال عبد المنعم بصوت قويّ غاضب:  
 - قلت إنّني أريد أن أتزوَّج لا أن أهرب من  
 المدرسة، سأواصل الدراسة متزوَّجاً، هذا كلّ ما  
 هنالك...  
 فقالت خديجة وهي تردّد عينيها بينه وبين أبيه:  
 - عبد المنعم أنت جاد حقّاً؟  
 فصاح:  
 - كلّ الجّد...  
 فضربت المرأة كفّاً على كفّ وقالت:  
 - أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا ابني؟  
 فنهض عبد المنعم غاضباً وهو يقول:  
 - ما الذي جاء بك؟ كنت أريد أن أختلي بأبي أولاً  
 ولكنّك لا صبر لك، أصغيا إليّ، أريد أن أتزوَّج،  
 أمامي عامان حتّى أنتهي من دراستي، وأنت يا أبي  
 تستطيع أن تعولني هذين العامين، لولا تأكّدي من  
 هذا، ما عرضت طلبتي...  
 فجعلت خديجة تقول:  
 - يا لطف الله! أكلوا عقله!  
 - من هم الذين أكلوا عقلي؟  
 - الله بهم أعلم... منهم الله، أنت أدري بهم،  
 وسنعرّفهم عمّا قليل...  
 فخاطب الشابّ أباه قائلاً:  
 - لا تصغ إليها، إنّني لا أدري حتّى الساعة من التي  
 ستكون من نصيبي، اختاروها بأنفسكم، أريد زوجة  
 لائقة، أيّ زوجة!  
 فسألته داهشة:  
 - أتعني أنّه لا توجد واحدة بالذات هي السبب في  
 هذه البلوى؟

شيء، نعيمة عندنا على العين والرأس... .

فقالت خديجة وهي تنتهد:

- على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبي عن هذا

اللعب إذا علم به؟!

فقال إبراهيم:

- سيرحب به دون شك، كل شيء يبدو كالعلم،

ولكن لن أندم، فإنني موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم

خطأ لا يُغتفر، ما دام في الإمكان تحقيقها... .

## ١٨

لم يطرأ على البيت القديم في بين القصرين أي تغيير

يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش

الفول والفولبي اللبان وأبو سريع صاحب المظلي ويومي

الشرباتي، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أن

اليوم تزوج حفيدة السيد أحمد من ابن عمها -

وخالتها - عبد المنعم. حافظ السيد أحمد على تقاليده

القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيام، فاقصر على

دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أعدت العدة لوليمة

عشاء. وكان الوقت في مطلع الصيف، وقد اجتمعوا

جميعاً في حجرة الاستقبال، السيد أحمد عبد الجواد

وأمنية وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد

وياسين وزنوبة ورضوان وكريمة، ما عدا نعيمة التي

كانت تأخذ زيتها في الدور الأعلى بمعاونة عائشة.

ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقي على

الاجتماع العائلي ظلماً من الوقار الذي لا تستسيغه

المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى

حجرتة، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان

السيد قد صفى تجارته وباع الدكان مؤثراً الراحة

لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والستين فحسب،

ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوي اضطره إلى بذل

نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرر إنهاء حياته

العملية، قانعاً بما تخلف له من تصفية دكانه وما أذخر

من مال من قبل قدر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثاً

هاماً في حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة

الدور الذي كان يلعبه جميل الحمزاوي في حياته عامة

وحياة أبيه خاصة، ولبت السيد في حجرتة منفرداً،

يتأمل أحداث اليوم في صمت، كأنما لا يصدق حقاً أن

العريس هو عبد المنعم حفيدة. ويوم فاتحه إبراهيم

شوكت في الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك

بأن يحدّثك بهذه الصراحة وأن يملإ إرادته عليك،

إنكم آباء خلقتكم لإفساد الأجيال، ولو في غير الظرف

الذي يدرك دقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة،

فحيال تعاستها تخلى عن عناده التقليدي كله، ولم

يطلق - خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوي

من تعليقات - أن يخيب لها رجاء، وإذا كان زواج

نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلاً به وسهلاً. هكذا

دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن

يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا

مرحلة التلمذة.

ودعا عبد المنعم إلى مقابله، وطلب إليه أن يتعهد

بإتمام دراسته، فتكلم عبد المنعم كلاماً جميلاً مريحاً

مستشهداً في أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك في

نفس جده آثاراً متباينة من الإعجاب والسخرية،

هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أن كمال لم يفكر

في الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يوماً أن تعلن

خطبة المرحوم فهمي - مجرد إعلان خطبة - الذي مات

قبل أن يجني ثمرة شبابه الغض، وهكذا يبدو أن العالم

قد انقلب على رأسه، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب،

وأنا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندري

ماذا يصنعون غداً.

وفي حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن

حديث طويل:

- لذلك أخلينا الدور الثاني من سگانه، وسيستقبل

الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

- عندك كافة المواهب التي تجعل منك «حماة» لا

نظير لها، ولكنك لن تستطيعي استغلال مواهبك الفذة

مع هذه العروس!

فأدركت ما يرمي إليه، ولكنها تجاهلته قائلة:

- العروس ابنتي وابنة أختي... .

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين:

منذ تسع سنوات تحلّت بثوب جميل وعقصت شعرها. وكانت ترقب ابنتها التي تبدّت كقبضة من نور بعينين حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل، وقد لمحتها أمها مرة وهي تبكي، فنظرت إليها معاتبة وهي تقول:

- لا يصحّ أن تترك نعيمة البيت وفي قلبها حزن!  
فانتحبت عائشة قائلة:

- ألا تريها وحيدة في هذا اليوم لا أب ولا أخ؟  
فقال أمينة:

- البركة في أمها، ربنا يغليها لها، وهي ذاهبة إلى خالتها وعمّها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله...  
فجففت عائشة عينيها وهي تقول:

- ذكريات الأموات الأعزّاء تغمرني من طلعة الصبح، وجوههم تلوح لي، ثمّ إنني بعد ذهابها سأبقى وحيدة...  
فقال أمينة في عتاب:

- لست وحيدة...  
وكانت نعيمة تربّت خدّ أمها وتقول:

- كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟  
فتجيبها عائشة بحنان وهي تبتسم:

- سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين!  
فقال نعيمة بقلق:

- ستزوريني كلّ يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من السكينة، ولكن يجب أن تتخلّي عن هذه العادة منذ اليوم.

- طبعًا، هل تشكين في ذلك؟  
وإذا بكما يقبل عليهما قائلاً:

- استعدّا جاء المأذون!...

وعلقت عيناه بنعيمة في إعجاب. يا للجمال، والرقّة، والشفافية، كيف يكون للحياة دور في هذا الكائن اللطيف؟

ولما عرف أنّ الكتاب قد كُتب، تبودلت التهاني، وإذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع في جوّ الصامت، فاتجهت الرؤوس في دهش إلى حيث وقفت أمّ حنفي في نهاية الصلاة. ولما جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وتركز

- خديجة هانم سيّدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل توددها بالشكر والاحترام إكرامًا لياسين. على الرغم من احتقارها الباطني لها، وكانت كريمة تتألق في سنّها العاشرة بما جعل ياسين ينوّه بأنوثتها المنتظرة! أما عبد المنعم فراح يحادث جدّته أمينة المعجبة بتدينّه، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد مازحًا:

- وأنت تزوّج في العام المقبل؟

فقال أحمد ضاحكًا:

- إلّا إذا أتبعّت سنّتك يا خالي!

وكانت زُوبة تتابع حديثها، فقالت موجهة الخطاب إلى كمال:

- لو سمح لي سيّ كمال فأني أعيد بأن أزوّجه في أيّام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:

- إنّي مستعدّ لأن أسمح لك عن نفسي!

فقال وهي تهزّ رأسها تهكمًا:

- لقد تزوّجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك ونصيب أخيك...

وانتهت أمينة إلى موضوع الحديث، فقالت لزُوبة:

- إذا زوّجت كمال، فسأحاول أن أزغرد لأوّل مرة في حياتي!

وتخيّل كمال أمّه وهي تزغرد فضحك، ثمّ تخيّل نفسه في مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج يهيج دوامة في أعماقه كما يهيج الشتاء الربو عند المريض، وهو يرفضه عند كلّ مناسبة، لكنّه لا يستطيع أن يتجاهله، وهو خالي القلب ولكنّه يضيق بخلوّه كما كان يضيق قديمًا بامتلائه، واليوم إذا أراد الزواج فليس أمامه إلّا الطريق التقليديّ الذي يبدأ بالخطابة، وينتهي بالأسرة والأطفال والاندماج في ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمل موضعًا للتأمل، وسوف يرى الزواج دائمًا أبدًا في مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أمّا في نهاية العمر فلن تجد إلّا الوحدة والكتابة...

السعيدة حقًا في ذلك اليوم كانت عائشة، لأوّل مرة

السَّكْرِيَّة، طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم إلَّا لزيارة القرافة، فيما عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابني ياسين الصغيرين. وقفت قليلاً عند مدخل السَّكْرِيَّة تلقي على المكان نظرة شاملة، حتَّى غطَّى الدمع ناظرها. على الأرض أمام مدخل البيت التي أشبعها أقدام عثان ومحمَّد جرّياً ولعباً، والحوش الذي ازدان يوماً بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التي كان يجلس فيها خليل يدخن غليونيه ويلعب الطاولة والدومينو، ذلك شذا الماضي العطر المشيع بالحنان والحبِّ المفقودين، وهي سعيدة، سعادة سارت مسير الأمثال، حتَّى قيل عنها الضاحكة المترنِّمة التي لا شغل لها إلَّا مضاحكة المرأة ومصاحبة الزينة، والزوج يناسج والأطفال يشون، تلك الأيام الماضية. وجفَّت عينيها حتَّى لا تلقى العروس باكية. جفَّت عينيها ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابها وذبلت جفونها. ووجدت الشقَّة قد جُلِّدت مرافقها وطُلِيت جدرانها فبدت ثغراً باسماً في جهاز العروس الذي أنفق عليه بسخاء. واستقبلتها نعيمة في فستان أبيض هفهاف، وقد أرسلت شعرها الذهبي حتَّى مسَّت أهدابه باطن الساقين، رائقة عذبة وضيئة ينبعث من أردانها عرف ساحر، فتعانقتا عناقاً طويلاً حارّاً، حتَّى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دوره في السلام في روب جنزاريّ شمل به جلبابه الحريريّ: - كفاية، أقلّ سلام يكفي هذا الفراق الوهمي! ثمّ عانق خالته، ومضى بها إلى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول:

- كنّا في سيرتك يا خالتي، فقد قرّ رأينا على أن ندعوك للإقامة معنا... ١٩٠٠  
فابتسمت عائشة قائلة:

- أمّا هذا فلا، سأزورك كلّ يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجني إلى الحركة!  
فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة:

- نعوّمة قالت لي إنك لا تحتملين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إنّ الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوّضك الله!.

تفكيرها في الفراق الوشيك، فلم تنفتح نفسها للطعام، ثمّ جاءت أمّ حنفي فأبلغت أنّ الشيخ متولّي عبد الصمد جالس على الأرض في الحوش، وأنّه طلب عشاءه خاصّة من اللحوم، فضحك السيّد وأمر بأن تُهيّأ له صينيّة وتُحمل إليه. وما لبث أن ترامى إليهم صوته صاعداً من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيه «ابن عبد الجواد» ويتساءل في الوقت نفسه عن أساءه أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيّد باسماً:

- يا للخسارة!... نسي الشيخ متولّي أسماءكم، سامح الله الشيخوخة...

فقال إبراهيم شوكت:

- إنّه في المائة من عمره، أليس كذلك؟

فأجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك

تعالى صوت الشيخ مرّة أخرى وهو يصيح:

- باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيّد قائلاً:

- سرّ ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنّب ذلك المنظر، ومع أنّه لم يزد على انتقال يسير إلى السَّكْرِيَّة إلَّا أنّه كان ذا وقع شديد كالصداع في قلبي الأمّ وابتتها. والواقع أنّ كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملوّهة الشكّ، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجيّة. وفي الحوش رأى الشيخ متولّي عبد الصمد جالساً على الأرض تحت المصباح الكهربائيّ المثبت في جدار البيت ليضيء المكان، مادّاً ساقيه، مرتدياً جلباباً أبيض باهتاً وطاقيّة بيضاء، خالماً نعليه مستنداً إلى الجدار كالنائم ليريح جوفه ممّا امتلأ به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أنّ الشيخ يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه تتردّد فتسمع كالفحيح. حدّجه كمال بنظرة جمعت بين التقرّز والرثاء، ثمّ خطر له خاطر فابتسم على رغبته، وقال لنفسه:

- لعلّه كان طفلاً مدلّلاً عام ١٨٣٠ م.

رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتي هي أحسن! .  
وسأله أحمد:

- بدأت العطلة المدرسية يا خالي؟  
فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

- لم تبق إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح في الابتدائية!

وغابت نعمة لتعود مرة أخرى بصينية فضية حافلة بشتى أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت فترة لم يسمع خلالها إلا التملق والمصمصة، ثم راح إبراهيم يحكي ذكريات فرحه، الحفل، والمغني، والعالمة. وتابعته عائشة بوجه باسم وقلب محزون، وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صوراً ما زال يذكر بعضها ويودّ لو يعرف ما فاتته منها. قال إبراهيم ضاحكاً:

- السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشدّ، ولكنّ أمي رحما الله قالت بحزم: ليفعل السيد ما يشاء في بيته، أمّا عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مساهم الله بالخير جميعاً، أذكر منهم السيد محمد عفت جدّ رضوان، فجلسوا جميعاً في المنظرة بعيداً عن الزياطة.

وقالت خديجة:  
- أحييت الليلة جلييلة أشهر عالمة في عصرها...  
وابتسم قلب كمال، وذكر الدرورة العجوز التي ما تزال تنوّ بعهد أبيه!...

وقال إبراهيم مسترقاً النظر إلى عائشة:  
- وكان لنا عالمة خصوصية لبنتنا، ولكنّ صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة، كان يذكّرنا بصوت منيرة المهدية في عزّها!

فتورّد وجه عائشة، وقالت بهدوء:  
- سكت صوتها منذ عهد بعيد، حتّى نسيت الغناء...

فقال كمال:  
- نعمة تغني كذلك، ألم تسمعها؟  
فقال إبراهيم:  
- سمعت عنها ولكنّي لم أسمعها بعد، الحقّ أنا

هذا الشابّ طيب صريح ولكنّه لا يبالي أين يقع كلامه من القلوب الجريحة.

- طبعاً يا عبد المنعم، ولكنّي مرتاحة في بيتي، هذا أفضل...

وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون، فيصافحونها، ثمّ تقول خديجة لعائشة:

- لو عرفت أنّ هذا الذي يعيدك إلى زيارتنا لزوّجتكما قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تذكّر خديجة بالماضي البعيد:

- المطبخ واحد؟! أم تطالب العروس بالاستقلال من حاتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معاً، وقالت خديجة بلهجة لم تخلّ من معنى:

- العروس كأماها لا تعنى بالسفاسف! .  
وقال إبراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة:

- بدأت المعارك بين أمكما وأمي بسبب مشكلة المطبخ الذي كانت أمي تستقلّ به، ومطالبة أمكما بالاستقلال المطبخي...  
فقال العريس متعجباً:

- كنت تتعاريكن يا نينة بسبب المطبخ!...  
فقال أحمد ضاحكاً:

- وهل من سبب للمعارك التي تدور بين الأمم إلا هذا المطبخ؟!

فقال إبراهيم في تهكم:  
- أمكما قوية كالإنجلترا، أمّا أمي فرحة الله عليها...

وجاء كمال، كان يرتدي بذلة بيضاء أنيقة؛ أمّا وجهه فيتكوّن من الطاقم المألوف المركّب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظارته الذهبية وشاربه المربع الغليظ، وكان يحمل بيده لفّة كبيرة بشرت بهديّة ممتازة، فقالت خديجة باسمه وهي تتفحص الهدية:

- حذار يا أخي، إذا لم تدارك نفسك بالزواج فستظلّ تحييء بالهدايا دون أن يُردّ لك الجميل، الأسرة كلّها اليوم موشكة على الزواج، هذا أحمد، وهناك

عرفناها شيخخة لا عالمة! وبالأمرس قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولكن ينبغي أن تؤجّلي الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعاً، وقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لا ينقص عروسك إلا أن تضمّنها إلى شعبة الشيخ عليّ المنوفي معك.

فقال العريس:

- إن شيخنا أوّل من نصّحني بالزواج...

فقال أحمد مخاطباً أخاه:

- لعلّ الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسي!

والفتى إبراهيم إلى كمال قائلاً:

- أمّا أنت فكنت - أقصد أيّام دخلتي - صغيراً، وكان شعرك غزيراً لا كما هو اليوم، وكنت تتهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذلك أبداً...

«كنت ميداناً خالياً لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكون؟ نعمة أعزّ عليّ من أن يملأ مخلوق، أيّ شيء لا ينكشف عن خدعة في هذه الحياة؟»

فقالّت خديجة معلّقة على قول زوجها:

- كنّا نظنّ ذلك حباً لنا، ولكن اتّضح مع الأيام أنّه ليس إلاّ عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغرة!

وضحك كمال كما ضحكوا جميعاً. إنّه يحبّ خديجة، ويزيد من حبه علمه بحبّها الشديد له، أمّا تعصّب العريس فشذ ما يزعجه، ولكنّه من ناحية أخرى يحبّ

أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به في كلّ مناسبة، وكان قلبه شديد

التأثر بجوّ الزواج المحيط به، فانتشى قلبه وحواسّه، ووجد حينئذٍ وإن يكن بلا هدف، ثمّ تساءل كأنّها

يتساءل لأوّل مرّة: ماذا يعني من الزواج؟... حياة الفكر كما كان يزعم قديماً؟ إنّي أشكّ اليوم في

الفكر والمفكر معاً، أهو الخوف، أم الانتقام، أم الرغبة في الألم، أم ردّ الفعل الصادر من الحبّ القديم؟ في حياتي مسوّغ لأيّ من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

- أندري لماذا أسف على عزوبتك؟

- نعم؟...

- إنّي أعتقد أنّك زوج مثاليّ إذا تزوّجت، فأنت رجل بيت بطبعك، منظمّ، مستقيم، موظّف محترم، ولا شكّ أنّه توجد فتاة في مكان ما من الأرض تستحقّك، وأنت مُضَيّع عليها حظّها!

حقّ البغال أحياناً تنطق بالحكم، فتاة في مكان ما من الأرض، ولكن أين؟ أمّا عن اتّهامه بالاستقامة فما هو إلاّ كافر فاسق سكير منافق، فتاة في مكان ما من الأرض، فلعلّه غير بيت جلييلة بعطفة الجوهري،

وفهذه الآلام التي تتطاحن في قلبه ما علّتها؟. والخيرة التي لا مهرب منها إلاّ بالخمر والشهوات، ويقولون

تزوّج حتّى تنجب فتخلد، وشذّ ما طمح إلى الخلود في شتى أشكاله وألوانه، فهل يركن يائساً في النهاية إلى

هذه الوسيلة الفطريّة المبتذلة؟ وثمة أمل أن يبيء الموت بلا ألم يشوّه راحته الأبدية، كم بدا الموت خفيفاً

لا معنى له؛ ولكنّه - بعد أن فقدت الحياة كلّ معانيها - يبدو اللذة الحقيقيّة في الحياة، ما أعجب العاكفين على

العُلم في معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم بالمهالك في سبيل الدستور، أمّا الذين

يدورون حول أنفسهم في حيرة وعذاب فالرحمة لهم! ورّدّد بصره بين أحمد وعبد المنعم، في إعجاب مقرون

بالغبطة، إنّ الجيل الجديد يشقّ سبيله العسير إلى هدف بيّن دون شكّ أو حيرة، ترى ما سرّ دائي

الويل؟!

قال أحمد:

- سأدعو العروسين والديّ وخالتي إلى لوج في الريحاني الخميس القادم.

فتساءلت خديجة:

- الريحاني؟

فقال لها إبراهيم مفسّراً:

- كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

- كاد ياسين يُطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أمّ رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

- كان زمان وجبر، جدّي الآن لا يمانع في ذهاب



- جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علمًا وعملاً،  
 ألم تسمع بشعبها التي بدأت تتكون في الأحياء؟  
 - غير الشبان المسلمين؟  
 - نعم...  
 - وما الفرق؟  
 فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت:  
 - سَلِ الأخ...  
 فقال عبد المنعم بصوته القوي:  
 - لسنا جمعية للتعليم والتهديب فحسب، ولكننا  
 نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله، دينًا ودنيا وشريعة  
 ونظام حكم...

- أهذا كلام يقال في القرن العشرين؟...  
 فقال الصوت القوي:  
 - وفي القرن العشرين بعد المائة...  
 - احترنا يا هوه بين الديموقراطية والفاشية  
 والشيوعية، هذا خازوق جديد!  
 فقال أحمد ضاحكًا:  
 - لكنّه خازوق ربّاني!  
 فعلت ضجّة ضحك، إلّا أنّ عبد المنعم حدّجه  
 بنظرة غاضبة، وكأنّ رضوان ياسين ساءه التعبير،  
 فقال:

- خازوق تعبير غير موفق...  
 وعاد الطالب يسأل عبد المنعم:  
 - وهل ترجمون الناس إذا خالفوكم؟  
 - إنّ الشبان يتهدّدهم زيغ في العقيدة، وانحلال في  
 الخلق، وليس الرجم بأشدّ ما يستحقّونه، ولكننا لا  
 نرجم، وإنّما بالموعظة الحسنة والمثال الطيّب نهدي  
 ونرشد، وآية ذلك أنّ بيتنا يضمّ، أخًا مَن يستحقّون  
 الرجم، وها هو يرح أمامكم، ويتناول على خالقه  
 سبحانه!

فضحك أحمد، وقال حلمي عزّت مخاطبًا إيّاه:  
 - إذا آنست من أخيك خطرًا، فإنّي أدعوك للإقامة  
 معي في الدرب الأحمر...  
 - أنت مثله؟  
 - كلًّا، ولكننا معشر الوفديين قوم متسامحون،  
 المستشار الأول لزعيمنا قبضي، هكذا نحن...

جدّتي إلى كشكش بك!  
 فقالت خديجة:  
 - خذ العروسين وأباك، أمّا أنا فكفاية عليّ  
 الراديو...  
 وقالت عائشة:  
 - وكفاية عليّ أنا بيتكم...  
 وراحت خديجة تقصّ قصّة ياسين وكشكش بك  
 حتّى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتذكّر موعد  
 رياض قلّس، فنهض مستأذّنًا في الانصراف.

## ٢٠

- أنستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقًا بالرغم  
 من أنّ الامتحان لم يبق عليه إلّا أيّام؟  
 كان السائل طالبًا، والمسئول طالبًا كذلك، في  
 جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف  
 دائرة فوق هضبة خضراء في أعلاها كشك خشبي  
 احتلّه طلاب آخرون، وعلى مرمى البصر تراءت  
 جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخلّلها مماشي  
 الفسيفساء، قال الطالب المسئول:  
 - كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية،  
 رغم اقتراب الامتحان.

كان عبد المنعم شوكت جالسًا في محيط نصف  
 الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:  
 - الزواج بخلاف ما تظنون، يهيئ للطلاب أحسن  
 فرصة للنجاح.

فقال حلمي عزّت، وكان يجلس لصق رضوان  
 ياسين في الطرف الآخر من نصف الدائرة:

- هذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!  
 وضحك رضوان عن غره اللؤلؤي، رغم ما أثاره  
 الحديث في نفسه من غمّ، أجل إنّ سيرة الزواج تثير  
 قلقه، فلا يدري إن كان يقدم يومًا على هذه المغامرة  
 أم لا، مغامرة مخيفة بقدر ما هي ضرورية، ولكن ما  
 أبعداها عن روحه وجسده! وتساءل طالب:

- وما الإخوان المسلمون؟  
 فأجابه حلمي عزّت:

وعاد الطالب الأول يقول:

- كيف تدعون إلى هذا الهراء في نفس الشهر الذي ألغيت فيه الامتيازات الأجنبية؟

فقال عبد المنعم متسائلاً:

- أنبطل ديننا إكراماً للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان في وادٍ آخر:

- ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون...

فقال حلمي عزت:

- هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنها الكراهية والحسد،

إن الاستقلال الحقيقي الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب؛ فكيف يطمعون في أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا؟

فجاء صوت يقول في ضجر:

- دعونا نساءل عن المستقبل...

- المستقبل لا يُبحث في شهر مايو والامتحان على

الأبواب، أريحونا... لن أعود إلى الكلية بعد اليوم

حتى يتسع لي الوقت للمذاكرة...

- مهلاً، إن الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل

الحقوق أو الآداب؟ التسكع أو الوظائف الكتابية،

تساءلوا عن المستقبل إذا شئتم...

- أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب!

- الأبواب؟! السكّان أكثر من الأبواب!

- اسمعوا... النحاس أدخل الطلبة الجامعة

وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن

أعجزهم المجموع المتعسف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح في أقصى الحديقة سرب، فانعقدت الألسنة

وأنجّمت نحوه الرعوس، كان مكوّناً من أربع فتيات

قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم

تكذ تميزهنّ الأبصار بعد، ولكنهنّ تقدّمن متمهلات

يسقن الأمل في رؤيتهنّ عن قرب، إذ كان الممرّ الذي

يسرنّ فيه ينطفف أمام مجلس الصحاب في مسيره نحو

الشمال. وصرنّ في مجال البصر، وردّدت الألسن

أسماءهنّ وأسماء كليّاتهنّ، واحدة من الحقوق وثلاث

من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحدهنّ:

«علوّ صبري»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة

ذات جمال تركي ممصّر، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء

ذات شعر أسود فاحم، وعينين سوداوين واسعتين

عاليقي الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمت

أرستقراطي ولفات رفيعة، وإلى ذلك كلّه فهي زميلة

في القسم الإعدادي، وقد علم - والباحث يظفر

بمعلومات شتى - أنها سجّلت اسمها مثله في قسم

الاجتماع، ولم تكن تبيّات فرصة ليبادلها كلمة واحدة،

ولكنّها أثارت اهتمامه من أوّل نظرة، طالما رفق ملامح

نعمة بإعجاب ولكنّها لم تهزّ أعماقه، هذه الفتاة لها

شان، فيشتر قريباً بصداقة العقل، والقلب... ١٩٠٠

قال حلمي عزت عقب تسواري السرب عن

الأنظار:

- عمّا قريب تصبح كليّة الآداب وكأنّها كليّة

بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردّد بصره بين طلاب

الآداب في نصف الدائرة:

- لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثر

من زياراتكم في كليّتكم بين الحصص، فالغرض

مفضوح!

ثمّ ضحك ضحكة عالية، ولكنّه لم يكن سعيداً في

تلك اللحظة، فإنّ حديث الفتيات يثير في نفسه

اضطراباً وحزناً.

- لم تقبل الفتيات على كليّة الآداب؟

- لأنّ وظيفة التدريس هي أوسع الوظائف صدراً

لهنّ...

فقال حلمي عزت:

- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فدراسة

الآداب دراسة نسائية، الزوج والمانيكور والكحل

والشعر والقصص، كلّها باب واحد!

فضحكوا جميعاً حتى أحمد، وبقية طلاب الآداب

ضحكوا رغم توتّبهم للاحتجاج، ثمّ قال أحمد:

- يصدق هذا الحكم الجائر على الطبّ، فطالما كان

التمريض نسائياً، أمّا الحقّ الذي لم يستقرّ بعد في

نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة.

فقال عبد المنعم بأساً:

- لا أدري إن كان مدحاً أم ذمّاً أن نقول للنساء

إنهنّ مثلنا؟

التقدمية، ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الإنسانية الحرة!

فقال عبد المنعم، وكان في تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له:

- الإلحاد سهل، حلّ سهل هروبي، هروبي من الواجبات التي يلتزمها المؤمن حيال ربّه ونفسه والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يُعدّ أقوى من البرهان على الإيمان، فنحن لا نختار هذا أو ذاك بقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا...

وتدخّل رضوان قائلاً:

- لا تستسلما لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد...

وإذا حلّمني عزّت يندفع قائلاً، وكان أحياناً تعتريه نوبات ناثرة غامضة:

- إيمان... إنسانية... الغدا. كلام فارغ، النظام القائم على العلم وحده ينبغي أن يكون كلّ شيء، يجب أن نؤمن بشيء واحد هو استئصال الضعف البشري بكافة أنواعه، ومهما بدا علمنا قاسياً، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قويّ نظيف! أهذه مبادئ الوفد الجديدة بعد المعاهدة!

فضحك حلّمني عزّت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعية، وقال عنه رضوان:

- إنه حقاً وفديّ، ولكن تطوف به أحياناً مذاهب طارئة غريبة فيدعو إلى القتل بالجملة، وربما دلّ ذلك على أنّه لم ينم أمس نوماً مريحاً!

وكان لشدة الخصام ردّ فعل فساد الصمت، فسُرّ بذلك رضوان، وسرّح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحدأ المدوّمة في السماء، أو يرنو إلى أسراب النخيل، الكلّ يعلن رأيه حتّى ما يتهمّج به على الخالق، ولكّنه لا يسعه إلّا أن يكتّم ما يضطرم في أعماق نفسه، وسيظلّ سرّاً مرعباً يتهذده، فهو كالمطاردة، أو كالغريب، من الذي قسم البشر إلى طبيعيّ وشاذّ؟، وكيف تكون الخصم والحكم في آن؟، ولمّ نهزأ كثيراً بالتعساء؟. قال رضوان مخاطباً عبد المنعم:

- إذا تعلّق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذمّ...

فقال عبد المنعم:

- لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث.

فقال أحمد متهمّاً:

- حتّى في الرّق ساوى بينهما!

فاحتدّ عبد المنعم قائلاً:

- أنتم لا تعرفون دينكم، هذه هي المأساة!...

والتفت حلّمني عزّت إلى رضوان ياسين، وسأله بأسياً:

- ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجته:

- وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد:

- وأنت ماذا تعرف عنه حتّى لا تهرف بما لا تعرف؟

فقال أحمد بهدوء:

- أعرف أنّه دين، وحسبي ذلك، لا أومن بالأديان!...

فتساءل عبد المنعم مستنكراً:

- ألدّيك برهان على بطلان الأديان؟

- ألدّيك أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتّى جعل الشاب الذي يجلس بينه وبين أخيه يردّد رأسه بينهما كالمنزعج:

- عندي، وعند كلّ مؤمن، ولكن دعني أسألك أوّلاً كيف تعيش؟

- بإيماني الخاص، بإيماني بالعلم والإنسانية وبالغد، وبما ألزّمه من واجبات ترمي في النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد.

- هدمت كلّ ما الإنسان إنساناً به...

- بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوّتها، ولكن على خطّة بعض بني الإنسان، ذلك ضدّ معنى الحياة المتجدّدة، ما يصلح لي وأنا طفل يجب أن أغيّره وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبداً للطبيعة والإنسان، وهو يقاوم عبوديّة الطبيعة بالعلم والاختراع، كما يقاوم عبوديّة الإنسان بالمذاهب

- لا تزعل، إنَّ للدين ربًّا يحميه، أمَّا أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبا!

- حقًا...!؟

فقال أحمد مداعبًا أخاه ليمسح عنه آثار الحدة:  
- أهون عليَّ أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض لغضبك!

ثم مضى أحمد يحدث نفسه: غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته إلى السكرية صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علوية صبري في الدور الأول بالسكرية؟  
ونذت عنه ضحكة، ولكنَّ أحدًا لم يَحْمَن السبب الحقيقي لضحكته...

## ٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى في حركة غير مألوفة، ففي الحديقة وقف أناس كثيرون، وفي الفراندا جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكر حلمي عزت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتياح:

- لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم...

وعندما أخذوا يشقان سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبان «يحييا التضامن» فتورد وجه رضوان تأثرًا. كان متحمسًا تأثرًا مثلهم، بيد أنه ساءل نفسه في قلق: ترى ألا يشك أحد في الجانب غير السياسي من زيارته؟ وقد أفضى مرةً بمخاوفه إلى حلمي عزت، فقال له: «إنَّ الريبة لا تلحق إلَّا بالخوَّاف! سِرْ مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجدر بالذين يعدّون أنفسهم للحياة العامة ألا يكثرُوا لآراء الناس أكثر مما يجب». وكان بهو الاستقبال مكتظًا بالجالسين، منهم طلبة وعَمال وبعض أعضاء الهيئة الوفديّة، وفي صدر المكان جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهّيًا على غير عادته، جادًا صارمًا، تكتنفه هالة الرجل السياسي الخطير، وتقدّمًا إليه فنهض لاستقبالها في رزاة، وصافحها ثم أشار لهما بالجلوس. وقال أحد

الجالسين، وكان قد توقّف عن الحديث أثناء استقبال الشابين:

- شدّ ما فوجئ الرأي العامّ وهو يطلع على أساء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشي!  
فقال عبد الرحيم باشا عيسى:

- توقّعنا عند الاستقالة أمرًا، خاصّة وأنَّ الاختلاف كان قد ذاع حتّى تحدّثت به المقاهي، ولكنَّ النقراشي ليس كغيره من أعضاء الوفد. لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أمّا النقراشي فله شأن آخر، ولا تنسوا أنَّ النقراشي معناه أحمد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا المشائق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرة بالذي يشين الخارج، هي نزاهة الحكم، قضية القنابل، وإذا وقع المحذور وانشقَّ الوفد، فالوفد هو الذي سيخرج لا النقراشي ولا ماهر!...

- لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيرًا...  
ووقع هذا القول من أذني رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن ممّا يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب في بيّنة وفديّة صميّة، وإذا بآخريقول:  
- مكرم عبيد هو رأس هذا الشرِّ كلّ يا سعادة الباشا...

فقال عبد الرحيم باشا:

- ليس الآخرون أصفارًا...  
- لكنّه هو الذي لا يطيق منافسيه، إنّه يريد أن يستحوذ على النّحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجوّ من ماهر والنقراشي فلن يقف في سبيله شيء...  
- لو أمكنه إزالة النّحاس نفسه لأزاله...  
فقال شيخ من الجلوس:

- أرجوكم، لا تسرفوا في القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

- بعد أن تألّفت الوزارة دون النقراشي؟

- كلّ شيء ممكن...

- كان من الممكن هذا على عهد سعد، أمّا النّحاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه...  
وهنا دخل البهو رجل مهرولًا، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل:

وراءه، وجلس ثلاثتهم حول منضدة، وسرعان ما حملت إليهم أقذاح الليمون، وما لبث أن تراءى عند الباب رجل في الأربعين، عرفه رضوان في بعض زيارته السابقة، يدعى عليّ مهران، يعمل وكيلًا للبasha، وكان منظره يوحى بما طُبع عليه من ميل للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا في العشرين من عمره، جميل المَحْيَا، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنّه من أهل الفنّ. وقد أقبل عليّ مهران باسم الثغر فقبل يد الباشا، وصافح الشابين، ثمّ قدّم الشاب قائلاً:

- الأستاذ عطية جودت، مُعَنَّ ناشئ لكنته موهوب، وقد سبق أن حدّثتك عنه يا معالي الباشا!  
فلبس الباشا نظارته التي كان وضعها على المنضدة، وتفحص الشاب بعناية، ثمّ قال باسمًا:

- أهلاً وسهلاً يا سيّ عطية، سمعت عنك كثيراً، فلعلنا نسمعك هذه المرة...  
فدعا للبasha باسمًا، ثمّ جلس، على حين مال عليّ مهران على الباشا وهو يقول:

- كيف حال عمّي؟  
هكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواعي الكلفة، وأجابه الرجل باسمًا:  
- أحسن منك ألف مرّة!

فقال عليّ مهران جادًا على خلاف عادته:  
- يتهايمون في بار الأنجلو عن وزارة قومية قريبة برياسة النقراشي...  
فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتمتم:

- لسنا من المستورزين...  
وتساءل رضوان باهتمام وقلق:  
- على أيّ أساس؟ طبعًا لا أستطيع أن أتصوّر أن يقوم النقراشي بانقلاب سياسيّ كمحمد محمود أو إسماعيل صدقي؟!  
فقال عليّ مهران:

- انقلاب! كلّ، المسألة تنحصر الآن في إقناع أكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام إلينا، ولا تنس أنّ الملك معنا، فعليّ ماهر يعمل بحكمة وأناة!  
وعاد رضوان يتساءل في كآبة:

- متى عدت؟ كيف الحال في الإسكندرية؟  
- عال... عال، استقبل النقراشي في محطة سيدي جابر استقبالًا شعبيًّا منقطع النظير، هفت له الجماهير المثقفة من الأعيان، الجميع غاضبون، الكلّ ثائر لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا النقراشي النزيه... يحيا النقراشي ابن سعد... وهتف كثيرون يحيا النقراشي زعيم الأمة...

وكان الرجل يتكلّم بصوت مرتفع، فردّد هتافه كثيرون حتّى اضطرّ عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعيًا إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

- الرأي العامّ ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج النقراشي منها، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوّض، وارتضى أن يؤثّر الشيطان ضدّ الملاك الطاهر...  
وهنا قال عبد الرحيم باشا:

- نحن الآن في أغسطس، وفي أكتوبر تفتح الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن نستعدّ منذ الآن للمظاهرات فإنّما أن يشوب النحاس إلى رشده، وإنّما فليذهب إلى الهاوية...

فقال حلمي عزّت:  
- أستطيع أن أوّكد أنّ مظاهرات الجامعيين ستتدفّق على بيت النقراشي...  
فقال عبد الرحيم باشا:

- كلّ شيء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدّوا العدة، وفضلاً عن هذا فإنّ الأخبار التي عندي تؤكّد أنّ كثرة لا تصدّق من النواب والشيوخ سينضمّون إلينا...

- النقراشي هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذلك، إنّ تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء...  
وتساءل رضوان ماذا يحدث في الدنيا؟ ترى أينقسم الوفد مرّة أخرى؟ وهل يتحمّل مسؤولية ذلك حقًا مكرم عبيد؟ وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذي نهض برسالته ثمانية عشر عامًا؟ وطال الأخذ والردّ، وبحث المجتمعون اقتراحات شتّى خاصّة بالدعاية وتدبير المظاهرات، ثمّ أخذوا في الانصراف حتّى لم يبق في البهو إلّا الباشا ورضوان وحلمي عزّت، وعند ذاك دعاهما للجلوس في الفراندا، فمضيا

- أنكون في النهاية من رجال السراي؟

فقال عبد الرحيم باشا:

- العبارة واحدة، ولكن المعنى تغير، فاروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شاب وطني متحمس، وهو مجني عليه أمام هجمات النحاس الجائرة!

ففرق عليّ مهرا ن يديه في حبور وهو يقول:

- ترى متى نبتى الباشا بالوزارة؟ وهل تختارني وكيلاً لوزارتك كما اخترتني وكيلاً لأعمالك؟  
فقال الباشا ضاحكاً:

- بل أعينك مديراً عاماً للسجون، إن مكانك الطبيعي هو السجن.

- السجن؟ لكنهم يقولون إن السجن للجدعان؟

- ولغيرهم، فليطمئن بالك!

ثم ركب الضجر فجأة فهتف:

- حبسنا سياسة، غيروا الجو من فضلكم!...

والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلاً:

- ماذا نسمعنا؟

فأجاب عنه عليّ مهرا ن:

- الباشا سمع وابن حظ، وإذا رُقّت في نظره تفتحت لك أبواب الإذاعة...

فقال عطية جودت برقة:

- لحنت أخيراً أغنية «شيكوني وشيكوه» وهي من

تأليف الأستاذ مهرا ن!

فرمق الباشا وكيله، وسأله:

- منذ متى تؤلف أغاني؟

- ألم أجاور في الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها في مفاعيل وفعلاتن؟

- وما للأزهر وأغانيك الخليفة؟، شيكوني وشيكوه!

من هو يا حضرة المجاور؟

- المعنى يا معالي الباشا في ذفن الباشا!

- يا ابن الهرمة!...

ونادى عليّ مهرا ن السفرجي، فسأله الباشا:

- لماذا تناديه؟

- ليهيئ لنا مجلس الطرب!...

فقال الرجل وهو ينهض:

- انتظر حتى أصلي العشاء!...

فتساءل مهرا ن باسمًا في خبث:

- ألم يتقضى سلامنا وضوءك؟!

## ٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلًا خطاه على مهل، متوكئًا على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمئذ أن صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته إلا مرة واحدة في اليوم، كي يعفي نفسه ما استطاع من الجهد الذي يتحمّله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر إلا أنه رأى أن يرتدي الملابس الصوفية، إذ إن الجسم النحيل لم يعد يطبق الجو اللطيف الذي كان يرح فيه الجسم البدن القوي الذي كان. والعصا التي صاحبه منذ الصغر رمزًا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكّاه في مشيته المتمهلة، التي لا يطبقها قلبه إلا بجهد ومشقة، ولكن بقي له رونقه وأناقته، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطيّب بالعطر الفواح متمتعًا بجبال الشيوخوخة ووقارها، وعندما اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية. رفعت اللافة التي حملت اسمه واسم أبيه أعوامًا وأعوامًا، وتغير مظهر الدكان ومخبره، فانقلب دكان طرايش للبيع والكمي، وتقدمه الوابور والقوالب النحاسية، وتحايلت لعينيه لافتة وهيمية، لم ترها عين سواه، عالته بأن زمانه قد ولّى، زمان الجد والكفاح والمسرات، وها هو في ركن المعاش ينزوي، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيوخوخة والمرض والانتظار، وتقبّض القلب الذي طالما - وما زال - يهيم بحب الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن في نظره إلا مسرة من مسراتها ودافعًا إلى أحضانها، فلم يعرف - حتى اليوم - العبادة الزاهدة التي تدير الظهر للدنيا وتطلّع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه ولكن كيف تمحي ذكره من ذهنه وهو الذي كان مركز النشاط، ومحط الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث العزة والجاه؟. «ولك أن تعزّي نفسك فتقول: زوجنا البنات، ورينا الصبيان، ورأينا

- تأخّرت عن ميعادكم، ساعحكم الله...  
بأنّ صجر الرقاد في عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام  
إلا ساعة اجتماعه بهم، وجعل يقول:  
- لا عمل لي طول اليوم إلا الاستماع إلى الراديو،  
ماذا كنت أصنع لو تأخّر استعماله في مصر حتى اليوم!  
كلّ ما يذيعه يطيب لي حتى المحاضرات التي لا أكاد  
أفهمها، ومع ذلك فلم نكبر إلى الحدّ الذي يستوجب  
هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوجون في مثل  
أعمارنا!...

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:  
- فكرة! ما رأيكم في أن نتزوج من جديد، لعلّ  
ذلك يحدّد شبابنا وينفض عنا الأمراض؟!  
فابتسم عليّ عبد الرحيم - كان يتجنّب الضحك أن  
تدركه نوبة السعال فتؤذي قلبه - وقال:  
- معكم! اختاروا لي عروساً، ولكن صارحوها بأنّ  
العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقي...  
وهنا خاطبه الفار وكأنا نذكر أمراً فجأة:  
- أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته،  
ربّنا يحدّد في عمره!

- مبارك مقدّماً يا بن عبد الجواد!...  
ولكنّ السيّد أحمد تجهّم قائلاً:  
- نعيمة حبل حقاً ولكنّي غير مطمئنّ، ما زلت أذكر  
ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى  
ذلك عبثاً...  
- يا لك من رجل جاحد! منذ متى تؤمن بنبوءات  
الأطباء؟...

فضحك السيّد أحمد قائلاً:  
- منذ باتت اللقمة التي أتناولها على غير مشورتهم  
تؤزّقني حتى مطلع الفجر...  
فتساءل عليّ عبد الرحيم:  
- ورحمة ربّنا؟!...  
- الحمد لله ربّ العالمين.  
ثمّ مستدرّكاً:

- لست بالغافل عن رحمة الله، ولكنّ الخوف يبعث  
على الخوف، والحقّ فإنّ نعيمة لا تهمني بقدر ما تهمني  
عائشة يا عليّ، عائشة هي مركز القلق في حياتي،

الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت، وذقنا حلو  
الدنيا سنين - سنين حقّاً؟ - وآن لنا أن نشكر، والشكر  
لله واجب، دائماً أبداً، ولكن آه من الحنين، وسامح  
الله الزمن، الزمن الذي مجرّد حياته - حياته التي لا  
تتوقّف لحظة - خيانة وأيّ خيانة للإنسان. لو أنّ  
الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدّثني عن  
الماضي، لتخبرني أحقّاً كان هذا الجسم بهدّ الجبال؟،  
وهذا القلب المريض لا يكفّ عن الخفقان؟، وهذا  
الثغر لا يمكّ عن الضحك؟، وهذا الشعور لا يعرف  
الأم؟، وهذه الصورة معلقة في كلّ قلب؟ ومرة أخرى  
سامح الله الزمن!...

وعندما انتهى به المسير الوئيد إلى جامع الحسين،  
خلع حذاءه ودخل وهو يتلو الفاتحة، ومضى إلى المنبر  
حيث وجد في انتظاره محمّد عفت وإبراهيم الفار  
فصلّوا المغرب جميعاً، ثمّ غادروا المسجد متجهين نحو  
الطمبيكشيّة لزيارة عليّ عبد الرحيم، كان ثلاثهم قد  
اعتزلوا العمل ليتفرّغوا لمقاومة الأمراض، غير أنّهم  
كانوا أحسن حالاً من عليّ عبد الرحيم الذي لم يعد  
بوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيّد أحمد متنبّهاً:  
- يخيّل إليّ أنّي عمّا قريب لن أستطيع الذهاب إلى  
الجامع إلا ركباً...  
- الحال من بعضه...  
فعاد الرجل يقول في قلق:

- شدّ ما أخاف أن أضطرّ إلى ملازمة الفراش  
كالسيّد عليّ، إني أدعو الله أن يكرمني بالموت قبل أن  
يدركني العجز...  
- ربّنا يكفيك ويكفينا كلّ سوء...  
فبدا كالحائف وهو يقول:

- غنيم حميدو لبث مشلولاً في الفراش زهاء العام،  
وصادق الماوردي عانى العذاب شهوراً، فاللّهمّ أكرمنا  
بالنهاية السريعة إذا حمّ القضاء.  
فضحك محمّد عفت قائلاً:

- إذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة، وحّد  
الله يا أخي!...  
ولما بلغوا بيت عليّ عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته،  
فبادرهم يقول في جزع:

وخطر للفار خاطر، فتساءل باسمًا:  
 - لو اضطررنا - لا سمح الله - إلى ملازمة الفراش  
 كالسيد علي، فكيف نتقابل ونتحدث؟  
 فتمتم محمد عفت:  
 - فال الله ولا فالك...  
 فضحك أحمد عبد الجواد وقال:  
 - لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يخاطب  
 بابا «سحام» الأطفال!...  
 وضحكوا جميعًا، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر  
 فيها، ولكن علي عبد الرحيم جزع وقال:  
 - ستبقون معي حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا  
 يقول، ملعون أبوه، وأبو أيامه...

## ٢٣

كانت الغورية تغلق أبوابها، فقلت السابلة  
 واشتدّت البرودة، وكان الزمن في أواسط ديسمبر،  
 ولكن الشتاء جاء متعجلًا هذا العام. ولم يكن كمال قد  
 وجد صعوبة في جذب رياض قلدس إلى حيّ  
 الحسين، أجل كان الشاب غريبًا عن الحي، ولكنه  
 وجد من نفسه شوقًا للتقلب في أنحائه، والجلوس في  
 مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفها في مجلة الفكر أكثر  
 من عام ونصف عام، لم يمرّ أسبوع خلاله دون أن  
 يتقابلا مرة أو مرتين، بخلاف العطلة التي تجمع بينهما  
 كل مساء على وجه التقريب في مجلة الفكر، أو بيت  
 بين القصرين، أو بيت رياض بمنشيّة البكري، أو  
 مقاهي عباد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التي لجأ  
 إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده  
 التاريخية فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين  
 بصداقتهما، وقد قال كمال لنفسه مرة «جعلت أفتقد  
 حسين شذاد أعوامًا، وظلّ مكانه شاغرا، حتى ملأه  
 رياض قلدس» ففي محضره تستيقظ روحه وتستشعر  
 ذلك الانبشاق الذي يبلغ نشوته في عناق الفكر  
 المتبادل، هذا على الرغم من أنهما لم يكونا شيئًا واحدًا،  
 وإن كانا متكاملين فيما بدا. وظلّت صداقتهما شعورًا  
 متبادلًا في صمت، لم ينوها به، فلم يقل أحدهما للآخر

التعيسة المسكينة، سأتركها إذا تركتها وحيدة في هذه  
 الدنيا...

فقال إبراهيم الفار:  
 - ربنا موجود، وهو الراعي الأكبر...  
 وساد الصمت مليًا، حتى قطعه صوت علي عبد  
 الرحيم قائلاً:  
 - وسأني دوري بعدك في رؤية وليد حفيدتي...  
 فضحك السيد أحمد قائلاً:  
 - سامح الله البنات، فلأتهنّ يكبرن أهلهنّ قبل  
 الألوان.  
 فهتف محمد عفت:

- يا عجوز! اعترف بالكبر وكفالك مكابرة...  
 - لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبي فيسوق  
 العوج، أصبح قلبي كالطفل المدلل...  
 فقال إبراهيم الفار وهو يمزّ رأسه أسفًا:

- يا له من عام ذلك العام الماضي، كان علينا  
 شديدًا، فما ترك واحدًا منا سلبًا كأننا كنا على ميعادا.  
 - على رأي عبد الوهاب: لنعيش سوا لنموت  
 سوا...  
 فضحكوا معًا، وإذا بعلي عبد الرحيم يغيّر لهجته  
 ويتساءل جادًا:

- أهذا يصح؟ أعني ما فعله النقراشي؟  
 فتجهّم وجه أحمد عبد الجواد وقال:  
 - كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله  
 العظيم...

- أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء!.  
 - في هذا الزمن كلّ جميل يضيع هباء...  
 وعاد أحمد عبد الجواد يقول:  
 - لم أحزن لشيء كما حزنت لخروج النقراشي، ما  
 كان ينبغي أن يذهب به الخصام إلى هذا الحد...  
 - ترى ما هي النهاية التي تنتظره؟  
 - النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسي؟. لقد  
 قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ في رجله أحمد  
 ماهر.

وهنا قال محمد عفت متنرفزًا:  
 - دعونا من هذه السيرة! أنا أكاد أطلق السياسة!



فقال رياض دون تردد:

- إن الأقباط جميعاً وفديون، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزباً دينياً تركياً كالحزب الوطني، ولكنه حزب القومية التي تجعل مصر وطناً حراً للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفاً للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي، وسيعانون ذلك منذ اليوم...

ورحب كمال بهذه الصراحة التي تشهد لصدقتها بالكمال، غير أنه راق له أن يتساءل في دعابة: - ها أنت تتحدث عن الأقباط! أنت الذي لا يؤمن إلا بالعلم والفن!...

فلاذ رياض بالصمت. وكنا قد بلغنا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد في شيء من العنف. ثم مرّا في طريقهما بدكان بسبوسة فدعاه كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كل منهما طبقاً صغيراً وانتحيا ناحية ياكلاان، وعند ذلك قال رياض:

- إني حرّ وقبطني في آن، بل إني لا ديني وقبطني معاً، أشعر في أحيان كثيرة بأن المسيحية وطني لا ديني، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلي اضطربت. ولكن مهلاً، أليس من الجبن أن أنسى قومي؟ شيء واحد خليق بأن ينسني هذا النزاع، ألا وهو الفناء في القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إن النحاس مسلم ديناً، ولكنه قومي بكل معنى الكلمة أيضاً، فلا نشعر حياله إلا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطي، بوسعي أن أعيش سعيداً دون أن أكرّر صفوي بهذه الأفكار، ولكن الحياة الحقّة مسئولية في الوقت نفسه.

كان كمال يتمطّץ ويفكر وصدرة يجيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميّة التي تذكّره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى في نفسه. «إن موقف رياض له وجاهته التي لا تجحد، وأنا نفسي - بين عقلي وقلبي - شخص يعاني انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتّى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسائل السامية تقاس عادة بما تحقّقه من سعادة للبشر تتمثل أول ما تتمثل في الأخذ

«أنت الصديق» ولا قال له «لا أنصوّر الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وعلى برودة الجوّ لم تفتّر رغبتها في السير، فقرّرا أن يسيرا على الأقدام حتّى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلّداً سعيداً ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد: - انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلا هزيمة للشعب في نضاله التاريخي مع السراي...

فقال كمال في أسف:

- ثبت الآن أن فاروق كأبيه...

- فاروق ليس المسئول وحده، ولكن ذبّرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد عليّ ماهر ومحمّد محمود، ومن المبكي أن ينضمّ إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشي، ولوطيّا الوطن من الخونة لما وجد الملك من يملكه من هضم حقوق الشعب... ثم استطرد بعد صمت قليل:

- ليس الإنجليز اليوم في الميدان، ولكن الشعب والملك وجهها لوجه، الاستقلال ليس كلّ شيء، هنالك حقّ الشعب المقدّس في أن يتمتّع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد...

لم يكن كمال غارقاً في السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشك أن يدمرها فيما دمر فلبث حيّة في عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدري أين المفرّ. عقله يقول حيناً «حقوق الإنسان» وحيناً آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجاهل إلا قطيع» وربما قال «والشيوعية أليست تجربة جديدة بالاختبار؟». أما قلبه فلم يتخلّص من عواطفه الشعبية التي صاحبت منذ صباه ممتزجة بذكرى فهمي، أما رياض فكانت السياسة جوهرًا أصيلاً في نشاطه الذهني. وعاد رياض يقول:

- أيكمن أن ننسى الإهانة التي تلقّاها مكرم في ميدان عابدين؟ وهذه الإقالة المجرمة، سبّ وقذف وبصقة في وجه الأمة؟. والحقد الأعمى يجعل البعض يهلّلون، واحسرتاه...

فقال كمال مداعباً:

- أنت غاضب لمكرم!

بيد المضطهدين». قال:

- لا تؤاخذني، فقد عشت حتى الآن دون أن  
أصطدم بمشكلة العنصرية، فمعد البدء لفتني أمي أن  
أحب الجميع، ثم شبت في جو الثورة المطهر من  
شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

- المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق،  
يؤسفني أن أصارحك بأننا نشأنا في بيوت لا تخلو من  
ذكريات سود محزنة، لست متعصبًا، ولكن من يستهين  
بحق إنسان في أقصى الأرض - لا في بيته - فقد استهان  
بحقوق الإنسانية جميعًا...

- جميل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية  
الحقة كثيرًا ما تنبعث من أوساط الأقلية، أو من رجال  
مشغولي الضيائر بالأقلية البشرية، ولكن ثمة  
متعصبون دائمًا...

- دائمًا وفي كل مكان، الإنسان حديث والحيوان  
قديم، وهم عندكم يعتبروننا كفارًا ملاعين، وهم  
عندنا يعتبرونكم كفارًا معتصبين، ويقولون عن  
أنفسهم إنهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن  
يحافظوا على دينهم بدفع الجزية...

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

- هذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل في هذا  
الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبدًا إلى  
الخصام؟! لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون  
على وفاق، وستجد نزاعًا مستمرًا بين الشيعي والسني،  
وبين الحجازي والعراقي، كالذي بين الوفدي  
والدستوري، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادي  
الأهلي والترسانة، ولكن رغم ذلك كله فشد ما نحزن  
إذا ما طالعنا في الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع،  
لماذا لا تعالج ذلك في قصصك؟

- مشكلة الأقباط والمسلمين...

فصمت رياض قلدس مليًا، ثم قال:

- أخاف سوء الفهم...

ثم مستطرذاً بعد فترة صمت أخرى:

- ثم لا تنس أننا رغم كل شيء في عصرنا الذهبي،  
كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح في الماضي أن

يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم...

- وكيف نستأصل هذه المشكلة من جذورها؟

- من حسن الحظ أنها ذابت في مشكلة الشعب  
كله، مشكلة الأقباط اليوم هي مشكلة الشعب، إذا  
اضطهد اضطهدنا وإذا تحرر تحررنا...

«السعادة والسلام... ذلك الحلم المنشود، قلبك  
يحيا بالحب وحده، فمتى يعرف عقلي سبيله؟ متى أقول  
بلهجة ابن أخي عبد النعم «نعم. نعم»، إن صداقتي  
لرياض علمتني كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن  
بالفن، في الوقت الذي وجدت الفلسفة نفسها قصورًا  
غير صالحة للسكنى؟»

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر:

- فيم تفكر الآن؟... أصدقني!

وفطن إلى ما وراء سؤاله، فأجاب بصراحة:

- كنت أفكر في قصصك.

- ألم تتألم لصراحتي؟

- أنا، سأمك الله...

فضحك كالمعتذر، ثم سأل:

- أقرأت قصتي الأخيرة؟

- نعم، وهي لطيفة، ولكن يخيّل لي أن الفن  
نشاط غير جدي، مع ملاحظة أيهما أخطر في حياة  
الإنسانية: الجد أم اللهو؟! أنت مثقف ثقافة علمية  
عالية، ولعلك أدري «غير العلماء» بالعلم، ولكن  
نشاطك كله يضيع في كتابة القصص ولأي لاتساءل  
أحيانًا: ماذا أفدت من العلم؟

فقال رياض قلدس في حماسة:

- أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة،  
والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة،  
والنزاهة في الحكم، والتسامح الشامل مع  
المخلوقات...

كلمات ضخمة، ولكن ما علاقتها بملهات القصص؟  
ونظر رياض قلدس إليه، فقرأ الشك في وجهه،  
فضحك عاليًا ثم قال:

- أنت تسيء الظن بالفن، ولكن عزائي أن شيئًا في  
الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا  
ولكننا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاً - رغم موقفك

خاليًا من مآسي الخلافات العنصرية والدينية  
والمنازعات الطبقية، بيد أن الاهتمام الأول مركّز في  
فني... .

فقال كمال وكان في صوته دعابة:

- ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذي نتحدث  
عنه منذ أكثر من ألف عام... .

- لكنّه دين، الشيوعية علم أمّا الدين  
فأسطورة... .

ثمّ مستدركًا وهو يبتسم:

- ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام... .

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدة البرودة،  
فتوقّف رياض فجأة وهو يتساءل:

- ما رأيك في عشاء من المكرونة والنبيل الجيد؟

- لا أشرب في الأماكن المأهولة، فلنذهب إلى قهوة  
عكاشة إذا شئت... .

فضحك رياض قلّص قائلاً:

- كيف تطيق هذا الوفاق كلّ؟ نظارة وشارب  
وتقاليد! حرّرت عقلك من كلّ قيد، أمّا جسمك فكأنّه  
قيود، أنت خلقت - بجسمك على الأقلّ - لتكون  
مدرّسًا... .

وذكره تنويه رياض بجسمه بحادثة أليمة، فقد  
اشترك في حفل ميلاد أحد زملائه، وشربوا جميعًا حتّى  
سكروا، وهناك تحلّ أحدهم عليه معرّضًا برأسه وأنفه  
حتّى أضحك الجميع. وإذ ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر  
عايدة، وتلك الأيام، عايدة خالقة أنفه ورأسه، ومن  
عجب أن يغضب الحبّ فيمسي لا شيء، ثمّ تبقى هذه  
الرواسب المؤلمة... .

وجذبه رياض من ذراعه وهو يقول:

- هلّمّ نشرب نبيلًا ونحدث عن فنّ القصة، ثمّ  
نذهب بعد ذلك إلى بيت الستّ جليّة بعطفة  
الجوهري، وإذا كنت تقول لها يا عمتي، فساقول لها يا  
خالتي... .

الشكّي - تحبّ وتتعامل وتشارك مشاركة ما في حياة  
بلدك السياسية، ووراء كلّ ناحية من هذه النواحي  
مبدأ شعوريّ أو لا شعوريّ لا يقلّ عن الإيمان قوّة،  
الفنّ هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء  
من أسهم بفنّه في معركة الآراء العالمية، فانقلب الفنّ  
على يديه عدّة من عُدّد الكفاح في ميدان الجهاد  
العالمي، لا يمكن أن يكون الفنّ نشاطًا غير جدّي... .

دفاع عن الفنّ أم عن قيمة الفنّان؟ لو أنّ لبائع  
اللبّ قدرة على الجدل لدلّل أنّه يلعب دورًا خطيرًا في  
حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكلّ شيء قيمة ذاتية،  
ولا يبعد كذلك ألا يكون لشيء قيمة البتّة، كم مليونًا  
من البشر يلفظون أنفسهم في هذه اللحظة؟! في  
الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقْد لعبة،  
أو صوت عاشق يبثّ الليل والكون متاعب قلبه،  
أضحك أم أبكي؟ قال:

- لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية، دعني  
أخبرك بأنّها تنعكس على صورة مصغّرة في أسرتنا، لي  
ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيين!  
- ينبغي أن يكون لها صورة في كلّ بيت، عاجلاً أو  
آجلاً، لم نعد نعيش في قمقم، وأنت ألم تفكّر في هذه  
الأمور؟

- قرأت عن الشيوعية ضمن دراسي للفلسفة  
المادّية، كما قرأت كتبًا عن الفاشستية والنازية... .

- تقرأ وتفهم، مؤرّخ بلا تاريخ، أرجو أن تعدّ يوم  
خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.

فاستاء كمال لهذه الملاحظة، لأنّها نقد لاذع من  
ناحية، ولأنّها لا تخلو من حقّ من ناحية أخرى، ثمّ  
قال متهمّاً من التعقيب عليها:

- كلّ من الشيوعي والإخواني في أسرتنا على غير  
علم مكيّن بما يؤمن به!.

- الإيمان إرادة لا علم، إنّ أنفه مسيحيّ اليوم  
يعرف عن المسيحية أضعاف ما عرف الشهداء، كذلك  
عندكم في الإسلام... .

- وهل تؤمن بمذهب من هذه المذاهب؟

- لا شكّ في احتقاري للفاشية والنازية وكافة النظم  
الديكتاتورية، أمّا الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالماً

- كانت شقة عبد المنعم شوكت، ففي حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزنوبة والحكيمة المولدة، أما في حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلاً:
- اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة في غير هذا الوقت الذي تستعد فيه للامتحان...
- كانوا في أواخر إبريل، وكان عبد المنعم متعباً بقدر ما كان مبهجاً، بقدر ما كان قلقاً. وكان صوت الطلق يترامى من وراء الباب المغلق حاداً يحمل كل معاني الألم، فقال عبد المنعم:
- إن الحمل أتعبها جداً، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل، وكأن وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة...
- فتجشأ ياسين في ارتياح، ثم قال:
- هذه أمور عادية، وكلهن سواء...
- وقال كمال باسماً:
- ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألماً، وكنت واقفاً في هذا المكان مع المرحوم خليل...
- فتساءل عبد المنعم:
- هل أفهم من هذا أن عسر الولادة وراثي؟
- فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق:
- عنده اليسر...
- فقال عبد المنعم:
- جئنا بحكيمة معروفة في الحي كله، كانت أمي تفضل إحضار الداية التي ولدتها، ولكني أصبرت على الحكيمة، فهي أنظف وأمهر بلا ريب.
- فقال ياسين:
- طبعاً، ولو أن الولادة بجملتها بأمر الله وعنايته.
- فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:
- جاءها الطلق في الصباح الباكر، والساعة تدور الآن في الخامسة مساءً، مسكينة، إنها رقيقة كالخيال، ربنا يأخذ بيدها.
- ثم وهو يردد عينيه الحاملتين في الجالسين عامّة، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصة:
- آه لو تذكر الآلام التي تتحملها الأم!
- فقال أحمد ضاحكاً:
- كيف تطالب الجنين بأن يتذكر يا بابا؟
- فقال الرجل موبخاً:
- إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها...
- وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فانجبت الرءوس إليها، ومرت فترة فنفد صبر عبد المنعم فقام ماضياً إلى الباب ونقره، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة المكتنز، فطالعها بعينين متسائلتين، وهمّ بإدخال رأسه، ولكنها صدته ببراحتها وهي تقول:
- لم يأذن الله بالفرج بعد...
- طال الوقت، ألا يكون طلقاً كاذباً؟
- الحكيمة أدري بذلك مثلاً، اطمئن وادع لنا بالفرج...
- وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجوار أبيه الذي علّق على قلقه بقوله:
- اعذروه فإنه محدث ولادة.
- وأراد كمال أن يتسلّى، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتفحصها، فقال أحمد:
- أعلنت في الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية... (ثم وهو يتسم في سخرية)... ويا لها من نتائج مضحكة!
- فتساءل والده دون اكتراث:
- ما مجموع الناجحين من الوفدَيْن؟
- ثلاثة عشر على ما أذكر!
- ثم قال أحمد موجّهاً خطابه إلى خاله ياسين:
- لعلك مسرور يا خالي إكراً لسرور رضوان؟!.
- فقال ياسين وهو يهز منكبّه باستهانة:
- لا هو وزير ولا هو نائب، فهذا يهمني من الأمر كله؟
- وقال إبراهيم شوكت ضاحكاً:
- كان الوفدون يظنون أن عهد الانتخابات المزورة قد انتهى، ولكن شهاب الدين أضرب من أخيه!...

فقال أحمد في امتعاض:

- الظاهر أنَّ الاستثناء هو القاعدة في مصر!

- حتَّى النحاس ومكرم قد سقطا في الانتخابات،  
ليس هذا هزلًا؟

وهنا قال إبراهيم شوكت في شيء من الحدة:

- لكن لا ينكر أحد أنَّها أساء الأدب حيال الملك،  
إنَّ للملوك مقامهم، وليس على ذلك النحو تساس  
الأمر...

فقال أحمد:

- إنَّ بلادنا في حاجة إلى جرعات قويَّة من قلة  
الأدب حيال الملوك، حتَّى تفيق من إغماؤها  
الطويل...

فقال كمال:

- ولكنَّ الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت  
ستار برلمان مزيف، وفي نهاية التجربة ستجد فاروق في  
قوة فؤاد واستبداده أو أشدَّ، كلُّ هذا يُرتكب بأيدي  
بعض أبناء الوطن...

فضحك ياسين، وقال وكأنه يفسر ويوضح:

- كمال ولو أنَّه كان على صباه من محبي الإنجليز  
كشاهين وعدلي وثروت وحيدر، إلَّا أنَّه انقلب وفديًّا  
بعد ذلك...

فقال كمال جادًا، وهو ينظر إلى أحمد خاصَّة:

- انتخابات مزورة، كلُّ شخص في البلد يعلم بأنَّها  
مزورة، ومع ذلك يُعترف بها رسميًا وتُحكم بها البلاد،  
ويعني هذا أن يستقرَّ في ضمير الشعب أنَّ نوابه  
لصوص سرقوا كراسيهم، وأنَّ وزراءه لصوص سرقوا  
بالتالي مناصبهم، وأنَّ سلطاته وحكومته مزيفة مزورة،  
وأنَّ السرقة والتزيف والتضليل مشروعة رسميًا، أفلا  
يُعذر الرجل العاديَّ إذا كسر بالبادئ والخلق وآمن  
بالزيف والانتهازية؟

فقال أحمد متحمسًا:

- دعهم يحكمون، في كلِّ شرِّ جانب خير، ومن  
الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يُحدَّر بحكم  
يُجبه ويشق به دون أن يحقِّق له - هذا الحكم - آماله  
الحقيقية، طالما فكَّرت في هذا حتَّى انقلبت أرحب

بحكم الطغاة من أمثال محمد محمود وإسماعيل  
صدقي...

ولاحظ كمال أنَّ عبد المنعم لا يشترك في الحديث  
كعادته، فأراد أن يجزَّه إليه فقال:

- لماذا لا تحدَّثنا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال:

- دعني اليوم أستمع...

فضحك ياسين قائلاً:

- فرُفِّش حتَّى لا يجذك المولود واجماً، فيفكر في

العودة من حيث أتى...

ونذت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنَّه يهَمُّ  
بانتحال عذر للذهاب، أجل جاء وقت القهوة، ونظام  
«السهر» عنده لا يمكن أن يغيَّره شيء، وفكَّر كمال في  
الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه  
متوتِّبًا، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة عنيفة  
قاسية تحمل في طياتها أنغام الأعياق البشرية، وتتابع  
الصرخات في عنف، وتطلَّعت الأعين نحو باب  
الحجرة، وساد بينهم صمت، حتَّى همس إبراهيم في  
رجاء:

- لعله الطلق الأخير إن شاء الله...

حقًّا؟ بيد أنَّه تواصل حتَّى وجوا، وامتقع لون عبد  
المنعم، ثم عاد الصمت مرَّة أخرى ولكن إلى حين،  
ورجع الطلق ولكنَّه كان خواء، تقذف به حنجرة  
بُحَّت وصدر تصدَّع فكأنَّه النزاع. ودلَّت حال عبد  
المنعم على أنَّه في حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:  
- كلِّ ما تسمع أحوال مألوفة في الولادة  
العسيرة...

فقال عبد المنعم بصوت متهدِّج:

- العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟

وفُتح الباب فخرجت زُوبة ثم أغلقت، فتطلَّعوا  
إليها، فاقتربت حتَّى وقفت أمام ياسين وقالت:

- كلُّ شيء على ما يرام، غير أنَّ الحكمة زيادة في

الحيطة ترجو أن تحضروا الدكتور سيِّد محمد...

فوقف عبد المنعم قائلاً:

- لا شك أنَّ الحال استوجبت إحضاره، خبريني عمَّا

بها؟

صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن، أما الوجه فأبيض باهت كاللوت. هتفت الحكيمة: «الدكتور!». وجعلت أمينة تهتف: «يا رب!» وخديجة تنادي بصوت مذعور «نعيمة ردي علي»، أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا يعينها في شيء. تساءل كمال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه في ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنّه لم يجبه، أيّ ولادة عسيرة؟!، ودار بصره بعائشة وإبراهيم ياسين فتقهقر قلبه في صدره، ليس هنالك إلّا معنى واحد...

ودخلوا الحجره جميعاً، لم تعد حجرة ولادة وإلّا ما دخلوا، وكانت عائشة في حال بالغ الشدة ولكنّ أحداً لم يوجّه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينها فبدتاً مظلّمتين، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها جدّتها وحوتها في حضنها، شهقت الفتاة، ونذت عنها آهة عميقة، ثمّ بغتة هتفت كأنما تستغيث:

- ماما... أنا ذاهبة... أنا ذاهبة...

ثمّ سقط رأسها على صدر جدّتها، وضجّت الحجره بالصوات، ولطمت خديجة خديها، وتشهدت أمينة في وجه الفتاة، أما عائشة فرمت بناظرها من النافذة المطلة على السجّرية، وثبتت عينها على ماذا؟ ثمّ تردّد صوتها كالخشخشة:

- ما هذا يا ربّي؟ ما هذا الذي تفعله؟، لماذا؟، لماذا؟، أريد أن أفهم...

واقترب منها إبراهيم شوكت ومدّ لها يده، فأبعدتها بحركة عصبية وهي تقول:

- لا يلمسني منكم أحد، دعوني، دعوني...

ثمّ ردّت بصرها بينهما قائلة:

- اخرجوا من فضلكم، لا تكلموني، هل عندكم كلام يجدي؟ لن ينفعني الكلام، ماتت نعيمة كما ترون، كانت كلّ ما تبقى لي فلم يبق لي شيء في الدنيا، اذهبوا من فضلكم...

كان الظلام حالاً عندما مضى ياسين وكمال في طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

- ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كمال وهو يحقّف عينيه:

- نعم...

فقال زنوبة بصوت هادئ مؤكّد:

- كلّ شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئنناً فأسرع في إحضار الطبيب...

ولم يُضغِع عبد المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى في أثره أحمد، ثمّ خرجا معاً ليأتيا بالدكتور، وعند ذلك قال ياسين:

- ماذا هناك؟

فقال زنوبة، وقد نمّ وجهها لأوّل مرّة عن قلق:

- تعبانة المسكينة كان الله في عونها.

- والحكيمة ألم تقل شيئاً؟

فقال زنوبة بتسليم:

- قالت إنّها تريد الدكتور...

وعادت زنوبة إلى الحجره تاركة وراءها ظلاً ثقيلاً من القلق...

تساءل ياسين:

- أهذا الطبيب بعيد؟

فأجابه إبراهيم شوكت:

- في العمارة التي فوق قهوتك بالعتبة.

ودوّت صرخة فانعقدت الألسن، هل عاد الطلق الأليم؟ ومتى يحضر الطبيب، ودوّت الصرخة مرّة أخرى، فازداد التوتر، وإذا بياسين يهتف مرتاعاً:

- هذا صوت عائشة!

فأرهفوا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام إبراهيم في الحجره ونقر الباب، فتحت زنوبة بوجه باهت، سألتها بلهفة:

- ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن أن تغادر الحجره؟...

فقال زنوبة وهي تزدد ريقها:

- كلّ... الحال شديدة يا سيّ إبراهيم...

- ماذا حدث؟!!

- فجأة، إنّها... انظر...

في أقلّ من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجره ينظرون. كانت نعيمة مغطاة حتّى الصدر، خاليتها وجدّتها والحكيمة حولها في الفراش، أمّها واقفة وسط الحجره تحملق في بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنّها فقدت الوعي، وكانت نعيمة مغمضة العينين،

الأمر الذي لم يُتَّخَ له هذا العام في زحمة طلبية القسم الإعدادي. على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحدثته نفسه بأن يمضي إلى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها، ثم يجيئها في طريقه! وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردد وسار في الممر بين المقاعد، وعندما مرَّ بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحية مؤدبة، فبدا في ملاحها وقع المفاجأة، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيما أمامها. وتساءل ترى هل أخطأ؟. كلاً إنها زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يجيئها إذا التقيا هكذا وجهًا لوجه في مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل مسيره إلى خزانة الكتب الحاوية لدائرة المعارف، ثم اختار مجلدًا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره برد التحية عظيمًا فزايله التعب واهتز صدره نشاطًا. يا لها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتى صارت شغله الشاغل. إن كافة أحوالها تدلُّ على أنها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجَمُّ، وإنه يستطيع أن يعترف لها - صادقًا - بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت «أسرة»؟. بلى... وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتب معًا. وافتتر ثغره عن ابتسامة ساخرة، ريع... مرتب... أسرة! إذن فأين مبادؤه؟. وشعر بشيء من الخجل. إنَّ القلب في أهوائه لا يعرف المبادئ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديدًا، كمن يدخل بلدًا غريبًا فعليه أن يتكلم بلغته حتى يبلغ ما يريد. ثم إنَّ الطبقة والملكية حقيقتان واقعيتان لم يخلقها هو ولا أبوه ولا جدّه، فليس هو بالمسئول عنها، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التي تفرق بين البشر. من الممكن ربما أن يغيّر نظام الطبقات، ولكن كيف يستطيع أن يغيّر الماضي وهو أنه من أسرة موفورة الدخل؟. وهيئات أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحبّ الأرستقراطي، وكارل ماركس نفسه تزوج

- لا تبك، أعصابي لم تعد تتحمل...  
فقال كمال منتهدًا:  
- كانت عزيزة جدًا عليّ، أنا حزين جدًا يا أخي، وعائشة المسكينة!...  
- هذه هي الكارثة! عائشة! سننسى جميعًا إلا عائشة!...  
«سننسى جميعًا؟ لا أدري. إنَّ وجهها لا يغيب عني مدى العمر، ولو أن لي مع النسيان تجربة فذة، هو نعمة كبرى، ولكن متى يجود ببلسمه؟». وعاد ياسين يقول:  
- كنت متشائمًا عند زواجها، ألا تدري؟ لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعفها على الحياة بعد العشرين! والدك يذكر هذا في الغالب...  
- لا أدري شيئًا، أكانت عائشة تدري؟  
- كلاً، إنّه تاريخ قديم، وقضاء الله لا بد منه...  
- ما أتعسك يا عائشة!...  
- أجل ما أتعسها المسكينة!...

## ٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا في قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكبًا على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقي على الامتحان إلا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كلّ منال، وشعر بأنَّ شخصًا قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الورا مستطلعًا فرأى علوية صبري! نعم هي، ولعلها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأول منتشي القلب والحواس. ما من شك في أنها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنه مغرم بها، فمثل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنها كلما التفتت هنا أو هناك - سواء في فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان - وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ، ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر. وكان - منذ أن علم بأنها ستخصص في الاجتماع مثله - يؤمل أن يتم التعارف بينهما في غضون العام الدراسي المقبل،

من جيني فون وستفال حفيذة الدوق برونشويك،  
وكانوا يسمونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»،  
وها هي أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت ملكة  
الرقص. وأعاد المجلد إلى موضعه ثم رجع، وجعل  
يملاً ناظره مما بدا من قامتها، جانب من أعلى الظهر،  
وصفحة العنق الرقيق، والقذال المزدان بالشعر  
المقصوص، ما أجمل المنظر، ومَرَّ بها خفيفاً إلى مقعده  
وجلس. ولم تمضِ دقائق حتى سمع وقع أقدامها  
الخفيفة، فنظر إلى الوراء أسفاً وهو يظنها منصرفه  
ولكنه رآها قادمة، فلما حاذته وقفت بشيء من  
الارتباك، وهو لا يصدق عينيه، وقالت:  
- لا مؤاخذه، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟  
نهض كالجندي، وبادر يقول:  
- بكل تأكيد...  
فقالت كالمعتذرة:  
- لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزي كما يجب،  
فقاتني تقييد كثير من النقاط الهامة، وأنا لا أرجع إلى  
المراجع إلا في المواد التي سأخصّص فيها فيما بعد، ولا  
يتسع الوقت للمراجعة في سائر المواد...  
- مفهوم... مفهوم...  
- وقد علمت أنّ مذكراتك مستوفاة، وأنتك أعرتها  
لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم؟...  
- نعم، ستكون تحت أمرك غداً...  
- متشجرة جداً (ثم وهي تبسم) لا تظنّ بي  
الكسل، ولكنّ إنجليزيّ متوسطاً!...  
- لا بأس، أنا بدوري دون المتوسط في الفرنسية،  
ولعله نتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معذرة تفضلي  
بالجلوس، قد يهّمك الاطلاع على هذا الكتاب،  
مدخل الاجتماع لها كنز...  
ولكنّها قالت:  
- متشجرة، لقد رجعت إليه مرّات، قلت إنّك دون  
المتوسط في الفرنسية، فلعلّك في حاجة إلى مذكرات  
السيكولوجي؟  
فأجاب دون تردّد:  
- أكون شاكرًا لو تفضّلت...  
- غداً نتبادل المذكرات؟

- بكلّ سرور، ولكن معذرة، ستجدين أكثر  
الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية...  
فتساءلت وهي تداري مؤلدة ابتسامة:  
- أتعرف أنّي اخترت قسم الاجتماع؟  
ابتسم كأنّها ليداري حيائه، ولم يكن ثمة حياء  
ولكنّه شعر بأنّه «وقع» ولكنّه قال ببساطة:  
- نعم!.  
- المناسبة آية مصادفة!  
فقال بجرأة:  
- بل سألت فعملت...  
وضغطت شفّتيها القرمزيتين، ثم قالت وكأنّها لم  
تسمع جوابه:  
- غداً نتبادل المذكرات...  
- صباحًا...  
- إلى اللقاء وشكرًا...  
فبادرها:  
- إنّني سعيد بالتعرّف إليك، إلى اللقاء.  
لبث واقفاً حتى واراها الباب ثم جلس. ولحظ أنّ  
البعض كان ينظر مستطلاً نحوه، ولكنّه كان ثملاً  
بالسعادة. ترى أكان حديثها استجابة لما بدا من إعجابه  
بها، أم لحاجتها الملحة إلى مذكراته؟ لم تسنح قبل  
الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائماً بصحبة  
الأتراب. هذه أوّل فرصة، وقد فاز بما تمثّل طويلاً فيها  
يشبه المعجزة. إنّ كلمة من ثغر نحبّه خليقة بأن تجعل  
من كلّ شيء كلا شيء...  
٢٦

بدا ياسين قلقاً رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلاً  
بأنّه لا يهّمه شيء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة  
نفسها، لا أمام زملائه الموظفين فحسب ولكن حيال  
نفسه أيضاً. إنّ الدرجة السادسة - إذا رُقّي إليها -  
ستزيد مرتبّه جنهين لا غيراً. ويا ما ضيّع ياسين!.  
ويقولون إنّها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع،  
ولكن متى كان يكثرث ياسين للرياسات؟ بيد أنّه كان  
قلقاً، خاصّة بعد أن استدعى مدير الإدارة عمّده



- تولد تزهق، كل واحد وقسمته...  
 - والكفاءة؟...  
 فقال ياسين منفعلًا:  
 - الكفاءة؟ هل نقيم جسورًا أو ننشئ محطّات كهربائية؟، كفاءة! ماذا يتطلّب عملنا الكتابي من كفاءة؟. كلانا بالابتدائية، وفضلًا عن ذلك فانا رجل مثقف...  
 فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:  
 - مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف!... أنظرَ نفسك مثقفاً بالشعر الذي تحفظه؟. أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدّي امتحان الابتدائية من جديد؟... أنا تارك أمري لله...  
 وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفّت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطّت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرين يتحدّثون ويدخّنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:  
 - ستأخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.  
 فقال ياسين:  
 - خير ما تفعل...  
 فسأله الرجل مجادلًا:  
 - وماذا أعددت لكريمة؟. كم بلغت من العمر على فكرة؟  
 فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:  
 - في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعدّ على أصابعه): نحن في نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتّمام والكمال...  
 - ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي، البنات أضمن اليوم من الصبيان...  
 ثانوي؟. هذا ما تريده زُتوبة. كلّ إنّه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها يستزّان. ثمّ المصروفات؟...  
 - تولد تزهق، كل واحد وقسمته...  
 - والكفاءة؟...  
 فقال ياسين منفعلًا:  
 - الكفاءة؟ هل نقيم جسورًا أو ننشئ محطّات كهربائية؟، كفاءة! ماذا يتطلّب عملنا الكتابي من كفاءة؟. كلانا بالابتدائية، وفضلًا عن ذلك فانا رجل مثقف...  
 فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:  
 - مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف!... أنظرَ نفسك مثقفاً بالشعر الذي تحفظه؟. أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدّي امتحان الابتدائية من جديد؟... أنا تارك أمري لله...  
 وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفّت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطّت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرين يتحدّثون ويدخّنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:  
 - ستأخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.  
 فقال ياسين:  
 - خير ما تفعل...  
 فسأله الرجل مجادلًا:  
 - وماذا أعددت لكريمة؟. كم بلغت من العمر على فكرة؟  
 فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:  
 - في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعدّ على أصابعه): نحن في نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتّمام والكمال...  
 - ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي، البنات أضمن اليوم من الصبيان...  
 ثانوي؟. هذا ما تريده زُتوبة. كلّ إنّه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها يستزّان. ثمّ المصروفات؟...  
 - تولد تزهق، كل واحد وقسمته...  
 - والكفاءة؟...  
 فقال ياسين منفعلًا:  
 - الكفاءة؟ هل نقيم جسورًا أو ننشئ محطّات كهربائية؟، كفاءة! ماذا يتطلّب عملنا الكتابي من كفاءة؟. كلانا بالابتدائية، وفضلًا عن ذلك فانا رجل مثقف...  
 فضحك إبراهيم أفندي ضحكة ساخرة، وقال:  
 - مثقف؟ أهلاً يا سي مثقف!... أنظرَ نفسك مثقفاً بالشعر الذي تحفظه؟. أو بالإنشاء الذي تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدّي امتحان الابتدائية من جديد؟... أنا تارك أمري لله...  
 وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صُفّت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطّت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرين يتحدّثون ويدخّنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:  
 - ستأخذ ابنتي البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب في البحث عن وظيفة بعد التخرج.  
 فقال ياسين:  
 - خير ما تفعل...  
 فسأله الرجل مجادلًا:  
 - وماذا أعددت لكريمة؟. كم بلغت من العمر على فكرة؟  
 فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:  
 - في الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية في الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعدّ على أصابعه): نحن في نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتّمام والكمال...  
 - ما دامت تنجح في ابتدائي فستنجح في ثانوي، البنات أضمن اليوم من الصبيان...  
 ثانوي؟. هذا ما تريده زُتوبة. كلّ إنّه لا يطيق أن يرى ابنته تسير في الطريق ونهداها يستزّان. ثمّ المصروفات؟...

أفندي حسن - زوج زينب أم رضوان - لمقابلة وكيل الوزارة، وذاع بين موظفي المحفوظات أنّ الوكيل استدعاه ليسمع رأيه في موظفيه للمرّة الأخيرة قبل توقع الكشف الخاصّ بالترقيات. محمّد حسن!.. خليفته اللدود الذي لولا السيّد محمّد عفت لبطش به من زمن بعيد!.. أيمن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة؟. وانتهاز فرصة خلّو حجرة المدير فهرع إلى التليفون، وطلب كتيّة الحقوق، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرّة الثالثة، مستدعيًا رضوان ياسين...  
 - آلو، رضوان؟، أنا والدك.  
 - أهلاً وسهلاً، كلّ شيء عال.  
 كان صوته ينمّ عن ثقة، الابن واسطة للأب...  
 - الحركة رهن التوقيع الآن؟  
 - اطمئن، الوزير نفسه هو الذي أوصى بك، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكلّ خير.  
 - ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟  
 - أبداً، الباشا هنائي هذا الصباح كما أخبرتك، اطمئن جدًّا.  
 - أشكرك يا ابني، سلام عليكم.  
 - وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقدّمًا...  
 ووضع السماعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندي فتح الله - زميله ومنافسه في الدرجة - قادمًا يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحية في تحفّظ، وعند ذلك قال ياسين:  
 - ليكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندي، ولتقبل النتيجة أيّا كانت بشهامة...  
 فقال الرجل في امتعاض:  
 - على شرط أن تكون مباراة شريفة!  
 - ماذا تعني؟  
 - أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة!...  
 - غريب رأيك! وهل يوجد رزق بدون وساطة في هذه الدنيا؟. اسع كما تشاء وأسعى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب!...  
 - أنا أقدم منك...  
 - كلانا موظف قديم، سنة لا تقدّم ولا تؤخّر!...  
 - في سنة تولّد نفوس وتزهر نفوس!

- لو صبحت هذه النظرية، لاستحقّ عمّ حسنين  
فراش مكتبنا أن يكون وزير المعارف!...

وضرب إبراهيم فتح الله كفًا بكفّ، وقال مسائلاً  
زملاءه جميعاً:

- يا إخوان، هذا الرجل (مشيراً إلى ياسين) طيّب  
وظريف وابن حلال، ولكن هل يشتغل بمليّمْ؟... أنا  
راضٍ بدمتكم!...

فقال ياسين هازئاً:

- دقيقة عمل متّي تساوي شغل يوم منك!...  
- الحكاية أنّ المدير يترقّق بك، وأنك تتوكّل على  
ابنك في هذا العهد الأغبر!...  
فقال ياسين ملجأً في إغاضته:

- وفي كلّ عهد وحياتك، ابني في هذا العهد، فإذا  
جاء الوفد عندك ابن أخي وأبي، قل من عندك  
أنت؟

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف:

- عندي ربنا!...

- وهو سبحانه عندي أيضاً، اليس برّب الجميع؟

- ولكنّه لن يرضى عن زباين محمّد عليّ!...

- وهل يرضى عن مدمني الأفيون والمنزول؟

- ليس أبشع في الوجود من السكّير!...

- الخمر شراب الوزراء والسفراء، ألا تراهم في

الصحف وهم يشربون الانخاب؟ ولكن هل رأيت

سياسياً يقدّم قطعة أفيون في حفل سياسيّ في صحّة

عقد معاهدة مثلاً؟!

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك:

- هس يا جماعة، ولأ قضيتم مدّة خدمتكم في  
السجن!.

فبادر ياسين مشيراً إلى غريمه:

- كان يقرّني في السجن وحياتك، ويقول لي أنا  
أقدم منك!...

وإذا بمحمّد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة،  
فساد الصمت وتطلّعت نحوه الرؤوس.

وانتبه الرجل نحو حجرته لا يلوي على شيء،  
فتبادلوا النظرات متسائلين. لا يبعد أن يكون أحد  
المتخاصمين الآن رئيس قلم، ولكن من صاحب الحظّ

- نحن لا نلحق نباتنا بالثانويّ، ولماذا؟... إنها  
لن تتوظّف!...

فسأل ثالث:

- أهذا يقال في عام ١٩٣٨؟

- يقال في أسرتنا ولو في عام ١٢٠٣٨.

فضحك رابع وهو يقول:

- قل إنك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك  
معاً! قهوة العتبة وخّارة محمّد عليّ، وحبّ البنات  
البكاري هذ متّي الحليل. هذه هي الحكاية...  
فضحك ياسين ثم قال:

- ربّنا ساترها... ولكن كما قلت لك نحن لا  
نعلم البنت أكثر من الابتدائية...

وتعالّت سعلة من الركن القصيّ فيسا يلي مدخل  
الحجرة، فالتفت ياسين إلى صاحبها، ثم وقف وكأنّه  
تذكّر أمراً هاماً، فمضى إلى مكتبه حتّى شعر الرجل به  
فرفع نحوه رأسه، فمال ياسين فوقه قائلاً:

- وعدتني بالوصفة...

فمدّ الرجل أذنه متسائلاً:

- نعم؟...

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة، واستحى  
أن يرفع من صوته وإذا بصوت يجيء من وسط الحجرة  
عالياً وهو يقول:

- أراهن على أنّه يسألك عن الوصفة، وصفتك التي  
ستذهب بنا جميعاً إلى القبر...

وتراجع ياسين متبرّماً إلى مكتبه، فقال له الرجل  
دون مبالاة بإحراج، وبصوت سمعته الحجرة كلّها:

- أنا أقول لك عنها: هات قشر مانجو، اغله غلياً  
شديداً، وداوم على ذلك حتّى يصير سائلاً لزجاً  
كالعسل، ونخذ منه ملعقة على غيار الريق...

وضحكوا جميعاً، غير أنّ إبراهيم فتح الله قال  
متهمكياً:

- فايق ورايق، انتظر حتّى تأخذ الدرجة السادسة  
وهي تشدّ حيلك؟...

فتساءل ياسين ضاحكاً:

- وهل تنفع الدرجة في هذه المسألة؟...

فقال جار ياسين ضاحكاً أيضاً:

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:  
- لا أقبل أن يمسّ إنسان سلوكي الخاص بكلمة،  
أنا حرّ خارج الوزارة! ...  
- وداخلها؟  
- سأعمل ما يعمل رؤساء الأقسام، أنا اشتغلت في  
ماضي ما يكفيني طوال العمر...  
عاد ياسين إلى مكتبه متكلّفاً الابتسام رغم جيشان  
صدره بالغضب، وذاع النبأ فتلقّى التهاني...  
وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامساً في  
حقده:  
- ابنه! ... هذه هي الحكاية! عبد الرحيم باشا  
عيسى... فهمت؟! ... اسفخص! ...

## ٢٧

كان السيّد أحمد عبد الجواد جالساً على كرسيّ كبير  
في المشريّة ينظر إلى الطريق حيناً، وحيناً في جريدة  
الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثقب المشرية  
تعكس على جلابيه الفضفاض وطاقيته نقطاً من  
الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحاً ليتمكن من  
سماع الراديو القائم في الصالة، غير أنّه بدا ناحلاً  
ضامراً، كما لاحت في عينيه نظرة ثقيلة تنم عن  
استسلام حزين. وكان كأنما يكتشف الطريق - من  
مجلسه بالمشرية - لأوّل مرّة في حياته، فلم يسبق له أن  
رآه من هذه الزاوية في أيّام حياته الماضية، إذ إنّ لم  
يمكث في البيت إلّا ساعات النوم على وجه التقريب،  
أمّا اليوم فلم تعد له من تسليه - بعد الراديو - إلّا هذه  
الجلسة في المشرية، ينظر من ثقبها شمالاً وجنوباً،  
وإنّه لطريق حيّ، مسلّ لطيف، وله إلى هذا طابعه  
الذي يميّزه عن طريق النحاسين الذي ألف رؤيته من  
دكانه - السابق - زهاء نصف قرن من الزمان، وهذه  
دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفوّال والفولي اللبان  
وبيومي الشرباتي وأبو سريع صاحب المقلي، تقوم في  
الطريق كالقسمات في الوجه حتّى عُرف بها وعُرفت به،  
أيّ عشرة وأيّ جوار، ترى ما أعمال هؤلاء الناس؟  
حسين الحلاق مدمج الخلق، من نوع قل أن يبدو

السعيد؟! - وفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو  
ينادي بصوت جاف «ياسين أفندي». فنهض ياسين  
بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجره وقلبه يخفق،  
وتفحصه المدير بنظرة غريبة ثمّ قال:  
- رُقيت إلى الدرجة السادسة! ...  
فقال ياسين وقد انشرح صدره:  
- شكرًا يا أفندم! ...  
فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:  
- من الإنصاف أن أصارك بأنّه يوجد من هو  
أحقّ بها منك... ولكنّها الوساطة!  
فغضب ياسين، وكان كثيرًا ما يغضب حيال هذا  
الرجل، وقال:  
- الوساطة! ما لها؟ هل تتمّ حركة كبيرة أو صغيرة  
دون وساطة؟ هل ترقى مخلوق في هذه الإدارة، في هذه  
الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟  
فكظم الرجل غيظه، ثمّ قال:  
- لا يأتي من ناحيتك إلّا وجع الدماغ، تترقى  
بدون وجه حقّ، ثمّ تنور لأقلّ ملاحظة عادلة، ما  
علينا، مبارك، مبارك يا سيّدي، فقط أرجو أن تشدّ  
حيلك، أنت الآن رئيس قلم! ...  
فتشجّع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفّف  
من حدّته:  
- أنا موظّف منذ أكثر من عشرين عامًا، وعمرى  
اثنان وأربعون عامًا، فهل تستكثر عليّ الدرجة  
السادسة؟ إنّ الغلمان يعيّنون فيها بمجرد تحرّجهم من  
الجامعة! ...  
- المهمّ أن تشدّ حيلك، أرجو أن أعتمد عليك  
كبقية زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة  
النحاسين مثال الموظّف المجتهد، ولولا تلك الحادثة  
القدية...  
- شيء قديم فلا داعي لذكره الآن، وكلّ واحد له  
أخطاؤه...  
- أنت الآن في سنّ الرجولة الناضجة، فإذا لم  
يستقم سلوكك تعذّر عليك أن تقوم بواجبك، كلّ  
ليلة سهر، فبأيّ مخّ تعمل في الصباح؟. أريد أن  
تنهض بالإدارة، هذا كلّ ما هنالك... .

المصحف، وسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راكباً، حسبك هذا!، الأمر لصاحب الأمر، متولي عبد الصمد لا يزال يتخبط في الطرقات!، ويقول وانعم بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث في البيت، انقلبت الآية، أنا في المشربية وأمينة تحول في القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسني خفياً كالضيف، عائشة؟ آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يرددون من قلبي أن يبرأ ويستريح!...

- سيدي...

والفتت إلى الورا صوب الصوت، فرأى أم حنفي حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

- الدواء يا سيدي...

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود، هذه المرأة التي صارت مع الزمن واحدة من أسرنا. وتناول الكوب وملاً الفنجان حتى نصفه، وفضّ سداد القارورة ونقّط منها أربع نقط في الفنجان، وقلّص وجهه قبل أن يتقلّص من طعم الدواء، ثم تجرّعه.

- بالشفأ يا سيدي...

- متشكر، أين عائشة؟

- في حجرتها، الله يصبر قلبها!

- ناديا يا أم حنفي...

في حجرتها، أو على السطح، ثم ماذا؟. وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيد اضطرّ إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل في سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقالت له عائشة: «طبعاً يا بابا، ربنا يكفيك شرّ قعدة البيت». وسمع حفيف ثوب فالتفت فرأها قادمة في ثوب أسود، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعاسة يا ابنتي، قال برقة:

- هاتي الكرسي واجلسي معي قليلاً.

ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قائلة:

- مرتاحة هكذا يا بابا.

عليه أثر الزمن، لم يكد يتغيّر منه شيء إلا شعره، ولكنه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بهؤلاء الناس أنه يحفظ عليهم صحتهم! ودرويش؟. أصلح، هكذا كان دائماً، ولكنه في الستين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا في الستين، ولكنني أمسيت في السابعة والستين فيا له من عمرا. وأعدت تفصيل ثيابي لتناسب ما تبقى من جسدي، وإذا نظرت إلى هذه الصورة المعلقة في حجرتي أنكرت نفسي. الفولي أصغر من درويش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدي إلى سبيله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟! ولكنه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إن فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقنوع في البيت ليل نهار، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم! ولكن عليّ أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لا بدّ من العصا، ولا بدّ من كمال ليصحبني، الحمد لله رب العالمين، بيومي أصغرهم وأسعدهم حظاً، من أم مريم بدأ، أما أنا فعندها انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث عبارة في الحى، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان، أنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء، حظّ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطي وجلّت حكمته! كل شيء يتجدّد، الطريق ممهد بالأسفلت، وأضيء بالمصابيح، أتذكر ليالي عودتك آخر الليل في الظلام الدامس؟ لكن أين مبي هاتيك الليالي؟ وفي كل دكان كهرباء وراديو، كل شيء جديد، إلا أنا، عجوز في السابعة والستين، لا يستطيع مغادرة داره إلا يوماً واحداً في الأسبوع وهو يلهث. القلب! كلّه من القلب، القلب الذي طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى، يقضي اليوم بالقعود ولا رادّ لقضائه. قال الطبيب «خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامي الغذائي»، حسن، ولكن هل يعيد ذلك إليّ قوّتي؟. . . أعني بعض قوّتي؟ فأجاب الطبيب «حسبنا أن نمنع المضاعفات، ولكنّ الجهد أو الحركة شيء خطير. . . (ثم ضاحكاً). . . لماذا تريد أن تستردّ قوّتك؟ أجل لماذا؟ إنه لشيء محزن مضحك معاً، ومع ذلك قال «أريد أن أذهب وأجيء» فقال الطبيب «لكلّ حال مسرّاتها، جلسة هادئة، اقرأ

معطفاً، وعلى وجهها بيشة، وتنقل خطاها في بطن.  
شدّ ما ركبها الكبرا. كان يُحسن الظنّ بصحتها متذكّراً  
أنّها المعمرة، ولكنّها هي تبدو أكبر من سنّها - اثنين  
وستين عاماً - بعشرة أعوام على الأقلّ، ومرّ وقت غير  
قصير قبل أن تدخل عليه وهي تتساءل:

- كيف حال سيدي؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة:  
- كيف حالك أنت! ما شاء الله! من طلعة الصبح

يا وليّة؟!

فابتسمت قائلة:

- زرت سيّدتك، وزرت سيّدك، ودعوت لك

وللجميع...

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنّه يستطيع  
الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

- أصبح أن تركبني وحدي كلّ هذا الوقت؟!

- أنت أذنت لي يا سيدي، لم أغب طويلاً، ولكنّها

الضرورة يا سيدي، ما أحوّجنا إلى الدعاء، توسّلت

إلى سيدي أن يرّد إليك صحتك حتّى تروح وتغدو كما

نشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع...

وجاءت بكرسيّ وجلست، ثمّ سألته:

- هل تناولت الدواء يا سيدي؟ أنا نُبّهت على أمّ

حنفي...

- ليتك نُبّهتها على شيء أحسن!

- بالشفاء يا سيدي، سمعت في المسجد درساً جميلاً

من الشيخ عبد الرحمن، تحدّث يا سيدي عن الكفّارة

عن الذنب وكيف تمسح السيّئات، كلام جميل جدّاً يا

سيدي، ليتني أستطيع أن أحفظ كآيām زمان...!

- وجهك شاحب من المشي، كلّها كم يوم

وتصبحين من زبائن الدكتور...!

- ربّنا الحافظ، أنا لا أخرج إلّا لزيارة آل البيت،

فكيف يقع لي سوء؟!

ثمّ متداركة:

- آه يا سيدي، كدت أنسى، يتحدّثون في كلّ

مكان عن الحرب، يقولون إنّ هتلر هجم...!

تساءل الرجل باهتمام:

- متأكّدة؟..

علّمته الأيām الأخيرة ألاّ يحاول أن يعدل بها عن رأيي.

- ماذا كنت تفعلين؟

فقالت دون أن ينمّ وجهها عن أيّ معنى:

- لا شيء أفعله يا بابا.

- لماذا لا تخرجين مع نيتك لتزوري الأضرحة

المباركة، أليس هذا أفضل من بقائك هنا وحدك؟

- ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنّما فوجئ بقولها، بيد أنّه قال بهدوء:

- تتوسّلين إلى الله أن يصبر قلبك.

- الله هنا معنا في البيت!

- طبعاً، أقصد أن تترك هذه العزلة يا عائشة،

زوري أختك، زوري الجيران، وروحي عن

نفسك...

- لا أستطيع أن أرى السكّرية، ولا معارف لي، لم

يعد لي معارف، لا أطيق زيارة أحد...

قال الرجل وهو يولي عنها رأسه:

- أحبّ أن تتصبري، وأن تهتمّي بصحتك...

- صحتي!...

قالتها فيها يشبه العجب، فقال بتوكيد:

- نعم، ما فائدة الحزن يا عائشة؟...

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذي

تعوّدت أن تلتزمه حياله:

- وما فائدة الحياة يا بابا؟

- لا تقولي هذا، إنّ أجرك عند الله عظيم!...

فحنّت رأسها لتخفي عينيها الدامعتين، وقالت:

- أوّد أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر، ليس هنا يا

بابا!...

ثمّ انسحبت برقة، وقبل أن تغادر الحجرة توقّفت

قليلاً كأنّما تذكّرت أمراً، فسألته:

- كيف صحتك اليوم؟

فابتسمت قائلاً:

- الحمد لله، المهمّ صحتك أنت يا عائشة...

وغادرت الحجرة، من أين تأتيه الراحة في هذا

البيت؟. وراح يرّدّد بصره في الطريق حتّى ثبت على

أمنية وهي راجعة من جولتها اليومية، كانت ترتدي

- سمعتها بدل المرة مائة مرة، هتلر هجم... هتلر هجم...  
... هجم...

فقال الرجل لِيُفهمها أنّها لم تسبقه بالأخبار:

- كان هذا متوقّعا من لحظة لأخرى...

- بعيد عَنّا إن شاء الله يا سيّدي؟...

- قالوا هتلر فقط؟ وموسوليني؟ ألم تسمعي هذا الاسم؟...

- اسم هتلر فقط...

- ربّنا يلطف بنا، إذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ أو المقطّم فاشتره...

فالت المرأة:

- كأَيّام غليوم وزبلن، أتذكر يا سيّدي؟ سبّحان من له الدوام...

## ٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد، فعندما فُتِح باب الشّقة ملا فراغه ياسين في بذلة بيضاء من تيل المحلّة، تتقدّمه الوردة الحمراء والمنشّة العاجيّة، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه، وتبعه ابنه رضوان في بذلته الحريريّة آية في الأناقة والجمال، ثمّ زُوبة في ثوب سنجابيّ تعلوها الحشمة التي صارت جزءا لا يتجزّأ منها، وأخيرا كريمة في فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين، وقد تبلورت أنوثتها المبكّرة - لم تكن تزيد عن الثالثة عشرة - فبدت جاذبيّتها صارخة. وضمتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد، وسرعان ما قال ياسين:

- أسمعتم عن شيء كهذا من قبل؟ ابني سكرتير الوزير الذي أنا في وزارته مجرّد رئيس قلم في المحفوظات، تُنْهَدُّ له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد يشعر بي إنسانا!

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يخف على أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه. وفي الحق قد حصل رضوان على الليسانس في مايو من هذا العام، وما لبث أن تعيّن في يونيه سكرتيرا للوزير، في

الدرجة السادسة، على حين يتعيّن خرّيجو الجامعات في الدرجة الثامنة الكتابيّة، وقد حصل عبد المنعم على الليسانس في نفس التاريخ، ولكنّه لم يكن يدري ما المصير، قالت خديجة باسمه، وكانت تشعر بشيء من الغيرة:

- رضوان صديق الحكّام، ولكنّ العين لا تعلق على الحاجب...

فقال ياسين في سرور لم يفلح في مداراته:

- ألم تروا صورته مع الوزير في أهرام أمس؟... بتنا لا ندري كيف نكلّمه!...

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحمد قائلاً:

- هُذان الولدان خائبان، ضيّعّا عمرهما في مناقشات حادّة لا معنى لها، وكان خير من عرفا من رجالات البلد الشيخ عليّ المنوفي ناظر مدرسة الحسين الأوّلية، وسخام البرك عدلي كريم صاحب مجلّة الضوء أو الهباب لا أدري!

وكان أحمد ساخطا وإن بدا طبيعيا. أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده، أمّا عبد المنعم فقد غطى ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على الغضب الذي كان خليقا أن يشتعل في صدره في ظروف أخرى. وكان يسترق النظر في وجه رضوان متسائلا عَمّا وراءه، غير أنّ قلبه استبشر خيرا بالزيارة، فلعلّها لم تكن تقع لولا أنّها تحمل البشرية. وعاد ياسين يقول معلّقا على كلام إبراهيم:

- لو سألتني عن رأيي لقلت لك نِعَم الولدان! ألم يقولوا في الأمثال: السلطان من ابتعد عن باب السلطان؟

كلّا لم يفلح ياسين في مداراة سروره، كما لم يفلح في إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أنّ خديجة قالت مشيرة إلى رضوان:

- ربّنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرّهم...

وأخيرا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلاً:

- أرجو أن أهتلك عَمّا قريب...

فتطلّع إليه عبد المنعم متسائلا وقد تورّد وجهه، فعاد رضوان يقول:

- وعدني الوزير بأن يعيّنك في إدارة التحقيقات...

- قعدة البيت لعنة، إلا مَنْ كان صاحب ملك فهو سلطان! ...

فقال أحمد وفي عينيه بسة خبيثة:

- خالي ياسين صاحب ملك، ولكنّه صاحب وظيفة أيضًا! ...

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال:

- صاحب وظيفة ويس من فضلك، أمّا الملك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه مَنْ كان له أسرة كأسري؟! ...

فهتفت زُتوبة في ارتياح:

- أسرتك؟! ...

والتفت رضوان - قاطعًا الحديث الذي لا يحبّه - إلى أحمد قائلاً:

- إن شاء الله نمجدنا في خدمتك في العام المقبل عندما تأخذ الليسانس! ...

فقال أحمد:

- أشكرك جدًّا، لكنني لن أتوظّف! ...

- كيف؟! ...

- الوظيفة خليقة بقتل أمثالي، مستقبل في الميدان الحر! ...

وهمت خديجة بالاحتجاج، ولكنّها آثرت تأجيل العراك إلى حينه، أمّا رضوان فقال بأسًا:

- إذا غيّرت رأيك فستجديني في خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكرًا. وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلّجة، وفي فترة الصمت التي جعلوا فيها يحتسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقة:

- كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

- بخير يا عمّي، متشكّرة! ...

وكادت خديجة تأخذ في إطرأ جملها، ولكنّ شيئًا - كالخذر - أوقفها. الواقع أنّها لم تكن أوّل مرّة تقيء بها زُتوبة معها مذ حجّزت في البيت بعد أخذها الابتدائية. وقالت خديجة لنفسها إنّ هذه الأمور تُسمّ

كانت أسرة خديجة ترتقّب على لَهف هذا التقرير، فركّزت أبصارهم في رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

- أوّل الشهر القادم على أكثر تقدير! ...

وقال ياسين معقبًا على قول ابنه:

- إنّها وظيفة قضائية، لقد عيّن عندنا في إدارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس في الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات!

وكانت خديجة هي التي طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت في امتنان:

- الشكر لله ولك يا أخي (ثمّ) وهي تلتفت إلى رضوان) وطبعًا جميل رضوان فوق رءوسنا! ...

وأمن إبراهيم على قولها قائلاً:

- طبعًا، إنّهُ أخوه، ونعم الأخ.

وقالت زُتوبة باسمه، لكي تخرج من هامش الجلسة:

- رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما في ذلك كلام.

وتساءل عبد المنعم الذي كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان:

- أعطاك كلمة جدّيّة؟

فقال ياسين باهتمام:

- كلمة وزير! ... إني متّبع المسألة!

وقال رضوان:

- وأنا من ناحيتي سأدّلك لك الصعاب في إدارة المستخدمين، ولي فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أنّ موظفي المستخدمين لا صديق لهم! فقال إبراهيم شوكت وهو يتنهد:

- الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة

والموظفين! ...

فقال ياسين:

- عشت ملكًا يا أبا خليل! ...

ولكنّ خديجة قالت متهكّمة:

- ربّنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت! ...

وتدخّلت زُتوبة بجملة كعادتها، فقالت:

- في الهواء شامًا! وإن كريمة إذ كانت ابنة زُتوبة فهي في الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا نحيء دقة المسألة! ولم يكن عبد المنعم يوفي كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حق المعرفة، على أنه لم يكن قد برأ كل البرء من أثر وفاة زوجها، أما أحمد فلم يكن في فؤاده متسع! وقال ياسين:
- كريمة ما زالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية.
- فقال زُتوبة مقطّبة:
- وأنا آسفة أكثر...
- فقال إبراهيم شوكت:
- إنّي أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثم إن البنات في النهاية لبيتهن، فلن يمضِ عام أو آخر حتى تزف كريمة إلى صاحب القسمة السعيد...
- يا مقطوع اللسان، هكذا قالت خديجة لنفسها، يفتح المواضيع الخطيرة وهو في غفلة عن نتائجها، يا له من موقف! كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل، لعله لا يكون لهذا القلق من سبب إلا الوهم، ولكن لماذا تكثر زُتوبة من زيارتنا جائرة في يدها كريمة؟ ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير، أما ربيبة التخت!...
- وقالت زُتوبة:
- هذا الكلام كان يقال في الزمن الماضي، أما اليوم فالبنات كلهنّ يذهبن إلى المدارس...
- فقال خديجة:
- في حارتنا بنشان في المدارس العالية، ولكن شكلهن والعباذ بالله!...
- فسأل ياسين أحمد:
- أليس في بنات كليتك جمال؟
- وخفق قلب أحمد، وتمثلت لعينيه الصورة المعشّشة في قلبه، ثم أجاب:
- حبّ العلم ليس قاصرًا على الدميّات...
- فقال كريمة باسمه، وهي تنظر صوب أبيها:
- المسألة تتوقّف على الآباء.
- فضحك ياسين قائلاً:
- عفارم يا ابني! هكذا تتحدّث البنات الطيبة عن أبيها، وهكذا كانت تخاطب عمّتك جدك!
- فقال خديجة متهمّة:
- المسألة تتوقّف على الآباء حقًا!...
- فبادرتها زُتوبة قائلة:
- البنت معذورة، آه لو سمعت حديثه بين أولاده!
- فقال خديجة:
- أنا عارفة وفاهمة!...
- فقال ياسين:
- أنا رجل له آراؤه في التربية، أنا الأب الصديق، لا أحب أن يرتعد أبنائي خوفًا في حضري، أنا حتّى اليوم ينتابني الارتباك أمام أبي!...
- فقال إبراهيم شوكت:
- الله يقوّيه ويصبرّه على قعدة البيت! السيّد أحمد جيل وحده، وليس مثله أحد في الرجال...
- فقال خديجة منتقدة:
- قل له!
- فقال ياسين كالمعتذر:
- أبي جيل وحده، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدي بيوتهم، ولم تكن الدنيا لتسمعهم على رحابتها!...
- وكان رضوان يقول لأحمد في حديث جانبيّ مستقلّ:
- بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة...
- ربّما تحوّلت هذه الغارات الإسميّة إلى غارات فعلية...
- ولكن هل لدى الإنجليز قوّة كافية لصدّ الزحف الإيطاليّ المتوقّع؟ لا شك أنّ هتلر سيترك مهمّة الاستيلاء على قناة السويس لموسوليني...
- فتساءل عبد المنعم:
- هل تقف أمريكا متفرّجة؟
- فقال أحمد:
- مفتاح الموقف الحقيقيّ في يد روسيا!
- لكنّها حليفة هتلر؟...
- الشيوعيّة عدوّ النازيّة، ثم إنّ الشرّ الذي يتهدّد



التي كانت من سگان المعادي. وألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة في أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل، وقد صُفَّت فوقها أبريق الشاي وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يتساءل:

- نلتزم بالأداب الإنجليزية أم نقصص على المائدة كالنسر؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف:

- آه لو لم توجد لادي فورستر!

كان الوقت أصيلًا، ولكنَّ الجوَّ كان لطيفًا رغم شخصية يونيه الثقيلة، ثمَّ ما لبث أن لاج السرب المنتظر عند مدخل الفيلا. جئن معًا كأنهنَّ على ميعدا، وكُنَّ أربعًا هنَّ جملة الطالبات بالقسم وبدت علوية صبري وهي تحظر في فستان ناصع البياض مهفوف، جعل من كائنها اللطيف لونًا واحدًا بديعًا فيما عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذاك شعر أحمد بقَدَم هائِة تحتك بقدمه كأنما تنبَّه إن كان في حاجة إلى مَنْ ينبَّه، وكان سرّه قد ذاع من زمن... وتابعهنَّ حتَّى استقرَّ بهنَّ المجلس في ركن أخلي هنَّ بالفرائدا، ثمَّ جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجَّهة الخطاب إلى الطلبة، وهي تشير إلى الفتيات:

- هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصية فائقة رغم مشاركته الخمسين:

- الأجدر أن تعرّفهم بي أنا!

وضجُّوا بالضحك مرّة أخرى، حتَّى عاد مستر فورستر يقول:

- في مثل هذا الوقت من كلّ عام كنّا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرّة لا ندرى إن كنّا سنرى مصر مرّة أخرى أم لا!...

فقاطعت زوجته قائلة:

- ولا حتَّى إن كنّا سنرى إنجلترا!...

وأدركوا أنّها تلمح إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:

- حظّ سعيد يا سيّدي...

وعاد الرجل يقول:

العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدّده بانتصار الديموقراطيات...

فقالت خديجة:

- أظلموا لنا الدنيا يظلم عيشتهم، وما هذه الأشياء التي لم نعرفها من قبل؟... صفّارات إنذار!... مدافع مضادة... كشافات، مصائب تشيّب الإنسان قبل الأوان!

فقال إبراهيم في سخرية هادئة:

- على أيّ حال الشيب في بيتنا ليس قبل الأوان...

- هذا عندك أنت وحدك!

كان إبراهيم في الخامسة والستين، ولكنّه يبدو بالقياس إلى السيّد أحمد - الذي لم يكن يكبره إلّا بثلاث سنوات - كأنما يصغره بعشرات السنين.

وعند انتهاء الزيارة، قال رضوان لعبد المنعم:

- زرني في الوزارة.

ولما أغلق الباب وراء الذاهيين، قال أحمد لعبد المنعم:

- خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان، ادرس كيف تزور سكرتير وزير!

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته...

## ٢٩

لم يجد أحمد مشقة تُذكر في الاهتمام إلى فيلا مستر فورستر - أستاذ علم الاجتماع - بالمعادي. وقد أدرك حال دخوله أنّه جاء متأخراً بعض الوقت، وأنّ كثيراً من الطلبة الذين دُعوا مثله إلى الحفل الذي أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدّمه إليها باعتباره طالبًا من خير طلبة القسم، ثمّ مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة في الفرائدا، كان المجلس يتكوّن من طلبة قسم الاجتماع كافّة، وكان أحمد ضمن القلّة المنقولة للسنة النهائية، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوّق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنّه كان مطمئنًا إلى جيئهنَّ، أو إلى جيء «صديقه»

الشاي بعد!  
ومال مستر فورستر على أذن أحمد - وكان مجلس إلى  
يساره - وسأله:

- كيف تمضي العطلة؟ أعني ماذا تقرأ؟  
- كثيرًا في الاقتصاد وقليلًا في السياسة، وأكتب  
بعض المقالات في المجالات.

- أنصحك بأن تقدّم في الماجستير بعد الليسانس.  
فقال أحمد بعد الانتهاء ممّا في فيه:  
- ربّما فيها بعد، سأبداً بالعمل في الصحافة، هذه  
خطّتي من قديم.  
- حسن!

الصديقة العزيزة تحدث لادي فورستر بطلاقة، ما  
أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورد والأزهار تنضج  
بالحرمة والألوان كما ينضج القلب بالحبّ، في عالم  
الحرّة يزدهر الحبّ كالأزهار، الحبّ لا يكون عاطفة  
صحيحة طبيعيّة إلّا في بلد شيوعي. وقال مستر  
فورستر:

- من المؤسف أنّي لم أستكمل دراستي للغة  
العربيّة، كنت أودّ أن أقرأ مجنون ليلي دون مساعدة  
أحد منكم.

- المؤسف أنّك ستقطع عن دراستها...  
- إلّا إذا سمحت الظروف فيها بعد...  
وربّما وجدت نفسك مضطراً إلى تعلّم الألمانية، ألا  
يكون مضحكاً لو شهدت لندن مظاهرات تطالب  
بالجلاء وتهدف في أخلاق الإنجليزي الشخصية فتنة،  
أمّا فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عمّا  
قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل في مكان واحد  
لأوّل مرّة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام  
عليّ! وسأل أستاذة:

- وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟  
- دُعيت للعمل في الإذاعة.  
- إذن لن ينقطع عنّا صوتك.

«بجاملة تُغتفر في هذا المجلس الذي تزيّنه صديقتي،  
إنّنا لا نسمع هنا إلّا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحبّ  
الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار  
أعلى مراحل الرأسماليّة، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفاً

- ساحل معي ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة في  
كلّيّة الآداب، وعن مقاطعة المعادي المائدة الجميلة،  
وعنكم أنتم الذين سأعترّ حتى بهذركم!  
فقال أحمد مجاملاً:

- أمّا ذكراك فستبقى في نفوسنا دواماً، وتنمو بنمو  
عقولنا... .

- شكراً... (ثمّ مخاطباً وزجه وهو يتسم)...  
أحمد شابّ جامعيّ كما ينبغي، وإن تكن له آراء ممّا  
تسبّب المتاعب عادة في بلده!  
فقال زميل موضحاً:  
- يعني أنّه شيوعيّ!

فرفعت السيّد حاجبها باسمه، أمّا مستر فورستر  
فقال بلهجة ذات معنى:

- لم أقل أنا ذلك، ولكنّ زميله الذي قال!  
ثمّ نهض الأستاذ وهو يقول:  
- آن وقت الشاي، يجب ألا يسرقنا الوقت،  
وسوف نجد بعد ذلك متنسّعاً للسمر واللهو... .

وكان عمّال جروبي قد أعدّوا المائدة ووقفوا متأهّبين  
للخدمة... وتوسّطت لادي فورستر جانب المائدة  
الذي جلس إليه الفتيات، على حين توسّط الأستاذ  
الجانب الآخر، وهو يقول معلّقاً على نظام الجلوس:  
- كنا نودّ أن تكون الجلسة أكثر اختلاطاً، ولكنّا  
راعينا الآداب الشرقيّة، أليس كذلك؟

فأجاب طالب بلا تردّد:

- للأسف هذا ما لإحفظناه يا سيّدي!

وصبّ الخادم الشاي واللبن وبدأت المادبة. لاحظ  
أحمد اختلاطاً أنّ علويّة صبري كانت أبرع زميلاتها  
ممارسة لآداب المائدة وأقلهنّ ارتباكاً، بدت ألفة للحياة  
الاجتماعيّة، كأنّها في بيتها، وشعر بأنّ ملاحظة تناوّلها  
للحلوى اللّذ من الحلوى نفسها، هذه صديقتة العزيزة  
التي تبادلته الصداقة والمودة دون أن تشجّع على عبور  
حدودهما، وقال لنفسه: إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة  
فسلام عليّ! وعلا صوت لادي فورستر وهي تقول:  
- أرى ألا تؤثّر قيود الحرب في تناولكم للحلوى!.

فعلّق طالب على قولها قائلاً:

- من المصادفات السعيدة أنّ الرقابة لم تفرض على

بالتقدّم لخطبتك؟  
فارتفع رأسها الجميل كردّ فعل لوقع المفاجأة،  
ولكن لم يندّ عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله، وكان  
الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاب  
الأزرق، فعاد يسألها:

- أسمحين لي؟  
فقلت بصوت خافت لم يخلُ من عتاب:  
- هذه طريقتك في الكلام ويا لها من طريقة،  
الواقع أنك أذهلتني!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال:  
- أعتذر عن ذلك، وإن كنت أظنّ أنّ تاريخ  
صداقتنا الطويل لا يجعل من قولي مفاجأة تذهل.  
- تعني صداقتنا وتعاوننا الثقافي؟  
فلم يرتج لقولها، ولكنه قال:  
- أعني عاطفتي غير الخفية التي اتخذت شكل  
الصداقة والتعاون الثقافي كما قلت...!

فتساءلت في صوت باسم غير خال من اضطراب:  
- عاطفتك الخفية؟  
فقال بعناد وإخلاص:  
- أعني حبّي! الحب لا يخفى، إنّنا عادة لا نتكلّم  
لنعلنه، وإنّما لنسعد بسماع إعلاننا له...  
فقلت بملاحظة حتّى تستردّ هدوءها:  
- الأمر كلّ مفاجأة لي...  
- يؤسفني أن أسمع هذا.  
- لماذا تأسف؟ الواقع أنّي لا أدري ماذا أقول...  
ضاحكًا:

- قولي «أسمح لك» ودعي الباقي لي...  
- ولكن، ولكن... أنا لا أعرف شيئًا، معذرة،  
كنّا أصدقاء حقًا ولكنك لم تحدّثني عن...، أعني لم  
تسمح الظروف بأن تحدّثني عن شخصك...!  
- ألم تعرفيني؟  
- عرفتك طبيعيًا، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغي أن  
تعرف...!

أتعني هذه الأمور التقليدية؟ يا لها من أسئلة خليقة  
بقلب لم يأسره الحب! وشعر بامتعاض، بيد أنّه ازداد  
عنادًا فقال:

جديرًا بالتأمّل، نبّره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام  
بين حبّنا لاستاذنا وبغضنا لجنسه، والمأمول أن تقضي  
الحرب على النازية والاستعمار معًا، هنالك أخلص  
للحبّ وحده».

ثمّ عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التي أضيئت  
مصابيحها، ولم تلبث لادي فورستر أن قالت:  
- إليكم البيانو فليتنفّض أحدكم بإسراعنا لحنا.  
فرجاها طالب قائلاً:  
- تفضّلي أنت بإسراعنا...

فنهضت في رشاقة الشباب الذي جاوزته بأعوام،  
ثمّ جلست إلى البيانو وفتحت النوبة وراحت تعزف  
لحنا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربية أو  
تذوّق لها، ولكنهم أنصتوا في اهتمام بدافع الأدب  
والمجاملة. وحاول أن يستمدّ من حبّه قوّة سحرية  
يفتح لها مغاليق اللحن، ولكنه نسي اللحن في استراق  
النظر إلى وجه فتاته، والتفت عنهما مرّة، فتبادلا  
ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفي نشوة الفرحه قال  
لنفسه: «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام  
عليّ»، وعلى أثر فراغ لادي فورستر من عزفها، عزف  
طالب لحنا شرقياً، ثمّ خلصوا للسمر وقتًا غير قصير،  
وحوالى الساعة الثامنة مساء ودّعوا أستاذهم وأخذوا في  
الانصراف. ولبد أحمد عند منعرج طريق في ليل بالغ  
في جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة،  
حتّى رآها قادمة وحيدة في طريقها إلى مسكنها، فبرز لها  
من المنعطف قاطعًا عليها الطريق، فتوقّفت في دهش  
وقالت:

- ألم تذهب معهم؟  
فنفخ فيها يشبه التنهّد ليخفّف صدره من جيشانه،  
وقال بهدوء:

- تخلّفت عن القافلة لأقابلك!  
- ترى ماذا يظنّون بتخلّفك؟  
فقال باستهانة:  
- هذا شأنهم!

وسارت في ببطء وسار إلى جانبها، ثمّ تمخّض صبر  
الأيام الطويلة عنه وهو يقول:  
- أريد أن أسألك قبل عودتي: هل تسمحين لي

- سيجيء كل شيء في حينه...  
فتساءلت، وكانت قد ملكت زمام نفسها:  
- أليس الآن حينه؟  
فابتسم ابتسامة فاترة، وقال:  
- لك حقّ، تعنين المستقبل؟  
- طبعًا!  
وأحفته «طبعًا». أمل أن يسمع أغنية فسمع  
محاضرة معادة! ولكن يجب ألاّ تخونه ثقته في نفسه  
مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تدري كم يسعده  
إسعادها!.
- سأجد بعد تخرّجي عملاً...  
ثمّ بعد لحظات من الصمت:  
- وسيكون لي يومًا دخل لا بأس به!  
فتمتعت في حياة:  
- كلام عامّ...  
فقال وهو يداري ألمه بالهدوء:  
- سيكون المرتّب في الحدود المعروفة، أمّا الدخل  
فحوالي عشرة جنيهات...  
وساد الصمت. لعلّها ترن الأمور وتفكر. هذا هو  
التفسير المادّي للحبّ! كان يحلم بالجنون العذب  
ولكن أين منه هذا؟ هذا البلد عجيب يندفع في  
السياسة وراء العاطفة، ويتبع في الحبّ دقّة  
المحاسبين. وأخيرًا جاء الصوت الرقيق قائلًا:  
- لندخل الدخّل جانبًا، فلا يجمل أن ترتّب حياتك  
على أساس تقدير اختفاء الأعزّاء من حياتك...  
- أردت أن أقول لك إنّ والسدي من ذوي  
الأملاك...  
فقالت بجهد برّ فترة التردّد التي سبقته:  
- فلنكن واقعيّين...  
- قلت إنّني سأجد عملاً، وستجدين من ناحيتك  
عملًا أيضًا...  
فضحكت ضحكة غريبة:  
- كلّ لن أشتغل، لم أذهب إلى الجامعة لأتوظّف  
كسائر الزميلات...  
- ليس العمل عيبًا...  
- طبعًا، ولكنّ والدي... الواقع أنّنا جميعًا
- متفقون على هذا، لن أشتغل.  
وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث، فقال:  
- ليكن، أشتغل أنا...  
فقال بصوت كأنّما تعمدت أن يكون رقيقًا فوق  
العادة:  
- أستاذ أحمد، فلنؤجّل الحديث، أعطني مهلة  
للتفكير...  
فضحك ضحكة فاترة، وقال:  
- قلّنا الأمر على كافّة وجوهه، ولكنك في حاجة  
إلى مهلة لتدبّري الرفض!  
فقال بصوت حيي:  
- ينبغي أن أحادث والدي.  
- هذا بدهيّ، ولكن كان من الممكن أن تنتهي إلى  
رأي قبل ذلك!  
- مهلة ولو قصيرة!...  
- نحن في يونيه، وستسافرين إلى المصيف، ولن  
نلتقي إلّا في أكتوبر القادم في الكلّيّة؟  
فالت بإصرار:  
- لا بدّ من مهلة للتفكير والتشاور!  
- إنك لا تريدين أن تتكلّمي...  
وإذا بها تتوقّف عن المسير فجأة، وتقول في دأب  
وعزم معًا:  
- أستاذ أحمد، إنك تأبى إلّا أن تحملي على  
الكلام، أرجو أن تتقبّل كلامي بصدر سمح، لقد  
فكرت في موضوع الزواج من قبل كثيرًا، لا بالقياس  
إليك ولكن بصفة عامّة، وانتهيت منه - ووافقتي على  
ذلك والدي - بأنّ حياتي لن تستقيم، وإنّي لن أحافظ  
على مستواي، إلّا إذا تهيّأ لي ما لا يقلّ عن خمسين  
جنيهاً شهريًا...  
وتجرّعت خيبة مريرة لم يتوقّع - على أسوأ الفروض -  
أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة، وتساءل:  
- وهل يملك موظّف - أعني في سنّ الزواج - هذا  
المرتّب الضخم؟  
ولكنّها لم تنبس، فعاد يقول:  
- إنك تريدين زوجًا ثريًا!  
- أسفة جدًا، ولكنك أجبرتني على مصارحتك برأيي.

فضحك رياض قلدس، وقال مخاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هذه ثاني مقابلة بينهما في مدى تعارف عام:

- أنت مخاطب رجلًا لا يشعر بمسئولية الزوج!  
فسأله إسماعيل متهكمًا:  
- وهل تشعر بها أنت؟  
- حقًا أنا أعزب مثله، غير أنني لست عدوًا للزواج...

كانوا يسرون في شارع فؤاد الأول، في مطلع الليل، في ظلام لم تحفقه الأضواء الضئيلة التي تنسرب من أبواب المحال العامة، وكان الشارع رغم ذلك مكتظًا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم. وكان الخريف يبعث أنفاسًا رطبية، ولكن أكثر الناس مضوا في الملابس الصيفية. ونظر رياض قلدس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:

- من المحزن أن يبتعد الإنسان عن وطنه هذه المسافة المديدة، ليقتل في سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف:  
- ترى كيف يتأق لهؤلاء التعساء أن يضحكوا؟  
فقال كمال ممتعضًا:  
- كما نضحك نحن في هذه الدنيا الغريبة، الخمر والمخدرات واليأس.

فضحك رياض قلدس قائلاً:  
- إنك تعاني أزمة فريدة، كل ما عندك مززعج الأركان، عبث وقبض الريح، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس، وملل وسقم، إنني أرثي لك.

فقال إسماعيل لطيف ببساطة:  
- تزوج، إنني مررت بهذا الملل قبل زواجي...  
فقال رياض قلدس:  
- قل له!...

فقال كمال، وكأنما يخاطب نفسه:  
- الزواج هو التسليم الأخير في هذه المعركة الفاشلة...

«أخطأ إسماعيل في المقارنة، إنه حيوان مهذب، ولكن مهلاً لعله الغرور، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تل من الخيبة والفشل، إسماعيل لا يدري شيئاً عن

فقال بصوت غليظ:  
- هذا أفضل على أي حال...  
فعدت تغمغم:

- آسفة!...  
وثار غضبه، ولكنه بذل جهداً صادقاً كيلا يخرج عن حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم في أن يصارحها برأيه فتساءل:  
- أسمحين لي أن أصارحك برأيي؟

فبادرت قائلة:  
- كلا، إنني أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن تبقى صديقين كما كنا!...

ورثي رغم غضبه لحالها، هذه هي الحقيقة العارية قبل أن يلففها الحب. التي تهرب مع خادمها امرأة طبيعية وإن عدت - بعين التقاليد - شاذة. في المجتمع المختل يبدو الصحيح مريضاً والمريض صحيحاً، إنه غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه، إنها على أي حال تمحس رأيه وفي هذا عزاء، ومدت يدها للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول:

- قلت إنك لم تدخلي الجامعة لتتوظفي، قول جميل في ذاته، ولكن إلى أي مدى انتفعت بالجامعة؟  
وارتفع ذقنها كالمسائلة، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

- معذرة عن سخاوتي، لعل المسألة أنك لم تحمي بعد، مع السلامة...  
ودار على عقبه، ثم ولّى مسرعاً.

### ٣٠

قال إسماعيل لطيف:  
- لعلني أخطأت بحمل زوجي إلى القاهرة كي تلد فيها، كل ليلة تنطلق صفارة الإنذار، أما طنطا فلم نكن نعرف شيئاً عن أهوال هذه الحرب.

فقال كمال:  
- إنها غارات رمزية لو أرادوا بنا شراً ما منعهم قوة!

يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية...  
فقال إسماعيل:  
- ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز في نفس  
الموضع الذي فرضوه على العالم الضعيف...  
وقال كمال:

- ليس الألمان بخير من الإنجليز...  
فقال رياض قلّدتس:  
- ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى برّ، والاستعمار  
البريطانيّ يوغل في الشيوخوخة، ولعلّه قد تلطّف ببعض  
المبادئ الإنسانية، ولكننا سنتعامل غداً مع استعمار فتيّ  
مغرور شرّه غنى حرب، فما العمل؟  
فضحك كمال ضحكة تحمل نعمة جديدة، وقال:  
- نشرب كأسين ونحلّم بعالم واحد تسيطر عليه  
حكومة واحدة عادلة...  
- سنحتاج حتّى إلى أكثر من كأسين...

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من  
قبل، لعلّها من الحانات «الشيطنية» التي تخلفها ظروف  
الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى  
داخلها فرأى امرأة بيضاء ذات جسم شرقيّ تقوم على  
إدارة الحانة، ثمّ جدت قدماء فلم يتحرّك من موقفه،  
أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرّك حتّى اضطرّ صاحبا  
أن يتوقّفا عن المسير وينظرا إلى حيث ينظر...  
مريم! لم تكن إلّا مريم دون غيرها، مريم الزوجة  
الثانية لياسين، مريم جارة العمر، في هذه الحانة بعد  
اختفاء طويل، مريم التي ظنّ بها أنّها لحقت  
بأمّها!...

- أتريد أن نجلس ها هنا؟. هلّم فليس بالداخل  
إلّا أربعة جنود...  
وتردّد مليّاً، ولكنّ شجاعته لم تواته فقال ولما يفق  
من ذهوله:  
- كلّا...

وألقى نظرة على المرأة التي ذكرته بأمّها في أيّامها  
الأخيرة، ثمّ انطلقوا في طريقهم، متى رآها آخر  
مرة؟. منذ ثلاثة أو أربعة عشر عاماً على الأقلّ، إنّها  
معلم من معالم الماضي الذي لا يُنسى، ماضيه...  
تاريخه... ماهيته... كلّ أولئك شيء واحد، وقد

دنيا الفكر، ولكنّ السعادة المستمّدة من العمل  
والزوجة والأولاد، أليست سعادة جديدة بأن تسخر من  
احتقارك لها؟ قال رياض:

- إذا قرّرت يوماً أن أوّلّف رواية، فستكون أحد  
أبطالها!

فأثّجه كمال نحوه في اهتمام صبيانيّ، وسأله:  
- ماذا ستصنع منّي؟

- لا أدري، ولكن ينبغي أن توطّن نفسك على ألا  
تزعل، فإنّ كثيرين ممن قرأوا أنفسهم في أقاصيصي قد  
زعلوا...  
- لماذا؟...

- لعلّه لأنّ لكلّ إنسان فكرة عن شخصه من خلقه  
هو، فإذا جرّده الروائيّ منها أبى وغضب...  
فتساءل كمال في قلق:

- أليدك فكرة عنيّ غير ما تعلن؟.

فبادره في تأكيد قائلاً:

- كلّاً، ولكنّ الروائيّ قد يبدأ من شخص ثمّ ينساه  
كلّيّة وهو بصدد خلق نموذج بشريّ جديد، لا صلة  
بينه وبين الأصل إلّا الإيماء، وإنّك توحى إليّ  
بشخصيّة الرجل الشرقيّ الحائر بين الشرق والغرب،  
الذي دار حول نفسه كثيراً حتّى أصابه الدوار.  
«يتكلّم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن  
يعرف عابدة؟. قد تكون التعاسة متعدّدة الجوانب».

وقال إسماعيل لطيف في بساطة مرّة أخرى:

- طول عمرك تخلّق لنفسك المتاعب، الكتب في  
نظري أساس بلواك، لماذا لا تجرّب الحياة الطبيعيّة؟  
ويلغوا في مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا إليه،  
وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتفادوا منها،  
وقال إسماعيل لطيف:

- إلى جهنّم، من أين لهم بهذا الأمل؟! ترى هل  
يصدّقون أنفسهم؟.

فقال كمال:

- بجيّل إليّ أنّ نتيجة الحرب قد تقرّرت غايتها  
الربيع القادم...

فقال رياض قلّدتس منمتعضاً:

- النازيّة حركة رجعيّة غير إنسانيّة، وسوف

فقال له كمال مداعبًا:

- قد لا تتمكّن من العبث بشخصي في روايتك...  
فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يرمي إلى  
الناس:

- البشرية ممثلة بنسبة عادلة في هذا المخبأ...

فقال كمال متهمكًا:

- لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على  
الخوف!...

وهتف إساعيل متترفعًا:

- زمان زوجي نازلة على السلم تنلمس طريقها في  
الظلام، إني أفكر جدّيًا في العودة إلى طنطا غدًا...

- إن عشنا.

- مساكين حقًا أهل لندن!

- لكنهم أصل البلاء كله...

وكان وجه رياض قلّس يزداد شحوبًا، ولكنّه  
دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

- سمعتك تتساءل مرّة أين محطة الموت لأغادر  
مركبة الحياة المملّة، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة  
الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرهف السمع في قلق متزايد  
متوقّعًا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصكّ  
الآذان، وأجاب:

- كلًّا... (ثمّ كالمستأثر)... لعلّه الخوف من  
الأم؟

- أم ثمة أمل غامض في الحياة ما زال يضطرب في  
أعماقك؟

لماذا لم ينتحر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كأنّما يمتلئ  
حماسًا وإيمانًا؟ طالما نازعته النفس إلى النقيضين: وكر  
الشهوات والتصوّف، ولكنّه لم يكن ليطبق حياة  
خالصة للدعة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة  
شيء في أعماقه ينفر من فكرة السليبيّة والهروب،  
ولعلّه - هذا الشيء - الذي حال بينه وبين الانتحار،  
وفي ذات الوقت فإنّ استمساكه بحبل الحياة المضطرب  
في يديه مناقض لصميم شكّه القاتل، والخلاصة في  
كلمتين: حيرة وعذاب!

وفجأة انطلقت المدافع كالطرر، لا تتيح للصدر

استقبلته في قصر الشوق في آخر زيارة لهذا البيت قبل  
طلاقها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه  
وارتداده إلى حياة العريضة والمجنون، شكوى لم يكن  
يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذي تلعبه  
في هذه الحانة «الشيطنية»، ومن قبل ذلك كانت كريمة  
السيد محمّد رضوان، وكانت صديقته وملهمه أحلامه  
في الصبا الأوّل، في ذلك الزمان الذي شهد البيت  
القديم عامرًا بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة  
وكانت عائشة وردة ولكنّ الزمن عدوٌّ لدود للورود،  
وربّما كان من المحتمل أن يعثر عليها في بيت من هذه  
البيوت كما عثر بالسّ جليّة، ولو وقع هذا لكان وجد  
نفسه في مأزق وأيّ مأزق، هكذا بدأت مريم  
بالإنجليز وانتهت بالإنجليز...  
- أتعرف هذه المرأة؟

- نعم...

- كيف؟

- امرأة من هاتيك النسوة، ولعلّها نسيته!...

- أوه، الحانات ملأى بهنّ، مومسات قديمات،  
وخادعات متمرّدات، ومن كلّ لون...

- نعم...

- ولم تَدْ تدخل فلعلّها كانت ترخّب بنا إكرامًا  
لك...؟

- لم نعد في طور الشباب ولدينا أماكن أفضل...  
تقدّم به العمر وهو لا يدري، منتصف الحلقة  
الرابعة، وكأنّما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا  
قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيّهما  
أشدّ، ولكن ماذا يهّم العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقًا إنّ  
الموت لذّة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟

- غارة!...

- أين نذهب؟...

- إلى مخبأ قهوة ركس...

لم يجدوا في المخبأ مكانًا خاليًا للجلوس فوقفوا،  
وكان ثمة أفنديّة وخواجهات وسيدات وأطفال، وكان  
الكلام يدور بشقّي اللغات واللهجات. وأصوات  
رجال المقاومة المدنيّة في الخارج تهتف «أطفئ النور»،  
وبدا وجه رياض شاحبًا، وكان يمقت دويّ المدافع،

متنفسًا، وزاغت الأبصار، وضلّت اللسن، ولكنّ الضرب لم يستمرّ أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنيّ، وتوقّع الناس عودة بغیضة إلى الدويّ المرعب، واستبدّ الفزع بالنفوس، غير أنّ الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

- إني أتخيّل حال زوجي الآن، ترى متى تنتهي الغارة؟

فتساءل رياض قلّس:

- متى تنتهي الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفّارة الأمان فنذّ عن المخبأ تنهّد عميق، وقال كمال:

- ليست إلّا مداعة إيطالية...

وغادروا المخبأ في الظلام كالخفافيش، ولفظت الأبواب أشباحًا وراء أشباح، ثمّ تساقط الضوء الباهت متتابعًا من النوافذ، وملأت الضجّة الأركان... يبدو أنّ الحياة - في هذه اللحظة السريعة المعتمة - ذكّرت كلّ غافل بمدى قيمتها الذي لا يُقاس به شيء في الوجود...

### ٣١

اتّخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوّض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففي نصف النهار الأوّل يغيب كمال في المدرسة، وتمضي أمينة إلى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة، وتنزل أم حنفي إلى حجرة الفرن، ويتمدّد السيّد على الكنبه في حجرته أو يجلس على كرسيّ في المشرّبة، وتهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظّل الراديو في الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفي في الصالة، وتلبث عائشة في حجرتها، أو تمكث معهما بعض الوقت ثمّ تذهب، أمّا السيّد فلا يغادر حجّته، وكمال إن عاد من الخارج مبكرًا فليكي يقبع في الدور الأعلى في مكتبه. وكان اعتكاف السيّد أوّل الأمر محزنًا، ثمّ صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفاجئًا ثمّ صار عادة عندها وعند

الآخرين، وما زالت أمينة أوّل من يستيقظ، فتوقظ بدورها أم حنفي، ثمّ تتوضّأ وتصلّي، وتهض أم حنفي - وكانت نسبيًا خير الجميع صحّة - فتقصد حجرة الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقذاح القهوة تباغًا وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتّى إذا دُعيت للفطور تناولت لقيات. وقد اضمحلّت أيّما اضمحلال، وانقلبت هيكلًا عظيمًا كسى جلدًا باهتًا، وأخذ شعرها في السقوط حتّى اضطّرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها العلل حتّى أشار عليها الطبيب بالتخلّص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلّا الاسم. ولم تكن أفلعت عن عادة النظر في المرآة، لا لتأخذ زينة، ولكن بحكم العادة من ناحية، وللامعان في الحزن من ناحية أخرى، وربّما بدت أحيانًا وكأنّها أذعنّت للمقادير في استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمّها، وتشارك في الحديث الدائر، وربّما افترّت شفتها الذابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسأل عن صحّته، أو تتمشّى في حديقة السطح وترمي بالحبّ إلى الدجاج، هناك تقول أمّها برجاء:

- كم أسعدت قلبي يا عائشة، ليتني أراك دائميًا على

هذه الحال!

على حين تحفّف أم حنفي عينيها قائلة:

- فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئًا جميلًا

ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمّها على صوت بكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة في الظلام تتحبّب، وكما شعرت بدنو أمّها تعلّقت بها هاتفة:

- لو تركت لي ما كان في بطنها! ظلًا منها يداي فارغتان، والدنيا لا شيء فيها...

فاحتضنتها أمّها وهي تقول:

- إني أعلم الناس بحزنك، حزن يجلّ عن العزاء،

ليتني كنت فداهم، ولكنّ الله جلّ وعلا حكّمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة؟!...

- كلّما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة

الأولى...



- وحُدي الله، ذقت ما تعانين طويلاً، أنسيت فهمي؟ ولكن المؤمن أَلصَّاب مطالب بالصبر، أين إيمانك؟

فهتفت في امتعاض:

- إيماني!...

- نعم، اذكري إيمانك، وتوسلي إلى ربك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدريين...

- الرحمة!... أين الرحمة أين؟!

- رحمته وسعت كل شيء، طاويعيني وتعالى معي إلى الحسين، ضعي يدك على الضريح واتلي الفاتحة تتحوّل نارك إلى برد وسلام كنار سيدنا إبراهيم...

ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطراباً، فحيناً تتردّد على الأطباء في مثابة وانتظام حتى يظنّ بها العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحيناً تهمل نفسها وتزدرى كافة النصائح لدرجة الانتحار. أمّا زيارة القرافة فهي التقليد الوحيد الذي لم تشذّ عنه مرّة واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كلّ ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأُمّها:

- هتّيني على ميراثي من نعيمة...

وكان كمال يمسّ بها كلّما أنس منها استقراراً، فيجالسها مليّاً ملاطفةً متودّداً. كان يتأمّلها طويلاً صامتاً، ويتخيّل عزوئاً الصورة الذاهبة التي أبدع الله صنعها، ثمّ يتفحص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن محزنة بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينها من أوجه الشبه في الحظّ، فهي قد فقدت ذريتها وهو قد فقد آماله، وانتهت إلى لا شيء كما انتهى إلى لا شيء، بل كان أبناؤها لحماً ودماً أمّا آماله فكانت كذباً وأوهاماً! وقال لهم يوماً:

- أليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا أطلقت صفارة الإنذار؟

فقالت عائشة:

- لن أغادر حجرتي...

وقالت الأم:

- إنّها غارات أمنة ومدافع كالصواريخ...

أمّا أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:

- لو أنّ بي قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى

الجامع أو إلى بيت محمد عفت...

ويومًا جاءت عائشة من السطح مهرولة وهي تلهث وقالت لأُمّها:

- حدث شيء عجيب!...

فنظرت إليها أمّها في استطلاع مشوب بالرجاء، فعادت تقول وهي ما تزال تلهث:

- كنت في السطح أراقب غروب الشمس، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة فتحت في السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتي «يا رب».

اتّسعت عينا الأمّ في تساؤل، أهي الرحمة المنشودة أم هਾوية جديدة من الأحزان؟ وتمتمت:

- لعلّها رحمة ربّنا يا ابنتي!...

فقالت ووجهها يتهلّل بشرّاً:

- نعم، صحت يا ربّ، وكان النور يملأ الدنيا...

وراحوا جميعاً يفكّرون في الأمر ويراقبون الحال في

قلق بالغ. أمّا عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها

من السطح مترقبة النور أن يومض مرّة أخرى، حتى

قال كمال لنفسه «ترى أهي النهاية التي يهون إلى جانبها

الموت؟» ولكن من حسن الحظّ - حفظ الجميع - أنّها

تناسّت الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره، ثمّ لم تزل توغل

في دنيا خاصّة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها،

وحدها سواء أكانت منفردة في حجرتها أو جالسة

بينهم، إلّا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائلة

من سفر، ثمّ لا تلبث أن تواصل الرحيل. والتصقت

بها عادة جديدة هي محادثة نفسها، خاصّة حين

انفرادها، وشدّ ما أثارت بذلك القلق، غير أنّها كانت

تخاطب أمواتاً وهي مدركة لحال موتهم، ولم تتخيّل

أمواتاً أو أشباحاً، وفي ذلك كان عزاء المحيطين

بها...

طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمر. وعليّ عبد الرحيم الذي احتضر ثلاثة أيّام كاملة، سعال حادّ متقطع حتّى فزعنا إلى الله أن يحسن خاقته ويرمجه من الألم، واختفى من دنياي أليف الروح عليّ عبد الرحيم، وقد ودّع هذين الحبيين أمّا إبراهيم الفار فلم يودّعه، كان اشتداد المرض قد أقعده في فراشه ومنعه عن عيادته فنعاه إليه خادمه، وحتّى الجنائز لم يشيّعها فشيّعها عنه ياسين وكمال. فللى رحمة الله يا الطّيف الناس طرّاً، ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحزواوي وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداً كأنه لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائداً، وجنازته لن يشيّعها صديق، حتّى الصلاة حيل بينه وبينها، وهل يتمتّع بالطهر إلّا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر إلّا مرّة كلّ أشهر؟ فحرم من الصلاة وهو أشدّ ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن في هذه الوحدة الموحشة. هكذا تمضي الأيام، الراديو يتكلّم وهو يسمع، وأمينة تذهب وتحجي، وشدّ ما ركبها الوهن، غير أنّها لم تعتد الشكوى، إنّها مرّضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غداً إلى من يرضعها، وهي كلّ ما بقي له، أمّا ياسين وكمال فيمكنان عنده ساعة ثمّ يذهبان، ودّ لو لم يفارقاه، ولكنّها أمانة لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيع أن يحقّقها، أمانة وحدها التي لا تمّله، وإذا ذهب لزيرة الحسين فلكي تدعو له، والعالم بعد ذلك فراغ. وإنّ يوم زيارة خديجة له ليوم يستحقّ الانتظار، تحجيّ وفي صحبتها إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، فتمتليّ الحجرة بالأحياء وتبتدّد وحشتها، وقليلاً ما يتكلّم هو أمّا هم فيتكلّمون كثيراً، ومرّة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أريحوا السيّد من ثرثرتك»، فقال له معانّباً: «دعهم يتكلّموا... أريد أن أسمعهم!». ودعا لابنته بالصّحة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنها تودّ لو تسهر على راحته بنفسها، وكان يطالع في عينها حناناً ما وراءه حنان، ويوماً سأل ياسين في شوق واستطلاع باسماً:

- أين تمضي سهراتك؟

فقال في حياء:

- اليوم الإنجليز في كلّ مكان كأيّام زمان...

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكرّ بشتاء قديم ظلّ الناس يؤرّخون به جيلاً، شتاء أيّ عام يا ترى؟ ربّاه أين الذاكرة التي تعي ذلك أين؟ غير أنّ القلب المعجوز يحنّ إليه في مجهوله، فهو جزء من الماضي الذي تهبّ ذكراه الدموع في مكانها، الماضي الذي كان يستيقظ فيه مبكّراً فيستحمّ تحت الدشّ غير مبالٍ برد الشتاء ثمّ يملاً بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا الحركة والحريّة التي لا يعرف اليوم عنها شيئاً اللهم إلّا ما يجود به الرواة، وكأنّهم يحدثون عن عالم في أقصى الأرض. كانت له الحريّة والقدرة على أن يجلس على الكتبة في الحجرة أو على الكرسيّ في المشريّة وكان مع ذلك يضيق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة إلى الحتّام أو يغيّر ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة البيت، وكان له يوم في الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكّئاً على عصاه أو راكباً عربية فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فطالما دعا الله أن ينقذه من محبس البيت. أمّا اليوم فلم يسعه أن يغادر الفراش، ولم تعد حدود عالمه تجاوز أطراف هذه الحشّية، حتّى الحتّام يجيء إليه ولا يذهب هو إليه، قذارة لم تكن في الحسبان، حتّى استقرّ الامتعاض على شفّتيه، وأسكنت المرارة في لعابه، على هذه الحشّية يرقد نهاراً وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضي حاجته. وهو من كان يُضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيّب بين يديه، وفي هذا البيت الذي استكان عمره لإرادته المطلقة غداً ينظر فلا يلقى إلّا نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب في فترات متقاربة من الزمن كأنّهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه وحيداً، عليك رحمة الله يا محمّد يا عفت، كان آخر العهد به سهرة من ليالي رمضان في السلامك المطلّ على الحديقة، ثمّ ودّعه ومضى وضحكته العالية توصله إلى الباب، وما كاد بأوي إلى حجرته حتّى طرق الباب طارق وهرع إليه رضوان وهو يقول «جدي مات يا جدي»، يا سبحان الله... متى؟ وكيف...؟

الم يضحكننا منذ دقائق؟ ولكنّه سقط على وجهه وهو في

أَيَّامَ زَمَانٍ! أَيَّامَ الْقُوَّةِ وَالْبَاسِ، وَالضَّحْكَ الَّذِي تَهْتَرِّ  
لَهُ الْجَدْرَانِ، وَسَهَرَاتِ الْغُورِيِّ وَالْجَالِيَّةِ، وَالنَّاسِ  
الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَسْمَاءُ، زَبِيدَةُ وَجَلِيلَةُ وَهْنِيَّةُ،  
تَرَى أَلَا تَذْكُرُ أَمَّكَ يَا يَاسِينَ؟ وَهِيَ زَنْوَبَةٌ وَكَرِيمَةٌ  
تَجْلِسَانِ إِلَى جَانِبِ وَالِدَاهَا، وَدَوَامًا سَتَطْلُبُ الرَّحْمَةَ  
وَالْغُفْرَانَ...

- هل تعجبك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وتردَّد في الجواب،  
فاستطرد الرجل قائلاً:

- الأيام الحقيقية كانت أيامنا! كانت يسراً ورجداً،  
وصحَّةً وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سي  
عبده، ماذا في أيامكم؟!

فأجاب كمال مأخوذاً بتداعي معاني الحديث  
فحسب:

- لكلِّ زمان محاسنه ومعايبه...

فهزَّ الرجل رأسه المستند إلى مخدَّة مكسورة وراء  
ظهره وقال:

- كلام يقال ليس إلّا...

ثمَّ بعد فترة صمت ودون تمهيد:

- عجزني عن الصلاة بحوَّ في نفسي حزناً، فالعباد  
عزاء الوحدة، ومع ذلك تمرُّ بي أوقات غريبة أنسى فيها  
كافة وجوه الحرمان التي أعانيها من مأكَل ومشرب  
وحريَّة وعافية، تصفو نفسي صفاء عجبياً حتَّى يخيَّل إليَّ  
أني متَّصل بالسَّوات، وأنَّ ثمة سعادة مجهولة تزري  
بالحياة وما فيها...

فتمتم كمال:

- ربَّنا يمدُّ في عمرك ويردُّ إليك العافية...

فهزَّ رأسه مرَّة أخرى في استسلام، وقال:

- هذه ساعة طيِّبة، لا ألم في الصدر، ولا ضيق في  
التنفُّس، وورم ساقي آخذ في الزوال، وموعداً في  
الراديو مع ما يطلبه المستمعون...

وإذا بصوت أمينة يقول:

- سيدي بخير؟

- الحمد لله.

- هل آتي بالعشاء؟

- العشاء؟! أما زلت تسمِّينه العشاء؟! هاتي

سلطانيَّة اللبن!...

أَيَّامَ زَمَانٍ! أَيَّامَ الْقُوَّةِ وَالْبَاسِ، وَالضَّحْكَ الَّذِي تَهْتَرِّ  
لَهُ الْجَدْرَانِ، وَسَهَرَاتِ الْغُورِيِّ وَالْجَالِيَّةِ، وَالنَّاسِ  
الَّذِينَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا أَسْمَاءُ، زَبِيدَةُ وَجَلِيلَةُ وَهْنِيَّةُ،  
تَرَى أَلَا تَذْكُرُ أَمَّكَ يَا يَاسِينَ؟ وَهِيَ زَنْوَبَةٌ وَكَرِيمَةٌ  
تَجْلِسَانِ إِلَى جَانِبِ وَالِدَاهَا، وَدَوَامًا سَتَطْلُبُ الرَّحْمَةَ  
وَالْغُفْرَانَ...

- مَنْ بَقِيَ مِنْ مَعَارِفِنَا الْقَدَامَى فِي وَزَارَتِكَ يَا  
يَاسِينَ؟

- أحيوا جميعاً إلى المعاش، ولم أعد أدري عنهم  
شيئاً!

ولا هم يدرون عتاً شيئاً، أصدقاء القلب ماتوا فما  
لنا نسال عن المعارف، ولكن ما أجل كريمه! فاقت  
أمتها في زمانها، ومع ذلك لم تُعدَّ الرابعة عشرة، ونعيمة  
الم تكن آية في الجمال؟!

- ياسين إن استطعت أن تُقنَّع عائشة بزيارتك  
فافعل، انتشلوها من وحدتها فلنَّي أخاف عليها  
منها...

فقال زَنْوَبَةُ:

- طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنتها... كان  
الله في عونها...

ولاحت في عيني الرجل نظرة قائمة، ثمَّ إذا به يسأل  
ياسين:

- ألا تصادف في طريقك الشيخ متوَّليَّ عبد  
الصمد؟

فقال ياسين بأساً:

- أحياناً، إنَّه لا يكاد يعرف أحداً، ولكنَّه ما زال  
يسير على قدمين قويتين!...

يا للرجل! ألم تنازعه نفسه مرَّة إلى زيارتي؟ أم  
نسيتي كما نسي أبنائي من قبل؟!

ولما ذهب الأصدقاء اتَّخذ الرجل من كمال صديقاً،  
ولعلَّه فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذي عهد، وغدا  
صديقاً ينجيه ويتشوق إلى مناجاته، وكان يقول عنه  
أسفاً: «أعزب في الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش  
أكثر حياته في حجرة مكتبه، كان الله في عونه»، ولم  
يكن يعدُّ نفسه مسئولاً عما صار إليه أمره، فقد أبى من  
أول الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى

فقال كمال في لهجة ساخرة:

- كفاه الله شر مهنة التدريس!

فقالت خديجة في انزعاج:

- وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيًا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفًا الجوّ:

- لم تعد الوظيفة بال مطلب السعيدا

فقالت أمّه بحدة:

- لكنك موظف يا سي عبد المنعم...

- في كادر ممتاز، ولكنّي لا أرضى له وظيفة كتابيّة،

وها هو خالي كمال يستعيز في مهنته...

- في أيّ نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

- الأستاذ عدلي كريم موافق على قبولي في مجلّته

تحت التمرين لأقوم بالترجمة أوّلًا ثمّ بالتحرير فيما

بعد...

- ولكنّ «الإنسان الجديد» مجلّة ثقافيّة محدودة الموارد

والمجال؟...

- هي خطوة أولى للتمرين حتّى يتيسّر لي عمل

أهمّ، وعلى أيّ حال ففي وسعي أن أنتظر دون أن

أجوع...

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً:

- دعي الأمور تجري كما يشاء، إنّه راشد مثقف

وأدرى بما يفعل.

ولكنّ خديجة لم تسلّم بالهزيمة بسهولة، وعادت

تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتّى علا صوتها واحتدّ

فتدخل كمال ليخلّص بينها، ثمّ تكذّر جوّ المجلس

وساد صمت ثقيل حتّى قال كمال ضاحكًا:

- جئت طامعًا في شرب الشربات فكانت هذه

العكنة نصيبي.

وفي أثناء ذلك ارتدى أحمد ملاپسه ليغادر البيت،

فاستأذن كمال وخرجا معًا، وسارا في شارع الأزهر،

وقد صارح أحمد خاله بأنّه ماضٍ إلى مجلّة «الإنسان

الجديد» ليتسلّم عمله كما وعده الأستاذ عدلي كريم،

فقال له كمال:

- افعل ما تشاء ولكنّ تجنّب إيذاء والديك...

فقال أحمد ضاحكًا:

- إنّي أحبّها وأجلّها ولكن...

بلغ كمال بيت أخته بالسكّريّة حوالي العصر  
فوجد الأسرة مجتمعة في الصالة بكامل هيئتها،  
فصافحهم وهو يقول مخاطبًا أحمد:

- مبارك اللّيسانس...

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معاني الابتهاج:

- مبارك عليك، ولكنّ تعال اسمع آخر خبر، البك

لا يريد أن يتوظّف...

وقال إبراهيم شوكت:

- ابن خاله رضوان مستعدّ لتوظيفه إذا وافق ولكنّه

يصرّ على الرّفص، كلّمه يا أستاذ كمال لعلّه يقتنع

برأيك أنت...

خلع كمال طربوشه، ونزع - من شدّة الحرّ - الجاكّة

البيضاء فالبسها مسند كرسي، ومع أنّه كان يتوقّع

معركة إلّا أنّه قال بأسًا:

- حسبت أنّ اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكنّ

هذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

- قسمتي، الناس كلّهم حال ونحن وحدنا حال.

وخاطب أحمد خاله قائلاً:

- الأمر بسيط، ليس أمامي الآن إلّا وظيفة كتابيّة،

فقد أخبرني رضوان أنّه يمكن تعييني الآن في وظيفة

كتابيّة خالية بإدارة المحفوظات عند خالي ياسين،

واقترح عليّ أن أنتظر ثلاثة أشهر حتّى بدء العام

الدراسيّ الجديد لعلّي أعيّن مدرّس لغة فرنسيّة في

إحدى المدارس، ولكنّي لا أريد الوظيفة أيّا كان

نوعها!

فهتفت خديجة:

- قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشابّ ببساطة وحزم:

- سأعمل في الصحافة.

فنفخ إبراهيم شوكت قائلاً:

- جورنالجي! كنّا نسمع هذا الكلام فنظّنه ضحكًا

وعبثًا، يابى أن يكون مدرّسًا مثلك ويسعى إلى أن

يكون جورنالجيًا...

في العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينم عن الحذق والذكاء. ورمى ببصره إلى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟. ولم يكن رآها منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦. والتقت عيناها فساها باسما مدفوعا برغبة في الخروج عن صمته:

- قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات...

فلاح التذكر في عينيها اللامعتين فاستدرك قائلا:

- كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها!

فقال باسمه:

- أكاد أذكرك، وعلى كل فقد نشرنا منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة!...

فقال يوسف الجميل معلقا:

- مقالات تنم عن روح تقدمية طيبة...

وقال إبراهيم رزق:

- إن الوعي اليوم غيره بالأمس، كلما نظرت في الطريق قرأت على الجدران عبارة «الحزب والحرية» هذا شعار الشعب الجديد.

فقال سوسن حماد باهتمام:

- ما أجمله من شعار، خاصة في هذا الوقت الذي أطبق فيه الظلام على العالم!...

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعا. وفي حماس وسرور- للجو المحيط به وقال:

- الظلام يطبق على العالم حقا، ولكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل في النجاة.

فقال سوسن حماد:

- إنني أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى أن هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معا أو في الأقل أن ينتقل مركز القوة إلى روسيا؟...

- وإذا حدث العكس؟ أعني أن يحتاج هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القوة!...

فقال يوسف الجميل:

- كان نابليون كهتلر غازي أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرته.

ووجد أحمد نشاطا وحماسا لم يشعر بمثلها من قبل. هذا الهواء النقي، وهؤلاء الزملاء الأحرار، وهذه الزميلة المستنيرة الحسنة. ولداغ أو لآخر ذكر علوية

- ولكن...؟

- من الخطأ أن يكون للإنسان والدان!

كمال ضاحكا:

- كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

- لا أعني حرفيته، ولكن ما يرمز إليه الوالدان من تقاليد الماضي، فالأبوة على وجه العموم قُرْمَلَة، وما حاجتنا في مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلَة بالأغلال!؟

ثم مواصلا الحديث بعد تفكير:

- إن مثلي لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دام لي بيت ولأبي دخل، ولا أنكر أنني مطمئن بذلك ولكن في الوقت نفسه خجل منه!

- متى ينتظر منك أن تؤجر على عملك؟

- لم يحدد الأستاذ وقتا...

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحمد إلى مجلة «الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلي كريم مشجعا، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلا:

- زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت...

ثم قدم إليه زملاءه قائلا:

- آنسة سوسن حماد، الأستاذ إبراهيم رزق، الأستاذ يوسف الجميل... وصافحوه مرحبين، ثم قال إبراهيم رزق مجاملا:

- اسمه معروف في مجلتنا...

وقال الأستاذ عدلي كريم باسما:

- إنه الابن البكر للإنسان الجديد... (ثم وهو يشير إلى مكتب يوسف الجميل)... ستعمل على هذا المكتب فإن عمل صاحبه في الخارج إلّا فيما ندر...

وغادر عدلي كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل أحمد إلى الجلوس على كرسي قريب من مكتبه، وانتظر حتى جلس ثم قال:

- ستوجهك الآنسة سوسن إلى العمل الذي سيناظ

بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة... وضغط على زر الجرس على حين راح أحمد يتصفح الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلا مهتما يبدو أكبر من ستة عشرة أعوام، أما يوسف الجميل فكان

- إن الرقابة تقف لنا بالمرصاد...  
فقلت بصوت يدلّ على الحنق والازدراء:  
- أنت لم تر شيئاً بعد، مجلّتنا «مشبوهة» في الدوائر العليا! ولها الشرف!  
فقال أحمد بأساً:  
- تذكّرين طبعاً افتتاحيات الأستاذ عدلي كريم قبل الحرب؟

- لقد عُظِلت مجلّتنا مرّة في عهد عليّ ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العراقيّة اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويوماً سألته ضمن حديث عابر:

- لماذا اخترت الصحافة؟...

فتفكّر قليلاً، إلى أيّ درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التي تبدو طرازاً وحدها بين مَنْ عرف من بنات جنسها:

- لم أدخل الجامعة لأتوظّف، ولكنّ عندي أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير من الصحافة...

فقلت باهتمام سرّ له من أعماقه:

- أمّا أنا فلم أدرس في الجامعة، أو بالحرّيّ لم تتح لي فرصة (سرّته صراحتها كذلك وإن أكّدت في نفسه مخالفتها لبنات جنسها)... إلني متخرّجة في مدرسة الأستاذ عدلي كريم، وهي ليست دون الجامعة منزلة، درست عليه منذ حصولي على البكالوريا، وأصارحك بأنك أحسنت تعريف الصحافة، أو الصحافة التي نعمل فيها، بيد أنّك تنفّس عن أفكارك - حتّى الآن - عن طريق غيرك، أعني بالترجمة، ألم تفكّر في اختيار الشكل الذي يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكّراً كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثمّ

تساءل:

- ماذا تعنين؟

- المقالة، الشعر، القصّة، المسرحيّة؟

- لا أدري، المقالة أوّل ما يتبادر إلى الخاطر...

فقلت بلهجة ذات معنى:

- نعم، ولكنّها لظروفنا السياسيّة، لم تعد مطلباً سريّاً، لذلك يضطرّ الأحرار إلى إذاعة آرائهم

صبري، وعام العذاب الذي صار فيه الحبّ الخائب حتّى صرعه، حين كان يصبح ويمسي وهو يلعن الحبّ من صميم قلبه حين تطاير في الهواء تاركاً في أعماق النفس آثاراً من الامتعاض والتمرد لا تزول. إنّها الآن في بيتها في المعادي تنتظر زوجاً ذا خمسين جنيهاً شهريّاً على الأقلّ، أمّا هذه الفتاة التي تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى؟...

وإذا بسوسن تلوح برزمة أوراق في وجهه وهي تقول برقة:

- تسمع!...

فنهض، ثمّ مضى إلى مكتبها بأسماً لبدأ عمله الجديد...

### ٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمرّ بالمجلّة إلّا يومياً في الأسبوع أو يومين إذ كان جلّ نشاطه موجّهاً للإعلانات والاشتراكات، كذلك إبراهيم رزق لم يمكث في السكرتارية أكثر من ساعة ثمّ يدور على بقية المجالات التي يعمل بها، فكان أكثر الوقت يمضي وهما منفردان. أحمد وسوسن. ومرّة جاء رئيس عمّال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه إلّا أن يسمعها وهي تدعو «أبي». وعلم بعد ذلك أنّ ثمة صلة قرى تربط الأستاذ عدلي كريم نفسه برئيس عمّال المطبعة. كان ذلك مفاجئاً ومثيراً، وراعه أكثر من سوسن مشابرتها على العمل، كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنّها كانت تعمل أكثر ممّا يستوجبه تحرير المجلّة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدت جادة حادة شديدة الذكاء، وشعر من أوّل الأمر بقوة شخصيّتها، حتّى كان يخيّل إليه بعض الأحيان - رغم عينيها السوداوين الجذّابتين وجسمها الأنثويّ اللطيف - أنّه حيال رجل قويّ الإرادة حسن التنظيم، ثمّ تأنّر بنشاطها فثابر على عمله بهمة لا تعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلّات العالم الثقافيّة، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن، وقد قال لها يوماً:

فقلت سوسن في حماس :

- هَذَا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك! . عندما يكون الإنسان متأثراً يركز اهتمامه في إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألم جداً فيجب أن نزيل الألم قبل كل شيء، ولنا بعد ذلك أن نلهو وتفلسف! ولكن تصوّر إنساناً يتفلسف لاهياً وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟!

أهذا خاله حقاً؟ لكن فليقرّ بأن كلامها يلقي تحجواً كاملاً في نفسه، وبأن عينيه جميلتان، وبأنها رغم غرابتها و«جذّبتها» جذابة... جذابة...  
- الواقع أنّ خالي لا يعير هذه الأمور التفاتاً جذياً، لقد حدّثته كثيراً عنها فوجدته إنساناً يدرس النازية كما يدرس الديمقراطية أو الشيوعية، ولكنّه لا هو بارد ولا هو حارّ، ولم أستطع أن أتبيّن موقفه...  
قالت باسمه:

- لا موقف له، إنّ موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنّهُ مثّل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تجلّده في حيرة أمام «المطلق»، وربما بلغت به الحيرة حدّ الألم، ولكنّه يمرّ سادراً بالمتألمين الحقيقيين في طريقه...  
فقال ضاحكاً:

- ليس خالي كذلك...  
- أنت أدري، كذلك قصص رياض قلّس ليست بالقصص المنشودة، إنّها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدّم عن ذلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشيراً  
ففكر أحمد قليلاً ثمّ قال:

- ولكنّه كثيراً ما يصف حال الكادحين من العمّال والفلاحين، ومعنى هذا أنّه يهب مسرح البطولة في أقاصيصه للطبقة الكادحة!

- ولكنّه يقتصر على الوصف والتحليل، إنّهُ لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية!...

يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجذّ فيها يبدو، ولكن أين المرأة؟!

- وكيف تريدته أن يكتب؟

- أقرأت شيئاً عن الأدب السوفييتي الحديث، بل

بالمشورات السريّة، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهي خطيرة، خاصّة وأنّ الأعين محمّلة فينا، أمّا القصة فذات جيّل لا حصر لها، إنّها فنّ ماهر، وقد غدت شكلاً أدبياً شائعاً سوف ينتزع الإمامة في عالم الأدب في وقت قصير، ألا ترى أنّه ما من كبير من شيوخ الأدب إلّا وهو يثبت وجوده في مجال نشاطها ولو بمؤلّف واحد؟

- نعم، قرأت أكثر هذه المؤلّفات، ألم تقرّني للأستاذ رياض قلّس الكاتب بمجلّة الفكر؟

- هذا واحد من كثيرين، وليس خيراًهم!

- ربّما، لقد لفتني إليه خالي الأستاذ كيال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلّة...

فقلت باسمه:

- هو خالك؟ قرأت له مرّات، ولكن...

- ؟...

- معذرة إنّهُ من الكتاب الذين يهيمون في تيه الميتافيزيقا!

فتساءل فيما يشبه القلق:

- ألم يعجبك؟

- الإعجاب شيء آخر، إنّهُ يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة: الروح... المطلق... نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنّه - فيما عدا المتعة الذهنيّة والترفّ الفكرى - لا يفضي إلى غاية، ينبغي أن تكون الكتابة وسيلة محدّدة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالإنسان في سلّم الرقيّ والتحرّر، الإنسانيّة في معركة متواصلة والكاتب الخلق بهذا الاسم حقاً يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أمّا وثبة الحياة فلنذعها لبرجسون وحده...

- ولكنّ كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفاً ناشئاً يهيم في تيه الميتافيزيقا.

- وانتهى بعلم الاجتماع العلميّ، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ.

لم يرتح أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كلّ شيء:

- الحقيقة جديرة دائماً بأن تعرف، مهما تكن، ومهما

يكن الرأي في آثارها...

أقرأت مكسيم جوركي؟

فصمت بأسماً، لا داعي للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثم إنها تكبره بسنوات، ترى ما عمرها؟ ربما كانت في الرابعة والعشرين أو أكثر. وعادت تقول:

- هذا ما ينبغي أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت...

- بكل سرور...

فابتسمت قائلة:

- ولكن الإنسان «الحر» لا يكفي أن يكون قارئاً أو كاتباً إن المبادئ تتعلق بالإرادة قبل كل شيء، الإرادة أولاً وقبل كل شيء.

مع ذلك رأها أنيقة، أجل ليس في وجهها زواقي، ولكن عنايتها بظهورها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحي مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلا من زاوية خاصة...

- إني مسرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل معاً كيد واحدة...

فقالت باسمه، وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شيء:

- هذا إطراء!

- إني مسرور بمعرفتك حقاً...

أجل إنه كذلك، ولكن ينبغي ألا يسيء فهم ما يفعل به صدره فلعله الاستجابة الطبيعية لمراهق مثله، واصطنع الحذر حتى لا ترمي بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادي، فإن الحزن لم يُخجَّ بعد من صفحة قلبي...

### ٣٥

- مساء الخير يا عمّي.

وتبع جلييلة إلى مجلسها المختار في الصالة، وما استقرّ بهما المجلس فوق الكنبه حتى نادى المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقيها وهي تعدّ الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت، وعند ذاك

التفتت جلييلة إلى كمال قائلة:

- يا ابن أخي، أقسم لك أنني لم أعد أشرب إلا معك، كل ليلة جمعة، كما كان يحلولي أن أشارب أباك في الزمن القديم، ولكن في ذلك الزمن أشارب الكثيرين أيضاً...

وقال كمال في نفسه: «ما أحوجني إلى الشراب، لا أدري ماذا كانت تكون الحياة بدونه!» ثم قال بحاورها:

- ولكن الويسكي اختفى يا عمّي، وكذلك كافة المشروبات النظيفة، ويقال إن الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خور عالمي حتى سالت الوديان بالويسكي الأصيل...

- يا روجي على غارة من هذا النوع! ولكن خبرني قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد؟

- لا تقدّم ولا تأخّر، يعز عليّ يا ستّ جلييلة مرقده، ربّنا يلفظ به...

- يا ما نفسي أزوره، ألا تجد الشجاعة فتبلّغه عني السلام؟

- يا خبر! لم يبق إلا هذا حتى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثم قالت:

- ألتحسب أنّ رجلاً مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة في إنسان خاصة إذا كان من صلبه؟

- ولو يا زين الستات!... صحتك...

- صحتك...، ربّما تأخّرت عطية إذ إنّ ابنها مريض...

فقال كمال في شيء من الاهتمام:

- في آخر مرة لم يكن بها شيء!...

- نعم ولكنّ ابنها مرض يوم السبت الماضي، روحها المسكينة في ابنها، وإذا مسّه سوء طارت أبراج عقلها...

- يا لها من امرأة طيبة عائرة الحظّ، طالما أقنعتني أحوالها بأنّها لا تمارس هذه الحياة إلا مضطّرة...

فقالت جلييلة باسمه أو ساخرة:

- إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هي بمهنتها؟

ومرّت الخادم بمجمرة تنفث بخوراً لطيفاً، وكان جو



- وهل تحسبني أشرب الآن؟ مضى ذلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا اثر، كالكهوة لا أكثر ولا أقل، في الزمان الأول سكرت مرة في فرح بيرجوان حتى اضطرر التخت أن يحملني إلى عربتي آخر الليل، ربنا يكفيك شرها!...

«لكنها خير من لا خير له»...

- وذروة النشوة هل عرفتتها؟ كنت أبلغها بكأسين، اليوم يلزمني ثمانية كئوس كي أبلغها، ولا أدري كم غداً، ولكنها ضرورية يا عمّتي، فعندها يرقص القلب المكلم طرباً...

- قلبك طروب يا بن أخي دون الحاجة إلى الخمر...

قلبه طروب! وهذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلف من محترق الآمال؟ لم يبق للملوك إلا الامتلاء بالخمر، في هذه الصالة أو في تلك الحجرة إذا جاءت التي تدأوي ابنها، هو وهي في موضع واحد من الحياة، حياة من لا حياة لهم.

- أحشى الآ نحيء عطية!...

- ستجنيء حتماً، أليس المرض في حاجة إلى النقود؟ يا له من جواب! بيد أنها لم تمكّنه من التفكير إذ مالت نحوه في اهتمام، ونظرت إليه ملياً، ثم قالت بصوت منخفض:

- لم يبق إلا أيام!...

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

- ربنا يطول عمرك ولا يحرمي منك!

فقالت باسمه:

- سأهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى في دهشة وهتف:

- ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

- لا تخف، ستذهب بك عطية إلى بيت آمن كهذا

البيت...

-!؟...

- ولكن ماذا حدث؟

- كبرت يا ابن أخي، وأغنائي الله فوق حاجتي،

وبالأمس ضُبط بيت قريب وسيقت صاحبتة إلى

الخريف يهفو رطبياً من نافذة في نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر، غير أن كلام جلييلة عن المهنة ذكره بأمر كاد ينساها فقال:

- كدت أنقل من مصر يا عمّتي، ولو وقع المحذور لكنت الآن أعدّ الحقائق للسفر إلى أسبوط!...

فضربت جلييلة صدرها بكفها وقالت:

- أسبوط يا بلح! أسبوط في عين عدوك، وماذا حصل؟

- سليمة والحمد لله!

- معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل...

فهزّ رأسه كالموافق دون تعليق. إنها ما زالت ترى أباه في حالة المجد القديم، لا تدري أنه - حين أخبره عما تقرر عن نقله - قال محزوناً أسفاً «لم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقائنا أين؟»، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوي لعله يعرف أحداً من كبار رجال المعارف ولكن القاضي الخطير قال له «إني أسف جداً يا كمال فأنا بصفتي قاضياً لا أستطيع أن أرجو أحداً». وأخيراً لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتعزّز بخجله، وفي نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شاب خطير! كلاهما موقوف في وزارة واحدة وفي درجة واحدة رغم أنه في الخامسة والثلاثين والشاب في الثانية والعشرين، ولكن كيف ينتظر من خوجة ابتدائي أفضل من هذا؟» ولم يعد من الممكن أن يتعزّى بالفلسفة أو يدعيها، فليس الفيلسوف من ردّد قول الفلاسفة، كالبيغاء، واليوم كلّ متخرج في كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمة أمل في أن يجمع ناشر مقالاته في كتاب، ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو في هذا الخضم لا شيء، وقد ملّ حتى طفح بالملل. فمتى يدرك قطاره محطة الموت؟. ونظر إلى الكأس في يد عمته، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه إلا الإعجاب بها، ثم تساءل:

- ماذا تجددين في الشراب يا عمّتي؟

فافتّر فوها عن أسنان ذهبية وهي تقول:

- ساعحك الله، هذا بيتك ما دام بيتي، وكل بيت  
أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخي...  
أئمة لعنة قديمة مجهولة قضي عليه بأن يكفر  
عنها؟! كيف المخرج من هذه الحيرة التي تغشى  
حياته؟. حتى جلييلة تفكر جادة في تغيير حياتها فلم لا  
يتخذ منها أسوة؟ لا بد للغريق من صخرة يلوذ بها أو  
فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها  
معنى؟!...  
- ربما كان من الخطأ أن نبحث في هذه الدنيا عن  
معنى بينما أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى...  
وحديثه جلييلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت  
إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جلييلة متسائلة:  
- سكرت بهذه السرعة؟  
فدارى ارتباكها بضحكة عالية، وقال:  
- خمر الحرب كالسم، لا تؤاخذيني، ترى متى تأتي  
عطية؟!

## ٣٦

غادر كمال بيت جلييلة عند منتصف الساعة الثانية  
صباحاً، كان كل شيء غارقاً في الظلام، وكان الظلام  
غارقاً في الصمت، وسار على مهل نحو السكة الجديدة  
ثم مال إلى الحسين. حتى متى يعيش في هذا الحى  
المقدس الذي لم يمت إليه بصلة؟. وابتسم ابتسامة  
فاترة، لم يكن بقي من الخمر إلا خمارها، أما الجسد  
فقد خمدت لواعجه، فنقل خطاه في إعياء وكسل.  
عادة في مثل هذه اللحظة الخاملة يصرخ شيء في  
أعماقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشداً التطهر،  
ملتصاً الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأن  
موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشّف كاملة. ورفع  
رأسه إلى السماء، كأنما ليستأنس بالنجوم فانطلقت في  
السكون صفارة الإنذار. ودق قلبه دقة عنيفة ثم  
حملت عيناه النائمات، ثم بدافع غريزي مال إلى  
أقرب جدار وسار بحذائه، ونظر إلى السماء مرة أخرى  
فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تلمس صفحاتها في  
سرعة شديدة، تلتقي أحياناً ثم تفرق في جنون.

القسم، حسبي، إنّي أفكر في التوبة، ينبغي أن أقابل  
ربّي على غير ما أنا عليه!  
أتى على بقية كأسه، وملاه كأنما لم يصدق ما  
سمعه:  
- لم يبق إلا أن تستقلّي السفينة إلى مكة!  
- ربّنا يقدرني على فعل الخير...  
وتساءل ولما يفق من دهشته:  
- أ جاء هذا كله فجأة؟!  
- كلا، إنّي لا أبوح بسرّاً إلا عند العمل، طالما  
فكرت في هذا من زمن...  
- جد؟!  
- كلّ الجد، ربّنا معنا!  
- لا أدري ماذا أقول، ولكن ربّنا يقدرك على فعل  
الخير.

- آمين...  
ثم ضاحكة:  
- ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى أطمئن  
على مستقبلك!...  
فضحك ضحكة عالية وقال:

- هيهات أن أجد بيتاً أرتاح فيه كهذا البيت!  
- لك عليّ أن أوصي بك البدرونة الجديدة ولو كنت  
في مكة!  
كل شيء يبدو مضحكاً ولكنّ الخمر ستظلّ قبله  
المحزون، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوي  
ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولكنّ الخمر ستظلّ  
بشاشة المكروب، ويوماً يحمل كمال رضوان على كتفه  
ليدّله ثم يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من  
عثرته ولكنّ الخمر ستظلّ نجدة الملهوف، وحتى الست  
جلييلة تفكر في التوبة في الوقت الذي يبحث هو عن  
ماخور جديد ولكنّ الخمر ستظلّ الماوى الأخير، ويملّ  
السقيم كل شيء حتى يملّ الملل ولكنّ الخمر ستظلّ  
مفتاح الفرج.

- يسعدني أن أسمع عنك دائماً ما يسرّ.

- الله يهديك ويسعدك...

- إذا كان وجودي يضايقك؟...

وسدّت فاه بأصبعها، وقالت:

لم يجب أبوه، وكان ملقياً بظهره في إعياء إلى جدار القبو بين الأمّ وعائشة، أما الأمّ فقالت:

- كمال؟. الحمد لله، شيء فطيع يا بني، ليست ككلّ مرّة، خيّل إلينا أنّ البيت سينقضّ فوق رؤوسنا، وربّنا شدّ حيل أليك فنهض وجاء بيننا، لا أدري كيف جاء ولا كيف جئنا. . .

وغمغمت أمّ حنفي:

- عنده الرحمة، ما هذا الهول؟!. ربّنا يلفظ بنا. . .

وفجأة هتفت عائشة:

- متى تسكت هذه المدافع؟!. .

وخيّل إلى كمال أنّ صوتها ينذر بانهباء عصبيّ فاقترب منها وأمسك بكفّهما بين يديه وكأنّه قد استردّ بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال من هم في حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق في غضبها الجنونيّ، غير أنّ وطأتها أخذت تخفّ بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

- كيف حالك يا أبي؟

فجاءه صوته وهو يهمس في خور:

- أين كنت يا كمال؟. أين كنت حين وقعت الغارة؟. . .

فقال يطمئنه:

- كنت على مقربة من القبو، كيف حالك؟

فأجاب بصوت متقطّع:

- الله أعلم. . . كيف غادرت فراشي وهرولت في الطريق؟. الله أعلم. . . لم أشعر بشيء. . . متى تعود الحال إلى الهدوء؟

- أأخلع لك جاكيتي لتجلس عليها؟

- كلّاً، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟. . .

- الغارة انتهت فيا يبدو، أمّا قيامك المفاجئ فلا تخفّه. إنّ المفاجآت كثيرًا ما تصنع المعجزات مع المرض. . .

وما كاد ينتهي من قوله حتّى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرّة أخرى وضجّ القبو بالصراخ:

وحثّ خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعورًا موحشًا بوحده كائن وجه الأرض قد خلا إلّا منه!.

وإذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجّت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته

عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات،

والتمع الجوّ بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيّل إليه أنّ الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا

يلوي على شيء صوب درب قرمز ملتصّبًا في قبوها التاريخيّ غيبًا. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنونيّ،

والقنابل تدكّ مراميها دكًا، والأرض تميد. وفي ثوانٍ من الفزع بلغ القبو، وكان يكتظّ بخلق كثيرين

تكاثفت بهم ظلمته، فاندسّ بينهم وهو يلهث. وكان جوه يسوده الرعب ويمتلئ بهمهمات الفزع في ظلام

دامس، أمّا مدخل القبو ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد

توقّف سقوط القنابل أو هذا ما خيّل إليهم، أمّا المدافع فلم يخفّ جنونها ولم يكن رجّعها في النفوس

دون رجوع القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات. . .

- ولهذا الحيّ القديم هل يتحمّل الغارات الجديدة؟!. .

- اعفونا من هذه الثثرة وقولوا يا ربّ!.

- كلّنا يقول يا ربّ! . . .

- اسكتوا. . . اسكتوا يرحمكم الله!.

وكان كمال يلاحظ الضوء الذي ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيّل إليه أنّه ملح هيئة

أبيه بينها، وخفق قلبه، أيكون حقًا أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبو؟ بل كيف استطاع

أن يغادر فراشه؟ وشقّ طريقًا إلى نهاية القبو مخترقًا الكتل البشريّة المضطربة، فتبيّن على التماح الضوء

أسرته جميعًا، أباه وأمه وعائشة وأمّ حنفي! وأنجبه نحوهم حتّى وقف بينهم وهو يهمس:

- أنا كمال! كلّكم بخير؟

الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضج المكان وما حوله  
بحركة ما لها من آخر. صفقات أبواب ونوافذ، هدير  
كلام عصبي، ثم تتابع انصراف المنحشرين في القبو،  
وقال كمال وهو يتنهد:  
- فلنعد...

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على  
كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة. وبدءوا يتساءلون  
عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه أثر مغامرته  
الخطيرة. غير أن الأب توقف عن المشي وهو يقول  
بصوت ضعيف:

- أشعر بأنني يجب أن أجلس...

فقال له كمال:

- دعني أحملك.

فقال في إعياء:

- لن تستطيع...

ولكن كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع  
الأخرى تحت ساقيه، ورفع. لم يكن حملًا خفيفًا  
ولكن ما بقي من أبيه كان على أي حال هينًا. وسار في  
بطء شديد، والآخرين يتبعونه مشفقين. وانتحبت  
عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب:

- لا داعي للفضيحة!

فكتمت فاهما بيدها، وكما بلغوا البيت عاوت أم  
حنفي في حمل السيد، فصعدا به السلم على مهل  
وحذر، وكان مستسلمًا ولكن مهمته الاستغفارية  
المتواصلة نمت عن حزنه وضيقه، حتى طرحاه بعناية  
على فراشه، وكما أضيء نور الحجرة بدا وجه الأب  
شديد الشحوب كأن الجهد قد استصفى دمه، وكان  
صدره يعلو وينخفض بعنف، فأغمض عينيه إعياء،  
ثم راح يتأوه، ولكنه غالب ألمه حتى استطاع أخيرًا أن  
يلوذ بالصمت. وكان الجميع يقفون صفاً بإزاء فراشه  
ويتطلعون إليه في وجل وإشفاق، وأخيرًا تساءلت أمينة  
بصوت متهدج:

- سيدي بخير؟

فتفتح عينيه، وجعل ينظر في الوجوه مليًا، وبدا  
لحظات كأنه لا يعرفها، ثم تنهد وقال بصوت لا يكاد  
يسمع:

- إنها فوق رءوسنا!

- وحّد الله...

- أسكتوا هذا الشؤم!

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدي أبيه بين يديه،  
وكان يفعل ذلك لأول مرة في حياته، وكانت يد  
الرجل ترتجفان، وكانت يد كمال ترتجفان كذلك، أما  
أم حنفي فقد انبطحت على الأرض وهي تولول. وعاد  
الصوت العصبي يصيح في هياج:  
- إياكم والصراخ، سأقتل الصراخ!...

وعلا الصراخ، وتلاحقت طلقات المدافع، واشتد  
توتر الأعصاب، في توقع زلازل جديدة، ولكن المدافع  
استمرت تنطلق وحدها، وظلّ توقع انفجارات جديدة  
يخنق الأرواح.

- انتهت القنابل!

- إنها تغيب ثم تنفجر...

- إنها بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من  
حولنا!

- بل سقطت في النحاسين!

- هكذا يخيّل إليك ولعلها في الأورنس!

- أنصتوا يا هوه، ألم تحفّ المدافع؟

بلى خفت طلقاتها، ثم لم تعد تُسمع إلّا من بعيد،  
ثم مقطعة ثم متباعدة، ثم بين الطلقة والأخرى دقيقة  
كاملة، ثم أناخ الصمت، وامتدّ، وطال وعمق، ثم  
انعقدت الألسن، حتى مضت تتعالى همسات الأمل  
الباكى، وأخذ كثيرون يتذكرون أشياء وأشياء، ويحيون  
من جديد، ويتنهدون في ارتياح حذر مشوب  
بالإشفاق، وعينًا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن  
عادت التفاعات الضوء الخاطف وخيم الظلام...

- أبي، ستعود الحال إلى الهدوء...

فلم يجب الرجل ولكنه حرك يديه بين يدي ابنه  
كأنما ليقنعه بأنّه ما زال حيًا...

- هل أنت بخير؟...

فحرك يديه مرة أخرى، وشعر كمال بحزن أوشك  
أن يهيج دموعه.

وانطلقت صفارة الأمان...

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح

- ولكنّ التعب قد أنهك قوى بابا...  
فقال ياسين:  
- ولكنّه سيسترّد صحّته بالنوم...  
- وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة  
أخرى؟!...  
ولم يُجِرْ أحد جواباً فساد صمت ثقيل حتّى قال  
أحمد:

- بيوتنا قديمة ولن تتحمّل الغارات...  
وعند ذاك أراد كمال أن يبّد سحب الكآبة المخيّمّة  
التي أرهقت أعصابه فقال منتزعا من شفتيه ابتسامة:  
- إذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفاً أنّ هدمها سيكون  
بأحدث أساليب العلم الحديث...

### ٣٧

أوصل كمال زوّار آخر الليل حتّى الباب الخارجيّ،  
«لم يكد يعود إلى باب السّلم حتّى ترامت إليه من فوق  
ضجّة مريّة، وكانت أعصابه ما تزال متوتّرة فداخلته  
كآبة وورقي السّلم وثبّا. وجد الصّالة خالية، وحجرة  
الأب مغلقة، وخليطاً من الأصوات يعلو خلف بابها  
المغلق، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثمّ دخل، وكان  
يتوقّع شراً أبى أن يفكر في كنهه. كان صوت الأمّ  
المبحوح يهتف «سيّدي»، وكانت عائشة تنادي بصوت  
غليظ «بابا» على حين تسمّرت أمّ حنفي عند رأس  
الفرّاش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام  
الحزين؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحاً على  
الفرّاش، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأمّ التي  
تربّعت وراء ظهره، وصدره يعلو وينخفض في حركة  
آليّة تنذّ عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا  
العالم، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا  
ترى ولا تعي ولا تملك أن تحجر عيناً يعتلج وراءها،  
فتسمّرت قدماه وراء شبّاك السرير، وانعقد لسانه،  
وتحجّرت عيناه، لم يجد شيئاً يقوله أو شيئاً يفعل،  
وعانى شعوراً قاهراً بالعجز المطلق، واليأس المطلق  
والتفاهة المطلقة وكأنّه فقد الوعي لولا إدراكه أنّ أباه  
يودّع الحياة. وردّدت عائشة بصراً زائناً بين وجه أبيها

- الحمد لله...  
- ثمّ يا سيّدي... ثمّ كي تستريح...  
وترامى إليهم رنين الجرس الخارجيّ فمضت أمّ  
حنفي لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال  
كمال:  
- لعلّ أحداً من السّكرية أو قصر الشوق قد جاء  
ليطمئنّ علينا.  
وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم  
وأحمد ثمّ تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش  
الأب وهم يحبّون الموجودين، فوجّه إليهم الرجل  
نظرات فاترة، وكأنّ الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده  
النحيلة تحيّة، وقصّ عليهم كمال في اقتضاب ما عاناه  
والده في ليلته المزعجة، ثمّ قالت أمينة همساً:  
- ليلة فظيعة ربّنا لا يعيدها...

وقالت أمّ حنفي:  
- الحركة أتعبته قليلاً ولكنّه سيسترّد بالراحة  
عافيته...  
ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:  
- ينبغي أن تنام، كيف حالك الآن؟  
فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم:  
- الحمد لله... أشعر بتعب في جنبي الأيسر...  
فسأله ياسين:  
- أأحضر لك الطبيب؟  
فأشار بيده في ضجر ثمّ همس:  
- كلّ خير لي أن أنام...

فأشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى  
الوراء قليلاً فرفع الرجل يده النحيلة مرّة أخرى.  
وغادروا الحجرة واحداً في إثر واحد فلم يبق فيها مع  
الرجل إلّا أمينة، ولما جمعتهم الصّالة سأل عبد المنعم  
خاله كمال:  
- ماذا فعلتم؟ أمّا نحن فقد هرعنا إلى المنظرة في  
الحوش.

وقال ياسين:  
- ونحن نزلنا إلى شقّة الدور الأرضيّ عند  
جيراننا...  
فقال كمال في قلق:

وجه كمال ثم هتفت:

- أبي، هذا كمال يريد أن يحدثك!

وخرجت أم حنفي عن غمغمتها المتصلة قائلة في نبرات ممزقة:

- أحضروا الطبيب!...

فأنت الأم في حزن غاضب:

- أي طبيب يا حمقاء؟!

ثم نذت عن الأب حركة كأنها يحاول الجلوس، وازداد صدره تشنجا واضطرابا، ومد سبابة يمينه ثم سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكثرت ذلك حتى سكنت يدها. وأدرك كمال أن أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتشهد نيابة عنه، وأن كنه هذه الساعة الأخيرة سيقى سرا إلى الأبد، وأن وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب، ولكنه على كل حال لا ينبغي أن تطول، إنها أجل وأخطر من أن تبتذل، أما أعصابه فقد انهارت حيالها، وخجل من نفسه إذ نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زادا لتأمله ومادة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟ أيهم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئا مجهولا؟ أينألم؟ أم يفزع؟... آه...

وشق الأب شهقة عميقة ثم ارتقى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعياق: «يا أبي... يا نعيمة... يا عثمان، يا محمد» فهرعت إليها أم حنفي ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج، ورفعت الأم وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم يتحرك، فهست في رأس:

- دعني أقم بواجبي الأخير نحو أبيك...

فتحول عن موقفه ومضى خارجا، وكانت عائشة مرتقية على الكنية وهي تعول، فمضى إلى الكنية المقابلة لها وجلس، أما أم حنفي فذهبت إلى الحجرة لتساعد سيدها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة مما يُحتمل فقام واقفا وراح يقطع الصالة ذهابا وإيابا دون

أن يوجه إليها خطابا، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة، وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة؟. وكان كلما جمع أفكاره ليتأمل تشنت وغلبه الانفعال. كان الأب - حتى بعد انزوائه - يملأ هذه الحياة، فلن يكون غريبا إذا وجد غذا البيت غير البيت الذي عهدته، والحياة غير الحياة التي ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعد نفسه لدور جديد. واشتد ضيقه بنحيب عائشة وهم مرة بأن يُسكتها ولكنه لم يفعل، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كل شيء. وعاد يفكر في اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصور هذا، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة الماثلة في خاطره، وهو في تمام أبعثته وقوته، فشر برئاء عميق للكائنات جميعا، ولكن متى يسكت نحيب عائشة؟... ألا تستطيع أن تبكي - مثله - بغير دموع؟!

وفتح باب الحجرة وخرجت منه أم حنفي، وترامى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم، فأدرك أنها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدمت أم حنفي من عائشة وقالت لها بصوت غليظ:

- كفاية بكاء يا سيدي...

ثم تحولت إليه قائلة:

- الفجر لاح يا سيدي، نم ولو قليلا فأمامك غد

عصيب...

ثم أفحمت في البكاء، ثم غادرت المكان وهي تقول في صوت بالك:

- سأذهب إلى السكرية وقصر الشوق لإبلاغ الخبر الأسود!...

\*\*\*

وجاء ياسين مهرولا تتبعه زنوبة ورضوان، ثم ترامى إليهم من الطريق الصامت صوت خديجة. وبوصول خديجة استعرت النار في البيت جميعا فاختلطت الصوات بالصراخ والبكاء. وتعدر على الرجال البقاء في الدور الأول فصعدوا إلى المكتبة في الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيم الصمت والوجوم حتى قال إبراهيم شوكت:

كان الأب في الساعة الخامسة اليوم في فراشه يتابع الراديو أما في نفس الساعة غداً... إلى جانب فهمي وابني ياسين الصغيرين، ترى ماذا تبقى من فهمي؟ لم يخفّف العمر من رغبته القديمة في التطلع إلى جوف القبر، ترى هل كان الأب حقاً يرغب في قول شيء كما تمهياً له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلاً:

- هل شهدت احتضاره؟

- نعم، عقب انصرافك مباشرة.

- تألم؟

- لا أدري، من يدري يا أخي؟ ولكنه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق...

تهنّد ياسين ثمّ تساءل:

- ألم يقل شيئاً؟

- كلا، والغالب أنه فقد النطق...

- ألم يتشّهّد؟

فقال كمال وهو يغضّ بصره ليداري تأثّره:

- قامت أمي بذلك نيابة عنه...

- ليرحمه الله...

- آمين...

وساد الصمت ملياً حتّى خرقه رضوان قائلاً:

- يجب أن يكون السرداق كبيراً ليتّسع للمعزّين...

فقال ياسين:

- طبعاً، أصدقاؤنا كثيرون... (ثمّ وهو ينظر نحو

عبد المنعم)... وهناك شعبة الإخوان المسلمين!...

ثمّ متنهّداً:

- لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على

اكتافهم!...

\*\*\*

ثمّ كانت الجنازة كما رسموا، وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عدداً، أمّا أصدقاء رضوان فكانوا أعلى مقاماً، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد والمجلات، وكان رضوان بهم مزهواً حتّى كاد يغطّي زهوه على حزنه. وشيّع أهل الحيّ «جار العمر» حتّى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، قضت عليه الغارة، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلاً ولا كلّ الرجال...

ولم يتالك ياسين نفسه فبكى، وعند ذاك انفجر كمال باكياً، فعاد إبراهيم شوكت يقول:

- وُحدوا الله، لقد ترككم رجالاً...

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلّعون إلى الرجلين الباكيين في حزن ووجوم وشيء من الدهش.

وسرعان ما جفّف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت، فقال إبراهيم شوكت:

- الصباح قريب، فلنفكّر فيما يجب عمله...

فقال ياسين في اقتضاب حزين:

- لا جديد في الأمر فقد جرّبناه مرّات...

فقال إبراهيم شوكت:

- يجب أن تكون الجنازة جدية بمقامه...

فقال ياسين بتوكيد:

- هذا أقلّ ما يجب!

وهنا قال رضوان:

- الشارع أمام البيت ضيّق لا يتّسع للسرداق

المناسب فلنقم سرداق العزاء في ميدان بيت

القاضي...

فقال إبراهيم شوكت:

- ولكنّ العادة جرت بأن يقام سرداق العزاء أمام

بيت المتوفّى!...

فقال رضوان:

- ليس هذا بالمكان الأوّل من الأهميّة خاصّة وأنّه

سيؤمّ السرداق وزراء وشيوخ ونواب!

وأدرك المستمعون أنّه يشير إلى معارفه هو فقال

ياسين دون مبالاة:

- نقيمه هناك...

وكان أحمد يفكّر في الدور المنوط به فقال:

- لن نتمكن من نشر النعيّ في جرائد الصباح...

فقال كمال:

- جرائد المساء تصدر حوالى الساعة الثالثة بعد

الظهر فلنجعل ميعاد الجنازة في الساعة الخامسة...

- لكن، القرافة قريبة على أيّ حال...

وتأمّل كمال مجرى الحديث في شيء من العجب.

الذي تدور حوله فكيف أطبقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أوّل من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة... ما حيلني ما داموا لا يدخلونها حتّى تتعلّق أبصارهم بمكانه الخالي ويجهشون بالبكاء... وسيدي يستحقّ الدموع التي تسيل من أجله، ولكنّي لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضّة فأعزّيم بما تعزّيني به أمّ حنفي وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أخليت الحجرة من أثائها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكيلا تُهجر الحجرة وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانتقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجرمة نتحدّث كثيرًا ونقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شيء كما يشغلنا الإعداد للقرافة وأشرف بنفسي على تجهيز الرحمة فلعلّه الواجب الأوحّد الذي لم اتخلّ عنه لأنّ حنفي كما تخلّيت لها عن كلّ شيء، تلك المرأة العزيزة الوفيّة التي دخلت بجدارة في صميم أسرنا، فنحن نعدّ الرحمة معًا ونبكي معًا ونذكّر الأيام الجميلة معًا فهي دائماً معي بروحها وذاكرتها، وأمس جرّ الحديث إلى ذكر ليالي رمضان فبادرت تحدّث عن سيرة سيدي في رمضان منذ ساعة استيقاظه في الضحى حتّى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدوري كيف كنت أهرع إلى المشرّبة لأرى الخنطور الذي يعيده وأستمع إلى ضحكات راكميه أولئك الذين ذهبوا تباطاً إلى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهمّ معّ الأبناء بطول العمر وقرّ أعينهم بأفراح الحياة، وهذا الصباح رأيت قطننا تشمّ الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التي أهديناها إلى الجيران فقطّع قلبي منظرها الحائر الحزين وهتفت من أعماق قلبي الله يصبرك يا عائشة... عائشة المسكينة التي هاج موت أبيها حزنها فهي تبكي أباه وابنتها وابنها وزوجها فما أحرّ الدموع وأنا التي تجرّعت مرارة الشكل قديماً حتّى سال قلبي دماً واليوم أفجع ب وفاة سيدي وتخلو حياتي منه وكان ملء حياتي جميعاً ولا يبقى لي من الواجبات إلّا أن أعدّ له الرحمة أو أتلقّاها من السكّرية وقصر الشوق فهذا كلّ ما بقي لي، كلّاً يا بنيّ، اختر لنفسك هذه الأيام مجلساً غير مجلسنا الحزين حتّى لا تسري إليك عدواه... لماذا

التعارف الشخصي، فلم تكذّ الجنّازة تخلو إلّا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة. وعند باب النصر ظهر الشيخ متولّي عبد الصمد في الطريق، وكان يترنّح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيّق عينيه ثمّ سال:

- من هذا؟

فأجابه رجل من أهل الحيّ:

- المرحوم السيّد أحمد عبد الجواد!

فجعل وجه الرجل يهتزّ يميناً ويسرة في ارتعاش، وملاحظته تتساءل في حيرة، ثمّ إذا به يسأل:

- من أين؟...

فأجابه الرجل وهو يهزّ رأسه في شيء من الحزن:

- من هذا الحيّ، كيف لا تعرفه! ألا تذكر السيّد

أحمد عبد الجواد؟...

ولكن لم يبد عليه أنّه تذكّر شيئاً، وألقى نظرة أخيرة على النعش ثمّ سار في سبيله...

### ٣٨

خلال البيت من سيدي فليس هو البيت الذي عاشته أكثر من خمسين عاماً، والجميع يكون حولي، وخديجة لا تفارقني فهي قلبي العامر بالحزن والذكريات وهي قلب كلّ قلب بل هي ابنتي وأختي وأمي أحياناً، وأكثر بكائي خلسة حين أدخل إلى نفسي إذ ينبغي أن أشجّعهم على النسيان فما يهون عليّ أن يحزنوا أو- لا قدر الله- أن ينال منهم الحزن أيّ منال. أمّا إذا خلوت إلى نفسي فلا أجد عزاء إلّا في البكاء فأبكي حتّى تحفّ دموعي، وأقول لأنّ حنفي إذا تسلّلت إلى وحدتي الباكّة دعيني وشأني يرحمك الله. فنقول لي كيف أتركك وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك... ولكنك ست مؤمنة بل أنت ستّ المؤمنات فعندك تتعلّم العزاء والتسليم لقضاء الله... قول جميل يا أمّ حنفي ولكن أنّى للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل وكلّ ساعة من ساعات يومي مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدي... لم أعرف الحياة إلّا وهو محورها



الملابس إلى سعاة ديوانه وفراشي مدرسة كمال فليس أحقّ بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة في مقرّه الأخير، أمّا المسحاة العزيزة فلن تفارق يدي حتّى أفارق الحياة، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه الشهيد الغالي، ومنذ ذلك الوقت وأنا اعتبره حجرة من بيتنا لكنّها في أطراف حيّنا، ويجمعنا القبر جميعًا كما كان يجمعنا مجلس القهوة في الزمن الحالي، وتنوح خديجة حتّى ينال منها الإعياء ثمّ نؤمر بالسكوت تأدّبًا لاستماع القرآن، ثمّ يشغلهم الحديث حيّنا فأسرّ بما يصرف أعزّائي عن الحزن، ويشتبك رضوان وعبد المنعم وأحمد في نقاش طويل وتنضمّ إليهم كريمة أحيانًا فذاك ما يغري كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة المقام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقصّ ياسين القصص فتنبعث الحياة في الأيام القديمة ويعود غائب الذكريات ويخفق قلبي فلا أدري كيف أدري دموعي، وكثيرًا ما أرى كمال واجمًا فأسأله عمّا به فيقول لي إنّ صورته لا تفارقني خاصّة منظر الاحتضار فلو كانت نهايته أخفّ! فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كلّ. فسأله كيف يكون النسيان؟ فقلت له بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه في مطلع حياتي ولكنّه تكشّف لي في عهده الأخير عن إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أظرفه وأرقّه وألطفه، لم يكن في الرجال مثله. وياسين يبكي كلّما أهاجته الذكرى... كمال حزنه في صمته الواجم أمّا ياسين الضخم فيبكي كالأطفال ويقول لي إنّ الرجل الوحيد الذي أحببته في حياتي، أجل كان أباه وكان أمّه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية إلّا في كنفه حتّى شيدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عني وردّني إلى بيته فصدّق فراسة أمّي رحمها الله التي ما انفكت تقول لي إنّ السيّد ليس بالرجل الذي يقطع أمّ أولاده، وكان يجمعنا حبّه فالיום تجمعنّا ذكراه، أمّا بيتنا فلا يخلو من الزوّار غير أنّ قلبي لا يسكن حتّى أجد خديجة وياسين وأهلها حوالي... حتّى زوّية فما أصدق حزنها، وقالت لي كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدّي تعالي عندنا فهذه أيّام مولد الحسين وتحت بيتنا تقام

أنت واجم؟ الحزن لم يُخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعباء والأحزان معًا... اصعد إلى حجرتك وتسلّ بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى أصحابك فاسهر، ومن بدء الخليقة فالأعزّاء يفارقون ذويمهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقي على ظهر الأرض حيّ... لست حزينة كما تتوهم وما ينبغي لمؤمن أن يحزن، وسوف نعيش إذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذي سبق إلّا حين يشاء الله، هكذا أقول له ولا ألو أن أتكلّف ما ليس بي من الصبر والتجلّد إلّا إذا هلّت خديجة قلب بيتنا الحيّ وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش في البكاء، وقالت لي عائشة إنّها رأت أباه في المنام قابضًا على ساعد نعيمة بيد وعلى ساعد محمّد بيد حاملًا عشان على كتفه وقال لها إنّه بخير وإتهم بخير فسألته عن سرّ النافذة التي نورّت لها في السماء ثمّ توارت إلى الأبد فتجلّت في عينيه نظرة عتاب ولم ينس. ثمّ سألتني عن معنى الحلم. يا حيرة أملك يا عائشة... غير أنّي قلت لها إنّ العزيز مات وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها في الحلم وجاءها بأولادها من الجنة لتقرّ برؤيتهم عينا فلا تنغصّي عليهم صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان الأوّل تعود ولو ساعة، ليت الذين حولي يبرءون من حزنهم حتّى لا يشغلني شاغل عن واجب الحزن العميق، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما: هذه المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين: آخذ الخاتم فإنّه على قد أصبغني، ولك الساعة يا كمال أمّا السبحة فلك أنت يا نينة... والجيب والقفاطين؟... وذكرت من توي الشيخ متوّلّي عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين: لقد انتهى الرجل فهو في غيبوبة ولا يُعرف له مقرّ، وقال كمال مقطّبًا: لم يعرف أبي!... نسي اسمه وتوّلّي عن الجنّازة دون اكتراث. فانزعجت وأنا أقول: يا للعجب متى حدث هذا؟ كان سيّدي يسأل عنه حتّى أيّامه الأخيرة وكان دائمًا يحبه ولم يره إلّا مرّة أو مرّتين مدّ زار بيتنا ليلة دخله نعيمة، ولكن ربّاه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كلّ؟ ثمّ اقترح ياسين أن تهدي

دلّت على أنّه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذي تطوّره وحدجته بنظرة غريبة غير مصدّقة ثم نظرت إلى زوجها وهي تتساءل:

- ماذا قال؟

فعاد عبد المنعم يقول:

- سأترّكل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك...

فبسطت خديجة يديها في حيرة وقالت:

- هل أفلست الدنيا من الذوق؟ أهذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتّى مع صرف النظر عن المخطوبة؟!

فقال عبد المنعم بأساً:

- كلّ الأوقات مناسبة للخطبة...

فهزّت رأسها في حيرة وهي تتساءل:

- وجدّك؟! ... (ثمّ وهي تردّد عينيها بين أحمد وإبراهيم)...

هل سمعتم عن شيء كهذا من قبل؟

فقال عبد المنعم في شيء من الحدة:

- خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة جدّي أربعة أشهر كاملة...

وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

- كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنّها فيما اعتقد...

فقال عبد المنعم:

- هي في الخامسة عشرة ولن يُكتب الكتاب قبل عام...

فقال خديجة في تهكّم ومرارة:

- هل أطلعتك زُتوبة هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أمّا عبد المنعم فقال جاداً:

- لن يتمّ شيء قبل عام، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدّي حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سنّ الزواج...

- ولماذا توجع دماغنا الآن؟

- لأنّه لا بأس من إعلان الخطبة في الوقت الحاضر.

فتساءلت خديجة في سخرية:

- وهل تحمّض الخطبة إذا أُجلّت عامًا؟

- أرجوك... أرجوك أن تكفّي عن المزاح...

الأذكار وأنت تحيّن ذلك، فقبّلتها شاكرة وقلت لها: يا بنيّتي جدّتك لم تعدد البيات خارج بيتها... إنّها لا تدري شيئاً عن آداب بيت جدّها في تلك الأيام التي خلّت. ما أجمل ذكراها والمشريّة آخر حدود دنيائي حيث أنتظر عودة سيّدي آخر الليل وهو من قوّته يكاد يهّد الأرض عند مغادرته للحنطور ثمّ يملأ الحجرة بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أمّا اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورقّ جسمه وخفّت وزنه حتّى تحل بيد واحدة. يا حزني الذي لن يذهب! وقالت عائشة في غضب إنّ هؤلاء الأحفاد لم يحزنوا على جدّهم، إنّهم لا يحزنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنّهم صغار ومن رحمة الله بهم ألا يغرقوا في الحزن، فقالت: انظري إلى عبد المنعم لا ينتهي نقاشه، وهو لم يحزن على ابنتي وسرعان ما نسيها كأنّها شيء لم يكن. فقلت لها: بل حزن عليها طويلاً وبكى كثيراً وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأمّ غير القلوب جميعاً، ومنذا الذي لا ينسى يا عائشة، ونحن ألا ننسى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحياناً وسوف يأتي يوم لا يكون فيه دموعي، ثمّ أين فهمي أين؟. وقالت لي أمّ حنفي: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسي فاترة عن كلّ شيء أحببته وسأزور سيّدي عندما يبرأ الجرح. فقالت لي: وهل يبرأ الجرح إلّا بزيارة سيّدك؟ هكذا ترعاني أمّ حنفي وهي ربّة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنّك يا ربّي ربّ الجميع أنت القاضي ولا رادّ لقضائك ولك أصليّ، وددت لو أبقيت على سيّدي قوّته حتّى النهاية فما ألمني شيء كما ألمني رقاد، هو الذي كانت الدنيا تضيق عن مراحه... حتّى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمّولاً على الأيدي كالطفل لذلك تسيل دموعي ويتكاثف حزني...

- سأترّكل على الله وأخطب كريمة بنت خالي...

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه في شيء من الدهش، أمّا أحمد فأحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة

الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك  
تقع كالجرذل!

فردد عبد المنعم عينيه غاضباً بين أبيه وأخيه ثم  
تساءل:

- أهذا الكلام يليق بنا؟ أسمعاني رأيكما!...

فقال إبراهيم شوكت مثائباً:

- لا داعي لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن  
اليوم أو غداً، وأنت تودّين هذا، وكريمة ابنتنا، وهي  
بنت جميلة ولطيفة، لا داعي للشوشرة...

وقال أحمد:

- أنت يا نينة أول من يودّ إرضاء خالي ياسين!

فقال خديجة محتدة:

- كلّكم ضدي كالعادة، ولا حاجة لكم إلّا خالي  
ياسين، ياسين أخي، وكان خطؤه الأول أنّه لم يعرف  
كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج  
الغريب!...

فتساءل عبد المنعم في عجب:

- أليست امرأة خالي صديقك؟! من يراكها وأنتما  
تتناجيان يظنّكما شقيقتين!...

- ما حيلتي في امرأة سياسية مثل النبي؟ لكن لو  
ترك لي الأمر أو لو لم أزع خاطر ياسين ما سمحت لها  
بدخول بيتي، وماذا كانت النتيجة؟... أكلت مخك

بالولائم المغرصة، وعليه العوض؟

عند ذاك قال أحمد مخاطباً أخاه:

- اخطبها وقتها تشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولكنّ  
قلبها طيّب...

فضحكت ضحكة عصبية وقالت:

- عفارم يا ولد! تختلفان في كلّ شيء... في الدين  
والملة والسياسة، أمّا عليّ فتتحدّان!...

فقال أحمد في مرج:

- خالي ياسين أغلّ الناس عندك، وسوف ترخّين  
بكريمته كأحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنّك  
تودّين عروساً غريبة حتى تتمكّني - كحياة - من  
اضطهادها، حسن، عليّ أنا أن أحقق لك هذا الأمل،  
سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفي غليلك!

فصاحت خديجة:

- لو وقع هذا لكان فضيحة.

فقال عبد المنعم في هدوء ما استطاع:

- دعي جدتي لي، ستفهمني خيراً منك، إنّها جدتي  
وجدة كريمة على السواء.

فقال بخشونة:

- ليست جدّة لكريمة...

فسكت عبد المنعم وقد تجهّم وجهه فبادره أبوه  
قائلاً:

- المسألة مسألة ذوق فيحسن أن تنتظر قليلاً...

فهتفت خديجة حانقة:

- يعني أنّه لا اعتراض لك إلّا على الوقت؟

فتساءل عبد المنعم متغابياً:

- هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال  
فاستطرد عبد المنعم قائلاً:

- كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة:

- هي ابنة أخي حقاً ولكن كان ينبغي أن تذكر أمّها  
أيضاً!

وتبادلوا النظرات في إشفاق، ثم اندفع عبد المنعم  
قائلاً في حدة:

- أمّها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوتها وهي تقول:

- أعلم هذا، وهو ممّا يؤسف له!

- ذلك الماضي المنسي! من يذكره الآن؟! لم تعد إلّا

سيّدة محترمة مثلك!

فقال بصوت غليظ:

- ليست مثلي ولن تكون مثلي أبداً!

- ماذا يعيبيها؟! عرفناها منذ صغرنا سيّدة محترمة

بكلّ معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام عيت  
صفحة سوابقه فلا يذكره بها بعد ذلك إلّا...

وأمسك، فقالت وهي تهزّ رأسها في أسف:

- نعم؟ صفتي! سبّ أمك إكراماً لهذه المرأة التي  
عرفت كيف تاكل مخك، طالما تساءلت عني وراء

- لا عجب إن جئتني غداً براقصة! علامَ تضحكون؟! هذا شيخ الإسلام سيصاهر عالة فماذا أتوقع منك أنت المتهم في دينه والعياذ بالله؟! نحن في حاجة إلى راقصة بالفعل! وإذا بخديجة تقول وكأنما تذكرت أمراً خطيراً: وعائشة يا ربّي ترى ماذا تقول عنا؟! فقال عبد المنعم محتجاً: ماذا تقول؟ لقد توقّعت زوجتي منذ أربع سنوات كاملة فهل تودّ أن أبقي أرمل مدى العمر؟ فقال إبراهيم شوكت في ضجر: لا تخلّقوا من الحبّة قبة، المسألة أبسط من هذا كلّها، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة، حسينا هذا. أف. كلّ شيء عندكم نقار حتى الأفراح؟! واختلس أحد من أمّه نظرة باسمه، وجعل يراقبها حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول لنفسه: هذه الطبقة البورجوازية كلّها عقّد، تحتاج إلى محلّل نفسانيّ بارع ليشفّيها من كافّة عللها، محلّل له قوّة التاريخ نفسه! لو هادني الحظّ لسبقت أخي إلى الزواج ولكنّ البورجوازية الأخرى اشتربت مرتباً لا يقلّ عن خمسين جنيتها، هكذا تُجرّح قلوب لأمور لا شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأي سوسن حماد لو علمت بمغامرتي الفاشلة؟! علمت بمغامرتي الفاشلة!؟

وكان إسماعيل لطيف يقول: أنا في إجازة للاستعداد ومن ثمّ أسافر... فتساءل كمال في أسف: ستغيب عنا ثلاثة أعوام؟ - نعم، لا بدّ من المغامرة، مرتّب ضخّم لا أنخيل أن أناله يوماً هنا، ثمّ إنّ العراق بلد عربيّ لا يختلف عن مصر كثيراً... سيخلّف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنّه صديق العمر، وتساءل رياض قلّدت ضاحكاً: ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟ فسأله كمال: أتسافر إذا سنحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟ - لو حدثت في الماضي ما تردّدت أمّا اليوم فلا... وما الفرق بين الماضي والحاضر؟ فقال رياض قلّدت ضاحكاً: بالنسبة لك لا شيء، أمّا بالنسبة لي فهو كلّ شيء، الظاهر أنّي سأنضمّ قريباً إلى جماعة المتزوّجين! دهش كمال للخبر الذي وقع عليه دون تمهيد وقد ساوره قلق لم يدرك كنهه: - حقّاً؟! لم تُثير إلى ذلك من قبل! - بلى، جاء بغتة، في آخر مقابلة، في آخر مقابلة بيننا لم يكن في البال شيء! ضحك إسماعيل لطيف في ظفر، أمّا كمال فتساءل وهو يحاول أن يتسم: كيف؟

## ٤٠

كان الجوّ شديد البرودة، ولم يكن خان الخليلي الرطب ممّا يؤثّر شتاء، ولكنّ رياض قلّدت نفسه الذي أشار ذلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الخليلي التي شيّدت مكان قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو كما قال: «علّمني كمال عليّ آخر الزمن أن أكون من غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على حيّ الحسين، ثمّ تمتدّ طولاً في شبه ممّر تصفّ على جانبيه الموائد وينتهي بشرفة خشبيّة تطلّ على خان الخليلي الجديّد. جلس الأصدقاء في جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاي ويدخّنون نارجيلة بالمناوّة.

- كيف؟! كما يحدث كلّ يوم، مدرّسة جاءت لزيارة أخيها في إدارة الترجمة فأعجبني، فجسست النبض فوجدت من يقول: «تفضّل»... تساءل إسماعيل ضاحكاً وهو يتناول خرطوم النارجيلة من كمال: ترى متى يحبس هذا (مشيراً إلى كمال) النبض؟ هكذا إسماعيل لا يفوت فرصة أبداً لإثارة هذا الموضوع المعاد، ولكنّ ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع الأصدقاء المتزوّجين يقولون إنّ الزواج «زنزانة»، فمن المحتمل جدّاً ألا يرى رياض - إذا تزوّج - إلا في القليل النادر، وربّما تغيّر وتبدّل فيصبح صديقاً

- دعونا من حديث الزواج، لقد انتهت منه وعقبى لك، على أن ثمة أحداثاً سياسية هامة هي التي ينبغي أن تستأثر اليوم باهتمامنا.

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس، أما إسماعيل لطيف فقال ضاحكاً:

- عرف النحاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فافتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية! وترث رياض قليلاً ليعطي كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض في لهجة متجهمّة: - انتقام! إن خيالك يصوّر لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة...

- فما الحقيقة؟

والقى رياض نظرة على كمال كأنما يحثّه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلاً:

- ليس النحاس بالرجل الذي يتأمر مع الإنجليز في سبيل العودة إلى الحكم، إن أحد ماهر مجنون، هو الذي خان الشعب وانضمّ إلى الملك، ثم أراد أن يغطّي مركزه المضطرب بتصريحه الأحمق الذي أعلنه أمام الصحفيين!

ثم نظر إلى كمال مستطعماً رأيه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيراً بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة في معارضة رياض ولو بعض الشيء فقال:

- لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك في وطنيته مطلقاً، إن الإنسان لا يتقلب في هذه السنّ إلى خائن ليتولى وظيفة تولّاها خمس مرّات أو سناً من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالي؟...

- أنت شكّك لا نهاية لشكّك، ما الموقف المثالي؟ - أن يصّر على رفض الوزارة حتّى لا يخضع للإنذار البريطاني وليكن ما يكون.

- ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكري بريطاني؟

- ولوا...

تنهّد رياض في غيظ وقال:

- نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أما السياسي

بالمراسل، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولكن كيف تمضي الحياة بدونه؟ وإذا جعل الزواج منه شخصاً جديداً كإسماعيل فسلام على كافة مسرّات الحياة! وسأله:

- ومتى تتزوّج؟

- في الشتاء القادم على أبعد الفروض.

كأنما قضي عليه أن يفقد دواً صديقاً لروحه المعبّدة:

- عند ذاك ستكون رياض قلندس آخر!

- له!... أنت وأهم جداً...

فقال وهو يداري قلقة بابتسامة:

- وأهم! رياض اليوم شخص لا يُشبع روحه شيء ويقنع جيبه بلا شيء، أما الزوج فلن يشبع جيبه أبداً ولن يجد فرصة لمتاع الروح...

- يا له من تعريف جارح للزوج! ولكنّي لا أوافقك عليه...

- كإسماعيل الذي اضطرّ إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا، فهو طبيعي فوق أنه بطولة، ولكنّه في الوقت نفسه بشع، تصوّر أن تغرق حتّى قمّة رأسك في هموم الحياة اليومية، ألا تفكر إلّا في مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملايم، أن تسمي شاعرية الحياة ضياع وقت!

فقال رياض في استهانة:

- أوهام مبعثها الخوف!

وقال إسماعيل لطيف:

- آه لو تعرف الزواج والأبوة! لقد فاتك حتّى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة...

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه، ولو صحّ هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق؟ غير أن الذي يكرهه الآن أنّه بات مهتداً بالوحدة المرعبة مرّة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض! هذا ما يروم حقاً، جسم عطية وروح رياض في شخص واحد يتزوّجه فلا يتهذّب الشعور بالوحدة حتّى الموت، هذه هي المشكلة، وإذا برياض يقول في ضجر:

فأمامه مسئولية خطيرة، في هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكري إنجليزي؟ وإذا انتصر الحلفاء - ويجب أن نفترض هذا أيضًا - فنكون في صفوف الأعداء المهزمن، السياسة ليست مثالية شرعية ولكنها واقعية حكيمة...

- لا زلت أومن بالنحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تأمر أو خان...

- المسئولية تقع على العائنين الذين مالوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأن الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف يقضي علينا باحترام كلمتنا؟ ثم السن الديمقراطيةين يهنا أن تنتصر الديمقراطية على النازية التي تضعا في جدول الأمم والأجناس في أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية؟...

- معك في هذا كله، ولكن الخضوع للإنذار البريطاني جعل من استقلالنا هماً...

- احتجّ الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رأيه...

فضحك إسماعيل عاليًا ثم قال:

- يا عيني على الاحتجاج الأنجلو أجيشيان!...

غير أنه سرعان ما قال جادًا:

- إني أقره على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغليته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففي سبيل أي شيء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكري إنجليزي؟!

وازداد وجه رياض تجهًا، أما كمال فابتسم قائلاً في هدوء بدا غريبًا:

- أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثم إن العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير!...

إسماعيل هانثًا وهو يصفق طالبًا جرات للنارجيلة: - إذا ذكر الإنجليز صنيعه! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقبلونه قبل ذلك!

فقال رياض بإيمان:

- الرجل تقدّم لحمل أكبر مسئولية في أخرج الظروف...

فقال كمال بأسًا:

- كما ستتقدّم لحمل أكبر مسئولية في حياتك!... فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إذناكم» ومضى في اتجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يبتسم:

- في الأسبوع الماضي زار والدتي «جماعة» لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطلمًا وهو يتساءل:

- من؟...

فقال الآخر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

- عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقعًا غريبًا، فغطت غرابة موقعه على كافة الانفعالات التي كان حريًا بأن يثيرها، وبدا حينًا كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكل شيء كان متوقعًا إلا هذا، ومضت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أي عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستة عشر عامًا أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومين بالإخفاق! لقد طعن في السن حقًا، عايدة! ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شيء! ليس إلا اهتمامًا عاطفيًا مشوبًا بشيء من الانفعال كمن تمسّ يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتمتم متسائلًا:

- عايدة؟!

- نعم، عايدة شذاد ألا تذكرها؟ أخت حسين شذاد!...

وشعر بمضايقة تحت عيني إسماعيل فقال متهربًا:

- حسين! ترى ما أخبار حسين؟

- من يدري؟

وشعر بسخف تهربه، ولكن ما حيلته وقد أحسّ بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحبّ على مثال غريب بعض الشيء... كالطعام!

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع  
إسمايل حديثه ولكنه واصله قائلاً:

- وسألوا عنك!

ردّ رياض نظره بينهما فأدرك أنّ حديثاً خاصاً يدور  
بينهما فعدل عنها إلى النارجيلة، أمّا كمال فقد شعر بأنّ  
جملة «سألوا عنك» توشك أن تودي بقوة مناعته كأشدّ  
الميكروبات فتكاً، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من  
قوة ليبدو طبيعياً:

- لماذا؟

- سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثمّ  
سألوا عنك فقلت مدرّس بمدرسة السلحدار وفيلسوف  
كبير ينشر مقالات لا أفهمها في مجلّة الفكر التي لا  
أفتحها فضحكوا ثمّ سألوا «هل تزوج؟» فقلت  
كلّاً...

فوجد نفسه يسأل:

- ماذا قالوا؟

- لا أذكر ماذا حوّلنا عن هذا الحديث؟

إنّ المرض الكامن يهدّد بالانفجار، والذي مرض  
قديماً بالسّل يجب أن يحذر البرد، أمّا جملة سألوا عنك  
فما أشبهها بأنغام الصبا في بساطة معناها وشديد نفاذها  
في النفس، وقد يطراّ ظرف تتعبّر النفس حال عاطفيّة  
مندثرة بكامل قوتها الماضية ثمّ تنقطع... كالسطر في  
غير أوانه، على ذلك شعر في هذه اللحظة العابرة بأنّه  
انقلب ذلك العاشق القديم، وأنّه يعاني الحبّ حياً  
بكافّة أنفاسه الساوّة والحزينة، ولكنّ الخطر لم يكن  
يتهدّد بصفة جدّيّة فهو كالحالم المكروب الذي يداخله  
شعور ملطّف بأنّ ما يراه حلم لا حقيقة، لكنّه تمخّ في  
تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو  
لبضع دقائق فتعترف له بأنّها بادلتها عاطفته يوماً أو  
بعض يوم وأنّ فارق السنّ أو غيره هو الذي فرّق  
بينها! لو وقعت هذه المعجزة لعزّته عن كآفة آلامه  
قديمها وحديثها ولعدّ نفسه سعيداً في الخلق وأنّ الحياة  
لم تمضِ عبثاً، بيد أنّها صحوة كاذبة كصحوة الموت،  
والأحرى به أن يقنع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى  
على هزيمة، وليكن عزّاه أنّه ليس الوحيد في البرّ الذي  
مُنّي بخيبة الحياة، وتساءل:

تشعر به بقوة وهو على المائدة، ثمّ وهو في المعدة، ثمّ  
وهو في الأمعاء على نحو ما، ثمّ وهو في الدم على نحو  
آخر، حتّى يستحيل خلّايا ثمّ تتجدّد الخلّيا بمرور  
الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربّما بقي منه صدى في  
الأعناق هو ما نسمّيه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان  
«صوت» قديم فيدفع بهذا النسيان إلى قريب من  
منطقة الوعي فيسمع الصدى على وجه ما، وإلا فما  
هذا الاضطراب؟ أم لعلّه الحنين إلى عايده لا باعتبارها  
المحبوبة التي كانت - فقد انتهى هذا إلى غير رجعة -  
ولكن باعتبارها رمزاً للحبّ الذي كان كثيراً ما  
يستوحش غيبته الطويلة، مجرّد رمز كالخربة المهجورة  
التي تثير ذكريات تاريخيّة جليّة.

وعاد إسمايل يقول:

- وتحادثنا طويلاً - أنا وعايده وأمي وزوجي - فروت  
لنا كيف هربت هي وزوجها بل وجميع ممثلي الدول  
السياسيّين أمام الجيوش الألمانية حتّى لاذا بأسبانيا،  
وأثّها نُقلّا أخيراً إلى إيران؛ ثمّ رجعنا إلى أيّام زمان  
وضحكنا كثيراً...

مهما يكن من أمر الحبّ الذي مات فقلبه يبعث  
حينئذٍ مسكراً، وأوتار الأعناق التي تهتكت أخذت  
تصعد أنغاماً بالغة في الخفوت والحزن، وتساءل:

- ما شكلها الآن؟

- لعلّها في الأربعين، كلّاً أنا أكبر منها بعامين،  
عايده في السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً عمّا كانت،  
لكنّها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريباً  
فيما عدا نظرة عينها التي أصبحت توحى بالجدّ  
والرزانة، وقالت إنّها أنجبت ابناً في الرابعة عشرة وبنّاً  
في العاشرة...

هذه هي عايده إذن، لم تكن حلماً ولم يكن تاريخها  
وهماً، فقد تمرّ لحظات فيبدو ذلك الماضي كأنّه لم يكن،  
وهي زوجة وأمّ وتذكر الماضي وتضحك كثيراً، ولكن  
ما حقيقة صورتها؟ وماذا بقي من هذه الحقيقة في  
الذاكرة؟ فلشّد ما تتغيّر المناظر في أثناء حفظها  
بالذاكرة، وهو يؤدّ أن يلقي نظرة ثابتة على هذا الكائن  
البشريّ لعلّه يقف على السرّ الذي مكّنه قديماً من أن  
يفعل به الأفاعيل.

- متى يسافرون إلى إيران؟

- سافروا أمس أو هذا ما أخبرتني به في زيارتها. . .

- وكيف تلقت كارثة أسرتها؟

- تجبّبتُ هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هي إليه!

وإذا برياض قلّدت يهتف مشيراً أمامه «انظروا» فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة الشكل، كانت في الحلقة السابعة، نحيلة الجسد، حافية القدمين، ترتدي جلباباً ممّا يرتدي الرجال، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أي أثر للشعر فهي صلعاء أو قرعاء، أمّا وجهها فبدا غارقاً في أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معاً، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عينها ترسلان في جميع الجهات نظرات تودّد واستعطاف بايسم. تساءل رياض باهتمام:

- شحاذة؟

فقال إسماعيل:

- مجذوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية في الجناح الأيسر ثم اختارت مقعداً وجلست، عند ذلك انتبهت إلى أعين المحدثين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- مساء الخير يا رجال!

فرحب رياض بتحيّتها وقال بحرارة:

- مساء الخير يا حاجة!

فندّت عنها ضحكة ذكرت إسماعيل - على حدّ قوله - بالأزبكية في عزّها. . . وقالت:

- حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تقصد المسجد «الحرام»!

وضحكوا ثلاثتهم فتشجعت وقالت بإغراء:

- اطلبوا لي الشاي والنارجيلة ولكم الأجر عند الله. . .

فصقّ رياض بحاس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامساً «هكذا تبدأ بعض القصص» أمّا العجوز فقد ضحكت في سرور وقالت:

- هذا كرم أيام زمان! . . . أغنياء حرب يا أولادي؟ . . .

فقال كمال ضاحكاً:

- نحن فقراء حرب، أي موظفين يا حاجة. . .

وسألها رياض:

- ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها في كبرياء مضحك وقالت:

- السلطانة زبيدة على سنّ ورمح!

- السلطانة؟!

- نعم. . . (ثم وهي تضحك) . . . ولكنّ رعيتي ماتوا!

- الله يرحمهم!

- الله يرحم الأحياء أمّا الأموات فحسبهم أتهم بين يدي الله. . .، خبروني من أنتم؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاي وهو يبتسم، ثم اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم:

- تعرفونها؟

- من هي؟

- زبيدة العالمة، أشهر عالمة في زمانها، ثم انتهى بها العمر والكوكابين إلى ما ترون!

خيّل إلى كمال أنّه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى أمّا رياض قلّدت فقد ارتفع اهتمامه إلى الذروة فجعل يحدّث أصحابه على أن يعرفوها بأنفسهم كما طلبت حتى تنفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقدّماً نفسه:

- إسماعيل لطيف.

فقال ضاحكاً وهي ترشف الشاي قبل أن يرد:

- عاشت الأسماء ولو أنّه اسم لا معنى له. . .

فضحكوا، وفي ذات الوقت سبّها إسماعيل بصوت لم تسمعه، أمّا رياض قلّدت فقال:

- رياض قلّدت.

- كافرو! عشقني واحد منكم كان تاجراً في الموسكي اسمه يوسف غطّاس، كان قدّ الدنيا، وكنت أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح! . . .

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة في وجهها ثم اتّجه بصرها إلى كمال فقال:

- كمال أحمد عبد الجواد.

وكانت تقرب قدح الشاي من فيها فتوقّفت يدها في بقظة طارئة ثمّ حملت في وجهه متسائلة:



- قلت ماذا؟  
فأجاب عنه رياض قلّس:  
- كمال أحمد عبد الجواد.  
فأخذت نفساً من النارجيلة وقالت وكأنها تخاطب نفسها:  
- أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء! كالقروش أيام زمان... (ثم غطّبت كمال) والدك تاجر النحاسين؟  
فدهش كمال وقال:  
- نعم.  
فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتّى وقفت أمامه ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكليها بأجيال وهفت:  
- أنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالي! ولكنك لا تشبهه! هذا أنفه حقاً، ولكنّه كان كالبدر في ليلته، ما عليك إلّا أن تذكره بالسلطنة زبيدة وهو يحذّثك عني بما فيه الكفاية!  
أغرق رياض وإسماعيل في الضحك، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبه من ارتباك، وهنا فقط تذكر حديث ياسين في الزمن الخالي، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالة! وعادت تسأله:  
- كيف حال السيّد؟ انقطعَتْ من زمن طويل عن حيّكم الذي نبذني، أنا الآن من أهل الإمام، ولكنّي أحنّ إلى الحسين فأزوره كلّ حين ومين، وكنت مريضة وطال بي المرض حتّى ضاق بي الجيران فلولا الملام لرموني في القبر حيّة، كيف حال السيّد؟  
فقال كمال في شيء من الوجوم:  
- توفي منذ أربعة أشهر...  
فقطّبت قليلاً وقالت:  
- إلى رحمة الله، يا خسارة، كان رجلاً ولا كلّ الرجال...  
ثمّ عادت إلى مجلسها، وبغتة ضحكت ضحكة عالية، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منذراً:  
- كفاية ضحك، سكتنا له دخل بحماره، كثر خير البكوات على إكرامهم لك، ولكن إن عدت إلى

الزيّاط فالباب من هنا...  
فلاذت بالصمت حتّى ذهب الرجل، ثم نظرت إليهم باسمه، ثمّ سألت كمال:  
- وأنت كأبيك أم لا...؟  
وأنت بيدها حركة شاذّة فضحك الأصدقاء وقال إسماعيل:  
- إنّه لم يتزوّج بعدا...  
فقال في لهجة ارتياب عابث:  
- الظاهر أنّك ابن أونطة!...  
فضحكوا، ثمّ نهض رياض، ومضى إليها فجلس إلى جانبها وهو يقول:  
- حصل لنا الشرف يا سلطنة، ولكنّي أودّ أن أسمع لك وأنت تحدّثنا عن أيام السلطنة!...

## ٤١

لم يبق إلّا ثلث ساعة ثمّ تلقى المحاضرة، أمّا قاعة إيوارت فقد قاربت الامتلاء، إنّ مستر روجر - كما قال رياض قلّس - أستاذ خطير، وهو كأخطر ما يكون حين يتكلّم عن شكسبير. أجل قيل إنّ المحاضرة لن تخلو في النهاية من نوع من الدعاية السياسيّة ولكن ماذا يهمّ في ذلك ما دام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسبير. غير أنّ رياض كان مغتماً واجماً، ولولا أنّه هو الذي دعا كمال إلى سماع المحاضرة لتخلّف عن شهودها، وكان حزيناً كما ينبغي لرجل مثله تستأثر السياسة باهتمامه كلّ هذا الاستئثار. وكان يهمس في أذن كمال بانفعال غير خاف:  
- يُفصل مكرم من الوفد! كيف تقع هذه الخوارق؟! ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهزّ رأسه في وجوم دون أن ينبس:  
- إنّها كارثة قوميّة يا كمال، ما كان ينبغي أن تنهوى الأمور حتّى هذا الحضيض...  
- نعم، ولكن من المسؤول؟  
- النحاس! قد يكون مكرم عصيّاً، ولكنّ الفساد الذي تسرّب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصحّ السكوت عليه.

فقال كمال بأسًا:

- دعنا من الفساد الحكومي، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هي لضياح النفوذ...  
فتساءل رياض في شيء من التسليم:  
- أبيع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟...  
فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلاً:  
- لقد بعث نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة...  
ولكن رياض قال دون أن يبتسم:  
- أجبي...!

- مكرم عصبي، شاعر ومغنٍ! عنده أن يكون كل شيء أو لا يكون شيئاً على الإطلاق، وجد نفوذه المأثور يتقلص فنار، ثم وقف لهم وقفته في مجلس الوزراء مندداً علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون، حدث يؤسف له!  
- والنتيجة؟

- هناك السراي تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد في الوفد، وستحضر مكرم في الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل، سنرى من الآن فصاعداً مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراي، إما هذا وإما العزلة، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة في مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به...!

فعبس رياض وقال:

- صورة بشعة، أخطأ الاثنان، النحاس ومكرم، إن قلبي متشائم من هذه الحركة...  
ثم بصوت أشد انخفاضاً:

- سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدم لهم طويلاً، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال؟

فتساءل كمال متغايباً:

- لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومي فلن يذهب...!

فهز رياض رأسه في أسف ساخر وقال:

- هذا ما قد يُكتب في الجرائد، أما الحقيقة فهي ما أعني، لقد شعر الأقباط بأنهم طُردوا من الوفد، وهم يتلمسون الأمان وأخشى ألا يظفروا به أبداً، لقد جاءني السياسة أخيراً بعقدة جديدة كعقدة الدين، فكما كنت أنبذ الدين بعقلي وأميل إليه بقلبي بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبي وأميل إليه بعقلي، إذا قلت إنني وفدي فقد كذبت قلبي وإذا قلت إنني عدو للوفد خنت عقلي، إنها كارثة لم تخطر لي على بال، والظاهر أنه مقضي علينا نحن الأقباط بأن نعيش في شخصيات منقسمة أبداً، لو كانت مجموعتنا فرداً واحداً لجن...!

شعر كمال بامتعاض وألم، وبدت له لحظتناك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفاجئة، ثم قال في صوت لا ينم عن إيمان:

- عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسي لا الأمة القبطية جميعاً...  
- هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟  
- هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:

- إنني أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت؟  
- أليس موقفنا واحداً أعني أنا وأنت؟  
- بلى مع فارق بسيط، وهو أنك لست من الأقلية... (ثم وهو يبتسم) لو عشت في عصر الفتح الإسلامي وتكشفت لي الغيب لدعوت الأقباط جميعاً إلى الدخول في دين الله...!

ثم في شيء من الاحتجاج:

- إنك لا تصغي إليّ...!

أجل! كانت عيناه مصوّبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة في مقتبل العمر، ترتدي فستاناً رمادياً بسيطاً، في هيئة الطالبات، وقد جلست في المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات.  
- تعرفها؟...  
- لا أدري...!

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد

الصمت الذي تبدو فيه السعلة كالذنب الفاضح، ثم قدّمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة، ثم بدأ الرجل في إلقاء محاضرته. وظلّ كمال أكثر الوقت متّجه العينين نحو رأس الفتاة في تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانزعته بقوة من تيار أفكاره، ثم قذفت به في الماضي عشرين عامًا ثم استردّته إلى الحاضر وهو يلهم. خيّل إليه أوّل الأمر أنّه يرى عايده، غير أنّها لم تكن عايده دون ريب... هذه الفتاة التي لا يمكن أن تجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كافٍ كي يتفحص قسائما ولكنّ جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقامة والروح ومجئى العينين، أجل لم ير هاتين العينين في غير وجه عايده من قبل. أتكون شقيقتها؟ خطر له هذا الرأي أوّل ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرّة، وسرعان ما ذكر صداقتها له في الماضي البعيد، ولكن هيهات... أن تكون حقًا هي - أن تتذكّره، المهمّ أنّ صورتها أيقظت قلبه، ردّته ولو إلى حين إلى شيء من تلك الحياة الغامرة التي اكتظّ بها زمناً، فهو في اضطراب، يسمع إلى الأستاذ المحاضر دقائق ثم ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثم يغرق في موجة الذكريات، مستشعرًا في أناة جملة المشاعر التي تتلاحم وتصطرع في وجدانه. فلا تبعها لأعرف حقيقتها، لا غاية لي ولكنّ المألوف مشاء، إنّي أتوق لأيّ شيء قد يسمح عن روعي الصدا المتكاثف فوقها. وتربّص مبيتًا هذه النية، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟ لا يدري. ولكنّه عند انتهائها أفضى بغرضه إلى رياض ثم ودّعه وسار في أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأنّ الأخرى لم يعد متوكّدًا منها، أمّا القامة فأغلب الظنّ أنّها هي هي، وكان شعر الأخرى «الاجرسون» أمّا هذا الشعر فغزير معقوص، ولكنّ اللون الأسود واحد في الحالين ما في ذلك شكّ، ولم يستطع أيضًا أن يتفحص وجهها على محطة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين، ولكنّها استقلّت الترام رقم ١٥ الذاهب إلى العتبة وانحشرت في الحريم فاستقلّه وراءها وهو يتساءل ترى أهي في طريقها إلى العباسية أم إنّ ما

يفترضه ليس إلّا أضغاث أحلام؟. عايده لم تستقلّ ترامًا في حياتها قطّ، كان رهن أمرها سيّارتان، أمّا هذه المسكينة...! وداخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصّة إفلاس شذاد بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حمولته في العتبة فاختر موقفًا غير بعيد منها فوق طوار المحطة، وجعلت تنظر صوب الناحية التي تترقّب مجيء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم، ثم لاحظ أنّ بشرتها قمحية اللون مع ميل إلى البياض، ليست خمرة كالصورة الذاهبة، ف شعر لذلك بأوّل أسف منذ تبعها، كأنما تبعها ليرى الأخرى. ثم جاء ترام العباسية فتأهّبت للركوب. وكما وجدت الحريم مزدحمة استقلّت عربة الدرجة الثانية، ولم يتردّد فكان في أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثم امتلأت المقاعد على الصّفين، ثم امتلأ ما بينها بالواقفين. ووجد لتوقيفه في الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أنّ جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرّة أخرى، ربّما لما يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والمائلة إلى جانبه. وكان منكبه يلامس منكبه ملاسة خفيفة كلّما ندّ عن الترام حركة مفاجئة خاصّة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلّما أمكن ويتفحصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجيتان، والحاجبان المقرونان، والأنف السويّ اللطيف، والوجه البدريّ، كأنّه ينظر إلى عايده. حقًا؟ كلًّا، ثمّة تباين في لون البشرة، ولسة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هي أم إلى النقصان، ومع أنّ تباينها كان يسيرًا إلّا أنّ إحساسه به كان خطيرًا فهو كدرجة الحرارة الواحدة التي قد تكون فاصلًا بين الصّحة والمرض، ولكنّه كان في الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عايده التي خيّل إليه أنّه بات يذكرها أوضح من أيّ وقت مضى على ضوء هذا الوجه الجميل. والجسم لعلّه هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فلعّله الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية في الحياء، كذلك هو في جملة، لا يمتّ بسبب إلى جسم عطية البضّ المدملج الذي يتعشّقه! فهل فسد ذوقه على مرّ الأيام؟ أو إنّ حبّه القديم كان ناثراً على غريزته

انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذي كنت تتعلّقين بعنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتي؟ وهل تعملين مثلي في النهاية مدرّسة في إحدى المدارس الابتدائية؟ ومرّ الترام بمكان القصر القديم الذي قام في موضعه بناء ضخم جديد، وقد رآه قبل ذلك في المرات القلائل التي زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخي عنها خاصّة في العهد الأخير وهو يتردّد على بيت فؤاد جميل الحمزاوي. العباسية نفسها تغيّرت كبيتكم يا صغيرتي، اختفت قصورها وحدائقها التي عاصرت حبي وحزني، وقامت مكانها العمارات الضخمة المكتظة بالسكان والخوانيت والمقاهي والسينيات، فليسّر بذلك أحمد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أمّا أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أنّ قلبي مطمور في أنقاضه؟ أو كيف أحترق المخلوق البديع الذي لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يخطر كالمعنى الجميل وقلبي له ساجد؟

وعندما توقّف الترام في المحطة التالية لقسم الوايلي غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها، فرآها وهي تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذي يواجه المحطة مباشرة. كان شارعاً ضيقاً تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطي وجهه الممهّد بالأسفلت الأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كوّاء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت في صمت واجم، ذلك المكان الذي تقيم فيه اليوم سنيّة هانم حرم شذاد بك! وهذه الشقّة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنيّة هانم تخرج إلى الشرفة ليلقي عليها نظرة وقيس ما حاق بها من تغيّر لا شك أنّه خطير، ولعلّه لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلامك متأبّطة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيّارة، كانت تحتال عجباً في معطفها الوثير وتلقي على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنينة، ولن يبنى الإنسان بعدوً أشدّ فتكاً من الزمن. في هذه الشقّة نزلت عايده في أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلّها جلست بعد العاصري في هذه الشرفة البالية، ولعلّها قاسمت

الكامنة؟. بيد أنّه كان حبّاً سعيّداً حالماً ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملامساته المتقطّعة لها تزيده نشوة وإغراقاً في التأمّلات، أنّه لم يسّر عايده، كان يراها أبداً مستحيلة المنال، أمّا هذه الصغيرة فهي تسير في الأسواق وتجلس في تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشدّ حزنه! وذلك التباين الطفيف الذي أحنقه وخيّب أمله، وقضى على حبه القديم بأن يبقى لغزاً إلى الأبد. وجاء الكمساري منادياً «التذاكر والأبونيّهات» ففتحت حقبيتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتّى يصل الرجل إليها. فاسترق إلى التذكرة النظر حتّى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شذاد... طالبة بكلّيّة الآداب»، لم يعد ثمة شك، إنّ قلبي يخفق أكثر ممّا ينبغي، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك كي أحفظ بأقرب صورة لعايده، آه لو كان في الإمكان هذا، مدرّس في السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلّيّة الآداب! يا له من عنوان مثير تتمنّاه الجرائد، فيلسوف فاشل في حدود الأربعين! ترى ما سرّ بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهي في الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد! لا قصر ولا سيّارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلّت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حريّ بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم، تألّت المسكينه وذعرت، ابتليت بهذا الشعور القاسي الذي أصبحت به جدّ خبير، جمعنا الألم على تفاوت في الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسية، وجاءها الكمساري فسمعها وهي تقول له «تفضّل» ثمّ ناولته التذكرة. وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرًا طويلاً ثمّ انبعثت في السمع بكلّ حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحييت فترة ساووية من الزمن، دوّمت أذنه في مملكة الطرب الإلهيّة مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب. أسمعيني صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتي القديمة السيّئة الحظّ، من حسن الحظّ أنّ صاحبة هذا الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التي أغرقت أسرتها، أمّا أنت فقد

طريق مخفوف بالترنم والتقاليد من ناحية، وبالسبب المتوَّجَّه للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقاً في اليأس والملل فجري ملهوقاً وراء هذا الشيء الذي لا يشكُّ في أنَّه تسليية وأيَّ تسليية، وحياة وأيَّ حياة، وبحسبه أنَّه انقلب يهتَمُّ بالزمن وينشد الأمل ويأمل في المسرة، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتاً، وكان يشعر بضيق الوقت، فالعام الدراسي يشارف نهايته المحتومة، بيد أنَّ نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رآته كما رآه الجميع، ولعلَّها شاركت فيها يدور من همس حوله، إلى أنَّ عينيها قد تلاقتا أكثر من مرَّة، ولعلَّها طالعت في عينيها ما يضطرم في ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدرى؟ وفضلاً عن هذا كلَّه فعند العودة يستقلَّان ترام الجيزة ممَّا شَمَّ ترام العبَّاسية، وكثيراً ما يجلسان في مكان واحد، فباتت تعرفه جيِّداً، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيَّها كلَّه، خاصة إذا كان مدرِّساً حريضاً على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أمَّا عن غايته من هذا كلَّه فلم يشقَّ على نفسه في تحقيقها، لقد دبَّت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها، وهو تَوَّاق بكلِّ قوَّة نفسه المعذَّبة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذي تتلجج في وجدانه المشاعر وتهيم في عقله الخواطر وتنجلي في حواسِّه المناظر، وأن ينسى بهذا السحر ضحرة وسقمه وحيرته أمام الغاز لا تحلَّ، كأنَّها الخمر ولكنَّها أعمق متاعاً ولطف عاقبة. وفي الأسبوع الماضي حدث شيء تأثَّر له قلبه أيَّما تأثَّر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضي بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكليَّة في الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخِّراً، والتقت عيناها عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتاً، التقت عيناها التقاء خاطفاً سحريراً وسرعان ما أرخت جفونها فيها يشبه الحياة. لم تكن إذن مجرد نظرة تلتقي فيها عيناه محابدتان، وبات مرجحاً أنَّها استشعرت شيئاً من الحياة، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيها قد ضاع عبثاً؟! الصغيرة باتت تستحي من نظراته فلعلَّها أخذت تدرك أنَّها ليست بالنظرات البريئة التي توجَّهها المصادفة، وأثار ذلك في نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيراً من الصور،

أمَّا وأختها فراشها الواحد ما في ذلك ريب، فليتي علمت بوجودها في الوقت المناسب، وليتي رأيها بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغي أن أراها وأنا متحرِّر من استبدادها، كي أعرفها على حقيقتها، وبالتالي كي أعرف نفسي أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة...

## ٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزيَّة بكلِّيَّة الآداب يصغي إلى الدرس الذي يلقيه الأستاذ الإنجليزي، لم تكن أوَّل مرَّة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرَّة فيها بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان في الحضور - كمستمع - لمتابعة الدروس المسائيَّة التي تلقى ثلاث مرَّات في الأسبوع، وأكثر من هذا فإنَّ الأستاذ قد رحَّب به عندما علم بأنَّه مدرِّس لغة إنجليزيَّة. أجل كان غريباً بعض الشيء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس في أواخر العام الدراسي ولكنَّه علَّل ذلك أمام الأستاذ بأنَّه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاتته منها، وكان قد علم بوجود بدور في هذا القسم عن طريق رياض قلندس الذي عرفه بدوره عن طريق صديقه سكرتير الكليَّة. وبدا منظره، ببذلته الأنيقة ونظَّارته الذهبية وطوله ونحوه وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التي تلتصق في سوائفه إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كلُّ أولئك مُلفتاً للنظر خاصة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغضَّ، فكَّم بدوا كالمثائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها، حتَّى خيَّل إليه أنَّه يسمع ما يدور في نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدري بها وأخيراً. هو نفسه كان يعجب لهذه الخطوة الخارقة التي أقدم عليها دون مبالاة على ما جسَّمته من جهد وحرص، ما بواعثها الحقيقيَّة وما هدفها؟ لا يدرى شيئاً على وجه التحقيق ولكنَّه ما إن رأى بارقة نور في ظلمة حياته الداكنة حتَّى انزلق يتسمَّته وهو لا يلوي على شيء مدفوعاً بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبالٍ بما قد يعثر به في

مع أختها بهذه الجرأة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

- حضرتك من العباسية فيما اعتقد؟

- نعم...

لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

- من المؤسف أنني لم أتابع المحاضرات إلا أخيراً...

- نعم...

- أرجو أن أعوض ما فاتني في المستقبل...

فابتسمت دون أن تنبس، «زيدني من سماع صوتك فإنك النعمة الوحيدة من الماضي التي لم يغيرها الزمن»...

- ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقلت باهتمام لأول مرة:

- لا حاجة بي إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرّسات ومدرّسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد في التعليم...

طمع في نعمة واحدة فوهب لحناً كاملاً!

- إذن ستعملين مدرّسة!

- نعم، لم لا؟

- إنّها مهنة شاقّة، سليبي عنها.

- حضرتك مدرّس فيما سمعت؟

- نعم، أوه، نسيت أن أقدم نفسي، كمال أحمد عبد الجواد.

- تشرفنا...

فقال بأسياً:

- ولكنك لم تشرفني بعد؟

- بدور عبد الحميد شدّاد!

- تشرفنا يا أفندم...

ثم مستدرّكاً كمن فوجئ بشيء فريد:

- عبد الحميد شدّاد! ومن العباسية؟ حضرتك أخت حسين شدّاد؟

فلمعت عينها في اهتمام وقالت:

- نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجباً من غرابية

المصادفات وقال:

حتى وجد نفسه يتذكّر عابدة ويتخيّلها، ولكنّه لم يدِر لماذا، فإنّ عابدة لم تغضّ الطرف حيّاه حياله قطّ، فلعلّ شيئاً آخر الذي ذكره بها، لفنة أو رنوة أو ذلك السرّ الساحر الذي ندعوه بالروح. وأوّل أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف ردّت الحياة إليك! قبل ذلك لم يكن لشيء خطورة قطّ، أو لم تكن تضفي الخطورة إلا على هذه الألباز العقيمة كالإرادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلّها صمّاء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أنّ رنوة أو لفنة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعاً! حدث ذلك وهو ماضٍ إلى الكليّة قبل الخامسة مساءً مخترباً حديقة الأورمان، فيما يدري إلا ويدور وثلاث فتيات يطالعهن على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس، والتقت عيناها التقاء عميقاً كما وقع في حجرة الدرس، وكان يؤدّ أن يجيّهنّ عند الاقتراب ولكنّ المشى الذي يسير فيه عرج به بعيداً عنهنّ كأنه أبى أن يشترك في هذه المؤامرة العاطفيّة المرتجلة، ولما ابتعد قليلاً التفت وراءه فرأهنّ يهمنّ في أذهنها بأسات وهي مسندة رأسها إلى راحتها كأنّها تخفي وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنّه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شكّ أنّهنّ يهمنّ لها عنه حتى أخفت وجهها حيّاه! هل ثمة معنى غير هذا؟. فلعلّ الصبّ فضحته عيونه، ولعلّه جاوز المدى وهو لا يدري حتى صار أحدثه، وماذا يكون من أمره لو انقلب الحمس تعريضاً يتنازع به الطلبة الشياطين؟! وفكر جاداً في الانقطاع عن الكليّة، ولكنّه وجدها تجلس إلى جانبه في ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أوّل يوم تبعها فيه! وترصد التفاتنا ناحيته ليحييها وليكن ما يكون، فلمّا طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثمّ تظاهر بأنّه فوجئ بجلوسها لصقه فهمس في أدب:

- مساء الخير...

فنظرت نحوه كالداهشة - لم تترك له عابدة ذكرى تصنّع أنثويّ من أيّ نوع كان - ثمّ همست:

- مساء الخير...

زميلان يتبادلان التحيّة ولا غبار على ذلك، لم يكن

الذكريات وعلبة الملبس التي أهديت إليه ليلة الزفاف. ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أيمكن أن يقع الإنسان في الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل بقي الكيميائي علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما مُني به من خيبة الأمل، رغم الفارق الكبير بين الماضي والحاضر، رغم أنه لا يدري إن كان من أهل الماضي أم من أهل الحاضر، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق...

### ٤٣

هنا حديقة الشاي، سماؤها أفرع وغصون ريانة، ومرتاد النظر البطء السابح في البحيرة الزمردية، والجلالية فيها وراء ذلك، واليوم عطلة مجلّة الإنسان الجديد، وما هي سوسن حماد تبدو رائعة في فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين، وهي آخذة زيتنها ولكن في لباقة وحذر، وكان قد مضى على زمالتها عام فجلسا متقابلين يضيء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيها إلّا ذوب ثالثة الحليب المورّد بالفراولا، «إنها أعز شيء لدي في هذه الدنيا، أدين لها بمسراتي جميعا وهي قبله آمالي أيضا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكنتي لا أشك في أننا متحابان، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رفيقين في ميدان الحرية، وعملنا يدا واحدة، وكلانا مرشح للسجن، وكنت كلنا نؤهت بجهاها حملقت في وجهي محتجة وزجرتني مقطبة كأن الحب شيء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنّا فيه من عمل، ويومًا قلت لها: «إني أحبك... إني أحبك... فافعلي ما بدا لك»، فقالت لي: «هذه الحياة هي الجسد كل الجسد وأنت تعبت»، فقلت لها: «إني مثلك أرى أنّ الرأسمالية في طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها، وأنّ على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدور آلة التطور إذ إنّ الثمرة لن تسقط وحدها، وإنّ

- يا سلام! كان أعزّ أصدقائي، وقضينا معًا أيامًا سعيدة جدًا، رباه! أنت أخته الصغيرة التي كانت تلعب في الحديقة؟

فحدجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكره! «في ذلك العهد كنت مغرمة بي كما كنت مغرما بأختك».

- لا أذكر شيئًا طبعًا...

- طبعًا، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوروبا، ماذا يفعل الآن؟

- في فرنسا في القسم الجنوبي الذي انتقلت إليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألماني...

- وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عني أخباره ورسائله...

- بخير...

نطقت بها في لهجة تمت عن رغبة في الخوض في الموضوع أكثر من ذلك، وتساءل كمال والترام يمرّ بمكان القصر القديم: ترى ألم يخطئ بمكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها؟ ليس في ذلك حدًا من حرّيته فيها هو بسبيله؟ ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلي حيث غادرت الترام، قلبت في مكانه كأنما نسي نفسه. كان طوال الطريق يتفحصها كلها سنحت فرصة لعلّه يبتدي إلى السرّ الذي سحره قديمًا، ولكنّه لم يجده وإن شعر مرارًا بأنّه منه قريب. وكانت تبدو لطيفة وديعة، وكانت تبدو قريبة المنال، وهو الآن يشعر كأنما يعاني خيبة أمل غامضة وحزنًا غير بيّن الأسباب، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدّي. أجل إنّها تبدو مستجيبة ملّبية، رغم فارق السنّ المحسوس أو بسبب فارق السنّ! ثم إنّ التجارب قد علّمت أنّ شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراد. وهو إذا تزوّجها انتقل بقدرة قادر إلى عضوية أسرة عابدة، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عابدة الآن بالنسبة إليه؟ الحقّ أنّه لا يريد عابدة، ولكنّه لا يكف عن التطلع إلى معرفة سرّها، لعلّه يقتنع في الأقلّ بأنّ أزهى عصور العمر لم يضع هباء. ووجد رغبة - طالما ألحّت عليه على فترات من العمر - في مراجعة كراسة

علينا أن نخلق الوعي ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك» فقطبت تقطيعاً متكلفة بعض الشيء وقالت: «إنك تصرّ على إسماعي ما لا أحب»، وشجعتني خلوّ حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خذّها فحدجنتني بنظرة قاسية وأكبت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة في الاتحاد السوفيتي الذي كنّا نترجمه معاً.

- هذا الحرّ كلّ في يونه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزي؟

- يبدو أنّ الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا.

فضحك قائلاً:

- ولكنّ الإسكندرية لم تعد مصيفاً، كانت كذلك قبل الحرب أمّا اليوم فالإشاعات قد جعلتها خراباً. . .  
- الأستاذ عدلي كريم يؤكّد أنّ أغلبية سكّانها قد هجروها وأنّ طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

- هي كذلك، وعمّا قليل يدخلها رومل بجيوشه. . .

ثمّ بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقي في السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستي كما كان في العصر الحجري!

فقلت سوسن في شيء من الانفعال:

- روسيا لن تهزم، وإنّ آمال البشرية مصونة خلف جبال الأورال. . .

- نعم لكنّ الألمان على أبواب الإسكندرية!

تساءلت وهي تنفخ:

- لماذا يحبّ المصريون الألمان؟

- كراهة في الإنجليز، وسوف يفتونهم في الغد القريب، إنّ الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنّه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثمّ يشربان معاً نخب وأد الديمقراطية الناشئة في بلادنا، ومن المضحك أنّ الفلاحين يظنون أنّ رومل سيوزّع الأرض عليهم!

- أعداؤنا كثيرون، الألمان في الخارج، والإخوان والرجعية في الداخل وكلاهما شيء واحد. . .

- لو سمعك أخي عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر

الإخوانية فكرة تقدّمية تزري بالاشتراكية المادّية. . .

- قد يكون في الإسلام اشتراكية، ولكنّها اشتراكية خياليّة كالتي بشّر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، أنّه يبحث عن حلّ للظلم الاجتماعيّ في ضمير الإنسان بينما أنّ الحلّ موجود في تطوّر المجتمع نفسه، أنّه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفرادها، وليس فيه بطبيعة الحال أيّة فكرة عن الاشتراكية العلميّة، وفضلاً عن هذا كلّ فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطوريّة تلعب فيها الملائكة دوراً خطيراً، لا ينبغي أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرتنا في الماضي البعيد، قل هذا لأخيك. . .

فضحك أحمد في سرور غير خافٍ وقال:

- أخي شاب مثقّف وقانونيّ ذكيّ، إنّي أعجب كيف يتحمّس أمثاله للإخوان!

فقلت بازدياد:

- الإخوان يصطنعون عمليّة تزيف هائلة، فهم حيال المثقّفين يقدّمون الإسلام في ثوب عصريّ، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية.

حبيبي لا تمّل الحديث عن مبادئها، قلت حبيبي؟ نعم فمنذ القبلة التي اختلستها دأبت على أن أدعوها بحبيبي وكانت تحتجّ بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثمّ جعلت تتجاهله كأنّها قد يشت من إصلاح، وعندما قلت لها إنّي تواق إلى سماع كلمات الحبّ من فغرها المشغول بالاشتراكية ويُختني قائلة باحتقار: «هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة. . . هه؟!» فقلت لها جزعاً: إنّ احترامي لك فوق كلّ كلام وإنّي لأعترف بأنّي تلميزك في أنبل ما صنعت في حياتي ولكنّي أحبك كذلك وما في ذلك من بأس. فذهب غضبها فيها شعرت ولكنّها استبقت مظاهره فيها رأيت، واقتربت منها مضمرّاً تقبيلها فلا أدري كيف حذرت غرضي فدفعني في صدري ولكنّي رغم ذلك لثمت خذّها وما دام المحذور قد وقع - وقد كان بوسعها منعه جدّياً - فقد اعتبرتها راضية، وإنّها لكائن بديع جميل العقل والجسم معاً رغم إغراقها في السياسة، وعندما دعوتها للنزّهة في الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ



فقال بلهجة لم تخل من حدة:

- أنت مخطئة يا ظالمة! لا يعينني ما ورثته، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعينني، أعني الدخول القليل الذي عاشت به أسرنا عيشة التناوب، لا يعيب أحدًا أن يجد نفسه بورجوازيًا، ولا عيب إلا في الجمود والتخلف عن روح العصر...

فقلت وهي تبسم:

- لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسأل عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق ونفعل، إنني أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبرني هل أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال مهما تكن العواقب؟

فقال بإدلال:

- لقد حضرت حتى أمس خمس مرات، وحزرت منشورين خطيرين، ووزعت عشرات المنشورات، وللحكومة دين في عني جاوز العامين سجنًا...  
- ولها في عني أضعاف ذلك...

مدّ يده في خفة فوضعها على يدها السمراء البضة في حنان وإعجاب. نعم إنه يجيها، ولكنه لا يندفع في جهاده باسم الحب، ترى ألم تبتدأ أحيانًا وكأنتها تشك فيه؟ أهي مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازية التي تحسبها كائمة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ كما إنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، «أليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حقّ الفهم وتفهمه حقّ الفهم؟ وألا يحول بينك وبينه أي نوع من المكر؟ إنني أعبدتها إذ قالت «لقد ذقت الفقر طويلاً»، هذا القول الصريح الذي سماها عن بنات جنسها جميعًا ومزجها بنفسها، لكننا محبون غافلون والسجن يترصص بنا، وبوسعنا أن نتزوج وأن نتجنب المتاعب ونقنع برغد العيش، ولكننا نكون حياة بلا روح، لشد ما يبدو لي المبدأ أحيانًا كأنه لعنة مصوبة علينا من القضاء والقدر، إنه دمي وروحي، كائنني المسئول الأول عن الإنسانية جميعًا...

- أحبك...

- ما المناسبة لهذا؟

- في كل مناسبة وبلا مناسبة...

معنا الكتاب لنواصل الترجمة قلت لها: بل للفرجة والمنساجة ولألا كفرت بالاشتراكية جميعًا! ولعلّه ممّا يزعجني كثيرًا حيال نفسي المتشعبة بالسكينة أنني ما زلت أنظر أحيانًا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية فيخيل لي في بعض ساعات التقهقر والحقور أن الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعًا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج ولكن من المسلم به كذلك أن العام الذي زاملت فيه سوسن قد غيّرني كثيرًا وطهرني لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة في أعماقي!...

- من المؤسف أن زملاءنا يعتقلون بلا حساب!...

- نعم يا حبيبي، الاعتقال موضوعة تشيع أيام الحروب وأيام الإرهاب على السواء، غير أن القانون لا يرى بأسًا في اعتناق المبدأ إذا لم يقترن بالدعوة إلى العنف...

فضحك أحمد وقال:

- سيلقى القبض علينا إن آجلًا وإن عاجلاً...  
إلا...

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

- إلا إذا أدبنا الزواج!

فهزّت منكبيها في ازدراء وقالت:

- من أدراك بأنني أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك؟

- مزيف؟!

ففكرت قليلاً ثم قالت باهتمام جدّي:

- لست من طبقة العمال مثلي! كلانا يحارب عدوًا واحدًا ولكنك لم تحبّه كما تحبته، لقد ذقت الفقر طويلاً، ولمست آثاره الكريمة في أسرتي، وغالبته أخت لي حتى غلبها فماتت، أما أنت فلست... لست من طبقة العمال!

فقال بهدوء:

- ولا كان إنجلز من هذه الطبقة...

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:

- كيف أدعوك؟ البرنس أحمدوف؟! هه لا أنكر عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيقة، يخيّل لي أنك تُسرّ أحيانًا لكونك من آل شوكت!

- إنك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء...  
- التفريق بين هذين سخف كالتفريق بيني وبينك...  
- ألا يعني الحب الهناء والاستقرار وكرامة السجن؟  
- ألم تسمعي عن النبي الذي كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعاً؟...  
- ففرقت بأصابعها هاتفة:  
- ها هو أخوك قد أعارك فاه، أي نبي يا هذا؟  
- فقال ضاحكاً:  
- نبي المسلمين!  
- دعني أحدثك عن كارل ماركس الذي عكف على تأليف «رأس المال» تاركاً زوجته وأولاده للجوع والبهلة!  
- كان متزوجاً على أي حال...  
- كأن ماء البركة عصير زمرد، وهذه النسمة اللطيفة تهفو في خلصة من يونيه، والبط يسبح مسدداً منقاره لالتقاط فتات الخبز، وأنت سعيد جداً، والحبيبة المتعبة الذئ من الطبيعة، يخيل إليّ أنّ وجهها تورّد، فلعلّها تناست السياسة قليلاً وأخذت تفكر في...  
- كان المأمول يا زميلي العزيزة أن نحظى في هذه الحديقة بحديث عذب!  
- أعذب ممّا كنّا نتحدث به؟  
- أعني حبنا...!  
- حبنا؟...  
- نعم وأنت تعلمين!  
- وساد الصمت ملياً حتى غصّت عينيها متسائلة:  
- ماذا تريد؟  
- قولي إنّنا نريد شيئاً واحداً!  
- فقالت كأنّها لتطيعه فحسب:  
- نعم، ولكن ما هو؟  
- حسبنا لفّ ودوران!  
- كأنّها تفكر، فما أمر الانتظار على قصره، وإذا بها تقول:  
- ما دام كلّ شيء واضحاً فلم تعدّيني؟
- فتنهّد في ارتياح عميق وقال:  
- ما أبهج حبّي!  
- وساد الصمت مرّة أخرى كاللازمة بين النعمة والنعمة، ثمّ قالت:  
- يهمني شيء واحد.  
- أفندم!  
- كرامتي!  
- فقال كالمنزعج:  
- هي وكرامتي شيء واحد!  
- فقالت بامتناع:  
- أنت أدري بتقاليد أناسك! ستسمع كثيراً عن الأصل والفصل...  
- كلام فارغ، أتظنّيني طفلاً؟  
- وتردّدت قليلاً ثمّ قالت:  
- لا يهدّنا إلّا شيء واحد هو «العقلية البورجوازية»!  
- فقال بقوة جعلته في تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم:  
- لست منها في شيء!  
- هل تدرك مدى خطورة قولك؟... لقد عنيت أشياء تخصّ علاقة الرجل بالمرأة في صميمها الشخصي والاجتماعي!  
- مفهوم جداً.  
- سوف تطالّب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات الماثورة مثل: حبّ، زواج، غيرة، الوفاء، الماضي...  
- نعم...!  
- قد يعني هذا لا شيء، وقد يعني كلّ شيء، وكم من مرّة خطرت له أفكار، ولكنّ الموقف يتطلّب شجاعة فائقة، ما هو إلّا امتحان لعقليته الموروثة والمكتسبة جميعاً، امتحان رهيب، خيل إليه أنّه أدرك ما تعني، ولعلّ الأمر لا يعدو أنّها تمتحنه، ولكن حتى لو كان الذي أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبت في أعماقه الغيرة ولكنّه لن يتراجع...  
- إنّني مسلم بما تعنين، ولكن دعيني أصارحك بأنّي كنت آمل أن أحظى بفنّاة عاطفية لا بفكر عاسب مدقق!

عقلك وحده؟  
- أبداً، والمشورة جائزة في كل شيء إلا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء! ...  
- الطعام! ... إنك لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلها، ونحن - أهلك - نتزوج بالتبعية معك ...

فضحك أحد ضحكة عالية وقال:  
- كلكم! هذا أكثر مما يُحتمل، خالي كمال لا يريد أن يتزوج، وخالي ياسين يودّ لو يتزوجها وحده ...  
وضحكوا جميعاً إلا خديجة، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:

- إذا كان في هذا فضّ المشكلة فأننا على أتم استعداد للتضحية.  
فهتفت خديجة:

- اضحكوا، إنّه يتشجّع بضحكتكم، خير من ذلك أن تصارحوه بأرائكم، فما رأيكم فيمن يرغب في الزواج من «كريمة» عامل المطبعة التي يعمل بمجلتها؟ إنّه يعزّ علينا أن تعمل بالمجلة «جورنالجي» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عمّالها! أليس لك رأي يا سي إبراهيم؟

فرفع إبراهيم شوكت حاجبيه كأنما يريد أن يقول شيئاً، ولكنّه سكت، فعادت تقول:  
- لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلئ بيتك ليلة الزفاف بعَمال المطبعة والعنابر والحدوذية، والله أعلم بما خفي! ...

فقال أحمد بتأثر:  
- لا تتكلّمي هكذا عن أهلي!  
- يا ربّ السماوات، أنتكر أنّ هؤلاء هم أهلها؟  
- سأتزوّجها هي وحدها، إنّي لا أتزوج بالجملة ...

فقال إبراهيم شوكت في ضجر:  
- لن تتزوّجها وحدها، الله يتعبك كما تعبنا!  
فقال خديجة متشجّعة بمعارضة زوجها:  
- ذهبت لزيارة بيتها كما تقضي العادة، قلت أرى عروس ابني، فوجدتهم يقيمون في بدروم في شارع كلّه يهود على الصّفين، وأمّها لا تفرق في هيئتها عن

ففسّاءت وعيناها تتابعان البَطّ السابح:  
- لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك؟  
- نعم! ...  
صاحكة:  
- وهل تراني كنت أدخل في التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ؟!

فضغط على راحتها في رقّة، فعادت تقول:  
- وأنت تعرف كل شيء، ولكنك تؤدّ سماعه!  
- ولا أملّ سماعه! ...

## ٤٤

- إنّه سمعة أسرتنا جميعاً، وهو على أيّ حال ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيها ترون! ...  
كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذي جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد في الناحية المقابلة من الصالة، مارتين بياسين وكمال وعبد المنعم ...  
وقال أحمد مداعباً وهو يقلّد لهجتها:  
- انتبهوا جميعاً، إنّه سمعة أسرة، وأنا على أيّ حال ابنكم!

فقال له بصوت متشكّك مليء بالمرارة:  
- ما هذا البلاء يا ابني؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك، وتأمّ المشورة ولو كانت في صالحك، دائماً أنت على صواب والناس جميعاً على خطأ، تركت الصلاة قلنا ربّنا يهديه، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت أشتغل جورنالجي قلنا اشتغل عربجي! ...  
فقال بأسماً:

- والان أريد أن أتزوج!  
- تزوّج، كلنا يسرّ لهذا، ولكنّ الزواج له شروط ...

- ومن يضع شروطه؟  
- العقل السليم.  
- عقلي اختار لي ...  
- ألم تثبت لك الأيام بعد أنّه لا يصحّ الاعتماد على

عن نفسه، أنا لم يستقرّ بي بيت إلا بزّوبة كما تعلمين! فعسى أن يكون الخير فيما اختار، ثمّ إنّنا لا نعقل بالكلام ولكن بالتجارب.

ثمّ مستدرّكاً وهو يضحك:

- ولو أنّه لا الكلام ولا التجارب عقّلتني!

وعلق كمال على قول ياسين قائلاً:

- الحقّ فيما قال أخي...

فحدّثته بنظرة عتاب قائلة:

- اهَذَا كُلّ ما عندك يا كمال؟ إنّهُ يَحِبُّكَ فلو أنّك

حدّثته على انفراد...

فقال كمال:

- إنّني خارج معه وسأحدّثه، ولكن كَفّي عن

الشجار، إنّهُ رجل حرّ، ومن حقّه أن يتزوَّج مَن

يشاء، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته؟

وقال ياسين باسماً:

- الأمر بسيط يا אחتي، يتزوَّج اليوم ويطلّق غداً،

نحن مسلمون لا كاثوليك...

فضيّقت عينها الصغيرتين وقالت بضم شبه مغلق:

- طبعاً، من حمامٍ غيرك يدافع عنه؟ صدق مَن قال

إنّ الولد لخاله!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما

تزوَّجت امرأة قطاً...

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- أمّه الله يرحمها هي التي اختارتني بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتنهد باسماً:

- ودفعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولكنّها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة:

- لو كانت جميلة... إنّهُ أعمى!

فقال إبراهيم ضاحكاً:

- مثل أبيه!

فالتفت نحوه غاضبة وقالت:

- أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل بهدوء:

- بل نحن صابرون ولنا الجلّة...

الخادِمات المحترفات، والعروس نفسها لا يقلّ عمرها عن ثلاثين عاماً، أي والله، ولو كان بها ذرّة من جمال لعذرتة، لماذا يريد أن يتزوَّجها؟ إنّهُ مسحور، سحرته بحيلة، إنّها تعمل معه في المجلّة المششومة، لعلّها غافلتة فوضعت له شيئاً في القهوة أو الماء، اذهبوا وشوفوا واحكموا، أنا غلبت، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزني وأسفي...

- إنّك تغضبيني، لن أغفر لك كلامك هذا...

- العفو، العفو يا سيّد الملاح! الحقّ عليّ، أنا طول

عمري عيّابة فرماني ربّنا في أولادي بكلّ العيوب،

أستغفر الله العظيم.

- مهما تقوّلت عنهم فليس فيهم من يرمي الناس

بالباطل... مثلك!

- بكرة يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على

إهانتي.

- أنت التي أهتني بما فيه الكفاية...

- إنّها تطمع في مالك، ولولا خيبتك ما طمعت في

أحسن من بيّاع جرائد...

- إنّها محرّرة في المجلّة بمرتّب ضعف مرتّبي...

- جورنالجيّة هي الأخرى!... ما شاء الله، وهل

تتوظّف إلا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة!...

- سامحك الله...

- فليسامحك أنت على ما تصبّ علينا من عذاب!

وهنا قال ياسين الذي كان يتابع الحديث ويده لا

تمسك عن قتل شاربه:

- اسمعي يا אחتي لا داعي للنقار، سنصّارح أحمد

بما ينبغي قوله ولكن لا جدوى من الشجار...

وهض أحمد كالغاضب وهو يقول:

- عن إذنكم سأرتدي ملابس لي لأذهب إلى

عملي...

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها

قائلاً:

- لن يفيدك الشجار شيئاً، نحن لا نحكم أبناءنا،

إنّهم يرون أنفسهم خيراً منّا وأذكى، إذا كان لا بدّ من

الزواج فليتزوّج، فإن سعد كان بها وإلا فهو المسئول

- خالي، ستعجبك جدًا، سترى وتحكم بنفسك،  
إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة.

فصاحت به:  
- إذا كنت ستدخلها فبفضلي... أنا التي علمتكم  
دينك!...

## ٤٥

\*\*\*

يا لها من حيرة! كآتها مرض مزمن، فكل أمر يبدو  
ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الاختيار، تستوي  
في ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة  
اليومية، فإزاء كل تعترض الحيرة والتردد، أيتزوج أم  
لا؟، كان ينبغي أن يقطع برأي لكنه يدور حول  
نفسه حتى يصيبه الدوار ويختل منه ميزان الروح  
والعقل والحواس ثم تنجلي الدوامية عن موقف لم يتغير  
وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوج أم لا؟. قد  
يضيق أحيانًا بحزبه فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو  
يضجر من معاشره الأشباح الفكرية الخاوية فيحن إلى  
الآليف وتثن في محبسه غرائز الأسرة والحب تروم  
متنفسًا، ثم يتخيل نفسه زوجًا قد برأ من التركيز في  
ذاته وتبددت أوهامه لكنه في الوقت نفسه في الأبناء  
واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكت عليه مشاغل الحياة  
اليومية فينزعه أتمًا انزعاج ويقرر الاستمسك بانطلاقه  
مهما تجشم من وحشة وعذاب، بيد أنه لا ينعم  
بالاستقرار طويلاً فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كرة  
أخرى، وهكذا وهكذا، فأين المفر؟ وبدور فتاة ممتازة  
حقًا، لا يعيها اليوم أن تركب الترام ما دامت قد  
ولدت وشبت في جنة الملائكة التي شغفت قلبه قديمًا،  
فهي كالشهاب الساقط، وهي فتاة ممتازة حقًا في حسنها  
وخلقها وثقافتها، ثم إنَّها ليست عسيرة المنال فهي  
الزوجة الواعدة بكل معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدم،  
وما عليه إلا أن يتقدم، وإلى هذا كله فهو لا يسهو إلا  
أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهي آخر  
ما يودع من أطيايف الحياة قبل النوم وهي أول من  
يستقبل من أطيايفها عند الاستيقاظ، ثم لا تكاد تغادر  
خياله طوال يومه، وما إن يحظى برؤيتها البصر حتى  
يخفق الفؤاد مرددًا أنغامًا شجية من أوتار علاها  
الصدأ، ثم إنَّ دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة  
وعذاب ووحشة، داخلتها نسايم وجرى فيها ماء

غادر كمال وأحمد السكينة معًا، وكان يقف من  
مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد، إنه لا يمكن  
أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو  
بالتفكير حيال مبادئ المساواة والإنسانية، ومع ذلك  
فالواقع الاجتماعي الذي لا يد له في بشاعته حقيقة  
واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقدنما ولع عهدًا  
بقمر بنت أبي سريع صاحب الملقى، فكادت - رغم  
جاذبيتها - تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة. غير  
أنه كان رغم هذا معجبًا بالشاب، غابطًا له شجاعته  
وقوة إرادته وغيرهما من المزايا التي حُرِم هو منها وعلى  
رأسها الإيمان والعمل والزواج، كأنما قد بعث في  
الأسرة كفارة عن جوده وسليته. ما الذي يجعل  
للزواج هذه الخطورة في نظره بينما هو في نظر الآخرين  
لا يزيد عن السلام عليكم... وعليكم السلام؟!

- إلى أين يا فتى؟

- المجلة يا خالي، وأنت؟

- مجلة الفكر لأقابل رياض قلديس، ألا تفكر قليلًا  
قبل أن تخطو هذه الخطوة؟

- أي خطوة يا خالي! لقد تزوجت بالفعل!...

- حقًا؟!

- حقًا، وسوف أقيم في الدور الأول من بيتنا نظرًا  
لأزمة المساكن...

- يا له من تحدٍّ سافر!...

- نعم، ولكنَّها لن توجد في البيت إلا حين تكون  
أمي قد نامت...

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله بأسًا:

- وهل تزوجت على سنة الله ورسوله؟

فضحك أحمد أيضًا وقال:

- طبعًا، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أمَّا  
الحياة فعلى دين ماركس!

ثم وهو يودعه:

الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل، يقطعه على مهل، مسدداً عينيه إلى الشرفة حتى تلتقي بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد معاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ في كتاب أو تسرح الطرف، فأيقن أنها تنتظره، إذ لو شاءت أن تحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك إلا تحبب الشرفة دقائق كل أصيل. ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامته وتحيته؟ لكن مهلاً، إن الغرائز لا تخطئ، كلاهما يود أن يلقي صاحبه، وقد استخف ذلك الطرب وأسكره السرور، وملاء إحساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يمس دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم، ولم يتضح له سبيل، ولكن تياراً جرفه فاستسلم له وهو لا يدري كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صدفته في إشفاق. فتمل مسروراً دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقدم فهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة في هذه الحياة، فيقول مرهواً إنه سيقتم هذه التجربة الفريدة غير هباب فيتاح له أن يفهم الحياة فهماً جديداً صادقاً ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال... أليست هذه هي الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابه متهرباً: أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح حكماً وسوف أفتقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتاتوراً» وقد علمته الحياة السياسية في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه. ففي بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن، أما هذه الفتاة المستكنة في حياتها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعاً إلى الأبد، ولن يجد من شعار يأت به بعد ذلك إلا الكفاح المرير في سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلال مجرد وسيلة «للتحصيل» الرزق، وقد يكون

الفقير الهندي سخيلاً أو مجنوناً ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أذنيه في سبيل الرزق، فأنعم بالحب الذي كنت تفتقده وتتحسر عليه... ها هو يبعث حباً في فؤادك جازاً وراءه المتاعب! وقال له رياض: «أمن المعقول أن تحبها وأن يكون في وسعك أن تتزوجها... ثم تمتنع عن زواجها؟»، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال محتجاً: «إن الحب هو الذي يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة!»، فأجابه بإصرار: «بل أحبها وأكره الزواج»، فقال: «لعلك تخاف المسؤولية»، فأجابه محتجاً: «أنني أحمل من أعباء المسؤولية في بيتي وفي عملي ما لا تحمل بعضه»، فقال: «لعلك أناني أكثر مما أتصور»، فقال ساخراً: «وهل يتزوج الفرد إلا مدفوعاً بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟»، فقال باسماً: «لعلك مريض فاذهب إلى دكتور نفساني لعله يحللك»، فقال له: «من الطريف أن مقالتي القادمة في مجلة الفكر عن: كيف تحمل نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حيرتني»، فقال له: «أنا الحائر إلى الأبد». ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف في طريقه أم حبيبته متجهة نحو البيت، عرفها من أول نظرة رغم أنه لم يرها منذ سبعة عشر عاماً على الأقل. ولم تكن «الهانم» التي عرفها قديماً. ذبلت ذبولاً محزناً وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن في وسع إنسان أن يتصور أن هذه المرأة الساعية في هزالها هي نفس الهانم التي كانت تحظر في حديقة القصر في نهاية من الجمال والكمال! ورغم هذا كله قد ذكرته هيئة رأسها بعائدة فقطع قلبه منظرها، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلا ما استطاع أن يبتسم، ثم ما يدري إلا وهو يتذكر عائشة! ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح في البيت وهي تبحث عن طاقم أسنانها التي نسيت أين أودعته قبل نومها. وأول أمس رأى بدور واقفة في الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متهتأة للخروج! وتساءل أخرج وحدها! وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى في سبيله متمهلاً متفكراً. حقاً لو جاءت وحدها فأنما نجى له، هذا الظفر المسكر لعله يغسل إهانة حلت

- فرصة سعيدة...!

- شكرًا!.

ثم ماذا؟! يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته،  
وها هي نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأي  
فأما التورط وإما الوداع، لعلها لا تتصور أن  
يفترقا ببساطة، ولو كلمة واحدة، وها المفترق على بعد  
خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التي  
ستمى بها، وبأى لسانه أن ينطق، أم يتكلم وليكن ما  
يكون؟! وتوقفت عن المسير وابتسمت ابتسامة مرتبكة  
كأنما تقول أن لنا أن نفرق فبلغ به الاضطراب نهايته،  
ثم مدت يدها، فتلقاها بيده وصمت فترة رهيبية، ثم  
غمغم:

- مع السلامة...!

واستردت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبية. أوشك  
أن يناديها، إن ذهابها متعثرة بالخيبة والحجل كابوس لا  
يُحتمل، وأنت أدري بهذه المواقف التعيسة، غير أن  
لسانه انعقد. فيم كانت متابعتها لها طوال الشهرين  
الماضيين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك  
بنفسها؟ أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية  
التي عاملتك بها أختها؟ وأنت تحبها؟! وهل تلقى من  
ليلها ما لقيت من ليلتك التي خلقتها وراءك كالمجمرة  
المتقدة تضيء في غياهب الماضي بالألم المنصهر؟!.

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أريد حقًا أن يبقى  
أعزب لكي يكون فيلسوفًا أم أنه يدعي الفلسفة ليقى  
أعزب؟ وقال له رياض: هذا شيء لا يصدق ولسوف  
تندم! وهو شيء لا يصدق حقًا ولكن هل يندم أيضًا؟  
وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت  
تحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة  
أحلامه... إن فتاة أحلامه لم تكن لتسعى إليه أبدًا.  
وأخيرًا قال له. إنك في نهاية السادسة والثلاثين من  
عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحًا للزواج. فامتنع  
لقوله وداخلته كتابة...

منذ سنين! ولكن هل كانت عابدة تفعل هذا ولو  
انشق القمر؟! وعندما بلغ منتصف الطريق التفت  
إلى الوراء فرآها قادمة... وحدها! وخيل إليه أن  
خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر  
بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض  
جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الابتسام قبل  
ذلك لهوا عاطفيًا بريئًا أما اللقاء فسيكون له شأن وأي  
شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم في  
الاختيار. ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدًا من  
الترويح! ولكنه لم يهرب، وتقدم في خطاه المتمهلة  
كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع  
الجلال، وفي التفاتة منه التفت عيناها في ابتسامة،  
فقال:

- مساء الخير...

- مساء الخير...

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

- إلى أين؟

- عند واحدة صاحبتني، هناك في هذا الاتجاه...

وأشارت صوب شارع الملكة نازلي، فقال في  
استهتار:

- إنه طريقي فهل تسمحين بأن نسير معًا...؟

فقال وهي تداري ابتسامة:

- تفضل...

وسارا جنبًا إلى جنب، إنها لم تتحل بهذا الفستان  
الجميل لتقابل واحدة صاحبته ولكن لتقابلها هو، وها  
هو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون  
مسلكه؟ لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيئ  
له فرصة مواتية فأما ينتهزها إكرامًا لها وأما يتجاهلها  
فيفتقدها إلى الأبد، هي كلمة قد تقال فيتورط قائلها  
مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا  
دفع إلى مازق وهو لا يدري، وها هو الطريق يطوى  
ولعلها تترقب، وهي تبدو مستجيبة ملبية كأنها ليست  
من آل شداد، أجل ليست من آل شداد في شيء، لقد  
انتهى آل شداد، وولى زمانهم، وليست التي تسيرك  
إلا فتاة سيئة الحظ، والتفت نحوه كالباسمة فقال  
برقة:

- عن معركة العلمين، وقد ارتجت جدران المنظرة بأصواتهم.

- وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟

- الغضب طبعًا، إنهم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعًا، وهكذا لم يرحموا العريس حتى في ليلة زفافه...

وكان ياسين جالسًا إلى جانب زُتوبة، يبدو في زينتته كأنما يصغرها بعشرة أعوام، فقال:

- فليأكلوا بعضهم البعض بعيدًا عنا، ومن رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب...

فقال خديجة باسمه:

- لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك!

ورمقت زُتوبة بنظرة مأكرة حتى ضحك الجميع، وكان قد ذاع في الأيام القريبة الماضية أنَّ ياسين غازل ساكنة جديدة في بيته، وأنَّ زُتوبة ضبطته متلبسًا أو كالمتلبس فما زالت بالساكنة حتى اضطرتها إلى إخلاء الشقة. فقال ياسين يداري ارتباكها:

- كيف أفرغ لمزاجي وبيتي محكوم بالأحكام العرفية!

فقال زُتوبة في امتعاض:

- هلاً استحييت أمام ابنتك؟

فقال ياسين في توسل:

- إني بريء والجارة المسكينة مظلومة!

- أنا الظالمة! أنا التي ضُبطت وأنا أطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بأنني ضللت سبيلي في الظلام! هه؟ أربعون عامًا في البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك؟! أفعالي الضحك حتى قالت خديجة في تهكم:

- إنه كثير الخطأ في الظلام!

- وفي النور على السواء...

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلاً:

- وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد أفندي حسن؟

فقال ياسين مصححًا:

- محمد أفندي زفت!

وأجاب رضوان حانقًا:

مع والديها وأخيها. وكان في استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال. ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف إلا طاقات الورد التي طوّقت الصالة، أما المنظرة فقد امتلأت بذوي اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ علي المنوفي. ومع ذلك كان قد مرَّ عام ونصف على وفاة السيد إلا أنَّ أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيها بعد، أما عائشة فلمَّا عندما دعيتها خديجة إلى شهود الدخلة الصامتة هزَّت رأسها عجبًا وقالت بلهجة عصبية:

- أنا لا أشهد إلا المآثم!

وقد تأملت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلَّى بالحلم المثالي حيال عائشة. وقد جُهِز الدور الثاني بالسكينة للمرة الثانية بأثاث العرس. وجُهِز ياسين ابنته كما ينبغي وباع في سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلا بيت قصر الشوق. وبدت كريمة آية في الجمال، وقد شابها أُمُّها في عهدتها الزاهر خاصة في عينيها الدافئتين، ولم تكن بلغت سنَّ الزواج إلا في الأسبوع الماضي من أكتوبر. ولاحق خديجة سعيدة كما ينبغي لأم العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكمال مرة فمالَت على أذنه قائلة:

- على أيِّ حال فهي ابنة ياسين، ومهما يكن من أمر فهي خير ألف مرة من عروس العنابرا!

وقد مدَّ بوفيه صغير في حجرة السفرة للأسرة، ومدَّ آخر في الفناء لدعوي عبد المنعم من ذوي اللحى، ولم يكن يَتميّز عنهم إذ أرسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك:

- الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التي تبدو فيها مثل محمد العجمي بياع الكسكسي؟!

وجلس أفراد الأسرة في حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذي جالس أصحابه، وأحمد الذي شاركه في الترحيب بهم بعض الوقت، ثم انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضمَّ إلى أهله وهو يقول بأسًا:

- تراجع المنظرة في الزمان ألف عام!

فسأله كمال:

- فيم يتحداثون؟



متعجبة من «استرجالها» في الحديث، فما تمالكك أن قالت:

- المفروض أننا في فرح، تكلموا في أمور مناسبة! ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمه، أمّا إبراهيم شوكت فقال ضاحكًا:

- عذرهم أنّ أفراننا لم تعد أفرانًا، الله يرحم السيد أحمد ويسكنه فسيح جنّاته...

فقال ياسين متحسرًا:

- تزوّجت ثلاث مرّات ولكنني لم أؤفّ مرة واحدة! فقالت زُنبُة في انتقاد مرّ:

- أتذكر نفسك وتنسى ابتنتك؟

فقال ياسين ضاحكًا:

- نُؤفّ في الرابعة إن شاء الله...

فقالت زُنبُة في تهكم:

- أجّلها حتّى تزفّ رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينبس. لعنة الله عليكم جميعًا وعلى الزواج أيضًا، ألا تدركون أنّي لن أتزوّج أبدًا! وأنّني أودّ أن أقتل من يفاخني بهذه السيرة اللعينة. وعقب صمت قصير قال ياسين:

- ليتني أبقى في بوفيه السيّدات حتّى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفونني! أدركته زُنبُة قائلة:

- لو عرفوا سيرتك لرجوك!

فقال أحمد ساخرًا:

- ستخوض لحاهم في الصحاف، وتكون معركة، ونخالي كمال هل يحبّ الإخوان؟ فقال كمال باسمًا:

- أحبّ منهم واحدًا على الأقل!

والتفتت سوسن إلى العروس وسألتها بمودة:

- وما رأي كريمة في لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحني رأسها المتوجّج ولم تتكلّم، فأجابت عنها زُنبُة قائلة:

- قليل من الشبان من هم في تديّن عبد المنعم... فقالت خديجة:

- إنّه ينعم الآن بثروة جدّي التي آلت إلى أمّي! وقال ياسين محتجًا:

- ميراث لا يُستهان به، وكلّمّا قصدها رضوان معونة للترفيه أو خلافه تصدّى له الصفيق وناقشه الحساب!

فقالت خديجة مخاطبة رضوان:

- إنّها لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمّتّعك بما لها في حياتها... ثمّ مستدركة:

- وقد آن لك أن تزوّج، أليس كذلك؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثمّ قال:

- عندما يتزوّج عمّي كمال!

- لقد يشت من عمك كمال ولكن لا ينبغي أن تقلّده...

وأصغى كمال لما يدور حوله بامتعاظ وإن لم يبدّ أثره في وجهه. لقد يشت منه ويش هو من نفسه. وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلّنًا بذلك عن شعوره بذنبه، غير أنّه كان يقف عند طرف المحطّة ليراها في شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع أن يقاوم رغبته في رؤيتها، ولا أن ينكر حبّه لها، أو يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوّج منها! حتّى قال له رياض إنّك مريض وتبى أن تبرأ!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

- أكان محمّد حسن يناقشك الحساب لو كان السعديّون في الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:

- إنّه ليس الوحيد الذي يناقشني الحساب اليوم، ولكن صبرًا، إن هي إلّا أيام أو أسابيع. فسألته سوسن حماد:

- أنظرنّ أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

- أيامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعلى أيّ حال فلن تطول الحرب إلى الأبد... ثمّ يجيء وقت الحساب! فقالت سوسن في جدّ ظاهر:

- المسئول الأوّل عن المأساة هم الذين ظاهروا الفاشيست لظعن الإنجليز من الخلف... وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة متقدمة،

- تفضّلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة...

## ٤٧

كان كمال يسير متسكّماً في شارع فؤاد الأوّل، وكانت الساعة تدور في العاشرة من صباح الجمعة فلقي طريقاً غاصّاً بالمآزة والواقفين، نساء ورجالاً، وكان الجوّ لطيفاً كأكثر أيّام نوفمبر، يغري بالمشي، وقد ألف أن يتخفّف من عزلته القليبة بالاندساس بين الناس في يوم عطلته، فيمضي على وجهه بلا غاية، متسلّياً بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه في طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيّوه برفع أيديهم إلى رءوسهم فردّ تحيتهم بأحسن منها باسمًا. ما أكثر تلاميذه! منهم من توقّف، ومنهم من لا يزال بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائي والثانويّ فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاماً. وكان منظره التقليدي لا يكاد يتغيّر، البذلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ، حتّى درجته السادسة لم تتغيّر أربعة عشر عاماً رغم ما يشاع عن تفكير الوفد في إنصاف الهيئات المظلومة، شيء واحد تغيّر هو رأسه الذي انتشر المشيب في سوافه. وبدا سعيداً بتحيات تلاميذه الذين يحبّونه ويحترمون، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحد من المدرّسين، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه، وبالرغم ممّا اعترى تلاميذه هذه الأيام من شيطنة وجوح!

وعندما بلغ تسكّعه تقاطع عماد الدين مع فؤاد الأوّل ما يدري إلّا وبدور تطالعه وجهًا لوجه، وخفقت جوانحه كأنما انطلقت بها صفارة الإنذار، وجدد بصره لحظات، ثمّ همّ بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج، غير أنّها حوّلت عنه عينيها في تجاهل بين ودون أن تلين أساريرها ثمّ مرقت من جانبه، وعند ذلك فحسب رأى أنّها تتأبّط ذراع شابّ تسير في صحبته! وتوقّف عن المسير، ثمّ أتبعها ناظره، أجل هي بدور، في معطف أسود أنيق، ولهذا صاحبها في

- يعجبني تدبّنه، لهذا خلق في دم أسرتنا، ولكن لا تعجبني لحيته...

فقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

- أعترف بأنّ ابنيّ - المؤمن والمارق على السواء -

مجنونان!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

- الجنون خلق في دم أسرتنا أيضًا!

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعالجها قائلاً قبل أن تنبس:

- أعني أنّي مجنون، وأظنّ كمال أيضًا مجنون، وإن شئت فانا المجنون وحدي!

- هذا هو الحقّ دون زيادة.

- وهل من العقل أن يقضي إنسان على نفسه بالعزوبة ليتفرّغ للقراءة والكتابة؟

- سيتزوّج عاجلاً أو آجلاً ويكون سيّد العقلاء.

فسأل رضوان عمّه كمال قائلاً:

- لم لا تزوّج يا عمّي؟ أريد أن أقف على الأقلّ على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسي حين الضرورة!

فقال ياسين:

- أتتوي الإضراب عن الزواج؟ لن أسمح بهذا ما حييت، ولكن انتظر حتّى تعودوا للحكم ثمّ تزوّج زواجاً سياسياً رائعاً!

أمّا كمال فقال له:

- إذا لم يكن عندك مانع فتزوّج في الحال...

هذا الشابّ ما أجمله! هو مرشّح للجهاد والمال! لو رآته عابدة في زمانها لعشقت، ولو ألقي نظرة عابرة على بدور لشغفها حبّاً، أمّا هو فيدور على نفسه والدنيا كلّها تتقدّم، ولا يزال يتساءل: أتزوّج أم لا أتزوّج؟! والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هي فرصة سانحة ولا هي فرصة ضائعة، والحبّ عسير طبعه الخصام والعذاب، فليتها تزوّج حتّى يخلص من حيرته وعذابه!

وإذا بعد المنعم يدخل عليهم تقدّمه لحيته وهو يقول:

مثل أناقتها، ولعلّه لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهداً صادقاً ليترك نفسه التي هزتها المفاجأة ثمّ تساءل في اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أخاً لها، ولا هو بالعاشق إذ إنّ العشاق لا يجاهرون بحبهم في شارع فؤاد الأوّل خاصّة صباح الجمعة، فهل يكون...؟! وتتابع دقات قلبه في إشفاق، ثمّ تبعها دون تردّد، وعيناه لا تفارقانها، ووعيه مركّز فيها حتّى شعر بأنّ حرارته ترتفع وأنّ ضغطه يصعد وأنّ دقات قلبه تنعاه، ورأهما يتوقّفاً أمام معرض محلّ لبيع الحقائق فدنا منها متباطئاً مصوّباً عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتّى استقرّ بصره على الخاتم الذهبيّ! ولفحه إحساس حارّ كأنّه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع ابن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هذا الشاب يرصده في نهاية الطريق ليحلّ محله؟ وما ينبغي أن يدهش فإنّ أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأساً على عقب، ووقف أمام محلّ اللعب على بعد يسير من موقفهما، يلحظهما وكأنّه يتفرّج على اللعب. إنّها اليوم تبدو أجمل ممّا كانت في أيّ يوم مضى، كالعروس بكلّ معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذي يشيع في كافّة ملابسها؟ إنّ سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضة أم حداد؟ أ تكون أمّها قد توفّيت؟ ليس من عادته تصفّح الوفيات في الصحف ولكن ماذا يهمّه من ذلك؟ الذي يهمّه حقّاً أنّ صفحة بدور قد انطوت في كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوّج أم لا أتزوّج» جوابه المحتمل! فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمحّى لو تتزوّج ليخلص من عذابه فهذا هي قد تزوّجت فليهنأ بالخلاص من العذاب! وخیل إليه أنّ إنساناً لو دُبح لعانى مثل الإحساس الذي يعانيه في موقفه. إنّ أبواب الحياة تغلق في وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثمّ رأها يتحوّلان عن موقفهما، ويتجهان نحوه، ومراً به في سلام وأتبعهما عينيه وهنّ بالسير في أثرهما ولكنّه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبت أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئاً، ونظر صوبها مرّة أخرى كأنّها ليلقي عليها نظرة الوداع، وكانت تتبعد دون

توقّف تخنفي تارة وراء المازّة وتبدو تارة، ويرى منها جانب مرّة ثمّ يرى جانب آخر. وكان كلّ وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعاً». ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوباً بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالاً مماثلة ماضية، دبّت في أعماقه جازّة وراءها شتّى ذكرياتها المدغمة، كأنّها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو في الوقت نفسه لا يخلو من لذّة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقي فيه الألم باللذّة كالفجر تلتقي عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثمّ اختفت عن ناظره، وربّما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطيع أن يتفحصه وكم يؤدّ أن يفعل، وودّ أن يكون موظّفاً - أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلمين! ولكن ما هذه الأفكار الصبائية؟ إنّّه لأمر مخجل، أمّا عن الألم فجدير بالخبر به أن يطمئنّ إذ إنّّه عرف بالتجربة أنّ مصيره - كلّ شيء - إلى الموت. وانتبه أوّل مرّة إلى معرض اللعب الذي ينسبط تحت عينيه، كان آية في التنسيق والجمال، حاوياً لشتّى فنون اللعب التي يهيم بها الأطفال من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقيّة وبيوت وحدائق، فأنجذب إلى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجّرت عنها نفسه المعبّدة حتّى تشبّثت بها عيناه، لم يتج له في طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طاوياً نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان إشباعها. وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدهام بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنّه كان طفلاً سعيداً؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التي تحلم بأن تردّه طفلاً مثل هذا الطفل الخشبيّ الذي يلعب في هذه الحديقة الوهميّة الجميلة! إنّها رغبة سخيّة ومحرّنة في آن. ولعلّ الأطفال في الأصل كائنات لا تحتمل، ولعلّها المهنة وحدها التي علّمتها كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رُدّ إلى الطفولة محتفظاً في ذات الوقت بعقله النامي وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب في بستان السطح بقلب عامر بذكريات عابدة، أو يمضي إلى العباسيّة عام ١٩١٤ فيرى عابدة وهي تلعب في الحديقة ويعرف في الوقت

- كم يوافق أحدنا الآخر!  
 فقالت له بسخرية مستسلمة:  
 - ما ألطفك في سكرك! ...  
 فاستطرد:  
 - ما أسعدنا من زوجين لو تزوّجنا! ...  
 فقالت مقطّبة:  
 - لا تهزأ بي فقد كنت «سيدة» بكلّ معنى الكلمة ...  
 - نعم، نعم، إنك ألذّ من الفاكهة في إبانها! ...  
 فقرصته هازئة وقالت:  
 - هذا قولك ولكنني إذا سألتك رياءاً فوق ما تعطيني هربت!  
 - إن ما بيننا ليسمو فوق النقود!  
 فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:  
 - ولكن لي طفلان يفضّلان النقود على ما بيننا!  
 فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً:  
 - أنا أفكر في التوبة أسوة بالسّ جليّة، ويوم يختارني التّصوّف فسأنزل لك عن ثروتي!  
 فقالت ضاحكة:  
 - إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام ...  
 فضحك ضحكة عالية وقال:  
 - لا كانت التوبة المضرة بمثيلاتك!  
 إلى هذا يفزع من السهاد! ثمّ شعر بأنّ وفقته أمام معرض اللعب قد طالت فتحول عنه وذهب ...

## ٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:  
 - حقيقي يا حبيبي أنّهم سيغلّقون الخمارات؟  
 فأجاب ياسين بثقة واطمئنان:  
 - لا سمح الله يا خالو! من عادة النّوّاب أن يثرثروا عند نظر الميزانيّة، ومن عادة الحكومة أن تُعِدّ بالنظر في تحقيق رغبات النّوّاب في أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبداً ...  
 واستبقت جماعة ياسين بحانة محمّد على المشاركة في التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له إنّ الحرب ستقع عام ١٩٣٩ إنّهُ سيقضى عليه عقب إحدى غاراتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنّها خير على أيّ حال من التركيز في هذه الحليّة الجديدة التي ارتطم بها الآن في شارع فؤاد، خير من التفكير في بدور وخطيبتها وموقفه منها، ولعلّ ثمة خطأ في الماضي يكفّر عنه وهو لا يدري، كيف ومتى وقع هذا الخطأ؟ لعلّه حادث عرضي أو كلمة قيلت أو موقف كابده، هذا أو ذاك هو المسؤول عن هذا العذاب الذي يعاني. يجب أن يعرف نفسه حتّى يتيسّر له أن يخلّصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغي له أن يقع، ولعلّه المسؤول عن ذلك التردّد الجهتميّ الذي انتهى به إلى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبّطة ذراع خطيبتها! وينبغي التفكير مرّتين في هذا العذاب المبطن بلذّة غامضة، أليس هو الذي ذاقه قديماً في صحراء العباسيّة وهو يتطلّع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف؟ فهل كان تردّده حيال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيشمل بعذابها ولذتها معاً؟ يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندي أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حتّى يتسنى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات لينفّخ الماضي جيّداً، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنّها ليست الأولى من نوعها، فعنده منها ذخيرة يصحّ جمعها في مؤلّف واحد تحت عنوان «ليالي بلا نوم»، ولن يقول إنّ حياته عبث، ففي النهاية سيخلف عظاماً قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهوا! أمّا بدور فقد ولّت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزيّ، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قُبَل، حتّى ولا لمسة أو كلمة طيبة، ولكنّه لم يعد يخشى السهاد. فقدنيما كان يلقيه وحيداً، أمّا اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثمّ يذهب إلى عطية في البيت الجديد بشارع محمّد عليّ، ثمّ يواصل أحاديثها التي لا تنقضي. وفي آخر مرّة قال لها بلسان أثقله السكر:

- لئن عروس كالوردة، زينة السكينة، ولكنّها أول  
فتاة في أسرتنا يمرّ عليها عام على زواجها دون أن  
تحمل، لهذا جزعت أمها!

- وأبوها فيها يبدو

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

- إذا جزعت الزوجة جزع زوجها...

- لو يتذكر الإنسان قَرَف الأولاد لكره الحبل!...

- ولو! الناس يتزوجون عادة لإنجاب الذرية...

- لهم حق! لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية  
أحد...

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

- أخشى أن يكون ابن أخي من أتباع هذا

الرأي...

- بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم

بهم فيستردوا شيئاً من حريتهم المفقودة!

فقال ياسين:

- هيهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدهد آخر ولكنّها في  
نفس الوقت تمحلق في زوجها «أين كنت؟». لماذا غبت  
إلى هذه الساعة؟ ومع ذلك فالحكماء لم يستطيعوا أن  
يغيروا هذا النظام الكوني.

- ماذا منعهم؟

- أزواجهم! لم يدعن لهم فرصة للتفكير في  
ذلك...

- اطمئن يا ياسين أفندي، فإنّ زوج ابنتك لا يمكن  
أن ينسى فضل ابنك في توظيفه.

- كلّ شيء يُنسى...

ثمّ - وهو يضحك - وقد دغدغت الخمر رأسه:

- ثمّ إنّ «المحروس» نفسه خارج الحكم الآن!

- آه! والوفد سيعمر هذه المرّة فيها يبدو...

وإذا بالمحامي يقول بلهجة خطابيّة:

- لو سارت الأمور سيراً طبيعياً في مصر لحكم الوفد

إلى الأبد!...

فقال ياسين ضاحكاً:

- هذا القول له وجهته لولا خروج ابني على الوفد!

- ولا تنسوا حادث القصاصين! إذا مات الملك فقلّ

على أعداء الوفد السلام!

- طول عمرهم يبعدون بإخراج الإنجليز، ويفتح  
جامعة جديدة، ويتوسّع شارع الخليج، فهل تمّ شيء  
من هذا يا خالو؟

وقال عميد ذوي المعاشات:

- لعلّ النائب مقدّم الاقتراح قد شرب خمرًا زعافًا

من خور الحرب فانقمم بتقديم اقتراحه...

وقال المحامي:

- ومهما يكن من أمر، فإنّ حانات الشوارع

الإفريقية لن تمسّ بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع

المحذور، إلّا أن تسهم في تافرن أو غيرها... والختار

للختار كالبنين يشدّ بعضه بعضًا...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدبّاباتهم إلى عابدين

لمسألة تافهة هي إعادة النحاس إلى الحكم، فهل نظّمهم

يسكتون عن إغلاق الخيّارات؟!

وكان بالحجرة - إلى جماعة ياسين - نفر من أهل

البلد من التجار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح

الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشيء من الغناء قائلاً:

- هلمّوا نغني «أسير العشق».

فبادر خالو بالعودة إلى موقفه وراء الطاولة، وراح

الأصدقاء يغنون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»،

وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام في أصواتهم حتّى

لاحت في وجوه أهل البلد بسّات ساخرة، غير أنّ

الغناء لم يستمرّ طويلاً، وكان ياسين أول المنسحبين،

ثمّ تبعه الآخرون فلم يُتمّ الدور إلّا الباشكاتب، ثمّ

ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو

تمطّق أو يد تصفّق في طلب كأس أو مرّة، وإذا بياسين

يقول:

- أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظّف المعجوز كالمحتجّ:

- لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده!... صبرك

بالله يا أخي!...

وقال باشكاتب الأوقاف:

- لا داعي للجزع يا ياسين أفندي، ومسير بنتك

تحبل!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخي  
أول شهداء الحركة الوطنية، فسمعت أزيز الرصاص  
وهو يمرق لصق أذني ويستقر في أخي، يا للذكرى! لو  
امتدّ به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين!

- ولكنّ العمر امتدّ بك أنت!

- نعم، ولكنّ ما كان بوسعي أن أكون وزيراً  
بالابتدائية، ثمّ إنّنا في جهادنا توقعنا الموت لا  
المنصب، غير أنّه لا بدّ أن يموت أناس ويتبوأ المناصب  
آخرون، وفي جنازة أخي مشى سعد زغلول فقدمني  
إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!

- ولكنّ كيف وجسدت - رغم جهادك - متّسعاً  
للعريضة والعشق؟!

- اسمعوا يا هوه! وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون  
النساء في الطرق اليسوا هم الذين ردّوا رومل على  
أعقابه؟! فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم  
روح الفروسيّة، والمجاهد والسكران أخوان يا أولي  
الألباب!

- وسعد زغلول ألم يقل لك شيئاً في جنازة  
أخيك...؟

فأجاب عنه المحامي قائلاً:

- قال له ليتك كنت الشهيد أنت!...

وضحكوا، وكانوا في هذه الحال يضحكون أولاً ثمّ  
يتساءلون عن السبب، وضحك معهم ياسين في أريحية  
صافية ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤدّباً لا كحضرتك،  
وكان ابن حظّ أيضاً، ولذلك كان واسع الأفاق، فكان  
سياسياً ومجاهداً وأديباً وفيلسوفاً وقانونياً، وكانت كلمة  
منه تحيي وتميت!

- الله يرحمه.

- ويرحم الجميع، كلّ ميت يستحقّ الرحمة، بحسبه  
أنّه فقد الحياة، حتّى المومس وحتّى القوّاد، وحتّى الأمّ  
التي كانت تبعت بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به...

- وهل يمكن أن توجد هذه الأم؟!

- كلّ ما تصوّر وما لا تصوّر يوجد في الحياة!

- ألم تجد إلّا ابنها؟

- الملك بسلام!

- الأمير محمّد عليّ يُعَدّ بذلة التشريف! وهو منسجم  
مع الوفد طول عمره...

- الجالس على العرش - أيّا كان اسمه - هو عدوّ  
للوفد بحكم مركزه كالويسكي والحلوى لا يتفقان!

فقال ياسين وهو يضحك نشوة:

- لعلّ الحقّ معكم، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر  
منك بسنة، وأنتم منكم من بلغ أذّل العمر ومنكم  
من يوشك أن يدركه!

- اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

- على أيّ حال فأنا أصغركم سنّاً...

ثمّ فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة وخيلاء،  
واستطرد:

- ولكنّ العمر الحقيقي لا يقاس بالسنين، ولكنّ  
بالنشوة ينبغي أن يقاس، والخمر قد انحطّت نوعاً  
ومذاقاً في أيّام الحرب ولكنّ نشوتها هي هي، وعند  
الاستيقاظ صباحاً يدقّ رأسك الصداق فتفتح عينيك  
بكأشة ثمّ تتجشّأ كحولاً، غير أنّي أقول لكم إنّ في  
سبيل النشوة يموت أيّ شيء، وربّ أخ يتساءل  
والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت، وابن السبعة  
والأربعين غير مثيله في الزمن الأوّل ممّا يدلّ على أنّ كلّ  
شيء قد غلا ثمنه في الحرب إلّا العمر فلا ثمن له، في  
الزمن الأوّل كان الرجل يتزوّج في السّتين من عمره أمّا  
في زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن  
الوصفات المقويّة، والعريس في شهر العسل قد يوحل  
في شبر ماء!

- الزمن الأوّل!، أهل الدنيا جميعاً يسألون عنه!

فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر تترنّ في  
أوتار صوته:

- الزمن الأوّل، اللهمّ ارحم أبي، شدّ ما ضربني  
ليمنعي من الاشتراك الدمويّ في الثورة! ولكنّ الذي  
لا تُرهبه قنابل الإنجليز لا يُرهبه الزجر! وفي قهوة أحمد  
عبده كنّا نجتمع لتدبير المظاهرات وقذف القنابل...

- هذه الأسطوانة من جديد! أخبرني يا ياسين أفندي

أكان وزنك أيّام الجهاد كوزنك اليوم؟

- وأثقل، غير أنّي كنت حين الجدلّ كالنحلة، وفي

كثب، وكان لي منهم أصدقاء على عهد الثورة!  
فهتف المحامي:

- ولكنك كنت تجاهدهم... أنسيت!

- نعم... نعم، لكّل حال ما يناسبها، وفي مرة  
ظنوني جاسوساً لولا أن سارع إليّ زعيم الطلبة في  
اللحظة المناسبة فدلّ القوم على حقيقتي فهتفوا لي،  
وكان ذلك في جامع الحسين!

- يعيش ياسين... يعيش ياسين! ولكن ماذا كنت  
تفعل في جامع الحسين؟

- أجب، هذه نقطة هامة جداً...

فضحك ياسين ثم قال:

- كنّا نصلي الجمعة، وكان من عادة أبي أن يأخذنا  
معه لصلاة الجمعة، ألا تصدّقون؟ سلوا أهل الحسين!  
- كنت تصلي زلفى لأبيك؟

- والله، لا تسيئوا الظنّ بنا، نحن أسرة دينيّة، أجل  
كلّنا سكيرون فاسقون، ولكن في النهاية تنتظرنا التوبة!  
وهنا تأوّه المحامي قائلاً:

- ألا نعاود الغناء قليلاً؟

فبادره ياسين قائلاً:

- أمس غادرت الحانة وأنا أغنيّ فاعترضني شرطيّ  
وهتف بي محدّراً: «يا أفندي!» فسألته: «ألا يحقّ لي أن  
أغنيّ؟»، فقال: «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقلد  
محتجاً: «ولكنني أغنيّ!» فقال بحدّة: «كلّه زعق أما  
القانون»، فسألته: «والقابل التي تنفجر بعد الساعة  
١٢ ألا تُعدّ زعقاً؟» فقال مهدّداً: «الظاهر أنك ترغب  
في البيات في القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول: «بل  
الأفضل أن أبيت في البيت!»، كيف نكون أمة  
متحضّرة والعساكر تحكّمنا؟! وفي البيت تلقى زوجك  
بالمرصاد وهنالك في الوزارة رئيسك، حتّى في التربة  
يستقبلك ملاكان بالهراوات...

وعاد المحامي يقول:

- فلنمّر بشيء من الغناء...

فتحنح عميد ذوي المعاشات ثمّ راح يترنّم:

جوزي التجوّز عليّه  
ولسّه الحنّة في إيديّه  
يوم ما جه وجبها عليّه  
دي نار يا ناس وآدت فيّه

- ومن أروع للألم من الابن؟! ثمّ إنكم جميعاً أبناء  
المضاجعة!

- الشرعيّة!

- هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة، وقد عرفت  
موسمات بائسات كان فراشهّن يخلو من ضجيج أسبوعاً  
أو أكثر، دلّوني على أمّ من أمهاتكم قضت مثل هذه  
الفترة بعيداً عن قرينها!

- لا أعرف شعباً كالشعب المصريّ ولعاً بالخوض في  
أعراض الأتهات!

- نحن شعب قليل الأدب...

فقال ياسين ضاحكاً:

- إنّ الزمن أدبنا أكثر ممّا ينبغي، والشيء إذا زاد  
عن حدّه انقلب إلى ضده، ولذلك فنحن غير مؤدّين!  
ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة  
ختامنا!...

- ها أنا من ذوي المعاشات ولكنني لم أتب بعد!

- التوبة لا تخضع لكادر الموظفين، ثمّ إنك لا تفعل  
شيئاً ضاراً، أنت تسكر ساعات كلّ ليلة وليس في  
ذلك من بأس، وسوف يمنعك عن السكر يوماً المرض  
أو الطبيب وكلاهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء،  
ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة  
الزوجيّة، ونزداد بمرور الأيام ضعفاً ولكنّ رغائبنا لا  
تقف عند حدّ، هيهات، فتتعبّ ثمّ نسكر مرة  
أخرى، ويشيب شعرنا فيفضح ممّا المستور وإذا بصفيق  
يعترض سبيلك في الطريق وهو يقول: «عيب أن  
تطارد امرأة وشعرك شايب!» يا سبّحان الله ما لك  
أنت إذا كنت شاباً أو شيخاً، أتبع امرأة أم أتبع حمارة!  
حتّى تخال حيناً أنّ الناس متأمرون مع زوجك عليك،  
وهنالك إلى ذلك كلّ الدلال بثقله والعسكريّ  
بهرأوته، حتّى الخادمة تتيه دلالاً في سوق الخضار،  
وهكذا تجد نفسك في عالم مشاكس لا صديق لك فيه  
إلا الكأس، ثمّ يجيء دور المرتزقة من الأطباء فيقولون  
لك بكلّ بساطة: «لا تشرب!»

- ومع ذلك أتذكر أنّنا نحبّ الدنيا بكلّ قلوبنا؟

- بكلّ قلوبنا! والشرّ نفسه لا يخلو من خير، حتّى  
الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يوماً عن

وسرعان ما ردّوا المطلع في حماس همجي، وكان ياسين يغرق في الضحك حتى دمعت عيناه...

## ٤٩

كثيراً ما كانت تشعر خديجة بأنّها وحيدة. ومع أنّ إبراهيم شوكت - خاصة منذ أن قارب السبعين - كان يعتكف في بيته طوال أيام الشتاء، إلّا أنّه لم يستطع أن يبدّد وحشتها، ولم تن في القيام بواجبات بيتها، غير أنّها - الواجبات - باتت أهون من أن تستغرق حيويّتها ونشاطها، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قويّة نشيطة وازدادت جسامة. وأسوأ من هذا أنّ وظيفتها كأمّ قد انقطعت على حين أنّ دورها كحياة لم ولن يبدأ أبداً فيها بدا. فإحدى الزوجتين ابنة أخيها، والأخرى موظفة لا تكاد تلتقي بها إلّا فينادي ندر من الأوقات والمناسبات. فكانت تروّج عن صدرها المكبوت فيها يدور بينها وبين زوجها المتلفّع بعباءته.

- مضى أكثر من عام على زواجها ولم نوقد شموعاً! فهزّ الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول:

- لعلّ عبد المنعم وأحد يعدّان الذرّيّة موضّة قديمة كطاعة الوالدين!

فقال الرجل في ضجر:

- أريحي نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا.

فتساءلت في حدة:

- إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

- لعلّ إبنك يخالفناك في هذا الرأي!

- لقد خالفاني في كلّ شيء، ما أضيع تعبي

وأملّي ..

- أيجزلك ألا تكوني جدّة؟

فقالت في حدة تعالت درجتها:

- إنّ حزني عليهما لا على نفسي!

- لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره

خيراً...

- أنفق المسكين كثيراً وسينفق غداً أكثر، إنّ عرائس

اليوم غالية الثمن كالطاطم واللحوم!

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:

- أمّا الأخرى فاستعين عليها بسيدي المتويّ.

- اعترفي بأنّ لسانها كالشهد!

- مكر ودهاء، ماذا تتوقّع من ابنة العنابر؟

- اتقي الله يا شيخة!

- ترى متى يذهب بها «الاستاذ» إلى الطبيب؟

- إنّها زاهدان في هذا!

- طبعاً، إنّها موظفة، فمن أين تجد الوقت للحبل

والولادة؟

- إنّها سعيدان ما في ذلك شلّ.

- الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة،

وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان...

- أنّه رجل ولن يضره ذلك...

- ليس في هذا الحيّ كلّ شابان كولديّ فيا خسارة!

\*\*\*

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه وأنجاهه، فأثبت أنّه موظف كفاء و«أخ» نشيط، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجماليّة إليه فعُيّن مستشاراً قانونياً لها، وأسهم في تحرير المجلّة، وكان يلقي المواعظ أحياناً في المساجد الأهليّة. وجعل من شقته نادياً لإخوانه يسهرون عنده كلّ ليلة وعلى رأسهم الشيخ عليّ المنوفي. وكان الشاب شديد التحمّس موفور الاستعداد كي يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل في خدمة الدعوة التي آمن بكلّ قلبه - على حدّ تعبير المرشد - بأنّها دعوة سلفيّة وطريقة سنيّة وحقيقة صوفيّة وهيئة سياسيّة وجماعة رياضيّة ورابطة علميّة ثقافيّة وشركة اقتصاديّة وفكرة اجتماعيّة، وكان الشيخ عليّ المنوفي يقول:

- تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شؤون الناس في الدنيا والآخرة، وإنّ الذين يظنون أنّ هذه التعاليم إنّما تتناول الناحية الروحيّة أو العبادة دون غيرها من النواحي مخطئون في هذا الظنّ، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسيّة ودين ودولة وروحانيّة ومصحف وسيف...

فيقول شاب من المجتمعين:

- هذا هو ديننا، ولكنّا جامدون لا نفعل شيئاً والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله...



العمال المجاهدين، وكلا العاملين واجب لا غنى عنه...

فقال الأستاذ:

- ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور إلا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيمها بالإيمان الجديد، ويمسي الشعب كله كتلة واحدة من الإرادة، فهناك لن تقف في سبيلنا القوانين الممجيّة ولا المدافع...

- كلنا مؤمنون بذلك، غير أنّ كسب العقول المثقفة يعني السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم... وإذا بأحمد يقول:

- سيدي الأستاذ، ثمة ملاحظة أود إبداءها، عرفت بالتجربة أنّه ليس من العسير إقناع المثقفين بأنّ الدين خرافة وأنّ الغيبيّات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإنّ أكبر تهمة يستغلّها أعداؤنا هي رمي حركتنا بالإلحاد أو الكفر...؟

- إنّ مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام، أمّا الدين فلن يتأتّى القضاء عليه إلّا في ظلّ الحكم الحرّ، ولن يتحقّق هذا الحكم إلّا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائماً أن تخاطب الناس على قدر عقولهم...

ونظر الأستاذ إلى سوسن باسماً وهو يقول:

- كنت تؤمنين بالعمل فهل بتّ تقنعين بالنقاش في ظلّ الزواج؟...

وكانت تدرك أنّه يداعبها وأنّه لا يعني ما يقول، ومع ذلك فقد قالت جادة:

- إنّ زوجي يحاضر العمال في الخرابات النائية، وأنا لا أتي أوزع المنشورات بنفسي...

ثمّ قال أحمد مغتماً:

- إنّ عيب حركتنا أنّها تجذب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبيّة!

فقال الأستاذ عدلي كريم وهو يهزّ رأسه الكبير في استهانة واضحة:

- أعلم هذا حقّ العلم، ولكنّي أعلم أيضاً أنّ

فيقول الشيخ عليّ:

- لا بدّ من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار المجاهدين، ثمّ تحييء مرحلة التنفيذ...

- وإلّا ما ننتظر؟

- لننتظر حتّى تنتهي الحرب. إنّ الحقل مهيباً لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهبّ الإخوان وكلّ مدرّع بقرّانه وسلاحه...

عبد المنعم بصوته القويّ العميق:

- فلنوطّن النفس على جهاد طويل، إنّ دعوتنا ليست موجّهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافّة المسلمين في الأرض، ولن يتحقّق لها النجاح حتّى تجمع مصر والأمم الإسلاميّة على هذه المبادئ القرآنيّة، فلن نغمد السلاح حتّى نرى القرآن دستوراً للمسلمين أجمعين...

الشيخ عليّ المنوفي:

- أبشركم بأنّ دعوتنا تنتشر بفضل الله في كلّ بيئة، لها اليوم مركز في كلّ قرية، إنّها دعوة الله، والله لا يخذل قوماً ينصرونه...

وفي نفس الوقت، كان يستعر نشاط آخر في الدور التحتانيّ وإن اختلف الهدف، ولم يكن وفيه العدد كهذا، فإنّ أحمد وسوسن كانا يجتمعان في كثير من الليالي بعدد محدود من الأصدقاء مختلفي النحل والملل، أكثرهم من البيئة الصحفيّة. وقد زارهم الأستاذ عدلي كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظريّة. فقال لهم:

- حسن أن تدرسوا الماركسيّة، ولكن تذكّروا أنّها وإن تكن ضرورة تاريخيّة إلّا أنّ حتميّةها ليست من حتميّة الظواهر الفلكيّة. إنّها لن توجد إلّا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأوّل ليس في أن نتفلسف كثيراً ولكن في أن نملاً وعي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخي الذي عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعاً...

أحمد:

- إنّنا نترجم الكتب القيّمة عن هذه الفلسفة للخاصّة من المثقّفين، ونلقي المحاضرات الحماسيّة على

كانت فيلاً عبد الرحيم باشا عيسى بحلولان تودّع  
الفوج الأخير من الزوّار الذين جاءوا يودّعون قبيل  
سفره إلى الأراضي الحجازيّة لأداء فريضة الحجّ . . .

- إنّ الحجّ أمنية قديمة، لعن الله السياسة فهي التي  
شغلتنني عنه عامًا بعد عام، ولكن في مثل عمري يجب  
أن يفكر المرء في أداء اللقاء القريب بربه .

فقال عليّ مهران وكيل الباشا:

- لعن الله السياسة!

فرّد الباشا عينيه الدابلتين بين رضوان وبين حلمي  
متفكّرًا ثمّ قال:

- قل فيها ما شئت، غير أنّ لها جيلًا في عنقي لا  
أنساه وهو أنّها سلّتنني عن وحشتي، إنّ الأعزب العجوز  
مثلي يلتبس الأنس ولو في الجحيم!

فلقّب عليّ مهران حاجبيه وقال:

- ونحن يا باشا ألم نقم بواجبنا في تسليتك؟

- دون شكّ، ولكن يوم الأعزب طويل قليل

الشتاء، ولا بدّ للإنسان من رفيق، وإنّي لاعترف بأنّ  
المرأة ضرورة خطيرة، وكم أذكر أمي هذه الأيام! إنّ  
المرأة ضرورة حتّى لمن لا يتعشّقها!

وكان رضوان يفكر في أمور بعيدة فإذا به يسأل  
الباشا:

- هَبْ النّحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر؟!

فلوّح الباشا بيده ساخطًا وقال:

- فليبق بنحسه حتّى أعود على الأقلّ من  
الحجّ . . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه:

- كلّنا مذنب، والحجّ يغسل الذنوب . . .

فضحك حلمي عزّت قائلاً:

- إنّك يا باشا مؤمن، وإنّ إيمانك كما يحزّ الكثيرين!

- له؟ إنّ الإيمان واسع الصدر، والمنافق وحده

الذي يدّعي البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظنّ أنّ  
الإنسان لا يقترف الذنوب إلّا على جنة الإيمان، ثمّ إنّ

ذنوبنا أشبه بالبعث الصبيانيّ البري!

فقال عليّ مهران متنهّدًا في ارتياح:

الأمويّين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع  
ذلك فهم الذين نشره في بقاع العالم القديم حتّى  
إسبانيا! فمن حقّنا أن نستفيد من هؤلاء، علينا أن  
نحدّزهم في الوقت نفسه، ولا تنسوا أنّ الزمن معنا  
على شرط أن نبذل ما في وسعنا من جهد وتضحية . . .  
- والإخوان يا أستاذ! لقد بتنا نشعر بأنهم عقبة  
خطيرة في سبيلنا!

- لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التي  
تخيّلها، ألا ترى أنّهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون  
اشترائيّة الإسلام؟ فحتّى الرجعيّون لم يجدوا بدًّا من  
استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب  
فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقًا جزئيًّا، ولكنهم  
لن يوقفوا حركة الزمن المتقدّمة إلى هدفها المحتوم، ثمّ  
إنّ نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

\*\*\*

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب  
في دهشة مقرونة بالامتناع والسخط، حتّى قالت يومًا  
لزوجها:

- لم أر بيتًا كبيتك عبد المنعم وأحد، لعلّها قهوتان  
وأنا لا أدري، فلا يجيء المساء حتّى يمتلئ الطريق  
بالزوّار من أصحاب اللحى والخواجات، لم أسمع عن  
شيء كهذا من قبل . . .

فهزّ الرجل رأسه قائلاً:

- أن لك أن تسمعي . . .

فقالت بحدّة:

- إنّ مرتبتيهما لن يكفيا ثمن القهوة التي تقدّم  
للضيوف!

- هل اشتكيا إليك الفقر؟

- والناس؟ ماذا يقولون وهم يرون أفواجًا تدخل

وأفواجًا تخرج؟

- كلّ واحد حرّ في بيته . . .

فنفخت قائلة:

- إنّ أصوات أحاديثهم التي لا تنتهي تعلو أحيانًا  
حتّى تخرج إلى الحارة . . .

- فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى السّماء! . . .

وتنهّدت خديجة من الأعياق وهي تضرب كفًا بكفّ . . .

- فشر! إذا تحدّيتني فسوف أستقبلك حين العودة  
من الحجّ بقمر ولا كلّ الأقيار ثمّ ننظر ماذا يكون من  
أمرك!

فقال الباشا بأسماً:

- ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الإخص،  
أنت شيطان يا مهران، شيطان لا غنى للإنسان  
عنه...

- أحمد الله على ذلك...

رضوان وحلمي في وقت واحد تقريباً:

- ونحمده عليه...

فقال الباشا في خيلاء وسرور:

- أنتم أنسي، ما الحياة بدون المودة والصداقة؟  
الحياة جميلة، الجمال جميل، الطرب جميل، العفو  
جميل، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية  
خاصّة، وسوف تعلّمكم العمر الكثير، إني أحبكم  
وأحبّ الدنيا، وإنّ زيارتي لبيت الله للشكر والاعتذار  
وطلب الهداية...

فقال رضوان بأسماً:

- ما أجل منظرك! إنك تقطر صفاء...

فقال عليّ مهران بكم:

- ولكنّ حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى،  
حقاً يا باشا إنك معلّم الجيل!

- وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة! اللهم إني إذا  
قدمت يوماً للحساب فسأشير إليك وكفى!

- أنا! مظلوم والله، لست إلا عبداً مأموراً...

- بل أنت شيطان...

- ولكن لا غنى لإنسان عنه؟!

فضحك الباشا قائلاً:

- نعم يا عكروت...

- كنت وما أزال في حياتك العامرة نغمًا مطرباً  
ووجهًا مليحًا وهناء متجدّداً، وأخيراً لا تنس أيام  
شبابي يا سعادة الغادر...

فتأوّه الباشا قائلاً:

- أيام زمان! آه من الزمان! يا أولاد لم تكبروا؟!!

جلّت حكمتك يا ربّي وعَلّت!...

- يا له من قول جميل! والآن دعني أصارحك بأنّي  
تشاءمت كثيراً حين حدّثني عن اعتزامك الحجّ،  
وساءلت نفسي ترى أهي التوبة؟! وهل تنتهي بالنسبة  
لنا مسرّات الحياة؟!

فضحك الباشا حتّى اهتزّ جذعه وقال:

- أنت شيطان من صلب شيطان، أتحزنون حقاً إذا  
علمتم أنّها التوبة؟

فقال حلمي متأوّهاً:

- كمن ذبح وليدها في حجرها!...

فضحك عبد الرحيم باشا مرّة أخرى وقال:

- آه منكم يا أولاد الإيه، على مثلي إذا أراد التوبة  
حقاً أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والحدود  
الوردية، وأن يعكف على مجاورة قبر النبيّ عليه الصلاة  
والسلام...

فهتف مهران في شماتة:

- الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدّثني عنها  
العارفون، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار!

فقال حلمي عزّت كالمحتجّ:

- لعلّها دعاية كاذبة كالدعايات الإنجليزية، وهل  
يوجد في الحجاز كلّ وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى:

- ولا في الجنة!.. (ثمّ متراجفاً).. لكننا يا أولاد  
الحرام بصدد حديث التوبة!

فقال عليّ مهران:

- مهلاً يا باشا، لقد أخبرتني يوماً عن الصوفيّ الذي  
تاب سبعين مرّة، أليس معنى هذا أنّه أذنب سبعين  
مرّة؟

فقال رضوان:

- أو مائة مرّة!

فقال عليّ مهران:

- أنا راض بسبعين!

فتساءل الباشا ووجهه يتهلّل بشراً:

- وهل في العمر بقيّة؟

- ربّنا يطوّل عمرك يا باشا، طمئننا وقل إنّها التوبة  
الأولى!

- والأخيرة!

كانت قناتي لا تميل لغامز  
فألتأها الإصباح والإمساء

فقال مهران ملقبًا حاجبيه:

- لغامز؟ بل قل لا تميل لمهران!

- يا ابن الكلب لا تفسد الجوّ بهدرك! لا يجوز أن  
نعبث عند ذكر الأيّام الجميلة، الدموع أحيانًا أجمل من  
الابتسام وأضحكم إنسانيةً وأشدّ عرفانًا بالجميل،  
اسمعوا هذا أيضًا:

واستنكرتني وما كان الذي نكرت  
من الحوادث إلّا الشيب والصلع

- ما رأيكم في قول «من الحوادث»؟

وإذا بمهران ينادي على طريقة باعة الصحف:

- الحوادث والأهرام والمصريّ...

الباشا يائسًا:

- الحقّ ليس عليك ولكن عد...

- عليك أنت!

- أنا! أنا بريء منك، عندما عرفتك كنت على  
حال يحسدك عليها إبليس، ولكنّي لن أسمح لك أن  
تنتزعني من جوّ الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا  
أيضًا:

عريت من الشباب وكان غضًا  
كما يعرى من الورق القضييب

فتساءل مهران كالمنزعج:

- القضييب يا باشا.

الباشا وهو يردّد ناظره بين رضوان وحلمي  
المغرقين في الضحك:

- صاحبكم جنة لا يؤثّر فيها الشعر! ولكنّه سيلبغ  
قريبًا فترة الحسرات، حين يصير كلّ جميل خبرًا لكان  
أو إحدى أخواتها، (ثمّ متلفّئًا إلى مهران) وأصحاب  
زمان يا ابن الهرمة هل نسيتم؟  
- أوه، الله يسيهم بالخير... كانوا الجمال كلّه  
والدلال كلّه...

- ماذا تعرف عن شاكر سليبان؟

- كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الإنجليز  
حتّى أحيل على المعاش قبل الأوان في وزارة النحاس

الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنّه الآن معتكفًا في عزبته  
بكوم حمادة...

- يا عيني على أيّامه! وحامد النجدي؟

- هذا أسوأ أحببنا حطًا! خسر الجلد والسقط،

ولأنّه ليطوف الآن ليلاً بالمراحيض العموميّة...

- كان خفيّفًا ظريفًا ولكنّه كان كذلك مقامرًا

وعريبًا. وعليّ رأفت؟

- لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضوًا في مجلس إدارة  
عدّة شركات، ولكنّ سمعته ضيّعت عليه الوزارة فيما  
يقال!...

- لا تصدّق ما يقال، وليّ الوزارة أناس جاوزت  
شهرتهم حدود المملكة، غير أنّ هذا الرأي الذي طالما  
نوّهت لكم عنه وهو أنّ التحلّي بالفضائل العامّة واجب  
علينا أكثر من بقية الناس! فإذا تحقّق لأحدكم هذا فلا  
تثريب عليه بعد ذلك، لقد حكم المهالك مصر  
أجيالًا، وما زالت ذرارهم تنعم بالجاه والمال، وما  
المملوك؟! هو ذلك نفسه! ساقصّ عليكم قصّة عظيمة  
المغزى...

وصمت الباشا قليلًا كأنّما ليجمع شتات فكره ثمّ  
قال:

- كنت في ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن  
عُرضت عليّ قضية مدنيّة عن ميراث مختلف عليه،  
وقبل نظر القضية عرّفني بعضهم بشابّ جميل له وجه  
رضوان وقوام حلمي... (ثمّ مشيرًا إلى مهران)  
ورشاقة هذا الكلب في عزّ أيّامه! فتصادقنا عهدًا وأنا  
لا أدري عن سرّه شيئًا، حتّى إذا كان يوم نظر القضية  
ما أدري إلّا وهو يقف أمامي ممثلاً لأحد طرفي النزاع!  
ماذا تظنّون فعلت؟

فتمتم رضوان:

- يا له من موقف!..

- تنخّيت عن نظر القضية دون تردّد!

وأبدى رضوان وحلمي عن إعجابها أمّا مهران  
فقال كالمتحجّ:

- وضيّعت عليه كفاحه؟

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران:

- ليس هذا فحسب، ولكنّي قطعت احتقارًا لسوء

ودموعي تتساقط فوق جبينها وخدّيهما، وكم أودّ لو  
تغلّب على متاعبك يا رضوان . . .

فقال رضوان وكان يبدو شارداً ساهماً:

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة . . . ليس  
الأمر مشكلة!

- يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة، ولكنّ الأمر  
مشكلة، وقد لا تبالي تساؤل الناس ولكن ماذا عن  
تساؤلك أنت؟ من الممكن أن تقول إنّ المرأة مثيرة  
للاشمئزاز، ولكن لماذا هي لا تثير اشمئزاز الآخرين؟  
هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له  
دواء، فتعزل العالم به، وهو شرّ رفيق في الوحدة،  
وربّما أخجلك بعد ذلك أن تحتقر المرأة وإن تكن

مضطراً إلى مواصلة احتقارها!

وهنا نفخ عليّ مهران فيها يشبه اليأس ثم قال:

- مثيت النفس بلبلة مرحة جدية بالوداع!

فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال:

- ولكنّه وداع حاج! ماذا تعرف أنت عن توديع  
الحجاج؟

- سأودّعك بالدعاء ثم أستقبلك بالورود والحدود،  
ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل!

فضرب الباشا كفّاً بكفّ وهو يقول ضاحكاً:

- إني مفوّض أمري إلى الله ذي الجلال . . .

## ٥١

عند تقاطع شارعي شريف وقصر النيل، أمام  
مقهى رتز، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين  
شدّاد! وتوقفاً عن السير وكلاهما يحملق في وجه صاحبه  
حتى هتف كمال:

- حسين . . .

فهتف الآخر بدوره:

- كمال!

ثم تصافحا في حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة  
والسرور.

- آية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل!

- آية مفاجأة سعيدة! تغيّرت كثيراً يا كمال، ولكن

خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس  
الإنجليز بأذكي الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكي  
منهم ولكنّهم سادة الخلق فهم سادة العالم! لذلك أنبذ  
الجمال التافه المنحط.

فتساءل عليّ مهران ضاحكاً:

- هل أفهم من إبقائك عليّ أيّ ذو خلق؟ . . .

فأشار الباشا نحوه جاداً وهو يقول:

- الأخلاق متنوعة، فالقاضي مطالب بالنزاهة  
والعدل، والوزير بالواجب والشعور بالمسؤوليّة العامّة،  
والصديق بالصفاء والوفاء، وأنت عريد بلا شكّ  
ووغد في أحيان كثيرة، ولكنك أمين وفي . . .

- أرجو أن يكون وجهي قد تورّد!

- الله لا يكلف نفساً إلّا وسعها! والحقّ أيّ قانع بما  
فيك من خير، ثم إنك زوج وأب وهذه فضيلة  
أخرى، وهي سعادة لا يقدرها إلّا من عانى صمت  
البيوت، إلّا أن صمت المقام عذاب الشيوخوخة!

فقال رضوان كالمنكر:

- حسبت الشيوخوخة محبة للهدوء.

- تحيّلات الشباب عن الشيوخوخة ضلال، تحيّلات  
الشيوخوخة عن الشباب حشرات، خبّرتي يا رضوان  
عن رأيك في الزواج؟

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول:

- هو الرأي الذي حدّثتك عنه من قبل يا باشا.

- لا أمل في العدول عنه؟

- لا أظنّ.

- لمه؟

تردّد رضوان قليلاً ثم قال:

- شيء عجيب، لا أدري كنهه، ولكنّ المرأة تبدو  
لي مخلوقاً مثيراً للاشمئزاز . . .

فتجلّلت في العينين الذابتين نظرة حزينة وقال:

- يا للأسف، ألا ترى أنّ عليّ مهران زوج وأب؟  
وأنّ صديقك حلمي من أنصار الزواج؟ إني أرثي لك  
رثاء مضاعفاً إذ إنّه رثاء لنفسي أيضاً، طالما حيّرتي ما  
قرأت وما سمعت عن جمال المرأة، غير أنّ طويت  
نفسي على رأيي الخاصّ إكراماً لذكرى أمّي، كنت  
أحبّها حبّاً جماً، وقد أسلمت الروح بين ذراعي

والدتي... وجدت الهموم في انتظاري كما قلت، ثم كان عليّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار! هذا حسين شّداد طبعة ١٩٤٤ ذلك الذي يعد العمل جريمة إنسانية، أحقّ وجد ذلك الماضي؟ لعله لا دليل عليه إلّا خفقان هذا القلب.  
- أتذكر آخر مرّة تلاقينا؟  
- أوه!...

وجاء النادل بالشاي والقهوة قبل أن يتمّ كلامه غير أنّه لم يبد متحمّساً للذكريات!...  
- دعني أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.  
- عفارم على ذاكرتك!... (ثمّ شارداً)... سبعة عشر عامًا في أوروبا!...  
- حدّثني عن حياتك هنالك!  
فهزّ رأسه الذي لم يشب منه إلّا سوائفه وقال:  
- دع ذلك إلى حينه، واقع الآن بهذه العناوين:  
أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حبّ فزواج من باريسية من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب، إفلاس أبي، العمل في متجر حمائي، عودتي إلى مصر دون زوجي حتّى أهبط لها حياة مستقرّة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

- أنجبت أطفالاً!  
- كلّ...  
كأنّما لا يؤدّ أن يتكلّم، ولكن ماذا بقي من الصداقة القديمة حتّى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قويّة في طرق أبواب الماضي فتساءل:  
- وماذا عن فلسفتك القديمة؟  
وتفكّر حسين مليّاً، ثمّ ضحك ضحكة ساخرة وقال:  
- إنّي غارق في العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلّا

رجل أعمال!  
أين روح حسين شّداد الذي كان يأوي منها إلى ظلّ ظليل من الغبطة الروحية؟ ليست في هذا الرجل الضخم، لعلّها استقرّت في رياض قلّس، أمّا هذا الرجل فإنّه لا يعرفه، ولا يربطه به إلّا ماضٍ مجهول، ماضٍ ودّ في تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حيّة لا صورة فوتوغرافية باردة.

مهلاً لعلّي أبلغ! عودك هو هو، جملة منظرك، ولكن ما هذا الشارب المحترم؟ وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا! وهذا الطربوش الذي لم يعد أحد يلبسه غيرك!  
- وأنت شدّد ما تغيّرت! سممت أكثر ممّا كنت أنصوّر، ألهذا يتفق وتقاليد باريس؟ أين حسين زمان؟

- وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسوليني؟ ما علينا، كنت ذاهباً إلى ريتز لأشرب قدح شاي فهل عندك مانع من الجلوس معي قليلاً؟  
- بكلّ سرور...

فمالاً إلى ريتز ثمّ جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجيّة المطلّة على الطريق، وطلب حسين شّداد الشاي وطلب كمال قهوة ثمّ عادا يتفحصان بعضهما البعض في ابتسام. لقد ضخم حسين فامتدّ طولاً وعرضاً. ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل ساح في الأرض والسواء كما كان يؤدّ قديماً؟ لكنّ عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنّما بدّلت من طفولة الحياة جدّاً. وكان قد مضى عام على التقائه ببدور في شارع فؤاد الأوّل فبرئ في أثنائه من نكسة الحبّ وانزوى آل شّداد جميعاً في ركن النسيان، غير أنّ ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها، فبدأ الماضي وكأنّه يتمطّى ناشراً أفراده وآلامه.

- متى عدت من الخارج؟  
- منذ عام تقريباً...  
ولم يحاول مقابلته على الإطلاق؟ ولكن علام يلموه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟  
- لو علمت أنّك عدت إلى مصر لسعيت إلى لقاءك!

ولم يبد على حسين أنّه أخرج أو ارتبك ولكنّه قال ببساطة:

- عدت فوجدت الهموم في انتظاري، ألم تبلغك أشياء عنّا؟

فتجهم وجه كمال وقال باقتضاب وأسف:  
- بلى، عن طريق صديقنا إسمايل لطيف.  
- لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتني

- لا اختيار لي، ومرجوي الوحيد أن أستعيد شيئاً من مستوى الماضي...  
 وساد الصمت ملياً، وكان كمال يتفحص حسين باهتمام، وكانت صورة من الماضي تنبثق خلال تفحصه، حتى وجد نفسه يسأله قائلاً:  
 - وكيف حال الأسرة؟  
 فقال دون اكتراث:  
 - بخير...  
 فتردد كمال قليلاً ثم قال:  
 - كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟  
 - بدوراً، تزوجت في العام الماضي...  
 - ما شاء الله، أولادنا يتزوجون!  
 - وأنت ألم تتزوج؟  
 ترى ألم تعاوده الذكريات؟  
 - كلاً...  
 - أسرع وإلا فاتك القطار...  
 فقال ضاحكاً:  
 - فاتني بأميال...  
 - ربّما تزوجت من حيث لا تدري، صدّقني، لم يكن الزواج ضمن خطّتي ولكنّي متزوج منذ أكثر من عشر سنوات...  
 فهزّ كمال كتفيه دون اكتراث وقال:  
 - خبّرني كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة في فرنسا؟  
 - لم تكن الحياة في فرنسا عقب الغزو ممّا يسرّ، أمّا هنا فالحياة يسيرة بالقياس إلى هناك. (ثمّ بحنان) ولكن باريس، أين أين باريس؟!  
 - لم لم تبقى في فرنسا؟  
 فقال باستنكار:  
 - أعيش كلّاً على حمّي؟!، كلاً، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر، أمّا بعد ذلك فلم يكن من السفر بدّاً!  
 ترى أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثمّ وجد نفسه مدفوعاً إلى مغامرة خطيرة عذبة معاً، فتساءل بمكر:

- وماذا تعمل الآن؟  
 - ألحقني أحد أصدقاء أبي بوظيفة في الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتّى الفجر، وإلى هذا فإنّي أقوم بالترجمة في بعض الصحف الإفرنجيّة...  
 - ومتى تخلو من العمل؟  
 - فيما ندر، والذي يهوّن عليّ المشقّة أنّي لست أدعو زوجي إلى مصر حتّى أهيّئ لها حياة تناسبها، فهي من أسرة محترمة، وكنت حين تزوّجت منها معدوداً من الأغنياء...  
 قال ذلك وضحك ضحكة كأنّها يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنّها يشجّعها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظّي أنّي سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لبيكت عليك من أعماق قلبي!  
 - وأنت يا كمال ماذا تعمل؟  
 ثمّ مستدركاً:  
 - أذكر أنّك كنت مغرماً بالثقافة؟  
 ما أجدره بالشكر على هذا التذكّر! فهو ميت بالنسبة إليه كما أنّ الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وأنا لنموت ونحيا كلّ يوم مرّات! وأجابه:  
 - إنّني مدرّس لغة إنجليزية...  
 - مدرّس! نعم... نعم. تذكّرت الآن أشياء، وكنت ترغب في أن تكون مؤلّفاً؟  
 يا للرغبات الخائبة...  
 - إنّني أنشر مقالاتي في مجلّة الفكر، ولعلّي أجمع بعضها في كتاب عمّا قريب!  
 فابتسم حسين ابتسامة كثيفة وقال:  
 - أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك، أمّا أنا... أنا!  
 وضحك مرّة أخرى، أمّا كمال فقد وقعت جملة «أنت سعيد» من أذنيه موقعاً غريباً، ولم يكن أغرب منها إلّا اللهجة التي قيلت بها الدالة على الحسد، فوجد نفسه مرّة واحدة سعيداً ومحسوداً! ومَن؟ من عميد آل شدّاد! غير أنّه قال على سبيل المجاملة:  
 - حياتك العمليّة أجّل حياة!  
 فقال الآخر بأسماً:

الأعلى لهيئته التعليمية، ولعلّه تشرف بمقابلته مرّات وهو زوج لعائدة. ربّاه... إنّه ليذكر الآن أنّه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هي عايدة؟. ولكن كيف لم يلتقي بحسين؟

- هل حضرت وفاتها؟

- كلاً، توقّيت قبل عودتي إلى مصر...

فقال وهو يهزّ رأسه تعجباً:

- لقد سرت في جنازتها وأنا لا أدري أنّها أختك!

- كيف؟

- علمت في المدرسة ذلك اليوم بأنّ حرم كبير المفتشين قد توقّيت وأنّ الجنازة ستشيع من ميدان الإسماعيلية، فذهبت مع زملائي المدرسين دون أن أطلع على النعي في الصحف، وسرنا بين المشيعين حتّى جامع جرّكس، كان ذلك منذ عام...

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

- سعيكم مشكور...

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجنّ أو انتحر، اليوم تمّزّ به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدري، وكان وقتذاك ما يزال أسيراً لمرارة التجربة التي تخلّفت عن زواج بدور فلعلّ صاحبة النعش طافت برأسه فيها طاف به من خواطر بدور وأسرتها، وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدّم من أنور بك زكي معزّياً ثمّ جلس بين المشيعين، قالوا قياماً لقد حضر النعش فمدّ عينيه فرأى نعشاً جميلاً مكلّلاً بالحرير الأبيض حتّى تهامس بعض زملائه إنّها عروس... الزوجة الثانية للمفتش... وقد ذهبت ضحيةً للالتهاب الرئويّ، وودّع النعش وهو لا يدري أنّه يودّع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضي به ملاك الزمان الحالي؟ وكنت نظّمها فوق الزواج فإذا هي تعنو للطلاق ثمّ تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضي وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الدهول والدهشة، ومن خلّو العالم من مباحج الأحلام، ومن ضياع سرّ الماضي الساحر إلى الأبد، وإن كان ثمة حزن فعلى أنّك لم تحزن كما كان يجدر بك!

- وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فحججه بنظرة ارتياب لحظة ثمّ قال ببرود:

- لا أدري عنه شيئاً!

- كيف؟

فقال وهو يمدّ بصره إلى الطريق خلل الزجاج:

- انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين!

فقال كمال في دهشة لم يستطع إخفاءها:

- أعني...؟

ولم يتمّ كلامه. غلبته المفاجأة. هل عادت عايدة إلى العباسية مرّة أخرى؟ امرأة مطلّقة؟! فليؤجل التفكير في هذا كلّه إلى حين، وقال بهدوء:

- كان سفره إلى إيران آخر ما حدّثني به إسماعيل لطيف عنه!

فقال حسين بكتابة:

- لم تمكث أختي معه في هذه الرحلة إلّا شهرًا واحدًا، ثمّ عادت بمفردها... (ثمّ بصوت منخفض) يرحمها الله!

- هه...!

نذت عن كمال في صوت ترامي إلى الموائد القريبة من حوشهم. فنظر إليه حسين كالداهش وقال:

- لم تكن تدري! لقد ماتت منذ عام!

- عايدة؟

فهزّ الآخر رأسه بالإيجاب، وفي نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم مجرّداً بصوت مسموع، ولكنّه لم يقف عند هذا إلّا أقلّ من لحظة. وبدت الألفاظ جميعاً وكأن لا معنى لها. وشعر بدوامة الفناء تدور برأس. وكان ما به دهشة وإرتياح، لا حزن ولا ألم، وتكلّم أخيراً فقال:

- يا له من خبر محزن! البقيّة في حياتك!

فقال حسين:

- عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمّي شهرًا، ثمّ تزوّجت من أنور بك زكي كبير مفتشي اللغة الإنجليزية ولكنّها لم تعاشره إلّا شهرين، ثمّ مرضت، ثمّ توقّيت في المستشفى القبطي.

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث في سرعتها الجنونية! ولكنّه يقول أنور بك زكي، وهو المراقب



إبراهيم المقيمين في هذا البيت؟  
فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه:  
- بلى...  
- عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه...  
- لماذا يا حضرة المأمور؟  
فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه أمرًا:  
- فتشوا...  
واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على  
حين تساءل إبراهيم شوكت:  
- لماذا تفتشون شقتي؟  
ولكن المأمور تجاهل، وعند ذلك اضطرت خديجة  
إلى مغادرة حجرة النوم - التي اقتحمها المخبرون -  
متلعة بشال أسود وهي تبتف غاضبة:  
- أليس للنساء حرمة؟! هل نحن لصوص يا حضرة  
المأمور؟  
كانت تحقّق في وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بغتة  
بأنّها رأت هذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصحّ أنّها رأت  
صورته الأولى قبل أن يتورها تقدّم السنّ، متى وأين؟  
ربّاه إنّهُ هو دون ريب، لم يكذب يتغيّر كثيرًا، واسمه؟  
وقالت دون تردّد:  
- حضرتك كنت ضابطًا بقسم الجساليّة، منذ  
عشرين عامًا، بل منذ ثلاثين عامًا لا أذكر الزمن  
بالضبط...

فرجع المأمور إليها عينين متسائلتين، وردّد إبراهيم  
شوكت ناظره بينهما متسائلًا كذلك، وإذا بها تقول:  
- اسمك حسن إبراهيم، أليس كذلك!  
- حضرتك تعرفيني؟  
فقالته برجاء:  
- أنا بنت السيّد أحمد عبد الجواد وأخت فهمي  
أحمد الذي قتله الإنجليز أيام الثورة، ألا تذكره؟  
فلاححت الدهشة في عيني المأمور وتمتم بصوت  
مهذّب لأوّل مرّة:  
- رحمه الله رحمة واسعة...  
فقالته برجاء أشدّ:  
- أنا أخته فهل ترضى لبيتي هذه البهدة؟  
فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر:

- لكن ماذا غير حسن سليم؟  
فهزّ حسين رأسه بازدراء وقال:  
- عشق الوغد موظفة بمفوضة بلجيكا بإيران  
فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال...  
«مما يعزّي المرء في مثل هذا الموقف أنّ بديهيّات  
إقليدس لم تعد بالبديهيّات المطلقة!».  
- وأولادها؟  
- عند جدّتهم لأبيهم.  
وهي أين هي؟ وماذا جدّ عليها في هذا العام؟  
وهل يمكن أن يعرفها فهمي أو السيّد أحمد عبد الجواد  
أو نعيمة؟  
وإذا بحسين شدّاد ينهض وهو يقول:  
- آن لي أن أذهب، دعني أراك، إنّّي أتناول عشائي  
عادة في رتر.  
فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:  
- إن شاء الله...

وافترقا عند ذلك وهو يشعر بأنّه لن يراه مرّة أخرى،  
وبأنّه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالآخر  
حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنّي  
حزين يا عايدة لأنّي لم أحزن عليك كما كان يجدر  
بي...».

## ٥٢

في سكّون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب  
بيت آل شوكت بالسكريّة، ثمّ تسابع الطرق حتّى  
استيقظ النائمون، وما إن فتحت خادم الباب حتّى  
تدافعت إلى الداخل أقدام ثقيلة شديدة الوقع،  
انتشرت في الفناء والسلم وأطبقت على الشقق  
الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مثقل  
الرأس بالنوم متعبًا بالكبر فرأى ضابطًا كبيرًا يتوسّط  
مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل  
منزعجًا:

- ماذا هنالك كفى الله الشرّ؟!  
فسأله الضابط الكبير بخشونة:  
- أأنت والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم

- هَذَنِي رَوْعَكَ، لَمْ يَعَثُوا عَلَى شَيْءٍ مَرِيبٍ، وَلَنْ يَثْبِتَ ضِدَّهَا شَيْءٌ، لَا تَجْرِي وَرَاءَهُمْ حَفْظًا لِكِرَامَةِ عَبْدِ الْمُنْعَمِ وَأَحْمَدٍ...

فَصَاحَتْ بِهَا:

- هَذَا الْمُدَوِّ تَحْسِدِينَ عَلَيْهِ!

فَقَالَتْ سَوْسَنُ بَرَقَةً وَصَبَرَ:

- سَيَعُودَانِ إِلَى بَيْتِهَا بِخَيْرٍ، أَطْمَئِنِّي...

فَتَسَاءَلَتْ بِحَدَّةٍ:

- مَنْ أَدْرَاكَ؟

- إِنِّي وَاثِقَةٌ نَحْنُ أَقُولُ...

فَلَمْ تَكَثِرْ لِقَوْلِهَا وَالتَفَتَتْ نَحْوَ زَوْجِهَا ثُمَّ ضَرَبَتْ كَفًّا بِكَفٍّ وَهِيَ تَقُولُ:

- انْعَدِمِ الْوَفَاءَ، أَقُولُ لَهَا إِنَّهَا ابْنَةُ أُخْتِ فَهْمِي فَيَقُولُ لِي عِنْدِي أَوَامِرُ، لِمَاذَا يَأْخُذُ رَبُّنَا النَّاسَ الطَّيِّبِينَ وَيَتْرَكُ الْأَرْدَالَ؟

وَأَتَّجِهَتْ سَوْسَنُ نَحْوَ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَتْ:

- سَيَفْتَشُونَ بَيْتَ الْجَمَاعَةِ فِي بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ! سَمِعْتُ خَبْرًا يَقُولُ لِلْمَأْمُورِ إِنَّهُ يَعْرِفُ بَيْتَ جَدِّهَا فِي بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ فَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ الضَّابِطُ الْمُسَاعَدَ تَفْتِيشَهُ تَنْفِيزًا لِلأَوَامِرِ عَلَى سَبِيلِ الْحَيْطَةِ أَنْ يَكُونَا قَدْ أَخْفَا فِيهِ مَنَشُورَاتٍ!

فَصَاحَتْ خَدِيجَةُ:

- إِنِّي ذَاهِبَةٌ إِلَى أُمِّي، لَعَلَّ كَيْدًا يَسْتَطِيعُ شَيْئًا، آه يَا رَبِّي إِنِّي أَحْتَرِقُ...

وَجَاءَتْ بِمِعْطَفِهَا وَغَادَرَتِ السَّكْرِيَّةَ فِي خُطَوَاتٍ مَتَلَحِّقَةٍ مُضْطَرِبَةٍ، كَانَ الْجَوُّ بَارِدًا وَالظَّلَامُ مَا يَزَالُ كَثِيفًا، وَكَانَتِ الدِّيَكَةُ تَصِيحُ فِي تَجَاوِبِ مُتَوَاصِلٍ، انْطَلَقَتْ مِنَ الْغُورِيِّ مَخْتَرِقَةً الصَّاعَةَ إِلَى النَّحَاسِينَ.

وَوَجَدَتْ عِنْدَ بَابِ الْبَيْتِ مَخْبَرًا، وَوَجَدَتْ فِي الْفَنَاءِ مَخْبَرًا آخَرَ، ثُمَّ صَعِدَتْ السَّلَمَ وَهِيَ تَلْهَثُ...

وَكَانَتِ الْأُسْرَةُ قَدْ اسْتَيْقِظَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى رَنِينِ الْجُرْسِ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ أُمُّ حَنْفِي وَهِيَ تَقُولُ فِي ذَعْرِ:

«بُولِيسْ»، وَهَرَعَ كَيْدًا إِلَى الْحَوْشِ حَيْثُ التَّقَى بِالْمَأْمُورِ فَتَسَاءَلَ مَنْزَعَجًا:

- أَفْنَدُمُ؟

فَسَأَلَهُ الْمَأْمُورُ:

- إِنَّنَا نَنْفُذُ الْأَوَامِرَ يَا هَانِمُ.

- وَلَكِنْ لِمَاذَا يَا حَضْرَةَ الْمَأْمُورِ، نَحْنُ أَنْاسُ طَيِّبُونَ! فَقَالَ الْمَأْمُورُ بَرَقَةً:

- نَعَمْ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَذَلِكَ نَجْلَاكَ...

فَهْتَفَتْ خَدِيجَةُ بِاضْطِرَابٍ:

- إِنَّهَا ابْنَةُ أُخْتِ صَدِيقِكَ الْقَدِيمِ!

فَقَالَ الْمَأْمُورُ دُونَ أَنْ يَنْظُرَ نَحْوَهَا.

- إِنَّنَا نَنْفُذُ أَوَامِرَ الدَّاخِلِيَّةِ.

- لَمْ يَفْعَلَا شَيْئًا ضَارًّا، إِنَّهَا وَلَدَانُ طَيِّبَانِ وَأَقْسَمُ لَكَ عَلَى ذَلِكَ...

وَعَادَ الْجُنُودُ وَالْمَخْبِرُونَ إِلَى الصَّلَاةِ دُونَ أَنْ يَعَثُوا عَلَى شَيْءٍ فَأَمَرَهُمُ الْمَأْمُورُ بِمَغَادَرَةِ الشَّقَّةِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الزَّوْجَيْنِ الْمَائِلَيْنِ أَمَامَهُ وَقَالَ:

- أُبَلِّغُنَا عَنْ اجْتِمَاعَاتٍ مَرِيَّةٍ تُعْقَدُ فِي شَقَّتَيْهَا...

- هَذَا كَذِبٌ يَا حَضْرَةَ الْمَأْمُورِ!

- أَرْجُو أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، لَكُنِّي مُضْطَرٌّ الْآنَ إِلَى الْقَبْضِ عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَبْقِيَانِ حَتَّى يَتِمَّ التَّحْقِيقُ مَعَهُمَا، وَلَعَلَّ الْعَاقِبَةَ أَنْ تَكُونَ سَلِيمَةً!

هَتَفَتْ خَدِيجَةُ بِصَوْتٍ مَتَهَدِّجٍ وَشَى بِدُمُوعِهَا:

- أَتَسْوِقُهُمَا حَقًّا إِلَى الْقِسْمِ؟، هَذَا... لَا

أَتَصَوِّرُ... اعْفِ عَنْهَا وَحَيَاةَ أَوْلَادِكَ!

- لَيْسَ بَوْسَعِي ذَلِكَ، لَدَيَّْ أَوَامِرُ صَرِيحَةٌ بِالْقَبْضِ

عَلَيْهَا، طَابَ مَسَاوُكُمَا!

وَوَادَرَ الرَّجُلُ الشَّقَّةَ، وَمَا لَبِثَ أَنْ غَادَرَتْهَا خَدِيجَةُ وَفِي أَعْقَابِهَا الرَّجُلُ الْعَجُوزُ وَنَزَلَ السَّلَمَ لَا يُلَوِيَانِ عَلَى شَيْءٍ، وَرَأَتْهَا كَرِيمَةً وَكَانَتْ وَاقِفَةً أَمَامَ شَقَّتِهَا فِي حَالٍ شَدِيدَةٍ مِنَ الْفَزَعِ فَهْتَفَتْ:

- أَخْذُوهُ يَا عَمَّتِي، أَخْذُوهُ إِلَى السَّجْنِ...

فَالْتَقَتْ خَدِيجَةُ عَلَى الشَّقَّةِ نَظْرَةً مَتَحَجِّرَةً، وَنَزَلَتْ مُسْرَعَةً إِلَى الشَّقَّةِ الْأُولَى حَيْثُ وَجَدَتْ سَوْسَنَ عَلَى بَابِ شَقَّتِهَا كَذَلِكَ تَتَطَلَّعُ إِلَى الْفَنَاءِ بِوَجْهِهِ كَالْحِجَابِ، فَانْظُرَتْ حَيْثُ تَنْظُرُ فَرَأَتْ الْقُوَّةَ تَحِيطُ بِعَبْدِ الْمُنْعَمِ وَأَحْمَدٍ، مُتَّجِهَةً بِهَا إِلَى الْخَارِجِ، فَلَمْ تَتِمَّاكَ أَنْ تَصْرُخَ

مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهَا وَهَمَّتْ بِالْانْطِلَاقِ فِي أَثَرِهَا لَوْلَا أَنْ أَمْسَكَتْ بِهَا يَدُ سَوْسَنَ، فَالْتَفَتَتْ نَحْوَهَا هَائِجَةً، غَيْرَ

أَنْ سَوْسَنُ قَالَتْ لَهَا بِصَوْتٍ هَادئٍ حَزِينٍ:

فصافحه الرجل قائلاً:  
 - حسن إبراهيم مأمور قسم الجمالية! بدأت فيه ملازمًا وعدت إليه في آخر المطاف مأمورًا...  
 ثم وهو يهز رأسه:  
 - كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليهما ما يدينهما.  
 وهنا ترمى إليها صوت خديجة وهي تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكي فقال:  
 - هذه أمها، عرفني بذاكرتها العجيبة ثم ذكرتني بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع، طمئنت ما أمكنك.  
 ثم نزلا معًا جنبًا إلى جنب، وعند مرورهما بالدور الثاني مرقت عائشة من الباب في حدة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به:  
 - لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمع بكاء أمها؟ فانحرف بصر المأمور إليها كرد فعل للمفاجأة ثم غص بصره تأدبًا وهو يقول:  
 - سيطلق سراحها عما قريب إن شاء الله...  
 ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثاني:  
 - والدتك؟  
 - بل شقيقتي! لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطّمها...  
 والتفت المأمور إليه كالدهاش، وخيّل إليه بأنه همّ أن يطرح سؤالًا، ولكنه تردّد لحظة ثم عدل عما كان همّ به، وتصافحا في الفناء، وقبل أن يمضي الرجل إلى سبيله سأل كمال:  
 - أمن المستطاع أن أزورهما في السجن؟  
 - نعم...  
 - شكرًا...  
 وعاد كمال إلى الصالة فانضمّ إلى أمه وشقيقتيه وهو يقول:  
 - سأزورهما غدًا، لا داعي للخوف، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معهما...  
 وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة في نرفزة:

- أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟  
 - أنا خالهما!  
 - صناعتك؟  
 - مدرّس بمدرسة السلاحدار...  
 - عندنا أوامر بتفتيش البيت!  
 - ولكن لماذا؟ أيّ تهمة توجّهها إليّ؟  
 - إننا نفتش عن منشورات تخصّ الشاّين لعلهما أخفيها هنا!  
 - أوكد لحضرتك أنّه ليس في بيتنا منشورات، تفضّل فتش كما تشاء...  
 ولاحظ كمال أنّه أمر القوّة باحتلال السّلم والسطح وأنّه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشًا يقلب البيت رأسًا على عقب ولكنّ المأمور اكتفى بتفقد الحجرات وإلقاء نظرة سطحيّة على المكتب وخزانات الكتب فاستردّ أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه:  
 - فتشتم بيتها؟  
 - طبعًا...  
 ثم بعد لحظة قصيرة:  
 - إنهما الآن في سجن القسم!  
 فسأله كمال في انزعاج:  
 - هل ثبت عليهما شيء؟  
 فأجاب الرجل برقة غير معهودة في أمثاله:  
 - أرجو ألا يصل الأمر إلى هذا الحدّ، غير أنّ التحقيق متروك للنيابة.  
 - أشكر لك جميل عواطفك!  
 فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم:  
 - ولا تنس أنّي لم أبهدل البيت!  
 - نعم يا سيدي، إنّي لا أدري كيف أشكرك!  
 وإذا به يلتفت نحوه متسائلًا:  
 - حضرتك أخو المرحوم فهمي؟  
 فأنسعت عينا كمال دهشة وقال:  
 - نعم، أكنت تعرفه؟  
 - كنّا أصدقاء رحمه الله...  
 فقال كمال برجاء:  
 - مصادفة سعيدة... (وهو يمدّ له يده)... كمال أحمد عبد الجواد...

- لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا

تسمعين؟

فولولت خديجة قائلة:

- لا أدري... لا أدري. في السجن يا ولداه!  
وكانت أمينة صامته كأن الحزن أخرجها، فقال كمال  
في لهجة توحى بالطمأنينة:

- المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمي، وقد  
تلطف بنا في التفتيش لدرجة لا تصدق، ولا شك أنه  
سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأم رأسها كالمسائلة فقالت خديجة في  
حنق:

- حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمي؟ وقد أخبرته  
بأنني أخت فهمي فما كان منه إلا أن قال: إننا ننقذ  
الأوامر يا هانم! أوامر في عينه...!  
وانجھت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها  
أنها ذكرت شيئاً...

ثم انتحلت أمينة بكمال جانباً وراحت تقول له في  
قلق بالغ:

- لم أفهم شيئاً يا بني، لماذا قبض عليهما؟

فتفكر كمال فيما ينبغي قوله، ثم قال:

- الحكومة تظن خطأ أنها يعملان ضدها!

فهزت رأسها في حيرة وقالت:

- أختك تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه  
من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟

- الحكومة تظنهم يعملون ضدها...

- وأحمد؟، قالت إنه... نسيت الكلمة يا  
بني؟

- شيعوي؟. الشيوعيون كالإخوان في ظن  
الحكومة!

- الشيوعيون؟! أشياء سيدنا علي؟

فدارى كمال ابتسامة وقال:

- الشيوعيون لا الشيعية، هم حزب ضد الحكومة  
والإنجليز...

فتنهت المرأة في حيرة وقالت:

- متى يفرج عنهما؟ انظر إلى أختك المسكينة!  
الحكومة والإنجليز لم يجدوا إلا بيتنا المصاب؟!

كان أذان الفجر يسري في الصمت الشامل حين  
استدعى مأمور قسم الجمالية عبد المنعم وأحمد إلى  
حجرتهم، ومثلاً أمام مكتبه يسوقها جندي مسلح،  
فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحصهما باهتمام،  
ثم نظر إلى عبد المنعم وسأله:

- اسمك وستك وصناعتك؟

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

- عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون  
عاماً، محقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

- كيف تحرق قوانين الدولة وأنت من رجال  
القانون؟!

- لم أحرق قانوناً، ونحن نعمل جهازاً فنكتب في  
الصحف ونخطب في المساجد، إن الذين يدعون إلى  
الله لا يجدون ما يخفونه.

- ألم تحدث في بيتك اجتماعات مريبة؟

- كلاً، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين  
الأصدقاء لتبادل الرأي والمشورة والتفقه في الدين...

- وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على  
معاداة دول حليفة؟

- أتعني بريطانيا يا سيدي؟ إنها عدو غادر، الدولة  
التي تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة  
حليفة...

- إنك رجل مثقف، وكان ينبغي أن تدرك أن  
للحرب ظروفًا تبيح المحظورات!

- إني أدرك أن بريطانيا هي عدونا الأول في هذا  
الوجود!

والفت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

- وأنت؟

فأجاب أحمد وعلى شفثته شبه ابتسامة:

- أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عاماً،  
محرم بمجلة الإنسان الجديد...

- هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة،  
فضلاً عن أنه من المسلم به أن مجلتك سيئة  
السمعة...

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونياني وجنديان مسلحان، ومضوا جميعاً إلى الدور الأرضي، ثم عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجنان بكشافه الكهربائي كأنما ليدلّهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوّب ضوءه إلى الداخل ليهتديا به إلى بُرشيهما، وأضاء الكشاف المكان فبدأ متوسط المساحة عالي السقف، ذا نافذة صغيرة في أعلى جداره تعترضها القضبان الحديدية. وكان عامراً بالضيوف، فيهم شابان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوي الظلام، غير أنّ الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همساً:

- لن أجلس وإلا قتلني الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين!

- سنضطرّ إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت - أدركا بالبداية أنّه لأحد الشابين - يقول:

- لا بدّ من الجلوس، ليس هو بالشيء السارّ ولكنّه أخفّ من الوقوف أيّاماً...

- هل مكثنا طويلاً؟

- منذ ثلاثة أيّام!

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل:

- لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

- أسباب سياسية فيما يبدو...

فقال الصوت ضاحكاً:

- صارت الأغلبية أخيراً للسياسيين في هذا السجن، كنّا قبل تشريفكما أقلية...

فسأله أحمد:

- وما تهمتكما؟

- تكلمنا أننا أولاً، فأتينا أحدث مقاماً! وإن يكن لا داعي للسؤال بعد أن رأينا حية أحدهما الإخوانية؟!

فسأله أحمد وهو يبتسم في الظلام:

- وأنتما؟

- مقالتي لا تعدو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعية...

- شيوحي حضرتك؟

- إني اشتراكي، وكثير من النّوّاب يدعون إلى الاشتراكية، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعي على رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف...

- أكان ينبغي أن ننتظر حتى تتمخّض الاجتماعات التي تعقد كلّ مساء في شقّتك عن العنف؟

وتساءل في نفسه ترى هل وقفوا على سرّ المنشورات والمحاضرات الليلية؟! وأجاب:

- إني لا أجتمع في بيتي إلا بالأصدقاء المقربين، ولم يزد عدد زوّاري يوماً عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف...

وردّد المأمور نظره بينهما ثمّ قال بعد تردّد:

- إنكما مثقفان و... مهذبان، ومتزوّجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنّبا نفسيكما الهلاك؟...

فقال عبد المنعم بصوته القوي:

- إني أشكر لك نصيحتك التي لن أعمل بها... فنذت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنما على رغمه، ثمّ قال:

- علمت في أثناء التفتيش أنكما حفيداً المرحوم أحمد عبد الجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمي صديقاً حميماً لي، وأظنكما تعلمان أنّه فقد حياته في ربيع العمر على حين أنّ زملاءه ظلّوا على قيد الحياة حتى تبوّأوا أكبر المناصب...

فقال أحمد وقد أدرك السرّ في لطف المأمور الذي حيّره:

- دعني أسألك يا سيدي عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالي وأمثاله؟!

فهزّ الرجل رأسه وقال:

- فكّرنا في نصيحتي بعقل وروية ودعمكما من هذه الفلسفة المهلكة!

ثمّ وهو يقف:

- ستبقيان ضيفين في سجننا حتى تُدْعَوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظاً سعيداً...

- كلانا طالب في الحقوق متهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون...

فثار أحمد وسأله:

- أضبطتما متلبسين!

- نعم...

- وماذا كان في المنشورات؟

- بيان بتوزيع الثروة الزراعية في مصر...

- هذا مما تنشره الصحف في ظل الأحكام العرفية نفسها!

- يضاف إليه شوية توجيهات حماسية!

فابتسم أحمد مرة أخرى في الظلام وقد تحقّف من وحشته لأول مرة، وعاد صاحب الصوت يقول:

- إننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال...

- إن الأمور تشتر بتغير شامل...

- لكننا سنظل الهدف في جميع العهود...

وإذا بصوت غليظ يعلو في خشونة قائلاً:

- كفاكم كلاماً ودعونا ننام...

ولكنّ صوته أيقظ زميلاً من زميله فتشاءب متسائلاً:

- طلع الصبح؟

فأجابه الأول هائلاً:

- كلاً، ولكنّ أصحابنا يحسبون أنفسهم في غرزة...

تنهد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه إلا أحمد:

- أيزج بي إلى هذا المكان لا لسبب إلا أنني أعبد الله؟!

فهمس أحمد في أذنه بأسماً:

- وما ذنبي أنا الذي لا أعبد؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحمد يسأل نفسه عما دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعريضة؟ طالما كتب عن الشعب وهو مدثر بمعطف في حجرة مكتبه الجميلة، ها هو الشعب يلعن أو يغطّ في نومه، وهذه الوجوه الكالحة البائسة التي رآها على ضوء الكشافات لحظات، وذلك الرجل الذي كان يحكّ رأسه وما تحت إبطيه فلعلّ

قمله يزحف نحوهما دائماً، هذا هو الشعب الذي تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكرة ملامسته؟! هذا الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغي أن يمكسك عن شخيره وأن يعي موقفه التاريخي حتّى ينهض لإنقاذ العالم جميعاً! وقال لنفسه: «إنّ موقفاً إنسانياً واحداً هو الذي جمعنا على اختلاف مشاربنا في هذا المكان المظلم الرطب. الأخ والشيوعي والسكّير والسارق على السواء، كلّنا واحد على تفاوت في قوّة المناعة أو الحظّة. وحدثت نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا اتخى بشئونك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولي زوجة محبوبة ورزق موفور، والحق أنّ الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظّف أو أب أو ابن ولكنّه مقضيّ عليه بالمناعب أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أقضي عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهّم هو ما يترأى لعينيه في أفق حياته، وعاد يتساءل: ماذا يدفعني في هذا السبيل الخطير الباهر؟. ألا إنّ الإنسان الكامن في أعماقي، الإنسان الواعي لذاته المدرك لموقفه الإنساني التاريخي العام، وإنّ ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هي أنّه يستطيع أن يقضي على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه... وشعر بالرطوبة تسري في ساقيه والإعياء يتخلّل مفاصله، وكان الشخير يتردّد في الأركان بإيقاع موصول، ثمّ لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة طلائع من النور وانية رقيقة...

## ٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجماً، ثمّ لحق به في الصالة وحده بعينين متسائلتين، قال الطبيب بهدوء:

- يؤسفني أن أخبرك بأنّها حالة شلل كليّ...

فانقبض صدر كمال انقباضاً شديداً وسأله:

- حالة خطيرة؟

- طبّقاً! وقد أصيبت في الوقت نفسه بالتهاب رئويّ، ولذلك فالحقن ضروريّة لإزاحتها.

- أليس هناك أمل في الشفاء؟

وكان هذا آخر عهده بيقظتها، وقد جاءه نبأ مرضها  
ظهرًا في المدرسة فعاد مصطلحًا الطبيب الذي نعاها  
إليه سلفًا منذ دقائق. أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام! ترى  
كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها:

- متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابت عنها أم حنفي قائلة:

- كنا جالسين في الصلاة، ثم قامت متجهة نحو  
حجرتها لترتدي معطفها وتخرج وهي تقول لي «عندما  
أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة»، وذهبت إلى  
الحجرة، وبعد دخولها مباشرة ترامى إلى أذني صوت  
وقوع شيء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على  
الأرض بين السرير والدولاب، فجريت نحوها وأنا  
أنادي ست عائشة...

وقالت عائشة:

- جئت مسرعة فوجدتها في هذا المكان، فحملناها  
إلى السرير، وجعلت أسألها عما بها ولكنها لم تجبني، ولم  
تتكلم، متى تتكلم يا أخي؟

فأجاب في ضيق:

- عندما يشاء الله!...

وتراجع إلى الكنية ثم جلس، ومضى ينظر في حزن  
إلى الوجه الشاحب الصامت، أجل لينظر إليه طويلًا  
فعمًا قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل. هذه الحجرة  
نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالي معالم البيت في  
مجموعه، ولن ينادي به أحد «أمي»، لم يكن يتصور أن  
موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله، ألم يالف الموت  
بعد؟... بلى، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه  
الجزع، ولكن لذعة الفراق الأبدية موجعة، ولعله مما  
يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب  
الغض. وكم أحبته، وكم أحببت الجميع، وكم أحببت  
كل شيء في الوجود، ولكن هذه السجايا الطيبة لا  
تعيها النفس إلا عند الفراق، ففي هذه اللحظة  
الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث  
يهتز لها من أعماقه، وها هي يخالط نورها الظلام،  
وتتزعج فيها زرقعة الفجر بحديقة السطح، وبجمرة  
مجلس القهوة بالأساطير، وهديل الحمام بأغنيات حلوة،  
وكان حبًا رائيًا أيها القلب الجاحد، ولعلك تقول غداً

فصمت الطبيب قليلاً ثم قال:

- الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر في حدوده أن  
هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام...  
وتلقى كمال نذير الموت بتجلد، وأوصل الطبيب إلى  
الباب الخارجي ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم  
نائمة، أو كالنائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلا  
وجهها الشاحب وفوها المطبق في شيء من الاعوجاج،  
وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه  
متسائلة:

- ما لها يا أخي؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفي من موقفها عند مقدم الفراش:

- إنها لا تتكلم يا سيدي، لم تتكلم كلمة واحدة.

وقال لنفسه: ولن يسمع لها صوت بعد الآن، ثم

قال جيبًا أخته:

- حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة، سوف

ترجيحها الحقن!

فقالت عائشة، ولعلها كانت تخاطب نفسها:

- إني خائفة، وإذا كانت سترقد هكذا طويلًا فكيف

تُحتمل الحياة في هذا البيت؟

فتحوّل عنها إلى أم حنفي وسألها:

- هل أخبرت الجماعة؟

- نعم يا سيدي، وستحضر ست خديجة وسي

ياسين في الحال، ما لها يا سيدي؟ كانت في الصباح في

تمام الصحة والعافية...

كانت!... وهو يشهد بذلك! وقد مرّ بالصالة

كعادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار،

فتناول فنجان القهوة الذي قدّمته له وهو يقول:

- لا تغادري البيت اليوم فالجو بارد جدًا...

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت:

- وكيف يطيب لي اليوم دون زيارة سيّدك؟

فقال محتجًا:

- افعلي ما يحلو لك، إنك عنيدة يا أمّاه!

فتمتعت:

- ربك الحافظ...

ثم وهو يغادر المكان:

- ربنا يسعد أيامك...

- ستلد في بحر هذا الأسبوع، أو هذا ما تؤكده الحكمة...

فتمتم كمال:

- ربنا يأخذ بيدها...

فقال ياسين:

- سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه في المعتقل...

ودقّ الجرس، فكان القادم رياض قلدرس، وقد

استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه، وفي الطريق

إلى الحجرة قال رياض:

- سألت عنك في المدرسة فأخبرني السكزير بالخبر،

كيف حالها؟

- أصيبت بشلل وأخبرني الطبيب بأنها ستتهي في

ظرف ثلاثة أيام...

فوجم رياض وتساءل:

- أليس هنالك حيلة ما؟

فهزّ كمال رأسه يائساً، وقال:

- لعلّه من حسن الحظّ أنّها في غيبوبة لا تدري عمّا

ينتظرها شيئاً...

ثمّ في لهجة ساخرة وهما يجلسان:

- ولكن هل ندري نحن عمّا ينتظرنا شيئاً؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

- كثيرون يرون أنّ من الحكمة أن تتخذ من الموت

ذريعة للتفكير في الموت، والحقّ أنّه يجب أن تتخذ من

الموت ذريعة للتفكير في الحياة...

فقال رياض بأسماً:

- هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند

الموت - أيّ موت - ماذا صنعنا بحياتنا؟

- أمّا أنا فلم أصنع بحياتي شيئاً، هذا ما كنت أفكر

فيه...

- بيد أنّك ما زلت في منتصف الطريق!...

ربّما نعم، وربّما لا، غير أنّه من المستحسن دائماً أن

يتأمّل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك

فالتصوّف هروب، كما إنّ الإيمان السليبيّ بالعلم

هروب، وإذن فلا بدّ من عمل، ولا بدّ للعمل من

إيمان، والمسألة هي كيف نخلق لأنفسنا إيماناً جديراً

بالحياة. قال:

بحقّ إنّ الموت استأثر بأحبّ الناس إليك، ولعلّ

عينيك أن تدمعا حتّى يزجرك المشيب. والنظر إلى

الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكيّة طفليّة والأجدر

بك أن تنظر إليها في شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة

هي الموت. ثمّ سأل نفسك إلام تضيع حياتك هباء؟

إنّ الأمّ تموت وقد صنعت بناء كاملاً فماذا صنعت

أنت؟

\*\*\*

واستيقظ على صوت أقدام، وإذا بخديجة تدخل

الحجرة مرتاعة وتتمّحه نحو الفراش وهي تنادي أمّها

وتسألهم عمّا حلّ بها. وتضاعف ألمه حتّى خاف أن

يخونه تمهلده فغادر الحجرة إلى الصالة، وما لبث أن

جاء ياسين وزنوبة ورضوان، فصافحوه، وأخبرهم عن

مرضها دون التفاصيل، فذهبوا إلى الحجرة ولبث

وحيداً حتّى عاد إليه ياسين وهو يسأله:

- ماذا قال لك الطبيب؟

فقال في وجوم:

- شلل والتهاب رئويّ، سينتهي كلّ شيء في خلال

ثلاثة أيام...

فعضّ ياسين على شفته وقال بحزن:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله...

ثمّ جلس وهو يتمتم:

- مسكينة، كان كلّ شيء مفاجئاً! ألم تشكّ تعباً في

الأيام الأخيرة؟

- كلاً، إنّها لم تتعب الشكوى كما تعلم، ولكنّها

كانت تبدو أحياناً كالتعب...

- ليتك عرضتها على الطبيب من قبل!

- لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب!

وانضمّ إليها رضوان بعد حين فقال لكمال:

- أرى أن تُنقل إلى المستشفى يا عمّي!

فقال كمال وهو يهزّ رأسه في حزن:

- لا داعي إلى ذلك، وسيرسل الصيدليّ ممرضة

يعرفها لتحقنها...

ولاذوا بالصمت والرجوم يعلو وجوههم، وعند ذاك

ذكر كمال أمراً تقتضي المجاملة ألاّ يهمله فسأل ياسين:

- كيف حال كريمة؟...



بعذاب الضمير الخلق بكلّ خائن، قد يبدو يسيراً أن تعيش في قمقم أنايتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنساناً حقاً...

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:  
- هذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع!  
فقال كمال في حذر:

- لا تسخر مني، إنّ مشكلة الإيمان ما زالت قائمة بدون حلّ، وغاية ما أستطيع أن أعزّي به نفسي هو أنّ المعركة لم تنته، ولن تنتهي ولو لم يبق من عمري إلا ثلاثة أيّام كأمي...  
ثمّ وهو يتنهد:

- أتعلم ماذا قال أيضاً؟ قال: إني أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسي ملزماً باتّباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنّها الحقّ إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنّها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض ينصت وهو يهزّ رأسه موافقاً، ثمّ بدا على كمال الإعياء والضيّق فقال رياض:

- أنا مضطّرّ إلى الذهاب فيا رأيك في أن تصحبني إلى محطة الترام لعلّ المشي يريح أعصابك!

ونفضاً معاً وغادرا الحجرة، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأول - وكان على معرفة سطحيّة برياض - فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنّه استأذن منهما دقائق ريثما يلقي نظرة على أمّه، ومضى إلى حجرتهما فوجدها كما تركها في غيبوبة. وكانت خديجة جالسة في الفراش عند قدميها وقد احمرّت عيناها من البكاء، وعلت وجهها الكآبة التي لم تفارقه منذ امتدّت يد الحكومة إلى ابنيها، أمّا زنوبة وعائشة وأمّ حنفي فقد جلسن على الكنب صامتات، وكانت عائشة تدخّن سيجارة في سرعة وقلق، على حين راحت عيناها تجولان في المكان في اضطراب عصبيّ، وسألهنّ:

- كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينمّ عن الضيق والاحتجاج:

- لا تريد أن تصحوا!

- حسبتني قد أدّيت للحياة واجبها بالإخلاص لمهنتي كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفيّة...

قال رياض بعطف:

- وقد أدّيت واجباً بلا شك!

- ولكنني عشت معذب الضمير كما ينبغي لكلّ خائن!

- خائن؟

فتنهد كمال وقال:

- دعني أخبرك بما قال لي أحمد ابن أخي عندما زرته في سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل...

- على فكرة، أما من جديد عنهما؟

- لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور...

فتساءل رياض باسماً:

- الذي يعبد الله والذي لا يعبد؟

- يجب أن تعبد الحكومة أولاً كي تعيش مطمئناً...

- على أيّ حال الاعتقال أخفّ في نظري من المحاكمة!

- هذا رأي، ولكن متى تنكشف هذه الغمّة؟ متى تُرفع الأحكام العرفيّة؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعي والدستور؟ متى يعامل المصريون كالأدمنين؟

فجعل رياض يعثّ بخاتم الزواج في يسراه، ثمّ قال بحزن:

- نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد في سجن القسم؟

- نعم، قال لي إنّ الحياة عمل وزواج وواجب إنسانيّ عامّ، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أمّا الواجب الإنسانيّ العامّ فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة في تطوّرنا نحو المثل الأعلى...

فتفكّر رياض قليلاً ثمّ قال:

- رأي جميل، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات...

- نعم، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه عبد المنعم، ولذلك فهمته على أنّه دعوة إلى الإيمان أيّما كان مشربه وأيّا كانت غايته، ولذلك فإني أعلّل تعاسي

وكان كمال من أعراف الناس بمزاج أخيه، فقال:

- لا داعي إلى ذلك ألبتة...

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول:

- إنها أمي كما إنها أمك!

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين! حقاً  
إنه يسير مكتنظاً بالحياة في ضخامة الجمل ولكن إلام  
يحتمل حياته المفعمة بالأهواء؟ وطفح فؤاده بالكآبة،  
غير أن فكره طار فجأة إلى الطور، إلى المعتقل. إنني  
أومن بالحياة وبالناس، هكذا قال، وأرى نفسي ملزماً  
باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق إذ  
النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسي ملزماً  
بالثورة على مثلهم ما اعتقدت أنها باطل إذ النكوص  
عن ذلك خيانة! وقد تسأل ما الحق وما الباطل، ولكن  
لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السليبي  
بالعلم. فهل تستطيع أن تكون مدرّساً مثاليًا وزوجاً  
مثاليًا وثائرًا أبدياً؟!

وعندما مرّا بدكان الشراقوي توقّف ياسين وهو  
يقول:

- كلّفني كريمة بأن أستبضع لها بعض اللوازم  
للمولود المنتظر... عن إذنك...

ودخلا الدكان الصغير، وراح ياسين ينتقي ما يريد  
من لوازم المولود المنتظر: قماطاً وطاقية ومنامة، وعند  
ذلك تذكّر كمال أن رباط عنقه الأسود الذي استعمله  
عاماً حداًداً على والده قد استهلك، وأنه يلزمه آخر  
جديد ليواجه به اليوم الحزين، فقال للرجل حين فرغ  
من ياسين:

- رباط عنق أسود من فضلك...

وتناول كل لفافته، وغادرا الدكان.

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنباً إلى  
جنب نحو البيت...

وحانت منه التفاتة إلى خديجة فتبدلاً نظرة طويلة  
دلت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك إلا  
أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه...

وساروا في الطريق متهملين، فقطعوا الصاغة إلى  
الغورية في شبه صمت، وعندما بلغوا الصناديقية  
صادفوا الشيخ متولي عبد الصمد ينحدر منها إلى  
الغورية متوكئاً على عصاه، في خطوات مغلخلة، وقد  
كفّ بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلفت فيما حوله  
متسائلاً في صوت مرتفع:

- من أين طريق الجنة؟

فأجابه مارّ وهو يضحك:

- أول عطفة على يمينك...

وقال ياسين لرياض قلّس:

- أتصدّق أنّ هذا الرجل قد جاوز المئة بما يقرب  
من عشرة أعوام؟...

فقال رياض بأسياً:

- إنه لم يعد رجلاً على أيّ حال...

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولي بعطف، كان  
يذكر به أباه، وكان يعدّه معلماً من معالم الحي كالسبيل  
القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز، ووجد كثيرين وهم  
يعطفون عليه، غير أنّ العجوز لم يسلم من شقاوة  
بعض الغلبلان الذين راحوا يصفّرون في وجهه أو  
يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتّى محطة الترام، وانتظرا معه حتّى  
ركب، ثمّ عادا معاً إلى الغورية، وتوقّف كمال عن  
السير فجأة وقال لأخيه:

- أن لك أن تذهب إلى القهوة...

فقال ياسين بحذّة:

- كلا، سأبقى معك...







